محاضرات إسلامية

في الفكر والدعوة

لسماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

جمعها وحققها وعلق عليها

سيد عبد الماجد الغوري

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

محاضرات إسلامية

في الفكر والدعوة

لسماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

(١)

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار ابن كثير
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص. ب: ٣١١ - ٣ - هاتف: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠ - فاكس: ٢٢٤٣٥٠٢

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
ص.ب: ١١٣/٦٣١٨ - تلفاكس ٠١٨١٧٨٥٧ - ٠٣٢٠٤٤٥٩

محاضرات إسلامية

في الفكر والدعوة

لسماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

جمعها وحققها وعلق عليها

السيد عبد الماجد الغوري

الجزء الأول

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم الداعية الكبير
الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ

إنها صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة؟ عندما قرأنا للداعية الإسلامي الجليل العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي رسائله التي سبقت مقدمه إلى مصر ، ثم عندما قرَّت عيوننا برؤيته ، وطابت نفوسنا بعشرته ، تأكدت لنا هذه الحقيقة الكريمة ، وزدنا بها إيماناً ، وهي أنَّ الإسلام على اختلاف الأمكنة والأزمنة يصنعُ نفوسَ أتباعه على غرارٍ واحد ، ويجعل المشابهةَ قريبةً جداً بين نظرتهم إلى الأشياء ، وأحكامهم على الأمور ، وأنَّ انفجار الوعي الإسلامي في مصر والشام والهند والمغرب تمخَّض عن نفرٍ من الرجال الأمجاد أحسنوا فهمَ الإسلام ، وأحسنوا العملَ له ، فضمَّهم ـ من حيث لا يشعرون ـ نهجٌ واحدٌ في الإصلاح ، ولفتهم عاطفةٌ واحدة نحو ما يعترض المسلمين من عوائق ، ويرمون به من مكايد وخصومات .

أصغينا إلى الأستاذ وهو يحدِّث إخوتنا المسلمين بالهند ويؤرِّخ لسير الإسلام هنالك ، فرأيناه يبصر الأسباب الخفية ، ولا تخدعه حركةٌ عما وراءها ، وأصغينا إليه يصف مشاعره نحو إخوته المسلمين بمصر خاصةً والشرق الأوس عامَّة ، فرأيناه فطناً إلى التيارات المتضاربة ، مقدِّراً لجهود الدعاة المخلصين ، ومقدِّراً كذلك ما يزحم طريقهم من صعاب ، وهو مع تمسُّكه الشديد بالإسلام شكلاً وموضوعاً ـ حتى ليظنُّه السطحيون متزمتاً ـ تراه واسع منادح النظر ، مرناً في مواجهة ما يرضى وما يسخط ، مرونة الخلق العالي ، لا مرونة التحلُّل وقلَّة الاكتراث .

وكم يحتاج رؤساء الهيئات الإسلامية عندنا إلى هذا المسلك الراشد.

زارنا الأستاذ أبو الحسن ـ ونحن نكافح الأمر العسكري بحلِّ جماعتنا ـ فتعهَّدنا الرجلُ الحصيف بنصحه، وقام بحقِّ الإسلام عليه في توجيهنا إلى مرضاة الله وخدمة دينه، وحفظ المقدسات العظيمة التي آلت إلينا من أسلافنا الأمجاد، والثبات ضد أمواج الغزو الصليبي والتبشير الثقافي الذي يرمينا الغرب به بين الحين والحين.

وتحرى أن نلتزم في جهادنا للإسلام الأساليب الإسلامية نفسها، فإنَّ الخير لا يدرك إلا بالخير، وهيهات أن نصل إلى حق بباطل، وقد سجل هذه النصائح في الرسالة التي نتشرف بتقديمها للإخوة المسلمين.

ونحن إذ نشكر الله سبحانه على ما أتاح لنا من خيرٍ عندما ساق لنا الأستاذ أبا الحسن، فإنا نعاهده على أن نظلَّ ما حيينا أبناءً بررةً للقرآن الكريم، وجنوداً مهرةً في تنفيذ أوامره، وبلوغ أهدافه[1].

محمد الغزالي

القاهرة ٢٤/ ٢/ ١٩٥١م

---

(١) هذه المقدمة كتبها الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ لمحاضرة العلامة الندوي الّتي ألقاها في مكتب الإرشاد بالقاهرة ـ حين نشرها في شكل رسالة مستقلة بعنوان «الإسلام والحكم».

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فقد عمل العلامةُ الكبير الإمام السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمه الله ـ منذ عنفوان شبابه على تناول كل ما يتصل بقضايا الفكر الإسلامي ومعضلاته ، وكل ما يتصل بالشبهات المثارة ، عارضاً ذلك باللغة العربية الفصحى ، متحدثاً بها من فوق منابر مكة والقاهرة ودمشق ولبنان وبغداد خلال رحلاته في الدعوة إلى الله بالحكمة، والموعظة الحسنة ، وبالكلمة المسموعة والمقروءة .

وقد وُفِّق أن يتشرف أولاً وهو في بداية العقد الثلاثين بزيارة الحجاز ؛ الّذي هو مهدُ الإسلام ، ومهبط الوحي ، وأرض اليقين والإيمان ، ومهوى أفئدة المسلمين ، ومرمى أبصارهم في أرجاء المعمورة ، فألقى فيها عدة محاضرات أثناء إقامته فيها ، ومنها ما اشتهر ونال قبولاً حسناً وتلقياً عظيماً ، ومنها : «بين العالم وجزيرة العرب» أذاعتها الإذاعة السعودية .

وقد أصبح ـ العلامة الندوي ـ بعد إلقاء هذه المحاضرة معروفاً في الأوساط الدينية والعلمية والأدبية بالحجاز ، وقد أبْدَى في هذه المحاضرة آراءه وانطباعاته بأسلوب أدبي رصين ، وعبّر عن قلبه وضميره على لسان

العالم ، ثم أدار عليه بلسان جزيرة العرب ، الّذي يفتح فيه العالم الإنساني ـ بعد أداء حقوق الشكر والتقدير على تلك المنن والهدايا الكريمة الّتي قدمتها إليه جزيرة العرب عن طريق سيدنا محمد ﷺ ، والتي أعادت الحياة من جديد ـ صفحات الشكوى ، ويعرض جروح قلبه ، وفزع نفسه؛ على أنه لماذا تخلت الجزيرة العربية ـ التي كانت قد طلعت من أفقها الوضاء شمسُ الإسلام الساطعة ـ عن قيادته وإمامته ، وخَاطَبها في صراحة ووضوح: إننا لسنا في حاجة إلى زيتك الّذي تسير به العجلات والماكينات ، إننا في حاجة إلى ذلك الإيمان وتلك الحرارة والنور الّذي اختصَّك الله به ، وتستضيء به العقول والقلوب.

ثم رَدَّدَ على العالم من جزيرة العرب ، رداً فيه اعتراف بالقصور ، واعتذار ومواعيد ، تلقى هذا الحديث باستحسان وقبول ، واستُمع إليه في رغبة وشوق.

ثم قيَّض اللهُ له الزيارة لمصر عام (١٩٥١) وشعر خلال إقامته فيها بضرورة أن يخاطب مصر خطاباً يذكرها برسالتها ودورها ومكانتها ، أشاد فيه أولاً ـ برحابة صدر وسخاء ـ بدور مصر الديني والعلمي القيادي الرائع ، ومآثرها العظيمة في النشر والتوزيع ، وفتوحه الأدبية والعلمية ، وتاريخ الأزهر الزاهر ، ومآثرها القيمة في خدمة العلم والدين ، ثم صارحها فقال: «يا مصر ، إن لك يدين ، فخذي بأحدهما الأشياء النافعة المفيدة وأعطي بالأخرى الروح والحياة ، وقدِّمي إلى الغرب تكاتف الإيمان والإسلام ، ولا تنسي هذه الحكمة النبوية: إن اليد العليا خير من اليد السفلى».

نال هذا الخطاب قبولاً بالغاً في مصر ، وتلقَّفه الناسُ ، وتلقوه بشوق ورغبة واستحسان ، فنُشِر بعد مدة قليلة في صورة رسالة مستقلة.

ثم سَافَرَ إلى سورية ، فألقى الحديثَ على رغبةٍ من بعض أصدقائه الأجلاء بعنوان: «اسمعي يا سورية» وباح إليها بما يجيش في قلبه من أحزان وآلام وآمال وأمانٍ ، وقال أخيراً: «إن نعمةَ الإسلام التي حظيت بها الهند على يد محمد بن قاسم الثقفي ، الّذي كان أحد القادة الدعاة في عهد

الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ، وكانت دمشق هذه هي عاصمة الوليد ، إن هذا النداء والاعتراف إنما هو نوعٌ من المكافأة والشكر على ذلك الإحسان والمنّة العظيمة ، وإنما هي ضريبة الحب والوفاء والإخلاص.

وكذلك زار الكويت ، فخاطبها بعنوان «اسمعي يا زهرة الصحراء» وحلب لها شطري الحقائق: الحلو والمرّ.

وزار إيران ففاتحها بعنوان: «اسمعي يا إيران».

وزار المغربَ الأقصى ، فخاطب أهله الفضلاء وأبناءه البررة بعنوان: «نحن الآن في المغرب».

وزار أوربا ، فتحدَّث إليها من المستوى العالي ، والقمة الشامخة ـ شأن المؤمن الواعي المدرك للحقيقة ـ بعنوان «حديث مع الغرب».

وزار أمريكا ، فناداها بعنوان: «أحاديث صريحة في أمريكا» ودلَّ على الأخطار التي تهدِّد النوعَ البشري، وذكر الجاليات الإسلامية ، وأبناء الإسلام الّذين يعيشون في أمريكا أو يقيمون فيها لتحصيل العلوم والثقافة ، أو لتحصيل ذات اليد ، ودورهم الأصيل ، ومسؤوليتهم الأساسية ، ورسالتهم المشرَّفة ، لكنه ظلَّ يشكو بلسان الحال على لسان الشاعر الفارسي:

«ما بحت إليكم إلاّ بشيء قليل من أشجاني وآلامي ، ورغم ذلك أخاف أن يسوءكم قولي ، ويؤذيكم شكواي ، وإلا فإنّ الحديث ذو شجون وفنون».

ثم زار باكستان ، ونادى من خلال محاضراته التي ألقاها فيها بعنوان: «حديث مع باكستان» يخاطب كل مسلم واع مخلص معنيّ بقضايا الإسلام والمسلمين في أنحاء العالم؛ أن يعمل ـ جهده ـ على تمهيد الطريق للانتفاضة الإسلامية بكل إخلاص وعزيمة وجهد دائب ، وشعور صائب ، فقد تراكمتْ على هذه الطريق أنقاضٌ لا يعلمها إلاّ الله بفعل إهمالنا وتقصيرنا ، وثورتنا على أحكام الله ، بل وبمؤامراتنا المتواصلة ، وعملياتنا الهدامة المتتابعة ، وإزالة هذه الأنقاض تحتاج إلى ثورة عارمة شاملة في المجتمعات الإسلامية المتغربة ، وهذه الثورة وحدها هي القاعدة الصلبة المتينة الّتي يمكنُ عليها تشييد صرح الانقلاب الإسلامي اليوم.

وكذلك قيض الله له السفر إلى أوربا ، وزار خلال هذه الزيارة عواصمها الكبرى ، وألقى عدة محاضرات ، طبعت بعد فترة بعنوان: «حديث مع الغرب» وقف في تلك المحاضرات موقف الداعية الإسلامي ، يدعو الغرب إلى الإسلام من غير تأويل وخجل واستحياء ، ويحثّه أن يلعب دوره الخطير الهام في قيادة الإنسانية ، ووجَّه في تلك المحاضرات حديثه إلى الشباب المسلم المثقف المقيم في ديار الغرب ، محذّراً لهم أن تسحرهم هذه الحضارة الخادعة ، ويدعوهم إلى أن يعيشوا في الغرب كالدعاة والقادة ، لا كالمقلدين والتلاميذ ، ويفتحوا قناة جديدة بين الغرب والشرق على أساس النفع المتبادل ، ويرجعوا إلى أوطانهم وبلادهم ، وهم أشدّ إيماناً بخلود الإسلام ، واعتزازاً به ، وأكثر إشفاقاً على الغرب وعلى الإنسانية الّتي كادت تهوي في الهاوية .

وكذلك أتيح له السفر إلى اليمن والأردن ، فألقى خلال إقامته فيهما محاضرات وأحاديث في مناسبات مختلفة ، أثار في تلك المحاضرات والأحاديث غيرة مسلمي اليمن الدينية ، وأعاد إلى ذاكرتهم ارتباطهم بالإيمان ، وكان التركيز على هذه النقطة «الإيمان يمان والحكمة يمانية» فليكن اليمن إيمانياً ، فقوبل جميعُ ما ألقاه العلامة الندوي في اليمن بالترحاب ، وصار له دويٌّ في الأوساط العلمية والسياسية والشعبية ، وألقى بعض محاضرات وخطابات في الأردن ، وهي بمناسبة الإسراء والمعراج ، ففاضت في تلك المحاضرات والخطابات طبيعة العلاّمة ، وتأثرت من الواقع المرير ، فتحدَّث بكلمات كانت حديث القلب الجريح ، تُثير الهمم ، وتُحيي القلوب من غفوتها ، فحركت هذه الكلمات أوتار القلوب؛ لأنها كانت تفيض من قلب اجتمع فيه شجى المكان والزمان ، والاعتزاز بالماضي المجيد ، والتألم بالواقع المرير .

فهذه بضع محاضرات وخطابات وأحاديث مشهورة ألقاها العلامة الندوي خلال رحلاته إلى الشرق والغرب ، ونالت كلّها إقبالاً كبيراً ، واستحساناً عظيماً بين المستمعين حيثما ألقاها ، وصدرتْ بعد مدة في

صورة رسائل وكتيبات صغيرة في لغات مختلفة ، فتكررت طبعاتها بشكل متتالٍ ، يستحيل إحصاؤه.

لكن هناك عدا هذه المحاضرات والخطابات والأحاديث القلائل ، كان عددٌ كبيرٌ من المحاضرات والخطابات والأحاديث المهمة والمفيدة للعلامة الندوي ، وبعضها مسجَّل في الأشرطة ، وبعضها منشور في طيّات الجرائد والمجلات ، وبعضها الآخر مطبوع في صورة كتيبات ، وحين نفدت طبعاتها ، لم تُستأنف طباعتُها حتى صارت كلها شيئاً منسياً.

وكانت كل هذه المحاضرات والخطابات في حاجة إلى الجمع ثم التحقيق والتعليق ، وشعرت بهذه الحاجة ، وكنت جديد العهد بقراءة مؤلفات ومقالات العلامة الندوي بالعربية ، وكان هذا العمل لا يليقُ بمثلي ، وانتظرت مدة غير قصيرة تاركاً المجال لمن يقوم بهذا العمل العظيم من تلاميذ العلامة الندوي الكبار ومن جماعة الندويين المنتشرة في الخافقين ، فبدا لي بعد هذا الانتظار الطويل (الّذي يزيد عن خمس سنوات) بأنه لم يلتفت أحدٌ منهم إلى هذه الضرورة ، أو لم يشعروا بأهميتها ، فتهيأتُ لجمع جميع تلك المحاضرات والخطابات والأحاديث ، باذلاً من الاستطاعة ما وسعني الجهد ، وما ساعد في القدر ، ناقلاً تلك المحاضرات التي كانت مسجّلة في الأشرطة ، ومصوّراً تلك المحاضرات التّي كانت منشورة في الجرائد والمجلات ، ومطبوعةً في صورة الكتيبات ، منذ كنت طالباً في مدرسة ضياء العلوم الإسلامية ، الواقعة في مقر العلامة الندوي.

وهكذا بدأت دون أن أذكر أو أستشير أحداً ، وكنتُ أعرف لو ذكرت هذا لأساتذتي ، أو استشرتُهم لأشاروا عليّ بالعدول عن الخوض في هذا العمل ، مستصغرين شأني ، ورائين العملَ غير لائق بمثلي؛ الّذي لم يتجاوز العقدَ العشرين من عمره.

فلما التحقتُ بكلية الشريعة في دار العلوم ـ ندوة العلماء ، اتَّسع لي المجال للتفرغ لهذا العمل مستفيداً من مكتبتها الرئيسية ، حتى فرغت من جمعها ، فقيَّض الله لي السفر إلى دمشق على منحة من أحد معاهدها

الإسلامية المعروفة ، فرأيتُ هناك إقبال الناس على بعض محاضرات كبار العلماء المعاصرين المطبوعة في مختلف العلوم والفنون كمحاضرات في التاريخ ، ومحاضرات في التشريع الإسلامي ، ومحاضرات في الأدب العربي ، ومحاضرات في كذا وكذا. . .

فخيِّل إليَّ أنَّ محاضرات العلامة الندوي التي جمعتها في الهند هي أكثر منها استحقاقاً للنشر ، بيد أنها لا تحتوي على موضوع واحد مثلما رأيتُ ، لكنها ليست أقلّ من موسوعة تجمع جميع الموضوعات ، فشعرتُ بعدما رأيت تلك المحاضرات بدافع يدفعني برغبة غامضة ملحة ، لم أستطع أن أغالبها ، كأن سائقاً يسوقني إلَى طلب محاضرات العلامة الندوي من الهند ونشرها؛ كي تعمّ منها الإفادة بين الناس ، فطلبت هذه المحاضرات ، واستأنفت فيها النظر ، وتفرغت لها كل التفرغ ، أرتِّب ، وأحقق ، وأعلّقُ عليها بجهد الخاطر ، وكدِّ النَّاظر ، وعرق الجبين ، وتعب اليمين ، لكني تعمدت فيها لذَّة الجدة ، ورونق الحداثة ، وإضافة المعلومات ، فصار عملي من مختلف جوانبه في هذه المحاضرات شغلي الشاغل في أوقات فارغة بعد الدراسة في الجامعة ، حتى يسَّر الله إتمامه في غُرَّة رمضان المبارك سنة ١٤١٩هـ ، وها هو الآن بين يديك عزيزي القارىء.

إن هذه المحاضرات والأحاديث قوية مؤشرة ، صدرت عن قلب مؤمن فيّاض ، ونفحة من نفحات الداعي إلى الله بروحه وقلبه ، ودعوة صريحة إلى الرباط الدائم ، والسهر على مصالح الأمة الإسلامية ، ونداء إلى صلاح الدين الجديد ، تضرب على الوتر الحساس ، وتحرك القلوب ، وتنير العقول ، وترسل الضوء على الطريق ، وتبعث على التفكير من جديد في قضايا الإسلام والمسلمين.

وهي تدورُ حول وضع العرب والمسلمين الراهن في بعدهم عن الجدّ والصرامة ، أو وقوعهم فريسة التغافل والتخاذل ، وحول ضرورة العودة إلى الصفات العالية للأنفة العربية ، والغيرة الإسلامية ، والإيمان العميق الّذي

يدير دفة الحياة ، ويسيطر على التفكير والتصرفات ، وسيرة العرب والمسلمين في خطاباته .

وأرجو من النداء الّذي أرسله العلامة الندوي من خلال هذه المحاضرات والخطابات والأحاديث أن يخاطب كلَّ مسلم واع مخلص ، منسلك بسلك الدعوة إلى الله ، ومعنيّ بقضايا الإسلام والمسلمين في أرجاء الأرض المعمورة ، يحرِّك من قلوب المسلمين في كل بلد إسلامي وعربي كل ساكن ، وتعين على فتح الأبواب الموصدة التي استعصى فتحها على قوة السواعد والبنان ، وقوة الخطابة وطلاقة اللسان ، والتي تنتظر منذ مدّة ذلك الفاتح العبقري الّذي يستطيع أن يفتح القلوب والعقول معاً .

ولا شكَّ أن هذه المحاضرات هدية ثمينة إلى جميع أبناء الإسلام ، ورجال الدعوة ، وقادة الفكر ، وساسة البلاد ، ورجال التربية والتوجيه ، وزعماء الأحزاب والحركات في كل الدول والمجتمعات الإسلامية والعربية .

وأخيراً أرى واجباً علي أن أشكر فضيلة الأستاذ محمد هارون الندوي ـ أمين مكتبة شبلي النعماني بدار العلوم ، ندوة العلماء بلكهنؤ ـ على إتاحته فرصة الاستفادة من مكتبة دار العلوم خلال جمع هذه المحاضرات .

وكذلك لزاماً عليّ أن أشكر أخي العزيز الشقيق السيد أحمد زكريا الغوري ـ الطالب في كلية الشريعة بدار العلوم ـ على ما تَجَشَّمَ في تصوير بعض المحاضرات من مختلف الجرائد والمجلات ، وتوفير بعض الأشرطة كان من الصعب عليّ الحصول عليها هنا في بلدٍ بعيد ناءٍ .

وأخيراً أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب ، وأن يتقبله قبولاً حسناً ، وأن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين .

دمشق ٩/ شعبان/ ١٤٢٠ هـ
١٧/ نوفمبر/ ١٩٩٩ م

كتبه
المعتز بالله تعالى
عبد الماجد الغوري

ملامح مِن حَياة العلاّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي وشخصيته

اسمه ونسبه وأسرته:

* علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني ، ينتهي نسبه إلى عبد الله الأشتر بن محمّد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض ، بن الحسن (المثنى) بن الإمام الحسن السبط الأكبر بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، أول من استَوْطَنَ الهند من هذه الأسرة في أوائل القرن السابع الهجري هو الأمير السيّد قطب الدين المدني (٦٧٧ هـ) وقد بارك الله في ذرية الأمير السيد قطب ، وتقبلها بقبول حسن ونفع بها المسلمين ، إذ كثر فيها العلماء والمربُّون والمجاهدون في سبيل الله والدعاة إليه ، كان من أشهرهم وأبرزهم العارف الكبير والمربي العظيم السيد علم الله بن السيد فَضيل الحسني النقشبندي (١٠٩٦ هـ) خليفة الشيخ الجليل السيد آدم البنوري ، والسيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، قائد حركة الدعوة إلى الله ، والجهاد في سبيله في تاريخ الهند الإسلامي المجيد ، وأوّل من أقام دولةً إسلاميةً في الهند على منهج الخلافة الراشدة في الحدود الشمالية الغربية للهند في العصر الحديث لمواجهة الاستعمار البريطاني ، استشهد الإمام في معركة «بالاكوت»[1] في ٢٤/ من ذي القعدة سنة ١٢٤٦ هـ[2].

---

(١) قرية في مديرية «هزارا» في غربي باكستان.

(٢) اقرأ للاطلاع على حياة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد كتاب «إذا هبت ريح الإيمان» =

* أبوه العلاّمة الطبيب السيّد عبد الحيّ بن السيد فخر الدين الحسني[١] الذي استحق بجدارة لقب «ابن خلكان الهند» «لمؤلفه القيم» «نزهة الخواطر» في ثماني مجلدات عن أعلام المسلمين في الهند وعمالقتهم ، طُبِعَ أخيراً باسم «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام».

* أمّه ـ رحمها الله ـ كانت من السيّدات الفاضلات ، المربّيات النادرات ، المؤلّفات المعدودات ، والحافظات للقرآن الكريم ، تقرض الشعر ، وقد نظمت مجموعة من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ.

ميلاده ونشأته:

* أبصرَ النورَ في ٦ محرم ١٣٣٣ هـ الموافق عام ١٩١٤ م بقرية «تكية كلان» الواقعة قرب مديرية رائي بريلي في الولاية الشمالية (أترابرديش).

* بَدَأَ دراسته الابتدائية من القرآن الكريم في البيت ، ثم دَخَلَ في الكُتَّاب حيث تعلّم مبادىء اللغتين (الأردوية والفارسية).

* توفي أبوه عام ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م) وكان عمره يتراوح آنذاك بين التاسعة والعاشرة ، فتولّى تربيته أمّه الفاضلة ، وأخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني الذي كان يدرس آنذاك في كلية الطب بعد تخرّجه من دار العلوم ديوبند الإسلامية ودار العلوم ندوة العلماء ، وإليه يرجع الفضل في توجيه وتربية سماحة الشيخ الندوي.

* بدأ دراسة العربية على الشيخ خليل بن محمّد الأنصاري اليماني في أواخر عام ١٩٢٤ م ، وتخرّج عليه مستفيداً في الأدب العربي ، ثمّ توسَّعَ فيه وتخصَّصَ على الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي عند مقدمه إلى ندوة العلماء عام ١٩٣٠ م.

= لسماحة الشيخ الندوي ، طبع في دار القلم بالكويت ، وفي دار عرفات براي بريلي ، لكهنؤ (الهند) وأخيراً في دار ابن كثير بدمشق عام ١٩٩٩ م.

(١) انظر للاطلاع على ترجمته بكاملها كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن العشرين».

* التحق بجامعة لكهنؤ فرع الأدب العربي عام ١٩٢٧ م ، ولم يتجاوز عمره آنذاك الأربعة عشر عاماً ، وكان أصغر طلبة الجامعة سناً ، ونالَ منها شهادة فاضل أدب في اللغة العربية وآدابها ، قرأ خلال أيام دراسته في الجامعة كتباً تعتبر في القمة في اللغة العربية والأردوية ، ممّا أعانه على القيام بواجب الدعوة وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة ، وإقناع الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية ، وتَعَلَّمَ الإنجليزية مما مكّنته من قراءة الكتب المؤلفة بها في التاريخ والأدب والفكر.

* التحق بدار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٢٩ م وقرأ الحديث الشريف (صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي) حرفاً حرفاً مع شيء من تفسير البيضاوي على العلاّمة المحدّث الشيخ حيدر حسن خان الطونكي ، ودرس التفسير لكامل القرآن الكريم على العلاّمة المفسر المشهور أحمد علي اللاّهوري في لاهور عام ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢ م ، وحَضَرَ دروس العلاّمة المجاهد حسين أحمد المدني في صحيح البخاري وسنن الترمذي خلال إقامته في دار العلوم ديوبند ، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن أيضاً.

جـهـوده العلميـة ونـشـاطـاتـه الـدعـويّـة:

* انخرَطَ في سلك التدريس من عام ١٩٣٤ م ، وعُيِّنَ أستاذاً في دار العلوم ندوة العلماء لمادتي التفسير والأدب ، خلال تدريسه في دار العلوم ندوة العلماء استفاد من الصحف والمجلاّت العربية الصادرة في البلاد العربية ، ممّا عرفه على البلاد العربية وأحوالها ، وعلمائها وأدبائها ومفكريها عن كثب ، واستفاد أيضاً من كتب المعاصرين من الدعاة والمفكرين العرب وفضلاء الغرب والزعماء السياسيين.

* قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام ١٩٣٩ م ، تَعَرَّفَ فيها على الشيخ المربّي العارف بالله عبد القادر الرأي فوري والداعية

المصلح الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي[1] ، وكان هذا التعرّف نقطة تحوّل في حياته ، وبَقِيَ على الصلة حتى وافاهما الأجل المحتوم ، وتَلَقَّى التربية الروحية من الشيخ عبد القادر الرأي فوري واستفاد من صحبته ومجالسته ، وتَأَسَّى بالشيخ محمّد إلياس الكاندهلوي في القيام بواجب الدّعوة وإصلاح المجتمع ، وقَضَى زمناً طويلاً في رحلات وجولات دعوية متابعة للتربية والإصلاح والتوجيه الديني في الهند وخارجها .

* أسَّسَ مركزاً للتعليمات الإسلامية لتنظيم حلقات درس القرآن الكريم والسنة النبوية عام ١٩٤٣ ، وأَسَّسَ حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام ١٩٥١ م ، والمجمع الإسلامي العملي بدار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ عام ١٩٥٩ م .

* عُيِّنَ أميناً عاماً لدار العلوم ندوة العلماء عام ١٩٦١ ، (ولا يزال يترأس أمانتها إلى يومنا هذا) .

* شارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) عام ١٩٦٠ م ، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام ١٩٦٤ م ، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام ١٩٧٢ .

أهمّ مؤلفاته :

* نشِرَ له أول مقال بالعربية في مجلّة «المنار» للعلاّمة السيّد رشيد رضا المصري عام ١٩٣١ م حول شخصية الإمام السيّد أحمد بن عرفان الشهيد ، وكان عمره ـ آنذاك ـ الأربعة عشر عاماً .

* ظهَرَ له أوّل كتاب بالأردوية عام ١٩٣٧ م يحمل عنوانه اسم «سيرت أحمد شهيد» ونَالَ قبولاً عاماً في الأوساط الدينية والعلمية في الهند وباكستان .

---

(١) اقرأ للاطلاع على حياته وجهوده في مجال الدعوة إلى الله كتاب سماحة الشيخ الندوي «الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته» صدر عن دار ابن كثير دمشق عام ١٩٩٩ م.

* بدأ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية ، وظَهَرَ أوّل كتاب فيها بعنوان «مختارات من أدب العرب» عام ١٩٤٠ ، و«قصص النبيين» للأطفال و«القراءة الراشدة» عام ١٩٤٤ م. وقررت جميع هذه الكتب في مقرّرات جامعات البلدان العربية والهندية.

* أَلَّفَ كتابه المشهور «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» عام ١٩٤٤ م. الّذي نال قبولاً بالغاً منذ صدوره في جميع العالم الإسلامي والعربي ، ونقل إلى سائر اللغات العالمية ، وقد صدر له حتى الآن ست وستون طبعة شرعية بالعربية[1].

* دعِيَ أستاذاً زائراً في كلية الشريعة جامعة دمشق عام ١٩٥٦ م ، وألْقىٰ محاضرات بعنوان «التجديد والمجدّدون في تاريخ الفكر الإسلامي» نُشِرتْ بعد ذلك في شكل كتاب مستقلّ ينضوي تحت أربع مجلدات باسم «رجال الفكر والدعوة في الإسلام».

* أَلَّفَ كتابه حول القاديانية بعنوان «القادياني والقاديانية» عام ١٩٥٨ م ، وكتابه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية في الأقطار الإسلامية» عام ١٩٦٥ م وكتابه «الأركان الأربعة» عام ١٩٦٧ ، و«السيرة النبوية» عام ١٩٧٦ م ، و«العقيدة والعبادة والسلوك» عام ١٩٨٠ و«المرتضى» في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عام ١٩٨٨ م.

* شارك في تحرير مجلة «الضياء» العربية الصادرة من دارالعلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٣٢ ومجلّة «الندوة» الأردوية الصادرة منها أيضاً عام ١٩٤٠ ، وأَصْدَرَ مجلّة باسم «تعميرحيات» في الأردوية عام ١٩٤٨ م ، وكَتَبَ مقالات في الأدب والدعوة والفكر في أمّات المجلاّت العربية الصادرة من مصر ودمشق كـ : «الرّسالة» للأستاذ أحمد حسن الزيات و«الفتح» للأستاذ محب الدين الخطيب و«حضارة الإسلام» للدكتور مصطفى السباعي.

---

(١) صدرت طبعته الأخيرة في «دار ابن كثير» بدمشق عام ١٩٩٩ م.

* أشْرَفَ على إصدار جريدة «نداي ملّت» الأردوية عام ١٩٦٢ م ، وكذلك أشرف على مجلّة «البعث الإسلامي» العربية الصادرة عام ١٩٥٥ م وجريدة «الرائد» العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٩ م ومجلة «تعميرحيات» الأردوية الصادرة منذ عام ١٩٦٣ م ، وكلها تصدر من دار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ ، (الهند).

تـقـديـر وتـكـريـم:

* انتخبه مجمع اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن عضواً مراسلاً لما اتصف به من العلم الجمّ ، والبحث الدقيق في ميادين الثقافة العربية والإسلامية ، ولمساعيه المكثفة المشكورة في سبيلها.

* اختير عضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢ م.

* اختير عضواً في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام ١٩٧١ م.

* اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٠ م ، لتأليفه القيم «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين».

* منح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام ١٩٨١ م.

* اختير رئيساً لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن عام ١٩٨٣ م.

* اختير عضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية وللبحث والتأليف والتحقيق في عمّان (الأردن).

* اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) عام ١٩٨٤ م.

* أقيمت ندوة أدبية كبيرة حول حياته وجهوده الحثيثة ومساعيه

المشكورة ، ومفاخره العظيمة في مجال الدعوة والأدب عام ١٩٩٩ م في إستانبول «تركيا».

* اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٤١٩ هـ لخدماته الجليلة ومآثره العظيمة في مجال الدعوة الإسلامية ، وقَدَّمَ إليه الجائزةَ في الإمارات العربية المتحدة سمو الشيخ محمد بن راشد المكتوم ولي العهد.

رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع :

* تولَّى العلامةُ الرئاسة والعضوية لعدة جامعات إسلامية ومجامع عربية ومنظمات دعوية ومراكز دينية في العالم الإسلامي وخارجه ، ومنها على سبيل المثال:

الأمين العام لدار العلوم ـ ندوة العلماء (الّتي أخذت صفة العالمية منذ ترأس أمانتها ، وتَفَوَّقَتْ على معظم جامعات العالم الّتي تَهْتَمّ بشؤون الدراسات الإسلامية والعربية لأنّها تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع).

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض).

رئيس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ (الهند).

رئيس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية (إنجلترا).

رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلايمة لعموم الهند.

رئيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش).

عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلام بمكة المكرمة.

عضو المجلس التأسيسي الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة.

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

عضو مجمع اللغة العربية الأردني.

عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) بالأردن.

عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط.

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد (باكستان).

عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم ديوبند الإسلامية (الهند).

* وعدا ذلك تولَّى العلامة الرئاسة والعضوية لكثير من الجامعات الإسلامية، والمراكز الدينية والمنظمات الدعوية ولجان التعليم والتربية في العالم الإسلامي وخارجه.

وفاتـــه:

توفي ـ رحمه الله ـ عن ستة وثمانين من عمره بمقره ومسقط رأسه «تكية كلان» (الهند) في يوم الجمعة ٢٢/ من شهر رمضان المبارك ١٤٢٠هـ الموافق ٣١/ من شهر ديسمبر ١٩٩٩م، وذلك عقب نوبة قلبية مفاجأة، تغمده الله تعالى بواسع رحمته، وأكرم نزله في فسيح جناته، وجعله ممن أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً[1].

* * *

(١) انظر كتاب «أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب» للمحقق، للاطلاع على حياة العلامة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي، وجهوده الحثيثة في خدمة الدعوة الإسلامية، ومآثره القيمة في مجال الأدب، وموقفه من القضايا الإسلامية والعربية، وتعريف لأهمّ مؤلفاته، صَدَرَ عن «دار ابن كثير دمشق ـ بيروت ١٩٩٩ م».

أريد أن أتحدّث إلى الإخوان

ألقى سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي هذه المحاضرة في منزل الأستاذ منير دلة بالجيزة ، خلال زيارته الأولى لمصر عام (١٩٥١م) حضرها عدد وجيه من كبار علماء مصر ، وأساتذة الجامعات المصرية المختلفة ، وعلّق عليها الأستاذ محمد الغزالي .

أيها الإخوان والسادة! كان من أعزِّ الأماني وأحلى الأحلام عندي أن ألتقي في مصر بفضيلة الأستاذ الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان ، ولكن تأخرت زيارتي لمصر لأسباب قاسرة ، واستأثرتْ به رحمة الله ، وسبقت له الحسنى ، ولا أزال طول عمري ألوم نفسي على هذا التقصير والتأخير في السفر ، على أنَّ ما فات الإنسان من خيرٍ لم يكن ليدركه ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وليس لي عزاءٌ عن هذا الحرمان إلا في وجودكم ، والاجتماع بكم ، والحديث معكم ، فأريد أن أحييكم تحيَّةً كنت أحييها فقيد الإسلام ، وأبثُّ إليكم ما في قلبي من خواطر ، وأفكارٍ ، وآمال ، وآلام ، وما أحمل لهذه الدعوة العظيمة وصاحبها من التقدير والإجلال والحبِّ والإخلاص ، وما يخامر نفسي في ذلك من سرورٍ وأمل ، وما يساور نفسي كذلك من إشفاقٍ ووجل ، فأرجو أن تسمحوا لأخيكم بشيءٍ من التفصيل ، وتتكرموا عليه بشيْء من وقتكم العزيز .

لستم في حاجة أيها الإخوان الكرام أن أصوِّر لكم العالم الإسلامي ، وما تجتاحه الآن من موجات سياسيةٍ ، واقتصاديةٍ ، وخلقية ، وأصف لكم الأخطار المصلتة على رقاب المسلمين ، وما أصيب به هذا العالم ، ويستقبله من نكباتٍ ومصائب ، فأنتم من أعلم الناس بها ، ولكن الذي أريد أن أقول لكم : إنه في حيرةٍ عظيمةٍ ، وارتباكٍ شديد ، إنه يتأرجح بين عوامل متناقضة ، وقوى متنافسة .

إنَّ العالم الإسلامي حائرٌ اليوم بين دينٍ لا يسهل عليه العمل به والقيام بمطالبه لعاداتٍ نشأ عليها ، وحكوماتٍ أفسدته ، وتعليمٍ أزاغه ، وشهواتٍ لا تتفق مع عقيدته ورسالته ، وبين جاهليةٍ لا ينشرح لها صدره لإيمانٍ لا تزال له بقية فيه ، وقوميةٍ عجنت مع الإسلام ، وحضارة تخمَّرت مع الدين .

إنَّ العالم الإسلامي حائرٌ بين شعوبٍ مسلمة بسيطةٍ في عقليتها ودينها ،

وحكوماتٍ داهية لم تنشرح صدور رجالها لهذا الدين ، ولم تطاوعهم نفوسهم على العمل به ، ولكنّهم يصرُّون على أن يحكموا هذه الشعوب التي تؤمن بهذا الدين ، ولا يرون حياتهم وشرفهم إلا في البقاء في الحكومة ، ولا يرون لهم محلاً في الحياة إلا الزعامة والحكومة ، ولا موضعاً في العالم إلا المجتمع الإسلامي الذي ولدوا ونشؤوا فيه ، فالشعوب في تعبٍ منهم ، وهم منها في بلاء وعناء.

إنَّ العالم الإسلامي حائر بين فطرته التي تنزعه إلى الدين ، وتاريخه الذي يدفعه إلى الإيمان والجهاد ، والكتابِ الذي يُقبل به إلى الآخرة ، ويبعث في نفسه الثورة على المجتمع الفاسد والحياة الزائفة ، وبين التربية العصرية التي تزيّن له المادِّية ، وتطبعه على الجبن والضعف ، والزعامة التي تفرض عليه الاتكال على الغير ، والاعتماد على العدو ، والفرار من الزحف.

إنَّ العالم الإسلامي حائرٌ بين شبابٍ ثائرٍ ، ودم فائرٍ ، وذهن متوقِّدٍ ، وأزهار تريد أن تتفتح ، وبين قيادةٍ شائخةٍ شائبةٍ قد أفلست في العقلية والحياة ، وحُرِمت الابتكار والإبداع ، والشجاعة والمغامرة.

إنَّ العالم الإسلامي حائر بين مواد خامة من أقوى المواد ، وأفضلها في الإيمان والقوة والشجاعة ، وبين موجهين وصناعيين لا يعرفون قيمة هذه المواد ، ولا يعرفون أين يضعونها؟ وماذا يصنعون منها؟

هذا هو العالم الإسلامي الذي يواجهه العالم اليوم فلا يجد فيه غناءه ، ولا يجد فيه غوثاً ومعقلاً عن لصوص العالم المنظمين ، وذئاب الإنسانية التي تحكَّمت ، وعاثت فيها.

ثم هذا هو العالم العربي الذي تعيشون فيه أيها السادة ، وهو اليوم مع كل أسف أضعف أعضاء جسم العالم الإسلامي ، وقد كان واجباً أن يكون أقواها ، وأصحَّها ، وأن يكون في العالم الإسلامي بمنزلة الرأس ، أو القلب في البدن ، وقد تضافرت عليه عوامل الإفساد والضعف ، فأحدثت فيه عللاً كثيرة ، وقد ولَّد فيه ضعفُ الحكم التركي وغفلتُه عن تعليم

الشعوب ، وتربيتها ، وإنفاقُه الأموال في غير موضع ، والاحترام في غير وقت ، وعسفُه في غير هوادة ، أورث كلُّ هذا البطالة ، وسقوط الهمَّة ، والجهل المطبق في كثيرٍ من البلاد العربية ، وجاء الاستعمار الأوربي فأورث التفسُّخ في الأخلاق ، والانحلال في الدِّين ، والاندفاع المتهور إلى المادية ، والتهالك على الشهوات ، وقامت الحكومات الشخصية ، فأورثت التملُّق ، وكثرة المجاملات ، والنفاق ، والخنوع للقوة والمادة ، ثم جنى عليه قربُه من أوربا ، فكان هدفاً لتياراتها المدنية ، ومنتجاتها الصناعية ، وأفكارها المتطرفة ، وأساء إليه موقعه الجغرافي وأهميته السياسية والاستراتيجية ، فلجَّ به الغرب ، وطمع فيه الاستعمار ، وطوَّقته الجنود الأجنبية ، وكان من بقايا الحضارة الشرقية والنظام الإقطاعي والحكم الشخصي الترفُ ، والبذخُ ، والتفاوتُ الشديد بين الطبقات في المعيشة ، ثم كان أن خفَت في العالم العربي صوتُ الدعوة الدينية من زمان ، وانقرض الرجال الذين كانوا يكافحون المادية ، ويكبحون جماحها ، ويلطفون من حدتها بدعوتهم إلى الله ، وإلى الآخرة ، وإلى الزهد والاعتدال في الحياة وقمع الشهوات ، ويشعلون جمرة الإيمان ، واستسلم العلماء ورجال الدين أمام تيار الغرب ، وتغيرات العصر ، فوضعوا أوزارهم للمدنية الغربية ، وهجم عليه الأدب الشهواني ، والصحافة الماجنة ، فحلَّت العقد ، ونفخت في الشهوات ، واجتمع بعض ذلك إلى بعض حتى أصبح هذا العالم منحلاًّ ، منهاراً ، متداعياً ، لا يمسكه الإيمان ، ولا تحفظه القوة المعنوية ، ولا تقف في طريق اندفاعه دعوةٌ قوية.

في مثل هذه الفترات المظلمة ، والسحب المتراكمة ، كان الله يبعث الأنبياء والمرسلين في الزمن السابق ، ولكن نبوءة محمد ﷺ لم تُكسف شمسُها ، ولم يتوار نورُها ، وإن دينه لا يزال حياً ، وإنَّ الكتاب الذي جاء به لا يزال محفوظاً ، وإنَّ أمته التي أرسلت معه لتبليغ رسالته والقيام بدعوته لا تزال على وجه الأرض ، ولا تزال فيها الحياة والروح.

لقد أغنانا الله بفضل دينه المحفوظ ، وكتابه المتلو ، ونبوءة محمد ﷺ

الخالدة ، عن رسالة جديدةٍ ورسولٍ جديد ، ولكن لا بد من تجديدٍ واسع ، ودعوةٍ صارخة ، وكفاح شديد يغيِّر هذا الوضع الجاهلي الذي تورَّط فيه العالم الإسلامي تورطاً قبيحاً ، وأمعن فيه العالم العربيُّ إلى أبعد حد ، وقد وعد الله ، وأخبر رسولُه باستمرارِ هذه الدعوة الإسلامية ، وبقاء التجديد الديني ، ودوام الكفاح في تاريخ الإسلام ضدَّ الجاهلية التي ترفع عقيرتها زمناً بعد زمن ، وحيناً بعد حين ، وقد أصبح خطبُ العالم الإسلامي ، وفسادُ أحوال المسلمين ، وانحرافُهم عن جادة الإسلام ، وطغيانُ بحر المادية أعظمَ وأوسعَ من أن يتدارك بجهودٍ فردية ، وخُطَبٍ منبرية ، ودروسٍ دينية ، ورسائل دورية ، ومباحثاتٍ فقهية ، ومسائل جزئية ، ومحاربة الأفراد والأشخاص ، إنَّ السيل لا يمسكه إلا سيلٌ مثله ، والتيار لا يدفعه إلا تيارٌ أقوى منه ، فلا بدَّ من كفاحٍ عنيف ، وصراع شديد يغير مجرى الزمن ، ويقلب تيار الحياة من جهةٍ إلى جهة ، ويحدث انقلاباً في المجتمع والحياة ، وفي الأذواق والرغبات ، وفي قيم الأشياء وموازينها .

من هنا كان سرورنا عظيماً لما رأينا نوراً جديداً على أفق العالم العربي ، ظهرت دعوة الإخوان من مصر ـ زعيمة العالم العربي ومصدر الخير والشر للشرق الأدنى ـ فتجدَّد الأمل في مستقبل الإسلام ، واعتقدنا أنَّها هي الدعوة المنتظرة لإحياء المسلمين ، وهي التي ستحقق آمال المصلحين وأحلامهم ، وتتدارك هذا العالم المنهار ، وتمسك به ، وما لبث أن تحولت هذه الدعوة إلى سيلٍ متدفق ، وتيارٍ جارف ، فأمسك سيول الإباحة ، والتحلل ، والإلحاد ، واللادينية ، وصدَّ تيارات المدنية الغربية التي كادت تجرف بالبقية الباقية من الغيرة الإسلامية ، والحياة الدينية ، وأصبحت تؤثر في حياة البلاد تأثيراً قوياً كاد يغير اتجاه البلاد ، وقد اجتمع لهذه الدعوة خصائصُ كثيرةٌ ، لم تجتمع على ما علمنا منذ أمدٍ بعيد لحركة دينية وإصلاحية في هذا البلد :

١ ـ منها شخصية الداعي الأول ، وهو فضيلة الأستاذ الشيخ حسن البنا رحمة الله عليه ، فقد كانت كما بلغنا شخصيةً فريدةً يظهر من حياة صاحبها ونشأته أنَّها قد أُعدَّت لهذا الأمر العظيم إعداداً ، وقد كان رحمه الله يجمع

بين الفهم الواسع للإسلام ، والغيرة الملتهبة عليه ، والنشاط الدائم ، والعمل المتواصل لإعلائه ، والخطابة الساحرة ، والشخصية الجذابة ، والنفوذ العميق في نفوس أصحابه وإخوانه ، أو بلفظه هو نفسه «الفهم الدقيق ، والإيمان العميق ، والحب الوثيق» ، ولا بدَّ للزعيم المسلم ، وقائد الدعوة الدينية أن يجمع بين هذه الصفات.

٢ ـ اجتمع لهذه الدعوة ما قلَّما يجتمع للحركات الدينية من قوة الإيمان ، وقوة العمل ، والعلم العصري ، والتنظيم الحديث ، والأدب ، والصحافة ، والصناعة ، والتجارة ، مما جعل هذه الدعوة دعوةً شعبيةً عصريةً عامة ، يجتمع فيها العالم الديني ، مع المثقف المدني ، مع التاجر الكبير ، مع العامل الصغير ، مع الكاتب الأديب ، مع الصحافي البارع ، مع الصانع الماهر ، مع الفلاح القوي ، مع الطالب الشاب ، مع المعلم الوقور ، مع الموظف المسؤول ، مع الطبيب النِّطاسيّ ، مع المحامي الكبير ، مع السياسي المحنك ، تجمع بينهم رابطة الإخوان ، وتربطهم شخصية الداعي الكبير.

٣ ـ لقد بعثت تربية الداعي ، والاشتغال بالدعوة ، ورد الفعل ضد التحلل والتفسخ حماسةً عظيمة ، وتماسكاً عجيباً في نفوس الدعاة ، وجعلت من الشعب «الرخو الرقيق» ـ كما قال زعيم من زعماء الإخوان ـ شباناً أثبتوا بطولتهم في حرب فلسطين ، وجددوا ذكريات تاريخ الجهاد الإسلامي ، وأثبتوا رجولتهم ، وعصاميتهم في عهد الاعتقال والمحنة والتعذيب.

٤ ـ امتاز الداعي الأول والدعاة بدورهم بالتصريح بالحقائق الإسلامية ، والظهور في المظاهر الدينية التي كان الناس يخجلون منها ، فتشجع الناس ، وأصبح الدين في هذا البلد شيئاً لا يخجل منه المثقفون والمتظرفون ، وبدأ الناس يُصلُّون في المقاهي ، والأندية ، والولائم ، وقارعة الطريقة بعد ما كانوا يستحيون من ذلك ، وأصبح الخطباء والكتاب يطالبون بالحكم الإسلامي ، وتطبيق أحكام الإسلام الاجتماعية ، ويثيرون

موضوعاتٍ دينية كانت وقفاً على رجال الدين ، ولم تكن تتجاوز دائرة البحث العلمي ، ولا شكَّ أنَّ ذلك من نتائج الحركة الإسلامية القوية .

كان كلُّ ذلك ، ولو طالت حياة المرشد العام وجرت المياه في مجاريها لكان أكثر من هذا ، لتغير الوضع الاجتماعي ، والخلقي للبلاد ، وماتت بدعٌ كثيرة ، وعاشت سننٌ ميتة ، وأقفرت الحانات ، وعمرت المساجد ، وتوارى الفجار والدعاة إلى الإباحية والخلاعة ، وكسد الأدب السافر الفاجر ، واحتجبت المجلاَّتُ الماجنة والصحفُ الخليعة ، وخفَّ السفور الوقح واختلاط الرجال بالنساء ، إلى غير ذلك من العيوب الخلقية والاجتماعية التي يعانيها المجتمع .

ولكن البلاد لم تستطع أن تقدر هذه النهضة قدرها ، كما أن المعدة الضعيفة المريضة لا تستطيع أن تهضم الغذاء الصالح القوي فتتخم في بعض الأحيان ، فكان كلُّ ما يعلمه الجميع ، وكانت كارثةً إسلامية لم يخسر فيها الإخوان فقط ، بل خسر فيها الإسلام ورُزىء بها العالمُ الإسلامي .

ولكني أعتقد أيها السادة أنَّ الله سبحانه وتعالى قد أراد بهذه الدعوة خيراً؛ إذ ردَّها قسراً إلى مرحلة الدعوة الأولى لتزداد هذه الدعوة نضجاً ، وليزداد رجالها تربية وحنكة ، ومبادئها رسوخاً وقوة ، وأخذ بنواصي العاملين الدعاة؛ ليفكروا في مستقبل هذه الدعوة ، ويرسموا خطتها ، ويحكموا وضعها وأسلوبها .

ليس خطب الدعوة الدينية والتجديد الإسلامي بهيِّنٍ أيها الإخوان الكرام ، فليست رسالتها ومهمتها قلب نظام فقط ، أو تغيير وضعٍ سياسي بوضعٍ سياسي آخر ، ونظامٍ اقتصادي بنظام اقتصادي آخر ، ولا نشرِ الثقافة والعلمِ ، ومكافحة الأميةِ ، والجهل ، أو محاربة البطالة والتعطل ، أو معالجة عيوبٍ اجتماعية أو خلقية ، إلى غير ذلك مما يقوم له الدعاة والمصلحون في أوربا وفي الشرق ، وإنما هي دعوة «الإسلام» التي تشمل العقيدة ، والأخلاق ، والأعمال ، والسياسة ، والعبادة ، والسلوك الفردي والاجتماعي ، وتتناول العقل ، والقلب ، والروح ، والجسم ، وتعتمد

على تغير عميقٍ في القلب ، والنفسية ، والعقيدة ، والعقلية ، وتنبع من القلب قبل أن تنبع من قلمٍ ، أو صحيفة كتاب ، أو منصَّة خطاب ، وتنفذ على جسم الداعي وحياته قبل أن يطالب بتنفيذها على المجتمع والأمة .

هذه الدعوة كانت جديرةً في الحقيقة بالأنبياء ومواهبهم ، وقواهم ، ورسالتهم ، وإيمانهم ، وجهادهم ، وثباتهم ، وفقههم ، وحكمتهم ، وإخلاصهم ، ولكنها ليست خاصة بالأنبياء بل هي دعوة خلفائهم وأتباعهم كذلك ، ودعوة كل عصر ومصر ، وحاجة الإنسانية كلها والعصور كلها ، فلا بدَّ أن تجدد في كل زمان ، وفي كل محيط ، وتكون على أساس دعوتهم ، مطابقة لسيرتهم ، مقتبسة من مشكلتهم ، فلنرجع إلى هذا المصدر ، ولندرسه دراسةً عميقةً واسعة .

إذا تتبعنا أيها الإخوان سيرة الأنبياء عليهم السلام في دعوتهم رأينا جوانب كثيرة تمتاز بها سيرتهم ، وتقوم عليها دعوتهم ، وأريد أن أشارككم في دراسة هذه السيرة وطبيعة هذه الدعوة ، فأعرض على أذنكم بعض النقط المهمَّة التي تفرق بين سيرتهم ودعوتهم ، وبين سيرة القادة والمصلحين من عامة البشر ، منها :

١ ـ الالتجاء إلى الله في جميع مراحل الدعوة والجهاد ، بل في جميع مراحل الحياة ، والاطِّراح على عتبة عبوديته اطراح الفقير الكسير ، والارتماء في أحضان رحمته ارتماء الطفل الصغير في أحضان أمه ، والإيمان القوي بأنه هو النافع الضارُّ ، والناصر الخاذل ، وأن لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، ولا كاشف لضره ، ولا ممسك لرحمته ، ولا سهل إلا ما جعله سهلاً ، وهو يجعل الحزْن سهلاً ، وينصر الضعيف على القوي ، والقليل على الكثير ، والضعيف مع نصره قوي ، والقليل مع رحمته كثير ، هذا الإيمان كان يوحي إليهم بالابتهال في الدعاء ، وإطالة الوقوف ببابه ، وشدَّة الالتزام بأعتابه ، والإلحاف في المسألة ، ويلهم المعاني العجيبة والتعبيرات الرقيقة . انظروا أيها الإخوان إلى قول سيد الأنبياء ، وسيد الدعاة إلى الله إلى يوم القيامة ، وهو يمثل خير تمثيل لإيمانه

وشعوره بفقره ، وضعفه ، وافتقاره إلى رحمة الله: «اللهم إنك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سرِّي وعلانيتي ، لا يخفى عليك شيءٌ من أمري ، وأنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقر المعترف بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، ودعاء مَنْ خضعتْ لك رقبتُه ، وفاضتْ لك عبرتُه ، وذلَّ لك جسمه ، ورغم لك أنفه ، اللهم لا تجعلني بدعائك شقياً ، وكن لي رؤوفاً رحيماً ، يا خير المسؤولين! ويا خير المعطين!» واذكروا دعاءه ﷺ في الطائف ، وقوله: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين إلى من تكلني؟! إلى عدوٍّ يتجهمني؟ أم إلى قريب ملكته أمري؟ إن لم تكن ساخطاً عليَّ فلا أبالي! غير أن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن يحلَّ بي غضبك ، أو ينزل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك» . واذكروا موقفه في بدر ، قال ابن إسحاق: «ثم عدَّل رسول الله ﷺ الصفوف ، ورجع إلى العريش ، فدخله ومعه فيه أبو بكر ، ليس معه غيره ، ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر» ويقول فيما يقوله: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد»[1] .

هذه كانت عُدَّة الأنبياء عليهم السلام ، وقوتهم ، ومفتاح دعوتهم ، فقد امتازت دعوتهم بتقديم الدعاء ، والاهتمام به ، والابتهال فيه ، وليس الدعاء إلا رمزاً للإنابة إلى الله ، والاعتماد عليه ، والاعتزاز به ، فامتازت دعوتهم وجهادهم في سبيلها بطابعهما الروحي والإيماني ، وقد روي: أنَّه كان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وقال الله تعالى : ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥] ولا شك أنَّ مهمة الدعوة أعظم من أن يضطلع بها الإنسان بقوته الجسدية ، وعدّته المادية ، وكفاءته العلمية والعقلية ، لا يستقلُّ بها إلا بالقوة الروحية ، ونصر الله ، ومعونته ، وإنَّ هذه الصخور

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص٢٧٩ .

العظيمة ، بل الأطواد الشامخة التي تقف في سبيل الدعوة ، وتهجم على رؤوس الدعاة ، وتصطدم بجهودهم ، لا تذوب إلا بنصر الله الذي يُستنزل بالدعاء ، والالتجاء إليه.

٢ ـ امتازت دعوة الأنبياء وجهودهم بتجردها من التفكير في المنافع المادية والثمرات العاجلة ، فكانوا لا يبتغون بدعوتهم وجهادهم إلا وجه الله ، وامتثال أوامره ، وتأدية رسالته ، تجردت عقولهم وأفكارهم من العمل للدنيا ، ونيل الجاه ، وكسب القوة لأسرتهم أو أتباعهم ، والحصول على الحكومة ، حتى لم يخطر ذلك ببال أصحابهم وأتباعهم ، وكانت هذه الحكومة التي قامت لهم في وقتها ، والقوة التي حصلت لهم في دورها ، لم تكن إلا جائزة من الله ، ووسيلة للوصول إلى أهداف الدين ، وتنفيذ أحكامه ، وتغيير المجتمع ، وتوجيه الحياة ، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الحج: ٤١] ولم تكن هذه الحكومة قطُّ غايةً من غاياتهم ، أو هدفاً من أهدافهم ، أو حديثاً من أحاديثهم ، أو حلماً من أحلامهم ، إنما كانت نتيجةً طبعية للدعوة والجهاد ، كالثمرة التي هي نتيجة طبعية لنمو الشجرة ، وقوة إثمارها ، وقد قال كاتب هذه السطور في رسالته: (بين الجباية والهداية) ما يحسن نقله هنا:

«بُعث محمد ﷺ ، فدعا الناس إلى الإسلام ، فالتف حوله ﴿ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٥] وكان هؤلاء الفتيان هدفَ كلِّ قسوة ، وظلم ، واضطهاد ، وبلاء ، وعذاب ، وقد قيل لهم من قبل: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢ ـ ٣] فصمدوا لكل ما وقع لهم وثبتوا كالجبال ، وقالوا: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٢٢] حتى أذن الله في الهجرة ، ولم تزل الدعوة تشقُّ طريقها ، وتؤتي أكلها

حتى قضى الله أن يحكم رجالها في العالم ، ويقيموا القسط ، ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، فقد عرف أنهم إذا تولوا وسادوا ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج : ٤١].

وهكذا جاءت الدعوة بالحكومة ، كما تأتي الأمطار بالخصب والزرع ، وكما تأتي الأشجار بالفاكهة والثمر ، فلم تكن هذه الحكومة إلا ثمرةً من ثمرات هذه الدعوة الإسلامية ، ولم تكن هذه العزَّة والقوة إلا نتيجةَ ذلك العذاب الذي تحمَّلوه من قريش وغيرهم ، وذلك الهوان الذي لقوه في مكة وغيرها.

وفرق كبير ـ أيها السادة ـ بين الغاية التي تقصد والنتيجة التي تظهر ، ويظهر هذا الفرق في نفسية العامل ، والساعي ، فالذي يقصد الحكومة يتوانى ، ويقعد إذا لم ينلها ، أو انقطع أمله فيها ، ويشتغل بها عن الدعوة ، ويطغى إذا نالها ، وخطرٌ على كلِّ جماعة تتكون عقليتها بحب الحكومة ، والسعي لها أن تقعد عن الجهاد في سبيل الدعوة ، أو تنحرف ، وتزيغ في قصدها ، لأنَّ أساليب الوصول إلى الحكومة تخالف أساليب الدعوة.

فيجب علينا أن ننقيَ عقولنا ونفوسنا ، ونجردها للدعوة ، وللدعوة فحسب ، والخدمة ، والتضحية ، والإيثار ، وإخراج الناس بإذن الله من الظلمات إلى النور ومن الجاهلية إلى الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان المحرفة ، والنظم الجائرة ، والمذاهب الغاشمة إلى عدل الإسلام وظله ، ولا يكون دافعنا إلى العمل والجهاد إلا امتثال أمر الله ، والفوز في الآخرة ، وما أعدَّ الله لعباده من الأجر والثواب ، ثم الشفقة على الخلق والرحمة بالإنسانية المعذبة ، والحرص على نجاة الإنسان ، فإذا كان ذلك لا يمكن في مرحلة من مراحل الدعوة ، أو في فترة من فترات التاريخ ـ بعد تغلغل مبادىء الدعوة في نفوس الدعاة ، ورسوخ العقيدة فيهم ـ إلا بالحكومة ، سعينا لها لمصلحة الدعوة والدين ، كما نسعى إلى الماء للوضوء ، ونجتهد لهذا السبب بنفس العقلية ، وبنفس السيرة ،

وبنفس العفة والنزاهة ، والصدق ، والأمانة ، والخشوع ، والتجرد الذي نجتهد معه لواجبات الدين وأركانه والعبادات الأخرى ، فلا فرق للمؤمن بين الحكومة وبين العبادات إذا حصل الإخلاص ، وصحت النية ، فكلٌّ في رضا الله ، وكلٌّ في سبيل الله ، وكلٌّ عبادةٌ يتقرب بها العبد إلى الله .

٣ ـ ومما امتازت به حياة الأنبياء عليهم السلام وسيرتُهم النبوية المثابرةُ على الدعوة ، والصبر عليها ، فلا يتخطون هذه المرحلة التي هي الأساس بسرعة وعجلة ، ولا يطفرون منها طفراً إلى مرحلةٍ أخرى ، بل يقضون فيها سنين طوالاً ، ولا يشتغلون بغيرها ، ولا يطمئنون إلى أن المجتمع قد عقل دعوتهم ، واستساغها ، ولا إلى الدعاة أنهم قد بلَّغوا رسالتهم ، وأدوا مهمتهم ، وإلى النفوس أنها قبلت هذه الدعوة وهضمتها هضماً صحيحاً وأحلتها منها محلاًّ لائقاً ، وأنست النفوس باتباع الأحكام ، وانقاد لها جماحها ، ولانت لها قناتها ، لا يطمئنون إلى كلِّ هذا حتى يتحققوه ويختبروه مرَّةً بعد مرَّة ، فلا يخدعون عن أنفسهم، ولا تغرُّهم بهرجةُ الكلام ، فيكون نتيجة هذه التربية المتينة والدعوة الطويلة أنها تؤتي أكلها ناضجةً شهية ، ولا تخدج الدعوة نتاجها ، فإذا قامت الحكومة قامت على أساس متين من الأخلاق ، وعلى أكتاف رجالٍ أقوياء : أقوياء في عقيدتهم ، أقوياء في سيرتهم ، أقوياء في خلقهم ، أقوياء في عبادتهم ، أقوياء في سياستهم ، لا يندفعون مع التيار ، ولا تجرف بهم المدنية ، ولا يلعب بعقولهم الغنى بعد الفقر ، واليسر بعد العسر ، والقوة بعد الضعف ، ولا تميل بهم المحسوبيات والأرحام والصداقات ، ولا تستهويهم المطامع والمنافع ، هكذا كان شأن الخلافة الراشدة ، وهذه كانت سيرة الخلفاء الراشدين» .

وهنا أنقل مرة ثانية ما قلته في رسالتي (بين الجباية والهداية) :

«تأسست دولة الإسلام ، وفتحت فارس وبلاد الروم والشام ، ونقلت إلى عاصمة الإسلام ـ المدينة المنورة ـ كنوز كسرى وقيصر ، وانصبَّت عليها خيرات المملكتين العظيمتين ، وانهال على رجالها من أموال هاتين الدولتين ، وطُرفها ، وزخارفها ما لم يدرْ قطُّ بخلدهم ، وقد انقضى على

إسلامهم ربع قرن وهم في شدة وجهد من العيش ، وفي جشوبة المطعم ، وخشونة الملبس ، لا يجدون من الطعام إلا ما يقيم صلبهم ، ولا من اللباس إلا ما يقيهم من البرد والحر ، فإذا بهم اليوم يتحكَّمون في أموال الأباطرة والأكاسرة ، ولو أراد الواحد منهم أن يلبس تاج كسرى ، وينام على بساط قيصر لفعل ، لقد كانت والله هذه محنة عظيمة تزول فيها الجبال الراسيات ، وتطير لها القلوب من جوانحها ، وتعمش العيون ، ولكنهم سرعان ما فطنوا أنَّهم ما وقفوا بين الفقر والغنى فحسب ، بل إنهم خيروا بين أن يتنازلوا عن دعوتهم وإمامتهم ومبادئهم وينفضوا منها يدهم فلا يطمعوا فيها أبداً ، وبين أن يحافظوا على روح هذه الدعوة النبوية ، وعلى سيرة رجالها اللائقة بخلفاء الأنبياء والمرسلين ، وحملة الدعوة المؤمنين المخلصين.

كان لهم أن يؤسسوا ملكاً عربياً عظيماً على أنقاض الدولة الرومية والفارسية ، وينعموا كما نعم ملوكها وأمراؤها من قبل ، فقد ورثوا الإمبراطوريتين: الفارسية ، والرومية ، وجمعوا بين موارد دولتين ، فإذا كان كسرى يترفه بموارد فارس فقط ، وإذا كان هرقل يبذخ بموارد الروم فقط ، فهذا عمر بن الخطاب يمكنه أن يترفه بموارد الإمبراطوريتين ، ويبذخ بذخاً لم يبذخه أحدهما.

كان له ولأصحابه كلُّ ذلك بكل سهولة ، ولكنهم سمعوا القرآن يقول: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] وكأنهم يسمعون نبيهم ﷺ يقول قبل وفاته: «لا الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتهلككم كما أهلكتهم» فهتفوا عن آخرهم قائلين: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة».

وهكذا حافظوا على روح الدعوة الإسلامية ، وسيرة الأنبياء والمرسلين ، وعاشوا في الحكومة كرجال الدعوة ، وفي الدنيا كرجال الآخرة ، وملكوا أنفسهم في هذا التيار الجارف الذي سال قبلهم

بالمدنيات ، والحكومات ، والشعوب ، والأمم ، وسال بالمبادىء ، والأخلاق ، والعلوم ، والحكم.

ما زال الناس يعدون اقتحام المسلمين دجلة بخيلهم وجندهم تحت قيادة سعد بن أبي وقاص ، و وصولهم إلى الشط الثاني ـ من غير أن يصابوا في نفسٍ ، أو مالٍ ، أو متاع ـ حادثاً غريباً من أغرب ما وقع في التاريخ ، إنَّ الحادث لغريب ، ولكن أشد منه غرابة وأدعى للعجب: أنَّ المسلمين في عهد الخلافة الراشدة وعصر الفتوح الإسلامية الأولى ، خاضوا في بحر مدنية الروم وفارس وهو هائج مائج ، وعبروه ، ولم يفقدوا شيئاً من أخلاقهم ، ومبادئهم ، وعاداتهم ، ووصلوا إلى الشط الثاني ولم تبتل ثيابهم ، ولم يزل الخلفاء الراشدون وأمراء الدولة الإسلامية من أصحاب النبي ﷺ محتفظين بروحهم ، ونفسيتهم ، وزهدهم ، وبساطتهم في المعيشة ، وتخشنهم في أوج الفتوح الإسلامية»[1].

٤ ـ ومن مزايا الأنبياء والدعاة إلى الله التجرُّد للدعوة ، والتفرغ لها بالقلب والقالب والنفس والنفيس والوقت والقوة ، فمن شأنهم أنهم يركزون جهودهم ، ومواهبهم ، ويوفرون أوقاتهم ، وقواهم لهذه الدعوة ونشرها ، والجهاد في سبيلها ، ويعطونها كلهم ، ولا يضنُّون عليها بشيءٍ مما عندهم ، ولا يحتفظون بشيءٍ ، ولا يؤثرون عليها شيئاً ، لا وطناً ، ولا أهلاً ، ولا عشيرةً ، ولا هوىً ، ولا مالاً ، ثم تثمر جهودهم ، وقد لا تثمر في الدنيا ، وقد تثمر بعد حياتهم ، فهذا هو النبي ﷺ يخاطب بقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس: ٤٦] وإذا كان هذا شأن الدعوة بعد ما أعطاها الأنبياءُ كلَّ ما عندهم ، فكيف بها إذا أعطيناها بعض ما عندنا؟! وكانت الدعوة تملك عليهم عقولهم ، ومشاعرهم ، وتملك عليهم تفكيرهم ، وصحتهم ، فما زال القرآن يسلي النبيَّ ﷺ ويقول له: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦].

(١) رسالة «بين الجباية والهداية» ص٧ ـ ٨ ـ ٩.

٥ ـ ومن مزايا الأنبياء عليهم السلام ومن كان على طريقهم في الدعوة إلى الله: أنَّ هذه الدعوة إلى الله وإلى الدار الآخرة تسري في حياتهم كما يسري الماء في عروق الشجر، والكهرباء في الأسلاك، وتظهر في أخلاقهم وعباداتهم، فترق قلوبُهم، وتخشع نفوسُهم، وتزداد رغبتُهم في العبادة، ويشتدُّ اهتمامهم بها، وحرصُهم عليها، وإيفاؤهم لحقوقها، فعن المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه قال: قام النبيُّ ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[(١)].
وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قام النبيُّ ﷺ بآية من القرآن ليلة، والآية: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[(٢)] [المائدة: ١١٨] وانتقلت هذه اللذة بالعبادة والاهتمام بها إلى الصحابة رضي الله عنهم في أشدِّ الأوقات شغلاً، وأقلقها خاطراً، حتى كان أعداؤهم يعرفون ذلك عنهم، وقد وصفهم رجل من الروم بقوله: «هم فرسان بالنهار، رهبان بالليل» ويقول قائل: «لو حدثت جليسك حديثاً ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر».

٦ ـ ومن مزايا الأنبياء عليهم السلام ومن كان على قدمهم: أنَّهم يأخذون بالعزيمة في الدين، ولا يأخذون بالرخصة ـ إلا بياناً للحكم الشرعي، وشكراً لنعمة الله، ورفعاً للحرج عن الأمة ـ ولا يعفون أنفسهم، ولا يتساهلون في العبادات، لأنَّ اتباع الناس للدين وعملهم به بمقدار تصلب هؤلاء السادة في الدين، وتمسكهم به، فإذا اهتم هؤلاء بالنوافل اهتم الناس بالفرائض، وإذا اكتفى القادة بالفرائض استرسل الناس إلى تركها والاستهانة بحقها، لذلك كان الصحابة رضي الله عنهم وقادة هذه الأمة يشمرون عن ساق الجد في العبادات والمحافظة على الجماعات، والعمل بالسنن الدقيقة، والاهتمام بالآداب، ولا يكتفون بالأدنى، ولا يقفون عند الفريضة، وبذلك استطاعوا أن يورثوا الدين هذا

(١) متفق عليه.
(٢) رواه الترمذي.

الجيل موفوراً غير منقوص ، وهو أمانة عند هذا الجيل فلينظر كيف يورثه الأجيال الآتية!

٧ ـ ومما يمتاز به الأنبياء والمرسلون عن الحكماء والمؤلفين والعلماء المحققين: أنَّهم يعنون بتربية النفوس والأشخاص الذين يضطلعون بأعباء الدعوة بعدهم ، وينفذون تعاليمهم ورسالاتهم علماً وعملاً ، ومعلوم أنَّ دعوتهم العظمى لا تقوم إلا على أكتاف الأصحاء الأقوياء الحنفاء المخلصين في إيمانهم ، والمخلصين في تفكيرهم ، والمخلصين في نياتهم ، الذين قد تنقت رؤوسهم وصدورهم من ألواث الجاهلية ، والذين هضموا الإسلام هضماً صحيحاً ، وانقطعت كلُّ صلةٍ في حياتهم عن الجاهلية بأوسع معانيها ، وخُلقوا في الإسلام خلقاً جديداً.

ونرى ذلك واضحاً في حياة سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، فلما كان بنو إسرائيل قد نشؤوا في حياة العبودية ، والذل ، والاضطهاد ، والسخرة الظالمة ، وماتت رجولتهم ، وإباؤهم ، ومردوا على الخنوع ، والاستكانة ، والخضوع للقوي الغالب ، وعلى الجبن ، والحرص الشديد على الحياة ، والخوف الشديد من الموت ، وأسبابه ، حتى لما قال لهم نبيُّهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ [المائدة: ٢١ ـ ٢٢] ولم يشجعهم على التقدم والقتال قول موسى عليه السلام ﴿ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة: ٢١] مع أنه كان ضماناً لانتصارهم ، وأخيراً قالوا بكل صراحة ووقاحة: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] فظهر أنَّ نشأتهم الأولى تأبى عليهم أن يخوضوا في معركة ، ويدخلوا في امتحان ، ويعرضوا أنفسهم للخطر ، وقطع موسى من هذا الجيل الفاسد الرجاء ، وقال: ﴿ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٥] هنالك أمره الله بالاعتزال مع قومه ـ لا عن قومه ـ في بيداء سيناء ، حيث الشظف وخشونة الحياة ، وهنالك ينقرض هذا الجيل الفاسد الذي شبَّ على الجبن

والضعف ، وشاب عليه ، وينشأ الأولاد والشباب الإسرائيلي ـ الذين لا يزالون في مقتبل العمر ـ على التخشن ، والجلادة ، وتحمل شدائد الحياة ومكارهها ، وينشأ جيلٌ جديد يولد في هذه العزلة والبداوة على معاني الرجولة والفروسية ، وهكذا تتكون أمة جديدة تقوم بدعوة النبيِّ ، وتطبيق تعاليمه ومبادئه ، وتجاهد في سبيلها.

وذلك أيها السادة معنى بليغ من معاني الهجرة النبوية ، فقد استطاع سيد الأنبياء ، وسيد الدعاة إلى الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بانتقاله مع أصحابه من ضيق مكة إلى سعة المدينة وحريتها ، أن يكمل تربية أصحابه ، وأن ينشىء الجيل الإسلامي الجديد ، الذي لم يلبث أن اضطلع بأعباء الدعوة المحمدية ، ومثَّل الإسلام تمثيلاً كاملاً.

كذلك الدعوة الإسلامية التي تكفلتم بها ، والجهاد الذي أخذتموه على عواتقكم يفرض عليكم ـ أيها السادة ـ إنشاء جيلٍ جديد للإسلام: جديدٍ في قوة إيمانه ، جديدٍ في حماسته ، وثقته ، جديدٍ في أخلاقه ، جديدٍ في تفكيره وعقليته ، جديدٍ في كفاءته العلمية ، واستعداده العقلي ، وإن نجاحكم في هذا الإنتاج البشري مقياس نجاحكم في مهمتكم ودعوتكم ، فكلما كان نجاحكم كبيراً في إيجاد هذا الجيل ، وتكوين هذا الشباب؛ كان نجاحكم باهراً في دعوتكم ورسالتكم ، ومعلوم عند حضراتكم: أنَّ إنشاء الجيل الجديد ، أو تقويم الجيل المعاصر ـ الذي لم يفقد صلاحيته ونموه ـ ليس بالأمر الهيِّن ، إنَّها مهمة لتنوء بالعصبة أولي القوة ، إنها تحتاج إلى تكريس الجهود ، وتركيز القوى على هذه الغاية ، والتفكير العميق الواسع ، والتعاون الشامل ، والتصميم الحكيم ، إنها تطلب أساليب التربية الحكيمة العميقة الأثر ، وجهوداً عملية في ميدان الدعوة والإصلاح ، إنها تطلب حركة التأليف والإنتاج الواسعة ، ومقداراً كبيراً من الابتكار ، إنها تطلب وضع منهاجٍ جديدٍ على أساسٍ جديدٍ للدراسات ، ومثالاً جديداً من المدارس والكلياتِ والجامعات ، ومؤلفاتٍ ، ومنشوراتٍ جديدةً في شرح الدين الإسلامي ، وعرض الفكرة الإسلامية ، وتأليفاتٍ جديدةً في السيرة النبوية ، وتدويناً جديداً للتاريخ الإسلامي ، وسبكاً جديداً للعلوم

الإسلامية ، وتفسيراً جديداً للعلوم الكونية ، وتلقيحاً علمياً جديد ، وطرازاً جديداً للصحافة والأدب والروايات والشعر . إنكم أيها السادة أمام أنقاضٍ عقلية ، وركامٍ بشري ، وخاماتٍ مهملة تبنون بها بيتاً جديداً ، وتصنعون بها سفينةً جديدةً تمخر عباب الحوادث والموانع! إنكم ستبدؤون في عملٍ جديد ، وجهادٍ جديد يستغرق منكم وقتاً طويلاً ، ويستنفد جهوداً عظيمة ، وذلك وإن كان عملاً شاقاً ، طويلاً ، متعباً ، مملاً ، متشعباً ، ولكن لا بدَّ من إنجاز هذا العمل ، ومن مواجهة هذه الحقيقة ، والتغلب على العقبات التي تعترض في سبيلها.

هذه مزايا الدعوة النبوية أيها السادة! ومزايا الدعوة التي تكون على قدم النبوة وواجباتها ، وبذلك تمتاز دعوتكم عن الحركات القومية ، والإصلاحات الاجتماعية ، والثورات السياسية ، والاقتصادية ، ومن هذه المنابع تستمد دعوتكم القوة والروح ، وتستحقُّ من الله النصر ، وتجلب الرحمة ، فلنحافظ عليها محافظتنا على الشعائر والعقيدة ، ولنحرص عليها حرصنا على الحياة والقوة.

عندكم ـ أيها السادة ـ ثروةٌ ضخمة من الصدق ، والإيمان ، والحبِّ ، والإخلاص ليست عند الدول الكبيرة والأمم العظيمة ، وعندكم أمانةٌ مقدَّسة جداً ، أمانة القلوب التي تجتمع على حبكم ، وتدين بولائكم ، وتثق بقيادتكم ، هذه الأمانة التي خلفها لكم الإمام الراحل فأحسنوا القيام عليها ، واخلفوه فيها.

إنَّ نكبة الدعوة بفقد داعيها الأول ومؤسسها العظيم كانت من غير شك نكبةً عظيمةً ، وخسارةً فادحةً ، ولكن كلُّ نكبةٍ أيسر ، وكل خسارةٍ أهونُ من وفاة رسول الله ﷺ ، وقد أصيب بها المسلمون بما لم يصب به جماعةٌ ، أو فرد؛ لشدة تعلق قلوبهم برسولهم ﷺ ، واجتمعت لهم يومئذٍ مصائب لم تجتمع قبل ، ولن تجتمع بعد ، فلننظر كيف تلقاها الصحابة رضي الله تعالى عنهم!

لقد أعدَّ الله سبحانه وتعالى لهذه المرحلة القاسية والمحنة الشديدة

الصحابة رضي الله تعالى عنهم من قبل سنين ، فلما طار في الناس يومَ أحد : أنَّ رسول الله ﷺ قد قُتل ، سُقِط في أيديهم ، وفقد كثيرٌ منهم شعورَهم ، وخذلتهم قواهم ، ولم يستطيعوا أن يتحملوا هذه الصدمة ، ثم تحقق أنَّ الشائعة كانت غير صحيحة ، ورسول الله ﷺ حيٌّ ، فانتعشت قواهم ، ولكن الله تعالى قد أعدَّهم في ذلك الوقت ليتلقوا نبأ وفاة الرسول ﷺ في صبرٍ وجلد ، وربطهم بالدعوة ، وذكر أنَّ الداعي تجري عليه سنة الله في خلقه ، فيرحل عن هذا العالم كما رحل من قبله من المرسلين ، فقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

وكان ذلك ، فلما حدث برسول الله ﷺ حادث الوفاة تماسك المسلمون وعلى رأسهم خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ، فما وهنوا ، وما استكانوا ، ولم ينقلبوا على أعقابهم ، ولم يخذلوا الإسلام ، ولم يخذلوا الدعوة ، واجتمعت على الإسلام محنٌ وخطوبٌ لم تجتمع من قبل ، ولن تجتمع من بعد ، فقد ارتدَّت العرب إمَّا عامة وإمَّا خاصة في كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشرأبت اليهود والنصارى ، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ ، وقلتهم ، وكثرة عدوهم»(١) .

ولم يكن مسجد لله تعالى في بسيط الأرض إلا ثلاثة مساجد : مسجد مكة ، ومسجد المدينة ، ومسجد عبد القيس في البحرين في قرية جواثى ، وكثر المتنبئون ، ومنع الناس الزكاة ، وقصد المرتدون المدينة ، وسرح أبو بكر في هذه الحال جيش أسامة إلى الشام تنفيذاً لوصية رسول الله ﷺ ورغبته ، وكلَّمه في ذلك عمر وكبار الصحابة ، وأرادوا أن يمنعوه من ذلك ، فلم يمتنع ، وقال : «لو ظننت أنَّ السِّباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته»(٢) .

---

(١) رواه الطبري في التاريخ عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه .
(٢) تاريخ الكامل لابن الأثير .

استحضروا أيها الإخوان هول الموقف وغربة الإسلام ، وضعف المسلمين ، فقد أشرفت الدعوة الإسلامية على أثر وفاة نبيها ﷺ على الانقراض ، واجتمع للمسلمين حادثان ، حادث وفاة الرسول ﷺ ، وحادث ارتداد أمتهم ، وقومهم ، ولكنَّ ذلك بالعكس أثار فيهم روح المقاومة والجهاد ، وألهب غيرتهم ، وقال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه : «أينقص الدين وأنا حي» وأبى المسلمون أن يستسلموا لهذه الحوادث ، ويخذلوا الدعوة ، فلم يحافظوا على وضع الإسلام وتراثه فقط ، بل فتحوا فارس والروم ، الإمبراطوريتين اللتين كانتا تحكمان العالم ، وأضافوهما إلى ثروة الإسلام ، جزاهم الله عن نبيه ودعوته وعن المسلمين خير ما جزى خلفاء الأنبياء وقادة الدعوة الإسلامية الأمناء الأقوياء.

وفي الأخير تفضلوا بقبول تحيةٍ صادقةٍ من محبٍّ مخلص ، تجمعه بكم وحدة العقيدة الإسلامية وجامعة الفكرة الدينية ، على بعد الدار ومن وراء البحار ، ويتمنى لكم ولكلِّ داعٍ مخلصٍ ، ومجاهدٍ صادقٍ السداد والتوفيق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

الحاجة إلى الإصلاح والتجديد

طلبت كلية الشريعة في الجامعة السورية (جامعة دمشق حالياً) من العلامة الندوي إلقاء محاضرات على طلابها في موضوع ديني علمي ، وأجاب العلامة إلى رغبتها ، فسافر إلى دمشق في شعبان سنة ١٣٧٥ هـ ، (الموافق أيار سنة ١٩٥٦ م)، واختار عنوان محاضرته الأولى بـ «الحاجة إلى الإصلاح والتجديد والبعث الجديد واتصالهما في تاريخ الإسلام» ، وكانت له محاضرات أمام طلاب الجامعة غير هذه المحاضرة فقد طُبعت في كتاب مستقل بعنوان «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

الحاجة إلى الإصلاح والتجديد والبعث الجديد واتصالُهما في تاريخ الإسلام

الحياة متحركة ومتطورة:

سادتي وإخواني: من الحقائق الأولية أن الحياةَ متحركةٌ ومتطورةٌ، دائمةُ الشباب، مستمرةُ النّمو، تنتقل من طورٍ إلى طور، ومن لونٍ إلى لون، لا تعرف الوقوف ولا الركود، ولا تُصاب بالهَرم والتعطل، فلا يُسايرها في رحلتها الطويلة المتواصلة إلا دينٌ حافلٌ بالحركة والنشاط، لا يتخلَّفُ عن ركب الحياة، ولا يَعجزُ عن مسايرتهِ وزمالته، ولا تقصُر عنه خطواته، ولا تنفُد حيويتُه ونشاطه.

وذلك شأن الإسلام، فإنه ـ وإن كان مؤسَّساً على عقائدَ ثابتةٍ وحقائق خالدةٍ ـ زاخراً بالحياة، حافلاً بالنشاط، له من الحيوية معين لا ينضُب، ومادة لا تنفد، صالحاً لكل زمان ومكان، وعندَه لكل طورٍ جديدٍ من أطوار الحياة ولكل جديدٍ من أجيال البشرية، ولكل عهد مستأنَفٍ من عهود

التاريخ ، ولكل مجتمع عصري من مجتمعات البشر ، مددٌ لا يقصُر عن الحاجة ، ولا يتأخر عن الأوان .

إن الإسلام بخلاف ما يعتقدهُ كثيرٌ مِن المسلمين ، وبعكس ما يُصوِّره أكثرُ المُستشرقين والمؤرّخين الغربيين ـ ليس حضارَة عهدٍ خاص ، ولا فنَّ فترةٍ من فترات التاريخ ، يمثله آثار العهد ومبانيه ، يعيش في الأحجار والرسوم والصور لا في واقع الحياة ، وقد فقد صلاحيته للحياة وأدى رسالته ، كالذي يتحدث عن الحضارةِ اليونانية والرومية ، أو الفن التركي والمغولي .

إنه دينٌ حيّ ورسالةٌ خالدة ، إنه حيٌّ كالحياة نفسها ، وخالدٌ كخلود الحقائق الطبيعيـة ونواميس الحياة ، إنه تقدير العزيز العليم وصنعُ الله الذي أتقن كل شيء ، وقـد ظهر في شكله النهائي وطوره الكامل وأعلن يوم عرفة : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] فهو يجمع بين الكمال الذي لا انتظار بعده لدينٍ آخر ، ولا حاجةَ معه إلى رسالةٍ جديدة ، وبين الحيوية التي لا نفاد لها ، والنشاطِ الذي لا آخر له ، ولذلك استطاع أن يُساير الحياة ويراقبها في وقتٍ واحد ، ويُتابعَها في صلاحها واستقامتها ، ويُنكر عليها في انحرافها وزيغها ، فلا هو مسايرٌ مائع ككثير من الأديان المحرَّفة ، ولا هو مراقب جامد ككثير من الفلسفات النظرية ، وذلك مَثَلُ الدّين الكامل ، ومَثَلُ الدّين الحيّ للإنسان الحيِّ الذي يشعر بشعوره ، ويعترف بحاجاته ، ويرشده في مشاكله ، ويعارضه في اتجاهاته الفاسدة .

عَهـد الأمـة الإسلاميـة أكـثرُ العهود تَقـلُّباتٍ ومشاكـل :

ولمّا كان الدين الإسلامي هو الدين الأخير والدِّين العالمي ، ولما كانت الأمة الإسلامية هي الأمَّة الأخيرة التي اختيرت لتبليغ الرسالة السماوية إلى أهل الأرض «إنه لا نبي بعدي ولا أمة بعدكم» . وكُتب لها الخلود والانتشار في الآفاق ، كانَ من الطبيعي أن تمر في رحلتها الطويلة الواسعة بمراحل عصيبة ، ومواقف دقيقة لا عهد للتاريخ بها ،وتُبتلى بعصورٍ وأجيال لم

تعرفها أمةٌ قبلها ، وأن تواجه صراعاً في ميدان العقول ، والعلم ، والحضارة والاجتماع والتشريع ، لم تواجهها أمةٌ في التاريخ ، ولذلك نرى أن الفترة التي منحت هذه الأمة لتوجيه الأمم والوصاية على العالم هي أكثر الفترات التاريخية تقلباً وتطوراً ، وأكثرها تنوعاً واختلافاً ، ينشأ فيها من المشاكل والمسائل الدقيقة ما لم يخطر من أمةٍ على بال ، ولم يحلم به جيلٌ من الأجيال ، ويمتحن الذكاء وقوة التشريع والثبات على المبدأ والمحافظة على الروح ، والصلاحية للحياة ، فالأمة التي تتغلب على هذه المشاكل كلّها ، وتخرج من هذه المعارك ظافرةً منتصرةً ، هي أمةٌ جديرة بالحياة ، صالحةٌ للقيادة ، ولا يُمكن لقوة سياسية أو غارة خارجية أن تقضي على كيانها ، وتمحوها من الوجود.

كيف استطاعت الأمـة أن تُقاوم تغيراتِ الزمانِ والمكـان:

ولكم أن تتساءلوا كيف استطاعت الأُمّة أن تُقاومَ المؤثرات الخارجية العنيفة والتقلبات التي لا تكاد تنتهي ، واختلافَ الزمان والمكان ، وقد كان بَعْضُه يكفي للقضاء على ديانة قوية قديمةٍ ، أو تحريفها على الأقل كما وقع مراراً في تاريخ الأديان؟

والجواب؛ أنها استطاعت ذلك بقوتين:

القوة الأولى: هي الحيوية الكامنة في وضع الإسلام نفسِه ، وصلاحيته للحياة والإرشاد في كل بيئةٍ وفي كل محيطٍ ، وفي كل عَهدٍ من عهودِ التاريخ ، فقدَ خَصَّ اللهُ محمداً ﷺ برسالةٍ وتعاليم كاملة للإنسان صالحة لكلِّ زمان ومكـان ، تستطيع أن تُواجه ما يتجدَّد من الشؤون وأطوار الحياة ، وتحلَّ كلَّ ما يعتري من المشكلات والمعضلات ، والدراسةُ العميقة الشاملة للقرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح ومصـادر الإسـلام ،كافلـةٌ بالاقتنـاع بما أقـول ، ولكنـه موضوع الفقـه الإسلامي والنُّـظُم الإسلامية.

والقوة الثانية: هو أن الله قد تكفَّل بأن يمنح هذه الأمة التي قضى ببقائها

وخلودها رجالاً أحياءَ أقوياء في كل عصر ، يَنقُلون هذه التعاليم الإسلامية إلى الحياة ، ويُعيدون إلى هذه الأمة الشباب والنشاط ، إن هذا الدين نفسه هو من أقوى العوامل في وجود هؤلاء الأشخاص في كل عصرٍ ومصر ، لأن يُثيرَ في دارسيه كوامن القوة ، ويبعث فيهم الثورة والتمرُّد على الأوضاع الفاسدة ، والمجتمع الزائغ والأخلاق المنحلّة ، والسياسة المستبدة ، والحكم الجائر ، والتَّرف المسرف ، ويَفْرضَ عليهم إنكار المُنكر ، وكلمةَ حقٍّ عند سلطان جائر ، ويُحرِّمَ عليهم الاستنامة إلى الأوضاع الفاسدة ، والرضا بالحياة الدنيا ، وَبيعَ الضمائر ، ويَهَبَهُم كذلك الأصول والنصوص المتينةَ الحكيمة التي يَحلّون في ضوئها المشاكل الطريفةَ ، والمسائلَ المعقدة ، لذلك نرى أن هذه الأمة لم تَعْدَم في عصر من عصورها مُجدِّدين في الدين ، وأئمةً في العلم ، وعماليقَ في الفكر ، وأبطالاً في الجهاد ، وأعلاماً في الإصلاح ، لا يوجد نظيرهم ـ لا في الكمية ولا في الكيفية ـ في أُمةٍ من الأمم ، ولم يكن ذلك من المصادفات والاتفاقات ـ وأنا لا اؤمن بالمصادفات في صنع الله وسَيْرِ الكون ـ إنَّما هو طبيعةُ هذا الدين ، وقدرتُه العجيبة على الإنتاج والتوليد ، وطبيعةُ هذه الأمة وصلاحيتُها للبعْثِ الجديد ، وإنما هو لُطفُ الله بهذه الأُمة بل بالإنسانية ، إذ لو ضاعتْ هذه الأمة لضاعتْ أمانة السماء ، ولضاعت أمانة الإنسانية ، وإنما هي حراستُه الكريمة وخفارتُه القوية لهذا الدين الذي فُرض عليه أن يرافق الحياة إلى آخر مرحلة من مراحلها : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩].

هَجَماتٌ على الإسلام :

وقد كان الإسلام من أوَّلِ عهده هدفاً لهجماتٍ عنيفةٍ قاسية لا تحتملُها ديانةٌ من الديانات ، هجماتٍ على قلبه وأعصابه لا تعرف الهوادة ولا الرِّفق ، ولا تَرضَى إلاّ بالفناء ، إنَّ الديانات التي فَتحتْ في عصرها الدُّنيا ، وأخضعت الأمم والحضارات قد ذابت وتحلَّلتْ أمام هجماتٍ أضعف منها بكثير ، وفقدت شخصيها وكيانها ، ولكنَّ الإسلام بالعكس من

ذلك ردَّ هذه الهجمات كلّها على أعقابها وكسرَها ، وظل محافظاً على قُوته وشخصيته ، وعلى مزاياه وروحِه.

قد كانتِ الفرق الغالية خطراً على روح الإسلام النقية ، وعقائدِه الصافية الواضحة تتهدَّد وضع الإسلام الحقيقي ، وكذلك كانت الغارةُ الصليبية ، ثم هجومُ التتار ـ ذلك الجرادُ المنتشر ـ صاعقةً نزلت على الإسلام والأمةِ الإسلامية ، وكانت جديرةً بأن تقضي على الإسلام وتُقصيهِ من مِيدانِ الحياة ومصافِّ الأمم الحية ، فلو كان غير الإسلام من الديانات للفَظَ نفسَه الأخير ، وأصبحَ أُسطورة من الأساطير.

ولكن الإسلام تحمّل كل هذه الصدمات وكل هذه الصواعق ، واستطاع أن يعيش رغم كل ذلك ، ولم يكن أنه عاش وبقي يلعب دوره ، بل إنه شقَّ طريقه إلى الأمام ، وفتح فتوحاً جديدة في ميدان العلم والعقلِ والسياسة.

وقد مُنِيَ الإسلام في سَيره الطويل بمؤثرات وثورات ومقاومات داخلية وخارجية ، فقد كان مراراً عُرضة لتحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، وانتحال المُبطلين ، ودخلتْ فيه البِدع والأفكار العجمية وتسرب إليه الشِّرك والجاهلية عن طريق الأمم التي كانت تُسلِمُ ، وعن طريق التقليد والجهل ، وفشَتْ فيه الأعمال والتقاليد الجاهلية ، ثم امْتُحِنَ ـ منذ العهد الأموي ـ بمادية جارفة ، وترفٍ فاحش ، وعبادة البُطون والشهوات ، ثم ابتُلي ـ من العهد العباسي ـ بالإلحادِ والزندقة ، والفلسفات العجمية ، إلى غير ذلك مما يحويه تاريخ الإسلام الدينيُّ والعقليُّ ، وقد كانتْ هذه الهجماتُ شديدةً ودقيقةً؛ حتى أصبح كثيرٌ من الناس يَشُكُّون في قدرة الإسلام على مقاومة هذه الهجمات ، وأصبح بعضُهم يتوقع نهاية الإسلام بصفته ديناً من الأديان ، ونهايةَ الأمة الإسلامية بصفتها أمةً ذاتَ عقيدةٍ ورسالة.

ولكنَّ الإسلامَ أبى أن يستسلم لهذه الهجمات ، وأن يخضعَ ويستكينَ لأعدائه ، وأبَتْ رُوح الإسلام أن تنهزمَ ، وأبى ضميرُ الأمة المسلمة أن

يُصالح هذه الفتن ، وأن يتفاهم مع أعداء الإسلام والمتآمرين ضدَّهُ ، وأن يتنازل عن بعض ثروته ، وقام في كل عهدٍ وفي كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي رجالٌ فضحوا المحرِّفين والمتآمرين ، ورفعوا اللِّثام عن وجه الإسلام ، ونفضوا عنه غبار الجهل والضلالات ، وأنكروا على البدع والخرافات والأفكار العجمية ، ودافعوا عن السُّنة دفاعاً قوياً ، وردوا على العقائد الباطلة ، وشنُّوا الحربَ على الجاهلية وأعمالها وتقاليدها ، وحاربوا الماديةَ والتَّرف بكل قوة ، ونَعَوْا على المترفين في عصرهم ، وجهروا بالحق في وجوه السلاطين الجائرينَ والملوكِ المستبدين ، وحَدُّوا من سلطان العقل الذي قد طغى وتخطى الحدود ، ونفخوا في الإسلام روحاً جديدةً ، وخلقوا في المسلمين إيماناً جديداً وثقةً جديدةً ، وقد كان هؤلاء الأفراد نوابغ عصورهم ، عقليةً وعلماً وخُلقاً ، وكانوا أصحاب شخصية جذّابةٍ ، وكفاية فائقةٍ ، وكانت عندهم لكل فتنة وظلمة «يد بيضاء» تُبدِّدُ الظلماتِ وتُنير السبيل.

وقد وضح من وجود هؤلاء المصلحين المجدِّدين للدين الإسلامي باستمرار لا يُحْمَلُ على مجرد المصادفات ، أنَّ هذا هو الدين الذي اختاره الله لتوجيه العالم وإرشادِ الإنسانية ، وقضى بخُلوده وبقائه ، وأنَّ مهمة الهداية والإرشاد الجليلةِ التي كان الأنبياءُ يُبعثون لها في العصور الماضية قد أُلقيتْ على عاتق هذه الأمة التي تَخْلُفُ خاتم النبيين ﷺ في هذه المهمة ، وأنه لا يخلو زمان من الأزمان من خُلفائه ودُعاته.

نُـدْرَةُ شخصَيْـاتِ التجديـدِ في الأديـان الأُخـرى:

بالعكس من ذلك يَندُر في الديانات الأخرى شخصياتٌ عظيمةٌ تعيد إليها الحياةَ والشباب ، وتُوجِد في أتباعها وأصحابِها الحركة والنشاط ، وتُـوجِدُ فيهم الثقـة بأديانهم وعقائِدهـم ، وتنفُـض عنهم غُـبارَ القـرون الماضية ، ورُكامَ عصور الانحطاط.

إننا إذا استعرضنا تاريخ هذه الديانات رأينا فتراتٍ طويلة قد تمتدُّ على مئاتٍ وآلافٍ من السنين لم يظهر فيها من رجال الدين والإصلاح من يُجدِّد

هذا الدِّين ويُدِيلُه من أعدائه الذين تآمروا ضد رُوحه ونظامه ، وينقِّيه من شوائب البدع وألوانِ التَّحريف ، ويَعرِضُه في صورته الصادقة ، ويدعو إلى أصل الدين وحقيقته دعوةً قوية سافرة ، ويُجرِّده من التقاليد والبدع التي لصقت به وهو منها براء ، ويحارب المادية والترفَ الذي ابتُلِيَ به أتباع هذا الدين ، ويُوجد بإيمانه القوي وبروحانيته الصادقة وبجهاده المتواصل روحاً جديدة في هذه الأمة ، وثقة جديدة بدينهم .

ونضرب لذلك مثلاً بالمسيحية ، فقد امُتحِنت في عهدها الباكر ـ يعني في منتصف القرن الأول المسيحي ـ بتطور لا يوجد له نظيرٌ في تاريخ الديانات في عهدها الأول ، فقد انتقلت من ديانة بسيطةٍ توحيدية إلى ديانة خاصة تتركب من الأفكار اليونانية والبوذية وذلك على يد داعيها الكبير وبطلها العظيم بولس Paul (١٠ ـ ٦٥م) وكان هذا الانتقال أشبهَ بقفزةٍ من رُوح إلى روح ، ومن وضع إلى وضع ، ومن نظام إلى نظام ، لا يشارك الثاني الأول إلا في الاسم وبعض الطقوس ، ويتحدث عنه عالم مسيحي Ernest de bunsen فيقول :

«إن العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الإنجيل ليس الذي دعا إليه السيِّدُ المسيح بقوله وعمله ، إن مَردَّ النزاع القائم بين المسيحيين اليومَ وبين اليهود والمسلمين ليس إلى المسيح بل إلى دهاء بولس ، وشَرحِه للصُّحف المقدسة على طريقة التجسيم Essenie والتمثيل ، ومَلئِه هذه الصحفَ بالنُّبوءات والأمثلة ، إن بولس في تقليده لإسطفانوس Stephen داعي المذهب الإنساني قد ألصق بالمسيح التقاليدَ البوذية ، إنه واضعُ ذلك المزيج ، من الأحاديث والقصص المختلفة التي يحتوي عليها الإنجيل اليوم ، والتي تعرض المسيح في صورة لا تتفق مع التاريخ أصلاً ، ليس المسيحُ ، بل بولس والذين جاؤوا بعده من الأحبار والرهبان ، همُ الذين وضعوا تلك العقيدة والنظامَ الديني الذي تلقَّاه العالم

المسيحي كأساسٍ للعقيدة المسيحية الأرثوذكسية خلال ثمانية عشر قرناً»[١].

وبَقيتِ المسيحيةُ قروناً طوالاً ـ ولا تزال ـ تحمل روح بولس وتحافظ على تُراثه ، ولم يظهر في العالم المسيحي في هذه المدة الطويلة من يثورُ على هذا الوضع الطارىء الدخيل على المسيحية ، ويحاول نَقْلَها إلى وضعها الأول الذي ترك عليه سيدنا المسيح خلفَاءَه المخلصِينَ من أتباعه ، وانسلختْ قرون ومضت أجيالٌ إثر أجيالٍ ولم يظهرِ الرجل المنتظرُ لتجديد المسيحية وتجريدِها من الأجزاء الأجنبية ، حتى كان القرن الخامس عشر المسيحي ، فظهر «مارتن لوثر» Martin Luther في ألمانيا وقام بإصلاح محدود قاصر ينحصر في مسائل جُزئية ، وعارض بضع عقائدَ ألحَّتْ عليها الكنيسةُ النصرانية ، ولم يكن إصلاحها جوهرياً شاملاً ، ولا ثورةً ضد اتجاه المسيحية المنحرف الطويل ، ثم لم يخلُفْه رجلٌ في العالم المسيحي يرفعُ صوته ضد انحرافات الكنيسة واعتداءاتها ، ويقومُ بمثل الدور الذي قام به لوثر على ضعفِه .

ويقول الكاتب الفاضل (J.Bass Mullinger) في مقاله في : «دائرة معارف بريطانيا» :

«إذا بحثنا عن الأسباب التي جعلتْ جهُود الإصلاح الديني قبل القرن السادس عشر لم تنجحْ أيَّ نجاحٍ نستطيع أن نقولَ بلا تلعثمٍ : إن السبب الوحيد في ذلك هو خضوع عقلية القرون المتوسطة للمُثُلِ القديمةِ» .

ويقول في محل آخر :

«إنَّ إخفاقَ الجهود المتتابعة لاتخاذ قرارٍ جامعٍ حول إصلاح الكنيسة من حقائقِ التاريخ الأوربيِّ الثابتة» .

ويقول :

---

(١) Islam or true Christianity P. 128.

«وُجدتْ جهودٌ كثيرةٌ ذاتُ أهميةٍ بالغةٍ لإصلاح المذاهب قبل القرن السادس عشر. ولكنها وقعتْ فريسةَ ضغطِ الكنيسة وأخفقت».

وظلَّتِ المسيحية تمشي على الدَّرب الذي اختارته أو بالأصح فُرض عليها، وضَعُف تأثير الكنيسة وانحلَّ سُلطانها في العهد الأخير، وقامت دولة الماديَّةِ في أوربا، وأصبحت الديانةَ الحقيقية التي خَلفتِ المسيحية وخلفتْ كل ديانةٍ في هذا العالم الغربي، فلَم يظهرْ في الأوساط المسيحية من يحارب هذه المادية ويُعيد المسيحية إلى مركزها في الحياة، أو يُوجد الثقة في المسيحيين بديانتهم، ويُنشيء فيهم القوة الروحية والخُلقية التي يقاومون بها إغراءات الماديَّـةِ القاهرة، ويتظاهرون بحياةٍ فاضلة تقوم على العلمِ والأخلاق والعقائِد المَسيحية، ويواجهون مُعضلات العصر وأزَماتِه، ويحاولون حَلَّهـا في ضوء الدِّيـن، بالعكس من ذلك نـرى أن المفكريـن والمؤلفين المسيحيين في أوربا يائسون من مُستقبل المسيحية، ومُصابون بمركَّبِ النقص أمام الماديَّة اللادينية.

وهكذا الديانات الشرقيةُ الأخرى، فالبَرهميَّةُ قد انحرفت انحرافاً شديداً عن جادَّتها الأولى، وفقدت بساطتها والاتصال الروحي المباشر بفاطرِ الكون، وفقدت قُوتها الخُلقية، وتعقَّدت تعقداً أصبحت به فلسفةً دقيقةً غير عملية، وفقدت ـ على مَرِّ الأيام ـ التوحِيدَ الخالص في العقيدة، والعَدل في الاجتماع، وهما الدعامتان اللتان يقوم عليهما بناءُ ديانةٍ في الباطن وفي واقع الحياة، وقد بدأ ذلك من القرن الثامن قبل الميلاد وحاول مؤلفو أبنشد ـ شروح الكتب المقدسة عند البراهمة ـ أن يتداركوا هذا الفساد فرفضوا التقاليد والطقوسَ التي استحوذت على الديانة البرهمية والمجتمع الهندي، وقدّموا نظاماً فلسفياً تصورياً يقوم على وجود الوحدة في الكثرة، ونال هذَا العرضُ الجديد للديانة البرهمية رضا الأوساط العلمية لنزعتها الدائمة إلى «وحدة الوجود»، ولكنه لم يُرض الشعبَ القاصر في الفكر، المُفتقرَ إلى النظم العملية والتعاليمِ الواقعية، وبقيتِ الديانة البرهمية تَفقدُ قُوتها ونفوذها، وبقيَ التذمُّر منها وعدمُ الثقة بها يزداد ويقوىٰ على مر الأيام،

وتجسَّم هذا التذمر وهذا القلق المتفشي في المجتمع الهندي والتماسُ العِوَضِ عن الديانة الهرِمة في شخص بوذه Buddha ولم يكن ذلك إلا في القرن السَّادس قبل الميلاد.

ظهر بوذه بفكرةٍ جديدة أو ديانةٍ جديدة ـ إذا كان لا بد من هذه الكلمة (١) ـ تقوم على تجريد النفس وتهذيبها، وقمع الشهوات، والعفة والمواساة، واللهج بالعمل، وعلى رفضِ التقاليد والطقوس والتفاوت الطبقي الذي أُصيب به المجتمع الهندي في العهد الأخير، وانتشرتْ هذه الفكرة أو الديانة بسرعة، وشملت الجزءَ الجنوبي والشرقي من آسيا الواقعة بين بحر الهندِ والبَحر الكاهل.

ولكنْ ما لَبِثَتْ هذه الحركةُ الدينية العظيمة أن انحرفتْ وتحرَّفت، وهجمتْ عليها الأوثانُ والتماثيل والطقوسُ التي حاربتها البوذية وثارت عليها، حتى أصبحت في الزمن القصير ديانة وثنية لا تمتاز عن الديانة البرهمية إلا بأسماء الأوثان والتماثيل وعددها، وأُصيبت بانحطاط في الأخلاق، والتعقدِ في الأفكار، والكَثرة في المذاهب والفرق، يقول أستاذ تاريخ الحضارة الهندية في إحدى جامعات الهند: «لقد قامت في ظل البوذية دولةٌ تُعنى بمظاهر الآلهة وعبادة الأوثان، وتغير محيط الرابطة الأخوية البوذية وظهرت فيها البدع»(٢). وتقول مؤلفة أوربية Mrs. RhysDavids كما ينقل عنها رئيس الجمهورية الهندية Sir Radha Krishnan «لقد أظلتِ الأفكارُ العليلة تعليم بوذا الخُلقي حتى توارى وراء هذه التخيلات السقيمة، لقد نشأ مذهبٌ جديد في الديانة وازدهر وملك على الناس القلوب، ثم اضمحلَّ وخلفه مذهبٌ آخر، وهلم جرا، حتى تراكمت هذه الأوهامُ الخلاّبة وحجبتِ الجوَّ، وساد الظلام، وقد

---

(١) أتردد في إطلاق كلمة الديانة على البوذية لأنها لاتحمل فكرة أو عقيدة عن وجود خالق الكون وعن المبدأ والمعاد كما يرجح أكثر المؤلفين والمؤرخين (راجع دائرة المعارف البريطانية كلمة «بوذه» Buddha).

(٢) «الحضارة الهندية» لمؤلفه ايشورا توبا.

اضمحلتْ دروس مؤسس الديانة الغالية البسيطة بسبب التدقيقات الكلامية والتَّنطعات».

ولم يظهر في العالم البوذي الواسع وفي المدة الطويلة التي حكمت فيها البوذية وسادت ، مُصلحٌ كبير ينتصر للبوذية الأصلية ، ويُحارب البوذية الدخيلة بكل قوته ومقدرته ، يُجدِّد لهذه الديانة العظيمة شبابها الأول وبساطتها الضائعة ونقاءَها المفقود.

وهكذا بقيت الديانة البرهميَّةُ منكسرة أمام البوذية التي تغلَّبت عليها وعلى رقعتها حتى جاء شنَكر أجاريه Shankiracharia [1] في القرن الثامن المسيحي.

وقام بنشاط عظيم في محاربة البوذية ونَشر البرهمية حتى تمكَّن من إجلاء الديانة البوذية من الهند وتضييق دائرتها وإضعاف سُلطانها حتى ضعفت جداً وبقيت ديانةً من الديانات الهندية القَديمة الدارسة ، استطاع شنكر أجاريه بنشاطه وحماسته وذكائه أن يُقصي البوذيةَ من الحياة ولكنه لم يستطع ـ ولعل الأصح أنه لم يُرد ـ أن يُعِدِ البرهميةَ إلى وضعِها الأول ، ويُعيدَ عقيدة التوحيد والاتصال المباشر بفاطر الكون ورفض الوسائط بين العبد وربه والعدالة الاجتماعية والمساواة بين الطبقات.

ويقول كاتب مقال «موسوعة الديانات والأخلاق» C.V.H Chate الذي كان أستاذ السنسكريتية بكلية «الفستن» في «بمباي» ويمتاز باطلاع واسع على الديانات القديمة وفلسفاتها ، وهو يتحدث عن (شنكر أشاريه):

«إن الغاية الأولى التي استهدفها (شنكر أشاريه) في حياته ، هي إحياء ذلك النظام الديني والفلسفة الدينية التي تَحثُّ عليهما «اوبنشد» (شروح الكتب المقدسة عند البراهمة) إنه نشَرَ العقيدة المطلقة لوحدة الوجود ، وكانت غايته الرئيسة أن يقوم بتعليم الناس أن «ابنشد» و«بهكوث كيتا»

(١) ولد في ملابار جنوبي الهند، وجال في الهند من أقصاها إلى أقصاها ومات في الثانية والثلاثين من عمره.

لا يتعرَّضان للقانون ، وإنما جُلُّ ما فيهما هو تعليم وحدة الوجود في أكمل صورها. إن شنكر أشاريه لم يستنكر الوثنية ولا هاجمها. إن الأصنام عنده مظهرٌ للإله ورمز له. إنه ذَم الغُلوَّ في الطقوس والتقاليد وفلسفة الأعمال ، ولكنه دافع عن عبادة الآلهة التي حَظيت بالقبول ، يقول: «إن الوثنية حاجةٌ طبيعية لنا في مرحلة خاصة لنشأتها ، وعندما تبلغُ الروحُ الدينية النضجَ والاكتمال تستغني عن الوثنية. فكلما تبلغ الروحُ الدينية مرحلة النُّضج يجب الإعراض عن المظاهر والرموز» وقد سمح شنكر أشاريه بعبادة الأصنام كرمز للإله. ولكن لمن لم يبلغ مبلغ البراهمة الذين تحرروا عن الصفات ، وأصبحوا من النضج بمكانٍ لا يقبلون أي تغيير وتبديل» [١].

ولا تزال هاتان الديانتان الهنديتان ـ البرهمية والبوذية ـ محتفظتين بوضعهما المحدَث ، محتفظتين بتُراث عصور الانحطاط محتفظتين بالطقوس والتقاليد والأصنام والتماثيل ، وأخفقتْ جميع المحاولات والجهود التي تبتدىء من شنكر أشاريه وتنتهي إلى ديانند سرسوتي[٢] إلى غاندي الزعيم ، أن تُعيدَ هذه الديانة القديمة إلى وضعها الأول ، وإلى الوضع الصحيح الذي يَتَّفق عليه مع رسالات الأنبياء والفطرة السليمة والعصر المتجدِّد ، وقد ألقتْ أوزارها أخيراً للمادية واللادينية واعتزلَتِ الحياة وانحصرَتْ في المعابد وفي بعض المظاهر والتقاليد ، ولا يُعرف في الهند دعوةٌ قوية ذاتُ بالٍ شعارُها وهتافها «إلى الدين من جديد» بينما نعرفُ دعواتٍ قويةً نشيطةً شعارها وهتافها «إلى الحضارة القديمة من جديد» وإلى لغة الهند القديمة الدارسة «السَّنْسكريتية» من جديد.

---

(١) مقتطف من مقالة شنكر أشاريه باختصار وتلخيص، اقرأ كتاب:

Encyclopaedia of Religion and Echics (Fourth Edition 1958). Volume XI Article Shankar Acharya.

(٢) واضع الديانة الآرية الثائرة على الوثنية وهي أشد الفرق حماسة وعداء للمسلمين وتقول بقدم العالم.

حَاجــةُ الأديــان إلى الرِّجــال الأَحيــاء:

والسِّرُّ في ذلك أن الأديان لا تعيش ولا تزدهر ولا تعود إلى نشاطها وشبابها بعد اضمحلالها وضعفها ، ولا تنسجمُ مع المجتمع المعاصر ولا تتلاءمُ مع روح العصر إلا عن طريق الرجال النوابغ الذين يظهرون فيها حيناً بعد حين ، يملكون الإيمان القويَّ الجديد وسمُوّاً روحياً لا يُشاركهم فيه عامَّةُ الناس ، ونزاهةً ممتازة عن الأغراض وعزوفاً عن الشهوات وتفانياً في المبادىء والعقائد وفي سبيل الدعوة؛ ومستوىً عقلياً وعلميّاً أرقى من الكثير ، ينفخون في أمتهم روحاً جديدة ، ويخلقون في أتباع دينهم إيماناً جديداً وثقة جديدة ، ويُلهبون نفوسهم بحماسة دينية جديدة.

وذلك لأن مطالب الحياة وتكاليفَها مُتجدِّدة ، وإغراءات المادية قويةٌ جديدة دائماً ، وشجرةَ المادية لا تذوي ولا يعروها الذبول وهي خضراء لا تنقطع أثمارها ، وللمادّية ـ مع أنها غنيةٌ بسحرها على النفوس وإغرائها للطبائع عن الدعاة والترغيب ـ في كل عصر دعاة متحمسون ورجال مخلصون ، فإذا أصاب الدعوةَ الدِّينية الوهن ، وإذا أُصيب أهل دينٍ بضعفٍ في العقيدة ، أو ضَعفٍ في الخُلق أو ضَعْفٍ في الدعوة ، لم يستطيعوا أن يقاوموا المادّية الفتية والدعواتِ المعارضةَ القوية. إنَّ الأصنام ـ باختلاف أنواعها ـ لا تزال مُحتلةً للحياةِ ، وإنَّ اللات ومناة ـ وهما رمزان للوثنية والهوى ـ لا تزالان في شبابهما وجِدَّتهما كما يقول إقبال ، فلا يَظُنَّ الدَّاعي أنه قد انتهت مهمته ، ولا تُمكن مقاومة المادية الفتاة ، ولا يمكن سحبُ اللات ومناة عن الحياة إلاّ بالدّين القوي والإيمان الجديد والدّعوة المتحمسة والعِلم الراسخ والعقل الواسع.

تــاريخُ الإصلاحِ والتَّجديـد مُـتَّصـلٌ في الإســلام:

من الحقائق التاريخية أن تاريخ الإصلاح والتَّجديد متصلٌ في الإسلام ، والمُتقصِّي لهـذا التـاريـخ لا يـرى ثَغـرة ولا ثُلمـة فـي جُهـود الإصـلاح

والتجديد ، ولا فَترة لم يظهر فيها من يُعارض التيار المنحرف ويُكافح الفساد الشامل ويرفعُ صوت الحق ، ويتحدى القوى الظالمة أو عناصرَ الفساد ويفتحُ نوافذ جديدةً في التفكير.

والدّارسُ لهذا التاريخ والمُتتبع لحوادثه وشخصياته لا يعرف عهداً قصيراً ساد الظلامُ فيه على العالم الإسلامي ، وخبتْ مصابيحُ الإصلاح وخفتتْ أصواتُ الحق ، وماتَ الضمير الإسلامي ، وتبلَّدَ الشعور ، وأضرَب الفكر الإسلامي عن العمل.

إن هذه الثغرات التي قد نشعر بها في دراستنا العابرة للتاريخ الإسلامي وفي نظرتنا العجلى في كتبه ، إن مردَّها إلى منهج التأليف الذي اتخذه المؤرخون للإسلام قديماً وحديثاً ودرجت عليه الأجيال ، إن النقص ـ ومعذرتي إلى المؤلفين الذين أَدين لهم في معلوماتي ومحاضراتي ويدينُ لهم كل مؤلِّف ودارس ـ في التأليفِ وليس في التاريخ ، أو بكلمة أخرى: إن المسؤولية على المؤرخين والمؤلفين ، لا على المُجدِّدين والمصلحين الذين ظهروا حيناً بعد حين ، وحفظوا على الإسلام جِدَّته وشبابه ، وقضوا على كثير من الفِتن والبدع والمؤامرات والتحريفات ، حتى أصبحت مطمورةً في رُكام الماضي ، لا يهتـدي إليها أحدٌ في هذا العصر إلا بعد بَحث وعناء ، وكثيرٌ من أفراد هذا الجيل لم يسمعوا بأسمائها ولا يعرفون حقيقتها إلا بشق الأنفس وإجهادِ العقل والعين ، وقد كان بعض هذه المذاهب وبعض هذه الحركات تتمتع بحماية البلاط ، وتستندُ إلى المُلك والسلطان والمال والجاه ، وقد كانت في عصرها صاحبة حَوْلٍ وطَوْل ، ولكنها طُويت ـ بفضل جهود هؤلاء المصلحين المخلصين ـ في صحائف الماضي ، وأصبحتْ موضوعَ علماء الآثار لا محل لها إلا في المتاحف والصحائف.

التَّـجَـنِّي على صَلاحيـة الإسـلام:

إنّ هذا النقصَ في التأليف الذي صَرَّحْتُ به مع الاعتذار ، جعل كثيراً من الناس يعتقدون أن تاريخ الإصلاح والكفاح في الإسلام مُتقطعٌ يحتوي على

ثَغرات واسعة وفترات طويلة ، لا ترى فيها إلا المندفعين مع التيار ، المستسلمين للفساد ، وأقزاماً في العقل والتفكير والعلم والإنتاج ، لقد كان يظهر «عملاق» أو نابغة أو عبقريٌّ بعد عصر طويل ، وقد تخلو قرونٌ ومئات سنينَ عن عظيم يستحق أن يُسمّى عملاقاً أو عبقرياً أو مجدّداً في العلم والدين.

إنَّ هذه العقيدة الخاطئة التي لم تَقُم إلاَّ على الدراسةِ القاصرة المستعجلة للتاريخ ، وعلى منهاج التأليف الذي اتخذه مع الأسف أكثر المؤرخين ، وهو تأليف التاريخ الذي يدور حول الملوك وحاشيتهم ، وحول الحوادث التي لها اتصالٌ بالسياسة والحكم ، قد تنتهي ببعض الشباب المتحمسين وببعض رجال الدعوة إلى سُوء الظن بالإسلام وضَعف إنتاجه ، إنها نتيجة خطرة تُضعِف الثقة بالإسلام ، وتُضعف العاطفة والإرادة للكفاح في هذا العصر ، فإن القوة الباطنة التي تدفع إلى الكفاح والعمل للدعوة ، لا تنبعُ إلا من الثقة بالماضي ، وبأن هنالك رصيداً من الجهاد والإخلاص ، وسنداً من الكفاح والنجاح.

مَصــادرُ التَّـاريخ المهجُـورة:

والذَّنْبُ ليس على المؤرخين فقط ، إن الذَّنْبَ على من يقتصُر على كُتب التاريخ «الرسمي» والمصطلح ، ولا يتعدّى هذه الكتب إلى الكتب التي لا تحمل اسم التاريخ ولا تُوجد في ركن التاريخ في مكتبة ، ولكنها مادة واسعة للتاريخ ، ومصدرٌ قيِّمٌ من مصادر التاريخ ، هي كتب الأدب وكُتب الدين والكتب التي دَوَّنَ فيها بعضُ العظماء اعترافاتهم وسجلوا حوادث حياتهم وتجاربهم ، والكتبَ التي حفظ فيها بعضُ التلاميذ وأصحاب الشيوخ كلمات شيوخهم أو مواعظَهُم ، أو ما دار في مجلسهم من حديث أو حوار ، ومجاميعُ الرسائل والخطب التي تدلُّ على روح أصحابها وفكرتهم ، أو الكتُب التي أُلِّفتْ في الحسبة وفي انتقاد المجتمع وإنكار البدع والمنكرات ، فلو اتسعت الدِّراسة وشملت هذه المصادرَ المهجورة وتخصَّص لهذا الموضوع باحثٌ واسعَ الفكر ، صبورٌ على المطالعة ، دقيق

في الملاحظة؛ استطاع أن يُنتج تاريخاً متصلاً شاملاً للإصلاح والتجديد والتفكير الجديد في الإسلام ، يدل على أن الإصلاح والكفاح مرافقان لهذه الأمة لا يتخلَّفان عنها.

كيف يُـؤلَّفُ تاريـخُ الإصـــلاح؟

ويجب على هذا الدارس ألا يقتصر على بعض النقول ، وأن لا يقتضب العباراتِ المنقولةَ عن كُتب هذه الشخصيات العظيمة ، ولا يضُنَّ بالألفاظ والكلمات ، وألا يمرَّ بها وبمؤلفاتها ومنتجاتها مرّاً سريعاً في دراسته التاريخية ، بل يجب أن يعيش في كُتبها ومؤلفاتها وأفكارها مدةً ، ويتذوَّق أدبها وفكرتها ، ويتنسَّم طِيبها ، ويحاولَ أن ينتقل من جَوِّهِ إلى جَوِّ هؤلاء الرجال ، ومن عصره إلى عصرهم ، حتى يعرفهم على حقيقتهم ، ويُصوِّرهم في حقيقتهم ويُشعرَ القارىءَ أنه انتقل إلى عصرهم وعرفهم معرفةً شخصية ، وعاشَ معهم مدة من الزمان.

لذلك تسمحون لي بأن أَعرض لكلٍّ واحد ممن أذكرهم في محاضراتي أمثلةً من كتاباتهم وخطبهم ورسائلهم ، وقد تكون متنوعة ، وقد تكون مُسهبَة ، لأني أعتقد أن الرجل لا يُعرف إلا في كتاباته المتنوعة الطويلة ، ولا يجوز الحكم عليه إلا بعد مشاهدة طويلة ، ومجالسَ وألوانٍ من الحياة عديدة ، ولا سبيل لنا إلى هذه المشاهد وإلى هذه المجالس إلا عن طريق هذه الكتابات والمؤلفات.

تَطبيـقُ مقاييسِ العصر على الشَّخصياتِ القديمة:

ثم الخطيئةُ الثانية التي يرتكبها بعضُ المتحمسين والمؤلفين في هذا العصر ، أنهم يُكوِّنون في ذهنهم صورةً خاصّة للمُجدِّد أو المصلح ، ثم يلتمسونها في تاريخ الإسلام ومجموع صور الأعلام ، فإذا لم يجدوا هذه الصورة الحبيبةَ في التاريخ الإسلامي أو في عصر من العصور ، تذمَّروا وأنكروا ، وكثيرٌ منهم عندهم مقاييس خاصةٌ ، وهي مقاييسُ عصريةٌ يَقيسون بها «العظيم» أو «الداعي» أو «المصلح» أو «المفكر» في كل زمن وفي كل بيئة ، فإذا لم تنطبقْ هذه المقاييسُ ـ التي هي مقاييس العصر ـ على

رجل مهما كان عظيماً ، ومهما كان قديماً ، ومهما كانت خدمتُه للإسلام عظيمة ، ومهما كان مخلصاً ، ومهما نجح في مهمته التي تكفَّلها أو أُسندت إليه ، أسقطوه أو بخسوه حقه ، ولم يَعدُّوه من المصلحين ، وبعضهم يلتزم مقياساً واحداً كمقياس الإبداع في الأفكار مثلاً ، أو فتح باب الاجتهاد مثلاً ، أو الكفاح لإقامة الحكم الإسلامي ، أو معارضةِ الدولة القائمة في عصره مثلاً ، فإذا لم يُحققْ هذه الشريطة ، لم يكنْ رجلَ عصره ، ولم يَستحقَّ أن يَدخُلَ في صفِّ المُصلحين.

إن هذه المقاييسَ والمعايير لها قيمةٌ عظيمة ، وأنا لا أنكر أهميتها ومكانتها في الإصلاح ، ولكن الذي أريد أن أقول لكم: إن الزمان والبيئة عاملان هامان في حياة الرجال ، فلكل عصر مشاكلُ ومسائل ، وملابساتٌ وعوائق ، قد تحدد نطاق العمل ،وقد تفرِض منهَجاً دون منهج ، وأسلوباً دون أسلوب ، والغايةُ واحدة. فلا يجوز لنا أن ننقل رجلاً من عصره ، ونُطبّق عليه مقاييس هذا العصر ، ثم نحكُم عليه بالفشل والإخفاق ، أو الضعف والعجز ونسلبَه محاسن نفسه ، ونحرِمَه من كل مأثرةٍ وكل عظمة ، لأنه لم يحقق شرطاً من شروطنا ، ولم يكن «المثل الكامل» في الإصلاح المنشود ، والتجديدِ المطلوب.

التُّراثُ الإسلامي مجموعةٌ تَدِينُ لكل مُصلحٍ وعامل:

إن هذا التراث الذي وصل إلى أيدينا اليوم ـ ولستُ أسميه التراثَ بالمعنى الذي يريده الغربيون من كلمة Legacy ، لأن الإسلام دين حي خالد ، ولكنْ أسميه بمعنى الثروة التي انتقلتْ إلينا من أسلافنا: تُراثَ العلم الواسع ، والعقيدة المحفوظة ، والإيمان القوي ، والسُّنة الخالصة ، والأخلاق المستقيمة ، وثروة الفقه والتشريع الزاخرة ، والأدب الإسلامي الرائع مجموعةٌ فيها نصيب لكل من ساهم فيها بإقامة حُكم على منهاج الخلافة الراشدة ، ومُحاربة الجاهلية والمادية ، وبالعودة إلى الله وإلى دار السلام ، وإحياء ما درس من الخصائص الإسلامية ، وبثِّ الروح الإيمانية في هذه الأمة ، ولكلٍّ منَ أوجد الثقة

بالدين ومصادره وتعبيراته ، وردَّ هجماتِ الفلسفات الأجنبية ، ولكل من دافع عن الفكرة الأصيلة وعصم هذه الأمة من فتنةٍ هددتِ الإسلام ، ولكل من حَفِظ على هذه الأمة دينَها ، ومصادرَهُ ، وقام بتدوينٍ جديدٍ للحديث والفقه ، أو فتحَ باب الاجتهاد ، ومَنحَ هذه الأمة ثروة واسعة في التشريع ، وقانوناً مُنظِّماً للحياة والمجتمع ، ولكل من حاسب المجتمع في عصره ، وأنكر انحرافه عن مُثل الإسلام ونُظُمِهِ ، ودعاه إلى الإسلام الصحيح ، ولمن سلك سبيل الإقناع العلمي في العصر الذي كثُرت فِيه الشكوكُ ، واضطربتِ العقائد ، ووضع لعصره كلاماً جديداً ، ولكل من خَلف الأنبياءَ في الدعوة والتذكير ، والإنذارِ والتبشير ، وحرك الإيمان في النفوس ، وقام في وجه المادية الجارفة في عصره ، فحدَّ من تأثيرها ، وأنقذ خلقاً كثيراً من الاندفاع والغرق فيه ، ولكُلّ من حفظ هذه الأمة وقُوّتها السياسية من الانهيار ، ومن أن تكونَ فريسةً للغاراتِ الأجنبية ، ولمنْ أَخضع بدعوته الحكيمة الرفيعة عدوّاً لم تَعملْ فيه السيوف ، ولم تُقاومه الجنود ، وحطَّم العالمَ الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، فسخَّرهُ أصحاب الدعوة بقُوتهم الروحية وإيمانهمُ القوي للإسلام ، وجعلوه من أتباع محمد عليه السلام ، ولمن أخضع بأدبِه القوي وشعره البليغ عقولاً لم تُخضعها المباحثُ العلمية والفلسفات الدينيةُ إلى غير ذلك ، ولكُلٍّ فضلٌ ، وما التاريخ إلا تأديةُ الأمانات إلى أهلها ، والحُكمُ بالعدل ، والاعترافُ بالفضْلِ ، وقد قام كلُّ واحدٍ منهم بدوره، وساهم بقسطه؛ القسط المطلوب منه، وكلٌّ كان مرابطاً على ثغر من ثغور الإسلام ، وكلٌّ كان سهماً مُصيباً في كنانة الإسلام ، ولولا هذه الجهودُ المخلصة ، ولولا هذه الأقساط التي قد لا تُرى إلا بِمُكَبِّـرَة التاريخ ، لما وصلتْ إلينا هذه المجموعة التي نَعتزُّ بها ونَستندُ إليها ، ونقتبسُ منها النور سليمةً مَوفورة نتباهى بها على الأمم والديانات .

وعلى هذا المنهاج الذي أعتقدُ أنه المنهاج العادل الواسع ، سأتحدّث عن هذه الشخصيات الإصلاحية ، وعن عصورها والظروف والملابسات

التي تكتنفها ، ومقدارِ نجاحها في حقل الدّعوة والإصلاح والتجديد [١]، وبِيَـدِ اللهِ التوفيقُ.

* * *

(١) من يريد أن يستزيد من الاطلاع على هذه الشخصيات وعلى جهودها في مجال الفكر والدعوة والإصلاح عليه أن يقرأ كتاب «رجال الفكر والدعوة» للعلامة الندوي صدر عن دار ابن كثير دمشق ـ بيروت، ودار القلم بالكويت.

خليج بين الإسلام والمسلمين

وَجَّهَ صاحب السموِّ الشيخ سلطان بن محمد القاسمي حاكم إمارة «الشارقة» (دولة الإمارات العربية المتحدة) دعوة زيارة الشارقة إلى العلامة الندوي ، وخلال زيارته للشارقة نظمت دائرة الأوقاف محاضرة للعلامة الندوي مساء اليوم الخامس من محرم ١٣٩٥هـ في مسجد علي بن أبي طالب الّذي يختصّ بعقد الاجتماعات وإلقاء المحاضرات في المناسبات الدينية .

وكان عنوان المحاضرة «خليج بين الإسلام والمسلمين» قدَّم الشيخ عبد الودود سماحة المحاضر ، فأحسن التقديم ، ثم ارتجل العلامة هذه المحاضرة التي استغرقت ساعة ، فصادفت آذاناً صاغية ، وقلوباً واعية ، وقد سجلت إذاعة وتلفزيون الشارقة المحاضرة بطولها وأذيعت في اليوم التالي .

بعد الحمد والصلاة ، أما بعد ، سادتي وإخواني! أنا سعيد بهذه الزيارة التي أكرمني الله بها لإمارة الشارقة العزيزة ، وقد كتب الله لي زياراتٍ عدَّة ، زيارة تلو أخرى للجزيرة العربية ، وللحرمين الشريفين ، ولكننا نعتبر الجزيرة كلها حلقة واحدة ، وامتداداً لرسالةٍ واحدة ، ولدعوةٍ واحدة ، ولمائدةٍ واحدة ـ إذا صح التعبير ـ لذلك لا أشعر هنا وأنا بين ظهرانيكم ، وبين بيت من بيوت الله ، بأنني في حاشية من حواشي هذه الجزيرة ، بعيدة عن قلبها ، وعن مركزها ، بل أشعر بأني واقف في ظل الكعبة ، وفي رحاب البيت العتيق ، فإذا لم تكن الكعبة ، وإذا لم تكن الرسالة المحمدية؛ لما كان بين مسلم ولد بعيداً ونشأ عن مركز الإسلام وبين هذه الجزيرة صلة وشيجة ، ورباط حب وإجلال ، فهذه الجزيرة كلها في تاريخها الجديد الذي يبتدىء من ظهور الإسلام وحياتها ونهضتها الحقيقية تدين لمكة ، وبالأصح لابن مكة الخالد الذي حمل الأمانة المقدسة ، وأوثر بالرسالة الأخيرة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ﷺ .

إنني أعرف رجالاً في تاريخ الإصلاح والتجديد ، وفي البطولات الإسلامية ، والبعث الإسلامي الجديد ، كانوا يعيشون في حلم لذيذ ، وهو أنه ستقدر لهم زيارة لمكة والمدينة ، وكان الزمن زمن السفن الشراعية ، فكانوا إذا وقع بصرهم على أول قطعة من هذه الجزيرة ، التي انبثق منها النور ، وطلع منها الصبح الصادق للإنسانية بالمعنى الحقيقي ليس بالمعنى الأدبي ، قطعة قاحلةً تتراءى من بعيد ، كأنه هلال العيد ، خروا لله سجداً ، يحمدون الله تبارك وتعالى على أنه فسح في حياتهم ، حتى نالوا هذه السعادة ، وأقروا عيونهم برؤية بلاد العرب ، وقد كانوا يعتبرون هذه القطعة الأرضية قطعة من قلوبهم ، وفي الحقيقة نحن كلنا عرباً وعجماً متطفلون على فتات هذه المائدة ، عائشون في ظل هذه الجزيرة أينما كنا ، بل ليس العالم الإسلامي كله من أقصاه إلى أقصاه ، من جبل الأطلس إلى المحيط الهندي ، إلا امتداداً لهذا الظل الكريم ، ولهذا الحادث التاريخي ، الذي

كان خطأً فاصلاً بين عهدين ، وبين عقليتين ، وبين نفسيتين ، وبين الحياتين ، وبالأحرى بين حيوانية وإنسانية ، بين موت وحياة ، بين وجود وفناء ، وبين إسلام وجاهلية ، فنحن إذا تحدثنا إليكم تحدثنا إلى نفوسنا وقلوبنا وعقولنا وضمائرنا ، وإذا تحدثنا إليكم تحدثنا عن كل ما ينطوي عليه وجودنا ، من عقلٍ وتفكير ، ومشاعرَ وأحاسيس ، وعاطفةٍ ووجدان ، ومعانٍ كريمة لا يأتي عليها الحصر.

إخوتي وسادتي! إننا هنا في إمارة من إمارات الخليج العربي والخليج هو الماء الذي يدخل في بر فيفصله بين جزئين ، وأنتم أعرف بمعاني الخليج ، وما يضمره من معانٍ ونتائج ، وأبعاد وآماد ، من الذين ما شاهدوا خليجاً ، وما شاهدوا فجوةً أو حاجزاً مائياً بين برين ، فهل تصدقون إذا قلت لكم: هناك خلجان معنوية ، وفجوات واسعة بين الأمم والجماعات الإنسانية ، وبين الأديان التي تعلن أنها تؤمن بها ، وعقائدها التي تزعم أنها تدين بها ، ومبادئها التي تعتقد أنها تتمسك بها ، وقد تكون هذه الفجوات والخلجان أعمق وأوسع من هذه الخلجان المائية الجغرافية التي أوجدها الله منذ آلاف من السنين ، إنكم تعرفون نوعاً واحداً من الخلجان ، وهو الخليج الذي تعيشون على ساحله ، ولكن هناك خليجاً آخر أكثر خطراً ، وأطول مدى ، وأشدَّ عمقاً من خليجكم ، هو الخليج الذي قد يقع في بعض الأحيان بين الإسلام والمسلمين.

يا أهل الخليج العربي! إني أحدثكم عن خليج لعلَّكم لم تتصوروه إلى الآن ، مع أننا كلنا نعيش في هذا المعنى ، وهو الواقع الذي يعيشه العالم الإسلامي ، وهو أنَّ هنالك فجوةً بين الإسلام والمسلمين ، قد تكون أكثر خطراً من هذه الخلجان التي تفصل بلاداً عن بلاد ، وبراً عن بر ، وقطعةً من أرض عن قطعةٍ أخرى من الأرض ، وكان يجب أن لا يكون هناك خليج وأيُّ فاصل بين الإسلام والمسلمين ، بل يجب أن يكون الإسلام ممثلاً في المسلم ، ويكون المسلم هو الإسلام الذي يسعى على قدميه ، إذا قيل لإنسان: ما هو الإسلام؟ أشار بكلِّ سهولة إلى أيِّ مسلم ، واثقاً بأنه يفسر الإسلام تفسيراً صحيحاً ، ويصوره تصويراً دقيقاً ، هكذا كان المسلمون في

الصدر الأول ، يقول الله تبارك وتعالى في قصة الإفك: ﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢] هذه ثقة المسلم بالمسلم ، الثقة التي لا نظير لها في المجتمع البشري ، وفي تاريخ الأخلاق وعلم النفس.

يقول الله تبارك وتعالى في هذا الحادث مخاطباً للمسلمين: لماذا لم تستعرضوا حياتكم وأخلاقكم حين وجهت التهمة إلى فرد من أفرادكم ، ثم قلتم في ثقة واعتزاز ، وفي قوة وجراءة: لا يمكن أن يقع المسلم في هذا الحضيض ، إننا نربأ به عن هذه السفالات ، عن هذا المستوى الخلقي ، عن هذا الهبوط ، لأننا نربأ بنفوسنا عن أمثالها ، إنه إذا سمع أيَّ تهمة توجه إلى أيِّ عضوٍ من أعضاء المجتمع الإسلامي ، كان يجب أن يقول: لا ، لا! لا يمكن ، لأني لا أستطيع أن أفعل كذا ، فأنا أقول بثقة: إن أخي المسلم لا يستطيع أن يفعل كذا ، هذا معنى «المسلم مرآة المسلم» وهذا هو المجتمع المثالي الذي لم يشاهد التاريخ أفضل منه.

ولكن ، ما هكذا كان أيها الإخوان! بل وقع نوعٌ من الفجوة بين الإسلام والمسلمين ، فقد يكون الإسلام في واد ، والمسلمين في واد ، وقد لا يكون هناك قنطرةٌ تصل بينهما ، وقد أصبحنا بسبب ما يشبه الفجوة الواقعة بين الإسلام والمسلمين ، وهذا الخليج الحاجز بين حياة المسلمين الواقعية وبين تعاليم الإسلام الحقيقية ، حجة على الإسلام والقرآن ، وسبة وعاراً ، لا عزاً وفخاراً ، لأسلافنا العظام ، وآبائنا الكرام ، بل قد تبعد المسافة أحياناً بيننا وبين الرسول الأعظم ﷺ ، فكثيرٌ من مظاهر حياتنا وسلوكنا ، وأخلاقنا ومثلنا لا يتفق مع البعثة المحمدية ، ورسالتها الجليلة ، وأهدافها النبيلة ، وتعاليمها السامية ، ومثلها العليا ، بل يقع ـ مع الأسف ـ كثيرٌ من أفراد هذه الأمة ، في بعض الأزمنة والأمكنة؛ فريسةَ الشرك ، والعقائد الباطلة ، والعادات الجاهلية ، يقتبسونها من الشعوب المجاورة ، ويقلدون فيها الأمم الجاهلية ، ويتبعون سنن من كان قبلهم

شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع [١]، كما أخبر بذلك لسان النبوة ، وأسفَّ كثير من أفرادها إلى ما لم يكن يتصور المسلمون في الزمن السابق ، في عبادة النفس والشهوات والشيطان ، والمال ، والجاه ، والسلطان ، حتى حقَّ للمسلم أن يستحيي من نسبته إلى نبيه ﷺ ، ويرى في ذلك إساءةً إلى مقامه الرفيع .

وقد أجاد شاعر الإسلام محمد إقبال في تصوير هذه الحقيقة ، والواقع الذي يعيشه المسلمون الآن في غالب أجزاء العالم الإسلامي ، وبلاده ودوله ، ومجتمعاته ، فقال وهو يتمثل وصوله إلى المدينة المنورة في رحلته الخيالية الشعرية؛ التي حكاها في ديوانه «أرمغان حجاز» (هدية من الحجاز) ومثوله أمام الرسول ، وما فاضت به قريحته من نجوى وشكوى ، وتصوير حال المسلمين ، فقال : «لقد نصبنا جباهنا أمام الخلق ، وما سوى الله ، واسترسلنا في تعظيم غير الله ، والخشوع له مثل العلوج[٢] إنني لا أشكو أحداً ، إنما أشكو نفسي وإخوتي ، وجملة القول أننا ما كنا جديرين بك يا رسول الله!»[٣].

وليس هذا الخليج الذي قد يقع بين الإسلام والمسلمين محدوداً بين الحكومات ، والأحكام الإسلامية ، والتعاليم النبوية ، فليست الحكومات الإسلامية وحدها هي التي لا تطبق الإسلام في دائرة نفوذها تطبيقاً أميناً دقيقاً ، وتحكم في غالب الأحيان بغير ما أنزل الله ، وقد اعتاد كثير منا أن يلقوا كل مسؤولية على هذه الحكومات ، ويتخلوا عنها ، ولكن الواقع أنَّ هذا الخليج ـ بين الإسلام والمسلمين ـ اخترق البيوت والمنازل ،

---

(١) جاء في حديث صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : «لتتبعنّ سنن من قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً، حتى لو دخل حجر ضب تبعتموهم» (رواه البخاري) .
وفي رواية له عن أبي هريرة : «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون شبراً شبراً وذراعاً بذراع» .

(٢) العلوج : جمع علج . وهو الرجل القوي الضخم من كفار العجم .

(٣) «الطريق إلى المدينة» للعلامة الندوي : منقولاً من «أرمغان حجاز» طبع في دار ابن كثير دمشق ـ بيروت .

والعلاقات بين الأفراد ، والأحوال الشخصية ، والعقود والمعاملات ، والأسواق والمكاتب ، فنحن لا نطبق الأحكام الشرعية الإسلامية والقانون الإلهي ، في الأمور والقضايا التي نملك فيها كل حرية وتصرف ، ولا تمنعنا قوة عن العمل بأحكام الإسلام وتعاليمه ، وأسوة الرسول ﷺ ووصاياه ، وذلك لأنه ضعف الدافع (وهو الإيمان) الذي يدفعنا إلى تطبيق الأحكام الشرعية على حياتنا ، وقوي الإيمان بالمصالح الشخصية ، والمنافع الدنيوية ، فعطلنا شريعة الله في بيوتنا ، وفي حياتنا الفردية والاجتماعية ، من غير أن يجبرنا أحد على ذلك .

وبذلك أساء المسلم إساءتين : إساءةً إلى نفسه ، وإساءةً إلى الإنسانية ، أساء إلى نفسه أنه حرم تلك الجائزة التي وعد الله بها المسلم ؛ لأن هذه الجائزة ، وهذه المواعيد الإلهية كانت منوطة بالحقائق ، لم تكن منوطة بالصور والأشكال ، والدعاوى والأقوال ، والأسماء والألقاب ، إنَّ الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] هذه كفالة من الله ، ولكنه يقول : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور : ٥٥] ، ولكن متى؟ يقول الله تعالى : ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور : ٥٥] ، فكل الوعود الإلهية مرتبطة بالحقائق ، لا بالأشكال ، إن الله سبحانه وتعالى لم يعد بشيءٍ على الصورة الظاهرة ، بل قال عن بني إسرائيل : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة : ٦٦] وقال : ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ [الجن : ١٦] ، هذه كلها مطالبات بتحقيق الحقائق ، إنَّ الله سبحانه وتعالى لم يعد بشيءٍ على الدمىٰ والتماثيل ، أو تجسيمات بالحجر والجبس ، إن الله وعد على الحقائق ، وعلى ذلك يسير نظام الكون كله .

إنكم تعرفون جميعاً أنَّ الإنسان إذا علق لافتةً فخمةً كبيرةً ، مكتوب فيها بقلمٍ عريض «دكان عطار أو صيدلية» ثم لا توجد هناك أدوية ، فهل تغني هذه اللافتة الكبيرة التي تتلفت الأنظار ، هل تصدقون أنه إذا كان هنالك بناء

خاوٍ على عروشه لا يسكنه أحد ، ولكن لافتة كبيرة مكتوب عليها «المعهد الفلاني» أو «الكلية الفلانية» أو «الجامعة الفلانية» هل تغني هذه اللافتة؟! هل تصدقون إذا كان هناك رجل نحيف ناحل ، يصفق جسمه في الثياب ، وتحركه الرياح ، هيكل بال ، ثم يعلن عن نفسه أنه مصارع كبير ، وأنه بطل عملاق ، وأنه قائد جيش ، وأنه اللواء فلان ، وأنه المشير فلان ، هل يغني عنه ذلك شيئاً؟ إذا دعاه أحد إلى المبارزة ، فهل يغني إعلانه؟ وهل يغني عنه هذا الاسم الكبير ، الذي يحمله؟ لا! لأن الله ربط نظام الكون ، كما ربط نظام الشرائع والأديان السماوية ، بالحقائق ، لا بالأشكال ، إذا كنا في أيام برد قاس في الشتاء ، وكانت أمامنا صورة نار ملتهبة ، قد أبدع في تصويرها المصور الحاذق بريشته الفنانة البارعة ، حتى تراءت هذه النار ناراً حقيقية من بعيد ، ولو كان ذلك كالصرح الممرد من قوارير ، الذي بناه نبي الله سليمان عليه السلام ، امتحاناً لملكة سبأ ، ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ [سورة النمل: ٤٤] ، فقيل لها: إنه صرح ممرد من قوارير كذلك أبدع مصور في تصوير هذه النار الملتهبة ، يرتفع لهيبها إلى السماء ، والمظهر مظهر نار ملتهبة ، ولكن هل يستطيع الإنسان أن يتدفأ بها؟ يضع هذه النار الملتهبة أمامه ، ويستدفىء بهذه النار ، ويستعين بها على هذه البرد اللاذع ، هل يعتبر هو عاقلاً أم مجنوناً؟

فلماذا تطلبون من صورة النور حقيقة النور الذي هو من الله ، أنتم تطلبون من المشاعل المصطنعة التي خمدت نارها ، واحترقت ذبالتها ، ونفد زيتها ، ما يطلب من الذبالة التي تستمد قوتها ونورها من النور الذي لا ينقطع ، ولا ينطفىء ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

ثم هنالك مصيبة أخرى ، نحن نؤدي ضريبة الإسلام ، ويمكنكم أن تقولوا غرامة الإسلام ، فنحمل الاسم العظيم ، الاسم الإسلامي الفخم ، وبذلك نستحق من الأمم والشعوب الحروب الطاحنة ، والمعاداة التي

لا نهاية لها. والمؤامرات التي لا آخر لها ، والعداء والحقد الشديد ، ولكننا لا نتشرف بالجائزة ، لأننا لا نحمل الحقيقة ، نحن دفعنا قيمة الاسم ، ولم نتسلم جائزته ، هذا شقاء عظيم ، الطفل يضرب لأنه قد دخل في المدرسة ، وانتسب إليها ، ولا يعطى الجائزة ، لأنه لم يحفظ الدرس ، ولم يهيئه ، فماذا كان حظه؟ حظه الضرب المهين ، حظه الهراوة التي تنزل عليه ، لأنه قد انخرط في سلك الطلبة ، ولكنه لم يعد نفسه لهذا الشرف ، فيكون طالباً مجداً مجتهداً ، فانفرد بالغرامة دون الجائزة ، يقولون: «الغرم بالغنم» ولكن هنا غرم ولا غنم ، فنحن كلنا هدف عداء طويل ، هدف أحقاد لا نهاية لها ، هدف حروب تشتعل ، هدف مؤامرات تتجدد ، وكل هذا في سبيل الإسلام ، لأننا نحمل لافتة الإسلام ، وتفرض علينا ضريبة الدكاكين ، ولكنا لا نملك في هذا الدكان شيئاً نبيعه ونربح به ، ونتعيش به ، فماذا أشقى هذا التاجر الذي علق لافتةً استحق بها المكس والضريبة ، والجباية على الدكاكين والتجارات ، ولكنه لم يعتن بأن يضع في دكانه بضاعةً تشترى ، ويربح بها ، ويقوت نفسه وعياله. فهو التاجر الشقي الفلاح تفرض عليه ضريبة من الحكومة لأنه فلاح ابن فلاح ابن فلاح ، عريق في الفلاحة ، ولكنه لا يزرع شيئاً ، ولا يصب عرق جبينه ، ولا يستخدم كدَّ يمينه لمهنته ، عاطل مشلول ، عاجز كسول ، يبقى في ركن من أركان بيته ، فإذا جاءت أيام الحصاد ، وحصد الناس ، فرضت عليه ضريبة الفلاحة ، لأنه فلاح ، كذلك نحن المسلمون أبناء المسلمين ، وأحفاد المسلمين ، عريقون في الإسلام ، فمفروض علينا أن ندفع هذه الضريبة ، ضريبة التسمِّي بالإسلام ، ولكننا يجب علينا أن نتحلىٰ بحقيقة الإسلام كذلك ، حتى نستحق الجائزة الكاملة ، ولكن إذا آن أوان الجائزة فقدنا ، كأنه لا وجود لنا ، ولم يعترف بنا ، وإذا جاء أوان الحصاد ، وأوان الضرائب والإتاوات ، بحث عنا ، فوجدنا ، فما أشقانا ، نحن نسيء إلى نفوسنا أكثر ما يسيء إليها أعداؤنا.

أما الإساءة إلى غيرنا ، فقد وقفنا حاجزاً بين الإسلام المشرق الصافي ، الخلاب للعقول ، الجذاب للنفوس ، وقفنا حاجزاً بين هذا الإسلام

الحنيف ، المشرق الوضاء الجميل وبين هؤلاء الحيارى من غير المسلمين التائهين من الأوربيين وغير الأوربيين ، فإذا لم نكن وكان الإسلام مدوناً في كتاب ، ربما كان الطريق أيسر لهم للوصول إلى الإسلام والاهتداء به ، ويروى عن السيد جمال الدين الأفغاني أنه عندما رجع من زيارة أوربا ، قيل له: هل لك أمل في إسلام الأوربيين؟ قال: نعم ، ولكن بشرط واحد ، شرط أن نبرهن على أننا لسنا مسلمين (في الحقيقة) فإذا تحقق عندهم أن هؤلاء الذين هم يقيسون الإسلام بهم ليسوا مسلمين حقيقيين ، أقبلوا على الإسلام ، وأقبلوا على دراسته برغبةٍ وشغفٍ ، وحبٍّ وتقدير.

إخواني! إنكم أهل الخليج ، تستطيعون أن تتذوقوا هذا المعنى الذي شرحته لكم تذوقاً صحيحاً ، هو أن بيننا وبين الإسلام خليجاً ، وأن من عاش في البر ولم ير خليجاً قط ، لم يتصور هذا الخليج تصوراً صحيحاً.

إننا إذا قارنا أنفسنا بالتعاليم التي جاء بها الإسلام وبسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبحياة الصحابة رضي الله عنهم ، عرفنا أنَّ بيننا وبين الإسلام الحقيقي شيئاً من الفجوة أو الجفوة ، فمن الواجب المتحتم قبل كل شيء أن نملأ هذه الفجوة ، ونزيل هذه الجفوة؛ التي وقعت على رغم جهود المصلحين والدعاة في كل زمان ، هذه الفجوة المعنوية ، العملية الواقعية؛ التي وقعت بين الإسلام وبين حياة المسلمين.

نحن كلنا مسلمون والحمد لله ، نتشرف بذلك ونفتخر ، ونعض عليه بالنواجذ ، وانتسابنا إلى الإسلام ، وإيماننا به ، ونشوءنا في بيوت عريقة في الإسلام ، وفي بلدٍ عريق في الإسلام يسهل لنا مهمة العودة إلى الإسلام الحقيقي ، والتحلي بفضائله ، وتمثيله تمثيلاً كاملاً ، والله سبحانه وتعالى قد لطف بنا إذ أوجدنا في هذه البيئة الإسلامية الكريمة الأصلية ، وفي هذه الجزيرة العربية التي هي مهد الإسلام وموئله ، وقد كان من تقدير الله سبحانه وتعالى ، ولطفه بنا وحكمته ، أن اختار هذه الجزيرة لنا ، واختارنا لها ، فربط مصيرنا بهذه الجزيرة ، وربط مصيرها بنا ، فكان من السهل

الميسور لنا في كل وقت أن نردم هذا الخليج ، وأن نملأ هذه الفجوة ، وأن نكون مسلمين حقيقيين بكل معنى الكلمة .

وأقول لكم أخيراً أيها الإخوان! إذا وجدت الحياة الإسلامية بحقيقتها وجمالها ، في هذه الإمارة ، وهي بالنسبة إلى البلاد الواسعة المترامية الأطراف ، منطقة صغيرة لا تسترعي انتباه كثير من الناس ، الذين لا يقيسون عظمة البلاد وأهميتها إلا بالمساحة الواسعة ، والعمران الكثير .

إنه إذا وجدت الحياة الإسلامية ، في هذه المنطقة بجمالها وكمالها وخصائصها وسماتها ، وفقد كل ما ينافي الإسلام ، من أخلاق وعادات ، وأعراف ومعاملات ، وحلَّت الآداب الإسلامية محلَّها ، وكان الزائر لهذه المناطق كلها يستنشق أريج الإسلام في الحقيقة ، يمر السائح فيشعر كأنه في معبد كبير ، ليس هذا المسجد المحدود ، وأنَّ البلد قد أصبح كله مسجداً يعبد الله فيه ، يُعبد الله في الدكاكين ، وفي المتاجر ، وفي المكاتب ، لا يُعصى على أيِّ شبرٍ من أشبار هذه الأرض أبداً ، حتى يكون الدين كله لله ، فإذا كان الدين كله لله ، وإذا كانت الحياة كلها عبادة ، وإذا كانت الأخلاق كلها إسلامية ، وإذا طبقت الشريعة تطبيقاً عملياً ، لا أقول تطبيقاً دستورياً فحسب ، إذا طبقنا الشريعة الإسلامية على نفوسنا ، قبل أن يطبقها ولاة أمورنا ـ وفقهم الله ـ نطبقها على نفوسنا في بيوتنا ، وفي متاجرنا ، وعلى أطفالنا ، وعلى نسائنا ، وعلى تجاراتنا ، وعلى صناعاتنا ، وعلى معاملاتنا ، وعلى سلوكنا الفردي والاجتماعي ، فصدِّقوا أنَّ كبار المفكرين والفلاسفة في العالم سيقصدون هذا المكان ، ولو سعياً على الأقدام ، أو مشياً على العيون والأهداب؛ ليشاهدوا المكان الذي يعيش فيه الإسلام ، والذي يستطيع به الإنسان أن يمسَّ الإسلام بأنامله ، حينئذٍ يُضرب الناس عن المصائف الشهيرة ، وعن المدن الجميلة ، وعن المناظر الفاتنة ، ويؤمُّون هذا المكان؛ ليستنشقوا هنا رائحة الإسلام ، وليقضوا فيه من عمرهم ساعات ، هي أسعد أوقاتهم ، وأفضل أيام حياتهم ، ويحسبون أنهم

في جنة ونعيم ، هذا سيكون إحساناً منكم إلى العالم الإنساني كله ، والإنسانية كلها .

وختاماً أشكركم على هذا الاستماع الكريم ، وعلى هذه الحفاوة البالغة ، التي استقبلتم بها إخوةً لكم في الإسلام حكومة وشعباً ، وأسأل الله أن يرعاكم ، ويسدد خطاكم ، ويوفق المسؤولين ورجال الشعب لصالح الأعمال ، وخدمة الإسلام والمسلمين ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

نظرة مؤمن واعٍ إلى المدنيات المعاصرة الزائفة

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في ٣/ محرم الحرام ١٣٩٧هـ الموافق ٢٣/ ١٢/ ١٩٧٦م في الديوان الأميري ، بمدينة «أبو ظبي» مركز الإمارات العربية المتحدة في الخليج العربي ، التي زارها على دعوة من سماحة الشيخ أحمد عبد العزيز آل مبارك رئيس القضاء الشرعي ، وقد حضر الاجتماع عدد كبير من الوجهاء المثقفين والأساتذة والمربين وقدم العلامة الندوي إلى الحفل الكريم فضيلةُ الشيخ أحمد إسماعيل اللبيلي قاضي المحكمة الشرعية ، وأشاد بجوانب شخصيته العديدة ومؤلفاته المتنوعة ، وكان للمحاضرة دوي في جميع الأوساط ، وقد نقل هذه المحاضرة من الشريط الأستاذُ محمد واضح رشيد الندوي ، أستاذ الأدب العربي في دار العلوم ـ ندوة العلماء ، ورئيس تحرير جريدة «الرائد» العربية ، وكان مرافقاً للعلامة .

قال بعد ما حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى وسلم على نبيه ﷺ :

سادتي وإخواني! قصة يرويها المؤرخون العرب ، نمر بها مراً سريعاً عابراً ، تستحق منا لفتةً كريمةً عميقة ، وبها أفتتح حديثي هذا ، ولها اتصال وثيق بالموضوع ، وهي تدل على وضعية نظرة المؤمن الواعي إلى المدنيات المعاصرة الزائفة ، لعلكم أيضاً مررتم بهذه القصة فيما قرأتم من كتب تاريخ الفتوح الإسلامية في العصر الأول ، ولست أدري هل استوقفتكم هذه القصة كما استوقفتني ، وهل استلهمتم منها تلك المعاني الواسعة العميقة ، والنتائج الكبيرة الخطيرة التي استلهمتها ، وقد تلفت قصةٌ أو حديثٌ قارئاً من عامة القراء ، ولا يلفت ذلك الحديث قراءً آخرين ، وإن كانوا يفوقون القارىء الأول في كثيرٍ من الفضائل العلمية ، والنبوغ ، وبعد النظر والعمق. قصة رواها المؤرخون العرب ، على عادتهم في بساطةٍ واختصار ، ومن غير تعليقٍ واستنتاج ، يقولون: إنَّ «رستم»[1] قائد قواد الفرس طلب من سيدنا سعد بن أبي وقاص قائد جيوش المسلمين في فارس أن يرسل إليه رجلاً يستوضحه عن أغراض هذا الغزو الذي لم يكن للفرس به عهد ، ولم يكن للعرب به شأن ، إنما عرف العرب بالانطواء على نفوسهم في باديتهم قروناً طويلة ، فكانت هذه مفاجأةً لم يكن الفرس يتوقعونها ، والعرب قد عرفوا القناعة والتقشف في الحياة ، والانعزال عن العالم الخارجي في عامة الأحوال ، وعدم الطموح إلى فتح إمبراطوريات

(١) كان قائد الجيوش في إيران ووزير الحربية فيها ، وكان من أبطال الفرس المعدودين الذين يضرب بهم المثل في الشجاعة والشدة ، وهو الذي سعى في تنصيب الملك يزدجرد الثالث سنة ٦٣٢م ، وقلد مهمة دفع العرب المسلمين حين قدومهم لفتح فارس، قتل سنة ٦٣٥م (محرم ١٤هـ) في يوم القادسية ، وكان من بيوتات السبعة التي تم شرفها ، وكانت قيمة قلنسوته مئة ألف ، وهي علامة من تم شرفه في ذلك العهد . (ملخص من كتب التاريخ).

جاورتهم ، فلما خرج العرب لأول مرة في التاريخ الطويل يغزون فارس والروم ، استلفت ذلك نظر المتأملين ، ونظر الذين واجهوا هذا الغزو وجهاً لوجه ، فأرسل سعدٌ ربعيَّ بن عامر [(١)]، وكان «رستم» قد بالغ في التزيين ، وبالأصح التهويل ، قد زين مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابي الحريرية ، وأظهر اليواقيت واللآلىء الثمينة والزينة العظيمة ، وعليه تاج ، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب[(٢)]. جاء ربعي بن عامر لا يكترث بشيءٍ ، ولا يحتفل بهذه الزينة العظيمة ، التي لم يعهدها ، فجلس بجنب «رستم» كأنه جالس بجوار رجل من زملائه ، فقال «رستم » : ما جاء بكم؟ فقال : «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه»[(٣)].

أيها الإخوة! إنني لا أريد أن أتناول هذه الأجزاء الثلاثة التي جاءت في هذه الكلمة البسيطة البليغة كلها شرحاً وإيضاحاً ، ولكنني أتناول شيئاً واحداً ، وهو قول ذلك المؤمن الواعي يخاطب «رستم» وهو في غاية أبهته ، وفي زهوه ، وعلى قمة مجده ، يقول له : «من ضيق الدنيا إلى سعتها» إنني لا أستغرب قوله : «لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله» ولا من قوله : «من جور الأديان إلى عدل الإسلام» فقد كان كل حقيقة بديهية للمسلمين الذين غرس رسول الله ﷺ عقيدة التوحيد في نفوسهم ، وحبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، ينظرون إلى جميع أنواع الشرك والوثنية وعبادة الإنسان للإنسان بعين الازدراء والاحتقار ، وكانوا يعافونها ، وكانت أذواقهم تمجها وتأباها ، وكان ربعي بن عامر يعرف أنَّ ملوك فارس وأمراءها قد استعبدوا

(١) كان من الصحابة كما صرح به الحافظ ابن حجر في كتابه «الإصابة في تمييز الصحابة» وكان من أشراف العرب ، ولاه الأحنف على «طخارستان».

(٢) راجع الإصابة في تمييز الصحابة «ج١ ، ص ٥٠٣ .

(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير ج٧ ، ص ٣٩ طبع بيروت ١٩٦٦ .

الناس ، وكانوا يعاملونهم معاملة الآلهة للعباد ، لا معاملة السادة للعبيد ، وكان الناس يكفرون[(١)] لهم ويسجدون ، ويرون أنهم فوق البشر ، يجري في عروقهم دم إلهي مقدس[(٢)]، وكانوا يؤمنون بأن الإسلام هو الشريعة العادلة ، وأن غيره من الأديان قد أصبحت جائرة تستعبد الإنسان للإنسان ، وتسخره للأحبار والرهبان ، وتقيده بأغلال وقيود وأحكام ما أنزل الله بها من سلطان ، وقد قرؤوا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٧]. وقرؤوا قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٣٤]. وقد آمنوا بذلك وشاهدوا آثارها في الأمم والديانات التي عرفوها ، كنصارى الروم ، ومجوس فارس ، ويهود المدينة.

ولو قال ربعي بن عامر: «لنخرج من شاء من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة» لم أستغرب ذلك ، لأنه آمن بالآخرة التي لا آخر لها ، وبالجنة التي لا حدَّ لها ، ولا نهاية ، وقد قرأ في الكتاب الذي قرأه ، وآمن به ، وعاش فيه ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣] ، ويقول رسول الله ﷺ في غزوة بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»[(٣)]، وقال: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها»[(٤)].

ولكنني أستغرب قوله: «من ضيق الدنيا إلى سعتها» هنا أتساءل: ما هو الضيق الذي كان فيه الفرس ، وما هي السعة التي كان فيها العرب؟ حتى

---

(١) كفر الرجل للرجل: خضع بأن يضع يده على صدره، ويطأطىء رأسه، ويتطامن تعظيماً له.

(٢) راجع للتفصيل كتاب «إيران في عهد الساسانيين» لآرتهر كرستن سين.

(٣) رواه مسلم.

(٤) حديث متفق عليه رواه أبو هريرة رضي الله عنه.

ساغ لربعي بن عامر رضي الله عنه ، أن يقول : إنا معشر العرب المسلمين نريد أن نخرجكم أيها الفرس الأشقياء المنكوبون من ضيق الدنيا إلى سعتها! هل كان ما كان فيه العرب يستحق أن يسمى السعة ، وهل كان ما كان فيه الفرس يستحق أن يسمى الضيق؟ ونسأل التاريخ عن ذلك ، وهو شاهد عدل ، وتاريخ العرب وتاريخ الروم والفرس مسجل مُدون ، لا يتطرق إليه الشك ، قد جاء برواية الرواة العادلين الموثوق بهم ، وتضافرت الروايات والشهادات على ذلك ، فإذا كان العرب يعيشون في بحبوحة من العيش ، لم يكن ذلك مجهولاً أغفله التاريخ ، وإذا كان الفرس يعيشون في ضيق لم يكن ذلك خافياً .

وقد قرر التاريخ وأجمع المؤرخون على أنَّ الفرس والروم كانوا يعيشون في رغدٍ من العيش ، ويتقلبون في أعطاف النعيم ، قد اتسعت لهم الدنيا ، ولا نت لهم الحياة ، أما العرب فبالعكس كانوا يعيشون ـ حتى بعد الإسلام ـ في شظف ، وكان العهد عهد خلافة عمر ، وكان الناس على الفطرة ـ العربية الإسلامية ـ وكانت المدنية لم تتعقد ولم تتوسع بعد ، وكان عمر ـ وهو خليفة المسلمين ـ يعيش حياةً متقشفةً زاهدة ، ويأخذ الناس بالتقشف والتخشن في الحياة ، وكانت هذه الحياة التي يحياها العرب في الجزيرة ، حياة بداوة ، وتخلف في نظر الفرس والروم ، وكانوا يتأسفون على حالهم ، ويرون أنهم في جهد من العيش ، وضيق من الدنيا .

فهنا نتساءل : ما هو الضيق الذي كان فيه الفرس ، حتى رثى له ذلك المسلم العربي ، وما كانت السعة التي كان فيها العرب ، حتّى افتخر بها ذلك الصحابي؟ هل هو ضرب من ضروب المبالغات الشعرية؟ إن العرب لم يتعودوا ذلك ، إنَّ الإسلام لم يبح لأيٍّ واحدٍ من أفراد الأمة المسلمة أن يتبجح [1] ، ويبالغ هذه المبالغة الشعرية ، إنهم كانوا بعيدين كلَّ البعد عن المبالغات والقول الجزاف ، كانوا أصحاب جدٍّ وصدق ، وأصحاب صراحة وشجاعة ، فما هو الضيق؟ إنه كان إذا دخل هذا المجلس ، بل إذا دخل في

(١) «يتبجح» : يفتخر ويتعظم ويتباهى .

حدود المملكة الفارسية العظيمة؛ كان جديراً كلَّ الجدارة بأن يسيل لعابه ، ويتحلب فمه على هذه الزخارف التي كان يتمتع بها الفرس ، وعلى هذه الأنواع من الأطعمة والأشربة ، إنه لا بدَّ قد شاهد الكثير من نفائس الأشياء وغوالي الطرف ، ومظاهر الحضارة والأناقة والترف ، إنه واجه هذه المدنية الزاهية الزاهرة ، التي بلغت قمتها ومجدها ، فقد وسعها الفرس بذكائهم واختراعهم ، وبتجاربهم الطويلة الأمد ، وبمغانمهم الكثيرة وفتوحهم الواسعة ، وكانت فيها مدن بقصورها الفاخرة ، ومبانيها العظيمة ، وحدائقها الغناء ، ومتنزهاتها الساحرة ، وأسواقها الزاخرة ، وطرفها ووارداتها العظيمة ، فمن أي نوع كان هؤلاء العرب الذين تمردوا ، وقسوا على هذه المظاهر الفتانة ، المظاهر التي يجنُّ بها الإنسان جنوناً؟ إنه لا ينقضي عجبي من قوله: «إن الله ابتعثنا (أيها الفرس) لنخرجكم من ضيق الدنيا إلى سعتها» لماذا؟ لأنه كان ينظر إلى هؤلاء الملوك والأمراء ، كما ينظر العاقل إلى دمى قد كسيت ملابس فاخرة جميلة ، إلى تماثيل قد أحكمت صناعتها. وتأنق صانعوها في تصوير قسماتها وملامحها ، ولكنها علىٰ كل حال تماثيل من حجر ، أو جبس ، لا حياة فيها ، ولا حراك بها.

كان ربعي بن عامر ـ وهو أحد أفراد الجيش الإسلامي ـ ينظر إلىٰ «رستم» كطائر مدلل في قفص من ذهب ، وكان كسرىٰ يزدجرد ـ الذي لم يره بعد ـ كذلك كعندليب وكطاووس ، أو كأي أجمل طائر ، لكنه علىٰ كل حال ، طائر محبوس ، هذا الطائر يوضع في قفص ، والقفص من ذهب ، أسلاكه كلها من ذهب ، والإناء الذي يأكل ويشرب فيه الطائر ، من ذهب كذلك ، ولكن هل يحسد هذا الطائرَ أيُّ إنسانٍ عرف قيمة الحياة ، وعرف قيمة الحرية والشعور ، وعرف قيمة العقل ، وعرف قيمة العلم؟ هل يحسد هذا الإنسان الذي أكرمه الله بالإنسانية ، يحسد هذا الطائر المدلل ، لأنه في قفص من ذهب ، وهو في بيت من مدر أو وبر؟ بل نخطو خطوة أخرىٰ ، هل نحسد كلباً مدللاً ، كلباً يربيه صاحبه الأوربي ، ويغذيه بأطايب الطعام ولذيذ الفاكهة ، ويسقيه اللبن ، ويقلده قلادة ذهبية ، وينيمه علىٰ فراش وثير ناعم؟!

إن نظرة ربعي بن عامر لم تكن تختلف عن نظرتنا إلىٰ طائر مدلل في قفصٍ ذهبي ، أو إلىٰ كلبٍ مدللٍ عند سيد أوربي ، وذلك كله لأنه كان كبير الاعتزاز بالعقيدة التي آمن بها ، وبالدعوة التي حملها ، وبالشخصية التي ملكها ، وبالرسالة التي اضطلع بها ، وبالقرآن الذي درسه ، وشغف به ، وأحبه ، وإنه كان معتزاً بالمعاني وبالقيم وبالحقائق التي هي أسمىٰ من تلك الزخارف والمظاهر ، فلم تبهره هذه المدنية ، ولم تسحرة مفاتنها ، إنه كان يعرف أن «رستم» ولو كان قائد قواد الفرس ، يعبد النار ، ثم إنه يعبد نفسه ، كما أنه يعبد سيده ، ويعبد عاداته .

وليست القضية قضية «رستم» أو قضية قائد من القواد أو أميرٍ من أمراء الفرس ، بل هذا هو الشأن مع سيدهم جميعاً ، مع الإمبراطور يزدجرد ، إنه كان يعرف أنه عبد لعاداته ، أو عبد لعبيده ، لا يستطيع أن يتحرك إلا بهم ، ولا يستطيع أن يصول ويجول إلا علىٰ أكتافهم ، إنه ليس إنساناً حراً ، بأيِّ معنىٰ من معاني الكلمة ، بل هو إنسان استعبدته الشهوات ، واستعبدته العادات ، واستعبدته الأعراف ، واستعبدته المظاهر ، واستعبدته النفس الأمارة بالسوء ، واستعبدته اللذات الجسدية الخسيسة ، والمطالب الحيوانية الحقيرة .

أنتم تعرفون أنَّ الإمبراطور «يزدجرد» هو ثاني الإمبراطورين العظيمين اللذين توزعا العالم المتمدن المعمور : كسرىٰ إيران ، وقيصر الروم ، وقد انتهت بي دراستي الحديثة للتاريخ المعاصر للفتح الإسلامي إلىٰ أن إمبراطورية الفرس كانت تفوق الإمبراطورية البازنطينية ، كانت أوسع منها ، وكانت ولايات من الهند تحت حكم الإيرانيين ، ومنها ولايات موغلة في الهند ، ولكن هذا الإمبراطور العظيم ، قد روىٰ عنه التاريخ أنه لما هرب من عاصمته «المدائن» ناجياً بنفسه ، وكان في حالة اللجوء والفرار ، حمل معه ألف طاهٍ (طباخ) هل تصدقون ألف طباخ ، وألف مغن وألف قيم للصقور والنمور ثم كان يقول : يا ويل نفسي إنني لم آخذ معي إلا هذا العدد القليل من الأعوان ومن الخدم والحشم ، كان يقول : أنا أستحق

الرحمة والرثاء ، فهل يعدُّ هذا الرجل رجلاً حراً سعيداً ، صاحب شخصية ، وصاحب إرادة ؟! ، ثم إنه لما لجأ إلىٰ عجوزٍ فقيرة ، وقدمت له الطعام وهي ترثي له ، وقد توسمت فيه الملك والشرف ، قال: لا أستطيع أن أستسيغ هذا الطعام حتىٰ يغنى لي[(١)].

إلىٰ هذه النقطة وصلت عبوديتهم ، ووصل رقيُّهم ، ووصل خضوعهم للعادات القاهرة ، إنه لم يكن يستطيع أن يتناول طعاماً وهو في حاجة إلىٰ الطعام ، حتىٰ يغني له المغنون ، أما من غير أغنية ، فهو غير قادر علىٰ أن يتناول الطعام.

ونذكر أن «الهرمزان» ـ ملك الأهواز ، وأحد كبار أمراء الفرس ـ لما أسر ، وجاء إلىٰ سيدنا عمر رضي الله عنه في المدينة ، وكان ـ رضي الله عنه ـ نائماً في المسجد متوسداً برنسه ، فاستيقظ بالجلبة ، ودار الحوار بينه وبين عمر ـ رضي الله عنه ـ وشعر «الهرمزان» بالعطش فطلب الماء ، فأتي به في قدح غليظ ، فقال: لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا ، فأتي به في إناء يرضاه ، فشرب[(٢)].

ونبه أمير المؤمنين أصحابه علىٰ ذلك ، وحثهم علىٰ الحمد لله تبارك وتعالىٰ ، والشكر على نعمة الإسلام ، الإسلام الذي حررهم من هذه العبوديات ، ومن هذه الأصنام التي ينحتها الإنسان بنفسه ، ثم يفرضها على نفسه ، ويقول إبراهيم عليه السلام: ﴿ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥] وهذه عادات وأعراف إنما نضعها نحن ونتفق عليها ، إنه لا يعتبر الإنسان شريفاً إلا إذا سكن في كذا من البيوت ، ولبس كذا من اللباس وظهر في المظهر الفلاني ، وكان له من الأثاث والرياش كذا وكذا. وإنَّ الفرس في العصر الذي نتحدث عنه ، كانوا يعيِّرون الرجل الكبير الذي لا تبلغ قيمة

---

(١) راجع للتفصيل «إيران في عهد الساسانيين» لآرتهر كرستن سين ، وكتاب العلامة الندوي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الفصل الثاني من الباب الأول ، طبع في دار ابن كثير دمشق.

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٢١٧ ، وفتوح البلدان/ ٣٧٤.

قلنسوته مئة ألف ، ومن بلغ نصف الشرف؛ كانت قيمة قلنسوته خمسين ألفاً ، وكانت منطقة كبرائهم تقوَّم بخمسين ألفاً[١] .

وهذه الأعراف والمثل كلها من مخترعات الناس التي «ما أنزل الله بها من سلطان» أليست هذه المدنية الأوربية مجموعة من الأعراف المصطنعة ، والقيود المزورة ، والمصطلحات الموضوعة ، والالتزامات التي التزمها الأوربيون ومن قلدهم ، ما هو مصدرها؟ ومن أين جاءت هذه الالتزامات التي التزمناها؟ وقد خضعنا لتأثير هذه الحضارة وابتعدنا عن الطبيعة والتقشف الذي عرف به العرب ، وحثَّ عليه المربون للأمة الإسلامية ، كعمر بن الخطاب رضي الله عنه»[٢] .

وكان ربعي بن عامر بنظره البعيد ، وبإيمانه القوي وحسه العميق ، وإن كان قصير النظر في عين كثير من الذين يدعون العلم والمدنية ، ينظر إلىٰ هذه الالتزامات التي التزمها الفرس كقيود وأغلال ، وأطواق وأصفاد ، وهو لا يعرف منها إلا قليلاً ، ولكن الذي عرفه كان كثيراً ، وكان كافياً للشهادة ، وبذلك استطاع أن يقول : «الله ابتعثنا لنخرجكم من ضيق الدنيا إلىٰ سعتها» أيها الفرس لا تغرنَّكم أنفسكم ، ولا تخدعنَّكم هذه البهرجة ، لا تخدعنَّكم هذه المظاهر الجوفاء ، أنتم تعيشون في قفص ، والقفص قفص ، وإن كان من ذهب ، القفص قفص ، وإن كان من زجاج ، القفص قفص وإن كان واسعاً سعة المدينة ، ولكنه قفص ، وما هو السجن ، لماذا يسمىٰ سجناً؟ ألا يكون واسعاً؟ ألا تكون فيه الغرف؟ الغرف التي قد لا يوجد مثلها في بيوت كثيرٍ من أوساط الناس ، لكنه سجن علىٰ كل حال ، وليس منا من يريد أن يعيش في السجن ، مهما توفرت فيه أسباب الراحة والرفاهية ،

(١) راجع تاريخ الطبري ٤/٦ ـ ١١ ـ ١٣٤ .

(٢) فقد كتب إلىٰ بعض عماله العرب وهم في بلاد العجم : إياكم والتنعم وزي العجم ، وعليكم بالشمس ، فإنها حمام العرب ، وتمعددوا (يعني تشبهوا بعيش معد بن عدنان ، وكان ذا غلظ وتقشف) واخشوشنوا (أي تخشنوا في المطعم والملبس) . . . الخ رواه البغوي عن عثمان النهدي .

ومهما اتسع وانفسح ، وكانت فيه حدائق وبرك ، ومتاحف ومتنزهات .

إنَّ هذا العربي المسلم الواعي الذي كان بعيداً عن كل ظلٍّ من ظلال ما نسميه اليوم؛ «مركب النقص» ومن كل شبحٍ من أشباح الانهزامية وفقدان الثقة ، لو عاش إلىٰ هذا العصر ، لنظر إلى المدنية الغربية ، والمدنية الباذخة التي يعيشها العرب ، والمسلمون في كثير من بلادهم ، لنظر إليها بنفس النظرة التي نظر بها إلىٰ المدنية الإيرانية ، والمدنية الرومانية ، ولرثىٰ لأهلها كما رثىٰ للفرس والروم ، وتمنىٰ أن يخرجهم من ضيق الدنيا إلىٰ سعتها ، كما تمنىٰ ذلك للفرس والروم .

كان هذا العربي يتنعم بالحرية التي عرفه بها الإسلام ، فنقله من دنيا ضيقةٍ محدودةٍ خانقة: دنيا المعدة والمادة ودنيا الشهوات والأغراض ، ودنيا العبودية والاستعباد ، دنيا الحياة الفانية الزائلة المكدرة بالهموم والأمراض ، والأحزان والآلام ، إلىٰ دنيا واسعة غير محدودة ، إلىٰ دنيا اليقين والإيمان ، إلى دنيا القلب والروح ، والإيثار والمواساة ، والعدل والمساواة ، والعطف والرحمة ، والطيب والصفاء ، والخلود ، والبقاء ، دنيا لا كدر فيها ولا فساد ، ولا خوف فيها ولا حزن ، إنه كان يتمتع بهذا النعيم الذي حرمه الفرس والرومان في وقتٍ واحد ، فكان ينظر إلىٰ مدنية الفرس والروم وحياتهم كقفص ضيق يختنق فيه الإنسان الحرُّ الكريم ، المؤمن الواعي ، كما تختنق السمكة إذا أخرجت من الماء ، ووضعت علىٰ فراش وثير ناعم ، أو في علبة ذهبية مزخرفة .

هذه نظرة أعرابي مسلم ، فكيف نظرتنا نحن أيها الإخوان المثقفون؟ أيها المعلمون الكبار! يا أساتذة الجامعات! يا موجهي التربية والتعليم! يا حملة الأقلام! يا سائحين في أوربا! كيف نظرتنا إلى المدنية المعاصرة الزائفة؟ هل هناك نسبة بين نظرة ذلك الأعرابي الذي لا ثقافة له ، والذي لم يعرف العالم مثلما عرفنا ، ولم يدرس التاريخ مثلما درسنا ، ولم يعرف تجارب الأمم مثلما عرفنا ، ولم يقرأ الفلسفات ، ولم يتعمق فيها كما تعمقنا ، هذه نظرة رجل من العرب ملأه رسول الله ﷺ ، وملأه الإسلام ثقة واعتزازاً ، وإيماناً

وشجاعة ، واحتقاراً للدنيا ، ومعرفةً للحقيقة ، كان يستطيع أن يقول لأكبر قائد في العالم المعاصر «رستم» ، الذي كان اسمه يخلع القلوب ، وكان بعد كسرىٰ ، وفوق كل قائد وأمير في فارس ، كان يستطيع أن يقول له وبصوت ملؤه التحكم والتهكم: أنا أرثي لك يا رستم ، أنت في الشقاء ، أنت في ضيقٍ من الدنيا ، ونحن العرب المسلمين الذين أبدانهم نصف عارية ، والذين أجفان سيوفهم بالية ، وثيابهم مرقعة ، ونعالهم مخصوفة ، نحن نعيش في الجنة وأنت تعيش في جهنم.

ما الذي حمله علىٰ هذا القول ، القول الجريء القوي ، الكلمة المدوية المجلجلة؟ إنما هو إيمانه ، وثقته بشخصيته ، وبفضل رسالته والتعاليم التي أكرمه الله بها ، فكم منا أيها الإخوان! قولوا لي بصراحة ، كم منا في جامعاتنا ، وفي مكاتبنا ، وفي مكتباتنا ، وكم منا في أدبنا ، وفي شعرنا ، وصحافتنا ، من يستطيع أن يخاطب أوربياً أو أمريكياً ، يعيش علىٰ فتات مائدتنا ، نحن الذين يغذونهم ، فلولا هذا النفط الذي يفيض من جزيرتكم ، لما كان لأمريكا ، ولما كان لأوربا هذه الصولة ، الأوربي الذي أفلس في إيمانه ، وفي خلقه ، وفي شخصيته ، وهو الآن مصاب بالجذام الخلقي ، وبذلك دخلت حضارته في دور التفسخ والتعفن ، وهو لا يعرف لها علاجاً ، ولا يملك لها زماماً ، تاجر مرتزق ، مستأثر مستغل ، تنكر للمسيحية قبل مدة طويلة ، فانقطع آخر خيط كان يربطه بالسماء وبالنبوات والأخلاق ، بل بالعكس ننظر إليه نظرة تمجيد وإجلال ، نظرة تقديس وتأليه ، ونحتقر نفوسنا وحضارتنا ومثلنا وديننا ، أمام حضارته ومثله ، ونذوب أمامه كما يذوب الندىٰ أمام الشمس ، والشمع أمام وهج النار ، ذاك العربي المسلم الذي عرف قيمته وقيمة رسالته ، يقول لرستم: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من ضيق الدنيا إلىٰ سعتها» والله إن هذه الكلمة لو وضعت على الجبال لزالت ، ولو وضعت علىٰ البحر لتبخَّر ، فكيف بالقلوب؟ كيف بالنفوس؟ كيف بالضمائر؟ هذه النظرة التي كان ينظر بها المؤمن الواعي في عصر الدعوة الإسلامية الأول ، إلىٰ المدنيات المعاصرة الزائفة ، وهذه النظرة التي يجب أن ينظر بها المؤمن الواعي إلىٰ المدنية

المعاصرة الزائفة ، هذا الذي أريد أن أقوله اليوم وأتركه أمانة لكم في هذه المدينة الجميلة الزاهية ، العاصمة التي قفزت من الصحراء كزهرة جميلة ، فوصلت إلىٰ هذه القمة من المدنية ، أريد أن أقوله هنا ، وأرسله إلىٰ أقصىٰ ما أستطيع أن أرسله إليه .

يجب أن ينظر العرب ، يجب أن ينظر المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، بهذه النظرة الواعية ، بهذه النظرة المؤمنة المملوءة بالاعتزاز ، إلىٰ المدنية الزائفة المعاصرة التي تحيط بنا ، لسنا متطفلين ، لسنا أدعياء[١] ، لسنا من الذين لفظتهم الأرض ، ما لنا نسب ، ما لنا أصالة ، ما لنا تراث ، ما لنا حضارة ، ما لنا تاريخ ، ما لنا أجداد ولا أمجاد ، لا ، لا ، أيها السادة! إننا أغنياء ، إننا معلمون للعالم ، إننا موجهون للأمم ، لكن ما هو الواقع المرير الأليم ، الواقع أننا مسيرون لا مخيرون ، إننا موجَّهون ـ بفتح الجيم ـ لا موجِّهون ـ بكسر الجيم ـ إننا تلاميذ لا أساتذة ، إننا متطفلون ، لسنا أصحاب موائد ، وأصحاب كرم ، لسنا أصحاب شخصية .

وجزىٰ الله المؤرخين العرب المسلمين الذين حفظوا هذه الكلمة الخالدة التي تلقي الأضواء على شخصية العرب الأولين الذين أكرمهم الله تعالىٰ بالرسالة الإسلامية الخالدة ، والتي كانوا معتزين بها كل الاعتزاز ، مكتفين بها كل الاكتفاء ، وكانوا يعتبرونها أفضل من كل شيء ، وكانوا يرون أن الشيء الذي لا ينبع من هذا المصدر ، ولا يرجع إلىٰ هذا الأصل ، إنه شيء لا قرار له ، وإنه شيء لا قيمة له .

هكذا يجب أن يكون موقفنا إزاء المدنيات ، إزاء التحديات الجديدة التي تتحدانا بها هذه المدنية ، وهذه الفلسفات المعاصرة ، ليكن موقفنا موقف عملاق معتد بكرامته ، معتزٍّ بشخصيته ورسالته ، مستخدمٍ لعقله ومواهبه ، حرٍّ في رفضه وقبوله ، مقتبسٍ منها ما ينفعه ولا يضرُّه ، ويطابق أهدافه ومثله ولا ينافيها ، ويضفي عليه قوةً جديدة ، ولا يوهن هيكله

(١) أدعياء : جمع دعي وهو المتهم في نسبه ، والَّذي يدعي غير أبيه ، أو غير قومه .

وينخره ، لا موقف قزم فقد الثقة وخسر الإيمان ، وتضاءل وانضوىٰ أمام كلِّ شبحٍ من أشباح القوة والسلطان ، وأحبَّ الحياة وأشفق من الموت ، وبعد عن ميدان المغامرة والطموح ، والأصالة والابتكار ، والإمامة والقيادة ، فهو ينظر إلىٰ المدنية المعاصرة الزائفة كما ينظر طفل صغير واقف في سفح جبل ، إلىٰ قلته ، يتمنىٰ لو ارتقىٰ إليها .

وأختم حديثي هذا بمقطوعة شعرية لشاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ، خاطب فيها الشباب المسلم المثقف ، الذي سحرته المدنية الغربية ، فجهل شخصيته ، وجهل أبعادها ، وأعماقها ، ومضمراتها ومكنوناتها ، فعشق المادة ، وعاش في خوف من الموت ، يقول :

«عجباً لك أيها المسلم! تجلَّت لك الآفاق ، وغابت عنك نفسك ، إلىٰ متىٰ تظل غافلاً جاهلاً؟ وتجلس ضائعاً عاطلاً ، إنك نور قديم ، فأنر به الليل البهيم ، في كمك اليد البيضاء ، فاعمل بها عمل الكليم[١] ، تخط حدود الآفاق الضيقة ، فأنت السابق لها ، والفائق عليها ، فقد كنت ولم تكن ، وستكون ولا تكون ، هل تخاف الموت أيها الإنسان الحي الخالد؟! لقد كان جديراً بالموت أن يخافك ، فأنت تكمن له وترصد به ، اعلم يقيناً ، أنَّ الكريم إذا وهب شيئاً لا يسلبه ، ولا يسترده ، وليس حتف ابن آدم في فراق الروح ، إنما حتفه في ضعف الإيمان والحرمان من اليقين»[٢] .

* * *

(١) يعني بها موسى الكليم .

(٢) انظر : «روائع إقبال» للعلامة الندوي ص٩٨ .

هـذه الـدنيـا وقـفٌ مُقـدَّسٌ، ولـيست بـدكَّـان تـاجـر

ألقىٰ العلامة الندوي هذه المحاضرة في حفلة ترحيبية عقدت علىٰ شرفه في المكتب المركزي لمصلحة الأوقاف بمدينة «لاهور» في ٢٧/ يوليو ١٩٧٨ م حضرها العلماء والقضاة والمحامون ، ورجالات القانون والمثقفون .

أصحاب الفضيلة والسعادة العلماء ، والمسؤولون عن وزراة الأوقاف والعاملون فيها ، والمستمعون الكرام!

إني أشكر وزارة الأوقاف علىٰ أنها شرفتني بتوجيه الدعوة إليَّ للحضور في هذا الحفل الكريم والحديث إليه ، وقد كنت ظننت لما تلقيت الدعوة أنَّ الحفل سيكون مشتملاً علىٰ عددٍ محدودٍ من أولئك السادة الذين يتصلون بإدارة الأوقاف ، وأني سأسعد بالتعرف عليهم والاستفادة منهم ، ولكني لما حضرت فوجئت بأنَّ المطلوب مني الحديث في الحفل الكريم حول موضوع «حاجة العالم المعاصر إلىٰ الإسلام» .

وشغلني التفكير فيما عسىٰ أن تكون صلة هذا الموضوع بمصلحة الأوقاف الكريمة ، ولم يطل تفكيري ، وتوصلت إلىٰ الحقيقة ، وأدركت عمق هذه الصلة ، حيث إنَّ دنيانا هذه في الواقع هي وقف مقدس ، وإنما يصلح لتوليها أولئك الذين يعرفون تمام المعرفة مقاصد هذا الوقف ، ولا يهتمون بأهداف الواقف فحسب ، بل يخلصون لها في غاية الأمانة والوفاء .

وأصبحت الدنيا اليوم وقفاً مظلوماً ، لا يعرف الذين يتولون أمره ، ويقومون عليه المقاصد التي أريدت من ورائه ، بل إنَّهم يحاربون هذه المقاصد ، ولم يكتشفوا بعد من هو واقف هذا العالم الإنساني ، وهذا الكون؟ . . . إنَّكم تعرفون جيداً عن تجربةٍ أنَّه لا بدَّ أولاً من الاطلاع على الواقف ، ثم الاطلاع علىٰ غايته ، ولا بد ثالثاً أن يكون المتولي يشعر نحو الوقف بأنه متوليه الأمين الوفي . . . وقد جاء التعبير في القرآن الكريم عن تولية هذا الوقف بألفاظ كثيرة ، فجاء في موضع : ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] . . . . إنَّ هذا «الاستخلاف» أيضاً نوع من التولية ، فقد خلق الله هذا الكون ، وفطر هذه الأرض ، وعمر عليها هذا الإنسان وقال : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] ،

فكأنه ولىٰ الإنسان جميع ما في الأرض ، ولكن أكَّد عليه أنه ليس مالكه الحقيقي ، بل إنَّه خليفته فيه ، فيتصرف فيه حسب مشيئة المالك الأصلي ، ولا يجوز له أن يتخطىٰ رضاه ، ويتعدَّىٰ أوامره وإرشاداته في هذا الصدد.

ولكل وقف ـ مهما كان صغيراً ـ قوانين مقررة ، والمنبر الذي نتحدث منه إليكم مكتب مركزي من مكاتب مصلحة الوقف؛ التي أساسها الحفاظ علىٰ الأوقاف ، وأرجو أنكم جميعاً أوفياء أمناء في عملية الحفاظ ، وتحقيق الأغراض المنشودة من الأوقاف . . . ولكن مسكينة هذه الدنيا ، ومسكينة هذه الكرة الأرضية الواسعة ، لأنها وقف لا تجد نظيره في تاريخ الأوقاف ، فقد يتصرَّف القائمون عليه كما يشاؤون ، ويعيشون ، ويفسدون . . وقد كان الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي وقف هذا الوقف ، وجعل الأنبياء والرسل وأممهم متوليةً وقائمةً عليه ، وكان متوليه الأخير هو سيدنا محمد ﷺ ، فدته أنفسُنا وأرواحُنا.

الأمـة المسلمـة لـيست كحشائـش الغابـة والشجيـرات التي تنبت عفواً:

ومزية سيدنا محمد رسول الله ﷺ من بين جميع الأنبياء والرسل ، أنَّه لم تكن بعثته بعثة نفسه وحدها كالأنبياء الآخرين ، بل كانت بعثة أمةٍ أيضاً ، ومعنىٰ ذلك أنَّ هذه الأمة ليست حشائش الغابة أو الشجيرات التي تنبت عفواً ، أو ليست كهوام الأرض. إنَّ القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة كلاهما يذكران هذه الأمة بكلمات تنبىء عن المسؤولية الجسيمة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] . . . كلمة «أخرجت» تدل علىٰ أنها أنشئت لغاية: للحفاظ علىٰ الإنسانية ، ولتحقيق أهداف ربِّ العالمين ، فاطر السموات والأرضين ، وكخليفة الله في الأرض ، ووصفها الحديث النبوي بما يلي: «إنما بُعثتم ميسِّرين ، ولم تُبعثوا معسِّرين»(١) ، قد دلَّت كلمة «بعثتم» أنَّ الأمة أسند إليها عمل ، وكلِّفت بتحقيق غاية ، ونُصبت لأجل تحقيق غرضٍ كريم ، ودلَّت كلمة «ميسِّرين» أنها خلقت لكي توفر

(١) أخرجه البخاري في الوضوء والأدب والطهارة ، وأحمد في المسند ج ٢ ، ص٢٣٩.

السهولة ، لا لكي تخلق الصعوبة. . . الحكومة مسؤولة عن ضياع وقف مهما كان ضئيلاً ، وسواءً كان الوقف عبارة عن مسجد ، أو عن دار لليتامىٰ والعجزة ، أو عن عقار ، أو ما إلىٰ ذلك ، فهي تستخدم جميع إمكانياتها ووسائلها في سبيل الحفاظ عليه ومنعه من أن يقع عرضةً للضياع والهدر. . . وذلك شيء تمرون به ليل نهار ، ولكن يا لضياع هذا الوقف ، إنَّ القائمين عليه يتصرفون فيه كما يشاؤون ، وأصبحوا ملاكاً له بدون جدارة وبدون شرعية ، وعلىٰ الرغم من ذلك يقفون منه موقف الأعداء الحانقين ، ويعاملونه معاملة مقبرة ليست بها داعٍ ولا مجيب ، بل معاملة أشنع منها وقد «حوله الإفرنج إلىٰ مواطن الميسر والقمار» كما يقول الدكتور محمد إقبال رحمه الله.

هل تستطيعون أن تصبروا وقد حُوِّل مسجدٌ إلىٰ دار القمار؟ ولكن هذه الأرض التي قال فيها النبيُّ الأعظم ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» حوَّلها الإفرنج إلىٰ مخبأ القمار ، وأنتم هادئون ساكتون.

أعتقد أن الذين حددوا للكلام هذا الموضوع الذي نتحدث حوله كانوا أذكياء بعيدي النظر ، وقد أصابوا المحزَّ ، حيث لفتوا الأنظار من هذا الوقف إلىٰ الوقف الأعظم.

لو ألقيت نظرة علىٰ هذا العالم لوجدت أن الذين كان عليهم أن يكونوا بناةً أصبحوا معاول الهدم ، والذي كان عليهم أن يكونوا أمناء حارسين؛ أصبحوا لصوصاً غاصبين ، وقطاعاً شطاراً ماكرين ، والذين كان عليهم أن يرعوا ضروريات ساكنيه وأهله ، وحوائجهم ، وعواطفهم؛ صاروا يصيدون في كلِّ ماءٍ عكر ، وجعلوا يقيمون قصور تنعمهم علىٰ أنقاض أحلامهم ، وأطلال آمالهم ، وعادوا يفكرون في الإطاحة بهذا العالم ، ويحفرون قبوراً للأفراد ، بل للأقوام والأمم والبلاد ، بل للإنسانية؛ لكي يدفنوها للأبد.

إنَّها لمؤامرةٌ ضدَّ الإنسانية ، مؤامرةٌ ضدَّ الأخلاق كما يقول إقبال ، ومؤامرةٌ ضدَّ مصير الإنسان ومستقبله ، ولا أدري ما إذا كانت هذه المؤامرة ضدَّ حاضر الإنسان قبل مستقبله ، ويومه قبل غده.

وحقاً إنَّ هذا الوقف عرضةٌ للضياع والهدر ، وحق لكلِّ أفراد بني آدم أن يقوموا للدفاع عنه ، ويحطموا أيدي الغاصبين والمعتدين عليه ، وأن يقيموا عليه الدعوىٰ.

أقـيمـوا محكمـة الإسـلام:

يحقُّ لجميع الجنس البشري أن يقيم دعواه علىٰ ما يتعرض له هذا الوقف العظيم الكريم من معاملةٍ قاسية ، ومن غصب ونهب ، ومن إضاعة وإهدار... إنّكم ترفعون قضيتكم الشخصية إلىٰ المحاكم العادية ، إلىٰ المحاكم العليا ، وإلىٰ محكمة قاضي القضاة، فأين تقام الدعوة ـ يا ترىٰ ـ ضدّ هذه المؤامرة الأليمة العالمية ، ضدّ الإنسانية والنوع البشري؟ ، اسألوا الحقوقيين ، اسألوا المعنيين بالقضايا الإنسانية ، اسألوا العطوفين علىٰ الإنسانية: أين تقامُ هذه الدعوىٰ؟.

إنَّ الذي عقّد الأمر ، أنَّ المدَّعىٰ عليهم هم القضاة ، وإذا كان الأمر كذلك فماذا يرجىٰ من النتيجة ، وماذا ينتظر من العاقبة ، ولماذا يرجىٰ القضاء العادل والحكم الحقيقي الحاسم؟... فلنقم أوّلاً تلك المحكمة التي ترفع إليها هذه القضية ، وتقام فيها هذه الدعوىٰ ، وتلك المحكمة ستمتاز بميزتين بارزتين؛ الميزة الأولىٰ: هي العدل والإنصاف ، والميزة الثانية: هي القوة والتمكين ، لأنك اليوم لو تقدمت بقضيتك إلىٰ معنيٍّ بالإنسانية ، إلىٰ محبٍّ للخير ، إلىٰ عاقلٍ نبيلٍ مؤمن ، يقضي فيها بقضائه ، ويحكم فيها حكمه ، ويبدي فيها رأيه ، لكنه يكون لا يتمتع بالسلطة التي تمكنه من تنفيذ هذا القضاء ، وإمضاء هذا الحكم ، فلا تجني منه فائدةً ، ولا تعود منه بطائل.

ولا يملك اليوم بلدٌ من البلاد الإسلامية أن يغيث الإنسانية البائسة ، بل لا يقدر أن يدافع عن الأخطار التي تدقُّ بابه ، ويطرد العدوان علىٰ نفسه وأبنائه.

إنَّ مأساة اليوم بلدٌ من البلاد الإسلامية أن يغيث الإنسانية البائسة ، بل

لا يقدر أن يدافع عن الأخطار التي تدقُّ بابه ، ويطرد العدوان علىٰ نفسه وأبنائه.

إنَّ مأساة المآسي اليوم أنَّ الخيانة متحكمة في العالم البشري كله ـ الذي هو كوقف مقدس ـ أصبح يتحكم فيه قانون الغابات ، يأكل القوي فيه الضعيف ، وعاد كلُّ إنسان يرىٰ كلَّ شيء مباحاً له ، بل سائغاً حلواً ، هنيئاً مريئاً ، كلبان الأم لدىٰ الطفل الرضيع.

كان هذا السلوك مع الوقف المقدس ؛ الذي أنشأه الله تبارك وتعالىٰ بذلك الاهتمام العجيب ؛ الذي ذكره مراراً وتكراراً في كتابه العظيم ، القرآن الكريم ، والكتب الأخرىٰ التي أنزلها علىٰ عباده المرسلين من قبل ، وكان يكفينا ، لتقدير قيمة هذا الوقف المقدس تنويه الله سبحانه بشأن ذلك مرةً واحدة ، فكيف وهو يكثر من ذكره وتفصيل أوصافه وملامحه ، ويذكر نوعية إنشائه للأرض ، وطريقة دحيه لها ، ونصبه لخيمة السماء ، ورفعه سقفها على طريقة هي أعجوبة العجائب ، وأنه جعل الشمس سراجاً ، وجعل القمر فيهن نوراً ، وأنبت في الأرض جناتٍ وزروعاً من نبات شتىٰ ، وفجر الأنهار . . . إلخ.

لماذا كلُّ هذا التفصيل في الوصف؟ . . لكي يدرك بنو آدم عظمة هذا الوقف ، ويضعوا في اعتبارهم قداسته . . . وذلك أنكم حينما تعلمون أنَّ هناك وقفاً له سجِّل فيه تفاصيل مساحته ، وتحديده الجغرافي ، وأبنيته ، وأنَّ فيه ـ مثلاً ـ مكتبةً عظيمةً تحتوي علىٰ عدد كذا من الكتب ، حينما تعلمون كل ذلك تحسبون له ألف حساب ، وتعيرونه كلَّ اهتمام ، فكذلك أراد الله جلَّ وعلا أن يثبت في قلوبنا أهمية هذا الوقف الأعظم ، حينما فصَّل وصفه ، وأكثر ذكره ، وحدَّد قسماته وملامحه ، ولكن نراه اليوم يعاني معاملة قاسية ، ففي ناحيةٍ تجري عملية هدم سافرة ، وفي ناحية توجد الوسائل بأنواعها ، ولا يعرف أصحابها الأهداف والغايات ، لا يعرفون فيم يستخدمونها ، وكيف يستعملونها ، ولأي غرض يسخرونها ، وبأي طريق يحققون بها سعادة العالم البشري ، ويخففون بها بعض ما يعانيه من آلام

مبرحة ، ويصلون بها فيما بين أفراد الجنس البشري ، ويقلِّصون الفجوة التي وقعت فيما بين قلوبهم ، ويزيلون الإحن ، والحقد ، والعداء ، ويحلُّون محلَّه الحبَّ ، والثقة ، والتعاطف ، ويلقنون الإنسان درس الإنسانية.

المسيحية واليهودية عاجزتان عن التوجيه:

هذه الأغراض الشريفة لا يمكن تحقيقها إلاَّ عن طريق الأنبياء ، ولا يستطيع اليوم أن تحققها ديانةٌ سوىٰ الإسلام ، أما المسيحية فهي عاجزة عن ذلك عجزاً كلياً ، لأنها تعاني الفراغ الهائل ، فرغت جعبتها عن كل ما لديها من إثارة النور الإلهي ، وبقايا التعليم السماوي ، فلا تقدر أن توجه أبناءها ، وتحل عقدها ومشكلاتها ، وتكبح جماحها ، وتحدَّ من تطرفها ، فضلاً عن توجيه العالم ، وقيادة الدول والأمم ، لأنها مسيحيةٌ مشوهة تماماً ، لا تمتُّ بصلةٍ ما إلىٰ المسيحية التي جاء بها المسيح عليه السلام.

أما اليهودية ، فعهدها بالانحراف عريقٌ في القدم ، إنَّها ليست إلا عبارة عن طقوس ، وتقاليد ، وعنصرية ، وتدور حول سلالة سيدنا يعقوب عليه السلام وأسباطه ، ولا تبالي بسلالةٍ إنسانية أخرىٰ ، ونوع بشري آخر ، بل إنها تخطط تدمير الأسر الإنسانية ، وتحطيمها خلقياً وسلوكاً ، يصارح أبناؤها أنهم يهدفون إلى إشاعة الفاحشة والمنكر في أمم العالم ، وأن يضربوا علىٰ جذور قيمها ومثلها ، وأن يوقعوها في الفوضىٰ والقلق ، ويجعلونها مفلسةً في الفكر والرأي والمعنوية ، حتىٰ تكون هي كقطع الشطرنج بأيديهم يديرونها كيف يشاؤون ، وأن يجعلوها ذليلةً مهانةً حتىٰ تستسلم لهم ، وتخضع لإرادتهم ، وتكون رهن إشارتهم... تلك هي اليهودية.

فلا رجاء إذاً إلا في الإسلام ، فهو وحده يستطيع أن يوجه العالم ، والعالم اليوم بأمس حاجة إلىٰ الإسلام؛ لكي ينقذه من الأزمة الأخلاقية التي تهدد كيانه... لو عامل هؤلاء هذا العالم معاملة دار الأيتام ، وظنوا أهله يتامىٰ يحتاجون إلىٰ من يمسح دموعهم ، لو وقفوا هذا الموقف ، لرضيناه ،

ولو علىٰ غصص ومضض ، لرضينا لو وقفت أوربا من هذا العالم وأهله موقف الناس من اليتامىٰ المنكوبين ، فواسته مواساة الناس للفقراء والمساكين ، وحدبت عليه ولو حدب اللئيم علىٰ اليتيم الكريم .

عاد العالم اليوم مكان قنص وصيد :

ولكن ـ للأسف ـ لم يعد العالم داراً للأيتام أو العجزة والمساكين ، بل تحوّل إلىٰ مصاد ، تتدفق دفعات الصيادين من هنا وهناك ويصيدون الأمم والأقوام ، ويدوسون الدول والبلاد . . إنَّ الأمم الشرقية والبلاد الإسلامية أصبحت كبقرةٍ حلوب للقوى العظمىٰ والدول الكبرى ، إنَّ قيمة البلاد الشرقية لدى الدول الكبرى تكمن في استيراد المواد الخام (Raw Material) منها واستيراد البترول ، أما الدول الشرقية أو الإسلامية فلا تنال منها مقابل ذلك كله إلا مساعدة مزعومة لدىٰ الحروب لمقاومة الأعداء ، إذاً فإنها كحطب لمطبخ الدول الكبرىٰ أو كوقود لتنورها ، ولا تحمل هي عندها قيمة أكثر من ذلك ، قد رأيت كلَّ ذلك ، وجرَّبت عن كثب ومشاهدة ، فقد زرت الشرق والغرب ، كانت أوربا تدعو الدول الشرقية من قبل «دولاً متخلفة» وبدأت اليوم تدعوها «الدول النامية» ومهما تغيرت في إطلاق الأسماء ، فإنَّ المسميات عندها لم تختلف عن أنها كوقود توقد به موقدها ، وتشعل به نارها ، لأنها تعلم أنَّ مصائر الأمم الشرقية كلها بيدها ، تقودها كما تشاء ، وتظن أنها قادرة علىٰ أن تعامل هاتي الأمم معاملة العجماوات والبهائم ، بل معاملة الجمادات الصَّماء البكماء ، ومن المؤسف جداً أنه ليس هنا قوة تقف في وجهها ، لأنَّ الأمم كلها فقدت قوتها وتماسكها ، وتعودت الخنوع والاستسلام ، ونسيت رسالتها وقيمها ، وتخلَّت عن سيرتها ، وتجرَّدت من سلوكها ، وانسحبت عن الميدان .

الأمر يتوقف اليوم كلياً علىٰ الإسلام والمسلمين :

ومن هنا فإنَّ الأمر يتوقف تماماً علىٰ الإسلام وأبناء الإسلام ، وتشتد حاجة البشرية إليهم كحاجة الذين وقعوا فريسة الحريق إلىٰ فريق الإنقاذ ، والإسعاف ، ورجال المطافىء ، وذلك ما يضخم مسؤوليتكم أنتم أيها

السادة! عليكم أن تتداركوا هذه البلاد ، وتبذلوا عليها عنايتكم ، وتصرفوا جهودكم إلىٰ إصلاح المجتمع ، إنَّ المجتمع في كل بلد إسلامي قد بلغ اليوم إلىٰ حالة أسوأ من التفسخ والانهيار ، ويحتاج إلىٰ كل إسعافٍ طبيٍّ سريع ، إنَّ عيب المجتمع ليس في أنه عاد فاسد الأخلاق والسلوك ، بل في أنه صار فاسد الطبيعة والعقلية ، إنَّ المجتمع لو وقع فريسة الفساد الخلقي ، يمكن علاجه بآلاف الأدوية ، ومئات الطرق ، أما إذا فسدت طبيعته ونفسيته ، فإنه لا يؤثر فيه دواء ، ولا تنفع فيه حيلة ، ولا يغني فيه طبيب نطاسي .

إنَّ مصلحة الأوقاف تستطيع أن تقوم بدورٍ كبيرٍ في هذا الصدد بفضل إمكانياتها ، ووسائلها ، تستطيع أن تقوم بعملٍ عملاقٍ عن طريق خطباء المساجد وأئمتها الذين لهم اتصال مباشر بالشعب ، ولو بذلت مصلحة الأوقاف عنايتها على هؤلاء الأئمة والخطباء ، واستقطبت اهتمامهم إلىٰ جانبٍ واحد : إلىٰ جانب إصلاح المجتمع وحده ، دون تعرض للمسائل المختلف فيها التي من شأنها أن تثير الخلاف في صفوف المسلمين ، وأن تشتت شملهم ، لو صنعت ذلك لتكون قد قامت بعملٍ جليلٍ جداً ، ولخدمت العالم الإسلامي خدمةً عظيمة ، ولأنقذت هذه البلاد من كثيرٍ من الأخطار والويلات .

تعلمون أنَّ محمداً الفاتح لما غزا القسطنطينية وكانت جيوشه تقتحمها ، وتتغلب عليها ، كان أهلها متشاغلين في نوعية الخبز الذي تناوله سيدنا المسيح عليه السلام في العشاء الرباني ، وجرت حول ذلك مناقشات حادة ، وتقعير وتنقيب فلسفي ، في تلك الساعة الحرجة التي كانت فيها جيوش محمد الفاتح تقتحم القسطنطينية . . . أخاف أن تدور هناك في بلادكم أمثال هذه المسائل الخلافية في وقت تغزو فيه بلادنا الحضارة «الفاتحة» والمدنية الفاتحة . إن الحضارة الغربية اليوم تتقدَّم اليوم فاتحةً تقدماً جنونيّاً ، وتزعزع قيمنا ومثلنا ، وتفكك عرىٰ البلاد الإسلامية بما فيها بلادكم هذه ، وتؤثر علىٰ المجتمع الإسلامي ، وتعاني الحضارة الإسلامية الاحتضار والانهيار ، وأصبح المسلمون فريسة الردة الفكرية والعقلية ، في مثل هذه الساعة

الحرجة يجري عندنا البحث في مسائل علم الغيب ، وبشرية الرسول ، وملكيته ، وعلمه للغيب ، وما كان من المتوقع لدىٰ العقول أن تثار أمثال هذه المسائل في مثل هذا الوقت الحساس ، لكن الدهر حبلىٰ ليس يُدرى ما تلد ، في هذا العالم ما لا يكون في الحسبان ، إذاً فيمكن أيها السادة! أن نضيع قوانا العقلية والفكرية وذكاءنا ومواهبنا في أمثال هذه المسائل ، في مثل هذا الوقت الدقيق. . . نرجوكم أن تدركوا هذه الأخطار ، إنَّ بلادكم واقفة علىٰ منعطف حساس ، يجب عليكم الآن أن تركزوا عنايتكم علىٰ التراث الإسلامي ، والاحتفاظ بأعزِّ متاعٍ في الدنيا والآخرة ، ألا وهو الدين ، والعقيدة ، والإسلام ، إذا نجحتمً في الاحتفاظ بهذا المتاع العزيز الحبيب الأثير يأتي بعده دور هذه المسائل الفرعية والخلافات الجانبية . إنَّ هذه الأبحاث يجب أن تكون رهينة المدارس ، والمعاهد العلمية ، والجهات العلمية والدينية ، يجب أن لا تتجاوزها إلى الساحة المكشوفة .
وقد قلت في مؤتمر عقدته جماعة ذات اتجاه خاص من الجماعات الإسلامية في الهند: إنَّ الخلافات لا تزل قائمة بين المسلمين منذ القديم ، ولا تزال هناك خلافات في أحكام الصلاة فيما بين المذاهب الأربعة وغيرها ، لكنها لم تسبب الفوضىٰ في داخل صفوف المسلمين قطُّ في الماضي ، وإنما أثارت الفوضىٰ حينما جعل العلماء والمثقفون يتعرضون لها على الشارع ، وفيما بين الشعب ورجل الشارع ، وتجاوزوا بها حدود المدارس والمعاهد العلمية ، إنَّ من الخطأ الفاحش أن نتعرض لهذه المسائل في الأسواق وفي الشوارع وعلىٰ مفترقات الطرق ، وأن تُحول إلىٰ نعرات وهتافات نستغلها لمصالح خاصة ، وأن نفوضها إلىٰ الجماهير ، حتىٰ تتسع فيما بينهم هوة الانفصال بدل أن يتقاربوا. . . . إنَّ البحث في هذه المسائل لم يزل منذ القديم ، ظلّ موضع النقاش والبحث ، وهذا البحث والنقاش شحذ الأذهان وأضاف إلىٰ الثروة العلمية إضافات ، وزاد الذكاء حدّةً وقوة. إن من خصائص الإنسان الحيّ أن يتباحث ، ويتناقش ، ويتأمل ، ويتدبر ، وأن يحاول الفهم والإدراك والوصول إلىٰ الحقيقة ، ولا يمكن أن يُفرض حدٌّ علىٰ ذلك .

إنَّ ذلك كله لا يضرُّ أبداً إلاّ إذا استغل لتحقيق الأغراض السياسية ، أو الأغراض الحزبية ، أو الجماعية ، أو لإثبات التفوق الذاتي على الآخرين ، أو استخدمه كدرع واقية للمصالح الذاتية ، والشخصية ، إنَّ هذه المسائل فقهية أو كلامية علمية ، فلنقتصر بها على مكتباتنا ، وعلىٰ مدارسنا ، وعلىٰ مجالس علمائنا ومتعلمينا ، ولنتفاد بها من الدهماء ، لأنها إذاً تزيد المجتمع فوضىٰ وقلقاً ، واضطراباً ، وتزيد صفوف المسلمين تشتتاً ، لأن الأمة المسلمة إنما جاءت لكي يصل الإنسان بالإنسان أيّاً كان ، فما بالك بالإنسان المسلم.

القضايا التي تواجهنا ستقرر مصير الأمم والبلاد ، فخذوا الحذر ، أما المسائل العلمية والأبحاث العلمية فلن يضع عاقل قيداً عليها ، ولن يسدَّ أحدٌ في وجهها الأبواب ، وسوف أعارض أنا ـ بصفتي طالباً للعلم ـ من اتجه هذا الاتجاه ، لكني أرجو ألف مرة ألا يستغل ذلك لتحقيق غرض سياسي ، أو حزبي ، أو جماعي ، أو لكسب الجاه والنفوذ ، أو لإثبات التفوق الشخصي. إنَّ الوقت يتطلبنا أن نخلص لله العهد لإصلاح المجتمع لكي تسلم البلاد من الردة الحضارية والمدنية.

مصلحة الأوقاف هذه التي نحن مجتمعون الآن في مكتبتها تستطيع أن تلعب دوراً هامّاً ، بل دوراً حاسماً في هذا الشأن؛ لأن العلماء وأئمة المساجد وخطباءها لا يزال لهم سلطانٌ علىٰ القلوب ، ولا تزال قلوب المسلمين مفعمةً باحترام المساجد ومنابرها ومحاريبها ، فإذا انطلق صوتٌ من منابر المساجد ومحاريبها فسينفذ في النفوس ، ويدخل في سويداء القلوب ويصل إلىٰ موطن سوف لن يصل إليه صوت قادتنا وزعمائنا السياسيين وحكامنا الإداريين ، مهما حاولوا ، فلنتق الله فيما يتصل بهذا الصوت ، واستخدامه ، ووضعه في غير موضعه.

ونشكركم أخيراً حيث وفرتم لي فرصة الحديث إلىٰ هذه النخبة الممتازة من العلماء والخطباء وأئمة المساجد والمخلصين من المسلمين.

* * *

المرحلة الانتقالية للعالم الإسلامي

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في حفلة أقامها مجلس تنسيق القانون الإسلامي الباكستاني في ١٨/ يوليو ١٩٧٨ م في فندق إسلام آباد تكريماً وترحيباً به ، رأسها قاض قضاة المحكمة العالية الباكستانية صاحب السعادة أنوار الحق ، وحضرها قضاة المحكمة ، والوزراء الاتحاديون ، وأعضاء مجلس تنسيق القانون الإسلامي ، والعلماء المثقفون.

سيادة رئيس الحفل والسادة المستمعين والحاضرين! إنَّ من دواعي الشكر الجزيل والسرور الغامر أن يجتمع في هذا الحفل الكريم ، للاستماع إلىٰ حديثي أولئك السادة الكرام؛ الذين كانوا يستحقون أن أحضر إليهم أنا بنفسي فرداً فرداً ، وأضع أمامهم حصيلة دراستي ونتيجة تفكيري ، وأبوح إليهم بما يموج في قلبي من أشجان وأحزان مريرة. . لكنهم من حسن حظي تجمعوا بأنفسهم في موطن واحد ، وتسنىٰ لي أن أتحدث إليهم جميعاً في وقتٍ واحد.

لكن المناسبة مناسبة السرور والمسؤولية معاً ، ولا أكاد أبت: هل أستجيب لدواعي الفرح والاغتباط ، أم أستشعر المسؤولية فأجدُّ وأتفكر ، علىٰ كلٍّ فإني أمام هذا الموقف المزيج والشعور المزدوج من الفرح والشعور بالمسؤولية.

لحظة من الغفلة قد تُخلِّف الركب بمسافة قرون:

العالم الإسلامي اليوم يمر ـ أيها السادة ـ بمرحلة حرجة جداً ، بمرحلة انتقاليةٍ قاسيةٍ دقيقةٍ ، فإذا أضاعت قيادات الدول الإسلامية وعقولها المفكرة ، ورؤوسها المدبرة لحظةً واحدةً في قضية شخصية ، أو وقتية؛ فإنَّ ركب الحياة السباق سوف لا يربع عليهم ، ولا يرفق بهم؛ لأن السيل لا يتوقف إلا بسيل مثله ، وأنه لا يبالي بسفينة ، غرقت أم وصلت إلىٰ شط النجاة ، وساحل المراد.

رسالة عزيزة من تربة الأندلس:

قد ترك الآن صاحب السعادة قاضي القضاة «أفضل جيمه» المحترم هزةً في قلبي حينما ذكر إسبانيا (الأندلس المنكوبة المرحومة) وأثار ذكرياتٍ مريرةً في صدري ، قد أتيح لي ـ من حسن حظي أو سوء جدي ـ أن أزور هذه التربة الحبيبة ، وأقرأ تاريخها ، كما وفقت أن أزور معظم العالم

الإسلامي والأقطار الإسلامية ، لكني حينما وطأت قدماي أرض الأندلس ، شعرت كأن أجواءها تلاصقني ، وأرواحها الطاهرة ونفوسها الزكية الوديعة في التراب تعانقني ، وتصافحني ، وأنَّ كلَّ ذرَّةٍ من ذراتها تحملني رسالة ، وتقول لي: حذار أن تذوق دولة من الدول الإسلامية هذه المأساة التي ذقناها ، إنَّها أمانة أضعها في عنقك ، ومسؤولية أُحمِّلها كاهلك: أن تبلغ هذه الرسالة إلىٰ أقصىٰ ما تستطيع أن تبلغها إليه ، وأن تنادي بأن المسلمين لا يستطيعون أن يذوقوا هذه المرارة مرة ثانية ، وأن يقع على ساحة قطر إسلامي ما وقع في إسبانيا ، وأيم الله إني لأشعر بمضض الألم حينما أؤدي هذه الكلمات! لكني أرىٰ من مسؤوليتي أن أرددها في كل قطرٍ إسلامي.

العالم الإسلامي يمر بمرحلة انتقالية:

العالم الإسلامي الآن يمر بمرحلة انتقالية ، يفض الهيكل القديم ، ويصاغ له هيكل جديد ، وفي مثل هذا الوقت الحرج قد تتبدل مصائر الأمم وتبتديء مرحلةٌ جديدة من نوعها في حياتها ، ويكتب لها مصير آخر ، ويقدَّر لها قدر جديد. إنَّ هذه المرحلة كما تتطلب قوة الإيمان والعقيدة كذلك تتطلب دراسةً عميقةً دقيقة ، وتفكيراً جدياً هادئاً متعمقاً ، وتضحيةً وإيثاراً. إنَّ هذه المرحلة لا يمكن مواجهتها بدون استيفاء هذه العناصر في الماضي ، ولا يمكن في الحال ، ولن يمكن في المستقبل ، إنَّها محنة العقيدة والإيمان ، ومحنة الذكاء في وقت واحد؛ لأنَّ العملية هي عملية بناء مدنية جديدة وتشكيل مجتمع جديد ، وتطبيقه مع التعاليم الإسلامية ، وتطهيره من العناصر المضادة لها.

وقد قلت لكم بالأمس(١): إنَّ الإسلام اليوم ـ بصفته عقيدة ـ موجودٌ ومعمولٌ به ، لكنه جرد من مدنيته وكانت هذه مؤامرة خطيرة نسجها الغرب ، إنَّها رأت أن المسلمين ليس بالإمكان تجريدهم من العقيدة ، وأنَّ شعورهم أرق فيما يتصل بهذا الجانب ، لأنهم قد مروا في هذا الصدد

---

(١) في حفل أقيم في فندق بإسلام آباد للترحيب بالعلامة الندوي.

بتجارب مريرة جداً ، واكتووا بنارها منذ الحروب الصليبية إلىٰ سحق الكيان الإسلامي وتصفيته في إسبانيا ، فلجأت إلىٰ استراتيجية (strategy) أخرىٰ ، وقررت أن تجردهم من مدنيتهم ، وتسلخهم من نظامهم الاجتماعي ، وتحملهم علىٰ قبول مدنية أخرىٰ أجنبية ، وأعتقد أن أوربا قد كسبت في ذلك نجاحاً باهراً.

والحمد لله لم يقع تحريف فيما يتصل بالعقائد الإسلامية ، كما وقع في المسيحية حيث حادت عن خطّها الصحيح تماماً ، وصارت تعدو علىٰ الخط الذي رسمه «سينت بال» على خط التثليث ، وإبنية المسيح ، والمدنية الرومية ، ثم تجددت أسباب كثيرة ضاعفت سيرها على ذلك الخط المنحرف ، ويا ليت المسيحية المعاصرة كان عهدها بالشعب الشرقي المتباطئ كالسلحفاة ، والركب الشرقي النائم المستريح ، لكن كان عهدها بالغرب الذي كان يتدفق بالحياة والنشاط ، وروح الرقي والتقدم والانطلاق ، تجري في عروقها دماءٌ فائرةٌ هادرةٌ فائضةٌ تريد أن تشق طريقها إلىٰ الأمام ، فتجري في عروق أبناء الشرق والجنوب والشمال وأرجاء المعمورة كلها ، فتضاعفت سرعة هذا الانحراف مع تضاعف سرعة الرقي في جميع جوانب الحياة ، لأنَّ الأمة التي تبنت هذه المسيحية المنحرفة وحملت لواءها ما كانت لترضىٰ بالبطء؛ إذ أنها صارت تأخذ «بمبدأ التنازع للبقاء» بضغط من أسباب كانت وليدة المكان والزمان ، وأصبحت تثبت جدارتها في معركة الحياة الساخنة.

إنَّ الإسلام لم يمن بمثل هذا الانحراف والتحريف ، وسوف لن يقع هذا الانحراف والتحريف فيما يتعلق بمبادئه وعقائده وأوليائه؛ لأنَّ الله ضمن صيانته من ذلك قائلاً : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] أما ما يتصل بالمدنية والحياة والمجتمع فمن الواضح : أنَّ العقيدة والثقافة أو الأمة التي تحمل هذه العقيدة أو هذه الثقافة لا تعيش في الجو ، بل إنَّها تحتاج ـ لكي تعيش وتؤدي دورها في الحياة ـ إلى مناخٍ ، وإلىٰ حرية ، إلىٰ وسائل ، وإلىٰ تسهيلاتٍ لتكوين مجتمعها. . . لم يقعْ انحراف في العقائد والأصول ، لكن الأخلاق والسلوك وأسلوب الحياة التي تكون وليدة هذه

العقائد تحتاج في تمثلها في الواقع العملي إلىٰ مجتمع حرٍّ ، إلىٰ بيئة منفتحةٍ ، إلىٰ قطعةٍ من الأرض تتنفس فيها بحرية ، ودون حدٍّ وقيد ، وتتجلىٰ بنواحيها وأجزائها ، وأصولها وفروعها ، ونجحت أوربا فيما استهدفته من تجريد المسلمين من المدنية الإسلامية العريقة ، وفرضت عليهم مدنيتها ، وزينتها في أعينهم.

الإسلام يحتاج إلىٰ السلطة :

يا سادة! إني أنتمي إلىٰ أسرة وإلىٰ مدرسة فكر آثرت التسبيح والتكبير على صهوات الخيل علىٰ المناجاة قابعة في زاوية البيت الآمنة الهادئة ، وجمعت بين السيف والمصحف ، أعني بذلك مدرسة الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد البريلوي وجماعته وأتباعه من أصحاب العزيمة ، والطموح ، والشجاعة ، والشهامة ، والتفاني ، والمغامرة ، والعقل ، والعاطفة ، الذين قاموا بمحاولات الإصلاح والتجديد الموسعة ، وجاهدوا جهاداً كبيراً في سبيل إحياء الخلافة الإسلامية الراشدة ، ولا أعرف في القرون الأخيرة في أيِّ جزء من أجزاء العالم الإسلامي نظيراً لهذه الجماعة ، في شمولها وجامعيتها ، وعزيمتها وشهامتها ، وإخلاصها وتضحيتها ، أنتمي أيها السادة ، إلىٰ هذه الجماعة المؤمنة الواعية الجامعة ، وأعتقد أنَّ الإسلام يحتاج إلىٰ السلطة ، والمسلمون يحتاجون إلىٰ مجتمع حُرٍّ آمن ، ولا يزال قول الرب تبارك وتعالىٰ المعجز صادقاً ، وسيظل إلىٰ يوم القيامة ، كما كان صادقاً وقت نزوله :

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ ﴾ [الحج : ٤١].

ومما يدعو إلىٰ التفكير أنَّ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف كليهما يستخدمان في صدد «المعروف» و«المنكر» كلمتي «الأمر» و«النهي» ، ولم يستخدما كلمات «الالتماس» و«الرجاء» و«الطلب» و«السؤال» إلىٰ القائمة الطويلة من الكلمات التي تنم عن بعض الخضوع والتواضع ، وصغر الشأن والمكان ، واللغة العربية هي ما هي في غنائها

وسخائها ، ولكن الكتاب والسنة يقتصران في التعبير عن القيام بهذين العملين الجليلين: «المعروف» و«المنكر» على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، «تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر».

والأمر والنهي يتطلبان شيئاً من القوة والغلبة يمكن الرجل من أن يقول - في قوةٍ وجرأة ، وعن ثقةٍ واعتمادٍ -: هذا خطأ ، وهذا صحيح ، ومعنىٰ ذلك أنَّ الإسلام يحتاج إلىٰ القوة وإلىٰ السلطة ، حتىٰ لا يضطر أبناؤه دائماً أن يقولوا للعالم الذي يعيش من حولهم في ظلام الجاهلية: «ينبغي العمل بكذا» ، و«الأخذ بكذا شيء مستحسن ومعقول» أو «ندعوك إلىٰ كذا» و«نرغبك في كذا» و«نبشرك بكذا» نعم لقد أجاز الإسلام كلَّ هذه الطرق والأساليب ، والقرآن الكريم لا يستخدم لذلك إلا كلمة «الأمر» وكلمة «النهي». . . ثم إنَّ إصلاح النوع البشري الكامل لا يمكن بدون هذه القوة والغلبة اللتين رتب عليهما القرآن «إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر».

لا بدَّ من الاهتمام بالغصن الذي يقوم عليه العش:

وإني وإن أنتمي إلىٰ هذه المدرسة الفكرية ، وهذه الحركة الدينية العملاقة التي أشرت إليها ، لكن لا بدَّ أن أقرر أنه يجب الاهتمام أولاً بالغصن الذي نريد أن نضع عشّنا عليه: فالأمر يتوقف علىٰ ذلك الغصن قوياً متيناً ، وكان أخضر أنضر ، محكم الاتصال بالساق ، فهنالك تأتي مرحلة التفكير في نوعية العشِّ وطرازه ومنهجه ، ولكن الأمر الذي يجب أن يسبق هذه المرحلة هو أن نرىٰ: هل الغصن موجود أم لا ، وما هي نسبته من القوة ، والمتانة ، والحياة ، وقدرة الاحتمال.

والغصن الذي قام عليه العش هو المجتمع ، ذلك المجتمع الذي يتكون من الحياة العامة في البلد ، ومن الغادين والرائحين في المدن والقرىٰ ، والبائعين والمشترين في الأسواق ، والعاملين في المصانع ، والمعلمين ، والمتعلمين في معاهد التعليم والتربية ، أولئك الذين تكون الحياة عبارة عنهم ، وعليهم يتوقف بهاء المدن ، والذين هم مادة العمران ، فلا بدَّ أن

نستعرض أولاً مشاعرهم ، وأحاسيسهم ، ومقاييس الحسن والقبح لديهم ، وموازين الخير والشر عندهم ، لكي ندرك جيداً مدىٰ قدرة الغصن لاحتمال ثقل العش .

أيها السادة! مهما استخدمتم الذكاء والبراعة في صناعة العش ، وفي إحكامه ، وإتقانه ، وإحسانه ، ولكن جهودكم تذهب ضياعاً ، إذا كان الغصن ـ الذي يقوم عليه العش ـ واهياً ، يقول بلسان حاله : إني لن أتحمل عبء العش ، ومن هنا يجب أولاً الاستعراض الدقيق ، حتىٰ نطلع جيداً على وضع المجتمع أخلاقياً ، وعقيدياً ، وإلىٰ أيِّ حدٍّ يأخذ بضروريات الحياة المبدئية ، وأصولها الأساسية ، وبشروط الإنسانية الأولية .

فلئن كان هناك مجتمع قد بلغ من عبادة النفس والهوىٰ والولوع بالمعاصي والجرائم إلىٰ أنه يختنق بالدعوة إلىٰ الصلاح والخير ، وإلىٰ الأخلاق والمعاني الإنسانية ، والإقلاع عن المعاصي والفسق ، كما يختنق السمك لو أخرج من الماء ووضع علىٰ الأرض. . . وإني أقضي من عجبي كلما أقرأ الآية الكريمة من القرآن ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : ٥٦] ، وأقف مدهوشاً أمام صدقها وإعجازها وروعة بيانها وبلاغة تعبيرها عن نفسية المجتمع الفاسد الذي صار وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة من أجل الدعوة إلىٰ الخير ، حتى صاح صيحته ، وأعلن صراحةً أنه لا يستطيع التنفس في هذا التيار الذي تدفق أخيراً من الطهر والصفاء والعفة ، لأنه تعوَّد أن يكون غارقاً في حمأة الذنوب والآثام إلىٰ الأذقان والآذان .

لئن كان المجتمع وصل إلىٰ هذه النقطة النهائية من الفساد والتفسخ والتعفن؛ فلا يرجىٰ فيه نجاح نظام ، أو تنفيذ خطة اتخذت بمعزل عن مراعاة الوضع الذي يعيشه ، والحياة التي يحياها .

يا سادة! إنَّ المجتمع هو الغصن الكريم الذي يقوم عليه عش نظامٍ صالحٍ ، فإذا كنتم تريدون إقامة هذا العش ، فلا بدَّ أن يكون ذلك الغصن موضع عنايتكم ورعايتكم ، وذلك لأنه إذا كان الغصن في خطرٍ أو وضعٍ

مخوف تتوجه إليه الضربات من الجوانب الأربعة ، ويتقدَّم إليه آلاف من الأعداء ، بينما الحارس عليه واحد ، فإنَّ هذا الواحد ـ مهما كان مخلصاً ذكياً ذا أهليةٍ ودهاء ، وذا وسائل وأسباب ـ لن ينجح في محاولته ، أفهل يمكن ـ يا ترىٰ ـ أن يتم بناءٌ يقوم ببنائه أناسٌ ، ويهجم عليه أناس في عدد أكثر من عدد البنائين ـ بمعاولهم ـ؟! حقاً إن مثل هذا البناء المسكين لا يمكن أن يصل إلىٰ درجة التمام والاكتمال ، فضلاً أن يبقىٰ على حياته ولو بعض حين .

المجتمع كتربة :

إنَّ المجتمع كتربة ، فإذا كانت هذه التربة كريمةً ، ثابتةً ، ذات قرار مكين ، ولا تكون «كثيباً مهيلاً» ـ في التعبير القرآني البليغ ـ لا قرار له ، ولا ثبات ، تهوي بذراته الريح إلىٰ حيث تشاء ، ولا رجاء في بقائه في مكانه بعد حين ، لأنه رهن إشارة الرياح ، وطوع أمرها . . . إذا كانت التربة علىٰ صفاتها الأولىٰ الكريمة تستطيع أن تأتي بحاصلٍ كبير بجهد ضئيل ، ووقت قليل ، وأن تنبت عليها الأشجار ، وتخضر عليها الزروع ، وتكثر فيه الفواكه والأثمار ، كما يمكن أن تقام عليها قصورٌ شامخة ، وأبنيةٌ ناطحات السحاب ، ومصانع تعانق قبابها عنان السماء .

أما إذا كان المجتمع ﴿ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ ورمالاً زائلة ، فإنه يمكن أن يستغله ويسكره ويخدره كلُّ رجل داهية ، ويميل به إلىٰ حيث يشاء ، ويجعله يهرع وراءه ، ويطبق آراءه ، ويجسد أفكاره ، وينفذ أوامره ، ويتجنب عن نواهيه . . . ولا يحمل قوة علىٰ مقاومة خطر ولا يتصف بتماسك عقلي ومعنوي ، بل يكون علىٰ استعداد للانحراف كغثاء السيل مع كل تيار جارف من الدعوات المضللة ، أو القوىٰ المفسدة ، أو النظم الجائرة والفلسفات المنحرفة ، فيتناغم معها ويتفاعل ، وينحاز إليها ، ويقف بجانبها ، ويذهب ـ في كل ثانية أو أقل ـ كلُّ محاولات الإصلاح والبناء هباءً منثوراً ، كأن لم تكن شيئاً مذكوراً . . إذا كان المجتمع قد وصل إلىٰ هذا الحضيض ، فلا ثقة به ، ولا رجاء فيه ، وعلىٰ المجتمع السلام .

والواقع أنه لا يوجد اليوم في أيِّ مكانٍ مجتمعٌ إسلامي كامل، نثق به ونضع فيه رجاءنا، ونعلق عليه آمالنا. وإنه لحديث أمس - ومعذرة إلى من لا يتفق مع رأيي - رأينا جمال عبد الناصر في مصر كيف ركب على أعناق الشعب المصري وفعل به الأفاعيل، وكان المجتمع المصري هادئاً، يبدو كأنه لم يحدث شيء، وليس هناك أحد يعارض جمال عبد الناصر، بل كأنَّ الشعب كله كان مستعداً في كل وقت للتجاوب مع صوته، والتصفيق له، والجري وراء سيادته حيث تتجه بالنعرات والهتافات مسروراً فخوراً، حتى خلع عليه بعض الناس لباس القداسة والعصمة والبراءة، وأحلُّوه محلاً مرموقاً من القبولية والعظمة التي لا يحظى بها إلا الأنبياء والرسل عليهم السلام، ولكن جاء الوقت الذي تجلت فيه الحقيقة، وانكشف فيه الغبار عن الحمار[1]، ولم يعد أحد يذكره بالخير، أو يتلفظ باسمه بانشراح القلب.

وكذلك جميع المجتمعات التي تعيش حولنا، مهما نهض فيها رجل لبق، فإنها ترتمي في حضنه، وتخضع لإرادته، وتسبح بحمده، وتقدِّس لمجده... إنه لوضع مخوف، ونذير خطر كبير.

يجب ألا يكون هناك تأجيل في تطبيق الشريعة الإسلامية.

وليس معنىٰ ذلك أنني أشير بتأجيل تطبيق الشريعة الإسلامية، كلا! إنني لن أسمح لأحدٍ بهذا الخطأ في الفهم، لأنني لا أرىٰ لهذه المحاولات السعيدة المباركة أن تتوقف للحظة واحدة، أو تؤجل لدقيقة واحدة، لكني أريد أن ألفت أنظاركم إلىٰ الواقع، وهو أن نجاح هذه المحاولات يتوقف علىٰ هذا المجتمع... فلو حبذه المجتمع، وركزنا نحن، ودعاتنا، ومؤلفونا، وكتابنا، وصحافتنا، وتلفازنا، وإذاعتنا، وجميع وسائل

---

(١) يشير المحاضر إلى البيت العربي القديم:

وسوف تَرى إذا انكشف الغُبارُ
أفرسٌ تحت رِجلك أم حمارُ

الإعلام والإبلاغ علىٰ ذلك ، وتبنينا جميعاً هذه المهمة ، وقررنا أن نغير موازين الحسن والقبح المجحفة ، وأن نغير مشاعرنا وأحاسيسنا ، وأن نعمم روح التقوىٰ والصلاح والاحتساب ، وحياة الجد والصبر ، والصرامة والتحمل ، وروح الصمود والمقاومة للإغراءات المالية ، أو الجنسية ، أو الأخلاقية . . . لأمكن أن يحمل المجتمع أثقل عبء ، وأضخم مسؤولية ، لأنه عندئذ سيستطيع أن ينهض بعبء الخلافة الإسلامية أيضاً ، وإني علىٰ يقينٍ كاملٍ بأنه لو تم التنسيق والتعاون بين هذه القوىٰ والأدوات المؤثرة الفعالة ، واتجهت كلها اتجاهاً واحداً نحو إصلاح المجتمع ، ليس ببعيد أن يتحقق حلم «الخلافة الإسلامية». لكن من المؤسف المحزن: أنّ وسائل الإعلام يديرها اليوم أولئك الذين وصفهم القرآن الكريم بما يلي :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور : ١٩].

إن الآية معجزة حقاً ، إنَّها نزلت من أجل قصة خاصة حدثت في مجتمع المدينة المنورة المحدود ، وصار الناس يتحدثون عنها في محافلهم ومجالسهم ، فحذرتهم الآية هذا التحذير الصارخ ، وأوصتهم بالانتهاء عن هذا العمل الشنيع .

ومهما كانت القصة عظيمة ، ومهما كان الذين يتصلون بها ، فإنَّ الآية الكريمة ـ بموجب عموم بيانها ، وشمول معناها وتعبيرها ـ تستوعب تلك القصة ، والذين كانوا يتذاكرونها ، وتستوعب كذلك ـ متخطية الحدود الزمانية والمكانية والمسافات الجغرافية ـ ما يقع في القرن العشرين ، في عصر الصحافة ، وعصر التلفاز ، وعصر الراديو ، وعصر القصص والروايات ، وعصر السينما والتمثيل والمسرحيات ، وعصر الكتابات والفلسفات ، ويمكنك اليوم أن ترىٰ هذا الواقع في أجلىٰ مظاهره وأبشع أشكاله ، وأشنع صوره التي لم يكن من الممكن رؤيتها من ذي قبل ، إنَّ الذين عاصروا نزول الآية الكريمة في المدينة المنورة ـ علىٰ منورها ألف سلام وتحية ـ كانوا قد آمنوا بالغيب ، وطبقوا الآية علىٰ الحادث الذي

عهدوه ، غير أنَّ الدور الفعال الذي يمثله العالم المعاصر المجنون في إشاعة الفاحشة ، وفي تطبيق «أن تشيع الفاحشة» لم يكن بالإمكان تقديره من ذي قبل .

السلحفاة نائمة على بطئها في السير والأرنب دؤوبة في الجري ، علىٰ ما لها من خفة وسرعة:

إخواني! قد سمعت في صباي ـ وربما تسامعتم أنتم كذلك ـ أنه وقعت المسابقة بين أرنب وسلحفاة ، فأحرزت السلحفاة قصب السبق ، لأنها علىٰ بطئها كانت دؤوبة مجتهدة ، لا تعرف الاستجمام والاستراحة ، أما الأرنب فاطمأنت إلىٰ خفتها وسرعتها ، فنامت؛ لتأخذ نصيبها من الراحة ، وظنت أنَّ النجاح في المسابقة طوع أمرها ، لأنها هي ما هي في سرعة سيرها ، فكانت عاقبة أمرها خسراً .

ولكن القضية اليوم انعكست ، وأصبحت قصة نجاح السلحفاة وفشل الأرنب مقابلها أمانة التاريخ ، ووديعة كتب القصص والحكايات القديمة ، فنرىٰ اليوم مسابقة بين السلحفاة والأرنب ، ونرىٰ الأرنب دؤوبة في سيرها ، مستمرةً في قفزاتها ، مع ما تتمتع به من سرعة مثالية في الجري ، والسلحفاة غارقةٌ في نومة الضحىٰ ، مع بطئها المعروف في المشي . . وذلك هو مثلنا ومثل القوىٰ الهدامة العالمية ، فالجهود المبذولة لبناء العالم الإسلامي كسلحفاة نائمة مع بطئها . . . والقوىٰ الهدامة نشيطة باستمرار دائب في تنفيذ خطتها ، مع خفة أيديها وسرعة عملها . . . وكلما قارنت بين قوىٰ البناء وقوىٰ الهدم رأيت قصة السلحفاة النائمة والأرنب الدؤوبة في العمل .

نرىٰ أنَّ القوىٰ الهدامة الشيطانية تبث الفوضىٰ والشذوذ الخلقي في مجتمعنا ، ولديها من الوسائل والإمكانيات ما تستطيع أن تجعل الليل نهاراً والنهار ليلاً ، والنور ظلمةً . . . والظلمة نوراً ، أما المحاولات البنائية ، والمؤسسات البنائية؛ فنراها مجردةً من الوسائل ، وعزلىٰ من قوة التنفيذ والعمل ، وأسباب الاستقطاب والجذب والاستهواء (CHARM) .

إنَّ مشكلة المجتمع الإسلامي أصبحت اليوم خطرة جداً ، تتطلب عناية جدية ، فقد صار الناس يعتقدون ـ في بساطة ، وعن جهل ـ أن قضية الفرد ليست بذات أهمية ، وإنما المهم هو قضية المجموعة ، والمجتمع . . . إنَّ هذا العصر ، هو عصر تقديس الجماعة ، وركزت فلسفة الاجتماع والعمران اليوم كل عنايتها علىٰ المجموع فأشادت بفضله ونوهت بذكره ، وعمقت في القلوب والأذهان أهميته ، حتىٰ أذهلت الناس قضية الفرد وأهميتها ، وعادوا يعتقدون : أنَّ الأفراد مهما بلغوا علىٰ الانفراد من الفساد والنقصان ، ولكن المجموع الذي يتكون منهم يكون صالحاً ، ومعنىٰ ذلك أنَّ الألواح علىٰ انفرادها مهما كانت متآكلة منخورة واهية لكن السفينة المصنوعة منها ، تتحول فجأة إلىٰ أسطول ، ويغيب عنها الفساد والضعف والوهن . . . ولكي نتبين الحقيقة جليةً واضحةً يمكن أن نأخذ مثلاً من أن قُطَّاع الطريق ، قُطَّاع بالانفراد ، فيهم خبثهم ومكرهم وشيطنتهم ، أما إذا اتحدوا واتخذوا «اتحاد القطاع» فإنهم يتحولون فجأة حراساً أمناء ، وخفراء أوفياء . . . ولكن لا أكاد أدري ، ولا يقبل منطق أن يكون السارقون والقُطَّاع علىٰ صفتهم ما داموا علىٰ الانفراد ، ولكنهم إذا ما تكثفوا ، وكانوا مئة قاطع أو سارق مثلاً ، فهم يتبدلون صلحاء ، وحراساً . . . ولكن المؤسف جداً ، أنّ العالم المتحضر قد آمن بهذا المنطق ، وقد تكاتف الشرق والغرب ، بمن فيهم الروس والأمريكان والناس من كل مكان ، فيهم الخبثاء الماكرون ، والدهاة الظالمون ، وأولياء الشيطان الذين مطامعهم توسعية ، وأغراضهم خبيثة ، وحياتهم فاجرة وأخلاقهم فاسقة ، واتخذوا جميعاً منظمةً اجتماعية تتحكم في مصير الأمم والدول ، وتقضي لها أو عليها .

السهم الفعال في كنانة الإسلام:

أيها السادة! إنَّ الله ـ بمجرد فضله ـ قد أتاح لنا اليوم فرصةً مباركةً في هذه البلاد ، حيث جعلنا نشعر بالحاجة إلىٰ تكوينٍ جديد للمجتمع ، وألقى في روعنا أن نطبّق الشريعة الإسلامية ، وأن نجعلها صاحبة الحول والطول والسلطة العليا في هذه البلاد التي برزت إلىٰ حيز الوجود باسم الإسلام

وحده ، إنه لمن فضل الله علينا ، وإنها لسعادة ساقها الله إلينا ، وليس من المصادفة ، وإني لا أؤمن بمنطق المصادفة ، لأنه لا يحدث شيء إلا بأمر الله وتقديره ، ولا تسقط ورقة إلا بإذنه ، وأعتقد أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ قد راعىٰ الانتماء الكريم إلىٰ الاسم العظيم الذي برزت هذه البلاد تحمل لافتته ، ألا وهو الإسلام ، فأوصيكم ـ يا إخواننا في الإسلام ـ بأن لا تفوتكم هذه الفرصة الذهبية ، وأن لا تضيع عليكم هذه النعمة الإلهية .

ولتلاحظوا أنَّ السهم من كنانة ما يمكن أن يتفاءل به الإنسان ويتشاءم به ما لم يجرب ، لكنه إذا أخرج من الكنانة وجرب ، لا يبقىٰ هناك غموض ، ويتجلىٰ الواقع وتتكلم الحقيقة ، وتحكم التجربة حكماً نهائياً بالفشل أو النجاح . . . إنَّ لديكم اليوم سهماً أمضىٰ سهام كنانة الإسلام ، فأنتم في موقف دقيق ، وليكن ملحوظاً أنَّ تطبيق الشريعة الإسلامية ، ليس يعني تطبيق بعض حدوده وحدها ، إنَّ تطبيق الشريعة أوسع معنىٰ من ذلك بكثير ، فلا أستطيع أن أشهد لبلد من البلاد ، وأتنبأ له بالخير ما لم نجرب أحواله كلها ، وما لم نطلع علىٰ أهدافه وغايته ، لكن ما يمكن أن يقال : هو أن هناك شيئاً في الدنيا ، كان هناك أناس يتفاءلون به ، ويرون أنه أمضىٰ سهم ، وما أن خرج من الكنانة إلا وتتفتح أبواب الخير والسعادة على مصراعيها ، وما لم يخرج هذا السهم من كنانته ، ولم يتأت رجاء في خروجه ، كانت الألسن ساكتة ، والأقلام ساكنة ، وكانت لنا فرص العذر متوفرة ، وكان لنا أن نتخلص قائلين : كيف يرجىٰ خير ، ويؤمل في سعادة ، والشريعة الإسلامية غير مُطبَّقة بجميع أجزائها ، والمجتمع كله فساد في فساد ، وأمر الناس كله فوضىٰ وشذوذ وشر . . . ولا يعود لنا عذر بعد ما يبرز هذا السهم من الكنانة ، وتتم تجربته التي لا تتكرر .

ولا بد أن أصارحكم ـ في ضوء دراسة التاريخ ـ أن مثل هذا السهم لا يعاد استخدامه ولا تتكرر تجربته ، إنَّه لا يعود إلىٰ الكنانة بعد ما ينفصل عن القوس . . . ومن ثم فذلك وقتٌ حرج ، وموقفٌ حساس ، تقفونه أنتم أيها السادة أصارحكم ـ وأنا بين مرأى ومسمع من سعادة رئيس قضاة هذه البلاد وعدد وجيه من الوزراء الكبار والعلماء والمثقفين الكرام ورجالات

العلم والفكر ـ بكل أدب واحترام ، إنها لمرحلةٌ دقيقة صعبة ، لا في تاريخ باكستان وحدها ، ولكن في التاريخ الإسلامي كله ، إنها مرحلة يحبس الإنسان عندها الأنفاس .

والتجارب قد تنجح وقد تخفق ، والحياة البشرية كلُّها في الواقع هي مجموعة تجارب مخفقة وناجحة ، فقد يتعثر الإنسان ثم يستقيم ، وقد يزل ثم يتماسك ، وقد يسقط ثم يقوم ، وتلك هي قصة جميع الأمم والملل علىٰ هذه الأرض ، قد تغور سفينتها ، ثم تطفو ، وقد تغوص ، ثم تطيش ، وهي سنة الله في الكون ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٢٦ ـ ٢٧] وقال : ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [النور : ٤٤] .

لا يعزبنَّ عن بالكم ـ وأنتم مقبلون علىٰ هذا العمل العملاق المبارك ، عمل تنفيذ القوانين الإسلامية في هذا المجتمع وهذه البلاد ـ أنه لا بد أن يكون لدىٰ المجتمع استعداد لتلقيها بالقبول واحتماله ، وإساغته . . . لأنَّ الغذاء مهما كان طيباً لذيذاً سائغاً ، لا يفيد المرء إذا كانت معدته فاسدة لا تقبله . . . ومن ثم يتحتم العمل علىٰ إصلاح المجتمع علىٰ أوسع نطاق ، ولتركز عليه منابر المساجد ، ومعاهد التعليم والتربية ، وأعمدة الصحف ، وصفحات المجلات والجرائد ، والتلفاز والإذاعات ، وليكن ذلك موضع عناية خطبائنا السياسيين . . . وإذا كانت أسواق الرشوة نافقة في كل مكان ، وإغراءات المال والمادة علىٰ قدم وساق ، والقسوة والوحشية علىٰ شدتها وحدتها ، وكان الأصدقاء والزملاء ، وأهل مدينة واحدة وقرية واحدة ، بل وحارة واحدة ، لا يعرفون الأُخوّة والمساواة والعطف والحدب فيما بينهم ، ولا يعرف موظفونا في المكاتب وعمالنا في المصالح والإدارات ومختلف القطاعات روح التناصر والتعاون؛ فإن ذلك شيء لا يبشر بالخير ، ولا يبعث على الأمل ، لأنه نذير خطرٍ عظيم .

أسباب جلاء المسلمين عن إسبانيا :

يعرف الدارس الخبير أنَّ السبب الكبير في جلاء المسلمين عن إسبانيا ، أنهم لم يعتنوا بنشر الإسلام في أرجائها ، فلم يتقدموا إلىٰ الجانب الشمالي ، بل ظلوا يتقهقرون إلىٰ الجانب الجنوبي ، ولم يحتكوا بأهلها المسيحيين ، وما تغلغلوا في قلب أوربا ، ولم يقوموا فيها بتبشير الإسلام خير قيام ، ولم يقوموا بإصلاح ذلك المجتمع ، وشغلوا عن هذه الوظيفة الأولىٰ بتوسيع تراثهم الحضاري وتصعيده ، واسترعت الفنون الجميلة ، والشعر والموسيقا جلَّ عنايتهم ، ولكن مصيبتهم العظمىٰ كانت في اضطرابهم الداخلي ، الذي كان يمثله الصراع والخلاف بين ربيعة ومضر ، وقبائل اليمن والحجاز والعصبية القبلية .

حقّاً إن العصبية ـ سواء أكانت عصبية لغوية أو عصبية إقليمية ، أو عصبية حضارية ، أو عصبية عنصرية ـ داء عضال ، ومن أجل التفادي من ذلك قد أعطانا القرآن هذا التوجيه السديد :

﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ﴾ [الحجرات : ١١] . والخطاب في الآية الكريمة ليس موجهاً إلى الأفراد وحدهم ، بل إلىٰ الجماعات والأمم أيضاً ، لأنَّ الداء الذي يريد القرآن أن يحذر منه ، ربما قضىٰ علىٰ الدول والحكومات ، والأمم والأقوام ، وقلت لعديد من إخواننا في الهند الذين كانوا يريدون أن يشدو الرحل إلىٰ باكستان : أوصيكم أن تتجردوا من شعوركم المتطرف بالتفوق ، وبكونكم أولي حضارة خاصة ، ويجب عليكم أن تندمجوا مع إخوانكم في باكستان ساكني تلك المناطق التي قامت فيها دولة باكستان .

أيها السادة! إنَّ باكستان اليوم تستطيع أن تؤثر في خريطة العالم ، وأن تؤدي دوراً فريداً يسجله التاريخ بالحروف الذهبية ، إذا اندمجت الجنسيات ، وتجاوبت العناصر المختلفة التي تشكل سكان باكستان ، من الواردين إليها ، والقاطنين فيها من القديم ، وعادوا إخواناً متحابين

متفاعلين ، لا فرق بينهم ، يشعرون شعوراً واحداً؛ لأن الشعور الزائد بالتفوق والامتياز هو الخطر المدلهم الذي كان السبب في سقوط المسلمين في إسبانيا ، والأفعىٰ التي ابتلعت دولتهم ، فالعصبية القبلية والعنصرية هي التي فعلت فعلها ، فلم يرفعوا رأساً إلىٰ خطر المسيحية الذي كان يترقبهم كالسيف المصلت علىٰ الرأس ، وتشاغلوا بمصالحهم القبلية ، والعناية بالاحتفاظ بأغراضهم وأهدافهم ، وأرجو أن إخواننا أهل باكستان سوف لا يسمحون لهذا الخطر يجوس خلال ديارهم. . . وأعتقد أن هذا الحفل الكريم الذي ضم عناصر خيرة صالحة من أهالي باكستان ، هو خير مناسبة للدلالة علىٰ الأخطار ، والإبداء عن الخلجات التي تساور نفسي ، حتىٰ تأخذوا حذركم ، وتصعدوا عملية الإصلاح ، والقضاء علىٰ العصبيات ، التي سوف لا تموت بالضربات الموجهة إليها مباشرة ، وإنما تموت عن طريق تعميم السلوك الإسلامي ، والوحدة الإسلامية ، والأخوة الإسلامية والتربية القرآنية ، والعدل والمساواة التي علمهما الإسلام ، حتىٰ لا تعود هناك قضية تهمُّ شعب باكستان في أرجائها إلا الإسلام ، والإسلام وحده.

إني أعتقد أنه ليس في العالم البشري اليوم إلا جبهتان متعارضتان ، جبهة الإسلام ، وجبهة الجاهلية ، والمعارك كلها تتلخص في المعركة بين الإسلام والكفر بين الدين واللادينية ، وإذا كان هناك تقصير ما فإنه سيؤدي إلىٰ أسوأ عاقبة ، ويحلو لي أن أتلو عليكم الآية التي خاطب بها القرآن الكريم المجتمع الصغير ، المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة ، ذلك المجتمع الذي كان مكوناً لا من الجنسيتين المختلفتين: من الأنصار والمهاجرين فحسب ، بل كان الأنصار كذلك تتوزعهما قبيلتان ، الأوس والخزرج ، اللتان قد سبقت بينهما سلسلة من الحروب الدموية ، ومواقف أخذ الثأر والانتقام ، فقد حاربت إحداهما الأخرى طول ٤٠ عاماً تباعاً ، وكانت لا تزال بينهما البقية الباقية من الإحن والحقد ، وروح الانتقام ، قد يشغل عواطفهما بيت واحد ، وقد حدث مرة أن أخلاطاً من الأوس والخزرج كانت قد ضمَّها المحفل ، إذ طلع عليها رجل من اليهود داهية ، وانتهز الفرصة ، وبدأ يتلو قصيدة كانت تحكي القصة الدموية التي قد وقعت

بينهما، فاشتعلت العواطف، وكادت السيوف أن تتقارع، واحمرت العيون، إذ حضر رسول الله ﷺ، وأطفأ الجذوة المشتعلة، ولفت الناس إلىٰ الوحدة الإسلامية والأخوة الإيمانية التي لا نعمة فوقها، هذا المجتمع الصغير، والوحدة المتواضعة، ما شأنهما أمام هذا العالم الفسيح، أمام الدولة البازنطية، والمملكة الساسانية، وقوىٰ الشرق وقوىٰ الغرب، لكنهم طولبوا بإحكام هذه الوحدة، وتعميقها وتأصيلها، ووجه إليهم الإنذار: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [سورة الأنفال: ٧٣]، وذلك لأنهم ـ إن كانوا في عددٍ ضئيل ـ كانوا جوهر الإنسانية، وخلاصة البشرية، وكان مصير الإنسانية مرتبطاً بهم، وكانوا موضع رجاء البشرية، وكان بوسعهم أن يؤثِّروا في مصير الأمم والملل، ومصير الإنسانية كلِّها، ومن ثم قيل لهم: إنّ زلةً واحدةً منهم، وثغرةً واحدةً في وحدتهم تسبب فساداً شاملاً كبيراً في الأرض، ولا يقتصر الأمر على مصيبتهم وشقائهم وحدهم.

أيها السادة!

إذا نشطت هذه العصبيات الجاهلية في باكستان، تلك العصبيات التي يستغلها المكرة، والدهاة، وأعداء الإنسانية، فليست هناك قوة تنقذ باكستان من هاوية الهلاك والدمار... وإذا أخفقت تجربة تنفيذ الشريعة في ربوع باكستان ـ لا قدر الله ـ فسوف لا يعود أحد يفكر في هذه التجربة في أرجاء المعمورة.

أقول لكم بكل تأكيد: إنَّ أوربا، وجميع دول العالم غير الإسلامية، تحسب كل الحساب للدول الإسلامية التي يرتفع فيها صوت تطبيق الشريعة الإسلامية، فلئن أخفقت هذه التجربة، فإنها تكسب المعركة، وتستغل الموقف، وتفعل أفاعيلها... فأنتم في مرحلة حرجةٍ جداً، تتطلب منكم أن تكرسوا لإنجاح هذه التجربة كلَّ قواكم، وكفاءاتكم، وذكاءكم، ومواهبكم العقلية والفكرية، إنها لمحنة العزيمة والهمة، والشهامة، والإخلاص، وروح الإيثار، والتعاون، والتناصر... يجب أن تضربوا

ـ بهذه المناسبة العظيمة ـ عرض الحائط جميع الخلافات ، يتطلب الموقف أن تترفعوا عن المصالح الحزبية في صالح باكستان ، بل في صالح الإسلام ، وإذا استوفيتم هذه الشروط ، فستبتدأ صفحة جديدة للتاريخ ، ويبتدىء عهد جديد ، إذا تمَّ قيام هذا المجتمع الإسلامي الذي نتوخاه ، فسوف يرتاد باكستان السياح والمراقبون ، والمعلقون ، لكي يشاهدوا بعيون رؤوسهم ، ويتحدثوا عنه في أجزاء العالم ، فيقول الواحد منهم : قد رأيت مجتمعاً لا يعرف الإثم والعدوان ، ولا يبتلع فيه الإنسان الإنسان ، يحدب كل عضو فيه علىٰ الآخر حدب الأمهات علىٰ البنين ، إنه لمجتمعٌ مثالي ، تجد النفس فيه هدوءها ، ويجد القلب طمأنينته ، وتقرُّ به العين ، وتهدأ فيه الروح ، ويشعر الوارد فيه كأنه دخل في الجنة والنعيم .

لكن ذلك لا يتم بالعصا السحرية ، وحجر الفلاسفة ، وإنما تحتاجون في سبيله إلىٰ التضحيات التي تتطلبها مثل هذه النعمة العظمىٰ الفريدة ، التي يتوقف عليها في الغد رقيُّكم ، ورقيُّ هذه البلاد ، وامتداد الإسلام وانطلاقه .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

❊ ❊ ❊

الـوحـدة الإسلاميـة ومـتطلَّباتُهـا

ألقىٰ العلامة الندوي هذه المحاضرة في حفل أقامته «مؤسسة همدرُد» الأهلية علىٰ دعوة من رئيسها سعادة حكيم محمد سعيد المرحوم وذلك في فندق أنتر كانتيننتال بكراتشي (باكستان) في ١٣/يوليو ١٩٧٨ م ، وحضر الحفل مجموعة كبيرة من أعيان البلد والأساتذة الكبار ورجال الفكر والخبرة ، والبارزين في الحياة الاجتماعية .

كلمة الوحدة جذابة كالمغناطيس :

أيها السادة! إني مدين لسعادة الأستاذ حكيم محمد سعيد ـ حفظه الله ـ حيث وفَّر لي فرصة التحدث إلى هذه النخبة المختارة ، وإلىٰ هذا الحفل الكريم ، وأتاح لي أن أبوح بأفكاري ، وأعبر عن مشاعري وعواطفي . إنَّ ذلك لمنةٌ علىٰ غريبٍ إقامتهُ بهذه البلد محدودةٌ بالأيام والليالي ، والذي لا يعرف بالضبط والدقة أعيان البلد ووجهاءه وقادة الفكر ورجال العلم والتربية فيه ، ولا يعرف شأنهم ومكانهم حتىٰ يتصل بهم مباشرة ، ويتحدث إليهم فرداً فرداً ، فمن تيسير الله تعالىٰ أن تدعى للاستماع لحديثه هذه النخبة الممتازة من أولئك السادة الذين يجدر كثير منهم بأن تُشدَّ الرحال للقياهم وحدهم .

ولكن بجانب ذلك كله تتضخم مسؤولية الخطيب أو الضيف ، ويجعله الموقف في امتحان : إلىٰ أيِّ مدىٰ سيستطيع أن يستغل هذه النعمة ، ويستخدم تلك الفرصة ، وهل تدعه موجة الأفكار والانطباعات ، وتزاحم العواطف ، وفيضان القلب بمزيج من مشاعر الشكر والعرفان بالجميل والشعور بالواجب ، أن يحسن التعبير ـ أمام السادة الحاضرين ـ عن مشاعره وأفكاره ونداء ضميره ، أم لا ؟ .

وقبل أن أدخل في صلب الموضوع ، أرىٰ لزاماً عليَّ أن أحبذ سعادة الشيخ محمد سعيد المحترم علىٰ اختياره للحديث هذا الموضوع الذي يضرب على الوتر الحساس ـ نظراً إلى حرج الموقف ودقة الظروف : ظروف الصراعات والظنون ، والشكوك والشبهات ، وظروف الدوافع والأسباب المتضاربة في مجتمع وبلد ، مُني ـ ولا يزال ـ بأن يعبر طريقاً مفروشاً بالأشواك ، وأجمة شائكةً مائجةً بالقتاد .

أيها السادة! كلمة «الوحدة» من تلك الكلمات العديدة الحبيبة الأثيرة التي تحمل جاذبيةً ومغناطيسية في دنيا الناس ، والإنسان يعشق «الوحدة»

بطبيعته لأنها نداء ضميره ، وصوت قلبه ، ورضا ربه ، ولا غرو فإنه يعيش في دنيا الإنسان هذه ، ويتمتع بالحياة ، ويتجمل بوجوده هذا البستان الأرضي ، ويستخدم مواهبه ، ويستغل تلك الأهليات التي حباه الله إيَّاها ـ هو في حاجة ملحة إلىٰ أن يعيش متعاضداً ومتعاوناً ومتضامناً .

الصـراع بـين الـوحـدات :

لكنَّ التاريخ يشهد أنَّ هذه الوحدات ـ علىٰ حساب طبيعتها ووظيفتها ومعانيها ـ قامت بدور التخريب أكثر من القيام بدور التعمير ، فقد كانت الوحدة لتُوحِّد الإنسان ، وتثير فيه عاطفة الحب والحنان والأمن والسلام ، ولتوجد جوَّ الاعتماد المتبادل ، لكن «وحدة» اصطدمت وحدةً أخرىٰ أحياناً ، كما اصطدمت (وحشة بوحشة) أخرىٰ أحياناً كثيرة ، علىٰ حين كان من المتوقع ألا يكون هناك صراع ما بين الوحدات ، مهما تصارعت القوىٰ ومهما تصارعت الأشياء مع مثلها أو ضدها. . . من الممكن المعقول أن يتصادم التخريب مع التخريب ، وأن تحارب الفوضىٰ الفوضىٰ ، وأن تتصارع السلبيات مع السلبيات ، أما أن تقع الحرب بين جمعية وجمعية ، ووحدة ووحدة ، فتلك هي تجربة غريبة فريدة من نوعها ، وانحراف عن الطبيعة لا يوجد له نظير في التاريخ البشري ، وحكايةٌ أليمةٌ مؤلمةٌ مخجلة ، يتندىٰ لها جبين التاريخ ويسودُّ بها وجهه .

إلا أنَّ ذلك يرجع إلىٰ الأساس الذي تقوم عليه الوحدة ، فلئن كانت الوحدة قائمة علىٰ أسس سلبية: على عاطفة العدوان ، علىٰ إذلال الإنسان ، علىٰ شعور بسط النفوذ والسلطان ، علىٰ التسامي والكبرياء ، واستعباد العباد الأبرياء ، فلا بدَّ ألا تقرَّ مثل هذه الوحدة بوحدة أخرىٰ سواها ، لأنَّ غمداً واحداً لا يسع سيفين ، فحين تقرؤون تاريخ أمة أو ديانة تجدون رواية متصلة الحلقات من الحروب الدامية ، تجري أنهار الدماء ، وتقطع الرؤوس البشرية ، وتؤلف منها القباب وتجعل البلاد خاوية علىٰ عروشها ، وتثل العروش ، ويهلك الحرث والنسل ، وتداس الحضارات والمدنيات ، أما إذا بحثتم عن الأسباب ـ في ضوء فلسفة التاريخ ـ وجدتم

أنه كانت قد نشأت هنالك وحدة ترىٰ سِرَّ بقائها في القضاء علىٰ الوحدات الأخرىٰ.

مجرد الوحدة لا تحمل قيمة، ولـيس لها وزن حبـة خـردل فـي الميـزان:

وقد دلَّت التجارب ـ تجارب النوع البشري ـ: أنَّ مجرد الوحدة لا تجدي نفعاً، ولا تغني غناء، وإنما المناط بأساس الوحدة، والغاية التي أريد من ورائها.

وأول وحدة نجدها في تاريخ ارتقاء النوع البشري، هي الوحدة الأسرية والعائلية، والوحدة القبلية، والوحدة السلالية والعنصرية، والوحدة الجنسية، ثم نجد ـ بعد ما تقدَّم العالم البشري ـ الوحدة اللغوية، ثم الوحدة الحضارية والثقافية.

وكانت الوحدة الحضارية والثقافية من بين هذه الوحدات الكثيرة، أكبر محط للآمال، وذلك لأنَّ الحضارة والثقافة شيء لا يمت إلىٰ إيذاء العباد وإهانة النوع البشري بصلة ما، لأنهما ـ الحضارة والثقافة ـ تعنيان الإعانة علىٰ زوال الشكوك والشبهات، وارتفاع الحاجز بين إنسان وإنسان، وأن تنشأ عن طريقهما عاطفة الحب والوئام والتعاون والسلام، والعدل والإنصاف، وأن يحرص المرء على الاطلاع علىٰ حوائج أخيه وعلى أعذاره، وعلى مواضع ضعفه، فيشمله بعطفه وحنانه، ويسعى لتحقيق حاجته، وأن تنتبه في نفسه الدوافع على الاطلاع على أدبه وشعره، ولغته وثقافته... ومستغربٌ كلَّ الاستغراب أن تشتمل الوحدة الثقافية والحضارية على جانب من العدوان، واستعباد المجموعة البشرية، والحرب ضدَّ الحضارة البشرية.

لكن الحقيقة أنَّ الحياة البشرية مجموعة من أنواع المتضاربات والمتناقضات، contradication حتى يعجز علم النفس الحديث أيضاً عن إدراك أبعادها وأعماقها، فقد ينشأ في داخل الإنسان إنسان آخر، وقد يتبنىٰ الإنسان أغراضاً تستهدف الإطاحة بالإنسان، وربما تقوم هذه الأغراض علىٰ

أنقاض أغراض إنسانٍ آخر ، فلو كانت هناك فلسفة للحياة لا تحيا ، ولا تنمو ، ولا تترعرع ، ولا تخضر ، ولا تثمر ، إلاَّ بموت الإنسان ، وهلاكه ، وانهزامه ، وشقوته ، ونكبته ، فذلك هو الداء العضال الذي يستعصي على المعالجة ، واللغز الذي يعيي فكر العقول البشرية .

الـتـصور الإسـلامي للـوحــدة :

أما الإسلام فلا يقرُّ من بين هذه الوحدات المصطنعة الكثيرة إلاَّ بوحدتين حقيقيتين ، ويدعو إليهما دعوةً مؤكدة وهما أعظم الوحدات عصمة وبراءة ، وأكثرها نفعاً وخيراً للبشرية ، وأغناها إيجابية وفعاليةً ، وتعميراً وإنتاجاً .

وهما : الوحدة الإنسانية ، والوحدة الإيمانية ، أما الوحدة الإنسانية فهي تعني : أنَّ السلالة البشرية كلها أبناء أب واحد ، وهو آدم أبو البشر عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وقد وقَّع سيدنا محمد ﷺ علىٰ هذه الوحدة وختمها بكلمات معجز ، جعلتها من التأكيد والتوثيق بمكان سوف لا يقرُّ به أي ميثاق (CHARTER) للوحدة الإنسانية في العالم ، فقال ﷺ : «إنَّ ربكم واحد ، وإنَّ أباكم واحد» فوحدة الأب ووحدة الرب ، هما الوحدتان اللتان أكرمت بهما الأفراد البشرية ، فيرجع وجودها الجسمي وينتهي نسبها الطيني إلىٰ شخصٍ واحد ، مهما اختلفت ألوانها وأجناسها ، وتنوَّعت لغاتها ولهجاتها ، وتناءت ديارها ، وتباينت في الأعمار والسنين ، والسمنة والهزال ، والطول والقصر ، وكذلك ربُّها وخالقها ورازقها واحد ، فهذه المناداة بالوحدة الإنسانية بهاتين الكلمتين الوجيزتين لا توجد مناداة بها أعمق منها ، وأشمل ، وأدق ، وأكمل ، وأكثر منها اتفاقاً مع العقل والمنطق .

إذاً فإنَّ هاتين الوحدتين تربطان الإنسان بعضه ببعض ربطاً موثقاً ، وتجعلان البشرية المنتشرة في الآفاق وحدة متراصة ، وتجعلان الإنسان إخواناً متعاونين متماسكين من ناحيتين : ناحية آصرة الأبوة ـ وقد تعرض رسول الله ﷺ للأبوة أولاً ، لأنها الحقيقة العادية المساغة لكلِّ إنسان ـ وناحية الربوبية ، هذه هي الوحدة الإنسانية الحقيقية الواقعية التي أعلن عنها

النبيُّ الأعظم سيدنا محمد ﷺ من خلال خطبته العالمية التي تخاطب النوع البشري في أرجاء المعمورة إلىٰ يوم القيامة ، وكأنها شهادة أدَّاها سيِّد الأنبياء والرسل عليه صلوات الله وسلامه ، وذلك بمناسبة حجة الوداع .

وحـدة جديـدة فـريـدة :

أنشئت في القرن السادس المسيحي وحدة جديدة أنشئت علىٰ أساس عقيدة توحيد الله ، وإفراد الله بالعبودية والربوبية ، وعلىٰ روح المواساة ومبادىء العدل والمساواة ، وخدمة الإنسانية والعطف عليها .

آخىٰ النبيُّ ﷺ بين المهاجرين من مكة إلىٰ المدينة ، وبين الأوس والخزرج من أهل المدينة المنورة ، وأقام بينهم صلة الأخوة القوية ، وألَّف من هؤلاء وهؤلاء وحدة؛ لأن هؤلاء المهاجرين كانوا غرباء يحتاجون إلىٰ مأوىٰ يأوون إليه فكانت هذه الآصرة آصرةً جديدةً من نوعها ، ما عهدتها البشرية علىٰ مدار التاريخ ، قامت علىٰ مجرد أساس العقيدة والهدف . . . وكلٌّ من درس السيرة دراسة عميقة يعرف أنَّ هذه الوحدة لم تكن وحدةً حضارية ، أو وحدة اجتماعية ، نعم . . . كان هناك نوع ما من وحدة اللغة ، إلا أنَّ ما كان يوجد من الفارق بين اللهجتين المكية والمدنية وبين الأسلوبين اللغويين : المكي ، والمدني ، كان كافياً لتوسيع الفجوة بين أهل مكة وأهل المدينة ، وتعرفون أنتم أنَّ الأساليب اللغوية تختلف بعد قليل من المسافة ، ويتعصب لها أهلها تعصب الناطقين باللغات المختلفة تماماً ، وقد جربت باكستان ذلك تجربةً أعتقد أنَّه لم يجربها إلا قليل من البلاد .

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أؤكد أنَّ ما يراه عامة الدارسين للسيرة النبوية من الاتحاد الكلي فيما بين المجتمعين : المكي والمدني ، والمدنيتين : المكية والمدنية ، ليس من الصحة في شيء ، فإن الدراسة الحديثة للسيرة تقرر : أنَّ اختلافاً واضحاً كان يوجد بين المدنيتين ، وكان أهل مكة ـ ولاسيما قريشاً ـ يحملون الشعور الزائد بالتفوق (Superriority Complex) يدلُّ على ذلك ما دار بين القرشيين الثلاثة وبين الأنصار ، في غزوة بدر الكبرىٰ ، وأخالكم تتذكرون : أنَّ ثلاثة أبطال قرشيين وهم عتبة ،

وشيبة ، والوليد بن عتبة ، قد برزوا في الميدان ـ ميدان بدر ـ ونادوا المجاهدين المسلمين للمبارزة بدءاً بالحرب علىٰ عادة العرب ، فبرز لهم ثلاثة فتية من الأنصار ، فقالوا: «ما لنا بكم من حاجة» ثم نادى مناديهم: «يا محمد أخرِج إلينا أكفاءنا من قومنا» ، فلما برز لهم عبيدة وحمزة وعلي رضي الله عنهم بأمر النبي ﷺ قالوا: «نعم أكفاء كرام» مما يدلُّ علىٰ نخوتهم القبلية ، وأنهم كانوا يعتزون بقبيلتهم وجنسهم ، ولا يرون غيرهم أكفاء لهم في قليلٍ أو كثير ، وبجانب ذلك كان العنصر الأهم من العناصر التي كانت تشكل المجتمع المدني هم اليهود الذين كانت لهم السيادة (Domination) والكلمة المسموعة ، فقد كانت اليهود لها حضارتها ، وثقافتها ، ولغتها ، وكانت هي الأمة الوحيدة المتحضرة الراقية في الجزيرة العربية ـ التي كانت لها مدارس ومعاهد تعليمية كانت تسميها «المدارس» (بكسر الميم وسكون الدال المهملة) ـ وكانت تدعو غيرها من الشعوب أمية ، فقد حكىٰ القرآن الكريم علىٰ لسانهم ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران: ٧٥] ولا تزال اليهود تعتقد ذلك ، فهي تصف الشعوب كلهم بكلمة «GOYIM» التي تعطي معنىٰ «غير المتمدن» و «سيىء الأدب».

علىٰ كلٍّ فلو توسعتم في دراسة السيرة لعلمتم مدى اختلاف المجتمعين: المكي والمدني ، أحدهما عن الآخر ـ رغم الوحدة اللغوية ، والوحدة النسبية في آبائهم العليا ، وبما أنَّ المجتمعين قطعا مراحل الارتقاء في بيئتين مختلفتين اختلافاً تاماً ، فعادا وكأنهما مجتمعا دولتين مستقلتين ، ومن ثَمَّ فكان من الممكن ألا يندمج المهاجرون والأنصار اندماجاً كلياً ، ولا تتألف منهم وحدة تحمل طبيعةً واحدةً كالأدوية المركبة بالعناصر المختلفة ، والعقاقير المتنوعة ، ولا يتنازل كلٌّ من المهاجرين والأنصار عن شخصيتهم المستقلة ، وإذاً فلا تفيدُ الأدوية المركبة من المفردات الكثيرة ، ولا تعطي تأثيراً خاصّاً؛ إذا كانت المفردات لم تنحلَّ فيها ، ولم تذب.

ولم تكن القضية قضية المهاجرين والأنصار فحسب ، فقد كانت الأنصار تتوزعهما القبيلتان العظيمتان ـ الأوس والخزرج ـ اللتان كانت

بينهما معاركُ وحروبٌ في الماضي القريب ، كما تنشب الحروب بين أمتين متنافستين متخاصمتين ، أو بين دولتين تتربص إحداهما بالأخرىٰ الدوائر ، وكانت حرب بُعاث ـ التي وقعت بين الأوس والخزرج قبل الهجرة بخمس سنوات ـ الحلقة الأخيرة من سلسلة الحروب الدامية ، وقتل فيها الطرفان أحدهما الآخر شرَّ قِتلة ، وأذاق أحدهما الآخر ألوان الشقاء وسوء العذاب ، وكانت لدىٰ كلٍّ من القبيلتين «مزدوجة» تتحدث عن تاريخها وتتغنىٰ بمجدها ، ومآثرها ، ومفاخرها ، وكان اليهود يواصلون المحاولات ـ حتىٰ بعد ما تشرفت القبيلتان بالإسلام ـ لإثارة نخوتهما القبلية ، وغيرتهما الجاهلية؛ بتذكير هذه الوقائع الماضية في النوادي والمحافل التي تضمهما ، فهناك رواية في كتب السيرة تقول : إنَّ القبيلتين أوشكتا في إحدى المناسبات ـ بفعل مكيدة اليهود فقد أشاروا لأحد إخوانهم بإنشاد ما نُظِم ، وقيل في حرب بعاث ـ أن تشتبكا وأن توقع كلٌّ منهما بالأخرىٰ؛ إذ خرج عليهم رسول الله ﷺ ، فأطفأ هذه الجذوات المستعدة للاتقاد بماءٍ بارد من الإخاء الإسلامي ، والإيمان ، والعطف ، والحنان[١].

علىٰ كلٍّ فكان بالإمكان أن تحدث هناك فوضىٰ جديدة مكان الأمن والسلام والتضامن ، وأن تنشأ فتنةٌ جديدة بدل أن تبرز قوةٌ موحدةٌ متعاونة ، وكانت الأسباب لذلك متوفرة ، كما سبقت الإشارة إليها في السطور السالفة ، وكان الكيان اليهودي فعلاً أكبر ، وأنشط ، وأقوىٰ عامل (Factor) لكلِّ هدم وإفساد ، ولا غرو فإنَّ اليهود يملكون من مؤهلات الإفساد والتخريب ما لا تملكه أمَّةٌ في عالم البشر ، ولا يزالون يستأثرون بهذه المزية ، إذاً فكان في الحسبان أن يوقع العنصر اليهودي بينهما العداوة والبغضاء ، ويجدد بينهما الحمية الجاهلية التي تجعلهما صفين متقابلين متحاربين .

هذا بالإضافة إلى أنَّ الحياة المكية كان عمادها التجارة ، علىٰ حين كانت الحياة في المدينة تتوقف علىٰ الزراعة والفلاحة ، والغرس

(١) راجع سيرة ابن هشام ، الجزء الأول ، ص/ ٥٥٥ .

والتشجير ، وكان هذا الاختلاف في الحياتين ناشئاً عن الاختلاف في الأوضاع الجغرافية ، وقد كان هناك فرق بين الحياتين بالنسبة إلىٰ المعاشرة العائلية والحياة الأسرية ، وكما أشار إلىٰ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إحدىٰ المناسبات .

وحـدة الـعقيـدة والـهدف :

ولا أعرف أنه أقيمت هناك أخوة فيما قبل ، أو أوجدت آصرة ـ في مثل هذا التنسيق والدقَّة والوضوح ـ على مجرد أساس الوحدة في العقيدة والغاية ، قامت هذه الأخوة فيما بين المؤمنين المخلصين؛ الذين كانوا يؤمنون بالوحدة الإنسانية ، والوحدة الربانية ، وكانوا يتمتعون بالثبات علىٰ وحدة العقيدة ووحدة الهدف ، وكان ذلك قوةً جديدةً أنشئت لإنقاذ العالم المنهار ، وتخليص الإنسانية عن بؤسها وشقوتها .

قليـل فـي العـدد، جليـل فـي الهـدف :

وما هو مركز هذه الجماعة الناشئة الممثلة لتلك الأخوة المنقطعة النظير؟ وما هو مكانه من الثقل والاعتبار؟ وما عدد أعضائها وأفرادها؟ يتحدث القرآن الكريم عن كل ذلك ، فيقول :

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

إذاً فكانوا من القلة بحيث يُعدّون بالأصابع ، وكانوا من الخفة بحيث لا يحسب الناس لهم حساباً ، ولا يلقون إليهم بالاً ، فكانوا يخافون كلَّ لحظة أن يتخطفهم الأعداء تخطف الغربان والحدآن قديد اللحم دون أن ينالوا منهم بشيء ، أو يؤذوا جنبهم بشوكة .

كانوا في هذه الحالة من الضعف والعجز والقلة والخوف ، التي عبر عنها القرآن الكريم تعبيراً لا أبلغ منه ، ولا أروع وأدق ، ولكن ـ علىٰ الرغم من ذلك لننظر ما هو المركز الذي كان يحتله هؤلاء المسلمون المستضعفون؟ ، لنعلم ضخامة المسؤولية التي ألقيت على عاتقها . . .

أيها السادة! أؤكد لكم أني أقضي من عجبي كلما أقرأ الآية التالية التي تتحدث عن مسؤولية هذه القلة الموحدة. . . ما أضخم المسؤولية وأدقها وأصعبها وما أعظمها لدىٰ الله وأكرمها! يقول الله عز وجل: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]. . يخاطب الله المهاجرين والأنصار مؤكداً عليهم: أنهم إن لم يقوموا بتحقيق هذه الوحدة ، ولم يدعموها ، ويحكموها بكل ما يلازمها ، تكن في أرض الله فتنةٌ عظيمةٌ ، وفساد كبير. . . لو سمع هذه الكلمات رجلٌ سياسيٌّ يقيس الأمور بظواهرها ، لوقف مدهوشاً ، حائراً ، واجماً ، ولتساءل: ما هو رصيد هذه القلة من القوة ، وما هو واقعها من الاعتبار؟. . . . إنها كاللسان المسكين يحاصره ٣٢ سناً ، أو كنقطة في المحيط ، أو كقطرة أمام البحر الزاخر الهادر ، فمن أين لهذه الوحدة القليلة المؤلفة من المهاجرين والأنصار قدرة القضاء على الفتنة العظيمة؟!. . .

لكن الله ـ العليم الخبير ـ أكرمها بهذا «الوسام» ومنحها هذه المرتبة من الشرف ، لأنه يريد لها القيام بعملٍ جليل ، وقيضها لحاجة ملحة ، حاجة الإبقاء علىٰ الحضارة الإنسانية ، وإنقاذ العالم البشري الحائر.

لم يكن ليدرك صدق الآية القرآنية هذه إلا الذين يؤمنون بقدرة الله المطلقة ، وكانوا يدركون روح هذه الوحدة الناشئة ـ رغم قلتها العددية ـ وكانوا يدركون قيمتها -Merit- وأهليتها ، وثقلها المعنوي ، وما كانت تتمتع به من الحماس والنشاط ، والتألم والتفجع للإنسانية المنكوبة ، وما كان يتصف به أعضاؤها من الرهبنة في الليل ، وقضاء النهار على صهوات الخيل ، والآلام ، والأشجان التي كانوا يعيشونها ، وكانوا يدركون كيف يضحون هم بأنفسهم وبأفلاذ أكبادهم وبأموالهم في سبيل الله ، ومدىٰ القلق الذي يعيشونه في التفكير في إنقاذ النوع البشري من الدمار ، ولنشر الهداية والفضيلة والفلاح في شرق الأرض وغربها ، ولمنع الإنسان أن يحارب بعضه بعضاً ، ويأكل القويُّ منه الضعيف.

لا يدرك صدق هذه الآية إلا هؤلاء الصنف من الناس ، لأنه كان صعباً على العقول والأفهام ـ حتى بالقياس إلىٰ الفتنة المعاصرة لهذه الوحدة

الناشئة ، وفي تلك الملابسات السياسية والحضارية والمدنية ـ أن تدرك هذا السرَّ ، سرَّ تشريف هذه الوحدة بهذه المرتبة العظيمة ، وتكليفها بهذه المسؤولية الضخمة ، حتىٰ قيل في حقها: إذا لم تتحقق ولم تتقوَّ؛ تموج الدنيا الإنسانية بالفتن والويلات ، وتذوق ألوان الشقاء والبلاء ، ونيط بها مسؤولية إنقاذ العالم من نار الفساد والدمار التي كادت تأتي عليه ، وتدعه رماداً. لو نظرتم في خريطة العالم المسيحي في القرن السابع ـ ولا أريد الخريطة الجغرافية، وإنما أريد الخريطة الحربية ، وخريطة الشعور المتطرف بالتفوق ، والتبجح بالعَدد والعُدد والقوة ـ وما ترك من تأثير مؤلم علىٰ العالم؛ لعرفتم صدق ما صوره شاعر الإسلام حكيم الشرق الفيلسوف الإسلامي الدكتور محمد إقبال في أبياته الرائعة البليغة الآتية:

«إنَّ الإنسانية ذاقت ألوان الشقاء والبلاء ، والدمار والهلاك ، علىٰ أيدي «الإسكندر» و«جنكيز» ، وتاريخ الأمم العريق ينادي رجال الفكر والتجربة ، ويتقدَّم إليهم برسالة خالدة: إنَّ الشعور الزائد بالقوة خطر أيّ خطر علىٰ المرء ، إنه كسيلٍ جارفٍ يكتسح البلاد والعباد ، ويبقي العقل والفكر ، والإدراك والعلم ، أمامه كغثاء السيل».

عبء العالم كله على وحدة قليلة متواضعة:

ألقيت مسؤولية العالم كله على وحدةٍ جديدةٍ متواضعةٍ نشأت حديثاً علىٰ أرض المدينة المنورة ، وأكد علىٰ هذه المجموعة الإنسانية ، بألا تألو جهداً في إحكام هذه الوحدة ، وتعميق جذورها ، وريها ، وسقيها ، والسهر عليها ، والإيمان بها ، والولاء لها ، وألا تدَّخر وسعاً في التفجع علىٰ الإنسانية الشقية ، ولا يحولنَّ بين هذه الغاية الكريمة الجليلة مصلحةٌ ذاتية ، أو مصلحةٌ جماعية ، أو أغراضٌ حزبية. . . وحكم بأنها لو أهملت في هذا الشأن فإنَّ الإهمال يؤدي إلىٰ سلسلةٍ من الويلات وإلىٰ سيلٍ جارف كاسحٍ من الشقاء اللامتناهي.

صدقوني: أني كلما أقرأ هذه الآية الكريمة ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الإنفال: ٧٣] يأخذني العجب العجاب وأسائل

نفسي ـ في حيرة ـ أين هذه القلة المتواضعة من هذه المسؤولية الجسيمة؟ هذه القلة التي كانت من صغر الحجم بمكان يحتاج المرء فيه للرؤية إلىٰ الألمعية والفراسة ـ وإن لم يحتج إلىٰ استخدام المكبرة ـ.

ضغط علىٰ تلك المجموعة المتواضعة أن تركِّز كلَّ عنايتها علىٰ تأصيل هذه الوحدة وتنميتها؛ لأنها لو قصرت في ذلك ، لسوف تأكل هذه الوحدات ـ المنتشرة في أرجاء الأرض ، والناعقة هنا وهناك ـ النوع البشري كله ، وذلك لأنها ليست في الواقع وحدات ، وإنما هي وحشيات ، إنما هي مؤامرات ضد النوع البشري ، لأن هذه الوحدات تريد بعضها أن تنمو على حساب البعض ، وتتكون مجموعة ، فتكون نذر خطر للمجموعات البشرية كلها ، ولا تزال اليوم وحشيات تقوم على قدم وساق باسم الوحدات ، ونرىٰ اليوم أنواع الفوضى والتفريق والتمييز باسم التجمعات ، والجمعيات ، والجامعات ، وأنصارها دائماً يصفونها بوحدات ، فمثلاً: هي وحدة كذا ، وهي دولة كذا ، وهي كتلة كذا ، وهي فلسفة كذا ، وهو النظام الفلاني ، لكن هذه الوحدات كلُّها تكذب بعضها بعضاً ، وتحارب بعضها بعضاً ، ولا تعترف أيُّ واحدة منها بأخواتها الأخرىٰ أبداً ، وكلُّ وحدة منها قررت أنها لا تحيا إلا إذا غابت كلُّ الوحدات سواها في ضمير الغيب.

إذاً فإذا كانت هناك وحدةٌ يمكن أن تكون رحمةً للإنسانية كلِّها ، فإنما هي الوحدة الإنسانية والوحدة الإيمانية ـ التي يصحُّ التعبير عنهما بالوحدة الإسلامية ، ليس إلا.

الـوحـدة الـلغـويـة وجـنـايـاتـهـا:

هذه اللغة التي هي غاية في البراءة والعصمة ، والتي تتساقط كلماتها عن الأفواه البشرية كالأزهار في جمالها وبهائها ، هذه اللغة التي وضعت للتأليف بين القلوب ، ولإدخال السرور والفرح عليها ، ولكي تكون وسيلة التغني بالحبِّ والمودة ، ولتقريب الإنسان بعضه من بعض ، هذه اللغة التي استخدمت كترجمان صادق لعواطف الحب ، وللكشف عن أسرار الطبيعة

والحياة ، هذه اللغة التي طالما أطربت الإنسان ، وجعلته يهتز من النشوة ، وطالما كانت رسول الحبِّ والسلام ، والرحمة والأمان ، والعطف والحنان ، ورفعت الحاجز النفسي فيما بين القلوب المتقاطعة ، وجبرت القلوب المتكسرة ، فجَّرت أنهار الود والوئام ، إنها كانت السبب في بعض الأحيان في الفتك بمئات الآلاف من النفوس البشرية ، هذه هي التي قامت من أجلها مجازر وحشية وذُبح فيها الذين كانوا يحملون اللسان الذي كان يحمله القتلة الوحشيون .

هذه الوحدة اللغوية المزعومة ، والحب الزائد لها ، والعصبية العمياء من أجلها ، قد فعلت الأفاعيل بأولئك الذين لم ينبسوا بشيء سوىٰ كلمة الحب والحنان ، والذين أحيوا الليالي بذكر الله وعمروا خلوات الليالي بالتسبيح والمناجاة مع الله ، إنها جرعتهم كأس الموت ، وولغت في دمائهم .

إنَّ هذه اللغة إذا جعلت أساس وحدة مصطنعة ما أنزل الله بها من سلطان ، وليس لها وزن حبة خردل في الميزان ، فإنها تدع جهود الأنبياء كلها هباءاً منثوراً ، وتتحول إلىٰ قوةٍ هادمةٍ تهدم كل ما بنته الأوائل في آن واحد ، وتذهب بكلِّ ما قام به السلف من جهود الإصلاح ومحاولات البناء ، وتأتي علىٰ الثروة الحضارية والثقافية كلها في ثانية أو أقل. . . إنَّ الوحدة اللغوية ـ أيها السادة ـ جرَّت من الويلات والشرور ما جعل الإنسانية تقف أمامه مدهوشة واجمة ، وأفقدها الشعور والوعي ، وقد اكتويتم بهذه النار[١] ، ولا يزال هذا الخطر الأسود يحدق بكم ، إني أخاف أن ينهض داهيةٌ مغرض ، ويستخدم اللغة كوسيلة ناجحة لإقامة الحواجز والفروق ، ولإثارة الحمية الجاهلية ، وأن يستغلها لأغراضه السياسية. . . حقاً إنَّ هذه اللغة تستطيع اليوم أيضاً بكل جدارة ، أن تلعب ذلك الدور التخريبي الذي لعبته السيوف في أيدي «سيرز» و«قيصر» و«جنكيز» .

(١) إشارة إلىٰ مجزرة باكستان الشرقي ، وليرجع للتفصيل رسالة «جاهلية اللغة» طبع «المجمع الإسلامي العلمي» ندوة العلماء، لكهنؤ، الهند.

الـوحـدة الـحضاريـة ونتائجهـا الـوخيمـة :

وكذلك الحضارة ، فقد كانت رسالتها الوحيدة : أن يتحضر الإنسان ، وأن يشعر بمواضع الضعف في نفسه ، ويعترف لغيره بالفضل لو كان يتصف به ، يعشق الحسن والجمال حيثما وجد ، ويقدر الفن والأناقة في شتَّى صورهما وأشكالهما ، ويطرب إذا أنشد عليه أحد شعراً بليغاً يجمع الجمال الفني والموسيقي ، ويعجب بالذكاء والعبقرية والبطولات والمآثر مهما اتصف بذلك شعبٌ وأمة ، وأن يعتبره ملكاً لنفسه بصفته ثروة إنسانية مشتركة. . . . كان من اختصاص الحضارة أن ينفخ في الإنسان الشعور بأن المـآثـر مهمـا وجـدت وحيثمـا وجـدت هـي كـأنهـا ملكـه الشخصـي ، فليحتضنها ، وليقدرها حق قدرها ، لكن. . . . الحضارة ، حينما تحرم التوجيه الرباني ، وتحيد عن الهدي النبوي ، لا تعود حضارة ، بل تتحول آلة تعذيبٍ ، وإبادةٍ ، ودمارٍ للإنسانية ، أفما قرأتم قصة محاربة الحضارات للحضارات ، وقصة صراع الثقافات مع الثقافات .

أيها السادةً قد افتضحت اليوم الأسطورة القائلة بغناء مجرد الوحدة ، وقد تقرر بما لا يدع مجالاً للشك أنَّ الوحدة ـ أي وحدة كانت ـ إذا لم تمدها الوحدة الإيمانية ، والوحدة الإنسانية ؛ فإنها تتحول إلٰهاً يُعبَد ، وتقدم له القرابين ، وربما تصبح بدل أن تتنعم بها الإنسانية ، ويطيب بها العيش ، وتلتذ بها الحياة وتتحقق بها الأماني ، وتتجسد بها الأحلام ، وتتعلل بها البشرية ، وتشبع بها العواطف ، وترضىٰ بها الرغبات ـ ديناً ، لها كل ما للدين من تحمس وإخلاص ، وتقديس وإجلال ، وربما تعود فلسفةً ونظاماً يفرض على الإنسان ، رغب فيه أو رغب عنه ، ويرغم على الإذعان له والخضوع لجلالته. . . إنها جرَّت الويلات على الإنسانية آلاف مرات ، وعهدتها الإنسانية في أدوارها الكثيرة ذئباً ضارياً شرساً.

السبب فـي الحربيـن الـعالميتيـن : الأولـى والثانيـة :

أيها السادة! قد يكون فيكم كثير ممن أدرك الحربين العالميتين : الأولى (١٩١٤ م) والثـانيـة (١٩٣٩ م) ، وقـد يكـون فيكـم مـن لـم يعهـد إلا

الأخيرة. . . فماذا كان السبب ـ يا ترىٰ ـ في هذه المجازر ، وهذه الإغارت والهجمات ، والحروب الدامية ، هل كان ذلك صراعاً بين الحق والباطل؟ ، هل كان هناك باطلٌ يطارد الحقّ ، فأرادت دولةٌ ، أو أمةٌ أن تأخذ للحق الثأر ، وتقف بجانبه؟ ، لا ، وكلا!.

إنَّ العامل الحقيقي في كل ما يجري على الساحة العالمية من الفساد الذي لا نهاية له ، ومن الجرائم التي لا آخر لها ، والفوضى التي لا انقطاع لها ، هو الشعور الزائد بالتفوق والكبرياء ، وأصارحكم ـ أيها السادة ـ ليس هناك شعبٌ يريد أن يعيد للإنسانية هدوءها وقرارها بالقضاء على أسباب هذه الجرائم والفوضى ، بل كأنّ كل شعب يقول: ما لي ولذلك. . . تأكدوا. . . إنه لا يهم أحداً الإصلاح ، وإنما يريد ألا تكون هذه الجرائم إلا تحت إشرافه هو. . . كأنَّ كلَّ أمةٍ تقول: إنَّ هذا العالم بخير إذا عادت السيطرة عليه إلينا ، وتكون لنا الكلمة المسموعة دون الأمة الفلانية.

فمثلاً ، هذه الحرب العالمية الأولى ، ماذا كان السبب فيها؟ ، شعرت ألمانيا شعوراً قوياً ملحاً أن تكون لها تلك السيطرة على الأسواق العالمية ، والمتاجر الدولية ، والوسائل ، والذخائر ، والبضائع في العالم ، التي لا تزال بريطانيا تستأثر بها منذ أمد بعيد.

وتلك هي طبيعة أحزابنا السياسية كلِّها دون استثناء ، وقد كرَّرتُ القول في كثير من الحفلات والتجمعات التي ضمت أخلاط الناس في الهند أيضاً ، أكدتُ فيها: أنّ هذه الأحزاب السياسية لا تهمها في شيء إزالة الفوضى والفساد ـ وإن لم يُصرَّح بذلك بلسان المقال ـ وإنما يعنيها ألا يجري الفساد ، وألا تدور الفوضى إلا تحت تصرفها ، وأمرها ونهيها ، ولكم أن تجربوا ذلك. فلو حولتم إليها سلطتكم ، لما وجدتم جديداً ، وتقدماً في القضية أو تأخراً ، لأنها لا تختلف اختلافاً مبدئياً منهجياً ، أو أخلاقياً.

ولو ألقيتم نظرة على المسرح العالمي ، لرأيتم أن هاتي الأمم الأوروبية التي شنت بعضها حرب إبادةٍ على البعض وأراقت الدماء بكل سخاءٍ عدة مرات ، لم تكن محاربة بعضها بعضاً من أجل الاختلاف في المبادىء

والأهداف أو بين المسيحية وغير المسيحية ، أو بين العدل والظلم ، أو من أجل إعداد خريطة أخرى جديدة للحياة الإنسانية ، لا ، بل لمجرد أن ينضمَّ الإنسان إلىٰ المعسكر الفلاني ، وأن تجتمع الدنيا تحت الراية الفلانية .

ومعذرةً إليكم ـ أيها السادة ـ إنَّ أحزابنا السياسية في الدول الشرقية لدينا تفكر نفس هذا التفكير ، وتنحو نفس المنحى ، فهي لا تتفجع على أنَّ المواهب الإنسانية تضيع ، وأنَّ الشباب يقع فريسة الشذوذ والانحراف والفساد الخلقي وأنَّ النظام التعليمي المعاصر خاطىء ، أو عقيم ، فيحتاج إلى التغيير والتعديل . . . كلُّ ذلك لا يهمُّ أحداً ، وإنما الهمة مصروفة في الحصول على الملك والسلطان .

الـمشكـلات التـي تـواجـه الـمسلميـن :

أيها السادة! قضية مسلمي باكستان لا تنحصر في أنهم يحملون لواء الوحدة عبر باكستان فحسب ، بل قضيتهم أعمق وأشمل من ذلك ، فهم يتقلدون مسؤولية تمثيل هذه الوحدة في خريطة العالم السياسية ، ويتبنون تحقيقها وتجسيدها (demonstration) والدعوة إليها ، وجمع الناس تحت رايتها . . . ومن هناك فلئن تراجعوا عنها وخذلوها ، أو حدث في هذه البلاد التصارع علىٰ أساس اللغة ، أو الثقافة والحضارة ، أو ظهرت فتنة إحياء الحضارة المحلية القديمة ، فينهض هناك أناس يتحمسون لإحياء الحضارة الهندوكية العريقة فيما قبل الإسلام . . . . فالويل لهذه البلاد ، ولا يستطيع أحد أن ينقذها من مخالب الدمار إلا الله العلي القدير ، وذلك لأنَّ ما يأخذ بحجز هذه البلاد ، ويربط بين العناصر المتباينة التي تشكلها ، هو هذه الوحدة الإيمانية ، والوحدة العقيدية ، والوحدة الإسلامية ، فإنْ رحتم تقيمون هذه الوحدات الجديدة المصطنعة ، وجعلتم تنصبون هذه الأصنام التي نحتتها الأيدي البشرية ، والتي ثار عليها شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ، ونعىٰ عليها في شعره البليغ قائلاً : «حطموا أصنام الألوان ، والعناصر ، والأجناس ، وانصهروا في بوتقة الإسلام ، حتىٰ لا يبقىٰ هناك «توراني» أو «إيراني» أو «أفغاني» ، فإنَّ هذه الأصنام من اللون والجنس

والعنصر والثقافة والحضارة و. . . و. . . ، سوف تفعل فعلها ، وتعطي تأثيرها الأسود الذي يؤدي بهذه البلاد إلىٰ ما تقشعر منه الجلود ، وتشيب لهوله الولدان ، فقد ذاقت علىٰ أيدي هذه الأصنام بلادٌ من أرض الله ألواناً من الشقاء. . . هذه تركيا انتبه فيها الشعور بإحياء «حضارة آسيا الوسطىٰ» وتولى كِبْرَ ذلك «ضياء كوك ألب» وكان بطل هذه المسرحية «كمال أتاتورك» ، وكذلك هَبَّ في إيران من حين لآخر هذا الفكر الأسود ، وهتف أشواب من الناس بإعادة «الحضارة الإيرانية قبل الإسلام». . . فحذار ـ أيها السادة ـ أن يستيقظ هذا الشعور في بلادكم في قلوب أناس ، وينادوا هذه النداء الجاهلي؛ لأنه نذر خطر لا نهاية له.

وتأكدوا أنَّه ليس هناك شيء يمكن أن يكون ضماناً على الأمان إلا الوحدة الإيمانية والوحدة الإسلامية التي هي صمام الأمن والسلام في الواقع ، وإذا قامت هناك وحدة ما سوى هذه الوحدة؛ فسوف تشتت شمل هذه البلاد ، وتمزِّق هذا المجتمع الهادىء تمزيقاً ، وتضرب القوىٰ بعضها ببعض ، وتنفخ في العصبيات الجاهلية ـ تلك التي ضرب الإسلام على جذورها ـ روحاً جديدة ، فتنفض عن نفسها الغبار ، وتهتز وترتص.

ولا أعلم أنَّ النبيَّ ﷺ قد شدَّد في الكلام في قضية من القضايا ، أو في مناسبة من المناسبات ، ما شدد فيما يتصل بالحمية الجاهلية؛ لأنه ﷺ كان يدرك ـ بفراسته النبوية وبإدراكه للحقائق ، واطلاعه على تاريخ الأمم والديانات: بجانب كونه منزل الوحي والإلهام الرباني ـ أنها أضرّ الفتن ورأس الفساد ، قال عليه الصلاة والسلام:

«من تعزَّى عليكم بعزاء الجاهلية فأعِضُّوهُ بِهَنِ أبيه ، ولا تَكْنوا»[1].

يعني: إذا نادى أحد بنداء الجاهلية ، واستعداها عليكم ، وقال: يا لهذه القبيلة ، ولتلك الأمة ، أو يا لهذه اللغة والثقافة ، أو نال من أمة وشعب على أساس العنصرية والجنسية والنسب ، أو على أساس عصبيةٍ من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٥ ، ص ١٢٦.

أمثال هذه العصبيات ، فتناولوه بألسع الكلام وألدغه ، ولا تلتجئوا إلى الكناية والإشارة في التشديد والتشنيع .

وتعلمون ـ بدوركم أيها السادة ـ أن هذه العصبية تستطيع أن تبيد في آنٍ واحد الثروة العلمية ، والأدبية ، والثقافية ، والحضارية الغنية التي تكونت في آلاف الأعوام والسنين ، وأن تجعل المحاولات الإصلاحية المخلصة التي قام بها عباد الله المؤمنون الصالحون بعد تضحيات جسام هباءً منثوراً ، ورماداً تذروه الرياح في مكانٍ سحيق ، إنها أعمى العمى ، إنها لا تبصر ، ولا تعي ، ولاتعقل ، ولا تراعي في أحدٍ إلًّا ، ولا ذمة .

إنِّي أريد أن أحذركم ، وأن أبلغ هذا التحذير إلى أقصى ما يمكن أن أبلغ إليه : إنَّ أخوف ما أخاف على هذه البلاد هو العصبية اللغوية ، أو العصبية الحضارية ، والدعوة إلى إحياء الحضارات القديمة ، وأريد أن أطلق هذا الحديث؛ لأنَّ ذلك لا يخصُّ بلداً دون بلد ، إنه خطر مدلهم على كل بلد يمنى بهذه المصيبة ، خطر على مصر الحبيبة ـ مثلاً ـ إذا دعت إلى الحضارة الفرعونية ، كما حدث قبل أعوام ، وخطر على إيران الشقيقة؛ إذ تعزت بـ «سائرس» واعتبرته «البطل النموذجي» .

وتفادياً من ذلك تشتدُّ الحاجة إلى إحكام هذه الوحدة الكريمة ، الوحدة الإسلامية؛ لأنها هي وحدها رسول الأمن والسلام ، وقادرة على البناء والإصلاح ، وهي وحدها التي تجمع ، ولا تفرق ، تؤاخي ، ولا تعادي ، ترحم ، ولا تقسو ، تبني ، ولا تهدم ، قد امتنَّ الله علينا بهذه النعمة الجليلة :

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

يعني : اذكروا كيف كان بعضكم حرباً على بعض ، يلغ كلٌّ منكم في دم أخيه ، فألَّف بين قلوبكم ، وقامت بفضله بينكم أخوةٌ قويةٌ منقطعة النظير ، تركت العالم البشري يقف منها موقف المدهوش المتحير ، ويقضي من عجبه حينما يرى في كتب السيرة مظاهر هذه الأخوة العجيبة . . . هذا

أبو عزيز أخو مصعب بن عمير رضي الله عنه ، يُشَدُّ بالوثاق فيمر به مصعب ، فيشير على الموثق بالإحكام؛ لأنه ثري يمكن أن يؤدي في فديته مبلغاً خطيراً ، فيقول أبو عزيز ـ حينما يرى من أخيه الشقيق موقفاً لم يكن يتوقعه ـ: كنت أرجو أن ترق لحالي ، وتتوسط في تخليصي ، وتشفع لي بخير ، فيتبرأ منه مصعب ، ويقول: لست أخي ، وإنما الذي يوثقك هو أخي. إلى هذه المبلغ قد بلغت هذه الأخوة ، يا سادة! وإلى هذا الحد وحَّدتهم هذه الوحدة ، وحدةُ العقيدة والغاية.

أما الوحدة اللغوية ، فلا تغني غناءً ، وإنكم تعرفون علاقة ما بين الناطقين باللغة الواحدة بعضهم ببعض ، هل استطاعت أن توحدهم ، وأن تجردهم من الأنانية ، والأهواء النفسية ، والأغراض الذاتية الرخيصة ، وأن تجعلهم إخواناً متحابين متجاوبين متعاطفين حينما يجدون فرصة من الوقوف في وجه الناطقين بغير لغتهم ، وأن توقظ فيهم الشعور الإنساني ، فيكرم بعضهم بعضاً ، ويحترمون دماء إخوانهم ، وأعراضهم ، وأموالهم ، كاحترامهم لدمائهم ، وأموالهم ، وأعراضهم.

حقّاً: إنَّ الوحدة اللغوية ليست بشيء ، ما لم تكن هناك وحدة قلبية ، وتجاوب عاطفي ، وانسجام روحي ، فقد رأيتم أنَّ اللغة وحدها ، تعجز عن أن توحد ، بل إنها بالعكس من ذلك تقوم بدور سلبي ، إنها تؤلب الإنسان على الحرب ضدَّ الإنسان باسم اللغة.

أنتم تـتشرفـون بمنـصب الـدعـوة إلـى الـوحـدة الإسلاميـة:

يا سادة! قبل أن أنهي حديثي ، أريد أن أصرح بأنَّ الله لم يكرمكم بنعمة هذه الوحدة ـ الوحدة الإسلامية فحسب ، بل أسند إليكم مسؤولية الدعوة إليها ، فيتحتم عليكم أن تمثلوها أمام العالم ، حتى يرى الناس بأم أعينهم آثارها وثمارها الحلوة ، أرجوكم أن تكونوا على مستوى هذه المسؤولية العظيمة ، وعلى مستوى هذا الشرف الكبير ، حتى إذا أراد هذا العالم الذي يضطرب من حولكم أن يرى نموذج الوحدة الإسلامية ، يمكنه أن يجد في باكستان متمناه وطلبته ، فلا تسمحُنَّ لوحدةٍ جاهلية في داخل حدودها

بالنشوء والارتقاء ، والترعرع والنماء ، لأنها تجعل قلوبكم شتى ، وتوزعكم في كتلٍ وجماعات ، وتخلق لكم مشكلاتٍ معقدةً ، يعجز عن حلها العقلاء ، وقادة الفكر ، ورجال السياسة مهما بلغوا من عمق الفكر ، ورجاحة العقل.

إنَّه كفرٌ بنعمة الله ، ونكرانٌ لفضله أن تزعزعوا تلك الركيزة التي عليها تأسس هذا المجتمع ، وأن تضيعوا ذلك الهدف الأسمى الذي من أجل تحقيقه أقيمت هذه الدولة. . . لا بدَّ أن تلاحظوا ما هي الدوافع التي جذبت أبناء الإسلام إلى هذه المنطقة ، الغرض الذي من أجله تجمعوا ، والنور الذي عليه تساقطوا ، هل اللغة هي التي جمعتهم هنا ، أو الحضارة هي التي جاءت بهم؟ لا ، وكلا! وربما يمكن أن يختلف سكان مقاطعة في هذا البلد عن سكان مقاطعة أخرى في المدينة والاجتماع اختلاف الأمتين ، وهذا الاختلاف طبيعي ، ولو ألقيتم نظرةً واحدةً على هذا الحفل الكريم لرأيتم هذا الاختلاف فعلاً ، فما هي الجامعة التي تجمعهم على هذا الاختلاف؟ وما هي الرابطة التي تربط بعضهم ببعض رغم هذا الفرق الكبير؟.

إنما هي الوحدة الإيمانية بكلِّ تأكيد ، وتلك هي التي تستطيع أن تظلَّ توحدكم ، وتقويكم ، وتشدُّ عضدكم ، في المستقبل ، وتستطيع أن تبقي على عزكم ، وشرفكم ، ومكانتكم ، وتعطيكم ضمان السلام الدائم ، فاحتضنوها ، وقدِّروها حقَّ تقديرها ، وتقلدوا مسؤولية الدعوة إليها ، وسوف يكون ذلك منكم خدمة قيمة لهذا العالم الجريح المثخن بالجروح من التمزق ، والتشتت ، والانشطارية ، بجانب كونها خدمة دينية مشرِّفة.

وأخيراً فأشكركم جميعاً على حسن إصغائكم لحديثي ، وعلى ما منحتموني من الحبِّ والتقدير ، فجزاكم الله جميعاً ، وشكر سعيكم ، وضاعف أجركم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

الصراع النفسي والقلق الفكري في البلاد الإسلامية وعواملهُ

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في «جامعة العلامة محمّد إقبال المفتوحة» (Open Uinversity allama IQBAL) في ١٨/ يوليو ١٩٧٨ م ، واستمع إليها أساتذة الجامعة وطلابها ، وأعيان المدينة ، ورجالات العلم والثقافة والسياسة ، وقضاة المحكمة العليا. قدَّم المحاضر صاحبُ السعادة الدكتور محمد صديق الشبلي ، وألقى الكلمة الختامية رئيسُ الجامعة صاحبُ السعادة الدكتور شيرزمان) .

صاحب السعادة رئيس الجامعة! وأصحاب الفضيلة: أساتذة الجامعة، وإخوتي الكرام! قد غمرني بزيارة هذه الجامعة والحضور فيها على دعوةٍ منها ـ بحكم انتمائها إلى شخصيةٍ عظيمةٍ عزيزةٍ حبيبة ـ سرورٌ ربما لم يحصل لي مثله لدى زيارة مؤسسةٍ علمية، وكنت أفكِّر أن أبدأ حديثي بشطر بيت فارسِّي معناه:

«إنَّ للغريب حقُّ المقال»

لكنها إذا كانت تنتمي إلى الدكتور محمد إقبال، فإني أستهلُّ حديثي بشطر بيت أرديٍّ للشاعر الأرديِّ الكبير الشهير «جكر» المراد آبادي:

«أستحق أن أجلس على أيٍّ من فروع الحديقة، وأنشىء عليه وكري، لأن لي حقاً ثابتاً على فصل الربيع كلِّه».

إذا كانت هذه حديقة «إقبال» فإني بلبل شادٍ من حديقتها، ولي حق التحليق في أجوائها، والتغريد في كلِّ أنحائها، والتمتع بكل أجزائها، ولست إذاً غريباً، بل كأني أحد سكان هذه المدينة.

إقبال قدوةٌ لطلاب العلوم الغربية في الاحتفاظ بخصائصه الإسلامية مع خوضه في بحر علوم الغرب:

أيها السادة! تعرفون جميعاً ما قاله الدكتور محمد إقبال حول التعليم والتربية، ورجائي من المسؤولين عن الجامعة أن يضعوا آراء إقبال حول التعليم في مقرراتها الدراسية وأن يجعلوها مادةً من المواد الدراسية، ولئن كان الكتَّاب، والعلماء، والمفكرون قد أفردوا كتباً في موضوع وجهة نظر إقبال عن التعليم والتربية، وآرائه، وأفكاره، وملاحظاته على الموضوع، فإني أودُّ أن تعيرها الجامعة بالغ اهتمامها، وأن تتناولها بالدراسة والبحث كفنٍّ مستقلٍ، وموضوع بذاته... لقد كان الدكتور محمد إقبال ـ كما صرَّح بنفسه في أبياته الفارسية ـ من السعداء المعدودين الذين خاضوا بحر نظام

التعليم الغربي الجديد ، فلم يخرجوا من قعره سالمين فقط ، بل محتفظين بشخصيتهم ، وخصائصهم الإبراهيمية ، وازدادوا إيماناً بخلود الرسالة الإسلامية ومضمراتها الواسعة ، يقول في شعره الفارسي :

«كسرت طلسم العصر الحاضر ، وأبطلت مكره ، التقطت الحبَّة ، وأفلتُّ من شبكة الصياد ، يشهد الله أني كنت في ذلك مقلداً لإبراهيم ، فقد خضت في هذه النار واثقاً بنفسي ، وخرجت منها سليماً محتفظاً بشخصيتي» .

كان شباب الشرق يتوافدون إلى أوربا ، ولا سيما إلى إنكلترا ، ولم تكن الرحلة إلى أوربا أو إلى إنكلترا سهلةً ميسورةً كعصرنا هذا ، فكان لا يحلم بهذه «الكرامة» إلا الذين كانت تحالفهم سعادة الجدّ وحسن الحظ ، وكانت الرحلة إليها تعتبر أعظمَ كرامة ، وأجلَّ نعمة ، كان الفائز بها محطَّ أنظار الناس ، يشار إليه بالبنان ، ويقال : «إنه لذو حظ عظيم» .

بلغتُ سِنَّ الرشد والوعي حين وضعت الحرب العالمية الأولىٰ أوزارها ، ورأيت «حركة الخلافة» عن كثب ، وكانت للإنكليز في البلاد دولةٌ وصولة ، وكانت البيوتات الارستقراطية ترى أعظم مفخرة أن يقوم أحد أبنائها برحلة تعليمية إلى أوربا ، وكان شباب شبه القارة الهندية لهم نصيب أوفر في هذه الرحلات بالنسبة إلى مصر ، والشام ، وغيرها من البلاد الشرقية . . . رحل إلى أوربا خيرة الشباب في شبه القارة الهندية الذين كانوا يمتازون بمواهبهم وذكائهم ، وتعلموا في جامعاتها ، ولا سيما في جامعة «أكسفورد» وجامعة «كمبردج» (Cambridge) .

إقبال ومحمد علي جوهر من خريجي المدرسة الغربية لكنهما رمزان للصمود في وجه الغزو الحضاري الغربي :

ويحقُّ لنا نحن المسلمين الهنود أن نقدِّم في اعتزاز وافتخار شخصين عظيمين كمثالٍ كريمٍ للسعداء الذين تعلموا في أوربا ، وعاشوا في محيطها الفاسد المفسد ، ومجتمعها الفاسق الفاجر ، الهادم للأخلاق والمروءة

والعفاف ، وعادوا منها حانقين عليها ، ناقمين منها ، ثائرين عليها ، محتفظين بشخصيتهم الإسلامية ، وبثقتهم بالذات ، بل داعين متحمسين إلى الثقة بالذات ، والاعتماد على النفس ، ألا وهما: الدكتور محمد إقبال ، ومولانا محمد علي جوهر. . . ولئن كانت هناك أسماء كثيرة يمكن أن نقدمها في هذا الصدد ولكني أكتفي بهذين الاسمين الكريمين اللذين لا يمكن أن يتحداهما أحدٌ في هذا الجانب الخاص الذي نتحدث عنه.

حقاً إننا لا نعرف رجلاً مثل المرحوم مولانا محمد علي جوهر في ثورته على السياسة الغربية ، كما لا نعرف رجلاً مثل الدكتور محمد إقبال في ثورته على الحضارة الغربية ، لا نعرف لهما مثلاً في أيِّ بلدٍ من بلاد الشرق الإسلامية ، أما الحقيقة والسرائر فلا يعلمها إلا الله العليم الخبير الذي يعلم السرَّ وأخفى ، لكننا حينما نقرأ شعر إقبال ، وكتابات محمد علي جوهر في صحيفتيه: «كامريد» (Comrade) و«همدرد» وحينما ندرس مواقفهما من الدين والعقيدة ، ودورهما في خدمة الإسلام والعمل الإسلامي ، ونرىٰ محمد علي من خلال الدور الذي لعبه على مسرح حركة الخلافة ، ونقرأ خطاباته التي تتأجج بالغيرة الإسلامية ، والثورة العارمة على السياسة الإنجليزية والغربية. . . لا نجد أحداً يعدلهما في ذلك ممن تخرجوا في جامعات أوربا وعاشوا في المجتمع الأوربي ، وقضوا فيه مدةً طويلة. . . . وحقَّ لإقبال أن ينشد:

«ما رأيت يوماً أنحس وأشقى في حياتي من اليوم الذي جالست فيه أعيان الإفرنج وعقلاءهم».

ويقول: «رغم أن شتاء إنجلترا كان قارساً جداً ، وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السيف ، ولكني لم أترك في «لندن» التبكير في القيام».

ذلك أنَّ إقبال رأى الغرب عن كثب ، وسبر غورها ، وعجم عودها ، واطَّلع على مواضع الضعف والسقطة فيها ، فاستفاد من ذلك كله. . .

ومفخرةٌ أيُّ مفخرة لجامعتكم الكريمة هذه أنها تنتمي إلى الدكتور محمد إقبال.

يا سادة! إنَّ الوقت قصير لا يسمح بأن آتي على كل ما يجيش في خاطري، ولكني أريد أن أطرح أمامكم قضيةً ذات أهمية قصوى، تستحق لفتة التفكير من جميع رجال الفكر والعلم من أولي التجارب الحكيمة الذين يخططون «الاستراتيجية» التعليمية لجامعاتنا ومعاهدنا العلمية.

ما هو مصدر الشقاء والاضطراب في العالم الإسلامي؟:

إنَّه لحديث عامين أو ثلاثة أعوام، كنت في زيارة بيروت، وكان هناك صديق لي من أهل العلم والذكاء، يجول بي في أنحاء بيروت على سيارته لكي أشاهدها، فقال لي خلال الجولة: أستميحكم السؤال عن قضية هامة، وأريد إجابةً مقنعة... إنَّ ما يموج في الدول الإسلامية من القلق الفكري، والاضطراب السياسي، والصراع النفسي، لماذا لا يوجد في غيرها؟ لماذا لا يوجد ـ مثلاً ـ في الهند، واليابان، وسيلان؟ لماذا لا يوجد في الدول غير الإسلامية ما نعهده في الدول الإسلامية من جبهتين متعارضتين: جبهة الحكام والقادة وأولي الحل والعقد، وجبهة الشعب الساذج الذي لا يعرف المكر والخداع، مما يسبب الانقلابات المتكررة، وتحوّل أزمة الحكومات من أيد إلى أيد، وقد فقد الشعب ثقته بحكامه وقادته بتاتاً، كما يعيش الحكام دائماً في جوٍّ من سوء الظن، وذعر من الشعب. والواقع أنني لم أستطع أن أعطي إجابة مشبعة عن هذا السؤال الهام، وشغلت صاحبي بحديث وبآخر في الموضوع، لكن هذا السؤال قد أثار في نفسي تساؤلاً لا عهد لي به، ورحت أتساءل في نفسي: لماذا هذا الواقع المرير؟ وما هو السبب في هذه الظاهرة المشؤومة؟ ما هو العامل الحقيقي في هذا الاصطراع النفسي والتبلبل الفكري؟ نسمع كل يوم عن ظاهرة الصراع والصدام في الدولة الفلانية، ونتسامع بأن هناك تصارعاً فيما بين الحضارات، وفلسفات الأخلاق؟

وبعد تفكير هادىء توصلت إلى الإجابة، وأريد بهذه المناسبة أن

أعرضها عليكم؛ لأنها قد تثير في قلوبكم وفي قلوب المسؤولين عن هذه الجامعات شعوراً بضخامة المسؤولية التي تعود عليكم.

إنَّ الفلسفات التعليمية والتربوية التي استوردتها هذه البلاد غير الإسلامية ما كانت تتصادم مع قيمها ومعتقداتها؛ لأنَّ هذه القيم أولاً: كانت باردةً ميتة، وثانياً: إنها كانت مرنةً جداً، رقيقةً مائعةً جداً، تستجيب لكل فلسفة، وتخضع لكل نظرية، فها هو «جواهر لال نهرو» رئيس وزراء الهند الأسبق حينما سئل عن «الهندوكي» وتعريفه، فقال بعدما أطال التفكير: «كل من ادعى أنه هندوكي فهو هندوكي»، وقد حكى لي صديق لي ـ وكان أستاذاً في كليةٍ حكومية ـ قال: كنا جالسين في حجرة الأساتذة نتجاذب أطراف الأحاديث؛ إذ تطرق الحديث إلى الديانة الهندوكية، فقلت لصديقٍ لي هندوكي ـ وكان بروفيسوراً ـ: لو طلب منا أحد أن نوجز له تعريف الإسلام، لقلنا: إنه الإيمان بـ«لا إله إلا الله محمد رسول الله».. وإذا ما سألكم أحد أن توجزوا له التعريف بالهندوكية؛ فماذا تقولون؟ ـ وقلت له لا أريد منك فلسفة متعمقةً متعقدةً، فلدي مكتبة أستطيع أن أطالع فلسفات الديانات، وأوسع دراستي لنظرياتها ومعتقداتها، وإنما أريد منك تعريفاً بالهندوكية بكلمة موجزة ـ فقال بعدما أجهد الفكرة: يا أخي! الواقع أنَّ الذي لا يعتقد في شيءٍ فهو هندوكي، والذي يعتقد في كلِّ شيء هندوكي كذلك.

إلى هذا المبلغ يبلغ نظام عقائدهم من المرونة والميوعة، تنسجم مع كلِّ فلسفة، وتقبل كل نظرية مستوردة، ولا تتصارع معها في قليلٍ، أو كثير، ومن هنالك حينما غزا نظام التعليم الغربي الهند، لم يحدث قلقاً ما في المجتمع الهندوكي، اللهم إلا بعض الهنادك المتزمتين الذي قد لا يعدو عددهم رؤوس الأصابع، كانوا يرون فيه معارضة خفيفة لأمور تافهة من معتقداتهم... وإنما حدث القلق في المجتمع الإسلامي؛ لأنه يؤمن بوحدانية الله جلَّ وعلا، لديه مفهومٌ معلومٌ محددٌ للتوحيد، لا يسمح بأن يخلص الإنسان ولاءه في وقتٍ واحد لديانات شتى، ويجمع بين الإشراك والتوحيد، ثم لا يجمع بين الإيمان بأن الغرب مرجع كلِّ شيء،

ومصدر كلِّ تقدم وازدهار، وهي وحدها الجديرة بالإمامة، والسيادة، والقيادة، والوصاية، وبين الإيمان بأنَّ النبي الأعظم محمداً ﷺ هو هادي السبل، وخاتم الرسل، وإمام الكل، لكلِّ الأجيال البشرية في كلِّ عصر... نعم لا يمكن له أن يؤمن بكل ذلك، ويؤمن - في ذات الوقت - بأنَّ الحضارة الغربية هي منبع كلِّ سعادة وخير، وأنَّ العلم هو آخر ما وصل إليه الإنسان من التقدم، وأنها نقطة الرقي الأخيرة التي لا يمكن أن يتعدَّاها أحد.

النــور والـظلام لا يـجتمعـان:

على كلٍّ فلِمَ لم يقع اضطراب ما في المجتمع الذي كان متميعاً سيالاً، رقيقاً ناعماً يتفاعل مع كلِّ نظريةٍ، ويتلاحم مع كلِّ غريبٍ مستورد من الأفكار، والفلسفات، والآراء، والاتجاهات، والقيم، والحضارات؟ وَلَمْ يحدث قلقٌ في الدول التي لا تحمل نظاماً إيجابياً أبياً، شامخاً مستقلاً، ولا تعرف طريق الرحمن من طريق الشيطان، ولا تلتزم بمبدأ، ولا تصرُّ على حقيقة، ولا تفرق بين الضلالة والهداية ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢] يرى الإسلام أنَّ النور فرد والظلمات لا حدَّ لها ولا عدَّ، ويلحُّ على أنه هو الحق وحده، وما سواه كفرٌ وطغيان، وبغيٌ وعدوان، وإلحاد وجاهلية، ويحدِّد الإيمان والكفر، ويعيِّن الخط الفاصل بينهما، ويصرُّ على أنه يحمل حضارةً خاصة، وليس هو مجرد عقائد معدودة، وأحكام مرسومة.

فلما غزت الحضارة الغربية، والمجتمع الإسلامي بكلِّ ما عندها من تصوراتٍ، وقيمٍ، وأغراضٍ، وأهداف، وقع بينها وبينه صدامٌ، وصراع شديدٌ عنيف، وكان هذا الصراع طبيعياً... ثم حدثت كارثة أخرى، وهي أنَّ الشباب الأذكياء من بيوتات الأغنياء والأسرياء والطبقة الإرستقراطية في هذه البلاد الإسلامية، قد تثقفوا بالثقافة الغربية، وبقي الشعب على حاله، فنشأ من ذلك أنَّ هذه الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية عادت لا تعرف ما يعيش فيه الشعب من عواطف وتصورات، وأمانٍ وأمال، ومشاعر

وأحاسيس ، كما يكون شأن أمة جديدة بأمة أخرى جديدة ليس بينهما سالف تعارف ، ولا سابق لقاء. . . ومما زاد الطين بلَّة ، والطنبور نغمةً: أن الطبقة العصرية شعرت شعوراً قوياً ملحاً ـ أو علمت بعد تجاربها «المريرة» أنَّه لا بدَّ ـ من أجل الإبقاء على القيادة والزعامة ، وحتى من أجل أن تستطيع أن تعيش عيشة هدوء وسلام ـ لا بدَّ من القضاء على ما يتحلَّى به الشعب من العواطف الدينية ، والغيرة الإسلامية ـ أو على الأقل ـ لا بدَّ من توهينها إلى حدٍّ يجعلها لا تقف حجر عثرة في طريق تحقيق أغراضهم الدينية ، فركزوا عنايتهم على القضاء على الحمية الدينية ، والغيرة الإسلامية ، والوعي والإيمان ، والذكاء الديني في الشعب المسلم عن طريق الثقافة ، والصحافة ، ووسائل الإعلام ، والشعر ، والأدب ، وهنالك خاضت قيادات هذه البلاد والأقطار الإسلامية معركةً حاميةً مع الشعب؛ لأنها رأت سرَّ حياتها ونموها ، وازدهارها في إماتة الوعي الديني لدى الشعب؛ لأنها أدركت أنَّ الشعب قد يكوِّن جبهةً متحدةً لمحاربتها ، ويشكِّل العقبات في طريق مطامعها.

الوضع في العالم الإسلامي وضع متناقض شعوب تغمرها روح الفداء للإسلام وحكومات تؤمن بتفوق الغرب وعظمته:

أيها السادة! إني أحكي لكم قصة هذه البلاد الإسلامية قصة مصر والشام ، وقصة العراق وتركيا ، ولا أقول: إن هذه القصة قد حدثت في كلِّ بلدٍ من البلاد الإسلامية ، ولا قدَّر الله ذلك ، ولا رماكم الله بهذه المصيبة ، ولا تُعرض فصولُها على مسرح هذا البلد الكريم أبداً. . . لكنها على كلِّ حالٍ قصة الدول الإسلامية المتقدمة ، حيث نشأت طبقة لم تكن زاهدة في الدين فحسب ، بل تنكَّرت له ، واستوحشت منه ، وكانت تنعى على الشعب تمسكه بالشريعة ، وعضَّه على جميع أجزائها وأحكامها بالنواجذ ، وكانت ترى أنه إذا كان هناك أفراد في المجتمع يعاقرون الخمر ، ويشاهدون على الشاشة الصغيرة والكبيرة والتلفاز كلَّ غثٍّ وسمين ، ويقع بعض التحول في أخلاقهم وسلوكهم ، أو يتأثر جانب من سيرة الصغار ، فماذا

يضرهم وأيُّ شيء ينقصهم؟ وأيُّ خسارة تلحقهم؟. . . ! ما لهم ولهذه القضايا؟ لهم أن يأكلوا ويتمتعوا ، ويعيشوا وينعموا ، ويكسبوا المعاش ، ويحوزوا الثروة ، ويجربوا نصيبهم في الحياة ، وقد علَّم هذه الطبقة أساتذتها من الغرب الذين تتلمذت عليهم ، والجامعات الأوربية التي تخرجت منها : أنَّ الدين قضية شخصية ، وخير لهذا الدين ـ إذا أراد البقاء والحياة ـ أن يظلَّ على صفته هذه. . . قد تلقنت هذا الدرس من أساتذتها ، وأساغته إساغةً كاملةً ، واقتنعت به ، فلما عادت إلى بلادها هذه الشرقية ؛ وجدت أنَّ أفراد الشعب يتدخلون في شؤون الحكومة ، وينتقدون القيادات ، ويؤاخذونها ، ويحسبون لكلِّ شيءٍ حساباً دقيقاً ، وحين يرون شيئاً لا يوافق ما يعتقدونه يستشيطون غضباً ، ويتّقدون حنقاً.

الطبقة الحاكمة ترصد كل إمكانياتها لقهر شعوبها وكبت عواطفها :

لما شاهدت هذه الطبقة كلَّ ذلك ، ورأت أنَّ أحلامها ستتبعثر ؛ فتحت جبهةً مستقلة لتوجيه الهجوم منها على الشعب ، قد كان ذلك في مصر في عهد جمال عبد الناصر ، فتوجهت القوى الرسمية بخيلها ، ورجلها ، وبكل أجهزتها ، ووسائلها ، وطاقاتها ، لتصبَّ الويلات على الشعب المصري البريء ، وحلَّت القوات محلَّ الشرطة ، ورصدت كلَّ إمكانيات مصر ، وثرواتها ، وخيراتها ، وقواها ، وذكاء الطبقة الحاكمة لكبت عواطف الشعب التي كانت القيادة ترى أنها قد تكون كنار في الهشيم لا تبقي ولا تذر ، فتأتي على اليابس والأخضر من أمانيهم وأحلامهم . . . .

وعلى ذلك فعاش العهد الناصريُّ في مصر في الجهاد في غير عدوٍّ ، في محاربة الشعب الهادئ الوادع ، والقضاء على الحركات الإسلامية والمؤسسات الدينية ، مكان محاربة الإلحاد والشيوعية ، ومحاربة إسرائيل والقوى الصهيونية ، وإلى أيِّ مدى تركت هذه «الحرب السلبية» مفعولها ، وإلى أيِّ حدٍّ استطاع «ناصر» أن يحرز النجاح في مقصده ، لا يمكن الحديث عنه بالتحديد والضبط ، ولكن هذه الحرب هي التي استنفدت كلَّ وقت الظالمين ، جهدهم ، ورصيد فكرهم .

وهذه الحرب نفسها قائمة اليوم في معظم البلاد لا تختلف معركة اليوم عن معركة الأمس في النوعية ، نعم إنَّها حامية في مكان وهادئة في مكان آخر ، ولن أسمّي لكم بلداً غير عربي ، فقد كفتني في ذلك البلاد العربية ، وليكن ملحوظاً أنَّ هذه المعركة «المصطنعة» هي من صنائع الفلسفتين المتنافستين المتقابلتين ، والنظامين الممتازين للتعليم والتربية ، فإنَّ التعليم الذي يتلقاه طلاَّبنا وأفلاذ أكبادنا في المدارس الدينية يمحوه ـ كحرف مكررٍ ، أو كلمةٍ خاطئة ـ ذلك النظامُ الغربيُّ للتعليم .

ما فات فرعون تداركه قادة التربية الغربيون :

ومن هنالك لما اقتحم النظام الغربي التعليمي شبه القارة الهندية ، إثْرَ نفوذ الإنجليز وسيطرتهم السياسية على الهند غير المنقسمة ، قال السيد أكبر حسين الشاعر الأردي العظيم بيته الخالد السائر ؛ الذي لم يقل أحدٌ بيتاً أدقَّ منه في التنديد بنظام التعليم الغربي الإلحادي ، والدلالة على فعله البعيد المدى ، لا أعرف نثراً أو نظماً يعبِّر هذه التعبير البليغ ، البارع الدقيق ، الرائع العميق عن نظام التعليم اللاديني ، وبهذه الكلمات البسيطة الخفيفة ، يقول أكبر :

«لو فتح فرعون كُلِّيةً في مصر (أراد بها نظام التعليم الغربي) . . لم يكن هدف الملام والتهم من بني إسرائيل ، فقد كان مستغنياً بذلك عن قتل أطفالهم جسدياً ، ولكن المسكين لم يتفطن لهذه النكتة» .

إن «أكبر» يشير إلى حقيقة كبيرة ، إنَّه يقول :

إنَّ فرعون بغباوته وبلاهة ذهنه ، وقلة عقله ، جرَّ عليه هذه اللعنات ، وخلق له هذه المشكلات ، ومهَّد الطريق لدعاياتٍ غير متناهية ضدَّه ، حتى صار رمزاً للظلم والوحشية وقساوة القلب وسجلت له الصحف السماوية صفحاتٍ سوداء من استكبار ، وإفساد ، واستعلاء ، ولو أنه غيَّر نظام التعليم لكفاه عن التقتيل والتشريد ولكسب سمعةً طيبة ، ولعُدَّ المربي الجليل الأكبر ، ووليّ العلم والثقافة ، ولأسست باسمه جامعات ومجامع علمية .

يا سادة! قد بدأ هذا الصراع ـ الذي نتحدث عنه ـ في المملكة العربية

السعودية أيضاً ، بفعل هذا النظام التعليمي الغربي اللاديني . . . وكلُّ دولةٍ تريد أن تخدم الإسلام ، وتعلي كلمته يجب عليها أولاً أن تتجنب هذا الصراع النفسي الخبيث ، لأنه يستهلك كلَّ القوىٰ العقلية والفكرية ، وكل نصيب من الذكاء والقدرة ، ولا يدع هذه القوى والطاقات ، والمواهب والقدرات ، تقبل على تعمير البلاد ، وتدعيمها وصيانتها من القلق والاضطراب واللاأمن ، وتعود كل طبقة تفكر أن تتغلب هي وحدها ، وأن يكون المسيطر على البلاد ، والمقبول المتداول في أرجائها ، ما لديها من فلسفة الأخلاق وفلسفة الحياة ، أو فلسفة ما بعد الطبيعة ليس إلا . . .

التعليم العصري حامض يذيب الشخصية ويكونها من جديد :

وإني أتوقع من هذه الجامعة الموقرة أنها ستخطو هذه الخطوة الإصلاحية قبل أيِّ جامعة أخرى ، لأنها تنتمي إلى ذلك المفكر الإسلامي العظيم الذي كان عظيم الكراهية لهذا النظام التعليمي الغربي العصري ، شديد المقت له ، كثير التنديد به ، وكان كثير الخوف من تطبيقه في الأقطار الإسلامية ، وأعتقد أنه لو كان بقيد الحياة لركز أولاً على تغيير النظام التعليمي الحالي ، لأنه كان يرى أنَّ نظام التعليم الحديث هو «كحامض» يذيب شخصية الإنسان ، يقول في أبياته :

«إن التعليم هو «الحامض» الذي يذيب شخصية الكائن الحيّ ، ثم يكونها كما يشاء ، إن هذا «الحامض» هو أشدُّ قوةً وتأثيراً من أيِّ مادة كيميائية ، وهو الذي يستطيع أن يحوِّل جبلاً شامخاً إلى كومة تراب» .

الشخصية الإسلامية لن تتكون إلا بنظامٍ تعليميٍّ يتطابق مع طبيعة الشعوب الإسلامية وعقيدتها :

انعقدت ندوة علمية في عمَّان في عام ١٩٧٣ م كان يديرها الأستاذ محمد إبراهيم شقرة ، وشاركها كاتب هذه السطور ، وسعادة الأستاذ أحمد محمد جمال ، ومعالي الأستاذ كامل الشريف ، وكان الحوار الذي يجري في هذه الندوة تذيعة محطات الإذاعة ، وقد وجه إليّ السؤال عن سبب الحيرة

المردية التي يعيشها العالم الإسلامي كلُّه بصفةٍ عامة ، والشباب المسلم بصفةٍ خاصة .

فقلت فيما بعد :

«من أعظم أسباب الحيرة التي يعانيها الشباب المسلم اليوم هو التناقض في المجتمع الذي يعيش فيه ، تناقض بين ما ورثوه وبين ما يعيشونه ، وبين ما يلقنونه تلقيناً وبين ما يطلبه علماء الدين ، هذا التناقض العجيب الذي سلّط عليهم ، ومنوا به ، هو السرُّ في هذه الحيرة المردية . . . هنالك عقائد آمنوا بها كمسلم ولد في بيت إسلامي ، في أسرة إسلامية ، ونشأ على كثير من العقائد ، وتلقاها بوعي أو بغير وعي ، ثم إنه نشأ في بيئة دينية تؤمن بمبادىء الإسلام ، وقرأ التاريخ الإسلامي ـ إذا أكرمه الله بذلك ، وتسنَّت له هذه الفرصة الكريمة ـ وكان سعيداً بوجوده في بيئةٍ واعيةٍ دينية ، ثم سيق ـ ومعذرتي على اختيار هذه الكلمة ، لأنه لا يزال في سن مبكرة وليس له خيار ـ إلى دور ثقافةٍ يسمع فيها من أولئك الأساتذة الذين يجلُّهم ـ كلّ ما ينقض ما أبرمته البيئة ، وكلَّ ما غرسته في قلبه وعقله من التربية الإسلامية ، أو يقلل قيمته على الأقل ، فيقع في تناقضٍ عجيب ، وصراع فكريٍّ عنيف ، وفي ارتباكٍ نفسيٍّ (CONFUSION) .

إنه يتلقى هذا الصراع من مؤسسة الإعلام ، ومن التلفزيون ، ويسمع إذاعات وأحاديث وبرامج تقضي على البقية الباقية من آثار التربية القديمة ، ومن الصحافة التي هي «صاحبة الجلالة» تقدِّم إليهم في أول النهار الغذاء الفاسد العفن ، والمواد المثيرة المهيجة للعواطف . . . إنه يقع في أيديهم كتب علمية من أناس آمنوا بفضلهم وعبقريتهم ، فيرون ما يشكِّكهم في الدين .

إنَّ مثل ذلك أيها السادة! كمثل عجلة أو مركبة رُكِّب فيها فرسٌ في الأمام وفرسٌ في الوراء ، وكلاهما قويان ، فكما أن هذه العجلة من المعقول جداً أن يكون رُكَّابُها في حيرة من أمرهم ، هذا يجرُّها إلى الأمام ، وهذا يجرها إلى الوراء ، فكذلك الشباب يتأرجحون في أرجوحة يميناً وشمالاً» .

لا بد من تضييق الفجوة بين رغبات الشعوب الإسلامية، وأجهزة التربية والسياسة:

وحلُّ هذه المشكلة: هو إزالة هذا «التناقض» الذي يعبِّر عنه لسان الشريعة، ولسان القرآن بكلمة «النفاق» وإنَّ ذلك يحتاج إلى قلب نظام التربية والإعلام، ومؤسسة الصحافة بالمعنى العام، والتلفزيون ـ الذي جاء حديثاً ـ رأساً على عقب، ويحتاج إلى ثورةٍ عارمةٍ دقيقة شاملة، وإلى أناس عندهم الأصالة الفكرية، وإلى الاجتهاد في المواد الدراسية، ويحتاج إلى أن تتبنى هذه القضية الحكومات الإسلامية الكبيرة، وإلى ملء الفجوة بين الكهول والشباب، وبين الدعاة إلى الدين والشباب الجامعيين، ويحتاج إلى مكتبةٍ جديدة، وأسلوب جديد في الحديث مع الشباب.

أيها السادة!

أختم حديثي بهذه الكلمات، وأوجه شكري وتقديري لصاحب السعادة رئيس هذه الجامعة، وصاحب السعادة رئيس القضاة أفضل جيمه اللذين وفرا لي فرصة الحديث إلى هذه المجموعة الكريمة... وإني على يقينٍ كاملٍ بأنكم مهما تنسون كلمتي هذه، فإنكم لن تنسون رسالة «إقبال» ويحلو لي أن يكون بعض أبيات إقبال هو مسك الختام لحديثي هذا:

«حيّا الله شبيبتك يا مربي الجيل الجديد! ألق عليهم درسٍ التواضع وهضم النفس، مع الاعتزاز بالنفس، والاعتداد بالشخصية، علِّمهم كيف يشقُّون الصخور، ويدكُّون الجبال، فإن الغرب لم يعلمهم إلا صنع الزجاج، إنَّ عبودية قرنين متواليين قد كسرت خاطرهم، وأوهنت قلوبهم، فانظر كيف تعيد الثقة إلى نفوسهم، وتحارب الفوضى الفكرية».

* * *

دَرس مـن الـحَوادث

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في المركز الإسلامي بالشارقة في ربيع الأول ١٣٩٩ هـ الموافق فبراير ١٩٧٩ م على أثر حدوث الانقلاب في إيران.

لقيت هذه المحاضرة استجابة كريمة وآذاناً صاغيةً من كبار المثقفين في البلد وعلمائها وأعيانها ، والآن إلى القراء هذه المحاضرة.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وأصحابه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أيها السادة! إنني في هذا الموقف الكريم ينازعني عاملان متناقضان ، فأشعر بنزاع نفسي ، العامل الأول: أنَّ الموضوع هو موضوع الساعة ، وحين يقع الحريق ـ لا قدَّر الله وأعاذكم الله وإيانا جميعاً منه ـ وتلتهب النار في قرية ، فهناك تخرس الألسن ، ينطق الواقع ، والواقع أبلغ وأبين من ألف لسان وألف قلم ، فيستطيع الولد أن يقوم على ربوة ، أو يرتقي مكاناً عالياً وينادي: الحريق! الحريق! وكلمة الحريق هي أبلغ من ألف خطبةٍ ومن ألف محاضرة ، لأنَّ النار تنطق بلسانها ، وتقول: اتقوني! احذروني! وأعدوا لي عدتكم ، كذلك إذا جاء فيضان وتحدى القرية فإن هذا الفيضان يغني عن كل خطبة ، وعن كل محاضرة ، هذا هو العامل الأول الذي ينازعني ، ويقول لي: ماذا عسى أن تقول ، أليس الواقع المؤلم ، الواقع البين الظاهر مغنياً عن كل بيان ، ألسنا نعيش في حالة طوارىء؟ ألا تحدث حولنا حوادثُ تنطق بخطرها ، وتنبه النائم ، وتعلم الجاهل ، وتنطق الأخرس.

والعامل الثاني: هو سنوح هذه الفرصة للاعتبار والادِّكار ، وتلقِّي الدورس ، والانتفاع بالواقع ، فهناك حوادث لا تدع فرصةً ، وإنما يحضر الإنسان أو المجتمع ويكون كما قال الله تعالىٰ: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴾ [القيامة: ٢٦ ـ ٣٠] فليس هذا هو الشأن والحمد لله الآن ، فلا نزال نعيش ، ولا نزال نبصر ونعي ، ولا تزال أمامنا فرصةٌ مفتوحة لتلقي الدروس والعظات والعبر ، فأنا أنتهز هذه الفرصة السانحة ، فقد تفوت الفرصة ولا تعود ، وقد تُغلب الأمم والشعوب على أمرها ، فلا تملك من أمرها شيئاً:

ولا تستطيع أن تقدِّم رِجلاً وتؤخر أخرى ، إنما تؤخذ على غِرَّة ، ولسنا ندري هل تقصر هذه الفرصة أو تطول؟ ومتى يحال بيننا وبين الادكار والاعتبار ، وتلقي الدروس من الحوادث والأخبار؟

إنَّ مما أكرم الله تعالى به الإنسان وشرفه على جميع خلقه أنَّه منحه صلاحية الاعتبار ، وصلاحية تلقي الدرس عما حوله ، فالحجر لا ينتفع ، ولا يغير موقفه ، إنما هو حجر جامد ميت لا حراك به ، ولا وعي ولا عقل ، كذلك الأشجار والنباتات ، وكذلك كثيرٌ من الحيوانات والعجماوات ، ولكن من الحيوانات من يتعظ ، ويعتبر ، وينتفع بما يقع حوله ، اضرب الكلب مرةً أو مرتين لا يقصدك ، إنه يعرف من يطعمه ، ويعرف من يضربه ، الكلب يعرف البيت الذي يجد فيه عظماً ، أو كسرة خبز ، ويعرف البيت الذي يستقبل فيه بهراوة ، وينزل عليه بالضرب ، فهو يميز بين البيتين ، ويقصد البيت الذي يجد فيه كسرة خبز ، أو لقمة عيش ، ويترك البيت الذي جرب مراراً أنه يضرب فيه ، أما الفَرَس فهو معروف بذكائه ، وخصوصاً إذا كان جواداً عربياً ، فهو معروف بالذكاء الموهوب ، الذكاء غير المعتاد ، وبعض الحيوانات تنتقم ، وتثور فيها الغيرة ، فتأخذ الثأر ، والفيل والبعير مشهوران بالحقد وأخذ الثأر وبالطبيعة الموروثة ، والذاكرة القوية ، يعرف البعير من أهانه ، ومن قسا عليه قسوة زائدة فينتقم منه ، فكيف بالإنسان؟ والله سبحانه وتعالى يمدح الإنسان بهذه الميزة ، فيثير فيه العقل الواعي ، ويريد أن يستخدم الإنسان عقله ، ويقول: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [آل عمران: ١٣] ، ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢] ويقول: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان: ٧٣] ويذم الذين لا ينتفعون بما يقع حولهم من حوادث وآيات ، وهذه هي الغاية الأخيرة التي يصل إليها الإنسان في البلادة والشقاوة إذا فقد الوعي ، ولم ينتفع بالدروس القاسية ، والحوادث الصارخة التي تقع حوله ، فهناك لا يُمهل ، فيُؤخذ ، ويُبطش به البطش الشديد ، يقول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥] ويقول: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي

ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

وأرجو أن تتأمَّلوا في الآية القارعة الزاجرة المنبهة؛ التي وصف الله فيها الكفار، وشنع فيها على غفلتهم، وتماديهم فيما هم فيه من باطل ولهو، وإطباقهم العين عما يقع حولهم من حوادث وزواجر، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الرعد ٣١] إن موضع الإعتبار في قوله ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ [الرعد: ٣١] هذا هو الكتاب المعجز الذي ينطق من قبل أربعة عشر قرناً بما يقع بعد قرون وعلى مسافات بعيدة، كأنه كتاب طري ينزل الآن، لا يقول ﴿ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الرعد: ٣١] إلا الكتاب السماوي المعجز الذي نزل بالوحي.

فنحن كلنا يجب أن نكون على حذر من أن ينطبق علينا قوله تعالى ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥] وأن نتعظ بالحوادث التي تقع منا على غلوة سهم كما يقول العرب القدماء، وأن نقرأ هذه اللوحة البارزة المكتوبة بقلم عريض، أو «الكتابة على الحائط» (نوشته ديوار) كما يقول المثل الفارسي، إنها أمارةٌ تظهر وتبدو على الأفق القريب لا البعيد، يقرؤها أمِّيٌّ ويفهمهما غبيٌّ، وهنالك موجات تموج حولنا، وعواصف تهب علينا، وصواعق تنزل على مقربةٍ منا: قد كان زمن كنا نستطيع أن نبصر كل ذلك ببصائرنا، بفراسة المؤمن، وبوعي العاقل، وبدراسة المؤرخ الدارس لنهضة الأمم وسقوطها، والمطلع على سنن الله تعالى في الكائنات، ولكن الحوادث الأخيرة نستطيع أن نبصرها بأبصارنا، وبعيون رؤوسنا، لا نحتاج في ذلك إلى المعية، أو بعد نظر، أو فراسة صادقة.

أيها الإخوان! إنَّ موضع الساعة هو الموضوع الملتهب كما يقال بالإنجليزية (Burning Topic) وكالسيف المصلت على الرؤوس، إنَّ هذه الحياة التي يعيشها كثيرٌ من الناس في بلادنا الإسلامية والعربية حياة ما أنزل

الله بها من سلطان ، وما تكفل الله لها بتأييد ونصر ، هذه الحياة لا تصلح للبقاء طبيعياً، وعقلياً، ودينياً، وخلقياً، هذه الحياة اللاهية الساهية ، هذه الحياة الباذخة المترفة ، هذه الحياة التي مثلها الأعلى المادة والمعدة ، هذه الحياة التي تدور حول فردٍ واحد ، أو حول أسرةٍ واحدة ، أو حول طبقةٍ واحدة ، هذه الحياة لا تصلح للبقاء إذا تركت وشأنها ولم تنزل صاعقة من السماء ، ففي هذه الحياة من عناصر التدمير ، ومن عناصر الشقاء ما يكفي للقضاء عليها ، لا تحتاج في ذلك إلى عامل خارجي ، الشرارة إذا كانت كامنةً في حطب؛ فلا تحتاج إلى إشعال نار ، لا تحتاج إلى مروحةٍ تحرك ، أو يدٍ قويةٍ تشعل ، الشرارة وحدها تكفي ، إنَّ طبيعة الشرارة أن تلتهب وتحرق.

إنَّ الحياة التي لا يشاهد الإنسان فيها إلا مسابقة مجنونة ـ كسباق الخيل المضمرة ـ للحصول على أكبر مقدار من الثروة ، مسابقة تتخطى المبادىء الإنسانية ، والحدود الخلقية ، جديرة بأن تزول وتنهار ، اسمحوا لي بالصراحة ، فهذا منبر رسول الله ﷺ ، وهذا هوا لمقام الذي كان ينطلق منه الإنذار ، أنا أعرف قدري ورحم الله من عرف قدره ، فأنا لا أنطلق تلقائياً ، ولكن الوضع الحاضر هو الذي ينطقني ، إنَّ الحوادث هي التي تنطقني وتمسك بتلابيبي وتقول لي: انطق وتكلم ، ولا تخف أحداً ، أنا طائر وقع على فرع شجرة ، وبدأ يرفرف بجناحيه ويسجع ، ثم طار ، إنَّ هذا المجتمع الذي يساق سوقاً عنيفاً لا رحمة فيه ولا هوادة إلى غاية عمياء ، إلى غاية جاهلية ، مجتمعٌ لا يدوم ، ولنا عبرة في البلاد القريبة التي ما قصرت في صيانة هذا المجتمع ، واعتمدت على كبرى الطاقات في الدنيا ، واستخدمت الطرق الحكيمة الداهية ، والوسائل الجبارة القوية ، والمخططات البارعة الدقيقة التي لم يستخدمها أي بلدٍ وأي شعب في هذا العصر ، فماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر : ٢] إنَّ ساعة الزمان لا تقف ، وإنَّ عقرب الانقلاب والتحول دائمٌ سائر ، إنَّه يتجه إلى بلدٍ دون بلد ، وإذا اتجه إلى بلدٍ في دورانه؛ فإنه يستطيع أن يتجه

إلى بلادٍ أخرى ، فلنكن كلنا على حذر ، ولنأخذ عدتنا قبل أن يتجه هذا العقرب إلينا ويستهدفنا ، إننا نلقي المسؤولية على حوادث سياسية ، نعم إنَّ لها تأثراً ، وإن الانقلابات السياسية يجب أن يحسب لها الحساب.

ولكن الذي يفتح الطريق لهذه الحوادث ، ويمهد الأرض لها ، ويقرب البعيد ، ويجعل شبه المستحيل ممكناً وما لم يكن يتصوره الإنسان واقعاً ، هو الأسلوب الذي تحياه بلادنا ، وهو توفير أسباب الخذلان من الله ، والسخط من الناس ، والحياة التي لا تتفق مع الدين والعقل.

إنَّ تاريخ حضارة الأمم ، وتاريخ نهضتها وزوالها يعلمنا أنَّه إذا أصيب مجتمع بشريٌّ بالتخمة بالمدنية والرفاهية ، وابتلي بالمسابقة المجنونة في الحصول على وسائل الترفيه وترقية المدنية ، وفي رفع مستوى المعيشة ، وبلغ رجال هذه المدنية قمةً في البذخ ، وقمةً في الترف ، وكانت عندهم جيوش كثيفة جرارة ، والعدد والعدة التي يحاربون بها العدو ، ويقهرونه ، فإنَّ هذا المجتمع يزول لا محالة ، وإنَّ هذه المدنية تنهار ، لا ينقذها شيء من هذا المصير المشؤوم المحتوم ، والنهاية الأليمة المقدرة.

قد أصيب المجتمع الفارسي الإيراني القديم في القرن السابع المسيحي الذي كان يحكمه أهل ساسان والأسرة الكيانية العريقة في المجد والعظمة بنفس الداء ، فقد بلغت المدنية فيها أوجها ، وذروة مجدها ، وزهوها. وهنالك أسماء معروفة في التاريخ الإيراني ، مذكورة بالأنساب ، كانوا يحافظون على هذه الأعراف ، ويوفون بهذه الشروط ، ولمَّا غزا العرب المسلمون هذه المملكة الساسانية المترامية الأطراف ، التي توزعت العالم المتمدن المعمور مع الدولة البيزنطية لم ينفعهم هذا الترف ، ولم يغن عنهم شيئاً ، بل كان من أكبر أسباب زوال هذه المملكة وانهيار هذه المدنية.

إلى هذه الحال وصلت المدنية الفارسية الباذخة ، وأصبح قادتها وأبناؤها لا يستحقون رحمة من السماء ، ولا ينالون رحمة من بين جلدتهم ، فكانوا يملقونهم إذا حضروا ، ويلعنونهم إذا غابوا ، وكانوا يبغضونهم بأعماق قلبهم ، ويمدحونهم بأطراف ألسنتهم ، رياءً ونفاقاً ،

وكانت المدنية تزخر بآلافٍ من الشعراء ، وآلاف من الأدباء ، ومئات من المؤسسات الكبيرة ، وثروة كان يحويها إيوان كسرى وقصر المدائن ، وتبدو ثروةً خياليةً أسطوريةً لا يصدقها الواقع ولا يسيغها العقل ، ولكن هذه المدنية الراقية ، وهذه الثروة الهائلة لم تنفع أهلها ، وكان هذا الجنون لترفيه النفس ، وإشباع الشهوات ، وإرضاء الغريزة ، هو الذي كان سبب هلاكهم ، وكان من أسباب سرعة الفتح الإسلامي العربي.

إخواني! إنَّ هناك حياة لا تستحق التأييد والنصر من الله تبارك وتعالى؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى هو العدل البرُّ الرَّحيم ، وهو العزيز الحكيم ، وهو ربُّ العالمين ، ليس ربَّ أمة ، وليس ربَّ شعب ، وليس ربَّ بلد ، وليس ربَّ مجتمع ، إنها ليست حاجات يجوز أن تكمل ، ويجب أن تحترم ، إنما هي نهامة بالمال ، إنها معدة خيالية ، ولا وجود لها إلا في التصورات ، لا وجود لها إلا في الأرقام ، وفي حسابات البنوك ، إذا تولدت هذه المعدة الخيالية في مجتمع ، وكانت هي الحاكمة ، وكانت هي الآمرة الناهية ، اكتسحت المجتمع موجةٌ عارمةٌ من التنافس المادي ، والجشع المالي ، والفوضى الخلقية ، والقسوة والوحشية ، هنالك يأذن الله بزوال هذا المجتمع ، وينطبق عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

إنَّ أخوف ما أخاف على هذه المناطق التي أكرمها الله بالثروات والخيرات وأدرَّ عليها الرزق الوفير والخير الكثير ، هو «البطر»[١] إنني إذا قرأت قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨] أخذتني رِعدةٌ ، وملكني الإشفاق والحذر على هذه المجتمعات السعيدة التي تعيش في عصر «ألف ليلة وليلة» وفي عصر الأساطير والأخيلة ، إنَّ أخوف ما أخاف عليها ليس هو العدو الخارجي ، لكن هو العدو الكامن في

(١) قال في القاموس: البطر: النشاط ، والأشر وقلة احتمال النعمة ، والدهش والحيرة ، والطغيان بالنعمة وكراهية الشيء من غير أن يستحق الكراهية.

النفوس ، الجاثم على المجتمع ، هو الذي أنذر به رسول الله ﷺ قريشاً في خطبته على جبل الصفا حيث قال: «إني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد».

وما كانوا يتوقعون حين سمعوا صوته: يا صباحاه! إلا أنه يخبرهم بعدوٍّ كامنٍ ، قاعدٍ بالمرصاد وراء جبل الصفا يغير عليهم على غِرَّةٍ منهم ، فيستاق إبلهم ومواشيهم ، وينهب أموالهم ويسبي ذراريهم فهذا الذي كانوا يعرفون من معنى هذا الهتاف ، ولم يجربوا إلا نوعاً واحداً من العدوِّ ، وهو العدوُّ الخارجيُّ من إحدى القبائل المعادية المنافسة ، لكن الرسول ﷺ نبههم على خطر جديد ، لم يكن لهم به عهد ، وهو العدوُّ الباطنيُّ ، هو الحياة الجاهلية الوثنية التي كانوا يعيشونها بعقائدها وأخلاقها ومثلها ، إنَّ العدو إذا وجد في داخل مجتمع، وفي البيوت والمنازل، وعشش، وباض وفرخ في الأخلاق ، وفي الميول والرغبات ، وفي المثل العليا ، والمفاهيم والقيم ، فهذا هو العدو الحقيقيُّ الذي لا يؤمن حيناً ، ولا يفارق أبداً ، إنما هي حياةٌ جاهلية برَّأ الله العرب منها قبل أن يبرىء منها غيرهم. فكانوا حاملي راية المساواة الإنسانية ، وراية الرحمة بالإنسانية المعذبة ، وراية التقشف في الحياة ، وراية الزهد في حطام الدنيا ، وراية إيثار الآجلة على العاجلة ، وإيثار الغير على النفس ، وقد وصفهم الله بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وهم الذين خاطبهم مربي الأمة وحكيمها ، الخليفة الإسلامي العربي عمر بن الخطاب ، القرشي العدويُّ في وصيته الحكيمة للعرب «إياكم والتنعم وزي العجم ، وتمعددوا[١] واخشوشنوا[٢] ، واخشوشبوا[٣] واخلولقوا[٤] وأعطوا الركب أسنتها ، وانزوا نزواً[٥] وارموا الأغراض

(١) تمعدد الغلام: شبَّ وغلظ ، وقيل: معناه تشبهوا بعيش معد بن عدنان ، وكان ذا غلظ وتقشف.

(٢) اخشوشن: تخشن في المطعم والملبس.

(٣) اخشوشب: صار صلباً كالخشب في أحواله وصبره على الجهد.

(٤) تبذلوا في الملابس.

(٥) نزا ينزو ونزواً: وَثَبَ ، يعني: اركبوا الخيل وثباً ونزواً.

وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب»[1] فكان يجب أن يكون العرب أبعد الأمم عن الحياة الرخية الرقيقة ، وأكثرها محافظة على حياة البساطة والخشونة ، والأخذ بالعزيمة ، فإنها هي الأمة المهيأة لقيادة البشرية في كلِّ زمان ، فكيف إذا كانت بين فكي أسد ، ومحاطة بالأعداء والأخطار .

إنما شقيت الإنسانية ، وشقيت المدنية دائماً بالحاجاتِ الخيالية ، والغايات المختلفة ، والمثل الزائفة ، إنها لم تشق بالحاجات الطبيعية ، إنه لا ذنب على المعدة الحقيقية ، وقد أحسنت الشاعرة الجاهلية حين عيرت أخاها في طمعه الزائد في المال ، وقالت :

وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم؟

إنَّ المعدة الخيالية لا تملؤها الرمال ، ولا تملؤها الأحجار والجبال ، وصدق رسول الله ﷺ «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب» .

إنَّ أحد نوابغ هذه العصر وكان إسرائيلي السلالة ، يهودي الديانة ، غربي النشأة ، وهو محمد أسد النمساوي الذي كان يسمى سابقاً بليوبولد ويس Leopold Veiss يحكي قصة إسلامه فيقول : إني كنت مسافراً في سنة ١٩٢٦ م في قطار برلين تحت الأرض ، وكانت معي زوجتي ، وهي رسامة ، وفنانة ، كانت ذكية جداً ، وقد لاحظت أن كل زملائي في هذه الدرجة مكتئبون تعلو وجوههم كآبةٌ ، ويغشاها قتامٌ ، وكان ما يحملونه من متاع ، ويلبسونه من ملابس ، ويتحلون به من خواتم ، يدلُّ على أنهم من الطبقة الثرية في البلد ، وكان الزمن زمن الرخاء الذي عقب سنوات «التضخم» في أوربا ، فأنا تحيرت ، وفكرت ، وقلت : لماذا هذه الكآبة ، ما سبب هذا الحزن العميق الذي هم غارقون فيه؟ ولفتُّ نظر زوجتي ، وقلت : يا عزيزتي! انظري في وجوه هؤلاء القوم! ألا تشعرين بأنهم تعلوهم الكآبة ،؟ قالت : نعم ، إنهم جميعاً يبدون وكأنهم يعانون آلام الجحيم ،

(١) رواه البغوي عن أبي عثمان النهدي .

فأردت أن أفسر هذه الظاهرة ، فلم أنجح ، ورجعت إلى مكتبي ، فإذا بالمصحف على منضدتي ، فأخذته من غير قصدٍ ، وفتحت من غير اختيار ، فإذا بسورة التكاثر تطالعني ، ويقول الله تبارك وتعالى:

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ١ ـ ٨].

وكنت متردداً: هل أدخل في الإسلام ، أو لا أزل أشرحه، وأعرضه في الأسلوب العلمي العصري كما كان شأني ، ولم أكن قررت بعد أن أعتنق الإسلام ، ولما قرأت هذه السورة ، قلت: والله إنَّ هذا الكلام لا يأتي به إلا من ينزل عليه الوحي ، هذا الكلام لا يقوله بشر قبل ثلاثة عشر قرناً ، إنه يصور المجتمع الغربي المعاصر الراقي بقسماته ومخايله ، ويتنبأ بالعذاب النفسي الذي يتميز به هذا القرن العشرون رغم رقيه الصناعي والحضاري ، ويعين مصدر هذا العذاب والشقاء الذي كان يعانيه ركاب القطار ، الذين رافقتهم ، ويعانيه المجتمع الأوربي بشكل عام ، وهو «داء التكاثر» لا غير ، فمن ساعتي خرجت إلى صديق لي مسلم هندي ، وقلت: يا أخي! ماذا يفعل من يريد أن يدخل في الإسلام؟ قال: يقول: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله**» فنطقت بالشهادتين ، وأصبحت مسلماً[1].

إخواني! أنا أوصي أولاً نفسي وإيّاكم بعد ذلك ، أن نعتبر بالحوادث التي تقع حولنا ، وأن نغير نفوسنا قبل أن تغيرنا العوامل القاهرة ، المفروضة علينا في الداخل ، أو الواردة إلينا من الخارج ، التي تجوس خلال الديار ، ولا ترحم أحداً ، ولنجعل المثل الكامل هو الحياة الإسلامية العادلة ، المؤسسة على إيثار الآخرة على الدنيا ، المؤسسة على الحقائق الغيبية الدينية ، والمثل الخلقية ، والمبادىء الفاضلة ، ونحترز من الذنوب والكبائر ، وقد كتب سيِّدنا عمر بن عبد العزيز إلى قائد جيشه فقال:

---

(١) اقرأ القصة بطولها ونصها في «الطريق إلى مكة» لمحمد أسد ص٣٢٧ ـ ٣٢٩ ، ولقد لخصها العلامة الندوي في المحاضرة اعتماداً على ذاكرته.

«آمره ألا يكون من شيء من عدوه أشدَّ احتراساً منه لنفسه ومن معه من معاصي الله ، فإنَّ الذنوب أخوف عندي علىٰ الناس من مكيدة عدوهم ، إنما نعادي عدونا ونُنصر عليهم بمعصيتهم ، ولولا ذلك لم يكن لنا قوة بهم ، لأنَّ عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فلا استوينا نحن وهم في المعصية كانوا أفضل منَّا في القوة والعدد ، فلا ننتصر عليهم بحقنا ، ولا نغلبهم بقوتنا ، ولا تكونوا لعداوة أحدٍ من الناس أحذر منكم لذنوبكم».

أقول هذا وأستغفر الله لي ولكم ، وأدعو لكم وللمسلمين جميعاً ببقاء العافية ، وطول السلامة ، والتوفيق والهداية.

* * *

إلى الإسلام من جديد

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في مدينة أبو ظبي بدعوة من وزارة الإعلام في مسجد سعد بن أبي وقاص ، بعد صلاة المغرب ١٦ من صفر ١٤٠٤ هـ الموافق ٢٠ من نوفمبر ١٩٨٣ م ، غصَّت قاعة الجامع بالحاضرين من أعيان البلد ، ووجهائه وعدد من رجال الحكومة والثقافة والتربية . وإلى القراء الآن هذه المحاضرة القيِّمة .

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

أما بعد! فإنَّ موضوع الليلة ـ في هذه الأمسية المباركة ـ وهو «إلى الإسلام من جديد» وقد يبدو غريباً ، وقد يبدو تحدياً في هذا المجتمع الإسلامي؛ الذي تعيشون فيه ، ونعيش فيه هذه اللحظات المباركة ، وقد يبدو إساءةً إلى إخواننا المسلمين الذين نتحدث إليهم ، ونخاطبهم ، ودعوناهم بهذا العنوان ، فما معنى ذلك؟ ألسنا مسلمين؟ ويحقُّ لكلِّ واحدٍ منكم أن يتساءل: أما سمعتَ الأذان يدوي في الآفاق لما وصلت إلى هذا المكان؟ أما رأيت الناس يصلُّون؟ أما علمت شيئاً عن هذا البلد الإسلامي الكريم؟ فما معنى «إلى الإسلام من جديد؟!» .

لقد قررتُ هذا العنوان قصداً لا عفواً ، فإني أريد أن أثير فيكم التساؤلات الكثيرة حول هذا الموضوع ، معاذ الله! إنني لا أشك في إسلامكم أيها السادة وإخواني العرب! بل أنا مدين لكم في كل ما أكرمني الله به من إيمان وعقيدة ، وشعور ، وإنسانية رقيقة ، وغيرةٍ إسلامية ، وإنَّ كلَّ ذلك فيض من إيمانكم ، وغيرتكم ، ودعوتكم التي حملتموها في الماضي ، إني لا أقول عن نفسي ، فإنني عربيُّ النسب ، وعربيُّ اللغة ، وعربيُّ الأدب بدراسة ، ولكنِّي أقول عن المواطنين الذين نعيش بينهم كانوا يعبدون البقر ، وكانوا يعبدون النهر ، وكانوا يعبدون الشجر ، وكانوا يعبدون كل شيء إلا الله ، فأكرمهم الله ، وهبت عليهم نفحات الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ بهذه الجزيرة ، أنا قلت لإخواني الهنود: أنا لا أرى الجزيرة العربية كلَّها ـ بما فيها دولة الإمارات ـ إلا امتداداً لمكة ، لا أنظر إلى هذا البلد وإلى بلد أبعد عن هذا البلد إلا وكأنه من ضواحي مكة ، فإنَّ مكة والمدينة شرفهما الله تعالى هما مصدر كلِّ خير ، وهما مصدر الحياة الجديدة .

لولا الإسلام لما نلتم هذه السعادة ، ولما كانت لكم أهمية ، ومكانة ،

ليس في خارطة العالم الإسلامي بل في الخارطة السياسية ، بل في الخارطة الثقافية ، والخارطة المعنوية اللتان هما أهم من الخارطة السياسية ، فإنَّ الخارطة السياسية تتبدل في ظرف ساعات ، ولكن الخارطة الثقافية تدوم قروناً ، بل آلافاً من السنين ، والخارطة المعنوية ، والخارطة الخلقية المبدئية هي التي تدوم آلاف السنين ، وهي التي تصنع السياسة ، ليست السياسة هي التي تصنع العقيدة ، بل العقيدة هي التي تصنع السياسة ، أما تذكرون قول الرشيد؟ وما قيمة الرشيد؟ وما قيمة الخلافة العباسية؟ كله صدقة من صدقات النبوة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام ، استطاع الرشيد لما ورث الإسلام ، ولما حمل أمانة الإسلام ومسؤولية الحكم الإسلامي ، استطاع أن يقول لسحابة مرت فوق رأسه: «أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك هنا» تصوروا يا إخواني هل كان للرشيد ، ولابنه مأمون الرشيد ، أو لأخيه المعتصم أو لأي ملك من ملوك المسلمين أن يقول ذلك ولو مرت بهم قرون عديدة، كانوا يتسكعون في الجهالات، كانوا يتخبطون في الظلمات، لم يكن لهم وزن في كفة السياسة ، ولا في ميزان الثقافة ، ولا في ميزان المبادىء والأخلاق ، كل ذلك جاء عن طريق محمد عليه الصلاة والسلام.

معاذ الله ، يا إخواني من أن أدعوكم للإسلام من جديد إنَّ الإسلام هو الإسلام ، ولا يزال هو الإسلام ، المسلمون تغيروا ، ولكن الإسلام كما كان ولا يزال ، ولكن أريد أن نراجع نفوسنا ، وأن نراجع نمط حياتنا ، ونحكم على نفوسنا ، ونرى هل نحن نتحلى بحقيقة الإسلام؟ هل نحن نحمل حقيقة الإسلام؟ إن هنالك فرقاً شاسعاً بين الحقيقة والصورة ، وخذوا صورة أسد وأي حيوان أكثر منه مهابة ، وأعلى منه صوتاً ، وأشجع منه قلباً ، وإن كان الأسد مضخماً مجسماً مفخماً ، فإن صورة الأسد لا ترعب أحداً ، حتى ولو كان الطفل الصغير الذي يحمل حقيقة الحياة والشعور في أصابعه الصغيرة البريئة ، يستطيع ذلك الطفل أن يمزق صورة الأسد ، الذباب يجلس على صورة هذا الأسد ، والأسد لا يدافع عن نفسه كما يقول القرآن عن الأصنام ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

لقد أصبح كثيرٌ من المجتمعات الإسلامية صورة إسلامية وفقدت الحقيقة الإسلامية ، إنما ندعو نفوسنا وأنا أحشر نفسي معكم ، إنني أدعو نفسي وإياكم يا إخواني للتحلي بحقيقة الإسلام ، حقيقة الإسلام التي تدعو إلى التوحيد الخالص ، التي تدعو إلى أن لا يخاف المسلم أحداً فوق الأرض ، أو في الكون ، حقيقة الإسلام التي تدعو إلى معرفة الله تبارك وتعالى ، معرفة تحفر في عينه الدنيا وزخارفها ومظاهرها ، حقيقة الإسلام التي تعلم إيثار الآخرة على الدنيا. حقيقة الإسلام التي تعلم الاستهانة بالزخارف والمظاهر ، حقيقة الإسلام التي تنظر إلى متاع الدنيا كأنه متاع زائل ، حقيقة الإسلام التي تدعو إلى شيء من التقشف في الحياة ، حقيقة الإسلام التي تنكر البذخ والترف المدمر للأمم والشعوب؛ الذي كان يعيشه الفرس ، والرومان ، كان الأمير منهم يتمنطق بمنطقةٍ لا تقل قيمتها عن مئة ألف ، وإذا قلّت قيمتها عن ذلك عُيِّر ، وازدرته العيون ، وإذا لبس أحدٌ من كبراء الفرس ـ وهذا يقوله الإيرانيون أنفسهم ، والعالِم الدنماركي (A.I Christensess) الذي هو صاحب اختصاص في تاريخ إيران ، يسجل ذلك في كتابه «إيران في عهد الساسانيين» ـ إذا لبس أحدهم قلنسوةً قيمتها أقل من مئة ألف عُيِّر ، وما فسح له المكان ليجلس بجوار أركان الدولة ، وبجوار الكبراء والأغنياء ، ولمَّا اضطرَّ يزدجرد آخر أباطرة إيران لمَّا اضطر لمغادرة البلاد لينجو بنفسه أخذ ألف طابخ ، وألف مربٍ للصقور ، وألف مغن ، ثم يقول: يا أسفاه كيف أعيش بهذه القلة القليلة من الطهاة ، والمربين ، والمغنين ، فهو يختنق ، ويضيق صدره ، ويقول: ما يمكنني أن أعيش بهذه الحفنة من الخدم والحشم ، ولي ألف طاهٍ فقط.

إلى هذا الحد بلغت المدنية الإيرانية المزورة ، وإلى هذا الحد بلغت المدنية الرومانية البزنطية ، وفي التاريخ تفاصيل عن ذلك ، فماذا كان عاقبة هاتين المدنيتين؟ إنهما انهارتا أمام الإسلام الزاحف ، أمام الإسلام الحقيقي ، أمام الإسلام الإنساني ، الإسلام الذي جاء رحمة للإنسانية ، ولإنقاذ البشرية ، والشعوب المضطهدة المستعبدة من براثن القياصرة والأكاسرة ، فقد كان بسيطاً متقشفاً في الحياة ، زاهداً في الدنيا ، دافقاً

بالحيوية والقوة ، إنَّ من أسباب انهيار هاتين المدنيتين البذخَ والترفَ اللذان قد بلغا القمة ، وإلى حدٍّ لا يتصور ، لا أستطيع أن أُلمَّ بدقائق عن المدنية الرومانية وعن أناقتها ، وعن تفننها ، وعن دقة شعورها. وعن إمعانها في الإسراف ، وعن شغفها بالمظاهر والزخارف.

فالذي أخشاه على هذه الأمة يا إخواتي! وعليَّ أن أقول لكم بكل صراحة: إن هذا المنبر يفرض عليَّ أن أكون صريحاً. وما أدري هل تمتد حياتي إلى أن آتيكم مرَّةً بعد مرَّة ، وأثير فيكم هذه المعاني ، فأقول لكم بكل صراحة: إننا في أشد الحاجة إلى التحلي بحقيقة الإسلام ، وبروح الإسلام الحقيقية؛ التي تغلغلت في أحشاء الصحابة رضي الله عنهم ، واستطاعوا بذلك أن يفتحوا نصف العالم في نصف قرن ، كما يقول المؤرخون ، لولا التقشف في الحياة ، ولولا الصرامة والجلد ، وقوة الإرادة ، ولولا الفروسية العربية الإسلامية؛ لما استطاعوا أن يفتحوا نصف العالم في نصف قرن الشيء الذي لم يحققه أحدٌ من الفاتحين ، أو من المنشئين لتلك الإمبراطوريات.

أقول لكم: يجب علينا أن نحاسب أنفسنا قبل أن ينزل بنا ما نزل بالأمم السابقة؛ التي حصدها البذخ الخيالي ، لا يجوز لنا أن نعيش عيشة ألف ليلة وليلة ، عصر ألف ليلة وليلة انقضى من غير رجعة ، ليس له محلٌ الآن في العالم الواقعي ، يجب علينا أن نكون واقعيين ، يجب علينا أن نوطِّن نفوسنا على الجلد ، لا أقول الرهبانية ، بل أقول على شيءٍ من التقشف العربي: كما قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تمعددوا ، واخشوشنوا ، واخلولقوا . . . إلخ.

إن الدين هو الدين ، والإسلام هو الإسلام ، ولكن يحتاج إلى إيمان جديد بالإسلام ، ليس الإسلام قديماً ولا حديثاً ، الإسلام كالشمس ، بل أقدم من الشمس ، وأجد من الشمس ، ولكن نحتاج إلى إيمانٍ جديد ، إيمانٍ يستطيع أن يتغلب على المغريات العصرية ، كل شيء يتجدد ، الغِذاء يتجدد ، ودعوة المادية تتجدد ، وتقوى ، فلماذا لا يتجدد الإيمان؟ إنَّ

الإيمان البالي ، الإيمان الذي فقد الحيوية ، فقد القوة ، لا يستطيع أن يقاوم هذه المغريات الفارغة ، هذه الحضارة الساحرة ، هذه المادية الرعناء .

لو لم يكن عند الصحابة رضوان الله عليهم مثل هذا الإيمان الأسمى لما استطاعوا أن يقاوموا الحضارتين الرومانية والإيرانية اللتين قد بلغتا شأواً بعيداً ، وقد ضربتا الرقم القياسي في عالم الخيال ، ولكن بإيمانهم الحقيقي الثابت الملتهب كالشعلة ، استطاعوا لا أن يتغلبوا فقط ، بل أن يحرقوا هذه الأكوام من الحشائش ، وهذه المجموعة الكبيرة من الركامات ، تغلب إيمانهم على الركامات البشرية ، جاء الإيمان وسحق هذه الأنقاض المادية الملوكية الشهوانية الأنانية ، وبغير ذلك الإيمان الحي الدافق المتغلغل في الأحشاء المسيطر على النفس لا نستطيع أن نقاوم المغريات المادية الحديثة؛ التي جاءت بها أوربا لتلهينا عن أهدافنا وعن خلقنا وعن سيرتنا ، وأنتم إخواني العرب أولى بذلك ، فلولا هذه الفروسية العربية ، ولولا التمرد على الشهوات ، ولولا الاستهانة بالحياة ، ولولا الاستهانة بالمظاهر؛ لما استطاع العرب أن ينشروا الإسلام في أقرب وقتٍ ، وفي أوسع مجال .

جاءنا العرب في القارة الهندية ، حتى الآن ما يزال أثرهم باقياً في مقاطعة السند ، وما تزال هناك كلمات عربية ينطق بها أهل السند الهندوس ، لا يزالون يسمون يوم الخميس خميساً ، ولا يزالون يمسون الحصير حصيراً ، ولا يزالون يسمون الثوم ثوماً ، وما زال خطهم عربياً إلى أن انتشرت فيهم الدعوة الطائفية .

وكان أثر العرب أعمق في أندونيسيا وماليزيا ، ذهبت طوائف من تجار العرب ، وكونوا هذه المجموعة الكبيرة من المسلمين ، وما يزال المسلمون يشكلون المجموعة الكبيرة في جزر المحيط الهندي ، بأي طريق؟ بطريق إيمانهم الحي الدافق ، بطريق خلقهم المستقيم ، بطريق أمانتهم ، بطريق نصيحتهم ، وطريق مساعدتهم لك بائس ملهوف ، بطريق حرصهم على نشر الإسلام ، فيجب علينا أن نتحلى بهذه الحقيقة الإيمانية ، ولا نكتفي بالصورة ، إن الصورة الإسلامية بلا شك فيها خيرٌ كثير ، وهي أجمل وأروع

من كلِّ صورة ، ولكنها على كلِّ حال صورة ، إذا تجردت من الروح ، ولكن إذا اقترنت هذه بالحقيقة ، وسرى فيها الروح الإيماني كانت العجب العجاب ، وظهرت منها المعجزات .

والعالم اليوم ـ رغم ما تقرؤون من أخبار سطوة الشعوب الأوربية ـ عالمٌ منهار ، ومجتمعٌ مفكك ، مجتمعٌ متعفن ، مجتمعٌ فقد الروح ، لا يحتمل الصَّدمة ، ولكن أين تلك الصَّدمة التي تصدم هذه الحضارة ، الحضارة التي قد أينعت وحان قطافها ، ولكن أين السلة التي تقع فيها كما يقول محمد إقبال ، يقول : الحضارة العربية قد نضجت ، وأينعت ، وحان قطافها ، وقريباً تسقط من الغصن ، ولكن أين السلة التي تحملها ، ليس هنالك بديل ، والفراغ غير طبيعي ، الفراغ في الأمم وفي الحضارات ، وفي نظم الحكم ، وفي عالم الواقع لا يتصور ، لا بدَّ من بديل ، وكان المسلمون بديلاً عن الحضارة الرومية ، وعن الحضارة الإيرانية ، فاختارهم الله سبحانه وتعالى ، ومنحهم القيادة العالمية ، ومنحهم السيادة والريادة والحبَّ العميق . أحبتهم الأمم المفتوحة ، وفضلتهم على أصحاب ديانتها وجنسيتها .

لذلك أنا عينت موضوع المحاضرة في هذه الليلة «إلى الإسلام من جديد» ولو كان عندي فرصةٌ ، أو وسيلةٌ لإبلاغ صوتي إلى أقصى العالم الإسلامي وطلب مني هتاف واحد بعد «الله أكبر» لاخترت : إلى الإسلام من جديد» ولو قيل لي اختر لوحة مكتوبة نعلقها؛ لكتبت عليها «إلى الإسلام من جديد» فإلى الإسلام من جديد أيها المسلمون من قديم! أيها المسلمون من الأول!

* * *

لا بُدَّ من أولي بقية ينْهونَ عَن الفساد في الأرض في كلِّ زمان

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في مدينة الشارقة بدعوة من رئيس مركز الدعوة الإسلامية في مسجد عمر بن الخطاب ، مساء يوم الإثنين في ١٧/ من صفر ١٤٠٤ هـ ، الموافق ٢١/ من نوفمبر ١٩٨٣ م ، حضرها عدد كبير من رجال الفكر والدعوة وأساتذة الجامعات ، وغَصَّت القاعة بالمستمعين بصورةٍ غير عادية. وإلى القراء هذه المحاضرة.

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين ، محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

أما بعد! فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ١١٦].

سادتي وإخواني! هذه آية من سورة «هود» كلما تلوتها يقشعر جلدي ، وتثور فيَّ المشاعر ، إن الآية في أسلوب قرآني مؤثر مرقق ، لا أجد تعبيراً يعني بحق هذه الآية ، ويقول الله تبارك وتعالى ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ ﴾ إن كلمة «أولو بقية» كلمة لا يفي بها تعبيرٌ ، ولا شرحٌ ، ولا تفسيرٌ ، يعني: لماذا لم يكن حين انتشر الفساد في قطعة من الأرض ، وفي العالم ـ كما كان الشأن في القرن السادس المسيحي ، في الجاهلية العالمية التي طبقت الآفاق ، ولا تصوير أدق من تصوير القرآن ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١] أولو بقيةٍ ينهون عن الفساد؟ وهذا أسلوب القرآن يحيل على الماضي ولكنه يثير في المعاصرين لنزوله ، المباشرين لتلاوته الشعور بالمسؤولية في الحاضر ، فإنَّ القرآن هو الكتاب الخالد الذي لا تبلى جدته ، هو الكتاب الذي يعاصر الأحداث ، ويعاصر الأمم والأجيال ، ولا يساير الزمن فحسب ، بل يسبق الزمان ، ويقود البشرية ، فيرجع بنا إلى الماضي لنرجع إلى الحاضر والمستقبل(١) ، فكأنه يقول: لماذا لا يكون في الجيل المعاصر لنزول القرآن ، والأجيال المخاطبة بالقرآن في كلِّ زمان ومكان أولو بقية؟ و«أولو بقية» كلمة لو ألف كتاب ضخم في شرح هذه

(١) والقرآن مملوء بشواهده وأمثاله .

الكلمة (أولو بقية) ولماذا يوصفون بأولي بقية، وما هو الفرق بينهم وبين سائر الناس، لقصر القلم، وعجز اللسان، وانتهى الكتاب.

إنَّ البشرية، أيها السادة! ما زالت ولا تزال هدفاً لعوامل التدمير والإفساد، منها عوامل داخلية باطنية، من الشهوانية، والأنانية، وعبادة النفس، وحب اللذات، ومن قصور النظر، ومن الانصراف إلى الدنيا، والخضوع للمادة والقوة، ولعوامل الشذوذ، والانحراف، ومنها عوامل خارجية، من فساد البيئة والمجتمع، وسوء التعليم والتربية، وانحراف القوانين والنظم، والإنسان يعيش في الواقع، لا يعيش في الأحلام والأماني، ولا يعيش في الفلسفات والتصورات، يسعى على قدميه: ويتنفس في الهواء، فإن كان الهواء فاسداً، تنفس الفاسد، وإن كان الهواء عفناً؛ تنفس العفونة، وإن كان الهواء صالحاً نقياً؛ تنفس النقي الصالح. فلا يستغرب أن ينتشر الفساد الخلقي والفساد الاجتماعي انتشاراً عاماً إذا توفرت أسباب قاهرة لإفساد مجتمع خاص، هذا وقع آلافاً من المرات، وسيقع مراراً إذا كان في الوقت متسع، والدنيا أجل ممدود.

ولكن المعوَّل على وجود طبائع صالحة، وضمائر حية، وعقول نيرة، وعقائد جازمة راسخة، ودعوات قوية مؤثرة، والعمدة على خلفاء الأنبياء عليهم السلام، وعلى حملة الرسالة ومشاعل النور، ليس من الغريب أن يمرض الإنسان، وليس شيئاً مروعاً مؤيساً، الغريب المروع المفزع هو فقدان الطبيب، وهو الذي حذرت منه الديانات السماوية، وحذرت منه الأنبياء ـ وسيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وسلم بصفة خاصة ـ وهو أن يفقد الأطباء، ويفقد التألم النفسي بالفساد، ويفقد من يواجهه وجهاً لوجه، ويقف في تياره كالسد المنيع، والطود الشامخ الذي لا يتزلزل، ينتشر الفساد، ولا يجد مقاومة، ينتشر الفساد ولا يجد تحدياً، ينتشر الفساد ولا يجد منكراً، أو مستنكراً، هذا هو البلاء، هذا الذي عرض الركب البشري للنار أو الدمار، والانتحار والانهيار، وساد الفساد على المجتمع الإنساني كله، وهو الذي يصوره القرآن بقوله المعجز البليغ، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الروم: ٤١].

فالشيء المثير للتأمل والقلق ، هو عدم وجود الأطباء الناصحين ، المتألمين المستنكرين لهذه الأوضاع الفاسدة ، الذين لا يطيب لهم طعامٌ ، ولا شرابٌ ، ولا نومٌ في هذا الوضع ، ويتعكَّر عليهم صفو الحياة ، فالشيء الأساسي الرئيسي هو وجود أولي بقية ، عندهم أثارة من شعور ، وبقية من غيرة إنسانية ، ومن حياة الضمير ، ومن الوعي الصحيح الديني ، بقية من التألم والاهتمام بمصير الإنسانية ، أو الاهتمام على الأقل بمصير المجتمع الذي يعيشون فيه ، وهؤلاء أولو بقية ما زالوا في كل فترة حالكة ، يبرز وجههم في فساد المجتمع ، ويقومون ، يتحدَّون الفساد ، ويصرخون به ، ويخاطرون بمستقبلهم في سبيل الدعوة والإصلاح ، كما يقول القرآن عن سيدنا صالح عليه السلام ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢] ، فكثير من المرجويين الذين كان لهم الغد المضمون والمستقبل المشرق ، كانوا يخاطرون بمستقبلهم وبإمكانياتهم ، ويجازفون بحياتهم ، ويخاطرون بأهلهم ، ويتحدَّون الباطل ، ويقفون في وجه الفساد ، ويقولون : لا نرضى بهذا الوضع أبداً ، قد كان هؤلاء أولي بقية في بعض الأحيان أفراداً يعدون على الأصابع ، وقد كان هؤلاء جماعة ، أو أمة في الزمن الذي عمَّ فيه الفساد ، وتفاقم الشر ، بحيث خرج إصلاح الحال من دائرة إمكان أفراد ، مهما أوتوا من المواهب ، ومهما أوتوا من الذكاء ، ومن النفوذ على النفوس ، وامتلاك ناصية البيان واللسان ، فقد كان الفساد أوسع وأعظم من أن يقف في وجهه أفراد أفذاذ من الناس ، هنالك أرادت مشيئة الله تعالى أن تنهض أمة .

وهذه قصة القرن السادس المسيحي الزمن الذي سبق الإسلام ، كان الفساد أوسع من أن يقوم له أفراد ، ولو كانوا عماليق في الفكر ، عماليق في قوة الإرادة ، وفي الشجاعة ، وفي الإخلاص ، ولكن لم يكن هذا يدخل في نطاقهم ، هنالك أراد الله أن تقوم أمة ، ولذلك قرن الله سبحانه وتعالى بعثة آخر الرسل ، وسيدهم وخاتمهم ببعثة أمة بأسرها ، كانت بعثته صلى الله عليه وآله وسلم بعثة فردية تتجلى في شخص النبي صلى الله عليه وآله

وسلم ، وهو النبي الذي ختم به الله تبارك وتعالى الرسالات والنبوات ، فلا نبي بعده ، قرن هذه البعثة ببعثة أمة ، لأنَّ المهمة ضخمة جداً ، وهي الأمة الإسلامية ، والقرآن استخدم تعبيراً يدلُّ على أنَّ هذه الأمة التي رافقت النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم في غزواتـه وفي دعوتـه ، وفي سلـوكـه ، وفي حمل رسالتـه ، هذه الأمـة لم تـكن أمة من الصدف ، ولا كالحشائش الطفيلية التي تنبت في الحقول غير مقصودة ، إنما هو نبت إلهي ، نبت رباني مقصود ، أراد الله أن تقوم هذه الأمةـ بأسرها كحاملـة الرسالـة ، فاستخدم لهـا القرآن تـعبيراً يختلف عن تعبير الأمم السابقة ، قال : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠].

هذا الشعور الذي كان يحمله الصحابة رضي الله عنهم؛ حتى الذين لم يكونوا على مستوى رفيع جداً من الثقافة والتربية النبوية ، كأن هذا الشعور قد انتشر في أفراد هذه الأمة على اختلاف مستوياتهم .

لمَّا كان الفساد مخيماً على العالم الإنساني كلِّه في القرن السادس المسيحي ، وكان الظلام حالكاً قاتلاً ليس قاتماً ، قاتلاً للضمائر ، قاتلاً للنفوس ، قاتلاً للعقول ، كان إصلاح الأوضاع خارجاً من إمكان أفراد ، مهما بلغوا من قوة الإرادة ، ومهما بلغوا من الذكاء ، وامتلاك الوسائل والأسباب ، هنالك بعث الله أمة بأسرها لتحارب هذا الفساد المنتشر حول هذه الأمة ، وحول هذه الجزيرة .

ولكن كيف كان ذلك؟ إنما كان ذلك بصفاتٍ امتاز بها أفراد هذه الأمة في الأمم ، منها قوة الإيمان ، وعمقه في نفوسهم ، وتغلغله في أحشائهم ، وكتب السيرة والتاريخ طافحةٌ بأمثلته ، فقد كان مدى إيمان الصحابة بمواعيد الله تعالى ، وبمواعيد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فوق ما يتصوره الإنسان ، ثم حسن الخلق واستقامة السيرة ، ثم بساطة المعيشة والتقشف في الحياة ، والبعد من البذخ والترف اللذَيْن ابتلعا الأمة الرومانية ، والأمة الفارسية ، ونخرتهما كما ينخر السوس العود ، الترف المدمر ، الفاتك بالكفايات ، الفاتك بالطبيعة البشرية .

والذي أخشاه على الأمة العربية ، الذي أخشاه على المجتمع العربي الإسلامي الكريم ، هو أن تكون مثالاً أو تكون نموذجاً لتلك المدنية المصطنعة ، المدنية التي حادت بهم عن كلِّ مكرمة ، وعن كل بطولة .

لما أراد الله بالأمة العربية أن تكون ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ ﴾ [هود: ١١٦] اصطفاها الله تبارك وتعالى وجعلها أمة متقشفة ، قوية الخلق ، كريمة السيرة ، حية الضمير ، تحمل قلباً متألماً ، متوجعاً للإنسانية ، وخلق في نفسها من الرحمة للبشرية ما لا يبلغها قياس ، ترق نفوسهم للبشرية ، وتدمع عيونهم على حاضر البشرية ومستقبلها ، وينسون أولادهم ، وأهلهم ، وأنفسهم في سبيل إخراج البشرية من هذا المستنقع المتعفن الذي كانت تتردى فيه ، خلقهم من جديد ، كأنهم ولدوا في الإسلام ولادةً جديدة ، لا يشبهون حياتهم الجاهلية في شيء ، كأنهم نبتوا من الأرض ، أو نزلوا من السماء ، إنسان غير إنسان ، وبشر غير بشر ، يصف الصحابي الجليل سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الصحابة رضي الله عنهم ، فيقول: «أبر الناس قلوباً ، وأعمقهم علماً ، وأقلهم تكلفاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإعزاز دينه» ولما استفسر قيصر الروم ـ الإمبراطور هرقل ـ الفلول المنهزمة من الجيش الروماني الداحر للفرس في الأمس القريب ، وسأل قادتها: لماذا تنهزمون كل يوم ومعكم الجيوش الجرارة التي دوخت إيران بالأمس؟ ما السر في ذلك؟ لماذا تنحسرون بهذه السرعة؟ من هم هؤلاء؟ أهم من الجن؟ أم من العفاريت؟ والله صفهم لي! فقال أحد قادة الرومان: هل يسمح لي يا صاحب الجلالة بالوصف الصحيح؟ قال: نعم ، قال : هم «فرسان بالنهار ، رهبان بالليل ، لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن ، ولا يدخلون إلا بسلام ، يقفون على من حاربوا حتى يأتوا عليه ، فقال: لئن كنت صدقتني ليملكنَّ موضع قدمي هاتين»[(١)] .

فاختار الله الأمة العربية ، وأفاض عليها لباساً جديداً من السيرة

---

(١) البداية والنهاية: ج٧ ص١٥ .

البشرية ، ومن الأخلاق الإنسانية ، بفضل القرآن ، وبفضل التربية النبوية ، فكانت هذه الأمة شامةً بين الأمم ، منارةَ نورٍ في بحر الظلمات . إذا كانوا أصحاب يسار وسعة في الرزق؛ كانوا متقشفين ، وإذا كانوا تجاراً؛ كانوا أمناء صادقين ، وإذا كانوا حكاماً أو قضاة؛ كانوا عادلين ، وإذا كانوا عملة ، أو خدماً؛ كانوا ناصحين مجتهدين ، وإذا كانوا رؤساء؛ كانوا متسامحين راحمين ، وإذا كانوا في الماضي لا يفكرون إلا في نفوسهم وعيالهم؛ أصبحوا يفكرون في الإنسانية كلها ، وإذا كانوا في الجاهلية ينامون الليل كالأموات؛ أصبحوا يحيون لياليهم بالذكر والتلاوة ، وإذا كانوا يجمعون الأموال لأنفسهم سابقاً؛ عادوا يبذلون الأموال لغيرهم ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، فما تمكن العرب من فتح العالم ـ كما يقول كبار مؤرخي أوربا : إنهم فتحوا نصف العالم في نصف قرن ، وهذه معجزة تاريخية ـ وما استطاعوا ذلك إلا بفضل سيرتهم الخاصة ، ونمط حياتهم ، والمزايا التي كانوا يمتازون بها ، والسمة التي كانوا يتَّسمون بها .

يا إخواني! يقول الله تبارك وتعالىٰ ، ولو كان كلام البشر لقلت يقول متحسراً متفجعاً ، ولكن جل الله عن ذلك ، جلَّ عن التفجع ، والتوجع ، ولكن يجب علينا أن نقرأ هذه الآية متفجعين ومتوجعين ، وهذا دورنا في التدبر في القرآن ، القرآن نزل وحفظ ، وهو لا يختلف في أي زمانٍ ومكان ، ولكن يجب علينا أن نستشعر في أعماق نفوسنا بالروح التي تسيطر على هذه الآية ، فنقرأ متفجعين متوجعين ، متحسرين متألمين ، قول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود : ١١٦] . تأملوا في قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ هذا كان شأن الأمم في كل زمان ، فقد اتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ، وكانوا مجرمين ، فقد تهالكوا على أدوات الترف والبذخ ، وتنافسوا فيها ، واقتبسوها ، واستوردوها من الخارج ومن الشعوب السابقة فيها ، المخترعة لها ، ليس لها خيار ولا ابتكار ، ولا وقوف عند حدٍّ واستقرار .

إنَّ ضمير النوع البشري المعاصر أيها السادة! يصرخ بأعلى صوته شاكياً بلسان الحال ، «لولا كان من الأمة الإسلامية في هذا الزمان أولو بقية ينهون عن الفساد» والله لو قام أحد على قمة جبل ، وتكلَّم على مذياع عالمي يسمعه كلُّ واحد في كل قطعة من الأرض ، قال: فلولا كان من الأمة الإسلامية العربية ، فلولا كان من الجزيرة العربية التي طلعت منها شمس الإسلام ، والتي أكرمها الله بالقرآن أكرمها الله بالإيمان ، أكرمها الله بالمواهب التي خصها بها ، فلولا كان في الأمة الإسلامية العربية أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض ، الفساد موجود ، ولكن الواقفين في وجهه ، المتحدين له ، المحاربين له ، وعلى الأقل المستنكرين له غير موجودين ، الداء موجود ، والطبيب مفقود ، وكما يقول الشاعر :

ما يُصـلحُ الملحَ إذا الملحُ فسد؟

فالمسلمون ملـح الأرض ، إذا فـقد الملح ملوحتـه من يعيد إليـه الملوحة؟

إنَّ القرآن لا يزال ينبهنا على هذه الآية ، ويجب علينا أن ننتبه ، وأن تقشعر جلودنا ، إن صوت الضمير الإنساني المعاصر يقول: «فلولا كان من الأمة الإسلامية ، هذه المنتشرة في أرجاء الأرض ، هذه التي قد ملأت الآفاق ، والتي تملك الحكومات ، وتملك رؤوس الأموال ، وتملك خيرات الأرض ، وتملك الطاقة البشرية ، وتملك وريد جسم الصناعة والحضارة ، لولا كان من الأمة الإسلامية العربية أولو بقية ينهون عن الفساد؟!

أنا أومن بأزمةٍ واحدة، أزمةِ عدم وجود القدوة الحسنة، القدوة الصالحة على مستوى الشعوب والأُمم ، ليس على مستوى الأفراد ، الحمد لله عندنا أفراد ، ولكن مصير الأمم لا يتغير بالأفراد ، مصير الأمم يحتاج في تحويله إلى مجهودٍ جماعي ، وإذا بقي هذا الفراغ طويلاً فإنه ليس خطراً على الأمم التي امتحنت بـه، والتي تمثله ، بل هي كارثة العالم كله، فتنهار هذه المدنية، وتنهار هذه النظم التي تقوم الآن ، ويطوي الله هذا البساط ، فلا بـدَّ

أن تنهض هذه الأمة ، لا بدَّ أن توطن نفسها على ملء هذا الفراغ بقدر الإمكان.

ولكن ما قامت أيها السادة! أمة بحركة إصلاحية ، ثورية بناءة إلا حين كانت مدنيتها صالحة ، وحين كانت حياتها بسيطة ، وحين كانت تتصف بشيء من البطولة ، وبشيء من روح المخاطرة والمجازفة ، وأما الأمم المترهلة ، الشعوب الرخية الناعمة ، الرخوة الرقيقة ، الشعوب التي قد أخلدت إلى الأرض ، وأخلدت إلى الشهوات ، فإنها لا تستطيع أن تحدث انـقلاباً ، هـذا الذي أخافه على المجتمع الإسلامي بصفة عامة ، على المجتمع العربي حين أخاطبه وجهاً لوجه بصفة خاصة ، علينا أن نفكر في ذلك جدياً ، ونفكر مع الإنسانية ، ولا نفكر في إطارنا المحدود ، المنزلي أو المحلي ، أو البلدي ، أو الشعبي ، نفكر في مصير البشرية كأنه مصيرنا ، ونربـط مصيرنا بمصير البشريـة ، وفي الحقيقة مصيرنا مربوط بمصير البشرية ، لا يمكن أن تبقى أمة على حالها وعلى وضعها إذا كان العالم حوله يموج بفتـن ، يموج باضطرابات ، يموج بصراع نفسي ، فلا بدَّ لنا أن نفكر في مصير الإنسانية ، نؤمن بأن مصير الإنسانية مرتبط بمصيرنا ، ومصيرنا يرتبط بمصيرها ، الرسول عليه السلام ضرب مثلاً بليغاً لذلك بسفينة ، ولم أجد مثلاً أبلغ منه في أدب الدعوة ، وفي كلام أثر عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فقال عليه الصلاة والسلام:

«مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذي في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم ، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ، ولم نؤذ من فوقنا! فإن تركوهم وما أرادوا؛ هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم؛ نجوا ونجوا جميعاً»[1].

نحن على سفينة البشرية ، والسفينة البشرية مضطربة مائجة ، فيجب

---

(١) رواه البخاري.

علينا أن نفكر في إيصالها إلى بر السلام ، وليس بر السلام إلا الإسلام الحقيقي الكامل ، البعيد عن النفاق ، البعيد عن كل ما كانت الجاهلية تتسم به ، الدافق بالحياة والقوة الحامل للرسالة والرحمة للإنسانية ، المالك للمثل العليا والنماذج الصالحة ، والقدوة الحسنة الفاضلة ، أفراداً ومجتمعات ، وشعوباً وبلاداً ، ونظماً وحكومات ، وبالله التوفيق.

* * *

أزمة هذا العصر الحقيقية

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في مدرج جامعة الإمارات المتحدة في العين ، وقد غَصَّ بالحاضرين من أساتذة الجامعة وطلبتها ، والمستمعين الكرام في ١٥ من صفر ١٤٠٤ هـ ١٩ من نوفمبر ١٩٨٣ م. ونالت هذه المحاضرة إقبالاً عظيماً في الأوساط الدينية والعلمية في الإمارات بعد ما نُشرت في شكل رسالةٍ مستقلة.

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين خاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

أما بعد! فإني أحمد الله تبارك وتعالى أولاً على توفيقه ، وعلى ما هيَّأ لي من هذه الفرصة الكريمة للاجتماع بهذه المجموعة الطيبة من المثقفين وأبنائنا الشباب العربي المسلم ، وأبناء هذه الجزيرة أشبال الأسود ، وورثة المجد الخالد القديم ، وموضع الأمل للمستقبل ، ولكن الشعور بالمسؤولية والشعور بالاستفادة من هذه الفرصة التي لا تسنح دائماً وفي كل مكان ، يدفعني إلى أن أتكلم بصراحة ، وإذا تكلمت بصراحة في هذه القطعة من العالم الإسلامي الذي تعلم منه العالم الإسلامي ، بل العالم الإنساني كله الصدق والصراحة ، وكان هذا الصدق والصراحة عاملين قويين حاسمين في تحويل التيار ، وفي إرغام التاريخ على أن ينحو نحواً جديداً ، فأرجو عدم المؤاخذة على الصراحة التي سيتم بها حديثي.

إخواني! إنه كثر الحديث عن الأزمات ، وأصبح الشغل الشاغل للمثقفين الدارسين المعنيين بالقضايا البشرية ، حتى أصبح موضة من الموضات.

فيتحدث كثيرٌ من الناس عن الأزمة الاقتصادية ، وبعضهم يتحدث عن الأزمة القيادية ـ أزمة القيادة ـ وبعضهم يتحدث عن الأزمات السياسية ، حتى نزل الناس إلى مستوى الحديث عن أزمة العَمَلة ، وأزمة البنائين ، حتى وصلوا إلى أزمة الطباخين ، والسواقين في بلد راقٍ كبير ، ولكنها كلها أزمات جانبية طفيلية ، وبعضها خيالية.

إن الأزمة الحقيقية ، الأزمة العالمية الإنسانية ـ يا سادتي وإخواني! هي «أزمة عدم وجود القدوة الصالحة علىٰ مستوى الشعوب والأمم» إنني لا أتحدث عن أزمة الأفراد ، الأفراد كانوا ولا يزالون في كل عصر ، ولكن

الأفراد لا يستطيعون أن يغيروا التيار ، وأن يحدثوا انقلاباً ، الأزمة الحقيقية هي عدم وجود القدوة الصالحة على مستوى الشعوب والأمم ، فأصبحت الشعوب والأمم قطعاناً من الغنم لا راعي لها ، قد كان العالم ـ العالم الإنساني ـ في القرن السادس المسيحي عالماً جسداً بلا روح ، جسداً بلا قلب ، جسداً بلا ضمير ، لا إنسانية ، ولا خلق ، ولا وازع ديني ، ولا كتاب سماوي محفوظ في الحقيقة ، كان الناس من غير قيادة ، وكان الناس يتخبطون في الظلمات ، ويرسفون في الأغلال ، ويشحطون في الدماء ، ولا بصيص في نور.

فأرسل الله نبيه محمداً ﷺ في هذه الجزيرة العربية التي نلتقي في جزءٍ منها اليوم ، أرسل نبيه محمداً ﷺ وبعثه بعثة نبي ، ولكن بعثته كانت ـ أيها الإخوان ـ بعثةً مقرونةً ، بخلاف كثيرٍ من بعثات الأنبياء ، إنها كانت بعثة ثنائية ، بعثة نبي مقرونة ببعثة أمة.

وهذا ما لا يتفطن له كثيرٌ من المتأملين في القرآن ـ ولا مؤاخذة ـ إن الله سبحانه وتعالى يصف هذه الأمة بصفات لا تنطبق إلا على مبعوثٍ مأمورٍ من الله ، فيقول: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

إنني في دراسة مقارنة للديانات والكتب السماوية لا أجد هذا الوصف الدقيق الشامل ، وهذا الخط الفاصل بين أمة وأمة ، أمة قُلِّدت مسؤوليةً ليس فوقها مسؤولية إلا مسؤولية النبوة فقط ، فكانت بعثة النبي ﷺ بعثةً مقرونةً مشفوعةً مرتبطةً ببعثة أمة ، هذا هو الشيء الذي أثر في مصير الإنسانية ، وكانت تجربةً جديدةً في تاريخ الديانات ، وفي تاريخ مصائر الأمم وفي تاريخ الاتجاهات ، ولعلَّ بعض أهل العلم والدراسات يستغربون هذا التعبير ، وربما يشعرون فيه بشذوذٍ ، أو تطرف ، ولكني أستشهد بقول رسول الله ﷺ حيث قال لجماعة من الصحابة رضي الله عنهم «إنما بعثتم

ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين»[١] وقد كان هذا الشعور بمسؤولية البعثة وبمسؤولية المأمورية يملأ جوانح الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان.

كان الواحد منهم ولو لم يبلغ مبلغاً عظيماً من الثقافة ، كان يشعر بأنه مبتعث ، ومسؤول أمام الله عن مصير الإنسانية وعن الشعوب والأمم.

فلمّا سأل رستم سيدنا ربعي بن عامر ، قال له: ما الذي جاء بك إلى هنا؟ ما الذي أخرجك من الجزيرة العربية؟

فقال القولة المجلجلة ، المدوية ، المسجلة في التاريخ ، التي لا أعرف لها نظيراً في الكلمات التي تقدم بها السفراء والرسل ، رسل الملوك ، رسل الحكومات ، وحملة المسؤولية الكبيرة أمام قادة البلاد ، أمام من كان يملك زمام الأمم والشعوب.

إنه أولاً خطأه ، وانتقده ، فكأنه يقول ما جاء بنا شيء ، ما جئنا لأنفسنا ، يسجل التاريخ الأمين هذه الكلمات وهذه النبرات ، وكأني أسمعه الآن يقول: «الله ابتعثنا».

إخواني! استحضروا هذه الثقة التي قد ملأت جوانح هذا الرجل الأعرابي البدوي ، ومدى ابتعاده عن كل نوع من أنواع مركب النقص ، رستم ، قائد قوات الفرس ، جالس على سرير ملَوكي ، وهذا الرجل الأعرابي الذي نزل من فرسه ، وصار يطأ الزرابي المبثوثة ، ويستهين بهذه الزخارف المصطنعة ، لما قال له رستم: ما الذي جاء بك؟ كانت مئة ردود ، جاء بنا الجوع ، هذا أقل شيء ، جاء بنا الشعور بالمهانة ، هذا فوقه ، جاء بنا الواقع الأليم الذي نعيشه ، جاء بنا الشعور بالاضطهاد وبالظلم والجور الذين أنتم مصدرهما ، لا!يقول بكلِّ ثقة وإعتزاز ، يقول بكل طمأنينة

(١) أخرجه البخاري ، ولفظ الحديث: قام أعرابي فبال في المسجد فتناوله الناس ، فقال لهم النبي ﷺ: «دعوه وهريقوا على بوله سجلاً من ماء أو ذنوباً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين».

وسكينة ، كان الإيمان ينطق على لسانه ، ويفيض من صدره ، يقول : لا ! ما بنا شيء ، الله ابتعثنا .

هذه الثقة التي امتاز بها الرعيل الأول من حملة رسالة الإسلام في القرن الأول الهجري ، وفي القرن السادس المسيحي .

كانت بعثة هذه الأمة ، الفريدة في إيمانها ، الفريدة في ثقتها ، الفريدة في سيرتها ، وخلقها ، الفريدة في رحمتها للإنسانية ، الفريدة في بساطتها وجديتها ، الفريدة في اتصالها بالأسرة الإنسانية وبتألمها بواقع الإنسانية الذي كانت تعيشه في كل بقعة من بقاع الأرض ، كانت تجربة جديدة ، كانت هذه البعثة الجماعية ، البعثة التي انخرط في سلكها العرب كلهم ، فأصبحوا رواداً ، أصبحوا حملة الرسالة ، أصبحوا حملة المشعل ، أحدث هذا تحولاً في التاريخ ؛ لأنَّ واقع العالم الإنساني الذي كان يعيشه قبل القرن السادس المسيحي أوسع ، وأسمىٰ من أن يؤثر فيه الأفراد الصالحون ، إنَّ القرآن يشهد بوجود أفراد صالحين في اليهود المغضوب عليهم ، فيقول : ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران : ١١٣ - ١١٤] ولكن لا أثر لهم في المجتمع الإنساني وفي المسيرة الإنسانية ؛ لأنهم أفراد ، فبعثة الأمة على هذا المستوى من الإيمان والعقيدة والأخلاق ومن الصدق والصرامة ، ومن الجدية والفروسية ، ومن الإيثار على النفس ، ومن التضحية كان أعظم تحوُّلٍ شهده التاريخ الإنساني .

إنَّ الفراغ الهائل ، الفراغ الأعظم الوحيد هو عدم وجود أمة تُتَّخذ مثالاً وقدوةً للأمم ، الأمم لا تحسب للأفراد حساباً ـ هذا معلوم ـ الأمم والشعوب ، خصوصاً الشعوب السائدة التي تملك القيادة لا تحب لأفرادٍ صالحين ، يوجدون في كل أمة تقريباً وفي الشعوب العربية والأمم الإسلامية ، لا تحسب الشعوب الأوربية لهؤلاء الأفراد حساباً ، إنما تتطلَّع الشعوب إلى شعبٍ مثالي ، إلى شعبٍ قائد ، قائد الإنسانية ، شعب يمتاز

عن الشعوب الأخرى في متانة العقيدة ، وقوتها ، وفي روح الإيثار والتضحية ، وفي البساطة في المعيشة ، وفي التسامي على الشهوات والأنانيات ، لا يستهويهم الشيء الذي يستهوي هذه الشعوب رغم سيادتها وقيادتها ، ورغم تقدمها في الثقافات ، وفي الفلسفات ، وفي العلوم.

إنَّ الشعوب الأوربية ، بل العالم الإنساني المعاصر الآن لا يخضع أقلَّ خضوعٍ ، إنَّه لا يرفع لشعبٍ رأساً لا يتميز عن الشعوب رغم سيادتها وقيادتها ، ورغم تقدمها في الثقافات ، وفي الفلسفات ، وفي العلوم.

إنَّ الشعوب الأوربية ، بل العالم الإنساني المعاصر الآن لا يخضع أقلَّ خضوعٍ ، إنَّه لا يرفع لشعبٍ رأساً لا يتميز عن هذه الشعوب في شيء والذي يحسبُ أنَّ نصيبها أقلُّ من هذه الشعوب ، والذي يتحلب فمه ، وتتقطع أنفاسه في الجري وراء هذه الشهوات ، ووراء هذه اللذات التي يعبدها الأوربيون ـ صدقوني أيها الإخوان ـ لو ملك المسلمون أضعاف أضعاف ما خولهم الله تبارك وتعالى ، وما أعطاهم وكرمهم به من مال وثراء ، ووسائل للعيش الرخي الناعم ، والحكومات الكبيرة الواسعة ، والتقدم في العلوم والفنون لا يحسب العالم المعاصر للمسلمين وللعرب أيَّ حساب ، إنهم في اعتزاز بنفوسهم ، ويعرفون أنهم قادة العالم ، وقادة المدنية ، وأنَّ الشعوب كلها متطفلة على مائدتها ، إنَّ أكبر كبير يزور عاصمة أوربية أمريكية ويبذر فيها القناطير المقنطرة ، ويبني فيها القصور الشامخة ، ويسبح في عالم من الخيال ، وينقلب في أعطاف النعيم ، ويعيد تاريخ ألف ليلة وليلة ، لا يرفع الأوربي إليه نظره ، ولا يحني رأسه أمامه ، أما إذا رأى رجلاً ولو كان فقيراً يتسامى على هذه الشهوات التي يعبدها الأوربيون كالأصنام ، وأكثر من الأصنام ، يرى رجلاً لا تخدعه هذه البهرجة ، لا تخدعه هذه الزخرفة المصطنعة ، هذا الفسيفساء الصناعي ، هذه المدنية الباهرة لا تبهر عيونه ، بل يقف في طريقها وقفة عملاق ، وقفة منارة نور في بحر من الظلمات ، يسخر من هذه المدنية ، وينبذها نبذ نواة ، ويحتقرها ، ويؤمن ويعلن كذلك ، أنه منقذٌ للإنسانية ، أنه جيش الإنقاذ ، إنها فرقة المطافىء (Fire Brigade) العالم كله مريض ونحن جميعة الإسعاف ، هذه

الثقة هي التي تجعل الأوربي ، والهندوسي والياباني ، والصيني يفكر مئة مرة في صلاحية الإسلام وفي قدرته على إنشاء مثل هذا الجيل .

والفراغ الذي ملأته الأمة الإسلامية في القرن السابع المسيحي هو فراغ القيادة العالمية بجدارة ، وبقدرة ، واستحقاق ، وببعثة أمة بأسرها ، كلُّ فرد من أفرادها يحمل المشعل ، ويشقُّ الطريق في الظلمات ، كما قال عقبة بن نافع : «يا ربِّ! لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك»(١) .

وهكذا كانت الثقة تملأ نفوس المسلمين الأوائل ، كان المسلمون يؤمنون بأنهم مبعوثون أو مبتعثون (إذا أخذنا بالاحتياط والدقة) إذا كان النبيُّ مبعوثاً فهم مبتعثون ، مأمورون ، ولكن كل واحد كان يعتقد أنَّ عليه المسؤولية ، وأنَّ في يده أمانة ثمينة ، أمانة المصير الإنساني ، أمانة الحظ الإنساني ، أمانة مستقبل المدنية هذا هو الشيء الذي حدَّد المكان المعين المعلوم للأمة العربية الإسلامية ، وحدَّد دورها ، دورها القيادي في معركة الأمم والشعوب السياسية والاقتصادية وغير ذلك .

ففي الحقيقة نحن الآن في حاجة إلى أن نكون القدوة الصالحة على مستوى الشعوب والأمم ، الآن كما يقول أبو العلاء المعري :

.... ويا نفس جدي إنَّ دهرك هازل

فالدهر هازلٌ الآن ، الناس يعيشون في مهزلة ، هذه المهازل التي تقرؤون أخبارها في الجرائد ، كلَّ يوم تطلع عليكم الصحف والجرائد بمهزلةٍ ـ مع الأسف ـ وبمأساةٍ كذلك ـ ومع الأسف الشديد ـ قد التقت المهزلة بالمأساة في بيروت في لبنان ، وقد تلتقي المآسي بالمهازل ، والمهازل بالمآسي ، وليس ذلك إلا لأننا أصبحنا هزيلين وهازلين ، هازلين غير جادين ، أصبحنا فاقدين للإيمان الصحيح وللثقة ، العالم المعاصر ينادي الغوث الغوث! النجدة النجدة! أيتها الأمة الإسلامية العربية! إنَّ أوربا

(١) الكامل لابن الأثير ج٣ ص٤٣ .

أصبحت كلباً يلهث ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، وأصبحت المدنية الأوربية جملاً مجتراً فقط ، قد خلت جعبتها عن كلِّ جديد فريد مفيد. إنَّ ما تعب فيه علماء أوربا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، هو الذي يستعين به الأوربيون الآن ، قد فقدوا الجدارة والجدَّة ، والقدرة على حل المشاكل والأزمات ، والعبقرية القيادية المتحررة من التقليد والعمل الرتيب الروتيني ، والشجاعة الخلقية الإقدامية.

الآن هنالك فراغٌ واحد ، أنا لا أصدق أنَّ هنالك فراغاً آخر ، الفراغ الوحيد الذي يوجد في خارطة العالم المدنية والمصيرية ، هو فراغ وجود أمة تحمل الرسالة ، وتحمل السيرة ، تحمل الخلق ، هي صاحبة الإيمان ، صاحبة الجدِّ والصرامة ، صاحبة روح النضال ، صاحبة الفروسية ، صاحبة الإيثار والتضحية.

هذا هو الفراغ الوحيد الموجود الآن في خارطة العالم الإنساني ، ولا يملأ هذا الفراغ إلا المسلم ، ولا تملأ هذا الفراغ إلا الأمَّة العربية الإسلامية. قد كانت رائدة للإنسانية في القرن السابع وما بعده من القرون ، ولا تزل رائدة الرسالة الإسلامية الإنسانية في هذا القرن ، لو عرفت قيمتها ، ولو عرفت منابع قوتها ، ولو عرفت ضخامة رسالتها ، ولو عرفت عظم مسؤوليتها ، ولكننا لاهون ساهون.

متى تنهض الأمة العربية الإسلامية ، وتحمل الرسالة من جديد والنور الوحيد هو نور الإسلام؟ وهو النور الذي لا يزال عند العرب في صفحات القرآن ، وفي صفحات السيرة النبوية ، وإننا أبناء القارة الهندية ، ننظر إلى هذه الجزيرة كأمة رائدة ، كحاملةٍ لهذه الرسالة.

إنني اؤمل في أبنائي طلبة الجامعة ، أن يهيِّؤوا نفوسهم لهذا المنصب الرفيع لمنصب القيادة ، ليكونوا مثلاً كاملاً وقدوةً حسنة صالحة للمتمدنين الذين يتزعمون التمدن والتقدم والتقدمية.

إنني الآن ـ ولو كنت رجلاً صغيراً ـ أمثل الإنسانية ، إنَّ أذني المتواضعة الضعيفة تسمع هواجس النفوس ، وخلجات الضمير الإنساني ، أنا واقف

هنا ، وأسمع ما يجول في خاطر الأوربيين والأمريكيين في أقصى العالم ، ويمكنكم أن تسمعوا كذلك إذا اتصلتم بتيار الحياة .

إنني خصوصاً أوجه كلمتي إلى أبنائي الشباب ، اشحنوا بطاريتكم بالشحنة الإيمانية النبوية الإسلامية ، ووطنوا نفوسكم على الجدِّ والصرامة ، والبطولة والفروسية ، وعلى التسامي على الشهوات والأنانيات ، لا يستعبدكم المال ، ولا تستعبدكم المادة ، ولا تستعبدكم المناصب ، كونوا عبيداً لله تبارك وتعالى حتى يسوغ لكم أن تقولوا : «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عباده إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» .

والعالم الإنساني مصغ بأذنه ليسمع الكلمات الرنانة الحنانة ، هذه الكلمات التي قسمت التاريخ بين قسم وقسم ، والإنسانية بين شقية وسعيدة . والأمم بين متردية وناجية .

أنتهي بهذا ، وأشكركم أيها السادة مرةً ثانيةً على إتاحة هذه الفرصة الغالية للاجتماع بكم ورؤيتكم هنا ، ورؤية أبنائي الشباب والحديث إليهم في صراحةٍ وصدقٍ وإخلاص .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

شـلال الإيمـان والإخـلاص وكيـف يستـفـاد مـنـه؟

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي بجامعة صنعاء في ١٤/ من شعبان ١٤٠٤ هـ (١٥/ مايو ١٩٨٤ م) أمام جمع حاشدٍ من الطلبة والمثقفين من أهل عاصمة اليمن ، وقد غصَّت القاعة بالحاضرين وامتلأت الساحة الخارجية بالمستمعين. والآن إلى القراء هذه المحاضرة القيمة.

بعد الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله :

سادتي ، وإخواني! لقد تقدمت الصناعة والمخترعات تقدماً كبيراً ، واخترعت الأشياء التي لم تكن تخطر بالبال ، ولكن لم تخترع إلى الآن آلة تكشف عن مدى السرور ، وموجة الفرح التي تغمر القلب ، وليس من الممكن أن يضع الإنسان قلبه أمام الأخوة حتى يعرفوا ما يجيش في القلب ، ولكن بالله الثقة ثم بحبكم وبعاطفتكم الإسلامية في أن تقيسوا ، وتعلموا مدى سروري لرؤية هذه المجموعة الطيبة من الشباب المسلم ، فهم الجيل المرتقب وأمل الإسلام والمسلمين في هذه البلاد .

إخواني! كلكم تعرفون الشلال الذي ينبع من الأرض ، يتدفق بقوة ، وينزل بقوّةٍ على الأرض ، وهنالك شلالات تتدفق وتنزل منذ آلاف من السنين ، ولكنها لم تستخدم في صالح الإنسانية ، وصالح المدنية ، ومنها ما هو مجهول ، ومنها ما هو مهمل ، إنني زرت «كندا» وزرت «تورنتو» مدينة كندا التي يقع فيها (Niagara Fall) يعني «شلال نياجرة» ، فرأيت العجب ، رأيت هذا الشلال الكبير الذي يعتبر من عجائب العالم السبعة ، ينزل من ارتفاع[١] لا يقاس حتى يراه الإنسان ، وهو ينزل على الأرض منذ آلاف من السنين بقوة عجيبة ، ولكن البلاد التي وضع الله فيها هذا الشلال قد وفقت لتستخدم هذا الشلال الطبيعي في صالح الإنسانية ، وفي صالح المدنية ، فتأخذ منه القوة الكهربائية[٢] التي تستطيع أن تنير هذه البلاد وتملأها حرارة ودفئاً ، وهنالك طاقات جبارة وثروات هائلة لم ينتفع بها الإنسان بعدُ في كثير من البلدان ، فهي ضائعةٌ ، مهجورةٌ ، مظلومةٌ .

ولكني أريد أن أحدثكم عن شلال لا يقاس به هذا الشلال الكندي في

(١) ينزل هذا الشلال من ارتفاع ١٠٨ متر ، وارتفاع الماء ٥٤ متر .

(٢) ويهيأ منه خمسة ملايين من القدرة الحصانية (Horse power) .

القوة والتأثير ، والفائدة التي تعود على الإنسانية ، ذلك هو شلال الإيمان ، والإخلاص ، والحماس؛ الذي أكرم الله به الأمة الإسلامية بصفة عامة ، وأكرم به بلادكم بصفة خاصة ، وشهد بهذا الاختصاص لسان النبوة الذي كان مجرى الوحي ، لقد شهد بهذا الشلال الإيماني؛ الذي أكرم الله به القطر اليماني محمدُ بنُ عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي النبي العربي ﷺ بقوله لما جاء وفد من اليمن : «أتاكم أهل اليمن أرق أفئدةً ، وألين قلوباً ، الإيمان يمان والحكمة يمانية»[1] .

إنَّ الدول الكبيرة والبلاد الراقية المتحضرة التي تقود الآن ركب الإنسانية بجدارة أو من غير جدارة ، وبحق أو من غير حق ، والتي تزعمت الحضارة ومصائر الأجيال البشرية ، عندها كل شيء ، ولكنها لا تملك هذا الشلال الإيماني ، إنها تجرَّدت ـ على مدى التاريخ ـ من الإخلاص لله تبارك وتعالى ، ومن التسامي على المصالح الفردية والجماعية والحزبية ، والسياسية المحدودة ، إنها وإن بلغت قمة الرقي والحضارة ، وتملك الشيء الكثير من أسباب الرفاهية ومظاهر المدنية ، والطاقات العلمية والفكرية ، ولكنها لا تملك هذا التدفق الإيماني ، وعمقه ، وأصالته التي يملكها الشعب الإسلامي المؤمن ، ولا تملك سلامة القلوب ، وصفاء الصدور ، والحبَّ البريء البعيد عن الأغراض والفوائد ، والشوق إلى الجنة ، والحنين إلى الشهادة ، والإيمان والاحتساب ، ورجاء الثواب على الأعمال الحسنة ، إنَّ المعسكرين الغربي والشرقي يفترقان في أشياء كثيرة ، ولكنهما يلتقيان على أنَّ زعماءهما وأقطابهما لا يملكون السيطرة على القلوب والحب والاحترام في النفوس ، والولاء الصادق ، البعيد عن الاعتبارات السياسية والمصالح الفردية والجماعية ، والدوافع الدينية النابعة من أعماق القلب لفعل الخير .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي باب «قدوم الأشعريين وأهل اليمن» وفي رواية أخرى للبخاري «والفقه يمان ، والحكمة يمانية» (الجامع الصحيح للبخاري ج/ ٣).

أنا تكلمت على غلوة سهم من البيت الأبيض (White House) في واشنطن ، في أمريكا ، وكنت أتمنى أن يصل صوتي إلى البيت الأبيض وإلى صاحبه ، قلت :

«أيها السادة! إنَّ لكم مساهمة فعالة كبيرة القيمة للنهوض بالشعوب الشرقية ، ولكني أقول لكم : إنَّ هذه الشعوب التي تنفقون عليها ملايين الملايين لا تحبكم ، إنها لا تتمنى لكم السعادة. إنها تتمنى لكم كل عثرة ، وتتربص بكم الدوائر ، وتشمت بكل ما يصيبكم من أحداث ، وتشفي نفسها بذلك. إنها تنعم في ظل مساعداتكم ، ولكنها لا تحفظ لكم هذه اليد ، ولا تعترف بالجميل ، لأنها تصدر عن غير إخلاص ، إنها مساومات سياسية ، واقتصادية ، وتجارية ، فهذه الشعوب تأكل من رفدكم ، وتتطفل على مائدتكم ، ولكنها لا تضمر لكم الإخلاص والحب ، لماذا؟ لأنَّ عطاءكم الحضاري ، وما تغمرون به هذه الشعوب من روافد ، ومن مساعدات لا تصدر عن إخلاص ، لا تصدر عن أعماق القلب. إنها كلها مساومات ، ومبادلات تجارية».

إن الإيمان والحبَّ العميق الذي يضمره الشعب المسلم للقادة المؤمنين الصالحين لا يوجد له مثيل أبداً ، لا في المعسكر الغربي ولا في المعسكر الشرقي ، فهنا نفاق وسياسة فقط. إنَّ هذه البلاد فقيرة مفلسة في هذا الإيمان ، مفلسة في هذا الحب ، مفلسة في هذا الحماس ، إنَّ ذلك أنشطة الدعايات ، والصحافة ، ووسائل الإعلام ، والجامعات ، والمؤسسات ، كلُّ ذلك قد ربط هذه الشعوب برباط صناعي ، لا ثقة به ، إذا استطاعت أن تكسر هذه الأغلال؛ فإنها في أول فرصة تكسرها ، وتقرؤون أخبار الثورات والمؤامرات والمحاولات لقلب الأوضاع كلَّ يوم ، ولكن رباط الإيمان الذي كان يربط الأمة الإسلامية برسولها الأعظم ﷺ ، ثم بالخلفاء الراشدين ، ثم بالقادة المصلحين ، ثم بالعلماء الربانيين ، ثم بالزعماء المخلصين ، هذا الرباط القوي ، الأمين ، الوفي ، العميق ، المحكم لا يوجد له نظير ، وصدق الله العظيم : ﴿هُوَ الَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال : ٦٣].

ولكني أقول لكم والحزن يملأ قلبي : إنَّ هذا الشلال الإيماني الذي أكرم الله به أرض الجزيرة ، أكرم الله به أرض الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، أرض أنصار الرسول ﷺ ، وأرض دعاة الإسلام ، وحملة مشعله في العالم ، إن هذا الشلال من الإيمان والاحتساب، ورجاء الأجر والثواب، والشوق إلى الجنة ، والحنين إلى الشهادة ، والحبِّ لله ولرسوله وللمؤمنين لم يستخدم بعد ، ولم يقتبس منه هذا التيار المضيء المنير ، القوي المفيد ، هذا التيار كان يستطيع أن يملأ العالم كله نوراً وبهاءً ، ويحلّ كلّ مشكلة ، ويتغلبَ على كلِّ معضلة ، ويربط القلوب بعضها ببعض، والشعوب بعضها ببعض، والمجتمعات بعضها ببعض، ويزيل كل مشاكل الإنسانية، ولكنه شلال مظلوم، إنه ضائع من قرون .

إنَّ من المؤسف والمحزن أنَّ كثيراً من قادتنا إلى الآن ما عرفوا مدى قوة هذا الإيمان ، مدى قوة هذا الرباط ، مدى قوة العقيدة الإسلامية ، لم يعرفوا إلى الآن هذه القوة الكامنة في النفوس؛ التي وضعها الله عن طريق الرسالات السماوية ، والنبوات الصادقة بجهود المخلصين في قلوب المؤمنين إلى الآن ، ما عرفوا قيمة هذه الطاقة البشرية الهائلة . إنَّ الطاقة النووية لا تساوي الطاقة التي يحملها قلب المؤمن ، هذه الطاقة التي ولدت عالماً جديداً ، وأرغم التاريخ على أن ينحو نحواً جديداً. إنها جعلت الأشياء التي كان لا يتخيلها الإنسان حقائق واقعية .

مع الأسف الشديد أنَّ قادة الفكر والرأي في كثير من البلاد الإسلامية لم يكتشفوا بعد هذه الطاقة ، بل إنهم مع الأسف الشديد يمرون في هذه الطاقة أكبر خطرٍ عليهم ، فهم في حرب معها ، وإنهم يعتبرون هذه البقايا الإيمانية التي لا تزال تحملها الأمة الإسلامية رواسب تاريخية ، وقد يسمونها أنقاضاً تاريخية ، وخرائب يجب نقلها وإزالتها ، فأكبر مجهودهم ، وأكبر ذكائهم ، بل وعبقريتهم تصرف إلى نقل هذه «الأنقاض» وإلى الآن لم

ينجحوا في ذلك بل باءت مساعيهم بالفشل والإخفاق؛ لأنهم يعارضون طبيعة الأمة ، ويغالطون نفوسهم في الحقائق ، ويريدون أن يقضوا على مجهودات قرون. إنهم في جهادٍ في غير عدو؛ لأنهم يرون في الإيمان الذي لا يزال الشعب المسلم في بلادهم يحمله ويتصف به الخطر الداهم والعدو المنافس لهم ، مأساة لا أقول مأساة إيمانية فقط ، بل هي مأساة عالمية إنسانية ألا يستفاد من هذه الطاقة.

والله إن شعوبنا المسلمة الوادعة السليمة التي تؤمن بالله ورسوله وتؤمن بأن الآخرة خيرٌ من الأولى ، والتي تؤمن بأن العاقبة للمتقين ، والتي تؤمن بأن النصر للمؤمنين ، والتي تؤمن بأن هذه الدنيا فانية عاجلة ، والتي لا تزال ترى فيما وعد الله به عباده المؤمنين من نعماء الجنة وفضل الشهادة في سبيله ما لا تراه الشعوب الراقية في لذات هذه الدنيا ، وتترنح أعطافها ، وتخفق قلوبها مما يتلى عليها من القرآن ، ويذكر لها من مبشرات الرسول ومواعيده فتنسى نفسها ، وتهب حياتها لله ولرسوله ، إنَّ هذه الشعوب تتصف بصفاتٍ من الرجولة ، والبطولة ، والمروءة ، والفضيلة ، والسمو الخلقي تتجرد عنها غالب الشعوب المتحضرة الآن، إذا رزقت هذه الشعوب قائداً مخلصاً وفياً يعرف قيمة هذه الطاقة ، قيمة هذا الإيمان الذي لا تعطيه إلا النبوات، لا تعطيه إلا التربية الربانية ، لا يعطيه إلا الإخلاص ، إنَّ هذا الإيمان لو كان عشر معشاره عند الأمم الأوربية لجعلت العالم غير العالم ، ولكنها دائماً تنتقل من مشكلة إلى مشكلة ، إنها تنقش الشوكة بالشوكة ، وضلعها معها(كما يقول سيدنا علي بن أبي طالب) ، فتنكسر هذه الشوكة التي استخدمت لإزالة هذه الشوكة ، وتجتمع شوكة بشوكة ، هذه قصة الحضارة الغربية ، لا تحل مشكلة إلا وتواجه عشر مشكلات ، لأنها تحرم ذلك الإيمان وتلك الثقة التي تربط قلب الإنسان بالإنسان ، إنني لا أعرف عالماً بعلم النفس ، وبفلسفة الأخلاق تصور ما قاله القرآن قال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢] ، هذا غاية ما يتصوره الإنسان ، يعني «المسلم مرآة المسلم» فإذا سمع مسلم عن أخيه المسلم شيئاً يستعرض نفسه أولاً ، ويقول: أنا لا أستطيع أن

أعمله ، أنا أربأ بنفسي ، وبإيماني عن هذه السفالة ، فكيف يصدر ذلك عن أخي المسلم؟! ويبادر ويقول: أنا لا أصدق أنَّ أخي المسلم فعل هذا ، أيُّ مجتمعٍ في التاريخ قام على هذا التصور الرفيع السامي لأعضاء المجتمع الإنسانيّ؟.

إنَّ قادة الغرب والشرق يريدون أن يملؤوا فراغ الإخلاص بالقوة العسكرية ، وبالمخابرات ، وبالجاسوسية ، فلا يثق إنسان بإنسان في روسيا ، ولا يثق أخ بأخ ، ولا زوج بزوجته ، ولا زوجة بزوج ، قد فقد المجتمع الشيوعي الثقة بالأفراد ، الثقة بأقرب الناس إليهم حتى الجدران لا يأمنونها ، لعل لها آذاناً ، أو سماعات ، ولعلَّ هنالك مسجلات ، لا يستطيع الإنسان أن يتكلم في زاوية من زوايا بيته بسره مثلاً ، أو ينفس عن ضميره الكئيب ، فمن القصص الطريفة: أنَّ كلباً جاء من مثل هذه النواحي ، فقدم له الكلاب بنو جنسه ما عندهم من أنواع الطعام ، فإذا هو غير مقبل على أكل هذا ، يعافه ، يزهد فيه ، فقالوا: لماذا لا تأكل وأنت ضيفنا؟ قال: ما لي حاجة في طعامكم أني أريد أن أنبح ، قد كنت في بلد لا أستطيع أن أنبح فيها ، فأنا جئت هنا لأنبح ، وهو شيء فطري عندي ، فالطعام لا شأن لي به ، ولكني أريد أن أسلي ضميري ، وأرضي طبيعتي.

يا إخواني! اعرفوا نفوسكم قبل أن تعرفوا نفوس غيركم اعرفوا ما أكرمكم الله به من ثروات إيمانية ، ومن خصائص كريمة يمانية ، إذا عرفتم نفوسكم؛ فقد عثرتم على الكنز الدفين ، وعلى شلالٍ قوي ، أقوى شلالٍ في العالم ، هذا الشلال الإيماني الذي تستطيعون ، ويستطيع الذين منحهم الله فرص الاستفادة من هذه البلاد الغنية ، يستطيعون أن يقتبسوا منه التيار الكهربائي الذي يستطيع أن ينير ما حولكم من بلاد الله ، وينير العالم كله ، لقد كان سلفكم هم الذين أناروا العالم؛ لأنهم قد اقتبسوا ، وأخذوا هذا التيار الكهربائي من صدورهم المليئة بالإيمان ، وحملوه إلى أقصىٰ الشرق ، إلى الهند ، جاءنا علماء ربانيون منكم ، فقهاء ، ومحدثون ، ومربُّون ، وأنقذوا الشعب المسلم الهندي من مستنقع الوثنية ، من عبادة البقر ، والشجر ، والنهر ، هؤلاء كانوا آباءكم الغرّ الميامين ، ونحن

لا نزال متطفلين على مائدتكم ، ولكن اعرفوا نفوسكم أيها الإخوان ، وليعرف قادة البلاد الإسلامية في باكستان ، وفي بنغلاديش ، وفي البلاد العربية ، بصفة خاصة ، ليعرف قادة هذه البلاد ماذا يملكونه في هذه الشعوب ، ماذا يملكونه في بلادهم ، هم دائماً ينظرون إلى الخارج ، ليقتبسوا ثمرات الحضارة الغربية ، والعلوم التطبيقية الميكانيكية ، آلات يستوردونها من الغرب ، ولكن هذه الآلات لا تغير مصير الإنسانية ، ولكنَّ الإيمان الذي تحملونه في قلوبكم يستطيع أن يغير مسيرة الإنسانية ، ومن المجون أن تنسلخ قرونٌ بعد قرون ، وأن تأتي أجيال بعد أجيال ، وهذا الشلال الإيماني لا يستخدم في صالح البشرية ، وفي صالح هذه البلاد ، إنَّ العالم في حاجةٍ اليوم إلى هؤلاء المؤمنين الذين يتدفق الإيمان من صدورهم ، ويفيض على لسانهم ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [التحريم: ٨] هؤلاء المؤمنين الذين يتجردون عن الأنانيات ، يتجردون عن القوميات ، يتجردون عن الوطنيات ، يتجردون عن الشهوات ، ويخدمون الإنسانية ، وينقذونها من جديد.

إخواني! إنَّ لسان النبوة لمَّا وصفكم بالإيمان ، والفقه ، والحكمة ، فإنه لا يكون شيئاً موقتاً؛ لأنه إذا جرى وصفٌ أو شهادةٌ على لسان حكيمٍ ، أو مؤرخٍ ، أو بصيرٍ ، أو طبيبٍ ، يكون مقصوراً على ذلك الفرد أو الجيل ، ويكون محدوداً في ذلك الزمان ، ولكنها كلمة النبيِّ الخالد ، النبيِّ العالمي الإنساني ، الذي ختمت به الرسالات ، وأكملت به الأديان والشرائع ، إذا قال: «الإيمان يمان» ، فيجب أن يكون الإيمان يمانياً في كل عصر ، وأنتم بدوركم تغارون على هذه الشهادة والكرامة ، وتحاولون أنَّ ذلك لا يكون مختصاً بزمانٍ دون زمان ، هذه شهادةٌ لكم قائمة مسجلة في التاريخ ، حفظها الحديث النبوي الصحيح ، فيجب عليكم أن تعتزوا بهذه الشهادة.

إنَّ كثيراً من الشعوب الإسلامية مستعدة للمساومة وللمبادلة معكم ، أعطوها هذه الشهادة الإيمانية ، الشهادة بالإيمان ، والفقه ، والحكمة ، وخذوا منها ما شئتم ، وأنا أقول بلسان مسلمي الهند على الأقل ، أقول خذوا منا ما شئتم من مكتبات ، ومن مدارس ، ومن علوم ، ومن ثروات ،

وأعطونا هذه الكرامة التي أكرمكم الله بها: «الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية» ، والله إنَّ كبار الأولياء من هذه الشعوب العجمية مستعدون ليتفاهموا معكم فتعطونهم ، ولكن من المؤسف المحزن أنَّ أكبر جزء من الطاقات البشرية تنفق في إزالة الأنقاض المتخيلة المفروضة.

يا جماعة! إنها ليست أنقاضاً ، إنها أسسٌ صالحة لبناء الإنسانية من جديد ، ولبناء الخلق الكريم والمجتمع الصالح ، إنها أعلام في متاهات الإنسانية ، إنها ليست أنقاضاً ، ليست خرائب قد فقدت قيمتها المعمارية ، فقدت قيمتها الصناعية ، لا ، ولكن كثيرٌ من زعمائنا يتخليون ما يعتزُّ به المسلمون في بلادهم من عقيدةٍ ، وإيمانٍ ، وأخلاقٍ ، ومبادىء ركاماتٍ قد فقدت قيمتها ، وانقضى دورها ، إنهم يعتقدون: أنَّ الإسلام بطارية قد نفدت شحنتها ، كثيرٌ من هؤلاء يقولون: إن الإسلام قد قام بدورٍ عظيمٍ حين كان الإنسان بدائياً حين كان الإنسان في سن المراهقة الفكرية ، ولكن الآن تقدَّم العالم وتقدَّمت العلوم ، وتقدمت المدنية ، فلا حاجة إليه ، لا يا إخواني! إن هذا الإيمان يستطيع أن ينقذ أمريكا ، يستطيع أن ينقذ روسيا ، يستطيع أن ينقذ الهند البرهمية ، يستطيع أن ينقذ اليابان ، يستطيع أن ينقذ العالم كله ، ولكن الذنب علينا ، الذنب على الذين إلى الآن لم يقيسوا هذا الإيمان ، وهذه القوة بمقياس صحيح ، ولم يزنوا بالميزان الصحيح الأمين ، ليس هذا الإيمان مجرد كلمة ، لا ، هذا الإيمان يستطيع أن يصنع عجائب كما صنع عجائب من قبل ، ويحلَّ كلَّ مشكلات الإنسانية؛ لأن كلَّ مشكلات الإنسانية نبعت عن عبادة النفس ، والشهوات ، نبعت عن الأنانية ، نبعت عن النظر القاصر المحدود ، نبعت عن الحزبية ، نبعت عن شهوة الرئاسة ، والإيمان يستطيع أن يتغلب على كل هذا ، ويصنع من الأمة أمةً جديدةً ، ومن البلاد بلاداً جديدة ، ومن العهد التاريخي عهداً تاريخياً جديداً ، ولكن أين الذين هم يستطيعون أن يستخدموه في صالح بلادهم وفي صالح الإنسانية؟

هذا هو الفراغ الأكبر الموجود الآن في المجتمع الإسلامي ، كلُّ شيء مهيَّأ ، وكلُّ شيء موجود ، ولكن لا نجد أحداً يستخدمه ، فأنتم يا أهل اليمن. أيها الإخوة! أنتم تستطيعون أن تفيضوا على العالم الإسلامي إيماناً

جديداً ، العالم الإنساني الآن يلهث ويلهث ، ويقول كما سيقول أهل جهنم «أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله» واذكروا قول الله : ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

أنتم أبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ، الذين قال رسول الله ﷺ عنهم . «لو سلك الناس شعباً وواديًا وسلك الأنصار شعباً وواديًا لسلكت شعب الأنصار وواديها ، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ، والناس شعار والأنصار دثار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»(١)، أين هذه الشهادة الفريدة ، وأين هذه الكرامات المجيدة لأمة من الأمم ، خصَّكم الله ورسوله عليه الصلاة والسلام بهذه الشهادات الخالدة وبهذه الكرامات المطوقة المشرفة ، فعليكم أن تشكروا هذه النعمة الجليلة التي تكادون تنفردون بها ، ولكن المعوَّل على الشيء الذي أشاد به الرسول عليه الصلاة والسلام ، لا على الموارد ، ولا على التقدم ، ولا على الحضارة ، المعوَّل على الإيمان ، المعوَّل على الفقه ، المعوَّل على الحكمة .

يا شباب الجامعة! أنتم تستطيعون أن يكون دوركم أكبر وأسعد على الإنسانية من دور كولمبس الذي اكتشف العالم الجديد ، قارة أمريكا من غير إرادة ، إذا اكتشفتم العالم الجديد في أمتكم وبلادكم وفي أرجاء العالم الإسلامي ، وانتفعتم بهذا الإيمان الذي أكرم الله به الأمة الإسلامية ، واستخدمتموه في صالح الإنسانية والعالم الإنساني المحتضر ، هذا الإيمان الذي لا يخلقه إلا النبوة ، ولا يخلقه إلا إرادة الله تبارك وتعالى .

هذه كلمتي لكم، وأنا مغتبط مسرور، فالله يعلم مدى سروري برؤية هذه المجموعة الغضة الطرية ، الصافية النقية ، الإيمانية اليمانية ، أقول لكم : اخرجوا إلى عالمٍ جديد، اكتشفوا عالماً جديداً، ولا تقنعوا بالميسور الموجود ، أبحثوا عن الكنوز الدفينة ، والثروات المطمورة في أرض القلوب المؤمنة .

* * *

(١) زاد المعاد.

المسلمون في رباطٍ دائم

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في جامع المظفر وتعز في ١٥/ من شعبان ١٤٠٤ هـ الموافق ١٦/ من مايو ١٩٨٤ ، بعد صلاة المغرب في جمع حاشد فيه كبار العلماء وأعيان البلد.

سادتي وإخواني! قد قدَّر الله لي تجولاً في صفحات التاريخ ، وتجولاً في البلاد الإسلامية ، وهكذا وفقني الله تبارك وتعالى لأن أجمع بين الجولتين: جولةٍ في التاريخ عن طريق الدراسة والمطالعة وجولةٍ في الأرض الإسلامية بالرحلات العديدة ، والزيارات المتكررة ، فعليّ حقٌّ أن أتحدث إليكم بشيء من تجاربي وانطباعاتي ، وأن أقدم إليكم بعض ملاحظاتي وتوصياتي ، وقديماً قالت العرب: «الرائد لايكذب أهله» فإن لم أكن شيئاً فإني رائدكم ، أنا رائد العالم الإسلامي كله على أساس العقيدة والإيمان ، والحمد لله ، ورائد العالم العربي؛ لأني ألتقي معه ، وأتصل به عن طريق النسب ، واللغة ، والثقافة ، وأقلُّ واجبٍ على الرائد ألا يخفي شيئاً من الحقائق عن الذين وضعوا فيه ثقتهم ، وقلَّدوه هذه الأمانة ، وهذه المسؤولية.

أيها الإخوة الكرام! إنِّي أبدأ حديثي هذا بكلمةٍ سجَّلها التاريخ ، كلمةٍ حكيمة بليغة على مدى الأعصار والأمصار ، وعلى مدار التاريخ ، كلمة قالها الصحابي الجليل والفاتح العظيم عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه ، فاتح مصر ، إنَّه لما شرفه الله بإخضاع مصر ، وبالأصحِّ إدخالها في حظيرة الإسلام ونقلها إلى ظلِّ الإسلام الوارف ، إنَّه لما استطاع أن يفتح هذه البلاد التي استعصت على كثيرٍ من الفاتحين ، ولها تاريخ طويل في تقدم المدنية ، والحضارة ، والعلوم ، وقامت على أرضها حكومات من أقوى الحكومات ، وملكها ملوكٌ خلَّد القرآن بالذكر منهم فرعون ، لما فتح سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه ، ومعه من الصحابة رضي الله تعالى عنهم عددٌ كبيرٌ ومن تبعهم من المسلمين ، كان له كلُّ الحقِّ في أن يطمئنَّ إلى الوضع السياسي ، وإلى الوضع الاستراتيجي ، وإلى الوضع الجغرافي لما دانت له مصر بأرضها ، وخصبها ، وغلاتها ، وخيراتها ، حتى وثقافتها ، وحضارتها ، ولغتها ، تعلمون جميعاً أنَّ مصر من البلاد السعيدة التي قبلت اللغة العربية كلغتها ، والخط العربي والحضارة العربية

الإسلامية ، وكانت كلُّ القرائن ، وكلُّ الشهادات تدلُّ على أنَّ مصر ستظلُّ جزءاً من أجزاء الإمبراطورية الإسلامية ، وكان لا شيء يهدِّد بالخطر ويشكك في مصير مصر ، فلو كان أحد مكانه من الفاتحين الكبار الذين حدّث عنهم التاريخ ، لأثنى على جيشه وشهد له بالفروسية ، والعبقرية ، هنأه على هذا الفتح العظيم ، وطمأنه إلى آخر الدهر ، وقال لهم كونوا على ثقةٍ بأن مصر قد دانت لنا ، وخضعت ، ولا خطر ولا خوف ، انعموا في ظلالها ، واشربوا من ماء النيل ، وسيحوا في الأرض كما شئتم وابنوا فيها قصوراً مشيدة ، واسكنوا فيها كأبناء البلاد ، وسادة البلاد ، وحكامها.

ولكنكم تعلمون ماذا قال هذا الفاتح العظيم؛ الذي شرَّفه الله بصحبة النبي الرسول الأعظم ﷺ ، وألهمه الحكمة والفراسة المؤمنة الصادقة التي حدَّث عنها الرسول ﷺ فقال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ، ماذا قال سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه؟ قال: «إنكم في رباطٍ دائم لكثرة الأعداء حولكم ، وتصرف قلوبهم إليكم». إنَّه قال لهم: لا تخلدوا إلى الراحة ، ولا تضعوا السلاح ، ولا تعتبروا نفوسكم قد نفضتم غبار الغزو ، فلكم الآن كلّ حق في أن تعيشوا عيشة الفاتحين الحكام ، لا! إنكم في رباط دائم ، أنتم محاطون بالأعداء كاللسان في الأسنان ، أنتم حفنةٌ بشرية ، ونقطة مغمورة في هذا البحر الطامي من الأجناس والديانات والحضارات في قارة إفريقية؛ التي تكاد تكون عالماً بمفرده ، فلا مساغ لكم في أن تخلدوا إلى الراحة ، وأن تناموا نوم الفاتحين على أسرة الملوك الباذخين.

هذه وصيةٌ وصَّى بها سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه ، يجب أن يحفظها المسلمون ، ويجعلونها نبراساً لهم ، ودستوراً لهم في الحياة ، إنَّ محنة الشعوب الفاتحة والأسر الحاكمة أنها تبدأ حياتها بالتقشف ، والفروسية ، والمغامرات ، وتنتهي بها ـ في فترة قد تطول أحياناً ، وتقصر أحياناً ـ إلى حياة النعومة والفسولة[1] ، وفاكهة وشراب ، وعزف ،

(١) فسل فسلاً وفسالة وفسولةً أي: ضعيفاً ، لا مروءة له ، ولا جلد.

وقصف ، كما قال الشاعر العظيم الدكتور محمد إقبال: «أنا أحكي لك قصة الفتوح ، وقصة الحكومات ورجالها في لفظٍ وجيز: إنهم يبدؤون بالسيف والسلاح وينتهون إلى المزمار والغناء ، تلك بدايتهم ، وهذه نهايتهم ، هذه قصة جميع الحكومات التي قامت على أكتاف هؤلاء الشبان المتقشفين ، الزهَّاد ، المغامرين بالنفس والنفيس ، وإلى أي شيء انتهت هذه الحكومات؟ انتهت هذه الحكومات إلى ملوك مرفَّهين باذخين ، قد استحوذ عليهم الشيطان واستهوتهم المادَّة والشهوات ، وجنَّ جنونهم ، وتفننوا في الألعاب ، والأغاني ، وفي المطاعم ، والمشارب ، وأبعدوا النجعة ، إنَّ القائد الحكيم سيدنا عمرو بن العاص نصح العرب الفاتحين لمصر بأن لا يشتغلوا بالدواب الفارهة ، والقصور الباذخة ، وبالمطاعم اللذيذة الخيالية ، كأنه قال لهم: لا تعيشوا عيشة «ألف ليلة وليلة» ، عيشوا عيشة جدٍّ وصرامة ، عيشة فروسية ورباط ، عيشة مجاهدين مناضلين.

اقرؤوا يا إخواني! تاريخ الحكومة المغولية في الهند التي كانت أكبر الإمبراطوريات في القرن العاشر الهجري على وجه الأرض ، وكانت تلي الدولة العثمانية فقط ، كانت بداية هذا الأمر من «ظهير الدين بابر» ، وكان من الشدَّة والقوة أنه كان يحمل رجلاً على كتفه اليمنى ، ورجلاً على كتفه اليسرى ، ويمشي على السور العالي ، بعد ذلك ، انتقلت الحكومة إلى ابنه نصير الدين «همايون» استمر على شيءٍ من الفروسية مع شيءٍ من تنعم الملوك ، ثم انتقلت الحكومة إلى نجله «جلال الدين أكبر» فكان كذلك ، وكان يقود الجيوش الجرارة ، ثم انتقلت إلى ابنه «نور الدين جهانكير» فتنعم ورقَّ أكثر ، حتى وصل الأمر بعد الإمبراطور شاهجهان الذي بنى «التاج محل» في آكره إلى ابنة الملك الصالح السلطان محيي الدين أورنك زيب عالمكير ، وكان فارساً ، وقائداً محنكاً ، وزاهداً اعتبرة بعض المؤرخين سادس الخلفاء الراشدين ، ثم دبَّ الوهن في هذه الأسرة ، فكانوا مثالاً في الترف ، والبذخ ، وحكاياتهم تشبه الخيال ، فلا يصدِّق الإنسان أنَّ الإنسان يبلغ إلى هذا التفنن الخيالي وإلى هذا الغرام بالملاذ والأغاني؟ فخسروا الدولة ، وضيَّعوا الملك.

وأنتم يا إخواني العرب! تعيشون في قطعةٍ من الأرض تتجه إليها الأنظار لأسباب لا أستطيع أن أشرحها الآن ، ويعرفها المتبصرون الدارسون ، أنتم تعيشون في قطعةٍ قد ركز الأعداء كلَّ جهودهم ، وكلَّ ذكائهم وكل مخططاتهم على إزالتها عن رسالتها وعن شخصيتها الإسلامية العربية ، وعن قيادتها للعالم الإسلامي ، هذه مؤامرة من أخطر المؤامرات التي عرفت في التاريخ ، إنَّ الشعوب على الرغم مما عندها من نظريات مختلفة قد تكون متناقضة تلتقي علىٰ نقطةٍ واحدة ، وهي : القضاء على مكانة الجزيرة العربية ، وقطع صلتها عن الإسلام ، هذا أقوله لكم كرائدٍ لا يكذب أهله ، كرجلٍ زار أوربا وأمريكا ، واطلع على كتب المستشرقين ، وهو متتبعٌ لما يقال وينشر ، ويكتب هنالك ، ثم أقول لكم في ضوء معلوماتي وفي ضوء مشاهداتي : إنه ليس للعالم الخارجي والشعوب والحكومات البعيدة عن هذه الجزيرة هي التي تشكل الخطر على كيان هذا الجزء من الجزيرة العربية وشخصيته ، بل إنكم محاطون بدعوات مناهضة للإسلام ، ومعسكرات تقوم على فلسفات تتناقض مع الإسلام ومع مقومات شخصيتكم ، وجوهر رسالتكم ، ومركزكم في العالم ، فأنتم لا يسوغ لكم أبداً أن تخلدوا إلى الراحة ، وأن تعيشوا عيشة المنعمين المترفين ، أقول لكم بصراحة : الترف هو العامل الأكبر لهدم الحكومات ، وانقراض المدنيات ، وسقوط المجتمعات ، وهو الذي ذمه القرآن ، فيقول : ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [الإسراء : ١٦]و«المترفون» كلمة قرآنية تتكرَّر وتتردَّد في القرآن ، وهو يقول : ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [القصص : ٥٨] ، الترف والبطر من أقوى العوامل الحضارية ، والنفسية ، والخلقية التي قد قضت على الحكومات المسنة ، الطويلة ، وعلى المدنيات المزدهرة بالزوال ، فلا بدَّ أن ترجعوا إلى حياة البساطة ، وشيءٍ من التقشف ، لا أقول لكم عيشة البدو ، والأعراب الأولين ، وكلوا لحوم الإبل ، واشربوا ألبان الإبل ، ولا تتمتعوا بشيءٍ مما أنعم الله به عليكم ، لا! أنا لا أدعو إلى الرهبانية ، فلا رهبانية في الإسلام ، وأنا

لا أدعو إلى تقشف غير طبيعي ، ولكن إلى شيءٍ من التقشف ، إلى شيءٍ من البساطة ، تحرروا من عاداتكم التي لا تتصورون الحياة واللذة بغيرها ، إنني لا أسمي هذه العادات ، وهذه الهوايات ، ولا أحدِّدها ، فأقلِّل من قيمة حديثي المبدئي العام ، إنما أتركه إلى ذكائكم ، ومعرفتكم بالمجتمع ، وارتباط قلوبكم به ، لا تستأسركم هذه العادات ، والهوايات ، والأعراف والتقاليد حتى تتحكم فيكم ، وتستعبدكم. إن الأمم التي تقوم بدور بناءٍ إيجابي وبدورٍ يذكر في التاريخ لا تكون أسيرةً لعاداتها ، ولا تكون مترفةً مترفهة إلى آخر الحدود ، وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو أبو الأمة ومربيها ، كان يقول للمسلمين: «تمعددوا ، واخشوشنوا ، واخلولقوا ، وانزوا على ظهور الخيل نزواً» يجب عليكم أن تحمدوا الله على نعمه الكثيرة ، وتشكروها وتقدروها قدرها ، ولكن لا تلينوا الحياة ، ولا ترققوها إلى حد لا يمكنكم أن تواجهوا فيه أي محنة وأي شدَّة. إنَّه يا إخواني! ليس عصر «ألف ليلة ولية» ، ليس عصر الأغاني؛ الذي ألفه أبو الفرج الأصفهاني ، ولا عصراً خيالياً ، إنما هو عصر صراع الطاقات الكبيرة ، والمعسكرات العظيمة المقررة للمصير ، أنتم بين فكّي الأسد ، أنتم بين طبقتي الرحى ، لسان بين الأسنان ، وأنتم لا بدَّ لكم أن تحسبوا لهذا الزمان ، ولهذا المكان ، ولهذه الأحوال ، ولهذا الوضع القاسي ، ولهذا الواقع المرّ حسابه.

هذا الذي أريد أن أقول لكم ، كان في إمكاني والحمد لله أن أزيد ثقة إلى ثقتكم ، وأن ترجعوا من هنا مرتاحين فرحين تقولون بشرنا فضيلة الشيخ بشّرنا بكذا وكذا ، وحكى لنا حكايات مثيرة ، حكايات شائقة ، لا! هذا ليس من الأمانة ، إنَّ الإكرام الذي لقيته منكم يملي عليَّ أن أكون صريحاً ، وقد قال رسول الله ﷺ قبل قرون وقرون: «ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب» فكيف بهذا الزمان الذي هو عصر المحن ، والفتن ، وعصر العداء للإسلام ، وعصر المادية الرعناء ، والردَّة الفكرية ، والعقائدية ، أنتم هنا حملة أمانة كبيرة ، وورثة جيل عظيم ، ورثة العلماء الربانيين والأولياء الصالحين ، ورثة الحكام العادلين إلى قرون عديدة ، فيجب لكم أن تسهروا

على هذه الأمانة ، وأن تحسبوا لها كلَّ حساب ، وأن تنظروا إلى الواقع المحيط بكم ، تستعرضوا الوضع السياسي ، الوضع المبدئي ، الوضع الدعوي الذي تعيشونه ، ويعيشه اليمن ، وتعيشه الجزيرة العربية كلها ، وإني أهنئكم بأن الله اختار لكم هذه الأرض الطيبة ، فاحمدوا نعمة الله ، واشكروا الله تبارك وتعالى على هذه النعمة ، ولكن كونوا أكفاء هذه الوراثة ، أكفاء هذه الأمانة ، أكفاء هذه المسؤولية .

* * *

معجزة الإسلام الخالدة

هذه الكلمة ألقاها العلامة الندوي في معهد النور في الحديدة ميناء البحر الأحمر في اجتماع عام عقد في الساحة الفسيحة للمعهد ، بعد نشيد الأطفال في الترحيب ، وتعريف الأستاذ عبد الله إبراهيم مدير المعهد بالعلامة الليلة وقصيدة له ، وذلك في ١٦/ من شعبان ١٤٠٤ هـ/ الموافق ١٧/ ٥/ ١٩٨٤ م.

سادتي وإخواني! حضرتني وأنا جالس معكم آيةٌ قرآنيةٌ هي قوله تعالى ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، فسَّر كثير من المفسرين هذه الآية بالشرف[1] يقول الله تعالى مخاطباً للعرب الأولين الذين نزل القرآن بلغتهم، وقد خاطبهم القرآن قبل أن يخاطب غيرهم، فقال: لقد أنزلنا أيها العرب المسلمون كتاباً فيه شرفكم، يعني: هذا الكتاب الذين يخلد ذكركم في الدنيا، ويحفظ تاريخكم الجليل، ويقيم للغتكم المحدودة في الجزيرة العربية دولةً عالميةً من أوسع الدول، وأقواها، دولةً لا تقوم على القوة والإرغام، بل على الحبِّ، والطوعية، والعقيدة والإيمان، من أوسع دول اللغات ورقاعها؛ التي عرفت في تاريخ الثقافات، واللغات. ويفرض دراستها، والتوسع، والدقة فيها ـ لأجل هذا القرآن العربي المبين ـ على أبناء العجم الذين يعتزون بلغاتهم، وآدابهم، هذا الكتاب الجليل الذي نزل بلغة الجزيرة العربية على لسان النبيِّ العربيِّ الأميِّ، مطلع صبح صادق في ليلٍ دامسٍ غاسق، ومولد تاريخٍ جديدٍ للأمة العربية التي مضت عليها قرونٌ وأحقابٌ، فلولا هذا القرآن، ولولا هذه النبوة الأخيرة العالمية التي آثر الله لها الجزيرة العربية؛ كانت الأمة العربية ـ ولا تؤاخذوني أيها الإخوان! ـ مطمورةً مغمورةً في أنقاض التاريخ، وكانت في مؤخر الركب الإنساني، تعاني الفراغ العقلي والعلمي والعزلة والانطواء.

هل كان العرب ـ تصوروا أيها الإخوان! ـ ولو عاشوا مئات السنين، يستطيعون أن ينشروا لغتهم العربية في العالم من أقصاه إلى أقصاه، حتى يأتي رجل وُلِدَ في الهند ـ والهند بلد له لغات وثقافات ومدنية خاصة ـ

---

(١) جاء في تفسير روح المعاني للآلوسي أنَّ فيه ما يوجب الشرف لكم؛ لأنه بلسانكم ومنزل على نبيٍّ منكم، تتشرفون بشرفه؛ وتشتهرون بشهرته، لأنكم حملته، والمرجع في حل معاقده، ج/ ١٧، ص١٤ ـ ١٥.

ويدرس اللغة العربية ويجيدها ثم يأتي إلى زبيد بلدكم ، ويأخذ من علمائها ، وأئمة اللغة والحديث فيها [١] ، ويشتهر بالزبيدي حتى تغلب هذه النسبة على نسبته الوطنية ، ويصبح الكثير من الدارسين والمثقفين لا يعرفون أنه من الهند ، ومن الولاية الشمالية التي أنتمي إليها ، هل تعرفون من هو؟ هو العلامة السيد مرتضى بن محمد الحسيني الزبيدي (١١٤٥ هـ ـ ١٢٠٥) يتناول القاموس المحيط من أشهر المعاجم العربية للإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي م ٨١٧ هـ (وهو دفين بزبيد) بالشرح ، ويؤلف «تاج العروس» في عشر مجلدات كوامل[٢] في أربعة عشر عاماً وشهرين ، ولا أعرف في لغة من اللغات التي لي مشاركة فيها ، أو إلمام بها: أنَّ معجماً اعتُني به هذا الاعتناء ، وشُرح هذا الشرح المستفيض ، وجمعت فيه هذه الثروة اللغوية الهائلة ، والتدقيق الذي اتسم به هذا الشرح الكبير ، ويعتبر هذا الكتاب حجة ، ويبلغ من القبول والشهرة حتى يتنافس فيه المتنافسون من أفاضل العلماء ، وكبار الملوك والأمراء ، فاستكتب منه ملك الروم نسخةً ، وسلطان دارفور نسخةً ، وملك المغرب نسخةً ، وطلب منه أمير اللواء محمد بيك أبو الذهب نسخةً ، وجعلها في خزانة كتب مسجده الذي أنشأه بالقرب من الأزهر ، وبذل في تحصيله ألف ريال[٣] .

وكذلك ما الذي جاء بالإمام مجد الدين الفيرزآبادي الذي ذكرته آنفاً ، صاحب «القاموس المحيط» وصاحب «سفر السعادة» ومن كبار القضاة والمؤلفين ، من بلده فيروزآباد في إيران إلى مدينة زبيد في اليمن ، يؤثره بالإقامة ، ويقضي فيه آخر أيام حياته ، ويلقى حِمامه ، ويدفن في أرضه ،

(١) من أخصّهم العلامة السيد أحمد بن محمد مقبول الأهدل ومن في طبقته .

(٢) وقد ظهر الكتاب في عشرين جزءاً من الكويت بتحقيق الأستاذ عبد الكريم الغرباوي حديثاً .

(٣) يراجع للتفصيل كتاب «نزهة الخواطر» للعلاّمة عبد الحي الحسني ، المجلد السابع ترجمة العلاّمة السيد مرتضى الزبيدي . طبع في «دار عرفات» برأي بريلي (لكهنؤ) الهند، وفي «دار ابن حزم» ببيروت .

هل شيء غير رابطة الدين ، ورابطة اللغة العربية ، ومكانة زبيد الدينية والعلمية؟

وإلى هذه النقطة لفتُّ النظر وأنا أحاضر في جامعة جنيف بسويسرا في اللغة العربية ، في حفلةٍ عقدت بمناسبة مولد الرسول ﷺ ، وتساءلت وفي الاحتفال عددٌ من كبار الأساتذة والمثقفين ، أليس من معجزات القرآن والإسلام أن هندياً يحاضر في اللغة العربية في عاصمةٍ أوربية ، تصوروا أيها الإخوان العرب!! كيف انتشرت هذه اللغة ، وطبقت الآفاق حتى فاق فيها غير العرب ، لقد كانت الجزيرة العربية رغم سعتها منطوية على نفسها ، منعزلةً عن العالم ، كان فيها شعراء ، وخطباء ، ولكن لم ينبغ فيها شاعرٌ ولا أديبٌ عرفت مكانته في الخارج ، وتوفر كبار الأذكياء ، ونوابغ العلماء على دراسة شعره وشرحه ، ولكن لما منَّ الله على الجزيرة العربية بالبعثة المحمدية ، انطلق الإسلام ، وفتح القلوب ، وسخَّر العقول ، وخرجت اللغة العربية من نطاقها الضيق ـ وإن كان واسعاً ـ إلى خارج الجزيرة ، ونبغ فيها باحثون ، وعلماء ، ومحققون.

وفي إحدى زياراتي(١) سألت العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي(٢) صاحب «سمط اللآلىء» و«أبو العلاء وما إليه» ، وأحد أعضاء لجنة تصحيح «لسان العرب لابن منظور» كم تحفظ من شعر العرب؟ فوقف ثواني ، ثم قال: بين خمسةٍ وسبعين ألف ومئة ألف من الأبيات ، ولم يكن في ذلك مبالغاً ، ومجازفاً بالقول ، يعرف ذلك تلاميذه ، والذين عرفوه ، فهل يوجد مثال لذلك في أيِّ لغة من لغات العالم يدرسها أجنبي ، فيحفظ منها هذا العدد الكبير من أبياتها؟ .

---

(١) كان ذلك في يوليو سنة ١٩٧٨ في كراتشي باكستان. انظر: «رحلات العلامة أبي الحسن الندوي» طبع في «دار ابن كثير » دمشق ـ بيروت.

(٢) توفي بكراتشي في نوفمبر ١٩٧٨ م. انظر للاطلاع على ترجمته بكاملها كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن العشرين» طبع في «دار ابن كثير» بدمشق.

ونزول القرآن باللغة العربية سرُّ بقاء اللغة وانتشارها كما قرره الكاتب المسيحي جرجي زيدان ، وقاله كثير من الباحثين.

قبل قرن كان الإنجليز يحكمون الهند ، وكان أبناء شبة القارة الهندية يتظرفون ، ويتنبلون بدراسة اللغة الإنجليزية والمهارة فيها ، بها يكتبون ويخطبون ، وفيها يؤلفون ويدرسون ، ولكن لما خرج الإنجليز من الهند بدأ الناس يكرهون اللغة الإنجليزية ويعتبرونها رمزاً للاستعمار ، وبدأت حركة محو الخط الإنجليزي والحروف الإنجليزية من الألواح واللافتات ، وقد حكم المغول الهند مدة ثلاث قرون ، وكانت لغتهم القومية التركية ، ولكن اندرست هذه اللغة وجهلت بعد انقراض الحكم المغولي ، وهكذا فقدت اللغة الفارسية التي كانت لغة الديوان الشيء الكثير من أهميتها ، والعناية بها ، ولكن المسلمين في شبه القارة لا يزالون متمسكين باللغة العربية ، محتفظين بها ، لهم مدارس تعلم اللغة العربية ، والعلوم الدينية تعد بالآلاف؛ لأنها لغة القرآن ومفتاح كنوز السنة ، ومدخل المكتبة الإسلامية العربية ، ولغة نبيهم وصحابته.

يوصي كبار علماء الهند ، وقادة الإصلاح والتجديد في هذه القارة بالعناية باللغة العربية ، والاعتزاز بها ، والحرص على معرفتها ودراستها ، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي المتوفى ١١٧٦ هـ في رسالته التي أسماها: «المقالة الوضيئة في النصيحة والوصية»:

«نحن رجال غرباء ، هاجر آباؤنا إلى الهند ، وإنّ عربية النسب ، وعربية اللسان مفخرتان لنا ، وهي التي تقربنا إلى سيد الأولين والآخرين ، وأفضل الأنبياء والمرسلين ، ومفخرة الوجود ﷺ. . . السعيد منا من حصلت له مشاركة في لسان العرب والصرف والنحو ، وكتب الأدب ، واطّلع على الحديث والقرآن ولا بد لنا من حضور الحرمين الشريفين ، وتعلق القلب بهما ، وفي ذلك سرُّ سعادتنا ، والشقي من أعرض عنهما».

أين رابطة الشعوب والبلاد بلغات حكامهم ومستعمريهم ، أو باللغات

التي لا يتصلون بها إلا عن طريق السياسة ، أو الثقافة ، أو الاقتصاد؛ من هذه الرابطة التي تقوم على العقيدة ، والإيمان ، والحبِّ ، والغرام ، ولا تستطيعون أيها الإخوان أن تقدروا مدى حب أهل الهند من المسلمين ومسلمي أنحاء العالم الإسلامي الأخرى لكم ، وتقديرهم لدوركم في التاريخ ، ومدى احترامهم للغتكم ، وثقافتكم ، إنه هو الحب الخالص الذي يقول الله تعالى عنه ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [آل عمران: ٦٣].

ولذلك لما سمح بالأذان باللغة العربية في تركيا ـ كان ذلك ممنوعاً في عهد أتاترك ـ خرج الأتراك من بيوتهم وبدؤوا يرقصون فرحاً ، وذبحت مئاتٌ من النعاج شكراً وسروراً بأنَّ الله مدَّ في حياتهم حتى أدركوا هذا اليوم السعيد ، وسمعوا الأذان العربي في لغة نبيهم التي كان يؤذن فيها بلال ، وأبو محذورة وابن أم مكتوم ، والذي كان يدوي على منائر مساجدهم قبل أن يصدر هذا الحكم القاسي السفيه.

هذا هو الرباط الذي يربط الشعوب بكم ، وهو الذين يضمره قلوب غير العرب لكم ، وهو نابع عن شعورٍ واحد ، وهو الشعور بعظم نعمة الإسلام وضخامتها التي جاءتهم عن طريقكم ، إنهم ينظرون إليكم كحامل رسالة الإسلام ، وناقل التعاليم الإسلامية ، ينظرون إليكم كالمنقذ من الضلال ، وكالمخرج من الظلمات ، ذلك الذي رفعكم أيها العرب إلى مستوى القيادة العالمية ، فهل تتخلون عن هذه المنزلة الرفيعة ، وتنزلون إلى مستوى القيادة العالمية ، فهل تتخلون عن هذه المنزلة الرفيعة ، وتنزلون إلى مستوى القوميات والعصبيات ، والنظريات الضيقة ، والقوانين التي تغيَّر صباح ومساء؟

نذكركم يا أبناء اليمن ، ويا أبناء الأنصار! ما سجله الحديث الصحيح من حوار دار بين رسول الله ﷺ والأنصار ، حين تقاول بعض شبابهم في أنَّ الرسول آثر بأكبر الغنائم رجال قريش من المؤلفة قلوبهم ، فجمعهم رسول الله ﷺ في حظيرةٍ ، وقال لهم:

«يا معشر الأنصار! ما قالةٌ بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً ، فهداكم الله بي ، وعالةً ، فأغناكم الله بي ، وأعداءً ، فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا : الله ورسوله أمنُّ وأفضل . ثم قال : ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المنُّ والفضل ، قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتكم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فواسيناك ، وأوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعةٍ من الدنيا ، تألَّفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ ، فوالذي نفس محمّدٍ بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً ووادياً ، وسلكت الأنصار شعباً ووادياً لسلكت شعب الأنصار ووادِيها .

الأنصار شعار والناس دثار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» . قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً» .

والزمان قد استدار كهيئته يوم كان الخيار بين الغنائم وبين رسول الله ﷺ ، فأعلن الأنصار «رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً» وتقوم معركةٌ جديدةٌ بين المعسكرات والدعوات ، والنظم ، والفلسفات ، وتعقد ألويةٌ جديدةٌ يرفعها قادة الجاهلية الجديدة ، وزعماء الثورة على الإسلام ، فليكن هتافكم في هذا المنزل الجديد ، والتخيير الجديد بين أتباع الإسلام ، والانضواء إلى راية محمَّد عليه السلام وبين الانضواء إلى رايات منافسيه ، ليكن هتافكم في هذا : «رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً» .

وأنتم أبناء أبناء الأنصار ، وأبناء أولئك البررة الذين شهد لهم لسان النبوة بالإيمان ، والفقه ، والحكمة ، وكفى به فخراً وشرفاً .

أكتفي بهذا وأشكر منظمي هذا اللقاء العظيم ، والذين جاؤوا من أماكن بعيدة ، وسمعوا هذا الحديث بآذانٍ صاغيةٍ ، وقلوبٍ واعيةٍ ، وأحمد الله

تبارك وتعالى على أنه كتب لي هذه الزيارة لهذه الأرض الطيبة الحبيبة ، وحقق لي الأمنية العزيزة القديمة التي راودتني وخامرت قلبي منذ أعوام طوال ، لما بيني وبين اليمن الميمون ـ وقد اعتاد كثيرٌ من علماء الهند ألا يذكرون اليمن إلا مقروناً بالميمون ـ من صلاتٍ ثقافية[١] ، وروابط دينية وعلمية ، فله الحمد في الأولى والآخرة.

* * *

(١) تتلمذ العلامة الندوي على الشيخ خليل بن محمد بن حسين الأنصاري اليماني الّذي كان من أبناء الحديدة في اليمن ، وتخرَّج عليه في اللغة العربية والأدب العربي ، وشيخه العلامة حيدر حسن شيخ الحديث في دار العلوم ندوة العلماء ووالده العلامة عبد الحي الحسني ، تلميذان للعلامة حسين بن محسن الأنصاري السبيعي اليماني في الحديث ، وهو من مواليد الحديدة ، وتلاميذ الشيخ أحمد بن محمد بن علي الشوكاني (وهو تلميذ والده الإمام محمد بن علي الشوكاني صاحب «نيل الأوطار») وتلميذ العلامة المحقق محمد بن ناصر الحسيني الحازمي ، وقد انتقل إلى بهوفال ، وشمَّر عن ساق الجدِّ في نشر الحديث وتدريسه ، أخذ عنه عددٌ كبير من كبار العلماء والأساتذة ، كالعلامة السيد صديق حسن أمير بهوفال ، والشيخ محمد بشير السهسواني ، والشيخ شمس الحق الديانوي ، وغيرهم ، كانت وفاته سنة ١٣٢٧ هـ.

مـصـدر قُـوة الـمُسْلِـم

هذا الحديث ألقاه العلامة الندوي في لواء المدرعات بصنعاء صباح ١٩/ من شعبان ١٤٠٤ هـ الموافق ٢٠/ مايو ١٩٨٤ م ، ونُقِل من الشريط المسجّل .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤].

إخواني الأعزاء! تعلمون جميعاً وأنتم والحمد لله مثقفون متعلمون أبناء هذه التربة الكريمة الندية ، الإيمانية اليمنية أنَّ الدعوة الإسلامية قامت على أكتاف البشر ، والفتوح ، والانتصارات التي تحققت وتمت في الشرق والغرب إنما تحققت على أيدي بني آدم ، لم يكن الأمر أنَّ المسلمين كانوا من جنس الجنِّ ، أو الملائكة ، ومنافسوهم كانوا من البشر ، لا! كلُّهم بنو آدم ، وكلُّهم من لحم ودم ، وكلُّهم كانوا يحملون أجساماً خاضعة لناموس السنن الإلهية ، والطبيعة البشرية ، تجرح وتكلم ، وتتأذّى ، وتتألم. هم في ذلك سواء ، فإذا قسنا هذه الأجسام البشرية ، وهذه المواد الإنسانية بمقياس الطبيعة ، كانوا سواءً في ذلك.

ولكنَّ الله سبحانه وتعالى يقول للمسلمين ويعلمهم كما يعلم الأستاذ الكبير ، والمربي العطوف الأطفال الصغار: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ ﴾ [النساء: ١٠٤] ، تقولون: لا قِبل لنا بالأعداء ، فإنا نحمل أجساماً بشرية تتأذى ، وتتألم ، وتصيبها جراحات وكلم ، فيقول الله تعالى: ﴿ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ ﴾ [النساء: ١٠٤] ، يعني: إن كنتم تشعرون بالألم ، فإنَّ منافسيكم كذلك يشعرون بالألم ، فإنهم يحملون أجساماً بشرية مثلكم.

ولكن هنالك فرقٌ كبير ، وهو أنكم ترجون من الله ما لا يرجو هؤلاء ، إنكم ترجون عند الله الثواب العظيم ، إنكم تؤمنون بأنكم إذا متم في ساحة القتال؛ فأنتم من الشهداء الذين يقول الله تبارك وتعالى عنهم ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٤] ويقول: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحۡزَنُونَ﴾[آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠] ، ويقول: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦].

ويقول رسول الله ﷺ: «ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما في الأرض من شيء إلا الشهيد ، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة»[١] ، ويقول: «والذي نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم ، لونه لون دم وريحه ريح مسك».

وفيه أنه قال: «والذي نفس محمد بيديه لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل[٢] ، ويقول: «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف»[٣] ، وفي روايةٍ: «واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[٤] ، وقال: «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ، ولا يجتمع على عبدٍ غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم»[٥].

وتؤمنون بأنَّ كلَّ جراحةٍ تصيبكم إنما هي في سبيل الله ، وكلَّ قطرةٍ من دمائكم تسيل على الأرض تغير مصائر الأمم ، وتنقل الناس من الظلمات إلى النور وأنتم تقضون على شقاء الإنسانية ، وعلى شقاء الأمم ، إنما خرجتم لنشر هداية الله ، وإنقاذ البشرية كما قال سيدنا ربعي بن عامر لرستم قائد قواد الفرس حين قال له: ما الذي جاء بكم؟: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[٦].

ما أعظم هذا الفارق! وما أكبره تأثيراً على المشاعر ومنهج التفكير ،

---

(١) البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم وروى البخاري بعضه.

(٣) رواه مسلم.

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه الترمذي.

(٦) البداية والنهاية.

وإثارة القوة المعنوية التي هي أكبر من قوة السلاح ، وقوة الأجسام ، بل أعظم من الطاقة الذرية ، والتي انتصر بها العدد القليل على العدد الكبير ، والإنسان الضعيف على الإنسان القوي مئاتٍ وآلافاً من المرات في تاريخ الحروب والغزوات ، فإذا أصابكم ألمٌ؛ فقولوا: هذا في سبيل الله ، فلا يهون هذا الألم فقط ، بل ينتقل إلى لذةٍ وعزَّةٍ. وقد دميت إصبع رسول الله ﷺ في القتال فتمثل بهذا البيت:

هـــل أنـــت إلا إصبـــع دميـــت وفـــي سبيـــل الله مـــا لقيـــت[١]

إنَّ عقيدة الإيمان ، وعقيدة الثواب والأجر ، والشوق إلى الجنة ، والحنين إلى الشهادة ، يأتي بعجائب لا يتصورها العقل ، ويحدث نشوة الإيمان التي تقضي على ألم الجراح ، وقد روى التاريخ أنَّ جعفر بن أبي طالب أخذ راية رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة[٢] ، فقاتل بها حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه ، فعقرها ، ثم قاتل ، فقطعت يمينه ، فأخذ الراية بيساره ، فقطعت يساره ، فاحتضن الراية بعضديه حتى قتل ، وله ثلاث وثلاثون سنة ، ووجد المسلمون ما بين صدره ومنكبيه وما أقبل منه تسعين جراحة ، ما بين ضربةٍ بالسيف ، وطعنةٍ بالرمح ، كلُّها في الأمام ، ومات فتى الفتيان وهو يحنُّ إلى الجنة ، ويتغنى بنعمائها ، يستهين بالعدد والعدد وبزخارف الدنيا[٣] .

هل يتصور هذا من غير عقيدة تتغلغل في الأحشاء ، ونشوةٍ إيمانيةٍ تسري في العروق ، ولذةٍ روحية تتغلب على الشعور بالألم؟ .

وأنا أروي لكم ثلاث حكايات ونماذج من هذا الإيمان من عصر الرسالة ، وحياة الصحابة ، ثم أضمُّ إليها ثلاث حكايات من تاريخ الجهاد والدعوة الإسلامية في القرن الثالث عشر الهجري في عصرٍ متأخرٍ عن عصر النبوة ، وفي ناحيةٍ بعيدةٍ ـ شبه القارة الهندية ـ عن مركز الإسلام ، ومهبط

---

(١) في الصحيحين.

(٢) كانت في السنة الثامنة للهجرة.

(٣) ابن كثير ، ج/ ٣ ، ص/ ٤٧٤ ، وزاد المعاد ج/ ١ ، ص/ ٤١٥ .

الوحي ، ومنزل القرآن؛ لتعرفوا أنَّ تاريخ الإيمان متصل ، وأنَّ شجرة التربية الإسلامية تؤتي أكلها كلَّ حينٍ بإذن ربِّها ، وخليةَ الإسلام تعسل في كلِّ مكان وزمان.

فمن حكايات عصر النبوة: لما تراجع المسلمون يوم أحد تقدَّم أنس بن النضر ، فلقيه سعد بن معاذ ، فقال: أين يا أبا عمر؟ ، فقال أنس: واهاً لريح الجنة يا سعد! إنِّي أجدها دون أحد[(١)] ، ويقول زيد بن ثابت رضي الله عنه: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع ، فقال لي: إن رأيته فأقرئه مني السلام وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ كيف تجدك؟ قال فجعلت أطوف بين القتلى ، فأتيته وهو بآخر رمق ، فقلت: يا سعد! إنَّ رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ، ويقول لك: أخبرني كيف تجدك؟ ، فقال: وعلى رسول الله السلام ، وقل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة ، وقل لقومي الأنصار: لا عذرَ لكم عند الله إنْ خلص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف. وفاضت نفسه في وقته[(٢)].

والحكاية الثالثة هي حكاية خبيب رضي الله عنه ، لما جاؤوا به ليصلبوه ـ وذلك في سنة ثلاثٍ للهجرة في الرجيع[(٣)] ـ قال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين؛ فافعلوا! قالوا: دونك فاركع! فركع ركعتين أتمهما ، وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم ، فقال: أما والله لو لا أن تظنوا أني طولتهما جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة! وأنشد بيتين:

فلست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي شقٍّ كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلوٍ ممزَّع[(٤)]

ولقائل أن يقول: أنت تحدثنا عن عصرٍ كله سعادة وبركة ، وعن أناس

---

(١) زاد المعاد ج/ ١ ، ص/ ٣٥٥ وأصل الرواية في الصحيحين.
(٢) أيضاً ص/ ٣٥٣.
(٣) وهو موضع بين عسفان ومكة.
(٤) رواه البخاري في كتاب المغازي ، وراجع للتفصيل سيرة ابن هشام ق/ ٣ ، ص/ ١٦٩ ـ ١٧٦.

نشؤوا في أحضان النبوة ، وفي مدرسة القرآن ، والإيمان ، وكيف يتوقع مثل هذه النفحات الإيمانية من رجال تأخر عصرهم وبَعُدَ مصرهم ، واختلفت بيئتهم ، فإني أعرض عليكم ثلاثة نماذج من هذا الإيمان والبطولة ملتقطةً من تاريخ حركة الجهاد والإصلاح التي قادها السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦ هـ) في شبه القارة الهندية[١] ، يقول المؤرخ:

رجع المسلمون من ساحة القتال في «مهيار» ظافرين ، وقد اغبرت وجوههم ، وثيابهم من النقع ، حتى تقنعت وجوههم ، وتنكَّروا ، وقام الرئيس بهرام خان بالمنديل ينفض النقع عن وجه السيد الإمام ، فقال السيد: مهلاً يا أخا الأفغان مهلاً! فإنَّ هذا النقع هو الغبار الذي قال فيه النبيُّ ﷺ: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم»[٢] ، وما جئنا إلى هنا ، وما تحمَّلنا المشاقَّ إلا لأجل هذا الغبار ، مهلاً يا أخا الأفغان مهلاً! ومكث المجاهدون ولم ينفضوا عنهم الغبار في ذلك الحين.

والحكاية الثانية حكاية أحد المشاركين في هذه الغزوات الإسلامية: يقول فتح علي العظيم آبادي: بينما أنا أمرُّ بين القتلى والجرحى إذا بالسيد أبي محمد يجود بنفسه ، وقد أثخنته الجراح ، فدنوت منه وصرخت في أذنه: يا أبا محمد! إنَّ الله قد نصر أمير المؤمنين ، وهزم الأعداء ، ولم يلتفت أبو محمد ، ولم يتكلم ، وما زال يلحس شفتيه ويقول: «الحمد لله ، الحمد لله» فحملته إلى القرية ، وبه رمق ونَفَسٌ يتردد ، وهو يلحس شفتيه ، ويحمد الله ، وما لبث أن لفظ نفسه الأخير.

والحكاية الأخيرة: أنَّ القاضي الإنجليزي (أيدورس) أصدر حكم الإعدام (الموت شنقاً) على الشيخ محمد جعفر[٣] في محاكمة أنباله في

---

(١) راجع للاطلاع على هذه الحركة العظيمة الفريدة ودوافعها وتفاصيلها في كتاب العلامة الندوي «إذا هبَّت ريح الإيمان» طبع دار ابن كثير دمشق ، والمجمع الإسلامي العلمي ، بلكهنؤ (الهند).

(٢) في السنن.

(٣) كان من كبار أنصار السيد الإمام وأتباعه ومن المنظمين لبعث الإمداد والمساعدين إلى مركز المجاهدين في الحدود الغربية الشمالية عن الهند.

٢ من مايو ١٨٦٤ م (١٢٨٠ هـ) وقال: ها أنا ذا أحكم عليك بالإعدام، ومصادرة جميع ما تملكه من مالٍ وعقار، ولا يسلَّم جسدُك بعد الشنق إلى ورثتك بل تدفن في مقبرة الأشقياء بكل أمانة، وسأكون سعيداً مسروراً حين أراك معلقاً مشنوقاً، ولكنَّ محمد جعفر استبشر حين سمع هذا، وتهلَّل وجهه فرحاً، كأنما مثلت له الجنة، وتمثلت له الحور، والقصور، وتمثَّل ببيت الشاعر:

هـذا الـذي كـانـت الأيـام تنتظـر فليـوف الله أقـوام بمـا نـذروا

هنا تقدم ضابط إنجليزي، وقال: لم أر كاليوم، قد حكم عليك بالإعدام وأنت مسرور مستبشر؟ قال محمد جعفر: وما لي لا أفرح، ولا أستبشر، وقد رزقني الله الشهادة في سبيله؟، وأنت يا مسكين! لا تدري حلاوتها.

وكذلك كان مولانا يحيى علي؛ الذي حكم عليه بالإعدام كذلك، فكان من أشدِّ الناس فرحاً، كأنه من شوق الجنة في الجنة، ومن انتظار النعيم في النعيم، ينشد الأبيات في حنين، ووجد يتمثل بما قال سيدنا خبيب رضي الله عنه عند شنقه[١].

ولكن هذا الفارق لا يأتي إلا عن طريق الرسالة السماوية وعن طريق الإيمان، والعقيدة، وعن طريق التربية الإسلامية، وعن طريق القيادة الإيمانية والشخصية القوية القيادية. إنَّ هذا فارق لا يشارككم فيه شعب، ولا جيش من الجيوش، ولا شباب من الشباب المسلمين المقاتلين، وما هزم المسلمون، ونكبوا بالنكبات الأخيرة، وفقدوا المراكز القيادية في العالم، وخسروا بلادهم، ودولهم، وما ذلوا، وما هانوا إلا حين ضعفوا في هذه القوة المعنوية، وفقدوها على مرِّ الأيام، ولا تمكن استعادة هذا المركز وهذه المهابة في القلوب، والرجحان في كفتين متساويتين في العدد والعدد، إلا باستعادة هذه القوة والشحنة الإيمانية والتربية الإسلامية، واستحضار فضائل الجهاد والشهادة في سبيل الله، ومدارستها.

---

(١) وقد مر البيتان.

والشيء الثاني هو تجنب ما يبعد عن نصر الله ، ويعرض لسخط الله ، وقد روي: أن الأمراء في اليرموك لما كتبوا إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما يعلمونهما بما وقع من الأمر العظيم ، وما يقابلونه من خطرٍ داهم ، وعددٍ لا قبل لهم به ، كتبا إليهم: أن اجتمعوا ، وكونوا جنداً واحداً ، والقَوا جنود المشركين ، فأنتم أنصار الله ، والله ناصر من نصره ، وخاذل من خذله ، ولن يؤتى مثلُكم عن قلة ، ولكن من تلقاء الذنوب ، فاحترسوا منها.

ولما أمر سعد بن أبي وقاص جيشه بعبور دجلة ، وليست هنالك سفن ولا جسر ، والعرب لا عهد لهم بالسباحة وعبور الأنهار قال: حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرنَّ الله وليه ، وليظهرنَّ الله دينه ، إن لم يكن في الجيش بغي ، أو ذنوب تغلب الحسنات[1].

وكتب سيدنا عمر بن عبد العزيز إلى قائد جيشه ، قال فيه: وآمره ألا يكون من شيءٍ من عدوه أشد احتراساً منه لنفسه ومن معه من معاصي الله ، فإنَّ الذنوب أخوفُ عندي على الناس من مكيدة عدوهم ، وإنما نعادي عدونا ، ونُنصر عليهم بمعصيتهم ، ولولا ذلك لم يكن لنا قوةٌ بهم؛ لأنَّ عددنا ليس كعددهم ، ولا عدَّة كعدتهم ، فلو استوينا نحن وهم في المعصية كانوا أفضل منا في القوة والعدد ، فإن لا ننصر عليهم بحقنا؛ لا نغلبهم بقوتنا ، ولا تكونوا بعداوة أحدٍ من الناس أحذر منكم لذنوبكم ، ولا تكونوا بالقدوة لكم أشد تعاهداً منكم لذنوبكم[2].

هذا هو الفارق النفسي العميق ، الطبيعي الدقيق ، بين مقاتل لغرضٍ مادِّي ، أو لمجرد نظامٍ عسكري ، وخضوعٍ لما يصدر من القيادة من تعليمات ، وترتيبات ، وبين من يقاتل في سبيل العقيدة وفي سبيل الإيمان ، وتصديق ما جاء من الله ورسوله من وعدٍ وأخبار. يتمثل ذلك في

(١) البداية والنهاية ج٢٧ ، ص٦٥.
(٢) سيرة ابن عبد العزيز لأبي محمد عبد الله بن حكم المتوفى ٣١٤ هـ.

ما روي في تاريخ الغزوات الشامية ، أنَّ رجلاً جاء إلى أبي عبيدة يوم اليرموك ، وهو قائد الجيش الإسلامي ، فقال: إني قد تهيَّأت لأمري ، فهل من حاجة إلى رسول الله ﷺ؟ قال: نعم ، تقرئه عني السلام ، وتقول يا رسول الله إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً[١].

ما أرسخ هذا اليقين ، وما أشد هذا الإيمان بأنه سيلقى الرسول عليه الصلاة والسلام ، لا يقلُّ هذا الإيمان من إيمان رجلٍ يخبره له بأنه مسافر إلى مصر ، أو إلى الهند ، أو إلى الحجاز ، فيحمله رسالة إلى أسرته ، بل يخامر ذلك عشرة شكوك ، لعله يعدل عن السفر ، أو يتوجه إلى جهةٍ أخرى ، أو يموت في الطريق ، أو لا يقابل أعضاء أسرته ، أو ينسى الرسالة ، ولكن إيمان المسلم الذي يتهيأ للقتال بلقاء الرسول ﷺ وثقةُ أبي عبيدة بهذا اللقاء أعظم وأقوى من ثقتنا باتجاه أحدنا إلى بلد من البلدان ووصوله إليه.

وهذا الفارق النفسي يتجلى فيما ينقل من حوار بين كلب صيد ـ الكلب المعلَّم ـ وغزال ، قال الكلب للغزال: لماذا لا ألحقك يا غزال ، وأنا مضرب المثل في العدو والجري وقد مرنت على هذا ودربت ، ولكني لا أدركك؟! قال: لأنك تعدو لسيدك ، وأنا أعدو لنفسي. وشتان بين من يعمل عملاً ميكانيكياً لا دافع فيه ، ولا لذة ، ولا إيمان فيه ، ولا عقيدة ، وبين من يعمل مدفوعاً من عقيدته ، ومنبعثاً من أعماق نفسه ، ومن أعماق العقيدة الراسخة ، والإيمان الجازم ، وعن تمثلٍ للجنة ، واستنشاق أريجها ، وتنسم نفحاتها ، وطمعٍ في أجر الآخرة والقبول عند الله.

* * *

---

(١) البداية والنهاية ، ج٧ ، ص١٣.

دَرسٌ مـن قَـوم سَبَـأ

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في جامع المشهد بصنعاء في ١٩/ من شعبان ١٤٠٤ هـ الموافق ٣٠/ مايو ١٩٨٤ م ، في حفل كبير مَلأَ أرجاء الجامع الكبير.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٥ - ١٩].

سادتي وإخواني! إنني سعيدٌ ومغتبطٌ برؤية هذه الوجوه النيرة المشرقة؛ التي اجتمعت في بيتٍ من بيوت الله لسماع حديثٍ من أخٍ مسلمٍ ناءت به الديار، وحالت بينهم وبينه البحار، ولا يعرفون عنه إلا ما قيل الآن، وإلا ما عرفوه من خلال كتاباته المتواضعة، إنَّ هذا إنْ دلَّ على شيءٍ فإنه يدلُّ على القوة التي لا تزال كامنةً في الإخاء الإسلامي، كامنةً في الرابطة التي تربط المسلمين بعضهم ببعض، على بعد الدار، وحيلولة البحار، وقلة المزار.

إخواني! إنَّ الواقع أنَّ الجو الذي أتحدث فيه كان يفرض علي أن أبدأ بشيءٍ يبشركم، ويسركم، ويسرني، ولست الرجل المتشائم ـ والحمد لله ـ إني بفضل الله تبارك وتعالى وبفضل هذا الدين الذي أدين به وتدينون به قوي الثقة، كبير الأمل في نصر الله تبارك وتعالى، وفي صلاحية هذه الرسالة، وخلودها، وإني والحمد لله متفائل، ومستبشر، ولكن قرأت هذه الآيات لنلقي منها درساً، والرسول كان بشيراً ونذيراً، والقرآن فيه البشارة والإنذار، وقد حكى الله سبحانه وتعالى حكايات الأمم السالفة والحضارات البائدة، والمجتمعات المندثرة لتكون عبرةً لنا جميعاً، ولنتلقى منها دروساً، وقد ضرب الله الأمثال، وعرض النماذج المختلفة لأنَّ فيها عبرة ودرساً.

هذه الآيات التي تلوتها عليكم لها نسبٌ جغرافيٌّ وتاريخيٌّ(١) ـ لا أقول:

(١) تقع مأرب عاصمة مملكة سبأ في شرقي صنعاء على مسافة ١٧٣ كم منها، وكانت سبأ هي أقدم الدول اليمنية القديمة وأخلدها ذكراً، ومنها تسلسلت أنساب حمير وكهلان. =

نسبٌ آخر ـ لبلادكم ، وهي موضع العبرة ، لا لكم أيها الإخوان اليمنيون! بل هي موضع عبرة ودرس لكلِّ مجتمع إنسانيٍّ، ولكلِّ بلدٍ مسلم وغير مسلم، فإنَّ هذه الآيات تعرض علينا حقيقةً عالميةً خالدةً ، حقيقةً نفسية إنسانية ، حقيقةً تستحق التأمُّل والدراسة ، هي حقيقة أنَّ الإنسان يسأم ، ويضيق صدره ، ويتخم من نوعٍ واحد ، وإن كان هذا النوع النوع السامي الرفيع ، النوع الذي يتهالك عليه ويتقاتل في سبيله العقلاء ، والملوك ، والأمراء.

ولكن من مواضع الضعف في الطبيعة الإنسانية أنَّه إذا خُصَّ بنوعٍ خاص ، بنوعٍ لذيذٍ عزيزٍ ، كريم جميل ، ودام هذا النوع زمناً؛ فإنَّه يسأمه ، ويضيق صدره منه ، كما أنَّ الإنسان يتخم من مأكولات ، فيعافها ، ويزهد فيها. كذلك الإنسان يتخم بالنِّعم ، وهذا الذي وصفه الله تبارك وتعالى بالكلمة البليغة «البطر»: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص: ٥٨] ، لم تكن فقيرة ، ولكن قد تضخَّم فيها الغنى ، وتضخَّمت فيها الثروات ، وتوفَّرت وسائل الرفاهية والنعمة ، فبطرت معيشتها ، واشتهت نوعاً آخر ، وإن كان نوعاً قاسياً يزهد فيه الإنسان العادي الذي رزق سلامة الفطرة ، وصحة الفكرة ، ولكن من خصائص الإنسان ، ومن مواضع الضعف في الفطرة الإنسانية: أنَّه إذا طال أمده بجوٍّ خاصٍّ ، ووضعٍ خاصٍّ؛ اشتهى نوعاً آخر ، وقال: قد سئمنا هذا الرَّخاء ، وهذا التوسع في المطاعم والمشارب ، وهذه النعم التي تغدق علينا صباح مساء ، والتي تنقلب في أعطافها ، وتتأرجح في أرجوحتها ، وتنعم في ظلالها ، لا حاجة لنا في هذه النعم ، نريد تجربة أخرى ، نريد التقشف ، والمشقة ، والتعب.

هذا موضع ضعف في الطبيعة البشرية ، كانت ولا تزال وقد حذَّر الله منها ، إنه دائماً يحثُّ على الشكر على النعمة ، حتى يقول لرسوله الحبيب: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١] ، ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧] ، هنا قصَّ الله علينا قصة قوم سبأ ، وقصة قوم سبأ هي القصة الخالدة التي تصور جانباً دقيقاً عميقاً من جوانب الطبيعة البشرية ، يجب أن لا نتغافل عنها ، بل نعتبر بها؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى إنما قصَّ علينا القصص للاعتبار ، فقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ

﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٖ وَهُدٗى وَرَحْمَةٗ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣] والقرآن ليس تاريخ الحضارة الإنسانية، إنه يقصّ علينا قصص الشعوب القديمة والحضارات والمجتمعات الماضية؛ لتكون لنا عبرة، ولأنَّ هنالك مماثلات عجيبة، هي موضع تأمُّل علماء النفس، ورجال الحكمة، وأصحاب الاختصاص في التاريخ البشري، وكذلك موضع دراسة وعبرة لقادة الأمم والشعوب، والباحثين، والأساتذة الكبار، إنَّ الحكمة الإلهية تعرض علينا صورةً دافقة بالحيوية، بارزة الملامح والقسمات، صورةً بارعةً، تنطق بلسانها، إلى أي درجةٍ وصل قوم سبأ من السعادة والرخاء الذي يتمناه الإنسان، ويجاهد في سبيله الفاتحون، والمؤسسون للحكومات ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٖ وَأَثْلٖ وَشَيْءٖ مِّن سِدْرٖ قَلِيلٖ﴾ [سبأ: ١٥ - ١٦].

القرآن يضع أصبع الإنسان على الوتر الحساس، على موضع الداء، لماذا جاءهم هذا البلاء؟ لماذا انتزع الله عنهم هذه السعادة وهذا الرخاء العظيم الذي يتقاتل في سبيله الملوك؟ إنَّ القرآن يضع أصبع قارىء القرآن كما يضع الأستاذ أصبع تلميذه الصغير على حروف الهجاء في الكتاب، فيقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨]، يقول المفسرون: إن مساكن سبأ كانت لطيفة الهواء، حسنة التربة، لا تحدث فيها عاهة، ولا يكون فيها هامة، حتى إنَّ الغريب إذا حلَّها وفي ثيابه قمل أو براغيث ماتت، وقد جعل الله بينهم وبين الشام قرىً ظاهرة، وجعل نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين من السير، فلا يحتاج مسافرهم لحمل زاد ولا ماء، ولا مبيت في أرض خالية، ولا يخاف من عدوٍّ ونحوه، بل حيث نزل وجد ماءً، أو ثمراً، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاج إليه في

سيره ، حتى إنَّ المرأة كانت تمشي تحت الأشجار على رأسها مكتل ، أو زنبيل ـ وهو الذي تخترف فيه الثمار ـ فيتساقط فيه من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفةٍ ، ولا قطاف لكثرته ، ونضجه ، واستوائه(١).

ولكنهم سئموا ما كانوا فيه من النعمة ، والغبطة ، والعيش الهنيء الرغيد ، والبلاد الرخية ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة (٢)، فطلبوا تبديل اتصال العمران ، وفضلوا المفاوز والقفار ، وقالوا: أيش هذا السفر؟ نقرأ في كتب الرحلات (وإن كان زمناً متأخراً قالوا في رحلات سندباد البحري ولكن الزمن متقدم) أو نسمع عن الجوابين والرحالين: إنَّه كانت القوافل تمشي وتخاف المغيرين ، وكانوا يأخذون الخريت والحرس معهم ، ويحملون السلاح لصبيانهم ، وبعد ذلك يبيتون ليالي ويحرسهم الناس ، ثم يمشي واحد ويأتي بالحطب ويشعل النار ، ثم يطبخ ويضع عليها القدر ، ويغلي ، ثم يطبخ الطعام ، ثم يأكله ، نقرأ هذه الحكايات بلذةٍ ، هذه كانت رحلات في الحقيقة ، رحلات هي تجارب ومغامرات ، رحلات فيها تنوع ، وتفنن ، ينتقل الإنسان من راحة إلى تعبٍ ، ومن تعبٍ إلى راحةٍ ، نحن سئمنا هذا! نمشي في ظلال الأشجار ، ونأكل من الثمار بطريق تلقائي ، لا! ما نريد هذا! نريد الأسفار المتعبة ، نريد الصحارى الموحشة ، والأراضي القاحلة ، نريد المشقة ، نريد المغامرات ، نريد المخاطر.

هذا من ضعف الفطرة البشرية ، بدل أن يحمدوا الله تبارك وتعالى على هذا ، ويبقوا في هذا النعيم إلى أن يشاء الله ، طلبوا العكس ، قالوا ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩] ، كما أن الحجاج في هذا العصر يقولون: إيش هذه الرحلات المتنعمة ، نريد أن يعود الزمان الماضي ، ونركب الإبل ، ويموت بعض الناس عطشاً لعدم وجود الماء ، لا لذة في

(١) مستفاد من تفسير ابن كثير وروح المعاني.

(٢) اللفظ لابن كثير.

الحج الآن ، نريد تلك الأيام التي كان مئاتٌ من الناس يموتون عطشاً في عرفات وفي منى ، وكان يغير عليهم البدو .

فماذا كانت العاقبة؟ عاقبهم الله سبحانه وتعالى بسلب هذه النعم كلِّها ، وبدَّل بها تلك الأسفار الشاسعة الخطرة ، ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ : ١٩] .

هذه قصةٌ ربما يتخيَّل الإنسان أنَّ هذه قصةٌ بسيطةٌ ، وربما يشكُّ فيها كثيرٌ من الناس ، كيف تمسخ الطبيعة البشرية إلى هذا الحدِّ؟ هل تصل الطبيعة البشرية في أمة متمدنة كقوم سبأ إلى هذه النهاية ، إلى هذا الحدِّ من المسخ والانحراف ، ومن الاعوجاج والفساد؟! تستبعد هذا ، ولكن القرآن قد حكى لنا هذه القصة ، والقرآن هو كتاب الله ، والرسول لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى ، لا يا إخواني! التاريخ يُصدِّق هذا ، والواقع يصدِّق هذا ، فهنالك شعوب نعرفها أنعم الله عليها ، وأغدق عليها النعم ، وأمطر عليها شآبيب من الراحة والرَّخاء ، ومن هذا الرخاء ، ومن رغد العيش ، وهناء الحياة ولينها ، ولكنها عادت سئمة ضيقة الصدور من هذا الرخاء ، تريد الفقر ، وتريد المخاطر ، وتريد ضنك العيش ، وتريد تفرق الكلمة ، وتريد أن تجرب حياةً قاسية . حكى لي بعض الإخوان الثقات أنَّ بلاداً سعيدة أكرمها الله بشيءٍ كثيرٍ من النعم والخيرات ، قال بعض رجالها المثقفين لبعض زعماء البلاد التي أخذت بالنظام الاشتراكي والشيوعي وهي بلاد فقيرة ، شيوعية منحرفة عن الدين وعن الخط السليم ، قال هؤلاء لهم : إن عندنا غنى ، وعندكم فقر ، عندنا دين وعندكم كفر ، أعطونا فقركم ونعطيكم غنانا ، أعطونا كفركم ونعطيكم ديننا ، هذا حقٌّ ، سمعته أنا بطريق لا يشكُّ فيه ، وهذا اعوجاج الفطرة البشرية كان ولا يزال ، والقرآن لا يتعرَّض لذكر شيء إلا وهو صالح للعودة وللبقاء ، أما الأمراض التي انقرضت ، ولا تعود أبداً؛ ما تعرض لها القرآن . الذي يدرس القرآن دراسةً عميقةً يعرف أنَّ القرآن ما ذكر من مواضع الضعف في الفطرة أمراض الأمم البائدة والشعوب المنقرضة الزائلة إلا ما هو من مواضع الضعف في الفطرة البشرية هو إمَّا موجودٌ ، وإمَّا يعود .

فالقرآن يحكي لنا قصة سبأ ، إنَّ الله الحكيم الخبير العليم يعرف أنَّ هنالك شعوباً ، وهنالك مجتمعات تسلك نفس الخط ، تسلك نفس الطريق ، بطر! بطر! الله سبحانه وتعالى يعطيها ما تحتاج إليها ، ولكنها تكفر بنعمة الله ، وتريد البؤس ، وتريد الفقر ، وتريد المخاطر والمهالك ، وتريد القسوة ، وشظف العيش ، لماذا؟ لإتخامها ، وسآمتها من هذه النعم ، وبتأثير الدعايات ، وبتأثير المغريات المضللة ، وبتأثير العوامل الاجتماعية ، والعوامل الخارجية ، والسياسية تتمنى أن تعود إلى الفقر ، وضنك العيش ، والضيق ، والشدة ، كذلك سجَّل القرآن هذه الحكاية التي لا يحويها كثيرٌ من كتب التاريخ ؛ لأن سبيل كتب التاريخ غير سبيل القرآن ، إنَّها تُعنى بالحوادث السياسية ، وتُعنى بما يختصُّ بالبلاد ، وبالملوك ، وبالوزراء ، والحروب ، والغزوات ، أما ما كان في صالح الإنسانية ، وما كان فيه درس للدارسين والمعتبرين ؛ فلا ، ولكنَّ القرآن بالعكس من ذلك لا يُعنى بهذه الحكايات ، حكايات تقلبات الأمم ، وتبدل الحكومات ، والفتوح ، والغزوات ، هذا موضوع التاريخ ، ولا بأس به ، ولكن القرآن يُعنى بأمراض البشرية ، يُعنى بمواضع الضعف في الطبيعة الإنسانية ، عني بما فيه عبرة وما فيه درس للإنسان في كلِّ مكانٍ وفي كلِّ زمان.

إن الذي أخشى (أقول بصراحة) على المجتمعات الإسلامية الكثيرة هنا ، وفي آسيا في شبه القارة الهندية ، وفي أوربا ، وفي أمريكا البطر: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨] ، إننا نفهم ، ونشهد ، ونؤمن بأنَّ ما قاله القرآن هو حقٌّ ، ويمكن أن يُرى في مرآة الشعوب المعاصرة ، وبعض المجتمعات الموجودة.

إخواني! يجب أن نستعرض حياتنا في ضوء القرآن ، يقول القرآن: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠] ، يعني فيه الحديث عنكم ، فيه تصويركم ، كان سيدنا الأحنف بن قيس رحمه الله ـ من

أخصِّ أصحاب سيدنا عليٍّ رضي الله عنه وسيِّد قومه ـ! مرة جالساً؛ إذا به يسمع إنساناً جالساً قريباً منه يقرأ القرآن ، فإذا هو يقرأ: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠] ، فانتبه ، كأنه كان نائماً ، قال: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ هل في القرآن حديث عني؟ ، عليَّ بالمصحف! عليَّ بالمصحف! فحضر المصحف ، فصار يقلب الصفحات ، يفتحه من غير قصد ، فإذا به يمرُّ بقوم يقول الله تبارك وتعالى عنهم: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ - ٤] ، قال: اللهم لا أجد نفسي في هؤلاء! ومرَّ بقوم يصفهم الله تبارك وتعالى ، ويقول: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] قال: اللهم لا أجد نفسي في هؤلاء ، أنا أصغر من هؤلاء ، ثم مر بقوم يقول الله تبارك وتعالى عنهم: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة: ١٦] ، قال: اللهم إني لا أجد نفسي في هؤلاء! ثم قلب الصفحات ، فإذا به يمرُّ بقوم يصفهم الله تبارك وتعالى بصفات معاكسة ، فيقول: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٧] ، قال: اللهم إني أعوذ بك من هؤلاء! ولكن أين أنا؟ أين صفتي؟ ، ويقلب الصفحات ، ويقلب ، حتى مرَّ بقوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٢]. قال: اللهم إني ها هنا! اللهم إني ها هنا!

هكذا يجب أن نقرأ القرآن ، ونستعرضه ، ونستفسره ، ونستوضحه ، ونستوحي منه واقع الحياة ، ونبحث عن مكاننا في هذه المجموعة من صور الأمم ، ومن صور المجتمعات البشرية والنماذج الإنسانية ، ـ والقرآن مرآة وضيئة نرى فيها وجهنا فنمسح ما فيه من غبار ومن تراب ومن وصمات ـ ونعرف مواضع هذه الوصمات فنغسلها.

إخواني! أقول لكم ـ ولا أريد أن أطيل عليكم ـ يجب علينا أن لا نبطر ، ويجب علينا أن نحمد الله على النعم ، وأن نضعها في مواضعها الحقيقية ،

لا نبطر ، ولا نكون كما يقول الله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [الاسراء : ١٦] ، لا نكون من المترفين ، ولا نكون من البطرين ، ولا نكون من الجاحدين للنعم ، ولا من الكافرين بالنعم ، ولا نكون من الذين يقول الله تبارك وتعالى عنهم : ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ [إبراهيم : ٢٨] ، هذا تبديل ﴿بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ [إبراهيم : ٢٨] كما قال بنو إسرائيل لما أنزل الله عليهم المنَّ والسلوى وكان من ألذِّ الأطعمة ، قالوا : نتمنى القثاء والفوم ، والعدس ، والبصل : ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾ [البقرة : ٦١] ، هذه هي الطبيعة البشرية ، فإذا أنعم الله عليكم بالنعم؛ فارجعوا إلى الله تبارك وتعالى ، واحمدوا الله على الموجود ، واطلبوا منه المزيد ، ولكن لا تكفروا بنعم الله ، ولا تبدلوا نعمة الله كفراً ، ولا تتورطوا فيما تورط فيه غيركم من الشعوب والبلاد ، فهم في عذابٍ أليمٍ ، وفي بؤس ، وشقاء ، وفي جحيم ، فأتتهم كلُّ نعمة حتى حرموا لقمة العيش ، وأصبحوا متشكِّكين ، متذمِّرين ، متشائمين ، لا يثق أحدٌ بأحدٍ ، حتى لا يثق الأخ بأخيه ، ولا يثق الزوج بزوجته ، كلُّ إنسان ينظر إلى أخيه بعين الشك ، حتى في الخلوات لا يستطيع الإنسان أن يبوح بما في ضميره ، يرى يميناً وشمالاً ، لعلَّ الجدران تسمع ، ولعلَّ هنالك مسجلاً ، ويخاف أن تعدَّ عليه الأنفاس . فيقال له : أنت تنفست كذا وكذا من الأنفاس ، أصبح المجتمع مجتمعاً معذباً منكوباً .

هذا الذي نخشاه على المجتمعات الإسلامية في البلاد الإسلامية التي أكرمها الله بالأمجاد ، والبطولات ، وبالصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وطئوا أرضهم ، ونشروا فيها الإسلام ، وربطوا المجتمع بالإسلام ، وكان لهذه البلاد ولهذه المجتمعات دورٌ عظيم في تاريخ الإسلام ، وفي تاريخ الدعوة الإسلامية ، وفي تاريخ الفتوح الإسلامية ، وشهد لهم العالم الإسلامي بالإيمان ، والفقه ، والحكمة ، وأكثر من ذلك؛ شهد لهم الرسول ﷺ

بالإيمان ، فقال. «أتاكم أهل اليمن ، أرق أفئدةً وألين قلوباً ، الإيمان يمانٍ ، والفقه يمانٍ ، والحكمة يمانية» أيستبدل المجتمع اليماني من كل هذا بماذا؟ بالشك، والريب ، والنهم ، والتعذيبات ، والمضايقات ، والمحاكمات ، والإجلاء ، والنفي ، والتشريد ، والتفتيك ، والتقتيل؟! فأحذركم مما حذَّر الله تبارك وتعالى في القرآن ، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥ - ١٧].

علينا بالمشي على الخط السليم الشرعي الديني ، نتبع الشريعة المحمدية الإسلامية الغرَّاء ، ونحكمها في حياتنا ، إننا نطالب بتحكيمها في الخارج ، وهذا صحيح ، ولكن نحكمها في نفوسنا أولاً ، نحكمها على رؤوسنا ، وفي نفوسنا ، وفي الحياة الداخلية المنزلية ، وبيننا وبين أفراد أسرتنا ، وفي معاملاتنا الفردية ، والاجتماعية ، هنالك يقدر الله تبارك وتعالى تحكيم هذه الشريعة في الحكم ، والمعاملات ، وفي التجارة ، وفي الخارج. لا ملجأ ولا منجى لنا من الله إلا إليه ، قد وصلنا إلى الدرجة التي وصفها الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾[التوبة: ١١٨] ، هذا الوصف الذي ينطبق على كثيرٍ من البلاد الإسلامية ، فلا ملجأ من الله إلا إليه ، ففروا إلى الله كما يقول القرآن.

أشكركم على هذا الاجتماع الكبير ، والجمِّ الغفير من المستمعين الكرام، وأدعو الله لي ولكم بالعافية ، يا إخواني! اطلبوا من الله أن يوفقكم ، ويوفقنا جميعاً للشكر على النعم ، وتتعوذون من البطر ومن الكفر والكفران بالنعم ، ومن تبديل نعمة الله بنقمة الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

من مَعاني الإسراء والمعراج

هذه الكلمة ألقاها العلامة الندوي في مسجد سيِّدنا عمر بن الخطاب بالزرقاء في عمان في ليلة الإسراء والمعراج (٢٧/ من رجب ١٤٠٤ هـ).

وهذه المحاضرة كلها تدور حول الإسراء والمعراج والمسجد الأقصى المبارك.

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : ١].

أيها الإخوة الكرام! إنَّ هذه الآية هي خير ما يفتتح بها هذا الاحتفال في ليلة الإسراء والمعراج ، ونحن على غلوة سهم ـ على التعبير القديم ـ من المسجد الأقصى الذي أسري بالرسول ﷺ إليه ، ومنه إلى السماء ، إنَّ هذا الإسراء من مكة إلى القدس ومنه إلى السماء دلَّ على معانٍ عميقة بعيدة الأثر ، طويلة المدى في تاريخ النبوات والديانات ، وفي المسيرة الإنسانية.

فدلَّ أولاً على أنَّ شخصية الرسول تلتقي فيها الأرض بالسماء والجزيرة العربية بأرض النبوات الأولى ، الأرض التي بارك الله حولها ، ويلتقي زمن النبوات الأولى بعهد النبوة الأخيرة ، فأيُّ التقاء أكبر وأوسع وأجمل من هذا الالتقاء ، فالبشرية تلتقي بمصدر النبوات والهدايات السماوية ، والأرض تلتقي بالسموات العلى ، إنه إذا انقطت صلة الأرض بالسماء كانت هنالك متاهات وضلالات ، وسخافات ، وسفالات ، فوصل الله الأرض بالسماء بنبوة محمد ﷺ والإسراء به. فهذه الأمة أمينة لهذا الاتصال ، أمينة لهذا الالتقاء الأرضي والسماوي ، والزمني والمكاني ، القاضي على الحدود الجغرافية ، والحواجز المكانية ، والفوارق الزمنية ، والاعتبارات العنصرية والجنسية ، ويجب أن يتجلى هذا الالتقاء الكريم الفريد في كل مناهج حياتها ، في حضارتها واجتماعها ، وفي علمها وتفكيرها ، وفي فلسفاتها وأدبها ، وفي خيالها وجمالها.

وفوق ذلك إنَّ سورة الإسراء إعلانٌ بأنَّ بني إسرائيل قد فقدوا الجدارة والصلاحية للهداية الربانية ، وتقلد الزعامة الدينية ، وقيادة البشرية؛ لما أصابهم من أمراضٍ خلقية ، وانحرافاتٍ عقائدية ، ودينيةٍ روحية ، باطنةٍ

وظاهرة ، فهذه السورة فصل وفارق بين عهدٍ وعهد ، وبين زمن وزمن ، لذلك سميت سورة بني إسرائيل كذلك ، إنَّ بني إسرائيل قد فقدوا ـ على مرِّ الزمان ـ الصلة الوثيقة العميقة بالإنسانية ، ومصيرها ، ووضعها ، ومشكلاتها وحلولها ، والتفكير الإنساني الرحيم الرقيق ، بالعكس عكفوا على السلالة يقدسونها ، وينظرون إلى كل قضية من قضايا الإنسانية من زاويتها ، ويزنونها بموازين تعود على السلالة بالنفع والقوة ، والله رب العالمين ، ليس رب بني إسرائيل فقط ، فعزلوا عن المنصب الذي قلدوه قروناً عديدة ، واختيرت له الأمة التي بعثها الله سبحانه وتعالى مع النبي الموعود الأخير محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي العربي ﷺ ، الأمة التي عهد إليها نشر عقيدة التوحيد الصافية ، والأخوة الإنسانية ، والمساواة البشرية ، فأعلن القرآن في لفظ صريح واضح: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] ، ونادى رسول الله ﷺ في الحج الأكبر: «إنَّ ربكم واحد ، وإنَّ أباكم واحد ، لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى»(١) .

ولما كان ذلك تحولاً كبيراً من أعظم التحولات في تاريخ الديانات ، وفي تاريخ مصائر الأمم ، وفي تاريخ الوقائع البشرية ، كان هذا الحدث العظيم جديراً بأن يطلب الله النبيَّ الكريم إلى السموات العلى ، ويسلمه منصب القيادة بطريقٍ مباشرٍ ، ويشرفه بالقرب والتكريم الذي لم يتلق به أحداً من قبله .

إخواني! إنَّ اليهود لا مستقبل لهم إذا كان الله حكيماً رحيماً ، وإذا كان الله ربَّ الأجيال البشرية كلها ، وربَّ العالمين ، لا رب خراف بني إسرائيل الضائعة ، فلا مستقبل لليهود أبداً ولو فتحوا العالم كله ـ لا قدَّر الله ـ لأنَّ اليهود أمة تقوم على تقديس العنصر والسلالة ، أمةٌ تقوم على الحقد للبشرية

---

(١) ابن النجار عن أبي سعيد بزيادة بعض الكلمات (الجامع الكبير للسيوطي) .

والتاريخ كله ، أمةٌ تقوم على الأحلام والأماني السلالية والشعبية فقط ، ولا شأن للإنسانية بهذه الأماني والأحلام. إنَّ حاجة الإنسانية أمةٌ تقود البشرية كلَّها ، وتربط مصيرها بمصير البشرية؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الجيل البشري ليكون عبداً لسلالة خاصة ، هذا ما لا يسوغه ويسيغه عقلٌ بشري ، فكيف بالله تبارك وتعالى ، إنَّ اليهود ليست لهم أصول ، ولا جذور في الأرض ، إنما هو شيء طافٍ على سطح الماء.

إنَّ الإسراء أيها الإخوان لم يكن ليكون عيداً في الأمة يحتفل به كل عام ، إنَّ الإسلام ليس دين الأعياد كما هو الشأن في دياناتٍ أخرى ، فإنها تقوم على الأعياد والمهرجانات ، والأيام التي تحتفل بها ، وإذا أخذ كلُّ عيد تحتفل به طائفة من طوائفها ، كانت أيام السنة كلها أعياداً ومواسم ، والأعياد هي التي تربط المجتمعات في هذه البلاد بالديانات ، فلولا هذه الأعياد والمهرجانات لضاعت الديانات ، ونسيت ، فإنهم يجتمعون في هذه الأعياد ويذكرون ما عندهم من عادات ، وطقوس ، وعبادات ، فيقيمونها ، وبذلك ينتظم شملهم.

إنَّ الإسراء لا شك خاص بالرسول ﷺ ، ولكنه سموٌّ للإنسانية عن طريق محمد ﷺ ، إنَّ الله تبارك وتعالى قد ضرب مثالاً ـ وإن كان هذا المثال مختصاً بالرسول الأعظم ﷺ ـ ولكنه نبيٌّ بشر ، فيشير إلى أن هنالك يبلغ البشر وإن كان مرة واحدة ، ولكنه هو البشر الذي وصل ، ولم يبلغه غير البشر ، هذا يثير فينا السمو ، ويثير فينا الثقة بالإنسانية وكرامتها.

الشيء الثاني: أنَّ هذا الدين مرتبطٌ بالسماء ، مرتبطٌ بإرادة الله تبارك وتعالى ، ليس مرتبطاً بالتجارب البشرية ، ليس مرتبطاً بالعقل البشري ، ليس مرتبطاً بالمجهود البشري ، بل مصدر هذا الدين هو السماء.

والمعنىٰ الثالث: أنَّ سورة الإسراء تثبت أنَّ هذه الرسالة عالمية إنسانية ، فإذا كانت غير هذا ودون هذا؛ لما طُلب محمد ﷺ من جزيرة العرب ـ وهو نائم في مكة ـ إلى القدس ، ثم إلىٰ السموات العلى ، إنَّ

اتصاله أولاً بالأرض المقدس بفلسطين ، التي هي بعيدة من جزيرة العرب ، ثم اتصاله بالسماء ، يدل على أن هذه الرسالة عالميةٌ ، إنسانيةٌ ، آفاقيةٌ ، ليست محصورة في جزيرة العرب ، وإلا أيُّ حاجة دعت إلى أن يطلب الله رسوله إلى القدس أولاً ليصلي هناك بالأنبياء عليهم السلام ، ثم يطلبه إلى السموات؟ فلنعرف أنَّ مركزنا أكبر مما نحن فيه ، وإن مسؤوليتنا أضخم مما نضطلع بها ، وإنَّ البلاد مهما اتسعت بل إنَّ الأرض كلها ، أصغر من شخصيتنا ، نحن أمَّة الرسالة ، نحن أمة الهداية ، نحن أمة العالم ، وأمة الإنسانية ، لسنا عرباً ولا عجماً ، لسنا أردنيين ، وسوريين ، وفلسطينيين ، وهنوداً ، وباكستانيين فحسب ، نحن أمة نبي الإسراء والمعراج ، الذي انعدمت فيه الأبعاد والمسافات ، والحواجز الجغرافية ، والاعتبارات السياسية ، والفوارق الجنسية.

هذه كلها معانٍ ، وحقائق نستطيع أن نتلقاها ، ونتعلمها من ثنايا سورة الإسراء التي ضمنها الله القرآن الكريم الذي يدوم ، ويثبت إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أهنئكم أيها الإخوان على ليلة الإسراء والمعراج ، وأنتم على مقربةٍ من مكان الإسراء والمعراج ، ولقرب الزمان والمكان أثر ومعنى ليس في البعد ، فكيف إذا التقى قرب المكان بحلول الزمان؟! لقد أدركت ليلة الإسراء والمعراج بعدما عقلت أكثر من خمسين مرة ، ولكنها هي المرة الأولى التي تصادفني فيها أو أصادفها على قربٍ من مكان الإسراء والمعراج ، فأثار ذلك في نفسي معاني وأحاسيس جديدة لم يكن لي عهد بها ، وفتحت لي نوافذ جديدة لتفهم معاني الإسراء والمعراج ، والتأمل في سورة بني إسرائيل ، والحنين إلى المسجد الأقصى ، والصلاة فيه ، والشوق إلى أن أراه في مكانه الطبيعي التاريخي العالمي ، وفي أيدي الوارثين للرسالة الأخيرة ، المؤمنين بجميع الأنبياء ، الغيارى على رسالاتهم وأماناتهم ، المحبين للإنسانية كلِّها ، المجاهدين في سبيل إسعادها ، والنهوض بها ، وحق لي أن أتمثل ببيتي الشاعر العربي القديم متمثلاً للمسجد الأقصى المبارك ، وأنا على مقربة منه في عمان:

ولمـا نـزلنـا منـزلاً طلـه النـدى أنيقـاً وبستـانـاً مـن النـور حـاليـا
أجـد لنـا طيـب المكـان وحسنـه منـى فتمنينـا فكنـت الأمـانيـا

إن القضية في إنقاذ فلسطين، قضية العقيدة وقضية الأخلاق، قضية العزم الصادق، فإذا صحت العزائم، وصدقت القلوب؛ زال اليهود كما يتقشع الضباب. نحن في حاجة إلى تربية جديدة، تربية إسلامية، إلى عقيدة كأنـها عقيدة جديدة، لسنا في حاجة إلى دين جديد ـ حاشا لله ـ ولكننا في حاجة إلى إيمانٍ جديد، إذا كانت الأحوال غير عادية احتاج الإنسان فيها إلى إيمان غير عادي، إلى إيمان قوي عميق، إلى إيمان حيٍّ دافق، إلى إيمان إذا لم يكن إيمان الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم فليكن إيمان صلاح الدين الأيوبي، وكثير من الجنود التي قاتلت تحت رايته، يقول القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد عن صاحبه صلاح الدين الأيوبي:

«إنه تاب عن المحرمات وترك الملذات، ورأى أن الله سبحانه وتعالى خلقه لأمرٍ عظيم لا يتفق معه اللهو والترف، وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال. وكان كالفاقدة ولدها، الثاكلة واحدها»(١).

هنالك تبرز من أطماركم وأجسادكم شخصيات جديدة تقفز من الداخل وتفاجىء العالم، وقد وقع ذلك مراراً في التاريخ الإسلامي، فإذا أظلمت الآفاق، وإذا غارت النجوم، طلع نجم جديد على أفق العالم الإسلامي، هكذا كان، وهكذا سيكون إن شاء الله.

قد قلت بالأمس: إذا كان هنالك استفتاءٌ عامٌّ في العالم الإسلامي، استفتاءٌ حرٌّ عن الرجل المطلوب المحتاج إليه اليوم في العالم الإسلامي، كان الجواب الوحيد: صلاح الدين الأيوبي، فيجب أن تتشوف نفوسكم لهذا المنصب الرفيع، وقد جاء في حديث خيبر أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «ليأخذن الراية غداً رجلٌ يحبه الله ورسوله، يفتح عليه»، فتطاول له

(١) النوادر السلطانية ص١٥٥ وليرجع إلى ص/ ١٦ ـ ٢١٣.

كبار الصحابة رضي الله عنهم ، ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كلٌّ منهم يرجو أن يكون صاحب تلك ، دعا علياً كرَّم الله وجهه ، فكان على يده الفتح[(١)] ، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٠] .

ولا بدَّ لذلك أن ننشىء نفوسنا على التقشف ، وتحمُّل المشاق ، وعلى الشدة ، والجلادة ، والغيرة الإيمانية ، وإيثار الآخرة على العاجلة ، والاستهانة بالحياة الدنيا وزخارفها .

وأختم حديثي ببيتين للزركلي ، مخاطباً للأمة العربية الإسلامية :

هاتي صلاح الدين ثانيةً فينا
وجددي حطِّين أو شبه حطِّينا

* * *

(١) الرواية في صحيح البخاري وصحيح مسلم في باب غزوة خيبر .

الشخصية الإسلامية ووُجُوب المحافظة عليها

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في كلية العلوم العربية في عمَّان غرَّة شعبان وفي جامعة اليرموك بإربد، سلخ رجب ١٤٠٤ هـ، وكلها تدور حول الشخصية الإسلامية ووجوب المحافظة عليها، وأهمية الحضارة الإسلامية.

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله:

أما بعد! سادتي وإخواني! يسعدني ويشرفني أن أتحدث اليوم في قاعة جامعة اليرموك[١]، الجامعة التي اقترن اسمها باسم أكبر معركةٍ في تاريخ الخلافة الراشدة، المعركة الحاسمة الفاصلة في التاريخ، التي نستطيع أن نقول: إنها غيرت مجرى التاريخ، إنَّه يلذُّ لي، ويشرِّفني أن أتحدث في هذه الجامعة العزيزة المنسوبة إلى اليرموك. الجامعاتُ كثيرةٌ في العالم، وبلادي التي أنتمي إليها هي مليئةٌ بالجامعات، ولكن هذه الجامعات بانتسابها إلى اليرموك حبيبةٌ إلى نفوسنا، فلها صلة عميقة متغلغلة في أحشاء المسلمين، مالكة عليهم المشاعر والعواطف، تدلُّ على ذلك الحكاية التي أحكيها لكم في مفتتح هذه المحاضرة.

إنني لما دعيت لإلقاء المحاضرات في كلية الشريعة التابعة لجامعة دمشق، وذلك سنة ١٩٥٦ م والفضل في ذلك يرجع إلى العلامة الفاضل مرشد الإخوان في سورية صديقنا الجليل الدكتور مصطفى السباعي عليه رحمة الله، فأنزلني الدكتور مصطفى السباعي عميد الكلية في فندق اليرموك، وأعتقد أنه كان تقديراً من الله من غير تخير كبير، فكتبت كتاباً إلى أحد المؤلفين الباحثين الكبار في شبه القارة الهندية، قد أثرى المكتبة الإسلامية الهندية بمؤلفاته وبحوثه، وكان رئيساً للقسم الديني في الجامعة العثمانية في حيدر آباد[٢]، وكتبت فوق الرسالة «من فندق اليرموك»

---

(١) سميت جامعة إربد بجامعة اليرموك، لقرب ميدان اليرموك من هذا البلد، فإذا ترك الماشي إربد بجانب وواصل سيره إلى الحدود الشمالية حتى يصل إلى المنطقة الجبلية ووقف في قرية، «أم القيس» استقبلته مرتفعات الجولان، وما بينه وبينها إلا واد عميق يجري فيه نهر اليرموك منعطفاً ملتوياً وعلى ضفافه ميدان اليرموك.

(٢) هو العلامة السيد مناظر أحسن الكيلاني (م سنة ١٩٥٦ م) راجع للاطلاع على ترجمته كتاب المحقق «الإعلام بهن في الهند من الأعلام في القرن العشرين» طبع في دار ابن كثير، دمشق.

وصادف وصول هذا الكتاب وجوده في المستشفى ، فقد كان يعاني من الذبحة الصدرية ، وكان رهين الفراش ، وكان هو مرضه الأخير الذي مات فيه ، فلما وصله الكتاب ، واطّلع على عنوان الكتاب «فندق اليرموك» كتب إليَّ يقول : «إنني كنت مريضاً تنتابني أوجاع القلب ، وكنت رهين الفراش ، لا أستطيع أن أنهض ولكن لما جاءني كتابكم نفخ فيَّ روحاً جديدة ، وكدت أرقص طرباً لقراءة اسم اليرموك[1] ، فقد حضرتني الذكريات الجميلة الحلوة ، تلك الذكريات المشرفة للإسلام والمسلمين دائماً حين كان الأعداء يترامون في وادي الواقوصة ، وكنا نتقدم والدنيا تتقهقر ، ثم انقلبت الدائرة علينا ، ووقع ما وقع ، فكدت أغلب على أمري وأخالف تعليمات الأطباء ، وأرقص ، وأطرب ، وأبكي» .

هكذا كان أثر اليرموك في نفوس العلماء الكبار ، في نفوس الباحثين المؤلفين في بلادٍ نائية عن هذه البلاد وعن هذه البقعة المباركة آلافاً من الأميال ، وأذكر أنه كان من الأعراف الشائعة ، ومن العادات المنتشرة في أسرتنا : أنه إذا وقع هناك حادث مفجع ، مثل موت بعض أعضاء الأسرة ـ حماكم الله وبارك في حياتكم وحياة الجميع ـ كان الطريق الوحيد للتسلية ، والتغلب على الأحزان الشخصية والعائلية ، قراءة الملحمة الإسلامية التي نظمها أحد أفراد أسرتنا ، وهو عمُّ والدي رحمه الله تعالى[2] ، فقد نقل كتاب «فتوح الشام» للواقدي إلى الشعر الأردي نظماً ،

---

(١) إن معركة اليرموك جزء من حوران ويشمل القسم الغربي منه ، كان عدد المسلمين أربعين ألفاً (٤٠٠٠٠) وبلغ عدد جيوش الروم إلى ما يقرب ٢٤٠ ألفاً أي ستة أمثال أعداد المسلمين ، اشتد الهجوم الإسلامي في الوقت المناسب ، وبدأ التراجع الرومي حتى لم يبق أمامهم سوى وادي نهر اليرموك السحيق ووادي الرقاد العميق ، وكلاهما لا يمكن عبوره ، فبدؤوا يلقون بأنفسهم فيها فراراً من القتل ، وكان هذا في وادي الرقاد إلى الغرب من (الواقوصة) حتى عرفت تلك المنطقة بـ(هوة الواقوصة) وكان مجموع من قتل من الروم ما يقرب من خمسة وثلاثين ألفاً ، ونجا الباقون فارين جرحىٰ أو مهيضي الجناح بسبب وقوعهم في الأودية وتسلقهم من جهات متعددة ، انظر : «ميدان معركة اليرموك ، للأستاذ محمود شاكر» .

(٢) وهو السَّيد عبد الرزاق الحسني رحمه الله .

فتضمنت هذه الملحمة خمسة وعشرين ألف بيت (٢٥٠٠٠) وكله في حماس إسلامي ، كأنها نار متأججة من الحماسة الإسلامية ، والشعر الإسلامي والغيرة الإسلامية ، وكنت طفلاً صغيراً ، وكنت أتردد إلى هذه المجالس مع السيدات وفيهن أمي ، فأرى الدموع تنهمر من العيون والإيمان يتجلَّى في وجوههن المشرقة ، وفي قلوبهنَّ الرقيقة ، وكنت لا أفهم هذا المعنى؛ لأنني في الرابعة من سنِّي أو الخامسة ، أو السادسة : كن يسمين أخبار الغزاة في معركة اليرموك ، وفيهم السيدة خولة بنت الأزور رضي الله تعالى عنها ، كن ينسين حزنهنَّ ، وكنَّ يشتركن في هذه المعركة حماساً إسلامياً وإيماناً ، كن يستحضرن فداء المسلمين في سبيل الإيمان ، وفي سبيل الدين ، فكنَّ يستقللن ما أصاب العائلة من حزن ، ومن كآبة .

وأحلف لكم صادقاً أيها الإخوة والأخوات : أنَّ لهذه الملحمة فضلاً كبيراً في صمود المسلمين الهنود في المعارك الدعوية ، والمعارك الثقافية والحضارية ، والقومية والشعبية ، إنما ساعدهم على هذا . . . وعلى الرباط في سبيل الله ، والاحتفاظ بالشخصية الإسلامية ، وهو مثل هذه الملاحم التي كانت تقرأ ، وتنشد في مناسبات عائلية ، فكان المسلمون ، ولا يزالون يستمدون منها الإيمان العميق والعاطفة الجياشة ، يستمدون الحماس المتأجج ، يستمدون الثقة العميقة الشاملة من هذه الملاحم التي نظمها بعض شعرائنا ، وحكوا فيها معارك وغزوات خاضها المسلمون ، وخاضها الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين بصفة خاصة ، فأنا أستحضر هذه الذكريات ، وأنا واقف أتحدث إليكم أيها الإخوة والأخوات في هذه القاعة في جامعة اليرموك .

أريد أن أقول لكم : إن فتوح الصحابة وبطولتهم وحماستهم لم تتجل في الانتصار في معركة اليرموك فقط ، وإن كانت معركة فاصلة ، كانت النسبة بعيدةً بين عدد المسلمين وبين عدد أعدائهم من الرومان ، أو أهل الشام ، فيكاد المؤرخون يطبقون على أن عدد المسلمين كان لا يزيد على أربعين ألفاً وعدد الرومان قد بلغ مئتي ألف وأربعين ألفاً (٢٤٠٠٠٠) ، إنها حقاً انتصارٌ رائع ، قد ظهرت فيه بطولة سيدنا خالد بن الوليد ، وسيدنا أبي عبيدة بن

الجراح ، وعمرو بن العاص ، وشرحبيل بن حسنة ، ويزيد بن أبي سفيان ، وضرار بن الأزور ، والسيدة خولة بنت الأزور ، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم ، ولكن عبقرية الصحابة رضي الله عنهم قد تجلَّت بأروع شكل ، في أجلى مظهر في المعركة المعنوية التي قامت في ذلك الحين بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم وبين الحضارة الرومانية ، والحضارة الساسانية الإيرانية ، الحضارتان اللتان قد ضربتا الرقم القياسي في الأناقة ، وفي الرقة ، وفي الخيال ، واجه الصحابة رضي الله عنهم وهم نشؤوا في صحراء العرب القاحلة الجديبة بشكل عام ، نشؤوا نشأة صحراوية في الأخبية والخيام ، وعلى متون الخيل وظهور الإبل ، لم يجرب هذه الحضارة الراقية إلا بعض من دخل بلاد الروم ، وبلاد فارس ، إنهم نشؤوا نشأةً محدودةً قاصرةً ، يلتفون الأرض ، ويقتاتون بلحوم الإبل ، ويسكنون في الخيام ، أو في بيوتٍ متواضعة بنيت باللبن ، إنها كانت محنة عظيمة أيها الإخوان ، إنهم لما خرجوا من الجزيرة ليبلغوا رسالة الله ، وليخرجوا الناس ـ على حد تعبير أحدهم وهو سيدنا ربعي بن عامر رضي الله تعالى عنه ـ «ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» ، لما خرجوا بهذه الرسالة واجهوا حضارتين معقدتين راقيتين من أرقى الحضارات البشرية التي عرفها التاريخ ، وقد كتب لهاتين الحضارتين عدة قرون لتتقدما في مضمار الرقي ومضمار الآداب ، والشعر ، والخيال ، والصناعة ، وقد رقَّت حواشيهما ، وطالت ذيولهما ، وبلغتا درجة الخيال ، كأنَّ الإنسان يقرأ «حكاية ألف ليلة وليلة» كان الواحد منهم إذا لبس وانتطق بمنطقةٍ قيمتها دون مئة ألف كان يعيَّر ، كانت تتفاداه العيون وتزدريه ، وكان إذا لبس قلنسوةً قيمتها أقل من خمسين ألف أو من مئة ألف درهم بالعملة الفارسية كان يحتقر ، وكان لا يستطيع أن يجلس في جوار أمير من الأمراء ، وتستطيعون أن تعرفوا مدى ما وصلت إليه المدنية الفارسية : أنَّ يزدجرد آخر ملوك فارس لمَّا اضطرَّ إلى أن يغادر بلاده فاراً بحياته ، أخذ معه ألف طاهٍ ، وألف مغنٍّ ، وألف مربٍّ للصقور ، وكان يستقلُّ هذا ، ويقول : يا ويلتاه ، يا حسرتاه! ، أحمل هذه

القلة من الطهاة ومن المغنين ومن مربي الصقور ، كيف أعيش؟!

واجه الصحابة رضي الله عنهم هذه الحضارة الراقية الرقيقة الخيالية وهم أبناء الصحراء ، وتستطيعون أن تستحضروا البون البعيد ، والمسافة الشاسعة بين تجاربهم الحضارية ومدركاتهم الذهنية ، وبين ما بلغت إليه هاتان الحضارتان الراقيتان ، بما روي أنهم رأوا خبزاً رقاقاً في بعض المناسبات والولائم فحسبوها مناديل فأخذوها في أيديهم فإذا هي أرغفة ، ما كانوا يعرفون أن الخبز يكون في هذه الدرجة من الرقة والأناقة ، ولما رأوا الكافور حسبوه ملحاً ، فاستعملوه في الطعام فإذا هو شيء لم يجربوه.

إنني لا أقلل من شأن معركة اليرموك أبداً ، وأنا أعيذ سمعي وبصري ولساني من أن أستصغر شأن اليرموك ، ولكن المعركة الكبرىٰ هي المعركة الحضارية ، فقد كان الصحابة رضي الله عنهم بدائيين ، وكانوا كأنهم في طفولة من الحضارة ، ومن المدارك العقلية ، ولكنهم استطاعوا أيها الإخوان أن يحتفظوا بشخصيتهم الإسلامية القوية إزاء هذه الحضارات ، وفي هذه المعارك الدقيقة ، وما فقدوا شيئاً من عاداتهم الإسلامية العربية وما ذابوا وما انصهروا في بوتقة المدنية القوية التي أصهرت عناصر كثيرة ، ولم يحتفظوا بشخصيتهم الإسلامية العربية فحسب ، بل استطاعوا أن يحتفظوا بمدنيتهم العربية ، وبحضارتهم الإسلامية ، وبقوا على ذلك سبعة قرون إلى أن جاء المغول والتتار ، وذلك في القرن السادس الهجري ، وكانت هنالك المدنية الإسلامية قائمة في بغداد وفي العراق ، وفي المملكة الإسلامية الممتدة إلى خراسان وتركستان ، وقد خضع التتار للإسلام بعد فترةٍ قصيرةٍ من الزمن للإسلام ، دعوةً وعقيدةً ، وللحضارة الإسلامية وآدابها وثقافتها.

وها نحن قد ابتلينا بالمدنية الغربية مدة ستين سنة أو سبعين سنة أي بعد ما مضت الحرب الأولى ، وذلك في سنة ١٩١٨ م ، نحن ابتلينا بالحضارة الغربية مدة نصف قرن ، ولكننا لم نستطع أن نحافظ على حضارتنا الإسلامية.

إنَّ علماءنا في الهند ظلُّوا يحثون أهل بلاد المسلمين على المحافظة على العادات الإسلامية الأصيلة العربية ، كما جاء ذلك في وصية حكيم الإسلام الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي من رجال القرن الثالث عشر ، يقول : حافظوا على عاداتكم الإسلامية العربية وظلوا متمسكين بالثقافة العربية شعراً ، ونثراً ، وصرفاً ، ونحواً ، وبلاغةً ، وظلوا مرتبطين بالجزيرة العربية ، وظلُّوا متمسكين بحبِّ الرسول ﷺ ، لا تضعفوا في ذلك ، إن سعادتنا منوطة باعتزائنا إلى الدين الإسلامي العربي ، واعتزائنا إلى العادات الإسلامية العربية ، وبحبنا الزائد بالمصطفى ﷺ. يجب أن لا تنقطع هذه الصلة ليومٍ من الأيام عن مركز هذا الدين.

قارنوا أيها المستمعون الفارق والبون الشاسع بيننا وبين المسلمين القدامى ، إنهم واجهوا حضارةً كانت أرقى من الخيال ، وواجهوا التنظيم السياسي الإداري الدقيق ، والقضايا المعقدة في إدارة المدن الكبيرة ، وفي حماية البلاد ، وفي قيادة الجيوش الجرارة ، ولكنهم بفضل الاعتزاز بالشخصية الإسلامية ، وبفضل الإيمان العميق ، وبفضل ثقتهم بتعاليم الإسلام استطاعوا أن يظلوا محتفظين بشخصيتهم الإسلامية ، بل بالشخصية القيادية العالمية ، وقطعوا قروناً على مدار التاريخ الطويل ، بقوا متمسكين بالإسلام ، لا يعدلون بالإسلام ديناً ، ولا يعدلون بالحضارة الإسلامية حضارةً ، ولا يعدلون بالثقافة العربية ثقافة ، ولا يعدلون بالمجتمع الإسلام مجتمعاً ، لم يذوبوا كالملح أبداً في ماء الحضارات الأجنبية ، هذا درس نستطيع أن نتلقاه من معركة اليرموك ، فكانت المعركة الفكرية ، المعركة الحضارية المعنوية أكثر تعقداً ، وأكثر خطراً من معركة اليرموك.

كثيرٌ من المؤرخين يستغربون ، ويشكُّون في صحة الحكاية التي رواها الطبري في تاريخه المشهور الموثوق به : إنَّ المسلمين في قيادة سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه لما بلغوا إلى نهر دجلة ، وأرادوا أن يعبروها ليصلوا إلى المدائن عاصمة الفرس ، وجدوا أن القناطر قد أزيلت ، وأنَّ السفن قد أبعدت ، وأن دجلة ترمي بالزبد ، والعرب على فروسيتهم

كانوا بعيدين عن السباحة ، لأنَّ بلادهم ليس فيها نهر ، فكانوا يحسنون ركوب الخيل ، ولا يحسنون ركوب النهر ، فضلاً عن البحر ، إنهم لما وصلوا إلى الشاطىء وقف سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه هنيهةً واستعرض الواقع الجدي المرير ، نظر إلى سيدنا سلمان الفارسي لأنه ابن البلد ، وهو فارسي ، فقال: ماذا ترى يا سلمان؟! هل نعبر ، ونتوكل على الله ، أم نقف وننتظر السفن أو نصل بطريق آخر ، فقال سلمان الكلمة الحكيمة الخالدة التي لا يوجد لها نظير في تاريخ الديانات ، إنَّه أسلوب تفكيرٍ جديد ، ومنطقٍ فريد ، ماذا قال؟! إنه قال: يا سعد بن أبي وقاص! إن هذا الدين لجديد ، وإني لأستغرب وأستبعد أن يغرق هذا الدين وحملة هذا الدين في نهر ، إنَّ لله إرادة ، وإن لله حكمة في بقاء هذا الدين حتى يفتح العالم ، فكيف يغرق أهلها الذين يحملون رسالته في هذا النهر ، هذا النهر لا يتحوَّل عن فطرته ، والدين لا يتحول عن فطرته؟ هذا النهر شغله الإغراق ، وهذا الدين شغله إنقاذ الإنسانية من أوحال السفالة ، ومن أوحال الوحشية ، ومن أوحال الوثنية والشرك ، فكيف أصدق أن هذا النهر يتغلب على هذا الدين مع أن مصير الإنسانية مرتبط بهذا الدين ، وليس مرتبطاً بهذا النهر ، فكيف نسلم أن هذا النهر الصغير الذي يستطيع طفل صغير يعرف السباحة أن يعبره ـ إذا كان هنالك معبر ـ هذا النهر الصغير يتغلب على هذا الدين الكبير الذي جاء به محمد ﷺ؟! والله لا أصدق! إن هذا الدين لجديد ، وأمامه شغل طويل ، أمامه مسافة طويلة ، مسافات بشرية ، ومسافات حضارية ، مسافات دينية ، فكيف أصدق أن سفينة هذا الدين ستغرق في هذا النهر الصغير ، لا ولكن انظر في جيشك هل انتشرت فيه الذنوب أم لم تنتشر؟ أما إذا انتشرت فيه الذنوب فلا أستطيع أن أقول إننا سننجح ، وأننا سنصل إلى البر والشاطىء الآخر بسلام ، أما إذا كان الجيش محافظاً على سلامته ، على صفاته ، وعلى جذوة إيمانه ، وعلى صفاء قلوبه ، وعلى صفاء صحيفة أعماله ، فإنني بثقةٍ أننا سنعبر هذا النهر ، وإن كنا لا نعرف السباحة.

هنالك أمر سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه جيشه ، باسم الله نتوكل

على الله ، وعبروا النهر ، وكانوا يتكلمون فيما بينهم كأنما يمشون على البر (وهذا لفظ الطبري) يحيك الطبري ما قاله الفرس بالنص قالوا: «ديوان آمدند! ديوان آمدند! جاء العفاريت! جاء الجن! هذه قصة يرويها المؤرخ الطبري ، وهو مؤرخ أمين ، والعرب عرفوا بالأمانة في التاريخ أكثر من كلِّ أمة.

ولكن أغرب من هذا أنَّ المسلمين عبروا دجلة المادية ، عبروا فرات المدنية من غير أن تبتل ذيولهم فيها ، وهذا أروع وأغرب ، ونحن على البر ، لكننا فقدنا الشيء الكثير من مقومات شخصيتنا من مقومات حضارتنا ، ولولا الخطوط العربية الجميلة على اللافتات والألواح ، ولولا الأذان المدوي على منائر المساجد ـ حماها الله تعالى وصانها ـ لما استطاع الرجل الذي جاء بالطائرة ونزل بالأسواق أن يفرق بين مدينة عربية ، ومدينة إفرنجية إلا بصعوبة.

فأقول لكم: نحن في معركةٍ حضاريةٍ ، ثقافيةٍ ، معنويةٍ ، فكريةٍ ، فعلينا أن نصمد أمام هذه الهجمات ، أمام التحديات المعاصرة ، التحديات المدنية ، والتحديات الفكرية ، والمسلمون بقوا سبعة قرون تقريباً محافظين على شخصيتهم ، وعلى مدنيتهم ، إذا دخل واحدٌ في بيت مسلم رأى العادات العربية: البساطة ، والنظافة ، والتسهيلات للوضوء ، التسهيلات للاستحمام ، التسهيلات للاستنجاء وغير ذلك ، يأكلون بالبساطة جميعاً ، ولكننا نحن تغيرنا في ظرف سبعين سنة فقط. هذا درس يجب أن نتلقاه ، ويجب أن نقارن بين حاضرنا وماضينا ، حاضر هذه الأمة وماضي هذه الأمة.

لا تظنوا أنَّ الحضارة شيء طارئ ، وأنَّ الحضارة أداة فقط ، إنَّ الحضارة تكون نفسية خاصة هي من خصائص أصحاب هذه الحضارة ، ورواسب تاريخهم الطويل ، فإذا أخذنا حضارةً برمتها ، وبحذافيرها ، وطبقناها علينا ، كنا عبيداً لهذه الحضارة ، ويبقى الدين منحصراً في ساعات محدودة يقضيها الإنسان في مسجد ، ما نسبة هذا الوقت الذي

نقضيه في مسجد إلى هـذه الحياة التي نعيشهـا في البيوت والمنـازل ، وفي الفنادق؟! إنَّ الفنادق التي تبنى في بلادنا ينبغي أن يشترط معها أن تكون مطابقةً للإسلام.

لا أشعر إذا دخلت في بيت مسلمٍ بالعناية الزائدة بالطهارة ، وبالشعائر الإسلامية ، وتسهيلات لكل شيء ، ولا أشعر أني أدخل في بيت أمير من أمراء الخلافة الأموية والخلافة العباسية ولم تكن الخلافة الأموية والخلافة العباسية في مؤخر الركب ، إنما كانت قائدتين للعالم ، وكانوا على القمة من الحضارة. . . ولكني لا أشعر مع الأسف الشديد أني أعيش في عهد الأمويين ، وعهد العباسيين ، ولا أقول الخلافة الراشدة فإنَّ الخلافة الراشدة ، أسمى من ذلك. . . ولكن على الأقل ، لا أشعر بأنني في بغداد ، وإنني في البصرة والكوفة ، بل أشعر بأنني في بلد أوربي غربي.

إننا نستلهم ونستوحي من سورة الإسراء والمعراج ، ومن قصة الإسراء والمعراج ، أنَّ هذه الأمة يجب أن تكون شامةً بين الأمم ، أن تكون ذات شخصية ممتازةٍ مميزة ، ذات شخصيةٍ قيادية ، نحن الأساتذة والشعوب كلها تابعة. . . أقول لكم بصراحة: إن المسلم إذا لم يعتقد أنَّه هو الموجِّه للعالم ، فإنه لم يفهم الإسلام فهماً صحيحاً. . . جزى الله الشاعر الإسلامي العالم الدكتور محمد إقبال ، كان هناك اتفاق على عدم صحة الحديث: «لولاك لما خلقت الأفلاك» ، ولكن الدكتور محمد إقبال يثبت أنَّ أي مسلم إذا لم يعتقد أنه ينطبق عليه هذا الحديث إنما خلقت الأفلاك له ، وإنما خلقت الأرض له؛ فإنَّه مقصر في أمره ، يجب على كلِّ مسلمٍ أن يعرف أنه القطب الذي يدور حوله الرحى رحى المدنية ورحى البشرية ، ورحى العلوم ، هو بمكان القيادة والزعامة ، ليس مركزنا مركز المقتبسين فقط ، لقول الحديث الشريف: «الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحقُّ بها» ولكن كما يقول الأمير شكيب أرسلان في تعبيره البليغ: «من استرقَّ شيئاً وقد استرقَّه فقد استحقه» فإذا كنا مقتبسين فيجب علينا أن نكون مسترقين حتى نكون مستحقين ، من استرقَّ شيئاً أي: جعله خاضعاً لنفسه وأخضعه

لمقومات حياته ، أخضعه لشخصيته وكيفه من حيث إنه مسلم فليس بسارق . . بل هو مسترق .

أصبنا نحن الأمة الإسلامية والمسلمين بمركب النقص ، إنَّ المسيحيين يغارون على شعاراتهم ، ولكن نحن المسلمون لا نغار على شعاراتنا ، يجب أن تكون الفنادق في البلد العربي الإسلامي خاضعةً لحضارة هذه البيئة ، ولتاريخ هذه البيئة ، ولعقائد هذه البيئة .

يجب أن نصوغ الحضارة من جديد ، نصوغها صياغةً إسلاميةً جديدة تختلف عن الحضارات الأخرى ، هذا يحتاج إلى الاستقلال الفكري ، والاستقلال التخطيطي ، والاستقلال الشخصي ، ولكنا نحن فقدنا الاستقلال ، الاستقلال العقلي ، والاستقلال الفكري والاستقلال الحضاري ، كثير من البلاد قد تحررت من الاستعمار الأوربي سياسياً وإدارياً ، ولكن ما تحررت عقلياً ، وثقافياً ، ولا يزال الغرب جاثماً على رؤوسنا متغلغلاً في صدورنا ، يبيض ويفرخ . يجب أن نتحرر منه كلِّياً ، ونكون أمة حرَّةً بكل معاني الكلمة .

* * *

دور الأمـة الإسلاميـة فـي إنقـاذ الـبشريـة وإسعادهـا

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في مقر المؤسسة الإسلامية الواقع بِستر قريب (لندن).

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين ، أما بعد :

حضرات الإخوان ، والضيوف الكرام ، والمستمعين الكرام! إنني أحمد الله تبارك وتعالى على أنه أتاح لي فرصةً أخرى لهذا اللقاء الكريم الحبيب ، والاجتماع بهذه المجموعة الطيبة الهادفة السليمة ، المتألمة لما يعانية العالم بصفةٍ عامة ، ولما تعانيه هذه القطعة التي كتبت لها القيادة العالمية ، والتوجيه ـ لحكمة يعلمها الله ـ بصفةٍ خاصة ، إنني سعيدٌ بأنَّ الله سبحانه وتعالى أتاح لي هذه الفرصة للحديث في هذا المكان الرئيسي الحساس الذي لا يزال له نفوذ كبير ، والذي لا تزال له مكانةٌ مرموقة ، واحترامٌ زائد .

إخواني! وأنا كذلك أحمد الله تبارك وتعالى على أنني أتحدث إليكم أولاً باللغة العربية التي هي لغة القرآن ، والتي هي لغة الإيمان ، ولغة الرسالة المحمدية ، والتي كانت ولا تزال ـ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ـ لغة ، لا أقول إنها لغة الإسلام الرسمية ، لأنني لا أومن بالرسميات ، ولكن لغة الإسلام الدينية ، ولغة الإسلام الإيمانية ، ولغة الإسلام العلمية ، ولغة الإسلام العقلية ، والثقافية .

إخواني! إنني تلميذٌ صغير من تلاميذ مدرسة القرآن العامرة الخالدة ، وإنَّ الله يشرفني ، ويكرمني ، ويمنحني فرصةَ القراءة وبعض التدبر في القرآن ، وأشعر بهذا النسب المشترك بيننا وبينكَم ، النسب العقلي والإيماني ، وأقول اعتماداً على ذلك : إنكم كلكم تقرؤون القرآن ، ومن طبيعة الإنسان أنَّه إذا رأى شيئاً غريباً تملكه الحيرة في بعض الأحيان ، وتملكه الدهشة في بعض الأحيان ، ويملكه الروع في بعض الأحيان ، ولكن هذه الدهشة تزول سريعاً أو على فترةٍ ، وهذه الحيرة تزول كذلك ، ولكنني أقول لكم بكل صراحة ـ وقد ألقى الله في روعي أن يكون هذا

موضوع حديثي اليوم ـ: إنني كلما مررت بهذه الآية الكريمة التي هي من آخر آيات سورة الأنفال وهي: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] أنا أتساءل، كرجلٍ واعٍ، وكرجلٍ يعيش في هذا العالم، إنني أحار، ويملكني العجب، بل تملكني الدهشة والحيرة: لمن يقال هذا؟ ومتى يقال هذا؟ وفي أي مكانٍ يقال هذا؟.

يقال هذا لحفنةٍ[1] بشرية ـ إذا قيست إلى العالم المتمدن المعمور، وإلى النفوس البشرية العائشة الموجودة في ذلك الزمان يعني في سني الهجرة الأولى ـ فقد كان المسلمون في تلك الفترة الزمنية، قطرةً أمام البحر الإنساني الزاخر، كانوا حفنةً بشريةً فقط، كانت حول مدينة يثرب، (المدينة المنورة العزيزة المحترمة التي نفديها بنفوسنا وأرواحنا، ولكن اسمها القديم يثرب) بل كانت حول الجزيرة العربية إمبراطوريتان واسعتان ممتدتان إلى أقصى العالم، قد توزعتا العالم ـ كما يقول المؤرخون الأوربيون ـ العالم المتمدن المعمور، توزعته إمبراطوريتان، الإمبراطورية البازنطينية التي خلفت الإمبراطورية الرومية، والتي كان مقرها قسطنطينية، والإمبراطورية الساسانية، الإمبراطورية الإيرانية، قد استحوذتا، وسيطرتا على العالم المتمدن المعمور وكان هذا البحر المدني الحضاري يموج حول الجزيرة كلها، كانت هنالك حضارات، وكانت هنالك فلسفات، وكانت هنالك مؤسسات علمية، وكانت هنالك فتوحٌ مدنيةٌ، وعقليةٌ، وسياسيةٌ، واقتصاديةٌ، وعمرانية.

ما نسبة هذه الحفنة البشرية التي كانت قد وجدت في المدينة المنورة بفضل دخول الإسلام أولاً في المدينة، وبعد ذلك انتقال عددٍ قليلٍ من مكة إليها، وتعرفون كلكم أنَّ الهجرة ليست بالأمر الهيِّن، فإن الهجرة هي مغادرة الوطن والأهل، والانتقال من بيئة إلى بيئة أخرى، إنها تطلب تضحيةً كبيرةً، وهمةً عاليةً، إنها تطلب مخاطرةً بالمال، ومخاطرةً بالنفس، ومخاطرةً بالأهل.

---

(١) الحفنة (بفتح الحاء) والحفنة (بضم الحاء): ملء الكفين.

وقد كان إحصاء المسلمين في المدينة بأمر رسول الله ﷺ ، فلم يتجاوز عدده ألفاً وخمسمئة (١٥٠٠) رجل ، وقد كان ذلك كما يرى بعض أصحاب السير ، عند الخروج إلى أحد ، وقد كانت غزوة أحد في شوال سنة ثلاث من الهجرة ، فكان ذلك بعد ما مضى على الهجرة ثلاثة أعوام ، وجزم بعض علماء السِّير وشراح الحديث بأنَّ ذلك كان عند حفر الخندق ، وقد كانت غزوة الخندق ـ أو غزوة الأحزاب ـ في شوال سنة خمس من الهجرة ، فكان أمد الإحصاء أطول من الأول[1] .

على كلِّ حال كانوا حفنةً بشرية ، كانوا حفنةً بشريةً مغمورةً في بحر هائج مائج من البشر ، ومن الحضارات ، ومن الثقافات ، ومن الألسن واللغات ، ومن المدنيات والزخارف ، ومن المظاهر الخلابة ، يقال لهذه الحفنة البشرية : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ ﴾ يعني : إن لم تتألفوا ، ولم تكونوا وحدةً بشريةً مميزةً ، تقوم على العقيدة الممتازة والهدف الواضح إلى إنقاذ البشرية وإسعادها ، وعلى نمطٍ خاص من الحياة والقيم والأقدار الخاصة ، وعلى التصميم على القيام بالدعوة ، وإن لم تتخذوا الحياة الإيمانية الخلقية المثلى شعاركم ، ولم تكونوا نموذجاً فريداً للإنسانية ، ولم تصمموا على نشر الدعوة الإسلامية إلى أقاصي الأرض ، وعلى إخراج البشرية من الظلمات إلى النور ، ومن الدَّمار والهلاك والشقاء ، إلى السعادة الأبدية ، ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٣] .

لمن يقال هذا؟ ومتى يقال هذا؟ وفي أيِّ بيئة ، وفي أيِّ محيطٍ يقال هذا؟ ولكن كما يقال «العبرة بالقيمة ، ليست العبرة بالقامة» فكان هؤلاء المسلمون الذين لا يتجاوز عددهم ألفاً وبضع مئات ، هؤلاء كانوا صغيرين

(١) جاء في صحيح البخاري ، عن أبي وائل ، عن حذيفة ، قال : قال النبي ﷺ : «اكتبوا لي من يلفظ بالإسلام من الناس» فكتبنا له ألفاً وخمسئة (١٥٠٠) رجل ، وقلنا : نخاف ونحن ألف وخمسمئة؟ ولقد رأيتنا ابتلينا حتى أنَّ الرجل ليصلي وحده وهو خائف» (الجامع الصحيح للبخاري ، الجزء الأول ، كتاب الجهاد ، باب كتابة الإمام الناس) .

في القامة[1] ، لكنهم كانوا كبيرين في القيمة ، والعبرة بالقيمة لا بالقامة ، وقد أثبت التاريخ الإنساني المدون ، المحفوظ الموثوق به والمعتمد عليه: أنه دائماً غلبت وانتصرت القيمة على القامة ، وانتصرت القيمة الصغيرة على القامة الكبيرة ، هذا تاريخ الديانات ، هذا تاريخ الحركات الإصلاحية ، هذا تاريخ المدنيات ، هذا تاريخ المغامرات ، المغامرات السياسية ، والمغامرات المدنية ، والمغامرات العلمية ، دئماً غلبت القيمة على القامة.

فالقضية قضية القيمة ، ليست قضية القامة ، فكان المسلمون في المدينة المنورة صغاراً ، وقليلين في القامة ، ولكنهم كانوا كبيرين شامخين في القيمة ، والعبرة بالقيمة لا بالقامة.

فيا إخواني! أقول لكم: إنني كلَّما مررتُ بهذه الآية الكريمة على كثرة مروري ومرور كلِّ مسلم بها عند التلاوة ـ والحمد لله كلكم تقرؤون القرآن ، وقد تقرؤونه أكثر مني ـ ولكن أقول لكم بصراحة ، ولا أجاملكم ولا أتملّق ، ولا أتظاهر بالعاطفة الإيمانية ، والإجلال القرآني ، أقول بكل إخلاص وبكل صراحة: إنني كلما مررت بهذه الآية الكريمة دهشت ، وقلت: يا سبحان الله! ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] أيها المسلمون المعدودون بالمئات! إن لم تقوموا بالدعوة الإيمانية ، إن لم تقوموا بدعوة التوحيد ، إن لم تقوموا بالدعوة إلى العبودية الخالصة لله تبارك وتعالى ، والخضوع لحكمه ، وإنه لا خالق غيره ، ولا رب غيره ، ولا معبود غيره ، ولا حاكم غيره ، ولا قوي غيره ، إن لم تقوموا بهذه الدعوة ، تعرفون ماذا ستكون عاقبة الإنسانية؟.

تكون عاقبة الإنسانية وخيمةً ، ذميمةً ، شنيعةً ، هنا في الدنيا التناحر ، تناحر أفراد البشرية ، يتناحرون ، ويتقاتلون ، يقتل بعضهم بعضاً ، ويسفكون الدماء ، ويرتعون في الشهوات ، ويعبدون النفس ، ويعبدون الهوى ، ويبتدعون طرائق للظلم والإهانة ، والاستبداد ، والقهر ، هذا

(١) المراد بالقامة هنا الكمية والعدد الكبير ، وثروة من الوسائل والطاقات.

سيكون مصير الإنسانية إن لم تقوموا أنتم بالواجب ، وبما أسعدكم الله به ، وفرضه عليكم ، فأنا أقول لكم إنَّ هذه المراكز الدعوية والتربوية مع إجلالي ومعرفتي لقيمتها ولغنائها ، ولفائدتها ، إنها في الحقيقة قطرةٌ في البحر ، ما نسبتها إلى هذا البحر الزاخر المائج الهائج ، الذي يزخر هنا في أوربا ، ومن هنا تمتد أمواج هذا البحر ، وعواصف هذا القطر إلى العالم الخارجي ، ما هي الاشتراكية؟ ما هي الرأسمالية؟ ما هي الشهوانية؟ ما هي عبادة النفس؟ ما هو استعباد الإنسان للإنسان ، كلها عواصفُ هوجاء ، ورياحٌ مشؤومة ، رياحٌ تقضي على البقية من الشعور الإنساني ، والمبادىء الفاضلة ، والقيم الإنسانية ، فهنا بحر موَّاج من المادية ، وهذا البحر من ورائه ومعه ثروةٌ زاخرة ، ومددٌ كبير من الرقي الثقافي ، وتقدُّمٌ كبيرٌ في مراكز الطبع ، وآلات النشر ، والإذاعة ، هذه أوربا كلها غنيةٌ في كل ما يستطيع أن يصلح الإنسان ، ويستطيع أن يفيد الإنسان ، ولكنَّها تحولت ، واتَّجهت لسوء قيادة الموجهين والمربين ، وللمعركة الحاسمة ، والحرب الشعواء التي وقعت بين الكنيسة والدولة ، وبين العلم والدين(١) اتجهت إلى الإفساد بدل الإصلاح ، إلى نشر عبادة النفس ، والاندفاع وراء الشهوات اندفاعاً أهوج ، اندفاعاً متحمساً متهوراً ، فأصبحت أوربا تملك زمام العالم ، وترتفع راياتها على الشرق الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وكانت هناك إمبراطورية سياسية ، وإمبراطورية فكرية ، وكان استعماراً سياسياً ، واستعماراً ثقافياً ، واستعماراً فكرياً ، واستعماراً خلقياً ، واستعماراً توجيهياً .

إنَّ الله سبحانه وتعالى قد مكَّن لهذه الحفنة البشرية التي وجدت وتكونت في المدينة المنورة بفضل تعاليم الإسلام ، من انتزاع السلطة ـ إذا صحَّ هذا التعبير ـ والسيطرة على النفوس ، من جماعةٍ إلى جماعة ، ومن أمَّةٍ إلى أمة ، لا لمآرب النفس ، ولا للشهوات ، ولا للأغراض الخسيسة الفردية ،

---

(١) يرجع للاطلاع عليه إلى كتاب درابر Drapper المشهور (Conflict Between Religion Anód Science) «الصراع بين الدين والعلم» .

أو السيادة العنصرية ، أو القومية ، ولكن لصالح الإنسانية ، مكَّن الله لهذه الحفنة البشرية أن تظهر ، وتتغلب ، وتملك زمام القيادة ، زمام القيادة العقائدية ، زمام القيادة الخلقية ، زمام القيادة الفكرية ، زمام القيادة العلمية ، وزمام القيادة السياسية كذلك ، قد مكَّن الله لهذه الحفنة البشرية في القرن الأول في عصر النبيِّ ﷺ وفي عصر الخلفاء الراشدين حتى فتحوا الإمبراطورية البازنطينية ، ووصلوا إلى قسطنطينية في عصر محمد الفاتح.

وكذلك امتلكوا الإمبراطورية الفارسية الساسانية ، إذا قال إنسان: إن هذه الإمبراطورية ستزول ، رأى الناس إليه عجباً ، ودهشةً ، واستغراباً ، وظنوا بعقله سوءاً ، ما كان يتصوَّر ذلك ، ولكن كلُّ ذلك وقع لإرادة الله سبحانه وتعالى.

فالذي نحتاج إليه ، والذي جرت به سنة الله تبارك وتعالى في تاريخ الديانات ، وفي تاريخ الحركات الإصلاحية حتى في النبوات ، هو أن تقوم قلَّة مهما بلغت من ضآلة العدد والعدد ، تقوم بإخلاصٍ ، وبعزمٍ ، وبوعيٍ ، وبعقلٍ ، وبحكمةٍ ، وبتعاون ، وبتجريد النية لخدمة الدين فقط ، هنالك يُنزل الله نصره ، وقد جاءت في القرآن الكريم تصريحاتٌ كثيرةٌ بأنَّ الله سبحانه وتعالى ينصر الضعيف على القوي ، وينصر القليل على الكثير ، جاءت في هذا المعنى آياتٌ ، فيقول الله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٧].

ويقول:

﴿ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فالمهم الآن أن تقوم منظَّمةٌ ، وتقوم جماعةٌ مؤمنةٌ ، جماعةٌ صاحبة دعوة ، صاحبة مبدأ ، صاحبة غاية ، تقوم بإخلاص ، وبإيمان ، وبحماس ، وبتعاون ، وباتحاد ، وبتجريد النية والقلوب من حبِّ الدُّنيا ، ومن حبِّ الرئاسة ، ومن التنافس في القيادات والعظمة ، هنالك ينصر الله سبحانه وتعالى ، وأتجرأ وأقول لكم ـ وأستغفر الله ربي ، وأعوذ به ـ

وأقول: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] أيها المسلمون في أوربا! أيها المسلمون في أمريكا! أيها المسلمون في إنجلترا! وأتشجع وأقول: أيها المسلمون في البلاد العربية! التي يُحارب في كثيرٍ من بقاعها الإسلام، ويُتخوف من الإسلام ما لا يتخوف من الشيوعية، وما لا يتخوف من الصهيونية، وما لا يتخوف من المسيحية الصليبية، وما لا يتخوف من فساد المجتمع، وانهيار المبادىء الخلقية والقيم المعنوية، يُتخوف من الإسلام أكثر مما يتخوف من أي شيءٍ، أقول لكم أيها الإخوان ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] الآن هنالك حربٌ واحدة تشن الآن، وتقوم، وهي الحرب بين الإسلام، وبين اللا إسلام، وبين عبادة الله، وبين عبادة النفس، وبين التعاليم الإسلامية وبين تقديس القيم الغربية، وإحلالها محل تعاليم الكتب السماوية، هذه هي الحرب الوحيدة القائمة الآن، وهي حرب مسعورة مسجورة.

هذه كلمتي التي حضرتني الآن، وأدعو الله سبحانه تعالى أن يمنحنا من قوة الإرادة، وحسن النية، والإخلاص، والعزم حتى نقوم بنشر الإسلام في هذه القارة التي أفسدت العالم كله زمناً طويلاً، والتي لا تزال لها سلطة كبيرة في إفساد المسؤولين عن المعارف والتربية، والمسؤولين عن الثقافة، والمسؤولين عن الجامعات والكليات، فلا يزال لها أثرٌ في ربوعنا الشرقية، في مناطقنا، وفي بلادنا الشرقية بما فيها البلاد العربية.

ونختم هذه الكلمة بترجمة أبيات لشاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال الفارسية مقتطفةً من كتابي «روائع إقبال».

يقول محمد إقبال مخاطباً للمسلم:

أيها المسلم! أنت للناموس الأزلي حارسٌ وأمين، ولسيِّد هذا الكون يسار ويمن[1] لقد كانت نشأتك من التراب، ولكن بك قوام العالم وبقاء

(١) يعني أنه آلة بيد القدرة الإلهية، وجارحة لها.

الأمم ، اشرب كأساً فائضةً من اليقين ، وانهض من حضيض الظنِّ والتخمين ، انتبه من السبات العميق الذي طال أمده ، واشتدت وطأته .

الغياث من الإفرنج الذين خلبوا العقول ، وسحروا النفوس! الغياث من هؤلاء الذين خدعوا مرةً بالرقة والدلال ، ومرةً بالقيود والأغلال ، تارةً مثلوا دور «شيرين» وطوراً لعبوا دور «أبرويز»(١) لقد أصبح العالم كله خراباً يباباً بإغارتهم ، وغزوهم .

يا بانيَ الحرم! ويا خليفة إبراهيم! انهض لبناء العالم من جديد ، انتبه من السبات العميق الذي طال أمده واشتدت وطأته(٢) .

ونسأل الله أن يوفقكم ويوفقنا لنستحق نصر الله رغم قلة عددنا وعددنا ورغم كثرة عدد هؤلاء المنافسين للإسلام وأعداء الإنسانية .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

---

(١) يشير إلى قصة غرامية فارسية قديمة تمثل فيها «شيرين» دور المرأة الفاتنة التي هام بها الأبطال ، و«أبرويز» دور الملك القاهر الذي عشقها ، واستأثر بها .

(٢) زبور عجم ١١٦ ـ ١١٨ باختصار ، وهي زيادة في المحاضرة عند نقلها وكتابتها ، مقتبسة من «روائع إقبال» للعلامة الندوي، طبع في دارابن كثير ، دمشق ـ بيروت .

المجتمع الإسلامي المعاصر

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في ملتقى الفكر الإسلامي الثالث والعشرين ، الَّذي عقد في الجزائر في الفترة (٢٨/ محرم و٥/ صفر ١٤١٠ هـ) (٢٩/ أغسطس ٥/ سبتمبر ١٩٨٩ م).

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

استعراض المجتمع الإسلامي في ضوء الواقع :

وبعد! فيسعدني أن أتحدث في موضوع : «المجتمع الإسلامي المعاصر ، ووضعه الحاضر ، وما يحتاج إليه في عودته إلى الصفة اللائقة به ، وقدرته على القيام بدوره في العالم المعاصر ، وأداء رسالته التي يفتقر إليها العالم المعاصر أشد افتقار ، ولعدم وجودها ـ كما ينبغي ـ اختلَّ الميزان ، وامتحنت البشرية بأزمات أفقدت قيمتها ، وهددتها بالفناء العاجل ، أو الآجل.

واقعان يبدوان متناقضين :

إننا إذا تحدثنا عن المجتمع الإسلامي المعاصر ، فلا بد أن ننظر بعين الاعتبار إلى واقعين يبدوان متناقضين ، ولكن لا بدَّ لنا أن نضعهما في الاعتبار ، ونعطيهما حقهما من الاستعراض الأمين والحكم المنصف ، حتى يكون حديثنا ، والنتائج والمقترحات التي ننتهي إليها في ضوء الواقع العملي ، والحقائق الراهنة.

الفارق الأساسي بين المجتمع الإسلامي المعاصر والمجتمعات غير الإسلامية المعاصرة :

إن الواقع الأول هو أنَّ المجتمع الإسلامي المعاصر ، هو المجتمع الوحيد الذي لا يزال محافظاً على الخيط الذي يربطه بتعاليم السماء ، وبالرسالات عامة والرسالة السماوية الأخيرة التي ختمت بها النبوات خاصةً ، والإيمان بالحياة بعد الموت ، والحساب والجزاء يوم الآخرة ، والإيمان والاحتساب والطمع في الأجر والثواب ، والإجلال لكثيرٍ من

المثل والقيم التي جاءت في التعاليم السماوية ، وتمثَّلت أظهر تمثُّل في السيرة النبوية المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ وفي حياة خلفائه ، وخريجي مدرسة النبوة ، يجعله هذا الخيط لا يرتاح إلى الحياة الجاهلية ارتياحاً كلياً ، والإخلاد إلى مثلها وقيمها إخلاداً تاماً ، ولا يزال هذا الخيط الرباني يربطه بما وراء هذا العالم المادي ، ويميزه بعض التمييز عن المجتمع الجاهلي العالمي المعاصر ، وذلك حين تقطع هذا الخيط في حياة كل مجتمع ديني يوجد على وجه الأرض ، من أعرق ديانة في القدم ، كالبوذية ، والزردشتية ، إلى متأخرةٍ في الزمان بعض التأخر ، كاليهودية ، والنصرانية .

مصدر قوة خارقة للعادة ، والوسيلة الأقوى للبعث الجديد :

إن الشعوب المسلمة ـ رغم جميع معايبها وجوانب الضعف فيها ـ لا تزال تحمل بقايا تلك العاطفة الفياضة الجياشة من الإيمان والحنان ، والتضحية والإيثار والطاعة والانقياد ، والحبِّ والإخلاص ، التي اتصفت بها هذه الأمة في القديم ، والتي لا توجد في أيِّ أمة مادية على ظهر الأرض ، إنَّ جماهير هذه البلاد الإسلامية ـ رغم جهلها المؤسف ، وتأخرها المؤلم ـ خاماتٌ بشريةٌ ممتازة تصنع منها نماذج إنسانية جميلة ، وطراز رفيع من البشر ، إنَّ أكبر قوتها الإيمان ، والإخلاص ، والبساطة والحماس ، وهذه القوة لعبت دوراً خطيراً في التاريخ ، وصنعت العجائب ، وأتت ببطولات وخوارق تدهش لها العقول ، وهي التي أنقذت هذه الدول الإسلامية ، وأمسكت بيدها في كلِّ وقت عصيب ولحظة حاسمة ، فيجب علينا ـ بناءً على مجرد حبِّ الواقعية والحقيقة ـ أن نقدر هذه القوة الكبرى حقَّ قدرها ، ونعتبرها أضخم رصيد وأمضى سلاح ، وأقوى وسيلةٍ للمحافظة على سلامة البلاد ، وأداء أي واجب كبير ، ودور خطير على مسرح العالم .

إنَّ وجود هذا الخيط الإيماني الذي لم يزل ، ولا يزال يربط المجتمع الإسلامي بفاطر هذا الكون ومدبره ، ومجازي الخلق على الإحسان

والإساءة ، وبخاتم الرسل ـ عليه الصلاة والسلام ـ ربطاً عقدياً وعاطفياً ـ على تفاوت قليلٍ في الضعف والقوة ، والخفاء والظهور ـ كان ولا يزال مصدر قوةٍ كامنة هائلةٍ لا يقوم مقامه السحر البياني ، والإقناع العقلي والإغراء المادي ، وخضوع لقيادة أو قوة سياسية ، وامتلاك قوة حربية ، ووسائل الإعلام والتربية الجبارة ، قد صنع العجائب ، وأظهر المعجزات التي احتار في تعليلها وتحليلها المؤرخون الأذكياء ، والفلاسفة النبغاء في القديم والحديث.

توفق قادة المجتمع الإسلامي الماضين في استخدام هذه القوة ، وعدم انتفاع القادة العصريين بهذه الثروة والطاقة:

وقد كان حكيماً وموفقاً كلَّ التوفيق من قادة قسم من أقسام هذا المجتمع الإسلامي ، ومجموعةٍ من مجموعات هذه الأمة الإسلامية ، من استخدم هذا الخيط ، وحقق بتحريكه ، من المرامي البعيدة ، والأهداف العويصة ما لم يكن يتوقع ، ويقاس ، من انتصار على قوة حربية كانت النسبة بعيدة بين ما كان يملك من قوة وبين ما كان يواجهه ، واسترداد ملكٍ مغصوبٍ أو دولةٍ زائلة ، وانتصاف من عدوٍّ قاهر ، ومنافسٍ غلّاب.

نضيف إلى ذلك ما تحقق من النجاح الباهر ، ووقوع ما كان يعتبر شبه مستحيل لزعماء الإصلاح ، ورافعي راية الدعوة والكفاح ، وإثارة الإيمان والشعور في الجماهير المسلمة ، ومحاربة الحياة الجاهلية ، وعيادة النفس والشهوات ، والجمود والركود ، والبطالة والفسولة ، من المصلحين الكبار ، والعلماء الربانيين ، والشيوخ المربين الذين اعتمدوا في دعوتهم الإصلاحية ، وفي «استراتيجيتهم» الدعوية على تحريك هذا الخيط ، والانتفاع به ، في تحقيق مخططاتهم الدقيقة ، وأهدافهم الإصلاحية البناءة البعيدة المدى[١].

---

(١) ليرجع لبعض التفصيلات والأمثلة إلى كتاب صاحب الرسالة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» (١ - ٢ - ٣ - ٤) طبع دار ابن كثير ، دمشق ـ بيروت.

وعدم وجود هذا الخيط الإيماني الذي يربط المجتمع غير الإسلامي بفاطر هذا الكون ، وبتعاليمه التي جاء بها الأنبياء في عصورهم ، وتضمنتها الصحف السماوية القديمة التي تناولتها بعد يدُ التحريف ، وفقد الكلمات الدينية ، والحث على مخافة الله تعالى وخشية الحساب والكتاب في الآخرة ، والطمع في الأجر والثواب عند الله ، الكثير من قيمتها وقوتها ، وأثرها على النفوس والعقول ، بل أصبحت في كثيرٍ من المجتمعات غير الإسلامية كلمات مجهولة المعاني ، مثيرة للاستخفاف والاستهزاء ، جعل عمل الدعوة إلى الله ، والمجازفة بالنفوس ، والمنافع المادية ، والثورة على الأوضاع الفاسدة ، والقيم والمثل المزيفة ، من أصعب الأعمال في هذه المجتمعات ، وأطولها طريقاً ، وأقلها نتيجةً وعائدة ، زهد فيه كبار القادة ، وزعماء الإصلاح والتلقين من فساد المجتمع ، فلم يطمحوا إلى قلب الأوضاع على أساس متينٍ ثابتٍ عميق .

تصوير المجتمع الإسلامي وتنويه بما يمتاز به :

وقد أحسن شاعر الإسلام الأكبر الدكتور محمد إقبال التعبير عن هذه الحقيقة على لسان أكبر عدوٍ منافس ، وأعظم معارضٍ بصراً بهذه الأمة ، وحذراً منها ، يقول محمد إقبال في قصيدته «برلمان إبليس» يحكي حديث رئيسه النهائي :

«إني لست خائفاً مما نوهتم به من مذاهب سياسية ، واقتصادية ، وفكرية ، كالشيوعية ، والملوكية ، والديمقراطية ، والإلحادية ، ولكني أخاف أمَّة لا تزال فيها شرارة الحياة والطموح كامنة في رمادها ، ولا يزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، وتسيل دموعهم على خدودهم سحراً. لا يخفى على الخبير المتفرس : أنَّ الإسلام هو فتنة الغد ، وداهية المستقبل ، وليست الاشتراكية .

أنا لا أجهل أنَّ هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجوراً ، وأنها فُتنت بالمال ، وشُغفت بجمعه ، وادخاره كغيرها من الأمم ، أنا خبير بأنَّ ليل الشرق داجٍ مكفهر ، وأن علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد

البيضاء التي تشرق لها الظلمات ، ويضيء لها العالم ، ولكني أخاف أن قوارع هذا العصر وهزاته ستقضّ مضجعها، وتوقظ هذه الأمة، وتوجهها إلى شريعة محمدﷺ، إني أحذركم ، وأنذركم من دين محمدﷺ حامي الذمار ، حارس الذمم والأعراض، دين الكرامة والشرف، دين الأمانة والعفاف، دين المروءة والبطولة ، دين الكفاح والجهاد ، يلغي كلَّ نوع من أنواع الرق ، ويمحو كلَّ أثرٍ من آثار استعباد الإنسان للإنسان ، لا يفرق بين مالك ومملوك ، ولا يؤثر سلطاناً على صعلوك ، يزكي المال من كلِّ دنسٍ ورجس ، ويجعله نقياً صافياً ويجعل أصحاب الثروة والملاك مستخلفين في أموالهم[١] ، أمناء لله ، وكلاء على المال ، وأيُّ ثورة أعظم ، وأيُّ انقلاب أشدُّ خطراً مما أحدثه هذا الدين في عالم الفكر والعمل ، يوم صرَّح بأنَّ الأرض لله ، لا للملوك والسلاطين ، فابذلوا جهدكم أن يظل هذا الدين متوارياً عن أعين الناس.

وليهنكم أنَّ المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه ، قليل الإيمان بدينه ، فخير لنا أن يبقى مشتغلاً بمسائل علم الكلام والإلهيات ، وتأويل كتاب الله والآيات ، اضربوا على أذان المسلم ، فإنه يستطيع أن يكسر طلاسم العالم ، ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره ، واجتهدوا أن يطول ليله ، ويبطىء سحره ، اشغلوه يا إخواني عن الجد والعمل حتى يخسر الرهان في العالم ، خير لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ، ويهجر هذا العالم ، ويعتزله ويتنازل عنه لغيره ، زهداً فيه ، واستخفافاً لخطره ، يا ويلتنا ويا شقوتنا لو انتبهت هذه الأمة التي يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتعسه!»[٢].

أسباب حيرة العالم الإسلامي: مصادرها، وأسبابها، ونتيجة هذه الحيرة:

والواقع الثاني المعارض للواقع الأول: أنَّ العالم الإسلامي حائر اليوم

---

(١) يقول الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

(٢) «روائع إقبال» للعلامة الندوي طبع دار القلم الكويتية عنوان «برلمان إبليس» ص١٢١ ـ ١٣١ .

بين دين لا يسهل عليه العمل به والقيام بمطالبه لعاداتٍ نشأ عليها ، وتعليم أذابه ، وشهواتٍ لا تتفق مع عقيدته ورسالته ، وبين جاهلية لا ينشرح لها صدره ، لإيمان لا يزال له بقية فيه ، وقوميةٍ عجنت مع الإسلام ، وحضارةٍ تخمَّرت مع الدين.

إنَّ العالم الإسلامي حائر بين فطرته التي تنزعه إلى الدين ، وتاريخه الذي يقبل به على الآخرة ، ويبعث في نفسه الثورة على المجتمع الفاسد والحياة الزائفة ، وبين التربية العصرية التي تزين له المادية وتطبعه على الجبن والضعف ، والزعامة التي تفرض عليه الاتكال على الغير ، والاعتماد على العدو ، والفرار من الزحف.

إنَّ العالم الإسلامي حائرٌ بين شباب ثائر ، ودم فائر ، وذهنٍ متوقد وأزهارٍ تريد أن تتفتح ، وبين قيادةٍ شائخةٍ شائبةٍ ، قد أفلست في العقلية والحياة ، وحرمت الابتكار والإبداع ، والشجاعة والمغامرة.

إن العالم الإسلامي حائر بين مواد خام من أقوى المواد وأفضلها في الإيمان ، والقوة والشجاعة ، وبين موجّهين وصناع لا يعرفون قيمة هذه المواد ، ولا يعرفون أين يضعونها ، ولا ماذا يصنعون منها.

وقد وُجِّه إلي في حوار في بلد إسلامي عربي سؤال عن أسباب حيرة الشباب المسلم ، فقلت:

«إني كنت مستغرباً جداً إذا لم يكن الشباب الإسلامي في حيرة كما تجدونه وتشعرون به ، إن الشجرة لا تلام على ثمرتها ، إن في إمكان البستاني أن لا يغرس شجرة من الشجرات ، ولكن ليس من المعقول وليس من الطبيعي أنه إذا غرس شجرة معينة ثم سهر عليها ، وغذاها ونماها ، وسقاها ، وأحيا ليالي متوالية في سبيلها ، ووقف في وهج الشمس ، وفي البرد القارس ليحرس منها هذه الشجرة ، ولتؤتي أكلها بعد حين ، ثم إذا آتت أكلها الطبيعية لامها ونزل عليها غضباً ، هذا شيء غير معقول وغير طبيعي ، لأن طبيعة الشجرة ، هي طبيعة الشجرة ، منذ خلق الله هذا الكون،

ومنذ خلق هذه الشجرة ، فشجرة الزيتون هي ستعطي ثمر الزيتون ، وشجرة الرمان ستعطي الرمان ، وهكذا.

إن من أعظم الأسباب في هذه الحيرة التي يعانيها الشباب المسلم بصفة خاصة ، هو التناقض في التوجيه ، والإعلام والتربية ، تناقض بين ما ورثوه وبين ما يعيشونه ، وبين ما يلقنونه تلقيناً ، وبين ما يطلبه منهم علماء الدين لهذا التناقض العجيب الذي سلط عليهم ومنوا به هو السر في هذه الحيرة ، هذه الحيرة المردية ، هنالك عقائد آمنوا بها كمسلم ولد في بيت إسلامي ، في أسرة إسلامية ، ونشأ على كثير من العقائد وتلقاها بوعي أو بغير وعي ، ثم إنه نشأ في بيئة دينية تؤمن بمبادىء الإسلام ، وقرأ التاريخ الإسلامي ـ إذا أكرم الله بذلك وتسنت له هذه الفرصة الكريمة ـ وكان سعيداً بوجوده في بيئة واعية دينية ، ثم سيق ـ ومعذرة إلى اختيار هذه الكلمة ، لأنه لا يزال في سن مبكرة وليس له خيار ـ إلى دور ثقافة يسمع فيها أولئك الأساتذة الذين يجهلهم ، لأنهم أصحاب اختصاص ، وأصحاب زعامة في كثير من العلوم ، كل ما ينقص ما أبرمته البيئة ، ويقتلع كل ما غرسته في قلبه وعقله التربية الإسلامية ، يسمع ويرى كل ما ينفي كل ذلك ، أو ما يقلل قيمته على الأقل ، فيقع في تناقض عجيب وفي صراع فكري عنيف ، وهذا الصراع الفكري يدوم معه إلى أن يشاء الله ، أو تحدث معجزة ، إنه حقاً في هذه البيئة التي نعيش فيها ، صراع من أدق أنواع الصراع ومن أصعب أنواعه ، الصراع بين القوى المتعارضة ، إنه قد يواجه الصراع في ساحة القتال ، ومدة ساعة القتال قصيرة وإن طالت ، ولكن هذا الصراع يعالجه دائماً ، إنه يعالجه في المسجد ، ويعالجه في المدرسة ، ويعالجه في البيت ، ويعالجه فيما بينه وبين نفسه ، إنه يتلقى من مؤسسة «الإعلام» ومؤسسة الصحافة بالمعنى العام ، ومن التلفزيون الذي جاء حديثاً إذاعات وأحاديث وبرامج تقضي على البقية الباقية من آثار التربية القديمة وتحدث فيه ثورة فكرية وقلقاً نفسياً ، والصحافة التي هي «صاحبة الجلالة» في نظر كثير من الناس تقدم إليه في أول النهار الغذاء الفاسد العفن ، والمواد المثيرة المهيجة للعواطف ، قبل أن يكسر الصفراء (على تعبير إخواننا السوريين) وقبل أن

يتلو شيئاً من القرآن ، فأول ما يقع عليه نظره ، صورة عارية لفتاة ، وعناوين مثيرة للغرائز ، أو مقالات مثيرة للشكوك مزعزعة للإيمان والثقة ، فيتلقى شبابنا هذا في رغبة ونهامة ، وفي شوق واستجابة ، إنه يقع في أيديهم كتب علمية لها عناوين هائلة ، وأسماء مرعبة ، صادرة من أناس آمنوا بفضلهم وعبقريتهم ، فيرون ما يشككهم في الدين ، يشككهم في التاريخ الإسلامي ، ويشككهم في مصادر الشريعة الإسلامية ، وحتى في مصادر اللغة والأدب الأولى ، ويشككهم في صلاحية هذه الأمة ، وفي خلود الرسالة التي يحملونها ، يشككهم في صلاحية اللغة العربية ، فيتلقون هذا المزيج العجيب ، وهذه الخميرة العجيبة ، من أفكار ومبادىء وإغراءات ، ومن نظريات علمية ، ويقعون من كل ذلك في حيرةٍ لا تعدلها حيرة ، فخليقٌ بكلٍّ هذا أن يوقع الإنسان ـ وإن كان ناضج الفكرة ، مختمر العقل ، حصيف الرأي ـ في حيرةٍ ، فكيف بالشباب الغضِّ الناعم؟! وكيف بهذه البراعم الناعمة التي لم تتفتح بعد؟! كيف يرجى منهم أن يقفوا أمام التيارات المتصارعة؟!

إنَّ مثل ذلك كمثل عجلةٍ أو مركبةٍ ، ركِّب فيها فرس في الأمام ، وركِّب فيها فرس في الوراء ، وكلاهما قويان ، فكما أنَّ هذه العجلة من المعقول جداً أن يكون ركابها في حيرة من أمرهم ، هذا يجرُّها إلى الأمام ، وهذا يجرها إلى الوراء ، فكذلك الشباب يتأرجحون في أرجوحةٍ يميناً وشمالاً .

إنَّ الأدب الذي لم يزل يواجهنا منذ خمسين سنة على الأقل من العواصم العربية والإسلامية الكبرى التي كان لها التوجيه ، وكانت لها الزعامة الفكرية والدينية ، غرس في قلوب الناشئة ، وفي قلوب الشباب ، بل في قلوب كثيرٍ من الكهول ، بذوراً من الشك والاضطراب ، تشككوا حتى في وجودهم ، تشككوا في كل ما تواتر واستفاض وأصبح من قبيل البديهيات. إنَّ هذه الكتب التي أريد من ورائها رزقٌ أو شهرة ، أو زعامةٌ فكرية ، أو هتافٌ وتصفيقٌ أخاذ ، إن هذه كلها غرست في قلوب شبابنا الشك والحيرة والتناقض ، فأنا لا أستغرب هذا الوضع ، وهذا هو السبب الرئيسي والسر في حيرة الشباب» .

النقاط الرئيسية الحاسمة لتغيير الحال والعودة بالأمة الإسلامية إلى دورها الإصلاحي والقيادي:

ومع تقييم أساليب الدعوة والعمل الإسلامي الذي تقوم به المنظمات والجماعات الإسلامية ، وتقدير جهودها ، لا مانع من الإشارة ـ ولو في غاية الإجمال ـ إلى النقاط التالية التي يجب التركيز عليها في الانتفاضة الإسلامية الجديدة ، وصيانة المجتمع الإسلامي من الجاهلية التي يتطلبها القرن الخامس عشر الهجري في ضوء الواقع ، وتجارب الماضي:

١ ـ تحريك الإيمان في نفوس الشعوب والجماهير المسلمة ، وإثارة الشعور الديني فيها ، فإنَّ تمسك هذه الشعوب والجماهير بالإسلام وتحمُّسها له هو السور القوي العالي الذي يعتمد عليه في بقاء هذه البلاد وكثيرٍ من القيادات وحكومات العالم الإسلامي في حظيرة الإسلام ، وهي مادة الإسلام ، ورأس ماله ، والخامات الكريمة التي تستخدم لأي غاية نبيلة ، وهي من أقوى المجموعات البشرية ، وأحسنها سلامة صدر ، وقوة عاطفة ، وإخلاص.

وذلك مع تحقيق الشروط ، والصفات التي تستحق بها هذه الشعوب النصر من الله ، والتغلب على المشكلات والانتصار على العدو ، كتصحيح العقيدة ، وإخلاص الدين لله ، والابتعاد عن كلِّ أنواع الشرك ، والعقائد الفاسدة ، والعادات الجاهلية ، والتقاليد غير الإسلامية ، وعن النفاق ، والتناقض بين العقائد ، والحياة ، والقول ، والعمل ، وسير الأمم القديمة التي استحقت بها عذاب الله وخذلانه ، وكذلك سيرة الأمم المعاصرة التي نسيت الله ، فأنساها أنفسها ، وقادت العالم إلى النار والدَّمار.

هذا مع تنمية الوعي الصحيح ، وتربيته ، والفهم للحقائق والقضايا ، والتمييز بين الصديق والعدو ، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر؛ حتى لا تتكرر مآسي وقوع هذه الشعوب فريسةً للهتافات الجاهلية ، والنعرات القومية ، أو العصبيات اللغوية ، والثقافية ، ولعبة القيادات الداهية ،

والمؤامرات الأجنبية ، فتذهب ضحية سذاجتها وضعفها في الوعي الديني والعقل الإيماني .

٢ ـ صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف ، وإخضاعها للتصورات العصرية الغربية ، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية ، والتجنب عن تفسير الإسلام تفسيراً سياسياً بحتاً ، والمغالاة في «تنظير الإسلام» ووضعه على مستوى الفلسفات العصرية والنظم الإنسانية ، لأنَّ هذه الحقائق الدينية ، هو أساس الإسلام الدائم ، والأصل الذي منه البداية ، وإليه النهاية ، وإليها كانت دعوة الأنبياء ، وفي سبيلها كان جهادهم وجهودهم ، وبها نزلت الصحف السماوية .

والحذر من كلِّ ما يقلل من قيمة الصلة بين الله والعبد والإيمان بالآخرة وأهميتها ، ويضعف في المسلم عاطفة امتثال أمر الله ، وطلب رضاه ، والإيمان والاحتساب، والقرب عند الله تعالى، وهذا التحول يفقد هذه الأمة شخصيتها وقوتها ، وقيمتها عند الله ، وكذلك الحذر من كلِّ ما يقلل من شناعة الوثنية العقائدية، والشرك الجلي ، والعادات ، والعبادات الجاهلية، والاكتفاء بمحاربة النظم والتشريعات والحكومات غير الإسلامية ، فإنَّ ذلك يتجه بهذا الدين عن منهجه القديم السماوي إلى المنهج الجديد السياسي .

٣ ـ تقوية الصلة الروحية والعاطفية بالنبي ﷺ والحبِّ العميق له ، الذي يؤثره على النفس ، والأهل ، والولد ، كما جاء في الحديث الصحيح ، والإيمان به كخاتم الرسل ، وإمام الكلِّ ، ومنير السبل ، والحذر من كلِّ العوامل والمؤثرات التي تسبب تجفيف منابع هذا الحبِّ ، وإضعافه على الأقل ، وتحدث جفافاً في الشعور ، وضعفاً في العمل بالسنة ، وتجرؤاً في القول ، وانصرافاً عن الافتخار به والولوع بدراسة سيرته ، وكلّ ما يحرك هذا الحب ويغذيه ، ولعل البلاد العربية ـ بفعل أحداث ودعوات قومية ـ أحوجُ إلى العناية بهذه النقطة ، وأحق بها من غيرها ، ففيها كانت البعثة المحمدية ، وفي لغتها نزل القرآن ونطق الرسول .

٤ ـ كذلك تجب العناية ببقاء الشعور بأهمية الجهاد في المفهوم القرآني

الشرعي الإسلامي ، وإحلاله المحلَّ اللائق من العقل والعاطفة ، ومن الإكبار والإجلال والغبطة على من اتصف به ومثل به دوراً بارزاً ، والحرص على تقليدهم ، والحنين إلى الشهادة ، فإنها ثروةٌ إيمانية ، تمتاز بها هذه الأمة من بين الأمم قديماً وحديثاً ، ومصدر خوارق ، وروائع من البطولة والفداء ، واقترن به نصر الله وتأييده في كلِّ زمان ومكان ، وتخلِّي الأمة عن هذه الطاقة والثروة خسارة لا تعوَّض بشيء ، وفراغ لا يملؤه شيء آخر من التوسع في العلم ، والتقدُّم في العقل والحضارة .

ويستعان في ذلك بكتبٍ تثير في العاملين الدعاة والمستمعين الحماس الديني وتشعل فيهم الحميةَ الدينية ، وترخص الحياة ومتعها وأمجادها في سبيل إعلاء كلمة الله .

٥ ـ إعادة الثقة في نفوس الطبقة المثقفة ، ومَنْ بيدهم القيادة الفكرية والتربوية ، والإعلامية في البلاد والحكومات الإسلامية بصلاحية الإسلام وقدرته ، لا على مسايرة العصر ، وتطوراته ، وتحقيق مطالبه ، بل على قيادة الركب البشري إلى الغاية المثلى ، وتجديف سفينة الحياة إلى برِّ السلام والسعادة ، وإنقاذ المجتمع البشري من الانهيار والانتحار؛ الذي تعرَّض لهما تحت القيادة الغربية الخرقاء ، وأنه ليس «بطارية» قد نفدت شحنتها ، أو ذبالة قد نفد زيتها ، واحترقت فتيلتها ، بل هو الرسالة العالمية الخالدة ، وسفينة النجاة التي هي كسفينة نوح ، لا ينجو إلا من ركبها .

إن ضعف هذه الثقة ، أو فقدها هو داءُ هذه الطبقة المثقفة الناشئة في أحضان الثقافة الغربية ، أو تحت ضغطها ، وهو المسؤول عن كل تصرفاتها ، وسبب الردة الفكرية والحضارية والتشريعية ، والتي تكتسح اليوم العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وتعاني منه الشعوب المسلمة ـ التي لا تفهم إلا لغة الإيمان والقرآن ، ولا تتحمس إلا للإسلام ـ وسبب حدوث هذا الخليج العميق ، الواسع بين القيادات والحكومات ، والشعوب والجماهير ، وسبب القلق الذي يساور النفوس ، ويستهلك القوى والطاقات فيما لا يعود على الأمة والبلاد بفائدة .

٦ ـ قلب نظام التربية والتعليم المستورد من الغرب المنتشر السائد في العالم الإسلامي رأساً على عقب ، وصوغه صوغاً إسلامياً جديداً ، يتفق مع شخصية هذه الشعوب المسلمة ، وعقيدتها ، ورسالتها ، وقامتها ، وقيمتها ، لا يبعد هذا الصوغ عنه عناصر الإلحاد أو المادية ، وتصور هذا الكون تصوراً مادياً ، والعلوم وحدات متناثرة متناقضة ، والطبيعة حرة قاهرة ، والتاريخ حوادث غير مرتبطة خاضعة لقلقٍ وصراعٍ دائمين ، وهكذا ، ولا يصلحه إصلاحاً جزئياً فحسب ، بل يبتكر ابتكاراً جذرياً مهما استنفد من الطاقات ، وكلَّف من الوسائل والنبوغ والعبقريات ، وبغير ذلك لا يقوم العالم الإسلامي على قدميه ، وبرأسه ، وعقله ، وإرادته وتفكيره ، ولا تدار الحكومات ، والأجهزة الإدارية ، والمرافق العامة برجال مؤمنين أقوياء أمناء مخلصين ، يطبقون التعاليم الإسلامية في الحكومة والإدارة ، والتربية والإعلام ، والمجتمع ، فتمثل الحياة الإسلامية بجمالها وكمالها ، وينشأ المجتمع الإسلامي بسماته وخصائصه .

٧ ـ حركة علمية قوية دولية ، تُعَرِّف الطبقة المثقفة الجديدة ، بذخائر الإسلام العلمية وتراثه المجيد ، وتنفخ في العلوم الإسلامية روحاً من جديد ، وتثبت للعالم المتمدن ، أن الفقه الإسلامي وقانونه من أرقى القوانين وأوسعها في العالم ، وهو يقوم على أساس من المبادىء الخالدة التي لن تبلى ولن تفقد صلاحيتها في يوم من الأيام ، هي تصلح لمسايرة الحياة الإنسانية في كل زمان ومكان ، وتغنيها عن كل قانون وضعته أيدي الناس .

٨ ـ الحضارة عميقة الجذور في أعماق النفس الإنسانية ، وفي مشاعر الأمة وأحاسيسها ، وتجريد أمة عن حضارتها الخاصة ـ التي نشأت تحت ظلال دينها وتعاليم شريعتها ، وكان في صياغتها نصيب كبير للذوق الديني الخاص ـ وطابع هذه الأمة الخاص ، مرادف لعزلها عن الحياة ، وتحديدها في إطار العقيدة والعبادة والطقوس الدينية الضيق وفصل حاضرها عن ماضيها ، فلا بد للحكومات الإسلامية والمجتمعات الإسلامية من التخطيط

المدني الإسلامي المستقل ، البعيد عن تقليد الغرب الأعمى ، والارتجالية ، ومركب النقص ، ولا بد من تمثيل الحضارة الإسلامية في عواصمها ، وفي دوائرها وفي بيوتها ، وفي مجتمعاتها ، وفي فنادقها ومنتزهاتها ، وإلى حد في مكاتبها وطائراتها ، وسفاراتها ، وبذلك لا يعرض العالم الإسلامي نموذجاً للحياة الإسلامية والمثل الإسلامية فحسب ، بل يقوم بدعوة صامتة للإسلام.

٩ ـ معاملة الحضارة الغربية ـ بعلومها ونظرياتها واكتشافاتها وطاقاتها ـ كمواد خام يصوغ منها قادة الفكر ، وولاة الأمور في العالم الإسلامي ، حضارة قوية عصرية ، مؤسسة على الإيمان ، والأخلاق والتقوى والرحمة والعدل في جانب ، على القوة والإنتاج والرفاهية وحب الابتكار في جانب آخر ، يأخذون من علوم الغرب ما تفتقر إليه أمتهم وبلادهم ، وما ينفع عملياً ، وما ليس عليه طابع غرب وشرق ، يستغنون عن غيره ، ويعاملون الغرب كزميل وقرين ، إن كانوا في حاجة إلى أن يتعلموا من الغرب كثيراً ، فهو في حاجة إلى أن يتعلم منهم كثيراً ، وربما كان ما يتعلمه الغرب منهم ، أفضل مما يتعلمونه هم من الغرب.

١٠ ـ إقناع الحكومات المسلمة ـ المسالمة للإسلام ـ بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية ، وتهيئة الجو المناسب ، المساعدة على ذلك ، وما يستتبع هذا الأمر من سعادة وبركة ونصر من الله ، وسعي لتكوين قيادة موحدة تقوم على مبدأ الشورى الإسلامي ، والتعاون على البر والتقوى ـ والشعور بالتقصير على الأقل ـ بعدم وجود الإمامة العامة ، أو الخلافة الإسلامية التي كلف بها المسلمون ، وسيحاسبون عليها.

١١ ـ أما البلاد غير الإسلامية فالقيام بالدعوة إلى الإسلام والتعريف به ، بأساليب حكيمة تتفق مع طبيعة الإسلام وروح العصر ، أما البلاد التي فيها الأقليات المسلمة ، فالاهتمام بتمثيل الإسلام ، والحياة الإسلامية تمثيلاً يلفت إليه الأنظار ، ويستهوي القلوب ، والقيام بالقيادة الخلقية والروحية ، وقبول مسؤولية إنقاذ البلاد والمجتمع من الانهيار الخلقي ،

والخواء الروحي ، والتدهور الاجتماعي الذي تعرضت له هذه البلاد ، حكومة وشعباً ، حتى تهيأ للإسلام أن يثبت جدارته وحاجة البلاد إليه ، ويتهيأ للمسلمين أن يقوموا بدورهم البلاغي والقيادي في هذه البلاد.

الأمل في القادة المخلصين الجادين الواقعيين :

إنَّ التاريخ شاخصٌ ببصره في مطلع هذا القرن إلى من يحقق مطالب العصر والإسلام التي شرحناها ، ويقوم بهذه التجارب الجريئة الحكيمة ، والمؤرخ ممسك قلمه يسطر به سطور الثناء والإجلال ، ويقلده الزعامة الحقيقية في العالم الإسلامي ، والعبقرية ، والعصامية في التاريخ الإسلامي.

إنَّ الحضارة الغربية أشرفت على الانهيار ، وآذنت بالأفول والزوال ، إنها لا تعيش ، ولا تواصل سيرها بمجرد قوتها الذاتية ، وجدارتها للحياة والبقاء ، بل لأنها ليست في هذا المجال ـ من تعاسة الحظ ـ حضارةٌ تحل محلها وتسد فراغها. إنَّ جميع الحضارات المعاصرة ، والقيادات الحديثة اليوم لا تعدو نوعين ، إما هي مقلدةٌ جامدةٌ ، وصورةٌ شاحبةٌ للحضارة الغربية ، وإما هي ضعيفةٌ ، هزيلةٌ ، مريضةٌ ، سقيمةٌ ، منسحبةٌ ، منهزمةٌ ، لا تستطيع أن تواجه هذه الحضارة ، أو تقف معها جنباً إلى جنب ، فإذا قامت هذه الدول الإسلامية ، والعالم الإسلامي بصورة عامة لسدِّ هذا الفراغ الذي سيحدث بعد نهاية الحضارة الغربية ، وانسحابها عن مسرح القيادة ، ردَّ إليه منصب قيادة الجنس البشري ، وتوجيه الشعوب المعاصرة مرة ثانية ، المنصب الذي لا يفوض إلا إلى أمة فتية أبية ، تحمل كلَّ عناصر البقاء والاستمرار ، والتقدم والازدهار ، سنة الله في الأرض ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

* * *

حـاجـة الـعالـم إلـى مـجتمـع إسلامـيٍّ مـثالـيٍّ أفضـل

هذه المحاضرة ارتجلها العلامة الندوي في حفلة عامة ، نظّمها فضيلة الشيخ عبد الله علي بصفر يوم ٢٢/ رجب ١٤١٠ هـ الموافق ١٧/ فبراير ١٩٩٠ م في جـدّة .

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النبيين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإنه يشرفني ويسعدني أكثر مما يسرني أن أتحدَّث إلى هذه المجموعة الطيبة ، إلى هذه المجموعة المختارة، والصفوة من العلماء والمشايخ والموجِّهين للمسلمين ، والقادة الدينيين ، إنها كذلك مسؤوليةٌ كبيرةٌ ضخمةٌ ينوء الأقوياء بحملها ، فإنَّ الحديث إلى هذه المجموعة المختارة التي هي موضع ثقة المسلمين ، وموضع حبِّ المسلمين ، المجموعة التي تلقى آذاناً صاغيةً ، وقلوباً واعيةً على منابر المساجد ، وفي المناسبات الأخرى ، لهو بمثابة الحديث إلى آلاف من المسلمين.

إنَّ الإنسان إذا خيِّر بين أن يتحدث إلى الجماهير الحاشدة مباشرةً أو على إذاعة من الإذاعات؛ لفضل أن يتحدث على الإذاعة ،لأنَّ الإذاعة تبلغ صوته ، وتبلغ رسالته إلى آلاف من المستمعين بل إلى الملايين في بعض الأحيان ، فحديثي إلى هذه المجموعة الموقرة في الحقيقة حديثٌ على الإذاعة ، ولكنها ليست إذاعةً صناعية ، وليست إذاعةً حكومية ، وإنما هي إذاعةٌ دعويةٌ ، وإذاعةٌ توجيهية ، وإذاعةٌ قيادية ، وإذاعةٌ روحية.

إنِّي أحار في نفس الوقت بماذا أتحدَّث إليكم؟ وأنتم ـ الحمد لله ـ ممَّن يستفاد منهم ، ويتتلمذ عليهم ، وسيدور حديثي حول حاجة اليوم الكبرى في ضوء دراستي وفي ضوء سياحاتي وجولاتي ، ليس في المنطقة الشرقية الإسلامية فقط ، بل في المنطقة الغربية ، والمركز الحضاري ، والمركز القيادي في العالم ، كأمريكا ، وأوربا ، وكالشرق غير الإسلامي كشبه القارة الهندية ، وما جاورها من البلاد.

إنَّ الحاجة الكبرى اليوم أيها السادة: هي وجود مجتمع مثالي نموذجي برضاء الله تبارك وتعالى، ويكون في صالح الإنسانية، ويكون نموذجاً بل مرآة للتعاليم الإسلامية في العقائد أولاً، ثم في الأخلاق، والمعاملات، وشُعبَ الحياة، هذا المجتمع المفقود، لا أقول معدومٌ، وإني أعيذ نفسي أن أقول هذه الكلمة، ولكنه مجتمعٌ مطلوب في الواقع، ومجتمعٌ محتاجٌ إليه، إنَّه لا يغير وضع العالم في هذا الوقت شيء مثل ما يغير وجود هذا المجتمع المثالي الإسلامي، وإنَّ الإسلام ما شقَّ طريقه إلى الأمام كما تعرفونه جميعاً ـ ولا أقول: إني أزيد في معلوماتكم ـ إنَّ الإسلام ما شقَّ طريقه إلى الأمام، وما فتح الله له هذه الفتوح العظيمة التي لا تزال موضع دهشة المؤرخين، والمتبصرين، والناقدين، ولم يستطع الإسلام أن ينشىء نمطاً جديداً من الحياة، وأن يجلب الشعوب والأمم، والعقول، والقلوب، والنفوس والأرواح، في كمٍّ وكيف ليس لهما مثالٌ في التاريخ الإنساني، لم يستطع الإسلام أن ينجز أو يحقق هذا المطلوب، وأن يصل إلى ما وصل إليه في الماضي، ولا تزال له آثارٌ باقيةٌ ليس بتعاليمه وتوجيهاته فحسب، ولا بمبادئه ومثله، بل المجتمع الحيُّ الذي يسعى على القدم، ويتكلم باللسان، ويعمل باليد، ويشعر بوجوده في الحياة في الخارج.

لقد كان هذا المجتمع مفقوداً بل كان معدوماً منذ قرون بل منذ آلاف من السنين، وكانت التعاليم الخلقية في الصحف السماوية ـ إذا كانت هذه الصحف السماوية على أصلها، وإلا ضاع منها الكثير، وحُرِّف منها الكثير ـ ولكن لم يكن يوجد مجتمع يتنفس فيه الإنسان، ويشمُّ فيه رائحة الإيمان، ويشعر بالنفس الإيماني والشعور الإيماني، وتملأ جوارحه، وتغمر قلوبه نفحاتٌ ربانية، نفحات روحانية، يشعر في ذلك بالسعادة الحقيقية، ويشعر بأنه انتقل من الجحيم إلى الجنة، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن العذاب إلى النعيم.

هذا المجتمع الذي أوجده محمدٌ ﷺ، وكان مركزه الأول في المدينة

المنورة ، ثم امتدَّ هذا المجتمع حتَّى تخطَّى الحدود ، وبلغ إلى أقصى الأرض ، هذا المجتمع هو الذي جلب القلوب والنفوس إليه ، وكان أكبر برهان ، وإنَّ ألف برهانٍ في جانب ، وألف دلائل عقلية في جانب ، ووجود هذا المجتمع ووجود هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يمثلون هذا المجتمع كان كافياً ، كان الإنسان إذا دخل في هذا المجتمع انجذب إلى هذا المجتمع بقلبه وقالبه ، وعشق هذا المجتمع وما أحب أن يفارق هذا المجتمع ، وأراد أن يعيش فيه ، ويموت فيه ، يروى عن سيدنا الإمام ابن شهاب الزهري ، وهو من كبار التابعين ، وممن عليه الاعتماد في رواية الحديث ، يقول :

«لما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب أوزارها ، وأمن الناس ، وكلَّم الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا ، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يُكلَّم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر»[1] .

وذلك في فترة ما بين صلح الحديبية وفتح مكة ، لأنه قد سمح لهم وتيسر لهم لقاء أقاربهم ، وقضاء بعض الوقت معهم ، ورؤيتهم عن كثب ، وقضاء النهار معهم ، فرأوا أنهم نمطٌ آخر من الإنسانية ، ونموذجٌ آخر ، لا يكذبون ، ولا يسبُّون ، ولا يغضبون غضباً مفرطاً ، ويؤثرون على أنفسهم وأبنائهم ولو كان بهم خصاصة ، ويذكرون الله قياماً ، وقعوداً ، ويحتسبون في كلِّ عمل ، لا يعملون عملاً إلا بإيمان واحتساب ، كأنَّ بيوتهم قطعةٌ من الجنة ، قطعةٌ من جنة الفردوس ، لا جدال فيه ، ولا سباب فيه ، ولا غيبة فيه ، ولا حسد فيه ، ولا مراء فيه ، فكانوا يسلمون ، يأتي الواحد إلى خاله ، ويأتي الثاني إلى عمه ، ويأتي الواحد إلى ابن أخته ، وإلى ابن عمه كما جرت العادة ، لأنه قد أزيلت تلك السدود التي كانت بين أبناء قريش ، بين الكفار من قريش ، وبين المسلمين ، وأمنوا على نفوسهم وأرواحهم ، وجاؤوا يزورون إخوانهم وأقاربهم .

وإذا قضوا معهم أياماً ، كانوا يفكرون ، فقد رزقهم الله تعالى سلامة

---

(١) سيرة ابن هشام ١ ق٢ ص٣٢٢ .

الفكر ، إنهم استعرضوا الوضع ، فقالوا: نحن من نسلٍ واحد ، من ذرِّيةٍ واحدة ، نحن بنو عدنان ، نحن بنو قريش ، ثم لغتنا واحدة ، يتكلَّمون بالعربية ، ونحن نتكلم بالعربية ، ثم إنَّ غذاءهم واحد يأكلون كلَّ ما نأكل ونأكل ما يأكلون ، ثم إنَّ لباسنا واحد ، لأنَّ العرب كانوا يلبسون لباساً واحداً وزيّاً واحداً ، من أين جاء هذا الفرق ، من أين جاء هذا الفرق الهائل ، هذا الفرق المدهش ، من أين وقعت هذه الفجوة العميقة بين حياتنا وحياتهم ، هؤلاء كأنهم ملائكة ، ونحن بشر ، إنهم أسلموا بعد ذلك ، وعلى كلِّ حال هم من قبيلة رسول الله ﷺ ، فكانوا يرون هذا الفرق الهائل فيفكرون؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى رزقهم سلامة الفكر والقدرة على الموازنة والاستعراض الصحيح ، فقالوا: إنما جاء هذا عن طريق الإسلام ، لماذا لا نسلم؟ فأسلم هذا العدد الكبير؛ لأنهم رأوا الإسلام بأعينهم يسعى على قدميه ، ويتكلَّم بلسانه ، ويلمسونه لمساً؛ لأنَّ القضية ليست قضيةً فكرية ، أو قضية مقارنةٍ بين الديانات ، أو قضية عقلية قياسية ، بل أصبحت قضيةً عينية ، قضيةً مشاهدة.

أيها السادة! إننا الآن في حاجة إلى مثل هذا المجتمع ، وقد قرأتم في التاريخ: أنَّ هرقل إمبراطور الروم مرَّةً سأل أحد رجال قواته ، أو أحد قادة جيشه ، فقال: يا فلان! بالله أخبرني أنا أرسل جيشاً بعد جيش ، وكتيبةً إثر كتيبة ، هذا الجيش الذي هزم الإيرانيين في الأمس القريب ، ودمَّرهم ، وكسر شوكهم ، وتغلغل في بلادهم ، كيف يعجز هذا الجيش عن أن يتغلب على جيش المسلمين الذين ما مارسوا الحروب ، ولم تكن لهم تجارب حربية مثل ما كانت للإيرانيين! كانت إيران إمبراطوريةً راقيةً من أرقى الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ ، إنهم كانوا يعرفون الأساليب الحربية كما نعرف أو أحسن منا ، كيف استطعنا أن نهزمهم ، ولا نستطيع أن نهزم هؤلاء العرب البدو ، سكّان الخيام ، ورعاة الإبل؟ كيف لا يستطيع هؤلاء القادة المحنكون الذين هزموا إيران بالأمس أن يتغلبوا عليهم؟ صفهم لي ، قال: أو تعفيني يا جلالة الملك؟! قال: لا! صفهم لي ، قال: إذاً تسامحني ، فقال له: قل ما شئت. قال: هؤلاء بالليل رهبان ، وبالنهار فرسان ، هم

عباد ليل ، وأحلاس خيل ، إذا دخلت في مسجدٍ في الليل لم تستطع أن تسمع صوتهم لدوي ما يقرؤونه من القرآن ، لهم دوي كدوي النحل ، ولا يأخذون شيئاً من دكان إلا إذا أدَّوا ثمنه ، وإذا سرق ابن أميرهم قطعوا يده ، فقال: والله إن صدقت فإنَّهم سيصلون إلى موضع قدمي هاتين! وهكذا كان.

هذا المجتمع هو حاجة الإنسانية الآن ، لقد ارتقت المدنية كما تعرفون إنها وصلت إلى آخر نقطة ، إلى أوجها ، استطاع الإنسان اليوم أن يسبح في الجوِّ ، استطاع أن يصل إلى القمر ، وكما يقول الدكتور محمد إقبال: «إن الذي أسر أشعة الشمس ، ووصل إلى القمر ، لم يعد يحسن أن يمشي على الأرض كإنسان» وكما قال عالمٌ هندي لفيلسوف بريطاني ، كان هذا البريطاني الإنجليزي يتبجح ، ويذكر رقي المدنية ، والفتوح التي حققتها المدنية الغربية والصناعة الغربية ، قال: إننا قطعنا رمالاً طويلة ، أو عويصة ، وإننا قطعنا في كذا من الساعات في السيارات ، ونحن نسير من مكان إلى مكان بالرحلة الجوية بالطائرة في كذا من الوقت ، ونحن فعلنا كذا وكذا ، فقال هذا العالم الهندي: نعم ، إنكم استطعتم أن تطيروا في الجو كالطير ، واستطعتم أن تسبحوا في الماء كالسمك ، ولكنكم لا تحسنون المشي على الأرض كإنسان ، فالمدنية الغربية في الحقيقة متناقضة ، إنها وصلت إلى أرقى مدى من الصناعة ، ومن الفتوح العلمية ، والفتوح الاكتشافية ، ولكنها أفلست في الإنسانية ، أفلست في البشرية.

نحن الآن في حاجةٍ إلى أن نحاول أن ننشىء مجتمعاً نموذجياً مثالياً في بلدٍ من بلاد الإسلام ، وإني أقول لكم ، وأؤكد لكم: إنه إذا وجد هذا المجتمع لجاء الجوابون ، لجاء التواقون ، لا أقول الجوابون أقول التواقون ، لرؤية هذه المدنية من أقاصي الدنيا ، ليقضوا يوماً واحداً في هذا المجتمع ، إنَّهم سئموا الحياة الآلية فعلاً ، إنهم يملكون العالم بالقوة السياسية ، والحربية ، والمالية ، ولكنَّهم قد سئموا هذه المدنية ، وإنهم في شوق إلى أن يجدوا مجتمعاً سليماً ، مجتمعاً صالحاً ، مجتمعاً مثالياً مجتمعاً خلقياً ، فإذا سمعوا أنَّ في أي جهةٍ من جهات الشرق الإسلامي ،

في أي مكانٍ من أرض الله وُجد هذا المجتمع لجابوا الآفاق ، وقاموا بالرحلات الطويلة الباهظة لرؤية هذا المجتمع ، نحن في أشد الحاجة لننشىء هذا المجتمع ، وهذا لا يكون إلا إذا كان عن طريق المنابر في المساجد ، وعن طريق التوجيهات التربوية ، وعن طريق الدروس الدينية؛ لأنَّ المسلمين الآن لا يزالون على خيرٍ ما داموا مرتبطين بالعلماء ، وبالتوجيه الديني ، وبالدروس الدينية ، فيجب أن نزيل ذلك التناقض الذي حدث في حياة المسلمين.

لقد أصبحت حياة المسلمين وحداتٍ متنافرة ، بل في بعض الأحيان وحداتٍ متناقضة ، وحدة دينية فيها صلاةٌ وصيام ، ولكنْ فسادٌ في المعاملات ، وضعفٌ في الأخلاق ، وإخلالٌ بالواجبات والفرائض ، وهكذا ، وإذا كانت هناك بيئةٌ صالحةٌ في ظلال الدين ، فهنالك حياةٌ غير صالحة في البيوتات ، الحياة العائلية ليست حياةً مثالية دينية ، يجب أن تجمع هذه الوحدات كلُّها ، فتكون حياةُ المسلمين وحدةً واحدةً ، لا مقسمة موزعةً من وحدات كثيرة ، فيقال: إذا أردتم أن تأخذوا صورةً مشرقة للإسلام والمسلمين ، فعليكم بالمساجد ، ومن يدخل في المساجد من غير المسلمين؟ .

أذكر لكم بهذه المناسبة مثالاً من تجربتنا في الهند ، بلد الأغلبية غير الإسلامية ، قمنا في الهند بحركة تسمى «حركة رسالة الإنسانية» نخاطب بها المسلمين ونوجهها إلى غير المسلمين أيضاً ، فندعو إلى الأخلاق الصالحة ، والحياة الشرعية النزيهة ، وإلى التسامي عن عبادة المادة ، وعبادة الأموال ، والرشا ، والخيانات ، والجنايات ، وندعو إلى حياةٍ شريفةٍ نزيهةٍ خُلُقية ، وبذلك أقول للمسلمين: تستطيعون أن تتولوا قيادة هذه البلاد؛ لأن هذه البلاد في سبيل انتحار جماعي ، وفي سبيل انهيار مفزع ، ليس المجتمع الهندي وحده ، بل كل مجتمع ، أقول لكم عن تجربة ومشاهدة: كل مجتمعٍ في العالم يسعى بسرعة إلى الانهيار الجماعي ، والانتحار الجماعي ، أنا أقول لهم: إنكم إذا كنتم ممثِّلين للإسلام وللأخلاق الإسلامية وللحياة الإسلامية فتستطيعون أن تنقذوا هذه البلاد ،

ثم الله سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾[الأنبياء: ١٠٥] فأنتم بذلك تستطيعون أن يكرمكم الله مرةً ثانية بقيادة البلاد ، وقد لفتُّ أنظار المسلمين إلى مواضع الضعف في حياة المسلمين أيضاً ، مثلاً في المعاملات ، في الأخلاق ، في التجارات ، ومثلاً في الوظائف ، وفي أداء الواجب ، وقلتُ لهم: أصلحوا أنفسكم أولاً ، ثم قودوا البلاد ، ثم تسلَّموا مسؤولية إنقاذ البلاد ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣] ليس النبيُّ ﷺ على الأرض بيننا الآن ، ولكن أمته لا تزال ، لا يسوغ أن تنهار بلادٌ ، وأن تسقط بلادٌ ، وأن تكون فريسةَ الدَّمار والانهيار والانتحار مع وجود الأمة الإسلامية فيها ، فأنتم المسؤولون أمام الله ، ومسؤولون في التاريخ كيف انهارت هذه البلاد؟ وكيف غرقت هذه السفينة وأنتم من ركابها ؟ كيف تغرق سفينة وأنتم ركابها؟ إنكم تستطيعون أن تجدفوا هذه السفينة إلى النجاة ما دمتم على السفينة ، مع زملائكم الركاب الآخرين، فأنتم تجدفون هذه السفينة ، فقودوا البلاد قيادةً خلقيةً ، قيادةً إنسانيةً. إنَّ الناس ينظرون إليكم بنظرة إجلال وتقدير ، أما المنافسات السياسية فقط ، وأما الحروب الطائفية فقط ، وأما الاصطدامات المادية فقط ، وأما التكالب على المادة ، هذا لا يرفعكم ، ولا يشرِّف قدركم ، ولا يرفع منزلتكم في عيون الآخرين ، أنتم إذا تجردتم عن الأنانية ، وإذا تجردتم عن الشهوانية ، وإذا تجردتم عن عبادة المادة ، وإذا رثيتم للإنسان مهما كان ، هنالك يكرمكم أهل البلاد ، وينظرون إليكم كالمنقذين.

إنني ألقيت كلمةً في مناسبةٍ في ملتقى كبيرٍ في إحدى مدن الهند الكبيرة ، عاصمة من عواصم الولايات ، وحذَّرتُ الناس من الأخطار التي تتحدَّى البلاد ، فقلت:

إنَّ المجتمع الهندي يمشي بخطىً سريعةٍ إلى الدَّمار ، والبوار من أجل انتشار الرشوة ، وعبادة المادة ، وصوَّرتُ لهم وضع البلاد ، فجاء زعيم من زعماء الطوائف وأراد مقابلتي ، فخشيت أن يوجه إليَّ أسئلة يناقشني ،

ولكن بعد ذلك سمحت فجاء ، وقال: إنني قد سمعت كلمتكم بالأمس ، فوصلت إلى نتيجةٍ ، وهي أنَّكم تهتمون بهذه البلاد أكثر منا ، أنتم تهتمون بهذه البلاد ، وأن وضع البلاد يقلقكم أكثر مما يقلقنا! فقلت: هذه والله شهادة لها قيمة! هكذا يجب أن يكون المسلمون في هذه البلاد حتى ينظر إليهم مواطنوهم كمنقذين للبلاد ، ويرجعون إليهم كما يرجع الإنسان الغريق إلى سفينة.

هكذا يجب أن يكون في البلاد الإسلامية وخصوصاً في مركز الإسلام مجتمعٌ ممثل ، مجتمعٌ حيٌّ متحرك ، مجتمعٌ يمكن أن يُلمس باليد ، ويُشعر به في جميع مرافق الحياة، في جميع نواحي الحياة، هذا هو الشيء الذي يتعطّش إليه العالم كله ، غربياً كان أم شرقياً ، إنه موزع بين المراكز من القيادات الغربية والشرقية ، لكنه ليس في حاجةٍ أكثر من حاجته إلى وجود مجتمعٍ صالحٍ ، مجتمعٍ مثاليٍّ نموذجيٍّ ، يطبق تعاليم الإسلام ، ويفكر في مصير الإنسانية ، يتألَّم لما يرى حوله من أزماتٍ ، ومحنٍ ، وإهاناتٍ للإنسانية ، ونسيانٍ للخالق ، واستعباد الإنسان للإنسان ، هذا المجتمع هو حاجة العصر الكبرى ، وأنتم تستطيعون أن تنشئوا هذا المجتمع أولاً في هذه البلاد المقدسة التي فيها نشأ ، وهنا ولد ، وهنا شبَّ ، وهنا ترعرع ، ومن هنا خرج ، وفتح الآفاق ، وفتح العالم ، فالمسؤولية ترجع إليكم أولاً ، وإن شاء الله نترسم خطاكم ، ونمشي خلفكم. والعالم الآن ، أقول لكم بصراحة: العالم الآن؛ لا يقيم وزناً كبيراً للرفاهية وللرخاء وللثراء الفاحش ولوسائل المعيشة لما يعود على أهل البلاد بالرخاء والثراء ، العالم لا يهابه ، ولا يقيم له وزناً كبيراً ، إنما يقيم وزناً للمثل ، والمبادىء ، والأخلاق ، والمعاملات ، وأسلوب الحياة ، ونمط الحياة.

أنا لا أكفر بالنعمة ، بل أشكر الله تعالى على ما أنعم الله به علينا من وجود آلات الترفيه ، ومن آلات المدنية ، من كثرة السيارات ومن الأنوار المنيرة للبلد ومن هذا المستوى الرفيع من المدنية ، أقول: هذا كله من فضل الله ، أنا لا أكفر بنعم الله ، ولكن العالم لا يقيم له وزناً كبيراً ، إنما يقيم الوزن الكبير للأخلاق ، وللمجتمع المثالي ، الإنسان إذا دخل في هذا

البلد سمع اسم الله تبارك وتعالى ، رأى الناس يخشعون في المساجد ، رأى الناس يخدم بعضهم بعضاً ، إنَّ القادمين من الغرب لا يدهشون إذا دخلوا مطاعمنا وفنادقنا ، وعندهم أكبر من هذه الفنادق ومن هذه المنازل ، ولكنهم هم يجلّون ، ويقدرون ، وقد يخشعون في بعض الأحيان إذا رأوا هنالك حياة صادقةً ، بسيطةً بعيدةً عن التكلفات ، وعن التنميق ، وعن التنافس المادي ، وعن المظاهر. الحقائق غالبةٌ على المظاهر ، أما إذا كانت المظاهر غالبة على الحقائق، فهم الذين اخترعوا هذه المظاهر ، ومنهم استوردنا هذه المظاهر ، وهم أهل البضاعة ، ثم لا يقيمون لها وزناً كبيراً ، أما إذا دخلوا هنا ورأوا السكينة تغشى المدينة كلها ، يعني قلوبهم تشعرهم بأنها تشعر بسكينة ، تشعر بالخشوع لله تبارك وتعالى ، تشعر بالاحترام للإنسانية ، تشعر بالتواضع وبالبساطة ، هنالك يخضعون ويدخلون في الإسلام أفواجاً ، وهكذا دخل الناس في الإسلام أفواجاً ، رأوا حياةً بعيدةً عن مخيلاتهم ، وبعيدةً عن تجاربهم كلَّ البعد ، هؤلاء بشرٌ مثلنا ، لا فرق بيننا وبينهم ، يجوعون ، ويعطشون ، ويمرضون ، ويصحّون ، هم خاضعون للنواميس البشرية ، ولكنهم كأنَّ هنالك عالماً آخر أمامهم ، تعرفون أنَّ رجلاً أسلم ، وهو جبار بن سلمى ، وكان مستبعداً أن يسلم ، فقالوا له: كيف أسلمت؟ قال: والله إنَّ قصة إسلامي أنني واجهت مسلماً ، اسمه حرام بن ملحان طعنته برمح ، ودخل هذا الرمح من جانب ، وخرج من جانب آخر ، فلما خرَّ صريعاً ، قال : «فزت ورب الكعبة»[(١)]! قلت ما معنى هذا؟ هل أنا في حلم أم هذا كاذب ، والإنسان لا يكذب عند الموت ، فإذا كان يكذب في بعض الأحيان فعند الموت لا يكذب ، وما جرب على العرب الكذب ، ولا النفاق ، إنما كان النفاق من خصائص المدينة جاء عن طريق اليهود ، هكذا كانوا يفسرون أنَّ الآيات التي نزلت في النفاق ، وفي ذم المنافقين كلها مدنية؛ لأن النفاق ما كان يوجد في مكة ، فالطبيعة العربية ضد النفاق ، وضد الكذب ، إنه استغرب وحار: طعنت

(١) راجع البداية والنهاية ج٤ ص٧٠ ـ ٧٢ ، دار الفكر ، بيروت.

رجلاً برمح ، ودخل الرمح من جانب وخرج من جانب ، وخر صريعاً يشحط في دمه ، ويلفظ نفسه الأخير ، إنه أيقن أنَّ زوجه ستكون أرملة ، وأبناءه سيكونون أيتاماً ، إنَّه حُرِم كلَّ لذة في الدنيا ، فكيف يقول: «فزت ورب الكعبة!» ما هذا الفوز؟ قال له: فسر لي السبب ، ومعنى الكلمة التي قالها ، فقيل: إنه كان يشير إلى الجنة ، إنَّه يعتقد ، ويؤمن بأنه إذا قُتل في سبيل الله فإنه يدخل الجنة ، فإنه يكون مستحضراً لهذه الجنة ، ناظراً إليها ، فقال: فزت ورب الكعبةَ ، فأسلمت ، يقول: هذه قصة إسلامي عرفت أن وراء هذه المظاهر عالماً آخر ، أنَّ وراء هذه الحقائق التي آمنا بها وسلمناها ، بنينا حياتنا كلها عليها ، أنَّ وراء هذه الحقيقة حقيقة أكبر منها ، وهي حقيقة الإيمان بالله تبارك وتعالى ، وحقيقة وجود الله تعالى ، والجنة ، والنار ، والثواب ، والعقاب ، فكان هذا سبب إسلامي».

هذا الذي يحتاج إليه العالم الآن ، تجارب جديدة ، مشاهداتٌ جديدة ، مشاعر جديدة ، ومغامراتٌ جديدة ، اكتشافاتٌ جديدة ، أما هذه المظاهر فمهما تضخمت المدنية ، ومهما بلغت أوجها ، وبلغت إلى ما لا نستطيع أن نتصوره الآن ، يمكن أن تصل المدنية إلى أكبر قمَّةٍ بعد قليل ، ولكن هذا لا يدهش الإنسان الغربي ، ولا الإنسان المادِّيّ ، ولا الإنسان غير المسلم ، الهندوسي مثلاً ، والمجوسي ، والنصراني ، إنما تحمله على التفكير من جديد ، وعلى استئناف النظر ، وعلى قلب التصورات والمسلمات ، هو شيءٌ ما كان يحلم به ، وما كان يصدقه ، وهو أنَّ الرجل الذي هو على عتبة الموت ، بل قد عانقه الموت ، يقول: فزت ورب الكعبة! ما معنى الفوز؟ إنهم عندهم مقاييس معدودة للفوز ، ما هو الفوز عندهم؟ تملك أكبر قدر من المال ، تملك أكبر قدر من القوة السياسية ، اعتلاء كرسي للحكم ، النفوذ في العالم الخارجي ، الشهرة العالمية ، الشرف والكرم ، حفلات تكريمية ، ما كان عندهم قياس ، ولا افتراض لمثل هذا الفوز ، يموت الإنسان ويفارق كل شيء في هذه الحياة ، يفارق كلَّ لذةٍ في هذه الحياة ، ويعود لا يملك شيئاً ، ويقول: فزت ورب الكعبة! هذه الكلمة فعلت في قلب هذا العربي الذي أسلم ، عملت في قلبه هذه

الكلمة ، وفي مخِّه ، وفي عقله ما لا تعمل كتب كثيرة ، بل مكتبات عظيمة من الاستدلال ومن الدلائل العقلية والعلمية ، هذا الذي يحتاج إليه الإنسان اليوم ، وأكثر ما ينظر إليه العالم ، وحقَّ له أن ينتظر هذا من هذه الجزيرة العربية ، ومن البلاد العربية مثل الشام الحبيب المسلم ، ومصر كنانة الإسلام والعراق بلاد الرافدين ، وغير ذلك من البلاد العربية ، أولاً ينتظر العالم أن يتعرف بهذا في هذه البلاد ، ثم ينتقل هذا إلى بلاد المسلمين الأخرى.

أنتم أيها السادة والحمد لله موضع ثقة وأنتم الموجهون ، أنتم القادة ، نسعى كلنا في إيجاد هذا المجتمع الإسلامي في أي بقعةٍ من بقاع العالم ، ثم لا يكون هذا شيئاً مغموراً ، بل يعلم العالم جميعاً أنَّ هناك مجتمعاً إسلامياً ، هنالك يتهافت الناس عليه تهافت الفراش على النار ، نعم؛ لأن العالم الآن يملك كلَّ شيء إلا هذا. هذه النقطة التي أريد أن ألفت نظركم إليها قبل أن أغادر هذه البلاد ، أتركها أمانة عندكم ، فأنتم موضع أمانة وثقة ، إنكم من فوق المنابر ومن حلقات الدروس توجهون المستمعين إلى أين يحيوا حياةً إسلاميةً كاملةً ، وحدةً كاملة لا وحدات مبعثرة ، وحداتٍ متناقضة ، مسلمٌ في العقيدة ، ولكنه نازل هذه المنزلة من المعاملات ، في الأخلاق ، في التجارة ، في الوظيفة ، في الجوار ، لا! مسلم من العقيدة إلى الكلام مع الناس ، وإلى المشي في الأسواق ، وإلى قضاء الحياة ، مسلمٌ من أوله إلى آخرة ، هذا الذي أفتتح به هذا المجلس ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ [فصلت: ٣٠] استقاموا ، ومعنى الاستقامة الشمول ، ليس معنى الاستقامة الثبوت فقط ، بل يدخل في معنى الاستقامة الثبوت ، والشمول ، هؤلاء هم المستقيمون الذين تشمل حياتهم كلَّ جوانب الإسلام ، العقائدية ، والخلقية ، والعملية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والإدارية.

هذه كلمتي التي حضرتني الآن ، وفي الحقيقة أعتذر إليكم إذا كنت قد تخطيت بعض الحدود ، وما عرفت قدري ، وما عرفت نفسي ومن أخاطبهم ، الله سبحانه وتعالى يعفو عني ، وتسامحونني كذلك ، وأدعو الله

تبارك وتعالى أن يقرَّ عيوننا برؤية هذه الحياة الإسلامية الكاملة في هذه البلاد المقدسة ، ويعيد جميع البلاد الإسلامية إلى الإسلام الكامل الحنيف ، ويردَّ ما ضاع من أيدي المسلمين ، ويعيدها للمسلمين مرةً ثانية ، ويوفقنا للمحافظة عليها ، وأداء حقها.

* * *

الإسلام مستهدفٌ لحركات الإبادة العالمية!

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في الجلسة الاستثنائية التي عقدتها رابطة العالم الإسلامي في ٢٧/٣/١٤١٥ هـ الموافق ٣/٩/١٩٩٤ بدعوة من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رَحِمَه الله تعالى ـ المفتي العام للمملكة العربية السعودية وذلك للاستنكار لما تضمنه مشروع برنامج الدول للسكان والتنمية الَّذي تَمَّ عقده برعاية الأمم المتحدة في القاهرة في الفترة ما بين ٥ ـ ١٣ سبتمبر ١٩٩٤ م.

نتحف بهذه الكلمة الضافية الصريحة القراء الكرام لما تحتوي من إشارات واضحة نحو المخططات اليهودية والنصرانية الَّتي التقت اليوم على نقطة القضاء على الكيان الإسلامي ومستقبله، وهدم معالم العقيدة الإسلامية والقيم الخلقية ومعنوية الأمة الإسلامية، بكل ما يمكنها من وسائل التدمير وأساليب التخريب الهائلة.

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين خاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

سادتي وإخواني!

يعلم المطلع على تاريخ الإسلام والمسلمين ، بل على تاريخ العالم أن المسلمين ؛ وبالأصح الأمة الإسلامية والدين الإسلامي استُهدفت لحركات الإبادة ، ومحاولة القضاء على الكيان الإسلامي ومستقبله ، ولكن كان ذلك بشكلٍ عام عن طريق الهجمات العسكرية ، والزحف العسكري ، وكان من أشدها الهجوم التتاري الذي كان يهدف إلى قطع دابر المسلمين والقضاء على دولهم ، وحكوماتهم ، وقوتهم العسكرية ، وكانت غارةً شعواء قطعت الرجاء والأمل في إحباط هذه الجهود المدمِّرة ، والحروب المستأصلة حتى كان من الأمثال السائرة ، «إذا قيل لك: إن التتر انهزموا فلا تصدِّق» وكان يليه في الخطر والعنف الهجوم الصليبي وإن كان سابقاً على الهجوم التتاري زمناً؛ الذي اشتركت فيه الدول الأوربية ، والقيادات العسكرية ، والدوافع الدينية ، والسياسية. وكان من أهدافها الاستيلاء على المقدسات الإسلامية ، والمراكز الدينية الرئيسية. ولكن من الحقائق التاريخية الخارقة للعادة والبعيدة عن القياس والتقدير السابق أنَّ كلتا الغارتين الرهيبتين فشلتا في تحقيق غاياتهما؛ وذلك لنصر الله للمسلمين ، وتهيئة أسبابه بتوفيقه لاجتماع كلمة الدعاة الرَّبانيين المخلصين الذين أخضعوا التتار رغبةً لا رهبةً للدخول في الإسلام ، فأسلم التتار عن بكرة أبيهم ، ووُفقوا لإنشاء حكومات إسلاميةٍ قويةٍ واسعة ، واحتضان الحضارة الإسلامية، والعلوم الدينية، والسيرة الإسلامية ، وأما ما يتصل بالهجوم الصليبي فكان من لطف الله تعالى ونصره للإسلام أن قيَّض لإخفاق هذه الغارة ومراميها وجهودها الملك الصالح المجاهد صلاح الدين الأيوبي «وما حديث حليمة بسرّ».

ولكن مع وجود هذه الحقائق كان من أسباب إخفاق هذه الجهود المدمِّرة المعادية للإسلام: أنَّه لم يكن عند قادة هذه الهجمات مخططٌ عقليٌّ عميقٌ وأهدافٌ تطويريةٌ تحويلية ، إنما كانت محاولاتٌ عسكريةٌ يدفع إليها ويغري بها حبُّ الاستيلاء العسكري ، وبسط الحكم السياسي.

ولكن الواقع الرهيب الذي نواجهه ونشعر بخطره على وجود الإسلام والمسلمين كأمة ذات رسالةٍ وعقيدةٍ ودعوةٍ وشرفٍ وحرية ، هو أن الذكاء اليهودي والشطارة اليهودية ومراميها لبسط نفوذها على العالم وتحويل العالم كلِّه ـ بما فيه من عقائد ، وآداب ، وحضارات ، وقيم ، ومعايير ـ إلى بساطٍ للشطرنج يلعبون عليه بحريَّة ، ويستطيعون تحويل ما عليه من دمىً ولعبٍ من جانبٍ إلى جانبٍ آخر ، ومعاملة الجيل البشري بكل ما فيه من علماء ، وعقلاء ، وأدباء ، ومفكرين ، ومؤلفين إلى جيلٍ خاضع للنفوذ اليهودي خضوع الدواب والجمادات ، وهذا ما جاء صريحاً وواضحاً في كتب اليهود ، وكتاباتهم[١] ، يعرفها المطلع على كتبهم ، ومخططاتهم ، ومطامعهم ، وبرامجهم ، التقى هذا الذكاء الذي يعرف به اليهود قديماً واستباحتهم لكل منكر ومستهجن في سبيل تحقيق غاياتهم. وقد أشار إليه القرآن الكريم إشارةً لطيفةً ، وجاء ذلك صريحاً في الكتب التي نشرت عن أهداف الصهيونية ومراميها أخيراً ، التقى هذا الذكاء والتخطيط الرهيب الدقيق المبيد للفضائل الإنسانية ، ومساعي الأنبياء والمصلحين ، وتعليمات الدين ، مع القوة المسيحية ووسائلها وإمكانياتها رغم وجود أكبر تناقض في الديانتين ، فالمسيحيون يؤمنون بأن المسيح ابن الله ، واليهود يتهمونه وأمَّه وينسبون إليهما ما يعلمه الجميع.

وقد احتضنت ذلك ، وتبنته بعض الدول المسيحية الغربية وعلى رأسها الحكومة الأمريكية ، وذلك بانخداع أكثرها ، ووقوعها فريسةً للنفوذ الإسرائيلي المهيمن على السياسة ، والصحافة ، والآداب ، ووسائل

(١) ليرجع للتفصيل كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» وكتب أخرى في الإنجليزية وغيرها بقلم الكتاب اليهود والمسيحيين.

الإذاعة في أمريكا وخارجها ، فأصبح ذلك محاولة إبادةٍ معنويةٍ خلقيةٍ عقائديةٍ بالنسبة للمسلمين بصفة خاصة؛ لأنهم هم وحدهم أصحاب دينٍ خالدٍ عالميٍّ قويٍّ ، وأصحاب حكومات كثيرةٍ ، ولا يزالون أصحاب قوّةٍ إيمانيةٍ ، ودوافع إصلاحيةٍ ثورية ، فكانوا هم الخطر الأكبر على هذا المخطط اليهودي المسيحي، وعائقاً أكبر في سبيل تحقق أماني اليهود ونجاحها.

وكان من ضمن تلك الجهود والمؤامرات والمخططات القضاء على قوة المسلمين الإيمانية والمعنوية ، وفي مقدمتها محاولة القضاء على شخصية الأمة الإسلامية المميزة ورسالتها بالدعوة إلى التجرد من المبادىء الدينية ، والقيم الخلقية ، والميزات الإيمانية ، فتعيش حياةً جاهليةً كالجاهلية الأولى ، أو كحياة الدَّواب ، والأنعام في غابةٍ أو صحراء.

ثم استعانت أخيراً بالدعاة ضد «التنمية» التي عرف بها المسلمون بصفةٍ خاصةٍ بفضل تعليماتهم الدينية الطبعية ، ويشكلون بذلك خطراً عل الجبهة المعادية لهم ، والقوة العمرانية ، والمدنية والعسكرية ضد الجبهة اليهودية ، والمسيحية. فبدأت بعض القيادت المتآمرة والمؤتلفة ضدَّ مستقبل الإسلام والمسلمين وقوة المقاومة التي يملكونها بإقناع بعض الحكومات الإسلامية ، والقيادات المسلمة بوضع العوائق والعراقيل في سبيل التنمية في الأقطار الإسلامية بطرقٍ غير طبيعية ، وغير شرعية ، وغير خلقية ، هذا إلى غير ذلك من المخططات والمؤامرات الدقيقة التي تحاك للتخلص من نفوذ المسلمين المعنوي ، والعددي ، والمبدئي ، والعقائدي.

فليكن المسلمون بصفة عامة والحكومات والقيادات المسلمة بصفة خاصة على حذرٍ من هذه المؤامرات والمخطط التدميري ، ويكونوا على بينةٍ من الأمر. ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ. وما علينا إلا البلاغ.

* * *

العالم الإسلاميُّ على مفترق الطريق

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة القيمة في د ار الشبان المسلمين بالقاهرة خلال رحلته الأولى لمصر عام ١٩٥١م.

فشاع ذكر هذه المحاضرة في الناس ، وعلق عليها الأستاذ أحمد الشرباصي ، ثم الأستاذ عبد المتعال الصعيدي ، ثم الشيخ محمد الغزالي ، ثم الأستاذ عبد المنعم خلاف تعليقات طيبة.

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

أما بعد! فإنَّ التخوُّف من «الانتفاضة الإسلامية» قد بلغ إلى حدِّ الحساسية الزائدة ، والنظر إلى أشياء دقيقة بالمكبرة و«التجوس»[١] في عددٍ من الأقطار الإسلامية والعربية ، حتى وصل ذلك إلى المخافة من العمل ببعض التعاليم الإسلامية فردياً ، والظهور بالمظهر الإسلامي ، والتكثير من الاستشهاد بالكتاب والسنة ، والإنكار على بعض المنكرات ، وتقليد الغرب تقليداً أعمى ، فضلاً عن المطالبة بتطبيق الأحكام الشرعية ، وتمثيل الحياة الإسلامية والطراز الإسلامي في بلد إسلامي يحكمه المسلمون .

وقد بلغ هذا التخوُّف والعمل بمقتضاه كإخضاع نظام التربية ، ودور التعليم ، ووسائل النشر والدعاية ، والصحافة والإذاعة للتخلص والأمان من النفوذ الديني والغيرة الإسلامية ، والمشاعر الدينية ، إلى أن كان هنالك مجال مسوغ للإشفاق من الردَّة الدينية العقائدية ـ لا سمح الله بذلك ـ فضلاً عن الردَّة الفكرية والثقافية ؛ التي بدت طلائعها وأماراتها في كثيرٍ من البلاد الإسلامية المحكومة بالاستعمار الأجنبي ، الإداري والثقافي ، بحكم طبائع الأشياء ، ونتائج الجهود والمساعي ، وعدم وجود ما يقابل ذلك في القوة والتنظيم ، والعزم والتصميم .

ومن نتائج هذا التخوُّفِ ، والإشفاق ، والحذر الشديد ، من وجود الشعور الدينيِّ القويِّ في الجماهير ، والاعتزاز بالدين ، والطموح إلى أن تسود الحياة الإسلامية ـ بجميع شُعَبها ومناحيها ـ على البلاد التي تدين بالإسلام من قرونٍ متطاولة ، وفي مجتمعاتٍ ورثت الإسلام كابراً عن كابر ،

(١) تجوس : تسمع إلى الصوت الخفي .

وجاهدت في سبيله ، وفتحت بلاداً قاصية ، ومثلت الحضارة الإسلامية الزاهية ، وأنتجت الثقافة الغنية الزاهرة؛ اللتين يندر أو يعدم نظيرهما في تاريخ الحضارات والثقافات العالمية ، من نتائج ذلك أن ينشأ في هذه الأقطار والبلاد التي كانت فريسة هذا التناقض البعيد الأثر ، العميق الجذور ، بين الطبقات الحاكمة أو القائدة الزعيمة ، وبين الجماهير ، والشعوب صراعٌ فكريٌّ وعاطفيٌّ ، وعدم تحمس لتحقيق غاياتها ومشاريعها ، فيكون في ذلك تضييع قوى وطاقات ، ومواهب وجدارات ، كانت البلاد في غنى عنها ، بل كانت في حاجةٍ ملحّةٍ إلى تعاون وثيق ، متبادل ، وثقة لا غنى عنهما لبلادٍ تريد التقدم والاكتفاء الذاتي والتخلص من النفوذ الأجنبي ، فيكون في ذلك جهادٌ في غير جهاد ، ونضالٌ في غير عدو.

ثم تكون النتيجة الحتمية لهذه العملية النقلية ، غير الطبيعية والعقلية ، أن تفقد هذه الأقطار الحماس الديني ، والقدرة على المغامرة والمخاطرة بالنفس والنفيس في سبيل تنفيذ أوامر الله في خلقه ، وصوغ الحياة والمجتمع وفق تعاليمه ، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام[١].

وتلك خسارةٌ لا تعوَّض بشيءٍ آخر من الوسائل والطاقات ، والتعاليم والتقدُّم في الصناعة والعلم ، وبهذه الطاقة والميزة فتح العرب المسلمون ـ ومن تبعهم من الشعوب المسلمة على أيديهم ـ البلاد القاصية الغنية القوية؛ التي مرت على حكمها قرون متطاولة ، وأنشأت حضارةً راقيةً ، واتخذت قدوةً ومثالاً ، واعتبرت رمز تقدم وشرف في العالم القديم ، وأنشأت قانوناً انتشر في الآفاق ، وعلوماً وآداباً كانت سمة «للعقلانية» والتقدُّم ، كالإمبراطورية البيزنطية ، والإمبراطورية الساسانية ، وشبه القارة الهندية ، الممتازة في العلوم الرياضية ، والطبية ، والفلسفية ، وما كان

(١) كما قال ربعي بن عامر ممثل الجيش الإسلامي في العراق لرستم قائد الجيوش الإيرانية الأكبر ، راجع البداية والنهاية لابن كثير : ج/ ٧.

ذلك إلا لوجود الحماس الديني ، والحنين إلى الشهادة ، والشوق إلى الجنة ، والعمل بقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤].

وإذا ضاعت هذه الثروة ـ لا قدر الله ـ وهذه الميزة التي امتاز بها المسلمون الأولون ، ومن كان على شاكلتهم ، في قرون تلتهم ، وهو الإيمان القوي الحيُّ بالله المتغلغل في أحشائهم ، والمسيطر على عقولهم ومشاعرهم ، والمستهين في سبيل العمل به بكلِّ خطرٍ وخسارة ، ومجازفةٍ ومغامرة ، وحب الرسول الكريم ـ ﷺ ـ الغالب على كلِّ حب ، واتخاذه قدوةً وأسوةً ، والحرص على نشر تعاليمه وأسوته في العالم ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، والاستهانة بزخارف الحياة ، لم يكن لذلك بديل فيما يمتاز به الغرب من علومٍ وصناعات ، واختراعاتٍ واكتشافاتٍ ، حتى في القنبلة الذرية التي هي آلة التدمير الكبرى.

وقد يكون من نتائج إغفال تنفيذ الشريعة الإسلامية في بعض البلاد الإسلامية القديمة الأصيلة ، وفقد الغيرة على التشريع الإسلاميِّ وتطبيق بعض جوانب الشريعة الإسلامية في تلك البلاد ، زوال أو ضعف الغيرة الدينية في الشعوب الإسلامية القاطنة في بلاد عجمية قاصية دخل فيها الإسلام قديماً عن طريق دعاة الإسلام ومجاهدي العرب ، وحماسهم الديني في سبيل بقاء الحرية في العمل بالشريعة الإسلامية في حياتها الفردية والعائلية ، كما كان في قضية المحافظة على قانون الأحوال الشخصية الخاص بالمسلمين ، حتى نجح في ذلك المسلمون في الهند بفضل جهدهم وغيرتهم على الدين والشريعة ، رغماً عن إصدار المحكمة حكماً بإلغاء هذا القانون ، وإيجاب العمل بقانون موحَّدٍ منافٍ لتعاليم الإسلام وتشريعه ، وصمود الشعب الهندي والصحافة في المطالبة بتوحيد القانون ، وما كان نجاح المسلمين في الدفاع عن قضيتهم إلا بسبب الغيرة على التشريع الإسلامي ، وحماسهم في الدفاع عنه ، هذا فضلاً عن تمتعهم بالحرية في

العمل بأحكامٍ إسلاميةٍ شرعيةٍ عديدةٍ كأداء صلاة الجمعة في وقتها ، وفي المساجد ، وفي وقت العمل في الإدارات والمكاتب.

وقد فاق هذا التخطيط ـ وتنفيذه في بعض البلاد الإسلامية والعربية ـ وهو صوغ هذه الشعوب الإسلامية والعربية ـ حضارياً ، وثقافياً ، وشعورياً ، وعاطفياً على شاكلة الغرب ـ وقطع صلتها عن الغيرة الإسلامية والعواطف الدينية ، والشعائر الإسلامية ، والهتافات الدينية كلَّ تحدّ للوجود الإسلامي ، وكلَّ مواجهة ومقاومة للكيان الإسلامي في القديم. نذكر من هذه التحديات والمحاولات للقضاء على نفوذ هذه الأمة ، وبقائها كأمة حرَّةٍ قويةٍ ذات نفوذ وإمكانيات في رقاع واسعة من العالم ثلاثةً :

الأول : الحملة الصليبية التي كانت تقودها عدَّة دولٍ أوربيةٍ قوية ، وقادةٌ محنكون ، وكان من أهدافها التسلُّط على القدس ، وفلسطين أولاً ، ثم التقدم إلى الجزيرة العربية والحرمين الشريفين ، وإفقاد المسلمين منبع دينهم ، ومركز شرفهم ، وكان هذا الهجوم ـ على عنفه واتساعه وتنظيمه ـ يخلو من تخطيط دينيٍّ وحضاريٍّ بديل ، وهدف القضاء على العقيدة الإسلامية والمشاريع الدينية ، وقد قيض الله لمقاومة هذا الهجوم العنيف الخطر قائداً بطلاً مؤمناً ، وهو السلطان صلاح الدين الأيوبي ، فجمع تحت لوائه ـ لنزاهته وإخلاصه وبعده عن المنافسات الدولية ، والمطامح الشخصية ـ الشعوب الإسلامية والعربية ، وهزم الصليبيين هزيمةً منكرةً ردَّتهم على أعقابهم ، وقطعت آمالهم ، ومطامحهم.

وكان المثال الثاني الهجوم التتاري الذي لم يكن له مثيل في العنف والقسوة والهمجية في تاريخ الإنسانية القريب ، فضلاً عن التاريخ الإسلاميِّ المحدود ، وقد تمَّ لهم الفتح وإبادة الأقطار الواسعة ذات الحضارات الراقية ، والقوة العسكرية الفائقة ، كتركستان ، وإيران ، والعراق ، والشام ، وقد اقترن فتحه للبلاد بالخضوع العقلي والعاطفي لانتصارهم ، وتفوقهم في الفنون الحربية ، حتى كان المثل السائر : صدِّق كل شيء ، ولكن إذا قيل لك : إن التتار انهزموا فلا تصدِّق.

ولكن لم يكن هذا الهجوم مدعماً بحضارةٍ ، أو عقيدةٍ ، أو دعوةٍ ، إنما كان هجوماً عسكرياً مدوخاً مدمراً ، لم يفكر قادته في حينٍ من الأحيان في أن يقدموا بديلاً للدين الإسلامي ، أو الحضارة الإسلامية ، فكان غير جديرٍ بالبقاء طويلاً ، وغير لائقٍ بملء فراغ أو إبدال حضارةٍ بحضارة ، ودينٍ بدين ، وقانونٍ بقانون ، فاستطاع بحول الله وتوفيقه العلماءُ الربَّانيُّون ، والدعاة المخلصون ، والوزراء المسلمون نقلهم من لا دين إلى دين ، ومن الجاهلية إلى الإسلام ، وأسلم التتار عن بكرة أبيهم ، وأسسوا دولاً إسلاميةً قويةً واسعة ، ودافعوا عن الإسلام (إذا احتيج إلى ذلك) وكان منهم علماء ، ومؤلفون ، وصالحون ، وربانيون[١] .

ويتلو هذين التحديين للإسلام والبلاد الإسلامية : الاستعمار الغربي المنبسط في عدد محدود من البلاد الإسلامية ، والدول الإسلامية ، إدارةً وحكماً ، وسياسةً ونفوذاً ، والمسيطر على عددٍ أكبر ثقافةً ، وتفكيراً ، وقيماً ، ومفاهيم ، وخضوعاً فكرياً ، وقد زال هذا الاستعمار ـ إدارياً وسياسياً ـ من أكثر البلاد الإسلامية ، وكان العدد الأكبر من قادة الحرب ضد الاستعمار الأجنبي الأوربي من علماء الدين ، والمتدينين من زعماء المسلمين ، وكان لذلك الأثر الأعمق في نفس الشعب ، لاقتران هذه المقاومة بتعاليم الدين ، واستخدام لغة الدين ، والتعاليم الإسلامية لتحرير البلاد ، ولكنه لا يزال مسيطراً على كثيرٍ من الأقطار الإسلامية فكرياً ، وثقافياً ، وقيماً ، ومفاهيم ، وإصابة بمركب النقص .

أما الخطران الأولان الهجوم الصليبي والهجوم التتاري فلم تكن معهما دعوةٌ ، ولا حضارةٌ ، ولا فلسفة ، ولم تكونا تقدمان بديلاً للدين الإسلامي وحضارته ، ومجتمعه ، وكانا بالطبيعة هجومين عسكريين ، وغارتين إقليميتين محدودتين ، ولم تكونا يملكان ما يملأ فراغ دينٍ وعقيدة ،

---

(١) راجع للتفصيل كتاب العلامة الندوي «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الجزء الأول طبع في دار ابن كثير بدمشق ، وكتاب البروفيسور آرنلد (Preeching oh islam) وكتاب (Changez) لمؤلفه هيرلد ليمب .

وحضارة ، وثقافة ، بخلاف الخطر المعاصر الذي يواجه الأقطار الإسلامية العربية المعاصرة ، ويتحدَّى بقاء تأثير الدين الإسلاميِّ في الجيل الجديد ، ودوره في صوغ الحياة وتكوين العمليات ، ومواجهة . . . . أحق بأن ينتبه له ويحسب له حساب ، ويعنى به المعنيون بالإسلام وبقائه بنفوذه ومكانته في البلاد الإسلامية والعربية ، وقدرته على القيام بدوره في الاتصال بالله والرسول ، وبقاء العقيدة الإسلامية والغيرة عليه ، بل التحمس لها ، والحرص على نثرها ونشرها .

وقادة الأقطار الإسلامية السياسيون ، وحكام البلاد الإداريون مخيَّرون بين سياستين ومنهجين للعمل .

الأول : أن يثبتوا غيرتهم على الإسلام ، وتمسكهم به ودفاعاً عنه ، وإيثاراً له ، على ديانات أخرى ، ومناهج أخرى للعقيدة والسلوك ، والقيم والأقدار والمبادىء ، والحضارات ، مع الاستعداد للانتفاع بالعلوم العصرية والاكتشافات الحديثة ، والتقدم العلمي والصناعي و«الحكمة ضالَّة المؤمن حيث وجدها فهو أحقُّ بها» وتطوير النظام التعليمي والعسكري ، والصناعي حسب مقتضيات الزمان ، وبمقابلة العلم بالعلم ، والقوة بالقوة ، والصناعة بالصناعة .

وبهذا المنهج للقيادة ، والإدارة ، والسياسة ، وبهذا الموقف الهادف الحكيم ، المؤسَّس على الإخلاص لله وخشيته ، ومجاراة الأمة في مشاعرها ومراعاة ما تدين به وتتفانى في سبيله وتغار عليه ، والاعتراف بالحقيقة والواقع وعدم إضاعة القوة والوقت في تحصيل ما يثير سلامة الأمة ، وما يفقد ثقتها ، وما يستنفد القوى والطاقات في غير طائل يحرز هؤلاء القادة والحكام ـ بحسب السنة الإلهية والوعود القرآنية وما تحقق وثبت بالتواتر في التاريخ الإسلامي القيادي ـ حباً وإخلاصاً وتفادياً ، وتفانياً من الشعب المسلم ، وأهل البلاد المسلمين (الذين يكوِّنون الأكثرية ، ويملكون النفوذ والتأثير) التأييد التام والتحمس العام في تحقيق مطالبهم ، وتحقيق غاياتهم ، والحرص على بقائهم في مراكز سلطتهم ، ومكانتهم في

القيادة والزعامة ، يحرزون إخلاصاً وتحمساً ، لا يجدونهما عن طريق الإرهاب أو الترغيب ، والمراقبة ، والتفتيشات والعقوبات ، والاعتقالات ، وحتى عن طريق تأييد الحكومات الأجنبية ، والأساليب الاستراتيجية ، وعن طريق الصحافة والإذاعة ، والنشر والدعاية ، وصدق الله العظيم ، ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٦٣].

وبذلك تتفادى البلاد الكثير من المؤامرات والمشاغبات ، وبذل القوة والجهد في القضاء على المخالفات والثورات ، وعلى وجود القلق وعدم الارتياح في نفوس العدد الأكبر من أفراد الشعب المسلم ، وعدم وجود التحمُّس في نفوس الأكثرية من الشعب لمقاومة هجومٍ أجنبي ، أو غارةٍ خارجية .

أما إذا كان الواقع ضدَّ ذلك ، وكان بين القادة والحكام ، وبين أفراد الشعب ـ الذين يشكلون الأكثرية ، وعليهم العمدة في الأمن والرفاهية والأزمات والخطوب ـ خليجٌ عميقٌ واسعٌ في الاتصال بالدين ، وحبِّه والغيرة عليه ، والحرص على تطبيقه في الحياة وتنفيذه في المجتمع والحكومة ، بل كانت هنالك مظاهر وأمارات خفية أحياناً ، وجلية أحياناً أخرى ، في عدم ارتياح هؤلاء القادة والحكام لتعاليم الدين الإسلامي الحنيف ، وتخوُّفهم من نفوذه ، وسيطرته على نفوس الشعب وعقوله ، وإشفاقهم من تحمُّس الشعب الديني وغيرته عليه ، والمناداة به ، والمطالبة في بعض الأحيان بتنفيذ بعض أحكام الشريعة الجلية الرئيسية أكثر من إشفاقهم من تهديد عدوٍّ في الخارج ، وتحدٍّ أجنبي ، وقد يكونون في بعض الأحيان منفذين لإشارات من دولة أجنبية كبيرة ، مرددين لصوتها ، محققين لغرضها ، كالتخوف من التمسك بالمبادىء ، أو المبدئية والأصولية ، الذي يدخل فيه التمسك بتعاليم الإسلام والوقوف عند حدوده ، وأوامره ، وتحليل ما أحلَّ ، وتحريم ما حرَّم ، فيكون في ذلك وجودُ قلقٍ ، وعدم ارتياح ، وصراعٌ فكريٌّ وشعوريٌّ في الشعب كانت الشعوب الإسلامية والبلاد الإسلامية في غنى عنه .

وبهذا التباعد بين القيادات والسلطات ، والشعوب والجماهير تنشأ فجوةٌ عميقةٌ واسعةٌ بين القادة والحكام ، وأهل البلاد المسلمين الغيارى على دينهم والمحبين لوطنهم ، وعدم تفاهمهم ـ فضلاً عن عدم تعاونهم ـ لا يملأ هذه الفجوة أكبرُ مجهودٍ أو تأييدٌ من حكومات أجنبية ، وتفقد بذلك القيادات والسلطات أعظمَ ثروةٍ ، وأكبرَ قوةٍ ، هي بذل النفس والنفيس في سبيل الله ، والاستماتة في سبيل تحقيق ما يردده الله ورسوله ودينه ، والوفاء للأئمة المسلمين وقادة البلاد والحكام المخلصين الصالحين. وهي قوة أبدت العجائب والخوارق في تاريخ الإسلام الطويل الحافل ، وأخضعت البلاد والأقطار التي لا نسبة بينها وبين البلاد الإسلامية في العدد ، والقوة العسكرية ، للإسلام ، أو للدين الإسلامي ، أو الحكم الإسلامي ، وهي قوةٌ لا تزال موجودةٌ في نفوس المسلمين ، وفي الأقطار الإسلامية ـ على علاتها ومحنها ، أو مؤامرات حيكت حولها ـ ويمكن الاستفادة منها ، وتسخيرها لغاياتٍ لا تعود على هذه الأقطار الإسلامية ، بل تعود على العالم المتمدِّن المغمور بخيرٍ لا يعدله خير ، وبسعادةٍ لا تساويها سعادة.

فهل من المعقول أن تبقى الأقطار الإسلامية في صراع فكريٍّ وعقائديٍّ ، وقلقٍ شعبيٍّ جماهيريٍّ ، وعدم وجود ثقةٍ وتقدير ، وحبٍّ وتفانٍ بين الشعوب وأهل البلاد الذين لا تزال أكثريتها متمسكةً بالدين محبةً له ، غيورةً عليه. وبين قادتها وحكامها. ويكون في هذه البلاد جهادٌ في غير جهاد. ونضالٌ في غير عدو ، أم من الخير ومقتضى الحكمة والعقل الإنساني ـ فضلاً عن العقل الإيماني ـ أن يكون هنالك انسجامٌ وتوافق ، وثقةٌ متبادلة ، بل عاطفة من الفداء والتفاني في تأييد هؤلاء القادة المسلمين الغيارى على الدين ، المجاهدين في سبيله ، الحريصين على بقائه ، وازدهاره ، وانتصاره؛ طلباً لرضا الله تعالى ، وإيثاراً للآخرة على الدنيا ، وتقليداً للخلفاء الراشدين ، والحكام الصالحين ، والقادة المخلصين المجاهدين ، ويتفادوا بذلك عن كلِّ ما هم في غنىً عنه من صراعٍ وقلق ، وقمع للثورات ، وأمنٍ من تقلُّب الحكومات ، وتجسس للمؤامرات والمخططات.

وصدق الله العظيم:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

* * *

قيمة الأمة الإسلامية بين الأمم
ودورها في العالم

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في الموسم الثقافي الَّذي نظمته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية لدولة قطر في عام ١٩٩٥ م ١٤١٥ هـ.

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين وخاتم النبيين ، محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

أما بعد! فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران : الآية : ١٢٣] إنَّ هذه الآية تختصُّ بمعركة بدر ، وفيها عبرةٌ كبيرةٌ ، ودرسٌ خالدٌ لنا ، ومثيرٌ لهممنا ، وعزائمنا ، ومعينٌ لموقفنا وهدفنا في كل عصر وبيئة.

تعلمون أنَّ العالم الإسلاميَّ كله ـ بما فيه من حكوماتٍ وإماراتٍ ، ومظاهرَ رخاءٍ وثراء ، وعلمٍ وفنٍّ ، ومكتباتٍ ومدارسَ وجامعاتٍ ، ومراكز للنشاط ـ كلُّ ذلك مدينٌ لانتصار المسلمين في معركة بدر ، فلو أن المسلمين كانوا فريسةَ الأهداف الفاتكة المدمِّرة التي كانت تحملها قريش ، وانهزم المسلمون ـ لا قدَّر الله ـ في معركة بدر ، ما كان للعالم الإسلامي وجود ـ بما فيه من مظاهر عظمة ، ومظاهر عزة ، ومظاهر قوة ـ هذا هو الواقع التاريخي الذي لا ينكر.

اسمحوا لي أن أقول : إن كلَّ مدينة إسلاميةٍ ورقعةٍ في العالم الإسلامي الواسع المأهول ، بل العالم الإسلامي الواسع حتى شبه القارة الهندية ، ووجود الجالية الكبيرة الإسلامية في الهند ، والمسلمون في مصر ، والمسلمون في سورية ، وفي العراق ، وتركيا ، والمغرب الأقصى ، والمسلمون في الشرق العربي الإسلامي ، وجنوب آسيا الشرقي ، كلهم ـ بما فيهم من اختلافٍ في العناصر ، والقوميات ، والجنسيات ، وفي الأنساب ، والثقافات واللغات ـ كل ذلك مدينٌ لانتصار المسلمين في معركة بدر.

فلو انهزم المسلمون ـ لا قدر الله ـ في بدر ، لما كان للعالم الإسلامي

وجود ، ولما كان للدعوة الإسلامية أن تشق طريقها إلى الأمام ، وأن تسخر القلوب ، وأن تفتح البلاد ، وأن تؤسس الحكومات ، وأن تنشىء المؤسسات العلمية ، والمكتبات الغنية ، وأن تنشىء النوابغ ، والعبقريين ، والأولياء ، والصالحين ، والدُّعاة المصلحين.

ولكن الذين يكثرون القراءة ، ويطالعون كتب السيرة والتاريخ ، قد يمرُّون بقطعةٍ تاريخية تسترعي انتباههم ، وتستوقفهم متأملين ، يمرون بها مراً سريعاً عابراً ، حين كان من المعقول المتوقع أن يقف القارىء أمامها متأملاً حائراً.

من ذلك أنَّ رسول الله ﷺ لما استعرض الواقع في ساحة بدر ـ واستعراض الواقع لا ينافي مكانة النبوة ـ لما استعرض الرسول الأعظم ـ ﷺ ـ الواقع ، ورأى الفرق الشاسع البعيد بين عدد المسلمين وبين عدد الزاحفين المشركين ، الذين جاؤوا من مكة ليستأصلوا شأفة الإسلام وليقضوا عليه وعلى مستقبله نهائياً ، وبين عدد المسلمين الذين جاؤوا لتخييب هذه الأهداف المدمرة ، قد جاؤوا للجهاد في سبيل الله ـ كان الفرق هائلاً ، وكانت الفجوة سحيقةً بعيدةً ، واسعةً طويلةً ، كانوا ألف رجلٍ مسلحين بالسلاح التام من قريش ، وثلاثمئة وثلاث عشر رجلاً(١) في الجيش الإسلامي ، والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ على ما خصهم الله تعالى به من الاعتماد على نصر الله ، وعلى قدرة الله تبارك وتعالى لا يتغافلون عن الواقع.

فلما استعرض الرسول ـ ﷺ ـ هذا البون الشاسع البعيد ، وهذه الهوة الواسعة بين جيش الكفار الزاحفين ، وبين المسلمين المدافعين ، ورأى أنه لا يمكن أن يكون انتصار المسلمين بالقوة فقط ، والسلاح فقط ، لا بدَّ من إغاثة الله تبارك وتعالى لهؤلاء المستضعفين ، ونصره المعجز الخارق

---

(١) رواه أحمد والبزَّار والطبراني. وكذلك أخرجه ابن أبي شيبة والبيهقي ، وفي فتح الباري أن هذا هو المشهور عند ابن إسحاق وجماعة من أهل المغازي: ج/٧. ص ٢٩١ . وقد جاء في روايات وكتب سيرة أعداد أخرى ، وهي أرقام متقاربة.

للعادة ، المنافي للقياس ، فقام يصلِّي ، ويبتهل ، حتى رقَّ قلب سيدنا أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وسلّى رسول الله ـ ﷺ ـ ، ولكن الرسول ـ ﷺ ـ قال كلمةً خالدةً ، تسترعي انتباه العقلاء ، وأولي الأفهام ، والدارسين للتاريخ والسيرة في كل زمان ، لما استعرض الواقع ، ورأى أن المعركة بين هؤلاء ـ ألف جندي مسلح ، وثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً ، غير مسلحين بالسلاح التام ، منهم بعض الغلمان ـ ونظر إلى المحيط نظر المتبصِّر ، ونظر الواقعي ، قال : «اللهم إن تُهلك هذا العصابة لا تُعبد»[1] .

كلمة معجزةٌ من معجزات رسول الله ﷺ! من يستطيع أن يقول هذا لله سبحانه وتعالى! إن فعلت هذا كان كذا ، وإن فعلت هذا كان كذا! والرسول المجتبى ، والرسول المحبب ، والرسول المكرم ، والرسول الذي قضى الله تعالى بخلود رسالته ونصره ، قال: «اللهم إن تُهلك هذه العصابة لا تُعبد» .

يا رب إن هزمت هذه العصابة لا يلحق بالدنيا ضررٌ كبيرٌ ، لا يصيب الإنسانية خطبٌ كبيرٌ ، أو تطورٌ عظيمٌ ، لا تزال الدول كما كانت ولا تزال الثروات كما كانت ، ولا تزال المكاسب كما كانت ، ولا تزال العبقريات كما كانت ، لا تزال المدنية كما كانت ، ولكن شيئاً واحداً لا يكون ، وهو عبادتك وحدك ، ونفاذ شريعتك ، وبقاء دينك الحنيف؛ لأن هذه العصابة ـ على قلتها وضآلتها وحرمانها من أسلحة الدفاع القوية الكثيرة ـ هي العصابة الوحيدة على وجه الأرض التي تدعو إلى التوحيد والتي تعبد الله وحده ، والتي تؤمن بأنَّ الله هو المصرف للكائنات ، وهو القادر المقتدر ، وله الحقُّ وحده في العبادة والطاعة ، ولشريعته وأحكامه الحقُّ الوحيد في النفاذ والطاعة المطلقة .

كان من المتوقع أن يقف القارىء الواعي ، المؤمن بجلال الله وعظمته

(١) جاء في صحيح مسلم ، وسيرة ابن هشام ، وكنز العمال: «اللهم إن تُهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض» وجاء في بعض الروايات: «اللهم إن شئت لم تُعبد بعد اليوم أبداً» دلائل النبوة للبيهقي: ج/ ٢ ، ص/ ٥٠ .

وغناه، وبمقام الرسالة والنبوة، وبما خصَّ الله تعالى به نبيه - ﷺ - المجتبى من معرفة صفات الله الأحد، الصمد، القادر، القاهر، الغنيِّ، القويِّ أن يقف برهة من الزمان حائراً خاشعاً متأملاً أمام هذا الكلام الذي نُقل عن الرسول الأعظم - ﷺ - في هذا الموقف الرهيب الطالب للخشوع والرضا بالقضاء ما معناه: اللهم إن تُهلك هذه العصابة لا يكون الدين لك وحدك.

هنالك أجاب الله هذا الدعاء؛ لأنَّ هذه الكلمة، كلمة موحاة، كلمة ملهمة من الله تبارك وتعالى، والله تبارك وتعالى هو عالم الغيب والشهادة، فنصر الله المسلمين رغم قلة عددهم، وضآلة أسلحتهم، وكونهم حفنة[١] أمام هذه الكثرة الكاثرة، وهذا الجيش العرمرم، فنصر الله المسلمين.

فثبت من ذلك أنَّ وجود المسلمين، وأنَّ بقاء المسلمين، وأنَّ شوكة المسلمين مدينة لقيامهم بالدعوة إلى الله تبارك وتعالى، ولعبادة الله وحده، وليكون الدين كلُّه لله، وشريعته نافذة.

ولو فقدوا هذه الميزة، وأقول لكم بكل صراحة - وسامحوني - لو كان المسلمون كلهم أصحاب إماراتٍ وحكومات، وأنا أحمد الله تبارك وتعالى على وجودها وأدعو لها بالبقاء والاستمرار، وأدعو لها بالرُّقي والازدهار - لكني أقول: لو فقدت الأمة الإسلامية هذه الصفة الوحيدة وهي الدعوة إلى الله تبارك وتعالى وعبادته وحده، والطاعة المطلقة له، وتنفيذ شريعته وأحكامه على الفرد والمجتمع، وصياغة الحياة والمدنية وفق تعاليمها وأحكامها، وملكوا الدنيا كلَّها؛ لما كان لبقاء المسلمين ضمان؛ لأن رسول الله - ﷺ - قال:

«اللهم إن تُهلك هذه العصابة لا تُعبد».

هذا - بالتأكيد - لا يقوله إلا رسولٌ موحى إليه، وصاحب مقامٍ عند الله تبارك وتعالى، قال: «اللهم إن تُهلك هذه العصابة لا تُعبد».

---

(١) الحَفنة والحُفنة: ملء الكفين.

فأقول لكم بكلِّ صراحة: إن المسلمين لو اعتزلوا عن حمل رسالة الإسلام، وتناسَّوا هذه المسؤولية التي عُقدت بهم، والتي عُلقت عليهم لما كان لبقائهم ضمان في العالم، على رغم ما يملكون من طاقاتٍ عسكرية، ومن طاقاتٍ عددية، ومن ثرواتٍ اقتصادية، ومن فرصٍ متاحة، فكلُّ ما يملكونه من حولٍ وطولٍ لا ينفعهم؛ لأن الله تبارك وتعالى إنما نصرهم لقول الرسول ـ ﷺ ـ: «اللهم إن تُهلك هذه العصابة لا تُعبد».

يكون كل شيء: تقوم الحكومات، وتزدهر المدنية، ويتضخم الثراء، ويتوسع العلم، كلُّ شيء يكون، ولكن الشيء الوحيد الذي لا يكون هو عبادتُك وحدَك، وحمل رسالتك، ودعوتك، وأن يكون الدين كله لله ـ عز وجل ـ تُنفذ أوامره، وتجري أحكامه، ويخضع نظام الحياة لأوامره وتعليمات دينه.

فالشيء الذي يجب أن يحتفظ به المسلمون أكثر من كلِّ شيء، ويغاروا عليه أكثر من صحتهم، وأكثر من حكمتهم، وأكثر من لباقتهم، وأكثر من سياستهم ودعايتهم، وأكثر من تملكهم للدول العظيمة: هو أن يكونوا دائماً دعاةً إلى الله تبارك وتعالى، حاملين لواء التوحيد، مؤثرين للآخرة على الدنيا، مؤثرين لرضاه ونفاذ أحكامه على كلِّ وطرٍ وهدف، وتشريعٍ وتقنين، فهذه هي الضمانة، وهذا هو التكفل لبقاء المسلمين.

أجاب الله تعالى دعاء الرسول ـ ﷺ ـ وقضى بانتصار المسلمين على عدوهم وبقائهم، فكأنما كان بقاء المسلمين مشروطاً بقيام حياة العبودية ـ بمعانيها الواسعة ـ بهم، وقيامهم بها، ودعوتهم إليها، فلو انقطعت الصلة بينهم وبين عبادة الله تعالى ـ بمعانيها الواسعة ـ ورواجها، وازدهارها في العالم، ونهوضهم بالدعوة إليها على مستوىً عالميٍّ، وفي إطارٍ آفاقي؛ انقطعت الصلة بينهم وبين الحياة، ولم يبق على الله لهم حق وذمة، وأصبحوا ـ كسائر الأمم ـ خاضعين لنواميس الحياة، وسنن الكون.

بل كانوا أخسَّ مكانةً، وأقلَّ قيمةً من الأمم الأخرى، إذ لم يشترط لبقائها وحياتها مثل ما اشترط لهم، وكان ما أخبر الله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ

بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [سورة الفرقان ، الآية: ٧٧].

وقد حافظ المسلمون على هذا الشرط ، وبرُّوا بهذا العهد ، وتذكَّروا أنهم إنما نُصروا على عدوهم ـ وقد كان يأتي عليهم ويستأصلهم في ساحة بدر ـ وتُركوا على ظهر الأرض ؛ لأنَّ عبادة الله منوطةٌ بهم على أرض الله.

بهذه الرسالة انبثُّوا في العالم ، وحملوها إلى الملوك ، والسوقة ، والأمم ، وفي سبيل ذلك هاجروا ، وجاهدوا ، ولأجل ذلك حاربوا ، وعاهدوا ، ولم يزالوا يعتقدون أنهم مبعوثون من الله تعالى إلى الأمم ، وحاملو راية الإسلام في العالم ، وأنهم محسنون إلى الناس ، منقذوهم مما هم فيه من اتباعٍ للهوى ، وعاداتٍ وتقاليد جاهلية ، وهواياتٍ ومظاهر يرتبطون بها ارتباطَ الأسير بالسلاسل والأغلال ، عبوديةٍ يعتقدونها ملوكية ، ويعيشون عيش الطائر في القفص ، غيالاً على غيرهم ، حتى في مأكلهم ومشربهم ، ويحسبونه بلاطاً وقصراً ، وخدماً وحشماً ، وهو في الحقيقة قفص ، والقفص قفص ، ولو كان من ذهب ومن أمثلته ونماذجه الرائعة حديثٌ دار بين رجلٍ من عسكر المسلمين الفاتحين في إيران ، وقائد الجيوش الفارسية وأميرهم رستم:

طلب رستم من سعد ـ رضي الله عنه أن يرسل إليه من يُكلمه ، ويعرف منه غاية الغزو ، وذلك قبل القادسية ، فأرسل سعد ربعيَّ بن عامر ـ رضي الله عنه ـ رسولاً إلى رستم ـ قائد الجيوش الفارسية وأميرهم[1] ـ فدخل عليه وقد زين مجلسه بالنمارق المذهَّبة والزرابي ، وأظهر اليواقيت واللآلىء

(١) طلب رستم من قائد الجيش الإسلامي أن يرسل إليه رجلاً من المسلمين ليعرف ما الذي دفع عرب البادية إلى محاربة أقوى جيش ، وأرقى مملكة ، فإذا كان الدافع تحصيل ما يحتاجون إليه من ميرة وكسوة وأسباب معيشة؛ دَفَعَ إليهم وتفادى من الحرب نتائجها. وقد بين رسول المسلمين: أنَّ الذي دفعهم إلى هذا الإقدام ، هي الرحمة بهم لا الرحمة بأنفسهم ، وإخراجهم من الضلال إلى الهداية ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، كما سيأتي.

الثمينة ، والزينة العظيمة ، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سريرٍ من ذهب ، ودخل ربعي ـ رضي الله عنه ـ بثياب صفيقة ، وسيفٍ وترس ، وفرسٍ قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه ، وبيضته على رأسه .

فقالوا له : ضع سلاحك .

فقال : إني لم آتكم ، إنما جئتكم حين دعوتموني ، فإن تركتموني هكذا ، وإلا رجعت .

فقال رستم : ائذنوا له ، فأقبل يتوكّأ عل رمحه فوق النمارق ، فخرق عامتها .

فقالوا له : ما جاء بكم؟

فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل ذلك ، قبلنا منه ورجعنا عنه ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله .

قالوا : وما موعود الله؟

قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقي .

وهذا الحوار القصير ـ الذي جاء في تاريخ الغزو الإسلامي والدعوة الإسلامية ، وتاريخ المسلمين ـ بقي مطموراً مغموراً ، يمرُّ به القارىء مراً سريعاً ، لا يتأمّل في قيمته الدعوية العميقة الجريئة ، وفي دوافعه الإيمانية القوية ، ومصدره ، وهو تغلغل الدعوة الإسلامية النبوية في أحشاء هذا العسكري المسلم؛ الذي لا يعرف التاريخ إلا اسمه وأصله ، وهي بادية العرب .

إن الوضع في العالم الحديث ، وفي الغرب الذي يملك القيادة ـ الفكرية، والمبدئية ، والحضارية ، والسياسية ـ لا يختلف عن العصر

الذي ظهرت فيه دعوة الإسلام ، وانتشرت فيه دعاته يحملون رسالة الإسلام إلى البلاد والمجتمعات ، والشعوب والحكومات .

كان مثالاً رائعاً من أمثلته ، ونموذجاً مثيراً للاستغراب والدهشة ما حكيناه من حوارٍ بين ربعي بن عامر ـ رضي الله عنه ـ ، أحد الأعراب القادمين من بادية العرب ، وبين رستم رئيس قادة الجيوش الإيرانية ، والذي كان يلي إمبراطور إيران في المكانة ، والهيبة ، والإجلال ، والبون بين الوضع السائد على الإمبراطوريتين ـ الساسانية والرومانية ـ وما كان تحتهما من مدن ومجتمعات ، ومقاييس ومستويات ، وأعراف وشائعات ، وبين الغرب الواصل إلى أوج المدنية ، العائش على قمتها ، المتمكن من توجيه العالم حضارياً ، وثقافياً ، واقتصادياً ، وسياسياً ، ومبدئياً ، وفكرياً ، ليس بعيداً وكبيراً .

فالبون بين الوضعين السائدين على العالم الشرقي في القرن السادس المسيحي ، والعالم الغربي في القرن العشرين أقل من البون بين هاتين الرقعتين ، مساحةٍ جغرافية ، ومساحةٍ زمنية .

والجاهلية(١) ـ بمعانيها الواسعة ـ ضاربةٌ أطنابها على الغرب المتحضر المثقف الراقي ، وفي أرقى الجاهليات التي سجلها التاريخ ، وعرفها المؤرخون ، لا يتحكم فيها إلا النفع الماديُّ ، أو تسلية النفس ، أو «الأبيقورية»(٢) أو المنفعة السياسية ، أو الاقتصادية ، وتجعل الدين قضيةً شخصيةً محدودةً في أمكنةٍ خاصة ـ الكنائس ـ وأزمنةٍ خاصة ـ وهي الأعياد الدينية ـ لا دخل لها في السلوك الفردي ، أو الجماعي ، أو السياسي ، أو الاقتصادي .

---

(١) الجاهلية هي الحياة أو المدنية التي تنشأ وتبقى بعيدة ومستغنية عن تعاليم النبوة والتوجيهات السماوية لمنهج الحياة والتعايش من العقيدة إلى السلوك والأخلاق والاستحسان والاستهجان .

(٢) مدرسة فلسفية إغريقية تحكم على الأشياء وتركها واختيارها على أساس اللذة التي تحصل من العمل بها ، أو تركها .

ويعيش الغرب في سجنٍ أوسع من سجن الملوك القدماء ، وفي قفصٍ أجمل ، وأزهى من قفص الأمراء المدلَّلين ، أو الحكام المخدومين في القديم ، وهو سجن أو قفص الموضات (fashions) والأعمال الرتيبة ، والأعراف والمستويات التي يتوقعها الجمهور ، ويطالب بها المجتمع والعصر من ملابس ، أو مساكن ، أو مظاهر.

وبذلك لا يختلف الغرب المتحضر المتحرر المتنور ، عن العصر الذي سبق الإسلام أو عاصره ـ في الإمبراطورتين العظيمتين ـ البيزنطينية والساسانية ـ فكانت في العصر الجاهلي الأول عبادة آلهةٍ ، ومعبوداتٍ قديمةٍ موروثة ، أو مصنوعةٍ منحوتة ، وفي الغرب عبادة النفس والشهوات ، والفائدة ، واللذة ، والمنافع السياسية والاقتصادية ، وكان اعتماد الملوك ، والأمراء ، والحكام ، والأغنياء ـ في القديم ـ على الخدم والحشم ، والعادات ، والتقاليد ، وأدوات الزينة والراحة ، وكانوا متقيدين بها ، وعائلين عليها ، كطائرٍ مدللٍ ، أو سجينٍ مكرم ، والرجل الغربي مهما بلغ من الثراء والرخاء ، والحكم والقضاء ، مرتبطٌ ـ أو مربوطٌ ـ بموضاتٍ وتقاليد يفرضها المجتمع ، وأعرافٍ ومستويات ، ويُحكمُ بها على ما بلغه الرجل الغربي من العزِّ ، والشرف ، والرخاء ، والثراء ، فكان كلُّ واحد منهما ـ الجاهلي القديم والعصري الحديث ـ في حاجةٍ إلى أن يخرج من السجن إلى الفضاء ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها.

ولكن من الذي يمثِّل دور ربعي بن عامر ـ رضي الله عنه ـ في إطار فرديٍّ أو جماعيٍّ ـ ويواجه الغرب ، أو الغربي المالك لأزمة الأمور ، كرئيس الجمهورية ، أو رئيس الوزراء في عاصمة من عواصم الغرب ، أو مركز من مراكز القيادة السياسية والاقتصادية ، فيواجهه كما واجه ربعي بن عامر قائدَ قوّاد الفرس رستم الذي كان ينوب عن إمبراطور الدولة الساسانية ، ويبلغه هذه الرسالة الصادقة الجريئة ، المخلصة البريئة ، التي ليست في صالح فردٍ أو جماعة ، بل هي في صالح الإنسانية ، وفي صالح الشعب ، الحاكم والمحكومين؟

إنَّما كان ذلك مسؤولية هذه الأمَّة الإسلامية ، وقادتها ، ودعاتها ، ومفكريها ، وكتَّابها ، ولا تزال هذه المسؤولية قائمةً ، ومستقبل العالم مرتبطٌ بها .

«لقد تضخَّم العلم ، وتقدَّمت الصناعة في أوربا ، ولكنَّها بحر الظلمات ، ليست فيه عين الحياة .

إنَّ تجارتها قمارٌ يربح فيه واحد ويخسر فيه ملايين .

إن هذا العلم والحكمة والسياسة ، والحكومة التي تتبجح بها أوربا ، ليست إلا مظاهر جوفاء ، ليست وراءها حقيقة .

إن قادتها يمتصون دماء الشعوب وهم يلقون دروس المساواة الإنسانية ، والعدالة الاجتماعية .

إنَّ الأمة التي لا نصيب لها في التوجيه السماوي ، والتنزيل الإلهي ، غايةُ نبوغها تسخيرُ الكهرباء والبخار .

إنَّ المدنية التي تتحكم فيها الآلات ، وتسيطر فيها الصناعات ، تموت فيها القلوب ، ويقتل فيه الحنان ، والوفاء ، والمعاني الإنسانية الكريمة .

إنَّ شعار الحضارة الحديثة الفتكُ ببني آدم الذين تقوم عليهم تجارتها ، وتنفقُ سلعَتُها ، ليست هذه المصارف العظيمة إلا وليدة دهاء اليهود ، الذي انتزع نور الحقِّ من صدور بني آدم .

إنَّ العقل ، والحضارة ، والدين حلمٌ من الأحلام ما لم يعد هذا النظام رأساً على عقب .

إنَّها حضارةٌ شابة ـ بحداثة سنّها ، والحيوية الكامنة فيها ـ ولكنها محتضرةٌ تعاني سكرات الموت ، وإن لم تمت حتف أنفها فستنتحر ، وتقتل نفسها بخنجرها ، ولا غرابة في ذلك ، فإنَّ كل وكر يقوم على غصن ضعيف ليس له استقرار ، ولا يستغرب أن يرث تراثها الديني ويدير كنائسها اليهود .

إنَّ أساس هذه الحضارة ضعيفٌ منهار ، وجدرانها من زجاج لا يحتمل صدمة .

إنَّ الفكر المارد الذي أزاح الستار عن قوى الطبيعة أصبح بمجموعه يهدد وكر الغربيين ومهدهم.

إنَّ العصر يتمخض عن عالمٍ جديد، وإنَّ العالم القديم الذي حوّله الغربيون مكاناً للقمار ـ يقامر فيها بأمن العالم وكرامة الأمم ـ يلفظ نفسه.

إنَّ عقلها الجريء يغير على ثروة الحب، وينمو على حساب العاطفة، وإنَّ عماليقها، وثوارها قد طغى عليهم التقليد فلا يخرجون ـ حتى في ابتكارهم وثورتهم ـ عن الطريق المرسوم والدائرة المحدودة(١).

وأقول لكم إخواني:

أقول لكم: لو أن قريشاً الذين فقدوا أعضاء أسرهم في معركة بدر وفي ساحة أحد، لو رفعوا قضيةً ضدَّ المسلمين، وقالوا: إنا عرضنا الثراء، إنا عرضنا الزواج الكريم، إنا عرضنا الشرف العظيم على رسولكم، فأبى ورفض، وقال: ما بعثت لهذا، فكيف تعيشون هذه الحياة.

لا تهمُّكم إلا المعيشة الباذخة، لا يهمُّكم إلا تحقيق المطالب البشرية، وقضاء مآرب النفس، لا دعوة ولا جهاد.

توجد عبادة الله وحده، ولكن لا توجد الدعوة إلى أن يكون الدين كلُّه لله، وتنفذ شريعته وأحكامه.

إنا عرضنا عليكم الأموال، وعرضنا عليكم الفرص الكريمة، والمعيشة الطيبة الباذخة، وأسباب الترف، وعرضنا كلَّ ذلك على نبيكم عرضنا عليه الفرص الطيبة المتاحة لعيشةٍ باذخةٍ مترفةٍ، ناعمةٍ مشرفةٍ، فرفض وقال: ما بُعثت لهذا، إنما بُعثت لأدعوكم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، وليكون الدين واحداً، لأنَّ الدين عند الله الإسلام، إنا حاربناكم؛ لأنكم تريدون أن تقيموا الدولة للإسلام، ويكون الإقبال والتهافت على الإسلام، أنتم كنتم تقولون: العبادة لله وحده، هو المتصرف في الكائنات، وهو المدبر، وهو

(١) ملتقط من «روائع إقبال» للعلامة الندوي.

الخالق ، وهو الرازق ، وكنا ننكر هذا ، فوقعت الحرب بيننا وبينكم ، وقتل من قتل من عظمائنا ، وزعمائنا ، وأشرافنا.

لكنكم أقبلتم على الدنيا ، وتهافتم عليها تهافت الفراش على النار ، تريدون أن تكونوا باذخين ، مترفين ، وتتهيأ لكم الأسباب ـ أسباب النعيم ، أسباب الترف ، وأسباب التنعم واللذة ـ ما نرى فيكم هماً ، وما نرى فيكم حماساً إسلامياً ، وما نرى لكم السيرة الإسلامية الأولى التي كان يعيشها أصحاب نبيكم ـ ﷺ ـ.

معذرةً إليكم ، ومعذرةً إلى ضميري وشعوري الإسلامي ، إنَّ كثيراً من البلاد والمدن ، ولا سيما إذا دخل فيها غير مسلم ، دخل فيها دارس للتاريخ ، أو الذي يستطيع أن يقارن بين الماضي والحاضر ، رأى أن الحياة لا تختلف كثيراً ، إنما هو نشاطٌ لكسب المعيشة ، وحماسٌ لجمع المال والمادة ، وحماسٌ لقضاء الأهواء والشهوات ، وحرصٌ على التكالب على الدنيا ، وتفضيلٌ لغير مسلم على مسلم في التجارة والمصانع ، لمصلحةٍ تجاريةٍ ، ومردودٍ من الربح ، فهذه حقيقة مؤلمة.

يا إخواني: إن أسلوب الحياة التي يعيشها المسلمون الآن لا يتَّفق مع رسالة الإسلام اتفاقاً كلياً ، ولا يتَّفق مع أهداف الرسول ـ ﷺ ـ ، ولا يتَّفق مع الغاية التي خرج لأجلها المسلمون من المدينة إلى بدر ، وقاتلوا في سبيل الله على سبيل العموم.

فعلينا أن ننتبه إلى هذه النكتة ، وهو أنه قد صدَّق الله تبارك وتعالى ما قاله الرسول ـ ﷺ ـ ونصر المسلمين في بدر ـ على قلَّة عددهم وعلى ضآلة سلاحهم ـ فلمَّا نصرهم الله كان معنى ذلك أن الله صدَّق ما قاله الرسول ـ ﷺ ـ ، وكان عند الله قيمة لهذا:

«إن تُهلِك هذه العصابة لا تُعبد».

فأبقى الله سبحانه وتعالى المسلمين ، ونصرهم ـ على قلة عَدَدهم وعُدَدهم ـ على أعدائهم من قريش ، فنشأ مجتمعٌ إسلامي ، وحياةٌ إسلامية في عهد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وبعد وفاته في عهد الخلفاء

الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ وفي عهودٍ كثيرةٍ وطويلة.

ولكن الآن ـ مع الأسف ـ ضيعنا الشيء الكثير من هذه الأهداف، ومن هذه الغايات، ومن هذه الروح والعواطف، ومن هذه الدوافع الدينية الإيمانية، إنَّما نريد أن نرى هنا وفي كلِّ بلدٍ عربيٍّ يقطنه المسلمون، حياةً إسلاميةً سائرةً، ملحوظةً، ومرئية، مجربةً، ملموسةً، يلمس الإنسان تلك الحياة: الاستقامة على التوحيد، والاستقامة على الإيمان بالله، الاستقامة على إيثار الآخرة على الدنيا، الاستقامة على خشية الله تعالى، الاستقامة على تفضيل الإيمان والإسلام وأهلهما على من لا يدين بدين الإسلام، رغم ما يحصل من النفع على استخدامه، والاستقامة على العمل بشريعة الإسلام بكل شُعَبها رجالاً ونساءً، والاستقامة على دعوة العالم ـ حتى العالم الغربي ـ إلى عبادة الله وحده، وأن يكون الدين كله لله.

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه وتابعيه بإحسان إلى يوم الدين.

* * *

أوربا ، أمريكا ، وإسرائيل
كشف حقيقة صارخة، تنبيه على خطرٍ داهم

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في دار العلوم ـ ندوة العلماء ـ بمناسبة افتتاح العام الجديد للمعهد العالي للدعوة والفكر الإسلامي بدعوة من المسؤولين عنه .

بمناسبة افتتاح «المعهد العالي للدعوة والفكر الإسلاميِّ في ندوة العلماء عامه التعليمي الجديد ، أرى من المناسب أن أنبهكم ـ أيها الطلبة الأعزاء! على خطر الساعة وتحدِّي العصر حتى تكونوا على حيطةٍ وحذر ، وعلى بينة من الأمر ، وحتى تتسلحوا وتستعدوا لمواجهة الوضع بالاقتناع الكامل بصلاحية دين الإسلام لمسايرة هذا العصر المتطور العلمي ، وقيادته ، وإنقاذه من المتاعب والمآسي ، وحتى تستطيعوا أن تقنعوا غيركم بذلك بإزالة شبهاتٍ تحوم حول الإسلام وتعاليمه وأحكامه ، وإبراز محاسنه في أسلوب متين جذاب .

أقول بكل صراحة : إنَّ أمريكا وإسرائيل القوتين الصليبية والصهيونية قد أجمعتا رغم وجود أكبر تناقض بينهما على أنَّ الإسلام وحده يتحدَّى نظامهما السياسي والفكري ، ويحبط خطتهما للاستيلاء والسيطرة على العالم كله .

وإنَّ تأسيس هذا القسم للدعوة والفكر الإسلامي في الواقع تحقيقٌ للأهداف والغايات التي كان قد توخاها مؤسسو ندوة العلماء ، والقائمون عليها السابقون ، كان مؤسس ندوة العلماء الشيخ محمد علي المونغيري ـ رحمه الله تعالى ـ ، قد قام بدورٍ هامٍّ في مقاومة فتنة التبشير النصراني والقاديانية ، ومن خلال مناظراته مع المبشرين النصارى والقاديانيين ، شعر بحاجة العلماء المسلمين وخريجي المدارس الدينية الإسلامية إلى الاطلاع على الأخطار المستجدة وإعداد الدراسات المقارنة لمواجهتها ، وإيجاد القدرة والجدارة لإزالة الشعور بمركَّب النقص من الطبقة المثقفة التي تملك بصفةٍ عامة زمام القيادة سياسياً ، وفكرياً ، وعلمياً ، والإيمان الراسخ بأبدية الإسلام وخلوده وحاجة النوع البشري إليه في كل دور وعصر ، والاقتدار على إثبات أنَّ الإسلام وحده هو سفينة النجاة والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة ، وطريق الإنسانية الحقة بالدلائل القاطعة ، والبراهين الساطعة .

فنظراً إلى هذه الحقيقة الصارخة جاء ـ ولو بتأخير ـ تأسيس هذه الشعبة

الهامة سدّاً لحاجةٍ ملحّةٍ ، وتعبيراً لحلمٍ من الأحلام التي كان قد حلم بها مؤسسو ندوة العلماء.

فأولاً يجب عليكم أن تفهموا بأنَّ دين الإسلام دين أبديٌّ خالد: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩] يشمل هذا الإعلان الربانيُّ كلَّ زمانٍ ومكان ، كما أنَّ أسباب وطرق حصول رضا الله ، ومعرفة سخطه ، والحقائق الغيبية الأبدية لا تتغيَّر ، ولا تتبدل ، وعلى العكس من ذلك فإن الزمان دائماً في تغير وتطور بالطبيعة ، ولو لم يكن كذلك لما كان ذلك زماناً ، لأنه يضادُّ الوقوف والركود ، كما أنَّ الاتجاهات ، والنظريات ، والحركات ، والمتطلبات ، والانطباعات ، ودوافعها دائماً تتغيَّر ، وتتحرَّك ، وتنتقل من طورٍ إلى طور ومن لونٍ إلى لون ، تقوم مختلف الحركات في مختلف الأزمان ، وتحاك مؤامرات ، وتوضع مخططات ، وتنشأ جبهات ضدَّ الإسلام ، وتقوم حكوماتٌ جديدة ، وتتجدَّد مقتضياتها ، ومصالحها ، ومتطلبات أغراضها بوجهٍ مستمر ، سواءٌ كانت هذه المصالح سياسيةً ، أو حربيةً ، اجتماعية ، أو عائلية ، كما يقتضي كلُّ نظامٍ وحكومةٍ جوّاً صالحاً ، وأرضاً خصبة لها لتدين لها الرعية ، وتخضع أمامَ أربابها ، ويعتز باختيار حضارتهم وأسلوب حياتهم حتى في المأكل ، والمشرب ، والملبس ، وتحقيقاً لهذا الهدف لا تزال تُستخدم وسائل جديدةٌ ، وآلات حديثةٌ ، وخاصةً في هذا العصر العلمي الراقي الحديث.

يشهد التاريخ أنَّ المؤامرات ، والمخططات التي حيكت ، ودبرت ضدَّ الإسلام في الماضي باءت بالفشل ، ولم ينجح الأعداء فيما قصدوه بها من إلحاق الضرر بدين الإسلام ، ووَقْف مدِّه العظيم ، وخرج الإسلام ظافراً منتصراً من جميع هذه المشكلات العصيبة والمؤامرات الدقيقة التي كان بعضها يكفي للقضاء على ديانةٍ قويةٍ ، قديمةٍ ، أو تحريفها على الأقل ، كما وقع مراراً في تاريخ الأديان.

يدلُّ التاريخ على أن غارة التتر ، والحروب الصليبية كانتا حاسمتين للإسلام ، والعالم الإسلامي ، لا يوجد لهما نظير سعةً ، وعمقاً في تاريخ

العالم، وتختلفان عن المؤامرات والأخطار الأخرى التي واجهها الإسلام في رحلته الطويلة الواسعة، كان يبدو أنهما تقضيان على الإسلام بوصفه دعوةً عالميةً، وقوةً سياسيةً وحريةً دينيةً، وتجعلانه محدوداً في رقعةٍ من الأرض مخصوصةٍ، أو في عنصرٍ خاصٍّ، أو في قوميةٍ مخصوصة، لا نفوذ له، ولا شخصية، على المستوى العالمي.

حدثت الغارات الصليبية في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، وغارات التتر في القرن السابع الهجري القرن الثالث عشر الميلادي بقيادة جنكيز خان، وهولاكو.

وأول جيش للصليبيين توجَّه إلى الشام سنة ٤٩٠ هـ، واستولى في ظرف عامين على مدن «الرها» و«أنطاكية» وأكثر قلاعها، وأخذوا بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م) حتى توسَّعت أطماع النصارى إلى أن همَّ «ريجي نالد» والي كرك الزحف على الحرمين الشريفين وتفوَّه بما يتضمن الاعتداء على مدفن الرسول ﷺ وأبدى نواياه الخبيثة، ففي هذه المرحلة الخطيرة قيض الله تبارك وتعالى لقمع هذه الفتنة العمياء، وردَّ هذا الخطر العظيم على أعقابه السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي يندر نظيره في الإخلاص، والورع، والتقوى، والشغف بالجهاد، والحنين إلى الشهادة، والاستماتة في سبيل الله، والغيرة الدينية، والحمية الإسلامية، وحبِّ النبيِّ الكريم ﷺ، هزم السلطان صلاح الدين الأيوبي الصليبيين شرَّ هزيمة، وذاد عن حوزة العالم الإسلامي، وأعاد مجد الإسلام، وعزَّه وكرامته، وأدخل على روح النبي العالية ﷺ الغبطة والسرور، واجتمع المسلمون جميعاً تحت رايته الإسلامية ضدَّ الصليب الحاقد.

ولا يغيبنَّ عن البال أنَّ التقدم والازدهار في التمدُّن، والحضارة، والانتشار، والشيوع في العلوم التجريبية والطبيعية الذي شاهده العالم في قرونٍ متأخرة لم يكن في ذلك الوقت، وكذلك لم يكن لدى أوربا آنذاك ما جاءت به فتوحاتُها، واستعماراتُها فيما بعد من مشروع صوغ العالم صياغةً جديدةً، وإحداث ثورةٍ في الفكر والحضارة، ومشروع غسيل

المخ ، لأجل ذلك لم تكن هذه الغارات إلا غارةً عسكرية فحسب ، ولم يكن هدفها إلا الاستيلاء على المقدسات الإسلامية فحسب ، ولم يكن هدفها إلا الاستيلاء على المقدسات الإسلامية فحسب ، وأخذ الثأر من المسلمين الذين استولوا على المملكة الصليبية الشرقية ومقدساتها ، ومولد المسيح نفسه أصبح تحت حضانتهم وسيطرتهم ، لأجل ذلك فإنَّ الأخطار التي أحدقت بالعالم الإسلامي بعد ذلك بعدة قرون بسبب استيلاء أوربا وأمريكا على العالم سياسياً ، وعلمياً ، وحضارياً ، وبسبب استعمار الغرب البلدان الشرقية ، وإصابة العالم الإسلامي بالانحطاط ، لم يكن أي شيء من هذا في ذلك الحين .

وكان «ريجي نالد» الصليبي الحاقد والي «كرك» قد طمع في الإغارة على الحرمين الشريفين أيضاً ، وكما يقول المؤرخ الشهير لين بول : نهض لمقاومة هذا الخطر عماد الدين زنكي ، وأكمل مهمة أبيه ابنه البار الملك العادل نور الدين الزنكي ، ولكن النجاح التام والفتح المبين كان منتظراً للسلطان صلاح الدين الأيوبي الذي هزم القوة الصليبية هزيمةً نكراء في معركة حطِّين في يوم السبت ١٤/ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ (تموز ١١٨٧ م) ، وفتح الله للمسلمين فيها فتحاً مبيناً ، وبالتالي حرر بيت المقدس من براثنها ، فذهبت الأطماع الخبيثة ، والنوايا الشنيعة للصليبيين هباءً منثوراً ، وذلك بفضل الله تبارك وتعالى ، ونصرته ، وحمية السلطان صلاح الدين الأيوبي الدينية المتدفقة ، وغيرته الإيمانية المتأججة .

انتقل السلطان إلى رحمة الله ـ عز وجل ـ في اليوم ٢٨/ صفر سنة ٥٨٩ هـ (١١٩١ م) ، رحمه الله رحمةً واسعةً؛ وجزاه أحسن ما يجزي به عباده المجاهدين الصالحين الأخيار .

لا يخفى عليكم أنَّ أوربا في القرن الثاني عشر الميلادي لم تكن على ما وصلت إليه في القرن الثامن عشر ، والتاسع عشر الميلادي من اكتشافاتٍ علمية ، واختراعاتٍ جديدةٍ، ومطامع استعمارية ، وإعدادٍ للآلات الحربية، وصناعةٍ للأسلحة الفتاكة ، وترويجٍ للأفكار اللادينية ، والنظريات المادية

البحتة ، ونفوذٍ سياسيٍّ ، وسيطرةٍ اقتصادية ، لأجل ذلك فإنَّ الغارات الصليبية على عنفها ، واتساعها ، وتنظيمها ، ومع أنها لو نجحت ـ لا قدَّر الله ـ لمهدت الأرض لإشاعة ونشر النصرانية وغلبتها على المقدسات الإسلامية ، وأصابت المسلمين بالذلِّ والهوان سياسياً فحسب ، لم تكن خطراً مثل الخطر الذي واجهه العالم الإسلامي والعربي في القرن التاسع عشر ، والعشرين ، وخاصةً بعد ما عرضت بريطانيا وفرنسا حضارتيهما ، وفلسفتيهما للحياة إلى العالم ، وجعلتاهما رمزاً للتنوُّر والتقدُّم ، وتقليدهما ، وتبنيهما؛ لائقاً بالاعتزاز والافتخار في البلدان الإسلامية والعربية المستعمرة.

وإنَّ غارات التتر كانت مجرد غزوٍ عسكري ، لم يكن مدعماً بحضارةٍ ، أو عقيدةٍ ، أو دعوةٍ ورسالة ، والتجارب تدلُّ على أنَّ الفاتح العسكري الناجح لا يتقيَّد بالحدود ، والثغور العسكرية ، بل يؤثر في الشعب المفتوح بأسلوب حياته ، وأفكاره ، وعقائده ، وآدابه ، وكما قلت لكم: كان التتار لا يملكون ديناً ، ولا حضارةً ، ولا دعوةً ولا رسالةً. لأجل ذلك لم يشكِّل استيلاؤهم ، وسيطرتهم عسكرياً خطراً مثل الخطر المعاصر الذي أريد أن أنبهكم على خطورته ، وفظاعته ، وسعته ، وعمقه ، وممَّا لا شك فيه أنَّ غارة التتار لا يوجد لها مثيل في العنف ، والقسوة ، والهمجية في تاريخ الإنسانية كلِّها فضلاً عن التاريخ الإسلامي المحدود ، إنَّها هزَّت العالم الإسلامي هزَّاً عنيفاً من أقصاه إلى أقصاه ، كان اتجاه التتار إلى جهة يرادف معنى التدمير ، والإبادة ، والذلة ، وانتهاك الأعراض ، فكلُّ بلادٍ أو دولةٍ توجهوا إليها أبادوها ، وخرَّبوها ، وإنَّ العالم الإسلامي كلَّه ولا سيما الجزء الشرقي منه وقع تحت هذه الفتنة العمياء عن بكرة أبيه ، دخل هؤلاء الوحوش بعد ما خضبوا أرض العالم الإسلامي كله بدماء أهله ، وأتوا عليه في بغداد دار الخلافة الإسلامية ومركز العلم والمدنية الأكبر في ذلك العصر بقيادة حفيد جنكيز ، هولاكو خان ، ودمَّروها تدميراً ، فتارةً يحمرُّ ماء دجلة بدماء أهل بغداد ، وأخرى يسودُّ بسبب إلقاء الكتب المحرقة فيه ، وكانت مناراتٌ عاليةٌ ترفع برؤوس المسلمين المقطوعة تبدو من بعيد ، فغلب على

الناس التشاؤم واليأس ، حتى بدؤوا يعتبرون التتار بلاءً سماوياً ، ومقاومتهم مستحيلةٌ ، وانهزامهم فوق القياس ، حتى سار المثل : «إذا قيل : إن التتر انهزموا فلا تصدق» ، ولكن ذلك إنما كان هجوماً عسكرياً مدوِّخاً مدمِّراً ، لم يفكر قادته في حينٍ من الأحيان في أن يقدموا بديلاً للدين ، أو الحضارة الإسلامية ، فكان غير جديرٍ بالبقاء طويلاً ، وغير لائقٍ بملء فراغ ، أو إبدال حضارةٍ بحضارة ، أو دينٍ بدين ، هذا وفي جانبٍ آخر استغلَّ العلماء الربانيون ، والدعاة المخلصون ذلك الفراغ الهائل الفكريَّ ، والعلميَّ ، والعقائديَّ ، والدعويَّ الذي كان يتوافر في حياة التتار ، فقاموا بتعريفهم بالحضارة الإسلامية ، والقانون الإسلامي ، والرسالة الإسلامية ، فاستطاع بحول الله وتوفيقه العلماءُ الربانيُّون ، والوزراءُ المسلمون نقلهم من لا دين إلى الدين ، ومن الجاهلية إلى الإسلام ، وكان من الطبيعي أيضاً أنَّ مثل هذه الفتوحات لا تبقى طويلاً بهذا الفراغ الشامل .

وهنا نريد أن نذكر تلك القصة الغريبة النادرة المؤثرة ؛ التي غيرت مجرى التاريخ ، وجعلت العدوَّ اللدود ولياً حميماً ، يقول آرنولد في كتابه الشهير Preaching of Islam «الدعوة إلى الإسلام» وهو يذكر سبب شيوع الإسلام في فرع دولة التتار الإيرانية والتركستانية : «إنَّ إسلام تغلق تيمور خان ملك كاشغر كان على يد رجل من أهل الورع والتقوى في مدينة بخارى ، يقال له : الشيخ جمال الدين ، وذلك أنَّ تغلق كان قد خرج ذات مرَّةٍ للقنص ، فوجد الشيخ مع جماعة من التجار في الأراضي المخصصة للصيد له ، فغضب غضباً شديداً معتبراً ذلك شؤماً ، ونحساً ، فأمر بأن توثق أيديهم وأرجلهم ، وأن يمثلوا بين يديه ، فلما مثلوا ؛ سألهم تغلق في غضب : كيف دخلتم هذه الأرض؟ فأجاب الشيخ بأنَّهم غرباء ، ولا يعلمون أنهم يجوسون أرضاً مخصصة ، ولما علم تغلق أنهم من الفرس قال : إنَّ هذا الكلب أكرم أم الإيراني؟ علماً بأن التتار كانوا يعتقدون بالفرس الشؤم والنحس ، ولأجل ذلك كان تغلق قد أمر بحراسة مكان القنص كلِّه لكيلا يتوجه إيراني إليه ، بينما أراد الله تبارك وتعالى أمراً آخر ، أراد أن يدخل هذا الشعب الهمج القوي الباسل الشجاع في حظيرة الإسلام ، وأن يغيِّر عدواً لدوداً للإسلام

حارساً أميناً ومعارضاً معانداً له ، ذائداً مدافعاً عنه ، فأجاب الشيخ جمال الدين: «نعم ، قد كنا أخسَّ من الكلب ، وأنجسَ ثمناً منه لو أننا لم ندن بالدين الحق» ولمَّا راع هذا الجواب الملهم تغلق ، أمر بأن يقدَّم إليه ذلك الفارس الجسور عند عودته من الصيد ، ولما خلا به سأله: ماذا تعني بهذه الكلمات؟ وما ذلك الدين؟ فعرض عليه الشيخ قواعد الإسلام في غيرة وحماسٍ انفطرت لهما قلب تغلق حتى كاد يذوب كما يذوب الشمع ، وصور له الكفر بصورةٍ مروعةٍ ، اقتنع معها بضلال معتقداته وفسادها ، وقال: «ولكني إذا اعتنقت الإسلام الآن فلن يكون من السهل أن أهدي رعاياي إلى الصراط المستقيم ، فلتمهلني قليلاً ، فإذا ما آلت إليَّ مملكة أجدادي فعد إليَّ».

هذا ما ذكره آرنولد في كتابه: «الدعوة إلى الإسلام» ولكن المصادر الأصيلة التركية ، والفارسية تذكر هذه القصة في أسلوب أقوى وأعظم تأثيراً ودقَّةً ، فقد جاء فيها: سأل الملك تغلق: هذا الكلب أفضل أم أنت؟ فقال الشيخ جمال الدين: «الآن لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال» ، فقال الملك: ما تعني بذلك؟ الكلب بين يديك ، ويعرف كل إنسان قيمته ، لا أكاد أفهم أيَّ شيءٍ يمنعك من أن تجيب عن هذا السؤال في هذا الوقت؟ فقال الشيخ: إن فاضت روحي وأنا مؤمنٌ مسلمٌ فإني أفضل من الكلب ، وإن متُّ كافراً كان الكلبُ أفضل منِّي بكثير. وقع جواب الشيخ الصادر من قرارة النفس من الملك موقع السهام المسددة ، فقال: إذا ما علمت تتويجي فتعال ، فلم يزل الشيخ يعدُّ الأيام بتوقٍ شديدٍ ، وتلهفٍ بالغ في انتظار تلك الساعة المباركة ، متى يستبشر بنبأ تتويج تيمور ، فيزف إليه أكبر نعمة ، وأغلى هديةٍ في الدنيا والآخرة ، ولكن لم تتحقق أمنيته العظيمة هذه ، وحان أوان رحيله إلى الله تبارك وتعالى ، فقال لابنه رشيد الدين: «لعلَّ الله ـ عزَّ وجل ـ يريد أن يسعد تغلق تيمور بنعمة الإسلام على يديك ، فإنه سيصبح ملكاً عظيماً فلا تنس أن تذهب إليه ، وتقرأ عليه مني السلام ، ولا تخش أن تذكره بوعده الذي وعدني به.

ولم يلبث رشيد الدين سنوات عديدة إلا وقد تمَّ تتويج تغلق تيمور ،

فخرج قاصداً تغلق، تنفيذاً لوصية أبيه وحرصاً على نيل سعادةٍ وأجرٍ لهداية ملكٍ كافرٍ عظيمٍ ورعيته، ولكن كيف يظفر بالمثول بين يدي الملك، فكَّر، وفكَّر حتى اهتدى إلى حيلةٍ غريبة طريفة، بسط سجادته على مقربةٍ من القصر الملكي، ولم يزل يؤذن ويصلِّي، ومضت على ذلك أيامٌ عديدةٌ ولم يبلغ أذن الملك صوت أذانه، إلا أنه سمعه ذات يومٍ وقت الفجر، فأقلق ذلك الصوت نفسه، وأثار غضبه، فصاح: ما هذا الصوت؟ من يصيح في هذا الوقت، ويزعجني ويؤرقني؟! قيل: هنا على مقربة من القصر رجلٌ يقوم، ويجلس، ويصيح هذه الصيحة، فأمر بإحضاره ومثوله بين يديه، وهنا أدَّى رشيد الدين رسالة أبيه، وأمانته، فذكر الملك ما كان قد حدث بينه وبين أبيه الشيخ جمال الدين، والوعد الذي قد قطعه له، قال الملك: حقاً! ما زلت أذكر منذ اعتليت عرش آبائي، فقال رشيد الدين: إني أشهد أن أبي مات على الإيمان، وفاضت نفسه، وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فأقرَّ الملك بالشهادتين، وأعلن إسلامه، ثم دعا وزيره، فقال الوزير: إني مسلم منذ زمان.

وهكذا دخل هذا الفرع من التتار، وفروعهم الأخرى أيضاً في الإسلام، وذلك في بضع سنين، فتجلَّت هذه الحقيقة جلاء الشمس في رائعة النهار مرةً أخرى، وهي: أنَّ الإسلام لم ولا يزال يملك أكبر نفوذ، ويتمتَّع بأغرب موهبةٍ في تسخير القلوب، والنفوس، وكسب الأنصار، والأصدقاء من نفس الأعداء الألداء، والمعارضين المعاندين، وإن التتر لم يسلموا رسمياً فحسب، بل برز فيهم عددٌ كبيرٌ من العلماء، والفقهاء، والمجاهدين، والدعاة، والربانيين، وأهل الصدق واليقين، وأدَّوا دورهم الكبير في حماية حمى الإسلام في ظروفٍ دقيقةٍ، ولحظاتٍ عصيبةٍ من التاريخ، يقول مؤرخ ذو بصيرةٍ نافذة: «إن هناك شعبين اثنين دخلا في الإسلام بصفتهما شعبين، لم يكن فرد من أفرادهما إلا وقد دخل في الإسلام، هما: العرب والترك، وإني أقول: التتار كذلك دخلوا في الإسلام عن بكرة أبيهم، والواقع أنَّ كلَّ عصر يتطلَّب الدعاة الحكماء الذين يطلعون على نفسية المخاطب، وأسلوب العصر، ولغته، ويقتدرون على

التكلم بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما قال الله ـ عز وجل ـ في كتابه الحكيم : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] لو قمنا بعمل الدعوة طلباً لرضا الله ـ عز وجل ـ فحسب ، وبالحكمة ، فلا مانع أن تثمر الدعوة أثمارها في هذا العصر أيضاً ، فإنها تؤتي أكلها كلَّ حين بإذن ربها ، ولا تبديل لكلمات الله ، وفعلاً نشاهد آثار الدعوة الإسلامية في كل بقعةٍ من بقاع العالم ، ولكن أكبر تحدٍّ ، وأعظم خطرٍ في العصر الراهن أن قوتي العالم العظيمتين ، الصليبية والصهيونية قد أجمعتا على القضاء على الحميَّة الدينية ، والغيرة الإسلامية ، وانتزاع روح الاعتزاز بالدين ، والافتخار بالانتماء إلى دين الإسلام ، وإلى خاتم الأنبياء محمد رسول الله ﷺ من الأمة الإسلامية ، وإحلال الشعور بمركب النقص ، والاستحياء بإظهار نسبتها إلى الإسلام محلَّ ذلك ، لقد كنت قلت في الندوة العلمية حول الاستشراق والمستشرقين والإسلام؛ التي كانت قد عقدتها أكاديمية العلامة شبلي النعماني بأعظم كره (الهند سنة ١٩٨٠ م) : إنَّ القوى الغربية قد أصابت حيث أدركت أنَّ مجرد الغلبة العسكرية ، والتفوق ، والتنظيم ، والاستقرار السياسي والأسلحة الحديثة الفتاكة ، والأساليب الحربية الدقيقة ، والاستراتيجيات العسكرية العلمية لا تكفي لاستعباد شعبٍ وبلدٍ وإبقائهما في العبودية إلى مدةٍ طويلة ، بل لتحقيق هذا الهدف «النبيل» لا بدَّ من إيجاد الشعور بمركب النقص في ذلك الشعب ، وإزالة الحمية الدينية والغيرة الملِّية من قلوب أهله حتى لا يستطيع أحدٌ منهم أن يقوم أمام الطبقة الحاكمة مرفوع الرأس شامخ الأنف ، وتحقيقاً لهذا الغرض قامت حركة الاستشراق برعاية الحكومات الكبرى في العالم . ولكن كثيراً من المسلمين يحسنون بها الظن ، ويعتقدون أنَّ المستشرقين يشتغلون بالتحقيق ، والبحث ، والدراسة ، والتصنيف ، والتأليف خدمةً للعلم ، ولمجرد إشباع غرائزهم العلمية ، وأذواقهم التحقيقية ، كلَّا ! بل تعمل وراء هذه النشاطات والأعمال أغراضٌ استعمارية ، وسياسيةٌ ، ورعايةٌ حكومية ، هذا خطرٌ عظيمٌ لعصرنا هذا ، يجب عليكم أن تطَّلعوا على أبعاده ،

وأطرافه، ومراكزه، ووسائله، كان في أوربا وأمريكا جنودٌ مجندةٌ من المتشرقين تتمتَّع بكلِّ نوعٍ من الرعاية والمعونة. صبت جهودها على تأليف الكتب التي لا تهاجم الإسلام مباشرة، فإنهم كانوا يعرفون جيداً أنَّ الهجوم على الإسلام مباشرةً يؤدي إلى استفزاز المسلمين، وإشعال غيرتهم الإيمانية، وحميتهم الإسلامية، وإحداث ردود فعلٍ فيهم ضدَّ ذلك، فغيَّروا الأسلوب القديم بأسلوبٍ جديدٍ علميٍّ أخطر منه، يمتاز بأن القارىء لا يكاد يشعر بسهولةٍ بما يدسه المؤلف بشطارةٍ ودهاءٍ في كتابه من سموم وأكاذيب وأباطيل، ومن معانٍ معارضةٍ للحقائق الثابتة، وذلك في ظروف الدلائل البراقة، والبراهين الخدَّاعة، يؤثر كلُّ ذلك على قارىءٍ وادع ساذج، ويجعله ينساق إلى ما يشاء المؤلف المتشرق أن يسوقه إليه، وهو يشعر بأنَّ ذلك هو الحق، وتتزعزع ثقته بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، الفقه الإسلامي، ويعتريه الشعور بمركب النقص نحو حضارته، وثقافته، وتاريخه. إنَّ من يقرأ كتابات المتشرقين يبدأ يظنُّ أنَّه كان على أدنى مستوى من العلم، والمعرفة، والثقافة حتى الآن، وأنَّه لم يكن مطلعاً على السقطات والنقائص المتوافرة في تراثنا الإسلاميِّ، لم يتمَّ تدوين الحديث والفقه إلا بتأخيرٍ كثيرٍ، ولا يكاد يعرف هذا المسكين الحِكَم والمصالح العظيمة التي لجملتها هذا التأخير، تاريخ تدوين الحديث النبويِّ الشريف لوجدنا أنَّ توفيق الله وتأييده كان حليفاً لهذا العمل الجليل، بل كان معجزةً، وآيةً من آيات قدرة الله تبارك وتعالى، ساهم في هذا العمل من بخارى، وتركستان عباقرةٌ كانوا آياتٍ في الذاكرة والذكاء، لا يوجد لهم نظير من قرونٍ وأجيالٍ في التاريخ، وعلى سبيل المثال نذكر هنا قصَّةً من حياة الإمام البخاريِّ، يرويها أبو أحمد بن عدي الحافظ، فيقول: سمعت عدَّة من مشايخ بغداد يقولون: «إنَّ محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد، فسمع به أصحاب الحديث، فاجتمعوا، وأرادوا امتحان حفظه، فعمدوا إلى مئة حديث، فقلبوا متونها، وأسانيدها، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسنادٍ آخر وإسناد هذا المتن لمتنٍ آخر، ودفعوها إلى عشرة أنفس، لكلِّ رجل عشرة أحاديث، وأمروهم إذا حضر المجلس أن يلقوا ذلك على

البخاري ، وأخذوا عليه الموعد للمجلس ، فحضروا وحضر جماعةٌ من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين ، فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث ، فقال البخاري ، «لا أعرفه» فما زال يلقي عليه واحداً بعد واحدٍ حتى فرغ والبخاري يقول: «لا أعرفه» وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ، ويقول: «فهم الرجل» ومن كان لم يدر القصة يقضي على البخاري بالعجز ، والتقصير ، وقلة الحفظ ، ثم انتدب رجلٌ من العشرة أيضاً ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال: «لا أعرفه» فسأله عن آخر؟ فقال: «لا أعرفه» ، فلم يزل يلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ من عشرته ، والبخاري يقول: «لا أعرفه» ، ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة ، حتى فرغوا كلهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة ، والبخاريُّ لا يزيدهم على: «لا أعرفه» فلما علم أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول ، فقال: أما حديثك الأول: فقلت كذا وصوابه كذا ، وحديثك الثاني كذا ، وصوابه كذا ، والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة. فردَّ كلَّ متنٍ إلى إسناده ، وكلَّ إسنادٍ إلى متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك ، فأقرَّ الناس له بالحفظ ، وأذعنوا له بالفضل» قال الحافظ ابن حجر بعد ما حكى هذه القصة: «قلت: هنا يخضع للبخاري! فما العجب من رده الخطأ إلى الصواب ، فإنه كان حافظاً ، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرَّةٍ واحدة»(١).

كذلك لما احتاجت الأمة الإسلامية إلى حركة تدوين الفقه قيض الله تبارك وتعالى لهذه المهمة الجليلة رجالاً يعدون من الأفذاذ والنوابغ الذين أنجبتهم الإنسانية فقهاً ، وأمانةً ، وإخلاصاً ، وكفايةً ، كان منهم الأئمة الأربعة أبو حنيفة (م ١٥٠ هـ) ومالك (م ١٧٥ هـ) والشافعي (م ٢٠٤ هـ) وأحمد بن حنبل (م ٢٤١ هـ) ، وقد رزق الله تبارك وتعالى هؤلاء الأئمة الفقهاء تلاميذ نجباء ، يعجز تاريخ التشريع كله عن الإتيان بمثلهم ، قاموا

---

(١) مقدمة فتح الباري: ص/ ٤٨٦ ، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

بعلمهم، وزادوا في ثروته، ولمَّا ازدهر التفكير العقلي البحت بانتقال العلوم اليونانية، والسريانية إلى العربية، وأقبل الناس عليها، وخاصةً في العراق ودار الخلافة بغداد، وسيطرت نظريات وعقائد المعتزلة على كثيرٍ من العقل والأذهان، وصار كثيرٌ من طلبة العلم الشبان، وممن يحبون الظهور والتفوق على الأقران، يظهرون الاعتزال تظرفاً، وتنوراً، وأصبح شبه المقرر لدى كثيرٍ: أنَّ المعتزلة يمتازون بدقَّة النظر، واتساع الفكر، والتحقيق، وتزعزعت عقائد كثير من المسلمين، وحدث تبلبلٌ فكريٌّ بشيوع الفلسفة وأفكار «الباطنية» في المجتمع الإسلامي، ففي هذا الوضع نهض المتفلسف العصيب الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل من ذرية أبي موسى الأشعري، والإمام أبو منصور الماتريدي، والإمام الغزالي، والإمام ابن تيمية الذين قاموا بالدفاع عن عقيدة أهل السنة في حماسةٍ وإيمان، ودحضوا حجج الفلاسفة، والباطنية، حتى عادت ثقة أتباع أهل السنة بعقيدتهم إلى نفوسهم، وزالت عنهم مهابة الفلاسفة، وسيطرتهم.

وكذلك لم يزل ولا يزال ينهض في كل عصرٍ ومصرٍ مصلحون، ومجدِّدون، وعلماء ربانيون لمسح الغبار عن وجه الإسلام المشرق، بإزالة البدع، والخرافات، والعادات، والتقاليد الجاهلية، وترويج العقيدة الإسلامية الصحيحة، وإشاعة السنة النبوية، يقوم هؤلاء المجدِّدون بصيانة الإسلام من تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين.

والدليل على أنَّ الاستشراق وأعماله التحقيقية والتأليفية كانت تهدف خدمة الاستعمار الغربي: أنَّ الاستشراق ونشاطاته قد ضعفت ضعفاً، وكسدت كساداً بعد ما طوى الاستعمار الغربي بساطه من البلدان الشرقية، وليس ذلك مصادفةً، ولا أصاب وسائل الإعلام الانحطاط والضعف، بل ازدهرت وتقدَّمت أكثر بكثير من ذي قبل، وقطعت أشواطاً بعيدة في الرقي والتقدُّم، ولكن نشاهد مع ذلك أنَّ حركة الاستشراق قد أصابها الركود والجمود، والآن لا يصدر عن المتشرقين كتاب، ولا مقال قيم إلا نادراً، وفوق ذلك يخلو عملهم الآن مما كان يتسم به قبل من تحقيقٍ، ودقَّة نظر، وسعة دراسة، ومعلومات. إنَّ دلَّ ذلك على شيءٍ فإنه يدل على أنهم لم

يكونوا يتوخَّون وراء حركة الاستشراق إلا زعزعة عقيدة المسلم ، وإضعاف ثقتهم بدينهم ، وصلاحيته لمسايرة الزمان وتطوراته ، وإثارة الشكوك والشبهات حول القرآن الكريم ، ككتابٍ أنزله الله تبارك وتعالى على خاتم الأنبياء محمد ﷺ وككتابٍ محفوظٍ ومصونٍ من كلِّ نوع من التحريف والتبديل ، وحول الحديث النبوي الشريف والسيرة النبوية ، والتاريخ الإسلامي والفقه الإسلامي وعلم الكلام ، وإحداث سوء الظن بالشخصيات الإسلامية وكلِّ ما يمتُّ بصلةٍ ما إلى الإسلام ، فأكبر خطر في هذا العصر أنَّ الجيل الجديد المثقف قد اعتراه الشعور بمركب النقص ، وما المسؤول عن ذلك إلا الكتب الإنجليزية ، والفرنسية التي قام بتأليفها المستشرقون ، ويطالعها هذا الجيل بشعور من التنور والاحترام والتقديس ، فإنَّها تحمل مواد سامة ومعارضةً للمذاهب والأديان السماوية بصفةٍ عامة ، وللإسلام بصفةٍ خاصة .

إنَّ أعظم ما يحزن ، وأكبر ما يقلق مسلماً بصيراً : أنَّ البلدان العربية عادت هدفاً لأمريكا ، وإسرائيل ، ونجح هجومهما وغزوهما عقلياً وفكرياً إلى حدٍّ كبير ، حتى إنَّ الطبقة المثقفة التي نشأت ، وترعرعت في أحضان الثقافة الغربية ، والتي تعتلي بصفةٍ عامةٍ عرش الحكومة وتتقلد مقاليد الأمور والحكم ، وتملك زمام الفكر والتعليم والتربية ، قد أصابها الشعور بمركب النقص ، والوهن والضعف في إيمانها وعقيدتها واليأس من مستقبل الإسلام ، وتتصدر البلدان العربية الإسلامية مصر ، والجزائر ، حيث بلغ خوف قيادتهما من الانتفاضة الإسلامية إلى حدٍّ كبيرٍ من الحساسية الزائدة ، ومن نتائج هذا التخوف والذعر والإشفاق والحذر الشديد من وجود الشعور الديني القوي في الجماهير ، والاعتزاز بالدين ، والطموح إلى أن تسود الحياة الإسلامية بجميع شُعبها ومناحيها على البلاد ، إنه نشأ صراع فكري وعاطفي بين الطبقات الحاكمة أو القائدة الزعيمة ، وبين الجماهير والشعوب المسلمة ، ولا يخفى على من له إلمام بتاريخ استقلال الجزائر وطرابلس والمغرب ، ومصر من الاستعمار : أنَّ الذين قاموا بقيادة حركة التحرير ، وغامروا في سبيل ذلك بالنفس والنفيس والغالي والرخيص ، هم

العلماء والمشايخ وخريجو المدارس الدينية العربية، وزعماء الحركات الإسلامية، ولكن اليوم عاد هؤلاء العلماء والدعاة أكبرَ خطرٍ للبلاد وأمنها وسلامتها، واعتبر الإمام حسن البنا وسيد قطب خطراً فاستشهدا مع كثير من زملائهم ورفاقهم، فكلُّ ما يمت إلى الإسلام بصلةٍ، وما يظهر من عملٍ ببعض التعاليم الإسلامية على مستوى فردي، أو ظهور بمظهر إسلامي والإكثار من الاستشهاد بالكتاب والسنة، والإنكار على بعض المنكرات، وتقليد الغرب تقليد الأعمى فضلاً عن المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية، وتمثيل الحياة الإسلامية، والطراز الإسلامي، كل ذلك يشكِّل في نظر حكومة الجزائر خطراً أكبر من هجوم أجنبي، أو غارةٍ من عدو، بل تهاب هذه الحكومات من الصحوة الإسلامية أكثر مما تخاف من إسرائيل، وهجومها المفاجىء. هذه مأساة كبيرة، إنَّ بلداً إسلامياً عربياً قد قاد العالم الإسلامي والعربي فكرياً، وعلمياً، وأدبياً في الماضي زمناً طويلاً، بل يقود اليوم أيضاً، ويحتضن أكبر مؤسسة تعليمية، وتربوية مثل: «الجامع الأزهر» حيث يعلم أفلاذ كبد إفريقية والبلدان الإسلامية والعربية بكثرةٍ كاثرةٍ، وعددٍ هائل، وقد أنجبت عدداً كبيراً من العلماء، والدعاة، والمصنفين، والمحققين والأصوليين، والشعراء، والأدباء، والمصلحين، والقضاة، مثل هذا البلد تحارب قيادته الإسلام والشريعة الإسلامية بجميع طاقاتها ووسائلها وبشيءٍ من العنف والهمجية.

إنَّ التحدِّي المعاصر والوضع الباعث على القلق أنَّ البلدان العربية تتخوَّف من الدعوة الإسلامية، وفي جانبٍ آخر لا توجد بها حركةٌ منظمةٌ قويةٌ، أو جماعةٌ تجذب الناس إليها، أو داعية يستثير فيهم الحمية الإسلامية، والغيرة الدينية، ويشعل شعلة الإيمان، وينفخ روح الجهاد، وحبَّ النبيِّ الكريم ﷺ الذي يغلب على كلِّ حبٍّ، ويرسخ الاستهانة بزخارف الحياة والحنين إلى الشهادة، وعاطفة التفاني في سبيل الله تعالى.

إنَّ البلدان العربية الإسلامية التي ندين لها في ديننا، وعقيدتنا، ومعرفتنا لحقيقة الإنسانية، والمشاعر النبيلة، وغايتنا، وواجباتنا هي التي بلغت الرسالة الإلهيـة الأخيرة إلى مشارق الأرض ومغاربها، وهي مـنَّـةٌ

عظيمةٌ على النوع البشري كلِّه، لا تعدلها جميع المنن التي منَّ بها عليه الحضارات الكبرى الراقية والعظماء من الملوك، وكبار الفلاسفة، والعلوم الإنسانية، والمعارف البشرية جمعاء.

إنَّ الدعوة الإسلامية قد خفت صوتها، بل اختنق في العالم العربي اليوم وبعد قمع حركة «الإخوان المسلمون» لا يكاد يسمع حسيسٌ من الدعوة إلى الله، وإلى تطبيق الشريعة على جميع المجالات، وإلى رفض القوانين الوضعية المطبقة على هذه البلدان، وسبب ذلك أنَّ الدعاة المسلمين الأكفاء، والعلماء الربانيين، وأهل الحركات الدينية اضطروا للهجرة ومغادرة الوطن بما نالوه من أرباب السلطات والحكومات من اضطهادٍ، وظلمٍ، وعنفٍ، وبربريةٍ، ونتيجة لذلك قد أتى على مصر نفسها حينٌ من الدهر لم يكد يتصور أهلها، ولا يدور في خلدهم بصفةٍ عامةٍ: أنَّ المسلمين أيضاً يستطيعون أن يؤثروا على عالم اليوم، لما صدر كتابي: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» بادىء ذي بدء من القاهرة كتبت صحيفةٌ مصريةٌ متعجبةٌ معلقةٌ على الكتاب، وكنت مقيماً في مصر يومذاك «هل المسلمون أيضاً يستطيعون التأثير على العالم؟ هل خسر العالم شيئاً بانحطاط المسلمين؟ هل فقد شيئاً بغيابهم عن قيادة العالم، كتابٌ غريب؟! عنوانه مثيرٌ للدهشة والعجب! ما للمسلمين، وعددهم، ووضعهم، ووسائلهم وللتأثير على العالم؟».

وإن كنت قد استوحيت ذلك من شعر محمد إقبال ـ رحمه الله تعالى ـ في قصيدته: «برلمان إبليس» في ديوانه الأخير: «أرمغان حجاز» (هدية الحجاز)، وصف، وصوَّر فيها جلسةً برلمانية، حضرها وتناقش فيها شياطين العالم، وكلاء النظام الإبليسي، واستعرضوا فيها الاتجاهات والحركات والمذاهب السياسية العصرية التي تهدِّد مهمَّتهم في العالم، وتحبط مساعيهم، أو تعرقل سيرهم، وأبدوا فيها آراءهم، ووجهات نظرهم، فحكم على هذه الآراء والدراسات وعارض أكثرها في ضوء تجاربه الواسعة. وقال: «إن كنت خائفاً فإني أخاف أمَّة لا تزال شرارةُ الحياة والطموح، كامنةً في رمادها، ولا يزال فيها رجالٌ تتجافى جنوبهم عن

المضاجع، وتسيل دموعهم على خدودهم سحراً، ولا يخفى على الخبير المتفرس: أنَّ الإسلام هو فتنة الغد، وداهية المستقبل، ليست الاشتراكية، ولا شيء آخر»، وفي الأخير يقول: «يا ويلتنا! ويا شقوتنا! لو انتبهت هذه الأمة التي يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتعسَّه»[١].

إن أعضل مرضٍ، وأكبر خطرٍ للبلدان العربية اليوم أنَّها لا تزال تزداد يأساً وقنوطاً من مستقبل الإسلام، لا تكاد تفهم أنَّ الإسلام هو وحده سفينة النجاة للعالم من كلِّ نوعٍ من المشكلات، والمآسي، والأزمات، سواءٌ كانت سياسيةً، أو اجتماعية، خلقيةً، أو دينية، ماديةً، أو روحية، ولا شك في أنَّ هذا العمل من أهم واجبات الوقت ومسؤوليات الساعة.

لا بد أن تتسلحوا بالكفاءات، والمواهب، والصفات التي تمكنكم من التأثير حتى على الناطقين بالضاد، وهذا يتطلب أن تكون لغتكم فصيحةً، بليغةً، مؤثرةً، وأسلوبكم أخاذاً، جذاباً، وثقافتكم واسعةً، عميقةً، ونيتكم خالصة مخلصة، حتى يندفع العرب قائلين: ما أحسن هذا الكلام! ما أحسن هذا الأسلوب! وما أسمىٰ هذه الرسالة، ونحمد الله ـ عز وجل ـ على أن المجمع الإسلامي العلمي بندوة العلماء يقوم بإصدار كتب ومؤلفات ينظر إليها إخواننا العرب بعين التقدير والإعجاب، ويقرؤونها بطربٍ ونشوةٍ. ذات مرَّةٍ كنا جالسين متحدثين في بيت الأخ العزيز الأستاذ عبد الله عباس الندوي بمكة المكرمة، وبهذه المناسبة كان عبد الحكيم عابدين موجوداً، رأيته يطالع في كتاب: «الإسلام بين لا ونعم» لابن أخي الأكبر محمد الحسني ـ رحمه الله تعالى ـ ثم استأذنت للحظات، وقمت، فلما رجعت بعد دقائق وجدت الأستاذ عابدين لا يزال مقبلاً على الكتاب، وعيناه تدمعان، ثم توجه إليَّ سائلاً: من صاحب هذا الكتاب يا أستاذنا أبا الحسن؟! فأخبرته: ابن أخي، فقال: اقرأ عليه مني السلام.

إنَّ إيجادكم لكفاءاتٍ، وإشعال مواهب للقيام بعمل الدعوة خير قيام في

(١) من «روائع إقبال» باختصار.

العالم العربي سيكون من أعظم مآثركم ، وأكبر فعالكم في الدنيا والآخرة ، والله سبحانه وتعالى قد هيأ أسباب ووسائل ذلك ، فعليكم بالعزم الأكيد على أنكم لا تدَّخرون وسعاً في تحلية نفوسكم بصفات داعيةٍ مسلمٍ ناجح ، وإيجاد كفاءاتٍ فيكم ، تضمن لكم النجاح في مجال الدعوة في العالم العربي خاصةً ، فإنه رغم ما فيه من خيرات وحسنات ومن معاني الكرم ، والشرف لا يوجد لها نظير في أي شعبٍ آخر من شعوب العالم ، بأمسِّ حاجةٍ إلى دعوة التصلب في العقيدة ، والاستقامة في الدين ، والتمسك بالشريعة في جميع نواحي الحياة ، ورفض الأفكار المنحرفة المستوردة ، ومن مؤلفاتي: «إلى الإسلام من جديد» ، و«الطريق إلى المدينة» «الإسلام ، أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية» ، و«العرب والإسلام» ، «أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين» ، «أجاهلية بعد الإسلام أيها العرب؟!» ، «إلى الراية المحمدية أيها العرب»[1] ، وسلسلة الأسمعيات ، كتب تهز العرب هزاً وتدهشهم ، وتذكر مكانتهم ومسؤوليتهم نحو العالم الإنساني ، وأيضاً ، تحرِّك حميتهم ، وهممهم ومشاعرهم ، إنَّ عجمياً هندي الثقافة يخاطبنا ويدعونا إلى دين آبائنا ، وإلى القيام بعملنا وواجباتنا نحو الإنسانية ، وإنَّ ثقته وإيمانه بالإسلام وبمستقبله أقوى وأمتن من ثقتنا وإيماننا بكثير ، لو وفق الله تبارك وتعالى أحداً منكم لذلك ، ونفع به الذين بلغوا الرسالة الإلهية الأخيرة إلى النوع الإنساني ، وآذنوا رحيل الشرك والكفر من العالم ، وأسعدوا بعقيدة التوحيد النقية لكان له ذلك أكبر ذريعة وأحسن وسيلة للتقرب إلى الله ورضاه ، ولا بدَّ أن تكون هذه العاطفة في خريجي مدارسنا الدينية العربية أقوى وأشد من غيرهم ، فإننا نفهم الدين مباشرة عبر لغة إخواننا العرب ، وليست عقيدتنا هذه وإيماننا هذا إلا غيضاً من فيض جهود آبائهم وتضحياتهم في سبيل الدعوة والجهاد ، فهم أولى وأحقُّ بأن نرد إليهم النعمة التي قد أنعم بها علينا آباؤهم وأجدادهم كما يرد تلميذٌ بارٌّ إلى أستاذه الحبيب الكريم ، وخادمٌ إلى

---

(١) قد طبعت جميع هذه الكتب مصححة ومنقحة في «دار ابن كثير» بدمشق عام ١٩٩٩م.

سيده المطاع المحبب، الجميلَ بالجميل، والنعمةَ بالنعمة، لأجل ذلك فإنَّ إنشاء كلية الدعوة والفكر الإسلامي في ندوة العلماء يبعث على السرور والتفاؤل، ويستحقُّ زملاؤنا، ورفاقنا التهاني، والثناء على ذلك.

نصيحتي إليكم يا أبنائي الطلبة أنكم إذا تخرجتم من هذه الدار فلا تتخرجوا إلا مبلِّغين، ودعاةً إلى الإسلام الذي هو دينٌ خالد أخيرٌ أنزله الله تبارك وتعالى هدايةً ورحمةً للعالمين جميعاً لا يأتي بعده دين إلى يوم القيامة، وهو منهجٌ شاملٌ لجميع نواحي الحياة الإنسانية جمعاء، وصالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكان، وهو وحده يستطيع إنقاذ العالم من جميع مشكلاته ومصائبه. لا يمكن التقدُّم والازدهار إلا بالعودة إلى هذا الدين، ولا يمكن الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة إلا بالتمسك بشريعته، ولا تنزل بنا رحمةٌ ونصرٌ من عند الله تبارك وتعالى إلا بالعمل بمقتضياته ومتطلباته في كلِّ مجالٍ من مجالات الحياة، لا بدَّ أن ترسخوا هذه الحقيقة الأبدية في أذهان المسلمين بصفةٍ عامة، وفي أذهان الطبقة المثقفة منهم بالثقافة العصرية بصفةٍ خاصة، فإنها منبهرة بالحضارة الغربية اللادينية، والآن يتخوف منها أن تعجب بالحضارة الهندوسية الوثنية، فعليكم أن تستعدوا استعداداً تاماً للقيام بهذا العمل الجليل المبارك، ولا يدور في خلدكم أبداً أن تستغلوا معرفتكم للغة العربية، وإتقانكم فيها وقدرتكم على التكلم والكتابة بها في الحصول على وظيفة من الوظائف في بلدٍ عربيٍّ وكسب المال وجمعه، فليس ذلك ثمناً لنعمتكم هذه العظيمة، بل هو نكرانٌ للجميل، وكفرانٌ بالنعمة، وإحباطٌ لجهود وتضحيات الشيخ محمد علي المونغيري مؤسس هذه الدار وزملائه وأعوانه: الشيخ ظهور الإسلام الفتحفوري، والعلامة الشريف السيد عبد الحي الحسني، وممن أسهموا في ترقية هذه المؤسسة العلمية والتربوية كالعلامة شبلي النعماني، ومن أبنائها الكبار الممتازين مثل العلامة السيد سليمان الندوي ـ رحمهم الله تعالى ـ وجزاهم أحسن ما يجزي به عباده المخلصين، والعلماء الربانيين.

إنَّ الاعتراف بالنعمة والشكر على هذه النعمة أن تكونوا دعاةً مبلِّغين، وتقوموا بتطهير أذهان المسلمين من الشعور بمركب النقص، والإعجاب

بالحضارات الغير الإسلامية ، وبإعادة ، وتجديد الثقة والإيمان في نفوس المسلمين بالإسلام وشريعته من جديد. هذا ، وفي جانبٍ آخر يجب أن تستنطقوا العرب لكي يقولوا : «هذه بضاعتنا ردت إلينا» .

اللهم وفق لما تحب وترضاه ، وصلى الله تبارك وتعالى على خير خلقه سيدنا ومولانا محمدٍ وآله وأصحابه أجمعين .

* * *

مخططاتٌ جديدة للقضاء على الإسلام

هذه كلمة الوفود ارتجلها العلامة الندوي في الجلسة الافتتاحية لدورة المجلس التأسيسي الخامسة والثلاثين لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ، في الفترة ما بين ٧ ـ ١٥/ شعبان ١٤١٨ هـ وديسمبر ١٩٩٧ م .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين وخاتم النبيين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

أما بعد!

حضرات السادة! إنَّ هذا اللقاء الكريم الوقور الهادف العالمي ـ بالنسبة إلى العالم الإسلامي ـ قد جاء في مكانه ، وفي أوانه ، أما أنه قد جاء في مكانه؛ فلأنه يعقد في مكة المكرمة ، البلد الذي طلع منه الصبح الصادق للبشرية كلِّها ، فبدَّد الظلام ، وأنقذ الإنسانية من السقوط في الهاوية ، وقد أشرفت على السقوط فيها ، وكانت على طرف منها ، فمن هنا طلع الصبح الصادق ، فبدَّد الظلام ، على قول الله تعالى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣] وكانت هذه الجاهلية قد ضربت أطنابها ، ومدَّت ظلالها على العالم البشري بطوله وعرضه ، وقد قصَّر أكثر كتُاب السيرة إذا أطلقوا الجاهلية على العرب وعلى البلاد العربية فقط ، فسمّوها الجاهلية العربية ، إنما كانت هذه الجاهلية جاهلية عالمية ، آفاقية ، كونية ، معنوية ، دينية ، عقائدية ، خلقية ، مبدئية ، تصرُّفية.

فجاء الإسلام ، وطلع الصبح الصادق للبشرية الذي أشرق به النهار ، فمن هنا طلع الصبح الصادق ، ولم يكن هذا الخير وهذه السعادة مقصورةً على فترة خاصةٍ ، أو على طراز من المدنية ، إنما كانت عامةً ، شاملةً للعقيدة والعمل ، والتصرف ، وحتى الفكر والتخيل.

ثم إنَّ هذا المؤتمر الموقر قد جاء في أوانه كذلك ، فقد جدَّت مؤامراتٌ ومخططاتٌ جديدةٌ للقضاء على الإسلام ، للقضاء على نفوذه ، وللقضاء على حيويته ، وللقضاء على تطبيق الإسلام والشريعة ، فهنالك مخطط دقيقٌ، شـاملٌ، كاملٌ، عـامٌّ، وترأسـه قوتان: إحداهما غربية وأخرى غير

غربية ، فهناك مخطط دقيقٌ ، وقويٌّ ، وعبقريٌّ ، إذا رأينا إلى الجانب الفكري ، وإلى الجانب العملي ، وهو أن يفقد الإسلام نفوذه العالمي ، وأن يفقد المسلمون خصائصهم الإسلامية والإيمانية ، والعقائدية ، والعملية ، والخلقية ، والفردية ، والاجتماعية ، ويبقى الإسلام كدين من الأديان السابقة التي لا تعرف إلا بالأسماء فقط ، وبالإشارة في كتب التاريخ ، فهنالك مخططٌ دقيق جداً ، ترأسه قوة غربيةٌ كبيرة ، أو كبرى القوى ، وطاقةٌ أخرى في آسيا في الشرق ، التقتا لمشاركتهما في هدفٍ خاص ، ولنظرهما الثاقب الدقيق إلى أنَّ الإسلام هي القوة الوحيدة العالمية التي تستطيع أن تمنع سيرهما وأن تعوق نشاطهما ، وانتصاراتهما ، ونفاذ مخططاتهما ، فالآن ساعةٌ دقيقةٌ جداً ، للتفكير وللتشاور ، ولتحكيم العقل والتجارب ، وكذلك ما أكرم الله به هذه الأمة من وحدة الكلمة ، ووحدة العقيدة ، ووحدة المبدأ ، فإنما جاء هذا المؤتمر بحمد الله وحده وتوفيقه في مكانه اللائق المناسب ، وفي أوانه الطالب لهذا الوعي ، ولفهم الخطر ، وللتيقظ لهذا المُخطط الدقيق الذي ينفَّذ الآن ، وهو أن يفقد الجيل الإسلامي الجديد ثقته بالإسلام ، ثقته بخلود الإسلام وبجدارة الإسلام ليس للبقاء وحده ، بل للقيادة والسيادة ، هذا هو العدو المهدِّد لهم والخطر الداهم عندهم ، وفي مخيلتهم ، هو الخطر الوحيد في العالم ، أقول ذلك عن دراسةٍ ـ والحمد لله وحده ـ عن دراسةٍ وتجربة ، وسياحةٍ ، واحتكاكٍ ، ومشاركةٍ في كثير من المؤتمرات ، وفي كثيرٍ من الاجتماعات واللقاءات ، إنَّ أوربا ، وإن أمريكا ، وإسرائيل إنما تخاف فقط من بقاء الإسلام ، لا يرون شيئاً مانعاً لهم ومنافساً لهم ، أو معوقاً لهم ، أو مثبطاً لهم ، أو باعثاً لهم بعض المشاكل إنما يجب علينا الآن أن نتيقظ وأن نعي هذا الخطر الداهم ، والخطر المهدِّد للإسلام الذي لم أر له مثيلاً في دراستي القاصرة المحدودة ، ولكن الدراسة العامة المتنوعة للتاريخ ، لم توجد هنالك قوةٌ سياسيةٌ ، أو اجتماعيةٌ ، أو فكريةٌ ، أو فلسفيةٌ خافت من الإسلام مثلما تخاف هذه القوى ، تخاف هذه الانتفاضات وهذه الاحتكارات للقوة العالمية ، والاحتكارات للقوة السياسية ، فيجب علينا نحن أن نستيقظ ،

وأن نفهم ، ونحسب لهذا الخطر الداهم حسابه الخاص به ، وحسابه الجدير به ، واللائق به .

أقول هذا وأعتذر إذا كان هذا الكلام قد طال بعض الطول في هذا المجلس الموقر الذي تحضره العقول المفكرة ، والنفوس المجربة ، فنحن الآن أمام مؤامرةٍ سياسيةٍ ، ومخططٍ دقيق اجتماعيٍّ ، وعلميٍّ ، وثقافيٍّ ، وسياسيٍّ للقضاء على نفوذ الإسلام العالمي ، فتبقى هذه المخططات التي تدبرها هذه القوى الكبرى حرَّةً طليقةً آمنة مأمونةً من أيِّ مواجهةٍ ، ومن أيِّ خطر .

فنسأل الله التوفيق على فهم هذا الخطر ، ووعي هذا الخطر ، ثم التيقظ له ، والاجتماع والالتقاء لمواجهته ومقابلته ، وما ذلك على الله بعزيز .

ولهذا البلد ، وفي ظلال هذه الحكومة القائمة على توقير الشريعة ، وعلى تنفيذ الشريعة ، وعلى إجلال كلام الله تبارك وتعالى ، وإحلاله المحل اللائق بالسنة النبوية ، نرجو أن يكون من هنا انطلاقةٌ واعيةٌ مدبرةٌ ، ومؤسسةٌ على حسن النية والإخلاص والفكر الصحيح ، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعاً للعمل المخلص بدراسة الأوضاع العالمية ، والحساب لها بدقةٍ وتفكير ، وما ذلك على الله بعزيز .

* * *

القاديانية مؤامرةٌ خطيرةٌ
وثورةٌ على النُّبوَّة المحمَّدية

جَهَّزَ العلامة الندوي هذه البحث القيم بمناسبة «مؤتمر العلماء المسلمين للنظر في قضايا الدعوة الإسلامية» الذي تعقده ندوة العلماء لمحاربة الفتن العمياء التي تسود مجتمعات المسلمين في العالم كله ، وتساندها الدول الكبرى ، والجهات المعادية للإسلام والمسلمين ، ومن أبرز هذه الفتن وأخطرها فتنة القاديانية التي تتحدَّى عقيدة ختم النبوة ، وهي مؤامرةٌ خطيرةٌ تبنَّاها أعداء الإسلام في الدول المادية في العالم ، ولم يدَّخروا وسعاً في تعميق جذورها في العالم الإسلامي كله ، وقد أصبحت لها مراكز قويةٌ ، وعملاءُ مخلصون لسادتهم في جميع دول العالم ، ولا سيما في الغرب المادِّي الذي يتربَّص بالدعوة الإسلامية وحملة لوائها الدوائر ، ويتحيَّن الفرص لتقويض أركانها .

ولصدِّ تيار القاديانية الجارف قرَّر العلامة الندوي عقد هذا المؤتمر والتشاور مع كبار علماء الإسلام في هذا الموضوع .

وهذا البحث القيم ينوِّر نظرة العلاَّمة نحو موضوع ختم النبوة ، وقلقه الكبير على ما ينال المتنبئون الكذابون بمعاضدة القوى الاستعمارية من تشجيعٍ ، وقوةٍ ، ودعمٍ في العالم اليوم ، ويقع المسلمون فريسةَ هذا الدجل والافتراء .

﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين خاتم النبيين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فإنَّ إنهاء سلسلة بعث الأنبياء نعمةٌ ربانيَّةٌ ، وخصيصة من أبرز خصائص الأمة الإسلامية ، وإنَّ العقيدة الإسلامية التي نحن عليها تؤكد لنا أنَّ الدين قد اكتمل ، وأنَّ محمداً ﷺ هو الرسول الآخر الذي لا رسول بعده ، وهو خاتم النبيين ، وأنَّ الإسلام دينٌ كامل ، لا ينقصه شيء ، وهو نظامٌ كاملٌ شاملٌ لجميع ما يحتاج إليه البشر إلى يوم الدين ، وأنَّه موهبةٌ من الله ، ونعمةٌ ربانيَّةٌ أكرم الله بها هذه الأمة ، وجعلها خصيصةً لها ، ومما أفاد به القرآن الكريم هذا الواقع في الآية التالية آذان من الله ، وإعلان صريحٌ مجلجلٌ صدع به ربُّ السموات والأرض ، إذ قال سبحانه وتعالى :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـنَۗ ﴾ [سورة الأحزاب ، الآية : ٤٠].

وكلمة «خاتم» (بفتح التاء) و«خاتم» (بكسر التاء) كلاهما يفيدان معنى واحداً وهو الآخِر بكسر الخاء ، الذي ليس بعده شيء . يقول ابن منظور في لسان العرب : خاتمهم (بفتح التاء) وخاتمهم (بكسر التاء) أي : آخرهم ، وفي تاج العروس في شرح القاموس : خاتم النبيين : أي : آخرهم .

وكتب الراغب الأصبهاني في مفردات غريب القرآن : خاتَم النبيين وخاتِم النبيين (بفتح التاء أو بكسرها) لأنه ختم النبوة؛ أي : أتمها بمجيئه ، وأوضح الزمخشري هذه الكلمة في الكشاف بما يلي : خاتم النبيين ، أي : آخر الأنبياء ، وفسر صاحب البحر المحيط كلمة : «خاتم بالتعبير التالي :

والمعنى : أنه لا أحد نبيٌّ بعده ، ومن المفسرين يقول صاحب معالم التنزيل : خاتَم النبيين بفتح التاء : أي آخرهم ، هذه الآية نصّ في أنَّه لا نبيَّ

بعده ، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ عن جماعة من الصحابة». [انتهى].

فالعقيدة بقطع سلسلة بعث الرسل على شخص سيدنا محمد ﷺ بجميع أنواع الرسالات السماوية ، والنبوات الإلهية عقيدةٌ عليها إجماع الأمَّة سلفها وخلفها ، والذي يؤمن بأحدٍ أنَّه كان نبيّاً بأي معنى من معاني النبوة؛ فهو كافر ، لم يمسسه إيمانٌ ، بل هو مرتدٌّ بلا نزاع.

وعوداً إلى شرح كلمة: «خاتم» ، فأقول: إن لها قراءتين ، ففي قراءة حسن وعاصم هي بفتح التاء وعند أئمة القراءة الآخرين هي بكسر التاء ، وحاصل المعنى واحد أي: خاتم الأنبياء ، فلا نبيَّ بعد سيدنا محمد ﷺ على الإطلاق بأيِّ وجهٍ من الوجوه ، وبأيِّ معنى من معاني النبوة ، والكلمة تفيد معنى: «الآخِر» بكسر الخاء كما تفيد معنى: «المهر» الذي يختم به على ظرف مغلق ينبىء أنَّه مانع لإدخال شيء جديد ، وإنه مما أجمع عليه المسلمون من عصر الصحابة رضي الله عنهم إلى جميع العصور أنَّ رسول الله ﷺ كان آخر الأنبياء والمرسلين ، وكلُّ من سولت له نفسه أن يدَّعي النبوة؛ فهو كاذب أفّاك ، ومما جاء به الخبر كما رواه الإمام البخاريُّ رحمه الله في صحيحه ، وورد في كتب الصحاح والسنن واللفظ لمسند الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: جاء رجلٌ من اليهود إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين! إنكم تقرؤون آيةً في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، قال: وأيُّ آية؟ فقال قوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [سورة المائدة ، الآية: ٣] ، فقال عمر رضي الله عنه: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله ﷺ ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ ، عشية يوم عرفة يوم جمعة ، ويروى: أنَّه رضي الله عنه أفاض قائلاً: لسنا في حاجة إلى اتخاذ يوم عيداً جديداً ، فالآية نزلت في يوم هو يوم عبادة واجتماع للمسلمين ، وكان قد اجتمع في ذلك اليوم عيدان ـ يوم عرفة ويوم جمعة ـ والآية المحكمة المعنى تصرِّح من دون إيهام أو غموض بنهاية النبوة ، وإكمال نعمة الدين على أمة سيدنا محمد ﷺ.

الـصيانـة مـن شتـات الـفكـر :

من مكاسب هذه العقيدة أنها صانت الأمَّة الإسلامية من أن تصبح فريسةً للحركات الهدَّامة ، والدعوات إلى التشتت والافتراق ، والنعرات التي ارتفعت بين حينٍ لآخر طوال التاريخ الإسلامي ، وكان من شأنها أن تمزِّق الوحدة الإسلامية وتحوِّلها إلى أممٍ متفرقةٍ بدل أمةٍ واحدةٍ متماسكة ، ومن مكاسب هذه العقيدة أنَّ الإسلام ظلَّ مصوناً من تلاعب المحرفين ، ومن شرور المتنبئين الذين برزوا في وقفات من التاريخ في أمكنةٍ مختلفة ، وقد أعطت هذه العقيدة ـ عقيدة ختم النبوة ـ المسلمين مكاناً آمناً ، وحصناً محصَّناً في التاريخ ، فلم يتجسر الغزو عليهم متهوِّر ادَّعى النبوة ، هادفاً إلى خلق كيان متغاير عن كيانِ الدين الإسلامي ، ومن منطلق هذه العقيدة استطاع المسلمون الدفاع عن حوضة الدين ، وردِّ كيد الأعداء في نحورهم ، وما أكثر كيداً لم تنج منه أمة من الأمم السابقة ، فما هي إلا عقيدة ختم النُبوَّة التي كست الأمَّة الإسلامية درعاً عن شتات الفكر وتمزُّق الوحدة ، وأصبحت ضماناً لها أن تبقى حلقةً مفرَغَةً مستحكمةً ، ولولا هذا الحصار المنيع كانت هذه الأمة قد تفرقت إرباً إرباً ، وكان لكلِّ فرقة مركز متغاير عن غيره ، وكانت هناك وحداتٌ مستقلةٌ مميزة ، ولكلِّ وحدة تاريخٌ منفصلٌ عن الآخر ، ولكلِّ جماعةٍ أمجادٌ يفتخرون بهم وأسيادٌ يتعزُّون بهم ، وللعقيدة أيادٍ بيضاء على الحياة والحضارة ، وإنه شرفٌ للإنسانية عظيم أن يُعلَنَ عنها أنها قد أدركت النضج ، وبلغت الرشد ، فاستحقت أن تتحمل الأمانة ، وتؤدي رسالة السماء ، وليس المجتمع البشري بعده في حاجة إلى وحيٍ جديدٍ ، أو رسالة جديدةٍ ، ومن ثَمَّ تخلق هذه العقيدة في الإنسان اعتداداً بالنفس وثقة بشخصيته ، وإنه عَلِمَ بذلك أنَّ الدين قد بلغ قِمَّةً من الكمال الذي أراد له خالق السموات والأرض ، فلا يحتاج إذاً إلى رجعة على أعقابه رجعة قهقرى ، وهو خليقٌ بأن يستفيد ويفيد بما خلق الله له في الأرض ، ولينظر إلى ما أوتي فعلاً من الخيرات ، والحسنات ، والنصح والوصايا ، ويعمل بموجبها لتتمَّ بها السعادة المنشودة لكافة البشر .

إنَّ عقيدة ختم النبوة تقود المؤمن بها إلى الأمام بدلاً عن أن تدفعه إلى الوراء ، وتحض الإنسان على استخدام طاقاته في مصالح العباد والبلاد ، وترشده إلى مواطن الخدمة البشرية ، وميادين تصلح للزرع والإنتاج ، وإن لم يكن هذا ، وسعى وراء كل ناعق ، ولم ينته من النظر إلى السماء منتظراً إلى تلقي التوجيه والإرشاد عن طريق الوحي والإلهام ، ظل هائماً تائهاً طول حياته على غير هدى ، وضلَّ عن سواء الطريق ، أقول هذا عن بيِّنة من الأمر ، فقد زعم المرزا القادياني أنَّ الأرض كانت عقيمةً جدباء ، وكانت الإنسانية كأودية قفراء قبل وجوده ، ولما تشرفت به الأرض تهلَّلت ، وأنبتت ، وأتت بكلِّ زوجٍ كريم ، فإن كانت الأرض مجدبةً كما زعم المرزا في بيت شعر له؛ فمن يضمن أن لا يحذو ثانٍ وثالثٌ حذوه ، فيدعي النبوة ليستعمر الأرض من جديد ، ويبقى العالم قفراً ينتظر نبياً جديداً في كلِّ عصر ومصر ولنعم ما قال الشاعر الإسلامي الحكيم محمد إقبال رحمه الله في إحدى محاضراته :

«إنَّ بقاء الدين والشريعة مرهونٌ بالكتاب والسنة ، وإنَّ بقاء الأمة الإسلامية أمةً واحدة منوطٌ بعقيدة ختم النبوة ، وإنَّ هذه الأمة أمةٌ واحدة ما دامت تؤمن بمحمد ﷺ خاتم النبيين لا نبيَّ بعده» .

تـجاسـر الـقاديانية وابتداعهـا :

تتميَّز القاديانية بين الحركات المعادية للإسلام التي نشأت بين حينٍ لآخر بميزة انفردت بها ، وهي أنَّ الحركات المعادية الأخرى كانت ولا تزال تهدف نظام الحكم الإسلامي ، أو الشريعة الإسلامية ، بينما تهدف القاديانية صميم روح الإسلام ، وهي إذاً مؤامرةٌ ضدَّ النبوة المحمدية ، وثورةٌ وغزوٌ على خلود رسالة الإسلام ، وتحدٍّ سافر تجاه وحدة الكلمة ، وعروة الإسلام الوثقى ، وبذلك قد تعدَّت القاديانية الحدود الشرعية للدين ، الحدود التي تقام حاجزة لحفظ الثغور ، إنَّ الدكتور محمد إقبال مُحِقٌّ فيمـا ذهب إلـيه في مقـالٍ لـه منشور في جريدة (STATESMAN) الشهيرة ، قـال فيه : «الإسـلام ـ لا شكَّ ـ جماعـةٌ دينيةٌ لها حدودٌ معلومةٌ ،

وهي الإيمان بالله وحده ، وبالأنبياء المرسلين ، وبختم الرسالة السماوية على سيدنا محمد ﷺ ، وهذا الجزء الأخير (الإيمان بختم النبوة) يكون خطّاً فاصلاً مميزاً ، وهو المقياس الوحيد لمعرفة شخصٍ ، أو جماعة هل هو من الجماعة الإسلامية أم لا؟ وأقول على سبيل المثال : إن أتباع فرقة : «برهمو سماج الهندوكية» يؤمنون بالله ، ويعترفون بأن محمداً ﷺ كان رسولاً من الله ، ولكنهم لا يعدُّون من المسلمين؛ لأنهم مثل القاديانيين ، يؤمنون بتواتر بعثة الأنبياء واستمرار نزول الوحي ، ولا يصدِّقون بختم النبوة على شخص رسول الله ﷺ ، وفيما أعلمه ، ما تجاسرت فرقةٌ من الفرق المنسوبة إلى الإسلام بالاعتداء على الثغور ، وتجاوز الحدود ، ما سوى القاديانية ، خذ مثلاً البهائية التي نجمت في إيران ، فقد أنكرت رسالة سيدنا محمد ﷺ وكفرت به صريحاً ، ولكنها مع ذلك أعلنت أنها فرقةٌ خارجةٌ عن الإسلام ، إني متأكد بواقع ، وأؤمن به : أنَّ الإسلام باعتباره ديناً مُنَزَّلاً من الله ، وباعتباره مجتمعاً وملَّةً ، يرجع إلى شخصية الرسول الأعظم ﷺ ، وإنِّي أرى أنَّه أمام القاديانيين طريقان لا ثالث لهما ، فإمّا يتبعوا البهائية ، فيعلنوا انفصالهم عن الإسلام ، أو يتركوا التأويلات لمعنى ختم النبوة ، ويدخلوا في الإسلام من جديد ، فإنَّه من المعلوم بداهةً أنهم يهدفون من وراء تأويلاتهم أن يعدُّوا من المسلمين للمكاسب السياسية[1] .

العصر الإسلامي مليء بالحوادث والتحوُّلات ، يشهد تاريخ الأمَّة الإسلامية بأنَّها واجهت كثيراً من التغيُّرات والتحوّلات في عصرها المديد ، ولِما أنَّ الدين الإسلامي دينٌ عالميّ وآخِر الأديان السماوية فكان مما لا بدَّ منه أن يتعرَّض له جميع أقسام النوع البشري ، ويواجهه جميع التحوُّلات التي تحدث في كلِّ مكانٍ وزمان ، وكان من الطبيعي أن تتصارع معه القوى المعادية بكل ما أوتيت من شكيمةٍ ، وشدّة لم تمرَّ بمثلها أمَّة من الأمم في تاريخها الطويل ، فالزمن الذي عاصرته الأمَّة الإسلامية مليء بالتحوُّلات والتقلُّبات ، كذلك التحدِّيات التي واجهتها الأمَّة لم تتعرض لها أمَّـةٌ أخرى

(١) حرف إقبال : (القاديانية : تحليلها وتجزيتها) .

في التاريخ ، خلود رسالة الإسلام واستمرارها رهينٌ لتدابير إلهية من وراء الغيب ، إن الله ـ جلَّت قدرته ـ قد تكفَّل بقاء دينه ودبر له من عنده تدابير ، نشاهد منها اثنين بصفة خاصة ، وذلك لمكافحة تلوُّنات العصور وتلوّثات البيئات الاجتماعية وتأثيراتها المنعكسة على المجتمعات البشرية ، أحدهما : أنه سبحانه وتعالى بعث رسوله الأمين ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ بدينٍ كاملٍ شاملٍ لجميع ما يحتاج إليه الإنسان على اختلاف زمانه ومكانه، وليكون مستعداً لمواجهة مستحدثات عصره، وحلِّ مشاكله ، وقهر العقبات والسدود الموضوعة في طريق الدعوة إلى الله ودينه ، كما تكفَّل له ـ والتاريخ خير شاهد على ذلك ـ أن يخلق من بين عباده في كلِّ عصرٍ أفراداً ليقوموا ـ جماعات أو فرادى ـ بحماية هذا الدين ومواجهة كلِّ ما يستجدُّ من صعوبات وعقبات ، بكل قوَّةٍ ونشاطٍ وعزيمةٍ غريبة تفوق مدى المقادير والقياسات ، وقد أنعم الله عليهم بمواهب نادرةٍ في تربية الرجال ، وتخريج عباقرةٍ في التضحية والتفاني في الله وفي دينه ، الأمر الذي لانجد له في تاريخ الديانات نظيراً ، وليس هذا ـ كما يبدو جليّاً ـ حادث وقع صُدفةً ، أو رآها الناس خلسة ، بل أمرٌ من الله ، وحكمةٌ من حكمه ، فكلما وجد داء أوجد له دواء ، وما من سم إلا وقد خلق له ما يحتاج إليه من الترياق في حينه ومكانه[١] .

كثـرة الـمتنبئيـن فـي الأديـان السابقـة :

يعرف المطّلع على تاريخ اليهودية والمسيحية أنَّ كثرة الذين ادَّعوا النبوة كانت فتنة لكلٍّ منهما في أوساط أتباعهما ، وحلقات نفوذهما ، وأنها أحدثت أزمةً (CRISIS) صعب عليهم الخروج منها ، ومشكلةً استعصى حلُّها ، وقد تنبّه الكاتب إلى هذه النكتة بالذات بما كتبه العلامة الحكيم محمد إقبال ـ رحمه الله وجعله من المكرمين عنده ـ أنَّ إنهاء سلسلة بعث

(١) ليرجع للتفصيل والاطلاع على الشواهد والنماذج إلى كتاب العلامة الندوي: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»: ص/ ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ .

الأنبياء (أو ختم النبوة ، كما اصطلح عليه الناس أخيراً) مكرمةٌ إلهية قد خصَّ الله بها هذه الأمة ، وأنَّها لنعمةٌ من الله غاليةٌ أن أعلن نهائياً بأن لا نبيَّ بعد محمد ﷺ ، كأنه أعلم الإنسان أنك لست في حاجةٍ إلى أن ترفع رأسك مراراً إلى السماء في انتظار الوحي ، بل عليك أن تنظر إلى الأرض (التي جعلك الله فيها خليفته) واستخدم طاقاتك في صلاحها وإصلاحها ، وفي عمرانها ، وفي تنمية خيراتها وتوزيع ثمراتها ، وإقامة العدل بين أهلها وتوفير أسباب الهُدى والرشد بما يعود على البشر بالفلاح في الأرض ، والنجاة في الآخرة ، عليك أن لا تضيع فرصة الحياة في النظر إلى السماء بين حينٍ وآخر ، تستمطر إلهاماً ، وتستنزل نبيّاً ، وازداد العلامة محمد إقبال قائلاً : «إنَّ ختم النبوة نعمةٌ من الله جنَّب بها الله الأمة من فوضوية الأفكار ، وموضوعية التشتت والانتشار»[1] ورأى كاتب هذه السطور أن يدرس بنفسه كتباً في تاريخ اليهودية والنصرانية في هذا الضوء لمزيدٍ من الاقتناع والتفصيل ، فتبيَّن له أن علماء اليهود والنصارى وقعوا في حيص وبيص من كثرة الأنبياء المزيَّفين ، وكانوا يندبون مصير دياناتهم إذا اتسع الخرق على الراقع ، فما من يومٍ إلا ويطلع عليهم رسولٌ جديدٌ بوحي جديد ، وليس لديهم ميزان يزنون به صدقهم من كذبهم ، أو مقياس يقيسون به ما هو الأصل ، وما هو الزيف ، فكانت طاقاتهم الفكرية تذهب هدراً في تشخيص دجّال ، وتعيين كاذب أفّاك ، وظلت اليهودية والنصرانية تائهةً في حلِّ هذه العقدة طوال قرون عديدة .

يقول البرت م. سيمسن (AlBERT M.SAYMSON) عضو الجمعية التاريخية الأمريكانية البريطانية في موسوعة الأديان والأخلاق :

«يوجد في تاريخ اليهود ذكر كثيرٍ من الدجَّالين الذين ظهروا بعد هزيمة اليهود ، وزوال حكوماتهم في الأجيال اللاحقة ، وكان هؤلاء الدجالون يمنّون قومهم باستعادة أوطانهم التي أخرج منها آباؤهم وكان أمثال هؤلاء الدجالين يخرجون عادةً في أراضٍ كان اليهود فيها عُرضة للظلم والقسوة ،

---

(١) ليرجع إلى مجموعة محاضرات العلامة محمد إقبال في مدراس .

ووجد فيهم أمارات الغضب والثورة ، وكان أكثر هذه الحركات تتَّسم بلون السياسة ، وخاصَّةً في الزمن الأخير أصبح اللون السياسي يعمُّ كلَّ حركة وإن كان اللون الديني غير مفقود منها ، ولكن مما لا شكَّ فيه أن بُناةَ هذه الحركات الدينية السياسية أتوا ببدعات ليوسعوا بها مناطق نفوذهم؛ خسرت بها أصول التعليمات اليهودية ، فتنجم منها فرقٌ جديدةٌ كانت نهايتُها أن تنضمَّ في المسيحية»[١] .

ويقول البروفيسور هارت فورد (HEART FORD) أستاذ تاريخ الكنائس اليونانية والرومية والشرقية في مدرسة أصول الدين ، عن الأزمة التي ابتليت بها المسيحية:

«إن المتنبئين الذين يدَّعون لأنفسهم الحكمة لما فوق الطبيعة (SUPERIOR WISDOM) سرعان ما فقدوا ثقتهم الشعبية ، وأشعروا الكنائس وزعماءها بخطر يُحدِق حول الرفاهية التي كانوا فيها ، ولكنه لم توجد طريقة بعد لتأديبهم واضحة معروفة في استطاعتها كبح جماح الدَّجَّالين المزيفين الذين كانوا يدَّعون: أنَّ الله يكلمهم ، ويُطلِعهم على أسراره ، ولم يكن أيُّ معيارٍ عندهم يميزون به صدقهم عن كذبهم ، وكان مما لا بدَّ منه وجود مقياس يعرفون به دجلهم ، وإن لم يكن هناك معيار لأحدثت الكنيسة أصولاً تقي بها مبادىء الديانة من التشتت والانحراف والوقوع في طريق الإلحاد ، ومن ثَمَّ تحتفظ بها»[٢] .

كيان القاديانية ومنشؤها الواقعي وأسيادها:

إنه أمرٌ مؤكدٌ علمياً وتاريخياً أنَّ القاديانية سقطت من أحشاء السياسة الإفرنجية ، فمن الواقع التاريخي: أنَّ حركة الجهاد التي تولاها وقام بها الإمام المجاهد المعروف الشهيد أحمد بن عرفان رحمه الله (١٢٤٦ هـ ـ ١٨٣٠ م) هي الحركة التي أشعلت نيران الحُبِّ والتفاني لدين الله ، والجهاد في سبيله في قلوب المسلمين ، وأوجدت فيهم من الحماس والشجاعة

(١) ENCYCLOPAEDIA OF RELIGIONS AND ETHICS).
(٢) ENCYCLOPAEDIA OF RELIGIONS AND ETHICS,P.383.

ما لا نهاية لهما ، وقد احتشدوا تحت لواء الجهاد حاملي رؤوسهم على أكفِّهم وهم آلافٌ من النفوس المؤمنة ، وقد أقلق هذا الحماس الجياش مضاجع الحكم البريطاني الغاشم على الهند.

مما تفيد الأخبار الموثوقة والشهادات التي أدلى بها أناس أماناتهم فوق مستوى الشبهات أنَّ الذين بايعوا على يد الإمام الشهيد أحمد بن عرفان بلغ عددهم ثلاثة ملايين نفر ، كما أنه واقعٌ تاريخي لا يقبل الجدل: أنَّ الذي تنبه لخطر سيطرة الإفرنج بعد الجهاد الذي قام به السلطان الشهيد تيبو (١٢١٣ هـ ـ ١٧٩٩ م) كان هو شخص الإمام الشهيد وجماعته ، وهم الذين تحمَّسوا لمجابهة هذا الخطر قبل المعركة التي خاضها المسلمون ، ومنيت جهودهم بالنكسة ما يُطلق عليه الإنجليز «بالغدر» ، وكان الإمام الشهيد رائد حركة التحرير ، وتنبه للخطر الداهم ، وفكَّر في طرق إنقاذ البلاد من براثن الاستعمار ، فمن الوثائق التاريخية كتاب الإمام الشهيد الموجَّه إلى عاهل كواليار المدعو «دولت راؤ سندهيا» وإلى وزيره «هندو راؤ» قال فيهما قولاً صريحاً:

«إن الشرذمة الأجنبية ، مجموعة الغرباء من تجار البضاعات المستورة يبسطون سلطانهم على أراضينا ، فلننهض جميعاً لمقاومتهم ، ونحفظ بلادنا من هذا الخطر المحدق بنا ، وننظر فيما بعد من يتولى المسؤولية ، ومن يملك الصلاحيات».

وكان في مقدمة المجابهين للسيطرة الاستعمارية الإمام الشهيد وجماعته[١].

يعرف المطَّلعون أنَّ البيعة التي كان الإمام الشهيد يأخذها من أتباعه كانت البيعة على تصحيح العقيدة والتوحيد الشامل لجميع أنواعه ، واتِّباع السنة ، والعمل بالشريعة ، وتزكية النفس ، وكان المبايعون يجدون أنفسهم تندفع إلى الجهاد في سبيل الله اندفاعاً قوياً وعزيمةً تأبى الفتور ، ومما يفيد دليلاً على صحة ما قلت: أنَّ اللواء بخت خان ـ الذي كان قائد قوات الملك بهادر شاه ظفر ، المسؤول عن الدفاع ضدَّ قوات الإنجليز ـ لما بايع على يد

(١) ليرجع إلى «سيرة الإمام الشهيد» للعلامة الندوي بالأردية والإنجليزية.

الشيخ كرامت علي الجونفوري وهو من كبار الخلفاء المعروفين للإمام الشهيد أحمد بن عرفان ـ رحمة الله عليهم ـ طلب منه أن يعاهد على أن يحارب الإنجليز.

ومن غرائب تاريخ الهند الإسلامي حديث أولئك المحكوم عليهم بالإعدام شنقاً، ثم تبدل الحكم إلى السجن المؤبد، تلك القصة التي تدلُّ على مدى شعور الإنجليز المستعمرين بخطورة هذه الفئة المجاهدة في سبيل الله، تحت قيادة الإمام الشهيد رحمه الله.

في المحكمة الإنجليزية بمدينة «أنبالا» في ٢/ ٥/ ١٨٦٤ م سيق إليها أربعة من رؤساء حركة الجهاد والتحرير، وهم السادة الأفاضل: يحيى علي العظيم آبادي، أحمد الله العظيم آبادي، محمد جعفر التهانيسري، وعبد الرحيم الصادقفوري (رحمة الله عليهم رحمة الأبرار من الشهداء والمجاهدين) حكم عليهم القاضي الإنجليزي بالإعدام شنقاً على تهمة المؤامرة والنشاط العملي ضد الحكم الإنجليزي في الهند، استمع المجاهدون إلى الحكم عليهم بالموت، وقد تهلَّلت وجوههم فرحاً مستبشرين بما وعده الله للمجاهدين الشهداء في سبيله، وكانت هذه التجربة فريدةً للإنجليز فلم يملكوا نفوسهم إلا أن أبدوا بما شهدوا ورأوا: رجال يحكم عليهم بالموت فبدلاً عن أن تعلو وجوههم الكآبة، ويغشاهم الكمد والأحزان إذا هم مستبشرون، تلمع عيونهم بالبهجة والسرور، هذا ورئي المحكومون عليهم بالموت شنقاً فرحين بما استبشروا، وهم في زنزانات السجون، فتقدَّم إليهم أحد الحكام الإنجليز يسألهم: أيها الجناة الثائرون! أنتم على باب الموت واقفون، وسوف ينفذ عليكم الأمر قريباً بين يوم أو يومين، ولكني لا أرى آثار الحزن والتحسُّر على وجوهكم، فما هو السبب؟ فرد عليه الشيخ محمد جعفر رحمه الله قائلاً: ولم لا نفرح وقد شرَّفنا الله بالشهادة، وهي أحلى أمانينا في حياتنا الدنيا، وأعرب زملاؤه عن مثل هذا الشعور بالغبطة والابتهاج.

فكر الإنجليز وقدروا، وإذا القاضي يرجع إليهم وهم في زنزاناتهم ليقول لهم:

«أيها الثوار المجرمون! أراكم تفرحون بما حكم عليكم ، وأنتم تحسبون أنكم تنالون بذلك الشهادة في سبيل الله ، وإنَّا لا نريد أن يكون لكم ما تريدون وتنالوا ما تتمنون ، وعلى هذا بدَّلنا أمرنا فيكم وقرَّرنا نفيكم إلى جزائر الأندمان والسجن المؤبد فيها» .

وتوفي منهم الشيخ يحيى علي في جزيرة بورت بلير بعد ما قضى أربع سنوات سجيناً فيها ، أما الشيخ محمد جعفر التهانيسري فقد أطلق سراحه بعد أن أبلى في الله البلاء الحسن صابراً محتسباً ١٨/ عاماً في السجن ، وعاد الشيخ أحمد الله إلى الهند عندما أطلق سراحه .

وفي عصر يليه قام الشيخ محمد أحمد السوداني معلناً المهدوية والجهاد في سبيل الله في أرض السودان ، فدُكَّ به صرح الاستعمار الإنجليزي دكةً عنيفة لقَّنت المستعمر درساً جعل الإنجليز يحسبون للإسلام ألف حساب ، ثم شاهدوا ذيوع حركة السيد جمال الدين الأفغاني للوحدة الإسلامية وقبولها العام في جموع المسلمين ، فعرف دهاةُ الاستعمار الإنجليزي ـ ولهم خبرة طويلة بمعرفة عقلية المسلم ونفسيته ـ أنّ الدافع الوحيد القوي للمسلمين هو الدين أولاً وآخراً إلى تقديم التضحيات ، وهو العامل المحرِّك ، والمقيم ، والمقعد فيهم ، وقد استطاعوا إخضاع المسلمين سياسياً ولكنهم فشلوا في قهرهم عقلياً ، نعم إنَّ الإنجليز استطاعوا أن يملكوا أراضيهم ، ولكنهم فشلوا أن يكسبوا عواطفهم ، فرأوا أن يأتوا بكيدٍ آخر ، وهو أن يومأ إلى شخص من بينهم ينصب نفسه على مركز ديني كبير ليحتشد المسلمون حوله ، وليجمّعوا على يده ، وليكن هذا الشخص من بطانة الحاكم المستعمر ، وموضع ثقته ، فاقد الغيرة ، ومغسول الدماغ يجعل الإنجليز آمنين مطمئنين يحكمون ما يشاؤون ، وكان الإنجليز يعرفون أنَّ المسلم لا يُؤتى به إلا عن هذا الطريق ، ولا طريق أهدى للإنجليز لنيل مقاصدهم وإخضاع المسلمين فكرياً وعقلياً من هذا المكر الفاحش ، وقد وجد الإنجليز بغيتهم في شخص المرزا غلام أحمد القادياني الذي كان يعاني مرض التشتُّت الفكري ، وكان يجد في نفسه طمعاً جامحاً ورغبةً مُلِحَّةً

لنيل السيادة الدينية ، وليكون صانعاً ومخترعاً لدين جديد ، وليكون له أتباعٌ ومؤيدون ، واسماً لامعاً في التاريخ مثل اسم سيدنا محمد ﷺ ، وبذلك أصبح للإنجليز ضالةً يفقدونها ، ورجلاً مرتقباً ، فبدأ الرجل يؤدي دور التلميذ البارع والعميل المطوّع ، فسرعان ما ادعى لنفسه منصب التجديد ، ثم تدرَّج إلى أن نصَّب نفسه مهدياً ، وبعد مضيٍّ أيام جاء بفرية الادعاء بأنه صار «مسيحاً موعوداً» ، وبعد زمنٍ أعلن أنه نبيٌّ مبعوث ، وبذلك حقق الإنجليز ما أرادوه من هذا الشخص ، ولا شك أنَّ هذا الشخص قد لعب دوره بكل لباقة ، كما أن الإنجليز لم يقصروا في التعهد به ، ورعايته ، وتوفير التسهيلات له ، والدفاع عنه ، كما كان المرزا برّاً مطيعاً لأسياده ومربيه ، وشاكراً لأنعم الإنجليز عليه ، فيثني عليهم خيراً ، ويشكرهم في كلِّ مناسبة ، ويقول : إن وجوده رهين لمكرمات الإنجليز ، وعطفهم الأبوي ، ووصف نفسه في إحدى كتاباته بأنَّه غرسٌ للحكومة البريطانية ، ويكتب في طلبٍ له مقدّم إلى حاكم إقليم بنجاب في ٢٤/ ٢/ ١٨٩٨ م :

«إني أقدّم التماسي إلى مقام الدولة السامية أن ترعى الحكومة هذا الشخص العاجز الذي ينتمي إلى أسرة وفية للدولة منذ خمسين عاماً ، إنها أسرة متفانية في حبِّ الدولة ، مستعدة لتقديم كلِّ غالٍ ورخيص في سبيل إرضائها ، الأسرة التي اعترف الحكام الكبار في رسائلهم أنَّ أفراد هذه الأسرة أفرادٌ أوفياءٌ ، وخَدَمة مطيعون بلا مراء ، فالرجاء أن يراعي الحكام حقوق غرسهم ، وأن يستعملوا الحزم والتيقظ والبحث عن الواقع في المعاملة معه ، وأن يوعَزَ إلى الحكام أن ينظروا إلى شخصي، وأسرتي، وجماعتي، وخلاّني، بعين العطف واللطف والترحم»(١) .

ويقول في رسالةٍ أخرى يذكر فيها خدماته ، ووفاءه للإنجليز :

«قضيت معظم أيام حياتي في تأييد الحكومة الإنجليزية والإخلاص لها بالخدمة ، وقد ألَّفت كتباً ، ورسائل في إلغاء الجهاد ، ووجوب الطاعة

---

(١) تبليغ رسالت : ج/ ٧ ، ص/ ١٩ .

للحكومة الإنجليزية ، ونشرت إعلانات بعدد لو جمعت في مكانٍ كانت خليقة بأن تملأ خمسين خزانة ، وقد أوصلت هذه الكتب إلى مصر ، والشام ، وروما ، وكابل[١] .

ويقول في مكان آخر :

«لقد عشت منذ حداثة عمري ، وقد قاربت اليوم الستين أكافح بقلمي ولساني لأصرف قلوب المسلمين إلى الإخلاص للحكومة الإنجليزية ، والنصح لها ، والعطف عليها ، وإلغاء مبدأ الجهاد الذي يدين به الجهلة منهم ، والذي يحول بينهم وبين الإخلاص بهذه الحكومة ، وأرى أن كتبي قد أثرت في قلوب المسلمين ، وأحدثت تحوُّلاً في مئات آلافٍ منهم»[٢] .

ويقول في نفس الكتاب :

«إني لواثق بأنه كما يزيد عدد أتباعي يقلُّ عدد المؤمنين بمبدأ الجهاد ، فإنَّ الإيمان بي مسيحاً ومهدياً يتضمن معنى الإنكار بمبدأ الجهاد»[٣] .

ويقول في مكانٍ آخر :

«إني ألفت عشراتٍ من الكتب بالأردية والفارسية والعربية أثبت فيها : أنَّه لا يحل الجهاد أصلاً ضد الحكومة الإنجليزية التي أحسنت إلينا ، بل بالعكس من ذلك يجب على كلِّ مسلم أن يطيع هذه الحكومة بكلِّ إخلاص ، وقد أنفقت على طبع هذه الكتب أموالاً ، وأرسلتها إلى البلاد الإسلامية ، وإنِّي أعرف أنَّ هذه الكتب قد أثرت تأثيراً عظيماً في أهل هذه البلاد (الهند) وقد كوَّن أتباعي جماعةً تفيض قلوبهم إخلاصاً لهذه الحكومة ، والنصح لها ، إنهم على جانب عظيم من الإخلاص ، وأنا أعتقد أنهم بركة لهذه البلاد ، ومخلصون لهذه الحكومة ، ومتفانون في خدمتها»[٤] .

---

(١) ترياق القلوب ـ للمرزا غلام أحمد القادياني .

(٢) ضميمة شهادة القرآن . (الطبعة السادسة) .

(٣) ضميمة شهادة القرآن . (الطبعة السادسة) .

(٤) رسالة إلى الحكومة الإنجليزية .

فـي سبيـل الإنجليـز :

وقد أمدَّت هذه الحركة وهذه الفئة الحكومة الإنجليزية بخير جواسيس لمصالحها ، وأصدقاء أوفياء ، ومتطوعين متحمسين كانوا موضع ثقة الحكومة الإنجليزية ، ومن خيار رجالها ، خدموا الحكومة الإنجليزية في الهند ، وخارج الهند ، وبذلوا نفوسهم ودماءهم في سبيلها بسخاء ، مثل عبد اللطيف القادياني الذي كان في أفغانستان يدعو إلى القاديانية ، وينكر على الجهاد ، وخافت حكومة أفغانستان أن تقضي دعوته على عاطفة الجهاد وروح الحرية التي يمتاز بها الشعب الإفغاني فقتلته ، كذلك الملاَّ عبد الحليم ، والملاَّ نور علي القاديانيان ، عثرت الحكومة الأفغانية عندهما على رسائل ، ووثائق تدلُّ على أنهما عميلان للحكومة الإنجليزية ، وأنهما يدبّران مؤامرة ضدَّ الحكومة الأفغانية ، وكان جزاؤهما القتل ، كما صرح به وزير داخلية أفغانستان سنة ١٩٢٥ م ، ونقلت ذلك «الفضل» صحيفة القاديانيين الرسمية بسرورٍ وإعجاب في ٣/ مارس من ذلك العام .

وبقيت الجماعة القاديانية في عهد مؤسسها وبعده معتزلةً عن جميع الحركات الوطنية وحركات التحرير والجلاء في الهند ، صامتةً ، بل شامتةً لما دهم العالم الإسلامي من رزايا ونكبات على يد المستعمرين الأوربيين وعلى رأسهم الإنجليز ، مقتصرةً على إثارة المناقشات الدينية والمباحثات حول موت المسيح وحياته ونزوله ونبوة المرزا غلام أحمد ، التي لا اتصال لها بالحياة العامة والمسائل الإسلامية والحركات التي كانت مظهراً للغيرة الإسلامية والشعور السياسي في هذه البلاد .

إن بيت المرزا كان ذا صلة قوية صلة الوفاء والإخلاص والطاعة بالحكومة الإنجليزية التي تأسست في بنجاب حديثاً آنذاك ، وقدمَّ غير واحدٍ من أفراد هذه البيت تضحياتٍ جسيمةً لدوام العزِّ والبقاء والتقدم للحكومة البريطانية ، ودافعوا عنها وجاهدوا لها في مواقف حساسة ، يقول المرزا في «الاشتهار واجب الإظهار» وفي فاتحة كتابه : «كتاب البرية» :

«أنا من بيتٍ صادق الولاء للحكومة ، وكان أبي المدعو / المرزا مرتضى وفيّاً مخلصاً للدولة ، وكان ممن يؤذن له بالجلوس على الكرسي في الإيوان ، وهو الشخص الذي ذكره المستر جرائفان في تاريخ أعيان بنجاب ، وكان الرجل ممن قام بجانب الحكومة الإنجليزية وظهر لها في حوادث عام ١٨٥٧ م وكان هو الرجل الذي قدَّم خمسين فرساً وفارساً أيام الغدر (معركة التحرير التي خاضها المسلمون ضد الإنجليز عام ١٨٥٧ م) ولا يزال عندنا بعض خطابات الاستحسان التي وجهها الحكام إلى آبائنا ، وقد ضاع منها الكثير ، وصُور ثلاثٍ منها مدرجة في الحاشية ، وكان شقيقي الأكبر غلام قادر خان تولَّى خدمة الدولة بعد موت جدِّي ، وكان جندياً في معسكر الإنجليز عندما قام المفسدون بمحاربة الدولة على ممرِّ «تمون»[(١)] .

وفـاتـه :

ادعى المرزا غلام أحمد القادياني عام ١٨٩١ م أنَّه هو المسيح الموعود ، وفي نفس العام نصب نفسه نبيّاً مرسلاً فأنكر عليه العلماء المسلمون ، وعارضوه ، ومن بين المنكرين المتحمسين ضدَّه كان الشيخ الفاضل ثناء الله الأمر تسري رئيس تحرير مجلة «أهل الحديث» في مقدمتهم ، وأصدر المرزا إعلاناً في ١٥/ أبريل ، قال فيه مخاطباً الشيخ الأمر تسري :

«إن كنتُ كذاباً مفترياً كما تزعم في كلِّ مقالة لك فإني سأهلك في حياتك ، لأنِّي أعلم أن المفسد الكذاب لا يعيش طويلاً ، وفي عاقبة الأمر يموت ذلاًّ وحسرةً في حياة ألدِّ أعدائه ، حتى لا يتمكن من إفساد عباده ، وإن لم أكن كذاباً مفترياً ، وإني مشرف بالتكليم مع الله ، ومسيح موعود ، فإنكم أنتم المكذبون ستواجهون أشدَّ العقاب الذي لا يملكه الإنسان بل يملكه الله وحده ، مثل تسليط الطاعون ، والهيضة ، وسوء الأسقام ، فإن لم تمرض بها في حياتي فلست مرسلاً منه» .

---

(١) كتاب البرية : ص/ ١٤٢ ـ ١٤٤ .

وبعد مضيٍّ عامٍ من هذا الإعلان ، في ٢٥/ مايو عام ١٨٠٨ م أصيب المرزا في مدينة لاهور بانطلاق البطن الشديد مصحوباً بالقيء ، وكان ذلك ليلاً بعد العشاء ، وعولج في حينه ، ولكن كان الضعف والإرهاق في ازدياد مستمر ، وأوشك على الهلاك حتى تنفس النفس الأخير في يوم الثلاثاء الموافق ٢٦/ مايو عام ١٨٠٨ م .

أدلى والد زوجته المير ناصر نواب بالبيان التالي :

«كنت في ليلـة أصيب فيها سيدنـا المرزا بالمرض ، عدت إلى مكاني ونمت ، ولكن عندما اشتد عليه المرض أيقظني أهلي ، وعندما حضرت عند سيدنا قال لي : يا مير ناصر! إني مصاب بالهيضة الوبائية ، ولم يزد سيدنا على هذا قولاً فيما أعتقد إلى أن توفي في اليوم الذي وليه» .

ولقد أرادت مشيئة الله وقدره أن يرزق فضيلة الشيخ الأمر تسري عمراً طويلاً فتوفي في الثمانين من عمره ، في ١٥/ مارس عام ١٩٤٨ م ، أي بعد أربعين عاماً من وفاة المرزا غلام أحمد .

وأخيراً ـ لا آخراً ـ قد انتهيتُ بعد دراستي الواسعة المتنوّعة المُتقصِّية ، ـ أقول ذلك مع الاعتذار ـ للمحاولات الهادفة المتنوّعة اللَّبقة ، ليفقد هذا الدين ـ الذي هو الرّسالة السَّماوية الأخيرة ، والدين العالمي الخالد ـ نفوذَه العميق ، وسلطانه الفريد ، ولتفقد هذه الأمةُ وحدتها وعالميّتها وسلطانها الروحي والاجتماعي والسيّاسي الذي لا نظير له في تاريخ الديانات والدعوات ، ودراستي للمحاولات اللَّبقة لتحريف الدين ، وإضلال المسلمين ، وظهور المتنبئين في فتراتٍ من التاريخ ، وذلك حين عكوفي على تأليف سلسلة كتاب : «رجال الفكر والدعوة في الاسلام»[١] ؛ إذ كان لا بُـدَّ فيه من التنويه بالهجمات ، والدعوات ، والمخطّطات التي كانت

(١) ظهرت منه أربعة أجزاء في اللغة العربية ، وخمسة أجزاء في اللغة الأردية وأربعة أجزاء اللغة الإنجليزية ونالت كلها قبولاً عظيماً ورواجاً عاماً منذ صدورها، وقد صدرت له طبعات عديدة بالعربية والأردوية والإنجليزية .

خطراً على الإسلام ، وكان لا بدَّ من مقاومتها ، والقضاء عليها ليبقى هذا الدين على أصالته ونفوذه ، ووحدته ، وعالميّته ، ودوامه على الأصالة.

انتهيتُ بعد هذه الدراسة الشاملة المتقصّية الأمينة ، إلى أنَّ المُخطَّط الدَّعوي والادِّعائي القادياني أعظم خطراً ورهبة على أصالة هذا الدين وقوته وسلطانه ، وعالميَّته ، وآفاقيَّته ، وقدرته على أن يقوم بدوره الإصلاحي والبنائي في كلِّ زمانٍ ، وينقذ العالم والإنسانية من الجاهلية بجميع أنواعها ومظاهرها ، ويكون هو الدين الواحد بعقائده وعباداته وأحكامه ومظاهره ، ومدنيَّته ـ إلى حدٍّ بعيد ـ.

وذلك لأنَّ الدعوة القاديانية اجتمع فيها الطموح الفردي ، وحبُّ السُّلطة والنفوذ ، وما يتبع ذلك من منافع شخصية ، وطائفية ، ومادِّية ، مع الإيعاز البريطاني والأهداف الاستعمارية والسياسية الدقيقة العميقة ، ـ كما تبيّن ذلك مما سبق من اعتراف مؤسِّسها ، واحتضان الحكومة البريطانية لهذه الدعوة وحمايتها ـ فأصبحت بذلك قضيةُ الطائفة القاديانية ودعوتها من أعظم القضايا المتنوِّعة الكثيرة ، التي يواجهها الإسلام والمسلمون في أنحاء العـالـم ، دقّـةً ، وخطـورةً ، ومحنـةً ، وخطـراً علـى وحـدة الإسـلام والمسلمون ، وعَالمية الإسلام ، وإنسانيّته ودوامِه ووحدته ، وأختم ذلك بما سبق من كلام العلامة محمد إقبال ، بأن بقاء هذا الدين على أصالته مرتبطٌ بالكتاب والسنة ، وبقاء هذه الأمة كأُمَّةٍ واحدةٍ مرتبطٌ بعقيدة ختم النبوة.

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيِّين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين.

* * *

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟

هذه المحاضرة القيمة ألقاها العلامة الندوي في شهر آذار ١٩٨٧م، في جامعة الملك عبد العزيز بجدة، أمام أساتذتها وطلبتها الّذين عيّنوا له موضوع المحاضرة عن كتابه الشهير «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» فلبّى العلامة هذه الدعوة وألقى هذه المحاضرة الّتي نقلها المحقق عن الشريط المسجّل.

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علىٰ رسوله الكريم وعلىٰ آله وصحبه وبارك وسلم ، أما بعد: أيها السادة يسرني ويسعدني في هذه المناسبة الكريمة أن أجيب عن السؤال الأول الَّذي تقدم به أخونا الكريم ، فإن مؤلف الكتاب إذا سمع الناس يتحدَّثون عن كتابه وعن مجهوده العلمي فإنه بحكم الطبيعة يحمد الله ويتفاءل بذلك ، وإنني كمؤلِّف حقير وكمساهم في العمل الإسلامي الكبير أغتبط بهذه الفرصة وأغتبط بهذا السؤال ، وليس ذلك بغريب فإنني إذا رأيت الناس من الطبقة المثقفة في مؤسسة علمية وفي مركز علمي ثقافي كبير كجامعة الملك عبد العزيز في جدة في هذه البلاد المقدسة ، إذ رأيت إخوتي المعنيين ببحوث علمية ، يعتنون بهذا الكتاب الَّذي كان باكورة مؤلفاتي ، ولعل كثيراً من الإخوة في هذا الاحتفال لا يعلمون أن هذا الكتاب كان بداية تاريخ التأليف ، وقد ألفت هذا الكتاب وأنا قد جاوزتُ الثلاثين من عمري ، وكان الموضوع أضخم من أن يتناوله مثلي في مثل هذه السن المبكرة وفي بلد بعيد عن مركز الإسلام وعن مركز الثقافة الإسلامية وعن مركز اللغة العربية ، فإنني كنت ولدت في الهند ونشأت فيها ، ولم يقدر لي أي سفر خارج الهند ، فكانت الرحلة الأولىٰ المباركة التي وفقني الله لها هي الرحلة التي قمت فيها بأداء فريضة الحج سنة سبع وأربعين الميلادية يعني بعد تأليف هذا الكتاب ، بأربع سنوات تقريباً أو ثلاث سنوات ، فكانت في الحقيقة مغامرة علمية لم أكن مُتهيئاً لها ، وكان من الجسارة العلمية إن لم تكن من الوقاحة أن أتناول هذا الموضوع ، الَّذي كان جديراً بقلم أكبر من قلمي وبعقل أوسع من عقلي وبتجربة أطول وأوسع من تجربتي كمؤلّف ، ولكن الله يفعل ما يشاء ، كأني كنتُ أشعر بدافع يدفعني ، برغبة غامضة ملحة لم أستطع أن أغالبها ، كأن سائقاً يسوقني إلىٰ الكتابة في هذا الموضوع ، ولو استشرت العقل واعتمدت علىٰ تجارب المؤلفين ، وعلىٰ مقاديرهم ومكانتهم العلمية لأحجمتُ ، ولعدلت عن هذه الفكرة ، ولو ذكرتُ لأحد من العقلاء العلماء ، أصحاب الأقلام المؤلفين ،

لأشاروا علي بالعدول عن الخوض في هذه المعركة العلمية العقلية ، ولكنه كان من الخير أنني لم أستشر أحداً كما يقول الدكتور محمد إقبال الشاعر المعروف: ليس من الخير أن تستشير عقلك دائماً ، فنحّ عقلك جانباً في بعض الأمور ، فإن العقل يصور لك الخوف في معارك خطيرة ، ويشير عليك بالابتعاد عن مثل هذه التجارب الخطيرة.

أعتقد أنه كان خيراً لي أنني لم أذكر ولم أتحدث في هذا الموضوع إلىٰ كبار العلماء وكبار الكتاب في الهند ، إنني كنت أشعر بسائق داخلي يسوقني إلىٰ التحدث في هذا الموضوع ، وكانت المراجع التي كنت أستشيرها في هذا الموضوع قليلة لأن ذلك العهد كان قريباً بالحرب العالمية الثانية ، وكانت الصلات تكاد تكون منقطعة بين الهند والبلاد العربية ، فكانت الهند تستورد قليلاً من البضاعة العلمية والبحوث العلمية والمراجع التاريخية والثقافية التي كانت تزخر بها البلاد العربية بصفة عامة ، ومصر بصفة خاصة ، ولكنني كنت مدفوعاً ، لم أكن في ذلك ـ في الحقيقة ـ مخيراً بل كنت مسيراً ، كأن هاجساً يهجس في ضميري ويقول لي: لا بدّ من وضع كتاب في هذا الموضوع ، وكان الاسم طريفاً في الحقيقة.

كان من أسباب استرعاء هذا الكتاب انتباه كثير من الناس وإثارته لدهشة كثير من الناس أن الموضوع كان طريفاً مبتكراً «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» هل للمسلمين صلة وثيقة بالمصير العالمي ، بالأوضاع العالمية حتى يجوز أن يقال: ماذا خسر العالمُ بانحطاط المسلمين ، أو ماذا سيصبح العالم ويجني بتقدم المسلمين؟

كان الناس اعتادوا في ذلك العصر وقبل العصر الَّذي ألف فيه هذا الكتاب أن ينظروا إلىٰ المسلمين كشعب وكأمة ، إذا أعطينا المسلمين حقهم كأمة ذات رسالة وذات دعوة ، فإن المؤرخين والكتاب والباحثين اعتادوا أن ينظروا إلىٰ المسلمين كعنصر من عناصر النوع الإنساني الكثيرة ، ولكن تشجع المؤلف ، مؤلف هذا الكتاب ، وتخطى هذه الحدود المرسومة وخرج من الإطار التقليدي الَّذي فرض علىٰ المؤلف والكتاب في العرب

والعجم ، فأراد أن ينظر إلىٰ العالم من خلال المسلمين ، وشتان بين النظرتين ، نظرة ينظر بها إلىٰ المسلمين من خلال العالم ، من خلال الحوادث التي تجري في العالم ، من خلال التطورات التي تحدث في العالم . المسلمون شعب من الشعوب يخضعون لما يجري في العالم في إطار عام واسع ولكن قلما يكون النظر إلىٰ العالم من خلال المسلمين ، إنهم كانوا يبحثون دائماً ماذا خسر المسلمون بسبب الحادث الفلاني؟ بسبب التطور الفلاني ، بسبب انقراض الحكومة الفلانية ، ماذا خسر المسلمون بسبب نهضة الغرب الحديثة ، ماذا خسر المسلمون بسبب الثورة الصناعية الكبرىٰ التي حدثت في الغرب ، ماذا خسر المسلمون بانقراض الحكومة المغولية مثلاً هنا في الشرق ، أو بانقراض الخلافة العثمانية؟ وماذا خسر المسلمون بفتح الغرب لكثير من قلاع الإسلام والمسلمين ، ماذا خسر المسلمون بفقرهم في الاقتصاد وفي السياسة ، وفي القوة الحربية ؟!

كان ذلك الطريق المرسوم التقليدي الَّذي اعتاده الناس ، ولكن الله سبحانه وتعالىٰ ألهمني وشرح صدري أن أكتب في موضوع ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ كأن المسلمين هم العامل العالمي ، العامل المؤثر في مجال الأمور في العالم كله ، ليس في منطقة جغرافية أو منطقة سياسية خاصة ، إنه كان فتحاً جديداً في الحقيقة ، وأنا أعتقد أن هذا الكتاب إنما استرعىٰ انتباه كثير من الناس علىٰ صغر سن المؤلف وعلىٰ قلة بضاعته في العلم ، لا لأنه ألف تأليفاً لم يسبق له كتاب يعرف به في مصر وفي غير مصر ، إن السر في قبول هذا الكتاب ذلك الاهتمام من القراء هو أنه كتب وبحث من مستوىٰ رفيع ، من مستوىٰ الأمة الإسلامية التي ترغم التاريخ على أن ينحو نحواً جديداً ، فأنا مع كل اعترافي بفقري في العلم وقلة بضاعتي في الثقافة أحمد الله سبحانه وتعالىٰ ـ ولا يستغرب أن يحمد المؤلف علىٰ توفيق الله وعلىٰ إلهامه ـ أنه وفقني لتأليف هذا الكتاب في هذه السن المبكرة وفي هذا الزمن المبكر ، ووفقني لأن أبحث وأن أطرق هذا الموضوع من ناحية جديدة وبأسلوب جديد «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»؟

هل المسلمون في وضع يمكن أن يقال: إن العالم يخسر شيئاً بانحطاطهم؟ هل المسلمون علىٰ مستوىٰ يجوز أن يقال إن العالم قد خسر شيئاً بتقهقرهم وبتراجعهم وبتخلفهم عن مجال القيادة العالمية؟ إنني أخاف وأخشىٰ أن كثيراً من الكتاب الإسلاميين الَّذين كانت لهم مواقف جليلة، وكانت لهم سوابق عديدة أنهم فكروا هذا التفكير، إن الحروب الَّتي تراكمت علىٰ المسلمين مع تاريخ الإسلام، وإن مركب النقص الَّذي أصيب به الجيل الجديد، الجيل المثقف، كان يعوق كثيراً من الباحثين أن يربطوا قضية المسلمين بقضية العالم، بقضية الإنسانية، أين المسلمون من القيادة العالمية: المسلمون فقراء، المسلمون ضعفاء، المسلمون محكومون من الغرب، المسلمون خاضعون للثورات الحديثة، فهل يصح أن يربط مصير العالم أو مصير الإنسانية بمصير المسلمين، بواقع المسلمين؟ لا إن كثيراً من الناس لم يكونوا يصدقون في ذلك الحين أن المسلمين لهم من الأهمية والخطر والتأثير ومن المكانة ما يؤهلهم لهذا البحث، ويسوغ للمؤلف أن يؤلِّف كتاباً فيبحث عن مدىٰ خسارة العالم الإنساني، العالم المعاصر بانحطاط المسلمين، إن الموضوع كان خطيراً، وكان البحث فيه شبه مجازفة وشبه مغامرة علمية، ولكن الله سبحانه وتعالىٰ أعان علىٰ ذلك.

ألفت هذا الكتاب علىٰ تردد، علىٰ تخوّف مني، لأنني كنت جديداً في مجال التأليف خصوصاً في اللغة العربية، فإنني لم أكن قد زرت بلداً عربياً قبل تأليف هذا الكتاب بل بعد تأليفه بأربع سنوات أو بخمس سنوات، إنما كانت صلتي باللغة العربية صلة دارس، صلة تلميذ، يولد بعيداً أو يعيش بعيداً عن مركز الثقافة العربية وعن مركز العلوم الإسلامية الأصلية، ولكن الله إذا أراد شيئاً هيأ أسبابه وقوّى علىٰ ذلك، فألفت هذا الكتاب علىٰ تخوف وعلىٰ شك.

كان يساورني شك أحياناً هل ينال هذا الكتاب تشجيعاً؟ هل ينال هذا الكتاب تقديراً في البيئات العربية الخالصة، وفي البيئات الإسلامية البعيدة؟ فأرسلت فصلاً عن هذا الكتاب في التعريف به، إلىٰ الدكتور أحمد

أمين بك وهو رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر في مصر ، وكنت أمنّي نفسي بأن هذا الكاتب الإسلامي الكبير ، هذا المؤلّف المصري الشهير الَّذي نالت كتبه خصوصاً سلسلة فجر الإسلام وضحىٰ الإسلام الَّتي كان لها دوي في الأوساط العلمية ، كنت أمني نفسي وأتمنىٰ علىٰ الله أن ينالَ هذا الكتاب من اهتمام منه ، ولكني فوجئتُ بكتاب تلقيته منه فيه التشجيع والتقدير ، ويطلب مني نموذجاً من هذا الكتاب ، فأرسلت إليه فوافق علىٰ فكرة هذا الكتاب وإصداره من لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وكانت لجنة موقرة ، وقدم له مقدمة لم تكن فيها تلك القوة الَّتي كنت أتوقعها من رجل مثله ، من باحث إسلامي كبير ، ولكن صدور هذا الكتاب من لجنة التأليف والترجمة والنشر فتح لهذا الكتاب طريقاً إلىٰ الأوساط العلمية ، وكان الترحيب به واستقباله فوق تقديري وفوق ما كنت أتوقّع .

بقي أن أجيب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ يصعب علىٰ المؤلّف ـ كما تعلمون ـ من جرب التأليف أن من أصعب الأمور علىٰ المؤلف أن يلخص الكتاب الَّذي ألفه وسهر عليه وبذل فيه وقتاً طويلاً واعتمد المراجع الكبيرة أن يلخصه في دقائق ، ولكني سأحاول أن أجيب عن السؤال ، فأنا أولىٰ بالإجابة عنه .

في الحقيقة إن العالم قد خسر جوهره ، خسر أغنىٰ ما عنده وأحوج ما يكون إليه ، قد خسر قيمته في الحقيقة بانحطاط المسلمين ، لأن المسلمين هم الَّذين كانوا يضفون علىٰ هذا العالم القيمة المعنوية وجدارة الحياة والبقاء والغاية الرشيدة التي يتجه إليها العالم .

ما هي غاية الحياة؟ لماذا خلق هذا الكون؟ لماذا خلقت هذه الوسائل الكثيرة الوفيرة التي بثها الله علىٰ الأرض في الجو؟ لماذا أودع الله هذه القوة الهائلة في العقل الإنساني؟ لماذا خلق الله هذه الطاقات البشرية الهائلة في طبيعة الإنسان ، هذه كلها أسئلة وجيهة ، كان المسلمون هم الَّذين يعللون ويفسِّرون هذه الخصائص البشرية ، التي تمتاز بها البشرية ، كان المسلمون وحدهم حاملي رسالة أكرمهم الله تعالىٰ بها عن طريق محمّد خاتم الأنبياء

عليه الصلاة والسلام ، وكان للمسلمين وحدهم أن يفسروا هذا المخطط الدقيق الواسع الشامل الَّذي خلق الله عليه الكون وهذه الحكمة الدقيقة العميقة التي خلق الله لأجلها الإنسان واستخلفه في هذه الأرض: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ لماذا حملها الإنسان؟ ولماذا يقول الله تبارك وتعالىٰ ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ ولماذا أعرض الملائكة عن الإجابة عن السؤال الَّذي وجهه الله تعالىٰ فقالوا: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ ما هو السر للخلافة الإلهية ، سر خلافة الإنسان عن الله تبارك وتعالىٰ ، هذه كلها أسرار ، هذه كلها أسئلة عميقة ، أسئلة وجيهة لها كل الوجاهة ولها كل الأهمية ، وهذه الأسئلة مطروحة أمام المكتبة العالمية ، أمام كبار الباحثين ، كبار العقلاء ، وكبار الفلاسفة والمؤرخين ، هذه الأسئلة مطروحة أمامهم تفرض عليهم أن يجيبوا عنها ولا يستطيعون أن يجيبوا عنها إلاَّ إذا فهموا الرسالة السماوية ، وإذا فهموا الغاية الرشيدة التي خُلق لأجلها الإنسان ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ، إن هذه اللغزة البشرية ، اللغزة الكونية التي لا توجد لغزة أكبر منها وأدق منها ، لا نحلّها إلا إذا فهمنا الرسالة التي اختير لها المسلمون ، وهذه القيادة البشرية التي اختير لها المسلمون ، فإذا فهمنا لماذا خلق المسلمون عرفنا لماذا خُلق هذا الكون ، إذا فهمنا لماذا اتصلت الأرض بالسماء أو اتصلت السماء بالأرض عن طريق الوحي ، عرفنا سر خلافة الإنسان ، وعرفنا الغاية الَّتي يجب أن تتجه إليها الأجيال البشرية في كل زمان ومكان.

ماذا كان العالم لو لم يكن المسلمون؟ وإذا كان هذا الكون ، وكانت هذه الأسرار الطبيعية ، وهذا الجو الفسيح وهذا الكون الزاخر وهذه النشاطات الباهرة وهذه القوة الكونية ، ولم تكن الرسالة الإسلامية والأنبياء ، كان هذا الكون كله ، وكانت هذه المسيرة التي قطعتها الأجيال البشرية خلال هذه المدة رحلة لا غاية لها ، كلمة لا معنى لها ، وكانت كلها حيرة وضلالاً ، كانت كلها تيهاً وفساداً ، كانت كلها عبثاً وضرباً من اللهو ، فالإسلام هو الَّذي يفسّر هذا الكون ، والرسالة الإسلامية الَّتي أكرم بها

المسلمون ، والوصاية العالمية الَّتي اختير لها المسلمون ، هي التي تستطيع أن تفسِّر هذه المسيرة الإنسانية كلها والغاية التي يتجه إليها العالم ، فلما تراجع المسلمون وانسحبوا عن ميدان القيادة ، وتخلَّوا عن دورهم القيادي التوجيهي الإرشادي ، كان هذا العالم كله كغابة موحشة تزخر بالحيوانات المفترسة والدواب السائمة والأسود الضارية والنمور الفتاكة والذئاب والكلاب العاوية ، وكانت غابة تتحكم فيها شريعة الغابات وقانون العصابات ، وكانت الأمم كلها قطعاناً من الغنم لا راعي لها ولا قائد ، ترد حيث تشاء وتصدر من حيث تشاء ، وكانت الإنسانية كلها وهي مسلّحة كفيلٍ هائج يدوس ما شاء ويقتل بأقوىٰ الأسلحة الأطفال ويخرب القرىٰ ويدمر الخلائق الإنسانية .

هذا شأن الغرب . فلما تخلىٰ المسلمون عن قيادة العالم أصبح الغرب كفيل هائج ، كرجل سكران عنده سيف بتّـار ، وسكين حادة ، لا يعرف كيف يستخدمها في صالح الإنسانية في بناء هذا الكون الجديد ، كيف يستخدمها في خدمة الإنسانية ، وهذا كله لأن المسلمين تخلّوا عن دورهم القيادي وعن مسؤوليتهم المشرفة الَّتي أكرمهم الله بها ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ وأنا قلتُ في الكلمة التي ألقيتها ممثلاً ونيابةً عن الأعضاء والمندوبين الَّذين حضروا في مؤتمر الدعوة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، قلت : إن بعثة الأنبياء السابقين كانت بعثة مفردة ، ولكن بعثة نبينا محمد ﷺ كانت بعثة مقرونة مزدوجة ، كانت بعثة نبي مقرونة ببعثة أمة ، فكانت هنالك بعثتان ، بعثة نبي للأمة ، وبعثة أمة للأمم كلها ، وإلىٰ ذلك أشار الله سبحانه وتعالىٰ بقوله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ إنها أمة مخرجة ، إنها أمة مخططة ، أمة مقصودة ، لم تكن مصادفة ، لم يكن نهوضها أو خروجها مجرد مصادفة ، وحادثاً تاريخياً ، لا ، إنها مخطط إلهي ، تقدير العزيز الحكيم ، ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ يقول الله تعالىٰ : ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ فالمسلمون هم قوامون لله ، وأكثر من ذلك

صراحة ما ثبت بالحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال لبعض من بَعَثَهم إلىٰ اليمن ، أو إلىٰ قبيلة من القبائل : «**بُعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين**» فكانت البعثة المحمدية هي البعثة المقرونة المزدوجة ، بعثة نبي ، وبعثة أمة ، أمة مبعوثة ، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم قد أحسنوا فهم هذه الحقيقة ، وجرت هذه الحقيقة علىٰ لسانهم من غير تكلف ، فقال ربعي بن عامر في الحديث الَّذي تحدث به إلىٰ رستم قائد قواد الفرس فقال : «الله ابتعثنا» ولم يقل إنما خرجنا ، نهضنا ، لا ، الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله وحده . . . الخ ، فهو يقول : الله ابتعثنا .

فلما كان المسلمون مبتعثين ، وكانت الأمة مبعوثة مبتعثة يراد بها إرشاد البشرية وهداية البشرية ، ويراد بها قيادة العالم إلىٰ الخير ، كانت كارثة كبرىٰ ، مأساة عالمية لا تقاس بمقياس ولا تقدر بالمقاييس الصناعية ، لما تخلىٰ المسلمون عن تبعتهم ، وعن هذه المسؤولية الضخمة المشرفة الَّتي أكرمهم الله بها ، كانت كارثة العالم كله ، يتسكع ويتيه في المتاهات ، والمتابعات العقائدية ، والمتاهات السياسية ومتاهات التخطيط المدنية والحضارية ، ﴿ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ إنه لا مصدر للنور إلا مصدر واحد وهو مصدر الوحي ، مصدر الهداية الإلهية مصدر الرسالات السماوية ، وكان المسلمون مختصِّين بهذا المصدر ، هم الَّذين شرفهم الله تعالىٰ بالاصطفاء من هذه المنابع الدينية الأصلية ، فلما تخلىٰ المسلمون عن تبعتهم وتكاسلوا وتقاتلوا وانطووا علىٰ نفوسهم ـ قصة طويلة ـ حكاها المؤرخون وحكيتها في كتابي «ماذا خسر العالم . . » في الباب الثاني «أسباب تأخر المسلمين» قصة تقرؤونها مفصلة في كتب التاريخ ـ فلما انطوىٰ المسلمون علىٰ نفوسهم وشغلوا بأنفسهم وشغلوا بالقتال فيما بينهم ، ونزع الله عنهم القيادة لأن الأرض يرثها عباده الصالحون الأمناء ، وإن الأرض يرثها القوي الأمين ، وكانت شقاوة للإنسانية .

كان اليوم الَّذي تخلَّىٰ المسلمون فيه عن القيادة هو اليوم الَّذي يجب أن لا ينساه العالم يجب أن يحتفل به كأشقىٰ يوم وأظلم يوم وأسود يوم وأنحس

يوم في تاريخ الإنسانية ، هذه قصة خسارة العالم بانحطاط المسلمين ، بإيجاز وإجمال ، لا أريد ـ وسيكون جناية على الكتاب ـ أن ألخص لكم حتى تستغنوا عن مطالعة الكتاب ، فلا أريد أن أحول بينكم وبين هذا الكتاب ، إنني لا أريد أن ألحق بهذه الكتاب ضرراً وأجني عليه وعلىٰ مؤلِّفه فإنني أدعكم ومطالعة الكتاب ، فمهما أطلت واسترسلت في حديثي هذا فإنني لا أستطيع أن ألخص لكم الموضوع الَّذي استغرق نحو أربعمئة صفحة ، لا أستطيع أن ألخصه في حديث دقائق أو في حديث ساعة .

هذه نهاية الحديث ، بدأنا بماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، وننتهي إلىٰ قولنا ماذا ربح العالم بتقدُّم المسلمين ، والله سبحانه وتعالىٰ يقرب البعيد ويجعل المستحيل ، والَّذي نفض الناس أيديهم منه ويئسوا منه يجعله ممكناً ، والله تبارك وتعالىٰ يقول الحق وهو يهدي السبيل .

* * *

بين الصّورة والحقيقة

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في حفل عام ، حضره آلاف من المسلمين ، عقدته جماعة التبليغ في سنة ١٩٤٩م في مدينة لكهنؤ (الهند) ونقلها إلى العربية الأستاذ محمّد الحسني ـ رحمه الله ـ رئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي» .

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .

أيها الإخوة! إن كلَّ شيء له صورة وحقيقة ، وبينهما فرقٌ كبير رغم الشبه العظيم. تميزون بينهما بسهولة في حياتكم ، تعاملون الحقيقة بما لا تعاملون به الصورة ، وأضربُ لذلك مثلين: هذا مثل للثمار المصنوعة من الخزف ، تتراءى للناظر كأنها تفاح ، ورمان ، وبرتقال ، وعنب ، وموز ، لونها وشكلها ، ولكن أين الصورة من الحقيقة؟ وأين طعم هذه الثمار ورائحتها؟ إنها ليست إلا للزينة أو المال.

إنكم ترون في المتحف كلَّ نوع من السباع والأنعام، والطيور الجميلة ، والعصافير الصغيرة ، ففيها الأسد ، والذئاب ، والأفيال ، والذباب ، وفيها كل طائر جارح ، وكل سبع مخيف ، ولكنها جثثٌ هامدة لا حراكَ بها ، وأجساد ميتة محشوَّة بالليف والقطن ، ليس فيها رمق من حياة ، وقوة تهجم بها وتصول ، حتى لا تحسّ منها من أحد ، ولا تسمع لها رِكْزاً.

إن الصورة لا تستطيعُ أن تسدَّ مكانَ الحقيقة ، وتنوب عنها ، ولا يمكنها أن تمثل دور الحقيقة في الحياة ، وتأتي بما تأتي به من عمل ونشاط ، ولا يمكن أن تقاوم الحقيقة وتكافحها. فإذا وقع صراعٌ بينهما انهارت الصورة ، ولا يمكنها أن تحتملَ عبء الحقيقة ، فإذا وكل أحد إلى الصورة وظيفة الحقيقة ، أو عوّل عليها في مهمة خانته الصورة ، وخذلته أحوج ما يكون إليها.

والصورة ـ ولو كانت مهيبة هائلة ـ تغلب عليها الحقيقة ولو كانت ضعيفة متواضعة ، لأن الحقيقةَ الحقيرة أقدرُ وأقوى من الصورة العظيمة المهيبة ، وإن الولدَ يقدر أن يسقط الأسد الميت المحشو بالليف والقطن بيده الضعيفة الناحلة؛ لأن الولد يحملُ حقيقة ، ولو حقيقة صغيرة ، والأسد ليس إلا صورة؛ ولو كانت صورة مهيبة.

إن هذا العالم الذي نعيشُ فيه عالم الحقيقة والأمر الواقع ، وقد خلق الله

كل شيء على حقيقته ، فللمال حقيقة ، وحبّه فطري طبعي ، ولأجل ذلك وردتْ عنه الأحكام ، ووضع الله فيه التأثير والجذب. وللأولاد حقيقة ، والحنان إليهم وحبهم فطري ، ولأجل ذلك وردت الأحكام في الشرع عن تربيتهم وتعليمهم. وكذلك للحاجات الطبيعية ، والميول الفطرية حقيقة لا تجحد ، ولا تغلب تلك الحقائق إلا حقيقة أقوى ورغبة أعظم وأشد.

إننا نحتاج إلى حقيقة الإسلام والإيمان للظفر على الحقائق المبثوثة في العالم ، أما صورة الإسلام فهي عاجزة عن أن تقهر هذه الحقائق وتنتصر عليها ، وإن كانت حقائق ممزوجة بالباطل؛ لأن الصورة المجردة لا تنتصر على أيِّ حقيقة.

ولذلك نرى اليوم بأعيينا أنَّ صورةَ الإسلام أصبحت لا تغلب على الحقائق المادية الحقيرة؛ لأن الصورة ولو كان ظاهرها مقدساً رائعاً ليس لها سلطان وتأثير ، وأن صورة إسلامنا ، وصورة كلمتنا ، وصلاتنا اليوم لا تقدر أن تتغلب على عاداتنا الحقيرة ، وتقهر شهواتنا الخسيسة ، أو تثبتنا على جادة الحق عند البلاء والامتحان.

إن الكلمة التي كانت من قبل ذات سلطان عجيب على القلوب والأرواح ، وكانت تهون على الناس ترك المألوفات؛ وقهر الشهوات ، والشهادة في سبيل الله وبذل الأرواح والأنفس لله ، واحتمال المكاره وتجرُّعَ المرائر في سبيل الله ، هي عاجزة عن أن تحمل الناس على ترك فرشهم بعد أن استغرقوا في النوم طول الليل ، ويقوموا لصلاة الفجر.

نعم ، الكلمة التي كانت تغلب على شهوة الخمر ، فتحول بين الإنسان وبين الكأس وهي على راحته ، فيمتنع عن شربها؛ لأن الدين يمنع من ذلك ، ولأن الكلمة تأبى عليه أن يشرب الحرام ، ها هي الآن قد أصبحت لا تملك أمراً ولا نهياً.

سرِّح طرفك في تاريخ الإسلام ، وتجول في فصوله وأوراقه ، يظهر لك أن كلمة الإسلام التي كان الصحابة وكان المسلمون في القرون الأولى يتلفظون بها ، كانت ذات حقيقة ثابتة ، وكانت كشجرة طيبة أصلها ثابت

وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. وكلمتنا نحن ألفاظ مجردة ، ونطق فارغ ، ولأجل ذلك ترى عدم تأثيرها في حياة الأمة. ثم إننا مع ذلك نحاول أن نطبق حياة أصحاب النبي ﷺ على حياتنا ، ونرجو أن تؤتي هذه الكلمة أكلها كل حين ، وتحدث ما أحدثت في الماضي ، حتى إذا لم يكن ذلك بطبيعة الحال تساءلنا ، وقلنا: «ألسنا مسلمين؟ ألسنا نصلي ونصوم؟ ألا نتلفظ بكلمة الإسلام ونرددها صباح مساء؟! فلماذا هذا الفرق الهائل بين عهدنا وعهد الخلفاء الراشدين؟! وإذا هذا البون الشاسع بين حظنا وحظهم؟! وأين ثمرات شجرة الإيمان؟! وأين نتائج الصلاة والصيام؟! وأين ما وعد الله من النصر المبين ، والاستخلاف والتمكين؟!

لا تخدعنا أنفسنا!! ولنعلم أنهم كانوا أصحاب جد وحقيقة في الدين. لقد كانت كلمتهم حقيقة ، وكانت صلاتهم حقيقة ، ونحن متجردون عن هذه الحقائق ، فرجاء أن تثمر الصورة ما أثمرت الحقيقة ، وتغني غناءها ، إنما هو وهم وخيال ، وضرب من المحال.

أما قرأتم في التاريخ أن خبيباً رضي الله عنه رفعوه على الخشبة ، وتناولوه بالرماح والأسنة ، حتى تمزق جسمه وهو قائم لا يشكو ولا يئن ، فقالوا له: «أتحب أن يكون محمد ﷺ مكانك؟» فيضطرب ويقول: «والله لا أحب أن يفديني بشوكة يشوكها في قدمه»!.

يا أبناء الإسلام! إن الذي ثبته في هذا المكان ، وألهمه أن ينطق بمثل هذه الكلمة العريقة في حب الرسول هل هي صورة الإسلام؟ لا ، بل هي الحقيقةُ التي مثلت بين عينيه الجنة ، والرماح تنوشه وتعبث بجسمه ، وناجته ، وقالت: صبراً يا خبيب ، فما هي إلا لمحات وثوان ، وها هي الجنة تنتظرك ، ورحمة الله ترتقبك ، فإذا احتملت آلام هذا الجسد الفاني والحياة الزائلة العابرة ، نلت السعادة الدائمة ، والحياة الباقية.

هذه هي اللذة الروحية ، وحقيقة الحب والإيمان التي أبت على خبيب أن يُطْلَق ويُؤذى رسول الله ﷺ بشوكة في قدمه ، فهل تستطيع الصورةُ أن تحمل صاحبها على هذا الإخلاص والتفاني ، والثبات على العقيدة والصبر

على الموت؟! كلا إن الصورة لا تستطيع أن تقاوم الشدائد والآلام ، بل حتى الخيالات والأوهام. وقد بدا لنا ذلك في الاضطرابات الطائفية الماضية في الهند ، فإن أناساً من المسلمين قد غيروا صورة الإسلام خوفاً مما مرَّ بخاطرهم من الفزع ، وخشية الموت ، وما ثار في رؤوسهم من معارك خيالية حامية ، واختاروا شعارَ الكفر ، وذلك لأن هؤلاء الناس قد كانوا متحلّين بالصورة ، فارغين عن الحقيقة.

هاجر سيدنا صهيب رضي الله عنه ، فلما كان في الطريق اعترضته جماعة من مشركي مكة ، وقالوا له: أتيتنا صعلوكاً حقيراً ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريدُ أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك ، وهناك قامت المعركةُ بين حقيقة الإسلام وحقيقة المال ، ودارت بينهما رحى الحرب ، فانتصرت حقيقةُ الإسلام على ضدها ، وقال لهم صهيب: «أرأيتم إن جعلتُ لكم مالي أتخلّون سبيلي؟ قالوا: نعم ، قال: فإني قد جعلتُ لكم مالي[1]» وهكذا انطلق صهيب بدينه ، متجرداً من ماله ، فرحاً مسروراً ، كأنه لم يفقدْ شيئاً ، ولم يخسر شيئاً.

وخرج سيدنا أبو سلمة بزوجه وابنه يريد المدينة ، فلما رآه رجالٌ من بني المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها في البلاد؟! ونزعوا خطامَ البعير من يده ، وأخذوها منه ، وأخذ بنو عبد الأسد سلمة ولده الصغير ، هناك اصطدمت حقيقةُ الإسلام بحب الزوج والولد ، فما لبث أن انتصرتْ عليه ، وغادر أبو سلمة زوجه وولده تحت رعاية الله ، وهاجر وحيداً ، هل الصورة تستطيع ذلك؟ وهل يقدر أصحابُها على ترك الزوجات والأولاد في سبيل العقيدة والدين؟ كلا! بل سمعنا أن أناساً قد ارتدوا عن دينهم للمال ، والأزواج ، والأولاد ، وغير ذلك من متاع الدنيا وزخارفها.

كان أبو طلحة مقبلاً على صلاته ، فإذا طائر يدخل في بستانه ، ثم لا يجد الطريقَ للخروج ، ويميل إليه قلبُ أبي طلحة ، فلما انصرف من صلاته

(١) سيرة ابن هشام (ج٢ ص ١٢١).

تصدَّق بهذا البستان: لأنه لا يحب أن يشغله شيءٌ عن حقيقة صلاته، وينازع قلبه!.

إن للبستان حقيقة، ولثمره وأكله حقيقة، ولا تغلب هذه الحقائقَ إلا حقيقةُ الإسلام، وإن صلاتنا اليوم مجردة عن الحقيقة، ولذلك لا تقدر أن تقاومَ أدنى الحقائق المادية.

لقد كان في حرب اليرموك بضعة آلاف من المسلمين، وأما الروم فقد كان عددهم يبلغ مئتي ألف أو يزيدون، فإذا نصراني كان يقاتل تحت لواء المسلمين يقول: ما أكثر الروم وأقل المسلمين، فيقول خالد رضي الله عنه: والله لوددتُ أن الأشقر براء من توجِّيه، وأنهم أضعفوا في العدد[1].

بم كان خالد رضي الله عنه مطمئناً، ولِمَ لَمْ يشغل خاطره هذا العدد الهائل، ولِمَ لَمْ تكبر في عينه جنود الروم الكثيفة؟ ذلك لأنه كان مؤمناً بالله، واثقاً بنصره، ولأنه كان يعلم أنه على الحقيقة، وأن مقابله صورة فحسب، وأن الروم صورة فارغة عن الحقيقة، وكان يعتقد أن الصورة مهما كثرت، لا تقدر أن تقاومَ حقيقة الإسلام.

لا شك أننا نتلفَّظُ بكلمة الشهادة والتوحيد، ومنا مَنْ يعرف ما يقول، ولكن الصورة شيء والحقيقة شيء آخر، إن أصحاب النبي ﷺ والمسلمين الصَّادقين كانوا على حقيقة هذه الشهادة، فإذا قالوا لا إله إلا الله اعتقدوا أنه لا إله غيره، ولا رب غيره، ولا رازق غيره، ولا نافع ولا ضارّ إلا هو، له الملك والحكم، والخلق والأمر، وبيده ملكوت كل شيء، يجير ولا يجار عليه، وأخلصوا له الحب، والخوف، والسؤال والرجاء، والعبادة، والدعاء، وأصبحوا عباداً حنفاء، شجعاناً أقوياء، لا يهابون العدو، ولا يخافون الموت، ولا يبالون بلومة لائم.

(١) الأشقر: فرس خالد، وكان قد حفي، واشتكى في مجيئه من العراق (البداية والنهاية ج٨ ص٩).

نرجع إلى أنفسنا ، ونفكر هل هذه هي الحقيقة متغلغلة في أحشائنا ، ومتسربة في عروقنا وشرايينا ، وهل غرسُ حياتنا يُسقى بهذا الماء؟ معذرة وعفواً أيها السادة ، إنا نخافُ ألا يكون الأمر كذلك ، وأن نصيب الصورة في حياتنا أكثر من نصيب الحقيقة ، وذلك موضع الضعف في حياتنا ، وسرّ شقائنا ومصائبنا ، إننا جميعاً نؤمن أن الآخرة حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والبعث بعد الموت حق ، ولكن هل إننا حاملون لحقيقة الإيمان كأصحاب النبي ﷺ ، ومَنْ تبعهم بإحسان؟ وقد سمعنا أن أحدهم سمع رسول الله ﷺ يقول : «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فرمى بما معه من التمر ، وقال : لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي ، هذه ، إنها لحياة طويلة ، وقاتلهم حتى قتل ؛ لأن الجنة كانت عنده حقيقة لا يشكُّ فيها ، فمن أيقن يقول كأنس بن النضر : إني لأجدُ ريحَ الجنة من دون أُحُد .

أتى رجلٌ من المسلمين يوم اليرموك ، وقال للأمير : إني قد تهيأت لأمري ، فهل لك من حاجة إلى رسول الله ﷺ ، قال : نعم! تقرئه عني السلام ، وتقول : يا رسول الله إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً .

أفيقول هذا إلا من يوقن أنه مقتول في سبيل الله ، وملاقٍ رسولَ الله ، ومجتمع به في نعمة الله ، وأنه مكلّمه ومحدِّثه ، فإذا حصل لرجلٍ مثل هذا اليقين ، فما الذي يمنعه من استقبال الموت؟! وما الذي يحول بينه وبين الشهادة؟!

إن أكبر انقلاب وقع في تاريخ هذه الأمة ، هو أن الصورةَ احتلت مكان الحقيقة ، واستولت على حياة الأمة ، وذلك من عهد بعيد في التاريخ ، والذين كانوا يرون الصورة من بعيد يعتقدون أنها الحقيقة ، ولذلك يذعرون ويشفقون من قربها ، فكانت هذه الصورة الإسلامية كجدار ينصبه الفلاح في حقله كيلا يحلّ فيه الطير والوحش ، ولا تزال الطيور تظن أنه إنسان ، أو حارس ، فلا تقربه حتى يتشجع غراب ذكي ، أو حيوان جريء ، فيجد أنه ليس بشيء ، هنالك تدخل الطيور والوحش في هذا الحقل وتعيث فيه ،

وتتلف زرعه ، وقد وقع للمسلمين نفس الحادث ، لقد حرستهم صورة الإسلام مدة طويلة جداً ، فلم تجترىء عليهم أممُ العالم ، ولم يدر بخلد أحدٍ أن يمتحن هذا الشبح المخيف ، ويتحققه.

ولكن حتى متى؟ لما أغار التتارُ على بغداد ، افتضح المسلمون ، وظهر إفلاسهم في الروحِ والقوة المعنوية ، من ذلك الحين أصبحت الصورة عاجزة عن أن تحافظَ عليهم ، وتذود عنهم المكروه ، وتدفع عنهم غارات الأمم ، فإن الصورة لا تقومُ إلا على الجهل والغرور ، فإذا انكشف الغطاء وزاح الستار ، تبين الصبحُ لذي عينين.

وإنَّ ما نرى ونقرأ في تاريخ الإسلام من أخبار انكسار المسلمين وهزيمتهم في ميادين القتال ، إن كل ذلك أخبار انخذال الصورة وفضيحتها لا غير ، وقد فضحت الصورة في كل معركة وحرب ومقاومة واصطدام ، ولكن الذنب علينا ، حملنا الحقيقة على ظهر الصورة ، فلم تستطعْ حمله ولم تمسكه ، وعقدنا الآمال الكبار بالصورة الضعيفة فخيبت رجاءنا ، وكذبت أمانينا ، وخذلتنا في الميدان.

تكرر الصراعُ بين صورة الإسلام وشعوب العالم وجنودها ، وفي كل مرة تنخذل وتنهزم الصورة ، ويعتقد الناس أنه هزيمة الإسلام وخذلانه ، وبذلك هان الإسلامُ في عيون الناس. زالت مهابتُه عن القلوب ، ولا يدري الناس أنَّ حقيقةَ الإسلام لم تتقدم إلى ساحة الحرب منذ زمن طويل ، ولم تتنازل أممَ العالم ، وإن الذي يبرز في الميدان هو صورة الإسلام لا حقيقته ، وخليق بالصورة أن تنهزم ، وتضمحل أمام الواقع والأمر الجدّ.

هاجمت بعضُ الدول الأوربية في الحرب الأولى تركيا الإسلامية ، تركيا التي أرعبت أوربا كلها ، وهزمت دولها مرة بعد مرة ، وكانت تركيا في هذه المرة حاملةً لصورة شاحبة للإسلام ، وقد فقدت شيئاً من حقيقة الإيمان ، ففشلت في المقاومة ، وفقدت كثيراً من ممتلكاتها.

واجتمع سبع دول عربية لمحاربة الصهيونية في فلسطين ، وكانت هذه الدول العربية عليلة الروح ، وقد أطفأت المادية الأوربية جمرةَ القلوب ،

وشعلة الجهاد في سبيل الله ، وحببت إليها الحياة واللذات ، ثم إنها تتخلف تخلفاً كبيراً في المعدات الحربية ، والتنظيمات العصرية ، فكانت الحربُ بين العرب المسلمين واليهود الصهيونبين صراعاً بين صورة الإسلام وحقيقة القوة والتنظيم والحماسة ، فكانت نتيجة هذه الحرب نتيجة كلِّ صراع بين الصورة والقوة.

إنَّ الصورة لها منزلةٌ ومكانة عند الله تعالى ، لأنه قد عاشت فيها الحقيقة قروناً طويلة ، ويحبها الله لأنها صورة أوليائه ومحبيه ، وكذلك نعرف لها الفضل؛ لأن الانتقال من صورة الإسلام إلى حقيقة الإيمان أسهل بكثير من الانتقال من حقيقة الكفر أو صورته إلى حقيقة الإيمان والإسلام ، فلنحافظ على هذه الصورة ، ولنتمسك بها ، ولكن لا ينبغي أن نقنَع بها ، ونستهين بالحقيقة والروح.

يا أبناء الإسلام ، إنَّ وَعْدَ الله من النصرة والفتح في الدنيا ، والنجاة والغفران في الآخرة. كلُّ ذلك محصورٌ في حقيقة الإسلام ، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٩] لاشك فإن الخطاب في هذه الآية للمسلمين ، ومع ذلك اشترط لإيمان العزة في الأرض والعلو والشوكة ، وقال في موضع آخر: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ [غافر: ٥١] وقال أيضاً: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥] ورغم أنَّ جميعَ تلك الوعود كانت على أساس الإيمان والأعمال الصالحة ، اشترط أن يكون في المسلمين حقيقة الإيمان والتوحيد.

إن أكبر مهمة دينية في هذا العصر ، وأعظم خدمة ، وأجلّها للأمة الإسلامية ، هي دعوة السواد الأعظم للأمة وأغلبيتها الساحقة إلى الانتقال من صورة الإسلام إلى حقيقة الإسلام ، فلمثل هذا فليعمل العاملون ،

ويبذلوا جهودهم ومساعيهم في بث روح الإسلام في جسم العالم الإسلامي ، ولا يدخروا في ذلك وسعاً ، فبذلك يتحول شأنُ هذه الأمة ، وفي نتيجته شأن العالم بأسره ، فإنَّ شأنَ العالم تبعٌ لشأن هذه الأمة ، وشأن الأمة تبعٌ لحقيقة الإسلام ، فإذا زالت حقيقةُ الإسلام من الأمة المسلمة ، فمن يدعو العالم إلى حقيقة الإسلام ، ومن ينفخ فيه الروح؟ قال سيدنا عيسى عليه السلام لأصحابه: «أنتم ملح الأرض ، فإذا زالت ملوحة الملح فماذا يملح الطعام؟!».

وقد أصبحت حياتنا اليوم جسداً بلا روح؛ لأن السوادَ الأعظم للأمة مجرد عن الروح ، فارغ عن الحقيقة ، فكيف تعود الروحُ والحقيقة في الحياة الإنسانية مرة أخرى؟!

إن في هذا العالم أمماً لا تزال فارغةً عن الحقيقة والروح منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا ، ولم يَبْقَ فيها إلا عدة معتقدات مرسومة ، وبضع صور حقيرة مجردة عن الروح ، وانتهت حياتنا الدينية والروحية الحقيقية ، حتى إن إنشاء أمة بأسرها أيسر من إصلاح هذه الأمم ، وتجديد حياتها الدينية والخلقية ، والذين نهضوا لإصلاحها ، وبذلوا قصارى جهدهم في هذا السبيل ، قد أخفقوا ولم يفلحوا في مهمتهم ، رغم الوسائل العظيمة الكثيرة التي حدثت في هذا العهد من الطبع والنشر ، والتأليف والإذاعة ، والتعليم والتربية ، وطرق الدعاية والتأثير؛ وذلك لأن عروة دينها قد انفصمت انفصاماً تاماً ، وانقطعت علاقتُها عن منبع الحياة الدينية ، والخُلُقية ، والروحية.

أما الأمة الإسلامية فلا تزال ـ على علاَّتها وضعفها ـ مستمسكة استمساكاً ما بعروة الدين ، وهي الإيمان بالله والرسول ، واليقين بالدار الآخرة والحساب ، لم تتركها البتة ، ولم تنقطعْ عنها انقطاع الأمم الأخرى ، بل إن إيمان كثير من عامة المسلمين ودهمائهم يزري بإيمان كثيرٍ من خواصِّ الأمم الأخرى ، وعليتهم ، ويفوقه متانة ورسوخاً وحماسة ، ثم إن كتابها لا يزال في يدها لم يتناوله التحريف ، ولم يعبثْ به العابثون ، كما

فعلوا بالصحف الأولى ، ولا تزال سيرةُ الرسول وأسوته الحسنة بمتناول يدها ، فالدعوة إلى الدين ميسورة ، والتجديد ممكن ، والقلوب متهيئة ، وجمرة الإيمان سريعة الاتقاد ، والشقّة بين الصورة والحقيقة قصيرة ، والقنطرة بينهما الدعوة إلى تجديد الإيمان ، والرجوع إلى الدين ، والتتبع لروحه ، والتحلي بحقيقته.

لستُ قانطاً من ظهور حقيقة الإسلام في هذا العصر ، ولا نصدق ما يقال بأن الزمن قد تغير ، والمسلمين قد ابتعدوا جداً عن روح الإسلام ، فلا أمل في حقيقة الإسلام وغلبتها من جديد ، انظروا إلى ورائكم ترون جزر حقيقة الإسلام قائمة منتشرة في فجر التاريخ ، وإن الحقيقة لم تزل تطفو كلما رسبت ، وتظهر كلما اختفت ، وكلما ظهرت حقيقة الإسلام وتجلت في ناحية من نواحي العالم الإسلامي ، أو عصر من عصور التاريخ الإسلامي ، غلبت وانتصرت ، وكذبت تجارب الناس وقياسهم وتقديرهم. وكادت الأحوال والأمور أن تعود إلى ما كانت عليه في الماضي السعيد ، وهبت على قلوب الناس نفحات القرن الأول.

وإن حقيقة الإسلام في هذا العصر إذا ظهرت وتمثلت في جماعة ، تستطيع أن تذلل كل عقبة ، وتهزم كل قوة ، وتأتي بعجائب وآيات من الإيمان والشجاعة والإيثار ، يعجز الناس عن تعليلها كما عجزوا من قبل عن تعليل حوادث الفتح الإسلامي ، وأخبار القرن الأول .

* * *

الـدعـوة الإسـلاميـة فـي الـهنـد وتـطـوراتـهـا

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في حفل تكريمه الّذي عقده اللواء محمد صالح حرب باشا الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين في مصر في ٤/ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠ (١٣ ـ ٣ ـ ١٩٥١م) بدار جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة.

وأحب العلامة الندوي أن يتحدث في هذه المناسبة الكريمة عن الدعوة الإسلامية في الهند وأدوارها وأطوارها، واعتبر هذا الحديث القيم هدية من بلاده لقادة الفكر والعاملين في مجال الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم الإسلامي.

تأسست الدولةُ الإسلامية في الهند في القرن الخامس الهجري ، واحتضنت العلم والدين ، وقصدها العلماء والأشراف من أقصى العالم الإسلامي ، وأوى إليها كل من نبا به بلده ، أو ضاقت عليه أرضه ، واجتمع فيها آلاف من أهل الدين والعلم نزحوا من بلادهم في فتنة التتار ، وقصدها أهلُ الهمم العالية والنفوس الكبيرة من المجاهدين والدعاة ، بإشارات غيبية ومبشرات صادقة ، أو برغبة في الجهاد ونشر الدعوة الإسلامية ، فنشطوا في الجهاد والدعوة ، وانتشر الإسلامُ بسرعة غريبة بتأثير أخلاقهم الطيبة وشخصيتهم القوية ، وقد أسلم مئاتُ آلاف من الوثنيين على يد الشيخ معين الدين الجشتي (م ٦٢٧هـ) في أجمير ، وما جاورها من البلدان ، وأسلم آلاف في بنجاب على يد الشيخ إسماعيل اللاهوري (م ٧٤٨هـ) والشيخ فريد الدين الأجودهني (م ٦٦٤هـ) وأسلمت كشمير كلها على يد السيد علي بن الشهاب الهمداني (م ٧٨٦هـ) .

الدولة الروحية بجوار الدولة المادية :

ولما أصاب الدولة الإسلامية ما أصاب شقيقاتها في الشرق كله من الترف والبذخ ، وأصبحت لا تمثِّل من نواحي الحياة الإسلامية وواجبات الحكومة الإسلامية إلاّ الناحية المادية ، ولا تهتم إلاّ بجباية الأموال وتعيين العمال ، وارتفعت الحسبة ، وركبت الحكومات رأسها ، وطغت المادة ، أسَّس رجالُ الدين دولاً مستقلة في جنب هذه الحكومات ، كانت أعظم سلطاناً ، وأعمق نفوذاً من هذه الحكومات ، واستقلت هذه الدولُ الروحية بالناحية الروحية والخلقية ، وكان القائمون على هذه الدول يحكمون القلوب والأرواح ، وكثيراً ما شُوهد أن الملك كان يحكمُ على البلاد كلها ، ويحكم عليه وعلى بلاطه وأزواجه وأولاده وبطانته رجلٌ من الصالحين ، قد لا يجد قوت يومه ، وقد يكون دوابّ هذا الملك أشبع وأنعم عيشاً منه .

وقد شُوهِد في بعض الليالي المظلمة أن السلطان شمس الدين الأيلتمس

(م ٦٣٣هـ) الذي دانتْ له البلادُ كلها ، وخضع له ملوكُ الهند عن آخرهم يستفتح باب الشيخ قطب الدين يختار الكعكي لعله نام على طوى ، ويسلِّم عليه تسليم مملوك على ملك ، ثم لا يزال يغمز رجله ، ويكبس بدنه ، ويذرف الدموع على قدميه حتى يسليه الشيخ ، ويُبشِّره ، ويأمره بالانصراف .

وقد طلب علاء الدين محمد شاه الخلجي ، وهو من أعظم ملوك زمانه من الشيخ نظام الدين الدهلوي (م ٧٢٥هـ) أن يأذنَ له بالحضور فأبى ، وكان مع ذلك تأثيره في المجتمع الهندي الإسلامي ، وفي رجال الحكومة وحاشية الملك ، وهم القدوة في البلد عميقاً وواسعاً ، وقد أصبح الدينُ شعارَ الناس؛ الذين لهم اتصالٌ بالشيخ ، وعمرت المساجد ، وقلّت المنكرات ، وفشت الأمانة والصدق والنصح في التجار ، وكثر التائبون والمقلعون عن المعاصي والذنوب ، وازدحم المبايعون على بابه ، إلى غير ذلك مما حكاه المؤرخ البرني في تاريخه ، وكان له ولخليفته الشيخ نصير الدين محمود الأودهي نوع إشراف ديني ـ على اعتزالهما عن الدولة ـ على الحكومة الإسلامية ، وكان اختيارُ الملك الصالح فيروز تغلق ، وهو من أفضل ملوك الهند ، وأرشدهم للملك ، ومبايعة الناس بتوجيه الشيخ ، وترشيحه ، وكان قد وعده بالدعاء له لطول الحكم والتوفيق إذا قام بالعدل ونصر الإسلام ، وكان عهده من أزهر العهود الإسلامية ، وأنضرها في الهند .

صلة الملوك بالشيوخ وإجلالهم لهم :

وكان الملوك يعتزّون بدعاء هؤلاء الفقراء ، ويتفاءلون بكل ما ينطقون به ، فما حكاه المؤرخُ الهندي محمد قاسم صاحب (تاريخ فرشنة) أن السلطان إسكندر بن بهلول اللودهي (م ٩٢٣) كان في ناحية بعيدة عن دهلي ، فلما أخبر بوفاة أبيه ، وأنه بويع بالإمارة قصد شيخاً صالحاً في ذلك البلد لم يعلم عن الحادث شيئاً ، وطلب منه أن يقرأ عليه العلم ، ورضي الشيخ بذلك ، وجاء الملكُ بكتاب «الميزان» وهو أول كتاب يدرس في علم الصرف ، وأوله: «اعلم أسعدك الله في الدارين أن الكلمة ثلاثة أقسام»

وطلب من الشيخ أن يقرأ فيتبرك بذلك. فقرأ الشيخ «اعلم أسعدك الله في الدارين» وما عنده فكرة عن غرضه ، فاستعاده الملك ثلاثَ مرات ، والشيخ يردِّد قول المصنف: «اعلم أسعدك الله في الدارين». وبعد ذلك أطبق الملك الكتابَ ، وقال: لقد نلتُ بغيتي ، فما كان قصدي التعلم ، وقد تعلمتُ ما فيه كفاية ، وإنما أردتُ أن يدعوَ لي الشيخ بالسعادة في الدارين ، وقد كان ذلك ، فحسبي من هذا الدرس هذا الدعاء الذي أثق بأنه مُستجاب إن شاء الله. وقد كان هذا فعلاً.

والحديث بالحديث يُذكر فقد كان هذا الملك من أعظم سلاطين الهند ، وقد كان عهده من أزهر العهود الإسلامية ، ملكاً وديناً وعلماً ، وأيمنها ، ومما يستدل به على سعادته ورشده وسلامة قلبه وصلاحه؛ أنه لما سار إلى جونبور لإخماد الفتنة التي أحدثها أحدُ ملوك المسلمين ، دعا له بعضُ العلماء بالنصر والفتح ، فتغير لونه ، وظهرت الكراهةُ في وجهه ، فَسُئِل عن ذلك ، فقال: إذا كان الفريقان من المسلمين فلا محلَّ للدعاء لفريق بالنصر والظفر ، فإن ذلك يستلزمُ انكسار الفريق الثاني ووقوع المقتلة فيه ، وذلك مما يجبُ أن يحزنَ له المسلم ، ويمتعض منه ، بل يجدر في ذلك المحل أن يُدعى بالصلح والاتفاق ، ومما يعرف به مقدار حفاوة الملوك بالعلماء والصالحين ، وإيثارهم على أنفسهم؛ أن الشيخ شهاب الدين الدولة آبادي صاحب تفسير (البحر المواج) لما مرض ، واشتد به الوجع في جونفور قاعدة البلاد الشرقية ، عاده السلطان إبراهيم الشرقي (م ٨٤٠هـ) ودعا عند رأسه أن يكون فداءً له فيموت ، ويعيش الشيخ زمناً طويلاً؛ لأنه جمال وبركة زمانه.

سرّ خضوع الملوك للشيوخ والدعاة وسيرتهم:

وهكذا كان رجالُ الدين وعباد الله الذين تجردوا عن الشهوات وطلب الجاه والمال ، وزهدوا فيما عند الملوك ، فخضع لهم الملوك ، وأتوهم صاغرين ، ورفضوا الدنيا ، فجاءت راغمةً تخدمهم ، وكان هؤلاء الشيوخ يقومون على الدولة الروحية وإدارتها بنشاط وتيقظ؛ أعظم من نشاط

الملوك ، وسهرهم على مصالح بلادهم وإدارتها ، وقد كان الواحد منهم يشرف على الحياة الدينية والحياة الخلقية في طول الهند وعرضها ، ويرسل الدعاة ، وينصب المعلمين والمصلحين ، ويملأ الثغور ، ويضبط الأطراف ، ويراقب سير الحكومة ، ويكافح المادية الطاغية ، ويقاوم التيارات الجارفة.

فتنة أكبر ، والخطر الأكبر على الإسلام في الهند:

استمر الحالُ إلى فجر القرن الحادي عشر الهجري ، وقد تولى عرشَ المملكة الإسلامية الهندية السلطانُ جلال الدين أكبر ، وهو ملك أمي لم يقرأ ولم يكتب ، وقد ولد ونشأ وأبوه همايون بن بابر في حالة الفرّ من مكان إلى مكان ، يطارده منافسه في الملك شيرشاه السوري ، فنشأ الولد ـ وارث الدولة التيمورية العظمى ـ مهملاً لم يتلق شيئاً من العلم والتربية ، ورزق عقلاً كبيراً وهمة وثابة ، وجلس على عرش أبيه ، وهو شاب في مقتبل العمر ، وعنده رغبة جامحة في الدراسة والبحث ، فجمع حوله عدداً كبيراً من العلماء ، والتف حوله علماء الدنيا بطبيعة الحال ، وكان مُولَعاً بمطارحة العلماء ومناظرتهم ، وطمع العلماء في رفد الملك وصلاته ، وتنافسوا في إرضائه وسروره ، كلٌّ يريد أن يستأثرَ به الملك ، ويحلّه في نفسه المحلَّ الأرفع ، ويطلق يديه في المملكة والأموال ، ولم يكن عندهم شيء يثبتون به براعتهم وتفوقهم إلاّ هذا العلم الذي يحملونه ، والدين الذي يدينون به ، فأجروا خيلهم في هذا الرهان ، ووضعوا علمهم في الميدان ، وتناقروا كالديكة ، هذا يغزل وذلك ينقض ، وهذا يثبت وذلك يردّ ، والملك يستمع وينصت إلى مناظراتهم الدينية ومباحثاتهم العلمية ، وهو أمي لا يستطيعُ أن يحكم ويستقل بفكرته ، فنشأت عنده الشكوكُ ، وتزعزعت العقيدة ، واضطرب في الحقائق الدينية اضطراباً عظيماً ، وأصبح يشكُّ في الحقائق الدينية ، ثم رأى من أخلاق العلماء ، وممثلي الدين ، وحبهم للجاه ، ونهامتهم للمال ، وتحاسدهم وتباغضهم ما أساء ظنه بالعلماء أولاً وبهذا الدين الذي يمثلونه ثانياً ، فهذا رئيسُ القضاة يموت فيخرج من بيته لبنات من ذهب كان قد اكتنزها ، وهذا المحدّث كان يكيد لمنافسه ويدبر مؤامرة

عليه ليسقطه ويهينه ، إلى غير ذلك ، وكان الملك مرهف الحس ، قوي العاطفة ، سريع الحكم ، فحكم على هذه الجماعة بالفساد ، وأقصاها ، وأقصى معهم الدين.

بطانة سوء من العلماء:

ثم زاد الطين بلّة أن حظي عنده أخوان من أسرة علمية كبيرة ، ومن كبار أذكياء العصر ، ونوابغ الوقت ، وهما أبو الفضل المؤرخ الأديب صاحب (آيين أكبري) وأبو الفيض فيضي من كبار شعراء الفارسية ، ومن المتضلعين في العلوم العربية ، صاحب (سواطع الإلهام) التفسير غير المنقوط في اللغة العربية ، وكانا غريبي الأطوار ، فيهما شذوذ علمي ، وقد لقيا من علماء عصرهما من الازدراء ، وعدم الاحتفال ، ومن المجتمع من الانصراف والإعراض ، ما أثار فيهما روح الانتقام والغضب ، وحلاً من نفس الملك محلاً لم يحلّه أحدٌ بذكائهما الباهر ، وشعرهما الرقيق ، وأدبهما الرفيع ، ودراستهما الواسعة ، وكان أبو الفيض أقربهما إلى الملك ، وألصق الناس به ، فسوَّل للملك الدعوى بالاجتهاد المطلق ، وأنه صاحب دورة جديدة ، وأن عصر نبوءة محمد ﷺ قد انتهى على هذا الألف ، وبدأ عهد إمامة السلطان أكبر ، فأعلن نسخ نبوة محمد ﷺ وانتهاءها ، وفاتحة عصر جديد للسلطان ، فيه الكلمة النافذة ، والأمر المطاع.

معاداة الإسلام:

ثم ظهرت له فكرةُ التقريب بين الأديان ليتفادى الخلافَ بين الديانات ، وتجتمع الهند كلها تحت لواء واحد ، وعلى دين واحد ، فلفَّق الديانات ، وابتكر مزيجاً غريباً من الطقوس والعبادات والشعائر الدينية المختلفة ، فكان يتعبد على طريق براهمة الهند ، ويتقلد الخيط علامة لهم ، ويولي وجهه إلى الشمس ، ويرطن بكلمات تقديس لها ، ولم يزل ـ بتأثير محيطه ـ يبتعدُ من الدين الإسلامي ، ويقرب ، ويمتزج بالبراهمة خاصة حتى نشأ عنده شبهُ عنادٍ للدين الإسلامي ، وبغض له ، ولشارعه. فكان يسوءُه أن يسمي أحدٌ في بلاطه ابنه محمداً ، وحرم ذَبْح البقرة في طول الهند

وعرضها ، وأباح الخمر والخنزير ، وأصبح الإسلامُ غريباً مطارداً في بلاد استمرت فيها الحكومة الإسلامية خمسة قرون في عهد رجل يتسمَّى بالإسلام ، وينحدر من سلالة مسلمة ، لها غَيْرة على الإسلام ، وهكذا اتجهت الهندُ كلها إلى الإباحية والكفر ، وكادت جهودُ القرون المتطاولة ، ودماء النفوس البريئة تضيع وتذهب سُدى .

حاجة التجديد إلى عبقري :

كان خطبُ الهند والإسلام أعظم من أن يقومَ له الأقزامُ من رجال الدين والمنتسبين إلى العلم ، فليستِ المسألةُ مسألة أفراد وجماعات ، أو مسألةِ بدع وخرافات ، إنما هي مسألةُ انحراف دولة من أعظم دول الأرض ، على رأسها رجل من أكبر ملوك العصر ، وحوله رجالٌ من أعلم رجال الوقت ومن أذكاهم ، إنها خطة مدبرة ، ومؤامرة محكمة على الإسلام ، يبيتها أقوى الناس وأقدرهم .

إن الانقلابَ الديني كان يطلبُ رجلاً عملاقاً في العلم والشخصية ، وفي العقل والمواهب ، إنه كان يحتاجُ إلى عبقري عظيم ، ومجدد كبير ، يتجرد لمقاومة هذا التيار العنيف الجارف ، فيحوله من جهة إلى جهة ، ويغير مجرى التاريخ .

الإمام أحمد السرهندي :

إن لله في دينه شؤوناً ، ومن شؤونه أن يخلقَ لكلِّ عصر ، رجلاً من رجال الإسلام ، ولكل غرض سهماً من السهام التي لا تطيش ، فإنَّ الله قد تكفَّل بحفظ هذا الدين القويم ، والذكر الحكيم ، لقد وجد هذا المصلحُ في شخص رجل يقال له (الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي) تخرج في علوم عصره ، كما تخرج أكبر عالم ، وبرع فيها ، وجمع إلى كفايته العلمية ، ودراسته المتقنة ، تربية الروح ، وتهذيب النفس ، والإخلاص لله ، ودوام الذكر ، وحضور القلب ، تخرج في ذلك على شيخٍ كبير من شيوخ الطريقة النقشبندية الشيخ عبد الباقي البدخشي ، نزيلِ دهلي ، واستعان به أبو الفيض (الفيضي) فيما التوى في كتاب (سواطع الإلهام) فرأى عنده

القريحة الوقادة ، والعلم الحاضر ، وعرضت عليه المناصب في الدولة فرفضها؛ لأنه لم يُخلق ليشارك في إدارة هذه الدولة الجائرة ، إنما خُلِق ليقوِّمها ، أو يكسرها ـ إذا لم يستطع أن يقوِّمها ـ وينشىء منها دولة إسلامية جديدة.

رأى الشيخُ أحمد اتجاهَ الدولة ومعاداتها للدين ، ومحاولة القضاء على الإسلام في هذه البلاد ، فاهتزت مشاعره ، وتكدر صفو حياته ، وطار نومه ، وملكت هذه الفكرةُ عليه شعوره وعقله ، وأصبح لا يفكر إلاَّ في إصلاح الحال ، والرجوع بالدولة إلى وضعها الإسلامي ، والمحافظة على مستقبل الإسلام في هذا القطر العظيم.

الخطر في الثورة العسكرية:

ولكن كيف السبيل إلى ذلك ، ولا أمل في إنجاح الثورة ، فهو رجلٌ فريد وحيد ، لا يملك إلاَّ قلبه وقلمه ، ولا أمل في الانقلاب العسكري فالدولةُ شابة فتية ، لم يصبها شيء من الهرم والضعف ، بل قد توسَّعت ، وتوطدت ، فأصبحت إمبراطورية عظيمة ، وهي الإمبراطورية الثانية التي عرفتها الهند بعد إمبراطورية أشوكا ، وقد كسب الإمبراطور أكبر ودّ أمراء الهند ، وإقبالها بتزوجه فيهم ، وتقريبهم إلى نفسه ، فأصبحت دولة راسخة ، مشيدة البنيان ، موطدة الأركان ، لها وزراء من كبار راجبوت ، وجيش قوي من أقوى جيوش العالم ، وأحسنها تدريباً ، ونظاماً ، ومالية عظيمة ، فكيف يقاوم هذه الدولة المنظمة وكيف يؤدِّي رسالته ، ويقوم بمهمته؟ إنها لمهمةٌ تنوءُ بالعصبة أولي القوة ، فكيف بفردٍ فقير يسكن في قرية؟!

من أين يبدأ الإصلاح؟

ولكن الشيخ أحمد صمَّم على أداء رسالته ، واهتدى في تفكيره المخلص المجهد إلى نقطة مهمة ، وهي نقطة الفتح ، إن الملك قد أفسده المفسدون ، فثار على الدين ، وانحرف عن الجادة ، ولكن ليس هو الدولة كلها ، وليس هو الشعب كله ، وقد كتب عليه الموت ، وهو خاضعٌ للسنن

الإلهية ، فيموت ويخلفه غيره ، فلا بد أن أؤدي رسالتي ، وأتصل ببلاطه ، وأركان دولته ، ولا موجبَ للقنوط من الفطرة الإنسانية ، فالصلاحُ فيها أصيل ، والفساد عليها طارىء ، فلأجرِّب ولأحاول ، وإن الله ناصر من نصره ، وخاذل من خذله.

الأسلوب الحكيم :

جرد الشيخُ أولاً نفسه وفكره من كلِّ أمل وطمع فيما عند هؤلاء من مال ونشب وعزّ وجاه ، وركَّز فكره على الإصلاح والنصيحة ، حتى رأى أنَّ ما عندهم من دنيا لا يساوي في نفسه إلاّ جيفة عليها كلاب ، ثم اتصل برجال البلاط الملكي وأركان الدولة ، وتعرَّفَ إليهم ، فإذا هم يجلّونه ، ويحلُّونه من نفوسهم محلاًّ لا يحلُّونه المتملقين والمتزلفين ، ويعرفون أن هذا الرجلَ من طراز آخر غير الطراز الذي جربوه ، إن هذا رجلٌ قد تمرد على المادة ، وتمرد على المجتمع ، وخرج من سلطان المطامع والشهوات ، ورأوا فيه من قوة النفس والحرية ومعاني الإنسانية السامية ما لم يروه في نفوسهم ، ورأوا أنفسَهم أقزاماً ، لا يتطاولون إلى إنسانيته الرفيعة ، ورجولته الشامخة ، فخضعوا له كما يخضعُ كلُّ صغير للكبير ، وكل فقير للغني ، وتضاءلوا أمامه كما تتضاءل الكثبان والربى أمام الطود الشامخ ، والجبل الناطح للسحاب.

وهنا يقعُ بالسلطان أكبر حادث الموت ، ويخلفه ابنه جهان كير ، وهو يحمل للشيخ من التقدير ما لم يكن يحمله هو ، ولكن بلاطه لا يخلو ممن يضمرُ للشيخ العداء ويحسده ، فدبَّروا له المكيدة ، زينوا للملك أن يطلبه ويمتحنه ، وحضر الشيخُ فعلاً ، وكان من العادات المتبعة أن كلَّ من يدخل على الملك يسجد له تحية ، فامتنع الشيخُ وحيَّاه بتحية الإسلام ، فثار ثائرُ الملك ، وسجنه في معتقل كواليار ، ولبث في السجن بضع سنين ، يشتغلُ بالعبادة ، ويدعو المسجونين إلى الإسلام ، فأسلم على يده ـ كما جاء في دائرة المعارف الإسلامية ـ مئات من المسجونين.

ثم ظهرت للملك براءةُ الشيخ ، وعلوّ منزلته ، فأطلقه ، ودعاه ، وأكرم

مثواه ، وقضى الشيخُ شهرَ رمضان عند الملك ، والملك يصلي خلفه التراويح ، ويذاكره ، ويفيد منه في الدين ، حتى رسختْ في قلبه محبته ، وعلتْ في عينه منزلته ، فردَّ الشيخَ إلى وطنه مكرَّماً مبجَّلاً .

التأثير في بلاط الملك ورجال دولته :

ونشط الشيخُ في التأثير في بلاط الملك ، ورجال دولته ، وجيشه ، وراسلهم وراسلوه ، وبايعه منهم كثير ، وأحبه أكثر ، وتأكدت الصداقةُ بينهم ، فكان الشيخُ يكتب إليهم رسائل رقيقة مرققة ، تأخذ بمجامع القلوب ، وتهز النفوس ، وهي من أبلغ الرسائل ، وأعظمها تأثيراً في القلوب ، يصوِّر لهم غرابة الإسلام في بلاده فيبكي ويُبكي ، يقول في رسالة: «واحزناه ، واحسرتاه ، وامصيبتاه ، إن أتباع محمد ﷺ ـ وهو محبوبُ ربِّ العالمين ـ غرباء ، مهانون في بلادهم ، وأعداؤه مكرمون ، إن الباطلَ بارزٌ منصور ، وإن الحق مخذول مستور» .

ويقول في رسالة : «لقد أتى على الإنسان والمسلمين حينٌ من الدهر في هذه الديار ـ يعني به عهد الملك أكبر ـ إذا عمل مسلم بحكم شرعي يسجن ، ويعاقب ، ويهان ، ويعذّب ، والديانات كلها حرة متمتعة بكل حق ، لقد شمت بالمسلمين الأعداء ، وسخروا منهم ، وأصبحوا هدفاً لكل تجريح وإهانة» .

ويستثير هممَ رجال الدولة المسلمين ، ويستنهضهم لخدمة الإسلام ، وإقالته من عثاره ، فيكتب إلى خانخانان ـ وهو قائدُ قواد الجيش ، والركن الأعظم للدولة ـ : «إن ميدان البطولة الإسلامية لا يزال خالياً ينتظر فارساً من فرسان الإسلام ، فهل تسبقُ إلى هذه السعادة ، وتحرز قصب السبق ، وتنصر هذا الدين المظلوم ، وتغضبُ لهذا الحق المهضوم ، وتبلغ بجهادك إلى حيث لا يبلغه المتعبدون الصائمون ، فحيهلا يا أهل الغيرة والفتوة ، ويا أهل الشهامة والمروءة» .

وهكذا يكتبُ إلى خان أعظم أكبر الأمراء في عهد جهانكير ، والسيد فريد أحد الوزراء والمستشارين في الدولة ، وقد نفذ بروحانيته في قلوبهم ،

وسيطر على عقولهم ، حتى كان يملي عليهم الأحكام كما يملي ملك البلاد ، فيمتثلون أمره ، وينفذون رغباته ، ويوجِّه الدولة وهو قاعدٌ في زاويته بسرهند توجيهاً دينياً بواسطة تلاميذه الروحيين ، وخدمه المخلصين؛ الذين يديرون دفَّة الحكومة.

سمع مرة أن الملك جهانكير يفكر في أن يجمعَ حوله جماعةً من كبار العلماء الذين يشيرون عليه في أمر الدولة ، واستعان بوزارته أن يختاروا له هؤلاء العلماء ، فحذَّرهم الشيخُ من سوء العاقبة والوقوع فيما وقع فيه الملك أكبر ، وتورطت بسببه الدولة الإسلامية في الإلحاد والكفر. فقال: إياكم أن تجمعوا حول الملك علماءَ السوء المتنافسين ، ورجال المادة الطامعين ، وقطاع الطريق ، ولصوص الدين ، فيفسدون فكرةَ الملك ، ويضرون الدِّين من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ، ولكن اختاروا له صفوةً من العلماء الذين تجردوا عن حب المال والجاه ، وأخلصوا لدينهم ، أو اختاروا له رجلاً واحداً ممن يتقي الله ، ويخشاه من الراسخين في العلم[١].

يتغير اتجاه الدولة ، وترجع الهند إلى الإسلام:

وظل الشيخُ مثابراً على دعوته إلى وفاته (سنة ١٠٣٤هـ) حتى تغير اتجاه الدولة ، وتغيرت سيرة الملك ونفسيته ، وأصبحت الدولة تتقدَّم كل يوم من حسن إلى أحسن ، فخلف جهان كير ابنه شاهجهان وكان له في الشيخ رأي جميل ، ومعه صلات طيبة. هذا هو الملكُ الذي لما جلس على عرش الطاووس الذي كلفه ملايين من الجنيهات ، وكان تحفة فنية ، نزل عنه ، وخرَّ لله ساجداً ، وقال: عجباً لفرعون جلس على عرش من الآبنوس ، فقال: أنا ربكم الأعلى ، وها أنا ذا أسجد لله شكراً ، وأقع له ساجداً ، مقراً بعبوديتي وضعفي ، وقدرته وكبريائه ، وبذلك تستدلون أيها السادة على تغيُّر النفسية ، وتطور الدولة.

---

(١) اقرأ كتاب العلامة الندوي للاطلاع على حياة الإمام السرهندي الجزء الثالث من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» طبع في دار ابن كثير بدمشق.

السلطان أورنك زيب من غرس الإمام السرهندي:

وخلف شاه جهان السلطان العظيم الملك الصالح أورنك زيب عالم كير ، وهو ممن عني أولاد المجدد بتربيته وثقافته ، فنشأ متعبداً متبعاً للشريعة ، فقيهاً في الدين ، غيوراً عليه ، حريصاً على تطبيق أحكامه ، وإصلاح المجتمع الفاسد ، وتقويم الحكومة الزائغة ، وكان الشيخ محمد معصوم ابن الشيخ أحمد السرهندي ، وخليفته ، مهتماً بتربيته ومستقبله ، يخاطبه في رسائله «بناصر الدين ، ومعقل الشريعة» وقد طلب منه الأميرُ الشاب أن يرسلَ له من يربيه التربية الروحية ، فأرسل إليه ابنه الشيخ سيف الدين السرهندي يعلمه ويفقهه في الدين؛ حتى ظهرت فيه آثارُ الصلاح ، وبشّر به الشيخ سيف الدين والده الشيخ محمد معصوم ، وأزال من قصره المنكرات.

مآثر أورنك زيب الإسلامية:

وأراد الله بالمسلمين في الهند خيراً؛ إذ كان أورنك زيب خليفة أبيه شاه جهان في الإمبراطورية المغولية ، فانتصر به الدينُ ، وعزّ المسلمون ، وهان الكفر ، وزالت المنكرات ، وبطلت المكوس الجائرة ، ووضعت الجزية على غير المسلمين.

ويذكر المؤرخون من استقامة أورنك زيب على الشريعة الإسلامية ، ومن عبادته ، وصلاحه ، ما يدهش رجالَ هذا العصر ، فقد حفظ القرآن بعد جلوسه على العرش ، وجمع أربعين حديثاً وشرحها ، وأمر بتدوين الفتاوى لتكون دستوراً للمملكة ، وألف له لجنة كبيرة من العلماء ، وكان يشرف على هذه اللجنة ، ويطلع على عملها يومياً ، ويقرأ قبل النوم كلَّ ما كتب في هذا الموضوع؛ وهي الفتاوى المشهورة (بالفتاوى الهندية) ويواظب على الجمع والجماعات ، ويلتزم صلاة الجمعة في جامع دهلي وإن كان بعيداً عنه ، ويصومُ ثلاثة أيام في الأسبوع ، ويحيي ليالي رمضان بالتراويح ، ويخرج زكاة ماله ، وكان شديدَ الإنكار على المنكر ، شديد المحاربة للبدع والغناء والمزامير ، وكان مع هذا التدين أكبر الملوك الذين

عرفتهم الهند ، وأوسعهم ملكاً ، وأعظمهم سلطاناً ، وأقدرهم على الإدارة ، وأعلمهم بالسياسة ، وقد انقلبت به الحكومةُ المغولية من دولة ثائرة على الدين ثم دولة منحلة ، إلى دولة متمسكة بالدين ، محافظة عليه .

نجاح الإمام السرهندي في مهمته وأهدافه :

وهكذا استطاع رجلٌ وحيد بقوة إرادته ، وصدق عزيمته ، وإيمانه القوي ، ومعرفته بقيمة نفسه ، واحتفاظه بقوته ، وإبائه من أن ينفقها فيما لم تخلق له ، وما لا يعود على الإسلام بطائل ، وتجرده للدعوة ، وتركيز جهوده كلها على إنهاض الإسلام من كبوته في هذه الديار .

لقد استطاع هذا الرجلُ بهذا التوفيق؛ أن يحدث انقلاباً في الحكومة واتجاهها ، واستطاع أن يقضي على عقيدة وحدة الوجود التي تغلغلت في أحشاء التصوف ، والأدب والشعر ، وعلى فكرة استقلال الطرق عن الشريعة ، وعلى كثيرٍ من العقائد والأفكار والعادات؛ التي تسربت إلى المسلمين من الجاهليات المختلفة .

ضعف الحكم الإسلامي في الهند :

ثم توالى على عرش الدولة التيمورية بعد أورنك زيب ملوك ضعاف ، من طراز الخلفاء العباسيين في بغداد في العهد الأخير ، لا يملكون من أمرهم شيئاً ، ينصبون ويعزلون كالأطمار البالية ، واضطرب حبلُ الدولة ، وكثرت الفتنُ والمصائب ، وهكذا لم تعد الدولةُ مركزَ الحياة ، ولم يبق لها السلطان والقدرة على توجيه البلاد ، حيث إذا صلح الملك صلحت الدولة ، وصلحت البلاد كلها ، فليس مركز الملك الجالس على عرش دهلي مركز القلب في الجسم إذا صلح صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، إنما هو صورةٌ لا تنفع ولا تضر ، إذاً فلا بدَّ من العناية بالشعب مباشرة بدل الحكومة ، والعناية بإصلاحه ، وتربيته ، وتثقيفه الإسلامي .

الإمام ولي الله الدهلوي:

هنا قام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي[١] (م ١١٧٦هـ) المشهور بالشيخ ولي الله، وهو أحدُ حكماء الإسلام، ونوابغه، وكبار المفكرين الإسلاميين، من طراز الإمام الغزالي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، فلاحظ خمسَ نقط في حياة الشعب الهندي.

خطته في الإصلاح:

١ ـ إن كثيراً من المسلمين قصروا في فهم (التوحيد الإسلامي) وأحاطت بعقيدتهم غيوم من الجهالات، والظنون الفاسدة، والعادات الجاهلية، فلا بُدَّ من إبراز هذا (التوحيد) في نقائه ووضوحه، وشرح ما كان عليه أهلُ الجاهلية من اعتقاد في الله؛ حتى يظهر الفرق بين عقيدتهم وبين ما جاء به الإسلام.

٢ ـ الشعب ليس له اتصال مباشر بالكتاب والسنة، وقد حال العلماءُ بينه وبين دراسة القرآن، وفهمه؛ بعلَّة تعذر فهمه للعامة، وخوف انحلال سلطتهم الروحية، وسيادتهم العلمية، فلم يترجموا ألفاظ القرآن إلى لغة البلاد، ولم ينشروا كتبَ الحديث، فلا بُدَّ إذاً من نقل معاني القرآن وأحكامه إلى لغة البلاد، والإقبال على كتب السنة وحديث رسول الله ﷺ.

٣ ـ ثقافة علماء الهند ضعيفة ضئيلة في العلوم الدينية، وبضاعتهم مزجاة في الحديث خصوصاً، فلا بُدَّ من نشر علم الحديث، فدرس الصحاح والموطأ، وأقبل الناس على دراسة هذه الكتب، حتى أصبحت للهند مكانة مرموقة في العالم الإسلامي في خدمة الحديث بفضل جهود هذا البيت العظيم ومؤسسيه.

٤ ـ لاحظ أن العالم الإسلامي سوف يستقبل عصراً عقلياً، وثورة فكرية، فلا بُدَّ من إيضاح الفكرة الإسلامية وجلائها، وبيان أسرار الدين،

---

(١) اقرأ للاطلاع على حياته بالتفصيل الجزء الرابع من سلسلة العلامة الندوي لـ «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» صدر عن دار ابن كثير بدمشق.

وحكمه ، وأصول التشريع الإسلامي. ولا بد من شرح نظام الخلافة في الإسلام ، وأساليب الإسلام وأسسه في تنظيم الحياة والمجتمع ، فألف كتباً لا تزال فريدة في مكتبة الإسلام العامرة منها (حجة الله البالغة) و(إزالة الخفاء في خلافة الخلفاء) .

٥ ـ لاحظ أنه لا أملَ في نهضة الأسرة الملكية الهندية ، وتجديد لباب الدولة التيمورية؛ لأنه ـ كما قال ابن خلدون ـ: «إذا نزل الهرم بدولة لا يرتفع» فلا فائدة في بذل القوة لإصلاحها وتقويتها ، ولابُدَّ من إعداد جماعة تحدث انقلاباً إسلامياً ، وتؤسس دولة إسلامية جديدة على أساس ديني علمي جديد.

نجاحه في عمله:

قام الشيخُ ولي الله وأصحابه بمهمة هذا التجديد الإسلامي خير قيام ، فنشروا العلم الصحيح ، وأذاعوا مصادرَ الدين الأولى ، وألفوا كتباً دسمة قوية مبتكرة ، تمهد العقول والنفوس لإحداث انقلاب إسلامي ، وإنشاء دولة إسلامية ، وخرَّج تلاميذ ورجالاً ، يقومون بهذه المهمة ، وقام بعده نجله الأكبر سراج الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوي (١٢٣٩هـ) فدرس وألف ، وخرج ، وخلف التلاميذ الكبار والعلماء الفحول ، نشروا علم الحديث ، وشمروا عن ساق الجد في نصر الدين ، ومحاربة البدع ، والدعوة إلى الكتاب والسنة ، وتزكية النفوس ، حتى نفقت سوقُ الحديث ، وقامت دولةُ العلم ، واستعدت النفوسُ للنصر المؤزر للدين.

الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ورفقته وتأثيرهم في الحياة:

وفي الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجري ، قام السيد الإمام أحمد ابن عرفان الشهيد؛ الذي تخرج على الشيخ عبد العزيز ، ومعه الشيخ محمد إسماعيل بن عبد الغني بن الشيخ ولي الله الدهلوي ، فدعا الناس إلى الدين الخالص والتوحيد واتباع السنة ، وحارب الشرك والجاهلية والبدع محاربة سافرة شديدة ، وبث في الشعب روحاً دينية قوية لم تعهدْ من قرون متطاولة ، ودعا الناسَ إلى الإيمان والإحسان والتقوى والجهاد في سبيل

الله ، وقام بجولات واسعة في الهند تاب في خلالها ألوفٌ من المسلمين ، وأقفرت الحانات ، وغصَّت المساجد ، وكسدت سوقُ البدع ، والتف حوله المخلصون والعلماء الربانيون ، وخرج للحج عام ١٢٣٦هـ ومعه أكثر من سبعمئة رجل ، وتشرف بالبيعة والتوبة مئات ألوف من المسلمين في هذا السفر ، وكان الناسُ يقصدونه من كل صقع ويدخلون في الخير أفواجاً ، حتى لم يحرم ذلك المرضى في المستشفى ، وكان الناس يتساقطون عليه كالفراش ، وأسلم عددٌ كبير من الكفار ، وكان من تأثير مواعظه ، ودخول الناس في الدين ، وانقيادهم للشرع أن وقفت تجارةُ الخمر في كلكته ـ وهي كبرى مدن الهند ، ومركز الإنجليز ـ وأقفرت الحانات ، واعتذر الخمارون عن دفع ضرائب الحكومة؛ لكساد السوق ، وتعطل تجارة الخمر.

وبعد الرجوع من الحج نادى الإمام وأصحابه بالهجرة والجهاد في سبيل الله ، فهان على المتَّصلين بهم بذل نفوسهم ، والهجرة من أوطانهم والتخلي عن أموالهم ، وتلقوا التربية الحربية ، ثم هاجروا مع إمامهم السيد أحمد ، ووزيره الشيخ إسماعيل إلى بلوجستان ، ومنها إلى أفغانستان ، فحدود الهند الشمالية ، حيث حاربوا «السك» الذين كانوا قد احتلوا بنجاب ، وأذاقوا المسلمين سوء العذاب ، وهزموهم غير مرة ، وكذلك كلّ مَنْ وقف في سبيلهم من أمراء الأفغان ، وهم يريدون أن يوغلوا في الهند ، ويجلوا الإنجليز ، ويؤسِّسوا دولة إسلامية تمتد من الهند إلى حدود أفغانستان ، وهكذا تتصلُ الدول الإسلامية بعضها ببعض؛ حتى تكون سلسلة من حكومات إسلامية ، وأسَّسوا فعلاً دولة في الأرض التي فتحوها ، وتقع فيها مدينة «بشاور» ، وطبقوا نظام الإسلام المالي والإداري تطبيقاً دقيقاً ، وظهر منهم من تنفيذ أحكام الشرع على أنفسهم وعلى غيرهم ، ومن الجمع بين العبادة ، والجهاد ، والأمانة ، والعدل ، والاستهانة بالحياة والعزوف عن الشهوات ، والرحمة بالمسلمين ، والشدة على المحاربين من الكفار ما جدَّد ذكريات القرن الأول.

ولكن لم تشأ أهواءُ رؤساء القبائل الأفغانية ومصالحهم المالية أن تبقي هذه الحكومة؛ التي تحكم بما أنزل الله ، وتفرض عليهم أحكام الإسلام

المالية والقضائية ، فثاروا على عمالها ، وقتلوهم ركعاً وسجداً ، وهاجر بقيةُ المجاهدين مع إمامهم إلى وادي «بالاكوت» في طريقهم إلى كشمير ؛ التي كانوا يريدون أن يتخذوها مركزاً لنشاطهم ، وهنا حصلت آخرُ معركة بينهم وبين جيش عظيم من «السك» الذي اهتدى إليهم بدلالة بعض المأجورين من المسلمين ودهمهم ، وقتل الإمام وكبار أصحابه ، وذلك سنة ١٢٤٦هـ ، واعتصمت البقيةُ الباقية بالجبال ، ولم يزالوا قائمين على الحق ، مرابطين على الثغر ، مشمرين عن ساق الجد ، إلى آخر ساعة ، جزاهم الله عن الإسلام خير الجزاء[١] .

مدرستان للداعين إلى الكتاب والسنة والعاملين بالحديث :

ونشطت حركةُ نشر الحديث والدعوة إلى الكتاب والسنة ، ونبذ البدع والخرافات ، بعد ما قام تلاميذُ الإمام ولي الله الدهلوي وأنجاله وأحفاده بتدريس كتب الحديث ، ومحاربة البدع ، والعادات الجاهلية المحلية ، وقام السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، والعلامة محمد إسماعيل الشهيد بالدعوة إلى الدين الخالص ، والعقيدة الصحيحة السنية ، والرجوع إلى ما كان عليه السلف الصالح ، والقرون المشهود لها بالخير ، ونشطت العقول ، وتحركت الهمم ، وكثر الدعاةُ إلى الدين والمكافحون للفساد ، وكثر المعتنون بعلوم الكتاب والسنة ، والمؤلفون في المقاصد الدينية ، في اللغة الأردية الشعبية في أسلوب سهل واضح .

ونشأت من هذه الحركة التعليمية الدعوية مدرستان تنفقان على الأساس ، وتختلفان في المنهاج ، إحداهما مدرسة «صادق بور»[٢] السلفية ، رائدها العلامة ولايت علي العظيم آبادي ، من كبار خلفاء السيد الشهيد ، وأحد العلماء الربانيين في الهند في العهد الأخير ، وهي متشبعة بروح دعوة التجديد ، والجهاد التي قادها السيد الشهيد ، والعلامة

---

(١) انظر للاستزادة من أخبار الإمام الشهيد كتاب «إذا هبت ريح الإيمان» للعلامة الندوي .

(٢) صادق بورجي من أحياء مدينة «بتنة» عاصمة ولاية بهار ، كانت مركزاً لأنصار السيد الشهيد .

الشهيد ، وهي تتسم بالجمع بين الدعوة ، وروح الجهاد ، والعمل بالحديث ، وتزكية النفوس ، وعمارة الباطن ، على طريقة السيد الشهيد ، والإمام ولي الله الدهلوي ، والمجدد السرهندي .

والثانية : مدرسة للعلامة السيد نذير حسين الدهلوي (المتوفى ١٣٢٠م) وهو تلميذ الشيخ محمد إسحاق بن أفضل الدهلوي ، سبط الشيخ عبد العزيز الدهلوي ، وقد اشتغل بتدريس الحديث الشريف مدة طويلة ، ورحل إليه العلماء والأساتذة من أقاصي البلاد ، وتخرج عليه علماء كبار ، درسوا وألفوا في الحديث ، منهم العلامة شمس الحق الديانوي ، ومولانا محمد بشير السهسواني ، والحافظ عبد المنان الوزير آبادي ، والعالم الرباني السيد عبد الله الغزنوي الأمرتسري ، وابنه السيد عبد الجبار الغزنوي[١] ، وآخرون ، كان شعارهم العمل بالحديث ، وعدم التقيد بالتقليد ، وتختلف درجاتهم وأساليبهم في التمسك بهذا الشعار ، والدعوة إليه .

وينخرط في هذا السلك المؤلف الكبير العلامة السيد صديق حسن القنوجي البهوبالي المتوفى (١٣٠٧) وهو معاصر للسيد نذير حسين الدهلوي ، وتخرج على تلاميذ الشيخ عبد العزيز الدهلوي ، والشيخ محمد إسحاق بن أفضل ، وعلى علماء الهند المحدثين ، وقد خدم علومَ السنة بالتأليف والنشر ، وبذل الأموال الطائلة ، واحتضان العلم والعلماء .

ثورة الهند ، وردّ فعلها :

وفي سنة (١٨٥٧م) ثار المسلمون ثورة عظيمة للتخلص من الإنجليز ، ولكن أخفقت هذه الثورة ، وحلّت الحكومة الإنجليزية محل شركة الهند الشرقية ، فكان الأمرُ أشد . ودخلت الهند في حكم بريطانيا المباشر ، وكونت الإمبراطورية الإنجليزية ، فتسرب اليأس إلى نفوس المسلمين ، وفقدوا الثقة بأنفسهم ومستقبلهم ، وضعفت روح المقاومة ، وهاجر كثيرٌ

(١) وكانا أقرب إلى مدرسة السيد الشهيد من زملائهما الآخرين؛ بالجمع بين العمل بالحديث ، والربانية الصافية ، والروحانية القوية .

من العلماء ورجال الدين إلى الحجاز ، وأصبحوا يعتقدون أن الحكم الأجنبي في الهند ضربة لازب ، وانبث دعاةُ المسيحية والقسس في القرى والمدن يدعون إلى المسيحية علناً ، ويشنّعون على العقيدة الإسلامية والشريعة المحمدية ، ويعلنون أن دولة الإسلام قد زالت ، وأن عهده قد انقضى ، ودخلت الهندُ في الحكم المسيحي ، فليتهيأ المسلمون لاستقبال هذا الحكم ، وليقبلوا على دين الحكومة ، وطبقت الحكومة نظام التعليم المدني ، وهو يهدفُ إلى تخريج طراز من الناشئة ، لا يصلح إلاّ لإدارة جهاز الحكومة الإنجليزية وتنفيذ برامجها ، وكثيراً ما كان أفراد الجيل الجديد ينسلخون عن الإسلام انسلاخاً كلياً ، ويثورون على الحضارة الإسلامية ، والديانة الإسلامية بتأثير التعليم والتربية في مدارس الحكومة؛ التي كان يديرها الإنجليز ، أو أشباه الإنجليز ، وبسبب «مركب النقص» الذي أصيب به المسلمون في عصر الاحتلال ، ودهشة الفتح التي أصابتهم ، فأصبح المسلمون في عقر دارهم ، يغزون سياسياً وثقافياً ودينياً ، وانقطع الأمل في كل ثورة ، وانقلاب عسكري.

معهد ديوبند وخدمته للدين:

ولم ير العلماءُ أمامهم طريقاً إلاّ فتح المدارس العربية ، والمعاهد الدينية ، فأنشؤوا هذه المعاقل ليحتفظوا ببقايا الحياة الإسلامية ، وليكافحوا تيار الغرب المدني والثقافي ، ويخرجوا منها دعاة الإسلام والوعاظ والمرشدين وعلماء الدين ، فليحفظوا على المسلمين دينهم ، ويعيدوا الثقة إلى نفوسهم ، فأسَّس مولانا محمد قاسم النانونوي (م١٢٩٧هـ) (مدرسة ديوبند) سنة ١٢٨٣هـ ، وأسس مولانا سعادت علي(مدرسة مظاهر العلوم) في سبهارنفور في نفس ذلك العام ، ثم تواترت المدارس الدينية في أنحاء الهند ، وقد كان لهذه المدارس فضلٌ كبير في نشر الدين والدعوة الإسلامية ، وفي نشر الثقافة في طبقات الشعب ، ومحاربة البدع والخرافات ، وبث الروح الدينية في الجماهير ، وقد نجحت هذه المدارس في رسالتها الدينية نجاحاً باهراً.

وكان لأحد أبناء دار العلوم ديوبند ، وهو الشيخ أشرف علي التهانوي (م١٣٦٢هـ)[١] سهم كبير في نشر العقيدة الصحيحة ، وإصلاح النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، والدعوة إلى الله . وقد عمل وحدَه عمل مجمع علمي كبير ، وألف كتباً ورسائل تربو على ثمانمئة ، وقد انتشرت انتشاراً كبيراً ، وأثرت في المجتمع الهندي الإسلامي تأثيراً عظيماً .

سر نجاح هذه المدارس :

وسرُّ نجاح هذه المدارس ـ كديوبند ، وشقيقاتها ـ في أداء رسالتها ، ونشر الدين والعلم ، أنها لم تكن تنال مساعدةً من الحكومة ، وكانت قائمة على أساس الزهد والتضحية والجهاد ، فأثار ذلك فيها روح المقاومة والجهاد ، وقوة العمل والنشاط ، ثم إن أبناءها المتخرجين لم يكن لهم أملٌ ـ بطبيعة الحال ـ في وظائف الحكومة والرواتب الضخمة ، لأنهم تخرجوا من مدارس حرة لا صلة لها بالحكومة ، فألجأ ذلك أكثر المتخرجين إلى الانقطاع إلى الشعب دون الحكومة ، والتجرد للدعوة ، والخدمة دون المناصب والرواتب ، وهكذا وجد دعاة متجردون محتسبون متطوعون ، يقتنعون بالكفاف ، وينقطعون إلى الدعوة والرسالة ، فقاموا بأعمال إصلاحية لا تقوم بها أكبر دولة .

ندوة العلماء ومعهدها :

ولما رأى بعضُ العلماء أن الهوة قد اتسعت جداً بين التعليم المدني والتعليم الديني ، وحدثت بين المتخرِّجين من المدارس الدينية والمتخرجين من المدارس المدنية فجوة وجفوة تتسعان على مر الأيام ، حتى أصبح أولئك أمة وهؤلاء أمة . ولكل أمة لغة خاصة ، وثقافة خاصة ، ونفسية متميزة ، لا يفهمها الآخر ، بل أصبح التعليمُ الديني في واد والعصر الحديث في واد ، ولا جسر بينهما ، وقد أصبح هذا العصر يطلب من العالم

(١) انظر للاطلاع على ترجمته بكاملها كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن الرابع عشر الهجري» .

الديني ثقافة أوسع ، وأسلوباً للدعوة أرقى ، وأقرب إلى نفسية هذا العصر ، واطلاعاً على ما تجدَّد من العلوم والأفكار والمسائل والحاجات ، أنشأ القائمون على ندوة العلماء ـ وفي مقدمتهم مولانا محمد علي المونكيري ـ مدرسة دار العلوم في لكهنؤ سنة ١٣١٦هـ ، ورسالتها الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع ، والتصلُّب في العقيدة والمبادىء ، والتوسُّع في الجزئيات والوسائل ، وقد خرجت علماء ومؤلفين ، كانوا ملتقى الثقافتين ، وبرزخاً بين الطائفتين ، وقد ألفوا في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي كتباً هي خير ما ألف إلى الآن للجيل الجديد ، ولا يزال كتاب «سيرة النبي» في ستة مجلدات كبار للعلامة شبلي النعماني (م ١٣٣٢هـ) وتلميذه الأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي[1] أعظم مؤلف في السيرة النبوية وتعليمات الإسلام ، لا يوجد له نظيرٌ في مكتبة الإسلام الحديثة ، ولا يزال لهذا المركز التعليمي نشاط وإنتاج .

حركة التبليغ وصاحب دعوتها مولانا محمد إلياس :

وأختصر وأزين حديثي هذا بذكر دعوة وحركة دينية قوية ، كان لي شرف الاتصال بها عن كَثَب لا عن كُتُب ، وشرف التعرف بمؤسسها ـ وبالأصح داعيها ـ وقد صحبته مدة ، ورافقته في السفر والحضر ، فهذا لونٌ جديد من الحديث ، وأريد أن أحدثكم أولاً عن صاحب هذه الدعوة ، فإن الفكرة تتضح كثيراً بمعرفة صاحبها ، وهنا أكرر لكم ما تحدثت به من محطة الإذاعة الهندية في دهلي عن صاحب هذه الدعوة ، وتأثري به ، وكان موضوع الحديث : «رجال عرفتهم ، وأعجبت بهم» .

«في سنة ١٣٥٩هـ (١٩٤٠) خرجت مع رفيقين أطالع مشاريع التعليم والتربية ومراكزهما في الهند ، وانتهت بي هذه الرحلة إلى دهلي ، ومنها إلى ميوات ، الرقعة التي هي مشهورة في التاريخ باللصوصية والشطارة والنهب والغارة ، حتى كانت أبواب سور مدينة دهلي تقفل من بعد الغروب

---

(١) توفي رحمه الله في (١٣) من ربيع الأول عام ١٣٧٣هـ (١٦ نوفمبر ١٩٥٣م).

خوفاً من هؤلاء اللصوص ، فسمعت أنها بحال كبير لإصلاح ديني خُلُقي جديد ، ولما زُرتها وجدتُ انقلاباً مدهشاً في الأخلاق والنفوس ، تنقلتُ في القرى والأماكن ، وتتبعت الأخبار ، فعلمت أن الناسَ الذين كان القتل عندهم أهون شيء ، وقد يقتلون الإنسانَ لأمر تافه ودرهم زائف ، صاروا الآن يحرسون الأموال والأعراض ، ويعفون عن المحارم ، رأيت فيهم إقبالاً على العلم ، وتواضعاً ، وحفاوة ، وضيافة ، ودماثة خلق ، وإيثاراً على النفس ، وألفة ، ومودة ، لا توجدان في هذا العصر المادي ، وعزوفاً عن الشهوات ، وصبراً على المشاق ، وإيماناً ، وصلاحاً ، وعلمتُ أن ألوفاً من الناس هناك تأثروا بهذا الإصلاح ، وانقلبت نفسيتهم انقلاباً عجيباً.

هنالك فحصتُ عن منبع هذا الانقلاب ، فسمعتُ أن لا جمعية ، ولا جامعة ، ولا دعاية ، ولا صحيفة ، ولا كتاب ، إنما هو رجلٌ متواضعٌ في دهلي ، قد بث الروحَ في هذه الأمة المنحطة ، وهذَّب النفوسَ ، ونشر الدين والعلم ، وحَدَا بي الشوق إلى زيارته ، فجئت إلى دهلي ، فإذا هو رجلٌ نحيف ، أسمر اللون ، قصير القامة ، كثّ اللحية ، تشفّ عيناه عن ذكاء مفرط ، وهمة عالية ، على وجهه مخايل الهمِّ والتفكير والجهد الشديد ، ليس بمفوَّه ولا خطيب ، بل يتلعثم في بعض الأحيان ، ويضيق صدره ، ولا ينطق لسانه ، ولكنه كله روح ونشاط وحماسة ويقين ، لا يسأم ، ولا يملُّ من العمل ، ولا يعتريه الفتور والكسل.

صحبت (مولانا محمد إلياس) مركز هذا النشاط الذي وصفته مدة طويلة ، ورافقته في السفر والحضر ، فرأيت نواحي من الحياة لم تنكشف لي من قبل ، فمن أغرب ما رأيتُ يقينه الذي استطعت به أن أفهم يقين الصحابة ، فكان يؤمن بما جاءت به الرسل إيماناً يختلف عن إيماننا اختلافاً واضحاً ، كاختلاف الصورة والحقيقة ، وإيماناً بحقائق الإسلام أشد وأرسخ من إيماننا بالماديات والمحسوسات ، وبخواص الأشياء والأدوية ، ومضارها ، ومنافعها ، وبتجارب حياتنا ، فكان كلُّ شيء صح في الشرائع وثبت من الكتاب والسنة حقيقة لا يشك فيها ، وكأنه يرى الجنة والنار رأي عين.

ورأيته في حالة عجيبة من التألم والتوجع والقلق الدائم ، كأنه على حَسَك السَّعْدان ، يتململ تململ السليم ، ويتنفس الصعداء لما يرى حوله من الغفلة عن مقصد الحياة ، وعن غاية هذا السفر العظيم ، وعن خالق هذا الكون ، ومن الاستهانة بقيمة الحياة وتضييعها في غير محل ، ولا أجدُ له مثلاً إلاّ كالذي يرى الحريق في بيت وقد أحاطت النيرانُ بأولاده وأسرته ونفائسه ، فيصرخ ، ويضطرب ، ولا يقر له قرار ، وعرفتُ برؤيته معنى الحب ، وفهمت ما رُوي عن العشاق والمتيمين ، ومن استولى عليه الحب ، وصدقت ما نُقِل عن الأنبياء من الحزن ، والقلق ، والحرص على الهداية .

ثالثاً وأخيراً ، رأيتُ في هذا الجسم النحيل؛ الذي كاد يعجزُ عن أن يحمل ثقله روحاً قوية جداً ، وقوة إرادة وقلب ، لم أجدْ مثلها في الشبان الأقوياء ، والأبطال الأشداء ، فكان يتحملُ من المشاق ما ينوء بالعصبة أولي القوة ، وقد يظلُّ في أسفاره أياماً متوالية لا يأكل فيها لشدة الاشتغال ، ويسهر ليالي ، وأعجب ما رأيتُ أنه كان في مرضه الذي توفي فيه لا يستطيعُ القيامَ والقعود ، ولكنه يأتي إلى الصف يتهادى بين رجلين ، ويقوم للصلاة ، ولا يستقل بنفسه ، فإذا كبَّر الإمام تركه الرجلان ، وقام بنفسه ، كأنه غير الرجل ويقوم ويركع ويسجد من دون مساعدة ، حتى إذا سلم الإمامُ خارتْ قوته ، وعاد ضعيفاً لا يستطيع النهوض ، وبقي هكذا شهوراً ، وما فاتته في مرضه صلاةٌ إلى الليلة التي توفي فيها .

الدعوة ومبادئها :

هذا صاحب الدعوة ، وكلمة وجيزة عن الدعوة .

لقد رأى مولانا محمد إلياس ما أصاب المسلمين من التحلل والإفلاس في الإيمان والروح ، والشعور الديني في هذه المدة ، وما أثرت فيهم الحكومة الإنجليزية ، والحضارة الغربية والتعليم المدني ، وغفلة الدعاة ، والاشتغال الزائد بالحياة ، والانهماك بالمادة؛ حتى صارت المدارس الشرعية ، والأوساط الدينية كجزر في بحر محيط ، وأصبحتْ تتأثر

بمحيطها الثائر على الدين ولا تؤثر ، بضعفها وعزلتها عن الحياة ، فرأى أن التعليمَ وحده لا يكفي ، والاعتزال لا يفيد ، والانزواء لا يصحُّ ، ولا بُدَّ من الاتصال بطبقات الشعب ، ولا بُدَّ من التقدم إليها من غير انتظار؛ لأنها لا تشعر بمرضها وفقرها في الدين ويجبُ أن يبتدأ بغرس الإيمان في القلوب ومبادىء الإسلام ، ثم الأركان والعلم والذكر ، مع مراعاةُ الآداب التي تقوي هذه الدعوة ، وتحفظها من الفتن ، منها : إكرام كل مسلم ، ومنها : عدم الاشتغال بما ليس بسبيل الداعي وترك ما لا يعنيه ، وقد دعا إلى هذا النظام بكل قوته ونفوذه ، ودعا إلى الخروج في سبيل هذه الدعوة وبثّها في القرى والمدن ، وبدأ دعوته بمنطقة هي أحطّ المناطق الهندية خُلُقاً ، وأبعدها عن الدين ، وأعظمها جهالة وضلالة ، وهي منطقة ميوات في جنوب دهلي عاصمة الهند ، ودعا الناسَ فيها إلى الانقطاع عن أشغالهم ، والخروج من أوطانهم لمدة محدودة ، قد تكون شهراً ، وقد تكون أكثر من ذلك ، وعرف أنهم لا يتعلّمون الدين؛ ولا يتغيرون في الأخلاق إلّا إذا خرجوا من هذا المحيط الفاسد الذي يعيشون فيه ، وقد قبل دعوته مئاتٌ وألوف من هذه المنطقة ، وخرجوا شهوراً ، وقطعوا مسافات بعيدة ما بين شرق الهند وغربها ، وشمالها وجنوبها ، ركباناً ومشاة ، فتغيرت أخلاقهم ، وتحسَّنت أحوالهم ، واشتعلت عواطفُهم الدينية ، وانتشرت الدعوةُ في الهند وباكستان من غير نفقات باهظة ، ومساعدات مالية ، ونُظُم إدارية ، بل بطريقة بسيطة تشبه طريقة الدعوة في صدر الإسلام ، وتذكّر بالدعاة المخلصين المجاهدين المؤمنين؛ الذين كانوا يحملون في سبيل الدعوة والجهاد متاعهم وزادهم ، وينفقون على أنفسهم ، ويتحملون المشقة محتسبين متطوعين[١] .

وقد توفي إلى رحمة الله تعالى في رجب عام (١٣٦٣هـ) وخلفه نجله الشيخ محمد يوسف ، وقام بأعباء الدعوة خير قيام ، وفي عهده توسَّعت

(١) انظر للاطلاع على حياة الشيخ إلياس الكاندهلوي وعلى دعوته إلى الله ، كتاب العلامة الندوي «الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته» صدر من دار ابن كثير بدمشق .

الحركةُ توسعاً كبيراً ، وانتشرت بعثاتها في العالم الإسلامي وفي المغرب ، ودعا إلى الإيمان ، وإيثار الروح على المادة ، والآخرة على الدنيا ، والاعتماد على الله ، وبذل الوسع والطاقة في سبيل الله ، دعوة قوية صريحة أثرت في ألوفٍ من الناس ، فأصبحوا دعاةً متطوعين ، ولا يزال مقرّه «نظام الدين» في دهلي مركز حياة دينية ، ودعوة إيمانية ، يؤمُّها الناسُ من جهات بعيدة(١) .

جهود المخلصين وتجاربهم ثروة إسلامية عامة :

هذا تاريخُ الدعوة الإسلامية في الهند باختصار ، وهذه مراحلها ، وأدوارها ، ووصفها الموجز ، وأنا أعتقدُ أن الدعوة في حاجة دائمة إلى التجديد والتفكير ، والتطبيق بين الإسلام الخالد والعصر المتغير ، واستعراض الشؤون والمسائل ، وما يطرأ على الحياة والعقول من الضعف والقوة ، والجدة والتطور . وأن العصمة لله وحده ، وأنه لم يختم شيء مما أكرم الله به هذه الأمة إلاّ النبوّة التي ختمت بمحمد ﷺ آخر الرسل وخاتم الأنبياء ، وأن كل ما ذكرنا نماذج ومثل للدعوة الإسلامية ، وأنماط لها وأساليب ، ومناهج وطرق يلهمها أصحاب النفوس الزكية في مختلف العصور والبلاد ، أو يؤثرونها في ضوء الكتاب والسنة .

جهود إصلاحية وتربوية أخرى :

وقام روادُ الإصلاح ، ومحبُّو نهضة المسلمين وعزّهم بتجارب كثيرة في مجال الدعوة الدينية ، والتعليم والتربية الإسلامية ، ونشر الفكرة الصَّحيحة ، ومكافحة الغرب الثقافي ، والغزو الفكري ، وإعادة الثقة إلى نفوس الشباب المتعلمين بالتعاليم الإسلامية ، والحضارة الإسلامية ، والتاريخ الإسلامي ، وإزالة العقد النفسية والفكرية ، بأساليب مختلفة وطرق شتى ـ في ضوء تجاربهم ودراساتهم ـ تختلف في النتائج والآثار ، وفي ضيق النطاق واتساعه ، وفي مدى تقبُّل المسلمين لها ، وانتفاعهم

---

(١) توفي مولانا محمد يوسف إلى رحمة الله تعالى في (٢٩) ذي القعدة سنة (١٣٨٤هـ) وخلفه الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي (رحمه الله) ، والدعوة في تقدم واتساع .

بها ، يطول الحديثُ فيها ، وتقصر هذه العجالةُ عنها ، وقد ألفت في التعريف بهذه الجهود والمنظمات وأهدافها ونتائجها ، رسائل وكتب في اللغة العربية ، نُحيل عليها ونشير على القارىء الذي يحبُّ التوسُّع بمطالعتها.

وأنا أعتقدُ كذلك أن جهودَ المخلصين وتجاربهم ثروة إسلامية عامة ، ليست ملكاً لبلد دون بلد ، ولا احتكاراً في شعب دون شعب ، بل هي بضاعةُ المخلصين في كل بلد ، ونبراس المصلحين في كل عصر ، يحقّ لهم أن يقولوا كلما أهديت إليهم ، ونقلت عن بلاد إلى بلادهم : «هذه بضاعتنا ردت إلينا» .

* * *

الدَّعوة إلى الله
حماية المجتمع من الجاهلية ، وصيانة الدين من التحريف

ألقى العلامة الندوي هذه الكلمة في دورة مؤتمر الدعوة؛ التي عقدتها الجامعة الإسلامية في مدرسة الدعوة الإسلامية الأولى ، في المدينة المنورة .

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيـد المرسلين ، وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فإنني سأتحدث في هذه المناسبة الكريمة ، وهي «دورة مؤتمر الدعوة» التي تعقدها الجامعة الإسلامية في مدرسة الدعوة الإسلامية الأولى ، ومنطلق الدعاة إلى الله في العالم «المدينة المنورة» عن بعض السمات البارزة التي يجب أن تتَّسم بها الدعوة والدعاة في هذا العصر ؛ حتى يستطيعوا أن يقوموا بدور الدعوة في أتم وجه ، ويبلغوا رسالة الرسل عليهم السلام ، ويؤثروا التأثير المطلوب.

أما الدعوة الإسلامية فيجبُ أن تكونَ هذه الدعوة جامعةً بين تحريك الإيمان في نفوس المخاطبين والمجتمع الإسلامي ، وإثارة الشعور الديني ، وبين إكمال الوعي وتنميته وتربيته ، فإن المتتبع لأحوال العالم الإسلامي اليوم وواقع الأقطار الإسلامية ، وحكوماتها ، وشعوبها ، يعرف أن تمسُّك هذه الشعوب والجماهير بالإسلام ، وحبها له ، هو الحاجز السَّميك ، والسَّد المنيع لكثير من القيادات التي خضعت للحضارة الغربية ، وقيمها ومفاهيمها ، وفلسفاتها ، ونظمها ، وآمنت بها إيماناً كإيمان المتدينين بالديانات ، والمؤمنين بالشرائع السَّماوية ، وفقدت الثقة بصلاحية الإسلام لمسايرة العصر الحديث ، وتطوراته ، وأحداثه ، وكرسالة خالدة عالمية ، فإسلام هذه الشعوب والمجتمعات ، وكونها

لا تفهم إلا لغة الإيمان والقرآن ، ولا تندفع إلا لما يجيء عن طريقهما ، وما يمسُّ قلبهما ، ويخاطب ضميرهما ، يعوق كثيراً من هذه القيادات عن نبذ الإسلام نبذاً كلياً ، وإعلان الحرب عليه ، وقد لجأت بعضُ هذه القيادات في ساعات عصيبة إلى إثارة هذا الإيمان والحماس الديني ، واستخدامهما لكسب المعركة ، أو الانتصار على العدو حين رأت أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، وإلى إيمان هذه الشعوب السليمة المؤمنة ، فرفعت هتاف التكبير «الجهاد» و«الشهادة» في سبيل الله ، ومحاربة العدو الكافر المهاجم ، كما فعلت الجزائر في حربها مع الفرنسيين ، وباكستان في حرب (١٩٦٥م) ، وجربت فائدة هذا الإيمان ، وقوة هذه العاطفة.

فأصبح إيمانُ هذه الشعوب ، وتمسّكها بالإسلام ، وتحمُّسها له ، هو السور القوي العالي الذي يعتمدُ عليه في بقاء هذه البلاد ، وكثير من القيادات والحكومات الإسلامية في حظيرة الإسلام ، فإذا تهدم هذا السور ـ لا سمح الله بذلك ـ أو تسوَّره دعاةُ الكفر واللادينية ، أو تيار الردة الفكرية والحضارية ، فالخطر كلُّ الخطر على الإسلام في هذه البلاد ، ولا يمنع هؤلاء القادة المحاربين للإسلام ، والمضمرين له العداء والحقد شيء من أن يخلعوا العذار ، ويطرحوا الحشمة والتكلف ، ويجرّدوا هذه الأقطار والشعوب العريقة في الإسلام من كل ما يمتُّ إلى الإسلام بصلة ، فإن الشيء الوحيد الذي يخافون معرته ، ويحسبون له حساباً هو ثورة هذه الشعوب على هذه القيادات بدافع الإيمان والحماس الإسلامي ، فيفقدهم ذلك ما يتمتَّعون به من كراسي الحكم ، ومركز القيادة ، فإذا زال الحاجزُ لم يقفْ في وجههم شيء.

إذاً فيجبُ على دعاة الإسلام والعاملين في مجال الدعوة الإسلامية الاحتفاظ بهذه البقية الباقية من الإيمان في نفوس الشعوب والجماهير ، والمحافظة على الجمرة الإيمانية من أن لا تطفىء.

ولا يصحُ الاقتصارُ على تحريك الإيمان ، وإثارة العاطفة الدينية في نفوس الشعوب والجماهير ، بل يجبُ أن تضمّ إليه تنمية الوعي الصحيح ،

وتربيته ، والفهم للحقائق والقضايا ، والتمييز بين الصَّديق والعدو ، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر ، فقد رأينا أن الشعوبَ التي يضعف فيها هذا الوعي ، أو تحرمه يتسلط عليها ـ رغم تمسكها بالإسلام ، وحبِّها له ـ قائد منافق ، أو زعيم ماكر ، أو عدو جبار ، فيصفق له الشعب بكل حرارة ، ويسير في ركابه ، فيسوقها بالعصا سوق الراعي لقطعان من الغنم ، لا تعقل ولا تملك من أمرها شيئاً ، ولا يمنعها تمسكها بالإسلام ، وحبها له من أن تكون فريسة سهلة ، أو لقمة سائغة للقيادات اللادينية ، أو المؤامرات ضد الإسلام.

وقد كان ما يمتاز به المجتمعُ الإسلامي الأول المثالي الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بفضل التربية النبوية الدقيقة الشاملة بالجمع بين الدين المتين الذي لا مغمز فيه ، والإيمان القوي الذي لا يعتريه وهن ، وبين الوعي الناضج الكامل؛ فكانوا لا يخدعون ولا ينخدعون ، ولا يسيغون شيئاً ينافي الإسلام ، وينافي العقل ، والذي يضرّهم ويجني عليهم أو يوقعهم في خطر أو تهلكة ، قد بلغوا من الرشد ، واستكملوا الحصافة والنصح ، فلا يؤخذون على غرة ، ولا يقعون في شرك ينصبه العدو الماكر ، يخطئون ولكن لا يصرون ولا تتكرر منهم غلطات وتورطات ، وقد جاء في حديث صحيح: «لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين» بخلاف الشعوب الفاقدة الوعي ، فهي تلدغ مرة بعد مرة ، وذلك لأنَّ رسولَ الله ﷺ أخذهم بتربية وتعاليم آمنوا بها عن الوقوع في الشباك ، وامتنعوا بها عن قبول ما لا يتفقُ مع تعاليم الإسلام ، وآدابه ، والفطر السليمة ، والعقول المستقيمة ، فكان مجتمعاً نموذجياً مثالياً في كل شيء.

أعرض لكم ـ على سبيل المثال ـ مثالين من هذا العقل الحصيف ، والوعي الكامل:

الأول: أن النبي ﷺ قال مرة: «انصرْ أخاك ظالماً أو مظلوماً» وهو مثل جاهلي قديم ، وعُرف من أعراف العرب الأولين ، تمسك به العربُ في جاهليتهم كما قال العلامة الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث في كتابه

الجليل «فتح الباري» فكان المتوقع المعقول أن يتلقَّاه الصحابةُ ـ وقد نشؤوا في الجاهلية ، وعاشوا في الجزيرة ـ إما بالقبول وإما بالسكوت .

وقد صدر هذا الكلامُ من النبي المعصوم الذي لا ينطقُ عن الهوى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٤] وقد عُرِف حبهم لنبيهم ﷺ وفداؤهم له بالنفس ، والنفيس ، وكان حباً لا نظير له في تاريخ الديانات والرسالات ، وفي تاريخ الحب والطاعة العالمي ، وكان تفسيراً للحديث المشهور: «لا يؤمن أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من أهله وولده والناس أجمعين» وجاء في بعض الروايات: «من نفسه» ، ولكن كل ذلك لم يمنعهم عن التساؤل أو الاستيضاح ، فإنَّ ظاهر الكلام كان ينافي ما فهموه من تعليم الإسلام ، وما شاهدوه من تربية الرسول وأخلاقه ، وما آمنوا به من مبدأ الإنصاف والمساواة ، وقوله تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء: ١٣٥] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨] فقالوا: يا رسول الله ، هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً ، هنالك فسَّره رسول الله ﷺ تفسيراً يتفق مع تعاليمه السابقة الدائمة ، فقال: «تمنعه من الظلم ، فذاك نصرك إياه[1]» هنالك اقتنع الصحابةُ رضي الله عنهم ، وشُفيت صدورهم ، فازدادوا إيماناً على إيمان ، وهو مثالٌ بليغ رائع من أمثلة الوعي الإيماني العقلي الذي كان شعاراً لصحابة الرسول ﷺ والصدر الأول .

والمثال الثاني: أنَّ رسول الله ﷺ أرسل سرية ، وأمر الصحابةَ بطاعة الأمير ، وقد كان في هذه السرية ما لم يرض الأمير ، وشكَّ في انقيادهم له ، فأمر بالحطب ، فجمع ، وأمر بالنار فأشعلت ، ثم قال: خوضوها ، فامتنع الصحابةُ رضي الله عنهم عن طاعته في ذلك ، لأنه: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» وقالوا: إنما فررنا من النار ، ولما رجع إلى المدينة شكا إلى رسول الله فصوَّب فِعْلَهم ، وقال: «لو دخلوا فيها لم يزالوا

(١) حديث متفق عليه .

فيها» وقال: «لا طاعة في معصية الله ، إنما الطاعة في المعروف»[١].

وكانت نتيجة ضَعف بعض الشعوب المسلمة القوية في إيمانها ، الغنية في مظاهرها الإيمانية ، ومراكزها الدينية ، وثروتها العلمية ، أنها كانت فريسة سهلة للهتافات الجاهلية ، والنعرات القومية ، أو العصبيات اللغوية والثقافية ، ولعبة القيادات الداهية ، والمؤامرات الأجنبية ، وذهبت ضحية سذاجتها ، وضعفها في الوعي الديني ، والعقل الإيماني ، كما وقع في باكستان الشرقية في ١٩٧١ م ، المصادفة ١٣٩١هـ ، قامت فيها مجزرة إنسانية هائلة ، وما ذلك إلا بسحر دعوات العصبية اللغوية والعصبية الوطنية على هذا الشعب المسلم ، المؤمن الذي كان له تاريخ مجيد في البطولات الإسلامية ، وخدمة الإسلام والعلم ، ونهض فيه علماء كبار ، ودعاة إلى الله ، وغصّت بلادها بالمساجد والمدارس ، وكانت عاصفة هوجاء هبت ثم ركدت ، ونار حامية التهبت ثم انطفأت ، ولكنها زلزلت أركان الإسلام في هذه المنطقة ، وأضعفت الكيان الإسلامي ، وكانت حجة لأعداء الإسلام الذين يقولون: إن الإسلام لا يستطيع أن يقاوم العصبيات القومية ، ولا يقتلع جذورها من نفوس أتباعه.

وواجب ثالث مقدس من واجبات العاملين في مجال الدعوة الإسلامية هو صيانة الحقائق الدينية ، والمفاهيم الإسلامية من التحريف ، وإخضاعها للتصورات العصرية الغربية ، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية التي نشأت في أجواء خاصة ، وبيئات مختلفة ، ولها خلفيات وعوامل وتاريخ ، وهي خاضعة دائماً للتطور والتغيير ، فيجب أن نغارَ على هذه الحقائق الدينية والمصطلحات الإسلامية غيرتنا على المقدسات ، وعلى الأعراض والكرامات ، بل أكثر منها وأشد؛ لأنها حصون الإسلام المنيعة ، وحماه ، وشعائره ، وإخضاعها للتصورات الحديثة ، أو تفسيرها بالمصطلحات الأجنبية إساءة إليها لا إحسان ، وإضعاف لها لا تقوية ، وتعريض للخطر لا حصانة ، ونزول بها إلى المستوى الواطىء المنخفض ، لا رفع لشأنها

(١) اقرأ القصة بطولها في سنن أبي داود كتاب الجهاد.

كما يتصور كثيرٌ من الناس. فإذا قلنا: الحج مؤتَمر إسلامي عالمي، لم ننصف للحج، ولم ننصف لمن يخاطبه، ونريد أن نفهمه حقيقة الحج وروحه، ولما شرع له، ولم ننصح لكليهما، وأن روح الحج وسرّ تشريعه غير ما تعقدُ له المؤتمرات صباح مساء، ولو كان الحج مؤتمراً إسلامياً عالمياً لكان له شأن ونظام غير هذا النظام، وجو غير هذا الجو، ولكان النداء له مقصوراً على طبقات مثقفة واعية فقط، وعلى قادة الرأي، وزعماء المسلمين[١].

كذلك حقيقة العبادة، وحقيقة الصلاة، وحقيقة الزكاة والصوم، فلا يجوز العبث بهذه المصطلحات، والتجني عليها، وإخضاعها للفلسفات الجديدة، وتفسيرها بالشيء الذي لا ثقة به، ولا قرار له، وقد استخدمت هذه «الاستراتيجية الدعائية» الباطنية في القرن الخامس الهجري فما بعده، ففسروا المصطلحات الدينية بما شاؤوا وشاءت أهواؤهم ومصالحهم، وتفننوا فيه، وأتوا بالعجب العجاب، وحققوا به غرضهم من إزالة الثقة بهذه الكلمات المتواترة التي هي أسوار الشريعة الإسلامية، وحصونها، وشعائرها، ونشر الفوضى في المجتمع الإسلامي، والجماهير المسلمة، وإذا فقدت هذه الكلمات التي توارثتْ فهمها الأجيال المسلمة وتواتر في المسلمين، وأصبح فيها مساغ لكل داع إلى نحلة جديدة، ورأي شاذ، وقول طريف، فقد أصبحت قلعةُ الإسلام مفتوحةً لكل مهاجم، ولكل منافق، وزالت الثقةُ بالقرآن والحديث واللغة العربية، وجاز لكلِّ قائل أن يقول ما شاء، ويدعو إلى ما شاء، وهذه فتنةٌ لا تساويها فتنة، وخطر لا يكافئه خطر.

إنَّ مفاهيم هذه الكلمات معينة ـ على اتساعها، وبلاغتها، وعمقها، وكثرة معانيها ـ وإن الأمة توارثت هذه المفاهيم المعينة، كما توارثت أشكال الصلاة والصوم والحج ونظمها الظاهرة، وتناقلتها، وحافظت

---

(١) راجع معرفة أسرار الحج ومقاصد الشريعة الإسلامية فيه في كتاب العلامة الندوي: «الأركان الأربعة» طبع الدار الشامية ـ بيروت، ودار ابن كثير بدمشق.

عليها من غير أقل انقطاع، أو أقصر فترة، وإنه معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] و﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ وهو معنى الحديث المشهور الذي صحَّ معناه: «لا تجتمع أمتي على الضلالة»[١].

وقد أثبت شيخُ الإسلام ابن تيمية أن سنة واحدة من السنن الكثيرة لم ترتفعْ من هذه الأمة بشكل كلي، وأنها لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق.

والكلمات هي الوسيلة الوحيدة لنقل المعاني والحقائق من جيل إلى جيل، ومن عصر إلى عصر، ومن إنسان إلى إنسان، فإذا وقع الشكُّ في مدلول هذه الكلمات ومصداقها، أو صار التلاعبُ بها هيناً، اضطربت دعائم الدين، وتزلزلت أركانه، وهذا يعمُّ التاريخ والشعر والأدب؛ لذلك كانت الفوضى اللغوية (Linguistic Anarchy) أشد خطراً وأكثر ضرراً من الفوضى السياسية[٢] Poht cal Anarchy.

وليست قضيةُ الأسماء والمصطلحات من البساطة بالمكان الذي يتصور كثيرٌ من الناس، فإنها تؤثر في النفس تأثيراً خاصاً، وتثير معاني وأحاسيس ذات الصلة بالماضي، وذات الصلة بالعقائد والأعراف أحياناً، ولذلك كره رسولُ الله ﷺ أن يقال «العتمة» مكان العشاء، و«يوم العروبة» بدل

---

(١) انظر البحث في هذا الحديث في محاضرة العلامة الندوي في الجزء الثالث من هذا الكتاب بعنوان «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن».

(٢) ومن أمثلة هذا التلاعب بالمصطلحات الدينية: أن أستاذاً في إحدى جامعات الهند الكبرى، وهو يدرس اللغة العربية وآدابها، ألقى محاضرة في دورة مؤتمر الدراسات الإسلامية الأخيرة، قال فيها: إن المراد بكلمة «الصلاة» حيثما وردت في القرآن مطلقة «الحكومة المحلية» أو «الإقليمية»، والمراد بالصلاة الوسطى «الحكومة المركزية» أو «الخلافة العامة» وكان المقال باللغة العربية، وقد رددتُ عليه في حينه، وقلت في تعليقي عليه: إنه تلاعب بالقرآن وبالعقل، وتمهيد لفوضى لغوية فكرية، وفتح الباب للإلحاد على مصراعيه، ونالت هذه الكلمة رضا المستمعين، وتلقوها بالقبول والاستحسان.

الجمعة ، واستبدال كلمة يثرب بمدينة الرسول أو بالمدينة ، ولها أمثلة أخرى في الشريعة الإسلامية.

وكذلك أحذركم أيها الإخوان مما لوحظ من بعض الكُتَّاب من الضغط على أن هذه الأركان الدينية ، وفرائض الإسلام كالصلاة والزكاة والصيام والحج؛ وسائل لا غايات ، إنما شُرعت لإقامة الحكم الإسلامي ، وتنظيم المجتمع المسلم ، وتقويته ، وأحذركم من كل ما يحطُّ من شأن روح العبادة والصلة بين العبد وربه وامتثال الأمر ، ومن التوسع في بيان فوائدها الخُلُقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية أحياناً ، توسُّعاً يخيل للمخاطب أو القارىء أنها أساليب تربوية أو عسكرية أو تنظيمية ، قيمتها ما يعودُ منها على المجتمع من قوة ونظام ، أو صحة بدنية وفوائد طبية؛ فإن أول أضرار هذا الأسلوب من التفكير أو التفسير أنه يفقد هذه العبادات قيمتها وقوتها ، وهو امتثال أمر الله ، وطلب رضاه بذلك ، والإيمان والاحتساب والقرب عند الله تعالى ، وهي خسارة عظيمة لا تُعوَّض بأي فائدة ، وفراغ لا يملأ بأي شيء في الدنيا.

والضرر الثاني: أنه لو توصَّل أحدُ المشرعين أو الحكماء المربين إلى أساليب أخرى ، قد تكون أنفع ، أو يخيل أنها أنفع لتحقيق هذه الأغراض الاجتماعية أو التنظيمية أو الطبية؛ لاستغنى كثيرٌ من الذين آمنوا بهذه الفوائد عن الأركان والعبادات الشرعية ، وتمسَّكوا بهذه الأساليب أو التجارب الجديدة ، وبذلك يكون الدينُ دائماً معرَّضاً للخطر ، ولعبة للعابثين والمحرفين.

وهذا لا ينافي الغوص في أعماق هذه الأركان ، والأحكام ، والحقائق الدينية ، والكشف عن أسرارها ، وفوائدها الاجتماعية ، وقد أفاض علماءُ الإسلام قديماً وحديثاً في بيان مقاصد الشريعة الإسلامية ، وأسرار العبادات ، والفرائض ، والأحكام الشرعية ، وألفوا كتباً مستقلة ، وكتبوا بحوثاً جلية ، كالغزالي ، والخطابي ، وعز الدين بن عبد السلام ، وابن قيم الجوزية ، وأحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، ولكن كل ذلك من غير

تحريف لحقيقة هذه العبادات والأحكام ، والغاية الأولى التي شُرعت لها ، وهي امتثالُ الأمر الإلهي ، والتقرب إليه بذلك ، والإيمان ، والاحتساب فيها ، ومن غير إخضاع لها للفلسفات العجمية أو الأجنبية في عصرهم ، ومن غير خضوع لسحرها وبريقها.

وأحذركم ثانياً أيها الشباب من كل ما يقلّل من شناعة الوثنية العقائدية ، والشرك الجلي ، من عبادة غير الله ، والسجود له ، وتقديم النذور والقرابين ، وإشراكه في صفات الله من قدرة ، وعلم ، وتصرف ، وإماتة وإحياء وإسعاد وإشقاء ، وأحذركم من الاكتفاء بالتركيز على شناعة الخضوع للحكومات ، والنظم الإنسانية ، والتشريعات البشرية ، وتحويل حق التشريع للإنسان ، وأن ذلك هو وحده عبادة الطاغوت والشرك ، وأن الوثنية الأولى ، وعبادة غير الله قد فقدت أهميتها ، وإنما كانت لها الأهمية في العصر القديم ، العصر البدائي ، وأنه لا يقبلُ عليها الآن إلا الرجل الجاهل الذي لا ثقافة له ، ففضلاً عن أنَّ هذه الوثنية ، والشرك الجلي لا يزال له شيوع وانتشار ، ودولة وصولة ، يجربه كلُّ إنسان في كل زمان ومكان ، فإنها الغاية الأولى التي بعث لها الأنبياء ، وأنزلت لها الكتب السماوية ، وقامت لها سوقُ الجنة والنار. وكانت دعوةُ جميع الأنبياء تنطلق من هذه النقطة ، وكانت جهودُهم مركزةً على محاربة هذه الجاهلية ، والقرآن مملوءٌ بذلك بحيث لا يقبل تأويلاً[١].

وإنَّ كل ما يقلل من أهمية محاربة الشرك الجلي ، وعبادة غير الله سواء كانوا أشخاصاً أو أرواحاً ، أو ضرائح ومشاهد ، والعناية بمحاربة النظم والتشريعات والحكومات فحسب ، إحباط لجهود الأنبياء ، واتجاه بهذا الدين عن منهجه القديم السماوي إلى المنهج الجديد السياسي ، وهو تحريفٌ لا محالة ، هذا من غير أن أقلِّل من قيمة التركيز على أن التشريع لله وحده ، وله الحكم والأمر وحده ، وأن من يدعو إلى طاعة نفسه الطاعة

(١) اقرأ على سبيل المثال سورة «الأعراف» وسورة «هود» وسورة «الشعراء» والحديث عن كل نبي ودعوته.

المطلقة العمياء منافس للرب والطاغوت ، وأنه يحبُّ أن يُدعى إلى التشريع الإلهي ، وإلى إقامة الحكم الإسلامي القائم على منهاج الكتاب والسنة ، ومنهاج الخلافة الراشدة ، وألاَّ يدّخر سعي في ذلك ، ولكن من غير أن يكون ذلك على حساب الدعوة إلى التوحيد والدين الخالص ، ومحاربة الوثنية والشرك ، فإنها لا تزال في الدرجة الأولى ، وهي أكبر انتشاراً ، وأعظم خطراً في الدنيا والآخرة ، فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ١١٦] و﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨] وقد قال : ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣٠].

أما ما يتَّصل بصفات العاملين في مجال الدعوة الإسلامية ، وجنود الدعوة إلى الله ، فإنني أركز في هذا الحديث المعجز على نقطة واحدة ، وهو أنه يجبُ أن يكون الدعاةُ يمتازون عن الدهماء والجماهير ودعاة النظم الجديدة والفلسفات الجديدة ، والفلسفات السياسية والاقتصادية بقوة إيمانهم ، وحرارة قلوبهم ، وزهدهم في زخارف الدنيا ، وفضول العيش ، ونهامة للمادية ، ومرض التكاثر ، فإنهم لا يستطيعون أن يؤثروا فيمن يخاطبونهم ، ويحملوهم على إيثار الدين على الدنيا ، والآجلة على العاجلة ، وتلبية نداء الضمير والإيمان على نداء المعدة ، والنفس ، والشهوات ، وإشعال مجامر قلوبهم التي انطفأت ، أو كادت تنطفىء ، إلا إذا شعر الناس فيهم بشيء لا يجدونه في قلوبهم وحياتهم؛ فإن الناس ما زالوا ولا يزالون مفطورين على الإجلال لا يجدونه عندهم ، فالضعيف مفطور على احترام القوي ، والفقير مفطور على احترام الغني ، والأمي مفطور على احترام العالم ، حتى اللئيم مفطور على احترام الكريم ، أما إذا رأى الناس علماء ودعاة لا يقلون في حب المادة ، والجري وراءها ، والتنافس في الوظائف والمناصب ، والإكثار من الثراء والرخاء ، والتوسع في المطاعم والمشارب ، وخفض العيش ، ولين الحياة ، فإنهم لا يرون لهم فضلاً عليهم ، وحقاً في الدعوة إلى الله ، وإيثار الآخرة على الدنيا ،

والتمرد على الشهوات ، والتماسك أمام المغريات ، وقد قيل: «إن فاقد الشيء لا يعطيه» وكذلك القلب الخاوي لا يملأ قلباً آخر بالإيمان والحنان ، وأن الموت لا ينشىء الحياة ، وأن البرودة لا تعطي الحرارة ، وأن الرماد الذي لا تكمن فيه جمرة لا يلهب القلوب الخامدة ، ولا يحيي النفوسَ الميتة ، والكشافُ لا ينير الطريق إذا كانت قد نفدت شحنته ، فلا بُدَّ أن تشحنَ القلوب بشحنة جديدة ، وإذا كانت بطارية من غير شحنة كانت أقل غناء وقيمة من عصا يحملها الإنسان ، فقيمة البطارية الشحنة ، وقيمة الشحنة النور ، فإذا لم تكن شحنة ، أو كانت شحنةَ ولا نور ، فالعصا خيرٌ منه.

أسألكم أيها الإخوان: أليس هذا العصر هو العصر الذي انتشر فيه العلمُ ، وكثرت فيه وسائل الإعلام والتربية ، وازدهرت فيه الخطابة والكتابة ، وبلغت حدَّ الشعر والسحر ، وعمَّت الجامعات في كل مكان ، وتدفق السيل من المطبوعات والمنشورات من المطابع ودور النشر ، ونبغ فيها علماء ، وباحثون ، ووعاظ ، ومرشدون ، فلماذا فقد العلماء والموجهون التأثير في النفوس والقلوب في صدِّ تيار المادية ، والاستغلال ، والجشع ، والنهامة للمال؟

هذه البلاد العربية ـ بما فيها البلاد المقدسة ـ أصبحت مصداقاً لما أخبر به الرسول ﷺ في إحدى خطبه قبل وفاته: «ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخاف أن تبسطَ عليكم الدنيا كما بُسطت على مَنْ كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم».

وأخوف ما نخاف أن تكتسحَ هذه البلاد الموجةُ العارمة من التكاثر في الأموال ، واستغلال حاجة الناس ، وضعفهم ، والانتهازية ، وهي الموجةُ التي لا تعرف الرحمة والهوادة ، ومكارم الأخلاق التي عُرف بها العرب في العصر الجاهلي ، وربما يعود ذلك خطراً كبيراً على الحج ومركزه ، ويمكن أن يشكل محنة للوافدين إليه ، فيضطر الدعاة في صد هذه الموجة إلى مكافحة خلقية وحملة دعوية تربوية تنظم لإصلاح الحال ، وإيقاظ

الضمير ، وإثارة الغيرة الإسلامية ، والشعور البين ، وتنطلق من المنابر والصحف ، والإذاعة ووسائل الإعلام ، وتجند لها الطاقات ، والألسن ، والأقلام.

وسمة الدعوات الحية المخلصة التي تقتبس النور من مشكاة النبوة ، وتسير على نهجها ، أنها تجسّ نبض المجتمع جسّاً صحيحاً أميناً ، وتهتدي إلى الداء الحقيقي ، ومواضع الضعف في جسم هذا المجتمع ، وتضع الأصبع عليها ، وتضرب على الوتر الحسَّاس ، من غير محاباة أو مداهنة ، ولا تكترث بألم هذا المجتمع أو ملامه ، كما فعل شعيب في دعوته ، فوجَّه دعوته ـ بعد الدعوة إلى التوحيد ـ إلى إيفاء الكيل ، والوزن بالقسطاس المستقيم ، وشنَّع على التطفيف ، إذ كان ذلك عيب المجتمع الذي بُعث فيه ، وسمته البارزة ، وكذلك فعل غيره من الأنبياء.

وهذه كانت سُنَّةُ الدعاة إلى الله من المخلصين الرَّبانيين في تاريخ الإسلام ، فكانوا ينتقدون المجتمع في الصَّميم ، ويصيبون المحزَّ ، ولذلك كان وقعُ كلامهم في النفوس عظيماً وعميقاً ، وما كان يسعُ المجتمع أن يتغافَل عنهم أو يمر بهم مراً سريعاً ، أو يمني نفسه بأنه إنما يعنون غيره من المجتمعات التي سبقت ، أو المجتمعات التي لم تخلق بعد ، وهذا كان شأنُ الحسن البصري في مواعظه ؛ إذ كان دائماً يشيرُ إلى النفاق الذي كان داء المجتمع الإسلامي ، وهو في أوج مجده ورخائه ، ويذم حب الدنيا وطول الأمل ، وهذا كان شأنُ الشيخ عبد القادر الكيلاني ، فيدعو إلى التوحيد الخالص ، وقطع الرجاء ، والخوف من غير الله ، أنه لا يضر ولا ينفع سواه ؛ لأن الناس كانوا قد ربطوا مصيرهم بالخلفاء والأمراء وأصحاب الحول والطول والأمر والنهي في العاصمة ، وهذا كان شأن ابن الجوزي في مواعظه الساحرة ، ومجالسه المزحومة ، فإنه كان يشنع على الحياة اللاهية الماجنة التي كان يحياها كثيرٌ من الناس في بغداد ، وعلى الذنوب والمعاصي التي كانت تقترف جهاراً ، والمنكرات التي شاعت ، فكان مئات وآلاف من الناس يتوبون ، ويقلعون عن الذنوب ، وكان نشيج يعلو ، وقلوب ترق ، وعيون

تدمع ، وموجة من الإنابة ، والرقة تكتسحُ الجموع الحاشدة؛ لأنه كان يمسُّ القلوب ، ويصور الواقع ، ولا يكتفي بالكلام العام والوعظ التقليدي(١).

وهنا أنقلُ إليكم قطعة من كتابنا: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» والمؤلف يتحدَّث عن الإمام أحمد بن حنبل وزهده:

«وقد رأينا الزهد والتجديد مترافقين في تاريخ الإسلام ، فلا نعرف أحداً ممن قلب التيار وغيَّر مجرى التاريخ ، ونفخ روحاً جديدة في المجتمع الإسلامي ، أو افتتح عهداً جديداً في تاريخ الإسلام ، وخلف تراثاً خالداً في العلم والفكر والدين ، وظل قروناً يؤثر في الأفكار والآراء ، ويسيطر على العلم والأدب ، إلا وله نزعة في الزهد ، وتغلب على الشهوات ، وسيطرة على المادة ، ورجالها ، ولعلَّ السر في ذلك أن الزهد يكسب الإنسان قوة المقاومة ، والاعتداد بالشخصية والعقيدة ، والاستهانة برجال المادة ، وبصرعى الشهوات ، وأسرى المعدة؛ ولذلك ترى كثيراً من العبقريين والنوابغ في الأمم ، كانوا زهاداً في الحياة ، مُتمرِّدين على الشهوات ، وبعيدين عن الملوك والأمراء والأغنياء في زمانهم ، ولأن الزهدَ يثيرُ في النفس كوامنَ القوة ، ويشعل المواهب ، ويلهب الروح ، وبالعكس إن الدعة والرخاوة تبلد الحس ، وتنيم النفس ، وتميت القلب.

وهناك تعليلات أخرى يوافق عليها علمُ النفس ، وعلم الأخلاق ، ولا أُطيل بذكرها ، وأقتصر على هذه الملاحظات التاريخية ، وألحَّ على أن منصبَ التجديد والبعث الجديد يتطلب لا محالة زهداً ، وترفعاً عن المطامع ، وسفساف الأمور ، ويأبى الاندفاع إلى التيارات ، ويتنافى مع الحياة الوادعة الرخية ، والعيشة الباذخة الثرية ، إنما هو خلاف للرسول الأعظم ﷺ ، وقد قيل له: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]. وأمر بأن يقول لأزواجه: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا

(١) اقرأ تفاصيل مجالس ابن الجوزي وتأثيرها في كتاب «صيد الخاطر» بتحقيق الأستاذ يوسف علي بديوي ، طبع دار اليمامة بدمشق . و«رحلة ابن جبير».

﴿جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨] وهذه سُنَّةُ الله فيمن يختاره لهذا الأمر العظيم، ومَنْ يرشح نفسه، ويمينها بهذا المنصب الخطير ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣][١].

ومنْ أبرز سمات الدعوة التي يقوم بها الأنبياء وخلفاؤهم؛ أنها تقومُ على الإيمان بالآخرة، والتحذير من عقابها، والترغيب في نعمائها وثوابها، ويكون مناط العمل فيها الإيمان والاحتساب والأجر والثواب، لا على الإغراء بالفوائد الدنيوية والجاه والمنصب والمال والملك، فإنه أساسٌ ضعيف منهار، ولا يتفق مع طبيعة دعوات الأنبياء، والمساومة فيه سهلة، وقد يملك أعداؤهم وخصومهم والقادة السياسيون مثله أو أكثر منه، ومن رضع بلبان هذه المطامع لم يمكن فطامه عنها، ولا يصحُّ الاعتماد عليه، وإنما يبنون دعوتهم على رضا الله وثوابه، وما أعده الله لعباده المؤمنين، وما وعدهم به على لسان أنبيائه، من نعيم لا يزول ولا يحول، والصحف السماوية ـ غير صحف العهد القديم والتوراة ـ[٢] مملوءة بالحديث عن الآخرة، والاهتمام بها، والبناء عليها، وقد جعل الإسلامُ الإيمان بها عقيدة أساسية، وشرطاً لصحة الإيمان والنجاة، وقد جاء في القرآن صريحاً ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وهنا أستعير لنفسي من نفسي ما قلتُه في إحدى المحاضرات، التي ألقيتُها في هذه الجامعة العزيزة سنة (١٣٨٢هـ) تحت عنوان: «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن» وأختم به هذا الحديث، مؤملاً في أن تكون هذه السمات التي تحدثتُ عنها شعار الدعوة التي يقوم بها الدعاة المتخرجون في هذه الجامعة، أو القائمون بأعبائها في كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي، قلت وأنا أتحدثُ عن الفرق بين منهج الدعوات النبوية وبين الدعوات الإصلاحية:

---

(١) رجال الفكر والدعوة الجزء الأول ترجمة الإمام أحمد بن حنبل «ص: ١٣٢».

(٢) فقد تجردت بعد التحريف، من ذكر الأخرى ونعمائها والترغيب فيها بطريقة عجيبة.

«ولم تكن دعوةُ الأنبياء إلى الإيمان بالآخرة أو الإشادة بها كضرورة خُلُقية ، أو كحاجة إصلاحية لا يقومُ بغيرها مجتمع فاضل ، ومدنية صالحة ، فضلاً عن المجتمع الإسلامي وهذا وإن كان يستحقُّ التقدير والإعجاب ، ولكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم ومنهج خلفائهم اختلافاً واضحاً ، والفرق بينهما أن الأول: منهج الأنبياء ، إيمان ووجدان ، وشعور وعاطفة وعقيدة تملك على الإنسان مشاعره ، وتفكيره وتصرفاته ، والثاني: اعتراف وتقدير وقانون مرسوم ، وأن الأولين يتكلمون عن الآخرة باندفاع والتذاذ ، ويدعون إليها بحماسة وقوة ، والآخرين يتكلَّمون عنها بقدر الضرورة الخُلقية ، والحاجة الاجتماعية ، وبدافع من الإصلاح ، والتنظيم الخلقي ، وشتَّان ما بين الوجدان والعاطفة وبين الخضوع للمنطق ، والمصالح الاجتماعية.

* * *

العوامل التي تتكفل بنجاح الدعوة وتوجيه الأمة

ألقى العلامة الندوي هذه الكلمة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، في شهر ربيع الأول سنة (١٤٠٠هـ) وحضرها طلاب الجامعة وأساتذتها والمسؤولون عنها في عدد كبير.

وقد رأس الحفل سعادة الدكتور عبد الله الزايد ، نائب رئيس الجامعة .

أيها الإخوان ، أقول لكم : إن الأشياء الكفيلة الضامنة لنجاح الدعوة إنما هي عوامل معدودة ، أستطيع أن ألخصها في عاملين أساسيين :

أولهما : أن تملك الفكرة وتهيمن على مشاعر الداعي ، وأن تجري منه مجرى الروح والدم ، وأن تمتزج بنفسه ، هنالك يكون الداعي هو الداعي الموفق الملهم ، المؤيد من الله الذي سيكتب له النصر ، ولا يكتب له أي إخفاق أو فشل .

فالشرط الأول ألا تكون الدعوة صناعة أو حرفة أو فناً ، وألا تكون حذلقة ومجرد براعة في الخطابة ، بل تكون عقيدة وفكرة ، وإيماناً يستحوذُ على النفس الإنسانية ، ويملأ جميعَ جوانب النفس ، حتى إذا أراد الإنسان أن يتخلى عنها لم يستطع ولم يقدر ، هذا كان شأن سيدنا أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ يوم الردة ، هل تستحضرون الكلمة الخالدة التي نطق بها والتي غيرت مجرى التاريخ ؟ !

طُلب مني أن ألقي الكلمة الأخيرة في المؤتمر الآسيوي الإسلامي الأول في كراتشي ، وأمامي نخبة من قادة الفكر الإسلامي ، ومن قادة العالم الإسلامي ، فاستعنت بهذه الكلمة ، وقلت لهم : ما هي تلك الكلمة التي ستكون رائدة هذا المؤتمر ، فيحملها الذين يتصرفون من هذا المؤتمر ؟ قلت لهم : إن الكلمة التي تحملونها من هنا هي الكلمة التي جرت على لسان أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ يوم الردة ، ومَـنْع الزكاة : «أينقص الدين وأنا حي ؟ » .

أنتم المسؤولون أمام الله يا إخوتي الطلبة ، أبنائي شباب المسلمين والعرب ! أنتم مسؤولون أمام الله ، درستم في هذه الجامعة المباركة ، وأي مكان أقرب إلى مدرسة الرسول ﷺ وإلى صفة المسجد النبوي التي درس فيها كبار الصحابة ، وحفظوا ، ووعوا أحاديث رسول الله ﷺ ، وتخرج منها مثل أبي هريرة راوية الحديث ، ووعاء من أوعية العلم ، أي جامعة أقرب

إلى هذه المدرسة من هذه الجامعة ، إذاً فمن أي جامعة تتوقع أن يخرج منها دعاة تملكهم الدعوة؟!

والله لو استطعتُ أن أنقشَ هذه الكلمة على صدر كل واحد منكم لفعلت ، يا ليتها كانت هذه الكلمة مكتوبة في كل بيت على لوحة بقلم عريض : «أينقص الدين وأنا حيّ؟» .

أما الشيء الثاني : فهو التجرد عن المطامع ، والزهد في الدنيا ، لا أعني به زهداً نصرانياً ، ولا زهداً رهبانياً .

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد : ٢٧] الآية .

ولا رهبانية في الإسلام ، ولكن الدعوة تحتاج إلى شيء من سمو النفس وعلو الهمة ، والتجرد عن المطامع ، والزهادة في المناصب والوظائف الكبيرة .

إن من توجهون إليهم الدعوة إذا علموا أنكم تنافسونهم في ملكهم ، وفيما وسع الله به عليهم ، فإنهم يشكون في إخلاصكم ، ويكونون حرباً عليكم ، فأوضحوا لهم أنكم لستم طلاب ملك ، ولا منتجعي جاه ومنصب ، ولا رواد ثروة ورخاء ، أو مدفوعين من شحّ وحرص .

قيل لشيخ الإسلام ابن تيمية : يقال : إنك تريد الملك ، فقال في دهشة وقوة : أنا أريد الملك؟! والله إن ملك التتار لا يساوي عندي درهماً ، وقد كانت دولة التتار أكبر دولة ، وأكبر قوة على وجه الأرض في ذلك الحين .

وإن أحد المربين في الهند الذي نفع الله به خلقاً كثيراً ، عرض عليه ملك دهلي مالاً طائلاً ، فقال له : لا شأن لي به ، قال : لا بد من أن تقبل شيئاً مما أعطاني الله ، فقال : إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ [النساء : ٧٧] فإذا كانت الدنيا كلها قليلة : فقارة آسيا ـ طبعاً ـ أقل منها ، والهند أقل منها ، ثم دهلي أقل منها ، وأنت لا تملك إلا هذا ، فكيف أرزؤك في هذا الزهيد اليسير؟!

وأحكي لكم قصة وقعتْ في دمشق ، كان الشيخ سعيد الحلبي من كبار الأساتذة والمربين في القرن الماضي ، وكان ـ مرة ـ يلقي درساً في جامع من جوامع دمشق ، فجاء إبراهيم باشا ـ الحاكم العام لسورية ـ وإبراهيم باشا مَنْ تعرفونه في القسوة والعنف ـ ودخل ووقف أمام الباب ، وكان الشيخ يشكو ألماً في رجله ، وكان ماداً رجله إلى الأمام؛ لأنه كان مستنداً إلى جدار المحراب ، ويلقي الدرس ، فكانت رِجْله إلى الباب فدخل إبراهيم باشا ومعه المحافظون العسكريون ، والشرطة ، فانتظر وتوقع أنه سيقبض رجله ، ولكنه لم يفعل ، وخاف أصحابه عليه من السيف ، وقبضوا ثيابهم لئلا يصيبها دمٌ زكي ، دم عالم تقي ، وبقي إبراهيم باشا واقفاً ، ثم رجع ، وأرسل صرَّة من دنانير ذهبية مع أحد الخدم ، وقال: تقدم إلى سيدنا الشيخ سعيد الحلبي ، وتقول له: هذه هدية من إبراهيم باشا ، فلما جاء بها الخادم إليه قال كلمته البليغة الحكيمة؛ التي هي أبلغ من ألف قصيدة ، قال: قل لسيدك إن الذي يمدُّ رِجْلَه لا يمدُّ يده.

فالإنسان مخير ، إما أن يمدَّ رجله وإما أن يمدّ يده ، فإذا مدَّ رجله لا يسوغ له أن يمدَّ يده؛ لأنه تناقض.

وقد جُبِل الناسُ على حب من زهد فيما عندهم والبغض لمن ينافسهم فيما يحرصون عليه ، هذه هي الطبيعةُ البشرية منذ آلاف السنين ولا تزال ، فأنتم إذا أردتم أن تؤثروا في نفوس من توجهون إليهم الدعوة ، فأوضحوا لهم أولاً ، وطمئنوهم أنكم لستم طلاب ملك ومال وطلاب رئاسة وجاه ، وطلاب مناصب ووظائف ، إنما أنتم تفعلون ذلك شفقة عليهم ، ورقّة بهم ، وعطفاً عليهم ، وخوفاً من أن يصيبهم مكروه.

أنا تليمذٌ صغير لتاريخ الإصلاح والتجديد ، وإن هواياتي ـ وإن كانت متعددة ـ ولكن تأتي في مقدمتها هوايتي في التاريخ ، وخاصة تاريخ الإصلاح والتجديد ، فما رأيتُ تجربةً في القرون الأخيرة ـ أعني: بعد القرن الثامن على الأقل ـ أنجح وأكثر توفيقاً من تجربة الإصلاح والتجديد التي قام بها الشيخ أحمد السرهندي في القارة الهندية ، وقد حكيتُ قصته في الجزء

الرابع من كتابي: «رجال الفكر والدعوة» الذي سيصدر إن شاء الله قريباً باللغة الأردية، وستقرؤون هذه القصة بالتفصيل.

تقرؤون فيه أنه كيف استطاع الرجلُ الأعزلُ المجرد من كل سلاح، والمجرد من كل ثروة مادية، والمجرد من كل جيش، أن يحوِّل التيار في الإمبراطورية المغولية العظمى؛ التي كانت في الدرجة الثانية بعد الإمبراطورية التي لم تكن إمبراطورية ـ بعد الإمبراطورية العثمانية ـ أكبر منها مساحة، وأكثر منهما فتوحاً ونجاحاً، ، كان على رأسها الملك القوي القاهر الذي اتسعت له الفتوحات الواسعة العظيمة؛ وهو جلال الدين أكبر، وكان هذا الإمبراطور نشأ في قلبه عداء للإسلام، وحقد عليه؛ لأنَّ مَنْ ينحرف عن الإسلام، ويثور عليه أقبح وأشد من الذي نشأ في الكفر، كما حكيتُ لكم في حديثي بالتفصيل في محاضرتي بعنوان: «عاصفة يواجهها العالم الإسلامي والعربي» وفي هذه الجامعة نفسها، ولأنَّ الذي يخرجُ من النور إلى الظلام يكون أعمش، وأقل إبصاراً من الذي نشأ في الظلام، ثم إنه يُصاب بمركَّب النقص.

فكان الإمبراطور جلال الدين، نشأ فيه عداء شديد للإسلام، ومن الأمثلة على ذلك أنه ما كان يستطيعُ أحد في بلاطه أن يُسمِّي ابنه محمداً؛ لأنه كان يكره هذا الاسم، فترك الناس التسمية بهذا الاسم، وكان مَنْ يذبح بقرة في عهده يُعاقب بالقتل، وكان قد فتح الخمارات، وشجَّع الناس على شرب الخمور، وأكل لحم الخنزير، وكان قد تأثر بالبرهمية والوثنية الهندية. كان يتَّجه بالمملكة إلى الطابع الهندي البرهمي، والفلسفة الهندية القديمة[1].

هنالك قيَّض اللهُ ـ تعالى شأنه ـ لمكافحة هذا التيار، ومقاومة هذه الفتنة العظيمة الشيخ أحمد السرهندي (٩٧١ ـ ١٠٣٤هـ) فجلس في ركن من أركان بيته، وبدأ يفكر في شقّ الطريق لمكافحة هذا التيار، فجعل يراسلُ

(١) راجع للتفصيل محاضرة العلامة الندوي في هذا الجزء بعنوان «الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها».

الملك وأهل البلاط ، من الوزراء الكبار ، والأمراء العظام ، ويثيرُ فيهم النخوة الإسلامية ، والحمية الدينية ، ويقول لهم: يا جماعة ، أنتم مسلمون وأولاد المسلمين ، وقد شرَّفكم الله تعالى بنعمة الإسلام ، ورغم ذلك نرى أتباع محمد ﷺ ـ وهو حبيبُ ربِّ العالمين ـ أذلاء في هذه البلاد التي فتحها المسلمون ، وأراقوا عليها أزكى دمائهم ، وصرفوا لها أفضل عبقرياتهم ، وأحسن مواهبهم كيف تحتملون هذا الوضع ، وكيف ترضون بذلك يا عباد الله؟!

صار يثيرُ فيهم كامنَ الإيمان ، ويُحرِّك فيهم العرقَ الإسلامي الذي لا يخلو منه قلبُ أيِّ مسلم ، وما زال يثيرُ فيهم النخوة الإسلامية ، ويُواصل العمل ، وبقي هكذا مدة طويلة يراسل ، ويكتب ، ويقابل حتى كسب عدداً من الأمراء ، فكانوا أنصاره وتلاميذه ، ومات جلال الدين أكبر ، وخلفه ابنه نور الدين جهانكير ، وطلبه إلى بلاطه ، ولم يسجدْ له الشيخ تعظيماً كما كانت العادة في البلاط ، فسجنه فبقي في السجن سنتين ، ثم أمره بأن يبقى في المعسكر ، ويرافقه لمدة ثلاث سنين ، فصبر على هذه الحالة ، وعرف جهانكير أنه من طراز آخر ، وأنه عالم رباني مخلص ، زاهد في الدنيا محب للخير فأحبه وأجله ، وبدأ يهتم برفع شعائر الإسلام وبناء المساجد في المناطق والقلاع التي كان يفتحها ، واحترام الإسلام والمسلمين.

ولم يزل يُجري اتصالاته بالأمراء المسلمين وكبار الوزراء؛ حتى كوَّن مجموعةً مؤمنة ذات حمية دينية ، فقلب التيار ، وغيَّر مجرى التاريخ ، فكان جهانكير أفضل من أبيه أكبر ، وكان ابنه شاهجهان أفضل من أبيه جهانكير ، ومما يدلُّ على ذلك أنه لما صنع له «عرش الطاووس» الذي صرف عليه الملايين ، وتربَّع عليه نزل بعد هنيهة ، وقال: لقد كان فرعون سفيهاً ، إنه جلس على عرش آبنوس ، وادعى الألوهية ، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] ولكني أنا مسلم ، ثم سجد لله شكراً ، ثم جلس على العرش.

وخلفه أورنك زيب عالمكير ، ذلك الذي دوَّن الفتاوى الهندية ، وطبق

الأحكام الشرعية ، ونصب الجزية على الهندوس ، وكان من أفقه الملوك الذين عرفناهم في العصور الأخيرة ، ومن أغير الملوك على الإسلام ، ومن أكثر الناس حرصاً على اتباع السنة لا تفوته جمعة ولا جماعة ، وحفظ القرآن الكريم ، وجمع أربعين حديثاً ، وشرحها .

كلُّ ذلك بجهود رجل واحد فقير أعزل ، ولكنه تملكته العقيدة ، وسيطرت عليه الفكرة ، وتشبثت به الغاية النبيلة ، حتى أصبح لا يملك نفسه ، ولا يقدر على التحول من موقفه ، وقد أثبت للملوك أنه لا يريد الملك ، وقال لهم : إذا صلحتم أنتم فأنتم أولى للحكم ، لا أشاطركم ، ولا أنافسكم في ملككم ، وأدعو الله تعالى لكم بالتوفيق والنجاح ، وخذوا أنتم الزمام بأيديكم ، وطبقوا الأحكام الشرعية ، وتوجَّهوا بهذه البلاد إلى الإسلام .

هذان عاملان أساسيان في رجال الدعوة : أحدهما : تملك الفكرة وسيطرتها على نفسه ، والثاني : التَّجرُّد عن المطامع الدنيوية ، والزهد في المناصب ، والملك .

وأكتفي بذلك ، وأرجو أن يكون هذا بلاغاً للمستمعين النبهاء الأذكياء أبنائنا أبناء الجامعة الإسلامية ، وعسى الله أن ينفعنا جميعاً لما فيه خير الإسلام والمسلمين .

وأعود لأقول لكم : إنه ينبغي أن تكون كلمتكم الرائدة : «أينقص الدين وأنا حي؟!» .

والسلام عليكم ، ورحمة الله وبركاته ، وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

روائع من أدب الدعوة
في القرآن والسيرة

لمَّا تحقَّق حلمُ جامعة ندوة العلماء القديم في صورة افتتاح المعهد العالي للدعوة والفكر الإسلامي عام (١٤٠٠هـ) كان من نجاح هذه السنة الدراسية ، أنها ازدانت بسلسلة من محاضرات العلامة الندوي ،وقد تركَّزت موضوعاتها على أسلوب الدعوة في القرآن والسيرة ، وكان العلامة الندوي أجدر الناس وأحراهم بإلقاء المحاضرات على الطلاب في هذا الموضوع الدقيق ، ذلك أولاً ؛ لأنه درس اللغة العربية دراسة عملية دقيقة ، وتفهم روحها البلاغية ، ومارس الكتابة والكلام فيها بأسلوب بليغ ، حاز من أهل اللغة التقدير والإعجاب ، وثانياً ؛ أنه تخصَّص في علوم القرآن وتفسيره ، ورسمها بصورة عميقة أيضاً ، ثم انخرط في تدريسه مدة طويلة ، ومن اطلع على كتاباته ومؤلفاته عرف أنها تعتمد على القرآن قبل أن تعتمد على غيره ، وتستمدُّ منه الروح والقوة والإيمان ، وذلك سرُّ قوتها وتأثيرها ، فكان خير من يدخل في موضوع قرآني مهم ، ويبحث فيه عن جدارة وكفاءة.

وهذه المحاضرات من السلسلة القرآنية ، تشرح للقارىء قصص القرآن ، وأساليب دعوة الأنبياء شرحاً مبدعاً مثيراً ، يُنِير جوانبَ عديدة من دعوة الأنبياء ، وأسلوب حوارهم مع أممهم ، ومواجهتهم لردِّها عليهم ، وهي تفتحُ آفاقاً جديدةً لعلوم القرآن ومعانيه أمام الدعاة وباحثي ودارسي القرآن.

المحاضرة الأولى

حكمة الدعوة ومرونتها ومجاراتها لكل بيئة وعصر

أحمد الله ، وأثني عليه بما هو أهله ، وأُصلِّي على نبيه ﷺ ، ثم قال :

*** تحقيق أمنية قديمة :**

وبعد فإنني أحمد الله تبارك وتعالى على هذا اللقاء الكريم السعيد ، فإني أرى في ذلك تحقيقاً لأمنية قديمة ، بل ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف: ١٠٠] وإننا نلتقي اليوم على صعيد التفكير والتأمل في مناهج الدعوة ، وفي أساليبها ، وفي طرقها ، وفي آدابها ، وإن هذا الموضوع في الحقيقة قيمة هذه المؤسسة العظيمة؛ التي قامتْ قبل تسعين سنة تقريباً .

ما هو أسلوب الدعوة في القرآن؟ أو بم يوصي القرآن الداعي إلى الله؟ وما هي مناهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدعوة؟ وما هي الآداب التي يحبُّ القرآنُ أن يتحلَّى بها الداعي إلى الله؟ هل هناك أحكام وتوجيهات معينة محدودة في القرآن يأخذ بها الداعي ، ويدرسها الطالب في مدرسة الدعوة؟

هذا موضوع له أهميةٌ كبيرة؛ لأنه يتصل بالقرآن ، ويتَّصل بالدعوة ، فكيف إذا التقى هذان الجانبان المشرقان المنيران المثيران في موضوع واحد؟!

*** القرآن كتاب هداية ودعوة، قبل أن يكون كتاب أحكام وشريعة:**

إنَّ القرآنَ هو كتاب هداية ودعوة قبل أن يكونَ كتاب أحكام وشريعة ـ مع كل إجلالنا وتقديرنا للأحكام والشريعة ـ إن الأحكام والشريعة لا غِنى عنها، ولكن القضية، قضية الأولية، قضية الطابع الغالب، وقضية الغاية التي يدور حولها القرآن، فأنا أعتقد ـ في ضوء دراستي القاصرة المحدودة ـ أن القرآن هو كتاب هداية ودعوة، قبل أن يكون كتابَ أحكام وشريعة؛ لأن الهداية هي الأساس للإيمان، والدعوة هي الأساس لنقل هذا الإيمان، فإذا كان هذا هو الشأن، فلا شكَّ في أن القرآن هو كتاب هداية ودعوة قبل أن يكون كتاب شيء آخر.

*** الدعوة لا يمكن أن تخضع لقوانين مرسومة، وتتقيد بها:**

فما هي الأحكام التي يشرحها القرآنُ الكريم في موضوع الدعوة؟ وما هي الأداب التي يؤكدُ عليها القرآن، ويدعو إليها؟ هل هناك قوانين مرسومة، وأحكام مضبوطة للدعوة؟ إنني أعتقدُ أن الدعوة لا يمكنُ أن تخضعَ لقوانين مرسومة، وأحكام مضبوطة؛ لأنَّ الدعوة تعتمد على المحيط وعلى الظروف والبيئة، وعلى الجو والملابسات، فإذا كانت الدعوةُ تعتمدُ على الواقع وهو يختلف، وإذا كانت الدعوةُ تعتمدُ على الارتجال، ولا أريد الارتجال الكلامي اللساني، إنما أريدُ الارتجال العقلي، والذي يُسمِّيه أهل البلاغة بحضور البديهة، وإذا كانت الدعوةُ تعتمدُ كذلك على مكامن المرض، ومكامن الضعف في النفس الإنسانية، وفي المجتمع الإنساني، فإنه ما يمكن أن يقال: يجب على الداعي أن يفعل كذا ويتكلم بكذا، ويظهر في المظهر الفلاني وإن بان المظهر البلاغي، وبدأنا نشرع هذه الأحكام، ونرسم هذه الخطوط وإن كانت خطوطاً عريضة، ونقول: تنطلقُ الدعوةُ من الخط الفلاني إلى الخط الفلاني، ولا تتخطى هذه الحدود والخطوط، فقد يتورط الداعي فيما تورَّط فيه سيد مع خادمه، كما تحكي حكاية لطيفة، تقول القصة: إن رجلاً استخدم خادماً، وكان هذا الخادمُ ذكياً قانونياً،

طلب من السيد أن يضعَ له قائمة الواجبات ، ما هي الواجبات التي أكلف بها ، فوضع له قائمة ، تعمل كذا في الوقت الفلاني ، وتعمل كذا ، وتذهب إلى السوق ، وتحضر لنا الحاجيات اليومية من لحوم وخضر وغير ذلك ، وتقوم بالخدمة الفلانية ، فأخذ هذه القائمة واحتفظ بها ، ومرة ركب هذا السيد جواداً ، ولكنه لسوء الحظ ارتبكت رِجْله في الركاب ، وأراد أن يتغلَّب على هذه المشكلة فما نجح ، وكان الخادمُ واقفاً ، فاستعان به ، وقال: أغثني يا فلان ، فأخرج الورقةَ من جيبه ، وفتحها ، ومدَّها إليه ، وقال: أين في هذه القائمة أن السيد إذا ارتبكت رجله بالركاب فإني أعينه ، والسيد يعاني مرحلة فاصلة بين الموت والحياة ، يخشى عليه أن يسقط ، أو أن يتورَّط في مشكلة أخرى ، ولكن هذا الخادم اعتمد على هذه القائمة ، وكان أميناً عليها ، مرتبطاً بها ، ورفض أن يعينه ، لأنه غير مكلف بهذه الخدمة ، لذلك يقول الشاعر العربي ، وقد كان العرب على جانب عظيم من سلامة الفطرة ، ومن الانتفاع بتجارب الحياة:

إذا كنتَ في حاجةٍ مرسلاً فأرسلْ حكيماً ولا توصه

*** دعوة لها مساحة زمانية ومساحة مكانية:**

أما الدعوة فأمرها بعيد ، وساحتها واسعة جداً ، ولها مساحة زمانية ومساحة مكانية ، وكلتاهما واسعتان ، أما المساحة الزمانية فهي تمتدُّ من مصدر الدعوة ـ إذا كان نبياً ، وإذا كان مؤسس دعوة كبيرة ـ إلى ما لا نهاية له ، كذلك لها مساحة مكانية ، واسعة ، فقد يكون الداعي في الشرق ، وقد يكون في الغرب ، وقد ينتقل الداعي من الشرق إلى الغرب ، فإذا كان قد تمرن على طبيعة الشرق؛ فإنه لا يستطيعُ أن يقوم بمهمته في الغرب.

*** الإيجاز والإعجاب في آية الدعوة ، سعتها وعمقها:**

فكان من إعجاز القرآن أنه لم يتعرَّضْ لأحكام تفصيلية في موضوع الدعوة ، وإنما وكلها إلى العقل السليم ، وإلى الذوق المستقيم ، وإلى العقيدة الراسخة ، والفكرة المتغلغلة في الأحشاء ، ثم حاطها بسياج واسع ، هو السياجُ الوحيد الذي يستطيعُ أن يحيط بالدعوة ، وهو قوله

تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥] تشعرون بمدى أبعاد الإطلاق الذي جاء في هذه الآية، وأبعاد التقيد الذي جاء فيها، فأطلق، وقال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾، ما حدَّد، وما عيَّن شيئاً معيناً خاصاً، فمثلاً تدعون الناس إلى الإيمان بالله وحده، وإلى العقيدة الصحيحة، وتحثون على الصلاة، تدعون إلى مكارم الأخلاق، وإلى الفضيلة، أو تدعون الناس إلى الشعور بكرامة الإنسانية، و﴿ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ يحوي كل شيء، إنه يمتد ويسع الآفاق، ليست هذه الآفاق فقط، إنها آفاق الأديان السماوية، وآفاق الحاجات البشرية، والحياة الإنسانية، فاستحضروا الإعجاز الكامل في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ ﴾ وهو لا يختص بالخطابة، ولا يختص بالكتابة، ولا يختص بالوعظ والنصيحة، إنما قال: ﴿ ٱدْعُ ﴾، والدعوة عامة تشمل هذه المعاني كلها، وهذه الأساليب كلها. ثم قال ﴿ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ وأي كلمة أوسع أفقاً، وأعظم إطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾؟!

إن الحكمة ـ الكلمة البليغة العربية التي جاءت في الآية ـ لا أعتقد أنها من الممكن ترجمتها أو نقلها إلى لغة أخرى، وكذلك ﴿ ٱلْمَوْعِظَةِ ﴾ كلمة مطلقة، و﴿ ٱلْحَسَنَةِ ۖ ﴾ أيضاً كلمة مطلقة، وهنا جاء القرآن يحلُّ هذه المشكلة، فأطلق وقيد، وأوجز وأعجز، فقال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ ﴾ الآية.

وقد جاءت هذه الآية في سياق الآيات التي تتحدَّث عن أكبر داع من الأنبياء قبل الرسول ﷺ، وهو سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقال:

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣].

ثم بعد ذلك يقول: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ لهذه الآية صلة خاصة بدعوة

سيدنا إبراهيم ، هنالك خيط يربطُ بين سيدنا إبراهيم وبين أمر الدعوة ، إن ورود هذه الآية في سياق الحديث عن سيدنا إبراهيم يدلُّ على أن سيدنا إبراهيم كان آخذاً بهذا الطريق ، ملتزماً لهذا الأدب ، وكانت دعوته مؤسَّسة على الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن.

*** الأمثلة والنماذج عنصر هام ، استخدمه القرآنُ فيما يتعلق بالدعوة:**

ولكن هنا عنصر آخر ، استخدمه القرآن ، واعتمد عليه ، وهو من أهم العناصر ، ومن أكبرها تأثيراً ووقعاً في النفس ، وإعانة على أداء هذه المهمة ، وذلك العنصر هو الأمثلة العملية والنماذج الشخصية ، فالقرآنُ إذا كان قد ترك الأحكام التفصيلية الدقيقة ، والقواعد المضبوطة المعينة للدعوة ، فإنه قد ملأ هذا الفراغ ـ إذا كان فراغاً ـ بنماذج من سيرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومن دعوتهم ، وهي نماذج مؤثرة في القلوب ، ساحرة للنفوس ، فإن النماذج لها من التأثير ما لا يكونُ لأيّ عنصر آخر ، لا للعناصر المنطقية ، ولا للعناصر الكلامية الجدلية ، ولا للعناصر النفسية ، فكلُّ الصحف السماوية من أولها إلى آخرها اعتمدت على النماذج العملية ، وهي قطعٌ بديعة تستهوي النفوس ، من سير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأكثرها مقتبسة من سير أربعة من كبار الرسل ، أولهم سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وثانيهم سيدنا يوسف ، وثالثهم سيدنا موسى ، ومسك الختام هو خاتم الأنبياء والرسل محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

*** نموذج من دعوة مؤمن ما زال يكتم إيمانه:**

والقرآن لم يغفل نكتة مهمة جداً ، وهي أنه إذا كان قد اقتصر على نماذج نبوية فقط ، فكان للإنسان أن يقول ـ في أي زمن من الأزمان ـ أين نحن من هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ هؤلاء هم الذين أكرمهم الله بالرسالة وبالوحي والنبوة ، وأيّدهم بروح منه ، فكيف نقلدِّهم؟ وكيف نستطيع أن نترسَّم خطاهم؟! فعرض القرآنُ نموذجاً لإنسان لم يكن نبياً ، ولم يكن من كبار أصحاب الرسل ، هو مؤمنٌ من آل فرعون ، والقرآن اكتفى بقوله:

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥ ﴾ [المؤمن : ٢٨] يعني : أن أحواله وظروفه لم تسمحْ له بإظهار دينه ، ولو كان على ذروة عالية من الإيمان لأعلن إسلامه ، كما أعلن سيدنا أبو بكر ، وكما أعلن سيدنا عمر ، وكما أعلن سيدنا أبو ذر ، ولكنه مؤمن كان لا يزالُ يكتم إيمانه ، وقد مكَّنته هذه الفرصة ـ وهي عدمُ ظهور إيمانه ، وإعلانه الحرب على قومه ـ من ظهوره في مظهر صديق ناصح ، وزميل محب للخير لإخوانه ، وهي فرصةٌ يجبُ أن يستفيد منها الداعيةُ الحكيم الذي يكون في هذا الوضع ، ويستفيد منها الداعية الذي لا يكونُ في هذا الوضع ، فيتلقى منه دروساً في ترقيق الكلام وتنويعه ، والتبصير بالواقع ، وقصص الماضين ، وعواقب الأمور ، وكلاًّ وعد الله الحسنى .

* * *

المحاضرة الثانية

نموذجان من دعوة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام

* نموذجان من دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام :

ليكن موضوع حديثنا اليوم سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهنالك نموذجان من دعوته ، إذا قارن الإنسانُ بين هذين النموذجين ملكته روعة الحكمة ، وروعة الدعوة النبوية ، ونموذج حين دعا والده ، ونموذج حين دعا قومه ، وترون تنوُّع الأسلوب ، وليس تنوع الأسلوب فقط ، بل تنوُّع فَهْم النفسية ، والدخول إلى أغوار النفس الإنسانية ، فإذا تأملتم في الآيات التي وردتْ في دعوة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لوالده ، عرفتم كيف يدعو الولد الوالد ، ثم إذا قارنتموه بالأسلوب الذي دعا فيه قومه ، عرفتم أسلوباً آخر يليقُ بالمقام ، فأنا أقرأ لكم أولاً الآيات التي وردت في دعوته لوالده .

* دعوة الولد للوالد :

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ [مريم : ٤١ ـ ٤٥] .

*** إثارة للحنان الأبوي:**

أولاً تتأملون في قوله: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ لهجة فيها الرقة، وفيها البر، وفيها التواضع، وهذا يرجعُ إلى الذوق السليم، كذلك كان الذين قد تذوقوا القرآن، وتشرَّبوا روحه، إذا قرؤوا آيات العذاب كان يرتعدُ صوتهم، ويحمرُّ وجههم، وإذا قرؤوا آيات الرحمة ترقُّ قلوبهم، وتلينُ أصواتهم، فالولد إذا خاطب أباه بقوله: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ أثار فيه الحنان الأبوي، وكان يمكنُ لإبراهيم أن يصيح فيقول: يا سيدي، أو يقول: يا شيخَ الكهان، لأنه كان كاهناً، ولكنه يقول: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ تعمد إبراهيم هذه الكلمة ليصل بها إلى أعماق قلبه، ويثير فيه الحنان، فالولدُ مهما بلغ الغضبُ من والده إذ ناداه بقوله: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ يا والدي الكريم، رقَّ وتهيأ لسماع كلامه.

إن إبراهيم أثار فيه الحنان قبل أن يثير فيه الإيمان، والحنان يسبقُ الإيمان أحياناً فقد يكون الوالدُ حنوناً ولا يكون مؤمناً، فهذا الحنان هو الذي يستطيعُ الإنسان أن يعتمدَ عليه، ولا ينبغي للداعي الحكيم أن يغفل هذا الجانب، وإذا أغفل هذا الجانب فإنه أساء إلى نفسه، وأساء إلى دعوته إذا كان غليظاً ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فالرسولُ عليه الصلاة والسلام رعى هذا الجانب مع عمه أبي طالب، فخاطبه في مواضع دقيقة محرجة بقوله: «يا عم» فقال حين رأى حيرته في أمر الدعوة إلى الإسلام، وارتباكه فيها، وتخوفه من معرَّة قريش: «يا عم، لو وضعوا الشمسَ في يميني والقمر في يساري، على أن أتركَ هذا الأمر، ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

وكانت نتيجة هذه الرقة مع الصرامة، وإثارة العاطفة الإنسانية في أبي طالب ـ مع إيثاره لدين آبائه ـ أن قال له، ـ وقد خاطبه بقوله: يا بن أخي، كما خاطبه رسولُ الله ﷺ بقوله: «يا عم» ـ: «اذهب يا بن أخي فقلْ

ما أحببتَ ، فو اللهِ ما أسلمك لشيء أبداً»[١] .

*** حسن اختيار سيدنا إبراهيم للدلائل :**

ثم إن سيدنا إبراهيم اختار من الدلائل في إثبات كون هذه الآلهة لا تستحقُّ العبادة ، الأشياء المحسوسة الملموسة اليومية ، لم يبدأ بالأشياء التي تعتمدُ على المنطق ، وتعتمد على الذكاء النادر ، وتعتمد على بحوث علمية ، أو نظرات فلسفية ، إنما اختار الشيء الذي يفهمه الطفل ، لأن والده كان في الطفولة العقلية ، وإن كان متقدماً في السن ، فخاطبه كما يخاطب الطفل : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم : ٤٢] ، ثم قال : ﴿ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ [مريم : ٤٣] وهذا من دواعي السرور للرائد العاقل ، فينبغي أن يفتخر ويستبشر بتفوق ولده في العلم والمعرفة ، والعقل والوعي ، وما كان فيه شيء من المبالغة وخرق العادة؛ لأن هذا يقع كثيراً ، يتعلم الولد ولا يتعلم الوالد ، ويكون الولد أعلم من والده ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ [مريم : ٤٣ ـ ٤٤] .

إن كل آية من هذه الآيات وراءها معانٍ عميقة ، وحِكَم دقيقة ، إنه لم يذكر الشيطان بصفات تدقُّ ، وبصفات يلتوي فهمها على هذا الرجل الساذج البسيط؛ الذي بلغ من غباوته أن كان ينحت الأصنام ثم يعبدها ، وإنَّ أكبر جنايات إبليس ، أنه كان للرحمن عصياً ، ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ [مريم : ٤٥] .

*** الاعتماد على الفطرة والواقع في دعوته عليه السلام لقومه :**

ويقترن هذا الأسلوب بالأسلوب الذي دعا به سيدنا إبراهيم قومه ، تعرفون الفرق ، فيقول القرآن : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ [الشعراء : ٦٩ ـ ٧٣] .

(١) سيرة ابن هشام (ق١) (٢٦٥ ـ ٢٦٦) .

تتأملون في هذه الآيات ، وتعرفونها من أولها إلى آخرها ، فأولاً تتفكرون في حكمة سيدنا إبراهيم في الدعوة؛ لأنه لم يقترح من نفسه أسماء أو صفات لهذه الآلهة ، حتى لا يثير هؤلاء فيردّون عليه وينكرونها ، بل استنطقهم أولاً فقال: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ ، وهنالك يلجأ إلى الدلائل المنطقية ، أو الإشارات الفلسفية ، وقال: ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ فإن الحياة الإنسانية تدور حول هاتين النقطتين ، يسمع الإنسان إذا دُعي ، وينفع ويضر إذا استُعين ، هذا الخيطُ الذي يربط فرداً بفرد ، ووجوداً بوجود ، ومؤسسة بمؤسسة ، اختار هذين الشيئين وهما القطبان اللذان تدورُ حولهما رحى الحياة كلها.

﴿ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ هذا الذي كان يريدُ سيدنا إبراهيم أن يقولوه ، فهذا هو جواب العاجز ، جواب المنقطع ، يعني: ما هو الدليل على هذه الأسماء؟ هل لها مسمّيات؟ وهذه الأصنام المنحوتة ، والأوثان المنصوبة ، والآلهة الخيالية الأسطورية الأخرى ، هل لها فائدة في الحياة؟ وقدرة على العمل ، ومكنة من النفع والضرر ، وسند من العلم؟.

*** استفاد ثروة الذكاء والبيان ، وطاقة الدفاع عن النفس من المخاطب:**

وتستمرون في دراسة هذه الآيات تنتقلون من معنى إلى معنى ، فتفهمون الفرقَ بين الأسلوبين ، وفهم سيدنا إبراهيم العميق الدقيق ، للنفسية الإنسانية ، وقدرته وبراعته في الدخول إلى مداخل النفس الدقيقة ، وإلى أغوارها العميقة ، وكيف استخرج كلَّ ما عندهم من ثروة ذكاء ، وثروة بيان ، وثروة دفاع عن النفس ، وآخر سهم في كنانتهم كانوا يستطيعون أن يطلقوه: ﴿ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ فسيدنا إبراهيم استنفد كلَّ ما عندهم من قدرة جواب فأصبحوا مفلسين ، أصبحوا فقراء ، أصبحو لا شيء عندهم.

ثم بدأ يوجِّه إليهم الدعوة ، ويدعوهم إلى الله وإلى التوحيد ، فقال:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٨٢].

*** المنهج القرآني إثبات مفصل، ونفي مجمل:**

هنالك نكتة عجيبة من معجزات القرآن، وهو ما نبّه عليه شيخُ الإسلام ابنُ تيمية، فقال: إنَّ فلاسفة اليونان إذا عرفوا واجبَ الوجود، أو المبدأ الفيَّاض ـ على حدِّ تعريفهم ـ فإنهم يتوسَّعون، ويُدقِّقون في نفي ما لا يليقُ به عندهم (من الصفات وغيرها) أما إذا تعرَّضوا للإثبات فإنهم يختصرون ويجملون، ففي الفلسفة نفي مفصل، وإثبات مجمل، بالعكس من القرآن، فهنالك إثباتٌ مفصَّل ونفي مجمل، في وصف الله تعالى، في أسمائه وصفاته، وكذلك في الأديان السماوية، وتعاليم الأنبياء إثبات مفصَّل، ونفي مجمل[1]» اقرؤوا القرآن في الإثبات والحديث عن الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

واقرؤوا قوله تعالى في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وكذلك يقول شيخُ الإسلام: إن مئات من أساليب النفي لا تقوم مقام إثبات واحد، وقد صدق، فإن هذه الحياة التي نعيشها، والتي عاشتها البشرية الأولى كلها، إنما عاشتْ على الإثبات، ما عاشتْ على النفي، النفي نسبة ضئيلة جداً إلى الإثبات.

(١) المعنى مأخوذ من «كتاب النبوءات» لشيخ الإسلام ابن تيمية، والتعبير للعلامة الندوي.

*** الانطلاق والتدفق في الحديث عن الله تعالى :**

فسيدنا إبراهيم قال في جواب قولهم : ﴿نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ۝٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ فاكتفى بالنفي المجمل ، ولكنه لما جاء إلى ذِكْر الله تعالى ، والدعوة إليه توسَّع ، واستعان بالإثبات المفصل ، فقال :

﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء : ٧٧ ـ ٨٢] .

خمس خلال ، هنالك خصلتان فقط : ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ۝٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ لكنه لما ذكر الله تعالى ، وتحدَّث عنه ، كأنه شعر بطرب ، وجاشت نفسه ، فتوسَّع في الحديث عنه تعالى .

إن الإنسان إذا ذاق شيئاً لذيذاً فإنه يلوكه ويمضغه ، ويُديره في الفم ، أما إذا كان الشيء مرّاً ـ ولا بُدَّ منه ـ فإنه يبتلعه ابتلاعاً ، ويتخلص منه بسرعة .

فلما ذكر الله تعالى تحركت العاطفةُ فيه ، وجاش فيه الإيمان ، فقال : ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ .

*** مناسبات لطيفة :**

هنالك جاشتْ نفسُه مرة أخرى ، فثار يدعو الله تعالى ، مع أنه ليست هذه مناسبة الدعاء ، فقال : ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٣ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٨٤ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الشعراء : ٨٣ ـ ٨٥] .

وهنالك خطر أبوه بباله وتذكره ، فإنه كان من القادة إلى هذه الوثنية ،

والسادن الكاهن المعروف في البلد ، فقال : ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء : ٨٦] .

ثم استحضر القيامة ، فقال : ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء : ٨٧ ـ ٨٩] .

واقرؤوا أخيراً : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل : ١٢٠ ـ ١٢٢] .

* * *

المحاضرة الثالثة

نموذج من دعوة سيدنا يوسف عليه السلام

أما بعد ، فنربط الحديثَ بالحديث الماضي ، ونمسك الخيط الذي تركناه بالأمس .

عرضنا عليكم نموذجين من نماذج الدعوة النبوية الحكيمة البليغة التي تمثلت في قطعتين معجزتين من قطع القرآن الدعوية البلاغية ، إحداهما : القطعة التي تمثلت فيها دعوةُ سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لوالده ، التي جاءت في سورة مريم ، والقطعة الثانية : التي جاءت فيها دعوةُ سيدنا إبراهيم لأبيه وقومه في سورة الشعراء .

والآن نعرضُ عليكم نموذجاً آخر ، نموذج دعوة سيدنا يوسف عليه وعلى آبائه السلام ، فنتلو عليكم أولاً الآيات التي تتصل بهذه القصة من
سورة يوسف ، يقول الله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ
أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا
بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ
قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ
كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ
مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾
يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن
دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ
إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٣٦ ـ ٤١].

*** المحيط الفريد الذي قامتْ فيه دعوته عليه السلام:**

وقبل أن نشرحَ هذه الآيات نريدُ أن نخيل لأذهانكم المحيط الذي قامت فيه هذه الدعوة؛ التي اكتنفتها، فأولاً يجب عليكم أن تعرفوا مَنْ هو يوسف؟ هو ابنُ سيدنا يعقوب، وهو ابنُ سيدنا إسحاق، وهو ابنُ سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، جدّ الأنبياء، وإمام دعوة التوحيد في عصره، وبعد عصره، ويوسف هو الذي يقول الرسولُ ﷺ فيه: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم» فهو عريقٌ في العراقة، عريق في النبل، عريق في النبوة، عريق في معرفة الله تبارك وتعالى، عريق في الأخلاق العالية، وقد تحدثتْ عنه الصحف السماوية، وتحدَّث عنه تاريخُ النبوءات والأدب والدين؛ أنه كان آيةً في الجمال، وأن الله سبحانه وتعالى قد أكرمه بجمال الخَلْق والخُلُق، وكان الجمالُ فيه كاملاً منسقاً، قد التقى في شخصه الكريم جمال الخَلْق والخُلُق، والجمال الصُّوري بالجمال المعنوي، والجمال العقلي ـ إذا صح هذا التعبير ـ وجمال الشعور والعاطفة وجمال الرقة والكرم، فكان جميلاً بكل معنى من معاني الجمال، وقد تجلَّى هذا الجمال في كلامه، وفي كل تصرفاته، وفي كل خواطره.

وقبل أن نتذوَّق هذه القطعة الدعوية البيانية البلاغية الرائعة[1] يجب علينا أن نستحضرَ الأجواء التي اكتنفتْ هذه الدعوة، اقرؤوا معي الآيات التي وردتْ في قصته من قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ [يوسف: ١٩ ـ ٣٥] فسيق إلى السجن، وأُدخل فيه بتهمة برّأه الله منها كما برأ من دمه الذئب، فدخل في السجن سجيناً مُفترى عليه، والسجون تتلقى

---

(١) من الغريب أن هذه القطعة المعجزة الجميلة قد تجردت في التوراة، وإذا قارن الإنسان بين قصة يوسف في القرآن، وقصة يوسف في بائبل (BIBLE) وجد الأولى تتسم بروح الهداية والدعوة، والعبرة والموعظة، ووجد الثانية مليئة بالأعداد والأرقام والمساحة.

الأحكام وتنفذ ، لا شأنَ لها بالتحقيق ، إنما تتسلَّم المسجونين ، كما نتسلم نحن البريد ، لا نعرف ماذا فيه ، وقد تكون برقيةً تحمل نبأ مفجعاً ، وبرقية تحمل بشرى ، كذلك السجَّانون الموكلون بالسجون ، يتسلَّمون من صدر عليهم حكمُ السجن والاعتقال ، كما يتسلَّمون السلع والجمادات ، أمسكوا بيد سيدنا يوسف وهم لا يعرفون بيته ، ولا شرفه ، ولا براءته ، وأدخلوه في بقية المسجونين ، وإذا لم تتوفر وسائل التحقيق خارجَ السجن ، فكيف تتوفر داخل السجن؟ يغلق بابه على مَنْ فيه ، ولا يدخل إليهم الهواء النقي ، والسجن عالم صغير ، والمسجونون عندهم فراغٌ في الوقت ، وفرصة طويلة للحديث .

* **موضع احترام وتقدير وثقة :**

ولكن في أيام قليلة لفت يوسفُ الأنظارَ ، وأصبح حديثَ السجن ، وقد بدَّد نورُه هذا الظلام المحيط به ، هدوء ورزانة ووقار وسكينة ، وذكر وتسبيح ، وخُلُق وتواضع ، وعطف وكرم ، فاضطر أهلُ السجن إلى أن يحترموه ، وكانوا في ذلك مضطرين ، كأن سائقاً يسوقُهم إليه ، وكان كله من تقدير الله سبحانه وتعالى .

ثم ماذا حدث؟ رأى اثنان من أهل السجن منامين غير عاديين ، أما أحدهما : فقد رأى أنه يعصر خمراً ، وقد شُغِل بهذا المنام ، وسيطر على تفكيره ، وعلى مشاعره ، والثاني : رأى أنه يحملُ فوق رأسه خبزاً ، تأكل الطيرُ منه وفيه شيء من الغرابة ، وقد ألهمهما الله تعالى أن يرجعا في ذلك إلى يوسف ، وهذا ما هدتهما إليه سلامة الفطرة ، وقوة الملاحظة ؛ التي لا يخلو منها إنسان .

والتجربة القصيرة التي عاشها أهل السجن ، وأكثر الناس يعتمدون على التجربة والمشاهدة أكثر مما يعتمدون على العلم والمنطق ، وحكيا رؤياهما ، قال : ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٣٦] .

*** معنى الإحسان:**

وما معنى الإحسان في هذا المكان؟ هل كان يوسف يملك شيئاً من المال كان قد أخفاه، فهو يوزعه عليهم؟ هذا الذي يتبادرُ إلى ذهننا إذا سمعنا كلمة الإحسان، ولكنه شيء غير معقول، وغير ممكن العمل بالنسبة إلى يوسف والوضع الذي كان فيه.

الإحسان: هو الإتيان بشيء في درجة أكمل وأجمل بصفة أجمل وأفضل، ولذلك لما سُئِل رسولُ الله ﷺ، وقيل: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» هذا هو الإحسان. فقالا: إنا نراك من المحسنين في العبادة، إنا نراك من المحسنين في الكلام، إنا نراك من المحسنين في المعاملة، وكان سيدنا يوسف ـ كما قلت لكم ـ قد أحاطتْ به هالات من هذه التهمة، ومن الشائعات، وآثرت كلمة «هالات» لأن سيدنا يوسف كان قمراً، فهذا القمر الإنساني كانت تحيطُ به هالات من التُّهم والشبه والظنون والقياسات، لماذا أدخل السجن؟ لعله فعل كذا، أو فعل كذا، ولكن انشقت عنه هذه الهالات، وأحاطت به هالة أخرى، وهي هالة الإعجاب، وهالة التقدير والثقة.

*** أهم من الرؤيا المفزعة، وأجدر بالاهتمام:**

لقد عرف يوسف أن الرؤيا الغريبة أفزعتْ كلَّ واحد منهما، فساقتهما إليه، وذلك مبلغُ علمهما، ومناط اهتمامهما، لا يعرفان السعادة والشقاء إلا في هذه الحياة، ، لكن يوسف الذي نشأ في أحضان النبوة، وفتح اللهُ بصيرته ونورها، وهيأه للنبوة والرسالة، كان يعرف أنَّ الذي يتناسيانه هو أهم من هذه الرؤيا، وهو الإيمان بالله ـ بفاطر هذا الكون ومدبره ـ وعقيدة التوحيد التي لا يشوبها شرك، وهل الحياة ـ مهما طالت واتسعت ـ إلا رؤيا يراها الناس؟ وكانا إلى معرفة تأويل هذه الرؤيا أحوج وأفقر، وكان جهله وتناسيه أكبر خطراً، وأشد ضرراً، فرأى ـ بما فطره الله عليه من الرحمة والنصح والإخلاص ـ أن ينبههما للخطر الحقيق، ويزودهما بالعلم النافع الأساسي، وقد صادف من العقل وعياً، ومن النفس انتباهاً ـ ولو في قضية

تافهة ـ وذلك لا يدوم ، ولعلَّ هذه هي الفرصة الأخيرة للحديث معهما ، فأراد ألا يضيعها ، وأن يبذرَ في هذه التربة التي أصبحت ندية ناعمة ، البذرة الكريمة ، فاتخذ من مناسبة تفسير الرؤيا مدخلاً لتوجيه الدعوة إلى الله ، وأثار فطرتهما السليمة للتوصُّل إلى عقيدة التوحيد الواضحة السائغة .

*** الجمال الرائع في فتح الحديث :**

وأريدُ أن تنتبهوا إلى الجمال الرائع في فتح الحديث ، فمن مظاهر الحديث الجميل : جمال المدخل ؛ لأن المدخلَ له أهميةٌ كبيرة ، إذا كان مدخل الحديث الجميل مدخلاً غير جميل ، أثر في جماله ، وأساء إليه ، وكذلك البناء الجميل ، يجبُ أن يكون مدخله جميلاً ، ينشرحُ له الصدر ، ويُشجِّع على الدخول .

إن يوسف بدأ الحديث بالتأكيد لهما ، أنه يستطيعُ أن يفسِّر النبأ الذي جاءا لأجله وقصداه ، وأنه لم يكنْ هذا القصد خطأً ، وأنهما ما ضلاَّ الطريق ، وإنما وصلا إلى غايتهما ، وهو الرجلُ المطلوب الكفؤ ، الذي يستطيع أن ينجدهما ويرشدهما ، فإن الأصل النفسي العميق أن صاحب الحاجة يريدُ أن تُقضى حاجته في أقرب وقت ، المريض إذا ذهب إلى طبيب يشخص المرض ، ويصف الدواء ، والطبيب يماطله ويماطله ، يقول : سأراجعُ الكتبَ من المصادر الطبية ، وسأراجع فلاناً وفلاناً في البلد ، ثم أحاول أن أعالجك ، فالمريض المسكين يتألم قلبه ، وينقطع أمله ، ويرجع خائباً ، وربما لا يرجعُ إليه بعد ذلك .

فالشيء الأول أن يثيرَ الإنسانُ الثقة في ذلك الرجل الذي ساقته الحاجة إليه ، ويقنعه بأن علاجه عنده ، وأن طلبته وحاجته ستُقضى عنده ، فقال : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ .

يعني : أن حاجتهما ستُقضى سريعاً ، لأنهما كانا في السجن مرتبطين بقوانين السجون والمعتقلات ، فما كان لهما أن يجلسا بجواره طويلاً ، فأراد أن يطمئنهما أن حاجتهما ستُقضى سريعاً ، فقال : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا ﴾ وهنالك تفسيران للآية :

١ ـ التفسير الأول:

إن سيدنا يوسف عليه السلام قال: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: تأويل هذا الطعام يعني حقيقة هذا الطعام، فأراد أن يوجد الثقة فيهما عن طريق إظهار قدرته على التنبؤ بشيء لم يره، فاستعان به على إيجاد الثقة في نفوسهما.

٢ ـ التفسير الثاني:

وأنا لا أستسيغُ هذا التأويل، أولاً لأنه إخبار بالغيب. ثم إن السجونَ ليس هنالك تنوع كبير في الأطعمة، فباستطاعته ـ بكل سهولة ـ أن يخبرهما بنوع الطعام الذي سيحضر، فأي ألمعية لسيدنا يوسف عليه السلام، وأي براعة في الإشعار بنوع الطعام الذي سيحضر؟ وجاء في التوراة أن سيدنا يوسف عليه السلام كان مشرفاً على المطعم، إن صحَّ هذا فإنه لا غرابة لمشرف المطعم في أن يخبر أي نوع من الطعام سيحضر، فأنا أميلُ إلى التفسير الثاني الذي ورد في بعض كتب التفسير، وهو أنه لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويل هذه الرؤيا، حتى يطمئنا أنهما لا يحتاجان إلى جلوسٍ طويل، ولا يملاَّن، ولا يأتي السجان فيقول: اذهبا إلى مكانكما، ومَن الذي أذن لكما بالحضور هنا؟ فقال: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾.

وكانت مصر على جانبٍ كبير من الحضارة، وتنظيم الحياة المدنية، فالمفروضُ أنه كانت هناك مواعيد مضبوطة للطعام، وكان وقت الطعام قد حضر، فلذلك قال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ﴾ الآية.

*** تنشط النفوس لسماع الحديث بشيء لذيذ حبيب:**

ثم هناك نكتة حضرتْ لي الآن، وهي أنَّ بين المسجونين وبين الطعام الذي يأكلونه في السجن صلة قوية، فلما ذكر الطعام أثار فيهم الشوق، وانتعشت قلوبُهم لسماع ذكر الطعام، فالطعام حبيبٌ إلى كل إنسان، ولكنه إلى المسجون أحبّ وألذ وأشهى، فلما ذكره يوسف انتعشت نفوسهما، وتهيأت آذانهما، فقال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ الآية.

ثم تثور فيه الطبيعةُ النبوية ، فلا يرد الفضلَ في ذلك إلى ذكائه ، ولا إلى براعته ، بل يردُّ الفضلَ إلى الله ، ومن هنا ينتقل انتقالاً حكيماً قلما يوجد له نظير ، فقال: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ فكان المدخل الكريم إلى النصيحة التي يريدها ، وانظروا كيف ينتقل من تفسير الرؤيا ـ قبل أن يفسرها ـ إلى الدعوة الحكيمة ، وكان ذلك مما لايسيغه ، ولا يتحمله هؤلاء المسجونون ، الذين ساقتهم الحاجة إليه ، وكانا قد فزعا بهذه الرؤيا المفزعة ، وجاءا فزعين مرتاعين ، فكيف يحتملان هذا الحديث الطويل ، فقال لهما: إنه لا يرجعُ الفضل في ذلك إلى ذكائي وبراعتي ، بل يرجع الفضل إلى الله ـ تعالى ـ .

ومن هنا يدخلُ من هذا المدخل اللطيف الرقيق الخفيف على النفوس إلى الدعوة ، تستحضرون حكمته في الدعوة أنه لم يكنْ يستطيعُ أن يقول: صبراً أيها الإخوة ، أيها الزملاء الكرام ، سأفسِّر لكم الرؤيا ، ولكن اسمعوا مني أولاً ، إن هناك شيئاً أهم من هذا ، كيف كانوا ينشطون لسماع هذا الكلام ، وهذا الحديث الذي لم يتعودوه ، وما جاؤوا لأجله؟ فقال من غير انفصال طويل ، بل في لحظة واحدة.

*** الانتقال الخفيف الرقيق إلى عرض الدعوة:**

﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ استحضروا الجو الذي وقعت فيه هذه الدعوة الحكيمة؛ التي لا أعرفُ مثلها دعوة إلا دعوة الرسول ـ ﷺ ـ وسأعرض عليكم نموذجاً منها، ولم أمر بأي نموذج من نماذج الدعوة في تاريخ الدعوة، والدعاة أدق وأعمق منها ، حيث بدأ الحديث بقوله: ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ . . . ﴾ إلى أن قال: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ ، كيف انتقل إلى الحديث عن الرب ، وإلى التوحيد ، هل هناك انتقالٌ أخفّ ، وأرق ، وألطف وأسرع من هذا الانتقال؟ فكأنه يقول: ما كنت لأفسر لكم هذه الرؤيا ، وأنا الإنسان الضعيف العاجز الذي لم أملكْ نفسي أمام هذا الأمر ، وأراد الناسُ أن يزجُّوني في السجن ، فلم أستطع أن أقاومهم ، وكيف يستطيعُ الإنسانُ الضعيفُ العاجزُ الذي يُساق إلى السجن فلا يملك شيئاً ، أن يصلَ إلى هذه القمة الشامخة من العلم بنفسه ، بل ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ .

* رحلة طويلة يطويها سيدنا يوسف في لحظة واحدة:

ثم أثار سؤالاً آخر، وهو: لماذا علمني ربي؟ ومن هنا انتقل انتقالاً آخر، إنها رحلةٌ طويلة في طريق الدعوة، لكن سيدنا يوسف بحكمته، وبروحانيته الشفافة، وقلبه المشرق، وبفكره النقي الرباني، استطاع أن يطوي هذه الرحلة الطويلة التي قد يطويها الدعاة والحكماء والفلاسفة في عددٍ من السنين، استطاع أن يطويها في لحظة واحدة، فقال: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧].

هنالك شعر سيدنا يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه الآن في موقف قوي، في موقف عال؛ كأنه طلع جبلاً، أو ربوة عالية، فقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]؟، وكان لو قدَّم هذا قبل ذلك الكلام، لكان كلاماً ثقيلاً على آذانهما وعلى قلوبهما، ولكن هنا استطاع أن يقول، وحقّ له أن يقول: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾.

لاحظوا هذا التقديم والتأخير، ولاحظوا هذا الترتيب القرآني، الترتيب الحكيم، وكان لو استمر في الكلام كان الكلام ممجوجاً، ولكنه شعر بقوة في نفسه، وشعر بحسن استماع منهم لما كان يقرأ في وجوههم أنهم تهيؤوا لاستماع هذا الصوت الذي يأتي من السماء؛ لأنه دعوة الله للعبيد عن طريق الأنبياء والمرسلين، فقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ أشعروا بالنبرة التي تختلفُ عن النبرة الأولى، كانت النبرة الأولى رقيقة لطيفة خفيفة، فجاءت هذه النبرة قوية، متدفقة بالحياة، متدفقة بالثقة، وكان ذلك من أقرب الطرق إلى فهمهم، أما لو استعان بأشياء منطقية وكلامية، لما كان لهم أن يفهموا منه ذلك.

* إعجاز قرآني عجيب:

ثم قال: ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [يوسف: ٤٠] إنها أسماء من غير مُسمَّيات، إنها أسماء لا حقيقة لها، أسماء عند اليونان، وأسماء عند البراهمة الوثنيين،

وأسماء عند غيرهم من أمثالهم ، إن الإعجاز القرآني يكمنُ في أنه أطلق عليه كلمة الأسماء. إن الذي قرأ تاريخ الديانات وتاريخ المثولوجيا ، يعرف إعجازَ هذه الآية ، إنه ليس هناك إلا أسماء محضة ، أين الآلهة؟ أين إله المطر؟ وإله الحرب؟ وأين إله الحب؟ وإله الجمال؟ أين هذه الآلهة؟ التي لا وجود لها إلا في الذهن ، وفي القائمة الخيالية؟ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ ، ولا تزال هذه الآية معجزة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وليست الوثنية إلا أسماء ، وقد فضح القرآنُ الوثنية بقوله: ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ .

*** طريقة الداعي الملهم:**

وهنالك شعر سيدنا يوسف بأن الفراغ الذي وُجد في قلوبهم قد ملىء ، وليس من الحكمة الآن أن يطيل الكلام ، ويتوسَّع في الحديث عن التوحيد ، والطبيب النطاسي يعرف مقدارَ الوجبة من الدواء ، ومدى صلاحية المريض وحاجته ، فلا يزيد عليها ، إنها طريقةُ الداعي الملهم ، الداعي المؤيد من الله ، إنه يشعر أنه قد وصل إلى نقطة لا يجوزُ له أن يتخطاها ، ولأجل ذلك فإن من يضع القوانين المحددة للدعوة أو التربية يجني عليها ، على إطلاقها وحريتها وحيويتها ، ويجني على الدعاة[١] .

وإلى اللقاء في عرض نموذج دعوة سيدنا موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

* * *

(١) اتفق العلامة الندوي أن يلقي محاضرة في ١٧/ ٤/ ١٤٠٠هـ ، في قاعة المحاضرات بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، وكان عنوانها «حكمة الدعوة وصفة الدعاة» ، جاء فيها حديث عن دعوة سيدنا يوسف ، وتفتحت له جوانب من الجمال والروعة البيانية في هذه القطعة ، فضمها العلامة الندوي إلى هذه المحاضرة التي سبقت محاضرة الجامعة الإسلامية بشهور عند تحرير هذه المجموعة ، إكمالاً للفائدة.

المحاضرة الرابعة

أمثلة من دعوة سيدنا موسى عليه السلام وحكمته النبوية

*** لوحة جميلة أخرى من الدعوة النبوية :**

نعرض عليكم اليوم لوحة جميلة أخرى من الدعوة النبوية ، دعوة سيدنا موسى ، الدعوة التي كلف بها ليبلغها إلى فرعون ، وهذه الصورة تختلف عن الصورة التي قدمناها قبل هذا ، وعن الصورة التي نقدّمها بعدها كذلك ، في ثلاثة جوانب ، تختلف هذه الصورة في طبيعة الدعوة ، وفي وضع الداعي ، وفي واقع المدعو إليه .

فهذه الدعوة التي قام بها سيدنا موسى ـ أو كلف بها على الأصح ـ تختلف في نفس الدعوة ، إنها لا تختلفُ عن دعوات الأنبياء الآخرين عليهم الصلاة والسلام في الأسس ، وفي الأهداف ، وفي الأجزاء الرئيسية ، الدعوة إلى الله ، والدعوة إلى التوحيد ، والدعوة إلى الإيمان بالبعث والنشر وبالحياة الآخرة ، والإيمان بصفات الله تعالى والحقائق الغيبية ، ولكنها تختلفُ في جانب واحد ، وهو أنَّ هذه الدعوة اقترنتْ بها مهمة أخرى اقترنت بها مهمة إنقاذ بني إسرائيل من عذاب فرعون ومن اضطهاده .

*** مهمة سيدنا موسى تختلف عن مهمة الأنبياء الآخرين عليهم الصلاة والسلام :**

إنَّ الأوضاع التي وُلد فيها سيدنا موسى ، وعاش فيها ، والأجواء

والملابسات التي اقترنت به ، جعلت مهمته تختلفُ عن مهمة الأنبياء الآخرين عليهم الصلاة والسلام أجمعين ، اختلافاً يسيراً ، وهو أنه كُلِّف أن يقول لفرعون كلمة صريحة أنه جبار ، وأنه تسلط على بني إسرائيل ، أولاد الأنبياء المؤمنين بالله ، والمؤمنين بعقيدة التوحيد وحدهم في ذلك العصر ، لم تكن القضيةُ قضية أمة من الأمم ، ولا قضية مجموعة بشرية من المجموعات الكثيرة التي كان يزخر بها العالم ، ولا تزال هذه المجموعات على وجه الأرض ، لو كانت القضية قضية أمة مضطهدة ، قضية أمة تسلّط عليها جبار سخر الأمة ليقضي مآربه ، وأخذها بالسخرة الظالمة ، والقسوة البالغة ، والاضطهاد الديني؛ لكان أمراً يسيراً ، فهذا يقعُ كثيراً ، وقع في كل فترة من فترات التاريخ ، وسيقع في كلِّ حقبة من أحقاب الزمان.

*** ميزة بني إسرائيل في معاصريهم :**

ولكن لم تكن القضية بهذه المكانة من البساطة والسهولة ، كانت هذه الأمة هي الأمة الوحيدة التي كانت تؤمنُ بالله إيماناً صحيحاً ـ على علاّتها ، وعلى ما كانت تُعاني من أدواء خُلُقية ودينية كذلك ـ ولكنها كانت هي البقية الباقية التي كانت تؤمن بالله إيماناً صحيحاً ، تؤمنُ بالتوحيد ، وهي الأمينة على عقيدة التوحيد ، فقد ثبت تاريخياً أن بني إسرائيل كانوا في كل فترة من فترات التاريخ ، على رغم أدوائهم الكثيرة ، ورغم انحطاطهم الخُلُقي والاجتماعي ، متمسِّكين بعقيدة التوحيد ، وقد أتى على الناس حينٌ من الدهر لم يكنْ لعقيدة التوحيد وجود إلا في اليهود؟ ولذلك عدَّ المفسرون أشرفية السلالة الإسرائيلية بكونهم محافظين على عقيدة التوحيد في الظلام السائد على العالم من الشرك والوثنية(١).

لم تكن القضية أن بني إسرائيل وقعوا تحت سنابك خيل فرعون وجنوده ، ووقعوا تحت رحمته وهو قاسٍ جبار ، بل إن القضية أن بني إسرائيل كانوا حاملين لعقيدة التوحيد ، وحاملين للإثارة للنبوات السابقة ،

---

(١) فإن الله يؤكد هذا المعنى ، ويكرر فيقول : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ٤٧].

كانت عندهم الأمانة العزيزة ، البقية من تعاليم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

*** ألقيت على عاتقه عليه السلام مهمتان:**

فسيدنا موسى يختلف عن الأنبياء الآخرين؛ لأنه ألقيت على عاتقه مهمتان: مهمة دعوة فرعون إلى الله الواحد القهار الذي لا شريك له في الملك ، ولا في التشريع ، ولا في أي شيء ، ومهمة أخرى وهو أن يدعوَ فرعون إلى أن يترك بني إسرائيل وشأنهم ، ويفكّ أسرى بني إسرائيل ، فقد جاء في القرآن صريحاً: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [طه: ٤٧].

هذا هو الجانبُ الذي يميز دعوة موسى عن دعوة الأنبياء الآخرين ، وكان موقفاً حرجاً ، لماذا؟ لأن لسيدنا موسى قصة ، قصة فريدة ، وحياته حياة من طراز آخر.

*** أراد فرعون ألا يولد مولود عادي في بني إسرائيل ، وأراد الله أن يولد أكبر مولود:**

إنه وُلد في جو قاتم خانق قاتل ، إن فرعون وجه تعليماته إلى «قسم المخابرات» كما تقول المصطلحات الحالية ، إلى شرطته ألا يدع أحداً يُولد في بني إسرائيل ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤].

إن فرعون قد خطَّط تخطيطاً دقيقاً ، تخطيط الحكومات المنظَّمة ألا يولد في بني إسرائيل مولود جديد ، وينقرض جيل بني إسرائيل ليتخلص منهم تماماً ، وتبقى طبقة النساء ، يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم.

إنه قرر كملك صاحب حول وطول ، وأراد ألا يولد أيّ مولود عادي ، وأراد الله أن يولد أكبر مولود ، وأرهب مولود ، أراد أن ينجو ، وأن يتفادى ، وأن يستريح من مولود يشكل خطراً على حكمه ، وخطراً على مشاريعه ، وخطراً على مخططاته ، ولكن الله سبحانه وتعالى خيَّب مخططه؛ لأنه أمر أن يُولد موسى الذي كان يذبح له الأطفال ، إنما كانوا

يقتلون الأبناء في حساب موسى ، ولكن المولود الذي كان فرعون يخشاه ، وكان يرصد له ، ولد ، ثم أراد ألا يعيش فعاش ، وأراد ألا ينشأ فنشأ ، وأراد ألا يشب فشب ، وكيف عاش وكيف نشأ ، هذا من عجائب التاريخ الإنساني ، ومن معجزات قدرة الله تبارك وتعالى ، إنه نشأ في أحضان ألدّ عدو ، وفي حجر أعدى عدو يُوجَد على وَجْه الأرض .

*** خارق للعادة:**

تستحضرون هذا الجو الذي كان جواً خارقاً للعادة ، وكل شيء فيه خارق للعادة ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : ٨ ـ ١٣] .

ثم خرج من غير استئذان ، وكان منه من قتل القبطي ـ أحد أعضاء الأسرة الحاكمة ، أو الشعب الحاكم ـ ما حكاه القرآن ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص : ١٥] .

هذا من معجزات الإيمان ، ومن معجزات القدرة الإلهية ، ومن الآيات البينات ، إن الله يكل هذه المهمة إلى فرد موقفه أضعف من كل فرد من أفراد بني إسرائيل .

*** محنة لقوة النفس وقوة الإيمان:**

الشيء الثاني : أن سيدنا موسى الذي حكى القرآنُ قصَّته في سورة القصص في تفصيل أكثر ، وفي سور أخرى تارة بإجمال ، وتارة بتفصيل ،

هذا الذي يُؤمر بالدعوة ، وفي كل منهما محنة عظيمة للإيمان ، ومحنة التوكل على الله ، ومحنة لقوة النفس ولقوة الإيمان ، محنة المطالبة بحرية بني إسرائيل ، فهذا الشيء الذي يجعل سيدنا موسى عنده شيء من الارتباك ؛ لذلك يقول القرآن على لسانه في سورة الشعراء : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء : ١٤] وهو الذي أشار إليه فرعون بقوله : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩] فهذا يجعل سيدنا موسىٰ مرتبكاً بعض الارتباك ، ومتردداً بعض التردد ، عندما أكرم وأمر بأداء هاتين المهمتين ، وتبليغ هاتين الرسالتين ، ولكنه سبحانه وتعالى كان أعلم بأن موسى هو الرجل المهيأ ، والرجل المختار لهذه الدعوة .

والآن تأتي أمامنا قطعة من القرآن فيها امتحان لسيدنا موسى كنبيّ ملهم ، وكداعٍ حكيم ، يجمعُ بين الغيرة على هذه الدعوة وبين الفقه الدقيق العميق لها ، ولابُدَّ أن يكونَ النبيُّ هو الأسوة ، والمثل الكامل في منهاج الدعوة ، هذه هي النقطةُ الدقيقةُ الحاسمة بين الدعاة المقيضين المهيئين للدعوة ، المؤيدين من الله ، وبين الدعاة المحترفين المصطنعين ، المتكلفين المتملِّقين ، المجاملين الذين يسمُّون أنفسهم «واقعيين» .

*** أحبُّ عباد الله إلى أبغض عباد الله :**

فأولاً يجب أن نلاحظَ أن الله سبحانه وتعالى يرسل سيدنا موسى الذي هو حبيبه وصفيه إلى رجل هو أكبر عدوّ له ، يعني هنالك نسبة المضادة ، نسبة التفاوت العظيم الذي لا يقومُ بين رجلين عاديين ، إنما يقومُ بين رجلين هما على طرفي النقيض ، أحبّ عباد الله إلى أبغض عباد الله ، أعظم الرسل في عصره ، يرسلُ إلى إنسان قد تحدَّى القدرة الإلهية ، وقد تحدَّى الكبرياء الإلهية ، وقد جاء في الحديث القدسي : «الكبرياء ردائي ، ومن نازعني ردائي قصمته» ، وقد بلغ من التحدي ومن الوقاحة ، ومن الجراءة على الله آخر نقطة ، ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] فيرسل الرسول الذي يكرم بالرسالة ، يكرم بالاصطفاء ، وبالكلام ، وبالمناجاة مع الله تبارك وتعالى ، يرسله إلى أكبر عدوّ اقترف أكبر ذنب ، ثم قد ضمَّ إلى ذلك أنه ادعى

الألوهية: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] فيرسل الله تبارك وتعالى مثل هذا الرسول الكريم إلى هذا العدو البغيض الرجيم، ولكن ماذا يقول له: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] بعد ذلك لا يمكن أن يتعلل إنسان، ويقول: إني أغلظتُ لفلان القول؛ لأنه كان كذا وكذا، لأنه ما يمكن لإنسان أن يبلغَ إلى هذا المدى من الوقاحة، ومن الصلف، ومن الكبرياء، ومن التحدي لقدرة الله تبارك وتعالى وجبروته، وملكه، فيقول: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥].

قد كان في موقفه ضعف، وحرج، ودقة؛ لذلك قال الله تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٦ ـ ٥٠].

* **السهم المسموم من كنانة فرعون:**

تفتقت قريحةُ فرعون الشيطانية، وأخذ من كنانته سهماً مسموماً، هو السهمُ الذي لا يطيش، السهمُ الذي لو أطلق على أي واحد من الدعاة الأذكياء الحاذقين؛ الذين درسوا فلسفة الدعوة، ودرسوا علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الجدل والمخاصمة، تحقّق له الفشل الذريع، قال: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١] هذا من ذكاء فرعون الشيطاني، فإنه أراد أن يحركَ غضب ندمائه الذين كانوا جالسين، أراد أن يتخلّص، وأن يصيدَ بهذا السهم الواحد صيدين، أولاً: أراد أن يشغله عن الدعوة إلى التوحيد، لأن أخوف ما يخافه هو التوحيد؛ الذي يحرك السواكن من القلوب، ويحرك الإيمان الدقيق الكامن في قرارة نفوس هؤلاء؛ لأنهم كانوا بشراً، وكانوا بني آدم، وكان فيهم أصحاب عقول وضمائر، فكان يمكنُ أن يحرك هذا، فأراد أولاً أن يشغل عن هذه النقطة الحساسة التي كانت من أبغض النقط إلى فرعون، وكان من أوحش الناس لها، ثم أراد أن

يأخذ في جواره هؤلاء الذين كانوا جالسين حوله؛ لأنه بقي وحده، وكان مخاطباً وحده، فأراد أن يكسب ودّهم، ويثير حميتهم الجاهلية، فأثار موضوعاً شديد الحساسية بالنسبة لهؤلاء المتكبرين، ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ هنالك احتمالان، إما ألا يحابي موسى ولا يجامل، ويقول: هم في جهنم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، فماذا تكون العاقبة، هؤلاء تثور فيهم حمية الجاهلية، ويشيطون غضباً، وعلى الأقل أنهم لا يسمعون لموسى كلاماً، إما ينفضون من هناك، وإما يبطشون بسيدنا موسى ـ أكرمه الله وعصمه ـ وإما أن يحدثوا صخباً وغوغاء، ماذا تقول يا موسى؟ قد أهنت آباءنا، وجرحت شعورنا.

*** السر الكامن والإعجاز الكامل:**

وهنالك احتمال آخر، وهو أن يسكتَ موسى أو يجامل آباءهم، فيقول: نحن نحترمهم، وأنهم كانوا على علم كبير، أشياء من المجاملة، فكان لا بُدَّ أن يتمسك فرعون بهذا، ويتشبث به، ويقول: إذا كانوا يستحقُّون الاحترام، وإذا كانوا أجلاء، فإنهم كانوا على عقيدتي، ولكن ماذا قال موسى؟ ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥١ ـ ٥٢] ثم تخلَّص من هذا إلى ما كان يقوله مثل: «الحديث بالحديث يذكر»، كان يمكن أن يقول: علمها في التاريخ، ولكن إذا قال التاريخ المجرد، أو في قصص الأولين لتحول الموقف، وصار فرعون يخطب ويتكلم، واحتجّ بالتاريخ المؤلف المختلق في عصره، والمدروس في مدارسه، ولكنه قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ﴾ تلاحظون التعبير الدقيق، وتخير الكلمات، هنا السر الكامن، والإعجاز الكامل، كان هنالك ألف تعبير، ويستطيع كلُّ واحد منا إذا واجه هذا الموقف، أو وقع في مثل هذه المحنة أن يتخلص منها بألف تعبير؛ خلّ هذا الذكر، اترك هذا الحديث، هذا في قصص الغابرين، هذا في حديث الأولين.

*** التمسك بالدعوة ، وعدم الحياد عنها :**

ولكن موسى لم يترك سبيلَ الدعوة ، ولم يترك الخيط الذي كان متمسّكاً به ، بل انتقل بسرعة لا تتصوَّر سرعة أكثر منها ، وببلاغة لا تتصور بلاغة أبلغ منها ، وبحكمة لا تتصور حكمة أقوى وأدق منها ، بكلمة واحدة: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ ولم يرد أن تطول هذه العبارة؛ لأنه إذا طول هذه العبارة انتهز فرعون الفرصة ، واقتحم المعركة ، ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ وصل بها إلى ما كان عليه ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ ثم استمر ، وبدأ يذكر صفات الله التي كان يتهرب منها فرعون ، وهذا الذي كان فرعون يحبُّ أن يتخلَّص منه ، والله هناك تأخذ الإنسان هزة وطرب أدبي ، وطرب عقلي ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٢ ـ ٥٤].

*** مراوغة[1] فكرية من فرعون واستقامة موسى ونجاحه فيها:**

والمثل الثاني ترونه في سورة الشعراء ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٧] هنالك مراوغة فكرية ، بلاغية دعوية ، كيف يحاول فرعون أن يتخلص وأن يغطي هذا الموقف ، يغطيه بسياسته وبلباقته وبتجاربه ، فيريد أن ينتقل من موضوع إلى موضوع ، وموسى عليه السلام يأبى إلا أن يواصلَ هذا الموضوع ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وكان فرعون يتوقَّع أن موسى عليه الصلاة والسلام يقول كلمة ، ثم

(١) المراوغة: قد تطلق في معنى المخادعة المذمومة ، والمقصود هنا التنقل جيئة وذهاباً من مكان إلى مكان ، والقيام بحركة مفاجئة في اتجاه جديد ، كما يفعل اللاعب الماهر مع منافسه ، وأقرب كلمة إليه في اللغة الإنجليزية (Dodge).

تجري المناقشة ، لكن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام اختار الشيء الذي يضرب على الوتر الحساس ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ «ما بينهما» معنى ذلك : أن عرش فرعون قائم على غير قوائم ، لم ينطق موسى عليه السلام : ولم يكتف بقوله : ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ ولكنه قال ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ تحداه كذلك ، ووضع الأصبع على موضع الداء ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ .

*** فرعون يطلق السهم الوحيد في كِنانته :**

هنالك أطلق فرعون نفسَ السهم الذي أطلقه في الموقف الأول ، الموقف واحد ، ولكن القرآن يتنوع بحكايته ، ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ يعني ألا تثورون ، ألا تغضبون؟ ألا تقومون للدفاع عني؟ أفقدتم الأنفة والشعور بالغيرة؟ ألا تستمعون؟ وقبل أن يتكلم هؤلاء ، أو يحركوا ساكنهم ، قال : ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هنالك كذلك حاول فرعون مرة ثانية أن يتخلص من هذا الموقف الحرج ، ومن هذه الأزمة التي واجهته ، فقال : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ وهنالك رجا فرعون أن موسى يدافع عن نفسه ، يقول : لست مجنوناً ، هذا كان متوقعاً عن صاحب عقل ، وقد أثبت ذكاءه ، وسلامة ذهنه؛ في مناسبات كثيرة .

*** آخر سهم في كبد فرعون :**

فعرف فرعون موضعَ الداء في النفس الإنسانية ، أنَّ الإنسان إذا أُهين ، أو أن الإنسانَ إذا انتقد أنّه ينسى كل شيء ، ويدافع عن نفسه كأني به أسمع وأرى ، كان يتوقع أن موسى ينسى دعوته ، وينسى كل شيء ، ويقول : من يقول أنا مجنون؟ اطلبوا الأطباء يفحصون عني فحصاً طبياً ، ويقدِّموا إليك تقريرهم ، فكان هذا رجاء فرعون في قوله : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ .

ولكن موسى أجابه بقوله : ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء : ٢٨] ، لم يدافع عن نفسه ، ولم يقل أي كلمة في الدفاع عن نفسه ، إنه كان مرسلاً من الله تبارك وتعالى ، مكلفاً بالدعوة ، فقضية

الجنون والعقل هذه قضايا بالنسبة إلى هذه الدعوة الكريمة الجليلة ، قضايا لا قيمة لها في المجتمع الذي يسودُ فيه الشرك ، في المجتمع الذي تسود فيه الوثنية ، في المجتمع الذي تشيعُ فيه الجنايات والجرائم ، في المجتمع الذي تهتكُ فيه الأعراض ، في المجتمع الذي يقتلُ فيه الأبرياء ويُقتل الأطفال ، ما أهمية الجنون؟ إنه تناسي هذه التهمة ، وقال: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ هذا آخرُ سهم في كبد فرعون؛ لأنه كان يعتقدُ أنه ربّ المشرق والمغرب في مصر ، وكان يعتقد أن العالم في مصر ، وكان يعتبر أن الذي يملكُ مصر ، ويحكم مصر فهو ربُّ العالم ، فلما قال ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ إنه حطم البناء الذي قامت عليه دعوى فرعون ، وقام عليه عرشُ فرعون ، وحكمه .

هذا مثالٌ من أمثلة الدعوات النبوية وحكمتهم ، وهذه الصورةُ الثانية تختلفُ في الدعوة والداعي والمدعو إليه ، الدعوة هي دعوة معقدة دقيقة ، والداعي موقفه دقيق وحرج ، والمدعو إليه أكبر ملك؛ لذلك هذه الصورة تستحقُّ الاهتمام منا ، وتستحق الدراسة ، وتستحق التأمل الدقيق ، واستيحاء الحكم ، والنتائج العميقة ، والبعيدة المدى ، من هذا النموذج الذي عرضه القرآن في حكاية سيدنا موسى ، وفي حكاية دعوته .

* * *

المحاضرة الخامسة

موسى عليه السلام مع قومه «بني إسرائيل»

*** الحرب الداخلية قد تكون أشد خطراً من الحرب الخارجية:**

كان الحديثُ عن موقف سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام في الدعوة أمام فرعون ، الملك الجبار ، فكيف كان موقفُه أمام قومه بني إسرائيل؟ فإن الحربَ الداخلية قد تكون أشدَّ خطراً ، وأكثر دقة من الحرب الخارجية: إنَّ الحربَ بين رجلٍ ومنافسه الذي لا يتَّصلُ به بنسبٍ وبعقيدة ، قد تكون أهون من الحرب التي تكونُ بين الرجل وأهل بيته ، بين الرجل وعشيرته ، بين الرجل وبني جلدته ، الذين يلتفتون معه على نسب أو دم ، أو وطن أو جنس ، فكيف كانت مواقفُ موسى عليه الصلاة والسلام أمام قومه؟

*** أربعة مواقف واضحة حاسمة لسيدنا موسى مع قومه:**

وإجابة عن السؤال الوجيه نقول: إننا إذا تأمَّلنا في القرآن الكريم ، وجدنا لسيدنا موسى أربعة مواقف واضحة حاسمة مع قومه ، ونريد أنْ نصلَ بذلك إلى نتائج ذات قيمة في منهج الدعوة ، وفي موقف الدعاة ، كيف يجبُ أن يكون موقفهم مع أحب الناس ، ومع أقرب الناس إليهم ، ونتلقى منهم درساً خاصاً ، هو أنَّ موقفَ الداعي أمام قومه ، أو أمام أعدائه أو أمام أقرب الناس إليه ، يكون دائماً موقف الداعي ، يعني: أن طابع الدعوة يغلبُ على هذا الموقف ، مهما تنوَّع هذا الموقفُ في الطبيعة ، ومهما اختلفت المناسبات ، ولكنه دائماً هو الداعي ، وهو يتكلَّم بلغة الدعوة ، ويرمي إلى الدعوة ، ويضرب على الوتر الحسَّاس ، ويقصد من كلِّ ذلك

غرس الدعوة في نفوسهم ، وتهيئة النفوس لقبول هذه الدعوة ، ونبذ كلّ ما عارض الدعوة ، وأضرَّ بها ، أو جنى عليها ، إنَّ مهمة سيدنا موسى تختلف باختلاف البيئة ، وباختلاف الظروف المحيطة ، وباختلاف المجتمع والجو الذي ولد فيه وعاش .

* موقف نبيّ داع لا موقف زعيم سياسي :

إنَّ مهمة سيدنا موسى التي طالب فيها فرعون ـ بأمر من الله ـ بإطلاق حرية بني إسرائيل ، فيها شيء من الالتباس ، وهو الذي أريد أن أنبهكم عليه . إنَّ كل من وقف هذا الموقف تغلب عليه الحمية السياسية ، وتثور فيه الحمية القومية ، ويخاطب بلسان السياسة أو بلسان «الحقوق» أو بلسان الاحتجاج ، شعب مستعبد مضطهد بأسوأ معاني الكلمة ، ولا قول أبلغ من قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٤٩] وقول الله تعالى في سورة القصص : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] .

إن كل من كان شأنه هذا ، ويقف مدافعاً عن قوم ، ويريد أن يحررهم ، ويتحدى القوة المتغطرسة الظالمة التي قهرته ، وداست كرامته ، وأهانته في أعز الأشياء عنده ، إن شأنه أن تتغلب عليه النفسية القومية ، ويخاطب بلسان السياسة ، وبلسان المطالبة بالحقوق ، والمطالبة بالحقوق لها لغة خاصة ، ولها تعبيرات خاصة .

ولكن الشيء الذي أريد أن ألفت نظركم إليه ؛ أن موسى عليه السلام ، شأن جميع إخوته الأنبياء والمرسلين ، كان نبياً مرسلاً ، والذي اصطفاه الله تبارك وتعالى لكلامه ، وكان داعياً إلى الله ، وإلى الإيمان والعقيدة قبل كل شيء ، فأريد أن تلاحظوا ، وتتأملوا في الآيات التي سأقرؤها عليكم ، كيف استطاع سيدنا موسى ، وكيف أعانه الله تبارك وتعالى على ألا يرجح كفة الاحتجاج ، وكفة المطالبة بالحقوق ، أو كفة الغضب والحمية القومية

على كفة الدعوة ، ففي مثل هذه المناسبات الحساسة الدقيقة ، ينسى الإنسان كلَّ شيء ، وتثور فيه الحمية الجاهلية ، وتتغلب عليه النزعة القومية ، ويتكلم بلسان القوميين السياسيين ، ولكن كيف أن الله تبارك وتعالى أعان سيدنا موسى على ألا يدع هذه النزعة تغلب الإيمان القوي ، ودعوة فرعون إلى الله ، وبيان الحقائق الدينية ، وسنة الله تبارك وتعالى في خلقه ، وسنة الله تعالى في الأمم والأجيال ، وفي الخلق ، الآن نتلو عليكم الآيات .

*** أرادوا أن يصيدوا عصفورين بسهم واحد :**

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٧] .

أرادوا أن يصيدوا عصفورين بسهم واحد ، عصفور فرعون ـ إذا صح أن يسمَّى عصفوراً ـ وعصفور قومه ، قالوا لفرعون الكلمة التي كانت تثير فرعون وتهيجه ، هو قولهم : ﴿ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، وأما الكلمة التي كانت تثير عباد العجل ، وعباد الأصنام فقولهم : ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ جمعوا في هذه الكلمة بين الجانبين ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ .

*** الروح النبوية تتجلَّى في أروع مظاهرها :**

في مثل هذه المناسبة الرهيبة ، وفي هذا المقام الذي تثور في الإنسان الحمية والنخوة ، لم ينسَ موسى منهج الكلام الذي التزمه دائماً ، والرسالة التي كان يحملها ، وهنا تتجلَّى الروح النبوية في أروع مظاهرها ، تصوَّروا لو وقف هذا الموقف أي واحد من الدعاة وأي واحد من العلماء ، لخاطب فرعون وقومه بدل أن يخاطب قومه ، ولكن موسى خاطب قومه؛ لأنهم هم المخاطبون الأولون، وعليهم الاعتماد ، وبهم يبدل الله تبارك وتعالى الوضع .

*** موقف الداعي المستقيم الذي هيأه الله لأمر عظيم :**

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ

﴿عِبَادِهِۦ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]. قال موسى: استعينوا بالله، ما قال: اعتمدوا على العدد الكثير الذي تتمتعون به، اعتمدوا على ما أكرمكم الله به من الذكاء والمواهب الأصيلة؛ لأن بني إسرائيل معروفون بالذكاء من قديم الزمان، وفي المواهب الفطرية.

إن موسى عليه الصلاة والسلام لم يتعرض لشيء مما كان يمتاز به بنو إسرائيل، ولا شك أن بني إسرائيل كانوا يمتازون بالشيء الكثير، وكان موسى من أدرى الناس به، ولكنه أبداً لم يلجأ إلى أي شيء، ماذا قال؟ كأنه كان واقفاً على منبر في مسجد من المساجد، فيقول: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ هذا موقف المدعي الأمين، الداعي المستقيم، الداعي الذي هيأه الله لهذا الأمر العظيم، هنا الدعوة إلى الله، هنا الدعوة إلى التوكل، هنا الدعوة إلى تفويض الأمور إلى الله تبارك وتعالى، هنا الدعوة إلى الصُّمود، وإلى الثبات أمام تهديدات فرعون؛ التي جاءت في قوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ ليست هذه الأفعال هي الأفعال المؤقتة، بل إنا فوقهم قاهرون؛ بشكل دائم، بشكل ثابت، قال موسى لقومه ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ﴾ الكلمة كان لها وقع، وكان لها تأثير خاص إذا قيلت أمام فرعون، قال موسى لقومه: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ﴾ ليست لفرعون، ولا لبني إسرائيل، إذا كان موسى زعيم أمة أو شعب، أو قائداً قومياً، كان له أن يقول: إن الأرض لنا، إن الأرض لبني إسرائيل، هذه اللغة التي يحسنها وحدها القوميون، إنَّ الأرض ليست للإنجليز، إنما هي لأهل الهند، مصر لأهل مصر، سورية لأهل سورية، إنكلترا لأهل إنكلترا، أمريكا لأهل أمريكا، يقول أمام فرعون: الأرض لله، ولا يقول إنها أرض الآباء، مع أنهم سكنوها منذ قرون، ولهم حق عليها، وهم «بلديون» مواطنون ما لهم حقوق، كما كانت للأقباط وللأسرة الحاكمة، قال موسى لقومه ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ﴾، وإذا عرفتم، واطمأننتم أنكم إذا ورثتم هذه الأرض، وخرج فرعون، إنكم ستملكونها إلى آخر الأبد، إن هذا خلاف لسنَّة الله تبارك

وتعالى ، ومنافٍ لعدله ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني: هذه الأرض ليست ملكاً لأحد ، ولا يستطيع شعب أن يحتكرها ، وأن يتملكها تملكاً دائماً ، ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ كما جاء في سورة يونس: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤].

* الشيء الذي يفتت الكبد ، ويقطع القلب:

والشيء الثاني الذي هو أدق عندي حين أقبل عليه قومه بنو إسرائيل ، وقالوا: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [الأعراف: ١٢٩] هذا كان أشد وأنكى من قول فرعون: ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ لم تكن لهذه الكلمة شدة وثقل على موسى مثل ما كان لقولهم هذا؛ لأن موسى عليه الصلاة والسلام بعث لينقذ بني إسرائيل ، ويهديهم إلى الله تبارك وتعالى ، ويخلصهم من هذا العذاب المهين ، ولكنهم كيف كان موقفهم من هذه النعمة ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ ، وكان ذلك كما حكاه القرآن في سورة يس: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ [يس: ١٨] يعني: كنت شؤماً علينا ، الشيء الذي يفتت الكبد ، ويقطع القلب ، وهو أن القوم الذين يجاهد الإنسان في سبيلهم ، ويتنازل عن كل شيء ، ويجازف بحياته ، يعاملونه بالنكر والكفران ، وجحود النعمة ، إنهم إذا لم يشكروا هذه النعمة ويقدروها ، وكان الأفضل لهم أن يسكتوا ، ولكن ماذا قالوا: ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ معنى ذلك أنهم يتشاءمون بميلاد سيدنا موسى ، ويقولون: كنت سبب شقوتنا وبلائنا من قبل أن ترد إلينا ، وكنت سبب شقوتنا وبلائنا بعد ما جئتنا ، ونحن في عذاب مستمر.

* الداعي داع في كل شيء:

فماذا كان جوابُ موسى؟ هنا موقف آخر من مواقف الداعي المختار الملهم ، لم يغضب موسى ولم ينفعل ، كأنه لم يسمع هذه الكلمة ، الكلمة الخسيسة التي صدرت من أفواههم ، وتلقى هذا الكلام الموجع بسكينة

الأنبياء ووقارهم ، قال: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

الداعي داع في كل شيء حتى أن لو قلت: إنه في طعامه وشرابه داع ، وفي بيته ومع أهله وبين أبنائه داع ، وفي أفراحه داع ، وفي أحزانه داع؛ لكنت صادقاً ، وهكذا نرى في سيرة الرسول ﷺ أنه كان داعياً في كل شيء ، في كل حركة وسكون ، كأنه يقول ذلك باسماً ، متهلل الوجه ، لم تغيره هذه الكلمة الكنود ، التي صدرت من بني إسرائيل ، فقال: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ولكن لا تغرنكم أنفسكم مرة ثانية ، ولا تخدعكم نفوسكم ، فأكملها بقوله: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ لا أن تتمتعوا بخيراتها كما تتمتَّع الأقباط ، كما يتمتع فرعون وملؤه ، لا ، ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وهنا الشاهد في هذه الآية: كيف يكون موقف الداعي ، كيف تسيطر الدعوة على كل كلمة ، تصدر من لسانه ، وعلى كل عمل يصدر من أعضائه وجوارحه.

*** أراد موسى شيئاً ، وأراد الله شيئاً:**

والموقف الثاني: موقف دقيق ، وموقف حرج ، هو الموقف الذي لما خرج سيدنا موسى ببني إسرائيل؛ لينجو بهم من أرض العذاب ، ومن أرض الذل والهوان ، ومن أرض السّخرة الظالمة ، والاضطهاد الفظيع ، إلى برِّ السلام ، وإلىٰ شبه جزيرة سيناء؛ التي كانت خارجة عن إمبراطورية فرعون ، فلما خرج موسى بهم ، وقد أراد الله تبارك وتعالى شيئاً ، وأراد موسى شيئاً ، وأراد بنو إسرائيل شيئاً ، وأراد موسى أن ينجو ببني إسرائيل ، وأراد الله تبارك وتعالى أن يغرق فرعون وجيشه.

قطع موسى طريقَه في ظلام الليل ، فكان هناك قطعة صغيرة كانت تصل بين شبه جزيرة العرب وبرّ إفريقية ، أو الحلقة البرية التي كانت تربط بين قارة إفريقية وقارة آسيا ، وأولها شبه جزيرة سيناء ، ولكن موسى أخطأ الطريق في ظلام الليل ، ولم يكن هذا الخطأ من المصادفات ، بل كان من المقررات ، كان من المدبرات التي دبرها الله تعالى ، فهنا أخطأ موسى الطريق ، وتوجه إلى البحر بدل أن يتوجَّه إلى البر ، وكان الطريق قصيراً ، ولكنه أخطأ في الليل ، ولما أصبح وأسفر الصباح فوجيء بأن البحر أمامه وجيش فرعون وراءه ، قالوا : ما لنا حيلة ، وصاروا يشكون ، وصاروا يسيئون الظن بموسى على عادتهم ، فقالوا : أنت احتلت لتأتي بنا إلى هذا المكان لنقع في شبكة فرعون ، ماذا كان غرضك؟ لماذا جئت بنا إلى هنا؟ إنما جئتَ بنا إلى هنا لكي نكون فريسة فرعون وجيشه ، واللقمة السائغة لهذا الطاغية ، البحر أمامنا والجيش وراءنا ، ماذا نعمل هنا؟ وهنا ينجلي موقف الداعي ، فقد جاء في سورة الشعراء : ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : ٦١] ماذا يكون جواب السياسيين القوميين في هذه الحالة؟ لا بد أن يقولوا : نحن قد وضعنا مخططاً دقيقاً مدروساً من قبل ، قد وضعنا مشروعاً كفيلاً بالنجاح ، ونحن على هدى ، ونحن على بصيرة ، وأنا مستيقظ ، وأنا متأكد بأننا سنصلُ إلى البر بسلام .

*** كلا إن معي ربي سيهدين :**

ولكن ماذا كان جواب موسى الأمين والمؤمن العليم ، قال : ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦٢] .

قال ذلك بكل ثقة واعتزاز ، وبكل طمأنينة وإيمان ، وكل كلمة في هذه الآية عامرة بالإيمان ، دافقة بالثقة ، ناطقة بالتوكل على الله ، والاعتماد على قدرته ، وعلى أن هذا الإسراء كان بأمر من الله وهو العزيز الرحيم ، الرب الكريم الذي لا يخدع عبده ، ولا يخلف وعده ، إذاً فلا خوف من البحر الزاخر ، ولا خطر من العدو القاهر .

ومثل هذا لا يتوقع ، ولا يعقل من ملك كريم ، ومن أب رحيم ، بل من إنسان ذي مروءة وشرف ، فكيف يتوقع ويخشى من إله هو أكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين .

إن موسى ـ على جلال الموقف ، ودقة الوضع ـ لم يساوره خوفٌ ولم يخامره شك ، لأنه كان يعرفُ ـ وهو النبيُّ المرسل ـ أن الله الذي أمره بالإسراء ببني إسرائيل ، هو غالبٌ على أمره ، لم يفلت منه زمام الكون حتى يفاجئه أمر لا يمكن التغلُب عليه ، إذاً فلا مجال للشك ، ولا محل للخوف ، فقال في قوة وحماس : ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ .

قارن بين هذه القصة التي حكاها القرآنُ عن سيدنا موسى وبين ما حكاه القرآنُ نفسه عن خاتم الرسل سيدنا محمد ﷺ ، وهو قوله تعالى ﴿ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] واقرؤوا في شرحها ، واستعراض الواقع الدقيق ما جاء في الجامع الصحيح للبخاري(١) ، وفي كتب السيرة ، فقد جاء فيها : «بينما هما (رسول الله ﷺ ورفيقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه) في الغار(٢) ، إذ رأى أبو بكر آثار المشركين ، فقال : يا رسول الله ، لو أنَّ أحدهم رفع قدمه رآنا ، قال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟! واستشعروا الشبه العجيب بين نبيين عظيمين ، فرق بينهما المكان والزمان والبيئة والملابسات ، ولكن جمعت بينهما النبوة والإيمان القوي الوثيق؛ الذي هو سرُّ إيمان ملايين من البشرية ، ومعرفتهما لقدرة الله تعالى ورحمته وحكمته ، معرفته يمتاز بها الأنبياء ، ولا يصل إلى قمتها الفلاسفة والحكماء ، وكبار العلماء والعقلاء ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

* لماذا كان؟

اقرؤوا قول الله تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ

---

(١) باب قوله تعالى : ﴿ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ كتاب : التفسير .
(٢) غار ثور .

فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٣ ـ ٦٨].

* * *

المحاضرة السادسة

دعوة مؤمن ما زال يكتم إيمانه
نموذج لدعوة غير نبي

*** دعوة مؤمن ما زال يكتم إيمانه:**

كان الأولى والأجمل أن نصلَ الحديث عن سيد الدعاة ، وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ بالحديث عن الأنبياء السابقين مثل سيدنا إبراهيم ، وسيدنا يوسف ، وسيدنا موسى الذي تحدثنا به بالأمس ، ولكن أريدُ أن أجعلَ الحديثَ العبق العطر عن سيد الدعاة ﷺ؛ وعن دعوته التي هي بمثابة سيدة الدعوات مسك الختام ، ونجعل هذه النقطة هي نهاية المطاف في هذا الطواف العلمي الدعوي القرآني .

ونقدم الحديث عن مؤمن من آل فرعون ، وقد قلتُ لكم إن القرآن الكريم لو اقتصر على الحديث عن الأنبياء والمرسلين صلى الله عليهم أجمعين ، لكان لقائل أن يقول: هم طراز خاص ، هم غرس الله تبارك وتعالى ، ومهبط الوحي ، ومدرسة النبوة ، قد هيأ قلوبهم ونفوسهم حتى ألسنتهم للقيام بأعباء الدعوة ، فكيف نقيس أنفسنا عليهم؟ إن هذا لا يشجعُ على البدء بالدعوة في مجتمعنا؛ لأن الأمثلة التي ضربها القرآن للدعوة إلى الله إنما تدور حول هؤلاء الأنبياء فقط .

هنالك رأيت أن أضمَّ إلى الحديث عن الأنبياء السابقين ، حديثاً عن رجلٍ شرح اللهُ صدره للإيمان ، وهداه للإسلام عن طريق نبي عصره ، وهو سيدنا موسى وهذا هو مؤمن من آل فرعون الذي يتحدث عنه القرآن ، وأتلو

عليكم أولاً هذه الآيات التي تتصل بهذا الرجل ، وبدعوته :

يقول الله تبارك وتعالى حكاية عن فرعون : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : ٢٦ ـ ٣٥] .

*** حوار في منتهى البلاغة والحكمة ، ومعرفة مداخل النفس :**

هذا هو الحوار الذي دار بين فرعون وبين مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، وهو حوارٌ في منتهى البلاغة والحكمة ومعرفة مداخل النفس ، وهو مثال بليغ الحوار يدور بين ملك كبير وملأ قومه ، وبين هذا الرجل الذي اهتدى وآمن بالله .

وإني كلما قرأت هذا الحوار في هذه الآيات ، ملكتني روعةُ بيانه ، ووقفت أمام هذا الحوار خاشعاً مقدراً ، متذوقاً لهذه الحكمة البليغة ، ولهذا الذوق الرفيع ، ولهذه المعرفة الدقيقة بمكامن النفس ومداخلها والعمل بقول الله تعالى : ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾ [البقرة : ١٨٩] .

رجل لا نعرف عنه شيئاً ، ماذا كان مستوى ثقافته؟ وأين نشأ وتربى؟

وكيف تلقى هذه الدروس؟ وكيف وصل إلى هذه الذروة من الحكمة والبلاغة؟ ولكنه الإيمان الذي يصنع العجائب ، الإيمان الذي يجعلُ من الأبكم ناطقاً ، ومن الأصم سامعاً ، ومن المشلول ماشياً بل ساعياً ، ومن الأعزل محارباً.

* «الاستراتيجية» : الحاكمية الملكية :

قال فرعون : ﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ وهذه هي الاستراتيجية الحاكمة الملكية التي استخدمها جميع الملوك والقادة السياسيون؛ لاستفزاز النخوة في النفس الإنسانية ، وقد جمع ذلك بين النقطتين ، نقطة تتصل بالعقيدة ، والعقيدة محترمة عند كل ملة وعند كل جيل ، كانت عقيدة فاسدة ، أو عقيدة صالحة ، عقيدة تستند إلى وحي ورسالة ، أو عقيدة تنبع من قلّة العقل والسفاهة والطيش ، ولكنها محترمة في كلِّ ملة ، وفي كل عصر ، واعتاد الناسُ أن يدافعوا عنها ، ويثوروا لها ، فقال: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ .

ثم قال: ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ فإذا كان أحد في بلاطه ، وفي ملئه لايملك قوة العقيدة ، فإنه استعان بشيء آخر وهو التخويف من نشر الفوضى ، والقلق ، وارتفاع الأمن ، وانتشار الاضطراب في المملكة ، وهذا الذي يخافه كلُّ من كان محباً لبلاده أو لوطنه ، فقال: ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ .

وقال موسى: ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ هذا كلام موسى ، إنه سمع كلمة فرعون التي كانت تتدفق بالكبرياء ، وبالتبجح ، وبالصلف ، فقد قال فرعون في مناسبة: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

لما صدرت هذه الكلمة المتكبرة من فم فرعون ، قال موسى: ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ .

*** كلمة رقيقة رفيقة ، تثير الشرارة الأخيرة من العدل ، وقوة المقارنة:**

هنالك قام رجلٌ مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، قد ثار فيه الإيمان ، وثار فيه الشعور بالكرامة الإنسانية ، والشعور باحترام حسن المرامي والمقاصد ، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ هذه كلمةُ استعطاف ، وهذه كلمة تدعو إلى التأمل ، ما ذنب هذا الرجل؟ ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾؟ ليس له ذنب إلا أنه يقول: ربي الله ، فإذا قال أحد: ربي فرعون ، لا تقتلونه ، وإذا قال فرعون بنفسه ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ لا يستحق القتل؟ أين العدل يا جماعة؟ ألا تعقلون؟! رجل ينسبُ الربوبية إلى مَنْ أخرجه من العدم إلى الوجود ، نقله من طور إلى طور ، خلقه وربَّاه ، وأنشأه وغذَّاه ، وأطعمه وسقاه ، وحفظه ووقاه ، فإذا عزا هذا الرجل هذه الربوبية المطلقة المحيطة إلى صاحبها ، وإلى مصدرها أنتم تريدون أن تقتلوه ، أما الذي ينسب الربوبية إلى غير محلها ، إلى مَنْ لا يستحقها ، إلى من هو مربوبٌ ألف مرَّة ، مربوبٌ منذ نشأته ، منذ كان روحاً في صُلب أبيه ، وجنيناً في بطن أمه ، فكان موضعَ العناية الكريمة والربوبية الرحيمة ، فما هذا الجور ، ما هذا الظلم؟ ، فهذه كلمة رقيقة تثير البقية الباقية ، والشرارة الأخيرة من العدل ، ومن قوة المقارنة التي فُطر عليها الإنسان ، المقارنة بين الفاضل والمفضول ، المقارنة بين الخالص والزائف ، المقارنة بين المالك والمغتصب ، إنه أراد أن يحرك هذه القوة الكامنة في نفوس كل هؤلاء الذين كانوا يشهدون هذا المشهد ، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾؟!

*** الاحتجاج بالمشهود المعهود على الهدف المطلوب المنشود:**

ثم دعم كلامه واحتجاجه بقوله: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ ، هذا احتجاج بالمشهود المعاين؛ لأن موسى عليه الصلاة والسلام قد جاء بالمعجزات الباهرة ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ هذه كلها مشاهدات لا يماري فيها الإنسان ، إنه يماري في أشياء

منطقية ليس لها وجود إلا في الذهن ، يماري في أشياء عقلية على مستوى عالٍ من العقل ، ولكنه لا يستطيعُ أن يماري في المشاهَد المحسوس ، فقال: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ .

ثم إنه لجأ إلى طريقة نفسية رقيقة ، يستطيع كلُّ إنسان أن يفهمها ، ويستطيع أن ينصت لها ، ويتخير الطريق الأقوم الأسلم ، وقد خاطبهم باللغة التي يفهمونها ، فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ .

قال: يا قوم لا تورطوا أنفسكم في مشكلة لا مخرج منها ، تأملوا في هذا الرجل الذي يدَّعي أنه نبي مرسل من الله ، وأنه قد جاء من السماء ، لكم طريقان: إما أن تبطشوا وتنكلوا به ، وتنتقموا منه ، وفيه خطر ، إذا كان صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ، أما ـ أعاذه الله تبارك وتعالى من ذلك ـ إذا كان كاذباً فلا حاجة لكم فيه ، إن كذبه هو كفيل بهلاكه ، وبانطفاء سراجه ، إن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعضُ الذي يعدكم ، إن يك كاذباً فلستم مسؤولين عنه .

*** الاحتجاج بسنَّة الله التي لا تتغير:**

ثم إنه استعان بشيء ثالث ، وهو الاحتجاجُ بسنَّة الله التي لا تتغير ولا تحابي أحداً ، فيقول: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إخوتي لا يغرنكم هذا الملك العريض ، وهذا الجاه الكبير ، هذه المملكة الواسعة الأطراف ، وهذه الوسائل الوفيرة ، وهذه الثروة الهائلة ، يا قوم ، لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ، لا شك أنكم ظاهرون ، لا شك أن لكم السلطة النهائية ، السلطة العليا ، لا شك أنكم أصحاب حول وطول ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ، هنالك لفت هذا الداعي الكبير نظرهم إلى سُنَّة الله التي لا تتغير ، فيقول: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ إنكم تعتقدون أنتم الأعلون ، ولا شيء أعلى منكم ، ولا شيء فوق رؤوسكم ، فأنتم المنتهى في كل شيء ، المنتهى في القوة ، المنتهى في السلطة ، في الأمر والنهي ، ولكن هنالك قوة أخرى تؤمنون بها كحقيقة ، لكنكم

تشركون في بعض صفاتها ، قال فرعون: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ لا حجة في ذلك ما أريكم إلا ما أرى ، هذا استسلامٌ في الحقيقة ، كان فرعون يحتاجُ إلى دليل من الصحف السَّماوية ، أو إلى دليل منطقي مثلاً ، ولكنه يقول وكأنه يعترف بعجزه: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ هذا ليس بدليل ، هذا يقوله كل غاوٍ ، وكل جاهل؛ ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ هذا مجرد الدعوى ، لا بينة معها: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ .

* الاعتبار بالتاريخ ومصير الأمم البائدة:

وهنالك قاطعه المؤمن وثنى على قوله ، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ [المؤمن: ٣٠ ـ ٣١] يظهر أن فرعون وملأه كانوا يعرفون عاقبة هذه الأمم ، وكان عندهم شيء من علم بتاريخ هذه الأمم التي كانت بعد عاد وثمود ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ .

* التحذير من الآخرة:

ثم يقول: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يعني عليكم أن تعتبروا إذا بقي ملك لا يحول ولا يزول ، فكان الواجب أن يبقى ملك عاد وثمود ، فإذا لم يبق ملك عاد وثمود ، فلا ضمانَ لملككم ، كيف تعتقدون أن ملككم هو الذي سيبقى ويدوم ، وملك هؤلاء قد انقرض ، وطوي بساطه ، ما هو الفارق بين ملككم وملكهم؟ إذا كان هنالك الفارق الإيماني ، إذا كان هنالك فارق من الأخلاق ، إذا كان هنالك فارقٌ من الرشاد والهداية ، فأنتم لا تتَّصفون به ، ولا تدعونه ، وحياتكم تدل على أنكم تنهجون نهجهم ، وأنكم تسيرون على دربهم ، فإذا انقرض عاد وثمود والذين من بعدهم ، فأنتم كذلك إلى الانقراض ، وستسيرون إلى ما ساروا إليه ، ما هو الخط الفاصل بينكم وبينه؟

ثم يقول: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يوم ينادي بعضهم بعضاً ،

وكان هذا قد ألفه ملأ فرعون كلهم ، فكانت عندهم أعياد وكانت عندهم مواكب ، وكانت عندهم خرجات يخرجون فيها ، وكانت هنالك غوغاء وصخب ، كانوا يعرفون ماذا يقع هنا ، فقال: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ هذا الذي يشعر فرعون بوقعه في نفسه؛ لأن أكره الشيء إليه هو الانهزام ، كان لا يتصوَّره؛ لأنه كانت له جيوش جرارة كثيفة ، ولم يعرف الهزيمة ، فهذه الكلمة يعرف معناها ، ويعرف وقعها في نفسه ، ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ .

*** إثارة نقطة جديدة حكيمة :**

ثم إن هذا المؤمن الداعي الحكيم قد أثار نقطة جديدة ، نقطة حكيمة ، وهو أشار إلى علة الطبيعة البشرية ، وداء من أدواء المجتمع البشري القديم ، وهو عدمُ تقدير النعمة في محلها ، وفي وقتها ، هذه علّة قديمة في الطبيعة البشرية ، إن الإنسان يستهين بالمعاصر ، ويستخف بقيمته ، ويتناساه ما دام هو يعاصره ، ويعيش معه ، فإنه لا يقيم له وزناً ، هذه علَّة من علل الطبيعة البشرية؛ التي حفظها تاريخها وأدبها وشعرها وقصصها وحكاياتها وأساطيرها ، الاستهانة بالحاضر والإجلال للماضي ، التنكر للمعاصر ، والتجهم له ، والإنكار لفضله ، والاعتراف والخضوع للماضي ، كلما مضى رجلٌ قالوا لم يكن مثله ولن يكون مثله ، أما ما دام حياً فهو بشر ونحن بشر ، فإذا انتقل من هذا العالم، وفارق الحياة ، فهنالك مدائح سخية ، وقصائد رنانة ، وهنالك مبالغات وتهويل ، هي الطبيعة التي حرمت الأجيال البشرية ، والمجتمعات الإنسانية الانتفاع بأفضل ثمارها ، وأفضل أفرادها في حياتهم ، وقد حذَّرهم من هذا النكد وإنكار الفضل ، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤].

إن يوسف كان نسيج وحده ، وقريع دهره ، ومن أين يأتي مثل يوسف؟ هذا الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، الملك العادل الرحيم ، لا أبداً ، ما دام حياً ، فكلُّ الناس كانوا يعيبونه ، وينسبون إليه الأشياء ، فيقول: إياكم أن

تعودوا إلى مثل هذه المحنة ، فلا تقدرون قدر موسى ، حتى إذا أذن الله له بالرحيل ، وانتقل من هذا العالم ، كأني بكم تقولون: إنَّ موسى كان منحة من الله تبارك وتعالى ، وما سبقه رسول مثله ، ولا يأتي بعده مثله ، وأنا أحذركم من هذا: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ .

*** سمة فرعون الرئيسية التي حالت بينه وبين الحق:**

تأمّلوا في كلمة ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ إنا لا نصدق أنه سيأتي نبي بعد يوسف يكون مثله ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ .

وفي الحقيقة: إن مصدر هذا الحرمان والكفران ، ومصدر هذا العناد والمكابرة هو التكبر ، يخاطبهم مثل سيدنا موسى في مكانته ، وفي سموه ، وفي قوة دعوته؛ التي أثرت في سحرة فرعون فنقلتهم من معسكر فرعون إلى معسكر الدعاة إلى الله ، إلى معسكر الشهداء في سبيل الله ، كأنهم نشؤوا في أحضان النبوة مدة طويلة ، ولكن عهدهم كان قريباً من سيدنا موسى ودعوته ، ولكن سيدنا موسى هو الذي شقّ صخور قلوبهم ، وأنبت فيهم الإيمان ، فخرجوا من هذا المعسكر الفرعوني وهم يقولون: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ وإنا مستعدون لنيل هذه العقوبات كلها.

يخاطبهم ، ويدعوهم إلى الله ، ولكن فرعون لم يتأثر ، لماذا؟ السِّمة التي يتسم بها فرعون ـ وهي السِّمة الرئيسية ـ هو التكبر ، فيريد القرآن أن يركِّز عقولنا ، وتأملاتنا على نقطة هامة جداً ، وهي التكبر ، وهذه الكلمةُ قد تكررت في هذه الآيات مراراً: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ .

*** النقطة التي يلتقي عليها سيدنا موسى في دعوته ، ومؤمن من آل فرعون في موعظته :**

ثم يقول : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : ٣٤ ـ ٣٥] فمفتاح القصة ، ومفتاح شخصية فرعون ، ومفتاح هذه القصة هو التكبر ، التكبر هو الذي حال بين فرعون وبين الانتفاع بدعوة سيدنا موسى ، وكان سيدنا موسى قوّى الشعور بهذه النقطة ، وكان مؤمن من آل فرعون كذلك قوّى الشعور بهذه النقطة ، النقطة التي يلتقي عليها سيدنا موسىٰ في دعوته ، ومؤمن من آل فرعون في موعظته ، هي نقطة النعي على التكبر والتركيز عليها ، كلّ يشير إلىٰ هذه النقطة ، هذه النقطة الفارقة التي تحول بين فرعون وملئه وبين الانتفاع والاهتداء بالهدي الذي جاء به سيدنا موسىٰ .

*** الضرب على الوتر الحساس :**

وقد جاء في هذا الحوار التنبيه علىٰ تفاهة الدنيا ، وعدم ثباتها وبقاء الآخرة ودوامها ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ [غافر : ٣٨ ـ ٣٩] .

إن أكبر حجاب كان لفرعون هو الملك العريض الذي كان يتباهى ، ويتبجح به ، فيقول : إن هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هي دار القرار ، فضرب علىٰ الوتر الحسَّاس ، ثم ذكر قانون المجازاة العادل الذي لا يحابي أحداً ، فقال : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر : ٤٠] .

*** الدعوة إلى معرفة المخلص النافع من الفاحش الخادع :**

ثم هنا كذلك يثير نقطة خاصة ، وهي عاقبة عدم التمييز بين النافع

والضار، وبين المخلص النافع والغاشّ الخادع، فيقول: ﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ [المؤمن: ٤١ ـ ٤٢].

ويقول: قارنوا بين الدعوة التي أقوم بها وبين الدعوة التي يقوم بها فرعون، انا أدعوكم إلىٰ سبيل النجاة، أنا أدعوكم إلىٰ الله الرحيم الغفار وهو يدعوكم إلى نفسه، وإلى طريق الهلاك والبوار.

ثم يقول: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣].

هنالك نبّه هذا الداعي الكريم على أن دعوة فرعون هي دعوة طفيلية، وكل دعوات الجاهلية هي دعوات طفيلية غير مقصودة، ما أنزل الله بها من سلطان، وهي لا تستند إلى عقل، ولا إلى علم، ولا إلى دعوات الأنبياء، تنبتُ على سطح الأرض «كالحشائش الشيطانية» التي تنبتُ في الحقول والمزارع ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ هل عندكم من سلطان؟ هل عندكم من برهان؟ لا، إنما هي التي تريدها أهواؤكم ومصالحكم فقط.

*** الخط الذي ينتهي إليه كلُّ داع مخلص:**

ثم أخيراً جاء بكلمة فيها الرقة، وفيها التفويضُ إلى الله، وفيها الرحمة، وفيها المجهود الأخير، وهو القولُ الذي يلجأ إليه كل داع مخلص، لا شيء وراء ذلك، وهو قوله: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

وهذه خيرُ نهاية لموعظة ولدعوة إذا لم ينتفع بها، فهذا هو الخط الذي ينتهي إليه الداعي.

هذا حوار فريدٌ في أسلوبه، وهذا هو الحوارُ الذي حفظه القرآن، وخلده في أسلوبه الحكيم وبلاغته، وفي ترتيبه، وفي الانتقال من نقطة إلى نقطة، وفي خير بداية وخير نهاية، هذا الحوار الذي يجبُ أن يكون نبراسنا

في توجيه الدعوات ، وفي القيام بأعبائها ، وفي الإيفاء بحقوقها ، إذا واجهنا قوة جبارة .

فهذا مثل أردتُ أن أضمَّه إلى أمثلة الدعوات النبوية التي هي النقطة الأخيرة التي يصلُ إليها الداعي ، وهذا نموذجٌ من دعوة رجل لم يكن نبياً ، ولم يكن من أخصِّ أشخاص سيدنا موسى ، ولا يدلُّ القرآن على هذا ، بل يصفه بقوله : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ﴾ فنستطيع أن نتعلَّم منه كثيراً ، ونتلقى منه دروساً ذات قيمة كبيرة في منهج الدعوة .

* * *

المحاضرة السابعة

نموذجان من دعوة خاتم الرسل وحكمته

*** النموذج الأول من دعوته ﷺ على جبل الصفا:**

نبدأ ونتخير من هذه المواقف الدعوية الجليلة الرائعة؛ التي هي كلها معجزات لسيد المرسلين، وخاتم النبيين ﷺ. موقفه ﷺ ـ هو الموقف الأول كداعٍ ـ على جبل الصفا، وهو النموذج الأول من دعوته ﷺ، وأريد أن تستحضِروا الجوَّ الذي بدأ فيه رسول الله ﷺ دعوته، وتعيشوا تلك المشكلة التي كانت تكتنف هذه الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وإلى التوحيد، ونَبْذ الشرك والوثنية، والحياة الجاهلية التي كانوا يحيونها، وأرجو أن تنتقلوا بعقولكم وتصوراتكم ـ إن لم تستطيعوا أن تنتقلوا بنفوسكم وبأجسادكم ـ إلى تلك البيئة التي قام فيها رسول الله ﷺ منذراً ومبّشراً ومبلّغاً لرسالات ربه.

*** النبوة هي القنطرة الوحيدة بين عالم الحس وعالم الغيب:**

إنَّ الذي كان يريدُ رسول الله ﷺ أن يقوله لقريش أولاً، وللعرب ثانياً، ولأهل عصره ثالثاً، وللعالمين وللجيل البشري كله رابعاً وأخيراً، إنما كان ذلك يعتمدُ على شيئين: على وجود عالم آخر غير هذا العالم المادي الحسي؛ الذي كانوا فيه، عالم لا يشاهد ولا يقع تحت سيطرة الحواس الخمس التي كانوا يملكونها، ثم كان يعتمدُ ثانياً على وجود النبوة؛ لأن النبوة هي القنطرة الوحيدة بين عالم الحس الذي نعيشه وبين عالم الغيب، كل جسر ـ يصل بينهما ـ مكسور مهدم، وكل قارب ينقل المسافرين إليه

غائب مفقود ، هذا عالم ـ كما قلت لكم ـ ليس للحواس الخمس وللعقل الذي يتأسس على هذه الحواس الخمس إليه؛ سبيل.

*** متى يؤدي العقل دوره؟**

فالعقل إنما يعتمد على الحواس الخمس ، فكلُّ ما تقدمه إليه الحواس الخمس ، من محسوساتها ومحصولاتها ، ومن النتائج التي توصلت إليه ، يستخرج منها العقل نتائج خطيرة ، هذا هو شأن العقل ، إنما يقوم بناؤه على ركام تقدمه إليه الحواس الخمس البشرية ، وحيث تتعطل هذه الحواس ، يتعطل العقل ، فوظيفةُ العقل تنحصر في أنه يستخرجُ من هذه المعلومات التي تقدمها الحواس ، ويتوصل من هذه المقدمات إلى نتائج كبيرة ، فحيث لا مقدمات لا نتائج ، وحيث لا محسوسات لا معقولات ، هذه هي النقطة الحاسمة في تاريخ الفلسفة والعقل الإنساني ، التي أغفلها كثيرٌ من الفلاسفة ، وكثير من مدَّعي العقل ، إنهم بحثوا العقل كأنه شيء مستقل ، وكأنه يعملُ بنفسه ، ويشق طريقه بنفسه. ولكن ليس ذلك بصحيح ، فالبحوث الأخيرة التي تهيأت الآن في نطاق الفلسفة ، أثبتت أن العقل عاجز حيث لا يوجد عمل الحواس ، هنالك يقفُ العقل حائراً مدهوشاً لا شغل له.

*** بُعْد أهل العرب عن النبوات شكَّل مشكلة كبرى:**

فالمشكلة الرئيسية أن أهل العرب بصفة عامة ، وأهل مكة بصفة خاصة ، كانوا بعيدي العهد بالنبوات ، وبتصوّرهم لعالم الغيب ، فقد غابت هذه القنطرةُ التي كانت تصل بين عالم الغيب ، وبين عالم الحس ، فلما فقدت هذه القنطرة أصبحوا يجهلون عالم الغيب جهلاً كلياً ، لذلك يقول القرآن في أسلوبه المعجز الموجز: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ٦] ، ويقول: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦] ويقول الله تبارك وتعالى في سورة يونس: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩].

*** المشكلة أن رسول الله ﷺ أراد أن يخاطب قوماً لم يتعلموا «حروف الهجاء» من الدين:**

فالمشكلة الرئيسية أن رسول الله ﷺ أراد أن يُوجِّه دعوته إلى قوم ليس عندهم مفاهيم وتصورات دينية بدائية ، كأنه ما عندهم مفاتيح العلم ، خذوا أكبر ذكي أو عبقري فوق العادة ، وهو لا يعرف حروف الهجاء للغة ، أو خذوا أحد كبار الأساتذة في جامعة كامبردج أو في مختبر من مختبرات أمريكا التي اكتشفت الطاقة الذرية ، وهو لا يعرفُ «العربية» وقولوا له: عندك يوم بكامله ، تطالع هذه الصحيفة وتقرؤها لنا في المساء ، ولا يجد أحداً يساعده في ذلك ، ويعلِّمه حروف الهجاء: ألف ، با ، تا ، ثا ، جيم ، فهو لا يستطيع أن يقرأ سطراً واحداً لأنه ما تعلم حروف الهجاء ، وهكذا نسبة المحسوسات إلى المعقولات ، المحسوسات أمام المعقولات كحروف الهجاء للغة المشكلة ، إن الرسول ﷺ أراد أن يخاطبَ قوماً لم يتعلَّموا حروف الهجاء ، إن عقولهم الضيقة التي نشأت في هذا المحيط المحدود ما كانت تسيغُ النبوة ، فيجب أن تسيغَ النبوة أولاً ، ثم يتقدم الرسول عليه السلام خطوة أخرى .

*** الأنبياء يكونون من التافه الموجود الشيء العظيم المفقود:**

عاشت الأمة العربية وسكان هذا الوادي بصفة خاصة مدة طويلة بعيدة عن المفاهيم الدقيقة ، والمصطلحات العلمية ، والبحوث اللاهوتية ، ولكنها فاقت وتميزت بسلامة فهمها ، وسرعة إدراكها ، وحبها ، وخضوعها للواقع ، وعلىٰ ذلك اعتمد الرسول ﷺ في شرح مركز «النبوة» ، و«النبي» في هذه الحياة ، وتبرير حقه في الإنذار والإنباء ، ومخالفة المألوف المعروف المشاهد بالعيان ، والإخبار بما لا يراه الإنسان ، فكان أبلغ من ألف دليل يستندُ إليه أئمة الكلام وأئمة اللاهوت ، وكانت جميع المراحل التي اجتاز بها الرسول الأعظم ﷺ وجميع الوسائل التي اتخذها واستخدمها في هذه المهمة المقدسة الدقيقة ، مطابقة للطبيعة والبيئة ، وهكذا الأنبياء لا يلتجئون ـ في أداء مهمتهم ، وتبليغ رسالتهم ـ إلى الصناعة ، والتكلف ،

والاستعارة، والاستيراد، ويكونون من التافه الموجود، الشيء العظيم المفقود.

*** كان الرسول عربياً يعرف عادات العرب:**

ولم يكن ذلك عصر الصحافة والإذاعة، وعصر آلات نشر الصوت وتضخيمه، فما هو السبيلُ إلى حشر سكان الوادي إلى مكان مخصوص في زمن مخصوص، وما هو السبيل إلى السيطرة على عقولهم ونفوسهم حتى ينفضوا أيديهم من أشغالهم، وملذّاتهم، ويخفّوا إلى مكانه فزعين مسرعين؟ كان الرسول ﷺ عربياً، يعرف عادات العرب وتقاليدهم وشعاراتهم وتأثيرها في نفوسهم ومجتمعهم، واستعان بذلك في سبيل هذه الغاية التي لا غايةَ أفضل منها، اعتاد العرب إذا أحس أحدٌ منهم بخطر، وبعدوّ يريد أن يفاجىء، ويأخذ القوم على غرّتهم، أو بعدوّ كامن قاعد بالمرصاد قد غفل عنه أهل البلاد، أن يرتقي أحدُهم قمة جبل أو ربوة، ويصرخ بأعلى صوته: «يا صباحاه» أو «واصباحاه» فيفزع القوم، ويأخذون عدّتهم، ويخرجون على بكرة أبيهم لمواجهة الخطر الداهم، والعدو المهاجم.

ما هو هذا الخطر الذي كان يقلق مضاجعهم، ويحول بينهم وبين راحاتهم ولذّاتهم، وما مدى تأثيره وضرره في حياتهم، النوع الوحيد من الخطر الذي كانوا يعرفونه هو العدو فقط، يقتل منهم كثيراً، وينهب أموالهم، ويستاق إبلهم، وماشيتهم، ويلحق بهم الأضرار.

*** العدو الذي يعيش في «الداخل» أضر وأفتك من كل عدو في الخارج:**

هانت هذه الأخطار والأضرار ـ على ضخامتها وواقعيتها ـ في عيون الأنبياء والرسل، إنهم عرفوا أن أكبر خطر هو الجهل بصانع هذا الكون، ومدبره، وصفاته الحقيقية، وحقوقه، وخطر الحياة الجاهلية التي كان يعيشها أهلُ ذلك العصر، وسكان هذا الوادي، والأخلاق التي اتّسم بها هذا المجتمع الجاهلي (يعبدون الأصنام، ويأكلون الميتة، ويأتون

الفواحش ، ويقطعون الأرحام ، ويسيئون الجوار ، ويأكل القوي منهم الضعيف)[١] .

رأى النبي ﷺ هذا العدو الذي يعيش في نفوسهم ، وفي عقائدهم ، وأخلاقهم (ليس في الخارج) وكان في نظره ـ ﷺ ـ أضر وأفتك من كل عدو في الخارج .

إن هذا الخطر ـ الذي نبع وانبثق من داخلهم ـ أعظم من كلِّ خطر عرفوه في كلِّ حياتهم الجاهلية الطويلة ، وفي مجتمعهم العربي القبلي ، وإن عداوة نفوسهم أشد وأدق من عداوة كلِّ قبيلة منافسة ، ومن كل جيش محارب ، وإن أسلوب حياتهم يثير سخطَ الله القادر القاهر ؛ الذي لا يرضى لعباده الكفر ، ولا يحبُّ في الأرض الفساد .

*** أصدق صوت في أصدق مناسبة :**

فخرج رسولُ الله ﷺ وصَعد على جبل الصفا ـ وهو أقرب الجبال إليهم ـ ونادى بأعلى صوته : «يا صباحاه» ، وقد شهد هذا الوادي بأنه كان أصدق صوت في أصدق مناسبة ؛ لأن مثل هذه المناسبات لم يكنْ من العادة أن يكذب الإنسانُ فيها ـ بخلاف هذه المدنية المزورة ـ وقد سمع أهلُ مكة صيحة معروفة مألوفة ، تخرج من فم أصدق رجلٍ عرفوه في بلدهم ، سمّوه بأنفسهم «الصادق الأمين» وفهموا معناها ومطالبها ، وأمامهم سلسلة طويلة من التجارب والحوادث ، ولم يتأخروا في تلبية هذا النداء جاء في كتب السيرة ، فاجتمع الناسُ بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث إليه رسوله .

*** كان العرب عقلاء منصفين ، شجعاناً صادقين :**

فقال رسول الله ﷺ حين اجتمعوا : «يا بني عبد المطلب ، يا بني كعب ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريدُ أن تغير عليكم صدقتموني؟» كان القوم الذين خاطبهم الرسول العربي ﷺ ووجَّه إليهم هذا السؤال ، أميين غير مثقفين لم يدرسوا الفلسفة وعلم المنطق ، ولم يألفوا

---

(١) من حديث جعفر بن أبي طالب في مجلس النجاشي ملك الحبشة .

التعمق والتدقيق ، ولكنهم ـ كما قلت ـ كانوا واقعيين عمليين؛ رزقهم الله النصيب الأوفر من سلامة الفهم ، وسرعة الإدراك ، واستعرضوا الواقع ، واستعرضوا المحيط الذي وقف فيه هذا الخطيب النذير ، واستعرضوا وضعه الطبيعي ، رأوا رجلاً جربوا عليه الصدق ، والأمانة ، والنصيحة ، وحب الخيرِ ، قد وقف على جبل يرى ما أمامه ، وهو الذي اشترك فيه مخاطبوه ، وينظر إلى ما وراء الجبل والسفح المقابل ، وهذا الذي لا يشتركُ فيه مخاطبوه ، فعرفوا من غير شك وتأمّل طويل ، أن له الحق أن يتحدَّث عما في سفح الجبل المقابل من عدو رابض ، وخطر كامن ، وليس لهم حق ـ وقد حال الجبلُ بينهم وبين السفح المقابل ـ أن يكذبوه ، وينفوا رؤيته على أساس أنهم لا يشاركونه في هذه المشاهدة ، فقد فرق الجبل القائم بين وضعهم ووضع الخطيب النذير ، وأعطاه من فرصة المشاهدة وحقّ الشهادة ما لم يعطهم ، وكانوا عقلاء منصفين ، شجعاناً صادقين ، فقالوا: نعم ، إنك إذا قلتَ أن وراء الجبل خيلاً تريدُ أن تغيرَ في الليل ، أو تغير على غرة منا صدقنا.

*** الأنبياء يقفون على قمة جبل من النبوة ، يطلون منها على دنيا الحس ودنيا الغيب:**

وقد نجح رسولُ الله ﷺ بحكمة النبوة التي خصَّه الله بها وبلاغته العربية التي أكرمه الله بها ، وقد صوَّر لهم مركز النبوة والأنبياء الفريد الدقيق ووضعهم الشاذ ، الذي يستطيعون به أن يشاهدوا ما لا يشاهده أقرانهم ، وأبناء جنسهم وعصرهم ، ويشهدوا بما لا يشهد به المصلحون والزعماء عادة ، فقد وقفوا على قمة جبل من النبوة يطلون منها على الجانبين ، الجانب الحسي بحكم البشرية ، والاتصال بعالم الغيب تحت الإرادة الإلهية ، وبحكم النبوة التي يكرمهم الله بها ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠] وليس لأذكى إنسان وأعظم عالم ، وأكبر عاقل أن يكذبهم ، وينفي مشاهدتهم على أساس أنه لا يشاركهم في هذه المشاهدة ، ولا يرى ما يرونه ، مثل بسيط جداً: أنا واقف أمام هذا الشباك ، وأنتم وجوهكم إلى هذا الجانب ، وأنا أقول: الله أكبر! قد سقط فلان ، أو خرج

فلان ، فهل يجوز لكم أن تكذبوني ، وأن تنفوا ، وتقولوا: لا؟ هذا لا يمكن ، هذا غيرُ معقول ، كلكم تعرفون أنكم مدبرون لهذا الجانب ، ومقبلون إلى ذاك الجانب ، وأنا مقبل إلى هذا الجانب ، ومدبر إلى ذاك الجانب ، فأنا لي حقُّ الشهادة ، وحق الإخبار بشيء لا ترونه أنتم ، شيء بسيط ، ومعقول ، ويومي ، وليس لأذكى إنسان أن يكذبه ، ربما يكون منكم أحدٌ أبصر مني ، وأعقل مني ، ولكن رغم هذه الحدة في البصر لا يجوزُ له أن يكذب ما أرى.

كذلك ليس لأذكى إنسان ، وأعظم عالم ، وأكبر عاقل أن يكذب الأنبياء ، وينفي مشاهدتهم على أساس أنه لا يشاركهم في هذه المشاهدة ، ولا يرى ما يرونه ، كما لا يجوزُ لمن وقف في سفح الجبل أن يكذب من قام على قمته ، وأخبر بما وراء الجبل ، وتحدث عما وراء الأكمة[1].

*** مكابرة الفلاسفة والحكماء:**

فإذا حاجّهم وخاصمهم أسير لحسه ، قالوا محتجين مستغربين: ﴿أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ [الأنعام: ٨٥] ، وكان العرب الأميون أعقل ـ في هذه المرحلة البدائية ـ من الفلاسفة والحكماء الذين كذبوا أخبار الرسل ، وشكوا في الحقائق التي جاؤوا بها علي أساس عدم مشاهدتهم واطلاعهم ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩].

*** القضية هو الإيمان بوجود عالم لا يُرى:**

ولما تمت هذه المرحلة التي كان لا بُدَّ منها ، تقدم الرسولُ ﷺ خطوة ثانية ، ودخل المرحلة الثانية النهائية ، فقال: «فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[2].

كان لهم أن يقولوا: من أين رأيتَ هذا العذاب ، بأي شيء تنذرنا ، ولكنه أولاً وقف على قمة الجبل ، ثم سألهم: هل إذا أخبرتكم بأن هنالك

---

(١) من تعبيرات العرب «من وراء الأكمة» والأكمة: التل.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (ج٣ ص ٣٨).

خيلاً تريد أن تغيرَ عليكم هل أنتم مصدقي ، قالوا : نعم ، هناك قال : «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يرى هذا الجانب الخلفي للجبل ، وهو وجود الغيب بالنسبة إليهم ، ويرى الجانب الأمامي ، فكان يجمعُ بين العالمين ، العالم الغيبي المؤقت المجلي بالنسبة إليهم ، والعالم الحسي المشهود الممتد أمامهم ، حتى إذا وقفوا في سفح هذا الجبل لم يروا ذلك العالم الذي يراه الرسول ، فهنالك عالم وراء عالم ، في الحقيقة القضية هو الإيمان بوجود عالم لا يرى ، فإذا تحقق الإيمان بإمكان وجود عالم مهما كان بسيطاً ، فتح الطرق؛ لأنه إذا ثبت عالم واحد يمكن أن يثبتَ ألف عالم ، فالشيء الذي يضغطُ عليه صاحب الحجة هو الإيمان بإمكان وجود عالم ، أو حقائق لا تأتي تحت الحس ولا تبصر ، فإذا آمن إنسانٌ بوجود حقيقة واحدة غيبية ، فهو مكلف بالإيمان بوجود ألف حقيقة .

*** الخطر الحقيقي الذي تناساه أهل مكة وأهل العصر :**

قال الرسولُ ﷺ: «إني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد» ، أنذرهم بالخطر الحقيقي الدائم الذي يهددهم ، والذي هو طبيعة هذه الحياة التي يحيونها ، العقائد التي يدينون بها ، والأصنام التي يعكفون عليها ، والعادات الظالمة ، والأخلاق الجاهلية التي يتمسَّكون بها ، وبالاختصار هذه الجاهلية الجهلاء التي يعيشون عليها ، لا إيمان ، ولا علم ، ولا عدل ، ولا تقوى ، إن طبيعة هذه الحياة والفساد الشامل في المجتمع ، والمعيشة الضنك ، والقلق النفسي ، والعذاب الداخلي في هذه الحياة ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] ويقول : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة : ٢١] .

*** تفرد الأنبياء بمعرفة خواص العقائد والأعمال والأخلاق والعادات :**

إن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما تعرض لبيان ضرر هذه الحياة

والمجتمع المادي والاقتصادي ، أو الإداري والسياسي؛ لأن هذا لم يكن من موضوع الرسول ولا من موضوعات الرسالات السماوية ، الهدف الذي يرمي إليه الرسول عليه الصلاة والسلام ، هو العذابُ الدائم بعد هذه الحياة التي يهون ، ويصغر أمامه كل ألم ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾[الرعد: ٣٤] ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طـه: ١٢٧] ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ [فصلت: ١٦].

*** سبيل الأنبياء والمرسلين وسبيل الفاحصين والمكتشفين:**

لقد اطلع العلماء والفاحصون على خواصّ الأدوية ، وعرفوا كثيراً من طباع الأشياء والقوى المودعة في الموجودات ، وكونوا العلوم والمعلومات التي انتفع بها الناس ، وشكروا أصحابها ، واعترفوا بفضلهم ، وتفرد الأنبياء بمعرفة ذات الله ، وصفاته ، وأحكامه ، ومرضاته ، وبخواص العقائد والأعمال ، والأخلاق ، صحيحها وسقيمها ، صالحها وفاسدها ، وما تجر ، وتستتبع من سعادة وشقاء في الدنيا ، وثواب وعقاب ، وجنة ونار في الآخرة ، وخصَّهم الله ـ بقدر ما يريد ـ بعلم ما يكونُ بعد هذه الحياة ، وفي ذلك العالم من حشر ونشر ، وإنعام وعذاب ، ونعيم وجحيم: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

*** جواب الأنبياء الأخير:**

لقد وقفوا ـ عليهم السلام ـ على جبل النبوة يشرفون منها بقدر ما يريد الله على عالم الغيب والشهادة ، ويخبرون بما يهجم على هذه البشرية وعلى هذه المدنية في المستقبل القريب والبعيد ، وما يكمن لها من خطر وضرر ، ثم ينذرون قومهم شفقة وإشفاقاً وحباً وإخلاصاً ، وإذا نازع منازعٌ هذا الحق الطبيعي العقلي ، وهذه البداهة، وشك أو شكّك في مركزهم، المركز الذي خصهم الله به، قالوا في نصيحة وإخلاص وتألم وإشفاق: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦] وكما قال مؤمن من

آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر : ٤٤].

*** مثال بليغ للحكمة النبوية والبلاغة العقلية :**

وأذكر لكم نموذجاً رائعاً آخر ، يختلفُ كلَّ الاختلاف في الطبيعة والبيئة والدوافع التي دفعت إليه ، ولكنها قطعة رائعة ، ومثال بليغ للحكمة النبوية ، والبلاغة العقلية ـ ليست البيانية ـ فحسب ـ والقيادة الحكيمة المؤثرة في أغوار النفوس وأعماق القلوب ، وهي جديرة بأن تكون موضعَ دراسة مؤرخي النبوات ، والقيادات الروحية ، وعلماء البلاغة ، وأساتذة علم النفس .

إن رسول الله ـ ﷺ ـ لما وزع سبايا ومغانم حنين في الجعرانة على أشراف قريش ، كما تعرفون ، وقرأتم في السيرة ، أنه أعطى قريشاً ، فأجزل لهم العطاء ، أعطى أبا سفيان وعكرمة بن أبي جهل ، وفلاناً وفلاناً ، وكان نصيب الأنصار فيها قليلاً ، اعتماداً على إيمانهم ، وعلى حبهم ، وصلتهم الدقيقة العميقة الدائمة بالإسلام ونبيه ـ ﷺ ـ .

هناك تقاول بعضُ الشباب ، فقالوا : إن رسول الله ـ ﷺ ـ خص بني قبيلته بأكبر نصيب من العطاء والمغانم ، وبلغ هذا رسول الله ـ ﷺ ـ فحسب له حساباً ، لأنه النبي المربي ، وليس النبي فقط ، فأمر بجميع الأنصار في حظيرة ، فاجتمعوا ، وقال : «لا يدخل الحظيرة إلا الأنصار» ولما اجتمعوا كلهم قال لهم :

*** لله ولرسوله المن والفضل :**

«ما هذه القالة التي بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم»؟

فاستحيوا وقالوا : لا شيء يا رسول الله ، إنما هم بعض الشباب قد وسوس لهم الشيطان ، ثم قال : «أما أتيتكم ضلالاً فهداكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي ، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم» قالوا : لله ولرسوله المن والفضل .

*** إثارة الإيمان واليقين والحب الدفين:**

ولم يبتدر رسولُ الله ﷺ بالكلام ، بل أراد أن يتكلم بلسانهم ، أثار فيهم الشعور الإنساني ، وألهمهم المعاني ، فقال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ » لله ولرسوله المن والفضل ، قال: «والله لو قلتم لصدقتم ولصدقتكم ، أتينا مكذباً فصدَّقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك. وعائلاً فواسيناك؟

أي زعيم ، وأي قائد ، وأي مرب ، وأي صاحب فضل يستطيعُ أن يشهدَ على نفسه بهذا ، والله لولا أن هذه الكلمات قد وردتْ في السيرة النبوية ، وفي حديث صحيح ، أصله في الجامع الصحيح للبخاري ، وقد ذكره الحافظ ابنُ القيم في «زاد المعاد» بسياق أوسع وأشمل ، لولا أنها قد وردتْ في الصحاح وفي كتب السيرة ، لما كان لأي مسلم أن ينطق لسانه بهذه الكلمات ، أما أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك!».

*** أوجدتم علي في لعاعة من الدنيا؟**

ثم قال بعد أن أثار نفوسهم ، وأجرى عيونهم ، وفتح الأغلاق من قلوبهم: «يا معشر الأنصار! أوجدتم علي في لعاعةٍ من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم».

انظروا كيف أوجد في نفوسهم الثقة التي كانت كفيلة بحسم كلّ ما ساور نفوسهم ـ إن كان هناك شيء قد ساور نفوسهم ـ وقال: أوجدتم علي في لعاعة من الدنيا (واللعاعة: خضرة ناعمة) تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ثم قال الكلمة المثيرة البليغة التي ما يمكنُ أن تطلق أو تنطلق من فم إلا وتفجر الأنهار ، وتشق الصخور ، وتأتي بالمعجزات.

*** الأنصار شعار والناس دثار:**

«أما ترضون يا معشر الأنصار ، أن يذهب للناس بالشاه والبعير إلى رحالهم ، وترجعون برسول الله ـ ﷺ ـ إلى رحالكم ، والله لولا الهجرة

لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً ووادياً ، وسلكت الأنصار شعباً ووادياً لسلكتُ شعب الأنصار وواديها ، الأنصار شعار ، والناس دثار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار» .

ثم ماذا كان؟ كان الشيء المتوقع الطبيعي ، هملت عيونهم حتى اخضلت لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ قسمة وحظاً .

*** أروع نموذج في الآداب البشرية والآداب الإنسانية :**

والله لو بحثنا ـ ولي مشاركة في بعض اللغات غير العربية فضلاً عن اللغة الأردية ـ لو بحثنا في أدب الأمم والديانات ، ما وجدنا موعظة أبلغ من هذه الموعظة ، وعلماً بالنفس الإنسانية أكثر عمقاً ، وأكثر صدقاً من العلم النبوي .

هذان النموذجان من أروع النماذج التي دونت ، وسجلت في الآداب البشرية ، وفي المكتبات الإنسانية .

* * *

المحاضرة الثامنة

تمثيل جعفر بن أبي طالب للإسلام والمسلمين في مجلس النجاشي ملك الحبشة

*** نموذج دعوة وحكمة لأحد السابقين من هذه الأمة :**

لقد ضممنا إلى دعوات ثلاثة أنبياء من كبار الرسل ـ إبراهيم عليه السلام ويوسف عليه السلام وموسى عليه السلام ـ وحوارهم مع أمتهم ـ أمة الدعوة وأمة الإجابة ـ حواراً لفرد ، لم يكن له حظّ من النبوة والرسالة ، ولا شرف البعثة إلى أمة من الأمم ، أو مجتمع من المجتمعات البشرية ، إن جلَّ أمره أنه كان من المؤمنين بنبيّ عصره ، قد شرح الله صدره للإيمان والحكمة ، وفتق قريحته للكلام الرقيق الدقيق ، والموعظة الحسنة البليغة ، وكأنه مخطط قد خطط على هدوء وروية ، فتجرد من «الارتجالية» والحشو والفضول يتراجع عنه صاحبه ، أو يندم عليه أو يعتذر ، وذاك شأن من هيأه الله للدعوة ، وأخلص لدينه ، ولم يرد إلا وجه الله ، أو إبراء ذمته .

وحين انتهينا في المحاضرة الماضية من عرض نموذجين لدعوة سيد الأنبياء والرسل ، وخاتمهم محمد صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم ـ والسيرة النبوية لا تنقطع عجائبها ، ولا تنفد دررها وجواهرها ـ ننتقل إلى عرض نموذج من نماذج بعض المؤمنين الذين نشؤوا في أحضان النبوة ، وكانوا غرس التربية النبوية ، وزرع الدعوة الإسلامية الأولى ، وهم كثير ،

نختار من بينهم جعفر بن أبي طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «أشبهت خَلْقي وخُلُقي»[(١)].

*** الموقف الدقيق الرهيب الذي دعا إلى هذا الكلام:**

وقبل أن أعرض نموذج هذه الدعوة ، وندرسه دراسة بلاغية ونفسية ودعوية ، يحسن بنا أن نستعرضَ ، ونتمثَّل المحيط الدقيق الذي اكتنف هذه الدعوة ، والموقف الرهيب المحرج الشائك؛ الذي وقفه جعفر للكلام والخلفيات التي تختصّ بهذا الموقف.

كان من خبر هذا المجلس الذي دعا إلى هذا الكلام ، والموقف الذي وقفه جعفر بن أبي طالب ، شارحاً للإسلام ، وعارضاً لدعوته ، ما رواه أصحاب السيرة: أنه لما رأى رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يُصيب أصحابه من البلاء ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن لها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه» فخرج عند ذلك جماعة من المسلمين إلى أرض الحبشة ، فكانت أول هجرة في الإسلام ، وكانوا عشرة رجال ، أمروا عليهم عثمان بن مظعون ، ثم خرج جعفر بن أبي طالب ، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة ، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلاً.

ولما رأت قريش أن هؤلاء قد آمنوا ، واطمأنوا بأرض الحبشة؛ بعثوا عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص بن الوائل[(٢)] ، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته مما يُستطرف من متاع مكة ، وقدما على النجاشي ، وقد استمالا البطارقة ، وأرضياهم بهداياهم ، وتكلم في مجلس الملك ، فقالا: إنه لجأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دينَ قومهم ، ولم

---

(١) قاله رسول الله ﷺ في عمرة القضاء ، راجع الجامع الصحيح للبخاري ، كتاب: المغازي ، باب: عمرة القضاء . القصة بطولها «السيرة النبوية» للعلامة الندوي طبع في دار ابن كثير بدمشق.

(٢) وكانا من دهاة العرب.

يدخلوا في دينكم ، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إليك أشراف قومهم من آبائهم ، وأعمامهم ، وعشائرهم؛ لتردهم إليهم ، فهم أبصر بهم ، وأقرب إليهم ، وقالت البطارقة حوله : صدقا أيها الملك ، فأسلمهم إليهما .

*** الوصف الماكر المنفر للاجئين المسلمين :**

تأملوا في هذه الكلمة التي قد صبّ فيها صاحباها ذكاءهما وحنكتهما ، وتجلت فيها براعتهما السياسية الماكرة ، لقد وجَّها إلى فريستهما وهدفهما ـ وهي هذه القلة المؤمنة اللاجئة إلى هذا البلد النائي الغريب ـ سهاماً مسمومة تصيب المقتل ، وقد هوّنا من شأنهم أولاً ، وصوراهم تصويراً يدعو إلى الاستخفاف والسخرية ، فقالا : إنه لجأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، والكلمة لها معنى خاص في بلاط الملك الكبير؛ الذي لا يضمُّ إلا النوابغ من الأمراء والوزراء ، والمحنكين من البطارقة والعلماء ، وقد استفزا في الملك وحاشيته شعورَ المقت والكراهة ، والنخوة والكبرياء حين قالا : «فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاؤوا بدين مبتدع ، لا نعرفه نحن ولا أنتم» .

وقد تظاهرا في هذه الكلمة بالنزاهة والعدل والحياد والتحاكم إلى العقل السليم ، والعرف الشائع ، فما قيمة دين لا يمتّ بصلة بدين من الأديان المنتشرة ، المعترف بها عند الناس وعند الحكومات ، وإنما هو دينٌ محدث ، ينحصر في نطاق ضيق من الشباب الأغمار ، ثم أضافا إلى ذلك قولهما الذي يقبله كلُّ عاقل في عامة الأحوال :

«قد بعثنا إليك أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أبصرُ بهم ، وأقرب إليهم» .

*** الوضع الدقيق المحرج :**

إن هذا الكلام قد صدر عن ذكاء ودهاء ، وقدرة على استمالة الملك ، وحاشيته ، وكسب تأييده ، وعطفه ، وقد زاده قوة وتأثيراً موقف البطارقة ، وبطانة الملك ، فقد قالوا : «صدقا أيها الملك ، فأسلمهم إليهما» إنه موقف

دقيق رهيب ، لو وقفه أي إنسان لحار واضطرب ، وانسدَّتْ عليه الطرق ، ودارت به الأرض الفضاء ، فإما أرتج عليه الكلام ، وإما تورط فيما لا تحمد عاقبته ، ولا تؤمن غائلته ، وكان الواجب على كل من يقف هذا الموقف أن يتحرز مما يثير تساؤلاً ، أو ينقل هذا المجلس الوقور إلى مجلس بحث ومناظرة ، وأخذ وردّ ، ونقض وإبرام ، وكان الواجب عليه كذلك أن يتوقّى من كلِّ ما يجرح شعورَ الملك المسيحي ، الحامي لدينه ، فيعتبره هجوماً على عقيدته ، وما يدين به ، فينبض عرقه المسيحي ، وتتحرك فيه عاطفة الدفاع عن ديانته وأمته ، وكذلك كان يجبُ عليه أن يبتعد عن البحث العلمي الفلسفي ، والتعمق في عرض العقيدة وطرحها ، فقد كان المجلس يضمُّ كبارَ علماء الدين النصراني الذين لا يرون فوقهم أحداً في التقعر ، وشق الشعرة في القضايا الدينية والكلامية .

*** المنهج الحكيم الذي آثره جعفر بن أبي طالب :**

فماذا كان من جعفر بن أبي طالب إزاء هذه الشبكة الدقيقة التي بسطها له رسولا قريش ، وأي منهج فضله للكلام في هذا الموقف الدقيق الرهيب؟

يبدو للقارىء الذي يقرأ ما أجاب به جعفر في مجلس النجاشي لأول وهلة أنه حديث بسيط مرتجل ، تحدث به جعفر ، ولا يتوقّع من عربي نشأ في محيط ضيق منعزل عن العالم ، بعيد عن الثقافة والأساليب السياسية ، أكثر من ذلك .

ولكنه كلام حكيم قد جاء في أوانه ومكانه ، وقد دلَّ على بلاغة صاحبه العقلية ، قبل أن يدلَّ على بلاغته العربية البيانية ، ولا يعلل ذلك إلا بإلهام من الله ، وتأييد هذا الدين الذي أراد الله أن يتم نوره ، وأن يظهر على كل دين ، ويدل على سلامة الفطرة ، ورجاحة العقل اللتين فاق فيهما بنو هاشم قريشاً ، وفاقت فيهما قريش العرب كلهم ، فقد فضل جعفر أن يكون جوابه حكاية حال لما كان عليه أهل الجاهلية في الجزيرة العربية ، ولما آل إليه أمرهم بعد ما أرسل الله رسوله فيهم ، ودعا إلى الله وإلى الدين الحنيفي السمح ، ومكارم الأخلاق ، وآمنوا به واتبعوه ، وحكاية حال ـ خصوصاً إذا

لم يجانب فيه صاحبها الصواب ـ أبعد شيء عن المناقشة والمناظرة ، وأقدر شيء على غرس المعاني المقصودة ، وتحقيق الأهداف المنشودة ، والتهيؤ للتأمل والإنصاف ، وحسن الاستماع.

*** كلمة جعفر بن أبي طالب في مجلس النجاشي:**

والآن اسمعوا ، جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه يتكلم في مجلس الملك ، ويقول:

أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة ، والصيام ـ فعدّد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحلَّ ما كنا نستحلُّ من الخبائث.

فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيَّقوا علينا ، وحالوا بيننا؛ خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك!

*** أثر حديث جعفر في المجلس الملكي:**

يقول أصحاب السير: سمع النجاشيُّ كلَّ ذلك في هدوء ووقار ، ولعل ما أبداه جعفر من الثقة بعدله ، وحسن جواره ، كان عوناً على ذلك ، والملوك العقلاء يحرصون دائماً على حسن الصيت ، وطيب القالة ،

وتحقيق حُسْن الظن بهم ، ثم قال: «هل معك ما جاء به صاحبكم عن الله من شيء»؟

قال جعفر: نعم! قال النجاشي: فاقرأه علي ، فقرأ جعفر صدراً من سورة مريم ، فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم.

وقال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة ، ثم أقبل على رسولي قريش ، فقال: انطلقا ، فلا والله لا أرسلهم إليكم.

*** محنة عقيدة وبديهة:**

ولم تنتهِ المشكلة هنا ، فقد كان على المسلمين أن يواجهوا محنة أخرى ، قد تكون أشد من الأولى ، فقد أطلق عمرو بن العاص آخر سهمٍ من سهام جعبته ، وهو سهمٌ مسموم ، فغدا على النجاشي من الغد ، وقال له: أيها الملك! إنهم ليقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً ، فأقبل الملك على المسلمين ، فقال: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟.

قال جعفر بنُ أبي طالب : نقول فيه ما جاء به نبينا ﷺ ، هو عبد الله ورسوله ، وروحه ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، فضرب النجاشيُّ بيده إلى الأرض ، فأخذ منها عوداً ، ثم قال: «والله ما زاد عيسى ابن مريم على ما قلت مقدار هذا العود».

لو كان رجلٌ مكانَ جعفر بن أبي طالب ، فواجه مثل هذه الأزمة والمشكلة الطريفة ، لم يكن غريباً أن يداهن ، أو يحابي ، أو يراعي دقة الموقف ، ويجيب جواباً سياسياً ، ويخرج من هذا المضيق بكلمة لبقة لا تصرح ببشرية سيدنا عيسى ابن مريم ، وقد كان بليغاً ، حاضر البديهة ، متصرفاً في الكلام ، ولكنه كان ممثلاً للعقيدة الإسلامية الصافية ، خير تمثيل ، قائماً في هذا المجلس الملكي مقام الرسل والأنبياء ، من غير رسالة ولا نبوة ، فما كان له أن يداهن ، أو يمزج الحق بالباطل ، فجاء بكلام صريح واضح ، ولكن في بلاغة وحكمة ، وفي اتزان وتناسب دقيق ، وكلام فصل لا فضول فيه ولا تقصير.

*** انتصار في معركة حامية:**

فكان عاقبة هذا الإخلاص والصدق، ونتيجة هذه البلاغة والحكمة، أنه خرج من هذا المأزق منتصراً كريماً سليماً، وكسب المعركة، وقد جاء في الخبر: أن النجاشي ردَّ المسلمين رداً كريماً، وأمنهم، وخرج رسولا قريش ـ عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص بن وائل ـ من عند الملك مقبوحين، وأقام المسلمون بخير دار مع خير جار[(١)].

ونكتفي بهذا النموذج الرائع من أدب الدعوة، وحكمتها في موقف دقيق رهيب، ومجلس وقور مهيب؛ لرجلٍ من أصحاب النبي ﷺ وأهل بيته، قد آتاه الله الحكمة، وفَصْل الخطاب، وفي ذلك قدوة للدعاة والمرشدين، ودرس للعلماء والمتأدبِّين.

* * *

---

(١) راجع السيرة النبوية؛ للعلامة الندوي (ص: ١٥١ ـ ١٥٥) نقلاً من سيرة ابن هشام (ق ١ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٨).

حكمة الدعوة وصفة الدعاة

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في قاعة المحاضرات بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، في (١٧/ ٤/ ١٤٠٠ هـ) بناءً على طلب من طلاب الجامعة .

وكان الاجتماع حاشداً ، يضمّ الطلاب والأساتذة ومسؤولي الجامعة ، واكتظت القاعة حتى ما بقي فيها موضع إنسان ، ورأس الحفل نائب رئيس الجامعة معالي الدكتور الشيخ عبد الله الزايد .

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

صاحبَ السعادة نائب رئيس الجامعة ، وزملائي الأساتذة ، والمربِّين ، وأبنائي الطلبة المجدين .

إنَّ من الأمثال السائرة في الأدب الأجنبي أن هنالك شيئين لا يخضعان لقانون مرسوم ولحدود معينة ، وهما الحب والحرب ، أما الحبُّ فأتركه للأدباء والشعراء يبحثون فيه ، وأما الحرب فلا شأنَ لي بها ، ولكني أعدلُ عن هذا المثل الأجنبي الذي لا ينمُّ عن روح إسلامية وتفكير إسلامي ، أعدل عنه إلى مثل آخر ، وإلى أصل من الأصول ، وهو أنَّ التربية والدعوة لا تخضعان لقانون مرسوم ، فإن التربية نظام معين خاص ، إنني لا أستهين ـ وأنا أثير هذه النقطة ـ بقيمة المكتبة العظيمة التي ألفت في فن التربية ، ولا أستهين بجهود المربين المطلعين على التجارب العملية ، والمناهج التربوية العالمية ، ولكني قلتُ في مناسبة في حديث كنتُ أتحدث به في إحدى كليات التربية في بلد عربي كبير : إنني أعتقدُ : أن المعلم لا يكون معلماً حتى يكون ملهماً ، وكذلك أقول ، ولا أطلق كلمة الإلهام بمعنى المصطلح الشرعي ، ولكن التربية هي التي تفتق القريحة ، وتشعل المواهب ، وتلهم المعاني البعيدة إذا سنحت لها مناسبة ، وكذلك الدعوةُ لا يمكن أن تخضعَ لقانون خشب مرسوم معين ، وضعه البشر ، أو وضعه رجال الدعوة ، إنَّ من يُخْضِع الدعوة أو الدعاة لقانون مرسوم ، أو لقائمة من رؤوس الأقلام ، أو من الغايات ، ربما يصطدم بتجربة قاسية .

عندنا حكاية لا بأس أن نحكيها أمامكم : إن رجلاً استخدم خادماً، وكان هذا الخادم ذكياً طلب من السيد أن يضعَ له قائمة الواجبات ، ما هي الواجبات التي أكلف بها ، فوضع له قائمة : تعمل كذا في الوقت الفلاني ، وتعمل كذا ، وتذهب إلى السوق وتحضر لنا الحاجيات اليومية من لحوم وخضر، وغير ذلك، وتقوم بالخدمة الفلانية، فأخذ هذه القائمة، واحتفظ

بها ، ومرة ركب هذا السيد جواداً ، ولكنه لسوء الحظ ارتبكت رجله في الركاب ، وأراد أن يتغلبَ على هذه المشكلة فما نجح ، وكان الخادم واقفاً ، فاستعان به وقال: أغثني يا فلان ، فأخرج الورقة من جيبه ، وفتحها ، ومدَّها إليه ، وقال: أين في هذه القائمة أن السيد إذا ارتبكت رجله بالركاب فإني أعينه ، والسيد يعاني مرحلة فاصلة بين الموت والحياة يُخشى عليه أن يسقط ، أو أن يتورط في مرحلة أخرى ، ولكن هذا الخادم اعتمد على هذه القائمة ، وكان أميناً عليها ، مخلصاً لها ، مرتبطاً بها ، فأبى ، ورفض أن يعينه؛ لأنه غير مكلف بهذه الخدمة.

فأخشى أننا إذا قيدنا وفسَّرنا الدعوة بتفكيرات عصرية ، أو تفكيرات عملية تقومُ على التجربة ، وعلى طبيعة العصر ، وعلى طبيعة البيئة ، فإننا نجني على الدعوة ، ونجني على المجتمع.

ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد حلَّ هذه المشكلة ، وجاء القرآن المعجز ، الكتاب الخالد ، الكتاب الذي لا تبلى جدتُه ، فتوسط بين التفريط والإفراط ، وقال: ـ وإني أحمد الله تعالى ـ على أن القارىء اختار هذه الآية في تلاوته ـ وهذه معجزة من المعجزات القرآنية التي لا تعد ولا تحصى ، والمعجزة لا يستحضرها الإنسان إلا إذا عاصرها ، وعاشها.

ولما وقع حادث وفاة الرسول ـ ﷺ ـ وغلب المسلمون على أمرهم ، فقد كثيرٌ منهم رشده ، وقف سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ يقول: من قال: إن محمداً ـ ﷺ قد مات فسأضرب عنقه ، فجاء سيدنا أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وتلا هذه الآية الكريمة:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] الآية.

هنالك ذاق المسلمون ـ وفيهم كبار الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لذة هذه الآية ، وشهدوا روعتها ، وإعجازها ، وكأنما نزلت الآية الساعة ، ونحن لو قرأنا هذه الآية مئات من المرات لم نذق هذه اللذة ، ولم نشعر كما شعر الذين قد شهدوا هذا الحادث الفريد في تاريخ الأمم ، وفي تاريخ الديانات.

وكذلك قوله تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل: ١٢٥] الآية.

تستشعرون إعجاز القرآن في قوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ وتشعرون بمدى أبعاد الإطلاق الذي جاء في هذه الآية، وأبعاد التقييد الذي جاء فيها فأطلق، وقال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ ما حدد وما عين شيئاً معيناً خاصاً، فمثلاً تحثون على الصلاة، تدعون الناس إلى مكارم الأخلاق، تدعون الناس إلى الفضيلة، تدعون الناس إلى الشعور بكرامة الإنسانية، و﴿ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ يحوي كل شيء، إنه يمتد ويسع الآفاق، ليست هذه الآفاق فقط، إنها آفاق الحاجات الإنسانية، آفاق الحياة الإنسانية، فاستحضروا الإعجاز الكامل في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ ﴾ وهو لا يختصُّ بالخطابة، ولا يختصُّ بالكتابة، ولا يختص بالوعظ والنصيحة، إنما قال: ﴿ ٱدْعُ ﴾ والدعوة عامة تشمل هذه المعاني كلها، وهذه الأساليب كلها، ثم قال: ﴿ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ وأي كلمة أوسع أفقاً، وأوسع إطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾؟!

أعترف أمامكم أن الحكمة ـ الكلمة البليغة العربية التي جاءت في الآية ـ لا أعتقدُ أنها من الممكن ترجمتها، أو نقلها إلى لغة أخرى، وكذلك «الموعظة» كلمة مطلقة، والحسنة أيضاً كلمة مطلقة، وهنا جاء القرآنُ يحلُّ هذه المشكلة، فأطلق وقيد، وأوجز وأعجز، فقال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ ﴾ الآية.

ولكن هناك نماذج من الدعوة الحكيمة، نماذج رائعة خالدة على مر العصور، وعلى مر التاريخ، وعلى مدى تاريخ الدعوة، جاءت في القرآن، وأختار منها نموذجاً جاء في القرآن، ونموذجاً جاء في السيرة النبوية المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ.

من هذه النماذج تستطيعون أن تفسروا الدعوة، وأن تطبقوها تطبيقاً عملياً، وأن تستلهموا المعاني الدقيقة التي انطوى عليها هذا النموذج الرائع، فأذكر ـ أولاً ـ قصة دعوة سيدنا يوسف ـ عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام ـ التي جاءت مفصلة في سورة يوسف، يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٣٦].

إخوتي، استحضروا ـ أولاً ـ الملابسات التي رافقت هذه الدعوة، والجو الذي اكتنف هذه الدعوة، لم تكن هذه الدعوة إلى الله بالأمر الميسور وبالأمر الهين، إنها تنطلق في جوّ رهيب مظلم، قلق، في بيئة تقف سدّاً منيعاً أمام الغاية النبيلة الشريفة؛ التي يتوخَّاها سيدنا يوسف عليه السلام، إنه دخل السجن كرجل متهم بجناية شنيعة، وموقف المتهم دائماً؛ موقف ضعيف، فهو لا يكون في موقف الداعي الكريم المبجَّل الذي تجلُّه القلوب، والداعي الوقور المحترم، وهو وإن كان بريئاً من هذه الجناية كبراءة الذئب من دمه كما يقوم المثل العربي، ولكن الحادث كان قد وقع، التهمة قد وجِّهت، والمحكمة قد حكمت، وشاع في الناس أن يوسف قد ارتكب جريمة شنيعة، إنه خان سيده في أعزِّ ما عنده، وفي أكرم ما عنده، هذا موقف ضعيف، ولكن سيدنا يوسف لما دخل السجن لفت الأنظار، وحلَّ في القلوب موقع الحبيب الأثير المفضل المكرم، وكان ذلك من التخطيط الحكيم، وتقدير العزيز العليم.

إنَّ زميلين من زملاء السجن، وإن لم يكونا زميلين له؛ لأنه الكريم ابن الكريم ابن الكريم، وأما هما فقد ارتكبا جنايات خُلقية، ولكن على كل حال جمع بينه وبينهما سجن واحد، ومعتقل واحد، رأى كلٌّ منهما رؤيا، وألهمهما الله ـ تعالى ـ كما أنهما عرفا بتجربتهما وفراستهما الإنسانية ـ التي يكون لكل إنسان حظّ منها ـ أن الرجل الوحيد الذي يستطيعُ أن يفسر هذه الرؤيا هو يوسف، هذا الذي دخل السجن جديداً، وكانت تلوحُ عليه سيما النجابة والنسب الرفيع وسيما الصالحين، فجاءا إليه، وحكى كل واحد منهما رؤياه:

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ ﴾ [يوسف: ٣٦] الآية.

فالنقطة التي أريدُ أن أنبهكم عليها ، وستكون هذه النقطة مَدَداً لكم ، وتقوم مقام مئة كتاب .

إنَّ هذه الآيات تشتملُ على نقطتين ترجعان إلى علم النفس ـ وعلم النفس عالمي بشري ـ أولاً : التأكيد لهما أن يوسف يستطيع أن يفسر النبأ الذي جاءا لأجله وقصداه ، وأنه لم يكن هذا القصد خطأً ، وأنهما ما ضلاَّ السبيل ، إنما وصلا إلى غايتهما ، وهو الرجلُ المطلوب الذي يستطيع أن يرشدهما ، فإن الأصلَ النفسي العميق أن صاحب الحاجة يريدُ أن تُقضى حاجتُه في أقرب وقت ، المريض إذا ذهب إلى طبيب يشخص المرض ، ويصف الدواء ، والطبيب يماطله ، ويماطله ، يقول : سأراجع الكتبَ من مصادرها الطبية ، وسأراجع فلاناً وفلاناً في البلد ، ثم أحاول أن أعالجك ، والمريض المسكين يتألم قلبه ، وينقطع أمله ، ويرجع خائباً ، وربما لا يرجعُ إليه بعد ذلك .

فالشيء الأول أن يثيرَ الإنسانُ الثقةَ في ذلك الرجل الذي ساقته الحاجة إليه ، ويقنعه بأن علاجه عنده ، وأن طلبته وحاجته ستُقضى عنده ، فقال : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ [يوسف : ٣٧] الآية .

يعني : أن حاجتهما ستُقضى سريعاً؛ لأنهما كانا في السجن مرتبطين بقوانين السُّجون والمعتقلات ، فما كان لهما أن يجلسا بجواره ـ طويلاً ـ فأراد أن يطمئنهما أن حاجتهما ستُقضى سريعاً ، فقال : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا ﴾ الآية ، وهنالك تفسيران للآية :

١ ـ التفسير الأول : أن سيدنا يوسف عليه السلام قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله ، أي : تأويل هذا الطعام ، يعني : حقيقة هذا الطعام ، فإنه أراد أن يوجدَ الثقة فيهما عن طريق إظهار قدرته على التنبؤ بشيء لم يره ، فاستعان به على إيجاد الثقة في نفوسهما .

وأنا لا أستسيغ هذا التأويل ، أولاً لأنه إخبار بالغيب ، ثم إن السجون ليس هنالك تنوع كبير في الأطعمة ، فباستطاعته ـ بكل سهولة ـ أن يخبرهما

بنوع الطعام الذي سيحضر ، فأي ألمعية لسيدنا يوسف عليه السلام ، وأي براعة له في الإشعار بنوع الطعام الذي سيحضر ، وجاء في التوراة أن سيدنا يوسف عليه السلام ، كان مشرفاً على المطعم ، إن صحَّ هذا فإنه لا غرابة لمشرف المطعم في أن يخبر أي نوع من الطعام سيحضر ، فأنا أميلُ إلى التفسير الثاني الذي ورد في بعض كتب التفسير ، وهو أنه لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويل هذه الرؤيا حتى يطمئنا أنهما لا يحتاجان إلى جلوس طويل ، ولا يملان ، ولا يأتي السجان فيقول : اذهبا إلى مكانكما ، ومن الذي أذن لكما بالحضور هنا ، فقال : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما .

وكانت مصر على جانب كبير من الحضارة ، وتنظيم الحياة المدنية ، فالمفروض أنه كانت هناك مواعيد مضبوطة للطعام ، وكان وقت الطعام قد حضر ، فلذلك قال : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ ﴾ الآية .

ثم هنا نكتة حضرت لي الآن ، وهي أن بين المسجونين وبين الطعام الذي يأكلونه في السجن صلة قوية ، فلما ذكر الطعام أثار فيهم الشوق ، وانتعشت قلوبهم بسماع ذكر الطعام ، فالطعامُ حبيبٌ إلى كلِّ إنسان ، ولكنه إلى المسجون أحب وألذّ وأشهى ، فلما ذكره يوسف انتعشت نفوسهما ، وتهيأت آذانهما ، فقال : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ ﴾ الآية .

ثم تثور فيه الطبيعة النبوية ، فلا يرد الفضل في ذلك إلى ذكائه ، ولا إلى براعته ، بل يرد الفضل إلى الله ، ومن هنا ينتقل انتقالاً حكيماً قلَّما يوجد له نظير ، فقال : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ فكان المدخلُ الكريمُ إلى النصيحة التي يريدها ، وانظروا : كيف ينتقل من تفسير الرؤيا ـ قبل أن يفسِّرها إلى الدعوة الحكيمة ، وكان ذلك مما لا يسيغه ولا يتحمله هؤلاء المسجونون الذين ساقتهم الحاجة إليه ، وكانا قد فزعا بهذا الرؤيا المفزعة ، وجاءا فزعين مرتاعين ، فكيف يحتملان هذا الحديث الطويل ، فقال لهما بأنه لا يرجع الفضل إلى ذكائي وبراعتي ، بل يرجعُ الفضل إلى الله ـ تعالى ـ ومن هنا يدخل من هذا المدخل اللطيف الرقيق الخفيف على النفوس إلى

الدعوة ، تستحضرون حكمته في الدعوة أنه لم يكن يستطيعُ أن يقول : صبراً أيها الإخوة ، أيها الزملاء الكرام ، سأفسِّر لكم الرؤيا ، ولكن اسمعوا مني أولاً ، إن هناك شيئاً أهم من هذا ، كيف كانوا ينشطون لسماع هذا الكلام ، وهذا الحديث الذي لم يتعوَّدوه ، وما جاؤوا لأجله ، فقال من غير انفصال طويل ، بل في لحظة واحدة :

﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ استحضروا الجو الذي وقعت فيه هذه الدعوة الحكيمة التي لا أعرفُ مثلها دعوة إلا دعوة الرسول ـ ﷺ ـ وسأعرض عليكم نموذجاً منها ، ولم أمر بأي نموذج من نماذج الدعوة في تاريخ الدعوة وتاريخ الدعاة أدق وأعمق منها ، حيث بدأ الحديث بقوله : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ ﴾ إلى أن قال ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ كيف انتقل إلى الحديث عن الرب وإلى التوحيد ، هل هنالك انتقال أخفّ وأرق وألطف وأسرع من هذا الانتقال ، فكأنه يقول : ما كنت لأفسِّر لكم هذه الرؤيا ، وأنا الإنسان الضعيف العاجز ؛ الذي لم أملك نفسي أمام هذا الأمر ، وأراد الناس أن يزجُّوني في السجن ، فلم أستطع أن أقاومهم ، وكيف يستطيع الإنسانُ الضعيف العاجز الذي يُساق إلى السجن ، فلا يملك شيئاً ؛ أن يصل إلى هذه القمة الشامخة من العلم بنفسه ، بل ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ .

ثم أثار سؤالاً آخر وهو : لماذا علمني ربي؟ ومن هنا انتقل انتقالاً آخر : إنها رحلة طويلة في طريق الدعوة ، ولكن سيدنا يوسف بحكمته ، وبروحانيته الشفافة ، وقلبه المشرق ، وبفكره النقي الرباني استطاع أن يطوي هذه الرحلة الطويلة التي قد يطويها الدعاة ، والحكماء ، والفلاسفة في عدد من السنين ، استطاع أن يطويها في لحظة واحدة ، فقال : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ .

هنالك شعر سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ أنه الآن في موقف قوي ، في موقف عال ، كأن طلع جبلاً ، أو ربوة عالية : فقال : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ وكان لو قدم هذا قبل ذلك الكلام ، لكان كلاماً ثقيلاً على آذانهما وعلى قلوبهما ، ولكن هنا استطاع أن

يقول ، وحق له أن يقول: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ لاحظوا هذا التقديم والتأخير ، ولاحظوا هذا الترتيب القرآني ، الترتيب الحكيم ، وكان لو استمر في الكلام ، كان الكلام ممجوجاً ، ولكنه شعر بقوة في نفسه ، وشعر بحسن استماع منهم لما كان يقرأ في وجوههم أنهم تهيؤوا لاستماع هذا الصوت الذي يأتي من السماء؛ لأنه دعوةُ الله للعبيد عن طريق الأنبياء والمرسلين ، فقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ أشعروا بالنبرة التي تختلف عن النبرة الأولى ، كانت النبرة الأولى رفيقة لطيفة خفيفة ، فجاءت هذه النبرة قوية متدفقة بالحياة ، متدفقة بالثقة ، وكان ذلك من أقرب الطرق إلى فهمهم ، أما لو استعان بأشياء منطقية وكلامية؛ لما كان لهم أن يفهموا منه ذلك .

ثم قال: ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ إنها أسماء من غير مسميات ، إنها أسماء لا حقيقة لها ، أسماء عند اليونان وأسماء عند البراهمة الوثنيين وأسماء عند غيرهم من أمثالهم ، إن الإعجاز القرآني يكمن في أنه أطلق عليه كلمة الأسماء ، إن الذي قرأ تاريخ الديانات وتاريخ الميثولوجيا يعرف إعجاز هذه الآية أنه ليس هناك إلا أسماء محضة ، أين الآلهة؟ أين إله المطر؟ وإله الحرب؟ أين إله الحب؟ وإله الجمال؟ أين هذه الآلهة التي لا وجودَ لها إلا في الذهن وفي القائمة؟ ﴿ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ ولا تزال هذه الآية معجزة إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها ، وليست الوثنية إلا أسماء ، وقد فضح القرآنُ الوثنية بقوله: ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ .

وهنالك شعر سيدنا يوسف بأن الفراغَ الذي وجد في قلوبهم قد مُلِيء ، وليس من الحكمة الآن أن يطيلَ الكلام ، ويتوسَّع في الحديث عن التوحيد ، إنها طريقةُ الداعي الملهم ، الداعي المؤيد من الله ، إنه يشعرُ أنه قد وصل إلى نقطةٍ لا يجوزُ له أن يتخطاها؛ ولأجل ذلك فإنَّ مَنْ يضع القوانين المحددة للدعوة أو التربية يجني عليها ، على إطلاقها وحريتها

وحيويتها ، ويجني على الدعاة ، ولما شعر سيدنا يوسف أنه لا تتسع نفوسهم ، ولا تتهيأ لسماع نصيحة أكثر من هذا ؛ وقف ، وبدأ يفسر الرؤيا .

وقد تجلَّى في هذه القطعة القرآنية جمال يوسف ، الجمال الحقيقي ، الروحي ، والجمال الفكري ، والجمال النبوي في أروع مظاهره .

ولكن من الغريب أن هذه القطعة المعجزة قد تجرَّدت عنها التوراة ، فقد قارنت بين قصة يوسف في القرآن ، وقصة يوسف في (Bible) فدهشت عند ما رأيت أن هذه القطعة التي هي من أجمل القطع الأدبية ، فضلاً عن أنها من القطع الدينية التي لم ترد في التوراة ، تجد فيها الأعداد والأرقام والمساحة ، كان الشيء الفلاني كذا من الأذرع والأشبار ، ولكن تجرد العهد القديم (Bible) بطوله وعرضه عن هذه القطعة الجميلة ، وتعرض للتابوت أن كان كذا من الأمتار ، وأن لباسه كان كذا وكذا ، وأنه تشقَّق من هنا وهناك ، ولكن هذه القطعة التي تسحر النفوس ، وتلهم المعاني ـ التي لم تتعرض لها التوراة ـ تمثل نموذجاً رائعاً من نماذج الدعوة في القرآن الحكيم .

وأذكر لكم نموذجاً رائعاً آخر :

إن رسول الله ـ ﷺ ـ لما وزع سبايا ومغانم حُنين في الجعرانة على أشراف قريش ، كما تعرفون ، وقرأتم في السيرة ، أنه أعطى قريشاً ، فأجزل لهم العطاء ، أعطى أبا سفيان ، وعكرمة بن أبي جهل ، وفلاناً وفلاناً ، وكان نصيب الأنصار فيها قليلاً ، اعتماداً على إيمانهم ، وعلى حبهم ، وصلتهم الدقيقة العميقة الدائمة بالإسلام ونبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

هناك تقاول بعضُ الشباب ، فقالوا : إن رسول الله ـ ﷺ ـ خصَّ بني قبيلته بأكبر نصيب من العطايا والمغانم ، وبلغ هذا رسول الله ـ ﷺ ـ فحسب له حساباً ؛ لأنه النبي المربي ، وليس النبي فقط ، فأمر بجمع الأنصار في حظيرة فاجتمعوا ، وقال : «لا الحظيرة إلا الأنصار» ولما اجتمعوا كلهم قال لهم :

«ما هذه القالة التي بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم» .

فاستحيوا وقالوا: لا شيء يا رسول الله ، إنما هم بعضُ الشباب قد وسوس لهم الشيطان ، ثم قال: «أما أتيتكم ضلالاً فهداكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: لله ولرسوله المن والفضل!

ولم يبتدر الرسولُ ـ ﷺ ـ بالكلام ، بل أراد أن يتكلم بلسانهم ، فأثار فيهم الشعور الإنساني ، وألهمهم المعاني ، فقال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل ، قال: «والله لو قلتم ولصدقتم ولصدقتكم ، أتيتنا مكذَّباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فواسيناك؟» أي زعيم ، وأي قائد ، وأي مربّ ، وأي صاحب فضل يستطيعُ أن يشهدَ على نفسه بهذا؟ والله لولا أن هذه الكلمات قد وردت في السيرة النبوية ، وفي حديث صحيح أصله في الجامع الصحيح للبخاري ، وقد ذكره الحافظ ابنُ القيم في «زاد المعاد» بسياق أوسع وأشمل ، لولا أنها قد وردتْ في الصحاح وفي كتب السيرة؛ لما كان لأي مسلم أن ينطق لسانه بهذه الكلمات: أما أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك!

ثم قال بعد أن أثار نفوسهم ، وأجرى عيونهم ، وفتح الأغلاق من قلوبهم: «يا معشر الأنصار! أوجدتم عليّ في لعاعة من الدنيا ، تألَّفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم؟!» انظروا ، كيف أوجد في نفوسهم الثقة؛ التي كانت كفيلة بحسم كل ما ساور نفوسهم ـ إن كان هناك شيء قد ساور نفوسهم ـ وقال: «أوجدتم عليَّ في لعاعة من الدنيا (واللعاعة: خضرة ناعمة) تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم» ثم قال الكلمة المثيرة البليغة التي ما يمكنُ أن تطلق ، أو تنطلق من فم إلا وتفجر الأنهار ، وتشق الصخور ، وتأتي بالمعجزات.

«أما ترضون يا معشر الأنصار ، أن يذهبَ الناسُ بالشاء والبعير إلى رحالهم ، وترجعون برسول الله ـ ﷺ ـ إلى رحالكم؟! والله لولا الهجرةُ

لكنت امرأً من الأنصار ، ولو سلك الناسُ شِعْباً ووادياً ، وسلكت الأنصار شعباً ووادياً لسلكتُ شِعْب الأنصار ووديها ، الأنصار شعار ، والناس دِثار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار» ويحلو لي أن أقول ، وأردِّد هذا الكلام في مدينة الأنصار :

«اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار» ثم ماذا كان؟ كان الشيء المتوقع الطبيعي؛ هملت عيونهم حتى أخضلت لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله ـ ﷺ ـ قسمةً وحظاً .

والله لو بحثنا ـ ولي مشاركةٌ في بعض اللغات غير العربية فضلاً عن لغتي الأردية ـ لو بحثنا في أدب الأمم والديانات ، ما وجدنا موعظةً أبلغ من هذه الموعظة ، وعلماً بالنفس الإنسانية أكثر عمقاً وأكثر صِدْقاً من العلم النبوي .

هذان النموذجان من أروع النماذج التي دونت وسجلت في الآداب البشرية ، وفي المكتبات الإنسانية .

أيها الأخوة ، أقول لكم ـ والوقت ضيق ـ إن الأشياء الكفيلة الضامنة بنجاح الدعوة إنما هي عوامل معدودة ، أستطيع أن ألخصها في عاملين أساسيين :

أولهما : أن تملك الفكرة ، وتهيمن على مشاعر الداعي ، وإن تجري منه مجرى الروح والدم ، وأن تمتزج بنفسه . هنالك يكون الداعي هو الداعي الموفق الملهم المؤيد من الله؛ الذي سيكتب له النصر ، ولا يكتب له أي إخفاق أو فشل .

فالشرط الأول ألا تكون الدعوة صناعة ، أو حرفة ، أو فناً ، وألا تكون حذلقة ، ومجرد براعة في الخطابة ، بل تكون عقيدة وفكرة ، وإيماناً يستحوذُ على النفس الإنسانية ، ويملأ جميع جوانب النفس ، حتى إذا أراد الإنسان أن يتخلى عنها لم يستطع ، ولم يقدر . هذا كان شأنُ سيدنا أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ يوم الردة ، هل تستحضرون الكلمة الخالدة التي نطق بها ، والتي غيَّرت مجرى التاريخ .

طلب مني أن ألقي الكلمة الأخيرة في المؤتمر الآسيوي الإسلامي الأول

في كراتشي ، وأمامي نخبة من قادة الفكر الإسلامي ، ومن قادة العالم الإسلامي ، فاستعنت بهذه الكلمة ، وقلت لهم : ما هي تلك الكلمة التي ستكون رائدة هذا المؤتمر ، فيحملها الذين ينصرفون من هذا المؤتمر ، قلت لهم : إن الكلمة التي تحملونها من هنا هي الكلمة التي جرت على لسان أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ يوم الردة ، ومنع الزكاة : «أينقص الدين وأنا حيّ؟» .

أنتم المسؤولون أمام الله يا إخوتي الطلبة ، يا أبنائي شباب المسلمين والعرب ، أنتم مسؤولون أمام الله ، درستم في هذه الجامعة المباركة ، وأي مكان أقرب إلى مدرسة الرسول ـ ﷺ ـ وإلى صفة المسجد النبوي؛ التي درس فيها كبار الصحابة ، وحفظوا ووعوا أحاديث رسول الله ـ ﷺ ـ وتخرج منها مثل أبي هريرة راوية الحديث ، ووعاء من أوعية العلم ، أي جامعة أقرب إلى هذه المدرسة من هذه الجامعة؟! إذاً فمن أي جامعة نتوقّع أن يخرج منها دعاة تملكهم الدعوة؟!

والله ، لو استطعت أن أنقشَ هذه الكلمة على صدر كل واحد منكم لفعلت ، يا ليتها كانت هذه الكلمة مكتوبة في كل بيت على لوحة بقلم عريض : «أينقص الدين وأنا حيّ؟»

أما الشيء الثاني : فهو التجرد عن المطامع ، والزهد في الدنيا ، لا أعني به زهداً نصرانياً ، ولا زهداً رهبانياً ، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد : ٢٧] الآية .

ولا رهبانية في الإسلام ، ولكن الدعوة تحتاج إلى شيء من سمو النفس ، وعلوّ الهمة ، والتجرد عن المطامع ، والزهادة في المناصب والوظائف الكبيرة .

إنَّ من توجهون إليهم الدعوة إذا علموا أنكم تنافسونهم في ملكهم ، وفيما وسّع الله به عليهم ، فإنهم يشكون في إخلاصكم ، ويكونون حرباً عليكم ، فأوضحوا لهم أنكم لستم طلاب ملك ، ولا منتجعي جاه ومنصب ، ولا رواد ثروة ورخاء ، أو مدفوعين من شح وحرص .

قيل لشيخ الإسلام ابن تيمية: يقال: إنك تريد الملك، فقال في دهشة وقوة: أنا أريد الملك؟! والله، إن ملك التتار لا يساوي عندي درهماً. وقد كانت دولةُ التتار أكبر دولة، وأكبر قوة على وجه الأرض في ذلك الحين.

وإن أحد المربين في الهند الذي نفع الله به خلقاً كثيراً، عرض عليه ملكُ دهلي مالاً طائلاً، فقال له: لا شأنَ لي به، قال: لا بُدَّ من أن تقبل شيئاً مما أعطاني الله. فقال: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] فإذا كانت الدنيا كلها قليلة، فقارة آسيا ـ طبعاً ـ أقل منها، والهند أقل منها، ثم دهلي أقل منها، وأنت لا تملك إلا هذا، فكيف أرزؤك في هذا الزهيد اليسير؟!

وأحكي لكم قصة وقعتْ في دمشق، كان الشيخ سعيد الحلبي من كبار الأساتذة والمربين في القرن الماضي، وكان ـ مرة ـ يلقي درساً في جامع من جوامع دمشق، فجاء إبراهيم باشا ـ الحاكم العام لسورية ـ وإبراهيم باشا مَنْ تعرفونه في القسوة والعنف ـ ودخل ووقف أمام الباب، وكان الشيخ يشكو ألماً في رِجْله، وكان مادّاً رِجْله إلى الأمام؛ لأنه كان مستنداً إلى جدار المحراب، ويُلقي الدرسَ، فكانت رجله إلى الباب، فدخل إبراهيم باشا ومعه المحافظون العسكريون والشرطة، فانتظر وتوقع أنه سيقبض رجله، ولكنه لم يفعل، وخاف أصحابُه عليه من السيف، وقبضوا ثيابَهم لئلا يصيبها دمٌ زكي، دم عالم تقي، وبقي إبراهيم باشا واقفاً، ثم رجع، وأرسل صرَّة من دنانير ذهبية مع أحد الخدم، وقال: تقدم إلى سيدنا الشيخ سعيد الحلبي، وتقول له: هذه هدية من إبراهيم باشا، فلما جاء بها الخادم إليه، قال كلمته البليغة الحكيمة التي هي أبلغ من ألف قصيدة، قال: قل لسيدك: إن الذي يمدُّ رجله لا يمدُّ يده.

فالإنسانُ مخير، إما أن يمدَّ رجله وإما أن يمدَّ يده، فإذا مدَّ رجله لا يسوغُ له أن يمدَّ يده؛ لأنه تناقض.

وقد جُبل الناسُ على حب مَنْ زهد فيما عندهم، والبغض لمن يُنافسهم فيما يحرصون عليه، هذه هي الطبيعة البشرية منذ آلاف السنين ولا تزال،

فأنتم إذا أردتم أن تؤثروا في نفوس مَنْ توجهون إليهم الدعوة ، فأوضحوا لهم أولاً ، وطمئنوهم أنكم لستم طلاب ملك ومال ، وطلاب رئاسة وجاه ، وطلاب مكاسب ووظائف ، إنما أنتم تفعلون ذلك شفقة عليهم ، ورقة بهم ، وعطفاً عليهم ، وخوفاً من أن يصيبهم مكروه .

أنا تلميذٌ صغير لتاريخ الإصلاح والتجديد ، وإن هواياتي وإن كانت متعددة ، ولكن تأتي في مقدمتها هوايتي في التاريخ ، وخاصة تاريخ الإصلاح والتجديد ، فما رأيت تجربةً في القرون الأخيرة ـ أعني بعد القرن الثامن على الأقل ـ أنجح وأكثر توفيقاً من تجربة الإصلاح والتجديد التي قام بها الشيخ أحمد السرهندي في القارة الهندية ، وقد حكيتُ قصته في الجزء الرابع من كتابي : «رجال الفكر والدعوة» الذي سيصدر إن شاء الله قريباً باللغة الأردية ، وستقرؤون هذه القصة بالتفصيل .

تقرؤون فيه أنه كيف استطاع الرجلُ الأعزلُ المجرَّد من كل سلاح ، والمجرد من كل ثروة مادية ، والمجرد من كل جيش ؛ أن يحول التيار في الإمبراطورية المغولية العظمى التي كانت في الدرجة الثانية بعد الإمبراطورية العثمانية الكبرى في الشرق الأوسط ، وفي البلاد العربية والتركية ، إن هذه الإمبراطورية التي لم تكن إمبراطورية ـ بعد الإمبراطورية العثمانية ـ أكبر منها مساحة ، وأكثر منهما فتوحاً ونجاحاً ، وكان على رأسها الملك القوي القاهر ؛ الذي اتسعت لها الفتوحات الواسعة العظيمة ، وهو جلالُ الدين أكبر ، وكان هذا الإمبراطورُ نشأ في قلبه عداء للإسلام ، وحقد عليه ؛ لأنَّ من ينحرف عن الإسلام ، ويثور عليه أقبح وأشد من الذي نشأ في الكفر ، كما حكيتُ لكم في حديثي بالتفصيل في محاضرتي بعنوان : «عاصفة يواجهها العالم الإسلامي والعربي» وفي هذه الجامعة نفسها ، ولأن الذي يخرج من النور إلى الظلام يكون أعمش ، وأقل إبصاراً من الذي نشأ في الظلام ، ثم إنه يُصاب بمركب النقص .

فكان الإمبراطور جلال الدين ، نشأ فيه عداء شديد للإسلام ، ومن الأمثلة على ذلك أنه ما كان يستطيع أحدٌ في بلاطه أن يسمِّي ابنه محمداً ؛

لأنه كان يكره هذا الاسم ، فترك الناسُ التسمية بهذا الاسم ، وكان من يذبح بقرة في عهده يُعاقب بالقتل ، وكان قد فتح الخمارات ، وشجَّع الناس على شرب الخمور ، وأكل لحم الخنزير ، وكان قد تأثر بالبرهمية والوثنية الهندية . كان يتجّه بالمملكة إلى الطابع الهندي البرهمي ، والفلسفة الهندية القديمة[١] .

هنالك قيَّض الله ـ تعالى شأنه ـ لمكافحة هذا التيار ومقاومة هذه الفتنة العظيمة الشيخ أحمد السرهندي (٩٧١ ـ ١٠٣٤ هـ) . فجلس في ركن من أركان بيته ، وبدأ يفكر في شق الطريق لمكافحة هذا التيار ، فجعل يراسل الملك وأهل البلاط ، من الوزراء الكبار ، والأمراء العظام ، ويثير فيهم النخوة الإسلامية ، والحمية الدينية ، ويقول لهم : يا جماعة ، أنتم مسلمون وأولاد المسلمين ، وقد شرفكم الله تعالى بنعمة الإسلام ، ورغم ذلك نرى أتباع محمد ﷺ ـ وهو حبيب رب العالمين ـ أذلاء في هذه البلاد التي فتحها المسلمون ، وأراقوا عليها أزكى دمائهم ، وصرفوا لها أفضل عبقرياتهم ، وأحسن مواهبهم ، كيف تحتملون هذا الوضع ، وكيف ترضون بذلك يا عباد الله؟ .

صار يثيرُ فيهم كامن الإيمان ، ويحرك فيهم العرق الإسلامي؛ الذي لا يخلو منه قلب أيّ مسلم ، وما زال يثيرُ فيهم النخوة الإسلامية ، ويواصل العمل ، وبقي هكذا مدة طويلة يراسل ، ويكتب ، ويقابل ، حتى كسب عدداً من الأمراء ، فكانوا أنصاره وتلاميذه ، ومات جلال الدين أكبر ، وخلفه ابنه نور الدين جهانكير ، وطلبه إلى بلاطه ، ولم يسجدْ له الشيخ تعظيماً كما كانت العادة في البلاط ، فسجنه ، فبقي في السجن سنتين ، ثم أمره بأن يبقى في المعسكر ويُرافقه لمدة ثلاث سنين ، فصبر على هذه الحالة ، وعرف جهانكير أنه من طراز آخر ، وأنه عالم رباني مخلص ، زاهد في الدنيا ، محب للخير ، فأحبه وأجله وبدأ يهتم برفع شعائر الإسلام ،

(١) راجع للتفصيل محاضرة العلامة الندوي في هذا الجزء بعنوان : «الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها» .

وبناء المساجد في المناطق والقلاع التي كان يفتحها ، واحترام الإسلام والمسلمين.

ولم يزل يجري اتصالاته بالأمراء المسلمين وكبار الوزراء؛ حتى كون مجموعة مؤمنة ذات حمية دينية ، فقلب التيار ، وغيّر مجرى التاريخ ، فكان جهانكير أفضل من أبيه أكبر ، وكان ابنه شاهجهان أفضل من أبيه جهانكير ، ومما يدلُّ على ذلك أنه لما صنع له «عرش الطاووس» الذي صرف عليه الملايين ، وتربع عليه نزل بعد هنيهة ، وقال: لقد كان فرعون سفيهاً ، إنه جلس على عرش آبنوس ، وادعى الألوهية ، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] ولكني أنا مسلم ، ثم سجد لله شكراً ، ثم جلس على العرش.

وخلفه أورنك زيب عالمكير ، ذلك الذي دوَّن الفتاوى الهندية ، وطبّق الأحكام الشرعية ، ونصب الجزية على الهندوس ، وكان من أفقه الملوك؛ الذين عرفناهم في العصور الأخيرة ، ومن أغير الملوك على الإسلام ، ومن أكثر الناس حرصاً على اتباع السنة ، لا تفوته جمعة ولا جماعة ، وحفظ القرآن الكريم ، وجمع أربعين حديثاً وشرحها.

كل ذلك بجهود رجل واحد فقير أعزل ، ولكنه تملكته العقيدة ، وسيطرت عليه الفكرة ، وتشبثت به الغاية النبيلة ، حتى أصبح لا يملك نفسه ، ولا يقدر على التحوُّل من موقفه ، وقد أثبت للملوك أنه لا يريد الملك ، وقال لهم: إذا صلحتم أنتم فأنتم أولى للحكم ، لا أشاطركم ، ولا أنافسكم في ملككم ، وأدعو الله تعالى لكم بالتوفيق والنجاح ، وخذوا أنتم الزمام بأيديكم ، وطبقوا الأحكام الشرعية ، وتوجهوا بهذه البلاد إلى الإسلام.

هذان عاملان أساسيان في رجال الدعوة: أحدهما: تملك الفكرة ، وسيطرتها على نفسه ، والثاني: التجرُّد عن المطامع الدنيوية ، والزهد في المناصب والملك.

وأكتفي بذلك ، وأرجو أن يكون هذا بلاغاً للمستمعين النبهاء الأذكياء ،

أبنائنا ، أبناء الجامعة الإسلامية ، وعسى الله أن ينفعنا جميعاً لما فيه خير الإسلام والمسلمين.

وأعود فأقول لكم: إنه ينبغي أن تكون كلمتكم الرائدة: «أينقص الدين وأنا حي؟»

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

أميـر قـافـلـة الأمّـة الإسـلامـيَّـة الـيـومَ

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في حفلة أقامها البروفيسر عبد الغفور (وزير الزراعة والصناعة في حكومة باكستان) ترحيباً وتكريماً له ، وذلك لدى ختام المؤتمر الإسلامي الآسيوي الأول في ٩/يوليو/ ١٩٧٨ م ، وقد حضرها قادةُ الأحزاب السياسية المختلفة ، وممثلو الجبهات الدينية والشعبية والاجتماعية والثقافية ، وخيرة المثقفين والأدباء ، والصحفيون ، ورجال العلم والدين .

قال بعد الحمد والصلاة :

الحديث الذي يصدر عن القلب فينفذ في القلب :

أيها السادة ، أشكركم أولاً على هذا الحب والثقة اللذين وضعتموهما فيّ ، وتجشمتم الحضور للاستماع إلى حديثي رغم تهطال الأمطار.

إن هنالك مناسبات تجعل الإنسان يـرى اللغة والكلمات ـ التي هي وسيلة عادية للتعبير عن الأفكار والعواطف ، والمشاعر والأحاسيس ـ عاجزة قاصرة عن التعبير والإفصاح. . وتعلمون أني دائماً أبدي أفكاري بالقلم وباللسان ، حسبما تقتضيه المناسبة ، وطبيعة الموقف ، ووضع الحديث والفكرة ، ولكني أريد أن أصارحكم دون تلعثم ، أني أرى أكبر كمية وأوفر ثروة من اللغة والكلمات غير كافية للإبداء عما في القلب ، حين تشكّل عدد المستمعين من خيرة المثقفين ، وعصارة أصحاب الرأي والفكر وخلاصة الطبقة الذكية؛ التي هي بمنزلة العقل والقلب من الشعب المسلم. . . فهنالك أريد أن يتحدث العقل ويستمع العقل ، أو يتحدث القلب ويستمع القلب ، ولم يخترع العلم ـ رغم تقدمه الهائل المدهش ـ إلى اليوم آلة تنقل إليكم ـ مع حديثي خفقان قلبي ، واهتزاز ضميري ، وتموّج مشاعري.

وإني الآن في صراع نفسيّ ، لا أكاد أدري من أين أبدأ حديثي ، وكيف أوجز كلامي ، وقد كنت أنا في الحديث الذي ألقيته في ختام المؤتمر الإسلامي الآسيوي الأول بالأمس ، انتقيت للتلاوة ثلاثة أبيات: عربي وفارسي وأردي ، وقد ترددت بعض الوقت فيما يتصل باختيار اللغة؛ التي أتحدث فيها إلى الحضور ، فأولاً دار بخلدي أن أوثر الأردية بالكلام؛ لأنها اللغة التي ينطق بها ، ويفهمها معظم عدد المستمعين ، لكني استحييت من اللغة العربية ، فهي لغة القرآن والإيمان ، ولغة رابطة العالم الإسلامي الرسمية التي كنت أتحدَّث من منصتها ، فرأيت أن أحلَّ مشكلتي باختيار

بيت بيت من تلك اللغات الثلاث التي لي إلمام بها ، وبما أن كثيراً منكم ، أو أكثركم لم يكن حاضراً ، فها أنا أعيد إنشادها أمامكم :

وقع اختياري من الشعر العربي على البيت الآتي :

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعي فأنتِ بمرأىً من سعاد ومسمع

وقلت : إنكم أيها السادة! كلكم «سعاد» وكلكم سعداء ، والحمد لله .

وكان بمستطاعي أن أختار من الشعر الفارسي بيتاً من قصائد أي من «عرفي» أو «نظيري» أو «حافظ» أو «جامي» فحول الشعراء في إيران ، لكني استحييت من الشاعر الإسلامي الدكتور محمد إقبال الذي هو أكبر شاعر فارسي أنجبته هذه الديار ، بل هذا العصر ، فلم أستطعْ أن أفارقه إلى غيره من «عرفي» أو «نظيري» ، فوقع اختياري من شعره على هذا الشعر الدافق بالحياة الناطق عن الواقع :

تا تو بيدار شوي، ناله كشيد م ورنة عشق كاريست كه بـآه وفغان نيزكنند

يقول : «حرصاً على أن تنتبهوا أيها الإخوة ، وأن أوقظ فيكم نائماً ، وأحرك فيكم ساكناً ، أرفع نشيجي ، وأرتفع بانتحابي ، وإلّا فإن «الحب والعاطفة» شيء يستطيع أن يمارسه الإنسان في هدوء ، وفي صمت ، ودون إبداء عن الحرقة والجوى» .

واخترتُ من الشعر الأردي البيت الآتي :

أمير جمع هين أحباب درد دل كه لـ بهر التفات دل دوستان رهـ رهـ نه رهـ

يقول الشاعر ـ الذي تلقب في الشعر بلقب «أمير» ـ :

«إن الإخوة والأحباء مجتمعون ، فتحدث إليهم عن شجونك وأحلامك وأحزانك وآمالك ، وانتهز الفرصة ، فربما لا تجد مثل هذه اللفتة الكريمة الحانية منهم مرة أخرى» .

وإنما أعدتُ الحديث لأن هذا البيت الأخير يتفق مع الجو الآن أيضاً .

أيها السادة! أرى أننا ـ بصفتنا شعباً مسلماً ، يحمل رسالة ، ويحتضن دعوة ، ويملك الأمر والنهي ، ويتمتع بالثقل السياسي ، ويصلح للقضاء

على الظلم والعدوان ، ولتعليم درس العدل والمساواة ، وتبليغ الرسالة الإلهية إلى العالم من مستوى عال ـ اجتزنا بيومين حاسمين حساسين :

١ ـ حينما كانت الدولة العثمانية تجتاز مرحلة مصيرية حاسمة في حياتها ، وكان لها أن تقرر : هل تبقى كدولة مرفوعة الرأس ، مسموعة الكلمة ، مرهوبة الجانب ، تملي إرادتها على الدول والحكومات ، وتؤثر في خريطة العالم السياسية ، أم لا؟ هل تبقى كدولة حارسة أمينة للأمة الإسلامية والرسالة المحمدية ، أم لا؟

والواقع أن هذا التقرير كان بعيد المدى، عميق الجذور، مترامي الأبعاد، فلم يكن تقرير مصير الشعب العثماني ، بل كان تقرير مصير الشعب المسلم في أرجاء العالم ، وذلك أن الرسالات قد يرتبط مصيرُها بمصير الشعب الحامل لها؛ لأن الرسالات ليست شيئاً يتعلق بين السماء والأرض ، كما أن الأمم لا تعيش في الجوّ ، وإنما تعيشُ على هذه الأرض ، على كلٍّ فكان للأمّة الإسلامية أن تقرر يوم ذاك ، أأنها تفرض سيطرتها السياسية على الشعوب والأُمم ، وتثبت أهميتها في حوادث الوقت ، ووقائع العصر ، وفي تغيير مجرى التاريخ ، أم لا؟ وكان هذا يوم من اليومين.

واليوم الثاني هو ما نعيشه اليوم وبلدنا واقف على منعطف حساس :

إن باكستان اليوم واقفة على منعطف دقيق ، والتاريخ حابس أنفاسه ، وكاتب الخطّ ممسك بقلمه ، مستعد للتسجيل ، ينتظر ويترقب ، إن هنالك مناسبات كثيرة يمكن أن يرى فيها الإنسان الأَرضي ـ إذا كانت رؤية الأمور الغيبية بالإمكان ـ كيف يجلس كاتب الخطّ ينتظر ويرتقب القضاء الإلهي ، ولا أقول : إنه ينتظركم ، ولكن أقول : إنه ينتظر القضاء الإلهي الذي لا رادّ له ، وهذا القضاءُ يتوقف على أمور كثيرة ، ولا يتوقف عليها ـ حاشا لله ـ لأن الله محتاج إلى أحد ، بل ذلك يرجعُ إلى السنة الإلهية ، فإن الله تعالى ينظر إلى مدى إخلاص الأمم ، وعزمها وطموحها وصلاحيتها ، وهناك تقديرات وقضاءات تتبدل وتتغير ، ويمكن تبديلها ، وذلك هو «التقدير

المعلق» في التعبير العلمي القديم ، فهذه «التقديرات المعلقة» يمكن أن ترى العيون «المبصرة» ـ إذا كان عند أصحابها رصيد كاف من دراسة عميقة للقرآن الكريم ـ كأنَّ كاتب التقدير ينتظر القضاء الإلهي بصددها ، ويترقب ما يكتبه فيما يتصل بالأفراد أحياناً ، وفيما يتصل بالجماعات أحياناً أخرى ، ومثل هذا الوقت قد تساوي كل لحظة من لحظاته قروناً ، لأن زلَّة واحدة وقتذاك قد تغرق سفينة أمة بأسرها، وما أصدق ما قاله الشاعر الفارسي :

«ذهبتُ أنتزع الشوك من قدمي ، فاختفى محمل الحبيب عن نظري ، لم يستغرق هذا العمل إلاّ لحظة من الوقت ، ولكني تخلّفت عن ركب الأصدقاء بمسافة قرن كامل» .

أيها السادة! إن الشاعر قد يشير في شعره بقوة مخيّلته ، وصفاء قريحته إلى معانٍ بارعة ذات الدلالات العجيبة ، لم تتحقق مصاديقها بعد ، وقد تتحقق بعد سنين طوال ، وربما بعد قرون وأجيال ، فتأتي تفسيراً صادقاً لذلك الشعر ، فتتجلى روعته ، وجماله ، وعمق معناه ، ومن هنا فإني لا أكاد أتأكد من أن الشاعر ـ الذي قال هذا البيت الخالد ـ قد مرَّ في الواقع بهذه القصة التي حكاها في بيته الرائع ، فقعد أحد من رفاق قافلته يستخرج الشوك ـ الذي نفذ في داخل قدميه في بعض الطريق ـ من عقب قدميه ، فمضت القافلة بعيداً ، وتخلف عنها. . . لا أدري ما كانت هذه القافلة ومن كان هذا المسافر ، وما هي المعاني التي أرادها الشاعر في هذا البيت ، وإلى أي حادث أشار ، ولكني على يقين بأن هذا الحادث ـ بجميع محتوياته ـ لم يكن مصداق هذا البيت الحيّ .

إن هذا الشاعر لم يخطر منه على بال أنه ستبرز هناك دولة ، وستنهض هناك قوة ، وستسير هناك قافلة ، قافلة الأمة الإسلامية ، ويتخلف رفيق من هذه القافلة ـ وهو باكستان ـ عن رفاقه ، من أجل أن ينتزع شوكاً من قدمه ، ـ ولا أريد أن أشير إلى هذه الأشواك بالتحديد؛ لأن ذلك يقلل من قيمة هذا البيت ، ويحطّ من شأن «الموقف» ، وأترك هذا الأمر إليكم لكي تتصوروا ما شئتم من الأشواك التي أصابت الأرجل ، والجروح التي أصابت

القلوب ـ ولكن الواقع أن هذا البيت لم ينطبق على واقع ما من ذي قبل كما ينطبق على الواقع الذي نعيش نحن اليوم.

*** الرفيق العظيم من رفاق ركب الأمة الإسلامية:**

حقاً إن باكستان رفيق جليل من رفاق قافلة الأمة الإسلامية، والقافلة ماضية في الطريق، فإذا ما قعد هذا «المسافر الجليل» ينتزع «أشواكاً» أصابت رجليه، وتأخر في العمل، أو غلبه النوم، أو هبَّ يتخاصم مع أحد من «المسافرين» فإذاً أخاف أن يتخلف.

أيها السادة! إن زلَّة واحدة في هذا الوقت تحدث تحوّلاً جذرياً في مصير الأمة الإسلامية، وإن صنيعكم ـ خطأ كان أم صحيحاً ـ سيترك تأثيراً بعيد المدى على مصير الأمة الإسلامية، وربما يضع في مصيرها قفلاً، فقد مفتاحه ـ لا قدر الله ـ.

ومن ثم فأنتم في موقف حسَّاس دقيق يتطلب تضحيات جساماً، ومن المؤسف جداً أن الإسراف في استخدام هذه الكلمة الشريفة، والأخطاء في مواضع استعمالها قد أفقداها تأثيرها، وإلاّ فإنها شيء ما إن قرع السمع حتى تقشعر منه الجلود، وترتجف له القلوب، لكننا ـ مع الأسف ـ أصبحنا اليوم كلما نستخدم الكلمة لا تتطرق منها الأذهان إلاّ إلى التضحية بالوظائف، أو التضحية بشيء زهيد من المرتّبات والمناصب.

أيها الأخوة! إن التضحية شيء مقدس ينتهي نسبه إلى سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، إن لكل شيء نسباً، فنسب المساجد كلها على أرجاء الأرض، ينتهي إلى بيت الله في مكة ـ المسجد الذي بناه سيدنا إبراهيم عليه السلام ـ وكل مسجد لا يتصل نسبه بمسجد إبراهيم هذا، فلا يستحق أن يسمَّى بيت الله، وإنما هو «مسجد ضرار»، وكذلك كل مدرسة لا ينتهي نسبها إلى صفّة المسجد النبوي على صاحبها الصلاة والسلام، فلا تستحق أن تسمى مدرسة؛ لأنها ـ إذاً ـ منطلق الجهل والضلال، وليست موضع دراسة وعلم وهدى، وعلى ذلك فـ «التضحية» التي لا يتصل نسبها بروح الإيثار والإخلاص، والوفاء والولاء لدى سيدنا إبراهيم، وروح

الصبر والرضا ، والتوكل والفداء؛ لدى ابنه ذبيح الله إسماعيل عليهما السلام؛ فإنها ليست بصحيحة النسب ، وذات أصل كريم ، وعرق عريق.

*** ثلاثة أنواع من التضحية:**

والظروف تتطلب منكم اليوم ثلاثة أنواع من التضحية ، ولكل نوع منها إمام في تاريخنا الإسلامي ، فهناك نوع من التضحية قام به سيدنا خالد بن الوليد في ساحة معركة اليرموك ، ونوع آخر قام به سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنه إزاء سيدنا معاوية رضي الله عنه قضاء على الاضطراب في صفوف المسلمين ، ونوع ثالث من التضحية قام به عمر بن عبد العزيز رحمه الله من أجل إعادة المجتمع الإسلامي إلى الحياة الإسلامية والسيرة المثالية ، وذلك بتحويل حياته من النعومة إلى الخشونة ، ومن الترف إلى الكفاف ، والقناعة باليسير القليل ، وأحداث تحوّل كلي في كل جوانب حياته ، والتغاضي عن مصالح عائلته وأعضاء أسرته ، وهذه الأنواع الثلاثة من التضحية يحتاج الشعب المسلم الباكستاني اليوم أن يقوم بها في وقت واحد معاً.

التضحية التي قام بها سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه تعلمنا ألا يتقطب الجبين لو عزل صاحبه عن منصب قيادة الجيوش ، وهو في ساحة المعركة يحرّك الأجناد ، ويقود الجيوش ، ويطارد الأعداء ، حتى يسجل له التاريخ أمثال هذه الكلمات الذهبية الناصعة الغرّاء التي سجلها لخالد بن الوليد ، والتي عصارتها: لو كنت أجاهد من أجل عمر بن الخطاب ، وابتغاء رضاه ، لتوقفتُ عنه ، ولكني إن أقاتل في سبيل الله ، وابتغاء وجهه الكريم ، وطمعاً في رضاه وثوابه ، فلن يفتّ شيء في عضدي ، ولن يقلل من حماسي ونشاطي.

وقد شهدت الدنيا كيف صدق خالد في وعده ، ولم يتغير قيد شعرة عما كان عليه من الحماس للجهاد ، والشوق للشهادة ، والشغف بإعلاء كلمة الله ، إن التاريخ البشري كله يعجز عن أن يقدم لذلك نظيراً. إن المؤرخ يقف مشدوهاً واجماً أمام هذه الثقة بالله ، وشدة الشكيمة ، وغاية العزيمة ، التي كان يتمتع بها سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه ، حيث يعزل امرأً ـ خلال

المعركة الحامية ـ كان قد اقترن اسمه بالفتح والانتصار اقتراناً أصبح الفرقُ بينهما عسيراً ، حتى صار رمز الفتح والانتصار (SYMBOL). كان يتساءل الناس: خالد يخوض المعركة أم لا؟ فإذا علموا أنه موجودٌ سيخوض المعركة ، يتأكدون من كسب المعركة ، وكانت القلوب تمتلئ أملاً ورجاءً وجذلاً وسروراً ، كانوا يتوكلون أصلاً على الله ، ولكنهم كانوا يتفاءلون بوجوده في المعركة ، لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخطو هذه الخطوة الجريئة الخطرة ـ من أجل أن يضرب مثالاً رائعاً لهذه الأمة إلى يوم القيامة ـ التي أعتقد أنه لم يخطها أحد في تاريخ الحروب والمعارك ، ولم يركب هذا الخطر العظيم ، يأتي الرسول من المدينة المنورة ، ويسلم إلى خالد مرسوم عزله ، ونصب أبي عبيدة مكانه ، وهو يباشرُ الحرب ، ويعلم الجنود كلهم أن خالداً لم يعدْ قائداً لهم أو قائداً للجيوش الإسلامية ، وهنالك يقول خالد هذه الكلمات الأمينة المؤمنة المذكورة أعلاه.

* إيثار مصالح الأمة على جميع المصالح والأغراض الشخصية:

والنوع الثاني من التضحية الذي يجب عليكم أن تقوموا به ، هو: أن يُؤْثِروا مصالح الأمة على المصالح الشخصية ، والمصالح الحزبية ، والمصالح القومية ، بل أتقدم خطوة فأقول: على مناهج العمل والخطة التي اخترناها للعمل الإسلامي؛ لأن الأحزاب يجب أن تكون في خدمة الأمة والإسلام لا بالعكس ، وقد قلتُ مراراً ، وفي كثير من المناسبات والحفلات أنه لو تطلبت مصالح الأمة أن تمحى هذه الأحزاب والجماعات كما تمحى العبارة الخاطئة ، لأكون أول من يتشرف بهذه السعادة ، ويحوز هذه الكرامة ، وتلك هي التضحية التي تلقينا درسها من صنيع خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه.

أما التضحية التي قام بها سيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فربما لا يكاد يدرك خطورتها وأهميتها كبار مؤرخينا ، لكنها في الواقع لا تقل أهمية عن أي تضحية مخلصة عظيمة.

كان الحسن رضي الله عنه سبط الرسول ﷺ ، وكانت السيوف بأيدي أنصار علي رضي الله عنه مشهرة لم تغمد بعد ، وكل من استعرض الظروف وحلَّل الملابسات ، وقلّب الأحوال ، كان له أن يقول : إن القوة العسكرية الكبرى لا تزال وفية للحسن ، بالإضافة إلى العلاقة العاطفية التي كانت تربطُ بينه وبين المسلمين ، والدلائل الشرعية التي كانت تؤيده ، فكان سبط الرسول ، والخليفة الراشد ، تمت البيعة على يديه .

لكنه استعرض الواقع فوجده مريراً ، رأى أن مثل هذا الصراع لم يعد منتجاً ، وقد استنفد مقداراً صالحاً من قوة والده العظيم ، وجهده ووقته ، فتنازل عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه عن اجتهاد منه ، وعلى بصيرة . . هذه تضحية كبيرة .

وتضحية أخرى قام بها أخوه الحسين ضد يزيد على اجتهاد منه كذلك ، ولا أرى هناك تناقضاً بين الاجتهادين ، أو تخالفاً بين الرأيين ، ولا تسمح لنا المناسبة أن أتحدث عن الأسباب التاريخية ، لكني أرى أن الأحكام تتبدل بتبدل الظروف والملابسات ، فكان اجتهادُ الحسن صواباً بالنسبة إلى ظروفه ، وكان اجتهادُ الحسين صحيحاً بالنسبة إلى أوضاعه ، وكلاهما أخذاً بالعزيمة ، وعملاً بالحكمة ، ولم يجبن أحدٌ منهما ، ولم يستكن ، ولم يتخاذل ، وإني لن أؤمن بأن الحسن تنازل عن الخلافة من ضعف ، أو عن ضغط خارجي ، بل كان ذلك قضاء تنبأ به جدّه النبي الأعظم ﷺ بقوله :

«إن ابني هذا سيد ، ولعلَّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»(١) .

وكذلك التضحية التي قام بها عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه ، لها خطورتها وأهميتها ، فقد كان مضربَ المثل في ظرافته وأناقته ، وفي تنعُّمه وترفهه ، حينما كان والياً للمدينة ، وكان عضواً من أعضاء الأسرة

(١) صحيح البخاري ، رواية عن أبي بكر رضي الله عنه ، وقد جاء في بعض الروايات : «وسيصلح الله به» .

الحاكمة ، وقد كانت موضته قدوة ، بل غاية الجمال والكمال لدى الشباب والظرفاء ، وكانت الجواري يتعلَّمن مشيته ـ التي كانت تُسمَّى «المشية العمرية» ـ ويحاكينها من حسنها ، كان يستخشن الثياب الثمينة ، ويزري بالملابس الفاخرة .

لكنه ما إن تولى الخلافة حتى تحوّلت حياته كلياً ، فأرجع مزارعه إلى ما كانت عليه في عهد الرسول ﷺ ، وردّ ضياع أقرب أقربائه إلى بيت المال ، ورفض أرخص ثوب أعد لارتدائه ، واستغلاه ، فاستعبرت عينا خادمه إذ تذكر أنه كان قد ردَّ أغلى الأثواب ، وتفادتها عيناه ، وتنازل في مأكله ومشربه ومستوى معيشته إلى ما ربما لم يتنازل إليه أزهد الزهاد ، وبلغ من تحفظه وأمانته إلى أنه يقوم بالأعمال الرسمية في ضوء الشمعة «الرسمية» التي زيتها من بيت المال ويدخل عليه رجل ، فيستطلعه أحوال المسلمين في منطقته ، إذ يعود الرجل فيستخبره أحوال أسرته وأعضاء عائلته ، فيطفىء الشمعة الرسمية بنفخة من فيه ، ويطلب شمعة شخصية؛ لأن الشمعة الرسمية ليست لتستخدم في الأمور الذاتية والأحوال الشخصية ، إن ذلك كله ـ أيها السادة ـ غيض من فيض ، فإن حياته كلها مثال عجيب فذّ للتحول الخارق المدهش الذي وقع في حياته ، وعبارة عن تضحية قام بها رجل صاحب ضمير واع ، وقلب خاشع ، وإيمان راسخ ، صانع للعجائب ، وخاف الله ربه في سبيل مصلحة الأمة والدولة .

*** القضية تتصل بمصير الأمة الإسلامية :**

أيها السادة لا أدري أكان من سعادة جدّي ، أو من محنتي ، أو من نعمة الله عليّ ، أو من امتحانه إياي ، إذ وفّقني أن أزور وأشاهد العالم الإسلامي عن كثب ، وعن تجربة واختبار ، توفيقاً ربما لم يحظ به أحد في هذا المجلس الموقر ـ على تقديري لجميع السادة الحاضرين ـ وربما كان لي ذلك عن سوء حظ وسعادة جدّ في وقت واحد ، أما سوء الحظ فإني رأيت العالم الإسلامي وهو يمر بظروف وأحوال وخزت ضميري ، وآلمت قلبي ، وجرحت شعوري ، ومزّقت كبدي ، وأما سعادة الجد لأني تمكنت من أن

أرى المسلمين عن كثب ، وأحتكّ بهم ، وأخالطهم ، على كلٍّ فأصارحكم : أن القضية اليوم ليست قضية الأحزاب ، أو قضية الجماعات ، أو قضية المصالح الوقتية ، إنما هي قضية مصير الأمة الإسلامية ، قد تكون العبادات مصونة معمولاً بها ، وقد تكون أنواعٌ من المعاملات محافظاً عليها ، ومأخوذاً بها في حياة الناس ، لكن الشعب الإسلامي أصبح لا يستطيع اليوم أن يفرض ثقله السياسي في خريطة العالم ، ولم تعدْ له كلمة مسموعة في أي قضية ، سواء أكانت قضية المسجد الأقصى ، أو قضية فلسطين ، أو قضية لبنان ، أو قضية قبرص(١) ، هل ترون أن الشعب الإسلامي كله يقدر على أن يقدم في القضية أو يؤخر ، أصبح العالم الإسلامي بعد سقوط الخلافة العثمانية ، لا تستطيع دولة من دوله ، أو أسرة من أسر الشعب الإسلامي أن تفرضَ ضغطها السياسي ، ويثبت ثقلها الدبلوماسي في أي قضية من قضايا العالم الإسلامي .

نعم ، قد استطاع المرحوم جلالة الملك فيصل الشهيد أن يثبت جدارته وأهمية العالم الإسلامي ، ولكنه مضى لسبيله ، ولم يعدْ من يخلفه في موقفه العظيم ، وليست اليوم هناك أي دولة إسلامية تستطيع أن ترغم ـ باحتجاجاتها ، أو بإبداء كراهيتها ، وعدم موافقتها ـ قوة كبرى على مراجعة النفس ، واستخدام التأمل في قضية ما إسلامية .

أهيب بكم ـ يا سادة ـ أن تواجهوا الموقف ، متعالين عن المصالح الجزئية ، وتواجهوا تحدي الوقت؛ بقوة المؤمن الواعي الخبير ، وبجراءة الصديقين والصالحين ، وإذا سنحت لكم فرصة ـ بتوفيق من الله عز وجل ـ فلا تضيعوها في غير موضعها ، ولو كان هناك فرد أو جماعة أثبتت جدارتها ـ ولو بنسبة العشرة في المئة ـ للتعاون معكم في مجال العمل الإسلامي ، فلا بد أن يكون الإخلاص رائدكم ، فتوفروا لها فرصة لكي تستخدم مواهبها ، وتثبت أهليتها ، لا بد أن تضعوا في الاعتبار هذه الملامح والأسارير ، الأسارير التي بدت واضحة على وجه مصير الأمة الإسلامية ،

---

(١) لم تكن قضية أفغانستان حدثت بعدُ.

إن زلة واحدة منكم ، وأنانية يسيرة ، وعصبية قليلة ، لغوية أو إقليمية ، وثغرة متواضعة في صف الوحدة ، تعود بخطر عظيم ، وضرر كبير على الشعب الإسلامي في أرجاء المعمورة ، وأرجو ألا تحجموا مهما تطلب الموقف اليوم أو غداً عن أن تتنازلوا عن جميع الاعتبارات والمصالح ، والأغراض والمنافع إزاء مصالح الأمة الإسلامية ، وأن تترفعوا عن كل مناسبة ، وعن كل موقف ، وعن كل قضية يمكن أن تزرع اضطراباً نفسياً ، وإذا اضطررتم من أجل ذلك أن تنفضوا أيديكم لبعض الوقت عن المسائل الخلافية ، فلا بد ألا ترددوا ولا تتلكؤوا لدقيقة واحدة ، ويتحتم عليكم ألا تتعرضوا للمسائل الجانبية أو غير الهامة.

وأعتقد أن بعض الحركات الدينية لو أخذت الحذر من بداية الطريق ، ولم تتعرض للمباحث الجانبية والقضايا الثانوية لبعض الحين ، لوجدت الطريق أمامها ممهّدة أكثر من اليوم ، لكنها محاولات بشرية ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

*** القرن الحاضر يظمأ إلى «معتصم»:**

أعتقد أنكم قد أنصفتم حديثي ، واكتنهتم إشاراته وأبعاده ، وأرى فيه كفاية ومقنعاً ، وأتضرع إلى الله المولى الكريم أن يوفقكم أن تكونوا جنة للعالم الإسلامي كله ، بل للمجموعة البشرية كلها ، وللحق والعدل ، والإنصاف والمساواة ، أينما وجدت ، وأن تكونوا بحيث لا يقع ظلم في ناحية من نواحي العالم الإنساني ، احتراماً لكم ، وتقييماً لثقلكم المعنوي ، وأن تكونوا بحيث يستصرخكم مظلوم في ناحية من الدنيا ويقول: «وامعتصماه»! كما استغاثت عجوز مظلومة في عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله «وامعتصماه»! فأغاثها المعتصم.

إن العالم اليوم يتطلع إلى «معتصم» والقرن الحاضر بأمس الحاجة إلى هذا المعتصم ، وكما نحتاج إلى إمام الحرم المكي ، ونحترمه نحن جميعاً ، وكما نحتاج إلى عالم ديني حاذق متضلع ، ونكرمه جميعاً ، كذلك

نحتاج ويحتاج العالم كله إلى جماعة تحتضن الحق والعدل ، وتتألم للإنسانية ، وتعيش في حب البشرية .

وبهذه الكلمات أختم حديثي ، وأشكركم جميعاً على أن وفرتم لي هذه الفرصة الثمينة للحديث ، جزاكم الله جميعاً ، وشكر سعيكم .

* * *

طبيعة هذا الدين وسماته البارزة

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في ملتقى الفكر الإسلامي السادس عشر ، الّذي عقد في تلمسان (الجزائر) في الأسبوع الأول من شوال (١٤٠٢) الموافق (٢٧/ يوليو ١٩٨٢) .

إن لكل كائن حي طبيعة خاصة ، وسمات بارزة ، وملامح مميزة ، يتكون منها واقع يعبر عنه ؛ «بالشخصية» أو «الذاتية المميزة» ، ويستوي في ذلك الأفراد والجماعات ، والشعوب والأمم ، والديانات والفلسفات ، فما هي شخصية هذا الدين ، وذاتيته المميزة؟ يجب علينا أن نعرفَ ذلك قبل أن نخوض في التفاصيل والتعاليم والآداب المعينة ، فذلك هو المدخل الطبيعي للانتفاع بهذا الدين ، والانصباغ بصبغته.

يجبُ علينا أن نعرف أولاً أن هذا الدين لم يصلْ إلينا عن طريق الحكماء والمفكرين ، ولا عن طريق المقننين والمشرعين ، ولا عن طريق المؤسسين للحكومات والفاتحين ، ولا عن طريق الأذكياء الخياليين ، ولا عن طريق الزعماء والقادة السياسيين ، إنما وصل إلينا عن طريق الأنبياء الذين يُوحى إليهم من الله ، الذين ختمت رسالاتهم برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو الذي نزلت عليه الآية القرآنية في حجة الوداع في يوم عرفة : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] والذي يقول عنه القرآن : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣ ـ ٤] فما هي طبيعة هذا الدين ، وما هي سماته البارزة؟.

١ ـ إن سمة هذا الدين الأولى ، وشعاره المميز الأول التركيز على العقيدة أولاً وقبل كل شيء ، فما زال الأنبياء من لدن آدم إلى خاتم الرسل محمد ﷺ ، يدعون إلى عقيدة معينة يُوحى بها إليهم ، يدعون إليها ، ويطالبون بها ، لا يقبلون عنها صرفاً ولا عدلاً ، ولا يبغون بها عوضاً ولا بدلاً ، وإن أفضل حياة خلقاً وسلوكاً ، ورحمة وبراً ، واستقامة وسداداً ، وإن أنجح إنسان في تأسيس حكومة ، أو إنشاء مجتمع ، أو إحداث انقلاب ، لا قيمة له عندهم إذا لم يقترن كل ذلك بعقيدة جاؤوا بها ودعوا إليها ، ولم تقم كل هذه الجهود على أساسها ، وهذا هو الخط

الفاصل الواضح العريض بين دعوة الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وبين الزعماء والقادة القوميين ، والانقلابيين والثوريين ، والنفعيين والماديين ، وكل من كان مصدر تفكيره غير مصدر تعاليم الأنبياء وسيرهم ، لسببٍ من الأسباب الأصيلة ، أو الطارئة من التعليم والتربية ، أو رد من ردود الفعل ، أو الحب الزائد لتحقق النتيجة المطلوبة ، أو قلب نظام أو انتصار أو انتقام(١) .

والقرآن الذي هو الكتاب السماوي الوحيد المحفوظ من التحريف ، والباقي إلى آخر الأبد ، والسيرة النبوية التي هي السيرة الوحيدة من سير الأنبياء التي يمكن الاعتماد عليها ، والاستفادة منها ، والاحتجاج بها ، مليئان بالشواهد على ذلك ، ونقتصر على أمثلة قليلة .

من ذلك ما حكاه الله تعالى عن نبيه وخليله إبراهيم ، الذي وصفه بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود : ٧٥] وهو قوله تعالى مخبراً وآمراً :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وربما يختلج في بعض النفوس قوله تعالى : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فلماذا وعد إبراهيم أباه المشرك بالدعاء والاستغفار؟ . وتفسر ذلك آية أخرى في سورة البراءة ، وهو قوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ

(١) وقد سرت هذه النفسية في كثير من العاملين في مجال العمل الإسلامي ، والمتذمرين من الأوضاع الفاسدة في هذا العصر ، فيغتفرون لكل من يهتف بهتاف الثورة ، أو يتحدى قوة جبارة ، كل فساد في العقيدة ، وانحراف وزيغ في التفكير ، ويصرفون النظر عن ديانته وسلامة عقيدته ، بل يتهمون كل من يثير هذا الموضوع ، ويتساءل عن عقيدته ، بالتمالؤ مع القوى الأجنبية .

إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣ ـ ١١٤].

وناهيك بأن سورة «الكافرون» نزلت بمكة حين كان الوضع يقتضي شيئاً من اللين والرقة، وعدم إثارة العداء على أساس العقيدة والعبادة، وتأجيل ذلك إلى وقت يكون الإسلام فيه أقوى، والمسلمون آمن، ولكن القرآن يقول والرسول يعلن:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦].

ولو كان أحد جديراً بالغضّ عن عقيدته، وصرف النظر عنها، لنصرته، ومنعه وحبه للرسول ﷺ، لكان أبو طالب عم الرسول ﷺ، فقد قال أصحابُ السير عنه: «كان لرسول الله ﷺ عضداً، وحرزاً في أمره، ومنعة وناصراً على قومه، ولكن في الصَّحيح أن رسول الله ﷺ دخل على أبي طالب عند موته وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال: يا عم! قل لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وابن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: أنا على ملة عبد المطلب.

وثبت في الصحيح أيضاً أن العباس قال لرسول الله ﷺ: إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك، فهل ينفعه ذلك؟ قال: «نعم، وجدته في غمرات من النار فأخرجته عن ضحضاح»[1].

وشاهد آخر ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة، قالت: قلت: يا رسول الله! إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان.

المسكين ، فهل ذاك نافعه؟ قال: «لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[١].

وأوضح من كل ذلك وأصرح ما رواه مسلم في صحيحه: عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها قالت: خرج رسول الله ﷺ ، قبل بدر ، فلما كان بحرَّة الوبرة ، أدركه رجل ، قد كان يذكر منه جرأة ونجدة ، ففرح أصحابُ رسول الله ﷺ حين رأوه ، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: جئت لأتبعك وأصيب معك ، قال له رسول الله ﷺ: «تؤمن بالله ورسوله؟» قال: لا ، قال: «فارجع فلن أستعين بمشرك».

قالت: ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل ، فقال له كما قال أول مرة ، فقال له النبي ﷺ كما قال أول مرة ، قال: «فارجع فلن أستعين بمشرك» ، قال: ثم رجع فأدركه بالبيداء ، فقال له كما قال أول مرة: «تؤمن بالله ورسوله؟» قال: نعم ، فقال له رسول الله ﷺ: «فانطلق»[٢].

٢ ـ والأمر الثاني أن الدافع الحقيقي لدعوة الأنبياء ـ وفي مقدمتهم ، وعلى رأسهم محمد رسول الله ﷺ ـ ولجهدهم ولجهادهم ، إنما هو طلب رضا الله تعالى لا غير ، وهو كالسيف الحاد الذي يقطع كل شيء ، ويأتي على كل شيء ، فلا عرض من متاع الدنيا ، ولا غرض من حكم ورئاسة أو ملك ، ولا طلب علوّ في الأرض ، أو سيطرة على الناس ، أو تمتع برفاهية أو بذخ أو غضب أو حمية ، أو ثار أو ترة ، أو دفاع عن أمة أو بلد يحملهم على ذلك.

وقد تجلى ذلك في دعاء رسول الله ﷺ في الطائف في أروع مظاهره ، إذ قال ، وقد لقي هنا ما لقى من الأذى والجفاء ، ولم يتحقَّق الغرضُ الذي جاء لأجله ، فما أسلم أحدٌ من الناس ، ولكنه يقول في أدق ساعة وفي أحرج الأحوال النفسية:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ،

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان.

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير.

يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملَّكته أمري» .

وهنا تتجلى الطبيعةُ النبويـة التي رباها الله تعالى وغذَّاها ، فيقول: «إنْ لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسعُ لي»[١] .

وهذا نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وهو من أولي العزم من الرسل ، يحكي عنه القرآن فيقول: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] وقد قضى هذه المدة كلها في شغل شاغل من الدعوة ، وانصراف إليها ، والتماس جميع الطرق ، واتخاذ الأساليب كلها لإقناع الناس بها ، فيحكي القرآن قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ وقوله: ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٩ ـ ١٠] .
فماذا كانت النتيجة؟ ، حسبنا ما يقول القرآن:

﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] .

ولكن نوحاً لم يتسخط ولم يعتب ، ولم يعتبر كل مجهوده قد ذهب سُدى ، ولم يؤثر ذلك في مكانته عند الله ، وقربه إلى الله ، وكونه من أولي العزم من الرسل ، فقد كان الله راضياً عنه ، وكان راضياً عن الله ، وقد بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وجاهد في الله حق جهاده ، بل يقول الله:

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٧٨ ـ ٨١] .

ويقول القرآن معلماً ومؤدباً لجميع العاملين في مجال الدعوة والجهاد في سبيل الله: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] .

وليس معنى ذلك أن القوة التي يستطيع بها المسلم أن ينفذ بها أحكام الله ، ويزيل بها العقبات التي تعترضُ سبيل الدعوة ، ويُطفىء بها نائرة

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (ح ٢ ص ١٥٠) وزاد المعاد (ج ١ ص ٣٠٢) واللفظ لزاد المعاد.

الفساد في الأرض والانتصار للباطل ، ويكون بها البيئة الهادئة الواعية للحياة الإسلامية المثالية والمجتمع المؤمن المتديِّن الكريم ، شيء يزهد فيه ، وينصرف عنه ، إنما هي فكرة دخيلة غير سليمة ، ورهبانية ما أنزل الله بها من سلطان ، والله يقول في معرض المنّ والأنعام:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وقال: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وقد وعد الله بالعلو والغلبة للمؤمنين ، إذا تحققت فيهم الصفات الإيمانية ، وعملوا لرضا الله تعالى ، ولم يكن هدفهم العلو ، فإن العلو نتيجة لا غاية ، ومنحة لا هدف ، فيقول:

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وقد صرح القرآنُ في أكثر من موضع ، أن المطلوب من الله ، والنافع عند الله ، هو القلب السليم ، فقال: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩].

ويقول مادحاً لنبيه إبراهيم: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ٨٤][١].

---

(١) قال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو: القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض ، قال الله تعالى: ﴿في قلوبهم مرض﴾ (تفسير ابن كثير) وقال سفيان الثوري: هو الذي ليس فيه غير الله عز وجل ، (روح المعاني).

فلنكن على حذر من كلٍّ ما يعارض صفة القلب السليم، ويتحول إلى وثن من الأوثان، أو حبالة من حبائل الشيطان، ويكون سهيماً في حب الله تعالى ومشاركاً له، يقول القرآن: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣].

ويقول النبي ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»(١).

٣ ـ الأمر الثالث أن الأنبياء عليهم السلام قد اشتدت غيرتهم على ما جاؤوا به من عقيدة ودعوة وشريعة، فلا يرضون في حال من الأحوال بإحداث تعديل فيها، أو تغيير لها، حتى لمصلحة من مصالح الدعوة، وانتشارها أو انتصارها، أو للتخفيف من حدة العداء وشدة المعارضة، فلا مداهنة عندهم ولا مساومة، ولا تنازل ولا عدول، ولا إرجاء ولا تأجيل، والله يقول لرسوله آخر الرسل ﷺ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، ويقول: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، ويقول: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

ولم يكن موقفُ الرسول ﷺ فيما يتصل بالتوحيد وما يعارضه، وفي العقائد الأساسية وحتى في أركان الإسلام، موقفاً سلمياً سياسياً مرناً، كما عهد من الزعماء والقادة السياسيين الذين يسمّون أنفسهم «واقعيين» و«عمليين».

وقد قدم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ ـ بعد فتح الطائف ـ وقد أسلموا وسألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم «اللات» لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله ﷺ، وما برحوا يسألونه سنة سنة، ويأبى عليهم رسول الله ﷺ حتى سألوا شهراً واحداً بعد قدومهم، فأبى عليهم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ـ وهو من قومهم ـ يهدمانها، وسألوه أن يعفيهم من الصلاة فقال: «لا خير في دين لا صلاة فيه».

---

(١) رواه الشيخان وأبو داود والإمام أحمد في المسند.

ولما فرغوا من أمرهم ، وتوجَّهوا إلى بلادهم راجعين ، بعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ، فهدمها المغيرة ، وانتشر الإسلام في ثقيف ، حتى أسلم أهل الطائف عن آخرهم[١] .

ويلتزم الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام في تبليغ رسالتهم ، وفي الحوار مع الأمم التي يبعثون إليها التعابير النبوية؛ التي تتفق مع روح دعوتهم وطبيعة رسالتهم ، ولا يكون فيها إبهام ولا غموض ، فيدعون إلى الآخرة دعوة سافرة ، ويطمعون في الجنة ونعيمها ، ويحذرون من جهنم وعذابها وجحيمها ، كأنهما رأي عين ، ويطالبون بالإيمان بالغيب ، ولا تخلو عصورهم من فلسفات مادية وإن كانت بسيطة وبدائية ، ومن مصطلحات تستخدمها فئاتٌ من الناس ، إنهم لا يجهلونها ، ولا يجهلون أنها عملة سائدة لها رواج وذيوع ، وفيها بريق وجاذبية ، ولكنهم لا يستخدمونها لجلب الناس إليهم ، فيدعون إلى الإيمان بالله وبصفاته وأفعاله ، وبالملائكة ، والقدر خيره وشره من الله ، والبعث بعد الموت ، ويقولون ـ في غير استحياء ومعذرة ـ إن جزاء كل ذلك الجنة ، ورضوان من الله .

وخير نموذج لهذا المنهج النبوي في الدعوة ، ما يراه القارىء في قصة بيعة العقبة الثانية ، فقد خرج عددٌ من المسلمين من الأنصار مع حجَّاج قومهم من أهل الشرك ، واجتمعوا في الشعب عند العقبة ، وهم ثلاثة وسبعون (٧٣) رجلاً وامرأتان من النساء ، وجاء رسولُ الله ﷺ معه عمه عباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذٍ على دين قومه ، وتكلم رسول الله ﷺ وتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغَّب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فبايعوه ، واستوثقوا منه ألا يدعهم ، ويرجع إلى قومه ، وعرفوا وهم عقلاء ، ما يستتبع ذلك من خطر وضرر ، وإثارة لغيظ القبائل وعداء العرب كلهم ، ونبههم على ذلك عباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ، فقالوا في جواب ذلك كله : إنا

---

(١) زاد المعاد (ج ١ ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩) ملخصاً.

نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، ثم أقبلوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا له : فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ .

ولو كان أحد مقام نبي الله ﷺ من القادة والزعماء ، ورجال التنظيم الإنساني ، والوعي السياسي ، لكان جوابه أنه يجتمع شملكم بعد فرقة ، ويكون لكم كيان بعد ضعف ، فتستطيعون أن تقيموا دولة ، وتنشئوا قوة ، ولم يكن ذلك أمراً غريباً تأباه عقولهم ، وقد دلت كلُّ القرائن على إمكان ذلك ووقوعه ، وقد قال قائلهم : «إنا قد تركنا قومنا والقوم بينهم العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم ، فندعوا إلى أمرك ، وتعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك»[(١)] .

ولكن الرسول ﷺ لم يزدْ في جواب سؤالهم : «فما لنا بذلك يا رسول الله؟» على قوله : «الجنة» ، هنالك قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده ، فبايعوه[(٢)] .

ومِنْ آثار هذه الغيرة أنهم لا يغيرون حكماً من أحكام الشريعة ، ولا يعطلون العمل به لمصلحة سياسية ، ولكثرة من يدخل في دينهم ويكثر السواد ، أو يكسب له القوة والمجد ، وقد نفذوا حدود الله وأحكامه في الأباعد والأقارب ، ولم يعطلوها لشفاعة أحب الناس إليهم ، وقد قال رسولُ الله ﷺ حين شفع أسامة في امرأة من بني مخزوم ، وقد سرقت : أتشفع في حدّ من حدود الله؟! ثم قام فاختطب ، فقال : «أيها الناس ، إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدّ ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقتْ لقطعتُ يدها»[(٣)] .

وقد انتقلت هذه الغيرةُ إلى خلفاء الرسل وأصحابهم ، فحافظوا على

(١) سيرة ابن هشام (ق ١ ص ٤٢٩) .
(٢) ابن هشام (ق ١ ص ٤٢٩) .
(٣) صحيح مسلم ، كتاب الحدود ، باب : حد السرقة ونصابها .

تعاليم القرآن ، وأحكام الشريعة ، ومبادىء الإسلام ، غير محتفلين بما يجرُّ ذلك من إقبال أو إدبار ، أو ربح أو خسارة.

وخيرُ مثال لذلك ما روي في التاريخ عن موقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قضية جبلة بن الأيهم الغساني ، وكان من ملوك آل جفنة ، وقد خرج إلى المدينة في خمسمئة من أهل بيته من علّ وغسان ، ودخل المدينة فلم يبقَ بها بكر ولا عانس إلا خرجت تنظر إليه وإلى زيّه ، وخرج عمر للحج ، فخرج معه جبلة ، فبينما هو يطوفُ بالبيت ، وكان مشهوداً بالموسم ، وطىء إزاره رجل من بني فزارة فانحلّ ، فرفع جبلةُ يده فهشم أنف الفزاري ، فاستعدى عليه عمر رضوان الله عليه ، فبعث إلى جبلة فأتاه ، فقال: ما هذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين ، إنه تعمَّد حلَّ إزاري ، ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف ، فقال له عمر: قد أقررت ، فإما أن ترضي الرجل ، وإما أن أقيده منك ، قال جبلة: وماذا تصنع بي؟ قال: آمر بهشم أنفك كما فعلت ، قال: وكيف ذاك يا أمير المؤمنين ، وهو سوقة وأنا ملك؟! قال: إن الإسلام جمعك وإياه ، فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والعافية ، قال جبلة: ظننت يا أمير المؤمنين أني أكون في الإسلام أعزّ مني في الجاهلية ، قال عمر: دعْ عنك هذا ، فإنك إن لم ترض الرجل أقدته منك.

ولما رأى جبلةُ الصدقَ من عمر ، قال: أنا ناظر في هذا ليلتي هذه ، وأذن له عمر في الانصراف ، حتى إذا نام الناسُ وهدؤوا ، تحمل جبلة بخيله ورواحله إلى الشام ، فأصبحت مكة وهي منهم بلاقع ، ولم يزدْ عمر حين سمع قصة ما هو فيه من نعيم ومظاهر ملوكية من جثامة بن مساحق الكناني ، الذي وفد عليه ، وجلس معه ، على أن قال: «أبعده الله ، تعجل فانية اشتراها بباقية فما ربحت تجارته»[١].

وليس معنى ذلك أنَّ الأنبياء غلاظ شداد ، لا يستخدمون الحكمة في

(١) فتوح البلدان للبلاذري ، ص ١٤٢ ، باختصار ، وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٢٨١.

دعوتهم ، ولا يكلمون الناس على قدر عقولهم ، فإن ذلك ينافي النصوص القرآنية ، والسيرة النبوية المحفوظة ، وليس قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم : ٤] محصوراً في كلمات ومفردات ، إنما يشملُ المعاني والأساليب ومدخل الكلام ، كما تجلّى ذلك في موعظة سيدنا يوسف مع زميليه في السجن ، وحوار سيدنا إبراهيم وموسى مع ملوك عصرهما وقومهما(١) ، وقد أمر الله نبيه ـ وعن طريقه وبواسطته كل قارىء للقرآن وكل داع إلى الإسلام ـ بقوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل : ١٢٥].

وقد كان النبي ﷺ يُوصي أصحابه الذين يرسلهم للدعوة إلى الله ، وتبليغ أحكام الله باللين والرفق ، والتيسير والتبشير ، وقد قال لمعاذ بن جبل وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن: «يسّرا ولا تعسّرا ، بشّرا ولا تنفّرا»(٢) وقد قال الله لنبيه ﷺ:

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، وقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إنما بُعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين»(٣).

والنصوص في ذلك والشواهد أكثر من أن تُحصى(٤)، وهذا كله مستفيض متواتر من سيرته ﷺ مفروض في سيرة الأنبياء السابقين؛ للحكمة التي وصفهم الله بها، فقد قال: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠].

وقال في أنبيائه: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ [الأنعام: ٨٩].

«ولكن كل هذا التيسير والتدريج ، ومراعاة الحكمة والمصلحة ،

(١) راجع للتفصيل محاضرة العلامة الندوي في هذا الجزء بعنوان: «روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة».
(٢) صحيح البخاري (ج ٢ ص ٦٢٢).
(٣) صحيح البخاري (ج ١ ص ٣٥).
(٤) اقرأ الفصل النفيس: «باب التيسير» في «حجة الله البالغة» لشيخ الإسلام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي (ج ١).

والنظر إلى استعداد النفوس ، إنما هو في التعليم والتربية وفي المسائل الجزئية ، ومما ليس من العقائد ومبادىء الدين في شيء ، أما ما كان من العقائد والمبادىء والفرائض والنصوص ، وما يفرق بين الإيمان والكفر ، والتوحيد والشرك ، وكان من شعائر الإسلام وحدود الله ، فالأنبياء عليهم السلام على اختلاف عصورهم ، أصلب فيه من الحديد ، وأثبت عليه من الجبال ، لا يعرفون تنازلاً ، ولا يعرفون هوادة ، ولا يرضون مساومة»(١) .

٤ ـ السمة الرابعة من سمات النبوية وملامح دعوتهم وشعائرها ، هو التشديد على جانب الآخرة واللهج بها ، والإشادة بذكرها ، والتنويه بشأنها تنويهاً يجعلها من النقط الأساسية في دعوتهم ، ويشعر كل من يعيش في أخبارهم وأحاديثهم ، ويتذوق كلامهم أن الآخرة دائماً نصب أعينهم ، لا تزال ماثلة أمامهم بنعيمها وجحيمها ، وسعادتها وشقائها ، فهم إلى الجنة في حنين شديد ، ومن جهنم في فزع كبير ، وهو شيء طبيعي قد ملك عليهم مشاعرهم ، واستولى على فكرهم .

والإيمان بالآخرة ، وتمثل ما فيها من سعادة دائمة ، وشقاء دائم ، وما أعدَّ الله فيها لعبادة المؤمنين المطيعين من جزاء ، وللكفار العصاة من عقاب ، هو الحافز الحقيقي إلى دعوتهم ، وبذل نصحهم ، وهو الذي يقلقهم ، ويطير نومهم ، ويكدر صفو عيشهم ، ويجعلهم لا يهدأ لهم بال ، ولا يقر لهم قرار .

والقارىء الذكي يلاحظ أن دعوة الأنبياء إلى الإيمان بالآخرة ليست كضرورة خلقية ، وكحاجة إصلاحية لا يقومُ بغيرها مجتمع فاضل ، ومدنية صالحة ، فضلاً عن المجتمع الإسلامي ، وهذا وإن كان يستحق التقدير والإعجاب ، ولكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم ، ومنهج خلفائهم اختلافاً واضحاً ، والفرق بينهما ، أن الأول ـ منهج الأنبياء ـ إيمان ووجدان ، وشعور وعاطفة ، وعقيدة تملك على الإنسان مشاعره ، وتفكيره ، وتصرفاته ، والثاني اعتراف وتقدير ، وقانون مرسوم ، وإن

(١) ملتقط من محاضرة العلامة الندوي : «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن» .

الأنبياء يتكلَّمون عن «الآخرة ، باندفاع والتذاذ ، ويدعون إليها بحماسة وقوة ، ورجال التربية والإصلاح ، وقادة الجماعات العقلاء يتكلمون عنها بقدر الضرورة الخلقية ، أو الحاجة الاجتماعية ، وبدافع من الإصلاح والتنظيم الخلقي ، وشتان ما بين الوجدان والعاطفة ، وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية»(١) .

٥ ـ إن الله هو الحاكم الحقيقي ، والحكم المطلق وشرع الدين من حقه ، وقد قال : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام : ٥٧] وقال : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى : ١١] ولكن صلة العبد بربه أشمل وأوسع ، وأعمق وأدق ، بكثير من صلة الحاكم والمحكوم ، والآمر والمأمور ، والسلطان والرعية ، وقد لهج القرآنُ الكريم بذكر أسماء الله وصفاته في بسط وتفصيل ، وأسلوب شيق جميل(٢) ، لا يدلان أبداً على أن المطلوب من العبد هو الإيمان بمجرد حاكميته المطلقة ، والإذعان بسلطته العلياء ، وأن لا يشرك آخرين معه في سلطته .

إن هذه الأسماء والصفات والأفعال الإلهية التي زخر القرآن بذكرها ، وما ورد من الآيات التي فيها مدح الحب لله(٣) ، والحث على ذكره الكثير الدائم ـ تتطلب في صراحة أن يحبَّ العبدُ إلهه وربه بقلبه وقالبه ، وأن يتفانى في طلب رضاه ، وأن يتغنَّى بمجده ، ويُسبِّح بحمده ، وأن يلهجَ بذكره قياماً وقعوداً ، وأن يكونَ ذلك هو شغله الشاغل ، وهمّه الكبير ، وأن

(١) انظر كتاب العلامة الندوي «الصراع بين الإيمان والمادية» (ص ٨٩ ـ ٩٠) .
(٢) اقرأ على سبيل المثال الآيات الأخيرة من سورة الحشر : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [٢٢ ـ ٢٤] .
(٣) كقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ . . . ﴾ [البقرة : ١٦٥] وقوله : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة : ٥٤] وقوله في قصة يحيى : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ﴾ [مريم : ١٣] وما ورد في قصة إبراهيم ، وأمره بذبح إسماعيل ، وما ورد من الآيات التي يصعب إحصاؤها في الحث على ذكر الله ، وذمّ المقصرين فيه كقوله : ﴿ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٩١] ، وقوله : ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٤٢] .

يظلَّ خائفاً منه ، فزعاً من بطشه وقهره ، وجلاً من غضبه وسطوته ، ملتجئاً إليه في كل حال ، ماداً إليه يد السؤال ، مُتضرِّعاً إليه بإلحاح وإقبال ، متطلعاً إلى جماله الذي هو مصدر الحسن والإحسان ، ومنتهى الفضل والكمال ، تملكه عاطفةُ البذل في سبيله بكل ما عنده ، من نفس ونفيس ، وغال ورخيص[١] .

٦ ـ مما تجب الإشارةُ إليه والتنويه به ـ ونحن في حديث عن طبيعة هذا الدين ، وسماته البارزة ـ أن شأن الأنبياء والرسل ـ وفي مقدمتهم ، وعلى رأسهم أفضل الرسل وخاتم الأنبياء محمد ﷺ ـ مع الأمم التي يبعثون إليها ، ومع الخليقة ، ليس شأن البُرُد[٢] ، وحملة الرسائل ، وبالتعبير العصري «سعاة البريد» الذين يبلغون الرسائل أو الرسالات ، ثم لا شأن لمن تبلغهم هذه الرسائل أو الرسالات ، بالذين كانوا واسطة أو أداة في بلوغ هذه الرسائل أو الرسالات إليهم ، وهم أحرار يفعلون ما يشاؤون ، وصلة الأمم المبعوثة إليهم مع من بعثوا ، صلة مؤقتة قانونية آلية ، لا شأن لها بسيرتهم وبأذواقهم واتجاهاتهم وحياتهم الفردية والمنزلية ، وهذا تصوُّر خاطىء وناقص قد راج في بعض الأوساط التي جهلت مقام النبوة والأنبياء ، وفي عصرنا في بعض الأوساط التي ظهرت فيها فكرة إنكار الحديث وحجيته ، أو سيطر عليها التفكير الغربي ، تقليداً للتصور المسيحي الديني .

وبالعكس من ذلك ، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم القدوةُ للإنسانية ، والمثل الكامل في الأخلاق والأذواق ، والأخذ والرد ، والحب والرضا ، ومحطّ العناية والرضا من الله تعالى أحاطت العناية الإلهية ، والقبول الرحماني بنفوسهم ، والحياة التي كانوا يعيشونها ، وشملت أخلاقهم وعاداتهم وسننهم وطرق معيشتهم ، واختار الله طريق حياتهم من

---

(١) مقتبس من كتاب المحاضر (العلامة الندوي) : «التفسير السياسي للإسلام» (ص ٧٨ ـ ٧٩) ، طبع دار القلم الكويت ، الطبعة الثالثة .

(٢) جمع بريد .

بين طرق الحياة وأخلاقهم من بين أخلاق الناس ، وعاداتهم من بين العادات الكثيرة التي تعوَّدها الناس ، حتى إذا سلكوا شعباً وواديا ، وسلك الناسُ شعباً وواديا ، كان شعبهم وواديهم أحبّ إلى الله من شعب الناس وواديهم ، ونفذت فيهم وفي كل ما اختاروه ، وأصبح لهم شعاراً وبهم خاصاً محبة الله ورضاه ، حتى تقليدهم واتباعهم واتخاذ شاراتهم وشعائرهم والتخلق بأخلاقهم والتشبه بهم ، أقرب الأسباب ، وأقرب الطرق ، وأيسرها لجلب محبة الله ، وصار من اتبعهم ، وتشبه بهم ، من المحبوبين ، لأن المشبه بالحبيب حبيب ، وبالبغيض بغيض ، وأصبح ذلك أصلاً من الأصول ، والقانون الذي لا يتبدل ، ولا يتغير على مر الزمان ، واختلاف المكان ، وأصبحت الدعوة إليه عامة وعلانية ، وأعلن الله تعالى على لسان خاتم النبيين ﷺ:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وبالعكس من ذلك كان الميلُ إلى الظالمين والكفار ، وإيثار طريقتهم ، والسير بسيرتهم جالباً لسخط الله والبعد عنه ، فقال: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣].

وهذا سرُّ ما تسميه الشريعة بخصال الفطرة ، وسُنن الهدى ، وتشيد بها وتحثّ على الأخذ بها ، ومجموع هذه الأخلاق والعادات يحدثُ انصباغاً بصبغتهم ، وهي الصبغةُ التي يقول الله عنها: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٨].

وهذا سرُّ تفضيل الله عادة على عادة ، وخلقاً على خلق ، ووضعاً على وضع ، وهيئة على هيئة ، وهذا سرُّ ما تتخذه الشريعة الإسلامية شعاراً لأهل الإيمان ولأهل الطاعة ، وسُنَّة موافقة للفطرة ، وضده علامة للانحراف ، وشعاراً لأهل الجهل والسفاهة ، ولأهل الجاهلية والكفر ، ولا فرق بينهما ، إلا أن الأول كان شعاراً للأنبياء ومن عادتهم واختيارهم ، وفيه

تشبه بهم ، والثاني شعار لأهل الكفر ، وعادة من عادات الجاهلية ، ومن أوضاع الشيطان وأتباعه ، وتشبه بهم.

ويندرج تحت هذا الأصل كثيرٌ من آداب الأكل والشرب واللباس والزينة ، والنوم والعشرة ، والاختلاط ، وهو باب واسع من أبواب السنة وفقه الدين.

أما فيما يتصل بالنبي ﷺ ، فالحاجةُ إلى العناية بهذه الناحية أشد وأقوى ، فلا بُدَّ من تقوية الصلة الروحية والعاطفية بالنبي ﷺ ، والحب العميق له؛ الذي يؤثره على النفس ، والأهل والولد ، كما جاء في الحديث الصحيح[(١)] ، والإيمان به كـ «خاتم الرسل ، وإمام الكل ، ومنير السبل» والحذر من كلِّ العوامل والمؤثرات التي تسبب تجفيف منابع هذا الحب ، وإضعافه على الأقل ، وتحدث جفافاً في الشعور ، وضعفاً في العمل بالسنة ، وتجرؤاً في القول ، وانصرافاً عن الافتخار به ، والولوع بدراسة سيرته وحديثه ، وكلّ ما يحرك هذا الحب ويغذيه[(٢)] ، ويدلُّ التأمل في سورة الأحزاب ، وسورة الحجرات ، وسورة الفتح ، وغيرها ، على أنَّ المطلوب من المسلم في حق الرسول ﷺ أكثر مما يجوز أن يُسمَّى بالصلة القانونية ، وهي الطاعةُ الحرفية فقط ، بل المطلوبُ الأدب النابع من القلب ، والحب المتغلغل في الأحشاء ، وما يعبر عنه القرآن بالتعزير والتوقير ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩] ، وهو الذي مثله الصحابة رضي الله عنهم في حياتهم وسيرتهم.

وقد تجلَّى ذلك في قصة خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة في وقعة رجيع ، وقد قال أبو سفيان بن حرب لزيد بن الدثنة حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه ، وأنك في

---

(١) جاء في الحديث الصحيح: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» (متفق عليه) وفي حديث: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» (رواه أحمد بن حنبل عن عبد الله بن هشام.

(٢) «القرن الخامس عشر الهجري الجديد في ضوء التاريخ والواقع» ص: ٧٤ (للعلامة الندوي).

أهلك؟ قال: والله ما أحبُّ أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه، تصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيتُ من الناس أحداً يحبُّ أحداً كحب أصحاب محمد محمداً[1]، وتترّس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله ﷺ يقعُ النبل في ظهره وهو منحنٍ عليه، حتى كثر فيه النبل[2].

وتترس طلحةُ بن عبيد الله على رسول الله ﷺ في غزوة أحد بيده يقي بها النبي ﷺ، فأصيبت أنامله، وشلّت يده[3] وقد أصيب في غزوة أحد زوج امرأة من بني دينار وأخوها، وأبوها، فلما نعوا لها، قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان، وهو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، قال سعدُ بن أبي وقاص: فأشير لها إليه، فلما رأته قالت: كلُّ مصيبة بعدك جلل[4].

ولما رأى عروة بن مسعود الثقفي رسول قريش شأن الصحابة مع رسول الله ﷺ، وتسابقهم في حبه وطاعته، وكان إذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، قال لأصحابه حين رجع: «أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك على كسرى وقيصر والنجاشي والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، فوصف لهم ما رآه»[5] وكتب الحديث والسيرة مشحونة بمثل هذه الأمثلة والنماذج.

وامتاز بهذا الحب وكان له فيه النصيب الأوفر، كل من تشبع بروح هذا الدين، وأراد الله أن ينفعَ به الإسلام والمسلمين، من العلماء الراسخين، والمصلحين والمجدِّدين، والقادة المصلحين، وهذا الحب ـ الخاضع لأحكام الشريعة وآدابها، والمتأسّي بأسوة الصحابة ـ يعينُ على الاتباع

(١) سيرة ابن هشام (ق/ ٢، ص: ١٧٢).
(٢) أيضاً ص: ٨٢، ورواه البخاري في غزوة أحد، في باب قوله تعالى: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني (ج/ ٢ ص: ٢٢٩).
(٤) أي: صغيرة، سيرة ابن هشام (ق/ ٢ ص: ٩٩).
(٥) زاد المعاد (ج/ ١ ص ٣٨٢).

الكامل ، والاستقامة على الشريعة ، ومحاسبة النفس الدقيقة الأمينة ، والطاعة في المنشط والمكره ، ويزيل الأمراض النفسية ، ويزكي النفس ، ويهذب الأخلاق ، فإن موجةَ الحب تجرفُ بالحشيش ، وتسري في النفس سريان النار في الهشيم ، وقد أصبح المسلمون بعد ما كانوا ـ مع الحب لله ولرسوله ـ شعلة من الحياة ، وجذوة من النار ، ركاماً بشرياً ، أو فحماً حجرياً ، بعد عهده بالنار والحرارة.

٧ ـ ومن خصائص هذا الدين: كماله وخلوده ، فقد أعلن انتهاء تعليم البشر العقائد والشرائع ، وما تتوَّقف عليه سعادتهم في الدنيا ، ونجاتهم في الآخرة ، فقال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقد صرَّح القرآنُ بلسان عربي مبين؛ أن هذا الدين قد بلغ طوره الأخير من الكمال والوفاء بحاجات البشر ، والصلاحية للبقاء والاستمرار ، فقال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ [المائدة: ٣].

وقد نزلت هذه الآية يومَ عرفة في حجة الوداع سنة عشر للهجرة ، وفهم علماء اليهود الأذكياء الذين كانوا من أعرف الناس بالعلم القديم ، وتاريخ الديانات أنها كرامة خصّ بها المسلمون ، ومفخرة لهذا الدين ، لا يشاركه فيها دين آخر ، فقالوا لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية في كتابكم ، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً»[(١)].

وقد كان انقطاعُ النبوة بعد رسول الله ﷺ تكريماً للإنسانية ، ورأفة بها ، وإعلاناً أن الإنسانية قد بلغت سنَّ الرشد ، ومرحلة النضج والاستواء ، وقد

---

(١) وقد قال عمر في جواب ذلك: إني لأعلمُ حيث أنزلت ، وأين أنزلت ، وأين رسول الله ﷺ حين أنزلت ، يوم عرفة (صحيح البخاري ، كتاب التفسير) يعني: أن ذلك لا يحتاجُ إلى عيد جديد ، فقد كان ذلك عيداً ، والإسلام ليس دين أعياد ، ومواسم للحوادث ، والوقائع الكبيرة ، يحتفل بها ، شأن الديانات الأخرى.

خرجت من إطارها الضيق الذي عاشت فيه أحقاباً ، واستعدَّت لأن تدخل في مرحلة جديدة من العلم والمدنية ، والتعارف والوحدة ، وتسخير الكون وطاقاته ، والتغلب على العوائق الطبعية ، والتقسيمات الجغرافية ، والفوارق السياسية ، وجاء دورُ الاعتماد في مجال الحياة على القوى الطبعية ووسائل العلم ـ مع الاعتماد في العقائد والشرائع على رسالة الله الأخيرة والشريعة الخالدة ـ والعقل المؤمن ، والقلب السليم ، وكان شقاء الأمم في الزمن الماضي بالتباس الأمور ، واختلاط الحق بالباطل ، وكثرة الدعوات المدعية للاتصال الخاص بالسماء ، وتلقي التعليم من فوق كذباً وزوراً ، وتوزيع الناس بين المؤمن والكافر على هذا الأساس ، وقد تكاثر هؤلاء المتنبؤن في البيئات اليهودية والمسيحية ، حتى أحدث ذلك مشكلة شغلت العقول ، واستنفذت الطاقات ، ونشرت الفوضى ، والاضطراب النفسي والعقلي(١) .

وقد كان في انقطاع النبوة بعد محمد ﷺ توفير للجهود البشرية ، والطاقات الإنسانية ، عن أن تمتحن وتستنفذ بعد كل فترة زمنية ، أو على مسافة مكانية في التصديق والتكذيب ، وتوجيه بالإنسان إلى أن ينظر إلى الأرض والكون ، في استخدام مواهبه وطاقاته ، لا إلى السماء بين آونة وأخرى ؛ لينزل للإنسانية وحي جديد ، وعلم مفيد مزيد ، فيتفادى بذلك من بلبلة فكرية ، وصراع مذهبي ، وتمزق اجتماعي .

وقد استطاعت هذه الأمة ـ بفضل هذه العقيدة ـ أن تقاوم المؤامرات الدقيقة ، وتحافظ على وحدتها في الدين والعقيدة ، لا يزال لها مركز روحي موحد ، ومصدر علمي ، وثقافي عالمي ، وشخصية مجمع عليها ، ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً فيجتمع لها الشمل ، وتتوحد لها الكلمة ، ويقوى عندها الشعور بالمسؤولية ، وقوة مقاومة الفَساد ، وإقامة الحق والعدل وموازين القسط ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى

(١) راجع دائرة المعارف في الأديان والأخلاق (Encyclopedia of Religion & Ethics) ج/ ٨ ص/ ٥٨٨ ومقال (Edwin Konx Mitchell) في هذه الموسوعة .

الخالص ، لا تنتظر لذلك نبياً جديداً يبعث ، أو إماماً معصوماً ينهض ، فيحقق ما عجز الأنبياء عن تحقيقه ، ويكمل ما تركوه ناقصاً[١] ، ولا تعتمد في الانتفاضة الإسلامية ، وفي النشأة الدينية الجديدة؛ على شيء غامض يجل عن العقول والظواهر ، ويدق فهمه ، ويستغله المغرضون والطامحون من أصحاب النيات السيئة ، والأغراض السياسية ، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون»[٢].

٨ ـ ومن خصائص هذا الدين: بقاؤه على أصالته وحيويته ، محفوظاً كتابه مفهوماً ، مصونة أمته من الضلال العام ، والجهالة المطبقة ، والانحراف الاجتماعي ، الذي ابتليت به الأمة المسيحية في عهدها الباكر ، فسمَّاهم القرآنُ الكتاب السماوي المعجز بـ «الضالين»[٣] ، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. والوعد بالحفظ في موضع الامتنان ، يستوجبُ الفهم والشرح ، والعمل والتطبيق ، فلا خيرَ في كتابٍ يبقى مطوياً على غرَّته ، وتنقطع الاستفادة منه بعد نزوله بمدة قصيرة ، وتمضي على ذلك قرون وأجيال ، لا تتبين الأمة فيها حقيقة الكلمات التي يدورُ عليها هذا الكتاب ، وتقوم عليها تعاليمه ودعوته ، وقد

---

(١) كما يعتقد كثير من الإمامية.

(٢) ملخصاً من كتاب العلامة الندوي «النبي الخاتم» طبع دار ابن كثير بدمشق.

(٣) لا يفهم سر هذه الكلمة ، وحكمة هذه التسمية ـ المختلفة عن اليهود الذين سماهم القرآن بـ «المغضوب عليهم» ـ إلا من كان له اطلاع دقيق على تاريخ نشوء المسيحية وتطورها في أول عهدها ، فقد انحرفت عن الجادة التي تركها عليها المسيح ـ عليه السلام ـ في أول رحلتها ، وسارت على درب مختلف عن الدرب الأول كل الاختلاف ، وتكفي لذلك شهادة واحدة ، وهي شهادة العالم المسيحي (Ernest de Bunsen) فيقول: «إن العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الإنجيل ، ليس الذي دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله ، إن مرد النزاع القائم بين المسيحيين الد م ، وبين اليهود والمسلمين ، ليس إلى المسيح ، بل إلى دهاء بولس ، ذلك المارق اليهودي والمسيحي ، وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم (Essenie) والتمثيل» (Islam or True Christianity P. 128).

قال لرسوله: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٧ ـ ١٩].

ولا ثقة بدين لم يعملْ به إلا في فترات قصيرة تتخللها فجوات واسعة عميقة، كان يسودُ عليها الظلام، وتتغلب فيها الجاهليةُ بكل معانيها، فالشجرة التي تبقى أطول زمان وأفضله لا تعطي ثمارها، غير جديرة بالاعتماد وبالاعتناء، وليست الشجرة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء.

ولم تصبْ هذه الأمة حاملة الرسالة الأخيرة التي أخرجت للناس، والتي يرتبط بها مصيرُ الإنسانية، بالعقم والجدب الفكري الدائم، ولا تعيش في عمى وضلال عن مقاصده ومتطلباته، ولا تجتمع على ضلالة، وقد جاء في حديث صحيح: «لا تجتمع أمتي على ضلالة»[(١)].

وكل فساد وانحراف يغزو هذه الأمة إنما هو طارىء ودخيل، ومنافٍ لطبيعتها، وهو كالغبار على جوهر أصيل، وذهب وهَّاج، لا يلبثُ أن ينتفض ويتطاير بتأثير القرآن والسنة والدعوة إلى الدين الخالص، وحركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ما جاء معناه في حديث آخر: «لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم مَنْ خذلهم حتى يأتي أمر الله». والدراسة الواسعة الدقيقة لتاريخ الأمة ورجالها يشهد بذلك[(٢)].

٩ ـ وأخيراً إن الإسلامَ يحتاجُ إلى مناخ إسلامي ـ وبتعبير أدق وأكثر وضوحاً ـ إلى طقس، ودرجة حرارة، وبرودة معينة (Temperature)؛ لأنه دين حي إنساني، ليس ديناً عقلياً يعيش في المخ، أو في فلسفة، أو مكتبة، بالعكس إن الإسلام في وقت واحد، عقيدة وعمل، وسلوك وخلق، وعاطفة وشعور، وذوق يسيطر على التفكير والشعور، ويتحكم

---

(١) يقول العلامة السخاوي: «هو حديث مشهور المتن، ذو أسانيد كثيرة، وشواهده متعددة» (المقاصد الحسنة فصل اللام والألف).

(٢) راجع مقدمة كتاب العلامة الندوي «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الجزء الأول، بعنوان «الحاجة إلى الإصلاح والتجديد، والبعث الجديد، واتصالهما في تاريخ الإسلام».

في موازين الأشياء والقيم ، إنه يسبك الإنسان سبكاً جديداً ، ويصوغُ الحياة صياغة جديدة؛ لذلك نرى أن الله تبارك وتعالى يُسمِّي الإسلامَ بصبغة الله ، والصبغة لون شامل وسمة مميزة ، وطابع ممتاز ، وللإسلام حساسية زائدة بالنسبة إلى الديانات الأخرى ، إنه يتأثر أكثر من كل دين ، له حدود معروفة معينة ، لا يمكن أن يتخطاها المسلم ، ولا مفهوم للردة ولا شناعة لها؛ في دين آخر ، بالمعنى الواضح الذي نجده في الشريعة الإسلامية ، والتصور الإسلامي.

ووقائع حياة النبي ﷺ وأحداثها ، وتوجيهاته ، وتعاليمه ، وأسوته ، وسُنَّته ، ـ من مجال العقائد والعبادات ، إلى مجال الأخلاق والمعاملات ، إلى المشاعر والانفعالات ـ تخلق ذلك الجو الذي تخضر فيه شجرة الدين ، وتورق وتثمر ، لأن الدين لا يبقى مستجمعاً لجميع شرائط الحياة وصفاتها ـ منها النمو والتحرك ، والاهتزاز والحساسية ـ بدون العواطف والروح ، والوقائع والأمثلة العملية ، ومجموعتها الحديث النبوي الصحيح ، والسنة المحفوظة ، وبقاء صورة العهد النبوي ـ بجانب القرآن الكريم ـ مسجَّلة ، وبقاء حديث صاحب النبوة ، وصورة جو عهده محفوظة ، معجزة من معجزات الإسلام ، ومزية من مزاياه التي لا تشاركه فيها ديانة ، وذلك شيء طبيعي؛ فإن الدين الذي جاء ليبقى إلى يوم القيامة ، ويقدم للأجيال القادمة في أجواء متباينة ، وبيئات مختلفة ، نماذج عملية موحدة ، يوفر دواعي العمل ، ونوازعه القوية ، ويجسم خروج الحكم الشرعي من حيز التصور والإمكان العقلي ، إلى حيز التطبيق العملي ، ويغذي العقل القلب في وقت واحد ، لا يمكن أن يعيش بدون الجو ، وهذا الجو قد بات مصوناً محفوظاً بفضل الحديث.

وقد أكدت التجارب الطويلة المتصلة التي مرَّ بها تاريخ الأديان والأقوام ، أن مجرد الأمر القانوني والضابطة الرسمية ليس بكفيلين بأن يضفيا على عمل ونشاط ، مسحة من الروح ، والكيفيات المطلوبة ، ولا يستطيعان أن ينشئا المناخ الذي لا بد منه ، وكل القرائن تدلُّ على أن الله تعالى كان يريدُ لجمع القرآن صيانة صحيفة حامله «وبفضل ذلك بقي امتدادُ

الحياة المباركة ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ على مدى الأجيال والقرون ، وظلت الأمةُ في كل دور وأدوارها تتنفس في ذلك المناخ الإسلامي الروحاني ، والعلمي والإيماني ، الذي سعد به الصحابة رضي الله عنهم مباشرة ، تعرف بذلك الفرق بين المعروف والمنكر ، والسنة والبدعة ، والأصيل والدخيل ، وتحمل «ميزان الحرارة» (Therma meter) أو مقياس الضغط الجوي (Barometer) الذي يعرف به علماء هذه الأمة مدى ابتعاد المجتمع الإسلامي المعاصر ، أو الجيل الإسلامي الجديد ، عن الحياة الإسلامية المثالية ـ عقيدة وسلوكاً ـ ويتعرفون بالموجات الأجنبية عن الإسلام وتعاليمه التي تغزو هذا المجتمع ، وتحدث فيه انعكاسات وتموجات بعيدة عن الإسلام ومثله وقيمه ، وأهدافه وغاياته ، فيقيمون عليه الحسبة الدينية ، ويكافحون هذا الانحراف عن الخط الإسلامي المستقيم ، ويعيدون الأمر إلى نصابه ، والمياه إلى مجاريها ، لذلك نرى أن جميع حركات الإصلاح والتجديد ، وصيحات العودة إلى الإسلام ، والتعليم الإسلامية ، وأسوة الرسول ﷺ ، نبعت على مسار التاريخ الإسلامي الطويل ، من دراسة كتب السنة والحديث ، وفهمها العميق ، وكان القائمون بها في مختلف الأعصار والأمصار ، عاكفين على دراسة الكتاب والسنة ، ومشتغلين بالحديث تدريساً وتأليفاً ، ودعوة ونشراً ، وكلما ضعفت الصلة بالحديث النبوي أو عم الجهل له ، خفتت أصوات الإصلاح والتجديد والإنكار على شعائر الجاهلية وتقاليدها والردّ على البدع ، وظلّ الأمر كذلك إلى يومنا هذا ، فلا يستغني عن هذا المصدر كلٌّ من يريد إرجاع المسلمين إلى الدين الخالص والإسلام الكامل ، والأسوة النبوية ، وعهد السعادة والنور[(١)].

---

(١) راجع للتفصيل الأمثلة والدلائل من التاريخ ، رسالة العلامة الندوي: «دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته» (طبع المجمع الإسلامي العلمي في ندوة العلماء ـ لكهنؤ ، الهند) و«نظرات في الحديث للعلامة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي» تحقيق وتعليق: الأستاذ جلال عبد الحي الحسني الندوي ، طبع دار ابن كثير دمشق.

هذه طبيعة هذا الدين الخاصة به ، وسماته البارزة ، وملامحه المميزة له عن غيره ، التي تتكون منها شخصيته التي يجبُ علينا أن نتعرف بها ، ونغار عليها لنقدر هذه النعمة قدرها ، ونأمن من الالتباس ، وقياس هذا الدين على غيره من الديانات والفلسفات البشرية ، والنظم ، والمناهج الوضعية ، ونكون على بينة من الأمر ، وشعور بعظم المسؤولية ، ودقة الأمانة .

* * *

الإسلام والحضارة الإنسانية

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة ـ خلال زيارته للكويت على دعوة من وزارة الأعلام فيها بمناسبة احتفالات القرن الخامس عشر الهجري ـ على مدرج كلية العلوم في جامعة الكويت بالخالدية ، مساء يوم الأربعاء (١٨/ صفر ١٤٠٤ هـ) الموافق (٢٣/ نوفمبر ١٩٨٣ م) بدعوة من المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .

وقد نظمت الحفلةَ وزارةُ الأعلام في الكويت ، وحضرتها الشخصيات البارزة وكبار العلماء والمثقفين في البلد ، وأصغى إليها المستمعون بالقلوب الحاضرة والآذان الواعية .

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .

سادتي وإخواني! يسعدني أن أتحدث في بلد إسلامي عربي عزيز كالكويت؛ بدعوة من اللجنة الوطنية الكويتية للاحتفال بدخول القرن الخامس عشر الهجري في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب عن «الإسلام والحضارة الإنسانية» ، وهو موضوع منير مثير ، وثيق الصلة بواقع الحياة ، وحاضر الإنسانية ، ومستقبلها ، ودور الأمة الإسلامية في بناء الحضارة وتوجيهها ، وأن يكون ذلك حين ودعنا عاماً من التقويم الإسلامي ، واستقبلنا عاماً جديداً ، ونحن على أبواب استقبال عام جديد من التقويم الميلادي .

ولكن الموضوع كان أليق بعمل مجمعي منه بمجهود فردي ، فإن الموضوع بطبيعته عالمي إنساني ، يمتد على عدة مساحات واسعة مختلفة ، فالمساحة الزمانية تمتد من القرن الإسلامي الأول (أو القرن السادس الميلادي) إلى هذا القرن الذي نلتقي فيه ، والمساحة المكانية تمتد من أقصى العالم إلى أقصى العالم ، والمساحة المعنوية تمتد من مجال العقيدة إلى مجال الأخلاق والسلوك ، ومن مجال الاجتماع والحياة المنزلية والفردية ، إلى مجال السياسة والتشريع والقانون ، وعلاقات الشعوب والأمم بعضها ببعض ، ومن مجال أنماط المدنية الراقية الرقيقة ، إلى مجال الفن المعماري والأدب والشعر ، والذوق الرفيع ، وكل مساحة من هذه المساحات مساحة واسعة ذات جوانب عديدة فسيحة ، فلا يفي بحق هذا الموضوع إلا مجمع علمي مكون من أساتذة بارعين أصحاب الاختصاص في موضوعهم؛ الذي له اتصال وثيق بهذا الموضوع ، فالموضوع ينوءُ بالعصبة أولي القوة في العلم والدراسة ، والأمينة النزيهة في الحكم على الأشياء ، الجريئة في إبداء الرأي والنتائج العلمية ، فيقوم أحدُ الأساتذة بجانب العقيدة والتفكير الديني ، ويقوم آخر بجانب الاجتماع ، والثالث بجانب التشريع والقانون ، والرابع بمبدأ الحرية والمساواة ، والخامس بحقوق

المرأة ومنزلتها في المجتمع ، وهكذا ، وهو أجدرُ بموسوعة خاصة بهذا الموضوع فضلاً عن كتاب ، فضلاً عن بحث يعد في وقت قصير ، وعلى تشتت بال ، وتزاحم أشغال ، ولكن كما قال الأولون: «ما لا يدرك كله لا يترك كله» ، ولا أبلغ من قول الله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ [البقرة: ٢٦٥] وها هو ذا جهد المقل ، وسعي المقصر ، وإلمام بهذا الموضوع الجليل؛ الذي ليس في صالح المسلمين والعرب فحسب ، بل هو في صالح المسلمين والعرب فحسب ، بل هو في صالح العهد التاريخي الذي نعيش فيه ، والمجتمع البشري ، الذي نحن من أعضائه.

أيها السادة! إنَّ من أصعب العمليات ، وأدقها هو تحليل الحضارة التي اختمرت تحليلاً كيماوياً ، وفرز العناصر التي دخلت فيها في عهود مختلفة ، وفترات تاريخية معينة ، وإرجاعها إلى أصلها ومصدرها ، وتحديد مقاديرها ومداها من التأثير والقبول. وتبيين مَنْ يرجع إليه الفضلُ في هذا العطاء الحضاري ، والتغيير الجذري ، فقد دخلتْ هذه العناصر والتأثيرات في الهيكل الحضاري والمجتمع البشري ، وتغلغلت في أحشائهما ، وجرت منهما مجرى الروح والدم ، وتفاعلت ، وتكون منهما مزاج خاص لهذه الحضارة ، شأن عوامل التكوين ، والتربية ، والبيئة ، والأغذية في حياة الفرد ، وتكوين شخصيته الخاصة ، وإلى الآن لم يخترع معمل كيماوي يباشر عمل التحليل التاريخي ، ولا مجهر «الميكروسكوب» (Microscope) يضخم هذه الأجزاء الدقيقة؛ التي لعبتْ دورها في تكوين الحضارة تكويناً خاصاً ، إذاً لا بد من دراسة عميقة واسعة لتاريخ الشعوب والأمم والبلاد والمجتمعات ، حتى نستطيعَ أن نقارنَ بين ماضيها وحاضرها ، ونهتدي إلى عمل الدعوة الإسلامية والبعثة المحمدية في تغيير العقيدة ، وإصلاحها ، والقضاء على آثار الجاهلية ، والفلسفات الوثنية ، والتقاليد الموروثة ، وتحويل التيار الفكري من جهة إلى جهة ، والتغيير الثوري في القيم والمثل ، وتناول المدنيات بالتهذيب والتحسين ، وذلك يحتاج إلى دراساتٍ مضنية ، وإجهاد نفسي وعقلي ، ولكنه عملٌ مفيد إذا لم توفق له مؤسسة علمية كيونسكو (Unesco) أو مجمع في أوربا وأمريكا

بطبيعة الحال ، فلا بد أن يخصّص له مجمع علمي في إحدى عواصم الشرق الإسلامي ، أو جامعة من الجامعات الإسلامية ، ولا شك أنه أنفع وأجدى من كثيرٍ من الأعمال العلمية التي تضطلع بها هذه المجامع والجامعات ، وتجند لها طاقاتها ووسائلها .

إن تحديد مجالات التأثير الإسلامي في الحضارة الإنسانية صعب ، وغير عملي تقريباً؛ لأن هذا التأثير قد اختلط بجهاز الحضارة ، اختلاط الدم باللحم ، وعادت هذه الشعوب والأمم لا تشعر بهذه التأثيرات ، ولا يخطر ببالها في حينٍ من الأحيان أنها عناصر دخيلة أجنبية ، فقد أصبحت جزءاً من أجزائها وتفكيرها ومدنيتها ، وحياتها ، وهنا أستعير ما سبق أن قلته في كتابي : «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» وأنا أتحدث عن المدنية الإسلامية ، وتأثيرها في الاتجاه البشري :

«صارت طباعُ الناس وعقولهم تتغير بالإسلام من حيث يشعرون ، ومن حيث لا يشعرون ، كما تتأثر طبيعةُ الإنسان والنبات في فصل الربيع ، وبدأت القلوبُ العاصية الجافة ترقّ وتخشع ، وبدأت مبادىءُ الإسلام وحقائقه تتسرب إلى أعماق النفوس ، وتتغلغل في الأحشاء ، وبدأت قيمةُ الأشياء تتغير في عيون الناس ، والموازين القديمة تتحول وتخلفها الموازين الجديدة ، وأصبحت الجاهلية حركة رجعية ، كان من الجمود والغباوة المحافظة عليها ، وصار الإسلام شيئاً راقياً عصرياً ، كان من الظرف والكياسة الانتساب إليه ، والظهور بمظاهره ، وكانت الأمم ، بل كانت الأرض تدنو رويداً رويداً إلى الإسلام ، ولا يشعر أهلُها بسيرهم ، كما لا يشعر أهلُ الكرة الأرضية بدورانهم حول الشمس ، يظهر ذلك في فلسفتهم وفي دينهم وفي مدنيتهم ، وتشفّ عن ذلك بواطنهم وضمائرهم ، وتنمّ عنه الحركات الإصلاحية التي ظهرت فيهم؛ حتى بعد انحطاط المسلمين»[١] .

---

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الطبعة السادسة والستون (ص ١٥٩) ، طبع دار ابن كثير بدمشق .

ولكن إذا كان لا بد من تحديد جوانب ومجالات في حياة الأمم والشعوب والحضارة ، ظهرت فيها التأثيرات الإسلامية في أجلى أشكالها ، نحددها في عشرة من المعطيات الهامة والمنح الأساسية الغالية ، التي كان لها الدور الأكبر في توجيه النوع البشري وإصلاحه وإرشاده ، ونهضته وازدهاره ، والتي خلقتْ عالماً مشرقاً جديداً ، لا يشبه العالم الشاحب القديم في شيء ، وهي كما يلي :

١ ـ عقيدة التوحيد النقية الواضحة .

٢ ـ مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية .

٣ ـ إعلان كرامة الإنسان وسموه ، وردّ الاعتبار إلى المرأة ، ومنحها حقوقها وحظوظها .

٤ ـ محاربة اليأس والتشاؤم ، وإزالة إساءة الظن بالفطرة البشرية ، واعتبار الإنسان مذنباً بالولادة يحتاج إلى «فداء» خارجي ، (كما فعلت المسيحية) ، وبعث الأمل والرجاء والثقة والاعتزاز في نفس الإنسان .

٥ ـ الجمع بين الدين والدنيا ، وتوحيد الصفوف المتنافرة ، والمعسكرات المتحاربة .

٦ ـ تعيين الأهداف ، وميادين العمل ، والكفاح للسعادة في الدنيا ، والنجاة في الآخرة .

٧ ـ إيجاد الرباط المقدس الدائم بين الدين والعلم ، وربط مصير أحدهما بالآخر ، وتفخيم شأن العلم والحث عليه ، وإيجاد حركة علمية وتأليفية لا يوجد مثيلها في تاريخ الأمم والملل والمدنيات ؛ التي قامت على أساس الدين ، والرسالات السماوية .

٨ ـ استخدام العقل والانتفاع به حتى في القضايا الدينية ، والحث على النظر في الأنفس والآفاق ، والتفكير في خلق السموات والأرض ، والاهتداء به إلى الحقيقة الكبرى ، ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ [آل عمران : ١٩١] .

٩ ـ العثور على الوحدة في الوحدات الكونية المبعثرة والوحدات العلمية المنتشرة ، والتي تبدو أحياناً متناقضة متناحرة ، وهي وحدة الإرادة الإلهية في الوحدات الكونية ، ووحدات المعرفة الإلهية والدلالة على فاطر الكون في الوحدات العلمية ، وهو الاكتشاف الهائل؛ الذي غيَّر مصير الإنسانية ، ومجرى فكر البشرية.

١٠ ـ حمل الأمة الإسلامية على قبول مسؤولية الوصاية على العالم ، والحسبة على الأخلاق ، والاتجاهات ، وسلوك الأفراد والأمم ، وتحمل مسؤولية القيام بالقسط ، والشهادة لله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واعتبار نفسها أمة قرنت بعثة نبيها ببعثتها؛ لقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقول نبيها: «إنما بُعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين».

وتدخل تحت كل عنوان قصة طويلة ، واستعراض تفصيلي للحضارات والعصور الجاهلية التي سبقت البعثة المحمدية ، والإنسان الذي ولد بعد البعثة ، استعراضاً دقيقاً أميناً ، وكل عنوان من هذه العناوين موضوع كتاب مستقبل ، قد يمتد على مئات من الصفحات ، ونكتفي هنا ببعض شهادات المنصفين من علماء الشرق والغرب:

يقول (Robert Briffault) في كتابه:(The Making of Humanity)

«ما من ناحية من نواحي تقدم أوربا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير ، وآثار حاسمة لها تأثير كبير».

ويقول: «لم تكن العلوم الطبيعية (التي يرجع فيها الفضل إلى العرب) هي التي أعادت أوربا إلى الحياة ، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت في حياة أوربا تأثيرات كثيرة ومتنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوربا».

ويقول جوليفه كستلو في كتابه «قانون التاريخ»:

La Lo Hde L. Histoire: (Jotivet Castelot)

«كان التقدم العربي بعد وفاة الرسول عظيماً، جرى على أسرع ما يكون، وكان الزمان مستعداً لانتشار الإسلام، فنشأت المدنية الإسلامية نشأة باهرة، قامت في كل مكان مع الفتوحات بذكاء غريب، ظهر أثره في الفنون والآداب والشعر والعلوم، وقبض العرب بأيديهم خلال عدة قرون؛ على مشعل النور العقلي، وتمثلوا جميع المعارف البشرية التي لها مساسٌ بالفلسفة، والفلك، والكيمياء، والطب، والعلوم الروحية، فأصبحوا سادة الفكر، مبدعين ومخترعين، لا بالمعنى المعروف، بل بما أحرزوا من أساليب العلم التي استخدموها بقريحة وقادة للغاية، وكانت المدنية العربية قصيرة العمر؛ إلا أنها باهرة الأثر، وليس لنا إلا إبداء الأسف على اضمحلالها».

ويتقدم ويقول:

«ولئن كان سادة البلاد أصحاب أثرة، فإن العمل الذي تم حولهم كان أسمى منهم، ومنه نشأت مدنية مدهشة، وإن أوربا لمدينة للحضارة العربية بما كتب لها من ارتقاء، من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، وعنها أخذت الفكرة الفلسفية العلمية التي سرت إليها سرياناً بطيئاً ناقصاً في القرون الوسطى، وإن أوربا لتتجلى لنا منحطة جاهلة أمام المدنية العربية، وأمام العلم العربي والآداب والفنون العربية، أوربا تدين بالهواء النافع الذي تمتعت به تلك العصور للأفكار العربية، وقد انقضت أربعة قرون ولا حضارة فيها غير الحضارة العربية، وعلماؤها هم حملة لوائها الخفاق»[1].

ويقول لبون (Gustave Lebon):

«ينسب الناس إلى باكون (Francis Bacon) قاعدة التجربة والملاحظة، المنطق الاستقرائي (Inductive Logic) وهما الأصل في أساس البحث

(١) «الإسلام والحضارة العربية» للأستاذ محمد كردعلي (ج ٣ ص ٥٤٣ ـ ٥٤٤).

العلمي الحديث ، بيد أن الواجب أن يعترف اليوم أن هذه الطريقة كلها هي من مبتدعات العرب.

واسمحوا لي أيها السادة! أن أنقل هنا بعض شهادات ذات قيمة لما كان للدعوة الإسلامية والفتح الإسلامي من تأثير ثوري في القارة الهندية؛ التي كانت مهد الحضارة والفلسفة والعلوم الرياضية في عهدٍ من العهود ، ثم أمعنت في الوثنية والمثالوجية الهندية والنظام الطبقي الجائر والتزمت ، فكان تأثيرُ الإسلام في هذا الجزء من العالم الشديد التمسك بما عنده من عقائد ونظم وتقاليد؛ دليلاً على قوة تأثير الإسلام ، والحيوية الكامنة في ضميره.

يقول الباحث الهندي المعروف (K. M. Panikkar) وهو يتحدث عن تأثير عقيدة التوحيد الإسلامية في عقلية الشعب الهندي ، ودياناته:

«من الواضح المقرر أن تأثير الإسلام في الديانة الهندوكية كان عميقاً في هذا العهد (الإسلامي) . إن فكرة عبادة الله في الهنادك ، مدينة للإسلام . إن قادة الفكرة والدين في هذا العصر ، وإن سمّوا آلهتهم بأسماء شتى ، قد دعوا إلى عبادة الله ، وصرحوا بأن الإله واحد ، وهو يستحقُّ العبادة ، ومنه تطلب النجاة والسعادة ، وقد ظهر هذا التأثير في الديانات والدعوات التي ظهرت في الهند في العهد الإسلامي كديانة (Bhagti) ، ودعوة «كبير داس»[(١)][(٢)].

ويقول جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند سابقاً:

«إن دخول الغزاة الذين جاؤوا من شمال غرب الهند ، ودخول الإسلام له أهمية كبيرة في تاريخ الهند ، إنه قد فضح الفساد الذي كان قد انتشر في المجتمع الهندوكي ، إنه قد أظهر انقسام الطبقات واللمس المنبوذ وحب الاعتزال عن العالم؛ الذي كانت تعيشُ فيه الهند ، إن نظرية الأخوة الإسلامية والمساواة التي كان المسلمون يؤمنون بها ، ويعيشون فيها ،

---

(١) شاعر متصوف ، ينتقد المجتمع الهندي إلى الإصلاح ، اختلف الناس في ديانته.

(٢) íAsurvey of Indian History P. 132

أثرت في أذهان الهندوس تأثيراً عميقاً ، وكان أكثر خضوعاً لهذا التأثير البؤساء؛ الذين حرم عليهم المجتمع الهندي المساواة والتمتع بالحقوق الإنسانية»[١].

ويقول أين ، سي ، مهتا (N. C. mehta I.C.S.) في كتابه (Indian Civilization and Islam) (الحضارة الهندية والإسلام):

«إن الإسلام قد حمل إلى الهند مشعلاً من نور ، قد انجلت به الظلمات التي كانت تغشى الحياة الإنسانية في عصرٍ مالتْ فيه المدنيات القديمة إلى الانحطاط والتدلي ، وأصبحت الغايات الفاضلة معتقدات فكرية. لقد كانت فتوح الإسلام في عالم الأفكار أوسع وأعظم منها في حقل السياسة ، شأنه في الأقطار الأخرى. لقد كان من سوء الحظ أن ظلَّ تاريخ الإسلام في هذا القطر مرتبطاً بالحكومة فبقيت حقيقة الإسلام في حجاب ، وبقيت هباته وأياديه الجميلة مختفية عن الأنظار».

وهنا نقتطف قطعة من كتابنا «السيرة النبوية»:

«الحقيقة التي لا مراء فيها أنَّ هذا الدور الذي نعيشه ، وما يليه من الأدوار التاريخية القادمة ، كلها في حساب البعثة المحمدية ، ودعوته العامة الخالدة ، وجهوده المشكورة المثمرة؛ لأنه رفع ـ أولاً ـ هذا السيف المصلت على رقاب الإنسانية؛ الذي كاد أن يقضي عليه ، ثم أغناها بمنح غالية ومعطيات خالدة ، وهدايا طريفة جديدة ، بعث فيها الحيوية والنشاط ، والهمة والطموح والعزة والكرامة ، والهدف الصحيح ، والغاية النبيلة ، واستُهِلَّ ـ بفضل هذه المنح والمعطيات ـ عهد جديد من السمو الإنساني ، والثقافة والمدنية ، والربانية والإخلاص ، وإنشاء الإنسان وتكوينه الخُلُقي والاجتماعي»[٢].

أيها السادة! بعد ما شرحناه من عطاء الإسلام الحضاري ، وما أتحف به الحضارة الإنسانية من منح ومواهب ، وما حققه من نجاح وانتصار في إنقاذ

---

(١) Discovery of ixidia P. 335 - 526

(٢) السيرة النبوية (ص ٤٦٧) الطبعة الثانية عشرة ، طبع دار ابن كثير بدمشق.

الحضارة البشرية من الانهيار والانتحار ، ومكّنها من التقدم والازدهار ، لا بد من تقرير حقيقة تاريخية خالدة ، وهو أنَّ عمل التأثير في الحضارة الإنسانية ، واستعراضها بين آونة وأخرى من جديد ، وتطعيمها بالقديم الصالح والجديد النافع ، والحيلولة بينها وبين عناصر التدمير والإبادة والاتجاهات المفسدة الهدامة ، يجب أن يدوم ، ويستمر ، وذلك لسببين :

السبب الأول : أن الأمم خاضعة لعوامل جديدة من الإصلاح والإفساد ، والحياة متحركة متطورة لا تعرف الوقوف والركود ، فلا بُدَّ من مراقبتها حيناً بعد حين ، وسدّ حاجاتها المتجددة ، وقد جدت دعوات وفلسفات مفسدة هدامة في العهد الأخير الذي انسحبت فيه الأمة الإسلامية مع الأسف ، من ميدان قيادة البشرية ، وانطوت على نفسها .

والسبب الثاني : أن الأمة الإسلامية هي أمة الرسالة الأخيرة ، وأمة الخلود ، وأمل البشرية ، فلا بُدَّ أن تظل حاملة لرسالتها ، قائمة بدورها في قيادة الركب البشري ، والوصاية على العالم ، والحسبة على العقائد والأخلاق ، وعلاقة الإنسان بالإنسان ، والأمة بالأمة ، والأمم لا تعيش بالتاريخ ، ولا بما مثلته من دور في الزمن الماضي ، وما حققته من نجاح وانتصار في عهد سابق ، إنما تعيش الأممُ بالجهاد المتواصل ، والنشاط الدائم ، والشعور بالمسؤولية المستمر ، والمخاطرة بالنفس والنفيس في كل زمان ، والجدة والابتكار ، وإنتاج المفيد الجديد ، والصالح المزيد ، فإذا انطوت على نفسها ، وتنازلت عن منصبها ، طويت من سجل التاريخ ، وتناساها الزمان ، فيجب أن تنهض الأمة الإسلامية من جديد بمسؤوليتها الدعوية الحضارية ، التوجيهية القيادية ، مرة ثانية .

وحقيقة علمية تاريخية أخرى ، وهي أن الأمة الإسلامية لا تستطيعُ أن تقومُ بدور التأثير في الحضارة الإنسانية وتوجيهها ، إذا كانت متطفلة على مائدة الحضارات الأجنبية ، تغرف من بحرها ، وتغوص في موجتها إلى الآذان ، إنها لا تستطيعُ أن تسترعي انتباهاً فضلاً عن أن تحمل الشعوب

الأخرى على تقليدها ، إلا إذا كانت مؤمنة عميقة الإيمان بأن حضارتها مستقلة ، ذات شخصية خاصة ، ربانية سماوية ، صالحة لكل زمان ومكان ، قائمة على أسس متينة مستفادة من الكتاب والسنة ، منبثقة من الهدايات الربانية والتعاليم النبوية ، للطهارة والعفة فيها تصور خاص ، فليست الطهارة فيها مرادفة لكلمة «النظافة» وليست العفة فيها يكفي فيها الابتعاد عن الجنايات الخُلُقية فحسب ، بل هي أوسع معنى ، وأكثر شمولاً واحتواء ، وإن حياتها لا تنسجم مع الحضارة الغربية التي نشأت ، واختمرت تحت ضغط عوامل تاريخية خاصة ، وفي بيئة كانت تتحكم فيها المادية ، ويسود عليها ـ في فترات كثيرة وطويلة ـ العداء للدين ، والثورة على الأخلاق والقيم ، وكما يقول أحد خبراء هذه الحضارة وتاريخها (الدكتور العلامة محمد إقبال) بإيجاز: «إن روح هذه المدنية (الغربية) ما عادت عفيفة طاهرة»[١] .

وأعتقد أنه من الميسور جداً الجمع بين التسهيلات المدنية والاستفادة بالآلات والمخترعات ، وما وصل إليه العلم الحديث ، وبين ما تمتاز به الحضارةُ الإسلامية من جمال ، وبساطة ، وجدية ، وعناية بالطهارة والنظافة ، والابتعاد عن الإسراف والتبذير ، والإغراق في المظاهر الخارجية ، إذا وفقت الحكومات والمجتمعات الإسلامية للتخطيط المدني المستقل ، البعيد عن التقليد الأعمى ، والارتجالية ، ومركب النقص ، وإذا توفر عندها الذكاء ، والأصالة ، والإيمان ، بفضل التعاليم الإسلامية والحضارة الإسلامية ، التي تنبثق عنها ، وتقوم عليها ، والاعتداد بشخصيتها .

وفي الأخير ، حيث أنا واقف في بلد إسلامي عربي ، أخاطب سادتي وإخواني العرب ، أختم هذا الحديث بقطعة من قصيدة خاطب بها شاعر

---

(١) ليراجع للتفصيل فصل: «أهمية الحضارة الإسلامية والحاجة إليها» في محاضرة: «الإسلام والحضارة الإنسانية» الموجودة في هذا الجزء ، وفي كتاب العلامة الندوي «العقيدة والعبادة والسلوك» (ص ١٩٨ ـ ١٩٩).

الإسلام الدكتور محمد إقبال الأمة العربية ، لتعرف مكانتها في العالم ، ودورها من بين أدوار الشعوب والأمم[١].

«إن نفس ذلك الأمي[٢] الريان ، نقل صحراء العرب القاحلة إلى روح وريحان . إن الحرية نشأت في أحضانه ، وإن حاضر الشعوب ليس إلا وليد أمسه . إنَّ الجسدَ البشري كان بلا قلب وروح ، فأعطاه القلب والروح ، وكشف اللثام عن جمال وجهه . إنه حطم كلَّ صنم قديم ، وأفاض الحياة على كل غصن ذاوٍ من أغصان العلوم والمدنية ، وأنجب أبطالاً وقادة مؤمنين ، أقاموا المعارك الفاصلة بين الحق والباطل ، فتارة يدوّي الأذان في ساحة الحرب ، وتارة تتحلى الآذان بقراءة «الصافات»[٣] بين صليل السيوف وصهيل الخيول ، إنَّ سيفَ البطل المغوار كصلاح الدين الأيوبي ، ونظرة الزاهد الأواب كأبي يزيد البسطامي ، مفتاحان لكنوز الدنيا والآخرة».

* * *

(١) اقرأ القصيدة بكاملها في كتاب العلامة الندوي : «روائع إقبال (١١٢ ـ ١١٣)».

(٢) يعني بذلك النبي الأمي محمداً رسول الله ﷺ .

(٣) يشير إلى سورة «الصافات» في القرآن الكريم بعد الحمد والصلاة .

دوْرُ الجامعات الإسلامية المطلوب في تربية العلماء ، وتكوين الدعاة ، وحماية الأقطار الإسلامية من التناقص والمجابهة

أعَدّ العلامة الندوي هذا البحث لمؤتمر تكوين الدعاة؛ الّذي عقدته رابطة الجامعات الإسلامية في القاهرة في ضيافة جامعة الأزهر ، والتعاون مع وزارة الأوقاف المصرية في الفترة من (٢٠ ـ ٢٢) شعبان (١٤٠٧ هـ) الموافق (١٨ ـ ٢٠) أبريل (١٩٨٧ م).

ولم يقدر للعلامة الشيخ الندوي أن يحضر المؤتمر ، ويشارك فيه عملياً وجسدياً؛ لعوائق حالت دون ذلك ، وقد أرسل البحث إلى المسؤولين عن المؤتمر قبل انعقاده بمدة كافية.

يقدّم هذا البحث القيم إلى المسؤولين عن الجامعات الإسلامية ، والمؤسسات التعليمية ، والتربوية ، وقادة الفكر ، وموجهي الشعوب والبلاد الإسلامية؛ لما فيه من توجيهات وتجارب وحقائق ليست مقيدة بزمان ومكان ، ولما فيه من تعويض وتلاف عن غيبة صاحب المقال؛ لأسباب قاسرة عن هذا المؤتمر الهادف ، وبالله التوفيق.

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

سادتي الأجلاء ، وزملائي العاملين في مجال التعليم والتربية ، وإخواني المعنيين بحاضر الأمة الإسلامية ومستقبلها ، ورسالتها وشخصيتها.

أنتهز هذه الفرصة الكريمة التي لا تسنح إلاَّ بعد آجال طويلة ، للتحدث في موضوع أعتقد أنه بالنسبة إلى الأمة الإسلامية والعالم الإسلامي ، قضية حاسمة شديد الحساسية والخطورة ، وأؤمن بإخلاص وفي حماس أنه إذا لم يكن لهذا الالتقاء العلمي التعليمي الإسلامي العالمي الكريم قيمة ونتيجة فيه ، كان التقاءً مباركاً حاسماً يملي تاريخاً جديداً ، ويفتتح عهداً سعيداً للأمة الإسلامية بإذن الله تعالى.

ويزيد هذا اللقاء قيمة ومكانة وجود عدد كبير ، أو أكبر عدد ميسَّر ـ إذا لم أكن مبالغاً أو متفائلاً أكثر ـ من أصحاب الاختصاص في التعليم الإسلامي ، والأساتذة الكبار ، والمشرفين على الجامعات الإسلامية وقادتها وموجهيها ، ويحق لي لذلك أن أخاطب نفسي بما قاله الشاعر العربي القديم ، وأنشد:

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعي فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

*** الغاية الأولى والأساسية من التعليم:**

أيها السادة! وفقني الله أن أقرأ كثيراً مما يتصل بالتعليم والتربية وغايتهما المنشودة ، والفائدة التي يجب أن تُجنى منها ، لكني أكتفي بهذه المناسبة بتقديم شهادة واحدة فيما يتعلق بتعريف العلم ، وتحديد غرضه لخبير تعليمي بريطاني معروف (Sir Prrcy Neinn) من مقال له كتبه لدائرة المعارف البريطانية:

«لقد سلك الناس مسالك مختلفة في التعريف بالتربية ، ولكن الفكرة الأساسية التي تسيطر عليها جميعاً: أن التربية هي الجهد الذي يقومُ به آباء شعب ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التي يؤمنون بها ، إن وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير في التلميذ ، تلك القوىٰ الروحية التي تتصل بنظرية الحياة ، وتربي التلميذ تربية تمكن من الاحتفاظ بحياة الشعب ، وتمدّ يدها إلى الأمام»[١].

إن هذا التعريف بالتعليم والتربية هو أروع ، وأجمع ، وأكثر تواطؤاً مع العمل والتطبيق؛ من بين جميع المحاولات التي بُذلت في سبيل التعريف بالتعليم والثقافة.

ما هي غاية التربية؟ وماذا يُراد من ورائها؟ لماذا تبذل المواهب الفنية على التعليم؟ ولماذا تنفق قوى الأمة بسخاء وعلى طريقة منظمة؟ ألكي يوجد التعليم فجوة بين الأمة وبين ما تعتز به وتتبناه من معتقدات وأغراض ، وتراث حضاري وعلمي وتصورات ، سواء كان كل ذلك مما ينبغي الاعتزاز به أم لا؟ لكن الشيء الذي تحبه ، والمعتقدات التي تعتز بها ، والتصورات والقيم والمثل والعقائد والأفكار التي تتغنى بها ، والتراث الذي توارثته من آبائها وأسلافها ، من وظيفة التعليم الأولى أن يربط بين الأمة وبين هذه الأشياء ، وينقل هذا التراث إلى الأجيال القادمة والنشء الجديد ، ذلك التراث الذي أفرغ عليه سلفها خير قواهم ومواهبهم ، وبذلوا مدة طويلة من وقتهم ، وربما قاتلت تلك الأمةُ في سبيله ، وحاربت ، وجاهدت ، وضحّت بعزها وشرفها ومجدها التليد.

ومن الفضول أن نتعرض بهذه المناسبة لما إذا كانت القيم التي حاربت الأمة من أجلها قيماً صالحة أم لا؟ لكن مسؤولية التعليم أن ينقل هذا التراث إلى الأجيال المتلاحقة ، ولا يقتصر على النقل والتصدير فحسب ، بل يعمِّقه في القلوب والأذهان ، ويجعل القلوب والعقول تسيغه ، وتتذوقه ،

(١) دائرة المعارف البريطانية ، بند «التعليم» (Education) The Encyclopedia Britannica.

ولا يعود نابياً لديها أو أجنبيّاً عندها ، بل يعودُ مألوفاً لها ومحبوباً عندها ، ويصير طبيعة لها .

*** أمة محمد ﷺ أمة ممتازة في خصائصها ، ومزاياها ، وصياغتها ، وعناصر تركيبها :**

أرى أن هذا التعريف بالتربية بقلم خبير بريطاني تعريف جامع جداً ، لكن إذا كان الأمر أمر أمة عقائدها وقيمها ليست من عند نفسها ، بل هي نابعة من الوحي الإلهي ، والكلام الإلهي ، والنبوة والرسالة ، والعلم اليقيني الغيبي الأزلي؛ الذي لا يحول ولا يزول ، ولا يتغير قليلاً أو كثيراً ، فهنالك تتضاعف المسؤولية وتتضخم .

فإذا كان هناك تعليم يزعزع عقائد تلاميذه ـ من شعور أو من غير شعور ، عن قصد أو عن غير قصد ، عن خطأ أو عن خطة مدبرة ـ ويزعزع جذور قيمهم في قلوبهم ، ويفكك عُراها ، ويمزقها ، ويثير في قلوبهم شكوكاً وشبهات لا تزول ، وصراعاً نفسياً ، ويتجاوز هذا الصراع الأفراد إلى الحياة الاجتماعية للأمة ، ويتحول الصراع إلى حرب دامية شعواء بين تلك القيم والمفاهيم والتصورات والمعتقدات ، والأفكار والعقائد ، وبين ذلك الجيل المثقف بذلك التعليم ، وتلك الثقافة ، فالأمر أدهى وأمر .

أيها السادة! إني لا أؤمن بالإسلام كتراث (Legacy) ولا أرى ذلك تعريفاً لائقاً بالإسلام ، ولذلك فإني لست مُعْجَباً بالكتب التي وُضعت بعنوان : (Segacy of Islam) و(Heritage pf Islam) إني أرى الإسلام رسالة للحياة ، ولا أراه قادراً على مسايرة الزمان فحسب ، بل أراه قائداً للزمان ، وموجهاً له ، لا أراه مرافقاً للزمان في رحلة الحياة ، بل أراه مرافقاً للزمان ، ومراقباً له ، فإذا كان هنالك مثقف بالتعليم العالي يقعُ فريسة الشك والارتياب في جميع قيمه وتصوراته ومعتقداته ، أو يعود يراها دُمى يسلي بها الصبيان والأطفال ، أو أسطورة يتعلل بها السذج والجهال ، أو يصبح لا يتحمس لها ، ولا يقاتل في سبيلها ، ولا يدافع عنها ، ولا يغامر من أجلها إذا مسَّت الحاجة إلى ذلك ، إذا كان ذلك؛ فإن هذا التعليم عدو

لدود لمن يحصله ، يجب أن يفرَّ منه فرار الإنسان من الليث ، بل أكثر من ذلك .

*** قضيــة الـبـلاد الإسـلاميـة أهــم وأكبـر خـطـراً:**

أيها السادة! وحين أتحدثُ إليكم في هذا الحفل الكريم ، وفي رحاب جامع الأزهر الشريف ، فإني أخاطبُ العالم الإسلامي كله ، إن الأمر يصبحُ ذا خطورة وحساسية وتعقيد إذا كان يتعلق ببلد إسلامي ، تعيش فيه أمة ذات شخصية ، وذات خصائص ومميزات ، ذات دعوة ورسالة ، ومكلفة بقيام دور فريد في العالم البشري ، تنبع معتقداتها ، وقيمها ، ومثلها ، وتصوراتها ، وأفكارها ، ووجهات نظرها من الوحي الإلهي ، فإذا كان التعليمُ يحدث صراعاً في مثل هذا الجيل ، ويجعله يخلع معتقداته وتصوراته العريقة بعد ما يتخرج في جامعة عصرية ، ويصبح وكأنه أمة جديدة ، أو أمة أجنبية ، تبدو نابية قلقة بين الشعب المسلم ، ويحصل من ذلك كله تعقيد جديد ، وتحدث مشكلة جديدة ، ويحدث صراع مرير ـ وقد يكون صراعاً دموياً ـ بين هذا الجيل المثقف وبين عائلته الإسلامية وآبائه وأمهاته ، وبين المجتمع الذي هو عضو فيه ، وبين تاريخه وتراثه ، وقيمه ومآثر أسلافه ، وبين منصبه ومكانته التي حباها الله إياه ، وبين رسالة الإسلام والعمل الإسلامي ، وآمال الأمة الإسلامية وأحلامها ، إن كان كل ذلك فإني لا أرى في هذا التعليم خيراً ، ولا أراه خدمةً للإنسانية ، بل إنه خيانة للأمة ، وجناية على الإنسانية .

المسـؤوليـة الأوليـة للجـامعـات فـي بـلـد إسـلامـي :

ومعذرة إليكم فإني لا أشيرُ إلى جامعة بعينها ، ولا إلى المسؤولين عن جامعة محدودة ، وإنما أتعرَّض لأمر مبدئي ، وأريدُ أن أقرر أن المسؤولية الأولى ، والأهم ، والأقدم لجامعة تقوم في بلد إسلامي ، هي أن تؤكد إيمان الأمة بالعقائد والأفكار التي تؤمن بها ، والحضارة التي تحتضنها ، والدعوة والرسالة التي تتبناها ، والخصائص والمزايا التي تحملها ، حتى لا يعود هذا الإيمان إيمان رجل عادي ، أو إيمان رجل الشارع ، بل يكون

إيمانَ عالم ، إيمان مثقف ، إيمان دارس ، ويطمئن عقله كما يطمئن قلبه ، ولا يعود كما يقول الدكتور محمد إقبال : «قلبه مؤمن وعقله كافر» ، مشيراً إلى فيلسوف غربي .

وإذا كان الصراعُ لا يجوزُ بين الفرد والجماعة ، فإنه كذلك لا يجوزُ بين القلب والعقل في حياة المرء الانفرادية ، فإذا كانت هناك جامعة تُسبِّب هذا الصراع ، أو يسببه منهاجها التعليمي ومنهجها العلمي ، ونظامها الإداري ، وبيئتها العلمية ، فذلك شؤم بعده للبلد الذي تقوم فيه الجامعة .

لا بد من اطمئنان القلب والعقل معاً :

إنَّ الغاية الأساسية للجامعات الإسلامية ، أن تُوجدَ الإيمان بتلك الأشياء التي أشرت إليها ، الإيمان الذي يأتي عن طريق العلم والثقافة والدراسة ، وعن الشعور والتفكير ، وعن طريق اقتناع العقل ، وعن الدراسة المقارنة .

وإذا كان هناك رجلٌ إنما يؤمن قلبه ، ولا يطمئن عقله ، وهو يعلِّل عقله ويسليه ، ويحاول ألاَّ يستيقظ عقله ، شأن الأمم غير المسلمة العديدة التي ترى بقاء دياناتها ورقيها في عدم يقظة الشعور ، وتحاول أن يظلَّ أتباعها سادرين في سبات الغفلة ، مسدوداً عليهم منفذ النور والهواء .

ومن هنا وقع بين «الكنيسة» و«العلم» ذلك الصراع الدموي الذي تقرؤون قصته المؤلمة المفجعة في كتاب «الصراع بين الدين والعلم» (Conflict Between) Religion & Science للعالم الأمريكي المعروف «درابر» (Johan Willian Draper) وإنما وقع هذا الصراع لأن الكنيسة كانت ترى أن الخير كلَّ الخير في تبلُّد الشعور الإنساني ، بل كانت تعمل فعلاً على تجميده وإماتته ، وكانت تؤمنُ بأن من الخير والسعادة أن يكونَ الإنسانُ محدودَ العلم ، قاصر المعرفة ، بل عديم العلم جاهلاً ، وما دام الحالُ على هذا المنوال ، كان الإيمان بالكتاب المقدس راسخاً قوياً ، وكانت المسيحيةُ عميقة الجذور ، بعيدة الغور في المجتمع ، ذلك أن العهدَ العتيقَ كان يشتملُ على كثيرٍ مما لا يؤيده العلم الحديث ، بل ينفيه ويُفنِّده ، فكانت

الكنيسةُ رأت من المصلحة ألا يتيقظ شعورُ المسيحي ، ولا يتفتح وعيه ، ولا يتسع أفقه ، ولا يتقدم العلم ، فحاولت أن تقفَ في وجه العلم؛ لأنها ظنته عدواً لها لدوداً ، وخصماً محارباً حانقاً ، فأنشأت محاكم التفتيش الديني العقائدي (Courts of inquistion) وانتشرت في ربوع العالم المسيحي وعواصمه ومراكزه ، ومنحت الحرية المطلقة في محاكمة أصحاب النظريات العلمية والاكتشافات في عالم الطبيعة والفلك والعلوم الطبيعية ، وإجراء العقوبات القاسية الوحشية على معتنقيها ومعلنيها ، وقد أثبت بعضُ المؤرخين أن ضحايا هذه المحاكم يربو عَدَدُها على عدد المصابين والقتلى في الحرب الكونية الأولى[(١)].

وقد جرّ هذا الحجر العلمي والفكري ، وفَرضِ إطار خاص ودائرة محدودة من الدراسات وكتب المطالعة على الشباب والدارسين ضرراً كبيراً على مستقبل الدين ، وعقلية الجيل الصاعد ، وأحدث حركة رد فعل عنيفة ضد هذا الاحتكار العلمي والاستبداد الديني والنظر الضيق المتزمت.

درس من تجارب الماضي :

وقد أثبت علم التربية وعلم النفس أن الحجر على الشباب في القراءة والاطلاع، كالحجر على الأطفال القاصرين الذين لم يبلغوا سن الرشد، تجربة مخفقة وعملية مثيرة فيهم التساؤلات والشكوك، والنهامة بالممنوع المحظور ، وأن هذا الصنف من الدارسين غير جدير بالثقة في مواجهة الأفكار الغربية والتحديات العلمية والعقائدية ، إن المنهج التربوي المتزن السليم هو الاطلاع على وجهات النظر والمدارس الفكرية المختلفة مرفقاً ذلك بتوجيه الأساتذة الراسخين في العلم والدين ، مع مناقشتها وعرضها على المحك العلمي والديني وتقرير الصحيح وتزييف الزائف ، وذلك مما يتفق عليه خبراء التربية وأصحاب التجربة والاختصاص في علم النفس وعلم الاجتماع.

يقول ا. وهتني جريسولد A: Whitney Griswald في كتابه مقالات حول التعليم Essays on Education:

(١) John Davenport Apology for Muhammad & The Quran.

«كانت عاقبة الرقابة والتعذيب ، الفشل دائماً في التاريخ ، إن أقوى سلاح وأنفذه لمكافحة الأفكار السيئة ، هو سلاح الأفكار الطيبة ، ولا تنبع الأفكار الطيبة إلاّ من منبع الحكمة ، وليس هناك طريق أضمن لحصول الحكمة إلاّ طريق التعليم الحر الذي لا عنف فيه» .

ويقول ثيودر شرويدر Theodope Sehuoeder في كتابه «العبودية العقلية» Intellectual Slavery :

«ساعد الرقابة على الاحتفاظ بمختلف أشكال الظلم ووقايتها ، وننخدع بهذه الوسائل ونحسبها ضماناً لحريتنا وديموقراطيتنا ، لكنها تحرمنا الفراسة التي نحتاج إليها في الطريق الطبيعي للنمو الاجتماعي ، وعادة يجهل هذا الجهل الثورات أكثر دموية» .

واضطرت المسيحية أخيراً أن تضع السلاح أمام مد العلم وسيله الجارف ، وتياره العنيف ، لأنه حاجة الإنسانية ، ومقتضاها الطبيعي ، وعاطفة الإنسان الداخلية ونعمة الله الغالية ، وضرورة العالم البشري . جعله الله لكي يخضر وينمو ويورق ويثمر ، لا لكي يذوي ويذبل ويموت ، وهل تموت الحقائق؟ على كل فإن العلم كسب المعركة وذاقت الكنيسة هزيمة وعاراً وشناراً منقطع النظير أمام العلم وتطلع الإنسان إليه وطلبه الجامح له .

تلك هي الكارثة المشؤومة التي وقعت في العالم المسيحي ، ولكنها تركت آثارها على دنيا البشر كلها وعلى جميع الديانات تقريباً ، وقد جعلت الناس يفهمون أنه لا يمكن أن يتقدم العلم والعقل معاً وأن يساير الدين العلم ، ولا بد هنا بصفتي دارساً للتاريخ أن أعترف ـ مع الأسف ـ أن هذا التصور الخاطىء قد نال بعض نصيبه من المفعول في بعض الدول الإسلامية ولو لبعض الحين ، لكنه ما لبث أن لقي حتفه ، لأنه يتنافى مع روح الإسلام وطبيعته ، ولم يدم هذا الصراع المصطنع في العالم الإسلامي ، وإنما كان قد نشأ عن طريق أوربا المسيحية ، ولكنه غاب وانقشع كسحابة صيف ، أو بسرعة أكثر منها .

مصير العلم مرتبط بالقلم:

أرى أن من واجبات الجامعات الإسلامية أن تحاول ألا تقع فجوة بين العلم والدين كما وقعت بينهما في العالم المسيحي ، أو في دنيا الديانات التي لم تكن فيها رابطة بين العلم والعقل ، بل إن نشوءها كان مديناً للجهل ، فقد تولدت وازدهرت بمعزل عن العلم والعقل بل على غفلة من العلم والعقل ، ففيها مجال لنشوء الفجوة بين العلم والدين وبين العلم والعقل ، ولكن لا يتصور ذلك في الدين الذي أعلن دعوته منذ اليوم الأول بل منذ اللحظة الأولى بما يلي :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ ـ ٥].

الدين الذي لم ينس هذا القلم المتواضع حتى في الحلقة الأولى من وحيه ، ولم ينسه لدى هبوب النفحة الأولى من النفحات الربانية ، لم ينس أن يؤكد أن مصير العلم مرتبط بالقلم ، لم ينسه في خلوة غار حراء التي ارتادها نبي أمي يتلقى الرسالة الإلهية لهداية البشرية ، ذلك النبي الذي لا عهد له بالقلم ولم يعرف من ذي قبل كيف يحرك القلم ، ولم يتعلم فن الكتابة والقراءة بتاتاً ، شيء لن يجد الإنسان نظيره في تاريخ العالم البشري ، ولا يمكنه أن يتصور هذا المكان العالي ، لا يمكنه أن يتصور أن ينزل وحي على نبي أمي بين أمة أمية في منطقة لم تعرف القراءة والكتابة معرفة تذكر ، فضلاً عن المدارس والمعاهد ودور التعليم والجامعات ، في الوقت الذي لأول مرة تم فيه اتصال السماء بالأرض بعد قرون ، ولا يبتدىء هذا الوحي بكلمة «أعبد» ولا بكلمة «صل» أو ما إليها من الكلمات المتجانسة ، وإنما يبتدىء بكلمة «اقرأ» يخاطب المنزل عليه بالقراءة ولا عهد له بها ، لكي يقرر ويؤكد له أن الأمة التي يكلف بهدايتها وتربيتها وتعليمها هي أمة ليست ولوعاً بالعلم فحسب ، بل ستكون معلمة العالم مولعة بنشره وتصعيده وترقيته ، والعهد الذي تقوم فيه بوظيفة الهداية والتبليغ والتربية والتعلم ، إنه ليس عهد الأمية والوحشة والجهل ، وعهد

الظلمة والهدم والتخريب ، وإنما هو عهد العلم والعقل والتفكير ، وعهد النظر والحكمة ، وعهد البناء والتعمير ، وعهد حب الإنسانية ، وعهد الرقي والتقدم.

كانت التجربة الفريدة الطريفة ـ لو صح التعبير ـ في تاريخ الديانات وتاريخ العالم أن الوحي الأول الذي نزل على النبي الأمي بين الأمة الأمية كانت بدايته بكلمة «اقرأ» : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ كان من الخطأ الفادح أن انقطعت صلة العلم بالرب ، فحاد عن الصراط المستقيم ، فجاء الوحي الإلهي الذي نزل على النبي الأمي يصله بالله ويربطه بالرب تبارك وتعالى ، حيث جاء ذكر العلم مقروناً باسم الرب ، لكي يعلم البشر ضرورة بداية العلم والتعليم والقراءة باسم الرب الذي وهب النعمة الغالية ومن بها على عباده وهو الذي خلقه ، فلا يتقدم تقدماً متزناً إلاّ تحت توجيهه وهدايته ، إن الآية التي نتحدث عنها ، إنها ذات ثورة وانقلاب عظيم في التفكير والعقلية والنفسية ، قرعت الآذان البشرية في بداية الإسلام ، وكان ذلك شيئاً لم يخطر من أحد على بال ولم يتصوره في حال من الأحوال ، لو سئل الأدباء والحكماء والفلاسفة والعلماء في العالم البشري عن مفتتح هذا الوحي الذي سينزل على النبي الأمي ، لم يكن أحد منهم ـ يعرف طبيعة تلك الأمة التي نزل بينها الوحي ويعرف عقليته ـ ليقول إنه سيبتدىء بكلمة «اقرأ» كان لهم أن يتنبؤوا بكل شيء ، ولكن لم يكن لهم ليتكهنوا أن الوحي سيكون استهلاله بكلمة «اقرأ» ، ثم إنه لم يبتدىء بكلمة «العلم» وإنما بالقراءة ، والقراءة تتضمن الكتابة والقلم والورق ، بينما العلم قد يكون وهبياً لا يحتاج إلى القلم والقراءة والكتابة والورق ، مما يدل على أن هذا العلم سيكون وليد القلم ، وليد الورق ، وليد الكتابة ، وليد المكتبات والكتب والمؤلفات والصحف ، وليد التجارب ، وليد الذكاء : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ .

هـذا الـديـن لـن يـفـارق الـعـلـم :

مما يجب الانتباه له أن الوحي الإلهي أكد أن طبيعة هذا الدين أنه لن

يفارق العلم ، لأن الرسالة الأولى التي وجهته إلى البشرية تأمر بالقراءة ، فكيف يسوغ أن يبقى المسلمون جاهلين لا يعرفون القراءة ، والمسلم الذي قطع صلته عن العلم ليس بمسلم حقيقي ، ولا يجوز له أن يدعي أنه ممثل صحيح للإسلام ، ثم يجب الانتباه لهذه الدعوة الثورية : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ كيف ينبه الوحي الإلهي على أن تكون هذه الرحلة ـ رحلة العلم ـ في هداية هاد كامل ، وليس هو إلاّ الله العليم الكريم ، لأن الرحلة طويلة شاقة ، معقدة خطرة ، والطريق وعرة ذات منعطفات تعترضها بحار وأنهار ذات عمق سحيق ، وتتخللها غابات كثيفة فيها سباع مخوفة ، وحيات وعقارب سامة وكل حيوان ضار .

لكنه ليس مجرد علم ، ليس عبارة عن معرفة بالدمى واللعب ، وليس عبارة عن التسلية ، وليس مما يحرش فيما بين الإنسان والإنسان والأمة والأمة ، وليس عبارة عن معرفة طرق ملء البطون ، وعبارة عن تحريك اللسان ولوك الكلمات ، بل هو : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

فهل رفع من قيمة القلم أحد في التاريخ البشري أكثر من ذلك؟ حيث يذكر بهذه الأهمية ، وبهذا التمهيد الكريم ، في خلوة غار حراء ، وفي الوحي الأول الذي ينزل من السماء ، ذلك القلم الذي ربما لم يكن بالإمكان تواجده في بيت من بيوت مكة ، لا أكاد أدري لئن رحتم تبحثون عنه رجعتم بفائدة أم لا ، ربما وجدتموه في بيت ورقة بن نوفل ، أو أي رجل تعلم الكتابة في ديار العجم ، القلم الذي ربما لا تجدون ذكره في دواوين الشعراء العرب الجاهليين المعاصرين مهما قلبتم الصفحات وأعدتم القراءة .

عصارة كل علم وثقافة :

﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ :

ثم دل على حقيقة خالدة ذات انقلاب عظيم ، وهي أن العلم لا حد له ولا نهاية ، فقال : ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، وليس العلم الحديث (SCIENCE) إلاّ انعكاساً لـ ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، وكذلك التكنولوجيا

ليس إلاّ مظهراً لـ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ، وينزل الإنسان على القمر ، ولا يعني ذلك إلاّ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ويغزو الفضاء ، ويطوي أرجاءه طياً ، ويسخر أشعة الشمس ، ويشق طريقه بين النجوم والكواكب ، ويحلم بالنزول بين السماكين ، إن كل ذلك ليس إلاّ عبارة عن ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ .

على كل فإن الأمة كان أساسها الأول على القراءة ، وخاطبها الوحي الإلهي الأول بذكر القلم ، إن تلك الأمة لن تفارق العلم والمعرفة ، لأنها تلازمه ملازمة الظل أو ملازمة الغريم .

ثم يجب أن يكون في الاعتبار لدى إنشاء كل مدرسة أو جامعة أو اتخاذ منهج تعليمي لتعليم هذه الأمة ، أن يكون الهدف من كل ذلك ترسيخ الإيمان بالعقائد والحقائق التي آمنت بها من ذي قبل ، وأن يتأتى هذا الترسيخ عن طريق القلب والعقل معاً ، ولا يكفي اطمئنان القلب أو العقل فقط ، لأنه حينئذ سيحدث صراع بينهما في الحياة الفردية للإنسان ، وسيتدرج هذا الصراع إلى الحياة الجماعية. . . وعلى ذلك فيتخرج جيل يتصارع مع مجتمعه ، ويتصارع مع دينه وعقيدته ، وتضيع كل القوى في إزالة «الأنقاض» فقد رأى بعض قادة بعض الشعوب والبلاد الإسلامية أنه يجب أولاً إزالة الأنقاض ، وركزوا كل عنايتهم على إزالة الأنقاض من العقائد والحقائق ، واستنفذت هذه العملية كل قواهم ، واستغرقت فرصة أعمارهم ، ولم يتمكنوا من عرض دعوتهم ونشر رسالتهم ، وزرع أفكارهم التي كانوا بصدد نشرها .

فإذا كان هناك منهاج تعليمي يعمق إيمان الأمة بالعقائد والحقائق التي تحتضنها فهو منهاج موفق ، ولا سيما بالنسبة إلى الإنسان المسلم الذي جاء يحمل رسالة ويحتضن دعوة ، فيجب أن يكون منهاجنا التعليمي والثقافي بحيث يرسخ الإيمان في قلب المثقف وقلب الدارس وقلب الطالب الجامعي ، وقلب الفيلسوف وقلب المفكر ، ويجعلهم جميعاً توفر لهم عقولهم دلائل لذلك ، ويستخدمون الثروة العملية القديمة والجديدة

المنتشرة على ظهر البسيطة في تحقيق هذا الغرض الأكبر لتقرير هذه الدعوى الكريمة.

أيها السادة! إذا استطاعت جامعة أن تصنع ذلك فهي الجامعة التي تستحق أن تسمى جامعة إسلامية، وأعتقد أن ذلك خير تعريف لها.

حماية الدين من التحريف والمسلمين من الانحراف:

وعلى حملة علوم الدين وأصحاب الرسوخ والاختصاص فيها من المتخرجين في الجامعات الإسلامية والمدارس الدينية، وعلى الدعاة، عهدة صيانة الإسلام عن التحريف والمسلمين عن الانحراف، والحفاظ على الدين، والذب عن حوزته، ويحتاجون من أجل القيام بذلك إلى الصفات الدقيقة السامية المثالية، والقوة الروحية الداخلية، والثقة بخلود الدين، والغيرة عليه، والقدرة على التمييز الدقيق بين الجاهلية والإسلام والإشراك والتوحيد والسنة والبدعة، والامتياز بالاشتغال بالحديث الشريف[١]، ومطالعة تاريخ المصلحين المجددين للدين في عصور مختلفة[٢] إلى ما لا يحتاج إليه بطبيعة الحال من يستعمله الله في نشر دين من الأديان، ولذلك فإن هذا الواجب وضع على عاتق العلماء، ونائبي الرسول ﷺ، وخص به العلماء الربانيون المتفقهون في الدين الغيارى عليه المميزون بين الإسلام والجاهلية ـ بجميع أنواعها وألوانها ـ المطلعون على تاريخ الديانات والصحف التي تعرضت لتحريفات المحرفين وأغراض المغرضين، وقد جاء في حديث صحيح: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»[٣].

وما كانت لتجري هذه الكلمات العميقة المعاني، والدقيقة الدلالات

---

(١) انظر للتفصيل كتاب العلامة الندوي: «دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته»، طبع المجمع الإسلامي العلمي ندوة العلماء الكهنؤ ـ الهند.

(٢) ليرجع إلى سلسلة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» طبع دار ابن كثير بدمشق.

(٣) مشكاة المصابيح، نقلاً عن البيهقي الفصل الثاني، ص/٢٦.

إلاّ على لسان نبي مرسل مصدوق ، فلو قرأتم تاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام ، والمساعي والمجهودات التي قام بها العلماء والأئمة ، والقائمون بحفظ الدين لوجدتم جميع الجهود المبذولة في سبيل الحفاظ على الدين تأتي تحت هذه العناوين الثلاثة ، إن للكلمات أعماقاً وآفاقاً هي أوسع وأعمق مما تبلغ إليه فهوم الرجال ، وتحد بحدود النماذج والأمثال.

ومن واجبات العاملين في مجال الدعوة الإسلامية هو صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف ، وإخضاعها للتصورات العصرية الغربية ، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية التي نشأت في أجواء خاصة ، وبيئات مختلفة ، ولها خلفيات وعوامل وتاريخ ، وهي خاضعة دائماً للتطور والتغيير ، فيجب أن نغار على هذه الحقائق الدينية والمصطلحات الإسلامية غيرتنا على المقدسات وعلى الأعراض والكرامات ، بل أكثر منها وأشد ، لأنها حصون الإسلام المنيعة وحماه وشعائره ، وإخضاعها للتصورات الحديثة أو تفسيرها بالمصطلحات الأجنبية إساءة إليها لا إحسان ، وإضعاف لها لا تقوية ، وتعريض للخطر لا حصانة ، نزول بها إلى المستوى الوطني المنخفض لا رفع لشأنها كما يتصور كثير من الناس.

العناية بتربية السيرة:

والوظيفة الثانية للجامعات هي تربية السلوك والسيرة ، حتى يكون المتخرجون فيها قدوة للعلماء والدعاة فضلاً عن أفراد الأمة وآحاد الناس ، فلتوجد الجامعات سيرة يربأ صاحبها بنفسه عن أن يبيع ضميره «بحفنة من شعير» إن الفلسفات والنظم المضادة للإسلام ترى أن إنسان اليوم يمكن شراؤه في السوق بقيمة أو بأخرى ، فإن لم يرض بهذه الكمية من الثمن فسيرضى بكمية منها . . . وسر النجاح الحقيقي لجامعة ما أن تربي السيرة ، فتخرج رجالاً من المثقفين لا يرضون أن يبيعوا ضمائرهم بأي قيمة مهما كانت رفيعة غالية ، ولا تستطيع فلسفة هادمة أو دعوة منحرفة ، أو حكومة ذات سياسة خاطئة ، أو قوة مدمرة ، مهما كانت لبقة ذات دهاء ، أن

تشتريهم بأي ثمن غال، ويقولون بملء أفواههم بلسان المقال أو بلسان الحال:

«نرى العنقاء أكبر أن تصادا».

يقول الدكتور محمد إقبال:

«إن حرية القلب هي سيادة وسلطان، أما العناية الزائدة بالبطن فهي مدعاة للموت، والخيار بيديك، فإما هذا وإما ذاك، يا أيها الطائر اللاهوتي! (يخاطب الإنسان المسلم) اعلم أن الموت خير من القوت الذي يقصر جناحك ويمنعك من التحليق».

من عوامل التأثير في المجتمع وقوة المقاومة للتحديات والمغريات:

ويحلو لي أن أنقل هنا قطعة من كتابي: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام (الجزء الأول)» بمناسبة الحديث عن زهد الإمام أحمد بن حنبل وتوكله على الله وعزوفه الزائد عن أموال الحكومة وعطاء الخليفة والأمراء:

«وقد رأينا الزهد[1] والتجديد مترافقين في تاريخ الإسلام: فلا نعرف أحداً ممن قلب التيار، وغير مجرى التاريخ، ونفخ روحاً جديدة في المجتمع الإسلامي أو افتتح عهداً جديداً في تاريخ الإسلام، وخلف تراثاً خالداً في العلم والفكر والدين، وظل قروناً يؤثر في الأفكار والآراء، ويسيطر على العلم والأدب، إلّا وله نزعة في الزهد، وتغلب على الشهوات، وسيطر على المادة ورجالها، ولعل السر في ذلك أن الزهد يكسب الإنسان قوة المقاومة، والاعتداد بالشخصية والعقيدة، والاستهانة برجال المادة، وبصرعى الشهوات، وأسرى المعدة، ولذلك ترى كثيراً

(١) ليس المراد به الزهد الأعجمي أو المسيحي الرهباني، فلا رهبانية في الإسلام ولا يجوز تحريم ما أحل الله من الطيبات، إنما المراد به سمو النفس والنظر، والزهد في زخارف الحياة وفضولها وكمالياتها، والتهافت على حطام الدنيا، والتنافس في الجاه والمنصب.

من العبقريين والنوابغ في الأمم ، كانوا زهاداً في الحياة ، متمردين على الشهوات ، بعيدين عن الملوك والأمراء والأغنياء في زمانهم ، ولأن الزهد يثير في النفس كوامن القوة ، ويشعل المواهب ويلهب الروح ، والدعة والرخاوة تبلد الحس ، وتنيم النفس ، وتميت القلب».

روح التضحية والفداء :

والمسؤولية الثالثة للجامعات الإسلامية أن تخرج شباباً يقفون حياتهم لخدمة الأمة ، ويستعدون للتضحية والفداء ، ينعمون بالجوع بما لا ينعمون بالشبع والري والتنعم والتمتع بالحياة ، ويطيبون نفساً بالحرمان ، ما لا يطيبون بالوجدان ، ويصرفون أوقاتهم وقواهم الخيرة ومؤهلاتهم الفكرية والعلمية ، والرصيد العلمي والفكري الذي زودتهم به جامعاتهم ، في رفع رأس الأمة عالياً وفي إعلاء كلمة الله ، وفي صنع أمة ذات رسالة ، وبناء بلد مسموع الكلمة مرهوب الجانب.

فهذان أمران لا بد منهما : الأمر الأول أن توفر الجامعات الإسلامية غذاءً يشبع العقل والقلب معاً ، وضوءاً ينير لهما الطريق في وقت واحد ، حتى يتجها جنباً إلى جنب وبتعاون متبادل ، إلى تعزيز الإيمان بالحقائق والعقائد التي آمنت بها الأمة.

تكوين اختصاصات وقدرات ممتازة في الدراسة والتحقيق :

ولا بد أن يكون نصب أعينكم هو تخريج الرجال ذوي القدرات العالية ، وأريد أن أصارحكم بهذه المناسبة أن قيمة بلد من البلاد ليست في كثرة جامعاتها ومعاهدها ، إنها نظرية بالية قد تقادم عهدها ، وأصبح أصحابها يعرفون بالرجعية وقصر النظر ، بل القيمة في كثرة أبنائه الذين يثبتون تميزهم واختصاصهم في علم من العلوم وفي مجال من مجالات البحث والتحقيق ، ويقفون حياتهم للبحث والدراسة ، ونشر العلم والثقافة ، وتثقيف الأمة والشعب ، ورفع معنويات أمتهم ، وصنعها أمة ذات قلب وضمير أبيّ ، وفي كثرة الشباب الذين ينقطعون إلى خدمة الدين والعلم والأمة والبلد ، ضاربين الشهرة الكاذبة ورقيهم الشخصي عرض الحائط ، وذلك هو

المقياس الحقيقي الأصيل ، الذي يقاس به البلد والأمة ، وليكن هذا هو المقياس الوحيد في الشرق والغرب ، فلا نقيم لبلد قيمة إلاّ نظراً إلى عدد الشباب الذين يتسامون عن لذائذ الحياة الرخيصة ، والمناصب والجاه ، والتقدم الشخصي ، ويتوفرون على العمل الجاد البناء ، وعلى العمل العلمي الإيجابي النافع ، على رفع مستوى الأمة عقلياً وفكرياً ، وعلى التوصل إلى نظريات علمية ذات أهمية ، وعلى بحث علمي مضن يتطلب الصبر والتحمل على تعزيز البلاد من جميع النواحي.

إن قيمة الشعوب والأمم ـ فضلاً عن قيمة الجامعات والمؤسسات ـ وسر عظمتها وما تستحق به من إجلال وإكبار ، وتقدير واعتراف ، وجود أصحاب تفوق واختصاص وشهرة عالمية ، في علوم وآداب ، ومجالات علمية ، وبحوث واكتشافات جديدة ، وهذه كانت ميزة الأمة الإسلامية فقد كانت للمسلمين الرئاسة العلمية والزعامة الفكرية نحواً من ألف سنة على الأقل[1] ، بإقرار من المؤرخين الأوروبيين.

ومن واجبات المتخرجين في جامعاتنا النابغين أن يهيئوا بديلاً عن كتب المستشرقين وعلماء الغرب في التاريخ الإسلامي وفي تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي والعلوم الإسلامية ، كالحديث والفقه وأصول الفقه وتاريخ التشريع الإسلامي ، التي اعتبرت مرجعاً في هذه المواد ، وقررت في كثير من الجامعات العربية والإسلامية واعتمد عليها كثير من أساتذتها ومن الباحثين في هذه الموضوعات وأصحاب رسائل الدكتوراه ، فبثت السموم في عقول كثير من الدارسين والباحثين الناشئين ، وأنشأت شبهات حول الإسلام والمصادر الإسلامية وأحدثت في نفوسهم يأساً عن

(١) إذا اعتبرنا القرن الثاني الهجري ـ وهو زمن الحكم الأموي الواسع ـ بداية تأثير المسلمين العلمي الفكري في الشعوب والبلاد المتحضرة التي كان يحكمها المسلمون ، وسلمنا استمراره إلى القرن الحادي عشر الهجري ، فقد نشأت الحركة الانتقالية في أوربا Renaissance في القرن الرابع عشر الهجري ، وانتشرت في القرن السابع عشر المسيحي (الحادي عشر الهجري) وتميزت بازدهار الأدب والفن بانبلاج فجر العلم الحديث في الغرب المسيحي.

مستقبل الإسلام ومقتاً على حاضره ، وسوء ظن بماضيه ، كما أن لهما سهماً كبيراً في الحث على «إصلاح الديانة وإصلاح القانون الإسلامي»(١) وليكن للبلاد الإسلامية والشعوب المسلمة اكتفاء ذاتي في الثقافة والتربية كما يجب أن يكون لها استقلال في مجال السياسة والاقتصاد.

تلك هي أهداف حقيقية يجب أن نصبو إليها ، ونضعها في اعتبارنا ، ونجعلها نصب أعيننا ، أما مجرد التعليم والتثقيف؛ والتأهيل لشغل الوظائف والمناصب ، فليس مما يُثنى به على جامعة ، وليس أبداً مما يجلب الحمد ، ويستخرج الإعجاب.

الغرض الأصيل من العلم والأدب ، هو نفح روح الإيمان واليقين في الحياة والمجتمع:

يجب أن يكون هدف الجامعة ـ التي قامت في هذا العهد العصيب ، وفي هذه البلاد المتأزمة ـ أن تعمل على إزالة الاضطراب والقلق الذي يسود جميع الدول الإسلامية منذ مئة عام تقريباً... تفككت عرى عقائدنا منذ بدأ الغزو الفكري والحضاري الغربي ، وحدث صراع نفسي وفكري استنفدت مقاومته معظم القوى العقلية والفكرية والعلمية لدى الدعاة... إن ذلك الوضع غير طبيعي يجب أن يزول في أقرب وقت ، لكي تتوجه هذه القوى والقدرات إلى الأهداف البناءة وإلى إنقاذ البلد ودفع عجلته إلى الأمام.

الحقيقة أن الأدب والشعر ، والفنون الجميلة والحكمة والفلسفة ، والتأليف والتصنيف ، ليس من وراء كل ذلك إلاّ غرض واحد ، وهو أن تتولد في صاحبه حياة جديدة ، وإيمان جديد ، وبالتالي في الأمة التي هو عضو فيها والمجتمع الذي هو جزء منه.

وأود أن أنشد لكم أبياتاً قالها شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال وهو

(١) ليرجع للتفصيل إلى بحث العلامة الندوي بعنوان «المستشرقون ، ونفوذهم في ميدان التفكير» في كتابه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» ص ١٨٧ ـ ١٩٨ الطبعة الرابعة دار القلم ـ الكويت.

يخاطب الأديب والشاعر ، لأنه ينطبق على الوضع الذي نعيشه جميعاً :

«يا أهل الذوق والنظر العميق! أنعم وأكرم بنظركم ، ولكن أي قيمة للنظر الذي لا يدرك الحقيقة؟ لا خير في نشيد شاعر ولا في صوت مغنّ ، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس ، لا بارك الله في نسيم السحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلاّ الفتور والخمول والذوي والذبول» .

إن الأوضاع التي نمر بها نحتاج فيها إلى أن نأتي بأعجوبة ، وتلك الأعجوبة سوف لن تتحقق إلاّ عن طريق الرسالة الإسلامية ، لأنها وحدها التي تجعل حاملها يصنع المعجزات ويأتي بخوارق العادات ، ويبطل المقاييس ، ويحطم المعايير التقليدية ، ويسخر من كل الموازين التي آمن بها العالم الغربي الجاهلي ، يقول الدكتور محمد إقبال :

«أنا لا أعارض التذوق بالجمال والشعور به ، فذلك أمر طبيعي ، ولكن أي فائدة للمجتمع من علم لم يكن تأثيره في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر والبحر ، وذلك أن الأمم لا يرتفع شأنها ومكانها في خريطة العالم حتى تقدر على صنع المعجزات» .

دور مصر الإسلامية القيادي في العالم الإسلامي :

إن مصر الإسلامية اليوم بفضل ما سجل لها التاريخ من دور رائع في إنتاج عدد كبير من المؤلفين والمحققين ، والمحدثين والمؤرخين ، والقادة والمجاهدين ، وما قامت به من دور حاسم في الحروب الصليبية(١) والغزو التتاري(٢) ، وما تملكه من وسائل النشر والتصدير ، والقيادة في العلم

(١) ذلك عن طريق حاكم مصر وقائدها الملك الناصر السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وانتصاره في معركة حطين الفاصلة في ١٤/ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، واستعادته بيت المقدس للمسلمين (بعد نحو تسعين سنة من استيلاء الصليبيين عليه) في ٢٧/رجب ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، وصلح الرملة في سنة ١١٩٢ المسيحي .

(٢) إشارة إلى انتصار سلطان مصر المملوكي المظفر سيف الدين قطز ، وقائده ظاهر بيبرس البنقداوي في معركة عين جالوت في رمضان ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) وانهزام التتر انهزاماً عديم المثال غير مجرى التاريخ ، وأعاد الثقة إلى المسلمين ، فقد كان من =

والأدب ، وبفضل وجود الأزهر الشريف ، تحتاج بصفة خاصة إلى هذه القدرة على صنع الخوارق ، والتأثير في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر أو البحر ، لأن عليها تعود مسؤولية بعث الدول العربية كلها بعثاً جديداً ، إن عليها أن تنفخ روحاً جديدة في البلاد العربية الإسلامية ، وتوجد لديها ثقة جديدة ، وإيماناً جديداً ، ونشاطاً جديداً ، وانتعاشاً جديداً ، وطموحاً جديداً ، وقلباً خفاقاً جديداً ، يتحرق على بؤس الإنسانية وشقائها ، وشجاعة جديدة تبعث على المغامرة والاقتحام ، وجرأة خلقية تستطيع بها أن تنفخ الحياة في هذه الأمم والأقوام المشرفة على الهلاك ، التي تزل أقدامها ، وترتعش أعصابها ، وتخفق قلوبها ، وتتعثر عقولها ، وقد كانت مهد الانتفاضة الإسلامية والدعوة القوية إلى الصحوة الإسلامية الشاملة حين ساد الجمود والخمود على كثير من الأقطار العربية ، ولا يزال لها جوهر إسلامي نقي يبرز لامعاً صافياً إذا نفض الغبار عنه.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

= الأمثال السائرة ومن المسلمات التي لا تقبل الجدل (إذا قيل لك أن التتر قد انهزموا فلا تصدق).

الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر جبهاتها الحاسمة ، ومجالاتها الرئيسية

عقدت رابطة العالم الإسلاميِّ بمكة المكرمة مؤتمراً إسلاميّاً كبيراً حول الدعوة الإسلاميّة في شهر صفر عام ١٤٠٨هـ ، ودعت إليه أكثر من ستمئة شخص من رجالات العالم الإسلامي ، ومفكريه ، وباحثيه الإسلاميِّين ليبحثوا في قضايا الدَّعوة ومجالاتها المختلفة ، وكان منهم العلامة الندوي ، فقد ساهَمَ العلامة في مداولات المؤتمر بعددٍ من الأحاديث ، والبحوث ، والمحاضرات ، ومنها : محاضرته القيمة في الدعوة الإسلامية التي كان ألقاها مقدماً باهتمامٍ كبيرٍ وضمنه نتائج دراساته العميقة لتاريخ الدَّعوة الإسلاميّة ، وقد درسَ العلامة ما قصَّه القرآن الكريم من قصص الدعوة وما وَرَدَ في شأن الدَّعوة من منهجٍ سديدٍ في حديث الرسول ﷺ ، واستخلص العلامة من كلِّ ذلك إشاراتٍ مفيدةً وإرشاداتٍ قيِّمةً ، وبنى بحثه عليها ، فجاء كلامه كخطةٍ توجيهيةٍ جامعةٍ لعلم الدَّعوة الإسلامية .

لقد ذكر العلامة الندويُّ في هذه المحاضرة القيمة إحدى عشرة نقطة للاهتمام بها ، ليمكن بها إنقاذ المجتمعات الإسلاميّة بل الإنسانية من الضلال ، والضياع الّذي يواجهها ، ويمكن بها للدّاعية الإسلامي أداء مسؤولياته الدَّعوية بكمالٍ ونجاحٍ ، وأهمُّ هذه النقاط هي وجود دعوةٍ إيمانية قويّةٍ تملأ نفوس المسلمين حماساً وعزيمةً للعمل ، وتحيلهم قوّةً تقوم في وجه القوى المضللة ، والطاقات الباطلة ، ولا تدع في نفوس المسلمين فراغاً تملؤه دعواتٌ منحرفةٌ ، ونظرياتٌ فاسدةٌ ، والفراغ لا يبقى فراغاً مدَّة طويلة ، ثم إنَّ السيل لا يسدُّه إلا سيلٌ ، والحديد لا يفلُّه إلا الحديد .

والعالم الإسلامي اليوم يواجه خطراً كبيراً في هذه الناحية فإنَّ المسلمين يجدون من أهل السداد والحقِّ ضعفاً واستنامةً ، في الوقت الّذي تتحمَّس القوى المشبوهة في العالم الإسلامي ، فإذا لم تكن هناك دعوةٌ إيمانيَّة ، صحيحة متحمِّسةٌ قويَّةٌ ، لم يمكن صدُّ الغزو العقائدي والفكري الّذي يغشى العالم الإسلامي من حينٍ لآخر ، ونقطة أخرى لفت الانتباه إليها سماحة الشيخ الندوي في هذه المحاضرة هي ترك حياة البذخ والترف التي تيسَّرت لكثيرٍ من الدعاة والعاملين للإسلام اليوم ووسائلها ، وضرورة اختيارهم لحياة البساطة والشظف التي هي حياة أهل الجدِّ والعمل من الدعاة والمجاهدين ، والتي عاشها أسلافنا العظماء ، ولا يمكن التغلُّب على حبِّ الدنيا وكراهية الموت والاستماتة في سبيل الحق والتضحية بالنفس والمال بغيرها وهي الحياة التي تلقى دائماً من الناس تقديراً لائقاً ، ومحبَّةً وإعجاباً ، ويكون لها تأثيرٌ في النفوس .

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في الجلسة الأخيرة من جلسات المحاضرات ، وذلك في يوم ١٨/ صفر ١٤٠٨هـ مساءً .

وكانت القاعة التي ألقى محاضرته فيها مكتظَّة بالمندوبين والحاضرين ، واتصفت المحاضرة بالأسلوب التركيزي ، والجمع للجوانب المهمَّة من مقتضيات الدَّعوة ، وأسلوب الحكمة في القيام بها ونالت المحاضرة استحسان الجميع ، وأعجب الحاضرون بها ، وكان تعليقهم عليها أنها جديرة بأن تكون مضمون قرارٍ بعينه من بين القرارات الّتي يعدُّها المؤتمر .

الحمد لله وحده ، والصلاة والسَّلام على من لا نبيَّ بعده .

وبعد! فإنِّي أحمد الله تعالى وأشكره على إتاحة هذه الفرصة الكريمة للتحدُّث في موضوع الدعوة إلى قادة الفكر ، والمسؤولين عن الجمعيات والمنظمات الإسلامية ، والعاملين في مجال العمل الإسلامي ، وذلك في مهد الدَّعوة الأول ، ومبعث الرسول ﷺ في البلد الأمين .

وحقَّ لي أن أنشد البيت العربي القديم مخاطباً لنفسي :

حمامة جَرْعى حومة الجندل اسجعي فأنت بمرأى من سعادٍ ومسمعِ

إنَّ موضوع الدعوة أيها السادة! موضوعٌ مطروقٌ معالجٌ كثرت عنه الأحاديث ، وازدحمت فيه الكتابات والبحوث ، خصوصاً في الزمن الأخير ، وتكوَّنت فيه مكتبةٌ ذات قامةٍ وقيمة[1] ، فأريد أن أحدِّد بحثي في الحديث عن جبهات الدَّعوة الحاسمة ، ومجالاتها الرئيسيَّة ، المقرِّرة لمصير العالم الإسلاميِّ ، فضلاً عن مسيرة الدعوة ، وأركِّز على النقاط المختارة العلمية (في ضوء دراساتي القاصرة ، وفي ضوء الواقع وتجارب الماضي) ، لحماية الأقطار الإسلامية من التحديات والفتن ، وبالله التوفيق .

١ ـ تحريك الإيمان في نفوس الشعوب والجماهير المسلمة ، وإثارة الشعور الدِّيني فيها ، فإنَّ تمسُّك هذه الشعوب والجماهير بالإسلام ، وتحمُّسها له ، هو السُّور القويُّ العالي الذي يعتمد عليه في بقاء هذه البلاد ، وكثيرٍ من القيادات وحكومات العالم الإسلامي في حظيرة الإسلام ، وهي مادَّة

---

(١) وقد صدرت بقلم العلامة النَّدوي كتب ورسائل ومحاضرات في هذا الموضوع ، منها : ١ ـ سلسلة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» (١ ـ ٤) ، ٢ ـ «روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة» ، ٣ ـ «الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها» ٤ ـ «حكمة الدعوة وصفة الدعاة» ، ٥ ـ «الدعوة إلى الله ، وحماية المجتمع من الجاهلية ، وصيانة الدين من التحريف» ٦ ـ «منهج أفضل في الإصلاح للدعاة والعلماء» ٧ ـ «دور الجامعات الإسلامية المطلوب في تربية العلماء وتكوين الدعاة».

الإسلام ورأس ماله ، والخامات الكريمة التي تستخدم لأيِّ غايةٍ نبيلةٍ ، وهي من أقوى المجموعات البشرية ، وأحسنها سلامة صدرٍ ، وقوة عاطفةٍ ، وإخلاصٍ ، وذلك مع تحقيق الشروط ، والصفات التي تستحقُّ بها هذه الشعوب النصر من الله ، والتغلُّب على المشكلات ، والانتصار على العدوِّ ، كتصحيح العقيدة ، وإخلاص الدِّين لله ، والابتعاد عن كلِّ أنواع الشرك والعقائد الفاسدة ، والعادات الجاهلية ، والتقاليد غير الإسلامية ، وعن النفاق ، والتناقض بين العقائد والحياة ، والقول والعمل ، وسير الأمم القديمة التي استحقت بها عذاب الله وخذلانه ، وكذلك سيرة الأمم المعاصرة التي نسيت الله ، فأنساها نفسها ، وقادت العالم إلى النار والدَّمار .

هذا مع تنمية الوعي الصحيح ، وتربيته ، والفهم للحقائق والقضايا ، والتمييز بين الصَّديق والعدوِّ ، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر ، حتى لا تتكرَّر مآسي وقوع هذه الشعوب فريسةً للهتافات الجاهلية ، والنعرات القوميَّة ، أو العصبيات اللُّغوية والثقافيَّة ، ولعبة القيادات الدَّاهية والمؤامرات الأجنبيَّة ، فتذهب ضحية سذاجتها وضعفها في الوعي الدينيِّ ، والعقل الإيمانيِّ .

٢ ـ صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف ، ومن إخضاعها للتصوُّرات العصرية الغربية ، أو المصطلحات السياسيَّة والاقتصادية ، والتجنب عن تفسير الإسلام تفسيراً سياسياً بحتاً ، والمغالاة في «تنظير الإسلام» ووضعه على مستوى الفلسفات العصرية والنظم الإنسانية ، لأنَّ هذه الحقائق الدِّينيَّة هي أساسٌ للإسلام الدائم ، والأصل الذي منه البداية ، وإليه النهاية ، وإليها كانت دعوة الأنبياء ، وفي سبيلها كان جهادهم وجهودهم ، وبها نزلت الصُّحف السَّماوية ، والحذر من كل ما يقلل من قيمة الصلة بين الله والعبد ، والإيمان بالآخرة وأهميتها ، ويضعف في المسلم عاطفة امتثال أمر الله وطلب رضاه ، والإيمان ، والاحتساب ، والقرب عند الله تعالى ، وهذا التحوُّل يفقد هذه الأمة شخصيتها ، وقوتها ، وقيمتها عند الله ، وكذلك الحذر من كلِّ

ما يقلِّل من شناعة الوثنية العقائدية ، والشِّرك الجليِّ ، والعادات ، والعبادات الجاهلية ، والاكتفاء بمحاربة النظم والتشريعات والحكومات غير الإسلامية ، فإنَّ ذلك يتَّجه بهذا الدين عن منهجه القديم السماويِّ إلى المنهج الجديد السياسيِّ .

٣ ـ تقوية الصِّلة الرُّوحية والعقلية والعاطفية بالنَّبيِّ ﷺ والحبِّ العميق له ، الذي يؤثره على النفس ، والأهل ، والولد ، كما جاء في الحديث الصحيح ، والإيمان به كخاتم الرسل ، وإمام الكلِّ ، ومنير السبل ، والحذر من كلِّ العوامل والمؤثرات التي تسبب تجفيف منابع هذا الحبِّ ، وإضعافه على الأقلِّ ، وتحدث جفافاً في الشعور ، وضعفاً في العمل بالسنَّة ، وتجرؤاً في القول ، وانصرافاً عن الافتخار به ، والولوع بدراسة سيرته ، وكلِّ ما يحرك هذا الحبَّ ويغذِّيه ، ولعلَّ البلاد العربية (بفعل أحداثٍ ، ودعوات قومية) أحوجُ إلى العناية بهذه النقطة ، وأحقُّ بها من غيرها ، ففيها كانت البعثة المحمَّدية ، وفي لغتها نزل القرآن ، ونطق الرَّسول .

٤ ـ إعادة الثقة في نفوس الطبقة المثقَّفة ، ومن بيدهم القيادة الفكرية ، والتربوية ، والإعلامية في البلاد والحكومات الإسلاميَّة بصلاحية الإسلام وقدرته ، لا على مسايرة العصر ، وتطوراته وتحقيق مطالبه ، بل على قيادة الرَّكب البشريِّ إلى الغاية المثلى ، وتجديف سفينة الحياة إلى برِّ السَّلام والسَّعادة ، وإنقاذ المجتمع البشريِّ من الانهيار والانتحار الذي تعرض لهما تحت القيادة الغربية الخرقاء ، وأنَّه ليس «بطارية» قد نفذت شحنتها أو ذبالة قد نفد زيتها ، واحترقت ، واحترقت فتيلتها ، بل هو الرسالة العالمية الخالدة ، وسفينة النَّجاة التي هي كسفينة نوح ، لا ينجو إلاَّ مَنْ ركبها .

إنَّ ضعف هذه الثقة ، أو فقدها هو داء هذه الطبقة المثقفة الناشئة في أحضان الثقافة الغربية ، أو تحت ضغطها ، وهو المسؤول عن كلِّ تصرفاتها ، وسبب الردَّة الفكرية والحضاريَّـة ، والتشريعيَّـة التي تكتسح

العالم الإسلاميَّ من أقصاه إلى أقصاه ، وتعاني منه الشعوب المسلمة - التي لا تفهم إلاّ لغة الإيمان والقرآن ، ولا تتحمَّس إلاّ للإسلام - وسبب حدوث هذا الخليج العميق الواسع بين القيادات والحكومات والشعوب والجماهير ، سبب القلق الذي يساور النفوس ، ويستهلك القوى والطاقات فيما لا يعود على الأمَّة بفائدة .

٥ - قلب نظام التربية والتعليم المستورد من الغرب ، المنتشر السائد في العالم الإسلاميِّ رأساً على عقب ، وصوغه صوغاً إسلاميّاً جديداً ، يتَّفق مع شخصية هذه الشعوب المسلمة ، وعقيدتها ، ورسالتها ، وقامتها ، وقيمتها ، لا يبعد هذا الصوغ عنه عناصر الإلحاد أو الماديَّة ، وتصوّر هذا الكون تصوراً مادِّياً ، والعلوم وحداتٌ متناثرةٌ متناقضةٌ ، والطبيعة حرَّةٌ قاهرةٌ ، والتاريخ حوادث غير مرتبطةٍ خاضعةٍ لقلقٍ وصراع دائمين ، ولا يصلح نظام التربية والتعليم إصلاحاً جزئياً فحسب ، بل يبتكر ابتكاراً جذرياً ، مهما استنفد من الطاقات ، وكلَّف من الوسائل والنبوغ والعبقريات ، وبغير ذلك لا يقوم العالم الإسلاميُّ على قدميه وبرأسه ، وعقله ، وإرادته ، وتفكيره ، ولا تدار الحكومات والأجهزة الإدارية ، والمرافق العامة برجالٍ مؤمنين أقوياء أمناء مخلصين ، يطبقون التعاليم الإسلامية في الحكومة والإدارة ، والتربية والإعلام والمجتمع ، فتمثل الحياة الإسلامية بجمالها وكمالها ، وينشأ المجتمع الإسلاميُّ بسماته ، وخصائصه .

٦ - حركةٌ علمية قويةٌ دوليةٌ ، تعرِّف الطبقة المثقفة الجديدة بذخائر الإسلام العلمية وتراثه المجيد ، وتنفخ في العلوم الإسلامية روحاً من جديد ، وتثبت على العالم المتمدِّن : أنَّ الفقه الإسلاميَّ وقانونه من أرقى القوانين وأوسعها في العالم ، وهو يقوم على أساسٍ من المبادىء الخالدة التي لن تبلى ، ولن تفقد صلاحيتها في يومٍ من الأيام ، وهي تصلح لمسايرة الحياة الإنسانية في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وتغنيها عن كلِّ قانونٍ وضعته أيدي الناس .

٧ ـ الحضارة عميقة الجذور في أعماق النَّفس الإنسانية وفي مشاعر الأمَّة وأحاسيسها ، وتجريد أمَّةٍ عن حضارتها الخاصَّة ـ التي نشأت تحت ظلال دينها وتعاليم شريعتها ، وكان في صياغتها نصيبٌ كبيرٌ للذَّوق الدينيِّ الخاص ، وطابع هذه الأمة الخاص ـ مرادفٌ لعزلها عن الحياة ، وتحديدها في إطار العقيدة والعبادة والطقوس الدينية الضَّيقة ، وفصل حاضرها عن ماضيها ، فلا بد للحكومات الإسلامية والجمعيات الإسلامية من التخطيط المدنيِّ الإسلاميِّ المستقلِّ ، البعيد عن تقليد الغرب الأعمى ، والارتجالية ، ومركب النَّقص ، ولا بدَّ من تمثيل الحضارة الإسلامية في عواصمها وفي دوائرها ، وفي بيوتها ، وفي مجتمعاتها ، وفي فنادقها ، ومنتزهاتها ، وإلى حدٍّ في مكاتبها ، وطائراتها ، وسفاراتها ، وبذلك لا يعرض العالم الإسلاميُّ نموذجاً للحياة الإسلامية والمثل الإسلامية فحسب ، بل يقوم بدعوةٍ صامتةٍ للإسلام.

٨ ـ معاملة الحضارة الغربية ـ بعلومها ونظرياتها واكتشافاتها وطاقاتها ـ كموادَّ خامٍ يصوغ منها قادة الفكر ، وولاة الأمور في العالم الإسلاميِّ ، حضارةً قويةً عصريَّةً ، مؤسسةً على الإيمان ، والأخلاق ، والتقوى ، والرَّحمة والعدل في جانبٍ ، وعلى القوة ، والإنتاج ، والرفاهية ، وحبِّ الابتكار في جانبٍ آخر ، يأخذون من علوم الغرب ما تفتقر إليه أمَّتهم ، وبلادهم ، وما ينفع عملياً ، وما ليس عليه طابع غربٍ وشرق ، ويستغنون عن غيره ، ويعاملون الغرب كزميلٍ وقرينٍ ، إن كان في حاجة إلى أن يتعلموا منه كثيراً فهو في حاجة إلى أن يتعلم منهم كثيراً ، وربما كان ما يتعلَّمه الغرب منهم أفضل مما يتعلمونه هم من الغرب.

٩ ـ أقناع الحكومات ـ في بعض البلاد الإسلامية التي مثلت دوراً رائعاً في تاريخ الدعوة والحضارة الإسلامي ـ المشغولة بحرب إبادة للعنصر الإسلامي ، أو عملية «تطوير للإسلام» وتفسيره وفق مصالحها السياسية ، أو أهواء قادتها الشخصية ، بأنها سياسة عقيمة لم تنجح في

بلد إسلامي ، وإقناعها بتوجيه طاقاتها وإمكانياتها إلى عدو مشترك ، وإلى ما يقوي البلاد والأمة. وإقناع الحكومات المسلمة ـ المسالمة للإسلام ـ بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية ، وتهيئة الجوِّ المناسب ، المساعد على ذلك ، وما يستتبع هذا الأمر من سعادةٍ وبركةٍ ونصرٍ من الله ، وسعيٍ لتكوين قيادةٍ موحَّدةٍ تقوم على مبدأ الشورى الإسلاميِّ ، والتعاون على البرِّ والتقوى ـ والشعور بالتقصير على الأقل ـ بعدم وجود الإمامة العامة ، أو الخلافة الإسلامية التي كلف بها المسلمون وسيحاسبون عليها.

١٠ ـ أما بالنسبة إلى البلاد غير الإسلامية ، فالقيام بالدعوة إلى الإسلام ، والتعريف به بأساليب حكيمةٍ تتَّفق مع طبيعة الإسلام وروح العصر ، أمَّا البلاد التي فيها الأقليات المسلمة ، فالاهتمام بتمثيل الإسلام ، والحياة الإسلامية تمثيلاً يلفت إليه الأنظار ، ويستهوي القلوب ، والقيام بالقيادة الخلقية والروحية ، وقبول مسؤولية إنقاذ البلاد والمجتمع من الانهيار الخلقي ، والخواء الرُّوحي ، والتدهور الاجتماعي الذي تعرضت له هذه البلاد ، حكومةً وشعباً ، حتى يتهيَّأ للإسلام أن يُثبت جدارته وحاجة البلاد إليه ، ويتهيَّأ للمسلمين أن يقوموا بدورهم البلاغيِّ والقياديِّ في هذه البلاد.

١١ ـ وأخيراً لا آخراً هو ما تفرضه طبيعة الإسلام وتاريخه المجيد ، وتقتضيه الفطرة السليمة ، ونفسية الإنسان الدائمة ، والأوضاع السائدة ، هو وجود حركةٍ إيمانيةٍ دعويةٍ إيجابيةٍ قوية في العالم الإسلاميِّ ، تقترن بصفات الرُّجولة ، والطُّموح ، وعلوِّ الهمَّة ، وبعد الرؤية ، والقدرة على مواجهة الطاقات الرئيسية القائدة التي تملكت زمام قيادة البشرية ، وأصبحت تتحكَّم في مصائر الشعوب ، والأقطار الإسلامية ، وغير الإسلاميَّة ـ من غير حقٍّ ومبرِّرٍ ـ وذلك بإيمان القائمين بهذه الحركة والدعوة القوية ، وثقتهم بفضل الإسلام ، وحاجة البشرية إليه.

ويقترن نشاط هذه الحركة أو الدعوة الإسلامية بروح التضحية ،

والبطولة ، والجلادة ، والتقشُّف ، والقدرة على المغامرات ـ إن كان لا بدَّ منها ـ فإنَّ الناس ما زالوا مفطورين على تقدير الإيمان القويِّ ، والاعتزاز بالعقيدة والمبدأ ، والاستهانة بالمادة واللذة ، والعزة ، وروح المخاطرة ، وعلى الإجلال لشيء لا يجدونه عندهم ، فالضعيف مفطورٌ على احترام القويِّ ، والفقير مفطور على احترام الغنيِّ ، والأميُّ مفطورٌ على احترام الغني ، واللئيم مفطور على احترام الكريم ، ولأنَّ تاريخ الإسلام مليءٌ بالبطولات والإقدام ، ولأنَّ الواعين والمتتبِّعين لواقع الأمم والبلاد ، وأصحاب الضمائر الحيَّة قد سئموا وضاقوا ذرعاً بسياسة الحكومات والقيادات الغربية والشرقية ، وأصبحوا يمقتونها ، ويكرهونها كرهاً شديداً.

إنَّ وجود هذا الفراغ ـ عدم وجود حركةٍ إيمانيةٍ دعويةٍ إيجابيةٍ قويةٍ ، ومجتمعٍ قويٍّ سليمٍ من أدواء العصر الحديث ، والحضارة المادِّيَّة الراعنة ، يقوم على تعاليم الإسلام وقيمه ومثله ـ خطرٌ كبيرٌ على الوجود الإسلاميِّ ، وعلى العقيدة الصحيحة والحياة الإسلاميَّة ، فإنَّ وجود الفراغ في شيءٍ ضروريٍّ وفي مصلحةٍ بشرية شيءٌ غير طبيعي لا يصلح للبقاء طويلاً ، وقد يسبب ذلك نشوء حركةٍ منحرفةٍ زائفةٍ ، فاسدة العقيدة والمنهج ، سلبيةٍ هادمةٍ مدمِّرةٍ ، ويعرف الدارسون لتاريخ الديانات والدعوات والحركات ، وللتاريخ العام ، أنَّه إذا وجدت هذه الحركة المنحرفة واقترن نشاطها ودعاويها بالتضحيات والمغامرات ، وبالتقشف ، ومظاهر الزهد ، وهتافات التحدِّي للطاقات الكبيرة ومواجهتها لتهديداتها وأخطارها ، بشجاعةٍ وصمودٍ ، ونقدها للأوضاع الفاسدة السائدة في بعض أجزاء العالم الإسلاميِّ التي لا تتفق مع تعاليم الإسلام وقيمه ومثله ـ ولو كان في ذلك نصيبٌ كبيرٌ من الدعاية والمظاهرة ، ووسائل الإعلام الجبارة ـ كان له سحرٌ على النفوس ـ خاصةً في أوساط المتعلِّمين وأنصاف المتعلمين ، المتألمين من الواقع المرير الذي تورَّطت فيه بعض المجتمعات الإسلاميَّة ـ سحرٌ لا يبطله وعظُ واعظٍ ، أو مقالٌ لكاتبٍ ، أو استدلالٌ منطقيٌّ أو بحثٌ علميٌّ ، يشهد بذلك تاريخ الخوارج في القرن الإسلاميِّ الأول ، وتاريخ الباطنية والفدائيين في القرن السادس والسابع الهجريين ، وحكايات حسن بن

الصباح وما كان يجري في مركزه قلعة «الموت» وتاريخ كثير من الحركات العسكرية الثورية التي ظهرت باسم قلب الأوضاع الفاسدة باسم الإسلام والإصلاح كذباً وزوراً أحياناً كثيرةً ، وبعض الحركات والثورات المعاصرة التي استطاعت أن تجند ألوفاً من الشباب في تحقيق مآربها السلبية وأهدافها الخطيرة ، يضحون بحياتهم في سبيلها متطوّعين مندفعين ، وقد استرعت انتباه العالم واستجابت لها بعض أوساط المعنيين باليقظة الإسلامية والحالمين لمجد الإسلام وعظمته ، من غير أن ينقدوها نقداً بريئاً جريئاً في ضوء النُّصوص القرآنية .

ويعرف قادة المسلمين ومفكروهم ، أنَّ السيل لا يمسكه إلّا سيلٌ مثله ، والتيار لا يدفعه إلّا تيارٌ أقوى منه ، وواقع العالم الإسلاميِّ ـ ومعذرةً ـ اليوم في الجمود والاستنامة والإخلاد إلى الراحة وعدم وجود دعوةٍ إيمانيةٍ قويةٍ ، وروح التضحية والفداء في سبيل العقيدة الصحيحة ، والأهداف الصالحة ، وعدم اكتفائهم العسكريِّ والفكريِّ ، نذير خطرٍ دائماً ، وممهد الطريق للوقوع في شبكة هذه الدعوات المنحرفة الزائفة التي يجد فيها شباب المسلمين والمتذمرون من الأوضاع الحالية طلبتهم ومنشودهم ، وما يرضي طموحهم ، ويزيل قلقهم ، وإن كان ذلك ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾ [النور : ٣٩] ولكنَّها نفسية الإنسان وتجربة الأمم ، والحقيقة الأليمة التي يجب أن ينتبه لها كلُّ معنيٍّ بحاضر الإسلام ومستقبله ، وسلامة العقيدة ، وصحَّة التفكير ، والإيمان بالله ورسوله وتعاليمه .

وأختم هذا الحديث القصير بقوله تعالى الذي خاطب فيه المجموعة الصغيرة من الأنصار والمهاجرين التي حثها على المؤاخاة ، وربط بها مصير العالم والإنسانية :

﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] . صدق الله العظيم .

* * *

مـأثـرة شيـخ الإسـلام الـحـافـظ ابـن تـيميَّـة الـكبـرى الـتـركيـز على أنَّ الـنبـوة هـي الـوسيلـة الـوحيـدة للمعـرفـة الصحيحـة والـهـدايـة الـكـاملـة وبعـض مـوافقـات والـتـقـاءات

ألقى العلامة الندويُّ هذه المحاضرة في الندوة العلمية الخاصَّة بشيخ الإسلام الحافظ ابن تيميَّة ومواقفه الخالدة ، الّتي عقدتها الجامعة السلفية في مدينة بنارس ، في ٢٩/ ربيع الأول و١ ـ ٢ ربيع الآخر سنة ١٤٠٨هـ الموافق ٢٢ ـ ٢٣ من نوفمبر سنة ١٩٨٧ .

وقد نالت هذه المحاضرة إعجاب المستمعين والحاضرين في الندوة ، وخاصَّة الضيوف العرب الَّذين شاركوا في الندوة وعلى رأسهم معالي الدكتور عبد الله محسن التركي مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الّذي أُلقيت هذه المحاضرة برئاسته ، فأبدى لها ارتياحه الكبير ، وعبَّر عن موافقته على ما جاء في المحاضرة من تحقيقٍ علميٍّ وتاريخيٍّ جدير بكلِّ اعتناء .

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسلام على سيد المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين محمَّدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين.

سادتي وإخواني! يسعدني ، ويشرفني أن أسهم ـ بقدر الإمكان ـ في ندوة علميَّةٍ خاصَّةٍ بشيخ الإسلام الحافظ أحمد ابن تيمية رحمة الله عليه ، وقد كان خليقاً بأن تنظم له ندواتٌ كثيرةٌ في أنحاء العالم الإسلاميِّ ، فإنَّه يصحُّ أن يقال: إن هذا العصر عصر ابن تيمية ، وقد كان لشخصيته ، ودعوته ، ودوره الإصلاحيِّ عودةٌ في هذا العصر ، ولكتاباته وأفكاره واتجاهاته انتفاضةٌ لم تكن لمصلحٍ إسلاميٍّ أو مؤلفٍ من المؤلفين القدامى ، لأسباب تحتاج في شرحها إلى كتابٍ مستقلٍّ.

وقد كانت الهند خليقة بأن تعقد فيها هذه الندوات لوجود صلاتٰ عميقة الجذور بين دعوته وجهاده ، وبين أوضاع هذه البلاد الدينية والعلميَّة ، ولوجود بعض كبار المدافعين عن دعوته ، ومدرسته ، وتحقيقاته ، كحكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي من رجال القرن الثاني عشر الهجري[1] وخلفائه ، وتلاميذه ، وتلاميذ تلاميذه ، وما نالت دعوتهم العلمية والإصلاحية في شبه القارة من ترحيبٍ وقبولٍ حسنٍ ، ونشاطٍ وحماسٍ في القرن الثالث عشر وبعده ، وقامت على أساسها مدارس تربويةٌ ثقافيَّةٌ ، وحركاتٌ إصلاحيَّةٌ دعويَّةٌ.

وكانت تجمع بين الدعوة إلى التوحيد الخالص واتِّباع السُّنَّة السنيَّة ، وبين ما كانت تحتاج إليه هذه البلاد ، ويقتضيه الزَّمان من الدعوة إلى تزكية

---

(١) وهو صاحب الكتاب الفريد في موضوعه «حجَّة الله البالغة» توفي سنة ١١٧٦هـ ، وهو المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي ، انظر للاطلاع على حياته بالتفصيل كتاب العلامة الندوي «الإمام الدهلوي» (الجزء الرابع من سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام طبع دار ابن كثير بدمشق).

النفوس ، وتربيتها ، والقيام بحركة الجهاد في سبيل الله وتحرير البلاد ، والسعي في إنشاء حكومةٍ إسلاميَّةٍ على منهاج الخلافة الرَّاشدة ، ونقل المراجع الدينية الأصيلة إلى لغة البلاد ونشرها في نطاقٍ واسعٍ ، وإصلاح المجتمع الإسلاميِّ الهندي ، وإنقاذه من رواسب الجاهليَّة الهندية ، والتقاليد والأعراف القديمة التي لا تتَّفق مع تعاليم الإسلام ، والقيام بجولاتٍ دعويَّةٍ واسعةٍ ، والاتصال بالشعب والجماهير اتِّصالاً مباشراً ، وهو ممَّا اتّسمت به ، وامتازت مدرسة حكيم الإسلام الشيخ ولي الله الدَّهلوي م١١٧٦هـ التربوية والإصلاحية ، ودعوة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦هـ) الإصلاحيَّة الكفاحية الكبرى[١] .

لذلك أعتقد ـ ومعذرةً إلى من يرجع إليهم الفضل في عقد هذه الندوة ـ أنَّها وإن جاءت في مكانها ، فقد جاءت متأخرةً عن أوانها ، ولكن الأمور مرهونةٌ بأوقاتها ، ولكلِّ شيءٍ أجلٌ مسمَّى .

إنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية كان من أفذاذ المحقِّقين والباحثين ، والمصلحين المجدِّدين في تاريخ الإسلام ، ومن عماليق الفكر الإسلامي ، ومن أجمعهم لشعب الإصلاح المطلوب ، والدور الإصلاحيِّ والتجديديِّ الشَّامل ، منها : تجديد عقيدة التوحيد ، وإبطال العقائد والتقاليد المشركة . ومنها : نقد الفلسفة ، والمنطق ، وعلم الكلام ، وترجيح أسلوب الكتاب والسنة ، ومنها : نقد الديانات والملل المعارضة والمحاربة للإسلام ، والردُّ على الفرق والنِّحَل المنحرفة عن الطريق القويم والثائرة على الإسلام ، فمن الديانات المسيحيَّة المجابهة للدين الإسلامي عقيدةً ودعوةً ، وقوَّةً سياسية ، ونفوذاً مادِّياً[٢] ومن الفرق : «المغالية» التي ما أضرَّ بالإسلام

---

(١) يرجع للتفصيل إلى كتاب العلامة الندوي «سيرة السيدأحمد الشهيد» الجزء ١ ـ ٢ بالأردوية ، وكتاب «إذا هبت ريح الإيمان» بالعربية ، طبع دار ابن كثير بدمشق والمجمع الإسلامي العلمي لكهنؤ (الهند) .

(٢) ونموذجه كتابه العظيم «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» .

والمسلمين مثلها[١] وما شكَّك مثل ما شكَّكت في مدى نجاح جهود سيِّد الرُّسل وخاتمهم في دعوته، وتربيته، وفي تميُّز من نشأ في أحضان النُّبوَّة وتخرَّج في مدرسة الرِّسالة السَّماوية والتعاليم النَّبويَّة بطريق مباشرٍ عن الأجيال البشرية، وأمم الأنبياء في الصَّلاح والاستقامة، والسموِّ، والطاعة لله ورسوله، وشكَّكت في نقاء الكتاب المنزل الأخير، وبقائه على أصالته، ونصِّه وفي عقيدة ختم النبوة ووحدة الرسل ـ بما تقوله وتعتقده في الإمامة وأئمتها ـ ومنها: تجديد العلوم الشرعية، وتنشيط الفكر الإسلاميِّ وتوسيع ثروته، وتعميقها، وإثبات الحاجة إلى الاجتهاد، وكلُّ ذلك في اتِّزانٍ واقتصادٍ، واعترافٍ للأئمة المجتهدين السابقين بالفضل وردِّ الملام عنهم والتماس العذر لهم.

وتلك كلُّها مآثر علميَّةٌ فكريَّةٌ بطوليَّةٌ، لا يستهان بقيمتها، ولا يقلِّل من شأنها، ولا تتيسر ولا تتوفَّر إلا لمن أراد الله به الخير لهذه الأمة، وقيّضه للقيام بمهمة الإصلاح والتجديد.

ولكن مأثرته الكبرى الرئيسية في اعتقادي وفي ضوء دراساتي المقارنة، واستعراضي لتاريخ الفكر الدِّيني، وما قام عليه من مجتمعاتٍ ومدارس، وحركاتٍ علميَّةٍ، وفكريةٍ، وتأليفيَّةٍ، هي تركيزه على حاجة البشرية إلى النُّبوَّة، والضغط على أنها الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة، والهداية الكاملة، وهو المدخل الرئيسيُّ الكبير إلى تحديد مكانة شيخ الإسلام التحقيقيَّة والتجديديَّة، ومنزلته بين علماء الإسلام، والدعاة، والمصلحين، وذلك يحتاج إلى شيءٍ من الشَّرح والإفاضة في الموضوع وبيان «الخلفيات» التي لا يمكن الشعور الحقيقي بمدى أهمية هذه المأثرة، وقيمتها، بدون الاطلاع عليها، «وبضدِّها تتبيَّن الأشياء».

ماذا يثبته القرآن ويعلنه؟

يلحُّ القرآن على أنَّ الأنبياء هم الأدلَّاء على ذات الله وصفاته الحقيقية،

---

(١) ومثاله كتابه العظيم «منهاج السنة النبوية».

وهم الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة ، التي لا يشوبها جهلٌ ولا ضلالٌ ، ولا سوء فهمٍ ، ولا سوء تعبير ، ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى الصحيحة إلا ما كان عن طريقهم ، ولا يستقلُّ بها العقل ، ولا يغني فيها الذكاء ، ولا تكفي سلامة الفطرة ، وحدَّة الذِّهن ، والإغراق في القياس ، والغنى في التجارب ، وقد ذكر الله تعالى هذه الحقيقة الناصعة على لسان أهل الجنة ، وهم أهل الصدق ، وأهل التجربة ، وقد أعلنوا ذلك في مقام صدق كذلك ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣] وقرنوا هذا الاعتراف والتقرير بقولهم: ﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٤٣] فدل على أنَّ الرسل وبعثتهم هي التي تمكنوا بها من معرفة الله تعالى ، وعلم مرضاته ، وأحكامه ، والعمل بها ، الذي تمكَّنوا به من الدخول في الجنة ، والوصول إلى دار النعيم.

وقد ختم الله تعالى سورة جليلةً من سور القرآن وهي سورة الصافات ، وقد نفى فيها ضلال المشركين ، وسوء اعتقادهم ، ونسبتهم إلى الله ممَّا هو منه بريءٌ ، فقال في آخر السورة: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢] والآيات الثلاث حلقات متصلة بعضها ببعض ، فلما نزه الله نفسه العليَّة ممَّا يتفوَّه به المشركون ، ذكر المرسلين الذين جاؤوا بالتنزيه والتقديس الكاملين ، والوصف الصحيح البليغ ، وسلم ، وأثنى عليهم؛ لأنَّهم هم أهل الفضل في تعريف الخلق بالخالق ، وفي الوصف الصحيح الصَّادق ، وكانت بعثتهم منَّةً على الخلق ، ونعمةً على الإنسانية ، ومن مقتضيات الربوبيَّة الرَّحيمة الحكيمة ، فختم كلَّ ذلك بقوله: ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الصافات: ١٨٢].

ضلال الفلسفة اليونانية وسرُّ شقائها وخيبتها:

إذاً فقد ضلَّ ، وتعب ، وجاهد في غير جهاد من أراد معرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة ، وصفاته وأسمائه الحسنى ، وما بينه وبين هذا العالم من صلة ، وكيفية إحاطته به ، وقدرته عليه ، ونفوذ أحكامه فيه عن غير

طريق الأنبياء والمرسلين ، واعتمد في ذلك على عقله وعلمه ، وذكائه وإلمامه ببعض العلوم والصنائع ، ونجاحه في بعض المحاولات العلمية ، وإنتاجه الضعيف المتواضع ، أو العظيم الضخم في بعض مجالاتٍ علميَّةٍ ، وحقَّ عليهم قوله تعالى : ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران : ٦٦] .

وهذا سرُّ ضلال الفلسفة الإغريقية الإلهية ، وأقطابها ، ونوابغها ، فقد غرَّهم ذكاؤهم ، وعلومهم ، وآدابهم ، وشعرهم الخصب الغنيُّ ، وملاحمهم العظيمة التي نظموها ، ونبوغهم في علوم الرياضة والهندسة ، والإقليدس ، والفلسفة الطبعية والنجوم ، والفلكيات ، فخاضوا في الإلهيات وفي موضوع الذات ، والصفات ، والخلق ، والإبداع ، فجاؤوا بالسَّخيف المرذول ، وبالتهافت المتساقط ، وبالمتناقض المتضادِّ من الآراء ، والأقوال ، والتحكمات ، والتخمينات ، التي صدق حجَّة الإسلام الغزاليُّ رحمه الله في وصفها بقوله :

«ظلماتٌ بعضها فوق بعض ، لو حكى الإنسان عن منامٍ رآه ؛ لاستدلَّ على سوء مزاجه ، أو لو أورد جنسه في الفقهيات التي قصارى المطلب فيها تخمينات ؛ لقيل إنها ترَّهاتٌ ، لا تفيد غلبات الظنون»(١) .

وقال في موضع آخر : «لست أدري كيف يقنع المجنون من نفسه لمثل هذه الأوضاع ، فضلاً عن العقلاء الذي يشقُّون الشَّعر بزعمهم في المعقولات»(٢) .

دور ابن تيمية في التركيز على ما جاء عن طريق الأنبياء ، وتزييفه لآراء الفلاسفة :

ويأتي ابن تيمية في القرن الثامن الهجري ، وهذا القرن مسحورٌ مبهورٌ بكلام الفلاسفة والمنطقيين ، فيجعل الردَّ عليهم موضوعه الأثير الحبيب ،

(١) تهافت الفلاسفة ص/ ١٠٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص/ ١٢٤ .

ويركز عليه في كتاباته وبحوثه ، فيقول مثلاً معلقاً على كلام الفلاسفة والحكماء :

«يتأمل اللبيب كلام هؤلاء الذين يدَّعون من الحذق والتحقيق ما يدفعون به ما جاءت به الرسل ، كيف يتكلَّمون في غاية حكمتهم ، ونهاية فلسفتهم بما يشبه كلام المجانين ، ويجعلون الحقَّ المعلوم بالضرورة مردوداً ، والباطل الذي يعلم بطلانه بالضرورة مقبولاً بكلامٍ فيه تلبيسٌ ، وتدليسٌ»(١) .

وحقَّ عليهم قوله تعالى : ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف : ١٩] وقوله تعالى : ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف : ٥١] .

المقارنة بين الإلهيَّات اليونانية وعلوم الأنبياء وتعاليمهم :

إنَّه يتعجَّب حينما يتناول مباحث العلوم الإلهية لفلسفة اليونان ، وأقوال فلاسفتهم الذين يقرنونها بالعلوم والحقائق التي يأتي بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، يقول في حماسٍ زائدٍ ، وقوَّةٍ بالغة :

«إذا نظر في كلام معلمهم الأوَّل ـ أرسطو ـ وتدبَّره الفاضل العاقل لم يفده إلا العلم بأنَّهم كانوا من أجهل الخلق بربِّ العالمين ، وصار يتعجَّب تعجباً لا ينقضي ممن يقرن علم هؤلاء بالإلهيات بما جاءت به الأنبياء ، ويرى أنَّ هذا من جنس من يقرن دهاقين القرى بملوك العالم ، فهو أقرب إلى العلم والعدل ممن يقرن هؤلاء بالأنبياء ، فإن دهقان القرية متولٍ عليهم كتولي الملك على مملكته ، جزء من الملك» .

وأمَّا ما جاءت به الأنبياء فلا يعرفه هؤلاء البتة ، وليسوا قريبين منه ، بل كفار اليهود والنصارى أعلم منهم بالأمور الإلهية ، ولست أعني بذلك ما اختصَّ الأنبياء بعلمه من الوحي الذي لا ينال غيرهم ، فإنَّ هذا ليس من

(١) منهاج السنة ، ج/٣ بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول في الحاشية ، ص : ٢٧٢ .

علمهم ولا من علم غيرهم ، وإنما أعني العلوم العقلية التي بينها الرسل للناس بالبراهين العقلية في أمر معرفة الرب ، وتوحيده ، ومعرفة أسمائه ، وصفاته ، وفي النبوءات والمعاد ، وما جاؤوا به من مصالح الأعمال التي تورث السعادة في الآخرة ، فإنَّ كثيراً من ذلك لم يشموا رائحتها ، ولا في علومهم ما يدلُّ عليها ، وأما ما اختصت الرسل بمعرفته ، وأخبرت به من الغيب؛ فذلك أمرٌ أعظم من أن يذكر في ترجيحه على الفلسفة ، وإنما المقصود الكلام في العلوم العقلية ، دع ما جاءت به الأنبياء فإنه مرتبةٌ عاليةٌ»[1].

«بيَّن ابن سينا أمر النبوءة أنَّها من قوى النفس ، وقوى النفوس متفاوتةٌ ، وكلُّ هذا كلام من لا يعرف النبوءة بل هو أجنبيٌّ عنها ، وهو أنقص ممن أراد أن يقرر أن في الدنيا فقهاء ، وأطباء ، وهو لم يعرف غير الشعراء ، فاستدلَّ بوجود الشعراء على وجود الفقهاء ، والأطباء ، بل هذا المثال أقرب ، فإنَّ بعد النبوءة عن غير الأنبياء أعظم من بعد الفقيه والطبيب عن الشاعر ، ولكن هؤلاء من أجهل الناس بالنبوءة ، رأوا ذكر الأنبياء قد شاع فأرادوا تخريج ذلك على أصول قومٍ لم يعرفوا الأنبياء»[2].

ويقول في موضعٍ آخر :

«وأبعد هؤلآء عن النبوءة المتفلسفة والباطنية والملاحدة ، فإنَّ هؤلآء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بني آدم ، وهو المنام ، وليس في كلام أرسطو وأتباعه كلام في النبوءة ، والفارابي جعلها من جنس المنامات فقط ، ولهذا يضلُّ هو وأمثاله من الفلاسفة ، وابن سينا عظّمها أكثر من ذلك ، فجعل للنَّبيِّ ثلاث خصائص : إحداها : أن ينال العلم بلا تعلُّم ، ويسميها القوة القدسية ، وهي القوة الحدسية عنده ، والثاني أن يتخيَّل في نفسه ما يعلمه ، فيرى في نفسه صوراً نورانية ، ويسمع في نفسه لا في الخارج ، فهكذا عند هؤلآء جميع ما يختصُّ به النَّبيُّ مما يراه ويسمعه

(١) الردُّ على المنطقيين ، ص : ٣٩٤ .

(٢) النبوءات : ص ٢٢ .

دون الحاضرين ، إنما يراه في نفسه ، ويسمعه في نفسه ، وكذلك الممرور[١] عندهم ، والثالث: أن يكون له قوةٌ يتصرَّف بها في هيولى العالم بإحداث أمورٍ غريبةٍ ، وهي عندهم آيات الأنبياء ، وعندهم ليس في العالم حادثٌ إلا عن قوةٍ نفسانيَّةٍ ، أو ملكيَّةٍ ، أو طبعية ، وهؤلاء عندهم جميع ما يحصل في نفوس الأنبياء إنما هو من فيض العقل الفعَّال.

ثم إنهم لما سمعوا كلام الأنبياء ، وأرادوا الجمع بينه وبين أقوالهم ، فصاروا يأخذون ألفاظ الأنبياء ، فيضعونها على معانيهم ، ويسمُّون تلك المعاني بتلك الألفاظ المنقولة عن الأنبياء ، ثم يتكلَّمون ، ويصفون الكتب بتلك الألفاظ المأخوذة عن الأنبياء ، فيظنُّ من لم يعرف مراد الأنبياء ، ومرادهم أنَّهم عنوا بها ما عنته الأنبياء ، وضلَّ بذلك طوائف ، وهذا موجود في كلام ابن سينا ومن أخذ عنه»[٢].

الفرق الأساسيُّ بين القرآن والفلسفة في ذات الله تعالى وصفاته:

وقد أشار إلى نقطةٍ علميَّة مهمَّةٍ وهو يتحدث عن الفرق المبدئيِّ بين القرآن والفلسفة في ذات الله تعالى وصفاته ، يقول:

«والقرآن أثبت الصفات على وجه التفصيل ، ونفى عنها التمثيل ، وهي طريقة الرسل ، جاؤوا بإثباتٍ مفصَّلٍ ، ونفيٍ مجملٍ ، وأعداؤهم جاؤوا بنفيٍ مفصل ، وإثباتٍ مجمل»[٣].

توارد علميٌّ ، والتقاء فكريٌّ عقائديٌّ عجيبٌ:

من الموافقات العجيبة ، والالتقاءات العلمية الدَّعوية العقائدية التي تثير العجب والإعجاب ، ما يجده القارىء المتتبع من حدَّة التفكُّر والتوصل إلى

(١) الممرور: من غلبت عليه المرَّة (خلطٌ من أخلاط البدن ، وهو الصفراء أو السوداء) وهاجت ، فهو ممرور.
(٢) النبوءات: ص ١٦٨.
(٣) النبوءات: ص ١٥٣.

نتيجةٍ واحدةٍ ، والتركيز عليها ، والإلحاح في سبيلها ، في رسائل مصلح آخر تحقق له من النجاح في تغيير مسير التاريخ ، وإنقاذ البلاد بأسرها من خطر الردَّة الدينيَّة الحضاريَّة العلمية الشاملة ، التي تبنَّاها ، واحتضنها ملكٌ من أكبر الملوك ، وأقواهم إرادةً وصرامةً[١] وحاول تطبيقها بجميع وسائل الحكومات وطاقاتها ، مثل ما حصل له ، وهو الشيخ الإمام أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي ، (٩٧١ ـ ١٠٣٤ هـ الموافق ١٥٦٣ ـ ١٦٢٤م).

وذلك إن دلَّ على شيءٍ فإنَّه يدلُّ على أنَّ الحق واحد ، وأنَّ الإخلاص والتجرُّد في دراسة الكتاب والسنة ، واللجوء إلى الله تعالى ، والإنابة إليه ، والتوفيق الإلهي ضامنٌ بالوصول إلى الحقِّ والصواب ، واللبِّ اللباب ، وصدق الله العظيم :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩].

عجز العقل والكشف وإخفاقهما في إدراك حقائق ما وراء الطبيعة :

أثبت الإمام السَّرهندي ـ بدوره ـ عجز العقل والكشف وقصورهما في إدراك الأمور الغيبية ، والعلوم التي هي وراء طور العقل ، والمعرفة الصحيحة لذات الله ـ سبحانه وتعالى ـ وصفاته ، وإحراز العلم الذي لا يشوبه شكٌّ ، والحقائق الثابتة القطعية التي لا تخالجها شبهةٌ ـ بحتميةٍ ويقينٍ ، وأنَّ النتائج المكتسبة بهما لا تخلو من الشكِّ والرِّيبة ، والخطأ والزلَّة ، وسوء الفهم ، والتحريف ، ولا يمكن إدراك المعرفة الصحيحة لذات الله سبحانه ـ وصفاته إلا عن طريق الأنبياء والمرسلين ، وإذا كان العقل وراء طور الحسِّ ؛ فإنَّ النبوة وراء طور العقل ، ولا سبيل إلى معرفة

---

(١) وهو الإمبراطور المغولي جلال الدين أكبر (٩٦٣ ـ ١٠٤١ هـ الموافق ١٥٥٦ ـ ١٦٠٥ م) ابن الملك نصير الدين همايون بن ظهير الدين بابر مؤسس الحكومة المغولية في الهند ، يراجع للتفصيل كتاب العلامة الندوي «الإمام السَّرهندي» الجزء الثالث من سلسلة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» طبع دار ابن كثير ـ دمشق .

الطريقة الصحيحة لتقديس الله وتعظيمه ، وتحميده ، وتمجيده إلا النبوءة ، وتعاليم الأنبياء ، وأخبارهم[١].

وقد وقع حكماء اليونان بهذا الصَّدد في زلاّتٍ خطيرة ، وأخطاء فاحشةٍ ، فكما أنَّ العقل الخالص ، والعقل المجرد ليس له وجود ، كذلك الكشف الخالص ، والكشف المجرَّد ـ الذي يكون بعيداً عن التأثيرات الخارجية ، والأهواء الداخلية صعب الوجود ، بل عديم الوجود ، وقد زلَّت أقدام الإشراقيين ، وأصحاب صفاء النفس ، وسموِّ الرُّوح ، ووقعوا فريسة الأوهام والجهالات ، كما زلَّ زعماء العقل والفلسفة ، فالعقل والإشراق لا يغنيان في الحصول على اليقين والوصول إلى الله شيئاً ، والبعثة المحمَّدية ، والرسالة النَّبويَّة هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة ذات الله ـ تعالى شأنه ـ وصفاته وأحكامه.

وأعلن الإمام السَّرهندي في قوةٍ ، ووضوحٍ وفي رسائل كثيرة: إنَّ من المستحيل تجرُّد العقل وخلوصه ، وأنَّ العقل ـ كالحواسِّ الأخرى ـ يتأثر بالعقائد ، والمسلمات الداخلية ، والعوامل ، والتأثيرات الخارجية ، وإنَّ كثيراً من استنتاجاته ، وأحكامه تتلوَّن بالألوان الخارجية التي يكون وجودها في داخله ، أو باطنه ، وتمتزج به[٢].

---

(١) يرجع للتفصيل والاطِّلاع على نصوص الموضوع «رسائل الإمام السَّرهندي» ، أو كتاب العلامة الندوي «الإمام السرهندي» طبع دار ابن كثير ـ دمشق.

(٢) ومن عجيب المصادفات والدلائل على صحة نتيجة البحث العلمي الخاص ، أن الفيلسوف الألماني الشهير إمانويل كانت (Emanuel Kant 1729 - 1804) بدأ ـ بعد قرابة قرنين من وفاة الإمام السَّرهندي ـ البحث الموضوعي ، والتحقيق العلمي في صلاحية العقل لتجرُّده ، وتحرُّره عن البيئة وعوامل الوراثة ، والعادات والمعتقدات ، والحكم الفاصل في قضيةٍ من القضايا ، إنه عَيَّن حدود العقل ، ودوائره في شجاعةٍ ووضوحٍ ، واستبعد وجود العقل الخالص ، ونشر كتابه الخطير «نقد العقل الخالص» (Critique of qure Reaon) عام (١٧٨١م) الّذي أحدث هزةً واضطراباً في الأوساط الفكرية والفلسفية ، وكما يقول الدكتور محمد إقبال إنَّه هدم ـ أعمال المتنوِّرين وحوَّلها إلى كومةٍ من تراب».

The Recons truction of Religioue The ught in islam

وأثبت أنَّ العقل قاصرٌ عن أن يكون حجةً وبرهاناً ، وأنَّ بعثة الأنبياء هي الحجَّة البالغة ، ولا سبيل إلى التزكية الحقيقية بدون الاهتداء بهذه البعثة .

«ولكن الحقيقة ، ولبَّ لباب العلم ، والعرفان : أنَّه لا طريق إلى هذه الحقائق والمعارف إلا طريق الأنبياء الذين شرفهم الله ـ تعالى ـ بمنصب النبوءة والرسالة ، ورزقهم أكبر قسط من العلم بذاته وصفاته ، وبملكوت السموات والأرض ، وأخبرهم ـ مباشرةً ، ومن دون وسائط ـ بما يرضاه وما لا يرضاه ، وبما يأمره ، وما ينهى عنه ، وجعلهم وسائط بينه وبين خلقه ، وأنَّ نبوءتهم ورسائلهم منَّةٌ عظيمةٌ على هذه الدنيا ، ونعمةٌ ظاهرةٌ ، وما يعطونه من علمٍ جليلٍ بذات الله وصفاته العليا ، وأسمائه الحسنى ـ من غير مشقَّة ، وبدون مقابل ـ لا يمكن إحراز ذرَّةٍ من ذراته ، بالتأملات الفلسفية ، والبحث والاستدلال ، على مدى آلاف السنين ، وبالمجاهدات الشاقَّة ، وتصفية النفس ، والمراقبة ، والتفكير لأعوامٍ وسنين.

وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون[(١)] .

وبالجملة فإنَّ هذا العمل التجديديَّ ـ وهو التركيز على أنَّ النبوة هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة ، والهداية الكاملة ـ له قيمته العلمية ، والعملية الكبيرة، والأثر البعيد في الحياة في كلِّ زمانٍ ومكان، وإن كان العصر عصر الفلسفات وما بعد الطبيعات ، أو كان عصر المدنيات ، والتنظيمات ، والسياسات ، كما هو الشأن الآن ، فإنَّ الحياة لا تصلح ، ولا تستقيم إلا في ضوء الهداية السماوية والتعليمات النبويَّة ، وصدق الله العظيم :

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦] .

* * *

(١) الفكرة مقتبسة من رسائل الإمام السَّرهندي .

المعـوِّقـات الّـتـي تعتـرض طـريقنـا إلـى الله سبحـانـه وتـعـالـى

هذه الكلمة ألقاها العلامة الندويُّ بدعوة من معالي الشيخ عبد الوهاب عبد الواسع وزير الحج والأوقاف في المملكة العربية السعودية ـ في منى في مساء اليوم الحادي عشر من شهر ذي الحجة سنة ١٤٠١هـ أمام جمعٍ كبيرٍ من حجاج بيت الله الحرام وعددٍ كبيرٍ من المستمعين الوافدين من مختلفِ الأقطار والبلاد ، نقدّمها هنا نقلاً من الشّريط المسجّل إلى القراء الكرام ، لما فيها من توجيهات وإشارات حكيمة مفيدة مستفادةٍ من كتاب الله العزيز الحكيم والتأمُّل في القرآن والسيرة النبوية .

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيد المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد . . .

صاحب المعالي وزير الحج والأوقاف . . .

حضرات المستمعين الكرام . .

إنِّي لا أرى تفصيلاً أدقَّ وأصدق من تصوير الله تعالى في كتابه المبين للحالة النفسية التي تنتاب الإنسان إزاء الابتعاد عن الله سبحانه وتعالى . قال عزَّ من قائل :

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة : ١١٨] .

وهذه معجزةٌ بيانيةٌ من معجزات القرآن الكريم الكثيرة ، أقول عن نفسي يحقُّ لي أن أشهد على نفسي فيما أراه وأشعر به ـ ويشهد به القرآن فلم أكن أتصوَّر لولا هذه الآيات ـ أن تعتري الإنسان أو يعتري مجتمعاً من المجتمعات البشرية الكثيرة ، وهو في فترة من الفترات الزاهية المتعدِّدة ، حالةٌ نفسيَّةٌ تضيق فيها الأرض بما رحبت .

الإعجاز البيانيُّ في القرآن الكريم :

إنَّني كنت أعرف بأنَّ الأرض قسمان ، لا ثالث لهما ، أرضٌ رحبةٌ ، واسعة الأرجاء فسيحةٌ ، وأرضٌ ضيِّقةٌ ، أما أن تكون الأرض في وقتٍ واحدٍ رحبةً وضيقةً ، رحبةً على بعض أفراد البشر ، وضيقةً على البعض الآخر من البشر ، فوالله ما كنت أتصوَّر هذا لولا هذه الآية القرآنية الكريمة ، ﴿ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ [التوبة : ١١٨] .

إنَّ هذا نوعٌ من المتناقضين ، أرضٌ واسعة الأرجاء ، أرضُ الله

الواسعة ، ثم تضيق على بعض النفوس ، وتضيق على بعض المجتمعات البشرية ، فهذا ما لم أكن أتصوَّره.

وكذلك تعبير القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٨].

هل تضيق نفس الإنسان على الإنسان...؟ هل هذا ممكن؟ ما كنت أتصور هذا أيضاً.

ولكن هنالك حالةٌ نفسيَّةٌ يعيشها الإنسان ، يعيشها فردٌ من أفراد البشر ، أو يعيشها مجتمعٌ من المجتمعات البشرية في بعض الأحيان ، بل وفي أحيانٍ كثيرةٍ مجتمع من المجتمعات البشرية الراقية والمتحضرة ، التي قطعت أشواطاً بعيدةً وواسعةً في مجال العلم ، وفي مجال الحضارة ، وفي مجال الاكتشافات والاختراعات ، ولكنها حالة معيَّنة تمرُّ بها ـ غالباً ـ هذه المجتمعات.

والله سبحانه وتعالى هو الذي يحاسب على القوَّة ، لو وضع أمامنا هذا الواقع ، وهذه الحقيقة الجسمية ، وهي أنَّ الإنسان إذا ضاق عليه صدره ، أو ضاقت عليه نفسه؛ فإنَّ الأرض تضيق عليه بما رحبت ، إنَّني أرى أنَّ هذا المجتمع البشريَّ في هذه الفترة الزمنية التي نعيشها الآن ، وتعيشها أوربا ، وأمريكا ، ويعيشها العالم الإنسانيُّ هي الحالة النفسية التي صورها القرآن الكريم في قول الله عز وجلّ ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ١١٨].

ضاقت علينا نحن الخاضعين للقيم الماديَّة ، للمثل المادِّية ، نحن نعيش هذه الحالة النفسية فكما أنَّ السمكة لا تعيش إلا في الماء ، والإنسان لا يعيش إلا في الهواء ، فكذلك المجتمع البشريُّ مهما بلغ من الرقيِّ ، ومهما بلغ من الازدهار ـ ازدهار المدنية ، وازدهار الصناعة ، وازدهار العلوم ـ فإنَّ هذا المجتمع لا يستطيع أن يعيش عيشةً طبيعيَّةً بنفسيةٍ سليمةٍ مريحةٍ مرضيةٍ كريمةٍ إلا إذا كان مصاحباً للإيمان بالله تبارك وتعالى.

الإيمان بالله يزيد من ثقة الإنسان بنفسه:

مع مفهومنا الذي نعرفه ، فإنَّ من المسلَّم به أنَّنا لا نملك الإيمان لا

نملك زمام الأمور ، نحن نعيش بالتبعية ولا نعيش بالأصالة ، لا نعيش بالثقة في تعاليم ديننا الإسلاميِّ الحنيف ، إننا نعيش مستعبدين سياسياً في كثيرٍ من هذه الأرض ، نعيش مستعبدين ثقافياً وعقلياً ، واسمحوا لي في هذه الكلمة القاسية ، فإنني أشارككم فيها ، ولعلي ما كنت أقلَّ نصيباً منكم ، ولا أقلَّ نصيباً من أي شعبٍ مسلم .

إننا نعيش بالتبعية ، نعيش كلنا مستعبدين مع الأسف الشديد ، ومع المعذرة لديننا ، ومع المعذرة لإيماننا ، وما أحوجنا إلى هذه الأرض المباركة الطيبة انبثق منها النور ، والتي أضفت على العالم الإنساني كلِّه نوعاً من الإيمان تبارك وتعالى ، لم يكن لأوربا مثله ، بل وليس له مثيل في تاريخ الديانات .

فمن هنا تولَّد هذا الشعور ، ومن هنا جاء دور الشعوب في تحقيق الأمن والأمان لهذه الأرض. . . هذه الأرض التي نتحدَّث إليكم منها. . . . إنَّها من فضل الله تعالى .

فشكراً لمعالي الوزير ، لأنَّ هذه الأرض هي التي شحنت نفوسنا بالثقة ، شحنت نفوسنا بالاعتزاز ، شحنت نفوسنا بالإيمان بالله تبارك وتعالى ، ذلك الإيمان المتجدِّد ، المتوقِّد ، المشتعل ، المنفعل؛ الذي ما مرَّ به إنسانٌ منذ ابتدأت أيامه إلى صدره ، هذه الأرض هي التي أضفت على العالم الإنسانيِّ بعضها الفاقد للثقة ، الفاقد للاعتزاز ، اليائس من نفسه ، اليائس من مستقبله ، اليائس من مصيره ، اليائس من مصير الإنسانية جمعاء ، اليائس من كراهية الإنسان لأخيه الإنسان ، اليائس من نصرة الإسلام الذي أكرمه الله به .

هذه الأرض الطيبة الطهور الفريدة هي التي نقلت هذه الثِّقة إلى أبعد أرجاء العالم ، فضلاً عن الأمة الإسلاميّة التي صارت تسعى على قدميها معتـزَّةً بدينها ، معتزةً بتعاليم نبيِّها ﷺ ، معتزَّةَ بهذه الثقة التي تركَّزت في كمال هدفها ، بهذه الثقة التي كانت ملتهبةً وملهبةً في وقتٍ واحدٍ ، ملتهبةً في نفوس أصحابها ، وملهبةً لنفوس الآخرين .

على كلِّ حالٍ فنحن نتحدَّث في ظلال البيت العتيق ، وفي رحاب الكعبة المشرفة ، وفي رحاب الحرم الشريف مستشعرين بحمد الله في هذا الملتقى الكريم في منى التي تقام فيها شعائر الله تبارك وتعالى ، نلتقي هنا لنلتمس فضائل أصبحت تعيش في وجدان كلِّ مسلم ، ومعذرةً يا إخواني! فإنَّ البعد عن الله سبحانه وتعالى هو مصدر هذا التعب ، وفقدان الثِّقة بالنفس ، بل حياة التبعية والتطفل ، حياة البلبلة الخاشعة الخاضعة ، حياة الصفقة الخاسرة أمام الضمانات الغربية ، وأمام هذه المظاهر الخلابة.

الأرض الإسلاميَّة مصدر ثقةٍ وإلهامٍ :

قبل كل شيءٍ علينا أن نعيد إلى أنفسنا تلك الشحنة الإيمانية التي أرادها الرسول ـ ﷺ ـ لأصحابه في تلك الأرض القاحلة الجرداء التي لم يكن فيها ما يجذب الطامعين والمغامرين من أولئك المستعمرين ، ومن الحكام المستعبدين ، هذه الأرض التي تجردت من كل ما يجذب النفوس الطامعة ، هذه الأرض كانت مصدر الثقة ، هذه الأرض كانت مصدر الاعتزاز ، هذه الأرض كانت مصدر الإيمان ، الإيمان الذي جعل من الأموات أحياءً ، ومن الضعفاء أقوياء ، ومن الجهلاء علماء ومعلمين ـ حاشا لله ـ المعلمين الذين نقلوا بمعارفهم أفضل المعاني الإنسانية ، ومن الإنسانية البدائيَّة أصبحوا قادة الأمم ، أصبحوا هم الذين يقودون الأمم ، وكانوا يقودون بالأمس الأنعام والإبل ، كلُّ ذلك يذكرنا بهذا الماضي المشرق الوضاء؛ الذي يجب أن تقتحموه ، فهو زادٌ لنا ، ومعرفةٌ لنا ، إنَّ الإسلام دعا إلى الإيمان ، وهو وحده الداعية الذي دعا الشعوب الراقية المتحضرة التي كانت تعيش في ظلمة الجاهلية إلى الإسلام ، وإلى معرفة الخالق جلَّ وعلا ، هذه الحقيقة الخالدة ليست قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو مع الرسول ـ ﷺ ـ والتي ذكرتها الآية الكريمة ونعني بهم: كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أميَّة الواقفي ، لا. . . لا ، وإنما هي قصَّة حضارتنا ، قصَّة مجتمعنا ، مجتمعنا الذي نعيشه الآن ، المجتمع الإسلاميِّ بما فيه من الدم العربي والأعجمي في الشرق والغرب ، واسمحوا لي أن أقول: هذه

القصَّة ، وهذا المجتمع كان يعيش تلك الحالة النفسية التي عاشها هؤلاء الناس أصحاب الرسول ـ ﷺ ـ عيشةً قصيرةً مؤقَّتةً ، ولكنهم عاشوها على عهد النبي الكريم عليه أفضل الصلاة ، وأزكى التسليم.

هذه الحالة النفسية التي يعيشها المجتمع الإسلامي ـ الآن ـ في مشارق الأرض ومغاربها ، واسمحوا لي أن أقول بكلِّ صراحة ، ضاقت علينا الأرض بما رحبت في الدول الإسلاميّة وفي الممتلكات الإسلامية ، وفي المنجزات الإسلامية ، وفي هذه الخيرات والنعم الوفيرة التي أكرمنا الله بها ، والتي تركناها ونحن نعيش هذا التفكك ، وتلك الآراء الحضارية ، وبذلك يصدق علينا قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ١١٨].

نعم ضاقت علينا الأرض رغم اتِّساعها ، وضاقت علينا أنفسنا ، المشكلة في داخلية أنفسنا.

لا ملجأ من الله إلاَّ إليه :

فنحن ـ بني الإنسان ـ نؤمن إيماناً صادقاً مخلصاً ، لا نفاق فيه ، ولا تردُّد فيه ، نؤمن بأنَّه لا ملجأ من الله إلا إليه ، فقد آمن بذلك هؤلاء النفر الثلاثة من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ.

آمنوا إيماناً مخلصاً ، في هذه الأسابيع المعدودة ـ لمسوا بأيديهم ، وشعروا بأنفسهم ، وقلوبهم ، وعقولهم فحوى هذه الحقيقة: أنَّه لا ملجأ من الله إلاَّ إليه.

والحقُّ أنَّ عندي شكّاً كبيراً في أننا أصبحنا نؤمن بأن: لا ملجأ من الله إلاَّ إليه ، والله إنِّي أشكُّ في ذلك ، لا أشهد لنفسي ولا لأحبِّ إخواني ، لا أشهد بأنهم قد آمنوا بأنه: «لا ملجأ من الله إلا إليه».

إننا نعيش حياة لا تخلو من النفاق والغشِّ والرياء ، لا تخلو من الدمار ، لا تخلو من الشكِّ ومن التردُّد.

إنَّنا كمسلمين ومؤمنين نؤمن بكلِّ العقائد الإسلامية ، ولكنا أصبحنا

نؤمن في أعماق نفوسنا بأنه لا ملجأ لنا من الله إلا إليه ، فهل آمنت به الجامعات الإسلامية؟

هل آمنت به المجامع العلمية؟ هل آمنت به هيئات الترابط في العالم الإسلاميِّ؟ عندي شكٌّ كبيرٌ في أننا قد أصبحنا نؤمن بقلوبنا ونفوسنا وعقولنا في ذلك.

يجب أن يكون لشعوبنا شعورٌ عقليٌّ ، نفسيٌّ ، قلبيٌّ ، نورانيٌّ ، علميٌّ ، هذا الشعور المفروض هو الشعور المتَّزن ، والشعور العاقل الواعي ، عندي شكٌّ كبيرٌ ـ كما قلت ـ في أننا قد أصبحنا نؤمن بأنه لا ملجأ من الله إلا إليه.

كم منا من يعتقد أنه ملجؤه فيما يعكِّر صفوه ، ويعكِّر دمه؟ وفي حالات تقدُّم الصناعة ، والتقدُّم الحضاريِّ ، واكتشاف الثقافة ، هل له من قيمة؟

ولكن يجب إذا أردنا أن ننتقل من هذه الحالة النفسية الكئيبة ، والأليمة ، والحزينة الخانقة التي عاشها أولئك النفر الثلاثة من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وما استطاعوا أن يعيشوها لأنَّهم عرفوا أن لا ملجأ لهم من الله إلا إليه ، ولما كان إيمانهم صادقاً بأنَّه لا ملجأ من الله إلا إليه ، عند ذلك تاب الله عليهم ، قال عزَّ من قائل في محكم كتابه ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة : ١١٨].

ولا يسبُّ الدهر ، ولا يلقي بالأذى على المجتمع الإسلاميِّ في غير رحمةٍ ، لا في منى ، ولا في المزدلفة ، ولا في عرفات ـ سامحوني ـ إلا إذا أصبح المسلم غير مؤمنٍ بأنه لا ملجأ من الله إلا إليه.

والآن هل الطريق ظاهرٌ ومفتوحٌ؟ الطريق الذي كان مفتوحاً ، ولا يزال مفتوحاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، هو الطريق الذي يؤمن بكل إخلاص وصدق بأنه لا ملجأ من الله إلا إليه.

نجاح النَّدوة في اختيار زمانها ومكانها :

وهذه الندوة خيرُ أوانٍ وخير مكانٍ لشرح هذا الموضوع ، وقد أحسن

معالي الوزير اختيار هذا الموضوع ، وأحسن أيضاً اختيار المكان الذي نحن فيه الآن ، فإنَّ كلَّ حصاةٍ من حصيات هذه البطحاء من صحراء منى ، وكلَّ ذرَّةٍ من ذرات هذه الصحراء تشهد إن كان لها لسان بأعلى صوتها بأنَّه لا ملجأ من الله إلا إليه .

يا حجاج بيت الله الحرام! يا قاطني هذه البقعة المباركة بمشاعر الحجِّ المقدسة! حرامٌ عليكم أن تعودوا إلى أماكنكم ، وإلى أوطانكم حتى تؤمنوا هنا في منىً ، وفي عرفاتٍ ، وفي المزدلفة ، وفي رحاب بيت الله بأنَّه لا ملجأ من الله إلا إليه ، فإنَّنا والله هذه الساعة التي نعيشها الآن تخدم الإسلام والمسلمين ، وتعدُّ كمؤشرٍ بسيط في تكوين الفكر الإسلاميِّ الصحيح .

وإلى الآن ما علم المسلم حقيقة العالم الإسلاميِّ بفكره ، وبآماله ، وتطلعاته ، وبكل ما يحتويه من ثرواتٍ وخيراتٍ ، كما في هؤلاء القوم بعلمائهم ، وعظمائهم ، ومشايخهم من رجال الدين ، والمرشدين ، والدعاة ، ورجال الحكم ، وأهل الفضل ، ما علم إلى الآن بأنَّه لا ملجأ من الله إلا إليه ، إنَّ الألم ـ فعلاً ـ أضاع منا الطريق. إنَّ الألم والحزن هما اللذان يسيطران علينا ، ولكن إرادة الله سبحانه وتعالى حينما تنضج ، تنمَّحي الفجوة بين المسلمين في مثل تلك الساعة المباركة الحاسمة التي يكون المسلمون فيها ـ مجموعةٌ كبيرةٌ منهم ـ يتشاورون فيما يهمُّ المسلمين ، وذلك واجب كلِّ مسلم ، وهي في الواقع مجموعةٌ كريمةٌ فاضلةٌ لها الوزن ، ولها العبرة كي يقولوا : «لا ملجأ لنا من الله إلا إليه» وهذه خير ساعةٍ ، وخير مكانٍ ، وخير أوان لأن نقول هذا قبل أن نرجع من هنا ، نقول : لا ملجأ لنا من الله إلا إليه ، نؤمن به ثمَّ نرجع إلى الله ، فإنَّ العودة إلى الله طريق النجاة .

وإنَّني أقرِّر هنا أيها الإخوة أنَّ هذا هو خطُّ الأرض الصَّالحة ، وأنَّ طريق المسلمين في الأرض الصالحة هو الصدقُ ، والواقعية ، والتَّصميم ، صدقٌ مع الله ، صدقٌ مع التعاليم الإسلاميَّة ، يجب علينا أن نقول فيها «لا ملجأ لنا من الله إلا إليه» .

كلمة ختامية :

لم أكن أتصوَّر هذا ، ولكن هناك حالةٌ نفسيَّةٌ يعيشها الإنسان ، يعيشها غيره من أفراد البشر ، وأحياناً يعيشها الإنسان ، وأحياناً يعيشها مجتمعٌ من المجتمعات البشرية ، وفي أحيانٍ كثيرةٍ يعيشها مجتمعٌ من المجتمعات البشرية الراقية المتحضِّرة القاطعة أشواطاً بعيدةً في مجال العلم ، وفي مجال الحضارة ، وفي مجال الثقافة والمخترعات ، ولكنَّها حالةٌ تمرُّ بها هذه المجتمعات ، والله تعالى الذي يحافظ على عقولنا لو وضع أمامنا هذا الواقع ، وهذه الحقيقة الجسمية ، وهي أنَّ الإنسان إذا ضاق عليه صدره ، وإذا ضاقت عليه نفسه ، فإن الأرض تضيق عليه بما رحبت .

هذا أيها الإخوة الكرام! ما أردت أن أقوله في حديثي حول هذا الموضوع وهو أنه : لا ملجأ من الله إلا إليه .

فنحن نعيش تلك الحالة النفسية التي كان يعيشها المسلمون ، ويعيشها العالم الإسلاميُّ في هذه الأيام .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

تـقـديـر الـعـزيـز الـعليـم

هذه الكلمة ارتجلها العلامة الندوي في قاعة مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية في ٢٠/ أغسطس أمام حشدٍ كبير من المثقفين والعلماء وأعضاء الجمعيات والجماعات الدينية والإسلامية في المملكة المتحدة.

سادتي وإخواني! يسعدني أن أتحدَّث باللغة العربية التي كانت ولا تزال هي الوسيلة الكريمة العالمية للتعبير والتعارف ، ولولا هذه اللغة ، لغة الإسلام الرَّسمية دائماً ، ولغة القرآن ، لما كان لي أن أتحدَّث بها في بقعةٍ أوربيةٍ ، وبلدٍ أوربيٍّ ، وفي رحاب جامعةٍ كبيرةٍ عتيقةٍ كتبت لها السيادة والاختصاص في كثيرٍ من العلوم .

إني أوثر اللغة العربية وأقدِّمها ، وإذا اجتمعت عدَّة لغات كان للغة العربية فضلٌ عليها ، أقول ذلك عن إيمانٍ وعن ثقةٍ .

إنَّ وجود هذه الجامعة الإسلامية باختلاف أغراضها ، وأهدافها ، وجنسياتها ، وثقافاتها في بقعةٍ ومنطقةٍ قد حكمت نصف العالم تقريباً ، وكان لها التوجيه العالميُّ والسيطرة ، ليست السيطرة غير السياسية فحسب ، بل السيطرة الفكرية ، والتوجيه العلميُّ ، والثقافيُّ .

إنَّ وجود الجالية الإسلامية في هذه المنطقة الأوربية فرصةٌ ، لا أقول صدفةً ، أنا لا أومن بالمصادفات ، إنَّها تقدير العزيز العليم ، يقول الله عز وجل : ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس : ٣٨] إنَّ القوة الموجَّهة إذا كانت عزيزةً قادرةً فحسب لا تستطيع أن تحقق أغراضها إلا أن تتَّخذ خطَّةً حكيمةً ، فوصف الله نفسه كذلك بالعلم .

إنَّ وجودكم في هذه البلاد ليس صدفةً ، ليست الأغراض الاقتصادية ، والدوافع المادِّيَّة هي التي دفعتكم إلى هذه البلاد ، لا أومن بأنَّ وجودكم هنا صدفةٌ ، إنَّما وجودكم في هذا الاجتماع في هذا العدد ليس كمَّاً فقط ، بل كيفاً كذلك ، ففيكم الأدباء ، والعلماء ، والمؤرِّخون ، إنَّ وجودكم هنا تقدير العزيز العليم ، إنَّه منَّةٌ ومحنةٌ :

إنَّه منَّةٌ لأنها تعود فائدتها إلى الإسلام ، وتعود عليكم بالخير الكثير ، وأكبر نعمةٍ بعد النبوة أن يختار الله عزَّ وجلَّ طائفةً لتمثيل الحياة الدينية ، إنَّ الله قدَّر لكم ، وقيَّضكم لتمثيل الحياة الإسلامية في هذا المجتمع الأوربي .

إنَّها محنـةٌ لأنَّ الأوضاع والدوافع مختلفةٌ ، والمصيبة الكبرى إذا كان الدافع اقتصادياً فحسب ، أو سياسيّاً فحسب ، فكثيراً ما يضيع القول الحقُّ .

هذه البلاد ـ ومعذرةً إلى سكانها ـ منكوبةٌ ، لأنَّ صلتها انقطعت عن التعاليم النَّبويَّة ، وتاريخ الأنبياء ، وسيرهم ، انقطعت صلتها عن أسباب فلاح الإنسان وسعادته ، كانت النفسية السياسيَّة هي الغالبة عليها ، والنفسية التي تملكها الآن ، وتسيطر عليها هي نفسيةٌ اقتصاديَّةٌ استغلاليَّةٌ .

إنَّ الدعوة ، ومعرفة نفسية الإنسان ، ومقاومة المغريات المادِّية ، والمغريات التي تنبع من القلب ، وأعماق النفس محنةٌ كبيرة .

على كلِّ حال هذه فرصةٌ غاليةٌ جدّاً لتمثيل الإسلام والحياة الدِّينيَّة ، إنَّ الإنسان مفطورٌ على إجلال شيءٍ لا يجده عنده ، فالفقير مفطورٌ على إجلال الغنيِّ ، والمريض الضعيف مفطور على إجلال الصحيح القويِّ ، والجاهل مفطورٌ على إجلال العالم ، حتى اللئيم مفطور على إجلال الكريم ، والجبان مفطور على إجلال الشُّجاع .

ماذا ينقص هذه البلاد؟ التقدُّم ، الصناعة ، التكنولوجيا ، المراكز العلمية؟ ـ ومعذرةً إلى جامعة أوكسفورد التي يقوم فيها مركزٌ للدراسات الإسلاميَّة ـ لا ينقصها شيءٌ من هذا ، إنما ينقص هذه البلاد الإيمان بالله ، الإيمان الجازم ، الإيمان المالك لأزمَّة الإرادة ، والأهواء ، والشهوات ، ينقص هذه البلاد الإيمان بالآخرة إيماناً حيّاً قويّاً ، ينقصها الرحمة والانعطاف للإنسانية ، ورقَّة النفس ، والتجرُّد ، والانقطاع إلى الله ، ينقصها الإيمان الرَّاسخ الحيُّ القويُّ المحرِّك ، الإيمان الذي يملك على النفس إرادتها ، ورغباتها .

أحكي لكم قصةً : كان رجلٌ في الجاهلية يدعى جبَّار بن سُلمى ، كان معروفاً بشدَّته ، وغلظته على المسلمين . كان من أعدى أعداء الإسلام ، قاوم مرَّة في ساحة العرب أحداً من المسلمين اسمه حرام بن ملحان ، فطعن طعنةً في جوفه نفذت من جانب إلى آخر ، طعنةً قاضيةً ، فخرَّ صريعاً ، وقال وهو يلفظ نفسه الأخير : فزت ورب الكعبة! فتخيَّل جبار بن سُلمى ،

ما هذا؟ هاجمته ، فقتلته ، وهو على وشك الموت ، وهو يعرف أنَّ أولاده سيكونون أيتاماً ، وزوجته أرملةً ، وهو يعرف أنَّه قد فقد الحياة ، ومرافق الدنيا ، ونعيمها ، ولذَّتها والمآكل والمشارب ، ولا يمكن أن يسمَّى هذا كذباً ، فإنَّ العرب لا يوجد فيهم الكذب ، ولا النفاق ، إنَّ العرب لم يشاهدوا نفاقاً في مكَّة ، إنما جربوا النفاق في المدينة حيث اليهود ، تصوَّر كل ذلك ، وهل يكذب في الوقت وهو يلفظ نفسه الأخير؟! وقال: أعرف معنى الفوز ، وهو كذلك يعرف معنى الفوز ، الفوز في الكرامة ، والشرف ، والتذوُّق بنعمٍ كثيرةٍ من المآكل والمشارب ، وكلٌّ يعرف معنى الفوز ، فاستغرب ، لماذا قال: فزت وربِّ الكعبة! أنا أراه خاسراً ، قد خسر كلَّ شيءٍ من الدنيا ونعيمها وملذَّاتها ، لما أسلم جبار سأله أحد المسلمين : كيف أسلمت وكنت من أعدى أعداء الإسلام ، ومعروفاً بغلظتك على المسلمين؟ قال: إنَّ قصتي أنِّي هاجمت رجلاً من المسلمين ، فطعنته طعنةً كانت القاضية ، ورأيته يشحط في دمه ، ولم يبك ، ولم يحزن ، بل قال: فزت ورب الكعبة! قالها بكلِّ ثقةٍ وطمأنينةٍ.

تحيَّر جبار بن سلمى ، هل للفوز مستويان ، هل التوى عليَّ فهم هذه الكلمة ، الفوز عند المسلم هو لقاء الله عزَّ وجل ، إنَّه يؤمن أنه سينتقل إلى نعيم الله عز وجل.

إنَّ أكبر شيءٍ يقلب الحقائق ، ويُحدث انقلاباً في شخصٍ هو رؤية شيءٍ وتجربة بشيءٍ لا يجده في مجتمعه.

مسؤوليتكم أن تعرضوا على أهل هذه البلاد شيئاً لم يجربوه ، ولم يعهدوه ، وهو الإيمان ، الإيمان بالله والآخرة ، هو إيثار العاجل على الآجل ، هو التقيُّد بالقيود الخلقية التي جاء بها الأنبياء والمرسلون ، وعدم عبادة الدُّنيا ، وثرواتها ، وكراماتها ، هذا الشيء هو الذي ينقص هذه البلاد ، المكتبات هنا طافحةٌ ، وفيها كلُّ شيءٍ من العلوم ، والفنون ، والصناعات ، تنقصها الحياة التي تقوم على أساس الإيمان بالآخرة ، وعلى

الصدق ، هذه البلاد جربت كلَّ شيء إلا تعاليم النُّبوَّة ، والحياة الممثلة للكتب السَّماوية .

مما يروى عن الإمام الزُّهري رحمه الله تعالى أنَّه قال: إن العدد الذي أسلم في الفترة التي بين صلح الحديبية وفتح مكة وهي سنتان أكبر بكثيرٍ من العدد الذي أسلم في السنوات التي قبلها وهي ثلاث عشرة سنة في مكَّة وعشر سنوات في المدينة .

لماذا هذا الفرق الكبير؟ كانت هناك حواجز ، قلَّما كان مشركٌ أو كافرٌ يشاهد مسلماً في الحياة الفردية والجماعية ، كانوا يقابلون المسلمين في ساحة الحرب ، فكلُّ معلوماتهم كانت ترجع إلى ساحة الحرب وبعض الصدف ، ولكن لما رفعت هذه الحواجز ، وأمكن لكلِّ قرشيٍّ أن يقابل أخاه ، أو ابنه ، أو أقاربه في المدينة ، فهذا يزور ابن عمِّه ، يرى أنَّه يجوِّع أطفاله وامرأته ، ويجوِّع هو نفسه ويطعم ضيفه ، ويكرم زائره ، وأنه لا يغضب ، إنَّه راهبٌ بالليل وفارسٌ بالنهار ، يرقُّ لكلِّ إنسانٍ ، كانت ألوفٌ من الدلائل ، والبراهين لا تساوي قضاء ليلةٍ واحدةٍ مع مسلمٍ .

فهذا أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه ، ذهب بضيوف النَّبيِّ ﷺ إلى بيته ، وسأل زوجته : هل من طعام؟ فقالت: لا ، إلا ما يكفي الأولاد ، قال: علِّليهم ونوِّميهم ، فإذا قدَّمتِ الطعام ، أطفئي السِّراج وكأنك تصلحينه ، فأطعم ضيوفه وأظهر لهم كأنَّه يأكل معهم ، وبات جائعاً ، وبات أهله جائعين ، فنزلت: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩].

هذه حياةٌ لم يجربها الغرب ، هذا شيءٌ جاذبٌ ، فيه قوَّةٌ كيماويَّةٌ ، فيه قوةٌ أكبر من الطاقات الكيماوية ، إذا مثلتم هذه الحياة ؛ فإنَّه سيدخل عددٌ كبير من الغربيين في الإسلام .

الشيء الوحيد الذي تفتقر إليه هذه البلاد هو تمثيل حياة إيمانيَّةٍ أخرويةٍ مثاليَّةٍ مبدئيَّةٍ خالصةٍ .

أيها الأساتذة العرب! وصل إلينا الإسلام عن طريقكم ، أنتم الأساتذة ،

ونحن التلاميذ ، حاولوا أن تطبقوا هذه الحياة ، إذا مثلتم هذه الحياة الدينية المثالية في متاجركم ، ومع زملائكم ، في الوظائف ، وفي السوق ، وفي الكليات ، والجامعات ، فإنه سيأتي بالعجب العجاب .

لما غزا السيد الإمام أحمد الشهيد رحمه الله ، زعيم أكبر حركة جهادية في شبه القارة الهندية[١] ، لما غزا بشاور ، وفتحها ، بقي فيها هو وجيشه مدَّة أسابيع ، فأُمسِك يوماً أحدُ المواطنين بيد بعض المجاهدين ، وسأله : هل في عيونكم شيءٌ ، هل تشكون من قصر النظر ؟ قال : لا ، عيوننا سليمةٌ ، كلنا نحمل عيوناً سليمة ، نحن نبصر الشيء البعيد كما تبصرون أنتم ، ولكن ما الذي حملك على هذا السؤال؟ ما الذي دفعك إليه؟ قال : إني أراكم هاجرتم أوطانكم منذ سنوات ، وأنتم شبان ، ما رأيت أحداً منكم ينظر إلى امرأة ، لو كان بعض رجال الدين لا ينظرون إلى النساء لما استغربت ، ولكني أرى كلكم تغضُّون أبصاركم ، مع أنكم شبَّان ، والجيش معروف بحريته ، فالجيش إذا فتح بلداً تصرَّف فيها تصرُّفاً حُرَّاً ، فقال ذلك المسلم المجاهد : هذا تطبيق لقوله تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور : ٣٠] ، وهذه تربية إمامنا .

إذا كانت حياتنا في هذه البلاد كمثل هؤلآء المجاهدين وهم كانوا قبل قرن ونصف قرن تقريباً .

إذا أنشىء في لندن ، أو في أيِّ مدينةٍ أوربيةٍ مجتمعٌ إسلاميٌّ ، مسلمٌ بكلِّ ما في الكلمة من معنى ، مسلمٌ في كلِّ مظهرٍ من مظاهر حياته ، تأكدوا وصدِّقوني أنَّ هذه البلاد ستندفع إلى الإسلام اندفاعاً لن تستطيع الكنائس والرهبان أن يقفوا في سبيله .

الشيء الوحيد الذي ينقص هذه البلاد هو وجود مجتمع إسلاميٍّ مثالي وهذا الذي ينقص العالم الإسلامي كذلك ، ولو وجد هذا المجتمع في بلد

(١) ليرجع للتفصيل إلى رسالة «الإمام الذي لم يوف حقَّه من الإنصاف والاعتراف» وكتاب «إذا هبت ريح الإيمان» للعلامة الندوي .

إسلاميٍّ سافر إليه الناس ليشاهدوه ، واحتملوا في سبيله المخاطر والتكاليف .

وشكراً لكم على الاستماع الكريم ، وعلى هذا التقدير والتكريم ، وصلى الله على خير خلقه وخاتم رسله محمدٍ وآله وصحبه وسلم .

* * *

الحاجة إلى التركيز على جانبٍ حاسم ومقاومة فتنةٍ متحدِّية في مجال الدَّعوة والإصلاح ، وأمثلته من تاريخ الفكر والدعوة الإسلاميَّة

هذه الكلمة قيِّمةٌ في تاريخ الدعوة والفكر الإسلامي ، ارتجلها العلامة الندوي ، بمناسبة افتتاح العام الجديد للمعهد العالي للدَّعوة والفكر الإسلامي بجامعة ندوة العلماء ، ذلك في ١١/ محرم ١٤١٣هـ ، وقد حضر الكلمة واستمع إليها نخبةٌ وجيهةٌ من طلاب الجامعة وأساتذتها ، وخاصَّةً الطلاب الوافدين الَّذين يدرسون في مختلف الكليات ، ومراحل التعليم بالجامعة.

الحمد لله والصَّلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعد:

فأحمد الله تعالى على هذا اللقاء الذي جاء في أوانه ومكانه، وأستطيع أن أقول لكم إنَّه إن تأخر عن أوانه فقد جاء في مكانه، ولا يزال في مكانه، وأعتبره لقاءً أبوياً، أخوياً، مدرسياً، عائلياً، توجيهيَّاً، دعوياً في وقتٍ واحدٍ، إنَّه كان من الطبيعي، ومن المعقول بل من الواجب أن تتكرَّر هذه اللقاءات وإن طالت، أو قصرت، وإن اختلفت أمكنتها، وألسنتها، فإنَّ هذا الموضوع الذي سألقي بعض الأضواء عليه؛ إنَّه هو العمود الفقري في النظام التعليميِّ، والتربويِّ الدعويِّ؛ الذي تعيشون فيه، وإنَّ في إمكانه أن يثير فيكم بعض الاهتمام بمعرفة واجبكم، وما يستقبلكم إذا عدتم ـ بمشيئة الله وكرامته ـ إلى بلادكم.

ما هي التحدّيات التي تواجهونها؟ ما هي العراقيل؟ ما هي المشاكل؟ ما هي العقد النفسية السِّياسيَّة التي تُبتَلون بها؟ كان من الواجب أن يكون عندكم بعض تخمينٍ، أو بعض تقديرٍ للوضع الاجتماعيِّ، الدِّينيِّ والسِّياسيِّ الذي ينتظركم، ولا بدَّ لكم أن تواجهوه، وأحمد الله تعالى على أنَّه أتاح هذه الفرصة الكريمة للجلوس معكم، والحديث إليكم.

إخواني! إنَّكم تعرفون أنَّ الدعوة هي رسالة الأنبياء عليهم السلام جميعاً من أولهم إلى آخرهم، وإنَّ الدعوة هي رسالة الأنبياء ووظيفة خلفائهم، بل تعتبر الدَّعوة نَفَس الرسالة ونطقها، إذا تنفَّست؛ كانت الدعوة، وإذا نطقت؛ كانت الدعوة، وإذا سارت؛ كانت الدَّعوة، وهي دعوةٌ معيَّنة صريحةٌ مكشوفةٌ، متفقٌ عليها، لا جدال فيها، هي الدعوة إلى الله تعالى، الدعوة إلى التوحيد الخالص، والإيمان بالله، والإيمان بالرُّسل عامَّةً وبالرسول الخاتم خاصَّةً، والإيمان باليوم الآخر، والدعوة إلى الفضائل، والدعوة إلى إنقاذ الإنسانيَّة من التردِّي في هوَّة الضلال والهلاك، فهذه

الدعوة متَّصلةٌ ، وستظلُّ متَّصلةً إلى أن يرث الله هذه الأرض ومن عليها ، وهي لكلِّ عملٍ إسلاميٍّ صعيدٌ وأرضيَّةٌ يقوم عليها ، وهي أساسيةٌ ، وهي المبتدأ والمنتهى ، وهذا ما لا شكَّ فيه ، وما زالت هذه الدعوة باقيةً مستمرَّةً نشيطةً مهما تنوَّع الدعاة في عرضها ، واختلفوا في طريقها.

ولكنِّي أريد أن أشير في ضوء دراستي للدَّعوة الإسلاميَّة ، وتاريخ الديانات والشعوب ، وتاريخ الحضارات والفلسفات في هذا الوقت القصير: أنَّ هنالك فجواتٍ أو ثغراتٍ تحدث في حياة الأمم وفي حياة المجتمعات ، قد حدثت في حياة كلِّ أمَّةٍ ، وفي كلِّ ديانةٍ ، وإن لم يُسجّل تاريخها تسجيلاً أميناً مفصَّلاً موثوقاً به ، ولكنه من طبيعة البشر ، ومن طبيعة الديَّانات ، ومن طبيعة المجتمعات البشرية ، وهو أنَّ الإنسان حيٌّ نامٍ ، صاحب شعورٍ ، وصاحب عقليَّةٍ ، وصاحب تجارب ، وصاحب أهواءٍ وميولٍ وشهواتٍ ، وصاحب غاياتٍ وأهدافٍ ، يواجه معارضاتٍ وصراعاً نفسيَّاً ، وفي بعض الأوقات صراعاً سياسيَّاً وصراعاً اجتماعياً ، وفي بعض الأوقات صراعاً خُلقياً ، فإنَّه لا بدّ أن تحدث في كلِّ مجتمعٍ ـ مهما بلغ من العلم الدِّينيِّ ، والصلاح العلميِّ ، ومن الفضيلة الخلقيَّة مكاناً سامياً ـ لابدَّ أن تحدث في هذا المجتمع الحيِّ النامي الذي يسعى على قدميه ، وينطق بلسانه ، والذي تحرِّكه محرّكاتٌ داخليَّةٌ وخارجيَّةٌ كثيرةٌ ، قد تكون مفروضةً عليها ، وقد تنبع من داخلها ، لا بدَّ أن تحدث هناك فجواتٌ ، أو ثغراتٌ.

ولا بدَّ أن تُملأ هذه الثغراتُ والفجواتُ ، تقتضي ذلك طبيعة الدِّين ، وحكمة حامليه وشارحيه ، وتقتضي ذلك الطبيعة البشرية ، ولا يجوز أبداً أن تغفل هذه الفجوات ، والثغرات ، ويقول الدَّاعية والغَيور على الدين: ما لنا ولهذه الفجوات والثَّغرات ، وما الحاجة إلى ملئها والاشتغال بها؟ ما دام الدِّين هو الدِّين الكامل ، هو الدِّين الذي يحتوي عليه كتاب الله العزيز ، والذي وصل عن طريق الحديث وعن طريق الفقه ، أو عن طريق البحوث العلمية؟

لا أبداً ـ إذا بقيت فجوةٌ عميقةٌ ، فجوةٌ حقيقيَّـةٌ يصحُّ أن تسمَّى فجـوة؛ فإنَّه يخشى على هذا المجتمع ـ مهما بلغ من الفضائل الخلقية والتمسّك بالدين ـ يخشى عليه أن يتردَّى ، أو يهوي هذا المجتمع في هذه الفجوة ، فهنالك فجواتٌ وثغراتٌ تحدث، وهي تطلب أن تُملأ وبتعبير أصحَّ أن تُردم.

وكذلك هنالك تشكُّكاتٌ وتساؤلاتٌ قد تبلغ إلى حدِّ التحدِّيات ، تحدٍّ لصحة الدين ، تحدٍّ لإمكان انطباقه في هذا العصر ، تحدٍّ لإمكان العمل به ، تحدٍّ لإمكان القيام به قياماً كاملاً ، هذه التساؤلات (وبالأصح: الاعتراضات ، والتشكُّكات) تحدث في حياة كلِّ أمَّةٍ ، وفي تاريخ كلِّ ديانة ، وهي حدثت ، وستحدث ، وستستمرُّ حادثةً موجودةً طارئةً في كلِّ عصر ومصر ، فهذه ثغراتٌ وفجواتٌ يجب أن تُملأ ، وهذه تساؤلاتٌ وتحدِّياتٌ ، يجب أن يُجاب عنها ، ويجب أن تقابل.

وهنالك معارضاتٌ كذلك ، وتناقضاتٌ يجب أن تستقبل بعقلٍ واعٍ ، وصبرٍ واسع ، وحكمةٍ عاليةٍ ، ونظرةٍ ثاقبة ، هذه كلها من واجبات الدُّعاة.

وأضرب لكم بعض الأمثلة ، والوقت قصيرٌ ، لذا أشير عليكم من غير خجلٍ ومن غير اعتذارٍ ، بأن تطالعوا كتابي: «رجال الفكر والدَّعوة في الإسلام» فتمرُّون في أثناء سياحتكم في هذا الكتاب ـ الذي هو في عدَّة أجزاء ـ بهذه الثغرات الزَّمنية التي حدثت في تاريخ الإسلام ، وما يتَّصل بالدَّعوة الإسلاميَّة.

أضرب لكم مثلاً بالإمام الحسن البصري رحمه الله ، فالإمام الحسن البصري هو من كبار دعاة الإسلام ، قدَّر الله له زماناً ـ وهو المقدِّر لما يشاء ومتى يشاء ـ كانت هنالك حكومةٌ إسلاميَّةٌ ، بل وفقاً للمصطلح الجديد: إمبراطوريةٌ قويَّةٌ واسعةٌ ، ومجتمعٌ إسلاميٌّ متنوِّع ، وشريعةٌ واضحة المعالم ، واسعة التفاصيل ، وحديثٌ محفوظٌ ، كلُّ ذلك كان هنالك متوفِّراً ، ولكن حدثت هنالك مرحلةٌ جديدةٌ كان يجب أن ينتبه لها ، وإنها جديرة بأن تحدث في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وهو وجود النِّفاق ، لم يكن هنالك نفاق عقيدة ، ولكن كان هنالك نفاقٌ خلقيٌّ وعمليٌّ ، وهو وجود تناقض

ما بين التعاليم الصحيحة الإسلامية التي جاءت في القرآن ، وجاءت في الحديث النَّبويِّ المتواتر الصحيح ، تناقض بين السِّيرة الإسلامية المتينة الرَّاسخة ، بين طلب الآخرة ، والسعي لها ، وإيثارها على المنافع الدنيوية ، والجهد في سبيلها ، وبين انتهاز الفرص التي حدثت لوجود حكوماتٍ واسعةٍ غنيَّة ، ذات وسائل وإمكانيات متوفّرة ، فقد انهزمت الإمبراطورية الرومية ، والإمبراطورية الساسانية (الفارسية) أمام الجيوش الإسلامية والغزو الإسلاميِّ ، واستولى المسلمون على هاتين الإمبراطوريتين ، وكانت هنالك فرصٌ سانحةٌ ، فرص مُغريةٌ كلَّ الإغراء لانتهاز هذه الفرص ، لتبوُّء المناصب الرفيعة ، وتملُّك وسائل الرَّفاهية ، والشرف بالتزلُّف إلى الحكام ، ومخالفة الضمير والمبدأ.

هذا ما أحدث تناقضاً ، وتفطَّن له الإمام الحسن البصري بما أوتي من فراسة إيمانية ، وعلمٍ راسخٍ ، ونظرٍ ثاقبٍ ، وربّما كان من حظه إدراك عصر الصحابة ، ودراسة سيرتهم ، وأخلاقهم ، فهو وهب نفسه لمعارضة هذا التناقض الذي حدث في المجتمع الإسلاميِّ الإنسانيِّ الناشىء ، المجتمع الإسلاميِّ الغنيِّ في مواهب ، وفي طاقاتٍ ، وفي ذكاءٍ ، وإمكانياتٍ ، كان الواحد منهم يؤمن بالله كما هو بأسمائه ، وصفاته ، ويؤمن بالرسل جميعاً ، ويؤمن بالآخرة ، ويؤمن بالتَّعاليم التي جاءت في القرآن ، ولكن كان طموحه ، وما وُهبه من ذكاء ، ومقدرة يغريه بأن ينتهز هذه الفرصة ، يذهب إلى الحاكم ويقول ما لا يرضاه دينُه ، ويقول ما لا يتَّفق مع إيمانه ، وعقيدته ، ولكنَّه أراد أن ينتهز هذه الفرصة ، وينال كرامةً ، أو منصباً رفيعاً.

وهذا أحدث تناقضاً في المجتمع الإسلاميِّ ، وكان نفاقاً خلقياً ، وقد جاء في التاريخ: أنَّ هذا أحدث ـ لما قام سيدنا الإمام الحسن البصري لمحاربة هذا النفاق ، ولاستئصال شأفته ، والتغلُّب عليه ـ تساؤلاً في نفوس كثيرٍ من الناس ، قالوا: يا أبا سعيد هل اليوم نفاقٌ؟ لأنهم كانوا يعرفون أنَّ النفاق قد مضى زمنه ، وهذا بحثٌ علميٌّ قد جاء في كتاب «الفوز الكبير» للإمام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المشهور بولي الله الدَّهلوي ، هل النفاق داءٌ مستمرٌّ؟ وهل يمكن أن يوجد بعد عصر الرسول عليه الصلاة والسلام؟

وشيءٌ آخر أكثر حساسيَّةً ، هو أنه من الصعب بل من المحال تعيين المنافق ، فقيل لسيدنا الحسن البصري رحمه الله : هل اليوم نفاق؟ قال : «لو خرجوا من أزقة البصرة لاستوحشتم فيها» هم في عدد لا يستهان به في المدن، ثم قيل له مرَّة ثانية؛ قال : لو خرجوا لما انتصفتم من عدوِّكم ، يعني هم الذين يكوِّنون الجيش الإسلامي ، فإذا انسحبوا ، ولم يكن لهم وجود ، لما استطعتم أن تقاوموا ، وتحاربوا عدوَّكم ، لأن قوَّتكم هي المستمدَّة من هؤلاء الذين يعيشون عيش تنعُّم ، وهؤلاء الذين يتَّصفون بالنفاق .

فعارض الإمام الحسن البصري النفاق ، وركَّز عليه عنايته وبلاغته التي ـ أكرمه الله بها ـ ومن المقررات التاريخيَّة الأدبيَّة ، ومن المقررات في التاريخ الأدبيِّ ، أن كان هنالك بليغان لا ثالث لهما ، أبلغ البلغاء الحسن البصريُّ ، والحجَّاج بن يوسف الثَّقفي ، ولكن يكاد المؤرخون للأدب يُجمعون على أنَّ الحسن البصريَّ أبلغ من الحجَّاج ، فوهب نفسه ، ووهب طاقاته، وكلَّ إمكانياته، وقوة بيانه ، وقدرة لسانه ، ووهب عنايته وإخلاصه لمحاربة هذا النفاق ولمحاربة هذا التناقض ـ الحادث في المجتمع الإسلاميِّ بحكم الطبيعة، واتِّساع المملكة ، وتضخُّم الثروة ـ من ذلك تعرفون أنَّه كانت هنالك ثغرةٌ حتى في العهد القريب من البعثة النبوية، والرسالة السَّماوية .

وهنالك مثالٌ آخر وهو ما حدث في آخر القرن الثاني الهجري ، وهي فتنة عقيدة خلق القرآن ، وهي العقيدة التي تزعَّمها المعتزلة الخاضعون للفلسفة الإغريقية في قليلٍ أو كثيرٍ ، والتنوُّر السَّطحيِّ العاجل أو (العقلانية Rationalism) ولهذه العقيدة لوازم فاسدةٌ ، ونتائج معارضةٌ لحقيقة إعجاز القرآن ، وكونه مُنزّلاً من الله لفظاً ومعنىً(١) .

(١) إنَّ ما كان يقصد به الدُّعاة إلى هذه العقيدة ، ومعرفة مراميها وغوامضها صعبٌ لضياع كثير من مصادر الاعتزال وكتب المعتزلة بعد خمود هذه الدعوة ، وانقراض عصر المعتزلة ، ولكن مما لا شك فيه أن هذه العقيدة كانت معارضةً لعقيدة السواد الأعظم من المسلمين والصحابة والتابعين ، مُضعفةً لعقيدة إعجاز القرآن ، وكونه منزلاً من الله بكلماته ومعانيه ، فإن الله يقول : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : ٢] واللغة لا تتخيل ولا تُفهم إلا مركبة من كلماتٍ وألفاظٍ معيَّنةٍ .

وقد احتضن الخليفة العبّاسيُّ الكبير المأمون بن الرشيد هذه العقيدة وحماها حماية الحكّام والملوك ، وأصدر سنة ٢١٨هـ رسالةً يأمر فيها بجمع القضاة ، وامتحانهم في عقيدة خلق القرآن ، وعزل من لا يقول بذلك منهم ، وإسقاط شهادة من لا يراها من الشُّهود ، وكانت محنة عقَّدتها وضخَّمتها حمايةُ المملكة وحماسُ القائم عليها .

وهنالك قام لمعارضتها وللوقوف في وجهها ، الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١هـ) وخاطر بنفسه وحياته ، وتركَّزت فيه رئاسة المعارضة ، فحُبس ، ومكث في السِّجن نحواً من ثلاثين شهراً ، وفي أيام المعتصم خليفة المأمون ضُرب بالسِّياط ، ضرب تسعة عشر سوطاً ، يقول السوَّاط : لو ضُرب فيلٌ سوطاً واحداً لصاح ، وهو يقول كلَّ مرة : «إيتوني بشيءٍ من كتاب الله وسُنَّة نبيه حتى أقول به» وقد كان من ثبات ابن حنبل وصُموده وإخلاصه أن انطفأت عقيدة خلق القرآن حتى بقيت مدفونةً في كتب الملل والنحل ، وعلم الكلام ، وانهزمت حكومة هي من أقوى الحكومات وأوسعها في عصرها ، حتى ذُكر اسمُ الإمام أحمد بن حنبل مقتدياً بالصِّدِّيق في الثبات والصمود ، والقضاء على الخطر ، فقيل «أبو بكر يوم الردَّة وأحمد بن حنبل يوم المحنة» .

ثم كان هنالك شخصيةٌ أخرى هي شخصية الإمام أبي الحسن الأشعري (٢٧٠ ـ ٣٢٤هـ) فقد قام بدورٍ حاسمٍ في مقاومة الاعتزال وسلطانه ، فقد كان هذا الاعتزال قد أثر تأثيراً عميقاً في عقلية الشباب الواعي ، فكانوا «يتظرَّفُون» بالانتساب إلى الفلسفة ، ومذهب المعتزلة ، وأصبحت الفلسفة كما يقول الدكتور أحمد أمين «موضةً» (FASHION) يتظرَّف بها الشباب ، ويتنبلون بها ، ويقول بعضهم : أنا معتزليٌّ افعلوا ما شئتم! أنا معتزليّ! وأصبح الاعتزال رمزاً وإمارةً للذكاء والتعمُّق والعقلانية ، حتى في العقائد والمسائل الشَّرعية ، فكان هذا خطراً كبيراً على الفهم الديني الصحيح ، وعقيدة السَّلف المأثورة ، فوفق الله الإمام أبا الحسن الأشعري فاعتزل أياماً ثم خرج ، وهو مقتنع بصحة الشريعة الإسلامية عقيدةً ، وشريعةً ، وعقلاً ،

وعملاً ، مؤمناً بها إيماناً واعياً ، ليس إيماناً عاطفياً فقط ، فصار يفحم المعتزلة ، ويُقنع الشباب المتأثرين بعض التأثُّر ، أو كلَّ التأثُّر بالفكر المعتزليِّ الفلسفيِّ ، فكان يجيبهم كما يجيب معلمٌ حاذقٌ كبيرٌ أطفالاً صغاراً ، وتلاميذ أحداثاً ، فكان يجتمع هناك عددٌ كبير من المتأثرين بالاعتزال ، ويقول: يا سيدي! أجب عن كذا ، يا مولانا! ماذا تقول في هذا؟ يا سيدي! ما المسألة الفلانية؟ فكان يسمع كلَّ هذا ، وكان الناس يتعجبون كيف يحفظ الإمام أبو الحسن الأشعري هذه الآراء ، وبعد ذلك يبدأ يناقشهم ويردُّهم واحداً بعد واحدٍ ، أما فلان؛ فقد قال كذا ، وأقول : هذا ليس بصحيح ، وإنَّه شيءٌ مفروضٌ ، وشيءٌ غير عقليٍّ ، وقال الثاني كذا ، وقال الثالث كذا ، والرابع كذا ، كان الناس يتصوَّرون أنَّه رجل ملهمٌ ، كيف استطاع أن يحفظ هذه الآراء الشاذَّة المنتشرة المبعثرة التي لا تناسبَ ، ولا التئام فيها ، كيف حفظ هذا ثم يردُّ على كلٍّ كما يردُّ شابٌ أو رجلُ كهلٌ مكتمل الشباب على أطفالٍ صغار ، وهذا كان من تقدير الله تعالى ، وبدأ الاعتزال يفقد تأثيره ، وسلطته ونفوذه ، والنفوذ شيء خطرٌ جداً ، إذا كان لفلسفةٍ نفوذ ، وكان لها إجلالٌ وأثرٌ في أعماق النفس؛ فهو خطرٌ على الدِّين السماويِّ المنزَّل من الله ، ويسير بالعقل الإسلاميِّ ، والفكر الإسلاميِّ إلى اتِّجاهٍ غير سليم ، إلى اتجاهٍ غير شرعيٍّ ، وغير نبويٍّ.

هذا كان من تقدير الله تعالى ، فقد فقد الاعتزال وجاهته ، وأنا تحريَّت هذه الكلمة بصفةٍ خاصَّةٍ . . . فقد الاعتزال وجاهته العقليَّة ، والوزن العقليَّ ، فإذا لم يكن فيه وزن عقليٌّ ، فما قيمته؟ كلُّ قيمته أنها عميقةٌ وأنَّها مؤسسةٌ على الدراسات ، وأنَّها تلائم العقل ، وترضي العقل ، وتُسلِّيه ، فإذا فقدت هذه الفلسفة هذه القيمة فقدت كلَّ شيء ، أصبحت مفلسةً ، لا قيمة لها ، ولا جاذبية فيها.

وكذلك شأن حجَّة الإسلام الإمام الغزاليّ في عصره ، والعلامة ابن الجوزي في عصره ، والإمام عبد القادر الجيلي (الكيلاني) في عصره ، وشيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية في عصره ، ومولانا جلال الدِّين الروميُّ

في عصره ، أما المجدِّدون للإسلام ، والدّاعون إلى الله والدين الصحيح ، والمقاومون للتحديات والأخطار على بقاء الإسلام في شبه القارة الهندية ، والمانعون من تحوُّلها إلى الوثنية البرهمية والحضارة الهندية الجاهلية ، والناشرون للكتاب والسنَّة ، والاشتغال بالحديث ، فيمكنكم أن تقرؤوا قصة كفاحهم وجهودهم ، وغَيْرتهم على الدين الأصيل المحفوظ ، ومدى نجاحهم في جهدهم وجهادهم في كتابنا: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الجزء الثالث ، والرابع ، والخامس.

فالقضية يا إخواني! هو ملء الفجوة الواقعة في الفكر الإسلاميِّ ، أو في المجتمع الإسلاميِّ ، ومواجهة التحدِّي ، فملء الثغرة ، وملء الفجوة ، ومواجهة الخطر الذي حدث ويحدث بالوجود الإسلامي ، أو بالشريعة الإسلامية واجبٌ ومحتَّمٌ.

وأقول لكم: القضية ليست قضية دعوةٍ جديدةٍ ، القضية: التركيزُ على جانبٍ خاصٍّ ، وقضية الضغط على جانب خاصٍّ ، والتضلُّع بمسؤوليةٍ خاصَّةٍ ، فليس هنالك تعارضٌ أبداً ، إنَّ الدعوة هي الدعوة الإسلامية ، الدعوة النَّبوية ، الدعوة إلى العقيدة الصحيحة ، المقبولة عند الله تعالى ، مهما تباعد الزَّمان ومهما تضخّمت المشاكل ومهما اتَّسع المجتمع ، ومهما تغيَّرت مطالب الزمان ، الدَّعوة هي الدَّعوة ، ولكنَّ الشيء الذي أريد أن ألفت إليه أنظاركم ، هو التركيز على جانبٍ خاصٍّ ، والضغط عليه ووهب الطاقات ، ووهب الإمكانيات ، ووهب القوة الإرادية التي يهبها الله كلَّ إنسانٍ لمواجهة هذا الخطر ، ولملء هذا الفراغ ، ولإزالة هذا التحدِّي.

فما هو الجانب المحدّد المعيَّن الرئيسيُّ في هذا الزمان؟ ما هو الواقع المحدَّد الآن في البلاد الإسلامية؟ هو موضوع حديثي اليوم.

إنها إعادة الثقة في نفوس الطبقة المثقفة بصلاحية الإسلام ، ليست بصلاحية الإسلام فقط ، بل بصلاحيته للقيادة وحل المشاكل ، ولصياغة المجتمع صياغةً سليمةً عصريَّةً ، جديدةً صحيحةً ، فالجانب الذي أريد أن

أركِّز عليه اهتمامكم الآن ، وأركِّز عليه طاقتكم ، وإمكانياتكم ، وذكاءكم ، ومجهودكم في بلادكم؛ إذا رجعتم بسلامة الله تعالى ، هو إعادة الثقة بصلاحية الإسلام في الطبقة المثقَّفة؛ لأنَّ هذه الطبقة المثقَّفة قد ضعفت الثقة بصلاحية الإسلام فيها ، أو فُقدت تماماً؛ لأن النظام الدَّعويَّ التربويَّ العصريَّ الغربيَّ هو نجح في ذلك نجاحاً ، تسعين في المئة تقريباً ، أو تسعاً وتسعين في المئة ، فإنَّ الطبقة المثقفة التي تخرَّجت من الكليات والجامعات ، أو رجعت من الغرب بعد الدراسة ، أو تخرَّجت من جامعاتها الكبيرة ، لا أقول: إنَّها ضعفت فيها الثقة ، بل هي فقدت ثقتها تماماً بصلاحية الإسلام ، فالآن القضية الرئيسية المركزية عندهم هي إزالة هذه الثقة عن نفوس الشعب ، والتحرُّر من ربقة الإسلام ومن قيوده الشرعية ، والخلقية ، والتشريعية ، والقانونية ، والمدنية.

هذه هي الحرب الحقيقية السافرة التي توجد الآن في البلاد الإسلامية ، ما هي الحرب؟ أقول لكم بكلِّ صراحةٍ ، وعلى بصيرة ، وعن تجربةٍ واختبار ، أنَّه لا حرب في بلدٍ إسلاميٍّ بين الإسلام والصهيونية ، لا حرب بين الإسلام والصليبية ، ولا حرب بين الإسلام والنفوذ الغربيِّ لا حرب بين الإسلام وفساد الأخلاق ، هي حربٌ واحدةٌ ، هي حربٌ بين الطبقة المثقفة الرئيسية التي تملك زمام الحكم وبين الزُّعماء ، وبين الجمهور والشعب لإزالة هذه الثِّقة بصلاحية الإسلام ، إنهم يقولون بلسان الحال: نعم ، الإسلام كان ديناً ، مثَّل دوراً ، دوراً محموداً جزاه الله خيراً ، جزى الله القائمين به ، إنَّ الإسلام هو ردّ على الوثنية السافرة ، وإنَّه أزال وأد البنات ، وإنه أعطى النساء بعض الحقوق ، وإنَّه أزال بعض المنكرات ، وبعض العيوب الخلقية ، وبعض الذمائم من المجتمع العربيِّ ، ولكنَّ خصوم الإسلام يقولون : قد مضى زمنه ، فقد وقف ، وتقدَّم الزمان ، إنما هي قضية القيادة ، وقضية الصياغة للحضارة والقانون ، وأن يتصرَّف ويتحكَّم في حياة الإنسان ، ويقول: هذا حرامٌ وهذا حلالٌ ، وهذا معروفٌ وهذا منكرٌ ، هذا دين وهذا لا دين ، ـ لا ـ هذا لا نسمح بذلك ، الإسلام قد قضى دوره ، الإسلام قد انتهى أجله ، إنه قام بدورٍ محمودٍ في التاريخ ،

إنه قام بعمليةٍ إصلاحيةٍ محدودةٍ في جزيرة العرب وخارج الجزيرة ، ولكن الآن في هذا العصر المتمدِّن الراقي الذي يطير الإنسان فيه في الهواء ، ويسير على الماء ، الذي وصل إلى القمر وركَّز الراية على القمر. إنَّ الإسلام لا يستطيع أن يسايره ، ويقوده ، ويحلَّ مشاكله.

فأنتم يا إخواني! أقول لكم الآن بصراحةٍ وبتركيزٍ ، أنتم أمام القضية الرئيسية الكبرى التي تواجهونها ، بل هي تُفرض عليكم فرضاً رضيتم أم لم ترضوا ، هي قصَّة صلاحية الإسلام للبقاء ، وصلاحيته للقيادة البشرية ، وصلاحيته للسَّيطرة على المجتمع ، هذه القضية ستواجهونها إذا رجعتم إلى بلادكم ، ولا بدَّ لمواجهة هذا التحدِّي ، وهذا الحظر ، لا بدَّ له من دراساتٍ عميقةٍ متنوِّعةٍ تدرسونها في تاريخ الحضارة الغربية ، والفلسفة الغربية ، أو تاريخ إيران وروما ، وماذا خسرت الإنسانية بها؟ وما هي رسالتها للإنسانية؟ وما هي عطاياها؟ فعليكم أن تطالعوا بعض الكتب التي قد عالجت هذا الموضوع ، وأقول لكم ومعذرةً إليكم من ضميري ونفسي : لابدَّ أن تطالعوا بعض الكتب التي وفق الله لتأليفها في هذه البيئة المحدودة الصغيرة هنا ، أنا أحمد الله تعالى بل هذا توفيق من الله تعالى فقط ، ولا يرجع الفضل إلى أحد أبداً ، ـ حاشا وكلا ـ ولكن «ندوة العلماء» أقول لكم بصفة خاصة ، إنما قامت لذلك.

وأنتهز هذه الفرصة للفت النظر إلى هذا ، إنَّ البلاد كانت غنية زاخرة بالمدارس العربية الدينية ، ما كان هنالك فراغٌ أبداً ، لا أسمِّي هذه المدارس احتراماً لها ، كانت البلاد زاخرةً بالمدارس العربية الدينية ، كانت البلاد زاخرةً بالمكتبات العظيمة الغنيَّة ، كانت البلاد زاخرةً بوجود العلماء ، وبوجود العلماء الكبار المدققين المتوسعين في الفقه ، وأصول الفقه ، وفي الحديث ، وفي التفسير ، وفي العلوم الدينية ، ولكن كان هنالك ثغرٌ ، ما هو هذا الثغر؟ هو كيف تخاطب المتخرِّج من الجامعة والكلِّية ، والمتعلِّم في بيئةٍ غربيَّةٍ ، بأيِّ لسانٍ تخاطبهم؟ وما هي الوسائل التي تستخدمها ، ما هو السلاح الذي يستطيع الداعية أن يقاوم أو يحارب به ، ويدافع عن دينه ، وعن ضميره وعن شريعته؟ لذلك قامت ندوة العلماء وأنا أعتذر إذا

قلت: إنَّه كانت هنالك حاجة لظهورها مع وجود هذه المدارس والجامعات الكثيرة، التي كانت حظيت بتقدير من الجماهير المسلمة هنا، وإذا كانت لندوة العلماء قيمةٌ، فإنَّ هذه القيمة هي أن تنتج شباباً يستطيعون أن يستردُّوا القيادة الفكرية من الطبقة المثقفة الناشئة في الجامعات المدنية الغربية، أو في الكلِّيات المدنية الغربية الواقعة في البيئة الغربية، ورضعت بلبانها، ونشأت في أحضانها، تنتزع القيادة الفكرية من هؤلآء وتردُّها إلى الراسخين في العلم، المطمئنين، المقنعين، المنشرحة صدورهم، والواعية عقولهم لفهم الدين الإسلاميِّ، يؤمنون هؤلآء بأبديَّة الإسلام وبصلاحية الإسلام للبقاء في كلِّ عصرٍ ومصر، كقائدٍ موجِّهٍ، وداع، وبأنَّ الشريعة الإسلامية متكفلةٌ بالسعادات الدنيوية والأخروية صالحةٌ لكُلِّ زمانٍ ومكانٍ، وهي أفضل وأجدر بحلِّ المشكلات العائلية، والاجتماعية، والتشريعية من كلِّ قانونٍ وتشريعٍ إنسانيٍّ علمانيٍّ.

فأنتم يا إخواني! لابدَّ أن تستعدوا لهذه المعركة، هذه المعركة التي تنتظركم بصبرٍ نافد، لا أستطيع أن أقول إن آباءكم ينتظرون قدومكم بهذا الجزع، أو بهذه الرغبة، أم هذه المعركة تنتظركم؟ وأنا أميل إلى أنَّ هذه المعركة تنتظركم أكثر مما ينتظركم آباؤكم وإخوانكم الذين فارقوكم، والذين ودَّعوكم إلى هذه البلاد، وحرموا لقاءكم، والحديث معكم، والأكل معكم هذه المدَّة الطويلة، لا، هذه هي المعركة الحامية الحاسمة، هذه المعركة الإلحادية، هذه المعركة العلمانية، هذه المعركة المعادية للإسلام، والمعادية لكل الأديان، هذه المعركة تنتظركم.

فلا بدَّ أن تستعدُّوا لها قبل أن تبتلوا بها، وقبل أن تواجهوها وجهاً لوجه، والاستعداد يمكن هنا، فلا بدَّ أن تقرؤوا الكتب التي ألفت ومعذرتي إلى نفسي قبل معذرتي إلى غيري، لا بدَّ أن تقرؤوا كتاب: «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» وكتاب: «نحو التربية الإسلامية الحرَّة» وكتاب: «إلى الإسلام من جديد» ولا بدَّ أن تقرؤوا كتاب: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ومن غير مؤلفات علماء النَّدوة ـ بما أنا فيه ـ كتاب: «الإسلام على مفترق الطرق» و«الطريق إلى مكة» للأستاذ

محمد أسد المهتدي (ليوبولدويس سابقاً) وكتب الأستاذ سيِّد قطب رحمه الله، والأستاذ أبي الأعلى المودودي في نقد الحضارة الغربية، وبيان الحاجة إلى الإسلام، وقبل ذلك كتاب أستاذنا وأستاذ الجيل الإسلامي المعاصر العلامة السيد سليمان الندوي «الرسالة المحمَّدية» و«السيرة النبوية».

وكذلك تدرسون شعر إقبال، لا أقول أن تقرؤوا محاضراته، لأنِّي لا أوافق على بعض ما جاء في هذه المحاضرات مئةً في المئة في صراحة، وأشرت إلى ذلك في مقدمة «روائع إقبال» ولكن لا بدَّ أن تقرؤوا شعره، وأن تتذوَّقوه، وأقول لكم إنَّ هذا يثير فيكم الذكاء والتذوُّق، ويثير فيكم حماساً إسلاميَّاً قوياً، فتكونون بذلك على مستوىً رفيع وعلى صعيدٍ صاعدٍ عالٍ من الثِّقة بالإسلام ومن القدرة على إقناع المتعلمين الدارسين الجامعيين.

يا إخواني! ويا أبنائي!

إنَّ الزمان لا يتسامح، والأعداء لا يتسامحون أبداً، إنهم قد شمَّروا أذيالهم، وإنهم قد أعدُّوا نفوسهم، وهم واقفون بالمرصاد، يعدُّون الساعات عدّاً، بل يعدُّون الدقائق عدَّاً، لترجعوا إلى بلادكم، فيزاحموكم، أو يصارعوكم ويبدوا لشعبهم أنَّ هؤلآء رجال أمِّيُّون، إنَّهم أبناء جيل ماضٍ، وإنَّهم أبناء جيل القرن التاسع عشر المسيحيِّ، أو قبل هذا، فهم يغيرون عليكم عن طريق العلم، وعن طريق الدِّراسة والصحافة، والإذاعة، وعن طريق النَّدوات العلميَّة، والمحاضرات الجامعية، فعليكم أن تستعدُّوا لهذه المعركة هنا، المعركة الحامية الدامية، وهي معركة بين من يعتقد أنَّ الإسلام هو دينٌ خالدٌ، وهو دين البشرية إلى يوم القيامة، وأنَّه الدِّين الكامل لسعادة البشرية حياةً وموتاً، وخلقياً، واجتماعياً، وتشريعياً، وعبادةً، وحكماً، وسيادةً، ومن يعتقد ويؤمن ويعلن بأعلى صوته: أنَّ الإسلام قد مضى زمنه، وأنَّه لا محلَّ له الآن في هذا العصر الراقي، في هذا المجتمع المتعقِّد المواجه لمشكلات تحدث كلَّ يوم ـ ولا بدَّ أن تستعدُّوا هنا، وأنتم متفاوتون في الفرصة، بعضكم لهم فرصةٌ قليلةٌ، وبعضكم لهم فرصةٌ واسعةٌ، فعلى كلٍّ يجب عليكم أن

تستعدوا للعودة إلى بلادكم قبل الخوض في هذه المعركة ، فلا تعودوا إلى بلادكم إلا وأنتم تتسلَّحون بالسِّلاح الإيمانيِّ العلميِّ العقليِّ العصريِّ ، بسلاحٍ أقوى ، لم يخلق أقوى منه ، ولا يمكن أن يخلق أقوى منه ، ولا بدَّ من السلاح مهما كان الإنسان قوياً وغنياً ، لا بدَّ من أن يتسلّح بسلاح العلم لمواجهة الجيل المثقَّف.

ولا بدَّ أن تحاربوا مركَّب النقص في هذه الطبقة المثقَّفة الثقافة الحديثة المصابة بمركب النَّقص فيما يتَّصل بالإسلام ، وبالشريعة الإسلاميَّة.

هم مبتلون بمركب النَّقص في كل ما يسمعونه عن الإسلام ، أو يقرؤونه عن الإسلام ، ويقولون هذه قصَّة الزمن الماضي ، هذه حكاية للزمن الماضي ، لا قيمة له في هذا العصر ، وهم عازمون على الإبادة المعنوية العقائدية للجمهور عن طريق التعليم ، والتأليف ، والصُّحف ، والمجلات ، والإذاعة ، والنَّدوات.

هذا هو الواقع الذي ينتظركم يا إخواني!

وأسأل الله تعالى أن يوفِّقكم للقيام بهذا الواجب ، وللوفاء بحقِّ الإسلام ، وللوفاء بحقِّ العبودية ، وللوفاء بحقِّ الضمير السليم المسلم ، وللوفاء بالنِّسبة إلى الإسلام ، وإنَّ الله تعالى قد أنعم عليكم بنعمة الإسلام ، فلا بدَّ أن تقدِّروا هذه النِّعمة ، وأن تكافحوا كلَّ ما يهاجم ، وكلَّ ما يعارض ، وكل ما يتحدَّى الإسلام بكلِّ قوَّةٍ ، وبكلِّ وضوحٍ ، وبكلِّ ذكاءٍ ، وبكلِّ استعدادٍ ، وبكلِّ تسلُّحٍ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

١١/ محرم الحرام ١٤١٣هـ.

* * *

إبـراهيـم عـلـيـه الـسـلام وبيـت الله الـحـرام

هذا الحديث ألقاه العلامة النَّدويُّ بناءً على طلبٍ من القسم العربي للإذاعة الهندية منذ عقود من السنين ، وهذا هديَّةٌ عظيمة لحجاج بيت الله الحرام .

أيها المستمعون الكرام!

حديثنا اليوم حديث عن عصرٍ قد مضى عليه بضعةُ آلافٍ من السنين، عصرٍ عريقٍ في القدم، ولكن لم يُخلِّف عصرٌ من العصور الماضية من الآثار الباقية الخالدة على وجه البسيطة، وفي أعماق النفوس، وأغوار القلوب، وجذور العقيدة، وصفحات الحضارة مثل ما خلَّف هذا العصر، إنَّه عصرٌ كثرت فيه الدول والحكومات، وازدهرت فيه المدنيات والحضارات، وقامت فيه القصور الشامخة، والأبنية الباذخة، فلكلِّ أمَّةٍ دولةٌ، ولكلِّ دولةٍ عاصمةٌ، ولكلِّ ملكٍ «بلاطٌ» ولكل أميرٍ قصرٌ، ولكل إلهٍ وإلهةٍ معبدُ، ولكلِّ كوكبٍ «هيكلٌ» عصرٍ قد قامت فيه دولةُ الآلهة والكواكب، ونفقت فيه سوق الكهانة والسِّدانة، ولكنَّه عصرٌ قد تجرد عن شيءٍ واحدٍ، تجرد عن رجلٍ مؤمنٍ شجاعٍ يقول بملء فيه، وبأعلى صوته، «ألا لله الدين الخالص» وتجرَّد عن مركزٍ روحيٍّ لا يعبد فيه إلا الله، ولا يدعى منه إلا إلى الله، مركزٍ يجتمع حوله المؤمنون الموحِّدون في أنحاء العالم، وتتفجر منه عين الإيمان والتوحيد، فيفيض في سهول الأرض، وحزونها، وفي أغوارها وأنجادها.

لقد وجد هذا الرجل المفقود في شخص إبراهيم ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢١] رجلٌ أكرمه الله برسالته، واصطفاه بخلَّته ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] ثم أمره أن يبني له بيتاً يظلُّ مركزاً روحياً للإيمان والتوحيد، وعبادة الله وحده، والدَّعوة إلى الله، ومثابةً للناس وأمناً.

ولكن أين يقوم هذا البيت؟ إنَّ الحواضر والعواصم التي تزدهر فيها المدنية، ويكثر فيها الخصب، وتنفق فيها التجارات، ويجذب إليها جمال الطبيعة، وزينة الصناعة كثيرةٌ، ولكن اقتضت حكمة الله أن يقوم هذا البيت

في واد غير ذي زرع ، لا طبيعة فيه ، ولا صناعة ، فلا يشدُّ الرحالَ إليه إلا المؤمنون الموحِّدون ، ولا يقصده من أنحاء العالم إلا المخلصون المتجرِّدون ، ووقعت الخيرة على مكة التي لا ماء فيها ، ولا كلأ ، ولا زرع فيها ، ولا ضرع ، وادٍ ضيِّقٍ بين جبالٍ سود جرداء ، لا طبيعة تغري ، ولا صناعة تستهوي ، ولا تجارة تشوق ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج : ٢٦].

لقد أتمَّ إبراهيم عمله في صدقٍ ، وإخلاصٍ ، وحماسةٍ ، وإيمانٍ ، وشاركه في ذلك ولده المؤمن المخلص نبيُّ الله إسماعيل بن إبراهيم ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

لقد قام هذا البيت كما أراد الله واجتمع حوله كلُّ ما يزهد الناس في السكنى حوله وقصده من أنحاء بعيدةٍ ، ومن أقاصي البلدان ، فلا تجارة ، ولا صناعة ، ولا عذوبة ماء ، ولا رقَّة هواء ، ولا حسن مظهر ، ولا جمال منظر ، ولكن الله قد قضى أن يكون هذا البيت هو البيت الوحيد الذي يبقى على طول الزَّمان ، ويقصد على بعد المكان ، لا يضارعه في ذلك قصرٌ ملكيٌّ ، ولا معبدٌ دينيٌّ ، يسعى إليه الناس بشقِّ الأنفس ، وعلى الأقدام والأرؤس ، وتأتيه الوفود كلَّ عامٍ من أقصى المعمورة ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج : ٢٧ ـ ٢٩].

لقد أصبح هذا البيت الكريم شعاراً لله تعالى وحرمةً من حرماته ، ورمزاً للتوحيد والعبادة ، فمن عظمه فقد عظم حرمات الله ، ومن أهانه فقد أهان شعائر الله ، وإنَّ أعظم رسالةٍ بهذا البيت هي رسالة التوحيد الذي قام على أساسه ، فليحافظ على ذلك وليتفهمه كلُّ من قصده ، وطاف حوله ،

ونسك ، وذبح ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحجّ ٣٠ ـ ٣٢].

لقد أحب الله النسك وإراقة الدماء في الذبح في هذه الأيام لأنَّه عبادةٌ وشعارٌ من شعائر التوحيد ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الحج : ٣٦]. ولكنه يقرر أنَّ روح هذا النسك والذبائح والأضاحي هو إرادة وجه الله وامتثال أمره وتوحيده ، ليست هذه الدماء المهراقة ، واللحوم المبضعة ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الحج : ٣٧].

* * *

فهرس الآيات الكريمة

(٤) سورة النساء

(٥) سورة المائدة

(٦) سورة الأنعام

(٧) سورة الأعراف

(٨) سورة الأنفال

(١٦) سورة النحل

(١٧) سورة الإسراء

(١٨) سورة الكهف

(١٩) سورة مريم

(٢٣) سورة المؤمنون

(٢٤) سورة النور

(٢٥) سورة الفرقان

(٢٦) سورة الشعراء

(٢٧) سورة النمل

(٢٨) سورة القصص

(٢٩) سورة العنكبوت

(٣٠) سورة الروم

(٤١) سورة فصلت

(٤٢) سورة الشورى

(٤٣) سورة الزخرف

(٤٧) سورة محمد

(٤٨) سورة الفتح

(٤٩) سورة الحجرات

(٥٣) سورة النجم

(٥٧) سورة الحديد

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

- ي -

فهرس الأعلام

فهرس الأشعار

فهرس الموضوعات

من تُراث العلاَّمة النَّدوي

جمع وإعداد : سيد عبد الماجد الغوري

سلسلة رائعة من مجموعات محاضرات ومقالات العلاَّمة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي في موضوعات مختلفة ، صدر منها :

١ ـ دراسات في إعجاز القرآن .

٢ ـ مقالات حول السيرة النبوية .

٣ ـ محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة (٣ أجزاء) .

٤ ـ مقالات إسلامية في الفكر والدعوة (٣ أجزاء) .

٥ ـ مقالات وبحوث حول التعليم والتربية الإسلامية .

٦ ـ مقالات حول أعلام المسلمين ومشاهيرهم .

٧ ـ أبحاث حول الاستشراق والمستشرقين .

دار ابن كثير

دمشق ـ بيروت

محاضرات إسلامية

في الفكر والدعوة

لسماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

جمعها وحققها وعلق عليها

سيد عبد الماجد الغوري

الجزء الثاني

دار ابن كثير

دمشق . بيروت

محاضرات إسلامية

في الفكر والدّعوة

لِسَماحة العَلّامة الشّيخ أبي الحسن علي الحسني النّدوي

(٢)

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار ابن كثير
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص . ب : ٣١١ - ٣ - هاتف: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠ - فاكس: ٢٢٤٣٥٠٢

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
ص.ب: ٦٣١٨ / ١١٣ - تلفاكس ٠١٨١٧٨٥٧ - ٠٣٢٠٤٤٥٩

محاضرات إسلامية

في الفكر والدعوة

لسماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

جمعها وحققها وعلق عليها

السيد عبد الماجد الغوري

الجزء الثاني

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى ممثّلي البلاد الإسلامية

أعدَّ العلامة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي هذه المحاضرة للمؤتمر الثقافي الآسيوي الذي عقد في دهلي في أبريل ١٩٤٧م ، واشترك فيه ممثلو : مصر ، ولبنان ، وأفغانستان ، وإيران ، وتركيا ، وأندونسيا من الأقطار الإسلامية ، وألقاها في مناسباتٍ أخرى أيضاً .

عرجت على المؤتمر الثقافي العام ، الذي قد اشترك فيه ممثلو البلاد ، وبعثات الأمم ، ووفود النوادي ، فرأيت معرضاً للجنسيات ، والوطنيات ، والحضارات ، ورأيتكم أيها السادة المسلمون شامةً بين الناس ، لا لأنكم تمتازون عن زملائكم في الشارة واللباس ، بل لأنكم تمثلون تلك الأمة العظيمة التي كانت ولا تزال شامةً بينَ الأمم .

كان العالم قبل ثلاثة عشر قرناً سائراً سيره الطبيعي ، لا ينكر من أمره شيء ، فكانت القرى والمدن عامرةً بالسكان ، وكانت العواصم الكبرى زاخرة العمران ، شامخة البنيان ، وكانت الحرف البشرية ووجوه المعاش في ازدهار وانتشار . كانت الزراعة ، وكانت التجارة ، وكانت الصناعة ، فبينما كانت سكَّة الفرح في شغلٍ ونشاطٍ كانت القوافل التجارية غاديةً رائحةً بين الشرق والغرب ، وكانت الأسواق مشحونةً بالمتاجر والبضائع ، وكان الصنَّاعون مكبِّين على أعمالهم ، وكانت الحكومات ، والإمارات ، والدول غنيةً بأموالها ، ورجالها ، لكلِّ وظيفةٍ رجلٌ كفؤ ، بل رجالٌ أكفاء ، وكان على وجه الأرض كلُّ نوعٍ من البشر ، وكلُّ لونٍ من الحياة ، وكل مظهر من مظاهر المدنية ، لا يرى في الحياة الإنسانية المادية عوزٌ ، أو فراغ ، ولم تكن في المدينة وظيفة شاغرة يترشح لها مترشحٌ جديد ، وكانت كأس الحياة مترعةً ، لا تطلب المزيد .

في هذه الحال ظهرت أمَّةٌ في جزيرة العرب ووجد نوعٌ جديدٌ من البشر ، وكأني بالأمم المعاصرة وهي تتساءل : أيُّ داع إلى ظهور أمَّةٍ جديدةٍ والأمم على وجه الأرض كثيرةٌ منتشرة ، وما شغل هذه الأمة الحديثة ؟ وما مهمتها في العالم؟

وكأنِّي بها تقول : إذا كانت هذه الأمة إنَّما بعثت للزراعة وعمارة الأرض؛ فقد كان في فلاحي الطائف ، وأكاري مدينة يثرب ، وزرَّاع وادي الفرات والنيل ، وربوع الكنج وجمنا ، غِنى عن أمةٍ زراعيةٍ جديدة ، فقد

أصبحت أراضي هؤلاء الفلاحين وبلادهم جنةً تدرُّ لبناً وعسلاً ، وإذا كان المسلمون إنما بعثوا ليشتغلوا بالزراعة فقط ، فلماذا لم يبعثوا في العراق ، وفي مصر والهند ، وهي بلادٌ مخصبةٌ زراعيةٌ؟ ولماذا كان مبعثهم في وادٍ غير ذي زرع؟

وإذا كانت هذه الأمة إنَّما بعثت للتجارة ، فقد كان في يهود يثرب ، وفي أنباط الشام ، وفي أقباط مصر ، وتجار السند كفايةً ، فقد أحكموا فنَّ التجارة ، وانتشروا في العالم ، وإذا كانوا قد بعثوا ليشتغلوا بالتجارة حقّاً ، فلماذا لم يبعثوا على طريق القوافل التجارية ، وبقربٍ من أسواق التجارة الكبرى.

وإذا كانت هذه الأمة إنَّما بعثت للصناعة وأعمال اليد ، فقد كان في قيون البلاد المتمدنة ، وأصحاب الصنائع والحرف ـ وإنهم لكثير ـ غنىً وكفاية!

وإذا كانت هذه الأمة إنَّما بعثت لتنضمَّ إلى الحكومات الرومية والإيرانية ، وتشغل أفرادها وظائف هذه الحكومات ومناصبها ، فقد كان في أهل الشام وفارس غنىً وكفايةً في الإدارة ، وإنهم يزاحمون الأجانب بالمناكب ، ويدفعونهم بالرَّاح.

وإذا كانت هذه الأمة بعثت لعيشٍ هنيءٍ ، ومطعمٍ شهيٍّ ، ومشربٍ مريءٍ ، وملبسٍ وضيءٍ ، ومسكن بهيٍّ ، لا لشيءٍ آخر ، وإنما مناها وهمُّها أن تلقى لبوساً ومطعماً ، لم تكن بدعاً من الأمم ، وكانت منافسةً لنا في ميدان الحياة ، فحقَّ لنا أن نقاتلها ، ونذودها عن مناهلنا ، وقد ضاقت بنا ، فكيف تسع أمةً جديدة؟

وإذا كانت هذه الأمة إنما تحاول ملكاً ، أو تريد أن تؤسس دولةً ، فيجب أن تصرِّح بذلك ، وتتَّخذ له طريق الملوك والفاتحين ، ولا تتظاهر بالدين.

وإنَّ الطريق إلى كلِّ ذلك ـ من زراعةٍ ، وتجارةٍ ، وصناعةٍ ، ووظيفةٍ ، وحياة بذخٍ وترفٍ ، وملكٍ وشرفٍ ـ غير الطريق التي سلكتها هذه الأمة الجديدة ، فقد سفَّهت أحلامنا ، وعابت آلهتنا ، ونعت على عقائدنا ،

وأخلاقنا ، وأعمالنا ، ودعت إلى دينٍ جديدٍ ، وسارت في سبيل ذلك في شوكٍ وقتاد ، وجاهدت في غير جهاد.

لقد كان الطريق إلى الرفاهية ، أو الحكومة مسلوكةً معبَّدةً ، قد سلكتها الأمم من قبل ، ومشى عليها الملوك وأصحاب الطموح في عصرهم ، فمن حال بينها وبين هذه الطريق؟ وما الذي عدل بها عن جادة الحياة ، وهي معلومةٌ واضحة؟!

هذا ما أظنه تناجى به ضمير الإنسان العاقل في فجر الإسلام ، ولا ألومه ولا أستغرب هذا السؤال ، فإنَّ هذا السؤال طبعي ، ينبغي أن يهجس في قلب الإنسان ، وينطق به اللسان ، عند كلِّ ناشئة ، فلماذا لا ينشأ هذا السؤال عند ظهور أمَّةٍ بأسرها؟

ما هو الجواب؟ إذا كان الجواب في الإثبات ، وإذا كان مبعث هذه الأمة في الحقيقة بشيءٍ مما ذكرناه ، ولم تكن لهذه الأمة مهمةٌ جديدةٌ في العالم ، ورسالةٌ خاصَّةٌ إلى الأمم ، كانت هذه الأمة حقّاً من فضول الأمم ، ومن المتطفلين على مائدة العالم.

ولكن الله لم يبعثها لهذا ، أو لذاك ، والأمَّة والأشخاص لا يبعثون لشيءٍ من هذا، وإنما هي من طبائع البشر، لا تحتاج إلى نبوَّة نبيٍّ ، ولا بعثة أمَّة ، وجهادٍ طويلٍ ، وزلزالٍ عالميٍّ لم يسبق في التاريخ ، زلزالٌ في المعتقد والأخلاق ، والميول ، والنزعات ، وفي نظام الفكر ومنهاج الحياة.

لقد كان مبعثها لغرضٍ سامٍ جداً ، لمهمةٍ غريبةٍ طال عهد الإنسانية بها ، وتشاغلت أمم الأنبياء عنها حتى نسيتها ، وذلك ما خاطب به الله سبحانه وتعالى هذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فنبه على أن هذه الأمة ليست نبتةً نبتت في الأرض كأشجارٍ بريَّةٍ ، أو حشائش شيطانيةٍ ، بل هي أمة أخرجت ، ولأمر ما أخرجت! وأنها لم تظهر لمصلحتها فحسب كسائر الأمم ، بل إنها أخرجت للناس ، وذلك ما تمتاز به الأمَّة في التاريخ ، فما من أمَّة إلا وهي وليد أغراضها ، ورهين بطنها وشهواتها ، تعيش لأجلها ،

وتموت في سبيلها. أما الأمة الإسلامية فهي أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله ، وتجاهد في سبيل الله.

ظهرت نواة هذه الأمة في مكَّة ـ قلب جزيرة العرب ـ فقام العقلاء من قريش ـ وهم الآخذون بزمام الحياة في البلاد ـ ونثروا كنانة فكرهم ، وقاسوا الناشئة الجديدة بمقاييسهم التي عرفوها ، وألفوها ، ووزنوها في ميزان الإنسانية الذي طالما وزنوا فيه أصحاب الطموح ، فوجدوهم خفاف الوزن ، طائشي الكفَّة ، وذهبوا إلى إمام الدعوة الإسلامية ، وأول المسلمين في العالم ـ ﷺ ـ فقال قائلهم:

«إنَّك قد أتيت قومك بأمرٍ عظيمٍ ، فرَّقت به جماعتهم ، وسفَّهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلَّك تقبل منها بعضها».

فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع».

قال: «يا بن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً ؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنَّما تريد شرفاً ، سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت إنما تريد ملكاً ملَّكناك علينا»(١).

سمع رسول الله ﷺ كلَّ ذلك في هدوءٍ وتأنٍّ ، ثم رفضه في غير شكٍّ وتأخير ، ولم يكن هذا العرض من قريش على شخص الرسول ﷺ فحسب ، بل كان على هذه الأمة التي يمثلها ، ويقودها. ولم يكن رفض رسول الله ﷺ لما عرضت قريش ، رفضاً عن نفسه الكريمة فقط ، بل كان رفضاً عن أمته إلى آخر الأبد.

اقتنعت قريش بهذه المحاورة ، ويئست من مساومة هذه الأمة ، ولم تعد تعرض على رسول الله ﷺ مباشرةً وعلى هذه الأمة بواسطة ما عرضته من قبل ، وقطعت منها أملها.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير.

وكان بعد ذلك صراعٌ مستمرٌ ، ونزاعٌ طويلٌ ، ولم يكن نزاعاً في أغراض المادة وشهوات البطن ، والاستئثار بموارد الرزق ، والتغلب على الأسواق ، بل كان نزاعاً بين الإسلام والجاهلية بمعنى الكلمتين ، نزعاً بين حياة العبودية والانقياد لله تعالى ورسوله ، وبين الحياة الحرة المطلقة التي لا تعرف قيداً ، أو لا تخشى معاداً ولا حساباً .

وكان من نتيجة ذلك معركة بدرٍ الحاسمة ، وقد قاد النبيُّ ﷺ إلى ساحة القتال جيشاً لا يزيد عدد المقاتلين فيه على ثلاثمئةٍ وثلاثة عشر رجلاً ، والجيش المنافس فيه ألف محارب ، وكان النبيُّ ﷺ يعلم يقيناً أن لو وكل المسلمون إلى أنفسهم وقوتهم المادية ، فالنتيجة معلومةٌ واضحةٌ ، نتيجة كلِّ قليل ضعيف أمام قويٍّ كثير العدد .

فزع الرسول إلى الله تعالى في إنابة نبيٍّ ، وإلحاح عبدٍ ، ودعاء مضطرٍ ، وشفع لهذه العصابة في كلماتٍ صريحةٍ ، واضحةٍ ، نيرةٍ ، خالدة ، هي خير تعريف لهذه الأمة ، وبيان لمهمتها وغرضها الذي خلقت له .

لم يقل رسول الله ﷺ : لو هلكت هذه العصابة ، وكانت فريسةً للعدو ؛ أقفرت المدينة ، وأوحشت أسواقها ، وكسدت التجارة ، وبطلت الزراعة ، أو تعطَّل شغلٌ من أشغال الحياة ، أو وقفت إدارة الحكومات . لم يقل رسول الله ﷺ شيئاً من ذلك ، لأنَّ شيئاً منها لم يتوقف على المسلمين ، ولم يقم بهم ، بل كان قبل وجود المسلمين ولا يزال في غنىً عنهم ، ولكن الرسول ﷺ ذكر شيئاً بعث المسلمون لأجله ، وقام بالمسلمين وحدهم ، فقال : «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تُعبد» .

أجاب الله دعاء الرسول ﷺ ، وقضى بانتصار المسلمين على عدوِّهم ، وبقائهم ، فكأنما كان بقاء المسلمين مشروطاً بقيام حياة العبودية بهم ، وقيامهم بها ، فلو انقطعت الصلة بينهم وبين العبادة ورواجها وازدهارها في العالم ؛ انقطعت الصلة بينهم وبين الحياة ، ولم يبق على الله لهم حقٌّ وذمَّةٌ ، وأصبحوا كسائر الأمم خاضعين لنواميس الحياة ، وسنن الكون ، بل كانوا أشدَّ جريمةً ، وأقلَّ قيمةً من الأمم الأخرى ؛ إذ لم يشترط لبقائها

وحياتها مثل ما اشترط لهم ، وكان كما أخبر الله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴾ [الفرقان : ٧٧] .

وقد حافظ المسلمون على هذا الشرط ، وبرُّوا بهذا العهد ، وتذكَّروا أنَّهم إنما نُصروا على عدوهم ـ وقد كان يأتي عليهم ويستأصلهم في ساحة بدر ـ وتركوا على ظهر الأرض ؛ لأن عبادة الله منوطةٌ بهم على أرض الله .

بهذه الرسالة انبثُّوا في العالم ، وحملوها إلى الملوك ، والسوقة ، والأمم ، وفي سبيل ذلك هاجروا ، وجاهدوا ، ولأجل ذلك حاربوا ، وعاهدوا ، ولم يزالوا يعتقدون أنهم مبعوثون من الله إلى الأمم ، وحاملو راية الإسلام في العالم .

أرسل سعد قبل القادسية ربعي بن عامر إلى رستم ـ قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ـ فدخل عليه وقد زيفوا مجلسه بالنمارق المذهبة ، والزرابيِّ ، وأظهروا اليواقيت واللآلىء الثمينة ، والزينة العظيمة ، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سريرٍ من ذهب ، ودخل ربعي بثيابٍ صفيقةٍ ، وسيفٍ وترسٍ ، وفرسٍ قصيرةٍ ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه ، وبيضته على رأسه ، فقالوا له :

«ضع سلاحك» فقال : «إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني ، فإن تركتموني هكذا ، وإلا رجعت» ، فقال رستم : «ائذنوا له» فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق ، فخرَّق عامتها ، فقالوا له : «ما جاء بكم؟» فقال : «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبداً ، حتى نفضي إلى موعود الله» قالوا : «وما موعد الله»؟ قال : «الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقي»[١] .

---

(١) البداية والنهاية ، لابن كثير .

أباح الله للمسلمين الطيبات ، وفسح لهم في طرق الكسب ، ووجوه المعاش ، ولم يضيّق عليهم في ذلك ، فقال : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

وقال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

ولكن الله لم يبعثهم لذلك أمّةً ، ولم يرضه لهم غايةً ومهمّةً ، بل خلقهم للسعي للآخرة ، وخلق أسبابها الحياة لهم ، «إن الدنيا خلقت لكم ، وإنكم خلقتم للآخرة» وجعل الحياة وأسبابها خاضعةً لمهمتهم التي بعثوا لأجلها ، فإذا زاحمتهم في سبيل مهمتهم ، أو غلبتهم عليها ، رفضوها ، وإذا تلكأ المسلمون في ذلك عاتبهم الله عتاباً شديداً ، وقال :

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٣] .

أراد الأنصار رضي الله عنهم أن يتفرغوا لإصلاح أموالهم لأيام اكتفاءً بأنصار الإسلام ، فعاتبهم الله على ذلك وأنزل : ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِۛ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

قال سيدنا أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه : «إنما نزلت فينا معشر الأنصار ، إنا لما أعزَّ الله دينه ، وكثر ناصروه ؛ قلنا فيما بيننا : لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها ، فأنزل هذه الآية»(١) .

ولكن مع الأسف الشديد ، قد تشاغل المسلمون اليوم بالدنيا كالأمم الجاهلية ، وسعوا وراءها ، وعقدوا حياتهم بها ، فإذا أشرفتم على مدنهم وبلادهم من مرقبٍ عالٍ لم تميزوا بينهم وبين أفراد أمةٍ جاهلية ، سعيٌ وراء

(١) رواه أبو داود في سننه .

المادة في غير اقتصادٍ ، واكتسابٌ من غير احتسابٍ ، سهرٌ في غير طاعةٍ ، وعملٌ في غير نيةٍ ، وتجارةٌ في لهوٍ عن ذكر الله ، وحرفةٌ في جهلٍ عن دين الله ، ووظيفةٌ في الإخلاص لغير الله ، وحكومةٌ في مشاقة الله ، شغلٌ في ضلالةٍ وقعودٌ في بطالةٍ ، وحياةٌ في غفلةٍ وجهالةٍ.

هل إذا اطلعتم ـ يا سادتي ـ على بلادٍ إسلاميةٍ ، ورأيتم هذه الأمة في غدواتها وروحاتها إلى الأسواق والإدارات ، ومصالح الحكومة ، عرفتم أنها أمة خُلقت لشيءٍ آخر ، وبُعثت لغرضٍ آخر أسمى من هذه الأغراض التي يسعى لها الكافر والمؤمن.

إنَّ هذا الأسلوب من الحياة لحجةٌ ظاهرةٌ لأهل الجاهلية على المسلمين ، فلو نطقوا لقالوا: «ما ذنبنا ، أيها المسلمون! إذ عرضنا على نبيكم المال ، والسيادة ، والملك ، فأبى ورفض كلَّ ذلك؟! ألا نراكم تسعون اليوم وراء الذي رفضه نبيكم بالأمس ، كأنما خلقتم لأجله؟ فأي الفريقين أشدُّ ذنباً ، أمن عرض على محمد ﷺ المال والسيادة والملك ، تفادياً من الخلاف والنزاع ، فأبى ورفض ، أو من تهافت على ما رفضه سيده تهافت الظمآن على الماء ، والفراش على النور؟

وإذا كنتم اليوم لا يهمُّكم إلا المال ، أو الحياة ، أو الشرف ، أو حكمٌ على قطعةٍ أرض ، فلماذا تظاهرتم بالأمس بالدين ، وأقمتم الدنيا ، وأقعدتموها لأجله ، وكدَّرتم علينا صفو العيش ، لقد كنتم وكنا في غنىً عن هذه الحروب الطاحنة التي أيتمت البنين ، وأيئمت النساء ، وأجلت الناس عن الأوطان!.

أعيدوا إلينا إذاً الدماء التي أريقت في ساحة بدر ، وأُحد ، وخيبر ، وحنين ، واليرموك ، والقادسية ، وأعيدوا إلينا تلك النفوس التي قتلت باسم الدين ، وأعيدوا إلينا تلك الأيام التي كنا نعيش فيها في وئام وهدوء ، لا نعرف فيها إلا الأكل ، والشرب ، وقضاء مآرب النفس!

وماذا يكون جوابنا لو تعرَّض أحدٌ من أخلافهم الأحياء وقال: «ما غَناؤكم أيها المسلمون؟! لقد ساهمتمونا في أسباب الحياة ، وخلقتم لنا

فوق ذلك مشكلات كثيرة في الحياة السياسية والاجتماعية ، ولا نراكم تسدُّون عوزاً ، أو تصلحون خللاً ، وتلمون شعثاً ، أو تقيمون زيفاً في الحياة» .

عفواً أيها القراء ، وسماحاً أيها الكرام ، فقد طال العتاب ، وقديماً قال الشاعر العربي :

وفي العتاب حياةٌ بين أقوام

من المعلوم أنَّ حياة الأمم بالرسالة والدعوة ، وأن الأمَّة التي لا تحمل رسالةً ، ولا تستصحب دعوةً حياتها مصطنعةٌ غير طبعية ، وأنَّها كورقةٍ انفصلت من شجرتها ، فلا يمكن أن تحيا بسقي أو ريٍّ : ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد : ١٧] .

إننا ـ أيها القراء ـ أمَّة الحاضر ، وأمَّة المستقبل ، قد كتب لنا الخلود والنصر ، لأننا أصحاب دعوةٍ ورسالةٍ نبوية ، وهي الرسالة الأبدية التي قضى الله بخلودها وظهورها . فلسنا تحت سيطرة المادة وحكم الزمان ، بشرط أن نقوم بدعوتنا ، ولنستقل برسالتنا ، ونعود أمة دعوةٍ نبويَّةٍ كما بدأنا ، دعوة فيما بيننا معشر المسلمين ، ودعوة في غيرنا من الأجانب في الدين .

لقد تخلفنا عن الأمم المعاصرة في العلوم الطبيعية ، والأسباب الحربية ، وفي الأخذ بأسباب الرقيِّ الماديِّ بعدة قرون ، وقد كانت المسابقة بيننا وبينهم كمسابقة الأرنب والسلحفاة ، إلا أن الأرنب كان ساهراً مع خفته وسرعته ، والسلحفاة نائمةٌ رغم بطئها وثقلها ، فلو حاربنا هذه الأمم اليوم لاستغرق ذلك قروناً ، ثم كانت المقارنة بحسابٍ دقيق فإذا أفاق العدو وسبقنا بشعرةٍ في القوة المادية والعدد الحربية رجحت كفته؛ لأنَّ المادَّة عمياء ، وهي من القساوة والحياد التام بمكان لا تفرق فيه بين المحقِّ ، والمبطل ، والشريف ، والوضيع .

ولكنَّ الدعوة والرسالة ـ وهي الروح التي تقهر المادة وتسخِّر الأسباب ، وتستنزل النصر ـ تأتي بخوارق ومعجزات ، وطالما قهرت القاهر ، وفتحت

الغالب ، وطالما خضعت الحكومات القاهرة ، ودانت الملوك الجبابرة بقوة الدَّعوة والرسالة للمماليك والصعاليك ، وقد جربت ذلك هذه الأمة مرتين بوضوحٍ في التاريخ:

مرةً: لما خرج العرب من جزيرتهم إلى البلاد الرومية والفارسية في ثيابٍ صفيقةٍ مرقعةٍ ، وفي نعالٍ وضيعةٍ مخصوفةٍ ، يحملون سيوفاً بالية الأجفان ، رثة المحامل ، على خيلٍ قصيرةٍ ، متقطعة الغرز ، وسرعان ما قهرت دعوتهم ورسالتهم وحياتهم الأمم الرومية والفارسية ، التي كانت كدمى كسيت حللاً فاخرة ، وأعواداً أسندت إلى الجدار ، لحرمانها من رسالةٍ ، وقعودها عن دعوة ، وكان الانتصار في الأخير للرسالة على النظام ، وللروح على المادة ، وللمعنى على الظاهر.

ومرةً ثانية: لما قهر التتر ـ ذلك الجراد المنتشر ـ العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وخضدوا شوكة المسلمين ، فلم تقم لهم قائمة ، ولم يقف في وجههم واقف ، وكاد المسلمون يصبحون أثراً بعد عين ، واستولى اليأس على قلوبهم حتى كان من الأمثال السائرة: «إذا قيل لك إن التتر انهزموا ، فلا تصدق» هنالك فعلت الدعوة الإسلامية فعلها ، ونفذت فيهم. فإذا القاهر يصبح مقهوراً ، وإذا الفاتح مفتوحٌ لدين المفتوحين ، وإذا التتر يتلفظون بكلمة الإسلام ، ويدينون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ويصبحون أمَّةً إسلامية.

وإنَّ الرسالة الإسلامية لتأتي بالمعجزات اليوم ، وتقهر الأمم طوعاً ـ لا كرهاً ـ بسلطانها الروحي ، ونفوذها العجيب.

إنَّ آباءكم ـ أيها السادة المسلمون ـ قد انتشروا في عواصم الجاهلية الأولى ، ومراكزها الكبرى ، يقولون: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» وخلَّصوا الأمة الرومية من عبادة المسيح ، والصليب ، والأحبار ، والرهبان ، والملوك ، وخلَّصوا الأمة الفارسية من عبادة النار وعبودية البيت الكياني ، والأمة الطورانية من عبادة الذئب الأبيض ، والأمة

الهندية من عبادة البقر ، وأخرجوها إلى عبادة الله وحده ، وأخرجوها فعلاً من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، والعالم ينتظر منذ زمان رسل المسلمين ينتشرون في عواصم الجاهلية الثانية ، يهتفون: «الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة المادة والبطن ، إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق عالم التنافس والأثرة ، والجشع المادي إلى سعة عالم القناعة ، والإيثار ، والزهد ، ونعيم الروح ، وطمأنينة القلب ، ومن جور النظم السياسية والاجتماعية ، إلى عدل الإسلام».

هذه هي الدعوة التي تهيب بكم يا رجال العالم الإسلامي! وهذه الإنسانية البائسة تستصرخكم ، وتستغيثكم على أعدائها. وليس العالم اليوم بأقلَّ ظمأ ، وأقلَّ فاقةً إلى الدعوة الإسلامية الصحيحة منه بالأمس ، وإنَّه لا يختلف عمّا كان عليه في القرن السادس المسيحي ، فهو غنيٌّ اليوم في كلِّ ناحيةٍ من نواحي الحياة ، وفي جميع الحرف والصناعات ، وقد ضاق بالأمم والحكومات ، وطفح بالأعلام والرايات ، وفاض بالحركات والدعوات ، وضجر بطغيان الأهواء والنزعات ، وثورة الأغراض والشهوات. فهو في ذلك لا يقبل علاوةً ، ولا يسمح بزيادةٍ ، فإذا لم يكن المسلمون إلا أمة من الأمم ليست لهم دعوةٌ إلى الله ، ولا رسالةٌ للإنسانية المحتضرة ، ولم يكن لهم همٌّ إلا أنفسهم ، وبطونهم؛ لم يكن هنالك ما يبرر وجودهم في هذا العصر ، فإنما نُصِروا واستبقوا بشريطة القيام بالعبادة والدعوة إليها.

والدعوة إلى الله هي الناحية الوحيدة التي لا تزال فارغةً في خارطة العالم ، لا تشغلها أمةٌ ، ولا دعوةٌ ، فإذا عمرها المسلمون؛ أحسنوا إلى الإنسانية وإلى أنفسهم ، وأمسكوا هذا العالم المتمدِّن الذي قد كاد يهوي في الهاوية.

* * *

بين العالم وجزيرة العرب

خلال زيارة العلامة الندوي للسعودية عام ١٩٥١م طلبت منه الحكومة السعودية أن يبدأ سلسلة من الأحاديث في إذاعتها.

فألقى الأحاديث بعد رؤيةٍ وتفكيرٍ بعنوان «بين العالم وجزيرة العرب» الّذي كان يتوقّع أنه سوف يُبدي فيه آراءه وانطباعاته بأسلوبٍ مناسب، ويعبِّر عن قلبه وضميره على لسان العالم، ثم يرد عليه بلسان جزيرة العرب، فكان عنوان حديثه الأول «من العالم إلى جزيرة العرب» الّذي يفتح فيه العالم الإنساني - بعد أداء حقوق الشكر والتقدير على تلك المنن والهدايا الكريمة الّتي قدمتها إليه جزيرة العرب عن طريق سيّدنا محمد ﷺ، والّتي أعادت الحياة من جديد - صفحات الشكوى ويعرض جروح قلبه وفزع نفسه على أنه لماذا تخلت الجزيرة العربية - التي كانت قد طلعت من أفقها الوضاء شمس الإسلام الساطعة - عن قيادته وإمامته؟ وخاطبها في صراحةٍ ووضاحة: إننا لسنا في حاجة إلى زيتك الّذي تسير به العجلات، والماكينات، إننا في حاجة إلى ذلك الإيمان وتلك الحرارة والنُّور الَّذي اختصّك الله به، وتستضيء به العقول والقلوب، ثم ردَّ على العالم من جزيرة العرب، ردّاً فيه اعتراف بالقصور واعتذارٌ ومواعيد.

قوبلت هذه الأحاديث بالاستحسان والقبول، واستُمع إليها في رغبةٍ وشوق، وشاع ذكرها بين الشباب والأدباء في ميادينهم وساحاتهم وذهابهم ورواحهم، وزادت شهرته بعد إلقاء هذه الأحاديث في الأوساط العلمية والأدبية في الحجاز، وقامت بينه وبين الأدباء وأهل القلم من الشباب روابط وصلات دينية، وأدبية.

فرصةٌ سعيدةٌ يا جزيرة العرب! لي معك اليوم حديثٌ خطيرٌ قد خبأته لك من زمان ، وصرفتني عنه خطوبٌ ونوائب شغلت خاطري؛ إلا أن هذا الحديث قد ملك اليوم قلبي ، وثقل على نفسي ، فلم أر اليوم بداً من أن أفضي به إليك؛ وأتنفس مما أجده من الضيق والألم.

زهَّدني في هذا الحديث ما كنت أراه من انسحابك من الحياة ، وتنزلك عن القيادة التي تبوأتها زمناً غير يسير ، وما كنت أراه من رغبتك في العزلة عن العالم ، وما يقع فيه من حوادث ، وما يتجدَّد فيه من شؤون ، وكرهت أن أزعجك ، وأقلق بالك ، وقلت: لقد رقدت الجزيرة بعد سهرٍ طويلٍ سهرته في مصلحتي ، واستراحت بعد عناءٍ كبير تحملته في سبيلي ، فلا ينبغي لي أن أوقظها ، وأقضَّ مضجعها ، ولكن الخطب كان أجلَّ من ذلك ، وأعظم ، ولم أر مفزعاً بعد الله إلا إليك ، وقلت: لقد وجدت في هذه الجزيرة غوثاً ونجدةً قبل ثلاثة عشر قرناً ، وقد أحيط بي يومئذٍ ، فعسى أن أجد فيها فرجاً وروحاً مرةً ثانيةً.

أراكِ أيتها الجزيرة العزيزة! تنظرين إلى نفسي نظرة الحياء ، وتلقين على نفسك نظرة الازدراء ، تنظرين إلى تقدمي في الصناعة والاختراع ، وإلى تسخير الإنسان للبخار والكهرباء ، وتسخير الطاقة الذرية في الزمن الأخير ، وتقولين في شيءٍ من الخجل والاعتراف ، وفي شيءٍ من الجراءة والشجاعة: لقد تقدَّم العالم بعدما خرج من حضانتي تقدماً مطرداً ، وقطع أشواطاً بعيدةً في العلم والمدنية ، وهوِّني عليك أيتها الجزيرة! فإنَّ هذا الإنسان الطائر في الهواء ، العابث بأمواج الأثير لا يزال طفلاً صغيراً في أخلاقه وفي شعوره الاجتماعي ، وفي عناده ، وقصور نظره ، وأثرته ، وإيثاره الصور والأشكال على الحقائق والمعاني ، وافتتانه بالمهازل والملاهي ، فلو علمت أيتها الجزيرة ما وراء الأكمة لهان عليك الخطب! وعلمت أنَّ الإنسانية لا تزال حيث خلفتها ، وأن الإنسان وإن أصبح يطير في

الهواء كالطير ، ويسبح في البحار كالسَّمك ، فإنَّه لا يحسن أن يمشي على الأرض كإنسان.

أراكِ أيتها الجزيرة! تنظرين بدهشة واستغراب إلى معاهدي العامرة وإلى مكتباتي الزاخرة ، ومطابعي المتدفقة ، وحركة التأليف والنشر القوية ، وإلى هذا الأدب الخصيب الذي يطبع كل يوم بشيءٍ جديدٍ ، ولكن لا تعجلي ، إنَّ روح هذه الحركة التجارةُ والاستغلال ، وإنَّ كثيراً من حملة الأقلام يتاجرون بأخلاق الناس وضمائرهم ، ويحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع وتروَّج بضاعة الخلاعة والاستهتار ، ولا تستغربي إذا حدثتك أنَّ كبار المثقفين والأدباء عندي لا يفضَّلون في الأخلاق والصبر على مكاره الحياة والعزوف عن الشهوات وإنكار الذات على الأعراب الذين يضرب بهم المثل في الجفاء ، والجهل والأمية.

أراكِ أيتها الجزيرة! تصغين إلى الكلمات الرنَّانة التي تلوكها ألسنة السياسيين ، وتردُّدها أقلام الصحفيين ، كالعدالة الاجتماعية ، والمساواة ، والحرية ، والجمهورية ، كأنَّك تسمعين كلماتٍ لها معنىً وتطبيقٌ في الحياة كما حدَّثتِ العالم من قبل بكلمات صادقةٍ يوم كان اللفظ دليلاً على معنى ، ويوم كان الإنسان يرى نفسه مأخوذاً بقوله... هيهات! لقد تقدَّم الزمان وأصبح كثيرٌ من الكلمات لا يقصد بها معنىً ، ولا تراد بها حقيقةٌ ، فرحم الله من اعتمد على الكلمات! ورحم الله من صدق أهلها فيما يقولون!

أراكِ أيتها الجزيرة! تنظرين إليَّ فتغبطينني على ما تعتقدين عندي من صفاءٍ ، وسرورٍ ، وراحةٍ ، ونعيمٍ ، وهدوءٍ ، وسلامٍ. لقد استسمنت يا هذه ذا ورم ، أنا جسم قد علتني أورامٌ غير طبيعية ، فظنَّني الجاهل صحيحاً سليماً مع أنِّي مريضٌ دنفٌ ، أشكو في كلِّ عضو من أعضائي أوجاعاً وأوصاباً ، أشكو في قلبي وجعاً ، وفي رأسي صداعاً ، وفي عيني رمداً ، وفي دمي نزفاً ، وفي نفسي اختلالاً ، تارةً أصاب بطوىً وجوع تكاد تزهق له نفسي ، وأخرى ببطنةٍ وتخمةٍ تكاد تقضي عليَّ ، وتقتلني ، وقد اجتمع

حولي متطببون ومشعوذون يعالجونني بالأمراض ، ويداوون الدَّاء بالدَّاء ، وبعملياتٍ جراحيةٍ خرقاء ، لقد قتلوني قتلهم الله! عالجوا مشاكل الاقتصاد بحركة منع الولادة ، وسوء التصرف في المال بتحريم الملك الشخصي ، واستبداد الأشخاص باستبداد الأحزاب ، واحتكار الأفراد باحتكار الشركات والرأسمالية الجائرة بالاشتراكية المرهقة ، والاشتراكية العمياء بالجمهورية العوراء ، لقد داووا جوراً بجورٍ ، وظلماً بظلمٍ ، وإسرافاً بإسرافٍ ، وجهلاً بجهلٍ ، وعلَّةً بعلَّةٍ ، فزادوني مرضاً على مرضٍ وضعفاً على ضعفٍ .

إليك جئت أيتها الجزيرة العربية بما معي من أدواء وأوجاع! وقد فضحت أمامك نفسي ، وكشفت سرِّي ، فهل تغيثينني ، وتسعفينني ، كما أغثتني بالأمس ، وأنقذتني من الموت الأحمر؟ فلست اليوم بأقلَّ حاجةً إلى إسعافك ، وإنجادك من يوم بعث رسولك وأشرق عليَّ نورك!!

لا تغرّنَّكِ أيتها الجزيرة مني مظاهر المدنية الجوفاء! وهذه الطائرات المحلقة في الهواء ، وهذه الناطحات للسَّماء ، وهذه الآلات التي ملأ صوتها الفضاء ، فيسهل عليَّ أن أتخلى عن كلِّ هذا ، وعن كلِّ كنوزي ، وأتنازل عن كلِّ ما تنظرين إليه نظر الغبطة والطمع ، وأستبدل بها ما قد فقدته من الإيمان الذي جاءت به الأنبياء والرسل ، والذي فقدت معه قوتي ، وحرارتي ، وشخصيتي ، وروحي ، وأصبحت جسداً ميتاً ، قد يطفو على الماء ، وقد يحمله الهواء .

نفسي فداؤك يا جزيرة العرب! خذي مني ما شئت من سيارات ، وقطر ، وطائرات ، وماكينات ، وآلات ، وزخارف ، وأدوات ، وتصدَّقي عليَّ بهذا الإيمان الذي لا أجده في أسواقي ، ولا تنتجه مصانعي على كثرة ما تنتج ، وعلى غرابة ما يخرج منها ، ولم أكتسبه من مكتبتي الواسعة ، ولا يفيدني إيَّاه فلاسفتي ، ومفكريَّ ، وكتَّابي ، وزعمائي ، إنما أفاد العالم «أميٌّ» لا يزال في أحضانك ، فعاش هذا العالم بعدما كان ميتاً ، وأبصر بعدما كان أعمى ، تماسك بعدما كان متزعزعاً ، ولم يصب أحداً شيء من هذا الإيمان إلا عن طريق هذا النبي الأميِّ ، ولن يصيب أحداً إلى آخر الأبد

إلا عن طريقه ، لذلك جئتك سائلاً فلا تنهريني! ولا تردِّيني خائباً! .

أنا أيتها الجزيرة! حائرٌ تائهٌ قد تكدست عندي آلاتٌ ، وأدواتٌ ، ووسائل ما عرفت كيف أصنع بها ، وكيف أستعملها ، فإني إلى الآن لم أعرف ما غاية هذه الحياة؟ وما نهايتها؟ ومن خالق هذا الكون؟ ولأيِّ شيءٍ خلقه؟ وما مركز هذا العالم؟وما روح هذه الحياة؟! وما هذه الآلات والمصنوعات؟ بل ما هذه القوى المودعة في هذا الكون ، وهذه الخيرات المنبثة على الأرض إلا كسراً من كسور هذا العالم الكبير ، فمن كان حائراً تائهاً في هذا المجموع الكبير كان خليقاً بأن يكون حائراً تائهاً في كسوره خابطاً في استعمالها ، قد يستعملها في خيرٍ ، وقد يستعملها في شرٍّ ، وطالما يستعملها بلا غاية ، والغايات لا طريق إلى معرفتها إلا الأنبياء والمرسلون ، أما المكتشفون والصنَّاع؛ فإنما موضوعهم الآلات ، والصناعات ، ولما تفرَّدتِ بالوحي؛ تفرَّدتِ بالغايات ، ولما عنيتُ بالصناعة والاكتشاف؛ تفرّدتُ بالآلات والمصنوعات وبانفصالنا شقيت الإنسانية ، فهلمي يا مهد الإيمان! ويا مهبط الوحي! نتعاون على سعادة الإنسانية وصالحها ، فأنجدي العلم والصناعة بالغايات ، والروح ، والإيمان ، وانجدي الدِّين بالآلات والوسائل ، حتى تسير الإنسانية رشيدةَ الغاية سديدةَ الخطى على جناح السرعة والقوة ، فبكِ نستفيد صلاح الغاية وصحتها ، وبي نستفيد سرعة الوصول إلى هذه الغاية الرشيدة .

جودي عليَّ أيتها الجزيرة بنفحة من نفحات محمد ﷺ أحلُّ بها مشاكل حياتي ، وألغاز مجتمعي ، وأحيي بها موات قلبي ، وأطفىء بها جحيم المادة التي أحاطت نيرانها بهذه المدنية وبكل فضيلة إنسانية ، وقد هبَّت نفحةٌ منكِ في القرن الإسلامي الأول فحوَّلتِ هذا العالم الفسيح من جحيمٍ إلى نعيمٍ ، وقد استدار الزمان كهيئته يوم بعث الله نبيه ، فعودي على هذا العصر بنفحةٍ جديدةٍ تنفح فيه روحاً جديدةً ، وتبعث هذا العالم بعثاً جديداً! .

إنَّك تجودين عليَّ أيتها الجزيرة العربية بمقدارٍ عظيمٍ من البترول أدر به

ماكيناتي ، وأسيِّر به عجلاتي ، فأنا أدين لك بالفضل وأشكر صنيعك ، ولكني كنت أنتظر منكِ ـ أيتها الجزيرة السعيدة! يا مولد نبي الرحمة! ـ شيئاً أعز وأثمن من الذهب الأسود ، كنت أنتظر منكِ أن تخرجي لي عجلة الحياة التي غاصت في الوحل ، وأن توجهيها التوجيه الصحيح ، وأن تخلصي ركابها من هذا المأزق ، فقد عجزت حكمة الحكماء ، وصناعة الصناع من إخراجها ، فأخرجيها بما معك من حكمة النبوة وبقية قوة الرسالة والإيمان ، واليقين. وسيِّريها بنور الشريعة الإلهية والهداية الإسلامية!

وفي الأخير أقول: إنك يا جزيرة العرب! قطعةٌ مني يصيبك خيري وشرِّي ، ويصيبك لفحي ، ونفحي ، ما يمكنكِ أن تعيشي منعزلةً عنِّي ، فإن أدركتني ، وأصلحت شؤوني؛ فإلى نفسكِ أحسنتِ ، أولا؛ فعليكِ وعلى أهلكِ جنيتِ!.

* * *

من الجزيـرة العربيـة إلـى العـالـم

مساء الخير أيها العالم! لقد سمعت كلمتك الرقيقة التي تنمُّ عن إخلاص ، وصدقٍ ، وحبٍّ ، وقد خاطبت يوم خاطبتني جزءاً منك ، وعضواً حيّاً من أعضائك ، يشعر بشعورك ، ويتألم بألمك ، ويشاركك في السَّرَّاء والضرَّاء ، وفي الشِّدَّة والرَّخاء .

لقد ذكرتني بذكرك القيادة العالمية عهداً كلما تذكرته تحركت أحزاني ، وهاجت شجوني ، لقد كنت كما تعرف جزيرةً منعزلةً عن العالم ، لا أسترعي نظراً ، ولا أشغل بالاً ، ولا ترفع برجالي رأساً ، ولا تعيرهم شيئاً من العناية ، يقول رجالك المتمدنون إذا سئلوا عنهم: أعرابٌ من جزيرة العرب ، ورعاة إبل ، وسكان وبرٍ ، وأصحاب فصاحة ، لا يعرفون الحضارة والمدنية والعلوم ، بينما بلغت المدنية أوجها في بلادك الرومية والفارسية ، وبينما كنت تزخر بالبضائع ، والأبنية الشامخة ، والعلوم ، والحرف .

ولكن ـ من غير مؤاخذة ـ لقد انطفأت شعلة الحياة في جسمك ، وفقدت حرارتك الغريزية ، وقد ضاعت رسالة الأنبياء في ترف الأغنياء ، وبؤس الفقراء ، وجور الأمراء ، ومطالب الحياة وتكاليفها التي لم تترك فراغاً في القلب ، وسعةً في الوقت ، حتى أصبحت لا يوجد في إقليمٍ واسعٍ منك من يفكِّر في الآخرة ، ويهتمُّ بدينه وغاية حياته ، وقلَّما يوجد في قطرٍ من يعبد ربه .

وقد كنتُ في غير تواضعٍ مصاباً بأدواء خلقية ، واجتماعية ، ودينية ، وبما تزري بأدوائك وعيوبك الاجتماعية ، ولكن كنتُ لا تزال في جمرةٍ من الحياة ، وصبرٍ على المكاره ، وثباتٍ على المبدأ ، واستماتةٍ في سبيل العقيدة ، واستهانةٍ بالحياة والمادة ، وبساطةٍ المعيشة إلى غير ذلك مما يليق بأمة نيط بها جهادٌ طويلٌ عريضٌ.

نظر الله إليكَ وهو العليم الحليم الخبير ، فرأى كلَّ ما يرضي السَّيَّاحين ، ويسرُّ المتفرجين من زهوِّ المدنية ، ولايرضي الذي خلق العالم لغاية ، وخلق الخلق لعبادته ، ونظر إلى أمم الأرض ، فعمد إلى أحطِّها معيشةً ، وأخملها ذكراً ، وأقواها على حمل الأمانة ، فاختارها لرسالته ، وابتعثها إلى هذا العالم المنهار.

أرسل إليَّ رسولاً ولدته أمُّ القرى ، وعاش في أحضاني بين سمعي وبصري ، فإذا هو قرّة عين الإنسانية وجمال الدنيا ، وعلى جبلٍ من جبالي في يوم لم أعرف خطره ، أكرمه بالرسالة ، وبعثه إليَّ ليكون للعالمين نذيراً ، واختار له رجالاً أنجبتهم ولكن لم ألق لهم بالاً ، ولم أحسب لهم حساباً ، ولكنَّهم أثبتوا قيادتهم وكفاءتهم ، أبرُّ الناس قلوباً ، وأعمقهم علماً ، وأقلُّهم تكلفاً ، وأعلاهم همَّة ، وأثبتهم جناناً ، وأقواهم إيماناً ، يا لهم من عبّاد ليل ، وأحلاس خيل!

هنالك نهضتُ بروحٍ غير الروح ، وبقوَّةٍ غير القوى ، هي روح الرسالة ، وهي قوة الإيمان ، وفاجأتكَ بحماسةٍ وسرعةٍ لا عهد لكَ بها ، فإنه لا عهد لك من قديم الزمان بالإيمان بقوته فنظرت إليَّ شزراً ، وظننتني من الغزاة الطامعين والملوك الطامحين وظننت أني خرجت لمصلحتي ، ودافعي الجوع ، والفقر ، وقلّة الموارد ، فعرضت عليَّ ما يشبع جوعة الزاحفين ، ويرضي الملوك الطامعين ، بل الأمر بالضدِّ ، وليس الدافع إلا الشفقة عليكَ ، والحرص على إنقاذك من داهية الوثنية ، وشرور المدنية ، فوقفت في سبيلي من غير جدوى ، وقاومتني من غير نتيجة ، فلم تزل قوتك المادية تتحلل ، وتذوب أمام حرارة الإيمان ، وقوة الروح حتى وضعت

أوزارك ، واستسلمت للقضاء الواقع. ولما زالت عنك دهشة الفتح؛ أقبلت على رسالتي تدرسها ، وتتفهمها ، فإذا هي خير الدنيا والآخرة ، وإذا هي رسالة السلام والعلم والعقل وإذا هي أساس المدنية ، ومعراج الإنسانية ، فآمنت بها بلاد ، ودانت بها أمم ، فأحلَّت لها الطيبات ، وحرَّمت عليها الخبائث ووضعت عنها إصرها ، والأغلال التي كانت ، ومنحتها الإمامة في الدنيا والدين والسيادة في الحكم والسياسة.

وهنالك ـ لا أخفي عليك ـ وقعت كارثتي ، بل كارثة العالم ، فقد ألهتني هذه الفتوح الواسعة والغنائم الزاخرة والكنوز العظيمة والمدنية الباهرة ، التي لم يكن لي بها عهد ، فأطفأت شعلتي ، وأخمدت حماستي ، وبردت روحي ، وابتلعت إيماني ، ووقع لرجالي ما أخبر به نبيهم ﷺ: «ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا ، كما بسطت على من كان قبلكم ، فتهلككم ، كما أهلكتهم» فأصبح رجالي غير الرجال أجسامٌ كأجسامهم الأولى بل هي أروع ، وملابس كملابسهم السابقة بل هي أفخر ، ووجوه كوجوههم بل هي أشدُّ نضارةً وطراوةً ، ولكن أرواحٌ باردةٌ ، ونفوسٌ خامدةٌ ، وقلوبٌ خاوية: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤].

هنالك اعتراني كسلٌ ، وفتورٌ ، وإعياءٌ ، ورأيت الاعتزال عن معترك الحياة ، فإني لا أطيقه ، فرجعت أدراجي ، وانطويت على نفسي ، لقد كان اعتزالي عن الحياة رزيئةً إنسانيةً عامَّةً ، وكارثةً عالميةً عظمى ، فقد بقيت الأمم قطعاناً من الغنم لا راعي لها ، وبقيت القافلة وقد جدَّ بها السير ، وغاب عنها الخرِّيت.

هنالك خبطت الأمم في مدنيتها ، وعلومها ، وصنائعها ، وسياستها ، وهنا كانت مصيبتُكَ ، فقد اكتشف لك المكتشفون وعلماء الطبيعة القوى الهائلة ، والوسائل الجبارة ، وسخَّروا لك البخار ، والكهرباء ، والماء ، والهواء ، وكرَّسوا لك العلوم ، والحكم ، ولكن استخفوا بالروح وهزؤوا بالإيمان ، وأهملوا تربية الأخلاق ، فأصبح تقدُّمك معوجاً وجاءت نهضتك

الأخيرة نهضة هوجاء ، خرقاء ، وكنت كشجرة برِّيَّة تمتدُّ فروعها ، وتطول على غير نظام ، وعلى غير نسق ، فهذا ذاهب إلى اليمين ، وذاك إلى الشمال ، وهذا وجد متسعاً فطال ، وهذا تضايق فقصر ، أو كولدٍ ينشأ في مغارة دبٍّ ، أو جحر ذئب يجمع بين حدَّة الأظفار ، وقوة الساعد ، وشراسة الأخلاق ، وصغر العقل.

لأجل ذلك وقع ما تشكو منه من تضخم الآلات ، واضمحلال الغايات ، وسوء التصرف في القوة ، والخبط في العلم وفساد أخلاق المثقفين ، ونهامة الأدباء والمؤلفين ، وكذب الصحفيين ، وتزوير الزعماء والسياسيين ، وخرق الأطباء والمعالجين ، وما تشكو منه من علة الروح ، واضطراب للقلب ، وانزعاج النفس ، فإنَّ هذا كله ـ سامحني أيها العالم ـ من لوازم حضارتك ، وعقليتك التي خلعت ربقة الدِّين ، واستغنت عن هدي الأنبياء والمرسلين ، وأسست حياتها على القياس والتخمين ، وعبادة المادة والقوة والشهوات.

ولو رأى أحدٌ حضارتك في تكوينها لتنبأ بمثل هذه النتائج ، وأنذر منها ، كما يرى الإنسان بذرةً فيتنبأ بثمرتها ، لقد سرَّتني شجاعتك أيها العالم باعترافك بالإفلاس في الإيمان ، وأنَّ مصانعك لا تنتجه ، وأنه لا يوجد في أسواقك ولا عند علمائك ، وأنَّ مصدره هو الرسول الأعظم الذي يستنكف من اتباعه فلاسفتك ، وحكماؤك ، وأكثر منهم قادتك وزعماؤك ، فلا تستحي أيها العالم المتنوِّر ، واحرص على هذا الإيمان ، وكن جادّاً في طلبه مهما كلفك من التواضع والتعب ، فإنك بدونه جسدٌ بلا روح ، وبيت بلا نور.

لا تعرض عليَّ مصنوعاتك من سيارات ، وزخارف ، وأدوات فقد أخذت منها الكفاية ، وفوق الكفاية ، بل أريد أن أشكو إليك أنَّ سياراتك قطعت خيلي العتاق التي كان يضرب بها المثل في الخفة ، والأمانة ، والوفاء ، والغناء في الحرب ، وقد أغرقتني زخارفك ومصنوعاتك بالبذخ ، والتبذير ، والراحة ، والكسل ، والاتكال على الآلات ، فضعفت

الأجسام ، ووهنت القوى ، وتعطَّلت أيدٍ عاملةٌ ، وانصبَّت دماء أجسامنا في أجسام غيرنا ، فاستردَّ منِّي فضول مدنيتك لعلِّي أستعيد بعض قوتي ، ونشاطي ، وأخلاقي التي كنت فيها مضرب المثل.

لقد أعيتك أيها العالم معضلات مدنيتك ، وألغاز مجتمعك ، وإنَّها لتتحدّى تشريع المشرعين ، وجهود المصلحين ، فتعجزها ، فاطرح عنك أيها العالم الكبر ، والحياء ، وأقبل على هذا الكتاب الخالد الذي جاء به محمد ﷺ ، واستفته ، وارجع إليه فيما ينوبك من الحيرة والعجز ، وادرسه ككتابٍ لا عهد لك به من قبل ، وقد نزل اليوم ليرشدك ، ويأخذ بيدك ، وانظر كيف يحلُّ لك عقدة بعد عقدة ، ومعضلة بعد معضلة من حياة الفرد إلى حياة المجتمع ، وفي السياسة ، والاقتصاد ، وفي المدنية ، والأخلاق ، ويمنحك مبادىء ودعائم تؤسس عليها المدنية الصالحة ، وتجمع بها بين سعادة الدنيا والآخرة. إنَّ هذا الكتاب المعجز يخاطب اليوم فلاسفتك ، وزعماءك بما خاطب به رجال القرن السادس المسيحي: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

غلبتك المادة أيها العالم ، فجئتني لا ترغب إلا فيما أحتوي عليه من كنوز الثروة والقوة ، ولا يهمك إلا ما يجري في بطني من عيون البترول ، فأعطيتك سؤلك ، وأشبعت نهمتك ، وإنما يعطى السائل على قدر همَّته ، وقد جئتني اليوم تسأل أعزَّ ما عندي ، وأنفع للإنسانية. تسألني الإرشاد والتوجيه ، فأهلاً بك وسهلاً أيها الزائر الكريم! ودونك المنهل العذب الصافي من الدين السَّماوي ، ومن الوحي المحمديِّ؛ الذي احتفظت به طول هذه المدة فارتو منه ما شئت ، واستق منه الإيمان واليقين ، ومبادىء الحياة السعيدة ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح ، والخلق المستقيم ، والاتجاه الصحيح في كلِّ عملٍ وحركةٍ ، وفي كلِّ دقيقةٍ وجليلةٍ ، ذلك الاتجاه الذي لا يكون إلا بالإيمان بالله ، وبرسله ، واليوم الآخر ،

والحساب ، والعقاب ، تشرَّب هذه المبادىء من هذا المعين الصافي ، واستمدَّ منه الحياة ، والقوة ، والشباب ، والرسالة ، وأطلع عالماً فتياً مشرقاً ، يخلف العالم الشائب المظلم العليل؛ الذي قد فقد الروح ، والحياة ، والشباب ، وأصبح لا يحمل رسالة للإنسانية .

* * *

اسمعي يا مصر

خلال إقامة العلامة الندوي في مصر عام ١٩٥١م ، شعر بضرورة مخاطبة مصر خطاباً يذكرها برسالتها ، ودورها ومكانتها ، ويشعرها بأنّها تستطيع أن تقوم بالدور القياديِّ والتوجيهيِّ للعالم العربي ، بل للعالم الإسلامي كلّه ، فما تأخذ من الغرب وتعطيه يعد فحصاً واختباراً للعالم العربي ، وما الّذي عليها مقابل ذلك أن تعطيه للغرب حتى يجد الغرب طريقاً جديداً للحياة ، ويخرج من المستنقع الّذي لا يزال يتورط فيه.

على مصر أن تقضي في ذلك ، وتصدر حكماً فاصلاً ، وليس ذلك إلاّ لمصر وحدها التي تقع على نقطة الاتصال بين الشرق والغرب حيث تلتقي حضارتان وتجتمعان ، ثم إنَّ مصر في حاجةٍ إلى قناة معنويةٍ فكريةٍ تكون واسطة للتبادل الحرِّ بين الشرق والغرب على قدم المساواة والثقة بالنفس ، فينبغي أن تقدّم مصر أنفس أشيائها وأغلاها ـ وهي رسالة الإسلام ـ إلى الغرب ، وتأخذ من الغرب ما تفوّق فيه وسبق ، وهي التكنولوجيا الحديثة ، والعلوم ، والصناعات الجديدة.

فبدأ العلامة لأجل هذا الغرض يكتب مقالاً شعر فيه بورود المعاني وانثيالها مالم يشعر به إلاّ قليلاً ، أشار فيه أولاً ـ برحابة صدر وسخاء ـ بدور مصر الدينيّ والعلميّ والقياديّ الرائع ، ومآثرها العظيمة ومفاخرها الجليلة في النشر والتوزيع ، وفتوحاتها العلمية والأدبية ، وتاريخ الأزهر الزاهر ، ومآثره في خدمة العلم والدين.

ثمَّ أشار في المقال إلى مواطن الضعف الّتي كانت نتيجة عهود الحكومة الماضية والمجتمعات الفاسدة ، والصحافة الخليعة الماجنة ، ودعا مصر إلى

التحلّي بصفات الرجولة ، وتبنّي الأخلاق الإسلامية ، وتجنب تلك الأشياء الّتي أدت بالشعوب الماضية إلى الانقراض والاندثار ، ثم قال لها : إنَّ الله تعالى قد اختار لها قارَّةً عظيمةً واسعةً ، وإنَّ عليها أن تقوم بدورها القيادي والدعويِّ فيها ، حيث لا تزال تشاهد في أكثر أصقاعها وبقاعها الحياة الجاهلية وعقائدها ، وعبادتها للأصنام ، ولكن كثيراً من الشعوب فيها لا تزال على بساطتها وسذاجتها ، وإن قلوبها كلوحةٍ صافيةٍ يمكن أن تثبت عليها بدون جهدٍ ومشقة كبيرة حروف ونقوش جديدة .

نشر هذا المقال في مجلّة «الرسالة» للأستاذ أحمد حسن الزيات بعنوان «اسمعي يا مصر» تلقفها الناس وتلقوها بشوقٍ ورغبةٍ واستحسان ، وعَلَّقَ عليه الشهيد السيد قطب قائلاً :

«قرأت «اسمعي يا مصر» ويا ليت مصر قد سمعتْ!». والآن إلى القراء هذا المقال المستفيض والمفيد .

أحييكِ يا مصر بتحية الإسلام! وأحيي فيك الزعامة للعالم العربي ، الزعامة التي كانت عن جدارةٍ واستحقاقٍ ، لا عن احتقارٍ واغتصاب ، وإنك تحلين اليوم في العالم العربي محلَّ السمع والبصر ، ومحلَّ العقل والفكر ، رضي به الناس أم لم يرضوا ، ولكنَّ الواقع لا ينكر.

أحيي فيك يا مصر نَفاق سوق العلم! ورواج بضاعة الأدب ، وتقدير رجال العلم والفن ، فقد أنجبتهم ، واحتضنتهم ، ودافعت عنهم ، وحدبت عليهم ، فهم أبناؤك البررة ، وأنت الأم الحنون.

أحيي فيك الأزهر الشريف؛ الذي كان ولا يزال المنهل المورود في الدين ، والعلم للعالم الإسلامي ، والذي لا يضارعه ، ولا يزاحمه في تقدُّم السن ، وطول العمر ، وامتداد الظل وكثرة الانتاج معهدٌ ، أو جامعةٌ على وجه الأرض.

أحيي فيك المكتبة العربية التي فاضت ، وامتدَّت كالنيل ، وأصدرت كتباً ومطبوعاتٍ عربيةً لو وضع بعضها فوق بعض لكانت مثل الأهرام ، أو أرفع.

أحيي فيك غيرتك على اللغة العربية وجهادك في إحيائها ، ونشرها ، ورفع شأنها ، وتوسيعها ، حتى أصبحت بجهود أدبائك وكتابك ، وبفضل الصحافة المصرية والحياة السياسية ، وبفضل حركة التأليف والترجمة والنشر ، وبفضل المجمع اللغوي؛ لغةً راقيةً ، عصريةً ، علميةً ، سياسيةً ، فنيَّةً ، لا تقل في غزارة مادتها وقابليتها لتعلم العلوم العصرية والطبيعية والرياضية عن أية لغةٍ من لغات الغرب.

أحيي فيك عدداً مشرفاً من الأدباء والكتاب ، فيهم الكاتب المبدع ، والمترسل القدير ، والأديب الفنان ، والباحث الناقد ، والعالم الضليع ، والمؤرخ الأمين ، والفيلسوف الحكيم ، والمحدِّث اللبق ، والروائي المصوِّر ، والمتهكم اللاذع ، والمضحك المطرب ، والمصلح المنتقد ،

والشاعر المطبوع ، والسياسيِّ المناقش ، والصحافيُّ البارع ، إذا كتب أحدهم في موضوعٍ ردد العالم العربي صداه ، وافتخر المتأدبون بتقليد أسلوبه والنسج على منواله ، واحتجُّوا به كما يحتج بشعر القدماء .

أحيي فيك يا مصر! هذا وغير هذا ، ولكنْ لي معك اليوم شأنٌ آخر ، إن لي معك كلاماً أرجو أن تلقي إليه سمعك ويشهد به قلبك فأنا ضيف قد نزل بك ، ومن حسن الوفادة وتمام الضيافة الاستماع إلى كلام الضيف والإقبال عليه بالسمع والقلب .

إنَّ مسؤوليتك يا مصر! أوسع وأعظم من تأدية رسالة الأدب وخدمة لغة العرب ، وما تجودين على الأقطار العربية الشقيقة برشحات الثقافة الأوروبية وفتات المدنية الغربية ، إنك بين آسيا وأوروبا ، فأنت ملتقى الثقافتين ، ومجمع البحرين ، إنَّك وسطٌ بين مهد الإسلام ومشرق نوره؛ وبين مولد الحضارة الغربية ومبعث العلوم العصرية ، فعليك مسؤولية القارتين ، وعندك رسالة الثقافتين .

فأما مسؤولية آسيا والأقطار العربية فلا تخرجين منها يا مصر! حتى تكوني قنطرة تعبر عليها إلى البلاد العربية تجارب أوروبا ، وعلومها ، ونشاطها ، وكدحها في الحياة ، وجهادها للبقاء ، هنالك تقومين برسالتك ووظيفتك لهذه البلاد العزيزة ، التي ترتبطين بها برابطةٍ دينيةٍ ، وروحيةٍ ، وثقافيةٍ ، وسياسيةٍ .

وأما مسؤولية أوروبا فلا تخرجين منها حتى تبلغي رسالة الجزيرة العربية ـ وهي الإسلام الذي احتضنته من زمان ـ إلى أوروبا ، وحلِّ المشاكل التي أعيت كبار المفكرين ، وأتعبت عظماء المشرعين ، وبذلك تؤدين واجبك المقدس نحو هذه القارة الأوروبية التي استوردت منها شيئاً كثيراً من العلم والمصنوعات ، والمنتجات ، ونظَّمت عليها مدنيتك ، وحياتك تنظيماً جديداً ، وتحسنين إليها أكثر مما أحسنت إليك وتصدِّرين إليها أفضل مما صدَّرت إليك .

إنك يا مصر! قد بنيت القناطر الخيرية ، فانتظم الري ، وازدهرت

الزراعة ، وأخصبت البلاد؛ وأريد أن تبني قنطرةً خيرية أخرى هي أكبر القناطر في العالم وأنفعها ، تصل بين بحرين لم يزالا منفصلين ، وبين حضارتين لم تزالا متنافستين ، وبانفصالهما وتنافسهما شقي العصر الجديد ، فلو أنك وصلت بينهما ، وكنت قنطرةً تتبادل بها القارتان خيراتهما ، ومحاسنهما؛ وفرت على الإنسانية جهوداً وأوقاتاً كثيرةً ، وصنتها من الضياع ، كما أنَّ قناطرك الخيرية وفرت على مصر مياهاً كثيرةً ونظمت أمور الري .

لقد كان حفر قناة السويس أكبر حادث في التاريخ العصري ، غيَّر مجرى التاريخ ، وأحدث انقلاباً في السياسة ، والتجارة؛ ولكن من يستطيع أن ينكر أن شقاء الأمم الشرقية كان أعظم وأعظم من سعادتها ، وأنها لم تجن من قناة السويس إلا عبوديةً واستعماراً ، والعالم الآن في حاجة إلى قناة أخرى ، قناة التعارف الصحيح ، والتبادل المتوازن ، وإليك وحدك يا مصر! القيام بهذه المبرة العظيمة؛ لمكانك الجغرافي ، وأهميتك السياسية وثروتك الثقافية ، ومركزك الروحي ، تعلمين أن دولة لا تتزن ميزانيتها ، ولا تتحسن أحوالها الاقتصادية ، إلا إذا وجد توازن بين حركة التصدير والتوريد ، وكان تصديرها أكثر من توريدها ، ولكننا في الشرق نورِّد أكثر مما نصدِّر ، وكانت قناة السويس أكبر مطية من مطايا هذا التوريد ، فلا نريد قنطرة أو قناة تكون معبرة البضائع الأجنبية من أفكار ، وآراء ، وفلسفات ، وأخلاق إلى أعماق الشرق وأحشائه ، بل نريد قناة تساوي بين التوريد والتصدير ، وتصدِّر أفضل ما عند الشرق الإسلامي من رسالةٍ وعقيدةٍ ، وخلقٍ ، وعلمٍ ، وتورِّد أحسن ما عند الغرب من منتجاتٍ ، ومصنوعاتٍ ، وتجارب ، واكتشافاتٍ ، ومرافق الحياة ، فكوني يا مصر! تلك القناة الأمينة العادلة؛ التي لا تسمح بالمرور إلا للصالح الفاضل .

إنَّ لك يا مصر يدَين ، فخذي من الغرب ما فاق فيه من علمٍ وتجربة ، فالحكمة ضالة المؤمن ، ومدِّي إليه يداً أخرى ، يد المساعدة والكرم ، وجودي عليه بما أنعم الله عليك من نعمة الإيمان وشرف الإسلام ، فذلك الذي لا يملكه الغرب ، ولا يستغني فيه عنك ، وقد انتهى به إفلاسه فيه إلى

ما ترين من فوضى وانحلال ، فتصدقي عليه بهذا الإيمان ورسالة الروح ، ولا تنسي أبداً أنَّ اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى .

كوني يا مصر رسول الإسلام إلى الغرب! واحملي إليه رسالة محمد ﷺ ، تلك الرسالة التي حملها العرب إلى الأمة الرومية ، والأمة الفارسية فأنقذتهما من مخالب الموت وأفاضت عليهما ثوباً قشيباً من الحياة ، ولوناً جديداً من النشاط ، وليس الغرب أقلَّ حاجةً إلى هذه الرسالة ، وهو في دور التفكك وتنازع الموت والحياة من الأمة الرومية والفارسية إليها ، وقديماً اختار الملوك وأصحاب الرسالة السماوية رسلاً من عشيرتهم والأقربين إليهم ، ولك من إبراهيم وإسماعيل ومحمد ﷺ رحم ماسة ، وقرابة خاصة ليست لقطرٍ من الأقطار الإسلامية بعد الجزيرة العربية .

إن أوروبا قد شاخت ، ونضجت كالفاكهة التي أدركت ، وضعف الغصن عن حملها ، فاستعدِّي يا مصر الإسلامية لتحلي محلها في الزعامة العالمية وقيادة الأمم ، وما ذلك بعزيز ولا بمستحيل ، إذا تم استعدادك الروحي والخلقي والمادي ، وإذا كانت أوروبا قد احتفظت بالقيادة العالمية هذه المدة الطويلة وليست عندها رسالة عامة للإنسانية ، ولا دعوة مخلصة لأمم العالم ، وعندها كلُّ ما يضعف ثقة العالم بها من وطنية ، وعنصرية ، وتقديس للنسل الآري ، وإدلالٍ باللون الأبيض ، ونزعة تجاريةٍ ، واستعمار ، فكيف لا يرضى العالم بقيادتك وعندك الرسالة التي تضمن سعادة العالم كله ، ودين لا يفرق بين الأوطان ، والعناصر ، والألوان؟ .

احرصي يا مصر على رجولة أبنائك وأخلاقهم! وصوني شبابهم ، وشرفهم ، ودينهم ، وصحتهم من أن يعبث بها العابثون ، أو يتجر بها المتجرون ممن يعيشون على أثمان الأعراض والأخلاق ويحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لتروج بضاعتهم وتزدهر تجارتهم ، أولئك هم أصحاب الروايات الخليعة ، والصور العارية ، والأدب المكشوف ، فإنَّك يا مصر في محل الزعامة والقيادة للشرق الأوسط ، وفي طريقك إلى الزعامة والقيادة للعالم الإسلامي ، ولا تأتي الزعامة والسيادة إلا بعد الاستقامة

والثبات في مزالق الإنسان ، والنجاح البارز في امتحان العفة ، وطهارة الأخلاق ، واذكري قصة يوسف التي مرت على أرضك ، ووقعت بين سمعك وبصرك كيف ثبت في الامتحان ، وكيف حافظ على دينه وعفته ، فكانت نتيجة ذلك الثقة ، والاعتماد ، والسيادة ، والملك ، واقرئي إن شئت : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف : ٥٦] .

بل ولا حياة ولا شرف إلا بالرجولة والأخلاق ، فكيف وأنت في ميدان القتال وساحة الجهاد ، فلا بدَّ أن تحفظي وصية قائدك الكبير سيدنا عمرو بن العاص ، وتذكري ما قال لخلفائه في أرضك : «واعلموا أنكم في رباطٍ إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوُّف قلوبهم إليكم وإلى داركم» .

فكافحي يا مصر الوباء الخلقي الذي يقضي على حيوية الأمة أشدَّ مما تكافحين وباء الكوليرا الذي يقضي على حياة بعض الأفراد ، وطاردي كل من يحاول أن يزعزع العقيدة في شعبك ، ويزلزل الإيمان ، ويفسد الخلق ، أشدَّ مما تطاردين من ينشر الوباء ، أو يسبب الأمراض ، أو ينقل إلى أرضك المكروب ، فلم نسمع أن الأمة العظيمة ماتت وبادت بسبب وباء أو مرض ، وأنَّ اليونان اجتاحهم مرضٌ من الأمراض ، ولكنا قرأنا في التاريخ ، وشهدت أنت أنَّ هذه الأمم كانت كلها فريسة التفسخ الخلقي ، والأمراض الاجتماعية ، فاحذري يا مصر ـ صانك الله وحرسك ـ هذا المصير المؤلم .

إنَّ العالم العربي قد أحلَّك يا مصر من نفسه محلاًّ رفيعاً! ووضع ثقته فيك ، وفتح لك أذنيه ، وعينيه ، فاتقي الله يا مصر فيمن ائتمنك ووثق بك في نفسه وعقله! ولا تصدِّري إليه من أدبك ومطبوعاتك ما يرزؤه في إيمانه وأخلاقه وقوته المعنوية وروحه ، كما لا ترضين ولا ترضى كرامتك ومروءتك أن تصدِّري إلى زبائنك من الدول والبلاد الحبوب المسمومة والفواكه الموبوءة ، ولا تقبلين أن يصدِّرها إليك أحد ، وصدقيني يا مصر العزيزة! أنَّ هذه الروايات الخليعة ، والأدب الماجن أفسد وأضرُّ للأمة والحياة من الحبوب المسمومة والفواكه الموبوءة ، إنَّك زعيمةٌ للعالم

العربي ، فلا تغلبنك النزعة التجارية ، ولا تغرنك المنافع المؤقتة ، فلا يكون زعيماً ، ولا يكون عظيماً من يؤثر العاجل على الآجل ، والمنفعة الفردية على المنفعة الاجتماعية ، والأثرة على الإيثار.

إنك يا مصر من أغنى بلاد الله! ولست أعني بالغنى خصب الأرض ، وكثرة الموارد ، وإنك لغنية فيها من غير شك ، ولكنِّي أعني غناك في المواد الخامة ، وهي الشعب الذي توفرت فيه المواهب والقوى ، خصوصاً ما يسكن منه في أريافك ، فهي المناجم التي لا تزال مدفونةً ، والمعادن التي لم تستخرج بعد ، هذا الشعب قويُّ الإيمان ، قويُّ الشخصية ، قويُّ الجسم ، فلو أنك أحسنت تعليمه ، وتربيته ، وأفدت من هذا الإيمان ، ووضعته في محله لكان حارسك الأمين ، وجنديك القوي ، وثروتك العظيمة.

قد اختار الله لك يا مصر! قارةً من أوسع القارات ، وأكثرها مواد خاصة هي القارة الإفريقية ، ولا يزال جزء كبير منها على سذاجته ، وفطرته. ولا تزال فيها أممٌ علىٰ الجاهلية الوثنية ، وعلىٰ الجهالة والضلالة ، ولا تزال فيها أمم كاللوح الصافي يكتب الإنسان فيه ما يشاء ، وهذه الأجزاء من القارة ، وهذه الأمم خير حقلٍ لجهودك وتربيتك ، وخير أرضٍ لزراعتك وغرسك ، فأرسلي إليها دعاتك المبشرين ، ورجالك المصلحين ، وعلماءك المرشدين ، وأبناءك المعلمين ، يبلغونهم الدين ، ويتلون عليهم آيات الله ، ويعلمونهم الكتاب والحكمة ، وبذلك تنقذين بإذن الله نفوساً كثيرةً من النار ، وتخرجينها من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، وتكتسبين قلوباً نقية وأرواحاً فتيةً ، وأجساماً قويةً ، ويكون ذلك خيراً لك من هذه الأمم والدول الغربية التي تخطبين ودها ، وتحرصين على صداقتها ، وهي لا تدوم على حال ، بل تجري وتدور مع أغراضها المادية ، ومصالحها السياسية ، فيوماً هي معك ، ويوماً مع أعدائك ، وإذا كانت معك لم تكن بإخلاصٍ وصدقٍ ، وإنما هي المطامع والمصالح ، وما أضعف الصداقة التي تقوم على المطامع والأغراض!.

وأخيراً أريد أن أقول في أذنك يا مصر! إنَّ لله في خلقه شؤوناً ، وإنه أعظم غيرةً من كل غيور ، وإنه لا يعطي نعمةَ دينه إلا من يعظِّمها ، ويجلُّها ، ويقدِّرها حقَّ قدرها ، فإذا رأى منك استغناءً عن الدين وما ينبىء عن احتقارٍ لشأنه ، واستصغارٍ لأمره ، وزهدٍ في الإسلام ، وانصرافاً عن خدمته ، وتقصيراً في أداء رسالته ، واعتزازاً لمبدأ غير الإسلام ، وتشرفاً بغير محمد عليه الصلاة والسلام استغنى عنك ، على مآثرك السباقة ، وثروتك الضخمة ، ومدنيتك الفخمة : ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا﴾ [الأحزاب : ٦٢]. وجاء لخدمة الإسلام وقيادة الأمم الإسلامية بأممٍ لم تخطر منك على بال ، تعتزُّ بالدين وحده ، وتتشرَّف برسالة الإسلام ، وتتشبع بحبِّ محمدٍ عليه الصلاة والسلام ، وتلتهب غيرةً دينيةً ، وحماسةً إسلامية ، وتجاهد في سبيل الله ، ولا تخاف لومة لائم ، وإنَّ الله تعالى حذَّر العرب الأولين ، وقال لنبيه ﷺ : ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام : ٨٩].

وقال للمسلمين العرب : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد : ٣٨].

ولله جنود السموات والأرض ، وفي كنانة الإسلام سهامٌ لم يرها أحد ، ولا تخرج إلا في وقتها ، ومن يدري فلعلَّ شمس الإسلام تطلع من المشرق ، وهذه أممٌ إسلامية فتيَّة على سواحل المحيط الهندي ، وفي جزره تتحفز للوثوب ، وتتهيأ لقيادة العالم الإسلامي ، فاحتفظي يا مصر العربية بمكانتك ومجدك ، ولا تأمني دورة الأيام ، ولا تأمني مكر الله : ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف : ٩٩].

هذه تحيتي إليك يا مصر العزيزة! فتقبليها ، وهذه آمالنا فيك ، فحققيها ، وكلمة مُرّة في الأخير فتحمَّليها ، وهذه معذرتي إليك فاقبليها ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

* * *

اسمعي يا زهرة الصَّحراء

خلال رحلة العلامة الندوي الدعوية إلى الكويت عام ١٩٦٢م ، ألقى سماحته عدَّة خطب للجمعة ، ومحاضرات في الجمعيات الإسلامية والمراكز الدينية وأحاديث في الإذاعة الكويتية ، ومنها أشهر حديثٍ له ألقاه بالإذاعة الكويتية بعنوان «اسمعي يا زهرة الصحراء» الذي ذكر فيه أولاً ظهور دولة الكويت فجأةً ، ورقيها ، ونهضتها ، وازدهارها ، كتفتّح زهرةٍ غضَّة في الصحراء ، ثم لفت الأنظار إلى ما تستطيع الكويت أن تقوم به من دور رياديٍّ في المدنية الحاضرة وعلى الخريطة العالمية ، وما هي شخصيتها وسيرتها المثالية الّتي ينبغي أن تظهر بها أمام العالم ، وقدرتها على تبوُّء مكانة السيادة والعزِّ والكرامة في العالم.

لم يكن يُصَدَّق في الزمن القديم أنَّ في الصحارى القاحلة أزهاراً ورياحين ، ولكن من رأى هذه المدينة الوليدة ، التي قفزت من وسط الصحراء ، ومن بين الرِّمال الوعساء في عقدٍ من السنين ، وعلى غفلة من الناس ، تبدو كزهرةٍ جميلةٍ في صحراء ، وتزهو بأنوارها المتنوعة في الليل ، وبمبانيها الأنيقة من أحدث طرازٍ في النهارِ ، صدِّق أنَّ الصناعة والعلم يحوِّلان الصحراء حديقةً ، والقفر الخالي مدينةً ، وأنَّ في بطن الصحراء كنوزاً وطاقات إذا أثيرت واستثمرت في صالح الإنسانية وتقدُّم المدنية ، صنعت العجائب وحيَّرت الألباب ، وعادات بالخير الكثير .

إنَّك يا زهرة الصحراء! يا مدينة الكويت! من أحدث مدن العالم ، وأحدث العواصم العربية سنّاً ، ولكنَّك تمثلين من النبوغ والجدِّ ما لا يثبت حداثة السنِّ ، وإنَّك تتقدَّمين إلى الشباب والاكتمال بخطىً سريعةٍ جريئةٍ ، فلا يمضي عليك كثيرٌ إلاَّ وأنت من مدن الشرق العربي الكبيرة ، وتحتلِّين من بين شقيقاتك المتقدِّمة في السنِّ المكانة الرفيعة .

إنَّ كثيراً من الناس يردون الفضل في ازدهار الصناعة والتجارة ، وتقدُّم المدنية والحضارة إلى هذا النفط الذي انطويت عليه قروناً ، وقد خرج حين أراد الله ، فعاد عليك باليمن والبركة ، وعلى البلد بالرَّخاء والثراء ، ولكنه ليس مردَّ الفضل وحده ، وليس السرَّ في تقدمك وازدهارك ، فلو فقد النشاط والذَّكاء ، وفقد العلم ، والإرادة ، لما نفع هذا الذهب الأسود وضاع في أمورٍ تافهةٍ ، لا قيمة لها .

إنك يا زهرة الصحراء! قد قطعت شوطاً واسعاً في المدنية العصرية ، وبرزت كلؤلؤةٍ جميلةٍ في العمارة والحضارة ، ولعلني أرى مع كل إعجابٍ لهذا التخطيط البديع ، أنَّ مهمتك أعظم وأوسع من أن تكوني مدينة من أجمل مدن الشرق ، فليس ذلك بميزةٍ كبرى تعتزِّين بها ، وليس ذلك

ما يطلبه منك العالم اليوم ، ويحتاج إليه أشدَّ الاحتياج ، إنك مدينةٌ ذات تاريخ وتراثٍ ، وقطعةٌ من صميم تلك الجزيرة العربية ، التي لم تر أن تضيف يوم نهضتها إلى مدن العالم الكثيرة الجميلة في القرن السادس المسيحي مدينةً جديدةً ، فلم يكن ذلك زيادةً تشكر عليها ، وتذكر في التاريخ ، إنما جاءت على الإنسانية المعذَّبة الشقية بمدنيةٍ جديدةٍ ، مدنيةٍ تقوم على العقيدة ، والروح ، والأخلاق . إنَّها أعادت إلى الإنسانية ما فقدته من قرونٍ من العلم الصحيح ، والإيمان القويّ ، والدافع الخيِّر ، ذلك ما أصبحت بفقده الأمم قطعاناً من الغنم ، وعصابات من اللصوص ، إنَّها منحت الإنسانية رسالةً سماويةً جديدةً ، وقوةَ مقاومة للشرِّ والرذيلة ، كانت قد فُقدت من زمنٍ بعيد ، ومنحتها الفرد الصَّالح القويَّ الأمين الذي يوجه المدنية توجيهاً صحيحاً ، ويملأ كلَّ فراغٍ في الحياة والمجتمع ، فكان فيما أتحفته إغاثة للإنسانية الملهوفة وإسعافاً للمجتمع العليل ، وفتحاً جديداً في التَّاريخ الإنسانيِّ ، وكان أفضل هديةٍ تقدَّمت بها أمَّةٌ أو بلادٌ إلى العالم في زمنٍ من الأزمان .

إنَّ هذه الجزيرة قد أنجدت الإنسانية ، ومدَّت إليها يد المعونة والإحسان ساعة احتضارها وانهيارها ، يوم أشرقت سفينة الحضارة ـ بما فيها من كنوز ، وعلومٍ ، وتحفٍ ، وتراثٍ ثمين ـ على الغرق ، وعتا الموج ، ودجا الليل ، وهجم القرصان ، وفقد الدليل ، وأظلمت الطرق ، وأسقط في يد الرُّبان ، واقرأ إن شئت :

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

إنَّ هذه الجزيرة قد برزت إلى العالم بدينٍ جديدٍ متدفقٍ بالحياة ، وبجيلٍ جديد متدفقٍ بالحيوية والنشاط . ممتلىءٍ بالحماسة وقوة العمل ، غني القلب ، كبير النَّفس ، بعيد النظر ، عالي الهمَّة (أبرُّ الناس قلوباً ، وأعمقهم علماً ، أقلُّهم تكلُّفاً) قوي الروح ، قوي الإيمان ، قوي الجسم ، متقشف في الحياة ، زاهد في المظاهر ، مستخف بالزخارف ، متمسك بالأسباب ،

مستهينٌ بالقشور ، قد شغله الإشفاق على مصير الإنسانية ، والشفقة على خلق الله ، والتألم لظهور الفساد ، وضياع الإنسانية عن حسد الأغنياء والملوك ، ومزاحمتهم في البذخ والنعيم ، وشغله همُّ الآخرة عن التوسع الكثير في المطاعم والمشارب ، والتأنُّق الكبير في الملابس والمساكن ، جمع بين الحياة البسيطة القانعة الزاهدة وبين المغامرات العظيمة والدولة الكبيرة والفتوح الواسعة ، فكان جيلاً فريداً في التاريخ في قوة إيمانه ، وقوة شخصيته ، وجمعه بين الأضداد.

لقد كان في عواصم العالم وفي مراكز الحضارة الرومية والفارسية من مظاهر الأبَّهة والترف مايطمع فيه العربيُّ المنعزل في جزيرته ، وما يتحلَّب عليه فمه ، ويحسد فيه الأمراء والأغنياء الذين احتكروه لأنفسهم ، وقد كان هذا ظنّ الروم والفرس يوم خرج العرب من جزيرتهم ينشرون الإسلام ، ويفتحون العالم ، وينقذون الأمم ، فاعتقدوا أنَّ العرب إنما ضاقت عليهم الجزيرة الفقيرة ، وأجهدهم الجوع ، وجاء به الطمع ، ولكنَّ العرب أعلنوا أنَّهم يعيشون في سعةٍ من نفوسهم المؤمنة المطمئنة ، وفي سعةٍ من صحرائهم الفسيحة المترامية الأطراف ، وفي سعةٍ من حياتهم الطبيعية الراضية ، وأنَّ الضيق هو ما فيه الروم والفرس من حياةٍ مصطنعة ، وحضارةٍ متكلفة ، ومدنيةٍ عجمية ، وعاداتٍ قاهرةٍ ، طاغيةٍ ، وأعرافٍ ظالمة ، وأساليب مفروضةٍ ، وآداب مخترعة ، فهم في قفصٍ من ذهب مؤصد الأبواب ، مؤصد المنافذ ، لا يدخل فيه من النور والهواء إلا ما يعيش به الطائر المدلل ، وإنما أخرجتهم الرحمة والرثاء للبؤس الذي تعيش فيه الأمم ، ويعيش فيه الملوك ، والرِّثاء للجاهلية التي خرجوا منها ، ولا تزال تتورط فيها الأمم ، فقالوا في ثقةٍ واعتدادٍ ، وفي عزَّة نفسٍ وإيمانٍ: والله بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

لقد كانت الحضارة الروميَّة والفارسيَّة التي بلغت أوجها وزهوها في القرن السادس المسيحي ، ومن أساليب عيشهم كثير ممَّا تحرص على تقليده الأمم المختلفة في المدنية ، وكان للعرب ـ وهم من أقدر الناس على

الاقتباس ـ أن يستوردوا هذه المدنية برمتها ، وينقلوها إلى صحرائهم ، وحواضرهم ، وقد تغلَّبوا على الدولتين ، وامتلكوا مواردهما ووسائلهما ، ولكن منعهم من ذلك اعتقادهم أنَّ مركزهم مركز الإمامة والسيادة ، ومركز التوجيه والإرشاد ، وأنَّ الروم والفرس أممٌ مريضةٌ مسلولةٌ ، وسقامها هذه المدنية المترفة ، والحياة المزورة ، وقد كانت من أقوى أسباب هزيمتها وانكسارها ، وانهيار هاتين الإمبراطوريتين اللتين اقتسمتا العالم المتمدِّن المعمور ، فتجنبوا تقليدها في عاداتها وكمالياتها وتمسَّكوا بفروسيتهم العربية والحياة المتقشفة الجليدة ، ولم يقتبسوا من الروم والفرس وأهل الهند إلا المفيد الصَّالح ، كالصناعات ، والتجارات ، وعلوم الحكمة ، والطبِّ ، وأساليب الحرب ، وبعض مرافق المدنية ، فالحكمة ضالّة المؤمن ، حيث وجدها فهو أحقُّ بها وتجنبوا القشور مهما أمكن ـ مما هو ماثل في المدنية العجمية ـ مما يحذِّر منه قادتهم ، وعلماؤهم .

لقد اعتقد العرب أنَّ دورهم في بناء المدنية وتكوينها دور الإعطاء والإفاضة ، ودور التخطيط والتصميم ، ودور الابتكار والأصالة ، ودور الأستاذية والإشراف ، وقد ظلُّوا يمثِّلون هذا الدور إلى مدةٍ طويلةٍ حتى فقدوا مركزهم في قيادة الركب الإنسانيِّ ، فكان من ذلك شقاءٌ لهم ، وشقاءٌ للإنسانية أعظم ، وتنزَّلوا إلى التقليد والاعتماد على الغير ، والاستيراد من الخارج ، وصاروا يعيشون في دائرةٍ ضيِّقةٍ من التفكير ، ومن الواقع ، وصاروا يفكِّرون لأنفسهم بعدما كانوا يفكرون للعالم كلِّه ، وأقاموا حولهم سوراً من الدَّم ، واللغة ، والثقافة بعدما هدموا الأسوار القديمة ، وأخرجوا الأمم منها ، تحلِّق في الفضاء الواسع ، وتجري في أرض الله الواسعة ، وأصبحوا يسبحون في بركٍ وأنهارٍ بعدما كانوا يسبحون في بحرٍ لا ساحل له . فهلمِّي أيتها الجزيرة! إلى مكانك الأول من القيادة ، والتوجيه ، والتفكير في الإنسانية ، والاهتمام بشؤونها ، والجمع بين أسرها ، ورعاية قطعانها الضالَّة ، وهداية البشرية بالرسالة الإسلامية العالمية ، التي نبعت منك ، وإليك تعود .

لقد شاءت سماحتك العربية ، وأريحيتك المعروفة في التاريخ أن تجودي بالنفط على العالم ، فكنت في ذلك السخيَّة المحسنة المشكورة ، ولا شكَّ أنَّها مساهمةٌ غاليةٌ منك في بناء هذا الصَّرح الصناعي الكبير ، الذي يفتخر به العالم المعاصر ، وقد شهد الجوُّ والبرُّ بقيمة هذه النفط الذي يستخرج من أرضك ، ودانت له الطائرات ، والسيارات بالفضل والشكر ، فشكراً لك أيتها الجزيرة الكريمة العريقة في السماحة والسخاء من كل من ينتفع بهذه الوسائل! وما أكثرهم في العالم!

ولكن فيك ما هو أغلى من هذا الذهب الأسود ، وأنفع للمدنية ، وأعود على الإنسانية بالخير والنفع العام ، هو الإيمان الذي نبع عينه من أرضك لأول مرَّة بعد قرون متطاولة ، فإذا كان هذا النفط تحفة الأرض إلى الأرض ، كان الإيمان الذي جاء به محمد ﷺ تحفة السَّماء إلى الأرض ، وفيك اتصلت السماء بالأرض لآخر مرَّة وقد انقطعت صلة الأرض بالسَّماء ، والأجسام بالروح والقلب ، والصناعة والحضارة بالإيمان والأخلاق ، فلتتصل الأرض بالسماء والأجسام بالأرواح ، والقلوب والصناعة والحضارة بالإيمان والأخلاق مرةً ثانيةً عن طريق الجزيرة العربية وعن طريق الوحي المحمديِّ ، وقد اشتدَّت حاجة الإنسانية إلى هذا الاتصال حتى أصبح العالم لهذا الانفصال المشؤوم ـ بين الأجسام ، والروح ، والقلب ، والصناعة ، والحضارة ، والإيمان ، والأخلاق ـ على شفا حفرةٍ من النار ، وعلى وشك الانهيار.

إنَّ كثيراً من محبيك يتمنَّون لك شخصيةً قويَّةً مستقلَّةً في كلٍّ ما تقتبسينه من علومٍ ومدنيَّةٍ ، وفي كلِّ ما تتبنين من حضارةٍ ، وصناعةٍ وفي كلِّ ما تقومين به من تعليمٍ وتوجيهٍ لجيلك الجديد ، وأن تفرغي ذلك كله في قالبك العربي الإسلاميِّ الجميل ، فتخرجي بطرازٍ جديدٍ تتجلَّى فيه شخصيتك العبقرية ، وعقيدتك الإسلامية ، ونظرتك الخاصة إلى الحياة ، وفهمك الممتاز للمدنية ، ومهمتَّك المخلصة في العالم ، فذلك الطراز هو الذي سيقلِّده الشرق ، ويمجِّده الغرب ، والعالم لم يزل ـ ولا يزال ـ

خاضعاً للاستقلال في الفكر والابتكار في البناء ، والاعتماد على الشخصية ، وإن قلَّت الوسائل ، وضاقت الموارد ، فكيف إذا كثرت الوسائل ، ووسعت الموارد؟ وليكن كلُّ قسمٍ من أقسام مدينتك وتنظيمك متميزاً عن مثله في بلاد لا دين لها ، ولا رسالة ، فأنت بلاد ـ والحمد لله ـ لها رسالةٌ ، وليجر دمك في عروقك ، ولا يتجاوزها إلا بتناسبٍ بين الاستيراد والتصدير ، فالمدنية والحكومات إنما تقوم على هذا التناسب .

وبعد فإنِّي أعتقد أنَّ الجزيرة العربية كلَّها ، وفي حساب الانتفاضة الإيمانية التي وجدت على بعثة الرسول الأعظم ﷺ ودعوته وجهاد أصحابه ، وقد أخرجتها هذه البعثة من الجمود والخمول إلى النشاط العالميِّ ، والعظمة الخالدة ، والسيادة الروحية ، وهي التي غرست حبها في القلوب والنفوس ، يسعون إليها على العيون والرؤوس ، ويأتون من كلِّ فج عميقٍ ، وهي التي منحتها الكتاب العزيز ، الذي حفظ لغتها من الضياع والدثور ، كما ضاعت لغاتٌ كثيرةٌ ، وكان سبباً مباشراً في تولدُّ هذه العلوم الكثيرة. وتكون هذه المكتبة الواسعة التي تعتزُّ بها الثقافة الإسلامية العربية ، وهي التي نشرت لغتها ، في مشارق الأرض ومغاربها ، وفرضت دراستها ، والتضلُّع منها على كلِّ من يحب أن يفقه القرآن ، ويتفقَّه في الدِّين ، ولا تزال الثقافة العربية الإسلامية ، هي الثقافة العالمية التي تتمتع بالتقديس والاحترام الديني والعاطفة القوية في رقعةٍ واسعةٍ في العالم ، ولا تزال هذه الهداية مصدر انتفاضةٍ جديدةٍ لمن أرادها ، وسعى لها سعيها ، وأنت من أسرع الناس إلى معرفة الفضل ، وأبعدهم عن نكران الجميل ، وجحود الحقائق .

لقد تحدّثت يا زهراء الصحراء! على لسان العالم ، أخاطب الجزيرة العربية ، وأعاتبها ، وأشكو إليها بث الإنسانية وحزنها وآلامها ، ثم نقلت حديث الجزيرة إلى العالم معتذرةً مجيبةً مفصحةً بليغةً ، فكان حواراً (بين العالم وجزيرة العرب) أصغت إليه الآذان ، وأقبلت عليه القلوب ، وتحدَّثت إلى مصر فقلت : «اسمعي يا مصر!» فلم تكن صيحةً في واد ونفخةً

في رمادٍ ، وتحدَّثت إلى سورية فقلت: «اسمعي يا سورية!» فوجدت آذاناً صاغيةً ، وعقولاً واعيةً ، وها أنذا أتحدث إليك فأقول: «اسمعي يا زهرة الصحراء!» وأرجو أن أحظى منك بكلِّ تشجيعٍ وتقديرٍ ، وبكلِّ اهتمامٍ وتفكيرٍ.

* * *

اسمعوها منّي صريحة أيها العرب

يجدر في مقدمة هذا الحديث أن يُوضعَ بين أيدي القارئ ثلاث حقائق:
الحقيقة الأولى: أن العالم الإسلامي بصفة عامة والعربي بصفة خاصة ـ وقد مني في السنوات الأخيرة بضعف في العقيدة، وتحلل في الأخلاق، وانحراف في التفكير، تحت نير الاستخراب المسمى بالاستعمار ـ أخذ ينفض عن كاهله غبار النوم، ويحطم أصفاد الذل، ويشق طريقه في النهوض والحرية.
الحقيقة الثانية: إن معظم الأمم تعمد في نهضاتها وبناء حضارتها لفكرة تستمد منها أمجادها، وتستقي معالم تراثها كي تربي عليها الناشئة، وتبعث في نفوسهم روح الحماس لها، والذود عن حياضها، والتفاني في تحقيق أهدافها، فتصل الماضي المشرق بالحاضر المسفر؛ لتقيم صرح المستقبل المنير. فإذا كانت الفكرة راسخة الجذور، ممتدة الأفنان، طيبة الأكل، تفيأت الأمة ظلها الوارف، وسعدت بجناها الشهي، وأرست حضارتها على قواعد تكفل لها أمان النفوس وسعادة المجتمع، وإذا كانت الفكرة واهية الأساس، فإن ما تبنيه الأمة لا يكاد يتم في مرأى العين حتى تتداعى لبناته، ويأفل نجمُ نباته.

الحقيقة الثالثة: إن الإنصاف في الحكم لا يكون إلا إذا تجرد الحكم من الهوى، وتخلص من أسر العواطف والميول، ووزن الأمور بميزان الحق والعدالة، وكثيراً ما يظهر الباطل في ثوب قشيب يعجب النظار رواؤه، ويخدعهم وشيه، فتنظر العين إليه فترى جمالاً لا يفوقه جمال، بينما يستر هذا الثوب من ورائه باطناً عفناً، وقلباً هواء، وتظل أعين القوم في غشاوة

عن معدن الحق وصفاء جوهره إلى أن يهيىء الله من يكشف الغمة ، وينير السبيل ، ويهدي الحيارى.

وأخصُّ ما يتميز به القارئ الذي ينشد الحقيقة أن يقرأ بروح الإنصاف التي لا تحيد عن الحق لعاطفة الجنس وحنينه ، أو لحن القول وزخرفه.

(الشيخ مناع القطان ـ رحمه الله)

لو كانت أمة على وجه الأرض تستحق مني أكبر تقدير وأعظم إعجاب وإكبار ، لكان العرب من غير نزاع .

ولو كانت نفسي تدفعني إلى المجاملة مع أمَّةٍ من الأمم وتزينها لي ، لكانت أمتي العربية العظيمة .

وعندي مما أمدح به هذه الأمَّة العربية العظيمة بحقٍّ لكثيرٌ وواسع ، وعندي مما أرضي به نفوس هذه الأمَّة وأسماعها ، وأرضي به عاطفتي كعضو من أعضاء هذه الأسرة العظيمة الكريمة لكثير وكثيرٌ ، وكلُّ ذلك مما يصدِّقه العلم ، والواقع ، ويقول العالم : صدقت! ويقول التاريخ : عدلت ، وبررت!

ولكنِّي أعتبر هذه المجاملة في هذه المناسبة جريمةً خلقيةً ، وأعتبرها خيانةً عظيمةً في حقٍّ هذه الأمة التي أدين لها في الدين والأخلاق ، والإنسانية ، والشرف ، ويدين لها العالم والإنسانية في حياتها الجديدة ، وفي عقيدتها ، وخلقها ، وليست أمَّة أحقَّ بالأمانة ، وأحقَّ بالصراحة ، وأحقَّ بالنصح من هذه الأمة التي مثلت الأمانة في عهد سادت فيه الخيانة ، وصارحت في فترةٍ طغت فيها المجاملات ، وصدقت في دورٍ فشا فيه الكذب ، ونصحت في ساعةٍ انتشر فيها الغشُّ والخديعة ، فمن أحقُّ بهذه الأخلاق العالية ، والمعاني السامية من هذه الأمة؟!

ولكن من ينصح هذه الأمة ، ومن يصارحها ، ومن يصدقها؟ والزمن زمن السياسة ، وزمن تبادل المنافع والمصالح ، وزمن الاستغلال ، وكلُّ ذلك يقوم ـ أو يعتقد أنه يقوم ـ على المجاملات ، وإرضاء العواطف ، وإطراء الحليف والزميل ، وتخدير الأعصاب ، وعلى الغشِّ ، والخديعة ، ويقوم على مدح القوميات ، وعلى مدح الحضارات القديمة التي تنتسب إليها الشعوب اليوم ، وعلى الموافقة في خيرٍ ، وشرٍّ ، وغيٍّ ما لم تُمسَّ مصالح الأمة الأخرى السياسية ، ومنافعها الاقتصادية .

ولكن عقيدتي وديني الذي أؤمن به ، وأدين به يفرض عليَّ أن أكون صادقاً صريحاً ، وصلتي بهذه الأمة ـ الدينية ، والنسبية ، والثقافية ـ تلزمني بالصدق والصراحة والوفاء والأمانة ، ثم اقتناعي بأنَّ العرب الأمة المختارة لحمل رسالة الإسلام قد كتبت لهم الوصاية على العالم ما داموا يدينون بهذا الدِّين الذي جاء به محمد ﷺ ، وعلمي بأن هذه الوصاية لم تحوَّل عنهم بعد ، ولم تبرز أمة على منصة العالم تخلف هذه الأمَّة وتضطلع بالإمامة ، ولكني أعرف أنَّ الزمان زمان تحوُّلٍ ، والساعة ساعة الانتقال ، كالسَّاعة التي شهد فيها العالم أكبر تحوُّلٍ في التاريخ ، وفي حدود الأمم ، ساعةٌ مرت في منتصف القرن السادس المسيحي تحوّلت فيه الإمامة ، وتحوَّل فيها منصب الهداية من بني إسرائيل ـ الأذكياء ، المثقَّفين ، أصحاب الحضارة والعلوم والقرائح والمواهب ـ إلى بني إسماعيل أو العرب ـ الأمة التي تغلب عليها الأميَّة ، والبساطة ، والفقر ، والاعتزال عن العالم ـ والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فكان أكبر في مصير تحوُّل شهده التاريخ الجديد ، وكان لهذا الحادث تأثيرٌ في مصير الأمم ، وأوضاع العالم ، واتجاه الإنسانية ، لم يكن لحادثٍ سياسيٍّ ، أو تحوُّلٍ اجتماعيٍّ ، أو ثورةٍ أخرى.

إنَّني لا أخاف أن يعود هذا المنصب إلى بني إسرائيل مرةً أخرى ، فليس هنالك ما يدلُّ على ذلك ، وبنو إسرائيل في شغلٍ عنه لا شأن لهم بالعالم وما يعانيه من أزمةٍ روحيةٍ ، ودينيةٍ ، وخلقيَّةٍ ، أسَّسوا حياتهم الجديدة ، ودولتهم الوليدة على المادة ، والمعدة ، والتنظيم الصِّناعي ، والاقتصادي ، وجمعوا بين مبادىء كارل ماركس ـ الذي نبغ فيهم ، ونهض منهم ـ ووصايا ميكافيلي ، وحملوا معهم من أوروبا إلى البلد الذي اغتصبه اليهود ثمرات الحضارة الجديدة الماديَّة اليانعة ، وحملوا معهم عصارتها ، وخلاصتها ، وشرورها ، وخبائثها ، فهم من أبعد الشعوب من أن تسند إليهم هداية الأمم والوصاية على العالم ، ومن أن يؤمل فيهم النهوض برسالة الأنبياء الذين ينتسبون إليهم كثيراً ، ويتبجحون بهم كثيراً ، ومن أبعد الناس أن ننتظر منهم الثورة على الفساد الذي ظهر في البرِّ والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ومن أن يحملوا إلى الغرب رسالة الأنبياء والحياة الروحية ،

والدعوة إلى الوحدة الإنسانية ، والفكرة الآفاقية والعالمية ، وأن يجاهدوا في سبيلهما ، ويتفانوا لأجلهما .

ولكن ليس العالم كله بني إسرائيل ، وهم حفنةٌ من البشر ، وقطعةٌ صغيرة من الأرض ، قد يفاجىء العالم شعبٌ آخر ، أو بلدٌ آخر لم يكن في الحساب ، كما فاجأ العرب العالم القديم .

وإنَّ هذا التحوّل يكون من غير نبوة جديدة ، فليس في النُّبوة المحمَّدية وفي تعاليمها وفي شرائعها ما يوجب التحوُّل ، إنَّها دائمةٌ خالدةٌ ، إنها حيَّةٌ باقيةٌ ، إنَّها سائرةٌ مع الزمن ، بل سابقةٌ للزمن ، إنه سيكون تحوُّلاً في حملة هذه الرسالة ، ، في حماة هذه الرسالة ، وهي حاجة الإنسانية ونداء الوقت .

والذي يطمعني في هذه الكلمة ، ويغريني بها هو حبِّي ، وحرصي على أن يستعيد العرب مكانتهم العالمية ، ويتسلموا هذه القيادة المباركة التي يقول الله عن حملتها :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] .

وأن يتحوَّلوا عن المعسكر الذي يقول الله عن قادته وزعمائه :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص : ٤١ ـ ٤٢] .

بل يثوروا عليه ، ويعارضوه ، ويحاربوه ، وينادوا بأعلى صوتهم :

﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

نادى بها جدُّهم إبراهيم في عصره :

﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٨] .

إنَّ لي كلمة اليوم مع إخواني العرب الذين يؤمنون بالله ورسوله ويؤمنون

بهذا الدين ، ولي كلمة أخرى مع الذين يؤمنون بالعروبة وبالأمة العربية وحدها ، وكلتا الكلمتين صريحةٌ وصادقة صدرت عن إخلاصٍ ، وحبٍّ ، ونصحٍ.

إنَّ كلمتي مع إخواني المؤمنين بالإسلام واضحةٌ جداً ، وإن خطبي معهم يسيرٌ جدّاً. اسمحوا لي أيها الإخوة أن أردد لكم الكلمة النبوية المدوية التي خاطب بها رسول الله الأنصار يوم حنين ، وسجلها التاريخ بنصها وقصها: «ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ وأعداءً فألّف بين قلوبكم؟» أيستطيع التاريخ العربي ـ وهو الصادق الأمين ـ أن يشكَّ في صدق هذه الكلمة ، أو أن يشكَّ في حرفٍ من حروفها ، أو نقطةٍ من نقطها ، لو كان هنالك مساغٌ للشكِّ أو مجالٌ للجدال لسارع إليه رجالٌ عرفوا بالشجاعة والصدق ، ولكنهم قالوا: صدقت ، لله ورسوله المنُّ والفضل ، وقال التاريخ: صدقت! لله ورسوله المنُّ والفضل.

ألم تكونوا ضلالاً باتفاق العقلاء والمنصفين منكم؟ ألم تشهدوا على نفوسكم بالضّلال مراراً ، وفي مناسبات كانت أحقَّ بالفخر والمباهاة ، ونفي الاتهامات والشائعات؟ إن كانت مجرد اتهامات وشائعات ، أما شهد به جعفر في مجلس النجاشي ، وشهد به خالدٌ أمام قادة الروم ، وشهد به المغيرة بن شعبة ، وربعي بن عامر في مجلس رستم ويزدجرد.

وأي ضلال بالله أعظم من عبادة الأوثان في العقيدة والدين ، وعبادة الشهوات في الأخلاق ، ووأد البنات في الاجتماع؟.

ألم تكونوا عالةً تجدون من الأقوات والأكسية النزر اليسير ، قد استبد بأفضلها وأكثرها وألينها الروم والفرس؟ ألم يقل لكم يزدجرد يوم تقدمتم إلى عاصمته تتحدَّوْنها ، وتتهدَّدونها بقوة إيمانكم ودينكم الجديد: «وإن كان الجهد دهاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم ، وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم» فلم يكذبه أحد من رسلكم ، والعرب أسرع الناس إلى تصديق الواقع والاعتراف بالحقِّ ، وتكذيب الباطل ونفي الافتراء ، وأجرؤهم على الملوك والأمراء.

ألم تكونوا أعداءً بأسُكم بينكم شديدٌ ، وقلوبكم شتَّى ، والقبائل دائماً في حربٍ دائمةٍ أو هدنة عارضةٍ ، وقد شهد التاريخ على أرضكم أطول حروبٍ ، وأشأمها لأهلها في تلك البيئة المحدودة ، من يستطيع أن ينسى حرب البسوس ، وداحس ، والغبراء ، وما يوم حليمة بسرٍّ!

ألا لا يشكنَّ أحدٌ في نزعتي ، ولا يرميني أحدٌ بالشعوبية وحمية الجاهلية ، فإني لا أقلُّ عن أكبر عربيٍّ يعيش في العواصم العربية في عربيَّتي ، ونسبي الصريح المتصل ، وحبِّي للعرب وتضلعي من ثقافتهم ، وعلومهم ، وآدابهم ، ولغتهم ، وليس أحد من إخواني العرب الأقحاح أولى بالاعتزاز بالعربية منِّي ، وأوفر نصيباً فيها منِّي ، ولكن الإسلام أفضل من كلِّ نسبٍ ، وأقوى من كلِّ عصبيةٍ.

ثم ماذا كان؟ اسألوا التاريخ ، واسألوا ضمائركم وقلوبكم ، هبَّت عليكم نفحةٌ من نفحات الإسلام ، وقام فيكم محمد بن عبد الله ﷺ ، وكان آخر الأمر منكم جميعاً إجابته إلى ما دعا ، وتأييده فيما جاء به ، فأصبح الذين كانوا بالأمس ضلالاً لا يعرفون ديناً ، ولا يحملون علماً هداةً معلمين وأئمةً مرشدين ، حملوا النور والهدى والحياة إلى أقصى العالم «يدعون من ضلَّ إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يُحيون بكتاب الله الموتى ، ويُبصِّرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من تائهٍ ضالٍّ قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس!»(١).

وكيف كان أثرهم على الناس؟ اسألوا في ذلك تاريخ العالم بعد القرن السَّادس المسيحيِّ ، ما أعظم اختلافه عن القرن السابق؟ وما أعمق أثره في العقائد والأخلاق والاجتماع! وكيف قامت دولة التوحيد والإيمان؟ وكيف قامت سوق الجنَّة؟ هل قامت دولة التوحيد والإيمان هذا القيام في عصرٍ من العصور؟ وهل نفقت سوق الجنَّة هذا النفاق قبل محمد ﷺ ، وقبل أن يقوم العرب لنشر رسالته؟ وهل انتشرت الهداية هذا الانتشار العظيم قبل مبعث الرسول ونهضة العرب؟

---

(١) من كلام الإمام أحمد.

وكيف كان غناكم أيها العرب بعد البعثة العربية والفتح الإسلامي العربي؟ ألم يكن غنىً تخطّى القياس ، وتجاوز حدود الشرع والأخلاق ، وكان موضع نقدٍ شديد من العلماء؟ وإن كنتم في شكٍّ من ذلك ـ ولا أخالكم ـ فاقرؤوا قصة الترف الأموي ، واقرؤوا قصة عرس المأمون ، ودعوة إبراهيم بن المهدي للرشيد ، وتأملوا في انقلاب الأوضاع الاقتصادية في جزيرة العرب ، وفي مدينة الرسول ﷺ ، وعموم الغنى في العصر الأموي حتى كان الوالي يبحث عن فقيرٍ يقبل الزكاة فلا يجده ، وكيف امتدت دولة الإسلام حتى استطاع الرشيد أحد ملوكه أن يقول لسحابة وقد مرَّت به : «أمطري حيث شئت ، فسيأتيني خراجك» وفي ذلك بلاغٌ مقنعٌ .

وكيف كان اتحادكم بعد الافتراق؟ وحبكم بعد التباغض؟ وإيثاركم بعد الأثرة! اسألوا عن ذلك الأوس والخزرج ، واسألوا عن ذلك الأنصار والمهاجرين ، واقرؤوا قوله تعالى :

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

ولم يشهد التاريخ الإنساني أخوةً أمتن ، ولا أطهر ، ولا أبعد من الأغراض ، ولا أعمق من هذه الأخوة ، وانظروا كيف حاربت القبائل ـ المتناحرة بالأمس ـ تحت راية المثنى بن حارثة ، وسعد بن أبي وقاص ، وخالد بن الوليد ، وعقبة بن نافع ، وقتيبة بن مسلم ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، ومحمد بن القاسم ، وكيف حاربت الأمم والشعوب ـ المعادية المتباعدة بالأمس ـ تحت راية صلاح الدين الأيوبي . ألم يكن ذلك كلُّه معجزة الإسلام ، وتصديق قول الرسول : «ألم آتكم أعداءً فألَّف الله بين قلوبكم؟» ألا تزال العقيدة الإسلامية والرسالة المحمدية تجمعان أمماً وشعوباً من أعظم الأمم والشعوب تباعداً في الأوطان ، واختلافاً في الحضارات ، والثقافات ، وتنوعاً في الألسنة واللغات ، هل توجد مجموعة بشرية تختلف في الألوان هذا الاختلاف ، وتتَّحد في العقيدة والغاية والنفسية هذا الاتحاد؟

ألم يكن كلُّ ذلك عن طريق محمَّد ﷺ وحده؟ وعن طريق دينه الذي جاء به وحده؟ لا يشكُّ في ذلك مؤرخٌ ولا يشكُّ في ذلك منصفٌ ، ولا يشكُّ في ذلك قوميٌّ ، فحقائق التاريخ أجلُّ من أن يتناولها الشكُّ ، أو يسوغ فيها الجدال.

ثم ماذا كان؟ ـ اسمحوا لي ولا تؤاخذوني ـ في عصر القوميات ، وفي العصر الذي أصبح العرب ـ حاشا المؤمنين منهم ـ فيه يتناسون محمداً ﷺ وما جاء به من النعمة ، وأصبحوا يؤسسون حياتهم ، وسياستهم على الوحدة العربية ، والقومية ، والوطن العربي ، ألم يكن ضلالٌ بعد هدى ، ضلالٌ في العقيدة ، والعمل ، والأخلاق ، والاجتماع ، وفوضى فكريةٌ هائلةٌ ، وتفسخٌ خلقيٌّ واجتماعيٌّ لا يقلُّ ـ في العواصم العربية الكبرى ـ عن التفسُّخ الخلقي والاجتماعي في الجاهلية الأولى ، وقد يفوقه بالتنظيم والانتشار ، وبأنَّه قد صار فناً ، وصناعةً ، وتجارةً.

ألم تكن أزماتٌ ، ومشكلات لا تنتهي ، وفقرٌ مدقعٌ في بعض الطبقات ، وسوء توزيع ، أما أصبحت الشعوب العربية كلُّها أو جلُّها عيالاً على الغرب ، أما أصبحت مسألة اللاجئين عقدةً لا تحل ، أما أصبحت البلاد العربية مهددةً بالشيوعية؟.

ثم ألم تكن فرقة بعد وحدة؟ وانقسام بعد اجتماع شمل واتحاد كلمة؟ وليس هنالك ما تخلف الرابطة الإسلامية وتقهر الشهوات ـ شهوة الحكم والزعامة والاستقلال بالمجد ، والأنانيات ، والأغراض الجنسية ـ وقد ظهر ضعف الرابطة العربية عن قهر هذه الشهوات والنزوات ، لتجردها عن عقيدةٍ قويةٍ ، وإيمانٍ عميق ، وتربيةٍ صالحةٍ ، ولم تستطع أن تكون من هذه الدول والشعوب العربية التي لا يكثر عددها جبهةٌ موحَّدةٌ قويةٌ ، وأن تمنع الجمهورية الجزائرية الديمقراطية ، والمملكة المغربية ـ وكلتاهما عربيتان ـ أن تتحاربا ، ولم تستطع أن توفق بين سورية والعراق ـ وكلاهما بلدان عربيان ـ ولم تستطع أن تجمع بين سورية ومصر زمناً طويلاً ، وتحافظ على واقع «الجمهورية العربية المتحدة».

إنَّ الفرد العاقل يوازن بين ربحه وخسارته ، ودخله وخرجه ، أليست لأمةٍ ـ كالأمة العربية ـ العظيمة الحكيمة ، أن توازن بين ربحها ودخلها لمَّا استمسكت بغرز محمد ﷺ ، واعتصمت بدينه ، وحملت رسالته ، وبين خسارتها وخروجها لمَّا انفصلت عن ركبه ، وانطوت على نفسها ، وعاشت في عزلةٍ عن العالم الإسلاميِّ ، وأصبحت تنظر إلى القومية العربية كعوضٍ عن القومية الإسلامية .

وكلمة أزفها إلى إخواننا العرب الذين يؤمنون بالعروبة كعقيدةٍ ورسالة ، وينظرون إلى الأمَّة العربية كأمة لا تعيش إلا على مواهبها الكامنة ، ولغتها العظيمة ، وصلاحيتها للبقاء ، وموقعها الجغرافيِّ ، وأهميتها السياسية ، ويعتقدون أنَّ شخصية الأمة العربية أقدم وأضخم من الرسالات السماوية ، والعقائد الدينية ، فقد كانت هذه الأمَّة قبل أن تكون هذه الرسالات ، وستظلُّ بعد هذه الرسالات ، وتستطيع أن تعيش بغيرها .

إننا نلتقي بهؤلاء القوميين في تقدير الأمة العربية ، والإعجاب بشخصيتها القوية ، ومواهبها العظيمة وصلاحيتها للبقاء ، وإجلال لغتها العبقرية ، إنهم لا يسبقونا في شيءٍ من ذلك ، وليسوا أولى بهذه الأمة العظيمة وتقدير فضائلها ـ الصحيحة الثابتة ـ منَّا .

ولكننا نناشدهم بهذا الحبِّ للعرب الذي يجمع بيننا وبينهم ، ونلتقي عليه ، وبالتاريخ الذي يثقون به ويحتجُّون ، هل كان للعرب أن يمثِّلوا هذا الدور العظيم الذي مثَّلوه في العالم ، وأن يشغلوا سمع الزمان وبصره ، وأن يغيِّروا مجرى التاريخ ، لولا هذه الرسالة السماوية التي تسمَّى الإسلام ، ولولا هذا الكتاب العظيم الذي يُعرف بالقرآن ، لولا تبنّيهم لهذه الدعوة الجديدة وجهادهم في سبيلها ، وهل كان لهم ـ إذا جرت الأمور مجراها الطبيعي ـ أن تفرض زعامتهم وسيادتهم على الشعوب والأمم ، ذات المدنيات الباهرة العتيقة ، والثقافات الواسعة العميقة ، وأن تنتشر لغتهم في مشارق الأرض ومغاربها ، فتندرس لغات كثيرة وتنسى ، وتصبح اللغة العربية من ضفاف دجلة في العراق إلى الوادي الكبير في الأندلس هي لغة

العلم ، والدِّين ، والعبادة ، والسياسة ، وينبغ فيها أساتذةٌ كبارٌ ، وأئمةٌ عظامٌ كالجرجاني ، والزمخشري ، وأبي علي الفارسي ، والصغاني ، والزبيدي؟ إلى أيِّ مساحةٍ زمنية أيها السادة وإلى أي أعداد ومقادير رياضية كان العرب يحتاجون في الوصول إلى هذه السيطرة السياسية والثقافية! لو بقوا على وضعهم القديم؟ هل كان يمكن ذلك في ألف سنة؟ فقد مضى على الأمة العربية آلاف من السنين وهي تعيش على هامش الأمم ، وفي عزلةٍ عن العالم ، أم كان لشعرها البليغ وأدبها الرفيع ، ولغتها العظيمة أن تشقَّ طريقها إلى الأمام وتبلغ بهذه الأمة إلى ذروة المجد ، وأوج السِّيادة ، كما وصل بها الإسلام؟ لقد كانت المعلقات وكان شيءٌ كثير مما يحتوي عليه ديوان الحماسة قبل أن يظهر الإسلام ، ويبعث محمد عليه الصلاة والسلام ، فما أغنى عنها هذا الشعر البليغ ، وهذا الأدب الرفيع ، وهذه اللغة العظيمة ، ولم تخضع للعرب واللغات والأدب ، بل لم يَسْتَرْعِ هذا الشعر والأدب واللغة انتباه العالم المتمدن ، ولم تتوفر الهمم والدَّواعي على جمعها وتدوينها ونشرها وشرحها إلا بعد ظهور الإسلام ، وبعدما أصبح العرب ـ بفضل الإسلام ـ أساتذة العالم ، وأصبحت لغتهم وآدابهم ثروةً إسلامية يجب على جميع من يدين بالإسلام دراستها والتوسع فيها ، وحفظها.

هذه كلها حقائق تاريخيةٌ ، بل هوالتاريخ نفسه ، ولا أصدق أيها السادة الفضلاء أنّكم تجحدون التاريخ ، وتكابرون الواقع ، إلا أنّ لكم أن تقولوا: إنما انتشرت اللغة العربية وآدابها بتأثير السيادة العربية العالمية ، وبفضل الحكومات العربية التي قامت في أنحاء العالم ، كما انتشرت اللغة الإنجليزية بتأثير الإمبراطورية البريطانية ، واللغة الفرنسية بتأثير الإمبراطورية الفرنسية ، وستنتشر هذه اللغة الكريمة مرةً ثانية إذا قامت الإمبراطورية العربية ، فليس الإسلام مردَّ هذا الفضل ، إنما هي القوة السياسية ، والسيطرة العالمية.

إنني لا أريد أن أطيل عليكم أيها السادة وأسائلكم كيف قامت الإمبراطورية العربية ، وكيف انبثت سيطرة العرب؟ ألم تقم بفضل الإسلام؟

فكلٌّ ذلك معروفٌ عندكم ، ولكنيّ أقول لكم: إنَّ قضية اللغة العربية وانتشارها ، وتحكُّمها في العالم تختلف عن قضية اللغة الإنجليزية ، واللغة الفرنسية كلَّ الاختلاف ، فاللغات الأوربية إنما تبعت الحكومات الأوربية ورافقتها في تقدمها ومغامراتها ، وعاشت عيالاً عليها ، وكلما نالت أمَّة استقلالها ، وتحرَّرت من نير الحكومة الأجنبية ثارت على هذه اللغة ، وحاولت أن تتخلَّص منها في أقرب فرصة ، لأنها تعتبرها لغةً أجنبيةً طارئة ، وتعتبرها رمز الاستعمار البغيض ، والاحتلال المقيت ، وهذا شأن الهند التي أتقنت اللغة الإنجليزية كأهلها ، وكان فيها أدباء ، وكتَّاب ، وشعراء ، ودستوريون كبار ، صممت على التخلص منها في مدَّة قريبة ، وسيكون هذا شأن الجزائر بعد التحرُّر ، لأنَّ هذه الأقطار لا تربطها بهذه اللغات الأوربية عقيدةٌ دينيةٌ ، أو عاطفةٌ روحية ، إنما هي لغات فرضها عليها الاستعمار فرضاً ، فجديرٌ بها أن تتبع الاستعمار في رحيله حتى يتمَّ الجلاء ، ويتمَّ استقلال البلاد سياسياً ، وثقافياً.

أما اللغة العربية فقد استمرَّت في الانتشار والازدهار بعد ضعف الحكومة العربية واضمحلالها ، وظلَّت تنتشر وتزدهر بعد انتقال القوة السياسية إلى الفرس والعجم ، وظلَّت تسيطر على أكبر رقعةٍ من العالم الإسلامي ، وعلى أعظم مجموعةٍ من العقول البشرية ، رغم ضعف العرب ، فكانت لغة التأليف ، ولغة الحكمة ، والفلسفة ، ولغة البحث العلمي ، ولغة الفقه والكلام ، ولغة التاريخ والأدب ، ولغة التفسير والحديث في إيران ، وتركستان ، والهند ، ولا تزال لها مراكز ثقافيةٌ كبيرةٌ في الهند ، وباكستان ، ويبلغ عدد من يحسنها قراءةً وفهماً في هذه البلاد الأعجمية مئات الألوف ، ولا يزال من يتعصَّب لها ، وإذا خير بين لغته الوطنية التي نشأ عليها ، وبين اللغة العربية التي نزل بها القرآن آثر اللغة العربية على لغة بلاده ، وحرص على تعليمها لأولاده ، ولا سبب لذلك إلا أنها لغة العقيدة والشريعة ، ولغة الإسلام «الرسمية» وقد كان الشيخ علي المتقي من رجال القرن العاشر يؤلف في هذه اللغة ، وليست على وجه الأرض حكومة عربية صميمة تكافئه على هذا البرِّ باللغة العربية ، وقد كان

تلميذه محمد طاهر الفتني (م٩٨٦ هـ) يؤلف كتابه البديع «مجمع بحار الأنوار» في شرح غريب الحديث في اللغة العربية ـ وهو في الهند ـ بعيداً عن مركز هذه اللغة ، وقد ألَّف الشيخ محمد أعلى التهانوي كتابه الفريد «كشاف اصطلاحات الفنون» في القرن الثاني عشر ، والشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي كتابه العظيم «حجة الله البالغة» في القرن الثاني عشر ، وكلاهما آثرا اللغة العربية لأثرهما العلمي الكبير ، لأنها في عقيدتهما ، لغة الإسلام ، ولغة العلوم الإسلامية ، ولغة المؤلفين الإسلاميين الحبيبة الأثيرة ، وقد أفاض الإسلام على اللغة العربية قدسيةً ليست لغيرها من اللغات ، وغرس حبَّها في نفوس المسلمين وفي سويداء قلوبهم ، حتى أصبحوا يؤثرونها على لغة آبائهم وبلادهم ، وأخفقت الحكومات الجبارة في اقتلاع هذا الحبِّ من نفوس شعوبها المسلمة ، وقطع صلتها عنها ، وقد منعت الحكومة التركية الأذان باللغة العربية قانونياً ، وبقي الأتراك المسلمون يحنون إلى كلمات الأذان العربية أكثر من ربع قرن حتى إذا سمح لها بذلك في العهد الأخير ، ودوَّى الأذان العربيُّ أول مرةٍ على منائر تركيا ، سجد الأتراك على الشوارع شكراً وفرحاً ، وذبحت ألوفٌ من النعاج والغنم.

فهل للغةٍ من لغات العالم هذه المنزلة في النفوس ، وهذه المحبَّة في القلوب؟ وهل كان للعرب هذا النفوذ العقليُّ والثقافيُّ في العالم ؟ وهل كان لعلومهم وآدابهم هذا النَّفاق العجيب ، والرواج العظيم ، وهذه السيطرة على العقول والقرائح والأقلام لولا الإسلام ، ولولا البعثة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام؟

ونرجع إلى الحاضر أيها السادة ، ونقارن بين مستقبل الأمَّة العربية وقد احتضنت الرسالة المحمدية كما احتضنتها في السابق وأدمجت شخصيتها فيها ، وقامت تدعو إليها ، وتكافح في سبيلها ، وبين مستقبل هذه الأمة ، وقد تجرَّدت عن هذه الرسالة ، وتخلَّت عنها ، وانطوت على نفسها ، واقتصرت على القومية العربية ، ودعت إلى حضارتها الأولى وآدابها العربية التي سبقت الإسلام.

خذوا أيها السادة أكبر ورقة بيضاء تجدونها ، وخذوا قلماً لا ينقطع مداده ، وارسموا قمَّة المجد التي تستطيع الأمة العربية ، المتجرِّدة عن الرسالة الإسلامية والريادة المحمدية ، أن تصل إليها ، ارسموا هذه القمَّة بكل سخاءٍ وشجاعةٍ ، وارفعوها في إطار الواقع والإمكان العملي ما استطعتم ، هل تزيد هذه الأمة على أن تكون كالشعب الهندي ، أو الشعب الياباني في الشرق ، أو الشعب الفرنسي ، أو الشعب الإنجليزي في الغرب ، إنه أقصى ما يصل إليه شعبٌ في حدود القومية ، ولا أريد أن أثير الآن مسألة العدل والظلم ، والحقِّ والباطل ، وهل يجوز لشعب أن يستعبد شعباً آخر ، وأن يحتلَّ بلاداً أخرى ، ولكن هذا مدى القومية ، وهذه آفاقها ، وهذه أقصى حدودها.

أين هذه القمَّة ـ مهما عظمت وتعالت ـ من منصب الثِّقة العالمية التي كانت تتمتَّع بها هذه الأمة ، وهي أمَّة الرسالة وهي أمَّة الإخلاص والتجرُّد؟ وأين هي من منصب الهداية والأمانة الذي كانت تتمتع به وهي أمة العقيدة والإيمان؟ إن نتيجة الوضع الأول ـ الوضع القومي ـ الأحقاد ، والضغائن ، والثورات ، والحروب والصِّراع الذي لا يكاد ينتهي ، ونتيجة الوضع الآخر ، ـ الوضع الديني ـ الألفة ، والمحبة ، والتقدير ، والاعتراف ، والهدوء ، والسلام. إنَّ الرسالة المحمدية قد بلغت بالعرب إلى قمة المجد الحقيقي ، والسيادة الحقيقية ، حيث خضعت لهم القلوب والرقاب ، ودانت لهم العباد والبلاد ، وامتلأت لهم القلوب حباً وحناناً ، ونصيحةً وإخلاصاً.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

ولم يعرف التاريخ فاتحاً أحبَّه المفتوحون غير العرب ، وقد اعتبروهم مرشدين ، ومنقذين ، ومحرِّرين ، لأنَّ الرسالة التي كانوا يحملونها هي رسالة فيها الإرشاد ، وفيها الإنقاذ ، وفيها التحرير ، وفيها الرحمة ، وفيها الحياة ، وفيها العقل ، وفيها الإنسانية ، وهذه الرسالة كفيلةٌ بأن تبلغ

بالعرب اليوم إلى هذه القمَّة ، وأن تبوِّئهم مبوَّأ صدقٍ ، وأن تمكِّنهم في الأرض ، وتجعلهم أئمةً ، وتجعلهم الوارثين.

إنَّ الأمم أيها السادة القوميون لا تعيش بالحضارات ، ولا تعيش باللغات ، وإذا عاشت كانت حياتها قصيرةً ، ومصطنعةً ، وسطحيَّةً. إنَّ الأمم تعيش بالرسالات ، وقد سمعتكم كثيراً تقولون : «إنَّ العرب أمةٌ واحدةٌ ذات رسالة خالدة» فما هي هذه الرسالة ، إذا كانت الرسالة المحمدية ـ وهي أقرب الرسالات إلى الطبيعة العربية ، والأمَّة العربية ـ فلا مناقشة ، وإذا كانت غيرها فما هي أيها الأسياد؟ وهل هناك رسالةٌ خالدةٌ غير الإسلام؟ وهل هناك دعوةٌ ، أو توجيهٌ عالميٌّ يغيث الإنسانية المحتضرة ، والمدنية الغربية المنهارة ، ويمدُّ الغرب بالإيمان واليقين ، والثِّقة ، والقوَّة الروحية ، والإنسانية السَّامية؟ غير الإسلام ، الذي لا سبب فيه إلا أنَّه أتاكم عفواً من غير تعبٍ وتضحيةٍ ، وانتقل إليكم من آبائكم في التراث ، وعاش فيكم طويلاً من غير أن تدرسوه ، وتفقهوه.

لقد كان جديراً بكم أيها السادة القوميون أن تقتبسوا هذه الرسالة ، ولو كانت في أقصى العالم ، وعند أبعد الأمم ، وتتحفوا الأمة العربية بها لتعيش بها كريمةً قويةً ، وتتزعَّم بها العالم ، وبذلك تثبتون إخلاصكم ، وودَّكم ، ووفاءكم لهذا الأمَّة ، وتكونون قوميِّين صادقين ، فكيف وقد أشرقت هذه الرسالة من أفقكم ، وظهرت في لغتكم ، وتمثَّلت في أمَّتكم ، ووصلت إلى أقصى حدود العالم عن طريقكم.

إنَّ أعظم مجرمٍ قوميٍّ في حقِّ العرب ، وأضرَّ على هذه الأمة من هولاكو وجنكيزخان مَنْ يضعف صلتها بهذا الدين ، ومن ينضب في نفوسها معين الإيمان واليقين ، ومن يحول بينها وبين محمد ﷺ ، إنَّ مَن يرتكب هذه الجريمة هو الذي يحول بينها وبين محمد ﷺ إنَّ مَن يرتكب هذه الجريمة هو الذي يمهِّد الطريق لضياع هذه الأمة الكريمة ، وانهيارها ، وإفلاسها ، ويتآمر على وجودها ، وقوَّتها ، ويحوِّلها من أمَّةٍ مؤمنةٍ ، منظمةٍ قويةٍ ذات عقيدةٍ ، وهدفٍ ، ورسالةٍ ، وقائدٍ عام محبَّب إلى أمَّةٍ متشكِّلةٍ ضعيفةٍ

لا عقيدة لها ، ولا هدف ، ولا رسالة ، ولا قائد ، تجتمع القلوب على حبه ، وتجتمع الشعوب حول رايته. إنَّ هذا الخواء الذي تحدثه هذه الثورة المشؤومة لا يملؤه تنظيمٌ قوميٌّ ، أو حلفٌ عربيٌّ ، إنَّ الإيمان لا عوض له في حياة الأمم والأفراد ، وإنَّ الأنبياء لا يخلفون بالزعماء السياسيين ، وإنَّ الوعي القومي ، أو السياسي مهما تمَّ وقوي لا يمنح الأمَّة العقيدة الجازمة ، والدوافع النفسية العميقة إلى عمل الخير ، والأخلاق المستقيمة ، ولو أغنى هذا الوعي عن أمَّة لأغنى عن الشعوب الأوربية ، وما كانت فريسة التفسخ الخلقي ، والفوضى العقلية ، ولما تعرَّضت للنهاية الأليمة القريبة.

إنَّ أمماً هنا في الشرق بدأت تشعر بهذا الخواء الروحي ، والإفلاس في الإيمان والعقيدة ، وفقدان قائدٍ دينيٍّ روحيٍّ يجمع بين الشعوب والطبقات ، ويذيب اختلاف اللغات والثقافات ، ويغلب على العصبيات المحلية ، أو الحزبية ، والحزازات السياسية ، فقامت تبحث في تاريخها عن نبيٍّ أو قائدٍ روحيٍّ تجعله إماماً وقائداً ، وتدعو باسمه ، وقد أحيت الأمة الهندية حديثاً ذكرى «بوذا» ذلك الذي اضطهدت ديانته ونفتها من الهند في العهد القديم ، واحتفلت به الهند حكومةً وشعباً ، وقد نشط في ذلك كبار الملاحدة ، والزعماء السياسيين الذين لا يدينون بدينٍ ولا يؤمنون بعقيدةٍ ، وذلك كلُّه حرصاً على جمع شمل هذه الأمَّة العظيمة التي تتوزعها شعوب ، وطبقاتٌ ، وعصبيات ، وعلى إعادة الحياة والروح إليها.

فمن المؤسف المحزن المخجل أن يقوم في هذا الوقت في العالم العربي رجالٌ يدعون إلى القومية العربية المجردَّة من العقيدة والرسالة ، وإلى قطع الصلة عن أعظم نبي عرفه تاريخ الأديان ، وعن أقوى شخصيةٍ ظهرت في العالم ، وعن أمتن رابطةٍ روحيةٍ تجمع بين الأمم والأفراد ، والأشتات والأضداد. إنَّها جريمةٌ قوميةٌ تبذُّ جميع الجرائم القومية التي سجَّلها تاريخ هذه الأمة ، وإنها حركة هدمٍ وتخريبٍ تفوق جميع الحركات الهدامة المعروفة في التاريخ ، وإنها خطوةٌ حاسمةٌ مشؤومةٌ في سبيل الدَّمار القومي ، و«الانتحار» الاجتماعي.

إنني أعتقد أنَّ في القوميين رجَالاً مخلصين جادِّين ، لم يدفعهم إلى هذا التفكير الخاطىء إلا الحبُّ الزائد للعرب ، والحرص على مجدهم وعزِّهم ، والنزعة القومية التي طغت بتأثير الغرب على جميع الشعوب ، وأنَّهم لم يتعمقوا في هذه المسألة تعمُّق الخبير المفكِّر ، ولم يختبروا نتائج الحركة القومية المجرَّدة عن الإسلام الواسعة ، وما تجنيه على العرب أنفسهم من ويلاتٍ وخساراتٍ وتحوّلاتٍ عظيمة ، وأنهم لا يزنون شيئاً إلا في ميزان النفع للعرب ، وأنَّهم إذا قيل لهم: اتّقوا الله في العرب ، لم تأخذهم العزة بالإثم.

إلى أولئك المجرَّدين عن حمية الجاهلية ، الباحثين عن الحق ، التابعين للحقيقة ، أهدي هذه الكلمة المخلصة.

* * *

اسمعـي يـا سـوريــة

ألقى العلامة الندوي هذا الحديث بعنوان «اسمعـي يا سوريـة» في الإذاعـة السورية بدمشق نزولاً على رغبة بعض كبار علمائها ، أثناء زيارته الثانية لدمشق عام ١٩٥٦ م .

أحييك يا سورية تحية من أحبك صغيراً ، وعاش في ذكرياتك وأخبرك دهراً طويلاً ، لقد سمع في طفولته ملاحم الإسلام ، وفتوح الشام فعرف مدنك وقراك كما عرف مدن بلاده وقراها ودرس في شبابه تاريخ الإسلام فرآك تشغلين منه مكاناً واسعاً ، وتضعين إليه صفحات مشرقة لا يزال المسلمون يستمدون منها الإيمان ، ولا يزال العرب يذكرون بها العهد الذي كانوا يحكمون فيه نصف المعمورة .

أحييك يا سورية تحية من نفسي وعقيدتي وضميري ، فكل منها يتنافس في تحيتك ، وكل منها يدين لك بالفضل ، فقد غمرت نفسي بالسرور والإيمان ببطولة من بذل نفسه وأراق دمه على أرضك ، وقويت عقيدتي في انتصار الروح على المادة ، والفضيلة على الرذيلة ، وانتصار الروح على المادة ، والفضيلة على الرذيلة ، وانتصار قوة الإيمان على قوة السيف والسنان ، وقوة الأبدان ، وكثرة الأعوان ، وما اليرموك عنك ببعيد ، وما يوم حليمة بسر ، وأيقظت ضميري لفهم معان أسمى من السماء ، وأعذب من ماء بردى ، هي معاني الثقة بالله ، وعلو الهمة في سبيل الله ، والعطف على عباد الله ، والعدل بين الناس .

بحثوا عمَّن يقبل الزكاة فما وجدوه ، وخاف العصاة والمجرمون ، وارتدع القساة والظالمون ، تلك شخصية عمر بن عبد العزيز ـ سلام الله على عمر بن عبد العزيز ـ شخصيته كانت كوميض البرق وفلتة الدهر ، لم يزل التاريخ يحن إليها ، ولا تزال الإنسانية تصبو إليها وما من يوم إلا والإنسانية إليها أشد فقراً وأشد حنيناً ، فلو لم تكن لك يا سورية حسنة سوى هذه الحسنة ، ولو لم تنجب أرضك يا سورية غير هذا الوليد ، لكفاك فخراً وكفاك فضلاً على الإنسانية ، وشرفاً على البلاد .

وكم هنالك يا سورية من مناسبات كريمة تجدد ذكرك وتلفت الناس إليك ، فكم في مقابرك من عظماء الإسلام والأئمة الأعلام ، كم فيها من

المحدثين وعلماء الرجال كابن الصلاح والذهبي والمزي ، ومؤرخين كابن خلكان وابن عساكر ، وابن كثير ، وأبي الفداء ، وأئمة كالنووي وابن تيمية وابن القيم ، وصوفية كإبراهيم بن أدهم وأبي يزيد البسطامي ومحيي الدين ابن عربي .

وفي حجرك يا دمشق يرقد ذلك الأسد الذي ملأ الفضاء بزئيره ، وخلع قلب الغرب بشجاعته ، كما ملكه برحمته وإنسانيته الرفيعة ، ذلك الذي زحف إليه الغرب بأقياله وأبطاله ، وأسوده وأشباله ، وأجلب عليه بخيله ورجله ، فناهضه وحده، وكسره في «حطين» كسرة شنيعة لم يقم بعدها ، وحفظ على الإسلام حرمه وحرمته ، وعلى الشرق شرفه وكرامته ، ذلك صلاح الدين ـ سلام الله على صلاح الدين ـ فلولاه لانتهى العالم الإسلامي وتحطم الشرق ، وعاث وحوش الغرب في ربوعه يستأثرون بخيراته ويستبدون بحكمه ، ويتحكمون في أمواله وأعراضه ، ويضطهدونه في دينه وعقيدته ، ويرزؤونه في أخلاقه وروحه ، وكان العالم الإسلامي كله مستعمرة غربية ، وكان في عشرات «فلسطين» وعشرات «الجزائر» فلك يا سورية الكريمة منة على العالم الإسلامي وفضل على الشرق العربي في شخص صلاح الدين الأيوبي الذي ترعرع على أرضك ، وتنبل في تربية ملكك الصالح نور الدين ، ومنه تولى قيادة الجيوش ، وفي أرضك دفن .

لقد أتى عليك يا سورية ـ وكنت تسمين يومئذ الشام ـ حين من الدهر ، وأنت تحكمين أكبر قطعة من العالم المتمدن المعمور ، وكانت مملكتك العظيمة لم تكن لتقطع مسافتها في أقل من خمسة أشهر على أسرع جمل ، وكان الخراج يجبى إليك من الهند في الشرق ، ومن الأندلس في الغرب ، ولم يزل سلطانك يتقلص ، ودائرة نفوذك تضيق ، وحدود مملكتك تقصر وتنزوي حتى انطويت على نفسك ، واقتنعت بهذا القطر الذي يسمى «سورية» وتخليت عن القيادة العالمية ، فما السر في ذلك يا سورية العزيزة ، وما سبيل الرجوع إلى ذلك المركز العظيم؟

ولعلك تقولين: إن العراق هو الذي انتزع مني هذه الزعامة في القرن

الثاني الهجري ، وحلت بغداد محل دمشق فكانت مركز الخلافة ، وكانت عاصمة الإمبراطورية الإسلامية العظيمة!

ولكني أوجه نفس هذا السؤال إلى العراق ، فقد كان مصيره في منتصف القرن السابع كمصيرك يا سورية في القرن الثاني ، إن سبب هذه النكسة العظيمة التي واجهتها أنت وواجهها العراق بدوره أعمق مما ظننته .

واسمحي لي أن أشرحه ، إن سر عظمتك يا سورية وسيادتك على العالم كله ، سيادة دامت قرناً كاملاً ، هو أنك تزعمت هذه الأمة التي بعثت بعثاً جديداً وكلفت تبليغ رسالة إنسانية عالمية .

تقدمت أنت بشجاعتك وطموحك وهمة خلفائك الذين كانوا يحكمون في دمشق ، وتكفلت قيادة هذه الأمة ، فكان قادتك العظماء يفتحون البلاد ، وينشرون الإسلام ، وينشرون الدين والعلم ، ويعلمون الأخلاق والفضيلة ، والإنسانية والكرامة ، كذلك فعل محمد بن القاسم في الهند ، وطارق بن زياد في الأندلس ، وموسى بن نصير في المغرب ، فكان الفتح والرسالة مترافقين وكان قادتك رسل الخير والفضيلة ، ومشاعل العلم والإصلاح ، وكانت جيوشك جيوش الإنقاذ ، وكان رجالك رجال الإسعاف ، تخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، وتضع عنهم إصرهم والأغلا ل التي كانت عليهم ، وكان الناس في حاجة إلى هذه الرسالة حاجة الأرض الجدبة إلى الأمطار ، وكانوا في حاجة إلى الحكم العادل حاجة المسجون إلى الحرية فاستقبلوا رسله ورجاله وتفتحت لهم قلوبهم وبلادهم ، وارتمى العالم السليب الحزين في أحضانك كما يرتمي الطفل الصغير المذعور في أحضان أمه وأبيه ، وتكونت دولة من أعظم دول العالم ، وكانت لك وصاية على الشعوب والأمم .

ولكنك بدأت ـ ولا مؤاخذة يا سورية الحبيبة ـ تعتمدين على قوتك وفتوحك أكثر مما تعتمدين على قوة هذه الرسالة ، وتعنين بجمع الأموال ، أكثر مما تعنين بأخلاق الرجال ، وصلاح الأحوال ، وبدأ رجال الحكم ،

وعمال البلاد ، وجباة الأموال يتخلفون في أخلاقهم وصفاتهم ، وأصبحوا كسائر الحكام والعمال في سائر الدول والحكومات ، حتى لم يمض قرن على مملكتك العظيمة حتى صار الناس يشعرون بذلك في نواحي المملكة ، فقد حديث التاريخ أن رسل يزيد بن عبد الملك ذهبوا إلى رُخّج وسجستان لتحصيل الخراج والأتاوة المفروضة عليها، فقال لهم ملك هذه البلاد واسمه رتبيل: «ما فعل قوم كانوا يأتون خماص البطون سود الوجوه من الصلاة ؟ قالوا: انقرضوا! قال: أولئك أوفى منكم عهداً وأشد بأساً ، وإن كنتم أحسن منهم وجوهاً» ثم لم يعط أحداً من عمال بني أمية ولاعمال أبي مسلم على سجستان من تلك الأتاوة شيئاً .

فقد خضع لك العالم يا سورية في القرن الأول ، وقامت عليه وصايتك ، لأنك كنت تمثلين ديناً جديداً قضى الله بظهوره وانتصاره ، وتحملين الرسالة الكريمة التي تنقذ البشرية من الجهالة والظلم واستعباد الإنسان للإنسان ، ولا تعيشين لنفسك ولمصالحك وشهواتك ، بل تعيشين للعالم ولصالحه ولخير الإنسانية جمعاء ، فمشى العالم كله في ركابك وأحبتك الأمم المفتوحة ، ومتى أحبت الأمم المفتوحة فاتحها؟ فاختارت لغتك وثقافتك ودينك وعقيدتك أما وقد اشتغلت بنفسك وتخليت عن رسالتك ، فقد انقطعت صلة العالم بك ، وأصبحت قطراً من الأقطار ، ودولة من الدول .

ولكن شأنك غير هذا الشأن يا سورية العظيمة، إن موقعك الجغرافي ، وأهميتك الحربية ، وتاريخك الماضي ، وشعبك السليم المؤمن ، كل يشير إلى أنك خلقت لغير هذا وأنك تسيئين إلى نفسك وتظلمينها لو اقتنعت بالدون ، وزهدت في الزعامة العالمية !

ولكن كيف السبيل إلى ذلك ، والزعامة ليست بالأمر الهين ، وهنالك بلاد أوسع مساحة وأغنى في الوسائل والإمكانيات وأكثر عدداً وعدة ؟!

إن السبيل الوحيد إلى ذلك يا سورية أن تحملي الرسالة التي حملتها في عهدك الأول ، عهدك الزاهر الذهبي ، وأن تتبني تلك الدعوة التي تبنيتها في القرن الأول فتتملكك كما تملكتك في العهد الأول ، وتخلصين لها اليوم

كما أخلصت لها بالأمس ، وأن تجعلي العالم يشعر بحاجته إليك ، ويثق بإخلاصك ونفعك ، واحملي إليه رسالة الدين السماوي الذي أكرمك الله به منذ ثلاثة عِشر قرناً ، يوم كنت تعانين من ظلم الرومان وحيفهم، ما يعاني كثير من الشعوب اليوم من الظلم والاستبداد ، وشرور الاستعمار .

إن الأمم يا سورية ، لا تسود باللغات والثقافات ، ولا تسود بالمدنيات والقوميات، إنما تسود بالرسالات والدعوات والأهداف والغايات ، وكلما كانت هذه الرسالات أعم للشعوب والأمم وأعْوَد على الإنسانية بالخير والسعادة ، وكلما كانت هذه الأهداف والغايات أسمى وأعلى ، وأبعد عن الأغراض الشخصية أو الحزبية أو الإقليمية ، وأعرق في الإنسانية ، كانت سيادة هذه الأمم التي تحتضن هذه الرسالات ، وتدين بهذه الغايات أعمق وأرسخ وأوسع وأقوى ، ولا تزالين تملكين هذه الرسالة، وهي الرسالة التي حملتها إليه غزاة العرب ودعاتهم في العقد الثاني من القرن الأول، ولا تزالين تعرفين هذه الغاية السامية التي خرجوا لتحقيقها من جزيرة العرب .

دعي التردد يا سورية ، فلا أضر على الأمم من التردد وخذي بالعزم ، والأمر الجزم ، واحملي راية الإيمان والدعوة في الخارج ، وراية الإصلاح والتربية في الداخل ، وحاربي فساد الأخلاق والتحلل ، والميل الزائد إلى الملاهي ، والرخاوة والترف ، فلا بقاء لأمة ولا قوة على عدو بانحلال الأخلاق ، ورخاوة الأجسام ، والترف الفاحش ، واذكري أن من أسباب انتصار العرب تقشفهم في الحياة ، واحتمالهم للمشاق، ومن أسباب انكسار الرومان تنعمهم في الحياة وغلوهم في المدنية ، ولا تنسي أنك دائماً على الحدود فلا تضعي السلاح ولا تميلي إلى الدعة والراحة ، ولا تمكني الغواة والذين تجارتهم في الأخلاق والأعراض من إفساد شبابك وإضعاف العقيدة والقوة المعنوية .

لقد كانت لنا قومية نعتز بها يوم جاء رسلك ودعاتك إلى بلادنا ، وكانت لنا لغة لا نعدل بها لغة ، كانت لنا عصبية نقاتل في سبيلها ، فتخلينا عن كل ذلك واندمجنا في القومية الإسلامية العظيمة ، وعكفنا على دراسة اللغة

العربية الكريمة ، وتركنا العصبية القومية والحمية الجاهلية ، فالله يا سوريا الإسلامية ، لا تتمسكي بما أبعدتنا منه من النزعات الجاهلية والقوميات الضيقة ، ولا تقعي في الحمأة التي أخرجتنا منها .

لقد طار صقر قريش من أرضك ، فأسس في الغرب دولة وحضارة بقيت مدرسة الغرب ثمانية قرون، ولا يزال الغرب يدين لها في معرفة مبادئ الحضارة ومبادئ العلم والحكمة ، فأقبلي يا سورية مرة ثانية إلى الغرب برسالتك وأنت في مركز تستطيعين فيه أن توجهي الغرب إلى حضارته وحياته وتكملي بإيمانك وروحك ما ينقصه من إيمان وروح ، لقد كان اللائق أن تكون الاستفادة بينك وبين الغرب متبادلة ، وأن يكون التصدير بقدر التوريد ، فإذا أخذت منه مما يفوقك فيه وسبقك إليه من مصنوعات وآلات ، فكان اللازم أن تصدري إليه وتهبينه مما تفوقينه فيه من مبادئ وغايات ومما تفردت به من وحي ورسالات ، وإن الحضارة المثلى التي فيها سعادة الإنسانية هي التي تجمع بين الغايات الفاضلة والدوافع الحسنة ، وبين فرص العمل وقواه التي يتمكن بها الإنسان من تحقيق هذه الغايات والوصول إلى هذه الأهداف ، ولا شك أن هذه الحضارة لا تظهر إلى الوجود في هذا العصر ما لم يتعاون الشرق والغرب بعضهما مع بعض ولم يسهما في تكوينها وإبرازها ، ذلك بإيمانه وهذا بتنظيمه وعلومه ، فاعرفي يا سورية ضخامة مسؤوليتك وعظم الدور الذي تستطيعين أن تمثليه .

أما بعد ، فقد كان لك على بلادنا فضل ، ولا يزال ، وذلك عن طريق محمد بن القاسم الثقفي ، الذي سار إلى الهند بجيوش المجاهدين ودعاة الإسلام المؤمنين ، في عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي ، فأحبته الهند وخلدت ذكراه، وذاق كثير من أهلها طعم الإيمان ، وكان دخوله فيها فاتحة عهد جديد .

وما دفعني إلى هذا الحديث إلا تقدير هذه اليد البيضاء والحق القديم ، ولعلي قمت بذلك ببعض الواجب ، ووفيت شكر النعمة ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

* * *

العَوامِل الأسَاسِيّة لكارثةِ فلسطين

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في مدرج الجامعة السورية (جامعة دمشق حالياً) في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥١م، حضرها نخبة من علماء دمشق وأعيانها وكبار أساتذة الجامعة وأعضاء مجلس النَّواب، ورجال السلك السياسي، وعلق عليها المرحوم الدكتور مصطفى السِّباعي.

سادتي وإخواني! وفدت إلى الأقطار العربية العزيزة ، وقضية فلسطين هي شغلها الشاغل ، وحديث النوادي والمحافل ، وإنَّها لجديرة بأكثر من هذا ، لأنها قضية الكرامة والشرف ، وقضية الإيمان والعقيدة ، والفاصلة بين الموت والحياة ، وقد ساهمت ـ كفردٍ من أفراد هذه الأمة العظيمة التي نكبت في فلسطين ـ في التفكير في هذه القضية ، والبحث عن أسباب الفشل العميقة الحقيقية ، ورجعت إلى التاريخ ، فقارنت بين قضية فلسطين اليوم ، وبين المواقف الحاسمة في تاريخ هذه الأمة بالأمس؛ التي خرجت منها ظافرةً منتصرةً ، وتساءلت : ما هي المفارقات بين الماضي والحاضر ، وكم بين الأول والآخر؟ فخرجت من هذا التفكير والدراسة بنتائج ، أعرضها عليكم أيها السادة! كباحثٍ ورائد ، وأعتقد أنَّ جامعةً عربيةً كالجامعة السورية التي تتكفل بإنشاء الجيل الجديد؛ الذي سيواجه هذه المشكلة وجهاً لوجه ، أعتقد أنَّها خير مكانٍ للبحث العلمي ، والتفكير العميق في هذه القضية .

إنِّي أتقدَّم إليكم أيها السادة! بقولي : إن النتائج التي توصلت إليها؛ قد تثير العجب في أوساطٍ كثيرةٍ ، ولا تتفق مع ذلك المنهج الفكري ، وأسلوب البحث الذي تعودناه في هذا الموضوع ، ولكن أمانة التاريخ تدفعني إلى أن أقدِّمها إليكم ، وأدعو إلى النظر فيها ، ومعالجتها في أول فرصة .

أعتقد ، أيها السادة! أنَّ أسباب نكبتنا أعمق وأبعد مدىً من الأسباب التي يشير إليها الباحثون في هذا الموضوع ، وأطول عمراً من قضية فلسطين نفسها ، وفقد سبقت تلك الأسبابُ هذه القضية بكثير ، وبدأت تفعل فعلها في كيان الأمَّة من زمن بعيد ، وقد تمَّت فصولها في قضية فلسطين ، والذي انتبه لهذه العوامل الهدامة من قبل؛ لم يفاجأ بالنتائج ، ولم يستغربها .

إني أرى علامة الاستفهام ترتسم على وجوهكم الكريمة ، فأقول من غير

تأجيل مزيدٍ ، إنَّ هذه الأسباب تتلخص عندي في ثلاثة وجوه :

١ ـ ضعف الدافع النفسي والباعث الداخلي إلى الاستماتة والتفاني في سبيل العقيدة والمبدأ .

٢ ـ طغيان العقل على العاطفة ، والحذر من المغامرة واقتحام الأخطار .

٣ ـ فقدان الشخصية المركزية التي تملك القضية عليها مشاعرها وتفكيرها ، وتصبح همَّها الشاغل ، وتستولي عليها استيلاء كاملاً .

واسمحوا لي الآن بشرح هذه الوجوه بالترتيب :

إن قانون الجاذبية معلومٌ عند الجميع ، هذا القانون الذي يقتضي أن يصل كلُّ جسمٍ إلى مركزه ، ويهبط إلى الأسفل ، ولكننا نرى قوى كثيرة تعارض هذا القانون ، وتثور عليه ، وترفع أجساماً كثيرةً إلى الأعلى ، ولكن ينبغي لنا ألا ننسى أنَّ كلَّ ما نرى خلاف ذلك ، هو لعارضٍ يزول بزواله ، فإذا تركت الأجسام والأثقال وشأنها؛ هبطت إلى مركزها وسقطت ، كذلك النفوس أيها السادة! فطرت على حبِّ الحياة والراحة ، ولا تزال تؤثر الحياة ولا تعدل بها شيئاً ، وهي أسرع إليها من الماء إلى الجحور حتى يأتي قاسرٌ قويٌّ ، فيحولها من مجراها الطبيعي ، فتصبح تؤثر شيئاً أعلى من الحياة على الحياة ، وتؤثر في سبيله المتاعب على الراحة ، والصعوبة على السهولة .

إنَّ حبَّ البقاء والخلود غريزةٌ إنسانيةٌ ، لا تنفكُّ عنها ، ولعلَّها أقوى الغرائز الإنسانية وأوضحها ، وقد فطن لها عدو الإنسان الأقدم ، ورأى أنها أضعف جانبٍ في طبيعة الإنسان ، وضرب على هذا الوتر الحسَّاس ، وقال لأبي البشر ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه : ١٢٠] وسرعان ما انقاد لها ، واندفع إليها ، وليست المباني التاريخية الخالدة ، والآثار الباقية ، والأهرام الشامخة إلا رمزاً لغريزة حب البقاء والخلود وتجاوباً لها ، كما قال سيدنا هود لأمته : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء : ١٢٨ ـ ١٢٩] .

إنَّ تاريخ الإنسان ـ أيها السادة! ـ قصَّة الجري وراء الحياة وأسبابها ، وحبُّ البقاء والخلود ، والبحث عن أسباب السعادة والهناء ، والرَّاحة

والرخاء ، وصراعٌ مستمرٌ ، وكفاحٌ جارٍ في سبيل الاستئثار بها ، والحصول عليها؛ ولكن تتخلّلها فترات ـ قد تطول وقد تقصر ـ نرى فيها الإنسان يندفع إلى غاياتٍ أخرى يهون عليه الموت في سبيلها ، بل يطلبه ، ويجري وراءه ، كما كان يطلب الحياة ويجري وراءها ، ونرى فيها الناس يتهالكون على الموت في سبيل هذه الغايات ، كما يتهافت الفراش على النور ، ويتنافسون في أسبابه ، كما كانوا يتنافسون في الأموال والأولاد.

هذه هي الفترات التي وجدت فيها شخصيات ، مثلت للناس حقائق آمن بها الإنسان كما آمن بالحياة من قبل ، وأحبَّها ، واندفع وراءها ، كما أحبَّ الحياة ، واندفع وراءها ، بل أحبَّها فوق الحياة ، وأكثر من النفس والروح ، والأموال والأولاد ، فاستهان بكل ذلك في سبيل هذه الحقائق؛ ومن المقرَّر: أنَّ الإنسان لا يترك شيئاً إلا لشيءٍ أحبّ إليه منه ، وأعزّ لديه ، فلا يستهين بالحياة ، ولا يضحّي بالمال والولد إلا لشيءٍ أعزّ عليه من الحياة ، وأحبّ إليه من المال والولد.

إنَّ هذه الشخصيات تحدث انقلاباً في اتجاه الطبيعة البشرية ، إنَّها توجه غريزة حبِّ البقاء والخلود إلىٰ عالمٍ أوسع من هذا العالم الضيق ، وإلى حياةٍ أجدر بهذا الإنسان الطموح من هذه الحياة المقيدة المحدودة ، وتمثل المعاني الروحية والحقائق الغيبية ، فإذا هي أقوى سلطاناً وهيمنةً على النفوس والأرواح من اللذات والشهوات ، وأوضح ، وأثبت من الماديات والمحسوسات ، فتندفع آلافٌ من النفوس البشرية إلى هذه الحقائق ، وهي في طيِّ الغيب ، ووراء الحسِّ والمشاهدة ، بإيمانٍ أقوى من إيمان الماديِّ بالماديات ، وبيقينٍ أشدّ من اليقين الذي يقوم على التجارب والمشاهدات ، وتكون أحرص على الموت في سبيلها من عباد الحياة على الحياة ، هذه هي شخصيات الأنبياء ، وهذه هي فترات النبوة والإيمان في التاريخ الإنسانيِّ ، وهي لمعاتٌ مبعثرة على صفحات التاريخ ، تكتنفها ظلماتٌ كثيفةٌ طويلةٌ.

وأطول هذه الفترات أيها السادة ، وأعمقها أثراً؛ هي الفترة التي انبثقت من بعثة سيدنا محمد العربي ﷺ ، هي الفترة التاريخية التي أحدثت أعظم

تحولٍ في الأذواق والرّغبات ، وأعظم انقلابٍ في الاتجاهات ، تعرّف الناس بغايات أسمى وأعزّ من الحياة ، فاستهانوا بالحياة في سبيل الوصول إلى هذه الغايات ، كما يستهين الإنسان بالخزف والحصى في سبيل الجواهر الغالية ، تعرّف الناس فيها بحياةٍ حقيقيةٍ خالدةٍ ، حياةٍ لا نهاية لها ، ولا حزن فيها ، ورأوا أنَّ الشهادة قنطرة إليها ، فسارعوا إلى عبور هذه القنطرة ، وأحبُّوا كلَّ ما يقرب إليها ، وكرهوا كل ما يباعد منها ، ثملوا بالشوق إلى الجنة والحنين إليها حتى استطالوا الحياة ، واستبطؤوا الشهادة ، يقول الرسول ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فيرمي عمير بن الحمام الأنصاري تمراتٍ كان يأكلهنَّ ، ويقول: «لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه ، إنها لحياة طويلة!» ويقاتل فيقتل ، ويبايع رجلٌ من الأعراب ، ويقول للنبي ﷺ: «اتّبعتك على أن أرمى ها هنا بسهمٍ ـ ويشير إلى حلقه ـ فأموت فأدخل الجنة» ويلحُّ عمرو بن الجموح ، وهو أعرج شديد العرج ، على أن يشهد الحرب فيمنعه بنوه ويريدون أن يكفُّوه ، ويقول له الرسول ﷺ: «أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد» فيقول: والله إني لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة! ويقتل يوم أحد شهيداً.

ويسري هذا الشوق إلى الأحداث ، والغلمان الذين عُرفوا بحبِّ اللهو والراحة ، والفرار من الخطر ، فهذا عمير بن أبي وقاص يتوارى في الصفوف لئلا يراه النَّبيُّ ﷺ فيردّه لصغره ، ويره أخوه الأكبر سعد بن أبي وقاص ، فيقول: مالك يا أخي ، لأيِّ شيءٍ تتوارى؟ فيقول: أخاف أن يردَّني رسول الله ﷺ ، فإني صغيرٌ ، وأنا أحب الخروج لعلَّ الله يرزقني الشهادة ، ويقع ما يخافه عمير ، فيراه الرسول ، فيردُّه لصغره ، وهنا يلجأ الولد إلى الشفيع القديم الذي لا يردُّ الكرام شفاعته ، وهو البكاء ، ويرقُّ له رسول الله ﷺ ، وهو الرقيق الرفيق ، فيأذن له ، ويعلِّق له أخوه الأكبر السيف فإذا حمالته أكبر من جسمه ، فيعقد فيه عقدة ، ويقاتل ويقتل شهيداً ، وهذا رافع بن خديج وهو دون الخامسة عشرة من سنه ، يتطاول من شدَّة الشوق ليظنَّ الناس أنَّه كبيرٌ ، قد بلغ سن القتال ، ويردُّه رسول الله ﷺ ، فيشفع له الوالد الذي عُرف من فجر التاريخ الإنسانيِّ

بالحرص على حياة الولد ، والضَّنِّ بها ، يشفع له ، ويزفُّه إلى ميدان القتال بيده ، ويرى ذلك سمرة بن جندب من أتراب رافع ، فيقول: كيف تردُّني يا رسول الله ﷺ؟ وقد أجزت رافعاً ، ولو صارعته لصرعته ، فيأمر رسول الله ﷺ بالمصارعة ، فيصرع سمرةُ رافعاً ، ويسمح لهما بالدخول في صف المجاهدين.

هؤلاء هم الصغار الذين كانوا يتقدَّمون إلى الحرب ، ويتحيَّلون للدخول فيها ، ويتنافسون فيها ، وأنتم أيها السادة المعلِّمون ، ويا رجال التربية تعلمون كيف تستدرجون الصغار إلى المدرسة ، وهي ليست ساحة القتال خصوصاً في هذا العصر الذي حرَّمتم فيه التأديب الجسماني ، والعقاب المؤلم ، فما بال ساحة الحرب ، والولد العربيُّ كان يعرف أنَّ القتال جدٌّ لا هزل ، ولعبٌ بالسيوف والرماح ، لا بالكرات والأعواد ، لقد درستم التاريخ الإنسانيَّ دراسةً واسعةً ، فهل عرفتم في دورٍ من أدواره أمثال هؤلاء الغلمان ، وأمثال أولئك الشيوخ والشباب؟ وهل وجدتم في عصرٍ من عصوره هذا التنافس في القتال ، وهذه الاستهانة بالحياة ، وهذه الجسارة على الموت؟

هذه هي القوة التي انتقلت إلى العرب من تعاليم الرسالة ، فقهروا بها الأمم ، ودوَّخوا بها العالم ، وفتحوا نصف المعمورة في نصف قرن ، وأخضعوا بها أمماً لم تكن لتخضع للقوة الحربية ، فقد أخضعوا بها الرومان ، والفرس ، وهم يفوقونهم ألف مرة في العَدد والعُدَد ، وأخضعوا بها البربر في الغرب ، والترك والأفغان في الشرق ، والزُّطَّ والتكاكرة في السند ، وهي أمم لم تعرف الخضوع من زمنٍ بعيد ، ولم تدن لفاتحٍ من قرون ، وذلك لأنَّ العرب كانوا يقاتلون ، وهمُّهم الشهادة ، وأما أعداؤهم فهمُّهم الحياة ، شتَّان بين من يطلب الموت ، وبين من يطلب الحياة! وبين من يسعى إلى الموت بقدميه ، وبين من يدفعه براحتيه! وبين من يقاتل ليموت ويكرم بالشهادة ، وبين من يدافع ليعيش ، وينعم بالهناء والسعادة! لذلك كان العرب منتصرين في كلِّ معركةٍ ، لأنَّ من لا يبالي بالموت ينتصر دائماً على من يعبد الحياة ، ويقدِّسها ، ويقيِّد نفسه بها.

لقد كان مصدر هذه القوة هو الإيمان أيها السادة! الذي رفع النفوس من حضيض الشهوات والحرص على الحياة ، والعَضِّ عليها بالنواجذ ، والحذر من الموت إلى أوج طلب الشهادة ، والاستهانة بالحياة ، لقد كان هذا الإيمان قد قهر في العرب تلك الطبيعة البشرية التي دائماً تحرص على الحياة ، وتعاف الموت وتنجذب إلى الراحة والسهولة .

انحطَّ العرب مع الزمان في هذه القوة المعنوية التي امتازوا بها عن سائر الأمم ، ودبَّ إليهم داء الأمم من قبلهم : الحرص على الحياة ، والإخلاد إلى الراحة ، والاسترسال إلى الشهوات ، وجنت عليهم المدنية العجمية ، فرزأتهم في فروسيتهم التي اشتهروا بها في الجاهلية والإسلام ، وتركوا حياة البساطة والجلادة التي كانت من كبار أنصارهم على الأمم المريضة المسلولة في القرن السادس المسيحي ، إلى حياة التنعُّم ، والبذخ ، والرقَّة ، وهجمت عليهم في العهد الأخير الحضارةُ الغربية ، وفلسفةُ الحياة المادية فاكتسبوا منها تقديساً للحياة ، وتقديراً زائداً للمادة ، وضعفت بتأثيرها الدَّوافع النفسية إلى المخاطرة بالحياة ، وإيثار الآجلة على العاجلة ، وما خلف هذا الإيمان شيء يسمو بنفوسهم ، ويربط وحداتهم ، فأصبحوا لا إيمان يشعل قلوبهم ، ولا مبدأ جامع يجمع شملهم ، ولا غاية سامية تقهر شهواتهم ، وحزازاتهم .

أما الأمم المادِّيَّة فإن كانت قد أفلست في الإيمان ، ولكنَّها تعوضت منه مبادىء أخرى ، ومطامح وغايات ملكت عليها مشاعرها ، وتفكيرها ، وقهرت شهواتها ، وتغلبت على نزعاتها الفردية ، ووحَّدت أفرادها ، وجمعت شتاتها ، فأصبحت هذه الأمم تستميت في سبيل هذه المبادىء والغايات ، وتقاتل تحت رايتها ، وتنسى لها أحقادها ، وخلافاتها الداخلية ، وترتفع لأجلها من سفاسف الأمور ، والأنانيات الحقيرة ، والأغـراض الخسيسـة ، وتضحِّـي فـي سبيلهـا بنفـوسهـا ، ونفـائسهـا ، وتسترخص في ذلك كلَّ عزيزٍ وغالٍ ، وأصبحت هذه الغايات والمطامح ـ على علاَّتها ـ إيماناً وعقيدةً لهذه الأمم ، أكسبتها روحاً وقوة معنويةً

جديدةً ، وهذا الإيمان وإن كان لا يقاوم الإيمان العميق الذي يقوم على تعاليم النبوة ، ويتركّز على فكرة الآخرة ، ويحلُّ في قرارة النفس ، فإنَّه لا محالة ينتصر بقوته ، وجدّته على صورة الإيمان المجردة عن الحياة والروح ، وإنَّ هذه الحياة ، وإن كانت جاهليةً غير مؤسسةٍ على الإيمان والتقوى ، تنتصر بنظامها وتجرُّدها على الحياة التي لا غاية لها ، ولا رسالة ، حياة الأغراض والشهوات ، حياة المنافسات والمنازعات ، حياة المطامع الفردية والطموح الشخصي ، حياة الضغائن والأحقاد حياة العشائر والأفراد ، وليس النصر أيها السادة بالتفوق في الأسلحة والعتاد ، والبراعة في الأساليب الحربية؛ وطرق الدعاية ، إنَّ النصر بالتفوق في الإيمان بالمبادىء والغايات ، وتغلغلها في نفوس المحاربين ، والتضحية في سبيلها ، وفي قوة الدوافع النفسية والبواعث الداخلية إلى الحرب والموت في سبيل المبدأ والعقيدة ، وقد ضعفت هذه الدوافع النفسية إلى الجهاد والتضحية ، وذبلت أصولها في قلوبنا ، وانقطع عنها الغذاء والريُّ من زمان ، فالمهمُّ الأهمُّ هو إيجاد هذه الدوافع ، وتغذيتها ـ إن وجدت ـ مهما كلَّفنا من ثمنٍ ، وتعبٍ . إنَّ ضعف هذه الدوافع النفسية أكبر خطرٍ في حياة الأمة ، وأعظم خسارةٍ لها ، وزوالها كارثةٌ أشدُّ من كارثة الأندلس ، وفلسطين ، فإنَّ وجودها كفيلٌ باسترداد كلِّ ما فقدناه في الماضي والحاضر ـ إذا وجد التوجيه الصحيح والقيادة القويمة ـ أما إذا فقدنا هذه المحركات النفسية القويمة النزيهة التي أوجدها الرسول ﷺ بجهاده الطويل ، وتعاليمه النبوية ، وتربيته الحكيمة ، وشخصيته الفذَّة ، فقد فقدنا رأس المال ، وضيعنا مفتاح الحياة والقوة ، وأصبحنا لا نأمن على الموجود ، فضلاً عن أن نطمع في المفقود.

لا سبيل إلى إيجاد هذه الدوافع في ساحة القتال ، أو في ساعة القتال؛ لأنَّ القتال أوان الحصاد لا الزرع ، فمن لم يزرع لم يحصد ، وقد أهملناها ، وأهملنا أرض القلوب التي تنبت فيها من مدَّةٍ طويلة ، وكان كلُّ اشتغالنا بالعقول والأجسام ، والمظاهر والكماليات ، واسمحوا لي أن أقول بصراحةٍ: إنَّ نظام التعليم عندنا لا يخلو من التبعة والمسؤولية أيضاً ، فإنَّه

ما زال يعتني بالمواد والمعلومات ، أكثر مما يعتني بالمحركات والغايات ، وقد تبين أن تكدس المعلومات ، وتوفر الوسائل والآلات من غير المحركات الصحيحة ، والغايات الرشيدة ، يؤدي بالمجتمع والحضارة نهائياً إلى الانتحار ، وتلك نقطة الضعف في الحضارة الأوربية ، ودواؤها العضال الذي سوف يودي بحياتها ، وأخشى أن تكون نقطة الضعف وسبب الفشل في حياتنا كذلك ، وما فلسطين إلا نذيرٌ لخطرٍ شديد إذا لم يتدارك.

وأتحدث إليكم الآن أيها السادة عن النقطة الثانية ، وهي جناية العقل على العاطفة.

لا يستطيع أحدٌ أن يقلِّل من قيمة العقل ، وأن ينكر فضله ، وأن يعارض الرويَّة والأناة في قضايا الأفراد ، فضلاً عن الأمم ، ولكن مع كلِّ احترامي للعقل واعترافي بما له من فضل: أتجاسر ، وأقول: لا بدَّ لكلِّ أمةٍ من مغامر ، ومخاطراتٍ في بعض الأحيان ، وألا تعتمد على العقل وحده ، فإنَّ العقل ـ ومعذرتي إلى العقلاء ـ عرف من قديم الزمان بالتثبيط ، والتخويف ، والتأجيل ، فكم ثبَّط أقواماً عن المعالي ، وكم فعل فعل المكبرة في تضخيم الأخطار ، وكم أجَّل الفتح والظفر ، وكم ضيّع الفرص ، وفوَّت المغانم ، إنَّ القلب له أن يستشير العقل ، ويستعين به ، ولكن يحسن في بعض الأحيان أن يستبدَّ بالأمر ، ويتملَّك الزمام ، فلا خير في قلب لا يثور أبداً ، ولا يستبدُّ ، وقديماً قال الشاعر : إنما العاجز من لا يستبد.

إذا نظرنا في تاريخ العالم ، رأينا أنَّ أكثر الفتوح والوقائع العظيمة التي لا تزال موضع العجب ، يرجع الفضل فيها إلى العاطفة ، وروح المغامرة ، وأنَّ جلال هذا التاريخ الذي يملأ قلوبنا إيماناً ، وحماسةً ، ومهابةً ، من هذه المغامرات ، لو تجرد تاريخنا عنها ، لكان بكتابٍ رياضيٍّ أشبه منه بكتاب تاريخ.

إنَّ العاطفة التي تستمدُّ قوتها من الإيمان ، تبتدىء حيث ينتهي العقل ، وتفعل ما يعجز عنه العقل ، وإنَّ العقل يتهمها بالجنون ، والجهل ،

والتهوُّر ، ولكنَّـها خدمت العقل مراراً ، وأحسنت إلى العلم والحضارة أحياناً كثيرة ، فكم أغاثت العقل وهو ملهوفٌ ، وكم حرّرته وهو أسيرٌ ، وكم انتصرت له وهو مظلومٌ ، وكم أقامت دولة العلم ، وكم حمت الحضارة وأنقذتها من براثن الوحوش والهمج .

إنَّ صاحب الإيمان القويِّ يمضي ، ويغامر ، وينفذ إرادته ، ويقوم العقل القاصر معوقاً موهياً ، منذراً بسوء العاقبة ، فإذا نجح المؤمن في مغامرته وعاد منها ظافراً منتصراً ، عاد العقل ، فبرَّر فعله ، وأقام ألف دليل على صحته .

إنكم لا تنسون العهد الإسلامي الأول ، انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وقام أبو بكر الصديق بالخلافة ، وعظم الخطب ، واشتدَّ الحال ، ونجم النفاق بالمدينة ، وارتدَّ من ارتدَّ من أحياء العرب حول المدينة ، وامتنع آخرون عن أداء الزكاة إلى الصِّدِّيق ، ولم يبق للجمعة مقامٌ في بلد سوى مكة والمدينة ، وأصبح المسلمون كما يقول عروة بن الزبير كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية ، لفقد نبيهم ﷺ ، وقلَّتهم ، وكثرة عدوهم ، وأراد أبو بكر رضي الله تعالى عنه ـ والحال هذه ـ أن يبعث جيش أسامة إلى الشام ، تنفيذاً لرغبة رسول الله ﷺ ووصيَّته ، هنالك قام العقل معارضاً ، وقال : لا ، ليس من الرأي إقصاء هذا الجيش المنظم الوحيد ، وعاصمة الإسلام بارزةٌ للعدوِّ ، وعرضةٌ للغزو والنهب ، وقام أهل الرأي يقولون : إنَّ هؤلاء من المسلمين ، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك ، وليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين! وأبى أبو بكر إلا أن يجهِّز الجيش ، وقال : والذي نفس أبي بكر بيده! لو ظننت أنَّ السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة ، كما أمر به رسول الله ﷺ ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته .

وكان ما أراد أبو بكر ، وخرج أسامة بجيشه ، والعقل مقطِّبٌ جبينه ، عاضٌّ بنانه ، فلما رجع أسامة ظافراً منتصراً ، وكان لخروجه أحسن الوقع ، غيَّر العقل موقفه ، وها هو ذا يقول الآن في التاريخ : «كان خروج أسامه في ذلك الوقت من أكبر المصالح والحالة تلك ، فساروا لا يمرُّون بحيٍّ من

أحياء العرب إلاّ أرعبوا منهم ، وقالوا: ما خرج هؤلاء من قومٍ إلا وهم منعةٌ شديدةٌ ، فكفُّوا عن كثيرٍ مما كانوا يريدون أن يفعلوه»[١].

إنَّ تاريخ العرب أيها السادة حافلٌ بالمغامرات ، ولعلَّ العرب أكثر الأمم مغامرةً ، وإنَّ هذه المغامرات لها فضلٌ في بناء هذه الحضارة التي نعم في ظلها العقل ، والعلم ، والإنسانية.

ومن أعظم هذه المغامرات وأشدِّها خطراً في تاريخ الحروب سفر خالد بن الوليد بجيش كبيرٍ من العراق إلى الشام ، وقطعه لهذه المسافة الشاسعة المخوفة في خمسة أيام ، قال المؤرخون: كتب الصديق قبل اليرموك إلى خالد بن الوليد أن يستنيب على العراق ، وأن يقفل بمن معه إلى الشام ، فسار مسرعاً في تسعة آلاف وخمسمئة ، ودليله رافع بن عميرة الطَّائيُّ ، وسلك به أراضي لم يسلكها قبله أحد ، واجتاب البراري والقفار ، وقطع الأودية وتصعد على الجبال ، وسار في غير مهيع[٢] وفي مفاوز معطشة ، فلما فقدوا الماء نحروا النوق ، فشربوا ما في أجوافها من الماء ، وسقى الخيل ، ووصل في خمسة أيام.

ولا يزال اقتحام سعد بن أبي وقاص بالجيش الإسلامي في دجلة من أعظم المغامرات في تاريخ العالم ، قال المؤرخون: وقف سعد أمام المدائن ، ولم يجد شيئاً من السفن ، وتعذَّر عليه تحصيل شيءٍ منها بالكلية ، وقد زادت دجلة زيادةً عظيمة ، واسودَّ ماؤها ورمت بالزبد من كثرة الماء بها ، فخطب سعد الناس على الشاطىء وقال: ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم! قالوا جميعاً: عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل ، ثم اقتحم بفرسه دجلة ، واقتحم الناس لم يتخلف عنه أحد ، فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض ، حتى ملؤوا ما بين الجانبين ، فلا يرى وجه الماء من الفرسان ، والرجالة ، وجعل الناس يتحدَّثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض ، فلما رآهم الفرس يطفون على

---

(١) البداية والنهاية ـ الكامل لابن الأثير.

(٢) المهيع: الطريق الواسع البيِّن (ج) مهايع.

وجه الماء قالوا: «ديوانه ديوانه» يقولون: مجانين مجانين، ثم قالوا: والله ما تقاتلون إنساً، بل تقاتلون جنّاً![١].

ومن هذه المغامرات العظيمة ما فعله طارق بن زياد فاتح الأندلس. قال المؤرخون: لمَّا نزل طارق بالجزيرة الخضراء أمر بالسفن فأحرقت فجاءه رجالٌ من الجيش، ولاموه على فعله وقالوا له: لقد قطعت بنا الجبال، فكيف نرجع إلى بلادنا؟ إنَّ عملك لا يُقرِّه العقل، ولا يتفق مع الحكمة! قالوا: فضحك طارق، ووضع يده على السَّيف، وقال: إنما يحافظ على السفن ووسائل النقل والسَّلامة من يفكر في الرجوع، أما أنا فقد عزمت على البقاء في هذا البلد، والقتال إلى أن يكون لنا وطناً، أو يكون لنا مدفناً، وكانت مغامرته هذه من أكبر أسباب الظفر، فقد استطاع بعد إحراق السفن أن يقول: «أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدوُّ أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر!». فأثار ذلك فيهم روح الجهاد والاستماتة، وكان النصر؛ وعلى أساس هذه المغامرة التي نظر إليها العقل شزراً قامت دولة العقل والعلم، وقامت تلك المدنية الزاهرة التي كانت مفخرة العرب، ومدرسة الغرب.

هذا ومغامرة عبد الرحمن الداخل صقر قريش بالدخول في الأندلس، ومغامرات الرشيد في الصائفات، وسفره الشهير من بغداد إلى هرقلية في أشدِّ أيام البرد، وتأديبه نقفور، وغزوات المعتصم في بلاد الروم، معروفةٌ في التاريخ، وما يوم حليمة بسرٍّ.

هذه هي روح المغامرة التي امتاز بها العرب في عهدهم الأول عن الأمم التي فقدتها، وقعد بها الإسراف في التفكير والحذر من المخاوف، فجبنت وذلَّت، وفقدت مُلكها، وشرفها، واكتسحتها الفتوح العربية، وعصفت بها، فأصحبت أثراً بعد عين، وعاد العرب في العهد الأخير، فتسلط عليهم العقل المثبِّط والعلم المعوِّق، وأحجموا عن الإقدام والاقتحام، وبالعكس تعلم غيرهم كيف يخاطرون بحياتهم، وكيف ينتهزون الفرص،

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٦.

وتاريخ الحروب الأخيرة في أوربا ، وتاريخ الاحتلال الأوربي في الشرق في القرن التاسع عشر حافلٌ بالمغامرات والخطوات الجريئة ، والإقدامات السريعة ، ولا يغير هذه الأوضاع القائمة في الشرق العربي إلا أن يربي العرب فيهم ـ مع الحكمة التي لا بدَّ منها ـ روح المغامرة الأولى ، وسرعة التنفيذ ، وجرأة الإقدام ، ويعملوا بقول شاعرهم الذي يقول:

إذا هـمَّ ألقـى بيـن عينيـه عـزمـه ونكَّب عن ذكر العواقب جانبا

إنَّ قضية فلسطين سهلةٌ هيِّنةٌ ، وانتصار العرب مضمونٌ؛ إذا كانوا أحراراً في تصرُّفهم ، مالكين لزمامهم ، مدبِّرين لسياستهم ، مغامرين بأرواحهم وجنودهم ، محكمين لسيفهم وسنانهم ، واثقين بنصر الله ، معتمدين على سواعدهم فقط ، متمردين عن المادة والشهوات ، مصمِّمين على الكفاح والجهاد.

وبقيت النقطة الأخيرة ، وهي النقطة الحسَّاسة في قضايانا الملتوية ومشاكلنا المتعقدة ، وهي فقدان الشخصية التي تملك القضية عليها مشاعرها وتفكيرها ، وتصبح همَّها الشاغل ، وتستولي عليها استيلاءً كاملاً.

لقد تتبعت أيها السادة! التاريخ ، واستعرضت المواقف الحاسمة ، والساعات العصيبة في تاريخ الأمة ، وفي التاريخ العام؛ فرأيت على رأس كلِّ قضيةٍ منها ، وفي كلِّ أزمةٍ ، ومحنةٍ تتهدد كيان هذه الأمة ، وتتحدَّى شرفها ، وكرامتها رجلاً من العصاميين يستولي على قلبه الحزن ، والاهتمام بهذه الحالة ، فيذهل عن نفسه ، وأهله ، ويهجر راحته ، ولذَّته ، وتتلخَّص الحياة عنده في حلِّ هذه الأزمة ، وفضِّ هذه المشكلة ، فلا يقرُّ له قرار ، ولا يهدأ له بال حتى تنجلي هذه الغمرة ، ويرى نفسه مكلفاً بذلك ، فقد خلق له ، وأمر به ، ولا يرى لنفسه عذراً في الاعتزال والانصراف إلى النفس والعيال ، وإليكم بعض الأمثلة عن تاريخنا.

لقد علمتم ما أصاب المسلمين على إثر وفاة الرسول ﷺ من المحن ، فقد أصيبوا بما لم تصب به أمَّـةٌ أو جماعةٌ في فجر حياتها ، وأشرفت الدعوة

الإسلامية على الضياع ، حسبكم قول عروة بن الزبير: إنَّ المسلمين كانوا كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى قد قيَّض لهذه المحنة أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، فقام قيام الأنبياء ، وليس بنبيٍّ ، وركز فكره ، وهمَّه على حراسة هذا التراث العظيم ، وردَّ الأمر إلى نصابه ، وأفرغ روحه في ذلك ، وملكته هذه الفكرة حتى نسي نفسه ، وكلَّ ما عدا ذلك ، وكان رجلاً غير الرجل ، لقد عرف بالرفق الزائد ، وإيثار جانب اللين دائماً على جانب الشدَّة والعنف ، فتصلَّب ، وخشن في هذه المرَّة ، حتى فاق في ذلك عمر بن الخطاب المعروف بالشدَّة والصلابة؛ لأنَّ الموقف يطلب ذلك ، رأى أبو بكر أنه القائم على هذه الأمانة العظيمة ، والمسؤول عنها ، ففاضت على شفتيه تلك الكلمة البليغة المأثورة التي تمثل نفسيته ، وشعوره خير تمثيل «أينُقصُ الدين وأنا حيٌّ؟» وبهذه الغيرة الملتهبة ، والقلب المتألم ، والنـفس الأبيَّـة ، استطاع أبو بكر أن يحفظ هذا الدين ويورثه الأجيال القادمة كاملاً غير منقوص. قالت عائشة رضي الله عنهـا: «لما قبض رسول الله ﷺ ارتدت الـعرب قاطبـة ، واشرأب النفـاق ، والله لقد نزل بأبي مالو نزل بالجبال الراسيات لهاضها! وصار أصحاب محمد ﷺ كأنَّهم معزىً مطيرةٌ في حشٍّ في ليلةٍ مطيرةٍ بأرضٍ مسبعةٍ. فوالله ما اختلفوا في نقطةٍ إلاَّ طار أبي بخطمها وعنانها وفصلها» لذلك يقول أبو هريرة بحقٍّ: «والله الذي لا إله إلا هو ، لولا أنَّ أبا بكر استُخلِف ما عُبد الله!» قالها ثلاثاً.

وأضرب لكم مثلاً ثانياً من أوساط الناس نعرفهم كملوكٍ ، ورجال دنيا: تدفقت الجيوش الصليبية من أوروبا ، واكتسحت فلسطين بما فيها من إماراتٍ ، ومقدساتٍ ، وكانت كالجراد المنتشر ، ولم يقف في طريقها ملكٌ ، ولا جيشٌ ، وعجزت الحكومات الإسلامية عن مقاومتها ، فاستولت على البلاد ، والعباد ، وهدَّدت هذه الأمة العظيمة وحضارتها ، وكان الخطب جسيماً ، ووقف العالم الإسلاميُّ على مفترق الطرق ، فلو جرت الأمور إلى مجاريها لكان فريسة الاحتلال والاستعمار في القرن السادس كما كان في القرن التاسع عشر ، وكان الأمر أعظم من أن يقوم له

ملوكٌ وقوادٌ ، ويكون الدفاع عن القدس واستقلال العالم الإسلامي ، بعض همومهم أو من هوامش حياتهم. إنَّما كان ينبغي له رجلٌ يكون الأمر كلَّ همه. كان ذلك الرجل السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي اختاره الله لهذه المهمَّة ، وهيَّأ هو نفسه لها. فقد حكى عنه صاحبه القاضي بهاء الدين المعروف بابن شدَّاد المتوفى سنة ٦٣٢هـ أنَّه تاب عن المحرمات ، وترك الملذات ، ورأى أنَّ الله سبحانه وتعالى خلقه لأمرٍ عظيمٍ لا يتفق معه اللهو والترف.

قام صلاح الدين للدِّفاع عن فلسطين ، وردِّ الغارة الصليبية ، وركَّز فكره عليه ، وتفرَّغ له ، واستولت عليه هذه الفكرة استيلاءً تامّاً حتى لم تدع لغيرها موضعاً. وإليكم ما قاله ابن شدَّاد في سيرته:

«ولقد كان حبُّه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً ، بحيث ما كان له حديثٌ إلا فيه ، ولا نظرٌ إلا في آلته ، ولا كان له اهتمامٌ إلا برجاله ، ولا ميلٌ إلا إلى من يذكره ويحثُّ عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله ، وأولاده ، ووطنه ، وسكنه ، وسائر بلاده ، وقنع من الدُّنيا بالسكون في ظل خيمته ، تهبُّ بها الرياح ميمنةً ، وميسرةً ، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرَّب إليه يحثه على الجهاد»[١].

وقد حمل السلطان همَّ القدس ، فأخذ منه كلَّ مأخذٍ ، وحلَّ في قرارة نفسه. قال ابن شدَّاد: «وكان رحمه الله عنده من القدس أمرٌ عظيم لا تحمله الجبال»[٢]. ومهما حاولت أيها السادة أن أصف هذا الهم الذي استولى على صلاح الدين ، وأصوّرَ ما كان فيه من قلقٍ ، وإزعاج دائم ، وشدَّة اهتمام باسترداد البلاد ، وتحرير القدس وردِّ الأوربيين على أعقابها ، لا أستطيع أنْ أزيد على وصف ابن شداد له بالوالدة الثكلى ، ولا أستطيع أن آتي بتعبير أبلغ وأدقَّ من هذا ، ويقول رحمه الله في وقعة عكَّا:

---

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ١٦ .

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٢٣ .

«وهو ـ السلطان ـ كالوالدة الثكلى ، يجول بفرسه من طلب إلى طلبٍ ، ويحثُّ الناس على الجهاد ، ويطوف بين الأطلاب بنفسه وينادي بالإسلام ، وعيناه تذرفان بالدموع. وكلَّما نظر إلى عكَّا ، وما حلَّ بها من البلاء ، وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم؛ اشتدَّ في الزحف ، والحثِّ على القتال ، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاماً البتة ، وإنما شرب أقداح مشروبٍ كان يشير بها الطبيب»[1] . ويقول في فتح الطريق إلى عكَّا :

«والسلطان يوالي هذه الأمور بنفسه ، ويكافحها بذاته لا يتخلَّف عن مقام من هذه المقامات ، وهو من شدة مرضه ، ووفور همَّته كالوالدة الثكلى ، ولقد أخبرني بعض أطبائه أنَّه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه»[2] .

وقال في ذكر الواقعة العادلية :

«لقد رأيته رحمه الله قد ركب من خيمته وحوله نفرٌ يسير من خواصِّه والناس لم يتمَّ ركوبهم ، وهو كالفاقدة ولدها ، الثاكلة واحدها»[3] .

بهذا الهمِّ الشاغل ، والنفس القلقة ، والقلب المنزعج ، استطاع صلاح الدين أن يكمل مهمَّته ، ويكتسب الفتح المبين في معركة حطِّين. وما كان اجتماع الجيوش عنده ، والتفات الأمراء ، إلا صدىً لقلبه الخفاق ، وإيمانه الفيَّاض ، وصدره الجائش ، وروحه الملتهبة ، ولا ترون انتصاراً باهراً في التاريخ ، ومعركةً حاسمةً ، إلا من ورائها قلبٌ يخفق ، وعرقٌ ينبض ، وليثٌ يثور ، وشجاعٌ يغضب.

إنَّ موضع الضعف في جهادنا أنَّنا لا نجد في الشعوب العربية

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ١٥٥ .

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٩٥ .

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ١١٢ .

والحكومات والأفراد ، من يتبنَّى هذه القضية ، ويتجرَّدها تجرُّد رجلٍ مَرِض وحيدُه ، أو قامت عليه قضية ، فإذا تهاون في الدفاع عوقب عقاباً شديداً ، وعلامة ذلك أيها السادة! وجود هذه الحزازات ، والنزاعات ، والمنافسات بين الحكومات ، والأحزاب ، والأفراد؛ ومعركة فلسطين قائمةٌ ، والعدوُّ بالمرصاد ، فهل سمعتم بأسرة يمرض عزيزها ، أو عميدها ، ويشتدُّ به المرض ، ويتعرض للموت ، ورجال هذه الأسرة من إخوةٍ ، وأعمامٍ ، وأخوالٍ يتنازعون في العمادة ، أو السيادة ، ويتشاغلون بذلك عن علاجه وتمريضه. إن دلت هذه الظاهرة على شيءٍ فإنَّها تدلُّ على عدم تعلق قلوبهم بالمريض ، أو موت الإنسانية فيهم . إنَّ مسؤولية فلسطين قد قسمت على شعوب كثيرة ، ولكن لا يرى شعبٌ أنه أولى بهذه القضية من غيره؛ مع أنها قضية الجميع ، وكلُّ بلد عربيٍّ في خطرٍ إذا قصر فيها ، أو تهاون ، ثم إنَّ الديمقراطية قسمت المسؤولية على الشعب كلِّه ، ولكن إذا لم يضطلع بها أحدٌ فهي ضائعةٌ بين أفراد الشعب والرؤساء ، لا يرى أحد نفسه مسؤولاً عنها ، ولا يراها قضيته الشخصية .

ولكن مهما كان؛ فلا داعي إلى اليأس ، ولا محلَّ للتشاؤم ، فالنَّبع الذي تنبع منه الدوافع النفسية ، والبواعث الداخلية ـ وهو الإيمان ـ لم ينضب في صدر الأمة ، ويمكن إثارته في كلِّ وقتٍ ، وإنَّ العاطفة التي تبعث على المغامرات لا تزال قويةً تنتظر الانطلاق ، وإنَّ الأمة لم تصب بالعقم ، وقد أنجبت في كلِّ محنةٍ وأزمةٍ أفراداً واجهوا المشكلة وجاؤوا بالعجب العجاب ، وعسى أن تكون فلسطين سبب بعثٍ جديدٍ لهذه الأمة ، ويقظةٍ عامَّةٍ للشرق العربي .

وأنا أختم حديثي هذا أيها السادة! بترجمة أبياتٍ لشاعرنا العظيم الدكتور محمد إقبال؛ الذي يقول :

«إذا رأيت النجوم شاحبةً منكدرةً تخفق؛ فاعلم أنَّ الفجر قريب ، ها هي ذي الشمس قد ذرَّ قرنها من الأفق ، وولى الليل على أدباره ، إنَّ عاصفة الغرب قد أعادت المسلم إلى الإسلام ، فإنما تكون اللآلىء في البحر

المتلاطم الهائج ، لقد دبَّ دبيب الحياة في الشرق ، وجرى الدم الفائر في عروقه الميتة ، وذلك سرٌّ لا يفهمه ابن سينا والفارابي ، إنَّ إقبال ليس يائساً من تربته الحقيرة فإنها إذا سقيت أتت بحاملٍ كبير» .

* * *

ارتـبـاط قـضيـة فـلسطيـن بـالـوعـي الإسـلامـيِّ

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في المؤتمر الإسلامي في دمشق في ٢٦ يونيو ١٩٥٦م حضره الأستاذ أبو الأعلى المودودي ، وعددٌ وجيهٌ من كبار العلماء وقادة الفكر من أنحاء العالم الإسلامي .

أيها السادة! يسعدني ، ويشرِّفني أن أتحدث عن مثل قضية فلسطين في مثل هذا المكان ، أتحدَّث عن هذه القضية إلى الصفوة المختارة من العالم الإسلامي الذي اجتمعت للتفكير فيها ، واتخاذ الخطوات السريعة الحاسمة في شأنها ، وإني أخاطب في شخصكم الكريم العالم الإسلامي ، وعقله الواعي ، وقلبه النابض ، فاسمحوا لي بالصِّدق ، والصَّراحة ، والإيجاز.

إننا اعتمدنا في حلِّ مشكلة فلسطين على العالم الإسلامي ، والوعي الإسلامي أكثر مما اعتمدنا على الحكومات ، والجيوش والأسلحة ، ولو ذهبت أنقل ما قاله القادة والمفكرون ، وما كتبوه في هذه الناحية لملأ الأسفار ، وهذا موقفٌ ليشرفنا ، ويبيِّض وجوهنا ، ويرفع رؤوسنا ، فإنَّ الاعتماد على الشعوب والجماهير ، وإنَّ الاعتماد على الوعي العالمي ، والشعور اليقظ لم يزل من شأن القضايا العادلة ، ومن شأن المظلوم السليب الذي غمط حقه ، من شأن المظلوم الذي يؤمن بأنَّه على حق ، ويؤمن بأنَّ الحقَّ لا يعدم ـ في دورٍ من أدوار التاريخ ـ من يعترف به ، ويغضب له ، وينتصر لصاحبه ، فكان هذا الاعتماد إيماناً بالضمير الإنساني ، وإيماناً بالضمير الإسلامي ، وكان إيماناً بأنَّ فلسطين ـ القبلة الأولى ومسرى الرسول ﷺ ـ ليست لأهل فلسطين ، ولا للعرب فحسب ، بل للمسلمين جميعاً والعالم الإسلامي بأجمعه ، وأنَّ العالم الإسلامي الذي يمتد من جزر المحيط الهندي إلى مراكش ، وتكوِّنه مجموعةٌ تكاد تكون أكبر مجموعة بشرية ، تلتقي على عقيدةٍ واحدةٍ ، ورسالةٍ واحدة ، لخليقٌ والله! وجدير كلَّ الجدارة بأن يعوَّل عليه ، ويرجع إليه في حلِّ كلِّ مشكلة من مشكلات النوع الإنساني ، وردِّ كلِّ عدوانٍ عن أيِّ أمَّةٍ من الأمم ، واسترداد كلِّ حقٍّ مغتصب ، والانتصاف من كلِّ ظالمٍ عاتٍ عنيد ، فضلاً عن مشكلةٍ واحدةٍ كمشكلة فلسطين ، فلا عجب إذاً أيها السادة! إذا اعتمدنا على هذا العالم

الإسلاميِّ في حلِّ مشكلة فلسطين ، وهي مشكلته ، وفي استرداد فلسطين ، وهي حقُّه.

ولكن اسمحوا لي أيها السادة أن أسأل : ماذا تعنون بالعالم الإسلاميِّ؟ أتعنون به: مجموعة بشرية ، تسكن في ساحةٍ واسعة ، وتعيش كما تعيش الأمم ، من غير عقيدةٍ وخلقٍ وعملٍ؟ إني أجلِّكم وأربأ بعقولكم الناضجة عن هذا التفكير ، فما صلة قضية فلسطين ـ وهي قضيةٌ تقوم على العقيدة والشعور والعاطفة ـ بهذه القطعان البشرية التي تعيش بغير عقيدةٍ ، وغايةٍ ، ورسالةٍ ، وما غناؤها في حلِّ مشكلةٍ ، كمشكلة فلسطين؟!

إنِّي أسبقكم وأقول لسادتكم: إننا إذا اعتمدنا على العالم الإسلامي؛ فقد اعتمدنا على تلك القوة الكامنة في نفوس هذه الأمَّة العظيمة التي تسكن في هذه المنطقة ، هذه القوة الكامنة التي صنعت المعجزات في الماضي ، وجديرةٌ بأن تصنعها في الحاضر ، هذه القوة التي انتزعت هذه البلاد كلَّها من أيدي الروم الظالمين ، وأفاضت عليها حياةً جديدةً ، ونوراً جديداً ، وضمنت لها أقداساً جديدة إلى قدسها القديم ، هذه القوة التي لم تعرف الحور ، ولم تعرف الهزيمة ، ولم تفهم لغة الأرقام ، ومنطق الأسباب والعدد ، هذه القوة التي لا أجد لها تعبيراً في لغات البشر جمعاء أبلغ من (الإيمان).

إنَّ هذا الإيمان وما ينتجه من أسلوبٍ للحياة ، ونوعٍ من الأخلاق ، هو سمة هذا العالم الإسلامي ، وقوته ، وسلاحه ، وهو القوى الكبرى التي اكتشفها البشر ، وعرفها التاريخ ، وهو القوة الكبرى التي اكتشفها البشر ، وعرفها التاريخ ، وهو القوة التي تخلق الحكومات ، وتخلق الأمم ، وهو كالمفتاح لكلِّ قفل من أقفال الحياة البشرية ، فإذا اعتمدتم عليه ؛ فقد اعتمدتم على أكبر قوةٍ يملكها الإنسان ، وإذا وجدتموه؛ فقد ملكتم المفتاح الذي تفتحون به كلَّ قفل.

فهل استعرضتم العالم الإسلاميَّ الذي تعتمدون عليه في حلِّ هذه المشكلة؟ وهل استعرضتم أيها السادة! قوة الإيمان والوعي الإسلامي التي

تعتمدون عليها في تمكُّن العالم الإسلامي من حلِّ هذه المشكلة؟ وهل تعرفون ما جدَّ فيه من حوادث ، وتطورات ، وما فعلت به العوامل القوية في الزمن الأخير؟ .

إني أخاف ـ ومعذرتي من هذه الصَّراحة ، ومن هذه المرارة ـ أنكم تتصورون عالماً إسلامياً يعيش في التاريخ أكثر مما يعيش في واقع الحياة ، ذلك العالم الجميل الرائع الغيور الذي لا يظلم ، ولا يسمح بالظلم في أيِّ مكان ، ذلك العالم الذي لا يأخذ حقَّ غيره ، ولا يتنازل عن حقِّه ، ذلك العالم الذي إذا نادت في ناحيةٍ منه عجوزٌ : وامعتصماه! أجاب المعتصم في ناحية أخرى : لبيك! هذا العالم الذي كان يعتبر كلَّ فردٍ منه نفسه مسؤولاً عن كلِّ شبرٍ من أشبار هذا العالم الواسع ، ويرى هذا العالم الإسلامي على سعته وطناً واحداً ، ويرى هذه الأمة جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى ، ذلك العالم الذي كان كلُّ فردٍ من أفراده يحنُّ إلى الشهادة في سبيل الله ، كما يحن الواحد إلى الحياة .

هذا العالم ـ أيها السادة! ـ لا تقع فيه كارثةٌ ككارثة فلسطين ، وإذا وقعت؛ فإنها تعالج في أقصر وقت ، وأقرب مدَّة .

أما العالم الإسلامي اليوم فلا تؤاخذوني إذا قلت : إنه فقد ـ على حين غفلة من الدعاة والمربين ـ شيئاً كثيراً من معنوياته والعناصر التي تكوِّن شخصيته ، هي الإيمان بالغيب ، إيماناً يفوق إيمان الماديين ، وإيثار آجل الآخرة على عاجل الدنيا ، والاستهانة بزخارف الدنيا ومتعها ، والاستقامة على الحقِّ والتفاني في سبيله ، والحمية الدِّينية ، فكانت هذه النكسة في النفس هي السبب الحقيقي للنكسة الفظيعة التي واجهها العالم الإسلامي في جميع ميادين الحياة ، وسبب كلِّ النكبات التي نكب بها في العصور الأخيرة .

لقد مزقتنا حوادث العصر الأخير ، ونحن نتصور ذلك العالم الإسلامي الذي كان يعيش في القرون الأولى ، أو يعيش في أذهاننا ، وتصوراتنا ، فلجأنا إلى ذلك العالم نطلب فيه الحل لهذه المشكلات الطريفة ، ونستمدُّ

منه القوة والزاد ، فإذا بنا نفاجأ بدم جديد لا عهد لنا به ، ولا غناء لنا فيه في هذه المشكلات ، وفي هذه النكبات ، فكانت مفاجأةً أليمة تهزّ مشاعرنا وتبخِّر آمالنا ، واسمحوا لي أيها السادة! أن أنقل ما كتبته قبل عدة سنوات في هذه الموضوع ، ولا أرى أنه يحتاج إلى تعديل.

«لقد أتى على العالم الإسلامي حينٌ من الدهر ، وهو مستخفٌ بهذه القوة المعنوية ، ولا يحتفل بها ، ولا يحتفظ بالبقية منها ، ولا يغذيها ، حتى نضب معينها في قلبه ، فلما خاض العالم الإسلامي المعارك التي تحتاج إلى الإيمان ، والصبر ، والثبات ، وتحمُّل الشدائد والنكبات ، وزلزل بعض الزلزال ، ولجأ إلى القوة المعنوية الكامنة في نفوس المسلمين ، كانت كسرابٍ بقيعةٍ ، يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، هنالك عرف أنَّه جنى على نفسه جنايةً عظيمةً بإهمال هذه القوى الرُّوحية ، وتضييعها ، وبحث في جعبته ، فلم يجد شيئاً ليسدَّ مكانها ، ويغني غناءها.

وخاض العالم الإسلامي معارك حاسمةً ، وهو يرى أنَّ المسلمين لا بدَّ أن يُهرعوا للدفاع عن الإسلام ، وحماية بلادهم المقدسة ، وسيغضبون لله ولرسوله وحرماته ، وأنَّ الأقطار الإسلامية ستشتعل ناراً ، وتتوقَّد حميَّةً وحماساً ، فإذا الحادث لم يؤثر في المسلمين التأثير المنتظر ، وإذا النصر ضئيل ، والسخط خافت ، وإذا المسلمون كعادتهم في غدواتهم ، وروحاتهم منهمكين في لذاتهم وشهواتهم ، كأن لم يحدث كبير شيءٍ ، فعرف أنَّ الحمية الدينية قد ضعفت في المسلمين ، وأنَّ شعلة الجهاد قد انطفأت ، أو كادت ، وهنالك عرف الناس ضعف العالم الإسلامي ، وخذلانه ، وهوانه على أنفسهم».

وبعد ذلك أقول: إن العالم الإسلامي على ضعفه وانحرافه مستعدٌّ كلَّ الاستعداد ، ليكون ذلك العالم الإسلامي السليم القوي الدافق بالحياة الذي يصح الاعتماد عليه في حل المشكلات الإنسانية كلِّها ، فضلاً عن مشكلةٍ واحدةٍ ، ولو كانت ضخمةً معقدة ، كمشكلة فلسطين.

إنَّه مستعدٌّ ليكون ذلك ، لأنَّه لا يزال مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالنبوَّة المحمدية ، على صاحبها الصلاة والتحيَّة ، إنَّه لا يزال متصلاً بمنبع الحياة والقوة ، ومصدر النور والفيض ، إنَّه ليس كالأمم والمجتمعات البشرية التي انقطعت صلتها عن النبوات ، ورسالات السماء ، إنَّه إذا ذكِّر ؛ ذكر ، وإذا نبه ؛ انتبه .

هذا العالم الإسلامي ـ أيها السادة! ـ في حاجةٍ إلى بعثٍ جديدٍ في العقيدة والإيمان ، والأخلاق ، والأعمال ، وبتعبيرٍ أدقَّ ، إنه ليس في حاجة إلى دينٍ جديد ، ولكنه في حاجة إلى إيمان جديدٍ بالحقائق الخالدة ، والعقائد الخالدة ، والرسالة الخالدة ، والدين الخالد ، وأنا أحمي سمعي ، وبصري ، ولساني ، وقلمي من أسمِّيه القديم ، فإنَّ الدين ليس فيه قديم ولا جديد ، إنه دينٌ واحدٌ ، وإنه دينٌ خالد ، ولكنِّي ألحُّ على أن أسمِّي الإيمان جديداً ، إنَّ من الإيمان ما هو قديم ، وإنَّ من الإيمان ما هو جديد ، إنَّ قوة الرعيل الأول ، والطراز المتقدم من هذه الأمَّة ، في أنَّه كان يحمل إيماناً جديداً ، فعجز الإيمان القديم الضعيف البالي الذي كانت تحمله بعض الأمم عن مقاومته ، وعجز العالم القديم الشائب عن مقاومته ، وكان كالشمس الجديدة التي تطلع على العالم ، فتسطع على كلِّ شيءٍ ، وتبهر كلَّ شيءٍ .

إنَّه قد جدَّت فتنٌ ، وجدَّت خطوب ، وجدَّت معارك فيتجدد الإيمان .

إنَّ هذا العالم الإسلامي يملك أعظم ثروة من الإيمان ، ولكنها ثروة دفينة تحتاج إلى إثارةٍ ، واستثمار .

إن الأسس التي تبنى عليها الحياة لا تزال موجودةً في هذه الأمة حين فقدتها الأمم الأخرى ، وضيعتها ، وهي أسس الإيمان ، فليبن عليها البناؤون ، وليقم عليها صرح الإسلام من جديد .

إذاً فالعالم الإسلامي في حاجةٍ إلى تجديد الإيمان ، الإيمان بالله ، والإيمان بالرسالة ، والإيمان باليوم الآخر ، إيماناً حقيقياً ، لا صورياً ، فإذا تحرَّك هذا الإيمان في النفوس ، وتحوَّل من الصورة إلى الحقيقة ،

وشمل الحياة كلَّها ، انحلت كلُّ مشكلةٍ ، وتفتَّح كل قفل .

إنَّ العالم الإسلامي لا يزال مجهولاً ، والناس في هذا الجهل طبقات ، فمنهم من يكون له في نفسه صورةٌ يعيش فيها ، إنه يبالغ في حسن الظنِّ به ، فيحمله ما لا يحمل ، ويطلب منه ما لا يملك ، إنَّه يرجو الثمرة من غير أن يعتني بالشجرة ، إنَّه يُهمل جانب الإيمان وجانب العقيدة ، ولكنه يُطلب منه أفعال المؤمنين الصادقين ، ويُتوقع منه أن يظهر منه ما ظهر من الجيل الإسلامي الأول ، وتلاميذ مدرسة الرسول الأعظم ﷺ من روائع البطولة ، وخوارق الجهاد .

ومنهم من يجهل طبيعته ، وعقيدته ، وتاريخه ، والقوى المودعة فيه ، والكنوز المدفونة في أرضه ، فيعامله معاملة أمَّة لا تدين بدين ، ولا تؤمن برسول ، ولا تحمل كتاباً ، فيعالج مشكلاته ، كما تعالج مشكلات أمةٍ جاهلية ، ويلتجىء في حلِّ مشكلاته ، وفتح أقفاله ، وعقده إلى كلِّ وسيلةٍ ، إلا الدين والعقيدة ، وإثارة الإيمان فيه ، فكلاهما في تعبٍ وصراع .

والواقع أنَّ العالم الإسلامي اليوم ليس في إيمانه ، وصلته بالله كالعالم الإسلامي في العصر الأول ، فلا نطلب منه ما يصدر عن إيمانٍ عميق ، متغلغلٍ في الأحشاء ، وليس ـ على علاَّته ـ كالأمم الجاهلية ، فتعالج مشكلاته بطرق مادية ، ووسائل صناعية ، إنَّه مؤمن ولكن إيمانه يحتاج إلى تجديد ، وإلى إثارةٍ وتحريكٍ ، وإلى تنظيم .

إنَّ قضية فلسطين كانت سبب الاتصال بهذا العالم الإسلاميِّ ، وكانت سبب الاطلاع على العالم الإسلاميِّ ، ولا أكون مجازفاً إذا قلت : إنَّها سبب اكتشاف هذا العالم الإسلامي ، فكانت قضية مباركة من هذه الناحية ، فقد عرفنا هذا العالم من جديد ، وعرفنا ما ينقصه ، وما يحتاج إليه .

فلنعمل على تكوين هذا العالم ، وبعثه من جديدٍ على أساسٍ من الإيمان والخلق ، ولنعرف أنَّ المفتاح الذي يفتح هذا القفل ، وكلَّ قفل من أقفال هذه الأمة ، هو وجود الإيمان القوي ، والوعي الإسلامي الصحيح في

الشعوب الإسلامية ، وهو الضامن بالانتصار في معركة فلسطين ، والكافل بالانتصار في كلِّ معركة ، والحافظ من كل خطرٍ ، ومن كل ضيم ، والسبب في كلِّ مجدٍ ، وفي كلِّ سعادة .

فليفكر قادة الرأي في العالم الإسلامي ـ وقد اجتمع منهم عددٌ مشرِّفٌ في هذا المكان ـ ودعاةُ الإسلام المخلصين في بدء هذه الحركة المباركة ، وفتح معسكر الدعوة الإسلامية من جديد ، وتنظيم حملة ـ هي حملة هادئة سلمية مباركة ـ على العالم الإسلامي ، وليعرفوا كيف يزرعون الإيمان ، وكيف يغرسون الإسلام في قلوب المسلمين ، أنفسهم ، وكيف يشعلون العاطفة الدينية في هذه القلوب الباردة ، والأجساد الهامدة ، وكيف ينشرون الدعوة إلى الله ورسوله ، والإيمان بالآخرة على منهاج الدعوة الإسلامية الأولى ، ولهذا المؤتمر الإسلامي الكبير أن يبث دعاته في العالم الإسلامي ينتشرون في أنحاء الأرض ، ويكونون في حركةٍ دائمة ، ونشاطٍ دائمٍ في سبيل الدعوة والتذكير ، والتربية الإسلامية ، وبذلك يستطيع المؤتمر بإذن الله أن يحلَّ مشكلة فلسطين ، ويؤمِّن العالم الإسلامي من كلِّ مشكلةٍ جديدةٍ .

❊ ❊ ❊

أزمــة إيــمــان وأخــلاق

هذه المحاضرة ألقاها سماحة العلامة الندوي في مركز جمعية إنقاذ فلسطين ببغداد في يوليو سنة ١٩٥٦م.

عن أيِّ شيء أتحدث؟ إن الأحاديث كثيرةٌ ، والشجون كثيرةٌ ، وإذا كثرت الأحاديث والمعاني تحيَّر الإنسان .

ولكن سأحدثكم عن شيءٍ أؤمن به ، وأعتقده ، ولن أحاول أن أشبع رغبتكم ، أو أن أرضي أسماعكم ، بل حسبي أن أرضي نفسي ، وضميري ، وإيماني ، فإذا أرضيت ضميري؛ أكون قد أرضيتكم .

أحدِّثكم حديثاً علمياً ، لا تاريخياً ، فقد أتخمنا بهذه الأحاديث ، وفيكم من يملؤكم علوماً ومعاني وخطابات .

تسمعون الناس يتحدَّثون عن الأزمات والمشكلات ـ وهذا العصر هو عصر الأزمات ، والمشكلات ـ يتحدَّثون عن أزماتٍ اقتصاديَّة ، وأزماتٍ سياسيَّة ، ويتحدَّثون عن أزمات الحكم ، وأزمات الاجتماع ، ولكنِّي أعتقد أنَّ هناك أزمةً واحدةً لا ثانية لها هي أزمة الإيمان ، أزمة الأخلاق ، سيحوا في الأرض وشاهدوا الأمم والشعوب ، فإنَّكم سترون أنَّ هذه الإنسانية ـ بمختلف الشعوب والأقطار في أنحاء العالم كلِّه ـ تعاني أزمةً واحدةً هي : «أزمة الإيمان والأخلاق» هي كارثة الكوارث ، وهي مصيبة المصائب ، وكلُّ مشكلةٍ تحدَّث الناس عنها ، واشتكوا منها ترجع إلى هذه الأزمة ، والشيء الوحيد الذي فقد ، وبفقده وقعنا في هذه المصيبة العالمية هو الإيمان ، والشيء الوحيد الذي اعتلَّ ، وباعتلاله أصبحنا نواجه هذه المشكلات كلها في نطاق الأفراد والمجتمعات والحكومات والأوضاع العالمية هو الأخلاق ، إنَّ الناس أشباهٌ ، ولم يزالوا ، وإنَّنا بشرٌ ، والذين يحكموننا بشرٌ ، ولكن الذي يسيطر على العالم ، هو هذه الأزمة الإيمانية الأخلاقية. إن كثيراً من الناس يعتقدون الشأن في الحكومات والأحزاب ، فإذا ذهبت وزارة ، وجاءت أخرى ، وإذا ذهب حزب وجاء آخر ، فقد انحلت الأزمة وانقشعت المشكلة. إنَّ هذا حكمٌ خاطىءٌ ، ومستعجلٌ ،

ومبنيٌّ على قصر النظر. ليست المسألة مسألة أحزاب ، أو حكومات ، أو شيءٍ من التعديلات ، إنَّ المسألة مسألة العقلية والاعتقاد ، والنفوس والقلوب ، فلا فائدة في هذه التغيُّرات ، وإن تبدل حزبٌ بآخر ، أو حكومةٌ بأخرى ، لا يقدِّم ولا يؤخِّر. إنَّ الأفراد كلَّهم يلتقون على الخضوع للمادَّة ، والاستئثار ، وخدمة النفس ، وهذه النفس قد تقصر فتصبح نفساً فرديةً ، وقد تتسع فتصبح نفساً حزبيةً ، أو جماعيةً. إنَّ هذه العقلية هي التي تسيطر على العالم كله ، وكل ما نعاني من فساد الأوضاع ، مردُّه إلى فساد هذه النفوس ، وهيمنة هذه العقلية الخاضعة للمادة ، الخادمة للمصلحة المستأثرة الأنانية.

هذا هو الداء أيها الإخوة! فلا تخدعوا أنفسكم ، وكلما جردتم النظر ، ونزلتم إلى أعماق الحقائق؛ فإنَّكم ستجدون أنَّ أصل البلاء هو شيءٌ واحد (هو عبادة النفس) فإذا لم تتغير هذه النفوس التي تعبد المادة؛ فلن تتغير هذه الأوضاع أبداً.

إن هذا التنافس الذي تتحدث به الصُّحف ، والذي قد يؤدِّي إلى حروبٍ طاحنةٍ ـ تستمرُّ سنين طوالاً تطحن الأمم ـ هو تنافس في الأغراض فقط ، لا تنافسٌ بين الخير والشرِّ ، وإنَّ هذا الاصطراع القائم بين الأمم الأوربية ، ليس معناه أنَّ أمةً منها تريد أن تسيطر على العالم لتقضي على هذه الأوضاع الفاسدة ، ولتخدم الإنسانية ، وتنفذ قوانين الله ، وتحارب الفساد ، وتساوي بين الناس ، وتقيم القسط والعدل ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [الحج: ٤١].

لا يا أيها الإخوة! إنما هو تنافسٌ على القيادة ، كل أمَّةٍ تريد أن تمتلك الحكم لتنفذ شهواتها ، إنما النزاع فيمن يكون صاحب الأمر والنهي ، وتكون له قوة إرضاء الشهوات ، وخدمة المصالح الذاتية الحزبية.

فبريطانيا وحليفاتها ـ مثلاً ـ لم تكن تنازع المعسكر الشيوعي لتقيم

القسط والحقَّ ، وكذلك لم يكن المعسكر الشيوعي في وقتٍ من الأوقات لينازع الحلفاء الأوربيين في سبيل إقامة العدل ، لأنه لم يكن حريصاً على إقامة الدين والفضيلة ، إنما يصارع ، ويحارب ليكون هو المعسكر الوحيد في العالم الذي يهيمن على وسائل وإمكانات البشرية ، وليحتكر التجارة العالمية ، ليس لمصلحة البشرية ، بل ليكون الذين يؤمنون بمبادئه ، وينضمون إليه يسعدون على حساب الأمم والشعوب التي يسيطر عليها .

إنَّ مرد هذه المصارعات كلِّها هو شهوة النفس وعبادتها ، وما لم تتغير هذه النفسية الشرِّيرة ، الفاسدة ، المتعفنة؛ فلا مطمع في صلاح العالم ، أو سعادته ورفاهه .

المهم أو الأهمُّ ـ أيها الإخوة! ـ أن يتغيَّر الإنسان إنَّ كلَّ شيءٍ في هذا العالم خاضعٌ للإنسان ، والإنسان خاضعٌ لنفسه ، وضميره ، وعقيدته ، فإذا كانت هذه صالحة؛ كان الإنسان صالحاً ، وإذا صلح الإنسان صلح العالم «ألا إن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب»(١) .

لقد أصبح الناس مؤمنين ـ بحكم ما يكتبه ويقوله أناسٌ لم يتعمقوا في العلم ـ بأنَّ صلاح العالم هو في وجود حكومةٍ على أساس كذا ، وكذا ، أو في تولي الرجل الفلاني ، أو الحزب الفلانيّ الحكم ، وما دروا أنَّ المجتمع فاسد لفساد الضمائر والقلوب ، وما لم تصلح؛ فلا يؤمَّل الصلاح . هذا أيها الإخوة قولُ مجرِّبٍ خبيرٍ ، لا قول إنسان منطوٍ على نفسه ، قول رجلٍ تهيَّأ له ـ بحمد الله ـ من الدراسة العميقة الشيء الكثير .

قد يدخل الرجل إلى غرفةٍ مظلمةٍ ، فلا يستطيع أن يجد طلبه إذا لم يفتح الزرَّ الكهربائيَّ ، ولكن الرَّجل الخبير بمجرد دخوله الغرفة يعرف موضع الزرِّ ، فيفتحه ، فيسري النور في التيَّار ، ويضيء جنبات الغرفة ، ويقضي الرجل حاجته ، وهذا هو شأن الأنبياء عليهم السلام ، ومن سار على

---

(١) حديث صحيح .

أثرهم ، هذا هو الزرُّ ، هو «الإيمان» ، إذا فتح؛ انطلقت منه موجة النور لتضيء العالم كلَّه.

إني أرى رجالاً في البلاد العربية والإسلامية وغيرها يبدون كباراً في العقل، والتفكير ، والتجربة ، ولكنِّي أستغرب أنَّ «تفكيرهم قاصرٌ غير ناضح».

يتكلمون عن المشكلات حديث رجلٍ لم يتعمق ، ولم يرسخ ، يتحدثون عن مشكلات السياسة والاجتماع ، ويعتقدون أنَّه إذا جاء الحزب الفلانيُّ؛ ذهبت المشكلة ، فإذا جاء الحزب؛ واجهنا نفس المشكلة ، بل ما هو أكبر منها ، وكثيراً ما نواجه مشكلاتٍ جديدةً أخرى ، ثم نجرب حزباً آخر ، فإذا هو شرٌّ من الأول ، وصدق الشاعر إذ قال:

الا إنَّما الأيام أبناء واحد وهذي الليالي كلُّها أخوات
فلا تطلبن من عند يومٍ وليلة خلاف الذي مرَّت به السنوات

إلى متى تجري هذه التجارب على الإنسان المسكين؟ وإلى متى نفحص ونشرِّح ، ثم نرجع من غير طائل؟ إنَّ الأنبياء يمنحوننا العلم اليقينيَّ ، ويعطوننا العلاج الشافي.

إن المسألة مسألة النفوس ، وما دمنا معرضين عن هذه الحقيقة: فسوف نبقى نعاني مشكلةً بعد مشكلة.

إنَّ من مصائب هذه المدنية الإعراض عن الأفراد ، فقد أثَّرت العلوم العمرانية في النفوس ، حتى أصبحت تعتمد على المجموعات ، والمؤسسات ، والهيئات الاجتماعية ، والحكومات ، دون الاهتمام بالأفراد ، مع أنَّ الأفراد هم أساس المجتمعات والحكومات والأحزاب والمؤسسات . نقول لهم: أيها السادة! دونكم الأفراد ، فأصلحوهم وهيئوهم لهذا الهيكل الاجتماعي ، فسيقولون: مالنا وللأفراد ، نحن في عصرٍ اجتماعيٍّ طابعه الاجتماع ، فنقول لهم: آمنا بالاجتماع ، ولكن إذا لم يكن الأفراد أين يكون المجتمع؟ ولكنهم يقولون: إنَّ الأفراد يصلحون بصلاح المجتمع. إنَّ مثل هؤلاء الذين يهتمُّون بالمجموعات دون الأفراد مثل من يجمع أخشاباً نخرة ، متآكلةً ، مخرومةً ، يريد أن يعمل منها سفينةً

تحمل جماعةً كبيرةً ، وبضائع ثمينةً ، فإذا قال له رجل صاحب نظر : إنَّ هذه الأخشاب لا تصلح لبناء سفينة تحمل جامعةً كبيرةً وبضائع ثمينةً ، ثقيلةً؛ قال : إن هذه الأخشاب لا قيمة لها ، إنَّما المهم السفينة ، فإذا تكونت السفينة؛ فقدت الألواح شخصيتها ، فلا يهمُّك إن كانت الأخشاب فاسدةً منخورةً .

إنَّ الفاسد فاسدٌ ، ولكن إذا اجتمع الفاسد مع الفاسد ينتج الصالح . إنَّ اللصَّ لصٌّ ، ولكن إذا اجتمعت اللصوص أصبحت حارسة للمدينة ! !

هذه هي عقلية أوربا ؛ إنَّ اللصوص لصوصٌ في أفرادهم ، ولكنهم أمناء في مجموعهم ، ما هذا المنطق ؟ !

الذئب ذئب ، ولكن إذا اجتمعت الذئاب أصبحت راعيةً! إنَّ الجمرة تحرق البيت ، ولكنها إذا اجتمعت الجمرات ؛ أصبحت برداً وسلاماً ؟ !

هذا شيءٌ مضحكٌ ، ولكن أليس هذا هو الأساس الذي يعمل في المدرسة والحكومة والمحكمة؟؟

من أين جاءت الحكومة والقضاة والجنود؟ أليس أكثر هؤلاء فاسدين ، ودون المستوى الواجب؟ فكيف تتحول هذه العصابات المجرمة إلى مجموعةٍ صالحة ، رفيعة المستوى ، عالية في الأخلاق؟ العالم كلُّه ـ مع الأسف ـ خاضعٌ لهذا المنطق ، حتى في المستويات العلمية .

إنَّ مدراء البلديات والجامعات ، والمؤسسات العلمية ، والحكَّام لو كانوا في الزمن الأول لما استحقوا أقل من الطرد ، بل لكانوا في السجون ، ولو أرادوا أن يشغلوا وظيفةً حقيرة ما استحقُّوا .

لقد طغت هذه العقلية على الأفكار حتى أصبح الذي يثير مسألة الأفراد يتَّهم بالرجعية .

يا أصحاب القلوب المؤمنة ، أنتم المجتمع . في قسمات وجوهكم ، وضمائركم ، وعقولكم ، يرقد المستقبل الزاهر الذي نؤمله ، فهيئوا نفوسكم تهيئةً روحيةً ، خلقيةً ، علميةً ، إيمانية ، هذا هو نداء الوقت ، وواجب الساعة ، وجهاد اليوم .

لقد وجدت الحديث عن العالم الإسلامي حديث كلِّ بلدٍ حللته ، وزرت فيه إخواننا ، وهو حديث كلِّ مجلسٍ حضرته ، وإنَّ العالم الإسلاميَّ حقيقةٌ قائمةٌ تسعى على قدميها ، لا ينكر فضله إلا جاهلٌ أو أحمق .

أنا أؤمن به ، وشاهدته في الهند ، وباكستان ، وتركيا ، وسورية ، ومصر ، وأنتم أيها الإخوان جزءٌ من العالم الإسلاميِّ ، إذا كنتم تعتقدون أنَّه يعيش بغيركم ، وليس عليكم مسؤوليته؛ فأنتم مخطئون ، ولكن أخشى أنَّ كثيراً من الناس يهتمُّون بكلِّ شيءٍ غير نفوسهم ، وهذا هو الواقع فعلاً . أنا أفكر في العالم ، ولكن أنا كذلك جزء منه ، فلأصلح هذا الجزء ، ولكني أرى كثيراً من إخواني لا يفكرون في نفوسهم ، ويعتقدون أنَّ العالم الإسلاميَّ هو كلُّ ما يغاير نفوسهم ، علينا أن نصلح نفوسنا . وليعتقد كلٌّ منا أنَّه مسؤول ، فإذا صلحت هذه الأجزاء صلح العالم الإسلامي . إنَّ مثلنا أيها الإخوة ، كمثل ملكٍ أعلن أنَّه يريد حوضاً مملوءاً باللبن «الحليب» ، وأنه سيدفع الثمن لكلِّ من يجلب الحليب ، فقال أحد اللبانين : لو أفرغ لبان واحدٍ سطلاً من ماء ، فإنَّ هذا الماء لا يؤثر في الحليب الكثير ، فأفرغ سطل ماء بدلاً من حليب ، وفكَّر آخر نفس التفكير ، وهكذا سرت الفكرة بين الجميع ، وجاء الملك في الصباح فوجد حوضاً من ماء .

هذه قصتنا . إنَّ كلَّ فردٍ منَّا يقول : إذا فَسَدتُ ، فماذا يضر العالم الإسلامي؟ وبهذا أصبح كل العالم الإسلامي فاسداً . لو فكرتم لرأيتم أنَّ كلَّ حديثكم عن غيركم .

أنصفوا نفوسكم أيها الإخوان ، وما لكم وهذه القضايا التي لا تستطيعون خدمتها . إنَّ الاشتغال بالغير سهل ، ولكن الاشتغال بالنفس صعب ، والإنسان يحبُّ السهولة ولذلك اندفع العالم الإسلامي كلُّه إلى الاهتمام بغيره . هذا تفكيرٌ يجب أن يعالج .

أنتم العراق ، وإذا كنتم العراق ، فأنتم جزء من العالم الإسلامي ، فيجب على كلٍّ منا أن يهيىء نفسه ليكون لبنةً صالحةً في البناء .

لنكن فتيةً مجاهدةً، مؤمنةً، صادقةً ، طاهرة النفس ، واضحة التفكير، عميقة الجذور ، قوية العاطفة ، فائضة الحبِّ.

فإذا كنا كذلك؛ فصدقوني أنَّنا نستطيع أن نغير تيار الفساد.

الأزمة أزمة رجال ، فأين الرجال؟ وإنَّ كثيراً من الناس يحرصون على الحكومات ، ويعتقدون أنَّها هي المفتاح ، ولكن الحكومة يسيِّرها الرجال. فمن هم هؤلاء الرجال؟ وكيف هم؟ هذا هو داء العالم الإسلامي ، فأنتم هيئوا نفوسكم «لمعركة المستقبل» «معركة الأخلاق» و«الإخلاص والتضحية» ، إذا وجد رجلٌ واحدٌ يستطيع أن ينسى نفسه ومصلحته ، ومصلحة أسرته ، وأصدقائه ، وحزبه ، ويستهدف مصلحة بلده ، وأمَّته؛ لاستطاع أن يحدث انقلاباً.

كان الجوُّ قائماً ، والعالم الإسلامي يعاني مشكلة عظيمةً ، وكان الولاة جائرين، والجهاز فاسداً ، والمظالم سائدة ، والحقوق تمتهن ، والناس غير آمنين ، وكان العالم الإسلامي من شرقه لغربه ، ومن شماله لجنوبه ، يعاني مرضاً مرهقاً. جاء رجل واحد هو «عمر بن عبد العزيز» عرف ربه ، ونسي نفسه، وذكر اليوم الآخر ، فاستطاع أن يغير هذا التيار ، ويرغم العالم الإسلامي على أن يتجه إلى الصلاح ، أين الأفراد؟ وأين من ينتجهم؟ هل تنتجهم الكليات والمعاهد؟ لا! إنما يربيهم الإيمان ، وتنتجهم العقيدة والأخلاق.

فكلمتي لكم ، أن تهيئوا نفوسكم ، ربُّوا فيها الإيمان ، والعقيدة ، كونوا مؤمنين بالله ، واليوم الآخر ، ومصلحة الإسلام ، كونوا رجالاً ، إذا دانت لهم البلاد ، وأصبحوا يملكون أزمَّة الأمور؛ لم يغيِّرهم الوضع الفاسد عما كانوا عليه ، هذا كان شأن الصحابة ، كانوا ضعفاء ، فقراء ، لا يملكون ما يكسون به أجسامهم ، ويشبعون به بطونهم ، فدانت لهم الدنيا ، وتفتَّحت لهم الخزائن ، فما تغيَّروا.

بقي أبو عبيدة وسعد كما كانا ، وجاء سلمان إلى العراق والياً ، فخرج الناس لاستقباله ، فرأوه يحمل على رأسه حملاً لرجل على أجره.

إنَّ العالم لم يفسد إلا عندما فسد الأفراد ، وفقد هذا الطراز الذي تخرَّج في مدرسة محمد ﷺ ، نحن في حاجة إلى هذا الطراز ، وهو لا يُرتجى إلا منكم ، من مثل هذا الشباب المسلم ، المؤمن الصاعق الذي يوطن نفسه على الشظف والحياة البسيطة ، إنَّ من أمراض الأمة العربية ، هذا التنعُّم والتبذير ، والعادات القاهرة ، لا يستطيع أحدهم أن يعيش من غير سيارة ، وبيت فخم ، وراتب ضخم ، إنَّ هذه الأمراض قعدت بأمتنا ، وهذا كان داء الرومان ، والفرس ، فقد أسرفوا في المدنية والتنعم ، يدل على ذلك أنه لما زحف المسلمون على المدائن وفتحوها ، خرج يزدجرد يحمل معه ألف طاهٍ ، وألف مربٍ للبزاة والصقور ، ويقول: إنِّي في حالة يرثى لها. أخذت هؤلاء فقط!

إلى هذا الحد وصلت مدنيتهم ، ولذلك انهارت هذا الانهيار الفظيع. كان الذي يلبس قلنسوةً قيمتها دون ٥٠ ألفاً يعيَّر ، وكانوا يلبسون مناطق بقيمة ٣٠ إلى ٥٠ ألف ، مرصعةً بالجواهر والياقوت ، فهذه المدنية الزائفة هي التي جنت عليهم ، فخسروا الدولة والشرف ، والمجد والحياة.

فهيئوا نفوسكم للجهاد والدعوة ، وإذا قُلدتم أمانة ، فأحسنوا القيام عليها ، هذه وصيتي لكم ، وربما لا تقيمون وزناً لها ، ولكنكم ستذكروني في المستقبل ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ .

إنَّ الأزمة أزمة رجال ، وأزمة إيمان وأخلاق ، وإنِّي أعيذ نفسي أن أومن بالفكرة القاصرة ، القائلة بتغير الوضع ، إذا تغيرت الحكومات والأحزاب ، لقول الله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤١].

انظروا كيف قدَّم ذكر هذه المحنة ، التي خرجوا منها كما يخرج الإبريز

من النَّار ، وخرجوا من ديارهم بغير حق ، حتى أصبحوا رجالاً إن مكنهم الله في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر .

فإذا لم نقطع هذه المرحلة لا نستطيع أن نصل إلى الدرجة التي وصفها الله بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الحج : ٤١] وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [النساء : ٧٧] لم يحدثهم عن الحكومة ، والنتائج الأخيرة ، ولكن رباهم تربيةً إسلامية عميقةً شاملةً للأخلاق والتفكير ، حتى إذا نشأت النفوس؛ انطلقت الموجة ، وكان ما كان .

أقول وأنا مخلصٌ ناصحٌ؛ اهتمُّوا بأنفسكم اهتماماً دينيَّاً ، خلقياً ، تربوياً ، فكرياً ، وآمنوا بأنكم أنتم العالم الإسلامي ، كما قال الشاعر :

.... وفيـك انطـوى العـالـم الأكبـرُ

وإذا صلحنا؛ صلح العالم الإسلامي ، وإذا صلحت الأجزاء؛ صلحت المجموعة .

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم .

* * *

إلى الراية المحمَّدية أيُّها العرب

هذه الكلمة وَجَّهَها العلامة الندوي إلى الأعيان والسَّادة أعضاء الجالية العربية الذّين اشتركوا في حفلة تكريمه الّتي أقامها المرحوم حسين بن محمد أحد كبار الموظفين في السفارة السعودية بالهند ، في مدينة بمبامي ، وهي الآن مهداةٌ إلى العرب جميعاً .

إنني أؤمن ـ أيُّها الإخوة الكرام ـ أنّ محمَّداً ﷺ منذ بعث هو نبيُّ كلِّ جيلٍ ، وإمام كلِّ عصر ، وأنَّ دينه الذي جاء به سفينةُ نوح في كلِّ طوفان ، وأن لا عاصم من أمر الله إلا من رحم ، والتجأ إلى هذه السفينة ، ولا أقول ذلك عن تقليدٍ وعصبيةٍ ، إنَّما أقول ذلك ـ علم الله ـ بعد دراسةٍ وبيِّنةٍ من الأمـر واقتنـاعٍ علمـيٍّ. وإنَّمـا تتشـرف الأمـم ، والجمـاعـات والأفـراد والأشخاص ، ويكتب لها البقاء ، والخلود ، والعزَّة ، والنصر باتباع هذا النبيِّ الكريم ، والاعتزاز بدينه ، والتمسُّك بأهدابه ، وحمل رسالته ، وأمانته ، ومن استغنى عنه ، أو رأى الشَّرف في غير اتباعه ، أو ثار على إمامته العامَّة الخالدة التي فرضها الله على الأجيال الإنسانية كلِّها ، وعلى أدوار التاريخ كلِّها ، وقطع صلته عن دوحته العظيمة ، وشغل بنفسه وشهواته ومصالحه الشخصية عن حمل رسالته ، وأداء أمانته ، مُحي من الوجود ، وأخمل ذكره ، وأصبح مطموساً منكوساً ، وكان كورقةٍ انفصلت عن شجرةٍ خضراء ، فتذوي سريعاً ، وتصبح هشيماً تذروه الرياح عربياً كان ، أو تركياً ، هاشمياً كان أو تميميّاً ، هذا قضاء الله وحكمه ، ولا رادَّ لقضائه ، والتاريخ يصدق بذلك ، تجارب الأمم توثِّقه ، وقد صدق الشاعر الفارسي حيث قال: «محمد ﷺ هو شرف العالم ، وكرامة الأفراد ، والأمم ، فمن أبى أن يستمسك بغرزه ، ويمشي في موكبه ، أرغم أنفه ، وكتب له الذلّ والصَّغار».

وقد صدق الشاعر الهندي[1] حيث قال: «لا أعجب إذا انقادت لي النجوم ، وخضعت لي الأفلاك والكواكب ، فقد ربطت نفسي بركاب سيِّدٍ عظيم ، لا يأفل نجمه ، ولا يعثر جدُّه ، ذلك هو البصير بالسبل ، خاتم الرسل ، إمام الكلِّ محمد ﷺ الذي وَطِئت قدمه الحصباء ، فأصبحت إثمداً يكتحل به السُّعداء».

---

(١) هو العلاّمة الدكتور محمد إقبال.

إنَّ هذا الانفصال ـ أيها الإخوة الكرام ـ عن الدوحة النبوية المباركة ، وإنَّ هذا الانقطاع عن الموكب المحمدي المقبل ، وعن ركبه الميمون خسارةٌ لا تعوَّض بشيءٍ ، إنَّها لا تعوَّض بأعظم ثروةٍ ، ولا بأوسع دولةٍ ، ولا بأروع مظهرٍ ، إنَّها لا تعوَّض بلباقة ، أو كياسة ، أو سياسة ، أو حذاقةٍ للغات ، أو براعةٍ في تقليد الأزياء ، لأنه تخلفٌ عن ركب الحياة ، وانقطاعٌ عن معين المعنويات ، ولا عوض عن الحياة والمعنويات والروح في المظاهر والأزياء ، واللغات والثقافات ، والتقليد والمحاكاة ، وقد كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يؤمنون بأنَّ الإسلام هو مصدر عزِّهم ، ومطلع فجرهم ، وفاتحة عهدهم الجديد ، وسرُّ قوتهم وانتصارهم ، ويصرِّحون بذلك أمام الناس ، يدلُّ على ذلك دلالةً واضحةً ما رواه ابن كثير في تاريخه ، وقال: «لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضةٌ فنزل عن بعيره ، ونزع موقيه ، فأمسكهما بيده ، وخاض الماء ، ومعه بعيره فقال له أبو عبيدة: قد صنعت اليوم صنعاً عظيماً عند أهل الأرض ، صنعت كذا وكذا! قال: فصكَّ في صدره ، وقال: أو لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة! إنَّكم كنتم أذلَّ الناس ، وأحقر الناس ، وأقلَّ الناس ، فأعزَّكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العز بغيره ، يذلكم الله»[1] .

وهذا هو الواقع التاريخيُّ ، فكلَّما حاول العرب أن ينالوا الشرف بغير هذا الدين ، وأخفقوا ، وذلُّوا ، وقد كان اسمهم يرجف القلوب ، ويملؤها مهابةً وروعةً ، وقد خرجوا من جزيرتهم في ثيابٍ صفيقةٍ مرقعةٍ ، ونعالٍ وضيعة مخصوفةٍ ، وذلك لسرٍّ خالدٍ ، وهو أنَّ الإنسان مفطورٌ على إجلال الفائق ، والغرام بالمفقود ، وقد كان العرب يملكون الإيمان واليقين ، والأخلاق التي كانت الأمم أفلست فيها إفلاساً شائناً ، ثم إنَّ الذي فطر المادَّة والروح قد فرض على المادَّة أن تخضع للروح ، وفي التاريخ الإنسانيِّ ـ ليس التاريخ الإسلاميُّ فقط ـ شهاداتٌ متَّصلةٌ متسلسلةٌ لانتصار الروح على المادَّة ، والمعنويات على المادِّيات ، وقد كان انتصار العرب

(١) «البداية والنهاية» ٧/ ٦٠ ورواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرطهما.

على الروم والفرس الذين كانوا يفوقونهم مراراً كثيرةً في العدة والعتاد ، والمادَّة والآلات ، والمدنية والحضارة ، أروعَ شهادةٍ لغلبة الروح على المادَّة .

كيف يجمل بالعرب والمسلمين أن يقلِّدوا هذه الحضارة الغربية ، وقد علم الذين درسوا تاريخ هذه الحضارة أنَّها تأسّست على الظلم ، والعدوان ، والأخذ بالقشور ، والاكتفاء بالحسِّ ، وإنكار ما وراء ذلك ، وعبادة المادة والشهوات من أوَّل يوم ، وهي خليفة الحضارة اليونانية الضَّالَّة ، أو المدنية الروميَّة الآثمة ، ثمَّ إنَّ الذين يتزعمونها اليوم هم أكبر جناة التاريخ ، ومجرمي الإنسانية ، وأقوى عاملٍ من عوامل الفساد ، والشقاء ، والظلم والطغيان في العالم ، هم الذي ملؤوا الأرض جوراً ، وظلماً ، وفساداً ، وشهوةً ، وأقاموا في العالم مجزرتين من أهول مجازر التاريخ ـ أعني الحرب العالمية الأولى ، والثانية ـ ويستعدُّون لمجزرةٍ ثالثة لعلَّها تكون المجزرة الأخيرة التي فيها فناء العالم ، وحتف الإنسانية كلِّها ، فإنَّهم سيستعملون فيها القنابل الذرية لا محالة ، وهم الذين استعبدوا الأمم ، وسخَّروها لشهواتهم ومآربهم ، وأهانوا الشرق الإسلامي ، وحرموه الحرية والحياة ، ولا يزالون يعبثون به ، ويسخِّرون رجاله ، وقادته لأغراضهم ، ويضربون بعضهم ببعض ، فكان اللائق المنتظر من المسلمين والعرب أن يشتدَّ بغضهم ، وعداؤهم لهذه الحضارة وأصحابها ، ولا يُرى منهم ميلٌ ، أو تشيُّعٌ ، أو تقليدٌ لهذه الأمة المجرمة الظالمة وحضارتهم الأثيمة ، وقد قال الله تعالى :

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣].

ولا أقصد بقولي : «الحضارة الغربية» علوم الطبيعة البريئة ، والعلوم ، والآداب التي ليس عليها طابع أمَّة ، إنما أقصد بذلك فلسفة الحياة التي يدين بها الغرب ـ سواء المعسكر الرأسماليُّ ، والمعسكر الاشتراكيُّ ـ وهي الإيمان بالمادَّة والقوة فقط ، وإنكار القيم العالية ، والحقائق الغيبية ، هذه الفلسفة المادِّية التي ولدت هذه الحضارة المادِّية ، وظهرت هذه الحضارة

المادِّية في النهامة بالمال ، والحرص على تملك أعظم مقدارٍ منه للتمتُّع بالذات ، وانتهاب المسرَّات ، وإحراز الجاه والسُّمعة والمنزلة عند الناس ، والتغافل عن كلِّ ما عدا ذلك ، وعمَّا جاءت به الأديان السماوية من العقائد والأخلاق ، هذه الفلسفة التي تعارض الفكرة الإيمانية على خط مستقيم ، التي تقول : ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت : ٦٤].

وتعارضُ قول النَّبيِّ ﷺ : «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» هذه الفلسفة التي لا تؤمن بقوله تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات : ١٣] ولا بقوله : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى : ١٤ ـ ١٥].

بل تهتف في غير حياء وتحرُّزٍ : «إن أكرم الناس أغنى الناس ، وقد أفلح من اغتنى واقتنى ، وأيسر وأثرى ، وأكل الشهيَّ اللذيذ ، ولبس الفاخر الجديد ، وملك عدداً من السيارات والقصور».

إنَّ تقليد هذه الحضارة لم يكن لائقاً بالمسلمين والعرب ، يوم كانت هذه الحضارة في أوجها وزهوها ، وكانت تنتج وتثمر ، وكانت شابةً فتيَّةً ، أما وقد شابت ، ووهنت ، وبدأت تتقدم بخطى سريعةٍ إلى الإفلاس والإخفاق ، بل إلى الانهيار والانتحار ، فتقليدها أقبح وأخزى ، ويعلم الذين يتصورون بمراكزها وتياراتها الجديدة أنّها قد أصبحت فاكهةً قد أينعت وحان قطفها ، وأنَّها إذا لم تقتطفها يدٌ قويةٌ ، فإنَّها ستسقط بنفسها على الأرض وتتناثر ، فالذين يربطون حظوظهم ونفوسهم بهذه السفينة المتكسِّرة ، التي قد أشرفت على الغرق يسيئون إلى أنفسهم وإلى أمتهم ، قبل أن يسيؤوا إلى عقيدتهم وملَّتهم.

إنَّ المسلمين في الهند وغيرها من الأقطار الإسلامية غير العربية كانوا يتوقعون من العرب أن يكونوا أشدَّ اعتزازاً بهذا الدين ، وأشدَّ عداءً للأمم الأوربية ، التي انتزعت منهم السيادة العالمية والقيادة الفكرية والسياسية ، وأحرص على الدعوة الإسلامية ، وأعظم تألُّماً لما هو واقعٌ في العالم من المآسي والمهازل. ولما وصلت إليه الإنسانية من الهبوط والتدنِّي ، كانوا

يتوقعون أن يكون العرب أرسخ عقيدةً ، وأشدَّ حماسةً في كلِّ ذلك من المسلمين الذين آمنوا بدعوتهم ، وكانوا أتباعهم في هذا الدين ، لأنَّ العرب أسرة النَّبيِّ ﷺ وقبيلته ، لأنَّ القرآن الذي ارتعشت له الجبال ، وزلزلت به الأرض؛ إنما نزل بلغتهم ، ولا يزالون يفهمونه ، ويحسنون قراءته ، ولا يحزن الإنسان مثل ما يحزنه إذا رأى تقليداً من إمام ، وضعفاً من قويٍّ ، واستجداءً من غنيٍّ .

إنَّ في الهند وباكستان ـ أيها السادة! ـ رجالاً لم تزدهم دراسة العلوم العصرية ، والاطلاع على النظم الغربية ، والاتصال بمراكز الحضارة الأوربية ، والاجتماع برجالات الغرب وقادة الفكر والسياسة فيه ، لم يزدهم كلُّ ذلك إلا اعتزازاً بالإسلام والتضلُّع من حبِّ محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، والإيمان بأنَّ الإسلام هو الرسالة الأخيرة ، وأنَّ تعاليمه موافقةٌ لكل مكانٍ وأوانٍ ، بل هي سابقةٌ للزمن ، وأنَّ الإنسانية في كل طورٍ من أطوار حياتها تجد فيها الغوث والنجدة ، ولم يزدهم كلُّ ذلك إلا يأساً من الحضارة الغربية التي لا تستطيع أن تحمل نفسها ، وتنجد رجالها ، ولم يزدهم إلا سخطاً على قادة الغرب الذين قد ظهر إخفاقهم في حلِّ المعضلات الإنسانية ، وتجلى إفلاسهم في المؤهلات والوسائل التي يحلُّون بها هذه المعضلات ، وأعظمها : الإخلاص ، والإيمان ، ويقودون العالم إلى الغاية الرشيدة ، ولكنهم لكبرهم لا يعترفون بهذا الإفلاس ، ولا يبحثون عن مصدرٍ يحلُّون به هذه الأزمة التي حلَّت بالإنسانية كلِّها بسببهم ، وينجدون به الإنسانية التي تملكوا زمامها واحتكروا زعامتها، إن كل ذلك لم يزدهم إلا ثقةً بهذا الدين ، وتصلباً في عقيدته وشريعته ، ومحافظةً على آدابه وحضارته ، ولو شئتُ لعددتُ عشرات من هؤلاء الأساتذة المؤمنين ، والعلماء الراسخين ممَّن يجمعون بين الثقافة العصرية الواسعة ، والعقيدة الإسلامية الراسخة ، وكان بعضهم من أفذاذ هذا العصر في بعض العلوم الغربية والفلسفة ، والسياسة ، والاقتصاد ، والأدب .

ولكن ذلك لا يزيد في شرف النَّبيِّ الأميِّ ﷺ بل يشرِّف هؤلاء الذين

ينتمون إلى دينه ، ويعدُّون من أتباعه ، ولم يزل في كلِّ عصرٍ من عصور الإسلام نوابغ وعباقرةٌ من أذكياء العالم ، وكبار ملوك الأرض يفتخرون بالدخول في أتباع النَّبيِّ ﷺ ويعدُّون ذلك أكبر مفخرةٍ لهم ، وينشدون بألف لسان :

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبين العالمين خراب
إذا صحَّ منك الودُّ فالكلُّ هينٌ وكلُّ الذي فوق التراب تراب[1]

إنّ الاعتزاز بالإسلام ـ أيها السادة! ـ والظهور به تقدُّمٌ ، ونبوغٌ ، وذكاء ، ورمزٌ للاستقلال الفكري ، بالعكس من ذلك الانسحاب من الإسلام ، وتقليد الحضارة الغربية ، والإلحاح على تطبيق النظم اللادينية في بلاد الإسلام ، وفي بيوت الإسلام ، رجعيةٌ ، وجمودٌ ، وضعف عقليةٍ وتفكير ، ورمزٌ لمركب النَّقص ، وقد انقضى من غير رجعةٍ ذلك العصر الذي كان فيه يعدُّ الظهور بالمظهر الغربي ، وتقليد الأساليب الغربية في الحياة ، وإطراء النظم الحديثة تقدُّماً ، ورقيّاً ، وظرافةً ، وكياسةً ، أمَّا الآن فقد ضجر الغربيون أنفسهم من حضارتهم ، وانتقدوها انتقاداً لاذعاً وتهكّموا بها ، وقالوا : إنَّها حضارةٌ مرتجلةٌ ، لا تقوم على تصميمٍ وتفكير سابقٍ ، وإنما قفزت من أوضاع كانت تسود في القرون المتوسطة المظلمة .

وبعد ذلك كله لا أرضى لكم أن تكونوا رجالاً لا يهمُّهم إلا أن يكونوا أداةً حقيرةً في هذا الجهاز المادِّي ، ولا تهمهم إلا المصالح الشخصية ، والرفاهة الفردية ، وأن يكونوا ذلك الساقط الهمَّة الذي ذمَّه الشاعر العربي الكريم حاتم الطائي بقوله :

لحا الله صعلوكاً مناه وهمُّه من العيش أن يلقى لبوساً ومطعما

ويا ليت فتيان العرب بلغوا في علوِّ همتهم ، وطموحهم مبلغ الشاعر الجاهلي امرىء القيس حيث قال :

ولو أنني أسعى لأدنى معيشةٍ كفاني ولم أطلب قليلاً من المال
ولكنني أسعى لمجدٍ مؤثَّلٍ وقد يدرك المجدَ المؤثَّل أمثالي

---

(١) البيتان لأبي فراس الحمداني ديوانه : ٢٤ .

إنَّ المجد المؤثَّل ـ أيها الإخوة! ـ وهو الذي لم يحلم به الشاعر الطموح ، هو الذي نشده عمر بن عبد العزيز ، فأدركه ، وسعى له طارق بن زياد ، ومحمد بن القاسم الثقفي فوصلا إليه ، وهو الذي يليق أن يكون مثلكم الكامل ، وغايتكم المنشودة ، إنَّكم أحقُّ الناس بأن تثوروا على جاهلية القرن العشرين ، كما ثار آباؤكم على جاهلية القرن السادس المسيحي ، وأن تتمرَّدوا على المادية العصرية ، كما تمرّد أسلافكم على مادِّية عصرهم ، وتضحوا برفاهيتكم ، وترفكم ، وأمانيكم المعسولة في سبيل الإسلام ، وفي سبيل المصلحة العامَّة ، والسعادة البشرية ، وتنضمُّوا إلى الراية المحمَّدية ، وهي راية العدل ، وراية الحقِّ ، وراية الله في العالم ، التي اختارها الله لكم كرايةٍ ، واختاركم لها كأمَّةٍ وجندٍ إلى آخر الدَّهر .

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج : ٧٨] .

* * *

لا تحرجوا الأوفياء للإسلام بموقفكم أيها العرب

هذا الخطاب ألقاه العلامة الندوي في حفلة تكريمية ، أقيمت في جدة في مستهلِّ ذي الحجة ١٣٨٢هـ ضمَّت عدداً كبيراً من العلماء ، والأدباء ، والشعراء ، وأصحاب القلم ، وأعيان البلد ووجهائه .

إنَّني أتضاءل أمام أيِّ تكريمٍ أُشمل به في أيِّ مكانٍ وأخجل ، فلست أراني أستحقُّ تكريماً ، أو أيَّ تفخيمٍ لشأني ، ويزيد خجلتي هذا الموقف الذي أقفه في بلادٍ أنا مدينٌ لها في ديني ، وعقليتي ، وثقافتي ، وأدين لها بالفضل في كلِّ ما أملكه ، أو ما يشار إليه بالبنان. فما من خيرٍ أعرفه إلا ومصدره هذه البقعة المباركة التي خرج منها أولئك الأبطال من الدعاة والمجاهدين إلى العالم كله ، وإلى بلادنا ـ الهند ـ حاملين رسالة الإسلام والدعوة إلى الله ، والدعوة إلى هجر الأوثان والأصنام ، والعصبيات القومية ، والوطنية ، وإلى هجر كلِّ نزعةٍ تشغل مكان نزعةٍ دينيَّةٍ ، وأنا أقول لكم بشيءٍ من الشَّجاعة غير مبالٍ بما أنا فيه من مقام التكريم : إن آباء كثيرٍ من المسلمين في الهند كانوا يعبدون الشجر ، والحجر ، والروث ، وكلَّ شيءٍ إلا الله سبحانه وتعالى ، وكانوا معتزين بقوميتهم ، مفتخرين بأمجادهم بل كانوا أكثر الناس فخراً بمآثر السلف المشركين ، ولكن دعوة الإسلام هي التي حوَّلتهم إلى أن يستصغروا ما كانوا يقدِّسونه ، ويستخفُّوا بما كانوا يعظمونه ، فكفروا بجاهليتهم جملةً وتفصيلاً ، وتوارثوا العقيدة الإسلامية السمحاء جيلاً بعد جيلٍ ، ينقلها الآباء إلىٰ الأبناء بالأمانة ، والوفاء ، والنُّصح ، واستعذبوا في طريقهم كلَّ مكروهٍ ، وواجهوا في سبيل دينهم كلَّ صعبٍ ، ولم يثن طولُ النضال هممهم ، ولم توهن الحروب المديدة عزائمهم في الله ، لأنهم كانوا يعدُّون أنفسهم في جاهليتهم أمواتاً غير أحياء ، والإسلام بعثهم من جديدٍ ، وجعلهم أحياءً بما للحياة من معنى ، وتغلغلت العقيدة الإسلامية في أحشاء قلوبهم ، واستحكمت في نفوسهم ، وعادوا لا يرون خيراً إلا فيما جاء به سيدنا محمدٌ ﷺ ، ولا يعرفون شرّاً إلا في غير ما جاء به سيدنا محمدٌ ﷺ وكان الدين وحده المقيم المقعد ، المثير المحرِّك ، الآمر الناهي ، وما كان يضادُّه ، أو يعارضه هو الكريه البغيض ، والشائن المهان.

هذا بعض ما كانوا عليه سابقاً ـ أيها السادة! ـ وهذا ما صاروا إليه ، غير

أنَّ نضالنا ضدَّ الجاهلية في وطننا لم ينته في عصر من العصور حتى في عصرنا هذا ، فكنا لا نزال في حربٍ دائمةٍ مع من لا يقيم للإسلام وزناً ، أو يحاربنا لأجل عقيدتنا ويدعونا إلى تمجيد أبطالنا القدامى من المشركين ، ويدعونا إلى الاعتزاز بمآثرهم ، والفخر بما أسلفوا من علمٍ وحكمة ، ويلومنا في تقصيرنا معهم ، ويطعن في عدم وفائنا لحقوقهم ، ويدعونا إلى كل هذا بلسان الفلسفة ، والأدب ، والعلم ، ونحن حاربنا هذه الدعوات برمَّتها ، ولا نزال نجابهها مصمِّمين على دمغ ادعاءاتهم ، مضحِّين في سبيل الله بالأنفس والأرواح ، نستميت دون كرامة هذا الدين ، ونستهين بكلِّ متعةٍ من متع الحياة في سبيل هذه العقيدة الإسلاميَّة ، عليها نموت وعليها نحيا ، وإن كنا نستطيع أن نلبي دعوة الجاهلية ، ونسهم في إعلاء كلمتها ، وإن فعلنا لكان لنا شأن غير ما نحن فيه اليوم ، ولم يكن أي داعٍ للاضطهاد ، وتقديم الضحايا ، ولكننا لم نفعل هذا ، ولن نفعله.

ولكن هناك عامل محرجٌ عصيبٌ لا نقدر على مجابهته وإن كنا قد ذلَّلنا الصعاب ، وأنشأنا ما كان مستحيلاً في عرف التاريخ ، ولكننا ضعاف اليوم لمواجهة هذه البلية النكراء ، ويستعصي علينا حلُّها ، وهذه المشكلة ـ أيها السادة! ـ هي أن مواطنينا وبني جيلنا في بلادنا يخاطبوننا قائلين: أيها المسلم الهندي! ما بالك لا تعود إلىٰ ملتك الجاهلية الأولى ، وقد أراد كثيرٌ من العرب أن يعودوا إلى جاهليتهم ، يدعون بدعوتهم ، ويتعصَّبون لقوميتهم ، ويحاربون من يخالفها ، فهذه الدعوة التي تبناها بعض العرب ، وعمَّت موجتها في عقلية النشء الحديث ، واعتملت فكرتها في أذهانهم قد خلقت لنا مشكلة ما لنا بها من عهد ، مع كثرة ما فوجئنا به ضدَّ ديننا من المؤامرات ، ولكن هذه المؤامرة فاقت سائر المؤامرات السابقة صعوبةً ودقَّـةً ، حتى استصغرنا دونها المآسي والمكاره ، وما أكثرها اليوم ، ودعوني أقول لكم بكل صراحة: إننا وإن كنا لا نزال مصممين على بقائنا مسلمين أوفياء لديننا مع اعترافنا بواجب النصح للوطن ، والإسهام في بنائه ، ولن يفتَّ في عزيمتنا شيءٌ في الدنيا على بقائنا مؤمنين بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، ولو انسلخت الدنيا بأسرها عن الإسلام ، لم يوهن عزيمتنا

هذه لو عاد الأتراك إلى قوميتهم «الطورانية» وتمسكوا بشعائر جاهليتهم الأولى ، وعقائدها ، وعوائدها ، وأمجادها ، ولو عاد الفرس إلى قوميتهم الساسانية معتزين بأسلافها رستم وسهراب ، ولو عادت مصر إلى فرعونيتها ، ولو عاد العرب ـ لا قدَّر الله ـ إلى جاهليتهم معتزين بأمجاد الجاهلية ، فلم نربط مستقبلنا ومصيرنا بأمَّةٍ أو شعبٍ ، وإنما ربطنا مستقبلنا ومصيرنا بإرادة الله ودينه ، فإن كفر الناس جميعاً لم يسعنا الكفر ، ولم يجز لنا التقليد ، وقد عاهدنا الله أن نثبت علىٰ دينه وأن نعضَّ عليه بالنواجذ ، وقد ضمن الله ببقاء هذا الدين ، وأن لا تزال طائفة من هذه الأمة متمسكة به : ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام : ٨٩] .

غير أننا ننظر إلى جزيرة العرب كمعقلٍ للإسلام ، ومَأرِز الدين ، ونتمنى أن يكونوا كما كانوا سابقاً في مأخذ الزمام ، ومقدَّم القافلة ، يقودون العالم إلى الإسلام ، ويكونون المثل الصالح ، والقدوة الحسنة ، فمنها بدأ هذا الدين ، وإليها سيعود .

فإن كنتم ـ أيها السادة العرب ـ تريدون لنا أيَّ مساعدة أو تحبون لنا أيَّ نجاح فلا نسألكم عوناً من المادة والمال ، إنما نطلب منكم شيئاً واحداً ، وهو أن تكونوا مثلاً عالياً للصَّلابة في الدين ، وتكونوا كما كنتم في الماضي ، حاملي الرسالة الإلهية الخالدة ، تطاردون كلَّ من ينادي بغير الله ربّاً ، وبغير الإسلام ديناً ، وعقيدةً ، وإيماناً ، فإن فعلتم هذا ، أسديتم لنا كلَّ عونٍ ومساعدةٍ .

إنَّه من واجب الأدب ألَّا يتدخل أحدٌ في هذه الأرض ، وقد رزق شيئاً من المعرفة وأدنى حظٍّ من الإنصاف ألا يدخلها إلا مطأطىء الرأس ، خاشعاً متواضعاً ، غاضَّ البصر ، لاهجاً بثناء الله ، لما منَّ الله عليه من فضلٍ بمن خرج من هذه البقعة المباركة من المحسنين للبشرية جمعاء .

* * *

العرب يكتشفون أنفسهُم!

تنظِّم رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة حفلات عامَّة في موسم الحج في قاعة المحاضرات في مركزها ، تدعو قادة الفكر ، وكبار العلماء ، والأساتذة في العالم الإسلامي ، الّذين يحضرون الحجَّ لإلقاء محاضراتٍ في التوعية الإسلامية ، وتوجيه وفود المسلمين من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، إلى ما فيه صلاحٌ لشعوبهم وبلادهم بصفةٍ خاصَّة ، وللعالم والإنسانية بصفة عامَّة ، وتدعو لحضور هذه الحفلات والندوات ، والاستفادة من حصيلة دراسة هذه النخبة من قادة الرأي ، وأقطاب الفكر ، وزعماء العالم الإسلامي من تصل إليه الدعوة من الحجاج ، وأعيان البلد الحرام ، وأساتذة الجامعات ، والشباب المثقفين ، وقد كان لهذه المحاضرات القيمة ، والندوات العلمية أثرٌ ملموسٌ في الأوساط العلمية ، والدينية ، وقد كانت فيها إنارةٌ لكثيرٍ من الحجاج الوافدين من أنحاء بعيدة ، وإثارةٌ للمعاني الكريمة ، والمشاعر الطيبة ، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ ﴾ [الحج : ٢٨].

وقد طلبت الأمانة العامة للرابطة من العلامة الندوي ـ الأمين العالم لدار العلوم ـ ندوة العلماء وعضو المجلس التأسيسي للرابطة ـ الّذي جاء ليحضر الدورة الخامسة عشرة للرابطة إلقاء محاضرةٍ ، في موضعٍ يهمُّه ويهمُّ المسلمين في حفلةٍ من الحفلات العامَّة التي نظمتها الرابطة ، في أواخر ذي القعدة وأوائل ذي الحجة سنة ١٣٩٣ هـ ، وآثر سماحة الشيخ الندوي أن يكون حديثُه ذا صلة بالمعركة الحاسمة التي خَاضَها العرب المسلمون في

شهر رمضان المبارك ، التي كانت لا تزال تشغل العقول والأقلام ، وكان لها أثرها البعيد في تاريخ العرب والمسلمين ، والتي لم يمضِ عليها أكثر من شهرين ، فأعد العلامة الندوي محاضرةً بعنوان «الأمة العربية المسلمة تكشف نفسها» ألقيت في ٣ ذي القعدة سنة ١٣٩٣ هـ.

استعرض العلامة في هذه المحاضرة اكتشاف الشعوب والأمم ، والأفراد ، والقادة لأنفسهم ، وطاقاتهم ، ورسالتهم في عصورٍ مختلفةٍ ، وأمكنةٍ مختلفةٍ ، وما كان لهذا الاكتشاف الجماعي والفردي من أثر بعيدٍ في الأوضاع ، ومصائر الأمم ، وتغيير منحى التاريخ ، وتحويل التيار ، وقد ضرب لذلك أمثلة ، واستشهد بحوادث قد أملت للكتاب تاريخاً جديداً ، وأرغمت العالم على أن ينحو نحواً جديداً ، وذكر أنَّ التاريخ كلَّه خاضعٌ لاكتشاف فرد لنفسه ، أو أمَّة لنفسها ، وانتهى في هذه الدراسة والاستعراض التاريخيِّ إلى أنَّ العرب بدؤوا يكتشفون أنفسهم ، في الفترة الأخيرة ، ويعرفون ما أكرمهم الله به من وسائل وطاقات لحماية شرفهم ، ومصالحهم الاجتماعية ، ومقدساتهم الإسلامية ، ويعرفون مدى تأثيرها في واقع الحياة ، وعقلية الشعوب المعاصرة ، والقوى الكبرىٰ ، وما يطلب هذه الاكتشاف من وعيٍ أشمل ، وأقوى ، وكفاحٍ أثبت وأطول ، وإيمانٍ أرسخ وأعمق.

وقد قدَّم العلامة سعادةُ الأستاذ حسين سراج مدير عام رابطة العالم الإسلامي ، واستمع إلى المحاضرة جمهورٌ كبير ، يتقدمهم معالي الأمين العام للرابطة الشيخ محمد صالح القزاز ، وعددٌ من أعضاء المجلس التأسيسي ، وكبار الأساتذة ، ورجال العلم والثقافة ، وأعيان الحجاج ، من بلادٍ مختلفة ، وكانت تترجم بعدَّة لغات في وقتٍ واحد ، وتلقيت هذه المحاضرة باستقبالٍ واستجابة ، وهدوء واهتمام ، وعلَّق عليها الزعيم المغربي الشهير معالي الأستاذ علال الفاسي ، وأبدى إعجابه بها وتأييده لها ، وتلاه الشيخ محمد محمود الصواف ، وعززها بخطابته القوية ، وإيمانه المتقد ، وأشاد بمعانٍ وردت في هذه المحاضرة ، وعقبه الأستاذ محمود بن الشريف الأستاذ بكلية الشريعة بمكة المكرمة ، ونوَّه ـ بصفةٍ خاصة ـ بتعبير

ورد في هذه المحاضرة ، وتمنى أن تنتشر هذه الفكرة ، ويروج هذا التعبير ، وهو تعبير العلامة الندوي «صناعة الموت» وطلب من الرابطة أن تبادر إلى نشر هذه المحاضرة على نطاقٍ واسعٍ .

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

اكتشاف العرب لأنفسهم وللحقيقة. واكتشاف العالم للعرب عند البعثة المحمدية :

أما بعد : فإنه يسعدني أن أتحدَّث عن اكتشاف الأمَّة العربية الإسلامية لنفسها في هذه الفترة الحاسمة الدقيقة في تاريخ العرب والمسلمين في هذا البلد الطيب المبارك ، الذي اقترن فيه اكتشاف العرب لأنفسهم ، وطاقاتهم ، ومواهبهم المذخورة المطمورة في ركام الجاهلية ، وأنقاض الخرافات ، والوثنية حين أكرمهم الله بالإسلام ، والفهم الصحيح لغاية الحياة ، وحكمة الكون ، وقدرة الله وعدله ، وكرامة الإنسان وشرفه ، ومعرفة مدى جهل الإنسان للخالق والخلق ، وإهانته لنفسه ، وظلم الإنسان للإنسان ، وتسخير فردٍ لفردٍ ، واستعباد قويٍّ لضعيف ، وتضييعه لطاقاته ، وجهاده في غير عدوٍّ ، اقترن كلُّ ذلك باكتشاف العالم لهذه الأمَّة الضائعة التالفة ، المجهولة المغمورة ، المعزولة المفصولة ، وبالأصحِّ المنعزلة المنفصلة عن سائر الشعوب والأمم ، المنطوية على نفسها ، الساهية الحالمة ، المسترسلة في خيالها الواسع ، وفي شعرها الرقيق ، وفي تقاليدها البدوية ، وفروسيتها الطبعية ، ولغتها العبقرية ، وبطولتها الفردية المحلية ، وحروبها وغاراتها القبلية ، واكتشافها لإيمانها العميق ، وإرادتها القوية ، وحماستها الملتهبة ، ورقَّة شعورها ، وعطفها على الإنسان والإنسانية .

فكان اكتشافاً مزدوجاً مقروناً لا نظير له في التاريخ ، فيه كلُّ سعادةٍ للبشرية ، ونهوضٍ للإنسان ، وتحويلٍ لمجرى التاريخ ، ومفاجأةٍ لمن عرف هذه الأمة من قديم ، ولم يعرف إلا تاريخ الفتوح والثورات ، والمغامرات والبطولات ، وجهل حقيقة النبوة والرسالة السَّماوية ، وأعماقها ، وآفاقها ، وما تبدي من معجزاتٍ وما تصنع من عجائب .

قران السعدين الفاصل بين تاريخين:

ففي هذا البلد تمَّ «قران السَّعدين» بالمعنى الحقيقي ، حين قرن سعد الأمة العربية بسعد المجموعة البشرية ، وعلى غلوة[١] من هذا المكان الذي نلتقي فيه نزل الوحي الأوَّل على محمد بن عبد الله العربي القرشي الهاشمي ﷺ ، فولد العالم من جديد ، وعاشت الإنسانية من جديد ، ووجد العالم ، واكتشف كلَّ ما فقده وجهله من الحقائق الثابتة والمعاني الكريمة ، والأخلاق النبيلة ، والغايات الرشيدة ، والعلم الصحيح ، والإرادة الخيرة ، فكان اكتشافاً ، إذا ذكر اكتشاف مغامر لقارةٍ مجهولة ، أو عالمٍ جديد ، كان إساءة إلى هذا الاكتشاف ـ اكتشاف الإنسان لنفسه وغاية حياته ـ الاكتشاف الذي جعل الإنسان يستأنف رحلةً جديدةً في عالمٍ لا حدود له ولا ثغور ، ويكتشف من العلوم النافعة ، والإمكانيات الواسعة ، وأبعاد الإنسانية ، وآمادها ، وأعماقها ، وأسرار الكون ، وصفات الخالق جلَّ وعلا ، ومجالات خدمة الإنسان وإسعاد البشرية ، ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

الاكتشاف أقوى عامل في صياغة التاريخ وتغيير الأوضاع:

أيها السادة! إنَّ تاريخ الحضارة البشرية ، والتقدُّم الإنساني ، وكذلك تاريخ الثورات والانقلابات لا يدين لشيءٍ مثل ما يدين لاكتشاف فردٍ لنفسه ، وفوق ذلك اكتشاف أمَّةٍ لنفسها ، وما تاريخ نهضة الأمم ، وتطور المدنية والاجتماع ، وصمود المجتمعات ، وهبوطها ، إلا قصة اكتشاف بعض الأفراد لأنفسهم ولطاقاتهم المجهولة ، واكتشاف أمَّةٍ ظلَّت قروناً مطيةً لشهوات المستعبدين لها من أفرادها ، وأفراد أممٍ أخرى يتَّخذونها بقرةً حلوباً ركوباً ، يحلبون ضرعها ، ويركبون ظهرها ، ويجزُّون صوفها ، ويسيئون علفها ، وسقيها ، وهي تجهل أصالتها ، وكرامتها ، وطاقاتها ،

(١) الغلوة: رمية أبعد ما تقدر عليه ، ويبعد غار حراء من مكان المحاضرة رمية سهم تقريباً.

ومواهبها ، وما أكرمها الله به من ثرواتٍ إنسانيةٍ ، ومعدنيةٍ ، وصناعيةٍ ، وطبعيةٍ ، فلا تكون قنطرة لنقل البضائع ، أو حمالاً حقيراً للشحن والتفريغ .

ثم تحدث حادثةٌ حين يريد الله بهذا الفرد أو الأمة خيراً ، تكشف لهذا الفرد أو الأمة مكانتهما الحقيقية ، ووضعهما الصحيح ، وتعرفهما بقوتهما ، وبقدرتهما على النفع والضرر ، والدفاع عن النفس ، وحمايتها عن الإهانة والظلم ، فيفاجىء هذا الفرد العصامي أو الأمة العبقرية كلَّ العالم المعاصر ، ويبهر الألباب ، وينفي المسلمات ، ويكذب القياسات ، ويغيِّر مجرى الحوادث . وما تاريخ القيادات والزعامات ، وما تاريخ الأمم والمجتمعات ، إلاَّ قصةٌ متشابهةٌ لهذه المفاجآت ، أو الاكتشافات ، وقد تكون حادثةٌ تافهةٌ لا تسترعي الانتباه ، ولكنها تلهب الجمرة الضعيفة الأخيرة من غيرة الفرد أو الأمة ، وتدفُّق تلك القريحة ـ ولا أعني بها القريحة الشعرية ، إنما أريدها بالمعنى الواسع ـ الجامدة الهامدة ، فيسقط الغطاء عن القدر ، وينطلق التيار الكهربائيُّ القويُّ ، ويتدفَّق السيل الذي سدَّ طريقه حجرٌ ، أو صخرةٌ ، فزالت ، فإذا هو فردٌ غير الفرد ، وإذا هي أمَّةٌ غير الأمَّة .

والتاريخ الإنساني والإسلاميُّ يحدثنا عن هذه الاكتشافات والمفاجآت الفردية التي غيرت مجرى التاريخ ، ليس تاريخ هؤلآء الأفراد فحسب ، بل تاريخ الأمم والمجتمعات بأسرها ، فدحرت العدو على أعقابه ، وحطَّمت سلاسل العبودية والذلِّ ، وغسلت عاراً للهزيمة النكراء ، وعادت الأمة بفضل معرفة هذا الفرد لنفسه ولطاقات أمته ؛ أشرف ، وأقوى مما كانت في الماضي .

مثال من التاريخ البيزنطي الرومي :

والتاريخ مليء بالشواهد ، وإذا لم نوغل فيه كثيراً ، ولم نتقصَّ أخبار الأمم والمجتمعات تقصِّياً دقيقاً ، كفانا من التاريخ الإنساني العام قصة إمبراطور الدولة البيزنطية ، أو الدولة الرومية الشرقية ، الإمبراطور هرقل (Heraclius) الذي عاصر البعثة المحمَّدية والفتوحات الإسلامية ، والذي

كتب إليه النبيُّ ﷺ ، ودعاه إلى الإسلام ، في قصةٍ مشهورة وردت في الصحاح ، وكتب السيرة ، وكان من حظه بأن يقاتل الجيوش الإسلامية التي ابتعثها الخليفتان أبو بكر الصديق، وعمر الفاروق، ويخسر ممتلكاته الشرقية.

لـغـزة تـاريـخيـــة:

إنَّ قصته مع الفرس الزاحفين ، ومع المسلمين الفاتحين لغزة من ألغاز التاريخ التي لم يهتد المؤرخون الفلاسفة ، والمحلِّلون العلميون إلى فكها ، كما اعترف بذلك كاتب مقالة هرقل في «دائرة المعارف البريطانية» (Encyclopedia Britannica) فقد انقسمت حياته القيادية والحربية بين قسمين متناقضين تناقضاً حار في تعليله المؤرخون ، بين صموده الرائع ، وبطولته النادرة أمام الفرس الذين خضدوا شوكة الإمبراطورية الرومانية النصرانية ، وتوغلوا فيها إلى أقصى حد ، وأهانوها إهانةً لم تجربها من قبل في تاريخها الطويل ، وانتصاره على الإمبراطورية الفارسية ، ووصوله إلى قلبها ، واسترداده لملكه السليب ، ومجده الضائع ، وردِّ الاعتبار إلى هذه الإمبراطورية التي كانت تحكم نصف العالم ، وبين استكانته وضعفه أمام الجيوش العربية ، وانهزامه وتراجعه إلى عاصمة ملكه ، فإنَّه لما تمَّ له الانتصار على الفرس ، وبلغ الإمبراطور قمة مجده وذروة شهرته ، ابتلي بالعرب الذين لم يكن يحسب لهم حساب في ميزان الشعوب الفاتحة ، والمدنيات الزاهية الزاهرة ، فلم يزل يلقى هزيمةً بعد هزيمة ، وتراجعاً للجيوش الصليبية على إثر تراجع ، وفضيحةً تتلو فضيحةً ، حتى اضطر إلى أن يلقى على ربوع الشام نظرة الوداع بعينٍ تترقرق فيه الدموع ، وصوتٍ يقاطعه البكاء ، ويقول: سلامٌ عليك يا سورية ، سلاماً لا لقاء بعده.

إنَّ هذه اللغزة أعيت العقلاء الأذكياء من فلاسفة المؤرخين ، وحذاق المؤلفين ، حتى قال كاتب مقالة هرقل في «دائرة المعارف البريطانية»: «إنه قفلٌ مفتاحه مفقود ، لأنَّ الفجوة التاريخية الواقعةِ ، بين عهد هرقل ، وبين هذا العهد والإحاطة غير الكافية بأحواله الشخصية تمنعان من التوصل إلى نتيجةٍ ، والجزم بشيءٍ في هذا الموضوع».

تحول في حياة هرقل واكتشافه لنفسه ، مفتاح هذا القفل :

ولكن اسمحوا لي أيها السادة أن أقول : إنَّ المفتاح موجودٌ ، إنَّه مفتاحٌ ميسورٌ لكلِّ من شرح الله صدره للإسلام ، وفتح بصيرته للاستنتاج الصحيح . إنَّ الإرادة الإلهية القاهرة هي التي نفخت في هرقل روحاً جديدة لتحقيق نبوءة القرآن[١] التي جاءت في سورة الروم ، وهي قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الروم : ١ ـ ٥] .

إنَّ تاريخ الدولة البيزنطية يحدِّثنا على لسان أكبر مؤرخيه جيبون (Gibbon) : إن هرقل كان في قرطاجنة (Carthage)[٢] وكان ابن حاكم إفريقية الرومي ، ولم يكن شيءٌ يدلُّ على عصاميته ونبوغه ، أو عبقريته القيادية .

ولما قتل فوقس (Phocas) المغتصب ، إمبراطور الدولة البيزنطية الشرعي موريس (Maurice) سنة ٦٠٢ م وانتهز الفرس هذه الفرصة للزحف على الدولة البيزنطية[٣] دعي من قرطاجنة فقتل فوقس ، وبويع بالملك ، واستثار الرومان غيرته الدينية والوطنية ، فلم يلقوا استجابة ، وعقد النية

---

(١) جاءت هذه النبوءة في السنة الخامسة من البعثة سنة ٦١٥ هـ ٦١٦ م والدولة الرومية الشرقية في احتضار تلفظ نفسها الأخير ، وقد تحققت هذه النبوءة في ظرف تسع سنين ، وتمَّ انتصار هرقل على الدولة الفارسية ، وطردها من حدود المملكة الرومية في سنة ٦٢٥ م للسنة الثانية للهجرة وعند معركة بدر .
اقرأ للتفصيل مقالة العلامة الندوي «نبوءةٌ تتحدَّى ومعجزةٌ تتحقّق» البعث الإسلامي عدد/ ٤ ج/ ١٥ رمضان ١٣٩٠ هـ .

(٢) مدينة قديمة في إفريقية أسسها الفينيقيون في ٨١٤ ق . م . وبمقربةٍ من أطلالها قامت مدينة تونس .

(٣) اقرأ للتفصيل وأسباب هذا الزحف في مقالة العلامة الندوي «نبوءة تتحدى ومعجزة تتحقق» .

على المحافظة بالبقية الباقية من الملك ، وفكر في العودة إلى قرطاجنة والالتجاء إليها ، وقد بلغت الإمبراطورية أوجها من الذلِّ والهوان ، وقطعت الميرة عن العاصمة بعد قيامها لأول مرة ، واستولى الفرس على مصر درَّة الإمبراطورية الشرقية ، وانتشرت المجاعة في العاصمة ، وفي ذلك الحين جاءته رسالة الإمبرطور خسرو[١] ، يطالبه بالأتاوة المهينة ، وتقديم ألف فتاة رومية كلَّ سنة ، واحتوت هذه الرسالة على كلماتٍ لاذعةٍ مثيرةٍ حركت غيرته ، وألهبت فيه الشرارة الكامنة التي كادت تنطفىء فاستشاط غيظاً ، فإذا بين مسوح الضأن ليث ثائر ، وقد بلغت الإمبراطورية من الفقر والعجز المالي ، إلى أن اضطر الإمبراطور إلى استدانة الكنائس ، والاستعانة بنذورها ، وأوقافها ، وقاد الجيوش إلى حدود الإمبراطورية الفارسية ، يهزم جيشاً بعد جيش ، ويفتح بلداً بعد بلد ، حتى غرز راية الفتح في قلب فارس ، وفتح نينوى ، ودست جرد ، وترامت جيوش الإمبراطورية الفارسية على أقدامه ، وعاد إلى عاصمته ظافراً منتصراً.

إنَّ السرَّ في ذلك ـ أيها السادة ـ هو اكتشاف هرقل لنفسه ، وطاقاته الدفينة ، وقدرة أمَّته على أخذ الثأر ، وغسل العار ، وتهيؤها لذلك ، وقد آن أوانه فبرزت من شخصيته شخصيةٌ لم يكن يعرفها هو نفسه ، ولم يكن يعرفها قومه. وكلُّ ما وقع بعد ذلك هو امتدادٌ هذا الاكتشاف الرائع ، ونتيجةٌ حتميةٌ لهذا العثور على كنز دفينٍ مطمورٍ.

فرق بين اكتشاف فرد واكتشاف أمة وبين اكتشاف طاقة واكتشاف رسالة :

ثم لكم أن تتساءلوا ـ أيها السادة! ـ فلماذا انهزم هذا القائد العبقري الذي بهر العالم بهذا الفتح المبين ، والمقدرة القيادية الساحرة أمام جيوشٍ لم تبلغ معشار ما بلغته الجيوش الرومانية من التنظيم والتسليح ، والعَدد والعُدد ، والبراعة في صناعة الحرب وفنونها ، وقد تلقحت معرفتها ومراسها للحرب مع معرفة الفرس ، ومراسهم للحرب ، وأساليب قتالهم كما هي العادة في حرب مملكتين عظيمتين قد بلغتا في الصناعة الحربية

(١) وهو الّذي يسميه المؤرخون العرب «بكسرى أبرويز» وهو ابن هرمز وحفيد نوشروان.

والإستراتيجية أوجها ، انهزم أمام هذه الجيوش العربية التي وصفها أحد مؤرخي العرب المنصفين بأنها كانت «مرقعة الثياب ، بالية الأجفان ، متقطعة الغرز[(١)]» .

والجواب ـ أيها السادة ـ هو ما قررته في مفتتح حديثي :

إنه اكتشاف لطاقة جديدة ، لقد اكتشف العرب بفضل الإسلام عن نفوسهم وطاقاتهم ، وسموِّ الرسالة التي كانوا يحملونها ، وفضل الغاية التي كانوا يقاتلون لأجلها ، ومدى شقاء الإنسانية ، وبلاء الأمم والشعوب في ظلِّ حكم الرومان والفرس ، وإيمانهم بأنَّهم مكلفون مأمورون ، مهيؤون مقدرون لهداية الأمم ، وإنقاذ العالم ، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وتصديقهم لقول الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

وتصديقهم لقوله ﷺ: «لتفتحُنَّ كنوز كسرى وقيصر» وكان هذا الاكتشاف الذي أكرمهم الله به عن طريق نبوَّة محمد ﷺ ، وعن طريق عقيدة التوحيد ، والنبوة ، وعقيدة الآخرة ، والإيمان بالقضاء والقدر ، ألَّا نافع ولا ضارَّ إلا الله ، ولقوله تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠] ، ولقوله تعالى : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

كان هذا الاكتشاف أقوى وأعمق من اكتشاف هرقل لنفسه ولشعبه ، وللإمكانيات والوسائل التي كان يتمتَّع بها ، إنه إذا كان اكتشاف فردٍ ، فإنَّ هذا اكتشاف أمَّة ، وإنه إذا كان اكتشافاً لفضل النصرانية ، المزيج بالتعليمات السماوية والميثولوجية الرومية الوثنية ، فإنَّ هذا اكتشاف لدين

---

(١) الركاب.

جديد أساسه عقيدة التوحيد النقي الخالص ، الذي لم يشبه شيئاً من وثنيات الأمم البائدة ، والفلسفات القديمة ، إنه إذا كان اكتشافاً لكرامة الموت في سبيل الوطن وشرف الأمة ، فإنَّ هذا اكتشافٌ لفضل الشهادة في سبيل الله ، والجهاد لإعلاء كلمة الله ، إنَّه الاكتشاف الثاني الذي سعد به العرب في فجر الإسلام ، وفي منتصف القرن السادس المسيحي ، فاق وبرز على كل اكتشافٍ يحدّثنا عنه تاريخ الأمم والديانات ، والفتوح والمغامرات ، والانقلابات والثورات ، وتأسيس الحكومات وإنشاء المجتمعات ، إنه اكتشاف لم يعرف تاريخ البشرية اكتشافاً أعمق جذوراً ، وأبعد مدىً ، وأوسع أفقاً ، وأطول زمناً من هذا الاكتشاف .

تاريخ الحكومات والفتوح والإصلاحات خاضعٌ لاكتشاف بعض الأفراد والجماعات :

ونواصل رحلتنا في التاريخ الإسلامي ، فنرى جميع التحولات في التاريخ التي تفصل بين عهدٍ وعهد ، واتجاهٍ واتجاه ، وتنحو بالمجتمع الإسلامي نحواً جديداً ، وتملي على الكتاب والمؤلفين تاريخاً جديداً ، خاضعةً دائماً لاكتشاف الأفراد لأنفسهم ، ولطاقاتهم المذخورة ، التي كانت تنتظر حادثةً أليمة ، أو ضرورةً ملحّة ، أو دافعاً قوياً عنيفاً ، ثم خضعت الأمّة بأسرها ، والمجتمع الإسلامي بكامله لهذا الاكتشاف الفردي .

أمثلة من سيرة عمر بن عبد العزيز وصلاح الدين الأيوبي :

وهذه قصة سيدنا عمر بن عبد العزيز ، الذي نشأ فتىً ناعماً رقيقاً ، كان مثال الأناقة والذوق ، وحسن الهندام ، وجمال الملبس ، فإذا به يفاجىء العالم الإسلامي كلِّه بشخصه العبقري ، وزهده العمري ، وإرادته القوية في تحويل المملكة والمجتمع الإسلامي إلى الحكم الإسلامي المحض ، والحياة الدينية الخلقية التي تتحكم فيها المعايير الإسلامية ، والقيم الدينية ، والمثل العليا ، وقد تمَّ كلُّ ذلك وتحقَّق في سنتين وبضعة أشهر .

وهذه قصة داحر الصليبيين وبطل حطين صلاح الدين بن أيوب الكردي ، الذي لم يزل يجهل نفسه وطاقاته، والغاية التي خلق له ، والمهمة التي

اختير لها ، والمواهب التي فطر عليها ، إلى أن أرسله مربيه السلطان نور الدين الزنكي ، إلى مصر قسراً وإصراراً ، وقد اعترف بنفسه كما ذكره كاتبه ، وأمين سره ابن شداد : أنه لم يتوجه إلى مصر إلا امتثالاً لأمر سيِّده ، وصاحب الفضل عليه ، وأنه لم يكن ذلك عن طواعية وطيبة نفس ، وقال : آمنت بقوله : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾[1] [البقرة : ٢١٦] ، وكان وروده إلى مصر مقدمة حروبه مع الصليبيين ، واسترداد القدس والمسجد الأقصى ، والذي بقي في حوزة الصليبيين تسعين سنة .

وقد ذكر ابن شدَّاد أنَّه لمن يكن على جانبٍ كبيرٍ من الورع ، وقد نشأ نشأة أبناء الأمراء وقواد الجيش ، قبل أن يُهيَّأ للأمر العظيم ، ولكنه لما سمت همَّته ، وتاقت نفسه إلى تخليص الأماكن المقدسة ، وإجلاء الصليبيين الذي بدؤوا يتحدَّون الحرمين الشريفين ، وتسول له نفوسهم الاعتداء على أقدس الأماكن ، وأعز الشعائر والذخائر عند المسلمين ، انكشفت له وللعالم شخصيةٌ جديدةٌ ، تبعتها حياة جديدة ، وأخلاقٌ جديدة ، فإذا هو بمولودٍ جديدٍ لا يعرف اللذة والعزة في غير مقاتلة الصليبيين المعتدين ، واسترداد المسجد الأقصى وفي غير الجهاد في سبيل الله ، حتى يقول ابن شداد : إنه إذا كان أحدٌ أراد أن ينال منه مطلباً ، ويحقق غرضاً تحدَّث عن الجهاد ، فكان هو الطريق الميسَّر الأقصر لتحقيق المطالب منه والانتفاع به[2] .

أمثلةٌ من تاريخ الشعوب والسلالات الفاتحة المؤسسة للحكومات الكبيرة :

هذه قصة الأفراد أيها السادة ، حين يكتشفون نفوسهم ، ويعثرون على طاقاتهم المخبوءة الدفينة ، أو يسمعون هتافاً غيبياً يدعوهم إلى ساحة الجهاد ، والتفاني في سبيل استرداد الحقِّ السليب ، والكرامة الضائعة ، والأرض المغصوبة ، أما قصة اكتشاف الشعوب والأمم لنفسها ولطاقاتها ، أو لرسالتها ودورها ، الذي يجب أن تمثله على مسرح التاريخ ، ومنصة

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص/ ٣١ .

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص/ ١٦ .

الأمم ، وحلبة العالم ، فهي قصةٌ طويلة تطلب مجلداً ضخماً ، بل مكتبةً تاريخيةً كاملة ، ويكفيني في هذه الوقفة القصيرة ، أن أشير إلى نهضة السلاجقة ، وآل عثمان في آسيا الصغرىٰ ، وغرب آسيا ، وإلى الأسرة الغزنوية ، والغورية ، والشعب الأفغاني ، والسلالة المغولية في شبه القارة الهندية ، فقد اكتشفت كلٌّ من هذه الشعوب والسلالات نفسها وطاقاتها المذخورة المسعورة التي لم تزل بكراً ، ولم تزل كنزاً دفيناً طيلة قرون ، فجاء الإسلام فأثارها ، وأخرجها من قفصٍ ضيقٍ مظلمٍ ، كانت تعيش فيه إلى عالمٍ واسع لا تتصل به بصلة ، فإذا بالإسلام يمنحها عقيدةً وغايةً للحياة ، ورسالةً للإنسانية ، ويمنحها ثقافةً وحضارةً ، فتخرج من دنياها المحدودة الضيقة ، وتعنى بقضايا الإنسانية ومصيرها ، وتؤسس حكوماتٍ واسعةٍ أولها في كاشغر ، وآخرها في أنطاكية ، ويرقُّ شعورها ، ويسمو ذوقها ، وتشتعل مواهبها وقرائحها ، فتبلغ شأواً بعيداً في الشعر ، والأدب ، والعلوم ، وفي الفن المعماريِّ حتى تضارع في ذلك أرقى الأمم والسلالات العريقة في المدنية والثقافة ، وتفوقها في أكثر الأحيان ، وفي تاريخ السلاجقة ، والعثمانيين ، والغزنويين ، والمغول ، وآثارهم في نيسابور وأصفهان وفي الأناضول ، وفي شبه القارة الهندية ، ما يبرهن على ذلك .

اكتشاف العرب لطاقاتهم ووسائلهم في الفترة الأخيرة :

ولكن قصة العرب في الأيام الأخيرة وقصة اكتشافهم لنفسهم وطاقاتهم ، وهي قصة تختلف عن قصة الأفراد والجماعات التي تحدثنا عنها ، وعن قصتهم أنفسهم عند ظهورالدعوة الإسلامية ، فلم يكن العرب بعد ما أكرمهم الله بالإسلام ، وكتب لهم فيه السبق والفضل ، وخصَّهم بالإمامة فيها في يومٍ من الأيام في حاجةٍ إلى دينٍ جديدٍ أو نبوةٍ جديدةٍ ، أو رسالةٍ جديدةٍ ، لقدْ ظلوا ـ والحمد لله ـ مؤمنين بالدِّين الذي انبثق نوره من أرضهم وانتشر في العالم ، فلم يكن هناك محلٌّ اكتشاف لحقائق غيبية جذرية ، أو قفزةٍ من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن الوثنية إلى التوحيد ، ومن الخرافة إلى العلم ، فقد ربط الله مصيرهم بمصير هذا الدين ، رضوا ،

أو كرهوا ، وعرفوا هذه النعمة ، أو جهلوها ، لا يستطيع أن يقطع صلتهم من هذا الدين ، ويحول بينهم وبينه ، زعيمٌ أو قائدٌ ، أو فيلسوفٌ ، أو مفكرٌ.

محنة العرب في عهد الغزو الفكري الأوربي والقيادات الزائفة المنحرفة :

إنَّ جل الأمر أنه تراكم على جوهرهم النقيِّ غبارٌ بتأثير الغزو الفكري الأوربي ، فكان كثيرٌ منهم فريسة الدعوة القوميَّة ، أو الاشتراكية ، أو الشيوعية في هذا العهد الأخير . وابتلوا بقياداتٍ كانت من أشد القيادات في العالم جهلاً لشخصية الأمَّة العربية الإسلامية ، ومقومات حياتها ، ومنابع قوتها ورسالتها الخالدة التي أكرمها الله بها ، وكانت أجهل القيادات للطاقات المذخورة في نفس هذه الأمة ، وطرق إثارتها ، وإلهابها ، واستخدامها في صالحها ، وفي صالح الإنسانية ، أو الأمر بالعكس ، فكانت هذه القيادات الذكية من أعرف القيادات وأشدها عداءً لها وحرباً عليها ، ترى ذلك عقبة كؤوداً في سبيل تحقيق أغراضها السياسية وتطبيق مشاريع أصدقائها الأجانب ، وتحقيق مخططاتهم ، فتحاربها حرباً لا هوادة فيها ، وتكرِّس جهودها وذكاءها ووسائلها على إزالتها والقضاء عليها ، وتجفيف منابع الإيمان والغيرة ، والعاطفة الدينية في نفس هذه الأمة ، حتى يزول الخطر كلياً ، ويصفو لها الجو ، لأجل ذلك تخوض هذه القيادات حرباً داخلية هي أشد وأعنف وأطول ، وأعمق من حربها مع قوى الاستعمار ومع الصهيونية ، وتبذل كلَّ ما تملك من طاقاتٍ ووسائل في إزالة ما نسميه الركام العقلي ، أو الأنقاض التاريخية.

الفوضى الفكرية والاضطراب العقائدي والخلقي :

وابتليت الأمة العربية كذلك بأساتذةٍ وكتابٍ متشكِّكين ، ومشكِّكين ، وقد تلقوا ثقافتهم في العواصم الأوربية ، وجامعاتها الشهيرة ، آمنوا به إيماناً راسخاً ، وكانوا نسخةً فكريةً ثقافيةً صادقةً لأساتذتهم الغربيين ، ورسلاً للثقافة والأفكار الغربية ، وأكثر إخلاصاً وحماساً من أساتذتهم ، وأكثر جراءةً ـ إذا لم أقل وقاحةً ـ من هؤلاء المستشرقين ، فشكَّكوا الجيل

الجديد المثقف في كلِّ ما يقوِّي روحه ، وينمِّي العواطف الإسلامية ، ويغذِّي عقله المؤمن ، ويؤهِّله للدفاع عن مقدساته وشعائره ، ويقوِّيه على مقاومة الإغراءات المادِّية والصمود في المعترك الحربيِّ ، والخلقيِّ ، والعقائديِّ ، وأضعفوا الثقة ، وأفقدوها بتاتاً بمنابع الدِّين الأصلية ومصادره الأولية ، وشكَّكوا حتى في شخصيته ، وفي تاريخه ، وصلاحيَّة لغته وأدبه ، وخلود رسالته ، وفضل التشريع الإسلاميِّ ، وصلاحية الإسلام لمسايرة الزمن فضلاً عن سبقه للزمن ولقيادته للركب البشريِّ ، وهم «المسؤول الأول» عن هذه البلبلة الفكرية التي تعانيها الأمة العربية منذ ستين سنة تقريباً ، وكانت من أكبر أسباب النكبات التي نكبت بها ، وفي مقدمتها نكبة ٥ حزيران ، وساعدت على ذلك حركة الطبع والنشر التي قويت في العصر الأخير في بعض العواصم الكبرى ، وتدفَّقت كالسيل العارم ، تحمل معها الغث والسمين والزبد الطافي ، والتي تحررت من كلِّ قيدٍ ، وليس دافعها إلا الارتزاق أو الرواج ، ولو كان على حساب الأخلاق والأعراض.

عزلةٌ عن حياة الفروسية والمغامرات والحماس الدينيِّ :

ويضاف إلى ذلك أنَّ الأمة العربية بقيت مدةً طويلةً بعيدةً عن حياة المغامرات ، وما تطلبه من تضحيةٍ وتقشُّفٍ ، وفروسيَّة ، وقد أقصيت عن ميدان الحروب ، وقيادة الجيوش بعد تغلب العنصر التركي والفارسي على الخلافة العباسية ، وتملّك السلاجقة والأتراك لزمام الأمور ، وظلَّت أربعة قرون متواليةٍ تحميها الدولة العثمانية التي كانت تحكم الأقطار العربية من غربها إلى شرقها ، وكانت مسؤولة عن حماية المقدسات الإسلامية ، والقدس ، والحرمين الشريفين ، فلم يسنَّ للأمة العربية أن تكتشف طاقاتها وصلاحيتها ، وأن تعيد تاريخ الفروسية العربية ، والنخوة الإسلامية إلا ما كان منها في المغرب العربي ضدَّ الاستعمار الفرنسيِّ والإيطاليِّ.

وجاء دور الاستقلال للأقطار العربية ، فأقصي العنصر المكافح الذي تولى كبر الحرب ضد الاستعمار ، واكتوى بنارها ، ذلك العنصر المؤمن الذي دفعه إلى جلاء المستعمر وتحرير البلاد إيمانه القوي ، وحماسه

الدينيُّ ، وتربيته الإسلامية ، وخلفه العنصر المثقف بالثقافة الجديدة الذي استطاع أن يصل إلى كرسيِّ الحكم ببراعته في أساليب السياسة الجديدة ، وحذقه للغات الأجنبية ، وقدرته الفائقة على الدعاية ، وتمتعه بثقة القوى الاستعمارية الأجنبية ، ولم يستطع بحكم ثقافته ـ أو لم يرد بالأصحِّ ـ أن يبعث في الأمة قوة الإيمان وروح الفروسية ، والاستماتة في سبيل الله ، والاستهانة بالحياة واللذات ، والتمرد على الشهوات ، واستطابة الموت ، والحنين إلى الشهادة ، وروح الإيمان ، والاحتساب التي أشار الله إليها بقوله:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

فتساووا في ميزان القوة العددية والحربية ، بل فاق عليهم منافسوهم في الحبِّ للوطن ، والفداء له ، والإخلاص للأمة.

ورافق دور الاستقلال انتشار أسباب الثروة ، والانكشاف عن ينابيعها الطبيعية والصناعية ، وارتفاع مستوى المعيشة ، فرافقه بطبيعة الحال البذخُ ، والرِّقَّة ، والرَّخاوة ، وأضعف كلُّ ذلك روح الفتوة ، والتقشُّف ، والصَّبر ، وقوة الاحتمال للمكاره.

حروب في غير حريةٍ وعزم:

وقد خاضت الأمَّة العربية في حربين مع إسرائيل كانتا خليقتين بإبراز صفاتها البطولية ، ونفض الغبار عنها ، الأولى: حرب ١٩٤٧ م ، والتي اشتركت فيها جيوش سبع دولٍ عربية ، والثانية: حرب ١٩٦٧ م التي تزعمتها مصر ، ولكن الأولى لم تكن حرباً حرَّة تبرز فيها صفات الجيوش العربية الحقيقية كلَّ البروز ، لأنَّ حبلها كان في يد المؤسسين لإسرائيل ، وكانت قوى الاستعمار هي التي تملك زمامها ، وكانت قيادة فوق جميع القيادات. أما الثانية ، فكانت بمسرحيةٍ أو بروايةٍ من روايات «ألف ليلة وليلة» أشبه منها بحربٍ جدِّيةٍ حاسمةٍ ، ومعركةٍ حقيقيةٍ فاصلةٍ ، كما تبَيَّن ذلك للمبصرين في كلِّ مكانٍ.

أهمية «صناعة الموت» في حياة الأمم :

وكادت الأمة العربية تنسى «صناعة الموت» الصناعة التي إذا لم تتعلمها أمّة ولم تحسنها ، ولم تستطع أن تحيا حياةً كريمةً ولم تخوَّل حقَّ البقاء ، وكادت تتجرَّد عن كل ما يخاف مغبته المستعمر الأجنبيُّ ، والعدوُّ المنافس ، أو الغاصب المهدر لكرامتها.

القدرة على النفع والضرر نعمةٌ كبيرة :

وقد خلق الله أضعف مخلوق في هذا الكون ، مع سلاح يدافع به عن نفسه ، ويحمي به وجوده وحياته ، ولم يحرم الحشرات الضعيفة هذا السلاح الذي قد لا يرى إلا بمكبرة ، وقد لا يجربه الإنسان إلا في أحيان نادرة ، وعلى ذلك قام نظام هذا الكون ، والإنسان مفطورٌ على احترام القوَّة ، والتوقِّي من الضرر ، والتفادي من الأذى ، وإذا شعر هذا الإنسان ـ مهما أوتي من العقل والعدل ـ بموضع الضعف في عدوِّه وحرمانه من هذا السلاح الواقي اجترأ عليه ، ولم يراع له حقّاً ولا ذمَّةً ، ولم تأخذه به رأفةٌ ، حتى الأمُّ التي لم يخلق الله في هذا الكون وجوداً أكثر حناناً ، ورقَّةً ، ورأفةً ، ورحمة منها لأولادها وأفلاذ أكبادها ، قد تبخس حقَّ الطفل الذي لا يعرف البكاء ، والاحتجاج ، والشكوى ، والعتاب ، ولا يعرف كيف يبدي مشاعره ، ويستجلب عطفها والتفاتها ، وتؤثر عليه الطفل العنيد العاتي ، الذي يأخذ حقَّه من الرَّضاع ، أو الغذاء ، ويفرض رغبته على البيت والأسرة.

وقد ذكر هذه الحقيقة شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ببلاغةٍ شعريةٍ ، وحكمة نفسية «سيكلوجية» إذ قال :

«لقد تجلَّت حكمة الله في خلق الشوك الذي يحيط بالوردة اللطيفة الناعمة ، وساعدت على نشوئهما وبقائهما الطبيعية الحكيمة ، وليس إلى حفظ الورد والرياحين سبيلٌ إذا تجرَّد الشَّوك الذي هو سياجٌ لهذه الرياحين الرقيقة من قوة الحماية ، وتخلَّق بأخلاق الحرير عوضاً عن الحديد».

طلائع الفروسية والمغامرة ، وأثرها في اعتبارات الشعوب والأمم :

وقد ظهرت الفروسية العربية في الأيام الأخيرة في معركة رمضان ١٣٩٣ هـ ظهوراً غيَّر نظرة المستعمرين والناقدين للعرب المستهينين بشخصيتهم بعض التغيير ، وصاروا ينظرون ـ وقد بدت طلائع هذه الفروسية والمغامرة والصمود في ميدان الحرب ـ .

ولم تبلغ غايتها المتوخاة ـ إلى العرب نظرة فيها الاحترام وفيها الاهتمام ـ ، وليست المساحة التي تستولي عليها دولةٌ أو أمَّة هي كل شيءٍ في ميزان القوة والانتصار والتقدير ، إنَّ المهمَّ هو ظهور روح المغامرة ، والفروسية ، والصمود ، واعتماد الأمَّة على سواعدها ، والإيمان بكونها على الحقِّ ، والقدرة على النفع والضرر ، والانتفاع بوسائلها ، وطاقاتها ، واستخدامها في استرداد الحقِّ ، وردِّ الاعتبار والكرامة .

وقد تجلَّى ذلك بوضوح لأوَّل مرَّةٍ في تاريخ العرب في الأيام الأخيرة حين استخدموا سلاح النفط ، الذي خلقه الله في أرضهم كسلاحٍ أمضى وأكثر تأثيراً من الأسلحة الحربية الكثيرة ، التي تعتمد عليها الدول والجيوش ، وقد اهتزَّ له العالم العربيُّ ، فلم يكن يحلم بأن العرب سيستعملونه كسلاحٍ ، يدافعون به عن حقوقهم ، أو يحمون به كرامتهم ، ويثبتون به قدرتهم على النفع والضرر ، وقد كان يعتقد أنهم ينفعون ، ولا يضرُّون ، وأنَّهم لا يفكِّرون إلا في مصالحهم الفردية ، والشعبية ، والمحلية ، وأنه ليس النفط إلا وسيلة للرفاهية ، والرَّخاء ، وأنَّهم قد تجردوا عن التفكير الاجتماعي والمصلحة الاجتماعية ، التي تقهر الشهوات ، وتتغلب على النزوات ، وتطغى على الأنانيات ، فكان مفاجأة للغرب غيَّرت كثيراً من الموازين ، وأخضعت عدداً من الدول والطاقات أمام هذا العزم الصادق ، والحزم الفائق ، فكان تطوراً في الأحكام ووجهات النظر لا مثيل له في تاريخ الماضي القريب .

طـريـقٌ طـويـل إلـى الـنصـر :

وهكذا اكتشف العرب نفوسهم وطاقاتهم في الأيام الأخيرة ، فكان اكتشافاً له ما بعده في مصير هذه الأمَّة العربية الإسلامية ، وفاتحة عهد جديد ، لو استقام العرب على هذا العزم ، ولم يدبَّ الوهن إلى نفوسهم ، ولم يتطرَّق الفشل ، والتنازع إلى صفوفهم ، وصدقت عزائمهم في استرداد حقِّهم المسلوب ، وملكهم المغصوب ، وحافظوا على روح الفروسية والمغامرة ، واستهانوا بالحياة واستطابوا الموت في سبيل الدين ، والحق ، والعدل ، والعزِّ ، والكرامة ، والشرف ، وأضافوا إلى ذلك التقدم بعزم وتصميمٍ إلى الاكتفاء الذاتي ، والاستغناء عن الشعوب الغربية في كلِّ ما تتوقف عليه حياة أمَّةٍ شريفةٍ من أسلحة حربيةٍ ، ومصنوعاتٍ وطنية إلى موادَّ غذائيةٍ .

حـربٌ علـى كـلِّ شبـح لـلـخـوف وكـلِّ أثـرٍ لـمـركـب الـنقـص :

ويحلو لي أن أختم حديثي هذا بقطعة شعرية قالها محمد إقبال يخاطب بها المسلم المعاصر ، ويثير فيه الاعتداد بكرامته ، والاعتزاز بشخصيته ، ورسالته ، ويحارب فيه مركَّب النقص ، وفقد الثقة ، وضعف الإيمان ، وأنا أعتقد أنَّه إذا عاش لخاطب العربيَّ المسلم الثائر الذي أصيب بجهل شخصيته وكرامته ورسالته وازدراء نفسه ، والحب الزائد للحياة ، والإشفاق من الموت ، بتأثير الثقافة الغربية العصرية ، والبعد عن ميدان المغامرة ، والطموح ، والفروسية منذ زمنٍ بعيدٍ ، يقول محمد إقبال :

«عجبـاً لك أيها المسلم! تجلَّت لك الآفـاق ، وغابت عنك نفسـك ، إلى متى تظلُّ غافلاً جاهلاً ، وتجلس ضائعاً عاطلاً ، إنك نورٌ قديمٌ ، فأنر العالم ، وانسخ الليل البهيم ، ولا تـزال اليد البيضاء في كمِّك ، تخطُّ حدود الآفاق الضيقة ، فأنت السابق لها ، والفائق عليها ، فقد كنت ولم تكن ، وستكون ولا تكون ، هل تخاف الموت أيها الإنسان الحي الخالد؟! لقد كان جديراً بالموت أن يخافك ، فأنت تكمن له ، وترصد به ، أعلم

يقيناً ، أنَّ الكريم إذا وهب شيئاً لا يسلبه ، ولا يستردُّه ، وليس حتف ابن آدم في فراق الروح ، إنما حتفه في ضعف الإيمان ، والحرمان من اليقين»[١] .

* * *

(١) انظر : «روائع إقبال» ص/ ٩٨ للعلامة الشيخ الندوي .

أجاهليـة بـعـد الإسـلام أيـهـا الـعـرب ! !

هذه الكلمة ألقاها العلامة الندوي في الحفل الّذي أقيم لتكريمه في مكة المكرمة في بستان عبد الله السليمان يوم ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٨٢ هـ (٢١ من إبريل ١٩٦٣م) .

وقد ضَمَّ عـدداً مشرفـاً من أساتـذة الجامعات وطلبتهـا ، وأعيـان البـلد والشيوخ ، ورجال العلم والفكر .

أيها السادة الأجلاء! إنَّ هذه الحفلات التي تعقد لتكريم شخصٍ إن كانت لها قيمة ، فهي أنَّها تتيح للضيف أو الشخص المحتفى به فرصةَ الاجتماع بمجموعةٍ طيبةٍ كريمةٍ من رجال الثقافة ، وقادة الفكر ، وصفوة البلد ، وتهيىء له فرصة التحدُّث إلى هذه المجموعة الكريمة في مكانٍ واحدٍ ، وفي جوٍّ هادىءٍ تسود عليه الثقة ، والتقدير ، وحسن الإصغاء ، وإن كان لشخصي المتواضع مبررٌ في أن يقبل التكريم من أصدقاء وإخوةٍ كرامٍ في هذا البلد المكرَّم ، فهو أن ينتهز هذه الفرصة الكريمة لحديثٍ يليق بجلال هذا المكان ، وخطر هذا الزمان ، وبالوقت الثمين الذي ينفقه هؤلاء الإخوة الصَّفوة في هذا الاحتفال.

إنها أمانة مقدَّسةٌ في أعناق الدَّاعين إليها ، وإنها أمانةٌ ثقيلةٌ دقيقةٌ في عنق من عقد هذا الاحتفال باسمه ولتكريمه ، فأرجو ألَّا يسألنا الله جميعاً ولا يحاسبنا على ضياع هذه الفرصة الثمينة ، وعلى ضياعها في تكريم فرد ، وتزكيته على الله ، والشهادة له بما لا يعلمه إلا عالم الغيب والشهادة ، وفي الحديث الفارغ ، بل تكون هذه الحفلة المخلصة فاتحة خير ، إثارةً للمعاني الكريمة ، وإحياء لما اندرس من المعالم في النفس ، وتحريكاً ـ وأرجو عدم المؤاخذة ـ للقلق المبارك الذي كان مصدراً ومردّاً لكلِّ خيرٍ ، ولكلِّ تقدُّم ، ولكلِّ انقلاب صالحٍ في تاريخ الإنسانية ، ويرجع إليه الفضل الأكبر في سعادة البشرية وانتشار الأديان السماوية ، وانتصار الدعوة الإسلامية ، وعدم رضاً بالحياة ، ومتعها ، وزخارفها ، وعدم ارتياحٍ إلى الحاضر الموجود ، وطلب الغائب المفقود ، واستشرافٍ للمستقبل البعيد السعيد وطموح إلى المزيد الجديد ، وملل من الرَّخاء والرخاوة ، ولذَّةٍ في المجازفة والمغامرة ، وسآمةٍ من الرِّبح الدائم والنَّجاح المطرد ، ورغبة في التَّخلي عن بعض الفوائد والتحمُّل للخسارة في سبيل الصَّالح العام ، والمبدأ الحبيب.

إنه قلقٌ ساور النفوس في هذا الوادي لأول مرةٍ في التاريخ الإنساني بعد

قرونٍ متطاولةٍ ، يوم لا يعرف الناس معنى القلق إلا في دائرةٍ ضيقةٍ ، محدودةٍ شخصيةٍ ، حسدٌ ، وبغضٌ ، وطمعٌ ، وحرصٌ ، وخوفٌ من الموت أو العدوِّ ، وإشفاقٌ من الفقر أو المرض ، وتذمُّرٌ من العدوِّ المتسلِّط ، أو الحروب الطاحنة الطويلة ، أو الغلاء الفاحش ، أو الضرائب المجحفة ، فأصبح فتيانٌ في هذا الوادي لأوَّل مرَّةٍ يقلقون لمعانٍ ، وحقائق أسمى وأوسع من هذه المعاني ، وألطف وأدقّ من هذه المعاني ، أصبحوا في قلقٍ عن الماضي الضائع ، والمستقبل الرهيب ، عن العقائد الضَّالة ، والأعمال القبيحة ، والأخلاق الفاسدة ، يستمدُّون قلقهم عن مصير الإنسانية البائسة ، وعن الوضع الخطير الذي يعيش فيه العالم ، وقوي هذا الشعور ، وغلب على كلِّ شيء ، حتى أقلق العالم ، وغيَّر مجرى التاريخ ، وأفاض السَّعادة والهناء على الإنسانية كلِّها .

سادتي الأجلاء! لقد قال الشاعر العربيُّ قديماً(١) :

ولي كبدٌ مقروحةٌ من يبيعني ... بها كبداً ليست بذات قروح
أباها عليَّ الناس لا يشترونها ... ومن يشتري ذا علةٍ بصحيح

ومعذرتي إلى الشاعر الكبير ، فإنَّ لي كبداً مقروحة مثله ، ولكني لا أريد أن أبيعها ، فهي رأس مالي ، وعمدة بضاعتي ، ولذتي في الحياة ، ولا خير في حياةٍ لا قلق فيها ، ولا خير في إنسان ليس في جنبه قلبٌ جريحٌ ، وكبدٌ مقروحةٌ ، بل أود أن تكون لكلِّ واحد منكم كبدٌ مقروحةٌ ، وقلب دامٍ جريحٌ ، وإني مع الشاعر الذي يتنعم بهذا الألم ، ويلتذُّ بهذه المرارة ، ويعتبرها قيمة الحياة ولذة العيش ، ويقول لعذَّاله على هذا السكر الدائم(٢) :

وقالوا شربت الإثم كلاَّ وإنما ... شربت التي في تركها عندي الإثم
فلا عيش في الدنيا لمن عاش ... ومن لم يمت سكراً بها فإنه الحزم

(١) اختلف في قائلهما فقد نسبا لابن الدمينة وللحسين بن مطير وللمجنون انظر «السمط» : ص ٦٦٠ .

(٢) الأبيات لابن الفارض ديوانه : ص٤٤ ، من قصيدته التي مطلعها :

شربنا على ذكر الحبيب مدامةً ... سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

على نفسه فليبك مَنْ ضاع عمره   وليس لـه فيهـا نصيـبٌ ولا سهـم

ومع الشاعر الذي يأبى التخلي عن الحبِّ ويريد أن يورِّثه من بعده ، يقول:

أهيم بليلى ما حييت ، فإنْ أمُتْ   أوكِّل بليلى من يهيم بها بعدي[1]

أيها السادة! إنِّي لو وقفت غير هذا الموقف وإن كان لي حديث مع غير السادة العرب ، غير أهل الجزيرة ، وغير أهل الحرمين لكان الخطب هيناً يسيراً ، ومجال الكلام واسعاً فسيحاً ، إنَّ أدقَّ المواقف التي يقفها الخطيب هو الموقف الذي يجتمع فيه الحياء والألم ، فالحياء يقول: أمسك ، واعرف قدرك ، والألم يقول: هذا موقفٌ تستطيع أن تنفِّس فيه عن كربتك ، فإياك أن تضيِّعه.

. . . .   والقلـب بينهمـا عصـيٌّ طيِّـع!

أيها السادة العرب! إنَّ الله لم يكرمكم بالإسلام وبمحمد عليه الصلاة والسلام فحسب ، بل أكرمكم زيادةً إلى ذلك بحراسة هذا الدين ، وبالقيام به ، والدعوة إليه ، وآثر بلدكم بأن يكون مصدراً للهداية ، ومعقلاً للدَّعوة ، ومثابةً للناس:

﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ ﴾ [الحج: ٧٨].

فأوجب ذلك بحكم الشَّرف ، والعقل ، والذوق ، والمنطق أن تكونوا من أغير الناس على هذا الدِّين ، وأشدِّهم اغتباطاً بهذه الثروة ، واعتزازاً بهذه الكرامة ، وزهداً في كلِّ ما ينافيه من دعوات ، ونزعات ، ومفاهيم ، وقيم ، وكراهية للجاهلية التي اكتويتم بنارها ، واشتهرتم بعارها في الزمن الماضي ، وأعظم الناس إيماناً بفضل هذا الدين ، وضخامة هذه الثروة ، وأحرص الناس على نشرها وتوسيعها وإيصالها إلى أبعد الآفاق ، وأشدِّهم حباً للرسول ، النَّبيِّ الأميّ العربيِّ ، الذي تلتقون به في النسب والبلد ،

---

(١) البيت في «الأغاني»: ١٢/ ١٠٦ لنصيب.

والدَّم واللغة ، والذي كان ولا يزال مصدر الحياة الجديدة ، وصاحب الفضل الأكبر في تكوينهم ، والذي انبثق عنه تاريخكم الجديد الرائع ، وقد قال القرآن العظيم :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٤].

وثقةً بقيادته وخلود رسالته ، وإنَّه سيد الرسل ، ومنير السبل وإمام الكلِّ في كل عصرٍ وجيلٍ .

إنني أصدق إذا قيل عن أيِّ شعبٍ من الشعوب الإسلامية : إنه خضع أخيراً للمفاهيم والقيم غير الإسلاميَّة ، إنَّه طغت عليه نزعةٌ من النزعات التي لا يوافق عليها الإسلام ، والذي جاء به محمَّد رسول الله ﷺ للقضاء عليها ، وإنَّه أصبح يفكر بالعودة إلى جاهليته القديمة ، أو اقتباس بعض الأفكار والفلسفات من جاهلية الغرب الحديثة . فإنَّ تأثير الدعوة الدينية في عقلية الشعوب والعناصر يقوى ويضعف ، ولأنَّ الإسلام وصل إلى بعض هذه الشعوب بوسائط وعن طريقٍ تبعد أحياناً ، وتطول أحياناً ، ولأنَّ كثيراً منها قليل الحظِّ ، ضعيف الصلة باللغة العربية ، التي نزل فيها القرآن وعبرت بها الدعوة الإسلامية والحقائق الإسلامية عن نفسها ، إنَّني أصدِّق كلَّ ذلك مع الأسف الشديد والحزن العميق؛ لأنَّ تاريخ الدعوات والأديان يؤيِّد ذلك ، ويعرض له أمثلةً كثيرة ، ولكنِّي لا أصدِّق إذا قيل لي : إنَّ العرب بدؤوا يفكِّرون هذا التفكير ، ويتجهون هذا الاتجاه ، ويخضعون لمفاهيم وقيم وروابط وجامعاتٍ وأساليب للحياة لا تتَّفق مع الإسلام ومركزهم في تاريخ الإسلام ، والتي لجأت إليها بعض الأمم الجاهلية لإفلاسها الرُّوحي ، والخلقي ، وقد عرفت ضررها أخيراً ، وأصبحت تزهد فيها وتبحث عن الأصلح الأنفع .

وإذا وقع ذلك لسوء الحظ في بعض نواحي هذه الأمَّة العربية العظيمة حار المهتمُّون بشؤون هذا الدِّين والمؤمنون بخلوده وعالميته ، والذين اعتادوا بأن ينظروا إلى العرب دائماً كأستاذٍ ومرشدٍ وداعيةٍ لهذا الدين وممثِّله الأول ، ويستمدُّون منهم الإيمان القويَّ ، والثقة التي لا تتزلزل ،

ولا تضطرب لصلاحية هذه الرسالة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وهي لا شكَّ محنةٌ يحار فيها الحكيم ، ويبتلى الخطيب اللسن بالعيِّ والفهاهة ، فماذ يقول التلميذ الصغير لأستاذه الكبير ، إذ شكَّ هو نفسه في الحقائق والمسلمات ومبادىء العلوم التي لقَّنها تلميذه ، وأراد أن ينقض ما أسّسه ﴿ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾ [النحل: ٩٢] وماذا يقول المريض الجاهل للطبيب الحاذق الذي يعصي بنفسه قوانين الطبِّ ، ويتناول السمَّ الناقع ، ويُضرب عن الدواء النافع؟

إذا كان سليل شرف وربيب نعمة وابن ملك قد شبّ في نعمة أبيه ، وغُذِّي بأطايب الطَّعام ، وألذِّ الفواكه ، واعتاد أن يجلس دائماً مع أبيه وأبناء أسرته الملكية وحاشيته على السُّفرة الملوكية ، والمائدة الفاخرة ، وأطلقت يده وحكم في كل ما تحتوي عليه مملكته الواسعة من المواد الغذائية الصَّالحة ، وحدائق عاصمته من أشهى الفواكه وألذِّ الثمرات ، إذا زهد هذا الشاب المدلل في سفرة بلاطه الملوكية ، وصار يعافها ، ويتنغَّص برائحة أطعمتها الشهيَّة، ويزكم بها ، ونشأت فيه رغبةٌ غريبةٌ في فتات مائدة الخدم، وما يرمى على السباطات والطرقات، ممّا يفضل، ويتعفَّن من طعام الفقراء، وأولع بالجلوس مع الكناسين علىٰ موائدهم ، واستجداء الطَّعام من بيوت الناس ، كرهبان البوذيين في بورما ، ألا يرحمه الناس ، ويرثون له ، ألا يحار في شأنه العقلاء الحكماء ، ويعجز عن تفهيمه وإقناعه كبار البلغاء والخطباء ، إنَّه لا شكَّ فسادٌ في الذوق ، وانحرافٌ في الفطرة ، وابتلاءٌ لعاهل هذه المملكة العظيمة في ولي عهدها ، وابتلاءٌ للمملكة ، وأبنائها ، وشعبها، ورعيَّتها في مَثَلهم الكامل، وزعيمهم المفدَّى ، وقائدهم المطاع .

إنني أشعر الآن وأحبُّ أن تشعروا جميعاً أيها السادة الكرام ونحن نسمع في جوانب هذه المنطقة العربية الإسلامية هتافات: «القومية العربية» و«العروبة» ، و«نحن أبناء الفراعنة والعرب» و«العزَّة للعرب». . إلى غير ذلك من الهتافات الجاهلية ، وأرى اندفاعاً متهوراً مجرداً عن كلِّ أصالةٍ ، وعصاميةٍ ، وابتكار ، ولرغبة في تقليد الغرب في فلسفاته ، ونظمه ، وأساليب حياته ، وفي قيم الأشياء ، وطرق الترفيه ، وصوغ الحياة صوغاً

غريباً خالصاً. إنَّني أشعر وأنا أسمع كلَّ ذلك، وأحبُّ أن تشعروا جميعاً أيها السادة! بالألم النفسي العميق، والامتعاض الشديد، والثورة الجامحة كالتي ملكت موسى حين اقترح عليه بنو إسرائيل أن يهيىء لهم موسى أصناماً يعكفون عليها، وآلهةً يعبدونها حين مرُّوا بأمَّةٍ جاهليةٍ على شاطىء البحر الأحمر عاكفةً على أصنامها، كيف تلقَّى موسى هذا الاقتراح العجيب، وهذه الرغبة الغريبة، أشبه برغبة ولي العهد الذي رشح، وهيِّىء لولاية مملكة واسعةٍ في الطعام المرذول المتعفن، والتشبُّه بأسفل الناس. وقد صوَّر القرآن هذا المنظر الغريب الذي تجلّت فيه الحكمة الإنسانية في جانبٍ والغيرة النَّبويَّة في جانبٍ آخر، فكان من أبدع المناظر التي احتوى عليها هذا الكتاب المعجز، فقال: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠].

وقد مرَّ الرسول العربي الأعظم بنفس هذه التجربة، فكان تصديقاً لقوله تعالى:

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ [فصلت: ٤٣].

وتصديقاً لقوله ﷺ:

«لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم شبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراعٍ».

فقد روى الترمذي بسنده الصحيح عن أبي واقدٍ الليثي رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ: لما خرج إلى حنين مرَّ بشجرةٍ للمشركين يقال لها ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم، قالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط[(١)] فقال النبيُّ ﷺ: «سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، والذي نفس بيده! لتركبنَّ سنة من كان قبلكم»[(٢)].

(١) قال ابن الأثير في «النهاية»: ذات أنواط: هي اسم شجرة بعينها كانت للمشركين ينوطون، أي: يعلقون بها سلاحهم، ويعكفون حولها.

(٢) «سنن الترمذي» أبواب الفتن.

وها هو ذا الزمان يستدير كهيئته ، والتاريخ يعيد نفسه ، وبعض إخوتنا المسلمين، وسادتنا العرب يحنُّون إلى أصنام جاهلية، ويتمنَّون ذات أنواط ، وذات أنواط شجرة جاهلية خالدة تؤتي أكلها الجاهلية في كلِّ حين، والفطرة الإنسانية هي الفطرة الإنسانية تزهد في الطيب الموجود ، وتطلب الخبيث المفقود ، وتعاف الطعام اللذيذ الشَّهيَّ ، وتحنُّ إلى الطعام المرذول الرديء ، تسأم من اللباس النظيف القشيب ، وتولع بالطمر البالي المرقَّع ، الذي خلعه بعض الصعاليك ، بعدما قضوا منه وطراً ، واستبدلوا به لباساً آخر ، وليس هذا الانصراف الذي نلاحظه في بعض الأوساط الإسلامية والعربية عن الإسلام الذي هو سابقٌ للزمن والمعجزة الإلهية: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] وانصرافٌ عن مثله العليا ، ومفاهيمه وقيمه الخالدة التي لا تزال الإنسانية مختلفةً عنها ، وإقبالها بشغفٍ زائدٍ ، ولهفٍ شديدٍ ، وإجلالٍ ، وتقديسٍ إلى المثل التي أفلت شمسها ، وولَّى نهارها ، وانقضى أجلها في الغَرب ، وأصبحت من مظاهر الرجعية والتخلف في العلم والتفكير ، ليس ذلك الانصراف ، وهذا الإقبال إلا مظهراً من مظاهر الطفولة القاصرة التي تزهد في الطعام اللذيذ الذي تهيِّئه الأم الرؤوم ، أو الأب العطوف ، وترغب في طعام الخادم أو الصعلوك ، الذي لا يوافق طبيعتها ولا مع مستواها ، وتلحُّ على ازدراد اللقمة المرذولة ، المسمومة أحياناً.

إنَّ مما يشجي القلب ، ويحيِّر الألباب أن يرى الإنسان إمامه القائد يجري وراء من خُلق لاتِّباعه ، ويحرص على تقليده ، ويرى في ذلك شرفاً ومجداً له والذي كان ينبغي له أن يتحاشى عن أن يحمل منةً لأحدٍ ، ويفضل الظمأ القاتل على الرِّيِّ الممتنّ به، وينشد بيت الشاعر العربيِّ ابن سناء الملك:

وأظمأ إن أبدى لي الماء منّةً وإن كان لي نهرُ المجرَّة موردا

وقد بدأ هذا السَّيد الكريم الغني في ثروته يتهافت على كلِّ مورد ، بل على كلِّ سرابٍ تهافت الظمآن على الماء والفراش على النور ، كأنه لا ماء عنده ، ولا نور. إنَّنا أيها السادة العرب! في بلادنا العجمية البعيدة عن مهد

الإسلام ننتقد كلَّ نابغةٍ في التفكير ، وكلَّ عملاقٍ في العلم والفلسفة ، وكلَّ عبقريٍّ في الذكاء والإنتاج ، وكلَّ زعيمٍ من زعماء الأمَّة والوطن من غير المسلمين ، مهما عظمت مكانته ، وذاع صيته ، وكثرت مآثره على عدم تطفُّله على مائدة محمد ﷺ ، وعلى استقلاله الفكري الذي لا مبرر له ، ونردُّ كلَّ مواضع ضعفه ، وكلَّ أسباب إخفاقه إلى هذا الاستغناء الذي لم يكن إلا نتيجة الجهل ، أو لكبرياء القومية ، أو الحمية الجاهلية ، والعصبية العنصرية ، أو الوطنية ، وقد قال شاعرٌ إيراني قديم:

«إن محمداً ﷺ هو شرف العالم ، وكرامة الإنسانية في الدنيا والآخرة ، والذي يأبى أن يتمسَّك بأهدابه ويمشي في ركابه ، ويطَّرح على أعتابه ، كتب عليه الهوان والصَّغار ، وضربت عليه الذلَّة والمسكنة».

إنَّ بعثته ﷺ هي الخطُّ الفاصل الحاسم في تاريخ الإنسانية ومصير الأمم ، لا يقاس السابق على اللاحق ، والماضي على الحاضر ، فليس من ولد وعاش بعد البعثة المحمدية من الأفراد والأمم كمن كان قبل البعثة ، فكان لمن سبق هذه البعثة أن يصمِّم حياته كما يشاء ، وينهج لحياته منهجاً يختاره ، ولكن ليس لمن جاء بعده أن يصمِّم حياته كما يشاء ، وينهج لحياته منهجاً يختاره ، إنَّ الله حرَّم على كلِّ من آمن به ، وطلعت عليه شمس نبوته ـ التي لا أفول لها ـ أن يزدهر ويسود ، ويعزَّ ، ويفلح إلا بالتمسك بأهدابه، والمشي في ركابه ، وإنَّ كلمة الرسول الخالدة التي سجلتها دواوين الحديث ، التي قالها حين سأله عمر بن الخطاب عن كتابة أحاديث اليهود: «لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، ولو كان موسى حيَّاً ما وسعه إلا اتباعي»[(١)] ليست كلمة محدودة المعاني ، قاصرةً على الأحكام الفقهية ، أو العقائد الدينية ، إنما هي كلمةٌ تشمل الحياة كلَّها ، والأمم ، والأجيال كلَّها ، وإذا لم يَسَعْ موسى إلا اتِّباع محمد ﷺ إذا أدرك عصره ، فكيف بأمَّة موسى ، وعيسى؟ فكيف بالمسلمين أنفسهم؟ ثم كيف بالعرب الذي بعث الله رسوله فيهم، واختاره منهم وخصهم بالدَّعوة الأولى، والأمانة العظمى؟!!

---

(١) الحديث بطوله رواه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان ، وهو حديث حسنٌ بطرقه.

هذه كلمة عجلى أيها الإخوة أملاها الإخلاص وواجب الإجلال والشعور بالمركز العظيم ، الذي تتمتعون به في عالم الإسلام ، وفي تاريخ الإسلام ، ويجب على كلِّ مسلم أن يعرف فضلكم ، وسوابقكم ، وحسن بلائكم في الجهاد وفي نشر الإسلام ، ويتقرَّب إلى الله بحبِّكم والولاء لكم.

وأعود فأشكركم على هذا التكريم الذي لا أستحقُّه ، والذي إن دلَّ على شيءٍ فإنَّه يدلُّ على الكرم الأصيل فيكم ، والسماحة التي طبعتم عليها ، وعرفت منكم في كلِّ زمان ، والشيء من معدنه لا يستغرب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

نظامان إلهيان للغلبة والانتصار
وقفةٌ قصيرةٌ عند الحوادث الأخيرة في العالم العربي

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في ١٦/ من شعبان سنة ١٣٨٨ هـ في قاعة المدرسة الثانوية بالمدينة المنورة ، بعنوان «الطريق إلى النصر» وكان حفلاً تاريخياً مشهوراً ، لم ير مثله في هذه البلاد المقدسة منذ أمدٍ بعيدٍ ، وقد حضره العلماء ، والأساتذة ، وشباب المدارس ، والكلِّيات ، والجامعة الإسلامية ، والمثقفون في عدد كبير ، وكان الحفل تغشاه سحابة من سكينة وهدوءٍ شامل ، وتأثُّرٍ عميق .

قال بعد ما حمد الله وصلى وسلم على رسول الله:

أما بعد، فياسادتي وإخواني! إنَّ موضوعي اليوم «الطريق إلى النصر» موضوعٌ مطروقٌ متداولٌ، ولو طرح لأيِّ واحدٍ من عامَّة المسلمين ومن أهل البلد، فضلاً عن المثقفين، فضلاً عن قادة الفكر، وفضلاً عن حملة الأقلام والمؤلفين، لكان له جولةٌ وصولةٌ في هذا الموضوع، ولكنه إذا بحث ونوقش في مثل هذا المجلس الموقر الذي يضمُّ هذه المجموعات الطيبة المثقفة، كانت له روعة، وقد يثير جوانب من التفكير.

إنَّ مثلي أيها الإخوة في اختيار هذا الموضوع وعرضه على مسامعكم، ولفت النظر إليه كمثل الحكاية التي حكاها عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في نفس هذه المدينة الطيبة ورواها البخاريُّ وغيره من ثقات المحدثين، وعقد عليه الإمام البخاري باباً، فقال: «باب طرح الإمام المسألة على الناس يختبر ما عندهم من العلم» يقول عبد الله بن عمر:

قال رسول الله ﷺ مخاطباً للحاضرين من أصحابه رضي الله عنهم: «إنَّ من الشجرة شجرةً لا يسقط ورقها، إنها مثل المسلم، حدثوني ما هي؟ قال (عبد الله بن عمر): فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في نفسي أنَّها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا يا رسول الله ما هي؟ قال: هي النخلة»[1].

وكذاك عن أبي بكرة رضي الله عنه، قال: خطبنا النبيُّ ﷺ يوم النحر، فقال: أتدرون أيُّ يومٍ هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى! قال: أيُّ شهرٍ هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى! قال: أيُّ بلدٍ هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنَّه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس بالبلد الحرام؟ قلنا: بلى! قال فإنَّ دماءكم، وأموالكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟! قالوا:

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب العلم.

نعم، قال: اللهم أشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغٍ أوعى من سامعٍ، ولا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[١].

إنَّني أيها الإخوة! لا أحاول أن أفلسف الحديث، ولا أن أتعمَّق فيه كثيراً، ولا تنتظروا منِّي ـ وأنا أسألكم مخلصاً، وأناشدكم بالله ـ خطابةً رائعة، فالموضوع أدقُّ وأروع، من أن يكون مظاهرةً للخطابة، أو مناورةً لكلام يملأ الأسماع، ويخلع القلوب: ما هو الطريق إلى النصر؟ هذا سؤال أريد أن أبحث فيه، وألفت نظركم إلى بعض النواحي.

إنَّ هناك نظامين أيها الإخوة: نظام طبيعي خلقه الله تبارك وتعالى، واختاره لهذا الكون، واتَّخذه سنَّةً له، وهو أنَّ الكثرة تغلب القلَّة، وأنَّ الغناء يغلب الفقر، وأنَّ الأسباب الكثيرة تغلب الأسباب القليلة، وأنَّ القوة تغلب الضعف، وأنَّ التنظيم، والوحدة، والانسجام، والعزم، وقوة الإرادة، والصَّرامة، والثبات ـ هذه صفات وأخلاق ـ تغلب دائماً أضدادها، وكلُّنا قد جرَّبنا هذا النظام في حياتنا الطبيعية اليومية، إنَّ الله سبحانه وتعالى قد أودع في الأشياء طبائعها، وهي لا تفارقها على مرِّ القرون والأعصار، فأودع في النار طبيعة الإحراق، فالنار تحرق دائماً، وأودع في الماء طبيعته، وأودع في الطين طبيعته، هذه طبائع الأشياء التي لا تفارقها، وهذا النظام الطبيعي قانون عادلٌ محايدٌ لا يراعي أحداً، ولا يفضِّل بشراً على بشر، ولا جماعةً على جماعة، حتى إنَّ هذا القانون لا يميز بين الكافر والمؤمن، وبين التقيِّ والفاجر، وبين الصَّالح والفاسد، وبين المصلح والمفسد، فالنار تحرق كلَّما امتدت إليه، لا تراعي مصلحةً، ولا تخاف عاقبةً، هذا هو الميزان العادل المحايد الذي يزن الأشياء وزناً دقيقاً، ولا يداهن، ولا يحابي، ولا يفرق، ولا يميز، هذا هو القانون الذي جرَّبه الإنسان في رحلته الطويلة، وفي تجاربه المتصلة منذ خلق إلى يوم الناس هذا، وتاريخ الفتوح الإنسانية، والمغامرات البشرية، وتاريخ الانتصارات، والحكومات زاخرٌ بالشواهد والأمثلة، إنَّه

---

(١) رواه البخاري في صحيحه.

تاريخٌ متَّصلٌ متكرِّرٌ ، طويلٌ مستمرٌ ، لا تجدون فيه الاستثناء ، فحكوماتٌ تتغلب على حكوماتٍ ، وقوىً تصرع قوىً ، وطاقاتٌ تهدم طاقاتٍ ، وعددٌ يغلب عدداً، هذا كله خاضع للقانون الطبيعي الذي خلقه الله تعالى، ولا يحتاج هذا القانون إلى بحث عميق، أو استعراضٍ دقيقٍ، ولا إلى تعمُّقٍ، ولا إلى فلسفةٍ، والكتب السماوية والنبوءات لم تبحث في هذا الموضوع، فهو شيءٌ طبيعيٌّ ، معلومٌ ، مجرَّبٌ ، معقولٌ ، بمتناول كلِّ واحدٍ ، هذا القانون هو قانونٌ قاهرٌ نافذٌ ، قانونٌ حرٌّ مطلقٌ ، قانون الأرض لا يقهره شيء ، فإذا ترك الناس هذا القانون تحكَّم فيه تحكماً مطلقاً ، ولم يعق سيره شيء.

ولكن هنالك نظاماً آخر ، هو النظام الذي بحث عنه الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام ، وبحثت عنه الكتب السماوية وشرحته ، وحثَّت عليه ، وهو: أنَّ الله سبحانه وتعالى قد خلق غاياتٍ أفضل وأسمى ، وأحقَّ بالاهتمام والاحترام من هذه الغايات التافهة ـ إذا صحَّ أن نسميها تافهة ـ فالنَّار تحرق ، والماء يغرق ، والسمُّ يقتل ، والترياق ينجع ، والطبيب يعالج ، والمرض يرهق ويضعف ، والدواء يشفي ويريح ، هذه كلُّها غاياتٌ محترمةٌ ، غاياتٌ معقولةٌ ، غاياتٌ يسير عليها هذا الكون ، ولكن هناك غاياتٌ أفضل من هذه الغايات ، وأحقُّ بالاهتمام ، وهي غاية هذا الخلق ، وهداية البشر ، ومعرفة الله تبارك وتعالى ، وإقامة العدل في العالم ، وإسعاد البشرية ، ومنح الحقوق لأصحابها ، والحياة السعيدة الهنيئة ، الفاضلة العادلة ، والمجتمع الصَّالح المثاليُّ ، التقيُّ الفاضل الذي تحترم فيه الإنسانية ، ويخشى فيه الله تبارك وتعالى ، الذي تؤدَّى فيه الحقوق إلى أصحابها ، والأمانات إلى أهلها ، ويجد الناس فيه طريقاً ميسوراً للوصول إلى الله تبارك وتعالى ، ولتنمية قواهم ، ومواهبهم لمعرفة الله تبارك وتعالى ، والوصول إلى الكمال المطلوب ، الوصول إلى الغاية السامية النهائية التي خلق هذا الكون لأجلها ، هذه هي الغايات التي أنزل الله لها الكتب السماوية ، وبعث لها الرسل صلوات الله عليهم وسلامه جميعاً ، وهذه هي الغايات التي يجب أن تخضع لها تلك الغايات الطبيعية ، وأن تغير لها هذه الغايات طريقها ، وتترك الطريق للغايات السَّامية التي أنزل

الله لها كتب المعجزة ، وأرسل لها الرسل الصَّادقة المعصومة .

فإذا تصادمت الغايتان ، الغاية الطبيعية ، والغاية الشَّرعية ، الخلقية ، العقلية ، الدينية ، الأساسية ، الرئيسية ، التي هي غاية الخلق ، وغاية هذا الكون ، وغاية النوع البشريِّ ، رجحت كفة الغاية الأخيرة ، لذلك لما ألقي إبراهيم في النار ، كانت هناك سنة الله التي نفذت في خلقه ، وسارت السير الطبيعي ، وانطلقت من غير تقييد ، فكانت النار تحرق منذ آلافٍ من السنين ، ما سُجِّلت تجربةٌ واحدةٌ في التاريخ البشري ـ على أمانته ودقَّته في النقل ـ أنَّ النار قد كفَّت وأضربت عن أداء واجبها احتراماً لملك ، أو عالم ، لأنها مأمورة ، لكن لما اصطدمت الغاية الطبيعية ، طبيعة النار ، مع طبيعة الخلق التي خلق الله لأجلها الكون ، بما فيه النار والماء ، وبما فيه الأجرام الفلكية ، والظواهر الكونية ، والأشياء الأرضية ، وجميع المواد الغذائية ، لما اصطدمت طبيعة النار ، مع طبيعة الهداية (الغاية التي خلق لأجلها الكون) أمرت النار بالكفِّ عن الإحراق ، وسلبت من النار طبيعتها ، طبيعتها العريقة في القدم ، قيل لها ـ بحيث سمعت ـ ولم يسمع نمرود ، ولا أحد من الخلق : إيَّاك أن تحرقي إبراهيم ، إنني أنا الذي أودعت فيك طبيعة الإحراق ، ولكن الغاية التي خلقت لأجلها إبراهيم ، وأكرمته بالرسالة ، وبعثته إلى هذا الخلق ، وأمرته بتبليغ هذه الرسالة ، هي الغاية التي يجب أن تخضع لها طبيعتك ألف مرة ، فإيَّاك أن تمسِّي ثياب إبراهيم ، فضلاً عن جسمه الطاهر ، فضلاً عن قلبه المؤمن السليم ، الذي بوَّأه الله لأمانة النبوة ، وهيأه لها ، فقال : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٥١] ، فخضعت ، ودانت ، وانقهرت ، وتواضعت هذه الطبيعة النارية للطبيعة الدينية ، للطبيعة التي هي الغاية التي لولاها لكان هذا الكون عبثاً ، ولكان هذا الكون لفظاً بلا معنى ، فدانت ، وأطاعت النار أمر الله تبارك وتعالى ، وتوقفت عن إحراق إبراهيم ، وكانت عليه برداً وسلاماً : ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩ ـ ٧٠] .

بعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والنسبة بعيدةٌ بينهم وبين أممهم

التي بعثوا فيها ، كما تعلمون جميعاً ، ولستم في حاجة لاستعراض قصَّةٍ بعد قصَّة ، وهذا القرآن مملوء بهذه الشواهد والدلائل ، فلما أرسل نوح قال له قومه: ﴿ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] ، وقالوا له: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧] ، ولمَّا بُعث شعيبٌ عليه الصلاة والسلام ، قال له قومه: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١] وهذا موسى ، سيدنا موسى من أولي العزم من الرسل ، ماذا يقول القرآن عنه؟ كيف كانت النسبة بينه وبين الأمة التي بعث فيها، وبين فرعون وجنوده، وبين موسى وأصحابه؟ اقرؤوا قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٤] ، وتعرفون أنَّ الرسول ﷺ كان مستضعفاً في قومه ، وكان أتباعه مستضعفين مهدَّدين ، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [الأنفال: ٢٦] ، وقد أقصاه قومه في مكة إلى هذه المدينة المنورة ، التي نجتمع فيها الآن ، ولكن الله سبحانه وتعالى، قد قهر القانون الطبيعي لهذه الغاية المثلى ، لهذه الغاية الفاضلة ، التي تتوقف عليها سعادة البشرية ، فلو سمح للأسباب أن تعمل عملها ، وأن تسير سيرها الطبيعي من غير تقييد ، لقضي على دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولابتلعتها هذه الأجواء القاسية، والبيئات الضارية.

ولكن الله سبحانه وتعالى كذلك أودع في الأخلاق والصفات طبائعها ، وإنه أودع فيها قوى وطاقات لا تقلُّ عن طاقات هذه الأشياء الطبيعية. . فالصدق له طبيعةٌ ، وله قانونٌ ، والأمانة لها طبيعةٌ ، ولها قانونٌ ، وتقوى الله له طبيعةٌ وقانونٌ ، وإنَّ الصفات الفاضلة الكريمة ، وإنَّ الأخلاق العالية النبيلة ، إنَّ خشية الله ، إنَّ احترام الإنسانية ، إنَّ العدل والمساواة ، إنَّ المساواة والبرَّ ، إن الإحسان ، إنَّ الانصاف من النفس ، إنَّ الإيثار

والفداء ، إنَّ إيثار الآخرة على الدنيا ، هذه كلها أخلاقٌ وسجايا ، وعاداتٌ ، وأعمالٌ ، أودع فيها من الطاقات والقوى الجبارة ، ومن الأسرار ، والروحانية ، ومن قوة التسخير ، وقوة الفوز والنصر ما لم يودع ـ وهو القادر العليم ـ في هذه الأشياء الطبيعية التي قد جرَّبنا طاقاتها ، وتأثيرها ، وخواصها ، وطبائعها .

إنَّ الله سبحانه وتعالى لما بعث الرسل ، وأكرمهم بالرسالة ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ، ودعوا إلى الإيمان بعقائد ، والتخلُّق بأخلاقٍ ، والاتِّصاف بصفاتٍ ، والتحلِّي بمحاسن ، وعدهم بالنصر على هذه العقائد ، وعلى هذه الأخلاق ، وعدهم بالنصر على هذه الدعوة التي يقومون بها ، وقال لهم : إنَّ قوتكم ، وإن سرَّ انتصاركم في هذه الدعوة ، وإن دعوتكم هي جندنا ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧٢ ـ ١٧٣] ، ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [المؤمن : ٥١] ، وقال الله تعالى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ [المجادلة : ٢١] ، إنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يكونوا فاقدي الرشد ـ أعاذهم الله عن ذلك ـ إنَّهم كانوا على أكبر جانبٍ من العقل السليم ، على أكبر جانبٍ من الذكاء ، ومن معرفة طبائع الأشياء ، ومن قوة المقارنة بين الأشياء ، ومن الحكم الصحيح الدقيق على الأشياء ، إنَّهم لم يكونوا مخدوعين ، ولا مخبولين ، إنَّهم كانوا يعرفون أنَّهم إذا ضربوا الحديد بالحديد ، والعدد بالعدد ، والقوة بالقوة ، والجند بالجند ، إذا تقدَّموا إلى المعركة معتمدين على قوتهم المادِّية ، معتمدين على العدد والعدد ، والميرة والمدد ، معتمدين على سواعدهم وإن كانت قوية ، معتمدين على أصحابهم وإن كانوا أبطالاً شجعاناً ، لاشكَّ في ذلك ، فإنهم يخسرون المعركة ، إنَّهم كانوا يعرفون أنَّ هناك شقَّة شاسعة بينهم وبين أعدائهم ، هذا مما لا يخفى على ذوي البصر فضلاً عن ذوي البصيرة ، وهم أهل بصرٍ وبصيرةٍ ، فاعتمدوا على نصر الله تبارك وتعالى .

تذكرون قصَّة فرعون وموسى ، لما أمر موسى بأن يسري بقومه ، وأن يجتاز بهم إلى جزيرة سيناء ، سيناء التي تثير في قلوبنا الأحزان ، وتدمع

العيون ، سيناء التي فقدناها ، فقدناها بفقدنا للإيمان ، لما أمر موسى بأن يعبر مع قومه البحر الأحمر ، فلما وقف على شاطىء البحر حانت من بني إسرائيل التفافةٌ ، والشكُّ دائماً يساور نفوسهم ، والقلق يشغل قلوبهم ، فهم كثيرو التلفت ، شديدو الإشفاق ، فلمَّا رأوا إلى البحر وهو هائج مائج ، ورأوا إلى العدو من خلفهم وهو ثائر موتور ، قالوا : يا موسى ، ألهذا جئت بنا إلى هنا؟ ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء : ٦١] وقد صدقوا في ضوء التجربة والواقع ، فإنَّهم إذا خاضوا البحر فراراً من فرعون وجنوده ، فإنَّ مصيرهم معلومٌ محتومٌ ، وكلّ من اقتحم البحر من غير سفينة يركبها ، أو طودٍ يأوي إليه ، غرق ، وتلف ، والبحر لا يميِّز بين ظالمٍ ومظلومٍ ، وحاكمٍ ومحكومٍ ، ولكن موسى كان مأموراً بذلك ، وكان على بينةٍ من أمره ، وكان واثقاً بوعد الله ، وكان يعرف بنور النبوة : أنَّ الغاية التي بعث لأجلها ، والرسالة التي أكرم بها . أكرم عند الله من غاية البحر التي خلق لها ، والمهمة التي نيطت به ، فقال في ثقة واعتماد ، ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء : ٦٢] ، هل يستطيع إنسانٌ أن يعتمد على الطبيعة ، هذه الطبيعة المحايدة ، الطبيعة القاسية ، الطبيعة المطلقة ، التي لا تراعي الحقَّ والباطل ، ولا تميِّز بين الفضيلة والرذيلة ، ولا تميز بين الظالم والمظلوم ، هل كان في استطاعة بشرٍ أن يقول هذه الكلمة المؤمنة النبوية ، التي لا يزال لها رنينٌ في الآذان ، ودويٌّ في التاريخ ، ما قالها إنسانٌ قطُّ قبل موسى ، وهكذا كان : ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الشعراء : ٦٣ ـ ٦٦] .

عرف الأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام أنَّهم لا يجوز لهم بحكم العقل والتجربة ، وبحكم الحواس الظاهرة أن يعتمدوا على عَددهم ، وعلى عُددهم وعلى تنظيمهم ، وعلى علوِّ نسبهم ، وكانوا في ذؤابة قومهم ، ومن أفضل خلق الله ، ولكن كانوا يعرفون أنَّ الأنساب لا تنفع ، وكانوا يعرفون أنَّ النسبة بعيدة بعداً لا يتصوَّر بينهم وبين منافسيهم وأعدائهم ، فاعتمدوا على الله ، وعلى الإيمان ، اعتمدوا على الدَّعوة ، وعلى تلك الأخلاق

الفاضلة التي تجرَّد عنها أعداؤهم تجرُّداً شائناً فاضحاً ، وتحلَّى بها أنصارهم وأصحابهم تحلِّياً رائعاً معجزاً ، وتقدَّموا إلى المعركة الفاصلة ، وهم متوكلون على الله ، هم يدعون الله للنصر ، يدعون الله للفتح المبين ، يدعون الله ليحقَّ الحقَّ ، ويبطل الباطل ولو كره المجرمون .

استحضروا في أذهانكم أيها الإخوان معركة بدر ، وما ساحة بدر منكم ببعيدة ، وما يوم بدر في تاريخكم بمجهول .

اذكروا يوم خرج رسول الله ﷺ بهذه القلة القليلة من المهاجرين والأنصار ثلاثمئةٍ وثلاثة عشر رجلاً ، فلما قاموا مصطفين أمام العدو الثائر الموتور ، القويِّ الشَّاكي السِّلاح ، الذي قد تملَّكه الغضب والحقد ، وهو يفوقهم مراراً عديدةً في العدد والسلاح ، نظر رسول الله ﷺ إلى أصحابه ، ونظر إلى أعدائه ، وهو من هو؟ في سلامة عقله ، وفي حصافة فكره ، وفي ألمعيته ، وفي فراسته ، وفي تجربته ، رأى أنَّه إذا تُرِكَ المسلمون لحظِّهم ، وإذا أطلق فيهم قانون الطبيعة ، وسمح لهذا القانون أن يعمل عمله في هذين الجيشين المتنافسين ، وفي هذين المعسكرين المتقابلين ، عرف ما هي النتيجة ، إنَّها لم تكن تحتاج إلى ذكاءٍ باهرٍ ، ولا تحتاج إلى ألمعية فائقة ، إنَّ قريشاً جاءت بحدِّها وحديدها ، إنها جاءت وهي ثائرةٌ موتورةٌ تعضُّ البنان حسرةً وندامةً على تنصُّل هؤلاء إلى هذه الناحية البعيدة .

عرف رسول الله ﷺ النتيجة ، عرف أنَّه إذا أُطلق فيه القانون الطبيعيُّ ، وإذا استطاع هذا القانون أن يشقَّ طريقه إلى الأمام ، فلا أمل في انتصار المسلمين ، ولا أمل حتى في رجوعهم إلى المدينة سالمين .

ماذا فعل رسول الله ﷺ؟ استحضروا في أذهانكم! قام يعبد ربَّه ، ويدعو ، عرف أنَّ النَّصر من الله ، وعرف أنَّ الذي خلق القانون يستطيع أن يوقف القانون ، والذي وهب يستطيع أن يستردَّ ، إنَّه لما خلق هذه الطاقات لم يفلت منه الزمام ، كما يعتقد كثيرٌ من الجهلاء ، بنى له أصحابه عريشاً ، وقام فيه يدعو ربَّه ، ويمرِّغ جبينه ، ويعفِّر وجهه في التراب ، ويعرف أنَّ القضاء ينزل من السماء ، لا ينبع من الأرض ، الحكم لله ، والقوَّة لله ، والنَّصر بيد الله ، قام يدعو ربَّه ، ويبتهل ، ويتضرَّع ، حتى رقَّ له قلب

أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وأشفق عليه ، وقال : حسبك يا رسول الله!

إنَّ بدراً معركةٌ فاصلةٌ معلومةٌ في التاريخ، لا نزال نعيش في ظلِّها، ونأكل من رفدها ، إنّنا كلّنا ، وهذه الحكومات والشعوب الإسلامية عيالٌ على بدرٍ ، وبدرٌ عيالٌ على الدعوة التي دعا بها رسول الله ﷺ ، والكلمة الخالدة التي قالها ، رأى أنَّ النسبة بعيدةٌ بين الجيشين في العَدد والعُدد ، كفتان متفاوتتان ، كِفةٌ قد ثقلت حتى التصقت بالأرض ، هذه كِفةٌ قريش ، وكِفةٌ خفَّت حتى ارتفعت إلى الفضاء ، وهذه كِفَّة المسلمين ، ماذا تفعلون أنتم إذا رأيتم كفَّتين متفاوتتين ، وأردتم أن ترجحوا كفَّةً على الأخرى؟ تضعون سنجةً ثقيلةً في الكفَّة الطائشة ، فتترجح هذه الكفة ، وتطيش الكفة الثانية.

وضع رسول الله ﷺ هذه السنجة في كفة المسلمين ، ما هي هذه السنجة أيها الإخوة؟ أتركهم تسبحون في خيالكم ، أسمح لكم أن تفكِّروا في ذلك قليلاً ، قال ـ وجبهته على الأرض ـ الكلمة التي كانت سبباً في الحقيقة لبقاء هذه القلة القليلة من المسلمين ، ولبقاء هذه الأمة ، قال : «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد» وصدَّقه الله تعالى في ذلك ، وانتصرت هذه الجماعة كما تعلمون جميعاً ، وكما يعرف التاريخ ، وكما نرى آثاره الإسلامية حيَّةً باقيةً، إنَّ هذه الكلمة تعني أنَّ مصير الدعوة مربوطٌ بهذه الجماعة، أنَّ مصير سعادة البشرية، والفلاح الإنساني مرتبطان بهذه الجماعة، وأنَّه لا بقاء للدين، ولا بقاء للأخلاق الفاضلة ، لا بقاء للعدل ، لا بقاء لاحترام الإنسانية بغيرهم ، فإذا شئت يا رب أن تضيع هذه المعاني كلَّها ، وأن تتلف هذه الثروة كلها ، وأن تحبط جهود المصلحين ، والأنبياء المرسلين كلَّها ، ويبقى الإنسان ، ولا تبقى الإنسانية ، يبقى الجسم ولا تبقى الروح ، فافعل ما شئت! فلما نصر الله المسلمين في معركة بدر ، وكان الفتح المبين، عُرف أنَّ رسول الله ﷺ كان صادقاً في القول ، وأنَّ قوله : إنَّ مصير الدعوة مرتبطٌ بنواصي هذه الجماعة القليلة، كانت كلمة حقٍّ صدَّقتها الملائكة ، وشهد بها التاريخ ، وصدَّقتها الإنسان في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وانتصر المسلمون رغم قلتهم وذلتهم ، وانهزم العدوُّ رغم قوَّته وكثرته ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران : ١٢٣].

وأذكِّركم بحادثةٍ ثانيةٍ ، ولست من أصحاب القصص والحكايات ، ولكنِّي أذكِّركم بهذه القصَّة ، لأنَّ فيها رسالة ، لأنَّ فيها معنىً جديداً ، يجب أن يكون ماثلاً أمام عيوننا ، وحاضراً في أذهاننا: لما تقدم سعد بن أبي وقاص لفتح المدائن ، لعلكم قرأتم في التاريخ ، أنَّ درجة كانت تزيد ، وكانت في المدِّ ، وكان الفرس قد كسروا الجسور والقناطر ، وأبعدوا السفن والقوارب ، ووقف سعد على شاطىء دجلة وقفةً قصيرة ، واستعرض الواقع الحاضر ، استعرض الوضع الاستراتيجي ، كما يقول الكتاب العصريون ، وقال لأصحابه: بماذا تشيرون عليَّ؟ هل نرجع أو نقتحم دجلة؟ كان المسلمون واثقين بأن الله سبحانه وتعالى قد خلقهم لغاية ، وأنَّ الله قد ربط مصير الإنسانية بهم ، وأنَّ الله رؤوفٌ بالإنسانية ، وأنَّ الله لم يخلق الإنسان سدىً ، ولم يخلق العالم عبثاً: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] كان المسلمون واثقين بهذا المعنى ، فعرفوا أنَّهم هؤلاء الذين يمثلون الإسلام ، وهؤلاء الذين يحملون القبس الإسلامي ، ومشعل الدعوة الإسلامية ، إنَّ هذه الجماعة نواة الأمة الوحيدة التي أخرجت للناس ، وبذورها الطيبة. أما دجلة فهي نهرٌ يوجد مثله آلافٌ من الأنهار ، فكيف يسمح لدجلة بأن تغرق هذا الجيش الذي ليس له غرضٌ ماديٌّ ، لم يخرج من جزيرة العرب ليبدِّل عرشاً بعرش ، وحكماً بحكم ، وملوكاً بملوك ، لينتزع السيادة من الفرس ، ويقدِّمها إلى العرب ، وليأخذ التاج من رأس كسرى ويضعه على رأس عمر رضي الله عنه ، هذا حرامٌ على المسلمين ، خرجوا كما قال قائلهم: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

فلمَّا استعرض سعد «الوضع الاستراتيجيَّ» عرف أنَّه لا حيلة له إلا الاعتماد على الله ، وأنه إذا كان الله سبحانه وتعالى قد قضى بأن يبقى هذا الجيش يؤدي رسالته وينشر دينه ، وأنَّه يدعو الخلق إلى عبادة الله وحده ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فإنَّ الله سبحانه وتعالى سيقهر دجلة إلى أن تفتح لهم الطريق ،

استشار سعد سلمان، فقال: «إنَّ الإسلام جديد» تعجبني هذه الكلمة، وتثير في قلبي، وفي تفكيري معاني وأحاسيس عميقةً جداً، يتجلَّى في جوابه ذكاء المسلم، ولا أقول الذكاء العام، إن ذكاء المؤمن قد مثل خير تمثيل بهذه الكلمة، التي نطق بها سلمان، قال: إنَّ الإسلام جديد، والله لقد ذُلِّلت لهم البحور، كما ذُلِّل لهم البرّ «وليخرجنَّ أفواجاً كما دخلوا أفواجاً» فقول سلمان رضي الله عنه: «إنَّ الإسلام جديد» معنى ذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى قادر على أن يظهره على الدين كلِّه، إنَّ الإسلام لم يؤدِّ مهمته بعد، أمامه مجالٌ واسعٌ، أمامه أممٌ وشعوب بكر، أمامه بلادٌ شاسعة، أمامه دنيا عريضةٌ، إنَّ هذا العالم كلَّه ينتظر الدعوة التي يحملونها، ينتظر تلك الأخلاق الفاضلة التي يتحلَّون بها، ينتظر جيش الإنقاذ، فقال: إنَّ عقلي المؤمن لا يصدِّق أنَّا سنغرق، وإنَّ دجلة ستلتهمنا التهاماً، إنَّ الله سبحانه وتعالى يقهرها، ويأمرها بأن تفتح لنا الطريق، وهكذا كان.

إخواني! هذان نظامان إلهيان، نظامٌ طبيعي، غلبة الكثرة على القلَّة، غلبة القوَّة على الضعف، غلبة الوحدة على التشتت، والفوضى، غلبة التنظيم على عدم التنظيم، غلبة قوة الإرادة على ضعف الإرادة، غلبة الاختراع والعلم على الجهل والكسل، هذا نظامٌ قديم خلقه الله تبارك وتعالى، وحكَّمه في مجالٍ واسعٍ من هذه الدنيا العريضة، ومن هذه الإنسانية الواسعة، ولكن هناك نظاماً آخر كما قلت لكم: هو نظام الإيمان والعقيدة، والصفات، والأخلاق، والدعوة، والرسالة، وهذا هو السِّلاح الذي قاتل به المسلمون، فانتصروا به، هذا السلاح الذي خرجوا به من جزيرة العرب، ثيابهم مرقَّعة، ونعالهم مخصوفة، وجفانهم بالية، وخيلهم متقطعة الركاب. الناس يستخفُّون، ويسخرون منهم، ويقولون: هؤلاء إنما أخرجهم من جزيرتهم الجوع والعري، أطعموهم، واكسوهم يرجعوا إلى بلادهم.

هذان نظامان إلهيان، ولكنْ إذا تجرَّد فردٌ أو جماعةٌ من هذين النظامين، وثاروا عليهما، فلا خضوع للنظام الطبيعي، ولا احترام له، لا جدَّ، لا عزم، لا إرادة، لا وحدة، لا انسجام، لا عزيمة. وكذلك

لا خضوع للنِّظام الشَّرعيِّ والخلقيِّ ، فلا عقيدة ، ولا خلق ، ولا صدق ، ولا إخلاص ، ولا تألُّم للبشريَّة ، ولا شفقة على الضعيف ، ولا عطف على اليتيم ، ولا عدل للجميع ، إنما هي شهواتٌ ونزعات ، إنما هو الفخر بالقومية وكبرياء ، إنَّما هو كلامٌ فارغٌ ، وهديرٌ كهدير الإبل ، فهل يستحقُّ هذا البلد أو الجيش النصر؟ إنَّ الله سبحانه وتعالى ليس بينه وبين بشرٍ نسب ، إنَّه أنَّب بني إسرائيل على هذا الغرور ، وقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨] ، لا يفضِّل إنساناً على إنسان ، ولا فرداً على فردٍ ، ولا أمَّةً على أمَّةٍ بمجرد نسبٍ وقوميَّةٍ ، وبمجرَّد عنصرٍ وسلالةٍ ، إنما يفضِّل إنساناً على إنسان بالتَّقوى ، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ، إنما يفضل بلالاً الحبشيَّ على أبي جهل القرشيِّ.

فلما برزنا إلى هذه المعركة ، ولا عندنا هذا النظام الطبيعي ، الذي يقضي باليقظة، يقضي بالوعي، يقضي بالوحدة، يقضي بالانسجام، يقضي بالإيثار ، يقضي بروح التَّضحية والفداء ، يقضي بالبطولة والشَّجاعة ، يقضي بالاستهانة بزخارف الدنيا ، يقضي بالتقشُّف والجلادة ، لا عندنا هذا القانون، ولا عندنا ذلك النظام المقدَّس ، النظام الذي ضمن الله له بالنصر، فقال: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] إذ قال: إنَّ جندنا غالبون ، لكفى ، وإذا قال: إنَّ جندنا لغالبون ، لكفى ، ولكنه قال: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢ ـ ١٧٣] ، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [المؤمن: ٥١]، فلمَّا خرجنا إلى الميدان ، واعتمدنا على الكلام الفارغ ، اعتمدنا على الدِّعايات ، وجاهدنا في غير عدوٍّ ، وعكفنا على الملاهي والملذَّات ، مثل الأمم التي ضرب الله بها المثل في القرآن ، أيُّ مصيرٍ كنا ننتظره أيها الإخوة؟

بالله قولوا لي! إذا أعطيتكم القلم ، وكان بيدكم القضاء ، أحلف بالله في هذه المدينة ، وأعوذ بالله من أن أكذب في أيِّ بقعةٍ من بقاع الأرض ، فكيف أكذب في جوار رسول الله ﷺ ، وفي رحاب مسجده ، أنا أعطيكم القلم ، وأعطيكم القرطاس ، قولوا: إذا كان هذا وضعنا الذي عرفناه جميعاً ،

عرفناه عن طريق الإذاعات ، وعرفناه عن طريق الصُّحف ، استعرضوا فقط الصُّحف والمجلات التي كانت تصدر أيام الحرب ، وقبل النكبة بقليلٍ ، هل هذه الأخلاق ، وهل هذا النمط من الحياة يرضي الله ورسوله؟ هل أغاني أم كلثوم ترضي الله ورسوله ، وتستنزل النصر؟ وهل هذه السهرات الخليعة ، التي كان يحياها إخواننا في هذا البلد ، الذي وقعت على أكتافه أكبر مسؤوليةٍ للدفاع عن المقدسات الإسلامية ، الإنسان الذي يخشى الله ، ويحكم بالعدل ، ماذا كان يقرر على هذه الكتيبة ؟!

كان واجباً أن يعيش المسلمون جميعاً في «حالة طوارىء» في حالة استعدادٍ دائمٍ ، يحرمون عليهم اللذات التي أباحها الله تبارك وتعالى ، وقد فعل ذلك الجيش الموفق المنتصر دائماً في التاريخ ، لما زحف بابر[(١)] ، مؤسس الدولة المغولية التي عاشت في الهند مدة خمسة قرون ، لمّا نزل في الميدان ومعه عشرون ألفاً من المقاتلين ، وقد قاد عدوُّه «رانا سانجا» جيشاً كثيفاً فيه مئتا ألف مقاتل ، هل تعرفون ماذا فعل؟ كان مغرماً بالخمر لا يكاد يصبر عنها ، معروف عنه في التاريخ أنه كان مدمناً للخمر ، وقف في ساحة القتال ، وتاب إلى الله ، وقال: «يا رب إني أحرم على نفسي الخمر ، فلا أقربها! وأقلع عن المحرمات والمنكرات»[(٢)]، ثم خاض الحرب وقاتل العدو ، فانتصر انتصاراً باهراً ، واستطاع أن يؤسس هذه الدولة العظيمة التي

---

(١) هو ظهير الدين محمد بابر التيموري.

(٢) يقول المؤرخ الهندي الشهير محمد قاسم البيهابوري المعروف ب «فرشته» في تاريخه: إنَّ «رانا سانجا» توجه إلى بابر يقود مئتي ألف مقاتلٍ عن أهل البلاد ، وساد الذعر في جيش بابر ، ومنعه قواد جيشه وأركان دولته عن الوقوع في الحرب معه ، وتكهن منجم البلاط محمد شريف بأنَّ الهزيمة محتومة ، ولكن بابر صمَّم على القتال ، وقال: إذاً ينبغي لنا أن نتهيأ للشهادة في سبيل الله ، وحلف قادة الجيش ورجال البلاط بأنهم سيقاتلون إلى آخر رمق ، وارتفع هتاف الجهاد في كلِّ جانبٍ من جوانب الجيش ، وتاب الملك عن الخمر التي لم يكن يفارقها في وقتٍ من الأوقات ، وتاب عن جميع المنكرات الشرعية وقاوم رانا سانجا بعشرين ألف مقاتل ، وانتصر عليه وكان ذلك في الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٣٣ هـ (تاريخ فرشته).

لا تزال آثارها المعمارية والاجتماعية زاهرةً خالدةً ، وقامت الحكومة الإسلامية التي بقيت إلى عهدٍ قريب .

هكذا كانت الجيوش الجادَّة ، هكذا كان الجادُّون ، أما الهازلون ، فحكاياتهم معروفة ، وأنتم أعرف بها منِّي ، ودائماً يهزم المعسكر الهازل أمام المعسكر الجاد ، هل هذه مسرحية من مسرحيات «ألف ليلة وليلة»؟ تقوم فرقة تمثيلٍ فتمثِّل حكايةً ، فهذا ملك ، وذاك وزير ، وهذا قائدٌ ، وذاك جندي ، هزلٌ ومرحٌ ، إذا جاء الجيش الحقيقي الذي يحمل السلاح ، الذي قد قرر الموت ، وجازف بالحياة ، فرَّ الجيش الهازل ، وتقوَّضت المسرحية ، المسرحيات لها مجالٌ خاصٌّ ، لها مجال الهدوء والأمن ، مجال التسلية واللهو ، لماذا لا نستحق هذه النكبة؟ والله إذا آمنا بأنَّ الله من صفاته العدل ، وقد آمنا بذلك ، وآمنتم جميعاً ، فإنَّا كنا نستحق هذا! ، وإذا كان غير هذا ، فإنَّ هذا يثير الدهشة والاستغراب في نفوسنا ، أينصر الله سبحانه وتعالى المسلمين الهازلين اللاعبين ، أعداء إخوانهم وإخوان أعدائهم ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح : ٢٩] ونحن رحماء بالأعداء ، أشدَّاء بيننا .

وهذا اليمن المنكوب الشقيُّ ، ما ذنبه؟ لماذا كان مظهراً لهذه البطولة والغرام بالحرب ، ولماذا لم توجه هذه البطولة إلى العدوِّ الحقيقيِّ :

أسد عليَّ وفي الحروب نعامة ....

كيف إذا سأل الله تعالى عن هذه الأمة المنكوبة ، فقال : ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير : ٨ ـ ٩] ، موءودةٌ واحدة قد وئدت في الجاهلية الأولى ، لا يتركها الله تبارك وتعالى من غير عدلٍ ورحمة ، يسألها أمام الناس جميعاً ، ويقول : ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير : ٩] فهل لا تسأل أمَّة بأسرها عن ذنبها ، ألا يسأل اليمن الذي قال رسول الله ﷺ عنه : «أتاكم أهل اليمن أرقُّ أفئدة ، وألين قلوباً ، الإيمان يمانٍ ، والفقه يمانٍ ، والحكمة يمانية»[1] ما ذنب هذا الشعب الوادع؟ بماذا استحق هذا المصير؟

---

(١) حديث صحيح .

إخواني! لم يكن من حظِّي أن أولد في هذه البلاد المقدسة ، إنما ولدت بعيداً عنها ، هذا أراد قضاء الله وحكمته ، ونشأت في بلادٍ لا تنطق باللغة العربية ، وهنا أستاذنا الجليل العلاَّمة الدكتور تقي الدِّين الهلاليُّ المراكشيُّ، اسألوه عن بلادنا ، فإنَّه مكث فيها مدَّةً ، بلاد بعيدة عن مهد الإسلام ، بلادٌ بعيدةٌ عن لغة العرب ، ولكننا كلنا ـ والحمد لله ـ نعتزُّ بعقيدتنا الإسلامية ، ونعتقد ، ونؤمن مخلصين بأنه لا سعادة لنا ، ولا نصر ، ولا قيام لنا ، إلا باتباع محمد ﷺ ، إنَّ شاعرنا يقول: «إن من لم يرض بأن يكون تراب عينه رسول الله ﷺ ، فليكن التراب على رأسه» ومن لم يرض أن يمشي في ركاب رسول الله ﷺ ويتمسك بأهدابه ، فإنَّه لا وسيلة له عند الله ، ولا أمل له في الانتصار. ولا سبيل لكم أيها الإخوة إلا الخضوع لقيادة محمد ﷺ ، وإذا أبيتم ذلك ـ أعاذكم الله ـ وأبت ذلك كبرياء القومية العربية ، فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد حرَّم النصر ، وحرَّم العزَّة والكرامة ، وحرَّم الفتح ، إنَّ الله ربط مصير العرب بقدم محمد ﷺ، إنَّ الله ربط سعادة العرب بمحمدٍ بن عبد الله ﷺ، لم يربطها بقائدٍ اشتراكيٍّ ، أو زعيمٍ قوميٍّ لا تقوم للعرب قائمة حتى يمشوا في ركاب محمدٍ ﷺ ، إن الله سبحانه وتعالى يوم بعث محمداً ﷺ في مكة ، في اليوم الذي بعثه ، قرَّر في ذلك اليوم ، وفي تلك الساعة ، وفي تلك اللحظة: أنَّ مصير الإنسانية مربوط بهذا الشخص الكريم ، وأنَّه لا سعادة بغير قيادته ، وبغير اتِّباعه ، إنَّ كثيراً من الحيوانات تعتبر وتنتفع بالتجارب ، فمالنا لا نعتبر؟ ماذا أعطانا هؤلاء الزعماء ، وهؤلاء المتشدِّقون؟ أيُّ مصيرٍ بدَّلوا؟ أيُّ شقوة كانت قد كتبت علينا محوها؟ أيُّ اعتبار كنا فقدناه ردُّوه إلينا؟ هذا التاريخ المشرق الزاهي قد فقد الشيء الكثير من روعته وتأثيره في النفوس ، كنَّا دائماً نفتخر بالتاريخ الإسلاميِّ العربيِّ ، فصعب علينا الآن أن نتمثَّل به في المجالات العامَّة ، فقد أصبحت الفجوة عميقةٌ واسعةٌ بين الماضي والحاضر ، وبين الآباء والأبناء.

احتفظوا أيها الإخوان! بالبقية الباقية من الغيرة الإسلامية ، والكرامة الإنسانية ، قوموا لتحملوا الدعوة الإسلامية إلى الآفاق ، ستستقبلكم هذه الآفاق العالم . يتطلع إليكم أيها العرب ، ليس من المعقول أن يحترمكم

إنسان في الهند ، وفي باكستان ، وفي تركيا ، وفي إندونيسيا ، بمجرد القومية العربية ، ولكن من المعقول جدّاً ، أن يحترمكم لإسلامكم ، ولإيمانكم ، ولحرصكم على الهداية ، ولأخذكم بيد الضعيف ، ولمنعكم الظالم عن الظلم ، ولاتصافكم بالفضائل الخلقية ، وتمسُّككم بالدعوة الإسلامية ، إنَّ العالم الإسلاميَّ قد فتح ذراعيه ليعانقكم ، ويضمَّكم إلى صدره ، كما ضمَّكم إلى صدره قبل قرون ، إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خرجتم من جزيرتكم ، تحملون مشعل الدعوة الإسلامية ، وفتحت لكم الهند صدرها ، فتح لكم أفغانستان ، وإيران ، وسمرقند ، وبخارى ، فتح لكم البربر هؤلاء الذين ما عرفوا الهزيمة في تاريخهم ، إنَّهم لم يخضعوا بحدِّ السيف ، إنما خضعوا لمعجزة الإسلام ، خضعوا للإخلاص ، خضعوا للعطف والرحمة بالإنسانية ، وللعدل الذي كنتم تحملونه معكم أينما حللتم ، خضعوا لفضل المساواة التي كنتم تعاملون بها الأمم والأفراد ، بالله قولوا لي ، ما هي رسالة القومية العربية للإنسانية ، وأيُّ خيرٍ للإنسانية جمعاء ، في قومية من القوميات ، قوميةٌ بقومية ، وجنسيةٌ بجنسية ، ودمٌ بدم ، ومدينةٌ بمدينة ، إذا افتخرتم أنتم بالقومية العربية فهناك مئات من الشعوب تفتخر بقوميتها ، لا فضل لقوميةٍ على قوميةٍ ، ولا فضل لحضارةٍ بائدةٍ على حضارة بائدةٍ ، إنما الفضل للرسالة الخالدة التي جاء بها محمد ﷺ ، فارفقوا بأنفسكم أيها العرب! قبل أن ترفقوا بغيركم ، ارفقوا بنفوسكم ، ارفقوا بمستقبلكم ، ارفقوا بأجيالكم القادمة ، ارفقوا بتاريخكم ، ارفقوا بهذا الاحترام الذي لا يزال لكم عند الشعوب الإسلامية ، إنَّ العالم ينتظركم مرَّةً ثانيةً لتنقذوه من هذه الجاهلية المعاصرة ، من جاهلية القرن العشرين ، التي غزت العالم ، واكتسحت العرب والعجم ، وأن تعيشوا للإسلام ، وبالإسلام ، فيعود إليكم مركزكم القديم من القيادة والهداية ، ومكانكم القديم من القلوب والنفوس ، ويكون النصر حليفكم في كلِّ معركة .

﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] .

* * *

كيف دَخَلَ العرب التاريخ؟

ألقى العلامة الندوي هذه الكلمة في حفلةٍ عقدت في المكتبة العامة في دبي (دولة الإمارات العربية المتحدة) ليلة الثلاثاء ٥/ محرم ١٣٩٤ هـ (٢٨/ يناير ١٩٧٤م ، حضرها عددٌ كبيرٌ من أعيان البلدين (دبي والشارقة) والأساتذة الكبار ورجال التربية والثقافة والعلماء.

وقد قدَّم العلامة الندوي ورحب به الأستاذان الكبيران الشيخ عبد الودود سلبي نائب المدير العام للأوقاف والشؤون الإسلامية بالشارقة ، والشيخ توفيق عاشور مدير المعهد الديني بدبي باسم البلدين العربيين الإسلاميين اللذين زارهما العلامة الندوي لأول مرَّة ، وقام فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى وسلم على النبيِّ ﷺ ، وشكر الأستاذين الكريمين على كلمتهما الترحيبية الرقيقة ، ثمَّ ألقى هذه المحاضرة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾[1] [الزخرف: ٤٤].

إنَّ دخول شعبٍ في التاريخ ـ أيها السادة والإخوان! ـ ليس بالأمر اليسير، إنَّه حادثٌ يحسب له حسابٌ كبيرٌ، فقد تظلُّ شعوبٌ كثيرةٌ غنيةً بالمواهب والطَّاقات، زاخرةً بالحياة والنشاط، منطويةً على نفسها، منعزلةً عن العالم، مغمورةً مطمورةً قروناً كثيرةً، وآلافاً من السنين، لا يعيرها التاريخ اهتماماً، ولا يلقي لها بالاً، والتاريخ صيرفيٌّ حاذق، لا يقبل إلا من وفَّى بشروطه، ورجح في ميزانه، وهو جادٌّ غير هازل، مشغولٌ غير عاطل، ضنينٌ شحيحٌ، لا يفتح صدره، ولا يفسح المجال إلا لمن أقنعه بصلاحيته وغنائه، أو أرغمه على الاهتمام بشأنه بقوَّته وانتصاراته، وشقَّ طريقه إلى الأمام، واحتلَّ الصدارة أو الزعامة في مصافِّ الشعوب والأمم، وعلى مسرح العالم.

وإذا استعرضنا التاريخ استعراضاً شاملاً وجدنا أنَّ هناك مداخل ثلاثة تدخل منها الشعوب والأمم التاريخ، وتفرض على المؤرخين والمؤلفين التنويه بشأنها، وتدوين أخبارها، والاعتراف بفضلها، وتحجز لنفسها مكاناً خاصاً.

المدخل الأول: وهو مدخلٌ عامٌّ واسعٌ، دخل منه أكثرُ الشعوب والأمم التاريخ، هو مدخل الغزو والفتح، والاستيلاء والحكم، وخير مثالٍ لهذا النوع من الدخول، وأعظمه شهرة: الروم، فقد استولوا في الزمن السابق بفروسيتهم النادرة، وقوتهم الحربية، وصلاحيتهم القيادية، على رقعةٍ واسعة من العالم القديم، وأسسوا إمبراطوريةً من أكبر الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ، وعُرفوا بقوة الإدارة والتنظيم، وقيادة الجيوش، وسنِّ

(١) فسر ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد، واختاره ابن جرير ولم يحك سواه، «الذكر» في هذه الآية بالشرف، فقالوا معناه لشرف لك ولقومك (تفسير ابن كثير).

القوانين ، وبقوا مدَّةً طويلةً يحكمون عدَّة شعوبٍ ، وعدَّة ولاياتٍ في القارات الثلاث : أوربا ، وآسيا ، وإفريقية ، وضبطوا البلاد ضبطاً محكماً ، وحكموا بيدٍ من حديد ، ولكن الواقع أنَّ الشعوب التي كانوا يحكمونها لم تفتح صدرها لهم ، ولم تحبِّهم قطُّ ، بل بقيت تنظر إليهم كمستعمرين وفاتحين ، وحكَّام جبارين ، لا يدينون بمبدأ المساواة البشرية ، ولا يحملون احتراماً للإنسانية ، وقد كان الرومان أنفسهم يعتقدون أنَّهم خلقوا ليسودوا ويحكموا ، وأنَّ الشعوب الأخرى خلقت لتطيع وتخدم ، وكانوا يوزِّعون العالم كله بين «رومانيين» و«برابرة» ، فكانت الشعوب المحكومة تتحيَّن الفرص للتخلُّص منهم ، وتسرَّب الوهن على مدى الأيام إلى الجهاز الإداري ، والطبقة الحاكمة ، واشتدَّ تذمُّر المحكومين ، فحدثت ثورات إثر ثورات ، وانتشرت الأطراف ، وساد الاضطراب ، فتحررت بلادٌ كثيرةٌ ، واستقلَّت ولاياتٌ ، واعتبر أهلها ذلك تحرراً من النير الأجنبي ، والحكم الاستبدادي ، وحسبت نفسها سعيدةً منتصرةً لما خرجت من حكمهم .

والمثل الثاني : هو الفاتح الشهير الذي نال من الشهرة العالمية قسطاً لم ينله فاتحٌ آخر ، ودوَّى له العالم هو الإسكندر بن فيلبس المقدوني ، وقد نهض من أثينا يدوِّخ العالم ، ويفتح البلاد ، ويُخضع الشعوب ، والأمم ، ويثلُّ العروش ، ويدوس التيجان ، ويجعل القرى والمدن خاويةً على عروشها ، يسودها الظلام والوحشة ، وكان تفسيراً لما جاء في القرآن في وصف الملوك : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ [النمل : ٣٤] ، ولكنَّه كان كعاصفةٍ مرَّت بالبلاد والعباد ، فأطفأت النيران ، وأخبت المصابيح ، وخلعت القلوب ، وأرعبت النفوس ، ثم هدأت وغابت كلا شيء ، وعادت الشعوب والبلاد إلى ما كانت عليه ، ولم تذكره الأمم المفتوحة بالخير ، ولم تحفظ له يداً ، فإنَّه لم ينهض في صالح العباد والبلاد ، وإنما قام ليرضي شهوة الفتح والغزو ويثبت قوته الحربية ، وقيادته العسكرية ، وكان كلاعبٍ رياضيٍّ ماهرٍ ، همُّه الوحيد أن يثبت تفوقه على الأقران ، ويسجل «الرقم القياسيَّ» ، فكان ذلك .

والمثل الثالث القريب! الإنجليز ، فقد دخلوا الهند ، واستولوا عليها ، وبسطوا فيها الأمن والاستقرار ، وقضوا على الفوضى والاضطراب ، وأحسنوا تنظيم الإدارة ، وأنشؤوا الشوارع ، وأقاموا الجسور ، وأسسوا خطَّ الحديد ، وأقاموا نظام البريد ، وقاموا بمشاريع عمرانيةٍ بنائيةٍ عملاقةٍ ، وعرفت بهم هذه البلاد التي تأخرت عن ركب الحياة ، وعاشت في عزلةٍ عن العالم العلوم الحديثة ، والصنائع الجديدة ، والوسائل العصرية ، وبسطوا شبكةً دقيقةً واسعةً من المعاهد ، والكليَّات ، والجامعات ، وقاموا بإصلاحاتٍ كثيرةٍ ، وتعرَّفت بهم البلاد لأول مرة بالحياة السياسية ، والنظام البرلماني ، والصحافة ، وكان كلُّ ذلك كفيلاً بأن تحبَّهم البلاد ، وتعرف لهم الفضل ، وتشكرهم على النهضة بالبلاد وترقيتها .

ولكن كان الأمر بالعكس ، فلم تفتح لهم صدرها ، ولم تولهم حبَّها أبداً ، باستثناءِ طبقةٍ مرتزقةٍ ، أو الخاضعين لمصالح سياسيةٍ ، ولم يزالوا ينظرون إليهم كأجانب مستعمرين ، ومستولين غاصبين ، وقد طمس على جميع مآثرهم و«أعمالهم الخيرية» عدم إخلاصهم للبلاد والشعب ، فلم تكن لهم غايةٌ إلا بسط النفوذ ، والاستفادة من خيرات البلاد ، وخدمة مصالح بريطانيا العظمى السياسية والاقتصادية ، وتأسيس مملكةٍ واسعةٍ لا تغرب فيها الشمس ، ومزاحمة الشعوب الأوربية المنافسة ، وإثبات تفوقهم عليها ، وكانوا كالإسفنج يتشرب الماء في مكانٍ ويصبه في مكان آخر ، يتشربه في الهند ويصبُّه في جزر بريطانيا ، وعدم الإخلاص لا يخفى ، بل يعرفه الأغنياء والبسطاء فضلاً عن الأذكياء والعقلاء ، وما جاء بالإنجليز إلى الهند غرضٌ سام ، ولا دعوةٌ دينيةٌ أو خلقيةٌ ، ولا رحمةٌ بالإنسانية ، إنما دفعهم الجشع الأرضيُّ والاستغلال الماديُّ .

وكانت القدر تغلي ، والبركان يريد أن ينفجر ، وكانت ثورة ١٨٥٧ م ، وأخفقت لأسبابٍ يطول شرحها ، ولكن البلاد لم تهدأ ، والفكرة لم تمت ، والشرارة كامنةٌ في الرماد ، وأنبتت البلاد كراهيتها للحاكم الأجنبيِّ ، وقويت حركة التحرير والجلاء ، ونادى الزعماء بمقاطعة البضائع الإنجليزية

الأجنبية ، وعدم التعاون مع الحكومة ، ومقاطعة كلِّ ما يتصل بالإنجليز ، ويمتُّ إليهم بصلة ، من شعائر ، ومدارس ، وحضارة ، وثقافة ، واستفحلت هذه الحركة ، وانطلقت كموجةٍ عارمةٍ تكتسح كل ما يعترضها في الطريق ، وأصبحت البلاد شعلةً من سخطٍ ، ومقتٍ حتى جلا الإنجليز وتحرَّرت البلاد في ١٩٤٧ م ، وتلا ذلك اتجاهٌ إلى تحرير البلاد من جميع آثار الاستعمار الإنجليزيِّ ، وقامت دعوةٌ إلى التحرُّر من الاستعمار اللغوي ، والثقافي بعدما تحررت البلاد من الاستعمار الاقتصادي والسياسيِّ ، وإحلال اللغة الوطنية محل اللغة الإنجليزية الأجنبية ، وتناسى زعماء هذه الحركة ما كان للإنجليزية من فضلٍ في إقامة الوحدة الفكرية ، واللغوية ، ونشوء الوعي واليقظة في البلاد ، وإن كانت هذه الغاية لم تتحقق ولا تزال اللغة الإنجليزية منتشرةً سائدة في البرلمان ، والصحافة ، ودوائر التعليم ، ولكنَّ اللغة الوطنية أصبحت اللغة الرسمية ، وأداة التعليم ، وكلُّ ذلك لأنَّه لم تكن بين الشعب واللغة الإنجليزية صلةٌ دينيةٌ ، ولا عاطفيةٌ ، وليست لها جذورٌ في نفوس الشعب ، وعقائده ، ومشاعره ، وتاريخه ، وكلُّ ما كان هذا شأنه كان سطحياً عابراً ، وأجنبياً طارئاً ، وما يستحقُّ التسجيل .

إنَّ معظم قادة حركة التحرير في الهند ، هم الذين رضعوا بلبان الثقافة الإنجليزية وآدابها ، وكانوا أشدَّ الناس اتصالاً بالإنجليز ، وأعظمهم معرفةً بهم ، وقد عاشوا في بلادهم وجامعاتهم ، وآدابهم ، وعاداتهم مدَّةً طويلةً ، فلم تزدهم هذه المعرفة ، ولم تزدهم الثقافة إلا كراهةً للإنجليز ، وشكّاً في نياتهم وإخلاصهم ، وعلماً بما طبعوا عليه من كبرياء ، وعدم المساواة ، والمغالاة في القومية والعنصرية ، فقادوا حركة التحرير والثورة ، وحملوا لواء الحركة الوطنية ، وواصلوا الكفاح حتَّى تحرَّرت البلاد وجلا الإنجليز .

والمدخل الثاني ـ أيها السادة ـ الذي دخلت به بعض الشعوب التاريخ هو العبقرية الفنِّية ، والذكاء الباهر ، ووضع علوم جديدة ، وقيادة العقل البشري ، وهذا هو المدخل الذي دخلت به يونان التاريخ الإنسانيَّ ،

واستولت به على مشاعر الأجيال ، وتفكيرها ، وثقافتها ، وبقيت تقود العالم في ميدان العلم والفكر قروناً عديدة ، فقد نبغ في أرضها الخصبة فلاسفةٌ ، ورياضيُّون ، وفلكيون ، وأطباء من الطراز الأول ، ووضعوا قواعد وأسساً لعلوم جديدةٍ ، واخترعوا علوماً كثيرةً تجلَّت فيها عبقريتهم ، واستطاعت يونان بفضلهم أن تكون زعيمة العلم والفكر ، ورائد البحث ، ورمز التنوير ، والابتكار ، والإبداع لمدَّةٍ طويلة ، وخضع لها العالم فكريّاً ، وعلميّاً ، يردِّد صداها ، ويتغنَّى باسمها وعلمها.

واستمرَّ ذلك حتى نشأت الأندلس الإسلامية ، ونبغ علماء الإسلام في الشرق والغرب ينقضون كثيراً مما أبرمه العلماء الإغريق ، ويزيدون في ثروة العلم والفكر الإنسانيِّ ، ويقومون بتجارب جديدة في مجال العلوم التطبيقية ، والكيماوية ، والفلكية ، ووصلت إلى أوربا ، فأنارت فكرها ، وأخرجتها من جمودها ، وضيقها ، وتعصُّبها ، وبذرت البذور الأولى للنهضة العلمية الجديدة.

ثمَّ جاء عصر النهضة الفكرية العلمية الأوربية التي تسمَّى : النشأة الثانية (Renaissance) وقامت أوربا برحلةٍ جديدة في ميدان العلم والتجربة ، ففتحت فتوحاً في العلم والاكتشاف ، أزالت دهشة الفتح اليونانيِّ ، وقضت على سيطرتها العقلية ، وزعامتها الفكرية ، وظهر خطأ اليونانيين في كثير من نظرياتهم ، ونتائج فكرهم ، ومقرَّراتهم العلمية ، وظهر جهلهم وخرافية كثيرٍ مما كان يعتبر آخر ما وصل إليه العقل البشري ، وانتهى إليه العلم الإنسانيُّ ، وبدت تحقيقات بطليموس ، وفيثاغورث ، وأقليدس ، وديوجانس ، وأفلاطون ، وأرسطو ، وبقراط ، وجالينوس ، التي سُحر بها العالم القديم ، وافتتن بها ، أمام الفلسفة الحديثة ، وعلم الفلك الجديد ، والعلوم الرياضية والهندسية ، والطبِّ ، وعلم الكيمياء ، والصيدلة ، التي توصَّل إليها العلماء في أوربا في أواسط القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ، كمحاولاتٍ بدائيةٍ في عالم العلم والتجربة ، وأصبحت كقطرة أمام البحر الزاخر ، وهذه سنَّة الله في خلقه ، ونظام الكون ، وطبيعة الأشياء ، يهزم القويُّ الضعيف ، وينسخ الجيد القديم ، ويحلّ المفيد

الجديد محلّ العتيق البالي ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧].

ولم تدن الشعوب الإنسانية لليونان في زمنٍ من الأزمان بالحبِّ والعاطفة ، والولاء والإخلاص ، ولم تحاول هي بنفسها ولم تدع إليه ، فإنما كانت رسالتها العلم والتجربة ، والتسلية العقلية ، وإشباع غريزة البحث المودعة في الإنسان ، بل بالعكس من ذلك أثارت الشَّكَّ والقلق ، وحبَّ الجدل والاضطراب الفكريَّ ، فلم تتجاوز علاقة الشعوب باليونان العلاقة الفكرية وعلاقة البحث والنقد ، والتقدير ، والاعتراف بالفضل في ميدان الفكر والعلم ، لا تقترن به عاطفةٌ قويةٌ ، أو شعورٌ عميقٌ ، أو صلةٌ مقدَّسةٌ ، وكان ذلك شأن علماء اليونان أنفسهم فيما بينهم ، يتباحثون ، ويتناقشون ، ويبرمون ، وينقضون ، ويهزؤون ، ويسخرون في بعض الأحيان ، ولم تكن لفلسفتهم ولا للغتهم عقيدةٌ تحميها ، أو شريعةٌ تحافظ عليها ، أو كتابٌ مقدَّسٌ يصونها ، لذلك انكمشت فلسفتهم ، واندرست لغتهم ، واندثرت آثارهم .

وآن لي أن أتحدَّث عن المدخل الذي دخل منه العرب التاريخ ، وهو أقوى مدخل ، وأعمقه ، وأكثره خلوداً وبقاءً ولا خطر عليه في مكانٍ أو زمانٍ مهما تغيَّرت الظروف والأوضاع ، أو طال الأمد وبعد الزمان ، وهو مدخل الرسالة والهداية ، والرحمة للإنسانيَّة ، والخدمة المخلصة ، المجرَّدة عن الأغراض ، لقد بقي العرب قروناً وآلافاً من السنين منطوين على نفوسهم لا شأن لهم بالعالم ، ولا شأن للعالم بهم ، تتناساهم الشعوب والأمم حولهم ، ويتجاهلهم التاريخ ، وقد كانوا مسلَّحين بجميع الطاقات التي تجعل منهم أمَّةً كريمةً عظيمةً ، تستطيع أن تمثِّل دوراً في تاريخ الغزو والفتح ، فقد فاقوا في الفروسية والشجاعة ، و«صناعة الحرب» .

وكانت عندهم كثيرٌ من الأخلاق الفاضلة ، وخلال المروءة التي توجد عند الأمم الأصيلة التي تكون على الفطرة ، وتعيش حياة البداوة والسَّذاجة ، وكانوا يحملون لغةً ذات عبقريةٍ لغويةٍ ، وثروةٍ واسعةٍ ، وكانت

عندهم قريحـةٌ شعريـةٌ تتدفق كالشَّلال ، وتجري كالماء السلسال ، وكانت لهم معلقاتٌ ومذهبات أولعوا بها ، والشعر الكثير ، والحكمة الرائعة ، ولكن كلُّ ذلك كان لا يكفيهم للدخول في التاريخ ، واحتلال الصَّدارة ، أو الزعامة في منتدى العالم.

لقد عاشوا قروناً كثيرة في هذه العزلة ، وفي هذا الانطواء ، وفي هذا الخمود ، وكان يمكن أن يعيشوا قروناً أخرى في هذا الوضع ، ولكنَّ الله أراد غير ذلك ، فبعث فيهم رسولاً من أنفسهم ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] ، وأكرمهم بالإيمان به ، والتَّصديق له ، والإخلاص لرسالته ودعوته ، والتفاني في سبيلها ، فتجرَّدوا عن كلِّ ما ينافيها ، واستأنفوا حياةً جديدةً ، وكأنما ولدوا في الإسلام ولادةً جديدةً.

وكانت الرسالة التي كانوا يحملونها رسالة التوحيد النقيِّ ، والدين الخالص ، ورسالة الطهر ، والأخلاق الفاضلة ، ورسالة العدل والمساواة ، والرحمة والعطف ، ورسالة العلم والعقل ، وكانوا مخلصين في تبليغ هذه الرسالة ، لا يتَّخذونها قنطرةً للوصول إلى الحكم والاستيلاء على الشعوب والأمم ، لا يخرجون الناس من حكم الإنسان إلى حكم الإنسان ، ومن سيادة أمَّة إلى سيادة أمَّة أخرى ، بل يخرجون الناس ، كما قال أحد رسلهم في مجلس رستم أكبر قواد الفرس: «من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»(١).

وكان دليلاً على ذلك أنَّهم كانوا يدعون إلى الإسلام أولاً ، فإذا أبى القوم ، دعوهم إلى الجزية ، فإن أبوا حاربوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدين كلُّه لله(٢) فاستقبلتهم الشعوب المستعبدة المستعمرة ، أو الأمم

---

(١) راجع «البداية والنهاية» ج/ ٧ص/ ٤٠ .

(٢) جاء في حديث طويل أخرجه مسلم عن سليمان بن بريدة عن أبيه مرفوعاً «أنَّ النبي ﷺ كان إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية كان ما يوصيه به ويأمره أن يقول: إذا لقيت عدوَّك=

المضطهدة ، والأفراد الذين أساءت إليهم الأديان المحرَّفة وقسا عليهم المجتمع الظالم ، وابتزَّ أموالهم ، وشلَّ عقولهم ، وحرياتهم الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدُّون عن سبيل الله ، كمنقذين ودعاةٍ ومعلمين ، وآباء مشفقين ، وإخوان متحابين ، واستقبلوهم كفرقة الإسعاف الطبيِّ ، ورجال المطافىء ، لا يعني المريض الجريح ، ولا المنكوب المفجوع الذي وقع في بيته الحريق بالبحث عن جنسيتهم ، والعناية بلغتهم ولهجتهم ، إنما يُعنى بغايتهم ورسالتهم ، ثم رأوا منهم عطف الآباء وحنان الأمهات والمساواة التي لا نظير لها ، والبر والمواساة ، فارتمى في أحضانهم «المنبوذون» والأشقياء ، والتجأ إليهم الطريد الشريد ، وفضَّلوهم عن بني ملتهم ، وأبناء جلدتهم ، والإخلاص لا يخفى ، كما لا يخفى عدم الإخلاص ، وقد بلغ ببعض الشعوب المفتوحة حبها للفاتح الرَّحيم ، والوالد الكريم أن أبدت عواطفها ومشاعرها في أشكال ومظاهر ، لا يقرُّها دين الفاتح ، ولا يرضاها القائد نفسه ، فقد سجل التاريخ أنَّ أهل السند البراهمة الوثنيين الذين غزاهم محمد بن القاسم الثقفي ، وفتح بلادهم ـ ذلك الفتى المغوار الذي لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره ـ هاموا بحبه حتى بعد شهادته ، أن نحتوا له تماثيل ، وذلك ما لا يوجد له نظير في تاريخٍ للغزو والفتح .

وقد جرَّبت الأمم المفتوحة مثالاً جديداً للحكم ، لا عهد لها به ، تتحكَّم فيه المعايير الخلقية ، والمبادىء الفاضلة ، وتسود فيه المساواة ،

= من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال ، فأيتهنَّ أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم إلى آخر الحديث» .

وكانت أولى هذه الخصال الدعوة إلى الإسلام ، ثم الجزية ، ثم القتال ، وقد ألغى الخليفة الأموي الراشد عمر بن عبد العزيز فتح سمرقند بعدما مضى عليه سبعُ سنين ، لأنّ أهلها المشركين شكوا إليه أن قتيبة قد استولىٰ على المدينة ، واستعمر الناس فيها ولم يدعهم إلى الإسلام ، ولم يخيرهم بين الجزية والقتال ، وأمر بخروج المسلمين من البلد والعمل بحكم الشريعة من جديد ، فأسلم معظم أهل البلد .

«اقرأ القصة بطولها في فتوح البلدان للبلاذري ص ١٢٢ طبع بريل ١٨٦٦ م» .

ومبدأ تكافؤ الفرص ، واحترام الإنسانية ، بجميع أشكالها ، وأجناسها ، وألوانها ، وكان الحكام يوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وينفذون حدود الله على الشريف والوضيع ، والحاكم والمحكوم ، ويتناصفون بينهم ، وكان منهم من يؤثر جانب الهداية على جانب الجباية(١) ، وقد شاهدت طرازاً جديداً فريداً للإنسانية لم تشاهده من قبل ، نزاهة نفس ، وسموَّ نظر ، وعلوَّ همَّة ، ورقَّة شعور ، وقوَّة عاطفة ، وسلامة ذوق ، واستهانةً بالزخارف والمظاهر الجوفاء ، وتمرداً على المادة ، قد انفردوا بالنظر والخبر ، وأذان السَّحر(٢) وتقلص ظلُّ العرب من السند والهند سريعاً ، ودخل البلاد شعوبٌ وسلالاتٌ إسلامية لا تتكلم اللغة العربية ، وأسست حكوماتٌ دامت ثمانية قرون ، ولكن بقي للغة العربية سلطانٌ على النفوس والقلوب يتدارسها ، ويبرع فيها ، ويحذقها آلافٌ من الناس في كلِّ جيلٍ ، ويؤثرونها بالتأليف والتحقيق ، ويفضلونها على لغاتهم التي نشؤوا عليها ، وعلى لغات البلاد والأقاليم ، وتستمرُّ حركة التأليف والتعليم والتحقيق قويةً في اللغة العربية إلى يوم الناس هذا ، وتبلغ عناية أهل الهند بها وزعامتهم فيها إلى أن ينبغ فيها مثل العلامة حسن بن محمد الصغاني اللاهوري (م٦٥٠ هـ) الذي يؤلف معجماً كالعباب الزاخر ، والسيد مرتضى البلكرامي المشهور بالزبيدي (م ١٢٠٥ هـ) الذي يتناول القاموس المحيط للفيروز آبادي بالشرح والتحقيق ، فيضع موسوعةً لغويةً في عشرة مجلدات كبار وفي خمسة آلاف صفحة ، يسميها بتاج العروس في شرح القاموس ، ولا نعرف أنَّ معجماً شرح في أيِّ لغةٍ من لغات العالم بهذه

(١) كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله ، وقد شكا إليه ضعف مالية المملكة لإعفاء من كان يدخل في الإسلام عن الجزية «ويحك إنَّ محمداً ﷺ قد بعث هادياً ، ولم يبعث جابياً» (سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم).

(٢) هذا التعبير عن منظومة للشاعر الدكتور محمد إقبال ، قالها على لسان طارق بن زياد حين دعا المسلمين قبل أن تنشب الحرب في الأندلس ، والمقصود : أنَّ العرب كانوا يمتازون بعلم جديد ، وإشراقٍ جديد ، وشعارٍ جديد ، هو شعار التوحيد الّذي كان يدوِّي في الفضاء ، والناس نيام غافلون ، (انظر : روائع إقبال للعلامة الندوي «دعاء طارق» ص ١٤٤).

الدقة والتفصيل ، هذا عدا كتب تعدُّ بالألوف ألفها علماء الهند في اللغة العربية في مقاصد دينية ، وموضوعات علمية[١] ، وفي مصطلحات العلوم ، وغريب الحديث ، وشروح دواوين السنة .

ولم يفكر أهل الهند قطُّ في التحرر من سلطان اللغة العربية والاستغناء عنها ، ولم يعتبروا ذلك قطُّ أثراً من آثار الاستعمار العربيِّ القديم ، ولم ينظروا إليها في حينٍ من الأحيان كلغة أجنبية احتلت البلاد والعقول ، ودوائر التعليم ومجال التأليف ، بل بالعكس من ذلك ورغم الأحداث والانقلابات ظلُّوا عاضين عليها بالنواجذ ، دائنين لها بالحبِّ والولاء ، والإجلال والتقدير ، وهم لا يواجهون أدنى مشكلةٍ من مشكلات اللغات التي تواجهها أمَّـةٌ .

يعشقون كلماتها ، ويتبركون بتعلُّمها وتعليمها ، ويتنافسون في خدمتها ونشرها ، ويوجد منهم اهتمام بها لا يضارعه اهتمام لأيِّ أمة بأيِّ لغةٍ ، وذلك كلُّه لأنَّ هذه اللغة هي اللغة التي نزل بها القرآن ، ودُوِّنت فيها الشريعة ، وتكلَّم بها الرسول وأصحابه ، واقترنت بها عقيدةٌ ، وعاطفةٌ دينية ، فسلطانها لا يُتحدَّى ، ومكانها من القلوب لا يزاحم ، وجذورها في النفوس لا تقتلع ، حتى إن اللغة الفارسية التي بقيت لغة الديوان ، ولغة الرسائل والإنشاء ألف سنة تقريباً ، وكانت لغة فاتحي الهند ، ومؤسسي الحكومات ، ومن غزنوية ، وغورية ، وأفغانية ، ومغولية ، ونبغ فيها شعراء سلم لهم شعراء إيران بالإجادة والإمامة ، وسرت بشعرهم الركبان اعتراها من الضعف ، وانصراف الهمم عنها ، وزهد الناس فيها ، حتى خيف عليها من الانقراض في الهند ، ولولا عناية الجامعات الهندية بها ، وإنشاء قسمٍ خاصٍّ لتدريسها ، والامتحان فيها ، لطوى بساطها ، وخبا مصباحها نهائياً ، لأنَّها لم تقترن بعقيدةٍ وشريعةٍ ، ولم تقم على عاطفةٍ دينيَّةٍ عميقةٍ .

---

(١) ليرجع إلى كتاب «الثقافة الإسلامية في الهند» للعلاّمة عبد الحي الحسني (م ١٣٤١ هـ) للاطلاع على سعة الحركة العلمية التأليفية في اللغة العربية في الهند ، وضخامتها ، طُبِعَ في مجمع اللغة العربية بدمشق .

وظهر وفاء المسلمين في الهند للغة العربية ، والثقافة الإسلامية ، وشدَّة تعلُّق قلوبهم بكلٍّ ما يتصل بالعرب الذين حملوا مشعل الإسلام ، وبجزيرة العرب والحرمين الشريفين ، ومهد الإسلام ، ومهبط الوحي ظهوراً ، كان موضع دهشة الغلاة من القوميين في الهند ، وموضوع نقدهم ولومهم ، ورأى بعضهم أنَّ ذلك ينافي الإخلاص للوطن والحماس له ، وإيثاره على كلِّ شيء ، ولكن المسلمين يواجهون هذا النقد والملام في شجاعةٍ وإيمان ، وثقةٍ واعتزاز ، ولا يزيدهم ذلك إلا قوةً وصموداً ، ويرونه حقّاً من حقوق العرب الذين نالوا بهم سعادة الدنيا والآخرة ، وخرجوا بفضل دعوتهم وإخلاصهم وجهادهم من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن عبادة الأصنام ، والأنهار ، والحيوانات ، والأشجار إلى عبادة الله وحده[١] .

وظلَّ هذا الصفاء قائماً ، ودامت هذه الثقة لا يضعفها شيءٌ ما دام العرب مخلصين للإسلام ، متجردين له ، معنيِّين بخدمة الإنسانية ، والعطف عليها ، لا يعدلون بالقومية الإسلامية قومية ، وبرسالة الإسلام والدعوة إليه رسالة ودعوة ، ولا يتحمَّسون لغير الإسلام ، فلما تغيَّرت أخلاقهم في العهد الأخير ، وقامت فيهم الدعوة إلى القومية العربية ، وتبنوا ، واحتضنوا دعواتٍ أخرى ، وتحمسوا لها ، تزعزعت ثقة الشعوب غير العربية بهم ، وتغيَّرت نظرتها ونظرة العالم إليها ، وبدأت هذه الشعوب تتذكَّر قومياتها ، وفلسفاتها ، وحضاراتها ، وأمجادها ، ولغاتها التي تناستها ، واستهانت بها ، وآثرت عليها القومية الإسلامية ، والحضارة الإسلامية العربية ، وأمجاد الإسلام ، واللغة العربية ، وتوجَّه إليها طعن زعماء القوميات المحلية وتهكَّموا بها ، وصاروا يتساءلون : لماذا لا يسوغ لأبناء الوطن أن يرجعوا إلى قوميتهم وحضارتهم حين بدأ العرب يتغنَّون

---

(١) يقول الدكتور محمد إقبال مخاطباً للرسول العربي ﷺ : «إننا ـ وإن ولدنا في بلادٍ عريقة في الوثنية ـ رفضنا أن نعبد الثور والبقر ، وأبينا أن نطأطىء رؤوسنا أمام الكهَّان والسَّدنة ، فلم نخرَّ بين يدي الآلهة القديمة ، ولم نطف حول بلاط الملوك ، وقصور الأمراء ، والفضل في كلِّ ذلك ، يرجع إلى دينك الّذي جئتَ به ، وإلى جهادك الّذي قمتَ به» (انظر : روائع إقبال للعلامة الندوي ص ١٨٧/ ١٨٨).

بقوميتهم ، ويفكرون في العودة إلى حضارتهم الجاهلية وأمجادهم القديمة ، وأبطالهم القدامى الذين حارب كثير منهم الإسلام ، ودافع عن الجاهلية دفاعاً مستميتاً؟ وصعب للمتمسكين للإسلام في هذه البلاد أن يقنعوا هؤلاء المعترضين ، ويقطعوا ألسنتهم ، وإن كان أولئك الذين شرح الله صدورهم للإسلام لا يزالون مصمِّمين على التمسك بالإسلام ، عاضين عليه بالنواجذ ، مقدرين نعمته جحد الناس هذه النعمة أو قدروها ، وآمنوا بالإسلام ، أو كفروا به.

وأخيراً فليعرف العرب أنَّهم ما دخلوا التاريخ إلا عن طريق الرسالة الإسلامية ، والدعوة الإسلامية ، ولم يغرس الله حبهم في النفوس والقلوب ، ولم تنتشر لغتهم هذا الانتشار الواسع ، ولم يكتب لها الخلود والبقاء ، ولم تدون فيها هذه العلوم الكثيرة ، ولم تتكون فيها هذه المكتبة الضخمة التي كان قسط علماء العجم فيها أعظم من قسط العرب أنفسهم إلا بفضل القرآن والشريعة الإسلامية ، ولا يعود العرب إلى مركزهم الأول ولا يدخلون التاريخ مرَّةً ثانيةً إلا من هذا المدخل الذي دخلوا منه أول مرَّة.

﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الروم: ٤ ـ ٥].

* * *

مصر جوهرها إسلاميٌّ إيمانيٌّ محمديٌّ مهما تراكمت عليه الأتربة

ألقى العلامة الندوي هذه الكلمة الترحيبية في ٢٦ مارس ١٩٨٠م ، في قاعة اتحاد الطلبة ، بمناسبة زيارة معالي الدكتور عبد المنعم النمر وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية في الجمهورية المصرية لدار العلوم ـ ندوة العلماء على رأس وفد مصر يتكوّن من أستاذة الجامعات المصرية الكبرى ، والمقرىء العالمي الشهير الشيخ عبد الباسط عبد الصمد انتهز العلامة الندوي هذه الفرصة اللاّئقة لتبليغ مشاعره ورسالته إلى مصر مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

إنَّني إذ ذكرت مصر ثارت فيَّ الأشجان ، وثارت فيَّ الأحزان ، وهاج فيَّ الحنان ، وهاج فيَّ الإيمان ، مصر ، وما أدراكم ما مصر؟!

مصر كنانة الإسلام ، كانت كنانة الإسلام ، وستبقى كنانة الإسلام إن شاء الله .

مصر الّتي أنجدت العالم الإسلامي حين تكاثفت الظلمات ، وحين انقطع الرجاء ، كان ذلك حين هجم الوحوش التتار على العالم الإسلامي ، هنالك نَهَضَ الملك الظاهر بيبرس ، ونَهَض أهل مصر ، فهزموهم لأول مرَّة في التاريخ ، إنَّ هناك التقاءً عجيباً بين مصر والهند ، فإنَّ مصر هو القطر الوحيد الذي استطاع أن يردَّ الوحوش التتار على أعقابهم ، وأن يحسر الموجة العاتية الغازية للعالم الإسلاميِّ المتحدِّية للإسلام ، مصر هو القطر العربي الوحيد الذي هزم التتار ، والقارة الهندية ـ هي القطر الإسلامي الوحيد الذي هزم التتار ، وهنالك كان المماليك وها هنا كان المماليك ، هذا التقاء عجيب ، ثم إنَّ مصر هي التي أتحفت العالم العربي بل العالم الإسلامي ، بل أغاثتهما بالملك الناصر صلاح الدين الأيوبي قاهر الصليبيين ، ومبيِّض وجه الإسلام والمسلمين ، الذي أنقذ العالم الإسلامي ، وحفظ مركز الإسلام من أن يقع فريسةَ الغارات الصليبية والاحتلال الأوروبي النصرانيِّ الحاقد ، وأعاد القدس الشريف وفلسطين إلى ولاية المسلمين وإشرافهم . فكان فتحاً تضاءلت أمامه الفتوح ، وأثنت عليه الملائكة والروح .

إنَّ مصر كنانة الإسلام ، فيها سهام تخرجها في أوانها ومكانها . إنني لما عشت في مصر تلك الأيام السعيدة الفريدة ، الحلوة اللذيذة التي عشتها في حياتي ، آمنت بأنها ستكون منطلق الإسلام إن شاء الله ، وتنبعث القيادة الإسلامية الجامعة من مصر مرَّةً ثانيةً .

وإنَّ مصر التي أنجبت حركة الإخوان المسلمين ، وإنَّني من غير اعتذارٍ ،

ومن غير تعليلٍ ، ومن غير استحياءٍ لا يسعني إلا ذكر الإخوان المسلمين وحركتهم التي كان لها الفضل الأكبر في إيقاظ الشرق العربي وإنهاضه ، وإشعال الجمرة الإيمانية التي كادت تنطفىء ، التي كانت كامنةً في نفوس العرب. جاءت حركة الإخوان المسلمين ، فأشعلت هذه الجمرة فحوَّلت الشرق العربي كلَّه شعلة نارٍ . إنَّ مصر التي تستطيع أن تنجد العالم العربي على الأقل ، بل العالم الإسلامي بصفة عامَّة ، بحركة الإخوان المسلمين ، إنَّ مصر هذه لجديرةٌ بأن تسعف العالم العربيَّ في كلِّ زمان.

إنَّ جوهر مصر إسلاميٌّ إيمانيٌّ عربيٌّ محمديٌّ ، ومهما تراكمت عليه الأتربة ، ومهما طرأت عليه العناصر الداخلية ، فإنَّ مصر كانت عربيةً إسلاميةً محمَّديةً ، إنَّ لها صلة بالرسول مرتين ، عن طريق السيدة هاجر أم سيدنا إسماعيل جد الرسول ﷺ ، وعن طريق مارية القبطية أم المؤمنين ، ولذلك جاء في بعض الأحاديث: «استوصوا بأهل مصر خيراً» إنَّ مصر خليقةٌ بأن تُعقد بها الآمال ، إنَّها تحافظ على جوهرها الكريم وعلى عنصرها الكريم ، إننا كلُّنا مدينون لمصر في شيءٍ كثيرٍ. أنا شخصياً مدينٌ لمصر ، في ثقافتي العربية ، أنا قرأت الكتب المقرَّرة الدراسيَّة التي أُلفت ، وطبعت في مصر ، ولما كانت الباخرة تتوجه من جدة إلى السويس ، والله كنت أشعر بحنينٍ في القلب كأنني مقبلٌ على بلادي ووطني ، لماذا؟ لأنني تطفَّلت على مائدة مصر ، إنني اقتبست من مكتبتها ، إنَّ هذا الجيل الجديد الذي نشأ بحول الله وتوفيقه ، نشأ في ظلال الأدب الإسلاميِّ الذي وجد في مصر ، فإنني والحمد لله لا أزال قوي الأمل في مصر وفي مستقبلها ، وإنني أرجو الله سبحانه وتعالى أن يأتي الدور القريب الذي تبزغ منه شمس الإسلام مشرقةً ، وهَّاجة ، منيرةً ، قويةً.

نسأل السادة الكرام وفي مقدمتهم فضيلة الشيخ معالي الدكتور عبد المنعم النمر أن يبلغ تحياتنا إلى مصر وأبنائها ، وما في القلوب من حنين وفي النفوس من تقدير ، وإنَّنا نتضرع إلى الله أن نرى مصر في مركزها الطبيعي.

إنَّ التاريخ المعاصر يشهد بأنَّ كلَّ من حاول أن يصرف شعباً إسلامياً عن مركزه الإسلامي وعن تفكيره الإسلامي وعن عقيدته الإسلامية ، وعن تراثه الإسلامي ، كان حظه الإخفاق ، أراد كمال أتاترك أن يحول الشعب التركي عن طبيعته الإسلامية الأصلية؛ التي تغلغلت في الأحشاء ، فكان نصيبه الإخفاق. إنَّ شاه إيران الذي أراد أن يصرف الشعب الإيراني المسلم عن رصيده الإسلامي ، فكان مصيره كما تعلمون. إنَّ أملنا قويٌّ في الذين يملكون زمام الأمور وفيهم القائمون لحقيقة الإسلام ، وفيهم الذين نشؤوا في ظلال الدعوة الإسلامية ، وفيهم الذين نشؤوا في تربية الإمام الشهيد حسن البنا وزملائهم ، وفيهم من دافع عن الإسلام دفاعاً مجيداً ، وفيهم من ناضل عن عقيدة الإسلام ، إنَّ هؤلاء الذين يتكلمون بلغة القرآن ، هؤلاء الذين يقرؤون القرآن أحسن منا ، والذين يحفظون القرآن أحسن منا ، وهناك مثل سائر: إن القرآن نزل بالحجاز ، وقُرِىء في مصر. وقد سمعنا هذه التلاوة الحلوة العذبة ، بلسان المقرىء العالمي الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ، والشيخ محمود خليل الحصري وأمثالهم ، ولهم تلاميذ في كلِّ العالم ، حرامٌ أن ينقرض منها الإسلام ، وأن يطفأ فيها نور الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] حرامٌ على البلد المسلم الذي يتلى فيه القرآن بهذا الصوت الشجيِّ الذي يأخذ بمجامع القلوب أن تنقطع صلته عن الإسلام ، لا والله! إنني لا أستطيع أن أسيغ هذا ، إنَّ بلداً خدم الإسلام هذه الخدمة الكبيرة ، هذا البلد الذي احتضن الإسلام بأمانةٍ ، وبجدارةٍ ، وبقوَّةٍ ، لا أستطيع أن أصدِّق أنَّ هذا البلد تنقطع صلته عن الإسلام ، فظنّوا بمصر خيراً يا إخواني! وانتظروا ذلك اليوم السعيد الذي ستتولى فيه مصر قيادة العالم العربي.

هذه أمانة أيها الإخوان تنقلونها منِّي إلى مصر ، تحياتنا لمصر ، تحياتنا لأبناء مصر ، تحياتنا لعلماء مصر ، تحياتنا للأزهر الشريف ، تحياتنا لمعاهد مصر ، وجامعاتها ومكتباتها التي تدفَّقت كالنِّيل ، بل أكثر من النِّيل ، فاضت حتى تخطَّت الحدود الجغرافية ووصلت إلى هذه القارة الهندية البعيدة ، ولي تحياتٌ قديمة أسميتها: «اسمعي يا مصر!» وإنَّ لنا

لأملاً قوياً في الله سبحانه وتعالى ، وفي جهد إخواننا ، وفي غيرة إخواننا أن يحملوا راية الإسلام ، ليس في الشرق العربي فقط ،ليس في وادي النيل فقط ، بل في العالم الإسلامي كلِّه.

هذا ما شرح الله به صدري ، وألقيت هذه الكلمة في هذه المناسبة ، فيض الخاطر ، وروابطنا قديمةٌ بمصر ، وإنَّه موضوعٌ تاريخيٌّ واسعٌ ، وكثيرٌ من أعلام مصر زاروا الهند ، وتناولوا بعض كتب علماء الهند بالشرح. والعلامة أبو بكر الدماميني شرح الإرشاد في النحو لملك العلماء الشيخ شهاب الدين الدولة الآبادي ، ولم يكن هناك اتجاهٌ واحدٌ ، إنما كان هناك طريقٌ مفتوحٌ وتبادلٌ ، فكان علماء الهند يتناولون كتب المؤلفين المصريِّين بالتدريس ، وعلماء مصر يتناولون كتب الهنود بالتدريس ، ولكن الذي أفادت مصر الهند كان أكثر مما استفادت من الهند ، لأنَّ مصر مركز الإسلام ، ومركز الأزهر.

* * *

واقع العالم الإسلاميِّ

خلال زيارة سماحة العلامة الندوي للكويت عام ١٤٠٤هـ (١٩٨٣م) ألقى عدداً من المحاضرات ، حضرها جمٌّ غفيرٌ من المستمعين حيث إنَّ القاعات كانت تغصُّ بالحاضرين ، وتضيق على سعتها على غير عادتها ، منها هذه المحاضرة الّتي تقدّم إلى القراء ، ولقد ألقاها العلامة الندوي بدعوةٍ من فضيلة الشيخ عبد الله العقيل (مستشار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية سابقاً) وسعادة الشيخ عبد الله العلي المطوِّع رئيس جمعية الإصلاح الاجتماعي في قاعة جمعية الإصلاح بعنوان «واقع العالم الإسلامي» ، وكانت هي الأخيرة ، من أشدِّ محاضراته صراحةً ، وذلك لأنَّ واقع العالمَيْن ـ الإسلام والعربي ـ لا يحتمل عند سماحة الشيخ الندوي ملقاً ، أو تغطيةً ، أو مجاملةً لإرضاء الجماهير ، وكما قال فضيلته قد التقت المهازل مع المآسي في لبنان ، وبلغت الكارثة قمتها في تلك الأيام التي زار العلامة الندوي فيها هذه المنطقة الإسلامية العربية ، ولكنَّه لم ير آثارها وردود فعلها في هذه المدن العربيّة الإسلاميّة ، فلا تزال الحياة فيها لاهيةً ساهيةً كما لم يقع شيءٌ من هذا النوع ، فأطلق سماحة الشيخ الندوي أنات قلبه الجريح ، وكشف عن صدره المكلوم ، وفاضت كأسه الّتي طفحت ألماً وأسىً ، وحُقَّ لها أن تفيض ، وترشح ، وقد كانت الحوادث كافيةً لإثارة مشاعره ، ومبررةً بل موجبة لهذه الصراحة والمرارة ، فقد كان شأنه في موكب هذه الانطباعات والمشاعر ، شأن الشاعر العربي الّذي يقول :

سقوني وقالوا لا تغنِّ ولو سقوا جبال سليمى ما سقيت لغنَّت

ويستحق مستمعو هذه المحاضرات ـ وفيهم الشخصيات الجليلة

والعاملون للإسلام ـ التقدير والاعتراف برحابة صدورهم وتقديرهم لكلمة الحق ، مهما كانت مرَّة وقاسية ، فقد تلقوها ببشاشةٍ وتقديرٍ ، وعدم امتعاضٍ أو استنكارٍ .

سادتي وإخواني! إنِّي أتحدَّث إليكم في هذا اللقاء الكريم عن «واقع العالم الإسلاميِّ» اليوم ، وفي الحقيقة أتحدث إليكم عن واقعنا جميعاً ، فهي مسؤوليةٌ مشتركةٌ ، وأمانةٌ جماعيةٌ ، وكنت أتمنَّى أن أتحدَّث عن واقع مشرقٍ جميلٍ زاهرٍ ، يسرُّ المؤمنين ، ويسرُّ أصحاب الواقع ، ويسرُّ المتحدث ، وإنني بدوري أستطيع أن أصور العالم الإسلاميَّ تصويراً رائعاً جميلاً ، فإنَّ اللسان يستطيع أن يعطي واقعاً حالكاً كئيباً صورةً جميلةً مشرقةً ، والقلم أقدر من اللسان على ذلك ، ولكن سيكون واقعاً خيالياً أسطورياً لا صلة له بالحقيقة والواقع ، فسأكون أميناً وصريحاً في تصوير هذا الواقع ، وإن لم أسرَّ المستمعين الكرام ، ولم أدخل على نفسي السرور ، فالرائد لا يكذب أهله.

إخواني! التناقض في حياة فردٍ عاديٍّ لغزةٌ تحتاج إلى حلٍّ ، وفكٍّ ، وإلى ذكاءٍ ، فكيف إذا كان التناقض في مجتمعٍ كبيرٍ؟ وكيف إذا كان في عالمٍ واسع الأرجاء ، كبير الأهمية ، مجيد التاريخ؟ والتناقض الغريب الذي أريد أن أتحدَّث عنه في هذه الأمسية ، وهو أنَّ العالم الإسلاميَّ لم يكن في زمنٍ من الأزمان أكثر حكومات ، وأوسع مساحة جغرافية ، وأعظم أهميَّة سياسيَّةً ، وأغنى في الطاقات والإمكانيات ، وأملك للوريد في الجسم الصناعي ، لم يكن العالم الإسلامي ـ في حدِّ دراستي ـ وقد درست تاريخ الإسلام سياسياً ، وفكرياً ، وعلمياً ، وروحياً ، في إطار واسع ، وأستطيع أن أقول: في ضوء دراساتي ، إنني ما وجدت العالم الإسلامي في هذا التاريخ الضخم الكبير الحجم ، الواسع مساحةً زمنيةً ، لم أجد العالم الإسلامي في فترةٍ من فترات التاريخ أغنى ، وأقوى ، وأوسع منه في هذا الزمان ، ولكني أقول لكم ، والحزن يملأ قلبي ، والخجل يعتقل لساني؛ إنَّ العالم الإسلاميَّ مع هذا الحول والطول ، ومع هذا العدد الكبير من الحكومات ، لم يكن أهون ، ولا أذلَّ ، ولا أضعف ، ولا أخفَّ في

الميزان السياسيِّ الدوليِّ منه في هذا الزمان ، وهذا تناقضٌ تحار فيه الألباب.

إنَّ العالم الإسلاميَّ في الحقيقة كان قد ضعف في روحه المعنوية ، وفي شخصيته ومميزاته من زمانٍ ، ولكن كان له اسمٌ كبير ، وكانت له مهابةٌ وسطوةٌ ، كانت هنالك الدولة العثمانية ـ على علاَّتها ومحنها ـ كالسور المنيع للشرق العربي ، لا يجترىء كثيرٌ من الحكومات والشعوب الحاقدة ، أن يتسوَّر هذا السور ، ويهين المقدسات الإسلاميَّة ، والبلاد التي كانت تحت حماية الدولة العثمانية ، وقد كان شرف العالم الإسلاميِّ وكرامته منوطةً بذلك الجزء المقدس الحبيب إلى المسلمين في العالم ، وكان للدولة العثمانية الإسلام الكبير ، الحافل بالأمجاد والبطولات ، فكان يصرف الناس عن الامتحان لقوته الحقيقية ، وكان هنالك «نظار»[(١)] أو مجدار[(٢)] على التعبير العربي القديم ، وهو العود الذي ينصبه الفلاح في مزرعته ، ويلقي عليه شيئاً من الثياب ، فيتصور الغربان والطيور أنَّ هنالك إنساناً واقفاً ، فلا تتجاسر أن تقع في هذه المزرعة ، وتسبب فيه ضرراً ، فإذا سقط هذا النظار أو المجدار بريحٍ عاصفةٍ مثلاً ، أو عاثت فيه بعض الحيوانات الجريئة فأسقطته ، هنالك يعرف الطيور أنَّه ليس هنالك ما يخاف فتساقط عليها وتتلفها ، فكانت الدولة العثمانية ، وكان الإسلام الكبير الذي تحمله ، وكانت الانطباعات التي كان يحملها الدارسون للتاريخ الإسلاميِّ ، والتصوُّر الكبير الضخم الذي كان أكثر من الحقيقة يمنع كثيراً من الشعوب التي كانت أقوى من الدولة العثمانية وكان في إمكانها أن تسيطر على بعض الممتلكات العثمانية ، ومحمياتها بسهولةٍ من أن تجرب الوقوع في هذه الحمى ، فلما سقط هذا النظار أو المجدار ، أصبحت المزرعة مالاً سائباً ، ونهبةً لكلِّ ناهب وأصبحت الحمى مفتوحةً لا حارس لها.

---

(١) النظار: الخيال المنصوب بين الزرع ، والناطور حافظ الكرم أو الزرع ، والكلمة سريانية.

(٢) ما ينصب في الزرع لطرد الطير والوحش ، ويقال: الفزاعة أيضاً.

هذا مثلٌ للعالم الإسلاميِّ إذا قسنا العالم الإسلاميَّ بمقياس الروح الإسلامية ، وبمقياس القوَّة الإيمانيَّة ، والقوَّة الحربيَّة الحقيقيَّة ، فقد كان قد تخلف فيها تخلفاً كبيراً منذ أمدٍ بعيدٍ ، ولكن كانت له رهبةٌ ، وسطوةٌ.

إنَّ الحقيقة العالمية الخالدة أيها السادة! أنَّ الفرد لا يحترم إلا إذا كان يُخشى ويُرجى ، والجماعة لا تُحترم إلا إذا كانت تخشى وترجى ، وتنفع وتضرُّ ، وكذلك الحكومات والمجتمعات ، لا يحسب لها حسابٌ إلا إذا كانت تُخشى ، وتُرجى ، وتنفع وتضرُّ ، تستطيع أن تضرَّ ولو لم تفعل ذلك ـ بإرادةٍ وقصدٍ ـ مدةً طويلة ، ولكن يجب أن يعرف الناس أنَّها تملك قوة النفع والضَّرر وإن لم تستعملها. إنَّ الفرد ولو كان حقيراً تافهاً كالنملة قد تُخشى؛ لأنها تستطيع أن تقرص ، والعقرب تُخشى؛ لأنها تستطيع أن تلسع ، والحية تُخشى؛ لأنها تستطيع أن تلدغ ، والكلب يُخشى؛ لأنَّه يستطيع أن يعضَّ ، ولو حيل بينه وبين ذلك سنين وأعواماً ، وكان كلباً مدللاً أليفاً. فلا بدَّ من التوازن الصحيح ، وهو وجود صلاحية النفع ، ووجود صلاحية الضرر في وقتٍ واحدٍ.

فكان لا بد أن يملك المسلمون بصفة أمَّةٍ ، ويملك الفرد المسلم بصفة فردٍ القدرة علىٰ النَّفع والضَّرر ، وإن لم يضرَّ كما قلت ، لشرفه ، ولسماحته ، وإنسانيته الرفيعة ، وسموِّ رسالته ، ولو لم يأت منه الضرر والأذى قروناً عديدة ، لا بأس ، ولكن ليعرف الزمان أنَّه بمكانٍ يُرهب فيه ، ويُخشى بأسه ، يقول الله تبارك وتعالى وهو رب العالمين ، وأحكم الحاكمين: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فأصبح المسلمون في الزمن الأخير ، يُرجون ، ولا يُخشون ، وينفعون ، ولا يضرون ، وهذا وإن كان موقفاً شريفاً في علم الأخلاق والنفس ، وفي العلم النظري والفلسفات النظرية الخيالية ، وإن كان يدلُّ على شرف الرجل ، وعلى فضله ، وعلى نبله ، وعلى تمسُّكه بالمبادىء السامية ، ولكن الفطرة البشرية منذ أن فطرها الله تعالى تعوَّدت أن تخضع

للقوة ، ولما عند الفرد ، أو الجماعة من قدرة الإضرار والدفاع عن نفسه ، وأخذ الثأر لها ، يقول الدكتور العلامة محمد إقبال :

«إن الوردة الجميلة لا سلامة لها ولا صيانة ، وإذا كان الشوك الذي خلق ليحوطها ويصونها من الأيدي العاتية قد انحرف عن فطرته ، وأصبح حريراً ناعماً ، إذاً فلا بقاء للوردة ، ولا حرمة لها ، واسمحوا لي أن أنشد البيتين باللغة الأردية ، لأني أرى هنا عدداً من إخواننا الباكستانيين والهنديين ليتذوقوا الأبيات في لغتها . يقول إقبال :

تميز خار وكل س آشكارا نسيم صبح كي روشن ضميري
حفاظت بهول كي ممكن نهين هي أكركاني مين هو خوى حريري

يقول : إن نسيم الصباح يعرف طبائع الأشياء ، فيربي الوردة على طبيعته الخاصة ، وهي النعومة ، والرِّقة ، وينشىء الشوك على طبيعةٍ أخرى منافيةٍ ، وهي الشدَّة ، والعنف ، وهذا يدلُّ على فراسة النسيم العليل البليل الذي يهبُّ صباحاً ، يدلُّ على وفائه بالرسالة التي نيطت بها ، ووضع الشيء في محله ، فإذا أصبح الشوك الذي يحيط ويصون الوردة الناعمة ، الوداعة البريئة ، حريراً ناعماً ، فلا بقاء للوردة ، ولا سلامة لها ، فكذلك لا بد للعالم الإسلامي الشريف النبيل صاحب الرسالة السامية ، والمبادىء السماوية ، والتعاليم الربانية ، حامل الرحمة الإنسانية ، وصاحب قلبٍ خفاقٍ ، يذوب للإنسانية الضعيفة ، ويسيل رقةً ورحمةً ، كان واجباً أن يكون هذا العالم الإسلاميُّ يملك ما يُرهب وما يُخشى ، يملك السياج المنيع ، والسور العالي ، والجند الجاهز ، ولكن أصبح العالم الإسلاميُّ اليوم ترجوه كلُّ المعسكرات الآن ، المعسكرات على تناقضها في المبادىء ، وعلى ما بينها من منافسة ومحاربة ، تلتقي على الانتفاع بالعالم الإسلامي ، وحلب درَّته وامتصاص دمه ، كلها تنظر إلى العالم الإسلامي كمادةٍ ثريَّةٍ ، ولكن ليس معسكرٌ من المعسكرات الآن ، وليست حكومةٌ من الحكومات الكبيرة التي تتحكَّم الآن في مصائر الأمم ، وفي المسيرة الإنسانية ، تخشى العالم الإسلامي ، فتحترمه ، إنما نسمع كلمات الاعتراف لبعض الحكومات الإسلامية والعربية ، وكلمات الاحترام في

أحيان أخرى ، ولكنها كلها سياسةٌ ونفاقٌ ، ليس في قلب أحد من هؤلاء الساسة ، والقادة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، خوفٌ من العالم الإسلاميِّ في الحقيقة .

ثم زاد الطين بلَّةً ، هو أن قد عرف العالم الغربيُّ أنَّ هذه الحكومات التي كان يمكن أن تخشاها مشغولةٌ بشعوبها ، مشغولةٌ بالصحوة الدينية التي ظهرت في هذه البلاد، إنَّها في شغلٍ شاغلٍ ، إن همَّها الوحيد أن تقضي على البقية الباقية من الجمرة الإيمانية في هذه الشعوب ، فهي لا تجد فرصةً ، ولا تجد مجالاً لأن تبرز في الميدان الحقيقي وتتحدَّى القوة الأجنبية المحاربة للإسلام ، كالصهيونية أو الصليبية الحاقدة ، أو أن تنهض للانتصار لقضيةٍ إسلاميةٍ من قضايا الشعوب الإسلامية المضطهدة .

ومن المؤسف أنَّ قادة البلاد الأجنبية يعرفون هذه الحقيقة وهذا الوضع أحسن ، وأكثر مما يعرف كثيرٌ من إخواننا الذين يعيشون هذا الواقع ، وعندهم تفاصيل دقيقةٌ ، ودراساتٌ عميقةٌ لواقع العالم الإسلامي اليوم . هم يعرفون أنَّ الجمرة الإيمانية التي كانت تخشى في الزمن القديم ، وهو الاستهانة بالحياة والحنين إلى الشهادة ، قد انطفأت في صدور المسلمين ، أو كادت تنطفىء ، وكان هؤلاء القادة الأجانب يعرفون أنَّ المسلمين يندفعون لهتاف الإيمان؟ ولا يفهمون إلا لغة القرآن والدِّين ، وإنَّهم لا يندفعون إلا لما فيه أجر الآخرة ، ولما فيه رضا الله تبارك وتعالى ، إنَّ عدداً من الأقطار الإسلامية كسبت المعركة مع العدو ، وتغلّبت عليه بفضل الهتاف بالشهادة في سبيل الله ، والهتاف بالجهاد في سبيل الله ، ولكن لما انتهى هذا الدور وخرجت من المعركة ، فأول ما تحاول وتصرف جهودها إليه هو القضاء على هذه الجمرة الإيمانيَّة ، إلى الآن لا تزال الصلة الأقوى التي تربط المسلمين بصدر القوة التي تأتي بالمعجزات ، هي الصلة بالله تبارك وتعالى ، وبرسوله ، ولا تزال روائح الجنة تفوح مهما حاول السياسيون ، ولكن لا تزال الجمرة الإيمانية كامنةً في الرماد ، ولكنَّ أكثر قادة البلاد عادوا ، لا يربطهم رباط بهذه اللغة الإيمانيَّة ، والحميَّة الإسلاميَّة . وقد ضعفت الصلة بينهم وبين مصادر الإيمان. إنَّه جيلٌ قد نشأ

في أحضان الحضارة الأوربية ، وكليات التربية العسكرية في عواصم أوربا وأساتذتهم ، ومربوهم يعرفون أنَّه قد أفلت الزمام من أيديهم ، وانقطع الخيط الذي كان يربطهم بالمجموعة الإسلامية ، وبالجماهير المسلمة. واستبدلوا به خيطاً سياسيّاً. والأوربيون يعرفون أنَّ هذا الخيط إذا نفع وأفاد في بلدٍ ، فإنه لا ينفع في بلدٍ إسلاميٍّ. منهم من درس القرآن ، ومنهم من درس تاريخ عصر الصحابة ، ومنهم من درس تاريخ صلاح الدين الأيوبي ، وتاريخ الغزوات الإسلامية ، وتاريخ الدعوة إلى الإسلام ، فهم يعرفون أنَّ الخيط الذي يربط قادة البلاد بالجماهير المسلمة ، ليس فيه قوةٌ أبداً إنه ينقطع سريعاً. إنَّ هذه الجماهير على ما أصابها من الوهن وعلى ما أصابها من أدواء وعللٍ ، وعلى ما أصابها من تدهورٍ ، لا تزال تندفع للهتاف الدينيِّ ، والإيمانيِّ في كلِّ مكان.

لقد أصبحت الأمَّة الإسلامية الآن هدف المآسي والمهازل في وقتٍ واحدٍ ، لماذا؟ لأننا هازلون ، وهزيلون. العالم الإسلامي أصبح هزيلاً وهازلاً ، لا جدَّ فيه ، تزور العالم الإسلاميَّ من أقصاه إلى أقصاه ، من الشرق إلى الغرب ، تجدون هناك بطراً وترفاً ، تجدون هناك فيضاً من ملاهي ، وملاعب ، هل هناك تناسب ، بين ما نعيشه ونمط الحياة الذي نحياه في هذه المدن الآمنة المطمئنة ، وبين ما يقع في الجزء الآخر في العالم الإسلاميِّ؟ هل إذا زار أحدٌ من الزوّار من الخارج ورأى هذه المدن ، هل يستطيع أن يفهم أن هذا جزء من الجسم الإسلامي الذي تقطَّع أجزاؤه في ناحيةٍ أخرى؟ هل هذه الأمة هي نفس الأمة؟ هذه الأمة التي تسبح في بحرٍ من البذخ هل هي الأمَّة التي أصبحت هدفاً في لبنان وفي أفغانستان ، هل هم كلهم أعضاء الأسرة ، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «مثل المسلمين في توادِّهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم كمثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمَّى»[(١)].

يقول الله تعالى:

---

(١) حديث متفق عليه.

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] هل نحن أمةٌ واحدةٌ؟ يقول بعض المستشرقين: انهزم الإسلام مراتٍ عديدةٍ سياسياً، وهزم روحياً، وحين انهزم سياسياً هزم الفاتح المسخَّر المدمِّر روحياً.

يجب أن تخمد هذه المعركة الدامية الحامية، هذه المعركة غير الطبيعية، هذه المعركة الصناعية التي استنزفت جهود القادة والسادة، وولاة الأمور، والمفكرين في بلادنا الإسلاميَّة، أن تخمد وتنتهي هذه المعركة غير الحقيقية؛ التي هي حامية بين الشعوب والجماهير والحكومة، فالحكومات تتجه اتجاهاً آخر، والشعوب تتجه الاتجاه القديم الإسلاميَّ إلى الآن، لا الحكومات نجحت في جرِّ هذه الشعوب والجماهير المسلمة، إلى الابتعاد عن جادَّة الإسلام، ولا الجماهير نجحت في إقناع هؤلاء الحكام والملوك في استخدام الطاقة الذَّريَّة الهائلة التي هي كامنةٌ في نفوس الجماهير المسلمة، وهي: قوة الإيمان التي هي أقوى من الطاقة الذَّرية، فإذاً من الحكمة، ومن المعقول والنصيحة، ومن التوجيه الرشيد السَّديد أن تنتهي هذه المعركة المصطنعة التي تحتدم، هذا الصراع النفسي، والصراع العملي الذي يحتدم بين من يملك الزمام، سواءٌ من يملك زمام التربية، أو زمام السِّياسة، أو زمام القيادة ـ والذين نشؤوا في أحضان الثقافة الأوربية، ومن الشعوب المسلمة الوادعة المخلصة، البريئة الصادقة، القوية، الوافية، الوفية، الزاكية الزكية، البقية النقية، أليس من الخير، أليس من المعقول أن تنصرف كلُّ الجهود، والطاقات إلى استخدام هذه القوة؛ التي لا يزال المسلمون يملكونها، قوة الإيمان، وقوة الفداء، والوفاء للإسلام، وبذل النفس والنفيس لله تبارك وتعالى.

ثمَّ لا بدَّ أن ينهض هؤلاء الربَّانيُّون الذين ذكرنا بعض النماذج من سيرتهم ومن دعوتهم للإسلام، في كتابنا «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» و«ربانية لا رهبانية» فإنَّ الربانيين الصادقين، الراسخين في العلم المتبعين للسنة، فيهم وحدهم قدرةٌ على تربية النفوس على الإيمان والإسلام،

والخلق المستقيم ، والتمرُّد على المادَّة وعلى الشهوات ، والتغلُّب على المغريات المعاصرة ، كان وما زال في العالم الإسلاميِّ هذا النمط من الربَّانيين ، ما خلا منهم عصر ، ولكن اجتمعت عدة أسباب ، وعدة أدوات لمحاربة هذه الربَّانية الصافية ، فأقول كما قال الحطيئة :

أقلُّوا عليهم لا أبا لأبيكم من اللوم أو سدُّوا المكان الذي سدُّوا

لنملأ فراغ الربَّانية المشرقة الصادقة المؤسسة على الكتاب والسنة ، وعلى الزهد في حطام الدنيا ، والانصراف إلى الآخرة ، والاشتغال بذكر الله تبارك وتعالى ، واستحضار الآخرة ، حتى نستطيع أن نجرَّ هذه المجموعة الكبيرة إلى برِّ السلام ، إلى حقيقة الإسلام ، وإلى ماضي هذه الأمَّة .

أمَّا بغير ذلك ، فإنَّ العالم الإسلاميَّ ، إنما أتحرج أن أقول ، ولكني أقول ، لأنه قد قال قبلي مفكر كبير وهو أكبر الكتاب في عصر أمير البيان الأمير شكيب أرسلان يقول : «كاد أن يكون العالم الإسلاميُّ بحراً كبحر العروض ، بحرٌ ولا ماء» بحر العروض لا ماء فيه ، أصبح العالم الإسلامي لا يحمل قوةً تُرهب ، ولا يحمل القوات التي هي تمنع عن هذه المآسي .

هذا هو واقع العالم الإسلاميِّ الذي نشاركه جميعاً ولو كنت منفرداً وفي عزلة عن هذا الواقع لما اجترأت أن أقول هذا ، ولكني أشارككم كأيِّ مسلمٍ وكعربيٍّ ليس أقلَّ من نصيبكم ، فيسوغ لي أن أتكلم بهذه الصراحة ، لأنِّي لا أشهد على أنفسكم ، ولا على هذه المنطقة ، ولا على البلاد العربية فحسب ، بل أشهد على نفسي ، وعلى إخواني ، وعلى من أزاملهم ، وأشاركهم ، وأتعاون معهم .

هذا واقع العالم الإسلاميِّ يجب أن يتغيَّر ، وفي صالح الإنسانية أن يتغيَّر ، وفي صالح مصير الإنسانية أن يتغيَّر ، وإرادة الله أن يتغيَّر هذا الواقع ، ويرجع العالم الإسلاميُّ إلى ما كان عليه في قرونٍ مشهودٍ لها بالخير ، في زمن عظمة الإسلام ومجده ، ولا خير ، ولا لذة في الحياة ما دام العالم الإسلاميُّ هذا ، لا لذَّة لملتذٍّ ، ولا عزَّة لمعتزٍ ، ولا قوة لقويٍّ ، إذا كان العالم الإسلامي بهذه الصفة .

هذه كلمتي وأنا أشعر بأنَّها قاسيةٌ ، ولكنَّها صريحةٌ ، وصادقةٌ إن شاء الله ، وأرجو من الله أن يكون لها صدى في نفوسنا ، ويكون لها مفعولٌ في نظام تفكيرنا ، والله الموفق والمعين.

* * *

دَور المرأة في بناء المجتمع الإسلامي

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في كلية البنات جامعة الإمارات العربية المتحدة في مدينة العين ، في ١٦/ من صفر ١٤٠٤هـ الموافق ٢٠/ من نوفمبر ١٩٨٣م ، يوم الأحد .

الحمد لله ، والصَّلاة والسَّلام على خاتم النبيين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ، أمَّا بعد:

فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥] ويقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

يسعدني أن أتحدث إلى نصف المجتمع الإسلامي في هذا البلد ، وإلى عماد الأسرة الإسلامية وعمودها الفقري ، إلى بنات المسلمين السيِّدات المسلمات ، فمثل هذه الفرصة يجب أن تُنتهز ويُستفاد منها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا انتهى من وعظ الرجال من الصحابة رضي الله تعالى عنهم انصرف إلى وعظ النساء السيدات ، وكن يشكين ، ويعاتبن ، إذا كان هناك إخلالٌ بحقهنَّ ، وكان الرسول ﷺ أجلَّ من ذلك ، وكنت أحسب نفسي مقصراً ومسيئاً إلى نفسي وإلى مهمتي لو لم تتمَّ لي هذه الفرصة ، فينبغي أن أشكر الذين يرجع إليهم الفضل في تنظيم هذا اللقاء الكريم.

أخواتي وبناتي العزيزات الكريمات الأصيلات في إسلاميَّتهنَّ ، وفي عروبتهنَّ ، وفي شرفهنَّ ومجدهن ، وفي غيرتهنَّ الإسلاميَّة ، والدينيَّة ، والعربية ، هوايتي في التاريخ ، وأكثر مؤلفاتي تدور حول موضوع تاريخيٍّ ، هنالك لغزة من ألغاز التاريخ ، وهي أنَّه كيف استطاع المسلمون العرب الذين خرجوا من جزيرتهم ، وواجهوا حضارتين راقيتين قد بلغتا القمَّة في الرُّقيِّ ، وفي تفنُّن المدنيَّة ، وفي الأناقة ، كيف استطاع هؤلاء العرب الذين كانوا لا يزالون بدائيين (ولا أقول صحراويين) في معيشتهم ، حتى ينقل المؤرخ العربي الأمين الذي يحكم على غيره وعلى نفسه بصدق وصراحة ـ وهذا ما يمتاز به التاريخ العربيُّ والإسلاميُّ ـ يقول: لما رأى

العرب الرقاق من الخبز حسبوها مناديل ، فأخذوها ، وصاروا يمسحون بها أياديهم ، فإذا هي أرغفة تتفتت ، ولما رأوا الكافور حسبوه ملحاً فاستعملوه في الطعام ، ثم عرفوا أنَّه الكافور ، هكذا كان المستوى ، وليس بعجيبٍ ، إنَّ أكثر من فتح العالم ، وأكثر من أنشأ حكوماتٍ راقيةٍ ، أو مدنياتٍ رفيعةً كانوا بدائيين في المعيشة ، وكان عندهم شيءٌ من التقشف في الحياة ، أما الأمم والشعوب التي أصبحت فريسة المدنية الزائفة المصطعنة ، فإنها تنهار بسرعةٍ ، أو بعد فترةٍ قصيرةٍ ، كان العرب بدائيين ، وكانوا محدودين ، وكان حياتهم في جزيرة العرب حياةً بسيطةً بدائيةً محدودةً ، وكان فيها التقشف ، والفروسية ، والجلادة ، والغيرة .

استطاع العرب بذلك أن يحافظوا على خصائصهم العربية التي تمكنوا بفضلها أن يدوِّخوا العالم ، وأن ينشئوا إمبراطورية من أوسع الإمبراطوريات التي قامت في العالم ، ولكن لما خرجوا من جزيرتهم امتُحنوا بمحنةٍ عظيمةٍ دقيقةٍ ، ما هي تلك المحنة؟ المحنة أنَّهم لم يتصلوا بالشعوب الراقية إلا عن طريق التجارة العابرة ، وعن طريق بعض الرحلات ، ولكنَّهم ما ذاقوا طعم المدنية ، وما جرَّبوها عمليّاً ، فلما خرجوا من جزيرتهم ، واجهوا حضارتين من أرقى الحضارات البشرية ، الحضارة الرومانية البيزنطية التي كان مركزها القسطنطينية ، والحضارة الإيرانية الفارسية التي عاصمتها المدائن ، وكانت هاتان الحضارتان قد بلغتا من المبالغة في الإسراف وفي البذخ ، حتى إنَّ كسرى إمبراطور إيران في أثناء لجوئه وتنقله بين البوادي والقرى ، لما لجأ إلى رجلٍ فلاحٍ فقير ، وكان قد اشتدَّ به العطش ، فطلب الماء ، فلما قُدِّم إليه الماء في كوبٍ من خشب؛ قال : والله لو متُّ عطشاً لما استطعت أن أشرب من هذا .

إلى هذا الحدِّ بلغت المدنية ، ومن طبيعة الإنسان أنَّه يخضع للشيء العالي السَّامي الكبير في حسابه ، هذا هو الذي سجَّله التاريخ ، وهو الذي تشهد به مشاهداتنا وتجاربنا . فالواحد حين يزور عاصمةً من عواصم أوربا والمدن الكبيرة في أمريكا يندهشُ ، ويبهر لبُّه ، ويسقط في يديه ، ويقف حائراً مشدوهاً أمام هذه المدنية ، وإن كان قد جرَّبها بعض الشيء في

محله ، من الذي لم يعرف منا المدنية الغربية ، وهو في ركنٍ من أركان هذه الجزيرة ، أو هو في قريةٍ بالقارة الهندية لا ، كلُّ واحدٍ يعرف ، يعرف بالقياس ، يعرف بالسماع ، ولكنه إذا زار عاصمةً غربيةً يقف حائراً مشدوهاً مغلوباً على أمره.

وهنا يتساءل الدارسُ للتاريخ ويقول: كيف استطاع العرب أن يتماسكوا ، وأن يحافظوا على شخصيتهم الإسلامية والعربية ، وعلى خصائص أمتهم ، وعلى إسلاميتهم؟ كيف استطاعوا أن يحافظوا على العقيدة الإسلامية؟ ثم زيادةً من ذلك: كيف استطاعوا أن يحافظوا على الآداب الإسلامية وعلى نمط الحياة الإسلامية ، هذه لغزة تطلب جواباً دقيقاً ، وليس جواباً سريعاً مرتجلاً. . لا ! إنها تحتاج إلى دراسة ، وإلى مقارنةٍ أمينةٍ من الشعوب وطبائعها ، وملابساتها ، وأجوائها ، وتجاربها. كيف استطاع البيت العربيُّ والإسلاميُّ أن يحافظ على الآداب ، والحياة الإسلامية ، وعلى الحجاب والحشمة ، ويحافظ على الصَّلوات وعلى بساطة المدنية؟ والجواب الدقيق الأمين والمنصف: أنَّ العرب المسلمين والفاتحين للعالم استطاعوا ذلك بفضل النصف الآخر من المجتمع الإسلاميِّ ، وهو السَّيدات المسلمات.

فلولا تماسك السيدات المسلمات ، الصالحات ، القانتات ، الحافظات ، لولا تعاونهنَّ مع الرجال ، لولا اقتناعهنَّ بفضل المدنية الإسلامية ، لولا تمسكهنَّ الشديد بالعقيدة الإسلامية ، لولا غيرتهنَّ على الإسلام وعلى أدب الإسلام لما استطاع العرب ذلك ، ولما كان في إمكان العرب هؤلاء الفاتحين المصابين بدهشة الفتح العقليِّ ، والفتح العقليُّ هو أشدُّ وطأةً ، وأعمق تأثيراً من الفتح السياسي.

وأنا أضرب لكم مثلاً: التتار أخضعوا العالم الإسلاميَّ في القرن السابع الهجري من أقصاه إلى أقصاه ، داسوه بأقدامهم وبسنابك خيلهم ، وأهانوا المسلمين إلى آخر درجةٍ ، حتى أصبح من الأمثال السائرة ، والقضايا المسلمة: «إذا قيل لك أن التتر انهزموا فلا تصدق» إلى هذا الحدِّ بلغت

الدَّهشة بسطوة التتار ، ولكن التتار قد خضعوا للإسلام والمسلمين عن طريق الحضارة الإسلامية ، إنهم هزموا المسلمين في الميدان السياسيِّ ، والحربيِّ ، ولكنَّهم انهزموا أمام الحضارة الإسلامية ، وللحضارة ما يكون من التأثير ما لا يكون للسيوف والمدمِّرات .

فكيف استطاع العرب أن يقفوا أمام هذا النفوذ الحضاريِّ وهذه البهرجة الحضاريَّة ، وهذا البريق الباهر للألباب ، والمعشي للعيون؟ كيف استطاعوا أن يقفوا أمامه غير مأخوذين ، غير مسحورين ، غير متأثرين؟

إنَّ التحليل العلميَّ التاريخيَّ يقول : إنَّ الفضل في ذلك يرجع إلى الأسر الإسلامية ، كانت الأسرة الإسلامية مدرسةً كاملةً تربي أبناء المسلمين ، وتنشئهم على العقيدة الإسلامية ، وعلى الخصائص الإسلاميَّة ، وكثيرٌ من كبار المجدِّدين ، ومن كبار المصلحين في الإسلام إنما هم غرس أمهاتهم ، فهذا سيدنا عبد القادر الجيلاني الذي أحدث انقلاباً روحياً ، والذي قامت له حكومةٌ ، ربما كانت أوسع من حكومة العباسيين ، هي الحكومة الرُّوحية الخلقية إنما كان من غرس أمِّه ، يقول : لما خرجت من جيلان قالت لي أمي : يا بني! أوصيك بوصيةٍ واحدة : لا تكذب ، فتمسَّك بهذا حتى قال للصوص الذين أغاروا على قافلته لما سأله أحدكم : هل معك شيء؟ قال : نعم ، عندي دنانير مخيطة في الثوب ، فأخرجها ، وتاب الرجل ، وردّت جماعة اللصوص كلَّ ما نهبوه من القافلة .

وهكذا أنا أعرف من تاريخ الهند أكثر مما أعرف من تاريخ الإسلام العام ، فنرى أنَّ كبار المصلحين ، والدعاة ، وكبار الحكام في الهند كانوا مدينين في تمسكهم ، ومدينين في إنسانيتهم الرقيقة لأمهاتهم ، ولو بدأت أحكي عن أمِّي رحمها الله ، وما كان لها من فضل في تربيتي ، وفي تنشئتي ؛ لكان الشيء الكثير ، ولكنَّني أستحي!

فأقول للأخوات المسلمات ، هنالك مدرسةٌ تربي الجيل الجديد ، وهي حجر الأم الرؤوم ، فإذا كانت هذه المدرسة قائمةً بدورها ، ورسالتها الحقيقية ؛ لما أشفقنا على جيلنا الإسلاميِّ الجديد في العالم ، وأنا أعرف

عن الزعيم محمد علي ، والذي كان من أقطاب حركة التحرير في الهند ، والذي كان يسيطر على قلوب المسلمين وعلى قلوب الهندوس وعلى قلوب الجماهير ، كان هو نتيجة لتربية أمِّه ، وقد حكى الشيء الكثير عن أساليب تربيتها ، وكيف أنشأت فيه الإيمان ، وهنالك أناشيد على لسان أمِّه تقول له : نفسك فداءٌ للإسلام ، هب نفسك لله ، وهكذا.

أريد أن أقول : إنَّنا أمام الواقع المكرر ، إنَّ الأمَّة العربية الإسلامية الآن تواجه الحضارة الغربية ، والحضارة الغربية من أقوى الحضارات التي عرفت في تاريخ البشر ، ولا شكَّ في ذلك ؛ لأنَّها اقترنت بفتوحٍ سياسيَّةٍ ، وبالفتح العقلي ، والفتح العلميِّ ، والتكنالوجيِّ ، ثم صادف ذلك ضعف المسلمين الذين كانوا هم أصحاب الرسالة الأخيرة ، وكانوا هم القادة للإنسانية.

نحن أمام واقعٍ أليمٍ ومريرٍ ، نحن لا نستطيع أن نواجه هذه الحضارة بشجاعة ، وأن نتخلَّص من مواضع الضعف فيها ، ونقتبس مواضع القوَّة فيها إلا إذا كانت الأسرة الإسلامية قائمةً بروحها ، ورسالتها ، وبخصائصها ، بل الطفل المسلم ، والشابُّ المسلم إنما ينشأان في هذه المدرسة ، ويتخرَّجان منها ـ إذا استخدمنا المصطلحات الجامعية ـ قبل أن يتخرجا في جامعة الإمارات أو الكويت مثلاً ، فيجب أن تبقى هذه المدرسة الداخلية مدرسة الأمِّ المسلمة على صفتها الأولى ، وأن تحافظ على قوَّتها ، وعلى روحها.

وهذه المسؤولية ملقاةٌ على عواتقكنَّ أيتها الشابات والبنات المسلمات العزيزات ، فأنتنَّ إذا أردتنَّ أن ينشأ الجيل الجديد مسلماً في أعماق قلبه ، ومسلماً في حضارته ، ومسلماً في آدابه ، وفي أخلاقه ، وفي سلوكه ، فالمسؤولية تقع عليهنَّ ، والله سبحانه وتعالى قد قرن الجزءين في المجتمع الإسلاميِّ بآيةٍ واحدةٍ في قوله : ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران : ١٩٥] وقال : ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل : ٩٧] وهنالك التاريخ الإسلامي وكتب التراجم حافلةٌ بذكر السيدات الفاضلات ، العاملات المربيات

المفكرات ، والمعلمات المحدثات ، المفسرات ، الأديبات ، لو بدأت أذكر أخبارهنَّ لضاق الوقت ، ولكنكنَّ ستدرسن إن شاء الله في كتب التراجم ، ومنكنَّ من تستطيع أن تنال الدكتوراه في ذكر السيدة الخنساء الشاعرة الإسلامية المؤمنة؛ التي جهزت بنيها للقتال والموت في سبيل الله ، فلما سمعت بشهادتهم؛ قالت: الحمد لله الذي أكرمني بشهادتهم. والسيدة خولة بنت الأزور المساهمة في غزوات الشام الأولى. وفي ذكر رابعة العدوية البصرية ، والسيدة الكريمة المروذية راوية صحيح البخاري[1] أو في ذكر بعض المسلمات الشهيرات.

والمقصود: إنَّ المجتمع الإسلاميَّ لا يمكن أن يمشي برجل واحدةٍ. فكلُّ ابن آدم يمشي برجليه ، فالمجتمع الإسلاميُّ مجتمعٌ حيٌّ نامٍ ، بشريٌّ إنسانيٌّ لا يستطيع أن يمشي برجلٍ واحدةٍ مهما كانت قويةً ونشيطةً. وإنَّ المجتمع الإسلاميَّ لا يمكن أن يتحرَّك فضلاً عن أن يمشي إلا برجلين سليمتين ، قويتين ، نشيطتين ، أمينتين. فلتكن هاتان الرجلان مثالاً للعضو البشريِّ السليم الوفيِّ.

قد خلق الله في النساء كلَّ صلاحيةٍ ، وكلَّ قدرةٍ للبلوغ إلى الكمال ، وفي التقدم في مضمار العلم ، وفي الرَّبانيَّة ، والرُّوحانية ، والتقرُّب إلى الله. فالأعلام في التاريخ الإسلامي اعترفوا بفضل بعض السيدات في عهدهم ، ويذكرون من فضائلهنَّ الشيء الكثير ، وكيف استفادوا ، وانتفعوا بكلماتهنَّ الحكيمة ، وسيرتهنَّ العطرة ، وهكذا بل يبقى هذا التيار مستمراً ، تيار الحياة الإسلامية ، والعشرة الإسلامية ، والمجتمع الإسلامي في هذا العصر ، كما استمرَّ وأدَّى رسالته ، وقام بواجبه في العصور الماضية ، ولذلك أنشئت هذه الجامعات وهذه الفروع ، والكليَّات للبنات ، وإلا في أوربا الشيء الكثير ، وفي إفريقية ، وفي آسيا ، وفي غير

---

(١) هي السيدة الكريمة المروذية (٣٦٥ ـ ٤٦٣ هـ) كانت تروي صحيح البخاري ، قال ابن الأثير : إليها علوُّ الإسناد للصحيحين ، يقال لها أمُّ الكرام وبنت الكرام (ملخصاً من الأعلام للزركلي).

بلاد المسلمين الكثير من الكليات النسوية ، والنساء يواكبن الرِّجال هنا في كل قسمٍ من أقسام العلوم ، ولكن إنَّما أنشئت هذه الكليات في عقر الديار الإسلاميَة ، وفي الجزيرة العربية ـ التي كانت مهبط الوحي ، ومطلع نور الإسلام لهذا الغرض ، لتشعر البنات المسلمات بواجبهنَّ ، وبرسالتهنَّ ، وبمسؤوليتهنَّ نحو الأسرة الإسلامية ، ونحو الحضارة الإسلاميَّة ، ونحو العصر الحاضر.

هذا ما فتح الله به عليَّ ووفقني ، ولا أريد أن أطيل عليكنَّ ، وأشكر المسؤولين عن الجامعة أنَّهم قد فتحوا هذا المجال للحديث في هذا الوقت الذي كان وقت الدراسة ، وهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنما يدلُّ على الروح العلمية ، وعلى تقدير إخوانهم الذين يجيئون من بلادٍ بعيدةٍ ، ولا يملكون شيئاً من النفوذ السياسي ، ولا النفوذ الاجتماعي ، إنما قيمتهم خدمة العلم والدين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

مستقبل الأمة العربية والإسلامية بعد حرب الخليج دروسٌ وعبرٌ ينتفع بها ، وفجواتٌ وثغراتٌ يجب أن تسدَّ

هذا البحث القيِّم ألقاه العلامة الندوي في مؤتمر القاهرة الّذي عقد مؤخراً في ١٠ ـ ١٢ شوال ١٤١١هـ حول «مستقبل الأمة العربية والإسلامية بعد حرب الخليج» وهو يشتمل على دروسٍ وعبرٍ تساعد على إعادة البناء واستئناف مسيرة الحياة والنشاط في الخليج .

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده!
حضرات السادة!

إنَّ هذا المؤتمر الذي موضوعه «مستقبل الأمة العربية والإسلامية بعد حرب الخليج» قد جاء في أوانه ومكانه.

أما الأوان فإنَّ هذه الحرب التي كانت نزوةً طائشةً، أو نوبةً عصبيةً حربيةً، كثرت أمثلتها، ونماذجها في تاريخ القيادات الفردية، والمطامح القيادية، والتهورات الهجومية، لا أكدِّر خاطركم، ولا أعكِّر صفو هذا المجلس الموقَّر الذي يضم نخبةً من كبار العلماء، وقادة الفكر، ورجال السياسة والإدارة في الأقطار العربية والإسلامية بالتصريح بأسماء المسؤولين عنها، وتعيين زمانهم ومكانهم، ولا يخلو ـ مع الأسف والاعتذار ـ عن هؤلاء المغامرين ـ وبالأصحِّ المقامرين ـ تاريخ الإسلام المشرق الطويل الذي كان يتوقع أن يخلو عن مثل هذه الأمثال والنماذج غير اللائقة برسالة الإسلام وتعاليمه وأهدافه الرفيع، ولكن الطبيعة البشرية تعمل عملها ـ إذا جردت عن تربيةٍ عميقةٍ قويةٍ، أوحسبة جماعيةٍ دينيَّةٍ، أو ضميرٍ مؤمن بخالق هذا الكون الذي هو «رب العالمين» و«أرحم الراحمين» وباليوم الآخر الذي يحاسب فيه كلَّ إنسانٍ ـ مهما سمت درجته، وتوسَّعت دائرة نفوذه وتصرفه ـ على أعماله وتصرفاته.

والآن وقد انقشع هذا الضباب، وانتهت هذه المرحلة التي لم تكن جديرةً بالبقاء وقتاً طويلاً، لا دينياً، ولا مبدئيّاً، ولا عقليّاً وواقعيّاً، وعاد الأمر إلى نصابه، والحقُّ إلى أصحابه، ولكنَّها ـ والأسف يملأ جوانحي، ويكاد يفتت كبدي كعاملٍ في مجال الدعوة الإسلامية وحركة «رسالة الإنسانية» لا سيما في منطقةٍ شديدة الحساسية، دقيقة الوضع، كشبه القارة الهندية التي كثرت وتكثر فيها الاضطرابات الطائفية، والمذابح البشرية ـ قد أساءت إلى سمعة الإسلام، العين الأكبر والأشهر الذي يدعو إلى احترام

الإنسانية ، وصيانة النفوس والكرامات ، ويؤمن بأنَّ الله هو ربُّ العالمين ، ونبيه ـ محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ـ هو رحمة للعالمين ، إساءةً لم يسبق لها مثيلٌ منذ أمدٍ بعيد ، أقول هذا بصفتي دارساً ومؤلفاً في التاريخ ، وعاملاً في مجال حركة «رسالة الإنسانية في الهند» التي حققت شيئاً كبيراً من النجاح ، وتمتعت باحترام كبار المثقفين وقادة الرأي في الأكثرية غيرالمسلمة واعترافهم ، وامتازت ندواتها التي عقدتها قيادة هذه الحركة مع التعاون مع عددٍ من كبار المثقفين والرجال من الهنادك بنجاحٍ باهر وإقبالٍ كبير من الشخصيات البارزة في مختلف الطبقات ، وقد أحرج موقف العراق الاعتدائي والهجومي الذي هو شبيه بالقرصنة ، واتَّسم بالتغاضي عن المشاركة في الدين ، والاعتداء الآثم على الأنفس والأعراض ، فضلاً عن الأملاك ، ونكران الجميل ، والهبوط إلى حضيض السفالة والمهانة ، فانتكست رؤوس المسلمين في شبه القارة الهندية ، وتندَّى جبينهم حياءً ، وكان يعتقل لسانهم في توجيه هذا الدعوة إلى إخوانهم المواطنين ، فإنَّهم إذا أشاروا إلى حرب الخليج وموقف القيادة العراقيَّة من الكويت ، البلد الإسلاميِّ السِّلمي ، والأكراد المسلمين الذين أنجبوا في فترةٍ من فترات التاريخ البطل النَّاصر لدين الله السلطان صلاح الدِّين الأيوبي ـ عليه رحمة الله ـ وقالوا: عليكم بالعناية بمركزكم الديني ، وشعبكم النموذجي ، وتوجيه دعوة احترام الإنسانية إليه أولاً ؛ لم يكن لنا جوابٌ.

أقول أيها السادة! إنَّ هذا الضباب وإن كان قد انقشع ، وأنَّ هذه المرحلة المشؤومة وإن كانت قد انتهت ، ولكنها تسترعي انتباه المفكرين والمعنيين بحاضر هذه الأمة ومستقبلها إلى حقائق قد تجلَّت في هذه الآونة ، وفي ضوء هذه الكارثة بوضوح لم تتجلَّ به في الماضي القريب ، ودلَّت بل وضعت أصبغ كلِّ مسلمٍ واعٍ معنيٍّ بشأن هذه الأمة منتفع بالتجارب على فجواتٍ ، بل ثغراتٍ (Gaps) في صفوف هذه الأمَّة ـ وأكبر خطورةٍ من ذلك ـ على ثغراتٍ في تفكير كثيرٍ من طبقات هذه الأمَّة بل في دهمائها ، وخاصة في شبابها ، والجيل الناشىء ، وفي الصحافة ، ووسائل الإعلام ، وكثير من المنظمات الإسلامية ، فلا بدَّ من استعراضها ـ خصوصاً في هذا

المؤتمر الموقر ـ بجراءةٍ خلقيةٍ ، وصراحةٍ بيانيةٍ ، واحتسابِ محايدٍ جريء للنفس والإخوان في الدِّين والوطن ، والله يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء : ١٣٥] .

وقبل أن أتحدَّث عن هذه الحقائق غير السَّارة ، والفجوات غير المشرِّفة في حياة الأمَّة الإسلامية المعاصرة ـ بما فيها الشعوب العربية المسلمة ـ ألقي بعض الأضواء على أن هذا المؤتمر الموقر كما جاء في أوانه ، قد جاء في مكانه ، فإنَّ الله قد قدَّر لمصر واختارها لتقوم بالدور القيادي الحاسم ، وعملية الإسعاف والإنقاذ للشرف الإسلامي والمقدسات الإسلامية في ساعةٍ عصيبةٍ دقيقةٍ حين : ﴿ بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴾ [القيامة : ٢٦ ـ ٢٧] وذلك مرَّتين على الأقلِّ ، وإلى السادة المؤتمرين إشارة إليهما :

المرحلة الأولى : حين هجمت أوربا النصرانية الصليبية بملوكها وقادتها العسكريين ومقاتليها المتحمِّسين ، في تصميمٍ لا يوجد له نظيرٌ في الماضي ، ولا في الحاضر ـ وكانت تستهدف الجزيرة العربية ، والحرمين الشريفين ، وبالاستيلاء ومحو أثر الإسلام منها ، وإهانة ما يفديه المسلمون بنفوسهم ودمائهم وكراماتهم ، وأكتفي في بيان هذا الهجوم وما نشأ عنه من الخطر على العالم العربي الإسلامي ، بشهادةٍ واحدةٍ لصاحب اختصاص في هذا الموضوع من المؤلفين الغربيين ، وهو ستينلي لين بول (Stanley Lane Poole) صاحب كتاب «صلاح الدين» يقول في كتابه :

«توغَّل الجيش الصليبي في البلاد كما يشقُّ أحدٌ خشباً منخوراً بالياً ، وخيل للناس ولو لبرهةٍ من الزمان أنَّ الصليبيين سوف يحطمون جذع دوحة الإسلام ويكسرونها تكسيراً.

هنالك قضى الله ـ وهو الرحيم الغلَّاب ـ بأن يكون شرف استعادة القس الشريف ، والقبلة الأولى التي دامت عليها سيطرة الصليبيين تسعين (٩٠) سنة للإسلام والمسلمين للسلطان صلاح الدين الأيوبي ، وذلك في رجب عام ٥٨٣هـ (١١٨٧م) .

وقد كان صلاح الدين قائد الملك العادل نور الدين الزنكي ، وحاكم

مصر من قبله ، فاقترن اسم مصر بهذا الفتح العظيم ، والمأثرة الكبرى ، ورجع الفضل في هذه المأثرة إلى قيادة مصر التي تركَّزت في شخصية صلاح الدين ولا بدَّ أنَّه استطاع ذلك ـ بحول الله ـ عن طريق الجيش المصري الباسل المسلم ، يقول لين بول :

«إنَّ سيطرة قائد نور الدين ـ سلطان الشام ـ (صلاح الدين) على النيل ،قد جعلت دولة القدس الصليبية بين شقي العصا ، فكانت تحت وطأةٍ شديدةٍ من ذلك ، ولم يكن الذي يضغطها من كلا الجانبين إلا جيش له من القوة ، وبفضل استيلائهم على مرفأ دمياط والإسكندرية ، أخذوا أسطولاً بحريّاً ، فقطعوا صلة الصليبيين المصريين بأوربا»[١] .

وقد كان السلطان صلاح الدين بنفسه يعترف بأنَّ لمصر نصيباً في هذه المأثرة ، فقال مرَّةً : «إن الله لما أعطاني مصر ، حسبت أنه قدَّر لي فلسطين أيضاً»[٢] .

والمرحلة الثانية : هي هجوم التتر الوحوش على العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري ، وكانت محنة هزَّت العالم الإسلاميَّ هزّاً عنيفاً ، وتركت المسلمين مشدوهين ، واستولى الرُّعب والخوف على العالم الإسلاميِّ من أقصاه ، إلى أقصاه وغلب على الناس اليأس والتشاؤم ، فكانوا يعتبرون التتار بلاءً سماوياً ومقاومتهم مستحيلة ، وانهزامهم فوق القياس ، حتى ساد المثل «إذا قيل لك إن التتار انهزموا ؛ فلا تصدق»[٣] .

وفي هذه المرحلة الدقيقة التي كادت تفوق أو فاقت حقيقة مرحلة الزَّحف الصليبي ، أحجم الملوك والحكومات والقيادات عن مقاومة التتار ، واعتبروا استيلاءهم قضاءً مبرماً ، وعقوبةً من الله ، هنالك قامت مصر مرَّةً ثانيةً بإحراز قصب السبق في مقاومة التتار ، واستطاع حاكمها آنذاك الملك المظفر سيف الدين قطز وجيشه المصري العربي المسلم ، أن

(١) السلطان صلاح الدين ص : ٨٩ .

(٢) أيضاً ص ١٨٦ .

(٣) ليرجع للتفصيل إلى الكامل لابن الأثير ج ١٢ .

يبطل هذا القياس والقضية المسلَّمة. يقول المؤرخون:

كان التتار متوجهين نحو مصر بعد الشام بحكم الطبيعة، وكانت مصر وحدها التي لم تصبها ويلات التتار، وقد كان ملك مصر الملك المظفر سيف الدين قطز قد تفرس أنَّ التتار يزحفون إلى مصر بعد الشام، وعند ذلك يصعب التخلص من وطأتهم، فرأى أن يخرج من مصر بالجنود ويشنَّ عليهم الهجوم في نفس الشام، حتى وقعت الحرب بين عساكر مصر الإسلامية والتتار في عين جالوت يوم ٢٥/ من رمضان سنة ٦٥٨هـ، وانهزم التتار شرَّ هزيمةٍ بخلاف ما سبق لهم من الحروب، فخرجوا منها هاربين، وتعاقبتهم الجنود المصرية، فقتلوهم وأسروا منهم عدداً كبيراً، يقول العلامة السيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء»:

«وهُزم التتار شرَّ هزيمة، وانتصر المسلمون ولله الحمد، وقُتل من التتار مقتلة عظيمةٌ، وولَّوا الأدبار، وطمع الناس فيهم يتخطفونهم وينهبونهم»[١].

وهزمهم الملك الظاهر بيبرس، بعد انهزامهم في عين جالوت مرَّاتٍ عديدةً، وأخرجهم من أرض الشام، وطردهم منها، حتى بطل المثل السائر: إذا قيل لك إنَّ التتر انهزموا؛ فلا تصدق.

وفي ضوء هذين المثالين الرائعين اللذين يحقُّ لمصر أن تفتخر بهما، وتحمد الله على توفيقه ونصره، واختياره لها للقيام بالواجب المقدس الخطير، يتحتم على مصر الإسلامية أن تقوم بأداء فريضة اليوم وتحقيق مطالبه، وأن تستخرج سهماً ـ بنَّاء إيجابياً قيادياً ـ من كنانتها، وقد سميت قديماً بكنانة الإسلام، وكنانة الإسلام لا تنفد سهامها، ولا تخطىء مراميها، والسهم المطلوب في هذه الساعة الدقيقة هو الانتباه للحقائق التي تجلَّت بعد الغزو العراقي للكويت وتصرفات الرئيس صدام حسين الطائشة الراعنة، وما كان لها من ردِّ الفعل في الشعوب العربية والإسلامية، وما

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٤٢٥.

كشفت عن فجوات وثغرات في تفكير الأمَّة ، ومنظماتها ، وصحافتها ، وإعلامها .

والآن آن لي أن أتحدَّث عن الحقائق والفجوات والثغرات التي كشفت عنها الأزمة الخليجية الأخيرة ، وأن أشير إلى طريق علاجها ، وملء هذه الفجوات والثغرات في صفوف الأمة ، وتفكيرها ، وصحافتها ، وإعلامها ، وبتعبير أوسع وأوضح : في حياة الأمة ، وتأمين هذه الأمة من عواقبها السيئة ونتائجها الوخيمة ، التي تحدَّث عنها القرآن ، والسنة ، وشهد بها التاريخ الإنساني العام ، وإلى المستمعين الكرام بعض النقاط الهامة :

أريد أن أتحدث إلى بعض فجواتٍ وثغراتٍ شديدة الخطر ، بعيدة الأثر في حاضر الأمة ومستقبلها ، وألفت نظر قادة الفكر والمتملكين لزمام التوجيه والتربية والصحافة والإعلام ، والعاملين في مجال الدعوة و«الصحوة الإسلامية» إلى معالجتها والعناية بها :

١ ـ التهيُّؤ الدائم والقوي للانخداع بهتافات ـ حماسية بصفةٍ خاصة ودعاوى ـ خلابة ووعودٍ برَّاقة ، من غير نظرٍ إلى عقيدة أصحابها ، واستعراض ماضيهم والأحزاب والمخططات السياسية والفكرية التي يرتبطون بها ارتباطاً وثيقاً خصوصاً إذا اقترنت هذه الهتافات ، أو الإعلانات بتحدٍّ أو تهديدٍ لطاقةٍ من الطاقات الكبيرة ، وتظاهر أصحابها بالجراءة والصُّمود ، أحدثت في الدهماء ـ خصوصاً الشباب ـ انفعالاً شديداً شبه اهتياج عاطفي لا سبيل إلى كبحه (Hysteria) لا يفيد فيه النقد الديني والعلمي ، واستعراض الواقع والحقائق ، الأمين المحايد ، وأنتجت ثورةً بمثابة زوبعةٍ في فنجان أو غلي كغلي المرجل ، وقد يؤدي ذلك إلى استهانةٍ بالدين ، وعقائده ، وشعائره ـ فضلاً عن إهانة ممثليها وأصحاب الاختصاص فيها ـ ولا أبلغ في وصف هذه الفئة وتصويرها من كلمة سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي اكتوى بهذه النار ، وواجه هذا الوضع أكثر من كثيرٍ من أئمة الإسلام وقادته؛ إذ قال في وصف أهل العراق «أتباع

كلِّ ناعق». فلا بدَّ من إيجاد الوعي الدينيِّ والمدنيِّ في الشعوب الإسلامية، حتى في الطبقات المتدينة المثقَّفة، وقوة التمييز بين الصَّالح والطالح، والدعوة إلى فهم القضايا المعاصرة، والحركات والتيارات العاملة النشيطة، والمنابع التي تستقي منها فكرها وعقيدتها، وتستمدُّ منها نشاطها وحماسها، وفي بعض الأحيان إمكانياتها المادية والسياسية.

ولا بدَّ من الدعوة إلى فهم القضايا المعاصرة، والحركات والتيارات العاملة النشيطة وموقفها في الإسلام وأثرها في الحياة، وخطرها على مستقبل هذا الدين، والجيل الإسلاميِّ، والاطلاع على أهداف القيادات التي تريد أن تسيطر على هذه البلاد والبيئات، وتتسلم زمام توجيه المجتمع وفق عقائدها وقيمها ومثلها، وسبك الحياة سبكاً جديداً، فإنَّ التغاضي عن هذه القوات والطاقات، والحركات، والقيادات، وانطواء الجماعات الإسلامية على نفسها، ومعتمدة على تمسكها بالدِّين والدعوة إليه، والاشتغال بالفرائض، والواجبات الدينية، وحياة الطُّهر، والعفاف، والعبادات، والطاعات، يحول بعد مدةٍ من الزمن بينها وبين حرية العمل بالدِّين، وتطبيق أحكام الشريعة، ويضيق الخناق حولها حتى ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ [التوبة: ١١٨].

وبقاء هذا التهيُّؤ للانخداع بالهتافات والدعاوى، والمظاهرات والتمثيلات خطرٌ كبيرٌ دائمٌ على هذه الأمة، وارتباطها بعقيدتها ورسالتها ودورها في توجيه الإنسانية والوصاية عليها، بل على بقائها على الشريعة السماوية، والدين الذي ختم به الأديان والرسالات، وكذلك يحبط مساعي المصلحين والمجددين المجاهدين، والشهداء المخلصين المتفانين من العصر الأول إلى هذا العصر، وفتح المجال في هذه الأمة وفي بلادها العريقة في الإسلام لقبول مبدأ المجتمع الغربي المسيحي:

«إن الدين قضيةٌ شخصيةٌ، وقضية بين الفرد والخالق، لا شأن له بالحياة، والتشريع، والسياسة».

٢ ـ ومن قبيل الإنصاف ، والتحليل النفسي لأصحاب هذا الاندفاع المتهوّر إلى الهتافات والمظاهرات المتحدِّية التمثيلية ـ وإن لم يكن ذلك مبرراً لوجود هذا الاندفاع إلى حدِّ التقديس ـ إنَّ من أسبابه عدم وجود قيادةٍ قويةٍ جريئةٍ إن لم أقل بطوليةٍ؛ قلت جهادية نضالية ، معتدة بعقيدتها ومركزها القيادي في العالم، مستغنية إلى حدٍّ ممكنٍ عن الاعتماد على الطاقات الغربية أو الشرقية الكبرى ، التي لا تزال تمثل دور إحباط الجهود الإسلامية والحركات الدينية القوية الواسعة الآفاق ، وحرمان هذه البلاد من شخصياتٍ قياديةٍ عملاقة يسيطر عليهم التفكير الدينيُّ ، وتطبيق التشريعة في بلادها ، والعمل لمجد الإسلام ، وإنهاض المسلمين ، بمؤامراتٍ داخليةٍ وخارجيةٍ أفقدت هذه البلاد خيرة قادتها وزعمائها في العصر القريب، والناس ما زالوا مفطورين على إجلال العزَّة وروح المخاطرة ـ والمغامرة أحياناً ـ لأنَّ الإجلال لشيءٍ لا يجده الإنسان عنده ، شيء طبيعي ، ولأنَّ تاريخ الإسلام مليءٌ بالبطولات والمغامرات ، وقد سئم أصحاب الضمائر الحيَّة، وضاقوا ذرعاً بسياسة الحكومات والقيادات الرَّخوة الضعيفة المستسلمة .

ومن الحقائق أنَّ عدداً كبيراً من المسلمين ـ خصوصاً الشباب ـ مطلعٌ على هذه المؤامرات ، ممتعضٌ من أصحابها ، حانقٌ عليهم .

فلا بدَّ إذاً من الاهتمام بوجود قيادةٍ قوَّيةٍ جريئةٍ مؤمنةٍ عاقلةٍ مكتفيةٍ بما أنعم الله به على بلادها من ثرواتٍ وطاقاتٍ ، معنيَّةٍ بالزيادة فيها ، وبالتكنالوجية ، والصناعات والقوى الحربية ، مستغنيةٍ عن هذه الطاقات الأجنبية ـ إلى حدٍّ ممكن ـ في الاعتماد والاستيراد ، تستطيع باعتمادها على القوَّة الإيمانيَّة ، وإخلاص شعوبها ، وتفانيها في سبيل العقيدة ، والدفاع عن الإسلام ، أن تحتجَّ ضدَّ عدوانٍ أو مؤامرةٍ ، ضدَّ مصلحةٍ إسلاميةٍ ، أو قيادة صالحةٍ ، أو محاولة نفوذٍ ، أو تدخلٍ في قضايا هذه البلاد .

٣ ـ العناية بوجود حركةٍ إيمانيةٍ دعويَّةٍ إيجابيةٍ قويَّةٍ في البلاد ، ومعرفة فضلها وقدرها حقَّ قدرها إن كانت موجودة ، بدلاً من التخوُّف منها ، ومحاولة القضاء عليها ، تقترن هذه الحركة بصفات الرُّجولة والطموح ،

وعلو الهمَّة ، وبعد النظرة ، والقدرة على مواجهة الطاقات الرئيسية القائدة التي تملَّكت زمام قيادة البشرية ، وأصبحت تتحكم في مصائر الشعوب والأقطار الإسلامية وغير الإسلامية ، من غير حقٍّ ومبرِّر .

ومن المعلوم الثابت أنَّ الشعوب الإسلامية ـ على علاتها وبعض مواضع الضعف فيها التي تحدثنا عن بعضها ـ لا تزال تمتاز بين شعوب العالم ـ بما فيها الشعوب الغربية والشرقية ـ بالإيمان بالله واليوم الآخر والاستهانة بالحياة واللذات في سبيل الله ، والحنين إلى الشهادة ، والشوق إلى الجنة ، ونيل رضا الله ، وتصديق ما وعد الله عليه من الأجر والثواب وبذل النفس والنفيس فيه ، إذا قُـدِّر لها الداعي المخلص القوي ، المثير فيها الحماس الإسلامي ، والمشعل لشعلة الإيمان ، كما شوهد حتى في الماضي القريب بفضل القادة المخلصين الربانيين[(١)]، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الميزة التي يمتاز بها المسلمون عن غيرهم من الشجعان والأبطال الماديين من الشعوب والديانات التي انقطعت صلتها عن الرسالة السماوية ، والمنابع الإيمانية بقوله : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ ﴾ [النساء : ١٠٤] .

وهذه ثروةٌ لم تعدلها ثروةٌ ، وطاقةٌ لا تساويها طاقة ، فمن الجناية علىٰ هذه البلاد والشعوب الإسلامية ـ بل على القيادات والحكومات التي تحكم هذه البلاد والشعوب ـ والإشفاق منها ، واعتبارها الخطر الأكبر لمستقبل هذه القيادات والحكومات ، والمنافس الخطير في مجال الحكم والإدارة ، إلى أن يؤدي ذلك إلى تجنيد الطاقات ، وتركيز القوى والوسائل ـ بما فيها الصحافة ووسائل الإعلام ، ونظام التربية ـ على القضاء عليها والتخلُّص من أثرها ونفوذها ، فيكون جهاداً في غير جهاد ، وحرباً على أعزِّ أبناء هذه الأمَّة والبلاد وأنفعهم عند الحاجة إذا جدَّ الجدُّ .

---

(١) كالإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد ، شهيد بالاكوت (١٢٤٦ هـ) وسيدي أحمد الشريف السنوسي في طرابلس (م ١٣٥١ هـ) والأمير عبد القادر الجزائري (١٣٠١ هـ) وغيرهم .

ومعلومٌ أنَّ هذه الشعوب الإسلامية تتميَّز كذلك بالإخلاص إذا وَجدت محلَّه وناداها أحد باسم الله ، وباسم الإسلام ، فتلبي النداء بحماسٍ وتفانٍ قلما يوجد نظيره في هذا الزمان ، فمن الجناية على نفس القيادات والحكومات والتعامي عن الحقائق وعدم الانتفاع بهذه الثروة والطاقة ، وبذل كلِّ طاقةٍ وذكاءٍ ووسائل في القضاء عليها ، والتخلص منها .

٤ ـ الإسلام هو قومية العالم العربيِّ ، ومحمَّد ﷺ هو روح العالم العربيِّ وإمامه وقائده ، والإيمان هو قوَّة العالم العربيِّ؛ التي حارب بها العالم البشري كلَّه ، فانتصر عليه ، وهو قوته وسلاحه اليوم كما كان بالأمس ، به يقهر أعداءه ، ويحفظ كيانه .

والعالم العربي ـ كما يقول شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ـ : «لا وجود ، ولا اعتبار له بالحدود والثغور ، إنما وجوده واعتباره بالانتماء إلى محمّدٍ العربيِّ ﷺ ، وهو الذي أبرزه إلى الوجود ككائنٍ متميِّز ، وحقيقة ثابتةٍ ، فلا بدَّ من تسليم هذه الحقيقة ، واحتضانها ، والتحمُّس لها ، بدل القوميات ، والوطنيات ، وهي الرابطة الوحيدة التي تربط الأقطار والشعوب العربية بالعالم الإسلامي وأقطاره الغربية والشرقية ، وتجعلها تحدب عليها ، وتتقرب إلى الله بحبِّها ، والدفاع عنها ، والاستماتة في سبيلها ، وهي الحقيقة الوحيدة التي تمنحها مكانةً مرموقةً ، وقيمةً مشرفة ، وحساباً خاصَّاً عند الشعوب ، والأقطار الغربية غير الإسلامية» .

٥ ـ الابتعاد ـ بحدِّ الإمكان ـ من حياة التَّرف والدَّعة ، والاعتداد الزائد بالكماليات وفضول الحياة ، والإسراف والتبذير ، أو الاستهانة بمال الله في سبيل اللذة والشهوة ، والفخر والزينة ، والابتعاد إلى حدٍّ ممكن من كلِّ ما لا يرضاه الله ورسوله من أعمالٍ وأخلاقٍ ، ويحول بينه وبين نصر الله وتأييده . وقد تماسك العرب الأولون ـ المسلمون ـ واحتفظوا بشخصيتهم الإسلامية العربية ، والبساطة والاقتصاد ، وحياة التقشف والفروسية ، مقابل الحضارتين الرومية والفارسية اللتين بلغتا الغاية في التأنق والتوسع ، والحياة المصطنعة ، وإن كان لا بد فيستعان بـ«تمدين» هذه المدنية ،

وإخضاعها للمبادىء والغايات التي أكرم الله بها هذه الأمَّة عن طريق الإسلام ، وإخضاع هذه الحضارة وما لابدَّ منه في مسايرة العصر للشخصية الإسلامية .

وقد دل التاريخ بوضوحٍ على أنَّ كلَّ أمَّةٍ ، أو جيلٍ أصيب بالترف والبطر ، والبذخ الزائد ، والتمرُّغ في النعيم ، وفشت فيها عادات جاهلية ، وظهرت منكرات خلقية؛ أصبح فريسة لهجوم وحشيٍّ ، وغزوٍ أجنبيٍّ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] .

كان ذلك شأن المجتمع الإسلامي ـ بصفةٍ عامَّة ـ في القرن السابع الهجري عند غارة التتر الوحشية التي كانت كإبادةٍ جماعية نسلية ودينية ، ونكتفي هنا بشهادةٍ لمؤرخ كبير(١) يصف المجتمع المسلم العائش في بغداد قبل الغزو التتاري ، وهي صورة لا تختلف عنها صورة العواصم الأخرى ، والمدن الإسلامية الرَّاقية في ذلك القرن .

«مرفَّهون بلينِ المهاد ، ساكنون على شطٍّ بغداد ، في ظلٍ ثخين ، وماءٍ معين ، وفاكهةٍ وشراب ، واجتماع أحباب وأصحاب ، ما كابدوا حرباً ، ولا دافعوا طعناً ، ولا ضرباً»(٢) .

وهي حكاية عن المجتمعات والشعوب الإسلامية والحكومات الواسعة الراقية في تاريخ المسلمين الطويل ، وقد لقيت نفس النتيجة ، على تفاوت في العنف والشدة ، والطول والسعة حسب قامات هذه المجتمعات والحكومات وقيمتها(٣) .

٦ ـ تأليف جمعية شعوبٍ وحكوماتٍ عربية إسلامية تحلُّ محلَّ جمعية الأمم المتَّحدة (United Nations) للإشراف على متطلبات الأقطار والحكومات الإسلامية ـ وفي مقدمتها وعلى رأسها الأقطار العربية الإسلامية ـ السياسية الدولية ، والدفاعية ، وتقوية معنوياتها وحريتها

(١) هو المفتي قطب الدين النهروالي المكي، في كتاب «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام».

(٢) الإعلام ص ١٨٠ .

(٣) راجع للتفصيل تاريخ الحكومة المغولية في الهند، والخوارزمية في تركستان وإيران.

وشرفها ، وتتولى الدفاع عن بلدٍ صغير يهاجمه بلدٌ كبير ، يستعان بها ويرجع إليها في ذلك ، بدل جميعة الأمم المتحدة ، أو طاقةٍ من الطاقات الكبرى ، وتملك من الحول والطول ونفاذ الكلمة والاحترام المتبادل ما يمكنها من رد الغارة والعدوان على بلد إسلاميٍّ ، وتحسب لها الطاقات الكبرى حساباً ، وترهبها القوى العدوانية ، والقيادات المثبتة الأنانية .

ويكون في مقدمة واجبات هذه الجمعية ، الدفاع عن الحرمين الشريفين والحجاز ، بصفةٍ خاصة ، والجزيرة العربية بصفةٍ عامة ، إذ هي معقل الإسلام ورأس مال الدعوة الإسلامية ، ويربط بها شرف المسلمين أينما كانوا ، ومتى كانوا ، يقول الله تعالى : ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة : ٩٧] فدلَّ ذلك على أنَّ نظام العالم مرتبط في باطن أمره ببيت الله الحرام ، كما أنَّ نظام العقائد والأعمال والأخلاق مرتبط بالدعوة التي أسس لها هذا البيت ، فيجب أن يكون المسلمون في كلِّ بقعةٍ من بقاع العالم أصحاب غيرةٍ شديدةٍ ، وحساسيةٍ زائدةٍ في شأن مركز الإسلام ، ومهبط الوحي ، ومطلع الصبح الصادق الجديد للإنسانية ، ويكون المسلمون من ضفاف النيل إلى أرض كاشغر ـ كما يقول الدكتور محمد إقبال ـ جيشاً حارساً للحرم ، ورجلاً واحداً في الدفاع عنه ، والاستماتة في سبيله .

وأخيراً لا آخراً كلمة لولاة الأمور ، والمسؤولين عن الأقطار والحكومات الإسلامية والعربية .

إنَّ أنفع شيءٍ وأجداه ، أيها السادة! في ضوء القرآن والسنة وتاريخ الدعوات ، والقيادات ، والتطورات ، والانقلابات ، هو الصدق مع الله والإنابة إليه ، وتغيير ما يمكن تغيير في حياة الفرد والمجتمع ، وتطبيق ما يمكن تطبيقه في حياتهما من الإصلاحات وإزالة المنكرات ، وما يبعد من رحمة الله ويحول دون نصرته ، من تناقضاتٍ ، أو تساهلاتٍ في الإطار الفردي ، والاجتماعي ، والإداري ، والسياسي ، والقرآن شاهدٌ على ذلك ، وفي السنة الصحيحة ، والأسوة النبوية ، وسيرة الخلفاء الراشدين ،

والملوك الصالحين ، نماذج من ذلك لا تحتاج إلى تفصيل وتعيين أسماء وحوادث ، وهو أكبر مؤثرٍ وجالبٍ لرحمة الله تعالى ولمصير الأمم والمجتمعات ، عند الأزمات ، لا يعادله شيء آخر من الأسباب العادية والطاقات العسكرية ، وحماية الحكومات الكبيرة ومؤازرتها .

* * *

المأساة الأخيرة في العالم العربيِّ

دراستها من الناحية الدِّينيَّة ، والخلقيَّة ، والمبدئيَّة ، والدعويَّة ، وتحليل أسبابها وانعكاساتها

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده.

وبعد: فقد كانت أعمال حركة «رسالة الإنسانية» بوسائل وإمكانياتٍ محدودةٍ، تجري بنشاطٍ، وتتوسع آفاقها إلى نهاية شهر يوليو ١٩٩٠م، وقد كان مؤتمر دلهي التاريخيِّ المنعقد في ١٧/ مارس ١٩٩٠م، واجتماع لكهنؤ الناجح الذي انعقد في ٢/ يوليو ١٩٩٠م خير مثال للقبول والشعبية التي كانت تنالها هذه الحركة، وتأثيرها على النفوس، ومما يدلُّ على هذه الشعبية المتصاعدة، الخطابات التي انهالت على مكتب الحركة، والطلبات التي تلقاها المسؤولون بعقد هذه الاجتماعات في المدن الهندية الأخرى، وكانت هذه الرسائل تشفُّ عن حرص المواطنين على تصعيد هذه الحركة وتعميمها، وعن رغبتهم الملحَّة في حضور مثل هذه الاجتماعات. وكان مما يبعث على التفاؤل الكبير أنَّ هذه الحركة بدأت تنال تأييد المثقفين وأصحاب الأذهان الخالية من العصبية الطائفية من السياسيِّين، وأصحاب الضمائر الحرَّة من المواطنين من غير المسلمين، وتسترعي استجابتهم لدعوتها استجابةً حارة، فأخذت هذه الدائرة تتوسَّع، ولمع بريق الأمل على أفق الهند بأن الضمير الوطنيَّ سينتصر نهائياً، وأنَّه يمكن معالجة هذا الوضع غير الطبيعي الذي يهدِّد سلامة البلاد في شكل الاضطرابات الطائفية، وسفك دماء الأبرياء، وأنَّ القوى الفعالة الواعية ستدرك الخطوة، وتتصدَّى لها، وتبذل مجهوداً مركَّزاً موحَّداً لتغيير هذا الوضع.

بجانب هذه التطلُّعات برز هناك عامل استبشارٍ آخر لا يقلُّ عن انتصار بالنسبة للملَّة الإسلامية في الهند، حالها ومستقبلها، وهو: أنَّ المسلمين في هذه البلاد بدؤوا مرَّةً أخرى يشعرون بضرورة العودة إلى تمثيلِ دورهم كدعاة الحقِّ، وحماة الإنسانية، ومعلمي الأخلاق، وبدؤوا يفكِّرون من هذه الزاوية، فكان هذا الشعور معقد الأمل بأنَّ المسلمين سيستعيدون في هذه البلاد مرَّةً أخرى دورهم القياديَّ بجدارةٍ، واستحقاقٍ، وأنَّهم

سيكسبون ثقة المواطنين كمجدفين لسفينة البلاد ، وكمنقذين لها من الشَّقاء والدَّمار ، ويعتقد الناس أن جبهة خدمة الإنسان والإخلاص في حبِّ الوطن كانت قد أصبحت مكشوفة غير محروسة منذ زمن بعيد ، وأنَّ المسلمين الذين يؤمنون بأنَّ الله «ربُّ العالمين» وأنَّ محمداً رسول الله «رحمةٌ للعالمين» هم أجدر وأحقُّ بأن يتولوا هذه الزعامة ، وكان يتوقع أن هذه الحركة الإنسانية ، والمجهود الإنساني سيؤدي إلى إزالة سوء التفاهم وعدم الثقة والكراهية بين المسلمين وغيرهم من الطبقات ، ويكشف زيف الدعايات والأباطيل الشائعة عنهم ، والتي ألقىٰ ظلالها الكثيفة التاريخ المزوَّر ، والمصالح السياسية ، وبالتالي تنجو البلاد من الخطر المحدق عليها نابعاً من الاضطرابات الطائفية ، وإراقة الدماء ، والأعمال ، والأفعال التي تثير غضب الله وسخطه ، وتجلب عقابه .

كذلك كان مما يبشر بخيرٍ ، ويبعث على التفاؤل الكثير : أنَّ العالم العربيَّ الذي كان الداعي الأول إلى الإسلام ، والذي يشمل المقامات المقدسة المباركة ، وهو الحارس الأمين لها ، وهو المختبر الأول لاحترام الإنسانية ، والعدل ، والمساواة ، وهو مهد الدعوة إلى الأمن والسَّلام ، يعيش منذ مدة بأمنٍ وسلامٍ وثقةٍ متبادلة ، ورفاهيةٍ ورخاءٍ ، واحترامٍ للإنسانية ، وهو في موقفٍ لتوجيه الدعوة إلى العدل والإنصاف ، واحترامٍ الإنسان ، والتعايش السلمي إلى العالم الخارجي ، وأن يقدِّم له من واقع الحياة ما فيه نموذج وقدوة ، وهو يحمل كفاءةً لأن يحتل المنصَّة العالمية لتوجيه هذه الدعوة ، ويتولى مرَّةً أخرى منصب الإمامة ، والقيادة الإنسانية .

كان هذا هو الوضع السائد إلى آخر يوليو ١٩٩٠م ، فكانت الآمال معقودةً ، وكان العاملون في مجال الدعوة والإرشاد متفائلين ، رافعي الرأس ، وكان في عيونهم بريق الأمل ، فإذا بالعالم يهتز في ٢/ أغسطس ١٩٩٠م بحادثةٍ مروعةٍ لم نكست رؤوس الدعاة إلى العدل والاحترام الإنساني فحسب ، بل نكست رأس الملَّة الإسلامية بكاملها «داخل الهند وخارجها» وغضَّت بصرها ، وتندَّى لها جبينها ، وإني كدارسٍ متواضع للتاريخ الإسلامي ومؤلفٍ فيه ، لا أذكر أن المسلمين من حيث الملة أصيبوا

بمثل هذه الصدمة العنيفة التي أدَّت إلى خجلٍ وذلَّةٍ ، ومهانةٍ منذ قرون عديدةٍ ، وتزيد هذه المأساة شدَّةً ووطأةً: أنها وقعت في منطقةٍ عربية مجاورةٍ للمنطقة التي كان منها الإشعاع الأول لاحترام الإنسان ، والعدل ، والإحسان ، وجزاء الإحسان بالإحسان والكرامة ، ونجدة المظلوم والضعيف ، وتطور هذا الإشعاع إلى حركة عالميةٍ ودعوةٍ طبقت الآفاق ، أعني بذلك الغزو العراقيُّ المفاجىء للكويت ، الذي أذاعته محطاتُ العالم ، ووسائل الإعلام العالمية كصاعقةٍ.

إنَّ خطورة هذا الحادث المؤلم ، وضخامته ، وتأثيره السيىء على الضمير الإسلاميِّ والإنسانيِّ ، ترجع إلى أسباب عديدةٍ منها :

١ ـ إنَّ غزو بلدٍ عظيم كالعراق لبلدٍ صغير كالكويت بعد أن حقَّق ذلك البلد انتصاراً على بلدٍ عظيم واسع الأطراف كإيران ، يقدِّم مثالاً سيِّئاً لا يتطابق مع التعاليم الإسلامية الخلقية ، والتقاليد الإسلامية فحسب ، بل إنه يتنافى مع الضمير الإنسانيِّ ، ومبادىء الأخلاق العامَّة ، ويعتبر إجراءً مذموماً ، ومرادفاً للقرصنة ، ومما يزيد خطورةً أنَّ كلا البلدين المعتدي منهما والمعتدى عليه ، بلدٌ مسلمٌ وعربيٌّ ، ثم إنَّه اعتداءٌ لبلدٍ على بلدٍ كانت له منةٌ وفضلٌ عليه في العهد القريب في وقت المحنة والبلاء ، وكان قد أجزل العطاء عليه ، ولم تكن له جريمةٌ يستحقُّ بها هذا العقاب.

٢ ـ تعاقبت بعد غزو العراق للكويت واستيلائه عليها الأعمال والتصرُّفات الشنيعة والمخزية التي لا يوجد لها نظير إلا في تاريخ الغزاة والفاتحين الجبابرة المستبدين في تاريخ الحروب ، والفتوح المماثلة ، وقد أشار القرآن الكريم إليها بلسان ملكة سبأ ، فأصبحت خالدةً إلى يوم القيامة :

﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النَّمل : ٣٤].

٣ ـ ثم إنَّ القائد العراقي الرئيس صدام حسين قام بنسخ كلِّ ما سجَّله من بطولاتٍ وانتصارات ، وتضحياتٍ خلال حربه مع إيران ، على شروط من طرفٍ واحدٍ ، وطرح بذلك جانب الحائط ما خاضه من معارك ضارية معها

لرفض هذه الشروط ، وما ضحّى به شعبه من نفوس غالية تبلغ مئات الألوف ، وما تسبب منها من خسائر جسيمة ، وكان ذلك بمثابة إساءةٍ إلى تلك الأرواح الغالية ، وذهبت دماء خيرة الشباب ومعاناتهم سدىً ، واستحقَّ أن يسأل : بأي ذنب قتلت[1] .

إننا كنا نقرأ هذه الآية الكريمة :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٣٣] فكنا نعتقد ـ وتلك حقيقة ـ : أن الله تبارك وتعالى وصف في هذه الآية عاقبة الأعمال في الآخرة ، وإنه ذكر مصير بعض النفوس التي لم تصدر منها الأعمال الصالحة لنيل رضا الله ، وإنما كانت لغرضٍ من أغراض الدنيا ، فحبطت أعمالها ، وبهذه التجربة مع الرئيس العراقي في صدر التضحيات التي بذلت في الحرب مع إيران ، علمنا مصداقية هذه الآية على الحياة الدنيا كذلك ، وإنَّ صاحب العمل نفسه يعامل أحياناً بالنسبة لأعماله هذه المعاملة ، ويلجأ إلى موقف مضادٍّ ، أو معكوسٍ تحبط به أعماله الجليلة ، فتصبح منجزاته هباء منثوراً .

٤ ـ كان الرئيس صدَّام يُعقد به الأمل في بعض الأوساط المتفائلة لعل الله تبارك وتعالى يوفقه ليمثِّل دوراً قيادياً يعيد إلى المسلمين والعرب عزَّتهم وكرامتهم ، وإنه يجمع قدراته ، وكفاءاته ، ويقوم بتعبئة ما تتوفر لديه من إمكانات ليشكل جبهةً ضدَّ إسرائيل ، أو يوفقه الله تعالى للاجتهاد من أجل توحيد الصفوف وترصيفها لمواجهة إسرائيل ، فيتمُّ على يديه تحرير واسترداد القدس .

ولكن خابت هذه الآمال والتطلُّعات ، ولم تلبث هذه الأمانيُّ إلا قد انقلب هذا البطل المغوار على إخوته وأشقائه ، وفتح جبهةً جديدة داخل البلاد فزحزح كل ما يعقد به المسلمون من أملٍ وثقةٍ ، بل بتعبيرٍ أصحَّ : حطَّم جميع هذه الآمال المعقودة به ، وخابت به الظنون .

---

(١) وقد تساءل وزير خارجية بريطانية : ماذا كانت جريمة هؤلاء القتلى الذين قتلوا في الحرب ، أليس ذلك ظلماً وإساءة إليهم؟ !

٥ ـ إنَّ غزو العراق للكويت ، وعدم إصغائه إلى نداء القادة العرب المسلمين ، وعدم إنصاته لنصيحتهم ، وتماديه في موقفه ، وتغاضيه عن جميع الأطر التي تترتب من مثل هذا الموقف الطائش ، قد أثارت شبهاتٍ ومخاوف بألا يسوقه طمعه أو طموحه ـ لا قدَّر الله ـ إلى التعرُّض للجزيرة العربية وعلى أخصها المملكة العربية السعودية التي تتولَّى خدمة الحرمين الشريفين ، وحفظها وصيانتها ، والاحتفاظ بقداستها ، والتي أنجزت تلك الخدمة التار يخية التي لا يوجد لها نظير في تاريخ القرون الماضية في تأمين الأمن والسَّلاَمة للأماكن المقدسة ، ورعاية ضيوف الرحمن ، وحسن وفادتهم ، وتوفير وسائل الراحة والأمان ، وخاصة توفير مياه الشرب ، والمواصلات ، فلا يطمع في المساس بها ، فتقع هذه المنطقة المحروسة عرضةً لمطامعه وهوسه للقيادة والحكم ، الذي لا يستبعد من أيِّ قائدٍ كان في نشوة الانتصار العسكري ، أو كانت وراءه قوة عسكرية قاهرة ، وقد أشار شاعر الإسلام العلامة محمد إقبال في شعرٍ له إلى هذه الحقيقة التي يصدقها غزو العراق للكويت ، يقول :

«هذه رسالة التاريخ الخالدة : إن نشوة القوة تنذر بخطرٍ جسيم» .

كانت هذه المخاوف والشبهات التي لا تعتبر من المستحيل في تاريخ القوى الطامحة ، هي التي حملت حكومة المملكة العربية السعودية على الاستعانة بالولايات المتحدة وبريطانيا لتهيئة الوقاية العسكرية ، وكم تمنى المسلمون في العالم ، وخاصة المسلمين في القارة الهندية (الذين تجرَّعوا مرارة السلطة الأوربية) لو كانت إحدى الدول الإسلامية قادرةً على الدفاع بنفسها عن جزيرة العرب ، والحرمين الشريفين بمساعدة المملكة العربية السعودية عسكرياً في هذه الفرصة الغالية ، وتعتبر الدفاع عن هذا الأماكن المقدسة ، أكثر شرفاً وسعادة واعتزازاً من الدفاع عن بلدها ، وتعدُّه وسيلةً للقربىٰ عند الله ونيل رضاه .

٦ ـ ولو قيل في تبرير غزو العراق للكويت ، وطمعه في البلد العربي الآخر : إنَّ هذه البلدان العربية ، والإمارات الخليجية كانت تستدعي مثل

هذه الإجراءات التأديبية منذ زمانٍ ، وإنه كانت نتيجة لحياة الترف والبذخ فيها ، وإن القرآن الكريم قد أشار إلى نتائجها السيئة ، وأنذر منها ، فإني أقول باعتذار ، وأرى نفسي مضطراً إليه: إنه لم يتجرأ أحدٌ في الشطر الأخير من القرن الميلادي الجاري (١٩٤٠م ـ ١٩٩٠م) ليس في بلاد العجم بل في العالم العربي كله في نقد الأحوال السائدة في هذه المناطق كما وفق الله تعالى لذلك هذا العبد الضعيف ، وقد صرح ذلك في كتاباته وكلماته التي ألقاها في مناسباتٍ عديدةٍ ، ويرى ذلك من واجبه الديني[١].

أقول: إنَّ علاج هذه الأوضاع لم يكن طريقه الصحيح أن يغزو بلدٌ كبيرٌ بلداً صغيراً غزواً مباغتاً ، ويستولي عليه بلا هدفٍ معينٍ للدعوة والإصلاح وتصحيح الأمور ، وإنما كان علاجها الدعوى الإسلامية والحركة الهادفة للإصلاح ، والمجهود المخلص ، والجدِّيِّ لإحياء الدين ، والجهد لإنشاء نظام إسلاميٍّ صحيحٍ في البلاد ، ومنهجٍ إسلاميٍّ للحياة ، وإنشاء نظامٍ صالحٍ للتعليم والتربية ـ يقوم بصياغة ذهن الشباب والنشء الجديد ـ وإيجاد مجتمعٍ إسلاميٍّ مثاليٍّ ، وبيئةٍ إسلاميةٍ صالحة. تجذب القلوب ، وتؤلف النفوس ، وتكون قدوةً للآخرين ، ومثالاً لهم يقتدى به.

ولكن مع الأسف الشديد أنَّ البلد الغازي؛ العراق ـ كما تدلُّ عليه معلوماتي ودراستي ـ لا يتَّصف بأيِّ وصفٍ من هذه الأوصاف ، أو أيِّ سمةٍ من هذه السِّمات ، فلا مبرر له شرعياً ، ولا خلقياً لاقتحام مثل هذه المجازفة ، لقد أقلق هذا الحادث ذهني وفكري ، وأقضَّ مضجعي إلى حدٍّ لا أذكر أنِّي تأثرت مثله قبل حدوث هذه الفاجعة في حياتي؛ لأني ـ ذلك فضل الله وتقدير العزيز العليم ـ منذ أن تطورت في القدرة على الكتابة ، والخطاب والدراسة ، كرست ما كنت أملكه في قدرةٍ محدودةٍ للتعبير ، وما

---

(١) لتصديق هذا البيان يراجع كتب ورسائل العلامة الندوي: «العرب والإسلام»، «إلى الإسلام من جديد»، «المسلمون وقضية فلسطين»، «كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب؟»، «اسمعوها مني صريحةً أيها العرب» «اسمعي يا مصر»، «اسمعي يا سورية»، «اسمعي يا زهرة الصحراء (الكويت)» والكلمة الأخيرة التي ألقاها في جدة: «حاجة العالم إلى مجتمع إسلاميٍّ مثاليٍّ أفضل».

توفَّر لي من وقت ، على قضايا العالم العربي ، وكانت الأمة العربية والدول العربية مجال عملي وشغلي الشاغل وموضوع دراستي ، وخطابي ، وكانت معظم مؤلفاتي ، وكتاباتي باللغة العربية أصالةً ، ثم نقلت هذه المؤلفات إلى اللغات الأخرى ، وأستعير هنا ما قاله شاعر الإسلام محمد إقبال تحديثاً بالنعمة ، وتعبيراً عن حقيقة الحال : «إن كان مزماري عجمياً ، فإن ألحانه عربيةً ، ونغمي عربيٌّ» .

ولصلتي بهذه المنطقة قلبياً وفكرياً ، كان من الطبيعي تألمي بهذه الحادثة المفجعة ، وما يترتب عنها من أخطار ، وتهديدات للدول العربية المجاورة ، وخاصة أرض الجزيرة العربية المحبوبة إلى النفس ، والأماكن المقدسة ، والحرمان الشريفان ، فقد عشت فيها قلبياً وذهنياً في الحقيقة والأحلام .

إنَّ ما يتعلق بالجزيرة العربية ، والحجاز المقدس ، والحرمين الشريفين ـ زادهما الله شرفاً وحرمةً ـ وما يتعلق بمستقبلها ، وحرمتها ، وكرامتها ، وقداستها ، ووقايتها من المكروه بطرقٍ غيبيةٍ حقيقةٌ من حقائق التاريخ ، فإنَّها مهبط الوحي ، ومطلع الدين الأخير الخالد ، والملجأ الأخير له ، ويشهد القرآن ، ويشهد التاريخ أنَّها بقيت مصونةً ومأمونةً منذ حادثة الفيل وغزو جيش أبرهة ، وحتى بعد زوال الخلافة العثمانية التي كان سلطانها وخليفتها يعد ذلك من شرفه وسعادته أن يصف نفسه بخادم الحرمين الشريفين ، وبعد استيلاء الدول الأوربية الاستعمارية لمعظم البلدان العربية والإسلامية بقيت على كرامتها وحرمتها ، وظلَّت هذه الأماكن في عيون المسلمين أغلى وأثمن وأكرم من أوطانهم ، ولا يزال يرنُّ في أذني ما قاله العلامة محمد إقبال :

«فليتَّحد المسلمون في العالم لحماية الحرم من ساحل النيل إلى سفوح كاشغر» .

إني واثق برحمة الله تعالى التي أحاطت دائماً بهذا الدين الأخير ، والدين المقبول عند الله ، وهو الإسلام ، ويشهد به التاريخ . إنَّ هذه السحب

المتراكمة ستنقشع ، وستزول المخاوف ، والشبهات ، وسيطلع من خلال هذه السُّحب الكثيفة ، والظلام الحالك ضوءٌ جديدٌ ، ينير الطريق ، ويبعث على الطمأنينة ، والسكينة ، ويعيد الشَّرف والعزَّة والكرامة ، والدعوة إلى الحقِّ وإنقاذ الإنسانية ، وسيقول ممثل هذه الإنسانية التائهة البائسة للدعاة الأولين إلى الإسلام والحاملين للقرآن ، وحراس الحرم :

لقد دمَّرت القوى الطاغية الإفرنجية هذا العالم ، فانهض يا عامر الحرم وابدأ بتعمير عالمٍ جديدٍ .

ولكن هذا الهدف لا يتحقَّق ، وهذا الحلم لا يتحوَّل إلى حقيقةٍ إلا بإحداث انقلابٍ في الحياة ، والسيرة ، والسُّلوك ، والأخلاق ، ليس في العالم العربي وحده ، بل في سائر أنحاء العالم الإسلامي ، وفي المجتمعات الإسلامية . إنَّه يتحقق بصياغة الحياة صياغةً إسلاميةً ، وسبكها في بوتقة التعاليم الإسلامية السمحة . إنَّه يطلب إعادة الإيمان بصدق الإسلام ، وكونه منهجاً أبديَّاً للحياة والدعوة إليه ، واتِّباعه في الحياة ، وإيجاد حماسٍ وعاطفةٍ له في القلوب . إنَّه يحتاج إلى اتِّباع حياة وَعَد الله تعالى النصر عليها ، والرحمة ، والفضل ، وتجنب ما يسخط الله من أعمالٍ ، وعادات ، وسلوك ، وصدق الله العظيم :

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] .

* * *

هاتي صلاح الدين ثانيةً فينا

هذه الكلمة ارتجلها العلامة الندوي في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامية نيابةً عن أعضاء المجلس بمناسبة حضور السيد ياسر عرفات زعيم حركة فتح لتحرير فلسطين ، يبدي فيها مشاعر المسلمين إزاء قضية فلسطين ، وخاصةً مسلمي الهند الّذين يتابعون دائماً القضايا الإسلامية حيثما كانت وأينما كانت ، ويستعدُّون لأيِّ تضحيةٍ في ذلك السبيل ، أكَّد فيها العلامة على جعل القضية قضيةً إسلاميَّة ، واتِّباع المنهج الإسلاميِّ لحلها.

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فلي الشرف العظيم أن أتكلَّم باسم هذا المجلس الموقر في مثل هذا الموقف الدقيق الحساس باسم المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها ، وباسم مئات الملايين في شبه القارة الهندية ، وهذا إن دلَّ على شيءٍ ، فإنَّما يدلُّ على عالمية القضية الفلسطينية ، وإنسانيتها ، وإسلاميَّتها ، إنني في هذه الساعة المتأخرة من الليل لا أريد أن أطيل ، وأن أشقَّ عليكم ، إنما أقتصر على دعاءٍ في هذه الساعة المباركة الميمونة ، وفي رحاب البيت ، أقتصر على دعاءٍ واحدٍ ، وأرجو الله أن يتقبل هذا الدعاء في هذه السَّاعة المباركة في ليلة الجمعة المباركة ، وهو أن يقيِّض الله لفلسطين ، بل للمسلمين جميعاً ، بل للإسلام صلاح الدين الأيوبي الثاني ، وإذا كانت حكمة الله تبارك وتعالى اقتضت أن تختار من بين الأكراد كرديَّاً يتوارى نسبه بعد ثلاث أو أربع وسائط في ظلمات الجاهلية ، وقد أسلم آباؤه قريباً ، فلم يكن عريقاً في الإسلام ، فكيف لا تقتضي حكمة الله ورحمته أن تختار عربياً ، ينحدر من أصولٍ عربيةٍ إسلاميةٍ عريقةٍ في القدم. كيف لا تقتضي حكمة الله أن تختار من بين العرب ومن بين المسلمين صلاح الدين الأيوبي الثاني. إنَّني أخاطب الأمَّة العربية بلسان خير الدين الزركلي الشاعر العربي ، إنَّ الحلَّ الوحيد لقضية فلسطين أن يبرز صلاح الدين على مسرح القضية الفلسطينية ، وعلى مسرح الجهاد الإسلامي مرَّةً ثانية ، يقول الزركلي :

هاتي صلاح الدين ثانيةً فينا وجددي حطين أو شبه حطِّينا

هاتي صلاح الدين ـ أيتها الأمة العربية المسلمة ـ ثانيةً فينا ، وجدِّدي حطين أو شبه حطينا .

ماذا كان سرّ انتصار صلاح الدين الأيوبي الانتصار الباهر الذي حيَّر

العالم ، وغيَّر مجرى التاريخ؟ إنما السِّرُّ أنَّه كان مسلماً مؤمناً محمدياً لا يعرف غير لغة القرآن ، ولا يعرف غير لغة الإيمان ، ولا يعرف غير لغة الحنان ، والمسلمون ما زالوا ولا يزالون: اكتبوا عني أيُّها الكتاب بقلمٍ عريض! وسجِّلوه أيُّها المستمعون الكرام ، إنَّ المسلمين إلى هذا الوقت وإن كانت الماديَّة الرعناء ، والتربية العصرية قد فعلتا فعلتهما فهم لا يفهمون غير لغة القرآن. إنَّ المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، مهما تعددت لغاتهم ، ومهما فاق ذكاؤهم ، ومهما فاقت ألمعيتهم ، وعبقريتهم إلى الآن لا يفهمون إلا لغة محمَّد عليه الصلاة والسلام الذي آمنوا به كنبيٍّ خالدٍ ، وكرافع علم الجهاد المقدس ، إنهم لا يفهمون غير لغة القرآن مهما أقحمت عليهم اللغات ، ومهما فرضت عليهم الثقافات ، ومهما تنوَّعت في بلادهم الحضارات ، إنَّهم لا يفهمون ، ولن يفهموا ، وإلى أن يرث الله هذه الأرض ومن عليها لا يفهمون إلا لغة القرآن ، خاطبوا المسلمين بلغة القرآن أيها الإخوان لا بلغة السياسة! أثيروا فيهم الحنان ، والإيمان ، بكلمة الجهاد ، بكلمة الحنين إلى الشهادة ، إنَّهم لا يزالون يحسنون فهم هذه اللغة ، إنما كان سرُّ سيطرة صلاح الدين على القلوب والأرواح في أنَّه فهم هذا السرّ ، وفطن لهذه النكتة . إنَّ المسلمين لا يندفعون إلا بدافع الجهاد ، فجمع تحت رايته الإيمانية أشتاتاً من القيادات ، وضروباً وأنواعاً من الشعوب الإسلامية ، يستغرب الأوربيون الغربيون ، كيف استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يوحِّد كلمة العالم الإسلامي الممزَّق المتشتت ، المنقسم على نفسه ، وكيف استطاع أن يجمع هذا العالم المترامي الذي تعدَّدت عناصره ، وتعدَّدت ثقافاته ، وتعدَّدت مذاهبه الفقهية ، كيف استطاع أن يوحِّد العالم الإسلاميَّ في هذه الفترة الحالكة العصيبة تحت راية محمَّد عليه الصلاة والسلام ، ذلك فقط ، لأنه رفع راية محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام ، لم يرفع راية القومية العربية ، اسمحوا لي أن أقول: أنا هندي الأصل ، أنا هندي الثقافة ، أنا رجل ولدت ، ونشأت في الهند، ولكن اؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام ، واؤمن بالقرآن. إنَّ هنالك قلوباً تعدُّ بالملايين ، تهفو ، وتصبو إليكم ، وتستهين في سبيلِكم بأجسامها وحياتها وسلامتها ، إنَّ

مذبحةً كبيرةً وقعت في الهند في أحمد آباد في مدة قريبة ، وماذا كان السبب؟ ذلك لأجل التجمُّع الإسلامي الكبير الذي حصل تأييداً لقضية فلسطين ، إنما وقعت هذه المجزرة ، ووقع هذا الاضطراب الطائفي الهائل لأن المسلمين في أحمد آباد تجمَّعوا على بعد الدار ، وحيلولة البحار ، وعدم معرفتهم للغة العرب ، تجمَّعوا هذا التجمُّع الخالد التاريخيَّ ليدافعوا عن قضية فلسطين ، وذلك برهانٌ ساطعٌ على أنَّ هنالك قلوباً مخلصةً لا يعرف مدى إخلاصها إلا الله تبارك وتعالى . قلوبٌ مؤمنةٌ صادقةٌ ، لا تعرف لغة السياسة ، ولا تعرف اللباقة ، إنما تعرف الإيمان ، إنما تعرف الحنان ، إنما تعرف لغة القرآن ، فأنتم تملكون ثروةً لا تملكها أمريكا ، ولا تملكها روسيا ، تلك ثروة الإيمان ، تلك ثروة الإيمان الدافق ، تلك قوة الإيمان التي استطاعت أن تُظهر العالم الإسلامي كلَّه ، وتكوِّن حضارةً ، وتكوِّن دولةً من أكبر الدول والإمبراطوريات ، وهي تستطيع والحمد لله في هذا الوقت ، أقول هذا في رحاب البيت العتيق ، إنَّ هذه الثروة موجودةٌ. ولكنها تحتاج إلى إثارةٍ تحتاج إلى تحريكٍ ، تحريكٍ صادقٍ مؤمن.

وفيكم الأمل ، إنني أرجو الله أن يستخدمكم في هذه القضية ، وأن يجعل منكم صلاح الدين الأيوبي الآخر ، وليس الأخير ، والإسلام كمثل غيثٍ لا يدرى أوله خيرٌ أم آخره كما جاء في الحديث النبوي الشريف ، وإني أقول لك أيها الأخ الكريم! أيها الزعيم! أنا أتبرك بتراب نعل الفرس في ساحة الجهاد ، وأفضله على العبير ، وعلى كثيرٍ من العطور ، إنني أقول لكم : اذكروا قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ ﴾ [النساء : ١٠٤] ، هذه ميزتكم ، اليهود فقدوا كلَّ شيء ، وقطعوا كلَّ خيطٍ كان يربطهم الله ، وبالصحف السَّماوية ، أصبحوا شعباً مادِّياً بحتاً ، لا يُعنون إلا بسيطرتهم على العالم ، ليست أمامهم غايةٌ نبيلةٌ ولا غير نبيلة ، إنما هو شعب عنصريٌّ يؤمن بالعنصرية ، والله تبارك وتعالى لا ينظر إلى العنصري ، إنَّ الله لا ينظر إلى وجوهكم وأجسادكم ، إنه ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ، فأنتم تملكون ولا تزالون تملكون هذه الثروة ، وترجون من الله

ما لا يرجون ، استمدُّوا هذه القوة وأثيروا هذا الدفين الكامن . هذا الكنز الخفيَّ المطمور الذي لا يزال في صدور زملائكم ، إنَّكم ـ كمسلمين مجاهدين ـ ترجون من الله ما لا يرجو اليهود ، فلماذا تهنون ، والله يقول : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

هذه كلمة أخٍ لكم في الله ، أخٍ لكم في الدين ، لا يربطه بكم إلا الخيط الإيمانيُّ الربَّانيُّ النورانيُّ ، الذي انبثق من هذا البلد ، ولا يزال لامعاً ، ولا يزال بازغاً ، ولا يزال منيراً للقلوب والنفوس ، يبدِّد الظلمات ، ظلمات الجاهلية ، ظلمات المادية والظلمات الأمريكية ، والظلمات السوفييتية . إننَّا نحن المسلمين ـ والحمد لله ـ أغنى من كلِّ أمَّةٍ وأقوى من كلِّ أمَّةٍ ، وتاريخنا طاهرٌ ، وتاريخنا نزيهٌ ، لم تتلوث أيدينا بالدماء البريئة أبداً فكن على ثقة أيها الأخ الكريم! أيها المناضل ، إنَّ وراءك جيشاً عرمرماً من المسلمين ، من القلوب المؤمنة ، من الأرواح السعيدة ، من الذين يستهينون بحياتهم ، ويستهينون بكرامتهم في سبيل الله ، فهل جرَّبتموه؟ لا . والله إلى الآن لم يسنح لكم أن تجرِّبوهم ، لا تزال هذه الأرض بكراً ، ولا تزال هذه التجربة جديدةً ، جرِّب أيها الأخ هذه الأمة التي ملأت العالم كلَّه ، وهي وراءكم وأمامكم إن شاء الله ، تأخذون منها ما هو أغلى ، وأعلى ، وأثمن ، وأعزُّ من كلِّ سلاحٍ تأخذه من أيِّ قوةٍ كبيرةٍ .

هذه كلمتي ، وأنا قد أسهبت فيها واسترسلت أكثر مما قدرت ، وما زورت الكلام وما ادخرت ، ولكن هو الدافع الإيماني ، العرق العربيُّ الإسلاميُّ الذي ينبض ، ويثور ، والذي يملك على مشاعري ، الذي يدفعني إلى أن أقول هذه الكلمة المرتجلة ، وأتركها مدوِّيةً مجلجلةً في رحاب العالم كلِّه .

وتقبلوا منِّي أطيب التحيات ، وأصدق التمنِّيات .

* * *

اللهمَّ إن تهلك هذه العصابة لن تعبد!

هذه المحاضرة ارتجلها العلامة الندوي ، في الموسم الثقافي (١٧) الّذي دعي إليه ، لإلقاء محاضراتٍ في موضوع الدعوة الإسلامية ، بدعوة من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، لدولة قطر ، في شهر ذي القعدة الموافق إبريل ١٩٩٥ .

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيد المرسلين ، خاتم النبيِّين محمدٍ وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

أما بعد: فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ [الفرقان: ٧٧] سادتي وإخواني! أنا حائرٌ في أمري ، هل أقرأ المحاضرات التي أعدَّت ، لهذه المناسبة الكريمة ، أو أن ارتجل كلامي ارتجالاً ، وقد جربنا وشاهدنا مراراً ، أنَّ الكلمة المكتوبة إذا تُليت تلاوةً قد تشقُّ على المستمعين ، ويتبرَّمون من سماعها ، فأعتمد على الله ، فأقول ما يفتح الله به عليَّ في ضوء هذا المقال الذي سيطبع ، وسيوزع إن شاء الله تبارك وتعالى ، وتطلعون عليه .

إخواني! إننا جرَّبنا على المجتمع البشري وعلى الأفراد الإنسانية ، وعلى إخواننا وعلى أنفسنا أيضاً. إنَّا إذا مررنا بلوحاتٍ ولافتاتٍ مرَّاتٍ كثيرةٍ ، وبطريقٍ عـاديٍّ يوميٍّ ، فإنَّـها لا تسترعي الانتباه ، وقد يمكن إذا سئل أحدهم: ما هي اللوحات التي تمرُّون بها كلَّ يومٍ؟ وما هي اللافتات؟ وما هي المنـازل المكتوب عليها أسماء الساكنين؟ لم يتيسر لهم الجواب ، لأنَّ الإنسان إذا مـرَّ بشيءٍ عاديٍّ ليست له عنايةٌ به ، أو ليست عنده حمايةٌ إليه ، فإنه يمرُّ به مرَّاً سريعاً ، وكذلك يحدث مع الدارسين للتاريخ الإسلاميِّ ، والتاريخ البشريِّ ، وتاريخ الحروب الطاحنة ، وتاريخ الثورات الكبيرة ، التي يرتبط بها مصير الأمم والشعوب ، فإنَّهم قد يمرُّون بجملةٍ ، أو بعبارةٍ أو بحادثةٍ تسترعي انتباههم ، وتستوقفهم وقفةً طويلةً ، وقفة شاسعة ، وقفة متأملةً ، كيف وقع هذا؟ وكيف تكلَّم فلانٌ بكذا؟ ذلك لأنَّه اعتاد قراءة الاطلاعات على الحوادث ، ودراسة التاريخ ، فيقرأ التاريخ كأنه شيءٌ عاديٌّ ، وهذا يقع كثيراً ، فأعتبر نفسي ، وأعتبركم من المطلعين على التاريخ ، ومن الدارسين المتتبِّعين لتاريخ الإسلام ، والسيرة النبوية ، فإني أنتهز هذه الفرصة الكريمة ، التي أتاحها الله لي ، وأكرمني بها ، أن أستلفت

انتباهكم ونظركم إلى جملة تأتي في التاريخ ، والسيرة النبوية ، ولكنَّها لا تسترعي انتباهنا ، ولا تستوقفنا ، وكانت جديرةً أن تستوقفنا وقفة خاشع ، حائرٍ متأمِّلٍ ، دارسٍ ، باحثٍ ، متسائلٍ ، كيف قال فلانٌ هذا الكلامَ؟ كيف وقع هذا؟ نقرأ في التاريخ والسيرة النَّبوية :

أنَّه لما زحفت قريش إلى المدينة ، وكان عدد المقاتلين كما رواه التاريخ بالإجماع أنَّهم كانوا ألف رجل شاكي السِّلاح ، مدججين به. وكان عدد الذين جاؤوا إليهم ليقاتلوهم لا يتجاوز عن ثلاثمئةٍ وثلاثة عشر رجلاً ، وكانت النسبة بعيدة ، والفجوة لم تكن عميقة ، فحسب ، بل كانت شاسعةً جداً ، وكان القياس يقتضي ، وكان العقل البديهيُّ ، وكانت تجارب العقل الإنساني يقضي ، بأنَّ المسلمين ـ لا قدَّر الله تعالى ، وأستغفر الله العظيم ـ سيُهزمون ، لأنه لا نسبة بين العددين في أيِّ حالٍ ، وهم ألف جنديٍّ بسلاحٍ تام ، وهؤلاء ثلاثمئة رجلٍ ، فكان العقل العام واستنتاج النتائج في ضوء الوقائع وفي ضوء العقل العام ، يُقرر ويقضي بأن المسلمين ـ لا قدر الله ـ سيُهزمون ، واستعرض الرسول ﷺ هذا الواقع ، وإنَّ استعراض الشيء شيءٌ معقول ، وشيءٌ إنسانيٌّ ، شيءٌ حسِّي لا بأس به ، استعرض الواقع ، فرأى أنَّ الفجوة بعيّدةٌ جدّاً ، وأنَّ التفاوت عظيمٌ جداً لا يقاس ، ألف رجل شاكي السِّلاح ، مدربين للحرب ، ومتحمسين جداً للقضاء على المستقبل الإسلاميِّ ، للقضاء على الدعوة الإسلاميَّة ، وهناك ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً ، فيهم بعض الصبيان ؛ الذين جاؤوا وحرصوا على المشاركة وأن يُسمح لهم بالخوض في المعركة والمشاركة في الحرب ، فلما رأى الرسول ﷺ هذا الواقع قام يصلِّي ، لأنَّه يعرف أنَّ النَّصر بيد الله تبارك وتعالى ، وأنَّ السِّلاح ليس هو القاضي المقرِّر للمصير ، والعدد ليس هو القاضي المقرِّر للمصير ، وليس التجريب الحربيُّ ، والحماس الحربيٌّ هو القاضي المقرِّر للمصير ، والقاضي لإرادة الله تبارك وتعالى ، فبدأ يصلِّي ، ويخشع ، ويرقُّ قلبه ، وتدمع عيناه ، حتى رقَّ له قلب سيدنا أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال: يا رسول الله! توكل على الله ، لا تفزع! وهو لم يستطع أن يحتمل هذا المنظر. فقال رسول الله ﷺ جملة هي تستلفت

نظركم ، واتِّجاهكم ، وتأمُّلاتكم ، إنَّ هذه الجملة ـ وسامحوني إذا قلت ـ تفوق كثيراً من التأمُّل فيها ، والاعتبار بها ، ومعرفة قيمتها : «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد» ، وفي روايةٍ «لن تعبد أبداً» وجاء في بعض الروايات وبعض السير : «لن تعبد على الأرض» فكيف يكون هذا الرسول العارف بالله تبارك وتعالى ، العارف بغنائه ، العارف بصمديته ، العارف بقدرته ، العارف بأنَّه أسمى من كلِّ هذا ، ومهما انهزمت الطوائف ، وانتصرت الطوائف ، وقامت الدول ، أو زالت الدول ، وتقلبت الأحوال والأوضاع ، فإنَّ الله غنيٌّ عن كل ذلك .

كيف قال الرسول ﷺ هذا الكلام : «إن تهلك هذه العصابة لن تعبد»؟ يعني كان سبباً للنصر ، النصر المبين ، النصر الخارق للعادة ، المحيِّر للعقول والألباب ، والتجارب الحربية ، وتاريخ الحروب الساحقة ، لما قال الرسول ﷺ : إن تهلك هذه العصابة ، كان معنى ذلك نصر الله المسلمين . وكان معنى ذلك أنَّ قيمة المسلمين ، وأن شريطة بقاء المسلمين ، وأنَّ مبرر وجودهم ، رغم هذه المعارضات العنيفة ، وهذه المؤامرات الدقيقة ، وهذه العزائم القوية ، وهذه الأسلحة المدمرة ، هو أنهم يدعون إلى عبادة الله تبارك وتعالى ، يعبدون الله وحده ، ويجاهدون ، ويجتهدون لتنفيذ أوامر الله تبارك وتعالى وشرائعه ، وهذه هي القيمة لهذه الأمَّة .

إخواني ! لا أدلَّ من هذا ، ولا أوضح من هذا الكلام ! وأنا أقول ذلك في ضوء دراساتي الواسعة المقارنة ، وتجاربي الحيوية ، والطبيعية ، والعقلية .

أولاً تستغرب كيف قال الرسول ﷺ هذه الكلمة الواضحة الصَّريحة التي لا يقولها الرسول بنفسه ، وهو العارف بالله تبارك وتعالى ، وأقول هذا وأنا في بيت الله ، وفي الجامع أمام الناس جميعاً : إنَّ رسول الله ﷺ أعرف الناس قاطبةً بغير استثناء ، أعرف بجلال الله ، وأعرف بغنائه ، وهو يعرف أنَّه غنيٌّ عن العالم كله ، وأنَّـه لا يحتاج إلى الأسباب ، لا يحتاج إلى من يدعو إليه ، ويدعو إلى التوحيد ، وإلى عبادة الله وحده ، هذا الرسول أعرف بني

آدم بغناء الله تبارك وتعالى ، وبصمديته ، ولكنَّه قال ذلك بإلهامٍ من الله تعالى ، أنا أومن بأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما جرت علَى لسانه هذه الكلمة ، الخارقة للعادة ، المحيرة للعقول والألباب ، وغير المتوقع ، لم يكن أحد يتوقع أن يقول الرسول هذه الكلمة ، إنَّما كانت إلهاماً من الله تبارك وتعالى ، في معركة بدر على رغم قلَّة العدد ، ورغم ضعف أسلحتهم ، كان ذلك برهاناً على أن قيمة بناء هذه الأمَّة عزيزةً منصورةً ، غالبةً فائزةً ، منتصرةً وعاليةً ، وكلمتها عاليةٌ ليست إلا من عند الله تعالى ، ولولا هذه الأمَّة الإسلامية لما كان هناك أحد يدعو إلى عبادة الله وحده ، ويعبد الله وحده ، ويحاول تنفيذ شرائعه وأحكامه ، في الأرض ، ومعنى ذلك أنَّ قيمة وشريطة وجودهم . وأنا أقول بكل صراحة ، كما افتتحت حديثي هذا بقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧] ، فشريطة بقاء هذه الأمة ، عزيزةً شريفةً مكرمةً ، منصورةً من الله غالبةً ، رغم المعارضات ، ورغم المؤامرات ، ورغم المناورات ، والمناوشات ، والحروب الطاحنة ، التي تقضي على الأمة ، وتستأصل أمَّةً بأصلها ، إنَّ شريطة بقاء هذه الأمة ، هي أن تعبد الله وحده أينما كانت ، وتنفِّذ أوامره ، وتطيعه ، وتنقاد له ، وتجاهد في تنفيذ شرائعه في العالم كلِّه ، فإذا فقدت هذه الأمَّة هذه الميِّزة ، أقول لكم بكلِّ صراحةٍ: الميزة التي كانت سبباً لانتصارها على العدو الغالب الكاسر ، شاكي السلاح المسلح ، شريطة بقاء هذه الأمة أن تظلَّ دائماً في كلِّ مكانٍ ، وفي كلِّ زمانٍ متمسكةً بعبادة الله تعالى ، وعقيدة توحيد الله ، أقول لكم بكل صراحة ، حتى في هذه البقعة الشريفة ، في الجزيرة العربية ، التي انبثق منها نور الإسلام ، وانتشر منها ضوء الإسلام ، ومنها نال الجيل البشري في كل عصرٍ ثروتين عظيمتين ، ونعمتين كبيرتين ، ثروة الإيمان ، ونعمة القرآن الكريم ، نعمة الإيمان بالرسول ﷺ ، وبشريعته وبكتابه تبارك وتعالى ، الكتاب المحفوظ ، الذي يقول الله فيه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] فشريطة بقاء هذه الأمَّة ، أقول لكم بكل صراحةٍ: ليست الاقتباس المدني من هذا البلد ، وذاك البلد ، ولا مسايرة الموضات

ومسايرة العادات والتقاليد ، ومسايرة الأحكام الحضارية ، ومسايرة قوانين الحضارة ، ليس شيء من ذلك هو الضامن لبقاء هذه الأمة ، الشيء الوحيد الضامن أن تظلَّ هذه الأمة متمسكةً بعقيدة التوحيد ، متمسكةً دائبةً على عبادة الله تبارك وتعالى وتنفيذ أحكامه وشرائعه في العالم ، كلَّما سنحت لها الفرص ، وكلَّما فتح الله لها ، ونصرها الله تعالى ، وكلُّ بقعةٍ تدخلها ، وتحكمها ، وكلُّ مجتمعٍ تسوده ، تنفذ فيه إرادة الله ، وتخضع لله تعالى ، وتواطىء رأسها أمامه ، تدعوه ، وتبتهل إليه ، وترجو منه ، تخافه ، وتنفِّذ شريعته ، وتطبِّق أحكامه على البشرية كلِّها ، وعلى المجتمع البشريِّ كلِّه ، فإذا فقدت هذه الأمة ـ لا قدَّر الله لها ـ هذه الشريطة ، فقد فقدت جدارتها للحياة ، واستحقاق هذا البناء.

أقول لكم هذا وأنا أحمد الله تبارك وتعالى أنَّ الله سبحانه وتعالى هيَّأ لي هذه الفرصة الكريمة لإطلاق هذه الكلمة في أرضٍ ندين لها في الدين ، ندين لها في الإيمان ، وفي الإنسانية ، في الفضيلة ، وفي الحضارة ، وفي الثقافة ، وفي كلِّ شيءٍ ، وفي هذه اللغة التي تعلمناها منكم ، أنا نشأت في الهند ، ولكنَّ الإسلام هو الذي هيّأ الطريق للعثور على هذه اللغة العربية ، في بلادٍ تحارَب فيها اللغة الوطنية الأردية الفصيحة العامرة ، الزاخرة بالمكتبات ، والزاخرة بالآداب الرفيعة ، والشعر البليغ ، البلاد التي تحارَب فيها اللغات المحلية ، تغزو فيها هذه اللغة العربية ، وهنالك مدارس تدرِّس اللغة العربية ، وشباب يهبون حياتهم ، وكفاءتهم ، وذكاءهم ، وطاقاتهم كلَّها لدراسة اللغة العربية.

فأقول يا إخواني! إنَّ أكبر شيء يجب أن تحرص عليه الأمة الإسلامية ، وتعض عليه بالنواجذ ، وتتمسَّك به بكلِّ قوَّةٍ ، هو الدعوة إلى الله تبارك وتعالى ، وتبليغ أحكامه ، وتنفيذ أوامره ، والدعوة إلى التوحيد الخالص ، والدعوة إلى عبادة الله وحده ، فإذا فقدت هذه الأمة ـ لا قَدَّر الله لها ـ هذه الشريطة فقط ، امتلكت كلَّ شيءٍ ، امتلكت ما تمتلك أمريكا ، وما تمتلك بريطانيا ، إنكم تعرفون جميعاً: إذا قيل لواحد: إنك لو فعلت كذا ، لأعطيتك كذا ، فإذا فعل هو كان عليه أن يوفي له الوعد ، وإذا لم يحقق هذه

الشريطة فلا يستحق هذه الجائزة ، فجائزة هذه الأمة مشروطة ـ ولا أقول رضا الله ونصر الله تبارك وتعالى ـ مشروطة لبقاء هذه الأمة على هذه الصفة ، الصفة الفريدة ، المميَّزة ، والصفة المشخصة والصفة الكبرى التي تدعو هذه الأمة أن تعبد الله ، وتدعو إلى عبادته ، وليس معنى ذلك أن تكتفي بالصلاة ، وإن كانت الصلاة لها أكبر فضل ، ولكن لا يكفي أن تصلِّي هذه الأمة وأفرادها في المسجد فقط ، وتكتفي بها وهذا المسجد عامر بعبادة الله تبارك وتعالى ، بل من الواجب أن تدعو البشرية كلَّها إلى عبادة الله وحده ، وإلى عقيدة التوحيد ، وأذكر لكم على سبيل المثال كلاماً حضرني الآن ، وهو أن رستم قائد قواد الفرس الذي كان يلي يزدجرد ، ويلي إمبراطور إيران في المنزلة وفي المكانة وفي القوة ، أرسل إلى سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: أرسل إليَّ أحداً من جيشك ، نسأله ، ونستفسره ، ونستوضحه ، لماذا جاء العرب ، وقد مضت عليهم قرونٌ متطاولةٌ ، ولم يحلموا بغزو الفارس ، بل لم يروا في المنام أنهم يغزون الفرس ، فإنَّ العرب ما كانوا يحلمون بذلك ، وما كانوا يرون حتى في المنام أنهم سيغزون الفرس ، ورومة الكبرى ، ولكن حقق الله هذا ، وتحقَّق ، فقال: ما الذي جاء بكم؟ الجواب الذي أجاب به سيدنا ربعي بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قد فات كثيراً من المؤرخين والعالمين والمتأملين ، أو الخطباء والمؤلفين ، قيمة هذا الجواب ، وهذا جوابٌ لا يوجد له نظير ـ في ضوء دراساتي ـ وأنا تلميذٌ من تلاميذ التاريخ ، وهوايتي التاريخ ، فمثل هذا الجواب لا يوجد له نظير في تاريخ الديانات وتاريخ الغزوات في وقتٍ واحد. قال له رستم: ما الذي جاء بكم؟ فكأنه ينتظر أن يقول له: إننا ضقنا ذرعاً بعيش الصحراء ، نركب الإبل ، نسكن ونعيش في أخبئة من أدم أو جلد ، أو هكذا ، وسئمنا هذا العيش ، وخرجنا لنأخذ نصيبنا من هذا الغنى ، ومن هذه الثروات ، ومن هذه الأساليب الباذخة الرفيعة للعيش ، ولكن الجواب الذي أجاب به ، كان المفاجىء التاريخي والعقلي كذلك ، قال: «الله ابتعثنا» كلُّ كلمةٍ تحتاج إلى التأمُّل ، لم يقل: خرجنا ، لا ، ولم يقل: الله بعثنا ، وهذا من بلاغته العربية وعقله المؤمن ، إنه ميّز بين بعثنا

وابتعثنا ، قال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء. لم يقل: لنخرج من نشاء ، كلُّ كلمة تدل على إيمانه ، وعمق تفكيره ، ودقَّة فكره ، وكان كل حديثه مرتجلاً ، ولم يكن نتيجة فكره ، وأنا أعتقد أنَّه لم يتوقع أنَّه لما وجه إليه هذا السؤال فإنه سيرد عليه: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده» وأغرب من كلِّ هذا: «ومن ضيق الدنيا إلى سعتها» والله لو قال: «وأنا في يد الله» لو قال من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، لما استغربنا؟ إنَّ الآخرة في الحقيقة أوسع ، وكلُّ مؤمنٍ يؤمن بأن الآخرة أوسع وأرفع من هذه الدنيا ، ولكن كيف يقول لرستم ، وهو رجل ما يدري هل كان قد تغذّى أم لا ، ما ندري هل كان يملك ما كان يسدُّ الرَّمق ، إنه يقول: من ضيق الدنيا ، يا رستم! يا قائد قواد الفرس! ما جئنا لأجلنا ، وما جئنا في مصلحتنا ، ما جئنا في قضاء وطرنا ، ما ساقنا إليكم أيها الفرس! الطمع في الملك أو الطمع في الثروة ، إنما ساقنا إليكم الترحُّم عليكم ، والإشفاق عليكم ، العطف عليكم ، كيف تعيشون؟ «لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها» أنتم في ضيق ، أنتم كمثل البلبل في قارورة من زجاجٍ ، قد وضع فيها الماء ، أنتم تعيشون كبلبل ، تحتاجون في كل شيء إلى كل شيءٍ كما رواه المؤرخون الأمناء ، منهم أستاذٌ كبيرٌ ، أستاذٌ في دنمارك ، وله كتابٌ خاصٌّ بالساسانيين يقول: إن يزدجرد ، خرج لما رأى أنه لا محلَّ له في العاصمة الفارسية العربية ، رأى أنه لابد أن يلجأ إلى التهرب ، فأخذ معه ألف طاهٍ ، وألف مغنٍّ ، وألف مربٍّ للصقور ، فقال: يا ويلتا كيف أعيش بهذه القلة القليلة! ما أشقاني! ما أتعبني! أخرج بهذه القلة القليلة ، كيف أعيش؟ فنحن خرجنا لنخرجكم من ضيق الدنيا إلى سعتها يقول هذا ربعي بن عامر. والله قد فات كثيراً من المؤرخين ، والمتبصّرين ، والمعلقين ، والمعلمين ، والمحلِّلين للحوادث التاريخية أن يفكروا فيها ، ويعطوا هذه الكلمة حقَّها من التأمل ، كيف يقول ربعي بن عامر وهو رجلٌ يسكن في خيمةٍ: قد خرجنا لنخرجكم من ضيق الدنيا ، قد أخرجنا الإشفاق عليكم ، والعطف عليكم ، والرحمة بكم ، قد خرجنا لنخرجكم من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان

إلى عدل الإسلام ، هذه الميزة لهذه الأمة ، يا أمة محمد ﷺ ويا سكان الجزيرة العربية ، والبلاد العربية ، والناطقين باللغة العربية ، والفاهمين للقرآن بالطريق المباشر! تفكَّروا في هذا ، ووزانوا هذه الأمة أن ترثي لأهل أمريكا ، وأن ترثي لأهل بريطانيا ، وأن ترثي للدول الكبيرة ، كلُّها تعيش في ضيق ، كلُّها عبيد الموضات ، والأحكام التي هم وضعوها ، وهم عبيد أنفسهم ، وعبيد حضارتهم ، لا يستطيع أحدٌ أن يخرج في غير اللباس الذي يلبسه الناس ، ولا يستطيع أن ينصف الناس ، وهو يعيش في مكان متخيَّلٍ مصطنع ، صناعي سام ، كلهم عبيد مدنيتهم ، وعبيد عاداتهم ، وعبيد موضاتهم ، وعبيد قوانينهم ، فكان المتوقع ، والمرجوُّ ، والمعقول أن تشفق هذه الأمة وأن ترقَّ قلوبها لهؤلآء ، بدل أن تحسد ، وأن تغبط : يا ليتنا نعيش كما يعيش الأمريكيون! يملكون الثروات العظيمة ، ويملكون الملايين ، يا ليتنا عشنا كما يعيش البريطانيون والهندوس! لا ، أبداً ، كان الواجب أن نترحم ، وأن ترقّ قلوبنا لما هم في ضيق ، لما هم عبيدٌ لموضاتهم وقوانينهم وأنفسهم .

أيها الإخوان! إن شريطة بقائنا ، وعزِّنا ، وشرفنا ، وشريطة نصر الله لنا أن نعيد خصائصنا وميزاتنا التي رفعنا الله بها على الأمم ، وأما أن نقلدهم في موضاتهم وثرواتهم ، ونحسدهم على سلطتهم مثلاً ، فهذا عدم تقديرٍ لنعمة الله تبارك وتعالى ، فلابدَّ أن نذكر دائماً أنَّ الله تعالى قد نصرنا في بدرٍ ، لأنه صدق قوله : «إن تهلك هذه العصابة لن تعبد» فصدّق الله تبارك وتعالى هذا ، فيجب أن نحافظ على هذه الشريطة ، وأن نقوم بواجب الدعوة ، لا نحسدهم ، ولا نغبطهم ، بل ترقُّ قلوبنا لهم ، وأن نخرج إلى هذه البلاد دعاةً ، هادين ، موجهين ، مرشدين ، نعم! ونضرب لهم مثلاً في البساطة ، ومثلاً في صلابة الإيمان ، وندعوهم إلى أن يجلِّونا ويعتمدوا علينا ، ويقتبسوا منَّا ، ويستنيروا منا نور الحياة ، ونور الفطرة السليمة ، ونور خشية الله تبارك وتعالى ، ونور الاعتماد على الله ، ونور المساواة البشرية الحقيقية ، هذا الذي نخافه الآن ، إنَّ المسلمين قد نسوا أو تناسوا هذه الشريطة ، إنَّ الله قد نصرهم ، لأنَّه صدق قول الرسول ـ عليه الصلاة

والسلام ـ «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد» فيجب أن نعود إلى هذه الميزة ، وإلى هذا الفارق الأصيل الجذري ، بين الأمم ، وأن نكون دعاةً إلى الله ، وإلى التوحيد ، ودعاة إلى المساواة البشرية ، وإلى العدل الإنسانيِّ ، ودعاةً إلى الخضوع لله ، بدل أن نعتبر تقليد الحضارة الغربية ، والشعوب الغربية الفوز الأكبر ، فيجب أن نكون معتزين بعقيدتنا ، وبحضارتنا ، ومعتزين بتعاليم النبوة ، وواثقين بنصر الله ، وهنا تتغير خريطة العالم ، وهي لا تتغير بالمؤامرات التي تُحاك هناك ، والمخططات التي توضع هناك ، تتغير خريطة العالم بعودة هذه الأمة إلى منهجها ومبدئها ، وإلى غايتها ، وإلى ميزتها ، وإلى الكرامة التي أكرمها الله بها .

هذه كلمتي القصيرة ، إنما لخصت كلمتي ، وسيطبع هذا المقال إن شاء الله تعالى ، وتطلعون عليه ، ولكني استحييت وخفت أن أدخل السآمة عليكم إذا قرأت هذا المقال الطويل ، ولم يكن طويلاً ، بل قصيراً ، وأرجو من الله تبارك وتعالى أن أكون قد برئت من ذمتي قليلاً ، وقد قمت بواجب الشكر والامتنان لكم ، لأنني قد تعلمت كلَّ ذلك منكم ، تعلَّمت من هذه الجزيرة العربية ، وتعلمت من المسلمين ومن الأمة الإسلامية الأولى ، ومن كتبها وعلومها ، ومن الذين نشروا الإسلام في كل العالم ، فأرجو منكم أن تتولوا منصب القيادة ، وأن تأخذوا مكانكم في مجال هذا العصر ، وفي هذه الساحة ، تأخذوا مكانكم اللائق بكم ، المشرف لكم ، والمنقذ للبشرية كذلك ، هذه كلمتي القصيرة ، وأشكركم على حسن الاستماع ، وحسن الانتفاع كذلك ، والأمر بيد الله تعالى .

وصلى الله تعالى على خير خلقه محمدٍ وعلى آله وصحبه وبارك وسلَّم .

* * *

«ألا تفعلوه تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير»

هذه المحاضرة ارتجلها العلامة الندوي ، في الأمسية الّتي نظمتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية يوم ٢٤/ من شهر أغسطس ١٩٩٨ م الموافق ٢/ جمادى الأولى ١٤١٩ هـ بقاعة جامع الشهيد الملك عبد الله بن الحسين في عمان بالمملكة الأردنية الهاشمية ، وذلك بمتابعة زيارة سماحته لها لحضور اجتماع مجلس الأمناء لرابطة الأدب الإسلامي العالمية المنعقد بين الفترة ٢٠/ ٢٥/ أغسطس ١٩٩٨ م.

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، خاتم النبيين ، محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين .

إخواني وأخواتي ، سادتي وسيداتي!

إنني كلَّما مرَّت بي هذه الآيات القرآنية ، وقرأتُها : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣] وقفت حائراً مشدوهاً أمام هذه الآية القرآنية ، بصفتي ـ والحمد لله تبارك وتعالى ـ أؤمن بالقرآن بفصِّه ونصّه ، عقائد ، وأحكاماً ، وأخباراً ، وكدارسٍ للتاريخ ، وباحثٍ في التاريخ كذلك ، خصوصاً تاريخ القرن السادس المسيحي الذي كانت فيه البعثة المحمدية ، وبصلتي بالسيرة النبوية دراسةً واسعةً متنوعةً في اللغات .

إنني أحار عند قراءة هذه الآية ، إنَّ الجاهلية قد كانت مخيمةً على العالم كلِّه ، ضاربةً أطنابها على السُّهول والجبال ، وعلى القفاز والبراري ، على البلاد المتمدنة ، وعلى البلاد المتأخرة ، كما اتفق عليه المؤرخون ، قد كانت الجاهلية هي الديانة الوحيدة التي تؤمن بها ، وتعمل بها شعوب العالم كلها ، فكان الجزء المتمدِّن المعمور الراقي ينقسم في جزءين ، الجزء الشمالي الغربي ، والجزء الشرقي ، كانا خاضعين لإمبراطوريتين جاهليتين ، إن لم أقل وثنيتين ، لكن بتحرِّي الصِّدق والدقَّة ، أقول: إمبراطوريتين جاهليتين ، الجزء الكبير والمتمدن المعمور كان خاضعاً للإمبراطورية الرومية التي كانت تسمى بالإمبراطورية المسيحية ، والجزء الثاني: وهو الجزء الشرقي ، كان خاضعاً للإمبراطورية الفارسية الإيرانية المجوسية الساسانية ، وكان باقي أجزاء العالم المعمورة المتمدنة الراقية وغير الراقية كلُّها كانت خاضعةً لوثنيَّةٍ فاحشةٍ ، لوثنيَّةٍ سافرةٍ ، وثنيَّةٍ عاريةٍ ، حتى الهند التي كانت تملك فلسفاتٍ عميقةً ، وكانت تملك مدارس فكريةً

كبيرةً في بعض الأزمان ، كانت خاضعةً للوثنية الفاحشة ، يقول أستاذ كبير ، صاحب اختصاص في التاريخ بروفيسور في جامعة دلهي ، يقول: «قد وصل عدد المعبودات والمعبودين في الهند إلى مئة مليون في بعض الأحيان» ، والبوذية أخفقت في إصلاح الحال وفي توجيه البلاد ـ كما يدَّعي مؤرخوها وكما يدَّعي دعاتها ـ إلى التوحيد ، قد أخفقت تماماً ، كما اعترف به المؤرخون في الهند ، كذلك كانت الدولة المجوسية الإيرانية ، وكانت فارس كذلك ، وكانت كلُّ أصقاع العالم ، وكلُّ قطع العالم ، وكلُّ النواحي ، كلُّها خاضعةً للوثنية ، وخاضعةً للأوهام والخرافات ، وخاضعةً للاضطهاد ، وخاضعةً للخرافات ، ولكن كانوا هم الذين يملؤون العالم ، وكان عددهم لا يُحصى ، لا يمكن إحصاؤه ، ولا أعرف مؤرخاً أحصى عدد الموجودين في ذلك الزمان قبل البعثة المحمدية ، أو عند البعثة المحمدية في العالم ، ما كان هناك إحصاءٌ عالميٌّ ، إحصاءٌ دقيقٌ عالميٌّ ، ففي جانبٍ أوسع عالمٍ ، وأكثر ، وأملك للطاقات البشرية ، وأملك للقوى الحربية ، وأملك للمكتبات العلميَّة ، وأملك لكلِّ القيم ، ولكلِّ الخصائص التي تتَّصف بها الأمم ، كانوا في جانبٍ قد اتخذوا جبهةً ، جبهةً وثنيَّةً ، جبهةً للدعوة الوثنية ، والإغراء للوثنية ، والخضوع للخرافات ، والخضوع للأساطير ، والخضوع للاستبداد ، وقهر الملوك ، هكذا كان وضع العالم في ذلك الحين.

وكان مقابل ذلك المسلمون ، المسلمون وهم حفنةٌ بشريَّةٌ ، وهذا تعبير غير مُبالغ فيه ، حفنةٌ بشريَّةٌ ، تملأ الكف ، يعني إذا قيسوا في العدد والعُدد ، وفي القوة ، وفي الطاقات والآلات ، إذا قيسوا بهذا العالم المتمِّدن المعمور ، المالك لأزمَّة الأمور ، والموجه للعالم كلِّه توجيهاً كما يشاء ، إذا قوبل بينهم وبين هذه الحفنة البشرية كانوا في الحقيقة ملء الكف ، فقد صحَّ في الأحاديث الصحيحة ، وقد جاء في صحيح البخاري: أنَّه كان هنالك ثلاثة إحصاءات ، أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بإحصاء المسلمين في المدينة المنورة ، ما عدد المسلمين المهاجرين ، والذين آمنوا بالإسلام في المدينة المنورة ، فكان الإحصاء الأخير لا يتجاوز ألفاً

وخمسمئة ، هذا الذي جاء في صحيح البخاري ، وكان ذلك عند غزوة أحد ، وبعضهم يقول عند حفر الخندق ، كانوا لا يتجاوز عددهم ألفاً وخمسمئة ، وهؤلاء ألف وخمسمئة ، يخاطبون في القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣] أي: إن لم تكونوا جبهةً ، إن لم تكوّنوا معسكراً ، إن لم تكوّنوا اتجاهاً ، اتجاهاً سافراً معلناً به ، اتجاهاً واضحاً للدعوة إلى الله تبارك وتعالى ، وللدعوة إلى التوحيد الخالص ، وللدعوة إلى احترام الإنسانية ، وللدعوة إلى الإخاء الإنسانيِّ ، والأخوة البشرية ، والدعوة إلى الإنصاف ، والدعوة إلى المساواة ، والدعوة إلى خشية الله تبارك وتعالى ، والعطف على الإنسانية ، إلا تفعلوه ، تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ، كيف يفهم الإنسان بسهولة إذا لم يكن عنده إيمانٌ عميقٌ بالقرآن ، ودراسةٌ دقيقةٌ عميقةٌ وتحرٍّ للصواب ، ولواقع العالم البشري.

فقد كان هناك ملايين وملايين من البشر ، من الناس ، بعضهم مثقَّف ، عددٌ كبيرٌ منهم مثقف ، وعددٌ كذلك غير مثقف ، كلُّهم يخضعون للوثنيَّة خضوعاً فاحشاً سافراً دائماً ، وعندهم خرافاتٌ وأساطير ، ومفروضاتٌ ، وعاداتٌ ، وتقاليد جاهليةٍ فاحشةٍ ، ظالمةٍ ، جائرةٍ للإنسانية ، والشرف الإنسانيِّ ، وهناك حفنةٌ من البشر ، لا يتخطَّى عددهم ، ولا يتجاوز عددهم ألفاً وخمسمئة ، فكيف غير الله تبارك وتعالى ؟ أقول لكم بصراحة : كيف غير الله تبارك وتعالى ؟ كان يستطيع أن يقول هذا ، هناك ملايين من البشر ، وملايين وملايين من البشر ، يملكون كلَّ طاقةٍ ، ويملكون كلَّ وسيلةٍ ، ويملكون كلَّ عدَّةٍ ، ويملكون كلَّ سلاحٍ ، ويملكون كلَّ تصرفٍ في البشرية ، وهناك حفنة بشرية ، قد تجوع ، يجوع مئات منها ، ولا يستطيع كثير منهم أن يستر جسمه ستراً كافياً وافياً ، أو يقوت عياله ، هناك حفنةٌ بشريةٌ قليلة العدد ، قليلة العَتاد ، وقليلة الأسلحة ، وقليلة القوى والطاقات ، وهناك بحرٌ خضمٌّ ، بحرٌ لا يُعرف قعره ، ولا عمقه ، بحرٌ مستفيضٌ فائضٌ على الصعيد كلِّه ، على الأرض كلها ، قاراتٌ ، وأبالاتٌ ، ومدنٌ ، وقرى ، وكذلك محلاتٌ

صغيرةٌ وكبيرةٌ ، وحكوماتٌ ، وفقرٌ مدقعٌ ، وعريٌ ، وفاقة .

وهكذا كان العالم موزعاً في ذلك الحين بين هذه الأكثرية الساحقة ، الغالبة ، الماحقة ، المعاندة ، المتشبثة ، الملحة ، المصرَّة على الوثنية ، وهناك كان حفنةٌ بشريَّة لا تستطيع أن تعول نفسها ، وتعلمون جميعاً أنَّ كلَّ مهمةٍ كبيرةٍ تحتاج إلى أن يكون الذي يضطلع بها ، والذي يقبل مسؤوليتها هو أن يكون صاحب كفاف ، ويكون صاحب كفاية وقوَّة ، فهنا كان من جهة العدد ، ومن جهة العُدد ، ومن جهة الآلات ، ومن جهة الطاقات ، هذه حفنةٌ بشريَّةٌ قليلةٌ ، وهذا العالم الممتدُّ ، عالمٌ كالبحر مائجٌ هائجٌ ، فكيف غير الله تبارك وتعالى يستطيع أن يقول : ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال : ٧٣]؟! .

هذا لأنَّ العبرة بالقيمة لا بالقامة ، إنَّ المسلمين كانوا صغاراً في القامة ، ولكنَّهم كانوا كباراً في القيمة ، والعبرة بالقيمة لا بالقامة ، يدلُّ عليه التاريخ ويثبته التاريخ من أوّله إلى آخره ، إنَّ القيمة دائماً تغلبت على القامة ، وهزمت القامة ، لولا هذا لما كان لهذا العالم المتمدن المعمور بقاءٌ ، ولا كيانٌ أبداً ، لولا أنَّ القيمة إنَّما غلبت واستطاعت أن تتغلَّب ، واستطاعت أن تهزم القامة ، مهما كانت كبيرةً وشامخةً ، لما بقيت هناك عقيدةٌ صحيحةٌ ، ولا دينٌ صحيحٌ ، ولا دعوةٌ صحيحةٌ ، ولا كرامةٌ بشريَّةٌ .

إخواني! ينبغي أن نتأمَّل ، وأن نؤمِّل ، وأن نفكر في هذه الآية ، في هذه المقارنة ، لإلقاء التبعة ، تبعة الدعوة ، وتبعة الإنسانيَّة ، والمسؤولية الإنسانية على هذا العدد القليل ، وعلى هذه الحفنة البشرية .

ولقد أثبت التاريخ أنَّ هذه الحفنة البشرية لمَّا قامت ، واضطلعت بمسؤوليتها ، وقبلت مسؤوليتها ، وقامت بمسؤوليتها ، غلبت على هذا البحر الخضم الممتدِّ على صعيد الأرض كلها ، تغلَّبت عليه ، وهزمت هذا العدد والعدد والعتاد ، وهذه المملكات الشامخة ، وهذه الطاقات الباذخة كلِّها ، تغلبت هذه الفئة القليلة ، هذه القلَّة على هذه الكثرة ، في هذه الآية في الحقيقة تبصيرٌ لنا ، وإثارةٌ لعواطفنا ، وإثارةٌ لإيماننا ، وإثارةٌ لعزيمتنا ،

وإثارةٌ لنخوتنا ، وإثارةٌ لإبائنا وعزتنا أن نقوم أمام هذه الكثرة الشامخة ، هذه الكثرة الفاشية التي نراها اليوم ، ونقوم أمامها بقيمتنا لا بقامتنا ، بدعوتنا لا بما عندنا من إمكانيات ، ومن فرص ، ومن عتاد ، نقوم بالدعوة بإخلاص ، بقوة الإخلاص ، وبقوة الإيمان ، نقوم بالميِّزة الخلقيَّة ، نقوم بالإخلاص التامِّ ، لا نكون خاضعين للعَدَد ، والعُدد ، نكون خاضعين لله تبارك وتعالى ، ولإرادته ، ولنصرته ، فالله سبحانه وتعالى قد وعد بالنَّصر ، ووعد المسلمين ، ووعد القائمين بالحقِّ ، وبالدعوة الصحيحة ، وبالنَّصر المبين ، والتاريخ يشهد بذلك من أوله إلى آخره ، بأنَّ فئاتٍ قليلة العدد تغلبت على فئاتٍ كثيرةٍ ، ولا أقول فئاتٍ ، بل تغلبت على بحارٍ من العدد ، والعُدد ، بقوة الإيمان وبالإخلاص في الدعوة ، وبالرِّثاء للإنسانية ، وبالتضحية والزهد ، هذه هي الأسلحة التي تستطيع بها ، هذه الأمَّة أن تتغلب بها على العالم الماديِّ الخاضع للشهوات ، وقد حققت الدول الغربية في إنجاز هذه المهمة نجاحاً لا يوجد له مثيل ، فإنَّ المثقفين في البلدان الإسلامية الذين يتولون زمام الأمور ، ويحملون قدراً من التعبير في اللغات الأجنبية ، ويحملون الشهادات العلمية ، ويعرفون النظم السياسية في العالم ، تأثروا بهذه الدعاية تأثراً عميقاً ، واطمأنوا بها ، وأيقنوا أنه لا حاجة إلى تغييرٍ ، وأنَّه يكفينا أن نصلِّي ونصوم ، ونعمل بأحكام الطلاق والزواج ، ونكون أحراراً فيها ، وأن نعيش في أمنٍ وسلام ، وذلك ما نبغيه ، فإذا قيل لهم : إنَّ الإنسانية تحتضر اليوم بابتعادها عن المُثُل الخلقية ، وإنّ المسلمين هم أحقّ بالقيادة لإنقاذ البشرية ، فإنَّ القوى التي تسلمت القيادة ولا تستطيع أن تقود البشرية إلى السعادة ، والنجاح لأنها لا تؤمن بالله ، ولا تخشى الله ، ولا تحمل الاحترام للإنسانية ، فلا تقبل هذه النفوس هذا التفكير ، لقد قيل للمسلمين : إنَّ المسلمين ليسوا بعامل مؤثر ، وإنما هم ممثلون ، إنهم لا يستطيعون أن يكتشفوا أو يبادروا إلى شيء ، أن يصطنعوا شيئاً ، وإنما هم مسيَّرون ، إذا طلب منهم شيءٌ عملوا به ، إنهم يستطيعون أن يحرسوا الحدود ، أو يحافظوا على شيء ، أما محاسبة التاريخ وانتقاد ما يحدث في العالم وما يجري فيه من تيارات ،

وصراعات ، وميول ، أو المقاومة للمخططات المعادية للإنسانية ، فلا تقبلها أذهان المسلمين المثقفين والطبقة العليا.

عندما صدر كتابي: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الذي تناولت فيه ما لحق بالعالم من خسارةٍ بتخلي المسلمين عن القيادة ، وما خسره العالم الإنسانيُّ بتراجع المسلمين ، وانسحابهم عن دور القيادة العالمية ، وما كان كسبه العالم بقيادة المسلمين في عهد قيادتهم ، وما أتحف المسلمون العالم به من حضارةٍ ، ومثلٍ ، وقدمت دراسةً علميةً وأثبتُّ ذلك في كتابي ، فكان ذلك مفاجأة عند كثيرٍ من المثقفين والدارسين في المسلمين ، واعتبروا ذلك اكتشاف فإنَّ المعالجين للتاريخ الإسلامي لم يعالجوا الموضوع من هذه الزاوية ولم يلقوا الضوء على ما كان العالم يعيش فيه قبل الإسلام ، وما هو الانقلاب الذي أحدثه الإسلام ، وكيف غيَّر الإسلام مجرى الحياة.

أتيحت لي فرصة زيارة مصر في عام ١٩٥١ م ، وسبق أن صدر هذا الكتاب ، وكان موضوع البحث والنقاش في الأوساط العلمية وخاصةً عنوان الكتاب ، وخلال زيارتي لمصر ، كتب أحد الكتاب البارزين في صحيفة واسعة الانتشار ، أنَّ كتاباً صدر بعنوان: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» وأعرب الكاتب عن استعجابه بهذا العنوان ، وقال: كيف يسبب انحطاط المسلمين خسارة للعالم؟ وهل كان للمسلمين وزنٌ يغيِّر مصير العالم ، إنَّ هذا تعبيرٌ غير مفهوم لا تستسيغه أذهانهم ، كيف يكون لانحطاط المسلمين وقعٌ على مسير العالم!؟

وحار الكتاب والمعلقون في الصحف في تأويل هذا التعبير وفهمه ، وكان ذلك بسبب الدعاية والتلقين من علماء الغرب ومفكريه ، بأنَّ المسلمين هم مجرد ممثلين ، وقد رسخ هذا التفكير الخاطىء في أذهان العقلاء وقبله المثقفون ، وأيقنوا أنَّ المسلمين أتباعٌ مسيَّرون ، وأنَّهم لا يحملون كفاءةً ولا صلاحيةً لفرض إرادتهم ، وإبداء رأيهم ، وأن يؤثروا

على اتجاه العالم ، وقد أدرك هذه المؤامرة وأبعادها العلامة إقبال ، وفضح هذه المؤامرة في قصيدةٍ له يقول فيها :

إنَّ الشياطين وزملاء إبليس وأعوانه اجتمعوا في مجلس شورى ، وتباحثوا في سير العالم وأخطار الغد وفتنه ، وما يتوجسون من خيفةٍ على نظامهم الإبليسي ومهمتهم الشيطانية ، فتذكروا في فتنٍ وأخطارٍ قد أحدقت بهم ، وهدَّدت نظامهم ، وجللوا خطبها ، وتناذروا شرها ، فذكر أحدهم «الجمهورية» وحسب لها حساباً كبيراً ، فقال الثاني : لا يهولنَّك أمرها ، فإنها ليست إلا غطاء للملوكية ، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهوري ، إذا رأينا الإنسان بدأ ينتبه ويفيق ، ويشعر بكرامته ، وخفنا ثورة على نظامنا قد لا تحمد عاقبتها ، ألهيناه بلعبة الجمهورية ، وليس الشأن في الأمير والملك ، إنَّ الملوكية لا تحصر في وجود شخصٍ ترتكز فيه الملوكيةٍ ، وفردٍ يستبد بالسلطان ، وإلا فأنا أخاف على الإنسانية كلِّها ، على البشرية كلِّها ، وحتى على أجزاء العالم الراقية المتمدنة القائدة الرائدة للعالم ، فإذا لم تكن هنالك دعوةٌ فإنه لا يؤمن على البشرية التائهة الضالة الظالمة ، لا يؤمن لها بالبقاء لمدةٍ أطول .

فهذا في صالح الإنسانية وفي صالح المسلمين ، وفي صالح العرب أولاً ، وللعرب حقٌّ أكبر ، وحقٌّ رئيسيٌّ في توجيه هذه الدعوة ، وفي الاضطلاع بهذه الدعوة بصدقٍ وإخلاصٍ ، وشجاعةٍ ، وجراءةٍ ، وصراحةٍ . أقول لكم هذا ، ولا أريد أن أطيل عليكم ، فأتلو الآية الكريمة مرَّةً ثانيةً لتتأملوا فيها : إن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال : ٧٣] ألا تفعلوه ، أيها المسلمون! أيتها الحفنة البشرية الضئيلة العدد! إذا لم تقوموا بالاضطلاع بهذه الدعوة الإنسانية الكريمة الواسعة المنقذة للبشرية ، إن لم تفعلوه تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير ، هذا ما نشاهده بعيوننا بأمِّ عيوننا ، نشاهد كيف هذه البلاد التي يضرب بها المثل في المدنية وفي الحضارة وفي الثقافة ، والبلاد التي توجه العالم العام توجيهاً فكريَّاً ، وثقافيَّاً ، ومدنيَّاً ، وحضاريَّاً ، وسياسيَّاً ، هذه كلها في خطر ، إذا فهم قادتها ، ومنهم من

يفهم هذا ، إذا فهم قادتها ، فإنهم خافوا على هذه البلاد نفسها ، وخافوا على أنفسهم ، وبدؤوا يطالعون الدين الأخير ، الخاتم الصحيح ، الدين المنقذ للبشرية ، وكان هنالك دورٌ آخر للتاريخ ، وليس ذلك على الله بعزيز ، ندعو الله سبحانه وتعالى أن يوفِّقنا ، ويوفِّق إخوتنا ، ويوفِّق العالم المتمدِّن كذلك للتعرف بهذا الخطر الداهم ، الخطر القاصم ، الخطر المبيد ، ليس لبلادٍ فقطٍ بل للإنسانية كذلك.

أحمد الله تبارك وتعالى على سنوح هذه الفرصة للحديث معكم ، وهذا شرفٌ عظيمٌ لي ، فأحمد الله تبارك وتعالى ، وأشكركم وأشكر القائمين بهذه المناسبة.

جزاهم الله خيراً

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

الدور الّذي تلعبه المسيحية اليوم في العالم

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في مكة المكرمة: تعليقاً على رسالة وردت من جمعية الصداقة المسيحية والإسلام في مجلس رابطة العالم الإسلامي في جلسته المنعقدة في ٢٣/ ١٠/ ١٣٩٦هـ.

سماحة الرئيس والسادة الأعضاء الزملاء: إن نظرتنا إلى المسيحية يجب أن تتطور مع تطورها وانتقالها من مرحلة إلى مرحلة، ومع الأحداث الأخيرة التي تتصل بها اتصالاً وثيقاً، ومع دورها الذي لعبته في تاريخ العالم، وفي تاريخ الإنسانية والمدنية، والموقف الذي وقفته تجاه الإسلام وتجاه الحضارة وتجاه الشعوب والأمم، وهذه طبيعة الأحياء الذين يرزقون الوعي وصلاحية الاستنتاج، واستعراض الواقع، تتطور نظراتهم إلى العالم المعاصر والشعوب التي تعيش حولهم، وتنمو وتتطور.

وإن الجانب الأول الذي يجب أن يكون في حسابنا إذا تحدثنا عن المسيحية أن المسيحية المعاصرة ـ وقد مضت عليها قرون ـ تختلف عن المسيحية الأولى التي تحدث عنها القرآن وعاصرت ظهور الإسلام، كل الاختلاف، ولا نعرف ديانة من الديانات السماوية العالمية ابتعدت عن أصلها القديم واختلفت عنه ابتعاد المسيحية واختلافها، فكأنها من نبع آخر، كأنها ديانة مستقلة، قفزت في العصور المتأخرة، والذي يطالع المسيحية مطالعة عميقة حرة يصعب عليه أن يسميها «النصرانية» أو «المسيحية» التي قامت على تعاليم المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ـ وانبثقت عن دعوته وعن التوراة والإنجيل، وقد لا يرى لها اسماً أقرب إلى الواقع والحقيقة العملية من الديانة البوليصية، ويرى للبوليص فيها حظاً أكثر وسلطاناً أقوى من سيدنا المسيح، وهي وليدة قرارات مؤتمرات مسيحية كانت تعقد بين آونة وأخرى، واتفاقيات يتوصل إليها ممثلو هذه الديانة وعلماؤها بعد دخول قسطنطين في النصرانية واحتضانه لها.

كانت كل القرائن والآثار تدل على أن المسيحية التي دعت إلى عقيدة الأول، وإلى التمسك بالحقيقة والجوهر، وامتازت بالرقة والخشوع والعطف على الضعفاء والمحرومين في المجتمع، وإلى العدل والمساواة، وحب الإله، وثارت على قسوة اليهود وجفافهم، وتمسكهم

بالقشور والمظاهر ، ومحاربة كل إصلاح وتجديد ، وتعرضت لسخط اليهود وحنقهم الشديدين ، وتعرض نبيها الكريم وأمه الصديقة البتول لافترائهم وإهانتهم التي لا إهانة فوقها ، حتى كانوا سبباً لصلبه كما يزعم اليهود ، وكما يعتقده المسيحيون ، ولرفعه إلى السماء كما يعتقده المسلمون ، وحاربها اليهود في كل دور من أدوار التاريخ حرباً لا هوادة فيها ولا رحمة وطاردوها وكادوا لها ، وكانوا دائماً يمالئون أعداءها ، ويحرضون عليها ، ويدلون على عورات المسيحيين كما فعلوا في حرب فارس والروم في القرن السادس المسيحي ، وقد نظر القرآن والمسلمون إلى المسيحية والمسيحيين في العصر الأول بغير العين التي نظروا بها إلى اليهود والمشركين وميز بينهم تمييزاً واضحاً وقال: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ .

كانت كل القرائن والآثار تدل على أن المسيحية تمد إلى الإسلام والمسلمين يد الصداقة ، وتكون على الأقل بعيدة عن التحرش بهم في غير لزوم ، وإسعار الحروب التي أسعرتها ، وإذا خيرت بين صداقة اليهود وصداقة المسلمين آثرت صداقة المسلمين الذين يفرض عليهم دينهم الإيمان بنبيها عيسى ابن مريم وتبرئة أمه والإيمان بعفافها وطهارتها فيقول القرآن ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ ولا يتحقق إيمان المسلم إذا لم يؤمن بعيسى ويسميه تارة بروح الله وتارة بكلمة الله وتؤثر صداقة المسلمين على صداقة اليهود الذين عادوا المسيح ونسبوا إليه كل قبيح ، وتتعاون هاتان الديانتان العظيمتان اللتان يؤمن بهما أكبر عدد من المتدينين في العالم ، وقد أرادت حكمة الله أن تمثلا أكبر دور في التاريخ وأن توجها المدنية توجيهاً لم يكتب لغيرهما من الديانات والأمم أن تتعاونا في بناء المدنية وإسعاد الإنسانية والقضاء على قوى الشر والتدمير ، ومحاربتها .

ولكن الذي وقع كان مع الأسف عكس ذلك ، فقد حاربت المسيحية وبالأصح المسيحيون الإسلام والمسلمين حرباً شعواء مسعورة متصلة لا انقطاع فيها ، كان من جملتها الحروب الصليبية التي كونت تاريخاً مستقلاً ، وحاربت الدولة العثمانية مدة طويلة ، واقتسمت ممتلكاتها وغزت العالم الإسلامي غزواً سياسياً وثقافياً وحضارياً ، وزحفت أوربا المسيحية إلى الشرق الإسلامي ، فاستولت على أكثر بقاعه واستعبدت أممه وشعوبه ، وكان أكثر شقاء العالم الإسلامي ، وأكبر محنه وأزماته ومشاكله على يد الغرب الذي يدين بالمسيحية ، ولا تزال الروح الصليبية تسيطر على عقلية كثير من قادته وتصرفاتهم وتثبت وجودها وحياتها في حوادث كثيرة .

بالعكس من ذلك صالحت المسيحية الوادعة الرحيمة اليهودية الموتورة الحاقدة ، واتفقت الطبيعة المسيحية الرقيقة التي تؤمن بمبدأ الرحمة والمساواة مع الطبيعة اليهودية السلبية الهدامة التي تحقد على الإنسانية كلها ، ولا تفكر ولا تعمل إلا لمصلحة «شعب الله المختار» وعفا ممثل المسيحية الأكبر ونائب المسيح البابا عن اليهود جريمتهم في صلب المسيح وبرأهم عن ذلك ، وفتحت المسيحية لليهودية ذراعيها واحتضنتها في الدور الأخير ولم يقتصر الأمر على ذلك بل نالت اليهود العالمية منها كل عطف وتشجيع وتعاون ، وفي الحقيقة كانت المسيحية قنطرة وصلت بها اليهودية العالمية بل الصهيونية إلى ما وصلت إليه من أوج وعز وسيادة ونفوذ في العالم، وبها وحدها تمكنت من تأسيس إسرائيل، وبفضلها تحقق هذا الحلم الذي كان يعتبر ضرباً من الهوس وأمنية من أماني جحا، ولولا المساعدة التي نالتها الصهيونية من بريطانيا وأوربا المسيحية لما وصل اليهود إلى ما وصلوا إليه في آلاف من السنين ولما حققوا ما حققوه في هذه المدة القصيرة .

وإن مثل المسيحية مع اليهودية كمثل الرجل الذي وجد ثعباناً أصابه البرد والهزال وتعطل عن الحركة ودنا من الموت ، فرق له قلب الرجل وعني بشأنه وجره إلى الهواء النقي والشمس الساطعة وهيأ له الدفء ، وغذاه باللبن فعاش وانتعش وعاد إلى الحركة والقوة فلسع الذي أحسن إليه وقتله ،

هذا شأن المسيحية الرحيمة بثعبان اليهودية الذي تعرض للموت وتعطل عن الحركة ولا ندري متى يلسع هذا الثعبان منقذه المسيحي ولكن مما لا شك فيه أنه لسع الإنسانية وأصبح خطراً عليها فضلاً عن العرب المسلمين الذين استولى على مركزهم. وهكذا أصبحت المسيحية بشعور وإرادة أو بغير شعور وإرادة ـ باحتضانها لليهودية وبتزعمها للحضارة ـ التي قطعت صلتها عن تعاليم الأنبياء وفيهم المسيح عليه السلام وأبادت جميع القيم الخلقية وقامت على أساس عبادة المادة والقوة ومحاربة الإسلام الدين الوحيد الذي بقي في ميدان الحياة يحارب اللادينية والإلحاد ، والشيوعية المتطرفة والرأسمالية الغاشمة ، ويدعو إلى القيم الخلقية والمعاني الروحية ، أصبحت المسيحية بذلك كله أكبر عامل في تقويض المدنية ونشوء الفوضى الخلقية في العالم ، وبذلك تهيأ المسرح الذي يظهر عليه الدجال اليهودي الذي أخبر به الأنبياء وحذروا منه ، وأخبر به خاتم النبيين ﷺ وحذر منه أكثر من كل نبي لأنه الرسول الأخير ورسالته هي الرسالة الأخيرة ، ويمثل هذا الدجال الذي يكون أكبر رمز للمادية الرعناء والقوة العمياء المسرحية الأخيرة في محاربة الإيمان والأديان والأخلاق والفضائل.

فلنكن دقيقين وواقعين في كل ما نقرره هنا ، وفي الموقف الذي نتخذه إزاء هذا المشروع والفكرة ، ولتكن نظرتنا إلى الموضوع أعمق وأوسع وأكثر إحاطة بالتاريخ الماضي ، وظروف الحال والمستقبل.

* * *

شعب يقرر ويعاهد الله

وجه العلامة الندوي خطاباً في مؤتمر التعليم الإسلامي في جلسته الأخيرة المنعقدة في لكهنؤ قبل بضعة أعوام ، ناشد فيه كل مشترك أن يحمل معه رسالة ويقطع عهداً على نفسه لتكون حياته مصداقاً لهذا العهد .

وحيث إن التجمعات للالتقاء الفكري قد أصبحت ميزة هذا العصر فلا ينفض مجلس إلا ويحدد موعد لاجتماع آخر في مكان آخر .

ينقل هذا الخطاب في هذا الكتاب ليكون رسالة العلامة إلى كل مشترك في مثل هذه التجمعات .

أيها السادة: نحن الآن في الجلسة الأخيرة من جلسات المؤتمر وسترجعون إلى بلادكم ومراكزكم ، وأحرص على أن لا ينفض هذا المجلس إلا وأنتم تحملون رسالة معكم ، ولا تقوموا من هذا المجلس إلا بعد ما عاهدتم الله وأخذتم من نفوسكم ميثاقاً ترتبطون به في حياتكم ، وإن مستقبلنا يتوقف على هذا الميثاق.

إن لهذا الميثاق جزءين ، أولهما : أن نؤمن بأن هذه البلاد ـ الهند ـ هي بلادنا ووطننا ، وسنعيش فيها كأبناء وحقنا على هذه البلاد لا يقل عن حق أكبر مواطن وأقدم مولود فيها ، وليس لأعظم شخصية في بربوع الهند ، سواء كان رئيس الجمهورية الهندية أو رئيس الوزارة أن يدعي أن حقه على هذه البلاد يزيد على حقنا ، فهذا البلد حبيب إلى نفوسنا ونحن حرسة دستوره لا نسمح بخيانة فيه ، أو مؤامرة ضده ، إن كل شبر من أشبار هذه الأرض الواسعة الجميلة يحمل ذكرياتنا الخالدة ، ويشهد بعهدنا الجميل الزاهر ، ومواهبنا النادرة وإنتاجنا الضخم ، لقد كانت هبتنا لهذه البلاد ونصيبنا في ترفيهها وترقيتها وتزيينها يفوق نصيب كل شعب حكم هذه البلاد ، لقد ولدت هذه البلاد في عهدنا ولادة جديدة ، ووصلت إلى أوج الحضارة والتمدن ، ومن أراد أن يعرف ما نقله المسلمون إلى هذه البلاد من ثمرات الحضارة ونتاج العقول وما أضفوا عليها من الجمال والكمال فلينظر إلى ما كانت عليه قبل دخول المسلمين ، ثم يقارن بين ذلك وبين ما تجملت به بعد ما استمر الحكم الإسلامي مدة من الزمان وما هي عليه الآن ، فهذه البلاد بلادنا ، إنه وكرنا الذي نأوي إليه ونطير منه وحقنا عليه حق الطائر على عشه ، وعلى روضته التي ولد وعاش فيها يتمتع بأنهارها وأشجارها ويتغنى بأزهارها وأثمارها ، يجلس على أي غصن شاء ويطير في الأجواء في حرية وانطلاق ومن غير خوف وإشفاق.

فوطنيتنا صادقة ، وحقوقنا المدنية لا تتحدى ولا تناقش ، يجب أن

تكون هذه عقيدتكم ، وأن تكونوا من ذلك على ثقة ووضوح ، لا يخالجكم في ذلك تردد واضطراب ، ولا يساوركم فيه خوف أو ارتياب ، نحن أبناء الهند ، وسنعيش فيها كأبناء وأصحاب البلد ، وسنسهم في تقدمها ورقيها وتحقيق مشاريعها العمرانية ورفع مكانتها السياسية بكل نشاط وحماسة وبكل رغبة وسرور ، وسنظل محافظين على كرامتها وشرفها وروح دستورها ، وسنقوم بواجبنا وإن تخلف عن أداء الواجب كل هندي وكل مواطن فنحن أبناء بررة وقوم أشراف ومواطنون أوفياء ، هذا هو الميثاق الذي أخذناه من نفوسنا ، ونريد أن نجدده في هذا المجلس.

والشطر الثاني من هذا الميثاق ، أننا عاهدنا أن نعيش في هذه البلاد بكل خصائصنا الملية وحضارتنا الإسلامية وشعائرنا الدينية وبأخلاقنا الاجتماعية وبشخصيتنا المسلمة ، لا نتخلى عن شعيرة من شعائرها ، ولا نتنازل عن جزء من أجزائها ، يحرم علينا أن نعيش مجردين عن هذه الخصائص وعن هذه الحضارة وعن هذه الشخصية ، ولا لذة في الحياة ولا خير فيها بعد ذلك ، فإذا لم يكن لنا أن ننقل عقيدتنا وتراثنا الحضاري إلى أجيالنا وأولادنا ، وأن نعلمهم كما تفرضه علينا مبادئنا وعقائدنا الإسلامية ، وإذا لم يكن لنا كذلك أن نقر عيناً بإسلاميتهم ونشأتهم الدينية ، فليست هذه الحياة حياة الأشراف الأحرار فضلاً عن أن تكون حياة المسلمين الأبرار ، إنما هي حياة البهائم والسائمة ، حياة الثيران والحمير والكلاب ، إن الكلب يكفيه أن ينال راتبه من أكل وشرب ، وأن يكون مصوناً عن الأعداء ، وأن يكون حراً في الإنتاج ، وأن ينال شبعه وريّه على يد سيده ، وكذلك يكفي الثور أن ينال علفه وأن يكون آمناً في مربطه أو حراً في غابته ، فإذا تم له ذلك طابت حياته ، وتحققت رغباته ، وكملت حريته ، ولا يفكر في تربية أولاده على أسلوب خاص ، ولا يفكر في عقيدة ينقلها إلى أولاده أو يأخذها بها ، حتى إذا منع من ذلك وحرم فرصه ووسائله ثار واضطرب وتكدر عيشه.

ولكن الإنسان يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فلا يكفيه أن يقطع له من الرزق ، أو يأتيه رزقه رغداً ، ويرتب له غذاؤه وقوته ، وما لا يعيش بغيره ، وأن يحفظه من الاعتداء على النفس والعرض والمال ، إنه يريد أن

يضم إلى ذلك حرية تربية أولاده وتعليمهم ، وأن ينقل إليهم عقيدته وعقليته وثقافته وما يؤمن به من مبادىء ، ويتمسك به من أصول ، ويستميت في سبيله من دين ، وأن يرى أولاده وخلفاءه وأفلاذ كبده على الطريق الذي اختاره لنفسه وآثره على غيره ، لا تسلط عليه عقيدة يكفر بها ، ولا ثقافة يعارضها ، لا يملك من أولاده ومستقبلهم وسيرتهم شيئاً ، يراهم يرتدون عن دينه وينسلخون عن حضارته ، ويتجردون عن خصائصه ، فلنعاهد الله على أن نعيش عيش الأشراف الأحرار ، عيش بني آدم الذين أكرمهم الله بالإنسانية ولا نعيش عيش البهائم الداجنة أو الكلاب المقتناة ، ولا نقتنع بحرية الأكل والشرب ، وضمانة الرواتب وتكافؤ الفرص في قضاء مآرب النفس وتربية الأجسام وتولي الوظائف فحسب ، إننا نرفض هذا الأسلوب من الحياة ، وهذا المنهج من التفكير ، وهذا النوع من الحرية ، وهذا القدر من الوطنية.

سادتي: إن في هذه البلاد منبوذين ينحدرون من الشعوب التي استعبدها الذين فتحوا هذه البلاد قبل آلاف من السنين واضطروهم إلى أن يعيشوا في ظلم وفقر وضعف وسخرية ، يتنجس الإنسان إذا مسهم ويعاب إذا جالسهم ، ويعاقب إذا واكلهم ، إن هؤلاء الأشقياء جنوا على أنفسهم يوم دخل هذه البلاد الفاتحون من أواسط آسيا جناية يحتملون جريرتها إلى هذا اليوم وسيتحملونها إلى قرون وآلاف من السنين ، كان ذلك أنهم آثروا حياة الذل على موت الشرف ، إن الشعوب تخطىء مرة وتعاقب لآلاف من السنين ، لا تريد أن ترتكب هذا الخطأ ، إننا نعاهد على أن نعيش في الهند حياة كريمة شريفة ، لا حياة الكلاب ولا حياة المنبوذين ، إننا لا نعيش فيها حياة العبيد ، إننا أبناء هذه البلاد ، لنا من الحقوق والحظوظ ما لغيرنا . إننا بناة هذه البلاد ومن مؤسسي حضارتها ، وأصحاب الفضل عليها ، وليس لقوة في العالم أن تسلبنا هذا الحق الطبيعي ، وهذا الحق الدستوري ، لقد انقضى عهد الاستعباد والاستعمار ، وليس لشعب أن يستعبد شعباً آخر ، وليس لحضارة أن تقتل حضارة أخرى ، وليس للغة أن تقضي على لغة أخرى ، وقد أصبح العالم اليوم أسرة واحدة لا يخفى ظلم أو اضطهاد في

قطعة أو بقعة ، لقد استيقظ الضمير العالمي فإذا ظلم السود في إفريقية أو الملونون في أمريكا صرخ الضمير العالمي وثار الرأي العام ، إننا نحن المسلمين ـ بصفة خاصة ـ أسرة عالمية منتشرة في الأرض مرتبطة بالعقيدة والدين والأخوة الإسلامية ، ولنا إخوان في جميع بقاع الأرض يتألمون بألمنا ، إننا سنحارب كل ظلم ، وكل ثورة على الدستور ، إننا أمة لا تزال تملك تلك المواهب العظيمة التي خدمت بها الإنسانية وهذه البلاد ، إننا لم نفلس في عقولنا وفي أخلاقنا . إن سحابتنا التي هطلت على الأرض لم تصبح جهاماً ، إنها لاقحة غنية بالماء والخصب .

سادتي: إن الإنسان كثيراً ما يصاب بضعف أو وهن في قرارة نفسه ويتصور مشكلة ويتخيلها ، ثم يراها في الخارج ، وقد يجفل الإنسان من ظله ويذعر من خياله ولا حقيقة له ، ولا وجود في الخارج ، إن قضية التعليم أيها الإخوة سهلة واضحة إذا واجهتموها بشجاعة وقوة وعزم وصرامة ، فقد نص الدستور أن لكل طائفة في هذه البلاد أن تعلم أبناءها دينها ، وعقيدتها المختارة ، وليس للحكومة أن تعطل مؤسسة أو مدرسة أو تقطع عنها المساعدة على أساس أنها تعلم الدين ، فادفعوا التردد وعاهدوا على أنكم تعيشون في هذه البلاد حياة الأشراف الأحرار ، حياة المسلمين بإيمانهم وعقيدتهم ، وثقافتهم وحضارتهم وتعليم أولادهم محافظين على خصائصهم ، وشخصيتهم ، لقد كان لا بد لكم أن تعاهدوا على ذلك ما دمتم مسلمين ، وتتحملون في ذلك كل ما يواجهكم من صعوبة ومحنة ، ولكن من سعادتنا أن دستور البلاد يكفل ذلك ، ويضمن الحقوق المدنية والمساواة لجميع المواطنين وجميع الطوائف والأديان في هذه الجمهورية العلمانية ، وأن تقوموا بأعباء تعليم أولادكم التعليم الإسلامي الديني وتكاليفه ، لأن الحكومة لا دين لها ، وأنها لا تستطيع أن تقوم بتعليم الأديان للطوائف وأن تعتبروا ذلك من أهم واجب عليكم ، وحاجة أشد من حاجة أولادكم إلى الطعام ، والكسوة والتعلم والعلاج ، فإن دينكم يحتمه عليكم ويجعلكم مسؤولين عنه في الدنيا والآخرة .

* * *

ارتباط مسيرة الإنسانية ومصيرها بقيام المسلمين بواجبهم ، ودورهم في تكوين وحدةٍ ، وتوجيه دعوةٍ

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في منظمةٍ إسلامية قياديةٍ ، تمثل العالم الإسلامي في إطارٍ واسعٍ كمّاً وكيفّاً ، وكانت المحاضرة مرتجلةً ، نقلت من الشريط المسجَّل .

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وأصحابه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين.

أما بعد: فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [سورة الأنفال: ٧٣].

أيها السادة! إنني كلما تلوت هذه الآية: وكلما مرَّت بي أثناء قراءة القرآن الكريم ، أثارت فيَّ الدهشة ، وحملتني على تفكُّرٍ وتأمُّلٍ جديدٍ ، لمن يقال هذا؟ وأيُّ وضعٍ كان يسيطر على العالم كلِّه في ذلك الحين؟

كان العالم يعيش عيشةً جاهليةً ، عيشةً ظالمةً مظلمةً ، موبقةً مبيدةً في هذا الجوّ القاتم ، وفي هذه الغاشية التي غشيت العالم كلَّه يقال لحفنةٍ من لبشر[(١)] أنها إن لم تتألف ، ولم تكن وحدةً تلتقي على العقيدة ، والاهتمام بالبشرية ، ومصير العالم ، ولم تصمِّم على إنقاذ البشرية من الانتحار والانهيار ، وعبادة النفس والأهواء ، والطاقات والثروات ، فضلاً عن الأشجار ، والأحجار ، والحيوانات ، والأنهار (كما كان الشأن في بعض البلاد الواسعة المتمدِّنة كالهند) فالعالم كلُّه على خطرٍ ، والإنسانية في الاحتضار.

يقال لهذه الحفنة البشرية: إن لم تتألَّفوا ، ولم تكوِّنوا وحدةً دينيةً

(١) جاء في صحيح البخاري عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «اكتبوا لي من تلفَّظ بالإسلام من الناس، فكتبنا له ألفاً وخمسمئة رجل. فقلنا: نخاف ونحن ألف وخمسمئة. فلقد رأيتنا ابتلينا حتى إن الرجل ليصلي وحده وهو خائف (كتاب الجهاد والسير، باب كتاب الإمام الناس) قال الحافظ ابن حجر: لعلهَّ كان عند خروجهم إلى أحد أو غيرها، ثم رأيت في شرح ابن التين الجزم بأن ذلك كان عند حفر الخندق وحكى الداودي احتمال أنَّ ذلك وقع لما كانوا بالحديبية [فتح الباري: ٢٠٦/٦] والثابت أنَّ سورة الأنفال نزلت بعد غزوة بدر حين كان عدد المسلمين كما سبق أو أقلَّ منه.

إيمانيةً ، دعويـةً جهاديـةً ، مقابل التجمع الكبير والموالاة التي توجد وتشاهد للكفر والجاهلية ، ولم تتضلَّعوا بأعباء الإنقاذ البشريِّ من الجاهلية الوثنية ، العقائدية ، والخلقية ، ولم تقبلوا مسؤوليته ، تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير .

كانت هذه المجموعة الإسلامية الصغيرة التي أعبِّر عنها بالحفنة[1] البشرية ، صغيرةً في القامة كبيرةً في القيمة ، والشأن في القيمة لا في القامة ، كذلك يجب أن يكون شأن الأمة الإسلامية في كلِّ زمانٍ وفي كلِّ مكانٍ ، لأن الاعتبار للروح لا للجسد ، وللعقيدة والإيمان ، لا للعَدد والعُدد ، وللروح السارية في الجسد المسيطرة على العمل والاتجاه ، لا للمظاهر والوسائل .

والعالم البشريُّ الآن يعاني عللاً وأسقاماً ، وموبقاتٍ وأخطاراً لا يوجد لها نظيرٌ في كثير من القرون الماضية ، والعالم الإسلاميُّ نفسه يعاني أهوالاً ومحناً ، فريدةً طريفة ، أنواعاً لم تخطر ببال ، ولم تكن تسنح للخيال ، إنه يعاني مؤامراتٍ ومعارضاتٍ ، وتختلف في الأشكال ، ولكنها تلتقي على نقطةٍ واحدةٍ ، وهي إبادة الأثر الإسلاميِّ ، وأثر التعليمات الإسلامية على العالم الإسلاميِّ ، وإفقاد الثقة بصلاحية الإسلام للبقاء في هذا العهد الراقي المتطور ، فضلاً على صلاحيته لقيادة قطر ، فضلاً عن صلاحيته لقيادة البشرية والمدنية .

وقد التقى في هذا المشروع المدمِّر ، والمخطَّط المبيد ذكاء إسرائيل (وبالأصح شطارة إسرائيل) مع وسائل أمريكا وطاقاتها ، التقى هذان العنصران القويان المبيدان على محو الأثر الإسلاميِّ ، حتى في العالم الإسلاميِّ ، وفي الأقطار الإسلاميَّة ، العريقة في الإيمان بالإسلام ، والتضلُّع بالدعوة الإسلامية ، ونشرها في العالم ، وذات الحمية الإسلامية ، والغيرة الدينية ، والنضال الإسلاميِّ ، وذات الثروات الواسعة الغنية في العلوم الإسلامية الدينيَّة ، والعلمية ، السنِّية ، والفقهية ،

---

(١) الحَفنة والحُفنة : ملء الكفين من الشيء .

والأدبية ، والتي قامت في بعض الفترات التاريخية بمقاومة الهجمات ، والزحفات المتحدية لبقاء الإسلام والمسلمين ، «كالهجوم الصليبيِّ الفاتك ، والزحف التتاري المبيد»(١) .

وكان ذكاء إسرائيل واستعراض أمريكا للواقع (رغم وجود تناقض من أشدِّ التناقضات في العقيدة فيما يتصل بنبي الله عيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ مصيبين في اختيار هذا العنصر الوحيد الذي يهدِّد الاستعمار الأجنبي ، والتخطيط الأجنبي المدمِّر ، وقد جاء تقرير المصير للأمم والشعوب في أيدي حكومةٍ عالميَّةٍ ، ذات وسائل تجاريةٍ ، ووسائل سياسيةٍ ، ووسائل مدمِّرة ، مع أن مستقبل الإنسانية متوقفٌ على بقاء المسلمين ، هم يوجهون العالم إلى ما فيه السداد ، وإلى ما فيه الرشاد ، وإلى ما فيه السعادة ، وإلى ما فيه النجاة الأخروية ، والسلامة الدنيويَّة ، وإلى ما فيه التآلف والتعاطف ، والتعاون على البرِّ والتقوى .

ثم هناك معركةٌ حاميةٌ أخرى غير طبيعيةٍ ، وغير معقولة . وهي التي استنزفت جهود القادة والسادة ، وولاة الأمور والمفكرين في البلاد الإسلامية ، وهي المعركة الحامية بين الشعوب والجماهير ، والحكومات ، فالحكومات تتجه إلى العلمانية والقومية ، وتنفيذ الحضارة والقيم الغربية ، والثقافة الحرَّة الخاضعة للقيم الغربية ، أو المستوردة من الأقطار الغربية في الأقطار الإسلامية ، والإشفاق والحذر من كل ما يتصل بمطالبة تنفيذ الشريعة المحمدية ، والفكر الإسلامي ، والحضارة الإسلامية في المجتمع الإسلامي ، والبلد الإسلامي .

ونشأت عند قادة الأقطار الإسلامية حساسيةٌ زائدةٌ في هذه القضية ، فالحكومات تتجَّه الاتجاه الغربيَّ العلمانيَّ ، أو القوميَّ ، والشعوب تتجه

---

(١) قامت مصر بدور رائع حاسم في مقاومتهما وبتراجعهما . والفضل في الأول يرجع إلى صلاح الدين الأيوبي الذي كان حاكماً في مصر عند زحف الصليبيين ، وفي الثاني يرجع إلى السلطان ظاهر بيبرس حاكم مصر الذي هزم الجيش التتاري . واضطره إلى التراجع حين كانَ المثل السائر : «إذا قيل لك إن التتر انهزموا فلا تصدّق» .

الاتجاه القديم الإسلاميَّ ، فلا الحكومات نجحت في جرِّ هذه الشعوب والجماهير المسلمة إلى الابتعاد عن جادة الإسلام ، ولا الجماهير نجحت في إقناع هؤلآء الحكام والمشرِّعين باستخدام الطاقة الذرّية الهائلة ، التي هي كامنةٌ في نفوس الجماهير المسلمة ، وهي قوة الإيمان ، والشوق إلى الشهادة ، وطلب الأجر من الله والدخول في الجنة ، القوة الكامنة التي لا بديل لها ، والتي يرجع إليها فضل البطولات الخارقة للعادة ، المحيِّرة للألباب ، والتي أشار الله إليها بقوله :

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [سورة النساء : ١٠٤] .

فالمطلوب من القيادات الإسلامية الدعويَّة ، والفكريَّة ، والثقافيَّة ، مهما صغر حجمها ، ومهما اعترضت لها عوائق ومشكلاتٌ ، ومطارداتٌ ومعوّقاتٌ ، أن تخلِّص بلادها ومجتمعها من هذا النضال القياديِّ الفكريِّ ، والتشريعيِّ ، والتنفيذيِّ ، والحضاريِّ ، والسياسيِّ ، الذي هو في غير أوانه ومكانه ، وتجمع الكلمة والعزيمة على مقاومة النفوذ الغربيِّ ومخططاته السلبية المشفقة من النفوذ الإسلاميِّ ، والكارهة له ، وتجمع الكلمة والطاقات الكامنة في نفوس الجماهير المسلمة ، وتوقد الشرارة الإيمانية في نفوس المسلمين التي صنعت العجائب ، وجاءت بخوارق في التاريخ الإسلاميِّ ، بل التاريخ البشريِّ الطويل ، ولا تقابلها الطاقة الذريَّة المبيدة السلبية ، ولا تنظر في ذلك إلى حجمها ونطاق وسائلها ، وكثرة العوائق والمؤامرات ، واختلاف الزمان والمكان ، ولتكن الآية التي حلَّينا بها هذا الحديث نصب عينها ، ومثيرة عزمها ، وغيرتها .

﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [سورة الأنفال : ٧٣] .

* * *

الأمم والحضارات
لا تعيش إلا بالشخصيات والرسالات

هذه كلمة ألقاها العلامة الندوي رئيس وفد رابطة العالم الإسلامي إلى دول آسيا الغربية في حلفة أقامها في تكريم الوفد سعادة الشيخ محمد حمد الشبيلي سفير المملكة العربية السعودية في أفغانستان، وذلك في ليلة يوم السبت الموافق ٨/ يونية ١٩٧٣، بفندق كابول.

وقد حضر هذه الحفلة أكثر سفراء الدول العربية والإسلامية وعدد من وزراء أفغانستان ورجال الحكومة وأعيان البلاد والعلماء والمشايخ وأساتذة الجامعة والكليات.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، حضرات السادة الأجلاء!

إنني أنتهز الفرصة الكريمة فأحيي هذه المجموعة الطيبة النقية المصطفاة باسم رابطة العالم الإسلامي التي أتشرف بتمثيلها وباسم الوفد الذي يزور هذه البلاد العزيزة الحبيبة ، وأشكر أهل هذه البلاد حكومة وشعباً على الحفاوة النادرة التي لقيناها منهم ، وعلى كرم الوفادة ، ودماثة الخلق التي قابلونا بها ، ولا غرابة في ذلك ، فالكرم أصيل ، وقديم في هذا الشعب ، وقديماً قالت العرب : «الشيء من معدنه لا يستغرب» وقد تجلت هذه الروح الطيبة ـ بمعناها الواسع ـ في بطولات هذا الشعب ومغامراته وإداراته وحكوماته ، وهي التي دفعته قديماً إلى اجتياز حدود بلاده واختراق هذه الجبال الشاهقة يحمل مشعل الإسلام والثقافة والحضارة وحسن الإدارة إلى الهند ، وقد عشت في تاريخه وأمجاده وأخباره زمناً طويلاً ، وكان من المعقول والمتوقع جداً أن أزور هذه البلاد قبل هذه الزيارة بمدة طويلة بحكم وجودي في الهند البلد المجاور ، ولكن أراد الله أن تتأخر هذه الزيارة إلى هذا الوقت ، ولعل لله في ذلك حكمة خفية .

أيها السادة الأجلاء :

لقد كان العرب في العهد القديم يستبعدون هذه البلاد ويضربون بها المثل في البعد وصعوبة الوصول ، وكانوا يسمون هذه المنطقة الشرقية كلها «خراسان» فقال شاعرهم :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول ، فقد جئنا خراسانا !!

وها قد وصلنا خراسان ، ودخلنا في أفغانستان ، وزرنا هذه الأرض الطيبة الجميلة التي أكرمها الله بجمال الطبيعة ، وجودة المناخ ، وكثرة الخيرات ، وقد قال الشاعر العربي :

ولما نزلنا منزلا طله الندى أنيقاً وبستاناً من النور حاليا
أجد لنا طيب المكان وحسنه منى ، فتمنينا فكنت الأمانيا

وقد كان هذا شأننا عند ورودنا هذه البلاد والشيء بالشيء يذكر ، فقد ذكرتنا هذه البلاد وما حباها الله من الحسن والإحسان شخصية كان لها من الفضل في هذه الحياة الجديدة شخصية نقلتنا من حياة إلى حياة ، ومن عالم إلى عالم، ومن طور إلى طور ، ألا وهي شخصية سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، فقد كنا جسداً ولا روح ، واسماً ولا مسمى ، وصورة ولا حقيقة ، شعوباً لا غاية لحياتها ولا رسالة ، فأفاضت وأضفت هذه الشخصية الحبيبة على هذه الأمم والشعوب شخصية جديدة ومنحتها رسالة جديدة ، أما الشخصية فهي الشخصية الإسلامية القوية التي تجمع أفضل صفات الإنسان ، وعناصر القوة والفتوة والخلق ، وأما الرسالة فهي الرسالة التي عبر عنها رسول العرب المسلمين في مجلس يزدجرد إمبراطور إيران خير تعبير فقال لما سأله الإمبراطور : ما الذي جاء بكم؟ «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» .

يا أصحاب السعادة السفراء ويا أصحاب المعالي الوزراء !

إني أنظر إليكم كممثلين حقيقيين للشعوب والأقطار التي تمثلونها سياسياً وإدارياً ، وأتمنى أن تكونوا أكثر من ذلك وأعظم ، وأعتقد أن مهمتكم يجب ألا تقتصر على الأعمال الرتيبة و«الروتينات» .

إن الشرق يطلب منكم مجالاً أوسع من هذا المجال ، وعملاً أضخم من هذا العمل. إن الشرق اليوم يعيش على هامش الحياة وفي مؤخر الركب ، وإن الغرب يأمره فيطيع ، ويقول فيسمع ، ويقوده فينقاد ، ويعلمه فيتعلم ، لأنه يعيش على فتات مائدته ، إنه لا شخصية له ولا رسالة ، والأمم والحضارات لا تعيش إلا بالشخصيات والرسالات ، فيجب أن تبحثوا لهذا الشرق عن شخصية ورسالة ، شخصية فيها القوة والثقة ، شخصية فيها الأصالة والاستقلال ، شخصية فيها الجدة والابنكار ، شخصية فيها الاعتداد والاعتزاز ، ورسالة فيها الإخلاص والنزاهة والعطف والرحمة والعدل والمساواة والإخاء والسلام ، وإنكم لا تحتاجون إلى أن تبعدوا النجعة ،

وتشقوا الشعرة ، فإن هذه الرسالة بمتناول يدكم وبمقربة منكم ، وهي رسالة الإسلام التي أكرمكم الله بها ، وحملكم إياها ، ولسنا في حاجة إلى دين جديد ، إنما نحن في حاجة إلى إيمان جديد بهذا الدين ، ولسنا في حاجة إلى رسالة جديدة ، وإنما نحن في حاجة إلى حماس جديد لهذه الرسالة ، إننا في حاجة إلى تقوية هذه الشخصية الإسلامية ، وتنميتها حتى يعيد التاريخ نفسه ، ويرتد الدهر على أعقابه !

ومعذرتي إليكم إذا كنت تجاوزت حدودي وموضوع هذه الحفلة ومقاصدها ، وإذا بدرت مني كلمة لا تليق بمقامكم السامي ، فللغريب حديث يحتمل، وللضعيف حق لا ينكر.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

بيــن الــديــن والــمــدنيـــة

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة القيمة في الجامعة الملِّية الإسلامية بنيودلهي (الهند) عام ١٩٤٢ م ، حضرها نخبة من كبار العلماء وأساتذة الجامعات .

نالت هذه المحاضرة إقبالاً عظيماً في الأوساط الدينية والدعوية في الهند وخارجها .

نقلها إلى العربية الأستاذ شمس الحقِّ الندويُّ .

تساؤلاتٌ مشتركةٌ بين الدِّين والفلسفة والمدنيَّة :

للدين والفلسفة والمدنية تساؤلات مشتركة متشابهةٌ ، يقوم أساس كلٍّ منها على جوابها ، مثلاً : ما هو مبدأ هذا الكون ومصيره؟ هل هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة؟ فإن كانت فما هي طبيعتها؟ وما هي تعليماتها ووصاياها في هذه الحياة؟ ثمَّ ما هي مكانة هذا الكون من حيث المجموع ، ومن الذي يديره بمثل هذه الدقَّة والنِّظام ، والحكمة البالغة الشَّاملة ، والقانون المحكم المتين؟ وما هي صفاته وصِلتهُ بالإنسان؟ وماذا ينبغي للإنسان أن تكون علاقته به؟ وهل هناك قانونٌ خلقي عدا قوانين الطبيعة الدائرة في العالم؟ فإن كان فما هي تفاصيله؟ وما هي مكانة الإنسان الصحيحة ، ومنصبه في هذا الكون؟ هل هو حرٌّ طليقٌ لا يتقيَّد بقيودٍ وأحكام ، أم هو تابعٌ محكومٌ؟ هل هو مسؤول أمام أيِّ قوةٍ ومحكمة أخرى ، أم أنه حرّ طليق لا مسؤولية عليه؟ ثمَّ ما هو أسمى مطلوبه؟ .

هذه الأسئلة الأساسية الأوليَّة ، هي التي لا يستطيع أن يهملها أو يصرف عنها النظر ـ ولو للحظة ـ أيُّ نظامٍ له صلةٌ بأعماق الحياة ، وتتعمَّق جذوره إلى نفس الإنسان وعقله ، وتتشعب فروعه ، فتسع جميع أجزاء الحياة الإنسانية ، وتحيط بجميع نواحيها وجوانبها .

الدِّين يدَّعي أنَّه يضمن الإجابة على هذه الأسئلة بحتميَّةٍ ووضوح ، والفلسفة تبحث عن هذه المسائل ، والمدنية (بمعناها الواسع العميق) تقيم بناءها على هذه الأسس والمبادىء ، إننا لا نستطيع أن نبتَّ في أيِّ مسألةٍ من المسائل الحقيقية للحياة قبل أن نردَّ على هذه الأسئلة ، كما أنَّنا لا نستطع أن نُعِدّ أيَّ تخطيطٍ للمدنية والاجتماع بدون ذلك ، وكلُّ مدنيةٍ أو حضارةٍ مهما كانت سطحية مادِّية، تضمن جانباً من جوانب الإجابة على هذه التساؤلات ، الأمر الذي يقوم مقام الحجر الأساسي لبنائها ، ويؤثِّر من أعماق أساسها إلى ذروة قصورها وقمَّتها على السواء ، فمن هذا المنبع الفكري تنبع جميع

منابع حياتها ، وتتعين اتجاهاتها. إنَّ الاجتماع ، والمعاملات ، والأخلاق ، والسياسة ، والقانون ، والعلم ، والفلسفة ، والتربية ، والثقافة ، وما عدا ذلك من مظاهر الحياة الخارجية منها والداخلية ، كلُّ ذلك ظلّ لهذه الفكرة الأساسية ، فإن كنت على خبرةٍ بأنَّ أمَّةً أو مدنيَّةً اختارت في الإجابة على هذه الأسئلة المذكورة الجانب الفلاني؛ يتسنى لك أن تقوم أنت بنفسك بملء كلِّ فراغ أو خليّةٍ تتضمنها حياتها ، أما إذا كانت عندك معرفةٌ دقيقةٌ لخصائص حياةٍ خاصَّةٍ ، أو مدنيَّةٍ خاصَّةٍ؛ تستطيع أن تتوصَّل إلى الجانب الذي اتخذته ، أو المنهج الذي انتهجته في الإجابة على هذه الأسئلة.

إنَّ هذه الأسئلة تنبع من الفطرة الإنسانية ، وتاريخها قديمٌ كقدم الإنسان ، ولقد انبعثت هذه التساؤلات في كلِّ عهدٍ من عهود التاريخ ، وأُجيبَ عليها كذلك ، ثمَّ قامت على أساس هذه الأجوبة فلسفاتٌ وحضاراتٌ مختلفةٌ ، وظهرت نظمٌ عديدةٌ للحياة تقوم بدراستها حيناً لآخر ، وطالما لا تسمح لنا رسومها الظاهرة وزخارفها البارزة بأن نقوم بتحليل عناصرها الأولية ، نطَّلع على طبيعتها التي تمتاز بها عن المدنيات الأخرى.

وهنا نقف وقفةً قصيرةً ، ونبحث عن الوسائل التي تساعدنا في الإجابة على هذه الأسئلة ، وكيف واجهها الناس من قبل ، ولكي نردَّ عليها يجب أن نتفقَّد قوانا ومداركنا قبل كلِّ شيء؛ التي تعيننا على الإجابة الصحيحة على هذه التساؤلات.

وسائل الجواب ونقدها عمليا:

الحواس: إنَّ الحواسَّ الخمس هي الموهبة الكبرى العامَّة التي منحها الله إيانا لاكتساب العلم والمعرفة ، والتي نتمكن بها من اكتساب علم اليقين[1]؛ إذ ليست عندنا معارف ومعلوماتٌ أكثر بداهةً وقطعيَّةً من

(١) إنَّ كثيراً من فلاسفة الغرب يقولون: إنَّ الحواسَّ وسيلةٌ ضعيفةٌ مشكوكٌ فيها ، لا يعتمد عليها ، يقول نكولاس مليبرانش (Nicolas Malebranche) أحد علماء القرن السابع عشر في كتابه «البحث عن الحق»: إنَّ أكبر مصدر للخطأ هو اليقين =

المحسوسات ، وإننا لم نكتشف هذا العالم ، ولم نرتبط به إلا عن طريق هذه الحواسِّ؛ التي اطَّلعنا بها على كثيرٍ من القوانين الطبيعية ، والظواهر الكونية ، عندنا ذخائر كبيرةٌ من المناظر والمسموعات ، ومن المرئيات والمحسوسات ، ولذلك فلا بدَّ من التفكير في الأسئلة المذكورة أعلاه من جديد والتوصُّل إلى حلِّ كلِّ سؤالٍ بقوَّة هذه الحواس.

أفهل نستطيع أن نفعل ذلك؟ إذاً فلنبدأ بالسؤال الأول: ما هو مبدأ الإنسان ومصيره؟ وأعني بذلك: كيف بدأ العالم ، وإلى ما ينتهي ، ويصير؟ هل تساعدنا في التوصل إلى الإجابة الصحيحة في هذا الباب أبصارنا ، وآذاننا ، وهل تفيدنا حاسَّة اللمس ، وحاسَّة الذوق ، وحاسَّة السمع ، وحاسَّة الشمِّ في هذا الصَّدد فائدةً ما ، ولو فرضنا أنَّ هذه الحواس سليمة وقوَّية.

إنَّنا نشاهد أنَّنا لا نستفيد من هذه الحواسِّ سوى وجودنا في مكانٍ معين ، فإنَّ هذه القوى كلَّها تنتهي إلى حدٍّ خاصٍّ أولاً وآخراً ، ولا تتخطَّى هذه الحدود التي رسمتها الفطرة. إنَّنا لا نستطيع أن نبصر إلا في مساحة معيَّنة ، أمَّا ما عداها؛ فيرجع إلينا البصر خاسئاً وهو حسير ، وكذلك قوتنا السَّامعة لا تعمل إلا في نطاقٍ محدودٍ معلومٍ ، أمَّا قوى الحس الأخرى؛ فهي أضعف وأقصر مدىً من القوَّتين السابقتين.

هل هناك حياةٌ بعد هذه الحياة ، أم لا؟ هذا السؤال لا يدخل في

= الخاطىء بأنَّ الحواسَّ إنَّما أعطيت لأغراضٍ عمليَّةٍ تكشف لنا حقيقة الأشياء.
ويقول مونتين(Montaigne): إنَّ علم الإنسان لا يزال ناقصاً ، وإن حواسَّه مشكوكٌ فيها ، قابلةٌ للخطأ ، إننا لا نستطيع أن نقول: إنَّ الحواسَّ كشفت لنا الحقيقة. إنَّ العالم يبدو للحواس مطابقاً لطبيعة هذه الحواس ووضعها. إنَّ الحواس الظاهرة لا تدرك الأشياء الخارجية إدراكاً كاملاً ولا تستوعب حقيقتها. إنَّ جلَّ عملها أن ترى طريقةَ إدراكها لهذه الأشياء ، ونحن في حاجةٍ إلى أن تكون عندنا آلةٌ نعرف بها صدق هذه الحواس وكذبها قبل أن نجزم بصحة هذه الحواس في عمليتها ، وهذه الآلة كذلك في حاجة إلى آلةٍ أخرى تنقدها ، وتحكم عليها بالصَّحة والخطأ. ودواليك إلى غير نهاية.

اختصاص هذه الحواسِّ وفي نطاقها ، فهي لا تستطيع أن تردَّ عليه بإثباتٍ أو نفيٍ ، وذلك لأنَّ هذه الحواسَّ تابعةٌ لهذه الحياة ، داخلةٌ ومحدودةٌ في نطاقها ، فهي لا تستطيع أن تحكم على شيءٍ خارج هذا النطاق سلباً ، أو إيجاباً ، أو تقوم بتصديق أو تكذيب شيءٍ ، وجلُّ ما يمكن عن طريقها هو إنكار وجودها الحسِّيِّ ، لا وجودها المطلق ، فهل هما اسمان لشيءٍ واحدٍ ، والذي ليس محسوساً لا يكون موجوداً! وهل نحن في حياتنا اليومية نعمل بهذا المبدأ ، فالذي لا نحسه لا نؤمن بوجوده؟ كلا! لأنَّ الأمر إذا كان كذلك لن يوجد أيُّ فرق بين الإنسان والحيوان ، وينهار بناء العلم والمدنية انهياراً كليّاً ، فإن كنا لا نستطيع أن ندرك الحياة الآخرة بحواسِّنا؛ فكيف ندرك تفاصيلها ، وأحوالها الأخرى الكثيرة؟

وكذلك إذا وجَّهنا إلى الحواس السؤال عن هذا الكون من حيث المجموع : ما هو؟ نجدها عاجزةً عن الإجابة عليه. إنَّ الحواسَّ تتمكن من إخبارنا بأجزاء هذا الكون ، وكسوره ، ولا شكَّ أنَّ لهذا الكون مئات من الكسور والأجزاء ، تدركها الحواسُّ ، ولا نزال ندركها بحواسِّنا أيضاً ، ولكن هل تستطيع حواسُّنا أن تكشف لنا عن الرابطة التي تربط بين هذه الوحدات الكثيرة المتناثرة ، فتجعل منها وحدةً متناسقةً متَّزنةً ، كما أنَّها تكشف لنا السبب الحقيقي لهذا الترابط والاتزان ، والمركز الأصيل لهذا العالم ، ذلك الذي يكتسب منه هذا العالم الحياة والقوة والنور ، والارتباط بين العناصر المتناقضة ، والتنظيم بين الأجزاء المتفرقة ، وهكذا يمكن أن نكسب جانباً من العلم بقوانين الطبيعة عن طريق حواسِّنا؛ لأننا نشاهد كثيراً من نتائجها وآثارها ، ونحسُّ بها ، وكثيرٌ منها ما نعلمه بالبداهة ، إنَّنا نجرب كلَّ يوم أنَّ النار تحرق ، وأنَّ الماء يروي الغليل ، والسُّمَّ يقتل الإنسان ، أمَّا في مجال الأخلاق؛ فليس عندنا من التجارب والمشاهدات ما نستطيع بها أن نقطع بنتائج الأعمال والأخلاق وخواصِّها ، ونصل بها إلى علمٍ يقينيٍّ ، كما كان شأننا مع النار ، والماء ، والسمِّ ، والدواء في دائرة المحسوسات ، فنعرف أنَّ الظلم مرتعه وخيمٌ ، وأنَّ الكذب ، والخيانة ، والجنايات الخلقية تجرُّ على صاحبها الوبال ، وأنَّها أخلاقٌ ذميمةٌ؛ لأنَّ ذلك

لا يدرك بالحواسِّ ، إنَّ ذلك يحتاج إلى وجدانٍ خلقيٍّ ، أو إيمان دينيٍّ ، والشعور الذي يحصل لنا منه يختلف عن الشعور بوهج النار ، وباحتراق اليد ، وألمها.

وكذلك فيما يتصل بالإنسان ، فإنَّه يتراءى لنا حرّاً طليقاً حبله على غاربه ، يبدو غير مسؤول أمام أيِّ محكمةٍ أو حكومةٍ غير إنسانية ، لا فرق بينه وبين السوائم وسائر الحيوانات ، غير أنَّه ناطق ، أو أنَّه حيوانٌ راقٍ ، ليست له غايةٌ أسمى من أن يحقق شهواته البهيمية بذكائه الإنسانيِّ ، ويمعن في نهب اللذات بكلِّ ما يملك من وسائل.

هذا هو العمل الطبيعيُّ لحواسِّنا الظاهرة ، وتلك هي نتائجها الطبيعية ، ولا أتحدَّث الآن عن مصير البناء الذي يقوم على الاعتماد على هذه الحواسِّ وحدها ، وعن مدى الضعف في بنيانه ، والاعوجاج في جدرانه؛ إذا قام هذا البناء الحضاريُّ على هذه المحسوسات فقط.

العقل:

إنَّ الشيء الوحيد الذي يقف حدّاً فاصلاً بين الإنسان والحيوان هو العقل.

جلُّ هذه القضايا التي تحدَّثنا عنها هي القضايا الإنسانية التي تؤثر في مصيره ، لذلك نرجع إلى العقل الإنساني ، ونلاحظ هل نستطيع أن نحلَّ لُغْزَ الحياة الإنسانية والكون عن طريقه؟ إنَّنا لو نقدنا العقل نقداً عقلياً جريئاً ، مجرَّدين عن سيطرة العقل على العقل ، نرى أنَّ العقل وحده عاجزٌ في أداء وظيفته الطبيعية ، بل هو مضطرٌّ إلى الاستعانة بأشياء هي أقلُّ منه قيمةً ، ففي إدراك ما لم يدركه العقل من قبل ، يحتاج إلى استخدام المعلومات التي حصلت له مسبقاً ، ولا تكون هذه المقدِّمات إلا المحسوسات ، فلو حلَّلت المعقولات كلُّها تحليلاً دقيقاً ، وسمعت قصة رحلة العقل الطريفة والطويلة المدى؛ عرفت أنَّ وسيلة العقل في اكتشاف العوالم الجدد والغوص في البحار المجهولة؛ إنما هي هذه المحسوسات التي تبدو تافهةً حقيرةً ، والمعلومات البدائية التي لولاها ولولا ترتيبها ترتيباً خاصاً؛ لما وصل العقل

إلى هذه النتائج الخطيرة ذات القيمة الكبيرة ، فحيث تشلُّ الحواس البشرية ، وحيث لا تكون لدى الإنسان ذخيرةٌ من معلومات ، وإذا كان في أمر على جهل تامٍّ بمبادئه ، فهنالك يعجز عقله عن شقِّ الطريق إلى الأمام ، والوصول إلى نتيجةٍ في هذا الموضوع كما يعجز أحدنا عن أن يعبر البحر من غير سفينة ، وأن يطير في الجوِّ من غير طائرة .

فإن شئت جربت ولا تخطئك التجربة ، هب أنَّ رجلاً ذكياً فطناً ليست له معرفة بمبادىء العلوم الرياضية الأولية ، حتى إنه لا يعرف العدد ، لا يستطيع مثل هذا الرجل أن يحلَّ معضلةً من المعضلات الرياضية ، ولو كان على جانبٍ كبيرٍ من الذكاء والألمعية ، كذلك من لم يكن عنده معرفةٌ بالأصول الموضوعة في علم الإقليدس؛ لن يسعه أن يثبت شكلاً من الأشكال ، ولو كان هذا الرجل على قمَّةٍ من الذكاء والفطانة ، كذلك إذا كان الرجل يجهل حروف لغةٍ من اللغات وخطِّها؛ لم يستطع أن يقرأ سطراً من السطور التي كتبت في هذه اللغة ، ولو صبَّ ذكاءه ، وأمعن في القياس ، فالذي لا يعرف مفردات لغةٍ لا يستطيع أن يفهم عبارةً من عبارات هذه اللغة بمجرَّد ذكائه ، أو بقوَّة قياسه ، وعلى ذلك تقاس مبادىء كلِّ فنٍّ وعلم .

فلنرجع الآن إلى التساؤلات السالفة الذكر ، إنَّها ذات الصلة الوثيقة بما بعد الطبيعة ، أو بعالم الغيب على تعبير الديانات وأهلها ، فهل عندنا معلوماتٌ وتجارب حول قضيةٍ من هذه القضايا ، كبداية هذا العالم ونهايته ، وكالحياة بعد الموت ، وهذا الكون ، وخالقه ، ومدبِّره؟ وهل عندنا معلوماتٌ عن ذاته وصفاته ، وغاية الخلق والضوابط الخلقية ، ومركز الإنسان ومكانته؟ أيُّ قضية من هذه القضايا نملك فيها شيئاً من المعلومات الأولية والتجارب العملية ، أو نملك فيها مبادىء نتوصل بها إلى نهاياتٍ ونتائج؟

يجب أن يكون موقف العقل من هذه القضايا كلِّها أن يسكت سكوت المحايد؛ إذ لا يسعه أن يثبت هذه المسائل بقوَّته ، أو يأتي لها بشرح ، كما لاحقَّ له قانونياً أن يتناولها بالإنكار من أجل عجزه عن إثباتها وتقريرها ،

كالأعمى لا يسوغ له أن ينكر مشاهداتٍ وتجارب رجلٍ بصيرٍ على أساس عدم إبصاره لها ، فلا يخوِّل له عاقلٌ هذا الحق ، وأكثر ما يستطيع أن يفعل هو أن ينكر مشاهداته الشخصية ، كذلك ليس للأعمى حقٌّ في أن يتناول مشاهدات البصير بالشرح والتفصيل ، فإنَّه لا سبيل له إلى ذلك لعماه ، وليس في استطاعته؛ إذ أنه لا يدركها إدراكاً ما ، لكنَّ الفطرة الإنسانية غيرُ قانعةٍ ، وطبيعتها : الفحص ، والتجسُّس ، ومحاولة إدراك ما لم تدركه ، ولذلك فإنَّها بدأت بالتجسُّس في هذه المسائل الخاضعة لطبيعتها ، والعامل القويُّ الذي حرَّضها على عملها هذا هو إعجاب أدعياء العقل بعقولهم ، فأجابت عليها بعقلها ، وفهمها ، وقياسها ، وعيَّنت لها تفاصيلها ، وذلك القياس والتقعير هو الذي يسمَّى بالفلسفة .

الـفلسـفـة :

وسوف لا يكون أيُّ اكتشافٍ علميٍّ لأيِّ طالبٍ متمتِّع بالفطرة السليمة في تاريخ العلم الإنسانيِّ كلِّه أبعث على الغرابة من اكتشاف أنَّ الفلسفة التي تدَّعي أنَّها مؤسسةٌ على العقل والاستدلال ، وعلى الأصول المنطقية؛ استمرَّت نحو ألفي سنة وخمسمئةٍ(١) في البحث عن قضايا لم تكن لديها أيُّ معلوماتٍ عنها ، حتى عن مبادئها الأولية ، وظلَّ النوابغ والأذكياء تائهين إلى هذه المدَّة الطويلة وراء غايةٍ لم يكن عندهم من معالمها شيءٌ ، إنَّهم بحثوا عن ذات الله وماهيته ، وعن صفاته وحقيقتها ، وعلاقتها بالذات ونسبتها إليها ، وكيفية ظهور هذه الصفات ، وصدور أفعال الله وكيفيتها ، وحدوث العالم وقدمه ، وعن الحياة بعد الموت ، وعن قضايا أخرى من الإلهيات ، وما بعد الطبيعة في ثقةٍ وقطعيَّةٍ وتفصيلٍ وتدقيقٍ ، مما لا يوجد إلا عند الخبير الكيماوي لدى قيامه بالعمل التحليلي والتجارب الكيماوية .

ومما يبعث على الاستغراب : أنَّ الناس لم يتفطَّنوا لهذا الخطأ في حياة الفلسفة الطويلة ، ولم ينتبهوا لهذا الخطأ المبدئيِّ بالرَّغم من جولتهم في

---

(١) مات سقراط سنة ٣٩٩ ق . م . وكانت قد ظهرت الفلسفة إلى حيز الوجود من قبل .

ميدان النقد والبحث بكلِّ حرِّيَّةٍ ، وكذلك لا توجد في مكتبة الفلسفة الضخمة أسماء فلاسفةٍ رفعوا أصواتهم ضدَّ هذه الطريقة الخاطئة إلا نادراً جداً.

وهذا الإمام الغزاليُّ الذي كان مطَّلعاً على حدود العقل اطلاعاً جيِّداً ما كان ركونه إلى التصوُّف ومشاهدة الحقِّ إلا بعد أن عرف عجز الفلسفة واندحارها ، إنَّه صرَّح في مؤلفاته في عدَّة مواضع بأنَّ علوم الفلسفة في العلوم الإلهية ومسائلها ظنونٌ وتخميناتٌ لا أساس لها ، بخلاف علومهم الطبيعيَّة والرياضيَّة. يقول في كتابه: «تهافت الفلاسفة»: «إنهم يحكمون بظنٍّ وتخمينٍ من غير تحقيقٍ ويقينٍ» ، ومن الغريب أنَّ الغزالي لم يتخذ هذا المبدأ أساساً للنقد في نفس هذا الكتاب الذي يختصُّ بالردِّ على آراء الفلاسفة وأفكارهم في الإلهيات ، بل جعل أساس النقد تناقض أقوال الفلاسفة ، واختلافها ، وتهافت أدلتهم العقلية.

والذي تفطَّن لهذه النكتة في تاريخ الفلسفة العربية تفطُّناً جيداً ، وقرَّر في دقةٍ وبلاغةٍ أنَّ بضاعة الفلاسفة في الإلهيات وما وراء الطبيعة بضاعةٌ مزجاةٌ ، هو نابغة العرب عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨ هـ ـ ١٤٠٦ م) الذي لم يكن فيلسوفاً مشهوراً في علوم ما بعد الطبيعة ، في معنى المصطلحات الفنِّيَّة الضَّيقة ، ولكنَّه كان حكيماً مفطوراً على العمق وسلامة الذوق ، وكان قد رزق عقلاً كبيراً ، لا يقبل ذهنه السليم شيئاً معوجاً مفترضاً ، إنه تناول هذا الأصل بالنقد في عدة مواضع من مقدمته الشهيرة ، وكان عارفاً بحدود العقل ، وبالمناسبة نقتطف من مقدمته ما يوضح الموضوع ، يقول رحمه الله:

«ولا تثقنَّ بما يزعم لك الفكر من أنَّه مقتدرٌ على الإحاطة بالكائنات وأسبابها ، والوقوف على تفصيل الوجود كلِّه وسفِّه رأيه في ذلك ، واعلم أنَّ الوجود عند كلِّ مدركٍ في بادىء رأيه منحصرٌ في مداركه لا يعدوها ، والأمر في نفسه بخلاف ذلك والحقُّ من ورائه ، ألا ترى الأصمَّ كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع والمعقولات ، ويسقط من

الوجود عنده صنف المسموعات ، وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنده صنف المرئيات ، ولولا ما يردُّهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقرّوا به ، لكنَّهم يتَّبعون الكافة في إثبات هذه الأصناف ، لا بمقتضى فطرتهم ، وطبيعة إدراكهم ، ولو سئل الحيوان الأعجم ، ونطق؛ لوجدناه منكراً للمعقولات ، وساقطةً لديه بالكليَّة.

فإذا علمت هذا؛ فلعلَّ هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا؛ لأنَّ إدراكاتنا مخلوقةٌ محدثةٌ ، وخلق الله أكبر من خلق الناس ، والحصر مجهولٌ ، والوجود أوسع نطاقاً من ذلك ، والله من ورائهم محيط؛ فاتَّهم إدراكك ومدركاتك في الحصر ، واتَّبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك ، فهو أحرص على سعادتك ، وأعلم بما ينفعك؛ لأنَّه من طورٍ فوق إدراكك ، ومن نطاقٍ أوسع من نطاق عقلك ، وذلك ليس بقادحٍ في العقل ومداركه ، بل العقل ميزانٌ صحيح ، فأحكامه يقينيةٌ لا كذب بينها ، غير أنَّك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد ، والآخرة ، وحقيقة النبوة ، وحقائق الصفات الإلهية ، وكلَّ ما وراء طوره ، فإنَّ ذلك طمعٌ في محالٍ ، ومثال ذلك : رجلٌ رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال ، وهذا لا يدرك ، وهو لا يدلُّ على أن الميزان في أحكامه غير صادقٍ ، لكن العقل قد يقف عنده ، ولا يتعدَّى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته ، فإنَّه ذرةٌ من ذرات الوجود»[١].

وقد أشار إلى ذلك العالم الكبير شيخ الإسلام عبد الحليم أحمد بن تيمية (م ٧٢٨) في مؤلفاته في عدة مواضع ، وأبان هذه الحقيقة في بحوثه الكلامية مراراً ، إنَّه ردَّ على أخطاء المتكلمين أصلاً وفرعاً بكل جرأةٍ وشجاعةٍ[٢].

وأما من كشف الغطاء عن هذا الانخداع النفسي في دور الفلسفة

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ الطبعة البهية المصرية.

(٢) راجع مؤلفاته (نقض المنطق) و(الرد على المنطقيين) وكتاب (النبوءات) على سبيل المثال.

الأخيرة ، ودحض طلسم الفلسفة الخيالية هذا ، هو العالم الألماني (إيميونول كانت Emmanuel Kant (١٧٢٩ ـ ١٨٠٤ م) الذي عيَّن حدود العقل ، متجاسراً ، مصرحاً ، مبيناً ، كما يقول الفيلسوف المسلم الدكتور محمد إقبال في كتابه (تجديد الفكر الإسلامي) : «إنه هدم أعمال المتنوِّرين وحوَّلها إلى كومةٍ من تراب ، وذلك عن طريق كتابه الشهير (نقد العقل الخالص (Critique of Pure Reason).

فإن رفع أحدٌ خلال هذه القرون المتطاولة صوتاً ، لم يصادف من الناس آذاناً صاغية ، وذهب صوته أدراج الرياح ، دون أن تقف الفلسفة في سيرها الحثيث وقفة تفكيرٍ ، أو تأمل.

الفلسفة الدينية :

من تمام العدل أن ننتقد في هذه المناسبة تلك الفلسفة التي نشأت بإزاء الفلسفة القديمة للدفاع عن الدين ، ولكنها لم تكن الفلسفة بذاتها ، وإن كانت تشبهها في الموضوع ، وفي طريق البحث ، والاستدلال ، والفكر الأساسيِّ ، أعني : محاولة إثبات ذات الله ، وصفاته ، وقضايا ما وراء العقل عن طريق العقل ، وهما بالرَّغم من الخلاف ، والصراع بينهما ، تلتقيان في الأساس ، وأعني بالفلسفة الدينية هذه ، علم الكلام ، ذلك الذي حلَّل. ودقَّق هذه المسائل الإلهية وقضايا ما بعد الطبيعة ، مثل الفلسفة ، وأتت بتدقيقات وتقعيرات كانت سمة الفلسفة اليونانية وشعارها ، وإن كان كلٌّ منهما يختلف عن صاحبه في النتائج التي توصَّل إليها ، والغايات التي توخَّاها.

ومن الغريب الطريف أنَّ هذه الفلسفة الدينية عندما برزت لمحاربة هذه الفلسفة والهجوم عليها بنفس الأسلحة؛ ردَّ بعض الفلاسفة وقتذاك هذا الهجوم بسلاحٍ كان من المتوقَّع المعقول أن يستخدمه علماء الكلام وعلم التوحيد ، وكان أمضى سلاحٍ في الحقيقة في الهجوم على الفلسفة اليونانية ، ولعلَّ علماء الكلام ذهلوا عنه في المعركة الكلامية التي خاضوها ، وأعني به تحديد العقل الإنساني ، ونقد وسائل العلم ، ومن

العجب العجاب أنَّ المتكلمين ما تنبهوا لهذا السلاح على الرغم من استخدام الفلاسفة له ، ولجوئهم إليه ، وما زال الفريقان آخذين بتلابيب بعضهم البعض ، إلى قرونٍ طويلةٍ باحثين في المسائل والبحوث الفروعية بصرف النظر عن هذا البحث المبدئي .

على كلٍّ فإنَّ ارتفاع هذا الصوت على لسان الفلسفة مهما كان خافتاً ومتأخِّراً من أوانه ، لم يكن خالياً من فائدة ، ولقد صنَّف الإمام الغزالي كتاباً سمَّاه : (تهافت الفلاسفة) كردٍّ على الفلسفة بعدما تشبَّع من الفلسفة ، وثارت في نفسه شكوكٌ منها ، وقد أثار هذا الكتاب قلقاً في الأوساط الفلسفية . إنَّ القاضي ابن رشد الأندلسي الذي كانت وفاته بعد الغزالي بتسعين سنة ، والذي كان يعتبر من كبار المحامين للفلسفة اليونانية ، ومن كبار المتحمِّسين لفلسفة أرسطو ، ردَّ على الغزالي بكتابٍ أسماه : (تهافت التهافت) مدافعاً عن جماعته ، إنَّه يقول في هذا الكتاب ، محتجّاً ضدَّ بحوث الغزالي الفلسفية :

«هذا كلُّه عندي تعدٍّ على الشريعة ، وفحصٌ عمَّا لم تأمر به الشريعة ، لكون قوى البشر مقصرةً عن هذا ، وذلك أن ليس كلُّ ما سكت عنه الشرع من العلوم يجب أن يفحص عنه ، ويصرَّح للجمهور بما أدَّى إليه النظر : أنه من عقائد الشرع ، فإنه يتولَّد عن مثل هذا التخليطُ العظيم ، فينبغي أن يمسك عن هذه المعاني كل ما سكت عنه الشرع ، ويعرف الجمهور أنَّ عقول الناس مقصرةٌ عن الخوض في هذه الأشياء»[١] .

أما الكتاب الذي صنَّفه في الرد على المتكلمين باسم «الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة» فقد أثبت فيه قوة الاستدلال القرآني ، وتفوُّقه إزاء أسلوب الاستدلال الكلامي بقطعيةٍ ، ويعتبر نموذجاً جيداً لسلامة فهمه ، إنَّه أبان فيه في عدة مواضع عجز الجمهور عن إدراك هذه الأمور والمسائل ، إنني أوافق رأيه هذا كلياً ، بأنَّ قوى البشر وعقولهم مقصِّرةٌ عن إدراك هذه المسائل ، والبحث عنها ، والتأمُّل فيها ، ولكنني لا أعتقد

(١) تهافت التهافت ص ١١٠ .

الفلاسفة إلا بشراً ، وما كان أفلاطون ، وأرسطو ، والفارابي ، وابن سينا ، وابن رشد نفسه ، إلا أفراداً من النوع البشري فيما أعتقد ، فكانوا كسائر أفراد الجمهور مكلفين بأن عرفوا قدرهم ، ويؤمنوا بأن عقولهم كعقول سائر الناس مُقصِّرةٌ عن الخوض في هذه الحقائق التي لم يرزقوا وسائل الاقتناع بها ، والاحتواء عليها ، ولم يملكوا من المعلومات الأوليَّة والمواد والمقدمات ما يتوصلون بترتيبها إلى النتائج القطعيَّة والمعرفة الصحيحة.

وكانت طبقة المعتزلة أكثر تنوراً وأخضع للعقل من بين هؤلاء الفلاسفة الدينيين الذين قاسوا الله على الإنسان ، والآخرة على الدنيا ، ثم بحثوا عنهما من حيث الأحكام الإنسانية وقوانين هذا العالم بغايةٍ من الجرأة والحرية ، وبصرف النظر عن حدود العقل تماماً ، ولعلَّ هذا الضعف مرافقٌ للمرحلة البدائية للعقلانية (عندما يكون العقل في دور الطفولة) ، إن عالماً معاصراً ومؤرخاً كبيراً قد ظلَّ معجباً بالمعتزلة ، معترفاً بخدماتهم العلمية يحدِّث عن ضعفهم هذا بإنصافٍ وصراحةٍ ، يقول الدكتور أحمد أمين :

«ولعلَّ نقطة الضعف فيهم أنَّهم أفرطوا في قياس الغائب على الشاهد ، أعني في قياس الله على الإنسان ، وإخضاع الله تعالى لقوانين هذا العالم ، فقد ألزموا الله ـ مثلاً ـ بالعدل كما يتصوره الإنسان ، وكما هو نظامٌ دنيوي ، وفاتهم أنَّ معنى العدل ـ حتى في الدنيا ـ معنىً نسبيٌّ يتغيَّر تصوره بتغير الزمان ، وأنَّ ما كان عدلاً في القرون الوسطى يعدُّ ظلماً الآن ، فكيف إذا انتقلنا من عالم الدنيا إلى عالم الله ـ وكذلك الشأن في قولهم في الحسن والقبح ، والصلاح والأصلح ـ إنَّا نرى أنَّ الإنسان إذا ضاق نظره حكم على الأشياء حكماً ، فإذا اتَّسع تغيَّر حكمه»(١).

«وكذلك قولهم في أنَّ صفات الله هي عين الله ، أو غير الله ، كلُّ براهينهم مبنيةٌ على قياس الغائب على الشاهد ، ولكن الشَّبه معدومٌ ، وقد فرضوا أنَّ العينية ، والغيرية ، والزمانية ، والمكانية ، والسببية ، والمسببية ، ونحوها قوانين لازمةٌ لكلِّ موجودٍ ، وهذا ـ في نظري ـ خطأٌ

(١) ضحى الإسلام ص ٦٩ ، ج ٣ (المعتزلة).

محضٌ ، فيه قوانين إنسانيةٌ ، وإن تسامحنا قليلاً قلنا: إنها قوانين عالمنا هذا ، لسنا نستطيع القول بأنها تنطبق على غير عالمنا ، أو لا تنطبق ، فإصدار حكمنا على الله على اعتقاد أنَّها قوانين شاملةٌ للإنسان والله جرأةٌ لا يرتضيها العقل الذي يعرف قدره ، ولا يعدو طوره ، وليس هذا عيب المعتزلة وحدهم ، بل هو عيب من أتى بعدهم من علماء الكلام كذلك»[١].

الإشـراق:

بإزاء الحركة (العقلانية والفلسفة) حركةٌ قديمةٌ أخرى ، وهي الإشراق والروحانية ، وكانت مصر والهند مركزاً كبيراً لهذه الحركة في الزمن القديم ، ونالت هذه الحركة قبولاً في اليونان والروم ، بتأثير الديانات الشرقية واختلاط المصريين كردٍّ فعلٍ طبيعيٍّ للعقلية المتجاوزة عن الحدِّ ، ولكن مركزها الكبير الذي ازدهرت فيه ، هي (الإسكندرية) التي كانت ملتقى العقلية الشرقية والغربية والديانات ، وهي كانت في مصر نفسها.

والمبدأ الأساسي لهذه الحركة ولهذا النظام: أنَّ الحواسَّ والعقل ، والعلم ، والقياس ، والاستقراء ، والبرهان ، والاستدلال ، والنقد ، والتحليل لا يفيد شيءٌ منها في معرفة الحق واليقين في قليلٍ ، أو كثير ، بل يقف حاجزاً منيعاً ، وحجاباً صفيقاً في العثور عليه ، ويجني على صاحبه ، ولا بدَّ من المشاهدة لحصول الحقيقة على وجه اليقين ، ولا تمكن هذه المشاهدة ، إلا بتنبيه حاسَّةٍ داخليَّةٍ من نور الباطن ، وتزكية النفس ، الحاسَّة التي تدرك الروحانية وما وراء الطبيعيات ، كما تدرك العيونُ الأشياء الظاهرة ، ولا تنتبه هذه الحاسة إلا إذا قضي على المادِّيَّة ، وأميتت الحواسُّ الظاهرة ، ولا يمكن تحصيل الحقائق إلا بهذا العقل الخالص الصميم (حكمة الإشراق) وبهذا النور الداخلي (نور الباطن) الذي يتولَّد بالمجاهدات ، وإماتة النفس ، والفكر والمراقبة.

والحقيقة أن كلاًّ من الفلسفة والإشراق يتجهان اتجاهاً واحداً ، وتسيطر عليهما روحٌ واحدة ، فكما أنَّ الفلسفة وعلم الكلام تجتهدان لمعرفة

---

(١) أيضاً ص ٧٠.

الحقيقة ، كذلك يعتمد أهل الإشراق على قواهم الباطنة ، ومجاهداتهم الداخلية ، فالحقيقة أنَّ غاية الفريقين (الفلسفة والإشراق) واحدةٌ ، وإن تعددت الطرق ، فأحدهما يريد الوصول إلى غايته مشياً على الأرض ، وآخر عن طريق التحلُّق في الجوِّ ، أو عن طريقٍ خفيٍّ من سرداب ، ولا شكَّ في أنَّ ما وراء المادة عالماً آخر لا تدركه الحواسُّ الظاهرة ، وكما أنَّ عند الإنسان قوةً باطنيَّةً وحاسةً داخليةً لو أثارها الإنسان وربَّاها لاستطاع أن يدرك كثيراً من عجائب هذا الكون وموجوداته التي لا يمكن إدراكها بحاسة من الحواسِّ الظاهرة.

ولكن ما هو المحصول؟ سوى إثبات حاسَّةٍ باطنيةٍ غير هذه الحواسِّ الظاهرة ، وإثبات عالم لا يمكن إدراك حقائقه وأسراره بالحواسِّ الخمس.

وأقول: إنَّ وجود هذه الحاسة الزائدة أمرٌ لا شكَّ فيه ، بل يمكن أن تكون هناك حواسُّ أخرى كهذه ، كما يصحُّ أن تكون هناك عوالم أخرى غير هذا العالم تستلزم لإدراكها قوىً تليق بها ، وتناسبها.

وعلى كل حالٍ فإنَّها حاسَّةٌ إنسانيةٌ ، ضعيفةٌ محدودةٌ ، مثل الحواس الأخرى ، قابلةٌ للخطأ والتأثر والخضوع للعوامل الخارجية ، شأن سائر القوى الإنسانية ، ووسائل الكشف للعلم ، وما الدليل على أنَّ هذه الحاسَّة ليست محدودةً ولا قابلةً للأخطاء ، ولا تتعرض محسوساتها ومشاهداتها للغلط والانخداع والغرور بالنفس؟

ولو كان الأمر كذلك لما كان في نتائجها تعارضٌ ولا تناقضٌ ، ولم يخالجها اضطرابٌ أو إمكان للخطأ ، ولم تتورط في مزالق وأغاليط في القضايا المهمَّة الحاسمة ، كما هو الواقع.

ولكن بالعكس من ذلك نرى أنَّ في محسوسات هذه الحاسَّة ، وتحقيق هذا العالم تعارضاً واختلافاً أكثر مما يقع في محسوسات الحواس الظاهرة ، وفي علوم أهل الكشف والإشراق من التناقض ما لا نظير له إلا في الفلسفة فيما أظنُّ.

خذوا الإشراقية الجديدة مثلاً ، فإنَّ في عقائد رائديها وأعمالهم خلافاً

شديداً ، إن مؤسس الإشراقية الجديدة (فلاطينس Plotimus) لا يعترف بنظام عصره الدينيِّ والعبادات ، بل إنَّه فيلسوفٌ حرٌّ ، لا يؤمن إلا بالتفكير والمراقبة ، ولكن تلميذه النجيب (بارفري Porphyry) زاهدٌ متقشفٌ وصوفيٌّ.

كان فلاطينس يعتقد أنَّ الروح الإنسانية تنتقل إلى قالب الحيوانات ، ولكن (بارفري) منكرٌ لذلك ، والإمام الثالث الأكبر لهذا الموضوع هو براكلس (Proclus) كان خاضعاً لتقاليد مصر الدينية وعاداتها جميعاً ، وكان يعبد الشمس في النهار ثلاث مرَّات ، أما دينه الذي كان يدين به فكان مزيجاً لمعتقداتٍ مختلفةٍ ، ومذاهب متعددةٍ ، وكل هؤلاء كانوا من أهل المشاهدات واليقين.

ثم هذه الإشراقية الجديدة التي كانت منافسةً للمسيحية بقيادة بارفري ساعدت (جولين Julian) في عصره في حركة إحياء الوثنية الرومية والجاهلية (paganism) وأيَّدت بحماسٍ الوثنية والجاهلية المشركة تأييداً كبيراً[١] ، نور الإشراقيِّين وقوة باطنهم ، لم يمنعهم عن هذا العمل القبيح ، بل ربطت الإشراقية الجديدة مصيرها بسفينة هذه الجاهلية الغارقة ، كما صرَّح بذلك محاضر «دائرة المعارف للدين والأخلاق» ويقرِّر هذه الحقيقة فيلسوفٌ هنديٌّ معاصرٌ هو الدكتور رادهاكرشنن Radhakrishnan مؤلف كتبٍ كثيرةٍ في الفلسفة الهندية ، ومحاضرٌ في جامعة (كامبردج Gambridge) الإنجليزية ورئيس الجمهورية الهندية سابقاً ، فيضرب الأمثال لوقوع الخلاف الجوهري في تأمُّلات الإشراقيين والروحانيِّين القدماء في الشرق والغرب فيقول:

«كما أنَّ نتائج الكشف والتأمُّل الإشراقي في الشرق مثل (أوبنشد) و(بهكوت كيتا) و(شنكرا) و(رام نج) و(رام كرشنن) و(البوذية) وكشوف الشيخ جلال الدين الرومي ، ومشاهداته يختلف بعضها عن بعض ، كذلك يوجد الخلاف في الغرب في فكر (أفلاطون Plotinus) و(بال Paul) و(براكلس Proclus) و(تاولر Tauler) و(فلاطينس Plotinus) و(إكارت

---

(١) موسوعة الدين والأخلاق (Neo plationism).

(ECkharat) ، وليس هذا الخلاف بسبب الجو ، أو باعتبار الأحوال الجغرافية ، بل إنَّ إشراقيي جيلٍ واحدٍ وثقافةٍ واحدةٍ يختلفون في الاتجاهات والتقاليد»[١].

ولا بدَّ من التصريح بحقيقة أنَّ الكشف والإشراق كانا قد نالا أهمِّيَّةً واعتباراً كبيراً بين الصوفية المسلمين ، حتى أنك لتجد فيهم اتجاهات ومحاولاتٍ لمشاهدة الحقِّ واليقين عن طريق الكشف ، على أنَّ الوسيلة لذلك لم تكن ولا تكون إلا العلم القطعي الذي جاءنا عن طريق محمَّدٍ ﷺ ، القائم على الوحي والتنزيل ، وكان ذلك العلم بمتناول يد الصوفية المسلمين ، في كلِّ وقتٍ ومكانٍ؛ إذ كان الإشراقيون في اليونان والهند بمعزلٍ عنه ، ولم يدركوا ذلك النور الذي أشرق من جزيرة العرب.

وقد جاء في رسالة الشيخ محيي الدين بن عربي الحاتمي الأندلسي (م ١٢٤٠ م ـ ٦٣٨ هـ) التي وجهها إلى الإمام فخر الدين الرازي ، وقد جاء في هذه الرسالة:

«ويجلُّ الله سبحانه أن يعرفه العقل بنظره وفكره ، فينبغي للعاقل أن يخلِّي قلبه عن الفكر إذا أراد معرفة الله من حيث المشاهدة».

ويستمرُّ في كلامه ، ثمَّ يقول: «فارفع الهمة في ألا تأخذ علماً ، إلا منحه سبحانه على الكشف ، فإنَّ عند المحقِّقين ألا فاعل إلا الله ، فإذاً لا يأخذون إلا عن الله ، لكن كشفاً لا عقلاً ، وما فاز أهل الهمَّة إلا بالوصول إلىٰ عين اليقين أنفة بقاءٍ مع علم اليقين»[٢].

وكذلك المرحلة التي اطمأنَّ فيها قلب الإمام الغزالي في رحلة البحث عن الحقِّ واليقين ، هي أن مشاهدة الحقيقة وعين اليقين لا يحصلان إلا بطريق الإشراق ، وصفاء النفس ، كما صرح بذلك في كتابه (المنقذ من الضلال) ، يقول:

---

(١) الديانات الشرقية والفكر الغربي. Eastern Religions And Western Thought. Oxford University press London (1940) p. 46.

(٢) ثلاث رسائل.

«واعلم أنَّ هذا هو الحقُّ اليقين عند العلماء الراسخين في العلم ، أعني : أنَّهم أدركوه بمشاهدةٍ من الباطن ، ومشاهدة الباطن أقوى وأجلُّ من مشاهدة الأبصار ، وترقَّوا فيه عن حدِّ التقليد إلى الاستبصار»[١] .

إنَّ أهل الكشف والإشراق من المسلمين يُحتمل وقوع الخطأ في كشفهم ومشاهداتهم أيضاً ، ووجود الخلاف والتعارض في نتائج تأملاتهم ومجاهداتهم النفسية ، فإنَّ واحداً منهم يعارض آخر ، ويثبت أنَّ كشفه بعيدٌ عن الحقيقة ، غيرُ مطابقٍ للأصل ، وقد يحمله على السكر وغلبة الحال ، وقد يقول : إن هذه المرحلة مؤقتةٌ بدائيةٌ يمرُّ بها السالك ويتقدَّمها ، وهناك تبدو له مشاهداتٌ وكشوفٌ خلاف ما رآه في المرحلة الأولى .

لا يخفى على أهل العلم ما للشيخ محيي الدين بن عربي من مكانةٍ عليا في الكشف والإشراق . يقول عنه إمامٌ آخر صاحب الكشف والمكانة العليا في الربَّانية الشيخ الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي (١٠٣٤ هـ ـ ١٦٢٦ م) المشهور في الهند بمجدد الألف الثاني ، في إحدى رسائله :

«من أعجب الأمور أنَّ الشيخ محيي الدين بن عربي يبدو من المقبولين عند الله ، ولكن أكثر علومه التي جانب فيها مذهب أهل الحق (أتباع الكتاب والسنَّة) يتجلَّى فيها الخطأ والبعد عن الصواب»[٢] .

ويقول الشيخ في مكانٍ آخر : «إنَّ أكثر معارفه الكشفية التي خالفت علوم أهل السنَّة بعيدةٌ عن الصواب»[٣] .

يعرف الجميع الخلاف المشهور بين الشيخ محيي الدين بن عربي والشيخ أحمد السرهندي المجدد في مسألة وَحدة الوجود ، وتحقيق كلٍّ واحدٍ منهما يقوم على المشاهدة الشخصية ، والكشف ، وقد قال الشيخ المجدد عن شيخه الكبير عبد الباقي الدهلوي وعن نفسه : «بأنهما كانا في مقامٍ استولت

(١) المنقذ من الضلال .

(٢) مجموع رسائل ج ١ ، رقم ٢٦٦ .

(٣) أيضاً .

عليهما فيه فكرة وحدة الوجود ، وكانت هذه النظرية تبدو لهما مؤيدةً بالمقدمات الكشفية والدلائل اليقينية، ولكنه أدركهما التوفيق الإلهي ، فسما بهما إلى مقام أسمى من هذا المقام ، رجعا عنه» ، يقول الشيخ المجدد:

«وإن كان شيخي الشيخ الكبير عبد الباقي البدخشي الدهلوي قائماً على نظرية وحدة الوجود كما تظهر من رسائله ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى قد رقَّاه من هذا المقام البدائي ، وأخرجه من مضيق هذه المعرفة ، إلى جادةٍ واسعةٍ ، وإلى الصراط المستقيم»[١].

ويقول أحد تلاميذه وخواصِّه الشيخ عبد الحق[٢]: إنَّ الشيخ عبد الباقي البدخشي الدهلوي قال قبل وفاته بأسبوع: «إنَّني عرفت بعين اليقين أنَّ وحدة الوجود طريقٌ ضيِّقٌ ، أما الآن فحصل لي يقينٌ آخر ، وهو أنَّ الطريق غير هذا» ، ويقول في نفس هذه الرسالة: «وقد قضيتُ مدَّةً في حضرته معتقداً لهذا المشرب ، كنت على نظرية وحدة الوجود لأجل سيدي ، وقد لاحت لي مقدماتٌ كشفيةٌ في تأييد هذا الطريق ، ولكن عناية الله جلَّ وعلا أخذت بيدي ، وشرفتني بعده بمقامٍ هو أسمى من هذا المقام ، وطورٍ هو وراء الطور»[٣].

إنَّه يتحدث في إحدى رسائله رداً على سؤالٍ: عمَّا إذا كان يمكن وجود الخطأ في العقل والعلوم الروحانية؟ فيقول:

«سؤال: إنَّ العقل في حدود ذاته ، وإن كان ناقصاً في فهم أسرار الأحكام الإلهية ، ولكنه لماذا يستطيع بعد التزكية والتصفية أن يقترب إلى الله تعالى بطريق مباشرٍ بحيث يتلقَّى الأحكام الإلهية من الله تبارك وتعالى من غير حاجةٍ إلى نبيٍّ يبعث ، ويتلقى الوحي بواسطة الملك».

---

(١) يعني عقيدة التوحيد التي جاء بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام التي تقوم على الفرق بين الخالق والمخلوق والعبد والمعبود.

(٢) لعل المراد به العلامة الشيخ عبد الحق بن يوسف الدين البخاري الدهلوي أحد كبار ناشري علم الحديث ، وحامل لوائه في الهند ، مات سنة ١٠٥٢ هـ.

(٣) مجموع رسائل ج/ ١ ، مكتوب رقم/ ٤٣.

وهذا السؤال تعبيرٌ عن مذهب الإشراق ، فلنقرأ جوابه على لسان رجلٍ قد سلك الطريقين ، وعنده تجربةٌ عمليّة بهذه «التصفية » و«التزكية»يقول رحمه الله مجيباً عن ذلك :

«مهما اقترب العقل ، واتّصل بالله تعالى إلى أنَّ علاقته بهذا الجسم المادية لا تزول بتاتاً ، ولا يستطيع أن يتجرّد عنه تماماً ، فلا بدَّ من حدوث الأوهام والشبهات بصفةٍ دائمةٍ ، ولا تفارقه القوة المتخيلة ، والشهوانية ، والغضبية بأيِّ حالٍ ، وكذلك رذائل الطمع والشره ترافقه بصفةٍ مستمرَّةٍ ، أضف إلى ذلك صفات السهو ، والنسيان ، والخطأ التي هي من لوازم النوع البشريِّ ، لا تنفكُّ عنه أبداً.

ولذلك فإنَّ العقل ليس موضع ثقةٍ في قضية الأحكام الإلهية التي إذا تلقَّاها؛ لم تكن بنجوةٍ عن موضع الشك والارتياب ، ولا تفارقه شائبة النسيان ، ومظنَّة الخطأ ، بخلاف المَلَك الذي هو مصونٌ عن جميع هذه الصفات البشرية وبعيدٌ عن هذه الرذائل ، فلا بدَّ من أن يكون محفوظاً عن كل شائبة من شوائب الوهم والخطأ والنسيان.

وفي بعض الأحيان يبدو أنَّ العلوم التي أخذت بالتلقِّي الروحانيِّ ، تنضمُّ إليها ـ وهي في طريقها إلى القوى والحواس الباطنية ـ أمورٌ لا نصيب لها من الواقعية كانت من القضايا المسلَّمة عند هذا الرجل ، وكان مصدرها الوهم والخيال (أو العقائد الموروثة ، والتقاليد الشائعة في أمَّته أو مجتمعه) وتمتزج هذه الرواسب بهذه العلوم التي تلقَّاها عن طريق الروح ، أو صفاء النفس ، أو المجاهدة من غير أن يكون لإرادته دخلٌ في هذا ، أو أن يكون له شعورٌ به امتزاجاً كليّاً ، لا يستطيع معه أن يميز بين هذا الأصل وتلك الظلال ، وقد يكشف الله هذا الخلط ، وقد لا يكشف ، فلا شكَّ أن تلك العلوم الصحيحة تصبح مشكوكاً فيها بعيدةٌ عن الصواب غير جديرةٍ بالثقة والاعتماد لهذا الاختلاط بين الحقِّ والباطل ، وامتزاج الخالص بالزائف».

وفي الحقيقة ـ كما قرر الشيخ المجدد ـ أيُّما قوةٍ من قوى الإنسان العقليّة أو الروحانيّة لا تتجرَّد عن التأثيرات الخارجية ومفعول الحواس كلياً ، بل

لا بدَّ من أن تتأثر مشاهداته وتحقيقاته ببيئته ، وأفكاره ، وعقائده ، ومقدَّماته المسلمة عنده ، أو عند جماعته وقومه .

ولذلك كان الإشراقيون ، الإغريق والمصريون يرون في كشفهم ومشاهداتهم تأييداً لكثيرٍ من الأوهام المصرية واليونانية وأخيلتهم ، كما كان الإشراقيون المسلمون تتراءى لهم المفروضات التي افترضها فلاسفة اليونان حقائق ثابتةً وموجوداتٍ مسلمةً ، فكانوا يشاهدون في تأملاتهم «العقول» التي تدور حولها الفلسفة اليونانية ، وقد تتَّفق لهم المحادثة مع «العقل الأول» أو مصافحته في بعض الأحيان[١] .

ثم لو سلَّمنا قوة هذه الحاسة كلِّيَّاً ، فهنالك نتساءل ، ما هي محسوسات هذه الحاسة ، وما هي الأشياء التي ندركها عن طريقها؟ ولا شيء غير أن يتمتَّع الإنسان بأسرار عالم الأرواح وعجائبه ، ويطير في أجوائه الواسعة بحرِّية ، وينكشف عالمٌ بأجمعه أمام حاسَّةٍ جديدةٍ من حواسِّه ، ويرى صوراً وألواناً من ذلك العالم ، يقيس بها قدرة الله ، وسعة هذا الكون ، ولكن كل ذلك لهوٌ ولعبٌ ، كما يقول الشيخ المجدد :

«لم تكن الصورة الحسِّيَّة وأنوارها قليلةً حتى يتمنَّى أحد صوراً غيبيةً وأنوارها بوسيلة الرياضيات والمجاهدات؛ إذ كانت هذه الصور وتلك الأنوار كلتاهما من مخلوقات الله نموذجاً لصنعته . إنَّ لنور الشمس والقمر الذي يوجد في عالم الشهود هذا رجاحةً بوجوهٍ مختلفةٍ على تلك الأنوار التي يرونها في عالم المثال ، ولكن بما أنَّ هذه الرؤية دائمةٌ يشارك فيها كلٌّ من العامة والخاصَّة لا تنال قدراً وأهمِّيَّة ، لذلك يحنُّ كثيرٌ من أهل الطُّموح إلى رؤية الأنوار الغيبية ، كما قال بعض الشعراء ما معناه : «كل نهر يمر ببابك يبدو حقيراً» .

فكيف تنحلُّ من هذا الإشراق والنور الباطني والمكاشفات والمشاهدات

---

(١) كما حكى ذلك الشيخ محيي الدين بن عربي في بعض مكشوفاته وفتوحاته ، مع أنَّه تحقق ألا وجود لهذه «العقول» إلا في ذكاء فلاسفة اليونان واسترسالهم في الخيال والافتراض .

تلك الأسئلة البدائية الأساسيَّة؛ التي عجزت عن الإجابة عنها الحواسُّ والعقل والفلسفة؟ إنَّ العلم التفصيلي لمشيئة الخالق ، والنظام المعين للأخلاق والأعمال وراء إدراكهم، كما أنَّه بعيدٌ عن متناول العقل والفلسفة.

ومن أجل ذلك ما زال الإشراقيون مرتبطين في عصورهم بنظام خُلُقيٍّ ، أو روحانيٍّ من الأنظمة الموجودة في عصرهم ، وما استطاعوا أن يبدعوا نظاماً دينياً إيجابياً أو سلبياً.

إنَّ مكانة الشيخ ابن عربي في الكشف والإشراق معروفةٌ ومسلَّمةٌ عند المتصوِّفين ، ولكنه مع ذلك كلِّه كان يتبع مذهب الظاهرية[١] ، ومن المشهور المستفيض أنَّ الشيخ ابن عربي كان متمسكاً بالشريعة المحمَّدية ، حريصاً على اتباع السنن النبوية ، يعمل بذلك ، ويدعو إليه ، ويوصي به.

وقبل أن أذكر المصدر الأخير لحلِّ هذه المسائل بالقطع واليقين ، الذي هو الوحي والكتاب ، ووسيلتهما الرسالة والنُّبوَّة ، وأقدم أمامكم صورةً لهذه الحياة التي توجد باتِّباع النبيِّ والعمل بتعاليمه ، ويقوم هذا العالم على أساسه ومبادئه ، أريد أن أذكر تلك المدنيات ، ونظم الحياة التي قامت على الحسِّيَّات والعقليات ، أو على أفكار الإشراق ونظرياته.

* * *

(١) كان إمام هذا المذهب الإمام داود الظاهري (٢٧٠ هـ) وكان لا يرى القياس ، ويعمل بظاهر الحديث.

مَدنيات العَالم الثَّلاث الهَامَّة

وَنظم الحيَاةِ

المدنيَّة الحسِّيَّة:

من مدنيات العالم القديمة ، والمقبولة جدّاً عند الإنسان ، مدنيةٌ يقوم أساسها على الحواسِّ ونتائجها ، وليس للإنسان أساسٌ أسهل وأعمُّ من هذا الأساس ، ولا تحليل أسهل من التحليل الذي يقوم على أساس هذه الحواسِّ ، ولا نظام أسهل وقوعاً منه وإشباعاً للنفس من هذا النظام في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، ولا تحتاج هذه المدنية إلى عمقٍ ، ولا رقيٍّ عقليٍّ ، ولا إلى إيثارٍ وتضحية ، ولذلك فيها من الجاذبية والاستهواء والفتنة للنفوس ما ليست في مدنيةٍ أخرى ، ولم يحز رأي نظام آخر من النجاح والانتصار ما حقق هذا النظام من انتصاراتٍ متكرِّرةٍ في تاريخ الحضارة الإنسانية.

ولا بدَّ للمدنية التي يقوم أساسها على المحسوسات أن يكون من خصائصها الفطرية ما يلي:

نفيٌ وإنكارٌ واستخفافٌ بكلِّ ما لا يأتي تحت الحسِّ ، ولا تصدقه الحواس الظاهرة ، وكنتيجةٍ حتمية لهذا المبدأ لا يستتبُّ الإيمان بذاتٍ أو قوَّةٍ غير مرئيةٍ ، مما يتجاوز حدود الحواس ، وإذا لم يكن هنالك إيمانٌ بهذا الوجود أو القوَّة الغيبية فلا أمل إذاً في وجود الخوف منها ، أو حسابها في الأعمال والتصرُّفات ، فإذا وجدت عقيدة عدَّة آلهةٍ بسبب الشرك والأوهام التي ترافق المدنية الحسِّيَّة كثيراً ، فلا تحدث هذه العقيدة أيَّ تأثيرٍ على

الفكر والأذهان ، ولا على الحياة العملية ، ولا تحدث في النزعة الحسِّيَّة والاتجاه الحسِّيِّ في الحياة ، ولا في أساس الأخلاق والأعمال الماديِّ المحض اضطراباً أو ضعفاً ، فإنَّ عقيدة تعدُّد الآلهة تصطلح مع جميع الأنواع من الأعمال ، والأخلاق ، والأهواء ، والنزعات ، وتتجاوب معها ، فلا يكون بينها وبين هذه صراعٌ ، أو نضالٌ ، كأنَّ هذه العقيدة تؤمن بمبدأ (التعايش السلمي) على حدِّ التعبير الحديث ، فلا تقف حاجزةً في سبيل ما يريده أصحاب الحول والطول والقوَّة والسلطة من ظلمٍ ، أو وحشيةٍ ، أو شهوانيَّةٍ جامحةٍ ، كما يدلُّ على ذلك تاريخ الأمم الوثنية والمؤمنة بآلهةٍ كثيرة.

فإذا كانت شهادة الحواس لازمةً لإثبات شيءٍ ، فكيف السبيل إلى الإيمان بأشياء لم تشهد بوجودها الحواسُّ ، والنتيجة المنطقية لهذا الاستدلال الحسِّيِّ تحتِّم علينا أن ننكر كلِّيّاً وجود حياةٍ أخرى بعد هذه الحياة ، ووجود عالمٍ آخر وراء هذا العالم ، ذلك الذي يُستدلُّ على وجوده بدليلٍ آخر غير الحواسِّ ، أو يلزم للإيمان به إيمان بشيءٍ آخر ، وكنتيجة حتميةٍ لإنكار حياة أخرى بعد هذه الحياة ، تصبح هذه الحياة هي الغاية القصوى ، ويتحرَّر المرء عن خوف أيِّ محاسبة في المستقبل ، ويتولَّد في طبيعته انطلاقٌ وفوضى ، لا تؤثر فيهما قيودٌ أو قانونٌ مؤقت ، وبما أن طروء الموت على الإنسان وحضور وفاته تختلف عن قضية الحياة بعد الموت (التي أخبر بها الأنبياء وحدهم ، ونطقت بها الصحف السَّماوية) وهي حادثةٌ متكرِّرةٌ مشهودةٌ كلَّ يومٍ لا تقبل المراء والجدال ، تنبعث ـ طبعاً ـ في نفس الإنسان دوافع التنعم في هذه الحياة ، والتمتُّع بملذاتها ومباهجها ، وذلك أمرٌ معقولٌ جدّاً يتفق مع وجهة نظر (المحسوسات) والاستدلال الحسِّيِّ وترتيب مقدماته.

وفي المرحلة البدائية لهذه المدنية (وأحياناً في عهد النهضة أيضاً) يكون الباعث على العمل ودافعه الأغراض والمنافع الشخصية ، لا الأخلاق المجردة عن الأغراض والفوائد الجماعية ، وعندما تمرُّ هذه المدنية بمراحل النُّمو بسبب الحياة الاجتماعية ، تتولد في لغتها كلمة (الأخلاق) أيضاً ،

ولكن يكون أساسها على فلسفة اللذة للنفس ، فتعني الأخلاق في هذه الفلسفة ، الحصول على اللذة وحظوظ النفس ، فإذا قطعت شوطاً آخر انتقلت من الاعتماد على مبدأ اللذة (أو الفلسفة الأبيقورية ، إلى الاعتماد على مبدأ النفعية) فيصبح قوام الأخلاق أن يستفيد بهذا العمل منها أكبر مجموع من الأفراد ، ولكن كثيراً ما يكون الفكر الحسِّيُّ والحرص على طلب الَّلذة ، عاملاً أساسياً لتعيين مقياس النفعية.

والميِّزة الطبعية الثانية لهذه المدنيَّة الحسِّيَّة والمادِّيَّة (وهي في الواقع تابعة للميزة الأولى) أن تؤثر في هذه المحسوسات أيضاً العاجل على الآجل ، والانتفاع الحالي على الانتفاع المؤجل ، إذ هو أقرب إلى الحواس ، ولأنَّ الحاجة في هذه العملية إلى استخدام العقل والقوة الفكرية أقلُّ ، ولذلك نرى أنَّ من سمات هذه المدنية (الحسِّيَّة المادِّيَّة) وجميع مظاهر هذه الحياة وأشكالها السطحية والغرام الزائد بالبريق ، وجمال الظاهر. وتسري في هيكل هذا المجتمع وحياته طبيعة الاستغلال ، والتمتُّع ، والأثرة ، واللاإنسانية ، والنظر إلى كل قضية بالمنظار الشخصي.

وكنتيجةٍ لازمةٍ لهذه الفكرة المادِّيَّة ، وهذا النوع من الحياة: أنَّ هذه المدنية تؤثر المنافع العاجلة والمصالح الشخصية على المبادىء وعلى القيم الخلقية وعلى العقائد ، وتضحِّي في سبيلها بالمبادىء الكبرى ، وعقائد أفضل ، وتضحِّي بأفضل التعاليم الخلقية مقابل فوائد حقيرةٍ جداً ومصالح تافهةٍ كلَّ حين وآن ، فمعتنقو هذه الفكرة ، وأصحاب هذه السيرة (من أية ديانة كانوا ، ومهما بلغ تمسُّكهم بفرائض هذا الدين وشعائره) على استعدادٍ دائمٍ وغريبٍ للتَّعاون مع كلِّ نظام وكلِّ حركة قائمةٍ مقبولةٍ ، وصلاحيةٍ غريبةٍ للانصهار في كلِّ بوتقةٍ ، مثل الشمع الذي يُصاغ في أيَّة صورةٍ. إنَّهم يكوِّنون إلهاً لكلِّ نوع من النظام ، ويحاربون تحت كلِّ راية ، ويضحُّون بأنفسهم لكلِّ غاية ، ويقاتلون لها؛ إذا كان لهم فيه نفعٌ شخصيٌّ مهما قلَّ وتفه ، بل ولو كان مشكوكاً فيه ، وموهوماً ، وقد تجاوزت هذه الفلسفة حدود الذات إلى حدود أمة وقوم ، فتنشأ الفلسفة القومية التي تؤمن بفائدة الشعب

والأمَّة ، بصرف النظر عن المبادىء والقيم ، والحق والباطل ، والعدل والظلم ، ولا فرق بين كلتا الفلسفتين إلا أن الأولى تقوم على تمجيد الذات وعبادتها ، ودائرتها ضيقةٌ ، والثانية على تمجيد الأمة أو البلاد وعبادتها ، ودائرتها واسعةٌ ، وتكون دعوتها في كلتا الحالتين السير مع الرياح ، والجري وراء المنافع ، والأرباح.

وحيث إنَّ الحواس هي المصدر الوحيد للعلم في هذه المدنية الحسِّيَّة العلمية ، والحواسُّ كما وضَّحت سابقاً لا تشهد للإنسانية غير أنَّه حيوانٌ ناطقٌ ، فتتولد فيهم طبعاً نزعة المراجعة إلى حياة الحيوان ، فإذا أرادوا البحث عن الحلقات المفقودة من تاريخه ، وأحبُّوا أن يعيّنوا لحياته أحكاماً وضوابط ، اتجهوا إلى الحيوانات (في الغابة) ومعرفة طبائعها ، ودراسة تاريخها لملء هذا الفراغ ، واختاروا لحياتها نظاماً لا يختلف كثيراً في روحه وغاياته عن حياة الحيوان المحضة.

إن إعادتي لذكر المدنية الحسِّيَّة ووصفها لا يعني أنَّ المدنية الحسِّيَّة نوعٌ من حياة الغابة التي لا توجد فيها حضارة البلد وثقافتها ، فإنَّني أسميها «الحسِّيَّة» باعتبار روحها ، ومأخذها ، وأما باعتبار الحياة الحضرية فهي من أرقى مدنيات العالم ، ولها حظٌّ كبيرٌ في أناقة الحياة ، وفي تأمين الراحة في الحياة ، وهي أكبر حظّاً في الظرافة والترف ، وباعتبار المادِّية أكثرُ تنوعاً ورقيّاً وأكثرُ تدقيقاً واختراعاً لاعتمادها فيها أحياناً المدنية الإلهامية والمدنية «العقلانية» ، ولاغرو ، فإنَّها ركَّزت كلَّ قواها على هذا الجانب الوحيد ، فجاءت فيه بالطَّبع بأحسن النتائج.

وقد ازدهرت هذه المدنية في العالم أكثر من المدنيات الأخرى كلِّها. إنها جعلت الأرض بصناعتها مخضرَّةً خصبةً ، عامرةً بالأزهار والرياحين ، وجعلت الحياة ربيعاً بالملاهي والملاعب. إنها شقَّت الجبال ، وفجَّرت منها الأنهار ، وأنبتت على الحجر الأزهار ، وبنت الآثار الشامخة الفخمة ، والمباني الضخمة الشاهقة ناطحة السماء ، وأتت بعجائب من صنع الإنسان

وذكائه ، توهم كأنَّها مدنيةٌ حكيمةٌ عقليَّةٌ ، والحقُّ أنها سخرت العقل لمنافعها الحسِّيَّة المادِّيَّة .

إنَّ قوم عادٍ الذين كانوا في قديم الزمان في جزيرة العرب كانوا أكبر ممثلي المدنية الحسِّيَّة والمادية في عصرهم ، وإنَّ مدنيتهم كانت من أرقى المدنيات في ذلك العصر ، وقد تمثلت فيها أكثر خصائص المدنية الحسِّيَّة ، ومن ألقى عليهم نظرةً عرف أنَّهم لا يعرفون الله ، ولا يؤمنون بالآخرة . إنهم كانوا يبنون مباني كبيرةً ضخمةً عبثاً بغير حاجة ؛ ترويحاً لنفوسهم ، وتفاخراً بين أبناء جنسهم ، قد نسوا الآخرة ، ويحسبون أنَّهم سيخلدون في الدنيا ، ولا يموتون ، كان يظهر من حروبهم الطاحنة وبطشهم الشديد أنهم لا يؤمنون بقوَّةٍ أعلى وأجلَّ من قوتهم ، فخاطبهم نبيُّهم ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : ١٢٨ ـ ١٣٠] .

وخلفهم قوم ثمود ، وانغمسوا في لذَّات الدنيا ومتاعها ، وأخلدوا إلى هذه الحياة ، واطمأنُّوا بها ، ونسوا الدار الآخرة ، وشغلوا عنها ، ومن رأى اهتمامهم بهذه الحياة وقلَّة مبالاتهم بما ورائها ، عرف أنَّهم لا يؤمنون بشيءٍ لا يُرى بالأبصار ، لذلك قال لهم نبيهم : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ [الشعراء : ١٤٦ ـ ١٤٩] .

إنَّ الحسِّيَّة والمادِّيَّة والخضوع للمظاهر (وأرقى أشكالها الوثنية) رافق أحدهما الآخر في أدوار تاريخها المختلفة ، وكثيراً ما ظهر الاتجاه الديني للأمم الحسِّيَّة والمادِّيَّة في شكل عبادة الأصنام ، والذين تعودوا المحسوسات يصعب عليهم الإيمان بإلهٍ لا تدركه الأبصار ؛ لأنَّ الصورة الجسمية تلفت الأنظار ، فيخضعون بسرعةٍ لعبادة الأوثان ، تسليةً لعواطفهم ، ويجعلونها أيضاً حسِّيَّة كشعب حياتهم الأخرى . كان إبراهيم نشأ في قومٍ من هذا القبيل ، وكانت الوثنية قد بلغت القمَّة من الرُّقيِّ كمجالات حياتهم المادية الأخرى .

وقد حكى الله عنهم فقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٨٢].

وليست نتيجة هذه المادِّيَّة الجامحة والحسِّيَّة المطلقة، والانسياق مع النزعات والأهواء بصرف النظر عن المبادىء والأخلاق، إلا أن تفقد الفطرة البشرية أصالتها ونظافتها، وتصبح في زمنٍ قريب مريضةً ممسوخةً، وأن يتعطل الوجدان السليم، ويُشلَّ الحسُّ الخلقيُّ، فلا يعمل، ولا يؤثر، ويصل الإنسان في ثورته على الفطرة، وفي انحرافه وشذوذه، إلى درجة يفوق فيها ويبزُّ حيواناً لا يملك ضميراً، ولا ينقاد إلاَّ لغريزته، وقد ولد نبي الله لوط عليه السلام في أمَّةٍ هذا شأنها، وقد بلغت الذروة في الانحطاط الخلقي، وفي السفالة والرذيلة، ويخاطبهم لوط عليه السلام فيقول: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥ ـ ١٦٦].

وقال أيضاً: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

إنَّ طبيعة التمتع باللذات والمنافع وانتهاز الفرص لا تفرق بين ما يجوز وما لا يجوز، وبين العمل الشَّرعيِّ وغير الشَّرعيِّ، بل إنها تؤثر المنفعة الشخصية على الفائدة الاجتماعية، وتؤثر الفوضى على ما يقتضيه النظام، مهما تولَّد من ذلك مفاسد جسديةٌ وويلاتٌ اجتماعيةٌ، والخيانةُ في التجارة، والتطفيفُ في الميزان، من أدنى معطيات هذه الفكرة، وهذه السيرة، وكانت هذه الخصلة السيئة عامَّةً في تجار مدين، وقد جسّ نبيُّهم

شعيب ـ عليه السلام ـ هذا النبض في أمَّته ، وضرب على هذا الوتر الحسَّاس فقال :

﴿ ۞أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء : ١٨١ ـ ١٨٣] .

وكانت مصر ، والشام ، وإيران ، والعراق ، واليونان مركزاً لهذه المدنية في عهدها ، وقد ظهرت هناك هذه المدنية بخصائصها الفطرية التي تحدَّثنا عنها .

وكانت المدنية الرومية نموذجاً مثالياً للمدنية الحسِّيَّة والمادِّيَّة ، وطرازها الأخير ، وهي التي تجلَّت فيها فلسفة الأخلاق والاجتماع الحسِّيَّة ، وهدف الحياة المادِّيِّ ؛ الذي كانت الحياة تدور حوله في أروع أشكالها ، وقد خلَّفت روما هذه الأفكار ، والعلوم ، والفلسفة ، والمدنيَّة ، والحضارة كتراثٍ ورثته أوروبا التي خلَّفتها في القرون الوسطى ، وبقيت دعائم الحضارة الرومية ثابتةً رغم حروبٍ طاحنةٍ ، وعواصف هوجاء ، وقامت بناية الحضارة الجديدة على هذه الأسس. يقدم المؤرِّخ الأوربيُّ الشهير ، والأديب الإنجليزي الكبير (John William Draper) صورةً عن الانحلال الخلقي والاجتماعي عند الروم خلال العهد الذهبي للإمبراطورية ، فيقول :

«لما بلغت الدول الرُّومية في القوة الحربيَّة والنفوذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات ، هبطت في فساد الأخلاق وفي الانحطاط في الدِّين والتهذيب إلى أسفل الدركات ، بطر الرومان معيشتهم ، وأخلدوا إلى الأرض ، واستهتروا استهتاراً ، وكان مبدؤهم أنَّ الحياة إنما هي فرصةٌ للتمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترفٍ ، ومن لهوٍ إلى لذَّةٍ ، ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام .

ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، كانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرصعةً بالجواهر ، ويحتف خدامٌ في ملابس جميلةٍ خلابةٍ ،

وغاداتٌ روميَّةٌ حسانٌ ، وغوانٍ عارياتٌ كاسياتٌ غير متعففاتٍ ، تدل دلالاً ، ويزيد في نعيمهم حمّاماتٌ باذخةٌ وميادين للَّهو واسعةٌ ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال ، أو مع السباع ، ولا يزالون يصارعون حتى يخرَّ الواحد منهم صريعاً يتشحَّط في دمه ، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوَّخوا العالم أنَّه إن كان هنالك شيء يستحق العبادة فهو القوة لأنَّه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التي يجمعها أصحابها بعرق الجبين ، وكدِّ اليمين ، وإذا غلب الإنسان في ساحة القتال بقوَّة ساعده؛ فحينئذٍ يمكن له أن يصادر الأموال ، والأملاك ، ويعين إيرادات الإقطاع ، وأنَّ رأس الدولة الرومية هو رمزٌ لهذه القوة القاهرة ، فكان تقدُّم رومة المدنيُّ يشفُّ عن أبَّهة الملك ، ولكنه كان طلاءً خدَّاعاً كالذي نراه في حضارة اليونان في عهد انحطاطها»[١] .

إنَّ العهد الجاهليَّ العربيَّ «الذي ينتهي في القرن السابع بعد بعثة محمد ﷺ» كان مرآةً لهذه الحسِّيَّة والمادية في نفسيته ، وأفكاره ، واجتماعه ، كانت أذهانهم لا تسيغ عقيدة الآخرة ، وعقيدة الحياة بعد الموت ، إنَّهم كانوا يعتقدون «أن أساس هذه العقيدة هي الحواسُّ» إنَّ السماء والأرض ، وتقلُّب الليل والنهار كحجري الرحا يطحنان الإنسان كحبةٍ ، وليست هناك قوَّةٌ غير هذه القوة تقضي على حياتنا .

يذكر القرآن عقيدتهم فيقول: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧].

ويحكي عنهم فيقول: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

يحرض شاعر جاهلي (شداخ بن يعمر الكناني) قومه على القتال ضدَّ قبيلةٍ أخرى بهذه الحجَّة ، ويقول: لا تدوم حياتكم ولا حياتهم ، فما

(١) History of The Conflict Between Religion And Science London,1927, PP. 31- 2.

السبب لهذا الجبن؟ وإنَّ هذا الطراز للاستدلال نموذجٌ جيِّدٌ للنفسية الحسِّيَّة ، يقول الشاعر:

قاتلي القومَ يا خزاعُ ولا يدخلكم من قتاله فَشَلُ
القومُ أمثالُكم لهم شَعَرٌ في الرأسِ لا ينتشرون إنْ قُتِلوا(١)

والنظرية التي تتولَّد من إنكار الآخرة كانت موجودةً بنفسها في العصر الجاهلي ، إنهم كانوا يقولون: الموت حق ، فلماذا نقضي هذه الأيام العديدة من الحياة «التي ليست بعدها حياة أخرى» في الظمأ والحرمان ، والموت بالارتواء أفضل من الموت في الظمأ ، يقول الشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد يمثل هذه الفكرة:

ألا أيُّهذا اللائمي أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي؟
فإن كنتَ لا تستطيعُ دفع منيَّتي فدعني أبادرْها بما ملكتْ يدي
كريم يروِّي نفسه في حياته ستعلم إنْ متنا غداً أيُّنا الصَّدي

كانت غايته القصوى «الانتفاع باللذة والنعمة» في مثل هذه البيئة الحسِّيَّة الجاهلية المحضة التي ليست لها غايةٌ أسمى من السمعة والرياء ، وإظهار القوة والشجاعة ، ولا يحلِّق الذهن الجاهلي أكثر من هذا التحليق ، ولا يتصوَّر غايةً أسمى من هذه الغاية ، يصور الشاعر الجاهلي ـ الطموح عالي الهمة ـ عواطفه الحقيقية ، فيقول:

ولولا ثلاثٌ هنَّ من عيشة الفتى وجدِّك لم أحفل متى قام عوَّدي
فمنهنَّ سقيُ العاذلات بشربةٍ كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وتقصيرُ يوم الدَّجن والدَّجن معجبٌ ببهكنةٍ تحت الخباء المعمَّد
وكرِّي إذا نادى المضاف مجنباً كسيد الغضا نبَّهته المتورد(٢)

وتتولد مع هذه الأخيلة فلسفةٌ جاهليةٌ؛ إذ لا يخلو عصرٌ من عصور البداوة والجهالة أيضاً من (الفلسفة) مهما بلغت هذه البداوة من الانحطاط والجهل ، وتوجد في هذه الفلسفة سطحيةٌ مثل جميع العلوم التي تنشأ

---

(١) ديوان الحماسة ، باب الحماسة.
(٢) المعلقات السبع ، معلقة طرفة بن العبد.

وتتكّون في العصر ، ويرافقها الاستدلال بالأشياء الظاهرية قياسٌ مع الفارق ، وترجيح الموجود على غير الموجود . وقد أبدى الشعراء الجاهليُّون هذه الفلسفة مع أفكارهم وعواطفهم هذه الرُّوح الجاهليَّة كما يقول الشاعر طرفة بن العبد ، الذي سبق ذكره .

إنَّ نتيجة الزُّهد ، والكفِّ عن الشَّهوات ، وكبح الجماح ، ونتيجة الاسترسال في إشباع الرغبات ، والانسياق مع دوافع الهوى والشباب واحدةٌ ، انظروا إلى قبر زاهدٍ متَّقٍ ومن كان بالعكس ، خلع عذاره ، وطرح الحشمة ، ولبَّى داعي الشهوة تراهما كومتين من ترابٍ ، مصمدتان من صفائح ، وإن كان يقارن الشاعر هناك بالرَّجل البخيل ، الحريص ، المشرف ، المترف ، ولكن فكرة غير محدودٍ في هذه الحدود البتَّة .

يقول :

أرى قبر نحَّام بخيلٍ بماله كقبر غويٍّ في البطالة مفسد
ترى جثوتين من ترابٍ عليهم صفائح صمٍّ من صفيحٍ منضَّد

ومع هذه الخواص النفسية يوجد في الحياة الجاهلية الاجتماعية نوعٌ خاصٌّ من علم الأخلاق الحسِّيِّ ، يعتبر الجاهلي ـ إذ لم تنتشر في عصره الرقة والتخنث ـ الشجاعةَ والفروسية أسمى خصال الرجولة ، وأعظم المفاخر في حياته ، إن لم تكن لهما غايةٌ شريفةٌ ومحلٌّ صحيحٌ ، والحرب عند الجاهليين فضيلةٌ ، وإن لم تكن خاضعةً لغايةٍ جميلةٍ ، أو إرادةٍ صالحة ، ويغلون فيها إلى حدٍّ تصعب مع الحياة من غير حرب ، فتصبح الحرب لهم شغلاً ، ومسلاةً ، ومقصودةً بذاتها ، فإذا لم يجدوا عدواً يحاربونه يحاربون حلفاءهم إبقاءً لعادته وملئاً للفراغ الواقع في حياتهم ، يقصُّ الشاعر (القطامي) قصة هذه العقلية الحربية بصراحةٍ فيقول :

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

الحرب للحرب وإظهاراً للقوة فقط ، عاطفةٌ جاهليةٌ خالصةٌ ، وكثيراً ما تنبعث هذه العاطفة في المدنية الحسِّيَّة وحضارتها ، يعرب شاعرٌ جاهليٌّ عن شغفه بالحرب ، وغرامه لها ، فيتمنَّى نشوب الحرب في القبائل إذا

بلغت مهرته السن التي تصلح فيها للركوب والخوض في المعركة؛ ليثبت فروسيته ، ويسلِّي نفسه ، وإن جرَّت هذه الحرب ويلاتٍ وشروراً على حياة هذه القبائل ، وكانت مشأمةً وكارثةً في تلك الناحية ، يذهب ضحيتها نفوسٌ بريئةٌ ، وبراعم غضَّةٌ طريَّةٌ ، ولكن لا عليه إذا جال بفرسه في هذه الدماء والأشلاء ، وأثبت تفوُّقه على الأتراب والقرناء ، يقول :

إذا المهرةُ الشَّقراءُ أدركَ ظهرُها فشبَّ الإلهُ الحربَ بينَ القبائل
وأوقد ناراً بينهم بضرامها لها وهجٌ للمصطلي غير طائل

وإذا كان بين الأمم الجاهلية نوعٌ من الاتحاد والتعاون ، فلا تكون له شروطٌ وحدودٌ ، ولا يكون مقياسٌ من الحقِّ والباطل ، بل يقوم أساسه على الحميَّة الجاهلية ، والعصبية الجماعية . فإن استغاث بهم أحد لا ينظرون إلى ما يدعو إليه ، وهل هو مصيب أم مخطىء ، ومظلومٌ أم ظالم؟ إنما ينظرون إلى من هو الداعي والمستغيث وما علاقته بهم ، وكان عملهم بالمبدأ الجاهلي القديم الذي تمثله الجملة المأثورة منهم «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»[1] .

يقول الشاعر الجاهلي :

إنْ أنا لم أنصر أخي وهو ظالمٌ على القوم لم أنصرْ أخي حين يُظلم

ويقول شاعر جاهليٌّ آخر :

وما أنا إلا مِنْ غزيَّة إنْ غَوَتْ غويتُ وإن ترشُد غزيةُ أرشدِ

وقد هجا الشاعر الجاهليُّ قريط بن أنيف قبيلته بني العنبر على خذلانها لأخيها ، وتقاعدها عن نصره ، لعدم وضوح الموقف ، ومده بني مازن على مبادرتها إلى النصر من غير تثبت واستيضاح ، فقال :

---

(١) نقل الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» عن إمام اللغة المفضل الضبي ، أن أول من قالها في الجاهلية هو جندب بن العنبر . والمراد منه المفهوم اللفظي الظاهر ، وقد قلبها رسول الله ﷺ ، وفسَّرها تفسيراً جديداً فقد قال مرة «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قالوا : يا رسول الله! «هذا نصرته مظلوماً ، فكيف أنصره ظالماً؟» قال: «تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه» (حديث متفق عليه) .

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا[١]

ولما كانت هذه المدنية الحسِّيَّة المادِّيَّة أكثر المدنيات انتشاراً في العالم وأحبَّها إلى النفوس ، أفضنا في عرض ملامحها ، وقسماتها ، وأطلنا فيها بعض الإطالة.

المدنية العقلية[٢]:

لم نجد في تاريخ المدنيات والحضارات الطويل مدنيةً تستحقُّ بجدارة أن توصف بمدنيةٍ عقليَّةٍ خالصةٍ يكون المحك في جميع قضاياها ، وفي قبولها ، ورفضها للأشياء ، وفي سلوكها ، وتصرفاتها العقل وحده ، فلا تخطو خطوةً ، ولا تتخذ موقفاً في الحياة حتى تعرضه على العقل ، وتزنه في ميزانه ، فإذا حكم العقل بصحَّته وحسنه؛ قبلته ، وإذا حكم بفساده ، أو ضعفه؛ رفضته.

فإن قامت هذه المدنية ـ على سبيل الافتراض ـ في بقعةٍ من بقاع الأرض ، ضاقت الحياة على الناس ، وضاقوا بها ذرعاً ، وصعب أن تعيش هذه المدنية أقصر مدةٍ من الحياة ، كما قال أديبٌ غربيٌّ: «إنَّ الإنسان في حياته وأفعاله غير عاقلٍ أكثر منه عاقلاً» ، وذلك يصدق على المدنية كذلك. فالنظريات ، والأفكار ، والعقائد ، والأخيلة ، والتقاليد ، والعادات ، ومبادىء الاجتماع والأخلاق ، والثقافة لا تستطيع أن تدخل في إطار العقل كليَّاً ، أو يقوم أساسها كليّاً على العقل ، أو يكون العقل مقياساً لقبولها ، ورفضها ، وتكون أكثر هذه الأمور مرتجلةً ، ومن غير استفتاءٍ من العقل والمنطق ، أو تحت ضغط العوامل التي لا صلة لها بالعقل والمنطق. فإذا أصدر العقل حكمه في هذه القضايا بالنفي أم التزييف؛ نبذه المجتمع ، وأعرض عنه.

وفي بعض الأحيان يرى العقل مصلحته (وبالأصحِّ يرى زعماء العقل

---

(١) ديوان الحماسة.

(٢) هذه المدنية العقلية أيضاً كما سيأتي في الصفحات الآتية ، مدنية حسية ومادية في الحقيقة ولكنها ذكرت هنا باستقلال لاشتهارها بالمدنية العقلية ، والدعاية التي قامت لوصفها بالعقل والعلم.

وممثلوه مصلحتهم) في أن يؤيده ويمنحه شهادة الصحة ، أو يصبح له محامياً بارعاً ، فيقيم الدلائل العقلية على صحة هذه الأعراف والعادات ، أو المُثل والقيَم ، أو العقائد والأفكار ، مهما كانت ممعنةً في الخرافة والسفاهة ، أو مقرونة بالظلم والقسوة ، حتى يستريح العقل منها ، وتستريح هي منه ، فلا يكونان في نظامٍ دائم ، وفي عراكٍ دائمٍ ، فكم دافع العقل اليونانيُّ عن البغاء الرَّسمي ، وحرفة الموسات ، والشذوذ الجنسي ، الذي ظهر في المجمع الإغريقي عندما بلغ أوجه في المدنية ، والفلسفة ، والرياضيّات ، وكان من المدافعين عن ذلك الذين فلسفوه ، وشقوا الشعرة في فوائده ومصالحه كبار فلاسفة اليونان؛ الذين لم يكن يرجى منهم الدفاع عن مثل هذه الرذائل.

وكذلك شأن العقلية الرومانية مع تقليد «المجالد Gladiator» ومصارعة الإنسان للسبع (من الأسود والنمور) حتى الموت ، وفيها من القسوة والضراوة والوحشية ما لا يخفى ولكنَّ العقل الروماني قد ذهب كل مذهبٍ في تعليله ، وإقامة الدلائل والبراهين على أنها نزهةٌ بريئةٌ ، وتسليةٌ مباحةٌ لأشراف روما ، وهواة المتعة واللهو ، وكذلك فقل عن تقليد وأد البنات عند العرب في الجاهلية ، وإحراق السيدات الهنديات لنفسهن مع أزواجهن ، فقد كان كلُّ ذلك مؤيداً بالدلائل العلمية والعقلية في العصر الجاهلي العربي ، وفي الحضارة الهندية القديمة ، والأعراف الارستقراطية المقدَّسة في الهند قبل أن يلغى هذا التقليد رسمياً في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي.

وإذا كان لنا سبيلٌ إلى الاطّلاع على ما قيل وكتب عن هذين التقليدين الوحشيين في الأدب القديم ، وكيف كان يدافع عنهما المحافظون المتحمِّسون من هاتين الأمّتين: العربية ، والهندية؛ عرفنا مدى مرونة العقل وصلاحيته لمسايرة الموجود المقبول ، وإبطال الحقِّ ، وإحقاق الباطل في ذلاقةٍ ومقدرةٍ ، حتى يخيَّل لكثيرٍ من الناس: أنَّ ما يقوله ، هو التِّبر الذي لا زيف فيه ، واليقين الذي لا يخالجه شك.

إنَّ المدنية والاجتماع مرحلتان متأخرتان ، فإنَّهما تتكونان من عناصر كثيرةٍ غير العقل ، فإنَّ الحكمة والفلسفة نفسها لا تخلوان كليّاً من عناصر غير عقليَّةٍ .

وكم في الفلسفة اليونانية التي تعتبر جوهراً للعقل الإنساني من نصيب لعلم الأصنام والأساطير «الميثالوجيا اليونانية Greecian Mythology» ، والأوهام اليونانية ، والعقائد الأسطورية ، وامتزاج كلِّ ذلك بلحم الفلسفة اليونانية ودمها ، حتى يستحيل تجريدها عن هذه الأجزاء في أكبر معملٍ كيمياويٍّ للعمل التحليليِّ ، حتى ما أمكن لكبار الفلاسفة مثل أفلاطون وأرسطاطاليس ، رغم حريتهما الفكرية ، التي تغنّى بها التاريخ ودوَّى بها العالم ، التجردُ من تأثير بيئتهما ، وما كانت أخذته كمسلَّماتٍ علميَّةٍ ، وحقائق عقليةٍ ، لا تقبل الشكَّ والجدال .

إنَّ مدنيات العالم التي تظهر عند النظرة الأولى العابرة ، مدنياتٌ علميَّةٌ وعقليَّةٌ ، ولكنَّها بعد النقد المحايد ، والفحص الحرِّ تثبت مدنيات حسيَّةً محضةً ، وماديَّةً خالصةً ، وأكثر هذه المدنيات خداعاً وفتنةً المدنية الغربية الحاضرة ، تعتبر بقوة دعايتها الساحرة أكثر المدنيات البشرية عقليةً وعلميَّةً في التاريخ الإنساني ، رغم أنَّ كل تلميذٍ للفلسفة الحديثة يعرف أن تاريخها يقوم على ثورة الماديَّة ، وعبادة الحسِّ ، والخضوع للتجارب التي قامت ضدَّ العقلية والإيمان بما وراء الحسِّ والعقل ، وانتهت إلى انتصار المادة علىٰ العقل ، والحواس على الروح ، والتجربة على الإيمان الانتصار الحاسم النهائي .

فمن الحقائق التاريخيَّة المقرَّرة أنَّ فلاسفة أوربا وعلماء الاجتماع والأخلاق فيها شنَّوا حرباً شعواء ضدَّ العقل ابتداءً من القرن السابع عشر المسيحي . إنَّهم قالوا علناً وجهاراً: إنَّ كلَّ حقيقة تستعصي على التجربة ، وكلَّ ما لا يدخل من الكائنات الموجودات في نطاق الكيل ، والإحصاء ، والوزن ، وكلَّ الأخلاق التي لا تظهر فائدتها؛ لا تصلح للقبول والاعتراف به . إنَّهم دعوا في كلِّ قوَّةٍ وصراحةٍ إلى التفكير في الكون بحرية ، من غير أن

يقوم ذلك على أساس نظرية ما بعد الطبيعة ، أو على الإيمان بوجودٍ هو فوق مستوى البشر. إنهم أنكروا وجود كلِّ شيءٍ غير المادة والحركة ، وقالوا بصراحةٍ: إنَّها لا تعمل في هذا الكون قوةٌ نفسيَّةٌ ، أو روحيةٌ ، أو عقليَّةٌ ، فتقرّر أنَّ التفسير الطبعي للكون هو الطريق العلميُّ للاستدلال والبحث ، وصارت كلُّ طريقةٍ غير هذه النظرية للبحث وأسلوب الفكر والاستدلال طريقةً غير علميَّةٍ ، وغير معقولةٍ ، وتدرَّجت الميكانيكية ، والتجريبية ، والنفعية إلى السيطرة على جميع شُعَب الحياة ، فأصبحت التجربة أساس الأخلاق والاجتماع ، والسياسة والخلق ، ولم تسلم شعبةٌ من شُعَب الحياة أو مجالٌ من مجالات القلب والذهن من الخضوع لهذه الفكرة السائدة.

ولا شكَّ في أنَّه لم يتردَّد في الأدب الغربي كلمةٌ بمقدار ما ترددت كلمة (العقل) و(الطبيعة) ، ولم يتغنَّ هذا الأدب بلفظٍ رنَّانٍ ، ولم يطرب مثل ما تغنَّى بهاتين الكلمتين ، وطرب بهما ، وليس لكلمةٍ سحرٌ على العقول مثل ما لها ، ولكن كلما بحث القارئ عن هاتين الكلمتين ، وراجع ما لهما من معانٍ وتفسيراتٍ في الحياة ، تحقَّق أنَّ المراد بالعقل هو العقل الحيواني لا غير ، (إذا صح هذا التعبير) الذي يخضع للمحسوسات ، والتجربة ، وكلِّ ما عداهما ، فهو سرابٌ خادعٌ ومنافٍ للعقل ، ويعبر عن ذلك أحد فلاسفة القرن السابع عشر في أوروبا فيقول: «إنَّ نتائج علمنا لا تصل إلى درجة اليقين ، إلا عن طريق العلوم الرياضية. إنَّ العقل هو عصارة التجربة لذلك ، هو وليد العصر ومحصله. إنَّ جميع الأفكار التي لا تؤيدها التجربة تستحقُّ الرفض؛ لأنَّ التجربة هي أمُّ العلوم كلِّها»[1].

وكذلك المراد من الطبيعة عندهم الطبيعة الحيوانية ، وهي التي تكون حرَّةً من كلِّ نوعٍ من الأحاسيس اللطيفة، والضمير الخلقي، والقلب السليم، والعقل الصحيح ، وتشمئزُّ عن كلِّ نوعٍ من التقييد والتحديد ، وهي لا تقضي إلا أن يعيش الإنسان في حرِّيَّةٍ كاملةٍ يأكل ، ويشرب كيفما يشاء.

---

(١) ليوناردس (Leonardo) راجع تاريخ الفلسفة الحديثة للدكتور Herold Hoffdring.

فإنَّ المجالات التي يطلق فيها كتَّاب الغرب هذه الكلمة تعيِّن بوضوحٍ أن المراد منها هو الطبيعة البهيميَّة لا غير.

إنَّ الفكرة الإجمالية عن كون الإنسان «حيواناً راقياً» التي قامت عليها المدنية الحسِّيَّة، والعلم الحسِّيُّ أصبحت حقيقةً مشروعةً واضحةً مدعمةً بالدلائل العلمية في الفترة الأخيرة التي اتسمت بالبحث، والدراسة، والنهضة العلميَّة، والتي قادتها أوروبا الحديثة، وسرت هذه النظرية في جسم الحياة كلِّها، كالروح، وصار مقياس السعادة الإنسانية أن يكون الإنسان أقرب إلى طبيعته الأصلية، فكان بمقتضى هذه النظرية الطبيعية أن أصبحت اللذة والمتعة (Enjoyment) هي الغاية العليا، والمقصد الرئيسيُّ للحياة، الأمر الذي وصفه الشاعر الإيراني بلغته الشعرية ما معناه «تمتع بالحياة ما استطعت، فما بعد الحياة من حياة»، وأعرب عنه الشاعر العربي بشيءٍ من الدقة، فقال:

كـريـمٌ يـروِّي نفسـه فـي حيـاتـه ستعلم إن متنا غداً أيُّنا الصَّدي

وأعرب عنه الشاعر الآخر متعللاً بقلة الحياة، وقصر مدتها، فقال:

تمتَّـع مـن شميـم عـرار نجـدٍ فمـا بعـد العشيـة مـن عـرار

وأبان عنهم الغربيون الذي لا يعرفون التكلُّف، وجانبوا الأساليب الشعريَّة المقنَّعة فقالوا في وضوح وصراحة: «كل، واشرب، وكن مرحاً (Eat& Drink& be Merry)» وتجلَّت هذه الفكرة المادِّيَّة والأنانية في جميع مجالات الحياة الغربية، فاتَّخذت في الاقتصاد صورة الرأسمالية، وفي السياسة صبغة الاستعمار والسيطرة على البلدان، كما واختارت في النظريات والأفكار أيضاً من بين أسلوبين متقابلين، الأسلوب الذي كان أقرب إلى المادِّيَّة، مثلاً: يمكن الاتحاد العالمي على أساس الوحدة والدين، ولكن الاتحاد على أساس القومية الواحدة أو الجنس الواحد، أو الوطنية الواحدة، أقرب إلى الحسِّيَّة والمادِّيَّة، وللحواس فيه جاذبيةٌ كبيرةٌ بالنسبة للأساس السابق، لذلك آثرت أوروبا القومية الضيقة على القومية العالمية، والإنسانية والوطنية المحدودة جغرافياً على النظر إلى الأرض

كلِّها كوطنٍ واحدٍ ، وكلما ضعفت صلة أوروبا بالدين ، وازدادت غلبة الحسِّيَّـة والمادِّيَّة عليها؛ توثقت عاطفة القومية والوطنية بقدر ذلك ، كأنهما كفتا ميزان إذا رجحت الأولى ؛ شالت الأخرى .

وتحتل كلمة الروحانية (Spiritualism) في أدب أوروبا الجديد مكاناً كبيراً ، وبدأ الناس يهتمُّون بها في العصر الأخير ، لكنه من الخطأ أن نعتقد بأنها تعني حركةً ربانيةً ونظاماً لتزكية النفوس ، وتصفية القلوب ، وإنما هي تربية بعض القوى الإنسانية الخفية ، وتنميتها ، ومناورةٌ لعجائبها وشعوذتها التي أصبحت علماً مستقلاً من العلوم (Science) كالتنويم المغناطيسي ، وأصبحت صناعة من الصناعات (Art) لا أثر لها على الأخلاق والروح .

ولكن ليست أوروبا كلُّها لا دينية بالإعلان ، بل معظمها تابعةٌ للمسيحية ، يجتمع الناس يوم الأحد في الكنيسة ، ويحتفلون بالأعياد والمهرجانات المسيحية ، والتقاليد الدينية في حماسٍ واهتمامٍ بالغٍ ، ويرى الإنسان كثيراً من المظاهر الدينية في المجتمع الأوروبي ، ولكن الحقيقة التي لا شكَّ فيها أنَّ دين أوروبا هو المادِّيَّـة فقط ، كما يتحدث مسلم أوروبي سليم الفكر عن حياة أوروبا ومادِّيَّتها ، فيقول :

«إن الأوروبي العادي ، سواءٌ عليه أكان ديموقراطياً أم فاشياً ، رأسمالياً أم بلشفياً ، صانعاً أم مفكراً ، يعرف ديناً إيجابياً واحداً هو التعبُّد للرقيِّ الماديِّ ، أي : الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدفٌ آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر ، أو كما يقول التعبير الدارج «طليقة من ظلم الطبيعة» إنَّ هياكل هذه الديانة إنما هي المصانع العظيمة ، ودور السينما ، والمختبرات الكيماوية ، وباحات الرقص ، وأماكن توليد الكهرباء ، وأما كهنة هذه الديانة؛ فهم الصيارفة ، والمهندسون ، وكواكب السينما ، وقادة الصناعة ، وأبطال الطيران ، وإنَّ النتيجة التي لا مفرَّ منها في هذه الحال هي الكدح لبلوغ القوَّة والمسرَّة ، وذلك بخلق جماعاتٍ متخاصمةٍ مدججةٍ بالسلاح ومصمِّمةٍ على أن يفني بعضها بعضاً حيثما تتصادم مصالحها المتقابلة ، أما على الجانب الثقافي فنتيجة ذلك خلق طرازٍ بشريٍّ تنحصر

فلسفته الأخلاقية في مسائل الفائدة العلمية ، ويكون أسمى فارقٍ لديه بين الخير والشر ، إنما هو التقدُّم المادي .

إننا نجد في التطوُّر الأساسيِّ الذي تخضع له الحياة الاجتماعية في الغرب الآن تلك الفلسفة الأخلاقية الجديدة المبنية على الانتفاع تبرز للعيان شيئاً فشيئاً ، وكلُّ الفضائل التي تتعلق مباشرة برفاهية المجتمع المادية ـ كالمقدرة الفنية (العلمية التقنية) والوطنية والشعور القومي ـ هي اليوم موضعٌ للمديح ، ولرفع قيمتها فوق ما هو معقول ، بينما الفضائل التي ظلت تعتبر إلى اليوم المثل العليا من جهة قيمتها الخلقية الخالصة ، كالحبِّ الأبويِّ ، والعفاف ، فهي تخسر قيمتها بسرعةٍ؛ لأنَّها لاتمنح المجتمع فائدة مادِّيَّـةً محسوسةً. لقد ولَّى العصر الذي كانت فيه متانة الروابط التي تربط الأسرة مقياساً لسعادة الأسرة والقبيلة ورفاهيتهما ، وخلفه في الغرب الحديث عصرٌ يُعنى بالتنظيم الاجتماعي تحت شعاراتٍ أوسع مدىً من روابط الأسَر والبيوتات. والمجتمع الذي يكون أساسه فـنِّـيَّـاً آليّاً ـ ويخطو خطىً واسعةً بسرعةٍ كبيرةٍ إلى غايته الإلهية ـ لا يكون سلوك الابن فيه نحو أبيه ذا قيمة اجتماعيةٍ كبيرةٍ؛ ما دام أفراد هذه الأسرة يعيشون في حدود الاحترام العام الذي فرضه المجتمع لمعاملة هؤلاء الأفراد بعضهم ببعض ، وبالتالي فإنَّ الوالد الأوروبي يفقد في كل يوم شيئاً من سلطته على ابنه ، وكذلك الابن يضعف احترامه لأبيه على مرِّ الأيام ، ولقد أصبحت صِلاتهما المتبادلة ضعيفةً وفي طريقها إلى الزوال ، وذلك لقيام مجتمعٍ آليٍّ يميل إلى إلغاء كلِّ امتيازٍ لفردٍ ما على آخر ، ونتيجته المنطقية أنَّ الحقوق التي كانت تفرضها الأرحام والوشائج الدموية تصبح نسياً منسياً ، وبساطاً مطوياً»[(١)].

* * *

(١) الإسلام على مفترق الطرق (Islam at the Cross) للأستاذ محمد أسد Leopold Weiss سابقاً.

الـمَـدَنِيَّـة الإشـراقـيـة

الإشراق ضدُّ الخضوع لحكم الحواسِّ والمادِّيَّة. وكما أنَّ الحسِّيَّة تنكر الروح وما والاها، وتصرف النظر عنها، كذلك يحارب الإشراق الجسم والمادِّيَّة. إنَّه يقوم على أساس الاعتقاد بأنَّ الجسم قفصٌ وطائر الروح مقيَّد في هذا القفص، وأنَّ هذا القفص هو حجر عثرة في سبيل الرقيِّ والطيران، والروح لا يمكنها أن تتصل بمركزها الأصلي ومنبعها الحقيقي حتى تفارق هذا القفص. فإذاً يجب أن يكسر هذا القفص، أو تضعف أسلاكه، ليطير طائر الروح إلى وطنه متى شاء.

يقول بارفري (Porphry) عالم من علماء الإشراقية الجديدة: «إنَّ غاية الفلسفة حضور الوفاة وقربها، إذ به يتأتى انفصال الروح عن الجسم الذي هو غاية الحياة الحقيقية».

ويقول علماء هذا المذهب الآخرون: «إنَّ الآفة الكبرى للإنسان اللذةُ والسرور؛ لأنَّ الروح لا تتمسَّك بالجسم، ولا تعنى به، إلا لأجل هذه اللذة وهذا السرور، ويضمحل بسببها عنصر الروح الإلهية، وتسير الروح على طريقٍ يهديها إليه الجسم منحرفةً عن جادة الحقيقة، ولا يمكن حصول الفلسفة إلا بالعقل الخالص المحض بعد إماتة الحواس الظاهرة، ولا يزال الجسم يضلُّ الروح، ولا نستطيع أن نعرف الحقائق الأصلية ما دامت الروح أسيرةً في القفص المادِّيِّ.

وكلَّما تأثر مذهبٌ ونظامٌ خلقيٌّ من هذه الفلسفة الإشراقية، دخلِ في فرائضه ومبادئه تعذيب الجسم، والاستئصال للرغبات الإنسانيَّة كلِّها،

وإماتة العواطف ، والتبتُّل ، والرهبانية ، وسُلِّم أن الجسم والروح ضدَّان لا يجتمعان ، وأنَّ سعادة الإنسان في أن يُقهر الجسم ، ويصرف النظر عنه من أجل الروح .

والنتيجة الحتمية لهذه الفلسفة أن يصبح الجسم وما إليه عرضةً للتغافل والإعراض ، بل الذي يؤمن بهذه الفلسفة يعادي جسمه ، كما يعادي سالكٌ في طريق الحجر الذي تتكرر عثرته به ، وكما يعادي طائرٌ طال عهده بعُشِّه قفصه الذي قُيِّد فيه .

فيحسب ذلك الإنسان دنياه دار العذاب ، وحياته عبئاً ثقيلاً ، وعلاقات الدنيا أغلالاً وسلاسل. ومن المعلوم البيِّن الظاهر: أنَّ هذه التصوُّرات تجتثّ أصول المدنية ، ويمكن بها تخريب أيَّة مدنيَّةٍ بسهولة. وأما استخدامها هذه الفلسفة (السلبية) في بناء مجتمعٍ وتأسيس حضارةٍ؛ فلا مجال له. إن الحسِّيَّة والروحانية الخالصة هما على طرفي النقيض ، ولكنها بينهما فرقٌ كبير ، وهو أنَّ الحسِّيَّة تفوز في إفاقة المدنية على مبادئها بسهولة ، وأما الروحانية الخالصة فلم تقم على فلسفتها حياةٌ متحضرةٌ في أضيق نطاقٍ ، وأصغر رقعةٍ في تاريخ الإنسانية الطويل.

فكانت النتيجة أنَّ الذين قبلوا الفلسفة الإشراقية ، عاشوا على أسس المادِّيَّة والحسِّيَّة منقطعين في حياتهم الخارجية عن المبادىء الإشراقية والروحانية ، واضطروا في حياتهم إلى التلقيح بين المادِّيَّة والروحانيَّة ، فكانوا في معابدهم إشراقيِّين وروحانيِّين ، أما على بساط السياسة؛ فكانوا مادِّيِّين وحسِّيين بكلِّ معنى الكلمة. إنَّ الإمبراطور الهندي (أشوك Ashok) الذي كان يؤمن بالبوذية في حماسٍ وإخلاصٍ ، وكان مع ذلك حاكماً كبيراً ، وفاتحاً منتصراً ، هو مثالٌ جميل لهذا الموقف المتناقض ، والسلوك المزدوج.

ولما اعتنق قسطنطين المسيحية (التي مسخت على أيدي أئمتها ودعاتها ، وصارت تعليماً للروحانية الخالصة والإشراقية) سلك في نفس هذا الطريق التناقض ، ولقَّح روحانية المسيحيَّة بمادِّيَّة الروم الوثنية

وجاهليتها ، فإذا لم يكن الأمر كذلك ، بل بالعكس تسنَّى لتعاليم روحانيةٍ خالصةٍ التأثير في الحضارة وإلقاء ظلالها عليها ، تعرضت تلك الحضارة للانحطاط والتخلُّف ، واحتضرت تلك الأمَّة والحضارة بالتدريج ، فإمَّا تنقرض تلك الأمة والحضارة وتطوى ، وإذا كانت هذه الأمة تملك قوة مقاومة؛ فإنها تخوض حركة ردٍّ فعلٍ عنيفةٍ ضد هذه الروحانية الغالية ، ولا تنتهي هذه الحركة المعادية إلا عند المادِّيَّة المحضة ، ولا تسمح بتفاهمٍ مع تلك الروحانية ، أو بتعايشٍ معها ، فتتحول هذه الحضارة من روحانيةٍ غاليةٍ ، إلى مادِّيَّةٍ متطرِّفةٍ .

وهذه هي قصة أوروبا ، فقد أصبحت الديانة المسيحية فيها (بتأثير الإشراقية أولاً ، وبجهل زعماء هذه الديانة وتحريفهم ثانياً) نظاماً ثائراً على الفطرة ، قائماً على الرهبانية الغالية ، تعتبر الحياة الزوجية معصيةً كبيرةً ، وتنظر إلى طبقة الإناث كلعنةٍ للدنيا ، وترى الاتصال بها أكبر حاجزٍ في الكمال الدينيِّ ، ودخل كلُّ ذلك في أصول الديانة ، ودعا أكبر علمائها إلى حياة التبتُّل والعزوبة في قوةٍ وحماسٍ ، وكان رهبان القرون الوسطى وأحباره ينتزعون الأطفال من حجور أمهاتهم ، ويهرِّبونهم إلى قلب الصحراء ، ويحوِّلونهم إلى رهبان ، ويفتخرون بذلك ، وحكايات الغلو في المسيحية الممسوخة ، وتخطِّيها لحدود الاعتدال ، ومعاداتها للمدنيَّة ، وتعذيب الجسم ، وإيذاء النفس ، وقصص الرياضة المؤلمة غير الفطرية ، وإقامة الرهبان في كهوف السباع ، والآبار الغائرة ، والمقابر الموحشة ، وستر الجسم بالأشعار الطويلة ، والمشي على الأيدي مثل البهائم ، وأكل العشب مكان الطعام ، والوقوف على قدمٍ واحدةٍ لمدَّة طويلةٍ ، التي حكاها (ليكي Lecky) في كتابه «تاريخ أخلاق أوروبا» تقشعرُّ منها الأبدان ، ويشمئزُّ منها الوجدان ، فكانت نتيجة هذا النظام الرُّوحانيُّ المعادي للإنسانية أن تضعضعت أسس المدنية في كلِّ بلادٍ كانت تحكمها المسيحية ، والدين المسيحيُّ ، وبدأ عمران تلك البلاد يتضاءل بسرعةٍ ، وتفشَّت الأمراض ، والأموات ، والجدب ، والمجاعات ، وكاد العلم يفنى ، وآثار الحضارة تنمحي ، ولم يبقَ من وسائل الحياة إلا اسمها ، وسادت

الجهالة ، والوحشية ، والظلمة على دنيا المسيحية كلِّها ، حتى سميت القرون الوسطى بـ(القرون المظلمة Dark Ages).

وكان طبيعياً أن ينشأ ردُّ فعلٍ ضدَّ هذا الوضع ، فلما انهزمت الروحانية والرهبانية في القرن التاسع عشر المسيحي هزيمةً أخيرةً تهافتت أوروبا على الماديَّة مثل الفقيرالمدنف على الطعام ، وكانت هذه المادية انتقاماً من الظلم الذي استباحه رهبان المسيحية وأحبار الكنيسة على الإنسانية عدة قرون ، ولكن كان هذا ظلماً آخر على الإنسانية ، ويصعب القول : أيُّهما أكبر ، وأيّهما كان أكثر ضرراً للمقومات الإنسانية؟ كما يصعب التكهُّن : متى تثور أوروبا ثورةً ثانية ضدَّ هذا الوضع غير الطبيعي ، وتنشأ حركة ردٍّ فعلٍ أخرى ضدَّ هذه المادية البهيمية ، بل السبعية ، وهذه الجمادية الميكانيكية ، وأين ينتهي ذلك؟

* * *

طـريـق آخَـرُ لجـوَابِ هَـذه الأسئِـلـة

«الـرسـالــة»

حاصل هذا البحث والتنقيح الذي شغلكم طويلاً ، بأنَّ جميع قوى البشر ، الظاهرة منها والباطنة ، وحواسَّه وعقله وشعوره الباطنيّ ، ومشاهداته الباطنيَّة ، عاجزةٌ عن حلٍّ هذه الأسئلة الهامَّة الأساسية ، وكلَّما حاول الإنسان حلَّها على أساس هذه القوى في تاريخه الطويل؛ مُنِيَ بالإخفاق ، وكلما حاول أن يقيم كيان حضارته وحياته على أسس هذه الأجوبة المشبوهة القياسية ، والمفترضات؛ وقع في أساسه اعوجاج ظلَّ به جداره منحرفاً إلى الثريَّا .

ولكن هل نستطيع أن نقتنع بهذه النتيجة السلبية؟ وهل يسوغ لنا أن نقرر أن هذه التساؤلات ما لها من جواب مقنع ، وأنها ستظل ألغازاً على مَرِّ القرون والعصور؟

إننا حين نسرِّح النظر في الكون ، ونرى سعته وعظمته ، وصنعته وحكمته ، وسعة قوانينه التي تحكمه ، واعتدال عناصره وتناسب أجزائه ، وتعاون بعضها مع بعض؛ لا يقبل عقلنا السليم أن يفرض أنَّ هذا الجهاز العظيم البديع ظهر إلى الوجود من غير صانعٍ ، ويسير بلا سائقٍ ، ليس له غرضٌ ولا غايةٌ ، وسوف ينتهي بنفسه .

وكذلك حين نلاحظ هذا الاهتمام الكبير الذي أُحيط به الإنسان في الدنيا ، من مولده إلى موته ، ونلمس هذه التنظيمات الواسعة التي تساير الإنسان وترافقه ، وتيسِّر مهمته في كلِّ خطوةٍ يخطوها ، وفي كلِّ مرحلةٍ يدخل فيها ، ونلاحظ أنَّ الإنسان هو نقطةُ الدائرة والقطب الذي تدور حوله

رحى الحياة ، ونستعرض الوسائل المتوفرة المنتشرة على الأرض لإكمال كلِّ شعبةٍ من شُعَب حياته ، ولتحقيق كلِّ رغبةٍ من رغباته المخفيَّة السرِّيَّة أحياناً ، ونتأمل في نظام الدلالة والهداية الدقيق ، والإلهام الفطري الحكيم الذي يكتنفه في جميع مجالات الحياة؛ يأبى عقلنا أن يُسيغ ويقبل أنَّ حياة هذا الإنسان المحتفل به هذا الاحتفال العظيم ، من غير غاية ، وأنَّه خُلِق عبثاً ، وتُرِكَ سُدىً ، وأنَّه لا يرتفع عن مستوى البهائم والحشرات ، وأنه ليست هنالك دلالةٌ أو إرشادٌ فيما يتصل بهذه التساؤلات النابعة من فطرته السليمة ، وفي هذه القضايا الحسَّاسة الحاسمة التي تقرِّر المصير ، والتي فيها سرُّ سعادته ونجاته ، وأنَّ المجال الروحي هو المجال الوحيد المهجور الذي لا نور فيه ولا دلالة.

ونلقي نظرةً على الكون ، فنرى أنَّه كاملٌ لا من الناحية الفردية بل من حيث المجموع. إنَّ أجزاءه تكوِّن هذه المجموعة المتناسقة الكاملة بتعاون بعضها لبعضٍ ، ولا يستطيع جزءٌ من هذه الأجزاء أن ينوب عن آخر ويقوم مقامه. والنظام الإنسانيُّ قائمٌ هو الآخر بهذا التعاون وتوزيع الأعمال والوظائف.

ونحن الآن ، بعدما بحثنا عن الكون ونظامه بحثاً دقيقاً وتفصيلياً كذلك ، اعترفنا بعجزنا من أن نفكَّ هذه الألغاز بأنفسنا نحن ، وفي الوقت نفسه ندرك أننا في حاجةٍ إلى نظام مُنَزَّلٍ من الله للهداية والإرشاد ، وفي هذه القضايا ، ولكننا ليس لنا أن نلحَّ على أنَّ كلَّ فردٍ من أفراد البشرية أهلٌ للقيام بعمل الهداية ، لأنه يتنافى مع سُنَّة فاطر الكون ، وطبيعة هذا العالم.

الأنـبيــاء:

وهنا يتمثَّل أمامنا رجالٌ يدَّعون أنَّهم يرشدوننا في هذه القضايا على بيِّنة من الله. إنهم يقولون: قد كشف الله لنا كثيراً من أسرار هذا العالم ، وأخبرنا بعالمٍ جديد (عالم الغيب)[1].

---

(١) الغيب في الاصطلاح: حقيقةٌ لا تدرك بالحسِّ المحض ، والعقل الخالص.

إننا نرى هذا العالم حين يريناه الله كما ترون هذا العالم (عالم الشهود) ، إنَّه منحنا علم ما يرضاه لعباده وما لا يرضاه ، وعلم الأحكام بطريقٍ مباشر ، وجعلنا واسطةً بينه وبينكم ، وأنزل علينا كتابه ، وهذه الجماعة هم الأنبياء .

إنَّ هؤلاء الذين يقولون إنَّهم أنبياء انكشفت لنا عن سيرتهم نواحٍ وسِماتٍ يتَّسمون بها ، عرفناها بدراسة حياتهم ، وبشهادات جيرانهم ، ومعاصريهم ، وبالأخبار المتواترة المستفيضة في التاريخ ، وهي كما يلي :

١ ـ إنهم كانوا على جانبٍ عظيم من سموِّ الأخلاق ونزاهة السيرة ، لا مغمز في حياتهم ، ولا مأخذ من المآخذ التي تكثر في حياة غيرهم . لم يُسجَّل عليهم كذبٌ ، أو تزويرٌ في أتفه الأمور ، فضلاً عمّا له شأنٌ وخطرٌ ، ولم يُروَ عنهم قطُّ أنَّهم خدعوا أحداً ، وقد احتجَّ بهذا الماضي المشرق النزيه والرصيد الغني ، الذي أقرّت الفطرة السليمة والعقول المستقيمة في الأمم المعتدلة قديماً وحديثاً بقيمته ومكانته ـ آخر الأنبياء ﷺ ، فقال : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : ١٦] .

٢ ـ إنهم يمتازون بكمال العقل ، وسلامة الفطرة ، وإصابة الرأي في جميع الأمور ، والاعتدال ، والاتزان في كلِّ ما يأتون ويذرون ، لا يؤثر عنهم شيءٌ يشكِّك في رجاحة عقلهم ، ونباهتهم ، وصحة قواهم الفكرية ، وقد نفى خالقهم الذي أرسلهم عنهم كل ظنَّةٍ ومرضٍ عقليٍّ ، فقال : ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم : ٣] . وقال أحدهم متحدِّياً لقومهم : ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ ﴾ [سبأ : ٤٦] .

٣ ـ إنهم في قضايا العالم الأخرى رجالٌ وسط ، يعيشون كما يعيش الناس حياةً عاديَّةً هادئةً ، تتسم بالاعتدال والاستقامة ، لا يدَّعون في أنفسهم في قضايا الحياة وعلوم البشر اختصاصاً أو تفوقاً على غيرهم ، أو براعةً في فنٍّ من الفنون ، لا يشاركهم فيها غيرهم ، بل يقول الواحد منهم في كلٍّ بساطة وصراحة : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الكهف : ١١٠] .

ويقول الله تبارك وتعالى مخاطباً محمداً ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: ١٠٩].

٤ ـ إنهم يخبرون بالأخبار والعلوم التي يعرف الإنسان بداهةً أنَّ مصدرها غير مصدر العلوم التي تستفاد من العلماء والمعلمين، وأهل الحذق والبراعة من أفراد البشر. فعلومهم تختلف عن العلوم البشرية المكتسبة من الكتب والمصادر العلمية والتجارب المبنيَّة على الذكاء، والاجتهاد، والملكة العلمية اختلافاً بيِّناً، ولا صلة لها بتلك الوسائل التي توارثتها البشرية، وقام عليها صرح العلم قديماً وحديثاً من تعليمٍ، وقراءةٍ، وكتابةٍ، ومراجعةٍ للكتب، وتأمُّلٍ، وتمرينٍ، وإلى ذلك أشار الله تعالى في قوله:

﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ [هود: ٤٩]، وبقوله: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

٥ ـ ويكونون في الغالب بمعزلٍ عن المصطلحات العلمية التي يخضع لها ويستخدمها أهل الصناعة العلمية والمنخرطون في سلك العلماء والمؤلفين، ولا يستغنون عنها، إنَّهم يستخدمون الطرق الفطرية الموهوبة، ويرسلون النفس على سجيتها، ويخاطبون الفطرة البشرية بلغتها التي تفهمها والأسلوب الذي ألفته في جميع البيئات ومراحل الحياة، فلا تحتاج إلى شارحٍ أو ترجمانٍ، وإلى ذلك يشير أحدهم (وهو محمد ﷺ) بقوله ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، إن ينبوع الحقيقة يفيض من لسانهم، كما ورد على جنانهم، لا يحبسه حابسٌ، ولا يتلوَّن بلونٍ خارجيٍّ، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]، ولا يتصرَّف فيه النبيُّ وفقاً لمصلحةٍ، أو خوفاً من ضررٍ، أو معارضةٍ، فيقول آخر الأنبياء ﷺ: ﴿ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾ [يونس: ١٥].

٦ ـ إنهم يقضون ردحةً من حياتهم لا يأتون فيها بدعوى، ولا ينتظر الناس

منهم ذلك ، ولا يستشرفون بأنفسهم إلى منصبٍ يمنحونه ، أو كرامةٍ يكرمون بها ، وإلى ذلك أشار رسول الله ﷺ كما حكاه القرآن عنه : ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : ١٦] ويقول الله : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ ﴾ [القصص : ٨٤].

٧ ـ إنهم يمتازون بالاستقامة الخلقية ، قد عصمهم الله تعالى من كلِّ رذيلةٍ ، أو وصمةٍ من وصمات الحياة الجاهلية ، أدَّبهم ربهم ، فأحسن تأديبهم ، وقد ظهرت علائم الرشد منذ نعومة أظفارهم ، وامتازوا بين أترابهم وأعضاء أسرتهم بسلامة الفطرة، وصفاء القلب ، ويقظة الروح، وحبِّ الاعتدال ، والإنابة إلى الله ، وكراهة الظلم، والبعد عن الفحشاء، والعطف على الضعفاء ، والفقراء ، وإلى ذلك يشير القرآن بقوله : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١]، ويقول : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنبياء : ١٢٤].

٨ ـ ولا يتسم العلم الذين يأتون به بالتَّدرُّج والانتقال من مرحلةٍ إلى مرحلةٍ من النضج ، والحصافة ، والرقيِّ ، كما جرت به العادة في العلوم البشرية ، والصناعات العلمية ، ولم يعدّ ذلك عيباً بل عدّ كمالاً ونبوغاً ، ومدح به العلماء ، ووصف به العلم في تاريخ العلم وتطوره في كلِّ أمَّة ودور ، ولكنهم بالعكس من ذلك ينكشف عليهم الحقُّ فجأةً وكاملاً ، ولا يتغيَّر بتقدُّم في العمر وبزيادةٍ في العلم والتجارب ، أو الحنكة والممارسة. يقول القرآن : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢].

٩ ـ إنَّ ثقتهم بالحقائق الغيبية ، والعلوم التي يكرمهم الله بها ، ثقةٌ لا تقاس بثقة أهل العلوم بعلومهم ، فإنَّ جميع هذه الحقائق التي يكشفها الله عليهم تصبح لهم حسِّيَّةً بديهيَّةً ، ووجدانيَّةً ذوقيَّةً ، ولا يتطرَّق إليها شكٌّ ، ولا ترتقي إليها شبهةٌ ، ولا تقبل مراءً ، ولا جدالاً ، يقول الواحد منهم تارة : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾

[يوسف: ١١٨] ، ويقول طوراً: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: ٥٧] ويقول الآخر: ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ [الأنعام: ٨٠].

١٠ ـ إنَّ أمور الغيب التي يطالبون بالإيمان بها كالأصول الموضوعة هي الدائرة الوحيدة التي لا يتناولها العقل بنقدٍ (لأنَّه لا يملك المبادىء الأولية، والوسائل البدائية التي تمكِّنه من ذلك).. أما ما عدا ذلك من التفاصيل والتعاليم والنظم التي يدعون إليها ويعلمونها، كالعبادات، والأخلاق، والمعاملات، وتدبير المنزل، وسياسة المدن، فللعقل مجالٌ فيها، وأنَّه يهتدي إلى الحكم والمصالح التي تتضمنها هذه التعاليم، وقد تحقَّق أنَّهم دعوا إلى منهجٍ للحياة لم يعرف أنَّ حكيماً من الحكماء قدَّم منهجاً أفضل منه، ولم تجرب البشرية في سيرها الطويل نظاماً أمثل من هذا النظام، وأعود على البشرية بالسعادة والسلام، وقد أشار إلى ذلك القرآن بقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

لقد أصبح الذين دانوا بتعاليمهم (بعدما آمنوا بمبادئهم الأولية التي دعوا إليها) شامةً بين الناس، وناراً على عَلم في حسن سيرتهم، وكرم أخلاقهم، وطهارة نفوسهم، وفي جامعيتهم، وفي اعتدالهم، وتوازنهم، وفي تقواهم، وخشيتهم لله، وفي معرفتهم للحقِّ وحمايتهم له، لا يجاريهم في ذلكَ من نشأ في أحضان المصلحين الآخرين، وتخرَّج في مدارس خلقيةٍ تربويَّةٍ في مختلف أدوار التاريخ، وشتَّى أنحاء العالم. يقول القرآن عن بعض مَن نشأ في أحضان هذه التعاليم النبوية، وفي ظلال هذه التربية الفريدة: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧] وقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] إلى غير ذلك من الخصائص التي مُدحت بها الأمَّة التي رضعت بلبان التعاليم النبوية.

١١ ـ إنَّهم لا يدَّعون علم الغيب استقلالاً وبصفةٍ دائمة، ولا يستطيعون أن

يجيبوا على كل سؤالٍ من عند أنفسهم في كلِّ وقتٍ. يقول القرآن على لسان نبي من الأنبياء وهو محمد ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠] وإنما يتطلَّعون إلىٰ نزول الوحي، يقول الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، ولا يكون في وسعهم أن ينالوه متى شاؤوا، وكيف شاؤوا.

وفي بعض الأحيان يكون هذا التنزيل والوحي مخالفاً لهواهم، وأحياناً مخالفاً لقياسهم وعملهم، وقد يعاتبون فيه، وينصحون، وفي القرآن شواهد على ذلك منها قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣] وفي آية أخرى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]. وقال في آية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]. وقد نزلت سورةٌ بأثرها في تنبيه النبيِّ على موقفٍ اتَّخذه إزاء كافرٍ مستغنٍ ومؤمنٍ مخلصٍ طالبٍ للحق، وما كان ذلك إلا لحرصه ﷺ على نشر دعوته وتقويتها، وهي سورة «عبس».

١٢ - إنَّهم على صلة وثيقة استثنائية بالله تعالى، يساندهم تأييد الله، ونصرته، وقوى الكون كلِّه تبدو مسخَّرةً لهم، وقد تظهر في توثيقهم، وتصديق نبوتهم أحداثٌ غريبةٌ تبدو معارضةً لنظام الكون الطبيعي، وأسبابه، يقصر ذهن الإنسان وتجربته عن فهمها، وإدراك علَّتها، غير أنَّها تظهر بقدرة الله، وتبرهن على أنَّهم من أوليائه، وأيضاً لا يكون لهم خيارٌ في ظهور هذه الوقائع، ولا يستطيعون إظهارها بهواهم كلما طالبهم الناس بذلك. يقول القرآن: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠]. ويقول: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]. ويقول: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنعام: ٣٥].

هذه هي جماعة الأنبياء وميِّزاتهم ، والشهادات على صدق دعواهم ، والقرائن الدَّالة عليه وعلاماته ، ولكن أكبر شهادة لهم هي شخصيَّتُهم وسيرتُهم ، التي هي معجزةٌ متَّصلةٌ ممتدَّةٌ على فترةٍ زمنيةٍ طويلة ، بل هي مجموع معجزات قد يبلغ عددها إلى مئات وآلاف ، وهي المعجزة التي آمن بها أكبر عددٍ من أتباعهم .

والشهادة الثانية الكبيرة هي تعاليمهم ، وصحيفتهم التي هي معجزةٌ حيّةٌ خالدةٌ ، والتي تتضمن مئاتٍ من المعجزات البيانية البلاغية ، والمعنوية ، والتربوية ، منها ما هي داخلة فيها ، ومنها ما هي نابعة منبثقة عنها ، ومنها معجزات هي من صميم هذه المعجزات ، ومنها ما هي جانبيةٌ .

فلنفكر الآن قليلاً ما الذي يدعو إلى التشكك فيما إذا كان الله اختصَّ عبداً من عباده لتبليغ رسالاته وكلامه ، وأحكامه إلى خلقه ، واجتباه لدلالتهم وإرشادهم ، هل في ذلك ما يتنافى مع العقل السليم ، أو ينقض قانوناً من قوانينه ، أو السنن التي سنَّها؟ .

هل ذلك مما لا يتفق مع ما علمناه وجرَّبناه من صفاته تعالى من القدرة المحيطة التي عَبَّر عنها بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]؟. وعلمه المحيط الشامل ، ومنه علمه بضعف البشر ، وحاجتهم ، وافتقارهم إلى الهداية والدلالة ، وتفاوت مداركهم ، ومستويات فهمهم وعقولهم ، وكون بعضهم عيالاً على بعضٍ في العلوم والصنائع البشرية ، الحقيقة التي عَبَّر عنها بقوله: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. بل إنَّ عكس ذلك وهو تعطيل الأجيال البشرية وتركها هملاً ، حبلها على غاربها ، هو الذي يتنافى مع ما اتصف الله تعالى به من الرحمة والعدل ، والاهتمام الكبير لسعادة البشر ، وراحتهم ، وبلوغهم الغاية التي خلق استعدادها في نفوسهم: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وهل هذا خلافٌ لقدرة الله وشهادة التاريخ؟ ولا يصحُّ ذلك! فقد بعث الله الأنبياء في كلِّ زمانٍ احتاجت فيه البشرية إلى الهداية والإرشاد ، وفي كلِّ

أمَّةٍ ضلَّت ، وتاهت ، ولم تقم حجَّةٌ وبرهانٌ على خلاف ذلك ، واقترنت دعواهم بمئات من الحجج والشواهد ، وكان في مواجهة دعوتهم دعاوٍ فارغةٌ لا دليل معها ، ولا برهان.

وهل يخاف ذلك الحسُّ والتجربة؟ ولا شكَّ أنَّ الحواسَّ والتجارب الإنسانية بشكل عام لا تصلح أن تكون محكّاً للنُّبوَّة يمكن بها تصديقها ، أو تكذيبها؛ لأنها خلقت لممارسة أعمالٍ طبيعيةٍ محدودةٍ ، وقضاء حاجاتٍ بشريَّةٍ عاديَّةٍ ، ولكنَّها تستطيع أن تساعدنا في فهم هذا الطور الذي يبلغ إليه الأنبياء ويُستأثرون به ، وفي تسليم إمكان هذا التفاوت العظيم بينهم وبين عامَّة الناس يجب علينا أن نفكر في معارفنا ومعلوماتنا ، فإنَّها لم تتيسر لنا في بداية العمر وحالة الجهل ، وقد جهلها كثيرٌ ممَّن سبقنا من الآباء والأجداد ، ولكنَّها حصلت لنا بالتعليم وبنظامٍ خاصٍّ من التلقين والاكتساب ، فما هو المانع من أنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حصلت لهم معارف وعلوم ، هي أسمى وأدقُّ وأصحُّ من علومنا المكتسبة ، بالتعليم الإلهي وبواسطة الملك ، ونزول الوحي؟!

وقد ردَّ القرآن على هذه الشكوك الثلاثة في آيةٍ واحدةٍ ، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

وتفيد الكلمات الأولى في الآية أنَّ الذي ينكر الرسالة والنبوة ، هو لا يعرف صفات الله في الحقيقة ، ولم تحصل له معرفةٌ تامَّةٌ بها ، فمن كان يعرف شيئاً من صفة ربوبيته وصفة رحمته ، وصفة عدله ، والذي له معرفة بلطفه ، وعنايته؛ التي تعمُّ الإنسان من أول أمره؛ لا يستطيع أن ينكر الرسالة التي هي أهم شعبةٍ من ربوبيته ، وأكمل مظهرٍ من مظاهر رحمته ، وأوضح دليلٍ لعدله ، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] ثم تعرضت هذه الآية للردِّ على من ادّعى أنَّ دعوى النبوة بدعٌ من الأمر لم يسبق له نظيرٌ ، فقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن

شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. وهنا يتساءل القرآن فيقول: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١]. وخبر نبوة موسى من الأخبار المستفيضة المتواترة التي لا تقبل الجدال، وقد كان من هؤلاء المستغربين للنبوة المحمَّدية، وفي مقدمتهم يهود المدينة، فقال مخاطباً لنبيه: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]. ثم قدَّم حجة حسِّيَّةً وتجريبيَّةً على إمكان النبوة، وهو تدرُّج الإنسان من الجهل إلى العلم، ومن الأمية إلى الثقافة، والتوسع في المعلومات، والتضلع من العلم، والانتقال من درجةٍ إلى درجةٍ، حتى يكون بين الأميِّ والمتعلِّم، وبين متوسطٍ في العلم ومشاركٍ فيه، وبين متبحِّرٍ ضليعٍ وإمام مجتهدٍ، من البون الشاسع، والفرق الواسع ما لا يبلغه قياس كثيرٍ من الأذكياء، وهو دليل على أنَّ المعارف لا نهاية لها، وأنَّ مدارك البشر لا تمكن الإحاطة بها ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. وهو قوله تعالى مستدلاً على إمكان حصول علمٍ خاصٍّ للأنبياء: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٩١].

وفي الحقيقة ليست في إمكان النبوَّة واختصاص بعض البشر بالوحي والتنزيل والرسالة والنُّبوَّة استحالةٌ عقليَّةٌ، ولكن الذي لم يترقَّ فكره وذهنُه إلى هذا السموِّ الفكريِّ ليس في وسعه أن يقيس ذلك المقام، وليس له بديل سوى الاعتماد على النبيِّ وتقليده.

وجاء هذا الفرق الطبيعيُّ والفجوة الواسعة العميقة التي تقوم بين من يكرم بالنبوة وتعليمها، وبين من يكون بمعزلٍ عنها، مصوَّرةً مجسَّمةً في حكاية جبل الصفا وخطبته، وهو المثل الحكيم البليغ لما يمتاز به النبيُّ عن أفراد البشر، وما يتمتع به من نورٍ وبيِّنةٍ ومشاهدةٍ لا حظ فيها لغيره.

وهو ما تحكيه السيرة النبوية: أنَّ رسول الله ﷺ لما أمر بإنذار عشيرته؛ صعد على جبل الصفا، ونادى بأعلى صوته: «يا صباحاه!» وكان من عادة العرب أنَّهم كانوا يعلنون بهذا الصوت الخطر العظيم، وقد سمع أهل مكة الصيحة المعروفة المألوفة تخرج من فم أصدق رجلٍ عرفوه في بلدهم،

وسموه: (الصادق الأمين) وفهموا معناها ومغزاها وملابساتها ، وأمامهم سلسلةٌ طويلةٌ من التجارب والحوادث ، فلم يتأخر في تلبية هذا النداء فاجتمع الناس إليه بين رجلٍ يجيء إليه ، وبين رجلٍ يبعث رسوله[1] ، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب! يا بني فهر! يا بني كعب! أرأيتم لو أخبرتكم أنَّ خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟»[2].

وكان القوم الذين خاطبهم الرسول العربي ﷺ أُميِّين غير مثقَّفين ، لم يدرسوا الفلسفة وعلم المنطق ، ولم يألفوا التعمُّق والتدقيق ، ولكنهم كانوا واقعيِّين عمليِّين ، رزقهم الله النصيب الأوفر من سلامة الفهم وسرعة الإدراك. إنَّهم رأوا رجلاً جرَّبوا عليه الصدق ، والأمانة ، والنصيحة ، وحبَّ الخير ، قد وقف على جبل يشاهد ما أمامه ، وهو الذي اشترك فيه مخاطبوه ، وينظر إلى ما وراء هذا الجبل والسفح المقابل ، فعرفوا من غير شك وتأمُّل طويلٍ أنَّ له الحقّ في أن يتحدَّث عما في السفح المقابل من عدوٍّ رابضٍ ، وخطرٍ كامنٍ ، وليس لهم حقٌّ ـ وقد حال الجبل بينهم وبين السفح المقابل ـ أن يكذبوا وينفوا رؤيته ، على أساس أنَّهم لا يشاركونه في هذه المشاهدة ، فقد فرَّق الجبل القائم بين وضعهم ووضع الخطيب النذير ، فقالوا : نعم! نصدِّقك ؛ لأنك صادقٌ أمين ، وأنت واقف على الجبل.

فقال : «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد»[3].

وفي الحقيقة كان هذا تمثيلاً للنبوَّة ، وأوثر له هذا الأسلوب الحكيم. فالذين لا يكونون على هذه القمَّة التي يكون عليها النَّبيُّ ليس لهم أن ينكروا هذه الحقائق والعلوم التي يقدِّمها النَّبيُّ بتنزيل الله ووحيه ، على أساس قياسهم وتخمينهم ، ليس لهم إلا أن ينكروا مشاهدتهم ، وينفوا علمهم ، ولكن كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : «إنَّ عدم العلم لا يستلزم علم

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ج ٣ ، ص ٣٨.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) انظر هذا الحديث بالتفصيل في كتاب العلامة الندوي «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن».

العدم» فبينهما فرقٌ كبير ، فليس ما جهله الإنسان كان معدوماً ، وكم من موجود في الدنيا يجهله ملايين من البشر .

فإذا جادل النبيُّ وباحثه رجالٌ ليس لهم علم بالنَّبوَّة ، ولا إدراك لحقائق وأسرار ما وراء الحسِّ والعقل ، وحاجُّوه فيما هو له بديهيٌّ ومشاهد؛ أجابهم النبي ، وقد ضاق صدره من محاجَّة هؤلاء ، ومكابرتهم في الواقع ، فقال : ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ [الأنعام : ٨٠] .

وكذلك إذا عجز نبيٌّ من الأنبياء ـ بطبيعة الحال ـ عن أن يشرك غيره فيما يراه ويشاهده ، ويخلق فيه ذلك اليقين الذي حصل له ، قال معتذراً: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨] .

إنَّ كثيراً من هؤلاء الناس الذين يملكون حواسَّاً سليمةً ، وعقلاً كبيراً يستعينون به في قطع هذه المسيرة وترقية الحياة وترفيهها ، وإذا واجهوا علوم النبوَّة الدقيقة ، وما يخبر به الأنبياء عن عالم الغيب وحياة أخرى ونعمائها ، خانتهم قواهم ، وخذلهم ذكاؤهم ، فتذرَّعوا تارةً بالشكِّ ، وتارة بالإنكار ، وطوراً بالعيِّ والعجز والعمى ، وهم الذين صوَّرهم القرآن في قوله : ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ [النحل : ٦٦] ويقول : ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]. ولو تكلموا في هذه القضايا لم يعتمدوا عل يقينٍ ومشاهدة ، إنما بنوا على قياسٍ وتخمينٍ وجزافٍ من القول: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [النجم: ٢٨] .

* * *

تعَاليم الأنبيَاء

وندرس الآن ما هي المعلومات التي حملها الأنبياء الكرام عن ذات الله ، وصفاته ، ومخلوقاته ، وهذا الكون ، وعلاقة الرب به وعلاقته بالرب ، وحقيقته ، وعاقبته ، وغاية حياة الإنسان ، وما نقلوا إلينا من الأخبار عنه ، وعن الكمال المطلوب ، وما هو الأساس للمدنية والاجتماع والأخلاق الذي شيدوه ، ثم ندرس بها حياة الإنسان التي تقوم على هذا الأساس ، وما هي ميزاتها.

ولا يفوتنا هنا أنَّ تعاليم الأنبياء متفقٌ عليها ، وهي تلتقي على أساسٍ واحدٍ ، وتنبع من مصدرٍ واحدٍ ، بخلاف كلام الفلاسفة والإشراقيين الذي يكثر فيه التناقض والاضطراب ، والذي ينقض بعضه بعضاً[1] ، وكان جديراً هناك أن نستعرض نموذجاً من أقوال الأنبياء ، ولكن أكثر صحفهم قد ضاعت ، ولم يصحَّ ما بقي منها ، فلا يمكننا استعراضها؛ إذ عبثت بها أيدي الأحبار والملوك والحوادث الدامية ، كما عرفنا من تاريخهم ، ولذلك نكتفي بأمثلة من القرآن الكريم ، وهو آخر الصحف المنزلة والمهيمن عليها ، وهو كافٍ في تمثيلها.

* * *

---

(١) راجع كتاب «مقاصد الفلاسفة» لحجَّة الإسلام الغزالي ، وكتب الفلسفة القديمة والحديثة ، وراجع تاريخ الفلسفة الحديثة لهيرالد هوفدرنك (Dr. Herold Hoffdring).

الكون وخالق الكوْن

صفات الله وأفعاله:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٣ ـ ٢٤].

خلق العالم ونظامه:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ملكوت الله وحاكميته:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩].

﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢].

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

لم يخلق هذا الكون عبثاً وما كان خلقه باطلاً:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧].

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

إن حياة الإنسان ليست بلا غايةٍ والإنسان لم يُترَك سُدىً:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

غاية الموت والحياة ابتلاءً للإنسان وامتحانه:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤].

زينة الدنيا لاختبار الإنسان:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

الإنسان أشرف خلق الله:

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

الإنسان خليفة الله في الأرض:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

الإنسان أمينٌ لخزائن الله في الأرض:

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

جميـع مـا فـي الأرض لـلإنـسـان :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة : ٢٩].

غـايـة خلـق الإنـسـان عبـادة الله :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦ ـ ٥٧].

نعـم الله وخيـراتـه خلقـت لـينتـفـع بـهـا الإنـسـان :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [الأعراف : ٣١].

ليـس الأكـل والـشـرب مـعـصيـة ، إنـمـا الـمعصيـة فـي الإسـراف :

﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف : ٣٢].

الـنـاس مـن آدم ، لا فـضـل لأحـدٍ عـلـى أحـدٍ إلا بـالـتقـوى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات : ١٣].

❊ ❊ ❊

حياة أخرى

وتلي هذه الحياة حياة أخرى حيث يُجزى الإنسان على أعماله، ويُحاسَب عليها، حتى على مثقال ذرَّة: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية: ٢٥ ـ ٢٦].

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [يونس: ٤].

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

حياة الدنيا فانيةٌ تافهةٌ، وحياة الآخرة باقيةٌ خالدة:

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

العاقبة للذين لا يريدون علوّاً في الأرض:

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

* * *

منجزات تعاليم الأنبياء
ومميزات الحياة الإسلاميَّة

هذه هي حقائق وعلومٌ ، ومسلماتٌ عن خالق الكون والحياة ، والإنسان ، ومصيرها ، ونشأتها الثانية التي تحصل للإنسان عن طريق الأنبياء ، وكلُّ بناءٍ للحياة يقوم على هذا الأساس العلميِّ ، الفكريِّ الخلقيِّ ، لا يصعب أن يقاس عليه خططها وتفاصيلها ، فكما لا يصعب على أيِّ إنسانٍ واعٍ أن يتكهَّن برؤية بذرةٍ بنوعِ الشَّجر الذي ينبت منها ، وعن هيئة أوراقه وثمارِه ، ويستطيع طبيبٌ ، أو عالمٌ من علماء النبات أن يبيِّن تفاصيل نشأة هذه الشجرة ومصيرها.

وكذلك يستطيع الذين يدركون كيف تؤثر عقيدةٌ أو نظريةٌ تتعلق بالعالم ونظامه ، مبدئه ومصيره ، وغاية حياته ، ومنزلة الإنسان ، ومسائل أساسيةٍ ورئيسيةٍ أخرى ، على التفاصيل الأخرى للحياة ، ويستطيعون بسهولة أن يبيِّنوا ملامح الحضارة التي تقوم على ذلك الأساس.

ولا حاجة إلى أن ألفت نظركم إلى التناقض القائم في المبادىء والأصول الحسِّيَّة ، والعقلية ، والإشراقية ، وبين هذه التعليمات والمدنية الإلهامية ، وأنَّ هذا التناقض قائمٌ في التفاصيل كما هو في الإجمال ، وأنَّ الفارق الذي يلاحظ بين نواة التمر العربي ونواة التمر الهندي يلاحظ كذلك بين أثمارهما ، وأوراقهما ، وطعمهما ، ولن يتلاشى هذا الاختلاف بنموِّ الأشجار ، وازدهارها ، وبقائها مدةً طويلةً ، فإن رأيت شبهاً جوهرياً في نظامي حياةٍ متناقض الأصل؛ فاعلم أنك إمَّا أخطأت في تعيين أساسه

ومبادئه ، أو أنَّ هذه المدنية قد مرَّت بعملية تلقيحٍ بنظام حياة أخرى ، ويمكن أن تأتي هذه الشجرة بنوعين من الثمر .

وقد وقع هذا مع المدنية الإلهاميَّة مراراً ، أنَّها لقحت بالمدنية الحسِّيَّة والإشراقية ، وقد وقع ذلك في التاريخ الإسلامي غير مرَّةٍ بعد الخلافة الراشدة ، أنَّ هذه الشجرة لقحت بالجاهلية العربية ، وأخرى بملوكية العجم ، وحيناً بالإشراقية اليونانية والإيرانية ، وبالحياة الحسِّيَّة المادِّيَّة ، ثم تسمَّى هذه الشجرة الملقَّحة المزدوجة بالحضارة الإسلامية ، أو الثقافة الإسلامية ، توسعاً في التعبير ، أو جهلاً لحقيقة الحضارة الإسلامية الأصيلة ، وقد اعتاد كثيرٌ من المؤلِّفين والمؤرخين المسلمين أن يتفاخروا بثمار هذه الشجرة وما آتته من أُكُلٍ في عصورٍ وبقاع مختلفة .

وكلَّما أُطلقت كلمة الحضارة الإسلامية ابتدر الذهن إلى دمشق وبغداد ، وقرطبة ، وغرناطة ، وأصفهان ، وسمرقند ، ودلهي ، ولكهنؤ ، ويتمثل للعيون طرازٌ خاصٌّ للفنِّ المعماري (الذي جرت العادة بتسميته الفن الإسلامي) ومن نماذجه الرائقة قصور الملوك الفخمة ، والسرايات الجميلة ، والدهاليز الواسعة ، والمقابر الجميلة البديعة ، وتجدَّدت ذكرى أناقة الأمراء المسلمين ، وتظرُّفهم في الحياة والأزياء ، واحتضانهم للفنون الجميلة ، والحياة المترفة الزاهية ، التي كانوا يعيشونها في عواصم الحكومات الإسلامية ، وأصبحت مناظرها الزاهية الزاهرة ماثلةً للعيون .

إنَّ كثيراً من هذه التأنقات لم تكن إلا وليدة التبذير والعدول عن التعاليم الإسلامية ، وكانت نتيجةَ السُّخرة الجائرة ، وحين تقوم المدنيَّة الإسلامية بروحها وهيكلها لم يكن لما ذكرنا وجود؛ إذ لا يسمح الإسلام بالبناء الزائد عن الحاجة عبثاً بلا ضرورة ، لا غاية له إلا المظاهرة بالحشمة والفخفخة ، أو إظهار الترفُّه والسُّمعة وخاصةً بناء المقابر العظيمة عملٌ غير إسلاميٍّ ، وإسرافٌ وتبذيرٌ ، ومن الظلم أن يحتل الإنسان حتى بعد موته مساحةً واسعةً من الأرض بغير حاجة ، ويضيع في بناء مقبرته وجدرانها ما به قوام الحياة وما يغطِّي حاجات مئاتٍ من الناس ، ومن الناحية الشرعية الإسلامية فليس

من المستحسن تخليد الاسم بأيِّ طريقٍ سوى العمل الصالح ، والأولاد الصالحين ، والصدقات الجارية ، والآثار العلمية الدينية ، والمبرّات والمآثر البريئة التي أريد بها نفع الخلائق ، وما عداها فمحاولةٌ جاهلية ، وكذلك الإسلام لم يشجع الموسيقا والغناء ، وأما نحت الأصنام ونصب التماثيل فحرامٌ في الشريعة الإسلامية ، ولا تسمح الشريعة الإسلامية للرجل أن يلبس الحرير ، كما أنَّ أواني الذهب والفضة محظورةٌ في الشريعة الإسلامية .

وكلُّ ما يؤدِّي إلى الغفلة في الحياة ، وانشغال القلب بالدنيا والترف محرمةٌ في المدنية الإسلامية ، ولا ينظر إليه الإسلام بعين الرضا ، وقد ورد في الحديث : «إن عباد الله ليسوا بالمتنعمين» . ودعا النبي ﷺ فقال : «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا غاية رغبتنا» ، وأما ما يسمَّى بالمدنية الإسلامية ، والحضارة الإسلامية ، وما تعوَّده مصنِّفوناً ، ومؤرِّخونا القوميون ، ويسرُّون بتقديمه مقابل المدنية الغربية سرور الانتصار والافتخار؛ فهو أسلوب حياة الملوك المسلمين ، الذي لا يتحمَّل الإسلام وشريعته مسؤولية أعمالهم كلِّها .

فإذا لم تكن هناك عملية التلقيح ، ونمت شجرتان مختلفتان على طبيعتهما ، بعيدة إحداهما عن الأخرى ، فلا تتحدان ، ولا يكون بينهما لقاءٌ ، غير أنَّهما شجرتان ثابتتان على هذه الأرض ، ولا يوجد أيُّ شبهٍ بين هاتين المدنيتين غير الاشتراك في أداء وظائف الحياة ، ومظاهر الفطرة البشرية ، وخواصِّها الإنسانية .

وفوق ذلك؛ إنَّ نظام صحتهما ، ووسائل رقيِّهما وحامليهما مختلفةٌ بعضها عن بعض ، وفي بعض الأحيان يتصادمان ، فإنَّ العوامل والأحوال التي تعتبر عوامل الرقيِّ والنموِّ للمدنية الإلهاميَّة تعدُّ في نفس الوقت عوامل انحطاط المدنية الحسِّيَّة والمادِّيَّة . إن العوامل التي تفتخر بها المدنية الحسِّيَّة تعافها وتغار منها المدنية الإلهامية ، فربيع إحداهما خريفٌ للآخر ، والشيء الذي يكون مصدر الحياة للأولى يصبح السُّمَّ القاتل للأخرى .

ولنُلقِ نظرةً على العناصر التركيبية للمدنية الإلهامية ، ونتناولها بالنقد والتحليل ، ونعرف ما هو التأثير الثوري الذي تخلِّفُه هذه العناصر على عقلية الإنسان وطبيعته ، وعلى أخلاقه واجتماعه .

إنَّ المدنية الإلهامية تؤمن قبل كلِّ شيء بأنَّ هذه العالم ليس بلا ملك ، ولا دولةٍ مشتركةٍ لعددٍ من الملوك ، بل له ملكٌ واحدٌ وهو خالقه ، وصانعه ، وحاكمه ، ومدبره ، له الخلق والأمر كلُّه ، وله الحكم ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] ولا يوجد في هذا العالم شيءٌ إلا بأمره وقدرته ، وإنَّ العلة الحقيقية لوجوده هي إرادتُه وقدرتُه . إنَّ هذا الكون كلَّه خاضعٌ له في كونه ووجوده ، ومنقادٌ له وطوع أمره ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣]. وعلى المخلوقات التي تملك إرادة وخياراً أن تخضع له ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

وإنَّ الأثر العقلي الأول الذي يترتَّب من هذه العقيدة على الإنسان هو أنَّ العالم كله تابعٌ لمركزيةٍ ونظامٍ واحدٍ ، ويرى الإنسان في أجزائه المنتشرة ، ترابطاً ظاهراً ، ووحدةً في القانون ، ثم بعد هذه العقيدة يستطيع الإنسان أن يأتي بتفسيرٍ كاملٍ للحياة ، وأن يقوم فكره وعمله في هذا الكون على حكمةٍ وبصيرةٍ .

إنَّ الفلسفة الغربية تعترف بهذا الأثر ، وتعترف بعجزها عن خلقه . يقول مؤرّخ الفلسفة الحديثة (الدكتور هوالد هو فدنج):

«إنَّ فكرة كلِّ دين قائمةٌ على التوحيد ، وهي تقوم على أن علَّة الوجود لجميع ما في الكون واحدةٌ ـ وبغضِّ النظر عن المشاكل التي تحدث بهذه الفكرة بصورةٍ لازمةٍ ـ يخلِّف ذلك الاعتقاد أثراً نافعاً ومهتماً على الطبيعة الإنسانية ، وهو أن أتباع هذا الدين يسهل لهم الاعتقاد بأنَّ جميع الأشياء في العالم مرتبطةٌ حسب قانونٍ واحد ، بغضِّ النَّظر عن الخلافات والتفاصيل ، فيلزم بكون العلة واحدةً أن يكون القانون واحداً ، قد غرست فلسفة الأزمنة المتوسطة الدينية فكرةُ وجود هذه الوحدة في الكثرة المشاهدة في العالم في أذهان الناس ، الفكرة التي كان الإنسان غير المثقف بمعزلٍ عنها بتأثير وجود

الكثرة في المظاهر الطبيعية التي كان يتيه ، ويغوص فيها ، فيفلت من يده حبل الوحدة الذي يربط هذه الكثرة»[١].

وتخلِّف هذه العقيدة تأثيراً أهمَّ منه ، وأكثر ثورةً فيما يتعلّق بالأخلاق والأعمال ، فتقتلع عن الفكرة والقلب جذور الحرية المطلقة ، والشعور بعدم المسؤولية أمام أيَّة قوةٍ أو محكمةٍ ، فلا يحسب سكان هذه الأرض وخزائنها ، بل وطاقاته وجسمه وأعضائه ملكاً لنفسه ، إنما يعتبرها أمانةً من الله ، ويحذر من استعمالها ضدَّ قانونه ومرضاته ، إنَّه يحسب نفسه محكوماً ، تابعاً لأكبر قوةٍ وأعلاها ، ومسؤولاً لدى محكمةٍ عظيمةٍ. ويمكننا أن نقيس تأثير هذه العقائد والخضوع لها في فروع الأعمال والأخلاق ، وفي شعب الحياة كلِّها.

إنَّ الاعتقاد بأنَّ لهذا العالم ولهذه الحياة غرضاً وهدفاً ، وأنهما لم يخلقا عبثاً ، وأنَّ الإنسان تابعٌ ومحكومٌ بلا ريب ، يُحدِث في الإنسان الشعور بالمسؤولية ، والشعور بقيمة الحياة الحقيقية ، فيغتنم كلَّ لحظةٍ من لحظات حياته ، وكلَّ نفسٍ من أنفاس عمره ، ولا يحب أن يضيِّعها ، لتتوفر له السعادة في الحياة ، والتمتُّع بها.

بل وإنَّما يفعل ذلك تأميناً للحياة الآتية لإسعادها وتوفير الراحة فيها ، وهو يعتبر الحياة وزينتها وزهرتها امتحاناً وبلاءً له ، فلا يخوض فيها إلا كما يدخل أحدٌ في الاختبار (بدلاً من أن يسرح فيها كما يسرح غافلٌ في متنزهٍ فسيحٍ ، ويعتقد أنَّ الحياة فرصةٌ طويلةٌ للتَّرف والنِّعمة) ولا يخطو إليها إلا بتفكيرٍ وتفهمٍ دقيقٍ ، ولا تصدر منه أعماله إلا بعد فكرٍ طويلٍ ، ويزيل من نفسه السكر والإهمال ، أو التريث ، والتهاون في العمل. سأل رجل عبد الله بن عباس أن يصف عمراً ، فقال عبد الله : «كان كالطير الحذر كأن له بكل طريق شركاً».

إنَّ الاعتقاد بأن هذه الحياة فانيةٌ ، والحياة بعد الموت باقيةٌ خالدةٌ؛ يمنع

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة للدكتور هرالد هوفدنج.

الرجل من تركيز عنايته على الدنيا ونعيمها ، فلا يكون المقياس للنجاح في هذه الحياة ظواهر الأشياء والأفعال ، فتتغيَّر له الموازين والمقوِّمات البتة للأخلاق والأعمال ، فلا يبقى ميزانٌ ولا مقياسٌ إلا النفع في الدين ، والأجر في الآخرة[1] ، فلا ينغمس مثل هذا الرجل في لذَّة الدنيا ونعيمها أبداً ، ولا تتولد فيه عاطفة المنافسة في جعل هذه الحياة أكثر راحةً ورخاءً ، إنَّهم يقضون حياة زهدٍ وفقر لا يمثلها الرهبان ، والزُّهَّاد ، وسكان الصحارى ، وهم يملكون زمام الأمور ، ويتولَّون الحكم ، إنَّ قصة زهد عمر معروفةٌ متواترةٌ في التاريخ ، وكان إذا أصرّ عليه أحد على أن يتناول طعاماً لذيذاً كان يقول أخاف أن يقال لي يوم القيامة : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف : ٢٠] وإن قدَّم إليه أحدٌ طعاماً لذيذاً سأله عمر : أيأكل المسلمون كلُّهم مثل هذا الطعام ، أو يستطيعون أن يأكلوه؟ فإن كان الجواب في النفي ، كان لا يصيب منه شيئاً ، وإنَّ قصة رحلته إلى بيت المقدس بعد فتحها ستخلد في التاريخ ، قال أبو العتاهية :

«قدم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الجابية على جملٍ أو رق تلوح صلعته للشمس ليس عليه قلنسوةٌ ولاعمامةٌ ، رجلاه بين شعبتي رحله بلا ركاب ، وطؤه كساء بنجابيٌّ ذو صوف ، هو ركابه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل ، حقيبته نمرةٌ أو شملةٌ ، محشوَّةٌ ليفاً ، هي حقيبته إذا ركب ، ووسادته إذا نزل ، عليه قميصٌ من كرابيس قد رسم وتخرَّق جنبه»[2] . وهذه هي رحلة أكبر حاكمٍ على وجه الأرض في زمانه .

سأل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ضرار بن ضمرة أن يصف علياً

(١) إنَّ الأثر الذي يترتب على أعمال الإنسان وأخلاقه بفعل هذه العقيدة يعترف بعمقه وسعته علماء الأخلاق الماديُّون أيضاً ، يقول (لكي Lecky) في كتاب «تاريخ أخلاق يورب» :
«لو عرف الإنسان وأيقن أنه سوف يجد جزاء أعماله كثوابٍ دائمٍ أو عذابٍ خالدٍ في محكمة حاكمٍ خبيرٍ وبصير ، كانت هذه العقيدة محركاً كبيراً للأعمال الصالحة ، ولا يخطر بباله خاطرُ المعصية» .

(٢) البداية والنهاية ج/ ٧ ، ص/ ٥٩ ـ ٦٠ .

رضي الله عنه ، وقد صحبه طويلاً ، وعرفه عن كثب ، فاعتذر ضرار بن ضمرة ، ولكن لما ألحّ معاوية وصف علياً رضي الله عنه وصفاً يصوِّر به حاله في الإمارة والخلافة ، قال:

«كان يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفَّه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منَّا ، لا نكلمه هيبةً ولا نبتديه ، فإن تبسَّم فعن أسنانٍ مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظِّم أهل الدين ، ويحبُّ المساكين ، لا يطمع القويُّ في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سجوفه ، وغارت نجومه ، وقد تمثَّل في محرابه ، قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، وكأني أسمعه وهو يقول: يا دنيا! أبي تعرَّضتِ ، أم لي تشوَّفتِ ، هيهات هيهات! غُرّي غيري! وقد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيكِ ، فعمرُكِ قصيرٌ ، وعيشك حقيرٌ ، وخطرك كبيرٌ ، آه من قلة الزاد ، وبُعد السفر ، ووحشة الطريق!»(١) .

كان الإيمان بالآخرة وخوف الحساب فيها وخشية الله ، قد أحدث فيهم شعوراً بالمسؤولية ، والحذر الشديد والورع ، يصعب تصوُّره ، ولعلَّ هذه القصص القليلة تصوّر بعض هذه الجوانب:

كان أمير المؤمنين عمر ـ رضي الله عنه ـ يقول: مثل خلافتي وإمارتي مثل ثلاثة ركبٍ سافروا ، فأودعوا نفقتهم رجلاً منهم ، فقالا له: أنفق علينا ، فهل له أن يستأثر عليهم بشيءٍ؟. وكان يقول في بعض الأحيان: مثلي كوليِّ اليتيم إن أغناه الله استعفَّ ، وإن مسَّته الحاجة أخذ منه بقدرها.

قَدِمَ أحنف بن قيس على عمر بن الخطاب في وفدٍ من العراق ، قدموا

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ، ص ١٢٢ .

عليه في يوم صائفٍ شديد الحرِّ ، وهو معتجرٌ بعباءةٍ ، يهنأ بعيراً من إبل الصدقة ، فقال: يا أحنف! ضع ثيابك وهلمّ! فأعِنْ أمير المؤمنين على هذا البعير ، فإنَّه من إبل الصدقة ، فيه حقُّ اليتيم ، والأرملة ، والمسكين ، فقال رجل من القوم: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين! فهلاَّ تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك ، فقال عمر: «وأيُّ عبد هو أعبد منِّي؟!»[١].

وكان لعمر بن عبد العزيز غلامٌ يأتيه بقمقم من ماءٍ مسخَّنٍ يتوضأ منه ، فقال للغلام يوماً: أتذهب بهذا القمقم إلى مطبخ المسلمين فتجعله عنده حتى يسخن ، ثم تأتي به؟ قال: نعم أصلحك الله! قال: أفسدته علينا ، قال: فأمر مزاحماً أن يغلي ذلك القمقم ثم ينظر ما يدخل فيه من الحطب ثم يحسب تلك الأيام التي كان يغليه فيها ، فيجعله حطباً في المطبخ. قال: وأصابته جنابةٌ في ليلةٍ باردةٍ فأسخِن له ماءٌ ، فأتي به ، فقال: أين سخنته؟ قال: على مطبخ العامَّة ، قال: فنحّه ، قال: فناداه رجل وخاف عليه إن اغتسل بالماء البارد في تلك الليلة؛ أنشدك الله يا أمير المؤمنين في نفسك ، فإن كان لا بدَّ فعوِّضه قيمةً ، ثم أدخله بيت مال المسلمين ، ففعل ذلك عمر[٢].

وكان عمر يصلي العتمة ، ثم يدخل على بناته فيسلم عليهنَّ ، فدخل عليهن ذات ليلة ، فلما أحسسنه وضعن أيديهن على أفواههن ثم تبادرن الباب ، فقال للحاضنة: ما شأنهن؟ قالت: إنه لم يكن عندهنَّ شيءٌ يتعشينه إلا عدسٌ وبصلٌ فكرهن أن تشمَّ ذلك من أفواههن. فبكى عمر ، ثم قال لهن: «يا بناتي ما ينفعكن أن تعشين الألوان ، ويمرُّ بأبيكن إلى النار». قال: فبكين حتى علت أصواتهنَّ. ثم انصرف[٣].

ووفد على عمر بن عبد العزيز بريدٌ من بعض الآفاق ، فدخل الرسول فدعا عمر بشمعةٍ غليظةٍ ، فأجَّجها ناراً ، وأجلس الرسول وجلس عمر ،

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ، ص/ ٦٢.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص / ٤٤ ـ ٤٥.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص/ ٥٥.

فسأله عن حال أهل البلد ومن بها من المسلمين وأهل العهد ، وكيف سيرة العامل ، وغير ذلك من أمور المسلمين فأنبأه بجميع ما علم الرسول من أمر تلك المملكة ، يسأله فيحفي السؤال ، حتى إذا فرغ عمر من مسألته ، قال له: يا أمير المؤمنين كيف حالك في نفسك وبدنك؟ وكيف عيالك وجميع أهل خزانتك ومن تعنى بشأنه؟ قال: فنفخ عمر الشمعة فأطفأها بنفخته ، وقال: يا غلام! عليَّ بسراجٍ ، فدعا بفتيلةٍ لا تكاد تضيء ، فقال: سل عما أحببت ، فسأله عن حاله ، فأخبره عن حاله ، وحال ولده ، وعياله ، وأهل بيته ، فعجب البريد للشمعة وإطفائه إيَّاها ، وقال: يا أمير المؤمنين؟ رأيتك فعلت أمراً ما رأيتك فعلت مثله ، قال : وما هو؟ قال: إطفاؤك الشمعة عند مسألتي إيَّاك عن حالك ، وشأنك! فقال: يا عبد الله! إن الشمعة التي رأيتني أطفأتها من مال الله ومال المسلمين ، وكنت أسألك عن حوائجهم وأمرهم ، فكانت تلك الشمعة تقدّ بين يديَّ فيما يصلحهم ، وهي لهم ، فلما صرت لشأني وأمر عيالي ونفسي أطفأت نار المسلمين(١).

كذلك يتولَّد بالإيمان شعورٌ بكرامة الإنسان ورفعته ، فلا يرضى الإنسان في حالٍ من الأحوال أن ينزَّل منزلة البهائم ، ولا يرتاح قلبه بأن يعامل بني جنسه معاملة العجماوات والجمادات ، ولا يستعبدهم لتفوُّقه الشخصي والغلبة عليهم ، ولا يرى فارقاً بينه وبين بني جنسه فيذلَّهم ، ويهينهم. وهنا قصةٌ طريفةٌ في هذه المساواة البشرية ، واحترام الإنساينة:

قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: كنا عند عمر بن الخطاب رضوان الله عليه؛ إذ جاءه رجلٌ من أهل مصر ، فقال: يا أمير المؤمنين! هذه مقام العائذ بك! قال: وما لك؟! قال: أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل ، فأقبلت فرسي ، فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو بن العاص ، فقال: فرسي ورب الكعبة! فلما دنا مني عرفته ، فقلت: فرسي ورب الكعبة! فقام إليَّ يضربني بالسوط ، ويقول : خذها وأنا ابن الأكرمين! قال: فوالله ما زاده عمر على أن قال له: اجلس ، ثم كتب إلى عمرو: «إذا جاءك كتابي هذا

(١) نفس المصدر السابق ص/ ١٦١ ـ ١٦٢ .

فأقبِلْ ومعك ابنك محمد». قال: فدعا عمرو ابنه، فقال: أأحدثت حدثاً؟ أجنيت جناية؟ قال: لا، قال: فما بال عمر يكتب فيك؟ قال: فقدم على عمر، قال أنس بن مالك: فوالله أنا عند عمر، إذ نحن بعمرو وقد أقبل في إزارٍ ورداءٍ، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه، فإذا هو خلف أبيه، فقال: أين المصريُّ؟ فقال: ها أنا ذا! قال: دونك الدِّرَّة، فاضرب ابن الأكرمين، قال: فضربه حتى أثخنه، ثم قال: أجلها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه! فقال: يا أمير المؤمنين قد ضربت مَن ضربني، قال: أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه، حتى تكون أنت الذي تدعه، يا عمرو! متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أُمهاتهم أحراراً! ثم التفت إلى المصريِّ، فقال: «انصرف راشداً، فإذا رابك ريبٌ فاكتب إليَّ»(١).

إنني ما عثرت في تاريخ المدنية والحضارة كلِّه مجتمعاً كهذا، كان مجتمعاً مبدئياً محضاً، وأخلاقياً محضاً، لم يكن فيه مقياس العزِّ والفضيلة والوجاهة، والمال والثروة والمنصب، والتسامي بالنسب والكرامة، بل كان مقياسه الأخلاق، والتديُّن، والخوف من الله.

لم يكن يحصل فيه العزُّ والشرف والرئاسة والتفوُّق بالملابس والمظاهر والوسائل الأخرى، بل كان جلُّ العز والشرف بالإيمان بالله، والعمل الصالح، والسيرة الحسنة.

فممَّا حكاه التاريخ لنا في هذا الباب:

أنه حضر باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه جماعةٌ، فمنهم سهيل بن عمرو، وعيينة بن حصين، والأقرع بن حابس، فخرج الآذن، فقال: أين صهيب؟ أين عمار؟ أين سلمان؟ فتمعَّرت وجوه القوم، فقال واحدٌ منهم: لم تتمعَّر وجوهكم؟ دعوا ودعينا، فأسرعوا وأبطأنا، ولئن حسدتموهم على باب عمر؛ لما أعدَّ الله لهم في الجنة أكثر.

وجاء الحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو إلى عمر بن الخطاب رضي

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي، ص٨٦ ـ ٨٧.

الله عنه ، فجلسا عنده وهو بينهما ، فجعل المهاجرون الأولون يأتون عمر ، فيقول: ها هنا يا سهيل؟ ها هنا يا حارث! فينحيهما عنه ، فجعل الأنصار يأتون عمر فينحيهما عنه حتى صارا في آخر الناس ، فلما خرجا من عنده ، قال الحارث بن هشام لسهيل بن عمرو : ألم تر ما صنع بنا؟ فقال له سهيل: أيها الرجل لا لوم عليه ، ينبغي أن نرجع باللوم على أنفسنا ، دعي القوم فأسرعوا ، ودعينا فأبطأنا.

ثم أتيا عمر رضي الله عنه ، فقالا له: قد رأينا ما فعلت اليوم ، وعلمنا أنا أُتينا من قبل أنفسنا ، فهل من شيء نستدرك به؟ فقال لهما: لا أعلمه إلا هذا الوجه ، وأشار لهما إلى غزو الروم ـ فخرجا إلى الشام ، فماتا بها رحمهما الله»[١].

وعندما قال أبو عبيدة لعمر وقت قدومه إلى الشام: «العيون شاخصةٌ إليك يا أمير المؤمنين! لو أصلحت من ثيابك قليلاً! فقال عمر عندما سمع هذا الكلام: أوه لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة! إنَّكم كنتم أذلَّ الناس ، وأحقر الناس ، وأقلَّ الناس ، فأعزَّكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العزَّ بغير الإسلام؛ يذلكم الله»[٢].

وكان سالم مولى أبي حذيفة من الموالي ، وقد قال عمر عند وفاته: لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيّاً لاستخلفته.

وقال الشعبي: خطب بلالٌ وأخوه إلى أهل بيتٍ من اليمن ، فقال: أنا بلال ، وهذا أخي عبدان من الحبشة ، كنا ضالين فهدانا الله ، وكنا عبيدين فأعتقنا الله ، إن تنكحونا؛ فالحمد لله ، وإن تمنعونا؛ فالله أكبر.

ويكون متبعو هذا الدين وممثلو هذه المدنية ، حاملي لواء الحقِّ والعدل في الدنيا ، وجنود الله على الأرض ، لا ينحرفون عن جادَّة الحقِّ والعدل قيد شعرة ، لا في الصداقة ، ولا في العداوة ، ولا يفرقون بين الأقارب

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب ، ص/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير.

والأباعد ، يقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

ولا يكون اشتراكهم في العمل وتعاونهم فيه غير مشروطٍ ، وغير محدودٍ ، فلا يتعاونون إلا في البرِّ والعدل ، يقول الله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ [المائدة : ٢] .

وكان من نتيجة هذه التربية أنَّ النبي ﷺ عندما قال بمناسبة ما : «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» ، فقالوا : يا رسول الله ! «هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً» ، هنالك فسره رسول الله ﷺ تفسيراً يتَّفق مع تعاليمه السابقة الدائمة ، فقال : «تمنعه من الظلم فذاك نصرك إيّاه»[(١)] ، هنالك اقتنع الصحابة ، وشفيت صدورهم ، فازدادوا إيماناً على إيمان ، وهو مثالٌ بليغٌ رائعٌ من أمثلة الوعي الإيماني العقلي الذي كان شعاراً لصحابة الرسول ﷺ والصدر الأول .

إنَّ تأييد جماعةٍ ، أو فردٍ على أمرٍ من الجاهلية ، والانحياز إلى أسرةٍ ، أو قومٍ ، أو جماعةٍ بدون حقٍّ ، يسمَّى في الإسلام بالعصبية الجاهلية ، وهو منافٍ لروح الإسلام ومقاصده ، ومعصيةٌ شرعيَّةٌ ، وقد عدّه بعض كبار الفقهاء ، وأئمة الإسلام من الأسباب الرئيسية لردِّ الشهادة ، فمن دعا إليها فهو مردود الشهادة عندهم ، ويوضِّح الإمام الشافعي روح الإسلام الحقيقية ، وفكره في تفصيلٍ في كتابه الجليل ـ كتاب الأم ـ المجلد السادس ، فيقول :

«من أظهر العصبية بالكلام ، ودعا إليها ، وتألَّف عليها ، وإن لم يكن يشهد نفسه بقتالٍ فيها ؛ فهو مردود الشهادة ، لأنه أتى محرماً ، لا اختلاف بين علماء المسلمين فيما علمته ، الناس كلُّهم عباد الله تعالى ، لا يخرج أحدٌ منهم من عبوديته ، وأحقُّهم بالمحبة أطوعُهم له ، وأحقُّهم من أهل

---

(١) حديث متفق عليه .

طاعته بالفضيلة أنفعُهم لجماعة المسلمين من إمام عدلٍ ، أو عالمٍ مجتهدٍ ، أو معينٍ لعامتهم وخاصَّتهم ، وذلك أنَّ طاعة هؤلاء طاعةٌ عامَّة كثيرةٌ ، فكثير الطاعة خير من قليلها ، وقد جمع الله تعالى الناس بالإسلام ، ونسبهم إليه ، فهو أشرف أنسابهم ، قال: فإن أحبَّ امرأً فليحبَّ عليه ، وإن خصَّ امرؤٌ قومه بالمحبة ما لم يحمل على غيرهم ، ما ليس يحل له ، فهذه الملة ليست بعصبيةٍ ، وقلَّ امرؤ إلا وفيه محبوبٌ ومكروه ، فالمكروه في محبة الرجل من هو منه أن يحمل على غيره ، وحرم الله تعالى عليه من البغي والطعن في النسب والعصبية ، والبغضة على النسب لا على معصية الله ، ولا على جناية من المبغض على المبغض ، ولكن بقوله أبغضه لأنَّه من بني فلان ، فهذه العصبية المحضة التي تردُّ بها الشهادة.

فإن قال قائل: ما الحجة في هذا؟ قيل له: قال الله تبارك وتعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] وقال رسول الله ﷺ: «وكونوا عباد الله إخواناً». فإذا صار رجلٌ إلى خلاف أمر الله تبارك وتعالى اسمه ، وأمر رسول الله ﷺ بلا سبب يعذر به ، ويخرج من العصبية ؛ كان مقيماً على معصيةٍ لا تأويل فيها ، ولا اختلاف بين المسلمين فيها ، ومن أقام على مثل هذا ؛ كان حقيقياً أن يكون مردود الشَّهادة»(١).

إنَّ القرآن الكريم يصف جماعة المسلمين وصفاً دقيقاً ، ويحدِّد ملامحها بقوله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ [التوبة: ٧١].

وليست في الإسلام عناصر رفض الدنيا وأسبابها ، ولا عناصر الرهبانية ، والعيش في الصحراء والقفار ، كما تدعو إليه الفلسفة الإشراقية ، ونظامها ، فالانتحار حرامٌ في شريعة الإسلام ، والتنكيل الجسماني والتجرُّد ، وترك النكاح فعلٌ لا يستحسن ، كما أنَّ الحياة في

(١) كتاب الأم ، شهادة أهل العصبية ، المجلد السادس ص / ٢١١ ـ ٢١٢.

الصحراء احتساباً ، والخلوة الدائمة فعلٌ منكرٌ ، ورياضةٌ تخالف الفطرة كذلك التطرُّف في كبت النفس ، والغلوّ في العبادة والزهد يخالف تعاليم الإسلام ، وقد سبق قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢] ، وفي آية أخرى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ [الأعراف: ٣١] وقال النبي ﷺ: «لا رهبانية في الإسلام» وقال أيضاً: «النكاح من سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني» ، وقال لعبد الله ابن عمرو الذي كان يصوم دائماً ، ويصلِّي الليل كلَّه: «فإن لجسدك عليك حقّاً ، وإن لعينك عليك حقّاً ، وإن لزوك عليك حقّاً ، صم وأفطر» ، ودعاء المسلمين الذي استحسنه القرآن وحثَّ عليه: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وليست الرجولة في هذه العقيدة الإسلامية أن يذكر الرجل ربَّه في غارٍ منقطعاً عن الدنيا والخلق ، بل الرجولة في أن يذكر الله في فتنة الحياة ، وصخب الأسواق ، وكثرة الأشغال ، فيقول القرآن في معرض المدح والثناء: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور: ٣٧].

ولا يقتصر الإسلام على الدعوة إلى ذكر الله وعبادته ، بل يدعو كذلك إلى كسب المعاش الطيب ، والارتزاق الكريم ، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠].

إنَّ في هذه التعاليم النَّبويَّة الزكيَّة مبادىء وحقائق محكمةً ثابتةً للأخلاق والاجتماع ، وللأخلاق أُسسٌ قائمةٌ متينةٌ لا تتزلزل ، ولا تقبل أيَّ تأويلٍ وتحريفٍ ، على عكس التمدُّن العقلي ، فكل ما هو شرٌّ في عينها يظلُّ شرّاً إلى يوم القيامة ، والخير خير في كلِّ عصرٍ ومصرٍ ، فالحياء ، والأدب ، والسلوك ، والوفاء ، والإيفاء بالعهد ، والصدق ، والأمانة ، والعفاف ، والاجتناب عن المعاصي حسنٌ جميلٌ لكلِّ عصرٍ وبلدٍ على كلِّ حال ، وهذه الصفات التامّة والأخلاق كلُّها تستحقُّ كلَّ تقديرٍ وإعجابٍ ، ولا بدَّ منها

للإنسان والإنسانية ، ولا تتغيَّر مبادئها وحقائقها ، وأمَّا أضدادها ؛ فمستقبحةٌ مذمومةٌ دائماً في كلِّ مكانٍ وزمانٍ ، وإنَّ حكم العقل القاصر الخاضع ـ لعوامل داخليةٍ وخارجيةٍ من بيئة فاسدةٍ ، وتربيةٍ غير سليمة ـ وأفتى بصلاحها وفوائدها في بعض الأحوال والظروف .

ولا يكون ذوق الإنسان ووجدانه ، أو تجاربه وعقله معياراً للأخلاق ؛ إذ كلُّ شيءٍ من هذه الأشياء متغيِّرٌ يتأثر بأشياء كثيرة .

وكثيراً ما تقع الأمَّة والمجتمع فريسةً «للسوفسطائية» في عهد المدنية العقلية والفلسفة ، فينكر الفرق بين حقائق الأشياء والأخلاق والصفات ، ويشك في المقاييس القديمة الدائمة للخير والشرِّ وتعريفهما ، ولا يعتبر فيه الأخلاق والصفات والحسن القبيح إلا نسبياً يتغيَّر بتغير الزمان والمكان ، ويستوجب هذه النفسية الاجتماعية أشدُّ انحلالٍ خلقيٍّ واختلالٍ اجتماعيٍّ ، وإذا غشيت هذه الغاشية جماعةً إنسانيةً في عصرٍ من العصور ، لا ينجِّيها شيءٌ من الهلاك والدَّمار ، وما هلكت الأمة اليونانية القديمة إلا بها ، وكذلك أباحت إيران القديمة كلَّ شيء ، وقلبت نظام المدنيَّة والاجتماع رأساً على عقب ، فانقرضت ، وبادت ، وقد سجّل مؤرخو الروم وإيران ملاحظاتهم وانطباعاتهم عن تاريخ هاتين الأمَّتين العظيمتين ، وعن تدهورهما وانهيار حضارتهما ، وانقراض الإمبراطوريتين في صراحةٍ ووضوحٍ ، وكان مردُّ ذلك في نظرهم تضعضعُ أسس المثل والقيم الخلقية ، وتفكُّكُ نظام الأسرة ، وانتشار الفوضى ، وروح الثورة والقلق في المجتمع الروماني والمجتمع الإيراني حتى لفظتا نفسهما الأخير ، وخبا مصباحُهما إلى الأبد .

ولا تختلف أوضاع أوروبا اليوم عن المصير الذي صارت إليه الأمَّتان القديمتان ، فالمفكرون ، والمصلحون الغربيُّون يشعرون بخطرٍ محدقٍ بهذه الحضارة منذ زمان ، ويُنذرون منه ، ويرفعون صيحات إنذارٍ إثر صيحاتٍ في محاضراتهم ، وكتاباتهم ، ويصرِّحون بأنَّ هذه الحضارة في احتضار ، وفي طريقٍ إلى الانتحار ، وأنَّ أيامها بل ساعاتها معدودةٌ ، ونهايتها قريبةٌ ، ولكن لا يجدون كذلك حلاً لهذه الأزمة ، فقد أفلت الزمامُ ، ودنا الحِمام .

ولن يغيث هذه الحضارة المنتحرة ولا ينقذها من الساعة الرهيبة إلا تعاليمُ النبوة الأخيرة، والدين السماويُّ المحفوظ؛ التي لا تترك زمام الحكم في الأخلاق ومقياس الحسن والقبيح إلى العقل والتجربة وحدهما ـ وقد وضح ضعفهما، وسرعة خضوعهما للعوامل والمؤثرات الدخيلة الطارئة ـ بل تملكه بنفسها، ولا تزال تقود المدنية البشرية وتجدِّف سفينتها، وتحرسها من القرصان والأمواج الطاغية من الطوفان، وتقول بلسان القرآن: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣].

وليس من الممكن أن تقدِّم ملامح المدنيَّة الإسلامية، وقسماتها وخصائصها كلَّها ـ التي لا تسعها الكتبُ الكبيرة ـ في هذا البحث المقتضب، وما أردت الآن إلا تقديم عصارتها وطبيعتها الخاصَّة، ولعلكم فهمتم روحها من هذا العرض الوجيز، والإلمامة القصيرة، وتمثَّل في أعينكم الفرقُ الأساسيُّ والجوهريُّ الذي يوجد بين الحضارات المذكورة، وبين هذه الحضارة الإلهية.

وأقول لكم أخيراً إن كانت المدنيَّة المادية جديرةً بالتفضيل والإيثار، وكانت هي خيرتكم، وأنتم مقتنعون بأنَّ نتائجها ومعطياتها هي أنفعُ للإنسانية والأخلاق، فلا مجال للبحث، ولا داعي للكلام؛ لأنَّ هذه المدنية «السعيدة» تحكم اليوم أكبر رقعةٍ من الأرض، ومع أنَّ فيها انجذاباً مغناطيسياً لعددٍ كبيرٍ (بل أكبر عدد) من أفراد الجنس البشري مع ذلك، إنَّ هنالك جهوداً جبارة، وعبقرياتٍ عظيمةً وكفاياتٍ نادرةً تتركز على توسيع نظامها، وترقيق حواشيها ووشيها، والزيادة في ثروتها وسرعتها: وهي ليست في حاجةٍ إلى أن تضموا أصواتكم إلى صوتها وتنضموا إلى معسكرها القويِّ المنتصر، وتصفقوا لها في حماسٍ وقوَّةٍ، وفي طربٍ ونشوةٍ، فهذا بحرٌ واسعٌ زاخرٌ من شرق الأرض إلى غربها، وتيارٌ جارفٌ كالسَّيل العرم، ليس لكم إلا أن تجتهدوا في البحث عن مكانٍ لكم في ركنٍ من أركان هذه الحضارة، وفي هامشٍ من صفحتها، وفي مؤخر ركبها، وتتشرَّفوا بذلك، وتعتبره أكبر فتح وانتصار.

ولكن إذا كان اختياركم بالضدِّ ، فالحاجة ماسَّةٌ إلى أن تجاهدوا في سبيل قيام الحضارة الإسلامية جهاداً كبيراً ، وتسبحوا ضدَّ مجرى هذا النهر الفائض ، وتعكسوا التيار ، بل إلى أن توجهوا النهر إلى غير وجهته ، وتغيِّروا مجرى التاريخ ، وترغموا مجاري الأمور على أن تنحو نحواً جديداً ، ويلزم قبل كلِّ شيءٍ أن تضحُّوا بهذه الأهواء ، والأفكار ، والطقوس ، والعادات ، والمثل ، والقيم التي آمنتم بها ، وصارت جزءاً من حياتكم ، لنشوئكم في المدنيَّة الحسِّيَّة والمادِّيَّة ، والحضارة الغربية منذ زمنٍ طويل.

ويجب أن تتركوا لهذه الغاية السامية غاياتٍ أخرى من الحياة ، ويجب أن يكون نظام تعليمكم وتربيتكم تابعاً ومنسجماً ، وكذلك يجب أن تسبك سبكاً جديداً ، منسجماً مع الغاية الكريمة ، متجاوباً لها.

فحقيقٌ أنَّ هذه الغاية أكبرُ خدمةٍ للإنسانية ، وليس مسؤوليتها إلا على عواتقكم؛ إذ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، وقد نثر الذكاء الإنساني ، والتجربة البشرية جعبتها ، وأفرغت كلَّ سهامها ، فما كانت إلا سهاماً طائشةً ومسمومةً ، ولم يبق للإنسانية أملٌ في النَّجاة إلا في الرسالة السماوية الأخيرة ، وحضارتها المثلى.

وأختم هذا الفصل بمقطوعةٍ شعريَّـةٍ لإقبال ، هتف فيها بالمسلم ، وأثار فيها الغيرة والإيمان ، وناشده باسم العالم والإنسان ، يقول:

«أنت للناموس الأزلي حارسٌ وأمين ، ولسيِّد هذا الكون يسارٌ ويمينٌ[1] ، لقد كانت نشأتك من التراب ، ولكن بك قوام العالم ، وبقاء الأمم ، اشرب كأساً فائضةً من اليقين ، وانهض من حضيض الظنِّ والتخمين ، انتبه من السبات العميق الذي طال أمده ، واشتدت وطأته.

الغياث من الإفرنج الذين خلبوا العقول ، وسحروا النفوس ، الغياث من هؤلاء الذين خدعوا مرَّةً بالرقَّة والدلال ، ومرَّةً بالقيود والأغلال ، وتارة

---

(١) يعني: أنه آلة بيد القدرة الإلهية ، وجارحة لها.

مثلوا دور «شيرين» وطوراً لعبوا دور «أبرويز»[١]. لقد أصبح العالم كله خراباً يباباً بإغارتهم وغزوهم ، ياباني الحرم! ويا خليفة إبراهيم! انهض لبناء العالم من جديد ، انتبه من السبات العميق الذي طال أمده ، واشتدَّت وطأته»[٢].

* * *

(١) يشير إلى قصة غرامية فارسية قديمة ، تناقلها الأدباء والشعراء في إيران والهند ، تمثل فيها «شيرين» دور المرأة الفاتنة التي هام بها الأبطال و«أبرويز» دور الملك القاهر الذي عشقها ، واستأثر بها.

(٢) «زبور عجم» ١١٦ ـ ١١٨ باختصارٍ وتوسُّع.

القرن الخامس عشر الهجري الجديد في ضوء التاريخ والواقع

طُلب من العلامة الندوي أن يفتتح مناسبة أسبوع مطلع القرن الخامس عشر الهجري الجديد ، التي نظمتها «المنظمة الإسلامية لطلاب (s.I.M) في مدينة لكهنؤ (الهند) ، في قاعة المحاضرات الكبرى في المدينة ، وذلك في ٢٢ من ذي الحجة سنة ١٤٠٠هـ والموافق ١ من نوفمبر سنة ١٩٨٠م ، فألقى العلامة في هذه المناسبة التاريخية الكبيرة كلمةً مستفيضة ارتجلها بوحي من المناسبة المباركة ، وأفاض في بيان الحقائق التاريخية ، واستعراضٍ لواقع بعض القرون الإسلامية الماضية ، وأحداثها التي غيَّرت مجرى التاريخ. وهي تحمل عبرةً ودروساً للعاملين والمفكِّرين ، والمخططين للعملِ الإسلاميِّ ، والدعوة الإسلاميَّة في هذا العصر ، وعرض صورةً واضحةً صادقةً للقرن الرابع عشر الهجري الّذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ، يحاسب المسلمون في ضوئها أنفسهم ، ويقارنون بين أرباحهم وخسائرهم ، وأخطائهم وإصابتهم ، ثم انتقل إلى الحديث عن القرن الخامس عشر الهجري الّذي كان على الباب ، وما يتطلب من استعدادٍ وعزمٍ ، ومواجهةٍ للحقائق ، ومعالجةٍ حكيمةٍ للقضايا ، وسموٍّ همةٍ لقيادةٍ رشيدةٍ جديدةٍ للعالم ، نابعةٍ من الرسالة والتعاليم السَّماوية التي جاء بها محمَّدٌ ﷺ آخر الرسل ، وهاجر في سبيلها ، فكان تاريخاً جديداً للبشرية ، وتقويماً جديداً في العالم . وسُجِلت الكلمة ، ونقلت من الشريط ، وقد قام الأستاذ الدكتور سعيد الأعظمي الندوي أستاذ الأدب العربي بدار العلوم ـ ندوة العلماء ، ورئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي» بنقلها إلى العربية.

قال بعد الحمد والصلاة:

أصبح الحديث عن القرن الخامس عشر الهجري حديث النوادي والمحافل، وشغل الناس الشاغل، وشغلت المعنيين بحاضر المسلمين ومستقبلهم، تنبؤاتٌ وتكهُّناتٌ، وتمنِّياتٌ وتطلُّعاتٌ، ويجب علينا أن نكون جادِّين واقعيِّين، قوَّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسنا وعلى أمتنا، وأن نعتبر بالماضي، ونأخذ حذرنا للمستقبل.

ولا يخفى أن التقويم الإسلامي ـ والقرن الخامس عشر جزء منه ـ يبتدىء من هجرة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم من مكة المكرَّمة إلى المدينة المنوَّرة، حين تبتدىء التقاويم الأخرى، بوجهٍ عامٍّ، بميلاد شخصيةٍ كبيرةٍ، أو وفاتها، أو قيام دولةٍ، أو تحقُّق انتصاراتٍ عظيمة في التاريخ[1]، وكانت مصدر تقويمٍ مستقلٍ، ولكن الإسلام يتميَّز عن الديانات الأخرى في ذلك، فلم يسم دينه باسم نبيه، ولكن باسم رسالته؛ إذ أنَّ الإسلام ليس اسماً لشخصية، إنما هو اسمٌ لمنهج، وحكمٌ إلهي، يعني: الخضوع أمام أحكام الله، وتلك هي ميزة هذا القرن، فإنه لم يبتدىء بوجود شخصية، حتى إنه لم يبدأ بشخصية سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم التي كانت، ولا تزال أحبَّ شخصيةٍ إلى المسلمين بعد الله تعالى، ولكن هذا التقويم لا علاقة له بولادته صلى الله عليه وآله وسلم، ولا بوفاته رغم أنَّهما حدثان كبيران في هذا العالم، ولكنَّه يتَّصل بهجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) مثلاً التقويم المسيحي الّذي يسود العالم كلّه ينتمي إلى سيدنا المسيح عليه الصلاة والسلام، والتقويم البكرمي الّذي ساد الهند ينتمي إلى الملك «بكرماجيت» وفي إيران ولدى الزردشت عرف تقويمان، وكلاهما ينتميان إلى يزدجر الثالث، أحدهما يبتدىء بتاريخ جلوسه على العرش، والثاني يبتدىء بوفاته، وكذلك التقويم الغريغوري ينتمي إلى البابا غري غوري الثالث عشر الّذي يسود في أوربا كلّها منذ عام ١٥٨٢م (باستثناء الاتحاد السوفياتي واليونان).

ومعنى ذلك: أنَّ القرن الهجري الجديد سيطلع علينا برسالةٍ، ودعوةٍ، وأنَّه لا يجدِّد ذكرىٰ شخصيَّةٍ، أو أمَّة فحسب، بل يجدِّد ذكرى رسالة، وهي أنَّ النبيَّ ﷺ هاجر من وطنه العزيز إلى موطنٍ جديدٍ وراء غايةٍ عظيمةٍ. إنَّ هذه الهجرة تذكرنا برسالةٍ ساميةٍ، وبإقدامٍ كبيرٍ، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يقم بها لإنقاذ نفسه، أو أصحابه المعدودين، ولٰكنه قام للحفاظ على الرسالة التي أكرم بها، ولإتاحة الفرصة لتبليغها إلى العالم كلِّه. إنَّ هذا القرن يذكرنا بما للغاية الكريمة، والهدف العظيم من أهمِّيَّةٍ وقيمةٍ، تسهل على المرءِ أن يضحي في سبيلها بكل نفيس وغالٍ، إنها رسالةٌ خالدةٌ ذات روحٍ عاليةٍ في تاريخ العالم كلِّه، تؤكد أنَّ أمراً مهمَّاً كان نادراً وغريباً، ومهما وضع في طريقه من عراقيل، وأثير حوله من النقع، إذا كان نابعاً من إخلاص النية، وكان القصد من ورائه إسعاد الإنسانية مع تصميم العزم، فإنه يسطع ضوءه، وينقشع عنه الضباب، ويتكلَّل بالنجاح عاقبة الأمر.

لذلك فإنَّ هذا القرن الخامس عشر الهجري لا يبعث همَّة المسلمين فحسب، بل إنَّه يوجه رسالة ثقةٍ وتفاؤل إلى النوع البشري كلِّه، وإلى جميع من يتوخَّون غاية صالحةً، ويحملون راية دعوةٍ نافعةٍ، ويبذلون مجهوداتٍ في سبيل هدفٍ أفضل، أو غايةٍ عظيمةٍ. فيحثهم على مواصلة الجهود، ويبشرهم بنجاحٍ تحار فيه الألباب.

إمَّا أن يكون هذا القرن الجديد سعيداً للمسلمين، وعن طريقهم للإنسانية كلِّها، أو أن يكون مشؤوماً! فذلك أمرٌ لا يمكن أن نصدر عليه حكماً الآن، فمن قضاء الله تعالى وحقائق القرآن الأبدية التي لا تتغير هو أهمية السعي الإنساني وتأثيره، فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] إنَّ الإنسان في حياته الدنيا وفي آخرته لا يدرك أكثر مما يسعى، إنما يدرك ما أنتج له سعيه، كما يقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٤٠] إنَّها رسالةٌ خالدةٌ للنَّوع البشريِّ كلِّه، ولجميع أدوار التاريخ، إنَّ سعي الإنسان لا يخلو من نتائجه التي يراها ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٤١].

إنَّ هذه الآية الكريمة رسالةٌ تحمل في طيِّها معاني كريمةً من الهمَّة العالية والروح الفيَّاضة ، وإذا كان الشاعر الإسلامي محمد إقبال خاطب الإنسان في بيته الذي معناه: «إنَّ حياتك أيها الإنسان! إنما هي رهين عملك ، فإمَّا إلى الجنة ، أو إلى النار ، فإنَّك بفطرتك لست من أهل النور ، ولا من أهل النار» فإنني أنشد هذا البيت ، وأخاطب به القرن الجديد ، فإن هذا القرن ـ وما سبقه من قرونٍ ـ ليس في طبيعته سعيداً ، ولا مشؤوماً في الواقع ، فإنَّ السعادة والشقاء إنما يتوقفان على مساعي الإنسان واتجاه أعماله ، ونحن لا نستطيع أن نحكم مسبقاً لأي قرنٍ ، أو سَنةٍ ، أو شهرٍ ، ويوم ، وساعةٍ أنَّ فيه سعادةً ، أو شؤماً ، ليس في الإسلام نظرية الشقاء أو السعادة التي كانت ولا تزال توجد لدى أممٍ جاهليةٍ ظلت بعيدةً عن تعاليم الأنبياء عليهم السلام ، لا يسمح لنا الإسلام بأن نحكم على قرنٍ قادمٍ بأنَّه سعيدٌ جداً ، تسعد فيه الأمة الإسلامية كلَّ السعادة ، أو أنَّ هذه القرن مشؤوم للأمَّة أو للأقدار الإنسانية ، إنَّه ليس تفكيراً إسلامياً ، ولا يؤيده الكتاب والسنَّة ، ذلك لأنَّ التصوُّر عن زمنٍ خاص أنَّه سعيدٌ ميمونٌ بوجهٍ دائمٍ ، أو باعث على الشُّؤم والشقاء ، يجني على الإرادة الإنسانية ، وصلاحيته للعمل وطاقاته ، إنَّ الإنسان إذا اعتقد أنَّ هناك ساعةً مشؤومةً تستقبله قريباً باءت قوته العملية بالانهيار ، وتعطلَّت قوة حكمه ، وقدرة صموده بتاتاً.

إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قضى نهائياً على التعلُّق بالأوهام ، والمغالاة في الاعتقاد بشيءٍ ، والإعجاب بشخصيةٍ ، انكسفت الشمس ذات مرَّة في عهد صلى الله عليه وآله وسلم ، وصادف ذلك وفاة سيدنا إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقليل(١) ، وكأنَّ الله سبحانه قد أراد في ذلك تربية الأمَّة؛ لأنَّ العرب المسلمين آنذاك كانوا قريبي العهد بالجاهلية ، ولم يكن العالم قد تخلَّص من تأثيرها تماماً ، ثم إنَّ حادث الوفاة كان أمراً غير عاديٍّ ، أثار العواطف ، فتكلَّم بعض المسلمين ، وقالوا: كيف لا تنكسف الشمس وقد توفي ابن رسول الله

---

(١) توفي سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام عام ١٠ من الهجرة ، وكان ابن سنةٍ ونصف.

صلى الله عليه وآله وسلم؟! ولو كان مكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه المناسبة الحزينة أيُّ داعٍ من الدعاة ، أو زعيمٍ من الزعماء ، أو قائد دعوةٍ وحركةٍ ، وجماعةٍ؛ لسكتَ على هذا الكلام ، إذا لم يوفق إلى نفيه ، ظناً منه: أنَّ ذلك الكلام إنما هو في صالح دعوته وحركته ، وظنَّ أنَّه لم يسترع الانتباه إلى هذه الناحية ، بل إنَّ الناس بأنفسهم فكروا في ذلك ، وقالوا: إنَّ الشمس إنما انكسفت لوفاة ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذاً فهو ليس مكلفاً بنفي هذا التفكير ، وذلك هو الفرق بعينه بين النبيِّ وغيره ، فإنَّ الأحداث التي يستغلها أصحاب التفكير السياسيِّ ـ وإن كانت حوادث طبعية ـ يرى الأنبياء الكرام عليهم السلام استغلالها على حساب الدين حراماً ، وأمراً يرادف الكفر ، لا أدري إنَّ أحداً سوى محمد صلى الله عليه وآله وسلم يكون قد صدق في هذا لامتحان من غير الأنبياء ، ومن مؤسسي الجماعات ، وزعماء السياسة .

وهنالك قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطيباً في القوم ، فقال: «إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا يخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته»(١) كأن النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم سألهم عمَّا ذا قالوا؟ ثم ردَّ عليهم بأنَّ الشمس والقمر لا يتغيَّران لموت أحدٍ من الناس ، ولا لحياته ، إنما هما آيتان من آيات الله ، ومقيدان بقانون يخصُّهما ، لا يؤثر عليهما موتٌ ولا حياةٌ ، ولو أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آثر السكوت في هذه المناسبة ، لم يك ذلك سبباً لفسادٍ ، بل إنَّ ظناً خاطئاً كان قد وجد سبيلاً إلى قلوب الناس بناءً على الحبِّ والإعجاب بشخصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبحكم الاضطرار ، ولكن لم يتحمله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وسرعان ما نفاه ، وقال: كلا ، إنَّ ذلك الحادث لا علاقة له بأسرتي ، أو بولدي ، فإنَّ الكون أوسع من ذلك ، وإنَّ ذات الله تعالى أغنى عن ذلك ، وقانونه أسمى من مثل هذه الأمور ، لقد كان ذلك إرشاداً مبدئياً يتعلَّق بالأساس ، وجه إلى النوع البشري كله ، بل العقل الإنساني كلِّه ،

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الكسوف ، ج/ ١ ص ٢٩٢ .

فإنَّ العقل الإنساني أهمُّ من النوع الإنساني ، وإنَّه يحكم النوع الإنساني ، وليس بالعكس ، لقد كان ذلك انحرافاً للعقل الإنساني خطيراً ، وكان لا بدَّ من وضع الحدِّ عليه.

كنت أتحدث وأقول: إن قرناً من القرون ليس سعيداً بذاته، ولا مشؤوماً، وأضرب لكم مثالاً للكأس ، إنَّها إذا كانت فارغة لا نحكم عليها بشيء ، إنَّ ذلك يتوقف على ما فيها من مظروف ، فإن كانت فيها خمر ـ أعاذ الله منها ـ كانت الكأس كأس الخمر ، أو كان فيها سُمٌّ ، دعيت بكأس السم ، وإن كان فيها ماءٌ زلالٌ ، أو لبنٌ سائغ ، أو عسلٌ مصفًّى ، دعيت به ، ونسيت إليه ، وأما الكأس بذاتها فهي بريئةٌ وشيءٌ حياديٌّ ، والأمر إنما يتوقف على ما تملأ به الكأس ، فإن ملأها أحدٌ بالزمزم؛ فهي كأس الزمزم ، وإن ملأها بالخمر؛ فهي كأس الخمر ، وهنا نستطيع أن نقول: إنَّ سعادة أو شقاء هذا القرن إنما يتوقف على سعي الأمَّة التي أخرجها الله تعالى لحمل رسالته الأخيرة.

وبالمناسبة أضرب لكم ثلاثة أمثال ، مثالٌ منها لقرنٍ ابتدأ بأحداث هائلة مخيفةٍ ، وأوضاع قاتمةٍ عابسةٍ ، تبعث على اليأس ، وتقطع الآمال ، وقد استقبله مؤرخو ذلك العهد بشيءٍ كثيرٍ من القلق والحزن ، وبالجروح والدُّموع ، وقد شهد المؤرخون ابن الأثير وابن كثير ، كيف أنَّ الأوساط الإسلامية استقبلت القرن السابع الهجري ، فقد كانت الدلائل والمؤثرات كلُّها تشير إلى أن ذلك القرن ليس في مصلحة المسلمين ، ولا في مصلحة الأمة الإسلاميَّة ، ولا في مصلحة الإسلام ، وسيكون أشأم قرنٍ في حقِّ الإنسانية كلِّها ، فقد كان هذا القرن استهلَّ بحادث غير عادي كما يقول المؤرخ ابن الأثير الجزري (المتوفى ٦٣٨هـ) «فلو قال قائل: إن العالم منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً؛ فإنَّ التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ، ولا ما يدانيها»[1].

وأعني بذلك زحف التتار الذي تمَّ في عام ٦١٦هـ على أكبر مملكة

(١) الكامل لابن الأثير ١٢/ ١٤٧.

إسلامية في ذلك الوقت ، وهي مملكة خوارزم شاه ، كان ذلك في مبدأ القرن السابع الهجري ، وفي القرن الثالث عشر الميلادي ، وقد نهض التتار كجراد منتشر ، واكتسحوا العالم الإسلامي كلَّه ، ودمَّروا تركستان وإيران ، وأتوا على المدن الكبيرة بأسرها ، وأبادوها ، حتى إنهم رفعوا مناور عاليةً من رؤوس القتلى، وجثثها ، وصعدوا عليها ، وأعلنوا فتحهم وانتصارهم ، وتحولت المدن إلى مقابر ، ولكي نقدِّر هول الحادث؛ يحسن بنا أن نقرأ ما كتبه «إيدورد جون» في كتابه (سقوط وانحطاط رومةDecline and fell of the roman ompire) «حينما اطلع سكان السويد على الزحف التتاري عن طريق روسيا ، تسلط عليهم من الذعر والخوف ما منعهم من الخروج لصيد الأسماك كعادتهم ، إلى سواحل إنجلترا»[١] .

تصوروا موقع السويد الجغرافي وسواحل إنجلترا من المنطقة التي زحف إليها التتار . إنَّ صيادي الأسماك في السويد الذين كانوا يمارسون مهنة صيد السَّمك قد بلغ منهم الخوف إلى حدٍّ تركوا فيه مهنتهم ، ولم يتمكن مؤلفو كتاب «تاريخ العهد المتوسط» الصادر من جامعة كيمبردج من تصوير هول الحادث والتعبير عنه سوى أن قالوا: «إنّ السماء وقعت على الأرض ، فدمَّرت كلَّ ما فيها»[٢] .

هذا نموذج تعليقات المؤلفين الغربيين على الحادث وانطباعاتهم ، الذين لم يتأثروا كثيراً بهذا الحادث ، ولم يكونوا هدف الهجمات التتارية بطريقٍ مباشر ، ولكي نعرف مدى تأثر المسلمين بهذا الحادث ، ونظرتهم إليه؛ يجب أن نتذكر المثل السائر في ذلك العهد الذي جاء فيه «إذا قيل لك: إنَّ التتر انهزموا فلا تصدِّق» إنَّ المسلمين الذين لم يكونوا يعرفون لغة اليأس والقنوط ، وأمرهم القرآن فقال: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] والذين كانوا يقرؤون في القرآن: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] استولى عليهم اليأس ، وتقرَّر عندهم أن التتار لا ينهزمون.

---

(١) جبون ص ١٤ .
(٢) من كتاب «جنكيز خان» د . هيرلد ليمب .

هؤلاء التتار إنما خرجوا من حصارهم القديم من أجل خطأ سياسي صدر من خوارزم شاه ، يطلع عليه من درس تاريخه ، وقد استهدف المسلمون لزحفهم فدمَّر التتار تركستان ، وإيران ، وأتوا عليهما بجميع ما فيها من تراثٍ علميٍّ وحضاريٍّ ، وفي تلك الفترة الحالكة لجأ كثير من أبناء البيوتات الشريفة ، العريقة في الدين والعلم ، وكبار العلماء ، وأئمة الفنون وأصحاب العبقرية من المسلمين ، واتَّجهوا إلى الهند التي كان يحكمها الملوك الأقوياء المسلمون من السلالة التركية ، كان ذلك في القرن السابع الهجري ، والقرن الثالث عشر الميلادي ، وقد حاول الأستاذ «آرنولد» الإنجليزي في كتابه : الدعوة إلى الإسلام (Preching of Islam) أن يصوِّر الجو الرهيب من اليأس والشعور بالهزيمة ، الذي كان يعيش فيه المسلمون ، وكان يستطيع في ذلك الوقت كلُّ شخص يتمتع بالشعور والمشاهدة وقوة الاستنتاج من ترتيب المقدمات والأسباب ، أن يتنبأ فيعتقد أنَّ الإسلام قد ولَّى عهده ، وأوشكت شمسه على الغروب ، ولا شكَّ فإنَّ المسلمين هم الذين كانوا هدف الهجمات التتارية في الواقع ، وقد ضاق عليهم مجال العمل والأمل معاً ، يقول «آرنولد» وهو يتحدَّث عن منافسين قويين للإسلام وهما : البوذية والمسيحية : «كانا يحاولان إحراز قصب السبق في ذلك المضمار وليس هناك في تاريخ العالم نظيرٌ لذلك المشهد الغريب ، وتلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام ، كلُّ ديانةٍ تنافس الأخرى لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة ؛ الذي داسو بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين في جميع الأقطار والأقاليم ، إنَّ مناهضة الإسلام لمنافسيه (الديانة البوذية والديانة المسيحية) واستئثاره بالمغول ، وإحباط مساعي الدعاة البوذيين والمسيحيين ، كان يتراءى شبه المستحيل[١] كل الدلائل كانت تشير إلى أنَّ المسيحية ستنتصر ، لأنَّها لم تكن الخصم المناهض في هذه الحروب ، ثم إنَّ المسيحيات والمسيحيين كانوا في قصور الأمراء من

(١) الدعوة إلى الإسلام ـ ص ٢٥٠ .

أبناء جنكيز خان ، وأركان دولته ، فإذا كانت هناك قضية اعتناقهم لدين جديد ، كانت المسيحية هي الديانة المفضلة لدى هؤلاء الفاتحين ، لم يكن يشكُّ أحدٌ في اعتناقهم لها .

ولكن هل تعرفون ماذا وقع؟ لقد اضطر آرنولد إلى الاعتراف بالواقع ، يقول: «ولكن الإسلام فاجأ العالم ، ونهض من تحت أنقاض عظمته الأولى ، وأطلال مجده التالد ، واستطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك القاتحين الوحوش ، الذين نثروا عليهم كنانة ظلمهم فأسلموا»[(١)] .

ويقول: «وعلى الرغم من جميع المصاعب أذعن هؤلاء المغول والقبائل الوحشية آخر الأمر لدين هذه الشعوب التي ساموها الخسف ، وداسوها بأقدامهم»[(٢)] .

إنَّ القرن الذي بدأ بالشؤم ـ إذا كان في الإسلام مجالٌ لكلمة شؤم ـ القرن الذي بدأ بالظلام الشامل ، واليأس القاتل ، إنما تحوَّل إلى قرن «فتحٍ مبين» للإسلام ، وبهت به العالم ، وقضى العجب مما رأى من التتَّار الذين لم تزل أيديهم مخضوبةً بدماء المسلمين ، كيف خضعوا للإسلام ، يقول: «هورث» :

«وقد بلغ من سوء المعاملة التي لقيها هؤلاء أن رائضي الخيل من أهل الصين ، كانوا إذا عرضوا أشباحاً أظهروا البِشر والحبور في صِلفٍ وإعجاب بعرض صورةٍ تمثِّل رجلاً مسناً ذا لحيةٍ بيضاء يجرُّه حصانٌ قد ربط ذيله برقبة هذا الرجل ، إنما كان هؤلاء يفعلون ذلك ليظهروا للناس كيف يتصرف فرسان المغول في معاملتهم للمسلمين»[(٣)] .

والواقع أنَّ المسلمين إنما كانوا قد فقدوا كل شيء ، ولكنهم لم يفقدوا الإيمان بالله ، والثِّقة به ، وقوة العقيدة ، والصلة الصادقة به ، ولذلك فإنَّ

---

(١) الدعوة إلى الإسلام: ص٢٤٦ .

(٢) الدعوة إلى الإسلام: ص٢٥٨ .

(٣) تاريخ المغول لهورث ، ج١ ، ص ١٥٩ .

الإسلام لم يمن بالهزيمة إنما مني بها الملوك المسلمون الخرَّق ، والمجتمع المريض الفاسد ـ أقول ذلك بصراحةٍ وتألمٍ ـ أمَّا الإسلام فقد كان سليماً ثابتاً في مكانه من غير أن يُزرأ في أصالته وقوَّته ، كان المسلمون قد ظنُّوا أنَّ إخضاع التتار بالسيف مستحيلٌ؛ لأنَّ سيف الإسلام مفلولٌ بك مكسَّرٌ ، أو عائدٌ إلى الغمد ، وقد أثبت التتار أنَّ لديهم قوةً عسكريةً أقوى من المسلمين ، وأنَّهم بعيدون عن الأدواء التي يجرها البذخ ، والحكومات الطويلة المستبدة ، والمدنية المصطنعة ، وأنهم يملكون من قوة التحمُّل والصبر على المكاره والشدائد ما كان ميزة العرب الأقوياء ، وفاتحي الإسلام في العهد الأول ، وأنَّهم لم يخرجوا من محيط الصحراء إلا بعد قرونٍ ، فلا تزال طاقتهم كامنةً عندهم ، لا يمكن أن تقاومهم السيوف التي تحملها الأيدي التي سرى فيها الوهن ، وأفسدتها المدنية .

فهل تعرفون من انتصر على التتار المنتصرين على العالم ، ومن حبب إليهم كلمة الإسلام؟ لقد نهض في ذلك الوقت العصيب ، والظلام الحالك رجالٌ من أصحاب القلوب الصافية؛ الذين كانوا يتمتَّعون بالرَّبانية الصادقة ، والقوة الروحية الدافقة ، أسلم على أيديهم التتار عن بكرة أبيهم ، في ظروف نصف قرن ، إنَّ التاريخ كله يزخر بقصص إسلام الناس أفراداً وجماعاتٍ ، ودخول المدن بأسرها في الإسلام ، ولكن أمثلة إسلام الناس كأمةٍ لا تتجاوز ثلاثة أو أربعة أمثلة فيما أعلم ، فإنَّ العرب أسلموا كأمَّة ، والأفغان أسلموا كأمَّة ـ وهم يعانون اليوم من الأسف محنةً من أشدِّ المحن التي تقرر مصير الأمم ، وتحوُّلها من جهةٍ إلى جهةٍ وكذلك الأتراك والتتار لم يسلموا أفراداً ، إنَّما دخلوا في دين الإسلام كأمَّة ، مئةٌ في المئة ، إنَّه لغزٌ من ألغاز التاريخ وقد واجهته أنا شخصياً كذلك ، وهو أن يتم هذا الواقع الذي غيَّر مجرى التاريخ ، وخلَّف تأثيراً عميقاً على مستقبل العالم كله وأعني به إسلام التتار كأمَّة ـ ثم لا نجد في التاريخ أسماء أشخاص يرجع إليهم الفضل في إسلام هذه الأمَّة العظيمة؟ ما السرُّ في ذلك؟ !

لقد تذكرت بالمناسبة قصة جنديٍّ مسلمٍ في فتح المدائن عثر على تاج

كسرى ، فأخفاه في ثيابه ـ شأن المال المسروق ـ وجاء به إلى قائد الجيش الإسلامي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وقال أيها الأمير : يبدو كأن هذا شيء ثمين ، وأنا أسلِّمك إياه ، لكي تجعله في بيت مال المسلمين وقبل أن يتسلم التاج ، نظر الأمير ـ وهو من العشرة المبشرة ـ إلى الرجل بشيءٍ من الدَّهشة ، وتحدَّث في نفسه فقال : كيف لم تفسد نية هذا الرجل المسكين البدوي في هذا التاج الثمين ، المرصَّع الغالي؟! كيف لم يفكر فيما إذا ذهب به إلى خيمتـه ، وامتلكه دون أن يسلِّمه إلينا؟! فسأله الأمير عن اسمه ، فتولَّى عنه ، وقال : إنَّ الذي عملت له يعرف اسمي ، وانصرف .

هذه قصة فردٍ واحدٍ ، وأظنُّ أنَّ الذين كان إسلام التتار قاطبةٍ في حسابهم كانوا يتسمون بهذه الميزة ، وأنَّهم أخفوا أسماءهم . وقد واجهت أنا صعوبة في تحقيق أسماء هؤلاء العظام حينما بحثت في الموضوع أثناء تأليفي للجزء الأول من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»[١] وبعد بحثٍ وعناءٍ طويلٍ عثرت على اسمين أحدهما لوزيرٍ صالح يدعى بالأمير توزون[٢] الذي كان رئيس الوزراء لملك التتار ؛ الذي كان يحكم العراق ، كان هذا الوزير رجلاً صالحاً من العباد والزهَّاد ، وظل يلقي إلى الملك قولاً عن الإسلام ويحببه إليه ، حتى فوجىء أهل بغداد في يوم جمعة أن رأوا الملك التتاري السلطان قازان ووزراءه معه متجهين نحو الجامع يحملون بأيديهم السبح ، يقول ابن كثير في البداية والنهاية : «ونثر الذهب والفضة على رؤوس الناس يوم إسلامه وتسمَّى بمحمود ، وشهد الجمعة والخطبة وخرب كنائس كثيرةً ، وضرب عليهم الجزية ، وردَّ مظالم كثيرةً ببغداد وغيرها من البلاد ، وظهرت السبح والهياكل مع التتار ، والحمد لله وحده»[٣] .

والمأثرة التاريخية الثانية هي للشيخ جمال الدين ، وقد انتشر الإسلام بفضل إخلاصه ، وورعه في أحد فروع التتار الكبيرة ، الذي عرف بفرع

(١) يقع الكتاب في أربعة أجزاء ، وقد صدر مصحَّحاً ومنقَّحاً عن «دار ابن كثير» دمشق .
(٢) يسميه آرنولد وغيره من المؤرخين «نوروزييك» .
(٣) البداية والنهاية جـ١٣ ـ ٢٤٠ .

جغطائي الذي كان يحكم البلاد المتوسطة ، وكان مركزها كاشغر ، وأسلمت الفصيلة بكاملها ، وكان من خبره : أنَّ الشيخ جمال الدين كان متجهاً مع جماعة إلى جهة ، وكان التتار يكرهون أهل إيران ، ويحتقرونهم ، وكان الشيخ إيرانياً ، وصادف ذلك يوم القنص للأمير تغلق تيمور ولي عهد الأسرة الجغطائية ، وقد كانت مناسبة تتويجه قريبةً ، ومعلوم أنَّ الهائمين بالنقص لهم أوهامٌ وتشاؤمات لاسيما الأمراء ، وأبناء الملوك ، فلم تزل لهم أوهامٌ وخرافاتٌ يؤمنون بها ، فلما رأى الأمير أنَّ الشيخ جمال الدين قد دخل في الحمى الذي كان قد خصصه لنفسه ، أمر بأن توثق أيديهم ، وأرجلهم ، ويمثلوا بين يديه ، لأنه تشاءم به ، وتنغّص من أجلهم ، وسألهم في غضبٍ : كيف جرؤوا على دخول هذه الأرض؟ قالوا : إننا أجانب ، وما علمنا أنها أرضٌ ممنوعة ، محميةٌ للصيد ، فتورطنا في الدخول فيها ، ومعذرةً! ولما علم أنهم إيرانيون ، قال الشيخ : وأشار إلى كلبه ، وقال : أيكما أشرف ، أنت أم كلبي؟ تصوروا جلال الموقف ودقَّته ، وماذا يكون ردُّ فعله؟ ولكنه لم يحدث أيُّ تغييرٍ ، ولا اضطرابٍ في الشيخ جمال الدين ، إنَّه أجاب في هدوء وقال : إنه لا يمكن أن نحكم الآن في هذا ، فسأله الأمير : ومتى يمكن ذلك ؟ فقال : إن ذلك يتوقف على خاتمتي ، إذا كانت على الإيمان فأنا أشرف وأسعد من الكلب ، أما إذا لم أسعد بحسن الخاتمة ؛ فلا شك أنَّ الكلب هو أحسن مني .

أثر هذا الكلام الصريح في قلب الأمير ؛ لأنَّه كان صادراً من القلب ، فوقع في القلب ، ولا شكَّ أنَّ هذا الجواب قد اقترنت به وسبقته دعواتٌ مخلصة ، ودموعٌ منهمرة ، وكأنه قد قال بلسان حاله : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلّة حيلتي ، وأنت تملك أن تمنح كلامي هذا تأثيراً في القلب ، وتلك هي لحظة قضاء الله في إسلام الأمير ، لأنَّه إذا سعد بالإسلام سعد به حظُّ المسلمين(١) .

---

(١) سرد «آرنولد» في كتابه «الدعوة إلى الإسلام» هذه الحكاية ، وذكر أن الشيخ أجاب قوله : «لولا أن الله أكرمنا بالإسلام وشرف به قدرنا ؛ لكنّا أخس من الكلب» .

وسأل الأمير عن الإسلام والإيمان ، هنالك عرض الشيخ على الأمير تغلق تيمور قواعد الإسلام في غيرةٍ وحماس ، رقَّ لها قلب الأمير ، حتى كاد يذوب كما يذوب الشَّمع ، وصوَّر له الكفر بصورةٍ مروِّعةٍ اقتنع معها بضلال معتقداته ، وفسادها ، وقال : «لكني إذا اعتنقت الإسلام الآن ، فلن يكون من السهل أن أهدي رعاياي إلى الصراط المستقيم ، فأملهني قليلاً ، فإذا بلغك أني بويعت بالحكم ، وآلت إليَّ مملكة أجدادي؛ فعد إليَّ ، وذلك أن إمبراطورية جغطائي انقسمت في ذلك الوقت إلى إماراتٍ صغيرةٍ ، وظلت على ذلك سنين طويلةً حتى نجح تغلق تيمور في توحيد الإمبراطورية كلها تحت سلطانه ، وجمع كلمتها كما كانت من قبل .

وفي هذه الأثناء كان الشيخ جمال الدين قد عاد إلى بلده حيث مرض مرضه الأخير ، فلما أشرف على الوفاة ، قال لابنه رشيد الدين : «سيصبح تغلق تيمور يوماً ملكاً عظيماً ، فلا تنس أن تذهب إليه وتقرئه مني السَّلام ، ولا تخش أن تذكره بوعده الذي قطعه لي» ولم يلبث رشيد الدين إلا سنين قليلة حتى ذهب إلى معسكر الخان ، وكان قد استردَّ عرش إمبراطورية آبائه ، تنفيذاً لوصية أبيه ، ولكنه لم يستطيع أن يظفر بالمثول بين يدي الخان برغم ما بذله من جهود ، وأخيراً لجأ إلى حيلةٍ طريفة ، فكان يؤذن ويصلي على مقربة من فسطاط الخان ، وذات يوم حين كان يؤذن في الصباح الباكر أقلق ذلك الصوت نوم الخان ، وأثار غضبه ، فأمر بإحضاره ، ومثوله بين يديه ، وهناك أدَّى رشيد الدين رسالة أبيه ، ولم ينس تغلق تيمور وعده ، وقال : «حقاً ما زلت أذكر ذلك منذ اعتليت عرش آبائي ، ولكنَّ الشخص الذي قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل ، والآن فأنت على الرحب والسعة ، ثم أقرَّ بالشهادتين ، وأصبح مسلماً منذ ذلك الحين ، وأشرقت شمس الإسلام ، ومحت بنورها ظلام الكفر .

ودعا الملك تغلق تيمور رئيس وزرائه ، وقال له : إنني أحمل في صدري سرّاً منذ زمن ، لقد وقع ما سمعته من الشيخ جمال الدين في قلبي ، ولا يزال له سلطان عليَّ ، وقد قررت أن أسلم ، فما رأيت؟ فقال له الوزير

أيها الملك إنني مسلم من زمان ، وكنت أخفي إسلامي ، وقد اهتديت إليه في إحدى رحلاتي إلى إيران ، ودعا الوزراء والآمراء إلى الملك ، وأسلموا بعد ما علموا بإسلام الملك .

هؤلاء التتار لم يكن لهم حظٌّ في العلم ولا في الحضارة ، ولا شأن لهم بدينٍ سماويٍّ تستسيغه عقولهم ، فلم يكن بوسع التتار أن يقوموا بتدبير هذه المملكة الواسعة الراقية ، بالعكس من ذلك ، كان هناك مقننون بارعون من المسلمين ، ونظام الري ، وجباية الضرائب ، وأحكام القضايا ، وكان لدى التتار قانون محدود للتعزير ، وضعوه على أساس تجاربهم في حياة الصحراء المحدودة ، فكانوا في أشدِّ حاجةٍ إلى المسلمين من قبل ، وكان المسلمون من العلماء وخبراء القانون قد أدَّوا واجبهم نحو هذه المملكة الواسعة ، إنَّهم ساعدوهم في تدبير شؤون المملكة ، وطبعوا في نفوسهم توجيهات الإسلام للحياة ، وكفاءته الواسعة في تنظيم المجتمع والدولة ، إنَّهم رأوا أنَّ مرحلة الإيمان والعقيدة التي كانت تترقب دورها قد تحققت الآن .

وما أن أسلم الملك تغلق تيمور إلا وقد أسرع التتار في إيران نحو اعتناق الإسلام ، وتمَّ إسلام الجميع في عدة أيام ، وكانت الأسرة التتارية الحاكمة في العراق ، قد سبقتهم إلى الإسلام بجهود الأمير توزون ، وكانوا يتتابعون في قبول الإسلام ، ويتسابقون في عدد جمٍّ يبلغ مئات الآلاف ، وكل ذلك قد تم بفضل مجهودات العلماء ، والوعاظ ، والدُّعاة المخلصين ، وخاصةً بالجهود المخلصة التي بذلها العلماء الرَّبانيون من أهل القلوب ، وتلك حقيقة لا يختلف فيها اثنان ، فإنَّ التاريخ شاهد عدلٍ على ما قام به أصحاب القلوب المؤمنة دائماً من القيام بالدَّعوة ، وتغيير مصير الأمم في سرِّيَّةٍ وخفاءٍ ، واستدركوا بذلك ما لقيه المسلمون من هزائم سياسيةٍ ، وما واجهوه من إخفاقٍ في مجال السياسة ، وقبلوا الوضع ظهراً على بطن .

وقد أشار البروفيسور حتي (Hitti) إلى هذه الحقيقة التاريخية بقوله :

طالما حدث أنَّ «الإسلام الديني» أحرز نجاحاً كبيراً في أحرج ساعات انتكاس «الإسلام السياسي»(١) .

ولا بدَّ من تعليقٍ على هذا الرأي ، وهو أنَّ المقصود : أنَّ الإسلام كدين ورسالة أحرز النجاح ، واستدرك ما فات ، حين مني الإسلام كقوةٍ حاكمةٍ ممثلاً في دولة تتزعمه بالإخفاق والفشل ، وليس هنالك «إسلامٌ دينيٌّ» و«إسلامٌ سياسيٌّ» ، كما توهم عبارة «حتي» والإسلام لا يعرف الفصل بين الدين والسياسة .

ويقول أحد الفضلاء الهولنديين لوكي كارد (Frede Lokke Goard) :

«رغم أنَّ الإسلام أصيب بالانحطاط السياسي مرَّات كثيرةً ، إلا أنَّ الإسلام الروحاني ما زال متقدماً نحو الأمام»(٢) .

وهذا المستشرق الشهير (H.A.R.Gibb) ألقى ذات مرَّةٍ خطاباً أمام مجلس جامعة آكسفورد ، فقال :

«طالما شهد تاريخ الإسلام أنَّ الثقافة الإسلامية قوبلت بمنافساتٍ شديدةٍ ، ولكنها لم تنهزم رغماً من ذلك ، ذلك لأنَّ الأسلوب التربوي الروحي(٣) وتفكير العلماء الربَّانيين أسرع إلى دعمها وتأييدها ، ومنحها قوةً لم تصمد في وجهها أي طاقةٍ مضادَّةٍ»(٤) .

ولا شك فإنَّ هؤلاء التتار يسجلون في كتاب العلماء الربانيين ، وإنَّ هؤلاء الآلاف المؤلفة الذين غيروا مجرى التاريخ حينما يبعثون يوم القيامة ، يعدُّون في حسابهم ، أولئك الذين كانوا موضع نقدٍ لاذع في السنين الأخيرة

---

(١) History of Arabs P. 46 s.

(٢) Islam Taxtationin The Clanic.

(٣) يعني به نظام التربية الروحية والتزكية والإحسان اللذين يوجد أصلهما في القرآن والسنة ، وقد سمي في العهد الأخير بالتصوُّف ، وطرأت عليه من طوارىء الفلسفة والبدع ما يعلمه المتبصِّرون.
اقرأ للتفصيل كتاب العلامة الندوي «ربانية لا رهبانية» صدر عن دار ابن كثير دمشق.

(٤) Iscamic Culture 1942 p,268.

من غير هوادة وإنصاف ، أو استثناء ، ولكنَّهم ينطبق عليهم قول الشاعر العربي القديم[(١)] :

أقلُّوا عليهم لا أبا لأبيكم
من اللوم، أو سدُّوا المكان الذي سدُّوا

وبالمناسبة فإنَّ من أشدِّ حاجات المجتمع الإسلامي الدائمة وجود ربانيين صادقين ، متبعين لا مبتدعين ، راسخين في العلم والدين ، يربطون القلوب بالله ـ عند النكسة التي تصاب بها الحكومات الإسلامية ، أو فتنة المادة والشهوات ، والتنافس في البذخ والثراء التي تمنى بها المجتمعات المسلمة ـ ربطاً وثيقاً جديداً ، ويبعثون في النفوس التسامي عن الأغراض الخسيسة ، والتكالب على حطام الدنيا ، ويكرهون إليها الحياة الذليلة ، والمتعة الرخيصة ، والخضوع المستكين للسلطات والثروات ، وبيع الضمائر والذمم ، والمساومة في الشعوب والأمم ، ويحببون إليها الاستماتة في سبيل العقيدة والمبدأ ، والشهادة في سبيل الله ، ويحاربون اليأس القاتل ، ويجددون الأمل في روح الله ونصره ، ويشتغلون بالدعوة إلى الله ، وتربية النفوس ، وإمداد المجتمع المتداعي المنهار برجالٍ أكفاء ، أقوياء ، أمناء ، يحفظون ثغور الإسلام ، ويرابطون في سبيل الله ، ويمثلون في بيتهم ومجتمعهم دور الإمام الحسن البصري في العصر الأموي ، ودور الحافظ ابن الجوزي ، وحجة الإسلام الغزالي ، والإمام عبد القادر الجيلاني في العصر العباسي.

إنَّ وجود هؤلاء الربانيِّين حاجةُ المجتمع الإسلامي في كلِّ عصرٍ ومصر ، هم الذين ينجحون حين تخفق الحكومات ، وينتصرون حين تنتكس الرايات ، وغيابهم وانقراضهم ـ كما وقع مع الأسف في بعض الأقطار الإسلامية التي أغدق الله عليها الخيرات ، ووسع لها في الرزق ـ عوزٌ لا يسدُّ ، وخسارةٌ لا تعوَّض ، وخطرٌ على المجتمع الإسلامي والدعوة

(١) هو الشاعر الإسلامي الأموي الحطيئة بن جرول بن أوس (توفي نحو ٤٥ هـ).

الإسلامية ، لا يزال بالمنظمات السياسية ، والأساليب العلمية ، والوسائل الدعائية ، ومجرد الهتافات العالية الفارغة.

ضربت لكم مثلاً بالقرن الذي بدأ بأحداث هائلة كانت تهدد بقاء الإسلام، لكن المسلمين لم يخسروا الهمَّة العالية ، والعزم الأكيد ، إذا كانوا قد خسروا الدولة والمملكة ، وتلك حقيقةٌ ثابتةٌ ، فإنَّ الدولة يمكن أن يخسرها المسلمون عشر مرات ، ولكنها تستطيع أن تعود في المرَّة الحادية عشرة ، أما الهمَّة إذا خسرها صاحبها مرَّةً واحدةً فإنَّها لا تعود في أغلب الأحوال.

ظلَّ دعاة الإسلام مشغولين بوظيفتهم في صمتٍ من غير دعايةٍ ، وليت شعري هل كان المسلمون قد أسسوا حينذاك جمعيةً لدعوة التتر إلى الإسلام ، أو نشروا إعلاناً أن التتار إذا أسلموا أفاد ذلك عودة المسلمين إلى الحكم المفقود والحصول على السلطة؟ المرجح أنَّ شيئاً من ذلك لم يوجد! ولكنني أعلم أنَّ هؤلاء الدعاة قاموا بواجب الدَّعوة في هذه الأمة التتارية من غير أن يطلع عليه الناس ، وما هي إلا مدَّةٌ قليلة؛ إذ فوجىء العالم بإسلام الأمَّة التتارية جمعاء.

إنني مثلت لكم بالقرن السابع الهجري والثالث عشر الميلادي الذي بدأ بأحداث مروعةٍ أفزعت قلوب المسلمين ، ولولا أنهم كانوا يملكون قوة العقيدة لهجمت عليه ردةٌ فكريةٌ وحضاريةٌ ، إن لم تكن ردةً إيمانيَّةً ولكن لم تحدث هناك ردةٌ حضاريةٌ ، ولا فكريةٌ ، فضلاً عن الردَّة الإيمانيَّة.

وأضرب لكم مثالاً آخر للقرن العاشر الهجري (القرن السادس عشر الميلادي) ولا أتوغل بالمناسبة في تاريخ العالم الإسلامي الواسع ، بل أتحدَّث عن الهند التي أطلَّ عليها منتصف القرن العاشر الهجري في ظروفٍ قاسيةٍ كانت تهدِّد حرمان الهند قيادة الإسلام وتوجيهاته ، بل كادت تحرم فضل الإسلام ونعمته ، كان يبدو أن ذلك يتم في ظرف أيامٍ ، اقرؤوا

تفاصيل ذلك في كتب التاريخ[١].

وقد وجدت آنذاك في العالم الإسلامي مملكتان كبيرتان مملكة العثمانيين في آسيا الصغرى والشرق العربي ، ومملكة المغول في شبه القارة الهندية ، وكانت المملكة الصفوية في إيران على الدرجة الثالثة ، وقد حدث هنا في الهند أن عدداً من عباقرة العلماء والمثقفين ـ يتميز من بينهم أبو الفضل وفيضي عن غيرهم ـ انضمُّوا إلى حركةٍ كان يقودها إمبراطورٌ عظيمٌ ذو عزمٍ أكيدٍ وذكاء نادرٍ ، وغزوٍ وانتصارٍ ، وكانت تهدف هذه الحركة إلى تغيير وجهة الهند من الإسلام إلى دين جديدٍ اخترعه الإمبراطور «أكبر» وسمَّاه «الدِّين الإلهي» و«إلى وحدة الأديان»[٢] التي كانت الكفَّة فيها راجحة إلى جانب آخر بصفةٍ دائمةٍ[٣].

كان ذلك ملتقىً خطيراً للقوة الماديَّة والذكاء النادر ، أو كانت مؤامرةً ضدَّ الإسلام ، تتولاها مملكةٌ مطلقةٌ ، وعقليةٌ منحرفةٌ ، يتعذر نظيرها في التاريخ ، وكان الناس يعلنون جهاراً أنَّ القرن العاشر أوشك على النهاية ، والقرن الحادي عشر (الذي يبتدىء به الألف الثاني من التقويم الهجري) على الأبواب ، وإنَّ ألف سنة مدةٌ كبيرةٌ لأيِّ دينٍ من الأديان ، وقد قام رجال من العلماء والمثقفين ممن لم يكونوا على جانبٍ كبير من العلم والورع ،

---

(١) مثلاً «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» المجلد الثالث ، للعلامة الندوي ، صدر عن «دار ابن كثير ، دمشق.

(٢) يعني أن الأديان كلَّها سواء ، لا فضل لأحدٍ على آخر ، وكلها طرقٌ موصلةٌ إلى الله ، وإن اختلفت في التفاصيل والشعارات ، وسمَّت الله بأسماء مختلفة ، ولا تزال الدعوة قائمة في الهند يقودها بعض الزعماء الهندوس والعلمانيون ، وهي فتنةٌ كبيرةٌ يقاومها العلماء ومسلمون غيارى على الإسلام الَّذين يؤمنون ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾.

(٣) إنَّ هذه الحركة الَّتي أسست على التسامح والصلح الكامل لم تكن عادلة في حق الإسلام فرجحت فيها طبعاً كفة الديانة والفرقة التي كانت ذات تأثيرٍ في البلاط ويميل إليها الإمبراطور ، فقد اعترف مؤرخو «تاريخ الهند بايجان» «مورليند» وا ، س ، جترجي : بأن قوانين البلاط الأكبري كانت أقرب إلى الديانة الهندوكية إلى دين الإسلام وأكثر حمايةً لها.

وكانوا يحرصون على المناصب ، فوفروا لذلك دلائل في ضوء تاريخ الديانات ، وأثبتوا أنَّ ديناً لم يدم أكثر من هذه المدَّة ، وكلَّما مرَّ عليه ألف سنة حل محله دينٌ جديد ، وقيادةٌ فكريَّةٌ جديدة ، وقالوا : إنَّ الدين العربي قد أدَّى رسالته ، وقضى حاجته ، ومرَّ على نبوة محمد ﷺ ألف سنة ، والجيل الجديد بحاجةٍ إلى دستورٍ جديدٍ ، وشريعةٍ جديدةٍ ، وما أكثر الفتن التي تنشأ من فلسفاتٍ تتحرر عن قيود الدين والأخلاق .

تصوروا هذا الخطر المتفاقم ، لقد كان حامل لواء هذه الحركة ورمزها ذلك الإمبراطور الذي كانت الهند كلها ترتجف أمام سيفه ، الذي كان قد ذلل كلَّ عقبةٍ كأداء ، وما كان يعرف للهزيمة والفشل معنىً ، كان دم الشباب والقوة يجري في عروقه وشرايينه ، ويقتفي آثار آبائه وأجداده في حل المشكلات ، والطموح إلى المعالي ، وكان بجوار هذا الإمبراطور القوي ، عالم متفنِّنٌ في علومٍ كثيرةٍ ، وله باع طويل في الآداب والكتابة ، والإنشاء والتأليف ، خلف وراءه كتاباتٍ تشهد بعبقريته ، وفرط ذكائه ، هو أبو الفضل علامي[١] أحد أركان الدول ، وكبار الوزراء .

فماذا كان؟! حلَّت أواخر القرن العاشر تحمل في طيِّها دلائل ثورةٍ على الإسلام، وتنبئى أنَّ الإسلام لم يعد له قرار في هذه البلاد، ويكاد يودع أهلها، الأمر الذي يعني أنَّ السلطة الدينية والروحية تكاد تنتقل من أهلها إلى طاقاتٍ وفلسفاتٍ جديدةٍ، مع انتقال السلطة السياسية إلى غير أهلها ، إنَّ هذه الثورة كادت تقضي على تلكم المجهودات التي بذلها الغزاة المغامرون لفتح هذه البلاد منذ عدة قرون ، وفي جانبٍ آخر كانت تضيع ثمار ذلك الجهاد الذي قام به الشيخ معين الدين الجشتي ، وخلفاؤه المخلصون ، أولئك الذين وجَّهوا من داخل زواياهم إلى أرواحٍ سعيدةٍ دروس الإنسانية ، والحبِّ ، والمساواة ، والعدالة الاجتماعية ، وأشرفوا على الحكومة الحاضرة دينيّاً ، وخلقيّاً من خارج زواياهم ، وهيؤوا للدولة والمجتمع أفراداً صالحين أقوياء

(١) لقب كان يلقب به كبار علماء البلاط .

أمناء، ورعين محبين للإنسانية ، ونفخوا في حركات البلاد العلمية والتربوية روحاً جديدة[١].

ثُمَّ ماذا حدث؟ لقد طلع نجمٌ من زاوية الإيمان، والإخلاص، والعلم، والحكمة؛ التي ظلَّت متدفقةً بالحياة والنشاط على الدوام، إنَّه لم يطلع من أفقٍ ماديٍّ أو سياسيٍّ، وقد عرف باسم الشيخ أحمد السرهندي مجدد الألف الثاني (٩٧١ ـ ١٠٣٤ هـ) ذلك الرجل العظيم الذي تحدَّث عنه محمد إقبال الشاعر الإسلامي فقال ما معناه:

«ذلك الرجل الكبير الذي نهض لصيانة تراث الدين، الذي نبهه الله على الخطر المحدق بالأمة في أوانه، ذلك العصامي الذي لم يحن رأسه أمام الملك جهانكير، ونفخ في الأحرار روحاً وثَّابةً من الإيمان والحنان».

ولمقاومة تلك المؤامرة ضدَّ الإسلام التي دبرها عباقرة ذلك العصر، يقوم رجل فقيرٌ في إحدى زوايا «سرهند»، ويعتزم أنَّ ذلك لا يكون، إنه ساءل نفسه، فقال: لماذا يحرم المسلمون في هذه البلاد أن يعيشوا أحراراً أعزاء، متمسكين بشعائرهم الدينية؟ ولماذا يضيق عليهم وحدهم مجال الحياة؟

فماذا كانت النتيجة؟ لما بدأ القرن الحادي عشر الهجري رأى العالم أنَّ الأوضاع تغيَّرت، وأن مستقبل الإسلام في هذه البلاد أصبح مضموناً إلى ما بعده بقرون، قام هذا الرجل العظيم من سرهند لدحض الأباطيل، والمغالطات العلمية، والإشراقية التي كانت متجهةً إلى إنكار حاجة البشرية إلى النبوة والأنبياء، وخلود الرسالة المحمدية، وإنَّ الشريعة دائمةٌ لم تنسخ، والمسلمون مكلَّفون بها في كلِّ مكانٍ وزمانٍ، والسنَّة قائمةٌ لم تزل، وسعادة المسلمين منوطةٌ بالتمسُّك بها، ولا بديل عنها، وبذلك أعاد ثقة كثيرٍ من الذين اضطربت عقائدهم بالشريعة الإسلامية، وردَّ اعتبارها[٢].

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى كتاب «نزهة الخواطر» للعلامة السيد عبد الحي الحسني رحمه الله» و«المسلمون في الهند» للعلامة الندوي صدر عن دار ابن كثير، دمشق.

(٢) ليراجع للتفصيل «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» المجلد الثالث، للعلامة الندوي، صدر عن دار ابن كثير، دمشق.

لم يحاول تنظيم قوةٍ ضدَّ الإمبراطور «أكبر» ، لقد تفطَّن بدراسته التاريخية ، وبصيرته القرآنية ، أنه سيمنى بالإخفاق الذريع ، إذا أبدى خصومته له ، وتمثَّل أمامه كمنافس ، فالدولة قويَّةٌ فتيَّةٌ لم يتسرَّب إليها الوهن ، ولم يسر إليها الهرم ، وسوف تصد في وجهه الطرق ، فينبغي له أن يدعو الله ، ويجمع حوله مخلصين أكفاء ، ويتناولهم بالتربية الشاملة التي تنجو بهم من مزالق المال والحكم ، وتجعلهم بعيدي النظر ، لا يطمحون إلى الجاه والمنزلة ، والزلفى عند الحاكم ، يُصلح بهم الأوضاع الفاسدة ، ويحوِّل بهم اتجاه الدولة والمجتمع .

وحدث بإمبراطور «أكبر» حدثُ الموت ، وخلفه ابنه جهانكير ، ولم يكن معانداً للإسلام ، ولم يكن راضياً بكثيرٍ من تصرفات أبيه الراعنة ، وسياسته المناوئة للإسلام ، وكان حوله رجالٌ من العنصر الكريم ، وأهل الغيرة على الإسلام. فبدأ يراسل هؤلاء الأمراء وقادة الجيش ، وبطانة الملك ، يثير فيهم الغيرة الإسلامية ، ويشعل شرارة الإيمان الكامنة في نفوسهم ، ويذكرهم بمسؤوليتهم نحو الإسلام الذي يمرُّ بمرحلةٍ خطيرةٍ في الوقت الحاضر ، حتى يقوموا بدورهم ، وذلك كله بطريقةٍ علميَّةٍ في أسلوبٍ أدبيٍّ قويٍّ يأخذ بمجامع القلوب ، وبثقةٍ من القلب ويقينٍ منه ، وتوجعٍ للنوع الإسلامي المحزن ، يفتت الكبد ، ويثير الأحزان .

وهؤلاء الأمراء تطول قائمة أسمائهم ، ويجدر بالذكر منهم عبد الرحيم خان خانان ، والأمير مرتضى خان (سيد فريد) فكانت النتيجة أنَّ الوضع تغيَّر في ظرف ١٥ ـ ٢٠ عاماً ، حتى انتقل مركز الثقل في العلوم الدينية إلى الهند ، والقيادة الفكرية والروحية ، وانتهت إليها رئاسة التدريس ، والنشر لعلم الحديث ، والتربية الروحية ، وظهر تفوقها حتى في اللغة العربية وآدابها. إنَّ المكانة التي حظيت بها الهند في خدمة العلوم الإسلامية ، ونبوغ رجال العلم والدين الكبار فيها ، إنما يرجع الفضل في ذلك إلى هذه الجهود المخلصة التي بذلها الإمام السرهندي ، وظلَّت مصابيح العلم ، والتحقيق تتوقَّد في أرجاء هذه البلاد .

وظهر بعد مدَّة الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (١١١٤ ـ ١١٧٦) الذي أسس علم كلامٍ جديدٍ ، وقام بشرح وإيضاح معنى نظام الخلافة ، وعرض مخطط الحكم الإسلامي الصحيح الذي لم يسبق له نظير فيما أظنُّ[١] مع ما بذل من محاولاتٍ لإنقاذ الحكومة الإسلامية في الهند ـ التي لم يكن لها بديل في ذلك الوقت ـ من الوضع المنهار ، وبعث روحاً جديدة في جسمها ، ذلك أنَّ سقوطها وضعفها كان يهدِّد بخطرِ الاضطراب الكبير خلقيًّا وسياسيًّا[٢] .

وقام أبناؤه الموفقون الأفاضل (وفي مقدمتهم الإمام عبد العزيز بن ولي الله رحمه الله) بنشر علوم الكتاب والسنَّة في هذه البلاد ، ووجد منه إقبالٌ عامٌّ على دراسة القرآن ، وتفهم معانيه ، وانبثقت منه حركةٌ قويَّةٌ لتدريس الصحاح الستَّة ، والعناية بالحديث الشريف ، ونشره ونقله إلى اللغة الأردية ، وانطلقت موجةٌ عارمةٌ لإصلاح العقائد والأعمال ، ومعارضة التقاليد الهندوسية التي تسربت إلى المجتمع الإسلامي الهندي .

كانت حركة الإصلاح والجهاد ، وإحياء السنة ، والخلافة الكبرى التي قادها العالمان الشهيران الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦ هـ) والعلامة محمد إسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله الدهلوي ، الشهيد (١٢٤٦ هـ) في شبه القارة الهندية ، حلقةً متينةً ذهبيَّةً لهذه السلسلة الذهبية ، وقد وفقت هذه الحركة الجليلة لتقديم نماذج من السيرة الإسلامية ، والحميَّة الدينيَّة ، وتربية الإنسان ، وصناعة الرجال ، جددت ذكرى القرون الأولى ، إنَّ هذه الجماعة تابعت جهودها على جبهة الدعوة والإصلاح الواسعة التي يتعذر نظيرها في تاريخ العالم الإسلاميِّ سابقاً[٣] .

---

(١) والدليل على ذلك كتابه الفريد «إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» بالفارسية .

(٢) لمزيد التفصيل راجع «رسائله السياسية» التي كتبها إلى أمراء المسلمين وقادتهم ، وقد جمعها البروفيسر خليق أحمد نظامي ، في مجموعة ، وقدَّم لها ، وعلَّق عليها .

(٣) راجع للتفصيل «حركة الهند الإسلامية الأولى» للأستاذ مسعود الندوي رحمه الله وكتاب «الإمام الَّذي لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف» للعلامة الندوي .

ثم جاء عهد المدارس الدينيَّة ، وتأسَّست مدرسة دار العلوم بديوبند ، ومدرسة مظاهر العلوم بسهارنفور ، ودار العلوم ندوة العلماء في لكهنؤ ، وغيرها من المدارس الإسلامية في أنحاء البلاد التي قامت علىٰ أساس الكتاب والسنة ، ونشر تعاليمها[١] وقد تمَّ بجهود مؤسسي هذه المدارس الكبار وأفاضلها المخلصين ، والراسخين في العلم إصلاح العقائد والأعمال على أوسع نطاق ، ونشأ ذوقٌ دينيٌّ ، وغيرةٌ إسلاميةٌ في الناس ، وأسهم منهم عددٌ وجيهٌ في حركة تحرير البلاد ، والنشاطات العلمية والأدبية ، ولم تحدث تلك الفجوة الواسعة العميقة بين جماهير هذه البلاد ، والطبقة المثقفة وبين علماء الدين ، كما حدثت في كثيرٍ من الأقطار الإسلامية حتى آلت إلى الثورة والعداء في بعض الأحيان ، ولم يأخذ المجتمع الإسلامي في هذه البلاد بمبدأ «فصل الدين عن السياسة» كما أخذت به بعض المجتمعات الإسلامية في بلادٍ أخرى ، ولم تزل ولا تزال الصِّلات قويةً بين الشعب والعلماء ، ولا يزال للدِّين وممثليه سلطانٌ على الدَّهماء .

وبفضل جهود هؤلاء العلماء العلمية تمتعت الهند بمركزيةٍ دينيَّةٍ ، حتى أتى عليها حينٌ من الدهر إذا أراد أحدٌ في اليمن في أقصى الجنوب ، ومراكش في أقصى الشمال ، وغيرهما من الدول الإسلامية ، أن يصل إلى درجة اختصاص في الحديث الشريف ، ويتخرَّج فيه ؛ أمَّ الهند ، وكذلك من أراد منهم أن يكمل تربيته الدينية ، والتزكية النفسيَّة ، ويتدرَّج إلى مدارج السموِّ الروحيِّ ، والصفاء النفسيِّ ، توجَّه إلى الهند ، ظهر الشيخ خالد الرومي في الجزء الشمالي للعراق والشام الذي كان ضمن تركيا ، وأتمَّ دراسته الدينية في «شهرزور» و«دمشق» ، ولكنه لما أراد أن يطفىء ظمأه الروحيَّ ، ويقوي إيمانه بأوامر الله ، وحقائقه الغيبية مثل الإيمان بالبديهيات ، ونتائج العلوم الرياضيَّة ، قصد الهند ، ووصل من بلده

(١) كالمدارس السلفية ، والمعاهد التي أنشأها إخواننا أهل الحديث في أنحاء البلاد وللاطلاع عليها راجع كتاب «المسلمون في الهند» وهو استعراضٌ تاريخيٌّ موجزٌ .

«شهـرزور» إلـى دهلـي رأسـاً[١] ، ونـزل فـي زاويـة الشيـخ غـلام علـي (م ١٢٤٠ هـ) .

ولازمه حتى أذن له بعد تكميل دروسه الروحية بالعودة إلى بلده ، وأفاد الخلق بعلمه وأخلاقه ، والحقائق الدينية في بلدان العراق والشام وتركيا ، ونفخ فيها روحاً جديدة لا تزال لها آثارها.

إنَّ حديثي هذا وإن كان محدوداً إلى ذكر حركات الهند الإصلاحية والتجديدية إلا أنه لا بدَّ بالمناسبة من الإشارة إلى بعض الحركات الدينية الكبيرة التي قامت خارج الهند ، وخاصة حركة تطهير العقائد ودعوة الدين الخالص الكبرى؛ التي قامت في مركز الإسلام (الجزيرة العربية) قادها الإمام محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ) الذي عاصر شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في الهند[٢] ، وقد كسبت دعوته هذه ـ نظراً لأسبابٍ تاريخيَّةٍ وسياسيَّةٍ خاصةً ـ نجاحاً لم يلقه كثيرٌ من الدعاة والمصلحين ، فقد نشأ نتيجةً لها جيلٌ مستقلٌّ ، ومملكةٌ واسعةٌ ، ومدرسةٌ فكريةٌ بلغ تأثيرها إلى أنحاء بعيدة.

وفي نفس هذا العصر ولد في اليمن العلامة محمد بن علي الشوكاني (١١٧٢ ـ ١٢٥٥ هـ) وفي «عسير» أحمد بن عبد الله بن إدريس الحسني مؤسس السلسلة الإدريسية (م ١٢٥٣) وفي ليبيا السيد محمد بن علي السنوسي (١٢٠٦ ـ ١٢٧٦ هـ)[٣] الذين قاموا في بلادهم بحركةٍ إصلاح

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى رسالة «سل الحسام الهندي لنصرة مولانا خالد النقشبندي» للعلامة ابن عابدين (مجموعة رسائل ابن عابدين).

(٢) شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب قرين شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم في السن تقريباً ، إذ أنَّ الشيخ الدهلوي ولد في (١١١٤ هـ) والشيخ عبد الوهاب من مواليد (١١١٥ هـ) وللاطلاع على أحوال الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وترجمة حياته. راجع كتاب «محمد بن عبد الوهاب المصلح المفترى عليه» للأستاذ مسعود الندوي رحمه الله.

(٣) المجاهد الشهير ، والمصلح الكبير السيد أحمد شريف السنوسي (الإمام السنوسي) كان حفيد الشيخ محمد بن علي السنوسي الَّذي أبلى في حرب طرابلس وبرقة ضد =

العقائد والتقاليد ، ونشر الكتاب والسنة ، والتربية على الجهاد والسيرة النموذجية ، ويحاول مستشرقو الغرب إثبات أنَّ هؤلاء المصلحين كلهم من غرس دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه مباشرةً أو بواسطةٍ ، ولكن القضية ليست كليَّة معلقةً ، إنَّ العقلية الغربية عاجزةٌ عن تفهُّم هذه الحقيقة ، وهي أنَّ دراسة الكتاب والسنة الواعية المخلصة تفتق العقول والقرائح ، وتزيل الغشاوة عن العيون ، وتلهب جذوة الإيمان والحماس ، فتنهض في كلِّ فترةٍ تاريخية ـ قد تطول ، وقد تقصر قادةٌ وأئمةٌ ، ومصلحون ومرشدون ، يثورون على الأوضاع الفاسدة ، ويعلنون الحرب على العقائد الزائفة ، والتقاليد الجاهلية ، وستدوم هذه السلسلة إلى يوم القيامة .

وبرز بعد ذلك بقليلٍ إلى ساحة العمل والدعوة العلامةُ السيد جمال الدين الأفغاني (م ١٣١٤ هـ ـ ١٨٩٧ م) فنفخ في صورٍ الغيرة الإسلامية والجامعة الإسلامية الذي ارتج به الوطن الإسلامي الكبير من مصر إلى الشام وتركيا ، لقد أسهم هو وتلميذه النجيب المفتي محمد عبده المصري (م ١٣٢٣ هـ ـ ١٩٠٥ م) في إيقاظ الوعي الفكري لدى الشباب المسلم القلق الذكيِّ إسهاماً كبيراً(١) .

أما ما يتصل بالقرن الرابع عشر الهجري فإنَّه من وجهة نظر المسلمين قرن الانتصارات والإخفاقات ، والأخطاء وتداركها ، وقرن سذاجة

= الطليان بلاءً حسناً ، ظلَّ يقاوم إلى مدَّة ١٣ عاماً هذه القوى الكبرى بنجاحٍ كبيرٍ ، وقوَّةٍ صامدةٍ . لقد جمع بين السيف والمصحف في وقت واحد ، كان يعتبر من كبار المربين في عصرة توفي بالمدينة المنورة في عام (١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٣ م) وللاطلاع على التفاصيل راجع كتاب «حاضر العالم الإسلامي» للأمير شكيب أرسلان : ج ٢ .

(١) منذ سنوات عديدة ماضية أصبحت كلتا الشخصيتين (الأستاذ والتلميذ) موضوع البحث والنقد ، ونشرت الجرائد والمجلاَّت العربية مقالات ، وألقيت محاضرات في الندوات العلمية تقلل من عظمة الشخصيتين ولم تعدّا كما كانت قبل اليوم بربع قرن . ولكن الواقع الَّذي لا ينكر أنَّهما مثلا دوراً له قيمته في إعادة ثقة الشباب المسلم لصلاحية الإسلام في العصر الحاضر وحيويته . ومن أراد التفصيل فليراجع كتاب العلامة الندوي «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» .

الشعوب الإسلامية واغترارها ، وقرن الوعي واليقظة السياسية في وقتٍ واحدٍ ، وقيام دولٍ وحكوماتٍ مسلمةٍ كثيرة ، وقرن حركات إسلاميَّةٍ قويَّةٍ متعدِّدةٍ ، فإنَّ هذا القرن يجمع من تنوع الحوادث والوقائع وتناقضها ما يتعذَّر نظيره في القرون الماضية .

لما ابتدأ القرن الرابع عشر كانت راية الخلافة العثمانية خفاقةً على ممتلكاتها ، وكانت ظلال الخلافة الإسلامية تظلُّ المسلمين ، وكان السلطان عبد الحميد خان الثاني (١٢٩١ ـ ١٣٢٧ ـ هـ ـ ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩م) على سرير الخلافة ، الذي ظلَّ هدفاً للنقد والطعن إلى أواسط القرن العشرين ، وإنَّ المؤلفين الغربيين جندوا أقلامهم لتشويه وجهه ، ولكن البحوث والدراسات التاريخية التي نشرتها بعض المجلات العربية والتركية الموقَّرة حديثاً ، أثبتت في ضوء مذكراته أنَّه كان حاكماً إسلامياً ذا حميَّةٍ وغيرةٍ إسلاميةٍ كبيرة ـ رغماً من بعض خصائصه الطبعية ومواضع الضعف؛ التي قد تكون خصيصةً للمملكة الموروثة ، وردِّ فعلٍ للمعارضات الداخلية والخارجية ، والمؤامرات التي دبرت حوله من كل جانب ـ لم تكن تستطيع القوى الغربية في عهده أن تنجح في توزيع تركيا كمالٍ سائبٍ ، ولم يكن احتلال اليهود في أيِّ جزء من فلسطين ممكناً ، وهو الذي رفض بازدراء كلَّ ما تقدَّم به الوفد اليهودي الممتاز إليه من مساومات ورشى ، وقال لهم ، وقد حمل حفنة من تراب الأرض : أنتم تريدون مني بيت المقدس ، وأنا لن أرضى بإعطائكم مثل هذه الحفنة من تراب فلسطين[1] . وهو الذي نفخ في جسم الخلافة الإسلامية روحاً جديدةً ، وفي العالم الإسلاميِّ حماساً جديداً للوحدة الإسلامية ، و«الجامعة الإسلامية» .

إنَّ الدولة العثمانية التي كانت تتشرَّف بتولِّي الحرمين الشريفين وشرف الخلافة الإسلامية كانت حصاراً حديدياً للمقدسات الإسلامية ، والدول العربية ، ومنبع قوةٍ وعزَّةٍ للأمَّة الإسلامية ، أينما كانت ، رغم ضعفها

---

(١) حدَّث العلامة الندوي بذلك سماحةُ المفتي الأكبر السيد محمد أمين الحسني رحمه الله عدَّة مرات ، وهو من أوثق رواة هذا الموضوع .

والفتن الداخلية والخارجية والمؤامرات المروعة التي كانت تحيط بها ، فلم تكن هذه المقدسات والدول العربية ـ التي كانت ترتبط بها قلوب المسلمين وشرفهم ـ لكي توزع كمال اليتيم ، إنَّ الدولة العثمانية كانت تمتدُّ وتتسع في بداية هذا القرن إلى اليمن ، وعسير شرقاً ، إلى أدرنة ، وألبانيا في أوربا ، وإلى طرابلس ، وتونس ، وفزان في إفريقية غرباً ، وإلى أسوان ، ومصر ، وبرقة جنوباً ، وإلى بلغاريا ، ودويلات بلقان ، طرابزون وأدريا نوبل شمالاً ، وكانت الدولة العثمانية تتضمن معظم أجزاء آسيا الصغرى كالشام (وضمنها كانت فلسطين الحالية ولبنان ، والأردن) ومصر ، والجزيرة العربية والعراق والقبرص ، وكانت لا تزال تحسب «للرجل المريض»[1] حساباً خاصّاً .

ولكنَّ المسلمين لم يقدروا هذه النعمة ، التي كان الله سبحانه قد أنعم بها عليهم في صورة الخلافة وإمبراطورية مسلمةٍ واسعةٍ ، إنَّ عزل السلطان عبد الحميد خان في عام ١٩٠٩ م لم يكن حادثاً ذا شأن يغير مجرى التاريخ ، ويمكن أن يكون ذلك نتيجة الأوضاع السياسية في ذلك الوقت ، أو نتيجة المؤامرات والدسائس ضدَّ السلطان ، وقد تتابع على عرش الخلافة بعده السلطان رشاد ، والسلطان وحيد الدين خان ، والسلطان عبد المجيد ، ولكن الحادث المؤلم الذي نكب به العالم الإسلاميُّ كلُّه وأهين ، والذي خسر من أجله المسلمون بيت المقدس ، هو احتلال الاستعمار الغربي في الدول العربية كمصر وسورية الطبعية الكبرى والعراق ، والجزء الشمالي لإفريقية إما مباشرةً أو بواسطةٍ ، ويبدو أنَّ مدَة هذا العقاب (خاصةً فيما يتعلق بالدول العربية في آسيا الغربية) لم تنته بعد .

وقد حمل العرب السلاح على الدولة العثمانية لما وقعوا فريسة مؤامرة الأقلية المسيحية الداهية التي كانت تقطن في الدول العربية ، وثقوا بمواعيد الاتحاديين الخداعة ، وسحروا بسحر القومية العربية إبان الحرب الكونية الأولى في عام ١٩١٤ م .

---

(١) إن المؤلفين والسياسيين الأوربيين يسمون المملكة التركية والأمة التركية بالرجل المريض (Sick Man).

وقد قاد الشريف حسين الثورة ضد الأتراك في ١٠ يونيو ١٩١٦ م ، وتحررت الشام ، وفلسطين من سلطة الأتراك ، كنتيجةٍ لها في عام ١٩١٧ م وتمَّت السلطة البريطانية على مصر ، واحتلَّ الإنجليز بيت المقدس في ٩ ديسمبر ١٩١٧ م ، وفي أول أكتوبر لعام ١٩١٨ م دخل الأمير فيصل نجل شريف حسين والجنرال اللنبي منتصرين في دمشق ، واتجه الجنرال الفرنسي «غورو» إلى قبر فاتح بيت المقدس ومفخرة الإسلام السلطان صلاح الدين الأيوبي (رحمه الله) ورفسه قائلاً : لقد انتصرنا اليوم يا صلاح الدين ، ودخلنا عقر دارك ، فإلى متى تبقى نائماً؟ !

ومع نهاية شهر أكتوبر ١٩١٨ م كانت الجزيرة العربية ، والشام ، ولبنان ، والعراق ودول العرب كلها قد خرجت من أيدي الأتراك وتم عليها تسلُّط الاتحاديِّين .

لقد كان العالم الإسلاميُّ كلُّه قلقاً بهذا الوضع ، والمسلمون مهانين ، ولكنَّ أثر هذه النكبة على مسلمي الهند كان أعمق وأقوى من سائر المسلمين في أنحاء العالم ، وتظاهروا باضطرابهم القلبيِّ والفكريِّ ، في نفس هذا الوقت قامت حركة الخلافة في الهند (التي تعتبر حركة دينية وسياسية كبرى في هذا القرن) وهزَّت الهند كلها بقيادة العلماء المسلمين وقادتهم ، كان في مقدمتهم وعلى رأسهم الشيخ عبد الباري الفرنجي محلِّي ، وشيخ الهند مولانا محمود حسن الديوبندي ، ومولانا أبو الكلام آزاد ، والزعيم مولانا محمد علي جوهر ، وأخوه مولانا شوكت علي ، ومولانا ظفر علي خان ، وغيرهم من العلماء والقادة الذين يندر نظيرهم في العالم الإسلامي كلِّه في قوة الشخصية ، والغيرة الإسلامية ، والحماس الخطابي ، وبهذه المناسبة سالت قلوب المسلمين دماً ، وتفجر شعورهم المليِّ كالبركان ، إن هذه الحركة العملاقة أنشأت في الهند كلها ـ في المسلمين وغيرهم ـ وعياً سياسياً وكراهيةً شديدةً للسلطة الغربية ، والحضارة الغربية ، حتى إنَّ الزعيم غاندي أيد هذه الحركة تأييداً كلياً ، وقام مع زعمائها بجولاتٍ واسعةٍ على مستوى عموم الهند .

ولكن لما أعلن مصطفى كمال باشا (كمال أتاتورك) في ٣ مارس ١٩٢٤ م نهاية الخلافة مادت بالمسلمين الأرض ، وأظلمت عليهم الدنيا ، وفي هذه المناسبة بالذات قال الشاعر محمد إقبال ما معناه :

«لقد شقَّ التركيُّ الجاهل رداء خلعة الخلافة ، ما أشدَّ المسلم سذاجةً وعدوَّه دهاءً» .

كان هذا العصر مدهشاً مؤلماً للعالم الإسلاميِّ ، وكان مماثلاً في شيءٍ كثيرٍ بالنصف الأول من القرن السابع الهجري الذي قضى فيه التتار على السلطة الإسلامية بالهجوم على مدن العالم الإسلامي الرئيسية المخصبة ، ثم باحتلالهم فيها ، وأبدلوا عزَّة المسلمين بالذل والعار ، ولكن ذلك لم يكن إلا غارةً عسكريةً لشعبٍ شبه متوحشٍ لم يصمد في وجهه العالم الإسلامي المتمدِّن المترهِّل ، ولم تكن ترافقه فلسفةٌ فكريةٌ ، وحضارةٌ جديدةٌ ، وأفكارٌ وقيمٌ جديدةٌ ، ولكن غارة الأمم الغربية وبلدانها ـ التي تمَّت في الثلث الأول للقرن الرابع عشر الهجري وأوائل القرن العشرين الميلادي ـ اختلفت عنها كلياً؛ فقد رافقتها فلسفاتٌ جديدةٌ ، ونظامٌ جديدٌ للتعليم والتربية ، وأفكارٌ وقيمٌ جديدةٌ ، وجيشٌ هائلٌ جديدٌ للإلحاد والتشكيك ، ومذهبٌ جديدٌ للماديَّة .

ومما زاد الطين بلَّةً أنَّ الثورة البلشفية حدثت في مارس ١٩١٧ م ، التي لم تكن تتناول التاريخ والجغرافية والخريطة السياسية بالتغيير والتحريف فقط ، ولم تكن مقصورة في مجال الاقتصاد والسياسة فحسب إنما كانت تهدم أسس العقيدة ، والعمل ، والأصول ، والمبادىء ، والأخلاق ، والمجتمع ، بل أساس الحياة الإنسانية والشعور الإنسانيّ بأسره ، لكي تقيم على أنقاضه بناءً جديداً ، وكانت تهدف الإسلام والمسلمين بأضرارها وضرباتها أكثر من أي شيءٍ ، أولئك المسلمين الذين كانوا حاملي دينٍ إيجابيٍّ واضحٍ ، وخاتمٍ للأديان كلِّها ، والذين كان من بين واجباتهم الدينية «الحسبة على المجتمع البشري» ومع الأسف لم يكن هناك من يشعر بهذا الخطر الداهم في وقته ، ويقاومه إلا قليلاً . إنَّ المسلمين لم يثبتوا فراستهم

الإيمانية التي كانت تتوسم أقلَّ الأخطار قبلها ، ولقد شعر بخطر «البلشفية» شعوراً صحيحاً في غربي العالم الإسلامي المؤمن المجاهد الغازي المرحوم أنور باشا وزير حرب تركيا سابقاً الذي أسَّس جبهةً قويَّةً ضد الشيوعيين بتنظيمه سكان تركستان. وقد وقعت عدَّة اشتباكات بينه وبين البلشفيين في الفترة بين ١٩٢١ ، ١٩٢٢ م وفي ٤ أغسطس ١٩٢٢ م شن غارةً بمقربةٍ من قرية «شكن» على كتيبة من القوات الروسية ، وكان عددهم كبيراً فاستشهد في هذا الغارة أنور باشا رحمه الله ، صادف ذلك يوم الجمعة ٧ من شهر ذي الحجة ١٣٤٠ هـ على الأغلب[١].

هذه الثورة البلشفية لم تشمل دول آسيا المتوسطة الخصبة التاريخية ذات السكان المسلمين ، وتركستان الروسية والصينية وحدها ، ولم تهدِّدها بالردَّة الفكرية والحضارية فحسب ، بل جعلت أجيالها الصاعدة في مواجهة الردة الإيمانية والعقائدية ، وأصبحت تعيد تاريخ الأندلس الذي حدث في القرن التاسع ، بل الواقع أنَّ الدول العربية ومركز الإسلام فضلاً عن شبه القارة الهندية أجبرت على مواجهة هذا الخطر الكبير ، وقد بلغ الأمر ببعض الدول العربية إلى أنها لم تكتف باستيراد السلاح والصناعات الجديدة منها ، بل استوردت فلسفتها وأيدولوجيتها ، وتحمَّست في حمايتها ، والدعوة إليها.

وبالأمس القريب تمَّ للسلطة الشيوعية الغزو العسكري في أفغانستان التي كانت تعتبر معدن الشجاعة الإسلامية ، والحميَّة الدينية ، والتي أتحفت الهند في كل عهد بإداريين أكفاء ، وحكامٍ وقادةٍ وعلماء ربانيين ، وكانت حصنها الخارجي ، وحارس حريتها الأمين ، وهكذا وصلت هذه الفتنة العالمية إلى أبواب شبه القارة الهندية.

ومن خلال هذا الظلام الحالك الذي عمَّ أواسط القرن الرابع عشر

(١) للاطلاع على تفاصيل دوافع أنور باشا الإسلامية وخدماته الجليلة راجع مقالة الأمير شكيب أرسلان الرائعة (الَّذي كان يعرفه معرفةً شخصية) في حواشي كتاب «حاضر العالم الإسلامي».

الهجري ، حينما لم يكن يتراءى بريق أمل في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، بدت تباشير يقظةٍ جديدةٍ كما صورها إقبال في شعره الذي معناه:

«جرى دم الحياة في شرايين الشرق الميتة ، إنَّه لسرٌّ لا يستطيع أن يدركه ابن سينا والفارابي ، والواقع أن موجة الغربَ الهائلة بعثت في المسلم حياةً من جديد ، ومن تلاطم أمواج البحر ترتوي الدرر في الأصداف».

نشأ في العالم الإسلاميِّ وعيٌ سياسيٌّ بشكل بارزٍ في جانب ، ورفعت أعلام الحرية والاستقلال ضد الاستعمار الأجنبي في البلدان المتعددة ، مما أنتج استقلال مصر ، والشام (بجميع أجزائها) والعراق ، وليبيا ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب ، وقامت في إفريقية دولٌ مسلمةٌ جديدةٌ ، وتحررت إندونيسيا ، وماليزيا ، وتكوَّنت مملكة باكستان الإسلامية العظيمة ، وأسهم مسلمو الهند في حرب التحرير ، وقدموا فيها تضحياتٍ غاليةً كانت دليلاً على وعيهم السياسيِّ ، وحبهم للوطن ، حتى برزت على خارطة العالم السياسي أكثر من ٤٥ دولة مسلمة مستقلة ، ٢٤ منها تتمتع بعضوية الأمم المتحدة ، وتخفق أعلامها على مبنى الأمم المتحدة الشامخ ، كما يتمتع المسلمون بوزنٍ خاصٍّ في الأمم المتحدة ، وفي المشكلات ، والمذاكرات العالمية ، وفي كفة ميزان العالم السياسيِّ أيضاً ، ولو أنَّ هؤلاء المسلمين نضج وعيهم السياسيُّ ، ونشأ فيهم شعورٌ بقوتهم السياسية ، وتمت لهم الوحدة ، لاستطاعوا أن يكفُّوا ألواناً من الجور والظلم ، وساعدوا كثيراً من الشعوب المضطهدة والدول الضعيفة ، ولو أنَّ الله سبحانه رزقهم قادةً مخلصين ، متعففين ، أو أكرم زعماء حكوماتهم بالتوفيق والهداية؛ لاستطاعوا أن يؤسِّسوا دولةً إسلامية صحيحة في بلدانهم الإسلامية ، ومناطق نفوذهم ، وينفِّذوا النظام الشرعي ، ويطبقوا القوانين الشَّرعية ، واستطاعوا أن يقيموا في حدود دولهم وأقطارهم مجتمعاً إسلامياً نموذجياً ، وبيئةً فاضلةً خلقيَّةً ، وروحانيةً مطيعةً لله وأحكامه ، شاعرةً بمسؤوليتها ، وواجباتها ، لا يوجد لها أمثلة إلا في صفحات التاريخ بمسافة قرونٍ ، وقد قطع منها العالم أمله بتاتاً ، وحتى المسلمين أنفسهم أغفلوها ، واستغنوا عنها ، وهي تكفي اليوم أيضاً لكي تنبِّه الفكر الإنسانيَّ ، وتجبر المعسكرين

الشرقيَّ والغربيَّ على التفكير في القضية جدِّياً، وأن تمهد لنشر الإسلام طريقاً جديداً.

كذلك إذا عزم المسلمون على استعمال وزنهم وأهمِّيَّتهم السياسية في محلها، وشعروا بمسؤولياتهم وواجباتهم شعوراً كاملاً؛ لاستطاعوا أن ينقذوا تلك الإنسانية التي يتحكم فيها المعسكران الشرقيُّ والغربيُّ كما يريدان، وإنَّهم في الهند كذلك لا يستطيعون أن يصونوا حقوقهم الملِّية فحسب بذكائهم، وتضامنهم، وقوتهم الخلقية، بل يتمكنون من منحها قيادة خلقيَّةً، وروحيةً، مع إنقاذها من ذلك الدَّمار العام الذي يخطو إليها بخطواتٍ حثيثةٍ من أجل القلق السياسيِّ المتزايد، وأزمة الأخلاق.

هذا وقد نشأت في العالم الإسلامي حركاتٌ ثوريةٌ فكريةٌ وإصلاحيةٌ على نطاقٍ أوسع وأقوى يتعذر وجود نظيرها في سعتها، وقوَّتها في الأمس القريب، ومن مزايا هذه الحركات الباعثة على الأمل أنَّها استطاعت التأثير في طبقة المثقفين، وأهل التفكير والعقل (Intellectuals) وتوفير موادَّ علميةً واضحةٍ جذابةٍ لإقناعها، وإعادة ثقتها بالإسلام في جانبٍ، وفي جانبٍ آخر: فإنَّ نطاقها يتخطَّى الحدود الجغرافية، وهي تغطِّي مساحةً واسعةً في العالم الإسلاميِّ، كما أنَّ لها جانباً لامعاً آخر يسترعي الانتباه، وهو أنَّ الشباب المثقَّف لأول مرةٍ في التاريخ لم يعجبوا بها فحسب، بل إنهم تحمَّسوا في الدعوة إليها، والانتصار لها أكثر من الشيوخ، ومن يتقدَّمهم في السنِّ.

ونستطيع أن نضرب لذلك مثلاً بحركة «الإخوان المسلمين» الحركة الإسلامية الكبرى في مصر، والحركة النورية في تركيا، وحزب التحرير في الأردن وفلسطين، وحزب ماشومي في إندونيسا، ودعوة التبليغ العالمية في شبه القارة الهندية، والجماعة الإسلامية فيها، ولا يشترط أن يوافق هذه الحركات أحد مئةٌ في المئة، إلا إنه ممَّا لا يمكن جحده أنَّ لها من التأثير والسعة والقبول ما لا يستهان بقيمته، كما أنَّ لشعر محمد أقبال القوي والباعث للروح والطموح (الذي يفوق في القوة والتأثير والشمول

الأدب الإسلامي وشعره ، في القرون السابقة) سهماً كبيراً في بعث الإيمان والهِمَّة والإباء بين الشباب المسلم والطبقة المثقفة.

ومع تقييم أساليب الدعوة والعمل الإسلاميِّ الذي تقوم به هذه المنظمات والجماعات الإسلامية ، وتقدير جهودها ، لا مانع من الإشارة - ولو في غاية الإجمال - إلى النقاط التالية التي يجب التركيز عليها في الانتفاضة الإسلامية الجديدة ، وصيانة المجتمع الإسلامي من الجاهلية التي يتطلبها القرن الخامس عشر الهجري في ضوء الواقع وتجارب الماضي.

١ - تحريك الإيمان في نفوس الشعوب والجماهير المسلمة ، وإثارة الشعور الدِّينيِّ فيها ، فإنَّ تمسُّك هذه الشعوب والجماهير بالإسلام وتحمُّسها له ، هو السُّور القويُّ العالي الذي يعتمد عليه في بقاء هذه البلاد ، وكثيرٍ من القيادات ، وحكومات العالم الإسلامي في حظيرة الإسلام ، وهي مادَّة الإسلام ورأس ماله ، والخامات الكريمة التي تستخدم لأيِّ غاية نبيلة ، وهي من أقوى المجموعات البشرية ، وأحسنها سلامة صدر ، وقوة عاطفة ، وإخلاص.

ذلك مع تحقيق الشروط ، والصفات التي تستحقُّ بها هذه الشعوب النصر من الله ، والتغلُّب على المشكلات ، والانتصار على العدوِّ ، لتصحيح العقيدة ، وإخلاص الدين لله ، والابتعاد عن كلِّ أنواع الشرك والعقائد الفاسدة ، والعادات الجاهلية ، والتقاليد غير الإسلامية ، وعن النفاق ، والتناقض بين العقائد والحياة ، والقول والعمل ، وسير الأمم القديمة التي استحقت بها عذاب الله وخذلانه ، وكذلك سيرة الأمم المعاصرة التي نسيت الله ، فأنساها نفسها ، وقادت العالم إلى النَّار والدمار.

هذا مع تنمية الوعي الصحيح وتربيته ، والفهم للحقائق والقضايا ، والتمييز بين الصديق والعدو ، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر ، حتى لا تتكرَّر مآسي وقوع هذه الشعوب فريسةً للهتافات الجاهلية ، والنعرات القومية ، أو العصبيات اللغوية ، والثقافية ، ولعبة القيادات الدَّاهية ،

والمؤامرات الأجنبية ، فتذهب ضحية سذاجتها وضعفها في الوعي الدينيِّ ، والعقل الإيماني.

٢ ـ صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف ، وإخضاعها للتصوُّرات العصرية الغربية ، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية ، والتجنُّب عن تفسير الإسلام تفسيراً سياسياً بحتاً ، والمغالاة في «تنظير الإسلام» ووضعه على مستوى الفلسفات العصرية ، والنظم الإنسانية؛ لأنَّ هذه الحقائق الدينية ، هي أساس الإسلام الدائم ، والأصل الذي منه البداية وإليه النهاية ، وإليها كانت دعوة الأنبياء ، وفي سبيلها كان جهادهم وجهودهم ، وبها نزلت الصحف السَّماوية.

والحذر من كل ما يقلِّل من قيمة الصلة بين الله والعبد ، والإيمان بالآخرة ، وأهميتها ، ويضعف في المسلم عاطفة امتثال أمر الله ، وطلب رضاه ، والإيمان والاحتساب ، والقرب عند الله تعالى ، وهذا التحوُّل يفقد هذه الأمة شخصيتها ، وقوتها ، وقيمتها عند الله ، وكذلك الحذر من كلِّ ما يقلِّل من شناعة الوثنية العقائدية ، والشرك الجليِّ ، والعادات والعبادات الجاهلية ، والاكتفاء بمحاربة النظم والتشريعات ، والحكومات غير الإسلامية ، فإنَّ ذلك يتَّجه بهذا الدين عن منهجه القديم السماويِّ إلى المنهج الجديد السياسيِّ.

٣ ـ تقوية الصلة الروحية والعاطفة بالنبيِّ ﷺ ، والحبِّ العميق له ، الذي يؤثره على النفس ، والأهل ، والولد ، كما جاء في الحديث الصحيح ، والإيمان به كخاتم الرسل ، وإمام الكلِّ ، ومنير السبل ، والحذر من كلِّ العوامل والمؤثرات التي تسبب تجفيف منابع هذا الحبِّ ، وإضعافه على الأقلِّ ، وتحدث جفافاً في الشعور ، وضعفاً في العمل بالسنَّة ، وتجرؤاً في القول ، وانصرافاً عن الافتخار به ، والولوع بدراسة سيرته ، وكلِّ ما يحرك هذا الحب ويغذيه ، ولعلَّ البلاد العربية (بفعل أحداث ، ودعوات قومية) أحوجُ إلى العناية بهذه النقطة ، وأحقُّ بها من

غيرها ، ففيها كانت البعثة المحمدية ، وفي لغتها نزل القرآن ، ونطق الرسول .

٤ ـ إعادة الثقة في نفوس الطبقة المثقفة ، ومن بيدهم القيادة الفكرية ، والتربوية ، والإعلامية في البلاد والحكومات الإسلامية بصلاحية الإسلام ، وقدرته ، لا على مسايرة العصر ، وتطوراته ، وتحقيق مطالبه ، بل على قيادة الركب البشري إلى الغاية المثلى ، وتجديف سفينة الحياة إلى برِّ السلام والسعادة ، وإنقاذ المجتمع البشريِّ من الانهيار والانتحار؛ الذي تعرض لهما تحت القيادة الغربية الخرقاء ، وأنَّه ليس «بطاريةً» قد نفدت شحنتها ، أو ذبالةً قد نفد زيتها ، واحترقت فتيلتها ، بل هو الرسالة العالمية الخالدة ، وسفينة النجاة التي هي كسفينة نوح ، لا ينجو إلا من ركبها .

إنَّ ضعف هذه الثقة ، أو فقدها هو داءُ هذه الطبقة المثقفة الناشئة في أحضان الثقافة الغربية ، أو تحت ضغطها ، وهو المسؤول عن كلِّ تصرفاتها ، وسبب الردَّة الفكرية ، والحضارية ، والتشريعية التي تكتسح العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وتعاني منه الشعوب المسلمة ـ التي لا تفهم إلا لغة الإيمان والقرآن ، ولا تتحمس إلا للإسلام ـ وسبب حدوث هذا الخليج العميق ، الواسع بين القيادات والحكومات ، والشعوب والجماهير ، وسبب القلق الذي يساور النفوس ، ويستهلك القوى والطاقات فيما لا يعود على الأمَّة والبلاد بفائدة .

٥ ـ قلب نظام التربية والتعليم المستورد من الغرب ، المنتشر السائد في العالم الإسلامي رأساً على عقب ، وصوغه صوغاً إسلامياً جديداً ، يتَّفق مع شخصية هذه الشعوب المسلمة ، وعقيدتها ، ورسالتها ، وقامتها ، وقيمتها ، وبعد هذا الصوغ عنه عناصر الإلحاد أو المادية ، وتصور هذا الكون تصوراً ماديّاً : العلوم وحداتٌ متناثرةٌ متناقضة ، والطبيعة حرَّةٌ قاهرةٌ ، والتاريخ حوادث غير مرتبطةٍ ، خاضعةٍ لقلقٍ وصراعٍ دائمين ، وهكذا ، ولا يصلحه إصلاحاً جزئياً فحسب ، بل يبتكر ابتكاراً جذرياً ، مهما استنفد من الطاقات ، وكلف من الوسائل والنبوغ والعبقريات ، وبغير

ذلك لا يقوم العالم الإسلاميُّ على قدميه ، وبرأسه ، وعقله ، وإرادته ، وتفكيره ، ولا تدار الحكومات ، والأجهزة الإدارية ، والمرافق العامة برجالٍ مؤمنين أقوياء أمناء مخلصين ، يطبقون التعاليم الإسلامية في الحكومات والإدارة ، والتربية والإعلام ، والمجتمع ، فتمثل الحياة الإسلامية بجمالها وكمالها ، وينشأ المجتمع الإسلامي بسماته وخصائصه .

٦ ـ حركة علميَّةٌ قويَّةٌ دوليَّةٌ ، تعرِّف الطبقة المثقفة الجديدة بذخائر الإسلام العلمية ، وتراثه المجيد ، وتنفخ في العلوم الإسلامية روحاً من جديد ، وتثبت على العالم المتمدن : أنَّ الفقه الإسلاميَّ وقانونه من أرقى القوانين ، وأوسعها في العالم ، وهو يقوم على أساسٍ من المبادىء الخالدة التي لن تبلى ولن تفقد صلاحيتها في يومٍ من الأيام ، وهي تصلح لمسايرة الحياة الإنسانية في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وتغنيها عن كلِّ قانونٍ وضعته أيدي الناس .

٧ ـ الحضارة عميقة الجذور في أعماق النفس الإنسانية ، وفي مشاعر الأمة ، وأحاسيسها ، وتجريد أمةٍ عن حضارتها الخاصة ـ التي نشأت تحت ظلال دينها وتعاليم شريعتها وكان في صياغتها نصيبٌ كبيرٌ للذوق الديني الخاص ، وطابع هذه الأمة الخاص ـ مرادفٌ لعزلها عن الحياة ، وتحديدها في إطار العقيدة والعبادة ، والطقوس الدينيَّة الضيِّق ، وفصل حاضرها عن ماضيها ، فلا بدَّ للحكومات الإسلامية ، والمجتمعات الإسلامية من التخطيط المدنيِّ الإسلامي المستقل ، البعيد عن تقليد الغرب الأعمى ، والارتجالية ، ومركب النقص ، ولا بدَّ من تمثيل الحضارة الإسلامية في عواصمها ، وفي دوائرها ، وفي بيوتها ، وفي مجتمعاتها ، وفي فنادقها ومتنزهاتها ، وإلى حدٍّ في مكاتبها ، وطائراتها ، وسفاراتها ، وبذلك لا يعرض العالم الإسلامي نموذجاً للحياة الإسلامية ، والمثل الإسلامية فحسب ، بل يقوم بدعوةٍ صامتةٍ للإسلام .

٨ ـ معاملة الحضارة الغربية ـ بعلومها ونظرياتها واكتشافاتها وطاقاتها ـ كمواد خام يصوغ منها قادة الفكر ، وولاة الأمور في العالم الإسلاميِّ حضارةً قويةً ، عصريةً ، مؤسسةً على الإيمان ، والأخلاق ، والتقوى ،

والرحمة ، والعدل في جانب ، وعلى القوة والإنتاج ، والرفاهية ، وحبِّ الابتكار في جانبٍ آخر ، يأخذون من علوم الغرب ما تفتقر إليه أُمَّتهم ، وبلادهم ، وما ينفع عملياً ، وما ليس عليه طابع غربٍ وشرقٍ ، ويستغنون عن غيره ، ويعاملون الغرب كزميلٍ وقرينٍ؛ إن كان في حاجةٍ إلى أن يتعلموا منه كثيراً ، فهو في حاجةٍ إلى أن يتعلم منهم كثيراً ، وربما كان ما يتعلمه الغرب منهم أفضل مما يتعلمونه هم من الغرب .

٩ ـ إقناع الحكومات ـ في بعض البلاد الإسلامية التي مثلت دوراً رائعاً في تاريخ الدعوة والحضارة الإسلاميِّ ـ المشغولة بحرب إبادةٍ للعنصر الإسلامي ، أو عملية «تطوير للإسلام» ، وتفسيره وفق مصالحها السياسية ، أو أهواء قادتها الشخصية ، وأنها سياسة عقيمةٌ لم تنجح في بلدٍ إسلامي ، وإقناعها بتوجيه طاقاتها وإمكانياتها إلى عدوٍّ مشتركٍ ، وإلى ما يقوي البلاد والأمة ، وإقناع الحكومات المسلمة ـ المسالمة للإسلام ـ بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية ، وتهيئة الجوِّ المناسب ، المساعد على ذلك ، وما يستتبع هذا الأمر من سعادةٍ ، وبركةٍ ، ونصرٍ من الله ، وسعيٍ لتكوين قيادةٍ موحدةٍ تقوم على مبدأ الشورى الإسلامي ، والتعاون على البرِّ والتقوى ـ والشعور بالتقصير على الأقلِّ ـ بعدم وجود الإمامة العامَّة ، أو الخلافة الإسلامية التي كلف بها المسلمون ، وسيحاسبون عليها .

١٠ ـ أما البلاد غير الإسلامية : فالقيام بالدعوة إلى الإسلام ، والتعريف به بأساليب حكيمة تتَّفق مع طبيعة الإسلام ، وروح العصر ، أما البلاد التي فيها الأقليات المسلمة : فالاهتمام بتمثيل الإسلام ، والحياة الإسلامية تمثيلاً يلفت إليه الأنظار ، ويستهوي القلوب ، والقيام بالقيادة الخلقية ، والروحية ، وقبول مسؤولية إنقاذ البلاد والمجتمع من الانهيار الخلقيِّ ، والخواء الروحيِّ ، والتدهور الاجتماعيِّ الذي تعرضت له هذه البلاد ، حكومةً وشعباً ، حتى يتهيَّأ للإسلام أن يثبت جدارته وحاجة البلاد إليه ، ويتهيَّأ للمسلمين أن يقوموا بدورهم البلاغيِّ والقياديِّ في هذه البلاد .

إنَّ التاريخ شاخصٌ ببصره في مطلع هذا القرن إلى من يحقق مطالب

العصر والإسلام التي شرحناها ، ويقوم بهذه التجارب الجريئة الحكيمة ، والمؤرخ ممسكٌ قلمه يسطِّر به سطور الثناء والإجلال ، ويقلِّده الزعامة الحقيقية في العالم الإسلاميِّ ، والعبقريَّة والعصاميَّة في التاريخ الإسلامي.

إنَّ الحضارة الغربية أشرفت على الانهيار ، وآذنت بالأفول والزوال ، إنَّها لا تعيش ، ولا تواصل سيرها بمجرد قوتها الذاتية ، وجدارتها للحياة والبقاء ، بل لأنها ليست في هذا المجال ـ من تعاسة الحظ ـ حضارةٌ تحلُّ محلَّها ، وتسدُّ فراغها. إنَّ جميع الحضارات المعاصرة والقيادة الحديثة اليوم لا تعدو نوعين ، إمَّا هي مقلدةٌ جامدةٌ وصورةٌ شاحبةٌ للحضارة الغربية ، وإما هي ضعيفةٌ هزيلةٌ ، مريضةٌ سقيمةٌ ، منسحبة منهزمةٌ ، لا تستطيع أن تواجه هذه الحضارة ، أو تقف معها جنباً إلى جنب ، فإذا قامت هذه الدول الإسلامية ، والعالم الإسلاميُّ بصورةٍ عامَّة لسدِّ هذا الفراغ الذي سيحدث بعد نهاية هذه الحضارة وانسحابها عن مسرح القيادة؛ رُدَّ إليه منصب قيادة الجنس البشري ، وتوجيه الشعوب المعاصرة مرَّةً ثانيةً ، المنصب الذي لا يفوض إلا إلى أمَّةٍ فتيَّةٍ قويَّةٍ أبيَّةٍ تحمل كلَّ عناصر البقاء والاستمرار والتقدم والازدهار! ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

فلينظر هؤلاء القادة والحكام ما هو أولى لهم وأجدر بشأنهم: التمسك بأذيال الغرب والوقوف على بابه كالشحاذين ، أم منصب قيادة الإنسانية ، وهداية الشعوب الضالة التي لا كرامة ـ بعد النبوة ـ مثل هذه الكرامة؟ ذلك المنصب العالي الساميُّ؛ الذي تتلاشى عنده جميع هذه الألقاب والشارات ، والشعارات ، والهتافات ، والمناصب الرفيعة ، والحياة الناعمة المريحة ، والإغراءات المادِّيَّة الجنسية. إنَّها سلعةٌ غاليةٌ لا يخسر بها المشتري ، ولو ضحَّى بنفسه مئة مرَّةٍ.

* * *

الإسلام والمستشرقون

تعاليم الإسلام في الحكم الإسلامي بالعدل وإقامة الوزن بالقسط

ألقى العلامة الندوي ، هذه المحاضرة في مؤتمرٍ عقدته «دار المصنفين» في أعظم كره في الهند ، وذلك ما بين ٢٦ و٢٨ ربيع الآخر عام ١٤٠٢هـ ، الموافق ٢٢ ـ ٢٣ ـ من فبراير عام ١٩٨٢م ، بين يومي الأحد والثلاثاء ، في ساحة كلية شبلي الكبيرة .

بدأت جلسة المؤتمر الافتتاحية في الساعة العاشرة صباحاً من يوم الأحد في ٢٦ من ربيع الآخر ، ٢١/ فبراير ، واختير الباحث الإسلامي الكبير فضيلة الدكتور العلامة يوسف القرضاوي رئيساً لهذه الجلسة ، ثمَّ قدَّم الأمين العام لمجمع دار المصنفين الأستاذ السيد صباح الدين عبد الرحمن كلمته الترحيبية ، وقد غصّت الساحة بممثلي الوفود والهيئات ومندوبي جامعات البلدان العربية .

الحمد لله ، والصَّلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، أما بعد :

فإنَّ من أصعب العمليات وأشقِّها على المشتغلين بالتأليف ، والبحث ، والتحقيق ؛ الذين يعرفون قيمة العلم ومدى عناء المؤلف والباحث في تأليفه وبحثه ، وإجهاده للنفس ، واستنفاده لطاقته ومجهوداً في إخراج الكتاب في أتمِّ شكلٍ ، والوصول إلى نتائج علميَّةٍ ثابتةٍ ، هو الحكم على طبقةٍ أو جماعةٍ علميَّة حكماً قاسياً جائراً ، وغمط الحق معهم ، والطمس على محاسنهم إطلاقاً ، وقياسهم بمقياسٍ واحد .

ومن المعلوم أنَّ طبقة العلماء والباحثين الحقيقيين قديماً وحديثاً امتازوا من بين طبقات المشتغلين بصناعةٍ واحدةٍ ، والمشاركين في فنٍّ واحدٍ برحابة الصدر ، وسعة النظر ، وسلامة القلب ، والاعتراف بالفضل ، والاستفادة من مجهود الأولين ، بل المعاصرين ، بل من كان دونهم في السنِّ والطبقة ، وطول الممارسة لصناعة التأليف والبحث ، وإنَّ أكثر ما تتنافى هذه القسوة ونكران الجميل ، وجحد الحق والفضل ، تتنافى مع تعاليم القرآن وآداب الإسلام ، فالقرآن يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء : ٥٨] .

ويقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ [المائدة : ٨] .

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : ٩] .

وإذا كان لا بدَّ من نقدٍ وتقييم لعملٍ علميٍّ ، أو تحقيقٍ لباحثٍ والاختلاف عنه ، أو نقضه وتزييفه ، أو تبيين الخطأ فيه ، فليكن في أسلوبٍ علميٍّ ، ونقدٍ نزيهٍ ، وبنسبةٍ عادلة معقولة ، فالضرورات ـ كما يقول فقهاء الإسلام ـ تقدر بقدرها .

اعتـرافٌ ببعـض جـهـود الـمستشـرقـيـن الـعلمـيـة الـمـوضـوعـيـة :

لذلك أعترف بكلِّ وضوحٍ وصراحةٍ أنَّ عدداً من المستشرقين كرسوا حياتهم وطاقاتهم على دراسة العلوم الإسلامية ، وتبنوا موضوع الشرقيات والإسلاميات بدون تأثير عوامل سياسيةٍ ، أو اقتصادية ، أو دينيةٍ ، بل لمجرد ذوقهم ، وشغفهم بالعلم ، وبذلوا فيه جهوداً ضخمة ، ويكون من المكابرة والتقصير ألا ينطلق اللسان بمدحها والثناء عليها ، وبفضل جهودهم برز كثيرٌ من نوادر العلم والمعارف التي لم تر ضوء الشمس منذ قرون إلى النشر والإذاعة ، وأصبحت مصونةً من الورثة الجاهلين ، وعاهة الأرضة ، وكم من مصادر علميةٍ ، ووثائق تاريخيةٍ لها مكانتها وقيمتها صدرت لأوَّل مرَّةٍ بفضل جهودهم وهمتهم ، وقرَّت بها عيون العلماء في الشرق .

يجدر بالذكر منهم ـ على سبيل المثال ومن غير استيعاب ـ البروفيسور ـ ت ـ و ـ آرنلد T.w. Arnold صاحب الكتاب القيم The Preaching of Islam (الدعوة إلى الإسلام) واستانلي لين بول Stanly Lane Poole صاحب كتاب Saladin (صلاح الدين الأيوبي) وMoors in Spain (العرب في الأندلس) والدكتور اسبرنجر Dr. Aloys Sprenger صاحب المقدمة الإنجليزية النفيسة لكتاب «الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني» طبع المجمع الآسيوي الملكي بكلكته ، وإدوارد لين (Edward William Lane) صاحب المعجم الكبير المنسوب إليه المعروف بـ(Arabic - English Lexicon) لشرح المواد العربية باللغة الإنجليزية شرحاً موسعاً ، يعتمد عليه ، ويستفيد منه كثير من علماء اللغة العربية والنحو ، طبعت ثلاثة من أجزائه التسعة بعد وفاته ، وا.ى ونسنك (A.J Wensinck) صاحب المعجم المفهرس العام التفصيلي الذي وضع للكشف عن الأحاديث النبوية الشريفة المدونة في كتب الأئمة الأربعة عشر الشهيرة وكتب السيرة والمغازي المشهورة[١] ، ورتَّب كتابه على المعاني والمسائل العلمية والأعلام

---

(١) ليرجع إلى أهم أسماء الكتب وطريقة المؤلف في التأليف في مقدمات الكتاب .

التاريخية ، ورتَّب عناوين الكتاب على حروف المعجم ، وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية الأستاذ فؤاد عبد الباقي وسماه «مفتاح كنوز السنة» وقدَّم له العلامة السيد رشيد رضا ، والعلامة أحمد محمد شاكر .

وأشرف الأستاذ ونسنك كذلك على ترتيب المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوية[١] الذي رتبه ونظمه لفيف من المستشرقين ، ونشره الدكتور في سنة ١٩٣٦م ، والاستفادة منه سهلة ميسورة جداً ، وقد جاء في هذا الكتاب في سبعة مجلدات كبار .

و ج . ب استرتنج (G. B. Strenge) صاحب كتاب Lands of The Easten Caliphate) (جغرافية الخلافة الشرقية) .

وكلها مؤلفاتٌ وبحوثٌ[٢] تدلُّ على عناء المؤلفين ودراساتهم المغنية المخلصة للموضوع ، المتجردة ـ في أغلب الأحوال ـ عن العصبية الدينية ، ومجانبة الحق .

تصيُّد مواضع الضعف والعورات في كتابات كثير من المستشرقين :

ورغم هذا الاعتراف بفضلهم وعملهم لا يمنعني شيءٌ في هذا المجلس العلمي الموقر ، من أن أصرِّح بأنَّ طائفةً كبيرةً من المستشرقين كان دأبها البحث عن مواضع الضعف في الشريعة الإسلامية ، والحضارة ، والتاريخ الإسلامي ، وإبرازها لأجل غايةٍ سياسيَّةٍ ، أو دينيَّةٍ ، فكان شأنهم في ذلك شأن من لا يرى في مدينةٍ ذات بهجةٍ ونضارة ، ونظامٍ ونظافةٍ ، إلا مزابل ومراحيض ومستنقعات ، كما هو دأب مفتش الأوساخ والمياه المصرفة

---

(١) وهي التي وردت في الكتب الستة ، ومسند الدارمي وموطأ مالك ومسند أحمد بن حنبل .

(٢) اقتصر العلامة الندوي على مؤلفات المستشرقين بالإنجليزية التي خلت ـ بصفة عامة ـ من طعن في الإسلام وصاحب رسالته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتحريف الحقائق . ولم يتعرض للكتب المؤلفة في غيرها من اللغات الأوربية ، كالفرنسية ، والألمانية والهولندية ، لعدم معرفته بها معرفة شخصية .

(Drain Inspactor) في البلديات وأمانات العواصم ، فرفع بذلك تقريراً إلى الجهات المختصة لا يجد فيه القارئ ـ بطبيعة الحال ـ إلا الحديث عن العفونات والأوساخ.

فنرى كثيراً من المستشرقين يركزون كلَّ جهودهم ومساعيهم على تعريف مواضع الضعف في تاريخ الإسلام ومجتمعه ومدنيته ، حتى في ديانته وشريعته ، وتمثيلها في صورةٍ مروِّعةٍ مضخَّمةٍ ، إنهم ينظرون إليها عن طريق «المجهر» (Microacope) ويعرضونها كذلك للقراء حتى يروا الذرَّة جبلاً ، والنقطة بحراً ، وقد ظهرت حذاقتهم وذكاؤهم في كثيرٍ من الكتابات في تشويه صورة الإسلام ، ويثيرون بذلك في قلوب قادة العالم الإسلامي اليوم وزعمائه ـ ممن تثقفوا في مراكز الغرب الثقافية الكبرى ، أو درسوا الإسلام بلغات الغرب شبهاتٍ حول الإسلام والمصادر الإسلامية ، ويحدثون في نفوسهم يأساً عن مستقبل الإسلام ، ومقتاً على حاضره ، وسوء ظنٍّ بماضيه ، حتى يتركز نشاطهم وحماسهم في رفع هتاف «تطور الدين» و«إصلاح القانون الإسلامي».

«الاستراتيجية» الاستشراقية الدقيقة:

ومن دأب كثيرٍ من المستشرقين أنَّهم يعيِّنون لهم غايةً ، ويقرِّرون في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكلِّ طريقٍ ، ثم يقومون لها بجمع معلومات ـ من كلِّ رطبٍ ويابسٍ ـ ليس لها أيُّ علاقةٍ بالموضوع ، سواءٌ من كتب الديانة والتاريخ ، أو الأدب والشعر ، أو الرواية والقصص ، أو المجون والفكاهة ، وإن كانت هذه المواد تافهةً لا قيمة لها ، ويقدِّمونها بعد التمويه بكلِّ جرأة ، ويبنون عليها نظرةً لا يكون لها وجود إلا في نفوسهم وأذهانهم.

إنَّهم في أغلب الأحيان يذكرون عيباً واحداً ويجودون لتمكينه في النفوس ، بذكر عشرة محاسن ليست لها أهمية كبيرة ، وذلك كي يقف القارئ خاشعاً مؤدباً أمام سعة قلوبهم وسماحتهم ، ويسيغ ذلك العيب الواحد الذي يكفي لطمس جميع المحاسن. إنَّهم يصورون بيئة دعوةٍ أو

شخصيةٍ وتاريخهما وعواملهما الطبيعية بلباقةٍ وبلاغةٍ ، تصوران أنَّ هذه الدعوة والشخصية لم تكونا إلا نتاج هذه البيئة أو العوامل وردَّ فعلها الطبيعي ، وكأنَّ البركان كان متهيئاً للانفجار ، فتناولته هذه الشخصية بشرارةٍ فانفجر ، فينكر القارىء أيَّ اتصالٍ بمصدرٍ غير ماديٍّ ، ولا يعترف لهذه الشخصية أو الدعوة بعظمةٍ ، أو تأييدٍ إلهيٍّ أو إرادةٍ غيبيَّةٍ[١] .

وكثيرٌ من هؤلاء المستشرقين يدسُّون في كتاباتهم مقداراً خاصاً من «السم» ويحترسون في ذلك ، فلا يزيد على النسبة المعينة لديهم حتى لا يستوحش القارئ ، ولا يثير ذلك فيه الحذر ، ولا يضعف ثقته بنزاهة المؤلف ، إنَّ كتابات هؤلاء أشد خطراً على القارىء من كتابات المؤلفين الذين يكاشفون العداء ، ويشحنون كتبهم بالكذب والافتراء ، ويصعب على رجلٍ متوسط في عقليته أن يخرج منها ، أو ينتهي من قراءتها دون الخضوع لها .

اعتماد الأوساط العلمية والجامعات الشرقية على كتب المستشرقين :

ومما يدلُّ على ضعف العالم الإسلامي والعربي ، وفقر وسائلهما العلمية : أنَّ هذين العالمين كليهما يعتمدان على مؤلفات المستشرقين في المواضيع الإسلامية الخالصة ، منذ زمنٍ بعيدٍ ، وهي مؤلفاتٌ تحتلُّ مكانة «الكتاب المقدس» (Gospel) في موضوعها ، فإنَّ كتاب ر . ا . نكلسن (R. A. Nicholson) في موضوع تاريخ آداب العرب (A Literary History of Arabs) وكتاب الدكتور حتي (Dr P. K. Hitti) عن تاريخ العرب والإسلام (History of Arabs) وكتاب كارول بروكلمان (Carl Broklemann في تاريخ الآداب العربية (Cescht Irder Arabichen Literatre باللغة الألمانية وترجمتها إلى الإنجليزية باسم (The History Of Arab LIterature) وكتاب جولد تسيهر (Goldziher) في العقيدة والشريعة في

---

(١) وهذا كان شأنهم في تصوير العصر الجاهلي ، والجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية .

الإسلام (Introduction Islamic Theology and Law) وكتابه «دراسات إسـلاميـة » (Muhammadanische Studien Halle) وكتـاب شـاخـت (Schacht) في مصادر الفقه الإسلامي باسم (The Origins Of Mohammadans Jurisprudence) وكتاب و ـ س ـ اسمث (W. c> smith) في الإسلام المعاصر واتجاهاته وحركاته ، (Islam In Modern History) وكتاب (Whither Islam (A. R. Gibb) (وجهة الإسلام) وكتب مونتجمري وات (Montjomery Watt) في السيرة النبوية (Mohammad In Mecca) محمد في مكة (Mohammad In MaDina) محمد في المدينة ، و(Mohmmad, Prophet and Statesman) (محمد كنبيٍّ وقائدٍ سياسيٍّ).

كل ذلك يخيَّل إليهم أنه مما ينفرد في موضوعه ، ويعدُّ مصدراً علمياً له أهميته وقيمته لجامعات الشرق في قسميها العربي والإسلامي ، وعليه أكبر اعتماد المؤلفين في قسم الدراسات الإسلامية (Islamic Studies DePartmen) في الجامعات.

إنَّ «دائرة المعارف الإسلامية» (Encyclopaedia of Islam) التي ألفها المستشرقون (ولو كان فيها لبعض المسلمين إسهام ضئيل) وصدرت منها طبعاتٌ متعددةٌ تعدُّ أكبر مصدرٍ للمعلومات والحقائق الإسلامية ، وأثمن ذخيرةٍ لها ، وتعبرها بعض البلاد الإسلامية اليوم أساساً للمعلومات الإسلامية ، وتقوم بترجمتها إلى لغاتها بنصِّها وفصِّها ، وكان المتوقع المأمول منها أن تضع موسوعاتٍ إسلاميّةٍ أصيلةٍ بقلم الباحثين المسلمين أصحاب الاختصاص في الموضوعات الإسلامية[١].

لا بد من الاكتفاء الذاتي في البحث والتأليف:

ولسد تأثير المستشرقين السلبي وإصلاح هذا الفساد يجب أن يقوم علماء الإسلام ورجال البحث والتفكير بالكتابة حول الموضوعات العلمية ،

---

(١) مما يجب الاعتراف به أن عمل جامعة بنجاب في لاهور (باكستان) في إخراج هذه الموسوعة يتسم بكثيرٍ من الأصالة والتنقيح والحذف والزيادة ، حتى أصبح الكتاب مستقلاً له قيمته العلمية.

ويقدِّموا للعالم الإسلامي المعلومات الإسلامية المؤكدة ، ووجهة نظر الإسلام الصحيحة ، مع مراعاة الجوانب المحمودة التي يمتاز بها المستشرقون بل والزيادة فيها ، كما يجب أن تكون كتاباتهم ومؤلفاتهم ممتازةً من حيث أصالة التحقيق ، وسعة الدراسة ، وعمق النظر ، وتأكيد المصادر وصحتها ، واستدلالها القويِّ ، بالنسبة لكتابات المستشرقين ومؤلفاتهم ، وأن تكون حاملةً لجميع نواحي الإتقان والصحَّة ، بعيدةً عن الأخطاء والنقائص العلمية .

محاسبة كتابات المستشرقين العلمية :

ومما يجب أيضاً هو أن يقوم هؤلاء العلماء المفكِّرون باستعراض مؤلفات المستشرقين العلمية ، ومحاسبتها في ضوء الحقيقة والواقع حتى ينكشف الغطاء عن تلبيساتهم، وأخطائهم في فهم النصوص ، وبيان المعنى ، ويبدو للناس ضعف مصادرهم التي يعتمدون عليها ، وأخطاء النتائج التي يستنبطونها منها ، ويطلعوا على ما يضمر كثيرٌ منهم في نفوسهم من عداءٍ للإسلام ، وما يكنونه من أغراض سياسيَّةٍ ، ودينيَّةٍ في خفايا دعوتهم وتربيتهم، وكلُّ ذلك مؤامرةٌ على الإسلام والأمَّة الإسلامية يجب إحباطها(١) .

لا بدَّ من عملٍ إيجابيٍّ بنَّاءٍ :

أما بدون الجمع بين هذا العمل الإيجابي الذي يقتضي تأليف كتبٍ تحليليةٍ ، وأبحاثٍ عميقةٍ حول المواضيع الإسلامية مع الإحالة إلى المصادر بضبط وإتقان ، والفهارس المفصلة المفيدة المتنوعة (وذلك كله مما يعتبر من خصائص المستشرقين) والإفادة من مواد لم تستخدم بعد ، وكتب ومظان لا يتبادر إليها الذهن ، وليست في صميم الموضوع ولا من التاريخ

---

(١) اطلع العلامة الندوي خلال زيارته للاهور في باكستان في يوليه ١٩٧٨م على مشروع البروفيسور ظفر علي القريشي ، في جمع ما كتبه المستشرقون عن السيرة النبوية وصاحبها عليه الصلاة والسلام ونقدها بشكل علمي ومحاسبتها والردِّ عليها ، وقد أعدَّ الأستاذ ظفر علي بحثاً قيماً في هذا الموضوع في اللغة الإنجليزية يمتد على آلاف الصفحات .

«الرسمي» الذي يدور حول البلاط ، والأسر الحاكمة ، والحروب ، والحوادث الجسيمة ، وكلٌّ ذلك مع تحرٍّ للدقَّة والوجازة والبعد عن التنميق والاستطراد ، وبين العمل العلميِّ ، وهي المحاسبة العلمية في أسلوبٍ علميٍّ نزيهٍ ، وكلامٍ وقور رزينٍ ولفظٍ موزونٍ بعيدٍ عن التهكم والتنكيت ، والتجني والافتراض ، فإنَّ كلَّ ذلك يُفْقِد النقد قيمته العلمية ، ووقعه النفسي ، وبدون الجمع بين هذا وذاك لا تتحرر الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي من تأثير أفكار المستشرقين المسمومة وسيطرتهم العلمية ، تلك الطبقة التي تعدُّ من أذكى الطبقات في العالم الإسلاميِّ ، وأكثرها طموحاً ، والتي تدرس في جامعات أوربا ، وأميركا الكبرى ، أو في جامعات بلادها ، وتحبُّ دراسة الإسلام بلغات الغرب التي تتقنها .

والفراغ في ناحية من نواحي الحياة البشرية وحاجاتها لا يبقى طويلاً ، وهو مخالف لسنة الله في خلقه والفطرة البشرية ، فيسد ذو الحاجة حاجته بشيءٍ سقيمٍ إذا لم يجد شيئاً سليماً ، وما لم تتحرر هذه الطبقة المثقفة ـ التي ترزح تحت تأثير أفكار الغرب وعلمائه ـ من سيطرتهم ، لا تزال الأقطار الإسلامية تواجه عاصفة الاضطرابات العقلية ، والردَّة الفكرية ، ويتبنى حملة التجديد والتغريب أفكارهم وآراءهم ، حتى إذا تمت لهم سلطة سياسية ، حاولوا تطبيق كلِّ ما ينافي روح الإسلام على المجتمع ، وتنفيذه في الحكم ، ويشكلون بذلك مجتمعاً لا يشبه المجتمع الإسلامي القديم إلا في الجنسية والقومية ، ولكنه مجتمعٌ أجنبيٌّ يتَّجه نحو الغرب والمادِّيَّة في الحقيقة والواقع ، ويصحُّ عند ذاك أن يخاطَب قادةُ العالم الإسلامي وعلماؤه بالبيت الفارسي الذي معناه : مهلا أيها الأعرابي! فإنَّ الطريق الذي اخترته يذهب بك إلى تركستان ، وأنت تريد الكعبة! .

استعراضٌ إجماليٌّ للعمل الإسلاميِّ في مجال البحث والتحقيق في العالم الإسلامي في العصر الحاضر :

فهل تحقَّق هذا الأمل؟ وهل قام الباحثون الإسلاميُّون والكتَّاب المسلمون باللغات الأوربية ذات النفوذ العالمي ، بدورهم وواجبهم في هذا

الاتجاه؟ إنَّه يحتاج إلى استعراضٍ أمينٍ محايدٍ ولو إجمالياً ، حتى نعرف الأشواط التي قطعناها ، وبرأنا بها ذمَّة الله وذمَّة الإسلام ، وهنا نظرةٌ إجمالية على بعض المنجزات في هذا المجال .

لا يخفى على القارىء الخبير أنَّ العالم الإسلامي ـ ولا سيما بلاده الأربع تركيا ، ومصر ، وإيران ، والهند ـ اضطر أن يواجه منذ منتصف القرن التاسع عشر المسيحي ، الحضارة ، والثقافة ، والأفكار ، والفلسفات ، والمثل الغربية . إنَّ هذه الأوضاع ، وتلك الحقائق المشار إليها كانت كفيلةً بوفرة الإنتاج ، وكثرة وضع الكتب عالية المستوى بأرقى اللغات الأوربية ، وأوسعها نطاقاً في كلِّ الدول والمجتمعات الإسلامية المواجهة على الأقل في شرح العقائد ، والأصول ، والقوانين ، والحضارة ، والثقافة الإسلامية ، وفي تاريخ العهود الإسلامية الذهبية ، وعهود قيادة المسلمين السياسية ، ونظام الحكم الإسلامي ، والاقتصاد الإسلاميِّ ، وفلسفة الإسلام الأخلاقية ، وكانت كفيلة بأن تتخذ لهذه الأقطار اللغة الإنجليزية ، أو الفرنسية ، أو الألمانية ، أو الهولندية[1] على الأقل وسيلةً للبحث والتحقيق ، ونقد الحضارة الغربية ، وإبانة مواضع الضعف فيها ، وعرض محاسن الإسلام ، وأن يستخدم أبناؤها المسلمون الملكات الخطابية ، والكتابية في هذه اللغات على المستوى الكبير ، وتتكَّون فيها مكتبةٌ واسعةٌ في مدَّة قصيرةٍ تمدُّ الشباب المسلم بالثقة بالذات والإباء ، والشعور باكتفاء الإسلام الذاتيِّ في جميع مجالات الحياة ، وترغم المفكرين الغربيين ، والطبقة المثقفة في أوربا وفي أميركا ، والمستشرقين عامَّة على الدراسة الجادَّة للإسلام على الأقل ـ إن لم تستطع أن تبعثهم على الدخول في حظيرة الإسلام ـ وتحدث سيلاً جارفاً من الأبحاث الإسلامية ، والإنتاج الأدبي واللغوي ، تصطدم أمواجه القوية بجدران الجامعات الشهيرة في العالم في أوربا ، وأميركا ، وكندا .

---

(١) هذه هي اللغات الأربع التي كثرت فيها المؤلفات والبحوث في الموضوعات الإسلامية .

وكان من المتوقع أن يجعل هؤلاء البارعون في اللغات الأوربية من أبناء الإسلام جامعاتهم غنيةً بالمواد والأبحاث فيما يتَّصل بالتاريخ الإسلاميِّ والقوانين الإسلامية ، واللغات الشرقية ، وآدابها ، ونقدها ، وتاريخها ، وأنَّهم لا يدعون الدارسين في هذه المواضيع الحسَّاسة عالةً على أيِّ نكولسون (Nicholson) وعلى أيِّ براؤن (Browne) وعلى أيِّ حتي (Hitti) في دراسة التاريخ الأدبي والسياسي والحضاري لبلاد العرب وإيران ، ولا على أيِّ جولدتسيهر (Goldziher) وعلى أيِّ شاخت (Schacht) فيما يتَّصل بدراسة الشريعة الإسلامية وتاريخ تدوين الحديث والفقه ، ولا على أيِّ مارغوليوث (Morgolioth) في دراسة لغة القرآن الكريم ، وعلومها ، وآدابها ، وشعرها ، ولا على أيِّ بروكلمان[١] (Brockelman) فيما يتعلق بالاطلاع على الحركة التأليفية والكتابية في العهد الإسلامي ، والتراث الإسلامي العلمي ، وإنتاجات المسلمين العلمية ، ومجهوداتهم القلمية .

إنَّ كلَّ ذلك لا يقف سدّاً منيعاً فحسب ، أما الرَّدة الفكرية التي تكاد تكتسح الشباب الإسلاميَّ المثقَّف الذَّكيَّ والتي كانت تنتشر في البلاد التي كانت مستعمراتٍ غربيةً ، انتشار النار في الهشيم ، بل يفتح الباب على مصراعيه في أوربا لمد الدعوة الإسلامية ، وللتعرُّف بالإسلام ، والقرآن ، والسيرة النبوية ، وبالتالي يجذب من أراد الله به خيراً من سكان هذه الرقعة من أرض الله إلى عين الإسلام الصَّافية ، وحصنه المنيع .

قلة الإنتاج العلمي التحقيقي في الدول المواجهة ، في اللغات الغربية :

كلُّ الدلائل كانت تشير إلى أنه سيبتدىء في العالم الإسلاميِّ عهدٌ جديدٌ للبحث والتحقيق ، والتصنيفي المواضيع الإسلامية ، وأنَّ اللغات الإنجليزية ، والفرنسية ، والألمانية بصفة خاصَّةٍ ، ستعد زاخرةً بالمؤلفات ذات المستوى العالي التي سيؤخذ الأوربيون والأميركان أنفسهم بعذوبة

---

(١) مع الاعتراف بمجهوده الكبير وقيمته العلمية والاستفادة منه .

لغتها ، وجمال أسلوبها ، وقوة استدلالها ، ولباقة عرضها للمواد ، وقدرة مؤلفيها التأليفية والكتابية .

ولكن من الحقائق المؤلمة أن أبدي في هذه المناسبة التاريخيَّة التي تجمع بين خيرة رجالات العلوم الإسلامية ، وبين النوابغ في اللغات الشرقية ونقّادها؛ استغرابي العلمي والتاريخي من عدم تحقُّق هذا الرجاء، ذلك الذي يبعث المؤرخ الأمين الواسع الأفق، الواسع الاطلاع على العجب والعجاب .

ميزة الهند من بين الأقطار المواجهة :

وكانت الهند في طليعة دول المواجهة الإسلامية والغربية ، حيث تمكنت بريطانيا ـ أقوى ممثلٍ للحضارة الغربية ، والعلوم والثقافة الغربية ، وأشدُّ تحمساً لها ـ من بسط سيطرتها السياسية الكاملة على الهند منذ وقتٍ مبكرٍ ، على حين كانت بلادٌ أخرى تتأثر بالحضارة والثقافة الغربية عن طريقٍ غير مباشر عن وكالاتها الأدبية والثقافية ، إضافة إلى ذلك أسس السيد أحمد خان المرحوم ـ الشخصية القوية المؤثرة ـ فعلاً بعد عام ١٨٥٧م مؤسسةً ثقافيَّةً في «علي جراه» (Aligarh) باسم «مدرسة العلوم» كان الإشراف عليها ـ عقليّاً ، وثقافيّاً ، وخلقيّاً ـ بأيدي الأفاضل الإنجليز المحنكين ، أمثال المستر بيك ، (Mr. Beek) والمستر موريسون (Mr. Morison) والمستر آرجبول (Mr. Archibold) وتحولت في ١٩٢١م إلى جامعة ، وقد جذبت إليها الشباب الذكي في شبه القارة الهندية ـ من خليج بنغال إلى مضيق خيبر ـ جذب المغناطيس للقطع الحديدية .

رغم ذلك كلِّه كان الشعب الإسلاميُّ الهنديُّ أرهف شعوراً دينيّاً [١] ،

(١) ومما يدل على ذلك أنَّه ألف حاكم الولاية الشمالية في الهند ، وهي كبرى الولايات ، وأرقاها ـ السير وليم ميسور (Sirwallian Muir) كتابه الشهير بالإنجليزية (Life of Mohammed) (حياة محمد) وكان فيه تحاملٌ على السيرة النبوية ، ومسخٌ لبعض الحقائق ، لم يتمالك السيد أحمد خان الذي كان من أكبر الدعاة إلى التعليم الحديث الغربي ، والاقتباس من الحضارة الغربية ، وكان بينه وبين الحكم الإنجليزي ورجاله صداقةٌ وثقةٌ متبادلةٌ ، فنهض للردِّ عليه ، وسافر سنة ١٢٨٦هـ ١٨٦٩م إلى =

وأرقَّ وعياً إسلاميّاً ، وأشدَّ غيرةً على الإسلام من البلاد الإسلامية الأخرى ، لأسبابٍ لا تعنينا بهذه المناسبة ، يدلُّ على ذلك مساهمتهم القوية بعد حركة الخلافة ، وحرصهم الشديد على التمسك بحضارتهم الإسلامية العريقة ، وبشعائرهم الدينية ، فكان إنتاجها في هذا المجال أكثر من الإنتاج ـ في اللغات الأجنبية ـ في أقطارٍ إسلاميةٍ أخرى ، وإن كان أقلَّ من الواجب المطلوب .

في مجال نقد النصرانية على الأسس العلمية :

وكان من نتائج هذه الغيرة الدينية التي يمتاز بها الشعب المسلم الهندي ومبادرته إلى قبول تحدِّيات التبشير ـ وبالأصح التنصير ـ التي وجهت إلى شبه القارة الهندية ، بعد قيام الحكم الإنجليزي المسيحي ، المنتصر الثائر الموتور ، أن وضعت أفضل الكتب وأقواها في الردِّ على المسيحية ، ونقد العهد القديم ، والعهد الجديد (التوراة والإنجيل) في الهند ، فقد واجه الشعب المسلم الهندي الدعوة المسيحية وجهاً لوجه ، وخاض هذه المعركة قبل أن يواجه هذه الدعوة ويخوض هذه المعركة شعبٌ آخر في قطرٍ إسلاميٍّ أو عربيٍّ .

وقد قيَّض الله لقيادة هذه الحركة الهجومية ـ لا الدفاعية ـ خيرة رجال هيؤوا نفوسهم لهذا العمل الخطير الدقيق الذي تشاغل المسلمون عنه (العلماء والمؤلفون) قروناً لعدم توفر الدواعي ، وما يضطرُّ إلى ذلك ، في مقدمتهم وعلى رأسهم العلامة المجاهد الشيخ رحمه الله الكيرانوي (١٢٣٣ ـ ١٣٠٨هـ) وقد تهيَّأت عنده جميع المؤهلات العلمية ، والجدلية ، والوهبية ، لإنجاز هذا العمل ، إلا معرفة اللغة الإنجليزية ، والاطلاع على المصادر الأجنبية بطريقٍ مباشر ، هنالك ساق الله إليه مسلماً غيوراً هو الدكتور محمد وزير خان الأكبر آبادي الذي سافر إلى لندن سنة ١٨٣٢م

= لندن لجمع المواد وباع لذلك بعض أثاثه ومتاعه وألف كتابه المشهور «خطبات أحمدية» الّذي هو من أحسن كتبه ، ولعلّها كانت الخطوة الأولى في هذا الاتجاه في العالم الإسلامي ، وإن كانت خطوةً بدائيةً تتصف بكلّ ما تتسم به المحاولات الأولى في البحث العلمي .

يدرس الطبَّ الجديد ، وقد نال فيه شهادةً عالية ، وأتقن اللغة الإنجليزية ، ودرس اللغة اليونانية ، وعني بدراسة المسيحية من مصادرها الأصلية ، واقتناء كتبها ، واستصحب هذه المكتبة الثمينة إلى الهند فاستفاد منها الشيخ كل الاستفادة ، وهنالك قرر مناظرة القس فندر (Dr. c. G Pfander) الذي تحدَّى علماء المسلمين في العالم الإسلاميِّ ، وألف كتابه «ميزان الحق» وظنَّ ألا قبل للمسلمين به[١] ، وقامت هذه المناظرة التاريخية في / ١١ من رجب سنة ١٢٧٠هـ (١٠/ من إبريل ١٨٥٤). في أكبر آباد آكره إحدى مديريات الولاية الشمالية الرئيسية ، وأحد مجالات النشاط التبشيري في الهند ، وفي حيٍّ من أحيائها المعروف بحارة «عبد المسيح»[٢] وحضرها ولاة المديرية ، وموظفو الثكنة الإنجليزية من الإنجليز ، وعددٌ كبيرٌ من أعيان البلد ووجهائه ، أسفرت هذه المناظرة عن اعتراف «القس فندر» بوقوع التحريف في ثمانية مواضع من الإنجيل ، وتزايد عدد الحاضرين في الغد ، وازداد عدد الحكام الإنجليز والمسيحيين والهنادك والسيخ ، وظهر ضعف «فندر» في المناظرة وتعنته ، ولم يرجع القس إلى المناظرة في اليوم الثالث وأصبح شعاراً له أنه إذا علم بوجود الشيخ في مكان غادره.

وقد ألف الشيخ رحمه الله كتابه «إظهار الحق»[٣] على اقتراح الخليفة العثماني السلطان عبد العزيز والصدر الأعظم خير الدين باشا ، وكان الشيخ قد هاجر إلى مكة المكرمة عقب ثورة ١٨٥٧م وزار القسطنطينية سنة ١٨٦٤م على طلب من خليفة المسلمين ، فألفه في الآستانة سنة ١٢٨٠هـ ، وقد آثر في هذا الكتاب خطة الهجوم كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» ، واعتمد في الكتاب على

(١) صدرت للكتاب الطبعة الثامنة باللغة الفارسية سنة ١٨٤٩م من أكره، والطبعة الثالثة بالأردوية سنة ١٨٥٠ ، والترجمة الإنجليزية سنة ١٩١٠م.

(٢) لعلها باسم متنصر تسمى بهذا الاسم النصراني.

(٣) وللشيخ رحمه الله ثلاثة كتب أخرى في نقد النصرانية ، وإثبات الإسلام وهي «إزالة الأوهام» و«إزالة الشكوك» و«أصح الأحاديث في إبطال التثليث».

التناقضات الواضحة ، والبديهات الجلية من الأخطاء التي لا تقبل التأويل ، واستخرج منها نتائج كنتائج رياضية لا يختلف فيها اثنان ، ووضع عقيدة التثليث في النصرانية على محكِّ العقل ، ونقدها نقداً علمياً ، وأضاف إلى ذلك الحديث عن القرآن الكريم ، وإثبات أنَّه كلام الله ، والسيرة النبوية ، وذكر المعجزات والبشارات التي وردت في شأن النبيِّ ﷺ . نقل الكتاب إلى عدَّة لغات أوربية ، وقد كتبت كبرى صحف إنجلترا (London Times) تعليقاً على هذا الكتاب «لو دام الناس يقرؤون هذا الكتاب لوقف تقدم المسيحية في العالم»[1] .

وألَّف علماء مسلمون آخرون في الهند كتباً ذات قيمةٍ علميةٍ ونقدية كبيرة في الردِّ على المسيحية ، ونقد «الكتاب المقدس» ، منهم العلامة السيد آل حسن الموهاني (١٢٨٧هـ) صاحب كتابي «الاستفسار» و«الاستبشار» والشيخ عنايت رسول الجرياكوتي (١٣٢٠هـ) صاحب كتاب «البشرى» (وكان قد درس اللغة العبرانية وأتقنها) .

وساهم في هذا العمل الشيخ عبد الحق الحقاني صاحب التفسير المشهور باسمه ، والشيخ محمد علي المونجيري مؤسس ندوة العلماء ، والقاضي محمد سليمان المنصور فوري ، والسيد نواب علي اللكنوي صاحب كتاب «تاريخ الصحف السماوية» ومولانا ثناء الله الأمر تسري .

وهكذا تكوَّنت أكبر مكتبةٍ وأكثرها قيمةً علميةً في الردِّ على النصرانية في الهند ، لأسبابٍ دعت إلى ذلك ، ولشدة غيرة المسلمين على دينهم ، وصمودهم أمام هجمات الديانات الأخرى الدعوية والعلمية .

حصـاد قـرنٍ كـامـل:

لو اعتبرنا بداية العهد فيما يتصل بإقبال الشعب المسلم الهندي على اللغة الإنجليزية ، والعناية بتعلُّمها وتحصيلها ، عام ١٨٧٥م ، حيث أسست «مدرسة العلوم» في «علي جراه» ونسقط من الحساب عام ١٧٥٧م ،

---

(١) ملخصاً من تقديم العلامة الندوي لكتاب «إظهار الحق» طبعة قطر سنة ١٩٨١م .

حينما ذاق المسلمون هزيمةً شاملة على يد الاستعمار الإنجليزي ، وكانوا مذعورين بفعل الغزو والفتح الإنجليزي المتتابع ، ونعتبر النهاية سنة ١٩٨١م ، وقد أنجبت خلال هذه المدة كلية (m. A. o. College) والجامعة الإسلامية فيما بعد رجالاً كانوا يتميزون بغيرتهم الإسلامية ، وحميتهم الدينية ، واقتدارهم على اللغة الإنجليزية ، كأبنائها؛ وجدنا كتباً مؤلفةً باللغة الإنجليزية هي قليلة العدد بالنسبة إلى مدة أكثر من قرن ، ولكنَّها كبيرة القيمة ، وكثيرة العدد بالنسبة إلى أقطارٍ إسلاميَّةٍ أخرى .

بعض مؤلفات الكتاب الهنود المسلمين الإنجليزية الممتازة :

ونجد في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، وأوائل القرن العشرين مؤلفين باللغة الإنجليزية يضعون في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية كتباً يؤخذ برشاقة لغتها أبناء اللغة الإنجليزية أنفسهم، ويستقطبون اهتمام الغرب بغناء مقالاتهم ، وقيمة موادِّها ، وجمال عرضها ، على رأسهم وفي مقدمتهم السيد أمير الذي ألف كتابه (The Spirit of Islam) (روح الإسلام) الذي لا يسعنا أن نتفق مع جميع الأفكار والآراء التي أودعها فيه ، ولكنه أثار الإعجاب والتقدير في الأوساط العلمية والأدبية في إنجلترا ، وأرغم عدداً وجيهاً من المثقفين الإنجليز الأفاضل على الاعتراف بصدق الإسلام وحقيقته ، وقد قال عنه المستشرق آسبورن (Osborn) .

«إنَّ هذا الكتاب يستحقُّ الإعجاب حقّاً ، وقد كُتب بأسلوبٍ يدلُّ على ملك كاتبه لناصية اللغة الإنجليزية ، أسلوبٍ قلَّ من يستطيع أن يجاريه من الإنجليز المثقفين ، أسلوبٍ خلا من العيوب التي وقع فيها مثقفو الهنود. . . ويجب أن يهنأ مسلمو الهند بأن يكون منهم من بلغ هذه الدرجة ، ومن المستحيل على من فاتحة أعماله هذا الكتاب ألا يكون له في مستقبله أثرٌ فعالٌ عميقٌ في قوته ، أما موضوع الكتاب فإننا نخالفه في كثير من مسائله ، وسنعرض وجهة نظرنا ووجهة خلافنا فيما بعد»[1] .

---

(١) «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» ص ١٤٠ للدكتور أحمد أمين.

وقد ظل كتابه (A short History of The Saracens) (تاريخ العرب المختصر)[١] موضع القبول والعناية إلى مدَّةٍ طويلةٍ بفضل سلاسة لغته ، ورشاقة كتابته ، وما يتسم به من الاعتدال والاتزان.

والمؤلف الثاني المسلم الذي تجاوزت شهرته الهند ، هو «صلاح الدين خدابخش» الذي نقل عدداً من الكتب في الموضوعات الإسلامية من الألمانية إلى الإنجليزية. أمَّا كتبه التي وضعها بالإنجليزية فمن أشهرها المجلد الثاني من كتاب (Contribution To The History of Islamic Civilizatin) (مساهمة في تاريخ الحضارة الإسلامية) وكتابه (Essays, India Islanic[٢] (مقالاتٌ في الهند والإسلام).

ولكنَّ المؤسف أنَّ كثيراً من آرائه نال معارضة من المثقفين الذين كانت لديهم معرفةٌ صحيحةٌ بالإسلام وبتاريخه.

وكانت سمة كتابات الكتَّاب المسلمين بالإنجليزية في هذه الردحة من الزَّمن (أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) البارزة ، الإعجاب الزائد بالغرب ، وبالفلسفة الغربية ، والعلوم الطبيعية ، التي كانت لا تزال إلى هذا العهد تقطع مراحل الطفولة ، والتأويل البارد المتطرِّف للحقائق الغيبية والمعجزات النبوية ، وأنباء ما وراء العقل ، والمحاولات المتكلَّفة للتوفيق بينها وبين المعلومات العصرية ، والمبادي الطبيعية ، والتوفيق بين روح الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ، أضف إلى ذلك كله أنَّ أكثر هذه الكتب قد وضعت بالأساليب الدفاعية الاعتذارية (Apologetic).

وبعد هؤلاء المؤلفين إن كان هناك من المؤلفين باللغة الإنجليزية من يجدرون بالذكر بفضل علو كعبهم ، وقيامهم بعملٍ تأليفيٍّ وكتابيٍّ قيم ، استرعى انتباه العالم ، واستفاد منه رجال العلم في أوربا ، وأحالوا عليه في

---

(١) طبع جامعة كلكته ، ١٩٣٠ ، والمجلد الأول ترجمة كتاب وان كريمر (Von Kremer) من الألمانية.

(٢) تأليف ١٩١٢ م.

مؤلفاتهم وكتاباتهم فهما للعلامة محمد إقبال صاحب كتاب «الصياغة الجديدة للفكر الديني في الإسلام»[١]. (Reconstruction of Religious Thought Islam) الذي هو مجموع محاضراته التي ألقاها بمدينة «مدراس» بالهند. مما يبعث على التفكير الجديد، ويزخر بالمواد القيمة ـ رغم بعض الآراء الشاذة التي يتضمنها، والتطرف الفلسفي في تفسير بعض العقائد، والحقائق الدينية[٢]، وقد أعاره رجالات الفكر في أوربا أهميةً بالغةً، واقتبسوا منه في كتاباتهم، كما لقي ما قام به العلامة عبد الله يوسف علي من ترجمة القرآن الكريم باللغة الإنجليزية، إعجاباً كبيراً، وقبولاً نادراً بفضل نقاء لغتها، وحلاوة موسيقاها، وقوة عرضها، وجمال أسلوبها ـ في أوربا وأميركا، وظهرت لهذه الترجمة طبقاتٌ كثيرةٌ في باكستان، والمملكة العربية السعودية، والبلاد الإسلامية وغير الإسلامية الأخرى أيضاً.

وكذلك عرفت الترجمة الإنجليزية للقرآن الكريم التي قام بها (M.M. Pickthall) بفضل عذوبة لغتها، وأسلوبها، وخصائصها التي تتميَّز بها، وقد قوبلت بحفاوةٍ، وتحبيذٍ، وإقبالٍ، على أنها لا تخلو من الأغلاط.

وسيكون من الإجحاف وغمط الحقوق ـ ونحن في سبيل الحديث عن التراجم الإنجليزية للقرآن الكريم ـ ألا أتعرض لقيمة ترجمة معاني القرآن الكريم بالإنجليزية للأستاذ الكبير المرحوم عبد الماجد الدريابادي ـ الكاتب الأردي الكبير ـ وقيمة هذه الترجمة في الواقع هي تلك التعليقات الغنية التي هي نتيجة دراسةٍ موسَّعةٍ عميقةٍ للديانات وللمصادر اليهودية والمسيحية، وقد استخدم الأستاذ هذه الدراسة لتقرير حقيقة ما يتضمنه القرآن من حقائق وعلوم، ولإثبات إعجازه وتأكيده، الأمر الذي يتميز به الأستاذ المغفور له من بين جميع المترجمين المعاصرين، ومن المؤسف أنَّ هذه الترجمة لم

---

(١) وقد نقله إلى العربية باسم «تجديد الفكر الديني في الإسلام» الأستاذ عباس محمود، وطبع في مصر، كما ترجم الكتاب إلى اللغة الأردوية.

(٢) وقد اعترض على ذلك العلامة الأستاذ السيد سليمان الندوي، ونبه عليه العلامة الندوي في مقدمة كتابه «روائع إقبال».

تقدِّر حقَّ قدرها ، وما أولتها الأوساط العلمية من العناية ما تستحقه[١] .

عمل الجماعة الأحمدية في مضمار التأليف والدعوة:

وقد كان للجماعة الأحمدية التي كان يقودها ويرأسها الأستاذ المعروف بمولانا محمد علي اللاهوري[٢] نشاطٌ ملحوظٌ في تأليف كتبٍ في الإنجليزية للتعريف بالإسلام ، والسيرة النبوية ، تحلُّ من الطبقة المثقفة الجامعية في الهند وغيرها محل القبول والرضا في لغةٍ إنجليزية لا بأس بها ، وبالأسلوب العصري ، كان في طليعة هؤلاء المؤلفين الأستاذ محمد علي اللاهوري المذكور رئيس الفرع ، فأصدر ترجمة معاني القرآن الكريم بالإنجليزية .

وقد أقبل على قراءتها عددٌ كبيرٌ من المثقفين الجدد في الهند وخارج الهند ، وهي تحمل تفسيراً وتعليقاتٍ بقلمه ، وشغف بها كثيرٌ ممَّن لم يتعمق في الفهم الديني ، ولم يجد من الكتب الإسلامية الموضوعة في ذلك العهد في اللغة الإنجليزية ما يسدُّ حاجته ، ويرضي نهامته للقراءة ، إلا أن تفسيره وتعليقاته على هذه الترجمة يغلب عليها اتجاه تفسير المعجزات والأمور الغيبية بالأمور الطبعية والحوادث العادية ، إلى حدِّ التطرف والإغراق ، ولو أبى ذلك اللغةُ العربيةُ واللفظ الصريح ، ويغلب عليه الخضوع الزائد للمقررات الطبعية التي كانت لا تزال في دور التحول والتطور ، وله كتاب في السيرة النبوية باسم (Muhammad The Prophet) قرىء في شبه القارة الهندية وخارج الهند في نطاقٍ واسع ، وأعجب به

(١) وقد قام بنشر هذه الترجمة شركة تاج (Tuj Copany) وأصدرت طبعتها الأولى ، ويقوم المجمع الإسلامي العلمي في ندوة العلماء مسروراً ومشكوراً بإصدار الطبعة الثانية المنقحة لهذه الترجمة .

(٢) وهو رئيس الفرع اللاهوري المنشق عن الجماعة القاديانية (التي تؤمن بنبوة المرزا غلام أحمد في صراحة ووضوح) ويؤمن هذا الفرع بأن المرزا غلام أحمد كان مجدداً للقرن الرابع عشر والمصلح الأكبر ، ويعتقد أنَّه المسيح الموعود ، وعلى ذلك تلتقي الطائفتان ، ويعتبرهم المسلمون جميعاً أقليةً غير مسلمة ، وعلى ذلك صدر القرار الرسمي من باكستان ، راجع للتفصيل كتاب العلامة الندوي «القادياني والقاديانية» فصل الفرع اللاهوري . طبع عن دار ابن كثير ، دمشق .

الشباب المثقف وأساتذة الجامعات؛ الذين لم يكونوا يجدون كتاباً آخر في السيرة ، يكشف لهم عن عظمة النبوة المحمَّدية والرسالة الإسلامية ، ويصور لهم البيئة والملابسات التي جاءت فيها ، وعن دورها في الإصلاح ، ويوجز لهم الحوادث التي مرت في الحياة الكريمة ، وذلك كله يدلُّ على ضرورة وجود الكتاب الإسلامي الذي يشبع به الناشئون والمثقفون رغبتهم في معرفة الإسلام وصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، فإذا لم يجدوا الشيء الكامل المثالي أشبعوا رغبتهم من الشيء الموجود الميسور .

ويلي الأستاذ محمد علي اللاهوري زميله وقرينه الداعية الإسلامي المعروف في إنكلترا والخطيب المصقع بالإنجليزية خواجه كمال الدين صاحب كتابي (The Ideal Prophet) (النبي المثالي ، و(Sources of Christianity) (منابع المسيحية) وقد كان على نفس شاكلة صديقه وأميره الأستاذ محمد علي في الاعتقاد في المرزا غلام أحمد وإجلاله له ، وهو صاحب مركز (Woking Mission) في لندن .

المؤلفون المعاصرون:

وإذا صرفنا النظر عن هذه الطبقة ، فالذي طبق صيتُ عمله العلمي الشرقَ والغربَ ، إنما هو صديقنا الفاضل الدكتور حميد الله الحيدرآبادي الهندي النزيل حالياً «بباريس» وهو صاحب الترجمة الفرنسية لمعاني القرآن الكريم التي نالت قبولاً واعتماداً في الأوساط العلمية الفرنسية ، وأخصُّ بالذكر من مؤلفاته بهذه المناسبة كتابين ، الأول «التعريف بالإسلام» (Introduction to Islam) والثاني «محمد رسول الله» (Mohammad Rasoolullah) الكتابان اللذان عن طريقهما استطاع آلاف المسلمين الناطقين باللغة الإنجليزية وحدها أن يعرفوا ويفهموا الإسلام ونبيه ﷺ والتطور[1] ، وله كتابٌ في

(١) اقرأ أمثلته ونماذجه العجيبة في كتاب العلامة الندوي «القادياني والقاديانية» في الفصل الثالث «الفرع اللاهوري عقيدته وتفسيره» .
ومن الحقائق العلمية والتاريخية التي يجب أن تسجل أن الزعيم السيد أحمد خان رائد التعليم الغربي في الهند ، ومؤسس الجماعة الإسلامية في علي جراه ، هو الّذي شق=

السيرة النبوية باسم (Muhammad the عليه وآله وسلم ، لكن الذي يدل على جلالة شأنه ، وطول باعه ، وسهره على البحث والتحقيق ، والجهود المضنية وإعمال التفكير الطويل ، هو كتابه «صحيفة همام بن منبه» Sahifa Hammam bin Munabbih الذي أكد فيه بحجج لامعة أنَّ عملية جمع الحديث وتدوينه قد بدأت في عهد النبوة ذاته ، ودامت مستمرةً حتى عهد أصحاب الصحاح والسنن ، ولا تتخللها فترةٌ أو فجوةٌ زمانيةٌ ، وقد قام الأستاذ من خلال وضع كتابه هذا بخدمةٍ قيِّمةٍ لا للحديث فحسب ، بل للإسلام ، تستوجب الاعتراف والتقدير والشكر من أبناء الإسلام.

ولا يسعنا أن نغضَّ البصر عن خدمات الأستاذ الدكتور مصطفى الأعظمي في هذا الصدد ، الذي أيّد رأي الدكتور حميد الله بوثائق تاريخية ، وقام بتصعيد عمل الدكتور من خلال الكتاب الذي وضعه باسم (StuDies in Early Hadith LIterture -) وعضد الدعوى بتفصيلٍ أكثر ، ودليلٍ أقوى ، ويعد كتاب الأستاذ ايم ـ اي شوستري (Outlines of Islam Culture) وتأليف الدكتور برهان أحمد فاروقي (the Mujaddid,s Conception of Tauhid) إضافةً قيِّمة إلى المكتبة الإسلامية.

ولا بأس أن ندرج في قائمة المؤلفين باللغة الإنجليزية على المواضيع الإسلامية ـ مع الاعتراف والتقدير ـ الحافظ غلام سرور ، والدكتور السيد عبد اللطيف الحيدر آبادي اللذين قاما بترجمة القرآن باللغة الإنجليزية بالإضافة إلى أعمالهما الأخرى ، وسير مين جنك ، والدكتور مير ولي الدين ، والدكتور عبد المعيد خان ، والأستاذ ظهير الدين الفاروقي[1]

= هذا الطريق وسبق إليه في تفسيره للقرآن ، وكل من جاء بعده اقتطف منه ، وسار على منهجه ، ووفاق عليه في كثر من الأحيان كما هي العادة في مثل هذه الاتجاهات.

(١) له كتاب جيد عن الإمبراطور أورنك زيب عالميكر الملك المسلم الّذي احتدم النقاش حوله واتخذ غرضاً للهجوم والاتهامات في الأوساط الهندكية الطائفية ومؤلفات المؤرخين الهندوس والإنجليز، واسم كتاب الأستاذ الفاروقي (Auyangebc HisAge) «أورنك زيب وعصره».

والسيد مظفر الدين الندوي[١] والحاج مولانا فضل الكريم ، والسيد أطهر حسين ، والسيد محيي الدين ، لكن ذلك كله لا يغطي المساحة الزمانية التي تمتد على قرنٍ كاملٍ ، وتبتدىء من ١٨٧٥م وتنتهي إلى ١٩٨١م .

بعض مؤلفات الكتَّاب «المهتدين» القوية :

ومما يبعث على العجب ، ويدلُّ على قوة الإسلام وإعجازه ، وقدرته على الغزو العلمي ، أنَّ رجلاً حديث العهد بالإسلام وضع كتابين باللغة الإنجليزية ، هما من أحسن الكتب التي تبعث الإيمان ، وتشحذ الروح ، وتغذِّي القلب ، وتفيض بروح الثقة والاعتزاز ، أعني محمد أسد الذي كان يتسمى قبل أن يتشرف بالإسلام ، (Leopold Weis) وهو ألماني ينحدر من سلالة يهودية ، وقد أثار كتابه الأول «الإسلام على مفترق الطرق» (Islam At The cross Roads) اليقظة الفكرية ، وروح الثقة واليقين عبر العالم الإسلامي ، لا عبر آسيا فحسب ، فلا نعلم كاتباً ولا كتاباً منذ عهدٍ بعيد يدافع عن السنة النبوية ، والحضارة الإسلامية هذا الدفاع القوي الذي يقوم به هذا الكتاب ، كما أنه لا نجد كاتباً أوربياً تحدَّث عن نقط الافتراق والاختلاف فيما بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية في هذا الوضوح والتفصيل والدِّقَّة ، وتناول الحضارة الغربية بهذا النقد اللاذع المرِّ المدعم بالدلائل والوثائق ، وقد وضع الأستاذ محمد أسد هذا الكتاب خلال إقامته بالهند ، وقد نقله الأستاذ عمر فروخ إلى اللغة العربية باسم «الإسلام على مفترق الطرق» وظهرت له طبعات .

أمَّا كتابه الثاني فهو (Road to Mecca) الذي استُقبل في أوربا وأميركا بحفاوةٍ وإقبال ، وقرىء بشوقٍ ورغبةٍ ، تحدَّث فيه المؤلف عن فضل الحضارة الإسلامية ، وشمولية الإسلام وعظمته بلباقةٍ وقدرةٍ ، وحاول محاولةً موفَّقةً ـ من خلال تصوير جزيرة العرب والمجتمع الإسلامي ، ومجتمعات الدول الإسلامية تصويراً دقيقاً ـ أن يثبت فضل المجتمع

---

(١) هو صاحب كتاب (Muslim Thuoght & Source) «الفكر الإسلامي ومصدره» .

الإسلامي والحضارة الإسلامية في أذهان الأميركان والأوربيين في طي الحديث عن التجارب التي مر بها في رحلته الصحراوية ، وأثناء القيام «بمهنته الصحافية» التي من أجلها تجشم هذا السفر الطويل الخطر ، وذلك كله في ثوبٍ قشيبٍ من لغته الأدبية الرفيعة ، ونقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية باسم «الطريق إلى مكة» وترجمه إلى اللغة الأردية فقيد الدعوة الإسلامية المرحوم الأستاذ محمد الحسني على سماحٍ من المؤلف ، ونشره المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ[١] ، وظهرت ترجمته إلى اللغة الهندية أيضاً.

ولا يمكن التغاضي بمناسبة الحديث عن المؤلفات الإنجليزية ، على المواضيع الإسلامية التي دبجها قلم السيدة مريم جميلة الحديثة العهد بالإسلام ، وهي امرأة أمريكيةٌ فاضلةٌ ، مثقفةٌ ثقافةً واسعةً ، وكانت تعرف قبل أن يكرمها الله سبحانه بالإسلام بـ (Margaret Marcus) إنَّ كتاباتها تتأسس على دراسةٍ عميقةٍ لتاريخ الحضارة الغربية وانطلاقٍ وتحررٍ كامل عنها بل وثورةٍ شاملةٍ عليها ، وكتاباها (Islam Versus the west) «الإسلام إزاء الغرب» و(Islam & Modernism) «الإسلام والتجدُّد» من أهم الكتب التي تمتاز بأصالة الفكر والدراسة ، وعمق النظر ، وتنمُّ عن الفهم الإسلامي ، والاستقلال الفكري في نقد الحضارة الغربية ، وتقييم حركات التجدد والتغريب.

المجمع الإسلامي العلمي وإنتاجه:

ومن أحدث المجامع العلمية سناً وأكثرها إنتاجاً (وخاصة في اللغة الإنجليزية) «المجمع الإسلامي العلمي»[٢] في ندوة العلماء بلكهنؤ ، الذي قام في سنة ١٩٥٩م ، وكان المقصود من هذه المؤسسة إعادة الثقة في الشباب المسلم المثقف بجدارة الإسلام ، ليس للبقاء والاستمرار ، بل

---

(١) بعنوان «طوفان سي ساحل تك» مع مقدمة للعلامة الشيخ الندوي.

(٢) يعرف بالإنجليزية (The Acalemy Of Islamic Reserarch & Publicatin).

لقيادة الركب البشريّ ، وحلّ المعضلات العصرية ، والإيمان الجديد القويّ بصاحب هذه الرسالة ـ ﷺ ـ وبأنه هو «خاتم الرسل» وإمام الكلّ ، ومنير السبل ، وسيرته وتعاليمه ، والدراسات المقارنة ، والبحوث العلمية التي تجمع بين التعبير الصحيح عن الإسلام ، وإقناع العقل الجديد ، وقد بدأ كنواةٍ صغيرةٍ بإمكانياتٍ محدودةٍ ، لا تتصور لمثل هذه المشروع العلمي الأكاديمي الواسع ، وقد قام في فترة تقلُّ عن ربع قرن بنشر ١٥٥ كتاباً في لغات مختلفة ، منها خمسون (٥٠) في الإنجليزية ، وأكثر من ستين (٦٠) في الأردية ، وسبعة وثلاثون (٣٧) في العربية وستة (٦) في اللغة الهندية.

ومن أجدر مطبوعاته بالذكر ترجمة كتاب «السيرة النبوية» لصاحب هذا البحث باسم ـ (Mohammad Rasulullah) وكتاب «الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة» و«الدراسة المقارنة» باسم (Four Pillars of Islam) وترجمة كتاب «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» باسم (Western Civilization Islam and Muslims) وترجمة كتاب «الصراع بين الإيمان والمادية» باسم (Religion & Civilization) وكتاب «بين الدين والمدنية» باسم (Religion & Civilization) وكتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» باسم (Islam & the World وسلسلة كتب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» باسم (Saviours of Islam Spirit) (١ ـ ٢ ـ ٣) وترجمة كتاب «القادياني والقاديانية» باسم (Qadianism A critiCil study The Musalman).

وهذه الكتب كلها بقلم صاحب هذا المقال ، أمّا لغيره: فقد نشر المجمع ترجمة كتاب «خطبات مدارس» «الرسالة المحمدية» للعلامة السيد سليمان الندوي ، باسم (Muhammad The Ideal Prophet) وكتاب في الخلفاء الراشدين للسيد أطهر حسين ، باسم (The Glorious Caliphate وسلسلة كتب «معنى الحديث ورسالته» للعالم الشهير الشيخ محمد منظور النعماني منشىء مجلة «الفرقان» (Meening and Message of the Traditions وكتاب «ما هو الإسلام؟» (what Islam is?) وكتاب «الدين والشريعة» باسم (Islam, Faith and Practice) وكتاب «بماذا يحدِّث

القرآن؟» له أيضاً باسم (The Quran and you) ورسالة القرآن (The Messaq of Quran) للسيد أطهر حسين.

هذا ما عدا كتب في التاريخ والأدب كترجمة كتاب «روائع إقبال» باسم (Glory of Iqbak) وكتاب «الهند في العهد الإسلامي» للعلامة السيد عبد الحي الحسني باسم (India During Muslim Rule) و«هندوستاني مسلمان» باسم (Muslims in India) وكتاب في سيرة الإمام السيد أحمد الشهيد، وحركته الإصلاحية والجهادية الكبيرة باسم (Saiyid Ahmad Shahid) للسيد محيي الدين، عدا مجاميع محاضرات ألقيت في أوربا وأميركا، كحديث مع الغرب باسم (Speaking Plainly to The west) وأحاديث صريحة في أميركا باسم (From The Depth of Heart in America).

وقد اقتصرنا على الكتب التي نشرت في اللغة الإنجليزية، وقد كان للدكتور محمد آصف القدوائي، والسيد محيي الدين الفضل الكبير في نقل أكثر هذه الكتب إلى اللغة الإنجليزية الأدبية العصرية[(١)]، وقد كان للدكتور محمد آصف القسط الأوفر في هذا العمل العلمي الأدبي[(٢)]، وقد نالت هذه الكتب والترجمات رضاً وإعجاباً في الأوساط العلمية والدعوية وفي القارات الثلاثة: أوربا، وأمريكا، وإفريقية، ولا يزال لها طلب وعليها إقبال في هذه القارات يصعب على المجمع الإسلامي العلمي - بإمكانياته المحدودة - تحقيقه ومسايرته.

الإنتاج العلمي التحقيقي الكبير في اللغة الأردية:

هذا كلُّ ما تحدثت عنه من الإنتاج العلمي أو العمل الأكاديمي في مقاصد إسلاميةٍ وموضوعاتٍ علمية، الذي تم في القرن العشرين الميلادي، وكان كله أو جله برز إلى الوجود في شبه القارة الهندية قبل التقسيم، إلا النزر القليل الذي تم بعده، إنما يختص باللغة الإنجليزية.

(١) يستثنى من ذلك كتاب (Rallanism) ترجمة الدكتور ظفر إسحاق الأنصاري.

(٢) قال للعلامة الندوي بعض أدباء الإنجليزية: إنَّ ترجمة كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» بالإنجليزية مثال رائع للترجمة، قلَّ ما يوجد له نظير.

أمَّا إذا تخطينا حدود اللغة الانجليزية ، فأخذنا اللغة الأردية بعين الاعتبار ، اللغة التي كانت ولا تزال اللغة العلمية الراقية الثانية بعد اللغة الإنجليزية ، ولغة التأليف والتفاهم بين المسلمين بصفةٍ عامة ، ولغة التعارف في الولايات الهندية ، والتي يدرسها ويفهمها عددٌ لا يستهان به من المثقفين الهنادك ، فمما يجب الاعتراف به وتسجيله للتاريخ والأجيال الصاعدة: أنَّ الإنتاج العلميَّ المؤسس على الدراسة العميقة ، والجدية والأصالة ، وغزارة المادة والقيمة العلمية ، كان أضخم وأعظم فيها من كلِّ لغةٍ من لغات العالم الإسلامي ، وكان للعلماء المتخرجين في «المدرسة (بأوسع معانيها) الدينية الشرقية العربية» الدور القيادي في هذا النشاط العلمي والفكري ، واليقظة الإسلامية والجهاد المعنوي الذي كان في بعض الأحيان أفضل الجهاد في هذا الصراع الفكري ، والقلق النفسي الذي كان يعانيه الشباب المسلم الجامعي ، بل في زمن الردَّة الفكرية والحضارية ـ والردَّة العقائدية في بعض الأحيان ـ التي كانت تغزو شبابنا المتخرج من الجامعات الأوربية ، بل الجامعات الهندية كذلك ، نقول ذلك في ضوء الدراسة المقارنة المحايدة الدقيقة ، وفي ضوء الواقع والشهادات.

العلامة شبلي النعماني والعلامة السيد سليمان الندوي ومجمع «دار المصنفين»:

ويسعدني ، ويحلو لي أن أقول ذلك وأعلنه في مكانٍ كان له ولمؤسسه العظيم وزملائه الفضلاء وتلاميذه النجباء فضلُ الانتباه لأهميته ، وخطره ، وضرورته ، والدعوة إليه ، والبدء به ، أعني: «دار المصنفين» التي نلتقي على صعيدها ، ونعقد هذه الندوة العلمية العالمية فيها. وكان أول مجمع علميٍّ تحقيقيٍّ شعبيٍّ أنشىء في العالم الإسلامي (في حدِّ معلوماتنا) لمواجهة خطر الغزو الفكري، وكتابات المستشرقين المغرضة ، ولإقناع الشباب المثقف بفضل تعاليم الإسلام ، والتعرف بالشخصية النبويَّة الجليلة ، وبسيرتها، والجيل الذي تربى في أحضانها، وبقيمة الثروة الإسلامية العلمية.

ولما أصدر الأستاذ جرجي زيدان كتابه المشهور «تاريخ التمدُّن

الإسلامي» من مصر في أوائل القرن العشري كان له دويٌّ في الأوساط العلمية ، وقد كان في كتاب جرجي زيدان ـ رغم غزارة المادة ، ووفرة المعلومات ـ تجنٍ على الخلفاء الأمويِّين والعباسيِّين ، وتحريفٌ لبعض الحقائق التاريخية ، وإعادةٌ لأسطورة حرق مكتبة الإسكندرية الخرافية؛ ثارت في العلامة النعماني الحميَّة الإسلامية ، ولم يمنعه ثناء المؤلف عليه وإشادته بخطره[1] ، ولا بعد المكان ، عن تناوله بالنقد العلمي المدعم بالدلائل والوثائق ، وألَّف كتاب «الانتقاد على التمدن الإسلامي» بالعربية سنة ١٩١٢م وتلقته الأوساط الإسلامية العلمية في الهند ومصر بالشكر والرضا والقبول[2] .

وقد خلفت مدرسة شبلي التأليفية آثاراً لامعةً من البحث والتحقيق والدراسة المضنية ، والاتزان الفكري ، وسداد الرأي ، وإصابة التفكير ، والتعمُّق والإمعان ، بجانب سعة الاطلاع ، ووفرة المعلومات ـ فيما يتَّصل بالمباحث والدراسات الإسلامية الأولى ـ وللمتخرجين فيها الدور الطليعي في ذلك ، لأنهم حازوا قصب السبق فيه ، فقد اختاروا من الأساليب اللغوية ، والمناهج الأدبية ، والبيانية ما يتفق مع المباحث العلمية الجادة كلَّ الاتفاق ، ويوجد فيها من الحلاوة الأدبية والكتابية ، والرشاقة الإنشائية ـ بكميتها الصحيحة ، ونسبتها المعتدلة ـ ما كان لا بدَّ منه لاستقطاب الشباب والجيل المعاصر الذي نشأ ، وتربَّى في المحيط الأدبي ، والبيئة المولعة بانتقاء اللغة ، وتنقيح مناهج الكلام إلى أمثال تلك المباحث العلمية والتاريخية الجافَّة ، وقد كان لكتاباتهم فضلٌ كبيرٌ في إعادة الثقة إلى الطبقة المثقفة بالثقافة الغربية العصرية من أبناء الإسلام بالعقائد والمقررات الدينية ، وبالحضارة والثقافة الإسلامية ، وبتاريخهم الزاهر ، وبلغتهم وآدابهم ، وفي إحياء الاعتداد بالنفس ، والثقة بالذات ، وإزالة «مركب

(١) الجزء الثاني من كتاب تاريخ التمدن الإسلامي مقدمة الطبعة الأولى ص ٢٦٠ .

(٢) صدر الكتاب عن مطبعة آسي بريس لكهنؤ طبع الحجر في ٨٢ صفحة طبع الحجر وصدر أخيراً بعناية المحقق عن دار ابن كثير بدمشق .

النقص» الذي أحدثته الهزيمة في الصراع مع الاستعمار الإنجليزي في ١٨٥٧م ، وأصَّلته الثقافة الغربية ، والغزو الفكري الأوربي.

ثم إنَّ كتاباتهم تتميَّز بالأصالة (Origenality) ، والنزاهة ، والتجرُّد - إلى حدٍّ كبير - من التطرُّف ، وسوء الفهم ، ذلك الذي ينشأ طبيعياً من الدراسة غير المباشرة ، ومن المعلومات الحاصلة بالوساطة ، وبطريقٍ غير مباشرة، والذي وقع - ولا يزال يقع - فريسته المستشرقون ، ورجالاتُ العلم والبحث في أوربا ، وتلاميذهم في الشرق والغرب . . . وذلك بفضل تعمُّق هؤلاء العلماء والمؤلفين في اللغتين العربية والفارسية ، وتحصيلهم للعلوم الإسلامية ، وتخرجهم فيها بطريقٍ منظَّمٍ ، واطلاعهم المباشر على المصادر ، والمراجع الإسلامية الأصلية ، واقتدارهم على الاستفادة منها ، والرجوع إليها متى شاؤوا.

وكان من أكبر مآثر العلامة شبلي النُّعماني صاحب فكرة «دار المصنِّفين» ومشروعها[١] ، البدءُ بتأليف سيرة النبي على صاحبها الصلاة والسلام في إطارٍ أوسع ، وفكرةٍ أشمل وأكمل مما جرى عليها مؤلفو السيرة في الزمن القديم والحديث ، وقد وسَّعها ومدَّها تلميذه وخليفته النابغة العلامة الدكتور السيد سليمان الندوي ، فأكملها في سبعة أجزاء ، الجزء الأول من هذه السلسلة بكامله بقلم العلامة شبلي النعماني ، والجزء الثاني فيه زيادات من تلميذه العلامة السيد سليمان الندوي ، والأجزاء الباقية كلها بقلمه السيَّال وبيانه السلسال ، وتفصيله: إنَّ المجلد الثالث يتعلق بالدلائل والمعجزات ، والرابع خاص بمنصب النبوة ، ويبحث عن حقيقة منصب النبوَّة وخصائصها ، وعن واقع العالم المتمدِّن والجزيرة العربية عند

---

(١) كانت «دار المصنفين» (المجمع العلمي التحقيقي) أمنية العلامة شبلي النعماني العزيزة ، وقد خطط ، ووقف لها أرضاً من ملكه ، ولكن لم يمهله الأجل ، فقام بإنشائها وإبرازها إلى حيِّز الوجود تلميذه وخليفته العلامة السيد سليمان الندوي في نوفمبر ١٩١٤م.
وكان العلامة حميد الدين الفراهي (عبد الحميد الفراهي) رئيسها الأول ، وكان الشيخ مسعود الندوي مديرها العام والمسؤول عن المكتبة والأمور الإدارية.

البعثة ، ويبحث في العقائد الإسلامية في تفصيل ، والخامس خاص بالعبادات البدنية والمالية والقلبية ، والجزء السادس يشتمل على التعليمات الخلقية ، وفلسفة الأخلاق في الإسلام. وهو من البحوث التي تعتبر من مزايا هذا الكتاب ، أما السابع الأخير فيبحث عن المعاملات والسياسة ، وهكذا أصبح الكتاب موسوعةً في السيرة وتعاليمها وآثارها.

ومنها كتاب العلامة النعماني في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب المعروف «بالفاروق»[١] الذي يعدُّ من الآثار الأدبية الخالدة ، ومثالاً للإنشاء البليغ القوي ، الذي غرس في قلوب كثيرٍ من الشباب المسلم المثقف بالثقافة الغربية حبَّ الإسلام ، وبذور الإيمان ، وأصبح حافزاً لهم على الصمود أمام الهجمات الغربية ، الفكرية والحضارية ، وعرض نموذجاً عصرياً راقياً ـ كان المثال المحتذى ـ في تأليف سير الرجال والعظماء ، وذلك في كتبه «الغزالي» و«جلال الدين الرومي» و«المأمون» و«الإمام أبو حنيفة النعمان» وصاغ تلاميذه التاريخ الإسلامي الذي كاد يكون مهجوراً ، أو مطموراً في بطون الدفاتر ، صياغةً جديدةً تتفَّق مع الأسلوب العصري ، والمنهج الفكريِّ الجديد ، وذلك في ضمن كتب «أسوة الصحابة» و«سير المهاجرين» و«وسير الأنصار» و«سير التابعين» وغيرها[٢].

وإذا كانت قيمة بحثٍ علميٍّ وكتابٍ جليلٍ تتمثل في موادِّه ، وغنائه بالمعلومات المستندة إلى الدلائل العلمية القوية ، المبنية على التحليل والاستعراض ، المنتقاة من الوثائق والشواهد ، والحجج اللامعة ، فإنَّه يمكن القول بكلِّ تأكيد ، إنَّ «شعر العجم» للعلامة شبلي النعماني في تاريخ الشعر الفارسي ، وتحليله ، ونقده ، وتراجم شعراء إيران ، وكتابيه: «الجزية في الإسلام» و«حقوق الذميين» اللذين يبحثان في حقيقة الجزية الإسلامية وحقوق الذميين ، وواجباتهم في الإسلام ، وكتابيه القيمين:

---

(١) نقله إلى العربية الأستاذ جليل الحفناوي ، وطبع حالياً بالقاهرة.

(٢) انظر للاطلاع على ترجمة العلامة النعماني ومآثره القيمة في مجال العلم والتأليف كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن الرابع عشر الهجري».

«مكتبة الإسكندرية» و«نظرة على أورنك زيب عالمكير». اللذين يدحضان الافتراءات المتداولة لدى الخاصة والعامة، ويكشفان اللثام عن الحقائق التاريخية الناصعة(١). إنَّ هذه الكتب من أعلى نماذج كتابة التاريخ، والنقد العلمي؛ والدراسات التحليلية.

ثم يأتي بعد ذلك دور العلامة السيد سليمان الندوي أنبغ تلاميذ العلامة شبلي النعماني، ومن كبار أبناء ندوة العلماء ونوابغها، فيضع كتاب «أرض القرآن» وهو أول كتاب في لغةٍ شرقيةٍ إسلاميةٍ على جغرافية أرض النبوات وعهد القرآن، بحث فيه عن تاريخ العرب، وحروبهم قبل الإسلام، وموجات الهجرة من الجزيرة العربية، وإليها، وعن ألسنتهم، وأديانهم، وتجارتهم، وطرق حضارتهم، ألَّفه سنة ١٩١٥م وقد استفاد فيه من المصادر الأجنبية في توسُّع، وكتاب «عرب ومندكي تعلقات» (الصلات بين العرب والهند) و«عربون كي جهان راني» (الملاحة عند العرب) و«خيام» الكتب التي هي وليدة بحثٍ دقيق، ودراسةٍ موسعةٍ، وغوصٍ في أغوار المكتبة الإسلامية الغنية الزاخرة، وشغفٍ منقطع النظير بالعلم والبحث والاطلاع، والاستفادة، والتوسُّع والتعمُّق في المعلومات، وعلى ذلك فهي تمثِّل النمط العلميَّ، والأدب العالي الذي يحقُّ لِلُّغة الأردية، وللجيل الجديد، أن يفتخرا به.

إنَّ «عمر خيام» كان مفخرة إيران، ومن نوابغ شعرائها، وكبار علماء العلوم الرياضية فيها، لكنها ـ إيران ـ لا تستطيع أن تقدِّم كتاباً يضارع هذا الكتاب ـ في قليلٍ أو كثير ـ في إزاحة اللثام عن جوانب عظمة هذا النابغة، ومآثره العلمية. وفي الدراسة المضنية التاريخية الموضوعية.

أما كتابه «خطبات مدراس» الذي نقل إلى اللغة العربية باسم «الرسالة

---

(١) كان التاريخ قد أصبح في أواخر القرن التاسع عشر وفي أوائل القرن العشرين للاحتلال الأوربي في الأقطار الإسلامية مدخلاً واسعاً للشبهات حول الإسلام وحضارته أيام حكمه ومعاملته لمن كان تحت حكمهم، وكان لا بدَّ من العناية بعرض التاريخ الصحيح، ودحض الشبهات، ونفي الافتراءات.

المحمدية»[١] فهو من أقوى ما كتب في السيرة النبوية ، والرسالة المحمدية ، وأكثره تركيزاً ، وأغزره مادةً ، وأشده تأثيراً ، وكذلك كتابه «سيرة عائشة» من أحسن ما كتب في هذا الموضوع ، وفي سيرة الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين رضي الله عنها .

وقد فاق العلامـة السيد سليمان الندوي أستاذه أحياناً في سعة الدراسة ، والاطلاع على المصادر الحديثية والفقهية ، والتزام ما عليه الجمهور من أهل السنة من المسلك في المسائل الخلافية والكلامية ، ولكلٍّ درجات[٢] .

وقد التفَّت حول العلامة السيد سليمان الندوي ـ روح هذه المؤسسة العظيمة وقطبها ـ مجموعةٌ من الكتاب الإسلاميِّين ، والمؤرخين الباحثين ، أكثرُهم من متخرجي دار العلوم ندوة العلماء التي كانت ، ولا تزال ، تمدُّ هـذه المؤسسة بأبنائها النجباء، نكتفي هنا في هذه العجالة بذكر الكاتب القدير البحاثة الشيخ عبد السلام الندوي[٣] صاحب كتاب «أسوة صحابة» الذي تلقي بالقبول في الأوساط الدينية العلمية و«شعر الهند» و«حكماء الإسلام» وغيره من الكتب ، والعالم الجليـل الشيخ عبد الباري النـدوي أستاذ الفلسفة في الجامعة العثمانية بحيدر آباد ، صاحب البحث القيم في المعجزات النبوية من زاوية الفلسفـة الحديثة والعلوم العقلية المدرج في الجزء الثالث من سيرة النبي ﷺ ، وكتابي «بين الدين والعقل»[٤] و «بين الدين والعلم»[٥] والأستاذ الفاضل الحاج معين الدين الندوي ، والكاتب

---

(١) نقله الأستاذ محمد ناظم الندوي إلى العربية ، وصدرت له عدة طبعات في البلدان العربية .

(٢) انظر للاطلاع على ترجمته بكاملها كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن الرابع عشر الهجري» .

(٣) يعتبره كثير من النقاد أشبه تلاميذ العلامة شبلي النعماني بأستاذه في الأسلوب والبيان واللغة .

(٤) اسمه في الأردوية «مذهب وعقليات» وقد نقله إلى العربية الأستاذ واضح رشيد الندوي بعنوان «بين الدين والعقل» .

(٥) اسمه في الأردوية «مذهب وسائنس» نشره المجمع الإسلامي العلمي ، في ندوة العلماء ، لكهنؤ (الهند) .

الأديب الناقد والمؤرخ الفاضل الشيخ معين الدين أحمد الندوي ، والأستاذ الباحث السيد رياست علي الندوي ، والأستاذ السيد نجيب أشرف الندوي ، والشيخ سعيد الأنصاري ، والشيخ عبد السلام القدوائي الندوي ، والأستاذ مجيب الله الندوي ، والأستاذ ضياء الدين الإصلاحي ، وأخيراً لا آخراً المؤرخ الأديب ، والكاتب الكبير ، السيد صباح الدين عبد الرحمن مدير دار المصنفين حالياً ، ورئيس تحرير مجلة «المعارف» التي كانت ولا تزال تعدُّ أرقى المجلات العلمية التي يصدرها مجمعٌ علميٌّ في شبه القارة الهندية ، وللبحوث والمقالات التي تنشر في هذه المجلة قيمةٌ كبيرةٌ في الأوساط العلمية .

ندوة المصنفين في دلهي :

وقد قام بعد دار المصنِّفين (التي قامت سنة ١٩١٤م) مجمعٌ علميٌّ آخر باسم «ندوة المصنِّفين» في دلهي ، مُنشئها ومديرها سماحة الشيخ المفتي عتيق الرحمن العثماني ، وقد نشأت عام ١٩٣٨م ، وكان من أصحاب فكرتها والذين يرجع إليهم الفضل في نشوئها الزعيم المسلم المجاهد المرحوم الشيخ حفظ الرحمن سكرتير جمعية العلماء سابقاً ، وهي تصدر مجلةً علميةً شهريةً هي مجلة «برهان» يرأس تحريرها فضيلة الأستاذ سعيد أحمد الأكبر آبادي ، ولها مطبوعاتٌ قيِّمةٌ حازت القبول والتقدير في الأوساط الإسلامية العلمية ، وقد تجاوزت منشوراتها مئة كتابٍ في علوم القرآن والحديث والسنة ، والأخلاق والتربية ، ونظام الإسلام السياسي والاقتصادي ، وتاريخ البلاد ، وتاريخ الفقه ، وتاريخ التصوُّف الإسلامي ، وأئمته ورجالاته في الهند[1] ، وفي التراجم والسير ، يعدُّ عدد منها فريداً في موضوعه ، وذا قيمةٍ علميةٍ ، وتحقيقيةٍ كبيرةٍ .

---

(١) من أهمها كتاب «ترجمان السنة» في أربعة أجزاء للعالم الكبير الشيخ بدر عالم الميرتي و«قصص القرآن» للشيخ حفظ الرحمن و«الرق في الإسلام» و«صديق أكبر» للأستاذ سعيد أحمد الأكبر إله آبادي «وتاريخ مشايخ جشت» للأستاذ خليق أحمد نظامي .

كتاب وباحثون آخرون :

وقد لمعت أسماء بعض المؤلفين الباحثين خارج هاتين المؤسستين العلميتين الكبيرتين ، وصدرت لهم كتبٌ ذات قيمةٍ كبيرةٍ في موضوعها ، من أشهرها مولانا أبو الكلام آزاد الزعيم المسلم المشهور ووزير التربية الأسبق في الجمهورية الهندية ، صاحب ترجمة معاني القرآن إلى اللغة الأردية المعروفة «بترجمان القرآن» مع تعليقاتٍ ذات قيمةٍ علميةٍ وأدبية وبعض بحوثٍ مبتكرةٍ ، والكتاب رغم أنه لم يكمَّل فقد أثر في الطبقة المثقفة تأثيراً قوياً ، وقرَّبها إلى دراسة القرآن ، والاعتراف بإعجازه ، وذلك لمستوى الكتاب الأدبي الرفيع ، والأسلوب البليغ القويِّ ، والعلامة السيد مناظر أحسن الكيلاني صاحب كتاب «النبي الخاتم» و«تدوين الحديث»[1] و«نظامنا التربوي القديم» و«نظام الاقتصاد الإسلامي» و«حياة الإمام أبي حنيفة السياسية» وغيرها ، والأستاذ عبد الماجد الدرياآبادي ، صاحب «محاضرات وبحوث في القرآن» ، وكتاب : «التصوُّف الإسلاميُّ» والعلامة عبد الرؤوف الدانافوري صاحب كتاب «أصحُّ السير» و«الإسلام والقضايا المدنية» والأستاذ الكبير السيد أبو الأعلى المودودي مؤسس الجماعة الإسلامية في الهند صاحب كتاب «الجهاد في الإسلام» الذي أصدرت طبعته الأولى «دار المصنفين» سنة ١٩٣٠م وكتاب «الحجاب في الإسلام» و«مسألة الربا» ، ومجموع مقالات في نقد الحضارة الغربية وقيمتها ومثلها المعروف «بتنقيحات» ومجموع مقالات أخرى في موضوعات إسلامية المعروف «بتفهيمات» وتفسير «تفهيم القرآن» تتميز كتاباته العلمية بإيثار طريقة الهجوم على طريقة الدفاع والاعتذار ، وكان رغم اختلافنا عن بعض وجهات النظر وبعض الملاحظات ، الاختلاف الذي يتسع مجاله مع كل عالم وباحث وفي كل عصر ومصر[2] ، لا بدَّ من الإشارة إلى أنه كان لبحوثه العلمية الأولى التي تكلَّم فيها عن مستوى عالٍ وفي أسلوب قوي ، ولمقالاته ورسائله في

---

(١) نقله إلى العربية الدكتور عبد الرزاق الإسكندر .
(٢) ليراجع كتاب العلامة الندوي «التفسير السياسي للإسلام» طبع الهند ومصر .

مشكلات العصر ، وحلولها الإسلامية ، دويٌّ في الأوساط الإسلامية التي كانت تعاني قلقاً فكرياً ، وكانت في دور انتقال ، وكان لها فضلٌ في إعادة الثقة في الطبقة المثقفة بجدارة الإسلام وفضله ، والحاجة إليه ، والأستاذ سعيد أحمد الأكبر آبادي صاحب كتب: «الرق في الإسلام» و«الصديق الأكبر» وغيرهما من المؤلفات ، والبروفيسور خليق أحمد النظامي رئيس قسم التاريخ في جامعة علي كره ، والدكتور نذير أحمد رئيس القسم الفارسي في تلك الجامعة ، والأستاذ ضياء الحسن الفاروقي ، والدكتور نجاة الله الصديقي.

وهناك كتابٌ ناهضون لهم مستقبلٌ زاهرٌ في عالم التأليف والبحث ، لا يتسع هذا المجال لذكرهم ، فليس هذا المقال المستعجل الذي يسطر على تشتت بالٍ ، وانشغال فكرٍ ، دليلاً شاملاً لأسماء الكتاب والباحثين ، إنما هو تعريفٌ موجزٌ للنشاط العلميِّ والحركة التأليفية في الهند.

الدراسات الإسلامية في باكستان:

ومعذرةً من ذكر الكتاب الإسلاميين المرموقين في البلد الشقيق الجار باكستان في تفصيلٍ واستقصاء[١] ، فقد شمل الحديث عن شبه القارة الهندية هذا الجزء ، وإن لم يتسع المجال والوقت للتوسُّع ، فلا يسع التغاضي عن ذكر العلامة المرحوم محمد شفيع المشرف على دائرة المعارف الإسلامية الأردية ، الصادرة من جامعة بنجاب ، والدكتور اشتياق حسين قريشي وزير المعارف الأسبق ، والدكتور محمد رفيع الدين صاحب الكتاب القيم «القرآن والعلم الحديث»[٢] والدكتور السيد عبد الله المشرف على دائرة المعارف الإسلامية ، والأستاذ بزمي أنصاري ، والأستاذ محمد أسلم ،

---

(١) وقد منعت الحواجز المصطنعة غير الطبيعية عن الاطلاع الواسع والتتبع الدقيق للحركة العلمية ، والمؤسسات الفكرية ، والكتب ، والمجلات الصامدة في هذا القطر الإسلاميِّ الكبير.

(٢) له كتابان مهمَّان بالإنجليزية أحدهما (Manitesta of Islam) وآخر (Ideology og Tuture).

والشيخ عبد القدوس الهاشمي الندوي صاحب مؤلفاتٍ وبحوثٍ كثيرةٍ ، وفضيلة الشيخ محمد تقي العثماني صاحب المقدمة المنيرة المستفيضة عن ترجمة كتاب «إظهار الحق» للعلامة الشيخ رحمة الله الكيرالوي ، والأستاذ عبد الحميد الصديقي ، والأستاذ مظهر الدين الصديقي ، والأستاذ خورشيد أحمد.

وقد نشأت بعد قيام باكستان مؤسستان للبحث الإسلاميِّ العلمي ، والدراسات الإسلامية ، أولاهما: مؤسسة الثقافة الإسلامية في لاهور ، والثانية: مجمع البحوث الإسلامية في إسلام آباد ، (Islamic Researeh Insitute Islamabad) التابع للجامعة الإسلامية في إسلام آباد ، يرأسه الآن الدكتور عبد الواحد هالي بوتا ، وتصدر هذه المؤسسة مجلة في اللغة العربية باسم «الدراسات الإسلامية» ومجلة في أردو باسم «فكر ونظر».

تفرق خريجي المدرسة القديمة في البحث والإنتاج العلمي:

حقيقةٌ تاريخيةٌ أنَّ علماء الهند الذين درسوا العلم على الطريقة القديمة ، لم يتخلفوا عن ركب العلم والبحث والتحقيق فترةً قصيرة من الزمن - بالعكس من عديد من الدول الإسلامية - ولم تنقطع صلتهم بلغات بلادهم وآدابها ، كما حدث في كثير من الدول الإسلامية والدول العربية ، فظلُّوا يؤدُّون دوراً قياديّاً في المجالات العلمية والأدبية ، بجانب القيام بالدور الطليعي في مجال السياسة وحركة تحرير البلاد ، وخلفوا مآثر في الأدب والنقد والشعر ، تنطق بذوقهم الأدبي الفائق ، وبتذوقهم للغة وآدابها ، واقتدارهم على النقد الأدبي ، ومهما أسماها بعض من هبَّ ودبَّ بمحاولات بدائية ، ولكنها في الواقع كمعالم في الطريق «فمقدمة شعر وشاعري» و«يادكار غالب» لمؤلفهما الشيخ ألطاف حسين الملقب في الشعر «حالي» و«موازنة أنيس ودبير [1]» للعلامة شبلي النعماني ، وكذلك كتاب «كل رعنا» لزميله العلامة السيد عبد الحي (رحمه) الله الحسني - أمين ندوة

(١) مقارنة بين شاعرين أورديين ومعاصرين متنافسين: «أنيس» و«دبير».

العلماء العام الأسبق - في تاريخ أردو وتراجم شعرائها ، و«ياد أيام» في تاريخ ولاية «كجرات» العلمي ، والثقافي ، والبنائي ، والاجتماعي ، والأخلاقي ، وتقدمها في ميدان التعليم والتربية والصناعات ، في عهدها الإسلامي الذهبي ، وفي تراجم علمائها ، ومشايخها ، وسلاطينها ، وهو نموذجٌ مثاليٌّ رائعٌ للكتابة في مثل هذا الموضوع يجب أن يتّبعه الكتاب والمؤرخون في كتاباتهم العلمية والتاريخية ، وأودع المؤلف في كتابه «كل رعنا» مباحث ونظريات طريفة ، ووضع من خلالها الأصبع على أخطاء تاريخية ، وآراء شاذةٍ متطرفةٍ ، تضمنها كتاب «آب حياة» للكاتب الشهير محمد حسين آزاد؛ الذي كان له سحرٌ في الأوساط الأدبية ، شغل الناس عن التمحيص والتحليل والنقد الجريء ، و«شعر الهند» للأستاذ عبد السلام الندوي ، وكلُّها حلقاتٌ ذهبيةٌ في هذه السلسلة العلمية ، ومهما تقدَّم العلم والنقد خطوات ، ومهما تكثَّفت الجهود في هذا الموضوع؛ فإننا لن ننسى ما كان لهؤلاء المؤلفين والباحثين من الفضل في خدمة اللغة والأدب ، وسوف نظلُّ مدينين لجهودهم المخلصة في هذا المجال .

أفرادٌ يقومون بدور المجامع العلمية :

وقد قام بعض الأفراد في الهند وحدهم بما تقوم به المجامع العلميَّة ، بمكتباتها الغنيَّة ، ووسائلها الوفيرة ، وجهازها التحريريِّ والإداريِّ الكبير ، من بحثٍ وتحقيقٍ ، وكتابةٍ وتأليفٍ ، وذلك كلُّه في عزلةٍ علميَّة مادِّيةٍ ، وزهادةٍ في المعونات الحكومية ، وبعدٍ عن الدعاية والشهرة ، وخمولٍ وانزواءٍ ، وإن دلَّ ذلك على شيءٍ ، فإنَّما يدلُّ على أن البيئة العلمية والتربوية القديمة التي نشأ وعاش فيها هؤلاء المؤلفون كانت أقدر على بعث روح المثابرة ، والصبر ، والجلد ، والتضحية ، وتحمُّل العناء ، والمشاقِّ من البيئة العلمية الحديثة ، والجامعات العصرية .

نخصُّ بالذكر من هؤلاء العلماء والمؤلفين العلامة محمود حسن خان التونكي (م ١٣٦٦هـ) صاحب كتاب «معجم المصنفين» (في العربية) في نحو ستين ٦٠ مجلداً ، يحتوي على عشرين ألفاً من الصفحات ، وعلى

تراجم أربعين ألفاً من المصنفين ، وقد ظهرت من الكتاب أربعة أجزاء على نفقة الحكومة الآصفية في حيدر آباد سنة ١٣٥٤ هـ من بيروت ، الجزء الأول في أمورٍ عامّة مفيدةٍ ، كأبوابٍ وفصولٍ في تقييم العلم ، وفي أوائل ما ظهر من العلوم ، وفصول في مللٍ وأممٍ مختلفةٍ بحسب عنايتها بالعلوم ، وبابٌ خاصّ بالتدوين في الإسلام ، وأبوابٍ في المؤلفين والمؤلفات على اختلاف طبقاتهم وأنواعها ، وفصولٍ في مختلف العلوم والفنون ، ومن أكبر مزايا الكتاب شموله واحتواؤه ، يقول المؤلف في مقدِّمة الكتاب بعد ذكر «كشف الظنون» للجلبي وما استدرك عليه :

«فبذلك جاء كتابنا هذا شرحاً للكشف واستدراكاً عليه في باب المصنفات ، ولم آل جهدي في الاستقصاء ، فبالغت في إحراز تراجم العلماء الذين صنفوا في العلوم التي تداولت في عهد الإسلام ، ومن العلوم الإسلامية وغيرها من معقولات الفلاسفة ، من العلماء الذين نشؤوا في بلاد العرب والعجم ، والعراق ، ومصر ، والأندلس ، والروم ، وخراسان ، وما وراء النهر ، والسند ، والهند وما وراء ذلك ، ولا أقول : إني أوعبت العلماء محلَّهم في الكتاب ، وإنه لا يغادر صغيراً ولا كبيراً من أهل التأليف إلا أحصاه بل ذلك خارجٌ عن طوق البشر»[١] .

ويدلُّ على استيعاب الكتاب أنَّ عدد من جاء ممن اسمه إبراهيم بلغ إلى ٣٤٨ اسماً ، ومع الأسف بقي هذا الكنز الثمين دفيناً في إحدى المكتبات الخطية في حيدر آباد ، لأنَّ الأعمال في الشرق الإسلامي ـ مع الأسف ـ ليست بقيمتها العلمية ، وعناء المؤلفين فيها ، وحاجة المشتغلين بالعلم إليها ، بل بالدعاية ، ووسائل النشر ، وتبنِّي المؤسسات ، والحكومات لها .

والعلامة السيد عبد الحي الحسني (م ١٣٤١ هـ) صاحب «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر»[٢] في ثمانية مجلدات تحتوي على أكثر من أربعة

---

(١) المجلد الأول ص ٢٩ .
(٢) صدرت للكتاب طبعتان من دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد (الهند) .

آلاف وخمسمئة ٤٥٠٠ ترجمة من أعيان الهند ورجالاتها ، من القرن الإسلامي الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري ، وهو الكتاب الذي عليه الاعتماد في الشرق والغرب فيما يتصل بتراجم رجال الهند وأخبارهم ، والكتاب يغطي المساحة الزمنية الممتدة من القرن الإسلامي الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري ، والمساحة المكانية الممتدة من مضيق خيبر إلى خليج بنغال ، وتلك ميزةٌ لا يُشاركه فيها كتاب في الطبقات والتراجم أُلِّف في قطرٍ من الأقطار الإسلامية والعربية[١] ، وهذا عدا ما التزمه المؤلف من التحرِّي الدقة والأمانة العلمية ، وحسن الاختيار والتلخيص ، وتحديد اختصاص صاحب الترجمة وطبقته. وكتاب «الثقافة الإسلامية في الهند»[٢] الذي هو كدليلٍ شاملٍ كاملٍ لمؤلفات علماء الهند في الفنون الإسلامية ، والأدبية ، والحكمية ، وتاريخ الحركة العلمية وتطورها ونموها ، والمناهج الدراسية ، وما طرأ عليها من تقلبات في مختلف العهود مع بيان أسبابها وخلفياتها ، ولا نعرف بلداً إسلامياً أرَّخ المنهج الدراسي فيه ، والمقررات الدراسية ، هذا التاريخ المتصل مع بيان عوامله وأسبابه ، وكتاب «الهند في العهد الإسلامي»[٣] الذي هو حلقةٌ ذهبيَّةٌ من سلسلة كتب الخطط والآثار لمختلف البلاد والأمصار ، وفصلٌ واحدٌ منه يتضمن ما انتشر في مكتبة ، وصفحةٌ واحدةٌ تقوم بكتابٍ كبيرٍ[٤].

ويدخل في هذا الطراز من المؤلفين العلامة حميد الدين الفراهي المعروف بالمعلم عبد الحميد الفراهي (م ١٣٤٩هـ) الذي هو صاحب منهجٍ

---

(١) فجميع هذه الكتب المؤلفة في الطبقات والتراجم خارج الهند تختص بقرون مخصوصةٍ ، أو ولايات مخصوصة ، أو طبقات معينة كالمحدثين والفقهاء أو النحاة أو الأطباء وغيرهم من جميع الطبقات من أهل النباهة والشأن.

(٢) قام بنشره المجمع العلمي بدمشق سنة ١٣٧٧هـ (١٩٥٨م) وقد نفدت هذه الطبعة وستصدر الطبعة الثانية مع ذيول للكتاب وتتمة من مجمع اللغة العربية .

(٣) قام بنشره دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد.

(٤) انظر ترجمته بكاملها في كتاب المحقق «الأعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن الرابع عشر الهجري» .

خاصٌ في التفسير ، يُعنى: بنسق الآيات وربطها بصفةٍ خاصَّةٍ ، له نظام الفرقان ، وهو صاحب كتاب «الإمعان في أقسام القرآن» و«الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح» وهو خير ما أُلِّف في هذا الموضوع(١) .

وكذلك العلامة عبد العزيز الميمني (م ١٣٩٨هـ) الراجكوتي صاحب «أبو العلاء وما إليه»(٢) وهو أحسن كتاب في الموضوع تحقيقاً ودقة وعمقاً ، وكتاب «سمط اللآلي»(٣) وكان المرحوم ، أحد أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق ، وجماعة تصحيح لسان العرب لابن منظور(٤) .

ومن علماء الهند البارزين الذين قاموا بدور العمل المجمعيِّ الموسوعيِّ فردياً في علم الحديث ، العلامة عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري ، الأعظم كرهي (م ١٣٥٣هـ) صاحب «تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي» في ثلاثة مجلدات كبار ، وجزء مفرد بالمقدمة ، يدلُّ على علوِّ كعبه في معرفة أسماء الرجال وفنِّ الجرح والتعديل ، وطبقات المحدثين ، وتخريج الأحاديث(٥) .

والشيخ العلامة المحدِّث محمد زكريا بن محمد يحيى الكاندهلوي السهارنفوري (المهاجر إلى المدينة المنورة) ويكفي دلالةً على سعة نظره ، ومدى عنائه في البحث والتحقيق كتابه: «أوجز المسالك إلى موطأ مالك» في ستة أجزاء كبار ، ومقدمته على هذا الكتاب ، وعلى كتاب: «لامع

---

(١) انظر ترجمته بكاملها في كتاب المحقق «الأعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن الرابع عشر الهجري» .

(٢) نشرته دار المصنفين في أعظم كره في سلسلة مطبوعاتها، وطبع بالمطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٤هـ، وفي الكتاب تقريظ وأداء بقلم العلامة أحمد تيمور، والشيخ أحمد الإسكندري، والشيخ عبد الوهاب النجار، والعلامة أحمد محمد شاكر.

(٣) نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر في مصر سنة ١٩٣٦م في ثلاثة مجلدات كبار.

(٤) انظر ترجمته وآثاره القيمة في اللغة العربية وآدابها في كتاب المحقق « الأعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن الرابع عشر الهجري» .

(٥) انظر للاطلاع على ترجمته ومؤلفاته كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن الرابع عشر الهجري» صدر عن دار ابن كثير بدمشق .

الدراري على جامع البخاري» موسوعتان صغيرتان فيما يتصل بهذين الكتابين الجليلين ومؤلفيهما العظيمين ، وبحوثٌ مفيدةٌ في أصول الحديث ، وأسماء الرجال ، ومعلوماتٌ قيِّمةٌ عن الأئمة الأربعة ومذاهبهم ، وفيما يختصُّ بالهند وأخبارهم كبار الأساتذة والمحدثين فيها ، وكذلك كتابه : «حجة الوداع» و«عمرات النبي ﷺ» يمتاز باستيعابٍ شاملٍ ، واستقصاءٍ كاملٍ في هذا الموضوع(١) .

ومنهم المحدِّث الكبير الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي ، وقد تجلَّى اختصاصه في علم الحديث ، وأسماء الرجال ، وتبصره في علوم الحديث ، ودقة نظره في إخراجه لمصنف الحافظ عبد الرزاق بن همام الصنعاني (م ٢١١هـ)(٢) ، وقد أفرد جزءاً خاصّاً بمقدمة هذا الكتاب ، وقد عُني قبل هذا بتحقيق مسند الحميدي ، وسنن سعيد بن منصور(٣) . وكتاب «حياة الصحابة» في ثلاثة مجلدات كبار للشيخ محمد يوسف الكاندهلوي (أمير جماعة التبليغ) (م ١٣٨٤ هـ) يكاد يكون موسوعةً في حياة الصحابة ، وسيرتهم الإيمانية والدعوية والخلقية والسلوكية ، ومن أجمع ما كتب في الموضوع وأكثره احتواءً وتنوعاً(٤) .

---

(١) انظر للاطلاع على ترجمته ومؤلفاته كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن الرابع عشر الهجري» صدر عن دار ابن كثير بدمشق .

(٢) قام بنشره وطبعه في بيروت المجلس العلمي الذي له مكاتب في سملك دابتهيل الهند، وكراتشي، وجوهانس برغ، وقد أنشأه الشيخ محمد ميان السملكي الهندي المقيم في جوهانس برغ (م ١٣٨٢).

(٣) وقد حقق «كتاب الزهد والرقائق للإمام عبد الله بن مبارك المروزي» و«كشف الأستار عن زوائد البزار» على الكتب الستة تأليف الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي وقد نشرت منه مؤسسة الرسالة الأول والثاني والمطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية للحافظ ابن حجر العسقلاني ، وانظر ترجمة المحدث الأعظمي بكاملها وتعريف مؤلفاته كلها في كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن الرابع عشر الهجري» .

(٤) صدرت الطبعة الأولى عن مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد ، والطبعات التالية من مختلف البلاد العربية لا تُحصى ، وصدرت الطبعة الأخيرة عن دار ابن كثير بدمشق=

ويدخل في هذه القائمة الموقرة للباحثين المحققين ، الأستاذ الكبير امتيازي علي قرشي الرامفوري (م ١٩٨١م) الذي قام بتحقيق «تفسير القرآن الكريم» للإمام سفيان الثوري ، والتعليق عليه ، والمقارنة بأصول الكتاب الأخرىٰ ، مع مقدمة ضافية في تاريخ تأليف التفسير ، وترجمة الإمام الثوري والكتاب يقع في ٢٤٤ صفحة. وفي آخره خاتمة في تراجم رجال الثوري ، والاستدراك ، ثم فهرس المآخذ والمراجع ، طبع في رامفور (الهند) سنة ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م).

وله من الكتب التي حققها وعلق عليها: «كتاب الأجناس من كلام العرب وما اشتبه في اللفظ ، واختلف في المعنى» لأبي عبيد القاسم ابن سلّام ، طبعته المطبعة القيمة لمباني الهند سنة ١٣٥٦هـ (١٩٣٨م).

دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد:

ومن المؤسسات العلمية الكبيرة التي كان لها فضلٌ كبيرٌ في إحياء الكتب الدينية والعلمية ، وبعثها من مدافنها في المكتبات العتيقة ، ونشرها بتصحيحٍ وتحقيقٍ في العالم الإسلامي ، دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد التي تأسست عام ١٣٠٦هـ (١٨٨٨م) بتوجيه العلامة السيد حسين البلكرامي ، ومولانا عبد القيوم ، ومولانا أنوار الله خان أستاذ سمو «النظام» ، وقد نشرت أكثر من مئة وخمسين كتاباً قيِّماً من كتب الحديث ، وأسماء الرجال ، والتاريخ ، والعلوم الرياضية ، والحكمية ، حُرِمها العالم الإسلامية ، والأوساط العلمية من عهدٍ بعيد ، وتسامع بها العلماء والمدرسون ، فكانت خدمةً جليلةً للعلم والدِّين ، وبرهاناً على ما كان ـ ولا يزال ـ للمسلمين الهنود من اتصالٍ روحيٍّ وفكريٍّ بالثقافة الإسلاميّة ، وحبٍّ عميقٍ لها ، وقد اعترف بجهود هذه المؤسسة العظيمة وجلالة عملها

= عام ١٩٩٩م بتحقيق رائع وتعليقات مفيدة للشيخ إلياس الباره بنكوي ، وهي في أربعة مجلدات ضخمة.

وقيمة ما تنشره من التراث العلمي كبار العلماء ، ورجال الثقافة في الشرق ، وأروبا[١] .

العمل التأليفي والتحقيقي في اللغة العربية في العالم العربي :

أمّا في اللغة العربية التي هي اللغة العلمية العالمية للعالم الإسلامي ، وأولى اللغات بأن تتمّ فيها الدراسات الإسلاميّة ، والبحوث العلميّة على مستوىً أعلى وإطارٍ أوسع ، فقد ظهرت فيها في العالم العربي مؤلفاتٌ وبحوثٌ إن لم تكن جديرة بسعة هذه اللغة ، وسعة العالم العربي وأهميته كمّاً وعدداً؛ فإنّها لا شكَّ تعتبر نماذج للبحث العلمي ، وغزارة المادة وحسن التحليل ، وتأتي في طليعة هذه الكتب سلسلة «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» للدكتور أحمد أمين بك ، على ما فيها من مآخذ وملاحظات ، وفي بعض آراء المؤلف شذوذٌ ومجالٌ للنقاش[٢] وقد سجلت تعليقاتي عليها أثناء دراستي لها ، وأخبرت بذلك المؤلف الفاضل في أولى لقاءاتي له في القاهرة في يناير ١٩٥١م ، فأحبَّ الاطلاع عليها والاحتفاظ بنسختي ، ولكن مما لا شكَّ فيه أنَّ هذه الكتب نموذج لجمع المواد المبعثرة في المصادر القديمة ، وتحليلها العلمي ، والاستنتاج منها ، وعرض التاريخ الإسلامي في الأسلوب العصري الذي لا تتفوق عليه كتابات كبار المستشرقين ، وهذا مع مجاراة الطبع والرواء ، وعدم التكلف ، وحسن الإنشاء ، وجمال العرض .

---

(١) من أهم مطبوعاتها مسند أبي داود الطيالسي ، والسنن للبيهقي ، والمستدرك للإمام الحاكم ، ومعرفة علم الحديث للحاكم في الحديث وعلومه ، والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ، وتذكرة الحفاظ للذهبي ، وتهذيب التهذيب لابن حجر في علم الرجال ، والتاريخ الكبير للإمام البخاري ، والمنتظم في تاريخ الأمم لابن الجوزي ، في التاريخ ، وكتاب البيروني في تحقيق ماللهند ، والإكمال لابن ماكولا ، والأزمنة والأمكنة لأبي علي المرزوقي في علوم مختلفة .

(٢) ليرجع إلى كتاب «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» للدكتور مصطفى السباعي ص ٢٨١ ـ ٣٠٢ .

ويلحق بذلك كتابات أمير البيان الأمير شكيب أرسلان وتعليقاته ، خصوصاً كتابه الجليل «الحلل السندسية في الرحلة الأندلسية»[1] (١ ـ ١٠) وحواشيه على كتاب «حاضر العالم الإسلامي» في أربعة أجزاء ، والكتاب من تأليف (Lothrop Stoddard) وترجمة الأستاذ عجاج نويهض ، فالأول: موسوعةٌ صغيرة فيما يتعلق بالأندلس الإسلامي ، والثاني: موسوعةٌ في واقع العالم الإسلامي ، ورجالاته ، وحركاته ، وبلاده ، وقد جاء فيه نقدٌ بصيرٌ للمستشرقين والمؤرخين الأوربيين ، ودراساتٌ قيِّمةٌ عن الحضارة الإسلامية ، والحركة العلمية فيها ، ومعلوماتٌ وثيقةٌ عن الدولة العثمانية ، وما كان يتخلَّلها من نزعاتٍ وحركاتٍ متناقضة ، وعن فتوح العرب والفتوحات الإسلامية في مختلف البلاد ، وعن تاريخ الاحتلال الأجنبي في مختلف البلاد الإسلامية والحركات المناوئة له ، وعن النهضة الإسلامية في القارات المختلفة ، ومقالاتٌ وبحوثٌ مفيدةٌ في الدفاع عن الإسلام ، ودحض الأباطيل ، وكتاب «غزوات العرب في فرنسة ، وشمالي إيطالية ، وفي سويسرة».

وكان كتاب «الأعلام» للأستاذ خير الدين الزركلي (في اثني عشر (١٢) مجلداً من أصل الكتاب ومستدركه ومجموع خطوط وصور) معجماً في سير الأفراد وقاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب ، والمستعربين والمستشرقين ، والكتاب عملٌ موسوعيٌّ مجمعيٌّ يشكر مؤلفه عليه ، ويعترف بمجهوده الفردي ، وقد ظهرت براعة المؤلف في الاطلاع الواسع والاحتواء الكبير ، وفي حسن التلخيص والاقتباس ، وتوفير الوقت والمجهود على المؤلفين والباحثين.

وكذلك مؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد ، والأستاذ محمد كرد علي ، فإنها تمتاز بالعمق ، وسعة الدراسة والثقافة ، والاطلاع على المصادر الأجنبية ، وكتب العقاد في العبقريات ، وكتابه «المرأة في القرآن» و«أثر العرب في الحضارة الأوربية» و«حقائق الإسلام وأباطيل خصومه»

---

(١) طبعت منه ثلاثة أجزاء.

وغير ذلك من المؤلفات والبحوث ، وكتاب الأستاذ محمد كرد علي «الإسلام والحضارة العربية» ، وكتابه «خطط الشام» مثالٌ للكتابة العلمية والعمل المجمعيِّ الموسوعيِّ.

كذلك كتاب «تاريخ العرب قبل الإسلام» للدكتور جواد علي ، وكتاب «تاريخ التراث الإسلامي» لفؤاد سزكين؛ عملٌ مجمعيٌّ يستحقُّ التقدير ، مع الاحتفاظ ببعض الملاحظات ، والنقد؛ الذي هو حقُّ الباحثين ، وطلاب العلم في كلِّ عصرٍ. وكتب اللواء الركن محمود شيت خطاب في الغزوات والفتوح الإسلامية بعنوان قادة الفتح الإسلامي ، و«الرسول القائد» كتبٌ ذات قيمةٍ علميَّةٍ تاريخيةٍ وعسكريةٍ، ومادةٍ غزيرةٍ من المعلومات والدراسات.

ولا ينسى في هذا الصدد المشروع العلمي الكبير والمخطط الواسع النافع الذي يقوم به صديقنا الأستاذ أنور الجندي وحده وهو «موسوعة مقدمات العلوم والمناهج» المجلد الأول منه خاصٌّ بالفكر الإسلامي ، والمجلد الثاني في تاريخ الإسلام ، والمجلد الثالث في العالم الإسلامي المعاصر ، والرابع في اللغة والأدب والثقافة ، وقد صدرت هذه المجلدات الأربعة ، أمَّا الخامس ففي التبشير والاستشراق والدعوات الهدَّامة ، والسادس في المجتمع الإسلامي ، والسابع في الحضارة والعلم والعلوم الاجتماعية ، والثامن في الإسلام وموقفه من الفلسفات والأديان ، والتاسع في الشبهات والأخطاء الشائعة ، والعاشر في حركة اليقظة الإسلامية ، ولو تمَّ هذا العمل وصدر الكتاب بجميع أجزائه كانت موسوعةً كبيرةً فيما يتَّصل بالإسلام والمسلمين ، ومكتبةً غنيَّةً في العلوم والآداب الإسلامية.

ويلحق بكتاب الأعلام للزركلي ، وتاريخ التراث الإسلامي لفؤاد سزكين ، كتاب «معجم المؤلفين» (تراجم مصنفي الكتب العربية) تأليف عمر رضا كحالة ، في خمسة عشر جزءاً وإن كان ينقصها أسماء كثير من المؤلفين المعاصرين ، ولكنه مجهود يستحقُّ التقدير والشكر[(١)].

(١) ألف الكتاب في ١٣٧٦هـ (١٩٥٧م) ونشرته مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي.

أمّا في الموضوعات الدينية الشرعية ، فكتب العلامة محمد أبي زهرة في مؤسسي المدارس الفقهية والعقائدية في الإسلام ، وفي تاريخ الفرق الإسلامية وعقائدها ، وكتاب صديقنا المجاهد الداعية الدكتور مصطفى السباعي «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» وهو أفضل ما كتب في الموضوع ، وأجمعه ، وكذلك كتابه «المرأة بين الفقه والقانون» ، وكذلك كتاب زميله وصديقنا الأستاذ مصطفى أحمد الزرقاء «المدخل الفقهي العام» مجهودٌ علميٌّ كبير يسد حاجة الأقطار الإسلامية التي يعنيها تطبيق الشريعة الإسلامية ، والقانون الإسلامي المدني ، وكذلك كتاب «التشريع الجنائي الإسلامي ، مقارناً بالقانون الوضعي» للأستاذ عبد القادر عودة الشهيد ، عمل علميٌّ تحقيقيٌّ ، وإنتاجٌ حقوقيٌّ كبير.

كذلك عمل الشيخ أحمد بن عبد الرحمن البنا الساعاتي والد الإمام الشهيد حسن البنا في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل على الأبواب الفقهية وتحقيقه ، عملٌ جليلٌ تاريخيٌّ ، وهو المسمى «بالفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني»(١) وكذلك عمل العلامة أحمد محمد شاكر في هذا الموضوع نفسه عملٌ فرديٌّ شاقٌّ ينوء بالعصبة أولي القوة(٢).

دراسات إسلامية عميقة ومقارنة:

وقد ظهر في هذه الفترة كتابٌ دلَّ على سعة دراسة عالمٍ دينيٍّ فقيهٍ ، وعمق نظره في الفلسفة القديمة والحديثة ، واطلاعه الواسع الدقيق على ما وصل إليه العلم الحديث ، ـ من الفيزياء والفلك ـ وحسن عرضه للعقيدة الإسلامية وإثباتها بالدلائل العلمية ، في إطار قصةٍ شائقة ، وهو كتاب

(١) مع الأسف لم يكمل هذا العمل ، وقد صَدَرَ عن هذا الكتاب العظيم اثنان وعشرون جزءاً ، ومع الكتاب بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني.

(٢) خرَّج العلامة أحمد محمد شاكر أحاديث الكتاب ، ورقمها ، وجعل لها فهارس للموضوعات ، وعلق تعليقات قيمة ، وقد طبع من الكتاب خمسة عشر جزءاً ، واخترمته المنية قبل أن يتمه رحمه الله.

«قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن» للشيخ نديم الجسر مفتي طرابلس ولبنان الشمالي[١].

وكذلك كتابان للعالم العراقي الأستاذ محمد باقر الصدر يتَّسمان بعمق الدراسات المقارنة والاطلاع الواسع ودقة النظر في الفلسفات والنظم المعاصرة، وهما كتاب «اقتصادنا» في جزءين، الجزء الأول في دراسة موضوعية للمذاهب الاقتصادية، والجزء الثاني في محاولةٍ لاستنباط المذهب الاقتصادي في الإسلام، والكتاب الثاني «فلسفتنا» وهي دراسةٌ موضوعيةٌ في معترك الصراع الفكري القائم، ومن البديهي أنَّه لا يستلزم هذا الاعتراف الموافقة الكلية على ما جاء في هذين الكتابين.

ويأتي بعد ذلك دور كتابات الأستاذ سيد قطب الشهيد، في مقدمتها كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام» ومؤلفات أخيه محمد قطب ككتابه: «شبهات حول الإسلام» وكتبه في التربية الإسلامية وعلم النفس والحديث وكتاب الدكتور محمد البهي «الفكر الإسلاميُّ الحديث» وكتاب الأستاذ محمد المبارك «في الفكر الإسلامي الحديث» وكتاب «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» و«حصوننا مهددة» للدكتور محمد محمد حسين، أما كتاب صديقنا الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي «فقه الزكاة» فهو عملٌ موسوعيٌّ كبيرٌ، وأجمعُ كتابٍ في هذا الموضوع، وقد نقل إلى اللغة الأردية.

كتاب الدعوة ودعاة الفكرة الإسلامية:

قد خصَّصنا بحثنا هذا بالكتب والبحوث التي تتناول الموضوعات التي كانت تعتبر من خصائص المستشرقين ومجالات تأليفهم، وتمتاز بالاتجاه الموسوعي الأكاديمي والدراسات المقارنة، والاستفادة من المصادر الأجنبية، وإلا فقد نشأت نهضةٌ أدبيَّةٌ وتأليفيَّةٌ قويةٌ بتأثير حركة «الإخوان

---

(١) وهو ابن الشيخ حسين الجسر صاحب «الحصون الحميدية» الكتاب الَّذي ملأ فراغاً في الحلقات الدراسية والمدرسية القديمة، وسدَّ حاجة من حاجاتها العلمية والتعليمية، كذلك «الرسالة المحمدية».

المسلمون» الكبرى في مصر وانتقل الأدب والكتابة والتأليف من دائرة البحث والتحقيق ، المقصورة على العلماء والدارسين ، إلى دائرة شعبيةٍ أوسع ، ونبغ كتاب ومؤلفون يخاطبون الجمهور ، ويحركون العاطفة والإيمان ودوافع العمل الباطنية ، وتمسُّ كتاباتهم القلوب كما أنها تغذي العقول ، كان في مقدمتهم وعلى رأسهم الأستاذ سيد قطب والشيخ محمد الغزالي ، والأستاذ سيد سابق (صاحب كتاب «فقه السنة» الكبير) والأديب الكبير الأستاذ علي الطنطاوي وغيرهم ، واستعراض هؤلاء الكتاب وكتاباتهم الإسلامية الدعوية من موضوع مؤرخي الفكرة الإسلامية ، والدعوة الإسلامية ، ومجالُ البحث واسعٌ يحتاج إلى كتابٍ مستقل(١) .

البحث والتحقيق في الجزيرة العربية :

وقد عاشت الجزيرة العربية فترةً من الزمن في عزلةٍ عن حركة البحث والتحقيق التي نشطت ، وتوسَّعت في مصر والشام بصفةٍ خاصَّةٍ ، بفضل المجامع العلمية (الأكاديميات) والجامعات الكبيرة الكثيرة ، والمجلات العلمية الراقية ، إلا أنها بدأت رحلتها في عهد الحكومة السعودية أخيراً ، وظهرت كتاباتٌ وبحوثٌ وتأليفاتٌ تمتاز بالروح التحقيقية ، ويتَّسم بعضها بالطابع الموسوعيِّ الأكاديميِّ ، تظهر نماذجه في بحوث الأستاذ حمد الجاسر الجغرافية التحقيقية(٢) ، وبحوث الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار في اللغة والمعاجم(٣) . والشيخ عبد القدوس الأنصاري في الخطط

(١) نشرت مجلة «البعث الإسلامي» الصادرة عن ندوة العلماء لكهنؤ ، الهند سلسلة مقالات لفضيلة الأستاذ واضح رشيد الندوي عنوانها «أدب الصحوة الإسلامية» وهي تدخل في هذا الموضوع. («البعث الإسلامي» الأعداد الثامن والتاسع والعاشر من المجلد السادس والعشرين ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م).

(٢) صاحب الكتابين «في سراة غامد وزهران» «وفي شمال غرب الجزيرة» وهو صاحب الإسهام في «الموسوعة الجغرافية لجزيرة العرب» صدر منه خمسة عشر مجلداً ، كلها من منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض.

(٣) ككتابه «الصحاح ومدارس المعجمات العربية» وتحقيقه لتهذيب الصحاح للزنجاني ، والصحاح للجوهري ، مقدمة تهذيب اللغة للأزهري.

والآثار[١]، والأستاذ محمد أحمد باشميل في سلسلة «من معارك الإسلام الفاصلة»، و«الغزوات النبوية الشهيرة»[٢].

عدا هذا كتاباتٌ وكتبٌ في موضوع الفقه والتشريع الإسلامي، والحديث والتفسير، وبعض القضايا الإسلامية المعاصرة، وقائمة أسماء العاملين في هذا المجال تطول، وأخشى أن تفوتني في هذا الفرصة القصيرة أسماء تستحق التنويه.

وقد ساقت الظروف القاسية والأوضاع السياسية المتقلبة في مراكز الثقافة الإسلامية العربية الكبرى في الشرق العربي أقوى العناصر العلمية، وخيرة الأساتذة والباحثين الإسلاميين إلى المملكة العربية السعودية، وإلى الكويت، وقطر، والإمارات العربية المتحدة، وإلى لبنان، والأردن أحياناً، فكان في ذلك مكسبٌ لهذه الأقطار التي كانت تستورد البضاعة العلمية في الغالب، ولا تصدرها، وعينوا أساتذةً في جامعاتها، فنشطت حركة البحث والتأليف، وإعداد البحوث والرسائل العلمية، خصوصاً في جامعات المملكة الست[٣] وفي جامعة الكويت، جامعة قطر في الدوحة، وجامعة العين في الإمارات، وظهرت بحوثٌ ورسائل تتفاوت في قيمتها العلمية، وتختلف مستوياتها، ولكنها تعود على المكتبة العربية بفوائد وتثريها، وقائمة هؤلاء الأساتذة المهاجرين أو اللاجئين، أو الزائرين طويلةٌ، ولكنها مشرفة لهذه الجامعات، ومصدر خيرٍ كثيرٍ.

(١) ككتابه «آثار المدينة المنورة» و«مدينة جدة».

(٢) صدرت منها عشرة أجزاء وهي غزوة بدر الكبرى، غزوة أحد، غزوة الأحزاب، غزوة بني قريظة، غزوة خيبر، غزوة مؤتة، غزوة حنين، غزوة تبوك، فتح مكة، صلح الحديبية.

(٣) وهي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وجامعة الرياض، وجامعة الملك عبد العزيز، والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وجامعة أم القرى في مكة المكرمة، وجامعة البترول في ظهران.

رسائل الدكتوراه والبحوث الجامعية :

وكان لنظام رسائل الدكتوراه الجامعية ، والبحوث التي يعدها طلبة الدكتوراه سهمٌ في التمرُّن على البحث العلمي على الأسلوب العصريِّ الجديد ، وإن كان أكثرها لا يحمل قيمة كبيرة لكثرة الراغبين في ذلك ، وعدم وجود الإشراف الدقيق ، والتوجيه البصير الجادِّ في كثيرٍ من الجامعات ، ولكن بعضها يحمل الخصائص الحسنة التي اشتهرت بها كتابات المستشرقين ، من جمعٍ للمواد المبعثرة في مظانها ، وفي غير مظانها ، وحسن تنظيمها ، والاستنتاج منها ، بجانب المزايا التي لا يقدر عليها إلا أبناء اللغة ، والناشئون في البيئة الإسلامية ، يذكر من ذلك ـ على سبيل المثال ـ كتاب «المجتمعات الإسلامية في القرن الأول» رسالةٌ جامعيةٌ للدكتور شكري فيصل(١) ، وكتاب «أبو الكلام آزاد» رسالةٌ جامعيةٌ للدكتور الشيخ عبد المنعم النمر (وزير الأوقاف بمصر سابقاً)(٢) وكتاب «مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ» للأستاذ أحمد إبراهيم الشريف المدرس في كلية الآداب جامعة عين شمس(٣) ، وكتاب «الطائف في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام» للدكتورة نادية حسني صقر(٤) ، وكتاب «بنو إسرائيل في القرآن والسنة» للدكتور محمد سيد الطنطاوي ، و«الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير» تأليف الدكتور رمزي نعناعة .

في إيران وتركيا :

أما في إيران ، وتركيا ، فمعرفتي بالنتاج العلمي التحقيقي فيهما قليلةٌ ، أستثني من ذلك كتب الدكتور السيد حسين نصر باللغة الإنجليزية ، وهي على مستوىً رفيعٍ من البحث واللغة .

---

(١) قامت بنشره مكتبة المثنى ببغداد ، والخانجي بمصر ١٣٧١ هـ (١٩٥٢ م).

(٢) وله كتاب «تاريخ الإسلام في الهند» وكتاب «كفاح المسلمين في تحرير الهند» من أحسن ما كتب مؤلفٌ غير هندي عن المسلمين في الهند.

(٣) نشرته دار الفكر العربي في مصر.

(٤) طبع دار الشروق جدَّة ١٩٨١ م.

في المغرب العربي الإسلامي :

أما ما يتصل بالمغرب العربي الشمالي ، فما زالت المدرسة المغربية العربية الإسلامية ، تحمل طابعاً خاصّاً يتَّسم بسعة الدراسة ، ونقاء اللغة ، والاطلاع الواسع على مصادر السنة ، ودواوين الحديث ، وقد كانت مؤلفات العلامة الشيخ عبد الحي الكتاني الحسني الإدريسي ، وخصوصاً كتابه «التراتيب الإدارية» في نظام الحكومة النبوية أشبه بموسوعاتٍ علميَّة تحمل العلم الغزير والفوائد الكثيرة .

وقد نبغ في المغرب العربي مؤلفون باحثون تعمقوا في الدراسات الدينيَّة وفهم مقاصد الشريعة الإسلامية ، مثل العلامة زعيم المغرب الأستاذ علال الفاسي ، والشيخ طاهر بن عاشور ، وابنه الفاضل فاضل بن عاشور ، والأستاذ مالك بن نبي ، والأستاذ محمد بشير الإبراهيمي ، ولا يزال الأساتذة محمد الفاسي ، وعبد الله كنون ، وعبد الكريم الخطيب ، ومهدي ابن عبود ، وعبد السلام بسين في المغرب الأقصى ، والأساتذة الدكتور الحبيب بالخوجة ، والشاذلي نيفر ، وأحمد الحماني ، يكتبون ويفيدون ، ويثرون المكتبة العربية الإسلامية ببحوثهم وتحقيقاتهم ، وهنالك كتَّابٌ وباحثون يظهرون على منبر «دعوة الحق» المغربية ، والمجلات العلمية الصادرة من هذه الناحية في العالم العربي ، يبشرون بمستقبلٍ زاهرٍ في مجال البحث والتفكير ، من الصعب العسير استقصاء أسمائهم .

جهاد اليوم وواجبه المحتم :

وأختم هذا المقال بقطعة أستعيرها من كتابي «ردةٌ ولا أبا بكرٍ لها» :

إنَّ جهاد اليوم ، وإنَّ خلافة النبوة ، وإنَّ أعظم القربات ، وأفضل العبادات أن تقاوم هذه الموجة اللادينية التي تجتاح العالم الإسلامي ، وتغزو عقوله ومراكزه ، وأن تعاد الثقة المفقودة إلى نفوس الشباب والطبقات المثقفة بمبادىء الإسلام ، وعقائده ، وحقائقه ، ونظمه ، وبالرسالة المحمدية ، وأن يزال القلق الفكريُّ ، والاضطراب النفسي اللذان يساوران الشباب المثقف ، وأن يقنعوا بالإسلام عقلياً وثقافياً ، وأن

تحارب المبادىء الجاهلية التي رسخت في النفوس ، وسيطرت على العقول علمياً وعقلياً ، وأن تحلَّ محلَّها المبادىء الإسلامية باقتناعٍ ، وإيمانٍ ، وحماسةٍ .

لقد مضى علينا قرنٌ كاملٌ وأوربا تغتصب شبابنا وعقولنا ، وتنبت في عقولنا الشكَّ والإلحاد والنفاق ، وعدم الثقة بالحقائق الإيمانية والغيبية ، والإيمان بالفلسفات الجديدة الاقتصادية والسياسية ، ونحن معرضون عن مقاومتها ، معتمدون على ما عندنا من تراثٍ ، مضربون عن الإنتاج الجديد ، معرضون عن فلسفاتها ، ونظمها ، ومحاسبتها محاسبةً علميَّةً ، ونقدها وتشريحها ، كتشريح الأطباء الجراحين ، متعللون بالبحوث السطحية المستعجلة ، وبالزيادة في ثروتنا العلمية القديمة ، حتى فوجئنا في العصر الأخير بانهيار العالم الإسلامي في الإيمان والعقيدة ، وملك زمام الأمور في البلاد الإسلامية جيلٌ لا يؤمن بمبادىء الإسلام وعقيدته ، ولا يتحمَّس لها ، ولا تربطه بالشعب المسلم المؤمن البريء إلا «القومية الإسلامية» أو المصالح السياسية .

إنَّ العالم الإسلاميَّ في حاجة إلى منظماتٍ علمية تهدف إلى إنتاج الأدب الإسلامي القويِّ الجديد الذي يعيد الشباب المثقف إلى الإسلام بمعناه الواسع من جديد ، ويحرِّرهم من رقِّ الفلسفات الغربية التي آمن بها كثير منهم بوعيٍ ودراسةٍ ، وأكثرهم بتقليدٍ وتسليمٍ ، ويقيم في عقولهم أسس الإسلام من جديدٍ ، ويغذِّي عقولهم وقلوبهم ، إنَّه في حاجةٍ إلى رجالٍ في كلِّ ناحيةٍ من نواحي عالم الإسلام عاكفين على هذا الجهاد .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

بين نظرتين

النظرة القرآنية والنَّبويَّة إلى الأمة الإسلامية ونظرة المسلمين أنفسهم إلى أنفسهم . . . !

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة بقاعة المحاضرات بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة يوم الإثنين ١٤ من ربيع الآخر سنة ١٤٠٢ هـ الموافق ٨ من فبراير سنة ١٩٨٣ م عقب صلاة المغرب ، ورأس الحفلة ، وأشرف عليها ، وعلَّق على الكلمة معالي الدكتور عبد الله بن عبد الله الزَّايد نائب رئيس الجامعة ، وغصَّت القاعة بالمحاضرين والمستمعين من طلبة الجامعة ، وأهل المدينة ، وحضرها عددٌ وجيهٌ من الأساتذة وعمداء الكليات .

حضرة الرئيس الجليل ، حضرات الأساتذة الموقرين ، وأبنائي الأعزاء، طلبة الجامعة!

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إنَّ موضوع حديثي في هذه الأمسية المباركة في المدينة المنورة المباركة «النظرة القرآنيَّة والنَّبويَّة إلى الأمة الإسلامية ، ونظرة المسلمين أنفسهم إلى أنفسهم».

وقد يبدو هذا الموضوع غريباً لكثيرٍ من إخواننا ، وكأنِّي أقرأ في خطوط جباههم العريضة المشرقة تساؤلاً طبيعياً: أيُّ طرافة في هذا الموضوع؟ كلُّنا يعرف النظرة القرآنية إلى هذه الأمَّة الإسلاميَّة ، بل النظرات القرآنية التي جاءت في القرآن الكريم ، ومن الذي لا يحفظ قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ومن الذي لم يسمع ، ولم يوفق لتلاوة قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ومن الذي لا يعرف قوله تعالى:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ﴾ [الحج: ٧٨].

وكأنِّي أسمع ما يجول في خواطر كثيرٍ من المستمعين ، يقولون: إنَّه موضوعٌ على الهامش ، أو هو من قبيل تحصيل الحاصل.

ولكن إخواني! القرآن كما تعلمون لا تنقضي عجائبه ، ولا تبلى جدَّته ، والله إنَّ في القرآن آيةً ، كلَّما مررت بها وقفت أمامها خاشعاً متهيِّباً ،

مستعجباً مشدوهاً ، أيُّ حجمٍ تعطي هذه الآيةُ هذه الأمةَ الإسلامية ، وفي أيِّ محيطٍ ، وفي أيِّ واقعٍ تاريخيٍّ ، ولكني لا أبادر بتلاوة هذه الآية ـ وكلكم تعرفونها وتحفظونها ـ بل أريد أن أثير فيكم التساؤلات الكثيرة ، وأثير فيكم الرغبة والتعطش إلى سماع هذه الآية .

قبل أن أتلو هذه الآية الكريمة وهي في ذاكرتكم وفي معلوماتكم ، أريد أن أستعرض الواقع الغريب، الواقع المثير المرير ، الذي نزلت فيه هذه الآية .

تصوروا يا إخواني! ـ وما أحلى الحديث عن المدينة في المدينة ـ تصوروا عن حفنةٍ من البشر (وأنا أتعمَّد هذه الكلمة) نظراً إلى البحر الهائج من النفوس البشرية والمجموعات الكبيرة ، التي كانت تموج في ذلك العصر ، حفنةٍ من البشر تؤمن بالحقائق التي جاء بها القرآن الكريم ، وجاءت الرسالة المحمدية ، فتضيق عليها الأرض بما رحبت ، وتضيق عليها نفسها ، ولا أصدقَ ، ولا أدقَّ تصويراً من الله سبحانه وتعالى يقول عن مثل هذا الوضع الغريب : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [التوبة : ١١٨] هذه صورة المؤمنين المعدودين الذين آمنوا بالله وبرسوله بمكة ، ومكة على رحابتها وسعتها ، وترحيبها بكلِّ طارق ، وبكل نزيل ، بحكم البيت العتيق ، وبحكم «أول بيت وضع للناس» والذي يقول الله تعالى فيه لنبيه وخليله إبراهيم : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج : ٢٧] .

مكة ضاقت على هذه الحفنة البشرية المؤمنة حتى اضطرَّت هذه المجموعة العربية القرشية ، المؤمنة المسلمة التي التفت حول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ووضعت يدها في يده ، اضطرت إلى أن تغادر وطنها ، وتأوي إلى هذه المدينة الطيبة الكريمة المؤوية ، دخلت في هذه المدينة ، وهي غريبة فيها ، رغم وحداتٍ كثيرةٍ من الوحدات الإنسانية ، الثقافية والحضارية ، والقبلية واللغوية ، فأمر الله سبحانه وتعالى بالتآخي بين هؤلاء المؤمنين الغرباء الطرداء ، المساكين البؤساء ، الذين جاؤوا من

مكة ، بين من آمن من أهل المدينة الكرماء ، وهم قلةٌ كذلك ، أمر بالتآخي بينهم ، وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴾ [الأنفال : ٧٢]» هذه خليةٌ بشريةٌ من نوعٍ فريدٍ ، تقوم على أساس الوحدة العقائدية ، وعلى أساس الحبِّ في الله ، هذه خليَّةٌ إنسانيةٌ صغيرةٌ في الكم Quantiy ولكنَّها كبيرةٌ في الكيف Quality.

ما نسبة هذه البذرة الصغيرة التي ربما لم تكن ترى إلا بالمجهر Microscope ما نسبة هذا العدد القليل الضئيل إلى هذا العدد الوفير الكثير الذي كان يزخر حوله ، كانوا بين فكي الأسد ، الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين توزعتا العالم المتمدِّن المعمور ، ففي الشمال وفي الغرب الإمبراطورية البيزنطية ، وفي الشرق الإمبراطورية الفارسية الإيرانية ، ولا أصدقَ من قول الله تعالى ، وأدقَّ تصويراً منه في وضع هذه المجموعة البشرية الصغيرة.

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [الأنفال : ٢٦] كانوا كقطعة لحمٍ على يد طفلٍ صغير ذهب إلى السوق فحملها على كفه ، فجاءت حدأةٌ ، فخطفت هذه القطعة ، ولا أصدقَ من قول سيِّدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن المسلمين بعد ما مضى على تاريخ الإسلام عقودٌ من السنين «لقد كنا كالغنم في ليلة شاتيةٍ مطيرةٍ» إنَّ الله سبحانه وتعالى يقول لهؤلاء المهاجرين والأنصار ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴾ [الأنفال : ٧٢] ثم يقول مقابل ذلك : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴾ [الأنفال : ٧٣].

كيف يصدِّق الإنسان الخاضع لنتائج رياضيَّـةٍ ولواقع الحياة أن يقول الله تبارك وتعالى ـ وهو الحكيم العليم ـ لهذه المجموعة الصغيرة التي قد لا ترى إلا «بالمجهر» : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٣] أيها المسلمون! إذا قصرتم في هذا التآخي ، إذا قصرتم في تكوين المجتمع الإسلاميِّ ، والحياة الإسلامية الصحيحة ، وفي تعميق

جذور الإيمان في قلوبكم ونفوسكم ، وإذا قصرتم في أداء الواجب الإنساني الذي يرتبط به مصير الإنسانية ارتباط الحياة بالشمس ، ارتباط الحياة بالهواء والماء ، ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] كانت هنالك إمبراطوريات عظيمةٌ ، ومجتمعاتٌ بشريةٌ راقيةٌ ، هنالك ثروةٌ من العلوم والفنون ، هنالك أدبٌ وشعرٌ ، هنالك قانونٌ وسياسةٌ ، هنالك جميع وسائل الرُّقيِّ والتقدُّم ، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول لهذه المجموعة الصغيرة في هذه البيئة الضيقة ، المتأخرة المخنوقة ؛ التي لم يكن لها شأنٌ في العالم ، ولم تكن الأمم تحسب لها حساباً ، وقد صرح بذلك ملوك فارس ، وأباطرة الروم لرسل المسلمين وقوادهم ، فقالوا: والله ما كنا نكترث بكم ، ولا نرفع بكم رأساً ، فماذا تريدون منا؟ إن كنتم تريدون الكسوة نكسوكم ، وإن كنتم تريدون التموين نمونكم ، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول لهؤلاء العرب من فوق سبع سموات: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

هذا هو الحجم الكبير الذي تعطي هذه الآية لهذه الأمة ، بل لنواة هذه الأمة ، إنَّها كانت صغيرةً في القامة كبيرةً في القيمة ؛ لأنَّ الجمرة لا ينظر إلى حجمها ، وإلى عرضها وطولها ، إنما ينظر إلى القوة الكامنة والطبيعة المودعة فيها ، والرسالة المنوطة بها ، فجمرةٌ واحدةٌ تستطيع أن تحرق مدينة بأسرها ، وكذلك البذرة لا تقوَّم بحجمها ، إنَّ مجموعة صغيرة البذور تستطيع ـ إذا أرادت مشيئة الله ـ أن تنبت مزرعة يعيش عليها مدينةٌ كبيرةٌ ، والنور كذلك لا ينظر إلى وزنه إنما ينظر إلى رسالته التي نيطت به ، وأسندت إليه ، تتناولون «المفتاح الكهربائي» فينطلق التيار الكهربائي ، فينير هذه القاعة الكبيرة ، بل الجامعة كلها ، كذلك الشحنة الإيمانية التي أودعت في هؤلاء المسلمين كانت كفيلة بإنارة العالم كلِّه.

وهي نفس النظرة التي نظر بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذه الأمة ، إن بدراً ليست منا ببعيدة ، قاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الكتيبة المسلمة المؤمنة ، التي كانت نقطةً مغمورةً في هذا البحر من الكفر والطغيان من القوة المادية ، وكثرة السلاح ، إلى ساحة بدر ، استعرضوا

الواقع الاستراتيجي ، ثلاثمئة وعشراً (٣١٣) إنساناً هل يرتبط بهم مصير الإنسانية وسعادتها ، ولا يرتبط بهم مستقبل هذا الدين الذي جاء به الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم ، بل مستقبل أديان الأنبياء عليهم السلام كلهم ، ومستقبل الرسالات السماوية من عهد سيدنا آدم عليه السلام إلى عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، من يصدق ذلك؟ ولكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يعرف قيمةَ هذه الكتيبة المؤمنة؛ التي قادها إلى بدر ، وقد حشد كلَّ طاقته ، وكلَّ ذخيرته إلى هذه الساحة التي كانت تقرر مصير الإنسانية ، ثم قام يدعو ربه ، ويبتهل إليه ، ويخرُّ ساجداً يقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد» كلمة ما وجدت نظيرها ـ في الثقة والاعتماد ـ في تاريخ الديانات السَّماوية ، وفي تاريخ القيادات البشرية ، وفي تاريخ التحركات العسكرية التي غيرت مجرى التاريخ ، قالها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو أعرف البشر بالله تعالى وصفاته ، وأخشاهم لله ، كما قال: «أنا أخشاكم لله» ، والله ما يستطيع غير الرسول أن يقولها ، ولا يزال العالم الإسلامي مرتبطاً مديناً لهذا النصر المبين ، الذي تحقق في ساحة بدر ، ولا يزال يعيش في ظلال هذا الانتصار ، يأكل من رفده ، وينعم في كنفه ، وفي ظله قامت الحكومات ، وانتشرت الحضارات ، وانفجرت العلوم ، وتكونت المكتبات.

إخواني! فهذه هي النظرة التي كان ينظر بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والمؤمنون الأولون إلى هذه الأمة ، وقد قرأت قصة في التاريخ ، لا أزال أتذوقها ، ليس الطعام فقط ، ولا الشعر فقط ، ولا الأدب فقط ، هو الذي يتذوق ، إنَّ القصص الصحيحة ، والوقائع الغريبة التي وقعت تتذوق أكثر مما يتذوق الطعام الشهي ، والله لا أزال أمضغ هذه القصة ، وأقلبها في فم ذوقي ، وعلمي ، وقف سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قائد المسلمين على ضفة دجلة ، وهم متجهون إلى المدائن عاصمة المملكة الإيرانية وكان الفرس ـ خشية من هؤلاء الموحدين الشجعان الأبطال الذين لا يخافون غير الله ـ قد كسروا الجسور والقناطر ، وأبعدوا السفن احتياطاً ، لأنهم كانوا يعرفون أنَّ العرب ليست في جزيرتهم

الأنهار، وليست عندهم تجارب السباحة وعبور الأنهار ، فإذا جاؤوا إلى هذا الشاطىء، فإنهم لا بدَّ أن يتوقفوا هنالك، ويفكروا في التراجع والانسحاب، فلما وصل سيدنا سعد بن أبي وقاص إلى هذا الشاطىء ، وكان قائداً محنَّكاً ، حكيماً ، مؤمناً ، يجمع بين التجارب العسكرية ، والحنكة القيادية ، والحكمة الإيمانية ، نظر إلى سلمان مستوضحاً مستشيراً.

هنالك قال سيدنا سلمان رضي الله عنه تلك الكلمة التي سجلها التاريخ العربيُّ الأمين ، قال: «إنَّ الإسلام لجديدٌ ذلِّلت لهم والله البحور كما ذلِّل لهم البرُّ»[١] يعني: أنَّ هذا الدين إلى الآن لم يقم بدوره كاملاً ، ولا تزال عليه مسؤولية السلالة البشرية ، ومسؤولية المصير الإنساني ، فأنا لا أصدق أن المسلمين الذين قد نيطت بهم الرسالة ـ وهذه الرسالة إلى الآن لم تستنفد طاقتها ، ولم تؤدِّ دورها بعد ـ يغرقون؛ لأنهم لا يملكون سفناً ، إن هذا الدين لجديد ، وإنَّ هذه الأمة لفتيةٌ دافقةٌ بالحياة ، وإنَّ الله سيستخدم هذه النواة الصَّالحة السليمة لبناء الإنسانية بناءً جديداً ، فغير معقول أن يغرق جيش الإنقاذ ـ لعدم وجود السفن والجسور ـ هذا ما يتنافى مع حكمة الله تعالى ، يترك النهر يفعل فعله ، ولا يتركنا نعمل عملنا؟ ألسنا أحقَّ بالانتصار ، والتغلب ، وأحقَّ بالنجاح من هذا النهر؟ ما قيمة دجلة؟ نهرٌ يروي به الناس ظمأهم ، ويسقون به زروعهم ، ولكن الرسالة التي نحملها هي أكثر قيمةً ، وأنفع للبشرية من الماء الذي يشربون ، من الهواء الذي به يتنفسون ، لا تخف أيها القائد المؤمن ، صاحب رسول الله ، ومر جيشك يخض فإنه سيعبره[٢] إن لم يكن في الجيش بغيٌ أو ذنوبٌ تغلب الحسنات».

وهذه النقطة تسترعي انتباه القادة والزعماء الذين لا يعرفون إلا سياسة

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ، ص ٦٤ ـ ٦٥.

(٢) وقد خاض المسلمون فعلاً نهر دجلة بخيلهم ورجلهم فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض ، وجعلوا يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض ، ولم يعدم للمسلمين شيءٌ من أمتعتهم غير قدح خشب لرجلٍ فرده الموج إليه (البداية والنهاية ج ٧ ص ٦٤ ـ ٦٥).

الحرب ، وهذا الذي قاله سيدنا عمر بن عبد العزيز ، فقد قال في رسالةٍ وجهها إلى قائد جيشه :

«وآمره ألا يكون من شيءٍ من عدوِّه أشدَّ احتراساً منه لنفسه ومَنْ معه من معاصي الله ، فإنَّ الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم (إلى أن قال) ولا تكونوا لعداوة أحدٍ من الناس أحذر منكم لذنوبكم»[١] .

ولكن ما هي النظرة التي ينظر بها المسلمون أنفسهم إلى أنفسهم ، اسمحوا لي أن أذكر لكم تجربتي الخاصَّة ، لمَّا وفقني الله سبحانه وتعالى لتأليف كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الذي نوه به المعرِّف الكريم ، استغرب الناس الاسم ، ومجَّت آذانهم وعقولهم كيف يخسر العالم بانحطاط المسلمين ، هل المسلمون في مكانةٍ يخسر العالم بانحطاطهم شيئاً ، ويربح برقيِّهم شيئاً ، والله إنهم أحطُّ مكاناً! وأقلُّ شأناً من هذا! حتى اقترح لي بعض الكتاب ، لو أن المؤلف ـ جزاه الله خيراً ـ غيَّر هذا الاسم؛ لكان أحسن له ، هنالك عرفت النظرة الخسيسة التي ينظر بها المسلمون أنفسهم إلى أنفسهم ، ومدى مركَّب النقص الذي ابتلوا به حتى المؤرخون المسلمون ، حتى الكتَّاب الإسلاميُّون ، إنهم اعتادوا أن ينظروا إلى المسلمين من زاوية التاريخ ، من زاوية الأحداث ، من زاوية الشعوب والأمم ، من زاوية التقلبات ، وكانوا ينظرون إلى العالم والتاريخ من زاوية المسلمين ، ما كانوا يعتقدون أبداً ، أنَّ المسلمين عاملٌ من عوامل التاريخ ، هم يستطيعون أن يتأثروا ، ولكن لا يستطيعون أن يؤثروا ، وإذا استخدمنا لغة الألعاب الرياضيَّة ، ـ ولو مؤقتاً ـ قلنا : إن المسلمين ليسوا صولجان اللاعب ، إنما «هم الكرة المستهدفة» ، وعندنا مثلٌ في بلادنا يتذوقه إخواننا الباكستانيون ، والهنود ، إذا أردنا أن نصور إنساناً ضعيفاً ، أو مجتمعاً ، أو شعباً ضعيفاً ، نقول : إنه كبطيخةٍ سواءً وقعت عليها السكين ، أو وقعت هي على السكين ، على كلِّ حال فالخطر على البطيخة ، هي تتمزق ، هي تتفتت ، وتتناثر .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم .

وهذه هي نظرة المسلمين مع الأسف لا تزال سائدةً على كثيرٍ من الأوساط العربية والإسلامية ، ننظر إلى المسلمين كأنهم ما خلقوا إلا ليخضعوا للحوادث ، ويتأثَّروا مما يحدث حولهم ، أما أنَّهم يستطيعون أن يؤثروا على المسيرة الإنسانية ، وعلى الاتجاه العالمي ، وعلى القيم والمثل ، فلا المسلمون قطيعٌ من قطعان الغنم الكثيرة ، تساق بالعصا ، ما كانوا يتصوَّرون ، وإذا قيل لهم لا يصدِّقون: أن العالم قد خسر شيئاً بانحطاط المسلمين ، وتخليهم عن قيادة البشرية ، وبتقصيرهم في حقِّ الله ، وفي حقِّ الإنسانية ، فعرفت أنَّ الخطأ من الكتاب والمؤرخين ، لأنَّهم إنما صوروا المسلمين كشعبٍ من الشعوب الكثيرة المعدودة بالمئات ، شعبٌ يعيش تحت رحمة الوقائع والتقلبات ، وتحت رحمة الحكومات والحضارات ، والفلسفات والمعسكرات ، إنَّهم ما عرفوا القوَّة الكامنة في الرسالة الإسلامية التي يحملها المسلمون. حقيقةٌ يجب علينا أن نأخذها بعين الاعتبار ، وهي الحقيقة الخالدة المسيطرة على جميع الاعتبارات السياسية والاقتصادية : إنَّ المسلمين أصحاب رسالة. إنَّ المسلمين أصحاب عقيدة. إنَّ المسلمين جند الله ، والله يقول: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢] ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

بهذه النظرة يجب علينا يا إخواني! يا أبنائي الأعزاء! أن ننظر إلى أنفسنا ، أنتم خلاصة العالم الإسلامي ، أنتم روَّاد العالم الإسلامي وطلائعه ، ساقتكم بلادكم وأسركم إلى هذه المدينة الطيبة لتستمدوا هذه الثقة التي لا تجدونها إلا في هذه المدينة ، مدينة الرسول الأمين ، أو في مكة البلد الأمين ، هنا مصدر الثقة ، هنا مصدر الاعتزاز ، هنا مصدر الإيمان ، هنا مصدر الاعتماد على الله ، هنا مصدر تعاليم التجرد من الأنانية ، التجرد من الترف المدمِّر للأمم والحضارات ، التجرُّد من البطر الذي حذر الله منه فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

إنَّ المعسكرات المبدئية التي يحسب لها الحساب الكبير كلها كنسج العنكبوت ، إذا قام فارس من فرسان الإسلام المؤمن الواعي ، الداعية المخلص ، المؤيد من الله يستطيع أن يأخذ عصا ، ويطوي بها هذا النسيج كله ، هل يقوم معسكرٌ على غير عقيدةٍ ، على غير إيمانٍ ، على غير خشية الله ، هل يقوم معسكرٌ على غير رحمةٍ للإنسانية ، ورسالةٍ عادلةٍ نافعةٍ ، رحيمةٍ بالإنسانية ، هذه معسكراتٌ زائفةٌ ، إنها اكتسبت القيمة ، لأنكم أنتم فقدتم القيمة ، فاستعيدوا هذه القيمة ، تفقد هذه المعسكرات قيمتها وقوتها .

إنَّ الوضع الدينيَّ ، والخلقيَّ ، والاجتماعيَّ ، والسياسيَّ المزري الذي يعيشه العالم اليوم ، بل الانهيار الإنساني ، والاحتضار المعنويُّ الذي يعانيه مجتمعنا المعاصر كلُّه تفسيرٌ لقوله تعالى :

﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٣] لم نؤدِّ واجبنا ، ولم نقم بدورنا في تكويننا ، وفي تكوين المجتمع الإسلاميِّ المؤمن القوي النقيِّ ، فكانت فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبيرٌ ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، والمريض لا يعالج المريض ، والمجتمع الذي فقد حصانته الخلقية ، وقوته الباطنية ، وتماسكه الخلقي ، وتمرُّده على الشهوات والسَّفالات ، وصموده أمام المغريات النفسية ، والمالية ، والسياسية ، ولم يحمل دعوة يعتزُّ بها ، ويتحمَّس في القيام بها ونشرها ؛ لا يستطيع أن يحافظ على كيانه وشخصيته حتى بقائه واستمراره ، فضلاً عن عملية إنقاذ العالم المعاصر ، والمجتمع الحاضر ، من التدهور والانهيار ، وما يرغب فيه ويسعى إليه من الانتحار .

وندعو الله تعالى أن يعيد إلينا إيماننا برسالتنا ، ثم بدورنا ومركزنا ، ويعيدنا إلى مكاننا الطبيعي والشرعي في خارطة العالم ، وفي إطار الإنسانية .

* * *

أسباب حيرة الشباب وعلاجها

انعقدت ندوة علمية في عمان في ١٨/٨/ ٧٣م في قاعة الكلية العلمية الإسلامية ، وحضرها نخبة من الأساتذة الكبار والمثقفين وفضلاء البلد ، والمعنيين بالثقافة الإسلامية ، وكان العنوان: «دور الشباب المسلم في المجتمعات المعاصرة».

قدم الأستاذ محمد إبراهيم شقر للندوة مقدمة قيمة صور فيها واقع الشباب ووقوعهم فريسة لحيرة تورطوا فيها ، وصور العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه تصويراً دقيقاً شاملاً ، تعرض فيه للطاقات والفلسفات المتنافسة التي تتوزعه وتتحكم فيه ، ثم وجه السؤال الأول وهو :

أستاذنا! العالم الإسلامي بأسره اليوم يعيش حيرة مردية ، عقيدة وتصوراً وسلوكاً ، وأبرز ما تكون هذه الحيرة في الشباب المسلم في بلادنا خاصة ، فنريد أن نعرف أولا ما هي الأسباب التي خلقت هذه الحيرة أو ساعدت على وجودها؟

وشرح العلامة الندوي أسباب حيرة الشباب وعلاجها.

إني أصارحكم أيها السادة! أني كنت مستغرباً جداً إذا لم يكن الشباب الإسلامي في حيرة كما تجدونه وتشعرون به ، إن الشجرة لا تلام على ثمرتها ، إن في إمكان البستاني أن لا يغرس شجرة من الشجرات ولكن ليس من المعقول وليس من الطبيعي أنه إذا غرس شجرة معينة ، ثم سهر عليها وغذاها ونماها ، وسقاها وأحيا ليالي متوالية ، وقف في وهج الشمس وفي البرد القارس ليحرس منها هذه الشجرة ولتؤتي أكلها بعد حين ، ثم إذا آتت أكلها الطبيعية لامها ونزل عليها غضباً وأنكر منها هذه الشجرة ، هذا شيء غير معقول وغير طبيعي ، لأن طبيعة الشجرة هي طبيعة الشجرة منذ خلق الله هذا الكون ، ومنذ خلق هذه الشجرة ، فشجرة الزيتون ستعطي ثمر الزيتون وشجرة الرمان ستعطي الرمان ، وهكذا.

إن من أعظم الأسباب في هذه الحيرة التي يعانيها الشباب المسلم بصفة خاصة وشباب العالم عامة ، هو التناقض في التوجيه والإعلام والتربية ، تناقض بين ما ورثوه وبين ما يعيشونه ، وبين ما يلقونه تلقيناً وبين ما يطلبه منهم علماء الدين ، هذا التناقض العجيب الذي سلط عليهم ومنوا به هو السر في هذه الحيرة ، هذه الحيرة المردية ، هنالك عقائد آمنوا بها كمسلم ولد في بيت إسلامي في أسرة إسلامية ، ونشأ على كثير من العقائد وتلقاها بوعي أو بغير وعي ، ثم إنه نشأ في بيئة دينية تؤمن بمبادىء الإسلام وقرأ التاريخ الإسلامي ـ إذا أكرمه الله بذلك وسنحت له هذه الفرصة الكريمة ـ وكان سعيداً بوجوده في بيئة واعية دينية ، ثم سبق ـ ومعذرتي إلى اختيار هذه الكلمة ، لأنه لا يزال في سن مبكرة وليس له خيار ـ إلى دور ثقافة يسمع فيها من أولئك الأساتذة الذين يجلهم لأنهم أصحاب اختصاص وأصحاب زعامة في كثير من العلوم ، كل ما ينقض ما أبرمته البيئة ، وكل ما غرسته في قلبه وعقله من التربية الإسلامية ، يسمع ويرى كل ما ينفي كل ذلك ، أو ما يقلل قيمته على الأقل ، فيقع في تناقض عجيب وفي صراع

فكري عنيف ، وهذا الصراع الفكري يدوم معه إلى أن يشاء الله ، أو تحدث معجزة ، إنها حقاً في هذه البيئة التي نعيش فيها ، صراع من أدق أنواع الصراع ومن أصعب أنواعه ، الصراع بين القوى المتعارضة ، أنه قد يواجه الصراع في ساحة القتال ، ومدة ساعة القتال قصيرة وإن طالت ، ولكن هذا الصراع يعالجه دائماً ، إنه يعالجه في المسجد ، ويعالجه في المدرسة ، ويعالجه في البيت ، ويعالجه فيما بينه وبين نفسه ، هذا الصراع المرير الهائل العمق يتلقى من مؤسسة «الإعلام» ومؤسسة الصحافة بالمعنى العام ، ومن التلفزيون الذي جاء حديثاً ، يسمعون إذاعات وأحاديث وبرامج تقضي على البقية من آثار التربية القديمة ، وتحدث فيهم ثورة فكرية وقلقاً نفسياً ، والصحافة التي هي «صاحبة الجلالة» في نظر كثير من الناس تقدم إليهم في أول النهار الغذاء الفاسد العفن ، والمواد المثيرة المهيجة للعواطف قبل أن يكسر الصفراء على تعبير إخواننا السوريين ، وقبل أن يتلو شيئاً من القرآن ، فأول ما يقع عليه نظرهم صورة عارية لفتاة ، وعناوين مثيرة للغرائز أو مقالات مثيرة للشكوك مزعزعة للإيمان والثقة ، فيتلقون هذا في رغبة ونهامة ، وفي شوق واستجابة ، إنه يقع في أيديهم كتب علمية لها عناوين هائلة ، وأسماء مرعبة صادرة من أناس آمنوا بفضلهم وعبقريتهم ، فيرون ما يشككهم في مصادر الشريعة الإسلامية ، وحتى في مصادر اللغة والأدب الأولى ، ويشككهم في صلاحية هذه الأمة ، وفي خلود الرسالة التي يحملونها ، يشككهم في صلاحية اللغة العربية ، فيتلقون هذا المزيج العجيب ، وهذه الخميرة العجيبة ، من أفكار ومبادىء وإغراءات ومن نظريات علمية ، ويقعون من كل ذلك في حيرة لا تعدلها حيرة ، فخليق بكل هذا أن يوقع الإنسان ـ وإن كان ناضج الفكرة ، مختمر العقل حصيف الرأي ـ في حيرة ، فكيف بالشباب الناعم ؟ وكيف لهذه البراعم الناعمة التي لم تفتح بعد ، كيف يرجى منهم أن يقفوا أمام التيارات المتصارعة ؟!

إن مثل ذلك أيها الإخوان السادة! كمثل عجلة أو مركبة ركب فيها فرس في الأمام وركب فيها فرس في الوراء وكلاهما قويان ، فكما أن هذه العجلة

من المعقول جداً أن يكون ركابها في حيرة من أمرهم ، هذا يجرها إلى الأمام ، وهذا يجرها إلى الوراء ، فكذلك الشباب يتأرجحون في أرجوحة يميناً وشمالاً .

إن الأدب الذي لم يزل يواجهنا منذ خمسين سنة على الأقل من العواصم العربية الكبرى ، التي كان لها التوجيه ، وكانت لها الزعامة الفكرية والدينية ، وهذه غرست في قلوب الناشئة وفي قلوب الشباب ، بل في قلوب كثير من الكهول بذوراً من الشك والاضطراب ، تشككوا حتى في وجودهم ، تشككوا في كل ما تواتر واستفاض وأصبح من قبيل البديهيات ، إن هذه الكتب التي أريد من ورائها رزق أو شهرة ، أو زعامة فكرية ، أو هتاف وتصفيق حاد ، إن هذه كلها غرست في قلوب شبابنا الشك والحيرة والتناقض ، فأنا لا أستغرب هذا الوضع ، وهذا هو السبب الرئيسي والسر في حيرة الشباب .

ورداً على سؤال وجهه الأستاذ عن العلاج الصحيح لهذه الحيرة التي يقع فيها الشباب صرح سماحته : «إنني أعتقد أن أول خطوة نخطوها نحو إنقاذ الشباب من هذه الحيرة المردية هي توحيد نظام التعليم ، ولستم في حاجة إلى شرح هذه النقطة ، فإن المعسكر التعليمي موزع قسمين : المعسكر الديني ، والمعسكر اللاديني أو العلماني ، أو المعسكر القديم ، والمعسكر الجديد ، وهذه الثنوية أو الازدواجية في التعليم هو السبب الأكبر في خلق هذه الحيرة التي يعيشها الشباب ، فأول خطوة نخطوها إلى الغاية الصحيحة لإزالة هذه الحيرة ، هو تنسيق غايات التعليم ومواد التعليم ، فهنالك كما قلت تناقض في المواد الدراسية فالذي يبنيه تعليم يهدمه تعليم آخر ، فكذلك العلوم التي لم تكن لها صلة بالعقائد هي كذلك لها اتصال بالعقائد وما أصبح التعليم مجرداً أن اعتقاد أن من التعليم ما هو محائد وما هو نزيه كل النزاهة ، وما هو بعيد كل البعد عن التأثير في العقيدة قد أصبحت نظرية قديمة ولا نصيب لها من الصحة ، فالخطوة الأولى الخطوة الثورية الجذرية هي إحداث تنسيق في نظام التعليم ، فلا قديم ولا جديد ، ولا ديني بالمعنى اللاهوتي ، وبالمعنى الكهنوتي المسيحي الأوربي ، ولا بالمعنى الإسلامي

الصحيح ، فلا تعليم لاهوتي ولا تعليم دنيوي أو زمني أو علماني ، بل التعليم وحدة لا تتجزأ ، إنما ينقسم بين غايات ووسائل ولا بد أن تكون بين هذه الوسائل وحدة تربطها وتخضعها للغاية الأساسية .

ثم إزالة النفاق يعني: هذا التناقض الذي يعبر عنه لسان الشريعة ، ولسان القرآن بكلمة: «النفاق» لا أعني بالتنسيق التنسيق بين تعليم قطر وبين تعليم قطر آخر ، إنما أعني به التنسيق في تعليم القطر ، إن هذا يحتاج إلى قلب نظام التعليم رأساً على عقب ، يعني إحداث نظام تعليمي كوحدة متكاملة متناسقة ، وهذا يحتاج إلى ثورة عارمة ، إلى ثورة جريئة ودقيقة وشاملة ، ويحتاج طبعاً إلى أناس عندهم الأصالة الفكرية ، لا يعيشون متطفلين على مائدة الغرب ، إنه يحتاج إلى الاجتهاد في المواد الدراسية ، وهذا يحتاج طبعاً إلى مشاريع عملاقة ، وإلى جهود كبيرة واسعة النطاق عميقة الجذور ، وتحتاج كذلك إلى أن تتبناها الحكومات الإسلامية والمجامع الإسلامية الكبيرة فإذا نجحنا في تطوير نظام التعليم تطويراً جديداً ، وإذا نجحنا في إزالة النفاق عن هذا المجتمع الذي نعيش فيه إذاً من المؤمل أن ننقذ الشباب من هذه الحيرة المردية .

ثم الإخلاص والعزم الصادق والتضحية التي لا غنى عنها ، هذه كلها عوامل لوجود بيئة مناسبة أو الأجواء المناسبة لنمو الشخصية الإسلامية وإكمالها ووصولها إلى الغاية المطلوبة ، وهذه الغاية لا تتحقق إلا إذا مثّل الشباب دورهم كشباب مسلم في هذا المعترك الفكري الذي لم يشاهد تاريخ الإنسانية معتركاً فكرياً مثله ، إن الشباب طبقات وأقسام كثيرة ، وليس هناك طراز واحد من الشباب ، إننا شاهدنا عدداً كبيراً من الشباب يتلهفون شوقاً إلى أن يلعبوا دورهم ، وهم في استعداد تام وعندهم التألم الشديد مما واقع حولهم ، إن هؤلاء الشباب هم أمل اليوم وجيل المستقبل ، وفي الحقيقة: إن الشباب هم الذين يستطيعون أن يحولوا هذا التيار ، وعندي من المعلومات ما تؤكد لي أن في الشباب مجالاً واسعاً للعمل الإسلامي والفكر الإسلامي ، وعندهم قلق والقلق أول خطوات النمو والتقدم والتحسن ، إن الشباب قلقون اليوم وإن الحضارة الغربية قد عجزت عن تسليتهم وإرضائهم

وإن هناك فراغاً لم يملأ ولا يمكن أن يملأ ، كما تفضل الأستاذ كامل الشريف ، إن هنالك ديناً واحداً يستطيع أن يملأ الفراغ الهائل الذي أحدثته أوربا بين القلب والروح والجسم والمادة ، وهذا من خصائص الحضارة الغربية التي لها تجارب خاصة ومراحل معينة مرت في رحلتها الطويلة ، ولكن ـ مع الأسف الشديد ومن سوء حظ الإنسانية ـ لما آلت القيادة إلى أوربا أثرت هذه التجارب في تفكير الأمم التي كانت في عزلة عن هذه التجارب ، تجارب مجتمع خاص كانت لدينه طبيعة خاصة ، وقد حدث فيه صراع بين الكنيسة والحكم وصراع بين تعليم الدين ، وصراع بين الكهنوت والعقل السليم والعلم الحديث ، هذا كله من تجارب الغرب وكان الشرق غنياً عن هذه التجارب ، لم يكن منها في عير ولا نفير ، ولكن فرض الغرب وفرضت الثقافة الغربية هذه التجارب وانطباعات هذه التجارب ، ومردود هذه التجارب ، وقيمة هذه التجارب ، فنظرية «الدين قضية شخصية» و«الفصل بين الدين والسياسة» هذه كلها تجارب الأمم الأوربية لظروف خاصة ، وأجواء خاصة ، وللطبيعة المسيحية التي دانت بها أوربا ، ولكنها قد أشركت فيها الشعوب الشرقية من غير سبب ومن غير مبرر ، فهذا الفراغ موجود في الشباب ، والشباب بدؤوا يشعرون بهذا الفراغ ، إن ما نشاهده من انحرافات وشذوذ ومن مبالغات ومن تطرف في حياة الشباب ، كل ذلك شعور لهذا الفراغ . وإني أستطيع أن أقول في ضوء تجاربي ومشاهداتي في الشرق وفي آسيا : إن الشباب فيهم قابلية واستعداد كبير ليكونوا قادة حركة جديدة ، وليخوضوا هذه المعركة .

ولكننا نعيش في عزلة عن الشباب وعندنا كثير من سوء تفاهم ، ومن إساءة ظن ومن جهل للوضع الذي يعيش فيه الشباب ، فإذا ملئت هذه الفجوة بين الكهول والشباب ، وبين الدعاة إلى الدين وبين الشباب الجامعيين والشباب المثقفين بالثقافة الغربية ، يمكن أن نجر عدداً كبيراً ونجعلهم مقتنعين مستجيبين لهذه الدعوة متحمسين لها ، ولكن ذلك يحتاج إلى مخططات دقيقة عميقة ، مخططات علمية مدروسة ، يحتاج ذلك إلى مكتبة جديدة ، يحتاج ذلك إلى أسلوب جديد في الحديث مع الشباب ،

يحتاج ذلك إلى الحكمة التي أشار إليها القرآن بقوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ يحتاج ذلك إلى أن تكون عندنا أقلام قوية بليغة، وأن تكون عندنا تلك المقدرة البيانية والطلاوة الأدبية وحلاوة التعبير التي لا يمكن لدعوة أن تشق طريقها إلى الأمام وأن تنفذ في عقول الشباب وفي نفوسهم عن غير هذا الطريق.

إننا نرى ـ مع الأسف الشديد ـ أن كثيراً من علمائنا الأفاضل يعتبرون التضلع من آداب اللغة، والحصول على تلك المقدرة البيانية، والأسلوب البليغ الذي يدخل إلى قرارة النفوس، من فضول واجبات العلماء وعلى هامشها، وقد يعتبرون ذلك ابتعاداً عن وظيفتهم وانحرافاً عن جادتهم، مع أننا نرى أن القرآن نوه بهذه الحقيقة، وكلنا نؤمن أن الله سبحانه وتعالى هو أغنى الأغنياء، ولكنه أنزل كتابه في أسلوب معجز، وفي لسان عربي مبين ولم ينزل في لسان عربي مبين فحسب، بل نوه بهذه الناحية في غير موضع من مواضع القرآن، فقال ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ فمعنى ذلك أن ناحية اللفظ وناحية الأسلوب وناحية البلاغة ناحية مهمة. وإذا رجعنا إلى تاريخ الإصلاح والتجديد رأينا أن الذين كانوا على قمة الإخلاص وعلى ذروة الانقطاع إلى الله وإلى الربانية الصادقة كانوا لا يستهينون بهذه الناحية، وإنما كانوا يهتمون بها كل الاهتمام، ولا نضرب المثل بالنبي الكريم ﷺ في هذه المناسبة لأنه ﷺ أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء من غير شك وهذا معروف عند الجميع، ولكني أضرب المثل بسيدنا علي بن أبي طالب، إنه كان في قمة من البلاغة، ونواصل سيرنا إلى آخر القرون الإسلامية، فنرى أن من تبوأ القيادة أو الزعامة في الدعوة الإسلامية كانوا على جانب عظيم من البلاغة ومن فهم نفسية المخاطبين، إنني في الحقيقة أوخذ بالحيرة، إذا قرأت خطب سيدنا عبد القادر الكيلاني، فأنا أرى أن هذا الرجل الذي اشتهر في العالم كله، وفي جميع العصور بزهده وبقناعته وبربانيته، وبإشراقه وتبتله، إنه يخاطب الجيل المعاصر والمجتمع الذي كان يعيش فيه في بغداد، البلد الذي ولد فيه الحريري وولد فيه ابن الجوزي، وولد فيه

الصابي ، وولد فيه هؤلآء الشعراء ، وتغنى فيه البحتري ، والشريف الرضي ، والمتنبي ، وأبو تمام ، والمعري.

كانت بغداد عاصمة عالم الإسلام ومركز الخلافة العباسية ، كانت محطة كل عبقري من جميع الأصناف ، فسيدنا عبد القادر الكيلاني نراه يخاطب الجيل المعاصر في بغداد بلسان يحلق في البلاغة ، ويخاطبهم بأسلوب ساحر ، بأسلوب يبلغ إلى الأعماق ، بأسلوب لا تزال له الصولة إلى الآن ، وإذا قرأنا خطبه التي دونها المدنون وحرصوا على نقل اللفظ الصحيح لاعتقادهم أن ما يصدر من القلب يدخل في القلب ، وهذا كان من دواعي الحرص على نقل الكلام بالحرف.

وهذا يعطينا الفكرة عن أهمية الأدب والأسلوب ، إننا إذا أردنا أن نوجه الشباب التوجيه الإسلامي العميق ، فعلينا أن نتسلح بذلك ، أن نعد له عدته ، وأن نستوفي تلك الشروط التي كانت لكل زمان ومكان ، وهي لا تزال لها قيمتها وأهميتها وتأثيرها ، وهو إحداث مكتبة إسلامية علمية تلائم عقلية الشباب وتؤثر فيها ، ويتقبلها الشباب بقبول حسن ، بل يتشوقون إليها ويمدون إليها يدهم ، فإذا وفينا هذه الشروط فإني واثق بأن الشباب مستعدون ليكونوا ، لا مؤمنين بهذه الفكرة فحسب ، بل دعاة متحمسين لهذه الفكرة والدعوة ، متفانين فيها ، متهالكين عليها ، لا يعدلون بها شيئاً.

❋ ❋ ❋

إلـى الـشبـاب الـمسلـم الـمقيـم
فـي ديـار الـغـرب

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة خلال زيارته للندن بتاريخ ٢٧/ أكتوبر عام ١٩٦٤ م ، أمام الطلاب والشباب .

إخواني الأعزاء!

تحياتي إليكم على بعد الدار ومن وراء البحار ، تحياتٌ صادرةٌ من قرارة القلوب وأعماق النفوس ، مغمورةٌ بالحب والإخلاص وعاطفة الأخوة الإسلاميَّة الصادقة.

إنَّ وجودكم في قلب أوربا أو أمريكا ، وفي مصدر الحضارة الغربية العالمية ، والنشاط الثقافيِّ أو الصناعيِّ الذي غزا العالم ، لا أعتبره حادثة اضطرارٍ لم تكن عن رضا واختيار ، ولا مأساةً تستحقُّ المواساة ، إنما أعتبره ـ مهما كانت الأسباب والدوافع لهذه الهجرة المؤقتة أو الدائمة ـ هبةً من الله ، وتيسيراً منه ، وفتحاً من الفتوح التي سعد بها الإسلام والمسلمون في تاريخهم الطويل.

إنَّها سعادةٌ ومكسبٌ لكم في حياتكم الشخصية المحدودة ، وسعادةٌ ومكسبٌ للمجتمع الذي تعيشون فيه ، المجتمع الذي قُدِّر له أن يسوق العالم ، ويملي عليه إرادته وهواه ، المجتمع الأوربي بالمعنى الواسع الذي يشمل بريطانيا ، وأمريكا ، والقارة الأوربية بأسرها.

إنَّها فرصةٌ تفتح فيكم كوة جديدة للإيمان والثِّقة بالإسلام ، والاقتناع بما حواه القرآن ، ودعوة الأنبياء في عصورهم ، ودعوة آخر الرسل في عصره الذي لا نهاية له إلا بنهاية هذا العالم ، ونهاية الحضارة البشرية ، كوة لا تنفتح إلا في مثل المجتمع الذي تعيشون فيه اليوم ، وفي «معمل» الحضارة الغربية الذي لا يوجد في الشرق وفي بلاد الإسلام ومهد الحضارة الإسلامية.

وهي تفتح كوةً جديدةً في المجتمع الأوروبي ، تجربة جديدة في عالم الأفكار والقيم ، وصدمة للفكر الأوروبي ، وتحريك له بعد ما جمد وتوقف

عن الابتكار والثورة منذ زمنٍ طويل ، واشتغل بالإعادة وعمل «الاجترار»[١] لا يطلب جديداً ، ولا يأتي بجديدٍ.

أما فيما يخصُّ أنفسكم ـ أيها الشباب المسلم المغترب ـ فقد قالوا: إنَّ المجتمع الإنساني المتمدِّن يمكن ، لا بل يجب أن يقوم على غير أساس الإيمان وتعاليم الأديان ، والقيم الخلقية ، والرسالات السماوية ، إنَّه يستطيع أن يقوم على أساس العلم ، والتنظيم ، والصناعة ، والاقتصاد ، والوعي السياسي ، والقومية ، والوطنية ، والاتفاقات ، والتعهُّدات الاجتماعية والدستورية ، وإنَّ المجتمع ليسعد ويترفه بالوسائل والآلات التي تمنحها علوم الطبيعة والكيمياء ، وتسخير الكون والطبيعة لصالح الإنسان ورغباته وطموحه ، وتذليل العقبات التي كانت نتيجة الجهل للعلوم الكونية والطاقات البشرية ، وإنَّ سر شقاء الإنسان في العصر الماضي صعوبةُ التعارف والتفاهم بين أعضاء الأسرة الإنسانية في أنحاء الأرض ، وفي مختلف القارات والأقاليم.

لقد ألحَّ الغرب على هذا المعنى ، وتحمَّس له تحمس المؤمنين الجدد ، وكان هتافه «لا إله ولا دين ، ولا غيب ، ولا إيمان ، ولا روح ، ولا أخلاق ، ولا آخرة ، ولا مبادىء» فأصبحوا في الزمن الأخير يحاربون المتقيدين أو المحترمين للمبادىء الدينية ، أو الخلقية ، ويسمونهم (Fundamentalists) (المبدئيين) ، وإنما هو حسٌّ وتجربة ، أو لذَّةٌ أو منفعةٌ ، أو قوميةٌ ووطنيةٌ ، أو غريزةٌ وعاطفةٌ ، أو ديمقراطيةٌ وجمهوريةٌ ، أو اشتراكيةٌ وشيوعيةٌ ، وبرز في الميدان أئمة هذه الفلسفات ، وأبطال هذه الدعوات وتلاميذهم ومعارضوهم على اختلاف فلسفاتهم ونزعاتهم وكثرة مذاهبهم ، وتوزعوا العالم الغربي ، وخضع لهم كلُّ شيءٍ ، وازدهرت مدارسهم مدَّةً طويلةً ، ولا تزال تسيطر على العقول والآداب ، ومراكز السياسية ودور الاختيار ، والمجتمع الأوروبي المعاصر قد اقتبس من كلِّ

---

(١) اجتر البعير: أعاد الأكل من بطنه ، فمضغه ثانية.

هؤلاء وتأثر بمجموعهم في قليلٍ أو كثير ، وآمن بالقدر المشترك بينهم وهو «المادية» .

منحت أوربا فرصة تحقيق هذه المبادىء التي آمنت بها في سخاء وحرية لا نظير لها في تاريخ الحضارات ، وهي أطول فرصةٍ مع أعظم مقدارٍ من الآلات والوسائل والتسهيلات التي تمنح القيادات في التاريخ ، على يد عمالقةٍ نوابغ عبقريين في العلم ، والاختبار ، والتنظيم ، والإدارة ، وليست على وجه الأرض قيادة تعارض هذه القيادة ، أو دولةٌ قويةٌ تعرقل سيرها ، وقد وضعت الكنيسة النصرانية أوزارها قديماً أمام طموح أوربا الماديِّ والفكري ، والنهضة العقلية الوثابة التي لا قبل لها بها ، وخضع الشرق الإسلامي لغزواتها السياسية والفكرية في القرن التاسع عشر المسيحيِّ ، وخلا لها الجوُّ ، ودان لها العالم بشرقه وغربه ، وشماله وجنوبه .

لقد أمكن أوربا المادية أن تبرز جميع مواهبها ، وأن تمثل «المادية» على المسرح في جوٍّ مملوءٍ بالهتاف والتصفيق ، والتأييد والتصديق ، فإذا كان لمسرحيةٍ في العالم أن تنجح كان ذلك لهذه المسرحية التي يمثلها أبرعُ رجالٍ في أوفق أحوال .

ولكن ماذا كان؟ أخفقت هذه المسرحية التي كانت حصيلة أذكى عقولٍ بشريَّةٍ ، وأغنى قرائح إنسانيةٍ في أهدافها ومراميها إخفاقاً لم يعرف في التاريخ .

عداءٌ داخليٌّ وخارجيٌّ ، وصراعٌ بين الأفراد والطبقات والشعوب ، غيوم الحرب الكثيفة التي تغشى العالم كله ، وبركان متهيِّىءٌ للانفجار لأدنى مناسبة ، ونذرٌ صارخةٌ لنهاية البشر الأليمة ، وفقدان الثقة والهدوء والأمن العاطفي ، وتسلط الذعر والفزع على الأعصاب ، وقلقٌ دائم ، وتفسخٌ خلقيٌّ فظيعٌ يتخطى القياس ، وفراغٌ روحيٌّ هائل لا يملؤه شيء ، وسآمةٌ لا نهاية لها ، ولا علاج ، وتشاؤمٌ ، ويأسٌ ، وحيرةٌ .

إنَّ فرصة إخفاق الحضارة الغربية قصةٌ معادةٌ مكررةٌ ، ولكنَّها قصةٌ يجب

أن تروى، وتتلى، وتعاد، وتكرر، وهي قصةٌ تهمُّ الإنسان في كلِّ مكانٍ، وتتصل به وبحياته من أقرب طرق، ولأنَّ في الشرق من لا يزال يؤمن بعصمة هذه الحضارة وقداستها، ولا يصدِّق أنَّ مثلها يخفق ويخيب، أو أنَّها قد أفلست في معنوياتها، وهو يراها تبرهن على وجودها وقوتها في الشرق والغرب.

إنَّكم أيها الشباب المسلمون المغتربون، بمسمعٍ ومرأىً من هذه الحضارة تكتوون بنارها، وتعيشون في وسطها، وتشاهدون إخفاقها، وتهيُّؤها للانهيار في كلِّ مكانٍ، تشاهدون ذلك في أخلاق الساسة وقسوتهم، وموت العاطفة الإنسانية في قلوبهم، وفي أخلاق الشعب، ورخص قيمة الأعراض في عينه، وهدر الكرامة الإنسانية، وضياع القيم الخلقية، وفشوِّ الجنايات والسفالات في المجتمع، وعجز قادة الفكر والسياسة عن إيجاد رسالةٍ إنسانية تنفخ روحاً جديدةً في المجتمع، وتسوق الأمم نحو هدفٍ واحدٍ، وتجمع شملها، عن ملء الفراغ الرُّوحي، وعن إعادة الهدوء والسلام والثقة بالإنسان ومستقبله، إلى غير ذلك مما يتَّسم به هذا المجتمع الراقي الذي بلغ أوج الحضارة، والتنظيم والوعي.

ويتجلَّى لكم بعد ما شاهدتم هذه الآثار أنَّ كلَّ مجتمعٍ لا يقوم على أساس «الإيمان» إنَّما هو مجتمعٌ يقوم على شفا جرفٍ هارٍ، لا بدَّ له أن ينهار، وإن طال أمده، واتَّسع سلطانه، ولا سبيل إلى «الإيمان» إلا دعوة الأنبياء والرسل، وسيرتهم؛ الذي يملؤون الأمم الواسعة والجماهير الكثيرة بالروح الخلقية وقوة الإيمان والإنسانية السامية التي ليس فوقها إلا الصفات الإلهية، ويشعلون قلوب الملايين ـ من غير مدارس، وجامعات، ومجامع علمية، ووسائل للنشر والتأثير ـ إيماناً وحماساً وزهداً في المطامع والزخارف، وقوة مقاومةٍ للشهوات، وإيثاراً للآخرة على العاجلة، وإيثاراً لغيرهم على نفوسهم، وحبّاً لله الذي لا يرونه بعيونهم، ولا تتناوله حواسُّهم، والتفاني في رضاه، وهذه سيرتهم، وكتب التاريخ تحكي عنهم وعن أتباعهم كلَّ غريب، وكلَّ معجب، ولولا التواتر، ولولا الآثار لسارعت النفوس إلى تكذيبه والشكِّ فيه، وهم الذين

أنقذوا البقية الباقية من الحضارة والمجتمع البشري من الغرق في آخر لحظة، وقيمها: التراث الحضاري وكلَّ ما شاده البشر في آلاف من السنين، وصانوا القيم الخلقية والمفاهيم الصالحة من الضياع والتلف إلى آخر الأبد، ومدُّوا في أجل السلالة البشرية ومنحوها بجهادهم الطويل وإخلاصهم العميق حقَّ البقاء، وجدارة الحياة.

ومن المقرر المشاهد الذي لا شكَّ فيه أنَّ هذه الأديان التي أسعفت الإنسانية في أزماتها ومحنها المختلفة ـ وفضلها لا ينسى في تاريخ المدنية ـ قد فقدت قوَّتها وحياتها مع امتداد الزمان وطوارق الحدثان، وأصبحت فتيلة قد نفد زيتها واحترق خيطها، أو كحبوبٍ عصرت إلى آخر قطرةٍ، فهي لا تُسمن ولا تغني من جوع، وهي ليست من القوة والحياة بمكانٍ تستطيع فيه أن تقاوم هذ المدينة القوية وإغراءاتها الجارفة، وليست في الذين لا يزالون يدينون بها ويحملون أسماءها ثقة بهذه الأديان وصلاحها لكل زمان ومكان، وحماسة للدعوة إليها والجهاد في سبيلها، ولمواجهة المدنية العصرية وتحدياتها، وجلُّهم أو كلُّهم قد وضع أوزاره أمام المادية الغربية واعتزل المعترك، وآمن بأن «المادية» لا تفرَّ منه، وأنها مصير الإنسانية المحتوم.

إنما هنالك ـ أيها الإخوة المسلمون الشباب! ـ دينٌ لا يزال في حياته وأصالته ونقائه، ولا يزال أهله يعتقدون أنَّهم مأمورون بتبليغ الرسالة وإنقاذ المدنية والحسبة على الإنسانية. ومسؤولون أمام الله وأمام الخلق عن اتجاهات هذا العالم، ويمتازون بين أهل الأديان بأربع ميزات بارزة:

الـميـزة الأولـى: وجود هذا الكتاب العظيم المتدفق بالحياة، الكفيل بسعادة البشرية وتوجيهها، يحمل أعظم علمٍ وأعمقه بين دفتيه، ويملك أعمق تأثيرٍ في القلوب والعقول، وهو ثروة البشرية العظمى، والمعين الذي لا ينضب، والمدد الذي لا ينفد، قد أحدث أعظم ثورةٍ في تاريخ البشرية، ويستطيع إذا أطلق له العنان وحكم في قيادة الإنسان أن يحدث أعظم ثورة مرَّة أخرى.

والميـزة الـثـانيـة: هذه السيرة النبوية العطرة التي هي أجمل صورةٍ على الإطلاق في مجموع الصور البشرية الفنية ، وأعظم صفحة مشرقة في تاريخ البشر ، تعيد إلى الإنسانية كرامتها ومكانتها ، وتعيد الثقة والاعتزاز في نفس الإنسان بأشرفية النوع الإنساني ، الصورة التي لا يملك أمامها الإنسان ـ إذا لم يفقد حسَّ الجمال وحبَّ الكمال ـ إلا أن يفتخر بأنَّه من نوعه ومن بني جنسه ، ويتمنَّى أن يتسامى بتقليده للصور التي يجد فيها كل إنسان قوة ، وسكينة ، وأسوة ، وقدوة ، وحياة ، وتوجيهاً ، وجوانب مشرقةً تفتح منافذ جديدةً ، وتثير معاني جديدةً ، وهذه الصورة لا تزال بملامحها وقسماتها الأصيلة لم تطوها يد الزمان.

والـميـزة الـثـالـثـة: وجود الشريعة الإسلامية كما تركها صاحب الرسالة محفوظةً في أصلها وأساسها غنيةً في ثروتها الفقهية ، صلبةً مرنةً لا تتنازل عن القديم ، ولا تتجهم للجديد ، لا تخجل من ماضيها ، ولا تفرُّ من حاضرها ، تالدةً خالدةً ، صالحةً لكلِّ عصر وبيئة ، تعطي الأسس الحكيمة التي يقوم عليها مجتمعٌ جديدٌ وحضارة صالحة.

والـميـزة الـرابـعـة: وجود العاطفة الدينية القوية في المسلمين على علاتهم ومواضع الضعف فيهم ، وانقيادهم للدعوة الدينية وخضوعهم لها ، إذا وجد الدعاة المخلصون ، وهذه قوة قد فقدها ، وأفلس فيها عامة الأمم الغربية ، وهي قوةٌ لا يعرف قيمتها إلا من اشتغل بالدعوة والتجديد الديني في أمةٍ من الأمم ، ومن رأى إخفاق هؤلاء الدعاة في إعادة الحياة الدينية والروح الدينية في هذه الأمم.

أنتم أيها الإخوة المسلمون المغتربون في أوربا وأمريكا! تشاركون هذه الأمَّة العظيمة في هذه الميزات ، وأنتم عضوٌ في هذه الأسرة العظيمة ورثتم كلَّ ما ورثته أسرتكم الإسلامية العالمية ، ليس بالمعنى الذي يفهمه الجهلاء من عضوية أسرة كريمةٍ فاضلة ، وليس بمفهوم التراث كما يتصوره كثيرٌ من الباحثين والمستشرقين ، فيضعون كتباً في التراث الإسلامي (Legacy of Islam) ولكن بالمعنى الرفيع العميق الذي يفهمه العقلاء من أعضاء أسرة

مثلت دوراً ممتازاً في خدمة العلم والدين ، فعليكم أيها الإخوة الفضلاء! أن تدرسوا الإسلام من جديد ، وفي ضوء هذه الميزات التي عرضناها باختصار ، وأن تفقهوا الإسلام وتجيدوا فهمه وتتعمقوا في دراسته ، وأن تقبلوا على استعراض القرآن والتدبر فيه كأنه كتاب عرفتموه حديثاً ، وإن شئتم فقولوا نزل آنفاً جديداً ، وأن تدرسوا السيرة النبوية والحديث النبوي ، وتكثروا من قراءتها. وتحاولوا أن تتصلوا بالرسول الأعظم ـ ﷺ ـ اتصالاً شخصياً ، اتصالاً مؤسساً على الدراسة ، والتفكير ، والحب ، والعاطفة ، والإجلال ، والتقدير ، والاتباع ، والتقليد.

ثم عليكم أن تمثلوا هذا «الإسلام» تمثيلاً صحيحاً في أوربا وتظهروا بالعقيدة الإسلامية ، وتحافظوا على فرائض الإسلام وأخلاقه وشعائره في شجاعةٍ وثقةٍ ، لأنكم تمثلون أفضل دينٍ وأصحَّ عقيدةٍ في بيئة تفتقر إليها أشدَّ افتقار ، وبذلك تحسنون إليها ، وتحسنون إلى الغير من زملائكم وإخوانكم المسلمين ، وإلى الذين هم في سنكم في الشرق الإسلاميِّ الذي يخجلون من تمثيل الإسلام والظهور في مظهره في الحواضر الإسلامية ، والجامعات العربية ، وتسنون لهم سنةً حسنةً لكم أجرها وأجر من عمل بها ، وبهذه الحياة الإسلامية النزيهة العفيفة التي فيها الصلاح والتقوى ، والصدق والأمانة ، والذكر والعبادة ، والرضا والقناعة ، والنشاط والقوة ، ورقة العاطفة وإشراق الروح ، تستطيعون أن تجذبوا إلى الإسلام عدداً كبيراً من أصدقائكم وزملائكم وأساتذتكم وجيرانكم. وهكذا دخل العدد الأكبر من المنصفين والعقلاء في حضانة الإسلام في البلاد التي لم يغزها جيشٌ إسلاميٌّ ، ولم يلمع فيها سيف مجاهد.

قد تكونون أيها الإخوة الأعزة تلاميذ في جامعةٍ ، أو عاملين في مصنع ، أو موظفين في مصلحةٍ ، وقد تكونون صغاراً في ثقافتكم ، أو وظيفتكم ، أو مكانتكم الاجتماعية ، ولكنكم كبارٌ في عقيدتكم ، ودعوتكم ، فأساتذتكم في الفنون التي تدرسونها أساتذةٌ وشيوخٌ ، لهم عليكم حقوقٌ وفضلٌ ، والإسلام أول من يعرف لصاحب الفضل فضله ، ولكنهم في حاجة إلى أن يفهموا الإسلام ويروه ممثلاً في شخصكم ، وأنتم بذلك في

منزلة المرشد والموجه ، فاعرفوا قيمتكم ، وقدروا مسؤوليتكم ، وأدُّوا حقوقها ، وأحسنوا القيام بهما.

وأعود فأقول: إنَّ وجودكم في أوربا وأمريكا فرصةٌ غالية يجب أن تنتهزوها ، ويجب أن تستغلوها لصالح الإسلام ، ولصالح الإنسانية في وجودكم في هذه البلاد يقوى إيمانكم وثقتكم بالدين الذي أكرمكم الله به ، ويفتح طريقاً جديداً لتقدم الإسلام في هذه البلاد وانتشاره في هذه الناحية التي حرمت نعمة الإسلام من زمنٍ بعيد ، وتهيَّأت لها القيادة والسيطرة على العالم ، فكان في ذلك شقاؤها ، وشقاء الناس ، لأنها كانت من غير منهاج نبويٍّ ، ورسالة سماويَّةٍ عالميَّةٍ ، ومؤهلاتٍ خلقيَّةٍ وروحيةٍ ، ولعلَّ وجودكم وجهادكم يتداركان هذا الخلل ويملأان هذا الفراغ.

والله ولي التوفيق.

* * *

احـذَروا مِـن أن يـنشـأ إسـلامٌ أمـريكـيٌّ أوروبـيٌّ

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في مدينة «نيوجرسي New Jersey» في أمريكا الشمالية ، وقد قدَّم المحاضرَ العالمُ المصري الباحث ، الدكتور سليمان دنيا المشرف العام على المركز الإسلامي ، وقد ذكر في كلمته القيمة أنَّ الإسلام والثقافة العربية الإسلامية ليست محتكرةً على العرب ، خاصة بهم ، وأشاد بما لعلماء العجم ـ خاصة علماء شبه القارة الهندية ـ من مساهمةٍ كبيرةٍ في تكوينها وتوسيعها وتهذيبها ، ونوَّه بصفةٍ خاصةٍ بمآثر العلاَّمة السيد مرتضى الزبيدي (البلجرامي الهندي صاحب «تاج العروس» في شرح القاموس المتوفى ١٢٠٥ هـ) واللغوية العلمية ، وذكر أنَّ الإسلام دينٌ عالميٌّ لا يعرف الحدود الجغرافية والفروق الإقليمية والقومية .

وقد استمع إلى هذه المحاضرة عددٌ وجيهٌ من العرب المثقفين والهنود والباكستانيين المقيمين في أمريكا ، وذلك في ١٦/ جمادى الآخرة ١٣٩٧ هـ ـ ٤/ من يونية ١٩٧٧ ، ظهراً .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .

الإسـلام يـغـزو الـولايـات الـمتحـدة :

إخواني وسادتي! أنا سعيد بهذا اللقاء الكريم وبهذه المناسبة الطيبة المباركة حين ألتقي بكم في هذا المركز الإسلاميِّ الكبير ، وهذه هي جولتي الأولى في الولايات المتحدة في أمريكا الشمالية ، وكنت أسمع كثيراً عنها وعن انتشار الإسلام فيها ، وعن عناية إخواننا المسلمين الذين تدبَّروا هذه البلاد وانتقلوا إليها بالإسلام ، وبحبهم له ، وبغيرتهم عليه ، ولكنني لا أخفي عنكم أنني لم أكن أتصوَّر أني سأجتمع ـ بإذن الله ـ بهذا العدد الكبير من إخوتي المسلمين ، وأرى فيهم هذا النشاط وهذا الحماس للدين ، وهذه العاطفة الإسلامية الطيبة .

وقد عرفت أنَّ الإسلام بدأ يغزو هذه البلاد ، التي تسيطر الآن على العالم المعاصر ، تسيطر عليه بتقدُّمها في الصناعة ، وبتقدُّمها في العلوم الحديثة ، والعلوم التطبيقية ، وبتقدُّمها في مضمار الاكتشافات ، وباستحواذها على مجال الحياة السياسية في هذا العالم .

لقد بدأ الإسلام يدخل في هذه المنطقة ، وصار يشقُّ له طريقاً إلى الأمام ، وسيأتي يومٌ قريبٌ إن شاء الله حين يتكوَّن مجتمعٌ إسلاميٌّ هنا في هذه البلاد البعيدة ، إنَّني متفائل ، وإنَّني مسرورٌ وسعيد بذلك .

ولكن في نفس الوقت يساورني خوفٌ في ضوء التجارب والدراسات التي وفقني الله لها ، وهو أن نشوء مجتمعٍ إسلاميٍّ في بلادٍ بعيدةٍ عن مركز الإسلام، وعن مركز الثقافة الإسلامية ، ومركز الحياة الإسلامية أمرٌ خطيرٌ .

الإسـلام يـحتـاج إلـى جـوٍّ خـاص :

لا شك أنَّ الإسلام ليس خاصاً ببلدٍ دون بلدٍ ، كما تفضل أستاذنا

الدكتور سليمان دنيا ، ـ وأنا أوافقه في ذلك مئةً في المئة ـ أنَّ الإسلام ليس ديناً إقليمياً ، ولا ديناً جغرافياً .

ولكن رغم ذلك كلِّه ممَّا لا شك فيه أنَّه يحتاج إلى جوٍّ خاصٍّ ، يحتاج إلى ذوقٍ مسيطرٍ على التفكير والشعور وموازين الأشياء والقيم تشم رائحته من بعيد ، إنَّه يحتاج إلى مناخٍ إسلاميٍّ ، وإذا كنت أكثر صراحة ، وأدقَّ في التعبير قلت: إنَّه يحتاج إلى طقسٍ ودرجة حرارةٍ وبرودةٍ معيَّنة (Temperature) لأنَّه دينٌ حيٌّ إنسانيٌّ ، ليس ديناً عقلياً يعيش في المخ ، أو يعيش في الفلسفة ، أو يعيش في مكتبة ، إن الإسلام ليس عقيدة فحسب ، أو ليس قائمةً طويلةً أو قصيرةً من عقائد يدين بها الإنسان وكفى .

الإسلام في وقتٍ واحدٍ عقيدةٌ ، وعملٌ ، وسلوكٌ ، وخلقٌ ، وعاطفةٌ ، وشعورٌ ، والإسلام كذلك ذوقٌ ، ذوق يستولي على الإنسان ، ويصوغه صياغةً جديدةً ، إذا شرح الله صدر أحدٍ لدين الإسلام ، وآمن به كدين الله المختار ، وكالرسالة الأخيرة؛ فإنَّه يصهر في بوتقة الإسلام. إنَّه يسبك سبكاً جديداً ، ويصاغ صياغةً جديدةً ، وكأنه وُلد من جديدٍ؛ لأنَّ الإسلام نشأةٌ مستقلةٌ ، نشأةٌ كاملةٌ شاملةٌ ، فيها كلُّ الانقلاب ، وفيها كلُّ الكمال. فالإسلام ليس عقيدةً جافَّة ، عقيدةً حرفية. إنَّه دينٌ يتغلغل في الأحشاء ، ويسري في العروق ، كما يسري التيَّار الكهربائي ، وكما يسري التيار من جسم إلى جسمٍ ، ومن مصدرٍ إلى مصدرٍ.

إنَّها صبغة الله ومن أحسن من الله صبغةً:

فإذا كان هذا شأن الإسلام؛ فالإسلام ليس شيئاً ينقل حرفياً فقط ، مثلاً يقول الإنسان: آمنت بالله ، وآمنت بالرسول ، وآمنت بالآخرة ، وكفى ، هو منهج تفكيرٍ خاصٍّ ، وذوقٌ خاصٌّ يحكم على الأشياء: هذا طيبٌ ، وهذا خبيثٌ ، إنَّ النبي ﷺ كان يستحسن أشياء ، ويستهجن أشياء ، كان يحبُّ التيمُّن في كلِّ شيءٍ ، كان يحب التيمُّن في تنعُّله ، وفي ترجُّله ، وفي شأنه كلِّه ، وكان ينشط لأشياء ، ويتنغَّص برؤية أشياء ، إنَّه ذوقٌ نبويٌّ ،

وذوقٌ سماويٌّ ، ذوقٌ نزل من فوق سبع سموات ، وحمله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأورثوه.

لذلك نرى أنَّ الله تبارك وتعالى يصف الإسلام بصبغة الله ، إذا كان الإسلام عقيدةً فحسب ، وإذا كان الإسلام عملاً فحسب ؛ لم يكن يستحقُّ أن يسمَّى صبغة ، الصبغة لونٌ شاملٌ ، وسمةٌ مميَّزةٌ ، وشعارٌ فاصلٌ ، وطابعٌ ممتازٌ ، الإسلام لا يكون لوناً ، ولا يكون صبغةً إلا إذا كان شيئاً يفرق بين إنسانٍ وإنسانٍ ، وبين حياةٍ وحياةٍ ، وبين سيرةٍ وسيرةٍ ، وبين ذوقٍ وذوقٍ ، وبين موازين الأشياء والقيم والمثل ، فموازين الإسلام غير موازين الكفر ، إنَّها غير موازين الجاهلية ، لذلك ترون في الحديث النبوي ، وفي كتب السنَّة إشارةً إلى الجاهلية وشعائرها ، فيقال مثلاً : إنه من خصال الجاهلية ، إنه من حمية الجاهلية ، وجاء في القرآن : ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب : ٣٣].

لماذا؟ الجاهلية قد مضى دورها وانقضى ، لماذا يعبر القرآن بالجاهلية؟ لأنَّ الجاهلية كانت حياةً مستقلَّةً ، فيها حسنٌ وقبيحٌ ، وفيها حلالٌ وحرامٌ ، وفيها فرضٌ ، وواجبٌ ، وممنوعٌ ، وفيها موازين خاصة للأشياء ، فالجاهلية كانت حياةً كرهها الله سبحانه وتعالى ، ومقتها ، ولعنها ، ولذلك جاء في الحديث الشريف : «إنَّ الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربَهم ، وعجمهم إلاَّ بقايا من أهل الكتاب» ، فهذه الجاهلية قد أبغضها الله سبحانه وتعالى ، ولعنها ، وأسقط قيمتها ، وكرهها لعباده ، فقال : ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب : ٣٣] ويقول : ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح : ٢٦] وكان النبي ﷺ إذا رأى في مسلم شيئاً من بقايا الجاهلية ؛ قال : «إنَّك امرؤٌ فيك جاهليةٌ» كما قال لأبي ذرٍّ لما رأى الفرق الكبير بينه وبين غلامه ، ورآه يضرب غلامه ، وينزل عليه بالضرب والإهانة ؛ قال له : «إنَّك امرؤٌ فيك جاهليةٌ» فتأثر بذلك أبو ذر ، فجعل لا يفرق بينه وبين عبده ، يكسو مولاه ما كان يكسو نفسه ، ويطعمه ما يأكله.

فالله سبحانه وتعالى يسمي الإسلام بصبغة الله ، فلولا أنَّ الإسلام لونٌ خاصٌّ للحياة ، ونمطٌ خاصٌّ للحياة؛ لما سمَّاه بالصبغة فقال: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة: ١٣٨].

مـا هـو الإســلام:

ثم إنَّ الله تبارك وتعالى حثَّ عباده على اتِّباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فقال لما ذكر قائمةً طويلة مشرقة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فقال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٨٨] ، ثم قال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] يعني: اقتف آثارهم. ثم خصَّ نبيه ﷺ بكونه قدوةً دائمةً ، وأسوةً حسنةً ، ومثلاً كاملاً ، فقال مخاطباً للمؤمنين على لسان نبيه ﷺ في سورة آل عمران: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وكذلك للإسلام حساسيَّة زائدةٌ بالنسبة إلى الديانات الأخرى؛ إنَّه يتأثر أكثر من أيِّ دينٍ. إنَّ المسيحيَّ إذا قال أنا نصرانيٌّ يكفي ، ويختار من الحضارات والفلسفات وأنماط الحياة ، ومناهج التفكير ، والمثل ، والقيم ما يشاء ، وقد سأل صديق لي في الهند هندكياً من كبار المثقفين ، فقال له: يا أخي! إنَّ المسلم إذا سئل ما هو الإسلام يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والإسلام يتلخَّص في هذا ، وكذلك إذا سئلت أنت مثلاً بصفتك هندكياً بماذا تجيب؟ ، لا أريد كتاباً مطولاً عندي مكتبة إذا أردت أن أعرف الفلسفة البرهمية مثلاً ، أو فلسفة «ويدانت» مثلاً أنا أستطيع أن أراجع الكتب ولكني لو قلت لك مثلاً ما عندي إلا دقيقةٌ واحدةٌ أو دقيقتان ، فأنت قل لي كلمةً تكون فيها روح الهندكية وجوهر الهندكية ، قال: فسكت

هنيهةً ، ثم قال: يا فلان! الهندوكي لا يؤمن بشيءٍ وهو يؤمن بكلِّ شيءٍ ، فالإنسان إذا قال أنا هندكي لا يحتاج إلى شيء ، هو هندكي مهما كان سلوكه وتصرفه ، آمن بأشياء ، وكفر بأشياء فإنه هندكي ، ما دام هو يشهد لنفسه أوعلى نفسه بأنه هندكي ، يكفي هذا.

ليس الإسلام هكذا يا إخواني! الإسلام كما قلت لكم أكثر الديانات حساسيَّةً. إنَّه يتأثر أكثر من كلِّ دينٍ ، له حدودٌ معروفةٌ معيَّنةٌ ، هذا إسلام ، وهذا كفر ، وهذه جاهلية ، وهذا حلالٌ ، وهذا حرامٌ ، وهذا طيِّبٌ ، وهذا خبيثٌ ، وإلى هنا الإسلام ثمَّ الردَّة ، ولا مفهوم للردَّة في دين آخر بالمعنى الواضح الذي نفهمه ونعرفه ، لا تجدون مرادفاً لهذه الكلمة في دياناتٍ كثيرةٍ ، وعندنا الردَّة أكبر الكبائر ، وأكبر الآثام ، تقشعر منها الجلود ، وقد جاء في الحديث الصحيح: «ويكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار».

مسؤوليةٌ كبيرةٌ ضخمةٌ:

فأقول لكم: إذا كان هذا شأن الإسلام فمسؤوليتنا نحن المقيمين في أمريكا ، وفي أوربا مسؤوليةٌ كبيرةٌ ضخمةٌ ، إذا كان الإسلام مجرد عقيدة ، أو مجرد أعمال ، أو مجرد عبادات ، كان الأمر سهلاً ، لكن الإسلام إذا كان صبغةً ، وإذا كان نمطاً للحياة ، وإذا كان شعوراً ، وعاطفةً ، وحساسيةً ، وإذا كان الإسلام يتأثَّر أكثر من كلِّ دينٍ ، وإذا كان الإسلام انقلاباً ، وإذا كان الإسلام تغيُّراً جذرياً في الموازين ، وفي القيم ، وفي المثل ، وفي استحسان الأشياء ، واستهجانها؛ فأمره دقيقٌ عميقٌ ، ومسؤوليته كبيرةٌ ضخمةٌ.

فلا نستطيع أن نكتفي بمجرد قراءة الكتب ، ولا نستطيع أن نقتصر على سماع المحاضرات فقط ، مهما كانت دقيقةً ، ومهما كان مستواها رفيعاً ، ولكن لا نستطيع أن نتذوق الإسلام ونتشربه من خلال الكتب فقط ، أو من خلال المحاضرات فقط ، وإن كانت الكتب لا غنى عنها ، ولا بدَّ منها ، وإن كانت المحاضرات لا غنى عنها ، وهي مفيدةٌ لا شكَّ ، ولكننا

لا نستطيع أن نقتصر على مطالعة الكتب ، أو على سماع المحاضرات. إننا نحتاج إلى مناخٍ إسلاميٍّ ، نحتاج إلى جوٍّ إسلاميٍّ ، نحتاج إلى صبغةٍ إسلاميَّةٍ ، نحتاجٍ أن نشاهد الإسلام بعيوننا ، ونسمعه بآذاننا ، ونتلمَّسه بأصابعنا ، ونتذوَّقه بأذواقنا.

إلى الإسلام الحيِّ:

إذاً لا بدَّ من اللقاءات ، ولا بدَّ من الصحبة ، ولا بدَّ من أن نعيش حياةً إسلاميَّةً ، نخرج إلى مناطق فيها تقوم الحياة الإسلامية ، وفيها يوجد المجتمع الإسلامي المثاليُّ أو شبه المثاليِّ ، أو نصف المثاليِّ ، أو ربع المثاليِّ ، ولكن لا بدَّ لنا أن نشاهد الإسلام يسعى على قدميه ، نشاهد الإسلام يتنفس برئتيه.

فلا بدَّ من صحبة المؤمنين الصادقين ، ولذلك نرى أن الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه ، وأنتم تعرفون أنَّ النبيَّ ﷺ هو النبيُّ المعصوم ، وهو النبيُّ المصطفى ، وهو المثال ، والقدوة لجميع البشر وجميع الأجيال البشرية ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى يحثُّ نبيه على الصحبة ، على صحبة الصالحين يقول: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] ، وإذا كان هذا شأن النبيِّ المعصوم؛ فكيف بالمسلمين؟! أما سمعوا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]. فلا تكفينا المطالعات ، والقراءات.

مسؤوليتنا نحو إنشاء مجتمعٍ إسلاميٍّ مثاليٍّ:

المجتمع الإسلاميُّ هنا في نشوءٍ ، وفي تكوُّنٍ ، وهو في دور الطفولة ، ويجب أن نشعر بمسؤوليتنا نحو هذا المجتمع ، وأن نكون واعين ، نعرف أنَّ هذا المجتمع الذي قد ولد بفضل الله تعالى وبحوله ، نرجو أن يقوم ، وينشأ ، ويترعرع ، ويبلغ سنَّ الرُّشد حتى تتوفر عنده أسباب التربية. ما هي أسباب التربية؟ أسباب التربية: العقيدة ، والإيمان ، والدراسة ، والثقافة ،

والصحبة، والمجاهدة. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] والذين يجاهدون في دين الله فالله سبحانه وتعالى يفتح عليهم من أبواب الإيمان، ومن أبواب الحكمة، ومن أبواب البصيرة ما لا يتخيله الإنسان.

هذه هي مسؤولية هذا المجتمع الذي أنتم أعضاؤه، وأنتم مؤسسوه، والحمد لله لكم فضلٌ كبيرٌ في إيجاد هذا المجتمع، لولا أنتم، ولولا انتقلتم من بلادكم، ولولا اتخذتم هذه البلاد وطن إقامةٍ لكم وآثرتموها على غيرها من البلاد؛ لما كان هذا المجتمع مجتمعاً إسلاميّاً مثاليّاً، لا يكون مجتمعاً يعيش على فلسفةٍ فقط. الإسلام ليس نظريةً سياسيَّةً فحسب، ليس فلسفةً عقليَّةً واجتماعيةً فحسب، وليس نظام حكمٍ فحسب. إنه قبل كل شيءٍ عقيدةٌ تتغلغل في الأحشاء، عقيدةٌ تسري في النفس، وتتعمَّق جذورها، ثم الإسلام كما قلت لكم تطبيقٌ عمليٌّ، والإسلام كذلك ذوقٌ، وكان إسلام الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يشمل هذه الجوانب كلَّها، كانوا مسلمين عقيدةً، وكانوا مسلمين خلقاً، وكانوا مسلمين ذوقاً كذلك، كانوا ميزاناً في الحكم على الأشياء، لذلك ساغ للصحابيِّ الجليل عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أن يقول: «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح»[1]، المقصود بهؤلاء المسلمين الصحابة كما هو عند المحققين، ما رآه الصحابة حسناً فهو عند الله حسن، أصبحوا ميزاناً للأشياء، فما استحسنوه بالإجماع؛ فهو حسنٌ، وما استهجنوه بالإجماع، أو بالأكثرية؛ فهو مستهجنٌ.

وهكذا يَطلب الإسلام، ويطلب القرآن من المسلم أن يكون ميزاناً، وأن يكون إسلامه شاملاً لهذه الجوانب كلِّها، يتذوق الإسلام تذوقاً حقيقيّاً، حتى يرى الأمريكيُّ الفرق الهائل بين المجتمع الأمريكيِّ الذي تسوقه المادَّة سوقاً عنيفاً لا رحمة فيه ولا هوادة، سوقاً عنيفاً وحشياً، وبين

(١) رواه أحمد في كتاب السنة عن ابن مسعود، وهو موقوف حسن، وأخرجه البزار والطيالسي والطبراني والبيهقي.

المجتمع الإسلامي ، فيرى مجتمعاً هادئاً ، مجتمعاً رزيناً ، مجتمعاً يحيي الليل بالعبادة ، ويحيي النهار بالاجتهاد ، وبالكفاح وبالحصول على معاشٍ طيِّبٍ ، ورزقٍ كريمٍ ، وفي خدمة الإنسانية.

ووجود هذا المجتمع بنفسه هو انتصارٌ للإسلام ، وفتحٌ له ، فيقول الأمريكيُّ: إنَّ لذة الحياة في المجتمع الإسلاميِّ ، لا لذَّة للحياة في مجتمعنا ، ويتمنَّى الأمريكيون أن ينتقلوا إلى هذا المجتمع الإسلاميِّ الذي تغشاه السكينة ، ويغشاه النور ، ويلعنوا مجتمعهم الفاسد العفن الذي ولدوا فيه ، وعاشوا.

لكيلا ينشأ إسلامٌ إقليمي:

وفي الأخير إنني أخشى أننا في أمريكا ، وفي كلِّ بلدٍ إذا انطوينا على نفوسنا ، وانكمشنا في سلخنا ، كما تنكمش الحية ، واقتصرنا على مطالعة الكتب ، والدراسات العلمية ، أو البحوث النظرية والفلسفية ، وانقطعت الصلة بيننا وبين مصادر الإسلام الحقيقية ، ومراكز الحياة الإسلامية التي يعيش فيها الإسلام على علاَّت هذه الحياة ، ويسودها الجوُّ الإسلاميُّ ، وجفَّت منابع الشعور الإسلاميِّ والعاطفة الإسلاميَّة في نفوسنا ، وفي قلوبنا؛ نشأ إسلامٌ أمريكيٌّ ، وإسلام أوربيٌّ ، وإسلام إيرانيٌّ ، وإسلامٌ يابانيٌّ ، وإسلامٌ هنديٌّ ، وإسلام باكستانيٌّ ، تنكر كلٌّ للآخر ، واختلف عنه اختلاف الأمريكي عن الآسيوي ، والياباني عن الأفغاني ، وتنشأ مجتمعاتٌ للمسلمين تختلف أذواقها ، ومثلها ، وقيمها ، وموازين الأشياء فيها.

وهذا خطرٌ كبيرٌ على الإسلام يجب أن يواجه ، ويعالج قبل استفحاله ، وقبل أن يفلت الزمام من يد قادة الإسلام ، وهي الحكمة الرئيسية في مشروعية الحجِّ وجمع المسلمين ـ على اختلاف بيئاتهم ، وقومياتهم ، ولغاتهم ، وثقافاتهم ـ على صعيدٍ واحدٍ وفي زمنٍ واحدٍ حتَّى لا يلتبس أمر الدِّين على أحدٍ ، وحتَّى يمكن استعراض الإسلام في مختلف أنحاء العالم الإسلاميِّ ، وحتى تتيسر مخالفة البدع والتحريفات التي تنبت «كالحشائش الشيطانيَّة» في العقول والمزارع ، ويمكن التنبيه عليها ، فلولا الحجُّ

لتعرض هذا الدين والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها للتحريف كما تعرضت الديانات الأخرى.

فالحذرَ كلَّ الحذر أيها الإخوان! من نشوء إسلامٍ إقليميٍّ قائمٍ بذاته، ومن تكوُّن مجتمعٍ للمسلمين يختلف عن جوهر الإسلام وأسسه كلَّ الاختلاف.

هذه كلمتي فتح الله بها عليَّ في هذا الوقت، وإذا تأملتم فيها، وأنتم خلوتم بأنفسكم شعرتم بقيمتها، وفائدتها، وأثرها في الحياة هنا وفي الخارج، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيمٍ.

* * *

ما وَجَدته في أمريكا . . . وَمَا افتقدته

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في مركز الجالية الإسلامية بمدينة شيكاغو ، في ١/ رجب ١٣٩٧ هـ ـ ١٩ يونيه ١٩٧٧ م في الأردوية ، ونقلها إلى العربية الأستاذ نور عالم الأميني الندوي .

قال بعدما حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه وسلم :

سادتي وإخواني! قال الشيخ جلال الدين الرومي في مقطوعةٍ شعريةٍ له ـ وقد افتتح بها شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال كتابه «أسرار خودي» وحلَّى بها صدره ـ :

«رأيت البارحة شيخاً يدور حول المدينة ، وقد حمل مشعلاً ، كأنه يبحث عن شيء ، قلت له : يا سيدي! تبحث عن ماذا؟ قال : قد مللتُ معاشرة السباع والدواب ، وضقتُ بها ذرعاً ، وخرجت أبحث عن إنسانٍ في هذا العالم ، لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالى والأقزام ، الذين أجدهم حولي ، فخرجت أبحث عن عملاقٍ من الرجال ، وبطلٍ من الأبطال ، يملأ عيني برجولته وشخصيته ، ويروِّح نفسي .

قلت له : لقد غرتك نفسك يا هذا! فخرجت تقتنص العنقاء ، بالله! لا تتعب نفسك ، وارجع أدراجك ، فقد أجهدت نفسي ، وأنضيت ركابي ، ونقَّبت في البلاد ، فلم أر لهذا الكائن عيناً ولا أثراً . قال الشيخ : إليك عني ، أيها الرجل! فأحبُّ شيءٍ إلى نفسي ، أعزُّه وجوداً ، وأبعده منالاً» .

أنتم تعلمون أني قمت بزيارة هذه البلاد ، على دعوة من منظمة الطلاب المسلمين M.S.A إنّ هذه البلاد كانت كعالم جديد لي ، ولا أقول : إنَّه اكتشاف كاكتشاف «كولمبس» للعالم الجديد ، وإني أشكر M.S.A على أنَّها أتاحت لي فرصة الطواف في أرجاء أميركا ، وكندا ، أزورها من أقصاها إلى أقصاها ، وأشاهدها بأمِّ عيني ، وأحتكُّ بالشعب ، وأجتمع بأفراده ، وأتحدَّث إليهم ، وأتعرَّف عليهم ، وأطَّلع على أوضاعهم وملابساتهم قدر ما تسمح به هذه الإقامةُ القصيرةُ ، وقد قمت بزيارة «نيويورك » كما قمت بزيارة «كندا» ، وأميركا الشمالية ، وقطعت مسافةً طويلةً ، مسافةً تمتدُّ على خمسة آلاف ميل أو أكثر ، وها أنا ذا أمامكم في ختام هذه الزيارة ، فهذه المدينة هي المنزل الأخير في رحلتي ، وأظنُّكم تحنُّون إلى الاستماع لانطباعاتي وخواطري عن هذه الزيارة .

ربما كان لي أن أتحدث ـ بصفتي من سكان البلد المتخلف عن ركب التقدم ، لا بمراحل بل بمسافة قرون ـ إليكم عن واقع النهضة والتقدُّم وقصة الرقي في هذه البلاد ، لكني أترك ذلك وشأنه ، فأنتم أعلم بذلك .

تلوت عليكم مقطوعة لمولانا جلال الدين الرومي ، وربما كان ذلك خلاف ما كان يتوقعه كثيرٌ من الإخوان والأخوات ، لم يكن مولانا جلال الدين في عصر التخلف ، ولا من بلدٍ متخلفٍ في التقدُّم البشري ، بل كان بلده من المدن الراقية في العالم الراقي المتمدِّن المعمور في ذلك العصر ، قد تأسست فيه حضارةٌ جديدةٌ منذ وقتٍ قريب ، وكان مستعداً لإقامة دولةٍ عظيمةٍ ـ هي الدولة السلجوقية ـ ، وقد أنجب نوابغ وعباقرة في الشعر ، والأدب ، والفلسفة ، وقام بتوجيه المدنية والوصاية على القطاع الشرقي للعالم ، وخلَّف آثاراً خالدةً ومعالم ثابتة على وجه الأرض ، هي مدينة «قونية» ، وكان أصله من إيران ، التي يصح أن ندعوها «يونان الشرق»[(١)] .

غير أنَّ الشاعر قد عبَّر في مقطوعته عن شعوره الجريح ، وقلبه المكلوم ، إنَّه يحكي عن شيخٍ رائدٍ للحقيقة ، ولكنه يعني نفسه ، ويروي قصته ، ويقول : «إني أنا الإنسان البائس المسكين ، في هذه المدينة الحافلة العامرة ، الزاهية الزاهرة ، وفي هذه المنطقة المتمدِّنة الراقية ، خرجت أبحث عن إنسانٍ في العالم ، فإنِّي أجد كلَّ شيءٍ ، ولا أجد إنساناً ، فأرى قصوراً شامخةً ، ومدناً فاتنةً ، وحدائق غناء ، ومتنزهاتٍ ساحرةً ، وجبالاً تناطح السحاب ، وتنوعاً في المطاعم ، وتفنناً في الملابس ، وتلوناً في مظاهر المدنية والحضارة ، أرى كلَّ ذلك ولكني لا أرى شيئاً ، هو الإنسان ، أما الإنسان الذي نراه ، فهو شبه الإنسان ، ليس بإنسانٍ . ويضيف قائلاً في بيت آخر : «أما الذين نراهم ، فهم أشباه الرِّجال ، لا رجال ، لأنهم عبَّاد البطن ، وصرعى الشهوات» .

---

(١) نـزح أبوه من بلخ إلى الأناضول وأقام في قونية .

مـوجـة الـمـاكـينـات:

إنِّي تجولت في أمريكا شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، فرأيت فيها تقدم الماكينات ، وكل ما ترون في هذه البلاد من نشاطاتٍ وانتعاشاتٍ ، يرجع الفضل فيه إلى العلوم الرياضية ، والتكنولوجيا ، والهندسة ، والصناعة ، والحرفة ، وبلغت هذه الفنون في هذا البلد قمَّتها ، وأطرفت الإنسان بكل ما كانت تستطيع أن تطرفه به ، من وسائل وتسهيلاتٍ ، وترفيهٍ وتسليةٍ ، وأسباب العيش والراحة والترف ، والرُّقيِّ والازدهار.

وهنا نتساءل: هل يوجد في هذا البلد ـ الغاصِّ بالسكان ، والباذخ بالعمران والذي بلغت مدنه من كثافة السكان وزحمة الإنسان إلى ألا يكاد المرء يجد طريقه على الشارع ـ إنسان حقيقي يحمل في صدره قلباً خفَّاقاً ، ويملك عيناً ساكبة للدموع ، حزناً على الإنسانية البائسة المنكوبة ، ويتحرَّق ألماً للإنسان الضائع ، ويتجرَّد عن الشهوات ، ويتمرَّد على الأهواء ، ولا يستسلم لهذه المدنية ، ولا يخضع لها ، بل هو يخضعها ، ويسخرها ، ويركب على أعناقها ، ولا يلقي حبله على غارب الحياة ، بل هو يمسك بزمام الحياة ، فلا تقسو عليه ، ولا تجمح لديه ، ولا تسوقه ، ولا تهرع به ، بل هو يقهرها ، ويتملَّكها ، ويوجِّهها كيف يشاء.

أين هذا الإنسان ، الذي يعرف خالقه ، ويعبد ربَّه ، ويعيش في حبِّه ، وفي حبِّ الإنسانية واحترامها ، ويتملَّك نفسه الأمارة بالسُّوء ، ويحيا حياةً متقشفةً زاهدةً ، بسيطةً قريبةً من الفطرة ، ويتذوَّق اللذة الحقيقية ، ويذوب حدباً على الإنسانيَّة الشقيَّة ، ويتأذَّى من تمزق الأمم ، واصطدام الأفراد والدول ، ومن الأثرة والأنانية ، والنفعية والانتهازية ، ويتألَّم من نكبةٍ تصيب دولةً من الدول ، ويسعى لترقية جميع العباد والبلاد ، ويخلص في خدمة البشرية بأجمعها ، ويحب الإعطاء ، ويندفع إلى البذل والسخاء ، ولا يكتحل بنومٍ بكاءً على بؤس الأمم والدول ، ولا يؤمن بالفلسفة القائلة : «كل ، وعش ، وانعم» ، بل يشعر بعد إطعام أخيه الإنسان ، مع جوع

نفسه، بلذةٍ تفوق كلَّ لذةٍ، وبراحةٍ لا تعدلها راحةٌ، ويعتقد أنَّ الإنسان أغلى وأكرمُ وأشرفُ شيءٍ في الحياة.

والذي لا يمعن في تعمير نفسه وبلاده فحسب، بل في تعمير الإنسانية، ويودُّ أن يرى العالم كلَّه كأسرةٍ واحدةٍ في تضامنها، واتحادها، لا على صعيد الأمم المتَّحدة ودستورها، بل على صعيد الإنسانية الحقيقيِّ الطبيعي، والذي يعرف مبدأه ومصيره، ويعير ذلك اهتمامه، ويؤمن بأنه ليس كهوامِّ الأرض، تصبح تراباً بعد الموت، بل هو يؤمن بأن له نهاية سوف ينتهي إليها، وسوف يسأل عن المواهب والصلاحيات التي جهَّزه الله بها.

لقد استطاع الإنسان أن ينفخ روح الحياة في الحديد وفي الجمادات، واستطاع أن يسخِّر الأجواء الفسيحة بين السماء والأرض، وأن يغوص في أعماق الأرض، وأصبح يستخدم أشعَّة الشمس في أغراضه، واطَّلع على أفلاك القمر والكواكب والنُّجوم، وقد وصل أخيراً إلى القمر، وهبط عليه فعلاً، لكن كلُّ ذلك ليس مما يدلُّ على الكمال الإنسانيِّ الحقيقيِّ، ليس الكمال أبداً في أن ينفخ الإنسان في الجمادات روحاً، ويجعلها ناطقةً حيَّة، بل الكمال في الواقع أن ينفخ في نفسه الروح، ويجعلها تنطق، الإنسان خليفةُ الله في الأرض، ونائبه في الكون، فمنصبه أسمى وأعلى، وأجلُّ من أن يكون عبداً للجمادات، بل هو الجدير بأن يستعبدها، لا لنفسه فحسب، بل لله خالقه وربه، فيستخدمها في تحقيق ما يريد الله من هذا الإنسان، وهذا الكون.

أسير القفص الذهبي:

نرجع فنتساءل: كم ذلك الإنسان الذي لا يرى تقدُّمه في تأسيس الدول والحكومات، واستعباد العباد والبلاد، وبسط النفوذ، وقهر النفوس، وإخضاع الأمم والشعوب، بل يريد أن يعمل للإنسانية بكلِّ إخلاصٍ وإيثارٍ، متجرداً عن الأغراض والمنافع، لأنه قد ربط مصيره بالإنسانية ويرفض بكلِّ قوة أن يعبد حكومةً من الحكومات، أو حزباً من الأحزاب،

بل يحاول أن يُخرج الشعوب والأمم من عبودية النفس ، وعبودية الأهواء والشهوات ، وعبودية القوة والمادة وعبودية المال والثروة ، وعبودية العلم والعقل ، والذي يستطيع أن يقول بكلِّ قوةٍ واعتزازٍ أمام العالم ما قاله ذلك الأعرابي الذي قد سما به الإسلام من الفرش إلى العرش ، ومن الثرى إلى الثريّا ، فجعل يحلق في أجواء فسيحة :

«الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه»[١] .

يقول بدويٌّ في بلاط «رستم» ـ قائد قواد الفرس ، ووزير الحربية في إيران ، الذي كان اسمه يخلع القلوب ، ويذهل النفوس ، ويدهش الجنود ـ : «ابتعثنا الله لنخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها» الدنيا التي أسميتموها بإمبراطورية إيران ، والدولة الساسانية ، فإننا نراها قفصاً ، والقفص قفص ، ولو كان من ذهب ، وأسلاكه كلُّها من ذهب ، فأتينا نرثي لكم على حالكم ، ودفعت بنا عاطفة الحدب والعطف من صحراء العرب إلى هذه البلاد ، أيها الفرس الأشقياء المنكوبون! أتينا لنخلِّصكم من هذا القفص الذهبي الذي تنشدون فيه وتغردون ، وتبتسمون كعندليبٍ إلى أرض الله الواسعة ، وإلى أجواء الحرية المترامية اللامتناهية ، فقد استعبدتكم العادات ، والالتزامات ، واستعبدتكم الأسباب والتسهيلات ، واستعبدكم موفَّر الترفيه ، والتسلية ، واستعبدكم المغنون ، واستعبدكم عبيدكم ، واستعبدكم طهاتكم وطباخوكم ، واستعبدكم سقاتكم ، واستعبدتكم جدرانكم وحيطانكم ، أما نحن فلسنا إلا عبيد الله ، فأتينا لنخرجكم من هذه العبوديات التي لا يحصيها إلا الله ـ لأن الحاسب الألكتروني لا يحصي إلا المحسوس الظاهر ، ولا يستطيع أن يحصي غير المحسوس الباطن ـ فإنه إذا خالطت العبودية القلب ، وامتزجت باللحم والدم ، وأصبحت طبيعةً لا تبرح الإنسان في الظاهر والباطن ، حتى أضحى لا يعيش إلاَّ بها ، لأنه

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، ج ٧ ، طبع بيروت ، ١٩٦٦ م .

شغف بها ، وأحبَّها ، وعشقها ، وآثرها على الحرية ، فأنَّى للحاسب الألكتروني أن يحصيها ، ويسبر غورها ، ويعلم مداها ، يقول: فأتينا لنخرجكم من هذه العبوديات التي تفوق العدَّ والإحصاء ، إلى الحرية الواحدة.

النـور فـردٌ والـظلمـات كـثيـر:

والحرية واحدةٌ ، أما العبوديات فلا آخر لها ، ولا نهايةً ، كما إنَّ النور واحدٌ والظلمات كثيرٌ ، ولذلك نرى القرآن كلما يذكر النور يأتي به فرداً ، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧] أفلا يجمع النور في اللغة العربية على زنة «أنوار» ، كما تجمع الظلمة على زنة «الظلمات» ، أفهل كان القرآن لا يسعه جمع النور ، كلا! ليس ذلك لأن النور في الواقع فردٌ ، والظلمات لا يأتي عليها الحصر.

ومصدر النور واحـدٌ ، وهو معرفة الله ، فمنها ينبثق النور والهداية ، وقد ذكرتنا زيارة هذا البلد ببيت الدكتور محمد إقبال ـ ذلك الذي قد درس الحضارة الغربية دراسةً وافيةً ، عميقةً تحليليَّةً ، وأحاط بجوانبها ، واطَّلع على دخائلها وأسرارها وأبعادها ، وجوانب الضعف فيها ـ يقول فيه: «إنَّ الأمَّة التي لا نصيب لـها من التوجيـه السماوي والتنزيل الإلهي ، غاية نبوغها تسخير الكهرباء والبخار» ، ويقول في بيتٍ آخر: «لقد تضخَّم العلم ، وتقدَّمت الصناعة في أوروبا ، ولكنها بحر الظلمات ليس فيه عين الحياة».

هناك أسطورةٌ قديمةٌ تقول: «إنَّ عين الحياة توجد في بحر الظلمات ، ويقال: إن الإسكندر قد جعل خضراً دليله ، ليوصله إلى شاطىء عين الحياة في بحر الظلمات ، لكن الخضر بلَّح عليه ، وعجز عن هذا العمل ، وإلى ذلك يشير إقبال في شعره ، ويقول: «إنَّ أوربا بحر الظلمات وعالم الظلمات ، ولكن ليست فيه عين الحياة».

وما مصير الأمة التي لا حظَّ لها من التوجيه السماويِّ ، ولا نصيب لها من نور الهداية والرسالة والنبوة ، واستندت إلى علمها وعقلها ، وانصرف

كلُّ همتها وذكائها إلى الحديد ، والجمادات ، والفولاذ ، والآلات ، وركَّزت جهودها وذكاءها ومواهبها على الكون ، والآفاق ، متفاديةً من عالم الأنفس ، فاستطاعت أن تسخِّر الجمادات ، ولم تستطع أن تسخِّر نفسها ، واستطاعت أن تسخر الكون ، ولم تستطع أن تسخر روح الكون .

وقد اعتبرت أوربا التقدم المادي هدفها الأسمى في الحياة ، وجعلته نصب عينيها ، فكتب الله لها فيه الانتصار ، وأحرزت في ذلك نجاحاً لا بأس به ، وقطعت أشواطاً بعيدةً ، وضربت فيه بسهمٍ وافرٍ ، كسنة الله في الأرض ، فقد جرت سنةُ الله في الكون أنَّه يساعد البشر ، ويوفر لهم أسباب النجاح مهما اختار مجالاً من مجالات العمل ، وكلُّ ما في الأمر هو انتخاب مجال العمل ، واختيار مضمار النشاط والاجتهاد .

المسيحية لا تنسجم مع المجتمع الأوربي :

قد انصرف اتِّجاه أوربا إلى المادية ـ لأسبابٍ لا تعنينا في هذه المناسبة ـ وكلُّ من ألمَّ بتاريخ أوربا ، وتاريخ نشوء وارتقاء الحضارة الأوربية والمدنية الغربية ، وقرأ ما كتبه المؤرخ الأمريكي «درابر» في كتابه «الصراع بين الدين والعلم» وتتبع قصة «الكنيسة» و«قيصر» وقصة الحروب الدامية التي استمرت في أوربا بين الدين والعلم طويلاً ، كلُّ من اطلع على ذلك يعرف جيِّداً كيف دخلت المسيحية أوربا ، واعتنقها الأوروبيون بجهودٍ وتضحيات قام بها المبشرون والدعاة المسيحيون ، ثم كيف تكونت عفواً تلك الأسباب التي دفعت أوربا إلى المادية الرَّعناء بعد ما دامت الحرب بين العلم والكنيسة مدَّةً طويلةً؛ لأنَّ الغرب قد اشمأزَّ من الدين ، فقد كان الدين يقعد به ، ويثبطه ، ويدفعه إلى الوراء ، على حين كانت طبيعته المتحمسة المتطلعة الطموحة تندفع به إلى الأمام بقوةٍ وحماسةٍ ، وعاطفةٍ جياشةٍ ، وكانت القوى الطبيعية تزيح الستار عن مخابىء القدرة الإلهية ، والإمكانيات الهائلة للتقدُّم والانطلاق ، وكانت الأمم تتنافس في مضمار الرقيِّ ، وتتسابق إلى إحراز قصب السبق ، كلُّ ذلك كان يبعث أوربا على السير الحثيث ، والاندفاع القويِّ السريع إلى الأمام ويشجِّعها على أن تستخدم الذرة من

ذرات الكون ، وأن تستغل ما أودعه الله فيه من ذخائر وموادَّ ، وقوىً وطاقاتٍ ، وأن تحوِّل التراب ذهباً ، وتجعل الجماداتِ ناطقةً حيَّةً تتحرَّك.

على كلٍّ فكانت الطبيعة الأوربية ، والتحولات ، والتطورات ، والانقلابات التي كان يشهدها العالم تتطلب أن تختار أوربا من مجالات العمل ما تبذل فيه مواهبها ، وذكاءها وكفاءاتها دون حدٍّ وقيد ، ولا تحتاج فيه إلى الاستيحاء من الكتاب المقدَّس ، والاستفتاء من رجال الكنيسة فيما يتصل بالحلال والحرام ، إذاً فكان من سوء حظ أوربا ، وبالتالي من سوء حظ الإنسانية ، أن كانت قد اختارت المسيحية كدينٍ لها وعقيدةٍ.

وإذا سئل من درس تاريخ العقائد والديانات ، عن ديانةٍ لا تنسجم مع المجتمع الأوربي ، ولا تتجاوب مع طبيعته وعادته في قليلٍ أو كثيرٍ ، فسيجيب بكل اقتناع وثقة ، أنها هي الديانة المسيحية ، لا غير ، وإذا تساءلنا: ما هي الديانة التي تستطيع أن تعيد إلى الطبيعة الأوربية المضطربة القلقة الجامحة قرارها ، وهدوءها ، وأن تركزها على الاتجاه الصحيح ، وأن تخفف من غلوائها و جماحها ، والتي تستطيع أن تجمع بين الوسائل والغايات ، وأن توفق بين الأسباب والأهداف ، وتتَّخذ خطةً للإنسانية جديدةً ، وتهبها دماً جديداً ، وتنصرف بالبشرية بأسرها إلى الاتجاه الصحيح المستقيم؟ فسيكون الجواب الوحيد لدى كل من ينشد الحقَّ والصَّواب ، ويحبُّ العدل والإنصاف: أنَّ ذلك هو الإسلام ، ليس إلاَّ.

ولا غرو فإن الإنسان لدى المسيحية مذنبٌ بالولادة والفطرة ، فكيف يتمشَّى مع ركب المدينة وهو مثقلٌ بالمعاصي والذنوب الفطرية ، ويئن تحت وطأتها ، ويجب عليه أن يعتقد ـ بصفته مسيحيّاً: أنَّه مذنبٌ بالفطرة ، فكيف يعتمد على نفسه ويثق بذاته ، ومواهبه ، وكيف يستطيع أن يسخِّر الكون؟ وإذا كان هو مذنباً ، غارقاً في حمأة المعاصي والآثام إلى الآذان ، نادماً على صنيعه ، فكيف يمكنه أن يجابه الكون ، ويستخرج القوى الطبيعية من أعماق الأرض ، ويسخِّر البحر ، ويشق أمواجه ، ويحلم بالوصول إلى القمر ، والكواكب السيارات.

إذا اعتقد إنسانٌ أنَّه عاصٍ بالولادة ، قد كتبت له الذنوب والمعاصي ، وهو في حاجةٍ إلى كفارةٍ عن ذنوبه ، فكيف يطمح أن يقوم برحلة الفتوحات الكونية ، وأنَّىٰ له أن يحلم بغزو الكون ، والاكتشافات العلمية بجرأةٍ واعتزازٍ ، وشجاعةٍ واعتماد؟!

والواقع أنَّ ذلك كان سعياً وراء الجمع بين متضاربين ، ومحاولة توفيقٍ بين متناقضين ، تناقضاً ينقطع نظيره ، فكان كمن يركِّب حصانين في عربة ، أحدهما أمام العربة وآخر وراءها ، فهما متقابلان تماماً ، فهذا يجرُّها إلى الأمام ، وذاك يجرُّها إلى الخلف ، فكانت أوربا بطبيعتها المتحمِّسة ، تنطلق بشدَّةٍ وحدَّةٍ إلى الأمام ، وكانت المسيحية تدفعها بنفس الشدَّة والقوَّة إلى الخلف ، تدفعها إلى الرهبانية ، وإلى الفرار من الحياة ، وكانت رجال الكنيسة ينادون بأن سرَّ تقدم الإنسانية في العزلة من الحياة ، وضوضاء المجتمع البشري ، وإن كان الإنسان يريد الرقيَّ الروحانيَّ ، فليلتجىء إلى الجبال والمغارات والكهوف ، وليقف حياته على الكنيسة ، وليضرب الحياة العائلية عرض الحائط ، ليعتزل المرأة ، وليتجنب ظلها ، وليتحاش عن النظر إليها ، اقرأ كتاب «ليكي» يدلُّك على أن الأوربي كان يفرُّ من ظل المرأة ، ولو كانت أمَّه ، كانت الأمُّ تقوم برحلةٍ طويلة ، وتقطع مسافةً طويلة لتقرَّ عينيها بنظرةٍ إلى ولدها وفلذة كبدها ، وكان يتستر عنها فور علمه بوصولها ، ويفرُّ عنها ، كما يفرُّ أحدٌ من العفريت والجنِّ ، وكانت الأم البائسة المسكينة تتراجع أدراجها ، بقلبٍ منكسرٍ ، دائم الحسرات ، أفهل يوجد في العالم نظيرٌ لهذه القساوة والشقاوة؟!.

تلك هي المسيحية التي منيت بها أوربا وأمريكا ، فكان أن لما بلغ السيل الزبى ، وطم الوادي على القرى ، قررت الثورة على الكنيسة ، والتحرُّر من عبوديتها ، ومن الدين أيّاً كان ، لأنَّ كلَّ ذلك ـ فيما كانت تعتقد هي ـ يقف حجرة عثرةٍ في سبيل النهضة والرقي ، فرفضت كلَّ ما يمتُّ إلى الدِّين بصلةٍ وقطعت آخر خيطٍ كان يربطها بالكنيسة.

هذا وبالعكس قد بدأ انحطاط العامل الإسلامي منذ أن قطع صلته عن

الدين ، حقيقتان واضحتان : ما بلغت أوربا شأواً بعيداً من التقدم إلا حينما رفضت المسيحية ، وما انهار العالم الإسلامي إلا بعد ما طوى كشحه عن تعاليم الإسلام ، وزهد فيها ، وانصرف عنها .

عبيد الماكينات :

على ذلك ، فعادت أمريكا تعبد الماكينات ، وتخضع للآلات ، وبسطت أمريكا نفوذها على الشرق والغرب ، وأصبحت أخيراً تملي على العالم إرادتها ، وتتدخَّل في السياسة الدولية ، وتديرها كيف تشاء ، أصارحكم أيها السادة! وأنا في قلب الولايات المتحدة ، أنَّ دول العالم كلَّها ـ بدون استثناء ـ إسلاميةً كانت أو غير إسلاميةٍ خاضعةٌ لأمريكا ، مرتبطةٌ بعجلتها ارتباط العبيد بالسادة ، تابعةٌ لها بوجهٍ من الوجوه ، وبطريقٍ مباشرٍ ، أو غير مباشر ، هاهنا تُتَّخذ تلك الخطط ، والمشاريع التي تطبق في بلادنا وأراضينا ، وبيد قادتنا وزعمائنا .

ولئن كانت أمريكا استعبدت العالم كله ، فإذا هي الأخرى تعبد الأجهزة والآلات ، وتعبد هذه البيئة ، وتعبد هذا المستوى للحياة Living Standard وتعبد ماكيناتها وأدواتها التي لا تستطيع أن تعيش بدونها .

مزايا الجمادات وطبيعتها :

والشيء الوحيد النادر المفقود الذي لا أجده ، هو الإنسان ، ذلك الإنسان الحقيقي الذي يحمل في صدره قلباً ، حيّاً ، نابضاً ، متدفِّقاً ، لا ماكينةً متحرِّكةً ، فقد خضع الإنسان لحياة الماكينات خضوعاً جعله لا يفكر إلاَّ في الماكينة ، وأصبحت خواطره ومشاعره كلُّها ماكينات ، وتتَّسم بمزايا الجمادات والفولاذ ، فلا رقة فيها ، ولا مرونة ، ولا لين فيها ، ولا نعومة ، وقد بعد عهد العيون بالدموع ، وعهد القلوب بالخشوع ، تلك هي الحقيقة التي لمستها في الولايات المتحدة الأمريكية .

كونوا على حذر من أن تذوب شخصيتكم :

وأوصيكم ـ قبل أن أغادر أمريكا ـ ألا يبهرنَّكم بريق هذه الحضارة ،

فالشجرة التي أنتم ثمارها ، هي شجرةٌ من نوعها الخاص ، هي شجرة النبوة ، فعيشوا في هذا المجتمع ، ولكن لا تخضعوا لها ، وتمتَّعوا بهذه الأرض ، وبهذه الحياة ، ولكن لا تكونوا عبيد هذه الحضارة ، وهذه المظاهر الجوفاء ، لست أفتي بأن ما تصنعون حرام ، وإقامتكم في هذه البلاد حرام ، ولكن أقول: لا ترعبنَّكم هذه المادية ، بل احتفظوا برسالتكم ، واعتزُّوا بشخصيتكم ، واحفظوها من الذوبان والانحلال ، ولا تبهركم هذه البهرجة الخادعة ، والمدنية الزائفة ، ولا تحتقرنَّ دينكم ، وعقيدتكم ، ومثلكم ، وقيمكم ، وحضارتكم ، ومجتمعكم ، لا تظنوا أنكم حيواناتٌ ودوابٌ ، وهؤلاء إنسٌ وبشرٌ ، اذكروا ما يقوله شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال: «أظلم الجو في عواصم أوربا بدخان المصانع المتصاعد الكثيف ، ولكن بيئتها ـ على كثرة أنوارها ـ غير متهيئةٍ لفتحٍ جديد في الفكر وإشراقٍ من عالم الغيب».

عبيد الأصنام التي نحتوها بأيديهم:

إنَّ هؤلاء يعبدون عاداتهم وأعرافهم ، ويعبدون الآلات التي يصنعونها بأيديهم ، يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العظيم على لسان نبيه إبراهيم ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ بأسلوبٍ ساذج بسيط: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] يصنع هاهنا اليوم شيء ، ويوضع مقياس ، ويتخذ مبدأ ، وتصاغ ماكينة ، فتصبح البلاد كلُّها خاضعةً لها ، تعبدها ، وتكفِّر لها ، إنَّ هذا البلد مركز «آزر» صانع الأصنام وسادن بيتها ، فهو بحاجةٍ ملحةٍ إلى الأذان الإبراهيمي ، ولا يُؤذِّن هذا الأذان إلا أنتم أيها المسلمون! لأنكم أتباع إبراهيم في الواقع لا اليهود ، لأنَّهم انحرفوا عن طريقه ، ولا النصارى لأنهم يتبعون اليوم مسيحية «بولس الراهب» ، وليسوا من مسيحية عيسى ومريم عليهما السلام في شيءٍ ، وقد نجحت المؤامرة الخطيرة التي دبّرت ضد المسيحية ـ وربما لم تنل مؤامرةٌ ما ضدَّ أيِّ ديانةٍ هذا النجاح الباهر ـ وانصرفت بها عن الجادة التي سلك عليها المسيح عليه

السلام ، ودعا إليها مسيحية «بولس» تماماً ، فالمسيحية اليوم ـ سواء أكانت كاثوليكيةً ، أو بروتستانيةً ـ هي المسيحية «البوليسية».

فليس المسيحيون خلفاء إبراهيم عليه السلام ، بل أنتم خلفاؤه ، وأتباعه ، فنقول لكم على لسان الدكتور محمد إقبال: «يا بانيَ الحرم! ويا خليفة إبراهيم! انهض لبناء العالم من جديد ، انتبه من السبات العميق ، الذي طال أمده ، واشتدت وطأته».

أنتم بناة الحرم ، فانهضوا لبناء العالم من جديد ، لأنَّ بناة الحرم هم الذين يستطيعون أن يبنوا هذا العالم المنهار من جديد ، وتجري اليوم في العالم كله عملية التخريب ، وكل ما يبدو من عملية بناء هي عملية هدم وتقويضٍ ، ثم أنتم تحملون رسالةً ، وتؤمنون بكتابٍ حيٍّ ، وتتبعون نبيًّاً كان من اختصاصه إخراج العالم من جميع العبوديات إلى عبودية الله وحده ، فلستم هنا في أمريكا كإنسانٍ يأكل ويشرب فحسب ، ولا كهنودٍ وباكستانيين ، ومصريين وسوريين ، بل أنتم مسلمون ، وأمَّةٌ مسلمة ، يقول شاعركم الإسلامي الدكتور محمد إقبال:

(حطِّموا أصنام الألوان والعناصر والأجناس ، وانصهروا في بوتقة الإسلام ، حتى لا يبقى هناك «توراني» أو «إيراني» أو «أفغاني»).

لا بد أن تعرفوا شخصيتكم ومنصبكم ، وتدركوا قيمتكم ، لستم كآلةٍ متواضعةٍ تركب في ماكينةٍ فتفقد كيانها ، ولستم كالأنعام فتأكلون كما تأكل الأنعام ، وتشبعون كما تشبع ، بل يجب أن تبلِّغوا إلى الأمريكان وإلى الغرب رسالتكم ، وتوقظوهم من غفلتهم ، وتنبِّهوهم على خطئهم وتفهموهم: أنهم منحرفون عن الخطِّ الصحيح في درب الحياة ، ولم يعرفوا لذة الحياة الحقيقية ، وأنهم في جهلٍ أيِّ جهلٍ بالاتجاه الصحيح للحياة.

وأحياناً يتيقظ فيهم الشعور ، فيسيرون في جهاتٍ خاطئة ، فيتَّجهون إلى سيرة الخنافس Hiooieism يتَّجهون إلى الانتحار ، وإلى التخلص والفرار من الحياة ، يتَّجهون إلى الطريقة اليوكية ، وإلى البرهمية ، يقيم الهندوس في الهند في مدينة «إله آباد» عيداً كبيراً لو شهدتم هذا العيد؛ لرأيتم كيف

يتشرّد فيه كثيرٌ من الأمريكان المثقفين ، ويتسكعون كمجانين ، ويتيهون كالبهائم والأنعام ، يجلسون إلى النسَّاك الهنادك والسدنة والأصنام ، والأمر الذي يدلُّ على أنهم أصيبوا بالتُّخمة ، بتخمة المدنية ، قد شربوا من خمر المدنية إلى حد الغثيان ، ثم يؤمُّون ابتغاءً للشفاء والعلاج أطباء لا يشفى عليلُهم ولا يروى غليلُهم.

ويا ليته كان هناك مجتمعٌ إسلاميٌّ يصلح لأن يأخذ بأيدي الأمريكان إلى الصراط المستقيم ، ويخاطبهم مخاطبة الأستاذ للتلميذ ، والكبير للصغير ، ولكن يا لسوء حظنا ، فليس هنالك مجتمعٌ مثاليٌّ يصلح أن يخاطب الأمريكان مخاطبة الندِّ للندِّ ، ويهديهم إلى الطريق القويم.

فحينما يتقزز أمريكيٌّ من مدنيته ، ويسأم من مجتمع ، يقصد الهند و«نيبال» ـ بغية سكينة القلب وطمأنينة النفس ـ ويرتاد قلل «همالا» ويصيب من المسكرات ، ويتناول المخدرات ، والحشيش ، وما إلى ذلك من الأشربة الروحية ، ويختار الخنفسة و«الهيبة»ويا ليتنا ـ نحن المسلمين ـ نستطيع أن نسعفهم ، ونأخذ بأيديهم إلى شاطىء الحقِّ والصواب.

أيـن الـمسـلمـون؟

إخواني! فلا يكوننَّ عملكم في هذا البلد هو الكسب والأكل فقط ، فإنَّ ذلك تصنعه كلُّ أمَّةٍ في العالم ، وقد يجيده جيراننا الهنادك في الهند أكثر منكم ، بل لا يهمنَّكم من الكسب والعمل ، والطعام واللباس ، إلَّا ما يسدُّ حاجتكم ، ثم اذكروا هدفكم ، وأقبلوا على مقصدكم ، واعرفوا مركزكم وقدِّموا لهم نموذجاً للحياة جديداً ، وأذِّنوا ، حتى يكون زجراً لعقولهم ، وأقيمو الصلاة حتى يبصروا ويفكِّروا ، وعيشوا حياة طهرٍ وصفاءٍ ونقاءٍ ، حتى يكرهوا الحياة الدنسة القذرة ، وخذوا في حياتكم بالتوسط والاعتدال ، حتى يشعروا بتطرفهم وإسرافهم ، وعيشوا عيشة السكون والهدوء متحررين من حياة المصانع والماكينات ، حتى يدركوا مصدر السكينة والطمأنية ، واشحنوا قلوبكم بالروحانية وبقوة الإيمان واليقين ، حتى يشعروا بالجلوس إليكم بقوةٍ جديدةٍ في أنفسهم.

ياليته كان هناك ربانيُّون ، ورجال القلوب واليقين ، فيشملون هؤلاء الحيارى التائهين ـ الذين قد سخطوا على حياتهم ، ويكادون ينسلخون من ثيابهم ، ويفرُّون من بلادهم ـ برعايتهم وعنايتهم ، ويمسكون بأيديهم ، ويقولون: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وهذه الرسالة لا يقوم بتبليغها إلاَّ المسلمون ، فأين المسلمون؟ هل هناك بلدٌ إسلاميٌّ ، أو شعبٌ مسلم يستطيع أن يأخذ بأيدي الأمريكان ، ويقول: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] عاد المسلمون أخيراً ـ مع الأسف ـ متجرِّدين من الاعتقاد ـ في معنى الكلمة ـ بما في هذه الآية ، فكيف يقولون ذلك لغيرهم ، والذين أصبحوا لا يثقون بعظمة الصلاة وإعجازها وبحقِّيَّة الكلمة وصدقها ، وبكون الله مالكاً للخير والشرِّ ، والنفع والضرر ، وبالقضاء والقدر ، والذين اعتبروا الأمريكان رازقيهم ، واعتبروا المصانع رازقةً لهم ، كيف يستطيعون أن يدعوا الأمريكان إلى التوحيد الخالص النَّقي ، وإلى إفراد الله بالعبودية والعبادة؟ وكيف يستطيعون أن يقولوا له: لا رازق إلاَّ الله؟

إخواني وأخواتي! اعمروا قلوبكم أولاً بالإيمان ، وحافظوا على الصلاة ، واذكروا الله في ساعات الخلوة ، وأعيدوا إلى قلوبكم تلك الحرارة التي سلبها دخان المصانع الكثيف ، وصحِّحوا غاية حياتكم ، واجتهدوا أن تعيشوا حياة «الإنسان» ، واقرؤوا القرآن ، وادرسوا السيرة النبوية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ واستضيئوا بها ، واجعلوها مشعل حياتكم ، ثم ادعوا الأمريكان إلى دين الفطرة ، ألا وهو الإسلام! فإنه هو دين الفطرة وحده ، فلا يثبِّط الفطرة ولا يكبتها ، ولا يضيق الخناق عليها ، كالمسيحية وغيرها ، بل الإسلام يعتقد أنه «ما من مولود إلاَّ يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجسانه»(١) فالفطرة من حيث هي صالحةٌ ، طاهرةٌ ، ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠].

---

(١) حديث متفق عليه ، وقد أخرجه أبو داود والترمذيُّ أيضاً.

جعل الله هذه الفطرة كاللوح الصافي ، لم يكتب عليه بعد ، ووضع فيها الميل القويَّ إلى الخير ، فالإنسان صالحٌ بالفطرة ، ويحبُّ الصلاح والخير ، ويكره القبيح والشرَّ ، فإذا تُرك وشأنه ، فسيسير على الطريق المستقيم ، بإيحاءٍ من فطرته ، فلا بدَّ أن تعوا هذه الحقائق أولاً ، وتسيغوها بالعقل والقلب كليهما ، ثم بلغوها إليهم ، لأنَّك أمَّة دعوة ، وأمَّة رسالة ، وأمَّة غاية ، ولستم كبهائم تسوم وترعى ، ثم تُقبل على إرضاء شهوتها الجنسية .

اكتشفوا الإنسان :

وضعت أمامكم خواطري وأشجاني ، قد رأيت في أمريكا كل شيء إلاَّ الإنسان ، ولئن رأيته ، فربما رأيته فيكم ، وليس السبب في ذلك أني لم أخالطهم ، فقد رأيتهم في كتاباتهم وخطاباتهم ، وعلى تليفزيونهم ، ومذياعهم ، فلست جاهلاً بهم ، ولكني أريد «الإنسان» الذي هو خليفة الله في الأرض والذي من أجله خلق الله الكون ، والذي يحمل في صدره القلب الحيَّ الذي هو أغلى من كلِّ شيءٍ في الحياة ، لا حقيقة لخزائن الأرض بأسرها في جنبه ، ولا لجميع الانتصارات التي أحرزها العلم ، ذلك القلب الذي هو قلب صاحب القلب ، هذا هو الإنسان ، اكتشفوا هذا الإنسان ، وأيقظوا هذه الإنسانية في أنفسكم ، وإذاً فيحقُّ لكم أن تعيشوا في هذه البلاد ، بل هناك ستكون إقامتكم فيها عبادةً ، وخدمةً للعباد ، وتبليغاً للدعوة ، وسعادةً لكم في الدنيا والآخرة .

تخوُّفٌ واشفاقٌ :

وإلاَّ فاسمحوا لي ـ أيها الإخوة والأخوات ـ أن أصارحكم بأني أخاف عليكم كثيراً؛ إذا لم توفروا تلك الأسباب التي تمكنكم من الحياة الدينية ، ومن تعليم أطفالكم وبناتكم ، وتربيتهم الدينية ، ولم تأمنوا جيداً على مستقبلهم الديني ، وعلى بقائهم على الإيمان والإسلام ، أخاف أن تكون إقامتكم هنا معصيةً لله ولرسوله ، وإذاً فأنتم في خطرٍ هائلٍ ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٨].

فلا يجوز لنا أن نعيش إلاّ في المكان الذي يتمتَّع فيه الدين بحريته، ويحيا بمزاياه، وخصائصه، ويكفل لنا فرصة القيام بالفرائض والواجبات، فإن كان هناك مجتمعٌ لا يسمح بذلك، أو نشعر بأننا لا نتمكَّن من تأدية الفرائض في هذا المجتمع، لا يجوز لنا الإقامة فيه، ويحتِّم علينا الدين أن نغادره إلى مجتمعٍ آخر.

ويجب عليكم أن تكوِّنوا في هذا البلد بيئةً تلائمكم وتمكِّنكم من بقائكم على الإسلام والدين والإيمان، ومن قيامكم بالعمل الديني، ومن أن تعيشوا بجميع مزاياكم وتشخصاتكم الدينية، ثم استوثقوا من مستقبل أولادكم، ومن أنهم سيحتفظون بإيمانهم بعدكم، كما صنع يعقوب ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ مع بنيه، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

ومن ثمَّ فيجب أن نستوثق ونتأكد ـ فيما يتصل بأولادنا وأكبادنا ـ هل يبقون بعدنا مسلمين، فإن لم يكن على ذلك أمنٌ واطمئنانٌ، فلا بدَّ أن نراجع رأينا، ونستفتي ضمائرنا، هل نقيم في هذا البلد، أو نغادره إلى بلد آخر؟.

يمكن أن تعيشوا هنا كمسلمين:

إنَّني أشكر ـ شكر المعترف بالواقع ـ جهود M.S.A والخدمات التي تؤدِّيها المؤسسات والمنظمات، التي لا أعرفها أنا بالتحديد، والمحاولات التي يقوم بها الذين يسعون في نشر الدين وتبليغ الدعوة الإسلامية، ويوزعون النشرات الإسلامية، ويكونون حلقات الإخوان، ويجمعون الشباب، لهذا الغرض، سواء أكانوا عرباً أو عجماً، فكلهم سعداء، تقبَّل الله سعيهم، وشكر جهودهم، ورفع درجاتهم.

وأخيراً فأوجِّه إليكم كلمة: إنكم تستطيعون أن تعيشوا في هذا البلد كمسلمين ـ إذا شئتم وأردتم ـ ولاتذوبون أمام وهج الحضارة، كما يذوب الندى أمام وهج الشمس، أو الشمع أمام لفحة النار، وإن كنتم تخافون الذوبان، فعليكم ببلادكم الأم التي وفدتم منها إلى هذا البلد، ولو كان لكم فيها ربع أو عشر ما تكسبون هنا، أو أقلَّ من ذلك بكثير، وإذا استطعتم أن تحيوا حياة المسلمين في هذا الربوع، فسعداء أنتم، وسعيدةٌ إقامتكم فيها، فعسى أن يهديَ الله بكم أهلها نوراً جديداً، وأن يفتح بكم طريقاً يدخلون به في الإسلام أفواجاً ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤ ـ ٥].

* * *

المدنيات المعاصِرَة
في مِرآة القرآن الكريم

هذه خطبة جمعة ألقاها العلامة الندوي في جامع «تورنتو» بكندا في صلاة الجمعة في ٢٢/ جمادى الآخرة ١٣٩٧ هـ - ١٠/ يونيه ١٩٧٧ خلال زيارته لأمريكا وكندا.

أما بعد! فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

إنَّ القرآن كما يعلمه الجميع، وكما نؤمن به، كتاب الله المعجز الخالد الذي لا تبلى جدَّته، ولا تنقضي عجائبه، وأنَّه جديدٌ طريٌّ في كلِّ عصرٍ ولكلِّ عصرٍ، وفي كلِّ دورٍ من أدوار الحياة، ولكلِّ جيلٍ، وأنَّه المرآة الوضيئة الصافية التي ينظر فيها الأفراد والأمم، وتنظر فيها الأجيال البشرية كلُّها وجهها صافياً نقيّاً، وقد قال الله تبارك وتعالى مخاطباً لبني آدم، مخاطباً لكلِّ من جاء، ويجيء بعد نزول القرآن، وبعد البعثة المحمدية ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠] فإنَّه الكتاب الذي فيه الحديث عن كلِّ دورٍ من أدوار الحياة، ولكلِّ جيلٍ من أجيال البشرية، وفيه التوجيه، والإرشاد، والقيادة لهذه الأجيال، وإنَّه مجموع سورٍ ناطقةٍ حيَّة دائمةٍ.

وإذا سئلت ما هي السورة التي تصف هذا العصر وصفاً دقيقاً، وتصف هذه الحضارة التي اتسمت بالمادِّية بالاعتماد على المحسوس المشاهد، وإنكار الحقائق الغيبية، وما وراء هذه الحياة، والتي اتخذت المادِّية والرُّقيَّ الماديَّ صنماً يُعبد، ومثلاً أعلى يُقتدى، والغاية الأخيرة، والغاية النهائية، والمثل الكامل، والمقصد الأسمى قلت: هي سورة الكهف، فقد افتتح الله هذه السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧ ـ ٨] إنَّ سمة هذه الحياة، وإنَّ سمة هذه الحضارة التي نعيش في مركزها اليوم، وهو الغرب، بأوسع معاني الكلمة، إنَّ سمة هذه الحضارة هو الاعتماد الزائد، والتركيز، والشغف، والولوع الزائد بالزينة، والبهرجة، والطلاء الخداع، والمظاهر الجوفاء، والاستهانة

بما وراءها ، والاستهانة بالحقيقة ، فقال الله تعالى مفتتحاً هذه السورة الكريمة: ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف: ٧] ثم يقول مخاطباً نبيَّه ﷺ في هذه السورة الكريمة: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ [الكهف: ٢٨] إنَّ هذا الجيل الذي نعيشه ، إنَّ هذا الجيل الذي نعاصره هنا ، ونواجهه؛ هو الجيل الذي قد غفل أو تغافل عن ذكر الله تعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ [الكهف: ٢٨] إنه متبع هواه ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨] إنَّه يمتاز بالتفريط والإفراط في كلِّ شيءٍ ، يحبُّ النهاية ، ويحبُّ الطرافة ، وحبُّ الجدَّة ، ويحب الوصول إلى آخر المدى؟ ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

ثم يقول: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٥ ـ ٤٦].

ثم ختم الله هذه السورة بقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥] ، إنَّ النقطة المهمَّة ، النقطة البارزة التي تلفت نظرنا ، وتسترعي انتباهنا ، ويجب أن تسترعي انتباه جميع المتدبِّرين في القرآن هو قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٤] ، امتاز قادة هذه الحضارة والذين يملكون زمامها اليوم ، والذين اختطوها ، ورسموها بأنَّهم كانوا على حسن ظنٍّ بأنَّهم على خيرٍ ، وكانوا يعتقدون في كلِّ دورٍ من أدوار رقيِّ هذه الحضارة وتقدُّمها أنَّهم يحسنون صنعاً ، إنَّهم يسيئون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، إنَّهم يهدمون ، ويعتقدون أنَّهم يبنون ، إنَّهم يخرِّبون ، ويعتقدون أنهم يشكلون ويكوِّنون. إنَّهم يُفسدون ، ويعتقدون أنهم يحسنون إلى الإنسانية والبشرية ، فهذه الحقيقة ، هذه النقطة التي تتحدَّانا ، والتي تتحدَّى قادة هذا البلد ، وهذه البقعة التي تتحكَّم الآن في مصائر الأمم ،

وتتحكم في أوضاع المدنية ، وفي مخططاتها ، وفي مشاريعها ، فإنَّهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

ولذلك كان الدَّجال الأكبر الذي نبّه إليه رسول الله ﷺ وحذر أمته منه هو زعيم هذه الحضارة الأكبر ، هو الذي يتولى قيادته ، ويتولى كبرها ، ويدعو إليها ، إنَّه رمز هذه المادية الأكبر ، ولذلك جاء في الأحاديث الصحيحة التي رواها أصحاب الصحاح : أنَّ رسول الله ﷺ حثَّ أمته على قراءة هذه السورة وقال : إنَّ قراءتها تعصم من فتنة الدجال ، لأنَّ هذه السورة هي التي تضرب على الوتر الحساس . إنَّ هذه السورة هي التي تضع الإصبع على موضع الداء ، إنَّ هذه السورة الكريمة المعجزة هي التي تجسد الأخطار التي تحلق على رأس البشرية عن طريق هذه المدنية الزائفة ، وعن طريق هذه المدنية الراعنة ، وعن طريق هذه المدنية المتطرفة المغالية .

فهذه السورة هي سورة هذا العصر بصفةٍ خاصَّةٍ ، وإن كانت هذه السورة تشتمل على معانٍ كثيرةٍ وعميقةٍ وواسعةٍ ؛ فإنَّ فيها حظَّاً لكلِّ ملتمسٍ للهداية ، ولكلِّ طالبٍ للنور ، ولكلِّ مقبلٍ على الله تعالى ، ولكن هذه السورة بصفةٍ خاصَّةٍ تدور حول هذه النقطة التي يدور حولها هذا العصر ، فإنَّ الأمثال والقصص التي جاءت في هذه السورة كلها تدور حول هذا القطب ، وهذه النقطة الرئيسية ، فإنَّ أصحاب الكهف هم الذين تمرَّدوا على المدنية التي كانت ذات سيطرةٍ وغلبةٍ في عهدهم : ﴿ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ [الكهف : ١٤ ـ ١٥] .

ثم قصة الرجلين ، الرجل الذي عكف على الحياة ، وعبدها ، وشُغِف بها ، وجُنَّ بها جنوناً ، وأنكر ما وراءها . ثم قصة موسى والخضر ، فإنَّ الخضر كان يأتي بعجائب تتحدَّى المحسوس ، تتحدَّى المنطق الذي لا يؤمن إلا بالمحسوس المشاهد ، فإذا وراءه حقائق أخرى ، حقائق غيبية تتضح لموسى عليه السلام حينما يرفع الستار . ثم قصة ذي القرنين كذلك هو

الذي سخر الله له الطاقة ، سخر له وسائل كثيرةً ، ثم استخدمها في صالح الإنسانية ، وفي صالح المدنية ، ولم يغرَّ بها غروراً ، ولم يغتر بها اغتراراً بل كان يملك زمامها ، وما كانت تملك زمامه ، كما هو الشأن الآن في قارة المدنية الأوربية الغربية التي نعيشها هنا ونعيشها في كلِّ مكان .

نسأل الله التوفيق والهداية ، وصدق الله العلي العظيم : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه : ١٣١ ـ ١٣٢] وصدق الله العليُّ العظيم ، وصدق رسوله الكريم .

* * *

كَيفَ ننظر إلى الحياة الغربية الأمريكية ، وكَيفَ نتعامَل مَعَها

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في اجتماعٍ خاصٍّ للشباب المسلم بمدينة «لوس أنجلوس» في ٢٤/ جمادى الآخرة ١٣٩٧ هـ ١٢/ يونيه ١٩٧٧ م وقد نظمه الاتحاد العالمي للطلاب في أمريكا وكندا ، وكانت المحاضرة مسجلة ، ونقلت من الشريط .

إخواني! إنَّ هذه البلاد التي نلتقي فيها الآن بلادٌ سعيدةٌ ، وبلادٌ شقيَّةٌ ، ولعلَّ هذا الكلام يبدو متناقضاً إذا فكرتم فيما أن يكون شيءٌ في وقتٍ واحدٍ سعيداً وشقيّاً ، ولكن إذا شرحت لكم الفكرة اتَّضح لكم معنى السعادة والشقاء في وقتٍ واحدٍ.

بلاد شقيَّةٌ و سعيدةٌ بنفس الوقت:

إنَّ هذه البلاد سعيدةٌ لأنَّ الله تعالى قد أنعم عليها بنعمٍ كثيرةٍ ، إنَّ الله سبحانه وتعالى قد وسَّع لها في الرزق ، وسَّع لها في الخيرات ، وسَّع لها في الذكاء ، وسَّع لها في قوة الإرادة ، في صلاحية التنظيم ، تنظيم الحياة ، وقد وسَّع لها في الخصب الأرضي ، والخصب العقلي ، وهذا كلُّه من الدليل على سعادتها ، وقد أصبحت اليوم هي القائدة للمدنية العصرية ، وهذه المدنية العصرية التي تسمَّى المدنية الغربية تستحقُّ أن تسمَّى المدنية الأمريكية؛ لأنَّ المدنية الأمريكية الآن هي المسيطرة على العالم كله ، ولها نفوذٌ رضينا أم لم نرض ، أردنا أم لم نرد ، لها نفوذٌ في قلب العالم الإسلامي ، ومع الأسف الشديد في الجزيرة العربية ، فالعالم الإسلاميُّ يتَّجه الآن إلى هذه البلاد ، والجزيرة العربية قد ألقت أفلاذ أكبادها إلى هذه البلاد ، فإذا أردتم أن تعدُّوا الشباب السعوديين ـ فقط ـ الذين أمُّوا هذه البلاد تجدونهم في عشرات الألوف ، هذا فضلاً عن الهنود ، والباكستانيين ، أو عن الإيرانيين ، أو عن أبناء بلادٍ أخرى.

ولكنها في نفس الوقت ، وفي نفس اللحظة بلادٌ شقيَّةٌ ، ولا تنظروا إليَّ شزراً أيها الإخوان! إنها بلادٌ شقيَّة؛ لأنَّها كان نصيبها من الديانات ، الديانة المسيحية ، وكان نصيبها من مجالات النشاط الإنساني ، المجال المادي التكنولوجي فقط ، أما شقاؤها من جهة الديانة ، ومن جهة العقيدة ، فهو أنَّ الديانة المسيحية هي أبعد ديانة عن روح هذه البلاد ، وعن دور هذه البلاد الذي قامت به ، ومثلته في تاريخ الإنسانية ، إذا سئل: ما هي أبعد الديانات

عن روح هذه البلاد ، وما هي أغرب الديانات عن طبيعة هذه البلاد ، وعن مركزها القيادي ، وروحها القلقة ، وعقلها المتوثب؟ فالجواب الوحيد المعين أنَّها الديانة المسيحية ؛ لأنَّ الديانة المسيحية هي التي تجعل الإنسان يؤمن بأنَّه خلق آثماً مذنباً ، مجرماً بالفطرة البشرية ، فكان لا بدَّ له من فداء ، وإنَّ المسيح ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ كان فداء ، هذا الإنسان المخطىء المجرم بالفطرة ، هذه العقيدة هي التي تنشىء في الإنسان عدم الثقة بصلاحيته ، وعدم الثقة بفطرته الصالحة . ثم إن هذه الديانة تحبب الرهبانية ، وتزهِّد في حياة الكفاح ، وتزهِّد في حياة النضال ، وتزهِّد في حياة المنافسة والمسابقة التي هي من أكبر رواد رقي الإنسان وتقدمه ، فالديانة المسيحية ديانةٌ غريبةٌ في هذه البلاد ، ديانةٌ قد فُرضت على هذه البلاد فرضاً ، قد فرضتها الأدوار التي مرَّت بها ، ومرَّ بها التاريخ الإنساني .

المسلمون مسؤولون عن هذا الشقاء :

وقد كانت على المسلمين مسؤوليةٌ كبيرةٌ في هذا الشقاء ، لأنَّ المسلمين فرَّطوا في نقل رسالة الإسلام المثلى ، وفي نقل عقيدة الإسلام ، العقيدة الواضحة المقبولة لكلِّ إنسان ، الحافزة للبشرية ، المفتِّقة للقرائح ، الشارحة للصدور ، المثيرة للغرائز ، إنَّهم فرَّطوا في حمل هذه الرسالة الجليلة المثلى إلى هذا البلد ، إنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد منحهم فرصة الحكم في قطعة من أوربا قد حكموا فيها قروناً ، ولكنَّهم قد فرَّطوا تفريطاً عظيماً ، تفريطاً مجرماً في نقل الإسلام إلى أنحاء أوربا البعيدة ، وفي تغلغل الإسلام في أحشاء أوربا ، إنَّهم ظلُّوا في هذه القطعة الأوربية يبنون هياكل ومباني عظيمةً ، ويؤسسون حضارةً جميلةً ، ويوسعون علوماً وثقافات ، ويعنون بالآداب والشعر ، والفنون الجميلة ، ولكنَّهم فرَّطوا في نقل الإسلام ونشره في أوربا ، فكانت النتيجة أنَّ هذه البلاد بقيت تجهل الإسلام ، وبقيت في عزلةٍ عن الإسلام. . . هذا الأول ، والشيء الثاني : أنَّ هذه البلاد كان مجال نشاطها المادي التكنولوجي ، الميكانيكي .

ومن سنة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنَّه يعين كل إنسان ، وكلَّ شعب ،

وكلَّ مجموعةٍ بشريَّـة ، وكلَّ مؤسسةٍ إنسانيَّة على ما تختاره من مجالٍ لنشاطها وذكائها ، فيقول الله تبارك وتعالى :

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٢٠ ـ ٢١] .

فلما اختارت هذه البلاد المجال المادي لنشاطها وذكائها وعبقريتها وإنتاجها؛ كانت لها فتوحٌ عظيمة ، وكان لها انتصارٌ كبيرٌ ، سخَّرت الطاقات ، واكتشفت الأسرار ، واستخدمت الوسائل لترفيه الحياة ، وتوسيعها ، وتسهيلها ، ولكنَّها حُرمت الهدوء حُرمت السكينة ، حُرمت الإيمان العميق ، حُرمت الهدف الصالح ، حُرمت الغايات المثلى ، حُرمت الجمع بين الدين والدنيا ، كما يقول الله تبارك وتعالى على لسان المؤمنين .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

حضـارة الـقلـق والـسـآمـة :

فاختارت هذه البلاد المجال الماديَّ ، والمجال الصناعيَّ فقط ، فكان لها تقدمٌ رائعٌ ، كان لها ازدهارٌ ، ولكنها لما أهملت الجانب الرُّوحيَّ ، وأهملت عالم القلب والنفس ، وأهملت العناية بمعرفة الهدف الصالح للحياة ، وأهملت الجانب الخلقيَّ والجمع بين الأخلاق الفاضلة وبين الصناعات البشرية ، فإنَّ هذه الصناعات وهذا التقدُّم لا يصلح إلا مع الأخلاق ، الأخلاق التي تضبط الجشع ، وتضبط النَّهامة ، وتضبط حبَّ المال، وحبَّ الاستيلاء على البشر ، وحبَّ الظلم والقهر للأمم والشعوب ، الأخلاق وحدها هي التي تستطيع أن تملك الزمام ، وهي التي تستطيع أن توجِّه هذه العلوم توجيهاً صالحاً إلى غايةٍ رشيدةٍ ، فلما أهمل الغرب كلُّه ـ بمعناه الواسع ـ وعلى رأسه ، وفي مقدمته أمريكا التي نلتقي فيها الآن في هذه الأمسية المباركة الجميلة ، إنَّها لما أهملت الجانب الخلقي ، والجانب العقائدي ، والجانب الرُّوحي ، كانت النتيجة أنَّ البلاد أصبحت شقيَّةً في

الروح ، مضطربةً ، حائرةً ، ساد عليها القلق ، وساد عليها التذمر ، وسادت عليها السآمة ، وليست حركة الخنافس ، وليست الحركات التي تلاحظونها في هذه البلاد ـ التي تدلُّ على القلق ، وتدلُّ على التذمُّر ـ إلا ردود فعلٍ عنيفةٍ على هذه الثورة المادِّية ضدَّ هذا التضخُّم ، هذا التضخُّم النقديُّ والتضخُّم الماديُّ ، فهذه البلاد ـ كما قلت لكم ـ بلادٌ شقيَّةٌ وبلادٌ سعيدةٌ ، ولكنَّها الآن في دور القلق والاضطراب ، لا تتبيَّن أمرها ، ولا تملك زمامها ، أصبحت مركباً تركبه الحياة ، ولم تعد راكباً يركب الحياة ، الحياة تسوقها سوقاً عنيفاً ، ولم تعد تقدر على أن تسوق الحياة سوقاً رفيقاً ، سوقاً متَّزناً ، سوقاً هادئاً.

أنتم العماليق ، وهؤلاء هم الأقزام:

أنتم يا شباب الإسلام! أنتم يا أبناء الأمة الإبراهيمية المحمدية الخالدة! أنتم تستطيعون أن تلقوا عليها درساً ، وأن تقودوها ، وأن تنظروا إليها نظر ناقدٍ لا نظر مقتطف ، لا نظر متطفِّل ، لا نظر تلميذٍ صغيرٍ حقيرٍ ، ولكن مع الأسف الشديد ألاحظ أنَّ الشباب الذي يأتون هذه البلاد ، يأتون إليها غير مستعدِّين ، لم يعدُّوا نفوسهم ، ولم يعدَّهم آباؤهم ، وأساتذتهم ، ومربوهم ، وسادة بلادهم لأن يكونوا هناك أصحاب شخصية ، فما لنا من شخصية إسلاميةٍ ، نحن نؤم الغرب كأننا نعيش في صحراءَ ، كأننا نعيش في فراغٍ ، كأننا لا تاريخ لنا ، لا حضارة لنا ، لا دين لنا ، ولا ثقافة لنا ، نأتي إلى هذه البلاد كأقزامٍ ، كأننا أقزامٌ وهؤلاء عماليق ، لا يا إخواني! أنتم العماليق وهؤلاء هم الأقزام ، أنتم الأساتذة وهؤلاء هم التلاميذ ، أنتم الموجهون ، ، هؤلاء هم المقتطفون ، وهكذا كانوا في الزمن الماضي ، ولكننا فقدنا شخصيتنا ، فقدنا الثقة بخلود الإسلام ، فقدنا الثقة بصلاحية الإسلام ، لا لمسايرة العصر بل لقيادة العصر ، إنَّنا في بلادنا الإسلامية في الهند ، وباكستان ، وفي إيران وأفغانستان ، وحتى في مصر وسورية ، لم نعرف طبيعة الحضارة الغربية وحقيقتها. إنَّ أساتذتنا في جامعاتنا وفي معاهدنا لم يستطيعوا ليشحنوا نفوسنا بالثقة ، وليفتحوا عيوننا على هذه الحضارة ، على مساوئها ، وعلى مواضع ضعفها ، وعلى سقطاتها ، وعلى

إخفاقها ، وعلى إفلاسها ، فالمسؤولية على أساتذتنا أكثر مما هي على عواتقنا ، ولكنَّكم ما دمتم قد جئتم إلى هذه البلاد ، عليكم أن تعرفوا روح هذه الحضارة الماديَّة ، الروح التي قد سيطرت على هذه الحضارة ، فجعلتها مركباً مادِّياً لا عقل له ، ولا روح له ، يجب أن تتعمَّقوا في دراسة هذه الحضارة ، وتقارنوا بين محاسنها ومساوئها ، وبين كسبها وخسارتها ، وما هي المجالات التي يجب أن ننتفع بها ، وما هي المجالات التي يجب علينا أن نتجنبها ، وأن نفرَّ منها فرار السليم الصحيح من المريض المجذوم ، يجب أن نعيِّن ونحدِّد تلك المجالات التي يجب أن نكون فيها تلاميذ «فالحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحقُّ بها» ، يجب أن نتتلمذ على أساتذة هذه الحضارة وعلى أساتذة هذه الجامعات في هذه المجالات ، ولكن ما هي المجالات التي يجب أن نتجنبها ، ونفرَّ منها ، ونزهد فيها ، ونستهين بها ، ونحتقرها ، إنما هي مجال العقيدة ، مجال الإيمان ، مجال الروح ، مجال الأخلاق ، مجال الشخصية ، مجال معرفة قيمة الإنسان ، مجال الهدف الصحيح ، مجال القيم والمثل الفاضلة ، مجال الإيمان بالغيب ، ومجال الشعائر الإسلامية .

حافظوا على شخصيتكم :

يا إخواني! كونوا هنا متحفِّظين ، كونوا هنا على حذر ، كونوا هنا على مستوىً عالٍ ، لا مستوىً منخفضٍ ، تقدِّسون الحضارة ، وتمجِّدونها ، وتبالغون في إطرائها ، ليس هذا موقفكم موقف المسلم المعتزِّ بالدِّين ، موقف المسلم المؤمن بالقرآن ، موقف المسلم الحامل لهذا التاريخ المشرق المجيد ، موقف المسلم الذي كان إماماً وقائداً للإنسانية وسيظلُّ إماماً وقائداً للإنسانية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لا مانع من أن تفِدوا إلى هذه البلاد ، أنا لست من أولئك الذين يعتقدون أن المسلم لا يجوز له أن يطأ هذه الأرض ، وأن يأتي إليها متعلماً ودارساً ، لست من أولئك المغالين ، ومن أولئك المتطرِّفين ، أنا بنفسي كدارس للفلسفة والحضارة والتاريخ ، له جولاتٌ في هذه المجالات ، ومساهمةٌ

ضئيلةٌ في المكتبة المعاصرة ، أقول لكم : لا تفقدوا شخصيتكم ، ولا تزدروا بقيمتكم ، بل قولوا كما قال سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وكان في أمَّة مشركةٍ وثنيةٍ خرافية ، وأنتم كذلك في أمَّة مشركةٍ وثنيةٍ خرافيَّةٍ ، إنه قال :

﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

هكذا يجب عليكم أن تقولوا : كفرنا بكم ، تكفرون بهذه الحضارة لا تكفرون بها برمَّتها ، ولكن تكفرون بها كالحضارة الإنسانية المثلى ، وكالحضارة الإنسانية التي هي المثل الأعلى ، نحن نقدر هذه الحضارة ، ونستفيد منها في بلادنا في تنظيم الحياة ، وترفيهها في بعض الأحيان ، وفي العلوم الصناعية ، والتجريبية ، وفي العلوم الرياضية ، والتكنولوجية ، ولكننا نحترس منها ولا نقلدها في الإيمان ، والعقيدة ، وفي الأخلاق .

إنَّ هذا الخواء الرُّوحي الذي يعانيه الغرب ، والذي تعانيه هذه الحضارة ، قد أصبحت منه على شفا حفرةٍ من النار أو على شيءٍ منهار ، حتى أصبحت في طريقها إلى الانتحار . إن الحضارة الغربية ـ الآن ـ في طريقها إلى الانتحار ، وكما يقول الدكتور محمد إقبال : إنَّ كل أمَّة حرمت الهداية الربانيَّة ، وحرمت التوجيه السماويَّ ، منتهى كمالها ورقيها البرق والبخار .

إنَّ الإفرنج ، أو إنَّ الغرب هو مسودٌّ قاتمٌ بدخان المصانع وبدخان هذه الفبريكات . إنَّ هذا «الوادي الأيمن» لا يصلح للتجلِّي الإلهي .

ولكن مع الأسف الشديد كان من حظِّ هذه البلاد ، النصرانية ، ثم كان من حظِّ هذه البلاد الاعتماد والتركيز على الجانب الصناعي ، وعلى الجانب الماديِّ ، هذا هو سرُّ شقاء الإنسانية ، ولذلك أصبح العالم ثائراً الآن ، وقد كتب عليه الاضطراب ، والقلق ، والفساد الخلقي ، والإفلاس الرُّوحي ، والتأرجح بين ماديةٍ جامحةٍ رعناء ، وبين رهبانيةٍ مغاليةٍ خرقاء .

قولوا لأهلكم إذا رجعتم إليهم : هذه الحضارة سرابٌ خادع :

يجب عليكم أن تعودوا إلى بلادكم لتقولوا لها ، ولشبابها ، وللمثقفين فيها : قد سبرنا الحضارة الغربية ، وقد عجمنا عودها ، وقد اكتوينا بنارها ، وقد عشنا في قلبها ، فعرفنا إفلاس هذه الحضارة وإخفاقها ، ترجعون إليهم لتكشفوا لهم سرَّ هذه الحضارة ، ولتقشعوا هذا السحاب الذي قد غشى أبصارهم ، ولتبخِّروا هذه الثقة الزائدة ، وهذا التقديس الذي يحملونه لهذه الحضارة ، ولتملكوا زمام بلادكم ، فتقودوها إلى الإسلام .

يجب عليكم أن تعيدو الثقة فيهم بصلاحية الإسلام ، وبصلاحية العلوم الإسلامية ، وبخلود الرسالة الإسلامية ، ولتقولوا لهم : قد عرفنا الغرب أكثر مما عرفتم ، وقد نشأنا وعشنا فيها سنين طوالاً ، وعرفنا أنَّها حضارةٌ جوفاء ، هذه الحضارة كسراب خادع ، ﴿ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ ﴾ [النور : ٣٩] وتقولوا للمتعلمين في الجامعات هناك الذين ينظرون إلى الغرب ، كأنَّه هو المثل الكامل ، وكأنَّه هو السماء ، وهم على الأرض ، وكأنَّه قمة جبلٍ وهم يتطلَّعون إليها كما يتطلَّع طفلٌ صغير ، وقد وقف في سفح الجبل ، فهو ينظر إلى قمة الجبل كأنَّها السماء الأعلى ، تقولون لهم : لا يا إخواننا! ليس الأمر كذلك ، بل هو بالعكس .

هذه كلمتي لكم ، لعلها تحرك فيكم ساكناً ، وتثير فيكم كامناً ، وتحملكم على تقدير نعمة الله ـ تبارك وتعالى ـ لما أكرمكم الله به من نعمة الإسلام ، أسأله ـ تعالى ـ التوفيق لي ولكم ، وأسأل الله ـ تعالى ـ الاستقامة لكم في هذه البلاد ، وأن تكونوا مسلمين بكلِّ معنى الكلمة ، محافظين على الصلوات ، محافظين على الواجبات الدينية ، وعلى الشخصية الإسلامية ، محافظين على العادات الإسلامية الجميلة المقتبسة من القرآن والسنة ، وأن تكونوا هناك هداةً أئمةً موجهين مرشدين ، لا تلاميذ متطفِّلين .

أسأل الله تعالى لي ولكم التوفيق ، وأن يثبِّت أقدامكم هنا في هذا المزلق حيث تزلُّ الأقدام ، وتزول الجبال الراسيات ، وأن يأخذ بأيديكم ، وأن

يربط علىٰ قلوبكم ، وأن يشعل فيكم جمرة الإيمان حتى تعيشوا ما بقيتم هنا مسلمين ، وترجعوا إلى بلادكم ـ إذا عدتم إليها مع سلامة الله ـ مسلمين دعاةً متحمِّسين أكثر مما أنتم عليه الآن. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

الفراغ الَّذي كان يَعيشهُ الإنسان قبل البعثة المحمَّدية ويعيشهُ في القرن العشرين ، وموقف المسلم العربي إزاءَهُ

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرةَ بالعربية في مدينة Sattlake City أمام جمع من العرب المثقفين المقيمين أو العاملين في هذه المدينة الأمريكية ، وذلك في ٢٧/ جمادى الآخرة ١٣٩٧ هـ ـ ١٥/ يونيه ١٩٧٧ م ، وكانت المحاضرة مسجَّلة ، ونقلت من الشريط .

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين وخاتم النبيين محمدٍ و صحبه أجمعين ، وعلى مَنْ تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

أما بعد! فإنني أعتذر إلى إخوتي الذين لا يفهمون اللغة العربية ، إنَّني سأتحدث باللغة العربية ، وإنَّه من معجزات القرآن ، ومن معجزات الدَّعوة الإسلامية ، أن يعبِّر عجميٌّ هنديٌّ عمَّا في ضميره باللغة العربية ، وأريد أن نستحضر جميعاً ، ونؤمن بهذه المعجزة ، ويكون لي الشرف في تجسيم هذه الحقيقة في هذا البلد البعيد عن مركز الإسلام ، ومعذرتي إلى إخوتي ، إلى أبناء بلدي ولغتي ، من شبابٍ وشابَّاتٍ ، وسيكون لي معهم حديث في لغتهم إن شاء الله في هذا المجلس ، وفي غير هذا المجلس.

قفـزةٌ واسـعــةٌ:

أيها الإخوة الكرام! إنَّ الآيات القرآنية التي تليت آنفاً قد نقلتني من هذا الجوِّ الأمريكي المكهرب بالحضارة الغربيَّة ، وبالتقدُّم الحضاريِّ ، من هذا الجوِّ القاتم الغائم إلى ما قبل ثلاثة عشر قرناً ، هذا من جهة المساحة الزمنية ، ومن أمريكا الشمالية إلى جزيرة العرب ، هذا من جهة المساحة المكانية ، وهما مساحتان بعيدتان.

إنَّها قفزةٌ واسعةٌ ، فقد تمثَّلت لي تلك الفترة الزمنية التاريخيَّة التي نزل فيها هذا القرآن ، وهو لا يلقى أذناً صاغيةً ، وإنما يلقى مطاردةً ومقاطعةً ، وجفاءً ونكراناً ، كان العرب يسمعون هذا الصوت العذب الرَّخيم ، وكانوا يعتقدون أنَّ هذا الصوت سيغيب في الفضاء ، كما غابت الأصوات الأخرى التي ارتفعت ودوَّت ، وكانوا واثقين كلَّ الثقة بأنَّ هذه محاولةٌ فاشلةٌ ، وأنَّ هذه الدعوة دعوةٌ مؤقَّتةٌ ، وأنَّه ليس إلاَّ كصورٍ تطفو على الماء ، إذا ألقى الإنسان حصاةً فإنَّ هذه الحصاة تكوِّن خطوطاً ودوائر على سطح الماء ، ثم لا تلبث أن تغيب ، كانوا واثقين كلَّ الثقة أنَّ لهذا القرآن ولهذه الدعوة أجلاً قصيراً معدوداً بساعاتٍ لا بأيَّامٍ ، ولكن أراد الله أن يخلد هذا الصَّوت ، وأن

يدوي حتَّى في قلب أمريكا ، ويسمعه السامعون ، وكنت أستشعر وأنا أسمع القرآن ، وأسبح في عالم الخيال ، وأستحضر تلك الأجواء التي نزلت فيها هذه الآيات .

الدعوة الإسلامية بين المدنيات الزائفة :

انطلقت هذه الدعوة من جزيرة العرب ، ومن مكَّة المكرَّمة ، ثم انتقلت ـ لأنها طوردت وحوربت في بلدها ووطنها ـ إلى مدينة يثرب ، واستقبلتها هذه المدينة ، واستمرَّ القرآن ينزل ، واستمرَّ الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو الناس ، وحوله وحول الجزيرة مدنيتان قد بلغتا أوج الحضارة ، وأوج التقدم ، وأوج الرفاهية ، وقد بلغتا أوج الشعور الرقيق ، وأوج الآداب والعلوم ، والفنون والفنِّ المعماري ، والنظم السياسيَّة ، والدساتير الدقيقة ، وقد جاء جستن على عرش روما ، وجاء أنوشيروان على عرش «إيران» فسنَّا قوانين دقيقةً ، وحكمت الإمبراطورية البيزنطينية النصف الغربي والشَّمالي من العالم المتمدِّن ، وحكمت الدولة الساسانية الفارسية النصف الشَّرقيَّ من العالم ، وطوقتا الجزيرة العربية ، وصارتا تسيِّران الإنسانية كلَّها ، وتتحكَّمان في مصيرها ، وفي عقولها ، وفي مشاعرها ، وفي القيم ، والمثل ، والموازين ، فكانتا هما المنتهى في السعادة ، وفي الرقيِّ ، والمنتهى في العلم والتقدُّم .

فراغٌ هائلٌ :

هنالك وفي هذا الجوِّ ، وفي هذه البيئة ، ظهرت الدعوة الإسلامية ، وكانت هاتان الحضارتان الرومية والفارسية تملكان كلَّ شيءٍ ، وقد توفرت عندهما الوسائل ، وخضعت لهما خضوعاً تامّاً ، ولكن كان هنالك فراغٌ عقائديٌّ ، فراغ إيمان ، فراغ هدوءٍ ، فراغ سكينةٍ ، فراغ ثقةٍ بالنفس ، وثقةٍ بالإنسان ، وثقةٍ بمستقبله ، وباستحقاقه ، وجدارته للبقاء وللمسيرة ، وقد سُدَّت الأبواب أمامهما ، ووقفتا حائرتين مضطربتين على نقطة التقدُّم ، ونقطة الرفاهية ، ونقطة التمتُّع باللذات ، ونقطة التلهي والتشهي ، ونقطة التفنُّن في الحضارة .

ولكن ما وراء هذه النقطة؟ لا يعرف ذلك أحد ، لا فلاسفة ، ولا حكماء ، ولا أدباء ، ولا شعراء ، ولا مقننون للقانون ، ولا المشرعون البارعون ، ولا قادة حرب ، ولا قادة حرب ، ولا قادة فكر ، كلهم واقفون واجمون ، حائرون مضطربون ، متشكِّكون ، مرتابون ، لا يعرفون المصير الإنساني ، ولا يعرفون ما وراء هذه الطاقات البشرية التي استخدموها وعصروها عصراً ، حتى ما بقيت فيها قطرةٌ ، ولكن ماذا بعد؟ لا يعرف ذلك أحدٌ ، فراغٌ في العقائد ، عقائد لا تستحقُّ أن تسمَّى عقائد ، كلُّ ما كان عندهم هو تاريخ عقائد ، يعني: كانوا يؤمنون بكذا في زمن من الأزمان ، كانوا يؤمنون بالله تعالى في غابر الدَّهر ، ولكن هل لا يزالون يؤمنون بالله؟ لا! كل ذلك ، إنما هو تذكارٌ تاريخيٌّ ، إنما هو آثارٌ تاريخيَّةٌ قد حُفظت ودُوِّنت في كتب التاريخ ، وفي الفلسفة ، ولكن ما هنالك عقيدةٌ حيَّةٌ قويَّةٌ تملك عليهم المشاعر ، وتضبط حركاتهم وسكناتهم ، وتحكم عليهم ، لا! قد أُفلت الزمام ، قد فقدت هذه العقائد كلَّ قوةٍ ، وكلَّ ضبطٍ ، وكلَّ حكمٍ ، فالعقائد هي عقائد تقليديةٌ فقط ، عقائد مرددةٌ باللسان ، ولكن ليس لها نفوذ ، ليس لها تأثير في الأخلاق ولا في الأعمال.

حضاراتٌ بلا هدفٍ:

ثم ما هو الهدف من الحياة؟ لا يعرفون الهدف ، هدف الملوك أن يحكموا على أوسع بقعةٍ من العالم ، ولكن يا سادة! ما هذا بهدف يستحقُّ الاحترام والاهتمام. وهدفُ الوزراء أن يُرضوا الملوك ، وأن يخضعوا لهم ، وأن يحقِّقوا رغباتهم. وهدف قادة الحرب أن يسوقوا الناس سوقاً إلى جهنم الحروب ، لماذا يحارب هؤلاء؟ لا يعرفون! لماذا يُساقون إلى ساحات الحرب؟ ، إنَّهم لا يعرفون! إنَّهم كقطعانٍ من الغنم تساق سوقاً لا رحمة فيه ، ولا هوادة ، الناس يؤدُّون الخراج ، الناس عليهم ضرائب فادحةٌ قاصمةٌ للظهور ، لماذا يؤدُّونها؟ يؤدُّونها ليقضي الملوك وأصحاب البلاط ، والسرايات ، رغباتهم وشهواتهم ، إنما يؤدون الضرائب ليترفَّه

وليترغَّد حفنةٌ من الناس ، يَشْقَوْن لسعادتهم ، ويتعبون لراحتهم ، ويموتون لحياتهم.

هكذا كان الجوُّ في ذلك الحين ، حضارةٌ بلا هدف ، وحكوماتٌ بلا هدف ، وقوانين بلا هدف ، حياةٌ من غير لذَّةٍ ، وجسمٌ من غير روحٍ ، وألفاظٌ من غير معنىً ، وخطوطٌ من غير وضوحٍ ، إنما هو كلُّه ظلماتٌ بعضها فوق بعض ، وصدق الله العظيم: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ظلامٌ مطبقٌ:

كان العالم كله في ظلام مطبقٍ ، يتسكَّع في الجهالات والسفالات ، يرسف في قيوده التي صنعها ، ويشحط في دم نفسه التي أراقها ، لا صلة بين طبقةٍ وطبقةٍ ، ولا صلة بين حاكمٍ ومحكومٍ ، ولا صلة بين عالمٍ ومتعلِّمٍ ، ولا صلة بين العلم والأدب ، والفلسفة والحكمة ، وبين الشعب والجمهور وعامَّة الناس ، انقطعت الصِّلات ، وأصبحت كلُّ طبقةٍ تعيش لنفسها ، وبنفسها ، وعلى نفسها.

القرآن تحدَّى الوضع العالمي:

هكذا كان الوضع لما ظهرت الدعوة الإسلامية ، ولما نزل القرآن يتحدَّى هذا الوضع كلَّه ، ويتحدَّى هذه الحضارات كلَّها ، ويقول بكلِّ وضوح ، وبكلِّ صراحةٍ: أنتم في جهلٍ مطبقٍ ، أنتم في ظلامٍ حالكٍ ، أنتم في ظلمٍ فاحشٍ ، أنتم في حيرةٍ لا نهاية لها ، أنتم في وحشةٍ فظيعةٍ ، أنتم في همجيةٍ رذيلةٍ ، من كان يستطيع أن يتحدَّى هذه القوى الجبارة ، ومن كان يستطيع أن يرفع صوته ضدَّ هذه الموجة العارمة؟ هذا النبيُّ الذي عاش فقيراً ، واضطرَّ أن يغادر وطنه الحبيب العزيز الذي فيه الكعبة ، البيت الحرام ، هذا النَّبيُّ المضطهد المظلوم؛ الذي اضطر إلى الهجرة ، وهذه المجموعة البشرية التي التفَّت حوله على أساس الإيمان والعقيدة ، وعلى

أساس الحبِّ والعاطفة ، وعلى أساس التعليم للإنسانية ، هذه المجموعة البشرية تحدَّت العالم كلَّه.

في هذه البيئـة الذليلة الحقيرة ، يقول القرآن: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] لا دولة ولا مجتمع ، ولا جيش ولا سـلاح ، ولا بترول ، ولا شيء في هذا الوضع ، يقول القرآن مخاطبـاً للعرب الذين هم أذلاء ، فقراء ، ضعفاء ، جهلاء ، أمِّيُّون ، يقول لهم: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

مـن مـحمَّـدٍ رسـول الله إلـى هـرقـل عظيـم الـروم:

هل يستطيع أحدٌ من سادة بلادنا الإسلامية ، ومن رؤساء الجمهوريات ، ومن ملوك العالم الإسلامي أن يكتب إلى رئيس من رؤساء الجمهوريات: «من فلان إلى فلانٍ ، أما بعد! أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين» ، ومحمد بن عبد الله على فقره و على ضعفه ، يستطيع أن يكتب إلى قيصر إمبراطور الروم ، إلى أقوى إنسان ، وأغنى إنسان في عصره ، يقول: «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم» ، إنَّ الرسول يستنكف في أن يسميه قيصر ، ويقول: من محمَّدٍ ، يقدِّم اسمه الشريف ، يقول: من محمَّدٍ رسول الله ، ولا يقول: من محمد ابن عبد الله ، لا! هذا كتاب دعوة ، هذا ليس كتاب سياسة ، أو معاهدة وحلف ، يقول: «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، أما بعد! فإنِّي أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنَّ عليك إثم الإريسيين» ، ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وهذا كان شأن النَّبيِّ ﷺ مع كسرى الذي مزَّق كتابه ، فقال: «سيتمزق ملكه» وقد مزَّق الله ملكه تمزيقاً ، فتحققت نبوءته عليه الصلاة والسلام ، إذ

قال: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده» ، وإن رضا شاه البهلوي على علاته لا يزال ينتسب إلى هذا الدِّين.

الحضارة الغربية حضارةٌ ملوثةٌ ، لا طهارة فيها ، وقديمةٌ ، لا جديد فيها:

إخواني! هذه الحضارة الغربية حضارةٌ ميكانيكيةٌ ، حضارةٌ مادِّيَّةٌ محضةٌ ، لا روح فيها ، إنها حضارةٌ لا هدف لها الآن ، قد أصبحت كالبعير المجترِّ ، الذي يجترُّ ما في بطنه ، ما هنالك شيءٌ جديد ، هذه الحضارة الغربية قد قالت كلمتها الأخيرة قبل زمن ، الآن هي تعيش على امتدادها ، تعيش على ما حققت من انتصاراتٍ ، ومن فتوحٍ في المجال الحضاريِّ ، والصِّناعيِّ التكنالوجي ، لا شيء جديدٌ ، لا رسالة لها للإنسانية ، إنَّها في الحقيقة لا تفكر في مستقبل الإنسانية ، إنَّها الآن تعيش لنفسها فقط ، وأصبحت كما يقول الشاعر الدكتور محمد إقبال:

«من أين نبحث عن الذوق اللطيف ، وعن الأفكار السَّامية ، وعن النظرة الطَّاهرة في الحضارة الغربية ، وهي حضارةٌ غير عفيفةٍ ، قد تلوثت ، ومُسخت من زمان».

إنني أعتبركم أكثر من طالب:

أنتم أيها العرب! أنتم يا شباب المسلمين! أنتم أيها الطلبة والطالبات! لستم تلاميذ فقط ، إنَّني أعتبركم أكثر من طالب ، لقد تحرَّرنا وتحرَّر كثيرٌ من البلاد العربية ، والإسلامية من الرقِّ السياسيِّ ، كان ذلك ضرورياً ، لا شكَّ ، ولكن لم نتحرَّر بعد من الرقِّ الفكريِّ ، نحن مصابون بمركب النَّقص أمام هذه الحضارة ، فمسؤوليتكم أن ترجعوا إلى بلادكم ، وتقولوا لأبناء بلادكم يا إخوتنا! نحن قد نزلنا في أعماقها ، فعرفنا أنها حضارةٌ خاويةٌ ، حضارةٌ جوفاء. إنَّها حضارة كمبيوتر Commputor إنَّها حضارة التأمين Insurance فالجهاز المدني كلُّه قائم الآن علىٰ التأمين ، والجهاز الصناعي كلُّه قائم على كمبيوتر ، ولكن أين قلب هذه الحضارة؟ أين روح هذه الحضارة؟ ، أين رسالة هذه الحضارة؟ وأُحبُّ أن ترجعوا إلى بلادكم ،

وتزيلوا مركب النَّقص من قلوبهم ، وترفعوا الغطاء عن أعينهم وقولوا له: يا شباب! أنتم بعيدون عن هذه الحضارة ، ولكننا قد سبحنا فيها ، وقد نزلنا في أعماقها ، وعرفنا حقيقة هذه الحضارة ، فنقول لكم عن خبرة لا عن تقليد: إنها حضارةٌ جوفاء ، وطلاءٌ خدَّاعٌ.

هذه المصانع العملاقة لا تصنع الإيمان:

ثم إذا وفقكم الله ، تقولون للذين يَملكون زمام هذه الحضارة: أنتم تملكون كلَّ شيءٍ ولكن لا تملكون العقيدة ، لا تملكون الإيمان ، لا تملكون الهدوء ، ليس عندكم شيءٌ يعطيكم الإيمان ، لا تصنع الإيمان مصانعكم العملاقة الجبارة ، هذه المصانع لا تستطيع أن تصنع إيماناً ، من أين يستصدر الإيمان؟ من أين يجلب الإيمان؟ يجلب الإيمان من القرآن ، يجلب الإيمان من السيرة النبوية ، يجلب الإيمان من هؤلاء المسلمين الذين يعيشون على إيمانهم ، ويحمدون الله على فقرهم وهم راضون مطمئنون هادئون ، ساكنون ، ليس عندهم قلق ، هذا القلق الذي استحوذ عليكم وجرَّكم إلى السآمة ، وإلى ردود فعلٍ حمقاء ، وجرَّكم إلى الانتحار ، وجرَّكم إلى اليأس القاتل ، هذا الإيمان لا يمكنكم أن تقتبسوه من فلسفتكم ، ومن هذه الجامعات الكبيرة ، إنما تقتبسونه من القرآن وحده وتقتبسونه من السيرة النبوية وحدها ، من تاريخ الصحابة رضي الله عنهم ، إذا كنتم تتمتعون بقشور الحياة ، فإنهم كانوا يتمتعون بجوهر الحياة ، وروحها ولذتها.

هذا يجب أن يكون موقفنا إزاء هذه الحضارة ، ويكون موقفنا ما دمنا هنا ، وموقفنا إذا رجعنا إلى بلادنا.

* * *

لا وَزَن لـنـا إلا بـالاعتـزاز بـالإسـلام

وجه مكتب رابطة العالم الإسلامي في الأمم المتحدة بنيويورك إلى العلامة الندوي بصفته عضواً في المجلس التأسيسي للرابطة ، وبمناسبة زيارته لأمريكا الشمالية دعوةً لزيارة المكتب وإلقاء خطبة الجمعة في القاعة المخصَّصة للصَّلاة في مبنى الأمم المتحدة ، أمام الحاضرين من مندوبي العالم الإسلامي ، وأعضاء مكاتب الدول الإسلامية ، وذلك في ١٥/ جمادى الآخرة ١٣٩٧ ـ ٣/ يونيو ١٩٧٧ م فقبلها سماحة الشيخ الندوي ، وصلَّى بالنَّاس صلاة الجمعة ، وإلى القراء الخطبة الَّتي خَطَبَهَا؛ نقلاً عن الشريط المسجَّل.

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونؤمن به ونتوكل عليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن سيّدنا ونبينا ومولانا محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريَّاته ، وبارك ، وسلَّم تسليماً كثيراً كثيراً.

حالة العرب في فجر الإسلام:

أما بعد: فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

إخواني! نزلت هذه الآية والإسلام في مرحلة الطفولة ، لم تكن له دولةٌ ، وهو منحصرٌ في الجزيرة العربية ، ومنحصرٌ في العرب ، والعرب يعيشون في خصاصةٍ من العيش ، وفي ضيقٍ من الدنيا ، وغالب طعامهم التَّمر ولحومُ الإبل والشَّعير ، وغالب لباسهم الثوب الخشن الكرابيس ، وبيوتهم من مدرٍ أو وبرٍ ، وكانوا كالغنم في ليلة مطيرة شاتية ، ولا تصوير أبلغ وأدقُّ من قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وبالعكس من ذلك كان الرومان والفرس سادة العالم ، وقادة المدنية والبشرية قد توزعوا العالم شرقه وغربه ، فكان الشرق تحت حكم الفرس ، وكان الغرب تحت حكم الرومان ، وقد لانت لهم الحياة ، واتَّسعت لهم الدنيا ، ودرَّت لهم الأرزاق ، وسخت لهم الطبيعة ، ودانت لهم البلاد ، والأمم ، وطنَّت حصاتهم ، وخفقت راياتُهم في الشرق والغرب.

في هذا الجو القاتم ، في هذا الظلام الحالك؛ الذي لا يبعث أملاً ، تحدَّى القرآن هاتين القوتين ، وأثار الثِّقة والاعتزاز في نفوس العرب المسلمين ، فقال عزَّ من قائلٍ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

تحدِّي القرآن للطاقات المادية :

قد تحدَّى القرآن قريشاً ، وتحدَّى الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية ، فأنزل سورة يوسف لتسلية النَّبيِّ ﷺ الرسول المرسل والقائد لهذه الطليعة المؤمنة ، فقال : ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [يوسف : ٧] وختم هذه السورة بقوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١٠ ـ ١١١] ودوَّى الصوت المجلجل في الآفاق في سورة القصص ، وقد افتتح الله سبحانه وتعالى هذه السورة ـ في هذا الجوِّ القاتم ، وفي هذا اليأس القاتل ـ فقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ١ ـ ٦] .

هل يُصدَّق أن قائلاً يستطيع أن يقول ، أو أنَّ متفائلاً ، أو متكهناً ـ إذا صحَّ هذا التعبير ـ يستطيع أن يتكهَّن بمستقبل هذه الفئة المؤمنة الضعيفة المستضعفة ، المظلومة المضطهدة ، القليلة العدد ، الفاقدة للعُدَد ، هل يستطيع أحدٌ في الدُّنيا مهما أوتي من ألمعيةٍ ، ومهما أوتي من بعد نظر ، ومهما أوتي من فراسةٍ ، ومهما أوتي من جراءةٍ أدبيةٍ ، ومهما أوتي من صلاحية المغامرة ، والمجازفة بالأقدار ، أن يتكهَّن لهذه الفئة المؤمنة ، لهذه الحفنة البشرية الضعيفة المستضعفة ، ويقول لها : ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

ثقةٌ تملأ جوانح العرب المسلمين:

كان هؤلاء العرب المسلمون قد غمرت نفوسهم وشحنتها هذه الثقة التي ملأت جوانحهم، وملأت نفوسهم، فصاروا ينظرون إلى هذه الطاقات الكبرى كأنها دمىً كُسيت ملابس فاخرةً وكأنَّها دعائم منخورةٌ، وكأنها هياكل منصوبةٌ، وكما يقول الله تعالى ـ ولاتصوير أبلغ وأدقُّ من القرآن ـ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤] فلما انطلق العرب من جزيرتهم وهم يحملون هذه الثقة، وهذا الاعتزاز، وهذا الإيمان العميق، جعلوا ينظرون إلى هذه الطاقات الكبرى التي ملأت العالم هولاً ومهابةً، وكان العرب وكانت البشرية بين أسدين، أسد الرومان وأسد الفرس، ولكن هؤلاء العرب كانوا يحملون قوةً أخرى، قوةً خارقةً للعادة، قوةً سماويَّةً، قوةً إلهيةً، قوةً قد أفاض بها الإسلام عليهم، فكانوا أمَّةً غير أمَّةٍ، وكانوا بشراً غير بشرٍ، وكانوا إنساناً غير إنسانٍ، وكانوا لا يملكون شيئاً، وكانوا لا يحكمون بقعةً من الأرض، ولكنهم لما آمنوا بالله تبارك وتعالى، ولما تجلَّت عليهم الحقائق السماوية الخالدة، ولما تجلَّى لهم الفرق بين إنسان وإنسانٍ، وبين كفرٍ وإيمانٍ، وتجلَّىٰ لهم الفرق الهائل الشاسع بين الحقيقة والصورة، وبين الماء والسَّراب، وبين المظاهر والظاهر، وبين الطلاء الخدَّاع، وبين الحقيقة الناصعة.

نظرتهم من العالم إلى ما وراء العالم:

لما كشف الله عن بصيرتهم، ورفع الغطاء عن عيونهم صاروا ينظرون إلى الأشياء في أصلها وحقيقتها، وصاروا ينظرون إلى حقيقة الإنسان، وما هي حقيقة الإنسان؟ ليست حقيقة الإنسان أن يأكل ويشرب، ويرتع ويلعب، إنهم لما عرفوا حقيقة الإنسان، وعرفوا حقيقة الإيمان، وصاروا ينظرون إلى ما فوق هذه الأرض وإلى ما وراء هذا العالم الظاهر المحدود، صاروا يستخفُّون، ويستهينون بهذه المظاهر الخدَّاعة، ويستهينون بهذا السراب الخادع، وصاروا ينظرون إلى هؤلاء ككلابٍ مدلَّلة، أو كطيورٍ

ساجعةٍ مترنِّمةٍ في قفصٍ من ذهبٍ ، أسلاكه من ذهبٍ ، وسقفه من ذهبٍ ، وأرضه من ذهبٍ ، والإناء الذي يقدم فيه الماء من ذهبٍ ، ولكنَّه قفصٌ ، القفص مهما كان ذهبياً ، ومهما كان واسعاً فإنَّه قفصٌ ، والسِّجن مهما كان واسعاً ، مهما كانت فيه حدائق غنَّاء ، وكانت فيه هذه المباني الناطحة للسحاب فإنَّه سجن .

إنَّهم رأوا إلى هؤلاء الملوك وإلى هؤلاء الذين يسمَّون وزراء ، ويسمّون أمراء ، ويسمَّون قادة الجيوش ، ويسمَّون فلاسفة ، ويسمَّون عقلاء ، ويسمَّون رجال البلاط ، كأنَّهم ممثلون يمثلون مسرحية قد صنعت لهم ، وأمروا بتمثيلها ، إنَّهم ممثلون لا أكثر ، ولا أقلَّ .

رأوا إلى هؤلاء ، قلوبهم خاويةٌ ، وأرواحهم ذابلةٌ ، وعقولهم فارغةٌ ، وإنما يملأ كلَّ هذا الفراغ ما يتمتَّعون به من ثروةٍ وما يتمتعون به من رخاءٍ ، وما يتمتَّعون به من لذةٍ عاجلةٍ ، وما يتمتعون به من تكريمٍ وتبجيلٍ ، ولكنَّهم كلَّهم أناسٌ يتحرَّكون ، هم صورٌ تتحرك ، ولا تتحركُ بإرادتها ، ولا تتحرك لغايةٍ رشيدةٍ ، إنما تتحرَّك لتأكل ، إنما تتحرَّك لتتلذَّذ ، إنما تتحرك لتتمتَّع ، لا رحمة لها للبشرية ، ولا شفقة لها على الإنسانية ، إنما هي تستخدم البشرية للذَّاتها ، ولعزَّتها وكرامتها المصطنعة المختلفة ، تيجانٌ على رؤوس ، ولكن رؤوسٌ فارغةٌ ، وملابس على أجسامٍ ، ولكن أجسامٌ هزيلةٌ ، وطلاءٌ على إناءٍ جميلٍ ، ولكنَّه إناءٌ فارغٌ .

القرآن يشحن بطاريَّتهم بالإيمان والثقة :

هكذا تجلَّى للعرب لما خرجوا من جزيرتهم يفتحون العالم ، لا ليملكوه ، بل ليُنقذوا البشرية من أعدائها ، ليُنقذوا البشرية من براثن الوحوش ، ليُنقذوا البشرية من هذا الظلم الذي أظلَّهم ولزمهم ، والذي قضوا فيه قروناً طويلةً ، لما خرجوا يُخرجون الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام؛ هانت عليهم هذه المظاهر ، هانت عليهم هذه الدول ، هانت عليهم هذه الرايات الخفَّاقة ، هانت عليهم هذه البلاطات الفاخرة ، هانت

عليهم هذه المباني الناطحة للسَّحاب ، هانت عليهم هذه المواكب الزاخرة بالناس ، هان عليهم هذا الخدم والحشم ، ونظروا إليهم كحيوان لا عقل عنده ، ولا شعور ، ولا رحمة عنده ، ولا عطف.

هكذا ملأ القرآن الكريم هؤلاء العرب الذين كانوا أمِّيِّين ، كانوا أمِّيِّين بصفةٍ عامَّة ، وكانوا في مؤخَّر الركب ، ركب المدنية ، ولكن القرآن شحن بطاريتهم شحنةً جديدةً ، شحنة إيمانٍ ، شحنة اعتزازٍ ، شحنة ثقةٍ ، شحنة تسام ، شحنة تعرُّفٍ بالأشياء وحقائق الأشياء ، فخرجوا إلى هؤلاء ، وسخَّروا العالم ، لا ليملكوه ، ولا ليحكموه ، ولا لمآربهم كما سخرته هذه الأمم ، ولكن ليُحنوا الجباه ، والرؤوس أمام الله تعالى وحده لا شريك له ، وليدخلوهم في حظيرة الإسلام ، في حظيرة العدل السَّماويِّ ، في حظيرة عقيدة التوحيد ، في حظيرة الرحمة على الإنسانية.

نحن أحقُّ بهذا الاعتزاز:

ونحن هنا في رحاب الأمم المتَّحدة ، ونحن نمثِّل أربعين (٤٠) دولةً نحن أحقُّ بهذا الاعتزاز وبهذه الثقة ، وأحقُّ بأن يقال لنا في هذا الصوت السماوي الخالد مخاطباً لنا: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] نحن أحقُّ بذلك ، إنَّ العرب لم يكن لهم دولةٌ حتى في جزيرة العرب لما نزلت هذه الآية وقد مضى على ظهور الإسلام أكثر من عقدٍ واحدٍ ، والإسلام لا يزال طفلاً يدبُّ ، ويسعى على الأرض ولكنَّ الله سبحانه وتعالى رآهم جديرين بأن يخاطبوا بهذا القول ، ألسنا جديرين أيها الإخوان ، ونحن نمثل أربعين دولة ، ولنا رايات تخفق هنا ، ونحن وإن كنَّا لا نملك هذا الحول والطول ، ولسنا في مستوى هذه الدول بتخلُّفنا عن ركب الحضارة ، وبتقصيرنا في جنب العلم والمدنية ، وبتكاسلنا وتوانينا وانقسامنا على أنفسنا ، وباستخفافنا بالتعاليم الإسلامية ، وبعدم قدرنا لنعمة الإسلام ، ولكن على كل حال ، نحن الآن أعزُّ من العرب الأولين الذين لم تكن لهم ، ولا دولةٌ واحدةٌ ، ألسنا أحقَّ بذلك؟

ولكن الله تعالى في نفس الآية ، يقول: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ

ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] هذا الإيمان هو قيمة المؤمن ، هذا الإيمان هو شحنة هذه البطارية ، فإذا لم تكن هناك شحنةٌ فلا قيمة لها ، إن هذا الإيمان هو السنجة الثقيلة التي إذا وضعت في كفة ميزان؛ رجحت هذه الكفة ، هذه السنجة التي وضعها رسول الله ﷺ يوم بدر بقوله: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد» إنه عرف ـ وهو الذي رزقه الله العقل السليم ، ورزقه صلاحية الاستعراض للواقع الصحيح ـ أنَّه لو كان الحكم بالقوة ، ولو كان الحكم بالعدد لما كان للإسلام وللمسلمين مستقبلٌ ، ولما قام له كيانٌ على الأرض ، إنَّهم ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً وإزاءهم ألف رجلٍ مدجج بالسلاح ، فكيف تنتصر هذه القلة القليلة على الكثرة الكاثرة ، هنالك لجأ رسول الله ﷺ إلى الله تبارك وتعالى مناشداً ومبتهلاً ، يناشده بقوله: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد».

هذه قيمتنا أيها المسلمون ، هذه قيمة هذه الدول إذا كانت هذه الدول وهذه الشعوب الإسلامية الكثيرة التي يزخر بها العالم اليوم ، والتي لها كلمةٌ مسموعةٌ حتى في هيئة الأمم ، والتي نشرف جميعاً بتمثيلها هنا ، هذه الشعوب المسلمة إذا كانت تحمل هذا الإيمان العميق ، هذا الإيمان المتَّقد المتأجِّج الذي يملك على الإنسان مشاعره وأحاسيسه ، إذاً فإنَّ المؤمن عزيز ، المؤمن له مكانةٌ فالشرط أن نكون مؤمنين.

وإذا تجرَّدنا عن الإيمان كما تجرَّدت تلك الشعوب والدول عن الإيمان الذي دعيت إليه ، فآمنت به في زمنٍ من الأزمان ، فأصبحت جوفاء ، وأصبحت أجساماً نخرةً ، وخشباً مسنَّدةً ، فلنحذر من أن نكون خشباً مسنَّدةً ، ولنحذر أن تكون لنا أسماء مشرقةً وأسماء كثيرة العدد في قائمة الأمم ، ولكن في ميزان الله تبارك وتعالى الذي هو الميزان الحقيقي في الدنيا والآخرة لا يكون لنا وزنٌ ، فليس لنا وزنٌ في هذا الميزان إلا باتصافنا بالإيمان ، وإلا بحملنا لشعلة الإيمان ، وإلا بحملنا لرسالة الإسلام ، وإلا باعتزازنا بالإسلام.

هنا في أمريكا في هذه العاصمة الكبيرة ، وفي قلب أوربا ، وفي بلادنا

وعواصمنا نفتخر بالإسلام ، ونقول : نحن مسلمون أولاً وآخراً ، وأنَّ الله سبحانه وتعالى أكرمنا بأكبر نعمةٍ ، ألا وهي نعمة الإسلام ، فإذا افتخرنا بالإسلام ، واعتززنا به؛ فالله سبحانه وتعالى ناصرنا ، ومؤيدنا ، ومشرِّفنا ، وهذا وعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧].

أمَّا إذا كنا أسماء فارغةً ، أو أسماء من غير مسمَّىً ، كما قال الأمير شكيب أرسلان عن جمعية الأمم التي تسمَّى الآن بالأمم المتحدة في بعض كتاباته : «إنها بحرٌ كبحر العروض بحرٌ ولا ماء» ، فإذا كنا بحراً ولا ماء؛ فأسفاً! إذاً لا نتوقع النصرة من الله سبحانه وتعالى ، وإنما الوزن للإيمان ، وإنما الشأن في الإيمان العبرة بالإيمان.

نسأل الله تبارك وتعالى أن نرجع إلى الإسلام كما كان السَّلف الصَّالح ، وأن نعبد الله سبحانه وتعالى ، ولا نخشى غيره ، وأن نكون أوفياء لدينه ومعتزِّين برسالته ، وأن تقترن حياتنا برسالة الإسلام ، وباسم الإسلام ، وباسم الإيمان. نسأل الله عز وجل أن يمنَّ علينا بذلك ، إنه على كلِّ شيءٍ قدير.

* * *

واجب الجالية الإسلامية في البلاد الغربية ودورها البلاغي والنموذجي

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في المركز الإسلامي في لندن ، في ٢٠/ من ربيع الأول سنة ١٤١٣ هـ الموافق ١٨/ من سبتمبر ١٩٩٣ م بعد المغرب .

الحمد لله وحده، والصَّلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده. أما بعد! سادتي وإخواني! يحلو لي ويسعدني أن تكون كلمتي المتواضعة بالعربية في هذا الملتقى الجامع لجنسياتٍ ولغاتٍ مختلفةٍ، وفيه العدد المرموق من إخواننا العرب.

سادتي! إنَّ دور المسلمين في بلادٍ أجنبيَّة لا يسود فيها الإسلام، وتسود فيها القيم الغربية والمثل الأجنبية، والغاية الرئيسية التي تسود فيها هي الوصول إلى منافع ومتع شخصيةٍ، أو جماعيةٍ، أو سياسيةٍ، أو أبيقورية[1] استمتاعية، دور المسلمين في هذه البلاد ـ خصوصاً إذا كانوا في قلة ـ دورٌ دقيقٌ يستدعي إيماناً قوياً، وشجاعةً بارزةً، وحكمةً بالغةً، وقوَّة ثقةٍ بالرسالة التي شرفهم الله وأكرمهم بها.

وكذلك ينبغي أن يكونوا على مستوىً عالٍ، غير مصابين بمركب النقص (Inferiority Complex) لأنَّهم إذا لم يكونوا على مستوىً عالٍ، ينظرون إلى أنفسهم وأمَّتهم نظرة احتقارٍ، أو نظرة مقلِّدين مقتطفين من ثمار هذه الحضارة؛ فإنَّه لا يكون دورهم دوراً رائعاً خلاباً، لافتاً للنَّظر، مسترعياً للانتباه.

أضرب لكم مثلاً يجسم لكم هذه المعاني، ويمثِّل دور المسلم الواثق بكرامته ورسالته، المستهين بالمظاهر الخلاَّبة، المترجم الراثي للمعتمدين على المظاهر، العائشين عيشة الجاهلية، أقتبسه من التاريخ الإسلامي الأول، فيه موعظةٌ، وعبرةٌ، وفيه درسٌ لنا.

إنَّ القائد العام للجيوش الفارسية الإيرانية الذي كان يسمَّى بـ«رستم» والذي كان يعتبر تلو الإمبراطور الإيراني، ويليه في فخفخته وعظمته،

(١) الفلسفة المؤمنة باللذة، وأنها هي الهدف الرئيسي في الجهود والأعمال والأخلاق، كانت مدرسة خلقية في اليونان.

ومكانته الاجتماعية ، ترجّى من قائدِ قوات المسلمين ، سيدنا سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ أن يرسل إليه رجلاً يستطيع أن يشرح له الغاية التي ساقت العرب البدو العائشين في صحراء العرب إلى هذه البلاد المتمدِّنة الراقية في الحضارة ، والقوّة العسكرية .

تصوروا رجلاً جالساً على كرسيٍّ عالٍ من الحكم والرئاسة ، كيف ينظر إلى العرب البدو العائشين في الخيام ، أو في بيوت من مدر أو وبر والذين كان قوتهم إما التَّمر وإما لحم الإبل ، كيف ينظر إلى هؤلاء نظرة احتقار ، وعدم مبالاة ، قال : أرسل إلينا رجلاً منكم ، يشرح الغاية التي جاء لها العرب ، وكان من معجزات الإسلام أنه جعل هؤلاء العرب البدو على مستوى موحِّدٍ عالٍ من الفكر ، والعقيدة ، والإيمان بالله ، والاعتزاز بالغاية التي جاء بها الإسلام ، فاختار سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله تعالى عنه ـ ربعي بن عامر[1] لا يعرفه أحدٌ من علماء التاريخ والسير ، ولم يكن له حديثٌ قبل هذا ، ولا حكى لكم هذه القصَّة كحكايةٍ طريفةٍ فيها متعةٌ ولذَّةٌ ، أو مادةٌ للافتخار القوميِّ ، أو الجنسي ، إنما أحكي لكم هذه القصة لتقارنوا بين الإيمان القوي الذي دفع إلى هذا الحديث الجريء الحرِّ أمام القائد العام للجيوش الإيرانية ، وموقف المؤمن بسموِّ رسالته ، وحاجة البشرية إليها ، وفقر هذه البلاد وحرمانها منها ، وبين موقفنا هنا في هذه البلاد ، ونظرتنا إلى أنفسنا ، ورسالتنا ، وواجبنا ، وإلى الحضارة الغربية التي تمثلها هذه البلاد ، وتقوم بالدَّور الرئيسيِّ القياديِّ فيها .

جاء ربعي بن عامر في ثيابٍ صفيقةٍ ، وسيفٍ وترسٍ ، وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط الذي كان قد بسط حول رستم ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه ، نبهه بعض الناس ، وقال له : دع سلاحك ، فقال :

---

(١) كان من أشراف العرب . حضر غزوة نهاوند ، ولاه الأحنف على طخارستان . وكانوا لا يؤمِّرون إلا الصحابة «الإصابة في تمييز الصحابة» للعلامة ابن حجر العسقلاني (ج ١ ، ص ٥٠٣) .

«إني لم آتكم ، وإنَّما جئتكم حين دعوتموني ، فإن تركموني هكذا فذاك ، وإلا رجعت» فقال رستم: ائذنوا له ، فأقبل يتوكَّأ على رمحه فوق النمارق ، فخرق عامتها.

ودخل على رستم فقال: ما الذي جاء بكم أيها العرب؟ فقال بإيمان متغلغلٍ في الأحشاء ، وثقةٍ بالغةٍ تقوِّي الأعصاب ، وتملكها؛ لأن وراءها كتاباً سماوياً ، ونبوةً صادقةً ، وعقيدةً جازمةً ، وهمَّةً عاليةً؛ ونظرةً هادفةً ، «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»(١).

سادتي وإخواني! إنني مع إيماني بما قال ربعي بن عامر عن غاية الإسلام ورسالته الأساسية ، والبدائية ، والنهائية ، من إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وما أشار إليه من جور الأديان ، ومع إجلالي وتقديري له ، فإنَّ كل ذلك كان واقعاً ملموساً وحقائق راهنةً ، ولكنني أستغرب قوله: «من ضيق الدنيا إلى سعتها» فلو قال: «من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة» لما ملكني استغراب فإنَّ هذا كان من العقائد التي يؤمن بها كلُّ مسلم ، فضلاً عن هذا المتحدِّث في العصر الإسلاميِّ الأول ، ولكنني أستغرب كلَّ الاستغراب من قوله «من ضيق الدنيا إلى سعتها» كأنَّه يقول: لم تخرجنا من جزيرتنا الرحمة والرِّثاء لأنفسنا ، والطمع في خيرات هذه البلاد ، إنما أخرجتنا وساقتنا إلى هذه البلاد الرحمة بكم ، أردنا بأن ننقذكم من هذا السجن الضيق الصغير المظلم الذي تعيشون فيه ، «كبلبل غرِّيدٍ في قفصٍ يوضع له فيه قوتٌ وماء» لماذا؟ لأنكم عبيد العادات ، عبيد الحاجات ، عبيد الشهوات ، وعبيد الموضات(٢) لا تستطيعون أن تعيشوا وحدكم ، لا تستطيعون أن تتصرفوا في أموركم كما تشاؤون ، تحتاجون إلى خدمٍ ، تحتاجون إلى مساعدين ، تحتاجون إلى حراسٍ تحتاجون إلى حراسٍ تحتاجون إلى الطباخين والطهاة.

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير: ج ٧ ، ص ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) أساليب الحياة ومظاهرها (Fashions).

ويشهد التاريخ أن «يزدجر» ملك إيران لما خرج هارباً من عاصمته الإيرانية ، عطش ودخل في بيت رجل ، وطلب الماء ، فقدَّم له الماء بكأسٍ متواضع عاديٍّ ، فقال: لا أستطيع أن أشرب الماء في الكأس؛ لأنَّه كان اعتاد أنْ يشرب الماء في كأسٍ من ذهبٍ أو فضةٍ. والإيرانيون يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقةً أو تاجاً قيمته دون مئة ألف درهم ، أو لا يكون له قَصْرٌ شامخٌ وآبزن[١] وحمَّامٌ وبساتين[٢].

كأنه يريد أن يقول: أنتم عبيد عبيدكم؛ لأنكم تحتاجون إليهم أكثر مما يحتاجون إليكم ، فنريد أن نخلصكم من هذا السجن الضيِّق المظلم ، وما ساقتنا إليكم حاجتنا ، إنما ساقتنا إليكم حاجتكم ، وما ضقنا ذرعاً بالصحراء التي نعيش فيها ، فإنَّها مترامية الأطراف ، واسعةٌ جدَّاً ، إنما ضقنا ذرعاً بالوضع الذي تعيشون فيه ، الوضع المصطنع غير الفطري ، وغير الطبيعي الذي تعيشونه.

أما نحن فلسنا عبيداً لشهواتنا ، لسنا عبيداً لوجباتنا[٣] ، لسنا عبيداً لملابسنا التي نلبسها ، لسنا عبيداً للخدم والحشم ، نحن أحرار نتجول في الصحراء ، ونعيش كما نشاء ، ونأكل ما تيسَّر ، فالله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، من جور الأديان إلى عدل الإسلام ، أنتم تستهدفون لجور الأديان ، وهي التي تذلُّكم ، وتهينكم ، وتسومكم سوء العذاب.

إيها الإخوان! لا أريد ألا أطيل عليكم ـ فأنتم مشغولون وأمامكم واجباً ومسؤولياتٌ ـ وأقول لكم باختصار: إن موقفكم في هذه البلاد يجب أن يكون موقف الأحرار ، موقفاً مبدئياً دعوياً مثالياً ، يلفت النظر ، ويسترعي الانتباه ، ويثير تساؤلات ومقارنات ، ورغبة في المعرفة والفحص

---

(١) فسقية.

(٢) ملتقط من كتاب «حجة الله البالغة» للإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي (م ١١٧٦ هـ).

(٣) الوجبة: الأكلة الواحدة في اليوم ، ج وجبات.

والتحقيق ، أما إذا تنزلتم إلى المستوى الغربيِّ ، والحياة الغربية السائدة مهما فقتم وتميَّزتم في هذا التشابه والتقليد؛ فإن ذلك لا يثير تأمُّلاً وتساؤلاً ، ولا إجلالاً ، واحتراماً ، فضلاً عن تأسٍّ ، وتقليدٍ ، وإجلالٍ ، وتمجيدٍ ، أما إذا قدمتم إليهم مثالاً غير مألوفٍ ، مثالاً يثير فيهم الدَّهشة ، نظروا إليكم ، وسألوكم : ما هو المنبع الذي استقيتم منه هذا النمط من الحياة ، وهذه المثل ، والقيم السليمة الفاضلة ، ويرغبون في أن تقدِّموا إليهم كتباً تشرح الإسلام ، وتشرح لهم سيرة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ تشرح لهم الطريق التي انتهت بالمسلمين إلى هذا المستوى العالي ، والمكان السامي ، ينظرون إليكم كأنهم ينظرون إلى قمَّة جبل .

فقدموا أيها الإخوان المسلمون العائشون في هذه البلاد ـ مؤقتاً ، أو تجنستم بالجنسية الغربية ـ نموذجاً طريفاً من الحياة يثير فيهم الطمع في دراسة الإسلام ومعرفة المسلك الذي وهبهم هذا الطراز من الحياة ، وهذا المنهج من التفكير ، فهذا هو الدور الفريد الذي يستطيع المسلمون أن يمثلوه في هذه البلاد ، أما إذا كان الأسلوب واحداً ، وكانت الحياة متشابهةً مطردةً في العالم الغربي ، أو في شبه القارة الهندية ، أو في إفريقية ، وفي أيِّ بلدٍ من بلاد الدنيا؛ فإنَّ ذلك لا يسترعي الانتباه أبداً ، وإن عاشوا هناك مئة سنةٍ أو أكثر .

وأشكركم على حسن الاستماع ، وأعتذر إليكم إذا كانت في كلمتي هذه صراحةٌ زائدةٌ ، فما دفعني إلى ذلك ، ولا حملني عليه إلا حبُّ الجالية الإسلامية في هذه البلاد ، ومعرفة قيمتها ، وأهمية دورها البلاغي والنموذجي في هذه البلاد ، ومعرفة دور هذه البلاد القيادي والتوجيهي المادي في الماضي ، وما تستطيع أن تقوم به من دورٍ قيادي بنَّاءٍ مفيدٍ للإنسانية؛ إذا أراد الله بها خيراً ، وشرَّفها بالهداية والتوفيق .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

المرأة ودورها في التوجيه والتربية

هذه الكلمة ألقاها العلامة الندوي بلغه أردو في حفل توزيع الشهادات للمتخرجات في جامعة نور الإسلام للبنات بلكهنؤ في ١١/١٢ من شوال ١٤١١هـ . تُـقدَّم هذه الكلمة هنا نقلاً من الأردوية إلى العربية .

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

لقد ذكر الله في هذه الآيات عشر صفاتٍ كريمةٍ، ولم يكتف بقرن الإناث مع الذكور، والإشارة إلى أنَّه لا فرق في الأعمال الصالحة والصفات الكريمة بين الذكور والإناث، بل بالعكس من ذلك يفرد الصفات صفةً صفة، فإذا وصف الذكور بها وصف الإناث بنفس الصفة وأفردهن بالذكر وإن البيان؛ ممَّا يدلُّ على مدى محبة الله مع إمائه ومدى اتِّساع الإمكانية والمجال لهنَّ للتبريز في كلِّ صفةٍ كريمةٍ، وعملٍ جليل والتحلي بفضائل الأعمال ومكارم الخلق. كما يشير ذلك إلى أن كثيراً من الديانات القديمة والنظم الخلقية كانت تعتبر المرأة سقط المتاع وتعدها فاقدة الصلاحية لإحراز كثيرٍ من الفضائل والمكارم الخلقية ـ وسيصدق ذلك المطلعون على الديانات والخلق ـ ولم يكن ذلك عاراً بالنسبة إليها. فذكر الله تعالى هذه القائمة الطويلة للصفات الكريمة والأعمال الصالحة لكي تعرف أنَّ الله تعالى يحب إماءه، ويعطف عليهن، كما يحب عباده ويعطف عليهم. وصفاته من الرحمة والربوبية تشمل الإناث والذكور كليهما، وتفيض شآبيبها عليهما على السواء. وكان من الممكن أن يكون مجال الإيمان، واليقين، والطاعة، والعبادة، والصدق، والإخلاص، والصبر، والإيثار، والخوف، والإنابة، والصدقة، والبرّ، والعفة، والحياء حكراً على الرجال، فإنَّ هذه الصفات والميزات وهذه الانتصارات والمهارات تتطلب همَّةً لا تفتر، وعزماً لا يتزحزح، وجهوداً وتضحيات لا تعرف الخمول والنفاد. وكثيراً ما، بل تماماً تذكر أسماء الرجال فقط في تاريخ الديانات

والأخلاق ، والثقافة ، والمدنية . ثم إنَّ هناك مسؤوليات وواجبات تثقل كواهل النساء بصورةٍ خاصَّةٍ والرجال منها براء مثل مسؤوليات الشؤون العائلية ، وتربية الأولاد ، ولباسهم ، وغذائهم ، وعيادتهم ، والرقابة عليهم . وكان من الممكن تماماً على الأقل بالنسبة إلى الولاية أن تقتصر معرفتنا على مئاتٍ بل ألوف من البررة ، والأتقياء ، والصالحين ، وألا نعرف ونسمع حتى اسم امرأةٍ واحدةٍ في هذا المجال الهام ، لكن هذه القائمة النَّيرة يتجلَّى فيها اسم السيدة رابعة البصرية ، واسمها معروف حتى اليوم ، وكم من صبيَّة تسمَّى باسمها تيمناً وتبركاً . وإن كتب التزكية ، والإحسان ، والسير ، والتراجم ، والتاريخ لتزخر بعاداتها ، وكراماتها ، وخوارقها ، وعظمتها ، وقبولها ، وتجاوبها الحار . لذلك فكثير من البررة والأتقياء والصالحين والعارفين تربيتهم الروحية والخلقية رهنٌ لأمهاتهم الصالحات ، وقصارى جهودهنَّ ، وقد اعترفن بذلك بأنفسهن ، ويستحيل لي أن أذكر هنا في هذه العجالة أسماء جميعهن، وإنما نذكر كنموذج أشهر الصالحين، وأتقى العارفين الشيخ الرباني عبد القادر الجيلاني رحمه الله عليه ، والشيخ المعروف في تاريخ الهند وسلطان المشايخ السيد خواجه نظام الدين، فلو درسنا كتب سيرهما وتراجمهما؛ لعرفنا مدى اهتمامهما بذكر تربية أمهاتهما ، وصفاء جوهما ، وصلاح بيئتهما . ولأدركنا مدى شعورهما بفضل ذلك كله في تثقيف حياتهما ، وتجلية خلقهما ، وتصفية ، وتزكية قلوبهما .

ومما يؤسفني بالنسبة إلى نشر المواهب العلمية والخدمات الثقافية الجليلة أنَّ كتب التاريخ الباحثة في فضلاء الأمة تتجاوز المئات بينهما الكتب المتناولة بسير فاضلات الأمة قليلةٌ جدّاً . لكن مؤلفي كتب السير والتراجم ـ رغم ذلك ـ لم يهملوا النساء كلِّيّاً . فقد ترد إلينا بعض أسمائهن في مجال العلوم الدينية والإنتاجية الأدبية . وهنا أضرب لكم مثلاً مشرقاً واحداً فقط من الهواية العلمية ، ونجاح الشغف العلمي والدراسة المضنية الناجحة ، مثلاً يثير الدهشة والإعجاب والانبهار والاستغرب حتى فيمن له أثارةٌ من العلم والمعرفة والاطلاع .

هل تعرفون أيَّ كتابٍ مكانته أعلى وأسمى من كل ما تحويه المكتبات الإسلامية العلمية في طياتها بعد كتاب الله؟ هو الجامع الصحيح للإمام البخاري رحمه الله الذي لقب كتابه بـ «أصح كتاب بعد كتاب الله» ولا شك أنَّ هذا الجامع الصحيح معيار الفضل والكمال لكل معهد ومؤسسة. ومناسبة قراءة الدرس الأخير للبخاريِّ تعدُّ مفخرةً ونعماً من الله تستوجب الشكر لكلِّ مدرسةٍ وجامعةٍ مهما كانت واسعةً وكبيرةً، وقد تم هذا الاحتفال في هذه المدرسة كذلك. فهل تعرفون عمَّن بلغ هذا الكتاب الجليل في الهند وفي معظم مراكزها ومعاهدها، إنَّه برواية امرأةٍ فاضلةٍ تسمى «كريمة» وقد ورد ذكرها في كتابٍ موثوقٍ به على ما يأتي:

«كريمة بنت أحمد بن محمد المروذية محدثةٌ، كانت تروي صحيح البخاري. قال ابن الأثير: انتهى إليها علوُّ الإسناد للصحيح. عاشت تقريباً مئة سنة أصلها من مرو الروذ، ووفاتها بمكة. ويقال لها أم الكرام، وبنت الكرام»[١].

إليكم الآن مجال الأدب. حين نلتقي بولادة بنت المستكفي الأندلسية. وكانت بنت شخصيةٍ عبقرية من عبقريات حكام الأندلس (أسبانيا). وكانت محرزةً لقصبات السبق في مجال الذوق الأدبي، والفطانة، وبعد النظر، وتفهم أسرار الأمور، وخفاياها، واسمها مشرق يتجلَّى في الكتب في هذا الموضوع، وكان بلاطها الشعري والأدبي يرصع ويزين كما يزين بلاط الأمراء والسلاطين، وكان كبار الأدباء واللغويين يضربون إليها أكباد الإبل[٢].

أما مجال الهمَّة، والعزيمة، والتَّضحية، والإيثار، وعاطفة الجهاد والحماس؛ فيكفي لذلك مثالٌ واحدٌ يندر وجوده لا في تاريخ الإسلام وحده بل في تاريخ العالم أجمع. وذلك أنَّ السيدة الخنساء رضي الله عنها تعدُّ في طليعة الشعراء الذين حازوا الثقة والحجية في اللغة والأدب، ونالوا الشهرة

---

(١) الأعلام للزركلي. ج/ ٦ ـ ص/ ٧٨.
(٢) أيضاً. ج/ ٩ ـ ص/ ١٣٥ ـ ١٣٦.

الفائقة في ميدان الفنِّ والشعر. وكان توفي لها أخواها فرثت لهما رثاءً مثيراً ومؤثراً ينقطع نظيره لا في المراثي العربية، بل في مراثي اللغات الأخرى في العالم. هذه حالها قبل أن تدخل في حظيرة الإسلام. والخنساء هذه لما احتضنت الإسلام حدثت ثورةٌ عظيمةٌ في نزعتها وعقليتها. فالمرأة التي جعلت البكاء والنحيب على أخويها شعاراً لها وعادةً، واقتصرت شاعريتها على ذلك. ومن المعلوم لدى الجميع، ولا سيما لدى أخواتنا وبناتنا أنَّ الأخ والابن بينهما فرقٌ كبير. فالمحبة للأخ مهما اشتدَّت وتعمقت لا تعدل المحبَّة للابن؛ إذ هو فلذة الكبد، وقرَّة العين، وجلاء البصر وأحبُّ من النفس. فالخنساء هذه دعت أبناءها بمناسبة إحدى الغزوات، وودعتهم واحداً واحداً، وقالت: لم أرضعكم إلا لأجل هذا اليوم، فانفروا في سبيل الله، وارفعوا مكانتي عند الله. وبعد ذلك وقفت تتلقى نبأ شهادة واحدٍ تلو الآخر. ولما تلقت نبأ شهادة الأخير لم تتمالك أن قالت ويا حسن ما قالت: «الحمد لله الذي أكرمني بشهادتهم»[(١)].

وهناك مجالان إضافة إلى هذه المواهب والصلاحيات والصفات أحرزهما النساء فيهما قصبات السبق، والخدمات التي تستطيع النساء تقديمها في هذين المجالين. والدور الريادي الذي يستطعن أن يقمن به في استمرارية السلسلة السلالية للأمة الإسلامية بل في استمرارية السلسلة العقدية والخلقية والعقلية والثقافية، فذلك حظهنَّ خاصةً لا يتقاسمهنَّ أحد. ولو لم تقدم النساء مساعداتهن الغالية في هذا المجال في كلِّ عصر ومصر بل ولو لم يتحملن مسؤولية ذلك على عواتقهن ولم يبذلن قصارى جهودهن لتحقيق ذلك فإنَّه لن يدوم، وتقوم هذه السلسلة المعنوية التي هي عين قيمة هذه الأمة والحجة على ضرورتها وصلاحيتها وقيمتها. العادات والصفات والمعتقدات التي يتلقَّنها الصبي من أمه المدرسة الأولى، فإنها تختلط بلحمه ودمه، وتصبح لحمته وسداه وتتغلغل في أحشائه، ولا غربة فإنَّ الأمَّهات هنَّ المدرسة الأولى وهن البذرة الأساسية، فإذا كن غارسات

(١) كتب التراجم والتاريخ.

طيبات كان غرسها قد حسن وطاب. ومن هنا ركز أخصائيو التعليم والتربية كثيراً على أن الآثار والملامح التي ترتسم على لوح عقله الساذج في البداية فإنها لا تنطمس أبداً. وإن حسبناها مندرسةً ومنطمسة ، لكنها في الواقع لا تنطمس ، وإنما هي تنضغط وتختفي. وما هي إلا طعنة أو طعنتان حتى تنكشف وتنجلي. وبعد الاعتراف بهذا الواقع تتفاقم مسؤولية الأمهات والمعنيين بتربية الأولاد وتثقيفهن. وإنهنَّ يستطعن أن يرسمن آثاراً طيِّبة خلابة على ألواحهم البسيطة. وليس في وسع طاقةٍ ، أو تعليمٍ ، أو تربيةٍ أن تمحو هذه الآثار العميقة بيسرٍ وسهولة.

الأمهات والمربيات والنساء اللاتي هنَّ مؤثراتٍ ومحترماتٍ في البيوت لا تقتصر مسؤوليتهن على أن يعلمن الأولاد اسم الله ، واسم رسوله ، ويحفظنهم الكلمة الطيبة ، وأن يعلمنهم الصَّلاة إذا حان موعدها ، حتى يتعلم الأولاد تلاوة القرآن الكريم ، ويقدروا كذلك على فهم الأردية وقراءتها وذلك في عصر تتمتع فيه اللغة الهندية في الهند وخطها بالسيطرة ومئات الآلاف من الأولاد المسلمين والمسلمات لا يقدرون حتى في كتابة سطر واحدٍ في الأردية ، بل وكتابة أسمائهم ، وذكر أسمائهم شفوياً. ولذلك أمثلةٌ لا يحصيها عد. وقد ظهرت نماذج ذلك مع الأسف في مجالس المقابلات ، وتقديم طلبات الدخول في المدارس ، أو الاشتغال بسبب أو وظيفةٍ ، وليس ذلك إلا نتيجة سيئةً ومصيراً مشؤوماً لإهمال التعليم والتربية في داخل البيوت ، وقلة المبالاة بتعريف التاريخ الإسلامي وتاريخ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والصحابة الكرام والأزواج المطهرات وأهل البيت رضوان الله عليهم ، وقادة الأمة ورواد الدين للبراعم والناشئين.

أضف إلى ذلك ما يتحتَّم على الأمَّهات والمعنيات بشؤون الأولاد في بيئة البيت أن تهتمَّ بما يجب تحققه في بيئة البيوت من تكريه الشرك والكفر إلى الأولاد ، وتحبيب الإيمان والتوحيد ، والاعتزاز به إليهم والارتياح إلى الانتماء الإسلامي ، وكونهم من المسلمين ، وتعويدهم على الحميَّة الدينيَّـة ، والغيرة الإسلامية ، والابتعاد عن معصية الله ، والعشق لله

ولرسوله والشغف به إلى حد الوله والهيام ، والاشمئزاز والتقزز من المآثم والذنوب ، وحفظهم من اعتبار التقدم الدنيوي غايتهم ونجاحهم ووسيلة للفخفخة والظهور ، وتدريبهم على الصِّدق والتصديق ، والحنين إلى الخدمة ، والإيثار ، والتضحية ، والجهاد ، وتنشئتهم على العاطفة الجياشة ، والحماسة الزائدة لحب الوطن وخدمة الشعب. فتحليتهم بجلائل الأعمال والصفات الكريمة هذه ليست إلا من مسؤولية الأمهات. ولو لم يتحقق كلُّ ذلك في الطفولة وفي داخل البيوت فإن كبرى جامعات العالم وأي مؤسسة تربويةً رسمية كانت أو عالميةً عاجزةٌ عن تحقيق هذه الأهداف ، وفاشلةٌ في القيام بهذه الغايات الخطيرة.

دعوني أصارحكم بأن أولاد المسلمين ماداموا لا يشمئزون ولا يتقززون من الوثنية والكفر والشرك تقززهم من النجاسات والأشياء المنتنة ، وما داموا لا يكرهون الكفر والشرك سواءٌ وجد ذلك عن طريق الأساطير (Mythhology) الخارجية ، أو الوطنية ، أو عن طريق الكتب المدرسية (Twxt books) أو الإذاعـة ، أو التلفاز، أو المحاضرات أو كان ذلك للجهل بالدين ، ومبادئه ، وطوابعه ، أو بتأثير الطوائف المرتزقة الانتهازية. فما داموا لا يكرهون الكفر والشرك كراهتهم من أن يلقوا في النار فإنَّه لا يمكن الاحتفاظ بإيمانهم ، ولا يضمن لهم صحة العقيدة واليقين. فلكي تصبح هذه التربية وهذه المحبة والتنافر طبيعتهم الثانية وحاسةٌ جديدة بالإضافة إلى الحواس الخمس؛ إنَّما هو ميراث البيوتات الإسلامية ، وذلك سرُّ استمرارية سلسلة المسلمين العقدية والمعنوية. وما دام هذا العمل لا يتحقَّق في داخل البيوت بأخوات وسيِّدات البيوت فإنّه يتعسر النجاح في تحقيقه بالمواعظ الحماسية الملتهبة ، والكتب الدينية المؤثرة والأساتذة الأخصائيين البارعين للمدارس العربية الدينية والجامعات العالمية المعروفة.

والمجال الثاني الذي تتمتع فيه النساء بالقيادة ، والرِّيادة ، والسبق والبراعة هو الاحتفاظ بمزايا الإسلام الثقافية والحضارية والاجتماعية ، والمحافظة على بقائها ، واستمرارها ، وصيانتها من الثقافات غير

الإسلامية ، والنظم الصناعية ، ولمعرفة ذلك تدعو الحاجة إلى الاطلاع على التاريخ الإسلامي القديم ومجدنا التليد.

لقد واجه الإسلام في فجره الأول تحدِّياً غريباً لم يواجهه أيُّ دينٍ في التاريخ. واجه العرب الخارجون من جزيرة العرب مدنيتين راقيتين بلغتا القمَّة في الرُّقيِّ والازدهار ، ودقة المعاني ، ورقة الحواشي ، ولم يجرب الناس مدنيةً أرقى منهما ، وأفخم ، وأعظم منذ أمدٍ بعيدٍ في التاريخ البشريِّ والحضاريِّ ، وهاتان المدنيتان هما: المدنية الرومية ، والمدنية الإيرانية. اللتان بلغتا القمَّة ، وقطعتا الأشواط المدهشة البعيدة في الثقافة والرسم والتصوير ، وتزيين الحياة الإنسانية ، وتنظيمها ، وتوفير التسهيلات والكماليات ومسائل المتعة ، والنزهة ، والاستراحة. وكانتا تتمتعان بالرَّوعة والبهاء والجذب والتأثير في حواشي الحياة ، ودقائقها ، وكانتا تزخران وتتدفقان بالآلات ووسائل الفرح والمتعة واللذة وسعة العيش والطرق الراقية للأمور العائلية. والملبس والمطعم ، ووسائل التزيين والتجميل. وحدِّث عن البحر ولا حرج.

وعلى العكس من ذلك كان العرب منطوين في عهدهم البدائي وبعبارة أصحَّ: كانوا في دور المدنية الصبيانية. والواقع أن هذه التجربة التي واجهها المسلمون في صدر الإسلام كانت تجربةً دقيقةً للغاية في الإسلام ، وإن كان متحلِّياً بالتعاليم السماوية ، والعقائد ، والأخلاق العالية ، والصفات الكريمة ، والآداب الحسنة ، لكن الروميين والإيرانيين هم الذين كانوا يتسلمون آنذاك زمام قيادة الثقافة والمجتمع. فكان من الممكن تماماً ، وكانت جميع القرائن والمؤشرات تشير إلى أن العرب المسلمين السذج سيتهافتون على هاتين المدنيتين تهافت الفراش على النور والأكلة على قصعتها ، ويختارونهما بغثهما ، وسمينهما. فإن العرب المسلمين هم قضوا حياتهم في بيئةٍ ضيِّقةٍ ومظلمةٍ. وكانت وسائلهم ضئيلةً محدودةً وكانت أرضهم جرداء من منابع الثروة والخيرات. وعاشوا حياتهم في الخيام ، وبيوت القشِّ والوبر والمدر عشية رحلةٍ ، وانتقال. ويروي التاريخ أنَّ العرب المجاهدين والمبلغين عندما رأوا لأول مرة في زمن الغزوات

والفتوحات الرقاق من الخبز في المآدب ظنُّوها مناديل لتنشيف الأيدي، فلما أهووا إليها أيديهم بعد ما طعموا فإذا هي خبز ورقاق، وكذلك لما رأوا الكافور، لأول مرة ظنوه ملحاً وربما عجنوه مع الدقيق ظنّاً منهم أنه من الدقيق[1].

فبالجملة: لما ابتدأت سلسلة الفتوحات والانتصارات واجه هؤلاء البدويون البسطاء مدنيةً راقيةً، وجذابةً لم تخطر قطُّ على بالهم. فكان من الممكن تماماً، وكانت القرائن والمؤشرات تؤيِّد أن يتهافت عليها العرب المسلمون السذج تهافت الفراش على النور وتهافت الأكلة على قصعتها والأيتام على فتات الطعام. وأن يقبلوها بغثها وسمينها ويعتزوا بها. فتتقدم بها مستويات حياتهم اليومية ومدنيتهم وملبسهم ومطعمهم مما يلجئهم إلى تجاوز الحدود الشرعية، بل وانتهاك أعرافهم وتقاليدهم السائدة، وكان من الممكن أن يختاروا كلَّ ذلك غايةً وشعاراً لموضةٍ وتقدُّم ونهضةٍ وواقعيةٍ وحبٍّ للفخفخة والظهور. مما يؤدي إلى نشوء المساوىء والآفات التي ظلَّت تحدث في الشعوب والأمم التي تخضع لمدنيـةٍ مادِّيَـةٍ وانتهازيَّـةٍ وصناعيَّةٍ. والتاريخ يزخر بأمثلة ذلك، ولكي نتصور ذلك ينبغي أن نشاهد الدول والأمم الشرقية طريقتها وأساليبها التي منيت بتقليد المدنية الغربية والسير على طريقها صماً وعمياناً. اقتبست منها مع علاتها وخيراتها فأغمضت عينيها تماماً عن التعاليم الدينية، والحدود الشرعية، وتقاليدها الثقافية التليدة.

والواقع أنَّ المسلمين تغلبوا على هذه المشكلة الخطيرة بمساعدة كلٍّ من الرِّجال والنِّساء، وكان في ذلك حظٌّ كبيرٌ ودورٌ ملموسٌ مشكورٌ لإيمان النساء، ويقينهن، وقناعتهن، وبساطتهن، وإخلاصهن، وإيثارهن للآجلة على العاجلة، وجعل وقائع الصحابيات والصالحين والأبرار والأتقياء أمام أعينهن، ولو لم تكن مساعدات النساء وإسهاماتهن البارزة لم يكن للرجال أن يحفظوا الحياة من محاكاة المدنية الروميَّة، وكان لا بدَّ أن يهوي المجتمع الإسلامي في هاوية محاكاة المدنية الرُّوميَّة والإيرانية

(١) راجعوا كتب التراجم والتاريخ.

وطريقتها للعيش والتعامل مهما دافعوا عن ذلك دفاعهم الأخير. ومهما شمروا عن ساعد جدِّهم وجهدهم في صيانة المجتمع من اقتفاء آثار المدنية الإيرانية والرومية، ومهما ألقوا لذلك الخطب الرنانة والمواعظ الحماسية الملتهبة، ومهما بذلوا لذلك نفسهم ونفائسهم. ولم يكن للعلماء، والواعظين، والحكام، والسلاطين، والمسؤولين عن محاسبة الأخلاق، وقوّاد الجيوش، والضباط أن يحتفظوا بالمجتمع الإسلامي، وأن يصونوا الهوية الإسلامية والحضارة الإسلامية. فالنساء لهنَّ دورٌ ملموسٌ رائعٌ وإسهام رياديٌّ بارزٌ لا في الاحتفاظ بالهوية الإسلامية وحدها بل في الذود عن حياض الشريعة الإسلامية، وصيانة كيانها.

وإن كانت في هذه الأيام قوةٌ تقوم بصيانة المجتمع الإسلامي من التردِّي في هاوية محاكاة الحضارة الغربية، وتقوم بسدِّ الموجات العارمة المكتسحة من الحضارة الهندوكية الأسطورية، ومنعها من التفشي والانتشار في المجتمع الإسلامي فهذه القوة لا محالة تتمثل في أخواتنا وسيداتنا، والتعليم الديني الصحيح للنساء المسلمات، وتربيتهن الإسلامية الدينية الهادفة. وتزويدهن بالخلق الإسلامي، والسيرة المثالية للنبي ﷺ، والصحابة الكرام، وإيثارهن للحضارة الإسلامية على غيرها من الحضارات والثقافات الصناعية الأخرى.

هذا الواقع دافعٌ قويٌّ من دافع الضرورة الأكيدة والحاجة الملحة لإنشاء نظام التعليم والتربية لطبقة النساء. فنشكر الله على أنَّ الجامعات والمعاهد التي تتأسس باسم «مدارس النساء» و«جامعة الصالحات» و«جامعة نور الإسلام» هي خطواتٌ بناءةٌ هادفةٌ وعاقلةٌ ومؤثرةٌ لتحقيق الغرض المنشود. وسيكون ذلك ذريعةً ووسيلةً ناجحةً لصيانة الناشئين والجيل الناهض من الردَّة الحضارية، بل وفوق ذلك من الثورة العقدية في الأجيال الناشئة الحديثة. وسيكون ذلك بإذن الله قاعدةً صلبةً ننطلق منها لمواجهة أعدائنا، والصمود في وجه مؤامراتهم وإجراءاتهم التعسفيَّة، ولو واصلنا هذه المسيرة المشجعة المباركة بجدٍّ، وجهدٍ، وإخلاصٍ، وتضحيةٍ، وعقلٍ، وبصيرةٍ فمن المرجو أنَّ نصر الله سيكون حليفنا، وتوفيقه

مساعدنا ، وتوجيهه قائدنا مهما وعرت الطريق ، وكثرت الذئاب. وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

* * *

فهرس الآيات الكريمة

(٤) سورة النساء

(٥) سورة المائدة

(٦) سورة الأنعام

(٧) سورة الأعراف

(٨) سورة الأنفال

(٩) سورة التوبة

(١٠) سورة يونس

(١١) سورة هود

(١٢) سورة يوسف

(٢٤) سورة النور

(٢٥) سورة الفرقان

(٢٦) سورة الشعراء

(٢٧) سورة النمل

(٢٨) سورة القصص

(٢٩) سورة العنكبوت

(٣٠) سورة الروم

(٣٢) سورة السجدة

(٣٣) سورة الأحزاب

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

طرف الحديث **رقم الصفحة**

ـ أ ـ

- س -

- ف -

- ق -

- ل -

- م -

- ن -

- و -

- لا -

- ي -

فهرس الأعلام

فهرس الأشعار

فهرس الموضوعات

من تُراث العلاَّمة النَّدوي

جمع وإعداد : سيد عبد الماجد الغوري

سلسلة رائعة من مجموعات محاضرات ومقالات العلاَّمة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي في موضوعات مختلفة ، صدر منها :

١ ـ دراسات في إعجاز القرآن .

٢ ـ مقالات حول السيرة النبوية .

٣ ـ محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة (٣ أجزاء) .

٤ ـ مقالات إسلامية في الفكر والدعوة (٣ أجزاء) .

٥ ـ مقالات وبحوث حول التعليم والتربية الإسلامية .

٦ ـ مقالات حول أعلام المسلمين ومشاهيرهم .

٧ ـ أبحاث حول الاستشراق والمستشرقين .

دار ابن كثير

دمشق ـ بيروت

محاضرات إسلامية

في الفكر والدعوة

لسماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

جمعها وحققها وعلق عليها

سيد عبد الماجد الغوري

الجزء الثالث

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

محاضرات إسلامية

في الفكر والدعوة

لسماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

(٣)

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار ابن كثير
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص . ب : ٣١١ - هاتف: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠ - فاكس: ٢٢٤٣٥٠٢

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
ص.ب: ١١٣/٦٣١٨ - تلفاكس ٠١٨١٧٨٥٧ - ٠٣٢٠٤٤٥٩

محاضرات إسلامية

في الفكر والدعوة

لسماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

جمعها وحققها وعلق عليها

السيد عبد الماجد الغوري

الجزء الثالث

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

النُّبوّة والأنبياء في ضوء القرآن

تلقّى العلامة الندوي في شعبان عام ١٣٨٢ هـ برقيةً من نائب رئيس الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة صاحب الفضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز (رحمه الله) ، يدعوه كأستاذٍ زائرٍ لهذه الجامعة ، ويقترح عليه إلقاء محاضرات على طلبتها الّذين قصدوا هذه الجامعة من أنحاء العالم الإسلامي ، وقبل العلامة الندوي هذه الدعوة الكريمة ، ورأى أنَّها فرصةٌ سانحةٌ يجب أن تنتهز للتحدُّث إلى هذه المجموعة الطيبة من الشباب الإسلامي ، التي يتعسّر وجودها في مكانٍ واحدٍ ، وكان الموضوع الذي آثره لهذه المحاضرات «النُّبوّة والأنبياء في ضوء القرآن» .

المحاضرة الأولى

النُّبوَّة حاجة الإنسانية إليها وفضلها على المدنيَّة

حديثٌ من وحي المكان:

سادتي! إنَّ أليق حديثٍ بهذا المكان الذي نجتمع فيه، حديثٌ عن النبوة: حاجة الإنسانية إليها، وفضلها على المدنية، وعن السادة الذين أكرمهم الله بها، وعن عظيم منزلتهم عند الله، وكبير فضلهم على الخلق، وعميق أثرهم في الحياة، وعن إمامهم وخاتمهم الذي خصَّه الله بالرسالة الأخيرة، والنُّبوَّة العامة الدائمة، والإمامة الخالدة، والشريعة الباقية، والكتاب المحفوظ، وحصر سعادة الإنسانية على اختلاف طبقاتها وعصورها على الإيمان به وأتباعه، وأثر هذا البلد الطيب بأن يكون مهجره ومثواه الأخير، وهنا حصل آخر اتِّصال السماء بالأرض للوحي والرسالة.

وعلى من يمنح فرصة الحديث في هذا المكان الكريم، وتساق إليه هذه الكرامة أن يتقيَ الله، ويستحي أن يكون له حديثٌ آخر غير هذا الحديث الذي هو من وحي المكان، وفيض الإيمان، واستجابةً لشعور الحسن والإحسان.

ولما نزلنا منزلاً طلَّه النَّدى　　أنيقاً وبستاناً من النور خاليا
أجدَّ لنا طيبُ المكان وحسنه　　منىً، فتمنينا، فكنت الأمانيا

مهمَّة الجامعة الأساسية:

ومهمَّة كلِّ مدرسةٍ تقوم في الإسلام ـ فضلاً عن أن تقوم في مدينة

الرسول ﷺ ـ أن تعنى قبل كلِّ شيءٍ بفهم نعمة النُّبوَّة التي ما أنزل الله نعمةً أعظم منها ، وتعنى بقدرها وشكرها ، وتجتهد أن تكون من أنصارها ودعاتها ، وأن تنضمَّ إلى معسكرها ولوائها في معترك الحياة الذي انتشرت فيه ألوية الجاهلية ورايات الردَّة والثورة ، وأن تنتصر لها في مجالات الحياة كلها ، من فكريةٍ واعتقاديةٍ ، إلى عمليةٍ وتطبيقيةٍ ، ومن خلقيةٍ واجتماعية ، إلى مدنيَّةٍ وسياسيةٍ ، وأن يكون شعار أبنائها ومتخرجيها الدائم وهدفهم الأسمى إيثار النُّبوَّة ومنهاجها على كلِّ فلسفةٍ ومنهاجٍ ، وعلى كلِّ منحىً وطريقٍ ، وعلى كلِّ أسلوبٍ من التفكير ، وعلى كل لونٍ من الحياة ، وطرازٍ من المدنيَّة ، وقسمٍ من أقسام المجتمعات البشرية .

إنَّ هذه المهمة الأساسية هي أهمُّ وأقدم من دراسة جميع العلوم والمواد التي تعنى المدارس والجامعات الإسلامية بدراستها ، والتوسع فيها ، ومن الشعارات التي تدين بها ، وتهتف ، فإنَّ المعركة الخالدة الحاسمة الحقيقية لم تزل ، ولا تزال بين الجاهلية والنُّبوَّة ـ التي يمثِّلها الإسلام في هذا الزمان ـ وكلُّ معركةٍ غيرها معركةٌ شكليةٌ أو معركةٌ داخليةٌ ، كما قد يتقاتل أفراد أسرةٍ واحدةٍ على شيءٍ تافهٍ ، أو كما قد يتصارع الأطفال لقصر نظرهم ، أما المعركة المبدئية الدائمة فهي معركة الجاهلية والنُّبوَّة .

لذاك أيضاً كان هذا الحديث أولى بأن يكون الحديث الأول في الجامعة الإسلامية ، التي تقوم في مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ظئر الإسلام ، ومأزر الإيمان ، ومهبط الوحي ، ونهاية المطاف في رحلة النُّبوَّة الطويلة وتاريخها السامي .

حاجة العصر إلى هذا الحديث :

لقد اشتدَّت الحاجة إلى هذا الحديث في كلِّ مكانٍ ، وفي كل مجتمعٍ علميٍّ ، وفي كل جامعةٍ كبيرةٍ ، اشتدَّت الحاجة إليه في جامعات أوروبا ، وفي ندواتها العلمية ، وفي هيئة الأمم ، وفي منظمة الثقافة العالمية ، فليس شقاء الإنسانية وأزمة المدنية الحاضرة ـ مع تملكها لجميع أسباب السَّعادة ،

والسلام ، والرفاهية ، والهناء ـ إلا بثورة قادتها على تعليمات النُّبوَّة والأنبياء ، وتخطيطهم للمدنية والحياة على غير الأسس التي جاء بها الأنبياء والمرسلون ، واستغنائهم ـ وبالأصحِّ استكبارهم ـ عمَّا أكرم الله به النَّبيَّ العربيَّ الأميَّ ، وقولهم بلسان حالٍ أو مقالٍ : أبشرٌ يهدوننا؟! أأمِّيٌّ جاء يعلِّمنا؟! أفقيرٌ يحاول إسعادنا؟! أبدوي يريد أن يمدِّننا؟!

ولكننا إذا عجزنا بسوء الحظ ـ أيها السادة! ـ أو لم تسمح الظروف بعد عن أن نتحدث بهذا الحديث في جامعات أوروبا ، وأمريكا ، وفي جامعات آسيا المدنية ، فلا يجوز أن نعجز عنه في الجامعة الإسلامية في المدينة المنوَّرة ، وكانت المدينة دائماً حقل النواة الكريمة ، والبلد الطيِّب الذي يخرج نباته بإذن ربه ، وتقول كلمتها فيردِّد صداها العالم .

النظر إلى النُّبوَّة والأنبياء من خلال القرآن :

لقد نظر علم الكلام أو علم التوحيد ـ وأرجو عدم المؤاخذة ـ إلى النُّبوَّة والأنبياء بنظر قاصرٍ محدودٍ ، واعتبرها عقيدةً جامدةً محدودةً لا صلة لها بالحياة إلا في دائرةٍ ضيقةٍ محدودةٍ من العقائد ، ولعلم التوحيد بعض العذر في وضعه العلميِّ المحدود ، ورسالته التعليمية الخاصة ، إذاً يجب علينا أن ننظر إلى النُّبوَّة والأنبياء من خلال القرآن ، وبمنظار القرآن ، ونستعرض كتاب الله الحكيم لنعرف مداها ، وآفاقها الواسعة ، وأعماقها الغائرة وجذورها العميقة في الحياة الإنسانية ، وسيطرتها على العقول والنفوس ، والأخلاق والميول ، وتأثيرها في تكوين السير ، وتشكيل المجتمعات ، وقيادتها للمدنيات ، بل تأسيسها لحضارةٍ خاصَّةٍ متميِّزة في كلِّ شيءٍ ، موازية للجاهلية ، مقابلةٍ لها على طول الخط .

حديثٌ أثيرٌ حبيبٌ :

إنَّنا نقرأ القرآن لهذا الغرض ، فتطالعنا قطعٌ ونماذج وصور لم يخلق الله أجمل منها في هذا الكون ، وهي أجمل ما في مجموع الصور البشرية بالإطلاق ، ونرى أسلوب القرآن في الحديث عنهم أسلوباً يتدفَّق بالحياة ، ويفيض بالبشر ، وينمُّ عن الحبِّ والإيثار ، وكأنَّه حديثٌ أثيرٌ حبيبٍ عن

أثيرٍ حبيبٍ ، فليتسع ، وليتشعب ، وليطل ، وليتنوع ، ولا يتوقف ، ولا ينقطع ، وكلُّ من رُزق الذوق السليم والشعور بالجمال وعاطفة الحب ، استلذَّ بهذا الحديث ، وتذوّق هذا الأسلوب ، اقرؤوا معي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠ ـ ١٢٣] .

واقرؤوا معي كذلك قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٣ ـ ٨٩] .

صفوة الخلق والمثل الكامل للإنسانية :

ويذكرهم القرآن تارةً بالاصطفاء ، والاجتباء ، وطوراً بالحبِّ والرِّضا ، وتارةً بأسمى الصفات والمواهب العقلية والخلقية والعملية ، كلٌّ يدلُّ على أنَّهم صفوة الخلق ، والمثل الكامل للإنسانية ، ومن ـ أقوى البشر وأجدرهم بحمل رسالات الله ، ودعوة الخلق إلى الله ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] . فيقول عن إبراهيم : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١] . ويقول : ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٥] . ويقول : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٨ ـ ١١١] . ويقول : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود : ٧٥] . ويقول عن إسماعيل :

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ [مريم: ٥٥]. ويقول عن موسى: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١]. ويقول: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٢٩]. ويقول: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]. ويقول عن داود: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]. ويقول عن ابنه سليمان: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]. وكذلك يقول عن النبي أيوب، ويذكر جماعة من الأنبياء المكرمين، فيتحدث عنهم في اختصاصٍ وإيثارٍ، وحبٍّ، وإكرام، وينعتهم بأفضل النعوت: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٧].

وقد استرسلت في هذا الحديث ـ والحديث لذيذ ـ مع معرفتي أنكم تقرؤون القرآن، وتدرسونه دراسةً علميةً، وليس ما أتلوه عليكم جديداً عليكم أو غريباً عنكم، وإنما فعلت ذلك لأستحضر لأذهانكم منزلة الأنبياء عند الله ومقامهم الرفيع الحبيب، ولهج القرآن بذكرهم، ووصفهم بأفضل الصفات، وأزكى النعوت، وأكرم الأخلاق، وأشرف السجايا، وأغنى المواهب.

تصوير النبوة والمثل الحكيم:

ما مركز النُّبوَّة والأنبياء في هذه الحياة التي تعتمد ـ في استقاء معلوماتها، وقضاء أغراضها ـ غالباً على الحواس الإنسانية، والعقل الموهوب، وتجد فيها الكفاية والغناء والأمانة والوفاء؟ وما هي ميِّزة الأنبياء بين جماعات العلماء، وطوائف العقلاء؟ ولماذا لهم الحقُّ أن يتحدثوا ـ هم وحدهم ـ عن أشياء، ويتقدَّموا بأنباء لا تتناولها الحواسُّ القويَّة، والعقول النافذة، وهم جميعاً أبناء بيئةٍ واحدةٍ، وواقفون على صعيدٍ واحدٍ؟ لماذا يرون ما لا يراه العماليق من أقرانهم، والنبغاء العبقريون من معاصريهم وجيرانهم، ثم يأتي ذلك مِثل فلق الصبح، وتتحقَّق نبوءاتُهم؟.

هذا سؤال طبيعي ساور النفوس عند كلِّ بعثةِ نبوةٍ جديدةٍ، وكان لا بدَّ

من مواجهته يوم أُكرم رسول الله ﷺ بالنبوة وأُمر بالإنذار ، وتبليغ الرسالة ، وكان الموقف الذي وقفه خاتم الرسل ﷺ من هذه المشكلة معجزةً كبيرةً من معجزاته الخالدة في الحِكمة ، والدعوة ، والحجة ، والبيان.

عاشت الأمَّة العربية ـ وسكان هذا الوادي بصفة خاصَّة ـ مدةً طويلةً بعيدةً عن المفاهيم الدقيقة ، والمصطلحات العلمية ، والبحوث اللاهوتية ، ولكنَّها فاقت وتميَّزت بسلامة فهمها ، وسرعة إدراكها ، وحبِّها وخضوعها للواقع ، وعلى ذلك اعتمد الرسول ﷺ في شرح مركز النُّبوَّة والنَّبيِّ في هذه الحياة ، وتبرير حقِّه في الإنذار والإنباء ، ومخالفة المألوف المعروف المشاهد بالعيان ، والإخبار بما لا يراه الإنسان ، فكان أبلغ من ألف دليل يستند إليه أئمة الكلام وعلماء اللاهوت.

وكانت جميع المراحل التي اجتاز بها الرسول الأعظم ﷺ ، وجميع الوسائل التي اتخذها واستخدمها في هذه المهمَّة المقدَّسة الدَّقيقة مطابقة للطبيعة والبيئة ، وهكذا الأنبياء لا يلتجئون ـ في أداء مهمتهم وتبليغ رسالتهم ـ إلى الصناعة ، والتكلُّف ، والاستعارة ، والاستيراد ، ويكوِّنون من التافه الموجود الشيء العظيم المفقود.

لم يكن ذلك عصر الصحافة والإذاعة ، وعصر آلات نشر الصوت وتضخيمه ، فما هو السبيل إلى «حصر» سكان الوادي إلى مكانٍ مخصوصٍ في زمنٍ مخصوصٍ. وما هو السبيل إلى السيطرة على عقولهم ونفوسهم حتى ينفضوا أيديهم من أشغالهم ، وملذاتهم ، ويخفّوا إلى مكانه فزعين مسرعين؟

كان الرسول عربياً يعرف عادات العرب ، وتقاليدهم وشعاراتهم وتأثيرها في نفوسهم ومجتمعهم ، فاستعان بذلك في سبيل هذه الغاية التي لا غاية أفضل منها.

اعتاد العرب إذا أحسَّ أحدٌ منهم بخطرٍ ، أو بعدوٍّ يريد أن يفاجىء ويأخذ القوم على غرَّتهم ، أو بعدوٍّ كامن قاعدٍ بالمرصاد ، قد غفل عنه أهل البلاد ، أن يرتقي أحدهم قمة جبل ، أو ربوة ، ويصرخ بأعلى صوته:

«يا صباحاه» فيفزع القوم ، ويأخذون عدَّتهم ، ويخرجون على بكرة أبيهم ، لمواجهة الخطر الداهم والعدو المهاجم .

وما هو هذا الخطر الذي كان يقلق مضاجعهم ، ويحول بينهم وبين راحاتهم ، ولذَّاتهم ، وما مدى تأثيره وضرره في حياتهم؟

عدوٌّ يقتل منهم الكثير ، وينهب أموالهم ، ويستاق إبلهم وماشيتهم ، ويلحق بهم الأضرار .

هانت هذه الأخطار والأضرار ـ على ضخامتها وواقعيتها ـ في عيون الأنبياء والرسل ، الذين عرفوا خطر الجهل لصانع هذا الكون ومدبره وصفاته الحقيقية وحقوقه ، وخطر الحياة الجاهلية التي كان يعيشها أهل ذلك العصر وسكان هذا الوادي ، وضرر المعاصي والأخلاق التي اتسم بها هذا المجتمع الجاهلي «يعبدون الأصنام ، ويأكلون الميتة ، ويأتون الفواحش ، ويقطعون الأرحام ، ويسيئون الجوار ، ويأكل القويُّ منهم الضعيف»[1] فرأى هذا العدو ، الذي يعيش في نفوسهم وفي عقائدهم وأخلاقهم ، أضرَّ وأفتك من كلِّ عدوٍّ من الخارج ، وأنَّ هذا الخطر ـ الذي نبع وانبثق من داخلهم ـ أعظم من كلِّ خطرٍ عرفوه في حياتهم الجاهلية الطويلة ، وفي مجتمعهم العربيِّ القبليِّ ، وإنَّ عداوة نفوسهم أشدُّ وأدقُّ من عداوة كلِّ قبيلةٍ منافسة ، ومن كلِّ جيشٍ محاربٍ ، وأنَّ أسلوب حياتهم يثير سخط الله القادر القاهر ؛ الذي لا يرضى لعباده الكفر ، ولا يحبُّ في الأرض الفساد .

فخرج ﷺ ، وصعد على جبل الصفا ـ وهو أقرب الجبال إليهم ـ ونادى بأعلى صوته : «يا صباحاه!» وقد شهد هذا الوادي بأنَّه كان أصدق صوت في أصدق مناسبةٍ ، وأنَّه أليق وضعٍ لهذا الإنذار البليغ ، والصيحة المفزعة .

---

(١) هذا الوصف للمجتمع الجاهلي العربي ، الذي كانت فيه بعثة رسول الله ﷺ ، مأخوذ من حديث جعفر بن أبي طالب في مجلس النجاشي ملك الحبشة (انظر سيرة ابن هشام القسم الأول ص ٣٣٦ طبع الحلبي) وفي الأصل : كنا قوماً أهل جاهليةٍ نعبد الأصنام . . إلخ .

وقد سمع أهل مكة الصيحة المعروفة المألوفة ، تخرج من فم أصدق رجلٍ عرفوه في بلدهم ، وسمَّوه «الصادق الأمين» وفهموا معناها ومطالبها ، وأمامهم سلسلةٌ طويلةٌ من التجارب والحوادث ، فلم يتأخَّروا في تلبية هذا النداء ، «فاجتمع الناس إليه بين رجلٍ يجيء إليه ، وبين رجلٍ يبعث رسوله»[١].

«فقال رسول الله ﷺ: يا بني عبد المطلب! يا بني فهر! يا بني كعب! أرأيتم لو أخبرتكم أنَّ خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟»[٢].

كان القوم الذين خاطبهم الرسول العربيُّ ﷺ ، ووجَّه إليهم هذا السؤال أمِّيِّين غير مثقفين ، لم يدرسوا الفلسفة وعلوم المنطق ، ولم يألفوا التعمق والتدقيق ، ولكنهم ـ كما قلت ـ كانوا واقعيِّين عمليِّين ، رزقهم الله النصيب الأوفر من سلامة الفهم وسرعة الإدراك ، فاستعرضوا الواقع ، واستعرضوا المحيط الذي وقف فيه هذا الخطيب النذير ، واستعرضوا وضعه الطبيعي.

رأوا رجلاً جرَّبوا عليه الصِّدق ، والأمانة ، والنصيحة ، وحبَّ الخير ، قد وقف عل جبلٍ يرى ما أمامه وهو الذي اشترك فيه مخاطبوه ، وينظر إلى ما وراء هذا الجبل ، والسفح المقابل ، فعرفوا من غير شكٍّ وتأملٍ طويلٍ ؛ أنَّ له الحق أن يتحدَّث عما في السَّفح المقابل من عدوٍّ رابض وخطرٍ كامنٍ ، وليس لهم حقٌّ ـ وقد حال الجبل بينهم وبين السفح المقابل ـ أن يكذِّبوه وينفوا رؤيته على أساس أنَّهم لا يشاركونه في هذه المشاهدة ، فقد فرَّق الجبل القائم بين وضعهم ووضع الخطيب النذير ، وأعطاه من فرصة المشاهدة وحقِّ الشَّهادة ما لم يعطهم.

وكانوا عقلاء منصفين ، شجعاناً صادقين ، فقالوا: «نعم»!

وقد نجح رسول الله ﷺ بحكمة النبوة التي خصَّه الله بها ، وبلاغته

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج/ ٣ ص/ ٣٨.

(٢) المصدر السابق.

العربية التي أكرمه الله بها. وقد صوَّر لهم مركز النُّبوَّة والأنبياء الفريد الدقيق، ووضعهم الشاذِّ الذي يستطيعون به أن يشاهدوا ما لا يشاهده أقرانهم وأبناء جنسهم وعصرهم، ويشهدوا بما لا يشهد به المصلحون والزُّعماء عادةً، فقد وقفوا على قمَّة جبلٍ من النُّبوَّة، يطلُّون منها على الجانبين: الجانب الحسِّي بحكم النُّبوَّة التي يكرمهم الله بها، والاتصال بعالم الغيب تحت الإرادة الإلهية ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

وليس لأذكى إنسانٍ، وأعظم عالمٍ، وأكبر عاقلٍ أن يكذِّبهم وينفي مشاهدتهم على أساس أنَّه لا يشاركهم في هذه المشاهدة، ولا يرى ما يرونه، كما لا يجوز لمن وقف في سفح الجبل أن يكذب من قام على قمته، وأخبر بما وراء الجبل، وتحدَّث عما وراء الأكَمة.

فإذا حاجَّهم وخاصمهم أسيرٌ لحسِّه قالوا محتجين مستغربين: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ [الأنعام: ٨٠] وكان العرب الأميُّون أعقل - في هذه المرحلة البدائية - من الفلاسفة والحكماء الذين كذبوا أخبار الرسل وشكُّوا في الحقائق التي جاؤوا بها على أساس عدم مشاهدتهم واطّلاعهم ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩].

ولمَّا تمت هذه المرحلة الطبعيَّة العقليَّة التي كان لا بدَّ منها؛ تقدَّم الرسول ﷺ خطوةً ثانيةً ودخل في المرحلة الثانية، المرحلة النهائية.

فقال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديدٍ» أنذرهم بالخطر الحقيقي الدائم الذي يهدِّدهم، والذي هو طبيعة هذه الحياة التي يَحيَونها، والعقائدِ التي يدينون بها، والأصنام التي يعكُفُون عليها، والعادات الظالمة، والأخلاق الجاهلية التي يتمسَّكون عليها، وبالاختصار هذه الجاهلية الجهلاء التي يعيشون عليها، لا إيمان، ولا علم، ولا عدل، ولا تقوى.

إنَّ طبيعة هذه الحياة هو الفساد الشامل في المجتمع، والمعيشة الضنك، والقلق النفسيُّ، والعذاب الداخليُّ في هذه الحياة ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

[الروم: ٤١] ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

والعذاب الدائم بعد هذه الحياة الذي يهون ويصغر أمامه كلُّ عذابٍ وألم ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٣٤] ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧] ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ [فصلت: ١٦].

لقد اطَّلع العلماء والفاحصون على خواصِّ الأدوية، وعرفوا كثيراً من طبائع الأشياء، والقوى المودعَة في الموجودات، وكوَّنوا العلوم والمعلومات التي انتفع بها الناس، وشكروا أصحابها، واعترفوا بفضلهم، وتفرَّد الأنبياء بمعرفة ذات الله، وصفاته، وأحكامه، ومرضاته، وبخواص العقائد، والأعمال، والأخلاق، صحيحها، وسقيمها، وصالحها، وفاسدها، وما تجرّ وتستتبع من سعادةٍ، وشقاءٍ في الدنيا، وثوابٍ، وعقابٍ، وجنةٍ، ونارٍ في الآخرة، وخصَّهم الله ـ بقدر ما يريد ـ بعلم ما يكون بعد هذه الحياة، وفي ذلك العالم من حشرٍ، ونشرٍ، وإنعامٍ، وعذابٍ، ونعيمٍ، وجحيمٍ.

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

لقد وقفوا عليهم السلام على جبل النُّبوَّة يُشرِفون منها ـ بقدر ما يريد الله ـ على عالم الغيب والشهادة، ويُخبرون بما يهجم على هذه البشريَّة، وعلى هذه المدنيَّة في المستقبل القريب والبعيد، وما يَكمُن لها من خطرٍ وضررٍ في حياتها ثمَّ يُنذرون قومهم شفقةً وإشفاقاً، وحبّاً وإخلاصاً، فإذا نازع منازعٌ هذا الحقَّ الطبيعيَّ العقليَّ، وهذه البداهةَ، وشكَّ، أو شكَّك في مركزهم؛ قالوا في نصيحةٍ، وإخلاصٍ، وتألم، وإشفاقٍ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة:

لذلك يلحُّ القرآن على أنَّ الأنبياء هم الأدلاء على ذات الله وصفاته

الحقيقية ، وهم الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة؛ التي لا يشوبها جهلٌ ولا ضلالٌ ولا سوء فهمٍ ، ولا سوء تعبيرٍ ، ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى الصحيحة إلا ما كان عن طريقهم ، لا يستقلُّ بها العقل ، ولا يغني فيها الذكاء ، ولا تكفي سلامة الفطرة ، وحدَّة الذهن ، والإغراق في القياس ، والغنى في التجارب ، وقد ذكر الله تعالى هذه الحقيقة الناصعة على لسان أهل الجنة ، وهم أهل الصدق ، وأهل التجربة ، وقد أعلنوا ذلك في مقام صدق كذلك : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف : ٤٣] وقرنوا هذا الاعتراف والتقرير بقولهم ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف : ٤٢] فدلَّ على أنَّ الرسل وبعثتهم هي التي تمكنوا بها من معرفة الله تعالى ، وعلم مرضاته ، وأحكامه ، والعمل بها؛ الذي تمكنوا به من الدخول في الجنة ، والوصول إلى دار النعيم .

وقد ختم الله تعالى سورةً جليلةً من سور القرآن ، وهي سورة الصافات ، وقد نفى فيها ضلال المشركين وسوء اعتقادهم ونسبتهم إلى الله ما هو منه بريء ، فقال في آخر السورة : ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الصافات ١٨٠ ـ ١٨٢] والآيات الثلاث حلقاتٌ متصلةٌ بعضها ببعض ، فلمَّا نزَّه الله نفسه العلية ممَّا ينسبونه به المشركون؛ ذكر المرسلين الذين جاؤوا بالتنزيه والتقديس الكاملين ، والوصف الصحيح البليغ ، وسلَّم وأثنى عليهم لأنَّهم هم أهل الفضل في تعريف الخلق بالخالق ، وفي الوصف الصحيح الصَّادق ، وكانت بعثتهم منةً على الخلق، ونعمةً على الإنسانية ، ومن مقتضيات الربوبية الرحيمة الحكيمة، فختم كلَّ ذلك بقوله : ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الصافات : ١٨٢] .

ضلال الفلسفة اليونانية وسرُّ شقائها وخيبتها :

إذاً قد ضلَّ؛ وتعب ، وجاهد في غير جهادٍ من أراد معرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة وصفاته وأسمائه الحسنى ، وما بينه وبين هذا العالم من صلةٍ ، وكيفية إحاطته به ، وقدرته عليه ، ونفوذ أحكامه فيه عن غير طريق الأنبياء والمرسلين ، واعتمد في ذلك على عقله ، وعلمه ، وذكائه وإلمامه

ببعض العلوم والصنائع، ونجاحه في بعض المحاولات العلمية، وإنتاجه الضعيف المتواضع أو العظيم الضخم في بعض مجالاتٍ علمية، وحقَّ عليهم قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦].

وهذا سرُّ ضلال الفلسفة الإغريقية الإلهية وأقطابها ونوابغها، فقد غرَّهم ذكاؤهم، وعلومهم، وآدابهم وشعرهم الخصب الغني، وملاحمهم العظيمة التي نظموها، ونبوغهم في علوم الرياضة، والهندسة، والإقليدس، والفلسفة الطبعية، والنجوم، والفلكيات، فخاضوا في الإلهيات، وفي موضوع الذات، والصفات، والخلق، والإبداع، فجاؤوا بالسخيف المرذول، وبالمتهافت المتساقط، وبالمتناقض المتضادِّ من الآراء، والأقوال، والتحكُّمات، والتخمينات؛ التي صدق حجة الإسلام الغزالي رحمه الله في وصفها بقوله:

«ظلمات فوق ظلمات، لو حكاه الإنسان عن منام رآه؛ لاستُدلّ على سوء مزاجه، أو لو أورد جنسه في الفقهيات التي قصارى المطلب فيها تخمينات؛ لقيل: إنها ترّهات، لا تفيد غلبات الظنون»(١).

وقال في موضع آخر: «لست أدري كيف يقنع المجنون من نفسه لمثل هذه الأوضاع، فضلاً عن العقلاء الذين يشقون الشعر بزعمهم في المعقولات؟»(٢).

وكذلك فإنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمة الله عليه ـ يقول معلقاً على كلام الفلاسفة والحكماء: «ليتأمل اللبيب كلام هؤلاء الذين يدَّعون من الحذق والتحقيق ما يدفعون به ما جاءت به الرسل كيف يتكلمون في غاية حكمتهم، ونهاية فلسفتهم بما يشبه كلام المجانين، ويجعلون الحقَّ المعلوم بالضرورة مردوداً، والباطل الذي يعلم بطلانه بالضرورة مقبولاً، بكلامٍ فيه تلبيسٌ وتدليسٌ»(٣).

---

(١) تهافت الفلاسفة ص/ ١٠٥.
(٢) المرجع السابق ص/ ١٢٤.
(٣) منهاج السنة ج/ ٣ ص/ ٢٧٢.

وحق عليهم قوله تعالى: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] وقوله: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

عثرة الفلسفة التي بدأت في العصر الإسلامي:

وقد تأثرت فلسفتنا الإسلامية ـ مع الأسف ـ التي نشأت لمحاربة الفلسفة اليونانية الملحدة بنفس نزعتها، وهي البحث التفصيلي في قضايا ليس عند الإنسان مبادئها ومقدماتها، وتسربت إليها هذه الروح الفلسفية العاتية التي تتعدَّى حدودها، ولا تعرف قدرها. فباءت بالتدقيق والتقشير في مسائل الذات وتأويل الأسماء والصفات، وتناولوه بالتشريح، والتجزئة، والتحليل، كأنهم في معملٍ كيماويٍّ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

انفراد الأنبياء واختصاصهم بالعلم النافع المنجي:

تكفل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وانفردوا بالعلم النافع، وبالعلم الذي لا سعادة للإنسان ولا نجاة له بغيره، وهو العلم الذي يعرف به الإنسان خالقه، وفاطر هذا الكون، ومدبِّر هذا العالم، وصفاته العالية، والصلة التي بينه وبين عبده، وموقف الإنسان في هذا العالم وموقفه من ربه، ومبدأه ومصيره، وما يرضيه تبارك وتعالى، وما يسخطه، وما يشقي الإنسان في الدار الآخرة وما يسعده، وخواصَّ عقائده، وأعماله، وأخلاقه، وجزاءها، وما يترتَّب على ما يصدر منه من قولٍ، واعتقادٍ، وعملٍ من الثواب والعقاب، والنتائج البعيدة الطويلة المدى، وهذا هو العلم الذي يستحقُّ أن يسمى «علم النجاة» والأنبياء مع سموِّ مداركهم، وصفاء حسِّهم، وكونهم على الجانب الأعلى من الذكاء والنبوغ الفطريين لا يتدخلون في العلوم السائدة في عصرهم، ولا يزعمون لهم فيها كعباً عالياً، ولا اليد الطولى.

إنما ينقطعون، ويتخصَّصون لما بعثوا له، وأمروا به، وتوقفت عليه سعادة البشرية، ويكلون هذه العلوم إلى أصحابها.

مصير الأمم المتمدنة الراقية التي استغنت عن علم الأنبياء:

وقد كانت الأمم المتمدِّنة الراقية التي بلغت أوج المدنية والذكاء والإنتاج العلمي في عصرها في حاجة إلى هذا العلم الذي يحمله الأنبياء، وينفردون به بين الخلق، حاجة الغريق إلى قارب النجاة، وحاجة المريض المشرف على الهلاك إلى الدواء الإكسير، وكان أفرادها بالنسبة إلى هذا العلم ـ مهما علا كعبهم في العلم والمدنيَّة ـ جهالاً أميِّين وفقراء مفلسين، وأطفالاً صغاراً، وكانت الأمم على خطر ـ رغم كلِّ فتوحها العلمية وازدهار المدنية ـ إذا جهلته أو رفضته، وقد وقعت أممٌ متمدِّنةٌ راقيةٌ غنيَّةٌ في العلوم والآداب التي يضرب بها المثل في الذكاء والعبقرية فريسة الإنكار والاستكبار والإعجاب بنفسها والإدلال بعلومها وصنائعها، ونظرت إلى ما جاء به نبيٌّ عصرهم بعين الازدراء والاحتقار، وزهدت فيه واستصغرته، فذهبت ضحية هذا الغرور، وهذه السفاهة المصورة بالذكاء، وقصور النظر الملقب حينئذٍ ببعد النظر والنقد العلمي، فذاقت وبال أمرها، وكان عاقبة أمرها خسراً.

مثل العلم الذي يجيء به الأنبياء مع علوم البشر وصناعاتهم:

إنَّ الفرق الواضح الَّذي بين علم الأنبياء وبين علوم العلماء والحكماء. أيها الإخوان! إنَّما يتجلَّى بوضوحٍ في قصةٍ لعلَّكم سمعتموها، ولكن لعلَّكم لم تطبقوها على هذا الفرق، ولم تستخرجوا منها هذه الحكمة الرائعة، وكم ضاعت أمثالٌ حكيمةٌ، وقصصٌ ذات مغزىً عميقٍ! وإليكم معذرتي فإنَّ القصة تتصل بطائفتكم معشر التلاميذ والطلبة.

يحكى أنَّ فريقاً من تلاميذ المدارس ركبوا سفينة للنُّزهة في البحر، أو للوصول إلى البر، وكان في النفس نشاطٌ، وفي الوقت سعةٌ، وكان الملاَّح المجدف الأمِّيُّ خير موضوعٍ للدُّعابة، والتنادر، وخير وسيلةٍ للتلهِّي

وترويح النفس، وخاطبه تلميذٌ ذكيٌّ جريءٌ، وقال: يا عم! ماذا درست من العلوم؟ قال: ولا شيء يا عزيزي! قال: أما درست العلوم الطبيعية يا عمي؟! قال: كلا، ولا سمعت بها! وتكلَّم أحد زملائه، وقال: ولكنك لا بدَّ درست علم الإقليدس، والجبر، والمقابلة! قال: وهذا أغرب، وتصدقوني إنِّي أول مرَّةٍ أسمع هذه الأسماء الهائلة الغريبة. وتكلم ثالث «شاطر» فقال: ولكني متأكد بأنك درست الجغرافية والتاريخ! فقال: وهل هما اسمان لبلدين، وعلمان لشخصين؟ وهنا لم يملك الشباب نفوسهم المرحة، وعلا صوتهم بالقهقهة، وقالوا: ما سنُّك يا عم؟! قال: أنا في الأربعين من سنِّي! قالوا: لقد ضيعت نصف عمرك يا عمنا! وسكت الملاح الأمِّيُّ على غصص ومضض، وبقي ينتظر دوره، والزمان دوار.

وهاج البحر، وماج، وارتفعت الأمواج، وبدأت السفينة تضطرب، والأمواج فاغرةٌ أفواهها لتبتلعها، واضطرب الشباب في السفينة ـ وكانت أول تجربتهم في البحر ـ وأشرفت السفينة على الغرق، وجاء دور الملاَّح الأميِّ فقال في هدوءٍ ووقار: ما هي العلوم التي درستموها يا شباب؟ وبدأ الشباب يتلون قائمةً طويلةً للعلوم والآداب التي درسوها في الكلِّية، ويتوسعون فيها في الجامعة من غير أن يفطنوا لغرض الملاح الجاهل الحكيم، ولما انتهوا من عدِّ العلوم المرعبة أسماؤها؛ قال في وقار تمزجه نشوة الانتصار: لقد درستم يا أبنائي هذه العلوم الكثيرة فهل درستم علم السباحة؟ وهل تعرفون إذا انقلبت هذه السفينة ـ لا قدر الله ـ كيف تسبحون وتصلون إلى الساحل بسلام؟ قالوا: لا والله يا عم! هو العلم الوحيد الذي فاتتنا دراسته والإلمام به، هنالك ضحك الملاح، وقال: إذا كنت قد ضيعت نصف عمري فقد أتلفتم عمركم كلَّه؛ لأنَّ هذه العلوم لا تغني عنكم في هذا الطوفان. إنَّما كان ينجدكم العلم الوحيد، هو علم السباحة الذي تجهلونه.

هذه قصَّةُ الأمم المتمدِّنة الرَّاقية التي كانت دائرة معارف، أو موسوعةً في العلوم والآداب، وكانت زعيمة العالم كلِّه في كلِّ ما أنتجه البشر، وتوصلوا إليه في العلوم والحكمة، واكتشفوا به هذا الكون الواسع والذخائر

المودعة فيه ، ولكنَّها جهلت العلم الوحيد الذي يوصل إلى الخالق ، ويعرِّف به ، والذي تنال به النجاة ، وهو برُّ السلام والساحل المقصود ، هو الذي يضبط الأعمال ، والرغبات ، ويقهر النزوات ، والشهوات ، ويصلح الأخلاق ، ويهذب النفوس ، ويردع عن الشرِّ ، ويدفع إلى الخير ، ويلهم خشية الله التي لا صلاح للمجتمع ، ولا قوام للمدنية بغيرها ، ويحمل الإنسان على التهيُّؤ للمصير ، والاستعداد للآخرة ، ويخفف من غلواء الأنانية ، وحبِّ الذات ، والتكالب على حطام الدُّنيا ، ويلهم الاقتصاد والسَّداد ، ويمنعه من الجهاد في غير جهاد .

وقد حكى الله قصَّة هذه الأمم التي غلب عليها الزهوُّ والتيه ، واستصغرت شأن الأنبياء المبعوثين في عصرها ، الذين لم يشتهروا بامتيازٍ في علوم من العلوم السائدة فقال : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غافر : ٨٣] .

لا استغنـاء ولا استكبـار بـعـد بعثـة الـرسـول :

وهذه قصَّة كلِّ أمَّةٍ بلغت شأواً بعيداً في العلم والمدنية والصناعة والحكمة بعد بعثة الرسول الأعظم ﷺ ، وقد منعها استكبارها وزهوها واعتمادها الزائد على علومها وحضارتها ، وعلى أساتذتها النوابغ وعباقرتها الكبار من الإفادة من العلم الغزير الذي جاء به محمَّدٌ رسول الله ﷺ والتمسُّك بأهدابه ، والسير في ركابه ، وقصَّة كلِّ أمَّة معاصرةٍ تمكنها الإفادة من هذا الدين الخالد ، ومن هذا النور الوضَّاء ، وستلقى هذه الأمم كلها جزاء الاستكبار ، ونتيجة هذا الإنكار أو الاستغناء في تعفن حضارتها ، وانهيار مدنيتها .

الأقطـار الإسـلاميـة والـعـربيـة فـي خطـرٍ عظيـم :

وشأن الأقطار الإسلامية والعربية في الأعراض عن هذه التعليمات ، وهذا العلم الغزير الموجود ، والزهد في الاستفادة منه ، والتهالك على الحضارة الغربية ، والقيم المادِّيَّة ، والأوضاع الجاهليَّة ، والفلسفات القوميَّة أو الاشتراكية أغرب ، وهي على خطرٍ عظيمٍ لا يدفعه شيء ،

ولا تزال معاقبةً بالفرقة ، والاختلاف ، والفوضى ، والثورات ، والتحاسد ، والتباغض ، وعدم التعاون والاتحاد ، وذهاب الرِّيح والشوكة ، والهوان على العدوِّ.

طوائف العلماء والباحثين في مدينة جديدة:

ومثل الأنبياء ومثل الطوائف الأخرى من أهل العلم والحكمة والبحث والتحقيق كمثل مدينة عامرةٍ ، زاهيةٍ منظَّمةٍ ، يدخل فيها طوائف مختلفةٌ ذات الاختصاصات والاتجاهات المختلفة ، فيدخل فيها طائفة موضوعها التاريخ ، فتبحث في تاريخ هذه المدينة القديمة ، من اختطَّها؟ ومتى قامت وعمرت؟ وما مر بها من أحداث ، وما تعاقب عليها من حكومات؟

وطائفةٌ من علماء الآثار ، فتدرس الألواح ، والحفائر ، والكتابات المستخرجة من الأنقاض وعملية الحفر ، وتعين عصورها وتهدي إلى الحضارات العتيقة المندثرة ، والمدارس الدارسة ، والعادات القديمة.

وطائفةٌ صناعتها الجغرافية ، فهي تدرس حدود هذه المدينة إلى أين تنتهي ، وموقعها الجغرافي ، والجبال المحيطة بها المطلة عليها ، والأنهار التي تخترقها ، ومن أين تنبع؟

وطائفة هوايتها الأدب والشعر ، فيستهويها جمال الطبيعة السَّاحر ، والمناظر الجميلة الفاتنة ، والنسيم العليل البليل الذي يهبُّ فيها صباحاً ، والأزهار والرياحين التي تملأ حدائقها ، فتهيج فيها الشاعرية ، وتفيض قريحتها بالشعر الرقيق الرائق ، والمعاني اللطيفة ، والأخيلة البديعة.

وطائفة من علماء الألسن والفلسفة اللغوية والقواعد تتأمل في اللغة التي يتكلم بها أهل المدينة ، فيبحثون في نشوئها ، وارتقائها ، وتطوُّرها ، وصلتها باللغات الأخرى ، ويبحثون عن الحلقات المفقودة ، ويضعون معاجم ، ويؤلفون كتباً في قواعد اللغة ، ويضبطون كتابتها.

هذه كلُّها طوائف من أهل العلم لا يستهان بقيمتها ، ولا ينقص من شأنها ، ولكلٍّ وجهةٌ هو مولِّيها ، ولكنها كلُّها على خطرٍ لو لم تعرف من الذي يحكم هذه المدينة؟ وما نظام الحكم؟ وما هي القوانين السائدة التي

يجب عليها كلها ـ على اختلاف نزعاتها ـ الرضوخ لها؟ وما هي جباية الرَّعوية ، أو التجنس بجنسية هذا البلد أو المملكة؟ وما هي الضرائب المفروضة على أهل هذه المدينة؟ وما هي قواعد المرور ، وقوانين الإقامة في هذا البلد؟ إلى غير ذلك مما يتصل بالحياة الشريفة الشَّرعية في هذا البلد المنظَّم .

مهمَّة الأنبياء في هذه المدينة :

وتدخل طائفةٌ كاملة المواهب ، صحيحة القوى ، لطيفة الحسِّ ، رقيقة الذَّوق ، لا تفقد شيئاً مما يتجمل به البشر ، ولكن همُّها غير همِّ هذه الطوائف كلِّها ، ودعوتها ، ومنهاجها غير دعوة هذه الطوائف ومنهاجها ، هي تهتدي ـ وبالأصح يهديها قيِّم هذا البلد ، ويأخذ بيدها ـ إلى مركز هذه المدينة والمدنية ، وإلى مصدر الحياة والقوة والتنظيم في هذه المملكة المنظمة ، تتَّصل به رأساً ، وتتلقى أحكامه وإشاراته ، وتبلغها إلى جميع الطوائف ، وتتوسط بين إدارة هذه المدينة وبين سكانها في التبليغ والدعوة ، ولا شك أنَّ جميع الطوائف مدينةٌ لهذه الطائفة في حياتها ، واشتغالها بعلومها ومباحثها في هدوءٍ وسلامٍ ، وإن هذه العلوم كلها تنشأ وتزدهر في كنف هذه المعرفة التي تحملها وتنشرها تلك الطائفة المقدسة ، وتعيش في حمايتها وظلِّها ، فلولا هذه المعرفة ، ولولا هذه الطائفة لوقعت الطوائف الأولى كلُّها فريسةَ الجهل ، ونقض القانون ، وألقي القبض عليها ، وزجَّت في السجون ، وتحوَّلت علومها ، وجهودها ، وإنتاجها إلى الأوهام والظنون ، أو على الأقل إلى العبث والمجون ، فإنَّ أساس جميع العلوم والاكتشافات والنظام الذي يربط هذه الوحدات هو معرفة المدبِّر والمنظِّم لهذه المدينة الواسعة ، والقطب الذي تدور حوله رحى الحياة في هذا البلد ، وهي المعرفة التي اختصَّ بها الأنبياء ، واختصت بهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام : ٧٥] .

أهم الواجبات وأقدس المهمات :

وترون الخَطب أعظم إذا عرفتم أنَّ الأمر ليس أمر الحاكم والمنظم

فقط ، إنَّ الحاكم والمنظّم لهذا البلد ـ في المثال الذي ضربناه ـ هو خالق هذا البلد الذي أخرجه من العدم إلى الوجود ، وأفاض عليه الحياة ، ورزقه كل ما يحتاج إليه ويصلحه ، وهو الرازق ، وهو الجواد ، وهو الغفور الودود ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر : ٢٢ ـ ٢٤] .

إذاً كانت معرفته بكل العقل ، ومحبته بكل القلب ، وطاعته بكلِّ الجوارح وإجهاد النفس ، وبذل الوسع في إرضائه ، والتقرُّب والتودُّد إليه أهم الواجبات ، وأقدس المهمَّات ، ومقتضى الإنسانية والمروءة ، ومطالبة العقل السليم ، والفطرة المستقيمة .

وهذا مركز النُّبوَّة والأنبياء ، ووضع رسالتهم ومهمتهم بين مراكز الطوائف البشرية ورسالاتها ومهماتها ، فهم كالروح بالنسبة إلى الجسد ، وكالعقل بالنسبة إلى العمل ، وكالعين بالنسبة إلى الإنسان ، والدنيا بغيرهم ـ بعلومها وآدابها ومدنياتها وصنائعها ـ ظلامٌ في ظلام في ظلام ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور : ٤٠] .

العامل الأساسي الأكبر في صلاح البشرية وارتقاء المدنية :

وليس الأنبياء ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ مصدر المعرفة الصحيحة وعلم اليقين فحسب ، بل هم الذين يمنحون الأجيال البشرية ثروةً أخرى كذلك ، يرجع إليها الفضل في صلاح البشرية كلِّها ، وفي ازدهار المدنية كلها ، وهي قوة كراهة الشرِّ ، وحبِّ الخير ، والتمرُّد على قوى الشر ونوازعه ، والاندفاع إلى الخير والجهاد في سبيله ، هذه القوة التي كانت العامل الأساسيَّ الأكبر في كلِّ ما قام به البشر من مآثر وبطولات ، ولم تزل الوسائل ، والموادّ ، والمؤسَّسات خاضعةً دائماً للإرادة الإنسانية ، والعزم

القويِّ. إنَّ الشأن كلَّ الشأن في أن يريد الإنسان، وإنَّ الخير كلَّ الخير في أن يريد الإنسان الخير، وكان منبع هذا الخير دائماً تلقين الأنبياء وتعليمهم، هم الذين كانوا ـ في كلِّ عصرٍ من عصور بعثتهم ـ يبعثون في أمتهم وفي جيلهم طبيعة حبِّ الخير، وكراهة الشرِّ، والانتصار للحقِّ ومحاربة الباطل والفساد، وكانت كلما ضعفت هذه الطبيعة، وتحوَّلت الطبيعة الإنسانية طبيعةً بهيميَّةً، أو سبعيةً ـ كما شاهدنا في الأمم التي قصَّ الله علينا قصتها في القرآن ـ عالجوها، وحوَّلوها إلى طبيعةٍ إنسانية كريمةٍ رقيقة، ووجد ـ بتعليمهم الفاضل، وجهادهم المتواصل، ونسيانهم أنفسهم ولذاتهم، ومجازفتهم بأرواحهم، ومهجهم، وشرفهم ـ في هذه الأنعام السائمة، والسباع الضارية، رجال تعطرت بأنفاسهم الدنيا، وتجمَّل بهم تاريخ الإنسانية، وفاقوا الملائكة في السموِّ، وعلو المدارك، وعاشت بهم الإنسانية، وقام العدل، وانتصف الضعيف من القوي، ورعى الذئاب الغنم، وانتشرت الرحمة، وفاضت المحبة، ونفقت سوق الخير، وقامت سوق الجنَّة، وهبت نسائم الإيمان، وتحرَّرت النفوس من ربقة الهوى والشهوات، وانجذبت القلوب إلى الخير انجذاب الحديد إلى المغناطيس.

بقايا النُّبوة وآثار دعوتها وجهادها:

إن المدنية لا تدين لأيِّ طائفة من طوائف البشر كما تدين لهذه الطائفة الرَّبانيَّة. إنها تدين لها في حياتها، وبقائها، وفي شرفها وكرامتها، وفي اعتدالها وسدادها، فلولاهم ـ صلى الله عليهم وسلم ـ لغرقت سفينة الإنسانية بما فيها من علوم، وتراث حضاريٍّ، وفلسفةٍ وخدمةٍ، ولتحولت الأجيال البشرية إلى قطعان من السائمة، أو الوحوش، لا تعرف ربّاً، ولا تعرف ديناً، ولا خلقاً، ولا تعرف رحمةً ولا محبَّةً، ولا تعرف معنىً أسمى وغايةً أعلى من العلف والرتع، ومن الماء والكلأ. إنَّ كل ما يوجد في هذا العالم من المعاني الإنسانية الكريمة، والأحاسيس الرقيقة اللطيفة، والأخلاق العالية الفاضلة، والعلوم الصحيحة النافعة، ومن القوة والعزم

على محاربة الباطل والفساد ، إنما يرجع فضله ، وينتهي تاريخه إلى وحي السماء ، وتعليمات الأنبياء ، وتبليغهم ، ودعوتهم ، وجهادهم ، وإلى أصحابهم ، وتابعيهم بإحسانٍ ، وما زال العالم ولا يزال يأكل من رفدهم ، ويمشي في ضوئهم ، ويعيش في البناء المحكم الذي بنوه.

* * *

المحاضرة الثّانية

سِمَاتُ النُّبُوَّة وَخصَائِصُ الأنبيَاءِ

إخواني! تحدثت إليكم في المحاضرة السابقة عن النُّبوَّة: حاجة الإنسانية إليها، وفضلها على المدنيَّة، ومهمَّتها، ورسالتها في العالم. وأحبُّ أن أتحدَّث إليكم في هذه الفرصة السَّعيدة عن طبيعة النُّبوَّة، ومزاجها الخاصِّ، وعن خصائص الأنبياء، وعمَّا يمتازون به عن قادة الفكر، وزعماء الإصلاح من طوائف البشر.

جناية الأساليب الصناعية والمصطلحات السياسية على فهم النُّبوَّة والأنبياء:

لقد طغت الأساليب الصِّناعية، والمناهج السياسية، وطرق القيادة والتنظيم الحديثة، ومناحي التربية والتعليم التي قامت، ولا تزال بدورها في تعليم الأمِّيِّين، ورفع مستوى الحياة، ومحاربة الفساد، وتحرير البلاد، وكلٌّ يذكر ويشكر، ولكنَّها استولت على العقول والنفوس، وانطبعت نفسية أصحابها، وسيرتهم، ومنابع قوَّتهم وعزائمهم، ودوافع أعمالهم، وجهادهم، وأساليب تفكيرهم، ومقاييس نجاحهم في نفوس الناس، حتى أصبحوا لا يتصوَّرون النبوة والأنبياء إلا من هذه الزاوية، ولا ينظرون إليهم إلاَّ بهذا المنظار، وقد بدأ بعض الكتاب الإسلاميين في العصر الأخير يخضعون في قليلٍ، أو كثير لهذه المفاهيم والظِّلال، ويفسِّرون دعوة الأنبياء والرسل وأعمالهم بمصطلحاتٍ سياسيَّةٍ، واجتماعيةٍ

حديثةٍ ، ممَّا يحول بين أهل العصر وبين فهم منصب النبوة على حقيقته ، أو طبيعة الأنبياء وطبيعة رسالتهم التي يكلفونها ، ومناهج عملهم ، ويمنع من الاقتداء بهم والتشبع بروحهم ، ويتَّجه بالفكر على دربٍ أقلَّ ما يقال فيه أنه غير درب الـنُّـبوَّة ، وشاكلتها.

الحاجـة إلـى دراسـة الـقـرآن الـمجـردة عـن الـتـأثيـرات الخارجيـة :

لذلك اشتدَّت الحاجة إلى دراسة القرآن في هذا الموضوع دراسةً عميقةً حرَّةً ، مجردةً عن التأثيرات الخارجية ، والثقافات الأجنبية ، مجردةً كذلك عمَّا قد تهواه قلوبنا ، وتطمح إليه نفوسنا ، وقد يكون ممَّا يستحسن ، ولا يستهجن ، وقد يكون شيئاً طبيعياً.

ولكن لا يجوز أن يخضع القرآن وتخضع سيرة الأنبياء السابقين لكلِّ ما يُستحسن ، مجرَّدة عن كل تقليدٍ وعن كلِّ تطبيق ، فالعصور تتبدَّل ، ومناهج الفكر تتبدَّل ، وقيم الأشياء ودرجاتها تتغيَّر وتتبدَّل ، وترتفع وتنخفض ، وما حدث في عصرٍ من نظريةٍ أو مصطلحٍ لا يجوز أن يسلط على عصرٍ سابقٍ ، أو جيل سابق ، فضلاً عن القرآن الذي هو كتابٌ سماويٌّ خالدٌ ، فإنه لا يخضع لفلسفةٍ فكريَّةٍ ، أو سياسيَّةٍ ، وعلوم الإنسان ونظرياته كثيبٌ مهيلٌ من رملٍ يتناثر ، وينبسط ، وينضوي ، ويمتدُّ ، لا يصلح عليه البناء ، ولا يجوز أن ينزل عليه القرآن من منزلته العالية السماوية ، ومن أساسه الحكم الأبدي.

الـفـارق الأساسـي بـيـن الأنبيـاء والمرسلين ، والحكماء والمصلحين :

إنَّ أوَّل وأهمَّ ما يمتاز به معشر الأنبياء : أنَّ العلم الذي ينشرونه بين الناس ، والعقيدة التي يدعون إليها ، والدَّعوة التي يقومون بها ؛ لا تنبع من ذكائهم ، أو حميَّتهم أو تألُّمهم بالوضع المزري الذي يعيشون فيه ، أو من شعورهم الدقيق الحسَّاس ، وقلبهم الرقيق الفيَّاض ، أو تجاربهم الواسعة الحكيمة ، لا شيء من ذلك ، إنما مصدره الوحي والرسالة التي يُصطفون لها ، ويُكرمون بها ، فلا يقاسون أبداً على الحكماء ، أو الزعماء ، أو المصلحين ، وجميع أصناف القادة الذين جرَّبتهم البشرية وتاريخ الإصلاح

والكفاح الطويل ، والذين هم نتيجة بيئتهم ، وغرس حكمتهم ، وصدى محيطهم ، وردُّ فعلٍ لما كان يجيش به مجتمعهم من فسادٍ وفوضى ، والقول الفصل في ذلك قول القرآن على لسان سيِّد الرُّسل ﷺ: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦] وقول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [القصص: ٨٦] وقوله بعد ما ذكر من بُعد الرسول عن البيئة التي حدثت فيها هذه الحوادث والوقائع التي يحكيها لقومه: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٦] ويقول القرآن عن طبيعة الرسالة التي يُختار لها الرسل ، وعن مبدئها ومصدرها ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢].

لذلك لا يخضع الرسول لعوامل نفسيَّةٍ داخليَّةٍ ، أو حوادث وقتيَّةٍ خارجيَّةٍ ، ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال والأوضاع ، وشاء المجتمع ، وقد قال الله تعالى عن رسوله الكريم: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤] ولا يستطيع أن يحدث تغييراً ، أو تبديلاً ، أو تحويراً ، أو تعديلاً في رسالته وأحكام الله ، وقد قال الله لرسوله: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس: ١٥] ونفى الله عنه المداهنة ، وعصمه عنها ، فقال: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: ٩] وقد أنذره بالعقاب الأليم المخزي؛ إذا تجنَّى على الله ، أو قال ما لم يقله ، أو زاد ، أو نقَّص شيئاً من وحيه وكلامه ، فقال: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٣ ـ ٤٧].

وقد أمره بتبليغ الرسالة بنصِّها وفَصِّها ، وبرمَّتها وجملتها ، فقال:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

وهذه هي السِّمة الفاصلة الأساسية المميزة بين الأنبياء صلوات الله عليهم وبين القادة والزعماء، والذين تكون رسالتهم، وكفاحهم وحي بيئتهم، وثقافتهم، ومشاعرهم، واستجابةً للقلق الذي يساور المجتمع، ويساور النفوس الواعية، والذين يلاحظون دائماً البيئة، والمجتمع، والظروف، والأحوال، ويراعون المصلحة، والسياسة، ويخضعون لها في كثيرٍ من الأحوال، فيتنازلون عن أشياء كثيرةٍ، وقد يتساومون الأحزاب ويتبادلون معها المنافع، ومبدأ كثيرٍ منهم الذي يأخذون به «در مع الدَّهر كيف هو دائر».

الحكمة والتيسير في دعوة الأنبياء وفي التشريع:

وليس معنى ذلك أنَّ الأنبياء لا يراعون الحكمة والمصلحة مطلقاً، ولا يراعون طبائع الناس واستعدادهم، ولا يتحرَّون لدعوتهم المكان الصالح، والزمان الصَّالح، ونشاط النفوس، وإقبال القلوب، ولا يراعون التدريج والتيسير، كلَّا! إنَّ كلَّ ذلك مما تقتضيه طبيعة الدين السمحة، وحكمة الله البليغة، وفطرة الأنبياء الحكيمة، ونطقت به الآثار، وشهدت به الحوادث، وزخر به تاريخ التشريع، وسيرة الرَّسول، وقد قال القرآن: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦] وقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢] وقد قال: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨]، وقد كان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالتيسير والتبشير، وقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن: «يسِّرا، ولا تعسِّرا، بشِّرا، ولا تنفرا»(١)، وقال لأصحابه: «إنما بُعثتم ميسِّرين

(١) صحيح البخاري ج/ ٢ ص/ ٦٢٢.

ولم تبعثوا معسِّرين»(١) ، وقد كان يرجىء تطبيق شيءٍ فيه مصلحةٌ جزئيةٌ لأجل مصلحةٍ كلِّيَّة ، هي أعظم ، وأهمُّ منها ، فقال لعائشة رضي الله عنها : «لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ، ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه السلام»(٢) وقال ابن مسعودٍ رضي الله عنه : «كان النبي ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام كراهة السَّآمة علينا»(٣) وعن جابر بن عبد الله : «كان معاذ بن جبل يصلِّي مع النبي ﷺ ثم يرجع فيؤمُّ قومه ، فصلى العشاء فقرأ البقرة ، فانصرف رجلٌ ، فكان معاذ ينال منه ، فبلغ النَّبيّ ﷺ ، فقال : فتانٌ ، فتانٌ ، ثلاث مرار»(٤) وعن ابن مسعود قال : قال رجل : يا رسول الله! إنِّي لأتاخر عن الصَّلاة في الفجر مما يطيل بنا فلان فيها ، فغضب رسول الله ﷺ ، ما رأيته غضب في موعظةٍ كان أشدَّ غضباً منه يومئذٍ ، ثم قال : «يا أيها الناس إن منكم منفِّرين ، فمن أمّ منكم الناس فليتجوز ، فإن خلفه الضعيف ، والكبير ، وذا الحاجة»(٥) والنصوص في ذلك ، والشواهد أكثر من أن تحصى(٦) ، وهذا كلُّه مستفيضٌ متواترٌ من سيرته ﷺ ، مفروضٌ في سيرة الأنبياء السابقين للحكمة التي وصفهم الله بها : ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص : ٢٠] ، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام : ٨٩].

ولكن كلُّ هذا التيسير والتدريج ، ومراعاة الحكمة والمصلحة والنظر إلى استعداد النفوس ، إنما هو في التعليم والتربية ، وفي المسائل الجزئية ، وممَّا ليس من العقائد ومبادىء الدين في شيءٍ ، أمَّا ما كان من العقائد ، والمبادىء ، والفرائض ، والنصوص ، وما يفرق بين الإيمان

---

(١) صحيح البخاري ج/ ١ ص/ ٣٥.
(٢) صحيح البخاري ج/ ١ ص/ ٢١٥.
(٣) صحيح البخاري.
(٤) صحيح البخاري.
(٥) صحيح البخاري.
(٦) اقرأ الفصل النفيس «باب التيسير» في «حجة الله البالغة». للإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي.

والكفر ، والتوحيد والشرك ، وكان من شعائر الإسلام وحدود الله؛ فالأنبياءُ عليهم السلام ، على اختلاف عصورهم ، أصلبُ فيه من الحديد ، وأثبتُ عليه من الجبال ، لا يعرفون تنازلاً ، ولا يعرفون هوادةً ، ولا يرضون مساومةً .

إخلاص الدِّين لله ، وإفرادُ العبادة له:

والسِّمة الثانية : هي أنَّ الأنبياء عليهم السلام كان أول دعوتهم ، وأكبر هدفهم في كلِّ زمانٍ ، وفي كلِّ بيئةٍ هو تصحيح العقيدة في الله تعالى ، وتصحيح الصِّلة بين العبد وربِّه ، والدعوة إلى إخلاص الدِّين وإفراد العبادة للهٰ وحده ، وأنَّه النافع الضارُّ المستحقُّ للعبادة والدُّعاء والالتجاءِ والنسكِ وحده ، وكانت حملتهم مركزةً موجَّهةً إلى الوثنية القائمة في عصورهم ، الممثلة بصورةٍ واضحةٍ في عبادة الأوثان ، والأصنام ، والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات؛ الذين كان يعتقد أهل الجاهلية «أن الله قد خلع عليهم لباس الشرف ، والتألُّه ، وجعلهم متصرفين في بعض الأمور الخاصَّة ، ويقبل شفاعتهم فيهم بالإطلاق ، بمنزلة ملك الملوك يبعث على كلِّ قطرٍ ملكاً ، ويقلِّده تدبير تلك المملكة فيما عدا الأمور العظام»[1] .

وكلُّ من له صلةٌ بالقرآن ـ وهو الكتاب المهيمن على الكتب السالفة ـ يعرف اضطراراً وبداهةً أنَّ القضاء على هذه الوثنية ، والإنكار عليها ، ومحاربتها وإنقاذ الناس من براثنها كان هدف النبوة الأساسي ، ومقصد بعثة الأنبياء ، وأساس دعوتهم ، ومنتهى أعمالهم ، وغاية جهادهم ، وقطب الرحى في حياتهم ودعوتهم ، حولها يدندنون ، ومنها يصدرون ، وإليها يرجعون ، ومنها يبدؤون ، وإليها ينتهون ، والقرآن تارةً يقول بالإجمال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، وتارةً يقول بالتفصيل ، فيسمِّي نبيّاً نبيّاً ، ويذكر أنَّ افتتاح دعوته كان بهذه الدعوة إلى التوحيد فقال: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ

---

(١) التعبير منقول من «حجة الله البالغة».

نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٦] ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [هود: ٥٠] ، ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١] ، ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ [هود: ٨٤].

وأما إبراهيم فدعوته إلى توحيد الألوهية ، ونبذ الأصنام ، والأوثان أوضح ، وأصرح ، ففي سورة الأنبياء : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٥٤] ، وفي سورة الشعراء : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٨٢] ، وفي سورة مريم : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٢] ، وفي سورة العنكبوت : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٦ ـ ١٧] وفيها ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وكذلك يوسف فقد جاء في القرآن في موعظته البليغة الحكيمة في السجن: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] [يوسف: ٣٧ ـ ٤٠] وقد كانت هذه دعوة موسى لفرعون الذي كان يدَّعي أنَّه مظهر للشمس «الإله الأكبر» عند قدماء المصريين، فيقول: «أنا ربكم الأعلى» وقد قال حين سمع دعوة موسى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وقد سمَّى القرآن عبادة الأوثان الشرك الأكبر، والرجس، وقول الزور، وشنَّع عليه التشنيع الأعظم، فقال في سورة الحج: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣٠ ـ ٣١].

الجاهلية الخالدة العالمية وجنايتها على البشر:

إنَّ هذه الوثنية والشِّرك بمعنى التألُّه لغير الله، وغاية التذلل له،

---

(١) كلمة أسماء تدلُّ على أنَّ معبوداتهم كانت أشخاصاً مقدَّسةً موهومة، إمَّا لا وجود لها أصلاً كما يوجد في نظام الشرك وعقائد المشركين كثيراً، وإمَّا كان لها أصلٌ ووجودٌ، ولكن ليس لها من الألوهية والربوبية نصيب، وكذلك قال هود لقومه: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [الأعراف: ٧١] وذكر «أسماء» دليل صريح على أن المعبودات كانت آلهة خيالية أو أصناماً بأسماء الماضين.

والسجود ، والدعاء ، والاستغاثة ، والنذر ، والذبح له ، هي الجاهلية العالمية؛ التي هي أقدم أدواء البشر ، ومواضع ضعفه ، وسقطته ، وهي باقيةٌ مع البشر في جميع مراحل حياته ، وتطوراتها ، وهي التي تثير غضب الله وغيرته ، وتحول بين العبد وتقدُّمه الرُّوحيُّ ، والخلقيُّ ، والمدنيُّ ، وتُهبطه من أعلى الدرجات إلى أسفل الدركات ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤ ـ ٥] ، تهبطه من درجة مسجود للملائكة إلى درجة ساجد ، الضعيف من المخلوقات ، والخسيس من الموجودات. إنها هي الجاهلية التي تخنق القوى ، وتقتل المواهب ، وتقضي على الاعتماد على الله ، والاعتداد بالنفس والثقة بها ، وتصرف الإنسان عن الالتجاء إلى الله السميع البصير ، العليم القدير ، الجواد الوهاب ، الغفور الودود ، والاستفادة من صفاته التي لا تحدُّ ، وخزائنه التي لا تنفد إلى الالتجاء إلى الضعيف الفقير ، العاجز الحقير ، الذي لا يملك شيئاً: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٣ ـ ١٥].

فهم الصحابة والعرب الأولين لكلمات القرآن ومصطلحاته:

هذه الوثنية (في دائرة ما بعد الطبيعة) بجميع أشكالها الواضحة والدقيقة كانت موضوع جهاد الأنبياء في كلِّ عصورهم ، وفي جميع بيئاتهم ، ومجتمعاتهم ، وهو الذي أثار غضب أهل الجاهلية ، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ﴾ [ص: ٥ ـ ٧] ، وممَّا لا يَشكُّ فيه عاقل دَرَسَ تاريخ العصر النبوي واطَّلع أخبار صحابة الرسول ﷺ: أنَّ الصحابة لم يكونوا يفهمون من هذا الآيات التي سردناها إلا هذه الوثنية السَّافرة ، وعبادة الأصنام ، والأوثان ، وتقديس الأشخاص

الماضين ، أو الموجودين ، والسجود لهم ، والدُّعاء منهم ، والذَّبح والنذر لهم ، والحلف بأسمائهم ، والتقرُّب إلى الله بعبادتهم ، والاعتماد على شفاعتهم المطلقة التي لا تردُّ ، وطلب النفع والضرِّ ، وكشف الكربة منهم ، ولا يفهمون من معنى الإله ، والرَّبِّ ، والعبادة ، والدين ، إلا هذه المفاهيم الدِّينيَّة ، وهذا هو المستفيض المتواتر من آثارهم وأخبارهم ومناهج كلامهم لا يختلف فيه اثنان .

ما يجب أن يكون الركن الأساسيَّ في الدعوات الدِّينية وشعار الدُّعاة في جميع العصور :

ولا يزال هذا هو الرُّكن الأساسيُّ في الدعوات الدِّينية وحركات الإصلاح إلى يوم القيامة ، وهو تراث النُّبوَّة الخالدة ، ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨]. وشعار جميع الدعاة إلى الله ، وجميع المصلحين المجاهدين .

أمَّا مظاهر الجاهلية الأخرى ، كالطَّاعة لغير الله ، والتحاكم إلى غير الله ، وقبول التشريع غير الإلهي ، وتسليم حكومةٍ لا تقوم على النيابة عن الله ، وعلى أحكامه ، فكلُّ ذلك يتبع هذه الوثنية والشرك ، ويأتي بعده ، ولا يجوز أن يقلل من شأن هذا الشرك الجليِّ المتقدِّم ذكره وأهميته ، وأن يوضع في الهامش من منهاج دعوةٍ أو جهادٍ ، أو يساوى بينه وبين معاني الطاعة والحكم السياسية ، ويحكم عليها حكماً واحداً ، أو يعتقد أنَّه من خصائص الجاهلية القديمة المحدودة المتخلِّفة التي ولى عصرها ، وانقضى دورها ، فإنَّ هذه إساءةٌ إلى دعوة الأنبياء وجهودهم ، وشكٌّ في خلود القرآن ، وأنَّه هو الكتاب الأخير الدائم ، وشكٌّ في أنَّ منهاج النبوة هو المنهاج الصحيح الذي ارتضاه الله تعالى ، والذي كتب له من النجاح والتوفيق والإنتاج والإثمار ما لم يكتب لأيِّ منهاجٍ من مناهج الإصلاح .

وصية للشباب والدعاة والكتاب :

أيها الشباب الأعزاء ، ستتخرجون من هذه الجامعة دعاةً مصلحين ، وكتّاباً مؤلفين ، وقادةً موجهين ، فأريد أن أوصيكم وصيةً هي عصارة

تجارب ودراساتٍ طويلةٍ ، ولا تعرفون قيمتها وأهميتها إلا بعد التجربة الطويلة: إيَّاكم أن تعطي كتاباتُكم وعرضُكم للإسلام وحقائقه ومبادئه فكرة أنَّ المسلمين ظلُّوا هذه القرون الطوال في جهلٍ متَّصلٍ عن فهم هذا الدين الذي هو دين كلِّ عصر وجيل ، وعن فهم القرآن ومصطلحاته وتعبيراته الأساسية[١] ، لأن ذلك يثبت أن هذا الكتاب بقي هذه المدَّة الطويلة

(١) قد جاء في بعض الكتب التي نالت حظوةً وقبولاً عند كثيرٍ من المثقفين ، وعددٍ من العلماء والمفكرين ، لبعض كبار الكتاب الإسلاميين ودعاة الإسلام في هذا العصر ، ما يفهم منه أنه قد خفي على الناس معظم تعاليم القرآن ، بل غابت عنهم روحه السامية ، وفكرته المركزية لمجرد ما غشي بعض المصطلحات القرآنية الأساسية (أمثال: الإله ، والرب ، والدين ، والعبادة) من حجب الجهل ، ويردون تاريخ هذا الخفاء والغموض إلى عصورٍ قديمةٍ في التاريخ الإسلامي ، وقد تورطت فيه الأمة بشكلٍ عامٍّ في القرون التي تلت ذلك العصر الزاهر ، فجعلت تتبدل المعاني الأصلية الصحيحة لجميع تلك الكلمات ، وتلك المعاني التي كانت شائعة بين القوم عصر نزول القرآن ، حتى أخذت تضيق كلُّ كلمة من تلكم الكلمات الأربع عما كانت تتسع له ، وتحيط به من قبل ، وعادت منحصرةً في معانٍ ضيِّقةٍ محدودةٍ ومخصوصةٍ بمدلولاتٍ غامضةٍ مشتبهة.

ولا يبعد أن يفهم منه القارىء الذي لم يتعمق في العلم ، ولم يقوَ إيمانه بحفظ هذا الكتاب الخالد ـ بجميع معاني الكلمة ـ وصيانة هذه الأمة عن الضلال العام ، والجهالة المطبقة أنَّ القرآن قد بقي هذه المدة الطويلة ملتبساً على الأمة ، أو على أكثر أفرادها ، ومضت على ذلك قرونٌ وأجيالٌ ولم تتبين الأمة حقيقة الكلمات التي يدور عليها هذا الكتاب ، وتقوم عليها تعاليمه ودعوته إلا في العصر الأخير حين قيض الله لفهمها ورفع اللثام عنها بعض الكتاب الإسلاميين.

وهذا الفهم وإن بدا أمراً غير ذي خطر ، ولكنه عميق الجذور بعيد العواقب في التفكير الإسلامي ، لأنه يشكك في صلاحية هذه الأمة ومركزها القيادي والدعوي ، وفي فهم هذه الأمة لهذا الكتاب والعمل به في تاريخها الطويل ، فإنَّ الكتاب الذي لم يفهم حقَّ الفهم في أطول مدَّةٍ وأخصبها علماً وعملاً وكفاحاً يشك في إبانته ووضوحه وإفادته ، ويشك في كلِّ ما يقال عنه ، ويفسر به في هذا العصر ، ويفتح الباب للتوسع في تأويله ـ كما فعلت الباطنية في مختلف أشكالها ـ من غير أن يقوم ذلك على تلقي هذه الأمة لهذا الدين ومفاهيمه ، والتوارث في فهمه ، فضلاً عن أنه ينافي وصف الله تعالى لهذا الكتاب بالإبانة والوضوح في غير ما موضع من القرآن ، فقال: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ =

لا يفهم على حقيقته ، وأنه بقي مطوياً على غرته ، وانقطعت الاستفادة منه بعد نزوله بمدَّةٍ قصيرة ، وهذا لا شك يناقض قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] والوعد بالحفظ في موضع الامتنان يستوجب الفهم والشرح والعمل والتطبيق ، فلا خير في كتاب يبقى ، ولايُفهم ، ولا يعمل به ، وقد قال لرسوله : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٧ ـ ١٩]. وهذا الأسلوب من التفكير الذي قد يتجه إليه بعض الكتاب والمفكرين في هذا العصر يرمي هذه الأمَّة الخالدة الولود بالعقم والجدب الفكريِّ الدائم. والشجرةُ التي بقيت أفضل مدة حياتها لا تعطي ثمارها غيرُ جديرة بالاعتماد والاعتناء ، ولا يرجى منها الخير.

وذلك لا شك نتيجة ما نالته المعاني السياسية ، والمؤسسات السياسية ، والتنظيمات في عصرنا من الأهمِّيَّة بتأثير النظم الحديثة ، والثقافات الحديثة(١) ، وكلُّ من يسعى لمجد المسلمين ويطمح إلى سؤددهم وصلاح أحوالهم ، ويريد أن يسود النظام الإسلاميُّ ، ويقوم الحكم الإسلاميُّ في جميع أقطار المسلمين ؛ قد يقع في هذا التفريط والإفراط ، ولا شك أنَّها غاياتٌ ساميةٌ يجب أن يجنِّد لها المسلمون ،

= ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : ١ ـ ٢] وقال : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥] وقال : ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١].

(١) وكان من تأثير المؤسسات السياسية والتفكير السياسي المستولي على العقول والتعبير في هذا العصر استيلاءً عظيماً ، أن بدأ بعض الدعاة الإسلاميين والكتاب المرموقين يؤثرون في كتاباتهم المصطلحات السياسية التي اقترنت بها مفاهيم خاصَّة وانطباعات لا تنفك عنها ، وزيادةً على ذلك : إنها تعبيراتٌ محدودةٌ قاصرةٌ لا تفي بالغرض ، ولا تعبر عن دعوة الأنبياء في أمانةٍ وبلاغةٍ ، كـ «الانقلاب» و«الثورة» و«الديمقراطية» و«الاشتراكية» و«النظام» فكلُّ مفهومٍ قد نشأ وكمل في ظروفٍ خاصَّة ، وتحت عوامل خاصة ، وكان التعبير الذي نطق به القرآن وجرى على لسان الشرع والدين أولى بالإيثار ، وأبعد عن سوء الفهم ، وطبع الدين بطابعٍ خاصٍّ.

والـدعـاة ، والمفكـرون منهـم بصفـة خـاصَّـة مـواهبهـم ، وطـاقـاتهـم ، وأقلامهم ، ولكن يجب عليها كذلك ألاَّ يخضعوا القرآن لهذه الغاية ، والنصوص الداعية إلى هذه الغايات ، الحاثَّة عليها ، الموجبة لها ، وافرةً كثيرة لا يحتاج معها إلى هذا التأويل.

عقيـدة الآخـرة والاهتمـام بـهـا فـي سيـرة الأنـبيـاء ودعـوتهـم :

والسمة الثالثة من سمات النبوة وملامح دعوتهم وشعائرها : هو التشديد على جانب الآخرة ، واللهج بها ، والإشادة بذكرها ، والتنويه بشأنها تنويهاً يجعلها من النقط الأساسية في دعوتهم ، ويشعر كل من يعيش في أخبارهم وأحاديثهم ، ويتذوَّق كلامهم أنَّ الآخرة دائماً نصب أعينهم ، لا تزال ماثلةً أمامهم بنعيمها ، وجحيمها ، وسعادتها ، وشقائها ، فهم إلى الجنة في حنينٍ شديدٍ ، ومن جهنم في فزعٍ كبيرٍ ، وهو شيءٌ طبيعيٌّ قد ملك عليهم مشاعرهم ، واستولى على فكرهم ، وحسبنا أن نقرأ ما حكاه القرآن من قول إبراهيم وقد جاشت نفسه ، وفاضت عواطفه حين ذكر الآخرة ، وتمثل هولها وفزعها : ﴿وَالَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٣ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٨٤ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨٥ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٨٦ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ۝٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ۝٨٩ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ [الشعراء : ٨٢ ـ ٩١].

وكذلك ينظر إليها يوسف العزيز وهو في أوج أبَّهته وسيادته ، له الكلمة النافذة والأمر المطاع في مصر ، أرقى مملكةٍ وأخصب بلادٍ في ذلك العصر ، وقد أقرَّ الله عينه من أبيه الكبير وأسرته العزيزة ، وأقرَّ عينهم بما رأوه من إقبال الدنيا على يوسف ، وقد كان في ذلك ما يرضي الطموح ، ويزهي عالي الهمَّة بعيد النظر ، ولكن فكرة الآخرة وحسن الختام هي التي تسيطر على يوسف وتجعله لا يحسب لهذه العظمة حساباً كبيراً ، فيقول شاكراً داعياً ، راضياً وَجِلاً : ﴿ ۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ

ﱡﭐ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

الحافز الحقيقي إلى الدعوة وبذل النصح:

والإيمان بالآخرة وتمثُّل ما فيها من سعادةٍ دائمةٍ وشقاءٍ دائم، وما أعدَّ الله فيها لعباده المؤمنين المطيعين من جزاءٍ، وللكفار العصاة من عقابٍ، هو الحافز الحقيقي إلى دعوتهم، وبذل نصحهم، وهو الذي يقلقهم، ويطير نومهم، ويكدر صفو عيشهم، ويجعلهم لا يهدأ لهم بال، ولا يقرُّ لهم قرار، وهو حافزٌ أقوى وأعظم سلطاناً على نفوسهم مما يشاهدونه من اختلال النظام، واضطراب الأحوال، وما يشعرون به من اختلال النظام، واضطراب الأحوال، وما يشعرون به من الأخطار المحيطة بهذا المجتمع إذا انتشر فيه الفساد، ويجعلون ذلك موجباً لدعوتهم وإنذارهم، وسبباً لقلقهم وإشفاقهم، فيقول القرآن عن نوح ـ وهو أول رسولٍ يذكره القرآن بتفصيل ـ: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٦] ويقول عن هود ـ وهو من أقدم الأنبياء، وقد بعث في قوم تهيَّأت لهم أسباب العيش، وتوسَّعت لهم الدنيا، وطابت لهم الحياة ـ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ [الشعراء: ١٣٢ ـ ١٣٥]، ويقول عن شعيب ـ وقد بعث في قوم لان لهم العيش، وانتشر في أرضهم الخصب ـ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ [هود: ٨٣].

سيطرة هذه العقيدة على أتباع الرسل:

وقد تعدَّت هذه الفكرة ـ بقوة تأثيرهم ـ إلى أتباعهم والمؤمنين بهم، وتجلَّى لهم قصر مدى الحياة وتفاهتها، وعظمة الحياة الآخرة وخلودها، وأنَّها الجد الذي يجاهد في سبيله المجاهدون، ويسعى له العاملون، ويتنافس فيه المتنافسون، فقال مؤمن آل فرعون: ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ

عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٣٩ ـ ٤٠]، وقال سحرة فرعون بعد لحظة من إيمانهم بموسى، لما أوعدهم فرعون بالعذاب الأليم، وما أدراكم به؟ تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، والتصليب في جذوع النخل: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٢ ـ ٧٦].

مناط الأمر الثواب والجزاء في الآخرة:

والأنبياء يبعدون كلَّ البعد عن أن يطمعوا أمتهم في ملكٍ، أو سيادةٍ، أو منفعةٍ دنيويةٍ، ويجعلونه ثمناً لإيمانهم، أو مكافأةً لقبول دعوتهم، بل بالعكس من ذلك ينكرون على حبِّ العلوِّ والاستعلاء والاستيلاء على الناس بدافع حبِّ الجاه، والطموح الفرديِّ أو القوميِّ، وقد جاء في القرآن: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، إنَّما يطمعونهم في رحمة الله، ويخوِّفونهم من عذاب الله، ويجعلون مناط الأمر الثواب والجزاء في الآخرة، إنما يذكرون أنَّ هذا الإيمان والطَّاعة والاستغفار يجلب رحمة الله، ويستدرُّ الرزق، وينزل الأمطار، ويدفع ما هم فيه من جدبٍ وضيقٍ، فيقول نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢]، ويقول هود: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، وهذه طبيعة الإيمان والاستغفار وسجيتها التي لا تتخلَّف عنهما كطبائع الأشياء وخواصِّ الأدوية ونواميس الفطرة.

سيرة الأنبياء وأصحابهم في الزُّهد وإيثار الآخرة على الدنيا:

ولم تكن دعوة الرسل إلى الآخرة وإيثارها على الدُّنيا والاستهانة بقيمة

الدُّنيا ومتاعها دعوةً باللسان فقط ، ودعوةً لأمتهم فقط ، بل كان ذلك مبدأ ومنهاجاً لحياتهم ، وكانوا من أول المؤمنين بها ، السَّائرين عليها في حياتهم ، وخواصِّهم ، وعشيرتهم ، وقد قال شعيب معبراً عن جماعته كلِّها: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] ، فكانوا زاهدين في الدنيا مقبلين على الآخرة ، قد زهدوا في المناصب الكبيرة ، والمراكز الخطيرة ، وضحّوا بها في سبيل دعوتهم ، وفوَّتوا الفرص ، وكان أكثرهم من الذين لهم مستقبلٌ زاهرٌ في الحياة والغد المضمون ، وكانوا من «اللامعين» في المجتمع بذكائهم ، ونبوغهم ، وشرف أسرتهم ، وصلاتهم بالبلاط ، أو الأسرة الحاكمة ، وعن ذلك عبر قوم صالح؛ إذ قالوا: ﴿يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ﴾ [هود: ٦٢] ، وبذلك أخذوا أهل بيتهم وأسرتهم ، وقد قيل لسيد الرسل ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩] ، وكان من تأثير صحبته أنَّ أزواجه رضي الله عنهنَّ كلَّهن آثرن الله ورسوله ، وآثرن الفقر والضيق مع الرسول على الرَّخاء وخفض العيش مع غيره.

ومعيشة النبي ﷺ وحياته وحياة أهل بيته معروفةٌ في التاريخ ، معروفةٌ في السيرة النبوية ، تثير العجب ، وتسحر النفوس ، وتملأ القلوب عظمةً ومهابةٌ ، وتنصب للدعاة والسائرين على منهاج النبوة مناراً عالياً من نور ، وكان شعارها الدائم: «اللهم لا عيش إلاَّ عيش الآخرة»(١) ودعاؤها المقبول: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»(٢).

الفـرق بـيـن منهـج الـدعـوات الـنـبـويـة وبيـن الـدعـوات الإصلاحيـة:

ولم تكن دعوة الأنبياء إلى الإيمان بالآخرة ، أو الإشادة بها كضرورةٍ خلقيَّةٍ ، أو كحاجةٍ إصلاحيَّةٍ ، لا يقوم بغيرها مجتمعٌ فاضلٌ ومدنيَّةٌ

---

(١) صحيح البخاري.
(٢) صحيح البخاري.

صالحةٌ ، فضلاً عن المجتمع الإسلامي ، وهذا وإن كان يستحقُّ التقدير والإعجاب ، ولكنَّه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم ، ومنهج خلفائهم اختلافاً واضحاً ، والفرق بينهما : أن الأول ـ منهج الأنبياء ـ إيمانٌ ووجدان ، وشعور وعاطفة ، وعقيدة تملك على الإنسان مشاعره ، وتفكيره ، وتصرفاته ، والثاني : اعترافٌ وتقريرٌ ، وقانونٌ مرسومٌ ، وأنَّ الأوَّلين يتكلَّمون (عن الآخرة) باندفاع ، والتذاذٍ ، ويدعون إليها بحماسة وقوَّة ، وآخرون يتكلَّمون عنها بقدر الضرورة الخلقية ، والحاجة الاجتماعية ، وبدافعٍ من الإصلاح والتنظيم الخلقي ، وشتَّان ما بين الوجدان والعاطفة ، وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية[1] .

مطالبةٌ بالإيمان بالغيب :

ومن سمات دعوة الأنبياء وصحفهم ، ومن ملامحها البارزة أنها تشدِّد على الإيمان بالغيب[2] ، وتجعله شرطاً أساسيّاً للهداية ، والانتفاع بالدين ، وشعاراً للمهتدين ، وعلامة للمتقين ، فقال : ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة : ١ ـ ٥] ، وتطالب به في قوَّةٍ وشدَّة ، وتطلب من الذين يؤمنون بالله ويدخلون في الإسلام ، ـ هو دين جميع الأنبياء ـ أن يصدقوا بصفات الله العليَّة ، وقدرته الواسعة ، وأفعاله العجيبة التي تتحدَّى العقل الضعيف ، والعلم المحدود والتجارب القاصرة أحياناً ، ويصدِّقوا بكلِّ ما جاء عن الرسل وحده ، وصدقهم فيما يروونه وينسبونه إلى الله ، ولم يصدقه

---

(١) انظر كتاب العلامة الندوي «تأمُّلات في سورة الكهف» طبع دار القلم بدمشق .

(٢) قال العلامة أبو السعود في تفسيره : الغيب هو ما غاب عن الحسِّ والعقل غيبة كاملةً ، بحيث لا يدرك بواحد منها ابتداءً بطريق البداهة ، وهو قسمان : قسم لا دليل عليه ، وهو الذي أريد بقوله سبحانه وتعالى : ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام : ٥٩] وقسم نصب عليه دليل ، كالصانع وصفاته ، والنبوات وما يتعلق بها من الأحكام والشرائع ، واليوم الآخر وأحواله من البعث والنشور والحساب والجزاء .

الحسُّ ، ولم تألفه العقول؛ اعتماداً على أخبار الرسل وحده ، وصدقهم فيما يروونه وينسبونه إلى الله ، واعتماداً على أنَّ الله على كلِّ شيء قديرٌ ، يخلق ما يشاء ، ويفعل ما يشاء ، وهو الخلَّاق المبدع ، فعَّالٌ لما يريد ، لا يحتاج إلى الأسباب التي هو خلقها ، ولا يتقيد بسننه التي هو سنَّها ، لقد خلق الأسباب ، وسنَّ السنن ، ولكنه لا يزال خالقها ، ومالكها ، والمتصرف فيها ، والحاكم عليها ، وإنَّه لم يفلت منه زمامها ، وهي لم تستقلَّ بوجودها وإرادتها ، ولم يتوقف أمره على مقدمات ووسائل ، ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل : ٤٠].

وقد زخرت الكتب السماوية ، وزخر القرآن الكريم بعجائب صنع الله ، وبالمعجزات والخوارق الَّتي لا يصدِّقها ، ولا يسيغها ، ولا يحتملها إلا الإيمان بالغيب ، الإيمان بقدرة الله المطلقة ومشيئة الله القاهرة ، والاعتماد الكامل على صحة هذه الكتب ، وصدق الرسل الذين نزلت عليهم وأخبروا بها ، أما الإيمان الذي لم يقم إلا على الحسِّ والتجربة ، والمألوف من الحوادث ، ومطابقة العقل الظاهر ، والعلم المدوَّن في الكتب ، فإنَّه إمَّا يرفض أن يقبله ويصدِّق به ، أو يتعثَّر ، ويتلجلج في قبوله ، والتصديق به ، أو يؤوله تأويلاً يتَّفق مع ما ألفه ، ولذلك قال : ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل : ٦٦] ، وقد ذكر القرآن الفرق بين الفريقين ، فريقٍ أكرمه الله بالإيمان الكامل وشرح صدره للإسلام ، وفريقٍ ضاق عقله وصدره عن كثير مما جاء من الله ، وصوَّر هذا الفرق تصويراً دقيقاً ، فقال : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام : ١٢٥].

وقد ذكر القرآن من صفات الله تعالى وأفعاله ما لا يُقبل ولا يُصدَّق إلا بالإيمان بالغيب ، ومن الوقائع والحوادث وآلاء الله وأيامه ، وأخبار الرسل وما أجري على أيديهم من المعجزات ، وما أظهر لهم من الآيات ، ما لا يطيقه ، ولا يسيغه إلا الإيمان بالغيب ، وما لا يقبل التعليل العقليَّ ، ولا التطبيق بنواميس الطبيعة إلا بتكلُّفٍ شديدٍ مضحكٍ ، وخروجٍ على

قوانين اللغة العربية ، وجراءةٍ على الله ، وتجنٍّ على اللغة وأبنائها ، ووقاحةٍ شديدةٍ[١] كانفلاق البحر لموسى وقومه ، وانفجار اثنتي عشرة عيناً من الحجر بضرب موسى ، وارتفاع الجبل كالظُّلَّة على طائفةٍ من بني إسرائيل ، وحياتها بعد موتها ، ومسح فِرَقٍ منهم قردةً خاسئين ، وحياة المقتول الذي جهل قاتله بضرب جزء من البقرة المذبوحة ، وتحوُّل النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، ومنطق الطير الذي علمه سليمان ، وفهمه لحديث النمل ، ومطاوعة الرِّياح له ، وسيرها به غدوُّها شهرٌ ، ورواحها شهرٌ ، وانتقال عرش ملكة سبأ في طرفة عين ، وقصة ذي النون ، وخروجه من بطن الحوت ، وولادة عيسى الخارقة للعادة ، وهلاك أصحاب الفيل بحجارةٍ من سجيل ، وإسراء الرسول من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى[٢] ومنه إلى السماء ، إلى غير ذلك ممَّا زخر به القرآن والصحف السماوية ، ولا يقبله إلا الإيمان بالغيب ، الإيمان الذي آمن بالله الذي وسعت قدرته كلَّ شيء .

ذلك لأن الإيمان الذي يقوم على الحسِّ والتجربة ، ويسير مع المألوف المعروف ، ويتقيَّد بالسنن الكونية والنواميس الطبيعية ، والحوادث التاريخيَّة؛ ويلجأ دائماً إلى شهادة العقل ، والحواسِّ الخمسة ، وقوانين العلوم الرياضية والمحسوسات؛ إنما هو إيمانٌ مقيَّدٌ مغلولٌ ، وإيمانٌ محدودٌ مشروطٌ ، لا يصلح للاعتماد ، ولا يساير الأديان ، ولا يتَّفق مع دعوة الأنبياء ، وما يطلبونه من تصديقٍ مطلقٍ ، وثقةٍ دائمةٍ ، وسرعةٍ في الانقياد والطاعة ، وتفانٍ في الجهاد والتضحية ، ولا يصلح في الحقيقة لأن يسمَّى إيماناً ، إنما هو علمٌ ، وتطبيقٌ ، وخضوعٌ للمنطق ، وطاعةٌ للحواسِّ والتجارب ، ولا فضل فيه ، ولا يختصُّ بالدِّين ، فكلُّ عاقلٍ في حياته يؤمن بتجاربه ونتائج استقرائه ، وما تؤدِّي إليه حواسُّه ، ويرشد إليه عقله .

وصاحب هذا الإيمان «الطبيعي» في عناءٍ وبلاءٍ مع الكتب السماوية ،

---

(١) اقرأ أمثلته الواضحة في تفسير سيد أحمد خان والشيخ محمد علي اللاهوري .
(٢) كل ذلك جاء في القرآن صراحةً في سورٍ كثيرة ومواضع عديدةٍ .

والأديان الإلهية ، وفي صراع دائم مع روح الديانات ومطالبها ، وهو كما قال أحد العارفين(١) : «رجلٌ خشبةٌ ، لا تطاوع صاحبها في سرعة المشي ، ورفع الخطى بحريَّةٍ وكثرة النقلات والاتجاهات» ، وهو إما يلجأ إلى التحريف ، أو التأويل البعيد ، وإمَّا يضطر إلى الإنكار والإلحاد؛ بناءً على الفجوة الواسعة بين هذا العلم الجديد والحقائق التي جاءت بها الرسل ، ونطقت بها الكتب ، وبين ما آمن به من المحسوسات ، والماديات ، والأصول التي هي مبنيةٌ على استقراءٍ محدودٍ ، فقال تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [يونس : ٣٩] .

أما المؤمن بالغيب ، المؤمن بقدرة الله المطلقة وإرادته الحرَّة ، المصدِّق للرسل في كل ما جاؤوا به ، ونطقوا به ، وأخبروا عن الله ، فهو في راحةٍ ، وهدوءٍ وانسجامٍ ، ووئامٍ ، مع روح هذه الديانات وأخبارها ، جاهد ، وفكر مرةً ، ثمَّ استراح ، جاهد ، وفكر في الإيمان بالله وصدق الرسول ، وعصمته فيما يقول : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣ ـ ٤] ثم آمن ، واطمأنَّ وصدَّق بكل ما جاء به الرسول ، وصح به النقل في سهولة ويسر ، كأنه كان منه على ميعادٍ ، وكان له على أتمِّ الاستعداد .

وقد ذكر الله هذا الفرق بين النفسيتين ، نفسية المؤمن الذي أخضع عقله للصحيح من المنقول والثابت عن الرسول ، وبين نفسية الرجل الذي يحاول أن يخضع الكتاب وما جاء به الرسل لعقله ، وعلمه القاصر ، ويسلط عليه التأويل البعيد ، فقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : ٧ ـ ٨] وذكر نفسية الرجل الذي تعوَّد ألَّا يؤمن وألَّا يدين وألا يعيش إلا على المألوف المعروف الموافق لعقله ، الظاهر

---

(١) هو الشيخ جلال الدين الرومي صاحب المثنوي المشهور .

السطحيِّ ، وشهواته ومصالحه ، فقال : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج : ١١] .

إن أدبنا الإسلامي ـ مع الأسف ـ ونظامنا التعليمي الديني ، وأسلوب الدعوة قد قصَّر تقصيراً كبيراً في الدعوة إلى الإيمان بالغيب بإيمانٍ وحماسةٍ ، وتساهل في دعمه وتغذيته والإلحاح عليه ، وقد اتَّجه بعض كتابنا المعاصرين ـ مع ما لهم من فضلٍ في عرض محاسن الإسلام وتقريبه إلى الأذهان ـ إلى صياغةٍ عقليةٍ جديدةٍ للدِّين ، يتفق فيها مع العلم الحديث والعقلية الجديدة ، فجنى ذلك إلى حدٍّ ومن غير إرادة على روح الإيمان بالغيب ، واعتاد الشباب الإسلاميُّ المثقف ألا ينشط إلا للمألوف المقرر ، والواقع المتكرر في الحياة الطبعية ، أمَّا ما شذَّ عنه ، وخرج عليه ، واحتاج في تصديقه إلى إيمانٍ أعمق ، وأوسع ، واعتمادٍ على صدق المخبر ، فإنه لا يقبله إلا على مضضٍ وجهدٍ ، ولا ينشط له ، ولا يرحب به ، ويرى في ذلك منافاةً لما سمع ، وآمن به من أن الإسلام هو دين العقل ، ودين العلم ، ولا شكَّ أنَّ الإسلام كذلك ، ولا شك أنَّ صحيح المنقول لا يناقض صريح المعقول ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية؛ ولكن العقل الإنساني طبقاتٌ ومستوياتٌ ، فعقل البدويِّ ينكر ما زخرت به العواصم والمدن الكبيرة في عصرنا من عجائب المصنوعات ومرافق المدنية ، وعقل العاميِّ ينكر ما وصل إليه الإنسان في العصر الحديث من الاختراع والاكتشاف ، ومن تسخير الطاقات النووية والأقمار الصناعية ، وهكذا ، ثم إن أعلى ما يتصور من العقل النابغ له حدود يقف عندها ورسالة يقتصر على أدائها ، ولا يكلف فوق طاقته ، ويعجبني في ذلك كلمةٌ لنابغة العرب ، بل نابغة الدنيا في فلسفة التاريخ وعلوم العمران العلامة ابن خلدون ، قال رحمه الله :

«ولا تثقنَّ بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدرٌ على الإحاطة بالكائنات وأسبابها ، والوقوف على تفصيل الوجود كلِّه ، وسفِّه رأيه في ذلك ، واعلم أنَّ الوجود عند كل مدرك في بادىء رأيه منحصرٌ في مداركه ، لا يعدوها ، والأمر في نفسه بخلاف ذلك ، والحقُّ من ورائه ، ألا ترى الأصمَّ كيف

ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع المعقولات ، ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات ، وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنده صنف المرئيات ، ولولا ما يردهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقرُّوا به ، لكنهم يتبعون الكافة في إثبات هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم ، وطبيعة إدراكهم ، ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكراً للمعقولات ، وساقطةً لديه بالكليّة ، فإذا علمت هذا فلعلَّ هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا ، لأنَّ إدراكاتنا مخلوقةٌ محدثةٌ ، وخلق الله أكبر من خلق الناس ، والحصر مجهولٌ والوجود أوسع نطاقاً من ذلك ، والله من ورائهم محيط ، فاتهم إدراكك ومدركاتك في الحصر ، واتَّبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك ، فهو أحرص على سعادتك ، وأعلم بما ينفعك؛ لأنه من طورٍ فوق إدراكك ، ومن نطاقٍ أوسع من نطاق عقلك ، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه ، بل العقل ميزانٌ صحيحٌ ، فأحكامه يقينيةٌ لا كذب فيها ، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة ، وحقيقة النبوة ، وحقائق الصفات الإلهية ، وكلَّ ما وراء طوره ، فإنَّ ذلك طمعٌ في محال ، ومثالُ ذلك مثالُ رجلٍ رأى الميزان الذي يوزن به الذهب ، فطمع أن يزن به الجبال ، وهذا لا يدرك على أنَّ الميزان في أحكامه غير صادقٍ ، لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره ، حتى يكون له أن يحيط بالله وصفاته فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه»(١) .

البعد عن الأساليب الصناعية والاعتماد على الفطرة السليمة:

ومن سمات النُّبوَّة وخصائص الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ البعد عن الأساليب الصناعية والتصنُّع والتكلُّف في حياتهم وسلوكهم بصفةٍ عامَّةٍ ، وفي دعوتهم وكلامهم وحجتهم بصفة خاصَّةٍ ، وقد كان قول آخر الرسل ﷺ : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [ص: ٨٦ ـ ٨٧]. تصويراً لحال جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين السابقين صلى الله عليهم وسلم جميعاً.

---

(١) مقدمة ابن خلدون/ ص/ ٣٢٢.

فهم دائماً يخاطبون الفطرة السليمة ، والعقل العامَّ بأسلوبٍ فطريٍّ غير ذي عوج ، لا يتوقف فهمه على ذكاءٍ نادرٍ ، وعلمٍ فائقٍ ، وألمعيةٍ بارعةٍ ، ودراسةٍ واسعةٍ للعلوم ، وإحاطةٍ بالمصطلحات العلمية ، ومعرفة المنطق ، والفلسفة ، والرياضيات ، والفلكيات ، وعلوم الطبيعة ، يفهمه العوام ، كما يتذوقه الخواص ، وينتفع به الجهلاء ، كما ينتفع به العلماء ، كلٌّ على قدر فهمه وطاقته ، ويطابق حال الأمم التي تعيش على فطرتها وسذاجتها ، كما يطابق حال الأمم المتمدنة المثقفة العالية ، ولا يثيرون الأسئلة الدقيقة ولا يفترضونها ، إنما كلامهم كالماء الزلال السلسال الذي يسيغيه كلُّ واحدٍ ، ويحتاج إليه كلُّ واحدٍ.

وقد أجاد شيخ الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في الإشارة إلى هذه النكتة في كتابه الفريد «حجة الله البالغة» يقول رحمه الله :

«ومن سيرتهم (الأنبياء) ألا يكلموا الناس إلا على قدر عقولهم التي خلقوا عليها ، وعلومهم التي هي حاصلةٌ عند غيرهم بأصل الخلقة ، وذلك لأنَّ نوع الإنسان حيث ما وجد فله في أصل الخلقة حدٌّ من الإدراك زائدٌ على إدراك سائر الحيوانات إلا إذا عصمت المادَّة جداً ، وله علوٌّ لا يخرج إليها إلا بخرق العادة المستمرة ، كالنفوس القدسية من الأنبياء والأولياء ، أو برياضاتٍ شاقَّةٍ تهيِّيء نفسه لإدراك ما لم يكن عنده بحساب ، أو ممارسة قواعد الحكمة والكلام ، وأصول الفقه ونحوها مدَّةً طويلةً.

«فالأنبياء لم يخاطبوا الناس إلا على منهاج إدراكهم الساذج المودع فيهم بأصل الخلقة ، ولم يلتفتوا إلى ما يكون نادر الأسباب قلَّما يتفق وجودها ، فلذلك لم يكلفوا الناس أن يعرفوا ربهم بالتجليات والمشاهدات ولا بالبراهين والقياسات ، ولا أن يعرفوه منزهاً عن جميع الجهات ، فإن ذلك كالممتنع بالإضافة إلى من يشتغل بالرياضات ، ولم يخالط المعقوليين مدةً طويلةً ، وأن يرشدوهم إلى طرق الاستنباط والاستدلالات ووجوه الاستحسانات ، والفرق بين الأشباه والنظائر بمقدمات دقيقةِ المأخذ ، وسائر ما يتطاول به أصحاب الرأي على أهل الحديث».

«ومن سيرتهم ألا يشتغلوا بما لا يتعلق بتهذيب النفس وسياسة الأمة ، كبيان أسباب حوادث الجوِّ من المطر ، والكسوف ، والهالة ، وعجائب النبات ، والحيوان ، ومقادير سير الشمس والقمر ، وأسباب الحوادث اليومية وقصص الأنبياء والملوك والبلدان ونحوها ، اللهمَّ إلَّا كلماتٍ يسيرةً ألفتها أسماعهم ، وقبلتها عقولهم ، يؤتى بها في التذكير بآلاء الله ، والتذكير بأيام الله ، على سبيل الاستطراد بكلامٍ إجماليٍّ يسامح في مثله بإيراد الاستعارات وبالمجازات» .

«ولهذا الأصل لما سألوا النَّبيَّ ﷺ عن كمية نقصان القمر وزيادته أعرض الله تعالى عن ذلك إلى بيان فوائد الشهور ، فقال : ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٨٩] ونرى كثيراً من الناس فسد ذوقهم بسبب الألفة بهذه الفنون ، أو غيرها من الأسباب ، فحملوا كلام الرسل على غير محمله ، والله أعلم»(١) .

وقال في ضمن بيان أسباب التيسير في هذا الكتاب :

«ومنها أنَّ الشارع لم يخاطبهم إلا على ميزان العقل المودع في أصل خلقتهم قبل أن يتعانوا دقائق الحكمة والكلام والأصول ، فأثبت لنفسه جهةً فقال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] وقال النبي ﷺ لامرأة سوداء أين الله؟ فأشارت إلى السماء، فقال: «هي مؤمنة» ولم يكلِّفهم في معرفة استقبال القبلة، وأوقات الصلاة، والأعياد، وحفظ مسائل الهيئة والهندسة، وأشار بقوله: «القبلة ما بين المشرق والمغرب، إذا استقبل الكعبة» إلى وجه المسألة، وقال: «الحج يوم تحجون والفطر يوم تفطرون» والله أعلم(٢) .

وكذلك قال قبله حجة الإسلام الغزاليُّ ، وهو يذكر فضل أسلوب القرآن على علم الكلام ، والفرق بينهما ، قال رحمه الله :

«فأدلَّة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كلُّ إنسان ، وأدلة المتكلمين مثل

---

(١) حجة الله البالغة ج/ ١ ص/ ٨٦ .

(٢) حجة الله البالغة ج/ ١ ص/ ١٣ .

الدواء ينتفع به آحاد الناس ، ويستضرُّ به الأكثرون ، بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبيُّ والرضيع ، والرَّجل القويُّ ، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرَّةً ويمرضون بها أخرى ، ولا ينتفع بها الصبيانُ أصلاً» .

وقد قال الإمام الرازي ، كما ينقل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية كثيراً في كتبه :

«لقد تأمَّلت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية؛ فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، ومن جرَّب مثل تجربتي؛ عرف مثل معرفتي»[١] .

وقد أفضت في هذا الموضوع لبعد الطبائع والعقول في هذا العصر عن فهم طبيعة النبوة وسماتها ، ومنهاج الأنبياء وسيرتهم في الدعوة والبيان ، وفي حياتهم الخاصَّة وفي حياتهم مع الناس ، وطغت الأساليب الصناعية ، والمناهج الكلامية ، وأساليب الدعوة والتنظيم الحديثة ، حتى صار الناس في غفلةٍ ، بل واستهانةٍ بطريق الأنبياء وسيرتهم ، والتوى عليهم فهم القرآن ، ولم يستطيعوا تذوُّق أسلوبه الحكيم ، ولجؤوا إلى تأويلاتٍ وتكلُّفات ، ولا تزال سيرة الأنبياء في الدعوة هي السيرة المثالية ، ولا يزال أسلوب القرآن هو الأسلوب الفطريُّ البليغ الحكيم ، الذي يقنع العقول ، ويفتح القلوب في كلِّ عصر ، ويجد فيه كل جيلٍ وكلُّ طبقةٍ البيان الوافي ، والدواء الشَّافي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت : ٤٢] .

* * *

---

(١) كتاب النبوات لابن تيمية ص / ١٤٧ ـ ١٤٨ .

المحاضرة الثالثة

أئِمّةُ الـهُـدَىٰ وَقـادَةُ الإنـسـانِـيّـةِ

عبـث الـقـادة والـزعمـاء بـالإنسـانـيـة :

لم يزل الجيل البشريُّ في تاريخه الطويل موضوع عبث العابثين من القادة والزعماء ، أو تجربة المجرِّبين والمجازفين من المشرِّعين والحكماء ، وقد عبثوا بأبناء جنسهم وعقليتهم ومدنيتهم عبث الوليد بجانب القرطاس ، يطويه ، وينشره ، ويمدُّه ، ويكوِّره ، ويمزِّقه إذا شاء ، ويحرِّقه إذا شاء ، وهانت عليهم الحياة الإنسانية وطاقاتها ، وملكاتها ومواهبها ، وما أودع الله فيها من طبيعة الطاعة ، والتقليد ، والتفاني ، والاعتماد على القادة ، فلم يتَّقوا الله فيها ، ولم يراعوا فيها حقّاً ، ولا حرمةً ، ولا إلاًّ ، ولا ذمَّةً ، واتخـذوهـا مطيـةً لشهـواتهـم ، ونـزعـاتهـم ، وقنطـرةً إلـى سيـادتهـم ، ورياستهم ، وتحقيق أغراضهم ، وقد جرَّ عليها جهل هؤلاء القادة حيناً وعدم اعتصامهم من الخطأ ، والضلال ، وسوء الفهم ، وسوء التعبير أحياناً ، والشهوات التي ركبوا عليها ، والنزعات والأنانية ، الفردية والقومية ، والعصبية الجنسية والوطنية ، قد جر كلُّ ذلك على الإنسانية البائسة شقاءً طويلاً ، وويلاً عظيماً ، وأفقد الثقة بقيادتهم ، وشكَّك تشكيكاً كبيراً في إخلاصهم ، وصحة معلوماتهم ، وحسن قصدهم ، وسعادة الإنسانية تحت قيادتهم ، وإشرافهم ، والتاريخ الإنسانيُّ مليءٌ بهذه المآسي والمهازل ، والمضحكات المبكيات ، ولا تزال شعوبٌ كثيرةٌ في الشرق والغرب تحت رحمة هؤلاء القادة الأغمار العابثين ، يلعبون بها ،

ويتداولونها كالكرة ، ويجرُّون عليها عملياتٍ وتجارب جديدةً كثيرةً ، قد يعترفون بخطئها وإخفاقها بعد قليلٍ ، وقد يفضحها ويزيل عنها الستار من يتسلَّم القيادة منهم ، ويخلفهم ، وقد يسجل عليها ذلك التاريخ ، وتشعر به الأجيال الآتية .

الحاجة إلى الأنبياء المعصومين عن الخطأ :

وشر هذه التجارب المخفقة والنتائج الخاطئة ما كان في باب العقيدة والإيمانيات التي يتوقف عليها المصير ، وتتوقف عليها السعادة في الدنيا ، والنجاة في الآخرة ، والتي تشكِّل الأخلاق الصحيحة ، وتكوِّن المدنية الصَّالحة ، والعبادات التي يتقرَّب بها الإنسان إلى ربِّه ، والشرائع التي تنظم حياته ، فالعثرة في ذلك لا تقال ، والكسر في ذلك لا يجبر .

فمسَّت الحاجة إلى قادةٍ أمناء معصومين من الضلال ، والأوهام ، والأخطاء ، مبرَّئين من كلِّ طمعٍ ومساومةٍ ، وطلب مكافأةٍ ، ومقابلٍ ، وربحٍ ماديٍّ ، لا تتغلب عليهم الشهوات ، ولا تؤثِّر فيهم النزعات ، لا يصدرون عن رأيهم ومعلوماتهم الناقصة ، وتجاربهم القاصرة ، ومصالحهم الخاصة ، وإذا صدر منهم خطأٌ في الاجتهاد والتقدير ؛ نبَّههم الله على ذلك فلم يمكثوا عليه ، ولم يتمادوا فيه .

أمانة وإخلاص :

ولذلك تقرأ في سورة الشعراء : أنَّ كلَّ نبيٍّ يبعث إلى أمته يؤكد لهم أمانته ، وإخلاصه . واقرؤوا معي الآيات التالية :

١ ـ ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠٥ ـ ١٠٩] .

٢ ـ ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . [الشعراء : ١٢٣ ـ ١٢٧] .

٣ ـ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١ ـ ١٤٥].

٤ ـ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠ ـ ١٦٤].

٥ ـ ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦ ـ ١٨٠].

هذه الوحدة التي تربط بين هؤلاء الأنبياء المبعوثين في أممٍ مختلفةٍ، وفي عصورٍ مختلفةٍ ذات معنىً عميقٍ، وهو أنَّ الأمانة، وهي الكلمة الجامعة بين معاني الصدق وصحة التلقي من فوق، التلقي من الله العليم الحكيم، وصحة الإلقاء إلى أسفل، إلى الأمة التي يبعث فيها النبي، هو الركن الأساسي في مفهوم النُّبوَّة والرسالة، ونظامها، ولا أجمع لهذه المعاني، ولا أبلغ من كلمة «الأمانة» في لغة العرب، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن يوصف بها الرسول العربي ﷺ قبل البعثة، وألهمت أهل مكة الأميين أن يلقبوه بالصادق الأمين.

وكذلك الإخلاص، والنزاهة، والبعد من كلِّ طمعٍ، والزهد في كلِّ منفعةٍ شخصيةٍ، أو منفعة ترجع إلا الأسرة، والعشيرة، والأولاد، وقد اتفقت الفطر السليمة، والعقول المستقيمة على حبِّ هذا الداعية المخلص، الناصح الأمين، ولذلك قال صالح، في أسف واستغراب: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩] وقال الموجه الكريم الذي جاء من أقصى المدينة يسعى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠ ـ ٢١].

وهذا هو المعنى الذي أكَّده موسى عليه السلام لفرعون فقال: ﴿وَقَالَ

مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٤ ـ ١٠٥].

أمانٌ وضمانٌ للأتباع:

وقد كان في هذه «العصمة» والأمانة والنزاهة، التي اتصف بها الأنبياء ضمانٌ لسلامة أتباعهم، وأمّتهم في العقائد والشرائع، وأمانٌ مما استهدفت له الأمم والأجيال البشرية الماضية من الوقوع في المهالك، والتورط في الشبهات، والحيرة في أمر هؤلاء القادة ونتيجة اتّباعهم.

حقيقة العصمة وطرقها:

يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في كتابه «حجة الله البالغة» وهو يذكر ما يجب أن يتّصف به هداة السبل، ومقيمو الملل ـ يعني الأنبياء ـ سلام الله عليهم، يقول رحمه الله:

«ثم لا بدّ لهذا العالم أن يثبت على رؤوس الأشهاد أنّه عالم بالسنة الراشدة، وأنه معصومٌ فيما يقوله من الخطأ والضلال، ومن أن يدرك حصة من الإصلاح ويترك حصةً أخرى لا بدّ منها، وذلك ينحصر في وجهين: إما أن يكون راوياً عن رجلٍ قبله انقطع عنده الكلام لكونهما مجتمعين على اعتقاد كماله وعصمته، وكون الرواية محفوظةً عندهم، فيمكن له أن يؤاخذهم بما اعتقدوه ويحتجّ عليهم، ويفحمهم أن يكون هو الذي انقطع عنده الكلام، وأجمعوا عليه، وبالجملة فلا بد للناس من رجلٍ معصومٍ يقع عليه الإجماع يكون فيهم أو تكون الرواية محفوظةً عندهم، وعلمه بحالة الانقياد وتوليد هذه السنن منها، ووجوه منافعها، وعلمه الآثام، ووجوه مضارها لا يمكن أن يحصل بالبرهان، ولا بالعقل المتصرّف في المعاش، ولا بالحسّ، بل هي أمور لا يكشف عن حقيقتها إلا الوجدان، فكما أنّ الجوع والعطش وتأثير الدواء المسخن أو المبرد لا يدرك إلا بالوجدان، فكذلك معرفة ملاءمة الشيء للروح ومباينته لها لا طريق إليها لا الذوق السليم، وكونه مأموناً عن الخطأ في نفسه، إنه يكون بخلق الله علماً

ضرورياً فيه بأن جميع ما أدرك وعلم حقٌّ مطابق للواقع بمنزلة ما يقع للبصر عند الإبصار ، فإنه إذا أبصر شيئاً لا يحتمل عنده أن يكون عينه مؤوفة وأن يكون الإبصار على خلاف الواقع ، وبمنزلة العلم بالموضوعات اللغوية ، فإنَّ العربيَّ مثلاً لا يشك أنَّ الماء موضوعٌ لهذا العنصر ، ولفظ الأرض لذلك ، مع أنه لم يقم له على ذلك برهان وليس بينهما ملازمة عقلية ، ومع ذلك فإنَّه يخلق فيه علمٌ ضروريٌّ ، وإنما يحصل ذلك في الأكثر بأن يكوِّن لنفسه ملكةً جبليَّةً ، يكون بها تلقي العلم الوجداني على سنن الصواب دائماً ، وأن يتتابع الوجدان وتتكرَّر تجربة صدق وجدانه ، وعند الناس(١) ، إنما يكون بأن يصحَّ عندهم بأدلةٍ كثيرة برهانيةٍ ، أو خطابية أنَّ ما يدعو إليه حقٌّ ، وأنَّ سيرته صالحةٌ يبعد عنها الكذب ، وأن يروا منه آثار القرب كالمعجزات واستجابة الدعوات ، حتى لا يشكُّوا أنَّ له في التدبير العالي منزلةً عظيمةً ، وأنَّ نفسه من النفوس القدسية اللاحقة بالملائكة ، وأنَّ مثله حقيقٌ بألاَّ يكذب على الله ولا يباشر معصيةً ، ثم بعد ذلك تحدث أمور تؤلفهم تأليفاً عظيماً ، وتصيره عندهم أحبَّ من أموالهم وأولادهم ، والماء الزلال عند العطشان ، فهذا كلُّه لا يتحقَّق انصباغ أمة من الأمم بالحالة المقصودة بدونه ، ولذلك لم يزل المشغولون بنظائر هذه العبادات يسندون أمرهم إلى من يعتقدون فيه هذه الأمور ، أصابوا أم أخطؤوا. والله أعلم»(٢) .

جـديـرون بـالطـاعـة والاتِّـبـاع :

إنَّ هذه الجماعة التي هذا شأنها في العصمة وصحة العلم ، وهذه منزلتها من الأمانة والإخلاص والنزاهة ، وقد أفرغها الله في قالبٍ من الاعتدال والسداد ، وربَّاها فأحسن تربيتها ، وأدَّبها ، فأحسن تأديبها: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] ﴿أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا

---

(١) أي كونه مأموناً من الخطأ عند الناس ، يكون إذا صحَّ عندهم أن ما يدعو إليه حق. . . الخ.

(٢) حجة الله البالغة «باب الحاجة إلى هداة السبيل ومقيمي الملل».

﴿لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٦ ـ ٤٧]، هي الجديرة الخلية ـ بحكم العقل والذوق والمنطق ـ بالطاعة والاقتداء والتقليد والاتّباع، ولذلك قال الله تعالى بعد ما ذكر جماعةً من أنبيائه المكرَّمين، وذكر ما أكرمهم به من الهداية والصلاح والفضل على العالمين، والاجتباء والكتاب والحكم والنبوة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

محط العناية والرضا:

لقد أحاطت العناية الإلهية والقبول الرحمانيُّ بنفوس الأنبياء، والحياة التي كانوا يعيشونها، وشملت أخلاقهم، وعاداتهم، وسننهم، وطرق معيشتهم، واختار الله طريق حياتهم من بين طرق الحياة، وأخلاقهم من بين أخلاق الناس، وعاداتهم من بين العادات الكثيرة التي تعوَّدها الناس، حتى إذا سلكوا شعباً وادياً، وسلك الناس شعباً وادياً كان شِعبهم ووادیهم أحبَّ إلى الله من شِعب الناس، وواديهم، ونفذت فيهم وفي كلِّ ما اختاروه، وأصبح لهم شعاراً وبهم خاصّاً محبة الله ورضاه، حتى أصبح تقليدهم واتّباعهم واتخاذ شاراتهم وشعائرهم، والتخلق بأخلاقهم، والتشبه بهم أقرب الأسباب، وأقرب الطرق، وأيسرها بجلب محبة الله، وصار من اتَّبعهم، وتشبه بهم من المحبوبين، فضلاً عن أن يكون من المحبِّين، لأنَّ المتشبه بالحبيب حبيبٌ وبالبغيض بغيضٌ، وأصبح ذلك أصلاً من الأصول والقانون الذي لا يتبدَّل، ولا يتغيَّر على مرِّ الزمان، واختلاف المكان، وأصبحت الدعوة إليه عامَّةً، وعلانيةً، وأعلن الله تعالى على لسان خاتم النبيين ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] وبالعكس من ذلك كان الميل إلى الظالمين والكفار، وإيثار طريقتهم، والسير بسيرتهم جالباً لسخط الله، والبعد عنه، فقال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

سرُّ تفضيل عاداتٍ وأوضاعٍ على عاداتٍ وأوضاعٍ، وحقيقة الشعائر:

وهذا السرُّ ما تسمِّيه الشريعة بخصال الفطرة، وسنن الهدى، وتشيد بها

وتحثُّ على الأخذ بها ، ومجموع هذه الأخلاق ، والعادات يحدث انصباغاً بصبغتهم ، وهي الصبغة التي يقول الله عنها : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة : ١٣٨] وهذا سرُّ تفضيل الله عادةً على عادةٍ وخلقاً على خلق ، ووضعاً على وضع ، وهيئةً على هيئة ، وهذا سرُّ ما تتخذه الشريعة الإسلامية شعاراً لأهلِ الإيمان ، ولأهل الطَّاعة ، وسنَّةً موافقةً للفطرة. وضدُّه علامة للانحراف وشعاراً لأهل الجهل والسفاهة ، ولأهل الجاهلية والكفر ، ولا فرق بينهما ، إلا أنَّ الأول كان شعاراً للأنبياء ومن عادتهم واختيارهم ، وفيه تشبهٌ بهم ، والثاني شعارٌ لأهل الكفر وعادةٌ من عادات الجاهلية ، ومن أوضاع الشيطان ، وأتباعه ، وتشبهٌ بهم ، ويندرج تحت هذا الأصل كثيرٌ من آداب الأكل ، والشرب ، واللباس ، والزينة ، والنوم ، والعشرة ، والاختلاط ، وهو بابٌ واسعٌ من أبواب السنَّة ، وفقه الدين.

لماذا كانت اليد اليمنى أفضل من اليسرى ، وخصَّت بالأعمال الفاضلة المستجادة ، كالأكل ، والشرب ، والإشارة ، وتناول كلِّ شيءٍ ذي بال ، وإعطائه ، وكلِّ ما فيه إكرامٌ ، وخصَّت اليسرى بالاستبراء ، وكلِّ ما فيه لوثٌ وإهانةٌ؟ وكلتا اليدين من خلق الله وصنعه! وكثيرٌ من الأمم الجاهلية ، وممن نشأ بعيداً عن تربية الأنبياء وتعليماتهم لا يفرق بينهما ، ولا يلتزم هذا الأدب ، ويضع إحداهما موضع الأخرى ، لا سبب لذلك إلا أنَّ الأنبياء عامَّةً ـ ورسول الله ﷺ خاصَّةً ـ كانوا يفعلون ذلك بإلهامٍ من الله أو بسائقٍ من فطرتهم السليمة ، التي كانت دائماً على اتصالٍ ومناسبةٍ بما يُرتضيه الله تعالى من الأخلاق ، والعادات ، والأوضاع ، ولماذا كان التيمُّن محموداً مطابقاً للفطرة السليمة ، ومن شعائر الحضارة الإسلامية؟ لأنه كان من سنَّة الأنبياء عليهم السلام ، ومن عادات الرَّسول ﷺ وذوقه. فعن عائشة قالت : كان النبيُّ ﷺ يحب التيمُّن ما استطاع في شأنه كلِّه ، في طهوره ، وترجُّله وتنعُّله[1].

(١) صحيح البخاري.

وعلى ذلك تقاس جميع خصال الطَّهارة ، وخصال الفطرة التي نسبت في الحديث إلى سيدنا إبراهيم ﷺ.

مؤسسو حضارةٍ وأسلوبٍ خاصٍّ من الحياة:

إنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لم يدعوا إلى عقيدةٍ وشريعةٍ فحسب ، ولم يحملوا ديناً جديداً ـ هو الإسلام ـ فحسب ، بل كانوا مؤسسي حضارةٍ ، ومدنيةٍ ، وعشرةٍ ، واجتماع ، وأسلوبٍ من الحياة جديدٍ خاصٍّ ، جدير بأن يسمى الحضارة الرَّبانيَّة ، ولهذه الحضارة أصلٌ ودعائم ، وعلاماتٌ وشعائر ، تمتاز بها عن الحضارات الأخرى ، الحضارات التي تسمَّى الحضارات الجاهلية امتيازاً واضحاً ، امتيازاً في الأساس ، وفي الرُّوح ، وفي الأشكال ، والتفاصيل.

حضارةٌ إبراهيميَّةٌ محمَّديَّةٌ:

وكان إبراهيم الخليل الحنيف ﷺ إمام هذه الحضارة الحنيفية المؤسسة على توحيد الله تعالى والإيمان به وذكره ، المؤسسة على متابعة الفطرة السليمة والقلب السليم ، المؤسسة على الحياء والأدب مع الله والإنابة ، والرحمة على بني النوع ، ورقة العاطفة. وقد سرت أخلاقه في هذه المدنية ومنهج الحياة: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥] ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] وكان إبراهيم ولا يزال مؤسس هذه الحضارة ، وكان إبراهيم ولا يزال مؤسس هذه الحضارة ، وكان رسول الله ﷺ ، وهو حفيده مجدد هذه الحضارة ومتمِّمَها ، وهو الذي بعث فيها الروح ، وأفاض عليها الخلود ، وأرسى قواعدها ، وشدَّ بنيانها ، وجعلها خالدةً باقيةً عاليةً.

خصائص هذه الحضارة وسماتها:

«إنَّ هذه الحضارة الإبراهيمية المحمَّديَّة ، لا تعرف الوثنية ، والشرك ، ولا تسمح به في لونٍ من الألوان ، في أيِّ مكانٍ ، وزمانٍ ، فكان أعظم دعاء إبراهيم ، وأكبر همِّه: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وكان أكبر وصيته ودعوته للأمم والأفراد جميعاً: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ

ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ [الحج: ٣٠ ـ ٣١].

إنَّها لا تعرف التهالك على الشهوات، والتكالب على حطام الدنيا، والتناحر على جيف المادة، والتقاتل في سبيل الحكومات والمناصب. إنَّها دعوةٌ لم تزل عقيدتها: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

إنَّـها حضارة لا تعرف الفصل بين الإنسان والإنسان، والتميز بين الألوان والأوطان «فالناس كلهم من ادم وادم من تراب، لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ إلا بالتقوى» ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣][١] وقد قال خاتم الرسل ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»[٢] وقال لمن هتف بالأنصار ولمن هتف بالمهاجرين: «دعوها فإنها منتنة»[٣].

إنَّها حضارةٌ تُعرف في العقيدة بالتوحيد، وفي الاجتماع باحترام الإنسانية والمساواة بين أفرادها، وفي دائرة الأخلاق، والمنهج بتقوى الله، والحياء، والتواضع، وفي ميدان الكفاح بالسعي للآخرة، والجهاد لله، وفي ساحة الحرب بالرَّحمة، والعاطفة الإنسانية، وفي أنواع الحكومات بترجيح جانب الهداية على جانب الجباية، والخدمة على الاستخدام، تعرف في التاريخ بخدمة الإنسانية المخلصة، وإنقاذها من براثن الجاهلية، والدعوات المضلَّة الطاغية، وفي العالم بآثارها الزاهرة الزاهية، وخيراتها المنتشرة الباقية.

---

(١) سيرة ابن هشام.
(٢) رواه أبو دواد.
(٣) رواه البخاري.

إنها حضارةٌ عُجنت مع اسم الله ومراقبته ، وصُبغت بصبغة الله ، وقامت على أساس الإيمان ، فلا يمكن تجريدها عن الطابع الدينيِّ واللون الرَّباني ، والرُّوح الإيماني .

دعوة القرآن إلى اتِّباع الأنبياء وحثُّه على تقليدهم :

إنَّ القرآن يدعو إلى اتِّباع الأنبياء ، والأخذ بسيرتهم ، والسير على منهجهم العام في الحياة ، والتشبُّه بهم ما أمكن ، فيقول : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] ويأمر المسلمين بأن يدعو دائماً بقولهم : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦ ـ ٧] ولا شكَّ أنَّ في مقدمة هؤلاء المنعم عليهم ، وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلين ، وجعل هذا الدعاء في صلب الصَّلاة ، وكلَّما كان الإنسان أتبع لسننه ، وأكثر تخلقاً بأخلاقه ، وأشبه به هدياً ودلاًّ وسمتاً كان أقرب إلى الله ، وأعلى منزلةً عنده .

الإجلال المنبعث من أعماق القلب والحبُّ العاطفي :

والقرآن يطلب للأنبياء الإجلال المنبعث من أعماق القلب ، والتوقير والتبجيل العميق ، والحبَّ العاطفيَّ ، ولا يكتفي بالطاعة المجردة من كلِّ عاطفةٍ ، وحبٍّ ، وإجلالٍ ، كطاعة الرعية ، والسوقة للملوك ، وكثيرٍ من قادة الجنود وزعماء الأحزاب ، ولا يكتفي بدفع الضرائب وتنفيذ الأحكام ، فقال : ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح : ٩] وقال : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ولذلك أمر بكلِّ ما يحفظ لهم حرمتهم ، واحترامهم ، ونهى عن كلِّ ما يحط مكانتهم ، ويجرح كرامتهم ، ويهون شأنهم ، ويفقد مهابتهم ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات : ٢ ـ ٣] وقال : ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم

بَعۡضٗاۚ﴾ [النور: ٦٣] ولذلك حرم زواج أزواجه من بعد وفاته فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وقد جاءت النصوص الصريحة الكثيرة تطلب حبَّ الرسول، وإيثاره على النفس والأهل والولد، فقد جاء في الصحيحين: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين» وكذلك: «ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما... الحديث».

تأثير عاطفة الحبِّ وسرُّ تفاني الصَّحابة في طاعة الرسول:

لأنَّ الطاعة الكاملة المخلصة، والتخلُّق بأخلاق الرسول، والانصباغ بصبغته، وإيثار شريعته ورضاه على هوى النفس والعادات والأعراف، وبذل المهجة والنفس والنفيس في سبيل دعوته، لا يتأتّى إلا بهذا الإجلال المنبعث من أعماق القلب، والحبِّ العميق الذي يملك على الإنسان مشاعره، ويستولي على قلبه؛ ولذلك قال: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم من أحرص الناس على طاعته، وأسرعهم إليها، وأنشطهم فيها، وأصبرهم عليها، ولهم في ذلك القدح المعلَّى، والنصيب الأوفر إلى يوم القيامة، ومنهم أبو بكر الصِّديق الذي كان رسول الله ﷺ أكرم عليه، وأحبَّ إليه من نفسه، وحياتُه وصحَّتُه أعزُّ عليه من حياته وصحته، وقد ضربه عتبة بن ربيعة بنعلين مخصوفتين ويحرّفهما لوجهه، ونزا على بطنه حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوبٍ لا يشكُّون في موته، ولمَّا تكلم آخر النهار؛ قال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ ولما قيل له: إنه

سالمٌ صالحٌ ، قال : إن لله عليَّ ألا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ(١) .

ومنهم المرأة الأنصارية التي كان الناس يخبرونها بشهادة أعزِّ أقاربها : أبيها ، وأخيها ، وزوجها يوم أحد ، فقالت : ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا : خيراً ، هو بحمد الله كما تحبين ، فلما رأته؛ قالت : كلُّ مصيبةٍ بعدك جلل(٢) .

ومنهم عبد الله بن عبد الله بن أبي ، سمع أنَّ والده قال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل ، فلما قدموا المدينة قام عبد الله على بابها بالسيف لأبيه ، ثم قال : أنت القائل لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ؟ أما والله لتعرفنّ العزَّة لك ، أو لرسول الله ﷺ؟ والله لا يأويك ظلُّه ، ولا تأويه أبداً إلا بإذنٍ من الله ورسوله ، ولم يسمح له بالدخول حتى أرسل إليه رسول الله ﷺ يأمره بأن يخلِّيَ سبيله(٣) .

ولذلك كلِّه استطاعوا أن يضعوا رؤوسهم ومهجهم على أكفِّهم وراحاتهم ، وهانت عليهم الحياة ، وطابت لهم هجرة الأوطان ، وهجر الإخوان ، والشهادة في سبيل الله ، ولذلك استطاعوا أن يقولوا عند وقعة بدر : إنَّ أمرنا تبعٌ لأمرك ، فو الله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان؛ لنسيرنَّ معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر ؛ خضناه معك(٤) .

نتيجة ضعف عاطفة الحب في العالم الإسلاميِّ اليوم وتأثير ذلك في الحياة :

وما ضعف العالم الإسلاميِّ في العمل بالشريعة اليوم ، والتكاسل في الطاعات ، والابتعاد عن كل ما يشقُّ عن النَّفس ، وما تهاون كثيرٍ من طبقة

---

(١) البداية والنهاية ج/ ٣ ص/ ٣٠ .

(٢) ابن إسحاق والبيهقي .

(٣) تفسير الطبري ج/ ٢٨ .

(٤) ـ قاله سعد بن معاذ ـ عن كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للعلامة الندوي .

العلماء والمثقفين الثقافة الدينية الواسعة بالسُّنن وهدي الرسول إلا لضعف هذا الإجلال الذي اهتمَّ به القرآن كثيراً ، وضعف عاطفة الحبِّ أو فقدانها ، العاطفة التي كانت ولا تزال مصدر قوةٍ لا نظير لها ، ومردَّ عجائب ومعجزاتٍ في التاريخ ، وهو فراغٌ لا يملأ بأكبر مقدارٍ من العقل والعزم والنظام ، وخسارةٌ لا تعوض بشيء .

لا فلاح لأمَّةٍ بعث فيها النَّبيُّ إلا في اتباعه وإيثاره :

وفي الأخير فإنَّ مصير الأمم التي يبعث فيها هؤلاء الأنبياء مربوطٌ باتِّباعهم ، والانقياد لهم ، والاجتماع تحت رايتهم ، والتمسُّك بأهدابهم ، والسَّير في ركابهم بعزِّ عزيزٍ وذلِّ ذليلٍ ، فلا تفلح أمَّةٌ مهما أوتيت من الحول ، والطول ، والذَّكاء ، والوسائل ، ومهما تقدَّم الزمان ، وتقدَّمت الحضارة ، وتنوَّعت الفلسفات ، وتغيَّرت الأحوال ، إلا باتِّباع هذا النَّبيِّ ، والحبِّ له ، والانتصار لدعوته ، رضيت بذلك أم أبت ، وكلُّ أمَّةٍ تحاول أن تنال العزَّة ، والسؤدد ، والكرامة ، والقوة الحقيقية عن غير هذا الطريق ، معتمدةً على سياستها الحكيمة ، أو الانضمام إلى معسكرٍ من المعسكرات القوية؛ فلن يكون ذلك ، وليس عاقبتها إلا الذلَّ والهوان ، والإخفاق الذريع ، والانشقاق الداخليّ ، والخيبة عاجلاً أو آجلاً .

وضع العالم الإسلاميِّ والعربيِّ اليوم وسببه :

والعالم الإسلاميُّ بصفةٍ عامَّةٍ ، والعالم العربيُّ بصفةٍ خاصَّةٍ خير شاهد على ذلك ، فقد كبر على هذين العالمين في الزمن الأخير اتِّباع الرسول النَّبيِّ الأمِّيِّ ﷺ ، وثقل عليهما إيثار ما أمر به ، وطلبه على ما تأمر به نفوس القادة والزعماء ، واستنكفا عن الانتساب إليه والافتقار له ، والظهور في مظهر دينه أمام الأمم والحكومات ، وآمنا بضرورة التنصُّل عن دينه ، وأحكامه وحضارته ، وآمن أكثر أقطارهما بالقومية ، والوطنية ، والشيوعية ، والفلسفات الحديثة . وإلى الآن لم يقضيا وطراً ، ولم يهزما عدوّاً ، وهذا هو العالم العربي ، ولا معذرة ولا استعفاء ، موزعٌ على نفسه ، لم يستطع أن يحلَّ مشكلة فلسطين في هذه المدَّة الطويلة ، ولم

يحتلَّ المكان اللائق به في زعامة العالم الإسلامي ، أو قيادة العالم الإنسانيِّ ، وفي كلٍّ مشكلةٌ طريفة ، وقضيةٌ جديدة.

وصدق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ قال لأصحابه العرب في الشام ـ وهم كبار الصحابة ، وقادة الفتح الإسلامي ، وقد عيروه ببعض صنيعه الذي لا يتفق مع رئيس حكومةٍ كبيرةٍ ـ:

«إنكم كنتم أذلَّ النَّاس ، فأعزَّكمُ اللهُ بالإسلام ، فمهما تطلبوا العزَّة بغيره يذلُّكمُ الله»[1].

* * *

(١) البداية والنهاية ج/٧ ص/ ٦٠.

المحاضرة الرابعة

بين الإرادة الإلهيّة والأسباب الماديّة

تفاوت ما بين الأنبياء وخصومهم في الأسباب الماديَّة:

إنَّ القارىء للقرآن ـ وهو الكتاب الوحيد الذي حفظ تاريخ الأنبياء، وحوادث حياتهم، وأخبار دعوتهم ـ يلاحظ باستمرارٍ ووضوحٍ: أنَّ الأنبياء بعثوا دائماً في بيئةٍ مظلمةٍ خانقةٍ، معارضةٍ لدعوتهم، ثائرةٍ عليها، وبعثوا في ضعفٍ شديدٍ، وفقرٍ تامٍّ في الأسباب، وكان كلُّ ما يعتز به إنسان من مالٍ، وملكٍ، وشيعٍ، وأنصارٍ، والأسباب المادية في جانبِ أعدائهم، وفي كفَّتهم، وتحت تصرُّفهم، ولم يكن في جانب الأنبياء، وكفَّتهم إلا الإيمان القويُّ الذي لا يرقى إليه شكٌّ، والإخلاص الكامل الذي لا يشوبه طمعٌ ونفاقٌ، واعتمادٌ على الله، وابتهالٌ إلى الله، واطِّراحٌ على عتبة عبوديته، والعمل الصَّالح، والتَّقوى، وحسن السيرة، والأخلاق الفاضلة، وزيادةً إلى كلِّ ذلك ـ زيادةً لا يستهان بقيمتها ـ الدعوة الإيمانية الصحيحة التي تكفَّل الله بنصرها، فقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] وقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

شـيء مـقـصـودٌ ومطَّـردٌ مـستمـرٌّ:

ويبدو لقارىء القرآن أن ما حكاه الله تعالى من قصص الأنبياء والرسل ، وأخبار دعوتهم ، وما لقيته من معارضاتٍ ومحارباتٍ ومؤامراتٍ ، وتألب القوم عليها ، وتنمُّرهم لها ، ورميهم عن قوسٍ واحدٍ ، والحرب الشعواء التي كانت تقع دائماً بين ضعيفٍ فقيرٍ أعزل ، وبين جماعةٍ غنيَّةٍ قويةٍ قاهرةٍ ، تملك جميع الأسباب ، أو ملكٍ مستبدٍ طاغيةٍ ثم النتيجة واحدةٌ دائماً ، وهو انتصار الدعوة النَّبوية وأصحابها على ضعفهم وفقرهم ، وهلاك الأغنياء الأقوياء والملوك الجبابرة رغم قوتهم وبطشهم ، أو خضوعهم لهذه الدعوة ، أو قبولهم لها ، ويبدو لقارىء القرآن: أنَّه شيءٌ مقصودٌ ليس من المصادفات ـ وقدرة الله المحيطة الشاملة لا تعرف المصادفات ، ولا تعرف البخت والاتِّفاق ، وإنما هي منطق الضعفاء الجهلاء ـ وأنه شيءٌ مطَّردٌ مستمرٌ ، وأنه دعوةٌ إلى الإيمان بالقدرة الكاملة التي خلقت الأسباب ، ولا تزال تملكها ، وتصرِّفها كيف تشاء ، وتشغلها متى تشاء ، وتعطِّلها متى تشاء ، وأنَّها ـ كما قلنا في المحاضرة السابقة ـ لم تعطل ولم تضعف بعد أن خلقتها ، ولم تتخلَّ عنها بعد أن ملكتها من أرادت ، وأنها ليست في الخلق والإبداع والنصر والغلبة في حاجة إلى الأسباب ، إنه دعوة إلى الإيمان بقوة الحقِّ وصلاحيته للبقاء ، وبضعف الباطل وسخافته وتهيُّئه للانكسار والاندحار: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]. ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨] ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

تـشجيـعٌ علـى الـتجـربـة وإطمـاعٌ فـي رحمـة الله:

وهذا النَّمط من القصص القرآنيَّة دعوةٌ إلى التوكُّل على الله تعالى ونصره ، وإن اختلف الزمان والمكان ، والاعتماد على الدَّعوة وحسن السيرة والعمل الصالح ، وإن اكفهرَّ الجوُّ ، وقسا الزَّمان ، وإن معجزات النصر ، وعجائب القدرة الإلهية تتكرَّر ، فإذا ذكر القرآن ما أكرم الله به

الرسل من النصر والفتح المبين ، وقبول الدُّعاء ، والغلبة على الأعداء ذكر ما يشجع أتباعهم والحاملين لدعوتهم على هذه التجربة ، ويطمِّعهم في رحمة الله ، يقول بعد ما ذكر ما أكرم الله به نبيه أيوب : ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٤] ، ويقول عن يونس : ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٨] ويقول : ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات : ١٢٠ ـ ١٢١] ، ويقول : ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [ص : ١٣٠ ـ ١٣١] ويقول بعد ما يذكر قصة لوط : ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ [القمر : ٣٥].

ولذلك لم تكن هذه القصص التي تكون جزءاً كبيراً من القرآن قصص فكاهة وتسلية ، أو مادة معلوماتٍ تاريخيةٍ ، إنما هي موعظةٌ وذكرى ، وحثٌّ ، ودعوةٌ ، وإرشادٌ ، وتوجيهٌ ، وتشجيعٌ ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف : ١١١] ، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود : ١٢٠].

سنة الله مع جميع أنبيائه :

لقد كانت هذه سنَّةُ الله مع جميع أنبيائه ، فنوحٌ يقول له قومه : ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء : ١١١] ويقول مبتهلاً إلى الله مستغيثاً على ضعفه : ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر : ١٠] ولوطٌ يقول لقومه : ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود : ٨٠].

وشعيب يقول له قومه : ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود : ٩١] وفرعون يقول عن نفسه وعن موسى في صراحةٍ ووقاحةٍ : ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ

مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٣].

أما أممهم التي بعثوا إليها؛ فقد كانت ذات الطول والحول، وذات العدَّة والعتاد، وذات الزروع والضروع، وقد مرَّ قول هود عليه السلام لقومه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٣٢ ـ ١٣٤] وقول صالح لقومه: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٤٩] وقول شعيب لقومه: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ [هود: ٨٤] ولكن ماذا كانت النتيجة؟ اقرؤوها مجموعةً في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

أعظم تحدٍّ للماديَّة المسرفة، وأكبر ثورةٍ على عبادة الأسباب:

أمَّا قصَّة إبراهيم المعادة المكررة في القرآن؛ فهي أعظم تحدٍّ لتأثير الأسباب واستقلالها، وأعظم شاهدٍ للاستخفاف بقوتها وأصحابها، وأعظم دليلٍ على ضعفها وعدم غَنائها عن أربابها، وكأنَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان مأموراً بالاستخفاف بهذه الأسباب وأربابها المدلِّين بها، المقدِّسين لها، العاكفين على عبادتها، والاعتماد عليها، وكأنه ـ وهو رسول التوحيد وإمام الموحِّدين في عصره ـ كانت لذَّته، وشفاء نفسه، وغذاء روحه، وقرَّة عينه في الاستهزاء بهذه الأسباب، وعدم الاحتفال بها، والتغلُّب عليها بنصر الله، وإبطال خواصِّها وطبائعها المودعة فيها، وكأنه كان يلتزم في كلِّ خطوةٍ من خطوات رحلته الإيمانية التوحيدية الطويلة الموفَّقة أن يدوسها بقدمه، ويسخر منها بعزمه، ويسجِّل انتصاراً جديداً للإيمان على الشكِّ، والرُّوح على المادة، والتوحيد على نظام الشرك، وقد عاش طول حياته ثائراً على ما حوله من القوَّة والسُّلطان وعبادة المادَّة والمعدة، والآلهة الزائفة، والقوى المخيفة.

والسرُّ في ذلك: أنَّ العالم في عصر إبراهيم عليه السلام كان خاضعاً للأسباب خضوعاً شديداً، واعتمد الناس عليها اعتماداً زائداً، حتى أصبحوا يعتقدون أنَّها مؤثرةٌ مستقلةٌ قائمةٌ بذاتها، وحتى أصبحت أرباباً من دون الله، وأصبح هذا الخضوع للأسباب وتقديسها، والاعتماد عليها وثنيةً أخرى غير الوثنية التي أغرقوا فيها، وغلوا في عبادة الأصنام والأوثان، وكانت حياة إبراهيم ثورةً على الوثنيِّين، ودعوةً إلى التوحيد النقيِّ الخالص، وتحقيقاً لقدرة الله الواسعة المحيطة بكلِّ شيء، وأنَّه يخلق الأشياء من عدم، وأنَّه يخلق الأسباب ويملكها، ويفصل الأسباب عن المسببات، وينزع عن الأشياء خواصَّها وطبيعتها، ويستخرج منها أضدادها، ويسخرها لما يشاء، ومتى يشاء.

أشعل النَّاس له النيران وقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨] وكان إبراهيم يؤمن بأن النار خاضعةٌ لإرادة الله تعالى، ليس الإحراق لها طبيعةٌ دائمة لا تنفكُّ عنها، إنما هي طبيعة مودعةٌ أمانةً فيها، إذا أراد أطلق لها العنان، وإذا أراد أمسك الزمام، وحوَّلها إلى بردٍ وسلام، فخاضها مؤمناً، مطمئناً، واثقاً، وهكذا كان ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩ ـ ٧٠].

واعتقد الناس أنَّه لا حياة إلا بالخصب، والميرة، والماء الغزير، فكانوا يرتادون لأسرهم وأبنائهم، ويختارون لسكنهم ووطنهم أراضي مخصبةً تكثر فيها المياه، ويتوفَّر فيها الخصب، وتسهل التجارة والصناعات، وقد ثار إبراهيم على هذه العادة المتبعة، والعرف الشائع، والاعتماد على الأسباب، فاختار لأسرته الصغيرة ـ المكونة من أم وابن ـ وادياً غير ذي زرع، لا زراعة فيه، ولا تجارة، منقطعاً عن العالم ومراكزه التجارية، ومواضع الرَّخاء والثراء، ودعا الله تعالى أن يوسع لهم الرزق، ويعطف إليهم القلوب، ويجبي إليهم الثمرات، من غير سببٍ وطريقٍ معروف فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا

لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وأجاب الله دعاءه، فضمن لهم بالرزق والأمن، وجعل بلدهم محطاً للخيرات والثمرات ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧] ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٣ ـ ٤] تركهم في أرضٍ لا أثر فيها لما يروي الغلة، ويبل الحلقوم، فإذا بماءٍ يفور من الرمال، ويفيض من غير انقطاع، يشربه الناس في سخاءٍ، ويحملونه إلى بلادهم. ويترك أهله في بلدٍ قفرٍ لا أنيس فيه، فإذا به يصبح مكاناً يؤمُّه الناس من كلِّ صوبٍ، ويأتون إليه من كل فجٍ عميق.

وهكذا كانت حياة إبراهيم تحدِّياً للمادِّيَّة المسرفة الشائعة في عصره، وعبادة الأسباب، واتخاذها أرباباً من دون الله، ومثالاً للإيمان بالله وقدرته المطلقة، وأنَّ إرادته فوق كل شيء، وهكذا كانت سنة الله معه يخضع له الأسباب، ويخلق له ما تحار فيه الألباب.

تحدِّي قصة موسى للعقل المادِّيِّ الضَّيِّق:

وتلي قصة إبراهيم قصة موسى في تحدِّيها الصارخ للعقل المادِّيِّ الذي ينظر إلى الأسباب والحوادث كقوانين أبديةٍ، حامدةٍ، طبيعيةٍ، لا سلطان عليها لأحدٍ، وقوىً قاهرةٍ تحكم، ولا يحكم عليها، وجاءت محنةً وبلاءً للذين ضاق تفكيرهم، وكلَّت أبصارهم عن أن تنظر إلى ما هو وراء الأسباب وإلى من هو فوق الأسباب، وهنا أستعير ما كتبت في مقالة لي سابقةٍ أستعرض قصة موسى في القرآن وما فيها من عبرةٍ وذكرى.

«يولد موسى في مصر في بيئةٍ قاتمةٍ خانقةٍ، وقد انطبقت على بني إسرائيل كلَّ الانطباق، وسدَّت في وجوههم المنافذ والأبواب، حاضرٌ شقيٌّ ومستقبلٌ مظلمٌ، قلة عددٍ، وفقرُ وسائل، وذلةُ نفوس، عدوٌّ قاهرٌ، وسخرة ظالمة، لا قوة تدافع، ولا دولة تحمي، أمةٌ مصيرها معلومٌ محتومٌ قد خلقت للشقاء والفناء.

ويولد موسى ، وولادته وحياته كلُّها تحدٍّ لفلسفة الأسباب ، ومنطق الأشياء ، أراد فرعون أن لا يولد فولد ، وأراد ألا يعيش فعاش ، يعيش في صندوقٍ خشبيٍّ مسدود ، وفي ماء النيل الفائض ، وينشأ في حضانة العدو ورعاية القاتل ، ويجدُّ به الطلب القويُّ الساهر ، فيفلت وينجو ، ويأوي إلى ظلِّ شجرةٍ كئيباً غريباً فيجد الضيافة الكريمة ، والزواج الحبيب ، ويرجع بأهله فيلفُّه الليل المظلم ، والطريق الموحش ، وتتمخض زوجه فيطلب لها ناراً تصطلي بها فيجد نوراً يسعد به بنو إسرائيل ويهتدي به العالم ، يطلب النَّجدة والمدد لامرأةٍ واحدةٍ ، فيجد النَّجدة والمدد للإنسانية كلِّها ، ويكرم بالنبوة والرسالة .

ويدخل على فرعون في أبهته وسلطانه ، وفي ملئه وأعوانه ، وهو المطلوب بالأمس ، قد تحققت عليه الجناية ، وتوجهت إليه الدَّعوى ، وفي لسانه حبسةٌ ، وفي موقفه ضعفٌ ، فيقهر فرعون وملأه بدعوته وإيمانه ، وحجته ، وبيانه ، ويلجأ فرعون إلى سحرة مصر ليقهر بفنهم معجزة موسى التي ظنَّها فنّاً وسحراً ، فإذا بالسحرة خاضعون خاشعون ، يقولون : ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء : ٤٧ ـ ٤٨] .

ويؤمر بالخروج ببني إسرائيل والإسراء في الليل من أرض الظلم إلى أرض النجاة ، ويتبعه فرعون بجنوده ، ويصبح موسى ، والبحر أمامه ، والعدو من ورائه ، ويخوض البحر ، فينفلق ، ويكون كلُّ فرقٍ كالطود العظيم ، ويعبر موسى وقومه ، ويتبعهم فرعون بجنوده فيلتهمهم البحر الهائج .

وهكذا يهلك فرعون وقومه الأقوياء الأغنياء ، ويملك بنو إسرائيل الضعفاء الفقراء ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف : ١٣٧] .

مـخـالفـة قصـة يـوسـف للـمـألـوف الـمعـروف :

ولا تقل قصة يوسف في الغرابة ومخالفتها للمألوف المعروف من جريان الحوادث على السنن الطبيعي ، خاضعة لقانون العلّة والمعلول ، والسبب والمسبَّب. فقد اجتمع له من حسد الأخوة ، وكيدهم له ، والبقاء في غيابة الجب مدَّةً من الزمان ، والتقاط السَّيارة له ، والرِّق ما هو كفيل بالتعرض للهلاك ، والأذى ، والهوان. ولكنَّه يخرج من كلِّ هذا سليماً معافى ، ويعيش ، ويجتمع له من الوقوع في امتحانٍ شديدٍ في العفة ، والنزاهة ، والوفاء ، والشرف ، ويعصم مع توفر الدَّواعي القوية ، والمغريات القاهرة والإغراء ـ من شبابٍ ، وجمالٍ ، وطلبٍ ، وإلحاحٍ شديدٍ من جانبٍ له الفضل ، وله السلطان ، وله الاستهواء ـ والتصاق التهمة الشنيعة به ، والدخول في السجن في تهمةٍ خلقية ، وفي عصرٍ لم يكن السجن فيه إلاَّ رمزاً للجريمة ، ولم يكن إلا مكان الأشقياء ، ومن سوء القالة والأحدوثة في البلد ، وقد كان زيادة على كل ذلك غريباً عن مصر لا يتَّصل بها بجنسيةٍ ووطنيَّةٍ ، وكان فرداً من شعبٍ ينظر إليه المصريون باحتقارٍ ، واستخفاف كبير ، وكان الإسرائيليُّ آخر من يفكَّر فيه لشرفٍ ، أو حكومةٍ في مصر ، كلُّ ذلك كفيلٌ بإخمال ذكره ، وإضعاف شأنه ، وإساءة شهرته ، وحرمانه من كلِّ ثقةٍ وتكريمٍ ، وبعده عن كل مركز محترمٍ ومكانٍ مرموقٍ في المجتمع المصري ، فضلاً عن إمارة وسيادةٍ ، فضلاً عن تقليد منصبٍ جليلٍ لا يحصل عليه إلا السيد الكريم ، الحفيظ العليم ، فضلاً عن أن يكون سيد مصر المطاع ، يأمر ، وينهى ، ويرجى ، ويخشى ، ولكن عكس ذلك يقع بين سمع الناس وبصرهم ، ويتربَّع يوسف على أريكة مصر ، ويتقلَّد مفاتيحها ، وزمام الأمور فيها ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف : ٥٦].

مماثلـةٌ بيـن قصـة يـوسـف ومحمـدٍ صلـى الله عـليهـمـا وسلـم :

إنَّ آخر الرسل ﷺ ومن آمن به ، ووضع يده في يده من أفراد قريش كانوا يواجهون مثل هذه الأجواء القاتمة ، ومثل هذه المشكلات قلةَ عددٍ ،

وضعف شأنٍ ، وفقد أسبابٍ ، وخذلانٍ من العشيرة ، ومحاربةٍ شديدةٍ من القوم ، ومقاطعةٍ ، وتطويقٍ ، وإحصارٍ ، وتضييقٍ ، وصدٍّ عن سبيل الله ، وتعذيبٍ شديدٍ للمهتدين الذين كانوا يسمُّونهم «الصابئين» و«السفهاء» ، وتآمرٍ على قتل الرسول ، ذعرٌ دائمٌ ، وخوفٌ قائم ، ولا بيان أبلغ من بيان القرآن ، ولا تصوير أدقُّ وأصدق من تصويره: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [الأنفال: ٢٦].

تبشيرٌ لرسول الله بالنَّصر الكريم والمستقبل العظيم:

في هذه الأجواء القاتمة التي لا تثير أملاً ، ولا تبشر بمستقبلٍ ، ولا يرى فيها وميضٌ من النور ، قصَّ الله على رسوله قصة يوسف ، وسيرته ﷺ من أشبه السير به ، وقصته مع قبيلته قريش كقصة يوسف مع إخوته ، حسدٌ ، ومحاربةٌ في البداية ، واعترافٌ ، وإجلالٌ وندمٌ في النهاية ، وإبعادٌ وإقصاءٌ ، ونكرانٌ وجفاءٌ في الأول ، وخضوعٌ ، والتجاءٌ ، واستعطافٌ ، واستجداءٌ في الآخر ، وغيابة الجبِّ في محنة يوسف ، وغار ثور في رحلة محمد ﷺ ، وسجنٌ في قصة ابن يعقوب وشعبُ أبي طالب في قصة ابن عبد المطلب ، وتقريرٌ وإعلانٌ من أعداء كلِّ واحدٍ منهما ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩١] والجواب الرفيق الكريم من كلا السيدين الرفيقين الكريمين ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] وقد بدأ القرآن هذه القصة العظيمة بقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] وختمها بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وهكذا نزلت هذه السورة في جوٍّ مكة الثقيل المظلم ليبشر رسول الله ﷺ بمستقبله العظيم المشرق الزاهر ، فكأنَّ قصة يوسف قصته ، ولم تزل الكناية ـ في الجوِّ المعادي الرَّهيب ـ أبلغ من التصريح دائماً.

انتصارٌ مقرونٌ بانتصار الأمّة :

ثم قصَّ الله عليه ﷺ قصة موسى مع فرعون ، وملئه ، القصة التي قصَّها في سورة القصص ، وهي قصة فوز موسى ، وسلامته من فرعون ، وكيده وتشرُّفه بالرسالة العظمى والنبوة الكريمة ، وهو لا يطمع إلا في نارٍ يصطلي بها ، وتتدفأ بها زوجه ، وهلاك العدوِّ ونجاة بني إسرائيل ، وفوزهم ، وسيادتهم ، وقد افتتح هذه القصة بمقدمةٍ مجلجلةٍ عظيمةٍ ، كانت جديرةً بأن تخلع قلوب الأعداء من قريش ، وتملأها هيبةً وإشفاقاً من مستقبل هذه الجماعة المؤمنة الصغيرة الضعيفة ، التي كانت قريش لا تحسب لها حساباً ، وكانت تريد أن تلتهمها التهاماً فقال : ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ١ ـ ٦].

مصدر القوّة والثقة والأمل للدُّعاة والعاملين والمؤمنين الصالحين :

ولم تكن هذه القصص البليغة القويّة تسليةً ، وتقويةً لقلب الرّسول ﷺ فحسب ، كما قال : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : ١٢٠] بل كانت ولا تزال هذه القصص الصادقة مصدر القوة ورباطة الجأش ، والأمل المشرق الوطيد ، والثِّقة القويّة بالنجاح ، والفوز ، والفلاح ، والانتصار على المعارضين للدعاة ، والعاملين الذين يعملون على نهج النبوة وعلى طريق الأنبياء ، ويقومون بالدَّعوة إلى الإيمان ، والعمل الصَّالح ، وتقوى الله ، ويصبرون على الأذى ، ويثابرون على الجهاد ، ويرابطون في سبيل الله ، وقد قال الله تعالى في قصة موسى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾

[الأعراف: ١٢٧] وقال يوسف مجيباً معلّلاً لما أكرمه الله به من النجاح الخارق للعادة: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وليعلموا أنَّ هذه سنة الله التي لا تتخلف، وأنَّ الدعوة والكفاح على منهاج الأنبياء، والإيمان، والعمل الصَّالح، والطاعة، والصبر، والسيرة الحسنة الفاضلة شجرة تؤتي أكلها كلَّ حينٍ بإذن ربها، وأنَّ الفرد الضعيف مع هذه الصفات قويٌّ، وأنَّ العدد القليلِ مع هذه الأخلاق كثيرٌ ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٩] ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

ولم تكن هذه القصص مصدر القوة والعبرة للأجيال بعد الأجيال إلَّا بهذا الأسلوب الإيمانيِّ القويِّ، وإلَّا إذا كانت دليلاً على أنَّ دعوة الأنبياء هي التي يكتب لها الانتصار، والازدهار، وأنَّ الصفات والسيرة والأخلاق التي يرضاها الله هي التي يقدر لها الفوز والفلاح، مهما عارضتها الأسباب، وتألفت ضدَّها القوى، وتداعى عليها الأعداء، ومهما ضعف أصحاب هذه الدعوة النَّبويّة والسيرة المرضية ماديّاً ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

إمَّا الإيمان بدعوة الأنبياء وإمَّا الهلاك والدَّمار:

إنَّ سيرة الأنبياء التي حكاها الله تعالى في كتابه في إجمالٍ تارةً وفي تفصيلٍ أخرى، وذكرها مراراً وتكراراً تجمع بينها نقطة لا تختلف، وهي: انتصار دعوتهم على جميع المعارضات، وفوزهم على أعدائهم، إمَّا بإيمان هؤلاء الأعداء، وقبولهم للدعوة، وإخلاصهم لها، وتفانيهم في سبيلها، وإمَّا بهلاكهم، ودمارهم ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

لا قيمة للمصالح الفردية والقوميّة:

وهذه منزلةُ هذه الدعوة عند الله التي تتوقف عليها سعادة الإنسانية،

ونجاتها ، يخرق الله لها أحياناً نواميس الفطرة ، وكثيراً من القوانين الطبيعية ، ويحدث ما لا يخطر على بال ، أمَّا المصالح الفردية ، أو القومية ، أو حبُّ العلوِّ ، والسيادة ، والطُّموح ، والكبرياء ، والزعامات الزائفة التي لا تبني خيراً ، ولا تهدم شرّاً ، وليس للإسلام والإنسانية فيها مصلحة ، وليس لها مع قوى الشرِّ ومع الفساد والكفر والفسوق نزاع ، إنما تسعى وتناضل لأن يكون كل هذا الفساد ، وكلُّ هذه المعاصي تحت سيطرتها وإشرافها ، وفي ولايتها ، وحضانتها ، وأن يعود نفعها إليها ، فلا قيمة لها عند الله ، ولا تعدل عنده جناح بعوضة ، ولا يبالي الله في أيِّ وادٍ هلكت ، وأيِّ عدو تسلط عليها ، ومتى يفاجئها الموت ، أو ثورةٌ عارمةٌ جبارةٌ لا ترحم ، ولا ترثي ، وأزماتٌ ومشكلاتٌ لا أوَّل لها ، ولا آخر.

التفكير الخاطىء السائد :

إنَّ التفكير السائد مع الأسف اليوم في الشعوب الإسلامية ، وفي أنحاء العالم الإسلاميِّ ، والمنطق المقبول الذي خضعت له جميع الطبقات ، وآمنت به إيماناً راسخاً ، هو أنَّ الميزان الفاصل هو القوَّة المادِّيَّة مع كلِّ سيرةٍ وخلقٍ ، ومع كلِّ عقيدةٍ ومنهجٍ للحياة ، وأصبح من عقيدة العاملين ، وحتى دعاة الدِّين وهتافهم «المادةُ قبل كلِّ شيء» وهذا المبدأ هو الذي تنقضه ، وتبطله سيرة الأنبياء المرسلين ، وما جرى لهم من الحوادث ، وما ظهر على أيديهم من العجائب والمعجزات ، وما أكرمهم الله به من النَّصر والفتح المبين ، وما فعل بأعدائهم.

وهنا أستعير مرَّةً ثانيةً ما قلته في رسالتي «ثورة في التفكير» :

«منذ مدَّةٍ طويلةٍ بدأنا نزن أنفسنا وقيمتنا ومكانتنا في خارطة العالم بهذه «الطاقات» و«الإمكانيَّات» وبما نملكه من الوسائل ، والمواد الخامِّ وحاصلات البلاد ومنتجاتها ، وعدد النفوس ، والقوَّة الحربية ، فنرى كفتنا راجحةً في إقليم ، طائشة في آخر ، راجحةً في حينٍ ، طائشةً في حينٍ آخر.

ومنذ مدَّةٍ طويلةٍ آمنَّا بسيادة الغرب ، وقيادته ، وأنه أمرٌ مقرَّرٌ ، وواقعٌ ليس منه مفرٌّ ، وآمنَّا بأنه وضعٌ لا يقبل التحوُّل والتطوُّر ، وتجدَّد المثل القديم ، وأصبح عقيدةً شائعةً «إذا قيل لك : إنَّ التتر انهزموا فلا تصدِّق» .

وأصبحنا لا نفكِّر في معارضة الغرب ومناقشة سيادته ، وجدارته للسيادة ، وإذا فكَّرنا في ذلك ـ على حين غفلةٍ من العلوم ، والدراسة ، والعقل ، والكياسة ـ استعرضنا طاقاتنا ، ووسائلنا ، والقوة الحربية في بلادنا ، وسهمنا من المخترعات الحربية ، والطاقات الذرِّية ، فاستولى علينا اليأس ، والتشاؤم ، وآمنَّا بأنَّنا لم نخلق إلا للخضوع والخنوع ، والعيش على هامش الحياة ، وعيالاً على الغرب ، ومرتبطين معقودي النواصي بأحد المعسكرين المتنافسين»(١) .

سـلاح الـمـؤمن ومـفـتـاح الـنَّـجـاح والإيـمـان والـطـاعـة :

ولكن ما قصَّ الله علينا من سيرة الأنبياء ومصير أعدائهم في القرآن ـ وقد عرضنا بعض أمثلتها الرائعة في هذه المحاضرة ـ تعارض هذا التفكير على الخطِّ المستقيم ، وتبيِّن لنا بوضوحٍ أنَّ سرَّ انتصارهم ، والسلاح الذي واجهوا به أعداءهم ، وانتصرت به جماعتهم الصغيرة المستضعفة ، وتبوَّأت الإمامة والزعامة في العالم هو «الإيمان» و«الطاعة» و«الدعوة إلى الله» ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] و﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٨٧] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمَّد : ٧] ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمَّد : ٣٥] .

لا مستقبـل لـلأمَّـة الإسـلاميـة إلا فـي طـريـق الأنـبـيـاء :

هذه رسالة هذه القصص الحكيمة البليغة الصَّادقة ، وهذا هو الدرس الحكيم الذي تلقيه علينا حياة الأنبياء وسيرتهم الفاضلة ، وهذا هو المنهج

(١) «ثورة في التفكير» ص/ ٢ ـ ٣ .

الرَّشيد الذي سار عليه الأنبياء من غير استثناء ، وسجَّله عليهم القرآن ، ولا أمل للأمم الضعيفة إلا في هذا المنهج ، ولا مستقبل للأمم التي تؤمن بالمبادىء ، وتحتضن الدعوات إلا في هذا الطريق ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

* * *

المحاضرة الخامسة

عَظمَة البعثة المحَمّديّة

نكبة العصر الجاهليّ:

لم تكن نكبة الجاهلية ـ هذا العصر الذي أطبق المؤرخون على انحطاطه وسواده ـ انتشارَ الكفر والفجور ، والمعاصي والآثام ، والظلم والطغيان ، وإهدار كرامة الإنسان ، والاعتداء على حقوقه ، وتغلُّب الحكومات الجائرة ، والملوك الجبابرة ، ولم تكن نكبتها قلةَ عدد الصَّالحين العابدين لله ، وضعفهم ، وكلُّ ذلك ما يؤسف له ، ولكنه وقع مراراً في تاريخ الإنسانية الطويل ، وعالجه رجال الإصلاح والدعوة ، وأهل الضمائر الحية ، والعزائم القوية في عصورهم.

ولكن نكبة الجاهلية التي جاءت لإزالتها والتغلب عليها البعثة المحمدية التي اختارها الله لمعالجة أعظم نكبةٍ ونكسةٍ للإنسانية ، هي فقدان العلمِ الصحيح من العالم ، والإرادة الخيِّرة ، وفقدان الجماعة التي تنتصر للحقِّ وتحارب الباطل ، وتصارع الشرَّ ، وتبني عالماً جديداً.

فقدان العلم الصَّحيح:

لقد فقد العلم الصَّحيح الذي يعرف به الإنسان ربَّه معرفةً صحيحةً ، ويصل به إلى خالقه ، ويعبده به عبادةً خالصةً مرضية ، حتى إذا وجدت الإرادة الصحيحة القوية ، والطلب الصَّادق؛ لم ينتفع به صاحبه ، وكلُّ علمٍ وجد في هذا العصر مشوبٌ بالجهل ، ممزوجٌ بالخرافة ، منحرفٌ عن الأصل ، خطؤه أكثر من صوابه ، وضرره أكبر من نفعه.

فقـدان الإرادة الـخيِّـرة الـقـويَّـة :

وإذا وجد هذا العلم الصَّحيح على ندرته في صدرٍ من صدور العلماء ، أو في كتابٍ من كتب الحكماء ، أو كأثارةٍ من علمٍ نزل قديماً من السماء ؛ لم نجد الإرادة الخيِّرة القويَّة التي تلتقطه من مكانه ، وتعضُّ عليه بالنواجذ ، وتتغلَّب به على شهوات نفسه ، ومعارضة بيئته ، فقد فُقدت عاطفة الطلب لله والبحث عن الحق ، وكلّت العزائم والقوى في هذا الطلب ، وانصرفت إلى طلب المعاش وإرضاء الشَّهوات ، وتحقيق مطالب النَّفس ، وطاعة السلاطين العمياء ، والاستماتة في سبلهم ، وانطفأت جذوة الحب وبردت مجامر القلوب . واستحوذ عليها حب الدنيا ، وما بقي من مظاهر الدين ؛ فإمَّا وثنيةٌ خرافيةٌ ، وإما تقاليد سطحيةٌ .

فقـدان الـجمـاعـة الـتـي تـنتـصـر للحـقِّ :

«وإذا وُجد العلم الصَّحيح والإرادة الخيِّرة ؛ لم توجد الجماعة التي يلتجئان إليها في الشدَّة ، ويستمدَّان منها القوَّة عند الضعف ، فضاعا في جهـودٍ فرديَّـةٍ ، وإصلاحاتٍ شخصيَّـةٍ ، وكان هؤلاء الأفراد ـ الملتجئون إلى الكنائس والأديار ، أو المغارات ، وقلل الجبال ـ مصابيحَ احترقت ذبالـتُـها ، ونفد زيـتُـها ، وخفت نورُها ، أو كيراعات تطيـر في ليلةٍ شاتيةٍ مطيرةٍ مظلمـةٍ ، لا يهتـدي بها المسافر التائه ، ولا يتدفأ بها الفقير المقرور .

الحـاجـة إلـى طلـوع شـمـسٍ جـديـدةٍ :

أمَّا العلم الصَّحيح الذي يهدي الناس إلى فاطر هذا الكون وصفاته اللائقة به ، وأسمائه الحسنى ، ويصلهم به صلة جديدةً قويَّةً ، ويملأ العقول يقيناً جديداً ، والقلوب حبّاً شديداً ، وينفي تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الشكِّ إلى اليقين ، فلم يكن إلا علماً محفوظاً ، غضّاً ، طريّاً ، منزَّلاً من السماء حديث عهدٍ بربِّه ، وكانت النبوة الجديدة وحدها هي التي تستطيع ـ بإذن الله ـ أن تغيِّر هذا الوضع الفاسد المحيط بالإنسانية كلِّها ، ويردع أهل الشرك

والوثنية من خرافتهم ، وأهل الكتب من اليهود والنَّصارى والمجوس من تحريـفهم وجهالـتـهم ، ويعترفـون هم جميعـاً ـ إذا أنصفوا وخافـوا الله ـ بأنَّ الـنُّجوم قـد أفلت ، وأنَّ شمساً جديـدة قد طلعت ، وأنَّ الصباح قد أغنى عن الـمصباح ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ١ ـ ٣].

تعـاون الـفـلسفـة والـوثـنيـة علـى إضعـاف الإيمـان وإضـلال الإنسـان:

وكانت الإرادة الخيِّرة القويَّة خاضعةً دائماً للعلم الصحيح ، والإيمان القويِّ ، فإذا آمن الإنسان بحقائق ، وآمن بمضارَّ ومنافع ، وخاف ورجا ، ورغب ورهب؛ تبعت ذلك إرادته ، وطاوعته أعضاؤه ، واستجابت له قواه ، ولكنْ فَـقْدُ الإيمان القويِّ في العصر الجاهلي ، وشكُّ الإنسان في وجود الله ، وفي وجود الآخرة ، وفي وجود الجنَّة والنَّار ، وفي نتائج أعماله وتصرفاته ، وتعاونت الفلسفة والشِّرك على إضعاف هذا الإيمان ، وإضعاف رابطة العبد وربه ، أما الأولى؛ فبالإلحاح الشَّديد على نفي الصفات. وأمَّا الثاني؛ فبصرف هذه الصفات إلى المخلوقات ، فمن آمن بالأولى لم ير حاجةً للالتجاء والخوف والطمع من هذا الخالق؛ الذي تجرَّد عن كلِّ صفة ، وعن كلِّ قدرة ، وعن الرَّحمة والمحبة ، ومن آمن بالثاني تشاغل بالمخلوقات ، والالتجاء إليها ولم ير حاجةً ، أو لم يجد فراغاً للالتجاء إلى ربٍّ لا يُرى بالأبصار ، قد تنازل لكثيرٍ من خلقه في أمور العباد.

وهكذا توزَّع العالم في معسكرين: معسكرٍ لا يجد في نفسه اندفاعاً وداعيةً للالتجاء ، والدُّعاء ، والسعي للآخرة ، ومعسكرٍ لا يجد فرصةً للسؤال عن ربِّ الأرباب ، ووجد كلاهما مرتعاً خصيباً في العصر الجاهليِّ ، وهكذا ضاعت الإنابة المودعة في قلب الإنسان ، وضاعت القوى الغنية المودعة في أعضاء الإنسان ، في جحودٍ وخمودٍ ، وفي وثنيةٍ وخرافةٍ ، وفي عبادة النفس والسلطان ، والطاغوت والشيطان ، وعكف

العالم الإنسانيُّ كلُّه من الشرق إلى الغرب على عبادة أصنامٍ وآلهةٍ قد تخيَّلها ، أو توارثها ، أو مقاصد وغايات ومثلٍ عليا في الحياة قد اخترعها ، وفرضها على نفسه ، وحقَّ عليهم كلِّهم قولُ إبراهيم قال : ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا نَنْحِتُونَ﴾ [الصافات : ٩٥] .

لا يغيِّر الوضع الجاهليَّ إلا الإيمان النَّبويُّ القويُّ العالميُّ :

ولم يكن لغير نبيٍّ مؤيَّدٍ من الله ، صاحب قوَّةٍ قدسيَّةٍ وشخصيَّةٍ نبويَّةٍ أن يعيد هذا الإيمان الضائع ، المفقود من قرونٍ متطاولةٍ إلى قلب الإنسان ، ويشغله بطلبٍ جديدٍ وحبٍّ جديدٍ ، ويصرف إرادته القويَّة من طلب الدنيا الحلوة الخضرة ، وتحقيق مطالب النفس العزيزة اللذيذة ، وإرضاء السَّلاطين الأقوياء الأغنياء ، إلى طلب الله تعالى ؛ الذي لا تدركه الأبصار ، وإفناء قواه في مرضاته ، وبذل المهجة والنفس والنفيس في سبيله إيماناً بموعوده ، وطمعاً في ثواب الآخرة ، إنَّه يحتاج إلى إرادة لا تثنيها الجبال ، ولا توهنها معارضة الجنِّ والإنس ، «لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه»[1] إرادةٌ اقتضتها الرحمة الإلهية بالإنسان ، فلا بدَّ أن تقوى وتتحكّم ، ولا بدَّ أن تتحقَّق ، وتتمَّ ، إنه يحتاج إلى إيمان لو وزع على العالم كلِّه ، وعلى الإنسانية كلِّها لوسعها ، وبدَّل شكَّه يقيناً ، وضعفه قوةً ، إيمانٍ كان ينطق على لسان صاحبه في ساعة تخرس فيها الألسن ، وتزيغ فيها الأبصار ، وقد قام الأعداء الألدَّاء على وجه الغار ، ويقول : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠] وكان يرى من أمدٍ بعيدٍ وفي ظلامٍ شديدٍ في يد سراقة الفقير البدويِّ سِواريْ كسرى إمبراطور فارس ، وكانَ يرى في جوع قد مسَّ ، وحصارٍ قد طال في شرارة صخرة الخندق التي كسرها ؛ القَصرَ الأبيضَ لقيصر الإمبراطور الثاني ، إنَّه لا يمكن تغيير هذا الوضع الجاهليِّ العالميِّ ، وإعادة الحياة واليقين ، والحماسة الدِّينية إليه إلا بهذا الإيمان القويِّ النبويِّ ، وإلا بهذه الإرادة الإلهيَّة

(١) من قول رسول الله ﷺ ، انظره في «البداية والنهاية» ج/ ٣ ص/ ٤٣ .

للإنسان الخير : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعــة : ٢] ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف : ٩].

الحاجة إلى أمّةٍ تُبعث للإصلاح والكفاح الدائم :

وكان هذا الفساد أعظمَ وأوسعَ من أن يتداركه أفرادٌ منتصرون ، ومصلحون موزَّعون ، أو عصابةٌ قويَّة ، أو مؤسسةٌ غنيَّةٌ ، فقد اتسع الخرق على الراقع ، وطمَّ الوادي على القرى ، إنما كان ذلك عمل أمةٍ تبعث وتتَّصل ، وتستمرُّ ، وتكافح ، وتناضل ، وتنتشر في أرض الله ، وتتحدَّى الباطل أينما كان ، وتجتثُّ الشرَّ أينما وجد ، وتملأ أرض الله قسطاً وعدلاً ، كما ملأت ظلماً وجوراً ، وكان العالم في حاجة إلى بعثة نبيٍّ من أعظم الأنبياء مقرونةً ببعثة أمَّة من أقوى الأمم ، وهكذا كان ، ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠].

هذه كانت البعثة المحمدية ـ أيها الإخوان ـ جاءت في أوانها ، وفي شدَّة حاجة الإنسانية إليها ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج : ٥ ـ ٦].

تأثير البعثة المحمَّدية :

«وإذا بهذه الجثَّة البشرية الهامدة ـ التي كانت تسمَّى النسل الإنسانيَّ ـ يدبُّ فيها دبيبُ الحياة. وإذا بهذا الجسد الميت يهتزُّ اهتزازاً تتزلزل به أوكار الطيور التي قد عشَّشتْ عليها ، وباضت وفرَّخت ، وهي تحسب أنها ميتةٌ لا حراك بها ، وإذا بيوت العناكب تتفتَّت وتتساقط ، وذلك ما يعبِّر عنه أصحاب السير والروايات في لغتهم المحدودة بارتجاج إيوان كسرى وخمود نار المجوس ، أما رأيتم كيف تتناثر المباني المجصَّصة والبروج المشيدة كأوراق الخريف بحركةٍ من باطن الأرض ، فيضطرب بها ظهر الأرض ،

فكيف لا تزلزل نظم كسرى وقيصر ، وما بناه فراعنة العصر ببعثة النَّبيِّ الأعظم ﷺ ، وطلوع فجر السَّعادة والعدل في العالم»[١] .

مولد عالمٍ جديدٍ:

لم يكن مولد رسول الله ﷺ وبعثتُه مولد نبيٍّ فحسب ، أو مولد أمَّة فحسب ، أو مولد عصرٍ فحسب ، إنَّما كان مولد عالمٍ جديدٍ بدأ من ولادته وبعثته ، وسيبقى إلى أن يرث الله هذه الأرض ومن عليها ، وقد تسربت آثار بعثته إلى هذا العالم ، وتغلغلت في أحشائه ، وخضع لها هذا العالم في عقيدته ، وفي أسلوب تفكيره ، وفي مدنيته ، وفي أخلاقه واجتماعه ، وفي علمه وثقافته ، حتى لا يمكن تجريده عنها ، ولو جرِّد منها؛ لحرم أغنى ثروة يملكها ، وأعظم قوةٍ يعتزُّ بها ، ولنكص على أعقابه ، ورجع إلى الوراء ، وهو يدين له في حياته؛ لأنَّ بعثته ﷺ هي التي منحته حقَّ الحياة ، ومدَّت في أجله ، وغلَّبت قوى الخير على قوى الشرِّ ، وأنقذته من سخط الله الذي أحاطه ، ولعنة الله التي حقت عليه ، والشؤم الذي أظله ، كان جديراً ـ قبل بعثته ـ بأن يطوي بساطه وينفض أساسه ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] «إنَّ الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم ، وعجمهم ؛ إلا بقايا من أهل الكتاب»[٢] .

تصوير للعصر الجاهليِّ:

وماذا رأى في الأرض ـ وهو العليم الخبير ـ لم ير إلا ساجداً لوثنٍ ، أو عابداً لبطنٍ ، وخاضعاً لسلطانٍ ، أو مطيَّةً لشيطان ، أمَّا الدِّين الخالص ، أمَّا الطلب الصادق ، أمَّا العلم الصحيح والعمل الصالح ، أمَّا الإخبات إلى الله ، والسعي للآخرة فأندر من الكبريت الأحمر ، وأغرب من العنقاء

(١) منقول من رسالة «معتقل الإنسانية» للعلامة الندوي .

(٢) حديث شريف .

المغرب ، وصدق شيخ الإسلام أحمد بن عبدِ الرحيم الدهلوي إذ قال ـ ولم أر تصويراً أدقَّ للجاهلية منه ـ :

«اعلم أنَّ العجم والروم لما توارثوا قروناً كثيرةً ، وخاضوا في لذَّة الدُّنيا ، ونسوا الدَّار الآخرة ، واستحوذ عليهم الشيطان ، وتعمَّقوا في مرافق المعيشة ، وتباهوا بها ، وورد عليهم حكماء الآفاق يستنبطون لهم دقائق المعيشة ومرافقها ، فما زالوا يعملون بها ، ويزيد بعضهم على بعض ويتباهون بها ، حتى قيل : إنهم كانوا يعيِّرون من كان يلبس من صناديدهم مِنطقةً ، أو تاجاً قيمتها دون مئة ألف درهم ، أو لا يكون له قصرٌ شامخٌ ، وآبزن ، وحمَّام ، وبساتين ، ولا يكون لهم دواب فارهةٌ ، وغلمان حسانٌ ، ولا يكون له توسع في المطاعم ، وتجمُّلٌ في الملابس ، وذكر ذلك يطول ، وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم ، فدخل كلُّ ذلك في أصول معاشهم ، وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزع ، وتولد من ذلك داءٌ عضالٌ ، دخل في جميع أعضاء المدينة ، وآفةٌ عظيمةٌ ، ولم يبق منهم أحد ، من أسواقهم ورستاقهم وغنيهم وفقيرهم ، إلا قد استولت عليه ، وأخذت بتلابيبه ، وأعجزته في نفسه ، وهاجت عليه غموماً وهموماً لا أرجاء لها ، وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموالٍ خطيرةٍ ، ولا تحصل إلا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم ، والتضييق عليهم ، فإن امتنعوا قاتلوهم ، وعذَّبوهم ، وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير ، والبقر يستعمل في النضح ، والدياس ، والحصاد ، ولا تقتنىٰ إلا ليستعان بها في الحاجات ، ثم لا تترك ساعةً من العناء ، حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السعادة الأخروية أصلاً ، ولا يستطيعون ذلك ، وربما كان إقليمٌ واسعٌ ليس فيه أحدٌ يهمُّه دينه»[١].

اتجاهٌ عالميٌّ جديد :

وقد غيَّرت البعثة المحمَّدية هذا الوضع ، وقلبته رأساً على عقب ،

---

(١) حجة الله البالغة (باب إقامة الارتفاقات وإصلاح الرسوم).

فاكتسحت العالم المتمدِّن كلَّه موجةٌ قويةٌ من الإيمان والطلب لله ، والجهاد في سبيله ، والسعي للآخرة وإدالة الإنسانية من أعدائها ، وإنهاض الأمم من كبوتها ، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، واتَّجهت إلى هذه الغاية همم أهل العزائم ، وكفاية أهل المواهب ، وذكاء الأذكياء ، وسليقة الأدباء ، وقريحة الشعراء ، وسيوف الأقوياء ، وأقلام العلماء ، وعبقرية النبغاء ، وكثر في هذا العالم الذي لم يكن يعرف غير ضربٍ واحدٍ ، وغير طرازٍ واحدٍ من الإنسانية ، وهو عابد النفس ، وأسير الشَّهوة ، وصريع الهوى .

كثر في هذا العالم في كلِّ عصرٍ ، وفي كلِّ بقعةٍ عبادٌ مخلصون ، وعلماء ربانيُّون ، وحكام عادلون ، وملوكٌ زاهدون ، وأبطالٌ مجاهدون ، لايحصيهم كثرةً من أحصى رمال عالج وحصى البطحاء ، يباهي بهم الله الملائكة ، ويقف أمامهم التاريخ خاشعاً ، والأعداء مقنعي رؤوسهم . وانتشر العلم الصحيح النافع ، والعمل الفاضل الصَّالح ، والإرادة الخيِّرة القويَّة ، والجماعة المؤمنة المجاهدة ، التي تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله ، وتجاهد في سبيل الله ، ولا تخاف لومة لائم ، واتَّصل تاريخ الإصلاح ، والجهاد ، والدَّعوة ، والإرشاد ، لا تتخلَّله فترةٌ «لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»[١] .

الأمَّـة الـمحمَّـديـة مـعجـزة الـرَّســول :

وقد أحسن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تصوير أثر البعثة المحمَّدية وفضلها وإنتاجها في كتابه «الجواب الصحيح» يقول رحمه الله :

«وسيرة الرسول ﷺ من آياته ، وأخلاقه ، وأقواله ، وأفعاله ، وشريعته من آياته ، وأمَّته من آياته ، وعلم أمته ودينُهم من آياته ، وكرامات صالحي أمَّته من آياته .

ولم يزل قائماً بأمر الله على أكمل طريقةٍ وأتمِّها من الصِّدق ، والعدل ،

---

(١) صحيح البخاري ج/ ٢ ص/ ١٠٨٧ .

والوفاء ، لا يحفظ له كذبةٌ واحدةٌ ، ولا ظلمٌ لأحدٍ ، ولا غدرٌ بأحدٍ ، بل كان أصدق الناس ، وأعدلهم ، وأوفاهم بالعهد مع اختلاف الأحوال عليه من حربٍ وسلمٍ ، وأمنٍ وخـوفٍ ، وغنىً وفقرٍ ، وقلةٍ وكثرةٍ ، وظهوره على العدوِّ تـارةً ، وظهور العدوِّ عليه تارةً ، وهو على ذلك كلِّه ملازم لأكمل الطـرق ، وأتمِّها ، حتى ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب ، التي كانت مملوءة من عبـادة الأوثان ، ومن أخبار الكهَّان ، وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق ، وسفك الدماء المحرَّمة ، وقطيعة الأرحام لا يعـرفـون آخـرةً ولا معـاداً ، فصـاروا أعلـم أهـل الأرض وأدينهـم ، وأعـدلهم ، وأفضلهم ، حتى إنَّ النصارى لما رأوهم من حين قـدموا الشام؛ قالوا: ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء. وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض وآثار غيرهم ، يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين.

وأمَّته أكمل الأمم في كلِّ فضيلةٍ ، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم؛ ظهر علمهم ، وإن قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم؛ ظهر أنَّهم أدين من غيرهم ، وإذا قيس شجاعتهم ، وجهادهم في سبيل الله وصبرهم على المكره في ذات الله ؛ ظهر أنَّهم أعظم جهاداً ، وأشجع قلوباً ، وإذا قيس سخاؤهم ، وبذلهم وسماحة أنفسهم لغيرهم؛ تبيَّن أنَّهم أسخى وأكرم من غيرهم ، وهذه الفضائل به نالوها ، ومنه تعلَّموها ، وهو الذي أمرهم بها ، لم يكونوا قبله متَّبعين لكتابٍ جاء هو بتكميله كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة ، وكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم ، بعضها من التوراة ، وبعضها من الزَّبور ، وبعضها من المسيح ، وبعضها ممَّن بعده ، كالحواريين ومَنْ بعد الحواريين ، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى أدخلوا ـ لما غيروا دين المسيح ـ في دين المسيح أموراً من أمور الكفار الناقضة لدين المسيح.

أمَّا أمَّة محمَّد ﷺ فلم يكونوا قبله يقرؤون كتاباً بل عامتهم ما آمنوا بموسى ، وعيسى ، وداود ، والتوراة ، والإنجيل ، والزبور إلا من جهته ، فهو الذي أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويقرُّوا بجميع الكتب المنزلة من

عند الله ، ونهاهم أن يفرِّقوا بين أحدٍ من الرسل ، فقال تعالى في الكتاب الذي جاء به : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٣٦ ـ ١٣٧][(١)] .

* * *

(١) مقتبس من «الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح» .

المحاضرة السادسة

مَـأثَـرَةُ الـنُّبـوة الـمحَمَّـديَّـةِ

أهميَّـة الإنــســان:

إنَّ مصير العالم لم يزل ولا يزال مربوطاً بناصية الإنسان، وفيه سرُّ سعادته وشقائه، فإذا وُجِد الإنسانُ الحقيقيُّ وفقد كلَّ ما يعتزُّ به هذا العالم من ثروةٍ وزينةٍ وجمالٍ، لم يكن رزءاً كبيراً، أو خسارةً فادحةً، وكان وجود الإنسان الحقيقيِّ خلفاً لكلِّ فائتٍ، وعوضاً عن كلِّ مفقودٍ، وسدّاً لكلِّ عوزٍ، وأعاد الإنسانُ إلى العالم بنشاطه، وحيويته، وإنتاجه، وعزيمته كلَّ ما فقده هذا العالَم، أو من يهمه أمره بين الإنسان من غير شيء وبين كلِّ شيءٍ من غير الإنسان، واستعمل عقله، وما وهبه الله من قوَّة الرُّشد والتمييز لكانت خيرته «الإنسان» من غير شكٍّ، ومن غير تردُّدٍ، فالإنسان هو الذي خُلق له هذا العالم، وبسببه نال هذه القيمة والشَّرف.

ليس شقاء هذا العالم في فقد الآلات، والوسائل، إنَّ شقاءه في سوء استعمالها، وفي وضعها في غير محلها، إنَّ سبب كلِّ نكبةٍ نكب بها هذا العالم في تاريخه الطويل المليء بالأحداث، هو ضلال الإنسان، وانحرافه عن الجادَّة المستقيمة، وعن فطرته السَّليمة، أما القوى والوسائل؛ فلم تكن إلاَّ آلاتٍ صمَّاء بريئةً في يده تمتثل أمره وتنفِّذ رغباته، وإذا كانت لها جنايةٌ فهي أنَّها ضمَّت إلى هذه النكبة سرعةً في الوصول والانتشار، وسعةً في المساحة والامتداد.

أسـرار الـفطـرة الإنـسـانَّـيـة وعـجـائـبـهـا:

إنَّ هذا الكون الواسع مليء بالأسرار، مليء بالعجائب، وإنَّ جماله

ليبهر الألباب ، ويثير الدهشة والاستغراب ، ولكنه إذا قيس بأسرار الفطرة الإنسانية وعجائبها ، وكنوزها ، ودفائنها ، وإلى سعة القلب الإنسانيِّ وبعد أغواره ، وإلى سموِّ الفكر الإنسانيِّ وسعة آفاقه ، وإلى لوعة الروح الإنسانية وقلقها ، إلى آماله البعيدة التي لا تكاد تنتهي ، وإلى طموحه الذي لا يشبع ، ولا يرضى بأعظم مقدارٍ من الفتوح ، واللَّذات ، والخيرات ، والمسرَّات ، والملك ، والسيادة ، والنعيم ، والسَّعادة ، وإلى مواهبه المتنوِّعة المتناقضة ، الواسعة ، الكثيرة؛ التي لا تعدَّ ولا تحدُّ ، كأنَّ هذا الكون الواسع أمامه قطرةٌ من بحر ، أو ذرّةٌ من صحراء ، وغاب في سعة القلب الإنساني وأعماقه كما تغيب الحصاة الصغيرة في البحار العميقة الزاخرة. إنَّ الجبال تتضاءل أمام إيمانه الواثق الرَّاسخ ، وإنَّ النار لتنطفىء ، وتحقر نفسها أمام حبِّه الولوع الوهَّاج ، وإن البحار لتخجل أمام دمعةٍ طاهرةٍ انحدرت من عين الإنسان خشية الله ، أو رحمةً على ضعيفٍ ، أو ندامةً على تفريطٍ. إنَّ الإنسان إذا تجلَّى جمال سيرته ، وحسن خلقه ، ورقَّة عاطفته؛ أزرى بكلِّ جمالٍ في هذا العالم ، وبهر كلَّ حسنٍ في هذا الكون. إنَّه واسطة العقد ، وبيت القصيد ، وأعظم آيةٍ من آيات الخلَّاق المبدع الحكيم؛ الذي خلقه في أجمل صورةٍ ، وأكمل سيرةٍ ، وأحسن تقويمٍ.

الإنسان فوق كلِّ مساومةٍ وتقويمٍ:

إنَّ العالم بما فيه من خزائن ، وكنوز ، وثرواتٍ ، وحكوماتٍ لا يستطيع أن يقوِّم عقيدة الإنسان التي لا تعرف الشكَّ والضَّعف ، والحبَّ الذي لا يعرف المادة والأشكال ، والعطف الذي لا يعرف الفوارق والحدود ، والإخلاص الذي لا يعرف الأغراض والمنافع ، والأخلاق التي لا تعرف المساومة ، وجزاء الشرِّ بالشرِّ ، والخدمة المخلصة التي لا تريد جزاء ولا شكوراً ، إنَّ الإنسان إذا عرف نفسه ، وطلب قيمته؛ عجز العالم عن مساومته ، وإذا اتَّسع ، وأرخى لعزيمته وخواطره العنان ، وأرسل النفس على سجيتها؛ ضاق هذا العالم ، وانضوى حتى أصبح قفصاً صغيراً ، لا هواء فيه ، ولا نور. إنَّه لا تسبر أعماقه ، ولا يبلغ أغواره ، ولا يحاط بأسراره ، ولا تُكتنه حقيقتُه ، ولا تنفد عجائبُه ، علمه وحلمه ، وكرمه

ونبله ، ومحبته ورحمته ، وعطفه وإحسانه ، ورقَّة شعوره ودقَّة إحساسه ، وإيثاره وزهده ، واعتداده بكرامته ، ونفيه لذاته ، واستعداده القريب لمعرفة ربه ، والتفاني في سبيل مرضاته ، وفي سعادة بني نوعه ، وتلقِّيه لكلِّ علمٍ دقيقٍ عميقٍ ، ولكلِّ علمٍ مفيدٍ جديدٍ ، كلُّ ذلك مما تحار فيه الألباب ، ويقصر عنه ذكاء الأذكياء.

مـأثـرة الـنُّبـوَّة الـمحمَّـديـة:

إنَّ وجود هذا الإنسان مفتاح كلِّ سعادة وخير ، ويحلُّ كلَّ أزمةٍ ومشكلةٍ ، وإنَّ تقويمه إذا زاغ ، وتهذيبه إذا فسد ، وتكثيره إذا عزَّ ، وندر ، وإعادته إذا ضاع ، وفقد موضوع كلِّ نبوة ، ومهمة كلِّ نبيٍّ في عصره ، وإن وجود هؤلاء الأفراد بهذه الكثرة ، وبهذا الانتشار ، وفي صورةٍ أتم؛ لم يُسمع بمثلها في التاريخ ، ولم تقع عليها عين السماء ، ولم تطلع عليها الشَّمس. وإنَّ انخراطهم في سلكٍ واحدٍ ، واجتماعهم في شملٍ واحدٍ ، ثم تعاونهم الوثيق على مبدأ واحدٍ ، وهدفٍ واحدٍ مأثرةُ النُّبوَّة المحمَّدية ، ومعجزتها الكبرى.

إنَّ محمَّداً ﷺ بدأ عمل تكوين الأفراد وتهذيب الإنسان من مستوى لم يبدأ نبيٌّ ، أو مصلحٌ عمله منه ، ولم يكلَّف به ، لأنه وجد مستوى أرفع منه بكثير ، وبلغ ﷺ بهذا العمل إلى مستوى لم يبلغ عمل نبيٍّ إليه ، بدأ من مستوىً تنتهي هنالك الحيوانية وتبتدىء منه الإنسانية ، وبلغ به إلى مستوىً هو منتهى الإنسانية ، ولا منزلة فوقه إلا النُّبوَّة ، وقد ختمت بمحمَّدٍ ﷺ.

واقـعٌ أجـمـل مـن الـخيـال والـشعـر:

إنَّ كلَّ فردٍ من هؤلاء الأفراد معجزةٌ مستقلةٌ ، وآيةٌ من آيات النُّبوَّة ، ومأثرةٌ من مآثرها الخالدة ، وبرهانٌ ساطعٌ على أشرفية النوع الإنساني. إنَّ مصوِّراً لم يصوِّر بريشته البارعة ، ومخيلته السخية صورةً أجمل ، وأبدع مما كان عليه هؤلاء الأفراد في عالم الحقيقة والواقع ، وفي شهادة التاريخ ، وإنَّ شاعراً لم يتخيل بخياله الخصيب وقريحته الفياضة ، ومقدرته الشعرية أوصافاً أجمل وسيرةً أعطر ، وجمالاً أكمل مما وُجِد في هؤلاء الأفراد ، ولو

اجتمع أدباء العالم في صعيدٍ واحدٍ فعرضوا نموذجاً إنسانياً رفيعاً لم يصل بهم الخيال إلى ما وصل إليه الواقع في حياة هؤلاء الأفراد الذين نشؤوا في حجر النُّبوَّة وحضانتها، وتخرَّجوا في مدرستها، إن إيمانهم الراسخ، وعلمهم العميق، وقلبهم البار، وحياتهم البعيدة عن كلِّ تكلُّف وصناعة، وعن كلِّ رياءٍ ونفاق، وتجردهم من الأنانية، وخشيتهم لله، وعفتهم، ونزاهتهم وعطفهم على الإنسان، ورقة مشاعرهم، وشجاعتهم، وجلادتهم، وحرصهم على العبادة، وحنينهم إلى الشَّهادة، وفروسيتهم، وفتوتهم، وإحياءهم الليل، وزهدهم في حطام الدنيا وزخارف الحياة، وعدلهم، وسهرهم على مصالح الرعية، وإيثار راحتها على راحتهم، كلُّ ذلك لا يوجد له نظيرٌ في الأمم، ولا سوالف في التاريخ.

الـفـرد الـصالـح فـي مـختـلـف مـظـاهـره ومـجـالات الـحيـاة:

«أبرز رسول الله ﷺ برسالته ودعوته الفرد الصالح المؤمن بالله، الخائف من عقاب الله، الخاشع الأمين، المؤثر للآخرة على الدُّنيا، المستهين بالمادَّة، المتغلب عليها بإيمانه، وقوته الروحية، يؤمن بأن الدنيا خلقت له، وأنه خلق للآخرة، فإذا كان هذا الفرد تاجراً فهو التاجر الصدوق الأمين، وإذا كان فقيراً؛ فهو الرَّجل الشريف الكادح، وإذا كان عاملاً؛ فهو العامل المجتهد الناصح، وإذا كان غنيّاً؛ فهو الغنيُّ السَّخيُّ المواسي، وإذا كان قاضياً؛ فهو القاضي العادل الفهم، وإذا كان والياً؛ فهو الوالي المخلص الأمين، وإذا كان سيداً رئيساً فهو الرئيس المتواضع الرحيم، وإذا كان خادماً أو أجيراً؛ فهو الرَّجل القويُّ الأمين، وإذا كان أميناً للأموال العامَّة؛ فهو الخازن الحفيظ العليم.

اللـبـنات الـتـي قـام عليهـا الـمجتمـع الإسـلامـيُّ:

وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الإسلاميُّ، وتأسَّست الحكومة الإسلاميَّة، ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلا صورةً مكبرةً لأخلاق الأفراد ونفسيتهم، فكان المجتمع مجتمعاً صالحاً أميناً مؤثراً للآخرة على الدنيا، متغلِّباً على المادة غير محكوم لها، انتقل إليه صدق

التاجر وأمانته ، وتعفُّف الفقير وكدحه ، واجتهاد العامل ونصحه ، وسخاوة الغني ومواساته ، وعدل القاضي وحكمته ، وإخلاص الوالي وأمانته ، وتواضع الرئيس ورحمته ، وقوة الخادم ، وحراسة الخازن ، وكانت هذه الحكومة حكومةً راشدةً مؤثرةً للمبادىء على المنافع ، والهداية على الجباية ، وبتأثير هذا المجتمع ، وبنفوذ هذه الحكومة وجدت حياةٌ عامَّةٌ ، كلُّها إيمانٌ وعملٌ صالحٌ ، وصدقٌ وإخلاصٌ ، وجدٌّ واجتهادٌ ، وعدلٌ في الأخذ والعطاء ، وإنصافٌ مع النَّفس والغير[1] .

نجـاح هـذا الـفـرد فـي الـمحـن والـتجـارب :

إن هذا الفرد قد نجح في كلِّ اختبارٍ ومحنة تظهر مواطن الضعف ، وتبرز كوامن النفس ، وبرز فيها كالإبريز الخالص ، والتبر المسبوك ، لا غشَّ فيه ولا زينة وأبرز في كل موقف دقيق محرج من قوة الإيمان ، وقوة الإرادة ، وقوة النفس ، وتأثير التربية النبوية ، ومن رقة العاطفة ، ومن دقة الشعور بالمسؤولية ومن المستوى الرفيع للأمانة ، والزهادة ، والإيثار ، ما لم يتوقعه علماء النفس والأخلاق ، ومن جرَّبوا الإنسان وكتبوا تاريخه في العصور والأزمان المختلفة .

وكان من أدق هذه المواقف موقف الأمير والحاكم الذي ليس مسؤولاً أمام أحد ، ولا تراقبه عين ، ولا تناقشه محكمةٌ ، أو لجنةٌ ، يزهد فيما أبيح له ، وفي خاصَّة ماله ، وفي النزر اليسير التافه الذي أباحته الشريعة ، وجرى به العرف ، واستهان به النَّاس في كلِّ زمانٍ .

زهـد الـولاة وتـقشفهـم فـي الـحيـاة :

ومن أروع الأمثلة لذلك أنَّ امرأة أبي بكر الصِّدِّيق خليفة المسلمين اشتهت حلواً ، واستفضلت من نفقتها من عدة أيام ما تشتريه به ، فلما علم ذلك ردَّ الدريهمات إلى بيت المال ، وأسقطت من نفقته كلَّ ما فضل منها لثمن الحلوى ، لأنه ليس من الحاجات التي يعيش عليها الإنسان ، وليس

---

(١) انظر محاضرة العلامة الندوي في هذا الجزء بعنوان «غار حراء» .

بيت مال المسلمين لتترفه به أسرة الحاكم ، وتتوسَّع به في المطاعم .

وهنا تصويرٌ أمينٌ لموكب الخلافة ، وحكايةُ رحلةٍ رسميَّةٍ في مصلحةٍ حكوميَّةٍ لحاكمٍ من أقوى الحكَّام في ذلك العصر ، ومن أوسعهم مملكةً ، والذي كان اسمه يخلع القلوب ، ويرجف البوادر من بعيد ، ونترك المؤرخ يحكي هذه الرحلة العجيبة ، ويصوِّرها بقلمه البليغ .

قدم عمر بن الخطاب الجابية على طريق إيلياء على جملٍ أورق ، تلوح صلعته للشمس ليس عليه قلنسوة ، ولا عمامة ، تصطفق رجلاه بين شعبتي الرَّحل بلا ركاب ، وطاؤه كساءٌ أنبجانيٌّ ذو صوف ، هو وطاؤه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل ، حقيبته نمرة أو شملة محشوةٌ ليفاً ، هي حقيبته إذا ركب ، ووسادته إذا نزل ، وعليه قميص من كرابيس قد رسم وتخرَّق جنبه ، فقال : ادعوا لي رأس القوم ، فدعوا له الجلومس ، فقال : اغسلوا قميصي وخيطوه ، وأعيروا لي ثوباً أو قميصاً ، فأتي بقميصٍ كتَّانٍ ، فقال : ما هذا؟ قالوا : كتان ، قال : وما الكتان؟ فأخبروه فنزع قميصه ، فغُسل ، ورقِّع ، وأُتي به ، فنزع قميصهم ولبس قميصه ، فقال له الجلومس : أنت ملكُ العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل ، فلو لبست شيئاً غير هذا ، وركبت برذوناً لكان ذلك أعظم في أعين الروم ، فقال : نحن قومٌ أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب لغير الله بديلاً ، فأتي ببرذونٍ فطرح عليه قطيفته بلا سرج ولا رحلٍ ، فركبه بها ، فقال : احبسوا! احبسوا! ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا ، فأتي بجمله فركبه[١] .

وروى الطبريُّ قال : «خرج عمر وخلف عليّاً رضي الله عنهما على المدينة ، وخرج معه بالصحابة ، وأغذوا السير ، واتخذ أبلة (على ساحل البحر الأحمر) طريقاً حتى إذا دنا منها تنحَّى عن الطريق ، واتبعه غلامه فنزل فبال ثمَّ عاد ، فركب بعير غلامه ، وعلى رحله فرو مقلوب ، وأعطى غلامه مركبه ، فلما تلقاه أوائل الناس ، قالوا : أين أمير المؤمنين؟ قال : أمامكم

(١) البداية والنهاية ج/ ٧ ص/ ٥٩ ـ ٦٠ .

(يعني نفسه) فذهبوا إلى أمامهم فجاوزوه، حتى انتهى هو إلى أبلة، فنزلها، وقيل للمتلقِّين: قد دخل أمير المؤمنين أبلة ونزلها، فرجعوا إليه»(١).

نـمـوذجٌ إنسـانـيٌّ رائـــعٌ:

إنَّ هذه الملامح والقسمات الجميلة الرائعة من زهدٍ، وتواضعٍ، وإيثارٍ، وعطفٍ، ومواساةٍ، وشجاعةٍ، وعدلٍ، وحكمةٍ، وصدقٍ منتشرةٌ في وصف الخلفاء الراشدين وأصحاب رسول الله ﷺ، لو جمعها مؤرخ، أو أديبٌ، أو عالمٌ من علماء النفس والأخلاق، وكوَّن منها شخصية واحدةً أو صورةً موحَّدة؛ لكانت من أسمى السير البشرية، ومن أجمل الصُّور الإنسانية في المصوَّر الإنسانيِّ الكبير، وفي المعرض البشريِّ التاريخيِّ العالميِّ، ولكننا إذا لم نجد مع الأسف وصفاً كاملاً شاملاً وتصويراً جامعاً لهذه الجماعة الفريدة التي أبرزتها للعالم تربية الرسول ﷺ، وصحبته، فإننا نجد وصفاً لبعض الشخصيات يتَّسم بالبلاغة، وحسن التصوير، ودقة التعبير، وقد عُرِف العرب قديماً بإجادة الوصف، وبلاغة التَّصوير، وصدق التعبير، وبهذا الوصف نستطيع أن نستعرض آثار التربية النبوية، ومدى نجاحها، وإبداعها، ونرى نموذجاً رفيعاً لهذا الجيل الذي ظهرت فيه معجزة الرسول في أروع مظاهرها. وهي صفة عليٍّ بن أبي طالب ابن عمِّ الرسول، ورابع الخلفاء الراشدين، الذي نشأ في بيت الرَّسول، وفي حضانته، وتربيته، وهي قطعةٌ تستحقّ أن تعتبر من أجمل القطع الأدبية العالمية الخالدة تأثيراً، وتعبيراً، وتصويراً، قال ضرار بن ضمرة ـ وقد طلب منه الخليفة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أن يصف له عليَّ بن أبي طالب، الذي صحبه طويلاً، وعرفه من قربٍ ـ فقال:

«كان ـ والله ـ بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجَّر العلم من جوانبه، ومن نواحيه، يستوحش من الدُّنيا

(١) الطبري ج/ ٤ ص/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدَّمعة ، طويل الفكرة ، يقلِّب كفَّه ، ويخاطب نفسه ، ويعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، كان ـ والله ـ كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن ـ والله ـ مع تقريبه لنا وقربه منَّا ، لا نكلمه هيبةً ولا نبتديه ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ويحبُّ المساكين ، ولا يطمع القويُّ في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه ، وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، وكأني أسمعه وهو يقول:

يا دنيا! أبي تعرَّضت ، أم لي تشوَّفت؟! هيهات هيهات! غُرِّي غيري ، قد بنتك ثلاثاً لا رجعة فيك! فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير! آهٍ من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق![1].

الـجيـل الإسـلامـيُّ الأوَّل:

وبالجملة فقد كان هذا الجيل الذي أنشأته دعوة الرَّسول ﷺ. وأحكمت تربيته من أفضل الأجيال البشرية في تاريخ الإنسان كلِّه ، وأجملها وأكملها وأجمعها للمحاسن الإنسانية ، وقد وصفه أحد أفراده ، عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ببلاغةٍ نادرةٍ ، وكلماتٍ موجزةٍ عميقةٍ دقيقةٍ ، زاخرةٍ بالمعاني الكبيرة البعيدة المدى ، فقال: «أبرُّ الناس قلوباً ، وأعمقهم علماً ، وأقلُّهم تكلُّفاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإعزاز دينه»[2].

وإذا قورن هذا الجيل بجيلٍ آخر رجح عليه في المجموع ، وكانت مآخذه ـ ومما لا يخلو منه بشرٌ ـ ضئيلةً في جنب محاسنه ومظاهره العظيمة البشرية ، وروائع الكمالات الخلقية التي يخلو عنها التاريخ الإنساني ، وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية بليغاً ودقيقاً في قوله:

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي.

(٢) رواه الدارمي في سننه.

«وخيار هذه الأمة هم الصَّحابة ، فلم يكن في الأمَّة أعظم اجتماعاً على الهدى ودين الحق ، ولا أبعد عن التفرق والاختلاف منهم ، وكلُّ ما يذكر عنهم ممَّا فيه نقصٌ ، فهذا إذا قيس إلى ما يوجد في غيرهم من الأمة كان قليلاً من كثير ، وإذا قيس ما يوجد في الأمَّة إلى ما يوجد في سائر الأمم كان قليلاً من كثيرٍ ، وإنما يغلط من يغلط أنه ينظر إلى السواد القليل في الثوب الأبيض ، ولا ينظر إلى الثوب الأسود الذي فيه بياض ، وهذا من الجهل والظلم»[1] .

تـأثيـر الـرسـالـة الـمحمَّـديـة فـي الأجيـال الـمتـأخـرة:

ولم يكن تأثير دعوة الرسول ﷺ وتعليماته ، وتأثير المثل العالية التي عرضها في سيرته وسيرة أصحابه ، وطالب بها أتباعه من بعده ، لم يكن تأثير شخصيته التي ظلَّت ، ولا تزال المثل الكامل والنبراس المضيء المرشد الدائم لجميع الأجيال في جميع الأحوال ، قاصراً على العهد الذي بعث فيه ، والجيل الذي أدركه وسعد بصحبته ، إنَّما كان الشمس التي تنوَّع في نورها وحرها الزرع والأشجار في جميع الأعصار والأمصار ، وترسل أشعتها وخطوطها الذهبية الحافلة بالقوة والحيوية من مكانها العالي ، فينتفع بها القاصي والدَّاني ، لأنَّ دعوته إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، واستحضار رقابة الله ، والخوف من سخطه ، وعقابه ، والطَّمع في أجره وثوابه ، والإشفاق من النار ، والحنين إلى الجنَّة ، وسيرته ﷺ في الزُّهد في حطام الدنيا ، والرغبة في الآخرة ، والشظف في العيش ، وإيثار الناس على نفسه وأسرته وعشيرته ، فيما يرفعهم ويعينهم ، وكلما كان الرَّجل أبعد كان في الإيثار أحقَّ وأقرب ، وكلما كان أقرب كان في المنافع واللذائذ أبعد ، وفي الجهاد والمشقة والتضحية أقرب ، وكان أخذه بمكارم الأخلاق والأحاسيس الدقيقة الرقيقة لا يتخيَّلها الأذكياء ، ولا يخطر من علماء النفس والأخلاق على بال ، كان كلُّ ذلك مدرسةً جامعةً ، عالميةً ،

---

(١) منهاج السنَّة ج/ ٣ ص/ ٣٢٤.

خالدةً ، ينسب إليها ، ويلتحق بها أجيالٌ بعد أجيال ، ويتخرج فيها علماءُ وزعماءُ وملوكٌ وحكامٌ وعبّاد وزهاد ، كلهم تلقوا فيها دروس الأخلاق والإنسانية الأولية ، ثم فاقوا فيها ، وبذُّوا العالم والأمم في سموِّ أخلاقهم ، ولطافة حسِّهم ، ورقة شعورهم ، ودقَّة أمانتهم ، وكثرة زهادتهم ، على تملُّكهم لأسباب البذخ والتَّرف ، ومفاتيح الخزائن ، وأزمة الدول ، ومصير الشعوب والأمم ، يخضع لهذا التأثير أفرادٌ يتفاوت بهم الزمان ، ويبعد بهم المكان ، ولكنَّهم زرع الإيمان ، وغرس النُّبوَّة ، وثمرة الدعوة الإسلامية ، ومأثرة نبوة محمَّدٍ ﷺ وإنتاجها ، وكلُّ حُسْنٍ في سيرتهم وأخلاقهم مقتبسٌ من مشكاة النُّبوَّة المحمدية العالمية ، لا منَّة لآبائهم ، وبيئتهم ، وثقافتهم ، وذكائهم على هؤلاء الأفراد في هذه العقيدة ، وفي هذه السيرة ، وفي هذه الأخلاق ، فلولا دعوة رسول الله ﷺ وتعليماته ، ولولا حبُّهم العميق له وخضوعهم لتأثير سيرته ، ولولا فضل الإسلام؛ لكانوا في العقيدة عبّاد الأصنام ، وفي الأخلاق أشبه بالسباع والنعام ، لا توحيد ، ولا تقوى ، ولا زهد ، ولا إيثار ، ولا رِقَّة عاطفة ، ولا كرم خلق.

بعض تلاميذ المدرسة المحمَّدية العالمية الخالدة ، وأمثلةٌ من حياتهم وأخلاقهم:

وخذوا أحد تلاميذ هذه المدرسة وخريجها ، وممَّا درسته النَّبوَّة المحمَّدية بعيداً عن مهد الإسلام ، وعن جزيرة العرب ، بعيداً عن عهد الرسالة والصَّحابة ، بعيداً عن الأصل المضري ، والدم العربي ، وهو السُّلطان صلاح الدين بن أيوبٍ الكرديِّ العجميِّ في القرن السادس الهجري[١] ، يقول عنه صديقه ، ورفيقه ابنُ شداد:

إنَّه ملك ما ملك ، ومات ولم يوجد في خزانته من الفضة إلا سبعة وأربعون درهماً ناصريةً ، ومن الذهب إلا جرام واحدٌ صوريٌّ ، ما علمت وزنه.

---

(١) توفي صلاح الدين عام ٥٨٩ هـ.

ورأيته قد اجتمع عنده جمعٌ من الوفود بالقدس الشريف ، وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق ، ولم يكن في الخزانة ما يعطي الوفود ، فلم أزل أخاطبه في معناهم حتى باع أشياء من بيت المال ، وفضضنا ثمنها عليهم ، ولم يفضل درهمٌ واحدٌ.

وكان رحمه الله يعطي في وقت الضِّيق ، كما يعطي في حال السَّعة ، وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً أن يفاجئهم مهمٌّ لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه ، وسمعته يقول في معرض حديثٍ جرى : يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب ، فكأنه أراد بذلك نفسه رحمه الله تعالى ، وكان يعطي فوق ما يؤمِّل الطَّالب ، فما سمعته يقول أعطينا لفلانٍ[١] .

ولما مات هذا السلطان العظيم الذي كان يحكم من حدود الشام الشَّمالية إلى صحراء النوبة في الجنوب ، لم توجد في خزانته ما يكفنونه به ، وينفقون على تجهيزه ، يقول ابن شداد :

«ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه ، فما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبةً واحدةً إلا بالقرض ، حتى في ثمن التبن الذي بلت به الطين ، وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوتٍ مسجًّى بثوب فوط ، وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حلٍّ عرفه»[٢] .

ويتحدَّث مؤرخه الإنكليزي الشهير Storely Lonpool في كتابه المشهور (صلاح الدين)[٣] فيقول :

إذا لم يتيسر للعالم أن يعرف شيئاً عن صلاح الدين غير ذلك الكرم ، وتلك السَّماحة التي عامل بها أهل القدس المسيحيين الأعداء حين فتحه وردَّه للإسلام؛ كان ذلك كافياً ليثبت أنَّه لم يكن أعظم رجل في عصره

---

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شدَّاد ص/ ١٣ ـ ١٤ .
(٢) «النوادر السلطانية» ص/ ٣٥١ .
(٣) «النوادر السلطانية» ص/ ٣٠٥ .

فحسب في علوِّ الهمة ، وفي العظمة ، والشهامة ، والفتوة ، بل كان أعظم رجلٍ في هذا الشأن في كلِّ عصرٍ وزمانٍ .

ولم يزل هذا التأثير قوياً ، سخيّاً ، بعيد المدى ، واسع الأرجاء والآفاق ، يصنع عجائبه ، ويظهر روائعه في بلاد في أقصى العالم الإسلامي ، وفي شعوبٍ حديثة العهد بالإسلام ، وفي رجال لا يتَّصلون بدعاة الإسلام الأولين في نسبٍ أو لغةٍ أو ثقافةٍ ، يسلم أحدهم على يد داعية إسلاميٍّ ، أو مرشدٍ روحانيٍّ ، وينشأ في أولاده وأحفاده الأقربين ملك في صورة مَلِكٍ وزاهدٌ فقيرٌ في لباس مَلِكٍ ، وحميةٌ وتقوى ، وعدلٌ وقسطٌ ، وعطفٌ ومواساةٌ ، ورحمةٌ وبرٌّ ، واحتسابٌ ونيَّةٌ ، وصدقٌ وإخلاص ، لا يوجد أمثلته في زهَّاد الأمم الأخرى ، وأحبارها ، ورهبانها فضلاً عن ملوكها وسلاطينها ، وأقتصر هنا في تاريخ الهند الإسلاميِّ الطويل الزَّاهي بهذه النماذج الرفيعة ، على أمةٍ واحدةٍ لا تبلى جدَّتها ، وطرافتها ، ولا تنتهي روعتها على مرِّ الأيام ، وكثرة الإعادة والتكرار .

كان بين السُّلطان مظفر الحليم ملك كجرات (٩٣٢ هـ) وبين معاصره السلطان محمود الخلجي ملك ماندو منافسةٌ قديمةٌ ، وقد كان الخلجي معتدياً مهاجماً دائماً يزحف بجيوشه على مملكة كجرات الإسلامية؛ التي يحكمها مظفر الحليم ، ويضطر الحليم إلى الدفاع عن ملكه وردِّ الغارة عليه ، حتى حدث ما غيَّر الوضع ، وجعل من الملك المعتدي ، المدل بقوَّته ، وأبَّهته طريداً لاجئاً يطلب من عدوِّه الكريم النفس الغوث والنَّجدة ، فقد استولى على ملكه الواسع الجميل وزيره الوثني مندلي راي واغتصب بلاده ، ولم يجد السلطان محمود ملجأً إلاَّ في عطف عدوِّه القديم مظفر الحليم ، وفي حميَّته الإسلاميَّة ، فلقي منه من البرِّ ، والكرم ، وحسن الإجابة ، وسرعة الإغاثة ما لا يصدر إلا عن رجلٍ لا تأخذه حميَّة الجاهلية ، ولا يدين بالفلسفة المادِّية «الانتهازية» فلم يستغلَّ هذا الوضع ، ولم يشمت بالعدوِّ والسليب الضعيف ، بل انتهز الفرصة لإرضاء الله وحده ، ولإخزاء الشيطان ، فتقدَّم بجيوشه الكثيفة المنصورة إلى مندو ، واهتمَّ بقضيتها كقضية بلاده بل أكثر ، وجازف بحكومته ، وحرِّيَّة بلاده في

سبيل المحافظة على حرية بلدٍ إسلاميٍّ منافسٍ ، وإعادة الإسلام إلى مركزه ، واعتباره في هذه الدولة ، وتقدَّمت القوات البرهمية والإمارات الوثنية إلى إغاثة صديقها مندلي ، ووقعت حرب طاحنةٌ مجنونةٌ كثر فيها القتلى ، وسالت الأزقة بالدماء الغزيرة ، حتى استولى مظفر الحليم على البلاد ، وهزم العدو هزيمةً منكرةً ، وأحرقت الأميرات الوثنيات والحرم الملكي أنفسهن على عادة ملوك راجبوت ، وعادت البلاد إلى الإسلام.

وهنا تجلى النبل الإنسانيُّ ، والخلق الإسلامي في أروع مظاهره ، فقد أشار أهل الرأي من قادة الجيش على الملك المظفر المنصور أن يحتفظ بهذه البلاد الجميلة الغنية الزاهية ، لقصورها البديعة التي لا يوجد لها نظير في الهند ، وقلاعها الحصينة ، وخزائنها الحافلة وخيراتها الدارَّة ، وقد ذهبت ضحية سفاهة الملك الراعن الضعيف ، وقد فتحها الملك فتحاً جديداً ، واسترقها فاستحقها ، والملك للقوَّة والغلبة ، والبلادُ للمنتصر.

ولما سمع الملك هذا الرأي ، وعرف ما تحدَّث به القادة نفوسهم؛ أرسل إلى السلطان يأمره بأن لا يأذن لأحدٍ في جيشه في دخول البلد ، وسأله السلطان البقاء في القلعة ، والاستجمام فيها مدَّةً من الزمان ، فلم يقبل ، وأمر جيوشه بالانصراف إلى أحمد آباد ، والعودة إلى ثكناتها ، وقال للخلجي:

إنني لم أتقدم إلى هذه البلاد إلا لرضا الله تعالى وحده وطمعاً في ثوابه ، وعملاً بقوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢] والمسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله(١) وقد تحقَّق ذلك ، وبيَّض الله وجهي ووجهك ، وبيَّض وجه الإسلام ، وقد سمعت من أصحابي ما لو عملت به لحبط عملي ، وضاع جهادي ، والفضل لك وليس لي ، فقد أكرمتني ، وكنت سبباً في هذه السعادة ، وأنا قافلٌ إلى بلادي ، لا أريد أن أحبط عملي ، وأخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. وهنا تحرَّك الجيش المنصور اللجب ، ورفع الفرسان أعنة خيلهم ، وانصرفوا راشدين.

---

(١) معنى الحديث.

وبعد أن فتح المظفر «مندو» ودخل محمود في البلد عزيزاً مكرَّماً ، أخذ صديقه المظفر ليتنزَّه ، ويطلع على ما في هذا البلد من خيرات وخزائن ، وجواهر ، وتحف ، فكان الأمر عجباً وكان البلد آيةً في الجمال والخصب والثروة ، وكثرة الترف ، وكثرة الجواري الحسان ، والفتيات البارعات في الجمال ، والسلطان مظفَّر مطرقٌ رأسه غاضٌّ بصره ، لا ينظر لا إلى هذا المال ، ولا إلى هذا الجمال ، فقال له محمود ، وهو يمرُّ بصديقه أمام الأميرات والحشم ، وبين الزوجات والحرم ، وهن يستقبلن الفاتح المحسن ، ويحيينه بثغور بواسم : ما لك يا سيدي لا ترفع رأسك ، ولا تنظر إلى هذا المنظر! ؟ فقال المظفر : إنَّه لا يحلُّ لي يا محمود! وقد قال الله : «قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم» فقال الملك الذَّكي : إنَّهنَّ إمائي وأنا عبدك ، قد أسرتني وملكتني بإحسانك ، فهم عبيد وهنَّ إماءٌ لك مرَّتين ، ولكن مظفر لم يقتنع بهذا الجواب اللبق ، وعرف أن ما حرمه الله لا يحلُّه أحدٌ.

وهكذا أثبت الملك الورع كرم نفسه ، وعفَّة باطنه وروحه ، وشدَّة خضوعه لتأثير الإسلام ، ولتأثير المثل العليا الإسلامية التي نشأ على حبِّها والتمسُّك بها في حياته.

إنَّه رجلٌ يغيب نسبه الإسلامي بعد واسطتين أو ثلاث في دياجير الكفر والجاهلية الهندية ، ويفقد المؤرخ النسابة الأسماء الإسلاميَّة بعد جدِّه الذي أسلم في أيام فيروز تغلق في القرن الثامن الهجري ، وتفاجئه أسماء عجمية هندية ، لا يعرف أصلها ، ولا يفهم معناها ، فلم يتعلم مظفر هذا النبل وهذا الورع إلا في مدرسة محمَّد ﷺ التي دخلها مخلصاً جادّاً مقدِّراً للإسلام نعمته ، ولمحمَّدٍ ﷺ فضله ، ورفده ، مقبلاً على هذا الدين بشغفٍ وإجلالٍ ، كارهاً للدين الذي كان عليه آباؤه وأبناء قبيلته وأسرته.

إنتاج هذه المدرسة المباركة الدائم في كلِّ الأمم وفي جميع العصور :

وكم لهذه المدرسة المباركة المنجبة المنتجة من أبناء كرامٍ بررةٍ في بلاد الشرق والغرب ، وفي بلاد العرب والعجم ، وفي قرونٍ متقدمةٍ ،

ومتوسطةٍ ، ومتأخرةٍ ، وكم لهؤلاء الأبناء البارِّين العظماء من مآثر ، وبطولاتٍ ، ومحامد ، ومكارم في كلِّ ناحيةٍ من نواحي الحياة الإنسانيَّة ، وقد تجلَّى تأثير تربيتها ، وفضل مؤسسها في فتوة طارق ، وشهامة محمد بن القاسم ، وهمة موسى بن نصير ، وذكاء أبي حنيفة ، والشافعيِّ ، وصلابة مالك ، وأحمد بن حنبل ، وكرم نور الدين ، وعزم صلاح الدين ، وعبقرية الغزالي ، وروحانية عبد القادر الجيلاني ، وتأثير ابن الجوزي ، وطموح محمّد الفاتح ، ومغامرات محمود الغزنوي ، ورقَّة عاطفة نظام الدِّين الدَّهلويِّ ، وسماحة فيروز شاه الخلجيِّ ، وتبحُّر ابن تيميَّة الحرَّانيِّ ، وحسن إدارة شيرشاه السوري ، وقوة إرادة أورنك زيب التيموريِّ ، وفي معارف شرف الدين يحيى المنيريِّ ، وحقائق أحمد بن عبد الأحد السَّرهنديِّ ، ودعوة محمَّد بن عبد الوهاب التَّيميِّ ، وحكمة أحمد بن عبد الرحيم الدهلويِّ ، ومن جاء بعدهم من الدعاة والمصلحين ، والعلماء الرَّبانيين ، وإنَّ الفضل في كلِّ هذه العبقرية ، وفي مآثرهم العلميَّة والعمليَّة الخالدة يرجع إلى تعليمات هذه المدرسة وتربيتها ، وإلى العهد الزاهر الجديد الذي افتتح ببعثة محمَّد ﷺ ، ووجدت فيه المواهب الإنسانيَّة الفائقة سبيلها ومجال نشاطها ، ووجد من يستخدمها وينتفع بها ، ولا تزال هذه المدرسة ـ مهما قسا عليها الزَّمان ، وتنكَّر لها المتنكِّرون ـ تنجب أفذاذاً في التاريخ ، وتؤتي أكلها كلَّ حينٍ بإذن ربِّها ، وتغيث الإنسانيَّة بقادةٍ مخلصين ، وعلماء ربانيِّين ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾ [المائدة : ٥٤] ولسان الغيب يهتف : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٩] .

* * *

المحاضرة السابعة

محمَّد رَسُول الله ﷺ آخِر الرُّسُل وخاتم النَّبيين (١)

دينٌ يبلغ نقطة الكمال ، وأمَّة تضطلع بأعباء خلافة النُّبوَّة :

تمت إرادة الله العليمة الحكيمة ، القادرة القاهرة في البلوغ بهذا الدين ـ الذي سمَّاه الإسلام ـ إلى حيث إرادته وحكمته ورحمته ، واقتضته حاجة البشرية على اختلاف الزمان والمكان ، وبلَّغ رسولُ الله ﷺ الرسالة ، وأدَّى الأمانة ، وجاهد في الله حقَّ جهاده ، وربَّى أمَّةً تقلَّدت مهامَّ النُّبوة ومسؤولياتها من غير نبوَّة ، كلفت النهوض بالدعوة ، وصيانة الدين من التحريف ، والوصاية على العالم ، والحسبة على البشرية في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وفي كلِّ عصرٍ ومصرٍ ، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران : ١١٠].

وتحقَّق في علم الله وفي قضائه وقدره وجود خلفاء الرسل ، وأئمة الهدى ، وطواد في العلم واليقين ، ينفون عن هذا الدين في كلِّ زمان «تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين» وأخبر بذلك لسان النُّبوَّة فقال : «لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحقِّ ، لا يضرُّهم من خذلهم ، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[1].

إعلان انتهاء سلسلة النبوة على محمَّد ﷺ وانقطاعها بعده :

ولما تحقَّق كلُّ ذلك في عالم التكوين والتشريع ـ وقد سبق به علم الله وقضاؤه ـ أعلن انتهاء تعليم البشر العقائد والشرائع ، وما تتوقف عليه

---

(١) رواه مسلم عن ثوبان رضي الله عنه .

سعادتهم في الدنيا ونجاتهم في الآخرة ، بالنَّبيِّ الذي يأتيه الوحي من الله عن طريق جبريل «الروح الأمين» خاصَّةً ، والملائكة عامَّةً[١] .

وذلك معنى النبوة ، فيقول الله تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل : ٢] . ويقول : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى : ٥١] . ويقول : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النجم : ٤ ـ ٧] . ويقول : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥] . ويقول : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ١٠٢] . ويقول : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٩٧] . ويقول : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ [التكوير : ١٩ ـ ٢٥] .

أما العلوم الوجدانية والتلقائية ، والحكم والمعارف ، وبعض الأخبار التي يلهمها بعض النفوس الزَّكية ، أو أصحاب الرياضات والمجاهدات والغواصون في العلوم والحقائق ، وما قد يسمعه بعض الناس من هواجس ونداءات غيبية ، فليست من النبوَّة في شيءٍ ، وقد يسمعها بعض أصحاب الرياضات من غير المسلمين ، وقد استفاض ذلك ، فإنكاره من المكابرة ، وليست دليلاً للهداية فضلاً عن النُّبوَّة والرسالة ، وقد صح في حديثٍ

(١) يظهر من تتبُّع الآيات القرآنية والسنة الإلهية فيما يختصُّ بالأنبياء المرسلين ، أنَّ جبريل هو الواسطة غالباً ، وفي عامة الأحوال بين الله تبارك وتعالى وبين الأنبياء في وحي السيرة والشرائع ، وتدل على ذلك دلالة واضحة الآيات التي نقلناها ، ولكن أكثر المتكلمين ومن صنف في العقائد لم ينوهوا بكون جبريل هو الواسطة الغالبة في شأن النبوة والرسالة ، واقتصروا على ذكر الوحي .

صحيح أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء»[١] وأعلن أنَّ النُّبوَّة قد ختمت بمحمَّد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وذلك كله في عباراتٍ صريحةٍ مكشوفةٍ، لا يتطرَّق إليها شكٌّ، ولا ترتقي إليها شبهةٌ، ولا يجد متسعاً للنقاش فيها، وإثارة الشكوك حولها إلا مَنْ في قلبه مرضٌ، أو كان له غرضٌ.

أساليب القرآن وطرقه في تقرير هذه الحقيقة وغرس هذه العقيدة:

واتَّخذ القرآن لذلك أساليب متنوعةً، بليغةً، عميقةً الأثر في النفس، كبيرة القيمة عند العقل.

منها ما يختصُّ بصاحب الرِّسالة الذي ختم به الأنبياء، وانتهت عليه سلسلة النبوءات، فقال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠] وقد استخدم القرآن لغرس هذه العقيدة والفكرة لغةً وتعبيراتٍ ألفها العرب الذين نزل في لغتهم

(١) وقد صرح الشيخ محيي الدين بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي (م ٦٣٨ هـ) بأن إلهام الأولياء، وأصحاب الرياضات محصور في العلوم والأخبار، لا في الأحكام والشرائع، وما كان من ذلك فلا يعتمد عليه، ولا يعبأ به أصلاً، راجع «الفتوحات المكية» باب ٣١٠ ج/ ٣، ص/ ٥٠ وج/ ٢ باب ٣٨٣ ص (٨٢٣) وقال شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية (م ٧٢٨ هـ) في كتاب النبوات بعد ما ذكر أنَّ الوحي يتناول وحي الأنبياء وغيرهم، كالمحدثين الملهمين: «فهؤلاء المحدثون الملهمون المخاطبون يوحي إليهم هذا الحديث الذي هو لهم خطاب والهام، وليسوا بأنبياء معصومين مصدَّقين في كل ما يقع لهم، فإنه قد يوسوس لهم الشيطان بأشياء لا تكون من إيحاء الرب، بل من إيحاء الشيطان، وإنما يحصل الفرقان بما جاءت به الأنبياء. . .» الخ (ص ٦٧).

وقد توسَّع في هذا الباب محققو الصوفية، وأئمة المعرفة والتحقيق، ومن أراد التفصيل فعليه بكتب القوم، خاصَّةً رسائل الإمام أحمد بن عبد الأحد السَّرهنديِّ (م ١٠٣٤ هـ). وكتاب العلامة الندوي «الإمام السرهندي» (الجزء الثالث من سلسلة العلامة الندوي «رجال الفكر والدعوة في الإسلام») طبع دار ابن كثير ـ دمشق.

القرآن ، وكلِّفوا فهمه ، ثم تبليغه إلى العالم ، وهي اللغة التي كانوا يتفاهمون بها ، ويقضون بها حاجةً في نفوسهم ، ولم تكن في لغتهم ـ على سعتها وغناها ـ كلمةٌ أدل على مفهوم الانتهاء والإكمال من كلمة «الخاتم» وذلت به ألسنتهم في حديثهم وشعرهم ، ولا تعرف لغتهم للخاتم والختام والختم معنى غير ما أراده القرآن من أنَّ رسول الله ﷺ هو آخر الرسل وخاتم الأنبياء الذي لا نبيَّ بعده»(١).

صفاتٌ لا تليق إلاَّ بالنَّبيِّ الخالد والرسول الخاتم :

وكذلك قد وصف القرآن صاحب الرسالة الأخيرة الذي ختم به الأنبياء بصفات تشير إشارةً بليغةً إلى خلود رسالته ، وكونه قدوةً صالحةً ، وأسوةً حسنةً ، في كلِّ عصرٍ وجيلٍ ، ولكلِّ طبقةٍ من الناس ، من غير تقييد بزمانٍ أو مكانٍ ، فقال : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١]. وقال : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١]. وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٤٥ ـ ٤٦].

وليس من عادة العقلاء ، والأدباء البلغاء ـ فضلاً عن العليم الخبير ، علاَّم الغيوب ـ أن يسبغوا على ملك راحل وسلطانٍ زائل نعوتاً وألقاباً لا تليق إلا بمن استقرَّ حكمه ، واستتب أمره ، وليس من عادة الحكماء الذين ينظرون في عواقب الأمور ، ويزنون الكلام وزناً دقيقاً أن يبالغوا في التهنئة على مولودٍ عرفوا أن حياته قصيرةٌ وأنفاسه معدودةٌ(٢).

---

(١) راجع «لسان العرب» لابن منظور «وصحاح العرب» للجوهري و«المحكم» لابن سيده و«القاموس المحيط» للفيروز آبادي ، وشرحه «تاج العروس» للزبيدي.

(٢) كذلك أنكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن يكون إسحاق هو الّذي أمر أبوه إبراهيم بذبحه ، فإنَّ ذلك يتنافى مع حكمة الله تعالى في التبشير ببقاء ذرِّيته ، وقد قال كما نقله تلميذه ابن القيم : «وكيف يسوغ أن يقال أنَّ الذبيح إسحاق والله تعالى قد بشر أمَّ إسحاق به وبابنه يعقوب ، فقال الله تعالى عن الملائكة أنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى : =

القدوة الدائمة للأجيال البشرية كلِّها ، وكيف أمكن ذلك؟

ولمَّا كان محمَّد رسول الله ﷺ هو القدوة الصَّالحة ، والأسوة الحسنة لطبقات الناس جميعاً ، وللأجيال البشرية على اختلاف الزَّمان والمكان؛ واتجهت عناية الله إلى حفظ أخباره ، وآثاره ، وصفاته ، وأخلاقه ، وعاداته ، وتصرُّفاته ، وصرف الله قلوب المسلمين إلى تتبُّع كلِّ ما يصدر عنه من حركة وسكونٍ ، وأخذٍ وردٍّ ، وعادة وعبادةٍ ، وألهمهم الاعتناء به اعتناءً لا مزيد عليه كأنَّ سائقاً يسوقهم إلى ذلك.

وقد تجلَّت هذه العناية الإلهية بكلِّ وضوحٍ في الحديث والسيرة ، وفي كتب الشمائل ، وفيما أثر عن الوصَّافين الحاذقين من أصحابه وأهل بيته ، في صفته التي لم تحفظ كتب الآداب والتاريخ والأنساب صفةً أكثر منها دقةً ، وأعظم منها استيعاباً للملامح البشرية ، والدقائق الخَلقية ، ولَنظرةٌ عابرةٌ في شمائل الإمام أبي عيسى الترمذيِّ (٢٠٩ ـ ٢٧٩ هـ) ـ على سبيل المثال ـ تكفي للإيمان بأنَّ هذا الاهتمام البليغ الخارق للعادة بتسجيل دقائق الخَلق والخُلق ، والعادات والعبادات ، والأقوال والأفعال ، وكلِّ ما يتصل بهذه الشخصية الكريمة اتصالاً يتصوَّره الذهن الإنساني ، وفي بسطٍ وتفصيل لا نظير لهما في سير الأنبياء ، ولا في تاريخ العظماء[١] لم يكن مجرَّد مصادفةٍ ، ولا وليد الاتجاه الشخصيِّ ، والعمل الفرديِّ ، وكذلك من

= ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ فمحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ، ثم يأمره بذبحه» (زاد المعاد ج/١ ص/١٦).

(١) وقد عني علماء الأمة الإسلامية بجمع التفاصيل الدقيقة عن الحياة النبوية والتراتيب الإدارية ، والحرف ، والصنائع ، والمتاجر ، والمناصب ، وأنواع العلوم ، والمشخصات التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية النبوية عنايةً لا مثيل لها في أمم الأنبياء السابقين ، وحسب القارىء أن يقرأ كتاب «التخريج» لأبي الحسن علي الخزاعي التلمساني (٧١٠ ـ ٧٨٩ هـ) وتهذيبه وتكميله للعلامة الشيخ عبد الحي الكتاني الذي أسماه «التراتيب الإدارية» وهو موسوعةٌ في كلِّ ما تهم معرفته عن عصر الرسول ﷺ والحياة فيه.

تصفَّح كتاب «الأدب المفرد» للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاريِّ (١٩٥ ـ ٢٥٦ هـ) الذي خصَّه مؤلفه العظيم ، بما ورد في الآداب الإسلامية ، ومكارم الأخلاق ، وحسن العشرة والاجتماع ، وحقوق الصُّحبة ، وتهذيب النَّفس ، وأدب الحياة ، معتمداً في كلِّ ذلك على ما صحَّ عن الرسول ﷺ ، ونقل عنه؛ عَلِم عِلْم اليقين أنَّها لم تكن فلتةً من فلتات الدَّهر ، إنما تقدير العزيز العليم ، ليتحقَّق العمل في كل عصرٍ وجيلٍ بقوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] ، وقوله : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١]. ولئلا يكون لمتعللٍ بانقراض الآثار ، وانقطاع الأخبار عذرٌ في ترك الائتساء ، والاقتداء ، كما هو الشأن في قضية الأنبياء الذين لم يبق لبعضهم إلاَّ الاسم أو أخبار مبتورة لا تكفي للاقتداء ، والاقتفاء.

أمَّا الحديث النبويُّ فيصحُّ أن يسمَّى «سجل الوقائع اليوميَّة» وشبه مذكرات ـ إذا صحّ هذا التعبير ـ لمدة ثلاث وعشرين سنة قضاها النَّبيُّ ﷺ ـ بعد ما أكرمه الله تعالى بالنُّبوَّة ـ على ظهر الأرض ، ترينا كيف كان الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم يعيش في هذه الحياة ، وكيف كان يقضي نهاره ، وليله ، ونعرف عنه من دقائق الأخلاق ، والعادات ، والميول ، والرَّغبات ، والقول ، والعمل ما لا نعرفه عن كثيرٍ من الشخصيات التي عاشت قريباً ، بل عن الشخصيات المعاصرة أحيانا ، وهو مجموع صور ناطقة يعترف بها الإنسان بنبيِّه ، ويسعد بصحبته ، ويتبرك بأنفاسه ، وكأنه حضر مجلسه ، واستمع لحديثه ، وعاش معه ، وكان ذلك أبعث على الاقتداء ، وأبعد عن مضارِّ الوثنية ، وعبادة التماثيل ممَّا جرت عليه الأمم القديمة ، من تصوير أنبيائها ، ونحت تماثيلهم.

وحسب القارىء أن يقرأ قصَّة حجَّة الوداع في كتب الحديث ، فقد سجَّل الرواة فيها كلَّ دقيقةٍ من دقائق هذه الرحلة ، وكلَّ حادثٍ من حوادثها التي لا تسترعي الانتباه ، وليست لها قيمةٌ تاريخيَّةٌ كبيرةٌ ، ولا يُحتفل بأمثالها في

رحلات العظماء، والرؤساء، والملوك ، والأمراء ، والعلماء ، والنبغاء[١] .

وبفضل هذه الثروة الحديثية استطاع المؤلفون الحاذقون في مختلف العصور والبقاع أن يؤلفوا للمسلمين كتباً تكون دستوراً كاملاً لحياتهم ، حتى إذا أراد المسلم ـ مهما كانت مهنته وطبقته ـ ألاَّ يخطو خطوةً ولا يبتَّ في أمر وألا يمارس نشاطه إلا في ضوء الهدي النبويِّ؛ أمكنه ذلك ، والكتب التي أُلِّفت في هذا الموضوع كثيرةٌ ، وفي أكثر لغات العالم الإسلاميِّ ، وهي بين بسيطٍ ووسيطٍ ووجيز ، أحسنها «زاد المعاد في هدي خير العباد»[٢] للعلامة شمس الدين أبي عبد الملك المشهور بابن قيِّم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١ هـ) أنبغ تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ، وأحد أعلام الأمة .

ويتجلَّى هذا السرُّ الإلهي في وضوح هذه السِّيرة وخلودها ، وكونها بمتناول المؤتسين ، والمقتدين ، إذا قارن الإنسان بين هذه السيرة وبين سير الأنبياء السابقين وحياتهم؛ فأكثرها توارت في ظلمات الجهل والإهمال والحوادث التاريخية الدَّامية ، وقد أدَّت رسالتها في فترةٍ زمنيَّةٍ خاصَّةٍ ، ومشى في ضوئها الجيل الذي كلف اتِّباعهم ، ثم لم تبق حاجةٌ إلى الاحتفاظ بها ، وإلى أن تتوارثها الأجيال ، ويكفينا أن نستعرض حياة سيدنا المسيح عليه وعلى نبينا الصَّلاة والسَّلام ، فكان آخر الأنبياء قبل محمَّد ﷺ ، وتنتسب إليه أمة عُرف شغفها بالعلم والتأليف ، وإفراطها في حبِّ نبيها ، وإطراؤها له إطراءً بلغ حد التأليه والتقديس ، ولكنَّها لم تستطع أن تعرض على العالم إلا نُتفاً من أخباره وأقواله التي لا تكون هيكلاً من حياةٍ بشريةٍ

---

(١) اقرأ في كتب الصحاح تفاصيل تطييب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع عند الإحرام ، وإشعاره لهديه ، واحتجامه ، وتحديد مكانه من الجسم وموضعه من الطريق ، وتحديد المنازل بين المدينة ومكة ، ولم يفت الراوي أن يقيد خروج حية ليلة منى ، وإفلاتها من القتل ، وأسماء من كان رديف رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في هذه الرحلة ، بل ومن أردفهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في حياته كلها .

(٢) قد صدرت للكتاب عدة طبعات في مصر والهند ، والكتاب مكتبة في السيرة والحديث والفقه وقد تلقاه العلماء في كل عصر بالقبول .

كاملةٍ يقلِّده الإنسان في حياته الفردية ، أو يسير في ضوئه مجتمعٌ فاضل ، وقد كان الاعتقاد السائد في العالم المسيحي قبل أيام ، أنَّ «العهد الجديد» يتضمن أخبار السنوات الثلاث الأخيرة من سيرة المسيح وأخباره ، فانتهى تحقيق الباحثين وأصحاب الاختصاص في الموضوع في الزَّمن الأخير إلى أنَّها لا تتجاوز أخبار خمسين يوماً من حياته ، لا أكثر ولا أقلَّ(١) .

أمَّا الأنبياء الآخرون ، وعظماء الملل والديانات السابقة ، فيصحُّ القول بأنَّ أخبارهم ، وصور حياتهم مطمورةٌ في ركام الماضي ، وهنالك حلقاتٌ رئيسيَّةٌ لا يكمل بدونها التاريخ ، ولا يتسنَّى بدونها الاقتداء والتقليد مفقودةٌ ، لا يمكن البحث عنها ، والاهتداء إليها في هذا العصر المتأخِّر(٢) ، وهذا عين ما تقتضيه الحكمة الإلهية ومنطق الأشياء ، فالمثل الإنسانية لها أعمار طبيعيَّة وحيويَّةٌ محدودةٌ ، فإذا انتهت لم تكن مصلحة في تناقلها. أمَّا ما كانت الحاجة إليه قائمةً دائمةً فبقي على اختلاف الزمان والمكان ، واستمرَّ ، وانتشر ، وأورق ، وأثمر .

صلة الأمَّة الوثيقة الدائمة بمحمَّد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وما يتَّصل به :

ومن قرأ ما ورد من الآداب والأحكام عن النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم في سورة الأحزاب ، وفي سورة الحجرات ، وفي سورة التحريم ، وفي سورة المجادلة ، وما ورد من تكريم الله تعالى له ، ونعمه عليه في سورة الفتح ، وسورة الضحى ، والانشراح ؛ عرف بدلالة العقل ، وسلامة الذوق أنَّها نعوتُ نبيٍّ قد بعث للأجيال كلِّها ، وللعصور كلِّها ، وأنَّ شمس

---

(١) يقول القس الفاضل الدكتور «شارلس أندرسن اسكات» في مقالٍ له في دائرة المعارف البريطانية ، الطبعة الرابعة عشر ج/ ١٣ ص/ ١٧١٠ : «ينبغي أن يتنازل الإنسان عن محاولة وضع كتابٍ في سيرة المسيح بكلِّ صراحةٍ ، فإنه لا وجود للمادة والمعلومات التي تساعد على تحقيق هذا الغرض ، والأيام التي توجد عنها بعض المعلومات لا يزيد عددها على خمسين يوماً» .

(٢) اقرأ للتفصيل الكتاب القيِّم «الرسالة المحمَّدية» للعلامة السيد سليمان الندوي ، المحاضرة الثانية ، والثالثة ، والرابعة ، صدر بعناية وتحقيق المحقق عن دار ابن كثير بدمشق .

رسالته لا تقبل الكسوف بأنَّ نجمه لا يقبل الأفول ، ولا شكَّ أنَّ بعثة نبيٍّ ـ ولو لم يأت بشريعةٍ جديدةٍ ـ تتنافى مع الحكمة الإلهية في هذا الثناء العاطر ، والوصف البالغ لمحمَّد ﷺ ، وربط الأمة ربطاً وثيقاً دائماً بهذا النَّبيِّ الكريم ، وتعاليمه ، وأسوته ، وأصحابه ، وأهل بيته ، والأرض التي ولد فيها ، ونشأ ، ودعا فيها الناس إلى الله ، وشعائر الله فيها ، ولا شكَّ أنَّ النَّبيَّ الذي يبعث بعده ، أو يدعي النُّبوَّة ، يحول بين الأمة ونبيها الأول ، أراد ذلك أو لم يرد ، ويضعف صلتها به ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ شعر بذلك أو لم يشعر ، وتلك طبيعة الأشياء ، وخاصَّة الفطرة البشرية ، وقد أثرت عقيدة الإمامة عند الشيعة الإمامية في صلة هذه الطائفة بالنَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فتحوَّل تيار الحب والعاطفة والحماس ، والاندفاع إلى الأئمة الاثني عشر ـ رحمهم الله تعالى ـ وتجلَّى ذلك في مجال التأليف والتصنيف ، والأدب والشعر ، وشدِّ الرِّحال إلى المشاهد والهيام بها ، وأصبح الولاء للأئمة ، والحبُّ لعليٍّ بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ وابنه الحسين؛ هو شعار هذه الطائفة ودثارها ، قد ملأ كلَّ فراغ في العقيدة ، والعاطفة ، والحماس ، فما ظنُّ العاقل بنبيٍّ يبعث في هذه الأمة أو غيرها ، في عصرٍ من العصور ، ألا ينافس الولاء له ، والانضواء إلى رايته ، حبُّ الأمة لنبيِّها محمّد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وكلِّ ما يتَّصل به ويعزى إليه من تعاليم ، وسننٍ ، وهديٍ ، وأصحابٍ ، ولغةٍ ، وآدابٍ ، وتاريخٍ ، وحضارةٍ ، إنَّه ناموسٌ من نواميس الفطرة التي لا تتغيَّر.

وذلك عكس ما فهم من الدين بالضرورة ، ودلَّ عليه القرآن ، ونطقت به السنة المتواترة ، فقد جاء في الحديث الصحيح : «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده ، وولده ، والناس أجمعين»[١] ويقول القرآن : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ ﴾ [الأحزاب : ٦].

---

(١) رواه الشيخان والنَّسائي ، وفي بعض الروايات «من نفسه» (الطبراني في معجميه الكبير والأوسط).

وصف القرآن للرسالة المحمَّدية وما يقتضي ذلك :

ومن هذه الأساليب القرآنيَّة ما جاء في وصف الرسالة التي حملها الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى الخلق أجمعين ، والشريعة التي جاء بها ، فهي من أكبر الأسباب والدَّواعي لهذا الإعلان الصَّارخ والمبرر ـ بل الموجب ـ لانتهاء سلسلة النبوءات والرسالات السَّماوية على محمَّد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فصرَّح القرآن بلسانٍ عربيٍّ مبين ، لا غموض فيه ولا لغز بأنَّ هذا الدين قد بلغ طوره الأخير من الكمال ، والوفاء بحاجات البشر ، والصلاحية للبقاء والاستمرار فقال : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

وقد نزلت هذه الآية يوم عرفة في حجَّة الوداع سنة عشر للهجرة ، ولم ينزل بعدها ـ كما تقول أكثر الآثار ـ حلالٌ ولا حرامٌ ، ولم يعش رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعد هذا اليوم إلا إحدى وثمانين ليلة ، وقد فهم كبار الصحابة ـ الذين كانوا من أعرف الناس بأسرار هذا الدين ، ومقاصد التشريع وأقرب الناس إلى صاحب الرسالة صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وأعظم الناس حبّاً له ، وحرصاً على بقائه ، وكان في مقدمتهم أبو بكر وعمر ـ دنوَّ ما كانوا يحذرونه من مفارقة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ولحوقه بالرفيق الأعلى ، فقد بلَّغ رسالة الله ، وكمَّل الدين ، وتمَّت نعمة الله على عباده ، فمنهم من بكى ، ومنهم من تنبَّأ بدنوِّ هذه الساعة(١) ، وفهم علماء اليهود الأذكياء الذين كانوا من أعرف الناس بالعلم القديم ، وتاريخ الديانات : أنَّها كرامةٌ خُصَّ بها المسلمون ، ومفخرةٌ لهذا الدين ، لا يشاركه فيها دين آخر ، ورأوا أنَّ اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية جديرٌ بأن يخلَّد ، ويحتفل به على مرِّ العصور ، ويبدي فيه المسلمون سرورهم وامتنانهم(٢) .

---

(١) راجع كتب الحديث والسيرة وكتب التفسير .

(٢) راجع صحيح البخاريِّ .

وهكذا فهمها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وهو الذي نزلت عليه هذه الآية ، فقال في خطبته يوم حجة الوداع ، ينصت إليها أكثر من مئة ألف إنسان ، ويحفظونها : «أيها الناس! إنَّه لا نبيَّ بعدي ، ولا أمَّة بعدكم ، ألا فاعبدوا ربَّكم ، وصلُّوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدُّوا زكاة أموالكم طيبةً بها أنفسكم ، وأطيعوا ولاة أمركم ، تدخلوا جنَّة ربكم»(١).

وكذلك صرَّح القرآن بأنَّ هذا الدين قد قدر له البقاء ، والغلبة ، والانتشار ، وأنَّه سيبلغ ذروة المجد والعزَّة ، وتعلو كلمته ، ويمتد ضوؤُه ، ويتبيَّن صدقه ، فقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٣] وقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح : ٢٨] وقال : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف : ٨] وكلُّ هذه الكفالات ، والضمانات ، والنبوءات ، والإعلانات تدلُّ بدلالة النَّص وإشارته على أنَّ هذا الدين هو رسالة الله الأخيرة ، وحاجة البشرية كلها ، على اختلاف العصور والأمصار ، وأنَّ الله هو بالغ أمره فيه ، كره الناس ذلك أو أحبُّوه ، وسالمه الحسَّاد والمعارضون ، أو حاربوه ، وكلُّ ما كان ذلك شأنه ، ووردت فيه هذه الأخبار الصادقة ، والتحدِّيات البالغة في كتابٍ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا يقبل العقل السليم أن يقبل النسخ والتغيير ، أو يحتاج إلى نبيٍّ جديدٍ ، ورسول مبعوثٌ.

عموم الرِّسالة المحمدية للأمم والشعوب والطبقات ، واستغناؤها عن تطوير تعديل :

وكانت الديانات السَّابقة ، والرسالات القديمة ، بعضها محدودةٌ في شعبٍ ، أو مختصةٌ بإقليم ، أو خاصَّة بفترةٍ زمنيَّةٍ قصيرةٍ ، أو طويلةٍ(٢) ،

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تهذيب الآثار».

(٢) وقد وردت في «العهد القديم» نصوصٌ وتصريحاتٌ بأنَّ رسالات أنبياء بني إسرائيل كانت موقتةً ومختصَّةً بزمانٍ خاصٍّ ، اقرأ على سبيل المثال (١٨ : ١٥) (١٨ : ١٨)=

ولم تكن الديانة اليهودية في زمنٍ من الأزمان دعوةً عامَّةً للخلق ، ولم يكلف اليهود ـ في ضوءٍ من نصوص كتبهم المقدسة ـ تبليغ الرسالة إلى الأمم جميعاً ، بل وردت نصوصٌ تمنع عن ذلك ، وتحصر نشاطهم الدَّعوي في نطاقهم العنصريِّ المحدود ، وكان من الطبيعي والمعقول جدّاً أن يميزوا دائماً بين بني إسرائيل وبين الشعوب والقبائل الأخرى ، وأن يضعوا للخير والشرِّ والبرِّ والإثم مقاييس مختلفة، تختلف باختلاف السُّلالات والشعوب .

تقول السيدة الفاضلة المهتدية مريم جميلة Margaret Mareus اليهودية سابقاً في كتابها «الإسلام إزاء أهل الكتاب ماضياً وحاضراً» باللغة الإنجليزية : «ليس أنَّ اليهود لا يبلِّغون دينهم إلى غيرهم عمليّاً ، بل إنَّهم لا يرحبون بالدخول في ديانتهم ، ولا أعرف إلا مثالين في تاريخهم الطويل حين دخل غير اليهود في اليهودية في عددٍ كبير ، كان ذلك مرَّةً في اليمن في زمنٍ سبق البعثة المحمَّدية ببضعة قرون ، ومرَّة ثانية لما اعتنق عدد من غير اليهود الديانة اليهودية في مملكة خزار التاتارية الأصل التي عاشت مدَّةً قصيرة في روسيا»(١) .

ويدلُّ على ذلك دلالةً واضحة الأسلوب الذي ألف فيه «العهد القديم» الموجود في أيدينا اليوم ، والروح التي تسيطر على كلِّ سطرٍ منه ، فيشعر القارىء لهذا الكتاب بأنَّه يطالع ملحمة اليهود ، أو كتاب مناقب اليهود ، أو كتاب الأنساب الخاصِّ بهم ، ولا يجد فيه من تعليمات خلقيةٍ وروحيةٍ ، ومن حثٍّ على مكارم الأخلاق العامَّة ، والمساواة بين البشر ، والاعتراف بكرامة الإنسان ، وحثٍّ على الزُّهد ، وتهذيب النفس ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، واللهج بذكر الجنة ونعيمها ، والتخويف من النار وعذابها ، ما يهذب النفس ، ويرقق القلب ، ويشعره بكرامته ومسؤوليته إذا كان ينتمي

= و(٣٣ : ١ ـ ٢) من سفر التثنية في التوراة ، ونبوءة أشعياء الإصحاح ٤٠ ، وسائر أسفار بني إسرائيل والزبور ، والأناجيل مملوءة بمثل هذه النصوص .

(١) Slam Versóes Ahalki lab past And dresent p . 22-32.

إلى سلالة غير إسرائيليةٍ ، فالكتاب بقصصه ، وأخباره ، وأحكامه يدور حول اليهود ؛ الذين يعتبرهم دينهم وكتابهم «شعب الله المختار» .

وكذلك كانت دعوة سيدنا المسيح خاصَّةً لبني إسرائيل ، وقد صرَّح بأنه لم يبعث إلا ليرعى خراف بني إسرائيل الضَّالة [١] ، واقتصرت رسالته على قراهم وأرضهم ، والمنسوبين إليهم ، ولما لفت نظره إلى من يتَّصل ببني إسرائيل بنسبٍ ، أو بقرابةٍ فاستعطف عليه ، قال : «إنني لست ذلك الرَّجل الذي يعطي خبز الأولاد للكلاب» .

أما أمر الديانات الشرقية الآسيوية ، كالبرهمية الهندية وما شاكلها ، فأمرها أدهى وأمرُّ ، وكانت تَعتَبِرُ غالب الأحيان غير الآريين ، وغير البراهمة أنجاساً مناكيد ، تساوي بينهم وبين الدَّوابِّ ، وتعاملهم أحياناً معاملة الكلاب [٢] .

فكانت حكمة الله ورحمته بعباده تقتضيان بعثة نبيٍّ جديد ، يحمل تعاليم جديدة ، وتعديلاتٍ في الشرائع والأحكام ، اقتضاها تغيُّر الزمان والمكان ، والأحوال والظروف ، واقتضاها بعض الحوادث ، فتتناول التسهيل أحياناً ، وتحليل ما حرَّمه المتدينون الغلاة ، أو تحريم ما أحله المتوسعون المتنعمون ، أو السلاطين المترفون ، ويقول سيدنا عيسى ابن مريم: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران : ٥٠] .

وقد أعلن القرآن انتهاء هذين الموجبين لنبوةٍ جديدةٍ ، أمَّا ما يتصل بعموم الرِّسالة المحمدية للأمم والشعوب ، وطبقات الناس جميعاً ، فقال : ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وقال : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ

(١) راجع إنجيل متى الإصحاح العاشر ٦ ـ ٧ .
(٢) اقرأ كتاب العلامة الندوي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الباب الأول ، عنوان «نظام الطبقات الجائر» . . . ص ٨٧ ، طبع محققاً ومنقحاً في دار ابن كثير بدمشق عام ١٩٩٩ م .

إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨] وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١] وقال: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [ص: ٨٧].

فالدِّين الإسلاميُّ حقٌّ مشاعٌ، وثروةٌ مشتركةٌ لجميع الأمم والشعوب، والعناصر والأجناس، والأسر والبيوتات، والبلاد والأوطان، ليس فيه احتكارٌ مثل احتكار بني لاوي من اليهود، أو البراهمة من الهنود، لا يتميَّز فيها شعبٌ عن شعب، ولا نسلٌ عن نسلٍ، وليس الاعتماد فيها على العرق والدم، بل الاعتماد فيه على الحرص والشوق، وحسن التلقِّي، وزيادة التقدير، والتفوُّق في الجهاد والاجتهاد، والدِّين والتقوى، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣] وأعلن النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوم فتح مكة: «الناس بنو آدم، وآدم خلق من تراب، لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ إلا بالتقوى»(١) وروى الإمام أحمد بن حنبل(٢) بسنده عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ أنَّه قال: «لو كان العلم بالثريا لتناوله أناس من أبناء فارس»(٣).

وأمَّا ما يتصل بالحاجة إلى التغيير، والتسهيل، فصرَّح بأنَّ هذه الشريعة قد جاءت سهلةً سمحةً، توافق الفطرة المستقيمة، والعقول السليمة في كلِّ زمانٍ، فقال: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقال: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨].

إنَّ التشريعات المجحفة، والقيود المرهقة ـ من تحريم ما أحلَّ الله، وتضييق ما وسَّع الله فيه ـ التي أخذت بها الأمم السابقة نفسها، والتزمت ما لم يلزمها الله به، كانت كدَّرت عليها صفو الحياة، وعقَّدت الدين

(١) رواه الترمذي.

(٢) مسند الإمامّ أحمد ج/ ٢ ص/ ٩٦.

(٣) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» للإمام ابن تيمية ج/ ١ ص/ ١٢٦ ـ ١٤٥.

وجعلته عبئاً ثقيلاً لا يُطاق حمله، وجاءت النُّبوَّة الأخيرة، والشريعة السمحة الحنيفية، فأزالت هذه القيود والأغلال التي كانت من اختراع العباد الغلاة، والمشرعين القساة، وأعادت الأمور إلى نصابها، يقول القرآن في وصف هذا النَّبيِّ الذي ختم الله به الأنبياء، وأرسله إلى الناس كافَّةً بشيراً ونذيراً:

﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وذكر أنَّ كبار العقلاء والمشرعين لو حاولوا مراعاة الحاجة البشرية، والأحوال المختلفة لم يبلغوا حيث بلغ علم الله المحكم، فقال في آيات المواريث: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١] ويقول في سياق آيات الزواج وما للزوجين من حقوق وفرائض: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦ ـ ٢٨].

الصحف السَّماوية السَّابقة والقرآن في ميزان العلم والتاريخ:

وما زالت الصُّحف السَّماوية السَّابقة للقرآن عرضةً للتَّحريف، والتبديل، والضَّياع، والتَّلف، فإنَّ الله سبحانه وتعالى لم يتكفل بحفظها، وبقائها، بل أسند ذلك إلى علمائها، وحملتها، ولم تحتج إليها البشرية، أو الأمم التي خوطبت بها إلاَّ لفترةٍ من الزَّمان، فقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقد ثبت ذلك تاريخيّاً، وتواتر، وأقرت به الأمم والطوائف التي نزلت فيها هذه الصحف، وقد استُهدفت صحفُ العهد القديم للتَّلف والإحراق والإبادة بصورةٍ واضحةٍ، وباتفاق المؤرخين اليهود ثلاث مرَّاتٍ في التاريخ:

المرة الأولى حين زحف بختنصر (Nabuchodonosor) (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق. م)

ملك بابل على اليهود سنة ٥٨٦ ق . م وأشعل النيران في بيت المقدس الذي حفظ فيه النَّبيُّ سليمان عليه السلام ألواح التوراة ، وبقيةً مما ترك آل موسى وآل هارون ، وأخذ مَنْ سلم من القتل من اليهود أسيراً إلى بابل حيث مكثوا فيه خمسين سنة ، وقد أعاد «عزرا» الصحف الخمس الأولى التي تسمى «تورة» بحفظه ، وقيَّد الحوادث في أسلوبٍ تاريخيٍّ ، ثم ضمَّ إليها «نحميا» السلسلة الثانية من الكتب ، مضيفاً إليها زبور داود .

والمرَّة الثانية حين كرَّ أنطيوخوس (Antiochus) الرابع الملقب أبيقانس ملك إنطاكية اليوناني على بيت المقدس (سنة ١٦٨ ق . م) وأحرق الصحف المقدسة ومنع من تلاوة التوراة ، وممارسة الشعائر اليهودية رسميّاً ، ونشط يهودا المكابي في جمع الصحف المقدسة وترتيبها ، وضم إليها السلسلة الثالثة من صحف «العهد القديم» .

والمرَّة الثالثة حين هجم تيطس (Titus) الإمبراطور الروماني (٤٠ ـ ٨١ م) على بيت المقدس في ٧ من سبتمبر سنة ٧٠ م ودمَّره بما فيه هيكل سليمان ، وحوَّله إلى أنقاض وخرائب ، واستولى على الصحف المقدسة ، ونقلها إلى بلاطه في روما تذكاراً للفتح ، وأجلى اليهود من القدس ، واستعمر غيرهم حول المدينة(١) .

ومقاييس حفظ الصحف المنسوبة إلى الأنبياء المستفادة من الوحي ، وبقائها على أصالتها ، ونصوصها ، ووجهة نظر أصحابها إليها تختلف عن مقاييس المسلمين ، وعقيدتهم عن الكتاب المنزل من الله تعالى على محمَّد ﷺ اختلافاً كبيراً ، فلا يمنع دخول بعض زياداتٍ وتعديلاتٍ في هذه الكتب عن إضافتها إلى الوحي ، وتسميتها بالصحف السَّماوية عند اليهود ، وقد لا يتحرَّجون من إضافة تأليفها إلى الأنبياء ، فقد جاء في مختصر دائرة المعارف اليهودية ما يلي :

---

(١) راجع كتب تاريخ الصحف المقدسة ، وراجع دائرة المعارف اليهودية ، وقد وردت إشاراتٌ إلى هذه الحوادث في سفر نحميا ، وسفر المكابين ، وغيرها .

«إنَّ الأخبار اليهودية وإن كانت تلح على أنَّ صحف العهد القديم من تأليف «الأبطال» ، أو الشخصيات التي تتحدَّث عنها هذه الصحف ، وذلك لا يبعد عن الصواب ، ولكنَّهم لا يتحرَّجون في الإقرار بأنَّ بعض هذه الصحف تناولها التعديل والزيادة في العهود المتأخرة»[١] .

وجاء في دائرة المعارف اليهودية ما معناه :

«إنَّ الكتب الخمسة الأولى من الكتاب المقدس (العهد القديم) كما تقول الأخبار اليهودية القديمة ، من تأليف النَّبيِّ موسى ، وما زال الربِّيُّون يعنَون بتناقضات واختلافات وردت في هذه الصحف ، وما زالوا يصلحونها بحكمتهم ، ولباقتهم»[٢] .

وتزيد هذه الموسوعة الكبيرة : «أن أسفينوزا (Spinoza) يقول : إنَّ الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم ليست من تأليف موسى ، بل هي من تأليف عزرا[٣] ، وإنَّ آخر ما وصل إليه البحث العلمي ، هو أنَّ هذه الكتب (الخمسة الأولى) ترجع إلى ثمانية وعشرين (٢٨) مصدراً ، استقيت ، واستفيدت منها هذه الكتب»[٤] .

أما أمر الأناجيل الأربعة التي تسمى «العهد الجديد» فأمرها أغرب من صحف العهد القديم ، فإنَّه يكتنف تدوينها ومؤلفيها الشيء الكثير من الغموض ، والالتباس ، والاضطراب ، وبينها وبين السيد المسيح (عليه الصلاة والسلام) هوَّةٌ عميقةٌ واسعةٌ ، ليس في إمكان باحثٍ أو مؤرِّخ ردمها ، أو إقامة جسرٍ عليها ، وقد تعرَّضت للتحوير ، والتطوير ، والتعديل ، والتحسين في مجامع دينية ، وفتراتٍ رومانيَّةٍ عديدة ، وبعد ذلك كلِّه فإنه بكتب السيرة والأخبار والحكايات والآثار أشبه منها بالكتب المنزلة من

(١) ellentin sone volume Jewish Encyclopaecia London p. 93.
(٢) Jewish Encyclopaedia V. 9 p. 589
(٣) ص ٥٩٠ ملتقط من تفسير الشيخ عبد الماجد الدريابادي بالإنجليزية . طبع دار ابن كثير بدمشق .
(٤) نفس المصدر ص ٥٩٠ .

الله ، المبنية على الوحي والإلهام ، يعرف ذلك بداهةً مَنْ أجال النظر فيها وتصفَّحها ، ومن قرأ الكتب التي ألفت في تاريخها والأدوار التي مرَّت بها[١] وهي لا تناهض كتب الحديث ، ودواوين السنة عند المسلمين ، من الطبقة الثانية والثالثة ـ فضلاً عن الصِّحاح ـ فإنَّ هذه الكتب امتازت باتصال السند من أصحابها إلى رسول الله صلى تعالى عليه وعلى آله وسلم ، والحديث الصحيح عند علماء المسلمين ما روي بنقل عدلٍ تامِّ الضَّبط ، متصل السند ، غير معللٍ ولا شاذ[٢] أما الأناجيل فقد تجردت عن جميع أنواع السند ، فليس هنالك سندٌ متَّصلٌ من عصرنا إلى مدونيها ولا من مدونيها إلى سيدنا عيسى ابن مريم.

وهذا كلُّه زيادةٌ على أنَّ هذه الصحف التي بأيدينا اليوم ليست باللغة التي نزلت فيها ، وكان يتكلم بها المسيح (عليه الصلاة والسلام) وقومه ، بل نقلت من لغةٍ إلى لغةٍ ، وتناولتها أيدي المترجمين الناقلين حتى وصلت إلينا ، وهي في الحقيقة بكتب السير والتاريخ ، ومجاميع الأقوال والمواعظ ، ـ إذا لم نقل قصص المولد الكثيرة المنتشرة بين المسلمين ـ أشبه منها بكتب الحديث عند المسلمين ، لذلك كان من الخطأ المقارنة بين هذه الصحف والقرآن ، فإنَّ المقارنة إنما تكون بين ما كان من جنسٍ واحدٍ ، وعلى درجةٍ واحدةٍ.

وقد أحسن العالم المستشرق المهتدي المسيو «ايتين دينيه» الفرنسي في وصف هذه الأناجيل ، وتحديد مكانتها العلمية والتاريخية ، وكان دقيقاً في هذا الوصف ، يقول:

«أمَّا أنَّ الله سبحانه قد أوحى الإنجيل إلى عيسى بلغته ، ولغة قومه ، فالذي

---

(١) اقرأ الكتب التي ألفت في تاريخ العهد الجديد في اللغات الأوربية بأقلام العلماء المسيحيين ، واقرأ خلاصتها في كتاب «أضواء على المسيحية» لمؤلفه الفاضل الأستاذ متولي يوسف شلبي ، نشر الدار الكويتية.

(٢) راجع للتفصيل ومعرفة أقسام الحديث وشروطها كتب أصول الحديث ومصطلح أهل الأثر.

لا شكَّ فيه أنَّ هذا الإنجيل قد ضاع ، واندثر ، ولم يبق له أثرٌ ، أو أنَّه أبيد .

ولهذا قد جعلوا مكانه «تأليفاتٍ أربع» مشكوكاً في صحتها ، وفي نسبتها التاريخية ، كما أنها مكتوبةٌ باللغة اليونانية ، وهي لغة لا تتفق طبيعتها مع لغة عيسى الأصلية التي هي لغةٌ ساميَّةٌ ، لذلك كانت صلة السماء بهذه الأناجيل اليونانية أضعف بكثير من صلتها بتوراة اليهود ، وقرآن العرب»[1] .

ثم هناك شواهد داخلية ، من أغلاطٍ تاريخيةٍ صريحةٍ ، وتناقضاتٍ واضحةٍ ، وأمورٍ مستحيلةٍ ، ينكرها العقل ، ونسبة أشياء إلى الله لا تليق بجلاله وكماله ، ولا تتفق مع صفاته التي اتفقت عليها الأديان السَّماوية ، والعقول السليمة ، ومطاعن في أنبياء الله المكرَّمين ، واتهمهم بأفعال وأخلاق يترفع عنها أوساط الناس ، إلى غير ذلك من الشواهد الجلية الكثيرة العدد التي تدلُّ على الدَّسِّ ، والإلحاق ، والتغيير في كتب العهدين : القديم ، والجديد التي تسمَّى مجموعاً ببائبل (Bible) أو الكتاب المقدس[2] .

أما صحف الديانات الأخرى التي تعتبر أعرق في القدم ، وفيها صحف الهند العتيقة التي تدين بها الشعوب الهندية الآرية ، وتعتقد أنَّها نزلت من السماء ، وأنها من كلام فاطر الكون ووحيه ، فقد أحاطت بها هالاتٌ من الظلام والغموض ، والجهل والأساطير ، وجُهلت العهود التي نزلت فيها والأشخاص الذين خوطبوا بها ، ودخل في صلبها الشيء الكثير من الزيادات والتفسيرات ، واندرست اللغات واللهجات التي نزلت بها ، حتى أصبح الجزم بتحديد عهدها ، والوصول إلى حقيقتها ومقاصدها ، والتمييز بين أصولها وشروحها ، شبهَ المستحيل . يقول أحد كبار العلماء المختصين في تاريخ هذه الصحف ، وهو الموسيو A - Parth عضو المجمع الآسيوي

---

(١) نقلاً من كتاب «أضواء على المسيحية» ص ٥٢ ـ ٥٣ .

(٢) اقرأ كتاب «إظهار الحق» الفريد في موضوعه للعلاَّمة رحمة الله الكيرانوي الهندي المتوفى سنة (١٣٠٨ هـ) المدفون بمكة المكرمة ، وقد عدَّ المؤلف ما وقع في الكتاب المقدس من اختلاف لفظي فبلغ ١٢٢ اختلافاً ، وما عثر عليه من أغلاط لا تقبل التأويل فبلغ عددها إلى ١٠٨ . راجع الكتاب .

الملكي في باريس (The Societe- Asiatiqne of Paris) وهو يتكلَّم عن «ويدا» في كتابه «ديانات الهند»:

«إنَّ هذه الصحف لا تدَّعي أنَّها من الله ، ولا تحاول أن تخفي ـ بطريقةٍ صناعيةٍ ـ عمرها ، لقد دخل الشيء الكثير من الزيادات والتحريفات في صلب هذه الكتب وصميمها ، وقد كان الدافع إلى الإخلاص وحسن النية[١] ولكن رغم ذلك من الصعب تحديد عمرها ، أو تقديره على الأقل ، إنَّ أجزاء «برهمنا» (Brahmana) التي كتبت في آخر ما كتب ، لا تتقدَّم بداية عهدنا إلا خمسمئة سنة ، أمَّ بقية ما اشتملت عليه «ويدا» فهي موغلةٌ في قدمٍ يصعب معه الجزم بشيءٍ ، أمَّا ما كان أعرق منه في القدم فمن المستحيل إبداء الرأي فيه»[٢].

أما «أوستا» صحيفة المجوس الفرس ، فلا يختلف شأنها عن شأن «ويدا»، ولعلَّ نصيبها من البحث العلمي ، والقيمة التاريخية أقلُّ ، والشبهات حولها أقوى ، يقول (Robert. H. Pfeiffer) رئيس فرع اللغات السامية في جامعة هارورد ، في دائرة معارف الديانات ، وهو يتحدَّث عن «أوستا»:

«إنَّ أصل «أوستا» كما تقول الحكايات كان جامعاً للعلوم ، وقد أباد معظمه الإسكندر ، وقد ألِّف كتاب في القرن الثالث المسيحي مما تبقى من الكتاب كان يحتوي على ٢١ جزءاً تسمَّى (Nask) ولم يبق من هذه الأجزاء كلها إلا جزءٌ واحدٌ يسمى (Vendidad) وقد نقل جزءٌ يتَّصل بالعبادات من هذا الكتاب إلى الهند بعد القرن التاسع المسيحي ، وهو يتألف من خمسة أجزاء تسمَّى (Yasan) بما فيها (Vespered) (Vendid) (Khoroa Avasta) (Gatha)[٣].

---

(١) لعلَّه يعني أنَّ الذين فعلوا ذلك كان غرضهم أن يقبل عليها الناس قراءةً ومطالعةً ، وأن يطبقوا بينها وبين روح العصر وثقافته ، وهذا نفس ما وقع مع العهد القديم والجديد. وقد جنى ذلك على هذه الصحف جنايةً كبيرة ، فقد ثبت بطلان النظريات والشائعات علمياً ، ففقدت «الكتب المقدسة» قيمتها ومكانتها.

(٢) The Relig ones Fo India. Delhi 1969 p. 4-5.

(٣) دائرة معارف الديانات طبع نيويورك ١٩٤٥ م ص/ ٤٩.

أمَّا القرآن الكريم الذي كان آخر الكتب المنزلة من الله ، ومصدقاً لها ، ومهيمناً عليها ، وعليه الاعتماد في هداية البشر ، وربط الخلق بالخالق ، والدعوة إلى الله بعد البعثة المحمَّدية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فشأنه يختلف عن شأن جميع الكتب السَّماوية كلَّ الاختلاف ، فقد تكفَّل الله بحفظه ، وسلامته من كل تحريفٍ وتبديل ، وزيادة ونقصٍ ، فقال : ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : ٤١ ـ ٤٢]. وكذلك تكفَّل بسلامته من مسخ وعبث ، ومحوٍ من الذاكرة ، وارتفاع عن صدور الناس ، أو تعرضٍ لنكبةٍ تقضي عليه ، أو تبيده ، كما وقع أكثر من مرَّةٍ للتوراة ، فقال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر : ٩]. وهي الكفالة بحفظه وبقائه ، وانتشاره وازدهاره ، وبقائه متلواً مدروساً ، ومفهوماً ، وغير مهجورٍ ، قد انقطع العمل به بتاتاً ، وتنوسي ، فكلُّ هذا ـ من معانٍ ولوازم وآفاق ـ مما تنطوي عليه كلمة «الحفظ» العربية البليغة.

ولمَّا قضى الله ببقاء هذا الكتاب على أصالته ونقائه ، وبنصِّه وفصِّه ، كما نزل على محمَّد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، سخَّر الله لهذا الغرض النفوس البشرية ، والدواعي الطبعية ، والأسباب الخارجية والحوادث الكونية ، فكان لا يتحرَّك به لسان النُّبوَّة ، ولا يدخل في الأذن إلا ويتهالك المسلمون على تلقفه ، وحفظه ، وتلاوته ، وتدارسه ، بدافعٍ من الحبِّ الذي جبلت عليه القلوب ، ولإعجازه ، وبلاغته ، ورنينه ، وحلاوة جرسه ، ثم بما وردت في فضل حفظته وحملته من الآيات الكثيرة ، والأحاديث المستفيضة المتواترة[1]. وقد قرنت حياة المسلمين به صلاةً ، وتعبداً ، وأحكاماً ، ومدنيةً ، واجتماعاً ، وعلماً ، وأدباً ، فبلغ تعلُّق قلوب المسلمين به إلى حدِّ الغرام والهيام ، وكثر عدد حفاظه فيهم من أقدم العصور ، فقد استشهد في وقعة بئر معونة التي كانت سنة ثلاث للهجرة

---

(١) انظر «فضائل القرآن» للعلامة المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ، طبع دار ابن كثير بدمشق .

سبعون رجلاً من المسلمين يقال لهم القراء[١] وهكذا لم يزل عدد الحفاظ يتزايد بتزايد عدد المسلمين وكثرة الدواعي إلى الحفظ ، وتنوُّعها ، حتى وصل إلى حدٍّ يقضي منه العجب في مدينة صغيرة ، وفي كلِّ مجتمع إسلاميٍّ ، ويتناقله المسلمون صدراً من صدر ، ولساناً من لسان ، ويبلغ منهم الإتقان لحفظه ، والدِّقة في صحته ، والبراعة في استحضاره ، والتنافس فيه ، والشغف بقراءته ، والتعبُّد به إلى حدٍّ لا يصدقه من غير المسلمين إلا من عاشر المسلمين ، وعاش معهم ، وعرف عوائدهم ، وكان عدد هؤلاء الحفاظ يفوق الإحصاء في كلِّ زمانٍ ، فضلاً عن هذا الزمان الذي لا يقلُّ عددهم عن ملايين .

وقد ألهم الله خلفاء رسول الله ﷺ بالحق ، والقائمين بأمر المسلمين حين استحرَّ القتل يوم اليمامة بالقراء ، فخشوا أن يكون في استشهاد القراء في المواطن الأخرى ضررٌ على بقاء القرآن أن كان جلُّ الاعتماد على الحفظ ، وقد بدا ذلك لعمر الذي كان يسبق زملاءه الصحابة في التعرُّف لحاجات المسلمين ومصالحهم ، وكان يتوارد خاطره بمقاصد التشريع ، فاقترح على أبي بكر وهو خليفة رسول الله ﷺ يومئذٍ ، وخليفة المسلمين ، جمع القرآن وكتابته ، وكان مفرقاً في الرِّقاع ، والعُسُب ، واللِّخاف[٢] وصدور الرجال ، وشرح الله صدر أبي بكر لهذا الأمر ، وكلف زيد بن ثابت لاختصاصه بهذا الشأن ، فقام بذلك خير قيام ، معتمداً على المحفوظ في صدور القرَّاء ، والمكتوب لدى الكتبة ، وبقيت تلك الصحف محفوظة يُرجع إليها ، ويُعتمد عليها ، حتى آل الأمر إلى عثمان بن عفان الخليفة الثالث ، وقد اتَّسعت الفتوحات الإسلامية ، وتفرق القرَّاء في الأمصار ، وأخذ أهل كلِّ مصرٍ عمَّن وفد إليهم قراءته ، وخشي على المسلمين الاختلاف والاضطراب في وجوه القراءة ، واللحن بدخول العجم في

---

(١) راجع «البداية والنهاية» ج/ ٤ ص/ ٧١ .

(٢) العسب جمع عسيب : أي جريدة من النخل ، وهي السعفة مما لا ينبت عليه الخوص .
واللخاف جمع لخفة : حجارة بيض رقاق .

الإسلام في عددٍ كبيرٍ ، وخاف عقلاء الصحابة أن ينشأ عنه التحريف ، والتبديل ، فأمر عثمان رضي الله تعالى عنه بنسخ الصحف الأولى ، التي نسخت في عهد أبي بكر في المصاحف ، وكتبت على القراءات المتواترة ، وبعث عثمان إلى كلِّ أفق بنسخة من المصاحف ، واحتبس بالمدينة واحداً ، هو مصحفه الذي يسمى «الإمام»[(١)] وهذه المصاحف هي التي تمسَّك بها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، وعليه درجت أجيالهم ، وبها ذلَّت ألسنتهم ، وحفظوا القرآن ، وعبدوا الله به ، وعليه الاعتماد في العالم الإسلامي كلِّه من أقصاه إلى أقصاه ، ومن السنة الخامسة والعشرين التي كان فيها هذا الجمع الأخير إلى يوم الناس هذا ، لا يشذُّ عنه شاذٌّ ، ولا يوجد عنه اختلاف في مجتمع إسلاميٍّ ، أو في مكتبةٍ أثريَّة[(٢)] ، وأجمع عليه المسلمون ، وتواتر منذ أن تمَّ هذا العمل ، وأطبق عليه المسلمون إلى هذا العصر الذي أصبح القرآن فوق متناول المحرِّفين ، والمغرضين ، والعابثين ، لكثرة الحفاظ ، والعلماء ، والمتقنين له ، وكثرة التداول بين الناس ، وكثرة الطبعات ، وقد اعترفت الموسوعة البريطانية ، بأنَّ القرآن هو أوسع الكتب تلاوةً على وجه الأرض[(٣)].

وقد اتفقت كلمة المستشرقين ، وعلماء الغرب المحققين ـ الذين لا يؤمنون بطبيعة الحال بكون القرآن منزلاً من الله ، ووحياً أُوحي به إلى

---

(١) اقرأ تاريخ جمع القرآن وكتابته في الكتب التي ألفت في هذا الموضوع قديماً وحديثاً ، واقرأ خلاصتها في كتاب «مباحث في علوم القرآن» للأستاذ مناع القطان طبع مؤسسة الرسالة ، واقرأ الكتاب الممتع المفيد «النبأ العظيم» لمؤلفه الفاضل العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز.

(٢) يقول: (أي: منجانا) (A. Mangana) أستاذ جامعة منشستر سابقاً: «إن هنالك نسخاً كثيرةً مخطوطةً للقرآن كلها في مكتبات أوربا العامَّة ، لعلَّ أقدمها ما ترجع كتابتها إلى القرن الثاني الهجري ، وهذه المخطوطات لا يوجد فيها اختلاف عدا هناتٍ من الكتابة العربية التي هي من عيوب الخط العربي القديم» وقريباً من ذلك قال نولديك Noeldeke (دائرة معارف الأديان والأخلاق) (ج/ ١٠ ص/ ٤٩ ـ ٥٤٨).

(٣) دائرة المعارف البريطانية ، مادة «محمَّد».

محمَّد ﷺ ـ على صحة نقله ، وانتهائه بنصِّه إلى محمد ﷺ ، وهنا بضع شهاداتٍ لكبار العلماء المسيحيين.

يقول سير وليم ميور (Ser Willnam Muir) الذي عُرف تحامله على الإسلام ، وصاحب رسالته ، حتى اضطر ذلك زعيم حركة التعليم العصري في المسلمين في الهند سيد أحمد خان ، مؤسس جامعة عليكراه الإسلامية إلى وضع كتابه الشهير «خطبات أحمدية» في الردِّ على كتابه «حياة محمد» (Life of Mohammed) ، يقول ميور في نفس هذا الكتاب :

«لم يمض على وفاة محمَّد ربع قرن حتى نشأت منازعات عنيفة ، وقامت طوائف ، وقد ذهب عثمان ضحية هذه الفتن ، ولا تزال هذه الخلافات قائمة ، ولكن القرآن ظلَّ كتاب هذه الطوائف الوحيد ، إنَّ اعتماد هذه الطوائف جميعاً على هذا الكتاب تلاوةً برهانٌ ساطعٌ على أنَّ الكتاب الذي بين أيدينا اليوم ، هي الصحيفة التي أمر الخليفة المظلوم بجمعها وكتابتها ، فلعلَّه هو الكتاب الوحيد في الدنيا الذي بقي نصُّه محفوظاً من التحريف طيلة ألفٍ ومئتي سنة»[١] .

ويقول وهيري (Wherry) في تفسيره للقرآن ج : ١ ص : ٣٤٩ : «إنَّ القرآن أبعد الصحف القديمة بالإطلاق عن الخلط والإلحاق ، وأكثرها صحَّةً وأصالةً».

ويقول بامر (Palmer) مترجم القرآن المعروف إلى اللغة الإنجليزية في كتابه (The Quran introduction) : «لم يزل نصُّ القرآن الذي رتَّبه عثمان هي الصحيفة المتلقاة بالقبول والمعتمد عليها عند المسلمين»[٢] .

ويقول لين بول (Lane Poole) :

«إنَّ أكبر ما يمتاز به القرآن أنَّه لم يتطرَّق شكٌّ إلى أصالته ، إنَّ كلَّ حرفٍ

(١) Life of Mohammed طبعة ١٩١٢ ص/ ٢٢ ـ ٢٣ .
(٢) ص/ ٧.

نقرؤه اليوم نستطيع أن نثق بأنه لم يقبل أيَّ تغييرٍ منذ ثلاثة عشر قرناً»[١].

إذاً فلم تعد حاجة إلى نبوَّةٍ جديدةٍ ، تزيل الالتباس ، وتميِّز بين الحقِّ والباطل ، وتبيِّن كذب المفتري ، ولا إلى صحيفةٍ تحلُّ محلَّ هذه الصحيفة المنسوخة التي عبثت بها الأيدي ، واعتدى عليها المعتدون.

سكوت القرآن عن بعثة نبيٍّ جديد :

وهذا الكتاب الخالد الذي هو الفرقان والميزان ، والذي هو تبيانٌ للناس ، والذي لم يهمل أصلاً من أصول الدين ، يتوقف عليه فلاح الدين والدنيا ، وتتوقف عليه النَّجاة والسَّعادة ، ساكتٌ عن ورود نبيٍّ جديد ، مع أنه كان من أهمِّ المهام الذي لا يقبل الغموض والإبهام ، فضلاً عن السكوت ، فالكتاب الذي يذكر الشيء الكثير من أشراط الساعة ، والحوادث التي تحدث في آخر الزمان ، ويتحدَّث عن الدخان[٢] ، وعن الدَّابة[٣] ، ويأجوج ومأجوج[٤] ، من حوادث آخر الزمان ، كيف لا ينبىء عن نبيٍّ يبعث في هذه الأمة ، أو غيرها ، ويهيِّىء العقول والنفوس ـ التي تنفر عن كل جديدٍ ، وتفرُّ من التكاليف والمسؤوليات ـ للترحيب به وقبول دعوته ، والانضواء إلى رايته ، وقد عرف اعتناء القرآن الزائد ، واهتمام الرسول ﷺ البالغ بكل ما ينفع في الدنيا والآخرة ، والتحذير عن كل ما يضرُّ ، ويعرض لسخط الله وعقابه ، والحرص الشديد على أن يكون المسلمون على بينةٍ من أمرهم ، مستعدِّين لمواجهة ما يتحدَّى دينهم ، ويفسد عقيدتهم ، ويغير على إيمانهم ، وقد ذخرت كتب الحديث بالأحاديث الواردة في المسيح الدجال ، وفتنته ، ومحنته ، أيعقل من هذا

---

(١) Selections From the Koran p. G هذه الاعترافات ملتقطة من تفسير الشيخ عبد الماجد الدريابادي ، بالإنجليزية.

(٢) ﴿ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الدخان : ١٠ ـ ١١].

(٣) ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل : ٨٢].

(٤) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٩٦].

الكتاب الذي هو تنزيل من حكيم حميد ، ومن هذا النَّبيِّ ـ الذي يصفه القرآن بأنه ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ـ أن يترك أمته في عماءٍ وظلامٍ ، وجهالةٍ مطبقةٍ ، وحيرةٍ مردية عن هذا الحدث الأكبر ، والنبأ العظيم الذي هو أهمُّ بكثيرٍ مما لهج لسان النبوة بذكره ، وذخرت دواوين السنَّة بتفاصيله؟!

الأحاديث الصحيحة الصَّريحة المتواترة:

ثم لم يقتصر النَّبيُّ ﷺ على ما جاء صريحاً في القرآن عن كمال هذا الدين ، وانتهاء سلسلة النبوة عليه ، مما لا يدع مجالاً للشكِّ لكلِّ من عرف اللغة العربية ، ولم يبتل بفساد الذوق ، أو سوء النية ، أو ابتغاء الفتنة ، بل شرحه لأمته في وضوحٍ لا وضوح فوقه ، وفي بسطٍ وتفصيلٍ لا يتصوَّر أكثر منه ، وضرب لذلك الأمثال البليغة ، وقد زخرت كتب الحديث بهذه الروايات التي وردت في معنى أنَّ رسول الله ﷺ هو آخر الرسل ، وخاتم الأنبياء[١] ونقتصر هنا على خمسة أحاديث وردت في الصحاح حتى يتبين الصبح لذي عينين:

١ ـ قال النَّبيُّ ﷺ: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبيٌّ خلف نبيٌّ ، وإنه لا نبيَّ بعدي ، وسيكون خلفاء»[٢].

٢ ـ قال النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي ، كمثل رجلٍ بنى بيتاً

---

(١) قال العلامة السيد أنور شاه الكشميري شيخ المحدثين في عصره (م ١٣٥٢ هـ) في كتابه «عقيدة الإسلام»: «تواترت الأحاديث في ختم النُّبوَّة نحو مئتي حديث» (ص/٣١٨) وقد جمع العلامة المفتي محمد شفيع الديوبندي (كبير علماء باكستان) الأحاديث الواردة في هذا المعنى في كتابه «ختم النبوة» فبلغت ٢١٠ حديثاً ، وقد تزيد على ذلك عند المستقصين ، وتكلم على هذه الأحاديث ، وبحث فيها ، وفي أقوال العلماء ، والمتكلمين ، والأصوليين ، والصوفية العلامة محمود حسن خان الطوكي (م ١٣٦٦ هـ) مؤلف موسوعة «معجم المصنفين» في كتابه «معيار السنة لختم النُّبوَّة» وهو من أحسن ما كُتب في هذا الموضوع.

(٢) الجامع الصحيح للبخاري (كتاب المناقب ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، ومسلم في كتاب الإمارة) وأحمد في مسنده ، وابن ماجه وابن جرير ، وابن أبي شيبة.

فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنةٍ من زاويةٍ ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلاَّ وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين»[١] .

٣ ـ إنَّ رسول الله ﷺ قال : «فضلت على الأنبياء بستٍّ : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأرسلت إلى الخلق كافَّة ، وختم بي النَّبيُّون»[٢] .

٤ ـ قال رسول الله ﷺ : «إنَّ الرسالة والنبوَّة قد انقطعت ، فلا رسول بعدي ، ولا نبيّ»[٣] .

٥ ـ عن جبير بن مطعم أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : «أنا محمد ، أنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبى ، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبيٌّ» .

إجماع الصَّحابة والأمَّة الإسلاميَّة على انقطاع النُّبوَّة بعد محمد ﷺ ، واستبشاعها ورفضها لهذه الدعوى :

وبسبب هذه الآيات البيِّنات المحكمات ، والأحاديث الصحيحة الصريحة ـ التي بلغت حدَّ التواتر ـ أجمع الصَّحابة رضي الله عنهم ـ وإجماعهم أكبر دليلٍ من دلائل الثبوت الشرعي ـ على انقطاع النُّبوَّة بعد النَّبيِّ ﷺ ، وأنَّه لا نبيَّ بعده في كلِّ مفهومٍ من مفاهيم هذه الكلمة العربية التي كانوا يحسنون فهمها ، ولذلك اتفقت كلمتهم عن آخرهم على قتال مسيلمة الكذاب ، والحكم بكفره ، وردَّته ، لم يشذَّ منهم في ذلك شاذٌّ ، مع أن مسيلمة كان مقرّاً بنبوَّة محمد ﷺ ، وكان يؤذِّن للنبي ﷺ ، ويشهد في الأذان أنَّ محمَّداً رسول الله[٤] ، وكان مؤمناً بالقرآن يرى العمل به فرضاً ،

(١) الجامع الصحيح للبخاري (كتاب المناقب ، باب خاتم النَّبيين) ورواه مسلم ، وأحمد ، والترمذي ، وابن أبي حاتم ، واللفظ للبخاريِّ .

(٢) رواه مسلم ، والترمذيُّ ، وابن ماجه .

(٣) رواه الترمذيُّ في (كتاب الرؤيا ، باب ذهاب النُّبوَّة) وقال : هذا حديثٌ صحيحٌ .

(٤) تاريخ الطبري ج/ ٣ ص/ ٢٤٤ .

وإنما كان يفسر القرآن حسب أهوائه ، ويدَّعي الإلهام ، وكان يدَّعي أنَّه أُشرك في نبوَّة محمد ﷺ ، فكان أول فاتح لباب نبوة تابعة للشريعة المحمَّدية ، وكلُّ من ادَّعى ذلك في العصور الأخيرة كان تابعاً له ، وقد قتل في حرب اليمامة ألف ومئتا رجلٍ من خيار المسلمين ، كما جاء في كتابٍ كتبه أبو بكر إلى خالد بن الوليد(١) ، وقتل الأسود العنسي الذي ادَّعى النبوة في عهد رسول الله ﷺ .

ثم أجمع المسلمون في كلِّ عصر على انقطاع النُّبوَّة بعد محمَّدٍ ﷺ ، وأنَّ كلَّ من يدَّعيها مارقٌ من الدين ، متَّبعٌ غير سبيل المؤمنين(٢) ، واستفاضت هذه العقيدة في العالم الإسلامي كلِّه ، وأصبحت جزءاً من عقائد المسلمين التي يدينون بها ، ويعضُّون عليها بالنواجذ ، وتتوارثها الأجيال بعد الأجيال ، حتى أصبحت عقول المسلمين وطبيعتهم لا تسيغ ادِّعاء النُّبوَّة ولا تحتمله(٣) ، لذلك قلَّ عدد المتنبئين في المجتمع الإسلاميِّ بالنسبة إلى اتساع العالم الإسلاميِّ ، وتفاوته في فهم الدين والتمسُّك به ، وبالنسبة إلى عدد المسلمين الضخم ، واضطراب الأمور فيهم ، وبالقياس إلى كثرة

(١) تاريخ الطبري ج/ ٣ ص/ ٢٥٤ .

(٢) قد نقل الإجماع على ذلك القاضي عياض (م ٥٤٤ هـ) في كتابه المشهور «الشفاء» وبسط القول فيه («الشفاء» ج/ ٢ ص/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢) والعلامة الشهرستاني (م ٥٤٨ هـ) في كتاب «الملل والنِّحل» (ج/ ٣ ص/ ٢٤٩ ، والعلامة ابن نجيم (م ٩٧٠ هـ) في كتاب «الأشباه والنظائر» ص/ ١٧٩ ، والعلامة ملا على القاري (م ١٠١٦ هـ) في شرح «الفقه الأكبر» ص/ ٢٠٢ ، ومن كبار الصوفية الإمام عبد الوهاب الشعراني في كتاب «اليواقيت والجواهر» ص/ ٣٥ ، وكل ما نقل خلافه عن عالم من علماء المسلمين الذين عليهم الاعتماد ، إمَّا مفترى عليه ، وإمَّا مدسوسٌ في الكتاب ، وإمَّا قطعت عبارته عن سياقها ، وحرِّفت عن موضعها وإما أسيء فهم مراده عن قصدٍ ، أو عن غير قصدٍ .

(٣) لقد خلَّد التاريخ أسماء من ادَّعوا النُّبوَّة ، ولقَّبهم المسلمون بالمتنبئين ، وبقي هذا العار واللقب الشنيع لاصقاً بهم ، ولم يسامح التاريخ في ذلك أشهر شاعرٍ من شعراء العربية ، وقد انتهت إليه رئاسة الشعر ، وعقد له اللواء ، وهو أبو الطيب أحمد بن الحسين الكندي (م٣٥٤ هـ) وقد غلب عليه لقب «المتنبي» فغطى اسمه .

الدواعي إلى هذه الادعاءات ، بالعكس من الأمم السابقة التي كثر فيها عدد المتنبئين مع ضيق رقعة الأرض التي كانت تسكنها ، وقلة عدد المتديِّنين الذين كانوا يتديَّنون بهذه الديانات .

ثم إنَّ من ادَّعى النبوة لم يحقق من النجاح ، ولم يكتسب من الأتباع ما كان يخشى من جهالة المسلمين ، ودهاء المتنبئين ، وما وردت به الأخبار الصحيحة عن عدد المتنبئين (الذي لا يتجاوز سبعين إلى أن تقوم القيامة) والذي سجله التاريخ من أسمائهم وأخبارهم قليلٌ ، نظراً إلى اتساع الأمة الإسلامية ، وامتداد نفوذ الإسلام ، واضطراب العقائد ، وتشتُّت الأغراض والمذاهب ، وتلك نتيجة رسوخ عقيدة ختم النُّبوَّة في أذهان المسلمين ، وتغلغلها في أحشائها ، ولوضوح الآيات ، ولصراحة الأحاديث؛ التي وردت في هذا المعنى ، وشهرتها ، واستفاضتها .

* * *

المحاضرة الثامنة

محمَّد رَسُول الله ﷺ آخرُ الرُّسُل وخاتمُ النَّبيّين (٢)

انقطاع النُّبوَّة تكريمٌ للإنسانية ورأفةٌ بها :

أشارت الحكمة الإلهية بختم النُّبوَّة إلى أنَّ الإنسانية قد بلغت سنَّ الرشد ، ومرحلة النُّضج والاستواء ، فقد خرجت من إطارها الضَّيِّق الذي عاشت فيه قروناً طويلةً ، لأسبابٍ تاريخيةٍ طبيعيةٍ يطول شرحها ، واستعدَّت لأن تدخل في مرحلةٍ جديدةٍ من العلم والمدنية ، والتعارف والوحدة ، وتسخير الكون وطاقاته ، والتغلب على العوائق الطبيعية والتقسيمات الجغرافية ، والفوارق السياسية ، وخرجت من مفهوم الأسر والقبائل ، والشعوب والأقاليم إلى مفهوم العالم الفسيح ، والإنسانية الواسعة ، والهداية العامَّة ، والعلم المشاع .

وكانت كلُّ الشواهد والتجارب تدلُّ على أنَّ سعادتها في الاعتماد على ما نزل من وحيٍ ، وصحَّ من عقيدةٍ وتشريعٍ ، وتعيَّن من حدودٍ وغاياتٍ ، وأصولٍ وكلِّيَّاتٍ عن طريق النبوءة التي كانتْ خاتمة للنبوءات ، وعن طريق الكتاب الذي كان مهيمناً للكتب ، والسير في ضوئه على هدىً وبينة ، وشقِّ طريق الحياة إلى الأمام ، والاعتماد في مجال الحياة على القوى الطبيعية ، ووسائل العلم ، والعقل المؤمن ، والقلب السليم ، والسعي الهادف .

وكان شقاؤها في الزَّمن الماضي بالتباس الأمور ، واختلاط الحقِّ بالباطل ، وكثرة الدعوات المدَّعية للاتصال الخاصِّ بالسماء ، وتلقِّي

التعاليم من فوق كذباً وزوراً ، وتوزيع الناس بين المؤمن والكافر على هذا الأساس.

وكان هلاك أممٍ كثيرةٍ بالكفر بالأنبياء الذين كانوا يبعثون فيها ، والذين كان يأتي بعضهم على إثْرِ بعضٍ ، فإنَّ النبوة ليست زعامةً سياسيةً ، أو رئاسةً دنيويةً يهون إنكارها ومحاربتها ، والثورة عليها ، إنَّما هي فرقانٌ بين الحقِّ والباطل ، وبها تتمُّ حجَّةُ الله على هذه الأمة التي يبعث فيها النَّبيُّ ، ويعرف المتتبع للقرآن أنَّ سبب هلاك الأمم السابقة لم يكن بالكفر المطلق ، وبمجرد فساد العقائد ، والأعمال ، والأخلاق ، إنَّما كان لتكذيبها بالنَّبيِّ المبعوث فيها ، واستهزائها به ، وإهانتها له ، وقد قصَّ القرآن قصة هذه الأمم في بسطٍ وتكرارٍ ، واجترائها على نبيها المرسل ، وما لقيه منها من أذىً وسخريةٍ وإهانةٍ أحياناً أخرى ، والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ ، يصعب استقصاؤها ، ونقتصر هنا على بعضها:

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون: ٤٤].

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٩ ـ ٤١].

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرَّعد: ٣٢].

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٤].

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨].

وفي انقطاع النُّبوَّة توفيرٌ للجهود البشرية والطاقات الإنسانية عن أن

تمتحن وتستنفد بعد كلِّ فترةٍ زمنيةٍ ، وعلى مسافة مكانية ، في التصديق والتكذيب ، والإيمان والكفر ، وذلك شيءٌ طبيعيٌ ، إذا استمرَّت سلسلة النُّبوَّة ، واتصال الأرض بالسماء لتلقِّي الوحي الجديد ، والتعليم المفيد ، والشرع المزيد ، ونهض بعد حقبة من الزمان ـ قد تطول وقد تقصر ، وعلى مسافة من المكان قد تبعد وقد تقرب ـ من يدّعي النبوة ، ويدَّعي أنَّ الله يخاطبه ويوحي إليه ، وأنَّه كلِّف تبليغ الرسالة ، ويحكم بكفر من يكفر به وينكر نبوءته ، ويحاربه حرباً شعواء لا هوادة فيها ولا رفق ، ولا استثناء فيها ولا فرق ، وينحت من الأمة الواسعة ، التي ملأت الآفاق أمَّةً صغيرةً ، قد يبلغ عددها إلى مئاتٍ من النفوس ، أو إلى آلافٍ ، أو مئات آلاف ، وهكذا يتشاغل الناس ـ بعد كلِّ فترةٍ من الزمان ـ وفي أمكنة متعددة في هذا العالم الفسيح في وقتٍ واحد ، بالحكم على هذا المدَّعي أو المدَّعين ، منهم المغبون في عقله ، ومنهم المحترف بدينه ، ومنهم من هو صنيعةٌ لغيره ، أو الملبوس عليه في عبادته لقلَّة علمه ، وكثرة مجاهدته ، قد اتخذه الشيطان مطيَّةً ولعبةً ، أو الحكومات ، أو أصحاب الأغراض السياسية وسيلةً وذريعةً ، إلى غير ذلك من الإمكانات التي لا ينكرها العقل ، ولا تنفيها التجربة ، ولا يكذبها الواقع ، فكل ذلك وجد في الديانات السابقة ، وظهر في الأمة الإسلامية في بعض الفترات التاريخية .

مشكلة كثرة المتنبئين في الدَّيانات السابقة وخطرها على سلامة العقيدة ووحدة الدِّيانة :

وتدلُّ مطالعة صحف «العهد القديم» دلالةً واضحةً على أنَّ عدداً كبيراً من أصحاب الطموح ، وعشاق الجاه والزعامة الدينية ، تزعَّموا النُّبوَّة والكهانة ، والاتصال بعالم الغيب اتصالاً مباشراً معتمدين في ذلك على رؤىً وأحلام كانوا يرونها ، أو يزعمون أنهم يرونها ، وقد أحدث ذلك فتنةً عظيمةً في المجتمع اليهودي ، حتى لزم أن ينبَّه عليها عن طريق الصُّحف التي نزلت على أنبياء بني إسرائيل ، وهنا نقتصر على بضع شهاداتٍ ملتقطةٍ من العهد القديم .

«ها أنذا على الذين يتنبؤون بأحلامٍ كاذبةٍ ، يقول الربُّ: الذين يقصُّونها ، ويضلون شعبي بأكاذيبهم ومفاخراتهم ، وأنا لم أرسلهم ، ولا أمرتهم ، فلم يفيدوا هذا الشعب فائدةً يقول الربُّ»[١].

«فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم ، وعرّافيكم ، وحالميكم ، وعائفيكم ، وسحرتكم ، الذين يكلمونكم قائلين: لا تخدموا ملك بابل ، لأنهم إنما يتنبؤون لكم بالكذب لكي يبعدوكم من أرضكم ، ولأطردكم فتهلكوا»[٢].

«فتحققت وهو ذا لم يرسله الله ، لأنه تكلم بالنبوة علي ، وطوبيا وسنبلط قد استأجراه ، لأجل هذا قد استؤجر لكي أخاف وأفعل هكذا وأخطىء ، فيكون لهما خبر رديء لكي يعيراني»[٣].

«وكان إليَّ كلام الرب قائلاً: يا بن آدم تنبأ على أنبياء إسرائيل الذين يتنبؤون ، وقل للذين هم أنبياء من تلقاء ذواتهم: اسمعوا كلمة الربِّ ، هكذا قال السيد الربُّ ، ويل للأنبياء الحمقى ، الذاهبين وراء روحهم ولم يروا شيئاً»[٤].

«صار في الأرض دهش وقشعريرة ، الأنبياء يتنبؤون بالكذب ، والكهنة تحكم على أيديهم ، وشعبي هكذا أحب!! وماذا تعملون في آخرتها»[٥].

«لأنه هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: لا تغشكم أنبياؤكم الذين في وسطكم ، وعرّافوكم ، ولا تسمعوا لأحلامكم التي تتحلمونها ، لأنهم إنما يتنبؤون لكم باسمي بالكذب ، أنا لم أرسلهم يقول الربُّ»[٦].

ويبدو من الوثائق التاريخية اليهودية ، أنَّ سلسلة هؤلاء المتنبئين استمرت إلى بعد عهد تدوين صحف «العهد القديم» ، وقد تكاثر هؤلاء

---

(١) أرميا ٢٣ : ٣٢.
(٢) أرميا ٢٧ : ٩ ـ ١٠.
(٣) نحيما ٦ : ١٢ ـ ١٣.
(٤) خرقيال ١٣ : ٢ ـ ٣.
(٥) أرميا ٥ : ٣٠ ـ ٣١.
(٦) أرميا ٢٩ : ٨ ـ ٩.

«المتنبئون» اليهود في البيئات التي كان اليهود فيها هدف الاضطهاد والقسوة والإهانة ، واستشرف المجتمع اليهودي من ينقذه من هذه الحالة المزرية ، وينتصف من عدوه ، ويردُّ إليه الاعتبار والكرامة ، واستغل هذه النفسية المكلومة الموتورة بعض الأذكياء الذين لا يخافون الله ، ولا يرجون حساباً ولا كتاباً ، فاعتبروا ذلك فرصةً سانحةً لتحقيق مآربهم الشخصية ، أو أغراضهم السياسية ، ففاجؤوا أبناء ملتهم بمبشراتٍ وتكهناتٍ ، ووعودٍ خلابةٍ ، وأسسوا عليها نبوتهم الجديدة ، وكان لها سحرٌ عجيبٌ في النفوس البائسة ، التي ضاقت ذرعاً بالظروف القاتمة التي طال أمدها ، فأقبل عليهم عددٌ كبيرٌ من المصدِّقين والمصفقين ، واضطربت العقائد ، وشاعت البدع ، ونشأت طوائفُ محدثةٌ ، هالَت الغبارَى على التعليمات اليهودية الأصيلة وأفزعتهم ، يقول البرت ايم تامسن (Albert M. Tyamson) عضو المجمع التاريخي اليهودي الأمريكي البريطاني في دائرة معارف الأديان والأخلاق :

«يكثر الحديث في تاريخ اليهود عن المتزعمين الذين كان كلُّ واحدٍ منهم يدَّعي أنه «المسيح الموعود» وذلك في الفترة التي أعقبت تجريد الحكومة اليهودية عن الحرية ، ودامت إلى عدَّة أجيالٍ ، وكان هؤلاء المبشرون بالعهد الزاهر ، والغد الباسم لا يزالون يبعثون في اليهود ـ في أحلك عصورهم ـ أمل العودة إلى وطنهم الذي أجلي منه آباؤهم في الزَّمن الماضي ، وكان أكبر عدد من هؤلاء المتزعمين ينهض في أمكنةٍ وأزمنةٍ يبلغ فيها اضطهاد اليهود أوجه ، وكانت تلوح طلائع الثورة على هذا الوضع المخزي ، وكانت هذه الحركات غالباً تتسم بالسمة السياسية ، وقد غلبت الصبغة السياسية على هذه الحركات في الزمن الأخير ، ورغم أن هذه الحركات لم تكن تتجرد عن المظهر الديني تجرداً كاملاً ، ولكنَّها كانت في غالب الأحيان تشجِّع على البدع ، وتوسِّع بذلك نفوذها وتقوِّي سلطانها ، لذلك كانت جنايتها عظيمةً على التعاليم اليهودية الأصيلة ، وتنجم فرقٌ

متطرفةٌ تنضم أخيراً إلى المسيحية أو الإسلام[١].

وقد استمر التنبؤ والتزعُّم للنُّبوَّة بدوافع شخصيةٍ، وطائفيةٍ، واقتصاديَّةٍ، وسياسيَّةٍ إلى ما بعد المسيح، وهنا شهادات من «العهد الجديد» تدلُّ على كثرة المتنبئين وخطرهم:

«وفي تلك الأيام انحدر من أورشليم إلى إنطاكية وقام واحدٌ منهم اسمه «أغابوس»، وأشار بالرُّوح أنَّ جوعاً عظيماً كان عتيداً أن يصير على جميع المسكونة، الذي صار أيضاً في أيام كلوويس قيصر»[٢].

«وبينما نحن مقيمون أياماً كثيرةً انحدر من اليهودية نبيٌّ اسمه أغابوس، فجاء إلينا، وأخذ منطقة بولس، وربط يدي نفسه ورجليه، وقال: هذا يقوله الروح القدس، الرجل الذي له هذه المنطقة، هكذا سيربطه اليهود في أورشليم، ويسلمونه إلى أيدي الأمم»[٣].

«احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان، ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة»[٤].

«ولكن ما أفعله سأفعله لأقطع فرصة الذين يريدون فرصةً كي يوجدوا كما نحن أيضاً فيما يفخرون به، لأنَّ مثل هؤلاء هم رسلٌ كَذَبَةٌ، فعلةٌ، ماكرون، مغيِّرون شكلهم إلى شبه رسل المسيح»[٥].

«أيها الأحبار لا تصدِّقوا كلَّ روح، بل امتحنوا الأرواح، هل هي من الله، لأنَّ أنبياء كذبةً كثيرين خرجوا إلى العالم»[٦].

«وكان قبلاً في المدينة رجلٌ اسمه سيمول، يستعمل السِّحر، ويدهش

---

(١) دائرة معارف الأديان والأخلاق (Encycelopaedia of Relegion and ethic) ج: ٨ ص/ ٥٨٨.

(٢) أعمال الرسل ١١: ٢٧ ـ ٢٨.

(٣) أعمال الرسل ٢١: ١٠ ـ ١١.

(٤) إنجيل متى ٧: ١٥.

(٥) رسالة بولس الثانية لأهل كورنثوس ١١: ١٢ ـ ١٣.

(٦) رسالة يوحنا الأولى ٤: ١.

شعب السامرة قائلاً: إنه شيءٌ عظيمٌ ، وكان الجميع يتبعونه من الصغير إلى الكبير قائلين: هذا هو قوة الله العظيمة»(١).

«ولما اجتازا الجزيرة إلى بافوس ، وجدا رجلاً ساحراً ، نبيَّاً كذّاباً يهوديَّاً ، اسمه باريشوع»(٢).

«فأجاب يسوع وقال لهم: انظروا لا يضلُّكم أحدٌ ، فإنَّ كثيرين سيأتون باسمي قائلين: أنا هو المسيح ، ويضلون كثيرين»(٣).

«هل يجتنون من الشوك عنباً ، أو من الحسك تيناً»(٤).

أما ما يتصل بالعهد المسيحي والحديث عن مشكلة ظهور المتنبئين والكهان، والمتزعمين للهداية الرَّبانية المباشرة ، فنقتصر هنا على شهادة واحدة لكاتب مسيحي صاحب اختصاص في الموضوع ، يبدو للمتأمل فيها تذمُّر العلماء المسيحين من هؤلاء المتنبئين الذين تكاثر عددهم في العهد الأخير ، وإشفاقهم البليغ على سلامة العقيدة ، ووحدة الديانة ، وهدوء الحياة ، يقول «ايدون ناكس متكل» (Edwin Knox Mitchl) أستاذ تاريخ الكنيسة اليونانية الرومية ، والكنيسة الشرقية في معهد الديانات بـ «هارت فورد» (Hart Ford) في مقال كتبه لدائرة معارف الديانات والأخلاق ، يقول هذا الكاتب:

«إن ظهور المتنبئين الأدعياء الذين كانوا يدَّعون الحكمة ـ التي مصدرها الغيب ، وما وراء العقل ـ أحدث اضطراباً ، وعدم ثقة ، وجعل قادة الكنائس وأساقفتها يشعرون بالخطر الذي كان يتهدَّد مستقبلها ، ويحلِّق على رؤوسهم ، ولكنهم لم يهتدوا بعد إلى طرق تأديبيةٍ ملائمةٍ وافيةٍ بالمراد لزجر هؤلاء الأدعياء والدُّعاة ، الذين كانوا يزعمون أنَّ الله يكلمهم ، ويبوح لهم بأسراره المكتومة ، ولم يكشفوا بعد ميزاناً يمتحن به مدى روحانية

---

(١) أعمال الرسل ٨ : ١٠ .

(٢) أعمال الرسل ١٣ : ٦ .

(٣) إنجيل متى ٢٤ : ٤ ـ ٥ .

(٤) إنجيل متى ٧ : ٦ .

هؤلاء المتزعمين ، ومبلغها من الصدق ، وكان العثور على هذا المعيار والمحك قد أصبح لازماً لمصالح الكنيسة ، وكانت الكنيسة مهتديةً إليه لا محالة ، لتصون الدين ـ عن طريق هذا المحك ـ عن الفوضى في المبادىء الأساسية ، والحياة عن الاتجاه إلى الإلحاد ، وهكذا تستطيع أن تنشىء سياجاً حول كيانها تعيش فيه بهدوءٍ وسلامٍ» .

ويقول وهو يتحدَّث عن كثرة الأدعياء والمتنبئين في العالم المسيحي :

«إنَّ تأليف «هيرمو باستر» Hermo Paster الذي سماه «Mand» ومؤلفات «اجناتيس» «Ignatius» مملوءةٌ بتنبيهاتٍ وتعليماتٍ ضد الدَّجالين من المتنبئين والمعلمين» .

وتدلُّ مطالعة كتاب The Didache على أنَّ الكهانة كانت لا تزال تتمتَّع بحريةٍ زائدة ، بل كانت لها مكانةٌ مرموقةٌ في سورية (أو مصر) مع أنها كانت في غالب الأحيان مصطنعةً مزوَّرةً ، وكانت الكنيسة ترفضها رفضاً باتّاً ، ولكنها كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وكانت لتفقد اعتبارها في المستقبل القريب ، وتواجه معارضةً واجهها جميع الأشخاص الذين غلَوا في ادِّعاء الحكمة الغيبية . إنَّ العارفين الروحانيين (غنوسطين) «Cnostics» والمارسيين Marcion كان لهم أنبياء يختصُّون بهم ، وكنائس تتَّصل بهم ، وكان من الصعب في بعض الأحيان التمييز بينهم ، وكأنَّ حركة «مونتانزم» «Montanism» مشجعةٌ لدعوى النُّبوَّة ، وكانت في الحقيقة سعياً وراء إحياء الأحوال البدائية التي مرت بها المسيحية ، حين كان كلُّ مؤمنٍ بهذه الديانة حرّاً في استخدام المواهب التي أكرمه الله بها .

واتخذت الكنيسة موقف الدفاع (ضد هذا السيل الجارف من النبوءات والكهانات ، والمزاعم والادعاءات) وهكذا فرضت رقابةً وحجراً عن طريق الوثائق المكتوبة على الكهانة والنبوءات ، وهكذا فقدت الدعاوَى الطويلة العريضة ، و«المعجزات» وشفاء الأمراض قوَّتها ونشاطها ، ولم ينته القرن الثاني المسيحي ، حتى أصبح رؤساء الكنيسة والمسؤولون عنها مسيطرين

على أصحاب الكهانات والنبوءات ، مالكين لزمامهم[١] .

ختم النُّبوَّة نتيجةٌ لوضع هذا الدِّين الكامل :

ثم قد اقتضى ذلك ـ ختم النُّبوَّة ـ طبيعة هذا الدين الذي جاء به محمَّد ﷺ ، تامّاً كاملاً ، في العقائد والشرائع ، والتعاليم الخلقية ، والاجتماعية ، والمدنية ، حاوياً للأسس السليمة الصالحة ، التي يقوم عليها المجتمع الصالح ، والمدنية الرشيدة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، ويبلغ بها الفرد البشري ذروته في التقدُّم والاكتمال ، ويحقِّق به أهدافه الصَّالحة من غير أن يشعر بعرقلة في هذا السير الطبيعي ، والبلوغ إلى قمة الحسن والإحسان ، والجمع بين حسني الدنيا والآخرة ، ومن غير أن يشعر بنقصٍ في مجال التشريع ، وعجزٍ عن مسايرة الحياة ، وتحقيق مطالبها الفطرية ، بل يجد هذا التشريع سابقاً للزمن ، باهراً للعقل البشري .

وقد دلَّت دراسة الكون ، وتتبُّع سنن الله في هذا العالم الفسيح ، وفي ماضي الأمم وحاضرها ، أنه لا فضول عنده ولا تقصير ، وأنَّ كلَّ شيءٍ عنده بمقدار ، وأنَّه ينزِّل الأشياء كلها بقدر ، وأنَّ كلَّ ما نراه مما يبدو زائداً أو قليلاً ، أو متجاوزاً ، أو متخلفاً ، إنما هو من قصور نظرنا ، وقلة علمنا ، والتكليف والتشريع أحقُّ من التكوين والعالم الطبيعي بالدِّقة ، والإتقان ، والتناسب؛ لأنَّه غايةٌ ، والكون وسيلةٌ ، فلو لم يقم دليلٌ نقليٌّ على اختتام النُّبوَّة على محمَّد ﷺ لعرفنا بحكم العقل أنَّ النُّبوَّة الجديدة التي يمتحن بها البشر بعد النبوة المحمَّدية إرهاقٌ للبشرية ، فيما لا لزوم له ، وجهادٌ في غير جهاد ، ومخالفٌ لما عرفناه من سنن الله في خلقه ، وفي هذا العالم .

حيوية هذا الدين ، وقوة توليده ، وإنتاجه للعارفين وأصحاب اليقين والمصلحين والمجددين :

وليس لأحدٍ من أفراد الأمَّة بل من أفراد البشر ـ في أيِّ عصرٍ من

---

(١) راجع مقال «النبوة والتنبؤ (في الدور المسيحي) دائرة المعارف للديانات والأخلاق» .
(Encyclopaedia of Religion and eathiec 1939 p.p. 383/84).

العصور ـ عذرٌ في عدم الوصول إلى مراتب اليقين ، وأعلى درجات القرب والوصول ، وغاية الرِّضا والقبول ، والإخبات والإنابة ، وتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق إلا ضعف إرادته ، وفتور همَّته ، وإخلاده إلى الأرض ، واتِّباع الهوى ، أو جهله للقرآن والحديث ، وإلا فهذا الدين زاخرٌ بالحياة والقوَّة والجِدَّة ، متكفلٌ بجميع السعادات الدنيوية والأخروية ، يبلغ الإنسان بالعمل به ـ في جِدٍّ وعزمٍ وإخلاصٍ ـ إلى درجةٍ من درجات القرب والسُّموِّ والكمال ليست فوقها إلا النبوة .

«وحسبنا الكتاب المعجز الخالد الذي يتدفَّق بالحياة والقوة ، والذي لا تبلى جِدَّته ، ولا تنقضي عجائبه ، و«الصلاة» التي تزخر بالقوة والحيوية كذلك ، ولها من الفضل والتأثير في ربط الصلة بالله ، والوصول إليه ، وقطع منازل القرب والولاية ما ليس لشيءٍ آخر في الدين ، وبهما وصل المخلصون والمجاهدون من هذه الأمة في كلِّ عصرٍ وجيلٍ إلى مكانةٍ في الإيمان ، واليقين ، والعلم ، والمعرفة ، والرَّبَّانيَّة ، والرُّوحانيَّة ، والقرب ، والولاية ، لا يصل إليها ذكاء الأذكياء ، وقياس العقلاء والحكماء ، وما زالوا في عدد يفوق العدَّ والإحصاء ، ولا يزالان يفيضان النُّموَّ والحياة ، والجدَّةَ والنشاط ، والروحانية الصافية الدافقة في نفوس هذه الأمة وأجيالها ، تستغني بهما هذه الأمة عن نبوةٍ جديدةٍ ، وبعثةٍ جديدة ، وتعيش متصلةً بالله مرتبطةً به في كلِّ دورٍ من أدوار حياتها ، وفي كلِّ عهدٍ من عهود التاريخ ، تستمدُّ لنفسها من القرآن والصلاة رابطةً قلبيةً ، وقوَّةً روحيَّةً ، وتمدُّ إلى العالم المعاصر يد الدلالة والهداية ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[1] [الحج : ٧٨].

---

(١) راجع كتاب العلامة الندوي «الأركان الأربعة» طبع الدار الشامية بيروت ، ودار ابن كثير ـ دمشق .

ثم إنَّ هذا الدِّين تكمن فيه قوةٌ حافزةٌ عجيبةٌ ، على الثورة على كلِّ ما يخالف هذا الدين ، وينحرف عن الجادة ، ويعرض الإنسانية وبقايا الخير للهلاك والتلف، باعثةٌ على التحدِّي للباطل ، ومحاربة قوى الشرِّ والرذيلة ، والدعاة إلى الإفساد والإلحاد ، وردِّ الأمر إلى نصابه ، وعلى الحسبة على الأخلاق ، وكلمة حقٍّ عند سلطان جائر ، والمجازفة بالحياة ، والتخلِّي عن المنافع والملذَّات، والإنكار على البدع والخرافات ، والفتن والضلالات ، مهما كلف ذلك من خسارةٍ في الأموال والأرواح، وعذاب الأبدان والأجسام، فلم يزل هذا الكتاب الذي يفرض على المسلمين أن يكونوا قوَّامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين ، غير متعاونين على الإثم والعدوان ، يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، آمرين بالمعروف ، ناهين عن المنكر ، أولياء لله ولأتباعه ، محاربين للشيطان ولأوليائه ، لا يبيعون دينهم بدنياهم ولا يؤثرون العاجلة على الآجلة ، وترد الأخبار الصحيحة الصريحة الحاسمة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد بما استطاعه الإنسان من يد ، ومن لسانٍ ، وقلب ، والوعيد الشديد لمن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومالأ أعداء الله ، والمحرِّفين والمبتدعين ، وتواتر ذلك ، واستفاض ، فظلَّ هذا الكتاب ينشىء في كلِّ ناحيةٍ من نواحي العالم ، وفي كلِّ فترةٍ من فترات التاريخ الإسلاميِّ من يحمل راية الجهاد والتجديد ، ويقود حركة الإصلاح والدعوة ، ويخوض المعركة ، غير مكترثٍ بالعواقب ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقد بشر لسان النبوة بأنَّ الله يقيِّض لهذه الأمَّة في كلِّ قرن ـ وهو فترة زمنية ذات اعتبار في حياة الأمم ـ من يقوِّي صلتها بهذا الدين ، وينفخ فيها روحاً جديدةً ، فقال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدِّد لها دينها»(١).

وهو الكتاب الذي منع من الانحراف مع تيار الفساد والضَّلالة ، والترف

---

(١) رواه أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ.

والجاهلية ، ونفخ روحاً جديدةً في أجسادٍ ضعيفةٍ ، وأشعل شعلة الإيمان والحماس في هممٍ هامدةٍ ، وقلوبٍ خامدةٍ.

اتصال تاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام ، وسرُّه:

«إنَّ تاريخ الإصلاح والتجديد متَّصلٌ في الإسلام ، والمتقصِّي لهذا التاريخ لا يرى ثغرةً ، ولا ثلمة في جهود الإصلاح والتجديد ، ولا فترةً لم يظهر فيها من يعارض التيار المنحرف ، ويكافح الفساد الشامل ، ويرفع صوت الحقِّ ، ويتحدَّى القوى الظالمة ، أو عناصر الفساد ، ويفتح نوافذ جديدةً للتفكير . والدارس لهذا التاريخ ، والمتتبِّع لحوادثه وشخصياته لا يعرف عهداً قصيراً ساد الظلام فيه على العالم الإسلاميِّ ، وخبَت مصابيح الإصلاح ، وخفتت أصوات الحقِّ ، ومات الضمير الإسلاميُّ ، وتبلَّد الشعور ، وأضرب الفكر الإسلاميُّ عن العمل ، إن هذه الثغرات التي قد نشعر بها في دراستنا العابرة للتاريخ الإسلاميِّ ، وفي نظرتنا العجلى في كتبه ، إنَّ مردَّها إلى منهاج التأليف الذي اتخذه المؤرخون للإسلام قديماً وحديثاً ، ودرجت عليه الأجيال ، إنَّ النقص في التأليف ، وليس في التاريخ ، أو بكلمةٍ أخرى: إنَّ المسؤولية على المؤرخين والمؤلفين ، لا على المجدِّدين والمصلحين؛ الذين ظهروا حيناً بعد حين ، وحفظوا على الإسلام جدَّته وشبابه ، وقضوا على كثيرٍ من الفتن ، والبدع ، والمؤامرات والتحريفات ، حتى أصبحت مطمورةً في ركام الماضي ، لا يهتدي إليها أحدٌ في هذا العصر إلا بعد بحثٍ وعناءٍ ، وكثيرٌ من أفراد هذا الجيل لم يسمعوا بأسمائها ، ولا يعرفون حقيقتها إلا بشقِّ الأنفس ، وإجهاد العقل والعين ، وقد كان بعض هذه المذاهب ، وبعض الحركات تتمتَّع بحماية البلاط ، وتستند إلى الملك ، والسلطان ، والمال ، والجاه ، وقد كانت في عصرها صاحبة حولٍ وطولٍ ، ولكنَّها طُويت ـ بفضل جهود هؤلاء المسلمين المصلحين المخلصين ـ في صحائف الماضي ، وأصبحت موضوع علماء الآثار ، لا محلَّ لها إلا في المتاحف والصحائف»[1].

---

(١) مقتبس من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» للعلامة الندوي ص/ ٢٧.

جناية عقيدة استمرار النُّبوَّة أو «الإمام المنتظر» على الشعور بالمسؤولية ، وقوة مقاومة الفساد:

ولا شكَّ أن الفضل في اتصال تاريخ الجهاد والتجديد ، والبطولات والمغامرات في سبيل إعادة الأمور إلى نصابها ، والمياه إلى مجاريها الطبيعية ، والأخذ على يد الظالم ، والانتصار للمظلومين في تاريخ الإسلام ، يرجعٍ إلى اعتبار الأمَّة ـ خاصَّة العلماء منها ـ نفسها مسؤولة عن إقامة الحقِّ والعدل ، والموازين القسط ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدَّعوة إلى الدين الخالص ، لا تنتظر لذلك نبيّاً جديداً يبعث ، وقوة غيبية تتَّصل بالسماء اتصالاً مباشراً ، ولا تعتمد في ذلك على شيءٍ غامضٍ يجلُّ عن العقول والظواهر ، ويدِقُّ فهمه ، فيقوم على مجرد التقليد والتقديس .

والأمم والطوائف ـ الإسلامية وغير الإسلامية ـ التي تمسكت بمثل هذه العقائد ، لم تعتبر نفسها مسؤولة ، ولا مكلَّفةً لمحاربة الباطل وقوى الشر ، وإقامة الحقِّ والعدل ، وعاشت في عالم الخيال والأماني والأحلام قروناً طويلةً ، واستسلمت للأوضاع الفاسدة ، وأخلدت إلى الدَّعَة ، والراحة ، والتواكل ، وضعفت في تاريخها حركة الإصلاح والتجديد ، وخفتت أصوات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويحار المتتبِّع لتاريخها في فهم السرِّ في هذا الفراغ الذي لا يحمل على مجرَّد مصادفة ، ويعجز عن تعليله ، وما ذلك إلا لاعتماد هذه الطائفة الاعتماد(١) الزائد على شخصية غامضةٍ مقدَّسةٍ ، تحمل من علم الأسرار والأمانة الباطنة ، والصلة السرِّيَّة بينه وبين فاطر الكون وصاحب الرسالة ما لا يحمله غيرها ، وستفاجىء العالم بظهورها في وقتٍ مناسبٍ ، وتقلب الأوضاع .

---

(١) وخير مثال لهذا الاعتقاد والاعتماد ، ما يعتقده الشيعة الإمامية في الإمام الغائب . وهو الإمام الثاني عشر في اعتقادهم ، فيعتقدون أنه برجوعه يملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً ، وهو محمد المهدي بن الحسن العسكري ، ولد ببغداد سنة ٢٥٥ هـ ويعتقدون أنه دخل مع أمِّه سرداباً في «سامراء» ولم يعد إلى الآن ، وهو حيٌّ لم يمت ، اقرأ: «أصل الشيعة وأصولها» للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ص : (٢ ـ ١٠٩) .

ولا شك أنَّ قضية نبيٍّ جديدٍ ، وأنبياء جددٍ ، وعقيدة استمرار النبوة ، ونزول الوحي ، والمكالمات ، والمخاطبات الإلهية ـ التي أسس عليها بعض المدَّعين نبوتهم ، واستدلوا بها في صدق دعواهم ـ أدقُّ وأخطر ، وأعمقُ تأثيراً في العقول والنفوس ، فإنَّها تضعف ثقة هذه الأمة بصلاحية دينها وشريعتها ، وخلود رسالتها ، واستغنائها عن نبوَّةٍ جديدةٍ ، وعن تعليماتٍ جديدةٍ من السماء ، وتحول بينها وبين اعتمادها على طاقاتها وصلاحيتها وكفاحها ، من حيث تشعر ، ومن حيث لا تشعر ، هذا عدا أنَّ إمكان ذلك يجعلها فريسةً للأدعياء ، والدجَّالين ، والمحترفين المشعوذين ، ولعبةً لدهائهم ، وذكائهم .

رحمةٌ بالأمَّة الإسلاميَّة ومنّةٌ عليها :

فكان من أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمَّة ، ومن خصائصها سدُّ هذا الباب إلى الأبد ، والإعلان السافر الصَّريح الواضح البيِّن بأنَّ النُّبوَّة قد ختمت بمحمَّد ﷺ ، وأنَّ الدِّين قد أُكمل للمسلمين قبل أن يفارق الرسول هذا العالم ، ويلحق بالرفيق الأعلى ، وأنَّ الله قد أتمَّ نعمته على هذه الأمة ، فلا نبيَّ بعد محمَّدٍ ﷺ ، ولا أمَّة بعد الأمَّة الإسلامية ، وتلك نعمةٌ حسد المسلمين عليها حكماءُ اليهود وفقهاؤهم ؛ الذين عرفوا بلاء اليهود من كثرة أدعياء النُّبوَّة ، ومتزعميها في العالم اليهودي ، وما جرَّ ذلك من بلبلةٍ فكريَّة ، واضطرابٍ عقائديٍّ ، وصراعٍ مذهبيٍّ ، وتمزُّقٍ اجتماعيٍّ ، فقد جاء في الحديث الصحيح : «جاء رجلٌ من اليهود إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال : يا أمير المؤمنين! إنكم تقرؤون آيةً في كتابكم ، لو علينا معشر اليهود نزلت ؛ لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، قال : وأيُّ آيةٍ؟ قال : قوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ [المائدة : ٣]. فقال عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ : «والله! إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم الجمعة»[1] ،

(١) رواه البخاريُّ ، وأصحاب الصحاح والسنن .

وهذا يدلُّ على عظم هذه النعمة وجلالتها ، حتى يتحسر علماء اليهود ، ويحسدوا المسلمين عليها ، كما أنَّه يدلُّ على أنَّ الأديان السابقة لم يكن لها حظٌّ من هذا الإعلان والضمان ، والكرامة والكفالة ، وكان ذلك بطبيعة الحال ، فإنها كانت في دور النشوء والارتقاء ، وكانت السلالة البشرية في دور التطور والانتقال ، وكانت الرسالة الأخيرة الخاتمة التي فُصِّلَتْ على أكبر قامة ، وأدقِّ مقياسٍ لم تنزل بعد ، وتلك مزيَّةٌ خصَّ الله بها محمدًا ﷺ آخر الرسل وخاتم النبيين ، وأكرم الله بها هذه الأمة ، آخر الأمم ، وأوسطها .

الحارس من الفوضى الفكرية :

لقد بقيت عقيدة ختم النُّبوَّة تحرس هذا الدين من غائلة المبتدعين ، وفتنة المتنبئين والمتزعمين ، وتحرس هذه الأمَّة من الفوضى الفكرية والدينية ؛ التي كانت الأمم السابقة والديانات السالفة فريستها ، واستطاع هذا الدين ، واستطاعت هذه الأمَّة ـ بفضل هذه العقيدة ـ أن تقاوم المؤامرات الدقيقة ، وتحتمل الصدمات العنيفة ، وبقيت وحدةً في الدين والعقيدة ، لم تواجه ثورةً داخليةً أو اضطراباً فكريّاً ـ إلا ما كان من الباطنية في العهد القديم ـ ولا تنقسم هذه الأمَّة في الأمم ، لكلٍّ وجهتها ، ولكلٍّ مركزها الروحيُّ ، ومصدرها العلميُّ والثقافيُّ ، ولكلٍّ تاريخٌ منفردٌ وماضٍ مختلفٌ .

فضل عقيدة ختم النُّبوَّة على المدنيَّة :

وقد بعثت هذه العقيدة في الإنسان الثقة ببلوغه سنَّ الرشد ، وكان ذلك حافزاً للإنسان على التقدُّم في مضمار المدنية ، والاعتماد على العلم ، والتجربة في الحياة اليومية ، فليست حاجة العالم اليوم أن ينتظر وحياً جديداً من السماء فيرفع بصره إليها ، وإنما حاجته اليوم أن يفكر في مواهب هذا الكون وطاقاته التي خلقها الله تعالى ليشغلها الإنسان في صالحه ، ويستخدمها لحوائجه ، كما أنَّ حاجته اليوم أن يفكر في نفسه ، وينظر إلى الأرض لبناء حياة أفضل ، تقوم على أساسٍ من الدِّين والأخلاق . إنَّ

الاعتقاد بانتهاء النُّبوَّة يبعث في الإنسان روح الطموح والتقدُّم ، ويحثه على بذل مواهبه ، ويعين له المجال السليم لكفاحه وجهوده .

لولا عقيدة ختم النُّبوَّة لفقد الإنسان ثقته بنفسه ، وبقي في ريبٍ دائم ، وظلَّ شاخصاً ببصره إلى السماء ، بدلاً من أن ينظر إلى الأرض ، وفقد ثقته بمستقبله ، وثارت شبهاتٌ وشكوكٌ حوله ، ووقع فريسة المتنبئين على الدوام ، ولا يظهر متنبىء يؤكد له «أن الروضة الإنسانية كانت ناقصةً ، فجئت وبلغت إلى كمالها»(١) إلا أنه يضطر إلى اعتقاد أن هذه الروضة إذا كانت ناقصةً إلى الآن فأيُّ ضمانٍ لكمالها في مستقبل الحياة الإنسانية ؟! .

وهكذا يستمر انتظاره لمن يبلغ بهذه الروضة إلى حدِّ الكمال ، دون أن يتمتَّع بأزهارها وأثمارها ، ودون أن يهمَّه سقيها وريُّها .

يقول الدكتور محمد إقبال في كتابه «تجديد الفكر الديني في الإسلام» :

«إنَّ النُّبوَّة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إنهاء النُّبوَّة نفسها ، وهو أمرٌ ينطوي على إدراكها العميق ، لاستحالة بقاء الوجود معتمداً إلى الأبد على مقود يقاد منه ، وأنَّ الإنسان لكي يحصل كمال معرفته لنفسه ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو ، إن إبطال الإسلام للرهبنة ، ووراثة الملك ، ومناشدة القرآن للعقل والتجربة على الدوام ، وإصراره على أن النظر في الكون والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الإنسانية ، كلُّ ذلك صورٌ مختلفةٌ لفكرة انتهاء النُّبوَّة»(٢) .

فتنة المتنبئين الكبرى :

لم يُمتحن الإسلام والمسلمون في تاريخ الإسلامِ الطويل بفتنةٍ أعظم وأدقَّ من فتنة المتنبئين ، إلا أنَّ دعوة أكثرهم لم تلقَ نجاحاً يذكر ، وقد ماتت في مهدها ، ولم يبق لها عين ولا أثر ، ولكن الشأن يختلف فيما يختص بمتنبىء شبه القارة الهندية في القرن التاسع عشر والعشرين : المرزا

---

(١) من كلام متنبىء الهند المرزا غلام أحمد القادياني في شعرٍ له .
(٢) «تجديد الفكر الديني في الإسلام» ترجمة عباس محمود . ص/ ١٤٤ .

غلام أحمد القادياني (١٨٤٠ ـ ١٩٠٨) لأسبابٍ سياسية اقتضت ذلك[١].

فقد فتح باب النبوة على مصراعيه، وقال: «إن اتِّباع النَّبيِّ ﷺ يمنح كمالات النبوة، وإنَّ العناية بذلك والاهتمام ينحت الأنبياء الجدد ويخلقهم»[٢]، وقال نجله وخليفته المرزا بشير الدين محمود: «لقد اعتقدوا أنَّ كنوز الله قد نفدت، ما قدروا الله حق قدره، إنكم تتنازعون في نبيٍّ واحدٍ، وأنا أعتقد أنه سيكون هنالك ألف نبيٍّ بعد محمَّد ﷺ»[٣].

وقد أحدث ذلك فوضى في النُّبوَّة، وفقدت كلمة «النُّبوَّة» جلالتها، وحرمتها، وقداستها، وأصبحت ألعوبةً وعبثاً، وهان على الناس بصفة عامَّة بعد المرزا أن يتنبؤوا، وما عرفنا في التاريخ الهندي ـ الذي لا يزال محفوظاً إلى حدٍّ كبيرٍ ـ شخصية أنكرت ختم النبوة، وتجرأت على تأسيس دينٍ جديدٍ، سوى الإمبراطور «أكبر» غير أنه لم يدَّع النبوة كما ادَّعاها المرزا بصراحةٍ وتنظيم، ولكن المرزا هو أول من فتح هذا الباب بوجهٍ عامٍّ، ونهض عدد من المتنبئين، وقد عدَّ منهم الأستاذ محمد إلياس البرني إلى عام (١٩٣٦ م ـ ١٣٥٥ هـ) سبعة، ولا شكَّ أنه لم يكن إحصاءً دقيقاً، وإلا فإن قام أحد بإحصائهم بشيءٍ من الاهتمام والدِّقة، لوجد في نفس مقاطعة «بنجاب» أكثر من هذا العدد بكثير.

وقد احتج على كثرتهم وضعف آرائهم، وسفاهة أحلامهم المرزا بشير الدين محمود نفسه في إحدى محاضراته، يقول:

«لقد نشأ في جماعتنا كثيرٌ ادَّعوا النبوة، وأعتقد أنهم ليسوا في الدعوى كاذبين غير واحدٍ منهم، وفي الحقيقة أنَّهم ألهموا في أول الأمر، ولا عجب إذا كان هذا الإلهام باقياً إلى الآن، ولكن الخطأ الذي وقعوا فيه هو أنهم أخطؤوا في فهم تلك الإلهامات، وأنا شخصياً أعرف بعض هؤلاء، حتى أستطيع الإقرار بإخلاصهم وخشيتهم لله، ولا يدري ما في قلوبهم إلا

---

(١) راجع كتاب العلامة الشيخ الندوي «القادياني والقاديانية»، طبع دار ابن كثير ـ دمشق.

(٢) «حقيقة الوحي» للمرزا غلام أحمد ص/ ٦.

(٣) «أنوار الخلافة» ص/ ٦٢.

الله ، سوى أنهم كانوا في بادىء الأمر مخلصين ، وكانت بعض إلهاماتهم من الله ، ولكن الذي سبب خسارتهم هو أنَّ حكمتها خفيت عليهم فعثروا»[(١)] .

فتنة «المكالمات والمخاطبات الإلهية» ورؤية الباري تعالى في الدنيا :

ويعرف المطلع على التاريخ الفكري ، وتاريخ التصوُّف ـ الإسلامي وغير الإسلامي ـ أنَّ الاتصال بعالم الغيب عن طريق الرياضات ، والمجاهدات ، وتلقِّي الإلهام والكلام ، والهتافات والأصوات من هذا العالم ، كان مدخلاً واسعاً للأوهام والمغالطات والتناقضات ، ودخل منه الشيء الكثير من الأضاليل ، والأباطيل عن قصدٍ وعن غير قصد ، كان من الصعب دائماً التمييز بين مصادرها ودرجاتها ، وما هو من الله ، وما هو من الشيطان[(٢)] ، وما هو نابع عن العادات والمألوفات ، والعلم السائد والثقافة المنتشرة ، والعقائد التي نشأ عليها هذا «الملهم» أو «المحدَّث» أو «المكشوف له» وقد بينَّ علماء هذا الشأن الذين سلكوا هذا الطريق : أنَّ التجرد عن تأثير العوائد والعقائد والبيئة في تلقي هذه «المغيبات» وفهمها يكاد يكون مستحيلاً[(٣)] .

---

(١) «الفضل» أول يناير ١٩٣٥ م .

(٢) وقد أشار إلى هذا الإمكان الدكتور محمد إقبال الذي كان من كبار علماء الفلسفة في العصر الحديث ، فقال : «إني أعترف بأنَّ مؤسس الجماعة الأحمدية (القاديانية» سمع صوتاً ، ولكن الحكم بأن هذا الصوت كان من عند الله الذي بيده الحياة والقوة ، أم كان مصدره الإفلاس الروحي الذي كان سائداً في الناس؛ وتوقف على هذه الحركة التي خلقها هذا الصوت ، إلى أن قال : فإذاً أعتقد أن هؤلاء الأبطال الذين أسهموا في تمثيلية «الحركة الأحمدية» كانوا ألعوبةً في يد الانحطاط والزوال (حرف إقبال ص/ ١٥٧ ـ ١٥٨) . وأبلغ من ذلك ما قاله في البيت : «أعاذ الله من إلهام ملهم نشأ وعاش في حكم أجنبي ، فإنه أضرُّ بالأمم ، وأشدُّ فتكاً بها من الفاتحين الوحوش أمثال «جنكيز» و«هولاكو» .

(٣) لقد شرح الإمام الرَّبانيُّ الشيخ أحمد السرهندي (م ١٠٣٤هـ ـ ١٦٢٤ م) هذه النقطة شرحاً وافياً في بعض رسائله ، وجاء بإشاراتٍ بليغةٍ في هذا الموضوع تقوم على التجربة الشخصية ، والعلم العميق ، والاطلاع الواسع؛ إنَّه يرى أن العقل المجرد=

وكلُّ من جعل هذه «المكالمات ، والمخاطبات الإلهية» أو رؤية الباري تعالى شرطاً للهداية ، أو للنجاة ، أو لكمال الإيمان[1] وأسَّس على ذلك نبوةً جديدةً ، أو دعوةً جديدةً ، وألزم ما لم يلزم ، وجنى على هذا الدِّين الذي هو عامٌّ للبشر جنايةً عظيمةً ، وأفقده بساطته وسهولته ، وعمومه للبشرية ، وفتح باباً واسعاً للفساد ، والاضطراب ، والفوضى ، كما فعل المرزا غلام أحمد القادياني ، فقد جعل «المكالمات ، والمخاطبات الإلهية» شرطاً لصحة الدِّيانة ، ونتيجةً طبعيةً للعمل بالأحكام الشرعية ، والسعي في العبادة ، وزعم أنَّ الدِّين الذي لا توجد فيه هذه المخاطبات

= والكشف المجرد شيئان يندر وجودهما ووقوعهما ، ومن المصادفة العجيبة والتوارد الغريب أنَّ الفيلسوف الألماني الشهير «كانت» (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) (Emmanual Kant) الذي ظهر بعده بمئةٍ وثمانين سنة أبدى عدم ثقته بالعقل المجرد وقدرته على التعبير والحكم متحرراً عن البيئة والمجتمع ، والتراث ، والعادات ، والمعتقدات (انظر كتاب نقد العقل المجرد (Critic of Pure Reason) وقد تقدم الإمام الربَّاني خطوةً وبحث في قضية الكشف المجرد ، والإلهام المجرد لأنه سار على هذا الدرب ، وجرَّب هذه الأمور بنفسه ، وأهل مكة أدرى بشعابها (اقرأ رسالته إلى الشيخ عبد الله والشيخ عبيد الله من أبناء الشيخ الكبير عبد الباقي النقشبندي الدهلوي ـ رقم ٢٢٦ ـ المجلد الأول).

(١) كما فعل ذلك السيد محمد يوسف الحسيني الجونفوري (٨٤٧ ـ ٩١٠ هـ) فادَّعى أنَّ الإنسان إذا لم يسعد بالمشاهدة الإلهية ، ولم ير الباريء تعالى بالعين ، أو بالقلب في اليقظة ، أو في المنام؛ فليس بمؤمن ، وقد أحدث ذلك اضطراباً عظيماً في المجتمع الإسلامي الممتد من شرق الهند إلى غرب أفغانستان في القرن العاشر الهجري ، وأصبح الشغل الشاغل للمسلمين ، العلماء منهم والسلاطين ، وكان السيد المشار إليه صاحب صدقٍ وعزيمةٍ ، واستعداد باطنيٍّ عظيم ، وكان له شأن رفيع في التأثير في النفوس والقلوب ، والدعوة إلى الله ، وإيثار مرضاته على غيره ، والزهد في الدنيا وأسبابها ، والهجرة في الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلا أنه شُبِّه له في فهم ما كان يُكشَف له ، أو يسمعه ، فادَّعىٰ «المهدي الموعود» الذي يظهر في آخر الزمان ، وغلا في دعوته ، واشترط ما ليس بشرط ، وكلف المسلمين بما لم يفرضه الله عليهم ، ولم يطالبهم به (اقرأ ترجمته في الجزء الرابع من نزهة الخواطر للعلامة عبد الحي الحسني).

الإلهية إنما هو دينٌ باطلٌ ، وميِّت ، بل هو دين الشيطان المؤدي إلى جهنَّم ، وإذا كان أتباع دين لم يتشرفوا بهذه النعمة رغم عباداتهم وعلمهم بالأحكام الشرعية ، فإنما هم في جهلٍ وغواية(١) .

وتهافت هذا الرأي ، وسخافته غنيَّةٌ عن الردِّ عليه ، وبسط القول فيه ، وحسب القارئ أنَّ الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ الذين كانوا زرع النبوة وغرس القرآن ، والجيل المثالي في تاريخ البشرية ، وعلى أكتافهم قام الإسلام ، لم يدَّعوا هذه «المكالمات والمخاطبات» ورؤية الباري تعالى بالعين أو القلب ، ولم ينسب التاريخ إليهم ذلك ، ولم يعرف عنهم التنافس فيه ، أو الحرص عليه ، أو التأسف على فواته ، فكيف بمن جاء بعدهم ، ولم يبلغ شأوهم في الدين والعلم(٢) .

وقد لوحظ في التاريخ مراراً أنَّ كلَّ دعوةٍ متطرفةٍ قامت على مثل هذه الدعاوي والافتراضات والتجارب الشخصية ، لم تفد إلا إنشاء طائفة متطرفةٍ تنشقُّ عن المسلمين وتنابذهم ، وقد تكفرهم ، وتتحول على مرِّ الزمان ديانةً مستقلةً ، وتصبح مشكلةً جديدةً في المجتمع الإسلاميِّ والإنسانيِّ تعيي كبار العقلاء والقادة حلها والتغلب عليها(٣) ، ولا تخدم مصلحةً من مصالح الإنسانية ، وإصلاح النفوس ، والدعوة إلى الله(٤) .

الإلهام الجماعي لمصلحة الإسلام والمسلمين :

وقد أكرم الله بنصيبٍ كبيرٍ من «الإلهام الجماعي» الذي لا خطر فيه ولا ضرر ، وهو أن يُلهم عددٌ من أصحاب النفوس الزكية ، والقصد الصالح ، والعلم الراسخ الصواب فيما تحار فيه الألباب ، وتختلف فيه الآراء ، والسعي وراء عملٍ فيه مصلحة الإسلام والمسلمين ، وتقويةٌ

---

(١) اقرأ كتاب «براهين أحمدية» للمرزا غلام أحمد القادياني ج/ ٥ ص/ ١٨٣ .

(٢) اقرأ للتفصيل كتاب العلامة الشيخ الندوي «القادياني والقاديانية» .

(٣) وقد عالجت حكومة باكستان هذه المشكلة بفصل الطائفة القاديانية عن المسلمين ، واعتبارها أقليةً غير مسلمة ، رسمياً ، وهذا عند كتابة هذه المقالة .

(٤) اقرأ تاريخ الحركات الهدامة في الإسلام وفي الديانات الأخرى .

للدين ، وذبٌّ عن حوزته ، فيشعرون باندفاعٍ إلى القيام بهذا العمل ، لا يستطيعون له قهراً ولا دفعاً ، وكأنهم مضطرّون إلى ذلك ، محاسبون عليه ، فيبذلون في ذلك النفس والنفيس ، ويهجرون في سبيله راحاتهم ، ولذاتهم ، ويرون في تحقيقه أكبر سعادةٍ ، وأعظم لذَّةٍ .

وقد يكون ذلك بعددٍ قليلٍ كما وقع في قضية الأذان لعبد الله بن زيد بن عبد ربه ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، فقد توافقت رؤياهما ، ولقِّن كلٌّ واحد منهما كلمات الأذان في المنام ، ووافق عليه رسول الله ﷺ ، واستحسنه ، فشرع الأذان الذي ينادي به للصلاة في العالم الإسلامي اليوم[1] ، وكما وقع في أمر ليلة القدر ، فقد روى الشيخان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر ، فقال رسول الله ﷺ : «أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر ، فمن كان متحرِّيها فليتحرَّها في السبع الأواخر» وقريبٌ من ذلك أمر صلاة التراويح التي ثبت أصلها عن النَّبيِّ ﷺ ، وقد تركها بعد ثلاثة أيام لئلا تفرض على أمته فرضاً ، فتشق عليها[2] ، وكان المسلمون يصلُّونها فرادى ، فجمعهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه عليها ، وكانت إشارة عمر على ذلك إلهاماً من الله ، وتوجيهاً منه ، فكان في ذلك خيرٌ كثير ، وألهم الله المسلمين المحافظة على هذه الصلاة بجماعة ، والحرص عليها ، وختم القرآن فيها ، وكان عاملاً كبيراً من عوامل حفظ القرآن ، والمحافظة عليه ، والسبق فيه ، وإحياء ليالي رمضان ، ويرى الفرق واضحاً بين أهل السنة الذين أخذوا بسنة التراويح ، وبين الطوائف التي أنكرتها ، في انتشار حفظ القرآن ، وتدارسه ، والاهتمام به .

وقد يكون ذلك بعددٍ كبيرٍ ، وجمٍّ غفيرٍ يستبعد العقل السليم تواطؤهم على الكذب ، أو تآمرهم على الشره ، فيعود ذلك على الإسلام والمسلمين بنفعٍ عظيمٍ وخيرٍ كثير ، أو تسدُّ به ثلمةٌ في ثغر الإسلام ، أو يُزال به وهنٌ

(١) اقرأ الحديث الطويل الذي رواه أبو داود ، والترمذيُّ ، والدارميُّ ، وابن ماجه .

(٢) اقرأ ما رواه البخاري ، عن عائشة رضي الله عنها في «باب فضل من قام رمضان» .

يدخل على المسلمين ، أو يحقِّق مقصداً من مقاصد الدين العظيمة ، ومن أمثلة هذا الإلهام الجماعي المبارك ، الذي ألهم به عددٌ لا يحصى كثرةً من العلماء الراسخين والعاملين المخلصين جمع القرآن في المصاحف في زمن أبي بكر ، وجمع الحديث وتدوينه في القرن الأول ، والثاني إلى ما بعدهما ، واستنباط الأحكام والاجتهاد الفقهي من القرن الأول إلى عصر المجتهدين وأئمة المذاهب في القرون الأولى ، ووضع علم النحو ، وعلم القراءات ، وأصول الفقه ، إلى غير ذلك من العلوم النافعة الضرورية ، لحفظ سلامة اللغة التي نزل بها القرآن ، وصيانة القرآن من اللحن والفوضى ، وكتأسيس المدارس ، وتأليف الكتب ، وطرق نشر العلم ، وغير ذلك مما اقتضته الأحوال ، واختلاف الزمان والمكان.

وكالعناية بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتبيين غوائل النفس ، ومكائد الشيطان ، والرَّبانية الصَّافية التي لا تشوبها البدع ، حتى أصبح ذلك علماً مستقلاً ، وتخصَّص له رجالٌ بلغوا فيه درجة الاجتهاد ، واعتبروه أكبر عبادةٍ ، وأعظم جهاد ، فأحيا الله بهم موات القلوب ، وشفى بهم أعلَّاء الأرواح ، ونشطوا في الدعوة إلى الإسلام ، فانتشر بهم الدين الحنيف في أنحاء العالم البعيدة ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وكان لهم فضلٌ خاصٌّ في انتشار الإسلام في شبه القارة الهندية (وخاصة في المناطق التي لم يغزها جيشٌ إسلاميٌّ كـ «كشمير» و«بنغال الشرقية») وفي جزر المحيط الهندي ، وقارة إفريقية ، وكان لهم فضل كذلك في مقاومة قوى الباطل وكلمة حقٍّ عند سلطان جائر ، ومواجهة الزحف الأجنبي(١). وكالردِّ على الفرق الضالة ، والفلسفات الإلحادية المثيرة للشكوك والشبه ، الناشرة للاضطراب في العقيدة والوهن في العمل ، وقد تجرَّد لذلك خيار المسلمين علماً وذكاء ، ومقدرةً علميَّةً وقوة إيمان ، فكان كل ذلك إلهاماً من الله ، تُكْرَمُ به جماعةٌ كبيرةٌ من المسلمين في كلِّ دورٍ من أدوار التاريخ الإسلامي ،

---

(١) اقرأ تفصيل ذلك في كتاب العلامة الشيخ الندوي «ربانية لا رهبانية» طبع دار ابن كثير بدمشق.

وفي كلِّ مركزٍ من مراكز العلم والحضارة ، فكان دليلاً على عناية الله بهذه الأمَّة التي هي آخر الأمم ، وأمل الإنسانية ، وعلى مكانتها من الله ، وهذا الإلهام الذي لم ينقطع ، والمدد الإلهي الذي لم يتخلف دليلٌ ساطعٌ على ختم النبوة ، وانقطاعها بعد محمَّد ﷺ ، لا يوجد له نظير بهذا الوضوح والاستمرار في الأمم السابقة ؛ إذ لم تكن في حاجة إليه ، فقد كانت سلسلة النبوة مستمرةً ، والنبوة باقيةً .

التفريق بين المسلمين :

إنَّ البلبلة الفكرية ، والاضطراب العظيم الذي تحدثه هذه النبوءات الكثيرة المزعومة ، وما يؤول ذلك إلى تفريقٍ بين المسلمين ، وتمزيق وحدة الأمَّة الإسلاميَّة ، يبعث في كلِّ قلب مسلمٍ وحشةً وقلقاً ، ولم يتعود الناس في هذا العصر الذي يتَّسم بسمة اللادينية والإلحاد أن يهتفوا بقولهم : «أنا الحق» ولكنَّه إذا نشأت هنا في العالم الإسلامي «هواية» التنبؤ بتأثير المرزا غلام أحمد القادياني ، ودعاته المتحمِّسين ، وظهر رجالٌ في مختلف أرجاء العالم الإسلاميِّ يرفعون راية «النُّبوَّة» ، ويكفِّرون الذين لا يقبلون دعوتهم كنتيجةٍ حتميَّةٍ للنُّبوَّة ، فلا ينتج ذلك سوى بلبلةٍ فكريةٍ ، وفوضى دينيةٍ ، واصطدامٍ بين الأفكار ، ويتوزع العالم الإسلاميُّ بين معسكراتٍ مختلفةٍ ، وتقع هذه الأمَّة التي جاءت لمحو كل عصبيةٍ من اللون ، والجنس ، والوطن ، وإنشاء الأخوَّة الإسلاميَّة فريسةَ التفريق ، والتكفير ، والعصبيات الدينية[١] .

ولقد أحسَّ بخطر القاديانية الأستاذ محمد علي اللَّاهوري[٢] وأبداه في

(١) وقد كان العلامة الدكتور محمد إقبال الشاعر الفيلسوف دقيق النظر جدّاً في قوله المأثور : «إننا نعتقد أنَّ الإسلام دينٌ أوحى الله به ، ولكن وجود الإسلام كمجتمعٍ أو أمَّةٍ يتوقف على شخصية محمَّد ﷺ ، واعتقاد أنه كان آخر الرسل ، وخاتم النبيين ، وهو خطُّ التحديد الدَّقيق بين الدين الإسلاميِّ والديانات الأخرى» .

(٢) هو أمير الفرع اللاهوري الذي يسمى «الجماعة الأحمدية» اللاهورية وهو صاحب ترجمة القرآن الإنجليزية المعروفة ، وتفسير «بيان القرآن» ومؤلفات كثيرة ، وهو =

إحدى مقالاته بكلِّ قوةٍ ووضوح ، غير أنه يفكِّر أنَّ فاتح هذا الباب إنما هو إمامه المرزا غلام أحمد ، وأنَّه هو أوَّل شخصٍ عرض فكرة استمرار النبوة كحركةٍ ودعوةٍ ، يقول الأستاذ محمد علي يناشد أهل البصيرة والإنصاف :

«وأنشدكم بالله ، إنْ صحَّ الاعتقاد بأنَّ النبوة لم تنقطع وأنَّ الأنبياء لا يزالون في غدوٍّ ورواحٍ إلى هذا العالم ، كما صرَّح بذلك محمود أحمد[1] في «أنوار الخلافة» أفلا تزال هذه الطوائف التي تعدُّ بالآلاف يكفِّر بعضها بعضاً ، وتغيب الوحدة الإسلامية؟ نفرض أنَّ هؤلاء الأنبياء يبعثون في الجماعة الأحمدية (القاديانية) وحدها ، أفلا تمزق بذلك الجماعة الأحمدية نفسها ، إنكم لا تجهلون السنن القديمة ، وتعرفون كيف كان الناس ينقسمون بين موافقٍ ومعارضٍ على مبعث نبي ، إنَّ الله الذي قضى بتوحيد شعوب العالم وأممه ، أيمزق المسلمين ويقطعهم إرباً إرباً ، يكفِّر بعضهم بعضاً ، وتتوتر بينهم العلائق والصلات ، وتصبح الأخوَّة الإسلامية أثراً بعد عين؟ اعلموا إذا كان الله قد وعد لهذا الدين بأن يظهره على الدِّين كله ـ وهو لا يخلف الميعاد ـ فإنَّ الإسلام لا يبتلى بهذه المحنة ، ولا يأتي يومٌ ينفرد كلُّ نبيٍّ بحزبه ، وتتوزع المسلمين دعواتٌ مختلفةٌ ، وراياتٌ مختلفةٌ ، ومراكز روحيةٌ مختلفةٌ ، ويصبح كهنتها محتكرين للإيمان والنَّجاة ، يكفِّرون سائر المسلمين»[2] .

والحاصل أنَّ عقيدة انتهاء سلسلة النبوءات ، وتعليم البشر العقائد والشرائع عن طريق الوحي والملائكة والروح الأمين ، وما تتوقف عليه نجاتهم في الآخرة ، على محمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب العربيِّ الهاشميِّ القرشيِّ ـ عليه ألف ألف صلاة وسلام ـ وانقطاع النُّبوَّة والأنبياء

= لا يقول بنبوة المرزا غلام أحمد ، ويؤول ما صدر عنه من تصريحات في هذا الصدد ، إنما يعتقد أنَّه كان «المسيح الموعود» ، ومجدد القرن الرابع عشر الأعظم ، والمصلح الأكبر. اقرأ لمعرفة آرائه وتأويلاته في القرآن: الفصل الثالث من الباب الرابع من كتاب العلامة الندوي «القادياني والقاديانية».

(١) هو نجل المرزا غلام أحمد القادياني ، وخليفته الثاني.

(٢) رد تكفير أهله قبله. لمحمد علي. ص: ٢٤.

بعده ، وكونه خاتم الرسل ، وموضح السبل ، وإمام الكلّ من أجلّ مواهب الله تعالى ونعمه على هذه الأمَّة ، ورحمةٌ بالإنسانية الممزقة وترفيهٌ لها ، وتوفيرٌ لجهودها وطاقاتها ، من أن تضيع في غير سدىً ، وفيما لم تكلفه ، وجامعةٌ لشمل هذه الأمة المحمَّدية ، حافظةٌ لوحدتها ، وأصالتها ، وقوتها ، باعثةٌ لثقتها بنفسها ، وصلاحية دينها وخلوده ، واعتبارها نفسها مسؤولة عن اتجاه العالم وموقفه ومصيره ، حافزةٌ على الإصلاح والتجديد ، والجهاد في سبيل الله في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وهو الأساس المتين الذي يقوم عليه البناء الإسلاميُّ ، كمجتمعٍ وأمَّة ، ورسالةٍ خالدةٍ .

ألَدُّ أعداء الإسلام :

لذلك كان ألدَّ أعداء الإسلام ، وأدهاهم ، وأمكرهم ، وأضرَّ على الإسلام والمسلمين ، وأنفع لأعداء الإسلام والكائدين له من ادَّعى نبوةً جديدة ـ في أيِّ مفهومٍ من مفاهيمها ـ أو دعا إليها ، وتولَّى كبرها .

وصدق الله العظيم :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٣ ـ ٩٤] .

* * *

مطالبة القرآن الانقياد التَّامّ والاستسلام الكامل

ألقى العلامة الندوي هذه الكلمة الصريحة والحديث الأخويَّ في مسجد الجوهرة الفسيح في ٢٧/ نوفمبر ١٩٨٨ م بعد صلاة المغرب خلال زيارته لجدَّة ، وقد حضر عددٌ وجيهٌ من الناطقين بالأردوية للاستماع إلى خطاب سماحة الشيخ الندوي ، كانت الكلمة باللغة الأردوية ، فنقلها الأستاذ عبد الله الحسني الندوي إلى العربية بناءً على رغبة بعض الإخوة العرب .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨ ـ ٢٠٩].

إخواني وأصدقائي! تلوت عليكم آيةً من القرآن الكريم تشتمل على إنذارٍ وتحذير، هل يتصوَّر أحدٌ أن يحارب الله ويعاديه، فما معنى هذا الإنذار والتحذير؟ فهل يقدر عبدٌ من عباد الله على أن يحارب الله؟ ولكن القرآن الكريم قد استخدم كلمةً تتضمن هذا المعنى، وهو ما تقشعر منه الجلود، وتتصكَّك لها الآذان، يقول الله ـ عزَّ وجل ـ وهو خالق الكون، ومالك الملك، والقادر على الإطلاق، والذي أنعم فأجزل على عباده: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة: ٢٠٨] فإنَّه لا قبل لكم أن تحاربوه، وتبارزوه، وتعادوه.

يتبادر إلى الذِّهن في بادىء ذي بدء أن تستخدم كلمة «الإسلام» في موضع السلم، وهو «ادخلوا في الإسلام كافة» ولكنه أمرهم بالدخول في «السلم» كافَّةً، وهي أن تكون المعاملة مع الله معاملة استسلامٍ، وانقياد، وخضوعٍ كاملٍ، بجميع معاني هذه الكلمات، ومقتضياتها، ومضموناتها: العقائد، والعبادات، والسلوك الفرديِّ والاجتماعيِّ، وجوانب الحياة كلِّها، موافقةً بما جاء بها سيِّد المرسلين ﷺ، من عند الله رب العالمين، ومطابقةً للأوامر الإلهية، والأحكام الربَّانية، ولا تكون العلاقات مبنيةً على الموالاة لأعداء الله، والخضوع لأوامرهم.

إنَّ كلمة الإسلام في اللغة العربية مشتقَّةٌ من «السلم» ومعنى الإسلام هو الانقياد، والاستسلام، والتنازل عن كل شيءٍ في حقِّ الله تعالى، وأوامره، وتعاليمه عن الأهواء، والشهوات، وعن المصالح والأغراض، وعن الشعور بالتمييز بين المنافع والمضار، والاطِّراح على عتبة الأحكام الربَّانية بالانقياد التامِّ والاستسلام الكامل.

أما معنى السلم ، فهو الصلح ، يقول الله عز وجل في موضع آخر: ﴿ ۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]. وجاء «أسالم من سالم ، وأحارب من حارب» وقد استخدم القرآن الكريم في مواضع مختلفةٍ كلماتٍ تعبِّر عن الرُّعب ، والجلال ، والهيبة ، وتنذر وتزلزل ، يقول عن الربا:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩].

وجاء في الحديث القدسي: «من آذى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب» فإنه من المستبعد والمستحيل أن يكون هناك شقي يدور بخلده أن يحارب الله ويعاديه ، ولكن دراسة نفس الإنسان ، وتجارب الحياة الإنسانية ، والأعمال التي تصدر نتيجة لإغفال التعاليم النبوية: تدلُّ على أنَّ هناك إمكانيةً لمثل هذه المعاداة ، فيمكن أن يدَّعى الرَّجل الإسلام ، ويعترف بعبديته ، ثم يعادي ربَّه في بعض أموره ، ويخالفه في بعض أحكامه ، فمثلاً يقيم عبد من عباد الله علاقة العبودية مع الله ـ ولكن بشيءٍ من التحفظ ، ويشرك رضاه وهواه ـ في هذه العلاقة ، أن يشهد أنَّ الله حقٌّ ، وأنَّ الحساب حقٌّ والحشر حقٌّ ، ولكنه يعيش باستقلال وحريَّةٍ في الحياة الاجتماعية ، والأسرية ، وفي الثقافة ، والمبادىء العامَّة ، وفي العلاقات مع الأقارب والأصدقاء ، والمعاملات التجارية ، فلا يقبل الله هذه العلاقة المتحفظة المشروطة فكأنَّ هذه الآية نزلت لإيضاح تلك النكتة ، وفيها عبرةٌ ، وجرس إنذار لأصحاب مثل هذه العلاقة بالله ، إن الله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨] فإنَّ المشاطرة في هذا المجال غيرُ مقبولةٍ أن يقول القائل: أقبلُ هذا ، ولا أقبل ذاك ، أستسلمُ لهذا ، ولا أستسلمُ لذاك. إنَّ الداخل في المسجد يدخل المسجد بكل جسمه ، وبكل أعضائه ، فإذا قال القائل: إنه يضع قدميه داخل المسجد ، وأما جسمه فيكون خارج المسجد ، أو أنه يطرق رأسه في داخله ، ويبقى جسمه في خارجه ، أو قال: إذا أمرتني بالقيام فعلى الرأس والعين ، ولكن لا يمكن لي الركوع ، والسجود ، فإني أرى فيه إهانةً للإنسانية ، وأشعر بالخيبة والفشل ، وتنازلاً عن الاعتزاز ، والثقة بالنفس ، فإن هذه العبادة

لا تستحقُّ أن تسمَّى بالصلاة ، بل هي كلمةٌ فيها كفرٌ ، وجحودٌ ، وطريقةٌ فيها طغيانٌ ، وبغيٌ .

عفواً لو توقعتم أني سأتلو عليكم البشائر ، أو أقصُّ عليكم حكاياتٍ رائعةً للسَّلف ، أو أبين أمامكم أموراً تطمئنون إليها ، وترتاحون بها ؛ فإنَّه من مواضع الضعف ، إننا نحن المسلمين تعودنا الطمأنينة والتزكية لتلك الحياة التي نقضيها في هذه الأرض المقدَّسة ، نريد أن نسمع كلماتِ التهنئة ، والتقدير ، والغبطة ، وإنَّ آذاننا تصغي إلى أصوات الترحيب من كل جانب ، نريد أن نسمع : يا مرحباً! يا مرحباً ، يا للسعادة!! ندعو الله أن يرزق لكم الدوام والهناء في هذه الأرض المباركة ، فأنتم قد حالفتكم السَّعادة ولا شكَّ في هذه السعادة .

وقد تمنى آلافٌ من الأولياء المقبولين أن يُصَلُّوا في الأرض المقدسة ، ويتشرَّفوا بزيارتها .

إنَّ الإمام الهمام المجاهد الكبير الذي اعتنق على يديه أربعون ألف شخصٍ الإسلام ، وبايع على يديه المباركتين ثلاثة ملايين شخص مباشرةً ، وعاهدوا على اتباع الشريعة ومجانبة الكفر ، والشِّرك ، والبدع ، وعلى الجهاد في سبيل الله ، وأما الذين بايعوا على يدي تلاميذه وخلفائه ، فلا يعدُّ عددهم ، ولا يحصى ، ولا يعلمهم إلا الله ، ولم يكن له نظير في الدول الأخرى في التأثير والكمالات العملية والعلمية ، وقد وصل آلافٌ مؤلفةٌ من العلماء وعامَّةُ الناس إلى المراتب العليَّة ، والمقامات الرفيعة على يديه ، خلال رحلته الأولى للحج والزيارة ـ وكانت الرحلة في تلك الأيام بالسفن الشراعية ـ خاطبه أحد رفقائه ، بقوله : هذه جزيرة العرب ، هذه هي النخلة تبدو من بعيد ، وأومأ إليها ـ لا يعرف أحدٌ أي موضع كان ذلك الموضع من جزيرة العرب ، وكم كان بعيداً عن تلك البقعة المباركة التي أصبحت جزيرة العرب من أجلها محببةً لدى النفوس ، وأثيرة في القلوب ـ فعيل صبره بعد سماع هذه الكلمات ، وخرَّ لله ساجداً ، وركع ركعتين ، شكراً لله تعالى ، وكان على الوضوء ، ثم قال : الشكر لله الواحد الأحد الصمد الذي أكرمنا

بزيارة هذه الأرض المقدسة ، وقد انتقل إلى رحمة الله كثيرٌ من العبَّاد والزُّهاد وبقيت الأماني في قلوبهم لزيارة هذه الأرض المقدسة كما كانت ، ولم تتح لهم فرصةٌ لوضع أهداب العيون على أراضيها الطاهرة وغسلها بدموعهم الحارَّة ـ فإنكم تقولون لو بشرَّتنا ورحَّبْتَ بنا ، ودعوت لنا ليطول بنا القيام في هذه الأرض المقدسة لكان أفضل من أن تنذرنا ، وتخوفنا ، وتتلو علينا مثل هذه الآية التي يخاطب الله عز وجل بها المؤمنين بأنَّ أمرنا ليس كأمر السلاطين والملوك في الدنيا الذين يقتنعون بشيءٍ من المكوس التي تؤدى إليهم ، وبشيءٍ من التوقير والتبجيل الذي يسدى إليهم من رعاياهم ، وبشيءٍ من الخضوع الذي يكون لأبهتهم الملوكية ، ولكن الله الغنيَّ القويَّ العزيز ، خلق هذا الكون ، وقدَّر المقادير والآجال ، وبيده الأمر كله من إنشاء المرض والصحة ، وإيصال النفع والضرر ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران : ٢٦].

والتاريخ يشهد بأنَّ الحكومات التي طبق صيتها الخافقين ، والتي يتفاءل بأربابها ؛ الذين بهم ينقلب التراب تبراً ، وفي ظلالهم ينقلب الشؤم تفاؤلاً وسعداً ، غربت شموسها طرفة عين ، وجعل الله عزَّ وجل هذه الشموس آفلةً لم تطلع بعد على مرِّ الدهور والأعصار ، إنَّ تاريخ روما الكبرى يشهد كما جاء في كتاب جبون (GIBBON) «زوال وسقوط روما» (DECLINE AND FALL OF THE ROMAN EMPIRE) كيف كانت هذه الدولة ، وكيف كانت عظمتها وهيبتها على النفوس ، سقطت كما تسقط أوراق الخريف.

اقلبوا صفحات تاريخ الدولة الساسانية ، كيف كان عهد مجدها ، وتقلُّب ملوكها في البلاد ، ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ : ١٩].

يقول الله تعالى : إنَّه لا يجدر الاكتفاء بالصَّلاة والسجدة لله ، وبذكر اسمه تعالى فقط ، حتى تظنَّ أنَّ الله لا يسأل عن الأمور الأخرى شيئاً ، فإنه يتحتَّم عليك أن تدخل في العبودية الكاملة لي من غير استثناء ، ولا يقبل أن تقول : إنَّ هذا لي ، وهذا لك ، إنما لي كل شيء ، إن مالك وعرضك ،

صحتك وجسمك ، رأسك وبدنك ، إيمانك وإسلامك ، وفاءك وفداءك ، كله من حقوقنا ، فإنَّه لا طاعة لأحدٍ إلا لله ، وبما شاء الله.

تتضمَّن هذه الآية التي تلوتها أمامكم إنذاراً شديداً وتحذيراً عنيفاً ، ولا أدري هل تتاح لي فرصة أخرى للِّقاء بكم فأبين ما يلقي الله في قلبي عن هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]. فإنَّ كلمة «كافة» كلمة شاملةٌ جامعةٌ ، أي استسلموا لأوامره كلِّها ، برمَّتها ، واستسلموا أنتم جميعاً كذلك له ، فلا يمكن أن ينقاد أحدكم ، ولا ينقاد الآخرون ، أو أن يطيع أحدكم في بعض الأمور ، ويعصيه في أمورٍ أخرى ، بل كلُّكم لنا ، وكلُّ مالكم لنا ، فأطيعوني إطاعةً كاملةً ، فتكون عقائدكم موافقةً بما جاء به الله ورسوله موافقةً تامَّةً بدون أيِّ انحراف ، أو عدول ، فليس لأحد الأمر في هذا الكون؟ ألا له الخلق والأمر ، واعلموا أنَّه بيده الخلق والأمر ، والصحة والمرض ، وبيده الرزق ، والقوة ، وهو المعزُّ ، وهو المذلُّ ، وهو الرزَّاق ، وهو الذي يؤتي الملك والقوة ، والغنى ، بيده الخير كلُّه ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ ، لا شريك له في خلقه وأمره ، وفي ملكه ، لا نبيَّ ولا وليَّ ، وهو القادر على الإطلاق ، ولا يجرؤ على الشفاعة عنده أحدٌ إلا بإذنه ، وكذلك يجب أن تطيعوا الرسول ﷺ طاعةً كاملةً ، فالذين يطيعونه في أمورٍ ويعصونه في أمورٍ ، فإنَّهم ليسوا من المطيعين للرَّسول في نظر القرآن ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. فإذا عُرِف بسندٍ صحيحٍ ، وطريقةٍ صحيحةٍ معتمدةٍ أنَّه قَوْلُ رسول الله ، وفيه رضاه ، فلا خيار لأحدٍ فيه ، ولا حرية ، ولا تردُّد فيه ، إلا أن يُطاع الرسول ﷺ ويُتَّبع قوله ، ويؤخذ به ، ويعضَّ عليه بالنواجذ.

اسمحوا لي ، ودعوني أتحدَّث بصراحةٍ ، فإني كطائرٍ وقع على شجرة طور ، ثم طار ، فسأطير غداً إن شاء الله تعالى ، وإني لم آتكم متجسساً ولا منقِّباً عن المساوىء للمجتمع هنا ، ولكني لست بعيداً عن تيار الحياة ، وإنما أطلع على ظروف المسلمين ، وأحوالهم هنا ، وأتابع التيار الذي يجرف هنا ، ولقد شاهدت أن العقائد سليمةً صحيحةً ، ووجدت مواظبةً

على الصلوات والفرائض، ولكن المجتمع مع الأسف الشديد يميل إلى الفساد، وأصبحت الحياة المنزلية معاكسةً للإسلام، كلُّ بيتٍ مؤثثٌ بغاية من الإسراف والتبذير، والترف والبذخ، وبالأمتعة المسلية الملهية كالفيديو الذي أصبح الشغل الشاغل، وحديث المحافل، إننا نحن المسلمين مؤمنون في المساجد لا شك، ولا يستطيع أحد أن يقول شيئاً عن المساجد، وهي بيوت الله.

ولكن يا إخواني! إنَّ المسلم لا يكون فقط مسلماً في المسجد، إنَّ المسلم يعيش مسلماً في بقاع المعمورة وأرجائها، في برِّها وبحرها، وفي قمرها إذا وصل ـ وقد وصل إليه بعلم الله وتيسيره للإنسان ـ هو عبدٌ من عباد الله، وقد أجمع العلماء على أنَّه لا يسقط التكليف عن أحد، ولا عن الأنبياء والمرسلين، والتكليف معناه: اتِّباع الأمور الشرعية، ورعاية حدودها، وجاء في الآية الكريمة ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] وقد أجمع المفسرون على أن اليقين هو الموت، فواظب الرسول ﷺ وداوم على الصلوات إلى حين وفاته، وكان لا يزال يسأل ـ ﷺ ـ هل صلى الناس؟ قيل: يا رسول الله، هم ينتظرونك، فقال: ضعوا لي ماءً في المخضب، ففعلوا، فاغتسل، ثم ذهب لينوء، فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال: أصلى الناس؟ قالوا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله! والناس عكوفٌ في المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء، فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلِّي بالناس، ثم صلَّى الرسول ﷺ نفسه، وقد ثبت سؤاله في هذا الوقت ووصيته بالصلاة، وبالعبيد، وبالأنصار، ثم كانت آخر كلمةٍ تكلَّم بها رسول الله ﷺ: «اللهم الرفيق الأعلى!».

وقد بلغ بنا نحن المسلمين الحال إلى أنَّ العقائد إذا كانت صحيحةً وسليمةً؛ كانت العبادات ناقصةً سقيمةً، وإذا سلمت العقائد وصلحت العبادات كلتاهما، كانت في المعاملات خنادق كبيرة، ليست ثلمةٌ واحدةٌ، ولا خللٌ بل خنادقُ، وفجواتٌ، وخلجان هائلةٌ.

قلت خلال محاضرة لي في الشارقة: أنتم أعرف بهذا الخليج الذي

تعيشون على ساحله بالنسبة إلى الآخرين ، ولكنكم لا تعرفون إلا نوعاً واحداً من الخلجان ، وهو هذا الخليج الذي يفصل جزيرة العرب عن إيران ، وبينهما ماء ، لكنْ هناك خليجٌ آخر أكثر خطراً ، وأطول مدىً ، وأشدّ عمقاً من خليجكم وهو الخليج الذي وقع بين الإسلام والمسلمين ، وأنَّ هناك خلجاناً وفجواتٍ بين الإسلام والمسلمين في العقائد والعبادات ، (فكم من المسلمين الذين ينطقون بالشهادتين، ولكن لا علاقة لهم بالصلوات ، ومنهم من إذا صلحت عقائدهم وعبادتهم، ولكنهم يخرجون المعاملات، والأخلاق والمثل عن حياتهم ، يكذبون ، ويخونون ، ينقصون المكيال والميزان ، يغشُّون ، ويحلفون الزور لترويج متاجرهم ، وسوقهم ، ويغتصبون حقوق الآخرين، فلا يأخذهم الحياء ، ولا الغيرة؛ لأنهم لا يعدُّونها من الدين؟!).

وكم منهم من لا يرعى حقوق الوالدين ، ويدوس حقوق الأهل والعيال ، ولا علاقة لهم بالجيران ، فلا صدق في قولهم ، ولا حلاوة في لسانهم ، يشكوهم من يسكن حولهم من الجيران ، أو الأقل لا يشكرهم لأجل صنيعهم.

وكم منهم من لا يفرِّق في السياسة والمعاملات بين عدوِّ الله وخليله ، ولا يميِّز بين الخير والشر ، ولا بين الصالح والفاسد ، ولا بين المتدين والملحد ، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود: ١١٣] أي: لا تميلوا إليهم ، وقد استخدم القرآن لفظ الركون ، وهو أدنى الميل ، فضلاً عن الموالاة والمناصرة ، فلا تركنوا ، ولا تميلوا إلى الذين جعلوا الظلم شعارهم ، وتخطَّوا حدودهم ، وجاوزوا خطَّ الاعتدال ، وداسوا كرامة الحقوق ، وجعلوا الدنيا أكبر همِّهم ، ومبلغ علمهم ، وتجرَّدت قلوبهم من خشية الله ، وهم أصبحوا عبيد المال والثروة ، عبيد الدرهم والدينار ، عبيد القطيفة والخميصة ، عبيد الجاه والمنصب ، ولا يهمُّهم إلا شأنُهم ، إنَّ كلمة «ظلموا» تشمل هذه الأمور كلَّها ، ولعلَّ هذه الآية تكون جديدةً في حقِّ بعض المسلمين ، إنَّها لم تنهانا عن المبايعة على يديهم والخضوع أمامهم ، بل نهتنا عن الركون ، والميل القليل إلى هؤلاء الذين جعلوا الظلم سمتهم وشعارهم.

فكم من المسلمين من يعتبر هذه الأمور جزءاً من الدين ، إنهم يقولون : إنَّ هذه الأمور من الحياة ، ولا علاقة لها بالدين ، فهات ما عندك من نصائح دينية ، ولو تكرهت ببيان ما هو الأجر والثواب في قراءة هذه الأوراد ، أو تلك وهذه الأدعية؛ لكنت جديراً بها ، وأطعناك فيها ، أمّا مظاهر الحياة والسلوك فنحن أحرارٌ فيها ، نفعل فيها ما نشاء ، لا نفكر بما يلحق الضرر بنا ، أو بديننا إذا قمنا بموالاته ، ولا نكترث بما يأتي به التعسير في سبيل الدين ، أو يحدث نقصٌ فيه إذا قمنا بمعاداته ، فإننا نزعم أنَّه لا علاقة لهذه الأمور بالدين.

إخواني! نحن عباد الله في الأمور كلها ، فينبغي لنا أن نكون ممتثلين للأوامر الإلهية ، ومتمسكين بها كلِّيّاً ، وكذلك يجب أن نكون مهتمِّين بإخواننا المسلمين ، وأن ندعو لعلوِّ الإسلام وغلبته في العالم ، وننصره بفكرنا وجهدنا ، فلا يجدر بنا أن نكون من العباد الزاهدين ومن المتدينين المتشرِّعين من غير الاهتمام بأمر الإسلام والمسلمين ، فلا يهمُّنا أمر المسلمين أين يذهبون ، وأين يروحون ، وكيف يمتحن الإسلام ، وما هي القضايا التي يعاني منها المسلمون ، وما هي الدول التي أصيب فيها الإسلام بالانحطاط؟ وقد جاء في الحديث: «من لم يهتمَّ بأمر المسلمين؛ فليس منهم» ، «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ؛ تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى».

ولقد وسع الله الرزق وأنعم على هذه البلاد ، بارك الله فيها فلا أغتبط فيها ، ولكن يجب عليكم أن يهمَّكم أمر المؤسسات في بلدانكم التي تنحدورن منها ، وأمر الأمَّة الإسلامية التي تتوجَّع لأجله ، إنكم تقدرون على أن تحسُّوا تلك الحرارة التي اشتعلت في هذه البلاد ـ بما فيها باكستان والهند ـ وأنتم أبناؤها وأفلاذ أكبادها ، ولو رحل إليها عبدٌ من عباد الله الذي رزق فهماً سليماً ، وإدراكاً صحيحاً ليحسَّ تلك الحرارة في ذلك الجو الذي قام فيها الدعاة إلى الله كالشيخ معين الدين الجشتي ، والشيخ قطب الدين

بختيار الكاكي ، والشيخ عبد الباقي بأنفاسهم الطيبة ، ويشعر بندى دموعهم الطاهرة في تلك الأرض وإن كانت في داخلها ، وأن شجرة الإسلام التي نراها قائمةً على قدمٍ وساقٍ ، تورق ، وتثمر رغم المراحل الصعبة ، والعقبات التي اجتازتها ، ترجع إلى هؤلاء الدعاة المصلحين ، ونحمد الله عز وجل على بقائها وازدهارها ، لا بدَّ أن توجهوا اهتمامكم إلى قضايا بلادكم الإسلامية ومؤسساتها الإسلامية ، وأن تفكروا في مسألة الجيل الناهض ، وبقائه على إسلامه ، وإذا دبرتم خطَّةً لصيانة أولادكم وهيَّأتم لهم الجو اللائق فنهنئكم ، ونرحب بكم ، ولكن لا ينبغي لأحدٍ أن ينسى مولده ، ووطنه ، وأقاربه ، وذويه.

نشكر الله عز وجل وهو الرزاق ذو القوة المتين يرزقكم هنا ويرزقهم هناك ، وهو قادرٌ على أن يرزقهم أكثر منكم ، وقد هيَّأ لكثيرٍ من سكان تلك البلاد أضعافاً مضاعفة ، فلا ألفت أنظاركم إلى منظمةٍ ، أو مؤسسة معيَّنة للدَّعم ، ولكن يجب عليكم أن توجهوا اهتمامكم إلى تلك الملَّة الإسلامية التي تعيش في أوطانكم وإلى إيمان النشء الجديد ، وأن تهتموا بما يحيط بها من تحدِّيات ، ويخطط لها من برامج يشاهدونها على الشاشة ، فإنَّ مسلسلات رامائن استمرت شهوراً ، وقد أخبرني شاهد عيان أنَّه رأى في مدرسةٍ أنَّ المصاحف بقيت مفتوحة وهي موضوعة على كراسيها ، والطلبة غائبون ، وعندما سئل أساتذتهم : أين ذهب الطلبة؟ قالوا : اليوم يوم الأحد وهو موعد الرواية المسلسلة لرامائن ، هذه قصة ولاية «بيهار» التي أنجبت العلامة محب الله البهاري[1] الذي كان رأس العلماء ، وأستاذ العلماء ، وإمام العلماء ، وكم أنجبت هذه الولاية من العلماء الربَّانيين !

لا بدَّ أن يكون اهتمامكم ببلادكم اهتماماً فكرياً ، لا أقول أن يكون هذا الاهتمام اهتماماً اقتصادياً فحسب ، بل يكون عقليّاً ، وتكون قلوبكم متألمةً

---

(١) مؤلف كتاب «مسلم الثبوت» في أصول الفقه ، «وسلم العلوم» في المنطق ، وقد عكف علماء الهند على تدريسهما وشرحهما ، واعتنى علماء الأزهر بكتاب «مسلم الثبوت» تدريساً واستفادةً.

على الأحوال والظروف ، هل يبقى النشء الجديد على الإسلام أم لا؟ إنَّ هذه الأرض قد أنجبت مجددين للدين لم تنتفع بهم الهند فحسب ، بل نفع الله بهم العالم ، أستطيع أن أقول في ضوء التاريخ: إنَّ الإمام الشيخ أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي ، المشهور بمجدد الألف الثاني بلغ نفعه إلى تركيا ، ولم يزل تلاميذ تلاميذه موجودين فيها ، سافر الشيخ خالد الرومي إلى دهلي ـ وقد قيد قصته ـ فيقول: إني سألت القافلة التي جاءت من الهند حينما كنت في مكة المكرمة أيام الحج ، عن الشيخ الكبير غلام علي النقشبندي ، فأبدوا عدم معرفتهم ، فقضيت العجب منهم على أنهم لا يعرفون مثل هذا العالم الرَّبَّانيِّ الجليل ، فسافر إلى دهلي ، وأقام عنده مدَّةً من الزمن ، وقرض قصائد مدحية له في العربية والفارسية ، ورجع من الهند بعد إكمال مقصده وبغيته ، فاستقبلته بلاد العراق على بكرة أبيها ، وتقاطر العلماء عليه كتقاطر الفراش والهوام على النور للحصول على تلك السعادة التي أتى بها من الديار الهندية ، والاستنارة بذلك النور الذي اكتسبه فيها ، وساقه إلى بلاده ، هذه هي بلادكم ، فلا تغضّوا البصر عنها.

إخواني! إنَّ من أولى الأوليات أن تكون ثقتكم قويةً بأن هذا الدين كاملٌ عقيدةً ، فاستمسكوا بها ، لأنَّ الانحراف عنها كالارتداد عن الدين وواظبوا على تلك الفرائض المعينة؛ لأنه لا تكون الشقاوة أكثر منها من أن تقيموا هناك من غير أداء الصلوات ، والمواظبة عليها ويتحتَّم عليكم كذلك أن يكون مجتمعكم إسلاميّاً حتى لا يكون من المعقول أن تقيموا في هذه الأرض المقدَّسة ، ويجري التلفزيون في بيوتكم كلَّ وقتٍ يراه أولادكم في أوقات الصلوات ، يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: ٦] يبدو أنَّ القرآن ترك هذه الأسماء: الفيديو ، والتلفزيون لأنَّه في لسانٍ عربيٍّ مبينٍ لا يمكن الإتيان بكلمة إنجليزية ، لكن من الإعجاز القرآني العجيب أن الكتاب الذي نزل قبل أربعة عشر قرناً أشار إلى ما ينطبق على الجهاز المستعمل اليوم ، ولو قلت: إنه يعني الفيديو ، والتلفزيون؛ لما أخطأت ، لأنه قال فيه ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾ . [لقمان: ٦] فإنَّ المتذوقين باللغة العربية وبلاغتها في كلِّ

بلد يتذوقون بـ «لهو الحديث». إنَّ الذوق الأدبيَّ يسوق إلى آفاقها، وأبعادها، فإنَّه يصعب علي أن أترجم هذه الكلمة إلى اللغة الأردية بالضبط، رغم كوني من أبنائها وأصحابها، ما هي وظيفة الفيديو، والتلفزيون، وما يشغلهما؟ إذا كان أحد يعجبه اللعب يشتريه، فهل لا تدخل فيه هذه الأجهزة، الفيديو، والتلفزيون، التي قيل لها «لهو الحديث»، ولو ادعيت أنَّ القرن الأول، والثاني إلى السابع والثامن، حتى لو قلت إنَّ ذهن أكبر عالم في العصر الماضي لم ينتقل إليه؛ لما أخطأت.

وهذا من الإعجاز القرآني، ما هو «لهو الحديث»؟ هذه المسلسلات المرئية، والتصاوير الناطقة، والأصوات المسجَّلة كلها من «لهو الحديث» هل كان في استطاعة أحدٍ أن يتصور قبل أربعة عشر قرناً مثل هذا الجهاز حينما لم يحلم به أحدٌ فضلاً عن اختراعه وإبداعه، ولكن كتاب الله قد قال إنَّ هناك رجالاً يشترون «لهو الحديث» وهو اللهو الذي لا يحصل للإنسان، ولا يملكه إلا بالشراء، وبذل النقود.

إخواني! قوا أنفسكم وأهليكم منها، وصونوا بيوتكم على الأقل، يجب أن تكونوا مسلمين كاملين في الإسلام عقيدةً، وسلوكاً، وإذا ما بلغتم الكمال هنا، فمن أين يأتي إليكم الكمال؟ وأقول بصراحةٍ بعد طلب العفو منكم: إنَّكم إذا رجعتم إلى الهند في إجازةٍ، أو إلى أوطانكم شهد غير المسلمين على أن الذين جاؤوهم قادمون من بيئةٍ صالحةٍ مباركة، لأنَّ سيماهم في وجوههم من النور، وحلاوتهم في نطقهم من العسل، والاحترام والحرمة في عيونهم من الحياء والحشمة؛ لأنهم جاؤوا من الجزيرة العربية، لا أن يعرفكم هؤلاء، ويميِّزونكم من غيركم أنَّكم جئتم بالعفش الثمين الزائد، والكماليات، والتُّحف، فيتبعوكم لاختطافها منكم، لأنها ذات قيمة، وتجذب الأنظار، فإذاً لا بدَّ أن يعرفكم هؤلاء بسيما وجوهكم، وآثار سجودكم، ونور جباهكم، وحلاوة نطقكم، ونصحكم، وأناتكم، لا من ملابسكم وشنطكم، ولا بدَّ أن تتغير أجواء بيوتكم، ويتأثَّر بكم أهلكم، وعيالكم حتى تجري فيها تلك السنن النبوية التي لم تكن باقيةً فيها، وأن تتلى فيها الآيات القرآنية التي لم تكن البيوت

متعودةً عليها حتى يقول هؤلاء : إن أولئك جاؤوا من مكة ، ومن المدينة ، ومن الأرض المقدسة ، فلا تشتغلوا بالراديو ، والتلفزيون ، لا أن يقول هؤلاء : إن رجالاً جاؤوا من مكة والمدينة ومن عادتهم مشاهدة التلفزيون ، فافتحوا أمامهم الفيديو ، والتلفزيون ، فإنَّه لا يليق بكم ، ولا بشأن هذه الأماكن المقدسة ، بل هو انتهاك لحرمتها ، وحطٌّ من شأنها ، ونيلٌ من كرامتها ، فإنَّه أحرى بكم أن تزيلوا هذه المنكرات الشائعة حتى يستحيوا منكم ، فلا يشتغلوا بهذه الأمور .

وحيثما رحلتم ، فكما أنَّ النور يبدِّد الظلمات وتتقشع السُّحب الكثيفة به ، تظهر صوركم كالأضواء النَّيِّرة في بحر الظلمات ، لا بدَّ أن تتغير حياتكم قبل الرحيل من هذه الأماكن المقدسة .

فهل عرفتم كم من الناس دخل في الإسلام بعد صلح الحديبية في أربع سنوات ما بين فتح مكة وحجة الوداع ، يقول الإمام الزُّهري : إنه لم يسلم في مكة المكرمة في ثلاث عشرة سنة وفي المدينة المنورة في عشر سنوات مثلما أسلم في فترة صلح الحديبية ، فيبين سبب هذا الإسلام أنَّ الباب فتح عليهم بعد صلح الحديبية ، فجاء رجالٌ من قريش من مكة إلى أقاربهم في المدينة المنورة ، فشاهد أهلهم لياليهم ، فتحيَّروا ، وقالوا : إنهم في عالم غير ذلك العالم ، إنَّهم يستيقظون مبكرين ، ومعهم صبيانهم لا يعرفون اللغو فضلاً عن الكذب ، لا ينطقون إلا بذكر الله ورسوله ، إنهم يطعمون أضيافهم إيثاراً ، وينوِّمون أطفالهم جائعين ، فتسارعوا إلى الإسلام ؛ لأنَّهم شاهدوا صورة الإسلام النَّيِّرة بأمِّ أعينهم .

إخواني ! يجب أن ينتشر بكم الإسلام في أوطانكم وإذا قمتم لهم بالمراسلات الخطابية ، وبالعلاقات الأخرى ، أو قابلتموهم بالذهاب إليهم ، فكان وقعكم عليهم طيّباً ، يظنوا أنكم جئتم من تلك البلاد ببركاتٍ ورحمات ، ورافقتكم نفحاتها الطيبة المباركة .

لا أريد أن أطيل عليكم ، فينبغي أن ترتسم هذه الآية الكريمة على ألواح قلوبكم : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ

ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨ ـ ٢٠٩] إنَّ القرآن الكريم أتى بلفظ «خطوات» جمعاً، ما يشير إلى كثرتها، فتشمل الأمور الاعتقاديَّة، والتعبديَّة، والأخلاقيَّة، والثقافيَّة، والسياسيَّة، ولو كان مجتمعنا خالياً عن هذه الأمور لما وقع الفساد والفوضى الذي يقع في كثيرٍ من المجتمعات، لأنَّه لم يبق فرقٌ بين الصَّالح وغير الصالح، وبين التديُّن وغير التديُّن، وبين أن ينهج المنهج الشرعيَّ، وينهج المنهج غير الشرعيِّ.

وفقكم الله لما فيه خيركم، ويتقبل منكم، وينعم عليكم بأفضاله وبركاته، ويرزقكم أن تذهبوا بهذه الأفضال والبركات إلى بلادكم التي ثبت حقُّها عليكم، وسيدوم هذا الحقُّ، وإن استوطنتم مكاناً آخر، وبلداً بعيداً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

أهميـة الـحضـارة فـي تـاريـخ الـديـانـات وحيـاة أصحـابهـا

هذه المحاضرة ألقاها العلامة النَّدوي في دار الإمارة بالفجيرة (الإمارات العربية المتحدة) في ٢١/ يناير ١٩٧٩ م ، وقد حضرها صاحب السموِّ نائب الحاكم ، وعددٌ كبيرٌ من العلماء والوجهاء .

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين محمَّدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

سادتي ، وإخواني! إنَّ كثيراً من الناس الذين لم يتعمَّقوا في دراسة علم النفس الإنسانية والفلسفة الاجتماعية ، وتاريخ الحضارات والمدنيات يعتقدون أنَّ الدِّين محدودٌ في إطار العقيدة ، فالدِّين ـ كما تقول الفلسفة الغربية النصَّرانية؛ التي خضعت لعوامل تاريخيةٍ قاهرةٍ متنوِّعةٍ ـ «قضيةٌ شخصيَّةٌ ، وهو علاقة العبد بربه لا غير» فالإنسان هو متديِّن إذا وقف أمام ربه في معبدٍ من معابد الدُّنيا ، أمَّا إذا خرج من هذا المعبد ، أو إذا تحرَّر من هذه البيئة؛ فإنَّه حرٌّ يتصرَّف كما يشاء ، إنَّه تفسيرٌ خشيب للدِّين ، لا صلة له بالحياة المتنوِّعة ، الحياة المتأثِّرة المؤثِّرة في وقتٍ واحدٍ ، فإذا لم يكن للدِّين غير هذا المعنى ، وإذا لم يكن للعقيدة غير هذا التفسير ، فهذا الدِّين هو دينٌ محدودٌ مؤقَّتٌ ، وليس هنالك خيطٌ يربط الإنسان بالخارج ، بالعالم الفسيح الواسع ، الجميل الزاهي ، الحيِّ المتدفِّق بالحيوية ، الذي يعيش فيه ، هذا التفسير للدين ـ كما قلت ـ هو تفسير غربيٌّ خاضع لعوامل كثيرةٍ ، فُرِضت على العالم الغربيِّ بحكم طبيعة الدين الذي كان يدين به ، وطبيعة المكان الذي كان يعيش فيه ، وطبيعة الأحداث التي تفاعلت في تكوينه ، وفي تنميته ، وحتى في تفكيره.

ولكن الدِّين الذي نزل من السماء ، ونزل به الروح الأمين على قلب محمَّد عليه الصلاة والسلام أخيراً ، الدِّين الذي ختم الله به الأديان كلَّها ، والرسالة التي ختم الله بها الرسالات كلَّها ، هو دينٌ متَّصلٌ بالحياة ، لا يمكن أن ينقطع عن الحياة ، وتستغني الحياة عنه ، إنَّه دينٌ لا يعيش مع الحياة فحسب ، بل يسيطر على الحياة ، إنَّه ليس ظلاًّ للحياة ، بل يجب أن

تكون الحياة ظلاًّ له ، وامتداداً لعقيدته ، وتطبيقاً لتفسيره لهذا الكون ، فالدِّين الذي يضيِّق نفسه ـ وبتعبيرٍ أصحّ : يضيِّق أهله ـ في قفصٍ من طقوسٍ وتقاليد دينيةٍ ، وفرائض وواجباتٍ شرعيةٍ ، إنَّه دينٌ هزيلٌ شاحبٌ ، قد فقد الحيويَّة ، إنَّه دينٌ لا جاذبيَّة فيه ، إنَّ الدِّين وثيق الصلة بالحضارة ، فلا بدَّ أن يكون هنالك انسجامٌ وتجاوبٌ بين ما يعتقده الإنسان ، ويؤمن به ، وبين الحياة التي يعيشها ، فإذا كانت هنالك فجوةٌ بين العقيدة وبين الحياة ـ الدِّين والعقيدة في وادٍ ، والحياة في وادٍ ، فإنَّه دينٌ لا سيطرة له على الحياة ، أمَّا الدِّينُ الحيُّ ، الدِّين السماويُّ ، فهو الدين الذي يسيطر ولا يسيطر عليه ، ويحكم ولا يحكم عليه ، الدِّين الذي يسود ، ويقود ، لا الدِّين الذي يقاد ، ويفسر كما يشاء الإنسان ، الدِّين الصحيح هو الذي يسبك الحياة سبكاً جديداً ، ويتحكَّم في الحياة ، يقول : هذا خالصٌ ، وهذا زائفٌ ، هذا حلالٌ ، وهذا حرامٌ ، وهذا صوابٌ ، وهذا خطأٌ .

أمَّا الدِّين الإسلاميُّ ؛ فأمره أوضح من أمر غيره ، هذا الدِّين هو صبغةُ الله التي يصبغ بها الإنسان ، كما جاء في القرآن ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٨] . فالدين صبغةٌ يصطبغ بها الإنسان من الرأس إلى القدم ، تصطبغ به المقاييس التي يطبِّقها للحياة ، تصطبغ به حياته المنزلية ، وحياته العائلية ، وحياته المدنية .

إنَّ الدِّين إذا جُرِّد عن المدنية ـ وقد جُرِّد كثيراً في التاريخ ، وتكرَّرت هـذه التجـربـة فـي فتـرات كثيـرة ـ فكـان دينـاً ولا حضـارةٌ ، كـان دينـاً ولا اجتماعٌ ، كان ديناً ولا حياةٌ ، فهو كطائرٍ مقصوص الجناح ، منتوف الريش لا يستطيع أن يطير ، ويحلق في الأجواء ، إنه طائرٌ يترفرف ، ويضطرب فهو أشبه ببلبلٍ في قفصٍ من ذهب ، وإن كان بلبلاً غرِّيداً ، أو عندليباً ساجعاً مترنِّماً ، أما الدِّين الحقيقيُّ فهو الدين الذي يطير بجناحيه في أجواء من المعاني ، وفي أجواء من الأخلاق والمعاملات والسياسة والمدنيَّة ، وهو يسبك الحياة سبكاً مطابقاً لعقيدته ولما يدين به ، ظهر الإسلام فأنتج حضارةً كاملةً بحذافيرها ، حضارةً زاهيةً زاهرةً ، حضارة حكيمةً عادلةً ، حضارةً مؤسسةً على توحيد الله تبارك وتعالى ، والإيمان

به ، وعلى ذكر الله تعالى ، واستحضار قدرته ، واستحضار الآخرة ، والإيمان بأنَّ الآخرة خيرٌ من الأولى ، مؤسسة على العدل الاجتماعي ، وعلى الاحترام للإنسانية ، والرحمة بها ، وعلى الجمع بين الواجبات والحقوق في وقتٍ واحدٍ ، والأخذ والعطاء ، والإفادة والاستفادة في حينٍ واحدٍ ، وعلى الاعتراف بقيمة الإنسان أيّاً كان ، وأينما كان.

الحضارة قامت على أساس العقيدة ، وعلى أساس التربية الإلهية ، والنصوص القرآنية السَّماوية ، وعلى أساس السيرة النبوية ، وأسوة الصحابة رضي الله عنهم ، فكانت أزهى حضارةٍ ، وأعدل حضارةٍ ، وأعقل حضارةٍ ، وأعلم حضارةٍ ، وأفضل حضارةٍ جرَّبها الإنسان ، ظهرت هذه الحضارة في الحجاز أولاً في مدينة الرسول ، وفي مهجره صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، ثم خرجت من حدود المدينة ، وغزت العالم كلَّه ، وما دخلت في بلدٍ من البلاد إلا وخضع لها أهله طواعيةً لا كراهيةً وتغلغلت في أحشاء البلد أو المجتمع الذي فتحته ، وتعلمون أنَّ أمَّةً إذا فُتِحَتْ عنوةً بحدِّ السيف ، فإنها تبغض الفاتحين ، هذه تجربة التاريخ المتَّصلة المتكرِّرة ، ولكن الحضارة الإسلامية وقعت من قلوب المواطنين موقع الحبيب ، وقبلتها البلاد ، وضمَّتها إلى صدرها ، لأنَّها كانت حضارةً طبعيةً ، عادلةً ، عاقلةً ، مؤسسةً على مبدأ المساواة الإنسانية ، ومبدأ الرحمة بها ، وإخراج الناس من حكم العباد إلى حكم الله تبارك وتعالى ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

فكلُّ دينٍ يُجرَّد من الحضارة دينٌ صائرٌ إلى الانقراض ، ومصيره الزوال السريع ، وكلُّ دين يرضى أهله بهذا الموقف الضعيف المتخاذل ، فيرضون من الدين بالعقيدة ، ولا يلحون على مدنيَّة خاصة ، هي نتاج هذا الدين ، ويقتبسون أو يستوردون مدنيةً أخرى هي وليد بيئةٍ أخرى ، وسليل ديانةٍ أخرى ، ونتيجة أحداث وعوامل مرَّت بها أمة خاصةٌ أو بلد خاصٌّ ، فإنهم يفقدون مع الأيام ومع تيار الزمان شخصيتهم ، ويفقد الدين الذي دانوا به السيطرة على نفوسهم وعقولهم ، ويكونون صورةً صادقةً ، أو نسخةً مضبوطة أمينةً للأمَّة التي تطفلوا على مائدتها ، واقتبسوا منها الحضارة

ونمط الحياة ، وهذا ما نتخوَّفه اليوم على العالم الإسلامي الذي يقتبس من الغرب مدنيته ، وأساليب حياته.

إنَّ المدنية الغربية لها تاريخٌ خاصٌ ، فقد تكونت أولاً ثم تطوَّرت ، ونمت ، وارتقت تحت ضغط عوامل تاريخيَّةٍ سياسيَّةٍ ، وحضاريَّة ، وفلسفيَّةٍ كثيرة ، فكيف تتَّفق هذه الحضارة التي هي سليلةٌ للحضارة الرومانية ، واليونانية مع هذا الدين السَّمح ، دين الفطرة ، دين الله الذي أنزله الله تعالى من فوق سبع سموات؟ إنَّ حضارةً عجنت خميرتها من عناصر أخرى ، ومع فلسفاتٍ أخرى ، كيف تنقل ، أو تستورد هذه الحضارة استيراداً ، نعم نستورد المصنوعات الميكانيكية ، والمنتجات الحضارية الكثيرة ، لا غرابة في ذلك ، ولا استنكار فيها ، ولكن نستورد حضارةً برمتها ، وبحذافيرها؛ ونطبقها في بلدٍ إسلاميٍّ عربيٍّ ، هذا لا يعقل ، إنَّ المسلم العربي أو العجميَّ الذي ينشأ في هذه الحضارة يفقد الشيء الكثير من حساسيته الدِّينية ، ويضطر إلى أن يتخلَّى عن جزءٍ كبيرٍ من أحكام دينه وشريعته ، وهذا الدين يتطلَّب بطبيعته بيئةً خاصَّةً ، وجوّاً خاصّاً يلائم الأحكام الشَّرعية ، ويتَّفق معها ، ويخدمها ، ويساعد عليها ، مثلاً أنا أدخل في فندقٍ كبيرٍ ، إنني أريد أن أتطهَّر. لا أجد كيف أستخدم الماء ، ليست هناك أشياء تساعدني على الانتفاع بالماء ، وإنَّ كان الماء وافراً ، فلا أستطيع أن أكون على جانبٍ من الطهارة ـ لا أقول النظافة ، فالطهارة مفهوم شرعيٌّ لها شروطٌ وقيودٌ تعرفونها ـ التي يطلبها الإسلام ، ولا تصحُّ بدونها الصلاة والعبادات.

ثم إذا دخل الإنسان في فندق مثلاً ، أو في بلدٍ مثلاً لا يجد شيئاً يذكره بالله ، لا يجد شيئاً يذكِّره بالآخرة ، لا يجد شيئاً يذكِّره بالموت ، بل بالعكس كل شيءٍ يشغله عنه ، ويستخف ويستهزىء به ، أنا دخلت في بارك أوتيل (Park Hotel) في طهران في زيارتي لها في وفدٍ من رابطة العالم الإسلامي في سنة ١٩٧٣ ، فلما دخلت في الغرفة وفتحت المنضدة التي كانت أمامي ما وجدت في درجها إلا كتاباً واحداً هو «الكتاب المقدس» (Bible) هذه عاصمة المملكة الإسلامية الإيرانية التي لعبت دوراً رائعاً في

تاريخ الإسلام ، وتاريخ الثقافة الإسلامية ، وأنجبت أئمةً في علم الحديث ، وفي الفقه ، وفي أصول الفقه ، وفي الحكمة ، هذه أرض النبغاء والعماليق المسلمين ، هذه يونان الشرق ، هذه إيران التي زادت في ثروة الإسلام والمسلمين ، أنا لا أجد في هذا الفندق الكبير الذي يقوم في عاصمة إيران ، لا أجد إلا نسخةً من بائيبل ، شيءٌ مؤسفٌ ومخجلٌ! لماذا لا أجد فيه المصحف؟ طيب ، ليس كل واحد يتلو القرآن ، ولكن لماذا لا أجد فيه شيئاً من الأدب الإسلاميِّ الإيراني؟ يا ليتني كنت وجدت هناك ديواناً لشاعرٍ مسلمٍ فارسيٍّ كبير ، فأتسلَّى بذلك ، وأقول هذا هو الطابع الإيراني الإسلامي ، ولكن لا أجد إلا بائيبل ، هذا هو الغزو الحقيقي للبلد الذي تدخل فيه الحضارة الأوربية.

وأدخلِ في فندق كبير كذلك في بلد عربيٍّ صميمٍ لا أسميه ، فأجد صورة واحدةً معلَّقة في كلِّ غرفة ، هي صورة كنسيةٍ ، والبلد وثيق الصلة بالجزيرة العربية ، وبالحرمين الشريفين ، لماذا لا أجد في هذه الغرف صورة الحرم المكيِّ ، وصورة الحرم النبويِّ ، لماذا لا أجد صورة مسجدٍ عام؟ قد تبدو هذه لبعض الناس أشياء سطحية ، لا يا إخواني! إنَّ لكل ذلك أثراً قويّاً قاهراً على النفس الإنسانية ، ليست النفس الإنسانية هي العقل كله ، إذا كانت النفس الإنسانية عقلاً كله فقط ، لا شعور فيه ، ولا ضمير له ، ولا حساسية فيه ، لا يتألم ، ولا يحزن ، ولا يغضب ، ولا يسرُّ ، فهذا لا يستحقُّ أن يسمَّى إنساناً ، هذا ليس كائناً حياً ، إنما هو ميت لا عقل له ، ولا عاطفة ، ولا حساسية فيه ، ولا شعور ، لا يتألَّم ، ولا يفرح ، ولا يحزن ، ولا يغضب ، ولا يثور.

إذا رجعت إلى وطني لماذا أفرح؟ الأرض سواءٌ ، الطبيعة واحدةٌ ، السماء واحدةٌ ، الأشجار متشابهةٌ ، وكل شيءٍ متشابهٌ ، لماذا ينشرح صدري ، وتقرُّ عيني ، ويثلج فؤادي إذا وطئت أرض بلادي ، ونزلت من الطائرة ينشرح صدري ، لماذا؟ لأنَّ هناك أشياء مألوفة ألفتها نفسي ، وعاشت فيها مدَّةً من الزمان ، وكان لها فيها وكرٌ تأوي إليه هذه النفس ، فلما وطئت هذه الأرض وجدت المألوفات تكثر ، ووجدت المكروهات

تقلُّ ، وتنكمش ، وجدت المألوفات منتشرةً حولي ، هذا أخي جاء ليسلم عليَّ ، هذا صديقي جاء يهنئني ، وهذا هو الحيُّ الذي مررت به كثيراً وألفته ، لذلك أنا أفرح ، فإذا كان الإنسان مجرَّد عقل ، لماذا يفضِّل مكاناً على مكانٍ ، لماذا يفضل حيَّاً على حيٍّ ، لماذا يفضل أسرةً على أسرةٍ ، لماذا يفضل صورةً على صورةٍ؟ لأنَّ الإنسان عقلٌ ، وضميرٌ ، وقلبٌ ، ووجدانٌ .

لذلك كان من الطبيعي ومن المعقول جدَّاً أن يجد المسلم في بلد إسلاميٍّ ما ألفه من شعارات الإسلام ، ومن مظاهر المسلمين ، فيميز المجتمع الإسلاميَّ من غيره في أول وهلةٍ ، وحين يطأ بقدمه الأرض ، للإنسان المسلم كلُّ الحقِّ أن يتوقع أنه لا يدخل في بلدٍ إسلاميٍّ إلا ويرى شعار الإسلام مرتفعاً ، لماذا يفرح المسلم إذا سمع الأذان؛ لأنَّه عرف أنها أرض المسلمين ، لذلك كان رسول الله ينتظر الأذان إذا غزا قوماً ، فإذا سمع الأذان؛ قال انصرفوا ، هؤلآء مسلمون .

إنَّ لكل مدنيةٍ شخصيةٌ ، المدنية الإسلامية لها شخصيةٌ متميِّزةٌ ولها طابعٌ خاصٌّ ، والمدنيَّةُ لها شخصيَّةٌ غربيَّةٌ مسيحيَّةٌ روميَّةٌ يونانيَّةٌ ، ما يمكن تجريدها عن هذه العناصر الرومانيَّة ، واليونانيَّة ، واللادينية التي التصقت بها ، واختمرت هذه المدنية مع هذه العناصر ، فلا يمكن تجريد هذه المدنيَّة منها ، كذلك من قلَّد هذه الحضارة تقليداً أعمى ، واقتبسها كمتطفلٍ وكمقدِّسٍ ، وكخاضعٍ ، فإنَّه ينسى مع الأيام القليلة جدّاً أنَّه في خضم حضارة ليست إسلاميَّةً .

إنَّ الحضارة لها تأثيرٌ كبيرٌ ، أضرب لكم مثلاً بالتتار ، وإننا نستطيع أن نأخذ منهم درساً كبيراً ذا قيمةٍ تاريخيَّةٍ عظيمة ، لما زحفوا على العالم الإسلاميِّ ، وكانوا كالجراد المنتشر ، وأثخنوا العالم الإسلامي قتلاً وجراحاً ، وأذلُّوه إلى آخر نقطةٍ ، حتى كان من المثل السائر : إذا قيل لك إنَّ التتار قد انهزموا فلا تصدِّق ، هذا كان مدى تأثير التتار وسيطرتهم على العقل الإسلاميِّ ، لا أقول على الجسم الإسلاميِّ فقط ، ولكن لماذا

خضعوا للإسلام؟ هل تعرفون سرَّه ، خضعوا للإسلام لسببين ، الأول: القوة الرُّوحيَّةُ المخلصة المجرَّدة عن الأنانيَّة ، وعن المطامع الدنيويَّة التي كان يحملها أهل القلوب البريئة المؤمنة ، الخاشعة لله تبارك وتعالى في القرن السابع الهجريِّ. والسبب الثاني: أنَّ التتار لم يكونوا يحملون حضارةً ، كانوا يحملون سيفاً ، كانوا يحملون أعرافاً جاهليَّةً صينيَّةً ، ولكن ما كانت ترافقهم حضارةٌ ، فلما واجهوا الحضارة الإسلاميَّة ، وهي بجمالها ، وكمالها ، وعمقها ، وسعتها؛ خضعوا لهذه الحضارة ، وتأثَّروا بها ، فلما تأثَّروا بهذه الحضارة تدرَّجوا إلى الإسلام ، حتى دخلوا على بكرة أبيهم في الإسلام ، هذه هي غريبةٌ من غرائب التاريخ البشريِّ ، إلى الآن لم تفسر تفسيراً كاملاً ، وقد حار في تعليلها كبار علماء الغرب والشرق[1] خضع التتار للإسلام بتأثير الحضارة الإسلامية؛ لأنَّهم كانوا لا يزالون يعيشون في دور البداوة والطفولة الحضارية ، فلمَّا دخلوا في العالم الإسلاميِّ الراقي ، المتقدِّم ، الذي قطع أشواطاً بعيدة في مضمار الحضارة ، والعقل البشري؛ خضعوا لهذه الحضارة ، وأصابتهم دهشة ، أصابت المسلمين دهشةُ الفتح ، وأصابت التتار دهشةُ الحضارة الإسلاميَّة ، هذا مصير كلِّ أمَّةٍ تخضع لحضارةٍ قد عجنت طينتها في بلدٍ آخر ، وفي بيئةٍ أخرى ، إنَّ مصيرها أنَّها تخضع لتأثيراتٍ أجنبيَّةٍ كثيرةٍ.

فأقول لكم أيها الإخوان: إنَّ قضية الحضارة قضيةٌ مهمَّةٌ ، ودقيقةٌ ، قضيَّةٌ كبيرةُ الحساسية بالنسبة إلى مصير الإسلام والمسلمين. نحن الآن نمرُّ بمرحلةٍ عصيبةٍ من مراحل حياتنا ، وهو أنَّنا الآن نأخذ الحضارة الغربية على علاَّتها ، وبحذافيرها ، إنَّه لا أصالة لنا فيها ، ولا حكم لنا عليها ، إنما نحن متطفلون على مائدتها ، نغرف من بحرها ، وتغمرنا موجتها حتى نغرق إلى الآذان ، هذا شيءٌ يشكِّل خطراً عظيماً على مصير الإسلام والمسلمين.

كونوا حذرين أيها الإخوان في قضية هذه الحضارة الغربية ، فإنَّني أخاف

(١) ليرجع للتفصيل إلى كتاب العلامة الندوي «رجال الفكر والدعوة في الاسلام» الجزء الأول ، عنوان «انتشار الإسلام في التتار» طبع دار ابن كثير بدمشق.

أن تكون هنالك مؤامرةٌ دقيقةٌ ضدَّ العالم الإسلاميِّ ، فالغرب لما عرف أنَّ المسلم هو شديد الحساسية فيما يتَّصل بالدين ، تراجع الآن هو من موقفه القديم في الهجوم على الدين ، وأصبح هو لا يهاجمنا في ديننا الآن ، هو عرف بالتجارب المتكررة العديدة أنَّ التعرض لعقيدة المسلمين يثير خطراً كبيراً ، وقد يحبط مساعيه ، وفسد مخططاتهم الاستعمارية ، فاقتنع بأن يفرض على العالم الإسلاميِّ حضارته ، إنَّه الآن لا يمسنا في عقيدتنا ، فيقول بلسان حاله : اعبدوا ما شئتم ، وآمنوا بما شئتم ، وكونوا ما شئتم ، واقرؤوا ما شئتم ، ولكن هذه حضارتنا ، عيشوا كما نعيش ، وكلوا كما نأكل ، والبسوا كما نلبس . وأنشئوا الأوتيلات والفنادق والقصور والمنازل كما أنشأناها في بلادنا ، مجرَّدةً من أدوات الطَّهارة ، مجرَّدةً من شعارات الإسلام ، مجرَّدةً من ملامح الحضارة الإسلامية ، وهو عرف أنَّ العالم الإسلامي أو العربي إذا قبل هذا الوضع فإنَّه في وقتٍ قصيرٍ ، سيفقد أكبر مقوماته ومشخصاته ، ويبقى محدوداً مقيداً لدينه في مكانٍ محدودٍ ، في وقتٍ محدودٍ ، إذا كان في المسجد فهو مسلم ، يركع ويسجد ، ولكن إذا خرج ، وآوى إلى بيته ، أو إذا نزل في أوتيل ، فإنَّه لا يدلُّ شيءٌ على أنه مسلم ، إلا إذا سئل عن اسمه ، فقال : أنا فلان ، وذكر اسماً إسلاميّاً عربيّاً .

هذه هي «الاستراتيجيَّة» الجديدة التي توصَّل إليها الغرب بعد تجارب طويلةٍ مريرةٍ ، أخضِعوا العالم الإسلاميَّ للحضارة الغربية ، ولا تهيجوه في عقائده ، وفي عواطفه . نعم ، الدِّين الإسلاميُّ هو كما تشاؤون ، القرآن أمامكم ، تعلموا العلم ، اعبدوا ما شئتم ، ولكن الحضارة المثلى ، الحضارة العصرية الجديدة هي الحضارة الغربية . هذا هو الوضع الخطير الذي يعيشه العالم الإسلاميُّ اليوم . وإنني كنت أنتهز الفرصة لأنفِّس عن ضميري ولأتنفَّس قليلاً عن هذا الألم الذي يساورني في أحد المجتمعات الإسلامية والمدن العربية ، فلي الحقُّ في أن أبدي ما أشعر به من ألمٍ ، أنتم تملكون زمام أموركم ، لستم مدفوعين ، لا تعيشون الآن تحت رحمة أيِّ دولةٍ ، ولا أيِّ قوَّةٍ ، لكم فرصة السبك الجديد ، لكم فرصة الصياغة الجديدة ، تصوغون مجتمعكم كما تشاؤون ، وتصوغون مدنيتكم كما

تشاؤون ، وتصوغون حياتكم كما تشاؤون ، من الذي يسوقكم هذا السوق العنيف نحو الغرب الذي لا هوادة فيه ، ولا رحمة؟ إنَّ الله سبحانه وتعالى أكرمكم بالوسائل ، والطاقات ، والثروات ، والخيرات ، بل الآن الغرب في حاجة إليكم ، فلماذا لا تملون إرادتكم ورغبتكم على بلادكم على الأقل ، إنني أتمنى ذلك الزمن السعيد الذي نستطيع نحن المسلمين أن نملي إرادتنا ورغبتنا على الغرب ، ولكن إذا لم تسنح هذه الفرصة بعده ، فلماذا لا نملي إرادتنا ورغبتنا على مجتمعنا ، وعلى مدنيتنا ، وعلى بلدنا ، وعلى حياتنا؟ نبني على الطراز الإسلامي الشرقي الجميل ، ننشىء أوتيلات وفنادق على المثال الإسلاميِّ الذي يتفق مع آداب الإسلام ، ومع تعاليم الإسلام التي تساعد على الطهارة ، وتساعد على الصلاة ، وعلى ذكر الله تبارك وتعالى ، الجوُّ ملهمٌ للشرِّ والخير ، فلماذا لا يكون جوُّنا ملهماً للخير ، ملهماً لذكر الله تبارك وتعالى ، الإنسان ينسى الله ، ولكنه إذا دخل في هذا الجوِّ و استنشق الهواء تذكَّر الله ، وتذكَّر الآخرة ، كان كل من كان يدخل في مدينة الرسول ﷺ ، بل في مدينة من المدن الإسلامية المثالية في العصر الإسلامي الذهبي يتنفس برئتي الإسلام ، ويتنشَّق أريجه ، ويلمسه ببنانه ، ويذوقه بلسانه ، فينتقل من عالمٍ إلى عالمٍ ، ومن جوٍّ إلى جوٍّ ، فتقصر المسافة بينه وبين فهم الإسلام ، ويسهل عليه ، بل يحبَّب إليه العمل به ، فلا يرجع من هذا البلد الإسلاميِّ ، بل المجتمع المثاليِّ إلا وهو واعٍ داعٍ للإسلام ، ومثالٌ من أمثلته ، ونموذجٌ من نماذجه ، وهذا الذي نتمناه اليوم من مدننا الإسلامية والعربية ، لا العكس الذي تجربه ونصطدم به مع الأسف من منافاة الواقع للتصوُّر ، وتكذيب الحاضر للماضي ، والتشكيك في صلاحية الإسلام لمسايرة الحياة وتخطيط المدنية الفاضلة والمجتمع السعيد.

والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيمٍ.

* * *

مصادر العلوم الإنسانية

ألقى العلامة الندوي هذه الكلمة في الجلسة الختامية للمؤتمر المنعقد في كانون الثاني عام ١٩٧٧ م تحت رعاية قسم الدراسات الإسلامية في جامعة عليكرة الإسلامية ، ونقدِّم هنا هذه الكلمة نقلاً من الشريط المسجَّل .

أيُّها السادة!

إنه لمن اغتباطي ودواعي سروري أن أرى علماء المعاهد الثقافيَّة الحديثة قد بدؤوا يهتمُّون بالعلوم الإسلامية ، والمؤتمر الحالي هو البرهان على ذلك ، وباعتبارنا أناساً مكرّسين لهذه العلوم يمكن أن نقول مع «إقبال» :

«ولَّت تلك الأيام كنت فيها وحيداً ، في الاجتماع كثيرون هم الذين يشاركونني أسراري هذا اليوم».

لم تكن كنوز المعرفة في يوم ما احتكاراً لطبقةٍ اجتماعيَّةٍ دون أخرى ، وما كان ذلك ، أما فيما يتعلق بالإسلام؛ فإنكم تعلمون أنَّه ليس هناك طبقةٌ تتوارث الكهنوت أباً عن جدٍّ. إنَّ مفاهيم الكهنوت هي من صلب العالم النصراني ، وغريبةٌ في عالم الإسلام ، وإذا ما وجدت عباراتٍ أو تعابير كهذه في كتابات بعض العلماء فمردُّ ذلك فقط إلى التقليد الأعمى للغرب ، أصبحت عبارة «رجال الدين» في أيامنا هذه شائعةً ـ حتى بين الكتاب العرب!! ـ وبدؤوا يستعملونها بنفس المفهوم الذي تعنيه كلمة «الكهنة» في العالم النصراني. أما الكتاب الحذرون المتمسِّكون بالدين ، والذين يريدون التعريف الصحيح بالفكر والروح الإسلاميَّين؛ فقد اجتنبوا بحذرٍ شديدٍ استعمال عباراتٍ كهذه.

وفي الوقت الذي أعبِّر فيه عن شعوري بالغبطة للاهتمام المتزايد من قبل المراكز العلمية بالعلوم الإسلامية ، أودُّ أن أضيف إلى أنَّه على الرَّغم من أنَّه لا مكان للقساوسة والكهنوت في الإسلام ، إلا أنَّه كان دائماً لدينا علماء ذوو خبرةٍ واختصاصٍ ، ولم يعد بإمكان المرء أن يضطلع في كل شيء نظراً للتوسع الطارىء المحسوس الذي حدث في شتَّى فروع المعرفة. . ففي أوربا بدأت عملية التقدُّم عندما كرَّس الناس أنفسهم للتخصُّص في فروعٍ

خاصَّةٍ من الدراسات ، ولم يعد علماؤها يسيطرون على كافة فروع المعرفة ، وأعتقد أنَّ هذا المبدأ ـ وحتى في وقتنا الحالي ـ متَّبعٌ في أوربا أكثر منه في الشرق ، وهناك يعترف الخبراء في أيِّ مجالٍ كان ـ وبدون تردُّد ـ بمهنةٍ أو بمجال دراسةٍ لا تدخل ضمن مجال اختصاصهم. والآن. . علينا نحن أيضاً أن نصمِّم بتحديد مساعينا الأدبيَّة والفكرية لنقتصر على موضوعٍ أو فرعٍ دراسيٍّ خاصٍّ بمفرده.

مستـوى الـثـقافـات:

إنني فخورٌ بأن أكون رفيق درب ، وأنتهز ذلك لأتجرَّأ فأقدِّم بعض الاقتراحات:

ربما وافقتم معي على أنَّ مستوى الثقافة يتدنَّى في وسطنا ، ولقد التمست ذلك في الغرب أيضاً. وقد قال لي بعض العلماء هناك: إنَّ الفساد تسرَّب إلى دراسة العلوم الشرقية أيضاً. إنَّ الجيل الحالي من العلماء يفتقر إلى المثابرة والانكباب ، وذلك لأسبابٍ عديدةٍ بعضها سياسيَّةٌ وأخرى اقتصاديةٌ.

الســرُّ فـي نـمـو الاسـتشـراق:

هناك بعض البواعث وراء كلِّ فرعٍ من فروع المعرفة ، ولقد رفعت هذه العوامل الاستشراق في يومٍ من الأيام إلى القمَّة ، وباستثناء القليل من العلوم الطبيعية والاجتماعية ، فقد كانت الدراسات الشرقية تحظى بشرفٍ عظيم ، وكان المستشرقون بكتاباتهم يتمتَّعون بأهميةٍ بارزةٍ؛ إذ كان العامل القويُّ الذي يعمل عمله وراء ذلك هو عامل الإمبريالية(١) ونحن مسرورون على أن ذلك العامل لم يعد فعَّالاً ، ولحسن الحظ ، أو لسوئه فقد كانت أغنى بلدان الشرق تحت حكم المسلمين ، وكان الغرب ينظر إليهم نظرةَ غيرةٍ وحسدٍ لما عندهم من خيرات.

أرادت الإمبريالية الغربية إقامة مستعمراتٍ جديدةٍ ، لذا كان من

---

(١) المقصود بها: بسط النفوذ عن طريق الشركات ، والمؤسسات الاقتصادية. .

الضروريِّ لها: دراسة الخصائص القومية لتلك البلدان. . ولقد كان هؤلآء المستشرقون هم طلائع المستعمرين. فقد لقوا رعاية الجهات الرَّسمية، ووضعت أموالاً طائلةً تحت تصرُّفهم، وكانوا يُستقبلون بحفاوةٍ وتقديرٍ في بلاط الملوك ورؤساء الدول. . لقد زال هذا العامل من الوجود، أمَّا الدافع الآخر؛ فقد كان الكسب الاقتصاديُّ الذي فقد فعاليته هو أيضاً، فقد خضعت البنية الاقتصادية للتحوُّل بحيث لم يعد مواصلة الدراسات الشرقية تدرُّ النفع الماديَّ كما كانت من قبل.

التفـرغ:

إنَّ روح التكريس قد ضعفت بين علماء ومثقفي عصرنا: فقد ضعف حبُّ المعرفة ونضب معه معين القدرة على الجدِّ والاجتهاد، وإنَّني لا أشير بذلك إلى أيِّ كلِّيَّةٍ أو جامعةٍ دون أخرى، إنما هي ملاحظة عامَّةٌ كما وجدتها، ويُلمس في كل مكان ـ تقريباً ـ أنَّ التكريس الكامل الذي كان يتميَّز به علماء الماضي لم يعد له وجود في وقتنا الحاضر.

ونستطيع أن نحرز فكرة من كتاب «علماء السلف» الذي كتبه نواب صدر يار جنگ مولانا حبيب الرحمن خان شرواني هنا في عليكراه حيث جاء فيه، كم كان علماء تلك الأيام مشغولين بالدراسة والبحث!! وأيُّ فسادٍ ملحوظٍ حل بها الآن؟! لماذا؟؟!.

إنَّ الأسباب تتعلَّق بالسياسة، والاقتصاد، والأدب، والأخلاق، سواءٌ بسواء. . وليس من الممكن ـ أو من الضروري ـ مناقشتهما هنا. . والأمر الواضح جداً هو أنَّ حب المعرفة الذي يسمو فوق كل شيءٍ، ويجعل الإنسان لا يبالي حتى بالحاجة إلى الطعام والملبس، وقد أصبح ذلك الحبُّ نادراً إن لم نقل قد همد.

خذ حال مولانا لطف الله من عليكراه. . كم كان اهتمامه لعمله شديداً، ولكن دعه وشأنه. . إليك من بين العلماء الأوربيين رجل يُدعى «لين» والذي يعتبر معجمه العربي أساساً لا غنى عنه ليس فقط عند طلاب اللغة العربية وحدهم من الإنكليز بل حتى عند العلماء العرب، ولقد سمعت أنَّه عندما

كان يعمل في معجمه هذا في القاهرة لم يغادر شقته لأشهر ، ولم يتعرَّف إلى السوق ، ولم يهتمَّ أبداً بأن يذهب لرؤية الأهرامات ، ربما تستطيع أن تسمِّي ذلك بلادةً ، أو افتقاراً إلى الذَّوق السليم. . . حسبما تريد ، ولكنَّك إذا تمعَّنت في تاريخ روائع الفنِّ والمعرفة ستجد أنَّ صانعي هذه الروائع ومؤلفيها قد عاشوا في عالم خاصٍّ بهم ، وكان عملهم هو العاطفة بالنسبة لهم ، وما كان لديهم وقتٌ لأيِّ شيءٍ آخر ، أو ميلٍ إليه.

الشخصيات الأدبية المعاصرة:

إنَّني أتكلم إلى أولئك الذين اتَّخذوا القراءة والكتابة مهنةً لهم. . عندما قرر مولانا شبلي الكتابة عن مكتبة الإسكندرية كان الطلاب المسلمون هدفاً لأقوال السخرية: آه. . أجل! تنتمون إلى الدين والمجتمع الذي أحرق خليفته مكتبة الإسكندرية!! . . كان هذا الكلام على لسان كلِّ الناس ، وأولئك الذين عاصروا تلك الأيام لا يزالون على قيد الحياة ، ويحكون أنَّهم احتاروا أين يخفون رؤوسهم ، أو كيف يجيبون؟

والرواية الشائعة هي أن الخليفة عمر ـ رضي الله عنه ـ أُخبِر أنَّ مكتبة الإسكندرية مليئة بالكتب الفلسفية ، وأنَّه أجاب: «إذا كانت تلك الكتب تتوافق مع القرآن لتبق على حالها ، أما إذا كانت تتعارض معه فيجب أن تحرق. . .» ويزعم أنه تقرر أنَّ الكتب كلها كانت مناقضةً لما جاء به القرآن ، لذا أحرقت حتى آخر كتاب فيها دون أن تفتح لمعرفة مضمونها!!

إنَّها قصَّةٌ ملفقةٌ بالكامل. . حتى إنَّ مؤرخاً مثل تونبي (Toynbee) قد أسهم في استمرار تداول هذه القصَّة ، وفي مجال تعليقه على تبديل الأبجدية التركية من قبل أتاتورك يقول تونبي: «إنه لو تعلق الأمر بالوقت الحاضر لما أحرقت مكتبة الإسكندرية. . إنَّ التبديل في الأبجدية كان كافياً». ولقد فجر العلامة شبلي الأسطورة إلى الأبد وأصبح الآن من غير اللائق برجلٍ مثقَّفٍ أن يقول بأن مكتبة الإسكندرية أضرمت فيها النار بناءً على أوامر الخليفة عمر ـ رضي الله عنه ـ في خلافته ، لقد قدَّم أدلةً

لا تدحض على أنَّ النار أتت على مكتبة الإسكندرية قبل تولِّي عمر ـ رضي الله عنه ـ الخلافة بزمنٍ طويل.

لقد رفع العلاَّمة شبلي أيضاً قضية الجزية، وناقشها حتى أنه لم يترك شيئاً لمن أتى بعده. ويعتبر مؤلفوه «شعر العجم» دراسةً وبحثاً رائعين حتى في إيران، ويقول البروفسور براون في كتابه (Literary History of Persia): لو أنه رغب في تعلم اللغة الأردية لكان ذلك فقط من أجل تمكينه من دراسة «شعر العجم» مباشرةً، كان كلّ هذا بسبب استغراق العلماء في المعرفة مثل العلامة شبلي.

ولقد ألَّف العلامة سليمان الندوي ـ الذي تتعلَّق مواضيعه الرئيسة التي يكتبها بالقرآن، والسيرة النبوية، والتاريخ الإسلامي ـ كتاباً رائعاً عن عمر الخيام حتى أنه استحوذ على إعجاب الأوساط الأدبية في إيران أيضاً، وكتابه (Arab - o - Hind Ke Talluqat) يمثل قمة المثابرة والبحث العلمي.

ويجدر بي هنا أن أذكر كتاب «نزهة الخواطر» الذي كتبه والدي مولانا عبد الحي.. لقد كتبه بالعربية، ويقع في ثمانية مجلدات ويبحث في ما يزيد على ٤٥٠٠ شخصيَّةٍ بارزةٍ في الهند، وكان قد صمم أن يصنفه في بداية القرن العشرين حينما كان هناك القليل من التسهيلات لتعلُّم اللغة العربية والكتابة بها في بلادنا، ولقد استغرق منه العمل حوالي خمساً وعشرين سنةً لإتمامه، ويعتبر الآن حتى في أوربا ـ أثمن مرجعٍ من نوعه، وكتابه «الثقافة الإسلامية في الهند» يحتوي تاريخاً كاملاً للبحوث والعلوم العربية، ووصفاً تفصيلياً للكتب والمخطوطات التي خلفها العلماء الهنود، ولقد نشر في عام سبعة وخمسين وتسعمئة وألف من قبل المجمع العلمي في دمشق، ولقد سمعت شخصياً علماء سورية، وهم يتكلمون عنه بتقدير.

المعرفة من أجل المعرفة:

كان عالمٌ بمفرده ـ فيما مضى ـ يقوم بعمل أكاديميات علمية بكاملها، أما الآن فقد أقيمت الجمعيات، والمؤسسات الضخمة، لكن

مردودها ـ إجمالاً غير مشجعٍ ، وقليلاً ما تقوم بأعمالٍ أصيلةٍ مبتكرة .

إنَّ ما نحتاجه هو رفع مستوى الثقافة ، والمعرفة الأكيدة ، وجني ثمرتها ، وعطش وارتواء ، وجوع وشبع .

وعلى المرء أن يكرّس كامل جهده لعمله ، وأن يعتبره مكافأةً في حدِّ ذاته ، لا رئاسة فرع معين في هذه الجامعة ، أو تلك .

إنَّ علماء عصرنا الحاضر يستعجلون لجمع المحصول ، وينصبُّ اهتمامهم الأكبر على الشهرة ، والترفيع في الخدمة ، وزيادة التعويض ، وإنَّ قسماً كبيراً من طاقتهم يصرف في السعي وراء هذه الأغراض ، وإنَّ الربح الماديَّ هو الأساس في نظرهم ، ولا بدَّ أنكم سمعتم بمبادىء كثيرةٍ ، والمبدأ الجديد الذي ينتشر في مؤسساتنا الثقافية ألا وهو المهنية <Careerism>.

الظمأ للمعرفة يجب ألا يكون حالةً عابرةً:

وشيءٌ آخر هو: ألا يكون الاهتمام بالنشاطات الثقافية اهتماماً عابراً ، فنختار للبحث فيه ، ثم نجترُّه بسرعةٍ ، فنلقيه خارجاً كحيوان يجترُّ ، فلا يكون هناك التزامٌ بالموضوع ، ولا تعلقٌ ثابتٌ به ، فإذا ما انتهى البحث غسلنا أيدينا من الأمر كله ، ولنذكر قول إقبال :

«إنَّ هدف الفن هو لهب الحياة الخالدة ، وليس فورة نشاط أو اثنتين تختفيان كالشرارة» .

منابع الدراسة الإسلامية تكمن في الإيمان :

ربما تقرؤون بالطبع في بعض البحوث عن الحاجة إلى الاجتهاد في العلوم الإسلامية ، وكلنا نوافق على ذلك . . ولكن لماذا أغلق بابه ، وما أسباب ذلك ، وما مدى صحته؟؟ فتلك قضيةٌ أخرى ، وسوف أشير إلى أنَّ بعض أصول العلوم الإسلامية تكمن في الدين ، إنه المصدر الرئيسي لها ، لذا يجب أن نختلف في موقفنا حيالها عن المستشرقين ، وألا يكون هذا الموقف أكاديمياً بأن نقوم بمناقشتها فقط دون أيِّ شعورٍ بالالتزام ،

وينبغي علينا أن نعتقد بها شريطة أن تكون مرتبطةً بأركان الإيمان وتهذيبها في حياتنا العملية ، ولقد سمعت في طفولتي أنَّ عشرة مندات[١] من الحكمة ضرورية لمندٍ واحدٍ من المعرفة ، وإلا . . . لا يتمَّكن المرء من استنتاج فائدةٍ حقيقيةٍ من المعرفة ، ولا استعمالها بشكلٍ ملائم ، وسأدخل تحسيناً على ذلك ، وأقول : إنَّ التَّقوى يجب أن تكون موجودة أيضاً بشكلٍ متناسبٍ مع البحث؛ لأنَّ القضية هي قضية العلوم الإسلامية ذات الصلة الوثيقة بالدين ، ولا نستطيع أن تخضعها للتشريح كجثة ، أجل : ليس من العدالة أن يكون كذلك ، فيجب أن يكون النقد خالياً من الازدراء والسخرية .

إنَّ أولئك الذين هم على وعي بمسؤوليات الدراسة والبحث ، وتغيُّر الأفكار والآراء لا يقدمون آراءهم وأحكامهم بطريقة جازمةٍ موثوقةٍ ، ولا يفسرون نظريةً كما لو أنها كانت آخر كلمةٍ في السطر ، وينبغي أن يكون موقفهم كمن توصل إلى نتيجةٍ ظهرت بأنَّها صحيحةٌ في تلك اللحظة .

وفي جلسة أمس أخَّر السيد بدر الدين طيب جي الذي كان يترأسها أحد المتكلمين الذي انتهى الوقت المخصص له ، فلم يقل له : إنَّ وقته قد انتهى ، وإنما قال له : «أخشى أنَّه قد انتهى الوقت المخصَّص لك» ، نستطيع أن نتعلم الكثير من ذلك ، علينا أن نمارس الكبح في تفكيرنا ، وأن نتعلم إبداء الاحترام والتقدير للعلم وللشخص الذي كرس حياته وطاقاته له .

أهمية اللغة العربية :

إن اللغة العربية ذات أهميةٍ جوهريةٍ . . فالمرء لا يستطيع أن يقوم بأيِّ دراسةٍ في العلوم الإسلامية دون أن يكون على درجةٍ من الكفاءة في معرفتها ، وإنَّ العلماء الذين لا يتقنون معرفة اللغة العربية معرضون لارتكاب أخطاء فظيعةٍ عندما يكتبون عن القرآن ، والحديث ، والدراسات الإسلامية ، وذلك بسبب افتقارهم إلى المعرفة باللغة العربية .

أخبرني أحد أصدقائي ـ ذات مرَّةٍ ـ أنَّ رجلاً قد ترجم معاني القرآن إلى

(١) المند : وحدة وزن هندية تعادل ٢٨ و٨٢ باوند .

اللغة الإنكليزية ، كان يتكلم في مؤتمر في مدينة دلهي. وحدث أنَّ الأديبة المعروفة «بنت الشاطىء» كانت حاضرةً أيضاً ، ولقد طلبت منه أن يتكلم بالعربية فأجاب ـ بدون خجل ـ بأنه لا يعرف هذه اللغة ، ثم سألته بنت الشاطىء بتعجب: وكيف تستطيع إذاً أن تترجم معاني القرآن؟ !! . . وحين عودتها إلى بلدها كتبت سلسلةً من المقالات في جريدة الأهرام في القاهرة عن تلك التجربة الغريبة التي مرت بها ، وعلّقت قائلة: «لقد رأيت شيئاً من عجائب الدنيا. وكان هذا: أنَّ سيداً قد ترجم القرآن ، ويجهل اللغة العربية!!».

تستطيعون الحصول بسهولةٍ على معرفة كافية باللغة العربية ، وتنجوا بأنفسكم من الوقوع في الأخطاء ، والمدارس العربية سوف تقدم لكم كلَّ العون من أجل ذلك.

تجنبـوا إحـداث الـفـوضــى:

يتسرَّع بعض الناس في التعبير عن آرائهم ، ثم لا يلبثون بعد فترةٍ أن يتراجعوا عنها!! . لا شكَّ بأنهم يؤدُّون واجبهم ، ولكن ماذا عن أولئك الذين كان عليهم أن يغادروا هذه الدنيا وهم على ظلالٍ من جرَّاء اتباع الناس؟!. وتصبح المشكلة خطيرةً عندما تتعلَّق هذه الآراء بالعقيدة والدين ، لذا ينبغي ألاَّ ننفذ الصبر في التعبير عن آرائنا ، وخاصَّةً عندما تخصُّ عالم الدين ، وعلينا أن نفكِّر فيها مليّاً ، ونتفحصها ، ونعرضها على أهل الخبرة ، وننتظر حكمهم. . حينذاك فقط يمكن أن تنشر.

إنَّ عصرنا هو عصر الفوضى ، والإنسان هادىءٌ يميل إلى الإهمال بطبيعته ، فحضارة العصر ، والخطوات السريعة للتقدم العلمي ، والارتفاع المستمر في مستوى المعيشة. . يفضي به إلى أن يكون أكثر حباً للراحة ، وتعرُّضاً للفوضى ، وعلينا والحال هذه أن تحجم عن قول أشياء يمكن لها أن تزيد في الاضطراب الفكريِّ عند الناس.

عندما انتكس العربُ في حربهم مع إسرائيل عام ١٩٦٧ م قلت يومذاك في مقابلةٍ أجريت معي: «إنَّ المسؤولية عن تلك الهزيمة تقع إلى درجةٍ كبيرةٍ

على عاتق أولئك المشكِّكين من مفكِّرينا؛ الذين زعزعوا الأسس الأخلاقيَّة ، والفكريَّة للشباب ، وألقوا بالقيم التقليديَّة في رحاب الفوضى» .

* * *

نظام التربية والتعليم في الأقطار الإسلاميَّة وأثره البعيد في اتجاهاتها وقياداتها

هذه المحاضرة ألقاها العلامة النَّدوي في المهرجان التعليمي لندوة العلماء في ٢٦ شوال ١٣٩٥ هـ الموافق ١/ نوفمبر ١٩٧٥ م ، وكان حفلاً عظيماً حضره عددٌ كبيرٌ من قادة الرأي ورجال التربية وكبار الأساتذة في الأقطار الإسلامية والعربية ، وألوف من المثقفين وجمهور المسلمين في الهند .

سادتي الأجلاء! وزملائي العاملين في مجال التعليم والتربية ، وإخواني المعنيِّين بحاضر الأمَّة الإسلامية ومستقبلها ، ورسالتها ، وشخصيتها.

أنتهز هذه الفرصة الكريمة التي لا تسنح إلا بعد آجالٍ طويلةٍ ، للتحدُّث في موضوعٍ أعتقد أنَّه بالنسبة إلى الأمَّة الإسلامية والعالم الإسلاميِّ ، قضية الحياة والموت ، وقضية الوجود والعدم ، واؤمن بإخلاصٍ وفي حماسٍ أنَّه إذا لم تكن لهذا الالتقاء الإسلاميِّ العالميِّ الكريم قيمةٌ ونتيجة غير هذا البحث والوصول إلى نتيجةٍ فيه ، كان التقاءً مباركاً حاسماً يملي تاريخاً جديداً ، ويفتتح عهداً سعيداً للأمَّة الإسلامية بإذن الله تعالى.

وأستأذنكم أيها السادة! أن أتحدَّث في الموضوع في شيءٍ من التوسُّع ، وفي شيءٍ من الصَّراحة والوضوح ، وإنَّ طبيعة الموضوع تقتضي أن أبدأ الحكاية من بعيدٍ ، فإنَّ القضية ليست بنت الساعة ، ووليدة شهورٍ وأعوامٍ ، إنَّما هي قضيةٌ طويلة الأمد ، عميقة الجذور في حياة الأمة الإسلاميَّة وتاريخها.

إنَّ الحقيقة النفسية التاريخية التي لا يمكن إنكارها ، أو تجاهلها هو إمكان وجود أفرادٍ في المجتمع الإسلاميِّ لم تنشرح صدورهم للعقيدة التي يقوم عليها هذا المجتمع ، ولم يؤمنوا بالحقائق والمبادىء التي يؤمن بها ، والأهداف والمثل التي يعيش لها.

وتلك طبيعة كلِّ مجتمعٍ يقوم على أساس عقيدةٍ معيَّنةٍ ، وحدودٍ مرسومةٍ واضحةٍ ، إذا تخطاها فرد مَن أفراد هذا المجتمع أو الجماعة؛ اعتبر خارجاً من دائرته ، أو ثائراً عليها ، وفقد جميع الحقوق والامتيازات التي كان يتمتَّع بها ، خلافاً للجنسيات والقوميات التي تفتح صدرها لكلِّ عقيدةٍ ،

وخلقٍ وتصرُّفٍ ، بشرط أن لا يغيِّر صاحبه جنسيته ، أو قوميته ، ولا تصدر منه خيانةٌ لأمَّته وحكومته.

وتتضخم هذه المشكلة ، وتتضاعف أخطارها وأضرارها ، وتتضخم مسؤولية القائمين على هذا المجتمع ، الحريصين على وحدته وسلامته وحياته وقوته إذا ألحَّ هذا العنصر ـ الذي لم يخلص لهذه العقيدة التي قام عليها هذا المجتمع ، أو لم يسغها . . ، أو لفظها بعد ما أساغها لأيِّ سببٍ من الأسباب ـ ألحَّ هذا العنصر على البقاء في إطار هذا المجتمع المؤمن كجزءٍ من أجزائه ، وربط مصيره بمصيره لمصلحة من المصالح ، أو لاضطراره إلى ذلك ، من غير أن يذيب نفسه في حرارته ، ويصهرها في بوتقته ، ومن غير أن يقتنع بما يقوم عليه هذا المجتمع من عقائد ومبادىء ، وخصائص ، ومقومات ، ويؤمن بها بإخلاصٍ وفي حماسٍ ، ونجح في ذلك بذكائه ، أو بغفلةٍ من القائمين على هذا المجتمع ، ولم يفطن له.

وهو أشدُّ خطراً ، وأعمق أثراً من «الردَّة» التي يفارق بها صاحبها مجتمعه الذي ولد ، ونشأ فيه ، أو الدين والعقيدة التي آمن بها ، أو خُيِّل أنه آمن بها بحكم الوراثة ، أو النشأة ، أو البيئة.

وتتعقَّد هذه المشكلة حين ينجح هذا العنصر بلباقته ، أو مقدرته في إحراز الثِّقة من هذا المجتمع ، والسيطرة عليه ، وتملُّك زمامه ، فيتبوَّأ منصب الحكم ، أو منصب القيادة والتوجيه ، هنالك يرغم هذا المجتمع على أن ينحو نحواً لا يحبُّه ، أو لا يتحمَّس له ، بل يعتبره في بعض الأحيان مروقاً من الدين ، أو الثورة على المبادىء والمثل العليا التي يؤمن بها ، وقد يساق إلى الغايات التي يعتبرها منافيةً لدينه وعقيدته ، كما تساق القطعان من الغنم ، أو البقر ، ويعيش في صراعٍ نفسيٍّ عميقٍ من أعنف أنواع الصراع الذي عرفه تاريخ البشرية ، وتاريخُ الأخلاق ، وعلوم النفس ، وتاريخ الديانات ، والمذاهب ، فلا هو حيٌّ يتمتَّع بالحياة ، وحريَّتها ، ونعيمها ، ولا هو ميِّتٌ قد استراح وهدأ.

وبتأثير هذه القيادة التي لا تتَّفق مع عقيدة هذا المجتمع وطبيعته ، بل

تحاربها ، وتنسفها نسفاً ، تنتشر الردَّة العقائديَّة بمعناها الواسع فيمرق عددٌ كبير ممَّن ليست عندهم حصانةٌ خلقيَّةٌ نفسيَّةٌ ، أو شحنةٌ إيمانيَّة روحيَّةٌ ، أو قوَّةٌ علميَّةٌ فكريَّةٌ ، وعددٌ كبيرٌ من عبَّاد الأموال والمناصب ، والعزِّ والفخار ، ومن «الانتهازيين» .

أو ينتشر النفاق انتشاراً فظيعاً ، فيضعف قوة هذا المجتمع ، وينخر هيكله ، وينتشر المكر ، وتكثر المؤامرات ، ويفشو الغدر والخيانة ، ويهون بيع الضمائر ، وبيع المقدسات والأمجاد ، وأراضي البلاد بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودةٍ ، ويكثر الخونة ، وصنائع العدو ، ووكلاؤه ، وخدمة مصالحه كثرةً فاحشةً ، لا يوجد لها نظير في المجتمعات البشرية التي لا تمتحن بمثل هذه المحنة ، وليست بين هذه المجتمعات وبين قياداتها هوةٌ عميقةٌ واسعةٌ عقائديةٌ ، أو مبدئيةٌ .

ويعجز هذا المجتمع عن مقاومة أيِّ عدوٍّ مهاجم ، أو خطرٍ داهم ، للبلبلة الفكرية التي يعانيها ، والصراع النفسيِّ الذي يقاسيه ، ولكره عددٍ كبيرٍ لهذه القيادات ، وعدم تحمُّسه ـ بطبيعة الحال ـ للشعارات التي تهتف بها هذه القيادات ، والغايات التي تقاتل في سبيلها هذه الزعامات أو الحكومات ، وذلك كلُّه من طبيعة الأشياء ، ومنطق الواقع ، وخصائص النفس الإنسانية ، يشهد له التاريخ القديم ، ويشهد له التاريخ المعاصر في المناطق التي لم تذق لذة الحبِّ للقادة والزعماء ، أو الحكام والأمراء ، ولم يكن هناك انسجامٌ عاطفيٌّ ، أو تجاوبٌ فكريٌّ بين الشعب والقيادة .

وقد واجه المجتمع الإسلاميُّ الذي قام على أساس الدعوة الإسلامية وفي أحضان الرسالة المحمدية هذا الواقع الطبيعي التاريخي الذي لا مفرَّ منه لأيِّ جماعة تقوم على أساس الإيمان والعقيدة ، والديانة والتقوى ، والدعوة والجهاد ، وإنما تظهر بادرة «النفاق» في بيئة تجمع بين دعوتين متنافستين ، وقيادتين متقابلتين ، مهما كانت النسبة بينهما بعيدةً في الضعف والقوَّة ، والقلة والكثرة ، هنالك يوجد عنصر مضطربٌ يتأرجح أولاً بين هاتين الدعوتين ، ويتردَّد في إيثار إحداهما على الأخرى ، ثم ينحاز إلى

دعوةٍ ، فيكون في معسكرها ، يعطيها ولاءه وحبَّه العاطفيَّ ، إلا أنَّ مصالحه المادِّيَّة ، وانتشار هذه الدعوة المقابلة وانتصارها لا يسمح له بإعلان موقفه ، والانضواء إلى الدعوة الأولى ، وقطعه للحبال التي تربطه بالدعوة المقابلة ، وذلك ما عبرَّ الله عنه بقوله : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النساء : ١٤٣]، وبقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ ﴾ [الحج : ١١].

لذلك لم يكن ـ كما يرجح أكثر المفسرين ـ نفاقٌ في مكَّة لأنَّ الإسلام كان هنالك مغلوباً على أمره ، لا يملك حولاً ، ولا طولاً ولا يملك لأحدٍ نفعاً ، ولا ضرّاً ، ولم تكن هنالك قوتان متماثلتان ، إنما كان المشركون الأقوياء القاهرون ، والمؤمنون المضطهدون المستضعفون ، يخافون أن يتخطفهم الناس ، فلما انتقل الإسلام إلى المدينة ، وقام المجتمع الإسلاميُّ بجميع لوازمه نجم النفاق ، ورفع رأسه ، وكانت ظاهرةً طبعيةً نفسيّةً لا بدَّ منها .

ولكن وجود الرسول ـ ﷺ ـ ، واستمرار الوحي قد أمن هذا المجتمع الوليد من غائلة هؤلآء المنافقين ، ففضحهم القرآن في عدَّة مواضع منه وأزاح الستار عنهم ، وعرفهم المسلمون في الغالب ، وكرهوهم كرهاً شديداً ، ولفظهم المجتمع ، فلم يستطيعوا أن يتسرَّبوا فيه ، ويندمجوا ، فضلاً عن أن يحرزوا ثقةً واحتراماً ، أو يتبوَّؤوا قيادةً ورئاسةً ، وبقي المجتمع الإسلاميُّ الأول صحيحاً ، وسليماً لم يضعفه النفاق ، ولم يعبث به المنافقون ، وضعف شأنهم حتى اعتقد كثيرٌ من الصحابة أنَّهم انقرضوا ، بل لا نفاق بعد النبي ـ ﷺ ـ ، وكان منهم بعض كبار الصحابة .

ولكن النفاق كان ولا يزال خصيصةً من خصائص الإنسانية ، ونقطة ضعفٍ في كثيرٍ من النفوس البشرية ، فهو يساير الركب البشري في جميع مراحله ومنازله ، ويرفع عقيرته إذا وجد مجالاً ومتسعاً ، وقد هيَّأت بعض الظروف التي لا مجال لتفصيلها في هذا الحديث لنشاطه ونفوذه ولظهوره على مسرح الحكم والإدارة ، والقوة الحربية والجهاز الحكومي ، وفي

السوق والمنتديات ، والعلم والشعر والأدب ، في العهد الذي كان الإسلام فيه زاحفاً مقتحماً ، فاتحاً غانماً ، حاكماً مالكاً ، واقترنت بالدخول فيه والظهور بمظهره فوائد سياسيَّةٌ واجتماعيَّةٌ واقتصاديَّة ، هنالك برز النفاق في الميدان ، وتبوَّأ كثيرٌ من أصحابه مراكز رئيسية حسَّاسةٌ في حدود الدولة الإسلامية الواسعة ، وكان منهم من استطاع أن يفرض نفسه على هذه الدولة الناشئة بمهارته في بعض الفنون والصناعات ، أو بفضلٍ من ذكاءٍ وتفوُّقٍ في العلم ، فكان منهم كبار الإداريين ، وقادة الجيوش ، وكبار الكتَّاب والأعوان.

وفي مثل هذه الظروف سئل سيد التابعين الإمام الحسن البصري عن وجود النفاق والمنافقين والدولة للإسلام والمسلمين ، فأجاب بالإيجاب ولم يثبت وجودهم فحسب بل أعلن أنهم في قوَّةٍ وشوكةٍ ، وفي موقف نفوذٍ وتأثيرٍ ، قال له رجل: يا أبا سعيد! اليوم نفاق؟ قال: لو خرجوا من أزقَّة البصرة لاستوحشتم فيها ، وقال مرَّةً: لو خرجوا لما انتصفتم من عدوكم ، وقال في مناسبة أخرى: يا سبحان الله! ما لقيت هذه الأمَّة من منافقٍ قهرها واستأثر عليها[١].

وبقي هذا النفاق يعمل عمله ويثبت وجوده في المجتمع الإسلامي حتى في أوج عظمته السياسية والحضارية ، بل كان أقوى وأنشط في عهد المجد السياسي والمدني لضعف التربية الإسلامية ، وندرة المربين الربانيين المزكين للنفوس ، المهذبين للأخلاق ، وفساد نظام التربية في بعض العهود ، وكونه قنطرةً للوصول إلى كراسي الحكم ، ومراكز القيادة ، ولاحتياج الملوك والأمراء إلى الحذاق البارعين في بعض العلوم والآداب والكتابة والإدارة ، بصرف النظر عن عقيدتهم ، وسيرتهم ، وأخلاقهم ، واستمرَّ ذلك إلى آخر عهدٍ من عهود الحكومات الإسلامية في الشرق والغرب.

---

(١) مقتبس من «صفة النفاق وذم المنافقين» للمحدِّث أبي بكر .

وجاء عهد الاحتلال الأجنبيِّ ، وغزو الغرب الفكريِّ والثقافيُّ ، ووقع الشرق الإسلامي ـ بإرادةٍ أو بغير إرادة ـ في حضانة التربية الغربية ، ونظمها التعليمية ، ومناهجها الفكرية ، وقيمها ومثلها العليا ، وتصورها للحياة والإنسان ، ونظرتها إلى العلوم والآداب ، كما يترامى الطفل الصغير في أحضان مربٍّ كبير ، ويقبل نظامه التعليمي ، وبالأصح فكرته التعليمية ، بحذافيرها وعلى علاتها ، التي ولدت ونشأت واختمرت في بيئةٍ تؤمن بعقائد وأسس ، ومبادىء وقيم ، ومفاهيم ومثل تختلف كلَّ الاخلاف عن العقائد والأسس ، والمبادئ والقيم ، والمفاهيم والمثل ، التي يؤمن بها المجتمع الإسلاميُّ ، أو يجب أن يؤمن بها ، ويعيش لها ، ويجاهد في سبيلها ، بل تقوم على نفيها وهدمها أحياناً ، والتهكم بها ، والاستهانة بقيمتها أحياناً أخرى ، فكان مثله كمثل رجلٍ يتناول السُّمَّ الزعاف ليعيش ، ويشرب الماء الملح الأجاج ليروي غلَّته ، وحكَّموا في تخطيط برامجهم التعليمية ، ومؤسساتهم العلمية الأخصائيين أو المستشارين من البلاد الأجنبية ، ولم يستوردوا منها المقررات الدراسية فحسب ، بل النظريات التعليمية ، والتصورات التربوية ، وأرسلوا البعثات إلى الخارج لتنشأ في أحضان المربين الغربيين والأساتذة الأجانب ، ثم أطلقوا أيديهم ، ومنحوهم كلَّ حرِّيةٍ في تخطيط البرامج التعليمية وسياسة التعليم في هذه الأقطار الإسلامية .

فكانت النتيجة وجود طبقةٍ مضطَّربةٍ في العقائد ، والأفكار ، والسيرة ، والأخلاق ، أحسن أحوالها أن تكون مذبذبةً بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية ، وإلا فهي في أكثر الأحيان تنسلخ من كل ما يدين به مجتمعها ، وأمتها ، وبلادها .

وذلك شيءٌ طبعيٌّ لا يستغرب وجود ، إنما يستغرب عكسه ، وقد يكون هؤلآء الأخصائيون أو المستشارون وتلاميذهم مخلصين في عملهم يريدون الخير للأقطار الإسلامية ، والأجيال الإسلامية في هذا التخطيط التربوي ، وفي هذه السياسة التعليمية ، ولكن ذلك لا يمنع من تعرض الأقطار

والأجيال لهذا الاضطراب الفكري ، أو التناقض المبدئي ، ولكلٍّ منهم العذر في ذلك؛ لقلة معرفتهم بهذا الدين وأسسه ومبادئه ، وطبيعة هذه الشعوب الإسلامية ، وما يتفق مع شخصيتها ورسالتها ، وما ينسجم معهما ، وقد تكون محاولتهم لإنقاذها ـ بإخلاص وحسن نيَّةٍ ـ ذريعة هلاكها ، وقد أعجبني ما قاله الأستاذ (Don Adams) عن هؤلآء الموجهين المستشارين الأجانب في كتابه[1] «المخطط التربوي للمجتمعات المعاصرة» يقول :

«إنَّ أبلغ مثلٍ يُضرب للأضرار التي تلحق بالشعوب بخطأ يخصّ المستشارين التعليميين الأجانب ، وما جاء في حكاية شرقية يصور موقف هؤلآء الماهرين تصويراً دقيقاً ، زعموا أنَّ ناحيةً من العالم أصيبت بفيضانٍ عظيمٍ ، تورَّط فيه قردٌ وسمكةٌ ، وكان القرد شاطراً ومحنَّكاً قد جرب مثل هذه الفيضانات ، فتسلَّق فرع شجرةً وأمن خطر هذا الفيضان ، ووقع بصره على السمكة تكافح تيار الفيضان ، وتطفو على سطح البحر ، واحتمل القرد العطف على هذه السمكة المسكينة ورقَّ لها قلبه ، فنزل من الشجرة وأنقذ السمكة بكل إخلاص من هذا الخطر ، وجاء بها إلى الساحل وألقاها على الرَّمل حيث لا تصل إليها الأمواج ، وكانت النتيجة ظاهرةً لا تحتاج إلى تفسير» .

وقد اتفق أعظم علماء التربية في العهد الحاضر على «أن عملية التربية في أمَّةٍ وبلادٍ ليست بضاعةً تُصدَّر إلى الخارج ، أو تستورد إلى الداخل ، كالمصنوعات ، أو المواد الخام ، أو الحاجيات والمخترعات التي لا تختصُّ ببلدٍ دون بلدٍ ، إنَّما هو لباسٌ يفصَّل على قامة هذه الشعوب وملامحها القومية ، وتقاليدها الموروثة ، وآدابها المفضَّلة ، وأهدافها التي

---

(١) Thut and Don Adams: Educational Patterns in Contemporary deties Mc Graw Hill Book Co. Newyork (1964) p. 352.

تعيش لها ، وتموت في سبيلها[١] وأنَّ التربية ليست إلا وسيلةً راقيةً مهذبةً لدعم العقيدة التي يؤمن بها شعبٌ أو بلدٌ ، وتغذيتها بالاقتناع الفكريِّ القائم على الثِّقة والاعتزاز ، وتسليحها بالدلائل العلمية ، إذا احتيج إليها ، ووسيلةً كريمةً لتخليد هذه العقيدة ، ونقلها سليمة إلى الأجيال القادمة ، وأنَّ أفضل تفسيرٍ لنظام التربية هي أنَّها السعي الحثيث المتواصل يقوم به الآباء والمربون لإنشاء أبنائهم على الإيمان بالعقيدة التي يؤمنون بها ، والنظرة التي ينظرون بها إلى الحياة والكون ، وتربيتهم تربية تمكنهم من أن يكونوا ورثةً صالحين للتراث الذي ورثه هؤلآء الآباء عن أجدادهم ، مع الصلاحية الكافية للتقدم والتوسُّع في هذه الثروة[٢] .

وقد جاء في تقريرٍ تربويٍّ قدَّمه بعض كبار خبراء التربية في بريطانيا ما خلاصته :

«إنَّ مصلحة الحكومة في أن تطمئن إلى أنَّ المدارس القائمة في حدودها كفيلةٌ بنقل جميع أجزاء الحياة القومية إلى الأجيال القادمة ، جيلاً بعد جيل ، إنَّ الفكرة التي يجب أن تسيطر على سياسة الحكومة التربوية المرسومة ، وتسندها ، هي أن ينشأ الأطفال ورثةً للخصائص القومية ، وخلفاء آبائهم بالجدارة»[٣] .

ويقول (F. W . Gardford) في كتابه : «التربية والغاية الاجتماعية» :

«إنَّ أفضل محكٍّ لنجاح التربية وإخفاقها ، هو تقاليد المجتمع والقيم السائدة ، فهي الأسس التي تقوم عليها خصائصها وبقاؤها ، ومما لا بد منه ألا تكون بينها وبين التربية فجوةٌ فكريةٌ أو عدم انسجامٍ ، فعلينا أن نلاحظ

---

(١) مقتبس من محاضرة العلامة الندوي «مهمة التربية والتعليم» المدرجة في كتابه «نحو التربية الإسلامية الحرَّة» . طبع في دار ابن كثير بدمشق .

(٢) يرجع إلى دائرة المعارف البريطانية مقالة «التربية» وكتابات أحد أبناء فن التربية في العهد الحاضر جان ديوي John Dewey .

(٣) Secondry Education With Special Reference to Grammar and Practical Schools. H.M.S.O. 1931 pp 147 - 148.

دائماً أنَّ كلَّ محاولةٍ للتقدُّم تقوم على القيم المقررة التي يؤمن بها هذا الشعب ، فيجب أن تقوم عليها جميع التجارب التي يقوم بها رجال التربية»[١].

ونكتفي بشهادةٍ أخرى أكثر تركيزاً وأشدَّ صراحةً لأحد علماء التربية (Vernon Mallinson) يقول :

«إنَّ التعليم القوميَّ عبارةٌ عن ميثاقٍ فكريٍّ تتجلى فيه غاية المجتمع المشتركة ومساعيه المشتركة ، ويمثل هذا الميثاق العاطفة القومية ويكون مزيجاً من خصائص لا بدَّ منها لتحقيق مطامع هذا المجتمع وأهدافه»[٢].

وقد أخذ الغرب ـ على اختلاف نظمه السياسية ومدارسه الفكرية ، ومعسكراته الشرقية والغربية وعلى جميع علاته وعيوبه التي ننتقدها بهذا المبدأ التعليمي ، وطبَّقه تطبيقاً دقيقاً شاملاً في جميع مجالات التربية ، وأصبحت المناهج التعليمية وسياسة التربية خاضعة لهذا المبدأ المقرر.

ولم تكن روسيا الشيوعية المعروفة بالتطرُّف والثورة أقل تطبيقاً لهذا المبدأ من البلاد الرأسمالية والديمقراطية ، بل لعلها كانت ـ للاحتفاظ بعقيدتها الشيوعية وروحها الثائرة ـ أدقَّ تطبيقاً له ، وأشدَّ غيرةً على مبادئها ، جاء في بيان رسمي صدر في ١٢ نوفمبر ١٩٥٨ م :

«إن العلوم العمرانية والاجتماعية تمثل دوراً حاسماً في تحقيق خصائص المجتمع الشيوعي ، إنَّه من ألزم اللوازم أن يكون أصحاب الاختصاص في كلِّ فنٍّ على اطلاع كافٍ بالمبادىء الماركسية واللينينية ، إنَّه يجب أن يتلقى شبابنا تربيةً تسري بها فيهم روح المقت الشديد ، والتعصب ضد الرأسمالية والرجعية»[٣].

---

(١) F. W. Gardford في كتابه(162) "Education and Social Purpose" London pp 46 - 47.

(٢) An Introduction to the Study of Comparative Education (London 1957 Page 4).

(٣) Geoge. S. Count, The Challenge of Soviet Education =

وبذلك سلم الغرب من هذا التناقض الذي يعيشه الشرق ، سواءً الأقطار الإسلامية منه وغير الإسلامية ، فلا وجود في الغرب لهوةٍ عميقةٍ سحيقةٍ فكريَّةٍ وعقائديةٍ بين الشعب والقيادات ، أو الجماهير والحكومات ، إنما هناك طراز واحد للمبادىء والقيم والمثل والغايات ، وليس هناك صراعٌ فكري ونفسي عنيف قاس بين مختلف الطبقات وأفراد المجتمع ، ولذلك أمن الثورات الداخلية ، والمؤامرات ضدَّ سلامة الشعب ، ومصالح البلاد .

وتتلو الغرب أقطارٌ شرقيَّة ذابت فيها العقيدة من عهدٍ بعيد ، وهي لا تؤمن بحقائق تقوم على الإيمان بالغيب واتِّباع الرسل ، وليست عندها تعاليم سماويةٌ معيَّنةٌ ، أو صحفٌ سماويةٌ محفوظةٌ ، وإنما تتمسك بالتقاليد والأعراف ، والمصالح القومية والفردية التي لا تتحدَّاها هذه النظم التربوية ، وليست منها بسبيل ، فهي سليمةٌ كذلك من هذا التناقض الذي يولده نظام التربية الغربي ، بل هي في اصطلاحٍ وتفاهم مع هذه النظم ، أو تكيِّف نفسها وأفكارها وفق هذه المناهج وموادها ، فالثورات والمؤامرات فيها قليلةٌ بالنسبة إلى الأقطار الإسلامية ، والتناقض قليلٌ ، وضعيفٌ لا أثر له في الحياة القومية ، والغدر القومي ، والخيانة الوطنية نادرةٌ جداً ، وليست بين الطبقة المثقفة والموجهة للبلاد ، وبين الجماهير ذلك الخليج الواسع الذي نشاهده في الأقطار الإسلاميَّة ، وإنَّ أدواء هذه الأقطار وعيوبها من جنس آخر ، ولها أسبابٌ ترجع إلى تاريخها ، وطبيعتها ، وعقائدها ، وفقدان الوازع الديني ، وقلة الوعي ، وفساد نظام التربية .

أما الأقطار الإسلامية فهي مسرحٌ للتناقض العجيب بين الطبقات الحاكمة أو الزعيمة ، وبين الجماهير في جانب ، وبين الطبقات المثقفة ثقافة عالية ، والطبقات التي تغلب عليها الأميَّة . وبين الطبقات المتدينة المحافظة وبين الطبقات المتحرِّرة التقدمية في جانب آخر ، وذلك كله نتيجة نظام التربية الغربي المستورد من الخارج ، أو المصوغ في الداخل على فكرة النظام الغربي وخطوطه ، فهو ينشىء جيلاً لا يسيغ العقائد ، والحقائق التي يقوم

= Newyork (McGraw Hill Book Co. 1957 Pages 50 - 51: 32).

عليها المجتمع الإسلامي أو الأمَّة الإسلامية ، لأنَّ ما يعطيه هذا النظام ويغرس في النفوس والعقول يتناقض تناقضاً واضحاً مع العقائد والحقائق التي يؤمن أو يحبُّ أو يؤمن بها هذا المجتمع أو الأمة ، وإذا أساغها فإنَّما يسيغها بمعجزةٍ أو بتأثيرٍ خارجي يضمن سلطان هذا النظام ، وذلك شاذٌّ لا يقاس عليه.

وإذا وجدت هذه الطبقة أو الجيل الذي نشأ في أحضان هذا النظام ، ورضع بلبانه ، بقي في صراعٍ دائمٍ مع عقيدة الشعب وعقليته وعواطفه ، واتجاهاته ، فإذا كان قويَّ النَّفس ، قويَّ الإرادة؛ حاول أن يزيل أنقاض العهد القديم ، أو الرجعية (كما يقول بعض أفراد هذه الطبقة) ويخلِّص الأمَّة والبلاد من ركام الماضي ، وهنالك تقوم معركةٌ تستهلك طاقات وكفايات كانت الأمة أحوج إليها ، وتقوم حربٌ داخليةٌ قد تكون أطول وأعنف من الحروب الخارجية ، وهذه قصة بلادٍ ابتليت بزعاماتٍ دانت بمبادىء وفلسفاتٍ ثوريةٍ ، أو قوميةٍ ، أو علمانيَّةٍ.

وإذا كان هؤلآء الأفراد ضعيفي النفس والشخصية والإرادة؛ أصيبوا بمركب النقص ، وبكرهٍ شديدٍ للعقائد والأهداف التي يؤمن بها الشعب ، فيحيكون المؤامرات ، ويمالئون الأجانب ، وينتهزون كلَّ فرصةٍ للتخلُّص من ضغط الشعب الديني ، ونفوذ الدعاة الذين ينادون بالإسلام ، فتكثر حوادث الخيانة القومية ، وتعيش البلاد في جوٍّ من الاضطراب والإرهاب ، وعدم الثقة ، والشكِّ ، والبلبلة الفكرية.

ولا سبيل إلى التخلُّص من هذا الوضع غير الطبيعي وغير الضروريِّ إلا قلب هذه الأوضاع التعليمية رأساً على عقب ، وصياغتها صياغةً جذريَّةً جديدةً ، وهي قضية العالم الإسلاميِّ الكبرى ، وضرورته القصوى ، ونداء الوقت ، وفريضة الساعة.

وهنا أختم حديثي باستعارة قطعةٍ من إحدى كتاباتي السابقة ، ومعذرة للقراء الكرام الذين مرَّت بهم هذه القطعة قديماً:

حـلُّ الـمشكلــة :

«حلُّ هذه المشكلة ـ مهما تعقد وطال واحتاج إلى الصبر والمثابرة ـ ليس إلا أن يصاغ هذا النظام التعليميُّ صوغاً جديداً ، ويلاءم بعقائد الأمة المسلمة ومقومات حياتها ، وأهدافها ، وحاجاتها ، ويخرج من جميع مــواده روح المـاديـة والتمـرُّد علـى الله ، والثـورة علـى القيـم الخلقيـة والروحية ، وعبادة الجسم والمادة ، وينفخ فيه روح التقوى والإنابة إلى الله ، وتقدير الآخرة ، والعطف على الإنسانية كلِّها ، فمن اللغة والآداب إلى الفلسفة وعلم النفس ، ومن العلوم العمرانية إلى علوم الاقتصاد والسياسة ، لا تسيطر على كل ذلك إلا روحٌ واحدةٌ ، ويقصى استيلاء الغرب العقلي ، ويكفر بإمامته ، وسيادته ، وتجعل علومه ونظرياته موضوع الفحص والدراسة الجريئة ، ويوضح ماذا جنى نفوذ الغرب وسيطرته على الإنسانية والمدنية ، وتدرس علومه بشجاعةٍ وحريَّةٍ ، وتعتبر كمواد خامة (Raw Material) نصنع منها ما يوافق حاجاتنا ، ورغباتنا ، وعقيدتنا ، وثقافتنا .

إنَّ هذا العمل ولو كانت في طريقه عقباتٌ وعراقيل ولو تأخَّرت نتائجه ، ولكنه حلٌّ وحيدٌ للموجة الطاغية التي قد اكتسحت العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، موجة التجدُّد والتغرُّب التي تتحدَّى الكيان الفكريَّ للإسلام وجهازه الاجتماعيَّ ، وظلت تهدِّد حياته وبقاءه ، ونتيجةً لذلك أصبحت عاطفة الشعوب المسلمة وتضحياتها وجهودها ، وإخلاصها ووفاؤها (التي هي السبب المباشر الأساسي في إنشاء الحكومات الإسلامية ، وتحرير البلاد المستعمرة) وقوداً حقيراً في نار التجدد والتغـرُّب ، وأصبحـت الجمـاهيـر المسلمـة ، السليمـة ، المخلصـة ، المتحمسة ، الصامتة قطعاناً من الغنم يتحكَّم في رقابها هؤلآء القادة والولاة ، وتساق إلى أيِّ هدفٍ في صمتٍ وهدوءٍ»[1] .

---

(١) انظر : «نحو التربية الإسلامية الحرة» للعلامة الندوي : ص/ ٤٢ ـ ٤٥ .

العمل المطلوب:

ما هو الجانب المحدَّد ، المعيَّنُ ، الرئيسيُّ في هذا الزمان؟ ما هو الواقع المحدَّد الآن في البلاد الإسلامية؟

إنَّها إعادة الثقة في نفوس الطبقة المثقفة بصلاحية الإسلام ، ليست بصلاحية الإسلام فقط ، بل بصلاحيته للقيادة وحلِّ المشاكل ، ولصياغة المجتمع صياغة سليمةً عصريَّةً ، جديدةً صحيحةً ، فالجانب الذي أريد أن أركز عليه اهتمامكم الآن ، وأركز عليه طاقتكم وإمكانياتكم ، وذكاءكم ومجهودكم في بلادكم ، هو إعادة الثقة بصلاحية الإسلام في الطبقة المثقفة ، لأنَّ هذه الطبقة المثقفة قد ضعفت الثقة بصلاحية الإسلام فيها ، أو فقدت تماماً ، لأنَّ النظام الدعوي التربوي العصري الغربي هو نجح في ذلك نجاحاً تسعين في المئة تقريباً ، أو تسعاً وتسعين في المئة ، فإنَّ الطبقة المثقفة التي تخرجت من الكليات والجامعات ، أو رجعت من الغرب بعد الدراسة ، أو تخرجت من جامعاتها الكبيرة ، لا أقول: إنها ضعفت فيها الثقة ، بل هي فقدت ثقتها تماماً بصلاحية الإسلام ، فالآن القضية الرئيسية المركزية عندهم هو إزالة هذه الثقة عن نفوس الشعب ، والتحرر من ربقة الإسلام ، ومن قيوده الشرعية ، والخلقية ، والتشريعية ، والقانونية والمدنية.

هذه هي الحرب الحقيقية السافرة التي توجد الآن في البلاد الإسلامية ، ما هي الحرب؟ أقول لكم بكلِّ صراحةٍ وعلى بصيرةٍ وعن تجربةٍ واختبارٍ ، إنه لا حرب في بلدٍ إسلاميٍّ بين الإسلام والصهيونية ، لا حرب بين الإسلام والصليبية ، ولا حرب بين الإسلام والنفوذ الغربي ، ولا حرب بين الإسلام وفساد الأخلاق ، هي حربٌ واحدةٌ ، هي حرب بين الطبقة المثقفة الرئيسية التي تملك زمام الحكم وبين الزعماء ، وبين الجمهور والشعب لإزالة هذه الثقة بصلاحية الإسلام ، إنهم يقولون بلسان الحال : نعم الإسلام كان عظيماً ، مثّل دوراً ، دوراً محموداً جزاه الله خيراً ، جزى الله القائمين به ، إنَّه ردَّ على الوثنية السافرة ، وإنه أزال وأد البنات ، وإنه أعطى النساء بعض

الحقوق ، وإنه أزال بعض المنكرات ، وبعض العيوب الخلقية ، وبعض الذمائم من المجتمع العربي ، ولكن الإسلام قد مضى زمنه ، فقد وقف وتقدَّم الزمان ، إنما هي قضية القيادة وقضية الصياغة للحضارة والقانون ، وأن يتصرَّف ويتحكَّم في حياة الإنسان ، ويقول: هذا حرام وهذا حلالٌ ، وهذا معروفٌ وهذا منكرٌ ، هذا دينٌ وهذا لا دينٌ ـ لا ـ هذا لا نسمح بذلك ، الإسلام قد قضى دوره ، الإسلام قد انتهى أجله ، إنه قام بدورٍ محمود في التاريخ ، إنه قام بعملية إصلاحية محدودة في جزيرة العرب وخارج الجزيرة ، ولكن الآن في هذا العصر المتمدن الراقي الذي يطير الإنسان فيه في الهواء ، ويسير في البحر ، والذي وصل إلى القمر ، وركز الراية على القمر ، إنَّ الإسلام لا يستطيع أن يسايره ، ويقوده ويحلُّ مشاكله.

فهل من بلد إسلاميٍّ أو حكومة إسلاميَّة أو جامعةٍ من الجامعات المرموقةِ في عواصم العالم الإسلامي تلبي هذا النداء ، وتركز جهودها وعنايتها ووسائلها على تحقيق هذا العمل البنائي الثوري الذي ينقذ العالم الإسلاميَّ من أكبر خطرٍ يتهدَّده ، بل من عملية الهدم والإبادة الشاملة التي لم تعرف إبادةً أكبر نجاحاً ، وأعمق منها أثراً في تاريخ الأمم والملل ، والديانات ، والحضارات ، فهل من مجيب؟ وقد قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥]. وقال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ﴾ [الإسراء: ٣١].

إن القتل المعنوي ليس أهون من القتل الجسماني ، ولا فرق بين السُّمِّ الناقع الذي يسرع بالإنسان إلى الموت ، وبين السم الذي يتدرّج بالإنسان إلى الموت ، وقد نهى الله عن كل ذلك فقال:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩].

* * *

الإسـلام فـي عـالـم مـتغيِّـر

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في مؤتمر الدراسات الإسلامية بجامعة عليكراه الإسلامية في كانون الثاني ١٩٧٧ م بحضور عددٍ كبير من أساتذة الجامعة وممثلين عن الجامعات والمعاهد الإسلامية في الهند . نقدِّم هنا هذه المحاضرة القيِّمة إلى القراء الكرام نقلاً من الأردوية .

أيها السادة! نائب رئيس الجامعة! أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة والضيوف المحترمين!

أشكر منظمي هذا المؤتمر لمنحهم إيَّايَ شرف افتتاحه ، ولقد أحسنوا صنعاً بإقامته تحت رعاية الجامعة الإسلامية عليكره ، التي اهتمَّت بالعالم المتغيِّر فيما يتعلَّق خاصَّةً بالإسلام والمسلمين في الهند.

إنَّ الحركات والمؤسسات التي تعترف بحقيقة التغيُّر تُحمِّل نفسها مسؤوليةً عظمى.. إنَّه ليس من السَّهل الاعتراف بالحاجة إلى التغيير والتعديل؛ إذ يترتَّب على ذلك المراقبة باستمرارٍ للتبدُّلات والتغيُّرات التي تجري من حولنا ، وفحصها وتقييمها بموضوعيَّةٍ ، ونتساءل فيما إذا كنَّا مهيَّئين فعلاً لهذه التغيُّرات ، ونقبل بتحدِّيها ، ونكيِّف أنفسنا بموجبها؟

لقد أخذ علماء الجامعة الإسلاميَّة وندوة العلماء على عاتقهم مهمةً كبرى ، وإنَّ حشداً من أولئك الذين يمارسون السُّلطة في هذين المعهدين يشهد هذا المكان اليوم ، وعليهم أن يحلِّلوا أنفسهم قبل تحليلهم للعصور ، وأن يقرِّروا فيما إذا كانوا مهيَّئين للقبول بتغيُّر مشروعٍ مرَّة أخرى بعد أن خضعوا للتحوُّل فيما مضى.

التغيرُ قانون الحياة:

إنَّ موضوع المناقشة اليوم هو الإسلام في عالمٍ متغيِّر ، وإنَّه يتألَّف من كلمتين: «الإسلام» و«العالم المتغيِّر» وبذلك أنتهز الفرصة لأقدِّم آرائي عن وجهي المسألة كليهما ، بحيث تضفي عليها شيئاً من الفكر بشكلٍ صريحٍ وحرٍّ.

يفترض عموماً ، أنَّه ليس للزَّمن ثباتٌ أو دوامٌ ، بل إنَّه اسم آخر للتغيُّر والتحوُّل ، ولكن ليس الأمر كذلك ، إنَّ الزمن مركبٌ من الاثنين ـ التغيُّر

والاستمرار ـ ، وإذا اختلَّ هذا التوازن كأن يتحكَّم الاستمرار بالتغيُّر ، أو يتسلَّط التغيُّر على الاستمرار ، فإنَّ ذلك سينتج آثاراً خطيرةً تنعكس على المجتمع والحضارة ، وإنَّ التوازن بحاجة إلى التناسب حتى أكثر من أيِّ مركب كيميائي .

إن الزمن له القدرة على التغيير ، ويجب أن يغيِّر ، وذلك ليس علامة ضعفٍ أو نقصٍ ، إنما هو قانون الحياة ، وكما قال إقبال : «إنَّ الحياة دائمة الحركة ، دائمة الانسياب ، دائمة الشباب» ، وإنَّ الحياة الخالية من القدرة على النمو والتطوُّر يمكن أن يكون أي شيءٍ آخر إلا الحياة .

إلى جانب ذلك فإنَّ مقاومة التغيُّر هي ـ أيضاً ـ صفةٌ متأصِّلةٌ في الزمن ، وإنَّ مظاهر التغيُّر تبدو لنا بوضوحٍ . . وكلُّها يشعركم بتحوُّل الزمن بشكلٍ كبير . إنَّنا في مجريات الأمور العادية لا نوفق في الإدراك إدراكاً تامّاً للصراع الذي يقوم به الزمن ليحافظ على خواصِّه الجيدة ، والسليمة ، وطبيعته ، وصفته الحقيقية ، وإنَّ ذلك يتطلَّب مجهراً خاصّاً .

خذ النهر الذي يمثل نموذجاً مثالياً للحركة . . ما من موجتين من أمواجه متماثلتين على الإطلاق ، وبالرغم من أمواجه العابرة فإنَّه موجودٌ مكانه منذ آلاف السنين ، محتفظ بكلِّ خصائصه ، واسمه واتجاهه . . فأنهار دجلة ، والفرات ، والغانج ، وجامونا كلُّها هي نفسها منذ أن كانت في العصور الغابرة .

إنَّ الزّمن ساكن بالإضافة إلى كونه متحركاً ، وكلتا هاتين الصفتين جوهريتان بالنسبة له فهو ـ بدون أيٍّ منهما ـ لا يستطيع الاحتفاظ بفائدته بنفس الطريقة ، لأنَّ القوى السالبة والموجبة تعمل عملها في الأشياء الحيَّة ، وغير الحية الموجودة في العالم ، وعن طريق أفعالها وردود فعلها تحقِّق هذه الأشياء قدرها .

الدين هو حارس الحياة :

باعتباري مريداً وتابعاً لدينٍ لا يمكنني ـ أبداً ـ أن أقبل وضعاً يستجيب فيه هذا الدين لكلِّ تغيُّر ، ولا يمكن أن توافق أنت على ذلك أيضاً ، لأنَّ

الدِّين ليس مقياس حرارةٍ يقتصر عمله على تسجيل درجة الحرارة ، ولا هو بالأداة التي ترصد اتجاه هبوب الرياح . . لا يمكن تعريف الدِّين بهذه العبارات ، ولا يمكن أن يصير إلى أداةٍ آليّة غريبةٍ ، وليس بيننا واحدٌ يريد من الدِّين أن يعمل كسجلٍ لتغيرات الأزمنة ، وإنَّ ديناً وضعياً مزعوماً لا يمكن أن يتحمَّل هذا الوضع ، فكيف بدين منزَّل؟ ! .

إنَّ الدين يقرُّ التغير كحقيقةٍ واقعةٍ ، ويعطي أكمل مجالٍ لسبر الأمور من أجل تحوُّلٍ صحيحٍ سليمٍ .

الدين يتقدَّم مع الحياة يداً بيد ، ولا يواكبها فقط ، كتابع لها . . ووظيفته هو أيضاً أن يميِّز بين تغيُّرٍ سليمٍ ، وآخر غير سليمٍ ، وبين نزعةٍ هدَّامةٍ وأخرى بنَّاءة . . ويجب أن يقرِّر الدِّين فيما إذا كان التحوُّل نافعاً ، أو ضارّاً بالبشرية ، أو باتباعها على الأقل .

وبينما يتمشى الدين مع الحياة الديناميكية جنباً إلى جنبٍ من جهةٍ ، فإنَّه يعمل حارساً وحامياً لها من جهةٍ أخرى ، وتجب عليه مهمَّة المراقبة ، والضبط أيضاً ، وليس من مهمَّة الوصي أن يدعم كل ما يفعله القاصر الموضوع تحت وصايته ، ويؤيد كلَّ ميوله ، الجيِّدة منها والسيِّئة ، أو أن يصادق بختم الموافقة على كل شيءٍ يسعى وراءه ، بل إنَّ الدِّين يمتلك ختماً واحداً ، وحبراً واحداً ، ويداً واحدةً فقط . . وليس من شأنه أن يلصق طابعه على أيِّ وثيقةٍ أو صكٍّ . . بل يحب عليه أن يميِّز ، ويختار ، أجل إنَّه يفحص (الوثيقة) أولاً ثمَّ يصدر حكمه . . فإن وجد فيها خطأً أو ضرراً حاول الدين أن يتركها برفقٍ ـ إذا أمكن ـ أو بقوَّةٍ إذا اقتضى الأمر ذلك ، وإذا عُرِضت عليه وثيقةٌ واعتبرها ضارَّةً بالجنس البشريِّ فهو لا يمتنع عن تصديقها وختمها فقط ، بل يكافح لمقاومتها ، وهنا يكمن الفرق بين الدِّين والأخلاق ، فالدين يرى من واجبه ، ومسؤوليته ضبط النزعة الخاطئة وردّها ، بينما تكتفي الأخلاق بالإشارة إليها ، وإظهارها .

بعض المحن في تاريخ الدين :

نجد في تاريخ الدين بعض الفترات التي فقد فيها الدين الاتصال المباشر

بالحياة ، ولكنَّ التقصير لا يكمن في ذات الدين ، وإنما هو تقصير أتباعه ، وليس الدِّين هو الذي يفشل في مواكبة الحياة ، ولكن أنصاره هم الذين لا يطبقون مُثُلَهُ العليا ، وقيمه النبيلة نتيجةً لكسلهم ، ولا مبالاتهم . . وإنَّ هؤلاء الأنصار يتخلفون عن الركب ، بينما تسير قافلة الحياة إلى الأمام .

والفرق بين الدِّين وأنصاره دقيقٌ جداً ، حتى إننا لا نشغل أنفسنا بالتحقيق لنصل إلى تحميل أيِّهما المسؤولية الحقيقية ، ولكننا نميل ـ دائماً ـ إلى اقترانهما ببعضهما . . ولو أجريت دراسةٌ نقديَّةٌ موضوعيَّةٌ لتبين أنَّ الإسلام من حيث هو عقيدة إلهية لم يكن مسؤولاً عن هذه الحال المؤسفة ، لأنَّه ليس في الإسلام ما يمنعه عن تلبية حاجات العالم العملية ، وحلِّ مشاكله .

إنه لضعفٌ عامٌّ فينا . . أن نلقي باللوم على الآخرين ، فعند ما يتعذَّر على المسلمين حلُّ مشاكلهم على ضوء القرآن ، ويعجزون عن إيجاد تآلف بين أحكام الشريعة النابعة من العقيدة الخالدة وبين حقائق العالم المتغيِّرة ينتقدون القرآن ، ولا ينقدون أنفسهم ، ويقدِّمون للنقاد انطباعاً بأنَّ القرآن ناقصٌ؛ لأنَّه لا يقدِّم تبريراً لكل نزواتهم ، ورغباتهم ، وحاجاتهم!! . . وكما قال إقبال :

«إن اعتقاد هؤلاء العبيد أنَّ القرآن ناقصٌ؛ لأنَّه لا يُعلِّم المسلمين طرق العبودية!» .

ويمضي بعضهم إلى أبعد من ذلك؛ إذ يحاولون إخضاع القرآن لنزواتهم ، وأهوائهم ، ومطامحهم ، فيقدمون تفاسير له تتضمن تبريراً لأعمالهم ، وأفكارهم المنحرفة الضالة ، وبدلاً من أن يصيغوا أنفسهم في قالب القرآن يحاولون صبَّ القرآن في قالب أفكارهم ، وأعمالهم تلك! .

ولقد ألقى مولانا أبو الكلام آزاد الضوء على هذا الضعف بأسلوبه الفذِّ في تفسيره القرآن ، حين كتب قائلاً :

«وعندما شعروا أنَّهم لا يستطيعون أن يتمشوا والقرآن في علوه العظيم حاولوا أن ينزلوه من عليائه ليتمشَّى ومستواهم المنحط» .

نـدرة ذوي الـمـواهـب:

إنَّ فترات الركود في عالم العقيدة ، أو فترات الفوضى والتعقيد ، والصراع الداخلي بين أتباعها ، هي فترات يندر فيها الرجال ذوو الكفاءة ، والمقدرة؛ الذين يستطيعون قبول تحدِّي العصر ، ويعملون هداةً أقوياء ، دعاةً للدين.

وفي تاريخ الإسلام ترى أنَّه كلما لقيت العقيدة تمثيلاً فعَّالاً حقيقيّاً كان المجتمع الإسلامي ، والشريعة الإسلاميَّة ـ أبداً ـ في منأى عن أزمة الثقة . . وخلال تاريخ الإسلام الطويل والمتأرجح بين القوَّة والضعف نجد رجالاً بارزين ارتفعوا فوق المستوى العام ، ووضعوا نهاية لمصدر الأذى في عصرهم ، وأوجدوا حلولاً للمشاكل الجديدة ، وأدَّوا ـ بنجاحٍ ـ مسؤولية القيام بما تمليه العقيدة ، والدفاع عنها ، والتكلم باسمها.

فلقد ولد الإمام أبو حنيفة ، والإمام مالك ، والإمام الشافعيُّ ، والإمام أحمد بن حنبل في عصرٍ كان الإسلام والعالم بحاجةٍ إليهم ، ولقد حلَّوا المشاكل التي ظهرت نتيجةً لتوسع بلاد الإسلام ، فقدَّموا التشريع الإسلاميَّ بشكلٍ واضحٍ ومحدَّدٍ ، وظهر فيما بعد قادةٌ للفكر والعمل ، كالإمام أبي الحسن الأشعري والإمام الغزالي ، الذين صارعوا التحدِّيات التي واجهوها في زمانهم ، وأوجدوا حلولاً مناسبةً لها.

سهلـةٌ مـثلمـا هـي مـعقـدةٌ:

إنَّ القضية بسيطةٌ جدّاً ، ولكن بإمكانها أن تصبح أكثر تعقيداً حين تفحص من وجهة النظر الفلسفية ، والتعليل المنطقي . . إنَّها سهلةٌ كما هي معقَّدةٌ ، وبسيطةٌ كما هي مركَّبةٌ ، إنَّها سهلةٌ وبسيطةٌ إذا ما أدركت أولاً حقيقة أنَّ الزمن لا يتغيَّر بالطريقة التي لا تستطيع معها مدرسة فكريَّةٌ ، ولا نظامٌ أخلاقيٌّ مجاراته ، ويجب علينا الوصول إلى فهم أهمية الزمن ووضعه في المكان المناسب وفي نفس الوقت فهم الإسلام ، وأن تتولى دراسته دراسةً عميقةً ، ونرى أيَّ هديٍ خالدٍ هذا الذي يقدِّمه لنا القرآن ، وكيف أنَّ الإسلام يقدر ميّزة التغير في الحياة ، ويدعو إلى التفكير والتأمُّل.

وعلينا أن نتفحّص كيف أنَّ الرعيل الأول من المسلمين ، الذين كان عليهم مواجهة أفكارٍ ، وعقائدِ ، وحضاراتِ جديدةِ ، ولأول مرَّة استطاعوا إنجاز مهمتهم بنجاحٍ .

إنَّ التمشِّي مع العصر الحديث جنباً إلى جنبِ شيءٌ لا يدعو إلى الافتخار فيما يخصُّ الإسلام؛ إذ أنَّه يستطيع فعلاً أن يكون رائد العصر الحديث ويرشده إلى الطريق السوي .

انطـواء عـلـى الانـتحـار:

أيّة هوَّةٍ من الدَّمار مقبلٌ عليها العصر الحديث؟ كيف ينطوي على الانتحار ، ويدفع بالبشرية إلى الهلاك؟ إنَّه يقدِّم الكثير من الدلائل والشواهد التي تشير إلى عدم نفع الجنس البشري في مملكة الله ، وتبيُّن أنَّ الإنسان لا يمتلك حق العيش في هذه المملكة! .

ما القوى المدمرة التي تعمل عملها فيها من خلال المبادىء الثابتة في القرآن؟ سواءٌ الاجتماعية منها ، أو الأخلاقية ، والتي تتعلَّق بالوجود الفرديِّ والجماعيِّ ، لا يستطيع الإسلام أن يفي بمتطلبات العصر الحاضر فحسب ، بل إنَّه يستطيع ـ أيضاً ـ أن ينقذ المدنية الحديثة من الدَّمار والفناء ، إنَّ القضية لم تعد مسألة مجاراة العصر الحديث ، ولكنَّها قضية إنقاذ البشرية .

ما هو مصير أولئك الذين يحلفون بالعصر الحديث ، ويكيلون له المديح ، ويعقدون المؤتمرات باسمه ، وإلى أين سينتهون؟ هل سيسمع لهم صوتٌ في عالمٍ يُعبد فيه البطنُ والشهواتُ الجسدية؟ في وقتنا الحاضر هناك في العالم وفي بلدنا قوّتان يسلَّم بهما ، وهما: القوة ، والثروة. وهنا يجدر بنا أن نتساءل: أيمكننا أن نفكر تفكيراً جدِّياً في أيِّ شيءٍ ضمن محيطٍ كهذا؟ وهل سيكون الناس في وضعٍ يسمح لهم بالإصغاء لنداء العقل؟ ثمَّة شعارٌ واحدٌ سيلقى الآذان الصاغية له في هذه الحال: أضع التبن حينما تكون

الشمس ساطعةً[١] ، ولن يكون للواجبات ، والقيم الأخلاقية ، والمثل الروحية أيُّ معنىً ، ويصبح الحديث عن إنقاذ البشرية مجرَّد هراءٍ لا يعيره أحدٌ أدنى اهتمام.

إنَّ قضية إنقاذ العالم الحديث أصبحت الآن أكثر أهميَّةً من قضية إنقاذ الإسلام، فعليكم واجب الاهتمام بالعصر الحاضر؛ الذي سكر حتى أنَّه صار غير مهيَّأٍ لأن يستمع إلى أي شيءٍ متَّزنٍ وجادٍّ ، ولا تقلقوا على الإسلام فإنَّه يراقب كلَّ عصرٍ ، ويقرِّر كلَّ متطلباته العادلة والخيرة والمشروعة ، وما من نظامٍ أعدل وأنصف من الإسلام ، فلقد اهتمَّ بكلِّ صرخة ألم اهتماماً شديداً، وهوَ يناشد العقل ، ويحضُّه دائماً على البقاء نشيطاً وفعالاً . . إنَّ الجامعة الإسلامية ، والمدارس العربية هي اليوم في عطلةٍ وربما كانت في عطلة يوم أحدٍ أو يوم جمعة ، ولكن أكثر تضحية من أي فردٍ العقل البشري، لا يعرف العطل ، ولقد أكَّد الإسلام على رجال العلم أن يكونوا أكثر تضحيةً من أيِّ فردٍ آخر، وأن يكونوا مستعدين ليعيشوا في مستوى حياةٍ قاسيةٍ، وصارمةٍ.

سـوء فـهـم:

إنَّ سوء التفسير يتسبَّب في كثيرٍ من حالات سوء التفاهم ، فلقد نصحنا الإمام عليٍّ بمخاطبة الناس على قدر عقولهم. . . أن نقدِّم الحقائق المبهمة بطريقةٍ تمكِّن العقل من قبولها ، وليست القضية متعلقةً باللغة وحدها ، بل هي قضية طريقة التفكير ، وصيغة التعبير.

ثم يضيف الإمام عليٌّ قائلاً: أتريدون أن تدحض أحكام (أوامر) الله ورسوله؟ وأن يفنَّد الله ورسوله ، لا لأنَّ دينه بمبادئه متناقض مع حقائق الزَّمن ، وإنما لأنَّها لا تقدَّم بأسلوبٍ صحيح جذَّابٍ ، وسهل الإدراك.

إنَّ الإسلام يطلب مكانه الخاص به في العالم المتغيِّر ، ويصرُّ على هذه المطالبة إذا كان (العالم) ينشد الرحمة ، ومن جهةٍ أخرى يمكن للعالم أن يتقدَّم في الوجهة الصحيحة تحت قيادة الإسلام.

---

(١) يراد بهذا المثل: استغلال كلِّ فرصةٍ مواتية في سبيل المنفعة.

الـديـن والـتمـدن:

إنَّ اهتماماتنا في هذه المرحلة تتوجه نحو التمدُّن.. إنَّها فكرةٌ غربيَّةٌ، وكثيرون هم الذين يتصوَّرن أنَّ الإسلام اسمٌ لمدنية اندثرت وبادت!! والكتَّاب مولعون بالتنويه إليها كتراثٍ للإسلام.. وإنَّ الإسلام له مدنيةٌ، ولكنه لا يمثل حضارةً قديمة.

نعلم أنَّ حضارةً عمرها خمسمئةٍ أو ألف من السنين ليس لها تأثيرٌ فعالٌ في عالمٍ متغير، لكن الدين ليس اسماً فقط لبعض القيم الأخلاقية، أو لنظامٍ اجتماعيٍّ وثقافيٍّ، أو لمدرسةٍ في فنِّ العمارة.. إنَّها قضية حقائق تقع خارجَ نطاق الخبرة البشرية، وقضية أركان الإيمان والمبادىء الجوهرية كعقيدةٍ، والصلة بين الرَّبِّ وعباده، ونواميس الوجود السرمدية.

إذا كان مجال الإسلام بهذا الشكل فمن السُّخف أن يتساءل المرء ما سيحدث للإسلام فيما لو تبدَّلت المعايير، وهل بمقدوره أن يتناسب معها؟ فالمفكرون الغربيُّون يثيرون أفكاراً باطلة، ويعزِّزون خلافاتٍ جدليةً مضلِّلةً، ومهما تغيَّرت الحياة فسيبقى هناك مكانٌ للحقائق الخارجة عن نطاق الخبرة البشرية، والوجود بكامله يجب أن يخضع لمراقبة الإيمان.. وإلا سقطنا فريسةً لنفس الشرِّ السائد في المجتمعات الغربية.

* * *

مسؤولية العلماء نحو التحدِّي العصريِّ الكبير

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرةَ في حفلةٍ كبيرةٍ عقدت في قاعة جامعة التعليمات الإسلامية بمدينة «فيصل آباد» في ٢٣/ يوليو ١٩٧٨ م.

وقـدَّم العلامةَ فضيلةُ الشيخ عبد الرحيم أشرف مؤسس الجامعة ورئيسها، وألقى فضيلة الأستاذ عبد الغفار حسن (أستاذ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة) كلمة شكرٍ وختام.

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

أصحاب السعادة والفضيلة! المسؤولون عن الجامعة وأساتذتها، وطلابها!

إنَّه تغمرني موجات فرحٍ حينما أتحدَّث إليكم، ولا أشعر بشيءٍ من الغربة، ثم إنَّنا ركاب سفينةٍ واحدة، ورفاق رحلةٍ واحدةٍ، هي رحلة التعليم الدِّيني، والدعوة الإسلامية، والقيام بعرضها، وشرحها، ونشرها.

تحدِّي العصر الحديث:

أعتقد أنَّ أكبر تحدٍّ للعصر الحديث، هو المادِّيَّة، والأنانية، والثروة، وقد ظلت هذه الفتنة تعمل عملها على امتداد العصور، لكنَّها اليوم برزت في الميدان قويةً، مخططةً مسلحة بالدلائل المزوَّرة اللمَّاعة، والفلسفات الخاطئة البرَّاقة، في صورةٍ باهرةٍ لم تظهر فيها فيما مضى من الزمان قطُّ... نعم قد كان الناس فيما مضى في عهد ازدهار المدَنية، وأوج المادِّيَّة الرعناء يقعون فريسةَ فتنة المال، والترف، وما يسميه القرآن «البطر»، والخضوع لأصحاب الجاه والسلطان، لكنهم كانوا يشعرون ـ في قرارة نفوسهم ـ بخجلٍ وحياءٍ، وبأنَّهم خاطئون فيما يصنعون، وأنهم يشبعون شهوانيتهم، ويرضون نهامتهم.

ألق نظرةً على التَّاريخ يدلُّك على أنَّ الأثرياء المترفين، والجبابرة المتمرِّدين، والمادِّيين اللاهين كانوا يخضعون أمام من يرونهم متسامين عن عبادة النفس والهوى، والسُّلطان والمال، بل كانوا يتأدَّبون مع كلِّ من يرونهم فوق أنفسهم في كبر النفس والمروءة والعفاف، وكانوا يحذرون أن يواجهوهم، أو يشافهوهم، لأنَّهم على علاتهم كانوا يحملون بين جنبهم «نفساً لوَّامة» فكانوا يشعرون بوخز الضمير على اقتراف المظالم

والمنكرات ، ويرون أنَّهم قد حادوا عن الصِّراط المستقيم ، وقد كان صنيعهم في خلواتهم ، وربما كانوا يعترفون بأخطائهم علناً وجهاراً بضغطٍ من الضمير الحيِّ الواعي ، وبأنَّهم وقعوا فريسة الهوى ، والشهوانية ، والأنانية.

النقطة التي يلتقي عليها المعسكر الغربيُّ والمعسكر الشرقيُّ:

ولكن اليوم أصبحت المادِّيَّة تُعتبر رقيّاً وتقدُّماً ، وأناقةً ، وظرافةً ، ومدنيَّةً ، ولا اختلاف هناك بين المعسكرين الغربي والشرقي فيما يتَّصل بالمادِّيَّة ، وإن كان هناك اختلافٌ؛ فإنَّه فيما يتعلق بتنظيمها ، وبتنسيقها ، وفي أنَّه أيُّ فلسفةٍ ، أو أيُّ مدرسة فكرٍ ينبغي أن تكون متحكمةً فيها ، وفي توزيعها ، إنَّ المعسكر الغربيَّ ـ أمريكا ومن نحا نحوها ـ يرى أنَّ مبدأ الحرِّيَّة الكاملة في التَّصرف في الملكية يطابق المنطق والصواب ، ويرى المعسكر الشرقيُّ ـ الكتلة الشيوعية ومن نهج نهجها ـ أنَّ ملكية فردٍ ، أو جماعةٍ ، أو عائلةٍ شيء لا يقبله العقل والمنطق ، لأنَّه يخالف العدل ، والمساواة ، فلا بدَّ من تعميم (GENERALIZATION) وسائل الحياة على أساس المساواة ، ولا بدَّ أن تكون الحكومة هي المشرفة عليها ، والمتحكِّمة فيها.

أما أسلوب الحياة ، وكيف تستخدم الحياة ، وفيم تشغل ، وكيف ينبغي أن يكون تنسيقها ، وعلى أيِّ أساسٍ يكون التطبيق بين الوسائل والغايات ، وكيف ينبغي أن يكون التمتعُ بنتائج الحياة والثمرات ، وما هي كعبة الحياة ، ومقصودها ، ومنتهاها ، وفيم يكمن سرُّ تقدُّم الإنسانية؟ فإنَّ ذلك كلَّه لا اختلاف في شأنه بين الفلسفتين: الغربية والشرقية ، والمعسكرين الرأسماليِّ والشيوعيِّ ، كلاهما يعتقدان أنَّ الغرض الأساسيَّ هو التمتع باللذة ، والعزِّ ، وحرية الإرادة ، والإباحيَّة ، والانطلاق ، والنزول عند إرادة النفس ، ونداء الهوى ، واستجابة الشهوانية ، وإشباع الضرورات المادِّيَّة ، وإيفاء حقوق النفس ، وإراحة هذا الجسم المادِّيِّ المكوَّن من اللحم والدم بكلِّ حيلةٍ ، وعن كلِّ طريقٍ وعلى كلِّ مستوىً ، ولا مبدأ

ولا مصير ، ولا موت ولا بعث ، ولا مؤاخذة ، ولا حساب ، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧] ، ولا فلسفة أعلى من فلسفتنا المادية ، سواء أكانت فلسفة الأخلاق أو العقائد ، أو الروحانية ، ولا حقيقة فوق هذه الحقائق التي نعرفها ، لأنَّ زبدة الحقائق أنَّا وُجِدنا في هذا العالم لكي نلهو ، ونتمتَّع ، ونلتذَّ ، ونمرح ، ونسرح ، ونرتع ، ونستغلَّ هذه الوسائل والإمكانيات المنبثة ، ونتقاسمها ، ونأخذ بأوفر حظٍّ من متعة الحياة ، ولنزِلْ كلَّ شيء يحول بيننا وبين تحقيق أغراضنا.

إذاً فلا اختلاف في المبادىء والأهداف وإنما الاختلاف في تحديد العوائق والعقبات ، فقومٌ يرون أنَّ الملكية هي العقبة ، وقوم يرون أنَّ العائق هو الأنانيَّة الأسريَّة ، وبعضهم يرى أنه هو الملكية الفردية ، وآخرون يعتقدون أنَّ الرأسمالية هي حجر عثرةٍ في الطريق ، وأمَّةٌ تعتقد أنَّ استئصال الرأسمالية هو الذي شكّل المصيبة ، وأمَّةٌ ترى أنَّ التوزيع الخاطىء الغير العادل هو السبب الأصيل فيما نواجهه من أزماتٍ ، ومشكلاتٍ ، ومجموعةٌ بشريةٌ ترى أنَّ الجهل والأمِّيَّة هو الداء العضال ، وبعضهم يرى أنَّ أصل الداء هو فقدان المؤسسة الصالحة ، واليد الأمينة القوية الغلابة؛ التي توزِّع هذه الوسائل على المجموعات البشريَّة بكلِّ إنصافٍ ومساواةٍ.

ولا نعرف في أيِّ دورٍ من أدوار التاريخ الإنسانيِّ أنَّه حظيت فيه المادِّيَّة بهذا التنسيق ، والتهذيب ، والصقل ، وسمِّيت بهذه الأسماء البرَّاقة الباهرة الساحرة ، وعُلِّقت عليها أمثال هذه اللافتات الجميلة الأنيقة ، الخلابة الزاهية ، واستنفذت مثل هذه القوى العقلية والفكرية ، واستهلكت مواهب الأذكياء والعقلاء في مثل هذا السَّخاء والإسراف ، ولا نعرف أنَّه استخدمت في سبيل تعميمها وتحبيبها أمثال هذه الوسائل الجبارة ، لا تعرف لكلِّ ذلك سجلاً (RECORD) عبر التاريخ البشريِّ كلِّه.

التحدّي الأكبر :

وعلى ذلك فإنَّ التَّحدِّي الأكبر في هذا العصر ، هو تحدِّي المادِّيَّة ،

والمادِّيَّة كجنسٍ له أنواعٌ كثيرةٌ ، منها الرأسمالية (CAPITALSM) والاشتراكية (SOCIALISM) والشيوعية (COMMUNISM) وما إليها من الفلسفات الاقتصادية الكثيرة ، لكن النقطة الجامعة بينها جميعاً هي المادِّيَّة ، وعبادة النفس والهوى .

الحقائق التي تضرب على جذور المادية :

حينما كان الإنسان قد استعبدته المعدة ، والمادَّة ، والأهواء ، ولم يكن يطأطىء رأسه إلا على عتبة المال ، والمرأة ، والعقار ، لأنَّ هذه كانت آلهته الحقيقية ، وحينما كانت الكثرة الكاثرة من سكان هذا العالم تسجد للمخلوق دون الخالق ، كان الله يرسل الرسل والأنبياء ، فيعلِّمونهم مراشد الخير والهدى ، ويأخذون بأيديهم من حضيض الكفر والشرك إلى قمَّة التوحيد والإيمان ، ويخبرونهم بأنَّ وراء هذا العالم المشهود المعهود عالماً آخر أوسع ، وأجمل ، وآنق من هذا العالم بكثيرٍ وكثيرٍ ، ويقولون لهم: لو رأيتموه؛ لفتنتم به ، وتحلبت عليه أفواهكم ، وتلمَّظت شفاهكم ، ولضاقت هذه الدنيا عليكم بما رحبت ، ولشقَّت عليكم الحياة كما شقَّت على السَّمك الذي أُخرِج من الماء ، ووُضِع على الأرض ، أو على الطير الذي وضع في قفصٍ ضيِّقٍ فيرفرف بجناحيه ، ولاشمأززتم من دنياكم هذه التي تنفقون في سبيلها أعزَّ متاع عندكم ، وتضحُّون بكلِّ ما تملكونه من معنويةٍ ، وعلمٍ ، وثقافةٍ . . . وذلك ما ندَّدت به الصحف السماوية مرَّةً بعد أخرى ، وبأساليب كثيرةٍ ، وفي كلماتٍ متنوِّعة: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ [النساء: ٧٧] ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ [الحديد: ٢٠]. وقد أتى التعبير في بعض المواضع بـ «حطام الدنيا» وعبَّره لسان النبوة بـ «لعاعة» . . . دلالةً على منتهى التفاهة ، والضآلة .

قد كشف هؤلاء الأنبياء والمرسلون اللثام عن حقيقة هذه الدنيا ، ودلُّوا النَّاس على أنَّها لا تعدل جناح بعوضة عند الله ، وأنَّها كسرابٍ خادعٍ وظلٍّ زائلٍ ، وكدويرةٍ يبنيها الصغار على الرِّمال ما لها من قرار ، ولو درستم التاريخ لصدقتم هذه الحقيقة على بصيرةٍ ، وهديٍ ، وعن تجربةٍ .

لـدُّوا لـلمـوت وابـنـوا للخـراب :

زرنا في بغداد في رحلتنا سنة ١٩٧٣ م المتحف الكبير الذي يجمع بين آثار الحضارات والمدنيات البائدة فيما قبل التاريخ التي ازدهرت في وادي الفرات وفي غيره ، تمثّل عصر نمرود وغيره من الملوك والسلاطين المعاصرين ، له والسابقين عليه ، واللاحقين به ، والإمبراطوريات والحكومات الأخرى الكثيرة ، كنّا نشاهد هذه الآثار ، وكأنّنا في رحلةٍ تاريخيّةٍ سريعة يأتي دورٌ ، ويذهب دورٌ ، وتمضي الأدوار كلها كفصول مسرحيّة ، وواصلنا الرحلة منذ ما قبل التاريخ إلى العهد العباسيّ ، فإلى عهد السلاجقة ، فإلى عهد التتار ، فإلى عهد الأتراك ، فإلى عهد الإنجليز ، فإلى عهد فيصل بن حسين الخ. . . وتأكدوا كأني أتخمت من رؤية هذه الفصول التي كانت تمثل تقلّبات الزّمان ، واختلاف الليالي والأيام ، وكأني أعاني الغثيان ، إذا أكلت شيئاً مريراً تعافه النفس ، فتعبت نفسي ، وكلّ ذهني ، وأثقل فكري ، وكأني في دنيا الأحلام أو الأساطير والأوهام ، إنّ بعض هذه الحكومات والإمبراطوريات قد تكون قد استغرقت مدّة ألفٍ ، أو خمسمئة سنة ، أو أقلّ ، أو أكثر في قطع مراحل الانحطاط ، لكنّي قد شعرت كأنّ ذلك كلّه قد تمّ في ساعاتٍ ، ولكن الناس مخدوعون ، فيحسبونها ألف سنة أو خمسمئة. . . الخ وكأني قائمٌ على أنقاض الإنسانية ، وأطلال الحضارات والمدنيات ، والحكومات والإمبراطوريات ، وكذلك يقوم عليها كلُّ الأجيال المتلاحقة ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ [النساء : ٧٧].

إنَّ الـدُّنـيـا لـيسـت مـوضـع هـيـامٍ وغـرام :

قد أراد الله لهذه الدنيا البقاء والعمران فلم يعرِّ حقيقتها أمام عامّة البشر كما جَلاّها للمصطفين الأخيار ، والمؤمنين المخلصين من عباده ، وإلا لأقفرت ، وأوحشت ، ولما أقبل أحدٌ على الإنتاج والابتكار ، وتشييد البنيان ، وإقامة المصانع ، ولتعطّلت الحركة والنشاط ، وتوقّفت الرحلة البشرية في مجالات الحياة ، وجلس كلٌّ في عقر داره عاطلاً ضائعاً ، يائساً ، متخاذلاً ، وربما لفظ أنفاسه الأخيرة.

ولكنَّ الأنبياء عليهم السلام ونائبيهم قد أعطوا كلَّ شيءٍ حقَّه على الرغم من علمهم بتفاهة الدُّنيا وضآلتها ، فأدَّوا مسؤوليتهم نحو هذا العالم وأهله ، ونحو أقربائهم ، وأهليهم ، وجيرانهم ، وذوي مودَّتهم ، ونحو الإنسانية جمعاء ، وعاشوا مستجيبين لمتطلبات الحياة ، واضعين كل شيء في موضعه اللائق ، وواجهوا تحدِّي الحياة في صبر وجلادة ، وعاشوا عيشة طهرٍ وصفاء ، وعفَّةٍ وحياء ، لا يبالون بشوكة الملوك وأبهتهم ، يتحدَّثون إليهم كما يتحدَّث أحدنا إلى المريض ، كانوا يرونهم مرضى مصابين بداءٍ عضالٍ ، فيرثون لحالهم ، ويخافون عليهم مآلهم ، ويتوجَّعون عليهم كما يتوجَّع أحدنا على جارٍ له وقع الحريق في بيته ، فأتى على كل ما لديه من الأخضر واليابس ، ألم تروا كيف أجاب سيدنا ربعي بن عامر رضي الله عنه «رستم» قائد الجيوش الإيرانية حين استوضحه عن أغراض الغزو الذي لم يكن للفرس به عهد ، فقال رستم: ما جاء بكم؟ فقال: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[1] .

يا سادة! قلت في محاضرتي بالديوان الأميري بـ«أبو ظبي»[2]: لو قال ربعي بن عامر: «لنخرج من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة» ، لم أستغرب ذلك لأنه آمن بأنَّ الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر ، وآمن بالآخرة التي لا آخر لها وبالجنَّة التي لا حدَّ لها ، ولا نهاية ، وقد قرأ في الكتاب الذي قرأه ، وآمن به ، وعاش فيه ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وعرف قول رسوله في غزوة بدر: «قوموا إلى جنَّةٍ عرضها السموات والأرض»[3] وقوله بمناسبة أخرى: «موضع سوطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها»[4] .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، ج/ ٧ ، ص ٣٩ ، طبع بيروت ١٩٦٦ م .

(٢) المحاضرة التي ألقاها العلامة الندوي هي بعنوان: «نظرة مؤمن واع إلى المدنيات المعاصرة الزائفة» في ٣/ محرم الحرام ١٣٩٧ هـ (٢٣/ ١٢/ ١٩٧٦ م) .

(٣) رواه مسلم .

(٤) حديث متفق عليه رواه أبو هريرة رضي الله عنه .

ولكن موضع الاستغراب هو قوله: «من ضيق الدنيا إلى سعتها» كيف ساغ لإنسان ربما قد وضع الحجر على بطنه، وربما لم يملك قوت يومه، وكانت ثيابه متخرِّقةً، وأجفانه باليةً، أن يقول لإنسان وهو في غاية أبهته، وفي زهوه، وعلى قمة مجده، يعيش في رغدٍ من العيش، ويتقلَّب في أعطاف النعيم، قد اتَّسعت له الدنيا، ولانت له الحياة: إنِّي جئت لأنقلك من زنزانة الدُّنيا إلى فضاءٍ رحبٍ فسيحٍ، أفهل كان العرب يعيشون في بحبوحةٍ من العيش؟ أفما كانوا في شظفٍ من العيش، وفي جهدٍ، وتقشُّفٍ، وتخشُّن في الحياة، لا يملكون وسائل الحياة، ولا يكادون يشبعونَ بطونهم، ولا بخبز الشعير، يأوون إلى أخبيةٍ من جلود الإبل، وفي أكواخ من المدر! فما الذي جعله يقول لرستم: أدرك نفسك فإنَّك في بؤسٍ وشقاءٍ، وحرمانٍ وبلاءٍ، أنت حبيسٌ في قفصٍ ضيِّقٍ، يا لسوء حظِّك، وخسة نفسك، وفتور همتك، وقصر نظرك، ترضى بحبات شعيرٍ تطرح إليك... أني متأسفٌ على حالك، أتيت أخلصك من هذا المأزق، وأحرِّرك لكي تستطيع التحليق في هذا الفضاء الرَّحب المترامي.

يا سادة! تلك هي النظرة الحقيقية التي كان ينظر بها الرعيل الأول، ومن تبعهم بإحسان إلى هذه الدنيا، وحطامها الفاني، وعيشها الزائل، فكان الناس يؤمُّونها، يعرضون عليها الداء، ويستوصفونهم الدواء... وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «إن جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني»(١) لأنه كان يتوكَّل على الله، ويلوذ به، وبه يستعين، وإليه يرجع، ومنه يرجو، فكان لا يخاف أحداً، ولا يراه موضع النفع والضَّرر، فكان يجد في الصلاة قرَّة عينه، وفي الصيام لذة الطعام والشراب، وفي الابتهال إلى الله والاطِّراح على عتبته حلاوة لا تعدلها حلاوةٌ.

---

(١) الوابل الصيب، ص/٦٦.

وأمثال هؤلاء الناس كانوا نماذج الإنسانية المنشودة المقصودة ، استغلُّوا مواهبهم ، واستخدموها لما خلقت له ، حوَّلوا البلد ، أو الحيَّ الذي سكنوه إلى جنةٍ ونعيم ، غطُّوه سكينةً وعدلاً ، ومواساةً وبرّاً ، وعطفاً وخدمةً ، وعاشوا في الدنيا ، وزرعوا فيها مؤهلاتهم ، واستثمروها ، ولكنهم لم يجعلوها «عجلاً» يعبد ، أو إلهاً يسجد له ، وما هاموا بها هياماً بل ظلوا يقولون: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» لأنهم كانوا يدركون حقيقة هذا العالم المادِّيِّ ، ولكنهم رغم ذلك ، تقدَّموا في كلِّ مجالات الحياة ، وتحرَّكوا في كلِّ وادٍ ، فشادوا البنيان ، وبنوا المساجد ، وأقاموا المدارس ، والمعاهد ، وأسَّسوا المصانع والمعامل ، ونشروا الإسلام ، وزرعوا عقيدة التوحيد ، وفتحوا فتوحاتٍ واسعةً ، وأخضعوا الدول ، وثلُّوا العروش ، وزلزلوا الجنود والبنود ، ووضعوا علوماً ، وابتكروا فنوناً ، وأثروا المكتبات ، وصنَّفوا ، وألَّفوا ، وقادوا ، وسادوا ، وعلَّموا ، ودرسوا ، وأقاموا التاريخ على أساسٍ محكمٍ متينٍ لا يزول . . . صنعوا كلَّ ذلك ، ولكن الذي يضع الفرق الملموس بيننا وبينهم أنَّهم لم يحسبوا الدنيا غايتهم الأخيرة ، بل كانوا يرونها مرحلةً بدائية .

أصبحت المادِّية اليوم راكباً بدل أن يكون مركباً:

كان هؤلاء المخلصون العظام يحطِّمون طلسم المادَّة ، ويكسرون سحرها ، ويزيِّفون لمعانها ، لأنَّهم قد تحرَّروا من ربقتها ، وتمرَّدوا عليها ، وأخضعوها ، ولم يخضعوا لها ، وركبوها ، ولم يكونوا مراكب لها ، والخطُّ الفاصل بيننا وبينهم؛ أنَّنا أصبحنا اليوم مراكب للمادِّيَّة ، بدل أن نكون راكبين عليها ، أو نحن راكبون سكارى ، قد انفلت الزمام من أيدينا ، وانزلقت أرجلنا عن الرَّكب ، فتهرع بنا المادية الجامحة إلى حيث تشاء ، ولا نملك حولاً ولا طولاً ، ولا نكاد ندري كيف نكبحها ، أو نتخلص منها ، حتى لا تهوي بنا في هوَّة الهلاك ، أو في نهرٍ فياضٍ ، أو بحرٍ متلاطم ، فيكون آخر أمرنا .

تلك هي قصة مدينتنا بجميع أجزائها ، وأبعادها ، قد تمرَّدت علينا ،

وجمحت لدينا ، واستعصى علينا تطويعها وإخضاعها ، وكبح جماحها ، وإنما تحدَّاها أولئك الأبرار الأخيار الذين وفقهم الله أن يثوروا عليها ، ويتمرَّدوا على مفاتنها ، وبهارجها التي تبهر العيون ، وتأخذ بالقلوب ، وتتصيَّد العقول ، فكانوا يشعرون كأنَّهم في جنةٍ ونعيمٍ ، وقد قال بعضهم: ماذا يصنع الناس بي؟ إن وسائل التنعم في صدري ، فمن الذي يستطيع أن ينتزعها؟ وقال بعضهم: والله لو أنَّ أهل الدنيا علموا مدى ما نحن فيه من لذةٍ رغيدةٍ ، ونعمةٍ وفيرةٍ لغزونا عليها ، ولجالدونا بالسيوف ، ولحاولوا أن ينتزعوا منا هذا العيش اللذيذ ، زعماً منهم أن في المكان الذي نحن فيه كنزاً دفيناً ، أو منبعاً مكتوماً للرزق ، أو مصدراً مخبوءاً للفرح ، والسرور ، والطمأنينة ، ومن هنا يجلس في هذا المكان ، هادئاً راضياً ، ساكناً آمناً ، مرحاً فرحاً ، جذلان نشوان ، فلننزله من مكانه ، ولننفه إلى الغابة ، ولنحفره حفرتنا لآبار البترول ، ولنكتشف الثروة المخبوءة فيه اكتشافنا للنفط والزيت .

روح القناعة :

أيها السادة! إنما كان يحارب المادِّيَّة أولئك الذين كانوا يتمتعون برصيد القناعة ، ولا يرضون لأنفسهم أيَّ مساومةٍ وتقويمٍ ، ولم يكن هناك أحدٌ يستطيع أن يصيدهم ، وكانوا يقولون بملء أفواههم: «نرى العنقاء أكبر أن تصادا» ، ويقولون لهذه الدنيا الخدَّاعة الغرَّارة: «يا دنيا! أبي تعرَّضت؟ أم لي تشوفت؟ هيهات ، هيهات! غرّي غيري ، قد بتتُّك ثلاثاً ، لا رجعة لي فيك»[1] ، ويقولون للمساومين: جرِّبوا غيرنا ، أما نحن فلا نرضى بأيِّ ثمنٍ مهما كان غالياً وعالياً ، ولا ننهار أمام أيِّ منصبٍ ، أو جاهٍ مهما كان مشرفاً ومحسوداً ، ومرموقاً ، لا ، لن نبيع كرامتنا ، ولن نبيع ضمائرنا ، ولن نبيع طمأنينة قلوبنا ، وقناعة نفوسنا ، لا لن نلوِّث عفتنا ، ومروءتنا ، ولن نكدِّر

(١) من قول عليٍّ رضي الله عنه كما يروي عنه ضرار بن ضمرة ، اقرأ «صفة الصفوة» لابن الجوزي .

صفو حياتنا ، فلا تتعبوا نفوسكم ، دون جدوى ، ولا تنضوا ركابكم دون فائدة.

هذا الشيخ الكبير الميرزا مظهر جان جانان الشهيد رحمه الله قد عرض عليه ملكُ دهلي أن يقبل منه هديةً كبيرةً من المال ، فقال الشيخ : إن الله تعالى يقول : ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء : ٧٧]. . . أمَّا آسيا فواحدةٌ من قارات العالم ، والهند واحدٌ من بلدانها ، وأنت تحكم جزءاً صغيراً من هذا البلد ، فلا أريد أن أرزأكم فيه ، وأشاطركم إيَّاه.

وكان هناك شيخ في «برهانبور» بالهند ، فبدأ الإمبراطور المغولي أورنك زيب عالمكير رحمه الله يزوره ويختلف إليه ، فقال الشيخ : قد كنت اخترت هذا المكان المتواضع لنفسي ، فإن كان قد وقع من الملك موقعاً حسناً ، وأصبح يغارنا عليه ، فليرض به ، وليدعنا نغادره إلى مكان آخر.

من المؤسف جدّاً أنَّ أحوال هؤلاء الصالحين الساهرين في عبادة الله قد قُيِّدت بصور لا تعكس حياتهم عكساً صحيحاً ، فلا نستوحي منها روح اتباع الشَّريعة ، والحرص على التمسُّك بالسنّة ، وإحياء الليالي وشغفهم بالكتاب والسنّة ، وعيشهم في تلاوة القرآن ، وتفانيهم في حبِّ الله ، وأخذهم بروح الشريعة ، وعضِّهم بالنواجذ على لبِّ الإسلام وزبدته ، وأصبحنا لا نستشف من أحوالهم ـ كما يقول مؤلف «تاريخ كجرات» العلامة الشريف السيد عبد الحي الحسني رحمه الله[1] ـ «من قرأ كتب التراجم ، وسير العلماء الرَّبانيين المربِّين المؤلفة على الأسلوب التقليدي القديم ، عرف أنهم لم يكن لهم همٌّ ، ولا لذَّة إلا في خرق القوانين الطبيعية والتمرُّد على السنن الإلهية ، وما كان يهمُّهم إلا التصرُّف في الأكوان ، والتحكُّم في العناصر

(١) هو والد العلامة الندوي ، والأمين العام لندوة العلماء الأسبق ، ومؤرخ الهند الكبير ، ومؤلف كتاب «نزهة الخواطر» في تراجم أعيان الهند في ثمانية مجلدات ، وكتاب «الهند في العهد الإسلامي» و«الثقافة الإسلامية في الهند» ، توفي رحمه الله في ١٣٤١ هـ. انظر ترجمته بكاملها في كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن الرابع عشر الهجري».

الأربعة ، والمواليد الثلاثة ، فنراهم يحيون الأموات ، ويميتون الأحياء ، وينتزعون السفينة التي غرقت في قعر الماء بإشارةٍ من طرفهم ، أو بتلميحٍ من أصابعهم ، لا شغل لهم غير ذلك».

والله! إنَّ ذلك صورةٌ مشوَّهةٌ ، وتصويرٌ خاطئٌ لحياتهم ، إنَّهم في الواقع كانوا من ذوي التعمُّق في الكتاب والسنة ، والتشرُّب لروح الشريعة ، ولئن كان هناك نماذج شاردةٌ تدلُّ على خلاف ما نقول ، فلا يستدلُّ بها على القوم جميعاً ، لأنَّه من الإجحاف ، وسوء الإنصاف.

إخوتي الكرام! تلوت عليكم الآية الكريمة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢] ، الآية تذكر تلك الأركان الأربعة التي بُعث الرسول الأعظم محمد ﷺ لتحقيقها ، وتكميلها ، وقد توارثها القائمون بمهمَّة النُّبوَّة بعده ﷺ... فالأول: هو تلاوة الكتاب (القرآن الكريم) وتشاهدون مظاهرها في كلِّ حفلة ، ولدى كلِّ مناسبةٍ ، وعند كلِّ صلاة ، وفي كلِّ بيتٍ ومدرسةٍ ، ومعهدٍ للتعليم والتربية ، وقد أقيمت لتحفيظ القرآن ، ولتعليم تجويده ، وترتيله ، وقراءته مدارس لا تعدُّ ولا تُحصى ، وستبقى هذه السلسلة المباركة الطيبة إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] والثاني: هو تعليم الكتاب ، والثالث: هو تعليم الحكمة ، والرابع: هو تزكية النفس.

المراد من «الحكمة»:

والمراد من «الحكمة»: الأخلاق الفاضلة ، والآداب الإسلامية ، لأن القرآن قد أطلق لفظ «الحكمة» على هذه الأخلاق ، والآداب في مواضع شتَّى ، ذكر في سورة «الإسراء» التعاليم الخلقية الأساسية في موضعٍ واحدٍ ، يقول تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ إلى قوله: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٣٨] تلك هي خمس عشرة آية ، فيها النهي عن الشرك ، والأمر بالإحسان إلى الوالدين ، وخفض الجناح لهما ، وإيتاء ذي القربى ، والمسكين ، وابن السبيل ،

والنهي عن التبذير ، والأمر بالتلطُّف لهم بالقول ، والنهي عن الإفراط والتفريط ، والنهي عن قتل الأولاد ، وعن الزنى ، وعن قتل النفس إلا بحقها ، وعن الإسراف في القصاص ، والنهي عن أكل مال اليتيم إلا بالحقِّ ، والأمر بالإيفاء بالعهد ، وإيفاء الكيل والميزان ، والنهي عن التبختر ، والمرح الزائد ، وبعد ما انتهى من ذكر هذه التعاليم الخلقية التي تلتقي عليها الأديان والأمم ، والفطر المستقيمة ، والعقول السليمة ، من أول العصر إلى آخره ، ختمها بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩].

وكذلك شأن القرآن في سورة لقمان ، فلو قرأت قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٣ ـ ١٩] وقرأت افتتاحية هذه الآيات ، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢] ، علمت أنَّ كلَّ ما صدر عن لقمان من التعاليم الخلقية ، والوصايا الحكيمة إنما نبعت عن هذه الحكمة التي أكرم الله بها لقمان ، وكذلك لو قرأت قوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦١ ـ ٢٦٩] علمت أنَّ الحكمة في المصطلح القرآنيِّ الإلهي لها صلةٌ عميقةٌ وثيقةٌ بالأخلاق(١).

لا يتمُّ تعليم الكتاب والحكمة بدون «التزكية»:

والتزكية: هي تهذيب النفس ، وتحليتها بالفضائل ، وتخليتها من الرذائل ، تخليتها من الحسد ، والبغض ، وحبِّ الدنيا وحبِّ الجاه ،

(١) قد انتبه العلامة الندوي لهذه النكتة بحديث الأستاذ العلامة المحقق السيد سليمان الندوي رحمه الله ، كان يتكلَّم فيه عن معنى الحكمة في القرآن.

والإخلاد إلى الأرض ، وكراهية الموت ، والحرص ، والجشع ، وتحليتها بحبِّ الله ، والإقبال على الآخرة ، والرغبة في الجنة ، وإيثار الآخرة على العاجلة ، والطَّمع في رضا الله وثوابه ، ومن وظيفة كلِّ مدرسة إسلاميَّةٍ أو جامعةٍ إسلاميَّة ، ومركزٍ إسلاميٍّ للتعليم والثقافة أن تخرِّج رجالاً يقومون عن جدارة ومقدرةٍ بالتلاوة ، وبتعليم الكتاب ، والحكمة ، وبالتزكية : الأركان الأربعة والمقاصد الأولى التي كانت لها البعثة ، ويخلفون الأنبياء في مهمَّة الدَّعوة ، ولا يتمُّ تعليم الكتاب ، والحكمة ، والتلاوة ، ما لم يكن مقروناً بالتزكية والإحسان ، أعني : أنَّ العلماء لا يستطيعون أن يؤدُّوا دورهم المطلوب حتى يتخلَّصوا من عبادة النفس والهوى ، والخضوع لدواعي النفس الأمَّارة بالسُّوء ، وعادوا لا يحيد بهم أكبر كميةٍ من الثراء ، وأيُّ نوعٍ من العزِّ والشَّرف ، وأيُّ جاهٍ محسودٍ ، ومنصبٍ مرموقٍ عن مبادئهم ، وأغراضهم ، ودعوتهم ، ومهمتهم ، وعن أسلوب حياتهم الإسلاميِّ ، وعن مستواهم السامي .

يا سادة! إن العرب والعجم لا ينقصهم اليوم شيءٌ إلا حياة قناعةٍ وزهدٍ ، إنَّ الإنسان لا يخضع إلا حيث يجد ما لا يوجد عنده ، تلك هي القاعدة التي لا تختلف في الشرق والغرب ، إنَّنا لن نعجب إلا بمن نراه أفضل منا بأيِّ وجهٍ من الوجوه ، أمَّا إذا كان أحدٌ يستوي معنا ، ويوجد عندنا كلُّ ما يوجد عنده من علمٍ ، أو شرف ، أو ثراءٍ ورخاءٍ ، وما إلى ذلك ، ولو بفرقٍ يسيرٍ ، وباختلافٍ في الكمِّيَّة ، فلن تأخذنا منه روعةٌ ، ولن ينال منَّا الإعجاب والتقدير ، فالذين أخذوا بالمادية ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ ، وأصبحوا لا يجدون للمادَّة بديلاً ، ولا يرون عنها محيصاً ، حين يقصدون العلماء ورجال الدين ، ويجدونهم مثلهم في الإقبال على الدُّنيا ، والطمع في حطامها ، ويدرسون حياتهم في بيوتهم ، وأسلوب عيشتهم ، ومستوى معيشتهم ، يصدرون عنهم ، وهم يحملون سوء الظنِّ بهم ، ولا يتأثَّرون بهم في قليلٍ أو كثيرٍ ، إنَّنا نحتاج اليوم إلى علماء الدين الذين يحسنون عملية تلاوة الكتاب ، وتعليم الكتاب ، والحكمة ، والتزكية ، وينوبون الأنبياء الكرام عليهم السلام في مقاصد البعثة والنُّبوَّة عن

جدارةٍ واستحقاقٍ ، «إن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً ، لكن ورَّثوا هذا العلم»[١].

إنَّ أكبر التحدِّي اليوم هو المادية ، ولا يمكن مقاومتها إلا بسلاح التمرُّد عليها ، والزُّهد في زخارف الدنيا ، والتسامي عن سفاسف الأمور بأوسع المعاني وأعمقها وأشملها ، وتأكيد هذه الحقيقة بالقول ، والعمل ، وأسلوب الحياة.

إنَّنا لا ندعو بذلك إلى الامتناع عن الطيبات ، وتحريم الانتفاع بوسائل الحياة ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ [الأعراف: ٣٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ [التحريم: ١]. . . نعم لنتمتَّع بالمباحات ، ولنتمتَّع بالطَّيبات ، ولنستغلَّ وسائل الحياة ، وإذا كنَّا نستطيع أن نأكل اللذيذ من الطعام ، ونتناول المريء من الشراب ، ونلبس الوضيء من اللباس ، ونسكن الهنيء من البيت ، فلا بأس بذلك ، ولا حاجة إلى أن نتكلَّف في الزهد فيه ، كما روي عن بعض غلاة المتصوِّفين: أنَّه كان يلقي الماء في الإدام المطبوخ المهيَّأ للأكل حتى يفقد طعمه ، وبعضهم كان يضع الملح أكثر من القدر المطلوب حتى لا يعود الطعام سائغاً هنيئاً ، فمثل هذه «التزكية» ليس من الإسلام في شيءٍ ، وسماه بعض السلف بـ «الزهد العجمي» بل المهم أن نتجرَّد عن الجشع ، والتهالك على الدنيا ، وعن أن يكون شعارنا بصدد المادة «هل من مزيد» فلا تشبعنا أيُّ كميةٍ من المال ، ولا أيُّ قدر من الثراء والرَّخاء ، ويجب أن يكون علماء الدين على جانبٍ من الزهد في هذه السفاسف.

الحاجة إلى رجالٍ متمرِّدين على المادِّيَّة متسامين على الأغراض:

أيها السادة! إنَّ العنصر الهامَّ الأقوى من الوسائل التي نحتاج إليها اليوم من أجل إنقاذ المجتمع الإسلاميِّ ـ والتي تحدَّثت عنها في كلِّ مناسبةٍ ، وفي

(١) حديث متفق عليه واللفظ للبخاري.

كلِّ نادٍ ووادٍ عبر باكستان من «كراتشي» إلى «إسلام آباد» ومنها إلى «فيصل آباد» وفي المدن العربية من قبل ـ هو حياة القناعة ، والزُّهد ، والإباء ، والشَّمم التي يجب أن يعيشها علماؤنا ، إنَّه لزامٌ على العلماء أن تكون حياتهم مثاليةً ، تشفُّ عن أنَّهم من طرازٍ آخر فريدٍ ، ومن طبقةٍ خاصَّةٍ ذات مميِّزات ، وتدلُّ دلالةً صارخةً على أنهم ورثة الأنبياء والنائبون عنهم ، فيتبعون هديهم ، ويسيرون سيرتهم ، ويحذون حذوهم ، وليسوا صرعى المادية ، وقتلى القطيفة ، والخميصة ، وعبيد الدينار والدرهم ، يشعر جليسهم بتفاهة الدنيا وضآلتها ، وأنَّ المال والثروة ليس كلُّ شيءٍ في حياة الإنسان ، وأن يثبتوا بأسلوب حياتهم ، وبإبائهم ، وكبر نفسهم ، وتساميهم عن الأغراض: أنَّهم هم الطلبة ، وليسوا طالبين ، فليتردَّد إليهم من شاء ألف مرَّةٍ ، ولكنَّهم لا يتردَّدون لشيءٍ إلى أحدٍ إلاَّ من أجل تبليغ الدعوة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، أو من أجل تحقيق واجبٍ دينيٍّ ، وإحياء سنَّةٍ ، لا من أجل تحقيق غرضٍ شخصيٍّ ، أو لشفاعةٍ ، ووساطةٍ.

ليس هناك شيءٌ يملأ هذا الفراغ:

إنَّها حاجة باكستان وكلُّ بلدٍ إسلاميٍّ الأكيدةُ ، وليس هناك شيء يملأ هذا الفراغ لا يملؤه التصنيف والتأليف ، ولا الخطابة والكتابة ، ولا البحث والسياسة ، ولا الكلام الساحر الأخَّاذ ، إنَّه يجب أن يكون هناك رجالٌ يؤمُّهم رجال السياسة ، والسلطة ، والقوة ، راغمين ، مضطرين ، مدفوعين ، ويجدون عندهم دواءً لدائهم ، وشفاءً من سقمهم ، ويشعرون بتفاهتهم مقابل عباد الله.

وقد قلت في مناسبةٍ أخرى: إنَّه إذا كنتم لا ترون حاجةً إلى «التزكية» و«الإحسان» فلا بدَّ إذاً من شيءٍ آخر يقوم مقامهما ، ويؤدي دورهما ، ويشعر الناس بأنَّهم مصابون في معنوياتهم ، ومنقوصون في أخلاقهم ، وسافلون في سلوكهم وعاداتهم ، ويشعرون بعد الجلوس إلى صاحبه بقوةٍ جديدةٍ ، وبروحٍ جديدةٍ ، وتلوت بهذه المناسبة بيت الحطيئة:

أقلُّـــــوا عليهـــــمْ لا أبـــــا لأبيكـــــمُ
مـنَ اللـوْم أو سـدُّوا المكـانَ الـذي سـدُّوا

أيها الأخوة! إذا كنتم تلغون مستشفىً ، فلا بدَّ إذاً من مستشفى آخر يقوم مقامه لأن المستشفى لا ينوب عنه إلا مستشفى ، والطبيب لا يسدّ مكانه إلا طبيب ، فإذا ما أغلقتم مستشفى ، وفتحتم مكانه حماماً مثلاً ، أو مكتبةً ، أو مدرسةً ، فإنَّها ـ على الاعتراف بقيمتها ـ لا تغني غناءه ، ولا تفعل فعله .

إنَّ تحدِّي العصر الحاضر هو المادِّيَّة ، وردُّها الصحيح المشروع المعقول هو تزكية النفس ، الغير المشوبة بشيءٍ لا يوجد نظيره في الكتاب والسَّنة ، وفيما تعامل به المسلمون في عهد النبوة ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ وعهد الصحابة ، فليكن الحاملون للوائها راسخين في العلم ، وراسخين في الدِّين معاً ، فاهمين لروح الشريعة ، متشربين لحقيقة الإسلام . . . اللهم وفقنا لما تحبُّ وترضى . . . وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين .

* * *

إنّما الشباب هم أولئك الّذين يقتنصون النُّجوم

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في ٢٥/ يوليو ١٩٧٨ م بجامعة بنجاب بمدينة لاهور ، وكان هذا المخيَّم مخيّم جمعية الطلبة الإسلامية التربوي قد ضمّ خيرة الطلاب في مختلف الكليات المنبثة في ولاية بنجاب ، والمسؤولين عن المخيَّم.

إخوتي الأعزاء! قد شعرت بوجودي بينكم ، وحضوري في مجلسكم هذا بسرورٍ ، لا يشعر به إلا العامل في مجال الدَّعوة الإسلاميَّة ، أو المدرِّس ، والأستاذ في مدرسة إسلاميَّةٍ ، الذي استهلك مهجه في بناء الشباب الإسلاميِّ وعلى تربية البراعم في حديقة الإسلام ، ويتمنَّى أن لو أتيح له أن يقرَّ عينيه برؤية شباب وصفه الدكتور محمد إقبال في بيته البليغ :

«إنِّي إنَّما أحبُّ الشباب الذين يقتنصون النُّجوم والكواكب» .

وإنما طبت نفساً بهؤلاء الشباب الكرام لأنِّي أرى فيهم خيراً كبيراً ، أرى أنَّهم سوف يقفون حياتهم لخدمة الإسلام ولإعلاء كلمة الله ، ويلتزمون الصِّراط المستقيم .

الصِّراط المستقيم في دقّته وحدَّته كالصِّراط الذي يواجهه الجنّ والبشر يوم القيامة :

الصراط المستقيم ـ أيها السادة! ـ قد يتحوَّل إلى «الصِّراط» الذي هو أحدُّ من السيف ، وأدقُّ من الشَّعر ، فالحمد لله الذي اختارنا لهذا العمل العظيم ، وأراد أن يكرمنا بنعمه ، وأن يشملنا بآلائه عن طريق هذا «الصِّراط» . . . وقد جاء في الحديث الشريف أنَّه ـ حينما يكرم العبد المؤمن بالجزاء الأوفى ، والثواب المستوفى من ربِّه الكريم الرحيم على ما لاقاه من الشدائد في سبيله في الدُّنيا ـ يتمنَّى كلُّ من يشهد هذا المشهد أن لو وفق إلى معاناة أمثال هذه المشاقِّ ، وقطعت جلودهم بالمقاريض ، ونشرت رؤوسهم بالمناشير . . . فلنحمد الله عزَّ وجلَّ على أنه جعلنا موضع اهتمامه ، وانتقانا من بين عباده ، لكي يغطِّينا بجميل كرمه .

وقد جرَّبتم ـ يا إخوتي التلاميذ ـ أنَّه إذا كان هناك طالب مجدٌّ وصل الليل بالنَّهار ، وعاش في مراجعة الموادِّ الدراسيَّة واستظهارها ، واستوفى ظمأ اجتهاده في الدِّراسة ، ثم حضر قاعة الامتحان ، ففاجأته أسئلةٌ سهلةٌ لا تحتاج الإجابة عليها إلى اجتهادٍ وإجهاد ، فيقلِّب كفَّيه ، ويتحسَّر على

سوء حظه ، لأنه يرى في ذلك ضياعاً لجهده ، واستهانةً بقيمة سهره ليل نهار ، ويتمنَّى أن لو علم بحيلةٍ من ذي قبل أنَّ الأسئلة ستكون بهذه المكانة من السهولة ، أمَّا إذا استقبلته أسئلةٌ صعبةٌ تتطلَّب أعمال الجهد والفكر ، والإمعان والتقليب ، فيرى كأنَّه استوفى قيمة جهده .

إنَّ التسهيلات تسبب العقبات في طريق الحياة :

ومن فتور الهمَّة أن نشكو صعوبة الحياة ، وأن نقول : نحن نعيش في عصرٍ متأزِّم ، ونسير في طريقٍ مفروشٍ بالأشواك ، ومن بعد الهمة والطموح أن يشكو الإنسان السهولة ، ويظنَّ في نفسه كأنه حُطّ من شأنه ، وغضَّ من مكانه ، ولم يُر أهلاً لمواجهة الشدائد ، ومنازعة العقبات ، ومصارعة الجنادل والصخور . . . ولو حفلت الحياة بالسهولة ، لغابت لذَّتها ، وفقد رواؤها ، ولقد صدق الشاعر الأرديُّ الذي قال :

«إنِّي أمضي في طريق حياتي أهزؤ بالشدائد المتموِّجة والمشاقِّ المتلاطمة ، ولو كانت الحياة كلها سهولة؛ لكانت كلاًّ وعبئاً ثقيلاً لا يطاق» .

ربكم يخاطبكم :

يا سادة! قد تلوت عليكم آيةً من سورة الكهف ، وثبت إلى لساني عفواً: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : ١٣] ، و«الفتية» جمع فتى ، وهو الشباب الحدث الناهض ، يقول الله تبارك وتعالى : إنَّ هؤلاء الشباب الطيبين الطاهرين أحكموا إيمانهم بالله ، وأوثقوا رباطهم مع ربِّهم ، فلما أتمُّوا هذه المرحلة الأولى من عند أنفسهم ، زدناهم نحن هدىً ، وقوَّينا قلوبهم ، وربطنا عليها .

إنَّ الآية الكريمة تحدد مسؤوليتنا نحن ، وتشير إشاراتٍ كبيرةٍ إلى أنَّه إذا ما قمنا بما يجب علينا إلى حدٍّ مستطاع فهنالك يأتي نصر الله ، وتستقبلنا رحمته . . . وهذا المعنى تؤكده كثيرٌ من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبويّة الشريفة : ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود : ٥٣] ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمّد : ٧] ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ

بِعَهۡدِيٓ﴾ [البقرة: ٤٠] وقد شكوا إلى النبيِّ ﷺ قلة الماء، وكان له ﷺ أن يتضرَّع إلى الله ويستمطره رأساً، لكنه لم يصنع ذلك، بل دعا بالبقية الباقية من الماء، فوضع فيه أصبعه، فإذا به يفور فوراناً، وقد شكي إليه قلة الغذاء، فاستدعى بما بقي من ثمالة الطعام، وتجمَّع لديه شيءٌ من التَّمر اليابس، وكسرة الخبز البائتة، وشيءٌ من الشعير، وما إليه من الطعام، فدعا الله عز وجل وتمسَّح به بيده المباركة، فزاد زيادةً ملموسةً، حتى كفى الجيش كلَّه، وقد كان له أن يدعو الله تبارك وتعالى كسيدنا عيسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٤]. لكنه ﷺ إنما لم يصنع ذلك لأنَّ أمته كانت مكلَّفة بإعمال مواهبها الذاتية، وقوَّتها الإرادية، وعزيمتها الشخصية؛ قد كتب عليها الله أن تمرَّ بمراحل الحياة المتنوعة، وأن تواجه من وضعيَّة الدعوة والزمان ما لم تواجهه أمة قبلها، فلم يمكنها أن تجلس ضائعةً عاطلة، وألّا تحرك يديها، ولا تمشي برجلها، ولا تفكر بعقلها، ولا تستخدم ساعديها، ولا تحكُّ جلدها بظفرها.

ومن ثم ألقى عليها هذا الدرس الحكيم، وقيل لها: تقدَّمي بما عندك نزده من عندنا، وقد تجلَّت هذه الحكمة الدقيقة العميقة في بعض ما ظهر على يديه ﷺ من المعجزات، فواجه بثلاثمئة وثلاثة عشر نفراً (وهم عزل عن الوسائل المادية) جحافل الكفار في ميدان بدر، وقد كان له غناء في أن يردَّ الكفار بقوته المعنوية، ويهزمهم بدعائه المستجاب، وأن يقذف عليهم الحصى المقروء عليها، وأن ينفثهم بالآيات القرآنية، لكنه لم يجرب هذه الوسائل، بل قطع مسافةً شاسعةً، مسافة ٧٠ ـ ٨٠ ميلاً، ونزل ببدر، وصفَّف جيشه كعادة القواد في الحرب في عصره... فلنع هذا الدرس، ولنكن على ذكرٍ منه دائماً.

كانت القضية قضية الرُّبوبية:

كانت الحكومة قد أحكمت قبضتها على موادِّ التموين، وعلى كل

وسائل الحياة والاقتصاد ، فما كان أحدٌ من الشعب يفوز منها بشيءٍ إلا الذي كانت تتكرَّم عليه الحكومة بعطفها ، وهي التي كانت توزِّع الوظائف كما تشاء ، وتوزِّع الثروة كما تشاء وتتصرَّف في وسائل الحياة كما تشاء ، كأنها صارت «ربّاً صناعيّاً» . . . فيقول الله تبارك وتعالى : كان هناك فتيةٌ طموحون قد نهضوا ، وأعلنوا كفرهم بربوبيتها ، وأفردوا الله بالربوبية ، وأخلصوا له العبودية ، وقالوا بملء أفواههم في نشوةٍ واعتزازٍ : لن نخضع إلا لله الواحد القهار ، لأنَّه هو الذي يربينا ، ويرزقنا ، وهو الذي يهيىء لنا وسائل الحياة ، وطريق المعاش ، وهو الذي يعزُّ ويذلُّ ، فينصر من يشاء ، ويخذل من يشاء ، ويعطي من يشاء ويمنع من يشاء .

فلما عبروا هذه المرحلة في كل توفيقٍ ونجاحٍ ، زادهم الله هدى . . . وقد دلَّت الآية : أنَّ الهداية مصدرها واحدٌ ، وهو الله الأحد الصمد ، ولا يمكن أحداً أن يكسب الهداية بذكائه ، أو قوَّته الفكرية والعقلية ، أو عن دراسته وكتاباته ، أو عن طريق خوضه في المكتبات ، وسيل المعلومات ، فقد نسب الله تعالى الهداية إلى نفسه ، واختار صيغة المجموع في الخطاب كالعظماء والسَّلاطين . . . على كلٍّ فإنَّ هؤلاء الفتية الموفّقين ، السعداء الصالحين ، قد بلغوا إلى هذه الذروة السامقة بلفتةٍ حانيةٍ من ربِّهم الكريم ، وما استحقُّوها إلا بعد ما أسلموا وجوههم له ، وانقطعوا إليه ، وكفروا بكلِّ الأرباب ، وضربوا معبودية كلِّ الآلهة الكاذبة عرض الحائط ، واجتهدوا في معرفة الله وحده ، وتعمَّقوا في معرفة صفاته السَّامية ، وأسمائه الحسنى ، وأعملوا في ذلك جهدهم وفكرهم .

طموح الشباب وفعّاليتهم :

وقد حدث ذلك عندما نزحت النصرانية لأول مرَّة من سيناء مركزها الأصيل إلى روما ، التي كانت تحكمها حكومةٌ وثنيَّةٌ متزمِّتَةٌ ، لما وصل إليها هؤلاء الفتية الدعاة بدأ الشباب يتأثرون بدعوتهم ، ويدلُّنا التاريخ على أن الشباب في كثير من الأحيان كانوا هم السابقين الأولين في الإساغة لدعوةٍ ، والتأثر بفكرةٍ ، لأنَّ الشيوخ والكهول ربما يكونون مثقلين بأعباء

وأحمال وقيود وأغلال ، أغلال التقاليد والأعراف ، وأغلال العلاقات والصِّلات بالبلاد والشعب ، وأغلال القيم العائلية ، فكل ذلك يقف حجرة عثرة في طريقهم إلى منزلٍ آخر ، وعبورهم إلى شاطيء الصواب ، وذلك مثل من يكون مشدوداً بالأحجار ، أو يحمل الأمتعة والعروض لا يمكنه أن يسبح في الماء ، أو يعبر إلى الشطِّ ، في السهولة التي يعبر بها الرَّجل الأعزل الخفيف.

أمّا الشباب: فلا تمنعهم جنادل وصخورٌ تعترض طريقهم من التوصل إلى المنزل بفضل فتوَّتهم ، وطموحهم ، وحماسهم الثائر ، ودمهم الفائر ، وهمَّتهم الوثَّابة ، وروح «اللا اكتراث» التي هي من أخصِّ خصائص الشباب ، فما أن يقرع آذانهم صوت الحق إلا ويقولون: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ . . . ﴾ [آل عمران: ١٩٣] فكذلك كان أولئك الفتية المؤمنون ، ما كانت في أرجلهم قيود التقاليد والأعراف ، والصلات والوشائج ، التي قد تثقل أرجل الطاعنين في السنِّ ، فهرعوا إلى صوت الحقِّ ولبُّوا نداء الصِّدق.

طـريـقٌ مـفـروشٌ بـالأزهـار وطـريـقٌ مـفـروشٌ بـالأشـواك:

ثم جاء دور المحنة والبلاء والتمحيص الذي يأتي طبعاً في طريق الدعوة ، فيواجه الداعي موقفين ، مؤدَّاهما واحدٌ ، أو طريقين كلاهما ينصبُّ في نهرٍ واحدٍ: طريق مفروش بالأشواك ، بل بالجذوات المتَّقدة ، والنار المحرقة ، وطريق الإغراء بالجوائز والصِّلات ، والمناصب والجاه ، والتسهيلات والامتيازات ، وكلاهما طريقان شاقَّان وعران تعترضهما وهدات الهلاك ، وهوى الدمار والبوار.

ويقول المحنَّكون: إنَّ الطريق المفروش بالأزهار أشدُّ وعورةٌ من الطريق المفروش بالأشواك ، فقد يفعل الترغيب ما لا يفعله الترهيب ، وقد أكَّد هذه الحقيقة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ، فقد صمد أمام كلِّ التهديدات والترهيبات ، بل أنواع التعذيب التي قام بها المعتصم بالله فيما يتعلق بقضية كون القرآن مخلوقاً أو غير مخلوقٍ ، حتى ضُرِب بالسِّياط وانخلعت كتفه ،

تلك السياط التي لو صبت على الفيلة لانهارت أمامها ، ولما مات المعتصم ، وخلفه أخوه المتوكل ، وطلب الإمام إلى مقرِّه وبلاطه ـ وكان الإمام قد حمل معه الزاد ليسدَّ به رمقه ، وما كان يلوِّث يده بالطعام الرسمي ـ وجعل يبعث إليه الصرَّة من الدنانير ، فقال الإمام : إنها أشدُّ بلاءً من سياط المعتصم بالله .

والواقع أنَّ الحكومات تستخدم الوسيلتين حسب الضرورة والأوضاع ، فقد تعمل وسائل التهديد والتعذيب ، وقد تستعمل وسائل الإغراء والترغيب ، وقد تكون الثانية أشدَّ من الأولى ، ويكون الصُّمود أمامها أدقَّ وأحرج ، لأن الإنسان إذا تماسك بنفسه وتجالد ، فقد يخضع أمام إلحاح الأبوين اللذين قد يكون لهما اتصالٌ قويٌّ بالبلاط وبرجال الحكومة ، أو يشغلان مناصب حكوميَّةٍ ، إذاً فتضغط عليهما الحكومة أن يقنعا فلذة كبدهما بفكرة الحكومة ، وتفتنهما بوسائل الإغراء الكثيرة ، من المستقبل الزاهر ، والمنصب الكبير ، والجاه العريض ، والمال الكثير ، وبأنَّه من يخلفهما في شأنهما ، ومكانهما ، إذا تنكر لهما ولده الوحيد الحبيب؟

ولكن حينما تخفق هذه الوسائل كلُّها ، وتنهار أمام صمود المؤمن المخلص تلتجىء الحكومة إلى التهديد ، وإلى التعذيب والتشديد ، والضرب بالنار والحديد ، وهنالك يحتاج إلى نصر الله يقوم بجانبه ، ويقوِّي عضده ، ويمسك بيده .

وربطنا على قلوبهم :

وهنالك ربط الله على قلوبهم الخفَّاقة ، ونفوسهم المضطربة القلقة ، وألهمهم الثبات والصمود ، وأخرج من قلوبهم الجبن ، والحزن ، والخوف ، والحيرة ، والاضطراب ، وملأها شجاعةً ، وسكينةً ، وقوَّةً ويقيناً ، ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الكهف : ١٤] وليس المراد من القيام ، هو القيام المقابل للجلوس ، ولكن المراد هو انبعاث العزم في قلوبهم ، الذي بعثهم على التمرُّد على البيئة الفاسدة ، الدنسة المتعفِّنة ، التي اتخذت أرباباً وآلهةً كثيرةً من دون الله ، فأعلنوا كفرهم بكلِّ

الآلهة المصطنعة ، وقالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤] وقالوا: إنَّ هؤلاء أعضاء مجتمعنا ، وأبناء قومنا ، وبنو جلدتنا الذين يبدون جادِّين وقورين ، مجرِّبين محنَّكين ، أذكياء عاقلين ، ما لهم قد اتخذوا من دون الله الواحد الأحد الصمد آلهةً شتَّى ، ولا يملكون على ألوهيتها دليلاً واضحاً يستندون إليه ، وبرهاناً ساطعاً يعتمدون عليه ، إذاً فهم يفترون على الله ، وليس أحدٌ أظلم ممن افترى على الله كذباً. . . ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥].

إخوتي الأعزاء! إنَّ هذه الآيات الكريمات من سورة الكهف تقول لنا بالتأكيد أن نحكِّم أولاً الإيمان بالله ، على بصيرةٍ ، وعن معرفةٍ بصفاته ، وفي صورة اقتناع العقل والقلب معاً.

والأمر الثاني الذي يجب أن نضعه في الاعتبار: هو أن نظلَّ على اتصالٍ دائمٍ بمنبع الهداية والإرشاد ، وأن نشعل جمرتنا الإيمانيَّة ، ونلهب غيرتنا الإسلاميَّة ، وأن نتلقَّى شحنةً جديدةً ، ودفعةً جديدة عن طريق دراسة الكتاب والسنة ، وأسوة الرسول عليه السلام ، وأصحابه البررة الكرام ، وأتباعهم العظام ، والمجاهدين المخلصين في سبيل الإسلام ، وأن نجدِّد إيماننا بكلِّ ذلك ، ونشحن قلوبنا بحرارةٍ إيمانيَّة جديدةٍ ، كما تشحن البطارية عند الفراغ.

إنَّنا نعيش في هذا العالم المادِّيّ ، وقد تتلمذ على أساتذةٍ لم تؤمن قلوبهم بهذه الحقائق الدِّينيَّة الغيبيَّة ، ونواجه على كلِّ خطوةٍ ما يحيد بالإنسان عن طريق الرحمن إلى طريق الشيطان ، نعيش في مجتمع تموج فيه أسباب الإلهاء عن الله. . . من التلفاز ، إلى الراديو ، إلى الصحف ، والكتب الماجنة إلى السينما ، وإلى الأدب الخليع المتهتك ، حتى الأدب الذي كان يرجى أن يكون عذرياً بريئاً أو «حيادياً» على الأقل ، إنه عميل (AGENT) الفسق ، والفجور ، والخلاعة ، والمجون ، والإباحية والاستهتار ، والمثل الكاذبة ، والقيم الباطلة ، والعواطف النفسانية

والأنانية والجنس والشهوانية ، إنَّ هذا الشرَّ الذي يموج من حولنا قد جعلنا كأنَّنا في خضمٍّ متدفِّقٍ متموِّجٍ ـ والفضل يرجع في ذلك إلى الأوضاع الجاهلية التي نعيشها ، والنظامِ التعليميِّ والتربويِّ الذي فرض علينا ـ ثم يقال لنا :

. . . . إيَّـاك إيَّـاك أن تبتـلَّ بـالمـاء

وللتفادي من «الابتلال بالماء» نحتاج إلى أن نستزيد الهدي من الله ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف : ١٣] إنَّ وهج الجمرة الإيمانية ، وحرارة الحبِّ والحنان ، وقوة اليقين والإيمان ، هو الذي يذيب هذه الإغراءات الشهوانية المتنوِّعة ، كما يذيب وهج النار الشمعة ، إننا لن نستطيع أن نقاومها بنظامٍ جماعيٍّ فارغٍ مجرَّدٍ ، أو بضابطةٍ خلقيَّةٍ ، أصارحكم أيها السادة ـ في ضوء التجارب ـ إنَّ الإنسان لا يمكنه أن يصمد أمام قوة الإغراء والفتنة العمياء إلا بقـوَّة الإيمـان والعقيـدة ، والقـوَّة التـي يستمـدُّهـا مـن سيـر الصحـابـة ، والتابعين ، والمؤمنين اللاحقين .

مقـاومـة الـمـادِّيَّـة الـمسلَّـحـة :

إنَّ هذه القوَّة لا تحصل إلا بالصَّلاة ، والدُّعاء ، والالتجاء إلى الله ، والصِّلة القويَّة بالله ، وتلاوة القرآن الكريم ، والفزع إلى الركوع والسجود ، والجلوس إلى عباد الله الصَّالحين الذين عضَّدوا صلته بربهم ، وأصلحوا بالهم ، وأخلصوا أعمالهم .

يا سادة! إذا حاولنا أن نقاوم هذه المادِّيَّة التي دجَّجتها أوربا وأمريكا بأحدث الأسلحة ، التي تزلُّ أمامها أقدام الأبطال المغاوير والشُّجعان الأقوياء ، فإنَّنا لن نملك أن نقاومها بالأنظمة ، أو نظم الأخلاق ، بل إنما نستطيع مقاومتها بقوَّة العقيدة والإيمان ، والعلاقة المتينة مع الله ، العلاقة التي تجعلنا إذا سجدنا سجدةً تضطرب لها الأرض ، كما يقول الدكتور محمد إقبال :

«إنَّ السَّجدة التي كانت تهتزُّ لها الأرض ، وترتعش ، تتطلَّع إليها المساجد والمحاريب» .

ولا بأس إذا ارتعشت منها الأرض ، أو لم ترتعش ، ولكن المهمَّ أن ترتعش قلوبنا ، وتهتزَّ ضمائرنا ، إذا فزتم بمثل هذه السجدة ، فإنّكم ستستطيعون أن تقاوموا المادِّيَّة ، وتحتاجون إلى كسب هذه السجدة إلى اتِّباع سيد الأنام ، سيدنا ، ومولانا محمَّد ﷺ ، وحبِّ الله ورسوله ، والتزام السنن ، وإعطائها حقَّها من العمل والتطبيق . . . ومن الذي لا يخطىء ، ولكنَّ المهمَّ ألا يكون منا الإصرار على الخطأ ، وأن نتصيَّد له الدلائل ، بل نرى في النَّبيِّ الأعظم ﷺ الأسوة الكاملة ، ونصبوا إلى محاكاته في الأعمال والأخلاق والسلوك ، وإذا ما صدرت منَّا أخطاءٌ فإنَّ التوبة الصَّادقة كفيلةٌ بمحوها إن شاء الله ، إنَّه لعصرٌ دقيقٌ متأزِّمٌ نعيش فيه نحن ، لو استطعنا فيه أن نتمسَّك بدين الله ، ونتشبَّث بشرائعه ، وأحكامه ، ونتَّبع سنة حبيبه وصفيِّه ، وسعينا لإعلاء كلمة الله ، ولأن تظلَّ راية الإسلام خفاقةً ، لنكون قد استحققنا رحمة الله في الدنيا والآخرة ، واستوفينا من الله الجزاء الذي لا يتصوَّر .

إنَّ الإسلام هو وحده الحريُّ بالإرشاد والقيادة :

وما نراه في الشباب من التحمُّس والانتصار للإسلام ، ليس من المصادفة ، بل هو قضاء الله المحتوم ، وأمره المبرم ، ألمس ذلك فيكم الآن ، وأنا في «لاهور» ، كما لمسناه في الشباب أمثالكم في مصر والشام ، وفي الأقطار الأخرى ، قد رأينا فيهم ، ولا سيما في الشباب الجامعي ، وطلبة كليات الطبِّ والهندسة من العاطفة الإسلامية الجيَّاشية والغيرة الإيمانية الملتهبة ، ما قد لا نراه في الشباب الذين يتعلمون في المدارس ، ومراكز الثقافة الدينية الخالصة ، قد رأينا في الشام أنَّ الشباب الجامعي ولا سيما الطالبات أصبحن يعلنَّ ولاءهن للإسلام ويصارحن الوقوف بجانبه ، والانتماء إليه ، والانتصار له ، ويقدِّمن في سبيله على نوع من التضحية ، فقد أصررن على أنهن لا يحضرن في الجامعات والكليات إلا في الحجاب الشرعيِّ فإن قبلت الجامعات ودور التعليم والثقافة ذلك فبها ، وإلا فلا حاجة لنا في التعليم والثقافة .

وكذلك وضعيَّة باكستان اليوم قد أحدثت ردَّ فعلٍ صالحٍ جديدٍ في الشباب مما يدلُّ على أنَّ الله يريد بالإسلام وأهله خيراً ، وأنَّ الله هو الذي أراد هذا التحوُّل ، وأنَّه يريد أن يمسك هؤلاء الشباب بزمام الحكومة ، وأن يقودها إلى مسارٍ صحيح ، وإلا فأنّىٰ هذا الحماس الإسلامي ، وهذه الحركة العجيبة ، والعاطفة الجديدة في الشباب الجامعي الذي عُرِف بتحرُّره ، وانطلاقه .

العناية بتربية السيرة :

إخوتي! وأريد أخيراً أن أضع أمامكم أموراً غربلتها تجاربي المحدودة.
الأول : أن تعنوا بتربية السيرة عنايةً كاملةً ، لأنَّها كالدَّم في الجسم الإسلاميِّ أو الإيمانيِّ للحياة ، وأول وأهمُّ ما ينقص اليوم حركاتنا الدينية هو هذا العنصر الهام ، ومن هنا يسقط الشباب في وسط الطريق ، وتنهار أعصابهم ، وتخور قواهم ، ولو تمَّت تربية السيرة والسلوك فيهم على أساس الكتاب والسنة ، لثبتوا إلى آخر الطريق ثبوت الجبال الراسيات .

العناية بنفسه قبل غيره :

والأمر الثاني : أن تبذلوا عنايتكم على أنفسكم قبل غيركم ، فقد عمَّ في هذا العصر أنَّ المرء لا يهمُّه أمر نفسه ، كما يهمه أمر غيره ، وهذه النفسيَّة المريضة قد خلفتها فلسفتنا الاجتماعية ، والسياسية المعاصرة ، فأصبح كلُّ إنسانٍ يقع نظره على عيوب غيره ، يحاسبها ، ويتتبعها ، ويعدِّدها ، ويعيب على كلِّ حزبٍ ما صنعه ، وينعى على كلِّ طبقةٍ ما أنجزته ، ويؤاخذ على فلانٍ أنه قصرَّ في أداء واجبه ، ولا يدعه ذلك كله أن يرجع إلى نفسه ، فينهاها عن غيّها ، ويحاسبها على نقائصها ومعايبها ، فيستخدم الوسائل لإزالتها .

حذار أن يكون نصيب السَّلب أكثر من الإيجاب :

والأمر الثالث الذي يجب أن يكون في الاعتبار هو : ألا يطغى السَّلب على الإيجاب ، ولا بدَّ أن يكون هناك توازنٌ فيما بين الأمرين ، فلا تُعَوِّدُنَّ أنفسكم على ألا تنظروا إلى شيءٍ إلاَّ نظرة الانتقاد ، فلو ذكّركم الجلوس إلى

أحد بالله ، وزادكم إيماناً ويقيناً ، ورغَّبكم في الصَّلاة ، وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، فاغتنموا ذلك ، وقدِّروه حقَّ قدره ، ولا تقولوا: إنَّه لا فائدة في الجلوس إليه؛ لأنه لم يرفق لإقامة دولةٍ إسلاميَّة ، أو لم يناد بتنفيذ النظام الإسلاميِّ من منبرٍ سياسيٍّ ، لأنكم إذا تعلمتم الصلاة ، والصيام ، ونجحتم في استيعاب الكيفية ، والمعنوية؛ التي تضفي عليها الحياة والنور ، فكأنَّكم تعلمتم طريقة صياغة الحياة صياغةً إسلاميَّة ، وكان ذلك أساساً لكلِّ عملٍ إسلاميٍّ.

وسِّعـوا دراسـتكم:

والأمر الرابع: أن توسِّعوا دراستكم ، وتعمِّقوها ، ولا بدَّ لكم من الاطّلاع المباشر على مصادر الإسلام الأصلية ، ولا بدَّ لكم من تعلُّم اللغة العربية؛ لأنَّها الوسيلة الوحيدة إلى فهم الكتاب والسنة ، ثم أحيطوا بالدراسة كلَّ نوعٍ من الكتابات ما دامت لا تدعو إلى شذوذٍ وانحرافٍ ، ولا يصحُّ الاقتصار على نوعٍ واحدٍ من الكتابات الإسلامية ، وعلى طرازٍ واحدٍ من الكتب؛ التي تبحث في الإسلام ، ولا يصحُّ الظنُّ في شخصية ما بأنها النموذج الكامل ، فلا حاجة إلى غيرها ، لأنَّ النموذج الكامل ، والأسوة الحسنة إنَّما هي شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام ، فإن كان هناك أحدٌ يرى غير هذا الرأي ، فإنَّ ذلك لا يدلُّ إلا على السطحية ، وعلى قصر النظر ، وضيق التفكير ، وقلَّة الاطِّلاع ، وهذا ما لا يليق بشبابٍ مسلمٍ ، متفتِّح القلب ، واسع الأفق.

وقد كنت أنا شغوفاً بتنويع الدراسة ، وكان من رأيي دائماً ألاَّ بأس من قراءة كلِّ نوعٍ من الكتب والمؤلفات ما لم يكن مشوباً بالمفاسد ، والسموم التي تلحق الضرر بالعقيدة ، وبشرط أن يكون الدارس قد بلغ مبلغ التمييز بين الخير والشرِّ ، والصالح والفاسد.

إنَّـكـم مـوضـع حـبِّي واهـتمامـي:

يا شباب! إنَّ حضوري في مجلسكم لدليلٌ على أنِّي أمنحكم حبِّي ، وتقديري ، وقد ذكَّرني الموقف بقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله

عنه ، وقد اجتمع حوله جمعٌ من الصحابة ، فعرض عليهم عمر رضي الله عنه ، أن يسأل كلَّ واحد منهم ربَّه ما يتمناه ، فقال بعضهم : نريد أن يكون لديَّ كمِّيَّة كذا من الفضة ، وأنفقها في سبيل الله ، كما تمنَّى بعضهم التوفيق للعبادة ، وكذلك كلٌّ دعا لما أحبَّه ، فلما جاءت نوبة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه تمنَّى أن لو غصَّ بيته بأمثال خالد بن الوليد ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وفلان ، وفلان رضي الله عنهم ، فيبعث كلَّ واحدٍ منهم إلى جبهةٍ يناسبها ، وتكون كلمة الله هي العليا في أرجاء المعمورة ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، وترفرف راية الإسلام على جميع البشرية على ظهر البسيطة . . . أيها الإخوة! ولا يمكن أن نضع أمثال هذه الآمال اليوم إلا في أمثالكم .

وأخيراً لا آخراً ، أحمد الله العلي القدير على أنّه سبحانه أتاح لنا فرصة الاجتماع بكم ، والتحدُّث إليكم ، وأبتهل إليه سبحانه أن يجعلكم في حرزه ، ورعايته ، فما نالكم مكروه ، ولا أصابتكم عينٌ ـ بأوسع معانيها ـ فقد تصيب الإنسان عينه ، فيبتلى بإعجابٍ زائدٍ بالنفس والغرور ، ويوفقكم أن تضعوا مواهبكم في موضعها اللائق .

* * *

الأرض الخصبة التي تُنبتُ الزُّرُوعَ والثمارَ وتُنْجبُ العباقرةَ والرجالَ

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في ٢٣/ يوليو ١٩٧٨ م بجامعة الزراعة (AGRICULTURE UNIVERSITY) بفيصل آباد ، واستمع إليها كبار المسؤولين عن الجامعة ، وأساتذتها وطلابها ، بالإضافة إلى أعيان المدينة ووجهائها ، وعددٌ وجيهٌ من رجال العلم والفكر والمثقفين ، وقد تحدَّث المحاضر إلى الطلاب العرب في الجامعة على طلبٍ منهم باللغة العربية في نفس الموضوع .

أصحاب السعادة والفضيلة ، أساتذة هذه الجامعة ، وإخوتي الطلبة والمستمعون الكرام!

يسرني جداً ويسعدني أنِّي وفقت للحضور وإلقاء الحديث في هذه الجامعة الموقَّرة ، الجليلة في وظيفتها وبخصائصها ، فشكري وتقديري للمسؤولين عن الجامعة على هذه الحفاوة والوفادة.

يا سادة! إنَّ البلد لا تقاس عظمته بكثرة الجامعات التي تقوم في رحابه ، ولا يقوّم بخصبة أراضيه ، وقوَّة إغلالها ، وكثرة إنتاجها ، وحسن إنباتها ، أو بكميةٍ كبيرةٍ من أصحاب الملايين ، وأولي الثراء والرَّخاء ، والترف والسَّرف ، أو بارتفاع مستوى المعيشة في أهله ، بل المقياس الحقيقيُّ الذي يقاس به بلدٌ ، وتقدَّر به قيمته ، هو نسبة وجود ذوق العلم ، وروح البحث الذي يتَّصف به رجال العلم والبحث من أبنائه ، ونسبة عدد الجامعات ومراكز العلم والثقافة التي تقوم على هذا الأساس ، وتحقِّق هذا الغرض ، فلو كان هناك بلدٌ يزخر بأنواع النعم والخيرات ، ويحفل بالذخائر الطبيعية للثروات الهائلة ، وتدرُّ أرضه وسماؤه عسلاً ولبناً ، وبكلِّ نوعٍ من الوسائل والإمكانيات ، ولكن ينقصه الذوق الصحيح للعلم العميق ، والبحث الدقيق ، والدراسة ، والتحقيق ، ولا يوجد فيه ـ في كميَّةٍ وجيهةٍ ـ أولئك الذين وقفوا حياتهم على العلم ، وانقطعوا إلى الدراسة المضنية الجادَّة ، المثمرة المنتجة ، مستغنين عن كلِّ إشادةٍ وتحبيذٍ ، راغبين في رضا الله (وهو جوهر المقصود لدى المؤمن) ساعين في سبيل ترقية البلاد ، وتقديمها إلى الرَّخاء ، والنموِّ ، والازدهار ، لا يدفعهم إلى ذلك طمعٌ في جائزةٍ رسميَّةٍ أو في وسام التقدير والاعتراف من مؤسسة ، يجدون في التَّعب والعناء لذة لا يجدونها في الرَّاحة والجمام ، يرون في التعطُّل والبطالة تعذيباً لروحهم ، وخنقاً لمواهبهم ، ويرون فيمن يحول بينهم وبين العمل

العلمي ، الجادِّ المضني ، ألدَّ وأحنق عدوٍّ لهم ، لأنَّه قد أصبح لهم بمنزلة الماء للسَّمك ، والغذاء للجسم ، بل بمنزلة الرُّوح للجسد.

ترنحت جوانحي حينما زرت هذه الجامعة:

وقد خامرني سرورٌ بالغٌ حينما رأيت أنَّ هناك جامعة زراعة راقيةً ، يؤمُّها الطلاب والمعنيون بالموضوع من خارج البلاد أيضاً ، ولا سيما شباب العرب ، وتأكَّدوا أنِّي لم أكن لأشعر بهذه الفرحة الغامرة ـ التي شعرت بها عند زيارة هذه المؤسسة العلمية العزيزة ـ بزيارة متحف مهما كان عظيماً راقياً ، أو استضافتي في بلاطٍ رسمي عظيمٍ مهما توفرت فيه وسائل الحفاوة والإكرام.

أنفقوا خير مواهبكم في تعمير هذه البلاد:

وأرجو أنَّ الشباب الذين ينهلون اليوم من هذا المنهل الكريم سوف يبذلون خير ما يتمتعون به من مواهب وصلاحيات في صالح هذه البلاد ، ويفضلون خدمة الوطن على المرتَّبات العالية ، والمناصب السامية ، والجاه العريض في أوربا ، أو الولايات المتحدة الأمريكية ، التي أصبحت من سوء الحظ كعبة الطامحين إلى المادَّة والمعدة ، وقد رأيت بعيني رأسي لدى زيارتي لأمريكا ، وكندا (CANADA) أنَّ خيرة شباب الشرق ـ الذين يتمتَّعون بمواهب غنيةٍ ، والذين كان بوسعهم أن يغنوا بلادهم ويجعلوها تدرُّ لبناً وعسلاً ، وتفيض بكلِّ نوعٍ من الثروات والخيرات لو ركَّزوا بعض عناياتهم عليها ـ قد اختاروا مجالَ العمل والنشاط في خارج بلادهم ، ومهما كانت لهم في ذلك بعض المكاسب ، فإنَّ فيه خسارةً كبيرةً وضرراً فادحاً بمصالح بلادهم ، حيث هاجروها إلى بلاد الأجانب بل الأعداء بعد ما بلغوا طور العمل والإنتاج في حين كانت هي بأمسِّ حاجةٍ إلى صلاحياتهم ، وعلى ذلك فأصبحوا يخدمون الأجانب ، ويثرون بلادهم بنتائج أعمالهم ، وثمرات قوَّتهم العلمية ، والعقلية ، والفكرية. . . ولذلك أرجو إخواننا شباب هذا البلد ، والشباب العربي ـ وأظنُّ أنَّهم يفهمون حديثي ، فربما قد

تعلَّموا الأردية بطول مكثهم هنا ـ أنَّهم سيضعون بلادهم في عين الاعتبار ، وسيرونها هي المستحقّ الوحيد لمواهبهم ، وذكائهم ، ودراستهم ، ونتائج تفكيرهم . . . ومن المؤسف جداً ، بل وبلاهة العقل ، وفقدان الغيرة على الدِّين والوطن ، أن نضع مواهبنا في خدمة البلاد التي استعبدت الدول الإسلامية ، إنَّ الدول الإسلامية كلُّها اليوم خاضعةٌ لأمريكا أو روسيا ـ مباشرةً أو غير مباشرة ـ لا في مجال السياسة ، والاقتصاد وحدهما ، ولكن فيما يتعلَّق بمجال العلم ، والثقافة والفنِّ أيضاً ، فلو صرف شبابنا مواهبهم في صالح بلادهم وحدها ؛ لاستطاعوا أن يُكسبوها شيئاً كثيراً من الغناء والاكتفاء الذاتي ، ولاستطاعوا أن ينالوا ـ بهذا الطريق ـ جزاء موفوراً ، وعطاءً غير منقوص من ربِّهم وخالقهم .

الفلسفات والنظريات والبحوث العلمية لا يزال لها سلطانٌ على النفوس والعقول :

إنَّ لي في هؤلاء الشباب رجاءً كبيراً ، آمل أنهم سيقفون ببحوثهم العلمية ، ودراستهم الموسعة العميقة الشاملة ، وطموحهم العلميِّ في وجه تلك البلاد التي تغزو قلوب المسلمين عن طريق العلم ، والثقافة ، والدراسة ، إنَّه قد ولَّى العصر الذي كانت تستعبد فيه دولةٌ دولةً ، فإذا كانت هناك دولةٌ تحلم بذلك ، فإنَّها تعيش في عالم الأساطير والأوهام ، ولكن الغزو العلميَّ ، والفكريَّ ضدَّ الإسلام ظل قائماً على امتداد التاريخ ، وسيظلُّ .

لقد مضى على الإسلام حينٌ من الدهر ، قد هجمت عليه الفلسفة الإغريقية بكلِّ ما عندهم من رصيد الحيوية ، والفتوة ، والنشاط ، فقام لها رجالٌ من أبناء الإسلام ـ الذين كانوا قد سبروا أغوارها ، وخاضوا في أعماقها ، وعجموا عودها ـ فجعلوه هباءً منثوراً ، أمثال الأئمة : الغزالي ، والباقلاني ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، والرازي وغيرهم .

ثم جاء دور غزو الاستعمار الغربيِّ للإسلام عن طريق التاريخ ، وعمَّ في طول العالم وعرضه الرأي القائل بأنَّ مكتبة الإسكندرية أحرقها المسلمون ،

وقد قدَّمته أوربا كحقيقةٍ تاريخيةٍ مقرَّرة ، فخضع له كلُّ مثقفٍ وكلُّ دارسٍ ، وكلُّ من كان يكابر فيه ، أو يشكُّ ، أو يراه موضع جدالٍ ونقاشٍ ، كان هدف التُّهم ، وموضع الملام ، ويعيَّر بالجهل وبالبلاهة ، وقد وقف العالم الإسلاميُّ كله مسحوراً مبهوراً أمام هذا الرأي ، وبدأ الناس يقولون: أنَّىٰ للمسلمين أن يكونوا رائدي العلم والثقافة وعاملين في سبيل إنعاشه وتصعيده ، فقد بلغوا من محاربتهم للعلم أنهم قد أحرقوا مكتبة الإسكندرية بأمر خليفتهم عمر بن الخطاب ، لأنهم رأوا أن هذه المكتبة لو كان ما فيها من علمٍ وفنٍّ مطابقاً للوحي الإلهي والحديث النبوي ، فلنا غناء في كتاب الله وسنة رسول الله ، فلا حاجة إلى غيرهما ، وأمَّا إذا كان معارضاً لهما فليكن رماداً تذروه الرياح في مكانٍ سحيق.

وكان ذلك نقعٌ قد أثاره الكتَّاب والمؤلفون المسيحيون في أوربا شفاءً لبعض ما في صدورهم من البغضاء البغيضة للإسلام... وكان العلامة المؤرخ شبلي النُّعماني أول من قام في شبه القارة الهندية لتفنيد هذا الزعم الباطل ، فعرَّاه ، وفضحه في قارعة الطريق ، وأثبت بدلائل علميَّةٍ لامعةٍ: أنَّ مكتبة الإسكندرية قد سبق إحراقها خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ودخول المسلمين في مصر ، وجلَّى للعالم: أنَّ هذا الفعل الشنيع قد قام به المسيحيون المتعصِّبون... وكذلك كانت هناك آراءٌ وأفكارٌ خاطئةٌ روَّجها أعداء الإسلام عن طريق التاريخ لكي ينالوا من الإسلام وأهله ، فلم يرجعوا بطائلٍ ، وقد جعل الله كيدهم في نحورهم ، فمثلاً قالوا: إن الجزية في الإسلام تقوم على أساسٍ ظالمٍ ، وقد كشف العلامة النعماني اللثام عن الحقيقة في هذا الصَّدد في رسالةٍ مستقلَّةٍ أسماها «الجزية وحقوق الذميين».

العلم لا يتوقف ركبه على مرحلة:

حينما توجهت الضربات على الإسلام عن طريق السياسة والاقتصاد ، وما إليهما؛ برز في الميدان الأساتذة الكبار ، والعلماء الأجلاَّء في شبه القارة الهندية ، وحاسبوا هذه الفلسفات الخرافية محاسبةً علميةً ، ووقفوا قدرتهم الكتابية على هذا الجهاد المشرِّف ، لكن العلم ـ أيُّها السادة! ـ

لا يتوقف على منزل ، إنَّه يتصف باستمراريةٍ ، ورقيٍّ دائمٍ ، وتطورٍ قائمٍ ، لا يعرف الكَلَّ ، ولا السآمة ، فلا يمكن لأحد أن يقول : إنَّه وصل إلى النقطة الأخيرة ، أو المرحلة النهائية ؛ لأنَّ ذلك يعني الجهل بمكانة العلم ، ومركزه السَّامي .

فمن واجبكم اليوم أن تبطلوا النظريات الخاطئة التي تهاجم الإسلام عن طريق علم الزراعة ، والتي تتصادم مع القرآن الكريم وتعاليمه ، وأن تقرِّروا حقِّيَّة أمورٍ كثيرةٍ كشف القرآن الكريم عنها لأوَّل مرة ، ولا أعلم أحداً سبق القرآن في الإشارة إلى تلك الحقائق ، مثلاً يدعي القرآن بزوجية كلِّ شيء ـ وقد دخل في «شيءٍ» النكرة طبعاً الزراعةُ ، والنباتاتُ ، والأشجار ـ إذاً فمن وظيفة أمثالكم أن تؤكدوا صدق هذه الدعوى ، وتبرزوا من خلال ذلك إعجاز القرآن ، وبالتالي إعجاز النَّبيِّ الأمِّيِّ العربيِّ ﷺ ، وهناك حقيقة عجيبة جلَّاها القرآن الكريم في سورة الرعد تجدر بالدراسة المستقلة ، يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٣ ـ ٤] .

وأرجو أن جامعتكم الموقرة هذه ستقوم بهذه الدراسة خير قيام ، وتقدم نتائجها إلى دنيا الناس .

يا ليته تمَّ هذا العمل المشرِّف الجليل في الدول الإسلامية :

إن نظرية دروين (DARWIN) للنشوء والارتقاء قد تركت ـ كما تعلمون ـ هزَّةً عنيفةً لا في الأوساط العلمية ، بل في الأوساط الدينية أيضاً ، وقد كانت لهذه النظرية صولةٌ وجولةٌ في أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين حتى كان الناس يرون أن التجرُّؤ على المحاسبة العلمية لهذه النظرية ، يعني الجهل ، وقلة العقل ، فخضع لها أناسٌ كثيرون في الشرق والغرب ، وعاد كثيرٌ من الناس يرون أنَّه ليس هناك أيُّ تصادم بين

ما يراه القرآن وبين هذه النظرية ، وبدؤوا يطبقون بينهما على أساس كون نظرية النشوء والارتقاء وتنازع الأصلح للبقاء هي الأصل ، فأوّلوا الآيات القرآنية تأويلاً بارداً ، وحمَّلوها من المعاني والمفاهيم ما لا تحتمل. . . غير أنَّها أخيراً انهارت ، ولم يبق لها من السلطان ما كان في نهاية القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين ، بفضل الدراسات العلمية التي تمَّت في أوربا ، ويا ليتها قد قامت بها البلاد والأقطار الإسلامية ، يا ليتها قد قامت بها مصر ، والعراق ، والشام ، والهند ، ولكنه مع الأسف إنَّ الأفاضل العرب إنما كان موضع اهتمامهم التاريخ أو الأدب فقط ، وما بذلوا عنايتهم على العلوم التجريبية من العلم (SCIENCES) والكيمياء (CHEMISTRY) والفيزياء (PHYSICS) إلا قليلاً جدَّاً ، ومن ثمَّ فلم ينبغ عبر البلاد الإسلامية رجلٌ يبتكر نظريةً علميَّةً ، أو تسلم له الأوساط العلمية بالسبق والفضل في أيِّ مجال ، أو يكون محطَّ أنظارٍ وموضع إعجابٍ في المحافل الدولية ، والمجالس العلمية العالمية.

أحـرزوا جـائـزة نـوبــل :

أيها الشباب ، إخوتي الطلبة الأعزاء! اجتهدوا أنتم في مجال علم الزراعة (AGRICULTURE) وأحرزوا فيه قصب السبق ، حتى تستطيعوا أن تبتكروا نظريةً جديدةً ذات قيمة تستأهلكم لجائزة نوبل (NOBEL PRIZE). . . أنتم لا تستطيعون أن تقدِّروا مدى السرور الذي سيغمر الشباب الإسلامي ، ومدى التشجيع وهزّة الافتخار التي يشعرون بها إذا ما يتسامعون بمسلمٍ ينال جائزة نوبل مقابل عملٍ علميٍّ تحقيقيٍّ ، يا سادة! إنِّي ـ على الرغم من أنني أنتمي إلى طبقة علماء الدين ـ أترقَّب ذلك اليوم السعيد الذي يستحقُّ فيه أحد من أبناء الدول الإسلامية جائزة نوبل في داخلها ، على عملٍ عملاقٍ قام به في مجال الزراعة ، لأن ذلك شيء سيبعث الأمل والطموح في الشباب المسلمين ، وهذا ما لا يلام عليه أحد ، إنَّه لا يتَّصل بالسياسة ، ولا يتعلَّق بما يحطُّ من شأن أمَّة ، أو دينٍ ، ولا تعارضه حكومةٌ ، ولا تعترض عليه دولةٌ. . . إنِّي ألفت أنظار الفتية المسلمين في كل أنحاء الأرض ، ولا سيَّما في البلاد والأقطار الإسلامية ،

إلى ذلك ، وأستقطب اهتمامهم إلى أن يقوموا بعمل عظيم ذي أصالة (ORIGINALITY) وثورةٍ تسترعي انتباه العالم ، ويجعله يؤخذ به ، ويعترف بأنَّ في المسلمين من يتمتَّع بالمؤهلات العقلية ، وقدرة الابتكار والإنتاج ، والعبقرية (GENIUS) والذكاء العجيب.

الأرض الـخصبـة فـي قـلـوب الأمـة الإسـلامـيَّـة:

أنتم أفلاذ أكباد المسلمين ، والبراعم الناعمة التي لم تتفتح بعد ، تقومون بدراسة هذه الأرض ، ومدى صلاحيتها للإنبات ، والإنتاج ، والإغلال ، ونوعية جدارتها ، وتجانسها لنوعٍ من الحبوب والزروع وكيف يمكن تضعيف الحاصلات ، وتنمية قوَّة الإنبات ، وما إلى ذلك ، أريد أن ألفت أنظاركم إلى أرضٍ غير هذه الأرض ، قلَّما حظيت من البلاد الإسلامية باهتمامٍ وعنايةٍ ، ألا وهي أرض قلوب أمتنا الإسلامية ، إنَّها ذات ثرواتٍ زاخرةٍ ، وخزائن ثرَّةٍ ، وقوىً وطاقات مكنونةٍ لا يعلم مداها إلا الله ، ومن الواجب أن نعرف قدرها ، ونبرزها ، ونستخدمها ، ونهيِّىء لها فرصة العمل والتأثير. . . إنَّ زعماءنا السياسيين ، وقادتنا القوميين ما أعاروها عنايةً منهم ، ولم يدركوا ـ بعد ـ مدى عاطفة الحبِّ والحنان ، وقوة الدين والإيمان ، وروح التضحية والفداء والإيثار والوفاء ، والإخلاص والولاء ، والحماس والسذاجة ، والتقشُّف والجلادة ، التي تمتاز بها هذه الأمَّة التي يقودونها.

يا سادة! أفلا تستحقُّ هذه الأرض القلبية القيِّمة أن تقام لها جامعاتٌ تقوم بدراستها ، والبحث عن مضمراتها ، ومكنوناتها ، وأبعادها وأعماقها ، وما تخفيه من خزائن لا تنتهي ، وأن تكشف وسائل إيقاظها وإنمائها ، وحرثها ، وحرسها. . . تأكدوا أنَّه لو تمَّ هذا العمل؛ لأتى بانقلابٍ عظيمٍ في العالم ، يندهش أمامه كلُّ من على فوق البسيطة.

إنَّكم لا تستطيعون أن تقوموا بهذا الانقلاب العظيم في الأخلاق ، والسلوك ، ووضعية العالم ، وأن تنفعوا العالم نفعاً حقيقياً عن طريق أيِّ عملٍ بمثل ما تستطيعون بهذه العملية ، وإنِّي بهذه المناسبة أبثُّ شكواي

ـ من خلال إنشاد بيتٍ من بيوت إقبال ـ لا إلى إيران وحدها ، بل إلى شبه القارة الهندية هذه وإلى العالم الإسلامي كلِّه :

«لم ينهض روميٌّ(١) آخر من ربوع العجم ، مع أن أرض إيران لا تزال على طبيعتها ، ولا تزال «تبريز»(٢) كما كانت» .

وأسلي قلبي وأعزِّي نفسي ، وأبشّركم وأرجيكم بقوله :

«إلا أنَّ إقبال ليس قانطاً من تربته ، فإذا سقيت بالدُّموع أنبتت نباتاً حسناً ، وأتت بحاصلٍ كبير» .

الأرض المخصبة المنتجة للزروع والمنجبة للرِّجال :

يا سادة! قد متَّعكم الله بباكستان ، تلك التي أراضيها مخصبةٌ ، وأبناؤها ذوو أهليات منتجةٍ ، وعقولٍ مبتكرة ، وقلوبٍ عامرةٍ زاخرةٍ ثرّةٍ .

وتلك هي حال جميع أراضي البلاد الآسيوية التي توافد منها هؤلاء النجباء من الإخوة التلاميذ ، إنَّها حال العراق التي تقع في وادي دجلة والفرات ، وحال السودان التي هي منبع النيل ، وأنتم تعرفون مدى خصبها وقوتها للإغلال ، ولكنكم ـ أسفاً ـ لا تعرفون تهيُّؤها لإنجاب الرجال ، ومن هنا توجَّهت العناية إلى الاستغلال ، واستنتاج الحاصلات ، والأموال ، ولكنها ما توجَّهت إلى استنجاب العباقرة والرِّجال ، والعظماء والأبطال .

أنتم اليوم تلاميذٌ في هذه الجامعة ، جامعة الزراعة في فيصل آباد ، وربما تكونوا غداً وزراء زراعة في بلادكم ، إنَّ العهد عهد الديموقراطية ، وعهد الثورة والانقلاب ، فمن الممكن جداً أن يكون بعضكم وزير زراعة ، أو قائداً سياسياً ، أو زعيماً لحزب من الأحزاب ، أو رئيس جمهورية ، فأريد أن أحمِّلكم رسالةً ، وهي ألاّ تفوتنَّكم العناية باستنجاب الرجال

---

(١) إشارة إلى مولانا محمد جلال ا لدين الرومي (٦٠٤ ـ ٦٧٢ هـ) .

(٢) مدينة في ايران ، نهض منها شمس الدين التبريزي ، شيخ الرومي في التزكية والتربية الروحية .

بجانب استغلال الأراضي... ألفتوا أنظار المواطنين في بلادكم أنَّ المواهب الغنية التي حباها الله الأمَّة الإسلامية حُرمتها الأمم الأوربيَّة والأمريكيَّة كلُّها، إنَّها لا تتمتَّع بعشر معشار الإخلاص، والسذاجة، والإيثار الذي يتميز به المسلمون في كلِّ مكانٍ، وليس عليكم أيها القادة والسادة! إلا أن تستغلوا هذا الإخلاص، وهيئوا المناخ لنموِّ روح الإخلاص الذي يلتقي به المسلم مع المسلم، وعاطفة الحبِّ والحنان، والإيمان بالحديث والقرآن، التي تحرك ساكن قلوبهم أكثر من أيِّ شيءٍ آخر في الحياة، إذا فعلتم ذلك؛ فسيكون بلدكم بلد العباقرة والأبطال، وبلد الثورة والانقلاب، وبلد الربيع والأزهار، ويندهش أمام خصبه العالم كلُّه.

وبهذه الكلمة أنهي حديثي شاكراً لمن وجهوا إليَّ الدعوة للحضور والزيارة، ولإلقاء الكلمة في هذه الجامعة، متمنِّياً من الله للجامعة كلَّ رقيٍّ وازدهارٍ وعزٍّ وافتخار، وشرفٍ واعتبارٍ، لا بالنسبة إلى باكستان، ولكن بالنسبة إلى العالم الإسلاميِّ كلِّه.

* * *

غاية التعليم والتربية في العالم الإسلاميِّ ومنهاجه

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في جامعة كراتشي (باكستان) في ١٢/ يوليو ١٩٧٨ م ، وقد استمع إليها أساتذة الجامعة وطلابها ، والمسؤولون عنها بالإضافة إلى عددٍ وجيهٍ من خبراء التعليم ، والثقافة ، والاجتماع ، والسياسة ، والصحافة ، والقادة والزعماء ، والمسؤولين عن المراكز التعليمية والثقافية ، وقدَّم العلامةَ الدكتور إحسان رشيد نائب رئيس الجامعة ، وألقى الكلمة الختامية صاحب السَّعادة إسماعيل سعد أمين جامعة كراتشي.

العلم حقيقة :

صاحب السعادة رئيس الجامعة! وأصحاب السعادة والفضيلة أساتذة الجامعة ، وطُلّابها وطالباتها! وإخوتي الأعزَّاء!

على الرغم من أنني لا أؤمن بتقسيمٍ في العلم ، وإنَّني أعتقد أنَّ العلم وحدةٌ لا تتجزَّأ ، ولا تقبل التوزيع ، والتصنيف ، ولا يصحُّ تقسيمه بين قديمٍ وجديدٍ ، وشرقيٍّ وغربيٍّ ، وعمليٍّ ونظريٍّ ، إنِّي أرى ـ كما يرى الدكتور محمد إقبال ـ أنَّ التوزيع بين القديم والجديد لا يقول به إلا قاصرو النظر ، ضيقو الفكر؛ بل إنَّني لا أؤمن بتقسيم العلم إلى دينيٍّ ودنيويٍّ أيضاً ، إنِّي أرى أنَّ العلم حقيقةٌ أو تجربةٌ لا يملكها بلدٌ دون بلدٍ ، أو أمَّةٌ دون أمَّةٍ ، ولا ينبغي أن يكون كذلك ، ولن يمكن ذلك ، كما إنَّني لا اؤمن بتحديد منابع أخرى في الحياة تحديداً جغرافياً ، أو سياسياً ، أو عنصرياً ، أو قومياً.

على كُلٍّ فإنِّي اؤمن بأن العلم وحدةٌ لا تتجزَّأ ، وما يراه الناس كثرةً أراه وحدةً ، ووحدية العلم هي صدقه ، وواقعيته ، وكونه حقيقةً ، وولوعه بالحقيقة ، ونشدان الصِّدق ، والواقعية.

على الرغم من ذلك كلِّه أشكر صاحب السعادة رئيس الجامعة ، والمسؤولين عنها؛ إذ اختاروا للتحدُّث إلى هؤلاء الطلبة الأعزَّاء ، وإلى هذه الأزهار والبراعم الناعمة في حديقة الإسلام ، رجلاً يُنمى ـ عن فهمٍ ، وعن قصدٍ أو خطأ ـ إلى منهاج التعليم القديم ، ومن هنالك أرى لزاماً أنْ أعترف برحابة صدوركم ، وسعة أفقكم ، وانفتاح أنظاركم ، حيث إنكم ما أبحتم هذا الفرق بين القديم والجديد الذي يراه قصار النَّظر من النَّاس.

إنِّي لا اؤمن ، لا في العلم ولا في الأدب ولا في الشعر ، ولا في

الفلسفة والحكمة ، بأنه من تزيّا بزيه الخاص فهو العالم ، أو الأديب ، أو الشاعر ، أو الفيلسوف والحكيم ، وإنَّ من تخلّى عن هذا الزيِّ فليس يستحقُّ الخطاب ، ولا يستحقُّ الاهتمام ، والالتفات ، فضلاً عن الاستماع إليه ، ومن سوء الحظ أنَّ ذلك قد راج رواجاً كبيراً فيما يتَّصل بالأدب والشعر ، فيُتَّهم بقلة الأدب من يحضر ندوة علميةً أو أدبيةً أو شعريةً ولا يحمل «لافتة الأدب» ، ولا يتزيا بزيه الخاص ، وأصبح الناس لا يغتفرون جريمة من لم يرتدوا زيَّ الأدب والشعر ولم يتمكّنوا من الحصول عليه من «دكانه» من الأدباء والشعراء الموهوبين ؛ الذين جبلوا على فطرة الأدب ، وسليقة الشعر .

على كلٍّ فإني أرى أنَّها خطوةٌ جريئةٌ منكم أن دعوتموني لإلقاء الكلمة في هذه الجامعة ـ على الرغم من أنني أؤمن بآفاقية العلم ، وشموله ، وحيويته ، ولا أراه ملكاً لأحدٍ ، أو لجهةٍ ، أو لبلدٍ ، أو لأمَّةٌ ، فخزائن الله زاخرةٌ ، وهي مفتوحةٌ لكلِّ من كان مخلصاً في الطلب ، صادقاً في العزم ـ إنَّها بادرةٌ تستحقُّ التقليد ، وأودُّ أن تدعو مدارسنا القديمة رجال المدارس الجديدة والمثقفين العصريين ، وأن توجه جامعاتنا ومدارسنا العصرية الدعوة إلى أولئك العلماء والأفاضل الذين أخلصوا في طلب العلم ، ولم يقصِّروا في الاستفادة من التجارب الإنسانية العظيمة ، والإنتاجات البشرية العلميَّة والأدبية .

الغاية الأولى والأساسية من التعليم :

أيها السادة! إنَّ قلبي مفعمٌ بعواطف الشكر ، حيث أتيح لي فرصةٌ لإلقاء كلمةٍ أمام هذه المجموعة الطيبة التي تشتمل على كثيرٍ ممن قد يلعبون غداً دوراً خطيراً لا فيما يتعلق بهذا البلد وحده ، بل على مسرح العالم الإسلامي ، وقد يمسكون زمام إدارة البلاد ، أو يتاح لهم أن يوجهوا توجيهاً تربوياً تعليمياً على الأقلِّ .

وفقني الله أن أقرأ كثيراً فيما يتصل بالتعليم والتربية ، وغايتهما المنشودة ، والفائدة التي يجب أن تجنى منهما ، لكني أكتفي بهذه المناسبة

بتقديم شهادةٍ واحدةٍ فيما يتعلق بتعريف العلم ، وتحديد غرضه لخبيرٍ تعليميٍّ بريطانيٍّ معروفٍ (Sir Percy Neinn) من مقالٍ له كتبه لدائرة المعارف البريطانية :

«لقد سلك الناس مسالك مختلفةً في التعريف بالتربية ، ولكنَّ الفكرة الأساسية التي تسيطر عليها جميعاً : أنَّ التربية هي الجهد الذي يقوم به آباء شعبٍ ومُرَبُّوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة ، التي يؤمنون بها . إنَّ وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير في التلميذ ، تلك القوى الروحية التي تتصل بنظرية الحياة ، وتربِّي التلميذ تربيةً تمكِّن من الاحتفاظ بحياة الشعب ، وتمدُّ يدها إلى الأمام»[1] .

إنَّ هذا التعريف بالتعليم والتربية هو أروع ، وأجمع ، وأكثر تواطؤاً مع العمل والتطبيق من بين جميع المحاولات التي بذلت في سبيل التعريف بالتعليم والثقافة .

ما هي غاية التربية؟ وماذا يراد من ورائها؟ ولماذا تبذل المواهب الفنية على التعليم؟ ولماذا تنفق قوى الأمة بسخاءٍ وعلى طريقةٍ منظمة؟ ألكي يوجد التعليم فجوةً بين الأمة وبين ما تعتزُّ به ، وتتبناه من معتقداتٍ وأغراضٍ ، وتراثٍ حضاريٍّ وعلميٍّ ، وتصوراتٍ ، وسواءٌ أكان كلُّ ذلك مما ينبغي الاعتزاز به أم لا ، لكن الشيء الذي تحبُّه ، والمعتقدات التي تعتزُّ بها ، والتصورات ، والقيم ، والمثل (Values) والعقائد (Conceptions) والأفكار (Ideas) التي تتغنَّى بها ، والتراث الذي توارثته من آبائها وأسلافها ، من وظيفة التعليم الأولى أن يربط بين الأمَّة وبين هذه الأشياء ، وينقل هذا التراث إلى الأجيال القادمة ، والنشء الجديد ، ذلك التراث الذي أفرغ عليه سلفها خير قواهم ومواهبهم ، وبذلوا مدَّةً طويلةً من وقتهم ، وربما قاتلت تلك الأمَّة في سبيله ، وحاربت ، وجاهدت ، وضحَّت بعزها وشرفها ، ومجدها التليد ، ومن الفضول أن نتعَّرض بهذه

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ، بند «التعليم» (EDUCATION) .

المناسبة فيما إذا كانت القيم التي حاربت الأمة من أجلها قيماً صالحةً أم لا ، لكن مسؤولية التعليم أن ينقل هذا التراث إلى الأجيال المتلاحقة ، ولا يقتصر على النقل والتصدير فحسب ، بل يعمِّقه في القلوب والأذهان ، ويجعل القلوب والعقول تسيغه ، وتتذوقه ، ولا يعود نابياً لديها ، أو أجنبياً عندها ، بل يعود مألوفاً لها ، ومحبوباً عندها ، ويصير طبيعةً لها .

أمَّة محمَّد ﷺ أمَّةٌ ممتازة في خصائصها ومزاياها ، وصياغتها ، وعناصر تركيبها :

أرى أنَّ هذا التعريف بالتربية بقلم خبيرٍ بريطانيٍّ تعريفٌ جامعٌ جدّاً ، لكن إذا كان الأمر أمر أمَّةٍ عقائدها وقيمها ليست من عند نفسها ، بل نابعةٌ من الوحي الإلهي ، والكلام الإلهي ، والنُّبوَّة والرسالة ، والعلم اليقينيِّ الغيبيِّ الأزليِّ الذي لا يحول ، ولا يزول ، ولا يتغيَّر قليلاً أو كثيراً ، فهنالك تتضاعف المسؤولية ، وتتضخَّم .

فإذا كان هناك تعليمٌ يزعزع عقائد تلاميذه ـ من شعور ، أو من غير شعور ، عن قصدٍ أو عن غير قصد ، عن خطأ أو عن خطَّةٍ مدبَّرةٍ ـ ويزعزع جذور قيمهم في قلوبهم ، ويفكِّك عراها ، ويمزقها : ويثير في قلوبهم شكوكاً وشبهاتٍ لا تزول ، وصراعاً نفسياً (MENTAL CONFLICT) ويتجاوز هذا الصراع الأفراد إلى الحياة الاجتماعية للأمَّة ، ويتحوَّل الصراع إلى حربٍ داميةٍ شعواء بين تلك القيم ، والمفاهيم ، والتصورات ، والمعتقدات ، والأفكار ، والعقائد ، وبين ذلك الجيل المثقف بذلك التعليم ، وتلك الثقافة . فالأمر أدهى وأمرُّ . أيها السادة! إنِّي لا اؤمن بالإسلام كتراثٍ (LEGACY) ولا أرى ذلك تعريفاً رائعاً بالإسلام ؛ ولذلك فإنِّي لست معجباً بالكتب التي وضعت بعنوان : (LEGACY OF ISLAM) و (HERITAGE OF ISLAM) إنِّي أرى الإسلام رسالةً للحياة ، لا أراه قادراً على مسايرة الزمان فحسب ، بل أراه قائداً للزمان ، وموجهاً له ، لا أراه رفيقاً للزمان في رحلة الحياة ، بل أراه محاسباً للزمان ، ومراقباً له (GUARDIAN) فإذا كان هناك مثقفٌ بالتعليم العالي يقع فريسة الشكِّ

والارتياب في جميع قيمه ، وتصوراته ، ومعتقداته ، أو يعود يراها دُمىً يسلِّي بها الصبيان والأطفال ، أو أسطورةً يتعلل بها السذَّج والجهَّال ، أو يصبح لا يتحمَّس لها ، ولا يقاتل في سبيلها ، ولا يدافع عنها ، ولا يغامر من أجلها إذا مسَّت الحاجة إلى ذلك ، إذا كان ذلك فإنَّ هذا التعليم عدوٌّ لدودٌ لمن يحصِّله ، يجب أن يفرَّ منه فرار الإنسان من الأسد ، بل أكثر من ذلك.

قضية البلاد الإسلامية أهمُّ وأكبر خطراً :

أيها السادة! وحين أتحدَّث إليكم في هذا الحفل الكريم ، وفي رحاب هذه الجامعة الكريمة ، وعلى جزءٍ من ربوع باكستان ، فإنِّي أخاطب العالم الإسلامي كلَّه ، أخاطب تركيا ، أخاطب مصر ، والشام ، والعراق ، وأخاطب المملكة العربية السعودية التي انعقد فيها منذ شهور مؤتمرٌ عالميٌّ للتعليم الإسلاميِّ (ALL WORLD ISLAMC EDUATION CONFERENCE) حضره من باكستان الأستاذ إحسان رشيد ، وصاحب السعادة والمعالي أ ، كي بروهي (A.K. Barohi) ، وحضرتُه أنا من الهند ، وقد صرحت عند ذاك ـ في المحاضرة التي ألقيتها ـ أن الأمر يصبح ذا خطورةٍ وحساسيَّةٍ وتعقيد إذا كان يتعلق ببلدٍ إسلاميٍّ ، تعيش فيه أمَّةٌ ذات شخصيةٍ (PERSONALITY) وذات خصائص ومميزات ، ذات دعوةٍ ورسالة ، ومكلفةٌ بقيام دورٍ فريدٍ في العالم البشريِّ ، تنبع معتقداتها ، وقيمها ، ومثلها ، وتصوراتها ، وأفكارها ، ووجهات نظرها من الوحي الإلهيِّ ، فإذا كان التعليم يحدث صراعاً في مثل هذا الجيل ، ويجعله يخلع معتقداته وتصوراته العريقة بعد ما يتخرَّج في جامعةٍ عصريَّةٍ ، يصبح وكأنه أمَّةٌ أجنبيَّةٌ تبدو نابيةً قلقةً فيما بين الشعب المسلم ، ويحصل من ذلك كله تعقيدٌ جديدٌ ، وتحدث مشكلةٌ جديدةٌ (PROBLEM) ويحدث صراعٌ مريرٌ ـ وقد يكون صراعاً دموياً ـ بين هذا الجيل المثقَّف وبين عائلته الإسلامية ، وآبائه ، وأمهاته ، وبين المجتمع الذي هو عضوٌ فيه ، وبين تاريخه وتراثه ، وقيمه ومآثر أسلافه ، وبين منصبه ومكانته التي حباها الله إيَّاه ، وبين رسالة الإسلام والعمل الإسلاميِّ ، وآمال الأمَّة الإسلاميَّة وأحلامها ، إذا كان كلُّ

ذلك ، فإنِّي لا أرى في هذا التعليم خيراً ، ولا أراه خدمةً للإنسانية (SERVICE) بل إنَّه سوء خدمة (DISSERVICE) .

المسؤوليَّة الأوليَّة لجامعةٍ إسلامية في بلدٍ إسلاميٍّ :

ومعذرةٌ إليكم فإنِّي لا أشير إلى جامعة بعينها ، ولا إلى المسؤولين عن جامعةٍ محدَّدة ، وإنما أتعرَّض لأمرٍ مبدئيٍّ ، وأريد أن أقرِّر أنَّ المسؤولية الأولى والأهمّ والأقدم لجامعةٍ تقوم في بلدٍ إسلاميٍّ ، هي أن تؤكد إيمان الأمة بالعقائد والأفكار التي تؤمن بها ، والحضارة التي تحتضنها ، والدعوة والرسالة التي تتبناها ، والخصائص والمزايا التي تحملها ، حتى لا يعود هذا الإيمان إيمان رجلٍ عاديٍّ (LAYMAN) أو إيمان رجل الشارع (MAN of STREET) بل يكون إيمان عالمٍ ، إيمان مثقَّفٍ ، إيمان دارسٍ ، ويطمئن عقله ، كما يطمئن قلبه ، ولا يعود كما يقول الدكتور محمد إقبال «قلبه مؤمن وعقله كافر» ، مشيراً إلى فيلسوفٍ غربيٍّ. . . وإذا كان الصراع لا يجوز بين الفرد والجماعة ، فإنَّه كذلك لا يجوز بين القلب والعقل في حياة المرء الانفرادية ، فإذا كانت هناك جامعة تُسبب هذا الصراع ، أو يسببه منهاجها التعليمي ، ومنهجها العمليُّ ، ونظامها الإداري ، وبيئتها العلمية ، فذلك شؤمٌ لا شؤم بعده للبلد الذي تقوم فيه الجامعة .

لا بدَّ من اطمئنان القلب والعقل معاً :

أيها السادة! طلبتم منِّي أن أتحدَّث حول موضوع منهاج الجامعات الإسلامية وغايتها. . . إنَّ الغاية الأساسية للجامعات الإسلامية ، أن تُوجِد الإيمان بتلك الأشياء التي أشرت إليها ، الإيمان الذي يأتي عن طريق العلم ، والثقافة ، والدراسة ، وعن الشعور والتفكير ، وعن طريق اقتناع العقل ، وعن الدراسة المقارنة ، وإذا كان هناك رجلٌ إنما يؤمن قلبه ، ولا يطمئن عقله ، وهو يعلِّل عقله ويسلِّيه ، ويحاول أن لا يستيقظ عقله ، كشأن الأمم غير المسلمة العديدة التي ترى بقاء دياناتها ورقيها في عدم يقظة الشعور ، وتحاول أن يظلَّ أتباعها سادرين في سبات الغفلة ، مسدوداً عليهم منفذ النوُّر والهواء ، ومن هنا وقع بين الكنيسة والعلم (CHURCH &

SCIENCE) ذلك الصراع الدمويُّ الذي تقرؤون قصته المؤلمة المفجعة في كتاب «الصراع بين الدين والعلم» (CONFLCT BETWEEN RELIGION & SCIENCE) للعالم الأمريكي المعروف «درابر» (JOHN WILLIAM DRAPER) وإنما وقع هذا الصراع؛ لأنَّ الكنيسة كانت ترى أنَّ الخير كلَّ الخير في تبلُّد الشعور الإنساني ، بل كانت تعمل فعلاً على تجميده وإماتته ، وكانت تؤمن بأنَّ من الخير والسعادة أن يكون الإنسان محدود العلم ، قاصر المعرفة ، بل عديم العلم جاهلاً ، وما دام الحال على هذا المنوال ، كان الإيمان بالكتاب المقدَّس راسخاً قوياً ، وكانت المسيحية عميقة الجذور ، بعيدة الغور في المجتمع ، ذلك أنَّ العهد العتيق كان يشتمل على كثيرٍ مما لا يؤيده العلم الحديث ، بل ينفيه ويفنِّده ، فكانت الكنيسة رأت من المصلحة ألا يتيقظ الشعور المسيحي ، ولا يتفتَّح وعيه ، ولا يتَّسع أفقه ، ولا يتقدَّم العلم ، فحاولت أن تقف في وجه العلم؛ لأنَّها ظنته عدواً لها لدوداً ، وخصماً محارباً حانقاً ، ولكنَّها اضطرت أخيراً أن تضع السلاح أمام مدِّ العلم ، وسيله الجارف ، وتياره العنيف ، لأنَّه حاجة الإنسانية ، ومقتضاها الطبيعي ، وعاطفة الإنسان الداخلية ، ونعمة الله الغالية ، وضرورة العالم البشري ، جعله الله لكي يخضرَّ وينمو ، ويورق ويثمر ، لا لكي يذوي ، ويذبل ، ويموت ، وهل تموت الحقائق؟ على كلٍّ فإنَّ العلم كسب المعركة ، وذاقت الكنيسة هزيمةً ، وعاراً ، وشناراً منقطع النظير أمام العلم ، وتطلُّع الإنسان إليه ، وطلبه الجامح له.

وتلك هي قصةٌ مشؤومة وقعت في العالم المسيحي ، ولكنَّها تركت آثارها على دنيا البشر كلِّها ، وعلى جميع الديانات تقريباً ، وقد جعلت الناس يفهمون أنَّه لا يمكن أن يتقدَّم العلم والعقل معاً ، وأن يساير الدين العلم ، ولا بدَّ هنا بصفتي دارساً للتاريخ ، أن أعترف ـ مع الأسف ـ أنَّ هذا التصور الخاطىء قد نال بعض نصيبه من المفعول في بعض الدول الإسلامية ، ولو لبعض الحين ، لكنَّه ما لبث أن لقي حتفه ، لأنَّه يتنافى مع روح الإسلام وطبيعته ، ولم يدم هذا الصراع المصطنع في العالم الإسلامي طويلاً ، وذلك لأنه لم يكن وليد خطأ في داخل العالم الإسلامي ، وإنما

كان قد نشأ عن طريق أوربا المسيحية ، ولكنَّه غاب ، وانقشع كسحابة صيف ، أو بسرعةٍ أكثر منها .

مصير العلم مرتبطٌ بالقلم :

أرى أنَّ من واجبات الجامعات الإسلاميَّة أن تحاول ألَّا تقع فجوةً بين العلم والدين ، كما وقعت بينهما في العالم المسيحي ، أو في دنيا الديانات التي لم تكن فيها رابطةٌ بين العلم والعقل ، بل إن نشوءها كان مديناً للجهل ، فقد تولَّدت ، وازدهرت بمعزلٍ عن العلم والعقل ، بل على غفلةٍ من العلم والعقل ، ففيها مجال لنشوء الفجوة والجفوة بين العلم والدين وبين العلم والعقل ، ولكن لا يتصوَّر ذلك في الدين الذي أعلن دعوته منذ اليوم الأول بل منذ اللحظة الأولى بما يلي :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] .

الدِّين الذي لم ينس هذا القلم المتواضع حتى في الحلقة الأولى من وحيه ، ولم ينسه لدى هبوب النفحة الأولى من النفحات الرَّبانيَّة ، لم ينس أن يؤكِّد أنَّ مصير العلم مرتبطٌ بالقلم ، لم ينسه في خلوة غار حراء التي ارتادها نبيٌّ أمِّيٌّ يتلقى الرسالة الإلهية لهداية البشرية ، ذلك النَّبيُّ الذي لا عهد له بالقلم ، ولم يعرف من ذي قبل كيف يحرك القلم ، ولم يتعلم فنَّ الكتابة والقراءة بتاتاً ، شيءٌ لن يجد الإنسان نظيره في تاريخ العالم البشري ، ولا يمكنه أن يتصوَّر هذا المكان العالي ، لا يمكنه أن يتصوَّر أن ينزل وحيٌ على نبيٍّ أميٍّ بين أمَّةٍ أميَّةٍ في منطقةٍ لم تعرف القراءة والكتابة معرفةً تذكر ، فضلاً عن المدارس ، والمعاهد ، ودور التعليم ، والجامعات ، في الوقت الذي لأول مرَّة تمَّ فيه اتصال السماء بالأرض بعد مدَّة قرون ، ولا يبتدىء هذا الوحي بكلمة «اعبد» ولا بكلمة «صَلِّ» أو ما إليهما من الكلمات المتجانسة ، وإنما يبتدىء بكلمة «اقرأ» يخاطب المنزل عليه بالقراءة ، ولا عهد له بها ، لكي يقرر ويؤكد له أنَّ الأمة التي يكلف بهدايتها وتربيتها وتعليمها هي أمَّة ليست ولوعاً بالعلم فحسب ، بل

ستكون معلمة العالم ، ومولعةً بنشره ، وتصعيده ، وترقيته ، والعهد الذي يقوم فيه بوظيفة الهداية والتبليغ والتربية والتعليم ، إنَّه ليس عهد الأمية والوحشة والجهل ، وعهد الظلمة ، والهدم ، والتخريب ، وإنما هو عهد العلم ، والعقل ، والتفكير ، وعهد النظر والحكمة ، وعهد البناء والتعمير ، وعهد حبِّ الإنسانية ، وعهد الرُّقيِّ والتقدُّم .

كانت التجربة الفريدة الطريفة ـ لو صحَّ التعبير ـ في تاريخ الديانات وتاريخ العالم أنَّ الوحي الأول الذي نزل على النبيِّ الأميِّ بين الأمة الأميَّة كانت بدايته بكلمة «اقرأ» ، ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] كان من الخطأ الفادح أن انقطعت صلة العلم بالربِّ ، فحاد عن الصراط المستقيم ، فجاء الوحي الإلهي الذي نزل على النَّبيِّ الأميِّ يصله بالله ، ويربطه بالربِّ تبارك وتعالى ، حيث جاء ذكر العلم مقروناً باسم الربِّ ، لكي يعلم البشر ضرورة بداية العلم ، والتعليم والقراءة باسم الربِّ ؛ الذي وهب هذه النعمة الغالية ، ومنَّ بها على عباده وهو الذي خلقه ، فلا يتقدَّم تقدُّماً متَّزناً إلا تحت توجيهه وهدايته ، إنَّ الآية التي نتحدَّث عنها : إنها ذات ثورةٍ وانقلابٍ عظيمٍ في التفكير ، والعقلية ، والنفسية ، قرعت الآذان البشرية في بداية الإسلام ، وكان ذلك شيئاً لم يخطر من أحدٍ على بالٍ ، ولم يتصوَّره في حالٍ من الأحوال ، لو سئل الأدباء ، والحكماء ، والفلاسفة ، والعلماء في العالم البشريِّ عن افتتاحية هذا الوحي الذي سينزل على النَّبيِّ الأمِّيِّ ؛ لم يكن أحد منهم ـ يعرف طبيعة تلك الأمَّة التي نزل بينها الوحي ، ويعرف عقليته ـ ليقول : إنه سيبتدىء بكلمة «اقرأ» ، كان لهم أن يتنبؤوا بكل شيء ، ولكن لم يكن لهم ليتكهنوا أنَّ الوحي سيكون استهلاله بكلمة «اقرأ» ، ثم إنه لم يبتدىء بكلمة «العلم» وإنما بالقراءة ، والقراءة تتضمَّن الكتابة ، والقلم ، والورق ، بينما العلم قد يكون وهبياً ، لا يحتاج إلى القلم ، والقراءة ، والكتابة ، والورق ، مما دلَّ على أنَّ هذا العلم سيكون وليد القلم ، وليد الورق ، وليد الكتابة ، وليد المكتبات ، والكتب ، والمؤلفات ، والصحف ، وليد التجارب ، وليد الذكاء ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] .

هذا الدين لن يفارق العلم :

مما يجب الانتباه له أنَّ الوحي الإلهيَّ أكَّد أنَّ طبيعة هذا الدِّين : أنَّه لن يفارق العلم؛ لأنَّ الرسالة الأولى التي وجَّهها إلى البشرية تأمر بالقراءة ، فكيف يسوغ أن يبقى المسلمون جاهلين لا يعرفون القراءة ، والمسلم الذي قطع صلته عن العلم ليس بمسلمٍ حقيقي ، ولا يجوز له أن يدَّعي أنَّه ممثلٌ صحيحٌ للإسلام ، ثم يجب الانتباه لهذه الدعوة الثورية ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق : ١] كيف ينبِّه الوحي الإلهي على أن تكون هذه الرحلة ـ رحلة العلم ـ في هداية هادٍ كاملٍ ، وليس هو إلا الله العليم الكريم ، لأنَّ الرحلة طويلةٌ شاقَّةٌ معقَّدةٌ خطرةٌ ، والطريق وعرة ذات منعطفات تعترضها بحارٌ وأنهارٌ ذات عمقٍ سحيقٍ ، وتتخلَّلها غاباتٌ كثيفةٌ فيها سباعٌ مخوفةٌ ، وحياتٌ وعقارب سامَّةٌ ، وكلُّ حيوانٍ ضارٍ .

لكنه ليس مجرد علم ، ليس عبارةً عن معرفةٍ بالدُّمى واللُّعب ، وليس عبارةً عن التسلية ، وليس مما يحرش فيما بين الإنسان والإنسان ، والأمة والأمة ، وليس عبارةً عن معرفة طرق ملء البطون ، وعبارة عن تحريك اللسان ، ولوك الكلمات بل هو ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] .

أفهل رفع من قيمة القلم أحدٌ في التَّاريخ البشريِّ أكثر من ذلك ، حيث يذكر بهذه الأهميَّة ، وبهذا التمهيد الكريم ، في خلوة غار حراء ، وفي الوحي الأوَّل الذي ينزل من السماء ، ذلك القلم الذي ربما لم يكن بالإمكان تواجده في بيتٍ من بيوت مكَّة ، لا أكاد أدري لئن رحتم تبحثون عنه رجعتم بفائدةٍ أم لا ، ربَّما وجدتموه في بيت ورقة بن نوفل ، أو أيِّ رجلٍ تعلَّم الكتابة في ديار العجم ، القلم الذي ربما لا تجدون ذكره في دواوين الشعراء العرب الجاهلين المعاصرين مهما قلبتم الصفحات ، وأعدتم القراءة .

عصارة كل علم وثقافة «علَّم الإنسان ما لم يعلم» :

ثم دلَّ على حقيقةٍ خالدةٍ ذات انقلابٍ عظيم ، وهي أنَّ العلم لا حدَّ له ، ولا نهاية ، فقال : ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق : ٥] ، وليس العلم الحديث

(Science) إلا انعكاساً لـ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] وكذلك التكنولوجيا ليس إلا مظهراً لـ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] وينزل الإنسان على القمر، ولا يعني ذلك إلا ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] ويغزو الفضاء، ويقلص سعة العالم، ويطوي أرجاءه طياً، ويسخِّر أشعة الشمس ـ كما يقول الدكتور محمد إقبال ـ ويشق طريقه بين النجوم والكواكب، ويحلم بالنزول بين السماكين، إنَّ كُلَّ ذلك ليس إلا عبارة عن ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥].

على كلٍّ فإنَّ الأمَّة التي كان أساسها الأول على القراءة، وخاطبها الوحي الإلهي الأول بذكر القلم، إنَّ تلك الأمَّة لن تفارق العلم والمعرفة، لأنها تلازمه ملازمة الظلِّ، أو ملازمة الغريم.

ثم يجب أن يكون في الاعتبار لدى إقامة كلِّ مدرسةٍ، أو جامعةٍ، أو اتخاذ منهجٍ تعليميٍّ لتعليم هذه الأمَّة أن يكون الهدف من كلِّ ذلك ترسيخ الإيمان بالعقائد، والحقائق التي آمنت بها من ذي قبل، وأن يتأتَّى هذا الترسيخ عن طريق القلب، والعقل معاً، ولا يكفي اطمئنان القلب، أو العقل فقط، لأنَّه حينئذٍ سَيَحْدُث صراعٌ بينهما في الحياة الفردية للإنسان، وسيتدرَّج هذا الصراع إلى الحياة الجماعية... وعلى ذلك فيتخرَّج جيلٌ يتصارع مع مجتمعه، ويتصارع مع دينه وعقيدته، وتضيع كلُّ القوى في إزالة «الأنقاض»، فقد رأى بعض قادة بعض الأمم الإسلامية أنَّه يجب أوَّلاً إزالة الأنقاض، وركزوا كلَّ عنايتهم على إزالة الأنقاض من العقائد، والحقائق، واستنفذت هذه العملية كلَّ قواهم، واستغرقت فرصة أعمارهم، ولم يتمكَّنوا من عرض دعوتهم، ونشر رسالتهم، وزرع أفكارهم التي كانوا بصدد نشرها.

فإذا كان هناك منهاجٌ تعليميٌّ يُعمِّق إيمان الأمة بالعقائد والحقائق التي تحضنها؛ فهو منهاجٌ موفَّق، ولا سيما بالنسبة إلى الإنسان المسلم الذي جاء يحمل رسالةً، ويحتضن دعوةً، فيجب أن يكون منهاجنا التعليميُّ والثقافيُّ بحيث يرسخ الإيمان في قلب المثقف، وقلب الدارس، وقلب

الطالب الجامعيِّ ، وقلب الفيلسوف ، وقلب المفكِّر ، ويجعلهم جميعاً توفِّر لهم عقولهم دلائل لذلك ، ويستخدمون الثروة العلمية القديمة والجديدة المنتشرة على ظهر البسيطة في تحقيق هذا الغرض الأكبر لتقرير هذه الدعوى الكريمة . أيها السادة! إذا استطاعت جامعةٌ أن تصنع ذلك فهي الجامعة التي تستحقُّ أن تسمَّى جامعةً ، وأعتقد أنَّ ذلك خيرُ تعريف بجامعةٍ ما .

العناية بتربية السيرة :

والوظيفة الثانية للجامعات هي تربية السلوك والسيرة ، فلتوجد الجامعات سيرة يربأ صاحبها عن أن يبيع ضميره بحفنةٍ من شعير ـ كما يقول الدكتور محمد إقبال ـ إن الفلسفات والنظم المضادَّة للإسلام ترى أنَّ إنسان اليوم يمكن شراؤه في السوق بقيمةٍ أو بأخرى ، فإن لم يرض بهذه الكمية من الثمن فسيرضى بكمية أكثر منها . . . وسرُّ النجاح الحقيقي لجامعةٍ ما أن تربِّي السيرة ، فتخرج رجالاً من المثقفين لا يرضون أن يبيعوا ضمائرهم بأيِّ قيمةٍ مهما كانت رفيعةً غالية ، ولا تستطيع فلسفةٌ هادمةٌ ، أو دعوةٌ منحرفةٌ ، أو حكومةٌ ذات سياسةٍ خاطئةٍ ، أو قوَّةٌ مدمرةٌ ، مهما كانت لبقةً ذات دهاءٍ أن تشتريهم بأيِّ ثمنٍ غالٍ ، ويقولون بملء أفواههم بلسان المقال ، أو بلسان الحال : «نرى العنقاء أكبر أن تصادا» .

ويقول بلسان الدكتور محمد إقبال :

«إنَّ حرية القلب هي سيادةٌ وسلطانٌ ، أمَّا العناية الزائدة بالبطن فهي مدعاةٌ للموت ، والخيار بيديك ، فإمَّا هذا ، وإمَّا ذاك» ، «يا أيها الطائر اللاهوتي : (يخاطب الإنسان المسلم) اعلم أنَّ الموت خيرٌ من القوت الذي يقصر جناحك ، ويمنعك من التحليق» .

والمسؤولية الثانية للجامعة الإسلامية أن تخرِّج شباباً يقفون حياتهم لخدمة الأمَّة ، ويستعدُّون للتضحية والفداء ، ينعمون بالجوع بما لا ينعمون بالشِّبع والرِّيِّ ، والتنعُّم والتمتُّع بالحياة ، ويطيبون نفساً بالحرمان ، ما لا يطيبون بالوجدان ، ويصرفون أوقاتهم وقواهم الخيِّرة ، ومؤهلاتهم الفكريَّة والعلميَّة ، والرصيد العلميِّ والفكريِّ الذي زوَّدتهم به جامعاتهم في

رفع رأس الأمة عالياً ، وفي إعلاء كلمة الله ، وتعزيز البلد ، وإنقاذ الوطن ، وفي صنع أمَّةٍ ذات رسالة ، وبناء بلدٍ مسموع الكلمة ، ومرهوب الجانب .

فهذان أمران لا بدَّ منهما ، الأمر الأول : أن توفر الجامعات الإسلامية غذاءً يشبع العقل والقلب معاً ، وضوءاً ينير لهما الطريق في وقتٍ واحد ، حتى يتجها جنباً إلى جنبٍ وبتعاونٍ متبادلٍ (Co-operation) إلى تعزيز الإيمان بالحقائق والعقائد التي آمنت بها الأمة .

ولا بدَّ أن يكون نصب أعينكم هو تخريج الرِّجال ذوي القدرات العالية ، وأريد أن أصارحكم بهذه المناسبة أنَّ قيمة بلدٍ من البلاد ليست في كثرة جامعاتها ومعاهدها ، إنَّها نظريةٌ باليةٌ قد تقادم عهدها ، وأصبح أصحابها يُعرفون بالرجعية وقصر النظر ، بل القيمة في كثرة أبنائه الذين يقفون حياتهم للبحث والدراسة ، ونشر العلم والثَّقافة ، وتثقيف الأمَّة والشَّعب ، ورفع معنويات أمَّتهم ، وصنعها أمَّةً ذات قلبٍ وضميرٍ أبيٍّ ، وفي كثرة الشباب الذين ينقطعون إلى خدمة الدين ، والعلم ، والأمَّة ، والبلد ، ضاربين الشهرة الكاذبة ، ورقيَّهم الشخصيَّ عرض الحائط ، وذلك هو المقياس الحقيقيُّ الأصيل ، الذي يقاس به البلد والأمَّة ، وليكن هذا هو المقياس الوحيد في الشرق والغرب ، فلا نقيم لبلدٍ قيمةً إلا نظراً إلى عدد الشباب الذين يتسامون عن لذائذ الحياة الرخيصة ، والمناصب والجاه ، والتقدُّم الشخصيِّ ، ويتوفَّرون على العمل الجادِّ البنَّاء ، وعلى العمل العلميِّ الإيجابيِّ النافع ، على رفع مستوى الأمَّة عقلياً وفكرياً ، على التوصل إلى نظريةٍ علميَّةٍ ذات أهمية ، على بحثٍ علميٍّ مضنٍ يتطلَّب الصبر ، والتحمُّل على تعزيز البلاد من جميع النواحي .

تلك هي أهداف حقيقة يجب أن نصبو إليها ، ونضعها في اعتبارنا ، ونجعلها نصب أعيننا ، أمَّا مجرد التعليم والتثقيف ، والتأهيل لشغل الوظائف والمناصب ، فليس مما يثنى به على جامعة ، وليس أبداً مما يجلب الحمد ، ويستخرج الإعجاب ، وإنِّي على يقينٍ كاملٍ أن رئيس هذه الجامعة الإسلامية والمشرفين عليها سوف لا يرضون بهذا الموقف ،

ولا يقبلون أن يكون هدف الجامعة مجرَّد تخريج شبابٍ مثقفين في كميةٍ كبيرةٍ ، يشغلون الوظائف الشاغرة في الإدارات ، والمصالح ، والقطاعات المختلفة ، والمصانع ، أو الدَّكاكين ، والمحالِّ التجارية ، ويموتون وهم أحياء يفقدون شخصيتهم العلمية .

الغرض الأصيل من العلم هو التوصل إلى الإيمان واليقين :

يجب أن يكون هدف الجامعة ـ التي قامت في هذا العهد العصيب ، وفي هذه البلاد المتأزِّمة ـ أن تعمل على إزالة الاضطراب والقلق الذي يسود جميع الدول الإسلامية منذ مئة عام تقريباً . . . تفككت عرى عقائدنا منذ بدأ الغزو الفكريُّ والحضاريُّ الغربيُّ ، وحدث صراعٌ نفسيٌّ وفكريٌّ استنفدت مقاومته معظم القوى العقلية والفكرية والعلمية لدى الدعاة . . . إنَّ ذلك لوضعٍ غير طبيعيٍّ يجب أن يزول في أقرب وقتٍ ، لكي تتوجه هذه القوى والقدرات إلى الأهداف البناءة ، وإلى إنقاذ البلد ، ودفع عجلته إلى الأمام .

الحقيقة أنَّ الأدب ، والشعر ، والفنون الجميلة ، والحكمة ، والفلسفة ، والتأليف ، والتصنيف ، ليس من وراء كلِّ ذلك إلا غرضٌ واحدٌ ، وهو أن تتولَّد في صاحبه حياةٌ جديدةٌ ، وإيمانٌ جديدٌ ، وبالتَّالي في الأمَّة التي هو عضوٌ فيها ، والمجتمع الذي هو جزءٌ منه .

وأود أن أنشد لكم أبياتاً قالها الدكتور شاعر الإسلام محمد إقبال وهو يخاطب الأديب والشاعر ، لأنَّه ينطبق على الوضع الذي نعيشه جميعاً :

«يا أهل الذوق والنظر العميق! أنعم وأكرم بنظركم ، ولكن أيُّ قيمةٍ للنظر الذي لا يدرك الحقيقة؟ لا خير في نشيد شاعر ، ولا في صوت مغنٍّ ، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس ، لا بارك الله في نسيم السَّحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الفتور ، والخمور ، والذويَّ ، والذُّبول» .

إنَّ الأوضاع التي نمرُّ بها نحتاج فيها إلى أن نأتي بأعجوبةٍ ، وتلك الأعجوبة سوف لن تتحقَّق إلا عن طريق الرسالة الإسلامية ، لأنَّها وحدها التي تجعل حاملها يصنع المعجزات ، ويأتي بخوارق العادات ، ويبطل المقاييس ، ويحطِّم المعايير التقليدية ، ويسخر من كلِّ الموازين التي آمن

بها العالم الجاهليُّ ، يقول الدكتور محمد إقبال :

«أنا لا أعارض التذوُّق بالجمال والشعور به ، فذلك أمرٌ طبيعيٌّ ، ولكن أيُّ فائدةٍ للمجتمع من علمٍ لم يكن تأثيره في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر والبحر ، وذلك أنَّ الأمم لا يرتفع شأنها ، ومكانها في خريطة العالم حتى تقدر على صنع المعجزات» .

إنَّ باكستان اليوم تحتاج إلى هذه القدرة على صنع الخوارق ، والتأثير في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر أو البحر ، لأنَّ باكستان تعود عليها مسؤولية بعث الدول الإسلامية كلِّها بعثاً جديداً ، إنَّ عليها أن تنفخ روحاً جديدةً في البلاد الإسلامية ، وتوجد لديها اعتماداً جديداً ، وإيماناً جديداً ، ونشاطاً جديداً ، وانتعاشاً جديداً ، وطموحاً جديداً ، وقلباً خفَّاقاً جديداً ، يتحرَّق على بؤس الإنسانية وشقائها ، وشجاعةً جديدةً تبعث على المغامرة والاقتحام ، وجرأةً خلقيَّةً تستطيع بها أن تنفخ الحياة في هذه الأمم والأقوام المشرفة على الهلاك ، التي تزلُّ أقدامها ، وترتعش أعصابها ، وتخفق قلوبها ، وتتعثَّر عقولها .

ومن هنالك فإنَّ مسؤوليتكم مزدوجةٌ ، إنَّ مسلمي شبه القارة الهندية يبذُّون مسلمي العالم الإسلامي كله بالنسبة إلى عددهم ، فتقدَّموا إلى الأمام للقيادة الفكرية للعالم الإسلاميِّ ، واعملوا على إيجاد الثقة بالإسلام ، وأكِّدوا عمليّاً أنَّ الإسلام يتمشَّى مع عهد العلم والتكنولوجيا ، وباكستان اليوم «معمل» سيقرر أنَّ النظريات الإسلامية تستطيع بكل جدارة أن تساير الزمان .

وأخيراً أشكركم وأشكر رئيس الجامعة على استماعكم لحديثي في جوٍّ من الهدوء والجدِّ .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

واجب أصحاب الاختصاص وكبار المثقفين

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في جامع «فيصل آباد» (باكستان) في ٢٢/ يوليو ١٩٧٨ م واستمع إليها النخبة الممتازة من العلماء والمثقفين بالثقافة العصرية ، وأساتذة مراكز الثقافة العصرية والمدارس الإسلامية ، والمسؤولون عن القطاعات السياسية ، والاجتماعية ، والدوائر العلمية ، والأدبية ، والثقافية ، والصحافية.

أصحاب الفضيلة والسعادة: رجالات العلم ، وأساتذة المدارس والجامعات ، قبل أن أدخل في حديثٍ موسع ، أريد أن أضع أمامكم نقطةً مبدئيَّة بالإيجاز:

قد تضاعفت اليوم مسؤولية العلماء والمثقفين. إنَّ دعوةً أو حركةً ـ إذا كان قادتها ، من أولي الطبقة العليا في الأمَّة ، من أصحاب الذكاء الموهوب ورجالات الفكر والرأي ، وذوي التعميق في الكتاب ، والسنَّة ، والعلوم الدِّينيَّة ـ تكون ذات عمقٍ وجدِّيةٍ ، ونضجٍ واكتمالٍ ، وتوازنٍ واعتدال ، يرجى فيها أنها سوف لا يواكبها انحرافٌ عن الخطِّ المستقيم في أيِّ مرحلةٍ من مراحلها ، وتكون ـ في طول الطريق ـ على نجوةٍ من العاطفية والتطرُّف ، والسطحية والابتذال... والعلماء وأصحاب الفكر كانت مسؤوليتهم عظيمةً ضخمةً في كلِّ العصور الإسلامية ، لكنّها اليوم تضخَّمت واتسعت وازدوجت أكثر من ذي قبل ، وأصبح رجال العلم والفكر ، وقادة الجماعات الدَّينية والمسؤولون عن المؤسسات والحركات الإسلامية في موقفٍ صعبٍ معقَّد ، وأصبح الشعب الإسلامي يتطلَّع إليهم كمنقذي الإنسانية ، ويرى أنهم سيقومون بالتوجيه السَّديد ، والقيادة الناجعة ، ويتفادون بالحركات الدينية ، والمحاولات الإسلامية ، من السطحية ، والتطرُّف ، والمغالاة ، حتى لا يعتقد فيها أحدٌ أنَّها كسحابة صيف عن قليلٍ تنقشع ، أو كزبدٍ يذهب جفاء ، بل يرى الناس فيها أنَّها راسخة الجذور ، بعيدة الغور.

مـأثـرة الـعلمـاء فـي الـدول الإسـلامـيـة :

أيها السادة! لو لم يكن العلماء ورجال الاجتهاد والفقه يقفون من وراء خلافة بني أميَّة ، وخلافة بني العباس ، لما وجدت هذه القوانين الإسلامية المدوَّنة التي تغطي جميع مناحي الحياة ، ويستوعب الحياة الإنسانية من

المهد إلى اللحد ، ولما كان الإسلام متجلّياً في صورة نظامٍ للحياة منسَّقٍ ومرتَّبٍ .

إنَّ التاريخ يصبُّ المدح والثناء على القادة والفاتحين ، فبطولات قادتنا أمثال طارق بن زياد ، ومحمد بن القاسم ، وعقبة بن نافع ، وموسى بن نصير ، ومآثرهم ساطعةٌ في صفحات التاريخ ، سطوع الشمس في الضحى ، لكن الذين كانوا يقومون بتنفيذ قوانين الله في البلاد المفتوحة للإسلام ، ويحلُّون المشاكل والقضايا التي كان يواجهها المسلمون في تلك المناطق الجديدة ، ويحقِّقون حاجات كانت تستجدُّ فيها ، ويقومون بتوجيهاتٍ في الأحوال والأوضاع المتجدِّدة فقلما يعرف الناس قيمة خدماتهم ، ومدى تأثيرهم في البلاد والعباد ، على حين أنَّه لو لم تكن عقول رجال الاجتهاد والفقه والحديث تعمل عملها من وراء السيوف الفاتحة للبلاد ، والأيدي الشجاعة المخضعة لعباد الله ؛ لله وحده ، ولو لم تصاحب الحكومات التي كانت تنظِّم البلاد ، وتضبط الأمور ، وتدير الشؤون ، لكانت تلك المحاولات كلُّها ، والفتوح كلُّها ، والدول والحكومات جميعها جوفاء ، لا روح فيها ، ولا حياة .

الفاتحون للمسلمين يقعون مفتوحين للإسلام :

ولنذكر مثلاً أنَّ التتار زلزلوا العالم الإسلامي ، وفكّكوا عراه ، وجعلوا أهله قطيعاً من غنم ، أو لحماً على وضم ، فما كان هناك أَمَّةٌ أذلُّ من المسلمين على ظهر هذه البسيطة ، ولو رأيت صور هذا العهد التي لا تزال تضنُّ بها المتاحف اليوم لوجدت أنَّ مسلماً معقودةٌ لحيته بذيل الحصان ، ويقوده التتاري ، كان لكلِّ شعبٍ وقومٍ في العالم قيمةٌ في أعينهم إلا الشعب الإسلاميَّ ، ولا سيما مسلمي تلك المناطق التي كانت مهد حضارة المسلمين ، وثقافتهم ، أعني : مناطق إيران ، وما وراء النهر ، التي كانت مركز الفقه في العهود الأخيرة ، ولاسيَّما الفقه الحنفي . . . لكنكم تعلمون أنَّ هؤلاء التتر الذين فتحوا بلاد المسلمين ، وقعوا مفتوحين للإسلام ،

أولئك الذين لم تستطع سيوف المسلمين أن تخضعهم؛ أخضعتهم حضارة المسلمين ، وثقافتهم ، وعلومهم ، واطَّرحوا على عتبتها عبيداً بارين ، وخدمةً منقادين مستسلمين.

وذلك لأن التَّتر لم يكن عندهم تراثٌ علميٌّ ، ورصيدٌ من الحضارة والمدنيَّة ، والقوانين المدوَّنة الشاملة ، والكتب والمؤلفات ، بل كانت عندهم دساتير قبليةٌ تقليديَّةٌ بسيطةٌ ، وأعرافٌ قوميَّةٌ وحشيَّةٌ كانت متبعةً في مناطق جبال قراقرم ومما حواليها ، فاحتاجوا إلى العلماء المسلمين ، ورجال الفكر والاجتهاد من المسلمين ، وما أن احتكوا بهم ، وترددوا إلى بلاطهم ، حتى أخذوا بعلومهم ، وذكائهم ، وفكرهم ، واجتهادهم ، واستهوتهم الحضارة الإسلامية ، فأسلموا بمجموعهم.

وقد قررت فلسفة التاريخ كمبدأ هام: أنَّ القوَّة الحربيَّة والاستراتيجيَّة لا تكسب النجاح ما لم تساندها العقول المفكِّرة ، وقوة التشريع والتقنين ، والمؤسسات المنظمة... وقد كان المسلمون أولي ذكاءٍ ومواهب ، كانت لديهم منابع التفكير والاجتهاد ، وحضارةٌ متقدِّمة ، وثقافةٌ عظيمةٌ ، وتراثٌ علميٌّ عريقٌ عتيدٌ ، وتجربةٌ موسَّعةٌ دقيقةٌ في باب التقنين والتشريع ، يتمتَّعون بقدرةٍ فائقةٍ لحلِّ المشكلات والقضايا المدنيَّة ، وقد اضطرت الأوضاع التَّتر أن يستنجدوا المسلمين في هذه النواحي كلِّها ، فكان ما كان.

إنَّ هذا الدين نابعٌ من العلم :

ومن واجبات العلماء والمسلمين ، وأساتذة الجامعات ، ومعلمي المدارس والكلِّيَّات ، ورجال القانون ، والأدباء والمفكرين ، أن يثبتوا في العصر الحاضر أنَّ هذا الدين لا يمتُّ إلى الجهل بصلةٍ ما. إنَّه ليس وليد الجهل ، أو القوة الحربيَّة. إنَّه وليد المعرفة ، والهداية الإلهية ، والوحي الإلهي ، والعلم الربَّانيِّ ، إنَّه يستطيع أن يرافق الزَّمان في كلِّ أوضاعه وملابساته ، ومشكلاته ومعضلاته ، ويقدر على أن يوجِّه المدنية ، ويراقب الحضارة ، ويتعهَّدها ، ويمنعها من الشذوذ والانحراف ، والتفسُّخ والفساد ، والهدم والإفساد.

إنَّ هذا العمل العظيم ، لا يستطيع أن ينهض بعبئه إلاّ علماء الدين والطبقة المثقفة العليا ، وإنَّه لمسؤوليةٌ عظيمةٌ على أكتافهم ، لأنَّه خطرٌ كبيرٌ على دينٍ أو أمّةٍ يعتقد فيهما الناس أنهما لا يتَّصلان بالعلم ، بل إنّهما عدوا العلم ، وصديقا الجهل ، يضرُّهما العلم ، وينفعهما الجهل ، لأن الناس حينئذٍ يرون أنَّهما لا يستطيعان أن ينفذا في القلوب ، ويتملَّكا العقول ، ويقنعا النفوس ، فلهما صولةٌ وجولةٌ ما دامت السيوف تحميهما ، والقوَّة الحربية تقف من ورائهما ، ويخيم الجهل رواقه عليهما ، وما أن يسطع نور العلم حتى ينقشعا ، كالظلمات تنجاب عن إشراق الشمس.

وتلك هي قصة المسيحية ، التي لم ترافق العلم ، وإنما برزت كحركةٍ روحانيَّةٍ اجتماعية ، نعم قد وجهها المسيح عليه السلام توجيهاً نبويّاً صحيحاً ، فأثَّرت تأثيرها المطلق بحكم وجاهته ، وقدسيته ، وقوته الروحية ، وشخصيته القوية ، وفراسته النبوية ، أما بعده ، فلم تتمتَّع إلى زمن طويل بتوجيهٍ سديدٍ من الأذكياء أولي الألمعية والبصيرة الإيمانيَّة ، فتشوَّهت صورتها ، وسيرتها ، ولما دخلت في أوربا ظنَّ الناس أنَّها لا تستطيع أن تساير الزمان ، فلا بدَّ من عزلها عن شؤون الحياة ، ولتعش حبيسة المغارات والكهوف ، والأديرة والكنائس.

المسيحية لا تحمل شريعةً مستقلةً

كانت أوربا وقتذاك تقفز قفزاتٍ واسعة ، تقطع مراحل الرقي والتقدُّم بخطىً حثيثةٍ ، تتدفَّق في المجتمع الأوروبي قوى الرقيِّ والانطلاق ، وكان هناك صراعٌ عنيفٌ حول «التنازع للبقاء» وكانت المسيحية التي كانت في دور طفولتها ، ولم تحظ بتدوينٍ وشرحٍ وتنسيقٍ ، ولم يكن لديها قانونٌ مستقلٌ ، فكانت تعتمد على القوانين اليهودية ، وتتطفل على مائدة الشريعة الموسوية ، بتغييرٍ يسيرٍ ، وتعديلٍ خفيفٍ ، ومن ثم قال المسيح عليه السلام : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران : ٥٠] ، ولم يقل : إني جئتكم بشريعةٍ مستقلةٍ ، إذاً ، فكانت المسيحية تصلح ما أفسدته اليهودية ، ولم يكن عندها دستورها الذاتي ، وكان جلُّ عنايتها مصروفاً إلى

الرحمة والرأفة ، والحبّ ، ومواساة الإنسانية ، والحدب على الضعفاء والمظلومين ، وتحرير المسحوقين ، والقضاء على السيادات التي ما أنزل الله بها من سلطان .

ولما وصلت المسيحية إلى أوروبا الفتيَّة المنتعشة ، المتدفقة المتوثبة ، وتعرَّف بها أهلها الذين كانوا يسابقون الرياح في ميدان التقدم ، ويمرحون ، ويرقصون رقص العواصف الهوجاء ، اكتشفوا سريعاً أنَّها ـ أي المسيحية ـ لا تستطيع أن تساير الزمن المتطور ، والمجتمع السبَّاق ، والركب المتقدِّم ، والعلم المتدفِّق ، هنالك فرَّط العلماء المسيحيون في جنب المسيحية أيَّما تفريطٍ ، فقد كان الموقف يحتِّم عليهم أن يثبتوا حين ذاك مصلحة المسيحية ، وغناءها ، وأن يجودوا على المجتمع الأوربي بتوجيهاتٍ مبدئية ، وأن يستقبلوا متطلبات الوقت ، ومقتضيات الإنسان ـ التي لم تكن تتعارض مع صميم المسيحية ـ ثم يطالبوا الناس بمراعاة روح الدين وتعاليم المسيحية في تحقيق رغباتهم ومتطلباتهم ، لكنهم لم يصنعوا كلَّ ذلك ، بل توزَّعوا في طبقتين : طبقة الحكام ، ورجال الدين ، أو طبقة علماء الدين ، ورجال الإدارة والحكم ، وعادت الطبقة الأولى ، لا تؤمن بالمسيحية إلا كعقيدةٍ وحدها ، لا شأن لها بالحياة وبالحكم وتنظيم شؤون الحياة ، وإدارة الحكم والسياسة ، والتشريع والقانون ، أمَّا الطبقة الثانية ، فلم تعد وظيفتها إلا معارضة الطبقة الأولى ، والوقوف في طريق الرُّقي ، ورأوا أنَّ التقدم هو الفرار عن الحياة ، والهروب من ضجيجها ، وضوضائها ، واللجوء إلى الكنائس ، والاعتزال في الغابات ، والعزوبة ، والعزوف عن النساء ، والفرار من ظلِّهن ، واعتقدوا أنَّ تلك هي طرق الاحتفاظ بالروحانية .

على كلٍّ فكلتا الطبقتين ألحقتا بالمسيحية ضرراً فادحاً ، فالطبقة الحاكمة تحرَّرت من كلِّ حدٍّ وقيد ، وعادت تصوغ هيكل المدنية في عزلةٍ عن تعاليم المسيحية ، وصارت تستعبد الناس ، وخطا بعض المعارضين للمسيحية خطوةً أخرى ، فنالوا منها في قارعة الطريق ، وجعلوها عرضة لكلِّ تهمةٍ ، وضعفٍ ، وسقطةٍ ، وبدأت كلُّ هذه الألاعيب منذ «سنت بال»

ولا تزال المسيحية سائرةً على هذا الدرب ، مما جعل الناس أن قطعوا آخر خيط كان يربطهم بالكنيسة ، ووقع الخليج بين الكنيسة والإمارة للأبد ، وظلَّت المسيحية يتقلَّص ظلُّها حتى أصبحت نقطةً لا تتضح.

الإسلام والعلم متلازمان :

والحمد لله أنَّ هذا الخطأ لم يقع في عالم الإسلام ، لأنَّ الإسلام والعلم ظلا متلازمين منذ اليوم الأول ، وقد قلت في الكلمة التي ألقيتها في جامعة «كراتشي» : إنَّ الدين الذي كانت بداية نزول وحيه بكلمة «اقرأ» ولم يتجرَّد وحيه الأول من ذكر القلم ، ما كان ليفارق العلم والقلم في أيِّ زمانٍ ومكانٍ ، ولا يمكن في دنيا الإسلام أن يتصوَّر أحدٌ مفارقة الدين للعلم ، لأنَّ الإسلام والعلم رفيقان وفيَّان منذ بداية الطريق. . . وتعلمون أن أسرى بدر الكافرين ، كان عددٌ منهم لا يستطيع أن يفكُّوا رقابهم بتقديم الفدية ، وهنالك جعلت فديتهم أن يُعلِّم ـ كلٌّ منهم ـ عشرة أفراد من أولاد الأنصار والمهاجرين.

الإسلام لا يساير الزمان فحسب بل يوجهه ، ويقوم بإرشاده :

قد كان أكبر واجبات العلماء المسلمين اليوم أن يربؤوا بالإسلام من أن يزعم الشباب المعاصر ، أنه يقوم على ركيزةٍ من القوة والحكومة ، ولا يستطيع أن يجاري تقلبات الزَّمان ، وتقدُّم العلوم والفنون ، وقد تقادم عهده ، وولَّى دوره ونفدت بطاريته ، قد كان له أن يساير العصور البدائية الساذجة المحدودة النِّطاق ، حينما كانت البشرية في عهد طفولتها ، أمَّا في هذا العصر ، عصر المدنية المتقدمة ، المعقَّدة المتشعبة؛ فلا يملك أن يمثِّل دوراً في الحياة.

كان من أضخم مسؤوليات علماء الإسلام أن يواجهوا هذا التحدِّي ، وأن ينسِّقوا هذه المدنية مع مبادىء الإسلام ، باستخدام ذكائهم ، ودراستهم العميقة ، والمرونة والنعومة التي يتمتع بها أصول الفقه في الإسلام ، بمعونةٍ من مبادىء الكتاب والسنَّة؛ التي تستطيع أن ترشد الأجيال البشرية في كلِّ زمانٍ. . . والتقصير في هذا الجانب أقلُّ نتيجته هو : التحرُّر من

الحياة الإسلامية ، والتجرُّد من تعاليم الإسلام وأحكام الكتاب والسنَّة ، وأسوأ عاقبته هو: الإلحاد ، واللادينية ، والثورة على الدين ، والخروج على تعاليمه. ونرى الدول الإسلامية تتوزعها هاتان العاقبتان الوخيمتان ، اللتان تعتبران ثورةً على الرسالة الإلهية ، والتعاليم المحمَّدية.

ومن ثم فإنَّ العمل الأول ، والأهم اليوم أن نثبت أنَّ الإسلام بروحه ، ومقاصده ، ومبادئه العتيدة ، يستطيع أن يساير الحياة ، حاشا لله ، بل يستطيع أن يقودها ويوجهها ، لأنَّ مسايرة الإسلام للحياة هي شيءٌ تافهٌ متواضعٌ لا يتَّفق وشأن الإسلام ومكانه ومركزه في الحياة ، والكون ، وإنما عبرت بالمسايرة تنازلاً . . . ومكان الإسلام الحقيقي هو أنه وحده يقدر على أن يرشد الحياة ، وينقذها من الأخطار ، والأهوال. . . والمدنية التي شذَّت عن تعاليم الإسلام ومبادئه مدنيةٌ زائفةٌ ، والإمارة ، أو الدولة التي انحرفت عن التعاليم الإلهية عرضةٌ لكلِّ خطر ، ومصيرها الفناء والانهيار ، مهما كانت موطدةَ الأركان ، شامخة البنيان.

يجب أن نؤثر الإسلام على جميع المصالح والأغراض :

ومسؤولية العلماء والمفكرين المسلمين ثانياً ، أن يفضِّلوا الإسلام على كلِّ جماعة ، ومؤسسة ، ومدرسة ، وطائفة ، وحزب.

أيها السادة ، إذا رأيتم أن بقاء الإسلام يتطلب أن تمحىٰ جميع الأسماء ، واللافتات ، والشعارات ، والشارات ، والأحزاب ، والجماعات ، فليكن ذلك موضع عنايتكم ، ولا يقعن تلكؤٌ منكم ، أو إحجام للحظة واحدة ، ولتكن مصلحة الدين والعقيدة مفضلةً على كلِّ مصلحةٍ حزبية أو جماعية ، وليكن نصب أعيننا هو الدِّين والإيمان ، وانتصارهما ، سواءً رجع الفضل إلينا أو إلى غيرنا من الإخوة في العقيدة والدين ، وقد كان من معجزة نبيِّ الإسلام الأعظم سيدنا محمد ﷺ أنَّه جعل أصحابه لا يطمعون في أن تنمى إليهم مأثرة ، أو يرجع إليهم الفضل في تحقيق بطولةٍ ، كان همُّهم الوحيد هو تحقيق المأثرة والبطولة ، وإرضاء ربهم تبارك وتعالى ، ثم لا يبالون بشيءٍ.

وقد كان الصحابة يحزنون إذا اضطروا إلى الإشارة إلى عملٍ قاموا به لوجه الله الكريم ، كأنَّهم قد أفشوا سرّاً ، كان الضن به واجباً ، فقد روى الإمام البخاريُّ رحمه الله بسنده عن أبي موسى الأشعري ، رضي الله عنه ، قال: «خرجنا مع النبي ﷺ في غزاةٍ ونحن ستَّة نفر ، بيننا بعيرٌ نعتقبه ، فنقبت أقدامنا ، ونقبت قدماي ، وسقطت أظفاري ، وكنا نلفُّ على أرجلنا الخرق ، فسميت غزوة ذات الرقاع ، لما نعصب من الخرق على أرجلنا ، وحدَّث أبو موسى بهذا ، ثم كره ذلك ، قال: ما كنت أصنع بأن أذكره. كأنه كره أن يكون شيء من عمله أفشاه».

ولكن اليوم تغيَّر المقياس ، وتغيَّرت النفسية والعقلية ، فأصبح الهمُّ يتركَّز على الانتماء إلى مأثرةٍ ، وعملٍ جليلٍ ، وبطولةٍ نادرةٍ ، بحقٍّ وبدون حقٍّ.

وقد ذكرتني المناسبة بقصةٍ طريفةٍ: كان خطيبٌ مناظر من إحدى ولايات بلادكم ، اسمه غازي محمود دهرم بال (GHAZI MAHMOOD DHARAM PAL) سمعته يقول في خطبة: أرى الصحف تنشر خبر إسلام امرئٍ ، فتنشره مقروناً بمن تشرف المرء بالإسلام على يديه الطاهرتين ، حتى يتسامع الناس باليدين الطاهرتين كما يتسامعون بإسلام فلانٍ ، وربما تكون العناية بالتنويه ، «باليدين الطاهرتين» أكثر من إسلام فلان ، وأكثر من ذلك أنَّنا رأينا بعض الناس يتبادرون إلى إمامة صلاة الجنازة ، إذا كان المتوفى رجلاً له شأنٌ ومكانٌ ، لكي تنشر الصحف خبر هذه الإمامة لهذه الجنازة العظيمة.

أيها السادة! إنَّها عاطفةٌ خبيثةٌ ، قد تعود وبالاً على صاحبها ، ترون أنَّ قريباً من أقربائكم إذا ألمَّ به مرضٌ يتمنَّى كلُّ أقربائه أن يعافى المسكين ، بحيلةٍ أو بأخرى ، ولا يبالون لمن يرجع إليه الفضل ، إلى أحدهم ، أو إلى الطبيب ، فكذلك العالم الإسلامي مصابٌ بالمرض اليوم ، وبلادكم مريضةٌ فلتتركز عنايتكم على الشفاء والدواء ، سواءٌ وقع الشفاء في حسابكم ، أو حساب غيركم ، ولا تكترثوا بما عسى أن يسجِّله المؤرخون ، وأيُّ جماعةٍ

يحبِّذونها ، وأيُّ حزبٍ يعطونه الأولية لدى المدح والثناء. . . لم يستطع رجال التاريخ والمعنيون بفلسفته ، أن يتوصلوا بالضبط والتحديد إلى من كان له الفضل الأكبر في دخولهم في حظيرة الإسلام ، لأن المؤمنين المخلصين الذين عملوا على ذلك في صمت وفي هدوء ، قد كتموا عملهم من حيث لم يستطع نظر التاريخ النفَّاذ إلى يومنا هذا أن يقع عليه ، ويتوصَّل إليه.

ليكن كلٌّ منكم جندياً صغيراً وفيّاً في المعركة التي تجري على ساحة هذا البلد من أجل إعادة الإسلام ، والشريعة الإسلامية إلى مكانتهما الأصيلة ، ومن أجل صوغ الحياة والمجتمع والمدنية في قالب الإسلام ، وتخليص المجتمع من المفاسد التي تسرَّبت إليه بفعل المدنية الغربية وعلى أيدي ساستنا ، وأخلصوا العمل لله ، تسجَّل أسماؤكم في سجلاته القدسية النورانية ، ولا تبالوا بالثناء الحقير ، أو التحبيذ المتواضع ، أو الشهرة التافهة في هذه الدنيا الحقيرة الفانية بين هذا الخلق الفاني.

وليكن موضع اعتباركم أنَّ المعركة الحالية ليست بين مدرستين فكريتين ، وإنما هي بين الإسلام والجاهلية ، وبين الدين واللادينيَّة ، فتصوَّروا كأنَّ هناك مسجداً يجري بناؤه ، فكلٌّ من ساهم فيه سينال الجزاء حسب إخلاصه واحتسابه ، ولا ينبغي لأحدٍ أن يبحث عما إذا كان اسمه في أول قائمة الذين ساهموا في بناء المسجد ، وعن تسجيل كمِّية المساهمة التي قام بها ، يجب أن نحارب مثل هذه العاطفة الغير المحمودة ، ونتغلَّب عليها ، ونخضعها إلى حدٍّ مستطاع.

اصرفوا عنايتكم ـ على اختلاف الطبقات والمسالك ، والمذاهب والمناهج ـ إلى هذه الجبهة ، جبهة الدعوة الإسلامية ، وجبهة صوغ الحياة في بوتقة الشريعة الإسلامية ، وليكن هذا البلد الكريم نموذج الحياة الإسلامية ، التي يمكن أن يراها الإنسان بالعيان ، بل يلمسها بالبنان.

لا بدَّ من الإيثار وتقديم التضحية :

والأهمُّ من كلِّ ذلك ، أن نعمل بالإيثار ، ونتجنَّب الخصام ، وبقدر

ما تكون حياتنا بسيطةً ، ومعيشتنا ساذجةً ، وبقدر ما تكون حياتنا مشفوعةً بالإيثار والتضحية تأتي النتيجة أحسن ، والثمرة أحلى بقدر ذلك ، والشيء الذي يكمن فيه الخطر العظيم هو: التخاصم ، والتطاحن ، ومن هنالك يتحتَّم أن نتحاشى عن التعرُّض للمباحث الدينية؛ لأن لها محلها ووقتها ، وقد صرح الإمام أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي (المعروف بمجدد الألف الثاني) في إحدى رسائله ، أنَّه قد كان السبب في تقزز الإمبراطور المغولي «أكبر» من الإسلام وخروجه من ربقته هو تناقر العلماء كالديوك ، فقد كانوا يناقشون مناقشةً ساخنةً حول المسألة المطروحة ، وكلٌّ منهم كان يحاول جهده أن يثبت تفوقه على الآخرين ، شأن الذين يسعون وراء الجاه والمنصب ، وشأن المتهالكين على زهرة الدنيا ونعيمها ، من عبَّاد المادَّة والمعدة ، وهنالك فكَّر «أكبر» وقال في نفسه: إنهم أخسُّ من وزرائنا ، وملئنا ، ورجال حكومتنا ، ومن الماديِّين المتهافتين على حطام الدنيا ، ولما بلغ الشيخ السَّرهندي أنَّ الإمبراطور «جهانكير» ابن «أكبر» يريد أن يخصَّ عدداً من العلماء لبلاطه يستشيرهم ، ويأخذ بنصائحهم ، كتب إلى الأمير سيد فريد ، وقال: أشر على الإمبراطور ألا ينتقي لبلاطه إلا عالماً واحداً يخاف الله ، ويخشى حسابه ، وحذار أن يجمع بين عدد من العلماء. . . وذلك إن دلَّ على شيءٍ فإنما يدلُّ على فراسة الشيخ السَّرهندي ، وألمعيته البالغة ، حيث أدرك الحقيقة ، وأشار بالصواب ، ولكن لا أقول: إنَّه يجب الاقتصار على عالم واحدٍ في كلِّ قضيةٍ ، وفي كلِّ مناسبةٍ ، وفي كلِّ موقفٍ ، ولكني أريد أن أؤكد أن تخاصم العلماء وتطاحنهم يؤدِّي إلى مثل هذه النتيجة المكروهة المؤلمة المشار إليها.

إنَّ الخطر ـ يا سادة! ـ إذا كان قائماً على الرأس كالسيف المصلت ، فلكلٍّ حقٌّ أن يحذر منه ، ويشير بأخذ العدَّة التي يقاوم بها الخطر ، حتى الطفل له حقٌّ أن يقول: إن الباب ـ مثلاً مفتوحٌ يخاف منه اقتحام السارق ـ فأريد أن يكون الأمور المشار إليها موضع عنايتكم ، ولا يشغلنَّكم عنها شيءٌ.

أولاً: أنقذوا الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية أن تظنَّ أنَّ تعاليم الكتاب ،

والسنة ، والفقه ، وأصول الفقه الإسلامي ، لا تقدر على مجاراة المدنية المعاصرة ، ولا تستطيع أن تحلَّ القضايا المتجدِّدة ، لأنَّ ذاك شيءٌ خطرٌ جداً ، قد يؤدِّي إلى الإلحاد ، واللادينيَّة.

ثانياً: لا بدَّ أن يراكم الشعب ورجال الحكومة أرفع من مستواهم أنفسهم ، وذلك بالحياة البسيطة التي تحيونها ، وبالقناعة باليسير القليل من متاع الحياة ، ولا يرينَّكم تتطلعون إلى المرتبات العالية ، والامتيازات الكثيرة ، والمنافع الكبيرة التي يتمتَّع بها الوزراء ، والحكام ، ولا يرينَّكم تتحلَّب شفاهكم لما يتقلبون فيه من عيشٍ رغيدٍ باذخٍ ، ونعيمٍ خافضٍ ، ويملكونه من قصورٍ شامخةٍ وسياراتٍ فاخرةٍ ذات النوعيَّة الممتازة.

أصارحكم أيها السادة! أنَّ البلاد اليوم تحتاج الزاهدين القانعين الذين يفترشون الغبراء ، لأنَّ هذه الطبقة العالية لا تخضع إلا لأمثالهم ، ولكن لا أشير عليكم أن تتكلفوا الزهادة ، وأن تصنعوا صنيع الزُّهاد ، لكن الواقع أنَّ الناس يرتمون في حضن من يرونه زاهداً فيما عند الناس ، قانعاً بما قسم الله له ، ترون أنَّ الشيخ السَّرهندي لماذا خضع له إمبراطور عصره؟ لأنهم رأوا أنَّ هذا الرجل الأبي ، لا يتردَّد إلى البلاط ، ولا يطوف على الأمراء والكبار ، ولا يشفع لأحدٍ ، وإنما يذكر ربَّه خالياً قابعاً في ناحيةٍ مفردة ، وينصح الناس ، ويخلص لهم الودَّ ، ويسدي إلينا بالتوجيه والمشورة ، وكذلك صنع جميع علمائنا العاملين ، لم يختلفوا إلى الملوك ، ولكنَّهم راقبوهم من بعيدٍ ، ووفروا للحكومة رجالاً أمناء ، ودعوا لها ولم يبخلوا عليها بمشورتهم الغالية ، ولكنَّهم كانوا يقولون: خيرٌ أن تصطلي بالنار من بعيد ، أما إذا ألقيت يدك فيها فهي تحرقها.

هذه ملاحظاتي وعصارة دراستي وضعتها أمامكم ، وقد تحدَّثت عنها في مناسباتٍ كثيرةٍ ، وعصارتها: أن الوقت هو وقت محنتنا ، ومحنة العالم الإسلامي كلِّه ، يجب أن نثبت جدارتنا وصلاحيتنا ، وأخاف أن شعور الناس بضعف صلاحيتنا قد يلحق ضرراً بالإسلام ، ويسجل المؤرخون ويتحدَّث الناس: أنَّ هذه الخسارة قد جلبها عدم جدارة العلماء ، وقلة

كفاءتهم ، ومعذرةً إليكم إذا بدرت منِّي كلمةٌ ساءتكم ، وختاماً أتضرَّع إلى الله العلي القدير أن يوفقنا لهذه الغاية ، وييسر لنا المهمة ، ويهدينا سبيل الرشاد. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

مدرسة شبه القارة الهندية العربية والأدبية ، ميزاتها ومنتجاتها

هذه كلمة تحيةٍ وترحيب ألقاها العلامة الندوي في الندوة العالمية للأدب الإسلامي ، المنعقدة في ندوة العلماء بلكهنؤ الهند من (١٢ ـ ١٤) من جمادى الآخرة ١٤٠١ هـ (١٧ ـ ١٩) من أبريل ١٩٨١ م.

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ، أما بعد:

حضرات الأساتذة الكبار! وعلماء اللغة العربية والآداب! والمشتغلين بالتربية ، والتعليم ، والتأليف ، والبحث ، والتحقيق في مختلف أرجاء العالمين الإسلاميِّ والعربي!

أحيِّيكم بتحيَّة الإسلام ، وبتحيَّة القرآن ، الذي جمعنا على صعيد حُبِّ اللُّغة العربيَّة ودراستها ، ووصل النهار بالليل ، والشباب بالشيب في خدمتها ، والغيرة عليها ، وإيثارها على لغات الأمَّهات والآباء ، والبلاد والأوطان ، فلولا القرآن الذي نزل بهذه اللُّغة ، ولولا الرسول الذي نطق بها ، ولولا المكتبة الإسلاميَّة العربيَّة التي هي من أغنى مكتبات العالم ، والتي أسهم في تكوينها وتوسيعها وتجميلها علماء العرب والعجم ، لما تسنَّى لبلدٍ عجميٍّ يعاني مشكلة اللغات ، ويخوض معركة صراع الثقافات ، والحضارات ، ولا يرتبط باللُّغة العربيَّة ارتباطاً عنصريَّاً ، ولا مناخيَّاً ، ولا تاريخيَّاً ، ولا اقتصاديَّاً ، ولا سياسيَّاً ، أن يعقد ندوةً عالميَّةً في الأدب الإسلامي ، ويدعو إليها صفوة الأدباء والباحثين في العالم العربيِّ ، ولا يشعر في ذلك بمعنىً من معاني «التطفُّل» وحُبِّ الفضول ، ولا بشيءٍ من الاقتحام والمغامرة ، وتخطِّي الحدود والآداب ، فيلجأ إلى اعتذارٍ وتعليلٍ وتبريرٍ.

إنَّ هذه الندوة العالمية للأدب الإسلاميِّ تعقد في بلادٍ لم تكن اللغة العربية فيها في فترةٍ من فترات التاريخ لغة النطق والتفاهم ، ولغة الديوان والحكومات ، ولغة الرسائل والمكاتبات ، وإن كان ذلك محسوباً على

هؤلاء المسلمين الذين كانوا ، ولا يزالون يقرؤون القرآن باللغة العربية ، وهي لغة صلواتهم وعباداتهم. لكن سادتنا العرب ـ وأرجو عدم المؤاخذة ـ لا يُخلوْن عن التبعة ، فلو وصل المدُّ اللغويُّ والثقافيُّ والحضاريُّ الذي احتضن مصر والشام والعراق ، إلى أسوار هذه القارة الهندية ، وتوغَّل فيها ، كما توغل في ربوع الشرق العربي ، وربطها الخيط النورانيُّ الذي انبثق من الجزيرة العربية في فجر الفتح الإسلاميِّ ، لكان لهذه البلاد شأنٌ غير هذا الشأن ، ولما احتجتم إلى وسيطٍ وترجمان.

ولكن بالرغم من أنَّ اللغة العربية لم تكن في يوم من الأيام لغة النطق والتفاهم على مستوى الشعب والجمهور ، فإنَّ صلة هذه القارة باللغة العربية وحركة التأليف والتدوين عميقةٌ وقديمةٌ ، وقد قدَّر الله أن تظلَّ هذه البلاد متمسكةً عبر القرون والأجيال بعلوم الكتاب والسنة مسايرةً لركب التأليف ، والإنتاج العلمي السيَّار، حين ساق إليها في طليعة الدعاة والغزاة، وفي مقدمة الكتيبة المؤمنة المغامرة في أوائل القرن الثاني الهجري ، المحدِّث الكبير الربيع بن صبيح السَّعدي الذي يقول عنه الجلبي في «كشف الظنون»: هو أول من صنف في الإسلام ، أو كان يلي أول المصنفين في الإسلام كما قال بعضهم ، وكان قد خرج مع عبد الملك بن شهاب المسمعي من مطوعة أهل البصرة ، فمات بأرض الهند في سنة ستين ومئةٍ وكانت في موته شهيداً خارجاً في سبيل الله ، حياةٌ للعلم ، وبعثٌ للهمم ، وحفزٌ للعزائم ، وتأمينٌ لمستقبل هذه البلاد العلميِّ والتأليفيِّ.

ولم تكن عناية هذه البلاد وأبنائها مقتصرةً على علوم الكتاب والسنَّة التي توافرت لها الدواعي القويَّة ، من إيمانٍ وعقيدةٍ ، وحبٍّ وعاطفةٍ ، وحاجةٍ وضرورةٍ ، بل تخطَّت ذلك إلى اللغة العربية وآدابها ، وتاريخ هذه البلاد في خدمة اللغة العربية والعناية بها، والاتصال بأئمة اللغة وأقطابها، واحتضانهم وإيوائهم قديمٌ. فقد كان الإمام الكبير رضيُّ الدين أبو الفضائل الشيخ حسن ابن محمد الصغاني (م ٦٥٠ هـ) ـ من رواد وضع المعاجم الكبيرة، ودواوين اللغة ـ من مواليد هذه البلاد ، فقد ترعرع ، وبلغ أشدَّه ، واستكمل دراسته بمدينة لاهور ، وكان دائم التردُّد إلى مسقط رأسه ، وبلاد نيطت بها

تمائمه ، وقد سارت بتصانيفه الركبان ، وخضع لعلمه علماء الزَّمان ، قال السيوطي : (إنَّه كان حامل لواء اللغة) ، وقال الذهبي : (إنَّ إليه المنتهى في اللغة) ، وقال الدمياطيُّ : (إنَّه كان إماماً في اللغة والفقه والحديث) ، ومن مصنفاته : «العباب الزاخر» في اللغة في عشرين مجلداً ، و«مجمع البحرين» في اللغة ، و«النوادر في اللغة والتراكيب» وكتب أخرى في أسماء الحيوانات ، عدا مؤلفاته في النحو .

وقد ظلَّت عناية علماء الهند باللغة العربية وآدابها مستمرةً على مرِّ العصور والأجيال ، ولم تكن هذه العناية تقليديةً ـ سائرةً على خطٍّ واحدٍ من وضع المعاجم الكبيرة ، وتلخيصها ـ بل كانت لهم فتوحٌ وابتكاراتٌ ، وزياداتٌ تكاد تكون فريدةٌ في المكتبة العربية العالمية الواسعة ، فقد عُنِيَ العلاَّمة محمد طاهر الفتني (م ٩٨٦ هـ) بشرح غريب الحديث ، فألف كتابه العظيم «مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ، ولطائف الأخبار» في خمس مجلدات كبار ، يقول العلامة السيد عبد الحي الحسني في كتابه «نزهة الخواطر» : (جمع فيه المؤلف كلَّ غريب الحديث وما ألف فيه ، فجاء كشرح للصِّحاح الستة ، وهو كتاب متَّفق على قبوله بين أهل العلم منذ ظهر في الوجود ، وله منَّةٌ عظيمة بذلك العمل على أهل العلم) . ومؤلفات علماء الإسلام كثيرةٌ في موضوع غريب الحديث ، كما يعرف أهل هذه الصناعة ، ولكن الذي مارس تدريس الحديث الشريف ، وكان من المتبصِّرين الحاذقين لهذا العلم ، والذين يواجهون المشكلات في تدريس هذا الفن ، وشرح الحديث عملياً ، يعرفون ميزة هذا الكتاب ، وعلو كعب المؤلف ، ورسوخ قدمه في فهم الحديث ، وسعة نظره فيه .

ويعرف أهل البصر ، والمشتغلون بالتدريس والتأليف أنَّ موضوع المصطلحات العلمية ، وشرحها ، وتحديد معانيها ، والوصول فيها إلى اللباب وفصل الخطاب من أدقِّ العلوم ، والمؤلف في هذا الموضوع من أعظم المؤلفين مسؤوليةً وتحرُّجاً ، فإنَّ المصطلحات كالخارطة للسفن ، والمراكب ، والطائرات ، فأدقُّ خطأٍ في خطوطها التي تضبط المراكب والطائرات ، وتحدِّد الجهات والغايات ، قد يكون سبباً لضياع هذه البواخر

والطائرات ، أو انحرافها عن الغاية المقصودة ، وقد كان من شجاعة علماء الهند ومغامرتهم ، وثقتهم بالنفس ، ومكانتهم في الثقافة الإسلامية العربية أن تناولوا هذا الموضوع الدَّقيق للتأليف ، ومؤلفات أهل الهند في هذا الموضوع هي الفريدة في هذا الباب ، والخطيب في المحراب ، وعليها الاعتماد فيما أُلِّف في فهم المصطلحات العلمية واستخدامها؛ إذ ألَّف الشيخ عبد النبي الأحمد نكري كتابه «جامع العلوم» المشهور بدستور العلماء في مجلدين ، وألَّف الشيخ محمد أعلى التهانوي (وكلاهما من رجال القرن الثاني عشر) كتابه «كشاف اصطلاحات الفنون» ، وهو كتابٌ عظيمُ النفع تلقَّاه المشتغلون بالعلم في البلاد بالقبول ، وأثنوا عليه لأنَّه يغني عن مراجعة آلاف الصفحات ، ومئات الكتب ، وقد جاءت في عصارة دراسات المؤلف الواسعة العميقة ، ورحيق معلوماته العذب الصَّافي ، وهو في ذلك كنحلةٍ تمتصُّ من الأزهار والأوراد ، وتصبُّ العسل المصفَّى.

وتُوج هذا المجهود العلميُّ ، والعناية الدقيقة المخلصة بعلم اللغة ، بمأثرة العلامة السيد مرتضى بن محمد البلكرامي المشهور بالزبيدي ، التي تجلت في كتابه العظيم «تاج العروس في شرح القاموس» في عشرة مجلدات كبار ، ولا أعرف ـ في حدود علمي ـ أن معجماً في أيِّ لغة من لغات العالم الحيَّة ، عُنِيَ به هذه العناية الفائقة ، وفُكِّر في شرحه وتنقيحه والزيادة فيه ، فأصبح موسوعةً لغويَّـةً. وقد ولد السيد مرتضى في الهند في قريةٍ لا تبعد عن هذا البلد الذي نلتقي فيه بعداً كبيراً ، وقد كانت من توابع هذه المدينة ، وهي مدينة كبار العلماء والأدباء ، والشعراء والمؤرخين ، كان في مقدمتهم مولانا السيد غلام علي البلكرامي صاحب «السبع السيارة» ، وهي سبعة دواوين له بالعربية ، وصاحب ابتكاراتٍ وزياداتٍ في الشعر والعروض ، وتوليد المعاني ، والتفنن في الخيال ، وقد شغل كتاب «تاج العروس» سمع الزمان وبصره ، فتنافس في انتساخه ، والحصول على نسخةٍ منه كبار سلاطين العصر ، وملوك العالم.

ومما يجب أن يسجَّل في تاريخ الأدب العربي ، وينتبه له المتبعون لمسيرة الأدب العربي ، وتطوراته ، أنَّ الهند الخاضعة لنفوذ الفرس الأدبي

والثقافي ، والتي كانت تعيش على فتات مائدة العرب في اللغة والأدب ، أنجبت في مختلف عصورها من استطاع أن يسمو على الأسلوب الأدبيِّ التقليديِّ الذي كان يسيطر على العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه ، بعد أن ظهر كتاب «المقامات» للحريري ، على المسرح الأدبي ـ ولا مؤاخذة فإنَّ أبا زيد السروجي كان ممثلاً في مسرحيات مختلفة ـ فكان المثال الوحيد الذي يحتذى في الإنشاء والكتابة العربية ، وقد كان ذلك كتغيُّر الفصول ، وحلول الربيع والخريف ، أو كالأوبئة التي تؤثر في المزاج تأثيراً عاماً ، لا يخلو منها قويٌّ وضعيفٌ ، وسليمٌ وسقيم ، وقد غشيت العالم العربي ، بل العالم الإسلامي ، سحابةٌ من تقليد أسلوب الحريري ، ولكن ظهر من أفق الهند ـ البعيدة عن مهد اللغة العربية وأساليبها الأصيلة ـ رجالٌ كانوا يبدون كيراعاتٍ وحباحب في ليلةٍ مطيرةٍ مظلمة ، كتبوا بقلمٍ عربيٍّ أصيلٍ ، وفي أسلوب يجري مع الطبع ، وهذه الظاهرة الأدبية ، أو البدعة في شريعة الأدب العربيِّ المتبعة شرقاً وغرباً ، تحتاج إلى دراسةٍ عميقةٍ .

وكان من هؤلاء الأفذاذ العلامة محمود الجونفوري ـ وهو من مدينة مجاورة في هذه الولاية الشمالية ـ (م ١٠٦٢ هـ) ، فالذي يقرأ كتابه «الفرائد في شرح الفوائد» يتعجَّب لإنشائه المترسِّل ، وأسلوبه العلميِّ التحليليِّ ، وبعده عن السَّجع والتنميق الذي كان له سحرٌ على أصحاب الصناعة الأدبيَّة ، والشادين باللغة العربية .

وإذا لم تكن الهند المجلِّية في مضمار التحرر من قيود السجع والقوافي ، والبديع والصنائع اللفظية ، وإيثار جانب المعاني على جانب زخرفة الألفاظ ، وإرسال النفس على سجيتها ، وإطلاق عنان القلم ، فقد كان السبق في ذلك ، والزعامة العلمية لنابغة العرب ، وإمام فلسفة التاريخ ، العلامة عبد الرحمن بن خلدون التونسي ولمقدمته العظيمة الفريدة التي هزَّت العقول ، والأذواق ، وشقَّت طريقاً جديداً للإنشاء والبحوث العلمية ، أقول : إذا لم يقدَّر للهند أن تكون هي المجلِّية في هذا المضمار ، وقد كان طبيعياً ، لأنَّها كانت في آخر حدود العالم الإسلاميِّ ، وتحت نير الحكم العجمي السياسيِّ والثقافيِّ ، فقد كانت المصلِّية في هذا

المضمار؛ إذ نبغ فيها الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي (م ١١٧٦ هـ)، فألف كتابه «حجة الله البالغة»، والكتاب ـ علاوةً على مكانته في موضوع أسرار أحكام الشريعة، وفلسفة التشريع الإسلاميِّ ـ مثالٌ فريدٌ لسلامة الذوق الأدبيِّ، ونصاعة اللغة، وقوة العبارة وانسجامها، وبعدها عن السجع البارد، وتقليد أسلوب الحريري، وهو يعدُّ بحقٍّ النموذج الثاني للنثر الطبعيِّ السلسال، والتعبير العلميِّ العامر، بعد مقدمة ابن خلدون، والذي يقرأ فصل (المدنية العجمية عند بعثة الرسول ﷺ) في كتاب «حجة الله البالغة» يحار لرشاقة العبارة، والتدفُّق البيانيِّ، وسهولة اللغة وعذوبتها.

وقد نبغ بعده علماء كتَّابٌ في الهند، كانت كتاباتهم في السِّيَر والتراجم، والبحوث العلمية والتاريخية تختلف عن كتابات معاصريهم في البلاد العربية الصميمة، ومراكز الثقافة العربية، في عذوبة العبارة، وخفة الرُّوح، وتنوُّع المادَّة، والترسُّل، ونخصُّ بالذكر منهم العلامة محسن بن يحيى الترهتي صاحب «اليانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني» وهو كتابٌ مشرق الديباجة، عليه رواء العربية الفصحى، ورشاقة الأدب القدير، وعلاَّمة الهند الأمير السيد صديق حسن القنوجي البهوبالي (م ١٣٠٧ هـ)، والمؤرخ الكبير العلاَّمة السيد عبد الحي الحسني (م ١٣٤١ هـ) صاحب «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» في ثمانية مجلدات، والعلاَّمة المحقق الكبير عبد العزيز الميمني صاحب كتاب «أبو العلاء وما إليه» وغيره.

وهنا اسمحوا لي أن ألفت نظركم إلى حقيقةٍ تاريخيَّةٍ أدبيَّةٍ، وأنقل سطوراً من كلمتي التي ألقيتها في مهرجان ندوة العلماء الكبير المنعقد في ٢٥ ـ ٢٨ شهر شوال عام ١٣٩٥ هـ. قلت:

(من سمات علماء الهند البارزة أنَّهم قادوا الحركة الأدبية الإنشائية في شبه القارة الهندية، وكانوا من الدعائم القويَّة السامقة التي قام عليها قصر الأدب الرفيع، والنثر الفني بعد ثورة ١٨٥٧ م، وكان كلُّ واحدٍ منهم

مؤسِّس مدرسةٍ أدبيةٍ خاصَّةٍ لا يزال لها أنصارٌ ، وأتباعٌ ، ومقلِّدون ، وكان كثيرٌ منهم رائد نشاطٍ جديدٍ في الإنشاء والتحرير والنقد وتاريخ الأدب والشعر ، ولا تزال مؤلفاتهم هي المرجع الأصيل ، والعمدة في هذا الموضوع ، ولم يكن في الهند ذلك الفصام النكد بين علوم الدين والأدب العصري ولغة البلاد ، ولم تكن تلك الفجوة التي وقعت في بعض البلاد بين علماء الدِّين والشادين بالأدب والشعر ، والهائمين بهما ، الفجوة التي جنت على الدين والأدب في وقتٍ واحدٍ).

وكانت مؤسسة ندوة العلماء التي تلتقون في رحابها ، في مقدمة من أنكرت هذا الفصام النكد بين الدِّين والأدب ، وتكوين معسكرين متنافسين ، معسكر العلماء والدُّعاة ، ومعسكر الأدباء والكُتَّاب في لغة البلاد ، والمؤلفين في آدابها ، وأنكرت احتكار الأدباء المتزعِّمين للأدب ، واللغة ، والإنشاء ، والنقد ، والتاريخ. وقد تجلَّت هذه الحقيقة وهذا الاستنكار في عبارة أحد المنتسبين إلى ندوة العلماء؛ اسمحوا لي أن أنقلها منقولةً من الأردية إلى العربية ، والكاتب يتحدَّث عن رجعية التقدميين من الأدباء ، يقول:

(إنَّ الأدب الذي كان أجدر بأن يرفض السير على خطٍ واحدٍ رسمه القدماء ، وكان أحقَّ بأن يتعيَّر من الجمود والتقليد من أيَّة مؤسسة علميَّةٍ ، ومدرسة فكريَّةٍ ، إنَّ الأدب الذي رضع بلبان الجدَّة ، والجراءة ، والذكاء ، والتذوُّق بالجمال ، وارتفع أساسه ـ بالتعبير الأدبيِّ ـ على حبِّ الجمال في كلِّ شيءٍ ، وعلى الشغف بالأزهار والأوراد ، في كلِّ حديقةٍ وروضةٍ ، وفي كلِّ غابةٍ وواحةٍ ، هذا الأدب قد وقع ـ مع الأسف ـ فريسة العصبية التقليدية ، وأصبح أسيراً للعادات والرسوم ، وقلَّما نجد الأدباء والنُّقاد في هذا العصر يتجاوزون حدود تعريف الأدب والإنشاء الذي وضعه المؤلف الأول أو مؤرخ الأدب القديم ، أو يتخطَّون رسومه التي قرَّرها هو ، الأمر الذي جعل كلَّ أديبٍ يترسَّم خطى الأديب الذي سبقه في رحلته الأدبية ، دون أن يطمح إلى زيادةٍ أو ابتكارٍ ، أو تطويرٍ في ذخائر النماذج الأدبية ، إنَّما يتمُّ اختيار عدَّة أشخاصٍ مثاليِّين للأدب والكتابة ، فيقلدهم كلُّ أديبٍ

ومؤرخ تقليداً أعمى ، ويجترُّ آثارهم وأسلوبهم).

وما أصدق قول شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال تعبيراً عن هذه المدرسة الأدبيَّة التقليديَّة تقليد الببغاء ، حيث قال : (إنَّ هذه المدرسة تدور كثور الطاحون حول محورٍ واحدٍ قديم).

ولقد كانت ندوة العلماء أيضاً أول من نادى بضرورة استعراض المكتبة العربية من جديدٍ ، وغربلتها ، ونخلها ، وإثارة دفائنها ، وكنوزها ، وإبراز محاسنها ، وبدائعها ، ولو كانت في غير مظانِّها ، وعند من يعتبر من أغنى الناس عن الهيام بالأدب والقدرة على التعبير وأبعدهم عن دست الأدباء والكتَّاب ، كما نادت بوضع مناهج جديدةً لتعليم اللغة العربية وآدابها ، تعلّم الدِّين والأدب في وقتٍ واحد ، وتطبِّع على السليقة العربية ، وتثير المواهب الفطرية ، وتعيد الثقة بصلاحية هذه اللغة ومسايرتها لكلِّ عصرٍ وموضوعٍ.

لكلِّ هذه الأسباب ، ولهذه الركيزة الأدبية التاريخية ، لم يكن من المستغرب أن تنظم ندوة العلماء هذه الندوة العالمية للأدب الإسلاميِّ ، وتدعو إليها كبار الأساتذة والمعنيِّين باللغة العربية وآدابها ، والتربية الإسلامية ومناهجها ، وقد كانت الاستجابة الكريمة التي لقيها منظمو هذه الندوة دليلاً على إخلاص الدَّاعين ، وذوق المدعوِّين الذين قطعوا مسافاتٍ بعيدةً ، وتحمَّلوا صعوبات السفر لتلبية هذه الدعوة ، وتداول الآراء والفكر في هذا الموضوع الكبير الخطير.

ومرحباً بالقادمين الكرام ، وشكراً للأساتذة العظام ، والحمد لله أولاً وآخراً.

* * *

مكانة العلم ومسؤوليات العلماء

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في جامعة كشمير في سري نكر خلال زيارته بدعوةٍ من مدير الجامعة للحضور في احتفالٍ توزيع الشهادات على المتخرِّجين من الجامعة ، وقبول شهادة الشَّرف للدكتوراه ، وذلك في شهر نوفمبر ١٩٨١ م.

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسَّلام على سيد المرسلين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين . أما بعد :

سادتي وإخواني!

إنَّني أعتقد أنَّ العلم وحدةٌ لا تتجزَّأ ، ولا يجوز تقسيمه إلى قديم وجديدٍ ونظريٍّ وتطبيقيٍّ ، وقد نوَّه الدكتور محمد إقبال بأن أسطورة القديم والجديد إنَّما هي من نسج الخيال الفجِّ السقيم .

إنَّني أرى أنَّ العلم حقيقةٌ مشاعةٌ ، وهي موهبةٌ من الله العليم ، لا تحتكرها أمَّةٌ دون أخرى أو بلدٌ دون بلدٍ ، إنَّني أجد في «الكثرة» من العلم ، وحدةً غير منفصمة العرا ، إنَّ هذه الوحدة هي وحدة «الصِّدق» والبحث عن «الصِّدق» والذوق العلميُّ لا يروى عطشه ، والسرور الغامر بالعثور عليه لا يضاهيه سرورٌ ، ورغم هذه الحقيقة فإنني أرى أن أشكر معالي مدير الجامعة ونائب المدير ، وجميع المسؤولين في هذه الجامعة على أنهم اختاروا للتكريم العلمي شخصاً ينتمي إلى الطراز القديم من التعليم ، ويتَّصل به .

إنني لا أعترف في مجال العلم ، والأدب ، والشعر ، والفلسفة ، بتلك القاعدة الشائعة التي لا تسمِّي العالم أو المفكر إلا من تزيا «بزيها الخاص» وقد سلَّم الناس بأنَّ من لا يلبس تلك البذلة الخاصَّة لا يستحقُّ تكريماً ، ولا يسمع منه ، وليس بأهل أن يؤخذ عنه ، ولسوء الحظ فقد سيطر هذا التفكير في مجال الأدب والشعر أيضاً ، فكلُّ من لا يعلق على حانوته لافتة «الأدب» ولا يلبس بذلته لحضور ندوة الأدب ، فهو «قليل الأدب» وإنَّ الناس لم يغفروا أبداً زلة أولئك الأدباء والشعراء الذين لم يرتدوا زيَّهم ، أو لم يستطيعوا أن يظفروا بزيِّهم .

إنني أعتقد بشمول العلم ، وسعة أفقه ، وجدَّته ، وطراوته ، ولم تزل الهداية الرَّبانية ، تساند مثل هذا العلم وتكلؤه عين الله الحارسة ، فإنَّ العلم

الخالص ، والطلب الصَّادق لا تتأخر عنهما منحة الله وعطاؤه في أيِّ وقتٍ .

سادتي! أتذكر بمناسبة هذه الحفلة التي أقيمت في هذه الجامعة الموقرة لتوزيع الشهادات في سفوح جبال هملايا وفي أحد أوديتها الخضراء الجميلة ، ذلك الواقع الذي تمثَّل قبل أربعة عشر قرناً من الزمن على جبلٍ لم يسم سموَّ هذه الجبال ، ولم يخضرَّ مثل هذا الاخضرار في بلدٍ قاحل أجرد ، الواقع الذي خلَّف آثاراً عميقةً خالدة على التاريخ البشريِّ ، بل على مقادير البشر ، ولا يوجد لها نظيرٌ في التاريخ ، وله صلة خاصَّة بذلك «اللوح» و«القلم» اللذين يقوم عليهما أساس العلم والمدنية ، والبحث والتحقيق ، والكتابة والتأليف ، ولم يكن يتصوَّر دونها وجود هذه المعاهد العظيمة ، والمكتبات الواسعة الكبيرة ، التي تتجمَّل بها الدنيا ، وتتضاعف بها قيمة الحياة ، ولذة العيش ، أعني بذلك الوحي الأول الذي نزل على محمَّدٍ العربيِّ ﷺ في غار حراء على مقربةٍ من مدينة مكَّة المكرَّمة فيما يقرب من ١٢/ فبراير عام ٦١١ م ، كان ذلك الوحي بهذه الكلمات الخالدة :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] .

إن الله عزَّ وجل في هذه الحلقة الأولى من وحيه العظيم ، وفي هذه الرشحة من وابل الرحمة ، لم يمهل إعلان هذه الحقيقة : أنَّ تقدّم العلم منوطٌ بالقلم ، هل في سجل التاريخ من مثيلٍ لهذا الواقع الذي تمثل في الخلوة الخاشعة في غار حراء؛ الذي كان نبيُّ المستقبل الأميُّ يتحنث فيه ، ويبحث عن طريقٍ لهداية الناس ، والذي كان لا يعرف كيف يستخدم القلم ، ولم يمارس في حياته هذا الفن؟ هل يتصوَّر فوق هذا في الوحي الذي ينزل على نبيٍّ أميٍّ بين أمَّةٍ أميَّةٍ ـ لا يعرف الناس فيها الكتابة والقراءة فضلاً عن أن توجد هناك معاهد وجامعات ـ والذي يربط بعد قرونٍ وأجيالٍ بين الأرض والسماء ، هل يتصوَّر أن يكون مبدأ هذا الوحي ، وأول لفظةٍ من عبارتها ، «اقرأ» فيقال لمن لم يقرأ في حياته فيما يوحى إليه من ربِّه ، «اقرأ»

إنَّها إشارة إلى أنَّ الأمـة التي سوف تقوم بدعوتـه ، وجهاده لا تكتفي بطلب العلم فحسب ، بل تنهض مرشدةً معلِّمـةً ، هاديـةً ، تنشر العلم وتبثُّه ، وإن العهد الذي بدأ بنبوته ليس عهد الأمِّيَّة ، والجهالة ، ومصادمة العلم ، بل هو عهد العلم ، والعقل ، والحكمة ، وعهد البناء ، والإنسانية ، والرُّقيِّ .

ثم تأمَّلوا في قوله تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] لقد كان من أكبر الأخطاء؛ التي وقعت في سبيل العلم ، أنَّ صلته كانت قد انقطعت عن ربِّ العالمين خالق الكون ، فسار العلم في مسارٍ منحرف ، وضلَّ وعمي ، ولكن وصل حبله المنقطع هنا في هذا الوحي الأول بالله العظيم ، فلما ذكر العلم ، ونال هذا التكريم ، كان من اللازم التنبيه على أنه لا يتقدَّم في مجاله إلا «باسم الربِّ» لأنَّه هو الواهب للعلم وخالقه ، ولا يستطيع العلم أن يتقدَّم تقدُّماً صحيحاً بنَّاءً إلا في ضوء هدايته .

لقد كان هذا النداء العلوي أعظم نداءٍ في تاريخ العالم ، وأبعثه على التغيير ، والثورة على الأوضاع الجاهلية سمعته أذن الدنيا ، ولم يكن أحدٌ يتصوَّر ذلك من قبل ، لو جُمع أدباء العالم وشعراؤه ومفكِّروه وقيل لهم : قدروا ، وفكِّروا في الوحي الذي سينزل ، بماذا تكون بدايته؟ وما الذي ينال الأولية منه؟ لا أعتقد أنَّ أحداً منهم يعرف بطبيعة هذا الشعب الأميِّ وعقليته ، يستطيع أن يقول : إنَّه سيبدأ بـ «اقرأ» .

كان هذا النداء دعوةً صارخةً إلى الثورة والانقلاب ، وإلى أنَّه لا يجوز للعلم من الآن فصاعداً أن يخطو خطوةً واحدةً في مضمار الكون إلا بهداية العليم الحكيم ، لأنَّ رحلة العلم طويلةٌ ، عسيرةٌ ملتويةٌ متعرِّجةٌ ، يقطع فيها الطريق على ركب الحياة ، وتواجه كلَّ خطوةٍ من الخطوات أوديةٌ عميقةٌ هائلةٌ ، وبحورٌ سحيقةٌ مائجةٌ ، وتعترض طريقه الحيَّات والعقارب ، فلا بدَّ إذاً في هذا الطريق من خرِّيتٍ ماهر ، ودليلٍ لا تخفى عليه الخوافي ، وهو الله العليم الخبير ، ليس هو مجرد العلم أو الأدب ، فليس العلم عبارةً عن النقوش الجميلة المزخرفة ، والدُّمى المزيَّنة المكسوَّة ، ليس العلم عبارةً

عن وسائل الترفيه والتسلية ، أو سبباً للتحريش بين الناس ، وإلقاء العداوة بين القلوب ، ليس العلم ما يثير شعباً على شعبٍ ، ويورث بينهما الصراع الدائم ، أو ما يعلِّم كيف الطريق إلى ملء «خندق المعدة» أو يعلِّم استخدام اللسان ، واللباقة في الكلام ، بل العلم ما يقرأ باسم الله :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] .

ذلك الربُّ الأكرم كيف لا يعرف جميع حاجات الناس وضروراتهم ، ثم يتكفَّل بها ، هل هناك من رفع مكانة القلم ، وأشاد بها هذه الإشادة العظيمة ، حتى لم تغفل الحلقة الأولى من الوحي الإلهي في غار حراء ذكر هذا القلم ، الذي قد لا يعثر عليه في أيِّ بيتٍ من بيوت مكة بعد بحثٍ طويل وتفتيشٍ دقيق ، اللهمَّ إلا في بيت ورقة بن نوفل ، وأمثاله من الكتبة الذين تعلموا شيئاً من الكتابة في بلدٍ عجمي ، ونقلوه إلى الجزيرة العربية .

ثم ذكرت هذه الآية الكريمة حقيقةً مثيرةً خالدةً ، وهي أنَّ العلم لا نهاية له ولا حدود. ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ٥] ما هو العلم الحديث؟ وما هي التكنولوجيا؟ وكيف وصول الإنسان إلى القمر؟ وكيف تسخيرنا للفضاء؟ وكيف طويت الدنيا وقربت المسافات؟ كلُّ ذلك من آثار هذا الإعلان الخالد : ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ٥] .

سادتي! اسمحوا لي أن أنتهز هذه الفرصة السعيدة كطالبٍ يقطع سفره في أودية العلم ، فأتقدَّم ببعض الاقتراحات والمشورات .

إنَّ المهمة الأساسية للجامعات هي : تكوين السيرة الإنسانية المثالية ، فينبغي أن تضع الجامعة شاباً لا يرضى أبداً ببيع ضميره إزاء عرضٍ من الدنيا قليلٍ ، فإنَّ الفلسفات والنظم المعاصرة تعتقد بأنَّ كلَّ شخصٍ له ثمنٌ مقدرٌ معلومٌ ، فإذا لم تستطع أن تشتريه بثمنٍ بخسٍ ، فلتشتره بثمنٍ مناسب ، ولا تعتبر الجامعة ناجحةً في دورها إلا إذا أعدَّت شباباً كفؤاً في خُلقه وعِلمه ، لا يساوم ، ولا يبيع مبادئه ، ولا تستطيع أيُّ فلسفةٍ هدَّامةٍ ،

أو حركةٍ منحرفة ، أو دعوةٍ مضلِّلة أن تشتري ضميره ، ويقدر أن يقول في ثقةٍ ، واعتمادٍ ، وصراحةٍ ، وجراءة في كلمات الدكتور إقبال :

«لك الحمد يا رب! إذ لست من سقط المتاع ، ولست من عبيد الملوك والسلاطين ، لقد رزقتني حكمةً وفراسةً ، ولكني أحمدك على أنني لم أبعهما لملكٍ من الملوك» .

والمهمة الثانية : أن يتخرَّج من جامعاتنا شبابٌ مستعدون ليهبوا حياتهم للحقِّ والصِّدق ، والعلم والهداية ، شبابٌ يجدون في الجوع لذة لا يجدها النَّهم في الأكل اللذيذ ، والشبع المزيد ، ويجدون متعةً في الفقد والحرمان لا يجدها المحظوظون ، والمكثرون ، ويوجهون عظيم صلاحياتهم ، وطاقاتهم ، وأفضل مواهبهم وكفاءاتهم ، التي شحنتهم بها جامعتهم لحماية الإنسانية ، وصيانتها من الدَّمار الرهيب .

ينبغي أن تراجع الجامعات حساباتها ، فتنظر كم تخرَّج من أبنائها من الشباب الأكفاء؟ إنَّني أصارحكم بأنه لم يعد شيءٌ في أيامنا هذه على بلدٍ من البلدان ، ويشاد بذكره نظراً إلى عدد جامعاته ، ومعاهده ، إنَّ هذا قصورٌ في النظر ، وفكرةٌ متخلِّفةٌ لم تعد صالحةً للقبول ، إنَّ القضية هي قضية عدد أولئك الشباب الجامعيين الذين يقضون حياتهم في الشوق إلى العلم ، والبحث والتحقيق ، ونشر العلم النافع والخلق الفاضل ، ومقاومة المنكرات ، والفوضى الخلقية ، ويقفون في وجه الوحشية السفَّاكة للدماء ، وعبادة القوة والمنفعة والمال ، كم عدد الشباب الذين نذروا نفوسهم لرفع مستوى شعوبهم علماً ، وخلقاً ، وتربيتهم وتوعيتهم ، ولكي ينفخوا فيهم روح العزَّة والإباء ، الذين ينسون حظوظهم العاجلة ، ويطبقون أعينهم عن مصالحهم الشخصية ، والمنافع المادِّية ، ويهبون أنفسهم لخدمة القضية العامَّة ، إنَّ المقياس الصحيح في ذلك أن نرى كم من الشباب عكفوا على العلوم ، والدراسات النافعة ، تاركين وراءهم راحة الدنيا ونعيمها ، ورقيها ليخرجوا إلى أمتهم بأعمال بناءةٍ خالدةٍ .

والحقُّ أنَّ الغرض الأساسيَّ من كلٍّ من الأدب والشعر ، والحكمة والفلسفة ، والتصنيف والتأليف بعث حياةٍ جديدةٍ ، ونفخ روحٍ جديدة ، لا أن يكون لمعان سرابٍ ، والتهاب شعلةٍ لا تلبث أن تنطفىء ، وأتمثل هنا ببعض أبيات الشاعر الإسلامي محمد إقبال الذي قالها مخاطباً لأحد الأدباء والشعراء ، ولكنها تصدق على العلم ، والأدب ، والفلسفة ، والحكمة ، يقول ما معناه :

« يا أهل الذوق و النظر العميق ، أنعم وأكرم بنظركم ، ولكن أيُّ قيمةٍ للنظر الذي لا يدرك الحقيقة؟ لا خير في نشيد شاعر ، ولا في صوت مغنٍّ إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس ، ولا بارك الله في نسيم السَّحر ، إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الفتور ، والخمول ، والذويَّ والذبول ، إنَّ غاية الإحسان في فنٍ من فنون العلم والأدب لوعة الحياة الدائمة ، ما قيمة شرارةٍ تلتهب سريعاً وتنطفىء سريعاً » .

سادتي! واسمحوا لي أخيراً أن أوجِّه بعض النصائح إلى هؤلاء الشباب الخريجين الذين يحملون من هنا شهادات العلم ، ويستحقُّون التهنئة عليها ، والسعداء الذين لا يزالون يقتطفون من أزهار العلم في رحاب هذه الجامعة ، وسوف أستعين في حديثي هذا ـ الذي قد يكون جادّاً وثقيلاً ـ بقصة طريفةٍ لعلَّها تملح المجلس ، وتمتع الأسماع .

يُحكى أنَّ فريقاً من تلاميذ المدارس ركبوا سفينةً للنزهة في البحر ، أو للوصول إلى البرِّ ، وكان في النفس نشاطٌ ، وفي الوقت سعةٌ ، وكان الملاح المجدف الأميُّ خير موضوعٍ للدعابة والتندُّر ، وخير وسيلة للتلهِّي وترويح النفس ، وخاطبه تلميذٌ ذكيٌّ جريءٌ ، وقال : يا عم! ماذا درست من العلوم؟ قال : ولا شيء يا عزيزي! قال : أما درست العلوم الطبيعية يا عمي؟! قال : كلا ، ولا سمعت بها! وتكلم أحد زملائه ، وقال : ولكنَّك درست علم الإقليدس والجبر والمقابلة! قال : وهذا أغرب ، وتصدقون أنِّي أول مرَّةٍ أسمع هذه الأسماء الهائلة الغريبة! وتكلَّم ثالث «شاطر» فقال : ولكني متأكِّدٌ بأنك درست الجغرافية والتاريخ ، فقال : وهل هما اسمان

لبلدين ، أو علمان لشخصين؟ وهنا لم يملك الشباب نفوسهم المرحة ، وعلا صوتهم بالقهقهة ، وقالوا : ما سنك يا عم؟! قال : أنا في الأربعين من سنِّي! قالوا لقد ضيعت نصف عمرك يا عمَّنا! وسكت الملاَّح الأميُّ على غصصٍ ومضضٍ ، وبقي ينتظر دوره ، والزمان دوَّار.

وهاج البحر ، وماج ، وارتفعت الأمواج ، وبدأت السفينة تضطرب والأمواج فاغرةٌ أفواهها لتبتلعها ، واضطرب الشباب في السفينة ، وكانت أول تجربتهم في البحر وأشرفت السفينة على الغرق ، وجاء دور الملاح الأميِّ ، فقال في هدوء ووقار : ما هي العلوم التي درستموها يا شباب؟! وبدأ الشباب يتلون قائمةً طويلةً للعلوم والآداب التي درسوها في الكلية ، ويتوسَّعون فيها في الجامعة من غير أن يفطنوا لغرض الملاَّح الجاهل الحكيم ، ولما انتهوا من عدِّ العلوم المرعبة أسماؤها ؛ قال في وقارٍ تمزجه نشوة الانتصار : لقد درستم يا أبنائي هذه العلوم الكثيرة ، فهل درستم علم السباحة؟ وهل تعرفون إذا انقلبت هذه السفينة ـ لا قدر الله ـ كيف تسبحون ، وتصلون إلى الساحل بسلام؟ قالوا : لا والله يا عم! هو العلم الوحيد الذي فاتتنا دراسته والإلمام به! هنالك ضحك الملاَّح ، وقال : إذا كنت قد ضيعت نصف عمري ، فقد أتلفتم عمركم كله ، لأنَّ هذه العلوم لا تغني عنكم في هذا الطوفان ، إنما كان ينجدكم العلم الوحيد ، هو علم السباحة الذين تجهلونه(١).

ولا يزال الوضع ـ في أيامنا هذه ـ في بلدان العالم الراقية المتحضِّرة التي تبدو كأنها تملك مقادير الأمم ، حيث ارتطمت سفينة الحياة في ورطةٍ لجية وتعصف بها الأمواج العاتية كالتماسيح الهائلة الضارية فاغرة أفواهها لتبتلعها ، والشاطىء بعيدٌ ، والخطر محدقٌ قريبٌ ، ويحمل ركاب السفينة المحترمون كلَّ شيءٍ إلا فنَّ السباحة ، وبتعبيرٍ أفصح وأوضح ، تعلَّموا كلَّ علمٍ وفنٍّ ، ولكنهم لم يتعلموا كيف يعيشون حياة الإنسان الكريم الذي يخشى ربه ، ويرحم خلقه ، ويتوجَّع لما أصابهم من ويلاتٍ

(١) من محاضرة العلامة الندوي «النبوة والأنبياء» ص ٣٣ ـ ٣٤.

ونكباتٍ ، لقد صور الدكتور إقبال هذا الوضع الخطير ، وهذا التناقض العجيب الذي أصيب به أبناء القرن العشرين ، بل المجتمعات البشرية كلها ، يقول:

«من الغريب أنَّ من اقتنص أشعة الشمس ، لم يعرف كيف ينير ليله ، وكيف يصبح ، وأنَّ من بحث عن مسالك النجوم وطرقها ، لم يستطع أن يسافر في بيداء أفكاره ، ومن عكف على الألغاز يحلُّها ، ويشرحها لم يستطع أن يميز النَّفع من الضَّرر» .

إنَّ الشروط الأساسية للحياة الكريمة الناجحة المأمونة من الخطر والضرر هي معرفة الطريق إلى حياةٍ إنسانيةٍ نبيلةٍ ، والخشية لله الواحد ، وحبُّ الناس ، وصلاحية ضبط النفس وقسرها ، وصفة إيثار المصلحة الجماعية على المصلحة الفردية ، واحترام الإنسانية ، والعواطف الكريمة للحفاظ على الأنفس والأعراض والأموال ، وإيثار أداء الحقوق لأهلها على المطالبة بها ، وحماية المضطهدين المظلومين ونصرة الضعفاء المساكين ، وجراءة مواجهة الطغاة الجبارين ، وعدم الخوف من الناس الذين لا يحملون إلا الثروة والجاه ، وعدم الخضوع أمامهم ، والصَّراحة بقوله الحقِّ دائماً ، والشهادة على نفسه وجماعته ، والتمسُّك بالعدل لنفسه ولغيره ، وإقامة القسطاس المستقيم ، والإيمان الجازم بإلهٍ قادرٍ شاهدٍ بصيرٍ ، والتفكير في المسؤولية أمامه ، والخوف من حسابه ، هذه هي الشروط الأساسية للحياة الشريفة المحترمة ، وهذه هي الضمانات اللازمة لوجود المجتمع الصالح الرَّشيد والحكومة القوية المحروسة ، وإن تربية هذا المجتمع ، وتهيئة الجوِّ المناسب له من أولى فرائض الجامعات ، والمؤسسات العلمية ، وإيجاد هؤلاء الشباب من أهمِّ مسؤوليات المثقَّفين والمفكِّرين ، والمسؤولين في البلاد .

ويلزمنا في مثل هذه المناسبات أن نراجع أنفسنا ، وننظر إلى أيِّ مدىً نجحت مؤسساتنا وجامعاتنا؟ وكم من شبابها الخريجين وأبنائها العاملين يستحقون أن يهنَّؤوا ويبارك لهم؟ وما هي محاولاتنا للحصول على هذه

الأهداف والمقاصد العظيمة في المستقبل؟ وماذا أعددنا له ، وجهَّزنا ، إنها قضيةٌ تستحقُّ أكبر قسطٍ من التأمُّل ، والتفكير.

وختاماً أشكركم على هذا التكريم ، والثقة التي وضعتموها فيَّ ، وعواطف الحبِّ والاحترام ، التي أبديتموها عن طريق هذا التكريم.

* * *

لمحةٌ عن المدرسة الأدبيَّة الإسلاميَّة الهنديَّة ، كيف نشأت ، وتكوَّنت ، وبماذا تتميَّز؟

هذه الكلمة ألقاها العلامة الندوي في المؤتمر الأول للأدب الإسلامي الّذي عقدته رابطة الأدب الإسلامي العالمية في رحاب ندوة العلماء بقاعة مكتبة شبلي العامَّة في ٢٦/ ٤/ ١٤٠٦ هـ الموافق ٨/ يناير ١٩٨٦ م.

سادتي ، وإخواني! فكَّرت طويلاً في الحديث الذي أتقدَّم به إليكم في هذا المؤتمر الأول لرابطة الأدب الإسلاميِّ الذي ينعقد في رحاب ندوة العلماء في مدينةٍ كانت لها القيادة الأدبيَّة الشعرية زمناً طويلاً ، ومنها انبثق منهجٌ تعليميٌّ طبق الهند ، وتخطَّى إلى حدود أفغانستان ، وتركستان ، وكانت ولا تزال مدرسةً مستقلَّةً مميَّزة في اللغة الأردية ، والشعر الأرديِّ ، يحتجُّ بها ، ويرجع إليها في صحة التعبير ، ونقاء اللغة ، وكانت تلي مدرسة دهلي العاصمة ، ثم أصبحت في القرن الثالث عشر الهجري (القرن التاسع عشر الميلادي) تضارع مدرسة دهلي وتنافسها ، ثم تغلَّبت عليها حين نبغ فيها شعراء مبتكرون في كثيرٍ من ضروب الشعر ، وسلَّمت لهم الزعامة في الشعر ، وحكموا على كثيرٍ من التعبيرات القديمة ، والكلمات التي جاءت في شعر فحول الشعراء ، بأنها أصبحت من الكلمات المهجورة ، واستبدلوا بها تعبيراتٍ وكلماتٍ حديثةً.

وينعقد هذا المؤتمر في الهند التي استقلَّت ، وانفردت في كثيرٍ من أنواع الثقافة الإسلاميَّة والعلوم الدينية ، وأساليب الحكم ، والإدارة ، واللغة والأدب والشعر حتى أصبحت ذات شخصيةٍ إسلاميَّةٍ متميِّزة ، ففضَّلْتُ أن يكون حديثي اليوم عن المدرسة الأدبيَّة الإسلامية التي تكونت في الهند ، وهي خليقةٌ بأن تذكر مع المدرسة الأدبية الإسلاميَّة الأندلسيَّة ، ومع المدرسة الأدبيَّة الإسلامية المغربيَّة ، ومع المدرسة الأدبية الإسلامية الإيرانيَّة ، وقد كانت لذلك أسبابٌ طبعيَّةٌ تاريخيَّة ، نذكر بعضها على سبيل الإجمال:

لقد تفاعلت في الهند عوامل ثقافيَّةٌ ، وعنصريَّةٌ ، وحضاريَّةٌ ، وسياسيَّةٌ ، وقد كانت مهد اللغات ، والثقافات ، والفلسفات القديمة ، وكان من الطبيعيِّ أن يتأثَّرَ الشعب المسلم بكلِّ هذا في قليلٍ أو كثير ، فتكوَّنت مدرسةٌ مستقلَّةٌ ذات نفسيَّةٍ خاصَّةٍ وطابعٍ خاصٍّ في الأدب الإسلاميِّ ، تمتاز بقوة العاطفة ، ورقَّة الشعور ، والدَّفق ، والعمق ،

والقدرة على الضرب على أوتار القلب ، وإثارة الحبِّ والحنان ، والتفنُّن في الأنغام والألحان ، والحماس الإسلاميِّ ، وشدَّة التعلُّق بشخص النَّبيِّ ﷺ ، وبَلَدَيْهِ المشرَّفين ، والجزيرة العربية الحبيبة ، وابتكار معانٍ وأخيلةٍ وتعبيراتٍ لم يسبق إليها.

وقد أفاد هذه المدرسة الأدبيَّة كون المسلمين في هذه البلاد في قلةٍ دائماً ، وكونهم قد حكموا هذه البلاد ثمانية قرون على الرَّغم من كثرة عدد المحكومين من غير دينهم ، واعتزاز هؤلاء المحكومين الزائد بفلسفاتهم ، وعلومهم التي لا يعدلون بها علماً وفلسفةً ، وحضارتهم القديمة التي يعتبرونها في قمَّة الحضارات القديمة ، وساعدت على ذلك أيضاً عنصرية أهل الهند المتطرِّفة ، التي تنظر إلى المسلمين دائماً أنجاساً أجانب ، وتميِّز ـ حتى في المجتمع الهندوسيِّ ـ بين طبقةٍ وطبقةٍ ، وإنسانٍ وإنسانٍ ، كالتمييز بين أشرف إنسان وأخسِّ حيوانٍ.

أفاد هذا الواقع المسلمين بصفةٍ عامَّةٍ ، والشعراء والأدباء منهم بصفةٍ خاصَّةٍ مميزاتٍ نفسيةً عميقةً ، في مقدمتها قوة الصمود أمام الهجمات والتحدِّيات ـ سياسيةً كانت ، أم فكريَّةً ، وفلسفيةً ، أو أدبيَّةً ـ لأنهم بغير ذلك لا يستطيعون أن يحافظوا على إسلاميَّتهم وبقائهم كأمَّةٍ ذات عقيدةٍ خاصَّة ، وشريعةٍ معيَّنةٍ ، وشخصيةٍ متميِّزة ، وأفادهم ذلك الولاء الزائد للإسلام ، وافتخارهم به ، والتغنِّي بأمجاده ، وأبطاله ، وعظمائه ، وألهمهم ذلك توجيه القريحة الشعرية الأدبيَّة والكتابية ؛ والمقدرة البيانيَّة ، إلى شعر الملاحم الإسلاميَّة ، فنظمت أقوىٰ ملاحم إسلاميَّةٍ شعريَّةٍ[1]

---

(١) من أكبرها «صمصام الإسلام» للسيد عبد الرزاق الحسني ، نظم فيها «فتوح الشام» للواقدي ، في أردو ، وهي منظومةٌ طويلةٌ تشتمل على خمسة وعشرين ألف (٢٥٠٠٠) بيت ، وهي في غاية القوة ، والعذوبة ، وصدق التصوير ، وبراعة التعبير ، كانت تنشد بمناسبات مختلفة في الأسر الإسلامية ، فتحرِّك الحمية الدينية ، وتلهب العاطفة الإسلامية ، راجع مقال «الكتب التي عشت فيها».
ومنها مزدوجة مدِّ الإسلام وجزره ، المعروف بـ «مسدس حالي» للشاعر الإسلامي الكبير ألطاف حسين «حالي» ، وفيها تصوير العصر الجاهليِّ ، ووصف البعثة =

وأطولها وأجملها في أردو لغة المسلمين ولغة الهند الشعبية الأرقى ، وانتشرت في ربوع الهند انتشاراً لم يعرف لأيِّ منظومةٍ تاريخيَّةٍ ، أو قصصيَّةٍ في بلدٍ من بلاد الإسلام ، وكان لها فضلٌ كبيرٌ ، ودورٌ حاسمٌ في إثارة العاطفة الإسلاميَّة وتنمية النخوة الدِّينيَّة ، وتحمُّل الصدمات العنيفة ، والحوادث العائلية ، والكوارث الفردية في إيمانٍ واحتسابٍ ، فإنَّها تذكر بحكايات البطولات الإسلامية الأولى ، واستماتة المسلمين في سبيل الله ، وما ظهر من البطولات من السيدات المسلمات في بعض المواقف ، ثم تحمُّل المجاهدين الغزاة ، والأسر ، والبيوتات شهادة إخوانهم ، وأبنائهم ، والسيدات بمصاب أزواجهن ، وأبنائهن في صبرٍ ، وشكرٍ ، وإيمانٍ ، واحتسابٍ.

ومن أسباب هذا الواقع الجغرافيِّ التاريخيِّ السياسيِّ تدفُّق شعر المديح النبويِّ ، وقوَّته ، وتأثيره ، ورقَّته ، وعذوبته ، فقد ابتكر هؤلاء الشعراء معاني وأخيلةً ، وجاؤوا بنبويَّات لا مثيل لها في الأدب العربيِّ عبر القرون ، فقد ضعف هذا الصنف في الشعر العربيِّ ـ بعد قصيدة بوصيري الميمية ، وبعد نبويَّات سيدي عبد الرحيم البرعي ـ ضعفاً شديداً ، ولا يزال سرُّ هذا موضوع تفكير الباحثين ، وعلماء الأدب ، وعلله بعضهم بالبعد والهجر ، فلها تأثير كبير في تفجير ينابيع القلب والحبِّ ، وتوليد المعاني الغريبة ، وإثارة الكنوز الدفينة ، وقد استعاض كثيرٌ منهم عن الرحلة الطويلة المملوءة بالأخطار في أطول مدَّة قضاها المسلمون ، فقد كان الزمن زمن القراصنة البحريين ، وزمن السفن الشراعية ، والطرق غير آمنة ، والانتقال من مكَّة إلى المدينة لم يكن مأموناً ، وقوافل الحجاج تتعرَّض للخطر والغارة ،

= المحمَّدية ، ووصف صحابة الرسول ﷺ ، وما قاموا به ، وقام به أتباعهم من دورٍ إصلاحيٍّ ثوريٍّ بنَّاءٍ رائعٍ في التاريخ الإنسانيِّ ، وما اتصف به الجيل الإسلاميُّ الأول ، مع ذكر ما أصيب به المسلمون أخيراً في تقهقر وانحطاطٍ ، والمجتمع الإسلاميُّ من تدهورٍ وانتكاس في أسلوب شعريٍّ ساحر.

ومنها «شاهنامه إسلام» للشاعر حفيظ الجالندهري ، وهو في قمة الملاحم الإسلامية المشهورة في شبه القارة الهندية ، وهنَّ الدواوين الشعرية المقبولة الشعبية.

استعاضوا عن كلِّ ذلك بالشعر والتعبير عن حنينهم ، وأشواقهم ، ولم يزل الشعر بريد القلب والشوق ، وهو الحمام الزاجل الذي لا يزاحمه شيءٌ ، ولا يعوقه شيءٌ ، وإذا امتلأت الكأس طفحت ، وإذا طفحت فاضت ، ولا بدَّ أن يعقب الريَّ السكر ، ولا بدَّ أن يعقب السكر التغني ، وما أجمل ما قاله الشاعر العربيُّ :

سقوني وقالوا لا تغنِّ ولو سقوا جبال سليمى ما سُقِيتُ لغنَّت

ثم جاء دور الحكم الإنجليزيِّ الغاشم الحاقد على المسلمين ، فقد كانوا منافسهم الأكبر في قيادة الركب الإنسانيِّ وتوجيهه الفكريِّ والحضاريِّ ، وهم الذين قادوا الثورة عليهم سنة ١٨٥٧ م وتولوا كبرها ، وزاد الطِّين بلَّةً والطنبور غنةً الشعور بالحاجة إلى مواجهة الغزو الثقافيِّ العقائديِّ الخلقيِّ والحضاريِّ ، والاستعمار الداخليِّ الباطنيِّ وهو أضرُّ بكثيرٍ من الاستعمار السياسيِّ والإداريِّ ، فنبغ جيلٌ جديدٌ من الأدباء ، والكتَّاب ، والشعراء ، والمؤلفين ، يقبلون هذا التحدِّي ، ويعارضون الحكم الإنجليزيَّ ، وما يحمله من مخططاتٍ رهيبةٍ دقيقةٍ؛ لإنشاء جيلٍ جديدٍ من المثقَّفين ، يحقق مآربهم ، وينفِّذ مخططاتهم ، منسلخٌ عن الإسلام ، بل ثائرٌ عليه مزدرٍ به .

هنالك نهض شعراء عصاميُّون عبقريُّون مثل لسان العصر السيد أكبر حسين «أكبر» الإله آبادي ، والعلامة الدكتور محمد إقبال ، والشاعر المبتكر ظفر علي خان ، فلم ينشؤوا في الجيل المثقف الجديد نخوةً إسلامية فحسب ، بل قوَّة المقاومة للتحدِّيات الجديدة ، وكراهةً للحضارة الوافدة الدخيلة المستعبدة ، وتارةً في أسلوب شعر لاذع متهكِّم ، وتنكيتٍ قارصٍ ، كما فعل أكبر الإله آبادي[1] وطوراً في أسلوب جدِّيٍّ وشعر بليغٍ

(١) ليرجع للتفصيل إلى كتاب العلامة الندوي «الحضارة الغربية الوافدة ، وأثرها في الجيل المثقف ، كما يراها شاعر الهند الكبير لسان العصر السيد أكبر حسين الإله آبادي» طبع مكتبة الصحوة في القاهرة ومطبعة ندوة العلماء في الهند ، ودار ابن كثير في دمشق ـ بيروت .

يتدفَّق قوةً وحماساً ، ويسيل رقَّةً وعذوبةً ، وقد أحدثت فيهم الثقافة الغربية موجة ردِّ فعلٍ عنيفةٍ في مشاعرهم وتفكيرهم ، حوَّلت شعرهم إلى شلَّال يتدفَّق بقوَّةٍ ، وينحدر بقوَّةٍ.

وحقيقةٌ تاريخيَّةٌ غريبةٌ أخرى تحتاج إلى دراسةٍ أمينةٍ محايدةٍ ، وتحليلٍ نفسيٍّ تربويٍّ ، أنَّ عدداً كبيراً من الشباب المسلم الذكيِّ من العواصم العربية ذات المركز القياديِّ في العلوم الدينية والآداب الإسلامية يمَّم الغرب ، ومكث في الجامعات الغربية الرئيسية خصوصاً في إنجلترا ، وفرنسا ، لم يرجعوا إلى أوطانهم بالروح الحرَّة المنتقدة الثائرة على أسس الحضارة الغربية ، ومثلها ، وقيمها ، الواعية لأهداف الاستعمار الغربيِّ البعيدة ، ومخططاته الدَّقيقة الرهيبة ، لصياغة الشرق الإسلاميِّ صياغةً غربيةً إلحاديةً ، متنكِّرةً للإسلام ومع ثقة بصلاحية الإسلام لا للبقاء فحسب ، بل للقيادة العالميَّة ، ومع الحماس الزائد للإسلام ، كما كان الشأن مع فيلسوف الشرق وشاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ، وزعيم حركة الخلافة الأكبر ، وزعيم حركة التحرير الكبير مولانا محمد علي دفين القدس ، ولا أزيد على ذلك بتسمية طائفة من كتاب مصر وسورية والمغرب العربي ، والأدباء والمؤلفين منهم ، والذين كادوا يحتكرون القيادة الفكرية والأدبية في الشرق العربي الإسلامي فترةً غير قصيرةٍ ، وكانوا القدوة والمثل الكامل ، ليس للشباب الجامعي فحسب ، بل للشادين في اللغة العربية ، والنقَّاد والأساتذة ، فإنَّهم معلومون لدى السادة الحاضرين.

أما الدكتور محمد إقبال فاسمحوا لي أن أنقل هنا قطعةً من مقدمتي لـ «روائع إقبال» فإنَّها تصوِّر في قوَّةٍ وإيجازٍ أعظم ما اتصف به من سماتٍ ومميِّزات :

«إنَّ أعظم ما حملني على الإعجاب بشعره هو: الطموح ، والحبُّ ، والإيمان ، وقد تجلَّى هذا المزيج الجميل في شعره ، وفي رسالته ، أعظم مما تجلى في شعرٍ معاصرٍ ، ورأيت نفسي قد طبعت على الطموح والحبِّ ، والإيمان ، وهي تندفع اندفاعاً قويّاً إلى كلِّ أدبٍ ورسالةٍ يبعثان الطموح ،

وسموَّ النفس ، وبعد النظر ، والحرص على سيادة الإسلام ، وتسخير هذا الكون لصالحه ، والسيطرة على النفس والآفاق ، ويغذيان الحبَّ والعاطفة ، ويبعثان الإيمان بالله ، والإيمان بمحمَّد ﷺ ، وبعبقرية سيرته ، وخلود رسالته ، وعموم إمامته للأجيال البشرية كلِّها.

إنني أحببته ، وشغلت به كشاعر الطموح ، والحبِّ ، والإيمان ، وكشاعرٍ له عقيدةٌ ، ودعوةٌ ورسالةٌ ، وكأعظم ثائر على هذه الحضارة الغربية المادِّيّةِ ، وأعظم ناقدٍ لها ، وحاقدٍ عليها ، وكداعية إلى المجد الإسلاميِّ ، وسيادة المسلم ، ومن أكبر المحاربين للوطنية ، والقومية الضيقتين ، وأعظم الدُّعاة إلى النزعة الإنسانية ، والجامعة الإسلامية.

وأشهد على نفسي أنِّي كلما قرأت شعره جاش خاطري ، وثارت عواطفي ، وشعرت بدبيب المعاني والأحاسيس في نفسي ، وبحركةٍ للحماسة الإسلامية في عروقي ، وتلك قيمة شعره وأدبه في نظري[(١)].

أما محمَّد علي فقد تجلت عبقريته في مقالاته الإنجليزية التي كان يحلِّي بها صدر صحيفته الأسبوعية الإنجليزية (Lomrade) والتي كانت تعتبر مثالاً بليغاً رائعاً للأدب الإنجليزي المتهكِّم اللاذع ، الذي لا يقدر عليه إلا من تذوَّق اللغة كأبنائها وأدبائها ، فنوع التهكُّم والتنكيت في لغة ، من أدق أنواع الأدب التي يصعب تقليدها ، وكانت مقالاتٌ ملتهبةٌ بالحماس الإسلاميِّ ، والنقد اللاذع للحكم الإنجليزي ، يحرص على قراءتها الحكام الإنجليز ، ويتلقَّفون كلَّ عددٍ بلهفٍ وشوقٍ ، وكذلك افتتاحياته لصحيفة «همدرد» الأردية؛ التي خلفت «كومريد» فكانت قويَّةً جريئةً ، وله شعرٌ قويٌّ في أردو أبدى فيه عواطفه الإسلامية ، وميوله الجهادية ، والحبَّ للنَّبيِّ ﷺ ، وحبَّ الموت للإسلام ، والشهادة في سبيله ، حفظته الصدور ، وفاضت به الألسنة ، والأقلام.

---

(١) انظر : «روائع إقبال» طبع دار القلم الكويتية ، والمجمع الإسلامي العلمي بندوة العلماء الهند ، وطبع دار ابن كثير بدمشق .

أما ظفر علي خان منشىء صحيفة «زميندار» السيارة ، فكان من كبار شعراء عصره ، ينظم القصائد الطوال عفو السَّاعة ، فيض الخاطر ، وله اقتدارٌ عجيبٌ على القوافي الصعبة والبحور العويصة ، وشعره حداءٌ مثيرٌ للركب الإسلامي الناعس ، ورجزٌ مطربٌ للجيش الإسلاميِّ المرابط ، يمتاز بجزالة اللفظ ، وحلاوة الجرس ، وتدفُّقٍ كتدفق العين المتفجرة ، وما قاله من شعرٍ في المديح النَّبويِّ من أقوى وأبلغ ما قيل فيه في العصر الذي أدركته ، وقد كانت أعداد صحيفته تُصادر ، وتُمنع بين آونةٍ وأخرى ، وكانت صحيفته تغرم بغراماتٍ باهظةٍ ، وهو لا يمتنع عن النقد اللاذع للحكومة وللهندوس المتطرِّفين المهاجمين للإسلام والمسلمين .

لقد كان للحرب الكونية الثانية (١٩١٤ م ـ ١٩١٨ م) وحملات الحلفاء ، وتضعضع الخلافة العثمانية آثارٌ سيِّئةٌ على البلاد الإسلامية لا سيما الهند الإسلامية التي هبَّ شعبها المسلم يداً واحدةً لمناصرة الخلافة العثمانية ، وتأييد قضيتها ، وجعلها قضية الموت والحياة ، وشغله الشاغل ، وكادت الخلافة العثمانية تنهار أمام الحملات الشرسة التي كان يشنُّها الحلفاء ، دبَّ الحماس في قلوب مسلمي الهند ، واشتعلت العاطفة الإسلامية والجذوة الإيمانية بصفةٍ عامَّة .

هنالك طلع على أفق القيادة الإسلاميَّة ـ فضلاً عن الصَّحافة الإسلاميَّة ـ هلالٌ جديدٌ أصبح بدراً في مدةٍ قريبةٍ ، وهو صحيفة «الهلال» لمولانا أبي كلام آزاد ، زعيم حركة الخلافة الكبير ، ورئيس المؤتمر الوطني العام ، ووزير التربية الأول في الجمهورية الهندية المستقلة ، فكانت مقالاته في هذه الصحيفة في غاية القوة والبلاغة الأدبية ، كأنها تكتب بقلمٍ من نارٍ ، وهو الذي أدخل في اللغة الأردية الكلمات والتعبيرات القرآنية ، فامتزجت بها ، وزادت في قوة اللغة والبيان ، وألفها الأدباء والكتاب ، ويصحُّ أن يقال إنَّه انتهج أسلوباً إسلاميَّاً قرآنيَّاً أدبيَّاً أرديَّاً جديداً ، فكان أدب «الهلال» السحر الحلال ، والماء الزلال ، وفي القوة الشلال النازل من مكانٍ عالٍ .

وكان من حسن حظ الشعب الهنديِّ ، ومن تيسير الله تعالى للدَّعوة الإسلاميَّة والأدب الإسلاميِّ: أنه لم يتجه الشعراء في تلك الفترة اتجاهاً سلبياً ساخراً من الإسلام ، هازئاً بقيمه ، ومثله ، بل كان فحول الشعراء ، وأصحاب المدارس الشعرية المتميِّزة غلب عليهم الإيمان بالله والحبُّ للرسول ، فكان الأئمة للشعر الأرديِّ في الزمن الأخير شعراء مسلمين محتشمين ، عددٌ منهم يلتزمون التزاماً إسلامياً ، في مقدمتهم ، وعلى رأسهم الشاعر فضل الحسن حسرت موهاني ، وشوكت علي فاني بدايوني ، وأصغر كوندوي ، وسيد علي سكندر جكر مراد آبادي ، وخواجه عزيز الحسن مجذوب ، وأمجد الحيدر آبادي ، وحفيظ جالندهري ، وإقبال أحمد سهيل ، وماهر القادري ، وعلي سكندر وجد الأورنك آبادي ، ونشور واحدي[١] وآخرون يطول ذكر أسمائهم ، فلم يبتل الأدب في الهند ما ابتلي به في الشرق العربي بالفوضى الفكرية ، والتحرُّر من جميع القيود والآداب[٢].

ونبغ بجوارهم كتابٌ في أردو يُعتبرون منشئي مدارس أدبيةً ممتازةً ، وأساليب مرموقةً نموذجيةً ، كلهم إسلاميُّون في فكرهم ، وعقيدتهم ، يجمعون بين الدراسات العميقة الواسعة ، والأفكار الناضجة المختمرة ، والأهداف المعينة الصالحة ، والأقلام الرشيقة البليغة ، نخصُّ بالذكر منهم العلامة السيد سليمان الندوي ، ومولانا عبد السلام الندوي ، والأديب الكبير مولانا عبد الماجد الدريابادي ، ومولانا مناظر أحسن الكيلاني ، ومولانا عبد الباري الندوي ، والشيخ معين الدين الندوي ، والأستاذ خليق أحمد النظامي ، والأستاذ سعيد أحمد الأكبر آبادي ، والسيد صباح الدين عبد الرحمن ، وذلك على سبيل المثال والإجمال ، لا الاستيعاب والتقصِّي.

---

(١) الكلمات الأخيرة في الأسماء يتلقبون بها في الشعر على طريقة شعراء الفارسية.

(٢) يستثنى من هذه الكلمة شاعران متحرران من ربقة الدين ، هما: شبير حسن جوش ، وفيض أحمد فيض.

هذا فيما يختصُّ بالكتابة الإسلامية والبحوث العلمية ، أمَّا في مجال التحقيق والدراسات ، والتحليل العلميِّ ، والدراسات المقارنة ، التي قد يكون لها من التأثير على الناشئة ، والشباب المثقف ، ما لا يكون في أكثر الأحيان للأدب والشعر ، فخضوع الفكر والعقلية يكون أكثر عمقاً وأبعد أثراً من خضوع الشعور ، والعاطفة ، والحاسَّة الأدبية ، فقد نبغ في الهند في آخر القرن التاسع عشر المسيحي ، وأوائل القرن العشرين كتَّابٌ محققون ، ومؤرِّخون نوابغ ، دوَّنوا التاريخ الإسلاميَّ ، وأبرزوا السيرة النبوية ، وعرضوا الحضارة الإسلاميَّة ، وأرَّخوا لعددٍ من نوابغ المسلمين ، ومفكريهم ، وقادتهم في أسلوبٍ جذابٍ ، وفي دراسةٍ تاريخيَّةٍ دقيقةٍ واسعةٍ ، وفي تحليلٍ علميٍّ موضوعيٍّ ، وألبسوا كلَّ ذلك ثوباً قشيباً براقاً ، وعنوا بصفةٍ خاصَّةٍ بما وجهه المستشرقون من مطاعن في الإسلام ، واتهاماتهم للمسلمين وما أثاروه من شكوكٍ ، وريبٍ في الشريعة الإسلامية ، وحضارة الإسلام ، وتدوين العلوم الإسلامية ، وتاريخها ، وحول حكام المسلمين ، وسياستهم ، ومواقفهم ، في مقدمتهم وعلى رأسهم العلامة شبلي النعماني صاحب السيرة النبوية المعروفة في مجلدين ضخمين ، وصاحب كتاب «الفاروق» الذي هو من أقوى الكتب التي ألفت في سيرة الخليفة الراشد والحاكم الإسلامي العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، بل عن بطل من أبطال أيِّ أمَّة في أيِّ بلادٍ ، هذا عدا مؤلفاته القيمة عن سيرة الإمام أبي حنيفة النعمان ، وعن سيرة الإمام الغزاليِّ ، ومولانا جلال الدين الروميِّ ، والمأمون الخليفة العباسي ، أما كتاباه: «مكتبة الإسكندرية» و«الجزية في الإسلام» فقد كان لهما فضلٌ كبيرٌ في إزالة مركب النقص عن النفوس الناشئة المسلمة ، وفي إنشاء الاعتزاز بتاريخهم في نفوسهم ، وكذلك كتاب «الانتقاد للتمدُّن الإسلامي» للكاتب المسيحي المعروف جرجي زيدان ، وقد أدى بذلك فرض كفاية عن العلماء المسلمين في العالم الإسلاميِّ ، ليس عن علماء مصر فقط الذين كانوا أحقَّ بذلك ، واعترف بذلك العلامة السيد رشيد رضا الذي نشر هذا الكتاب في مصر.

وقد أكمل هذه السلسلة في البحث الإسلاميِّ وتوَّجها بكتبٍ لا يوجد

نظيرها في المكتبة الإسلامية المعاصرة تلميذه النابغة العلامة السيد سليمان الندوي الذي أكمل السيرة النبوية لأستاذه ، وضمَّ إليها خمسة مجلدات ، أصبحت بها موسوعةً في السيرة النبوية ، وفي علم التوحيد ، والعقائد ، والعبادات ، والأخلاق ، والسياسة ، والمعاملات ، وكتابه الفريد «خطبات مدارس» الذي نقل إلى العربية بعنوان : «الرسالة المحمدية» ، وكتابه «أرض القرآن» يعني أرض النبوات ، و«صلات الهند بالعرب» و«الخيام» و«سيرة أم المؤمنين عائشة» و«الإمام مالك» و«الملاحة عند العرب» ، نموذجٌ من الطراز الأول في التحقيق ، والدراسات الطويلة المضنية ، والمجهود العلميِّ المستنفد للطاقة ، وكلُّه في أسلوبٍ أدبيٍّ بليغٍ ، وكتابةٍ عاليةٍ رشيقةٍ .

ويضاف إلى هذه القائمة المشرقة ، اسم الكاتب الإسلامي الكبير والداعية الشهير الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي ، منشىء الجماعة الإسلامية ، وصاحب الكتابات الإسلامية القوية ، والكتب القيمة ، ككتاب «الجهاد في الإسلام» و«تنقيحات» و«تفهيمات» ورسائل كثيرة أخرى في القضايا الإسلامية المعاصرة ، وهو رئيس تحرير مجلة «ترجمان القرآن» التي كانت مدرسةً فكريَّةً إسلاميَّةً مستقلةً ، وهو صاحب أسلوب خاص يخلو عن الاعتذار والدفاع ، ويمتاز بالثقة ، والاعتزاز مع سلاسةٍ وانسجام ، وتعبيرٍ أدبيٍّ علميٍّ ، هذا مع الاحتفاظ ببعض نقط الخلاف التي لا محلَّ لها هنا .

ومن صنع الله تعالى بالجيل المسلم الصَّاعد بأنَّه قيَّض له في هذه الفترة الحالكة من الحكم الإنجليزي ـ الذي كان يحمل معه منهجاً تعليميَّاً يصوغ الجيل الجديد صياغةً غربيَّةً ـ مؤلفين للكتب الدراسية لتعليم اللغة الأردية ـ المعترف بها رسميَّاً ـ حاذقين ، لبقين ، مسلمين في العقيدة والسلوك ، كان لهم فضلٌ في وقاية الجيل الجديد من الإفلاس الإسلاميِّ الثقافيِّ ، والانحراف الدينيِّ العلميِّ ، وقد أسندت وزارة التربية ولجنة المقررات الدراسية تأليف سلسلة من الكتب لتعليم لغة أردو إلى الأستاذ محمد إسماعيل الميرتهي ، وهو من كبار الأدباء والمؤلفين والشعراء الذين يراعون نفسية الأطفال ، ومداركهم ، ويستطيعون تطعيم اللغة بالدين ، وحبِّ

الأخلاق الفاضلة ، ويقتدرون على الشعر السلس البليغ المحبب للأطفال ، فألَّف سلسلةً من الكتب يبلغ عدد أجزائها إلى سبعة كتب ، كانت كما يقول العلامة السيد عبد الحي الحسني في تاريخ شعراء أردو «كل رعنا» أنه لم توفق وزارة التربية بالهند لتأليف كتبٍ أفضل منها للأطفال ، ولا يزال كثيرٌ من الكتَّاب والأدباء والأساتذة في مثل سنِّي ، يحفظون الشيء الكثير من الشعر البليغ المنسجم الذي جاء في هذه السلسلة ، والذي يغرس الإيمان وإجلال الله تعالى وتقدير نعمه ، وحبَّ الأخلاق القويمة في قلوب القرَّاء .

زد إلى ذلك أنَّ أبناء البيوتات ، وكثيراً من أطفال الهنادك في الطبقات الإرستقراطية والمثقفة ، كانوا يدرسون اللغة الفارسية ، وكان من الكتب المقررة للدراسة ، والعمود الفقري في هذا المنهج كتاب «كريما ما مقيمان» و«كلستان» و«بوستان» للشيخ مصلح الدين الشيرازي الملقَّب في الشعر بـ «سعدى» ، وهما من الأدب العالميِّ لتعليم الأطفال ، وتعليم الأخلاق ، والحكم ، وتجارب الحياة في القمة ، وقلَّما ألفت كتبٌ في لغاتٍ أخرى ـ في حد معلوماتنا ـ أرقى أسلوباً ولغةً ، وأكثر تأثيراً في النفوس من الكتابين المذكورين ، وكان لكلِّ ذلك أثرٌ عميقٌ ، باقٍ في نفسية المتعلمين ، أقلُّ مظاهره الاحترام للدين ، ولأهل الفضل ، والاحتشام ، والتماسك .

ويلي كلَّ ذلك مجال الروايات التاريخيَّة ، والقصص الأدبية ، وكلٌّ منا يعرف تأثيرها ، وسحرها على العقول والقلوب ، وقدرتها على قلب الحقائق ، وتصوير القبيح جميلاً ، والجميل قبيحاً ، وقد وفق الله عدداً من الكتاب القديرين والمنشئين المترسلين لتأليف كتبٍ في الروايات التاريخيَّة الإسلامية ، وفي التعليم للسلوك الإنساني الشريف ، والحياة العائلية الكريمة ، وحسن العشرة ، كان في مقدمة كتاب الروايات التاريخية الأديب الكبير الشيخ عبد الحليم «شرر» اللكهنوي ، ومن رؤساء الطبقة الثانية (الكتاب في الحياة العائلية الكريمة وحسن العشرة) الأديب الكبير والعالم الضليع الشيخ نذير أحمد الدهلوي وبعده الأستاذ راشد الخيري ، وكانت لكتبهم رواجٌ كبيرٌ في الأسر المسلمة الواعية .

وهنالك حقيقةٌ تاريخيَّةٌ أخرى لا يمنع الحياء عن تقريرها وتسجيلها ، فإنَّها أمانةٌ تاريخية ، وهي أن من سمات علماء الهند البارزة ، أنَّهم قادوا الحركة الأدبية الإنشائية في شبه القارة الهندية ، وكانوا من الدعائم القوية السامقة التي قام عليها قصر الأدب الرفيع ، والنثر الفنيِّ بعد ثورة ١٨٥٧ م ، وكان كلُّ واحد منهم مؤسس مدرسةٍ أدبيَّةٍ خاصَّةٍ لا يزال لها أنصارٌ وأتباعٌ ومقلِّدون ، وكان كثيرٌ منهم رائد نشاط جديدٍ في الإنشاء ، والتحرير ، والنقد ، وتاريخ الأدب ، والشعر ، ولا تزال مؤلفاتهم هي المرجع الأصيل ، والعمدة في هذا الموضوع ، فلم يكن في الهند ذلك الفصام النكد بين علوم الدين ، والأدب العصري ، ولغة البلاد ، ولم تكن تلك الفجوة التي وقعت في بعض البلاد بين علماء الدين والشادين بالأدب والشِّعر ، والهائمين بهما ، الفجوة التي جنت على الدين والأدب في وقتٍ واحد.

في ضوء هذه الخلفيات والمراحل التي مرَّ بها الشعب المسلم الهنديُّ ، والعوامل التاريخية والنفسية التي خضع لها بحكم الطبيعة وسنة الله تعالى في خلقه ، تكوَّنت مدرسةٌ إسلاميَّةٌ أدبيَّةٌ هنديَّةٌ لها مميزاتها ، وطابعها ، لا يسوغ لمؤلف في تاريخ الأدب العربيِّ والثقافة الإسلاميَّة العامة أن يغضَّ الطرف عنها ، ويبخس حقها ، وبسبب كل ذلك اختلفت نظرة المعنيِّين بالآداب واللغات ، والمدرِّسين والدارسين للغة العربية وآدابها ـ بصفة خاصَّةٍ ـ إلى الأدب العربي وتقويمه ، فلا يستطيعون ـ بحكم ارتباطهم بالإسلام ونظرهم إلى اللغة العربية كلغة القرآن ، والحديث ، والسيرة ، ومفتاح مكتبة الإسلام ـ أن يفصلوا بين الأدب العربيِّ والدِّين ، بل إنهم أصبحوا يعتقدون بعد دراستهم الأمينة المخلصة لثروة اللغة العربية وكنوزها الأدبية : أنَّ الأدب العربيَّ يستمدُّ من الدين القوة ، والحيوية ، والجمال ، والتأثير ، وكما قلت في مقدمة كتابي «مختارات من أدب العرب» :

«وقد كان هؤلاء الكتاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرةٌ أو عقيدةٌ ، ويكتبون لأنفسهم يكتبون إجابةً لنداء ضميرهم ، وعقيدتهم ، مندفعين

منبعثين ، فتشتعل مواهبهم ، ويفيض خاطرهم ، ويتحرَّق قلبهم ، فتنثال عليهم المعاني ، وتطاوعهم الألفاظ ، وتؤثِّر كتابتهم في نفوس قرائهم؛ لأنها خرجت من قلبٍ ، فلا تستقرُّ إلا في قلبٍ»[١] .

كلُّ هذا حمل أبناء هذه الدار التي تلتقون فيها ـ أيها السادة ـ على أن يؤلِّفوا لأطفال المسلمين الذين يدرسون اللغة العربية في المدارس الهندية مقرراتٍ دراسيةً على هذا المنهج التربوي الإسلامي ، من المرحلة الأولى إلى المرحلة الأخيرة ، من قصصٍ للأطفال ، إلى سلسلةٍ من القراءة العربية ، إلى مجموعات «منثوراتٍ» و«مختاراتٍ» إلى رسائل عرضٍ ونقدٍ ، للأدب العربيِّ ، إلى كتابٍ في تاريخ الأدب العربيِّ (مع إشادة بالمدرسة العربية الهندية) لا يزال في دور التكوين والتأليف .

وبذلك نادى الكتَّاب والباحثون في هذه المؤسسة بالنظر الجديِّ ، والتأمُّل الفاحص في هذا الموضوع ، واستعراض المكتبة العربية من جديدٍ ، ذلك مع عدم إنكار قيمة أدب الفن وأدب التسلية ، والترفيه ، وأدب الغزل ، والمدح ، والذي ظهر لتحقيق أغراضٍ مؤقَّتةٍ شخصيَّةٍ وجماعيَّةٍ ، فلكلٍّ قيمته ، ومكانه الفسيح في مكتبة الأدب وفي قلوبنا ، بل نتمتع به ، ونتذوقه ، ونراه حاجةً من حاجات الحياة ، ومطلباً من مطالب الفطرة البشرية السليمة المرحة ، ولكنها محاولة لإعطاء الأدب الهادف المفيد حقَّه ، وإحلاله المحلَّ اللائق ، والاهتمام به الاهتمام الجدير به .

ونحمد الله على أنَّ هذا النداء لم يكن صيحةً في واد ، ونفخةً في رماد ، ولقد تجاوبت له الأوساط الأدبية في مهد اللغة العربية ، وكبار الأساتذة ، والنقاد في الجامعات العربية ، وقد سبق بعضهم إلى تبنِّي هذه الفكرة واحتضانها ، والدعوة إليها ، نذكر تقريراً للواقع ، واعترافاً بالفضل أساتذة أجلاء ، هم : الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا ، ومعالي الشيخ السيد عبد العزيز الرفاعي ، والأستاذ محمد حسن بريغش ، فقد أنشؤوا مكتبةً

(١) «مختارات من أدب العرب» ص/ ١٧ ، طبع دار ابن كثير بدمشق .

عامرةً من قصص التَّاريخ الإسلاميِّ ، وتعريفاً بأبطال المسلمين وزعمائهم ، والمغمورين من الأدباء والشعراء من الطراز الأول ، يستحقُّون بذلك شكر علماء التربية ، وأصحاب الدعوة للفضيلة وعشَّاق الأدب .

وعلى هذه الفكرة والمبدأ ، انعقدت ندوةٌ عالميةٌ للأدب الإسلاميِّ من ١١ ـ ١٣ من جمادى الأخرى ١٤٠١ هـ (١٧ ـ ١٩ من إبريل ١٩٨١ م) في جامعة ندوة العلماء ، حضرها لفيفٌ من كبار الأدباء ، والكتاب ، وأساتذة الأدب العربيِّ في الجامعات السعودية ، والخليج العربي ، ومصر ، وعلى هذه الفكرة ، ولتمديدها ، وتوسيعها ، وترسيخها ، وتدعيمها ، تألَّفت رابطة الأدب الإسلاميِّ في شعبان عام ١٤٠٤ هـ (شهر مايو من ١٩٨٤ م) في مكَّة المكرمة بدعوةٍ من عددٍ من كبار الأساتذة في جامعة الإمام محمد بن سعود ، وجامعة الملك عبد العزيز في الرياض ، والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ فها هي الندوة الأولى لهذه الرابطة الحبيبة ، ندعو الله تعالى ، ونرجوه أن تكون بداية عهدٍ جديدٍ ، وانتفاضةٍ أدبيَّةٍ إسلاميَّةٍ في فجر القرن الخامس عشر الهجري ، فيكتب المؤرخون في المستقبل : أنَّه كان قرن النهضة الأدبيَّة الإسلاميَّة ، كما كان قرن الصَّحوة الإسلاميَّة في العالم الإسلاميِّ بالمعنى العامِّ ، وبالله التوفيق .

* * *

دور الإسلام الثوريِّ البنَّاء في مجال العلوم الإنسانيَّة

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة القيِّمة في ملتقى الفكر الإسلاميِّ العشرين المنعقد في بلدة «سطيف» في الجزائر في ٢/ سبتمبر ١٩٨٦ م ، حضرها نخبةٌ ممتازةٌ من رجال الفكر والثقافة والبحث والتحقيق من العلماء وأساتذة الفنِّ في العالم الإسلاميِّ .

الحمد لله وحده ، والصَّلاة والسَّلام على من لا نبيَّ بعده .

اعتـذارٌ وتـوضـيـحٌ :

أمَّا بعد! فمعذرةً أولاً من استخدام كلمة «الثَّوريِّ» (Revolutionary) عن دور الإسلام في مجال العلوم الإنسانية ، فإنَّ هذه الكلمة قد اقترنت بها سلبيـات وتشنُّجـاتٌ فـي غـالـب الأحيـان ، فـي تـاريـخ الحكـومـات ، والحضارات ، والحركات ، والنشاطات ، وهي لا تتَّفق مع إيجابية الإسلام ودوره البنائيِّ الإصلاحيِّ ولا تليق بمصدره (الوحي الإلهيِّ) الذي هو فوق ردود الفعل ، وبعيدٌ عن كلِّ عاطفيَّةٍ وحساسيَّةٍ ، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : ٤١] .

وقد سوَّغ لنا استخدام هذه الكلمة ـ على تحفظٍ وتفصيلٍ ـ ما يتَّصف به دور الإسلام في مجال العلوم الإنسانيَّة ، والحضارة البشريَّة من القيام بانقلابٍ جذريٍّ شاملٍ ، وعطيَّة إزالة الأنقاض ، واقتلاع الجذور الفاسدة ، والحشائش الطفيليَّة ، من حقل العلم ، والفكر الإنسانيِّ ، وتصحيح المفاهيم ، وتجلية الحقائق ، والبناء الجديد مكان البناء القديم في عالم العلم والعقل .

الحـاجـة إلـى استعـراض الـعـالـم الـقـديـم عقـائـديّـاً ، وعـقليَّاً ، وخـلـقيَّـاً :

إنه لا يمكن تقدير قيمة دور الإسلام الثوريِّ البنَّاء حتى إلى حدٍّ محدودٍ والإنصاف له بعض الإنصاف ، والشعور بضخامة عمله بعض الشعور ، وفهم الصعوبات والعوائق التي اعترضت له في تحقيق أهدافه وإكمال مهمَّته ، إلا إذا استعرضنا العالم القديم ، الذي جاء فيه الإسلام يحمل رسالته للبشرية ، وإلا إذا ألقينا بعض الأضواء على الشعوب الرائدة العملاقة

التي قادت العالم القديم علميّاً ، وعقليّاً ، وعقائدياً ، بين ٥٠٠ ق م إلى ٥٠٠ م[(١)].

يونان القديمة ، ودورها القياديُّ الساحر في عالم العلم والعقل :

وفي مقدمة هذه الشعوب الرائدة ، والمدارس العلمية والفكرية الموجِّهة للعالم كلِّه ، والسيطرة على العقول في العالم المتحضِّر بين رومة في الغرب ، وباتلي بترا (بتنه) في الشرق ، هي «يونان» ، ولا نعرف في التاريخ شعباً تمتَّع بإجلالٍ وتقديرٍ ، وإخضاعٍ وتسخيرٍ في الأوساط العلميَّة والفكريَّة ، وبقي محتفظاً بالهيمنة على العقول والقرائح ، والنشاطات العلمية إلى حدِّ التقديس ، واعتقاد العصمة من الخطأ لأطول مدَّةٍ في التاريخ ، وأفسح مساحةٍ في الجغرافية ، وأوسع إطارٍ من العلوم والآداب ، بفهمٍ ووعيٍ ، أو في دهشةٍ وانهيار ، مثل ما تمتع به اليونان.

وإلى القراء بعض الشهادات التاريخية ، واعترافات بعض الباحثين والفضلاء : يقول صاحب مقال «إلى أيِّ حدٍّ يدين العالم ليونان؟» H. A. L. Fisher في التاريخ العامِّ للعالم (Universal History of the World).

«إنَّ منبع الحضارة الأوربية في الحقيقة هو يونان القديمة ، إنَّ مفكريها وفنَّانيها قد بحثوا عن الإنسان في روائع فنِّهم ، وحلُّوا لغزة الطبيعة ، وعبَّروا عن الجمال ، وليست هذه الحقيقة الواضحة في حاجةٍ إلى تفصيل. إنَّ جميع فروع العلم سواءً كانت ذات صلة بالعلوم الرياضية والطب ، أو بأيِّ فرعٍ من فروع الفلسفة ، أو المنطق ، أو بالأخلاق ، وعلم النفس ، أو بفرع من فروع الأدب ترجع أصولها إلى اليونان ، وإن صرفنا النظر عن النظريات

---

(١) وذلك دور ازدهار الفلسفة اليونانية ، فإنَّ سقراط ولد ٤٦٩ ق م ، وعاش إلى عام ٣٩٩ ق م ، وولد أفلاطون ٤٢٧ ق م ، وأرسطو ٣٨٥ ق م ،
وبقيت المدرسة الإغريقيَّة ـ في الفلسفة ، والمنطق ، والعلوم الرياضية والطب والأدب ـ هي القدوة والموجِّهة بطريقٍ مباشر للمدارس الفكرية والأدبية في الغرب والشرق ، إلى القرن السادس المسيحي ، وبعده عن طريق التراجم قروناً متطاولةً حين تكفلَ العرب والفرس بنقل أفكارها ، وتدريس علومها ، وآدابها.

التعليمية المنسوبة إلى أفلاطون وأرسطو ، فإنَّ بعض المصطلحات العلمية التي لا تزال منتشرةً إلى الآن وعليها الاعتماد ، مثل «Alphabet» (الألفباء) «School» (المدرسة) و«Pedagogy» (علم أصول التدريس) ، هي يونانية اللغة والتعبير ، تكفي للدلالة على أنَّ أهل يونان كانوا هم الأدلّاء على العلم والفنِّ ، المنيرين لسبلها(١).

ويقول الفاضل الغربي (W. G. De Burgh) في كتابه «تراث العالم القديم» (The legacy of the ancient world):

«لم يفهم شعبٌ حقائق الحياة والعلم إلى هذا المدى من وضوح البصيرة ونقائها ، ولم يعبر عنها في هذه الدقة كما استطاع ذلك الشعب الإغريقي ، إنَّ ذكاءه المحيِّر للعقول مكّنه من عرض العلم والعمل عن طريق الكلمات والتعبيرات الفلسفية إلى درجةٍ اعتمدت الأجيال المتأخرة على الأسس التي أرساها اليونان ، بل أصبحت مدينةً لها ، معترفةً بفضلها في إنشاء مؤسساتها العلمية والفكرية على هذه الأسس»(٢).

الهند القديمة ومكانتها في الفلسفة والعلوم الرياضية :

ويلي اليونان الهند القديمة ، ولو صرفنا النظر عما يدَّعيه بعض الغلاة من المؤلفين في تمجيد الهند علمياً ، وردِّ كلِّ عظمةٍ وعبقريةٍ إليها ، فيقولون : إن فلاسفة الهند ورياضييها كانوا أساتذة اليونان في الفلسفة ، والعلوم الرياضية ، والطب ، تتلمذ عليهم علماءُ يونان ، واقتبسوا عنهم العلوم ، فلا شكَّ أنَّ الهند تلي يونان في البراعة والتفوق في الفلسفة ، والعلوم الرياضية ، والطب .

يقول الفاضل (Cyril Henry Philips) (أستاذ التاريخ الشرقي في جامعة لندن) في مقالٍ له جاء في دائرة المعارف البريطانية (Encylopedia óBritannica):

«إن مأثرة الهند الكبرى ظهرت في المجالات الفكرية والحضارية . إنَّ

---

(١) Universal history of the world London'vol-lllp. 1555.

(٢) The Legacy of the anccient world'London- 1947 p. 117.

نظامهم الفلسفيّ ، والدِّينيّ ، والأدب السنسكريتيّ أولُ انتصارٍ للعقل الإنسانيّ . إنَّ عبقريتهم تجلّت في ميدان قواعد الصرف ، والنحو ، والقانون ، والفنِّ المعماريّ ، وصنع التماثيل ، والتصوير ، والموسيقا ، والفنون الجميلة ، والصنائع اليدويّة ، وصنع المعادن ، والتطريز ، وصوغ الحلي ، واستخدام العاج والخشب في المصنوعات والزخارف ، والهند هي التي كشفت الأرقام إلى رقم ٩ ، واهتدت إلى فنِّ العدد ، والأرقام بإضافة صفر (٠) بعد رقم ٩»[١] .

وجاء في دائرة المعارف لتاريخ العالم ، للمشرف عليها William L. Langer وهو يتحدَّث عن دور الهند بين ٣٢٠ م إلى ٥٣٥ م :

«لقد نشطت الحركة الأدبيّة ، وتضخمَّ الإنتاج الأدبيُّ في هذا العهد ، ونبغ شاعر ككالي داس ، اشتهرت قصصه ، وتمثيلياته ، ونقلت إلى عدَّة لغات .

وقد تقدَّمت فنونٌ مختلفةٌ في هذا العهد تقدُّماً كبيراً ، مثل الفنِّ المعماريّ ، والتصوير ، والنقش ، والطبِّ ، أمَّا العلوم فقد وُضعت أصول الهيئة ، والرياضيات ، وعلم الجبر (Algebra) والهندسة ، وقد ادَّعى عالم هنديٌّ من علماء الهيئة اسمه : آرية بهت (Arya Bhat) دوران الأرض»[٢] .

إيران في سعة مملكتها وفي أوج حضارتها :

ويلي يونان والهند إيران ، فكانت أعظم من الإمبراطورية الرومانية الشرقية ـ بعد انشقاقها عن الإمبراطورية الرومانية الكبرى ـ مساحةً ، وأبَّهةً ، وثروة ـ وقد تأسست على يد «أردشير» في سنة ٢٢٤ م ، وكانت تحكم حين بلغت أوجها ، أسيرية ، وخوزستان ، وميديه ، وفارس ، وآذربائيجان ، وطبرستان ، وسرخس ، وجرجان ، وكرمان ، ومرو ، وبلخ ، وسغد ، وسيستان ، وهرات ، وخراسان ، وخوارزم ، من فارس القديمة ، والعراق ، واليمن من الجزيرة العربية ، وقد دخلت بعض

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ، ج/ ١٤ ، طبع ١٩٨٥ م .Encyclpedia Britannica

(٢) An Ecyclopedia of world history, by willlam L- Langer.p. 140.

ولايات الهند مثل كجه ، وكاتيهاوار ، ومالوه ، في حكمها في بعض الفترات ، وقد اتسعت هذه الإمبراطورية اتِّساعاً كبيراً منذ القرن الرابع المسيحي ، وقد أوغلت في الشمال والشرق ، وبلغت إلى أقصى حدودها .

وقد كانت طيسيفون (المداين) عاصمة الإمبراطورية ومقرَّ الإمبراطور الإيراني ، وكان مجموع مداين كما يبدو من اسمها العربي ، وقد بلغت أوجها في الرقيِّ والمدنية والبذخ ، في القرن الخامس إلى ما بعد»[١] .

وقد كانت إيران مأخوذةً بسحر يونان في العلوم العقلية ، والرياضية ، متطفلةً عليها ، يقول الأستاذ آرتهر كرستن سين الدينماركي (Christensen, A.) في كتابه «إيران في عهد الساسانيين» :

«إنَّ الفكرة اليونانية بما فيها من عقائد ، ونظرياتٍ أحدثت توافقاً بين الديانات المختلفة في غربي إيران ، وبصفة عامَّةٍ على تخوم آسيا الغربية»[٢] .

ويقول Percy Sykes في كتابه «تاريخ فارس» (A History of Persia) وهو يتحدث عن التأثير اليوناني في إيران :

«إن نوشيروان طالع كتب أرسطو ، وأفلاطون التي نقلت بأمره إلى الفارسية وإنَّه أنشأ في جند يسابور (خوزستان) جامعةً كانت تعنى بتدريس الطبِّ عنايةً خاصَّةً ، من غير أن تصرف النظر عن الفلسفة ، والعلوم الأخرى ، ودوَّن تاريخ إيران المعلوم في كتاب بنى عليه الفردوسي ملحمته الشهيرة ، واستورد من الهند كتاب هو السابق على حكايات لقمان ، كذلك لعب الشطرنج .

---

(١) راجع للتفصيل «إيران في عهد الساسانيين» للبروفيسور آرتهر كرستن سين (Christensen' A.) .

(٢) أيضاً ، ص/ ٣٧ .

لقد أصبحت إيران في هذا العهد محلاًّ رئيسياً لتبادل الأفكار بين الشرق والغرب»[١].

ويقول العلامة الدكتور محمد إقبال في كتابه «فلسفة العجم»:

«إنَّ الفلسفة اليونانية التي كانت نبتةً أجنبيةً لأرض إيران، أصبحت جزءاً لا ينفكُّ من الفكر الإيرانيِّ، وأصبح المفكرون الذين جاؤوا في العصور الأخيرة ـ بما فيهم من نقاد ـ يتكلَّمون في لغة أرسطو، وأفلاطون، وكانوا خاضعين مع ذلك للأفكار الدينيَّة القديمة»[٢].

تناقضات عجيبة في حياة الشعوب الثلاثة القائدة للعالم:

وبعد هذا الاستعراض الوجيز للوضع العقليِّ الفلسفيِّ، والعلميِّ الفنيِّ السائد على أرقى شعوب العالم القديم، في القرون التي سبقت ظهور الإسلام، وتصوير القمة التي وصلت إليها هذه الشعوب، والمدارس الفكرية القائدة للشعوب، والمجتمعات البشرية التي كانت تعيش على فتات مائدتهم، وتتناول كلَّما تقدمه إليهم هذه المدارس ـ بمعناها الواسع ـ من نظرياتٍ علميَّةٍ، ونتائج بحثٍ، وتأملاتٍ كنهاية للعلم والذكاء، وكأمورٍ بديهيَّةٍ في بعض الأحيان، لا تتَّسع للبحث والنقاش نبحث عن بعض مواضع الضعف، وعن تنافضاتٍ في حياتها العقلية، والثقافية، ونظام تفكيرها، وسلوكها، وما لا يتفق مع هذا السموِّ العقليِّ والتحليق الفكريِّ، وفتوحها العلمية البعيدة، وإنجازاتها وانتصارتها الباهرة للعقول في مجالات العلوم الإنسانيَّة.

مجموع أساطير (الميثالوجية) عند اليونان:

فمن أكبر تناقضات العقل البشريِّ، بل من أكبر تناقضات التاريخ العقائديِّ والثقافيِّ ما عرفت به يونان من التسفُّل فيما يتصل بمعرفة فاطر هذا الكون، ومدبِّره، وذاته، وصفاته، وفي العقائد الدينية، والإلهيَّات،

(١) Ahistory of persia by percy sykes. p. 459 London.

(٢) The Development of metaphysics in persia, p. 15.

فقد تبين من تاريخ اليونان القديم ، أنَّ يونان التي منحت العالم تراثاً واسعاً من العلوم الطبيعية والريّاضيَّة ، وتولَّت قيادة الدول العقليّة والفكريَّة لآلافٍ من السنين ، (كما تقدم في السطور الماضية) ظلَّت تعبد الكواكب والأصنام في معظم أجزاء تاريخها ، وكانت فريسةَ الأوهام ، والخرافات الكثيرة ، وكان عندها استعدادٌ عجيبٌ ـ بجوار استقلالها الفكريِّ ، وعدم خضوعها للمسلمات القديمة من غير بحثٍ ونقاشٍ ، وعرضها على محكِّ العقل والنقد ـ لقبول كلِّ غريبٍ ومنافٍ للعقل ، وما كان من نسج الخيال ، إذا كان ذا صلةٍ بالعقيدة ، والديانة الشعبية القديمة.

إنَّ التاريخ الجديد قد أزاح الستار عن وجه علم الأصنام (Mythology) في اليونان ، ووثنيتها القديمة ، فقد تحقَّق أنَّ يونان القديمة كانت ترزح تحت نير الآلهة والإلهات ، ومعابد الكواكب ، وهياكلها[١].

يقول الدكتور الفرد ويبر (Alfred Weber) في كتابه «تاريخ الفلسفة» وهو يتحدث عن يونان القديمة :

«وبالضبط كما أنَّ طفلاً يجعل محيطه عالماً طلسمياً ، ويعتبر لعبه التي يلعب بها ، وحصانه الخشبيَّ كائناتٍ حيَّةٍ ، كذلك يكون النوع البشري في

(١) وقد غفل عن هذه الحقيقة التاريخية كثيرٌ من المتكلمين المسلمين الذين أعطوا الفلسفة اليونانية أكثر مما تستحقُّ من التقدير والإجلال ، وصاروا يبحثون في قضاياها كقضايا علمية ، وقد نبه على هذه النكتة العلامة السيد سليمان الندوي ؛ إذ قال :
«وعلى كلِّ حالٍ فالفلسفة التي تلقاها المسلمون على أيدي الناقلين من يهود ونصارى لم تكن صافيةً محصنةً ، فإنها كانت مشوبةً بآرائهم ، وأوهن بيوت الفلسفة فلكياتها وإلهياتها ، فليست أولاهما إلا تأويل ما كان يعتقده اليونان في تأله الكواكب ، وأساطيرها ، فجعلوها فلسفةً وعبَّروها بكلماتٍ فلسفيةٍ ، ولم يجدوا لها سلطاناً من البرهان غير نزر يسير من الأوهام ، كالقول بالأفلاك وحركاتها ، وطبائعها ، ونفوسها ، وتأثيرها في القوى» (الجزء الثالث من كتاب «المعتبر في الحكمة الإلهية» لأبي البركات هبة الله بن علي البغدادي (م ٥٤٧ هـ) «مقالة العلاَّمة السيد سليمان الندوي» ص/ ٢٣١).

طفولته الطبيعة خاضعاً لتصوراته ، وأهوائه «وذلك شأن يونان في العهد القديم»(١) .

«إنَّ الفلسفة لم تخلع عنها لباس الأساطير ، والخرافات (Mythology) في وقتٍ قريبٍ. إنَّ الفلسفة ظلت تعبر عن أفكارها في لغة الشعر الغنائية ، ولم تزل محافظة على نقائص العقائد الدينية التي انبثقت عنها»(٢) .

ويقول الفاضل الألماني الدكتور ويلهم وينسل (Wilhelm Vansel) في كتابه «مختصر تاريخ فلسفة يونان» :

«إنَّ اليونانيين كانت العبادة في حياتهم أكثر من الثقافة والعقائد ، لذلك لم يكن عندهم نظامٌ معترفٌ به من العقائد ، لقد ورثوا ميثالوجية قديمةً كانت تقبل التغير ، والتطور على حسب الأزمنة والأدوار ، وكانت تخييلات الأوهام والشعراء لا تزال تغير هيئتها»(٣) .

ويقول الفاضل أدولف هولم (Adilf Holm) في كتابه «تاريخ يونان» :

«كان اليونان بطبيعتهم مغرمين بالطرافة ، وحبِّ كل شيءٍ جديدٍ ، ولم يكن في دينهم نصيبٌ للعقائد الثابتة»(٤) .

انتباه بعض كبار علماء الإسلام لهذه الحقيقة :

وقد أحسن حجّة الإسلام الإمام الغزاليُّ (م ٥٠٥ هـ) وصف هذا التناقض العجيب في مدارك العقلاء الأذكياء اليونانيين ، فيقول في حديثه عن آراء الفلاسفة اليونانيين فيما يتصل بالذّات الإلهية وصفاتها ، وما صنفوه من نسب العقول والأفلاك :

«قلنا ما ذكرتموه تحكماتٌ ، وهي ـ على التحقيق ـ ظلماتٌ فوق ظلماتٍ ، لو حكاه الإنسان عن منام رآه لاستُدلَّ على سوء مزاجه ، أو لو رد

(١) تاريخ الفلسفة ص/ ٨.
(٢) تاريخ الفلسفة ، ص/ ١١ .
(٣) أيضاً ، ص/ ١٤ .
(٤) تاريخ يونان ، ج/ ٢ ، تأليف أدولف هولم ص/ ٣٧٢ .

جنسه في الفقهيات ـ التي قصارى المطلب فيها تخمينات ـ لقيل: إنها ترّهاتٌ، لا تفيد غلبات الظنون»[١].

وقال في موضعٍ آخر:

«لست أدري كيف يقنع المجنون من نفسه بمثل هذه الأوضاع فضلاً عن العقلاء الذين يشقُّون الشعر بزعمهم في المعقولات»[٢].

وقد تفطَّن لهذه النكتة شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية (م ٧٢٨ هـ) فقال:

«وأما معرفة الله تعالى فحظُّهم (يعني اليونانيين) منها مبخوسٌ جدّاً، وأما ملائكته، وكتبه، ورسله، فلا يعرفون ذلك البتة، ولم يتكلموا فيه لا بنفيٍ ولا بإثباتٍ، وإنما تكلم في ذلك متأخروهم الداخلون في الملل»[٣].

السرُّ في اضطراب اليونان العقليِّ والعقديِّ:

وقد ذكر أحد العلماء المسيحيين الأدباء السرَّ في هذا الاضطراب العقلي، والتناقض في حياة اليونان، يقول جرجي زيدان:

«أخذ اليونان بأهداب الفلسفة والعلم على أثر الحروب اليونانية الداخلية فإنها توالت ٢٧ سنة، وفي نهايتها دخلت أثينا في حوزة المقدونيين، وأصبح الأثينيون بعد العزِّ أذلَّاء، فساقتهم العبرة، والمذلة إلى النظر في الوجود، فنهضوا نهضة فلسفيةً، زعيمها وواضع أساسها سقراط، والحروب يغلب أن يعقبها نهضةٌ أدبيةٌ، أو علميَّةٌ، أو سياسيَّةٌ على ما قررناه في غير هذا المكان.. وإن كانوا قد تنبهوا إلى شيءٍ من ذلك قبلاً.

فلما أصيبت أثينا بالذلّ بعد تلك العظمة، أصاب أهلها اضطراب وانكسار، والإنسان إذا أصيب بنكبة لا حيلة له في دفعها اشتغل عنها

(١) تهافت الفلاسفة، ص/ ١١٥.
(٢) أيضاً، ص/ ١٢٤.
(٣) تفسير سورة الإخلاص، ص/ ٥٧.

بالتعليلات الفلسفية عن الوجود ، وأصله ، ليخفِّف وطأة تلك المصيبة عليه ، وخصوصاً في مثل ما أصيبت به أثينا بعد عزِّها ، ورفعة شأنها ، وأصبح أهلها بعد سقوطها يتلفتون إلى الوراء آسفين، وينظرون إلى الأمام خائفين ، وقد ذهبت أسباب مفاخرتهم القديمة ، ولم تنتظم حكومتهم الجديدة.

فتنبهت أذهانهم ، وانصرفت قرائحهم إلى النظر في شؤون الإنسان على الجملة ، وشؤونهم على الخصوص ، فكانت وجهت تلك النهضة الأدب والفلسفة ، ودخل القرن الرابع قبل الميلاد ، والناس يتناقلون آراء بعض المتقدمين من العلماء على ما يوافق أحوالهم، ونفوسهم تشتاق إلى الزيادة»[١].

علم الأصنام (الميثالوجية الهندية) وكثرة الآلهة والإلهات في الهند:

أما الهند التي فاقت في الفلسفة والعلوم الرياضية والطب ، وكانت تلْوَ يونان كما قدَّمنا ، فقد امتازت في ميثالوجيتها الوثنية (علم الأساطير) وأمعنت فيها ، حتى صارت فيها إماماً ، وقدوةً لما حولها من البلاد ، وامتازت بكثرة المعبودات ، والآلهة ، والإلهات ، وقد أصبح كلُّ شيءٍ رائعٌ ، وكلُّ شيءٍ هائلٌ ، وكلُّ شيءٍ نافعٌ إلهاً يعبد ، وارتقت صناعة نحت التماثيل ، وتأنق فيها المتأنقون.

يقول الأستاذ الهندوكي الفاضل L. S. S. O. Malley في كتابه «الهندوكية السائدة (دين الجماهير)» :

«إنَّ عملية خلق الآلهة ، لم تنته على هذا ، فلن تزل تنضمُّ آلهةٌ صغيرةٌ في فتراتٍ تاريخيَّةٍ مختلفةٍ إلى هذا «المجمع الإلهي» في عددٍ كبيرٍ ، حتى أصبح منهم حشدٌ يفوق الحدَّ والإحصاء ، كان كثيرٌ منهم آلهةَ سكان الهند

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ، ج/ ٢ ، لجرجي زيدان ، ص/ ٣٣٠.

القدامى ، أُلحقوا بآلهة الديانة الهندوكية ، يُذكر أنَّ عدد هؤلاء الآلهة قد بلغ ٣٣٠ مليون»[١] .

ويقول الأستاذ Vaidya C. V. في كتابه «تاريخ الهند الوسطى» :

«كانت الديانة الهندوكية ، والديانة البوذية ، وثنيتين سواءً بسواءٍ ، بل ربما كانت الديانة البوذية قد فاقت الديانة الهندوكية في الإغراق في الوثنية ، كان ابتداءُ هذه الديانة ـ البوذية ـ بنفي الإله ، ولكنَّها بتدريجٍ جعلت بوذا الإله الأكبر ، ثم أضافت إليه آلهةً أخرى على مرِّ الزمن»[٢] .

التطرف الإيراني العقائدي :

أمَّا الإيرانيون فقد دانوا بالوثنية في كلِّ عصرٍ ، وأصبح ذلك شعاراً لهم ، وآمنوا بإلهين اثنين ، أحدهما : النور ، أو إله الخير ، ويسمونه «آهورمزدا» أو «يزدان» ، والثاني : الظلام ، أو إله الشر ، وهو «أهرمن» ، ولا يزال الصراع بينهما قائماً ، والحرب دائمة[٣] .

يذكر المؤرخون للديانة الإيرانية مجموعةَ أساطير متصلةً بالآلهة لا تقلُّ في غرابتها وتفاصيلها الدقيقة عن الميثولوجيا Mythology الإغريقي ، أو الهندي[٤] .

وقد عُرف المجوس من قديم الزمان بعبادة العناصر الطبيعية ، أعظمها النار ، وقد عكفوا على عبادتها أخيراً ، يبنون لها هياكل ومعابد ، وانتشرت بيوت النار هذه في طول البلاد وعرضها ، وكانت لها آدابٌ وشرائع دقيقة ، وانقرضت كلُّ عقيدةٍ وديانةٍ غير عبادة النار ، وتقديس الشمس ، وأصبحت الديانة عندهم عبارةً عن طقوسٍ وتقاليد يؤدُّونها في أمكنةٍ خاصَّةٍ ، أما خارج

(١) L.S.S.O.,Malley, C.I E I.,I. CS., Popular H ndu Ism, The Religion of The Masses, (Cambridge, 1935) pp.6-7.

(٢) C.V. Vaidya: History Of Mediaeval India, Vol.l Poona 1921.

(٣) اقرأ كتاب «إيران في عهد الساسانيين» للبروفيسور آرتهر كرستن سين (Christensen, A:) باب ، الدين الزرتشي ، ديانة الحكومة ، ص/ ١٨٣ ـ ٣٣٣ .

(٤) أيضاً ، ص/ ٢٠٤ ـ ٢٠٩ .

المعابد فكانوا أحراراً ، يسيرون على هواهم ، وما تملي عليهم نفوسهم ، وأصبح المجوس لا فرق بينهم وبين من لا دين لهم ، ولا خلاق في الأعمال والأخلاق»[١].

ويقول الأستاذ آرتهر كرستن سين وهو يحكي عن ديانة إيران :

«إنَّ ديانة الآريين القديمة (ومنهم أهل إيران) كانت مؤسسة على عبادة العناصر والأجسام الفلكية والقوى الطبعية ، ولكن سرعان ما أضيفت آلهةٌ جديدة إلى آلهة القوى الطبعية ، كانت تمثل القوى الخلقية ، أو كانت تماثيل للتصورات الذِّهنية»[٢].

ويذكر المؤرخون للديانة الإيرانية مجموعة أساطير متصلة بالآلهة (Mythology) لا تقل في غرابتها وتفاصيلها عن الميثالوجية الإغريقية ، أو الهندية.

وقد أحسن العلامة الدكتور محمد إقبال في وصف طبيعة الإيرانيين القلقة المضطربة؛ التي تجلت في حياتهم ، من مجال العقيدة ، والديانة ، إلى الشعر ، والأدب.

يقول :

«إن تخيُّل الإيرانيين كان كفراشةٍ دائمة الحركة والطيران ، تنتقل ـ في حالة شبيهة بسكرٍ وطرب ـ من زهرةٍ إلى زهرةٍ أخرى ، وتعجز عن تصور الحديقة تصوراً جامعاً شاملاً ، لذلك ظهرت أفكارهم الممعنة في العمق ، وعواطفهم الجيّاشة ، في أبياتٍ لا يربطها نظام ، وتجلت في النسيب والغزل الذي ينمُّ عن الرقة والدقة»[٣].

التفسخ الخلقي والانحلال الاجتماعي في مراكز العلوم والحكمة :

والمأخذ الثاني في حياة الشعوب والبلاد الثلاثة التي اتصفت بالعبقرية

---

(١) أيضاً ، ص/ ٣٠.

(٢) «إيران في عهد الساسانيين» ، ص/ ٣٠.

(٣) The Development Of Metaphysics In Persia, pp.13-14.

الفكريّة ، والإبداع الفنيّ ، بالنسبة إلى الأمم المعاصرة ، والبلاد المجاورة ، وقادت العالم المفتوح علميّاً وفكريّاً ، أو المأخوذ بسحرها (وهي : يونان ، والهند ، وإيران) نحو التدهور الخلقيّ ، والخضوع الزائد للغريزة الجنسية ، والدوافع الجامحة ، فكانت على طرفي نقيضٍ من السموّ العقليّ والتدنّي الخلقي ، لا تمنعها من ذلك التأملات الفلسفية ، ولا اللذة بالفتوح العلمية ، ولا المثل ، والقيم الخلقيّة .

في يونان :

أما يونان فتكفي عنها شهادة مؤرخ أخلاق أوربا الشهيرليكي (Lecky W. E. H.) يقول في كتابه الشهير «تاريخ أخلاق أوربا» (Histry Of European Morals):

«مما يقضي منه العجب (فيما يتصل بالحياة في اليونان القديمة) أنَّ الخضوع للغريزة الجنسية ، والانسياق مع الأهواء والشهوات ، كان في أوجه ، وقد بلغ القمة تحت سمع حكماء الأخلاق وبصرهم ، بل الأصحُّ : أنَّه قد بلغ القمَّة في ظل احتضانهم ، وإشرافهم ، فإذا روى لنا أحدٌ أنَّ كبار أساقفة باريس المتديّنين كانوا جالسين في غرفة المومسة الفرنسية الشهيرة «نيتادى انكلو» يشيرون عليها بما يساعدها على نجاح مهنتها وازدهارها ، فلا يوجد من يصدِّق هذه الرواية ولكن الحقيقة التاريخية أن نفس هذه الصلة (الآثمة) كانت قائمةً بين سقراط الكبير ، والمومسة اليونانية الشهيرة تهيودونا»[١] .

ويقول في موضع آخر :

«إنَّ تشكيك الفلاسفة قد استأصل الديانات القديمة ، وقد اكتسح البلاد (اليونان) سيلٌ من الترف الشرقيّ ، والتدهور الخلقيّ ، وقد انتشرت في هذا

(١) History of Eurobean Morals By Lecky, W.E.H. Newyork-1855,pp; 175-176.

الوضع وقائع البغاء ، والفجور انتشاراً كبيراً ، وكثر عددها إلى حدٍّ هائلٍ»[١] .

ويروي التاريخ الموثوق به عن أرسطو وصلاته الأثيمة ببعض المومسات اليونانية ، وكذلك عن أفلاطون وصلاته بالمومسات والغلمان ، ويحكي رواياتٍ عن كبار فلاسفة اليونان مثل سقراط ، وأفلاطون ، من الدعارة والشذوذ الجنسيّ ، وحماية البغاء الرسميّ ، وتبريره ما يندى له جبين الحياء ، ويحمرُّ له وجه الأدب ، ويصعب على الباحث في موضوع جدِّيٍّ مثل هذا الموضوع الذي له صلةٌ بالدِّيانة والأخلاق ، ودور الإسلام الإصلاحي التربوي ، أن ينقل هذه الشهادات ، فيحيل القارىء على مصدرها الكبير[٢] .

فـي الـهنـــد :

أما الهند فقد اتفقت كلمة المؤرخين على أنَّ المجتمع الهنديَّ كان قد بلغ درجة الانهيار الخلقيِّ في مستهل القرن السادس الميلادي[٣] فانتشرت الخلاعة حتى في المعابد ، وأصبحت لا عيب فيها ، لأنَّ الدين قد أضفى عليها لوناً من القدس ، والتعبد[٤] .

ويقول فاضل هندوكي «ويديا دهر مهاجن» :

كان الجماهير في الهند (في القرن السادس المسيحي) يتهرَّبون من أعمال شاقة وكدح ، وكانوا يصرفون أوقاتهم في الاستهتار ، وخلع العذار ، وقد راجت في تلك الفترة ديانة «واماركي» في العامة ، التي كان مبدؤها : «كلوا واشربوا واقضوا حياتكم في صفاءٍ وسرور» (Eat Drink And Be Marry) فكانوا يعيشون على شرب الخمور ، والتمتُّع بالغيد ، والغواني .

---

(١) أيضاً ، ج/ ٢ ، ص ١٩٢ .

(٢) Hans Licht, Sexuel Life In Ancient Greece, London 1942.

(٣) راجع «الهند القديمة» ج/ ٣ ، لمؤلفه R.C. Dutt .

(٤) ستيارته بركاش ، لديانند سرسوتي ، ص/ ٣٤٤ .

وقد تسرَّبت هذه القبائح إلى المدارس ، وأصبحت المعابد والزوايا مسرحاً للكسل والترف ، وكان أكثر كهنتها يعيشون حياةً داعرةً ، وكان فيها عددٌ كبيرٌ من البنات والشابات اللاتي لم يتزوجن ، انتشرت بسببهن الخلاعة ، وحياة الفجور ، كذلك وجود الراهبات في المعابد اللاتي نذرن حياتهن لهذه المعابد وكهانها ، قد سبب فوضى خلقيةً هائلةً ، وفي ذلك العهد ظهر أدب خليع يسمى بـ «Tantrik» كان له أثرٌ عميقٌ في الأخلاق[١] .

فـي إيـــران :

أما إيران فقد كانت مسرحاً بارزاً لتضعضع أسس الأخلاق والفضيلة وذوبانها ، وقد شاع التمتُّع بالحياة ، وانتهاب المسرَّات إلى حدٍ بعيد ، وقد ظهر مزدك في أوائل القرن الخامس المسيحي ، فدعا إلى إباحة الأموال ، والنساء ، وجعل الناس شركاء فيها ، وقد جاء في وثيقةٍ إيرانيَّةٍ تاريخيَّةٍ تعرف بـ «نامه تنسر» تصويرٌ لذلك العصر :

«وانتهكت الأعراض ، وعمَّ خلع العذار ، لقد نشأ جيلٌ لا كرامة فيه ولا عمل ، ولم يكن له رصيدٌ ولا ماضٍ مجيد»[٢] .

وانغمست إيران في الفوضى الخلقية ، وطغيان الشهوات ، وكانت تتأرجح بين أبيقورية[٣] جامحةٍ ، وتنسُّكٍ مغالٍ ، ولم تزل المحرمات النسبية التي تواضعت على حرمتها ومقتها طبائع أهل الأقاليم المعتدلة موضع خلافٍ وتناقضٍ فيها .

حيـــرةٌ واضطـــرابٌ وفـلسفـــاتٌ سلبيَّـــةٌ مـتنـــاقضـــةٌ عنـــد قـــادة الفكـــر والـعلـوم :

والمأخذ الثالث ، وموضع الضعف والانتقاد في هذه الشعوب والأقطار الثلاثة التي تزعمت العلم ، والفلسفة ، والرياضيات ، والآداب ، وقادت

---

(١) راجع Muslim Rule in India, pp:33-34

(٢) «نامه تنسر» ، طبع مينوى ، ص/ ١٣ .

(٣) مذهب أبيقور ، الفيلسوف الإغريقي ، الذي قال بأن المتعة هي الخير الأسمى .

العالم مدّةً طويلةً ، هو أنَّ هذه الرحلة الطويلة المضنية في سبيل العلم ، والفنِّ ، والاكتشاف ، والاختراع ، والابتكار؛ التي تستحقّ من المنصفين وهواة العلم كلَّ إعجابٍ وتقديرٍ ، كانت بلا غايةٍ محدَّدةٍ ، وعلى غير بصيرةٍ وبيِّنةٍ ، فكانت تؤدِّي أحياناً إلى حيرة واضطرابٍ ، وأحياناً أخرى إلى فلسفاتٍ سلبيةٍ ، وقد انتهت بيونان تارةً إلى الارتياب واللاأدرية (Agnosticism) وتارة إلى أبيقوريةٍ (Epicureanism) ترى المتعة بالحياة ، واللَّذة «الخير الأسمى» ، ومقياس الأخذ والعطاء ، والسلوك والأخلاق ، وتارةً إلى سوفسطائية (Sophism) تنكر إمكان الوصول إلى حقائق موضوعيةٍ ثابتةٍ ، إذاً الحقيقة عندهم ذاتيَّةٌ نسبيَّةٌ تختلف باختلاف الأفراد ، وكان من نتائج هذه التعاليم هدم المعايير الثابتة في الأخلاق ، والشكُّ في البديهيات ، والمسلمات.

وقد أدَّت هذه الرحلة المعتمدة على التأملات ، والمغامرات ، وردود الفعل ، وعلى الذكاء ، والتجرُّد ، وإجهاد الجسم بالهند مرَّة إلى الديانة «الجينية» التي ظهرت في القرن السادس قبل المسيح ، والتي تقوم على تعاليم خلقيةٍ سلبيةٍ غالباً ، وعدم امتلاك شيءٍ ، والكفِّ عن الإيذاء حتى عن قتل الحشرات ، والهوام ، ثم تدرَّجت إلى حياة العزوبة والتجرُّد ، والرهبانية المجهدة في عهد أحد قادتها «مهاوير».

وفي نفس هذا العهد (٦٠٠ ق م) ظهر بوذا ، وكانت تعاليمه ردَّ فعلٍ عنيفٍ ضدَّ النظام البرهمي ، والنظام الطبقي السائدين على الهند ، وعلى الرهبنة ، والإغراق في التأمل ، والمراقبة ، وكان ابتداء هذه الديانة ـ البوذية ـ بنفي الإله ، ولكنَّها بالتدريج جعلت بوذا الإله الأكبر ، ثم أضافت إليه آلهةً أخرى على مرِّ الزمن(١).

وأدَّت إيران إلى الزرتشتية التي خلفت المزدائية ، وكانت مؤسسةً على الحرب القائمة بين النور والظلام ، أو بين إله الخير وإله الشرِّ ، ثم جاء

(١) راجع للتفصيل «تاريخ الهند الوسطى» للأستاذ سي ، وي ، ويديا C.V. Vaidya
History of Mediaeval Inbia,Vol. I,Poona-1921, P.101

«ماني» يدعو إلى حياة العزوبة ، لحسم مادة الفساد والشرِّ من العالم ، وانتصار النور على الظلمة بقطع النسل ، وذلك في أوائل القرن الثالث المسيحي ، وظهر مزدك في أوائل القرن الخامس المسيحي ، فدعا إلى إباحة الأموال ، والنساء ، وجعل الناس شركاء فيها ، فكانت النتيجة أن انتشرت ثورات الفلاحين ، وكثر النهابون ، وأصبحت الأراضي والمزارع مقفرةً خربةً(١) ، وظلَّت إيران القديمة في أكثر عهودها تحت تأثير الدعوات المتطرفة المغالية ، وردود فعلٍ عنيفةٍ ، بين احتكارٍ سلاليٍّ أو طبقيٍّ ، أو دينيٍّ ، وشيوعيَّةٍ متطرِّفةٍ ، وفوضويةٍ مطلقةٍ ، وكلُّ ذلك نتيجة رحلةٍ على غير هدىً ، ومن غير خرِّيتٍ حاذقٍ ، وقائدٍ بصيرٍ مؤيدٍ من الله .

وحدات علمية متناثرةٌ بعيدةٌ عن واقع الحياة :

وكانت النتيجة الثانية أن أصبحت العلوم ، والفنون ، والآداب ، والمدارس المختصَّة بالفلسفة ، والمنطق ، والرياضيات ، والهندسة ، والجغرافية ، والتاريخ ، والأدب ، والشعر ، والملاحم وحداتٍ متناثرةً ، متناقضةً أحياناً ، مختلفةً في الهدف ، متفاوتةً في التأثير ، وتكوين السيرة والأخلاق ، والنظر إلى الكون والإنسان ، لا رباط بينها ، ولا تفاهم ، فضلاً عن التعاون على إسعاد البشرية ، وتكوين المجتمع الصَّالح ، والمدنيَّة الفاضلة ، وربط الخَلْق بالخالق ، والكون بالفاطر ، يعيش أئمتها وأساتذتها في عالمهم المحدود ، قد يكون خيالياً ، وقد يقع في برجٍ عاجيٍّ بعيدٍ عن الحياة العملية ، والمجتمع المائج الهائج ، والحياة المضطربة المتطورة ، وحكوماتٍ عادلةٍ حيناً ، جائرةٍ أحياناً كثيرة ، لا شأن لهم في أكثر الأحوال بمصير الإنسانية ، وأوضاع المدنيَّة .

البعد عن النبوءات وتعاليمها هو السبب الرئيسيُّ لشقاء هذه الشعوب والبلاد :

والسرُّ في تخبُّط هذه الشعوب والبلاد العملاقة العبقرية في الفنون ،

(١) «إيران في عهد الساسانيين» .

والآداب ، والفلسفة ، والرياضيات تخبطاً شبيهاً بخبط عشواء ، أو رمي السهام في الظلماء ، وفي وجود التفاوت الفاحش ، والفجوة العميقة السحيقة بين العلم والعمل ، والنظر والسلوك ، وبين الذكاء ، والخلق ، والاستقامة ، وفي انتشار الفوضى المنهجية ، والعقائدية ، والتوزُّع بين المذاهب والآراء ، وفي وجود وحداتٍ علميَّةٍ متناقضةٍ حيناً ، متناثرةٍ أحياناً ، مجردةٍ من وحدةٍ تربطها ، وتخضعها لقوةٍ قاهرة ، أو إرادةٍ قاسرةٍ ، أو غايةٍ مشتركةٍ فاضلةٍ ، هو انقطاع آخر خيطٍ كان يربط هذه الشعوب والبلاد بالنبوءات[١] إذ كانت هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة ، التي لا يشوبها جهلٌ ولا ضلالٌ ، ولا سوء فهمٍ ولا سوء تعبيرٍ ، ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى الصحيحة إلا ما كان عن طريقهم ، لا يستقلُّ بها العقل ، ولا يغني فيها الذكاء ، ولا تكفي سلامة الفطرة ، وحدَّة الذِّهن ، والإغراق في القياس ، والغنى في التجارب.

فضل النبوَّة والأنبياء والحاجة إليهم :

وقد ذكر الله تعالىٰ هذه الحقيقة الناصعة على لسان أهل الجنة ـ وهم أهل الصدق ، وأهل التجربة ـ وقد أعلنوا ذلك في مقام صدق وجد كذلك :

---

(١) يقول القرآن : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غافر : ٨٣]. يقول العلامة شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي في تفسيره : «روح المعاني» يحكي قولاً ثانياً للمفسرين في تفسير «بما عندهم من العلم» :

«إنَّ المراد به علم الفلاسفة والدهريين من بني يونان على اختلاف أنواعه ، فكانوا إذا سمعوا بوحي الله تعالى ؛ دفعوه ، وصغَّروا علم الأنبياء عليهم السلام إلى ما عندهم من ذلك ، وعن سقراط : أنَّه سمع بموسى عليه الصلاة والسلام ، وقيل له : لو هاجرت إليه ، فقال : «نحن قوم مهذبون ، فلا حاجة لنا إلى من يهذِّبنا» (روح المعاني ، ج/ ٢٤ ، ص/ ٩١) ، وكذلك كان الشأن مع الهند وإيران».

ولقد أحسن الفيلسوف الإنجليزي المشهور Roger Bacon في تعليل هذه النفسية المعوقة عن قبول الحقِّ والإذعان له ، إذ قال : «إنَّ من الأسباب الرئيسية العائقة عن التمسُّك بالحقِّ ، هو إخفاء جهلنا الشخصيِّ ، الذي يرافقه التظاهر بالعلم البراق الخادع» .

(Roger Bacon-Opus Majusjrans. R.S. Burke-1928)

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقرنوا هذا الاعتراف والتقرير بقولهم: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣] فدلَّ على أنَّ الرسل وبعثتهم هي التي تمكَّنوا بها من معرفة الله تعالى، وعلم مرضاته، وأحكامه، والعمل بها؛ الذي تمكنوا به من الدخول في الجنة، والوصول إلى دار النعيم، وقد ختم الله تعالى سورةً جليلةً من سور القرآن (وهي سورة الصافات) بهذه الحقيقة، فقد نفى فيها ضلال المشركين، وسوء اعتقادهم، ونسبتهم إلى الله ما هو منه بريء، ثم قال في آخر السورة: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢][١].

والآيات الثلاث حلقاتٌ متَّصلةٌ بعضها ببعض، فلمَّا نزَّه الله نفسه العلية عما يتفوَّه به المشركون، ذكر المرسلين الذين جاؤوا بالتنزيه والتقديس الكاملين، والوصف الصحيح البليغ، وسلَّم، وأثنى عليهم، لأنَّهم هم أهل الفضل في تعريف الخَلْق بالخالق، وفي الوصف الصحيح الصادق، وكانت بعثتهم منَّةً على الخلق، ونعمةً على الإنسانية، ومن مقتضيات الربوبية الرحيمة الحكيمة، فختم كلَّ ذلك بقوله: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٢].

أساس للعقائد والأعمال والأخلاق والمدنية:

وكان هذا العلم الذي جاء به الأنبياء أجلَّ علمٍ تتوقَّف عليه سعادة البشر؛ إذ هو الأساس للعقائد والأعمال، والأخلاق والمدنيَّة، وهو الذي يعرف به الإنسان نفسه، ويفكُّ به لغزة الكون، ويكشف عن سرِّ الحياة، وبه يعيِّن الإنسان مركزه في هذا العالم، وينظم علاقاته واتصالاته من بين بني جنسه، ويضع منهاج حياته، ويحدِّد غاياته في ثقةٍ، وبصيرةٍ، ووضوحٍ، ويقينٍ.

ثم إنَّ النبوءات ـ وعلى رأسها وفي خاتمتها النبوءة المحمَّدية ـ تربط

---

(١) مقتبسٌ من محاضرة العلامة الندوي «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن».

العلم دائماً بالعمل ، والقول بالتطبيق ، والإيمان والاقتناع بالحقائق ، بالسلوك الفرديّ والجماعيّ ، فيقول القرآن : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢ ـ ٣]. ويقول ذاماً للشعراء والحكماء ناعياً عليهم : ﴿ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٦] ويقول في وصف العلماء الراسخين : ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾ [فاطر : ٢٨].

وقد ضرب الله مثلاً للذين يعلمون ولا يعملون بما يعلمون ، من الحمار الذي يحمل وقراً من الكتب والأسفار على ظهره ولا ينتفع به ، فقال : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة : ٥][(١)]. وتلك غايةٌ في الذمِّ ، والاحتقار ، والتبكيت ، والتقريع.

النُّبوءة وتهذيب الأخلاق وتزكية النفوس :

ومهمّة تهذيب الأخلاق ، وتزكية النفوس تشغل مكاناً كبيراً في دائرة الدعوات النّبويّة ، ومقاصد البعثة ، والقرآن قد أطلق لفظ الحكمة على الأخلاق والآداب بعد ما ذكر رؤوسها وأصولها في سورة الإسراء ، فقال : ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ ﴾ [الإسراء : ٣٩] وقال قبل أن يذكر تعاليم لقمان الخلقية : ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴾ [لقمان : ١٢] وقال بعد ما ذكر الإنفاق في سبيل الله من غير منٍّ ولا أذى ، والتوكل على الله في عدم الخوف من الفقر : ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩].

---

(١) قال العلامة شهاب الدين محمود الآلوسي في تفسيره «روح المعاني» في تفسير كلمة «أسفار» : كتباً كباراً على ما يشعر به التنكير ، وإيثار لفظ السفر وما فيه من معنى الكشف من العلم يتعب بحملها ، ولا ينتفع بها. . . وفي الآية دليل على سوء حال العالم الذي لا يعمل بعلمه ، وتخصيص الحمار بالتشبيه به لأنه كالعلم في الجهل» (روح المعاني ، ج/ ٢٨ ، ص/ ٩٥).

وقد ذكر النبي ﷺ هذا الغرض العظيم الذي كانت له البعثة بكلمة الحصر ، فقال : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[١] وقد كان خير مثالٍ له وأفضل أسوةٍ فيه ، فقد قال القرآن : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] .

لمحةٌ عن الجيل الذي نشأ في أحضان النُّبوَّة المحمَّديَّة :

وقد نشأ في أحضان آخر الرُّسل ﷺ جيلٌ تحلّى بأفضل الأخلاق ، وأكرم الصفات ، وتجرَّد عن رذائل الأخلاق ، ومهلكات العادات ، وذمائم الصفات ، وغوائل النفوس ، وبقايا الجاهلية ، ومغالطات الشيطان ، وقد شهد القرآن باستقامة قلوبهم ، وصلاح نفوسهم ، ووصولهم إلى ذروة تهذيب الأخلاق ، وتزكية النفوس ، فقال :

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات : ٧ ـ ٨] .

ويحلو لي أن أنقل هنا ما سبق أن قلته في الحديث عن مأثرة النبوة المحمَّدية في كتابي «النُّبوَّة والأنبياء في ضوء القرآن» :

«إنَّ كلَّ فردٍ من هؤلاء الأفراد معجزةٌ مستقلَّةٌ وآيةٌ من آيات النُّبوَّة ، ومأثرةٌ من مآثرها الخالدة ، وبرهانٌ ساطعٌ على أشرفية النوع الإنساني ، إنَّ مصوِّراً لم يصور بريشته البارعة ومخيلته السخيَّة صورةً أجمل ، وأبدع مما كان عليه هؤلاء الأفراد في عالم الحقيقة والواقع ، وفي شهادة التاريخ ، وإن شاعراً يتخيَّل بخياله الخصيب ، وقريحته الفياضة ، ومقدرته الشعرية أوصافاً أجمل ، وسيرةً أعطر ، وجمالاً أكمل مما وجد في هؤلاء الأفراد ، ولو اجتمع أدباء العالم في صعيدٍ واحدٍ ، فعرضوا نموذجاً إنسانياً رفيعاً لم يصل بهم الخيال إلى ما وصل إليه الواقع في حياة هؤلاء الأفراد ، الذين نشؤوا في حجر النُّبوَّة وحضانتها ، وتخرَّجوا في مدرستها؛ إنَّ إيمانهم الراسخ ، وعلمهم العميق ، وقلبهم البارّ ، وحياتهم البعيدة عن كلِّ تكلُّف

---

(١) رواه مالك في الموطَّأ .

وصناعةٍ ، وعن كلِّ رياءٍ ونفاقٍ ، وتجرّدهم من الأنانية ، وخشيتهم لله ، وعفّتهم ونزاهتهم ، وعطفهم على الإنسان ، ورقّة مشاعرهم ، وشجاعتهم ، وجلادتهم ، وحرصهم على العبادة ، وحنينهم إلى الشهادة ، وفروسيتهم ، وفتوتهم ، وإحياءهم الليل ، وزهدهم في حطام الدُّنيا ، وزخارف الحياة ، وعدلهم ، وسهرهم على مصالح الرعية ، وإيثار راحتها على راحتهم ، كلُّ ذلك لا يوجد له نظيرٌ في الأمم ، ولا سوالف في التاريخ»[١] .

«أبرز رسول الله ﷺ برسالته ودعوته الفرد الصَّالح المؤمن بالله ، الخائف من عقاب الله ، الخاشع الأمين ، المؤثر للآخرة على الدنيا ، المستهين بالمادة ، المتغلب عليها بإيمانه وقوته الروحية ، يؤمن بأنَّ الدنيا خلقت له ، وأنه خلق للآخرة ، فإذا كان هذا الفرد تاجراً؛ فهو التاجر الصدوق الأمين ، وإذا كان فقيراً؛ فهو الرَّجل الشريف الكادح ، وإذا كان عاملاً؛ فهو العامل المجتهد الناصح ، وإذا كان غنياً؛ فهو الغني السَّخيُّ المواسي ، وإذا كان قاضياً؛ فهو القاضي العادل الفهم ، وإذا كان والياً؛ فهو الوالي المخلص الأمين ، وإذا كان سيداً رئيساً؛ فهو الرئيس المتواضع الرحيم ، وإذا كان خادماً أو أجيراً؛ فهو الرجل القويُّ الأمين ، وإذا كان أميناً للأموال العامة فهو الخازن الحفيظ العليم» .

وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الإسلاميُّ ، وتأسَّست الحكومة الإسلاميَّة في دورها[٢] .

يقول الفاضل الألماني كاتاني (Caetani) في كتابه «سنين الإسلام» :

«لقد كان هؤلاء الصحابة الكرام ممثلين صادقين لتراث رسول الله الخلقيِّ ، ودعاة الإسلام في المستقبل ، وحملة تعاليم محمد ﷺ ، التي بلَّغها إلى أهل التقوى والورع ، لقد رفع بهم اتصالهم المستمر برسول الله

---

(١) انظر محاضرة العلامة الندوي بعنوان : «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن» .
(٢) أيضاً ص/ ١٥٣ ـ ١٥٥ .

وحبُّهم الخالص له ، إلى عالمٍ من الفكر والعواطف لم يشهد محيطٌ أسمى منه ، وأرقى مدنية واجتماعاً ، والواقع أنَّ هؤلاء الصحابة كان قد حدثت فيهم تحوُّلاتٌ ذات قيمةٍ كبيرةٍ من كلِّ زاوية ، وأثبتوا فيما بعد في أصعب مناسبات الحروب أنَّ مبادىء محمد ﷺ إنما بذرت في أخصب أرض أنبتت نباتاً حسناً ، وذلك عن طريق أناسٍ ذوي كفاءاتٍ عاليةٍ جداً ، كانوا حفظة الصحيفة المقدسة وأمناءها ، كانوا محافظين على كلِّ ما تلقَّوه من رسول الله من كلامٍ أو أمرٍ ، لقد كان هؤلاء قادة الإسلام السابقين الكرام الذين أنجبوا فقهاء المجتمع الإسلاميِّ وعلماءه ومحدثيه الأولين»(١).

الطريق الوحيد إلى الوحدة والتوحيد :

والأثر العقليُّ الذي يترتَّب من عقيدة التوحيد على الإنسان ، هو أن العالم كلَّه تابعٌ لمركزٍ ونظامٍ واحدٍ ، ويرى الإنسان في أجزائه المنتشرة ترابطاً ظاهراً ، ووحدةً في القانون ، يستطيع الإنسان بفضله أن يأتي بتفسيرٍ كاملٍ للحياة وأن يقوم فكره وعمله في هذا الكون على حكمةٍ وبصيرة ، وعلى تعاون البر والتقوى ، وإسعاد الإنسانيَّة ، وتنظيم المجتمع ، وتوجيه المدنيَّة ، والجمع بين الدين والدنيا ، وتوحيد الصفوف المتنافرة ، والمعسكرات المتحاربة.

لقد كانت وحدات العلم مبعثرةً ـ كما سبق في الحديث عن يونان ـ فقد كانت في أغلب الأحيان متناقضةً ، فعلم الطبيعة يخالف الدين ، وعلم الحكمة يحارب الدين ، حتى علوم الرياضة والطب البريئة كان يخرج منها أصحاب الاختصاص فيها أحياناً بنتائج سلبيةٍ إلحاديَّةٍ ، فكان في اليونان كما قدَّمنا علماء إمَّا مشركون ، وإمَّا ملحدون ، وقد ظلَّت علومها ، ومدارسها الفكرية في الشرق قروناً عديدةً خطراً على الدين ، ومدخل التشكيك ، والنفاق ، وتزلزل العقائد في العاكفين عليها دراسةً وتدريساً ، والمؤمنين بها المجلِّين لها ، لها حكايات طويلة ليس هذا محلُّها.

---

(١) Caetani (Annali Dell Islam) Vci. llp. 429.
.W. Arnold: Preaching in Islam, Lonbon-1935.

العثور على الوحدة في الظواهر الكونية:

وكان من أكبر معطيات النبوءات في الزمن السابق، وأكبر حسنات الإسلام في الأخير، أنَّه دلَّ على الوحدة التي تربط بين وحدات العلم، فقد تيسَّر له ذلك، لأنه بدأ رحلته في مجال العلم والمعرفة بدايةً صحيحة، بدأها بالإيمان بالله، والاستعانة به، والاعتماد عليه، عملاً بقوله تعالى لرسوله: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] وصحة البداية - في غالب الأحيان - كافلةٌ بصحة النهاية، فاستطاع بفضل القرآن والإيمان أن يكتنف الوحدة التي تربط الوحدات بعضها ببعض، وهي معرفة الله تبارك وتعالى، وذلك الذي مدح الله به عباده المؤمنين فقال: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وكذلك كانت تبدو الوحدات الكونية - من الظواهر والحوادث والتغيُّرات - متناقضةً مضادةً، توقع الإنسان في حيرةٍ واضطرابٍ، وقد تؤدي إلى الكفر والإلحاد - كما كان الشأن في يونان، وكما كان في أوساط الفلسفة اليونانية ومدارسها في الشرق الإسلامي، وكما هو في الغرب اليوم - والطعن والاعتراض على الخالق، ومدبِّر الكون، فدلَّ العلم الإنساني المؤسس على الإيمان والقرآن، على الوحدة التي تجمع بين هذه الوحدات الكونية، وهي إرادة الله الغلابة، وحكمته الباهرة.

أثر عقيدة التوحيد في الحياة وفهم الكون:

وقد أشار عالمٌ غربيٌّ كبيرٌ هو «هيرالد هوفدنج» الألمانيُّ (Harold Hoffdtng) إلى أهمية العثور على هذه الوحدة ودورها الفعال في حياة الإنسان ومسيرة العلم والأخلاق.

يقول:

«إنَّ فكرة كلِّ دينٍ قائمةٌ على التوحيد، وهي تقوم على أن علة الوجود لجميع ما في الكون واحدة - وبغضِّ البصر عن المشاكل التي تحدث بهذه الفكرة بصورةٍ لازمةٍ - يخلِّف ذلك الاعتقاد أثراً نافعاً، ومهماً على الطبيعة الإنسانية، وهو أن أتباع هذا الدين يسهل لهم الاعتقاد بأن جميع الأشياء في

العالم مرتبطةٌ حسب قانونٍ واحدٍ بغضِّ النظر عن الخلافات والتفاصيل ، فيلزم لكون العلة واحدة أن يكون القانون واحداً ، قد غرست فلسفة الأزمنة المتوسطة الدينية فكرة وجود هذه الوحدة في كثرة المشاهدة في العالم في أذهان الناس ، الفكرة التي كان الإنسان غير المثقف بمعزلٍ عنها بتأثير وجود الكثرة في المظاهر الطبيعة التي كان يتيه ، ويغوص فيها ، فيفلت من يده حبل الوحدة الذي يربط هذه الكثرة»(١).

الدعوة إلى التفكُّر في الأنفس والآفاق وماضي الأمم والمجتمعات ، وفائدته:

وقد نوَّع القرآن وسائل العلم ، ومصادر الدراسة والتأمل ، ودعا إلى التفكُّر في الأنفس والآفاق ، وفي ماضي الأمم والمجتمعات (الذي يسمِّيه القرآن بأيام الله ، وسننه في خلقه ، ويسمِّيه العلم الحديث بالتاريخ) والتوصل بكل ذلك إلى نتائج ذات قيمةٍ عميقة الأثر ، بعيدة المدى في المصير الإنسانيِّ.

يقول العلامة الدكتور محمد إقبال ، وهو يذكر دور الإسلام في توجيه العقل البشريِّ ، ووسائل العلم ومصادره إلى ميدان أوسع وأكثر إنتاجاً ، يقول في محاضراته المشهورة: «تجديد الفكر الديني في الإسلام» (Reconstruction of Religious-thought in Islam).

عدَّ القرآن الكريم مصدرين آخرين للعلم ، أحدهما: عالم الطبيعة ، وآخرهما: عالم التاريخ ، وبالاستفادة منهما ظهرت الروح الطَّيِّبة للعالم الإسلامي. إنَّ الشمس والقمر ، وامتداد الظلِّ ، واختلاف الليل والنَّهار ، واختلاف الألسنة والألوان ، وتداول الأيام بين الناس ، واختلاف السعادة والشقاء ، وبالجملة عالم الطبيعة كلّه ، الذي نعيش فيه ونلمسه بالحواسِّ ، كلُّها من نظر القرآن آيات للحقيقة المطلقة ، وذلك من واجب كلِّ مسلم أن يتفكَّر ويتدبَّر في آيات الله فضلاً عن أن يصدَّ عنها صمّاً وبكماً؛ لأنَّ كلَّ مَنْ يغضُّ بصره عن هذه الآيات في الحياة كالعميان يحشر أعمى.

---

(١) History of Modern Philosophy, p.5.

فلما أدرك المسلمون تدريجياً هذه الحقيقة ، وهي أن الكون متحركٌ ، وسائرٌ ، وهو متناهٍ ، وقابلٌ للتجديد ، والإضافة؛ انصرفوا في النهاية إلى رفض الفلسفة اليونانية التي كانوا قد درسوها بشغفٍ ونهامةٍ في مستهل حياتهم الذهنية ، وقد فاتهم أول الأمر أنَّ روح القرآن الكريم تتنافى مع الفلسفة اليونانية ، فدرسوا القرآن الكريم في ضوء الاعتقاد بالفلسفة اليونانية ، وبما أنَّ القرآن الكريم يؤكد على حقائق ثابتةٍ وأصيلةٍ ، وتقوم الحكمة اليونانيـة على مجرَّد النظريات لا الحقائق كان لا بدَّ من أن تخفق هذه الجهـود يوماً من الأيام ، وكذلك حدث ، وإلـى مثل تلك الجهود يرجع ظهور روح الحقيقة للحضارة الإسلاميَّة ، والثقافة الإسلاميَّة ، وإذا ألقينا نظرةً عميقةً على أهمِّ جوانب الحضارة الحديثة؛ وجدنا أنَّها هي الأخرى تدين إلى حدٍّ كبيرٍ لتلك الروح التي كانت مصدر الحضارة الإسلاميَّة»(١) .

ويقول في موضعٍ آخر :

«عبَّر القرآن الكريم عن التاريخ بأيام الله ، وجعله مصدراً من مصادر العلم ، ومن تعاليمه الأخرى ، إنَّ الأمم والأقوام تحاسب بطريقين : انفرادياً ، واجتماعياً ، وإنها تعاقب على سوء أعمالها في هذه الدنيا أيضاً ، واستشهد القرآن على ذلك بكثرةٍ من التاريخ ، كما أنَّ القرآن حثَّ قرّاءه على أن يفكِّروا في أحوال الإنسان الحالية والماضية .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم : ٥].

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٨١ ـ ١٨٣].

---

(١) Reconstruction of religius thought in Islam p, 179.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [يونس: ٤٩].

إنَّ الآية الأخيرة تحمل طابع التعميم التاريخيِّ كأنها توضع بطريق حكيم للغاية أن نفكر في الأمم الإنسانيَّة كالأجسام النامية بمنهجٍ علميٍّ»[١].

الحركة العلمية العالمية الفريدة التي أنشأتها تعاليم الإسلام:

ومن هذا التنويه بشأن العلم والحثِّ عليه انبثق ذلك النشاط ، وبكلمةٍ أصحّ ، الحماس العلميُّ والتفاني في سبيل العلم في تاريخ الإسلام ، وانطلقت هذه الحركة العلمية العالمية الخالدة التي مساحتها الزمنية من أكبر المساحات الزمنية ، والمساحة المكانية من أكبر المساحات المكانية ، والمساحة المعنوية أوسع من كلتا المساحتين.

وتكفي هنا شهادةٌ لباحثٍ غربيٍّ كبيرٍ ومؤرخٍ فرنسيٍّ شهيرٍ وهو الدكتور «غوستاف لوبون» يقول في كتابه المشهور «حضارة العرب»:

«والإنسان يقضي العجب من الهمَّة التي أقدم بها العرب على البحث ، وإذا كانت هنالك أممٌ تساوت هي والعرب في ذلك ، فإنَّك لا تجد أمَّةً فاقت العرب على ما يحتمل ، والعرب كانوا إذا ما استولوا على مدينةٍ صرفوا همهَّم إلى إنشاء مسجدٍ وإقامة مدرسةٍ فيها ، وإذا ما كانت تلك المدينة كبيرة ، أسسَّوا فيها مدارس كثيرة ، ومنها المدارس العشرون التي روى «بنيامين التطيلي» المتوفى سنة ١١٧٣ م أنه شاهدها في الإسكندرية ، وهذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد ، والقاهرة ، وطليطلة ، وقرطبة... الخ ، على جامعاتٍ مشتملةٍ على مختبراتٍ ومراصد ، ومكتباتٍ غنيَّةٍ ،

---

(١) ص ٢١٢ ـ ٢١٣ ، والقطع من كتاب إقبال ، نقلها إلى العربية الأستاذ واضح رشيد الندوي.

وكلٍّ ما يساعد على البحث العلميّ ، وكان للعرب في أسبانية وحدها سبعون مكتبةً عامَّةً ، وكان في مكتبة الخليفة الحكم الثاني بقرطبة ستمئة ألف كتاب ، ومنها أربعة وأربعون مجلداً من الفهارس ، كما روى مؤرخو العرب ، وقد قيل بسبب ذلك أنَّ «شارل الحكيم» لم يستطع بعد أربعمئة سنة أن يجمع في مكتبة فرنسا الملكية أكثر من تسعمئة (٩٠٠) مجلد يكاد ثلثها يكون خاصّاً بعلم اللاهوت[١].

أكبر انحرافٍ وقع في خط التقدُّم العلميِّ في أوربا :

إنَّ أكبر انحرافٍ وقع في خطِّ التقدُّم العلميِّ الذي سار عليه الغرب منذ استيقظ من سباته العميق ، وتحرَّر من هيمنة الكنيسة ، ومحاكم التفتيش في أوربا في القرون الوسطى ، واستأنف رحلته في دنيا العلم والاكتشاف ، وفي طريق تسخير الطاقات الطبيعية والكون لمآربه الفردية والجماعية : أنَّه واصل هذا العمل الذي أحدث انقلاباً هائلاً في الحضارة ككائنٍ مستقلٍ حرٍّ يحقُّ له أن يحكم هذا الكون ، ويسخره لأغراضه الشخصية ، أو الوطنية ، أو القومية ، ويتصرَّف فيه كما يشاء ، وهو غير مسؤول أمام ربه ، يعمل ما يشاء بالأصالة ، لا بالخلافة والرسالة ، وهذا هو الخطُّ الذي جرَّ على العلم وعلى الأمم التي لم تبلغ هذا الشأو البعيد من العلم والمدنية ، أو وقعت تحت رحمته وحكمه ، شقاءً طويلاً ، وعذاباً أليماً.

تعليم الأسماء لآدم كخليفةٍ ومعناه العميق البعيد :

وبالعكس ، القرآن يصف الإنسان بأنَّه خليفة الله في أرضه ، ينفذ أوامره ، ويسير في ضوء تعاليمه ورسالته ، ومستخلفٌ مفوضٌ ، متقيِّدٌ بأحكام ربِّه ، مسؤول أمامه ، مجزيٌّ على عمله ، محاسبٌ على سوء تصرفه وأنانيته ، معاقبٌ على تفريطه وإفراطه ، وعلى انخداعه بالقوَّة المحدودة ،

(١) «حضارة العرب» ص/ ٤٣٤ ، تأليف الدكتور غوستاف لوبون ، ترجمة الأستاذ عادل زعيتر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، بمصر.

والحكم الزائل ، والحياة الغابرة ، والدنيا الفانية ، ومعاقبٌ على استعباده لبني جنسه ، واستبداده فيهم ، فقد ذكر القرآن الحوار العميق المعنى ، بعيد المدى الذي جرى بينه تبارك وتعالى وبين الملائكة عند خلق آدم: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] وقد جاء فيه: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١] فدلَّ ذلك على أنَّ كلَّ ما اتصف به النسل الإنسانيُّ من صلاحيته للعلم الذي يحتاج إليه في هذا الكون ، ويستخدمه لصالحه ، وكلّ ما يربطه من صلة بهذا العالم المادي ، وكلّ ما وهب من طاقةٍ وإمكانيةٍ للانتفاع بهذا الكون والطبيعة والحياة ، إنما مصدره هي «الخلافة الإلهية» وإنَّ كل ذلك بالنيابة ، لا بالأصالة ، وكل ذلك خاضع لمنصب الاستخلاف الذي خُصَّ به دون الملائكة ، وفي القرآن إشارات غير ذلك ، فقال:

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: ٧] وقال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤].

ويدلُّ القرآن على أنَّ خلافة الله تعالى مسؤوليةٌ عظيمةٌ تطلب العدل ، والرحمة ، والدقة ، والمحاسبة الدقيقة ، يقول الله تعالى مخاطباً لنبيه داود عليه السلام ، وكان يحكم مملكةً واسعةً: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

أعظم غفلةٍ وجهالةٍ ظهرت على مسرح التاريخ:

وشتّان بين الخلافة والأصالة ، فالخليفة دائماً مرتبط بمن استخلفه ، خاضعٌ خاشعٌ أمامه ، أمينٌ في خلقه ، رفيقٌ بمن نصب له ، شاكرٌ لفضل مستخلفه ، رادٌّ لكلِّ فضلٍ ونعمةٍ إليه ، لا يأخذه الصَّلف والغرور ، ولا تستخفُّه القوة والسُّلطان ، وقد تناسى الغرب هذه الحقيقة ، فكانت أكبر عثرةٍ ليس في تاريخ العلم والاكتشاف ، بل في تاريخ البشرية ، ولم يكن ذلك ذهول فردٍ أو أفرادٍ معدودين ، أو مدرسةٍ فكريّةٍ ، أو فلسفةٍ ،

بل كان ذهول العلم والقيادات العالمية؛ التي أصبحت تتحكَّم في مصائر الأمم، واتجاهات العالم، فكان أشقى ذهول، وأعظم غفلةٍ أو جهالةٍ ظهرت على مسرح التاريخ، وكانت غلطة أنتجت عصراً وأجيالاً من الغلطات، وقد قال بعض الحكماء: «ما رأيت ولوداً مثل الغلطة الواحدة» ولا يزال العالم يرزح تحت هذا الانحراف عن الخطِّ المستقيم الذي رسمه الله، وبيَّنه القرآن عن موقف الإنسان العاقل العليم الذي استخلفه الله على هذا الكوكب، وخوَّله العلم والطاقة، وسلَّحه بما يحتاج إليه في القيام بعبء هذه المسؤولية العظيمة الدقيقة.

خصائص الحركة العلمية الإسلامية الخمس:

ومن خصائص الحركة العلمية التي انبثقت عن تعاليم الإسلام، وقامت على أكتاف علماء المسلمين خمس خصائص، نشير إليها على سبيل الاختيار والاختصار:

١ ـ العالمية والإنسانية:

عالمية هذه الحركة وإنسانيتها، فالعلم في الإسلام حقٌّ مشاعٌ، وثروةٌ مشتركةٌ لجميع الأمم والشعوب، والعناصر والأجناس، والأسر والبيوتات، والبلاد والأوطان، ليس فيه احتكارٌ مثل احتكار «بني لاوي» من اليهود أو «البراهمة» من الهنود، ولا يتميَّز فيه شعبٌ عن شعبٍ، ولا نسلٌ عن نسلٍ، وليس الاعتماد فيه على العرق والدم، بل الاعتماد فيه على الحرص والشوق، وحسن التلقي، وزيادة التقدير، والتفوُّق في الجهاد والاجتهاد، وقد روى الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن النبي ﷺ أنه قال: «لو كان العلم بالثريا لتناوله أناسٌ من أبناء فارس».

وكفى شهادة تاريخيَّةً لذلك، ما قاله نابغة العرب عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨ هـ) في مقدمته المشهورة:

«من الغريب الواقع أنَّ حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم،

لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية ، إلا في القليل النادر ، مع أنَّ الملة عربية ، وصاحب شريعتها عربيٌّ»[١] .

٢ ـ الشعبيــة :

شعبية هذه الحركة ، فقد قامت على مجهوداتٍ شعبيةٍ ، وعلى تقدير المسلمين للعلم ، والشعور بالحاجة إليه ، وما ورد في الكتاب والسنة من فضله ، وما وعد من الأجر والثواب عليه ، والذمِّ للجهل ، والنعي عليه ، وتنافس فيه المتنافسون من المسلمين في كلِّ عصرٍ وجيل ، وقام أكثر المدارس ، وحلقاتٌ للتعليم في العالم الإسلامي الواسع على تقدير المسلمين وتمويلهم ، عدا مدارس معدودة (كالنظامية في بغداد ، ونيشابور) وما احتضنته الحكومات الإسلامية في عواصمها ومدنها الرئيسية من مدارس وجامعات .

وقد انتشر العلم انتشاراً واسعاً بفضل العلماء المتطوعين والأساتذة الزاهدين المتقشفين ، الذين زهدوا في مناصب الحكومة ، ووظائفها ، وتقدير الأغنياء والأمراء ، وقنعوا بالكفاف ، وما يقيم الصلب ويسدُّ الرَّمق ، وقد روى التاريخ الأمين حكاياتٍ من هذا القبيل ، ليس من السهل تصديقها لولا الرواة الثقات ، والاستفاضة ، والتواتر ، والعلم بقوة الإيمان ، والاحتساب ، وروح التطوع ، والإيثار المتغلغلة في أحشاء العلماء الراسخين[٢] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، المطبعة البهية ، ص/ ٤٠١ ، وراجع للتفصيل والأمثلة الكثيرة على هذه الدعوى كتاب صاحب المقال : «الإسلام وأثره في الحضارة ، وفضله على الإنسانية» .

(٢) اقرأ في ذلك كتب تراجم العلماء ، وتاريخ الثقافة الإسلامية في مختلف الأمصار ، وخاصة كتاب «صفحات من صبر العلماء» لفضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (رحمه الله) (بيروت ، دار البشائر الإسلامية بيروت ، وكتاب «نزهة الخواطر» (١ ـ ٨) بالعربية للعلامة السيد عبد الحي الحسني (طبع دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ـ الهند) .

ويكفي لذلك مثالاً ما وقع بين إمام دار الهجرة مالك بن أنس والخليفة العباسي هارون الرشيد ـ وهو خليفة المسلمين ، وأكبر حاكمٍ في عصره ـ فقد طلب الرشيد ليقرأ عليه الموطأ ، فقال مالك : «إن العلم يؤتى ولا يأتي» وقام الرشيد يمشي مع مالك إلى منزله يسمع منه الموطأ ، فأجلسه معه على المنصة ، وأراد أن يقرأ على مالك ، فقال : ليخرج الناس عني حتى أقرأه أنا عليك ، فقال : «إنَّ العلم إذا منع من العامَّة لأجل الخاصَّة لم ينفع الله به الخاصة» .

وقال مالك لهارون : «يا أمير المؤمنين! أدركت أهل العلم ببلدنا ، وإنهم ليحبون التواضع» فنزل هارون عن المنصَّة ، وجلس بين يديه ، وسمعه[(١)] .

وقد كانت الحركة العلمية في المسلمين حركةً شعبيةً عمَّت جميع الطبقات والمستويات ، وأصبحت الدراسة هوايةً للجميع ، يتظرَّف بها حتى أهل الحرف والمهن ، يقول A. J Hammerton في كتابه «التاريخ العام للعالم» (Uaiversal History of the World) :

«لقد أصبح كلُّ مسلم ـ من الخليفة إلى الصناع ـ ولوعاً نهماً بالعلم والسياحة ، وكان ذلك أجلَّ خدمةٍ قام بها الإسلام نحو الحضارة العالمية ، وقد تقاطر روَّاد العلم من كل صقع على مركزٍ ثقافيٍّ كبغداد ، وكذلك كان الشأن مع مراكز أخرى للعلم والأدب ، وكان ذلك يشبه تهافت فضلاء الغرب على الجامعات ، ولكن الأول كان أكثر إثارةً للحيرة ، والإعجاب .

غصَّت المساجد التي كانت جامعاتٍ إسلاميةً (ولا تزال كذلك) بحشودٍ من طلبة العلم؛ الذين كانوا يقصدون هذه المساجد لتلقي العلوم الدينية ، والفلسفة والطب والرياضيات ، من العلماء الكبار . كان هؤلاء الأساتذة ينتمون إلى الأقطار التي تتكلَّم العربية ، وكانوا يلقون دروسهم محتسبين متطوعين لا تهمُّهم الشهادات ، ولا تستهويهم الرواتب والأجور ، ليس

---

(١) شذرات الذهب ١/ ٢٩١ .

عليهم إشرافٌ لأحدٍ ، ولا رئاسةٌ ومراقبةٌ ، فإذا كانوا بارعين متفوقين في موادهم الدراسية . انهالت عليهم جموعٌ من التلاميذ ، وكانوا يقدرون ويعظمون بمقياس براعتهم واختصاصهم في موضوعاتهم ، وينالون ما يفوتهم متطوّعين متقلّلين(١) .

وقد كان الإيمان والاحتساب ، وما روي واستفاض في فضل التعليم من الثواب الجزيل ، والقرب عند الله ، والتطوع في سبيله ، وإيثار حياة الزهد ، والتقشُّف لأجله على حياة الرَّخاء ، والثراء ، والرواتب الضخمة؛ التي يتقاضاها المعلمون المحترفون ، والمرتزقة من الماهرين في الفنون من الحكومات ، هو الرائد الحافز لهؤلاء العلماء المحتسبين ، حتى رويت عنهم حكاياتٌ يصعب تصديقها لولا رواية الثقات والتواتر ، وما عرف وتحقّق من معرفة نفسية هؤلاء العلماء الأفذاذ ، ورئاستهم .

نكتفي في ذلك بحكايةٍ لعالمٍ عاش في أواسط القرن الثالث عشر الهجري ، أوائل القرن التاسع عشر المسيحي ، وهو الشيخ عبد الرحيم الرامفوري :

كان الشيخ عبد الرحيم (م ١٢٤٣ هـ) يدرس في رامبور ، وعرض عليه والي منطقة روهيل كهند ، الإنجليزي المستر هاكنس منصب التدريس في كلية بريلي ، براتبٍ شهريٍّ يبلغ مئتين وخمسين روبية (تقدر قيمته الآن بأكثر من ألفي روبية) ووعده بأن راتبه سيزاد فيه ، ويرفع مستواه ، فاعتذر قائلاً بأن إمارته تدفع إليه عشر روبيات ، وستوقف هذه المنحة ، فقال له هاكنس : إنَّه عرض عليه أضعاف هذا القدر ، وما عشر روبيات أمام مئتين وخمسين روبية ، فقال : إن في بيتي شجرة سدر حلوةٍ ، وهي محببةٌ إليَّ كثيراً ، فكيف السبيل إليها في بريلي؟ ولم يتطرَّق ذهن هذا الإنكليزي إلى حقيقة الأمر؛ الذي كان يدور بخلد الشيخ ، فقال : إني سأرتب لإيصال ثمرة هذه الشجرة إليك في بريلي ، فقال : إنَّ لي تلاميذ في رامبور ، فكيف أتركهم ، وسأُحْرَم فرصة خدمتهم ، وحاول الإنكليزي إقناعه ، فقال : إنيِّ

(١) Universal History of The World, A. J. Hammerton, London, Vol.1v, p.2533.

سأقدم إليهم المنح الدراسية وسيواصلون دراستهم في بريلي ، ولم يبق في جعبة الشيخ إلا سهمه الأخير ، فأطلقه ، وقال: صحيحٌ ما تقول ، ولكن ما يكون جوابي يوم القيامة على الارتزاق بالتدريس[١] .

٣ ـ الحركية :

ومما امتازت به الحركة العلمية في تاريخ الإسلام وفي عالم الإسلام ، الحركية التي تجلَّت في تحمُّل المشقات ، وقطع المسافات للحصول على العلم ، والتوسُّع ، والاختصاص في الدراسة ، وفي سبيل رواية الحديث الصحيح ، والإسناد العالي ، والتحقيق العلميِّ ، والفحص اللغويِّ ، ثم في سبيل تبليغ الأحكام الشرعية ، ونشر العلم الدينيِّ في البلدان المختلفة ، والمسافات البعيدة ، وكتب التاريخ والتراجم مشحونةٌ بالأمثلة الرائعة ، والنماذج المحيرة ، خصوصاً ما ألف في سير المحدِّثين ، وفي تاريخ تدوين الحديث ، وجمعه ، وحفظه[٢] ، ويكفي في شهادة ما ذكره العلامة ابن خلدون (م ٨٠٨ هـ) من فوائد الرحلة في طلب العلم في مقدمته الشهيرة ، يقول رحمه الله :

«إنَّ الرحلة في طلب العلوم ، ولقاء المشيخة مزيد كمالٍ في التعليم ، والسبب في ذلك : أنَّ البشر يأخذون معارفهم ، وأخلاقهم ، وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارةً علماً ، وتعليماً ، وإلقاءً ، وتارةً محاكاةً وتلقيناً بالمباشرة ، إلا أنَّ حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشدُّ استحكاماً وأقوى رسوخاً ، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها ، والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم ، حتى لقد يظن

---

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للعلامة الندوي نقلاً من «نزهة الخواطر» ص/ ٣٢٤ .

(٢) راجع «تذكرة الحفاظ» للعلامة الذهبي ، و«السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» للدكتور مصطفى السباعي ، و«رجال الفكر والدعوة» للعلامة الندوي الجزء الأول ، عنوان «حركة الجمع والتدوين في القرن الأول والثاني» و«المحدثون وعلو همتهم» ص/ ٩٩ ـ ١٠٢ .

كثيرٌ منهم أنَّها جزء من العلم ، ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين ، فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها ، فيجرد العلم عنها ويعلم أنّها أنحاء تعليمٍ وطرق توصيلٍ ، وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات ويصحِّح معارفه ويميزِّها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعدُّدهم وتنوُّعهم ، وهذا لمن يسَّر الله عليه طرق العلم والهداية ، فالرحلة لا بدَّ منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال ، والله يهدي من يشاء إلى صراط المستقيم(١) .

٤ ـ الفتوة والعمل بالعزيمة :

وقد امتاز علماء الإسلام بعلو الهمَّة ، والشهامة والفتوة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكلمة حق عند سلطانٍ جائرٍ ، والصُّمود في وجه الانحرافات والمؤامرات المحبوكة في دائرة الحكومات أو المجتمعات الإسلامية ، والكفاح والنضال ، وقيادة حركة الجهاد ، وتحرير البلاد ، ومطاردة القوى الأجنبية ، والحكومات المعادية للإسلام إذا احتيج إلى ذلك ، وإنَّ الدارس لتاريخ الجهاد والحركات الإصلاحية التجديدية من العصر الإسلامي الأول إلى عصرنا هذا ، لا يمرُّ بصفحة من صفحاتها ، وفصلٍ من فصول تاريخها الطويل الذي يكاد يكون متصلاً ، إلا ويرى على رأسها ، وفي مركز القيادة منها عالماً من علماء الدين ، أو مربياً من الشيوخ الربانيين ، هو منبع هذه الفكرة ومصدر هذه الحركة ، منها تبتدىء ، وإليها تنتهي(٢) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، طبع مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ص/ ٧١٢ .

(٢) والموضوع واسعٌ مترامي الأطراف ينتظر مؤرخاً واسع النظر ، صبوراً في الدراسة والتحقيق وفي كتاب العلامة الندوي «ربانيَّة لا رهبانيَّة» بعض أضواء على بعض شخصياتٍ قياديَّةٍ في عديد من الأقطار الإسلامية العربية ، راجع «بطولةٌ وكفاحٌ ، لا بطالةٌ واستسلامٌ» ص/ ١١٣ ـ ١٣١ ، الطبعة الثامنة» طبع مؤسسة الرسالة .

وهي الظاهرة المشتركة بين الأقطار الإسلامية والعربية التي تحرَّرت من نير الاحتلال الأجنبيِّ الذي يسمَّى بالاستعمار من الرباط ومراكش في الشمال الغربيِّ إلى أندونيسيا، وماليزيا في الجنوب الشرقيِّ، وبين الجزائر، والتي ينعقد فيها هذا الملتقى الكبير، وشبه القارة الهندية التي ينتمي إليها كاتبُ هذه المقالة مماثلةٌ برأسه في هذا الجانب، فقد قاد حركة التحرير في كلا القطرين علماء الدِّين الراسخون في العلم، المعترف بمكانتهم العلمية والدينية.

٥ ـ التركيز على العلم النافع:

التركيز على العلم النافع، الحامل للهداية والكافل للنجاة، والمفيد في الآخرة، وهو العلم الذي لا سعادة للإنسان، ولا نجاة له بغيره، ويعرف به خالقه، وفاطر هذا الكون، ومدبِّر هذ العالم، وصفاته العالية، والصلة التي بينه وبين عبده، وما يرضيه تبارك وتعالى، وما يسخطه، وما يشقي الإنسان في الدار الآخرة وما يسعده. يقول الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧] ويقول: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦] ويقول: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥].

وقد جاء في الحديث: «اللهم إنِّي أعوذ بك من علمٍ لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن دعوةٍ لا يستجاب لها»(١).

حين لا تنفع العلوم والآداب، وينفع علم يستطيع به الإنسان أن ينال النجاة والسلامة:

ونختم هذا المقال بقصَّةٍ خفيفةٍ مسلِّية تصوِّر الفرق بين العلم النافع الذي تتحقق به السلامة، وتحصل به النَّجاة، والعلوم التي لا تتوقف على

(١) رواه مسلم.

معرفتها السلامة والنجاة ـ على ما فيها من منافع ومصالح ـ وقديماً استعان العلماء والأدباء بالقصص ، ولعلّها ـ على ما فيها من حكمةٍ وموعظةٍ ـ تخفف شيئاً من ثقل هذا البحث العلميّ الطويل ، وتزيل السآمة :

«يحكى أن فريقاً من تلاميذ المدارس ركبوا سفينةً للنُّزهة في البحر أو الوصول إلى البر ، وكان في النفس نشاط ، وفي الوقت سعةٌ ، وكان الملاّح المجذف الأميُّ خير موضوع للدعابة والتنادر ، وخير وسيلةٍ للتلهّي وترويح النفس ، فخاطبه تلميذٌ ذكيٌّ جريءٌ ، وقال : يا عم ! ماذا درست من العلوم ؟ قال : ولا شيء يا عزيزي ! قال : أما درست العلوم الطبيعية يا عمي ؟! قال : كلا ولا سمعت بها ! وتكلّم أحد زملائه ، وقال : ولكنك لا بدَّ درست علم الإقليدس ، والجبر ، والمقابلة ! قال : وهذا أغرب ، وتصدِّقون أني أول مرّة أسمع هذه الأسماء الهائلة الغريبة ، وتكلّم ثالثٌ «شاطرٌ» فقال : ولكنّي متأكّدٌ بأنك درست الجغرافية والتاريخ ؟ فقال : وهل هما اسمان لبلدين ، أو علمان لشخصين ؟ وهنا لم يملك الشباب نفوسهم المرحة ، وعلا صوتهم بالقهقهة ، وقالوا : ما سنُّك يا عم ؟! قال : أنا في الأربعين من سني ! قالوا : لقد ضيّعت نصف عمرك يا عمنا ! وسكت الملاّح الأميُّ على غصصٍ ومضض ، وبقي ينتظر دوره ، والزمان دوارٌ .

وهاج البحر وماج ، وارتفعت الأمواج ، وبدأت السفينة تضطرب والأمواج فاغرة أفواهها لتبتلعها ، واضطرب الشباب في السفينة ـ وكانت أول تجربتهم في البحر ـ وأشرفت السفينة على الغرق ، وجاء دور الملاح الأميِّ ، فقال في هدوء ووقار : ما هي العلوم التي درستموها يا شباب ؟! وبدأ الشباب يتلون قائمةً طويلةً للعلوم ، والآداب التي درسوها في الكلية ، ويتوسّعون فيها في الجامعة من غير أن يفطنوا لغرض الملاّح الجاهل الحكيم ، ولما انتهوا من عدِّ العلوم المرعبة أسماؤها ، قال في وقارٍ تمزجه نشوة الانتصار : لقد درستم يا أبنائي هذه العلوم الكثيرة ، فهل درستم علم السباحة ؟ وهل تعرفون إذا نقلبت هذه السفينة ـ لا قدر الله ـ تسبحون وتصلون إلى الساحل بسلام ؟ قالوا : لا والله يا عم ! هو العلم الوحيد الذي

فاتتنا دراسته ، والإلمام به ، هنالك ضحك الملاَّح وقال: إذا كنت قد ضيعتُ نصف عمري؛ فقد أتلفتم عمركم كلةً ، لأنَّ هذه العلوم لا تغني عنكم في هذا الطوفان ، إنما كان ينجدكم العلم الوحيد ، هو علم السباحة الذي تجهلونه.

* * *

التوجيه الإسلاميُّ للعلوم مفهومه وأهدافه وأسسه العامَّة

الحمد لله ، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد ، فإذا كانت في التاريخ البشريِّ شخصيَّةٌ جديرةٌ بأن يقال عنها بتأكُّدٍ وثقةٍ أنَّها غيَّرت مجرى التاريخ ، ومنحت العالم حياة جديدةً ، أو صاغته صياغةً جديدةً ، وفتحت أبواب العلم ، ودفعت الإنسانية إلى كسب المعرفة ، وحملتها على الاهتمام بتحصيل العلم والتعمق في الدراسة بدلاً من أن تتسكَّع في ظلمات الجهل ، وتقع في الأوهام والأباطيل والخرافات ، وحرضتها على تنمية العقل ، وتوسيع آفاق المعرفة ، وفتح منافذ الذهن ، بدلاً من أن تكون خاضعةً للتقاليد البالية العتيقة ، وعوَّدتها على استخدام الذَّكاء والتدبُّر في الأمور ، بدلاً من التقليد الأعمى للآباء والأجداد.

إذا كانت في تاريخ العالم شخصيةٌ بهذه الصفة ، فهي شخصية نبيِّنا محمَّد ﷺ الوحيدة التي نراها على مفترق طريقين للتاريخ ، ينفصل طريق يلمع بنور الأدلَّة والبراهن ، عن طريقٍ تغشاه سحبٌ كثيفةٌ من التقليد والجمود.

جاء نبينا محمَّد ﷺ بتعاليم تقوم بتنوير عقول الناس وصقل صلاحياتهم وكفاءتهم ، وجلاء أذهانهم وقوة إدراكهم ، ويدلُّ على ذلك الوحي الأول الذي أنزله الله تعالى على رسوله الكريم ، وذكر فيه أنَّه أنعم على الإنسانية بإعطاء ثروة العلم ، واعتبر فيه القلم الذي يقود هذه الرحلة العلمية التاريخية ، ويقوم بحركةٍ عالميَّةٍ للتأليف ، والتدريس ، وينقل العلم من فردٍ إلى فردٍ ، ومن أمَّةٍ إلى أمَّةٍ ، ومن عهدٍ إلى عهدٍ ، ومن جيلٍ إلى جيلٍ وسيلة له ، ويفتخر بأنَّه نشر العلم ، وأشاعه حسب حاجات الإنسان ، وعمرت المدارس والجامعات بحركته ، ونشأت المعاهد والمكتبات.

ما كانت التنبُّؤات والتكهُّنات البشريَّة مهما تعمَّقت في التفكير تستطيع أن

تتصوَّر بأن الوحي الأول يشيد بالقلم ، لأنَّ هذا الوحي كان ينزل على إنسانٍ أمِّيٍّ ، وفي منطقةٍ متخلِّفة ، وفي قوم فشا فيهم الجهل ، وعمَّت فيهم الأمِّيَّة ، وكان القلم عندهم شيئاً نادراً مستطرفاً ، ولذلك لقب العرب بالأمِّيِّين .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] .

بدايةٌ لا تُتوقَّع :

نزل هذا الوحي على رجلٍ لقِّب بأمِّيٍّ ، وذلك في غار حراء ، فكان المتوقَّع أنه يبدأ بالإيمان بالله ، والعبادة له ، وينهى عن عبادة الأصنام ، ويستنكر العادات الجاهلية ، والتقاليد الوثنية ، رغم أنَّ هذه الأشياء كلَّها كانت ذات أهميَّةٍ قصوى في هذا الدين ، وقد ذكرت في مواضع كثيرةٍ مختلفةٍ بإيضاحٍ وتفصيلٍ ، لكن هذا الوحي الأول بدأ بكلمة : ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ .

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ [العلق : ١ ـ ٤] .

وهكذا حدثت تلك الحادثة التاريخية التي منحت للمفكِّرين والمؤرخين جوانب التفكير الجديدة ، وفتحت لهم آفاقاً واسعةً حديثةً ، وتشير هذه الحادثة إلى بدء عهدٍ جديدٍ في تاريخ الإنسانية والدِّيانات ، بيد نبيٍّ أمِّيٍّ ، وتدل على أن هذا العهد سيكون عهداً راقياً ذهبياً ، ينتشر فيه العلم ، وتعم فيه القراءة ، وتتبدَّد فيه سحب الجهل ، وتكمل فيه الإنسانية ، ويكوِّنها العلم والدين تكويناً جديداً .

يلفت القرآن نظر القارئ إلى الأشياء التي يجب أن تدرس للحصول على العلم والمعرفة ، ويسترعي الانتباه إلى الأنفس والأرواح والآفاق وأحوال الأمم السابقة التي عبر عنها القرآن بأيام الله ، وسنة الله ، ونحن نسميه بالتاريخ ، وذلك لكي يفكر الإنسان فيه ويستنتج منه نتائج نافعةً ، ويصل إلى نتائج مفيدةٍ بعيدة المدى ، وتؤثر في مستقبله تأثيراً عميقاً .

يقول الدكتور محمد إقبال ـ رحمه الله ـ في خطبته الشهيرة[١] وهو يذكر ما قام به الإسلام من دورٍ فعالٍ في تنمية العقل ، وتوسيع المدارك ، وتوفير الوسائل والمصادر للعلم ، فيقول :

«لكنَّ مشاهدات الباطن وسيلةٌ لا غير للعلم الإنساني ، ويبين كتاب الله تعالى مصدرين له ، أحدهما عالم الطبيعة ، وآخرهما عالم التاريخ ، ظهرت روحٌ خيِّرةٌ للعالم الإسلامي في الاستفادة منهما» .

إنَّ الشمس والقمر ، وامتداد السنين والأعوام ، واختلاف الليل والنهار ، وفوارق اللون واللغة ، والفوز في حياة الأقوام والفشل فيها ، وكلّ ما ندركه ونعرفه بالحواس ، كلُّ ذلك آياتٌ للحقيقة المطلقة في تصور القرآن الكريم ، ولذلك يجب على كلِّ مسلمٍ أن يفكر فيها ويتدبّر ، بدلاً من أن يعرض عنها ، شأن الأصمِّ ، والأبكم ، والأعمى ، لأنَّ الإنسان إذا أعمش عينيه ، وحوّل نظره عن هذه الأشياء ، وأعرض عنها ، يبقى على حاله من العمى في مراحل حياته الأخرى .

إنَّ المسلمين عندما وصلوا بدراسة القرآن الجادَّة إلى حقيقة أن الكون يتحرَّك ، ويدور ، ويتصاعد ، ويستمرُّ في حراكه ودورانه ، بالإضافة إلى ما علَّمه الله من دعوةٍ إلى لفت النظر إلى الحقائق والمحسوسات الثابتة الصلبة ، انصرفوا عن الفلسفة اليونانية وأنكروها ، وقد كانوا قبل ذلك مفتونين بها ، وكانوا يدرسونها بشغفٍ ونهامةٍ .

إنهم لم يشعروا في بداية أمرهم بأنَّ كتاب الله وآياته تتعارض مع روح الفلسفة اليونانية ، ولذلك درسوا القرآن أيضاً في ضوء الفكر اليوناني والفلسفة اليونانية ؛ ثقةً واعتماداً على حكمة اليونان .

لكن القرآن الكريم يؤكد على الحقائق المحسوسة الثابتة المحكمة ، وحكمة اليونان تدور حول الأفكار ، والنظريات ، والمفاهيم ، بدلاً من الحقائق والمحسوسات ، فكان من الطبيعي أن تفشل هذه المحاولات في

---

(١) Reconstruction of Religius Thought in Islam.

يوم من الأيام ، وهكذا حدث ، فتغلَّبت الروح الأصيلة للحضارة الإسلامية ، والثقافة الإسلامية ، حتى بعض جوانب الحضارة الغربية المهمة أيضاً مدينة للحضارة الإسلامية ، واستطرد يقول :

أطلق القرآن الكريم على التاريخ اسم أيام الله ، واعتبر التاريخ صدراً مهمّاً للعلم والمعرفة ، وذكر أنَّ محاسبة الأقوام والأمم تجري على المستوى الفرديِّ والجماعيِّ كليهما ، وإنها تعاقب في هذه الدنيا أيضاً على أعمالها السيئة ، وهذا هو الذي أثبته القرآن بالحوادث التاريخية في مواضع كثيرةٍ .

وبالإضافة إلى ذلك دعا القارىء إلى أن يفكِّر في أحوال الأمم الماضية ، والأحوال الراهنة .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم : ٥] .

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨١ ـ ١٨٢] .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧] .

﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٤] .

الربط بين الوحدات العلمية المفرقة :

إنَّ ما مثلته البعثة المحمدية ـ على صاحبها ألف ألف تحيةٍ وسلام ـ من دورٍ رائدٍ في توجيه الناس إلى هدف العلم الأصيل ، وفي جعله نافعاً إيجابياً وبنائه وسيلةً لليقين؛ هو أهمُّ من دورها الذي قامت به في توسيع آفاق العلم ، وتنشيط الحركة العلمية .

كان العلم عبارةً عن معلوماتٍ مفرَّقة ، بل كانت أجزاءً مضادَّةً متباينةً ، كان علم الطبيعة يحارب علم الدين ، وكان الأطباء والرياضيون يأتون بنتائج سلبيةٍ إلحاديةٍ في بعض الأحيان.

ولذلك نجد علماء اليونان الذين كانت لهم اليد الطولى في الفلسفة والعلوم الرياضية إلى قرون طويلة ؛ إما مشركين وإمام ملحدين. وكانت المدارس اليونانية وعلومها تشكِّل خطراً على الدين وتعاليمه ، وتقدِّم شهادةً ونموذجاً للملحدين والمشركين.

كانت منَّة الإسلام الكبرى في هذه الظروف: أنَّه أنشأ وحدة بين العلوم المتنوعة ، وربط الوحدات العلمية بعضها ببعض ، وهان عليه ذلك العمل ، لأنَّ الرحلة العلمية كانت قد بدأت من منطلقٍ أصيلٍ ، ومن مبدأ حقيقيٍّ ، وبدأ الإسلام هذه الرحلة اعتماداً على الإيمان بالله ، وعلى الاستعانة به ، والثقة بتأييده ، وعلى العمل بالآية الكريمة: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] إذا كانت البداية طيبةً فتكون العاقبة طيبةً في معظم الأحيان.

كشف الإسلام القناع عن الوحدة التي تربط الوحدات كلها بفضل الإيمان ، وهذه الوحدة هي المعرفة بالله ، ومدح الله تعالى عباده المؤمنين من أجلها فقال: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١] ، كان الإنسان يرى الوحدات العلمية مضادةً في الزمن الماضي ، وتدهشه ، وتذهله ، وتوقعه في القلق والاضطراب ، وحينما تضطرُّه وتبلِّغه إلى أن يعمل؛ يلوم ربه ويدينه ، وينال من مجده ، فنظراً إلى ذلك منح العلم الإسلامي الذي ينبثق من الإيمان والقرآن ، ويقوم عليهما الإنسان ، وحدة علميَّة ربطت الوحدات كلها ، وهي إرادة الله الغالبة ، وحكمته الكاملة.

يقول العالم الألماني هيرالد هوفدنغ (Herald Hoffding) وهو يذكر اكتشاف الوحدة ، وتأثيرها على الحياة الإنسانية ، وعلى الرِّحلة العلميَّة ، والخلقية ، والتاريخية ، فيقول:

«إن كلَّ دينٍ يقوم على أساس عقيدة التوحيد التي تقول إنَّ علة وجود كلِّ شيءٍ في هذا الكون واحدة فريدة ، ويؤثر ذلك الاعتقاد على الإيمان والاعتقادات والطبيعة الإنسانية تأثيراً حسناً ومهمّاً ، بصرف النظر عن المشاكل التي تحدث بهذا الفكر وجوباً ، ويسهل بذلك على جميع من يحمل هذه العقيدة الاعتقاد بأن أشياء العالم كلَّها ـ بِغَضِّ النظر عن الخلافات الفرعية وتفاصيلها ـ تنخرط في سلك وحدةٍ قانونيةٍ واحدةٍ؛ لأنَّ وحدة العلَّة تقتضي أيضاً وحدة القانون.

رسَّخت الفلسفة الدينية في القرون الوسطى تصوُّر الوحدة في الكثرة في أذهان كثيرٍ من الناس ، الذي كان يجهله الإنسان غير المثقف لكثرة المظاهر الطبيعية ، وكان حائراً بمشاهدة هذه الكثرة ، ولم يكن يعرف الطريق إلى إيجاد صلةٍ ذاتيَّةٍ بينها»[1].

نهضة أوربا وإسهام الإسلام في عهد العلم والحضارة المعاصرة:

يقول رابرت بريفارت (Robert Briffault) في كتابه: (The Making of Humanty) «ليس هناك جانبٌ من رقيِّ أوربا إلا وعليه منَّة المدنية الإسلامية ، وطابعها العميق».

وأضاف قائلاً: «ليست العلوم الطبيعية وحدها (التي لا تنكر منَّة الإسلام عليها) مسؤولةً عن حياة أوربا الجديدة ، ووجود روحٍ جديدةٍ فيها ، بل خلَّفت المدنية الإسلامية آثاراً عميقةً على حياة أوربا ، ويبدأ ذلك العهد من العهد الذي بدأت فيه الأشعة الأولى للمدنيَّة الإسلاميَّة والحضارة الإسلامية.

يقال كثيراً: إنَّ النشأة الثانية لأوربا هي ثمرةٌ لإحياء الفكر اليوناني ، لكن المؤرخ الشهير (H.G. Vells) يرفض أنَّ القوة والعلم قد حصل عليهما العالم عن طريق اليونان ، فيقول: «إنَّ العلم الذي كان بدأه اليونانيون ، ثم ودعوه ، وتخلوا عنه ، أقبل عليه العرب ، بحماسٍ جديدٍ ، وعاطفةٍ

---

(١) Historm of Modern Philssphy P.S.

جديدةٍ ، وجعلوه موضوعاً لهم ، وتبنَّوه ، وقاموا بتهذيبه ، وتنقيحه .

إذا كان اليونانيُّون مبتكرين للاكتشاف العلمي للحقيقة ، كان العرب مهذبين؛ لأنَّهم قاموا بتسهيله ، وشرحوه شرحاً سائغاً ، وحلُّوه بألفاظٍ وكلماتٍ موزونةٍ وملائمةٍ ، ونقدٍ إيجابيٍّ ، إنَّهم كانوا العرب لا اللاطينيِّين ، الذين منحوا العالم الجديد هديةً غاليةً ثمينةً للعلم والقوة[١] .

تفوق المسلمين العلمي الماضي ودورهم الرائد في العلوم النافعة والتجريبية :

إنني أستطيع أن أدَّعي في ضوء دراستي للتاريخ أنَّ المسلمين لم يقوموا بتأسيس دولٍ واسعةٍ كبيرة فحسب ، بل كانوا يمتازون أيضاً عن الأمم الأخرى بالعناية بالعلوم والبراعة في الفنون ، وكانوا يتفوَّقون عليها من كلِّ جانبٍ ، وقد أنجبت الأمَّة الإسلاميَّة في جميع العصور نبغاء ذاع صيتهم ، وطبقت الآفاق شهرتهم في التعمق في الدراسة ، والرغبة في العلم ، والتأليف فيه بإخلاصٍ .

وبرز في القرن الأول عددٌ كبير من أئمة الفكر من المسلمين ، بالإضافة إلى المفسرين ، والمحدثين ، والفقهاء الذين لا يوجد لهم نظيرٌ في التاريخ العلميِّ الإنسانيِّ ، كان لا يدانيهم أحدٌ من علماء الأمم الأخرى .

لم يحصر المسلمون دائرة علومهم في العلوم الدينية من التفسير ، والحديث ، والفقه ، وأصول الفقه ، والدراسة المقارنة للأديان والمذاهب فحسب ، بل أبدوا براعتهم في علومٍ حديثةٍ كثيرةٍ ، وخدموها خدمةً جليلةً كالجغرافية ، والطبيعة ، والهندسة ، والطبِّ ، والكيمياء ، والتاريخ ، والنباتات ، والمدنية ، وقاد معظمهم العالم في هذه العلوم والفنون إلى قرون طويلة ، وخلفوا آثاراً ورسوماً لا تطمس أبداً .

نذكر هنا بعض هؤلآء العلماء المسلمين ؛ لأنَّ استقصاء جهود جميع هؤلاء العلماء يحتاج إلى مجلداتٍ ضخمةٍ ، ويستغرق وقتاً طويلاً .

---

(١) The Making of Humanity P.202.

أئمة العلوم وواضعو العلوم من المسلمين:

الخوارزمي (م ٨٥٠/٢٢٦) ، هو أول من ألَّف كتاباً عن الجغرافية العالمية ، ويليه محمد بن محمد الإدريسي (م ١١٥٣/ ٥٦٠) الذي بين في كتابه: «الممالك والمسالك»: الطرق التجارية للعالم الإسلامي مع عرض خريطتها الجغرافية.

ألَّف ابن الهيثم (م ١٠٣٩/ ٤٣١) حوالي مئتي كتاب ، سبعة وأربعون منها ألفت حول موضوع العلم الرياضي ، وثمانية وخمسون عن الهندسة ، وهو أول من قدم اقتراحاً لبناء سدٍّ أسوان ، واكتشف اكتشافاتٍ مفيدةٍ في علم البصارة ، وعرض في كتابه: «المناظر»: نظرية عن الإدراك البصري ، فقال:

«إنَّ البصارة تنحصر على الأشعة التي تعود بعد الاصطدام بها».

محمد بن موسى الخوارزمي (م ٨٥٠/ ٢٢٦) هو أول من أضاف الصفر في العدد ، وقام بتعيين مكانة الأعداد ، وهو الذي اخترع الجبر.

وكان البتاني (م ٩٢٩/ ٣١٧) الذي سماه الغرب بالبتيني (Albategni) أو الباطنيوس (Albatenus) كان بارعاً في الفلكيات ، وهو الذي قام بتقدير عوج الخسوف تقديراً صحيحاً ، وقام باكتشاف مدَّة السنة الشمسية ، والفوارق في الموسم ، ومحور الشمس الأوسط ، ورفض اعتقاد بطليموس أنَّ محور الشمس لا يتحرك.

أبو بكر محمد الرَّازي (م ٩٣٧/ ٣١١) الذي دعاه الغرب بـ ريزز (Rhazes) كان أكبر طبيب ، بالإضافة إلى أنَّه كان فيلسوفاً عظيماً ، وكيمياوياً أريباً ، وقدم في كتابه الشهير: «الحاوي» استعراضاً للطبِّ اليونانيِّ ، والمصريِّ ، والعربيِّ القديم ، والهنديِّ.

كانت لابن البيطار (م ١٢٤٨/ ٦٤٦) اليد الطولى في الأدوية في عصره ، وذكر في كتابيه «المغني في الأدوية» و«الجامع لمفردات الأدوية» علاماتٍ للأمراض المختلفة ، وذكر أربعمئة من الحيوانات ، والنباتات والمعادن

بإطنابٍ وتفصيلٍ من قبل نفسه ، أو على أساس مشاهدة ١٥٠ من البارعين.

أبو علي ابن سينا (م ١٠٣٧/٤٢٨) الذي عرفه الغرب بـ آوى سينا (Avicena) ألَّف على موضوع الفلسفة كتابه الشهير «النجاة» و«الشفاء» ، وعلى موضوع الطب كتابه: «القانون في الطب» وعلى علم النفس «أحوال النفس» وقد اشتهر بمئتين وواحد وثلاثين كتاباً ، ويقال: إنَّ مئةً وعشرة كتب أخرى تنسب إلى غيره هي من تأليفه ، وتقدر مكانته في الطب أنَّ كتابه في الطب ظلَّ كتاباً منقطع النظير مدة خمسة قرون ، أي: إلى أواخر القرن السابع عشر للميلاد ، وكان حجةً في موضوعه.

ومن هؤلآء الأعلام ، أو نجوم العلم اللامعة ابن خلدون (م ١٤٠٦/٨٠٨) الذي كان أكبر عالم للعلوم الاجتماعية ، والذي لفت الانتباه إلى البحث عن القوانين التي توجه الإنسانية ، ولفت الاهتمام إلى العلوم الاجتماعية قبل الفيلسوف الغربي كومتي (Comte) بخمسين سنة.

ولمع في هذه السلسلة العلمية اسم أبي ريحان البيروني (م ١٠٥/ ٤٤٣) لسعيه المشكور ، الذي كانت له اليد الطولى في الطبيعة وما بعد الطبيعة ، والأدوية ، والكيمياء ، والجغرافية ، والتاريخ ، بصفةٍ خاصَّةٍ ، وهو والعالم المسلم الآخر ابن الهيثم أساس البحوث العلمية لأوربا المعاصرة.

كارثة علمية تاريخية:

قبل أن أنتهي من هذا البحث أريد أن ألفت نظركم إلى هذه الحقيقة الثابتة الأساسية ، ينبغي لنا ألاَّ ينسى الإنسان أنَّه خليفة الله في الأرض ، وليس بذاته مصدراً للعلم ومنبعاً له ، إنما هو خليفة الله في الأرض ، يعمل بما يرضيه ، ويمتثل أوامره ، وينتهي عن نواهيه ، وذكر القرآن الكريم تعليم الأسماء لآدم ـ عليه السلام ـ بعد أن ذكر تمكينه في الأرض ، واستخلافه فيها ، وذلك يدلُّ على أنَّه كان مأموراً باستخدام علمه كخليفة الله في الأرض.

كانت المأساة الكبرى لتاريخ العلم بل لتاريخ العالم أن نسي الإنسان أنَّه كان خليفةً لله ، وكانت مسؤولية العالم تقع على كاهله ، ولم يبعث إلى هذه

الدنيا سيِّداً ومالكاً يستخدم خزائن الأرض داخلها وخارجها للمصلحة الذاتية والقومية ، والعنصرية ، والطبقية ، أو لإحراز التفوُّق السياسيِّ.

كان يوماً سيئاً مشؤوماً اختار فيه الإنسان هذا الطريق المؤدي إلى الدَّمار والهلاك.

يستطيع هذا الشعور بأنَّ الإنسان خليفة الله في الأرض ، ولم يكن خالقها ومالكها أن يسيِّره على الصراط المستقيم ، لأنَّ المعرفة بهذه الحقيقة هي التي تستطيع أن تردعه من الحرِّية المطلقة.

انقطاع صلة العلم عن مالكه فتنةٌ عظيمةٌ في الحقيقة ، وقد نال الإنسان العلم وبرع فيه ، لكنه نسي خالق العلم.

أقول لكم بكلِّ صراحةٍ وأنا أعتذر إلى العلماء والقادة السياسيين في أوربا وأمريكا ، وإلى كلِّ من يفتخر بحضارة الغرب: أنَّ الإنسان وقع في خطأ كبيرٍ عندما اعتبر نفسه مالكاً أصيلاً للعلم ، ومستقلاً وحرّاً ، لما نسي بداية أمره؛ نسي غاية حياته ، وهدفها الحقيقيَّ.

وأقول لكم بكل شعور بالمسؤولية: إن الإنسان لا ينجح في تغيير ظروف العالم وإصلاحها إذا لم يعترف بأنَّه مخلوقٌ محضٌ يقدم إلى خالقه ويسأل عن أعماله ، وعليه أن يعتقد بأنه يقوم على جانب علمه ، والله سبحانه وتعالى خالق العلم يقوم على جانبه الآخر.

فإذا انقطعت هذه الصلة؛ نسي الإنسان هدف خَلْقه ، وتحولت الدُّنيا إلى ساحة قتال ، ومجزرة للإنسانية ، وتكون فيها سيطرةٌ لإهانة الإنسانية ، وغلبةٌ لأصناف الظلم والعبودية.

وآخر دعوانا أن الحمد للهِ ربِّ العالمين.

* * *

انقطاع صلة العلم بالإسلام
مصدر الفساد في هذا العصر

ألقى العلامة الندوي هذه الكلمة في مناسبة إرساء حجر الأساس للمعهد العالي للعلوم والتكنولوجيا بلكهنؤ ، وافتتاح قسم الكمبيوتر في المعهد في قاعة المعهد الواسعة ، التي ضمَّت عدداً وجيهاً من كبار المثقفين والمهندسين ، وخبراء التعليم ، وأساتذة الجامعات وأعضاء المؤسَّسات العلمية والتحقيقية ، ألقى العلامة هذه الكلمة في أردو مراعاةً للظروف ، نقدمها هنا نقلاً من الأردوية إلى العربية .

سادتي وإخواني! يغمرني فرحٌ وسرورٌ بهذه المناسبة السعيدة أن ألاحظ روح العمل ، والعاطفة الصادقة ، والواقعية ، والذهن البنَّاء في هذه الخطوة الجريئة لفتح قسم الكمبيوتر في هذه المؤسسة الحديثة ، إنّه يبشر بتقدمٍ ملحوظٍ للمؤسسة في مدَّةٍ قصيرةٍ.

إنَّ العالم الإنسانيَّ يتعرَّض اليوم لأخطارٍ رهيبةٍ ويواجه مشاكل متنوعةً رغم انتشار العلوم وتنوعها ، ونموها ، وازدهارها ، ورغم الاختراعات الجديدة النادرة ، والإنتاجات البديعة الفائقة ، فتتَّسع العلوم ، والمعارف ، ولكن تتشابك المشاكل ، وتتفاقم الأخطار مع ذلك؛ لأنَّ العلم وحده ، والمعرفة وحدها لا تصلح لهداية البشرية؛ فإنَّ الله سبحانه وتعالى ربط العلم باسمه.

ويدلُّ على هذه الحقيقة الوحي الأول حينما أوحى الله إلى رسوله محمد ﷺ ، فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] فإنَّ هذا الوحي يحمل معاني كثيرةً ، ويفتح كوَّةً جديدةً أمام الإنسان للتدبر والتفكير الواسع العميق ، وتلقّي الدروس والعبر ، وإنَّه من اقتضاء النعمة التي منحها الله الإنسان في صورة العقل لكي يفكِّر في مصيره وعاقبة أمره ، ويفكِّر في عشيرته ، وبيئته ، ولكن يجب عليه أن يفكِّر في جميع هذه الأمور على منوال الربوبية ، وعلى النحو الذي علَّمه الله صريحاً واضحاً بدون التواء ، أو غموضٍ ، ويجب عليه أن يؤمن به إيماناً كاملاً واعياً ، لا يشوبه شيءٌ من الريب والشكِّ ، والضعف في العقيدة.

فالوحي الذي نزل لأوّل مرَّةٍ على النَّبيِّ الأميِّ ﷺ الذي لم يقرأ حرفاً من أيِّ كتابٍ ، ولم تخطَّ يده على ورقٍ قطُّ ، يبدأ بهذه الألفاظ ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] فإنَّ هذه الحقيقة تشير إلى هذا المعنى البليغ ، ذاك أنَّ الأمة التي ستخرج وستبعث من جديدٍ في هذه الدنيا نتيجةٌ لهذه الرسالة السماوية الجديدة ، منوطةٌ بالعلم ومتميزةٌ بها ، وعلاقتها بالعلم رصينةٌ

وطيدةٌ ، إنَّها تهتمُّ بالقراءة ، والعلم باستخدام القلم ، وتتخذه لها شعاراً في حياتها للتقدُّم والازدهار ، وتحبُّه حبّاً جمّاً ، وتتعلَّق به حياتها ومماتها ، ولقد انبلج فجر النَّهضة العلميَّة في أوربا بعد قرونٍ عاشتها في غياهب الظلام ، والانقطاع عن العلم والحضارة ، فارتقت بهذه النهضة علميّاً ، واقتصادياً ، وسياسيّاً ارتقاءً عظيماً ، ولكنَّها قطعت صلتها بربوبيته تبارك وتعالى ، ووحدانيته ، ونسي حملة لواء هذه النهضة : أنَّ العلم الذي يتجرَّد من اسم الربِّ لا يجدي شيئاً ، ولم يدركوا أنَّ مثل هذا العلم لا يغني عن الناس ، بل إنَّه يحدث ويثير ثورةً في النفوس على العقيدة والقيم الخلقيَّة ، ويؤدي إلى الدَّمار والفساد ، وتنفجر منه براكين الاستغلال ، والانتهازيَّة والحبِّ الزائد للمال ، والنهامة فيه ، وإنَّ هذا العلم يقود المجتمع الإنسانيَّ إلى إنكار الربِّ ، والشهوانية الجامحة ، والخلاعة ، والفجور ، والدَّعارة ، كما نشاهد اليوم في البيئات الأوربية ، والأمريكية ، والمجتمعات التي قد قطعت صلة علمها باسم الربِّ .

لو أراد شخص أن يؤرِّخ تاريخ هذا العالم من جديد بالجدية والواقعية والعدل ، ويكتب عن انحطاط الإنسانيَّة ، فأشير عليه أن يجعل عنوان هذه الكتابة التاريخية : انقطاع صلة العلم عن اسم الربِّ ، وتحرره عن ربقته تحرراً كاملاً ، ونسيان الإنسان خالق هذا الكون ، ونكرانه لجميله بل وثورته عليه وحده .

فهيهات على الإنسان أن ينسى ربَّه ونعمه السابغة التي أسبغها عليه بدون مشقَّةٍ وجهدٍ منه ، بل بدون أن يستحقَّها ، إنَّ ربَّه هو الذي يدبِّر هذا الكون ، ويديره ، وينظِّمه تنظيماً متَّسقاً متّزناً ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

إخواني! إن ديننا وإسلامنا يتطلب منَّا أن تقوم مؤسَّساتنا العلمية ، والتعليميَّة ، والهندسيَّة ، ومختبراتنا التقنيَّة على أساس اسم الربِّ ومعرفته ، وبهذا تستطيع مجامعنا العلمية ، والتقنيَّة ، والتحقيقيَّة أن تقوم بدورٍ نافعٍ للإنسانية جمعاء ، والحقيقة أنَّ هذا العمل الكبير الذي يؤثر على

جميع نواحي الحياة لا يستطيع أحد أن يؤدِّيه إلا إذا وضع أساسه من أول يومه على اسم الربِّ تبارك وتعالى.

إنَّني رجلٌ مكبٌّ على القراءة، والدراسة، والكتابة، لم يكن لي عهدٌ قبل هذا بالكمبيوتر، وليست عندي تجربةٌ وخبرةٌ في هذا المجال، ولكنَّني اليوم لما وضعت أصابعي على أزراره إيذاناً بالافتتاح، لمحت تلك الآثار والنقوش التي كنت قصدتها، فدار بخلدي أن الله تعالى جعل الإنسان في الواقع ـ وخاصَّة المسلم ـ مثل الكمبيوتر، ففيه تتوافر جميع المؤهلات والطاقات الهائلة، ولكنه يحتاج إلى من يثير كوامن هذه المؤهلات المطمورة والطاقات المغمورة فيه، فإنَّ الأنبياء وأتباعهم قد قاموا بهذا الدور الرائع النَّبيل على مرِّ العصور والأزمان في تاريخ الإنسانية، ووضعوا أصابع النُّبوة، والرسالة على هذا الكمبيوتر الإنسانيِّ فتجلَّت مواهبه الفطريَّة، والطبيعية جليَّةً واضحةً مبهرةً.

ومن الأسف الشديد نحن المسلمين الذين ألقى الله على كواهلهم مسؤولية الدعوة إلى الله وتوجيه الإنسانية في الحياة إلى أهداف ساميةٍ قد فقدنا هذه القوة المعنوية الحيويَّة، وضيعنا هذا الوعي والشعور بالمسؤولية، فلا توجد هناك أصابع توضع على هذا الكمبيوتر الإنسانيِّ من جديد؛ لينهض لأداء تلك الواجبات والمسؤوليات، ومن هناك ترجع المسؤولية إلينا في هذه الظروف الحرجة القلقة أن نستخرج كنوزنا المطمورة المنطوية علينا، المكنونة المودعة فينا من الله، ونقدحها قدحاً لنقوم بتلك الأعمال الجسيمة التي يقوم بها اليوم جهاز الكمبيوتر، هذه الآلة المادِّيَّة، ونضع أصابع التعاليم النبوية على الإنسانية حسب المتطلبات، والمتغيِّرات، والظروف، والملابسات، وأوضاع الأمَّة، وأحوالها.

إنَّ الحاجة ماسةٌ اليوم إلى مثل هذه المؤسسات التي تفرض على نفسها أنَّها لا تعلِّم مجرد الفن والعلم، بل تعلِّم خشية الله وتقواه في السرِّ والعلن، وتعلِّم الناس علماً قائماً على معرفة الله وعرفانه، وإقرار وجوده

وخالقيته ، وقدرته على كلِّ شيءٍ ، وعلماً مبنياً على احترام رسالات رسله ، وتعليمهم الصادقة.

إنَّ أسواق أوربا وأمريكا مكتظَّةٌ وحافلة بالمخترعات الغربية ، والإنتاجات البديعة التي تقود العالم كلَّه إلى الشقاء والدَّمار ، لكن الشيء الذي لا يوجد في هذه البلاد إنما هو روح تقوى الله وخشيته ، واتِّباع أوامره ، والاجتناب عن نواهيه ، واحتساب العمل ، ورجاء ثواب الله ، ولذلك قلت مرَّةً في خطبتي التي ألقيتها في واشنطن ، قلت: إنَّ أمريكا حافلةٌ معمورةٌ بكلِّ شيءٍ ، ولكن ليس هناك «ما شاء الله» وليس هناك من يقول: ما شاء الله.

نتيجة لذلك تبذل أمريكا اليوم كلَّ المحاولات في مجالات خدمات الإنسانية ، وتوفير التسهيلات ، والوسائل ، والإمكانيات ، ولكن لا تنفع هذه الوسائل الضخمة الحياة الإنسانية شيئاً ، ولا تعطيها راحة البال ، وطمأنينة القلب ، بسبب انقطاع الصلة عن اسم الربِّ ، وفقدان الإخلاص له ، وركود الشعلة الإيمانية الملتهبة ، وخمود جمرة الإيمان الوهاجة التي تغير مجرى الحياة ، وتثير ثورةً عظيمةً فيها.

إنَّه يتحتَّم على مثل هذه المؤسسات أن تؤسس بناءها العِلميَّ على اسم الربِّ ، لتكون نافعةً للإنسانيَّة ، وتخدمها خدمةً جبَّارةً.

إنَّ هذه الدنيا لا تستطيع أن تنقذ نفسها من الوقوع في هاوية الخيبة والخسران ، ومن براثن الانتحار الغاشمة ، ولا تستطيع أن تتحف النوع البشريَّ تحفة الأمن ، والأمان ، والتعاون ، والمواساة ، والتواثق ، إذا لم يكن العلم والاسم يسيران معاً في حقول الحياة المختلفة.

وإنِّي أحبُّ أن تقام مثل هذه المؤسسات العلميَّة ، والصناعية ، والتقنيَّة وتؤسس الجامعات والكليات والمعاهد في جميع أنحاء الهند وأرجائها ، وفي الجاليات الإسلاميَّة كلِّها ، لتتطوَّر حياة المسلمين ، وترتفع مستوياتها على الصَّعيد العالميِّ ، وعلى ذلك يجب على جميع هذه المؤسسات ألا تنقطع صلتها عن اسم الربِّ تبارك وتعالى ، بل لا تضعف وشائجها بالدين

شيئاً ، ويجدر بها أن تضفي عليها صبغة الدين وطابعه المميَّز ، حينئذٍ تستطيع هذه المؤسسات أن تقوم بدورٍ رائعٍ ملموسٍ في الحياة ، وتقود الإنسان المعاصر إلى ساحة العزِّ والسموِّ ، وتمهد الطريق إلى غدٍ أفضل ، ومستقبلٍ أضمن .

وما ذلك على الله بعزيز .

* * *

دور الأمَّـة الإسـلاميَّـة
فـي الـحـركة العلميَّة والتـألـيفيَّـة العالميَّـة
وإنـشاء المكـتبـات وخـزانـات الكـتـب

زار سماحة العلامة الندوي الإمارات العربية المتحدة في صفر ١٤٠٤ هـ (١٦ ـ ٢٧ نوفمبر ١٩٨٣ م) وحَضَرَ خلال زيارته لها افتتاح مكتبة عالم المنطقة الجليل وداعيتها الإسلامي الكبير ، المرحوم الشيخ عبد الله المحمود رحمه الله ، رئيس مركز الدعوة الإسلامية بالشارقة سابقاً ، بدعوةٍ من أنجاله الكرام ، السادة : الدكتور سالم ، وأخويه محمد وعلي عبد الله المحمود ، حفظهم الله ، وحضر حفلة افتتاح المكتبة طائفةٌ مختارةٌ من رجالات الإمارات ، وعلى رأسهم سموُّ حاكم الشارقة سمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمي ، وسمو الشيخ حميد بن راشد النعيمي حاكم عجمان ، وعددٌ من الوزراء والأعيان ، كما حضر المناسبة معالي الشيخ عبد الله نصيف الأمين العام الأسبق لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرَّمة ، وقد أزاح الشيخ السلطان السِّتار عن اللوحة التذكارية إيذاناً بافتتاح المكتبة ، وألقى كلمة امتدح فيها جهود الشيخ المرحوم عبد الله بن علي المحمود ، ثمَّ تحدَّث الأستاذ محمد بن عبد الله المحمود بكلمةٍ شكر فيها سمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمي ، ورَحَّبَ بالعلامة الندوي ، وتقدَّم بكلمة تعريف به ، وبجهوده ومؤلفاته ، وبعد ذلك ألقى سماحة الشيخ الندوي هذه الكلمة الّتي كانت مع وجازتها كلمةً منيرةً لائقةً بالموضع والموضوع .

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النَّبيين محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعه بإحسانٍ ودعا بدعوته إلى يوم الدين ، أما بعد:

إنَّ من ألغاز التاريخ العالميَّة الكبرى؛ التي لم تحلَّ بعد هي أن أكبر حركةٍ علميةٍ تاريخيَّةٍ معترفٍ بها في التاريخ ، في العالم. . . انبثقت من أعظم أمة أمية ، هذه الأمة التي قامت بهذا الدور الكبير في توسيع آفاق العلم ، وفي الابتكار العلميِّ الممتاز الضخم ابتكاراً لا يوجد له مثيلٌ في تاريخ الديانات ، في تاريخ الأمم والشعوب التي قامت على أساس الديانات ، مع أن نبيَّ هذه الأمَّة أميٌّ ، إنَّها لغزةٌ تاريخيةٌ تطلب حلاًّ ، ولكن ليس حلُّها سهلاً إذا عللت هذه اللغزة ، فإما تعلَّل بإرادة الله القاهرة ، وبحكمة الله الباهرة.

وقد تعلَّل هذه اللغزة بأنَّ أول وحي نزل على سيدنا محمَّد ﷺ وجَّه فيه إلى العلم ، ومن الغريب المستغرب الذي لا يزال قد ستر عن انتباه الفلاسفة والمفكرين في العالم: أنَّ أوَّل ما ذكر في هذا الوحي القلم. . . هذه القطعة الخشبية الهيِّنة؛ التي كانت نادرةً غريبةً في الجزيرة العربية ، فقال الله تعالى في وحيه : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥] إنَّه لم يكن يتوقع إنسانٌ عاقلٌ في ذلك الحين ، إنسانٌ عرف طبع الجزيرة العربية ، لا أقول الشائن ، ولكن الغريب ، مكانة الجزيرة العربية في عالم العلم ، في عالم التأليف ، وفي العالم المتَّصل بالأقلام ، المستعين بالأقلام ، المستعين بالكتابة ، إنَّ الذي اطلَّع على هذا الوضع الغريب الذي كانت تعيشه الجزيرة العربية لم يكن يتوقع أبداً أنَّ أوَّل وحي ينزل على الرسول الأمِّيِّ عليه الصلاة والسلام ، وأنَّ أوَّل اتصالٍ للأرض بالسماء ، وبالأولى اتصال السماء بالأرض ، بعد فترةٍ طالت وامتدَّت خمسة قرون على الأقل ، يذكر فيه القلم ، هذا القلم. . . هذا القلم المنسي ، هذا القلم المتروك ، هذا القلم المستهان

بقيمته؛ الذي استُغني عنه حتى أصبح لقب العرب الشائع السائر «أمِّيِّين» ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ . . .﴾ [الجمعة: ٢] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢] ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فهذا تناقضٌ تاريخيٌّ ، وهنالك تناقضاتٌ تاريخيَّةٌ كثيرةٌ ، ولكن من أهم هذه التناقضات هو انبثاق النشاط العلمي والحماس العلميُّ؛ الذي لا أجد كلمةً تحسن التعبير عن هذا التناقض هذا الحماس ، ويحقُّ لمن لا يحبُّ هذه الأمة ، ولا يحبُّ هذه الدعاية أن يقول ، أو يسمِّي هذا جنوناً ، لكن هذا التفاني في سبيل العلم انبثق من دعوة نبيٍّ أميٍّ لم يقرأ كتاباً ، والذي سأل سيدنا علي رضي الله عنه: أين اسمي ، ووضع ﷺ أصبعه ، وتنازل لمصلحة الناس في صلح الحديبية.

كيف انبثقت هذه الحركة العلميَّة العالميَّة الخالدة الممتدَّة على الأفق ، الممتدة على الزمان والمكان . . . مساحتها الزمنيَّة مساحةٌ قويَّةٌ من أقوى المساحات الزمنية ، ومساحتها المكانية من أكبر المساحات المكانية التي عرفت في تاريخ العلم والتأليف ، ومساحتها المعنويَّة أوسع من كلتا المساحتين ، وكذلك مساحة التنوُّع والتفنُّن في العلم والموضوعات.

أذكر لكم على سبيل المثال: أنَّ عالماً هنديَّاً اسمه العلامة محمود حسن التوكي ، ألَّف كتاباً في الهند في بلادٍ لا تتكلَّم اللغة العربية ، وليست اللغة العربية هي لغة الديوان «في بلده» ولا لغة السياسة ، ولا لغة الصحافة ، ولا اللغة اليومية . . . يوفقه الله إلى تأليف كتاب سمَّاه «معجم المصنفين» في ستين مجلَّداً يحتوي على عشرين ألفاً من الصفحات ، وعلى تراجم أربعين ألفاً من المصنفين ، وناهيك من سعة الكتاب واستقصائه أنَّ فيه ألفين من المؤلفين كلهم يسمون «أحمد» وقد لخَّص في كتابه نحو ألفٍ وخمسين من الكتب ، وذكر كل من ترك بالعربية كتاباً منذ بدأ العهد التأليفي في الإسلام

إلى ١٣٥٠ هـ[١] ، أين هذا النشاط العلمي؟ أين هذا الانتصار العلمي؟ أين هذه الفتوح العلمية التي غمرت الآفاق ، والتي غمرت الحدود الجغرافية؟

أين هذا النشاط العلمي من هذه الأمة الأمية المباركة؟ التي وصف الله تبارك وتعالى نبيَّه الحبيب إليها ، فقال : ﴿ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

السبب في هذا السرِّ أنَّ الوحي الأول يشيد بالعلم ، وينوِّه بالقلم ، إنَّ هناك ديانات أيها السادة! ترى حياتها في موت العلم ، وترى ازدهارها وانتصارها في انهزام العلم ، كما أنَّ هناك حكاية تقول: إنَّ بعوضةً شكت إلى سيدنا سليمان الريح الهوجاء ، قالت: إنَّ الريح الهوجاء تظلمنا كثيراً ، فإذا هبت لجأنا إلى الفرار ، قال: لا بد من إحضار المدَّعى عليه ، ودعا الريح ، فإذا بالبعوضة قد طارت ، فقال: كيف نحكم على قضيةٍ في غياب مدَّعيها! كذاك أصحاب الديانات الكثيرة ، ومن هذه الديانات ديانة البرهمية في بلادنا التي نعيش فيها ، فهي ترى سرَّ بقائها في عدم اتصال مجتمعها بالعلم ، وعدم اطلاعه على الحقائق العلمية ، بالعكس من ذلك الإسلام ، الذي يربط مصير الدين بالعلم ، ومصير العلم بالدين ، كلٌّ منهما يرتبط مصيره بالآخر ، فالدين لا يعيش إلا بالعلم ، والعلم الحقيقيُّ لا يعيش إلا بالدين ، إنَّ الإسلام قد أضاف إلى فتوح الإنسان ، لقد عثر على الوحدة التي تربط بين وحدات العلم .

كانت وحدات العلم مبعثرةً ، بل كانت في أغلب الأحيان متناقضةً ، علم الطبيعة يخالف الدين ، علم الحكمة يخالف الدين . وقد ألف علماؤنا كثيراً في الجمع بين الدين والحكمة ، فالإسلام إنَّما أضاف إلى تقدُّم العلم وإلى مقدرته على التقدُّم في كلِّ مكانٍ وزمانٍ بأنَّه اكتشف تلك الوحدة التي تربط الوحدات بعضها ببعض .

ما هي هذه الوحدات؟ إنَّها معرفة الله تبارك وتعالى ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى

---

(١) ظهرت من الكتاب أربعة أجزاء طبعت في بيروت على نفقة حكومة حيدر آباد السابقة .

خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١] إنه اكتشف الوحدة التي تجمع بين الوحدات الكونية ، وهي إرادة الله.

وحدة إرادة الله هي الوحدة التي تربط الوحدات الكونية بعضها ببعض والتي قد تبدو متناقضةً ، وتاريخ المكتبات في العالم تاريخ قديمٌ ، وتاريخٌ عريضٌ واسعٌ ، كان تأسيس المكتبات ، وإنشاء خزانات الكتب من هوايات علماء المسلمين وأمرائهم ورؤسائهم ، فقد روى تاريخ الأدب العربيِّ أنَّ خزانة الصَّاحب بن عبَّاد اشتملت على مئتين وستة آلاف مجلد[١] وقد ألف حبيب بن أوس الطائي المشهور بأبي تمام كتابه الخالد الحماسة ، في مكتبة الأمير أبي الوفاء بن سلمة في الجبال شرق العراق حين وقع ثلج عظيم سدَّ الطرق ، فانتهز الفرصة ، وعمل ديوان الحماسة من الدواوين الوفيرة التي كانت في مكتبة أبي الوفاء[٢] وهكذا كتبٌ كثيرة ألفت في مكتبات شخصية ، وكان ذلك شأن الأمراء والرؤساء فضلاً عن العلماء والمؤلفين في الهند[٣] وأنا أعرف بصفتي هنديّاً أنَّ كثيراً من الأقيال ، ومن الملاك في زمن الإنجليز ، وقبلهم ، وبعدهم كانوا يحتفظون بمكتباتهم الشخصيَّة الخاصَّة ، وإن كانوا لا يستطيعون أن ينتفعوا بها شخصياً ، لأنهم لم يكونوا أصحاب اختصاص ، ولم يكونوا أصحاب دراسات ، لكنَّهم كانوا يفتخرون بأنَّهم يملكون مكتبة يرجع إليها من ينزل عليهم ضيفاً من العلماء ، فلا يسأم ، ولا يضيق صدره ، بل يشغل نفسه بقراءة الكتب.

ونظرةً في الكتب التي ألفت في القديم في استعراض مؤلفات علماء المسلمين في مختلف العلوم والفنون كالفهرست لابن النَّديم في القرن الخامس الهجري ، وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون للحجاج

---

(١) معجم الأدباء ٧ ص ٩٧.
(٢) تاريخ الأدب العربي للدكتور حسن الزيات.
(٣) يكفي للمثال خزانة خدابخش خان في بتنه (الهند) ، ومكتبة السري الفاضل الشيخ حبيب الرحمن الشيرواني في عليكره ، ومكتبة سالارجنك في حيدر آباد.

خليفة جلبي (في القرن الحادي عشرالهجري) وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ، وتاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين في العصر الحديث ، تكفي للدلالة على هيام علماء الإسلام بالكتابة والتأليف ، وتفنُّنهم في مختلف مجالات العلم وموضوعاته ، يكفي لفهم عالمية هذه الحركة العلميَّة التأليفية ما كان لشبه القارة الهندية البعيدة عن مركز الإسلام ومهد العلوم الإسلامية من قسطٍ هائل ، وإسهام رائع في هذه الحركة المباركة ، ونظرة عجلى في كتاب والدنا العلامة السيد عبد الحي الحسني (م ١٣٤١ هـ) «الثقافة الإسلاميَّة في الهند» الذي طبعه المجمع العلمي العربي في دمشق وأصدر له الطبعة الثانية حالياً ، تكفي للدلالة على ما كان لعلماء الهند من إنتاجٍ كثيرٍ من أنواع الثقافة الإسلامية ، ولا أعرف في دراستي القاصرة لتاريخ العلوم والفنون ، وتاريخ الأمم والشعوب أنَّ أمَّةً شغفت بالعلم خالصاً لوجه الله وخالصاً للعلم ، ولا أعرف أمَّةً شغفت هذا الشغف العظيم للعلم كأمَّة الإسلام الأمية .

ومناسبة افتتاح مكتبة المرحوم الشيخ عبد الله بن علي المحمود رمزٌ من رموز التاريخ الثقافيِّ للمنطقة ، وهي عرفان بالجميل لفضائل الفقيد ، وأرجو أن تكون هذه المكتبة نواةً لمكتبةٍ كبيرةٍ تسهم في إنشاء جيلٍ إسلاميٍّ جديد ، وأنا أهنىء هذه الأسرة الكريمة أنجال الفقيد العظيم فقد قاموا بواجبهم ، وأحسنوا الاختيار ، وهو إنشاء هذه المكتبة .

فللمكتبات دورٌ كبيرٌ وأهميَّةٌ عظيمةٌ في تنشئة الجيل الجديد وتكوينه العقليِّ والثقافيِّ ، والتمهيد للقيام بحركاتٍ إصلاحيةٍ واعيةٍ تعتمد على فهم الإسلام والدراسات الإسلامية ، والدراسات العميقة الواسعة .

ولقد كانت الصلة التي تربطني بالشيخ صلةً دينيَّةٌ علميَّةً بعيدةً عن كلِّ اعتبارٍ دنيويٍّ ، وأكثر ما أكبرته فيه هو الغيرة على الدين والإيمان والاحتساب في الأعمال ، لقد رافقته في الهند خلال بعض جولاته الدعوية ، فوجدته كان يحتسب كلَّ خطوةٍ ، ويحتسب كلَّ حركة في سبيل الله تعالى ، وفي سبيل الدعوة الإسلامية ، وفي سبيل رفع كلمة الإسلام ،

ولي الفخر الكبير أن أحضر هذه المناسبة الخالصة المخلصة وفاءً لحقٍّ عالمٍ ربانيٍّ مخلصٍ لله تعالى كما أعرفه ، وهكذا يجب أن يكون وفاء التلاميذ للأساتذة ، وهكذا يجب أن يكون حب الأبناء للآباء.

وحضور هذه المناسبة الكريمة وفاءٌ ببعض حقوقه علينا واعترافٌ بفضله ، رفع الله درجاته وتقبّل منه صالح أعماله ، وجعل البركة في بيته وأنجاله ، وأشكركم على دعوتكم ، والسلام عليكم.

* * *

علاقة العلم بالإسلام

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة مرتجلاً في مدينة كوالالمبور (ماليزيا) لدى زيارته لهذا البلد المسلم في شعبان ١٤٠٧ هـ الموافق إبريل ١٩٨٧ م. وذلك في مركز اللغة الماليزية بوزارة التعليم والتربية ، بدعوةٍ منها ، حَضَرَها نخبةٌ من رجال التعليم والتربية وخبراء الثقافة ، والمعنيُّون بشؤون التعليم وأساتذة الجامعات . نُقدِّم الآن إلى القراء هذه المحاضرة القيِّمة نقلاً من الشريط المسجَّل .

سادتي وإخواني! الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العظيم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

إخواني! أنا سعيدٌ جدّاً بأنني ألتقي الآن بمجموعةٍ منتقاةٍ، أستطيع أن أقول: بالمهندسين للجيل الجديد، فكما أنَّ هنالك المهندسين للمباني، كذلك أنتم رجال التربية، والمعلمون، والمخططون لسياسة التعليم والتربية، المهندسون للجيل الجديد، أنتم الذين تصوغون الجيل الجديد صياغةً، فإذا أحسنت الصياغة فنعمّا هي، أما إذا لم تحسنوا الصياغة فهنالك تحدٍّ كبيرٌ، هنالك قضيةٌ هامَّةٌ، قضيةٌ رئيسيةٌ، جذريةٌ، ثوريةٌ، ربما تتَّجه بالأمَّة، وبالشعب، وبالبلاد الإسلامية التي لها تاريخ في الإسلام، ولها خلفياتٌ عديدةٌ، تتجه بها إلى صفةٍ لا تتفّق مع عقيدة هذا الشعب، ومع حاجات هذا الشعب، ومع مستقبل هذا الشعب.

سادتي، إخواني، وأخواتي! إنَّ الآيات التي تلوتها عليكم إنما هي أول وحيٍ نزل على رسول الله ﷺ في غار حراء، أوّل وحيٍ نزل على محمَّد بن عبد الله ﷺ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١ ـ ٢] فورد الإسلام مع العلم، ولم يتأخَّر ظهور العلم دقيقةً واحدةً، وجاء الإسلام مع العلم، فإذا قلت: جاء الإسلام مع القلم أيضاً لا أبالغ، لأنَّ القلم لعب أكبر دورٍ في تاريخ الإنسانية، لا أقول في تاريخ العلم والثقافة، لعب أكبر دورٍ، وأمثل دورٍ في نشر العلم، ولكن ألفت نظركم إلى أنَّ أول وحيٍ نزل على النَّبيِّ ﷺ الذي اختاره الله بعد ما مضى على الوحي الذي نزل على النَّبيِّ عيسى على نبينا، وعليه الصلاة والسلام خمسة قرون تقريباً، الفترة التي وقعت بين نبوَّة سيدنا عيسى، ونبوة محمَّد عليهما الصلاة والسلام لا تقلُّ عن خمسة قرون، فكانت الصلة منقطعةً بين السماء والأرض، كانت الإنسانية تعيش من غير تعاليم السَّماء، من غير هداية السَّماء، والسَّماء لا تحتاج إلى الأرض، ولكن الأرض تحتاج إلى السماء، وإلى تعاليم

السماء ، فهذا أوّل وحيٍ ينزل ، وأوّل صلةٍ تقوم بين الأرض والسماء بعد خمسة قرون ، فماذا كانَ منتظراً ، ماذا كان يتوقع؟ لو اجتمع عددٌ كبير من العقلاء والفلاسفة وقيل لهم: يا أساتذة! إن تثبت صلةٌ بعد فترة طويلةٍ بين الأرض والسماء ، ويختار نبيٌّ من أمَّةٍ أمِّيَّةٍ لا رغبة لها في العلم ، حتى إن اليهود لقبوهم بالأميِّين ، فأخبرونا عن أول آية تنزل على نبيٍّ أميٍّ في بلادٍ أمِّيَّةٍ ، وفي أمَّةٍ أمِّيَّةٍ ، وما هو الشيء الذي سيبدأ به أول وحيٍ؟ أنا متأكدٌ أنَّ البعض يقول: يبدأ هذا الوحي بالعبادة أو بالتوحيد ، وأنا مؤمن كلَّ الإيمان بأنه لم يكن يوجد هناك أحد يقول: يبدأ هذا الوحي بـ «اقرأ» كيف يخاطب بهذا أميٌّ في بلاد أميٍّ في أمَّةٍ أمِّيَّةٍ ، لا شأن لها بالعلم ، وكان القلم أندر من هذا ، فهل كان يتوقَّع أحدٌ أن يكون للقلم نصيبٌ في هذا الوحي؟ لأنَّ القلم كان من أندر الأشياء في ذلك الحين ، حتى إنَّ المثقفين ما كانوا يسمَّون Writers يعني: (كتَّاباً) ، وما كانوا يسمون Cultured يعني: (مثقفين) لأنَّ فن الكتابة كان شيئاً نادراً جداً بالنسبة إلى العرب.

لقد ربط الله هذا الدين الإسلاميَّ الذي جاء به محمَّد ﷺ والذي يؤمن به كلّنا ـ والحمد لله ـ وندين به ، ونعتزُّ به ، ونريد أن نعيش ، ونموت عليه ، هذا الدين ربطه الله تبارك وتعالى في أوَّل ساعةٍ بالعلم ، والقلم.

وقلَّما فكَّر المفكرون فيما إذا كان الوحي الذي نزل في أمَّةٍ ترتكب المنكرات ، كيف يكون ، وكيف ينزل هذا الوحي بكلمة اقرأ ، وكيف يأتي في سياق هذا الوحي ذكر القلم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤ ـ ٥] ذلك القلم الذي إذا خرج من إشراف الوحي ورقابته كان آلةً مدمِّرةً ، وكان ضرره أكبر من نفعه ، وقد جربنا هذا في التاريخ الماضي ، هذا العلم أنكر اسم الربِّ ، هذا العلم الذي اكتشفت به الطاقة الذرية (Atomic Energy) هذا العلم الذي تحرر من التعاليم السماوية ، وتحرر من الهداية الربَّانية ، هذا يخترع آلاتٍ مدمِّرة ، إنَّ قنبلةً ذريَّةً صغيرةً تستطيع أن تدمِّر العالم في دقائق ، في ثوان ، أنتم تعرفون جيداً ماذا حدث في هيروشيما وناغاساكي ، فالعلم كلَّما جهل الربَّ ، وأنكر الربَّ؛ كان خطراً على الإنسان.

وأقول لكم يا سادة! ـ في بلدٍ إسلاميٍّ ـ لا يجوز ، ولا يتصوَّر أن يخرج العلم من عفته ، وأن يخرج من ظلال اسم الله تبارك وتعالى ، ومن ظلال الإيمان ، ومن ظلال القرآن ، لأنَّ هذا حقُّ الشعب المسلم ، حق أبناء المسلمين ، حق آباء ، وأبناء المسلمين ، حق هذه الأرض التي دخلها الإسلام ، وزرع ما زرع ، وصنع ما صنع من هذا الشعب المسلم ، ومن حقِّ هذه الأرض أن يكون العلم واسم الله تعالى مترابطين متلاصقين ، متوافقين متآلفين في مصلحة الإنسانيَّة .

حضرات الأساتذة والمعلمات! إنَّني قرأت كثيراً عن غاية التربية ما هو المقصود منها ، بدأت حياتي معلِّماً ، ولا أزال معلماً ، وموضوعي المفضل التعليم ، فقرأت كثيراً ، ولكن أحسن ما قرأت ، والذي خاطب ضميري وفكري ، هو ما قرأته لأحد كبار أصحاب الاختصاص في موضوع التعليم ، إنَّه كتب في دائرة المعارف البريطانية تحت عنوان : ما هي التربية ؟ وما غاية التربية ؟ يقول : إنَّ غاية التربية الأولى والأساسية أن ترسخ القيم ، والمثل ، والعقائد التي يؤمن بها الشَّخص ، هذه هي الغاية الأولى ، وهي أن تثبت القيم ، والمثل في عقول الناشئة ، وهذه هي غاية التعلم ، فإذا حقَّق النظام التعليميُّ هذه الغاية فهي تربية أمينةٌ ، أمَّا إذا أحدثت التربية فجوةً بين المثل والقيم التي يؤمن بها الشعب ، أيّ شعبٍ كان ، فإنها فقدت الغاية الأولى من التعليم والتربية ، هذا ما قاله خبيرٌ تعليميٌّ تربويٌّ عن كلِّ شعب ، يقول : إنَّ غاية التربية أن تثبِّت المثل والقيم والعقائد التي يؤمن بها الشعب ، لأنه إذا لم يتمَّ ذلك لأحدث فجوةً بين طبقات الأمة ، وبين هذه الطبقة المثقفة ، ويكون خليجٌ بين الآباء والأبناء ، خليجٌ بين العقلاء والسفهاء ، فهذا الخليج أضرُّ على الشعب من العدوِّ الخارجيِّ الذي يأتي من الخارج ، ويذهب ، هذا الخليج موجودٌ بين طبقات الأمَّة وبين الجيل الذي بيده زمام الحكم ، وبين هؤلآء الناشئة الذين يتخرَّجون من الكلِّيات ، ومن الجامعات ، هذه الفجوة أكبر خطراً ، وأكبر ضرراً من العدوِّ الخارجيِّ ، لأنَّ هذه الفجوة تحدث صراعاً بين هؤلآء الذين هم في جهةٍ ، وهؤلآء الذين هم في جهة أخرى ، فتضيع الطاقات والقوى ،

هذا ما وقع في كثيرٍ من البلدان الإسلامية ، قد نشأ هناك جيلٌ جديدٌ مثقَّفٌ قد تربَّى وأخذ ثقافته من الجامعات الأوربية والجامعات المحلِّية كذلك ، لأنَّ نظام الثقافة هو النظام المستعار من الخارج في كثير من البلاد ، فنشأ جيلٌ لا يمتثل للجماهير وللشعب امتثالاً دقيقاً شاملاً ، هؤلآء في وادٍ ، وهؤلآء في وادٍ ، هؤلآء الناشئون يريدون أن يلعبوا ، وينعموا ، ويرزقوا اللذيذ ، ولا تهمُّهم مصالح الشعب ، فلا يعرفون تقدير الشعب ، كأنهم أمَّةٌ وهؤلآء أمَّةٌ ، كأنهم جيلٌ ، وهؤلآء جيلٌ ، إذا كانت نتيجة التربية هذا الفراق فلا فائدة في التربية ، لو بقيت الأمَّة غير مثقفةٍ بالثقافة الجامعية لكان خيراً لها ، فإنَّ التعليم والتربية التي تحدث اضطراباً عقليَّاً ، وتناقضاً مادِّياً ، تناقضاً اجتماعياً ، هو تعليمٌ فاشلٌ ، وكان الجهل أفضل من ذلك العلم .

العالم الإسلاميُّ في الوضع الشديد يجتاز هذه المرحلة ، مرحلة الصراع ، وذلك هو سبب الثورات ، الثورات التي تحدث في هذه البلاد لأنَّ الطبقة المثقفة هي تقدر بعقلٍ آخر ، ولها أسسٌ وقيمٌ غير جماهيرية ، أما إذا كانت البلاد مسلمةً فأهمية القضية متزايدةٌ؛ لأنَّ هذا الشعب يؤمن بقيمٍ نزلت من السماء ، وهي مقتبسة من القرآن ، وهي مستفادةٌ من النبع الإلهي ، فغاية التربية في بلدٍ إسلامي هي أدقُّ وأكثر خطورةً من قضية التربية في بلادٍ أخرى ، فأقول لكم : إنَّ أول وأهم شيءٍ للمعلمين والمعلمات والمخطِّطين والمخطِّطات أن يوفِّقوا بين المخطط التعليميِّ وبين عقائد الأمة ، وقيمها ومثلها ، فالقيم التي فيها سرُّ سعادة البشرية ، فيها سرّ الازدهار والانتصار ، يجب أن يكون المخطط التعليمي وافياً مخلصاً ، بل خادماً لتلك القيم والمثل ، والتي أخرجت لها هذه الأمة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] والقرآن يقول : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٥] .

فيجب أن يكون نظام التربية هو الذي يغرس الإيمان في القلوب ، وإذا كان موجوداً فهو الذي يثبت ، ويغرس ، ويسقي ، ويغذِّي هذه

الإيمانيات ، وهذه المثل ، وهذه الأخلاق الإسلامية في قلوب الناشئة ، حتى ينشأ جيلٌ مثقفٌ يفهم الدين فهماً صحيحاً ، ويحبُّ الدين حبّاً عاطفياً ، وعقليّاً ، وهو مؤمنٌ بهذا الدِّين ، مقتنع به؛ لأنَّه الدين الأخير الذي يعرف رسالة الأمَّة ودورها في المجتمع في كلِّ زمان ، ويعرف ما واجبها ، يفهم كلَّ ذلك ، ويؤمن به ، ويتحمَّس له ، ويحسن نقله إلى الأجيال الآتية ، هذا هو المخطط التعليميُّ العاقل الفاضل الكامل ، أما المخطط الذي يحدث الاضطراب ، والصراع في المجتمع ، ويبذر بذور ثورةٍ حتى تكون الثورات ، يثور الجيش ، يثور المثقفون ، فلا تستطيع البلاد أن تزدهر وتتقدَّم ، فذلك نظام تربويٌّ فاشل ، فيجب علينا أن نختار المخطط التعليميَّ والتربويَّ موافقاً للأمَّة ومع عقائدها ونفسيتها ، ويكون الهدف خاضعاً لعقائدها ، ويكون علم السياسية ، وعلم الاقتصاد ، والتكنولوجيا ، في كلِّ ذلك انسجامٌ ، وفيه توافقٌ ، وبينه تعاونٌ على إسعاد هذا الشعب ، التعاون على أداء رسالة هذا الشعب ، وخدمة الإنسانية جمعاء ، والدعوة إلى الدين الصحيح ، إلى دين الحكمة ، إلى دين العدل.

فالنظام التعليميُّ غايته الأولى أن يغرس القيم والمثل في هذا الشعب ، وأرجو أن يجرِّب هذا النظام رجال التربية والتعليم ، ويوفقون بينه و بين هذه الحقيقة العقائدية الإيمانية وبين الفنون التربوية والعلمية في هذه البلاد.

والله وليُّ التوفيق.

* * *

عـلاقـة الـعلـم الإنسـانـيِّ بـالاسـم الـرَّبـانـيِّ ومسـؤوليـة الـمسلميـن

هذه المحاضرة ارتجلها العلاَّمة الندوي في اجتماعٍ عقده «منبر رسالة الإنسانية» في مدينة «إله آباد» (الهند) يوم ١٠/ ديسمبرً ١٩٨٩ م أمام حشدٍ عظيم من المثقفين والطلاب والجماهير. وبما أن المحاضرة تحمل قيمةً علميَّةً وتوجيهيَّةً نقدِّمها إلى القرَّاء معرَّبةً.

إنَّ المأساة الكبرى التي يواجهها العالم اليوم رغم تقدُّم العلم والحضارة ، وتوافر الثروة ، وارتفاع مستوى المعيشة ، ووجود الاتصالات بين مختلف الجاليات ، والطوائف والمجتمعات في العالم ، مردُّها انقطاع صلة العلم الإنساني بالاسم الرَّبانيِّ ، وقد كان يجب أن تبدأ مسيرة علم الإنسان بالبحث عن حقائق الكون ، والحياة ، والإنسان ، وتسير هذه المسيرة في نور الله ، وإرشاد التعاليم السماوية ، والتوجيه الربانيِّ ، لكن العلم قطع صلته بهذا النور ، وانفصل عن التوجيه الرَّبانيِّ ، بل تمرَّد عليه وثار ، فكانت نتيجة هذا الانفصال أن أدَّى العلم إلى الدمار والفساد ، ووجهت الوسائل التي اخترعها العلم إلى إفساد المجتمع ، وتشويه طبيعة الإنسان .

إنَّ السفر في الغابات والأدغال ، والأماكن الموحشة لا يحمل تلك الأخطار ، والمهالك ، التي يحملها سفر العلم بدون التوجيه الربانيِّ ، وكلَّما انقطع سفر الإنسان عن تعاليم خالق الكون ، ونوره ، وعن الغايات التي خُلق من أجلها ، ومسؤوليات الحياة في هذه المعمورة ، وعن الدور المعهود بالإنسان وحقوقه ، كلَّما انقطع سفر الإنسان عن هذه الغايات أو انحرف عنها ، كانت عاقبة هذا السفر الفساد والدَّمار .

لقد انتقلت قيادة العلم في هذا العصر إلى أوربا ، وتقدَّمت أوربا في العلم ، ولكن العالم اليوم يتعرض للمآسي ، والفتن ، من قتل النفس ، والطغيان ، والبغي ، كلُّ ذلك يرجع إلى انقطاع علم أوربا عن تعاليم خالق الكون ، فلا يسبب هذا التقدُّم في العلم بناء الإنسان وتثقيفه ، وإنما يسبب نشر الفساد والفوضى على أوسع نطاق .

إنَّ العلوم أقسامٌ وأنـواعٌ ، مثلاً صناعة الأقـفال علمٌ ، وكسر الأقفال أيضاً علمٌ ، ولكن علم كسر الأقفال يؤدِّي إلى التخريب ، وعلم صناعة الأقفال يؤدِّي إلى الجمع والحفظ ، وإذا سار العلمان معاً فإن العلم الذي

يكسر ويعلم وسائل السَّرقة والنهب يقضي على ما يحقِّقه علم الصنع والبناء.

وكذلك هناك علمٌ لبناء الحياة وتعميرها، وتوجيه خلق الإنسان وإرشاده، وهناك علمٌ لإفساد الأخلاق، وإثارة الغرائز السَّيِّئة، وتخريب ذهن الإنسان وتعليمه وسائل الطغيان، والتمرُّد، والجموح، فإذا وجد العلمان وترعرعا، ونالا قوَّةً، وجد التَّصارع، وغلبت قوى التدمير.

إنَّ شقاء الإنسان بدأ بانحراف العلم عن طريق الإرشاد الربانيِّ، فاتجهت حضارتنا إلى التخريب، لأنَّ الإنسان نسي كيف خُلق، ولماذا خُلق، وما يترتب عليه من واجبات، وسلوك ومناهج في حياته مع بني جلدته، وما هي مسؤولياته؟ ونسي أنَّه عبدٌ، وليس بمعبودٍ، وضعيفٌ وليس بقويٍّ، نسي أن العلم بدون سياجٍ خُلقيٍّ خطرٌ عظيمٌ.

لقد أوضحت الآية الأولى التي نزلت في القرآن الكريم الصلة القائمة بين العلم الإنسانيِّ والاسم الربانيِّ، إنها تؤكد ارتباط العلم بالذات الإلهية، بالخالق وخلقه للإنسان، ونشأة الإنسان، وموقفه إزاء العلم، فقال القرآن الكريم مشيراً إلى هذا الارتباط: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ١ ـ ٨].

أليس من الحقيقة أنَّ الفساد الذي ينتشر في عالمنا اليوم يصدر من طبقة العلماء أكثر مما يصدر من طبقة الجهلاء، وأنَّ مصدره العلم، وليس مصدره الجهل، فإنَّ العلماء يكتشفون بعلمهم مجالاتٍ للتخريب، والتدمير، وتلويث المجتمع الإنساني بالنزعات، والدوافع المفسدة، وإنَّ التقدُّم الذي حصل في الصناعة، والتكنولوجيا، يتَّجه إلى اختراع وسائل التَّدمير أكثر مما يوَجَّه إلى اختراع وسائل التعمير، لأنَّ العلم انقطع عن العقيدة الصحيحة، واستغنى عن الدين وتكاليفه، وصرف نفسه عن عواقب الأعمال، وخصائص الأعمال.

كان العرب أميِّين، فكان فسادهم محدوداً، ومقيَّداً، ينحصر على

مجتمعهم المحدود ، وبيئتهم الخاصَّة ، ولكن علماء هذا العصر سببوا بانحرافهم حروباً طاحنةً ، ومآسي عالمية النِّطاق ، ومجازر بشرية هائلةً كلفت الملايين من البشر .

لقد تقدَّم العلم في العصر الحاضر ، وأنشئت جامعاتٌ ، وانتشرت كلِّياتٌ ، وأصبح عدد العلماء يتدفَّق ، وأضحت وسائل الإعلام والتربية والتوجيه الذهني تتَّسع وتشمل المجتمعات الإنسانية في العالم كلِّه ، وتقدَّم فيها برامج يخططها ويرتبها ويعرضها أصحاب الكفاءات العلمية والفنِّيَّة ، ولكن ما هي نسبة التعمير ، وما هي نسبة التخريب في هذه الوسائل التي هي نتيجة العلم ، وما هي نسبة الجهل الناتج عن العلم الذي انحرف عن طريق العلم الرَّبانيِّ؟

إنَّ هذه الآية كلامٌ معجز ، نزلت في عصر عدم انتشار العلم ، لكنَّها تشير إلى عصر انتشار العلم ، وتوضح نتائج انفصال العلم عن الاسم الرَّبانيِّ ، كأنَّ الآية تخاطب إنسان هذا العصر ، إنسان عصر العلم المجرَّد ، وقد أثبتت التجارب أن انقطاع العلم سبب الطغيان ، والبغي .

لقد تقدَّم المسلمون في نشر العلم ، وسجَّلوا صفحات مجيدةً في البحث العلميِّ بارتباطهم بالدِّين ، فقد ترك المسلمون مكتباتٍ ضخمةً ومدارس في الأندلس ، وبغداد ، والقاهرة ، وإذا ألقينا النظر على منطقةٍ واحدةٍ؛ وجدنا الشغف بالعلم على قمَّته في أوساط العلماء الرَّبانيِّين ، فقد ألف مولانا عبد الحي اللكهنوي وحده ١١١ كتاباً ، وصنَّف الشيخ صديق حسن القنوجي ، أمير بوفال ٣٠٠ مؤلفاً ، أمَّا تأليف الشيخ أشرف علي النهاوي فتبلغ ألفاً ما بين صغيرٍ وكبيرٍ ، هذه بعض الأمثلة ، وهي لمنطقةٍ واحدةٍ ، وأمثال هؤلاء العلماء في التاريخ الإسلاميِّ كثيرةٌ .

وقد أشار الشاعر الهنديُّ الإسلاميُّ الدكتور أكبر الإله آبادي في شعره إلى هذه الحقيقة ، فقال ما معناه : «إنَّ الغوص في بحر العلوم الأوربية يثقِّف اللسان ، ولكن لا ينقِّي القلب» .

إنَّ تاريخ الغرب يدلُّ على هذه الحقيقة ، فإذا كان تقدُّم العلم المجرد ،

يكفي لتقدم الإنسان وسعادته لما واجهت أوربا المشاكل والصراعات التي تواجهها ، ولما تعرَّضت للمجازر ، والمآسي التي تعرَّضت لها .

لقد ربط القرآن الكريم العلم بالرحمة والكرم فقال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [الرحمن : ١ ـ ٢] و﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] فالله هو الرحيم الغفور ، الأكرم ، والعلم الذي يستنير من الاسم الرَّبانيِّ ، والاسم الرحمانيِّ لا يمكن أن يكون العلم الذي يخرِّب ، ويدمِّر ، ويفني ، وإنما يكون علم البناء ، والتعمير ، والتربية ، والتوجيه الإنسانيِّ .

كان هذا العصر عصر العلم ، وعصر القلم ، وعصر البيان ، ولم يكن عصر السيف والسِّنان ؛ لأنَّه عصر الحضارة ، والمدنية ، انتشرت فيه الكتابة والقراءة ، ولكن من سوء تدبير الإنسان تحوَّل العلم إلى وظيفة السَّيف والسِّنان ، ووجّه الإعلام إلى وظيفة السيف والسنان ، وترك البناء والتعمير ، فيخدم العلم في هذا العصر ما كان السيف يخدمه في العصر الماضي ، عصر الجهالة ، والظلام ، ولا يمكن تحويل اتجاه العالم اليوم من طريق الهدم إلا بتحويل العلم إلى الاستفادة من الاسم الرَّبانيِّ .

وأوجه في ختام الموضوع انتباهاتكم إلى أمور ثلاثة :

١ ـ تربية النشء الجديد تربيةً دينَّيةً ، وإيجاد الوعي والشعور الدِّينيِّ ، والمسؤولية الدِّينية والشعور بالانتماء إلى الأمَّة الإسلامية ذات الرسالة الإنسانية الخالدة ، والتمسك بالثقافة الإسلامية ، واعتبار كلِّ شخصٍ أنَّه مسؤول عن أسرته ، وبيئته ، فيوجه عنايته إلى إصلاح كلِّ فساد ، وإلى توجيه بيئته إلى طريق الخير والبناء ، إنه لمسؤوليةٌ يتحمَّلها كلُّ فردٍ وجماعةٍ من المسلمين باعتبارهم أفراد أمة هدايةٍ ، ولا ترجع هذه المسؤولية إلى الحكومات .

٢ ـ إنَّ اللغة الأردية[1] تحمل الثروة الغنية للثقافة الإسلامية والفكر

---

(١) ذلك لأنَّ اللغة الأردية هي لغة المسلمين في البلاد ، وقد نقلت كنوز علوم الشريعة =

الإسلاميِّ ، وثروةً علمَّيةً قلَّما يوجد لها نظير في اللغات الأخرى ، فلا بدَّ من صيانة هذه اللغة وحفظها من الفناء.

إنَّ الله تعالى وعد المسلمين بنصره إذا بذلوا مجهودهم فقال: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢] فإذا بذل المسلمون جهداً فإنَّ الله سيزيدهم قوَّةً.

٣ ـ الأمر الثالث: التخلق بالأخلاق الإسلامية فيجب أن تتوافر في المسلمين الخصال الطيبة ، والتقدُّم إلى الخير بوسائل الخير ، ويكون سلوكهم سلوك خير أمَّة لا سلوك الأمم الأخرى ، فإذا وجدت فيهم القدوة الحسنة ، وتوافرت فيهم الخصال الطَّيبة ، فإن الأمم الأخرى ستنظر إليهم باحترامٍ ، وتجدِّد ثقتها فيهم ، وتتغيَّر الأوضاع التي يعيشون فيها ، وإذا تحققتْ هذه الخصال ، وتجلَّت في حياة المسلمين ، فإنَّ كثيراً من المشاكل التي يواجهها المسلمون تنحلُّ تلقائياً ، بل يعيش المسلمون بعزَّةٍ وكرامةٍ ، ويعتبر وجودهم عنصر خيرٍ وبركة.

* * *

= والثقافة الإسلامية إليها على يد علماء المسلمين منذ عهدٍ بعيدٍ ، فلا بدَّ من الحفاظ عليها في خضم عملية التذويب والقضاء على التراث الإسلاميِّ والحضارة الإسلاميَّة في هذه البلاد.

فــي مهــد الإســـلام

ألقى العلامة الندوي هذا الحديث في إذاعة دلهي الهند في سلسلة أحاديث تحدَّث فيها العلامة الندوي عن مشاهداته وانطباعته على أثر زيارته للشرق العربيِّ ، عام ١٩٥١ م.

قالوا لي: حدثنا عن الحجاز وعهدك به قريب ، قلت: نعم:

.... إنَّ الحديث عن الحبيب حبيب

لا أتذكر ذلك اليوم الذي كان فيه ذكر مكة والمدينة جديداً على أذني ، وكان اليوم الأول الذي سمعت فيه عن مولد الرسول ومهد الإسلام ، وعن مدينة الرسول ومهاجره عليه الصلاة والسلام ، وقد نشأت شأن أولاد المسلمين في بيئة لا ينقطع عنها ذكر الحجاز وبلديه المشرَّفين. وكان أهل البلاد دائماً يسقطون حرف العطف في كلامهم الهندي السريع فيقولون «مكة مدينة» فكنت أتخيل وأنا طفلٌ صغيرٌ أنهما بلدٌ واحد ، وقلما ذكروا مكة إلا وذكروا المدينة ، وكذا بالعكس ، فلم أميز بينهما إلا بعد ما كبرت سني ، وصرت أعقل ، وعرفت أنهما بلدان مستقلان بينهما مسافةٌ لا يستهان بها.

لقد سمعت في صغري عن الجنة ونعميها ، وسمعت بنفس الحنين وبنفس الإجلال عن الحجاز وبلديه ، فنشأت على الحنين إلى المجموع ، نشأت على الحنين إلى الجنة والحجاز ، فلما تقدَّمت فيَّ السنُّ عرفت أنَّ الجنة لا سبيل إليها في هذه الحياة ، فصبرت ، وتجلَّدت ، وعزيت نفسي ، أما الحجاز؛ فقالوا: الوصول إليه ميسور ، وقرأت أن قوافل الحجاج غاديةٌ رائحةٌ ، فلم أجد عنه عزاءً ، ولم أجد لنفسي عذراً في عدم الوصول إليه ، ثم تقدَّمت فيَّ السن أيضاً وقرأت سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتاريخ الإسلام فتجدد الشَّوق القديم ، واشتعل الحنين في الضلوع ، وحقق الله أمنيتي ، وتشرفت بالحجِّ والزيارة.

وقفت في هذا البلد الذي تحيط به جبالٌ جرداءُ سوداء ، لا يكسوها عشبٌ ، ولا خضرةٌ ، ولا تجوس خلالها الأنهار ، المتجرِّد عن كلِّ

ما يسترعي الاهتمام ، وعن كلِّ ما يشرح الصدر ، ويسرُّ النفس من فتنة المناظر ، وجمال الطبيعة ، ورقة الهواء ، وعذوبة المياة ، فقلت : ما أفقر هذا البلد في المظاهر ، وما أكبر فضله على الإنسانية والعالم المتمدن! فلولا هذا البلد الذي لا يتطاول بالمظاهر والمناظر لكان العالم قفصاً ذهبياً يبقى فيه الإنسان طائراً سجيناً ، فهذا هو البلد الذي أخرج الإنسان من ضيق الدنيا إلى سعتها ، وأعاد إلى الإنسانية حرِّيَّتها وكرامتها ، ووضع عنها إصرها ، والأغلال التي كانت عليها.

وما قلت : لولا هذا البلد إلا وخطر ببالي أن أزن عواصم العالم ومدنها الكبرى كلّها في هذا الميزان العادل ، وأرى ماذا ينقص البشرية ، وماذا ينقص الحضارة لولا هذه المدن ، وعرضتها أمامي بلداً بلداً ، فرأيت أنَّ هذه المدينة إنما كانت تعيش لنفسها ، ولحفنةٍ من البشر ، وأنها لم تضف إلى ثروة الإنسانية شيئاً كبيراً ، وقد جنت على المدنية والإنسانية في مختلف أدوارها ، فكم أفقرت في سبيلها البلاد ، وكم شقيت أممٌ لسعادة أمَّة ، وشقيت أمَّة لسعادة أفراد ، فلا على الدنيا ولا على البشرية ولا على الحضارة إذا لم تكن هذه المدن في خريطة الأرض ، ولم تزدهر فيها المدنية ولا العمران.

أمّا لولا مكة لتجرَّدت الإنسانية من أجمل ما عندها من معانٍ وحقائق ، وعقائد وأخلاقٍ ، وعلومٍ وفضائل. هنا وجد العالم إيمانه الذي فقده منذ قرون ، ووجد العلم الصحيح الذي ضيَّعه في غياهب الجهل والظنون ، ووجد الكرامة التي أهدرها الطغاة والظالمون ، وبالإجمال هنا وجدت الإنسانية من جديد ، ووضع التاريخ من جديد.

ولكن مالي أقول : لولا مكة! أما كانت مكة بجبالها ورمالها بل ببيتها وزمزمها هذه القرون الطويلة التي تقدمت القرن السادس المسيحي لا تنكر من أمر هذه الإنسانية التائهة شيئاً ، ولا تمدُّ إليها يد المساعدة ، محصورة بين جبالها ورمالها ، تعيش في عزلةٍ عن العالم كأنها ليست من أسرة الإنسانية الشقيقة ، ولا رقعة من هذه الأرض الفسيحة؟ بل أحرى بي أن

أقول: لولا ابن مكة الذي تغيَّر به مجرى التاريخ ، وانقلب به تيار الحياة ، واستأنف العالم سيراً جديداً إلى نحوٍ جديد.

وهنا تمثلت لي مناظر مختلفة ، إنّي لأرى سيد قريش يطوف بالبيت وحده وهو موضع سخريةٍ واستهزاءٍ ، وتمتد إليه أيدٍ بالإهانة والإيذاء ، وهو مقبلٌ على عمله خاشعٌ متواضعٌ ، ثم أراه بعد ما ينتهي من طوافه يحاول الدخول في البيت ، فيأبى عثمان بن طلحة سادن الكعبة ، وينال منه ، فيحلم ، ويقول: «يا عثمان! لعلَّك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت!» فيقول: لقد هلكت قريش يومئذٍ ، وذلَّت! فقال: «بل عمرت وعزَّت يومئذٍ»(١) ثم كأنّي أراه يوم الفتح يطوف بالبيت وحوله جمعٌ من أصحابه الذين يفدونه بالأنفس والأرواح ويطلب سادن الكعبة فيقول: «هاك مفتاحك يا عثمان! اليوم يوم برٍّ ووفاء»(٢).

لقد شهد التاريخ أنَّه لم يملك المفتاح الذي استطاع أن يفتح به الكعبة فحسب ، بل ملك المفتاح الذي فتح به أقفال البشرية المعقدة التي أعيت عقلاء العالم كلهم ، ذلك المفتاح هو القرآن الذي نزل عليه ، والرسالة التي أكرمه الله بها ، والذي لا يزال يقدم مساعدته لفضِّ مشكلاتٍ جديدةٍ ، وفتح أقفالٍ جديدة.

وتوجَّهتُ بعد الحج إلى المدينة المنورة على جناح الشَّوق يحدوني حادي الحبِّ والوفاء ، أتحمل متاعب السفر ، وأتمثَّل ذلك الراكب الأول الذي ملأ الفضاء نوراً وسكينةً ، ووصلتُ إلى المدينة المنورة ، وصلَّيتُ ركعتين في مسجد الرسول ﷺ وحمدت الله على ذلك ، ثم وقفت وأنا مثقلٌ بمننٍ لا أستطيع أن أكافئها ، ولا أستطيع أن أقضي حقَّها ، وصلَّيتُ عليه ﷺ ، وسلَّمتُ عليه ﷺ ، وشهدتُ أنَّه ﷺ قد بلَّغ الرسالة ، وأدَّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله حقَّ جهاده ، وعبد الله حتى أتاه اليقين ، وسلَّمت على صاحبيه الوفيَّين الأمينين ، اللذين لم يعرف التاريخ البشريُّ

(١) سيرة ابن هشام ، فتح مكة.
(٢) سيرة ابن هشام ، فتح مكة.

صاحباً أوفى لصاحبه منهما ، ولا خليفة أقوى على حمل أعباء الخلافة منهما ، رضي الله عنهما ، وأرضاهما. ثم توجَّهت إلى البقيع ، تلك القطعة الصغيرة التي تحتضن أعظم ثروة في الصدق ، والصفاء ، والخلَّة ، والوفاء ، وهناك رجال آثروا الآخرة على الدنيا ، وآثروا الغربة والهجرة في سبيل الإيمان والعقيدة على البقاء في الوطن في سبيل الشهوة والراحة ، وآثروا جوار الرسول على جوار الأحبَّة والأقارب ، فلم يبغوا عنه حولاً ، ولم يطلبوا له بدلاً: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وتوجَّهتُ إلى أحد ، تلك القطعة التي مثَّلت أروع روايةٍ وأعظمها تأثيراً على تاريخ الإنسانية. رواية الإيمان واليقين ، رواية البطولة والوفاء ، رواية الحبِّ الظاهر ، والولاء النادر ، وكأنِّي أسمع من أنس بن النضر «إني لأجد ريح الجنة من دون أُحُد»[١] ويقول سعد بن معاذ: «ماذا نصنع بالحرب بعد محمد ﷺ» وقد طار في النَّاس أنَّه قُتِل ، فيقول أنس: «ماذا نصنع بالحياة بعد محمد ﷺ؟!» ، وهنا في أُحُد ترَّس أبو دجانة على رسول الله ﷺ بظهره والنبل يقع فيه ، وهنا ترَّس طلحة بيده حتى شلَّت ، وهنا قُتل حمزة ، ومثِّل به ، وقُتل مصعب بن عمير أنعم فتيان قريش عيشاً ، ولم يجدوا ما يكفِّنونه به إلا الكساء الذي لا يغطِّي كلَّ جسده ، يا ليت أحداً أعار العالم شيئاً من هذا الحبِّ والولاء ، وأهدى للعالم شيئاً من الإيمان واليقين ، فتبدلت الأرض غير الأرض والعالم غير العالم.

قالوا لي: حدثتنا عن القاهرة والحياة فيها ، وعن دمشق ورجالها ، فحدثنا عن الحجاز ، قلت: إنَّ الحديث عن الحجاز له لونٌ خاصٌّ ، إنَّه يدور حول رجله العظيم ، ويتَّصل برسالته ، وتاريخه ، فإنَّه حديث عن مهد الإسلام ، وبلد الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام.

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ، فتح مكة.

محمد إقبال في مدينة الرّسول ﷺ

ألقى العلامة الندوي هذا الحديث في إذاعة دمشق لدى زيارته لدمشق عام ١٩٥٦ م.

لقد عاش الدكتور محمد إقبال شاعر الإسلام وفيلسوف العصر ـ مدَّة حياته ـ في حبِّ النَّبيِّ ﷺ ، والأشواق إلى مدينته ، وتغنَّى بهما في شعره الخالد ، وقد طفحت الكأس في آخر حياته ، فكان كلما ذكرت المدينة فاضت عينه وانهمرت الدُّموع ، ولم يقدِّر له الحجُّ وزيارة الرسول ﷺ لجسمه الضعيف ، الذي كان من زمانٍ يعاني الأمراض والأسقام ، ولكنَّه رحل إلى الحجاز بخياله القويِّ ، وشعره الخصب العذب ، وقلبه الولوع الحنون ، وحلَّق في أجواء الحجاز ، وتحدث إلى الرسول الأعظم ﷺ بما شاء قلبه وحبُّه ، وإخلاصه ووفاؤه[1] وتحدث إليه عن نفسه ، وعن عصره ، وعن أمَّته ، وعن مجتمعه ، وقد فاضت في هذا الحديث قريحة الشاعر ، وانفجرت المعاني والحقائق التي كان الشاعر يغالبها ، ويمسك بزمامها ، وينتظر فرصة إطلاقها ، وقد رأى أنَّ فرصتها قد حانت ، وهذا أوانها ومكانها ، فخاطب نفسه بقول الشاعر :

حمامةَ جرعَى حَومة الجندلِ اسجعي   فأنت بمرأى من سعاد ومسمعِ

فكان شعره في النَّبيِّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه من أبلغ أشعاره وأقواها ، وكانت حشاشة نفسه ، وعصارة عمله وتجاربه ، وكان تصويراً لعصره ، وتقريراً عن أمته ، وتعبيراً عن عواطفه .

لقد قال محمد إقبال هذه الأبيات ، وهو يتخيَّل أنَّه مسافرٌ إلى مكة والمدينة ـ شرَّفهما الله ـ يهوي به العيس ، ويسير به الرَّكب على رمالٍ وعساء ، يتخيَّل بشدَّة شوقه وحبِّه أنَّها أنعم من الحرير ، وأنَّ كلَّ ذرَّةٍ من ذراتها قلبٌ يخفق ، فيطلب من السائق أن يمشي رويداً ، ويرفع بهذه القلوب الخفاقة ، ويحدو الحادي بما لا يفهمه ، فتثور أشجانه ، وتترنح أعطافه ، وتهيج شاعريته ، وتنطلق قيثارته بشعرٍ رقيق بليغٍ .

---

(١) ليس هذا الحديث من الاستعانة في شيء ، إنما هو أسلوبٌ من أساليب الشعر والحبِّ استعمله الشعراء قديماً وحديثاً .

ثم يسعد بالمثول بين يدي الرسول ، فيصلِّي ، ويسلم عليه بما يفتح الله به عليه ، وينتهز الفرصة ، فيحدثه عن نفسه وبلاده ، والفترة التي يعيش بها ، وعن أمَّته ، وعن الأزمات والمشاكل التي تعانيها ، وما فعل بها الزمان وطوارق الحدَثان ، وما فعلت بها هذه الحضارة الغربية ، والفلسفات المادِّية ، وما فعلت برسالتها والأمانة التي حُمِّلتها ، وأين هي من ماضيها وخصائصها ، يرثي لها تارةً ، ويبكي ، ويشكوها مرَّةً ، ويعاتب ، ويشكو غربته في وطنه ، ووحدته في مجتمعه ، وضيعة رسالته في أمَّته ، وقد سمَّى هذه المجموعة بـ «هدية الحجاز» كأنَّها هديةٌ حملها من الحجاز لأصدقائه وتلاميذه ، ولا شكَّ أنَّها هديةٌ مباركةٌ للعالم الإسلامي ، ونفحةٌ فائحةٌ من نفحات الحجاز.

يقوم الشاعر بهذه الرحلة الحبيبة ، وقد أربى على الستين ، ووهنت قواه ، في سنٍّ يفضِّل فيها الناس الراحة والإقامة ، فما باله يسافر وهو شيخ ، وقد أضعفه المرض والشيب ، والسفر إلى الحجاز شاقٌّ مضنٍ ، وقد نصحه الأطباء والأحبَّة بالراحة والهدوء ، ولكنه يعصيهم ، ويطيع أمر الحبِّ ، ويلبِّي منادي الشوق ، ويقول: «لقد توجهت إلى المدينة رغم شيبي ، وكبر سني ، أغني وأنشد الأبيات في سرورٍ وحنينٍ ، ولا عجب فإنَّ الطائر يطير في الصحراء طول نهاره ، فإذا أدبر النهار ، وأقبل الليل؛ رفرف بجناحيه ، وقصد وكره ليأوي إليه ، ويبيت فيه».

كأنه يقول: لماذا تعجبون إذا قصدت المدينة ـ وهي وكر طائر الروح ، ومأزر المؤمن ـ في أصيل حياتي ، وفي سنٍّ أشرفت فيها شمس الحياة على الغروب ، أما رأيتم الطائر إذا جنَّ الليل؛ أسرع إلى وكره؟!

بدأ محمد إقبال سفره وهو شيخٌ مريضٌ ، وسارت به الناقة بين مكة والمدينة سيراً حثيثاً ، وقد قال لها: «رويدك يا حبيبتي! فإنَّ راكبك لاغبٌ ، ومريضٌ ، وكبير السنِّ ، فمشت في نشوةٍ وطربٍ ، ولم تبال ، كأنَّ الصحراء حريرٌ تحت أرجلها».

يسير الشاعر في هذا الركب الحجازيِّ الذي يحدو بالصَّلاة على

النَّبيِّ ﷺ ، ويريد الشاعر أن يسجد سجدةً على هذه الرمضاء ، يدوم أثرها في جبهته طول حياته ، ويقترح ذلك على أصحابه وزملائه.

ويملكه الشوق ، فيحدو ، وينشد أبياتاً من شعر العراقيِّ[(١)] والجامي[(١)] فيتساءل الناس: من هذا الأعجمي الذي يغني ويحدو بلغةٍ لا نفهمها؟ ولكنها نغمة تشجي القلوب وتملؤها إيماناً وحناناً ، حتى يذهل الرَّجل في هذه الصحراء عن الغذاء والماء!.

ويلذُّ الشاعر بكلِّ ما يعتريه في الطريق ، من سهر وعناءٍ ، وقلة طعامٍ وشراب ، ولا يستطيل الطريق ولا يستبطىء الوصول ، بل يقترح على سائقه أن يأخذ طريقاً أطول حتى يعيش في هذه الأشواق ، وفي هذا الحنين مدَّةً أوسع ، وتشتدّ لوعة الفراق؛ لأنها زاد العشاق ، ونزهة المشتاق.

وهكذا يطوي محمد إقبال هذه المسافة في سرورٍ وحنينٍ ، حتى يصل إلى المدينة ، فيقول لزميله: «تعال يا صديقي! نبك سروراً ، ونتحدَّث ساعةً ، ونرسلِ النفس على سجيِّتها ، فإنَّ لنا شأناً مع هذا الحبيب الذي أسعدنا به الحظُّ بعد طول فراقٍ ، وشدَّة اشتياقٍ».

ويقبل على نفسه ، فيتعجَّب كيف اختص من بين أقرانه بهذه السعادة ، ثم يقول: «لا عجب ، فإن المحبين المتيَّمين أكرم هنا من الحكماء المتفلسفين ، يا سعادة الجد ، ويا حسن الطالع!! لقد سُمِحَ لصعلوكٍ مملوكٍ أن يدخل على السلاطين والملوك».

ولا يلبث محمد إقبال ـ وهو في هذا الفيض من السرور والسعادة ـ أن يذكر أمَّته المسلمة، والشعب المسلم الهنديِّ. يذكر آلامهما وآمالهما ، فيذكر كلَّ ذلك في بلاغة الشاعر ، وصدق الرائد ، وما أجملهما إذا التقيا ، يقول:

«إنَّ هذا المسلم البائس ، الذي لا تزل فيه بقيةٌ من شممٍ وإباء ، وأنفة الملوك ، وعزة الآباء ، لقد فقد مع الأيام ، يا رسول الله! لوعة القلب وإكسير الحبِّ. إنَّ قلبه حزينٌ منكسرٌ ولكنه لا يعرف سرَّ ذلك».

---

(١) شاعران فارسيَّان ، لهما قصائد وأبيات سائرة في الآفاق في مدح النبي ﷺ.

«ماذا أحدِّثك به يا رسول الله! عن آلامه ورزيئته ، حسبك أنَّه هوى من قمَّةٍ عاليةٍ ، إنَّه هبط من تلك العلياء التي وصلت به إليها ، وكلما ارتفع المكان الذي يسقط منه كان ألمه شديداً ، وكانت الصَّدمة عظيمةً ، فلطف الله بهذه الأمَّة المنكوبة الهاوية من قمَّة المجد العالية».

«إنه لا يزال الزمان يعاديه ، ولا يزال ركبه تائهاً في الصحراء ، بعيداً عن غايته ومنزله ، حسبك من هذه الأمَّة ، وما يسود فيها من الفوضى والاضطراب ، إنها تعيش من غير إمام».

«إنَّ غمده فارغٌ ككيسه ، فهو أعزل فقير ، إنَّ الكتاب الذي فتح به العالم ، وضعه في بيته الخرب ، على طاقٍ تراكمت عليه الأتربة ، ونسج عليه العنكبوت».

«إنَّه أصبح ـ بطول عهده بالمغامرات والبطولات ـ لا يفهم لغة المغامرين ، وإهابة الشجعان المجاهدين ، وقد أَلِف نغمة المغنِّين ، وعاش بين الزفرات والأنين».

«وإنَّ عينه فقدت النُّور ، وإنَّ قلبه حُرم السُّرور ، إنَّ رزيئته أنَّه يعيش ، ولا يعرف لذة الوصال والحضور».

ثم يذكرالفرق بين ماضيه العظيم الذي كان فيه موضع رعايةٍ وعنايةٍ واحتفاء ، وحاضره القاسي الكالح ، وكيف صعب عليه أن يتقشف ، ويعتمد على نفسه ، ويكدح في الحياة ، وما أبلغ قوله :

«إنَّه طائرٌ مدلَّلٌ ، كنت تطعمه بيدك ، وقد ربَّيته بالفواكه ، فشقَّ عليه البحث عن رزقه وقوته في الصحراء».

ويتذكَّر محمد إقبال فتنة اللادينيَّة التي توجهت إلى العالم الإسلاميِّ ، ويعرف محمد إقبال ـ وهو من كبار علماء الفلسفة والسياسة وعلم الاقتصاد ـ أنَّ سببها النظر المادِّي البحت ، وخواء الرُّوح ، وبرودة القلب ، وباعثها هو الحياة المترفة الباذخة التي يعيشها كثيرٌ من الناس ، ويعتقد أنَّه لا سبيل إلى محاربة هذه اللادينيَّة ، والفلسفة الاقتصادية المادِّية إلا الحياة

التي تقوم على الحب والزُّهد ، والحياة التي كان يعيشها أبو بكر الصِّديق المحبُّ الزاهد ، فيتمنى للمسلمين هذه الحياة المثالية التي يسيطر عليه الحبُّ والزُّهد ، وإذا وجدت هذه الحياة اضطر الناس إلى تقديرها وإجلالها .

إنه لا يعلِّل انحطاط المسلمين بالفقر والضعف في المادة ، يل يعلِّله بانطفاء تلك الشعلة التي التهبت في صدورهم ، ويقول : «إنَّ أولئك الفقراء ـ المسلمين الأولين ـ لما عرفوا كيف يقومون أمام ربِّهم في صفٍ واحدٍ ، استطاعوا أن يمسكوا بتلابيب الملوك ، ولما انطفأت هذه الجذور في صدورهم ؛ انطووا على نفوسهم ، وأووا إلى الزوايا ، والتكايا» .

وإنَّه ليستعرض تاريخ المسلمين ، فيرى فيها ما يخجل كلَّ مسلمٍ ، يرى فيها ما لا يتَّفق مع الرسالة المحمَّدية وتعاليمها ومثلها العليا ، ويرى فيه من شركٍ وعبادةٍ لغير الله ، وخضوع للجبابرة والطغاة ما يتندَّى له الجبين حياءً ، يذكر «إقبال» ذلك كلَّه ، ويطرِّق رأسه حياءً وخجلاً ، ويقول في صراحةٍ واعترافٍ ، وبلاغةٍ وإيجاز : «إنَّ جملة القول : ما كنا جديرين بك يا رسول الله ! » .

يلقي نظرةً على العالم الإسلاميِّ ، وقد جال في أنحائه ، وعرف مراكزه ، فيشكو ضعفه ، وفقره المعنويَّ ، ويقول في إجمال : «إنَّ المراكز الروحية (الرباطات والزوايا) أصبحت فقيرةً لا تملك غذاء القلب ، ولا تحمل رسالة الحبِّ ، والمراكز العلمية (المدارس بمعناها الواسع) طغى عليها التقليد ، فهي تردِّد ما تلقنته في الماضي في غير إبداع وابتكارٍ ، وهي كثور الطاحون يدور في دائرةٍ واحدةٍ ، أما أندية الشعر والأدب فقد خرجت منها كئيباً حزيناً ، فليس في نغماتها وأفكارها ما يبعث الروح ، ويثير الطموح ، إنَّه شعرٌ باردٌ يخرج من قلبٍ باردٍ ، وأدبٌ ميِّتٌ يصدر عن أديب ميِّتٍ» .

ويقول : «قد ضربت في مشارق الأرض ومغاربها ، فوجدت المدن

تغصُّ بالمسلمين الذي يفرَقون من الموت ، أمَّا المسلم الذي يفرَق منه الموت؛ فلم أر له عيناً ، ولا أثراً».

ويذكر السرَّ في ضعف المسلمين ، وتشتُّت أهوائهم وخمودهم ، فيقول: «لقد شق عليَّ ما أراه من سوء حال المسلمين يوماً ، وشكوت إلى ربي ، فقيل: ألا تعرف أن هؤلاء يحملون القلوب ، ولا يعرفون المحبوب؟! يعني أنهم يملكون مادَّة الحبِّ ، ولكنهم لا يعرفون من يشغلونها به ويوجهونها إليه ، فقلوبهم تائهةٌ ، وعقولهم مضطربةٌ ، وجهدهم ضائعٌ ، وعملهم ضعيفٌ ، وحياتهم لا لذة فيها ولا سرور» وهي حياة من رُزِق القلب ، وحُرِم الحبَّ ، أو حياة من عرف الحبَّ وجهل المحبوب. إنها لا شكَّ حياة عذابٍ وشقاءٍ ، وحياة حيرةٍ وضلالٍ.

ولكنَّه رغم ذلك كلِّه غيرُ يائسٍ من المسلمين ، وغير قانطٍ من رحمة الله ، بل ينتقد رجال الدين في يأسهم من المسلمين ، وقطعهم الرَّجاء من نهضتهم ، وتعليقهم الأمل بغيرهم ، ويقول في عتابٍ وألم: «إنَّ أحوالهم وأحاديثهم تنمُّ عن أنَّهم يائسون من جميع أسباب الخير ، وأنهم متشائمون ، ينظرون إلى المسلمين وإلى الحياة بمنظارٍ أسود». ويقول: «إنَّ المسلم وإن كان قد تجرَّد عن أبهة الملك والسلطان ، ولكنَّ ضميره وتفكيره لا يزالان ضمير الملوك وتفكيرهم ، وإنَّه إن قدِّر له أن يعود إلى مركزه كان جماله جلالاً ، وكانت له سطوةٌ لا تطاق».

وهنا يقبل محمد إقبال إلى نفسه ، فيحكي حكايتها ، ويشكو ما يعانيه من أهل عصره ومجتمعه ، يقول: «إنِّي أستحقُّ العطف والعناية ، فإنِّي في صراعٍ عنيف ، وحربٍ داميةٍ مع عصري المادِّيِّ».

ولا شكَّ أنَّ إقبال قضى حياته في صراع مع العصر الحاضر ، وقد كفر بالحضارة الغربية والفلسفة المادية ، وتحدَّاهما ، وانتقدهما ، وزيفهما في شجاعة وعلى بصيرة وخبرةٍ ، وقد كان مربي جيلٍ جديدٍ ، مؤمن بالله ، واثقٍ بنفسه ، معتدٍّ بشخصيته وشخصية الإسلام ، كافرٍ بالأسس المادِّيَّة والتفكير المادِّيِّ؛ الذي قامت عليه الحضارة الغربية ، وحقٌّ له أن يقول:

«لقد أذَّنتُ في الحرم ، كما أذَّن بالأمس جلال الدين الرومي ، فقد تعلَّمت منه أسرار الروح والحبِّ. لقد كان ثائراً على فتن عصره ، وكنت ثائراً على فتن عصري».

ويذكر تمرُّده على العلوم الغربية ، وتفلته من شباكها ، واحتفاظه بعقيدته ، وإيمانه وخصائصه ، ويقول بحقٍّ وجدارةٍ: «كنت كطائرٍ يقع على شبكة ، فيقرض الحبال ، ويأخذ الحبَّ ، ويطير بسلامٍ» وكذلك كان ، فقد ظفر بلب العلوم الغربية ولبابها ، ورمى بقشورها ، وخرج من حبائلها سالماً.

ثم يقول في افتخارٍ واعتزازٍ: «يعلم الله! أنِّي دخلت في أعماق هذه العلوم ، واكتويت بنارها من غير أن أرزأ في عقيدتي ، وخلقي ، وصلتي بك ، وقد جلست في نارها بشجاعةٍ ، وخرجت منها بسلامةٍ ، كما كان شأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع نار نمرود».

وهنا يتذكَّر الشاعر حياته التي قضاها في عواصم أوربا ، بين الكتب الجافَّة ، والفلسفة الدقيقة ، والعلم الواسع ، والجمال الفاتن ، والمظاهر الخلابة ، فيقول: «لقد بقيت هذه المدة ذاهلاً عن نفسي ، جاهلاً لشخصيتي ، حتى لما وقع بصري عليَّ لم أعرف نفسي».

يقول: «لقد اقتطفت من علوم الغرب شيئاً كثيراً ، وتناولت من خمر حانته كأساً دهاقاً ، يا له من صداعٍ اشتريته! لقد عشت بين علمائه وفلاسفته ، وبين غيده الحسان ، يا لهاً من فترةٍ مظلمةٍ قضيتها من حياتي! حرمت فيها لذة الحبِّ ونعيم القلب ، إنَّ دروس الحكماء قد صدعت رأسي ، وكدرت بالي ، ذلك لأني نشأت في حضانة الحبِّ والإيمان ، فلا يناسبني ، ولا يملأ فراغ نفسي إلَّا العاطفة والحنان».

وهنا يقبل الشاعر إلى الطبقة التي تمثِّل العلم والدين ، فينتقد فيها الجفاف ، واتساع العلم ، وتضخمه على حساب العاطفة والحبِّ ولوعة القلب ، فيقول: إنَّ العالِمَ الدِّينيَّ لا يحمل همّاً ، إنَّ عينه بصيرةٌ ، ولكنَّها

جافة لا تدمع ، لقد زهدتُ في صحبته؛ لأنَّه علمٌ ولا همٌّ ، وأرضٌ مقدَّسةٌ ولا زمزم».

لقد شبهه محمد إقبال بالحجاز ، لأنه يحمل علماً كثيراً ، وعقلاً كبيراً ، ولكنه مع الأسف رمال جافَّة ، وجبال جرداء ليس فيها زمزم ، ومكة ببيتها وزمزمها ، ليست برمالها وبطحائها وجبالها فحسب ، فما أفقر العالِمَ الدينيَّ الذي يحمل علماً جمَّاً ، ولساناً بليغاً ، وعقلاً مستنيراً ، ولا يحمل دمعةً في عينه ، ولا لوعةً في قلبه ، إنه أخذ من الأرض المقدسة خشونتها وصلابتها ، ولم يأخذ منها رطوبتها ونداها.

ثم يحكي عن نفسه ، ويقول: «إنني لم أبع نفسي وضميري لأحدٍ ، ولم أستعن بأحدٍ في حلِّ مشاكلي ، ذلك لأني اتكلت على غير الله مرَّةً واحدةً ، فسقطت عن مقامي ، وعوقبت بالهوان مئتي مرَّة».

ويندفع يشكو عصره ومجتمعه في حزنٍ وألم ، فيقول: «إني أحترق بنار شوقي وحبِّي ، وأستغرب أنِّي خُلقت في عصرٍ لا يعرف الإخلاص ، ولا يعرف سوى المادة والأغراض ، في عصرٍ لم يعرف لوعة القلب ، ولم يذق لذة الحبِّ ، أنا غريب في الشرق والغرب ، أعيش وحدي ، وأغني وحدي ، وقد أتحدَّث إلى نفسي ، وأخفف من أشجاني وآلامي».

يقول: «إنَّ إخواني لم يعملوا بما قلت لهم ، إنَّهم لم يجنوا الرطب من نخل شعري ، إليك أشكو يا سيِّد الأمم! من أناس لا ينظرون إليَّ إلا كشاعر أو متغزلٍ.

لقد أمرتني يا رسول الله! أن أبلغ إليهم رسالة الحياة والخلود ، وأنشدهم بما ينفخ فيهم النشاط والروح ، ولكنَّ هؤلاء القساة يقترحون عليَّ أن أنوح الأموات في الشعر ، وأنظم تاريخ الوفاة ، فأين هذا مما أمرتني به؟!».

ويشكو في توجعٍ وحزنٍ عميقٍ ، زهد أبناء عصره في العلم ، الذي كان يحمله ، والرسالة التي يقوم بها في شعره ، ويقول: «عرضت قلبي عسى أن يستأسره أحدٌ ، فلم أر فيه راغباً ، ولا له طالباً ، وأبحت ثروتي ،

وما يحويه صدري فلم أر لها مقدِّراً ، فليعمر حبُّك قلبي ، وليشغل حديثك لساني ، فإنِّي لا أجد في العالم من هو أشد وحدةً وأعظم غربةً مني» .

ويختم قصيدته بأبيات يوجهها إلى المرحوم عبد العزيز بن سعود ـ باعتباره ملك الحجاز في عهده ـ وهو خطابٌ موجَّهٌ إلى جميع ملوك العرب ، وزعمائهم ، وعظمائهم ، يحذره من الاستعانة بالأجانب والدول الأوربية ، ويدعوه إلى الاعتماد على الله ثم على ما عنده ، يقول : «اضرب خيمتك حيث شئت في الصحراء ، ولتكن خيمتك قائمةً على عمدك وأطنابك ، ولا تنس أنَّ استعارة الأطناب من الأجانب حرامٌ» .

* * *

وفود الأمّة بين يدي نبيِّها ﷺ

هذا الحديث ألقاه العلامة الندوي في إذاعة المملكة العربية السعودية في جدَّة عام ١٩٦٢ م.

عفا الله عن المؤرِّخين والمشتغلين بالتاريخ ، إنَّهم لا يفارقهم الشعور التاريخي والتفكير التاريخي في أقدس مكانٍ وأفضل زمانٍ. إنَّهم أينما كانوا يعيشون فيما درسوه ، ويصلون الحاضر بالماضي.

كنت أمس في الروضة في المسجد النَّبويِّ ، وحولي جمعٌ حاشدٌ من المصلين ، والمتعبدين ، بعضهم في ركوع ، وبعضهم في سجودٍ ، ولتلاوة القرآن دويٌّ كدويِّ النَّحل ، كلُّ ذلك كان جديراً بأن يشغلني عن التفكير في التاريخ وفي رجال الماضي ، ولكن سحابةٌ غشيتني من الذكريات القديمة لم أستطع لها دفعاً ، ولم أملك لها قهراً.

رأيت كأنَّ عظماء هذه الأمة عاشوا من جديدٍ ، وجاؤوا وفوداً يصلُّون في هذا المسجد العظيم ، ويسلمون على هذا النَّبيِّ الكريم ، ويقومون بواجب الإجلال والتكريم ، والامتنان والاعتراف بالجميل ، يشهدون له على اختلاف طبقاتهم ، بأنَّه هو الذي أخرجهم بإذن الله من الظلمات إلى النُّور ، ومن الشَّقاء إلى السعادة ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ويشهدون على أنفسهم بأنّهم غرس الإسلام ، وزرع النُّبوَّة ، وأنَّهم ـ لا سمح الله ـ لو تجرَّدوا مما أكرمهم الله به عن طريق هذا النَّبيِّ ، وممَّا أتحفتهم به نبوته ، لعادوا أجساداً بلا روح ، وخطاً بلا وضوح ، ولعادوا إلى عهد الظلمات ، وشريعة الغابات ، وقانون العصابات ، وانطمست معالم هذه الحضارة.

حانت مني التفاتةٌ ، فرأيت فريقاً يدخل من باب جبريل ـ وهو أقرب الأبواب إليَّ ـ عليهم السكينة والوقار ، يعلوهم نور العلم ، وسيما التفكير ، وقد ملؤوا الرحاب بين باب جبريل باليسار إلى باب الرحمة باليمين ، منعت كثرتهم عن العدِّ والتشخيص ، سألت البواب عنهم ، فقال: هؤلاء أعلام الأمَّة ، وأئمة العلم ، وعباقرة الإنسانية ، ونوابغ الوجود ، كلُّ واحدٍ منهم إمام أمَّة ، ومؤسس مكتبة ، ومبتكر علمٍ ، ومربي جيلٍ ، قد خلدت آثارهم ، فامتدت على العصور والآفاق ، وسارت في

ضوء علومهم واجتهادهم وتحقيقهم الأجيال بعد الأجيال ، وقد سمَّى منهم على عجلٍ واحتشام: مالك بن أنس ، وأبا حنيفة النُّعمان ، ومحمد بن إدريس الشافعيَّ ، وأبا عبد الله أحمد بن حنبل ، وليث بن سعد المصريَّ ، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعيَّ ، ومحمد بن إسماعيل البخاريَّ ، ومسلم بن حجاج القشيريَّ ، ومحمد بن محمد الغزاليَّ ، وتقيَّ الدين بن تيمية ، وموفق الدين بن قدامة ، وأبا إسحاق الشاطبيَّ ، وكمال بن الهمام ، وأحمد بن عبد الرحيم الدهلويَّ ، على تفاوتهم في الزمان والمكان ، وأصالة العلم وعلوِّ الشأن.

رأيتهم بدؤوا بتحية المسجد ، وصلُّوا ركعتين في خشوع وقنوتٍ ، ثم تقدَّموا إلى القبر الشريف في أدبٍ وتواضعٍ وسلَّموا على نبيِّهم ﷺ في كلماتٍ وجيزةٍ المباني ، كثيرة المعاني ، عميقة الجذور ، سامقة الذرى ، وكأني أسمعهم يقولون ، وفي عيونهم دموعٌ ، وفي صوتهم خشوعٌ: «لولاك يا رسول الله! ولولا شريعتك السمحة الواسعة الخالدة مع الزمان ، لولا أصولها المفتِّقة للقرائح ، ووضعها الحكيم المعجز ، الباعث على التفكير والتفريع ، ولولا حاجة الإنسان إليها في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، لما دون هنا هذا الفقه العظيم ، وهذا التشريع الحكيم الذي لا تحمله أمةٌ من الأمم ، ومجتمعٌ من المجتمعات البشرية ، ولما نشأت هذه المكتبة الدينية التي تتضاءل أمامها كلُّ مكتبات العالم الدِّينية ، ولولا جهادك في سبيل نشر العلم ، والحثِّ على استعمال العقل والتدبر في آيات الله؛ لما عاش العلم ، وانتشر هذا الانتشار الواسع ، ولما أطلق العقل الإنسانيُّ من إساره ، وسار العالم في آثاره».

ولم أكن قد قضيت لبانتي من هذه الجماعة حتى لفت نظري فريقٌ آخر يدخل من باب الرَّحمة ، عليهم سيما الصلاح والعبادة ، وفي وجوههم أثر التقشف والزهادة ، قيل لي: إنَّ فيهم الحسنَ البصريُّ ، وعمر بن عبد العزيز ، وسفيان الثوريَّ ، والجنيد البغداديَّ ، والفضيل بن عياض ، وداود الطائيَّ ، وابن السَّماك ، وعبد القادر الجيلانيَّ ، ونظام الدين

البدايوني[1] ، وعبد الوهاب المتقي[1] ، وأضرابهم اقتدوا بالأولين ، وتقدَّموا بعد الصلاة ووقفوا أمام المدفن الشريف ، يصلون على نبيِّهم ، وإمامهم ، وقدوتهم ، ويقولون : «لولا المثل العملي الذي ضربته في حياتك ، ولولا منارك الذي أقمته لمن يأتي بعدك يا رسول الله! ولولا قولك : «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» ووصيتك «كن في الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل» ولولا حياتك التي وصفتها لنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، «وطلوع هلالٍ بعد هلالٍ ، ومرور شهرٍ بعد شهرٍ لا توقد في بيتك نارٌ ، ولا تنصب لها قدر» لما كان لنا أن نؤثر الآخرة على الدنيا ، وأن نكتفي ببلغةٍ من العيش ، وكفافٍ من الزاد ، ولما كان لنا أن نتمرَّد على الشهوات ، ونقاوم إغراء الأموال ، والمناصب ، والحكومات ، في غير تحريم لما أحلَّ الله من الطيبات ، ومن غير تحقيرٍ لما مَنَّ الله علينا من النعيم ، ووسع لنا في الحياة ، ولكنَّه إيمان المؤمن وإيثارٌ للآخرة ونعيمها على الحياة الدنيا وطيباتها ، وعزوفٌ عن الشهوات ، وكراهةٌ للتكالب على حطام الدُّنيا» .

ولم أستوف كلماتهم الحكيمة المرققة حتى لفت نظري فريقٌ يدخل من باب النساء في حشمةٍ وتستُّر ، بعيدٍ عن كلِّ ما ينافي الإسلام وآدابه من الزينة الظاهرة ، والتبرُّج ، وتقدم هذا الفريق من المسلمات الصَّالحات ، من شعوب مختلفةٍ ، وبلادٍ متنائيةٍ ، من عجمياتٍ ، وعربيات ، وشرقياتٍ وغربياتٍ ، وتكلمْن في صوتٍ خافتٍ ، وأدبٍ ظاهرٍ : «نصلِّي ونسلِّم عليك يا رسول الله! تسليم من عظمت عليه منتك ، فقد أنقذتنا بإذن الله وحوله من تقاليد الجاهلية ، وظلم المجتمع ، وجور الرِّجال ، وحرمت وأد البنات ، وحذَّرت من عقوق الأمَّهات ، وقلت : «الجنة تحت أقدام الأمَّهات» وأشركتنا في الإرث ، وبيَّنت نصيبنا أمّاً ، وأختاً ، وبنتاً ، وزوجاً ، ولم تنسنا في خطبتك العظيمة يوم عرفة ، فقلت : «فاتقوا الله في النِّساء ، فإنكم أخذتموهنَّ بأمان الله» إلى غير ذلك مما حثثت به الرجال على الإنصاف

---

(١) عالمان ربَّانيان ، ومن كبار الزُّهاد والمربين ، ولدا ونشأا في الهند.

للنساء ، وأداء حقوقهن ، وحسن عشرتهن ، جزاك الله عن جنسنا أفضل ما يجزي الأنبياء والمرسلين ، وعباد الله المحسنين».

ولم ينقطع عن أذني هذا الصوت الرَّخيم حتى سمعت حسيس قومٍ يدخلون من باب السَّلام ، والتفت إليهم ، فإذا هم مبتكرون للعلوم ، ومدوِّنون للفنون ، أئمة النحو ، واللغة ، والبلاغة ، فيهم أبو الأسود الدؤليُّ ، والخليل بن أحمد ، وسيبويه ، والكسائيُّ ، وأبو علي الفارسيُّ ، وعبد القاهر الجرجانيُّ ، والسَّكاكيُّ ، وابن منظور ، ومجد الدين الفيروز آباديُّ ، وسيد مرتضى الزبيديُّ ، يريدون أن يبلغوا تحية علومهم ، ويدفعوا ضريبة ما عاشوا عليه واشتهروا به ، وسمت مكانتهم بفضله ، وسمعتهم يقولون في بلاغةٍ وأدبٍ: لولاك يا رسول الله! ولولا الكتاب الذي نزل عليك ، ولولا حديثك الذي نطقت به ، ولولا هذه الشريعة التي دانت بها الأمم ، واحتاجت لأجلها إلى تعلم اللغة العربية ، والتفقُّه فيها؛ لما نشأت هذه العلوم التي كتب لنا شرف الزعامة فيها ، ولما كان نحوٌ ، ولا بيانٌ ، ولا بلاغةٌ ، ولما أُلِّفت هذه المعاجم الكبيرة ، ودقّق في مفردات اللغة العربية ، ولما جاهدنا في سبيلها هذا الجهاد الطويل ، ولما خضع العجم ـ وهم في سعةٍ من لغاتهم ، وغبطة بلهجاتهم ـ لدراسة اللغة العربية والتعمُّق فيها ، ولما كان منهم هؤلاء الأعلام الذي أقرَّ بفضلهم ونبوغهم أدباءُ العرب ، وجهابذة الأدب ، فأنت الرابطة يا رسول الله! بيننا وبين هذه العلوم الناشئة في الإسلام ، النابتة في عهد رسالتك وإمامتك ، وأنت الرابطة بين العرب والعجم ، وأنت الذي ملأ الله بك هذا الفراغ ، ووصل البعيد بالقريب ، والعجميَّ بالعربيِّ ، فكم لك من فضلٍ على نبوغنا وعبقريتنا! وكم لك من فضلٍ على ثروة العلم ، ونتاج العقول ، ومحصول الأقلام!

ولولا أنت يا رسول الله! لطويت اللغة العربية فيما طوي من اللغات ، واندرس من اللهجات ، ولولا القرآن العظيم العربي المبين لتناولها المسخ والتحريف ، كما تناول اللغات الكثيرة ، وابتلعتها العجمة واللهجات المحلية ، وقضى عليها اللحن ، ولكنه هو وجودك ، وشريعتك الخالدة ، ودينك العالميُّ ، وكتاب الله المعجز الذي منعها من العَفاء والدروس ،

وفرض سلطانها وسيطرتها على العالم الإسلاميِّ كلِّه وغرس حبِّها وإجلالها في قلب كلِّ مسلمٍ ، فأنت الذي خلد الله بك هذه اللغة ، وضمن بقاءها ، وانتشارها ، وسلامتها ، فلك على كلِّ من ينطق بها ، أو يكتب فيها ، أو يعيش بها ، أو ينادي إليها فضلٌ لا يُجحد» .

ولم أنتبه من مقالتهم حتى استرعى انتباهي قومٌ يدخلون من باب عبد العزيز ، خليطٌ من البشر ، ومزيجٌ من الأمم ، فيهم أعظم سلاطين العالم ، وأعظم ملوكٍ عرفهم التاريخ ، فيهم : الوليد بن عبد الملك ، وهارون الرشيد ، ومحمود الغزنوي ، وملك شاه السلجوقي ، وصلاح الدين الأيوبيُّ ، والظاهر بيبرس ، وسليمان القانونيُّ العثمانيُّ ، وأورنك زيب عالمكير التيموريُّ الهنديُّ ، وقد نحَّوا الخدم ورجال الشرطة عنهم ، وتركوهم وراء الباب ، يتقدَّمون في هيبةٍ وتواضعٍ ، غضيضةٌ أبصارهم ، خافتةٌ أصواتهم ، واستعرضت أسماءهم ، وأدوارهم ، والدنيا الواسعة التي كانوا يحكمونها ، والسيطرة العظيمة التي كانوا يتمتعون بها ، فمنهم من كان يحكم دولةً لا تقطع في أقل من خمسة أشهر على أسرع جملٍ[١] ، ومنهم من قال مرَّةً لسحابةٍ مرَّت به : «أمطري حيث شئت . . . فسيأتيني خراجك»[٢] ومنهم من اتسعت مملكته حتى استطاع أن يأمر بأن يدفع إلى أصحاب سفن جيحون أقصى الشرق أجرتهم من مالية أنطاكية في أقصى غرب المملكة ، وحضر رسول القيصر ليدفع إليه الخراج ، فما تسلَّم منه إلا على باب كاشغر[٣] ومنهم من كان يُرهب في أوربا ، وتمتنع الكنائس من ضرب الأجراس إذا دخل المسلمون في بلادهم احتراماً لدينهم ، وإشفاقاً من سلطانهم[٤] ، ومنهم ، ومنهم ، ومنهم .

رأيتهم يتقدَّمون ليصلُّوا في مسجد الرسول ، ويسلِّموا على صاحبيه ،

---

(١) المراد به الوليد بن عبد الملك .

(٢) المراد به هارون الرشيد .

(٣) هو ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقيُّ .

(٤) هو سليمان بن سليم العثماني .

يعتبرون ذلك أعظم سعادةٍ لهم ، وأكبر شرفٍ ، ويتمنون لو رُفعت هذه الصلاة ، ولو قُبل هذا التسليم ويسمح لهم بالوقوف في مصلاه ، والوقوف أمام مرقد الرَّسول ، يقومون بواجب الإجلال والتكريم ، والاعتراف بالجميل ، رأيتهم يتقدَّمون إلى الأمام تقصر خطاهم ، وتتعثر أقدامهم ، والمهابة تملأ قلوبهم ، حتى وصلوا إلى الصُّفَّة ـ وهو مكان فقراء الصحابة ـ ووقفوا أمامها ينظرون إليها نظراً الإكبار والإجلال ، ونظر الحياء والاحتشام ، وصلوا بجوارها تحيةً للمسجد ، ثم تقدَّموا إلى القبر الشريف ، فسلَّموا على نبيهم كما شاء حبُّهم وإجلالهم ، وكما شاء علمهم وإيمانهم ، متأدبين بآداب الشرع ، متقيدين بشريعة التوحيد ، وسَمِعْتُهم يقولون: «لولاك يا رسول الله! ولولا جهادك ودعوتك التي وسعت الآفاق ، وفتحت البلاد ، ولولا دينك الذي آمن به آباؤنا فخرجوا به من حياة الخمول والهوان والعزلة عن العالم إلى حياة الشرف ، والطموح ، والمغامرة ، فأسَّسوا دولاً واسعةً ، وفتحوا بلاداً شاسعةً ، وجبوا الخراج من الأمم التي كانت تسوقهم بالعصا ، وترعاهم كالغنم ، فلولا هذا الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن الانطواء على النفس ، والحياة القبلية الضيقة إلى غزو العالم ، وفتح الأمم؛ لما ارتفعت لنا رايةٌ ، ولا رُويت لنا روايةٌ ، ولبقينا في صحارينا القاحلة ، وفي أوديتنا الضيقة المظلمة ، نتصارع ، ونتناحر ، يأكل القويُّ منَّا الضعيف ، ويظلم الكبير منَّا الصَّغير ، طعامنا أفقر طعامٍ ، وعيشنا أخسُّ عيش ، لا نفكِّر في مكانٍ أوسع من هذه القرية الصغيرة الَّتي نعيش فيها ، ولا في مجموع من البشر أكبر من هذه القبيلة الصغيرة التي نرتبط بها ، أسماك بُركةٍ ، وضفادع بئرٍ ، نعيش في عالمٍ من نفوسنا وتجاربنا المحدودة ، ونغنِّي بمجد آبائنا الجهلاء السُّفهاء ، ولكنَّك يا رسول الله! ألقيت علينا ضوءاً من دينك ، تفتَّحت به عيوننا ، وتوسَّع به خيالنا ، فخرجنا إلى أرض الله الواسعة نحمل دينه الواسع ، ورابطته الجامعة ، وأشعلنا مواهبنا الخامدة الجامدة ، نحارب الشرك والوثنية ، والجهالة والظلم ، فأسَّسنا هذه الدولة العظيمة ونعمنا ، ونعم أولادنا وإخواننا في ظلِّها قروناً ، وها نحن أولاء ، نقدِّم إليك تحياتنا ، ونقدِّم إليك

ضريبة الإجلال ، والتكريم ، والحبِّ ، والتعظيم ، وهي ضريبةٌ نقدِّمها طوعاً واختياراً ، ونتشرَّف بتقديمها ، ونعترف بتقصيرنا في جنب دينك الذي أسعدنا الله به ، وتطبيق أحكامه ، وتنفيذ قانونه ، ونستغفر الله تعالى ، إنَّه هو الغفور الرَّحيم» .

وقد كنتُ مصروفاً إلى هؤلاء الملوك ، أرى وجوههم الخاشعة ، وأسمع كلامهم الرَّقيق ؛ الذي لم أسمعه أبداً منهم ؛ إذا تقدَّم فريقٌ آخر مشى في صفوف الملوك من غير اكتراثٍ واهتمامٍ ، لا يخشى لهم سطوةً ، ولا يراعي لهم حرمةً ، فقلت : شاعرٌ أو ثائرٌ ، فإذا هو مجموعٌ من الفريقين ، فيهم : السيد جمال الدين الأفغانيُّ ، والأمير سعيد حليم ، والزعيم محمد علي الهنديُّ ، والشهيد حسن البنا ، والشاعر التُّركيُّ محمَّد عاكف ، والشاعر محمد إقبال ، وقدَّموا الأخير ترجماناً لهم يقول : «أشكو إليك يا رسول الله ! من قومٍ لا يزالون يعيشون في رفدك ، ويأكلون من فتات مائدتك ، وينعمون بالحرية والشرف في بلادٍ أنت حرَّرتها من حكومة الظالمين ، وأخرجتها إلى ضوء الشَّمس ، إنَّهم يحاولون أن ينقضوا الأساس الذي قامت عليه هذه الأمة العظيمة ، وهذا الصَّرح العظيم ، ويريدون أن يوزعوا أمتك الواحدة في قومياتٍ ، وعصبياتٍ كثيرة ، ويحيوا ما أمته ، ويبنوا ما هدمته ، ويرجعوا بهذه الأمة إلى الجاهلية التي أخرجتها منها للأبد ، ويقلِّدوا في ذلك أوربا التائهة الحائرة المفلسة ، ويبدِّلوا نعمة الله كفراً ، ويحلُّوا قومهم دار البوار ، إنَّ الصراع بين مصباحك المنير وشرارة أبي لهب قد عاد من جديد ، وقد انضم إلى معسكر أبي لهب كثيرٌ من الناطقين بلغتك ، وعادوا يتغنون بأمجادهم الجاهلية والأصنام التي حطمتها ، إنهم المطففون الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، نالوا منك كلَّ برٍّ عاشوا به ، وكل قوة اعتزُّوا بها ، ثم إنهم يأخذون بنواصي شعوبهم التي يحكمونها ، ويريدون أن يلقوها في أحضان أوربا وفلسفاتها الجاهلية من قوميةٍ ، واشتراكيةٍ ، وشيوعيَّةٍ .

ها هي الأوثان التي أخرجتها من جوف الكعبة تعود أو تعاد إلى الشعوب المسلمة البريئة بأسماء جديدةٍ ، وبثيابٍ جديدةٍ ، إنِّي أرى في بعض أجزاء

العالم العربيِّ الذي يجب أن يكون معسكرك ثورةً لا فاروق لها ، وردَّةً لا أبا بكرٍ لها. منِّي ومن جميع أصحابي الذين أتشرف بتمثيلهم ، والتعبير عما في ضمائرهم إليك أفضل التحيَّات ، وأشرف التسليمات ، وأؤكِّد لك ، وأُشْهِد الله على ما أقول: إنَّنا برآء من الزعماء والعظماء الذين ولوا وجوههم شطر الغرب ، وانصرفوا عن قبلة الإسلام وشطره ، والذين لا صلة لهم بك ، ولا شأن لهم بدينك ، إنَّنا ندين لك بالولاء والوفاء ، وسنظلُّ متمسِّكين بحبل الإسلام حتى يأتي وعد الله ، ونلقى ربنا».

ولم تنته هذه الكلمة المؤمنة البليغة حتى ارتفع صوت المؤذن عالياً على منائر مسجد الرسول ﷺ ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر . وأفقت من غفوتي ، وما كنت أسبح فيه من عالم الخيال والتاريخ ، وإذا بي أمام الواقع ، رجالٌ في الصلاة ، ورجالٌ في تلاوة القرآن ، وجموعٌ من المسلمين ووفود من العالم الإسلاميِّ ، تسلّم على الرسول ﷺ ، وخليطٌ من الأصوات والانطباعات والعواطف.

* * *

مـن غـار حــراء

هذا الحديث ألقاه العلامة الندوي من إذاعة المملكة العربية السعودية بمكة المكرمة عام ١٩٥٠ م عند زيارته الثانية للحجاز.

طلعتُ جبل النور ، ووقفتُ على غار حراء ، وقلت لنفسي : هنا أكرم الله بالرسالة محمداً ﷺ ، ونزل عليه الوحي الأول ، فمن هنا طلعت الشمس التي أفاضت على العالم نوراً جديداً ، وحياةً جديدة. إنَّ العالم ليستقبل كلَّ يوم صباحاً جديداً ، وما أكثر ما استقبل العالم صباحاً لا جدَّة فيه ولاً طرافة ، ولاخير فيه ولا سعادة! وما أكثر ما استقبل العالم صباحاً استيقظ فيه الإنسان ولم تستيقظ فيه الإنسانية ، واستيقظت فيه الأجسام ولم تستيقظ فيه القلوب والأرواح! وما أكثر النهار المظلم والصبح الكاذب في تاريخ العالم! ولكن من هنا طلع الصبح الصادق الذي أشرق نوره على كلِّ شيءٍ ، واستيقظ فيه الكون ، وتغيَّر مجرى التاريخ.

لقد كانت الحياة كلُّها أقفالاً معقَّدة ، وأبواباً مقفلةً ، كان العقل مقفلاً أعيا فتحُه الحكماءَ والفلاسفة ، كان الضمير مقفلاً ، أعيا فتحه الوعَّاظَ والمرشدين ، كانت القلوب مقفلةً أعيا فتحُها الحوادثَ والآيات ، كانت المواهب مقفلة أعيا فتحُها التعليمَ والتربية ، والمجتمع والبيئة ، كانت المدرسة مقفلةً أعيا فتحُها العلماءَ والمعلمين ، كانت المحكمة مقفلةً أعيا فتحُها المتظلِّمين والمتحاكمين ، كانت الأسرة مقفلةً أعيا فتحُها المصلحين والمفكِّرين ، كان قصر الإمارة مقفلاً أعيا فتحهُ الشعبَ المظلومَ ، والفلاحَ المجهود ، والعاملَ المنهوك ، وكانت كنوز الأغنياء والأمراء مقفلةً أعيا فتحُها جوعَ الفقراء ، وعري النساء ، وعويل الرضعاء ، لقد حاول المصلحون الكبار ، والمشترعون العظام فتح قفل من هذه الأقفال ، فخابوا ، وأخفقوا ، فإنَّ القفل لا يفتح بغير مفتاحه ، وقد ضيَّعوا المفتاح من قرونٍ كثيرةٍ ، وجربوا مفاتيح من صناعتهم ومعادنهم ، فإذا هي لا توافق الأقفال ، وإذا هي لا تغني عنهم شيئاً ، وحاول بعضهم كسر هذه الأقفال ، فجرحوا أيديهم ، وكسروا آلاتهم.

في هذا المكان المتواضع ، المنقطع عن العالم المتمدِّن على جبلٍ ليس بمخصبٍ ولا بشامخٍ تمَّ ما لم يتمَّ في عواصم العالم الكبيرة ، ومدارسه

الفخمة ، ومكتباته الضخمة ، هنا مَنَّ الله على العالم برسالة محمدٍ ﷺ ، وفي رسالته عاد هذا المفتاح المفقود إلى الإنسانية ، ذلك المفتاح هو الإيمان بالله ، والرسول ، واليوم الآخر ، ففتح به هذه الأقفال المعقدة قفلاً قفلاً ، وفتح به هذه الأبواب المقفلة باباً باباً ، وضع هذا المفتاح النبويُّ على العقل الملتوي ، فتفتَّح ، ونشط ، واستطاع أن ينتفع بآيات الله في الآفاق والأنفس ، ويتوصَّل من العالم إلى فاطره ، ومن الكثرة إلى الوحدة ، ويعرف شناعة الشرك ، والوثنية ، والخرافات ، والأوهام ، وكان قبل ذلك محامياً مأجوراً يدافع عن كل قضية حقّاً وباطلاً .

وضع هذا المفتاح على الضمير الإنسانيِّ النائم ، فانتبه ، وعلى شعوره الميت ، فانتعش ، وعاش ، وتحوَّلت النفس الأمَّارة بالسوء إلى نفس لوَّامة ، ثم إلى نفسٍ مطمئنَّةٍ ، لا تسيغ الباطل ، ولا تتحمَّل الإثم حتى يعترف الجاني أمام الرسول بجريمته ، ويلحَّ على العقاب الأليم الشديد ، وترجع المرأة المذنبة إلى البادية حيث لا رقابة عليها ، ثم تحضر المدينة وتعرض نفسها للعقوبة التي هي أشدُّ من القتل ، ويحمل الجندي الفقير تاج كسرى ويخفيه في لباسه ، ليستر صلاحه وأمانته عن أعين الناس ، ويدفعه إلى الأمير ؛ لأنه مال الله الذي لا تجوز الخيانة فيه ، كانت القلوب مقفلةً ، لا تعتبر ، ولا تزدجر ، ولا ترقُّ ، ولا تلين ، فأصبحت خاشعةً واعيةً ، تعتبر بالحوادث ، وتنتفع بالآيات ، وترقُّ للمظلوم ، وتحنو على الضعيف .

وضع هذا المفتاح على القوى المخنوقة والمواهب الضائعة ، فاشتعلت كاللهيب ، وتدفَّقت كالسيل ، واتجهت الاتِّجاه الصحيح ، فكان راعي الإبل راعي الأمم ، وخليفةً يحكم العالم ، وأصبح فارس قبيلة ، وبلد قاهر الدول ، وفاتح الشعوب العريقة في القوة والمجد .

وضع هذا المفتاح على المدرسة المقفلة وقد هجرها المعلِّمون ، وزهد فيها المتعلِّمون ، وسقطت قيمة العلم ، وهان المعلِّم ، فذكر من شرف العلم ، وفضل العالم والمتعلِّم ، والمربِّي والمعلِّم ، وقرن الدين بالعلم ، حتى كانت له دولةٌ ونَفَاقٌ ، وأصبح كلُّ مسجدٍ من المساجدِ ، وكلُّ بيتٍ من

بيوت المسلمين مدرسةً ، وأصبح كلُّ مسلمٍ متعلِّماً لنفسه ، معلِّماً لغيره ، ووجد أكبرَ دافعٍ إلى طلب العلم والدين.

وضعه على المحكمة المقفلة ، فأصبح كلُّ عالم قاضياً عادلاً ، وكلُّ حاكمٍ مسلمٍ حكماً مقسطاً ، وأصبح المسلمون قوّامين لله ، شهداء بالقسط ، وجد الإيمان بالله وبيوم الدين ، فكثُر العدل ، وقلَّ الجدل ، وفُقدت شهادةُ الزُّور ، والحكم بالجَور.

وضعه على الأسرة المقفلة ، وقد فشا فيها التطفيف بين الوالد وولده ، والأخ وإخوته ، والرجل وزوجه ، وتعدَّى من الأسرة إلى المجتمع ، فظهر بين السيد وخادمه ، والرئيس والمرؤوس ، والكبير والصغير ، كلٌّ يريد أن يأخذ ما له ، ولا يدفع ما عليه ، وأصبحوا مطففين ، إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم ، أو وزنوهم يخسرون ، فغرس في الأسرة الإيمان ، وحذَّرها من عقاب الله ، وقرأ عليها قول الله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء : ١] وقسم المسؤولية على الأسرة والمجتمع كلِّه ، فقال: «كلكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته»(١).

وهكذا أوجد أسرةً ، عادلةً ، متحابَّةً ، مستقيمةً ، ومجتمعاً عادلاً ، وأوجد في أعضائه شعوراً عميقاً بالأمانة ، وخوفاً شديداً من الآخرة ، حتى تورَّع الأمراء وولاة الأمور ، وتقشَّفوا ، وأصبح سيِّد القوم خادمهم ، ووالي الأمة كولي اليتيم ، إن استغنى؛ استعفَّ ، وإن افتقر؛ أكل بالمعروف. وأقبل إلى الأغنياء والتُّجار، فزهَّدهم في الدنيا، ورغَّبهم في الآخرة، وأضاف الأموال إلى الله ، فقرأ : ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد : ٧] وقرأ ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣] وحذَّرهم من الاكتناز ، وادِّخار الأموال ، وعدم الإنفاق في سبيل الله ، فقرأ عليهم : ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾

(١) حديث صحيح.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة : ٣٤ ـ ٣٥].

أبرز رسول الله ﷺ برسالته ودعوته الفرد الصالح المؤمن بالله ، الخائف من عقاب الله ، الخاشع الأمين ، المؤثر للآخرة على الدُّنيا ، المستهين بالمادَّة ، المتغلِّب عليها بإيمانه ، وقوَّته الروحية ، يؤمن بأنَّ الدنيا خلقت له ، وأنه خلق للآخرة ، فإذا كان هذا الفرد تاجراً؛ فهو التاجر الصدوق الأمين ، وإذا كان فقيراً؛ فهو الرجل الشريف الكادح ، وإذا كان عاملاً؛ فهو العامل المجتهد الناصح ، وإذا كان غنياً؛ فهو الغني السَّخيُّ المواسي ، وإذا كان قاضياً؛ فهو القاضي العادل الفهم ، وإذا كان والياً؛ فهو الوالي المخلص الأمين ، وإذا كان سيداً رئيساً فهو الرئيس المتواضع الرَّحيم ، وإذا كان خادماً أو أجيراً؛ فهو الرجل القويُّ الأمين ، وإذا كان أميناً للأموال العامَّة؛ فهو الخازن الحفيظ العليم. وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الإسلاميُّ ، وتأسَّست الحكومة الإسلامية في دورها ، ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلا صورة مكبَّرة لأخلاق الأفراد ونفسيتهم ، فكان المجتمع مجتمعاً صالحاً ، أميناً ، مؤثراً للآخرة على الدُّنيا ، متغلباً على المادة ، غير محكومٍ لها ، انتقل إليه صدق التاجر ، وأمانته ، وتعفف الفقير وكدحه ، واجتهاد العاملِ ، ونصحه ، وسخاوة الغني ، ومواساته ، وعدل القاضي ، وحكمته ، وإخلاص الوالي ، وأمانته ، وتواضع الرئيس ، ورحمته ، وقوة الخادم ، وحراسة الخازن ، وكانت هذه الحكومة حكومةً راشدةً ، مؤثرةً للمبادىء على المنافع ، والهداية على الجباية ، وبتأثير هذا المجتمع ، وبنفوذ هذه الحكومة وجدت حياةٌ عامَّة ، كلُّها إيمانٌ ، وعملٌ صالحٌ ، وصدقٌ ، وإخلاص ، وجدٌّ واجتهادٌ ، وعدلٌ في الأخذ والعطاء ، وإنصافٌ مع النفس والغير.

وقد ذهلت في حديثي لنفسي ، وتمثَّلتْ لي الحياة الإسلامية الأولى بجمالها وتفاصيلها كأني أشاهدها ، وأتنفس في جوِّها ، وانقطعت الصلة بيني وبين العالم المعاصر.

وحانت مني التفاتةٌ إلى هذا العصر الذي نعيش فيه فقلت: إنِّي لأرى أقفالاً جديدة على أبواب الحياة الإنسانية ، وقد قطعت الحياة مراحل طويلةً ، وخطت خطواتٍ واسعةً ، وتعقَّدت الحياة ، والتوت ، وتطوَّرت المسائل ، وتنوَّعت ، وتساءلتُ: هل يمكن فتح هذه الأقفال الجديدة بذلك المفتاح العتيق؟ وأبيت أن أحكم بشيء حتى أختبر هذه الأقفال ، وأضع عليها المفتاح ، ولمست هذه الأقفال بالبنان فإذا هي الأقفال القديمة بتلوينٍ جديد ، وإذا المشاكل نفس مشاكل العصر القديم ، وإذا المشكلة الكبرى وأساس الأزمة هو الفرد الذي لا يزال لبنة المجتمع ، وأساس الحكومة ، ووجدت أنَّ هذا الفرد قد أصبح اليوم لا يؤمن إلا بالمادة والقوَّة ، ولا يعنى إلا بذاته وشهواته ، وأنَّه يبالغ في تقدير هذه الحياة ، ويسرف في عبادة الذات ، وإرضاء الشهوات ، وقد انقطعت الصِّلة بينه وبين ربه ورسالة الأنبياء وعقيدة الآخرة ، فكان هذا الفرد هو مصدر شقاء المدنية ، فإذا كان تاجراً؛ فهو التاجر المحتكر النَّهم الذي يحجب السِّلع أيام رخصها ، ويبرزها عند غلائها ، ويسبب المجاعات والأزمات ، وإذا كان فقيراً؛ فهو الفقير الثائر الذي يريد أن يتغلب على جهود الآخرين بغير تعبٍ ، وإذا كان عاملاً؛ فهو العامل المطفف ، الذي يريد أن يأخذ ما له ، ولا يدفع ما عليه. وإذا كان غنياً؛ فهو الغنيُّ الشحيح القاسي الذي لا رحمة فيه ، ولا عطف ، وإذا كان والياً؛ فهو الوالي الغاشُّ الناهب للأموال. وإذا كان سيِّداً؛ فهو الرجل المستبد المستأثر الذي لا يرى إلا فائدته ، وراحته. وإذا كان خادماً؛ فهو الضعيف الخائن. وإذا كان خازناً؛ فهو السارق المختلس للأموال. وإذا كان وزير دولة ، أو رئيس وزارة ، أو رئيس جمهورية ، فهو الماديُّ المستأثر الذي لا يخدم إلا نفسه ، وجماعته ، ولا يعرف غيره. وإذا كان زعيماً ، أو قائداً؛ فهو الوطنيُّ ، أو القوميُّ الذي يقدِّس وطنه ، ويعبد عنصره ، ويدوس كرامة البلاد الأخرى ، والشعوب الأخرى ، وإذا كان مشترعاً؛ فهو الذي يسنُّ القوانين الجائرة ، والضرائب الفادحة ، وإذا كان مخترعاً ، اخترع المدمِّرات ، والناسفات. وإذا كان مكتشفاً؛ اكتشف الغازات المبيدة للشعوب ، المخرِّبة للبلاد ، والقنبلة الذرية ، التي تهلك

الحرث والنسل. وإذا كان فيه قوة التطبيق والتنفيذ؛ لم ير بأساً بإلقاء هذه القنابل على الأمم والبلاد.

وبهؤلاء الأفراد تكوَّن المجتمع، وتأسَّست الحكومة، فكان مجتمعاً مادِّيّاً، اجتمع فيه احتكار التاجر، وثورة الفقير، وتطفيف العامل، وشحُّ الغني، وغشُّ الوالي، واستبداد السَّيِّد، وخيانة الخادم، وسرقة الخازن، ونفعية الوزراء، ووطنية الزعماء، وإجحاف المشترع، وإسراف المخترع والمكتشف، وقسوة المنفذ، وبهذه النفسيات المادية تولَّدت أزماتٌ طريفةٌ، ومشاكل معقَّدةٌ، تشكو منها الإنسانية بثَّها وحزنها، كالسوق السوداء، وفشوِّ الرشوة، والغلاء الفاحش، واختفاء الأشياء، والتضخم النقديُّ، وأصبح الماكرون والمشترعون لا يجدون حلاًّ لهذه المشاكل، وأصبحوا إذا خرجوا من أزمة واجهوا أزمةً أخرى، بل إنَّ حلولهم القاصرة ومعالجاتهم المؤقتة هي التي تسبب أزماتٍ جديدة. وتنقلوا من حكومةٍ شخصيةٍ إلى ديمقراطية، إلى دكتاتورية، ثم إلى ديمقراطية، ومن نظامٍ رأسماليٍّ إلى نظام اشتراكيٍّ إلى شيوعيٍّ، وإذا الوضع لا يتغيَّر؛ لأنَّ الفردَ الذي هو الأساس لا يتغيَّر، ويجهلون، أو يتجاهلون في كلِّ ذلك أنَّ الفرد هو الفاسد المعوجُّ، ولو عرفوا أنَّ الفرد هو الأساس، وأنَّه فاسدٌ معوجٌّ؛ لما استطاعوا إصلاحه وتقويمه، لأنهم ـ على كثرة مؤسساتهم العلمية ودور التعليم والتربية والنشر ـ لا يملكون ما يصلحون به الفرد، ويقوِّمون اعوجاجه، ويحوِّلون اتجاهه من الشرِّ إلى الخير، ومن الهدم إلى البناء؛ لأنَّهم أفلسوا في الروح وتخلَّوا عن الإيمان، وفقدوا كل ما يغذي القلب ويغرس الإيمان، ويعيد الصلة بين العبد وربه، وبين هذه الحياة والحياة الأخرى، وبين المادة والروح، وبين العلم والأخلاق، وفي الأخير أدَّى بهم إفلاسهم الرُّوحيُّ، ومادِّيتهم العمياء، واستكبارهم إلى استعمال آخر ما عندهم من آلات التدمير؛ التي تبيد شعباً بأسره، وتخرِّب قطراً بطوله، حتى استهدفت الحضارة والحياة البشرية ـ إذا تبادلت الدول المتحاربة استعمال هذه الآلات ـ للنهاية الأليمة.

* * *

ميلاد عالمٍ جديد

هذا الحديث ألقاه العلامة الندوي من إذاعة دلهي (الهند) بدعوة من وزارة الإعلام الهندية بمناسبة شهر ربيع الأول.

إذا تساءلنا: ما هو اليوم ـ من أيام التاريخ ـ الذي يستحقُّ من الإنسانية أعظم تقديرٍ وإجلالٍ ، ويستحقُّ أن يُذكر فلا يُنسى ، ويستحقُّ أن يُعتبر اليوم الخالد ، والخط الفاصل في أدوار التاريخ ، وبين عهدٍ وعهدٍ ، بل بين عالمٍ وعالمٍ؟

وإذا تساءلنا : ما هو اليوم الذي تشترك في إجلاله ، والاحتفال به ، وإبداء السُّرور فيه الإنسانية على اختلاف طبقاتها ، واختلاف أممها وشعوبها ، واختلاف نزعاتها وفلسفاتها؛ لأنها سعدت فيه بعد شقاءٍ طويلٍ ، ونهضت فيه بعد عثرةٍ دامت قروناً؟

وإذا تساءلنا: ما هو اليوم الذي يعتبر ميلاد العالم الجديد ، وفاتحة العهد السعيد ، ورمز انتصار الفضيلة على الرذيلة ، وقوى الخير على قوى الشر ، والعدل ، والمساواة ، والرحمة والمواساة على الشقاوة والقساوة ، والهمجية والضراوة ، وانتصار الحياة المنظمة والشريعة الكاملة على شريعة الغابات وقانون العصابات ، وبالاختصار انتصار العلم والإيمان على الجاهلية بأوسع معانيها انتصاراً خالداً؟

وإذا تساءلنا: ما هو اليوم الذي ولدت فيه قوَّةٌ جديدةٌ نشيطةٌ لمكافحة الشرِّ وصدِّ تيار الفساد ، لتكوين المجتمع الجديد القائم على الإيمان والعمل الصَّالح والتقوى وخدمة الإنسانية ، مؤلفة من أفضل رجال «أقلُّ النَّاس تكلُّفاً ، وأبرُّهم قلوباً ، وأعمقهم علماً[(١)]» يغامرون بحياتهم ، وإمكانياتهم ، وما هم فيه من رفاهيةٍ ، وسعة عيشٍ ، وهناء بالٍ في سبيل سعادة المجموع البشريِّ ، وإخراجه من ظلمات العصر القديم إلى نور العصر الجديد ، ومن عبادة الناس جميعاً إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ويتحمَّلون في سبيله كلَّ غائلةٍ وخسارةٍ ، وكلَّ تطوُّرٍ

---

(١) من كلام سيدنا عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ في وصف الصحابة .

وانقلاب ، لا يثنيهم عن ذلك عداءٌ ، أو خلافٌ ، ولا يحملهم على عكس ذلك ودادٌ أو صداقة ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]؟

وإذا تساءلنا: ما هو اليوم الذي ولدت فيه الأمَّة العربية ولادةً جديدةً ، بل ولدت فيه لأول مرَّةٍ ، وظهرت على مسرح التاريخ أوَّل مرة ، واستحقَّت أن تسمَّى «الأمَّة» أول مرَّة ، فقد عاشت قبل ذلك قبائل متشتِّتةً ، وعصابات متناحرةً ، وسيادات متحاربةً ، وشعباً يعيش على حاشية الأمم ، وفي عزلة عن العالم ، لا شأن له في مجاري الأمور أو مصير الأمم ، وسياسة الدول ، ومناهج الحياة ، وأخلاق المجتمعات ، واتجاه الإنسانية وميولها ، ولا سهم له في المكتبة العالمية ، غير قصائد قيلت في حوادث محلِّية ، وأغراضٍ تافهةٍ ، تجلَّت فيها عبقرية اللغوية ، وحريته الفردية ، وقوته في التعبير وسعة لغته ، يقولها فتنتشر في باديته وحواضره ، وتبلغ أوج التقدير والاحترام ، فتعلَّق في الكعبة من غير أن يطلع عليها الأدباء والمثقفون في خارج الجزيرة العربية أو تنقل إلى لغات العالم المتمدن ، ويعرف هذا الشعب بصدق لهجته ، وقوة عارضته ، وجودة خياله ، وشغفه بالحرية ، والمساواة ، والبساطة ، والتقشف في الحياة ، وشدَّة القتال في الحروب ، وحسن الثبات ، والمحافظة على الأنساب ، أفضل أخلاقٍ وسجايا ومواهب يعرف بها شعب من شعوب البادية ، فإذا بهذا الشعب المنطوي على نفسه ، القابع في بطون جزيرته ، يصبح أمَّةً تقرِّر مصير الأمم ، وتغيِّر اتجاه العالم ، وتفرض على المجتمع الإنسانيِّ مدنيتها المقتبسة من الدين الجديد ، المتشعبة بروح التقوى والأمانة وتصبح لغتها المحضورة في جزيرتها لغة العالم الجديد المقدَّسة ، يحرص على دراستها وإتقانها والتفنن في علومها وآدابها كبار الأذكياء في العالم ، وتصبح معرفتها والتفقه فيها واجباً من واجبات الدين ، وشعاراً من شعائر المتدينين ، لا يبلغ بغيرها رجلٌ إلى ذروة الشرف ، ولا يقلّد منصباً من المناصب في القضاء والفتوى والتعليم؟

وإذا تساءلنا: ما هو اليوم الذي تجدَّد فيه الأمل في الإنسانية

ومستقبلها ، وغلب التفاؤل على التشاؤم المؤسس على المآسي والمهازل ، التي قام بها الإنسان في كلِّ بقعةٍ من بقاع البسيطة ، وفي كل أمَّةٍ من الأمم ، والمؤسس على سخافة الإنسان في العقل والعقيدة والعمل ، ومحاولته لتدمير المدنية وعبادة الإنسانية ، حتى يئس الإنسان نفسه من مستقبله ، وحرم نفسه حق البقاء وجدارة الحياة ، واستحقَّ العقوبة العاجلة ، وانقراض الجيل الإنسانيِّ ، ولكن بطلوع فجر هذا اليوم استحقَّ أن يفسح في أجله ، ويمدَّ في حياته ، ويعتمد عليه في بناء المجتمع الجديد ، وفي إحياء ما اندرس من الفضائل والمعاني السامية ، وفي إعادة كرامة الإنسان إلى الإنسان ، وفي الأخذ على يد الظالم والانتصار للمظلوم ، وفي الحياة الجديدة التي تليق بشرفه ، وتتَّفق مع غاية خلقه ، ومع أهداف هذا الكون ، وكان هذا اليوم تمديداً لحياة الإنسان على هذا الكوكب ، وفرصةً جديدةً له في البقاء والازدهار ، يدين لهذه المنَّة كلُّ من ولد بعد هذا اليوم ، وكلُّ من عاش في العصر الذي يليه؟

كان الجواب من غير نزاع ، ومن غير تردُّدٍ ، هو اليوم الذي ولد فيه محمد بن عبد الله بن عبد المطَّلب بن هاشم صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم.

إنه هو اليوم الذي وجدت فيه الإنسانية الإيمان الذي فقدته ، وأفلست فيه من مدَّةٍ طويلةٍ ، الإيمان بفاطر هذا الكون ، ووحدانيته ، والإيمان بمصيرها ، وبالبعث بعد الموت بعد ما يئست من مستقبلها ، وتهالكت على هذه الحياة وعبادة الشهوات ، والإيمان بسلسلة الرُّسل ، وهداة السبل ، بعدما تسلط عليها الدجالون المحترفون ، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدُّون عن سبيل الله ، والإيمان بقيمة الإنسان وكرامته بعدما أنكرتها ، وثارت عليها وامتهنتها أمام الأحجار والأشجار ، والحيوانات والأنهار ، والملوك والأمراء ، والأغنياء والأقوياء ، فأصبحت تؤمن بأنَّ الدنيا خلقت لها ، وأنها خلقت لله ، وأن لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ إلا بالتَّقوى ، كلُّ بني آدم من آدم ، وآدم من تراب ، وأصبحت تؤمن بالحقوق والواجبات ، فلكلٍّ حقٌّ وعليه واجبٌ ، وليكن

رفيقاً في المطالبة بحقه ، مقتصداً في التمتُّع به ، قوياً نشيطاً في أداء واجبه «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته» والنساء شقائق الرجال ، ولهنَّ مثل الذي عليهن بالمعروف ، إلى آخر ذلك من التعاليم المتَّزنة ، والتوجيهات الحكيمة ؛ التي جاء بها محمد ﷺ ، وبفضلها وُجِد المجتمع الرشيد السعيد الفاضل الكامل الذي لا يوجد له نظير في التاريخ ، وعلى أساسها يقوم هذا المجتمع في كلِّ عصرٍ ومصرٍ ، وفي كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

ولم يكن هذا اليوم ظهوراً لهذه المبادىء وتعريفاً بهذه التعاليم المتزنة والتوجيهات الحكيمة ، فقد كان ذلك مراراً في فتراتٍ مختلفة من الزمان ـ وإن لم تكن في هذا الطور الكامل ـ وكانت صيحاتٌ ترتفع حيناً بعد حين ، ثم تغيب في دياجير الظَّلام ، ويبتلعها المجتمع الفاسد ، لأنَّه ليس وراءها فردٌ يجازف لأجل ذلك بحياته ، وأسرته ، وكلِّ ما يتمتع به من شرفٍ ، ومركزٍ ، ومنعةٍ ، ولم يكن وراءها جماعةٌ تراهن في سبيل ذلك بكلِّ ما تملكه من حاضرٍ ، أو تؤمل فيه من مستقبلٍ ، ولكن البعثة المحمَّدية كانت مقرونة ببعثة أُمَّةٍ جديدةٍ ، أمَّة تعيش لهذه الدعوة المقدَّسة ، وتعيش على هذا الجهاد المقدَّس: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٠] أمَّةٍ تهب نفسها لهذه الدعوة ، وتربط حياتها بحياتها.

ويتزعَّم هذه الأمة الجديدة الخالدة ـ التي نيطت بها هذه الدعوة ـ العرب الذين آمنوا بصاحب هذه الرسالة الجدية بصدقٍ وإخلاصٍ ، ووضعوا أيديهم في يده ، وحكَّموه في نفوسهم وأموالهم وأملاكهم ، وأخضعوا له رغباتهم وإراداتهم ، فكانوا أصحابه الأولين ، وجند الله المنصورين ، وحملة هذه الدعوة ، وأمناءها ، ورسلها وأصحاب النصيب الأوفر في فقهها ووعيها ، والاستماتة في سبيلها ، وتحمل الخسائر والنكبات لأجلها ، حتى ارتبط مستقبل هذه الدَّعوة بمستقبلهم ، وبقاؤها ببقائهم ، حتى استطاع الرسول وساغ له أن يقول في ساحة بدر «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد»[١].

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ، غزوة بدر.

ومكَّن الله لهؤلاء العرب في الأرض ، وأعزَّهم بعد الذلِّ وأغناهم بعد الفقر ، وقوَّاهم بعد الضعف ، ووحَّدهم بعد الفرقة ، وأسبغ على لغتهم المحصورة في جزيرتهم القدسية الدينيَّة ، وكتب لها الانتشار في العالم ، وغرس حبَّها في القلوب ، حتى امَّحت أمامها كثيرٌ من اللغات ، وكانت لغة الشرق الأوسط الوحيدة ، ونطق بها بنو آدم من ضفاف دجلة إلى الجبل الأطلس ، وأصبحت لغة الدين ، والعلم ، والتأليف في العالم الإسلامي الجديد الفسيح ، ومُنح العرب مركزاً سيبقى معهم على رغم الحركات الشعوبية في العالم الإسلاميِّ ، والقوميات المتطرفة ما داموا متديِّنين بدين الإسلام ، مؤمنين بتعاليمه ، عاملين بفرائضه ، عارفين بمحمَّدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فضله ، ومنَّته ، مصدِّقين بأنَّه هو الذي نال به الإنسان الكرامة ، ونال به العرب الشرف والزعامة .

هذا هو العالم الجديد الذي يعيش فيه الناس ، ويغتبطون به ، ويتمتعون فيه بالحرية والمساواة ، وكثيرٍ من الحقوق التي كانت مهضومةً مهجورةً في العالم القديم ، وتتقدَّم فيه المدنية إلى الأمام ، وهذا هو العالم الذي يعيش العرب متمتِّعين بمركزٍ جديد ، وبحياةٍ جديدةٍ وبلادٍ لا صلة لهم بها إلا عن طريق الإسلام ، وطريق محمَّد عليه السلام ، ولا عهد لهم بها إلا بعد البعثة المحمَّدية على صاحبها الصلاة والتحية .

ولا نشعر في غالب الأحيان أنَّ مصدر هذا الانقلاب ، ومصدر هذه السعادة التي نتمتع بها جميعاً هو هذا الحادث السعيد الذي حدث في هذا اليوم ، ولادة محمَّد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم خاتم الرسل ، وإمام الكلِّ ، ومنير السبل .

إنَّ ذلك اليوم ، هو اليوم الذي يحقُّ أن تُنشد فيه الإنسانية في اعتزازٍ واهتزازٍ وبلاغةٍ وإيجازٍ :

وُلِـدَ الهُـدى فـالكـائِنـاتُ ضِيـاءُ وفـمُ الـزَّمـان تَبسُّـمٌ وَثَنـاءُ

* * *

النبيُّ الخاتم ، والدِّين الكامل ، وما لهما من أهميةٍ في تاريخ الأديان والملل

عقدت جامعة دار العلوم ـ ديوبند الإسلامية مؤتمراً في موضوع : القاديانية ، وبيان حقيقتها وخطرها أسمته «مؤتمر صيانة ختم النبوة العالمي» في ٢٤ ـ ٢٦ من صفر ١٤٠٧ هـ (٢٩ ـ ٣١ من أكتوبر ١٩٨٦ م) حضره كبار العلماء من شتَّى نواحي شبه القارة الهندية والمعنيين والمهتمين بالموضوع .

وإلى القراء هذه المحاضرة الَّتي ألقاها العلامة الندوي ، في أول احتفالاته (٢٤/ من صفر ١٤٠٧ هـ) في اللغة الأردوية ، لغة غالبية المحاضرين ولغة الشعب المسلم الهندي ، وكانت الكلمة مرتجلةً ، عفو الساعة ، وفيض الخاطر ، لم يعتمد فيها العلامة على مذكرةٍ أو نقولٍ ، إنما اعتمد على دراسته للموضوع دراسةً عميقةً مستوعبةً ، وهو صاحب كتاب «القادياني والقاديانية» الَّذي يعتبر عن المراجع الرئيسية في الموضوع في اللغات الثلاث ، العربية والأردوية والإنجليزية وصاحب كتاب «النبيُّ الخاتم» وهو من أفضل ما كتب سماحته في هذا الموضوع وأقواه. وعلى ذاكرته ، فأحال إلى المراجع ولخَّص النقول والمقتطفات التي استشهد بها ، وكان للمحاضرة أطيبُ الأثر وأعمقهُ في نفوس المستمعين الفضلاء .

الحمد لله ربِّ العالمين! والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النبيين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين .

أما بعد! فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

أيها السادة! الذي سأتحدث عنه الآن بصفتي دارساً متواضعاً للقرآن الكريم ، وتاريخ الأديان والملل ، دراسةً مقارنةً للديانات ، إنما يكون إشاراتٍ خاطفةٍ .

يا سادة! إنَّ دراسة القرآن الكريم تدلُّ على أن هناك أمرين يحملان أهمِّيَّةً قصوى فيما يتعلق بالدِّين ، وأنَّ الله عز وجل قد وعد بتحقيقهما ، والأديان تحتاج إليهما ، وهما : «نشر الدين» و«صيانة الدين» .

أمَّا الإسلام؛ فقد جاءت له في القرآن الكريم إشاراتٌ واضحةٌ إليهما ، فقد قال الله عزَّ وجلَّ فيما يتصل بنشره :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف : ٩] .

إنَّ قوله تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ تدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ الدين الإسلامي سيغلب الأديان كلَّها ، ليس يغلبها سياسياً فقط ، بل بقوة الحجَّة والبرهان ، وتسخير العقل والوجدان .

وقد جاء في موضع آخر تبشيراً للنَّبي ﷺ وإنباءً بانتشار دينه انتشاراً بالغاً ، ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [النصر : ١ ـ ٣] .

وقد تجلى منظر ﴿ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ في حياته ﷺ ، غير أنه تكرَّر ، وكثر في تاريخ الإسلام واتَّصل اتصالاً منقطع النظير .

وجاء في سورة النور:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور: ٥٥].

إنَّ التمكين في الأرض يتضمَّن التأكيد عن «نشر الدين» ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الحج: ٤١].

إنَّ هذه الكلمات زاخرةٌ بالمعاني، باعثةٌ للتفكير، وإنّ التاريخ يصدق ما انطوت عليه من الحقائق. وكذلك ضمن القرآن الكريم للإسلام بالصيانة والحفاظ، والإعلان الصَّارخ المدهش الذي شهد به التاريخ، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

إعلانٌ صريحٌ كلَّ الصراحة من الربِّ الأكرم: أنَّه هو الذي نزل القرآن، وهو الذي يضمن له الحفاظ والصيانة، شريعةً وأحكاماً، ولغةً وأدباً، وفهماً وتفسيراً، بل يضمن ببقاء شعوبٍ وبلادٍ تنطق بلغة القرآن، وتستخدمها، فلا بقاء للغة إلا ببقاء من يتكلم، ويتفاهم بها، ويغار عليها، وذلك يشمل بقاء آدابها وقواعدها، ومكتبتها، وحركة التأليف.

يا سادة! التاريخ يدلُّ ـ ولا أقول: إنَّ التاريخ تفسيرٌ للقرآن الكريم؛ لأنَّ ذلك يكون اجتراءً كبيراً، ولكنِّي أقول: إنه تصديقٌ له ـ على أنَّ الأديان الأخرى لا يُشكُّ في نجاحها فيما يتعلَّق بانتشارها، فقد فتح بعضُها في عهد قريب نصف الكرة الأرضية، وبعضها ربعها، وبعضُها عمَّ العالم من شرقه إلى غربه.

ومن بين الديانات التي تركت أثراً عميقاً على بلاد العالم، وعلى المجتمع البشري والفكر البشري، ديانتان جديرتان بالذكر ـ كما تؤكد دراسة تاريخ الديانات ـ البوذية والمسيحية.

أما البوذية فقد عمَّت آسيا الوسطى كلَّها ، ونفذت إلى أفغانستان وتركستان بما فيها سمرقند وبخارى ، وتدل الحفريات والاكتشافات على أنَّ الحضارة البوذية كانت قد سيطرت على المناطق الممتدة بين «باتلي بترا» في شرق الهند ، وبين ضفاف البحر الأبيض المتوسط في الغرب ، حتى تأثر بها النظام الحضاريُّ والفنُّ المعماريُّ ، إنَّ هذه الديانة قد بسطت نفوذها في رقعةٍ كبيرةٍ في العالم ، وانتشرت في الصين ، واليابان ، ولا تزال موجودةً في الصين ، وقد تسربت في تفكير علماء دياناتٍ أخرى متأخرةٍ ، وعلماء علم التوحيد والكلام والفلاسفة فيها.

وتليها المسيحية ، وبالتاريخ أؤكد أنها حقَّقت نجاحاً كبيراً في الانتشار والسيطرة ، فقد تخطَّت حدود فلسطين في وقتٍ باكرٍ ، وغزت أوربا ، ولما تنصَّر قسطنطين ، وتربَّع على عرش القياصرة في أوائل القرن الرابع المسيحيِّ ، وتنصَّر معه الانتهازيُّون ، وروَّاد الجاه والمناصب ، وكانوا مشركين وعبَّاد الأوثان في داخلهم ، أصبحت بتأثيرهم المسيحية مزيجاً من وثنيَّةٍ ، وديانة شركية ، وشعائر مسيحيَّة[1] ، وأصبحت ديانة روما الرسمية ، ودانت بها شعوبٌ أوربية ، وبلادٌ في القارة ، كانت تحت سيطرة بيزنطية السياسية والحضارية ، وأصبحت قسطنطينية عاصمتها الدوليَّة ، وانتشرت في بلاد الشام (بما فيها سورية ، وفلسطين ، ولبنان ، والأردن الحالية).

غير أنَّ هاتين الديانتين العالميتين ـ فيما يتعلق بصيانتهما ، وبقائهما ، واحتفاظهما بروحهما ، وأصالتهما ـ قد أخفقتا في ذلك بالقدر الذي نجحتا في الانتشار ، فإنَّهما لم تلبثا أن وقعتا فريستين للمؤامرات الداخلية والخارجية ، والتحريفات العقائدية ، والانحرافات العمليَّة.

إن تاريخ البوذية يدلُّ على أنَّ الديانة التي جاءت لإصلاح المجتمع ، والقضاء على التفرقة الطبقية والعرقية ، وثورةً على الوثنية المتطرفة ، لم

(١) راجع للتفصيل «الصراع بين الدين والعلم» لمؤلفه درابر.

تلبث أن تورَّطت في نحت الأوثان ، وعبادة الإنسان ، ونكتفي هنا بشهادةٍ واحدةٍ لعالمٍ متخصِّصٍ في تاريخ الديانات الهندية .

يقول الأستاذ الهندوكي الفاضل (C.V.Vaidya) سي . وي . ويديا ، في كتابه : «تاريخ الهند الوسطى» وهو يتحدَّث عن عهد الملك هرش الملك البوذي (٦٠٦ ـ ٦٤٨ م) :

«كانت الديانة الهندكية ، والدِّيانة البوذية وثنيتين سواءً بسواء ، بل ربما كانت الديانة البوذية قد فاقت الديانة الهندكية في الإغراق في الوثنية ، كان ابتداء هذه الديانة ـ البوذية ـ بنفي الإله ، ولكنَّها بالتدريج جعلت «بوذا» الإله الأكبر ، ثم أضافت إليه آلهةً أخرى مثل (Bodhistavas) على مرِّ الزمن ، لاسيما رسخت الوثنية قدميها في المدرسة البوذيَّة الفكرية التي تسمَّى «مهايانا» بالتأكيد ، وقد بلغت أوجها في الهند ، حتى أصبحت كلمة «بوذا» (Buddha) مرادفة لكلمة «الوثن» أو «الصنم»[(١)] ، في بعض اللغات الشرقية»[(٢)] .

وقد رأيت بأمِّ عيني المدينة التي اكتشفت من خلال الحفريات التي تمَّت في (Taxila) «تكسلا»[(٣)] فرأيت من تماثيل «بوذا» مؤسس البوذية (حوالي ٥٦٦ ـ ٨٦ ق . م) الكثرة الكاثرة التي تجعل نفس الإنسان تعافها ، وتقلص منها ، وإنِّي أستخدم هذا التعبير عن قصد ، حيث عشت لحظة هذه الحالة من الامتعاض والقلص عندما رأيت لبوذا مئاتٍ من التماثيل الصغيرة والكبيرة ، والدقيقة ، والعريضة ، والطويلة ، والقصيرة ، والجميلة ، والدميمة .

---

(١) مثل الفارسية واللغات المشتقة عنها كالأردوية ، فهي تعبير عن الوثن أو الصنم بكلمة «بت» وهذا التعبير منتشر في الشعر والأدب ، وكلام الناس في إيران والهند ، والناس في الهند يطلقون على «بوذا» كلمة «بدها» ، فيقولون : جوتم بدها» ، وكلمة «بده» و«بت» متقاربتان نطقاً ، وكتابة (نقلاً عن السيرة النبوية) للعلامة الندوي .

(٢) HISTORY OF MEDIAEVAL HINDU INDIA: C.V.VAIDYA. VOL .1,P.101

(٣) مدينة أثرية في ضواحي روالبندي وإسلام آباد في باكستان .

وعلى ذلك فإنَّ الديانة التي جاءت لمحو عبادة الأصنام ، تورَّطت هي عما قريبٍ في ذلك .

وهنا تتجلى قدرة الله عز وجل ، حيث إنَّ الحركة التي نهضت لمحو عبادة «بت» (الوثن) صارت فريسة عبادة «بده» في هذه السرعة العجيبة ، حتى صارت عبادة «بت» (الصنم) شعاراً لها ، وإنها هي التي وهبت الثروة اللغوية ، والفكر البشريَّ كلمةً جديةً هي كعملةٍ دولية ، متداولة في العالم ، وهي كلمة «بت» ، وكذلك عبادة الشخصية الخاصة ، وتقديسها ، وتركيز جميع الطاقات الفكرية ، والمراقبة على الإنسان الواحد ، إنما نشأ اتجاهها من البوذية ليس إلا . أما المسيحيَّة ، فقد اعترف المؤرخون المسيحيُّون بدورهم ، بأنها وقعت فريسة التحريف بالسُّرعة التي ينقطع نظيرها في تاريخ الديانات ومسيرتها ، فقد تورطت في القرن الأول في المؤامرة التي نسجها بولس الراهب (Saintpaul) ، في القرن المسيحي الأول ، فنشأت مسيحيةٌ جديدةٌ ، ونظامٌ عقائديٌّ واجتماعيٌّ ، ونظامُ عادةٍ جديدٍ ، لا يتّصل بسيدنا المسيح ، النبيِّ الصادق الداعي إلى التوحيد الخالص ، إلا بالاسم ، والمسيحية الجديدة هي عطاء «بولس» الراهب ، ولو قرأتم الكتب المؤلفة في هذا الموضوع حديثاً ، لعرفتم أنه لم تقع ديانةٌ ما فريسةَ المؤامرة التحريفية بالسُّرعة التي وقعت بها المسيحية ، يتحدَّث كاتبٌ مسيحيٌّ فاضلٌ عن مدى تغلغل عقيدة التثليث في المجتمع المسيحيِّ ، منذ أواخر القرن الرابع الميلاديِّ ، فيقول :

«تغلغل الاعتقاد بأنَّ الإله الواحد مركبٌ من ثلاثة أقانيم ، في أحشاء حياة العالم المسيحي وفكره ، منذ ربع القرن الرابع الأخير ، ودامت كعقيدةٍ رسميةٍ مسلَّمةٍ ، عليها الاعتماد في جميع أنحاء العالم المسيحيِّ ، ولم يرفع الستار عن تطور عقيدة التثليث وسرِّها ، إلا في المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي»[١] .

---

(١) ملخص ما جاء في «دائرة «المعارف الكاثوليكية الجديدة» مقال «التثليث المقدس» ج ١٤ ص٩٥ .

ويتحدَّث عالمٌ مسيحيٌّ (Ernest De Bunsen) فيقول:

«إنَّ العقيدة والنظام الدينيَّ الذي جاء في الإنجيل، ليس الذي دعا إليه السيد المسيح بقوله، وعمله، إنَّ مردَّ النزاع القائم بين المسيحيين اليوم وبين اليهود والمسلمين ليس إلى المسيح، بل إلى دهاء بولس ذلك المارق اليهوديِّ والمسيحيِّ، وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم (Essenie) والتمثيل، وملئه هذه الصحف بالنبوءات والأمثلة، إنَّ بولس في تقليده لاستفانوس (Stephen) داعي المذهب الإيساني، قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية.

إنَّه واضع ذلك المزيج من الأحاديث والقصص المتعارضة التي يحتوي عليها الإنجيل اليوم، والتي تعرض المسيح في صورةٍ لا تتَّفق مع التاريخ أصلاً، ليس المسيح، بل بولس، والذين جاؤوا بعده من الأحبار والرهبان، هم الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الدينيَّ الذي تلقاه العالم المسيحي كأساسٍ للعقيدة المسيحية الأرثوذكسية خلال ثمانية عشر قرناً[١].

وهنا يتجلَّى إعجاز القرآن، وإنِّي أعتقد أنَّ الكلمة الواحدة التي جاءت في القرآن الكريم تصف أبناء المسيحية، تكفي سبباً في إيمان دارسٍ منصف بالقرآن وإعجازه، وبصدق النَّبيِّ الأميِّ الذي دلَّ عليه، وكونه منزَّلاً من عند الله عز وجل، ما أروع الحقيقة التاريخية التي نطق بها القرآن الكريم على لسان أمِّيٍّ ولد في الصحراء، وعاش فيها، والتي يصدقها التاريخ في أدبٍ جمٍّ وفي خضوعٍ وانقيادٍ واستسلام، ويدهش المؤرخون عندما يفكرون في مدى صدق هذا التعبير.

وبالمناسبة أودُّ أن ألفت انتباهكم إلى أن هناك كثيراً من الألفاظ والكلمات فقدت ـ عندما انتقلت من لغتها الأصيلة التي ولدت فيها إلى لغاتٍ أخرى، كاللغة الفارسية والأردية ـ شيئاً كثيراً من قوتها، ووقع فرقٌ كبير في مفهومها الحقيقيِّ، لأنَّ الألفاظ والكلمات لها رحلةٌ تاريخيَّةٌ كرحلة

---

(١) ISLAM OR TRUE CHRISTIANITY P.128.

القوافل البشرية ، ورحلة الحضارات ، إنَّها تفقد كثيراً من طراوتها وغضارتها عندما تقوم بهذه الرحلة ، وتتفاعل مع أشياء كثيرةٍ جديدةٍ.

وعلى ذلك فإنَّ كثيراً من الكلمات التي استعارتها الأردية من العربية يصعب على الإنسان أن يفهمها في معناها الصحيح وقوتها الدافقة ، من بينها كلمة «الضلالة» فقد يُفهم منها معاني كثيرةً ، منها: فساد العقيدة ، وفساد الجهل ، والانحراف ، والحيد عن الطريق وما إليها ، وكلها ضلال ، ولكن كلمة «الضلال» أعمق معنى ، وأقوى أثراً ، وأبعد مدىً من هذا الضلال الجزئي المحدود. إنَّ دراسة الإنسان التاريخية ، وقوته الاستنتاجية ، وقدرته على استخلاص النتائج الصحيحة تعود حائرةً ومنقادةً عندما تلاحظ أنَّ النَّبيَّ الذي لم يدرس تاريخ المسيحية قط ، ولم تكن لديه وسائل معلوماتٍ عنها ، ولم تثبت عنه زيارة بلد مسيحيٍّ إلا لساعاتٍ معدوداتٍ ، كيف أجرى الله عز وجل على لسانه الحقيقة الكبرى الصادقة ، حيث قال لليهود: «المغضوب عليهم» بينما قال بالنسبة للمسيحيين: «الضَّالِّين»[1].

إنَّ هذه الكلمات وحدها تكفي دلالةً على كون القرآن الكريم منزلاً من الله عز وجل ، وكونه وحياً إلهياً ، حيث كان بالإمكان أن تستخدم للمسيحيين عشرات من الكلمات ، واللغة العربية من سعتها بالمكان الذي كان بالإمكان فيه أن تُستخدم خمسون كلمةً تؤدي هذا المعنى ، وكان بالإمكان أن تنطبق جميعاً على المسيحيين.

غير أن الله أراد فرقاً واضحاً مكشوفاً بينهم وبين اليهود؛ إذ أطلق على اليهود: «المغضوب عليهم» ومن قرأ تاريخهم شهد في ضوء التاريخ ، وفي ضوء اعترافاتهم ، هم ، ونظراً للأثر السلبيِّ التخريبيِّ الذي تركوه على

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره عن عدي بن حاتم ، قال سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؟ قال: «هم اليهود» ، قلت: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: «هم النصارى ، هم الضالون» . وعن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن المغضوب عليهم؟ قال: «اليهود» قلت : الضالين؟ قال: «النصارىٰ» قال ابن أبي حاتم: ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافاً . تفسير ابن كثير ص ٥٣ ـ ٥٤ ، ج ١ .

الأخلاقيات ، والاتجاهات ، والممارسات البشرية ، والمجتمع البشري ، ونظراً لما عاملهم به الله عزَّ وجلَّ ، والعصيان والبغي اللذين تميَّزوا بهما عبر التاريخ ، وحرموا من أجله نصر الله وعونه ، بأنَّه لا تنطبق عليهم كلمةٌ انطباق «المغضوب عليهم».

والذي يقرأ كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) أو يقرأ على الأقل كتاب (اليهودي العالمي) (The International Jew) للمليونير العالمي هنري فورد (Henry Ford) الذي جاءت فيه مقتطفات من الكتاب الأول ، تقشعر جلوده بالاطلاع على المخططات العالمية الرهيبة لتدمير الإنسانية ، وإفساد الأخلاق وتشويه المجتمع والأجيال الصاعدة في كلِّ عصرٍ ومصرٍ ، منها (بالاختيار والاختصار) :

١ ـ محاربة رجال الدين في جميع الديانات ، وتحطيم رسالتهم ومكانتهم[١].

٢ ـ خلق أدبٍ قذر ، لا منطق فيه[٢].

٣ ـ إطلاق الحروب الكونية[٣].

٤ ـ اللعب بالحكام كلعب الشطرنج[٤].

٥ ـ إفساد الشباب عن طريق التعليم والأدب والروايات والمسرحيات[٥].

ويكفي اعترافٌ وشهادةٌ واحدةٌ بهذه المؤامرة العالمية ، وهو ما جاء في البروتوكول الأول ، يقول حكماء صهيون :

«وقد أصبح انتصارنا أسهل بفضل الحقيقة الواقعة ، وهي أننا في علائقنا

---

(١) اليهودي العالمي ، تعريب خيري حماد ، ص ٩٤ .
(٢) اليهودي العالمي ، تعريب خيري حماد ، ص ٦٥ .
(٣) اليهودي العالمي ، خيري الحماد ص ١٠٧ .
(٤) اليهودي العالمي ، خيري الحماد ص ١٢٩ .
(٥) اليهودي العالمي ، خيري الحماد ص ١٨٣ .

مع الرجال الذين نرغب في إقامة علاقاتٍ معهم ، كنا نعزف دائماً على أكثر الأوتار حساسيَّةً في العقل البشري ، كالحسابات النقدية ، والعواطف الغرامية ، والافتقار إلى الاستقرار في حاجات الإنسان المادية ، وكلُّ مظهر ضعفٍ من هذه المظاهر يعتبر كافياً لشلِّ الحوافز ؛ إذ يسلم إرادة الناس إلى ميول الذي تمكن من ابتياع نشاطاتهم»(١) .

أما من درس تاريخ المسيحيين فإنَّه يشهد بأنَّه لا تنطبق عليهم كلمةٌ مثلُ انطباق «الضَّالِّين» عليهم ، فقد كان شأنهم شأن سالكٍ للطريق ، يترك الطريق المستقيم المؤدي إلى غايته ، ويأخذ طريقاً معاكساً يسلك به إلى الوراء ، ولا يزال يواصل السَّير عليه ، فيزداد بعداً على بعد عن غايته المتوخَّاة ، وكما يقول الشاعر العربيُّ :

«شتان بين مشرقٍ ومغرب»

والسبب في ذلك أنَّ الله قدر لهذه الأديان الانتشار والامتداد ، وكان ذلك مؤسساً على حكمته ، فقد اهتدى بها ملايين من البشر قبل نزول هذا الدين الأخير ، وقبل أن يبعث النَّبيُّ الخاتم سيدنا محمد ﷺ . . . غير أنها لم تنزل لتبقى إلى يوم القيامة ، فلم يضمن الله لها الحفظ والصيانة ، ولم يرد بذلك نصٌّ في القرآن الكريم ، وإنما جاء فيه في شأنها :

﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وهنالك فرق واضح بين ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] وبين ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة : ٤٤] حيث إنَّ الله تكفَّل الحفظ بالنسبة للإسلام ، ولم يضمن بالنسبة لهذه الأديان ، وإنما ألقى هذه المسؤولية على أبنائها .

والسبب الأساسي في ذلك هو عدم وجود عقيدة ختم النبوة فيها ، وبما أنَّه كان من المقدر أن يأتي النبيُّ الخاتم ، والنبوَّة الخاتمة ، فلم يجعل الله حصاراً لهذه النبوءات الزمنية والمحلية ، ومنعاً لإمكان المتنبئين ، فظلَّ

---

(١) اليهودي العالمي ، خيري الحماد ص ٢٥١ .

المتنبئون يظهرون في فتراتٍ قصيرةٍ ، ومحلاتٍ قريبةٍ ، وظلت دعوتهم تفعل فعلها في الناس ، وتثير قلقاً وبلبلة نفسيةً ودينيةً.

والدارس لتاريخ اليهودية والمسيحية يعلم أنَّ كثرة المتنبئين كانت فتنةً كبرى ومأساةً كبيرةً لليهودية في دائرة نفوذها ، والمسيحية في دائرة نفوذها.

وقد لفت انتباهي إلى ذلك لأول مرَّة ، الشاعر الإسلاميُّ الكبير العلامة الدكتور محمد إقبال ، فقد كان ـ فيما أعلم في دراستي ـ أول من أكَّد أنَّ ختم النبوة وسامٌ لهذه الأمَّة ، ونعمةٌ كبرى أنعم الله بها عليها ، وكأنه قال: إنَّ الإنسان لا يحتاج إلى أن يرفع رأسه بعدئذٍ مرَّة بعد أخرى إلى السماء في انتظار الوحي ، ولينظر إلى الأرض ، وليستخدم طاقاته في إعمار الأرض ، وتحقيق الغرض الذي من أجله جُعل خليفة الله في الأرض ، وليصرف قواه في إعداد الوسائل والتسهيلات للإنسانية وتهيئة ما يسوق إليه السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة ، وأكَّد العلامة: أنَّ ختم النبوة نعمةٌ عظيمةٌ أنقذت الأمة من القلق والصراع النفسيِّ والتورُّط في المؤامرات(١) وهذا بالعكس من الديانتين العظيمتين اليهودية والمسيحية ، فقد تعرضت لهذه المشكلة ـ وبالأصحِّ المحنة ـ مدةً طويلة كانت لهما الشغل الشاغل ، والمستنفد لطاقاتهما وعناية علمائهما وأحبارهما.

يقول البرت إيم تائمسن (Albert M.Taymson) عضو المجمع التاريخيِّ اليهوديِّ الأمريكيِّ البريطانيِّ في «دائرة معارف الأديان والأخلاق»:

«يكثر الحديث في تاريخ اليهود عن المتزعِّمين الذين كان كلُّ واحدٍ منهم يدَّعي أنَّه «المسيح الموعود» وذلك في الفترة التي أعقبت تجريد الحكومة اليهودية عن الحرية ، ودامت إلى عدة أجيال ، وكان هؤلاء المبشرون بالعهد الزاهر ، والغد الباسم ، لا يزالون يبعثون في اليهود ـ في أحلك

---

(١) راجع للتفصيل كتاب الدكتور محمد إقبال «تجديد الفكر الديني في الإسلام» ترجمه من الإنجليزية إلى العربية الأستاذ عباس محمود.

عصورهم ـ أمل العودة إلى وطنهم الذي أجلي منه آباؤهم في الزمن الماضي ، وكان أكبر عددٍ من هؤلآء المتزعمين ينهض في أمكنةٍ ، وأزمنةٍ يبلغ فيها اضطهاد اليهود أوجه ، وكانت تلوح طلائع الثورة على هذا الوضع المخزي ، وكانت هذه الحركات غالباً تتَّسم بالسِّمة السياسية ، وقد غلبت الصبغة السياسية على هذه الحركات في الزمن الأخير ، ورغم أنَّ هذه الحركات لم تكن تتجرَّد عن المظهر الديني تجرداً كاملاً ، ولكنَّها كانت في غالب الأحيان تشجع على البدع ، وتوسع بذلك نفوذها ، وتقوي سلطانها ، لذلك كانت حمايتها عظيمة على التعاليم اليهودية الأصيلة ، وتنجم فرقٌ متطرفةٌ تنضمُّ أخيراً إلى المسيحية أو الإسلام»[١] .

وبذلك كان الشيء الكثير من قواهم الفكرية ينفد في تصديقه ، أو تكذيبه ، وظلَّ العالم اليهوديُّ والمسيحيُّ فريسة هذه الفتنة عبر قرون ، ولم يكونوا ليصرفوا همَّتهم إلى أغراض أخرى ، في هذا الوضع الذي منوا به .

وهنا تتجلَّى قيمة الحديث الذي نقرؤه ، وما أدركت قيمته إلا عندما أدركت قيمة ختم النبوة ، واطلعتُ على الصراع النفسيِّ والفكري الذي عاشه علماء اليهودية والمسيحية زمناً طويلاً ، جاء في الحديث الصحيح :

«جاء رجلٌ من اليهود إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال : يا أمير المؤمنين! إنكم تقرؤون آيةً في كتابكم ، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً! قال : وأيُّ آية؟ قال قوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ [المائدة : ٣] فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ : والله إنِّي لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ ، عشية عرفة يوم الجمعة»[٢] .

وفي رواية : فأجابه سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ : «قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبيِّ ﷺ ، وهو قائم بعرفة يوم الجمعة» .

---

(١) دائرة معارف الأديان والأخلاق ج/٨ ، ص/٥٥٨ ـ نقلاً عن كتاب «النبيِّ الخاتم للعلامة الشيخ الندوي» .

(٢) رواه البخاري ، وأصحاب الصحاح والسنن ، والإمام أحمد ، واللفظ لأحمد .

أي: إنَّ ذلك اليوم كان عيداً بدوره ، فلا يحتاج إلى أن نتخذه عيداً ، ونضفي عليه اليوم قيمة ، وهو ذو قيمة كبيرةٍ عندنا من قبل.

وإني بدوري أشيد بفهم ذلك العالم اليهوديِّ ، وقد كان قوله شهادةً تاريخيَّةً ذات قيمة كبيرةٍ ، وهي موثوقٌ بها ، نظراً للقرائن ، ونظراً للرواية والدراية ، إنه أكَّد أنَّه لم يتم في اليهودية إعلانٌ بختم النُّبوة ، ولو كان ذلك العالم اليهودي أمامنا الآن لرأينا أثر الألم والتحسُّر على وجهه ، ولو أمعن أحدٌ في عمق هذه الألفاظ وقوتها؛ لأدرك إلى حدٍّ مدى ذلك الألم والحسرة اللذين كان يشعر بهما ، مما يدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ مثل هذا الإعلان بختم النبوة وحفظ الدين لم يكن في دينه ، وإنما خصَّ الله هذه الأمَّة بهذه النِّعمة ، وأكرمها بها.

وقد ضمن الله حفظ الدين عن طريق العلماء الربَّانيين ، وخلفاء الرسول ﷺ ، وظلت المسؤوليتان ـ مسؤولية نشر الدين ، ومسؤولية حفظه وصيانته ـ متكاتفتين في تاريخ الإسلام ، غير أنَّ نشر الدين لا يحتاج إلى الصفات الدقيقة العميقة السامية التي تحتاج إليها مهمَّة صيانة الدين وحفظه ومسؤوليته ، فقد تمَّ نشر الدين عن طريق الملوك ، والسلاطين ، وفاتحي البلاد ، ومؤسسي الحكومات كذلك ، وقد أسلم في عهد خلافة الوليد بن عبد الملك الأمويِّ ـ الذي لا تعتبر خلافته مثاليةً ـ وبعض من خلفه من الخلفاء الأمويين ، ملايين ، بل ملايين الملايين من البشر ، لقد غزا الإسلام القلوب على عهد الخلفاء والسَّلاطين بالسرعة التي غزت بها جنودهم الرقعة الأرضية ، وقد وصل عقبة بن نافع فاتحاً إلى طرابلس ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب الأقصى ، وألقى بفرسه في المحيط الأطلسي ، وقال: «يا رب لولا هذا البحر ، لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك»[١] ، وقد زرت خلال رحلتي للمغرب ، ذلك المكان الذي وقف به

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ، ص ٤٢ ـ ٤٣.

عقبة والذي يسمَّى لحدِّ الآن «أسفى» كأنه قال: يا أسفى! يمنعني هذا البحر من المضي إلى الأمام!!.

على كلٍّ فإنَّ فريضة نشر الإسلام ساهم فيها الملوك، والسلاطين، والدعاة، والمربُّون بنصيبٍ موفورٍ، وجزاهم الله خيراً، ولست ممن ينكرون لهم كلَّ فضلٍ في تاريخ الإسلام، ويعرضون لهم صورةً قاتمةً سوداء مجرَّدةً عن كل ما يستوجب الشُّكر والاعتراف، كما يفعل بعض الكتاب والنُّقاد، فقد تم نشر الإسلام وتمديد دعوته عن طريق ملوك بني أمية، والملوك الآخرين على نطاقٍ واسعٍ.

ولكن واجب صيانة الإسلام من التحريف، والمسلمين عن الانحراف، والحفاظ على الدين، والذبِّ عن حوزته، يحتاج المرء من أجل القيام به من الصفات الدقيقة السامية المثالية، والقوة الرُّوحية الداخليَّة، والثقة بخلود الدين، والغيرة عليه، والقدرة على التمييز الدقيق بين الجاهلية والإسلام، والإشراك والتوحيد، والسنة والبدعة، والامتياز بالاشتغال بالحديث الشريف[١] ومطالعة تاريخ المصلحين المجدِّدين للدِّين في عصورٍ مختلفة[٢] إلى ما لا يحتاج إليه بطبيعة الحال من يستعمله الله في نشره، ولذلك فإنَّ هذا الواجب وضع على عاتق العلماء، ونائبي الرسول ﷺ، وخصَّ به العلماء الربَّانيون المتفقهون في الدِّين، الغيارى عليه، المميِّزون بين الإسلام والجاهلية ـ بجميع أنواعها وألوانها ـ المطلعون على تاريخ الديانات والصحف التي تعرَّضت لتحريفات المحرفين، وأغراض المغرضين، وقد جاء في حديثٍ صحيحٍ: «يحمل هذا العلم من كلِّ خلف

---

(١) والتفصيل في محاضرة العلامة الندوي بعنوان «دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته» الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٢) ليرجع إلى سلسلة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» للعلامة الندوي ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ طبع دار ابن كثير، دمشق.

عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين»[١] .

وما كانت لتجري هذه الكلمات العميقة المعاني ، والدقيقة الدلالات إلا على لسان نبيٍّ مرسلٍ صادقٍ مصدوقٍ ، فلو قرأت تاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام ، والمساعي والمجهودات التي قام بها العلماء والأئمة ، والقائمون بحفظ الدِّين ، لوجدت جميع الجهود المبذولة في سبيل الحفاظ على الدين تأتي تحت هذه العناوين الثلاثة ، إنَّ للكلمات أعماقاً وآفاقاً ، هي أوسع وأعمق مما تبلغ إليه فهوم الرِّجال ، وتحدُّ بحدود النماذج والأمثال.

«ومن الحقائق التاريخية: أنَّ تاريخ الإصلاح والتجديد متَّصلٌ في الإسلام ، والمتقصِّي لهذا التاريخ لا يرى ثغرةً ولا ثلمةً في جهود الإصلاح والتجديد ، ولا فترةً لم يظهر فيها من يعارض التيَّار المنحرف ، ويكافح الفساد الشامل ، ويرفع صوت الحق ، ويتحدَّى القوى الظالمة ، أو عناصر الفساد ، ويفتح نوافذ جديدةً في التفكير ، والدارس لهذا التاريخ ، والمتتبع لحوادثه وشخصياته ، لا يعرف عهداً قصيراً ساد الظلام فيه على العالم الإسلامي ، وخبت مصابيح الإصلاح ، وخفتت أصوات الحق ، ومات الضمير الإسلاميُّ ، وتبلَّد الشعور ، وأضرب الفكر الإسلامي عن العمل»[٢] .

وإنَّ الأمَّة الإسلامية ـ رغم التحديات والمؤامرات ، والثورات ، والتطورات؛ التي لم تسبق في تاريخ أمَّةٍ أو ديانة ـ لم تتعرض لانحرافٍ جماعيٍّ ، على مدى المجتمعات والبلاد والطبقات ، وإنَّ الدِّين الإسلاميَّ لم يتعرض لتحريفٍ جذريٍّ في عقائده ، وأركانه ، وفرائضه ، وفي المفاهيم الدينية ، فالعقائد هي العقائد ، والأركان هي الأركان ، والشعائر هي الشعائر ، والكتاب هو الكتاب ، والسنَّة هي السنَّة ، وكلُّ ما في الأمر

---

(١) مشكاة المصابيح ، الفصل الثاني ، ص ٣٦ .
(٢) نقلاً من كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» للعلامة الندوي .

هو غبارٌ يطرأ على جوهر الإسلام الخالص ، وبالأصح على صعيد مجتمع إسلاميٍّ ـ لعوامل قاهرةٍ طارئةٍ ـ وسرعان ما يزول ويتطاير بقوَّة الإسلام الداخلية ، أو جهود عالمٍ مصلحٍ ، ويصدق قوله ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلالة»[١] وقوله ﷺ: «إن الله يبعث على رأس كلِّ مئة عامٍ من يجدِّد لهذه الأمَّة أمر دينها»[٢].

وقد كانت القاديانية على رأس الفتن التي ابتليت بها الأمَّة ، وقدر لي أن أعيش في خلال دراستي للتاريخ النواحي التي تتعلق بالفكر ، والديانات ، والأخلاق ، والعقائد ، والحركات ، فأستطيع أن أقول في ضوء دراستي أنَّه لم تكن فتنةٌ في تاريخ الإسلام منذ فجره لحدِّ الآن من الخطر والأثر والدِّقة ، بالمكان الذي احتلته القاديانية .

وأخطر نواحيها أنها دعوةٌ إلى ديانةٍ مستقلَّةٍ ، وإلى أمَّةٍ إزاء الأمَّة الإسلامية ، والعلماء الذين قاموا بالردِّ على القاديانية في البداية ، لم يطَّلعوا منها على بعض النواحي الخطرة جداً؛ لأن كتابات القادياني والقاديانية لم تكن قد ظهرت آنذاك ظهوراً كاملاً ، والمرء لا يستطيع أن يبدي رأيه في القضية التي لم تنكشف عنها أستار ، ولم تتجلَّ نواحيها كلُّها ، فكثيرٌ من علمائنا المناظرين ، والمدافعين عن الإسلام والمكافحين للقاديانية الذين كتبوا في الموضوع ، إنما نظروا إلى القاديانية كفرقة من الفرق الإسلامية ، ومن هذه الوجهة حاسبوها ، وأخذوا عليها ، وأبدوا حيالها ملاحظاتهم على حين أنَّ الأمر ليس كذلك بالتأكيد ، وإنما الحقيقة أنها دعوة إلى دين مستقلٍّ وإلى أمَّة مستقلةٍ وإلى نظامٍ مستقلٍ محلَّ النظام الإسلامي. فقد جاءت بشعائر مقابل الشعائر الإسلامية ومقدَّساتٍ إزاء المقدسات الإسلامية ومراكز روحيَّةٍ ودينيةٍ ، تجاه المراكز الدينية والروحية الإسلامية ، وقبلةٍ مكان القبلة الإسلامية ، وشخصيات جديرة بالحبِّ والاحترام مكان الشخصيات الإسلامية ، وكتبٍ مقدسةٍ مكان الكتب الإسلامية ، فجاءت ببديلٍ عن كل

---

(١) رواه ابن أبي عاصم .

(٢) رواه أبو داود وغيره .

شيءٍ في الإسلام ، ولا مكان هنا للإفاضة ، والوقت لا يسمح بالتفصيل ، وقد جاء الحديث عن ذلك كله في الكتب التي ألفت في مكافحة القاديانية ، وتحدثت عن ذلك في تفصيل في كتابي : «القادياني والقاديانية» وأقمت لذلك عنواناً مستقلاً[١] .

فلا يغيبنَّ عن بالنا أنَّها محاولةٌ لتشكيل ديانةٍ مقابل الدين الإسلاميِّ ، وأبناؤها أمَّةٌ مقابل الأمَّة الإسلامية ، بل إنها فضَّلت نبيها على جميع الأنبياء .

وقد أدرك هذه الحقيقة الدكتور محمد إقبال إدراكاً كاملاً[٢] ، فإنه أكَّد في إحدى مقالاته الإنجليزية التي أجاب فيها على التساؤل الذي أثاره البندت جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند الأسبق ، عندما قامت حركة ختم النبوة في الباكستان ، وتساءل لماذا هذا الحماس ضد القاديانية على حين أنها في اعتقادي محاولةٌ لمثل الإصلاحات التي قام بها كمال أتاتورك؟ فردَّ عليه محمد إقبال بقوله :

«إنَّ اجتماعية الأمَّة الإسلاميَّة ووحدتها مرتبطتان بعقيدة ختم النُّبوَّة»[٣] .

وقد قال في مقاله الإنجليزي المشار إليه أعلاه : إنَّ الإسلام دينٌ منزَّلٌ من الله ، وهو قائم على شريعته وعقائده ، ولكن الإسلام كمجتمع وملَّة ، قائم

---

(١) راجع الباب الرابع من كتاب العلامة الندوي «القادياني والقاديانية» الفصل الأول دين إزاء دين وأمة إزاء أمة .

(٢) وقد كان للدكتور محمد إقبال ، وللشاعر الزعيم ظفر علي خان ، فضل كبير في حماية الجيل المثقف الجديد ، أولهما بشعره البليغ العميق والآخر بشعره المتهكم اللاذع عن الانسياق إلى الحركة القاديانية والخضوع لها ، فكرياً وعقائدياً ، وهما يستحقان من الغيارى على هذا الدين ، الدعاء ، والشكر ، والاعتراف.
أما كبار العلماء المخلصين الذين ركَّزوا على الرَّد على القاديانية وكرَّسوا جهودهم على مقاومتها وتفنيدها ، فقائمتهم طويلةٌ مشرفةٌ لا يتسع لها هذا البحث الموجز ، وليرجع إلى كتاب العلامة الندوي «القادياني والقاديانية» ص ٧ .

(٣) راجع رسالة الدكتور محمد إقبال Islam And Ahmadism طبع المجمع الإسلامي العلمي لكهنؤ ، الهند .

على عقيدة ختم النبوة. إنَّ الإسلام سيظل قائماً ما دامت شريعته إلا أنَّ الأمَّة اجتماعيتها، وترابطها، وبقاؤها، واتصالها برسولها ومعلمها، إنما ترتبط كلياً بعقيدة ختم النبوة(١).

والأمر الآخر الذي اكتشفه محمد إقبال، هو أنَّ هذه الفتنة كان غرس الحكومة البريطانية، والسلطة الغربية، وهي من مخططاتها العميقة الأثر، البعيدة المدى، يقول المرزا غلام أحمد بنفسه:

«لقد نشرت خمسين ألف كتاب، ورسالة وإعلاناً في هذه البلاد، وفي البلاد الإسلامية، تفيد أنَّ الحكومة الإنجليزية صاحبة الفضل والمنَّة على المسلمين، فيجب على كلِّ مسلمٍ أن يطيع هذه الحكومة إطاعةً صادقةً، وقد ألفت هذه الكتب في اللغات الأردوية، والعربية، والفارسية، وأذعتها من أقطار العالم الإسلاميِّ حتى وصلت وذاعت في البلدين المقدسين مكَّة والمدينة، وفي الآستانة، وبلاد الشام، ومصر، وأفغانستان، وكان نتيجة ذلك أن أقلع ألوف من الناس عن فكرة الجهاد التي كانت من وحي العلماء الجامدين، وهذه مأثرةٌ أتباهى بها يعجز المسلمون في الهند أن ينافسوني فيها»(٢).

وقد سمى غلام أحمد أسرته ونفسه بقلمه «غرس الإنجليز» يقول:

«والمأمول من الحكومة أن تعامل هذه الأسرة التي هي من غرس الإنجليز أنفسهم ومن صنائعهم، بكلِّ حزمٍ واحتياطٍ وتحقيقٍ ورعايةٍ، وتوصي رجال حكومتها أن تعاملني وجماعتي بعطفٍ خاصٍّ، ورعايةٍ فائقة (٣).

وأبدى محمد إقبال رأيه فيما يتعلق بالإمامة والنُّبوة، (وقد ادَّعاهما غلام أحمد) يقول وهو يتحدَّث عن الإمامة في أبياته الأردية البليغة:

---

(١) المصدر السابق، و«حرف إقبال» ص ١٣٦.
(٢) «شارة قيصرة» تأليف المرزا غلام أحمد.
(٣) تبليغ رسالة، المجلد السابع ص ١٩ ـ ٢٥.

«إنَّك سألتني عن حقيقة الإمامة ، إنَّ الإمام الحقَّ في عصرك ـ جعلك الله مدركاً للأسرار مثلي ـ مَنْ يرغِّبك عن الحاضر الموجود ، ويريك وجه الحبيب في مرآة الموت ، فيجعل حياتك أشقَّ عليك من ذي قبل ويهبك شعوراً بالخسارة ، فيجعل حماسك ثائراً ، ودمك فائراً ، ويشحذ فقرك ، فيحوله سيفاً صارماً ، والإمامة فتنةٌ للملَّة البيضاء إذا كان صاحبها يدعو المسلم للعبودية للسلاطين».

وقال وهو يتحدث عن النُّبوَّة :

«إنِّي لست عارفاً ولا مجدِّداً ، ولا محدِّثاً ولا فقيهاً ، فلا أعلم ما هي مكانة النبوة ، إلا أنِّي مطَّلع على العالم الإسلاميِّ ، وأعلم ما يضمره الفلك الأزرق ، فرأيت ليل العصر الحاضر الأحلك ، الحقيقة المستنيرة استنارة البدر : أنَّ النبوة سمٌّ نافع للمسلمين : إذا لم تكن تحمل لهم رسالة القوَّة والشَّوكة».

أيها السادة العلماء ، والطلاب ، والشباب الأعزَّاء ، والضيوف الأجلاء! أريد أن أؤكِّد أن مسؤولية الحفاظ على الدين تعود كالسَّابق على العلماء ، وعلى خريجي المدارس والمعاهد الإسلامية ، وعلى طلاب العلوم الدينية ، وقد جاء هذا المؤتمر في أوانه ومكانه ، وقد أسلفت أنَّ القيام بواجب الحفاظ على الدين يحتاج إلى الفهم العميق للدِّين ، والتعمُّق في الأسرار والحقائق الدينية ، وتلقي التربية على الأساتذة الراسخين في العلم ، ورجال الفن الأخصَّائيين ، ودراسة الدين ، واللغة العربية ، والتضلُّع منها مباشرةً ، والدراسة الموسَّعة ، وفوق ذلك إلى الضمير الحيِّ النابض ، والحمية الدِّينيَّة الدفَّاقة ، والغيرة الدِّينيَّة الفوَّارة ، وقد كان ذلك كله من ميزات سلفكم الصَّالح من علماء الهند بين علماء عصرهم ، وأستطيع أن أقول في ضوء اطِّلاعي على العالم الإسلامي : إنَّ هذه المزايا يستأثر بها العلماء الهنود على الأقل منذ القرن الحادي عشر الهجري لحدِّ الآن ، وكان في طليعتهم الإمام أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي؛ الذي يندر نظيره في العالم الإسلاميِّ بعد شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية ، ثمَّ حكيم

الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي صاحب «حجة الله البالغة» ، وتلقَّى لواء الحفاظ على الدين العلماء المجاهدون الذين خلفوه ، حتى جاء عهد الإمام محمد قاسم النانوتوي ـ مؤسس الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند ـ والشيخ السيد محمد علي المونكيري ـ مؤسس ندوة العلماء ـ وخلفهما تلاميذهما ، وأتباعها ، والمدارس الإسلامية التي أسسوها ، ثم العلماء المتخرِّجون فيها ، والمنسوبون إليها .

ومن واجب هذه المدارس الإسلامية الأوجب الآن ، أن تحتفظ بالدِّين بكل أجزائه ، حتى لا يقع هناك خللٌ في فهمه ، وفي تعبيره ، وفي تصوُّره ، وحتى لا تهتزَّ جذوره. إنَّ ذلك هو واجبنا نحن خريجي المدارس العربية الإسلامية وحدها ، فقد يمكن أن يشاطرنا غيرنا في المجالات الأخرى ، ولكن مجال صيانة الدين والحفاظ عليها لا يشاركنا فيه أحد ، وإنما المسؤولية في ذلك علينا وحدنا .

وأريد أن أركز على نقطةٍ أخرى هامَّة ، وهي أنَّك إذا درست القاديانية علمت الأسباب التي مكنتها من الانتشار ـ وقد تحدَّثت عنها في كتابي: «القاديانية» ـ كان من بينها القلقُ النفسيُّ ، والاضطراب الفكريُّ ، وادِّعاء الروحانية الباطلة ، والهيام بأخبار الأفهام والمبشرات[1] ، وإنكم ملزمون في المستقبل أن تعيدوا إلى الجيل الجديد الثقة بالإسلام ، وبقدرته على الإنتاج ، وصنع الرجال ، وتخريج الأبطال ، ودوام هداية القرآن الكريم ، وقدرة هذه الأمَّة على أن تعسل خليتها في كل زمانٍ ومكانٍ ، وأنَّ الشريعة الإسلامية تصلح لكلِّ عصرٍ ومصر ، ولا أقول : إنها تساير الزَّمان (لأنَّ هذا التعبير بالنسبة للإسلام غير لائق) بل تقوده ، وتوجِّهه حيثما شاءت ، فيجب أن تعرضوا الدين عرضاً يفهمه الجيل الجديد ، حتى تعود ثقته بالإسلام ، وبقدرته على قيادته المدنية والحضارية .

---

(١) راجع الفصل الأول «القرن التاسع عشر المسيحي».

وقد ثارت قضايا كثيرةٌ في سبيل الحفاظ على شخصية الأمَّة الإسلامية الهندية اليوم ، مثل قضية «توحيد قانون الأحوال الشخصية لجميع الطوائف» وقضية التعليم الدينيِّ للنشء الإسلاميِّ ، وقد أصبحت القضيتان قضيتين حاسمتين مصيريتين في حياة الشعب الإسلامي الهنديِّ ، مقرِّرتين مصيره كشعبٍ مسلمٍ محتفظٍ بشخصيته الإسلامية المميَّزة ، وحاملٍ للرسالة والدعوة المنبثقتين من تعاليم الإسلام ، وأهدافه ، ومثله .

وقد نشط في نشر الإسلام والدعوة إليه في شبه القارة الهندية من العصر الأول دعاةٌ مخلصون من الطراز الأول من الدعاة والمربين في تاريخ الدَّعوة الإسلامية ، في طليعتهم وعلى رأسهم الشيخ معين الدين الجشتي الذي أسلم على يده مئات ألوفٍ من البشر[١] ومن جاء بعده كالسيد علي الهجويري ، والشيخ إسماعيل اللاهوري ، والأمير الكبير السيد علي الهمداني الكشميري ، وفريد الدين الأجودهني[٢] وأسلم على يد السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (ش ١٢٤٦ هـ) وحده أربعون ألفاً من غير المسلمين[٣] .

وقد رويت هذه الأرض بدماء كثيرٍ من الشهداء والمجاهدين في سبيل الله ، وأنهض الله من أرضها كبار المجددين والأئمة الأعلام ، والذين نفخوا حياةً جديةً في العالم الإسلاميِّ كلِّه .

ولكن هناك بلاداً في أرض الله كتركستان ، البلاد التي أنجبت الإمام البخاري ، ولا يزال يرنُّ في أذني صوت شيخ الإسلام الشيخ حسين أحمد المدني ـ وهو يقرىء الجامع الصحيح للبخاري ـ الصوت الحلو المعسول ، الباعث للإيمان واليقين ، الذي كان يدوي في قاعة دار الحديث هذه في هذه

---

(١) راجع «آنين أكبري» للمؤرخ العلماني الكبير أبو الفضل بن مبارك ، وكتباً أخرى .
(٢) اقرأ للتفصيل كتاب Preaching of Islam لصاحبه T.W Arnold وتعريبه «الدعوة إلى الإسلام» .
(٣) اقرأ «الإمام الَّذي لم يوف حقَّه من الإنصاف» للعلامة الندوي .

الجامعة ـ دار العلوم ديوبند ـ وهو يقول بعد تلاوة الخطبة المسنونة قبل أن يبدأ تدريس صحيح البخاريِّ كلَّ يوم:

«وبالسند الصحيح المتصل عن أمير المؤمنين في حديث رسول الله ﷺ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزبه الجعفي البخاريِّ، قال: حدثنا».

قلت: إنَّ هناك بلاداً دون درجة أسبانيا في نكران الإسلام، وبالقياس إلى غربته فيها، ومن بينها الصين، وبلغاريا، وألبانيا، وتليها بعض البلاد التي يحرج المرء أن ينادي فيها باسم الله، أو يعلن انتماءه الكثير إلى الإسلام، رغم أنَّ المسلمين يشكلون فيها أغلبيةً، وفي يوليو الماضية ١٩٨٦ م، كنت قد سافرت إلى تركيا مع ابن أختي العزيز الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي، حضرنا في مؤتمر «رابطة الأدب الإسلاميِّ» ولما حضرنا قاعة الحفل، برز أديب تركيٌّ ليخطب، وبدأ خطبته ببسم الله الرحمن الرحيم، وقال:

«إني لمَّا استهللت خطبتي منذ أعوام ببسم الله الرحمن الرحيم في بلدي هذا، تعرضت للحرج والصعوبة الشديدة، وواجهت مصاعب، غير أنني عدت اليوم أستهلُّ كلمتي «بسم الله الرحمن الرحيم» دونما خوفٍ أو وجلٍ.

على كلٍّ فإنَّ قليلاً من الغفلة والتقصير قد يغيِّر اتجاه البلاد، ويصبغها بصبغةٍ أخرى. فأرجوكم أن تهتمُّوا بتعليم الجيل الجديد وتربيته تربيةً إسلاميَّةً، وأودُّ أن تقيموا شبكة المدارس والكتاتيب في كلِّ قريةٍ ومدينةٍ، ويجب أن تكون هناك كتاتيب صغيرةٌ بجنب المدارس الكبيرة والجامعات، تعلم النشء القرآن، وتعرفة بالإسلام، وتنفخ في قلبه منذ البدء الروح الدينية».

وختاماً أحمد الله على هذه الفرصة الطيبة للحديث في هذا الموضوع الهام، وأشكر الذين أتاحوا لي هذه الفرصة، وأدعو لكم بالتوفيق والاستقامة، وعلوِّ الهمَّة.

والحمد لله وحده، والصَّلاة والسلام على مَنْ لا نبيَّ بعده.

* * *

مُحمَّـدٌ رسـول الله ـ ﷺ ـ الرسول الأعظم
وصاحب المنَّة الكبرى على العالم ومسؤوليـة العالم
المتمدِّن المنصف الأدبية والخافية نحوه

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة القيمة في المؤتمر الإسلاميِّ الَّذي عقده المركز الإسلاميُّ بأوكسفورد في ٢٣/ أغسطس ١٩٨٩ م.

سادتي! إنَّ هذا العالم الذي نعيش فيه ، ونقوم فيه بأداء واجباتنا ومسؤولياتنا المنوطة بنا وفق عقائدنا وأذواقنا ، وصلاحياتنا ووسائلنا ، وإمكانياتنا بكل حريةٍ وانطلاقٍ ، ونتعايش فيه مع المواطنين ، بل فوق ذلك مع جميع المعاصرين معايشةً كريمةً ، هادئةً ، مطمئنةً ، رخيَّةً ، ونسهم بالإضافة إلى ذلك حسب ما أوتينا من مواهب ، وصلاحياتٍ ، وعزائم في المجالات التعليمية والدراسية ، وفي ميادين التأليف والبحث والتحقيق ، والتجارب العلمية والكشوف والاختراعات ، ونتمنَّى أن تكون حياتنا وبيئتنا أسلم وآمن ، وأفضل وأرقى ، وأكثر طمأنينة ورفاهية ، وأعلى مستوىً ، وأرفع مكاناً .

لم تكن هذه الكرة الأرضية التي نسكنها ، ونعيش فيها مستعدة ومتهيِّئةً ـ دائماً ـ لحياةٍ متزنةٍ ، هادئةٍ ، وقورة ، ولم يكن يتسع صدرها ـ دائماً ـ للقيام بإنجازاتٍ علميةٍ وفكريةٍ ، ومشاريع بنائيةٍ ، وحياةٍ كريمةٍ نعيشها وفق معتقداتنا ومذاهبنا والاحترام المتبادل فيما بيننا ، والتعايش السلمي (Co-Existence) بين جميع أفراد البشر .

فقد شهد التاريخ هذا الجيل البشري على هذه الكوكبة الأرضية مراراً وتكراراً مشمراً عن ساقه تهيُّؤاً للانتحار ، والدمار ، والاحتراق بالنار ، ومرَّت عهودٌ وأدوار في تاريخ هذا العالم فقدت فيها السلالة البشرية جدارتها للبقاء والحياة ، وتحوَّلت مكان أفراد يتميزون بالعقل والتفكير ، والضمير الحيِّ البصير ، إلى حيوانات ومواشٍ وسباعٍ ضواري ، وأناسٍ في صورة ذئابٍ يفترسون أبناء جنسهم وبني جلدتهم .

واحتضرت الحضارة والمدنية ، والثقافة والفنون ، والأخلاق ، والمثل ، والأنظمة ، والقوانين ، والأصول والضوابط الإنسانية ، وغشيتها سكرة الموت .

ومعلومٌ أنَّ عملية تدوين التاريخ البشريِّ تأخَّرت قروناً ، وقروناً ، وأنَّ

عهد ما قبل التاريخ أطول وأوسع وأبعد مدى من عهد ما بعد التاريخ ، ثم إنَّ قصة انحطاط الإنسانية وسقوطها ، وعهود الوحشية والهمجية ، لم تكن فيها من المتعة وأسباب الفخر والاعتزاز ما يدفع المؤلفين والكتاب والمؤرخين ليبذلوا مواهبهم الإنشائية في عرضها وتقديمها .

ولذلك فإننا نجد خلال فتراتٍ طويلةٍ وأحقابٍ متباعدةٍ شهاداتٍ ووثائق تاريخية عن سقوط المجتمع البشريِّ ، وانهيار الحضارات والمدنيات ، وزوال الحكومات ، والدول ، والأنظمة السياسية ، مبعثرةً منشورةً في صفحات التاريخ العلميِّ ، وتبدأ سلسلة هذه القصة السوداء أكثر من ذي قبل من القرن الخامس المسيحي ، وأكتفي هنا بذكر بعض الفترات منها :

لقد أحسن المؤلف الإنجليزي المعروف هـ ـ ج ولس (H.G.Wells) تصوير هذا العصر ، فقال وهو يبحث في الظروف السائدة في عهد الحكومتين الساسانية والبيزنطية ، في القرن السادس للميلاد :

«كانت العلوم والفلسفة والسياسة في حالة احتضار في عهد هذين النظامين المتحاربين والمتجهين إلى الانحطاط ، فقد كان الجيل الأخير من فلاسفة «أثينا» (Athens) عاضّاً على المؤلفات الأدبية العتيقة بالنواجذ ، بكل احترام وحب ، ولو بدون فهمٍ لها ، فلما انقرض هذا الجيل لم تبق طبقة ولا أفراد أحرارٌ وشجعانٌ ، يتزعمون حرية الفكر ، وحرِّية التعبير ، ولا الذين يحتفظون على الأقل بتراث فكرٍ حرٍّ ، وبحثٍ نزيهٍ جدِّيٍّ ، على دأب القدماء السابقين ، وبجانب ما كان للفوضى السياسية والاجتماعية من دور كبير في القضاء على مثل هذه الطبقة ، كان من العوامل التي ساعدت على شلل الفكر الإنسانيِّ ، وتجمُّد القرائح البشرية . إنَّ هذا العصر كان عصر العصبية وعدم التسامح في ظلال الحكومتين الإيرانية والبيزنطية ، فقد كانت هاتان الحكومتان دينيتين نوعاً ما ، وقد كانتا فرضتا قيوداً على العقل البشري[١]» .

---

(١) H.G. Wells, A. Short History of The World (Lodon, 1924) pp. 140 - 41.

وبعد ما قصَّ الكاتب قصة زحف الإمبراطورية الإيرانية على الإمبراطورية البيزنطينية ، ثم انتصار البيزنطيين على الإيرانيين في شيء من التوسُّع ، عاد إلى وصف التدهور الاجتماعي ، والخلقي السائد في أواخر القرن السادس المسيحي فقال :

«كان يسوغ لمتتبع ـ غير محنك ناضج الفكر ـ للأوضاع السائدة في أوائل القرن السابع المسيحي أن يتنبأ بسهولةٍ ، وبثقةٍ بأنَّ أوربا وآسيا ستقعان تحت رحمة المغول الوحوش في غضون بضعة قرونٍ قادمة ، فلم تكن في أوربا الغربية أمارات للأمن والنظام وحكم القانون ، وقد كانت المملكتان البيزنطينية والإيرانية ، مشغولتين في حرب إبادةٍ وتدمير ، بينما كانت الهند في حالة توزُّعٍ وبؤس[١] .

ويقول Robert Briffault :

«لقد أطبق على أوربا ليلٌ حالكٌ من القرن الخامس إلى القرن العاشر ، وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً ، وقد كانت همجية ذلك العهد أشدَّ هولاً ، وأفظع من همجية العهد القديم ، لأنَّها كانت أشبه بجثة حضارةٍ كبيرةٍ قد تفتت ، وقد انطمست معالم هذه الحضارة ، وقضى عليها بالزوال ، وقد كانت الأفكار الكبيرة ازدهرت فيها هذه الحضارة ، وبلغت أوجها في الماضي ، كإيطاليا ، وفرنسا ، فريسة الدَّمار ، والفوضى ، والخراب»[٢] .

ويقول J.H.Denison عن سقوط الحضارة التي تمَّت ، وترعرعت في أحضان الديانات القديمة :

«لقد أشرف العالم المتحضر في القرنين الخامس والسادس المسيحي على فوهة الفوضى والدمار ، وكان يخيل لكلِّ راءٍ أنَّ الحضارة التي نمت وازدهرت وأثمرت في ظرف أربعة آلاف سنة تكاد تنتهي وتزول ، ويرجع

---

(١) H.G. Wells, A. Short History of The World (Lodon, 1924) p. 241.

(٢) Robert Briffault, The Making Of Humanity (Lsndon - 1919), P. 164

الإنسان مرَّةً ثانية إلى تلك الوحشية والبربرية التي تتناحر فيها القبائل، وتشتعل الحرب بين الفرق والأحزاب، ويفقد الأمن والسلام بتاتاً، لقد كانت الأنظمة القبلية القديمة انتهت قوتها، وزالت سلطتها، وكانت التقاليد والطقوس التي تبنتها المسيحية، وحافظت عليها، تؤدي إلى التشتُّت، والتمزُّق، والهلاك، بدل الوحدة والتماسك والنظام، كان ذلك العصر محزناً مؤلماً، فقد كانت الحضارة التي أظلت العالم كشجرةٍ باسقةٍ وارفة الظلال، والتي أثمرت أغصانها العلوم والفنون والآداب كادت تلفظ نفسها الأخير؛ لأنَّها كانت منخورةً متآكلةً»[١].

فحين كان الجيل البشريُّ، والحضارة والمدنية في هذه الحالة من الاحتضار والإشراف على الدَّمار؛ إذا بمالك هذا الكون يسعد جزيرة العرب بكائن إنسانيٍّ عظيم، ووكل إليه ليس مهمة الحفاظ على الجيل البشري فحسب، بل مهمة الوصول بالإنسانية إلى أعلى قمَّةٍ متصورَّة، وهي مهمةٌ صعبةٌ دقيقة، لم تتناولها تجارب المؤرخين الواسعة، ولا أخيلة الشعراء والأدباء الخصبة، ولولا وجود وثائق وشهادات تاريخية موثوقٌ بها لا يمكن جحودها، ولولا التواتر في نقلها وروايتها، لما كان لنا إلى اليقين والقطع بها من سبيل.

لقد كانت هذه الشخصية محمد ـ ﷺ ـ التي ظهرت في القرن السادس المسيحي، وكان أول مآثره ـ ﷺ ـ أنَّه رفع ذلك السيف المصلت على رقبة الجيل البشريِّ التي كانت كلُّ لحظةٍ تنذر بفنائه وانقراضه، ووهبه الرسول ـ ﷺ ـ هدايا غالية وتحفاً ثمينةً أعادت إليه حياةً جديدةً، وشحنة بهمَّة عاليةٍ، وقوَّةٍ فتيةٍ، وعزَّةٍ كريمةٍ، ومنحته هدفاً عالياً جديداً لرحلته الشاقة الطويلة، وبدأ بعهده الميمون السعيد دورٌ جديدٌ للإنسانية، والحضارة، والمدنية، والعلوم، والفنون، والإخلاص، والروحانية، وبناء الإنسان من جديد، إنه قدم للمجتمع البشريِّ ثروةً عظيمةً تعتمد عليها

---

(١) J. H. Denison, Emotion As The Basis of Civilization (London - 1928 p. 265.

الإنسانية لخيرها ، ورشدها ، وبركتها ، وتستفيد منها المدنية لازدهارها ، ورقيها .

وهذه الثروة الغالية هي ثروة عاطفة حبِّ الخير ، وكراهة الشر ، العاطفة المقدسة الجليلة ، والعزيمة الصارمة ، لمقاومة قوى الشرك وتحطيم مراكزه ، والتضحية بكل غالٍ ونفيسٍ لنشر الخير ، وتقويته ، ورفع مناره . إنَّ هذه العاطفة النبيلة المقدسة ، وهذه الهمة العالية والطموح الذي لا يعرف الكسل والتواني ، هو أساس كلِّ أنواع رقي الإنسان ، ورفعته ، وكرامته ، ومآثره العظيمة الخالدة ؛ وذلك لأنَّ جميع الوسائل ، والإمكانيات المادِّية ، والعدَّة والعتاد ، ومؤسسات البحث والدراسة والتحقيق تابعةٌ لإرادة الإنسان وعزيمته ، فقد بدَّل القسوة والبهيمية برحمةٍ ، ورأفةٍ ، وإنسانيَّةٍ ، ونشر تعاليمه السامية ، وبذل في سبيلها الجهود العظيمة المتواصلة ، ولم يبال في طريقها بأيِّ تعبٍ ، وجهدٍ ، ومشقَّةٍ ، وضحَّى في سبيلها براحته ، وعافيته ، وحياته ، وكرامته .

ونتيجةً لهذه الجهود المستمرة المضنية وُجِد من بين الحيوانات العرية عن العواطف البشرية والسباع المفترسة الضارية ، أفراد طيبون صالحون ، تعطرت الدنيا بأنفاسهم الزكية ، واكتست من جمالهم وروائهم الرونق والبهاء ، فاقوا الملائكة في سموهم ، وارتفاعهم ، ونالت الحياة التي أشرفت على الهلاك والدمار قسطاً جديداً من البقاء والاستمرار ، وانتشر العدل والرَّخاء ، وانتصف الضعفاء من الأقوياء الظالمين ، وأصبحت الذئاب تحرس الغنم ، وتحافظ عليها ، وهبت النسائم العليلة البليلة ، وفاحت روائح الحبِّ والحنان ، وقامت سوق السعادة واليقين ، وازدانت الدنيا بمشاهد الجنة الرائعة الجميلة ، وهبَّت رياح الإيمان ونفحات اليقين ، وتحرَّرت النفوس البشرية من أغلال الأهواء والشهوات ، وانجذبت القلوب إلى الخير والمعروف كما تنجذب القطع الحديدية إلى المغناطيس .

ويحلو لي هنا أن أذكر ـ بشيءٍ من الاختصار والإيجاز ـ تلك المنح

الأساسية الغالية التي كان لها دورٌ كبيرٌ بارزٌ في قيادة الجيل البشريِّ ، وإصلاحة وإرشاده ، وازدهاره ، والتي ولدت عالماً مشرقاً جديداً رائعاً ، ما يشبه العالم الشاحب القديم في شيءٍ ، وهي كما يلي :

١ ـ عقيدة التوحيد النقية الواضحة .

٢ ـ مبدأ الوحدة الإنسانية ، والمساواة البشريَّة .

٣ ـ إعلان كرامة الإنسان ، وسموّه .

٤ ـ رد الاعتبار إلى المرأة ومنحها حقوقها وحظوظها .

٥ ـ محاربة اليأس والتشاؤم ، وبعث الأمل ، والرجاء ، والثقة ، والاعتزاز في نفس الإنسان .

٦ ـ الجمع بين الدين والدنيا ، وتوحيد الصفوف المتناحرة والمعسكرات المتحاربة .

٧ ـ إيجاد الرباط المقدس الدائم بين الدين والعلم ، وربط مصير أحدهما بالآخر ، وتفخيم شأن العلم ، والحث عليه ، وتوجيهه إلى علمٍ هادفٍ نافعٍ موصلٍ إلى الله .

٨ ـ استخدام العقل والانتفاع به حتى في القضايا الدينية ، والحث على النظر في الأنفس والآفاق .

٩ ـ حمل الأمة الإسلامية على قبول مسؤولية الوصاية على العالم والحسبة على الأخلاق ، والاتجاهات ، وسلوك الأفراد والأمم ، وتحمل مسؤولية القيام بالقسط ، والشهادة لله .

١٠ ـ الوحدة العقائدية الحضارية العالمية .

وهنا يتسنى لنا أن نقدِّم شيئاً من انطباعات المؤلفين ، والمفكرين ، والأدباء ، والمؤرخين الغربيين ، واعترافاتهم ، وشهاداتهم بدلاً من أن نقول من عند أنفسنا شيئاً .

إن قوام هذا العالم وبقاءه ، وقيمة الحضارة والتاريخ والأخلاق والآداب ، والشعر والفن ، ليست إلا بالاعتراف بالحقائق الثابتة ، والتسليم

بالواقع ، وإظهاره ، والتعبير عنه ، وتقدير الفضل والكمال ، والإشادة بهما وشكر المحسنين ، وأصحاب الفضل والعطاء ، والاعتراف بمنتهم ، وحين يتجرَّد هذا العالم ، وتتجرَّد الآداب ، والأخلاق ، وكفاءاتنا الأدبية والفنية وحرية التعبير التي نملكها عن هذا العنصر الكريم ، وتحرمه بتاتاً ، فلا لذة في العيش في هذا العالم ، ولا كرامة ، وتتحوَّل الدنيا إلى حظيرةٍ للوحوش والأنعام السائمة ، حيث لا يبقى من الدوافع والقوى المحركة إلا شهوة ملء البطون وقضاء المآرب الجنسية ، والأهواء والنزعات الحيوانية ، ولا تبقى أيُّ صلةٍ بين الأستاذ والتلميذ ، والمعطي والآخذ ، والمريض والطبيب ، حتى بين الأبناء والآباء والأمهات ، ولا يبقى أيُّ شعورٍ بالفارق بين السارق والحارس ، والخائن والأمين .

ونقدم هنا مقتطفاً من مقال الأستاذ وليم داويدسن William H. Davidson أحد الباحثين الكتاب في موسوعة الأخلاق والديانات حول عاطفة الشكر والاعتراف بالمنَّة المركوزة في فطرة الإنسان ، وهو يدلُّ دلالةً واضحةً على أن هذا العنصر في الإنسان عنصرٌ فطريٌّ عالميٌّ لا بدَّ أن يبقى في كل عصر .

يـقـول الـبـاحـث :

«إنَّ عاطفة الشكر والتقدير حسب ما يقول توماس براون Thomas Brown في عاطفة الحبِّ المريحة المنعشة التي نشعر بها إذا حصلنا على فوائد ومنافع من أحد الأفراد ، وإنَّ هذه العاطفة هي نفسها جزء من تلك المنافع التي ينالها المرء .

إنَّ الشكر والاعتراف بالمنَّة إنما هو ردُّ فعلٍ إيجابيٍّ تجاه معاملةٍ كريمةٍ يحمل في نفسه الإخلاص الكامل ، والبشاشة ، والفرح ، ويكون ردُّ الفعل هذا عاجلاً وفطريّـاً ، ويدلُّ ذلك على أنَّ فطرة الإنسان قد أنشئت ، وكُوِّنت تكويناً خاصاً تحتل فيه خصلة التحاب والانسجام فيما بين الناس كصفةٍ أساسية ، وإنَّ العداوة والبغضاء ـ بجميع علائمها وأسبابها ـ منافيةٌ للفطرة

البشرية ، ومفسدةٌ للأخلاق الإنسانية»[١].

وإنَّ أكبر مظهر للتسفُّل الخلقي واللؤم الفطري وموت الضمير ، وحمل الخزي والعار ، والحرمان من أي أثرٍ من آثار الشرف الإنساني حتى الرمق الأخير منه ، هو التنكر والجحود للقادة الدينيين ، وبناة الإنسانية ، وأصحاب المنَّة والفضل على العالم البشري كله ، والبلادة في القول ، وسلاطة اللسان ، واستخدام الأسلوب الشائن الرزي بأهله؛ الذي لا يليق بأدنى شخص ، وأرذل إنسان ، والذي لا يجرح شعور مئات الملايين من البشر من أتباعهم ، ومحبيهم ، والمستميتين دونهم والذين يؤثرونهم على أنفسهم ، وأهليهم ، وأموالهم ، ويكلم عواطفهم الإيمانية الجياشة فحسب ، بل يقتل الحقائق ، ويذرُّ الرَّماد في العيون ، ويحاول طمس الواقع ، ولا يجوز لأيِّ مجتمعٍ كريمٍ يعرف قيمته ومكانته ، ولا لأيِّ بلدٍ متحضِّرٍ لا يريد أن يعيش في الجهل والنكران للجميل أن يصبر على وجود هؤلاء الأنذال ، واللؤماء الذين باعوا ضمائرهم ، وتخلوا عن إنسانيتهم ، وتنكروا للجميل والمعروف ، إنَّهم رجسٌ يجب أن تتطهَّر الأرض منهم.

بالعكس من هذا الجانب المظلم الأسود ، يمكننا أن نعرض نماذج رائعة من انطباعات كبار المؤلفين المحقِّقين المنصفين ، والأدباء الفضلاء الواقعيين ، وأفكارهم وآرائهم ، من عددٍ من البلدان الراقية.

يقول أديب فرنسا الشهير لامارتين (Lamartine) وهو يعترف بعظمة محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ونجاحه المنقطع النظير في مهمته الجليلة : «إن إنساناً لم ينهض أبداً ـ متطوعاً أو غير متطوع ـ لمثل هذا الهدف الأسمى ، لأنَّ الهدف كان فوق طاقة البشر ، لقد كان تحطيم تلك الحواجز من الأوهام والأحلام؛ التي حالت بين الإنسان وخالقه ، والأخذ بيد الإنسان إلى عتبة ربه ، وتحقيق عقيدة التوحيد النقية المعقولة ، الساطعة في ضباب هذه الوثنية السائدة ، والآلهة المادية ، هو ذلك الهدف الأسمى والأعلى ، إنَّه لم يحمل إنسانٌ مثل هذه المسؤولية الضخمة ، والمهمة

---

(١) Encyclopaedia of relgions and (Endinburqm 1913) voi-6 p. 391.

العظيمة الجليلة ، التي تخرج عن طوق البشر ، بمثل هذه الوسائل الحقيرة الضئيلة» .

إلى أن قال :

«وأروع من ذلك أنَّه هزَّ تلك الأصنام ، والآلهة ، والأديان ، والتصوُّرات ، والعقائد ، والنفوس الإنسانية هزَّةً عنيفةً ، إنه بني على أساس ذلك الكتاب الذي يعتبر كل كلمة منه مصدر التشريع ، قوميةً ربَّانيَّةً ، آلفت بين أفراد كل جيلٍ ، وسلالةٍ ، ولغةٍ . إنَّ الميزة الخالدة لهذه الأمة ، التي كونها لنا محمد ـ ﷺ ـ أنها شديدة المقت والتقزز من الآلهة الباطلة ، شديدة الحب لله الواحد الذي يتنزه عن المادة وشوائبها ، وهذا هو الحب الذي يدفعه إلى الثأر والانتصاف من كل إهانة توجه إلى الذات الإلهية ، وهذا الحبُّ يعتبر أساس سائر الفضائل عند هذه الأمَّة .

لقد كان إخضاع ثلث العالم لهذه العقيدة الجديدة من مأثرته بلا ريبٍ ، لكنَّ الأصحَّ أنَّه كان معجزة العقل ، لا معجزة فردٍ واحدٍ ، إنَّ الإعلان بعقيدة التوحيد في زمنٍ كانت تئن فيه الدنيا تحت وطأة أصنام لا حصر لها ، كان معجزةً مستقلةً بذاتها .

ما لبث محمد ـ ﷺ ـ أن أعلن هذه العقيدة أمام الملأ ، حتى أقفرت المعابد القديمة من عبادها ، فلا داعٍ فيها ولا مجيب ، وتكهرب ثلث العالم بحرارة الإيمان[(١)] .

ويقول جان وليم دريبر (Johan William Draper) وهو بصدد تاريخ أوربا الفكري والعالمي :

«لقد ولد في مكة إحدى مدن جزيرة العرب عام ٥٦٩ م بعد أربعة أعوام من موت جستينين (Justinian) شخصٌ عظيمٌ كان له أكبر تأثير على الجيل البشري كله»[(٢)] .

---

(١) Lamartine, Histoire De La Turquie, Paris-1854, Vol. 2,pp. 276-277.

(٢) John Willim Draper, AHistory of the intellectual Development of Europe, (London, 1875) Vol. lp.229.

ويزيد قائلاً :

«إنَّه قد كانت اجتمعت في محمَّد ـ ﷺ ـ من الخلال والصفات التي غيّرت مصاير الشعوب والأمم والحكومات والدول ، إنَّه أكَّد على الحقائق الثابتة الدائمة بدلاً من الخوض في بحوث ما وراء الطبيعة ، ونذر نفسه عن طريق العناية والأمر بالنظافة ، والطهرة ، والجدِّ والصوم ، والصلاة لترقية الحياة الاجتماعية للناس»(١) .

ويقول المؤرخ الفيلسوف (A,Toynbee) في كتابه «الحضارة في الامتحان» (Civilization on Trial) :

«إنَّ القضاء على الفوارق السلالية والعصبيات الجنسية والدموية من أعظم مآثر الإسلام ومفاخره ، أما العصر الحالي الذي نعيش فيه فإنَّ هذه الفضيلة هي كبرى حاجات هذا العصر ، إنَّه ممَّا لا شك فيه أنَّ الشعوب الناطقة باللغة الإنكليزية قد حققت بعض النجاح في ربط الشعوب بعضها ببعض ، وعادت على العالم الإنسانيِّ بخيرٍ ورحمةٍ ، ولكنَّ الحقيقة الراهنة التي يجب الاعتراف بها ، أنَّها أخفقت فيما يتصل بالعواطف السُّلالية والجنسية»(٢) .

وإنَّ من عجيب المصادفات أن توماس كارلائل (Thomas Carlyl) قبل مئتي سنة اختار محمداً ـ ﷺ ـ من بين الأنبياء جميعاً كبطل أعظم ، والآن في آخر القرن العشرين وضع مائكيل هـ هارت (Michael .H.Hart) اسم محمد ـ ﷺ ـ برأس القائمة لأسماء أولئك العظماء الذين تركوا آثاراً عظيمة في تاريخ العالم البشري(٣) .

ونقدِّم فيما يلي تلك المنن العظيمة الجسيمة التي لا ينساها التاريخ لمحمَّد ـ ﷺ ـ وأتباعه وأمته التي ربَّاها ، وخرَّجها في مدرسته على الجيل

---

(١) John Wilijam Draper. AHistory of the intellectual Development of Europ, (London 1875) Vol lp 330.

(٢) A. J. Toynbee, civilization on Trial, (New york-1949) p. 205.

(٣) Hart Michael H, The 100- Aranking of the Most influencial persons in History-New-york-1978, p. 26.

البشريِّ بأجمعه ، وما قامت به من دورٍ فعَّالٍ كبيرٍ في ترقية الحضارة والمدنية واستمرارها وتسلسلها ، نختصر الحديث في صورة واقعين تاريخيين معروفين .

لا يخفى على دارسي التاريخ البشريِّ أنَّه واجهت البلادُ الراقية ، والحضارة والمدنية ، والثقافة ، والعلوم ، والأخلاق ، والإنسانية ، والديانتان العظيمتان المؤثرتان : الإسلام ، والمسيحية وأتباعها ، وحكوماتهما الواسعة الأطراف الراقية المتحضرة الخصبة بل ومستقبل الإنسانية بأسرها في القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر المسيحي) أزمة شديدة مرديةً ، كانت قد قضت على الأخضر واليابس ، وذهبت بجهود الماضي كلِّها أدراج الرياح ، ونسخت كل حسنٍ وجمالٍ ، وكلَّ فضلٍ ، وكمالٍ ، وصيَّرت المستقبل وجميع إمكانياته النيرة شاحبةً ضئيلةً لا يوثق بها ، ولا يعتمد عليها ، كانت هي حملة المغول التتار الوحشية المفاجئة بقيادة قائدهم العبقري النادر جنكيز خان (تموجن) على العالم الغربيِّ والشماليِّ المتحضِّر ، التي بدأت عام ٦١٦ هـ الموافق ١٢١٩ م .

ويمكن أن يقدَّر هولُ هذه الهجمة الشرسة ، والدهشة التي أثارتها ، والرُّعب الذي ألقته في القلوب ، وصلاحيتها للقضاء على التراث الحضاريِّ ، والمدنيِّ ، والدينيِّ ، والعلميِّ ، والعقليِّ ، والفكريِّ ، والبنائيِّ ، والصناعيِّ ، وآثارها ، ونتائجها التي ظهرت على مسرح التاريخ الإنسانيِّ من هذه المقتطفات التي اقتبسناها من كتاب «جنكيزخان» لمؤرخه الثقة المؤلف الأستاذ هيرالد ليمب (Haroldlamb) ، يقول المؤلف :

«إنَّه محا في طريقه كلَّ مدينةٍ من الوجود ، غيَّر مجرى الأنهار ، وملأ الصحارى باللاجئين المذعورين المشرفين على الموت ، وإنه لم يكن يبقى بعد مروره بالمناطق التي كانت آهلةً بالسكان في يومٍ ما من الأيام أيُّ حيٍّ من الأحياء إلَّا الكلاب ، والذئاب ، والحدأة ، والنسور»[1] .

---

(١) Harold Lamb, Ganghis Khan, (London 1928) p. 11-12.

وقد كان العالم المسيحيُّ بعد موت جنكيز خان[١] في دهشةٍ ، وحيرةٍ ، وفزعٍ تجاه جيل المغول التالي ، على حين كان الفرسان المغول المفترسون يعيشون في أوربا يدوسونها بأقدامهم ، وقد فرَّ منهم بول سلاس ملك بولندا ، وبيلا ملك النمسا منهزمين من ساحة القتال ، وقد قتل[٢] ديوك هينري من سائي ليسيا مع فرسانه في ليك نتز (Liegnitz)[٣] .

كانت هذه حرباً ضروساً تجاوزت كلَّ الحدود ، بلغت إلى حد الحرب العالمية الثانية ، لقد كانت هي مقتلةٌ عامَّةٌ لنوع البشر ، لم يكن هدفها إلا إبادة الناس والقضاء عليهم[٤] .

لم يكن في وسع الإنسان أن يسدَّ سيل المغول ، فقد تغلبوا على جميع أخطار الصحارى والغابات ، ولم يقف في وجههم أيُّ شيءٍ من الجبال والبحار ، وشدائد الطقوس والفصول ، والقحط والأوبئة ، ولم يكونوا يخافون أيَّ خطرٍ ولا مانعٍ ، ولا هناك قلعةٌ ترد هجومهم ، ولا كانت تؤثر فيهم استغاثةٌ من مظلوم[٥] .

إنَّ أعداءه من المؤرخين ذكروا فتوحه وانتصاره أكثر من غيرهم ، لقد كانت غارته على الحضارة ، والمدنية بلغت من الهول والتدمير والإبادة أن عادت نصف الكرة الأرضية كأن لم تغن بالأمس ، وبدأت الحياة من جديد ، لقد دمرت حكومات بريسترجان ، وختا ، وقراختائى ، وخوارزم ، ثم بعد موته حكومة بغداد ، ودول روسية ، وبولندا ، وكلما فتح هذا الوحش الضاري الذي لم يلق هزيمةً في حياته شعباً من الشعوب انتهت جميع الحروب والمعارك الداخلية ، وتغير مثار الأوضاع والظروف

---

(١) عام ٦٢٤ سنة هـ.

(٢) Harold Lamb, Genghis Khan, p. 12 (London 1928).

(٣) ليك نتز (Liegnitz) تقع في مديرية (Wroclaw) في بولندا قرب حدود ألمانيا الشرقية واسمها الجديد لكنيكا (Legnica) .

(٤) Harold Lamb-Genghis Khan, p. 166. (London, 1928).

(٥) Harold Lamb-Genghis Knan, (London, 1928) p. 210.

سواء كان صالحاً ، أو غير صالحٍ . ويبقى الأمن مدة طويلةً بين أناس يبقون أحياء بعد انتصار المغول[١] .

وقد تصدَّى المؤلفون لتاريخ العهد المتوسط الصادر من كمبرج بذكر صدام المغول الشديد الذي كان سببه جنكيز خان بما يلي :

«إن ظهور هذه القوة الجديدة في تاريخ العالم ، أعني قدرة رجلٍ واحدٍ على تغيير حضارة النوع البشريِّ ، يبتدىء من جنكيز خان ، وينتهي إلى حفيده قوبيلائي خان الذي بدت في عهده آثار الفرقة والانشقاق في مملكة المغول المتَّحدة المتماسكة ، والحقيقة أنَّ التاريخ لم يشهد إلى الآن قوَّةً تشبه قوة هؤلاء المغول»[٢] .

ولم يكن العالم الإسلاميُّ وحده فريسة هذه الفتنة التتارية ، وإنما العالم المتمدِّن كله كان متوجلاً من هذه الغارة ، وقد تغشَّى الذعر والخوف في الأمكنة التي لم يكن يرجى فيها وصول التتار ، يقول جبون في كتابه الشهير «تاريخ انحطاط وسقوط روما» :

«حينما اطلع سكان السويد على أخبار غارة التتار عن طريق روسيا تسلَّط عليهم من الذعر والخوف ما منعهم عن الخروج إلى سواحل إنجلترا لصيد الأسماك وقد كان ذلك عادةً متبعةً لديهم»[٣] .

وقد ابتدأ التتار ببخارى ، وأتوا عليها من كلِّ جانبٍ ، فدمَّروها حتى عادت كومةً من ترابٍ ، ثم توجهوا إلى سمرقند وأحرقوها ، وأبادوا أهلها ، ولقيت نفس المصير المدن الشهيرة للعالم الإسلاميِّ ، وقد كان من المتوقع أن يتوجَّه التتار بعد تدويخ القوَّة الإسلامية الموحدة الأخيرة في هذه المنطقة مملكة خوارزم شاه والقضاء عليها وتحويل المدن الإسلامية المركزية المعمورة الكبرى إلى خراب يباب ، نحو التسرُّب المسيحي ـ وقد كانت

---

(١) Harold Lamb-Genghis Knan, (London, 1928) p. 206.

(٢) Harold Lamb-Genghis Knan, (London, 1928) p. 210.

(٣) Edward Gibbon-The Decline and fall of the Roman, Empire, Vol. New-york, n. d, p. 634.

حالة أوربا الخلقية والفوضى السياسية وانحراف المجتمع ، وفساده ، وانحطاطه فيها ـ وقد تعرضنا لذكرها في ضوء أقوال الباحثين والمؤلفين الغربيين المنصفين يدعو إلى هذه الحملة ، ويمهد لها السبيل ، ثم يلقى الغرب المسيحي كذلك نفس المصير المشؤوم الذي لقيه الشرق الإسلاميُّ.

وقد كنا ذكرنا قول هـ ، ج ، ويلز (H,G, Wells) :

«كان يسوغ لمتتبع ـ غير محنكٍ ناضج الفكر ـ للأوضاع السائدة في أوائل القرن السابع المسيحي أن يتنبَّأ بسهولة وبثقةٍ بأنَّ أوربا وآسيا ستقعان تحت رحمة المغول الوحوش في غضون بضعة قرونٍ قادمةٍ»(١).

ويقول هيرالد ليمب (Harold Lamb) :

«إنَّ حملة جنكيز خان وغارته الشعواء المدمِّرة ألحقت بالمدنية خسائر فادحةً عظيمةً ، فقد قضى على الحضارة والثقافة في نصف الكرة الأرضية ثم عادتا بعد موتهما إلى الحياة من جديد». . . وقد محيت سلطنة خوارزم شاه ، وخلافة بغداد ، ومملكة روسيا ، ودولة بولندا لمدة لا بأس بها من الوجود»(٢).

«وإنَّ جيوش ألمانيا ، وبولندا لم تتحمل صدمة الهجمة الطاغية التي قام بها المغول الذين أبادوها ، ودمَّروها تدميراً»(٣).

ولكن فاجأ العالم حادث لا يقلُّ عن معجزةٍ غيَّر مجرى التاريخ ، وأعطى العالم المتمدِّن المعمور فرصةً ليس لأن يتنفس بطمأنينةٍ وراحةٍ فحسب ، بل ليخدم من جديد المدنية والحضارة ، والعلم والفكر ، وينال القوة والاستقرار والرقي والازدهار ، وهو أن هذا الشعب الفاتح الذي لم تلحقه هزيمةٌ ، والذي استعصى على الشعوب والأمم اعتنق ديانة الشعب المغزو المفتوح ، المضطهد المظلوم ، الذي فقد قوته السياسية والمادية ، والذي كان ينظر إليه نظرة احتقارٍ وازدراءٍ ، يقول البروفيسور آرنلد في كتابه

---

(١) AShort History of the World-op. cit, p. 144.

(٢) Genghis Khan-op cit, p. 206

(٣) Genghis Khan-op, cit, p. 231

«الدعوة إلى الإسلام» (Proaching of islam) وهو يبدي حيرته ، واستغرابه من هذا الحادث :

«ولكن الإسلام نهض من تحت أنقاض عظمته الأولى ، وأطلال مجده التالد ، واستطاع بواسطة الدعاة المسلمين أن يجذب أولئك الفاتحين الذين قد أنقذوا جمعيتهم في اضطهاد المسلمين ويحملهم على اعتناقه»(١) .

إنَّ هذا الحدث مثار دهشةٍ وعجبٍ ، ولكن استغرابنا يشتدُّ حينما لا نجد تفاصيله وافيةً في بطون التاريخ ، إننا لا نكاد نعثر على أسماء هؤلاء الأعلام والأبطال الذين حققوا هذه المأثرة ، وأدخلوا هذا الشعب الهمج في حظيرة الإسلام ، مع أن هذه المأثرة لا تقلُّ أهمِّيَّةً عن أيِّ مأثرةٍ إسلاميَّةٍ في التاريخ ، ولهم فضلٌ لا ينكر لا على رقاب المسلمين فحسب ، بل على الإنسانية كلِّها ، إلى أن يأذن الله لها بالفناء ، فإنَّهم أنقذوا العالم من دمار محتومٍ ، وهمجيةٍ مجنونةٍ ، وحالة رعبٍ ، ودهشةٍ ، وهلعٍ إلى جوِّ الإيمان واليقين ، والأمن والسلام والاجتماع والنظام ، وحبِّ العلم وتشجيعه ، وتنمية وتقدير أهل الفضل والكمال ، وبدأ العلم ، والفكر ، والتأليف ، والبحث ، والتدريس ، والتحقيق والأدب ، والفنُّ رحلته من جديد ، في جوٍّ معتدلٍ متَّزنٍ ، وفي ظلِّ المقدرين بجهود أصحاب الفضل والنبوغ ، والمعترفين لدورهم ، ومِنَّتهم ، والمشجعين لهم علىٰ أعمالهم العلميَّة والفكريَّة .

لقد توزعت دولة جنكيز خان بعد وفاته إلى أربعة فروع ، وبدأ الإسلام ينتشر في هذه الفروع الأربعة ، وأصبح التتر يعتنقون الإسلام بجهود الخاقان حتى دخلوا في ظرف مئة سنةٍ في دين الله(٢) .

إنَّ قصص هؤلآء الدعاة المسلمين ، والمشايخ الصالحين ، والأمراء

---

(١) T. W. Arnold, The preaching of Islam, (London-1953) p. 227

(٢) يرجع للتفصيل في هذا الموضوع إلى فصل «انتشار الإسلام في التتار» في كتاب العلامة الندوي «رجال الفكر والدعوة» ج/ ١١ ص/ ٣٠٦ ـ ٢٢١ .

المخلصين الذين أثرت أخلاقهم الكريمة العالية ، وسيرتهم المخلصة النزيهة ، وربَّانيَّتهم الصادقة ، وإشراقهم وجاذبيتهم في هؤلآء الهمج المغول المقاتلين الظامئين للدماء ، فتحولوا إلى اعتناق الدين الإسلامي ، لقصصٌ حيَّةٌ مثيرةٌ ، لا تزال تشعل مجامر القلوب ، وتهزُّ النفوس ، وتجذب القلوب(١) .

إنَّ التتار لم يدخلوا الإسلام رسمياً كشعبٍ يعتنق هذا الدين بأسره فحسب ، بل برز فيهم عددٌ كبيرٌ من العلماء ، والفقهاء ، والمجاهدين ، والدعاة ، والربانيِّين ، وأهل الصدق واليقين ، وأدّوا دورهم الثمين في حماية حمى الإسلام في ظروفٍ دقيقة ، ولحظاتٍ عصيبةٍ من التاريخ .

إنَّ حادث دخول التتار في الإسلام الذي غيَّر طبيعتهم ، وذوقهم ، وميولهم ، ونظرتهم إلى المدنية والإنسانية ، ليس منَّةً على الشرق الإسلامي فحسب ، بل هي منَّةٌ عظيمةٌ على الغرب المسيحيِّ ، وشبه القارة الهندية أيضاً ، التي حملوا عليها في نفس القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر المسيحي) تسع أو عشر مرات ، ولكن الملوك الأتراك المسلمين وعلى رأسهم السلطان علاء الدين الخلجي (م ٧١٦ هـ الموافق ١٣١٦ م) وقائد جيوشه الغازي غياث الدين تغلق شاه (م ٧٢٥ هـ الموافق ١٣٢٤ م) ردُّوا هجماتهم على وجوههم ، وهزموهم ، وهكذا استطاعوا أن يحموا هذه البلاد القديمة المخصبة ، وتراثها العلميَّ والحضاريَّ ، وديانتيها الكبيرتين الإسلام والهندوسية ـ بفروعها الكثيرة ـ من غارة التتار الوحشية .

لقد كانت هذه المأثرة العظيمة منَّةً للإسلام على عالم البشرية بصفةٍ عامَّةٍ وعلى الغرب المسيحي بصفةٍ خاصَّة ـ الذي كان قد قُدِّر له في مستقبل الأيام أن يلعب دوراً هاماً في الكشوف العلمية ، والمخترعات المادية ، والبحث عن الوسائل والآلات التي تيسر سبل الحياة ، وطرق تبادل العلم ، والثقافات ويهيِّىء للعالم مرافق الحياة ، كانت هذه المنَّة على الغرب منَّة

---

(١) انظر لنماذج منها كتاب البروفيسور آرنلد «الدعوة إلى الإسلام» ، وكتاب العلامة الندوي «رجال الفكر والدعوة» ج/ ١ طبع دار ابن كثير بدمشق .

الحماية والصيانة له من الدمار المتوقع ، والغزو الشرس الذي لا يعرف الرحمة.

هذا ، وبجانبٍ آخر كانت للإسلام مأثرةٌ عظيمةٌ خالدةٌ ، ومنَّةٌ أخرى جسيمة على الغرب عن طريق تعريفه للغرب بمصادر العلم والمعرفة الجديدة ، ومنابع الثقافة الأصيلة ، بل إمتاعه بها ، وفتح الأبواب أمامه للاستفادة منها ، فقد كانت هذه العلوم والثقافات الإسلامية هي التي أضاءت للغرب الطريق في غياهب قرونه المظلمة (Dark Ages) ووهبته نوراً جديداً مهَّد له السبيل لنهضته العملاقة الحديثة (Renaissance) التي لم تغيِّر عالم الغرب رأساً على عقب فحسب ، بل أفادت العالم كله بحقائق ومعلوماتٍ جديدةٍ ، وبدأ بها عهدٌ جديد للعلوم التجريبية (Science) التي أحدثت في هذه الدنيا انقلاباً مدهشاً وثورةً كبيرةً ، وإنَّ أكبر منحةٍ وهديَّةٍ قدَّمتها الأندلس الإسلاميَّة (Muslim Spain) التي انتقلت عن طريقها إلى الغرب العلوم ، والآدابُ ، والفلسفة ، والحكمة ، والطبُّ ، والرياضيات هي الواقعية والمنطق الاستقرائيُّ (Inductive Logic) الذي حلَّ محلَّ القياس والاستنباط (Deductive Logic)والذي غيَّر مجرى الفكر في الغرب ، والذي لم يسبب رقي التكنولوجيا الحديثة والعلوم الجديدة ، وازدهارها فحسب ، بل إنهما مدينتان له في وجودهما ، وظهورهما ، في جميع بحوث الغرب وتحقيقاته المفيدة النافعة ، والتجارب العملية الحديثة ، والانتصارات المحدودة ، والجزئية في تسخير هذا الكون ، وإزالة العوائق من طريق رسالة محمد ـ ﷺ ـ للعالم ، ولا نجد نظيرها في تاريخ الإصلاح والديانات وحياة النوابغ والأبطال:

«اكتست صحراء العرب بفضل هذا النَّبيِّ حُلَّةً أنيقةً ، وأنبتت زهرة يانعة ، إن عاطفة الحرية نشأت في ظل هذا النَّبيِّ ، بل ترعرعت ، ونمت في حجره ، وهكذا كان يوم هذا العالم المعاصر مديناً لأمسه.

لقد وضع قلباً نابضاً خفاقاً في جسد الإنسان البارد ، وأزاح الستار عن طلعته الجميلة الوضاءة.

هزم كلَّ طاغوتٍ ، وحطَّم كلَّ صنم ، وأورق به كلُّ غصنٍ يابسٍ وأزهر ، وأثمر ، إنَّه روح معركة بدر وحنين ، وإنَّه مربي الصِّدِّيق ، والفاروق ، والحسين .

أذان صلاة الحرب ، وجرس سورة الصافات غيضٌ من فيضه .

جعل سيف صلاح الدين البتار ، ونظرة بايزيد النافذة ، مفتاح كنوز الدنيا والآخرة .

جرعة من كأسه أروت العقل والقلب ، والتقى بها روح الروميِّ بفكر الرازيِّ ، واجتمع بها العلم ، والحكمة ، والدين ، والشرع ، والإدارة ، والحكم مع قلوبٍ مخبتةٍ منيبةٍ في الصدور .

إنَّ جمال قصر الحمراء ، والتاج ، الذي نال خراج الملائكة ، وإعجاب القدسيين هو نفحةٌ من نفحاته ، ولمحةٌ قصيرةٌ من لمحاته ، وومضةٌ من أنواره وبركاته .

ظاهره تلك التجليات والنفحات ، وباطنه درٌّ مكنونٌ ، لم يطلع عليه العارفون ، ولم يصل إلى كنهه السالكون .

فلا ريب أنَّه يستحقُّ ثناء الجميع وشكرهم وحمدهم ، لأنه أسبغ نعمة الإيمان على هذه الحفنة من التراب» .

* * *

رسـالـة سيـرة الـنَّبـيِّ الأمـين
إلـى إنـسـان الـقـرن الـعشـريـن

هذا البحث قدَّمه العلامة الندوي في المؤتمر العالمي للسيرة والسنَّة النَّبوية الَّذي عقد في الدوحة في الفترة ما بين ٥ ـ ١٠ محرَّم ١٤٠٥ هـ.

كلَّما قرعت آذاننا كلمةُ «الجاهلية» تمثَّل أمامنا عفواً عهدُ القرن السادس المسيحيِّ المظلم ، الذي بعث فيه النبيُّ الأعظم سيدنا محمد ﷺ ، وظهرت أولى معجزات تعاليمه ، وتربيته ، وتوجيهه. . . . فما أن نسمع كلمة «الجاهلية» إلا وتتمثَّل أمام أعيننا الأمة العربية بخصائصها ومزاياها ، وملامحها وقسماتها الجاهلية ، تلك التي صورها كتابنا في موضوع السيرة.

لكن «الجاهلية» لا تختصُّ بذلك العهد ، فكلُّ عهدٍ عهدُ الجاهلية لدى الإسلام إذا حُرم هداية الوحي الإلهيِّ ، ونور النبوة ، وتغاضى عن تعاليم الأنبياء ، وتنكَّر لها بعد أن تبين له الهدى ، أو لم يحظ به بتاتاً ، ولا فرق في ذلك بين جاهلية القرن السادس المسيحيِّ العالمية ، أو القرون الوسطى في تاريخ أوربا ، التي تُعرف في الأغلب بالقرون المظلمة (العصور المظلمة) أو عهد الحضارة والرقي الزاهر الزاهي في القرن العشرين الذي نجتازه.

يصرح القرآن الكريم أنَّ النور فرد ، ومشكاته واحدة ﴿ ۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور : ٣٥] والظلمات لا حدَّ لها ، ولا نهاية ، ولو لم يتجلَّ النُّور الإلهيُّ (الذي يأتي عن طريق الأنبياء والرسل وحدهم) لخيَّم على العالم من الظلمات المتراكمة ما لا يُحصى ، ولا يُقاس ، ولأظلمت كلَّ مرحلةٍ من مراحل الحياة ، وعمَّت الظلمة ، وطمت ، وتراكمت ، وتكاثفت.

﴿ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠].

وكلَّما يذكر القرآن الكريم النور والظلمة متقارنين؛ يذكر النور فرداً ، والظلمة جمعاً ، ممَّا يدلُّ على أنَّ الظلمة أنواع وأشكال ، وأما النور فهو واحد ، ولو لم يسطع هذا النور الإلهيُّ لما استطاع نورٌ صناعيٌّ أن يشقَّ هذه

الظلمات الحالكة المطبقة ، ولكان العالم البشريُّ كمقبرةٍ مظلمةٍ ، مترامية الأطراف ، ليس فيها منفذ نورٍ ، ولم يكن ليستضيء مهما أوقد الموقدون «شموعاً صناعية» ذات أضواء قويَّةٍ قاهرةٍ ساطعةٍ باهرةٍ».

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

يبدو كأنَّ أرض الغرب ـ التي لا تطلع منها الشمس ، وإنما تغرب فيها ـ قلَّما حظيت بنور النبوة ، وحاول أهلها أن يستعيضوا عنه النور البشريَّ الصناعيَّ. إنَّ عهد اليونان والروم الذهبيَّ لهو العهد الزاهر الرائع جداً في التاريخ البشريِّ بالنسبة إلى ازدهار العلوم والفنون البشرية ، لكنَّه أحلك العهود ـ كأحلك العهود الجاهلية ـ بالنسبة إلى تعاليم الأنبياء ، وقد خبطوا خبط عشواء فيما يتعلق بذات الله وصفاته ، وكان عمادهم في ذلك الظَّنُّ ، والتخمين ، والخرصُ ، والترجيمُ دون استنادٍ إلى توجيهٍ سديدٍ ، وإشراقةٍ مستقيمةٍ ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠] ولا تقلُّ فلسفتهم وإلهياتهم التي دوَّنها حكماؤهم وفلاسفتهم طرافةً وخرافةً من أساطير الشرق وألاعيبها وأعاجيبها ، وقد تلمع في أقوال سقراط وأفلاطون ـ دون أرسطو ـ وتعليمات فلاسفة الأخلاق أثارةٌ من تعاليم الأنبياء لمعان البراعة في الليلة المطيرة الشاتية ، مما يدلُّ على أن تعاليم الأنبياء قد طرقت آذانهم في حينٍ من الأحيان ، لكن هذا النور لم يكن من السطوع والثبات بحيث يمكنهم أن يعوِّلوا عليه في دياجير الحياة ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠].

وممَّا يبعث العجب أنَّ مصباح الهداية الذي أوقده سيدنا المسيح عليه السلام ظلَّ يسطع ، وينير في الشرق طوال مدَّة قرنين ، رغم العواصف الهوجاء ، لكنَّه خبا في الغرب في حضانة المعنيين به والحارسين عليه ، فقد فقدت تعاليم المسيح عليه السلام أصالتها في الغرب ، حيث حظيت المسيحية لأوَّل مرة بالحكم والسيادة وانصبَّ تيار الوثنية والشرك في نهر المسيحية ، وربما لم تشق ديانة في العالم البشريِّ بمتبعيها الجدد ، كما

شقيت المسيحية بالإمبراطور قسطنطين ، و«بولس القديس» (القديس بولس) وبعد ما انطفأ هذا المصباح الإلهامي الإلهي ، بقي رجال الكنيسة يخدعون العالم المسيحيَّ الغر المفتون بحسن الظن ، بمصابيح صناعية من عند أنفسهم ، وحاولوا أن يؤكِّدوا للناس أنَّهم لا يزالون يحتفظون بالنور الكريم الوهاج الذي جاء به المسيح عليه السلام من عند ربه ، والواقع أنَّه كان قد توارى في الظلمات المتراكمة المترامية منذ قرون ، وابتلعته الوثنية الرومية المتطرفة:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

وعلى الرغم من ذلك كلِّه يجب الاعتراف بأنَّ الغرب ظلَّ يسعد بالاعتقاد بالإله ، والإيمان بالآخرة بفضل المسيحية ، وذلك لأنَّ الدِّين السماويَّ مهما تغيَّر وتبدَّل؛ فإنَّه يجعل الإيمان بالله وبالآخرة يجري في المؤمنين به مجرى الدم ، ويتغلغل في أحشائهم ، بحيث لا يمكن نزعه من القلوب نزعاً تاماً. . . هبت في القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر المسيحيِّ في أوربا ريح العقلانية ، بل المادية العاتية؛ التي وضعت الغرب على طريق المادية الجامحة في صورةٍ جوفاء ، وعلى طريقةٍ عمياء ، ودرج عليه الغرب وقطع أشواطاً بعيدةً ، فعاد أسلوبه للحياة والتفكير لا يقبل الإله والآخرة ، إنَّ الغرب كله لم يعلن كفره بالإله ، أو رفضه لعقيدة الآخرة نهاراً وجهاراً ، لكن أسلوب حياته الذي يعيشه لا ينمُّ عن الإيمان بالإله والآخرة ، ويصح اليوم أن نقول: إنَّ أوربا لا تدين بالمسيحية ، وإنما تدين بالمادية ، وقد ظلت الوثنية ديانة أوربا قروناً ، وتدَّعي الآن منذ مدَّةٍ طويلةٍ أنَّها تدين بالمسيحية ، لكنها لم تخلص لها ، ولم تحرص عليها ، ولم تبذل لها حبَّها ، وودها ، كما صنعت هذه «الديانة» (المادية) وكنائس هذه «الديانة» الجديدة ومعابدها ، والمصانع ، ومراكز الصناعة ، والتجارة ، والمنتزهات ـ غنَّيةٌ ليل نهار ، آهلةٌ في كلِّ حينٍ وآن . ورجال هذه الديانة هم أصحاب رؤوس الأموال والصناع ، والمليونيرون ، يُنظر إليهم نظرة

الإجلال والإكبار ، بل يُقدَّسون ويُعبدون ، وبالعكس من ذلك أصبحت المسيحيَّةُ في الغرب ظلاًّ شاحباً .

وقد ظهر ـ ولا يزال ـ في الغرب جميع ما هو نتيجة منطقية لهذا التناسي للذات ، ولهذا الأسلوب من الحياة ، وأولى هذه النتائج الوخيمة : أنَّ الإنسان الغربيَّ تنكَّر للإله الأحد الصمد ، وعاد يتضرَّع إلى مئات الآلهة ، قد رفع جبهته من عتبةٍ واحدةٍ ـ كان فيها له غنى عن كل العتبات ـ وبدأ يطرح على كلِّ عتبةٍ ، وتلك هي عاقبةٌ محتومةٌ لكلِّ من تنكَّر للإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، وهؤلآء الأرباب من دون الله قد تسلطوا على الغرب في عددٍ لا يحصيه إلا الله ، وغلبوا على الغرب أمره ، فلا يجد من دونهم موئلاً ، وهذه الأصنام أشكالٌ وألوانٌ ، تتمثَّل حيناً في الزعيم السياسيِّ ، وحيناً آخر في إله الاقتصاد ، وفي مكان هي التزاماتٌ وقيودٌ ، ومستوى الحياة التي افترضها الإنسان ، وتبنَّاها ، وفي مكانٍ آخر واجباتٌ وضرورياتٌ ، التزمها الإنسان بنفسه ، وهذه الأصنام بمجموعها قد ضيَّقت الخناق على عبادها ، وأرغمتهم على عبادةٍ ، تجعل عبادة الله مقابلها أيسر وأحلى منها آلاف المرَّات ، وتعاملهم معاملةً شاقَّةً قاسيةً ، دونها معاملة الإنسان مع العجماوات ، والآلات الصماء ، وتضطرهم إلى تضحياتٍ هائلةٍ ما قام بها أحد من قبل لصنمٍ أو إله ، وهناك صراعٌ مريرٌ بين أغراض هؤلآء الأرباب من دون الله ، ومطامعهم ، وأهوائهم ، جعل العالم يقوم ويقعد ، ومن بين هؤلآء الأصنام الكثيرة المتنوعة صنم «الوطنية» الذي يتطلب لنفسه قرابين النفوس البشرية والدماء الإنسانية ، ومن بينها صنم «المعدة» الذي عكف على عبادته إنسان القرن العشرين ، ولا يبرحها ، ولا يتحوَّل عنها ، ولكنه لا يكاد يرضى عنه بأيِّ كميَّةٍ من التضحية والعبادة ، وقد أجاد المستر «آليورلاج» حيث قال قبل مدَّةٍ في محاضرته :

«أصبحت بساطة الحياة حلماً من الأحلام ، ولا يهمُّ أحداً غرضٌ كريم وفكرةٌ سامية ، وأصبح كلٌّ من الناس يدور حول مصنعه ، أو مكتبة ليل نهار كثور الطاحون ، ويخدمه خدمة العبيد ، وأدَّى اختراع المراكب السريعة إلى أن أصبح إنسان القرن العشرين دوَّامةً لا هدوء لها ، ولا قرار» .

وأدى تقصير الإنسان في جنب الله إلى أنَّه وقع فريسة التناسي للذات ، وقد صرح القرآن أنَّ ذلك عاقبةٌ محتومةٌ لمن نسي الله ، وطوى عنه كشحاً:

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر : ١٩].

حقّاً إنَّ إنسان القرن العشرين هو نموذجٌ كاملٌ لتناسي اللذات ، قد نسي حقيقته ، وخصائصه الإنسانية ، وغرضه من هذه الحياة ، ومقصده من وجوده ، وعاد يعيش عيشة البهائم والجمادات ، وصار ماكينةً تصوغ الدولارات التي لا تستطيع هي أن تنفع بها في قليلٍ أو كثيرٍ ، وبلغ إلى أن الراحة البدنية ، والطمأنينة القلبية التي قد تكون بعض قيمة هذه الجهود والجهاد ، أصبح لا ينالها في حياته ، ولا يفكِّر فيها ، ولا ينتبه إليها ، وقد صدق البروفيسور «جود» حينما قال:

«يقول د. زرائيلي: إنَّ المجتمع في عصره يعتقد أنَّ الحضارة هي الراحة ، أمَّا نحن ، فنعتقد أنَّ الحضارة عبارةٌ عن السرعة ، فالسرعة هي إله الشباب العصريِّ ، وأنه يضحِّي على نصيبه بالهدوء ، والراحة ، والسلام ، والعطف على الآخرين من غير رحمة».

وقد تغيَّرت وظيفة الإنسان بفعل التناسي للذات ، وبحكم إهماله لحقيقته وحقيقة نفسه ، فتقدَّم أشواطاً بعيدةً في مجال الرُّقي في غير دائرته الطبيعية ، ولم يخط خطوة في دائرته الإنسانية ، ولا تزال خصائصه ، وأخلاقه ، وصفاته الإنسانية في انحطاطٍ ، وإذا رحت تحلِّل الرقيَّ أحرزه الإنسان العصريُّ ، فسوف لا تجد إلا أنَّه عبارةٌ عن بعض فضائل السِّباع الضواري ، والطيور والأسماك ، وقد اعترف الكتاب الأوربيون بهذه الحقائق ، وقد جاء الكثير من شهاداتهم واعترافاتهم في كتابنا «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين».

كيف يرجى من الغرب أن يتضرَّع إلى الله ، ويلجأ إلى كنفه ، ويطَّرح على عتبته ، وقد بلغ إلى هذا الحد من التناسي للذات ، إنَّه مصداقٌ صحيحٌ لما قاله الفيلسوف والشاعر الإسلاميُّ الدكتور محمد إقبال في بيته الفارسي:

«إذا نسيت ذاتك ، وتنكرت لنفسك ، فلماذا تبحث عن محبٍّ لك ، عارفٍ

بك ، إذا لم تتعرف على الإنسان وحقيقته ، فأنَّى لك أن تتوصل إلى الله خالق الإنسان وفاطر الكون».

أما نسيان الغرب للآخرة ، فأولى نتائجه الطبيعية أنَّه فتن بالمادية ، وأمعن إلى الحياة الدنيا ، وأخلد إليها ، ونشأ في قلبه الحرص المجنون الجامح على التمتُّع بلذائذ الحياة ، وأصبح كل ذلك غايةً عليا ، ومقصداً أسمى ، وهدفاً أسنى في حياته ، فتتسامع اليوم من كل جوانب الغرب نداء قوياً عالياً إلى الحصول على الخبز ولقمة العيش ، والاهتمام بالمعدة ، والتلذذ بالحياة الدنيا ، والولوع بمظاهرها الجوفاء ، والتمسك بأسبابها ، والحصول على وسائلها ، ولا يصرف فرصة حياته إلا في التنافس في إحراز قصب السبق في هذا المجال ، وقد جعلت هذه المسابقة والتنافس الحياة في الغرب مضمار الرهان الذي لا نهاية له ، فهم في سكرةٍ من الحياة الدنيا ، لديهم منها عليلٌ لا يُشفى ، وغليلٌ لا يُروى ، وكلٌّ يتطلع إلى الجديد المزيد ، ويردِّد «هل من مزيد» وتتجدَّد كلَّ يوم ضروريات الحياة ، وتتنوع ، وتتكاثر وسائل إشباع متطلبات الحياة ، وتتكشف ، وقد ولد كلُّ ذلك مشكلاتٍ مستعصيةً ، وقضايا معقدةً ، وقد أمدها وزاد في حدتها وشدتها ، التنافس التجاريُّ ، ولا يزال مستوى الحياة يترفَّع مع الأيام ، وكلٌّ يرى الغاية بعيدةً ، والمسافة شاسعةً ، فأصبحت الحياة قلقةً متبلبلةً ، فقدت هدوءها ، وطمأنينتها من أجل انصراف الهمَّة كلياً إلى اتخاذ الوسائل للحصول على هذه الأمور ، وأضحى الإنسان الأوربيُّ في عذابٍ من الحرص والطمع والجشع لا ينتهي ، ورهيناً للجهد والسعي للحياة الدنيا الذي لا يكاد يقف عند حدٍّ ، وأصبح الصبر والقناعة ـ اللذان هما أكسير يضفي على القلب طمأنينةً وسكينةً ـ كالعنقاء التي يسمع عنها الإنسان ولا يراها.

وهذا الحرص على التمتُّع بالحياة الدُّنيا ـ الذي نراه نحن المسلمين جنوناً وهوساً ـ هو كلُّ السعادة والنجاح ، وتمام الحظ لدى المنكرين للآخرة ، وذلك أمرٌ طبيعيٌّ ، لأنَّ الذي أنكر الآخرة ، وأخلد إلى هواه ، واطمأنَّ إلى الحياة الدنيا ، ما الذي يمنعه من التمتُّع بها والفوز بأكبر حظٍّ من اللَّذة ، وإشباع كلِّ نهمةٍ وتلبية كلِّ حاجةٍ ، ولماذا يقصر فيما يمكنه من

التنعُّم ، والتمتُّع ، والمرح ، والطرب ، ومن أن يشهد اللذات ، ويبادرها بما ملكته يداه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد : ١٢]

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر : ٣] .

والنتيجة الثانية المشؤومة التي تترتب على إنكار الآخرة ، هي أنَّ هذه الحياة الدنيا ومطامعها ، وأمتعتها ، وزخارفها ، والوسائل التي تسعف الإنسان فيها ، تتزيَّن في القلوب ، وتتجمَّل في الأعين ، وتتحسن لدى العقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [النمل : ٤] .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٥] .

ومن نتيجة ذلك ، أنَّ الحياة أصبحت تتميَّز باللهو واللعب ، وبدأت تفقد عناصر الجدِّ والحقيقة ، وعادت تشغلها وسائل اللهو والطرب والتسلية والسرور ، ولا يغير في وضعهم هذا تغييراً ما ، أخطر الساعات العصيبة ، ولا يحدُّ من غلوائهم أدهى الأوقات وأمرُّها :

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ [الأنعام : ٧٠] .

ومن نتيجته ، أنَّهم لا يعللون الحوادث والوقائع إلا بالعلل المادية الظاهرة المحسوسة المشهودة ، ولا يتوصَّلون إلى الأسباب الحقيقية ، ولا يدركون حقيقة الأمر ، ولا يمسُّون صميم الواقع ، فلا يقع خلل في إمعانهم في وسائل التنعم والتسلية واللهو ، في أدقِّ الساعات وأحرجها ، ويعلِّلون الحوادث بما يشاؤون ، ويسترسلون إلى العلل الجوفاء التي يفترضونها ، ولا يقع تغيُّر ما في موقفهم وأسلوب حياتهم :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ

جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢ ـ ٤٣].

ومن خصائص إنكار الآخرة وجزائها: العلوُّ والاستكبار، فمنكر الآخرة لا يمنعه شيءٌ من الأنانيَّة، والتكبُّر، والخيلاء، لأنَّ الذي لا يؤمن بقوَّة فوق قوَّته، وبحياةٍ بعد هذه الحياة، وبيوم يحاسب فيه العبد على كل صغيرةٍ وكبيرةٍ أتاها في الحياة الدنيا، لا يحولُ بينه وبين أن يكون فرساً جامحاً حبله على غاربه، إنساناً سادراً في غلوائه، يصنع ما يشاء، ويسير على الأهواء، ويركب العمياء، ومن ثمَّ قد شفع القرآن الكريم في أكثر مواضعه ذكر إنكار الآخرة بذكر التكبُّر، فكأنها يلزم أحدهما الآخر:

﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

وجاء في معرض الحديث عن فرعون وجنوده:

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩].

ومثل هذه الأمة، المنكرة للآخرة، المؤمنة بالمادِّيَّة، يكون بطشها شديداً، وضربها موجعاً أليماً، وفتحها إذلالاً للعباد، وتدميراً وإفساداً للبلاد:

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠] ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٣٤].

وكذل بقي الغرب محروماً من الإيمان بالرسالة والنبوَّة، وقد آمن بالمسيح عليه السلام ابناً لله، ولكنه لم يؤمن به ـ في الواقع العملي ـ رسولاً مطاعاً، وهادياً في الحياة، وقائداً لسفينة النجاة، كان الأمر الأول شيئاً اعتقادياً نظرياً، لا يؤثر على الحياة، ولا يغير في الأعمال والأخلاق، والسلوك والعادات، أمَّا الأمر الثاني ـ وهو الإيمان به كهادٍ في الحياة، وداعٍ إلى الفلاح والنجاة والاستضاءة بسيرته وحياته في ظلمات الحياة، واعتباره نموذجاً كاملاً للسلوك الأمثل ـ فكان شيئاً يغيِّر مجرى الحياة، لكن الغرب لم يصنع ذلك، ولم يكن له ذلك سهلاً ميسوراً، فلم يكن يعرف إلا أحوال خمسين (٥٠) يوماً من حياة المسيح عليه السلام، وهي نبذات متبعثرة لا تعطي صورةً واضحةً

للنَّبيِّ المبعوث من الله ، فلا تمكن الإنسان من الاقتداء ، ولا تيسِّر له الائتساء ، يقول القسُّ الفاضل الدكتور شارلس اندرسن اسكات في مقالٍ له في دائرة المعارف البريطانية ، الطبعة الرابعة عشرة ج ١٣ ص ١٧١٠ :

«ينبغي أن يتنازل الإنسان عن محاولة وضع كتابٍ في سيرة المسيح بكلِّ صراحةٍ ، فإنَّه لا وجود للمادة والمعلومات التي تساعد على تحقيق هذا الغرض ، والأيام التي توجد عنها بعض المعلومات لا يزيد عددها على خمسين يوماً».

وعلى ذلك فلو أراد الغرب أن يهتدي هدي المسيح عليه السلام ، وأن يجعل أقواله ، وأفعاله ، وتعاليمه ، وإرشاداته منارة نورٍ في طريق الحياة ، لواجهته صعوباتٌ عمليَّة ، ولم يكن عند قادة المسيحية رصيدٌ موثوقٌ به من التراث الدينيِّ يستندون إليه في قيادة أمَّةٍ بأسرها ، وتوجيهها ، ولا كانوا يحملون من الألمعية ، والفراسة الدينية ، والحكمة الربانَّية ما يستطيعون به أن يحصروا الأمم الأوربية الفتية المتوثبة في نطاق الدين مع التقدم الدنيويِّ ، والرقيِّ الماديِّ ، فكانت نتيجة ذلك أنَّ الأمم المسيحية تحرَّرت ـ في حياتها العملية ـ من قيادة المسيح عليه السلام ، ومراقبة الكنيسة ، وحطَّمت كلَّ الحدود والقيود التي كانت تمنعها من الانطلاق بحرية ، وبدأت تعيش الحياة كأنها ليست من أمَّة نبيٍّ ؛ وذلك لأنَّه لم تؤثر تعاليم المسيح الساذجة في عقولها وقلوبها تأثيراً قويَّاً عميقاً ، ولم تتفاعل هي الأخرى معها تفاعلاً مطلوباً ، ولم تحظ بالتربية الخلقية ، والتزكية العقلية والنفسية ، التي يتلقَّاها أتباع الأنبياء والرسل ، فنشأ من ذلك أنها وفَّرت الوسائل أشكالاً وألواناً ولكنها بقيت مجردةً عن عاطفة الصَّلاح. ونزعة الخير والرشد ، لأنها لا تتأتَّى إلا عن طريق تعاليم الأنبياء وتربيتهم وإصلاحهم ، ولا تولدها العلوم والاختراعات والاكتشافات ، فعادت هذه الوسائل والآلات البريئة ـ التي كان لها أن تكون طريقاً إلى سعادة البشرية بنيَّة الخير وحسن استخدامها ـ وبالاً على النوع البشريِّ ، وطريقاً إلى العلو والاستكبار ، والعبث والإفساد ، والتدمير والهدم ؛ لأن الذين يستخدمونها لا عهد لهم بالتوجيه الربانيِّ : القرآن الحكيم :

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وهذا الاستغناء عن الله، والإعراض عن تعاليم الأنبياء، ورفض الآخرة، كلُّ ذلك أدى إلى أنَّ الغرب بينما هو منور مستضيء حتى أصبح ليله نهاراً، إذا هو مظلمٌ حالكٌ حتى إن نهاره ليل، ويقع في عهد الرقيِّ والنور كل ما كان من خصائص عهد الوحشية والبربرية، وكان كما قال الشاعر الإسلاميُّ الكبير المرحوم أكبر حسين الإله آبادي في بيته الأردي:

سجَّل القلم (قلم المؤرخ) بكلِّ أسفٍ ودهشةٍ: أنَّ «الظلمات» كانت سائدة في «ضوء الكهرباء».

هذا الوضع المزري هو الذي اضطر وزير بريطانيا الأسبق المستر لويد جون أن يقول لدى وضع الحرب العالمية أوزارها:

«لو بعث المسيح عليه السلام في هذه الدنيا مرَّةً ثانية، لما استطاع أن يعيش مدَّة طويلة، لأنه سيلاحظ أنَّ الإنسان لا يزال ـ بعد ألف عام ـ على حاله من الفتنة والفساد، والقتل والنهب، وإراقة الدماء والإغارة، أما اليوم فإنَّ جسم الإنسان لا يزال يتقطَّر دماً بعضّة أكبر حروب التاريخ، وخربت الأرض حتى عمَّت المجاعة، وما عسى أن يراه سيدنا المسيح؟ هل يرى أنَّ الإنسان يصافح بعضه بعضاً بدافع من الأخوة والمساواة، أو يرى ـ عكس ذلك ـ عكوفاً على إعدادٍ واستعدادٍ لحربٍ أكثر تدميراً وهدماً وإبادةً، والتفكير في أحدث أساليب التعذيب؟!»[1].

* * *

(١) نقلاً من جريدة «سج» الأردية لصاحبها المرحوم الأستاذ الكبير عبد الماجد الدريابادي.

فـي ظـلال الـبعثـة الـمحمَّـديـة

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في مؤتمر للسيرة والسنَّة النَّبويَّة العلمي الثالث ، عقدته حكومة قطر عام ١٤٠٠ هـ .

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النِّبيِّين ، محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين .

أمَّا بعد فلي الشرف العظيم في أن أنوب عن العلماء الكبار ، وعن الشخصيات الجليلة التي تمثل الأقطار العربية ، والأقطار الإسلامية ، وألقي كلمة الوفود في هذا المؤتمر الشريف ، لأنَّ هذا المؤتمر ينتمي إلى سيِّد الرُّسل ﷺ ، وهذا تطبيقٌ لمبدأ المساواة الإنسانية والأخوَّة الإسلامية الذي نادى به الإسلام ، وطبَّقه تطبيقاً دقيقاً لا مثيل له في تاريخ الإنسانية ، وعملٌ بقول الرسول ـ ﷺ ـ : «يسعى بذمتهم أدناهم» .

سادتي وإخواني!

إنَّ من أكرم الأخلاق التي قرَّرتها الشرائع السماوية ، والتعاليم الخلقية هو شكر النِّعمة ، وعرفان الجميل ، كما أن من أخسِّ الأخلاق التي اتفقت عليها الشرائع السَّماوية ، والفطر السليمة ، والعقول المستقيمة ، هو كفران النِّعمة ، ونكران الجميل ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] ويقول فيما يتَّصل بنكران الجميل ، والكنود :

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] .

لقد انعقد مؤتمر السيرة النبوية الأول في باكستان ، وكان ذلك رمزاً لعرفان الجميل ، ولشكر النِّعمة ، لأنَّ البعثة المحمَّدية هي التي أخرجت الشعب المولود في شبه القارة الهندية ـ وأنا فردٌ من أفراده ـ أخرجت هذه البعثة المحمَّدية هذا الشعب الذي قدَّر الله أن يولد ، ويوجد في شبه القارة الهندية من الظلمات إلى النور ، ومن الخرافات والأوهام والأباطيل ، ومن الوثنية الشنيعة ، واسمحوا لي أن أصرح وأنا أشهد على شعبي ، فلي كلُّ حق ، وأن أحمد الله تعالى على ذلك . . إنَّ البعثة المحمدية أنقذتنا نحن

المسلمين في شبه القارة الهندية من عبادة البقر ، ومن تقديس الروث ، ومن عبادة الأحجار ، والأشجار ، والأنهار ، فكانت منّة هذه البعثة المحمَّدية عظيمةً وجسيمةً على هذا الشعب ، فكان عليه ـ قياماً بواجب الشكر ، وتظاهراً بسلامة فطرته ، والشعور بواجبه ـ أن يعقد هذا المؤتمر في بلدٍ من بلاد القارة الهندية .

وعقد المؤتمر الثاني في تركيا ، فكان رمزاً لهذا العرفان الجميل والشكر للنعمة ، فإنَّ البعثة المحمدية هي التي أنقذت الشعب التركيَّ من عبادة الذئب الأبيض ، وأخرجت هذا الشعب الباسل الموهوب ، الكريم الأصيل ، من نطاقٍ ضيِّقٍ ، من بُركةٍ صغيرةٍ كان يعيش فيها كالسَّمك بعيداً عن العالم ، بعيداً عن مصير الإنسانية ، بعيداً عن مجاري الأمور ، بعيداً عن السياسة ، بعيداً عن الفلسفة والتفكير السامي ، بعيداً عن التألُّم للإنسانية إلى هذه الواحة الواسعة ، إلى هذه المنطقة المشرفة ، إلى هذا المرصد الرفيع للقيادة والسِّيادة والرِّيادة ، يوم ساد هذا الشعب بإذن الله تبارك وتعالى في القرن العاشر الهجري العالم الإسلاميَّ كلَّه تقريباً ، وكان له شرف خدمة الحرمين الشريفين ، كما روي عن السلطان العثماني سليم الأول أنَّه لما ذكر إمام جامع من جوامع دمشق ، وهو يخطب في الجمعة فقال عن السلطان : ملك الحرمين الشريفين ، فرفع السجادة ، وحسر الأرض ، وسجد ، وقال : لا بل خادم الحرمين الشريفين .

فكان حقاً على الشعب التُّركيِّ المسلم المؤمن الذي لم تستطع قوَّةٌ أن تحول بينه وبين إيمانه برسالة محمد عليه الصلاة والسلام وبالتعاليم التي جاء بها ، كان له حقٌّ أن يُعقد هذا المؤتمر في البلد الإسلامي الحبيب العريق في الإسلام .

وقد جاء هذا المؤتمر الثالث في خير أوانٍ ، وفي خير مكانٍ ، جاء في أوانه ، وفي مكانه ، أمَّا الأوان؛ فهو استهلال القرن الخامس عشر الهجريِّ ، وأما المكان فهو جزيرة العرب .

إنَّ هذه الجزيرة يجب أن تعرف نعمة الإسلام ، وأن لا تكون كنوداً .

اسمحوا لي أن أقول بكلِّ صراحةٍ ألا تكون كنوداً أمام هذه النعمة الجسيمة التي أخرجت جزيرة العرب من عالم الخمول ، ومن عالم التناحر ، ومن الجاهلية الشنعاء الرذيلة الخسيسة ، الموغلة في السفالة والجهالة ، أخرجت هذه البعثة المحمدية هذه الجزيرة العربية من لا شيء إلى كلِّ شيءٍ ، أذكر قول هارون الرشيد الخليفة العباسيِّ أمير المؤمنين ، يوم مرَّت به قطعةٌ من سحابةٍ ، فرفع رأسه ، ونظر إليها ، وقال بعد أن عرف أنها لا تمطر في بغداد : «أمطري حيث شئت ، فسيأتيني خراجك» إنَّ هارون لو عمّر عمر نوح ، ولو عاش ألف سنة إلا خمسين عاماً ، لما كان له أن يملك بغداد ، ما كان له أن يملك العراق ، فضلاً عن هذه الإمبراطورية الإسلامية العظيمة التي لا أرجاء لها ، بل أتحمس وأقول وأتوكل على الله ، لو عاش عبد الله بن عباس ـ على ما أكرمه الله به من علمٍ ولقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : «اللهم علِّمه الكتاب ، وفقهه في الدين» .

وأتقدم خطوة أخرى وأقول : لو عاش سيدنا العباس عمُّ الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما جاءت البعثة المحمدية ـ لا سمح الله بذلك ـ لما كان له أن يملك مكَّة ، ما كان له أن يرفع رأسه في مكة فضلاً عن هذا العالم الفسيح ، العالم الإسلاميِّ ، فكل ما جاء في هذه الجزيرة هو من فضل البعثة المحمَّدية ، وأنني أستحضر الآن بيتاً لشاعرنا شاعر الإسلام الذي أصبح ترجماناً للفتوة الإسلاميَّة ، وللشهامة الإسلاميَّة ، الدكتور محمد إقبال ، اسمحوا لي أن أنشد أولاً بلغته التي قال فيها هذا الشعر ، فإنَّ هناك عدداً من إخواننا الباكستانيين :

ازم دم سيــراب آن أمــى لقــب لاله رست درربك صحرائي عرب

يقول : لقد هبت نفحةٌ من نفحات محمد ، النَّبيِّ الأميِّ عليه الصَّلاة والسَّلام ، وفاضت قطرةٌ من ماء الحياة من فمه الذي لم يكن ينطق إلا بالوحي ، فنشأت جناتٌ وحدائق ، وفاحت روائح عبير من صحراء العرب .

قدروا أيُّها الإخوان! ارجعوا إلى الماضي السحيق وليس سحيقاً ، ارجعوا إلى الماضي القريب ، وما يوم حليمة بسر ، وما قضية أربعة عشر

قرناً بقضيةٍ كبيرةٍ معقدة ، ارجعوا إلى الماضي القريب ، أين كانت الجزيرة العربية؟ أين كانت الأمَّة العربية؟ أين كانت هذه الإمارات ـ رغم دعائي وتقديري لها ـ أين كانت المملكة العربية السعودية؟ حفظها الله وصانها من الفتن(١) . أين كانت باكستان ؟ وأين كانت إيران؟ وأين كنا نلتقي نحن في هذا الملتقى الكريم ، ملتقى السيرة النَّبويَّة ، ملتقى السنَّة النَّبويَّة ، لا والله لو مرَّت الآلاف من السنين ولو حلم الحالمون ، وتغنَّى الشعراء ، وكتب الأدباء ، وتكهَّن الكهَّان ، لما قُدِّر لهذه الأمة العربية ، ولما قدِّر لهذه الجزيرة العربية أن ترتفع لها رايةٌ وأن تُسمع لها كلمةٌ .

هذا كله جاءنا من فضل البعثة المحمَّدية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ، فلنكن عارفين للجميل ، ولنكن شاكرين لهذا الفضل ، ولنكن معترفين بهذه الحقيقة الناصعة ، الحقيقة الخالدة ، الحقيقة التاريخية التي لا تُجحد .

نحن كلنا نعيش في ظلال البعثة المحمَّدية ، نحن كلُّنا نأكل من رفد المائدة التي بسطت للإنسانية عامَّةً ، التي بسطها سيدنا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام ، والتي لولاها لما كان لأبي الحسن أن يتكلم ، وأن يجلس في هذا المجلس الشريف إلى جوار ولي العهد المعظم(٢) والعلماء الكبار ، والله ما كان لي ، وما كان لأكبر ، ولا أعلم منِّي أن يتحدَّث بهذه اللغة القرآنية ، هذه اللغة المعجزة ، هذا كله من فضل البعثة المحمَّدية ، فلا تنسوا هذه الحقيقة الناصعة .

هذه رسالة هذا المؤتمر ، ولنكن معترفين بكلِّ ما جاءنا بإذن الله تبارك وتعالى ، وبكل ما يجيئنا عن طريق محمَّد عليه الصلاة والسلام ، عن طريق البعثة المحمدية ، عن طريق القرآن الكريم والسنَّة المطهرة ، عن طريق الشريعة السمحة ، فلنقرر هذه الحقيقة ، نقررها تطبيقاً ، وتسليماً ، وتقريراً ، وتنفيذاً ، ونقول لكم أيها الإخوان: إنَّ من رسالة هذا المؤتمر

---

(١) كانت هذه الكلمة على أثر حادثة الحرم المشؤومة بأربعة أيام.

(٢) رأس الحفلة سمو ولي العهد المعظم الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني.

الشريف ـ إذا كان لهذا المؤتمر رسالة ، إزالة التناقض من هذا المجتمع الإسلاميِّ العربيِّ ، إنَّ داءنا ، اسمحوا لي أن أقول ، وأتكلم بلسان المؤتمر ، أن أتكلم بلسان الوفود الموقرة ، أن أتكلم بلسان الدعوة الإسلامية التي لا تهاب أحداً ، وأقول لكم :

إن داءنا اليوم ليس الكفر ، والحمد لله ، ليس الشرك ، والحمد لله ، إن داءنا «النفاق» أزيلوا هذا التناقض الذي جثم على صدر هذا المجتمع ، ومنعه من التحرك ، منعه من أن يحمل رسالة الإسلام إلى العالم ، منعه من أن يمثل الإسلام تمثيلاً حقيقياً يجذب إليه العدد الكبير الذي يعيش الآن ، ويتسكَّع في الجهالات والخرافات .

إخواني :

إنني استشهدت بكلمةٍ قالها هارون الرشيد ، ووالله إن الإسلام ، إذا لم يستطع ـ وأعاذه الله من ذلك ـ أن يملك شبراً من الأرض ، فإنَّ العقيدة الصحيحة الحنيفية التي جاء بها الإسلام ، العقيدة النقيَّة التي ما عرف البشر أنقى منها ، ولا أسلم منها ، ولا أوضح منها ، عقيدة التوحيد ، وعقيدة الإيمان بالله تبارك وتعالى ، وعقيدة الإيمان بالآخرة ، الإيمان بالمثل العليا والقيم الشريفة ، هي الثروة التي يعتزُّ بها المسلم ، لو لم يملك الإسلام شبراً من الأرض ، فإنه يمتلك هذا الكنز المرصود ، عنده هذه الثروة التي لا تنتهي ، صلة العبد بربه ، إنَّه يعتزُّ بهذه العقيدة ، فالعقيدة هي أول مواهب الإسلام ، والإسلام هو الذي نعتزُّ به وننتصر .

فلنبدأ هذا القرن بالإخلاص لله تبارك وتعالى ، والصدق ، إنَّه لا ينجينا إلا الصدق . . فلا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه . . . قلت هذا لملوك العرب ، قلت هذا لرؤساء الجمهوريات ، كتبت ، وخطبت ، وقلت ، وسأكتب ، وسأخطب ، وسأقول : إنه لا ينجي في هذه الساعة الرهيبة التي تقشعر منها الجلود ، لا ينقذنا من هذه الورطة التي تورطنا فيها إلا الصدق مع الله تبارك وتعالى . . لا المؤتمرات ، مع تقديري لها ، ولا المحاضرات ، ولا النوادي ، ولا الصحف ، ولا الدعايات ، ولا التمويلات ، ولا شيءٌ . .

إنما ينجي الصدق مع الله تبارك وتعالى ، فلنكن صادقين مع الله ، قبل أن نكون صادقين مع أحد ، ولنكن صادقين مع نفوسنا وضمائرنا ، إنَّ علينا رقيباً في داخل أنفسنا ، والله تبارك وتعالى ينزل النصر من فوق سبع سموات ، وترون كيف ينزل النصر ، وكيف ينقشع هذا السحاب المتراكم ، وكيف يتبدد هذا الظلام الدامس ، وكيف يطلع النور في بداية القرن الخامس عشر الهجري .

والله سبحانه وتعالى ينصركم ، ويؤيِّدكم بروحٍ منه ، ويقيكم الفتن ما ظهر منها وما بطن ، والحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

جوانب السِّيرة المضيئة
في المدائح النَّبويَّة الفارسيَّة والأردوية

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في الندوة العلمية التي عقدتها رابطة الأدب الإسلاميِّ العالميَّة في أورنغ آباد الهند ، حول المدائح النَّبويَّة ، في الفترة ما بين ٢٥ ـ ٢٧/ صفر ١٤٠٩ هـ. الموافق ٧ ـ ٩ أكتوبر ١٩٨٨ م.

الحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أمَّا بعد! فإنَّ الملمَّ بلغات العالم، وآدابها، وثروتها الأدبية، ومكتبتها الشعرية، والمشتغل بالدراسات الأدبية المقارنة، يعرف أنَّ صنف المديح النَّبويِّ أو «النبويات» ثروةٌ أدبيةٌ معنويةٌ من أغنى الثروات الأدبية والإنتاج الشعريِّ، وفيض القريحة ورشحاتها، وتوليد المعاني والانطلاق في عرصاتها، من بين لغات البشر المحفوظ تراثها، الباقية آثارها، وذلك لعمق تأثير البعثة المحمَّدية في العالم، وفي الأجيال والنفوس البشرية، ولكون سيرة سيِّد الأنبياء وخاتمهم، معلومةٌ محفوظةٌ، ومتداولةٌ، متناقلةٌ، على اختلاف الأزمنة والأمكنة، والأمم والبلاد، وأخيراً لا آخراً لتعلُّق قلوب هذه الأمَّة وارتباطها عقدياً، وعقلياً، ونفسياً، وعاطفياً ـ بنبيها ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ تعلقاً لم يعرف في تاريخ الديانات وفي واقع الأمم لأيِّ أمَّةٍ بنبيها رغم ما عرفت من تخطٍّ للحدود الفارقة بين التوحيد والشرك، وتأليهها له في بعض الأحيان، أو اعتقاد الأبنية أو التبني على الأقل.

وذلك شأن المديح النبوي أو «النبويات» مع ثروة المدائح البشرية وشعرالمديح في تاريخ الأدب والشعر، فإنَّ الأول (المديح النبويّ) يفوق شعر المديح والوصف، وقصائد المدح والرثاء، كمَّاً وكيفاً، وقامةً وقيمةً، ذلك لأسبابٍ نفسيةٍ واقعيةٍ، تحليليةٍ طبيعيةٍ وعقلية، فإنَّ الأول تقترن به العقيدة المتغلغلة في الأحشاء، المسيطرة على الأعصاب، وقوى الفكر، والشعور العميق بالسعادة والتوفيق، والأمل في النَّجاة والمغفرة في بعض الأحيان، والزلفى عند الله، والرَّجاء في الشفاعة، وكلُّ ذلك كافلٌ بإثارة المواهب الدفينة، وتدفيق القريحة الخامدة، وإثارة المعاني، والحماس البيانيِّ، مع رقة الشعور الإنسانيِّ، فإنَّ الشاعر إذا كان مدفوعاً من داخل نفسه، مسوقاً من إيمانه، متجرداً عن الأغراض الخسيسة،

والمنافع المادية ، متجاوباً لقلبه وروحه ، غرف من بحرٍ لا ساحل له ، واقتنص نجوماً كانت فوق متناول يده .

هذا بالعكس من المدائح التي قيلت في ملكٍ أو أمير ، أو فاتحٍ أو غنيٍّ ، فقد ارتبطت به مطامع وآمال في بعض الأحيان ، أو مخاوف وتوجسات في أحيان أخرى ، وصدرت عن اقتراحٍ وطلب ، وأملاها مقتضى الوقت ، ومصلحة الزمان ، وشتَّان بين هتاف الخارج ونداء الضمير ، وبين تحقيق رغبات المتملقين المقترحين ، أو الوصول إلى غاياتٍ اقتصاديةٍ ، أو سياسيةٍ ، أو اجتماعيةٍ ، وبين تحقيق رغبة الضمير المؤمن القاهرة (من غير عنفٍ أو قسوةٍ) وبين شكرٍ واعترافٍ بجميلٍ ناله هذا الشاعر من الممدوح ، أو أمَّل فيه في المستقبل ، وبين شكرٍ واعترافٍ ـ بكلِّ شعرةٍ من شعرات جسمه ، وبكلِّ جارحةٍ من جوارحه ـ بما أنعم الله به عليه عن طريق هذا النَّبيِّ من نعمة الإيمان ، وكرامة الإنسان ، ولم يزل ولا يزال بين الجمال والكمال وبين الإشادة به ، والتغني والاهتزاز لهما داخلياً ، والإعلان لهما خارجياً ، صلةٌ قويةٌ عميقة خالدةٌ ، وتفاهم ـ من غير مخططٍ أو مؤامرةٍ مصطنعةٍ مدبرةٍ ـ فأينما كان الجمال والكمال الساحران سحراً حلالاً ، وأينما كان الفضل والإحسان ـ من غير عوضٍ أو أملٍ في مردود ـ كان الشعر البليغ ، والمديح الرقيق ، والبيان السَّاحر ، والأدب الخالد ، وذلك هو الباعث الأساسيُّ الأقوى على وجود الشعر الذي طربت له الآذان ، وصفَّق له الزمان ، ونقل الإنسان من عالم الهموم والأحزان ، إلى عالمٍ فسيحٍ تهبُّ فيه نفحات الإيمان والوجدان .

ومن الفوارق الكبيرة بين شعر المديح العام وشعر المديح النبويِّ والنبويات : أنَّ انطباع شاعر المديح لممدوحه ، وتعبيره عن مظاهر عظمته ومحاسنه وحبه لمن يرثيه من الملوك والأجواد ، والشجعان والفاتحين ، والقادة والنابغين من الحكام أو العلماء ، والصَّالحين ، يبقى محصوراً في نطاق حياته ، وفي حدِّ ذاته ، لا شأن له ، ولا دافع إليه بعد وفاته ، أو بعد ما انتهى هذا الشاعر الراثي من رثائه ، ولا شأن له ببلده الذي ولد فيه ، أو مات فيه ودفن ، وقضى فيه حياته ، وعاش ، فقد كان هذا الممدوح أو

المرثي بشراً من البشر ، كانت كل الفضائل التي امتاز بها مقرونة مرتبطةً بذاته وحياته ، وانتهت بحياته ، ولم يكن لبلده ـ مولده ومهجره ـ دورٌ في تاريخ تغيير مسيرة الإنسانية ، وإنقاذ البشرية ، ولم تقترن به ذكريات الدعوة ، والإصلاح ، والجهاد ، والكفاح ، والإيثار على النفس ، والفداء ، والأخوة الصادقة ، والإنسانية السَّامية ، وآيات البطولة والاستماتة في سبيل الله ، والشوق إلى الجنة ، والحنين إلى الشهادة ، وإيثار النَّبيِّ ـ ﷺ ـ على النفس والأولاد ، وبالعكس قد خصَّ الله بلدي الرسول بعبير الإيمان وأريج الحبِّ والحنان ، فأحدهما مولد الرسول ومبعثه ، وثانيهما مهجره ومدفنه ، لذلك كان الحنين إلى هذين البلدين ، والحرص على الوصول إليهما مشياً على الرأس والعين ، وكنس أرضهما بالأهداب ، وغسلهما بالدموع ، أمنيةَ العشاق ، والمتيمين ، وأصحاب النبويات ، والشوقيات من الشعراء والناظمين.

وكان ذلك أبرز وأقوى عنصرٍ شعريٍّ في هذا الصنف في الشعر الفارسيِّ والأرديِّ لبعد هذه البيئات التي نبغ فيها هؤلاء الشعراء عن مركز الإسلام ومدينتي الرسول عليه الصلاة والسلام ، لذلك جاء في شعر شعراء إيران وشبه القارة الهندية من شعر الحنين والشوق ، والشعور بالبعد والهجران ، وشوق الوصول إلى البلدين الطيبين المباركين على جناح الشوق والحبِّ ، كما يقول الشاعر العربي في ممدوحٍ بعيدٍ غائب عنه:

فيا غائباً لو وجدنا له سبيلاً مشينا على الأرؤس
على ذلك الوجه مني السَّلام ولا أوحش الله من مؤنسي

ويمكن أن يقال بكلِّ ثقةٍ وبيِّنة: إنَّ الشعر الذي قيل في اللغة الفارسية والأردية في الحنين إلى المدينة المنورة وتمثيلها في المخيِّلة ، وتصوير وصول الشاعر إلى أرضها ـ إذا قدِّرت له هذه السعادة ـ وسروره بذلك ، واعتداده بهذه الكرامة وانتهازه لهذه الفرصة التي لم تتحقق لكثيرٍ من الأولياء الكبار ، وعباد الله الأبرار ، يمكن أن يعتبر من أرقِّ الشعر العاطفيِّ وأقواه في الشعر العالمي الغزليِّ ، فإنَّه لا يزال يثير الأشواق ، ويدمع الآماق ، وينزل إلى الأعماق ، ويثير الكوامن في نفوس العشاق.

إنَّ الحديث عن مكانة المديح النبويِّ أو النبويات في الشعر العالمي واستعراضه بوجه عام ، مهما كان بإيجازٍ واختصارٍ ، لا يتَّسع له هذا البحث القصير ، فإنَّه موضوع كتابٍ ، أو سلسلة كتبٍ ، وقد تكلَّم كاتب هذه السطور في الموضوع بإيجازٍ في كتابه: «الطريق إلى المدينة المنورة» في مقاله: «شعراء العجم في مدح سيد العرب والعجم» (ص ٩٧ ـ ١٢٠) ، ولكنِّي أحدِّد موضوعي في عنوان «جوانب السيرة المضيئة ، في المدائح النبوية الفارسية والأردية» في هذه المناسبة الكريمة الطيبة من جلسات الرابطة العالمية للأدب الإسلامي المنعقدة في مدينة أورنك آباد «البلد الإسلامي الذي قضى فيه الإمبراطور المغوليُّ المجاهد في سبيل الله ، المحبُّ لرسول الله ، المطبق لشريعته في مملكته الواسعة ، المدينة التي قضى فيها شطراً من عمره ، وبوفاته تزعزعت الإمبراطورية المغولية الإسلامية الأخيرة ، فهي تستحقُّ أن تسمَّى غرناطة الهند ، وكانت مدفنه.

وقد ازداد شعر المديح بتناوله جوانب السيرة قيمةً وإفادةً ، وقد كانت لفتاتٌ تاريخيةٌ تضيء جوانب السيرة ، وتعرض حقائق تاريخيَّةً في بلاغةٍ وإيجاز ، يقصر عنها التاريخ المطوَّل مع قيمته العلمية ـ ويترك في نفس القارىء انطباعاتٍ نفسيةً عميقةً غلاَّبةً ليست في متناول المؤرخين المسهبين ، ونختار في عرض هذه النماذج اللغتين الفارسية والأردية ، اللتين تزخر فيهما هذه الثروة ، واللتين كان الناطقون بهما أكثر حاجةً إلى هذه الإيضاءات ، وتلخيص التاريخ الطويل المشرق في أبياتٍ معدودةٍ ، ولفظٍ قليلٍ ، ومعنى عميقٍ.

ونعرض من هذه النماذج مع رعاية الأدوار والعهود ، ونبدأ بالشيخ مصلح الدين السعدي الشيرازي (المتوفى ٦٩١ هـ) ونبدأ بشعره الذي معناه:

«إنَّ اليتيم الذي نشأ أمياً ، وعاش أمياً ولم يقرأ القرآن في كتابٍ ، استطاع أن ينسخ مكتبات شعوبٍ كثيرةٍ ، فتفقد قيمتها ، وحيويتها ،

وينشىء مكتبةً جديدةً كانت مصدر العلم والعرفان ، ومنهل كلِّ رائدٍ وظمآن .

إنَّه لغز من ألغاز التاريخ أنَّ الحركة العلمية الكبرى في العالم الإنسانِّي والحركة التأليفية والكتابية الكبرى في النوع البشريِّ نبعتا من نبيٍّ أميٍّ . إنَّ ارتباط هذه الحركة العلمية ، وهذه الخدمة الهائلة للعلم والثقافة التي كانت هذه الأمَّة حاملةً لواءها ، بهذه الأمِّيَّة ، يثير تساؤلاً تاريخياً يتطلب من عقلاء العالم ورجالات فلسفة التاريخ إجابةً مقنعةً عليه ، فإنَّ اليتيم الذي لم يتلقن مبادىء العلم ، استطاع أن ينسخ مكتبات الأديان ، ويجعلها لا تغني غناءً ، ولا تحمل معنىً .

ولكنَّ المرء قد يفهم من هذا البيت أنَّ معجزة النَّبيِّ ﷺ في هذا الصدد كانت سلبيةً ، حيث إنه قد نسخ المكتبات والذخائر العلمية القديمة التي كانت قد تجرَّدت عن رسالتها ودورها الإيجابيِّ ، وبدأت تمثِّل دور التضليل ، وتنشر الأباطيل . لكنَّ الواقع أنَّ هذه المعجزة كانت إيجابيةً بناءةً أكثر من أن تكون سلبيةً . إنَّه نسخ ذخيرة كتبٍ محدودةٍ لكنَّه حبا الإنسانية مكتباتٍ واسعةً زاخرةً ، انقطع نظيرها في تاريخ الأمم .

لقد انبثق من النُّبوَّة المحمَّدية وتعاليمها الحماس والتفاني في سبيل العلم ، وانطلقت حركةٌ علميَّةٌ خالدةٌ ، مساحتها الزَّمنيَّة من أكبر المساحات الزمنية ، ومساحتها المكانية من أكبر المساحات المكانية ، والمساحة المعنوية أوسع من كلتا المساحتين(١) .

ونكتفي هنا بشهادةٍ لباحثٍ غربيٍّ كبيرٍ ، ومؤرخٍ فرنسيٍّ شهيرٍ ، وهو الدكتور غوستاف لوبون ، يقول في كتابه المشهور «حضارة العرب» :

«والإنسان يقضي العجب من المهمَّة التي أقدم بها العرب على البحث ،

---

(١) ليرجع لمعرفة هذه المساحات ، ولمعرفة التنوع ، والتفنن في الموضوعات ، إلى كتبٍ وضعت في ذكر المؤلفات التي ألفها علماء الإسلام في عصورٍ وأنحاء مختلفةً ، والفضلاء الغربيون المستشرقون في العصر الأخير ، راجع هامش «الإسلام ، أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية» (طبع دار ابن كثير ، ص/ ٨٣) «دمشق» .

وإذا كانت هنالك أممٌ تساوت هي والعرب في ذلك ، فإنَّك لا تجد أمَّةً فاقت العرب على ما يحتمل ، والعرب كانوا إذا ما استولوا على مدينة صرفوا همَّهم إلى إنشاء مسجدٍ وإقامة مدرسةٍ فيها ، وإذا ما كانت تلك المدنية كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرةً ، ومنها المدارس العشرون التي روى «بنيامين التطيلي» (المتوفى ١١٧٣ م) ، أنه شاهدها في الإسكندرية ، هذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد ، والقاهرة ، وطليطلة ، وقرطبة. . . إلخ على جامعاتٍ مشتملة على مختبراتٍ ومراصد ومكتباتٍ ، وكلٍّ ما يساعد على البحث العلميِّ ، وكان للعرب في أسبانيا وحدها سبعون مكتبةً عامَّةً ، وكان في مكتبة الخليفة الحكم الثاني[١] بقرطبة ستمئة ألف كتاب ، منها أربعة وأربعون مجلداً من الفهارس ، كما روى مؤرخو العرب ، وقد قيل بسبب ذلك : إنَّ «شارل الحكيم» لم يستطيع بعد أربعمئة سنة أن يجمع في مكتبة فرنسا الملكية أكثر من تسعمئة مجلد ، يكاد ثلثها خاصاً بعلم اللاهوت»[٢] .

ويلي سعدي الشيرازي شاعر الهند بالفارسية الأمير «خسرو» الذي سلم له شعراء إيران بالزعامة ، والإمامة ، وشهدوا له بالإجادة ، والإبداع في الشعر الفارسيِّ ، يقول في مقطوعةٍ شعرية :

«إنَّ أنفاس النَّبيِّ ـ ﷺ ـ وأخلاقه قد نفخت الحياة في العرب الذين كانوا في احتضار ، وأطفأت في وقتٍ واحد شعلة أبي لهبٍ[٣] الوهاجة التي كادت تأتي على الأخضر واليابس ، إنه وصل في خطوتين من هذا العالم إلى ذلك العالم[٤] ، وفي جولةٍ من العالم المادِّيِّ إلى العالم الروحيِّ» .

---

(١) ولد في سنة ٣٠٢ وتوفي ٣٦٦ ـ (٩١٤ ـ ٩٧٦) فكان هذا التقدُّم في العلم والعناية بالمكتبات في القرن الرابع الهجري (القرن العاشر المسيحي) فكيف بعد ذلك؟

(٢) حضارة العرب ، ص/ ٤٣٤ ، تأليف الدكتور غوستاف لوبون ، ترجمة الأستاذ عادل زعتير (مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه في مصر) .

(٣) يعني به الشاعر زعيم الكفر والجاهلية ، وقد اتخذ شخصية أبي لهب ، ممثلاً لهذا الاتجاه .

(٤) يشير إلى الإسراء والمعراج .

ويقول مولانا عبد الرحمن الجامي (المتوفى ٨٩٨ هـ):

«يا من نسبه عربيٌّ ولقبه أميٌّ ، لقد دان بولائك ، وخضع لسيادتك العرب والعجم سواءً. إنَّ فصاحتك استأسرت العرب ، وإنَّ ملاحتك ملكت قلوب العجم ، ما ضرَّك ألاَّ تقرأ ، ولا تكتب! فبفضل جهودك وبعثتك تعلم الأمِّيُّون ، ونبغ الجاهلون ، بك ابيضت صحيفة الأعمال ، وأشرق نورك في الظلمات ، فلا ضير ألاَّ تخطَّ سواداً على بياض ، أم تضم سواداً إلى سواد».

يقول أسد الله خان (غالب) الدهلوي أشهر شعراء أردو الغزلين وأحظاهم بالقبول (المتوفي ١٢٨٥ هـ):

«إن بنانه لم يمسك القلم ، لكنه سطَّر ما عجزت عنه أقلام التاريخ ، ما وضع قدمه على الصحراء إلا وتحوَّلت إلى جنةٍ خضراء ، وما تكلَّم مع كافرٍ إلا حوله مسلماً مؤمناً ، يؤمن بربِّ الأرض والسماء ، أنار الدنيا بنور الدِّين ، وأنقذ المؤمنين من عذاب ربِّ العالمين ، حصاة عتبته تذيب الحديد ، وتلين الشَّديد ، عاكفٌ في المحراب ، وقلبه معلَّقٌ بخلق الله».

ويليه زعيم الشعر الإسلاميِّ الحديث الشيخ ألطاف حسين الملقب في شعره بـ«حالي» (المتوفى ١٣٣٣ هـ) صاحب المنظومة ، أو الملحمة الإسلامية المشهورة المقبولة:

«نزل من غار حراء ، وفي يده إكسيرٌ من السماء ، حوَّل التراب تبراً ، والحصى دراً وجوهراً ، أقبل إلى الأمة العربية التي كان يخيم عليها الجهل من قرون ، فأحدث فيها ثورةً جذريةً انقلبت بها أوضاعها ، وتغيَّر بها مجرى التاريخ. إنَّ الحجر الذي رفضه كلُّ بناء ، وزهد فيه كل معمار ، تناوله بيده الكريمة ، وجعله حجر الزاوية ، لقد هاجت سحابةٌ من بطحاء مكة ، ملأت سمع الزمان وبصره ، وشرَّق وغرَّب رعدها وبرقها ، فبينما رعدت على نهر «تاجه» في أسبانيا أمطرت على نهر «كنج» في شبه القارة الهندية ، لقد أحيا غيثها مزرعة الإنسانية القاحلة ، وعمَّ برها البرَّ والبحر ، فما ترى في العالم من رواءٍ وبهاءٍ ونورٍ وسناءٍ إلا والفضل فيه يرجع إلى البعثة المحمَّدية».

ويقول الشاعر حفيظ الجالندمري صاحب الملحمة المشهورة بـ«شاهنامه إسلام»:

«إنَّه ردَّ إلى الإنسانية كرامتها واعتبارها ، وإلى أفراد النوع الإنسانيِّ حقَّهم في الحياة ، نكس الباطل ، وقلب عروش الملوك الجبابرة ، رفع رأس كلِّ إنسانٍ صابر ، وشرف قدر الأجير ، وأهان المثري المتأثر ، لقد كان الفقر فخره ، ولكنه كانت سطوة كسرى وقيصر تحت قدمه ، إنَّه كسر سلاسل الظلم والباطل النارية التي يصعب كسرها ، وجبر القلوب المنكسرة المتهافتة التي يصعب جبرها ، فصلوات الله عليك يا من كان كسره معجزةً وجبره معجزةً».

نختم هذا الباب بنموذجين من شعر شاعر الإسلام الأكبر الدكتور محمد إقبال ، فهو مسك الختام ، وخير ما نختم به الكلام ، يقول الدكتور محمد إقبال:

«إنَّ قلب المسلم عامرٌ بحبِّ المصطفى ﷺ ، وهو أصل شرفنا ، ومصدر فخرنا في هذا العالم. إنَّ هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرى ، كان يرقد على الحصير ، إنَّ هذا السيد نام عبيده على أسرة الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنوم ، لقد لبث في غار حراءٍ ليالي ذوات العدد ، فكان أن وُجدت أمَّة ووُجد دستورٌ ، ووُجدت دولةٌ ، إذا كان في الصلاة فعيناه تهملان دمعاً ، وإذا كان في الحرب فسيفه يقطر دماً.

لقد فتح باب الدنيا بمفتاح الدين ـ بأبي هو وأمي ـ لم تلد مثله أمٌّ ، ولم تنجب مثله الإنسانية ، افتتح في العالم دوراً جديداً ، وأطلع فجراً جديداً ، كان يساوي في نظرته الرفيع والوضيع ، يأكل مع مولاه على خوانٍ واحدٍ ، جاءته بنت حاتم أسيرةٌ مقيَّدةً سافرة الوجه ، خجلةً مطرقةً رأسها ، فاستحيا النبيُّ ﷺ وألقى عليها رداءه ، نحن أعرى من السيدة الطائية ، نحن عراة أمام أمم العالم.

لطفه وقهره كلُّه رحمةٌ ، هذا بأعدائه وذاك بأوليائه ، الذي فتح على الأعداء باب الرحمة ، وقال: لا تثريب عليكم اليوم! نحن المسلمين من

الحجاز والصين وإيران وأقطار مختلفة ، نحن غيضٌ من فيضٍ واحدٍ ، نحن أزهارٌ كثيرةُ العدد متَّحدة الطيب والرائحة ، لِمَ لا أحبُّه ، ولا أحنُّ إليه وأنا إنسانٌ ، وقد بكى لفراقه الجذع ، وحنَّت إليه سارية المسجد؟ إنَّ تربة المدينة أحبُّ إليَّ من العالم كلِّه ، أنعم بمدينةٍ فيها الحبيب!» .

ويقول في قصيدةٍ أخرى :

«اكتست صحراء العرب بفضل هذا النَّبيِّ الأميِّ حلةً أنيقةً ، وأنبتت زهرةً يانعةً ، إنَّ عاطفة الحرية نشأت في ظلِّ هذا النَّبيِّ ، بل ترعرعت ، ونمت في حجره وهكذا كان يوم هذا العالم المعاصر مديناً لأمسه .

لقد وضع قلباً نابضاً خفاقاً في جسد الإنسان البارد ، وأزاح الستار عن طلعته الجميلة الوضاءة .

هزم كلَّ طاغوتٍ ، وحطَّم كلَّ صنمٍ ، وأورق كلُّ غصنٍ يابس ، وأزهر وأثمر ، إنَّه روح معركة بدرٍ وحنين ، وإنَّه مربي الصِّدِّيق ، والفاروق ، والحسين .

أذان صلاة الحرب وجَرْسٌ سورة الصَّافات غيضٌ من فيضه ، جعل سيف صلاح الدين البتار ونظرة بايزيد النافذة مفتاح كنوز الدنيا والآخرة .

جرعة من كأسه أروت العقل والقلب ، والتقى بها روح الروميِّ بفكر الرازيِّ ، واجتمع بها العلم والحكمة ، والدين والشرع ، والإدارة والحكم ، مع قلوب أوَّاهةٍ مخبتةٍ منيبةٍ في الصدور .

إنَّ جمال قصر الحمراء ، والتاج ، الذي نال خراج الملائكة وإعجاب القديسين هو نفحةٌ من نفحاته ، ولمحةٌ قصيرة من لمحاته ، وومضةٌ من أنواره وبركاته .

ظاهره تلك التجليّات والنفحات ، وباطنه درٌّ مكنونٌ لم يطَّلع عليه العارفون ، ولم يصل إلى كنهه السالكون .

فلا ريب أنَّه يستحقُّ ثناء الجميع وشكرهم وحمدهم ، لأنَّه أسبغ نعمة الإيمان على هذه الحفنة من التراب .

وأخيراً لا آخراً: من أبرز الجوانب المضيئة في المدائح النبوية وأكثر سماتها أصالةً وأهمية إبراز أكبر مآثر النبوَّة المحمَّدية وأهدافها ، هي الدعوة إلى عقيدة التوحيد الخالصة النقية ، ونبذ الوثنية والثنوية ، والإشراك بالله بجميع أنواعه ومظاهره ، وممكناته ومفترضاته ، وقد وردت هذه المعاني في عددٍ من القصائد التي قيلت في المديح النبويِّ ، فإن البعثة المحمدية قد اقترنت بالدَّعوة إلى التوحيد السافر اقتراناً بحيث لا يمكن تصور أحدهما إلاَّ بالآخر ، ولا يمكن الإنصاف ـ إذا كان الإنصاف ممكناً ـ لموضوع المديح النبويِّ ، إلا إذا أبرزت هذه الناحية الأساسية في الحديث عن فضل البعثة النبوية ومنِّها على العالم ، ومعطياتها ومُنْجزاتها.

ومن الإنصاف للموضوع أن يقال: إنَّه قد تورط عددٌ من أصحاب المدائح في بعض المزالق ، بتأثير بعض البيئات الموبوءة ، أو ضعف الثقافة الدينية ، أو بسبب الاتجاه إلى الغلو والمبالغة التي اعتبرت من سمات الشعر ومحاسنه في كثيرٍ من الآداب واللغات والعهود والأدوار ، وقد أبدى العارفون لروح الدين والغيارى على الإسلام في كلِّ زمانٍ ومكانٍ استنكارهم لذلك ، واعتبروه شيئاً دخيلاً طارئاً على المديح النبويِّ.

وهنا نعرض نموذجاً واحداً للإشادة بعقيدة التوحيد الخالص عند أحد أئمة شعر المديح النبويِّ ، وهو الشيخ ألطاف حسين حالي ، صاحب المزدوجة المشهورة المعروفة بـ«مسدس حالي» يقول الشاعر :

«لقد وقعت رجةٌ في المحيط ، واهتزَّ المجتمع العربيُّ ، حين نادى الرسول ، وقال بأعلى صوته: إنه لا يليق بالعبادة ، ولا بشهادة القلب ، واللسان بالوحدانية إلا ذلك الواحد الصَّمد الذي يستحقُّ وحده الطاعة والخضوع ، وامتثال الأوامر مطلقاً ، فإذا كنتم مطرقين رؤوسكم فأطرقوه أمامه ، وإذا كنتم خاضعين فاخضعوا له ، وإذا كنتم معتمدين على شيء فاعتمدوا عليه ، وإذا كنتم خائفين وجلين من أحد فاخشوا غضبه ، عيشوا على حبِّه ، وموتوا في طلبه ، إنه مبرءٌ من كل مشاركة ، ولا عظمة أمام عظمته ، إنَّ العقل والذكاء كليلان في إدراك كنهه وصفاته ، وإنَّ الشمس

والقمر خاضعان ذليلان لأوامره ، ولا قيمة لملوك وفاتحين في مملكته التي وسعت الأرض والسماء ، ولا قدرة لنبيٍّ وصديقٍ على نقض ما أبرم ، ولا على إبرام ما نقض ، وليس للرهبان والأحبار ، ولا للأبرار والأحرار دالةٌ عليه حتى يستطيعوا أن يحققوا ما أرادوا ، ويشفعوا لمن ارتضوا ، فلا تغتروا كما اغترت أممٌ قبلكم ، ولا تدعوا لله ولداً ، ولا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ، ولا تبالغوا في شأني فتسيئوا إليَّ ، ولا تتخذوا قبري مسجداً».

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

الاجتهاد ونشأة المذاهب الفقهية

أعَدَّ العلامة الندوي هذه المحاضرة للإلقاء في الملتقى السَّابع عشر للفكر الإسلاميِّ حول موضوع «الاجتهاد» المنعقد في مدينة قسنطينة بالجزائر عام ١٩٨٣ م ، ولم يتمكن سماحة الشيخ الندوي من الحضور في الملتقى ، فطبعت هذه المحاضرة ووُزِّعت في الملتقى .

الحمد لله وحده، والصَّلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده، سادتي الأفاضل! يحلو لي أن أبدأ مقالتي هذه بما سطره قلبي في مقدمة مجموع محاضرات «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»:

الحيوية الكامنة في وضع الإسلام وجدارته لقيادة الركب البشري:

«من الحقائق الأولية أنَّ الحياة متحركةٌ ومتطورةٌ، دائمة الشباب، مستمرَّة النُّموِّ، تنتقل من طورٍ إلى طورٍ ومن لونٍ إلى لونٍ، لا تعرف الوقوف، ولا الركود، ولا تصاب بالهرم والتعطُّل، فلا يسايرها في رحلتها الطويلة المتواصلة إلا دينٌ حافلٌ بالحركة والنشاط، لا يتخلَّف عن ركب الحياة، ولا يعجز عن مسايرته وزمالته، ولا تقصر عنه خطواته، ولا تنفد حيويته ونشاطه.

وذلك شأن الإسلام، فإنَّه ـ وإن كان مؤسساً على عقائد ثابتةٍ، وحقائق خالدةٍ ـ زاخرٌ بالحياة، حافلٌ بالنَّشاط، له من الحيوية معينٌ لا ينضب، ومادَّةٌ لا تنفد، صالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وعنده لكلِّ طورٍ جديدٍ من أطوار الحياة، ولكلِّ جيلٍ جديدٍ من أجيال البشرية، ولكلِّ عهدٍ مستأنفٍ من عهود التاريخ، ولكلِّ مجتمعٍ عصريٍّ من مجتمعات البشر، مددٌ لا يقصر عن الحاجة، ولا يتأخَّر عن الأوان.

إنَّ الإسلام ـ بخلاف ما يعتقده كثيرٌ من المسلمين، وبعكس ما يصوره أكثر المستشرقين والمؤرخين الغربيِّين ـ ليس حضارة عهدٍ خاصٍّ، ولا فنَّ فترةٍ من فترات التاريخ، تمثله آثار ذلك العهد ومبانيه، ويعيش في الأحجار والرسوم والصور، لا في واقع الحياة، وقد فقد صلاحيته للحياة وأدَّى رسالته، كالذي نتحدَّث عن الحضارة اليونانية والرومية، أو الفنِّ التُّركيِّ والمغوليِّ. إنَّه دينٌ حيٌّ، ورسالةٌ خالدةٌ. إنَّه حيٌّ كالحياة نفسها، وخالدٌ كخلود الحقائق الطبيعية ونواميس الحياة. إنَّه تقدير العزيز العليم ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] وقد ظهر في شكله النهائيِّ، وطوره الكامل، وأعلن يوم عرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى

وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣] فهو يجمع بين الكمال الذي لا انتظار بعده لدينٍ آخر، ولا حاجة معه إلى رسالةٍ جديدة. وبين الحيويَّة التي لا نفاد لها، والنشاط الذي لا آخر له، ولذلك استطاع أن يساير الحياة، ويراقبها في وقتٍ واحد، ويتابعها في صلاحها واستقامتها، وينكر عليها في انحرافها وزيغها، فلا هو مسايرٌ مائعٌ ككثيرٍ من الأديان المحرَّفة، ولا هو مراقبٌ جامدٌ ككثيرٍ من الفلسفات النظرية، وذلك مثل الدِّين الكامل، ومثل الدِّين الحيِّ للإنسان الحيِّ؛ الذي يشعر بشعوره، ويعترف بحاجاته، ويرشده في مشاكله، ويعارضه في اتجاهاته الفاسدة.

كيف استطاعت الأمَّة أن تساير الحياة، وتقودها بالشريعة:

وقد استطاعت الأمَّة الإسلاميَّة أن تواجه التقلُّبات التي لا تكاد تنتهي، والقضايا التي لا يأتي عليها الحصر، ولا يحدُّها قياس، واختلاف الزمان والمكان، وتنوُّع البيئات والملابسات، وقد أمكن ذلك بقوتين:

القوة الأولى: هي الحيوية في وضع الإسلام نفسه، وصلاحيته للحياة والإرشاد في كلِّ بيئةٍ، وفي كلِّ محيطٍ، وفي كلِّ عهدٍ من عهود التاريخ، فقد خصَّ الله محمداً ﷺ برسالةٍ وتعاليم كاملةٍ للإنسان، صالحةٍ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وتستطيع أن تواجه ما يتجدَّد من الشؤون وأطوار الحياة، وتحلَّ كل ما يعتري من المشكلات والمعضلات، والدراسة العميقة الشاملة للقرآن الكريم، والحديث النبويِّ الصحيح، ومصادر الإسلام كافلةٌ بالاقتناع بما أقول.

والقوَّة الثانية: هي أنَّ الله قد تكفل بأن يمنح هذه الأمَّة التي قضى ببقائها وخلودها رجالاً أحياء أقوياء في كلِّ عصرٍ، ينقلون هذه التعاليم الإسلامية إلى الحياة، ويطبِّقونها على العصر، ويحلُّون في ضوء الأصول والنصوص التي وهبتهم إيَّاها الشريعة الإسلامية، وفي ضوء مقاصد الشريعة وروحها المشاكل الطريفة، والمسائل المعقَّدة، والقضايا المتجدِّدة، فلم تعدم هذه الأمة في عصرٍ من عصورها أئمةً في العلم، وعماليق في الفكر، لا يوجد نظيرهم ـ لا في الكمِّيَّة، ولا في الكيفيَّة ـ في أمَّةٍ من الأمم.

الاجتهاد والمجتهدون في القرنين الثاني والثالث:

خرج الإسلام من الجزيرة العربية ـ حيث الحياة بسيطةٌ والمدنية محدودةٌ ـ إلى بلادٍ مخصبةٍ واسعةٍ، ذات المدنيات القديمة، والآفاق الواسعة، كالشام، والعراق، ومصر، وإيران، وقد توسَّعت الحياة الاجتماعية، وتعقَّد نظام التجارة والإدارة، والزراعة والريِّ، والحياة والمحاصل، وكانت مهمة تطبيق أصول الإسلام على هذه المسائل والحوادث، وإخضاع الحياة المدنية لروح الإسلام وأسسه، يطلب ذكاءً فائقاً، وفهماً دقيقاً، واطِّلاعاً واسعاً على المجتمع العصري الذي كان المسلمون يعيشون فيه، وإلماماً كافياً بعلم النفس، والطبيعة البشرية، وخبرةً واسعةً بطبقات الأمَّة، ونواحي الحياة العامة، يضاف إلى ذلك الاطِّلاع الواسع على الثروة الدينية الفقهية في الكتاب والسنَّة، والوقوف على مصادر العلم الأولى، وأصول التشريع الإسلامي الأساسية، مع الرسوخ والتضلُّع في اللُّغة العربية التي نزل بها القرآن، ونطق بها الرسول ﷺ.

لقد كان من لطف الله بهذه الأمَّة، وكان من التيسير، أن قيَّض لهذه المهمَّة الجليلة رجالاً يعدُّون من الأفذاذ والنوابغ الذين أنجبتهم الإنسانية، فقهاً وأمانةً، وإخلاصاً وكفايةً، وكان منهم هؤلآء الأربعة (أبو حنيفة م ١٥٠ هـ، ومالك م ١٧٩ هـ، والشافعيُّ م ٢٠٤ هـ، وأحمد بن حنبل م ٢٤١ هـ) الذي قُدِّر لفقههم أن يعيش إلى هذا اليوم، ويخضع له العالم الإسلاميُّ، وقد فاق هؤلآء في فهمهم الدقيق الواسع، ووقفوا حياتهم، واستعملوا مواهبهم بسخاءٍ في تكوين هذه الثروة الفقهية والقانونية، التي لا تعادلها ذخيرةٌ فقهيَّةٌ في العالم، والتي لا تزال مرجعاً ومادَّةً واسعةً للتشريع لهذا العصر، وقد توفَّر هؤلآء على هذه الخدمة التي تدين لها الأمَّة، ويدين لها العالم، وآثروها على كلِّ راحةٍ ولذَّةٍ، وجاهٍ، ومنصبٍ في الحياة، وقد أنتج كلُّ واحدٍ منهم ثروةً علميَّةً، وخلَّف تراثاً فقهياً، ينوء

بالمجامع العلمية ، والمؤسسات الكبيرة في هذا العصر[١] ، وقد رزق الله هؤلآء الأئمة الفقهاء تلاميذ نجباء ، قاموا بعلمهم ، وزادوا في ثروته ، وظلُّوا يشتغلون بتنقيحه وتهذيبه ، حتى استطاع أن يساير العصور بعد عصرهم ، والبلاد غير بلادهم[٢] .

فضل الاجتهاد في حياة الأمَّة الإسلاميَّة :

لقد كان وجود هؤلآء الأئمة المجتهدين والفقهاء المشرعين في قرون الإسلام الأولى ، برهاناً ساطعاً على صلاحية هذه الأمَّة للبقاء والانتشار ، وقد وجدت بفضل مساعيهم ونبوغهم وحدة الأمة العمليَّة ، في اجتماعها ، ومعاملاتها ، وسياستها المالية ، وفي عباداتها ، وفي نظامها الأسري ، وفي الأحوال الشخصية ، وهذه الوحدة عاملٌ مهمٌّ من عوامل الوحدة الدينية والفكرية ، وبذلك أمنت هذه الأمَّة من تلك الفوضى الاجتماعية والتشريعية التي أصيبت بها الأمم ، والديانات في عهدها الأول ، والتي تدرَّجت بها إلى حياةٍ لا دينيَّةٍ تسير فيها على النظم اللادينية ، أو تقتبس التشريع الأجنبيَّ الثائر على روح دينها ومبادئه وألجأتها إلى التمسُّك بمبدأ «فصل الدين عن السياسة» الذي تمسك بها أوربا المسيحية لظروفها الخاصَّة ، وتاريخها الخاص ، ولوضع الديانة المسيحية المختصِّ بها .

فإذا كان العلماء الأقدمون تكاسلوا في الاجتهاد والاستنباط في العصور الأولى ، وآثروا الراحة على العمل والكدح ، أو ضعف إنتاجهم ، وجمدت قريحتهم ، التجأت الحكومة ـ تحت وطأة حاجات الحياة ومطالبها ـ إلى أن تقتبس النظم الروميَّة والفارسيَّة ، وتطبق القانون الرومانيَّ ، والإيرانيَّ على المملكة الإسلامية ، لأنَّ الجهاز الإداريَّ لا يمكن إيقافه عن السير وتعطيله عن الحركة في انتظار التشريع ، وكذلك لا يمكن تأجيل المعاملات التجارية

---

(١) راجع لمعرفة حجم هذا الإنتاج وعدد المسائل الاجتهادية التي توصلوا إليها خلال حياتهم كتاب العلامة الندوي «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ج ١ ، ص ١١٢ ، أو «ضحى الإسلام» ج ٢ ، ص ٢١٥ .

(٢) رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، ج ١ ، ص ١١٢ ـ ١١٣ .

والفرائض الدينية في انتظار تأمُّلات العلماء ، والوصول إلى نتيجةٍ قطعيَّةٍ ، فكان ذلك يجرُّ على هذه الأمَّة شقاءً طويلاً ، لأنَّها تحرم سعادة القانون الإسلاميِّ ، وبركات المجتمع الإسلاميِّ ، والسير في ضوء الشريعة الإسلاميَّة ، والسنَّة النَّبويَّة ، ويكتب عليها أن تعيش مسلمةً متديِّنةً في مساجدها لوقتٍ قصير ، وجاهليةٍ أو لا دينيةٍ في بيوتها ، وأسواقها ، ومحاكمها مدَّة طويلةً ، كما هو الواقع في البلاد والدول التي ديانتها الرسمية النَّصرانية ، وليس عندها تشريعٌ مسيحيٌّ ، وكما هو واقع ـ مع الأسف والخجل ـ في البلاد والدول التي تدين بالإسلام في العقيدة والعبادة ، ولا تدين به في التشريع والقانون ، وإذا ساغ ذلك في النصرانية التي لا تملك الثروة الدستورية ، ولا تلحُّ على تطبيق الدِّين على الحياة ، فإنَّه لا يسوغ في الإسلام الذي هو دينٌ ودولةٌ ، وعقيدةٌ وسياسةٌ ، وعبادةٌ واجتماعٌ ، فكانت الأمة تجتاز مرحلةً خطيرةً دقيقةً في حياتها ، قد وقفت على مفترق الطرق ، وكانت الغلطة الواحدة ، أو العثرة الخفيفة كافيةً لقطع صلتها عن الحياة الإسلاميَّة ، والاجتماع والنظم الإسلاميَّة ، وتفرض على الأجيال القادمة أن تعيش حياةً ليس للدين فيها إلاَّ نصيبٌ ضئيلٌ .

وكذلك الأحكام التفصيلية في العبادات وما يتخللها من قضايا ونوازل ، وأخطاء ونقائص ، بحكم الفطرة البشرية ، وما جبلت عليه من سهوٍ ، ونسيانٍ ، وغفلة ، أو ما يعتري المتلبِّسين بها ، المباشرين لها ، من جهلٍ بالشريعة ، وما يتفاوتون فيه من علمٍ وثقافةٍ دينيةٍ ، وتربيةٍ إسلامية ، وحدوث عهدٍ بالإسلام ، أو قدمه ، وبيئاتٍ عريقةٍ في الإسلام وبيئاتٍ حديثة العهد به ، أو بيئاتٍ مخضرمةٍ ، وكل ذلك يطلب الجواب الحاسم والحلَّ السَّريع ، فذلك انصرف عن الصلاة وقد سها فيها ، وهذا صائم قد احتار في أمره ، وهذا يطلب فتيا فيما تفرض عليها الزكاة ومقدارها ومصارفها ، وشأن الحجِّ الفريضة الطويلة الواسعة التي تستغرق الوقت الطويل والمساحة الواسعة والانتقال من نسكٍ إلى نسكٍ ، ومكان إلى مكانٍ أكثر دقةً وأعظم تعقداً ، وأحوج إلى الإرشاد والحكم الشرعيِّ ، والسنة المأثورة ، والأسوة النَّبويَّة ، ولا شيء من ذلك يحتمل التأجيل ، أو الإحالة

على مصادر التشريع الأولى بطريقٍ مباشرٍ لكلِّ من يواجه هذه المشكلة ، ويتورَّط في غلطةٍ ، فكان لا بدَّ من وجود أحكامٍ ، وجزئياتٍ ، وثروةٍ فقهيَّةٍ ميسورةٍ ميسَّرةٍ ، ووجود علماء متضلِّعين من علوم الشريعة ، متهيئين للإرشاد والتوجيه ، وبذلك أمن المجتمع الإسلاميُّ من أن يكون في عباداته متحفاً ، فيه كل أنواع العبادات ، وألوان التصرُّفات ، والحركات ، كما هو الشأن في معابد دياناتٍ كثيرةٍ ، ومناسباتٍ دينيَّةٍ شهرية ، أو سنويَّة ، لا تربط بين المشتركين فيها ـ من أتباع ديانةٍ واحدة ـ وحدةٌ عمليةٌ ، ولا تغشاها غاشيةٌ من سكينةٍ ، أو صبغةٌ إلهيةٌ ، بخلاف مساجد المسلمين ، ومراكز الحجِّ والمناسك التي تنخرط في سلكٍ واحدٍ من الوحدة والانسجام ، والتشابه والالتحام ، وتتجلى فيها وحدة العقيدة والعبادة ، والخضوع لشريعةٍ واحدةٍ ، ويرجع الفضل في ذلك إلى أصالة التعاليم الدينية ووحدتها ، ثم إلى جهود المحدِّثين والفقهاء الذين حفظوا على هذه الأمة الثروة التشريعية وربطوها بالمنبع الأصيل ، والنظام الدِّينيِّ الموحد.

وقد جاء هذا الاجتهاد ، وتدوين الفقه ، واستنباط الأحكام الشرعية في أوانه ومكانه ، لم يكن سابقاً للزَّمن ، ولا متأخراً عنه ، وذلك ما كان تقتضيه طبائع الأشياء ، وسنة الكون ، وطبيعة هذا الدين الإنسانيِّ العالميِّ العام للأزمنة ، والأمكنة ، فكان شيئاً طبيعياً منطقياً ، كما هو الشأن في نشوء علم الصَّرف والنحو ، وقواعد اللغة العربية ، وعلوم البلاغة والبيان مؤسساً كلُّ ذلك على كلام العرب الأولين ، واستقراء القرآن العربيِّ المبين ، وشعر العرب ، بل كان تدوين الفقه ألزم من تدوين العلوم العربية لشموله للعرب والعجم ، وكل مكلَّف في الإسلام ، ولاحتوائه على حياة المسلم كلها ، ولصلته الوثيقة بالعقيدة والعبادة ، ولأثره في الحياة الأخروية ، وما يترتب عليه من ثوابٍ وعقابٍ ، وسعادةٍ وشقاءٍ ونجاةٍ وهلاك.

كيف كان حال الناس قبل القرن الرابع؟

ولكن لا يُفهم من ذلك أنَّ الناس المعاصرين لنشوء هذه المذاهب المتميزة ، والمناهج العملية المدونة انخرطوا في سلكٍ واحدٍ من هذه

المذاهب الفقهية ، وارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بأحد المذاهب ، لا يعدلون عنه قيد شعرة ، وقد أصبح المجتمع المسلم المعاصر موزعاً بين هذه المذاهب ، كان كلُّ عنصرٍ منه واقفاً تحت لواء واحدٍ ، فذلك لا يشهد به تاريخ الفقه والعلم ، ولا يتَّفق مع الطبيعة البشرية وواقع حياة المسلمين في ذلك العصر ، وإنما حدث ذلك في زمنٍ متأخر بعض التأخر ، إذا أردنا تحديده بالتقويم الإسلامي ، نستطيع أن نقول : إنَّه وقع في القرن الرابع بعد ما بلغت هذه المذاهب نضجها واكتمالها وانتشرت في مناطق خاصَّةٍ ، وساعدت على ذلك عوامل سياسيةٌ ، وإداريةٌ ، وتربويةٌ ، واقتضى ذلك واقع حياة المسلمين في هذه الأصقاع .

لندع علماً من أعلام الإسلام في القرون المتأخرة قد رزق الإنصاف ، والاتزان الفكريَّ ، وسعة آفاق النظر ، ورحابة الصَّدر ، والغوص في أعماق الحديث والفقه ، وهو حكيم الإسلام الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (م ١١٧٦ هـ) المشهور بالشيخ ولي الله الدهلوي ، صاحب الكتاب الفريد «حجة الله البالغة» يتحدَّث عن الوضع في الزمن السابق على القرن الرابع ، وكيف كان الناس يعملون فيما يعرض لهم من مسائل ومشاكل في حياتهم الدِّينية ، يقول في باب «حكاية حال الناس قبل المئة الرابعة وبعدها» :

«اعلم أنَّ الناس كانوا قبل المئة الرابعة غير مجمعين على التقليد الخالص لمذهبٍ واحدٍ بعينه ، قال أبو طالب المكي في «قوت القلوب» : إنَّ الكتب والمجموعات محدثةٌ ، والقول بمقالات الناس والفتيا بمذهب الواحد من الناس ، واتخاذ قوله ، والحكاية له من كل شيءٍ ، والتفقه على مذهبه لم يكن الناس قديماً على ذلك في القرنين الأول والثاني» «انتهى» .

أقول : وبعد القرنين حدث فيهم شيء من التخريج ، غير أنَّ أهل المئة الرابعة لم يكونوا مجمعين على التقليد الخالص على مذهبٍ واحد ، والتفقُّه له ، والحكاية لقوله ؛ كما يظهر من التتبُّع ، بل كان فيهم العلماء والعامَّة .

وكان من خبر العامة أنهم كانوا في المسائل الإجماعية التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أو جمهور المجتهدين لا يقلدون إلا صاحب الشَّرع ،

كانوا يتعلَّمون صفة الوضوء ، والغسل ، والصلاة ، والزَّكاة ، ونحو ذلك من آبائهم أو معلمي بلدانهم ، فيمشون حسب ذلك ، وإذا وقعت لهم واقعةٌ استفتوا فيها أيَّ مفتٍ وجدوا من غير تعيين مذهب .

وكان من خبر الخاصَّة أنَّه كان أهل الحديث منهم يشتغلون بالحديث ، فيخلص إليهم من أحاديث النَّبيِّ ﷺ وآثار الصحابة ما لا يحتاجون معه إلى شيءٍ آخر في المسألة من حديث مستفيضٍ ، أو صحيحٍ قد عمل به بعض الفقهاء ، ولا عذر لتارك العمل به ، أو أقوالٍ متظاهرةٍ لجمهور الصحابة والتابعين ممَّا لا يحسن مخالفتها ، فإن لم يجد أحدهم في المسألة ما يطمئن به قلبه لتعارض النقل ، وعدم وضوح الترجيح ، ونحو ذلك رجع إلى كلام بعض من مضى من الفقهاء ، فإن وجد قولين؛ اختار أوثقهما ، سواءٌ كان من أهل المدينة ، أو من أهل الكوفة ، وكان أهل التخريج منهم يخرجون فيما لا يجدونه مصرحاً ويجتهدون في المذهب ، وكان هؤلاء ينسبون إلى مذهب أصحابهم ، فيقال: فلانٌ شافعيٌّ ، وفلانٌ حنفيٌّ ، وكان أصحاب الحديث أيضاً قد ينسب إلى أحد المذاهب لكثرة موافقته له ، كالنَّسائيِّ ، والبيهقيِّ ينسبان إلى الشافعيِّ ، فكان لا يتولى القضاء ولا الإفتاء إلا مجتهدٌ ، ولا يسمَّى الفقيه إلا مجتهداً ، ثم بعد هذه القرون كان ناسٌ آخرون ذهبوا يميناً وشمالاً»[(١)] .

القول العادل الوسط في المقلِّد الذي يقصد اتباع الرسول ﷺ أصلاً:

وينصف الإمام أحمد بن عبد الرحيم القول في مقلد أي مذهبٍ إذا كان يقصد اتباع الرسول ﷺ أصلاً ، ولكنَّه لا يستطيع أن يتوصل إلى الحكم الشرعي والثابت من الكتاب والسنة بطريقٍ مباشر لعاميَّته ، أو لانشغاله بأمور أخرى ، أو عدم توفر وسائل الاهتداء إلى النصوص ، أو القدرة على الاستنباط منها ، فقال بعد ما نقل كلام العلامة ابن حزم في الردِّ على التقليد

(١) حجة الله البالغة ص: ١٥ ، ١٥٣ .

مطلقاً ، فقال: «التقليد حرامٌ ، ولا يحلُّ لأحدٍ أن يأخذ قول أحدٍ غير رسول الله ﷺ بلا برهان:

«ليس محل قول ابن حزم فيمن لا يدين إلا بقول النَّبيِّ ﷺ ، ولا يعتقد حلالاً إلا ما أحلَّه الله ورسوله ، ولا حراماً إلا ما حرَّمه الله ورسوله ، لكن لما لم يكن له علم بما قاله النَّبيُّ ﷺ ، ولا بطريق الجمع بين المختلفات من كلامه ، ولا بطريق الاستنباط من كلامه ، اتَّبع عالماً راشداً على أنه مصيب فيما يقول ، ويفتي ظاهراً ، متَّبعٌ سنة رسول الله ﷺ ، فإنْ ظهر خلاف ما يظنُّه؛ أقلع من ساعته من غير جدالٍ ولا إصرارٍ ، فهذا كيف ينكره أحدٌ مع أنَّ الاستفتاء والإفتاء لم يزالا بين المسلمين من عهد النَّبيِّ ﷺ ، ولا فرق بين أن يستفتي هذا دائماً ، أو يستفتي هذا حيناً ، وذلك حيناً ، بعد أن يكون مجمعاً على ما ذكرناه ، كيف لا ، ولم نؤمن بفقيهٍ أيّاً كان أنَّه أوحى الله إليه الفقه ، وفرض علينا طاعته ، وأنَّه معصوم ، فإن اقتدينا بواحدٍ منهم؛ فذلك لعلمنا بأنَّه عالمٌ بكتاب الله وسنَّة رسوله ، فلا يخلو قوله إما أن يكون من صريح الكتاب والسنة ، أو مستنبطاً عنهما بنحوٍ من الاستنباط ، أو عرف بالقرائن أنَّ الحكم في صورة ما منوطٌ بعلَّة كذا ، واطمأن قلبه بتلك المعرفة ، فقاس غير المنصوص على المنصوص ، فكأنه يقول: ظننت أنَّ رسول الله ﷺ قال: كلما وجدت هذه العلة فالحكم ثمة هكذا ـ والمقيس مندرجٌ في هذا العموم ، فهذا أيضاً معزوٌّ إلى النَّبيِّ ﷺ ، ولكن في طريقه ظنونٌ ، ولولا ذلك لما قلد مؤمن لمجتهد ، فإن بلغنا حديثٌ من الرسول المعصوم الذي فرض الله علينا طاعته بسندٍ صالحٍ يدلُّ على خلاف مذهبه ، وتركنا حديثه ، واتبعنا ذلك التخمين ، فمن أظلَم منا ، وما عذرنا يوم يقوم الناس لربِّ العالمين؟!»[1].

مزية المذاهب الأربعة:

ويقول الإمام في المذاهب الأربعة في رسالته الصغيرة قامةً والكبيرة قيمةً

---

(١) حجة الله البالغة ، ص ١٥٥ ، ١٦٥.

أسماها «عِقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد»:

«اعلم أنَّ في الأخذ بهذه المذاهب الأربعة مصلحة عظيمةٌ، وفي الإعراض عنها كلِّها مفسدةٌ كبيرةٌ، نحن نبين ذلك بوجوه: أحدها أنَّ الأمَّة اجتمعت على أن يعتمدوا على السلف في معرفة الشريعة، فالتابعون اعتمدوا في ذلك على الصحابة، وتَبَع التابعين اعتمدوا على التابعين، وهكذا في كلِّ طبقة اعتمد العلماء على مَنْ قبلهم، والعقل يدلُّ على حسن ذلك؛ لأنَّ الشريعة لا تعرف إلا بالنقل والاستنباط، والنقل لا يستقيم إلا بأن تأخذ كلُّ طبقةٍ عمَّن قبلها بالاتصال، ولا بدَّ في الاستنباط أنْ يعرف مذاهب المتقدمين لئلا يخرج من أقوالهم، فيخرق الإجماع، ويبني عليه، ويستعين في ذلك بمن يسبقه؛ لأنَّ جميع الصناعات كالصَّرف، والنحو، والطبِّ، والشعر، والحدادة، والنجارة، والصياغة، لم يتيسر لأحدٍ إلا بملازمة أهلها، وغير ذلك نادرٌ بعيدٌ لم يقع وإن كان جائزاً في العقل، وإذا تعيَّن الاعتماد على أقاويل السَّلف، فلا بدَّ من أن تكون أقوالهم التي يعتمد عليها مرويةً بالإسناد الصحيح، أو مدوَّنةً في كتبٍ مشهورةٍ، وأن تكون مخدومةً بأن يبيَّن الراجح من محتملاتها، ويخصص عمومها في بعض المواضع، ويقيد مطلقها في بعض المواضع، ويجمع المختلف منها، ويبيَّن علل أحكامها، وإلا لم يصح الاعتماد عليها، وليس مذهب في هذه الأزمنة المتأخرة بهذه الصفة إلا هذه المذاهب الأربعة»[1].

الحاجة إلى الاجتهاد الفقهي وتقصير الجيل الجديد في القيام بواجبه:

وقد كثر الحديث في هذا الزمان عن الحاجة إلى الاجتهاد حتى أصبح هتافاً، وشعاراً للتقدُّمية، ولا شكَّ أنَّه حاجة العصر، ومن ضرورات هذا الدِّين الذي يواكب الحياة ويقودها، لا سيَّما وقد تقدمت المدنية، والصناعة، والتِّجارة تقدُّماً لم يكن يخطر بالبال، وحدثت أساليب

(١) عقد الجيد، ص ٢٦ ـ ٣٨.

جديدةٌ ، ومعاملاتٌ تجاريَّةٌ ، وعقود تطلب حكماً فقهياً مبنياً على الأصول الإسلامية وأصول الفقه ، وفي ضوء مقاصد الشريعة الإسلاميَّة .

ولكن هؤلاء الذين ينادون بالاجتهاد في المسائل الشرعية والمستحدثات العصرية ، من قادة الفكر ، ورجال الإدارة والسياسة في الأقطار الإسلامية ، والمتخرِّجين من الجامعات الأجنبية في الغرب ، والجامعات المدنية في البلاد ، لم تثبت براعتهم ، وذكاؤهم ، وقوة إرادتهم في مواجهة الحضارة الغربية بشجاعةٍ ، وإيمانٍ ، وذكاءٍ ، وشقِّ الطريق بين مناهجها ومذاهبها ، وبين فضائلها ورذائلها ، ومعاملتها كمواد خام يصوغون منها حضارةً تتَّفق مع تعاليم الدين ، وحاجة العصر ، وطبيعة الشعوب المسلمة الشرقية ، ويركِّبون منها جهازاً يخدم الغايات التي بعثت لها هذه الأمَّة ، وينير السبيل للشعوب التي وقعت فريسةً مادِّيَّةً رعناء ، وينفضون عن كلِّ ما يأخذونه من الغرب غباراً لصق به في القرون المظلمة ، وفي حالة توتر أعصابٍ ، وقلق نفوسٍ ، ولا لزوم له في الاستفادة من هذه العلوم في هذا العصر ، إنَّهم لم يقوموا في مجال اختصاصهم بالدور الذي نيط بهم ، وفي صياغة النظام التربويِّ صياغة إسلاميَّةً حرَّةً ـ وهو عملٌ يشبه «الاجتهاد» ـ بدورهم القياديِّ والفكريِّ ، ولكن من طبيعة الإنسان القديمة التخلِّي عن تبعته ، ومطالبة الآخر بالقيام بواجبه ودوره .

رغماً عن هذه الملاحظة السريعة التي أرجو عدم المؤاخذة عليها فإنَّ الحاجة إلى الاجتهاد في المسائل الشرعية ، والمستحدثات العصرية حقيقةٌ لا غبار عليها ، ولا مجال للجدال فيها وعلى أصحاب الاختصاص في علوم الشريعة أن يقوموا بدورهم التوجيهيِّ والقياديِّ في هذا المجال ، ويستخدموا هذا الكنز الثمين ـ الذي يسمَّى أصول الفقه ، وليس له نظيرٌ في ثروات الأمم والشعوب العلمية ـ في استنباط الأحكام ، واستخراج المسائل ، فقد أصبح من زمانٍ تاريخاً فحسب ، يعرف منه طرق المجتهدين الأوائل في استنباط المسائل لا أقلَّ ولا أكثر ، ومعلومٌ أنَّ ساعة الزَّمان لا يمكن إيقافها ، ولا تعطيلها ، ولا إرجاعها إلى الماضي ، والإسلام الآن

دين شعوبٍ ومجتمعاتٍ تعاصر هذه القضايا ، وتواجهها وجهاً لوجهٍ.

سبب تعطيل الاجتهاد في بعض المناطق والأدوار :

وقد درجت على الاجتهاد الأمّة ، وعمل به العلماء في عصورٍ مختلفة ، وأمصارٍ مختلفة ، وأمثلته ونماذجه تطفح به كتب الفقه في المذاهب الأربعة ، إلا ما اعترى هذه المؤسسة (بمعناها العصري) شيءٌ من الذبول والضعف بعد الهجوم التتاريِّ الذي جفف منابع الذكاء ، والثقة بالنفس ، والصمود أمام الزحف المسلَّح وغير المسلح في نفس الشعوب التي وقعت تحت نفوذ الحكم التتاريِّ المغوليِّ ، فرأى علماء المسلمين (خصوصاً في القسم الشرقي من العالم الإسلاميِّ) الحدَّ من نشاط الاجتهاد في هذه الحقبة من الزمن ، مخافة أن يكون في صالح الحكام ، خاضعاً لمصالح سياسيَّةً وفرديَّةً ، فيضرُّ أكثر مما ينفع ، وقد يكون سبباً لتحريفٍ في الدِّين ، أو انحرافٍ جماعيٍّ في سير هذه الأمة ، وقد كان ذلك مؤقتاً ، ومؤسساً على مبدأ تقديم «دفع الضرر على جلب المنفعة».

وقد لزم الآن فتح هذا الباب ، ولكن بشروطه المبينة في كتب أصول الفقه ، ويستحسن ألاَّ يكون فردياً (إلا إذا اقتضت الضرورة) وأن يكون جماعياً وعملاً مجمعياً «أكاديمياً» وعن تبادل الرأي في أهل الاختصاص والتأمُّل الطويل ، ونخل القضية ، وغربلتها في ضوء الكتاب والسنَّة ، واستعراض الثروة الفقهية ، والأصولية استعراضاً كاملاً حتى لا يكون في ذلك افتئاتٌ أو مؤامرةٌ ، أو خضوعٌ لقوةٍ سياسيَّةٍ ، أو حكومةٍ أنانيَّةٍ.

حدود الاجتهاد ومجالها :

وقد يبدو من كلام بعض المنادين بضرورة الاجتهاد في الطبقة المثقفة الثقافة الحديثة ، والمتحمِّسين من الشباب الجامعيِّ ، أو بعض ولاة الأمور في البلاد الإسلامية ، الدعوة إلى الاجتهاد المطلق في كلِّ قضيَّةٍ ، والأخذ بالقيم الغربية والمقاييس العصرية برمَّتها ، كأنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء الإسلام ، وانقلب المجتمع البشريُّ رأساً على عقب ، وفقد كلَّ ما وصل إليه المجتهدون والفقهاء في العصر الماضي من آراءٍ ، وحصيلة

دراسة ، قيمته وغناءه ، ولا يتَّفق وطبيعة هذا العصر وواقع الحياة ، وهذه وجهة نظر تغلب عليها السطحية ، والتهوُّر ، والخضوع الزائد لما نشره الأدب العصريُّ من الدعاية للتطور والتقدُّمية ، وتصوير الزَّمان تصويراً يخيّل للشباب كأنَّه ولد من جديدٍ ، وليس شيءٌ فيه يشبه ما كان بالأمس ، وهو تصويرٌ مؤسسٌ على التخيُّل أكثر من الواقع ، وعلى تجسيم القضية ، وتفخيمها بأسلوبٍ عاطفيٍّ أكثر من منطقيٍّ واقعيٍّ .

الإسلام في عالم متغيِّر :

ويطيب لي أخيراً أن أنقل هنا ما قلته في كلمتي التي افتتحت بها ندوةً انعقدت في جامعة عليكره الإسلامية بعنوان «الإسلام في عالم متغيِّر» : Islam in Changing World .

«يفترض عموماً أنه ليس للزمن ثباتٌ أو دوامٌ ، بل إنه اسمٌ آخر للتغيُّر والتحوُّل ، ولكن ليس الأمر كذلك ، إنَّ الزمن مركبٌ من الاثنين ـ التغيُّر والاستمرار ، وإذا اختل هذا التوازن كأن يتحكم الاستمرار بالتغيُّر ، أو يتسلَّط التغيُّر على الاستمرار ، فإنَّ ذلك سينتج آثاراً خطيرةً تنعكس على المجتمع والحضارة ، وأنَّ التوازن بحاجةٍ إلى التناسب حتى أكثر من أيِّ مركَّبٍ كيميائيٍّ .

إنَّ الزمن له القدرة على التغيُّر ، ويجب أن يتغيَّر ، وذلك ليس علامة ضعفٍ ، أو نقصٍ ، إنما هو قانون الحياة ، وكما قال «إقبال» :

«إنَّ الحياة دائمة الحركة ، دائمة الانسياب ، دائمة الشباب ، وإنَّ الحياة الخالية من القدرة على النموِّ ، والتطوُّر يمكن أن تكون أيَّ شيءٍ آخر إلا الحياة» .

إلى جانب ذلك فإنَّ مقاومة التغيُّر هي ـ أيضاً ـ صفةٌ متأصِّلةٌ في الزمن ، وإنَّ مظاهر التغيُّر تبدو لنا بوضوحٍ . . وكلنا نشعركم تحول الزَّمن بشكلٍ كبير ، إنَّنا في مجريات الأمور العادية لا نوفق في الإدراك إدراكاً تامَّاً للصِّراع الذي يقوم به الزمن ، فشاهدوا ليحافظ على خواصه الجيدة والسليمة وطبيعته وصفته الحقيقية ، وإنَّ ذلك يتطلَّب مجهراً خاصاً .

خذ النهر الذي يمثل نموذجاً مثالياً للحركة.. ما من موجتين من أمواجه متماثلتان على الإطلاق، وبالرَّغم من أمواجه العابرة، فإنَّه موجودٌ مكانه منذ آلاف السنين، محتفظاً بكلِّ خصائصه، واسمه، واتجاهه، فأنهار دجلة والفرات، والكنج Ganga، وجمنا[1] كلُّها هي نفسها منذ أن كانت في العصور الغابرة.

إنَّ الزمن ساكنٌ بالإضافة إلى كونه متحركاً... كلا هاتين الصفتين جوهريتان بالنسبة له، فهو ـ بدون أيٍّ منهما ـ لا يستطيع الاحتفاظ بفائدته بنفس الطريقة، لأنَّ القوى السالبة والموجبة تعمل عملها في الأشياء الحيَّة وغير الحيَّة، الموجودة في العالم، وعن طريق أفعالها وردود فعلها تحقق هذه الأشياء قدرها».

الدِّين هو حارس الحياة:

باعتباري مؤمناً وتابعاً للدين الإسلاميِّ لا يمكنني ـ أبداً ـ أن أقبل وضعاً يستجيب فيه هذا الدين لكلِّ تغيُّرٍ، ولا يمكن أن توافقوا أنتم على ذلك أيضاً؛ لأنَّ الدين ليس مقياس حرارة يقتصر عمله على تسجيل درجة الحرارة، ولا هو بالأداة التي ترصد اتجاه هبوب الرياح. لا يمكن تعريف الدين بهذه العبارات، ولا يمكن أن يصير إلى أداةٍ آليَّةٍ غريبةٍ، وليس بيننا واحدٌ يريد من الدِّين أن يعمل كسجلٍ لتغيرات الأزمنة، وإنَّ ديناً وضعياً مزعوماً لا يمكن أن يتحمَّل هذا الوضع، فكيف بدين منزَّلٍ من السَّماء؟!

إنَّ الدين يقرُّ التغيُّر كحقيقةٍ واقعةٍ، ويعطي أكمل مجالٍ لسير الأمور من أجل تحولٍ صحيحٍ سليم.

الدين يتقدَّم مع الحياة يداً بيدٍ، ولا يواكبها فقط كتابع لها.. ووظيفته هو أيضاً أن يميِّز بين تغيُّرٍ سليمٍ، وآخر غير سليمٍ، وبين نزعةٍ هدَّامةٍ وأخرى بناءةٍ. ويجب أن يقرر الدِّين فيما إذا كان التحوُّل نافعاً، أو ضاراً بالبشرية، أو بأتباعه على الأقلِّ.

---

(١) نهران عظيمان من أنهار الهند.

وبينما يتمشَّى الدِّين مع الحياة الديناميكية جنباً إلى جنبٍ من جهةٍ ، فإنَّه يعمل حارساً ، وحامياً لها من جهةٍ أخرى ، وتجب عليه مهمة المراقبة ، والضبط أيضاً.

وليس من مهمة الوصي أن يدعم كلَّ ما يفعله القاصر الموضوع تحت وصايته ، ويؤيد كلَّ ميوله الجيِّدة منها والسَّيِّئة ، أو أن يصادق بختم الموافقة على كل شيءٍ يسعى وراءه... بل إنَّ الدِّين يمتلك ختماً واحداً ، وحبراً واحداً ، ويداً واحدةً فقط... وليس من شأنه أن يلصق طابعه على أيِّ وثيقةٍ ، أو صكٍّ.

بل يجب عليه أن يميِّز ويختار ، أجل إنَّه يفحص (الوثيقة) أولاً ثم يصدر حكمه.. فإن وجد فيها خطأً ، أو ضرراً حاول الدين أن يتركها برفقٍ ـ إذا أمكن ـ أو بقوَّةٍ إذا اقتضى الأمر ذلك ، وإذا عُرضت عليه وثيقةٌ واعتبرها ضارةً بالجنس البشريِّ ؛ فهو لا يمتنع عن تصديقها وختمها فقط ، بل يكافح لمقاومتها ، وهنا يكمن الفرق بين الدِّين والأخلاق ، فالدِّين يرى من واجبه ومسؤوليته ضبط النزعة الخاطئة وردَّها ، بينما تكتفي الأخلاق بالإشارة إليها وإظهارها.

وبهذه الدِّقة والعمق ، والشعور بالأمانة والمسؤولية ، والاطِّلاع على طبيعة هذا الدين ورسالته ، وطبيعة العصر الذي نعيش فيه ، وتركيبه الدقيق ، وجمعه بين النموِّ والتطوُّر والاختلاف والتغيُّر ، وبين الثبات والصمود ، والاحتفاظ بالقديم الصَّالح ، يمكننا أن نفي بحاجة الفقه الإسلاميِّ ـ بمعناه الواسع العام ـ إلى التطوير والتوسيع ـ لا إلى التمطيط والتمزيق ـ ونفي بحاجة المجتمع الإسلاميِّ إلى العمل بأحكام الإسلام ، وتعاليم الدين في عصرٍ حضاريٍّ منظِّمٍ متوسع كهذا العصر ، وحياةٍ تتطوَّر بسرعةٍ ، وتتقدَّم بسرعةٍ كهذه الحياة ، وعلى الله قصد السبيل.

* * *

الإسلام والعلم الحديث

هذه المحاضرة ألقاها العلامة النَّدوي في جامعة التكنالوجيا بمدينة كوالالمبور بماليزيا ، أمام نخبةٍ من علماء وأساتذة العلم والحديث ، ومجموعةٍ كبيرةٍ من أساتذة الجامعة وطلابها ، وذلك في اليوم ٧/ من شهر أبريل سنة ١٩٨٧ م .

تقدِّم هذه المحاضرة نقلاً من الشَّريط المسجَّل .

إخواني أساتذة الجامعة وطلبتها والدارسين فيها! تعلمون جميعاً ، بل يؤمن كلُّكم أن القرآن هو كتاب الله المنزَّل من السماء ، وهو كتاب عقيدةٍ وعبادةٍ ، وهو الكتاب الذي يربط الخلق بالخالق ، ويبيِّن للخلق كيف يُرضون الخالق ، وكيف يتقرَّبون إليه ، وكيف ينالون رضاه ، ويستحقون رحمته ، لذلك فإنَّ القرآن ليس كتاب هندسةٍ ، ولا كتاب صناعةٍ يعلم الصناعات ، أو يشير إلى العلوم التكنالوجية ، إنَّه لا يذكر فقط أنَّ الله خلق الزجاج ، وخلق الحديد ، لا بل يقول: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ إنَّ هذا التعبير ، ونسبة الفعل إلى الله تبارك وتعالى تدلُّ على أنَّ للحديد أهميةً ومكانةً ، ثم من المعلوم أنَّ الحديد يستخرج من المعادن ، ويولد ، ويتكوَّن في طبقات الأرض ، ويستخرج من المعادن ، فكيف قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥] معنى ذلك أن قدرة الله تناولت الحديد ، واتجهت إلى الحديد ، فخلقه الله في كميَّةٍ كبيرة ، وفي قوَّةٍ عظيمة ، ولفائدة جليلة ، وفي نفعٍ عامٍّ ، فإنَّ الله سبحانه يضيف صيغة الإنزال إلى الكتب السماوية وإلى النِّعمة الكبيرة ، ولكن نفس التعبير جاء للحديد ، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥] يعني : كان وجود الحديد بإرادة الله تعالى ، وإرادته عاليةٌ قاهرةٌ غالبةٌ ، وقادرةٌ على كل شيءٍ ، فالتعبير يدلُّ على أنَّ للحديد أهميةً ، ومكانةً ، وأنَّه شيء قد اتجهت إليه إرادة الله تبارك وتعالى ، فخلقه كأنه أنزله من السماء ، فيقول: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] وهذا تعبيرٌ قرآنيٌّ ، ولي مشاركةٌ باللغة العربية ، كما أشار إلى ذلك الذي تولى تعريفي ، وذكر أساتذي ، وأكثرهم من العرب ، ولكنِّي أقول بسبب معرفتي للغة العربية وشغفي بها: إنَّ التعبير: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] هذا تعبير قرآنيٌّ معجزٌ ، ومهما قيل: فيه بأس شديد تصنع منه الأسلحة ، تصنع منه الآلات ، تصنع منه المفاتيح ، ولكن لم يُفدْ شيئاً من هذا المعنى الذي في قوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] لأن كلمة البأس بليغةٌ جدَّاً ، وجامعةٌ ، تشمل الحروب ،

وتشمل الدفاع ، وتشمل ما يمنع ، وما فيه شوكة ، وصولةٌ ، وقوةٌ ، ولذلك قال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] ثم قال: ﴿وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد : ٢٥] فجعلها نكرةً ولم يذكر منافع خاصَّة ، ولو ذكر منافع خاصَّة كان خاصَّة بعصرٍ دون عصرٍ ، وبلدٍ دون بلدٍ ، ولكن مهما تقدَّم علم التكنالوجيا ، ومهما تقدَّم علم الصناعة ، ومهما تقدَّم فنُّ الحرب والاستراتيجية ، فإنَّ الآية تشمل كلَّ هذا؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥] لأنَّ الفوائد لم يحصرها الله تعالى ، ولم يعدَّها عدّاً ، فهذه قطعة قرآنيةٌ رائعةٌ تستحق التأمل ، ونحن نعرف ما نشتغل به ، فإذا كانت بيئتنا حسنةً ، وإذا كانت جامعة تكنالوجية في أيِّ بلدٍ أنشأها المسلمون ليكونوا أقوياء ، ليكونوا علماء ، ليكونوا عارفين بأسرار الله تبارك وتعالى ، أسرار قدرة الله تعالى ، ويستعملوها لصالح الإنسانية ، ويستخدموها لسعادة البشرية ، فيكون ذلك في محلِّه .

لقد كان موقف رسول الله ﷺ نفس موقف القرآن من العلوم ، ومن الطَّاقات ، ومن الوسائل والآلات ، وهو أوَّل نبيٍّ وآخر نبيٍّ كان يعرف قيمة العلم ، وكان حريصاً على أن يتعلم الناس ، ويقرؤوا ، ويكتبوا مع أنه كان أمِّيّاً ، ولكنه كان حريصاً على أن يتعلَّم المسلمون ، فقد جاء في السيرة النَّبويَّة والتاريخ الإسلاميِّ أنَّ أسارى بدر منهم من كان لا يملك ما يفتدي به ، فجعل الرَّسول ﷺ فديته أن يعلِّم الكتابة عشرةً من الأطفال ، ويعلم عشرةً من المسلمين ، يعلمهم الكتابة والقراءة ، وكان يعرف قيمة الأسلحة الحربية ، وقيمة ما يدافع به الإنسان عن نفسه ، وقد جاء في حديثٍ معناه أنَّ الرسول ﷺ قال: «ارموا بني إسماعيل فإنَّ أباكم كان رامياً». وقال: «من علم الرمي ثم تركه فليس منا» أو قال: «قد عصى».

فليس من الدين ، وليس من الزهادة ، وليس من التقدُّم الروحيِّ ، وليس من الصلاح والتقوى أن يكون المسلم جاهلاً ، وأن يكون المسلم عازلاً ضعيفاً ، وقد جاء في حديث: «المؤمن القويُّ خيرٌ من المؤمن الضعيف ، وفي كلٍّ خير». ولكن القويُّ خيرٌ من المؤمن الضعيف.

أنا مسرور جداً أنَّ في هذا البلد المسلم ، وفي هذا الشعب المسلم تقوم مثل هذه الجامعة التي تعنى بالعلوم التكنالوجية ، ولكن المهم يا إخواني أن نتعلم ذلك بنيّـةٍ صالحةٍ ، أن نكون مخلصين في تعلُّمنا ، حتى يكون لنا أجر تعلم العلوم النافعة التي تنفع الناس في الدنيا والآخرة ، فالذي ينوي أن يتعلم هذا العلم ، ويدرس في هذه الجامعة ليخدم المسلمين ، ويخدم الإسلام ربما يكون أفضل من ذلك الذي يتعلَّم في جامعةٍ دينيَّةٍ خالصة ، ولكن نيته أن يباري بعلمه العلماء والسفهاء ، ومن الأحاديث المشهورة: «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىءٍ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو إلى امرأةٍ ينكحها ، أو يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه». وإن الإمام البخاريَّ أمير المؤمنين في الحديث محمد بن إسماعيل افتتح كتابه بهذا الحديث ، فأول شيءٍ : النِّيَّة ، يعني: أن تكون نيتكم ألا تتعلموا هذه العلوم لتملؤوا بطونكم ، وتتهيأ لكم بها وسيلة المعاش ، أو تولوا وظيفة فقط ، هذا صحيحٌ جائزٌ مباح ، ربما يكون فيه الثواب ، ولكن انووا أنكم ستنفعون بهذه العلوم التكنالوجية المسلمين والنظام الإسلامي والمجتمع الإسلامي ، فالشيء الأول والمهمُّ: النِّيَّة. كان المسلمون أساتذةً في جميع العلوم ، كانوا أساتذةً العالم في علم الطبيعة ، وفي علوم الرياضيات ، وفي الكيمياء ، وكان منهم حكماء ، وفلاسفةٌ مثل الشيخ أبي علي ابن سينا ، وابن الهيثم ، هؤلاء كلهم كانوا أساتذة الغرب ، ومن الأندلس الإسلامية العربية التي يسمُّونها الآن أسبانيا ، من أسبانيا المسلمة العربية انتقلت العلوم والتيار العلميُّ والفكريُّ إلى الغرب كلِّه ، والمسلمون هم الذين قدموا للعالم علم الاستقراء كما اعترف به علماء الغرب ، كلُّهم يعترفون أن «باكون Bacon» الذي ينسب إليه أنَّه هو الداعي إلى الاستقراء كان تلميذاً على الذين خرجوا من أسبانيا ، والذين درسوا في أسبانيا ، وعلم الاستقراء خلق هذا التيار العلميَّ ، فأقبل الناس على الاطلاع على الجزئيات وبالاستقراء تقدَّمت أوربا ، ووصلت إلى ما وصلت ، وقد اعترف بذلك خبراء التاريخ وخبراء العلم ، وقالوا: إنَّ أوربا إنما حدثت فيها ثورةٌ عقليةٌ

علميةٌ بعد ما أخذت علم الاستقراء من الأساتذة العرب ، فكان المسلمون الأساتذة ، وبقي العالم عالةً عليهم قروناً كثيرة ، كان علماء الغرب عالةً على المسلمين يقتبسون منهم العلوم ويتلقون منهم التجارب والخبرات ، ولكن بعد ذلك حدث غير ذلك ، يعني: انقلب التيار ، وأصبح المسلمون سرى فيهم الكسل ، ودبَّ إليهم النوم ، دبَّت إليهم الغفلة ، وصاروا ملوكاً مترفين ، وأغنياء وأمراء ، فانتقلت الإمامة في العلوم النافعة المفيدة من الشرق المسلم المؤمن بالله تبارك وتعالى إلى الغرب الملحد ، وهذا كان شؤماً في حقِّ الإنسانية ، ولما تولَّى الغرب الرئاسة في العلوم كان من واجب المسلمين أن يتَّجهوا إلى هذه العلوم ، فإنَّ الحكمة ضالة المؤمن ، حيث وجدها فهو أحقُّ بها ، كما جاء في الحديث ، فالمسلمون أحقُّ بهذه الحكمة؛ لأن يستخدموها لسعادةِ الإنسانية ، ولصالح العالم كلِّه ، ليس لصالح أوربا ، ولا لصالح المعسكر الشرقيِّ والمعسكر الغربيِّ فقط .

فلما انتقلت الإمامة إلى الغرب كان من واجب المسلمين في البلاد الإسلامية المجاورة لأوربا أن يتعلموا من الغرب ما ينفعهم ويصبغوه بصبغةٍ إسلامية ، فيخضعوه لصالح المسلمين ، ولغاياتٍ صالحةٍ ، لا ليتنعَّموا ، ويربحوا ، ويجلبوا أموالاً كثيرةً ، وكان لا بدَّ أن تكون لهم شخصيةٌ مستقلةٌ في مجال هذه العلوم كذلك ، فيجب أن يكون عندنا بارعون أصحاب اختصاص ، يجب أن يكون عندنا من يصنع القنبلة الذرِّية ، لأنَّ هذا يعدُّ من قبيل ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] فيجب علينا أن نعدَّ للأعداء ما يرهبون به ، ولا يجرؤوا علينا ، فأنا مسرور جداً بقيام مثل هذه الجامعات في العالم الإسلامي إذا كانت في باكستان ، إذا كانت في مصر ، إذا كانت في السعودية فعشر مرات أهلاً وسهلاً ، وإذا كانت في بلدنا المسلم هذا ، في ماليزيا فمرحباً ، وأنا مسرور كذلك ممن قد انتسبوا إلى هذه الجامعة ، وهم يأتون إلى الجامع أيضاً ، جمعوا بين الجامعة والجامع ، وقلَّما يوجد من يجمع بين الجامعة والجامع ، والذين يجمعون بين الجامعة والجامع هم الذين يعملون بقول الله تعالى: ﴿يَقُولُ

رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١] فنعم هذا ، حينما دخلت هذا المسجد في صلاة المغرب وجدت هنالك أن أكثر المصلين من طلبة الجامعة ، فما أحسن إذا اجتمع الدين والدنيا معاً !

وأرجو أن يوجد هنا في هذه الجامعة التعاون للجامعة مع الجامع ، فأنا مسرورٌ بهذه الرؤية ، وأرجو أن تكونوا بارعين فائقين حتى تنالوا «جائزة نوبل» وهذا يكون بشارةً للمؤمنين ، ويفرح المسلمون في أنحاء العالم على أن ينال المسلم الجائزة ، ولا نعرف في هذا إلا اسماً واحداً ، أو اثنين ، فيجب أن يناله عشرات من المسلمين في العلوم الرياضية ، في الطاقة الذرِّية ، وفي العلوم الكيمياوية ، وأنا أحثكم يا أبنائي! يا تلاميذ الجامعة على أن تخترعوا شيئاً جديداً ، وأن تفتحوا منفذاً جديداً في العلوم ، فيكون لكم مركزٌ عالٍ ممتازٌ حتى يستحقَّ بعض زملائكم أن ينالوا هذه الجائزة.

هنالك في العالم الإسلاميِّ مؤلفون ، هنالك أدباء يعرف فضلهم العلماء الكبار في أوربا وأمريكا ، هنالك علماء الدين ، هنالك الفقهاء ، ولكنَّ العباقرة المجتهدين في العلوم العصرية قليلون نادرون ، فأرجوا أن تتخرجوا من هذه الجامعة حتى تشرفوا العالم الإسلاميَّ والمسلمين في شبه القارة الهندية ، إذا سمع غير المسلمين في بلادنا مثلاً أنَّ شاباً مسلماً في ماليزيا نال جائزة نوبل ، فهم ينظرون إلى المسلمين في الهند باحترامٍ وتقديرٍ ، لأنَّه فردٌ من أفراد هذه الأمَّة ، فلا تستهينوا بقيمتكم ولا بنيتكم ، فإنَّ العبرة بالنية والإخلاص ، فإذا كنتم مخلصين في دراستكم لهذه العلوم تنالون من الله تبارك وتعالى في هذه الدنيا وفي الآخرة من الأجر ما يناله كثيرٌ من العلماء والزُّهاد.

أكتفي بهذا ، وأدعو الله لكم بالنجاح ، وأن يشرف بكم الإسلام ، وأن يبيض وجه المسلمين ، وهم قد فقدوا الشيء الكثير مما كانوا يتمتعون به من شرفٍ ومكانةٍ وعزَّةٍ ، فالله على كل شيءٍ قديرٌ ، والنية الخالصة مع بذل المجهودات سرُّ النجاح ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ

سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩ ـ ٤١] يعني: ثلاثة أشياء ليس للإنسان إلا ما سعى، فالموئل الأول هو السعي، ثم لم يقل إنَّ سعيه سيرى، بل قال: سوف، وسوف للتأكيد، فإذا لم يكن النجاح في وقتٍ قريبٍ فلا تيأسوا، ثم قال: إنه سيجزيهم الجزاء الأوفى ولم يقل الجزاء فقط بل الجزاء الأوفى، فتدبَّروا.

أكرمنا الله بالتوفيق والإخلاص والسَّداد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

الإمام مالك ، وكتابه الموَطَّأ !

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في مؤتمر الإمام مالك الّذي عقد في مدينة أبو ظبي بإشراف سماحة القاضي الشيخ أحمد عبد العزيز آل مبارك رئيس القضاء الشَّرعيِّ في أبو ظبي .

نقدِّم هذه المحاضرة هنا نقلاً من الشريط المسجَّل .

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسلام على سيِّد المرسلين وخاتم النَّبيِّين ، محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

حضرة صاحب السعادة القاضي أحمد بن عبد العزيز المبارك حفظه الله :

حضرات السادة الفضلاء ، الأساتذة الأجلاَّء ، والإخوان الأعزاء :

يسعدني ، ويشرِّفني أن أكتب هذه العجالة لإحراز شرف الإسهام في المؤتمر الذي يتشرف بالنسبة إلى إمام دار الهجرة ، الإمام الجليل مالك بن أنس عليه رحمة الله ورضوانه ، ويزيدني شرفاً وسعادةً أن أقوم بهذه المهمَّة الشريفة في مدينة الرَّسول ﷺ ، ودار هجرته ، ووفاته ، وفي بلد الإمام مالك نفسه ، فيكون ذلك نوراً على نور ، ويزيدني سروراً على سرور ، وإن كان ذلك في حالة الارتجال ، وعلى تشتُّت بالٍ ، وتزاحم أشغال .

اسمحوا لي أيها السَّادة أن أبدأ هذا الحديث بمقتطفاتٍ من الجزء الأول من سلسلة كتابي «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» لأنَّها تلقي أضواء على أهمِّيَّة العمل الذي تمَّ على أيدي مدوني الحديث الشريف ، ومدوني الفقه الإسلاميِّ في فجر الإسلام ، وفي مقدِّمتهم ، وعلى رأسهم الأئمة الأربعة والمجتهدون ـ وفي طليعتهم الإمام مالك ـ وعلىٰ الأخطار التي كانت تهدِّد بقاء الإسلام ، كدينٍ عمليٍّ وتشريعٍ خالدٍ عالميٍّ ، وقانونٍ واضحٍ مرسومٍ للعبادات والمعاملات ، ونظامٍ منسَّقٍ للعلاقات ، والمدنية ، والحياةً الاجتماعية ، أخطارٍ تعرضت لها أممٌ وديانات ، فقد فيها تدوين تعليمات أنبيائهم ، وسيرهم ، وحديثهم ، أو تأخرت فيها عملية تدوين الفقه والأحكام في ضوء الكتب السماوية ، والتعليمات النبوية ، كما كان الشأن في الديانة الإسرائيلية ، والديانة المسيحية ، فضلاً عن الديانات التي فقدت الكتب السماوية وتعليمات الأنبياء الموثوق بها في عهدها الأول ، وجُهِل

تاريخها ، وأحاطت بها هالاتٌ من الأساطير والافتراضات ، والشائعات والخرافات ، وإليكم ما سبق في بيانه باختصار :

«لقد خرجت هذه الأمَّة ـ بفضل الدعوة الإسلامية التي عمَّت الآفاق ، وتخطَّت الحدود ، وبفضل الجهاد الذي أخضع نصف المعمورة للإسلام ـ من طور البداوة والبساطة والانحصار في دائرةٍ ضيِّقةٍ جغرافيةٍ ، ومجتمعٍ صغيرٍ ، إلى طور الإمبراطورية العظيمة.

وقد كانت قارة إفريقية تحت وصاية الإسلام وإدارته ، وتدخل في هذه الإمبراطورية الإسلامية أقطارٌ وبلادٌ من أرقى البلاد في العالَم ، وأعرقها في المدنية والعلوم.

وكانت هذه الحكومة العظيمة تواجه بطبيعة الحال تطوراتٍ كثيرةً سريعةً بحكم الاختلاط بالعناصر المختلفة ، والمدنيات الكثيرة ، وتواجه شؤوناً جديدةً ، ومشاكل عديدةً في التجارة ، والزراعة ، والجزية ، والخراج ، وتواجه من مسائل البلدان ، والأقطار التي يفتحها الإسلام ، ويحكمها المسلمون الشيء الكثير ، وتجد من عادات أهلها ، وتقاليدهم ، واجتماعهم ما يتنافى مع الإسلام كثيراً ، ويتَّفق معه قليلاً ، وكان الحكم في كلِّ ذلك ممَّا لا يمكن تأخيره ، أو الإعراض عنه ، وكانت هذه النواحي كلُّها تتطلب الحلَّ الحاسم السريع ، وتمتحن كفاية هذه الأمَّة الفكرية ، وصلاحية التشريع الإسلاميِّ لمسايرة العصر ، والمدنية ، وشؤون الاجتماع البشريِّ ، وكانت الحكومة في حاجةٍ ملحَّةٍ إلى دستورٍ شاملٍ كاملٍ ، وكان الجهاز الإداري لا يمكن إيقافه عن السَّير ، أو تعطيله عن الحركة في انتظار التشريع.

فإذا تكاسل العلماء في الاجتهاد والاستنباط ، وآثروا الراحة على العمل والكدح ، أو ضعف إنتاجهم ، وجمدت قريحتهم ، التجأت الحكومة ـ تحت وطأة حاجات الحياة العملية ومطالبها ـ إلى أن تقتبس النظم الرومية والفارسية ، وتطبق القانون الرومانيَّ ، والإيرانيَّ على المملكة الإسلامية : فكان ذلك يجرُّ على هذه الأمة شقاء طويلاً ، لأنَّها تُحرَم سعادة القانون

الإسلاميِّ ، وبركات المجتمع الإسلامي ، ويُـكتب عليها أن تعيش مسلمةً متديِّـنـةً في مساجدها ، جاهليةً ، أو لا دينيَّةً في بيوتها ، وأسواقها ، ومحاكمها ، كما هو الواقع في البلاد والدول التي ديانتها الرَّسمية النصرانية ، وليس عندها تشريعٌ مسيحيٌّ ، وكما هو واقعٌ ـ مع الأسف والخجل ـ في البلاد والدول التي تدين بالإسلام في العقيدة والعبادة ، ولا تدين به في التشريع والقانون ، وإذا ساغ ذلك في النصرانية التي لا تملك الثروة الدستورية ، ولا تلحُّ على تطبيق الدين على الحياة ، فإنَّه لا يسوغ في الإسلام الذي هو دينٌ ودولةٌ ، وعقيدةٌ وسياسةٌ ، وعبادةٌ واجتماعٌ ، فكانت الأمَّة تجتاز مرحلةً خطيرةً دقيقةً في حياتها ، وقد وقفت على مفترق الطرق ، وكانت الغلطة الواحدة ، أو العثرة الخفيفة ، كافيةً لقطع صلتها عن الحياة الإسلامية ، والاجتماع ، والنظم الإسلامية ، وتفرض على الأجيال القادمة أن تعيش حياةً ليس فيها إلا نصيبٌ ضئيلٌ.

وكانت الأمَّة لا تستطيع أن تتفادى هذا المصير المؤلم المظلم ، إلا إذا كانت مصادر التشريع ، ومنابع الفقه الإسلاميِّ ، محفوظةً من الضياع ، ميسورةً للانتفاع ، وأهم هذه المصادر ـ بعد القرآن الذي لا يخاف عليه من الضياع والتحريف ـ هو «الحديث» الذي هو مصدرٌ منظمٌ ، وثروةٌ زاخرةٌ لاستنباط الأحكام ، ولا يعرف التاريخ سيرةً نبويَّةً أوثق من هذه السيرة ، وأحراها بالاعتماد والتعويل ، ويصحُّ أن يسمَّى سجلّ الوقائع اليومية ، وشبه (مذكرات) ـ إذا صحَّ هذا التعبير ـ لمدة ثلاثٍ وعشرين سنةً قضاها النَّبيُّ ﷺ بعدما أكرمه الله بالنُّبوَّة على ظهر الأرض ، ترينا كيف كان الرسول ﷺ يعيش في هذه الحياة ، وكيف يقضي نهاره ، وليله.

ثم إنَّ الحديث ميزانٌ عـادلٌ يستطيع المصلحون فـي كلِّ عصرٍ أن يزنوا فيه أعمال هذه الأمة واتجاهاتها ، ويعرفوا الانحراف الواقع في سير هذه الأمة ، ولا يتأتى الاعتدال الكامل في الأخلاق والأعمال إلا بالجمع بين القرآن وبين الحديث ، الذي هو يملأ هذا الفراغ ، الذي وقع بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وهذه الفجوة لابدَّ منها في السنن الإلهية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ

﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] فلولا الحديث الذي يمثل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتَّزنة ، ولولا التوجيهات النَّبويَّة الحكيمة ، ولولا هذه الأحكام التي أخذ بها الرسول المجتمع الإسلاميَّ لوقعت هذه الأمَّة في إفراطٍ وتفريطٍ ، واختلَّ الاتزان ، وفقد المثال العمليُّ الذي حثَّ الله على الاقتداء به ، بقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] وبقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] والذي يطلبه الإنسان ، ويستمدُّ منه الثقة والقوَّة في الحياة ، ويقتنع بأنَّ تطبيق الأحكام الدينية على الحياة ميسورٌ وواقعٌ.

كذلك كانت الأمَّة في حاجةٍ ملحَّةٍ إلى حركة تدوين الفقه ، وقد اضطرت التطورات التي طرأت على المجتمع الإسلاميِّ ، واتساع رقعة المملكة الإسلاميَّة ، وتعقد المدنية ، وطرافة المسائل ، والحوادث ، وانشعاب الحياة إلى استنباط المسائل ، واستخراج النتائج ، وترتيب الجزئيات والفتاوى.

وقد خرج الإسلام من الجزيرة العربية ـ حيث الحياة بسيطة والمدنية محدودة ـ إلى بلادٍ مخصبةٍ واسعةٍ ذات المدنيات القديمة ، والآفاق الواسعة ، كالشام والعراق ، ومصر ، وإيران ، وقد توسَّعت الحياة الاجتماعية ، وتعقَّد نظام التجارة والإدارة ، وقد كانت مهمَّة تطبيق أصول الإسلام على هذه المسائل والحوادث ، وإخضاع الحياة المدنية لروح الإسلام وأسسه تطلب ذكاءً فائقاً ، وفهماً دقيقاً ، واطِّلاعاً واسعاً على المجتمع العصري الذي كان المسلمون يعيشون فيه ، وإلماماً كافياً بعلم النفس ، والطبيعة البشرية ، وخبرةً واسعة بطبقات الأمَّة ونواحي الحياة العامَّة ، يضاف إلى ذلك الاطِّلاع الواسع على تاريخ الإسلام ، والوقوف على مصادره وأصول التشريع الإسلاميِّ ، مع الرسوخ والتضلُّع في اللغة العربية التي نزل بها القرآن ونطق بها الرَّسول.

لقد كان من لطف الله بهذه الأمة ، وكان من التيسير ، أن قيَّض لهذه المهمة الجليلة رجالاً يُعدُّون من الأفذاذ والنوابغ الذين أنجبتهم الإنسانية ،

فقهاً وأمانةً ، وإخلاصاً ، وكفايةً ، كان منهم هؤلاء الأئمة الأربعة (أبو حنيفة م ١٥٠ هـ ، ومالك م ١٧٩ هـ ، والشّافعي م ٢٠٤ هـ ، وأحمد بن حنبل م ٢٤١ هـ) الذي قدِّر لفقههم أن يعيش إلى هذا اليوم ، ويخضع له العالم الإسلاميُّ ، وقد فاق في فهمهم الدقيق الواسع ، ووقفوا حياتهم ، واستعملوا مواهبهم بسخاءٍ في تكوين هذه الثروة الفقهية والقانونية ، التي لا تعادلها ذخيرةٌ فقهيَّةٌ في العالم ، والتي لا تزال مرجعاً ومادةً واسعةً للتشريع لهذا العصر ، وقد توفَّر هؤلآء على هذه الخدمة التي تدين لها الأمة ، ويدين لها العالم ، وآثروها على كلِّ راحةٍ ولذةٍ وجاهٍ ومنصبٍ في الحياة ، وقد خاب ملوك عصرهم وأمراؤه ، وخابت الأطماع ، والإغراءات أن تشغل قلوبهم ، أو تتوزع عقولهم ، وأوقاتهم ، وقد عُرِض على أبي حنيفة منصب القضاء الذي كان منصباً كبيراً ، وشرفاً عظيماً مرَّتين ، فرفض ، وامتنع ، ومات في السجن ، وقد ضرب مالك مئتي سوط لأجل مسألة جهر بها ، وخلعت كتفاه ، وهي أنَّ طلاق المكره ليس بشيءٍ ، وقد قضى الشافعيُّ معظم حياته في عسر وضنكٍ ، وبذل صحته وقوَّته في استنباط الأحكام وتدوين الفقه ، وعارض أحمد بن حنبل اتجاه حكومة هي كبرى الحكومات ، وأقواها على ظهر الأرض في عصره ، ودافع عن السنَّة والفكر الصحيح حتى عُوقب ، وعُذِّب ، وضُرب ، وسُجن.

وقد أنتج كلُّ واحدٍ منهم ثروةً علميَّـةً ، وخلَّف تراثاً فقهياً ينوء بالمجامع العلمية ، والمؤسسات الكبيرة في هذا العصر ، فقد روي أنَّ أبا حنيفة قال ستين ألف مسألة ، وقال بعضهم: ثلاثة وثمانين ألفاً: ثمانية وثلاثين ألفاً في العبادات ، وخمسةً وأربعين ألفاً في المعاملات ، وقد ذكر شمس الأئمة الكردري: أنَّ عدد المسائل التي دونها يبلغ إلى ستمئة ألف ، ومهما كان العدد مبالغاً فيه ، فلا شكَّ أنه أنتج ثروةً فقهيةً ضخمةً ، هي أساس هذا الفقه الحنفي الذي استطاع أن يحكم المساحة الكبرى في المملكة الإسلامية أيام ازدهارها ، ويكون دستور مملكةٍ هي أرقى الممالكات في عصرها ، وهي الدولة العبَّاسيَّة.

وكذلك شأن مالك في الفقه ، فكتابه (المدوَّنة) الذي هو مجموعته

الفقهية ، تبلغ نحو ستةٍ وثلاثين ألف مسألة ، و«كتاب الأمِّ» الذي هو من إفادات الشافعي ، مجموعةٌ فقهيةٌ ضخمةٌ تقع في سبعة أجزاء ، وقد جمع أبو بكر الخلال (م ٣١١ هـ) مسائل الإمام أحمد في أربعين مجلداً ، سماه: «الجامع لعلوم الإمام أحمد» .

لقد كان وجود هؤلاء الفقهاء المجتهدين والمشرعين في قرون الإسلام الأولى ، برهاناً ساطعاً على صلاحية هذه الأمَّة للبقاء والانتشار ، وقد وجدت بفضل مساعيهم ونبوغهم وحدة الأمَّة العلميَّة ، في اجتماعها ، ومعاملاتها ، وسياستها المالية ، وهذه الوحدة عاملٌ مهمٌّ من عوامل الوحدة الدينيَّة والفكريَّة ، وبذلك أمنت هذه الأمة من تلك الفوضى الاجتماعية والتشريعية التي أصيبت بها الأمم والديانات في عهدها الأول ، والتي تدرَّجت بها إلى حياةٍ لا دينيَّةٍ ، تسير فيها على النظم اللادينية ، أو تقتبس التشريع الأجنبيَّ الثائر على روح دينها ومبادئه ، وألجأتها إلى التمسُّك بمبدأ «فصل الدين عن السياسة» الذي هو الخطوة الأولى الحاسمة إلى الإلحاد والارتداد[(١)] .

أما كتاب الموطَّأ للإمام مالك ، فنكتفي في بيان فضله ومنزلته في مجاميعِ الحديث الشريف ، ومصادر الفقه ، وما يمتاز به من قبولٍ من الله ، وإقبالٍ من أهل الصناعة والاختصاص في فنَّي الحديث والفقه ، بما قاله حكيم الإسلام الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ وليِّ الله الدهلويِّ (م ١١٧٦ هـ) الذي انتهت إليه رئاسةِ تدريس الحديث الشريف ، ونشره في ربوع الهند ، وليست المدارس التي ظلَّت معنيةً بخدمة الحديث تدريساً وتخريجاً وتربيةً لحملته وناشريه ، وحركة التأليف والشرح ، وحركات الإصلاح والتجديد ، ونشر السنَّة السنية ، والردِّ على البدع ، وتقاليد الجاهلية الهندية ، والقيام بالجهاد الإسلامي والنهوض

(١) «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الجزء الأول مقتبساً من ص ٩٤ إلى ص ١١٣

بالمسلمين ، إلا امتداداً لدوره في تاريخ الهند والعالم الإسلاميِّ في عصره[(١)] .

يقول رحمة الله عليه في مقدمة كتاب المصفى شرح الموطأ ، أما بعد: فيقول الفقير إلى رحمة الله الكريم (ولي الله بن عبد الرحيم) العمريُّ نسباً ، الدهلويُّ وطناً ، أنَّه قد حصل لي تشويشٌ في القلب بسبب اختلاف مذاهب الفقهاء وكثرة أحزاب العلماء وتجاذبهم ، كلٌّ واحدٍ عن الآخر إلى جانب ، وذلك لأنَّه لابدَّ من تعيين طريقٍ للعمل ، والتعيين بلا مرجع سفسطةٍ ، ووجوه الترجيح كثيرةٌ ، والعلماء قد اختلفوا في تقريرها إجمالاً وتفصيلاً ، اختلافاً فاحشاً ، فتشبَّثتُ ذات اليمين وذات اليسار بلا طائل ، واستعنتُ بكلِّ أحدٍ بلا جدوى ، فبعد ذلك توجَّهتُ إلى الله سبحانه وتعالى متضرعاً ، وقلت: ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧] ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩] فألهمت الإشارة إلى كتاب (الموطأ) تأليف الإمام الهمام حجَّة الإسلام ، مالك بن أنس ، وعظم ذلك الخاطر رويداً فرويداً.

وتيقَّنْتُ أنه لا يوجد الآن كتابٌ ما في الفقه أقوى من موطأ الإمام مالك؛ لأنَّ الكتب تتفاضل فيما بينها ، إمَّا من جهة فضل المصنف ، أو من جهة التزام الصِّحَّة ، أو من شهرة أحاديثها ، أو من جهة القبول لها من عامة المسلمين ، أو من جهة حسن الترتيب ، واستيعاب المقاصد المهمَّة ونحوها ، وهذه الأمور كلُّها موجودةٌ في الموطأ على وجه الكمال ، بالنسبة إلى جميع الكتب الموجودة على وجه الأرض الآن[(٢)] .

لقد انشرح صدري ، وحصل لي اليقين بأنَّ الموطَّأ أصحُّ كتابٍ يوجد على وجه الأرض بعد كتاب الله ، وكذلك تيقَّنت أنَّ طريق الاجتهاد ،

---

(١) راجع كتاب العلامة الندوي «الإمام الدهلوي» الصادر من دار القلم الكويت (وهو الجزء الرابع من سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام) صدر مصحَّحاً ومنقحاً من دار ابن كثير بدمشق.

(٢) المسوى ص ١٧ .

وتحصيل الفقه (بمعنى معرفة الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية) مسدودٌ اليوم (على من رام التحقيق) إلا من وجهٍ واحدٍ ، وهو أن يجعل (المحقق) الموطأ نصب عينيه ، ويجتهد في وصل مراسيله ، ومعرفة مآخذ أقوال الصحابة والتابعين (يتتبّع كتب أئمة المحدِّثين) ثم يسلك طريق الفقهاء المجتهدين (في المذاهب) من تحديد مفهوم الألفاظ ، وتطبيق الدلائل ، وتبيين الركن ، والشرط ، والآداب ، واستخلاص القواعد الكلِّية الجامعة المانعة ، ومعرفة علل الأحكام ، وتعميمها ، وتخصيصها ، وفقاً لعموم العلَّة وخصوصها ، وأمثال ذلك ، ويجتهد في فهم تعقبات الإمام الشافعي وغيره (كتعقبات الإمام محمد في موطئه وكتاب الحجج).

ثم يجتهد (في تطبيق المختلفات أو ترجيح الأحسن منها) ويتمكَّن من تحصيل اليقين بدلالة الدلائل على تلك المسائل ، أو يغلّب الظنَّ والرأي بمعرفة أحكام الله تعالى[1].

وما قلناه: إنَّ طريق الاجتهاد مسدودةٌ إلا من هذه الجهة ، الباعث على ذلك ، أنَّ الأحاديث المرفوعة وحدها لا تكفي جميع الأحكام ، بل لابدَّ لها من آثار الصحابة والتابعين ، ولا يوجد كتابٌ جامعٌ لهذا وذاك الآن ، ويكون مع ذلك مخدوعاً من العلماء ونظر فيه نظر المجتهدين طبقةً بعد طبقة غير الموطأ ، وهذا أمرٌ لا يحتاج إلى دليلٍ عند من عرف الكتب المأثورة التي هي أصول الشرع ، وعلم أيضاً كلام أهل العلم فيها ، وأنظار المجتهدين في شرحها ، أما المغفلون من أبناء هذا العصر الذين هم معرضون عن هذا الأمر بالكليَّة ، ومسوقون مثل الإبل المخطومة لا يدرون إلى أين يذهبون ، فهؤلاء في وادٍ آخر ، ولا يمكن تكليفهم بفهم هذه الأمور.

خلق الله للحروب رجالاً ورجالاً لقصعةٍ وثريد[2]

ويقول في (وصاياه):

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٩.

(٢) ص ٣٠.

«عندما يحصل التمكُّن من العربية ، فليدرس الموطأ برواية يحيىٰ بن يحيىٰ المصمودي ، ولا يعرض عنه أبداً ، فإنَّه أصل علم الحديث ، وتدريسه يحمل فوائد جمَّةً ، وقد حصل لنا سماع الموطأ كلِّه بالرواية المتَّصلة»[١] .

ولا تتصدَّى بعد ذلك للحديث عن جوانب أخرى من عظمة الإمام مالك الاجتهادية والفقهية ، والمكتبة الغنيَّة العملاقة التي تكونت في شرح كتابه «الموطأ» في الحديث و«المدوَّنة» في الفقه ، ومن نهض في المدرسة الفقهية والأصولية والحديثية من نوابغ وأعلام في المشرق والمغرب ، وخصوصاً في الحزام الغربيِّ الشَّمالي من قارة إفريقية ، الممتدِّ من ليبيا إلى الغرب الأقصى ، إلى بلاد الأندلس في أوربا ، الذي خصَّه الله وأخضعه ـ لحكمةٍ يعلمها ـ للمذهب المالكيِّ ، وما دُوِّن هنا من كتبٍ فريدةٍ في المكتبة الإسلامية العالمية ، فمن المتوقع المؤكَّد أن يتحدَّث عنها أصحاب الاختصاص في هذا المذهب وفي تاريخ تدوين العلوم ، وأقتصر على ما كان لعلماء الهند المشتغلين بالحديث والفقه من قسطٍ وافرٍ ونصيبٍ غير منقوص في شرح «الموطأ» في شبه القارة الهندية ، وأنقل هنا ما جاء في كتاب سيِّدي الوالد العلامة السيد عبد الحي الحسني (المتوفى ١٣٤١ هـ) (الثقافة الإسلامية في الهند) إذ هو المصدر الأكبر فيما يتعلَّق بالخدمات العلمية ، والمؤلَّفات الكبيرة والصغيرة لعلماء الهند ، منذ دخل الإسلام في الهند إلى وفاة المؤلف ، أضيف إلى ذلك ما تمَّ بعد وفاة المؤلف من التأليف في هذا الموضوع ، يقول المؤلف رحمه الله وهو يذكر شروح «الموطأ» التي تحقَّق تأليفها ووصفها في شرح الموطأ ، يقول رحمه الله تعالىٰ :

«فمن ذلك المصفى شرح الموطأ بالعربيِّ للشيخ يعقوب أبي يوسف البيانيِّ اللاهوري ، والمحلَّى شرح الموطأ بالعربيِّ للشيخ سلام الله بن شيخ الإسلام البخاريِّ الدهلوي ، والمسوَّى شرح الموطأ بالعربي للشيخ الأجل

---

(١) الوصايا بالفارسية ص ١١ .

ولي الله بن عبد الرحيم العمريِّ الدهلويِّ ، اقتصر فيه على شرح الغريب وبيان المذاهب ، والمصفى شرح الموطأ بالفارسيِّ للشيخ ولي الله المذكور ، صنفه على وجه الاجتهاد والتحقيق ، وصحَّحه وهذَّبه بعد وفاته صاحبه الشيخ محمد أمين الولي اللاهي ، وفرغ من تهذيبه في الثامن عشر من شوال سنة ١١٧٩ هـ ، وهداية السالك إلى موطأ الإمام مالك للمفتي صبغة الله بن محمد غوث الشافعي المدراسي ، والتعليق الممجَّد على موطأ الإمام محمد المولوي عبد الحي بن عبد الحليم الأنصاري اللكهنوي ، وشرح جزء من أجزاء الموطأ للقاضي بشير الدين العثماني القنُّوجي ، وكشف الموطأ ، شرحه بالأردو ، للمولوي وحدي الزمان اللكهنوي»[١] .

أما الكتب التي ظهرت بعد وفاة مؤلف «الثقافة الإسلامية في الهند» فمن أهمها «أوجز المسالك في شرح الموطأ الإمام مالك» في خمسة أجزاء للعلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ، وهو كتاب موسوعيٌّ معترفٌ به في أوساط العلماء ، وعند علماء المذهب المالكيِّ بصفةٍ عامَّة ، وكتاب «دليل السالك إلى أطراف مالك» للشيخ محمد حليم آل عطا السَّلوني شيخ الحديث بدار العلوم ندوة العلماء سابقاً ، لم يطبع بعد ، و«اليواقيت الثمينة في أطراف عالم المدينة» للمؤلف المذكور ، لم يطبع بعد ، ومنها «حياة الإمام مالك» للعلامة السيد سليمان الندوي ، وهو خير ما ألف في حياة إمام دار الهجرة وخصائصه ، وخصائص مدرسته الفقهية وكتابه الموطأ ، صدر من دار المصنفين «أعظم كره» في «أردو» عرف به كثيرٌ من أهل الهند منزلة الإمام بين أئمة الإسلام .

وصلى الله على خير خلقه ، سيدنا ، ومولانا محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين .

* * *

(١) «الثقافة الإسلامية في الهند» ص ١٥٠ .

البحث العلميُّ والفقهيُّ والتحقيق والاجتهاد
الحاجة إلى ذلك وآدابه

ألقى العلامة الندويُّ هذا البحث في ملتقى مجمع الفقه الإسلاميِّ الهند الندوة الثالثة المنعقدة في بنغلور ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦ ـ ١٧ من ذي القعدة ١٤١٠ هـ وقد عُرض وتُلي في ١٤ من ذي الحجَّة.

أيها السادة!

إنَّه لمن أعظم دواعي سروري أن أرى العلماء وأصحاب الدراسات الواسعة العميقة، قد بدؤوا يهتمُّون بالقضايا المعاصرة، الفقهية الاجتهادية، والمنتدى الحالي هو البرهان على ذلك.

لم تكن كنوز المعرفة والمصادر العلمية في يوم ما احتكاراً لطبقةٍ اجتماعيةٍ دون أخرى، وما كان يجب ذلك، أما فيما يتعلق بالإسلام، فإنَّكم تعلمون أنَّه ليس هناك طبقة تتوارث الكهنوت أباً عن جدٍّ، إنَّ مفاهيم الكهنوت هي من صلب العالم النَّصرانيِّ، وغريبةٌ في عالم الإسلام، وإذا ما وجدت عبارات أو تعابير كهذه في كتابات بعض العلماء فمردُّ ذلك فقط إلى التقليد الأعمى للغرب، أصبحت عبارة «رجال الدين» في أيامنا هذه شائعة ـ حتى بين الكتاب العرب!! ـ وبدؤوا يستعملونها بنفس المفهوم الذي تعنيه كلمة «الكهنة» في العالم النصرانيِّ، أما الكتاب الحذرون المتمسِّكون بالدِّين، والذين يريدون التعريف الصحيح بالفكر والروح الإسلاميين، فقد اجتنبوا بحذر شديد استعمال عباراتٍ كهذه.

وفي الوقت الذي أعبِّر فيه عن شعوري بالغبطة للاهتمام المتزايد من قبل المراكز العلمية بالعلوم الإسلامية، وبالفقه الإسلاميِّ، والقضايا الإسلامية المعاصرة، أودُّ أن أضيف إلى أنَّه على الرَّغم من أنَّه لا مكان للقساوسة والكهنوت في الإسلام، . . . إلا أنَّه كان دائماً لدينا علماء ذوو خبرةٍ واختصاصٍ، ولم يعد بإمكان المرء أن يضطلع في كل شيءٍ نظراً للتوسُّع الطارىء المحسوس الذي حدث في شتَّى فروع المعرفة. . . ففي أوربا بدأت عملية التقدُّم عندما كرَّس الناس أنفسهم للتخصُّص في فروع خاصةٍ من الدراسات، ولم يعد علماؤها يسيطرون على كافة فروع المعرفة، وأعتقد أنَّ هذا المبدأ ـ وحتى في وقتنا الحاليِّ ـ متَّبعٌ في أوربا أكثر منه في الشرق، وهناك يعترف الخبراء في أيِّ مجالٍ كان ـ وبدون تردُّدٍ ـ بمهنة أو بمجال

دراسةٍ أنَّه لا يدخل ضمن مجال اختصاصهم ، والآن علينا نحن أيضاً أن نصمِّم لتحديد مساعينا العلمية ، والفكرية ، لنقتصر على موضوعٍ أو فرعٍ دراسيٍّ خاصٍّ بمفرده.

مستوى الثقافات:

إنَّني فخورٌ بأن أكون رفيق دربٍ.. وأنتهز ذلك لأتجرَّأ ، فأقدم بعض الاقتراحات:

ربما توافقون معي على أنَّ مستوى الثقافة يتدنَّى في وسطنا ، ولقد لمست ذلك في الغرب أيضاً ، وقد قال لي بعض العلماء هناك: إنَّ الفساد تسرَّب إلى دراسة العلوم الشرقية أيضاً... إنَّ الجليل الحاليَّ من العلماء يفتقر إلى المثابرة والانكباب ، وذلك لأسباب عديدةٍ ، بعضها سياسيَّة ، وأخرى اقتصاديَّة.

السرُّ في نموِّ الاستشراق:

هناك بعض البواعث وراء كلِّ فرعٍ من فروع المعرفة ، ولقد رفعت هذه العوامل الاستشراق في يومٍ من الأيام إلى القمَّة ، وباستثناء القليل من العلوم الطبيعية والاجتماعية ، فقد كانت الدراسات الشرقية تحظى بشرفٍ عظيمٍ ، وكان المستشرقون بكتاباتهم يتمتَّعون بأهميةٍ بارزةٍ؛ إذ كان العامل القويُّ الذي يعمل عمله وراء ذلك هو عامل الإمبريالية Imperialism[1] ونحن مسرورون على أنَّ ذلك العالم لم يعد فعَّالاً ، وقد كانت أغنى بلدان الشرق تحت حكم المسلمين ، وكان الغرب ينظر إليهم نظرة غيرةٍ وحسدٍ لما عندهم من خيرات.

أرادت الامبريالية الغربية إقامة مستعمراتٍ جديدةٍ ، لذا كان من الضروريِّ لها: دراسة الخصائص القومية لتلك البلدان ، وإحداث التشكُّك في مصادر شعوبها العلمية ، والدينية ، وعدم الثِّقة بها ، لإنشاء «مركّب

(١) المقصود بها: بسط النفوذ عن طريق الشركات والمؤسسات الاقتصادية ، والنفوذ السياسي.

النقص» في نفوس الدارسين ، والباحثين ، والشباب المثقف في تلك البلاد ، فيكون ذلك مساعداً على بسط النفوذ الأجنبيِّ في هذه البلاد ، لأنَّ النفوذ الثقافيَّ والخضوع العقليَّ والعلميَّ يسبقان النفوذ السياسيَّ ، وعلى الأقل يساعدان عليه ، ويمهِّدان الطريق له .

ولقد كان هؤلآء المستشرقون هم طلائع المستعمرين ، فقد لقوا رعاية الجهات الرَّسمية ، ووضعت أموال طائلةٌ تحت تصرُّفهم ، وكانوا يستقبلون بحفاوةٍ وتقديرٍ في بلاط الملوك ، ورؤساء الدول . . . لقد زال هذا العامل من الوجود ، أما الدافع الآخر ، فقد كان الكسب الاقتصاديُّ الذي فقد فعاليته هو أيضاً ، فقد خضعت البنية الاقتصادية للتحوُّل ، بحيث لم تعد مواصلة الدراسات الشرقية تدرُّ النفع الماديَّ كما كانت من قبل .

التفرُّغ :

إنَّ روح التكريس قد ضعفت بين علماء عصرنا ومثقفيه ، فقد ضعف حبُّ المعرفة ، ونضب معه معين القدرة على الجدِّ والاجتهاد ، وإنَّني لا أشير بذلك إلى أيِّ مدرسةٍ أو مركزٍ علميٍّ دون آخر ، إنما هي ملاحظة عامَّةٌ كما وجدتها ، ويلمس في كل مكان ـ تقريباً ـ أنَّ التكريس الكامل الذي كان يتميَّز به علماء الماضي لم يعد له وجودٌ في وقتنا الحاضر .

إنَّ الأسباب تتعلَّق بالسياسة والاقتصاد ، والآداب والأخلاق ، سواء بسواء ، وليس من الممكن ـ أو من الضروريِّ مناقشتها هنا . . . والأمر الواضح جداً ، هو أنَّ حبَّ المعرفة الذي يسمو فوق كلِّ شيءٍ ، ويجعل الإنسان لا يبالي حتى بالحاجة إلى الطعام والملبس ، قد أصبح ذلك الحبُّ نادراً إن لم نقل قد همد .

المعرفة من أجل المعرفة :

كان عالمٌ بمفرده ـ فيما مضى ـ يقوم بعمل أكاديميات (مجامع) علمية بكاملها ، أمَّا الآن فقد أقيمت الجمعيات ، والمؤسسات الضخمة ، لكنَّ مردودها ـ إجمالاً ـ غير مشجِّعٍ ، وقليلاً ما تقوم بأعمال أصيلةٍ مبتكرةٍ .

إنَّ ما نحتاجه هو رفع مستوى الثقافة والرسوخ العلميِّ والتضلُّع

الفقهيِّ ، وما المعرفة إلا كدٌّ وجني ثمرته ، وعطشٌ ، وارتواءٌ ، وجوعٌ ، وشبعٌ .

على المرء أن يكرِّس كامل جهده لعمله ، وأن يعتبره مكافأةً في حدِّ ذاته ، لا رئاسة فرعٍ معيَّنٍ في هذه الجامعة أو تلك .

إنَّ علماء عصرنا الحاضر يستعجلون لجمع المحصول ، وينصبُّ اهتمامهم الأكبر على الشهرة ، والترفيع في الخدمة ، وزيادة التعويض ، وإنَّ قسماً كبيراً من طاقتهم يصرف في السعي وراء هذه الأغراض ، وإنَّ الرِّبح الماديَّ هو الأساس في نظرهم ، ولابدَّ أنَّكم سمعتم بمبادىء كثيرةٍ ، والمبدأ الجديد الذي ينتشر في مؤسساتنا الثقافية ، ألا وهو المهنية (Careerism) .

الظمأ للمعرفة يجب ألا يكون حالة عابرة :

وشيءٌ آخر هو : ألا يكون الاهتمام بالنشاطات الثقافية اهتماماً عابراً ، فنختار موضوعاً للبحث فيه ، ثم نجترُّه بسرعةٍ فنلقيه خارجاً ، كحيوان يجترُّ ، فلا يكون هناك التزامٌ بالموضوع ، ولا تعلُّقٌ ثابتٌ به ، فإذا ما انتهى البحث نفضنا أيدينا من الأمر كلِّه ، ولنذكر قول إقبال :

مقصود هنر سوز حيات أبدي هے　　يه ايك نفس يا دو نفس مثل شرر كيا

«إنَّ هدف الفنِّ هو لهب الحياة الخالدة ، وليس فورة نشاطٍ أو اثنين تختفيان كالشرارة» .

منابع الدراسة الإسلامية تكمن في الإيمان :

ربما تقرؤون بالطبع في بعض البحوث عن الحاجة إلى الاجتهاد في العلوم الإسلامية ، وفي القضايا الدينية المعاصرة ، وكلنا نوافق على ذلك ، لكن لماذا أغلق بابه ، وما أسباب ذلك ، وما مدى صحته؟ فتلك قضيةٌ أخرى ، وسوف أشير إلى أنَّ أصول العلوم الإسلامية تكمن في الدين ، إنَّه المصدر الرئيسيُّ لها ، لذا يجب أن نختلف في موقفنا حيالها عن المستشرقين ، وألاَّ يكون هذا الموقف أكاديمياً ، بأن نقوم بمناقشتها فقط دون أيِّ شعور بالالتزام ، وينبغي لنا أن نعتقد بها شريطة أن تكون مرتبطةً بأركان الإيمان وتهذيبها في حياتنا العملية ، ولقد سمعت في طفولتي أنَّ

عشرة أرطالٍ من الحكمة ضروريةٌ لرطلٍ واحدٍ من المعرفة (براى يك من علم ده من عقل بايد) وإلا لا يتمكَّن المرء من استنتاج فائدةٍ حقيقيةٍ من المعرفة ، ولا استعمالها بشكلٍ ملائمٍ ، وسأدخل تحسيناً على ذلك وأقول: إنَّ التقوى يجب أن تكون موجودةً أيِّضاً بشكلٍ متناسب مع البحث ، لأنَّ القضية هي قضية العلوم الإسلامية ذات الصلة الوثيقة بالدين ، ولا نستطيع أن نخضعها للتشريح Pustmortem كجثةٍ ، أجل: ليس من العدالة أن يكون كذلك ، فيجب أن يكون النقد خالياً من الازدراء والسخرية.

إنَّ أولئك الذين هم على وعي بمسؤوليات الدراسة والبحث ، وتغيُّر الأفكار والآراء ، لا يقدمون آراءهم وأحكامهم بطريقةٍ جازمةٍ موثوقةٍ ، ولا يفسرون نظريةً كما لو أنها كانت آخر كلمةٍ في الموضوع ، وينبغي أن يكون موقفهم كمن توصل إلى نتيجةٍ ظهرت بأنَّها صحيحةٌ في تلك اللحظة ، يجب علينا أن نمارس الكبح في تفكيرنا ، وأن نتعلَّم إبداء الاحترام والتقدير للعلم ، وللشخص الذي كرَّس حياته ، وطاقاته له.

تجنَّبوا إحداث الفوضى:

يتسرَّع بعض الناس في التعبير عن آرائهم ، ثم لا يلبثون بعد فترةٍ أن يتراجعوا عنها!! . . . لاشكَّ بأنَّهم يؤدُّون واجبهم ، ولكن ماذا عن أولئك الذين كان عليهم أن يغادروا هذه الدنيا وهم على ضلالٍ من جراء اتِّباع أولئك الناس؟! وتصبح المشكلة خطيرةً عندما تتعلَّق هذه الآراء بالعقيدة والدين ، لذا ينبغي ألا ينفد الصبر في التعبير عن آرائنا ، وخاصةً عندما تخصُّ عالم الدِّين ، وعلينا أن نفكر فيها ملياً ، ونتفحَّصها ، ونعرضها على أهل الخبرة وننتظر حكمهم. . حينذاك فقط يمكن أن تنشر.

إنَّ عصرنا هو عصر الفوضى ، والإنسان هادئٌ يميل إلى الإهمال بطبيعته ، لحضارة العصر ، والخطوات السريعة للتقدُّم العلميِّ ، والارتفاع المستمرُّ في مستوى المعيشة ، يفضي به إلى أن يكون أكثر حباً للرَّاحة ، وتعرضاً للفوضى ، وعلينا ـ والحال هذه ـ أن نحجم عن قول أشياء يمكن أن تزيد في الاضطراب الفكريِّ عند الناس.

التغير والثبات للزَّمان:

يفترض عموماً: أنَّه ليس للزمن ثباتٌ أو دوامٌ ، بل إنَّه اسم آخر للتغيُّر والتحوُّل ، ولكن ليس الأمر كذلك ، إنَّ الزَّمن مركبٌ من الاثنين ـ التغيُّر والاستمرار ، وإذا اختلَّ هذا التوازن كأن يتحكَّم الاستمرار بالتغيُّر ، أو يتسلَّط التغيُّر على الاستمرار ، فإنَّ ذلك سينتج آثاراً خطيرةً تنعكس على المجتمع والحضارة ، إنَّ المجتمع البشريَّ بحاجةٍ إلى التناسب حتى أكثر من أيِّ مركبٍ كيميائي.

إنَّ الزمن له القدرة على التغيُّر ، ويجب أن يتغيَّر ، وذلك ليس علامة ضعفٍ أو نقصٍ ، إنما هو قانون الحياة ، وكما قال إقبال: إنَّ الحياة دائمة الحركة ، دائمة الانسياب ، دائمة الشباب ، وإنَّ الحياة الخالية من القدرة على النموِّ والتطوُّر ، يمكن أن تكون أيَّ شيءٍ آخر إلا الحياة.

إلى جانب ذلك فإنَّ مقاومة التغيُّر هي ـ أيضاً ـ صفةٌ متأصِّلةٌ في الزمن ، وإنَّ مظاهر التغيُّرِ تبدو لنا بوضوحٍ . . . وكلُّنا نشعر كم تحوَّل الزَّمن بشكلٍ كبير.

إنَّنا في مجريات الأمور العادية لا نوفق في الإدراك إدراكاً تاماً للصراع الذي يقوم به الزمن ليحافظ على خواصه الجيدة والسليمة ، وطبيعته وصفته الحقيقية ، وإنَّ ذلك يتطلَّب مجهراً خاصَّاً.

خذوا النهر الذي يمثل نموذجاً مثالياً للحركة . . ما من موجتين من أمواجه متماثلتان على الإطلاق ، وبالرَّغم من أمواجه العابرة فإنَّه موجودٌ مكانه منذ آلاف السنين ، محتفظاً بكلِّ خصائصه ، واسمه ، واتجاهه ، فأنهار دجلة ، والفرات ، والنيل ، والغانج (Ganga) وجامونا كلها هي نفسها منذ أن كانت في العصور الغابرة.

إنَّ الزمن ساكنٌ بالإضافة إلى كونه متحركاً . . . كلا هاتين الصفتين جوهريتان بالنسبة له ، فهو ـ بدون أيٍّ منهما ـ لا يستطيع الاحتفاظ بفائدته بنفس الطريقة ، لأنَّ القوى السلبية والموجبة تعمل عملها في الأشياء الحيَّة

وغير الحيَّة الموجودة في العالم ، وعن طريق أفعالها وردود فعلها تحقِّق هذه الأشياء قدرها .

الـديـن هـو حـارس الـحيـاة :

لا يمكنني ـ أبداً ـ أن أقبل وضعاً يستجيب فيه هذا الدين لكلِّ تغيُّرٍ ، ولا يمكن أن توافقوا أنتم على ذلك أيضاً ، لأنَّ الدين ليس مقياس حرارة (Thermametor) يقتصر عمله على تسجيل درجة الحرارة ، ولا هو بالأداة التي ترصد اتجاه هبوب الرياح . . لا يمكن تعريف الدين بهذه العبارات ولا يمكن أن يصير إلى أداةٍ آلية غريبةٍ ، وليس بيننا واحدٌ يريد من الدينِ أن يعمل كسجلٍّ لتغيرات الأزمنة ، وإنَّ ديناً وضعياً مزعوماً لا يمكن أن يتحمَّل هذا الوضع فكيف بدين منزلٍ؟ ! .

إنَّ الدين يقر التغيُّر كحقيقةٍ واقعةٍ ويعطي أكمل مجالٍ لسير الأمور من أجل تحوُّلٍ صحيح سليم ، الدين يتقدَّم مع الحياة يداً بيد ، ولا يواكبها فقط كتابعٍ لها ، بل إن وظيفته أن يميز بين تغيُّرٍ سليمٍ وآخر غير سليمٍ ، وبين نزعةٍ هدَّامةٍ وأخرى بناءةٍ ، ويجب أن يقرر الدين فيما إذا كان التحوُّل نافعاً ، أو ضاراً بالبشرية ، أو بأتباعه على الأقلِّ .

وبينما يتمشَّى الدين مع الحياة الدينامكية جنباً إلى جنب من جهةٍ ، فإنَّه يعمل حارساً وحامياً لها من جهةٍ أخرى ، وتجب عليه مهمة المراقبة والضبط أيضاً ، وليس من مهمة الوصي أن يدعم كل ما يفعله القاصر الموضوع تحت وصايته ، ويؤيد كلَّ ميوله الجيدة منها والسيئة ، أو أن يصادق بختم الموافقة على كلِّ شيءٍ يسعى وراءه ، فهو يمتلك ختماً واحداً ، وحبراً واحداً ، ويداً واحدةً فقط ، وليس من شأنه أن يلصق طابعه على أيِّ وثيقةٍ أو صكٍّ ، بل يجب عليه أن يميِّز ويختار ، أجل إنَّه يفحص (الوثيقة) أولاً ثم يصدر حكمه . . فإن وجد فيها خطأً أو ضرراً حاول الدين أن يتركها برفقٍ ـ إذا أمكن ـ أو بقوَّةٍ إذا اقتضى الأمر ذلك ، وإذا عرضت عليه وثيقةٌ واعتبرها ضارةً بالجنس البشريِّ فهو لا يمتنع عن تصديقها وختمها فقط ، بل يكافع لمقاومتها ، وهنا يكمن الفرق بين الدين

والأخلاق ، فالدين يرى من واجبه ومسؤوليته ضبط النزعة الخاطئة وردُّها ، بينما تكتفي الأخلاق بالإشارة إليها ، وإظهارها .

عبقرية علماء الفقه في الجمع بين ما يقتضيه التطور العصري وخلود مقاصد الشريعة الإسلاميَّة وتقديمها :

وقد تجلَّت عبقرية فقهائنا وعلمائنا الراسخين المتبصرين ، في إعطاء التطور العصري ، وتقدُّم المدنية ، وتغيُّر الأعراف والمقاييس ، وحدوث الآلات ، والوسائل الحديثة ، ونشوء المشكلات والأزمات ، والتجارب الجديدة حقَّها في الدراسة والبحث ، وإصدار الحكم الشرعيِّ ومراعاتها في الفتاوى والأحكام الشرعية ، وفي المحافظة على مقاصد الشريعة ، والإيمان بخلود الدين الإسلاميِّ ، وكونه هو الدين الأخير المرتضى الذي لا يُقبل سواه ، والإيمان الجازم الواعي بقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] يحتاج ذلك إلى استعراضٍ تاريخيٍّ واسعٍ دقيقٍ للمكتبة الفقهية العالمية الممتدَّة على مدى التاريخ الطويل ، ومساحة العالم الإسلاميِّ الواسعة ، إذا تمَّ ذلك العمل بأمانة ودقَّةٍ ، وأناةٍ وصبرٍ ، وحيادٍ وإنصافٍ ، تجلَّى نوعٌ من العبقرية العلمِّية الدينية ، والذكاء التشريعيِّ النادر ، كان موضع إعجابٍ واستغرابٍ ، وكان في صالح البحث الفقهيِّ والاجتهاد الذي يحتاج إليه هذا العصر ، والمجتمع الإسلاميُّ الواسع .

نظرة عجلى على الإنتاج الفقهي في شبه القارة الهندية في العصر الأخير :

ولا بأس بإلقاء نظرةٍ عجلى على الإنتاج الفقهي الهادف في شبه القارَّة الهندية في الماضي القريب ، أما قائمة المؤلفات والموسوعات العلمية الفقهية ، ومجموعات الفتاوى ، والبحوث الحديثية والفقهية المقارنة؛ فهي أطول من أن أسرد أسماءها في هذا الحديث المستعجل القصير ، وليرجع في ذلك إلى كتاب الثقافة الإسلامية في الهند ، لوالدنا العلامة

السيد عبد الحي الحسني (رحمه الله تعالى) طبع ونشر مجمع اللغة العربية في دمشق.

وأكتفي هنا بالإشارة إلى كتاب «إعلاء السنن» في فقه الحديث تأليف العلامة الشيخ ظفر أحمد العثماني بتوجيه المربي الكبير، والعالم الجليل سماحة الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله تعالى، وقد تمَّ هذا العمل التأليفي في ٢١ مجلداً ضخماً، وقد كانت محاولاتٌ علميَّةٌ جدِّيةٌ للبحث عن الحلول الفقهية لبعض القضايا الشاغلة المعقَّدة في الحياة الاجتماعية والزوجية، نذكر منها على سبيل المثال «الحيلة الناجزة للحلية العاجزة» للمربي الكبير العالم الجليل الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله تعالى و«بوادر النوادر» له كذلك، و«جواهر الفقه» للعالم الكبير مفتي باكستان الأكبر الشيخ محمد شفيع الديوبندي في ثلاثة مجلدات، وأحكام القرآن له، وعلم الفقه للمصلح الكبير الشيخ عبد الشكور اللكهنوي.

وأضيف إلى هذه القائمة التي تشمل مؤلفات علماء المذهب الحنفي، كتابين لكبار علماء الحديث، وهما: الفتاوى النذيرية للعالم الكبير ومدرس الحديث الشهير الشيخ السيد نذير حسين الدهلوي، والفتاوى الثنائية للعالم المناظر الكبير الشيخ ثناء الله الأمر تسري، لإيتاء كل ذي حقٍّ حقَّه، وحرصاً على الجمع والشمول.

هذا عدا مجموعاتٍ كبيرةٍ للفتاوى مثل «عزيز الفتاوى» للمفتي عزيز الرحمن رحمه الله تعالى المفتي الأكبر في دار العلوم ديوبند، في اثني عشر مجلداً، و«إمداد الفتاوى» للشيخ التهانوي في ستة مجلدات كبار، و«الفتاوى الرحيمية» للمفتي عبد الرحيم اللاجوري في ستة مجلدات أيضاً.

لفت نظر إلى علم الحديث والعناية الزائدة به، والاستفادة من تحقيقات شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي:

وألفت نظركم الكريم إلى العناية الزائدة بالحديث الشريف دراسةً واهتماماً وعملاً وتطبيقاً، وقد أصبحت الهند أكبر مركزٍ لفنِّ الحديث

الشريف تدريساً ، وشرحاً ، وتأليفاً ، ونشراً ، وتحقيقاً بعد القرن الحادي عشر الهجري ، ونبغ فيها علماء ، وأئمةٌ ، ومحققون يقلُّ نظيرهم في العالم الإسلاميِّ العربيِّ وغير العربيِّ يطول ذكر أسمائهم ، وطبعت ، ونشرت هنا من كتبٍ في فنون الحديث والرجال والأصول ما كان العلماء يتسامعون بأسمائها ، ويحنُّون إلى رؤيتها ، فمن اللائق المحافظة على هذه الميِّزة والشرف ، هذا عدا ما في الاشتغال بالحديث الشريف من البركة ، والسعادة ، والثواب .

وأرجو كذلك الاهتمام الزائد بتحقيقات وعلوم شيخ الإسلام الحافظ أحمد بن تيمية الحرَّاني ، والإفادة من مكتبته الواسعة الزاخرة التي طبعت بعنوان «فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» وكان الأحرى أن تسمَّى موسوعة شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد احتوت على مادةٍ غزيرةٍ في الحديث ، والفقه ، والأصول ، وتحقيقاتٍ عميقةٍ نادرةٍ ، وجاءت في ٣٧ مجلداً ضخماً تحتوي ١٨٨٤٩ صفحة .

كذلك الاعتناء بمؤلفات حكيم الإسلام الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي ، وخاصةً بكتابه «حجة الله البالغة» الذي لا يوجد له نظير في حدِّ علمي واطِّلاعي في المكتبة الإسلامية الدينيَّة العالمية الزاخرة عمقاً ، ودقَّةً في شرح مقاصد الشريعة الإسلامية وأسرارها ، شرحاً مرتبطاً ، منظماً ، متَّصلاً بالحياة الاجتماعية ، والمجتمع الإسلاميِّ الحيِّ النامي .

تنويه بمجمع الفقه الإسلامي الهند :

ولا يفتني في هذه المناسبة الكريمة التاريخية أن أنوِّه في تقديرٍ ، واعترافٍ ، وإعجاب بتكون مجمع الفقه الإسلامي الهند ، فكان خطوةً مباركةً جاءت في أوانها ومكانها ، وكان انتصاراً كبيراً للاتِّجاه العلميِّ الفقهيِّ الجادِّ البنَّاء ، فتح آفاقاً جديدةً واسعةً مفسرةً في مجال تكوين مكتبةٍ فقهيَّةٍ جديدةٍ ، وإنتاج علميٍّ في هذا العصر المتطور المتوثب ، وحجةً على من يرمي أصحاب الاختصاص في الموضوعات الفقهية بالتواني والكسل ،

وعدم الالتقاء والتعاون العلمي ، وكانت له لقاءات ومنتديات ناجحةٌ مثمرةٌ نرجو أن تدوم ، وتتصل بإذن الله .

عمل مجمعي في تأليف كتاب في قانون الأحوال الشخصية الخاص بالمسلمين :

ونختم بالإشارة ـ في اعتزازٍ وشكر ـ إلى العمل الفقهي المجمعي المركز الذي قامت به لجنةٌ من العلماء البارزين في الفقه ، في تأليف كتاب في قانون الأحوال الشخصية الخاصِّ بالمسلمين ، يكون دستوراً للأسر الإسلاميَّة في هذه البلاد ، ومرجعاً ، وحجَّةً للمحاكم الحكومية في فصل الخصومات ، وإصدار الحكم القضائيِّ في قضايا النكاح ، والطلاق ، والارث ، وغير ذلك ، فقد كانت الحكومة والمحاكم التابعة لها ، تستغلُّ عدم وجود كتابٍ جامعٍ موثوقٍ به عند المسلمين يتَّسم بالتنقيح ، ويتمتع بالثقة والاعتراف عند طبقات المسلمين المختلفة .

وقد تمَّ هذا العمل الإيجابيُّ التدوينيُّ تحت رعاية منظمة الدفاع عن قانون الأحوال الشخصية للمسلمين ، وإشراف سماحة الأستاذ الكبير فضيلة الشيخ منَّة الله الرحماني أمير الشريعة في ولايتي بهار وأريسه ، والأمين العام لمنظمة الدفاع عن قانون الأحوال الشخصية في الهند (All India Muslim Personal Law Bcard) .

وبذلك تتمُّ الحجَّة ، وتنقطع الألسنة في الاحتجاج بعدم وجود كتابٍ موثوقٍ مجمعٍ عليه ، والتشبُّث به ، والاستغناء عما أُلِّف في القانون الإسلامي بالإنجليزية وسمي Mohammadan Law .

والحمد لله الذي بعزته وجلاله تتمُّ الصالحات ، والصَّلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، وأصحابه وأهل بيته ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين .

* * *

الإمامُ محمد بن إسماعيل البخاريُّ
وكتابه صحيح البخاريِّ
«الحديث والسنَّة
ودورها في الصيانة عن التحريف والانحراف»

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندويُّ في مؤتمرٍ عقده مركز إكسفورد للدراسات الإسلاميَّة في مدينة سمرقند من بلاد ما وراء النهر ، موطن إمام المحدِّثين أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاريِّ ، صاحب أصحِّ كتابٍ في الحديث بعد كتاب الله تعالىٰ ، في ٢٣/ من شهر أكتوبر ١٩٩٢ م الموافق ٧/ جمادى الأولىٰ عام ١٤١٤ هـ.

وقد حضَرَ في هذا المؤتمر بدعوةٍ من المركز الإسلامي ، وكبار المسؤولين والعلماء والقادة من جميع أنحاء العالم ، ومن بينهم كان المحدث الكبير الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ـ رحمه الله ـ وسعادة الدكتور يوسف القرضاوي ، وعدد وجيه من العلماء الأجلاَّء .

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسلام على سيِّد الأنبياء والمرسلين وخاتم النبيين محمدٍ وآله وأصحابه أجمعين ، ومَنْ تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

ميزة الرسول الأعظم ـ ﷺ ـ وقيمة الحديث ، ودوره في إبراز هذه الميزة:

أما بعد! فإنَّ الرسول الأعظم ـ ﷺ ـ هو الشخصية الفريدة ـ من بين الرسل والعظماء ـ التي نعرف عنها كلَّ دقيقٍ وجليلٍ ، ونعرف عنه من دقائق الأخلاق والعادات ، والميول والرغبات ، والقول والعمل ما لا نعرفه عن كثيرٍ من الشخصيات التي مضت قريباً. بل عن الشخصيات المعاصرة أحياناً ، وذلك كلُّه بفضل «الحديث» الذي سجَّل لنا هذه الحياة المباركة العظيمة.

لقد اعتادت الأمم القديمة والدِّيانات أن تصوِّر أنبياءها ، وأن تنحت لها تماثيل وأصناماً للأجيال القديمة ، وتجدِّد ذكراهم. ونشأت من ذلك الوثنية ، وعبادة التماثيل التي يعرفها الجميع ، ونشأت من ذلك آفاتٌ لم تزل الأمم والديانات تعانيها. وقد لطف الله بهذه الأمَّة وبالإنسانيَّة؛ إذ حرَّم عليها تصوير الأنبياء والعظماء ، ونحت تماثيلهم ، وأبدلها بهذا الحديث النبويِّ ، الذي هو مجموع صورٍ ناطقةٍ يتعرَّف بها الإنسان بنبيِّه ، ويسعد بصحبته ، وكأنه حضر مجلسه ، واستمع لحديثه ، وقضى معه مدَّةً من الزمان ، يسمع كلامه ، ويشاهد فعله ، ويدرس سيرته ، فكان ضياع هذه الثروة ـ لا سمح الله بذلك ـ كارثةً لا تقدَّر ، وخسارةً لا تعوَّض.

حركة جمع الحديث وتدوينه التي لا نظير لها:

قد قيَّض الله لهذا العمل الجليل فوجاً من طلبة العلم يعدُّون بالآلاف ، ويمتازون بعلوِّ همَّتهم ، وشدَّة نشاطهم ، وقوَّة احتمالهم وصبرهم ، وقوَّة ذاكرتهم وحفظهم ، وقد تدفَّق سيلهم في بلاد العجم ، وقد ملكت قلوبهم وعقولهم الرغبةُ الشديدة في جمع الحديث ، وشغفوا به شغفاً حال بينهم

وبين الشهوات ، فطاروا في الآفاق ، ونقَّبوا في البلاد في البحث عن الروايات المختلفة ، والأسانيد الصَّحيحة ، وكان لهم في ذلك هيامٌ وغرامٌ لم يعرفا عن أمةٍ من الأمم للعلم في التاريخ. يدلُّ على ذلك بعض الدلالة ما يروى عن المحدِّثين من التجوُّل في البلاد ، والسفر في العالم الإسلاميِّ من أقصاه إلى أقصاه[1] .

دور الحديث في تقويم الأمة وبقائها على المنهج المطلوب:

ثمَّ إنَّ الحديث ميزانٌ عادلٌ يستطيع المصلحون في كل عصرٍ أن يزنوا فيه أعمال هذه الأمَّة واتجاهاتها ، ويعرفوا الانحراف الواقع في سير هذه الأمة ، ولا يتأتَّى الاعتدال الكامل في الأخلاق والأعمال إلا بالجمع بين القرآن وبين الحديث؛ الذي هو يملأ هذا الفراغ الذي وقع بانتقال الرسول ـ ﷺ ـ إلى الرفيق الأعلى ، وهذه الفجوة لا بدَّ منها في السنن الإلهية : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] فلولا الحديث الذي يمثل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتزنة ، ولولا التوجيهات النبويَّة الحكيمة ، ولولا هذه الأحكام التي أخذ بها الرسول المجتمع الإسلاميَّ لوقعت هذه الأمة في إفراطٍ وتفريطٍ ، واختلَّ الاتزان ، وفقد المثال العمليُّ الذي حثَّ الله على الاقتداء به ، بقوله : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] وبقوله : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [الأحزاب : ٣١] والذي يطلبه الإنسان ويستمدُّ منه الثقة والقوة في الحياة ، ويقتنع بأن تطبيق الأحكام الدينية على الحياة ميسور وواقع .

مصدر قوَّةٍ وميزانُ عدلٍ:

ثم إنَّ الحديث زاخرٌ بالحياة والقوَّة والتأثير الذي لم يزل يبعث على الإنتاج ، والزهد ، والتَّقوى ، ولم يزل باعثاً على محاربة الفساد والبدع ،

---

(١) ليرجع في ذلك إلى كتب التاريخ والسير ، والكتب التي ألفت في تاريخ تدوين الحديث.

وحسبة المجتمع ، ولم يزل يظهر بتأثيره في كلِّ عصرٍ وبلد ، من رفع راية الإصلاح والتجديد ، وحارب البدع والخرافات ، والعادات الجاهلية ، ودعا إلى الدِّين الخالص ، والإسلام الصحيح ، لذلك كلِّه كان الحديث من حاجات هذه الأمَّة الأساسيَّة ، وكان لا بدَّ من تقييده ، وتسجيله ، وحفظه ، ونشره.

منزلة الإمام محمد بن إسماعيل البخاريِّ في فنِّ الحديث وعبقريته:

من أعجب ما روي في ذلك هو ما يرويه أبو أحمد بن عدي الحافظ ، عن الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، صاحب الجامع الصحيح ، قال: سمعت عدَّةً من مشايخ بغداد يقولون: إنَّ محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد ، فسمع به أصحاب الحديث ، فاجتمعوا ، وأرادوا امتحان حفظه ، فعمدوا إلى مئة حديثٍ ، فقلبوا متونها وأحاديثها ، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسنادٍ آخر ، وإسناد هذا المتن لمتنٍ آخر ، ودفعوها إلى عشرة أنفسٍ ، لكلِّ رجلٍ عشرة أحاديث ، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاريِّ ، وأخذوا عليه الموعد للمجلس ، فحضروا وحضر جماعةٌ من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين ، فلمَّا اطمأنَّ المجلس بأهله؛ انتدب رجلٌ من العشرة ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث ، فقال: «لا أعرفه» فلم يزل يلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ ، والبخاريُّ يقول: «لا أعرفه» وكان العلماء ممَّن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى البعض ، ويقولون: «فهم الرجل» ومن كان لم يدر القصَّة ، يقضي على البخاري بالعجز ، والتقصير ، وقلّة الحفظ ، ثم انتدب رجلٌ من العشرة أيضاً ، فسأله عن حديثٍ من تلك الأحاديث المقلوبة ، فقال: «لا أعرفه» فسأله عن آخر ، فقال: «لا أعرفه» فلم يزل يلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ من عشرته ، والبخاري يقول: «لا أعرفه» ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة ، حتى فرغوا كلُّهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة ، والبخاريُّ لا يزيدهم على أن يقول: «لا أعرفه» فلمَّا علم أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول ، فقال: أما حديثك الأول فقلت كذا ، وصوابه كذا ،

وحديثك الثاني كذا ، وصوابه كذا ، والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة ، فردَّ كلَّ متنٍ إلى إسناده ، وكل إسنادٍ إلى متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك ، فأقرَّ الناس له بالحفظ ، وأذعنوا له بالفضل .

قال الحافظ ابن حجر بعد ما حكى هذه القصَّة «قلت : هنا يُخْضَع للبخاريِّ ، فما العجب من ردِّه الخطأ إلى الصَّواب ، فإنَّه كان حافظاً ، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرَّةٍ واحدةٍ» .

مزية الجامع الصحيح للبخاريِّ وفضله ، وعناية الأمَّة به تلقياً وروايةً ، وشرحاً وتدريساً :

ولا نعرف كتاباً من كتب البشر ـ في المكتبة الدينيَّة العالمية ـ تناوله العلماء والمؤلفون بالشَّرح والتَّحشية ، والتعليق مثل ما تناولوا كتاب هذا الإمام الجليل الذي هو أصحُّ الكتب بعد كتاب الله . وقد كان الشرح والتعليق هو المجال العلميُّ الذي تظهر فيه عناية العلماء والمؤلفين في العصور القديمة ، ومقياس اهتمامهم بأثرٍ علمي ، فكان أكثر الكتب شروحاً وتعليقاتٍ هو أعظم المؤلفات تقديراً ، وأعلاها منزلةً ، وأكثرها شهرةً ، وكان أقل الكتب شروحاً وتعليقاً أخملها ذكراً ، وأقعدِها شهرةً ، وصيتاً ، فيبقى مطموراً مغموراً ، لا يسترعي انتباهاً ، ولا يثير اهتماماً ، فإذا أُخذ هذا المقياس ـ وهو المقياس الوحيد لنجاح كتاب في عهدنا العلميِّ الماضي ، والدليل القاطع على احتلاله للصَّدارة في المجلس العلمي ـ حكمنا بأنَّ «الجامع الصحيح» للبخاريِّ قد فاز بالقدح المعلَّى في هذا الميدان ، واحتلَّ الصدارة في مكتبتنا الإسلاميَّة التي انبثقت عن القرآن ودعوة الإسلام ، وامتدَّت على مشارق الأرض ومغاربها في المساحة الأرضية المكانية ، وعلى القرن الأول إلى القرن الثالث عشر ـ على الأقلِّ ـ في مساحتها التاريخية الزمانية ، فقد بلغ عدد شروحه والتعليقات عليه إلى مئةٍ وواحد وثلاثين كتاباً [١٣١] وقد يكون العدد أكثر من هذا ، فقد كان هذا الاستقصاء مؤسَّساً على «كشف الظنون» للجلبي . و«مفتاح السعادة» لطاش كبرى زاده ، و«إتحاف النبلاء» و«الديباج المذهب» و«نيل الابتهاج»

ومقدمات الشروح المشهورة التي كانت في متناول يده ، و«الثقافة الإسلامية في الهند»[١] للعلامة عبد الحي الحسني مدير ندوة العلماء الأسبق ، (م ١٣٤١ هـ) وبعض دراساته وتتبعاته الفردية ، ولاشكَّ أنَّ العالم الإسلامي أوسع مما تخيَّله الجغرافيون ، والتاريخ الإسلاميُّ العلمي أغنى مما دونه المؤرخون ، وفي الزوايا خبايا لم تقع عليها عين ولم تطلع عليها الشَّمس.

وإن كتاب «فتح الباري» للعلامة ابن حجر العسقلاني الذي يقع في ثلاثة عشر مجلداً ضخماً ، ومقدمةً مبسوطة تكاد تكون مكتبةً مستقلَّةً في علوم الحديث ، كتابٌ لا يوجد له نظيرٌ في مكتبات الديانات والملل ، وإن لهذه الأمَّة الإسلامية أن تفتخر بهذا الأثر العلميِّ الخالد ، وتقدِّمه إلى علماء الديانات والفلسفات ، وروّاد الحضارات والثقافات ، كبرهانٍ ساطعٍ على جهاد هذه الأمَّة العلميِّ ونبوغها الفكريِّ ، وولوعها بآثار نبيِّها ، والغوص فيها إلى أعماقٍ ليست بعدها أعماقٌ ، والوصول فيها إلى آفاقٍ ليست وراءها آفاقٌ. هذا مع عدم الحطِّ من قيمة الشروح الأخرى ـ وفي مقدمتها «عمدة القاري» للعلامة بدر الدين العيني ، التي هي مكتبةٌ حافلةٌ في النحو والعربية ، وعلوم البلاغة ، والأحكام المستخرجة ، والفوائد المستنبطة من الأحاديث.

ثم يلي هذا المقياس شدَّة العكوف على دراسة الكتاب ، والتهافت على روايته ، ونقله ، والتنافس في حمله ، ونشره ، وضمِّه إلى الصدور ، والعضِّ عليه بالنواجذ ، وتوارث الأجيال في تلقِّيه جيلاً بعد جيلٍ ، وكابراً عن كابرٍ ، وتلميذاً عن أستاذٍ ، وطبقةً عن طبقةٍ ؛ حتى لا تعرف فترةٌ من الزمان نسج فيها عليه العنكبوت ، وساد عليه الظلام ، وانقطعت روايته ، وتوقفت دراسته ، وعبث به العابثون ، وتصرَّف فيه الخائنون المحرِّفون ، وقد تفرَّد الجامع الصحيح بهذه الميزة بعد كتاب الله ، فقد أخذ هذا الكتاب عن مؤلفه تسعون ألفاً من الرواة والحفاظ ، وتسلسل نقله ، وروايته حتى

---

(١) صدرت له طبعتان من مجمع اللغة العربية بدمشق.

انتهى هذا الكتاب إلى مؤلفه ، وبلغ حدَّ التواتر في شهرته وصحَّة نقله ، ونسبته إلى المؤلف ، لا ينكر ذلك ، ولا يتشكَّك فيه إلا من تشكَّك في المتواترات والحقائق العلمية التي تثبت بالضرورة ، ولا يزال هذا الكتاب موضع الاهتمام والعناية ، وموضوع التأمُّل والدراسة في الحلقات العلمية في العالم الإسلاميِّ .

مـزيـة الأبـواب والـتـراجـم ودقـائـقـهـا :

ومما تقرَّر عند المشتغلين بصناعة الحديث تدريساً ، وتصنيفاً ، وشرحاً ، وتحقيقاً أنَّ الأبواب والتراجم في هذا الكتاب من أدقِّ البحوث والمطالب ، ومن أعمقها غوراً ، وأبعدها مدىً ، حتى اشتهر بين العلماء أنَّ فقه البخاري في تراجمه ، وأصبح ذلك شعاراً لهذا الكتاب يتميَّز به عن أقرانه الصِّحاح على جلالة قدرها ، وفخامة شأنها ، وأصبح مقياساً لفطنة العلماء ، وتوقُّد ذكائهم ، وسيلان ذهنهم ، وبعد غورهم واقتدارهم على فهم هذا الكتاب الجليل ، وحلِّ غوامضه ، وفتح أغلاقه ، والتوصُّل إلى مقاصد المؤلف ، لا يشهد لمؤلف أو مدرس ببراعةٍ في العلم وتفوقٍ في التدريس ، وسعة اطِّلاع على الشروح والحواشي وأقوال الأئمة والفحول من المحدِّثين ، وطول ممارسةٍ لتدريس هذا الكتاب الشريف ، وإضناء القوى وإفناء العمر في ذلك حتى يجتمع له الشيء الكثير من هذا الباب ، وينفرد بتوجيهاتٍ وتعليلاتٍ تنحلُّ بها الألغاز ، وتتفتح بها الأقفال ، وتخلو عنها بطون الأسفار .

ولذلك عُني بهذا الموضوع العلماء قديماً وحديثاً ، وأجالوا فيه قداحهم ، وأركضوا في هذا السباق جيادهم ، واعتصروا في ذلك عقولهم الراجحة ، وعلومهم الراسخة ، ولا نعرف أديباً ، أو لغويَّاً تعمَّق في فهم بيت من الأبيات ، ومعرفة معنى من المعاني الشعرية والوصول إلى غايةٍ من غايات الشعراء مثل تعمُّق شرَّاح الجامع الصحيح ، والمشتغلين بتدريسه في فهم مقاصد المؤلف ، وشرح كلامه .

ولا نعرف ـ على طول اشتغالنا بالتاريخ العلميِّ ـ مؤلفاً من مؤلفات

العلماء أو الحكماء عُني به رجال ذلك الفنِّ ، وعكفوا على حلِّ غوامضه ، وفكِّ مشكلاته حتى شقوا فيه الشعرة مثل ما عُني علماء الحديث بالجامع الصحيح ، وماذلك إلا لإخلاص مؤلفه لعلم الحديث الشريف ، وانقطاعه إليه ، وجهاده في سبيله ، وتفانيه في ذلك[1].

وسرُّ الغموض في هذه الأبواب والتراجم تنوُّع مقاصد المؤلف الإمام ، وبعد مراميه ، وفرط ذكائه ، وحدَّة ذهنه ، وتعمُّقه في فهم الحديث ، وحرصه على الاستفادة والإفادة منه أكبر استفادةٍ ممكنةٍ ، فهو كنحلةٍ حريصةٍ توّاقةٍ تجتهد أن تتشرب من الزهرة آخر قطرة من الرحيق ، ثم تحوِّلها إلى عسلٍ مصفًّى فيه شفاءٌ للناس .

شأن الإمام البخاري مع الحديث النبويِّ :

وشأن الإمام البخاريِّ مع الحديث النبويِّ الصحيح شأن العاشق الصادق ، والمحبِّ الوامق مع الحبيب الذي أسبغ الله عليه نعمة الجمال والكمال ، وكساه ثوباً من الروعة والجلال ، فهو لا يكاد يملأ عينيه منه ، وهو كلما نظر إليه اكتشف جديداً من آيات جماله ، فازداد افتتاناً وهياماً ، ورأى جماله يتجدَّد في كلِّ حينٍ ، وإذا الوجه غير الوجه ، والجمال غير الجمال ، فلا قديم في الحبِّ ، ولا إعادة عند المحبِّ ، وصدق الشاعر :

يزيدك وجهُه حسناً إذا ما زِدْتَهُ نظرا

ولذلك ترى الإمام البخاريَّ لا يكاد يشبع من استخراج المسائل ، واستنباط الفوائد ، والنزول إلى أعماق الحديث ، والتقاط الدُّرر منه ، والخروج على قرائه بها حتى يذكر حديثاً واحداً أكثر من عشرين مرَّة ، ويستخرج أحكاماً وفوائد جديدةً.

روى حديث جابر قال : كنت مع النبي ﷺ في غزوةٍ فأبطأ بي جملي وأعيا . . . الحديث . أكثر من عشرين مرَّةً .

---

(١) من المؤلفات الحديثة في هذا الموضوع «الأبواب والتراجم للبخاريِّ» للعلامة المحدث الشيخ محمد زكريا السهارنفوري (م ١٤٠٢ هـ) .

فكأنه تأخذه النشوة والطرب عند رواية الحديث ، فلا يملُّ من إعادته ، وينشد بلسان الحال:

أعدْ ذكرَ نعمان لنا إنَّ ذكرهَ هو المسكُ ما كرَّرته يتضوَّعُ

وكأنه يتمثل ببيت الشاعر:

وحدَّثتنا يا سعدُ عنهم فزدْتنا شجوناً فزدْنا من حديثكَ يا سعدُ

ثم يشتعل ذكاؤه ـ الذي ضرب فيه بسهمٍ وافرٍ ـ ويتوقَّد ذهنه ، وتسيل قريحته ، فيفلت زمام التأليف ، ويرسل النفس على سجيتها ، ويستخرج من حديثٍ واحدٍ نتائج ، وفوائد لا تدور بخلد كثير من الأذكياء ، وما ذلك إلا لحدَّة ذهنه ، وإفراط حبِّه. ولم يزل الحبُّ ملهماً للبدائع ، ملهباً للقرائح ، والمحبُّ يقع على ما لا يقع عليه المتأمِّل المرهق لجسمه ، المتعب لعقله.

حاجة الأمَّة إلى الحديث ودوره في حسبة الأمة ، وحركات التجديد والبحث الجديد:

من استعرض التاريخ الإسلاميَّ عرف أنَّه لولا السنَّةُ المحفوظة ، والحديث المأثور ، لما أمكنت الحسبة على المجتمع الإسلاميِّ ، ولما قام المصلحون والمجدِّدون في كلِّ عصرٍ ومصر ، يميزون بين السنَّة والبدعة ، والحقِّ والباطل ، والمعروف والمنكر.

فالحديث مدرسةٌ دائمةٌ خالدةٌ ، يتخرَّج فيها مصلحون ومجدِّدون ، وقوةٌ دافعةٌ إلى الأمام وإلى الاضطلاع بأعباء الدَّعوة والحسبة.

وقد علَّل العالم الفرنسيُّ المهتدي محمد أسد (ليوبولد ويس سابقاً) التنصُّل من السنة ونزعة إنكار الحديث ـ التي ظهرت طلائعها في الفترة الأخيرة ـ في ضوء معرفته لنفسية الجيل الجديد ، وقوَّة سيطرة الحضارة الغربية بصعوبة التطبيق بين موازين الحضارة الغربية وقيمها وأساليب حياتها و«موضاتها» وبين السنة والجمع بين الحياة التي تقوم على الحبِّ العميق والثِّقة التامَّة بصاحب الرسالة الإسلاميَّة ، ومصدر السنة النَّبويَّة ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبين تقديس الحضارة الغربية ، والنظر إليها كآخر

ما وصل إليه العلم الإنسانيُّ ، ولعلَّ هذا هو السبب الذي يحثُّ بعض القادة السياسيين والحكام في بعض الشعوب الإسلاميَّة والأقطار العربية على الهجوم على السنَّة ، وإنكار الحديث .

وأخيراً ـ لا آخراً ـ أضمُّ إلى هذه الكلمة التي سطرت على عجلٍ من فضل الإمام محمد بن إسماعيل البخاريِّ في فنِّ الحديث ومكانة كتابه الفريد الجامع الصحيح ؛ أنَّه يجب أن يكون الغرض الأساسيُّ من هذا الالتقاء الجامع الفريد الذي جاء في أوانه وفي مكانه ، بعدما انقطعت الآمال ، وطالت الأجيال ، وحالت الأوضاع السياسية ، والمسافات الجغرافية انتهاز هذه الفرصة التي قلما يجود بها الزمان لتجديد ما خصَّ الله به الإمام البخاريّ ، ووقف له حياته ، ومواهبه ، وطاقاته من جمع الحديث الصحيح ، وإتحاف الأمَّة به ، وإتمام الحجَّة عليها ، وتبيين منهج النُّبوة الصادقة الأخيرة ، والتشبُّث بالكتاب والسنة ، والتجنُّب عن البدع والمحدثات بدلاً من الاحتفال بذكراه ، كذكرى زعيمٍ من الزعماء ، أو فاتحٍ من الفاتحين ، أو كأديبٍ وشاعرٍ يكون مفخرة البلاد ، فيستعان في ذلك بما ما أنزل الله به من سلطان ، ولا ثبت من مراجع الدين الصحيحة ، ولا ظهر في خير العصور من إقامة تذكار بنائيٍّ شامخٍ ، أو تجصيص ضريحٍ وتشييده ، يرحل إليه من آفاقٍ بعيدةٍ ، ويجتمع عليه الجمُّ الغفير ، ويؤتى عليه بأعمال ومظاهرات تكريمية تبلغ إلى حد التقديس الذي انتهت إليه الأمم السابقة قبل الإسلام .

وقد حذَّر منه رسول الله ﷺ إذ قال : «اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(١) وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ «لا تجعلوا قبري عيداً»(٢) وكلمة العيد كلمةٌ بليغةٌ واسعةُ الآفاق ، متنوعة المظاهر ، لا يقولها إلا نبيٌّ شرفه الله بالوحي ، وأطلعه على ماضي الأمم السابقة ، وانحرافاتها ، وإنما نكتفي بالدعاء لصاحب القبر ، وبرفع الدرجات والجزاء

(١) الموطَّأ للإمام مالك بن أنس .
(٢) سنن أبي داود .

الأوفى على جهاده العلميِّ والبلاغيِّ ، ومنحه فضل الأجر والشكر من هذه الأمة والعزم الصادق قبل العودة على العناية بالحديث الشريف والعمل بالسنة ، ودراسة الجامع الصحيح دراسةً عميقةً دقيقةً ، والعزم على نشر ما جاء فيه ، والدعوة إلى التمسُّك بالحديث والسنَّة في ضوء هذا الكتاب العظيم والسفر الجليل ، ومحاربة الشِّرك والبدع في نطاق نفوذنا ، وبأقصى جهدنا .

هذا مع تكوين مكتبةٍ تختصُّ بالحديث الشريف ، وإنشاء مدرسة خاصَّةٍ بالعلوم الدينية ، والتضلُّع من مصادر الدين الصحيح ، والتشبُّع بروح الدعوة إلى الدين الحنيف والإسلام الخالص ، وبذلك ترجع إلى هذا المكان التاريخيِّ العظيم؛ الذي أكرمه الله بظهور النوابغ والعباقرة في العلوم الدِّينيَّة ، والمحدِّثين الكبار الذين كان ولا يزال في مقدمتهم وعلى رأسهم الإمام محمد بن إسماعيل البخاريُّ ، الذي اجتمعنا لإحياء ذكراه ، والاعتراف بفضله ، والاغتراف من بحره؛ مكانتُه في تاريخ الدين والعلم ، وفضلُه ، وشرفُه ، وتعود إليه البركات ، وتشدُّ إليه الرحال .

* * *

دور الحديث في تكوين المناخ الإسلاميِّ

هذه المحاضرةُ أعدَّها العلامة الندوي على اقتراح من الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلاميِّ بمكَّة المكرمة ، افتتح بها موسم المحاضرات لعام ١٤٠١ هـ الذي نظمته الرابطة ، وألقيت في ليلة الثلاثاء ١٦ من ذي القعدة الحرام سنة ١٤٠١ هـ (المصادف ١٣/ من سبتمبر ١٩٨١ م) في قاعة المحاضرات في مقرِّ الرابطة بمكة المكرَّمة ، وقد حضَرها عددٌ وجيهٌ من العلماء ، والأساتذة ، والمثقَّفين ، وأعيان الحجَّاج.

والمحاضرة تبحث ـ بأسلوبٍ جديدٍ ـ عن مكانة الحديث في حياة المسلمين ، وحاجة الأمَّة إلى السنَّة ، ومدى الخطر والضَّرر على الكيان الإسلاميِّ ، وضخامة الخسارة للأمَّة الإسلاميَّة ، إذا انقطعت صلة هذه الأمة ـ لا سمح الله ـ عن السنَّة المطهَّرة ، أو حيل بينها وبين الحديث النبويِّ الشريف.

ومدى دقة المؤامرة وأبعادها التي تهدِف إلى إنكار حجيَّة الحديث ، أو الاستهانة بقيمته وجدواه ، والتشكيك في صحته وتدوينه.

وقد تجنَّب المحاضر إعادة ما قيل ، وكتب في هذا الموضوع قديماً وحديثاً ، فقد أشبع بحثاً وتحقيقاً ، وتكونت فيه مكتبةٌ غنيَّةٌ ، لعلَّ أحسن ما ألف ـ أخيراً ـ في هذا الموضوع ، كتاب الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه الله ـ الذي أسماه «السنة ومكانتها في التشريع الإسلاميِّ».

وقد راعى العلامة في هذه المحاضرة نفسية الطبقة المثقفة الثقافة

الغربية ، والطبقة التي لم تتعمَّق في الدراسات الإسلامية ، وهي منصرفةٌ عن البحوث العلمية التي تتَّسم بالدقَّة والعمق والاختصاص العلميِّ ، ويكثر تساؤلها : ما قيمة الحديث العمليَّة؟ وما غناؤه ، وجدواه؟ وما هو الفراغ الواقع في حياة المسلم ، وما ينقص المجتمع الإسلاميُّ إذا لم يتمسك بالسنَّة ولم يعرها الاهتمام ، أو إذا فقد الحديثَ بتاتاً ـ لا قدر الله ـ؟ .

وقد حاول العلامة أن يواجه هذه التساؤلات التي قد يجري بها قلم الكاتب ، وينطق بها اللسان ، وقد تجول في الخاطر ، وتساور النفوس .

ويرجو بذلك أن يطمئنَّ «العقل الرياضيُّ» الذي لا يذعن إلا للواقع ، ولا يقيم وزناً إلا لما كانت له قيمةٌ عمليةٌ واقعية ، وقد أثبت أنَّ معرفة سيرة الأنبياء ومن يقتدى به في الديانات والتشريعات ، وأقوالهم وتوجيهاتهم ، والبحثَ عنها ، والشغفَ بها سجيَّةٌ بشريةٌ ، وحاجةٌ فطرِّيةٌ ، إذا لم يوجد الأصل الصحيح الأصيل مليءٌ بالزائف الدَّخيل .

وهنا أشاد بخصيصة هذه الأمة التي حفظ لها حديث رسول الله ﷺ وأخباره وأقواله ، ودُوِّنت تدويناً لا نظير له في تاريخ الأمم والديانات ، ولا يُحمل على مجرَّد مصادفة .

ثم استعرض التاريخ الإسلاميَّ فبيَّن أنَّه لولا السنة المحفوظة والحديث المأثور ، لما أمكنت الحسبة على المجتمع الإسلاميِّ ، ولما قام المصلحون والمجدِّدون في كلِّ عصرٍ ومصر ، يميزون بين السنَّة والبدعة ، والحقِّ والباطل ، والمعروف والمنكر .

فالحديث مدرسةٌ دائمةٌ خالدةٌ ، يتخرَّج فيها مصلحون ومجدِّدون ، وقوةٌ دافعةٌ إلى الأمام وإلى الاضطلاع بأعباء الدعوة والحسبة ، وكذلك أشار إلى بعض الدوافع الحديثة إلى إنكار الحديث ، والتشكيك فيه ، وما ستؤول إليه هذه الحملة المغرضة من الخيبة والإخفاق .

والمحاضرة ـ على وَجازتها وعلى أنَّها ليست كتاباً ولا بحثاً موسَّعاً في الموضوع ـ فيها مادةٌ كافية لإقناع المثقفين المسلمين الذين رُزقوا حسنَ النِّيَّة وسلامة الفكر والإنصاف ، بضرورة السنة والحديث النبوي ، وقيامهما، بمهمَّةٍ جذريةٍ حاسمةٍ في حياة هذه الأمَّة وبقائها كأمَّة ذات شخصيةٍ فريدة ،

وصاحبة رسالةٍ سماويةٍ خالدةٍ ، وسِماتٍ لا تشاركها فيها أُمَّةٌ من الأمم ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧].

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على أشرف المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومنْ تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين .

العناصر التي كونت المجتمع الجديد ، وأنشأت الأمَّة الجديدة :

أما بعد! فقد كانت بعثة النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، مصدرَ كلِّ خيرٍ ، ومنبع كلِّ سعادةٍ ، وبفضل ذلك وحده نشأ هذا المناخ الدِّينيُّ الفذُّ ، والمجتمع الإسلاميُّ الفريدُ ، لكنَّنا لو استعرضنا المنهج العمليَّ في هذا الشأن ، والوسائل التي استخدمت في هذا الغرض ، لعلمنا أنَّ مفتاح هذا الانقلاب الذي دُهِشَتْ منه العقول ، وتحيَّرت فيه الألباب ، والعناصر التي تكوَّن منها هذا المجتمع الجديد ، ونشأت منها هذه الأمَّة الجديدة ، إنَّما هي الأمور الثلاثة :

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ شخصية النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وحياته ، وسيرته ، وأخلاقه .

٣ ـ تعليمات النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام وإرشاداتهُ ، وتوجيهاتهُ ، وأعماله التي يسمى مجموعها بالسنَّة ، ويحتوي عليه الحديث النَّبويُّ .

ولو تأمَّلنا ؛ لعلمنا أنَّ هذه العناصر الثلاثة بمجموعها ، قد تعاملت في تحقيق الأغراض والفوائد المنشودة من البعثة ، وإيجاد أمَّةٍ جديدةٍ ، والحقُّ أنَّه لا يمكن أن يوجد بدونها مجتمعٌ مثاليٌّ ، وحياةٌ مثاليَّةٌ ، وهيكلٌ اجتماعيٌّ تتجلَّى فيه العقائد ، والأعمال ، والأخلاق ، والسلوك ، والعواطف ، والرغبات ، والميول ، والأذواق ، والأواصر ، والعلاقات . إنَّ الحياة شرطٌ للوجود ، ومن سنة الحياة والكون أنَّ السِّراج إنما يستنير من السِّراج .

وما نجده في حياة الصحابة الكرام ، والتابعين لهم بإحسانٍ بجانب

العقائد والأعمال ـ من الخلق الإسلاميِّ ، والذوق السّامي ، والعواطف الدِّينيَّة العميقة ، والكيفيات الإيمانية العجيبة ـ لم يكن نتيجة تلاوة الكتاب وحدها ، وإنما كانت ـ بجانب ذلك ـ فيها يدٌ لتلك الحياة المثلى المؤثرة ، الحبيبة الأثيرة ، التي كانوا يتفيؤون(١) ظلالَهَا ، ويتذوَّقون جمالها ، ولتلك السيرة والأخلاق الفاضلة التي كانوا يشاهدونها ، ولتلك المجالس والصحبة ، والإرشادات والتعليمات التي ظلُّوا يستفيدون منها ، ويسعَدون بها ، على عهد صاحب النُّبوَّة عليه الصلاة والسلام .

كيف عاش الصحابة الإسلام ، ذوقاً ومشاهدةً وعملاً؟ :

وهذه العوامل بمجموعها شكَّلت ذلك الذوق الإسلاميَّ الممتاز الذي لا يقتصر على التقيد الرسميِّ بالقواعد المقرَّرة ، والضوابط المرسومة ، وإنما كان مشحوناً بالحوافز والدوافع الطبيعية ، والكيفيَّات العملية ، وروح العبادة الخالصة ، ويتَّسم ـ بجانب الوقوف عند الحدود ، وأداء الحقوق ـ بالمشاعر اللطيفة ، والأحاسيس الرقيقة ، ودقائق مكارم الأخلاق .

إنَّهم وجدوا القرآن الكريم ، يأمر بإقامة الصلاة ، ووجدوه يلهج بذكر ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٢] ، ولكنَّهم لم يتوصَّلوا إلى كيفيتها الصحيحة إلا حينما صلّوا مع الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فعلاً ، وشاهدوا هيئة ركوعه ، وسجوده ، الأمر الذي عبَّروا عنه بقولهم : «وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء»(٢) ، إنَّهم علموا من القرآن الكريم أنَّ الصَّلاة شغل المؤمن المفضَّل ، ووظيفته الحبيبة الأثيرة ، ولكنّهم لم يتمكنوا من تقدير مدى شغف المؤمن بها ، وحنينه إليها ، ورغبته فيها ، ما داموا لم يسمعوا لسان النبوة ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ بقوله : «وجعل قرة عيني في الصلاة»(٣) ويقول بلهجة ملؤها الحبُّ والحنين والولوع الزائد والهيام البالغ : «يا بلال! أقم الصلاة ، أرحنا

(١) تفيأ الشجرة وفي الشجرة : استظل بها ، وتتبَّع الظلال .
(٢) رواه أبو داود ، والترمذيُّ .
(٣) رواه النَّسائيُّ .

بها!» ، وكذلك لم يتمكَّنوا من إدراك عمق الصلة بين المسجد وقلب المؤمن ، حتى سمعوا في شأن صالحي الأمة: «ورجلٌ قلبهُ مُعلَّقٌ في المساجد»[(١)] ، قد وجدوا القرآن الكريم يرغِّب في الدعاء ، ويدعو إلى الابتهال ، والتضرُّع إلى الله ، مرَّةً بعد أخرى ، ووجدوه يبدي لومه وعتابه على الذين يستكبرون عن الدُّعاء ، وكانوا يعرفون مفهوم التضرُّع والابتهال ، لكنَّهم لم يكتنهوا هذه الحقيقة كلَّها إلا عندما شهدوا النَّبيَّ ﷺ يقول وقد وضع في «بدرٍ» جبهته على الأرض: «اللهمَّ أنشد عهدك ووعدك ، اللهمَّ إنْ شئت لم تُعبد»[(٢)] ، وشهدوا كيفية القلق والاضطراب التي لم يسع أبا بكر أن يتحمَّل رؤيتها ، حتى قال له: «حسبك» ، إنَّهم كانوا يعرفون جيداً أنَّ لبَّ الدعاء وجوهره هو التضرُّعُ ، والاعترافُ بعبوديته ، وعجزِه وفقرِه ، وضعفِه وقلةِ حيلته ، وكلَّما كان الدُّعاء حاملاً لهذه الروح ، زاخراً بهذه الحقيقة ، كان أكثر قيمةً وأهميَّةً ، لكنّهم لم يعرفوا حقيقة الاعتراف بالعبودية ، والعجز ، والتضرُّع ، والاطِّراح على عَتَبة المولى الكريم ، ما لم يسمعوه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقول في عرفات:

«اللهمَّ إنك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سرِّي وعلانيتي ، لا يخفى عليك شيءٌ من أمري ، وأنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوجِلُ المُشفِقُ ، المقرُّ المعترفُ بذنبي ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذَّليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضَّرير ، ودعاء من خضعت لك رقبتهُ ، وفاضت لك عبرتُه ، وذلَّ لك جسمُه ، ورَغم لك أنفُه ، اللهمَّ لا تجعلني بدعائك شقياً! وكن لي رؤوفاً رحيماً ، يا خير المسؤولين! ويا خير المعطين!»[(٣)] .

كان خُلُقه القرآن:

---

(١) متَّفق عليه.

(٢) صحيح البخاريّ، كتاب المغازي.

(٣) «كنز العمال» عن ابن عباس رضي الله عنهما.

إنهم رأوا القرآن الكريم يقرِّر أنَّ الدنيا ظلٌّ زائلٌ ، وأنَّ الآخرة هي دار القرار ، وكانوا يحفظون ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤] إلا أنَّهم إنَّما عرفوا حقيقة ذلك ، وتفسيره بالواقع العمليِّ من حياته صلى الله عليه وآله وسلم ، وفهموا ـ من أسلوب حياته وحياة أهل بيته ـ معنى كون الآخرة هي خيراً وأبقى ، وأنه كيف ينبغي أن تكون عيشة المؤثرين للآخرة على العاجلة ، والمؤمنين بـ ـ «اللهمَّ لا عيش إلا عيش الآخرة» وحياتهم العائلية ، وحينما كانوا يسمعون ـ بجانب شهودهم هذا المنهج للحياة وهذا الموقف في الدنيا ، وهذا الترغيب المجمل ـ أقوالَ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، عن مصائب جهنَّم وشدائدها ، وعن نعم الجنة ، ولذائذها؛ كان ينشأ فيه مزيجٌ من الخوف والشوق ، وتتمثَّل الجنةُ وجهنمُ أمامهم كلَّ وقتٍ ، وكأنَّهم يشاهدونهما بأمِّ أعينهم.

وكذلك كانوا يعرفون معنى أمثال كلمات الرحمة ، والتواضع ، والرفق والخلق ، وما إليها من التعليمات والتوجيهات ، فقد كانوا أبناء اللغة ، وكانوا متعمِّقين في القرآن ، لكنَّهم لم يعرفوا مدى سعة هذه الكلمات ، وطريق تطبيقها في الحياة العملية والعمل بها في واقع الحياة عملاً صحيحاً ، إلا عندما شهدوا النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم يعامل الضعفاء والعجزةَ ، والأطفال ، والنساء ، واليتامى ، والفقراء ، والشيوخ ، وعامة رفاقه ، وأصحابه ، وخدمه ، وأهل بيته ، وسمعوا أقواله ، ووصاياه بهذا الخصوص ، قد عرفوا تعاليم القرآن في صدد أداء حقوق عامَّة المسلمين ، لكن هناك أشكالاً وصوراً لهذه الحقيقة قد لا تخطر من كثير من الناس على بالٍ ـ مثل عيادة المريض ، وتشييع الجنائز ، وتشميت العاطس ـ ولو خطرت لما عرفوا لها قيمةً ، وكذلك جاء في القرآن الكريم تعاليمُ مؤكَّدةٌ فيما يتعلَّق بالإحسان وحسن السلوك مع أهل الحقوق ، والبرِّ بالوالدين ، ولكنِّي أتساءل كم من أساتذة الأخلاق وعلماء النفس والتربية كان لهم أن يهتدوا إلى هذه المكانة السامية الفذَّة ـ في شأن البر بالوالدين ، والإحسان إلى أهل الحقوق ـ التي أشار إليها الحديث النَّبويُّ في تنويهٍ وإشادةٍ: «إن من

أبر البرِّ صلة الرجل أهل ودِّ أبيه بعد أن يولي»[١] ، وكم من أذهانٍ كان لها أن تتوصل إلى تلك المعاني السامية للوفاء والكرم ؛ التي تكشف عنها هذه الرواية :

«وربما ذبح الشاة ثم يقطِّعها أعضاء ، ثم يبعثها في صدائق خديجة»[٢] .

هذا قليل جداً من كثيرٍ من أمثلة قسم الاجتماع والأخلاق في الحديث النَّبويِّ الشريف ، تدلُّ على مدى اهتمام الحديث بشتَّى شعب الحياة ، والتعاليم الجديدة الطريفة فيما يتَّصل بها ، وبذلك فهو «حجر الفلاسفة» للإنسانية ـ إن لم يكن في هذا التعبير إساءةُ أدبٍ ـ ، ونعمةٌ لا تقدَّر بثمن ، ولا تُشترى بمالٍ .

لابدَّ من مناخٍ مناسبٍ وبيئةٍ متهيئةٍ للأحكام :

إنَّ التجارب الطويلة المتَّصلة التي مرَّ بها تاريخ الأديان والأقوام ، تؤكد أن مجرد الأمر القانوني ، والضابطة الرسمية ليسا بكفيلين بأن يضفيا على عملٍ أو نشاطٍ مسحة من الرُّوح والكيفيات المطلوبة ، ولا تستطيعان أن تنشئا المناخ الذي لابدَّ منه ، حتى يجيء العمل مؤثراً مثمراً منتجاً . . فمثلاً : إنَّ مجرَّد الأمر المجمل بإقامة الصَّلاة لا ينشىء تلك النفسية المؤمنة ، ولا توجد تلك البيئة المناسبة من أجل صيانة روح الصَّلاة وهيكلها ، والحفاظ عليها ، ومن أجل ظهور آثارها الروحانية والنفسية ، والعقلية والاجتماعية ، والخلقية والدينية ، إنَّ ذلك يستوجب مبادىء وأصولاً ، وإرشاداتٍ وتعليماتٍ تضفي على العمل روعةً ، وقيمةً ، وتهبه تأثيراً ووقعاً ، ولذلك فتطلَّب القرآن الكريم بدوره للصلاة الوضوءَ ، والطهارة ، والشعور والتعقُّل ، والخشوع والخضوع ، والسكوت والقنوت ، والجماعة .

غير أنَّه لا يخفى على العاقل الواعي أنَّه كلما كانت الصلاة مستوفيةً ـ بقدر ضروريٍّ وعلى صورةٍ ممكنةٍ التطبيق ـ للآداب والفضائل وإعداد الأرضية والتمهيدات الخارجية ؛ كان ذلك أقوى على إيجاد جوٍّ تستطيع فيه

---

(١) رواه مسلم في صحيحه .

(٢) متفق عليه .

الصلاة أن تجيء بخصائصها ونتائجها الروحانية والاجتماعية والخلقية ، وإنَّ الدارسين للحديث والسيرة والراسخين فيها يعلمون أنَّ عمل النَّبيِّ ﷺ ، وتعليماته وإرشاداته قد زادت في هذه الناحية زياداتٍ قيِّمةً وجيهةً عادت بها الصلاة وسيلةً أمضى إلى تزكية النفس ، وتربية الأخلاق ، والإنابة إلى الله ، والانقطاع عن الدنيا إلى الآخرة ، وإلى تعليم الأمة وتربيتها وتوعيتها ، وتوحيدها ، وتنسيقها ، وجمع شملها.

مثلاً: التركيز على نية الوضوء والإشادة بفضلها ، واستحضارها ، وفضل الخطوات الماضية إلى المساجد ، والدعاء الذي يدعى به في الطريق ، وأدب الدخول في المسجد ، وتحية المسجد ، والسنن الراتبة ، وفضل انتظار الصَّلاة ، وثواب الصلاة مع الجماعة ، وثواب الأذان والإقامة ، وفضل الإمامة وعظمتها ، ومكانتها وأحكامها ، والتأكيد على اتِّباع الإمام في أعمال الصلاة ، وتسوية الصفوف ، وفضل الحلق المنصرفة إلى التعليم والتعلم في المسجد ، وحلق الذكر والعبادة ، وآداب الخروج من المسجد ، وحلق الذكر والعبادة ، وآداب الخروج من المسجد ، والدُّعاء الذي يُدعى به عند ذاك ، وما إلى ذلك ، ومن الواضح أنَّ الصلاة تأتي ـ بعد الأخذ بهذه الآداب والفضائل والتعليمات ـ أقوى ذريعة إلى التزكية والإصلاح ، والتعليم والتربية ، والإنابة والانقطاع إلى الله ، وأضف إلى ذلك كلِّه ما ذكره الحديث ـ في اهتمامٍ أيِّ اهتمام ـ من قصَّة كيفية صلاة النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وهيامه بالصلوات النافلة ، وانهماكه عند تلاوة القرآن الكريم ، وانظر إلى أيِّ درجةٍ تبلغ صلاة الأمَّة بهذه المجموعة الكريمة ، من الآداب والتعليمات ، وأنَّ أيَّ جوٍّ نفسيٍّ روحانيٍّ ينشأ ، وقس على ذلك الصوم ، والزكاة ، والحجَّ ، وانظر في آدابها وفضائلها ، وما أُثر من أقوال النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، ووقائع حياته في شأنها ، وإلى أي مدىً تبقى فعاليتها ، وقوتها إذا جردت عن هاتي الآداب والفضائل ، وفصلت عن الجوِّ الذي يكونه له الحديث ، وإلى أيِّ مدى تبقى صالحةً لإثارة العواطف ، وإشعال الشوق ، وإيقاد جمرة الذوق ، وبعث الرُّوح ، وشحن بطارية القلب ، وشحذ العقول والأذهان ، وإعطاء قوَّة التماسك

والاستقامة ، وإيجاد مجتمعٍ جديدٍ صالحٍ تسري فيه روح العبادة والتقوى ، والخشية والإنابة؟!.

والواقع أنَّ وقائع حياة النَّبيِّ ﷺ المباركة، وإرشاداته وتعاليمه تخلق ذلك الجوَّ الذي تخضرُّ فيه شجرة الدين ، وتورق وتثمر ، إنَّ الدين ليس مجموعةً من الضوابط الخلقية الجافَّة ، إنَّه لا يبقى حيَّاً بدون العواطف ، والروح ، والوقائع ، والأمثلة العمليَّة ، وخيرُ مجموعةٍ موثوق بها لهذه العواطف والوقائع والأمثلة العملية هي مجموعة الحديث النَّبويِّ الذي أصبحت من خصائص الأمَّة الإسلاميَّة التي لا يشاركها فيها أمَّةٌ من أمم الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأصحاب ديانةٍ من الديانات السماوية التي لا يزال بقايا أتباعها والمنتمين إليها ـ على اختلاف أنواعهم ومستوياتهم ـ على وجه الأرض.

الديانات القديمة ضيَّعت أخبار حياة أنبيائها ، وسيرهم ، وأقوالهم الصحيحة ، وملأت الفراغ بقصص عظمائها :

وهذه الديانات ـ من يهوديةٍ ، ومسيحيةٍ ، ومجوسيةٍ ، وبوذيةٍ ، وبرهمية ـ لم تلبث أن فقدت روحها ، وقوتها ، وصلاحيتها للحياة والبقاء ، فضلاً عن النموِّ والازدهار ، لأنها لم تعد تحتفظ بأخبار حياة أنبيائها الموثوق بها ، التي تجدِّد الإيمان واليقين ، وتبعث الروح ، وتنفخ الحياة ، ولم يتيسَّر لهذه الديانات ذلك الجوُّ النفسيُّ الروحانيُّ ، الذي يتقدَّم فيه أتباعها روحياً ، ودينياً ، ويقاومون به المغريات المادِّية ، وغوائل الشيطان والنفس.

وأخيراً إنَّهم شعروا بالحاجة إلى ذلك فإنَّها حاجةٌ فطريةٌ ، فملؤوا هذا الفراغ بقصص حياة كبار أتباع الديانات ، وأخبار «أحبارها ورهبانها» وبما دار في مجالسهم من حديثٍ وحوار ، وما روي عنهم من أحاديث وأخبار ، وأُثر عنهم من أقوالٍ وآثار.

وهنا تألفت لنفس هذا الغرض صحف من تلمود[1] ، عكف عليها اليهود تلاوةً ، وشرحاً ، ومطالعةً ، ودراسةً ، حتى غطَّت على التوراة نفسها ، ونقل من أقوال علماء اليهود ما يرجحها على صحف العهد القديم ، وقد جاء فيها ـ بطبيعة الحال ـ وبتأثير العقلية اليهودية الضعيفة ، والمجتمع اليهوديِّ المنحطِّ الخاضع للتأثيرات الأجنبية الشيء الكثير من نسج الخيال ، وضعف الاعتقاد وما ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١].

ولجأ المسيحيون بدورهم إلى تأليف كتبٍ وإضافتها إلى صحف العهد الجديد ، ككتاب «أعمال الحواريين» و«رسائل بولس» و«رسائل بطرس» و«رسائل يوحنا» ، وككتاب «مشاهدات يوحنا».

وهام البراهمة وأتباع الديانة الهندية القديمة ، بكتاب «كيتا» (GEETA) الذي يحتوي على أقوال أحد عظمائهم ، «سري كرشن» (SRIKRISHNA) ورامائن (RAMAYANA) حكايات إلهم راما (RAMA) وملحمة «مها بهارت» وغيرها من كتب القصص والملحمات ، وكذلك كان شأن المجوس الفرس بشرح «أوستا» الذي يسمى «رندا فيست».

وقد عجزت هذه الكتب كلُّها عن العودة بهذه الشعوب المتدينة والديانات القديمة إلى تعاليم دعاتها الأولين ، وتصوير حياتهم ، وسلوكهم ، واتجاهاتهم الأصيلة ، وعن إثارة عاطفة التقليد لحياتهم والتأسِّي بأسوتهم ، والغيرة على دعوتهم ، وعقيدتهم ، بل أساءت إليها أكثر مما أحسنت ، وكان السبب الرئيسيُّ في اعتلال ذوقها الدينيِّ ، وانحراف فطرتها ، وإغراقها في التقديس والتأليه ، والخضوع الزائد لما كان أمعن في الخيال ، وأبعد عن الحقيقة ، وأشدَّ منافاةٍ للفطرة السليمة ، وكان أثرها بعيداً وعميقاً ، ولا يزال في آداب هذه الأمم وعقليتها ، واجتماعها ، وميولها ، ورغباتها ، وحوَّلت هذه الديانات بالتدريج

---

(١) اسم عام للمثنا والجيمارة.

مجموعةً من البدع والخرافات والتأويلات الباردة ، والتفسيرات الجديدة المتطرفة ، تلاشت فيها تعاليم هذه الديانات الأصيلة ، كما تتلاشى قطرةٌ من خلٍّ في اليمِّ.

مقارنةٌ سريعةٌ بين سير الأنبياء السابقين ومؤسسي الديانات ، وبين الحديث والسِّيرة:

وقد أصبح إفلاس هذه الأمم والديانات في سيرة أنبيائها ، وأخبار حياتها الصحيحة حقيقة مقرَّرة لا يختلف فيها اثنان[1] ، وإذا قارن الإنسان بين السِّيرة النَّبويَّة ومجموعة السنة ودواوين الحديث النَّبويِّ وبين سير الأنبياء السابقين ، وما نقل في حياتهم؛ رأى العجب العجاب ، وما تتحيَّر منه الألباب، فأكثرها توارث في ظلمات الجهل والإهمال ، والحوادث التاريخية الدَّامية ، وقد أدَّت هذه الديانات رسالتها في فترةٍ زمنيَّةٍ خاصَّةٍ ، ومشى في ضوئها الجيل الذي كلف اتِّباعهم ، ثم لم تبق حاجة إلى الاحتفاظ بها ، وإلى أن تتوارثها الأجيال ، ويكفينا أن نستعرض حياة سيِّدنا المسيح عليه وعلى نبيِّنا الصَّلاة والسَّلام ، فكان آخر الأنبياء قبل محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم ، وتنتسب إليه أمَّةٌ عُرف شغفُها بالعلم والتأليف ، وإفراطها في حبِّ نبيها ، وإطراؤها له إطراءً بلغ حدَّ التأليه والتقديس ، ولكنَّها لم تستطع أن تعرض على العالم إلا نتفاً من أخباره وأقواله التي لا تكون هيكلاً من حياةٍ بشريَّةٍ كاملةٍ يقلده الإنسان في حياته الفردية ، أو يسير في ضوئه مجتمعٌ فاضلٌ ، وقد كان الاعتقاد السائد في العالم المسيحيِّ قبل أيام أن «العهد الجديد» يتضمَّن أخبار السنوات الثلاث الأخيرة من سيرة المسيح وأخباره ، فانتهى تحقيق الباحثين وأصحاب الاختصاص في الموضوع في الزمن الأخير إلى أنها لا تتجاوز أخبار خمسين يوماً من حياته ، لا أكثر ، ولا أقلَّ.

يقول القس الفاضل الدكتور شارلس اندرسن اسكات (CHARLES

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى «الرسالة المحمدية» للعلامة الكبير السيد سليمان الندوي ، طبع بعناية وتحقيق المحقق في دار ابن كثير بدمشق .

ANDERSON SCOTT) في مقالٍ له في دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة ، ج/ ١٣ ص/ ١٧١٠):

«ينبغي أن يتنازل الإنسان عن محاولة وضع كتابٍ في سيرة المسيح بكلِّ صراحةٍ ، فإنَّه لا وجود للمادَّة والمعلومات التي تساعد على تحقيق هذا الغرض ، والأيام التي توجد عنها بعض المعلومات ، لا يزيد عددها على الخمسين (٥٠) يوماً».

أما الأنبياء الآخرون ، وعظماء الملل ، والديانات السَّابقة ، فيصحُّ القول بأنَّ أخبارهم وصور حياتهم مطمورةٌ في ركام الماضي ، وهناك حلقاتٌ رئيسيَّةٌ لا يكمل بغيرها التاريخ ، ولا يتسنىٰ بدونها الاقتداء والتقليد مفقودةٌ لا يمكن البحث عنها ، والاهتداء إليها من هذا العصر المتأخر ، وهذا عين ما تقتضيه الحكمة الإلهية ومنطق الأشياء ، فالمثل الإنسانية لها أعمارٌ طبيعيةٌ ، وحيويَّةٌ محدودةٌ ، فإذا انتهت لم تكن مصلحةٌ في تناقلها ، أما ما كانت الحاجة إليه قائمةً دائمةً ، فبقي على اختلاف الزَّمان والمكان واستمرَّ ، وانتشر ، وأورق ، وأثمر.

أمَّا الإسلامُ وحياةُ صاحب رسالته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فيختلف شأنهما عن شأن الديانات السَّابقة وأصحاب رسالاتها الأولين اختلافاً لا مزيد عليه ، فقد جاء فيها من الوضوح ، والتفصيل ، والدِّقَّة ما لا يتصور فوقه العقل الإنسانيُّ ، ولا تؤيدها التجربة الطويلة لتدوين تاريخ العظماء ، وتسجيل وقائعهم ، وحوادث حياتهم ـ بما فيهم الأنبياء وأصحاب الرسالات ـ ونظرة عجلى في كتب الحديث والشمائل ـ فضلاً عن كتب السيرة والمغازي ـ تدلُّ على صدق ما قلناه ، وحسب القارىء أن يستعرض الأحاديث الواردة في حجَّة الوداع في كتب الصحاح ، فيعرف كيف تطيَّب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند إحرامه ، ومن باشر هذا التطيب ، ويعرف نوع هذا الطيب ، وطريقة إشعار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هديه ، ويعرف تفصيله وتحديده ، هل كان في الجانب الأيمن أو الأيسر ، وكيف سلت عنها الدم ، ويعرف كيف احتجم ، ويستطيع أن يحدِّد مكانه

من الجسد الشريف ، وموضعه من الطريق ، ويستطيع أن يحدِّد المنازل بين المدينة ومكة ، ويعدَّ أيامه في السفر ، وذلك في زمانٍ لم يعرف الناس فيه كتابة اليوميات ، وتدوين المذكرات ، ولا تفوته شاردةٌ ولا نادرةٌ ، حتى يعرف قصَّة خروج حيَّةٍ في هذا المشهد الحافل ، وإفلاتها من القتل ، ويعرف كلَّ من كان رديف رسول الله عليه وآله وسلم في هذه الرحلة(١) ، ويعرف اسم الحلاق ، وكيف قسم شعره ، ومن خصَّهم بالشقِّ الأيمن ، ومن خصَّهم بالشقِّ الأيسر ، هذا فضلاً عن خطبه صلى الله عليه وآله وسلم يوم عرفة ، وفي منى ، ووصاياه التي حفظت ، وبلغت ، وعملاً بقوله ﷺ: «ألا فليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلَّغٍ أوعى من سامع»(٢).

وقد اعترف بهذه الحقيقة الكتَّاب المنصفون من الغرب ـ والفضل ما شهدت به الأعداء ـ يقول «جون ديون بورت» في كتابه «السيرة المحمدية» عنوانه: «اعتذارٌ من محمَّدٍ والقرآن APOIOGY FOR MOHAMM AND QURAN»:

«لا ريب أنَّه لا يوجد في الفاتحين والمشرِّعين ، والذين سنُّوا السنن من يعرف الناس حياته ، وأحواله ، بأكثر تفصيلاً ، وأشمل بياناً مما يعرفون من سيرة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأحواله»(٣).

قد ألقى ريورند باسورت اسمت (BOSWORTH SMITH) عضو كلية التثليث في أوكسفورد سنة ١٨٧٤ م محاضراتٍ عن «محمَّد والمحمَّدية» في الجمعية الملكية في بريطانيا العظمى ، قال فيها:

«أمَّا الإسلام فأمره واضحٌ كلُّه ، ليس فيه سرٌّ مكتومٌ عن أحدٍ ، ولا غمَّةٌ يبهم أمرها على التاريخ ، ففي أيدي الناس تاريخه الصحيح ، وهم يعلمون

---

(١) قد استوعب صاحب ، نسيم الرياض ، أسماء كل من أردفهم رسول الله ﷺ في حياته فذكر نحو ثمانية وثلاثين (٣٨).

(٢) تقديم العلامة الندوي لكتب «حجَّة الوداع وعمرات النبي صلى الله عليه وسلّم» للعَّلامة المحدِّث للشيخ محمد زكريا السهارنفوري طبع في دار ابن كثير بدمشق.

(٣) نقلاً من «الرسالة المحمدية» للعلامة السيد سليمان الندوي ، ص/١٨.

من أمر محمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم ، كالذي يعلمونه من أمر لوثر وملتن ، وإنَّك لا تجد فيما كتبه عنه المؤرخين الأولون أساطير ، ولا أوهاماً ، ولا مستحيلاتٍ ، وإذا عرض لك طرف من ذلك أمكنك تمييزه عن الحقائق التاريخية الراهنة ، فليس لأحدٍ هنا أن يخدع نفسه ، أو يخدع غيره ، والأمر كلُّه واضحٌ وضوح النَّهار ، كأنَّه الشمس رأد الضحى ، يتبين تحت أشعة نورها كلُّ شيء»(١) .

الحديث ميزانٌ عادلٌ لوزن حياة المسلمين وواقعهم ، والحكم عليه في كلِّ عصر :

ثم إنَّ الحديث ميزانٌ عادل يستطيع المصلحون في كل عصرٍ أن يزنوا فيه أعمال هذه الأمَّة واتجاهاتها ، ويعرفوا الانحراف الواقع في سير هذه الأمة ، ولا يتأتَّى الاعتدال الكامل في الأخلاق والأعمال إلا بالجمع بين القرآن وبين الحديث ، الذي هو يملأ هذا الفراغ الذي وقع بانتقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وهذه الفجوة لابدَّ منها في السنن الإلهية ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ، ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] فلولا الحديث الذي يمثِّل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتَّزنة ، فلولا التوجيهات النَّبوية الحكيمة ، ولولا هذه الأحكام التي أخذ بها الرسول المجتمع الإسلاميَّ ، لوقعت هذه الأمة في إفراطٍ وتفريطٍ ، واختلَّ الاتزان ، وفقد المثال العملي الذي حثَّ الله على الاقتداء به ، بقوله : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] ، وبقوله : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، والذي يطلبه الإنسان ، ويستمدُّ منه الثقة ، والقوة في الحياة ، ويقتنع بأنَّ تطبيق الأحكام الدينية على الحياة ميسورٌ وواقعٌ .

الحديث وسيلةٌ قويةٌ للحسبة على المجتمع الإسلاميِّ ومدرسةٌ دائمةٌ يتخرَّج فيها المصلحون والمجدِّدون :

«ثم إنَّ الحديث زاخرٌ بالحياة ، والقوَّة ، والتأثير الذي لم يزل يبعث

---

(١) الرسالة المحمدية ، ص/ ١٠٠ .

على الإصلاح والتجديد ، ولم يزل باعثاً على محاربة الفساد والبدع ، وحسبة المجتمع ، ولم يزل يظهر بتأثيره في كلِّ عصرٍ وبلد ، من رفع راية الإصلاح والتجديد ، وحارب البدع والخرافات ، والعادات الجاهلية ، ودعا إلى الدين الخالص والإسلام الصحيح ، لذلك كلِّه كان الحديث من حاجات هذه الأمَّة الأساسية ، وكان لابدَّ من تقييده ، وتسجيله ، وحفظه ، ونشره»[١] .

وقد ظلَّت كتب السنَّة والحديث ـ ولا تزال ـ مصدراً من مصادر الإصلاح والتجديد ، والتفكير الإسلاميِّ الصحيح في الأمَّة الإسلامية ، تلقَّى منه المصلحون في عصورهم العلم الدينيَّ الصحيح ، والفكر الإسلامي النَّقي ، واحتجوا بأحاديثه ، واستندوا إليها في دعوتهم إلى الدين والإصلاح ، وفي محاربتهم للبدع ، والفتن ، والفساد ، ولا يستغني عن هذا المصدر كلُّ من يريد إرجاع المسلمين في عصره إلى الدين الخالص ، والإسلام الكامل ، ويريد أن يوجد صلةً بينهم وبين الحياة النَّبويَّة ، والأسوة الكاملة ، وكل من تلجئه الحاجة وتطورات العصر إلى استنباط الأحكام الجديدة .

شهادة التاريخ لتأثير الحديث وكتب السنة في الإصلاح والتجديد :

ويشهد بهذه الحقيقة تاريخ الإسلام والمسلمين نفسه ، فكلَّما ضعفت صلتهم بكتب الحديث والسنة ومعرفتهم بها ، على كثرة وجود الدُّعاة إلى الله ، والمشتغلين بتزكية النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، والزهد في الدنيا والعمل بالسنَّة ، وطالت هذه الفترة؛ وغزت المجتمع الإسلاميَّ الزاخر بأصحاب الاختصاص في العلوم الإسلامية ، المتبحرين في العلوم الحكمية والأدبية ، وفي عهد غلبة الإسلام ، وحكم المسلمين بدعٌ طريفةٌ وتقاليد عجميَّةٌ ، وأعراف دخيلةٌ ، حتى كاد يكون نسخةً من مجتمعٍ جاهليٍّ ،

---

(١) مقتبسٌ من كتاب العلامة الندوي «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ج/١ ص/٩٨ الطبعة الرابعة ٢٩٤ .

وصدقت النُّبوَّة المحمَّدية والحديث الصحيح: «لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم شبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراعٍ»[١] وخفت صوت الإصلاح وخبا مصباح العلم.

ومن شاء فليستعرض الموضع الديني وواقع حياة المسلمين في القرن العاشر الهجري في الهند، القرن الذي كادت صلة الأوساط الدينية والعلمية في شبه القارة الهندية تنقطع عن علم الحديث الشريف، ومصادر السنَّة الصحيحة، وكانت تعيش في عزلةٍ عن مراكز العلم الدينيِّ، وتدريس الحديث الشريف في الحجاز واليمن، ومصر والشام، وأصبحت مقتصرةً على كتب المذهب، وشروحها، وتدقيقاتها، وكتب الأصول، والحكمة، كيف فشت فيها البدع، وعمَّت المنكرات، واستحدثت أشكال متنوعةٌ للعبادات والقربات، وراجت سجدة التحية، واتُّخذت القبور مساجد، وأوقدت عليها السُّرج، وكثرت الأعياد الدينية والاحتفالات في أيام وفاة الأولياء والصالحين، وعمرت المشاهد، وأصبحت كعبةَ القاصدين، حتى قيَّض الله لهذه البلاد أئمةً مصلحين، وعلماء ربانيين، كالإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي (م ١٠٣٤ هـ) الذي أنكر على شعائر الشرك، والتقاليد غير الإسلامية الهندية إنكاراً شديداً، وأنكر وجود البدعة الحسنة بالإطلاق، وأنكر على وحدة الوجود، ودعا إلى التمسُّك بالسنَّة، ومحاربة البدعة دعوةً واضحةً مجلجلةً، وقال كلمته التاريخية المأثورة:

«نحن في حاجةٍ إلى كلام محمَّدٍ العربيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، لسنا في حاجةٍ إلى كلام الشيخ محيي الدين ابن عربي، أو صدر الدين القونوي، والشيخ عبد الرزاق الكاشي، وإلى «النصوص» لا إلى «الفصوص»[٢]، إنَّ

---

(١) رواه الحاكم.

(٢) إشارة إلى كتاب الشيخ ابن عربي المشهور «فصوص الحكم» مقتبس من رسالة رقم ١٠٠/٢. مجموع رسائل للشيخ المجدِّد.

الفتوحات المدنية أغنتنا عن «الفتوحات المكيِّة»[١] .

وشمَّر معاصره العلامة عبد الحق بن سيف الدين البخاريُّ الدهلوي (م ١٠٥٢ هـ) عن ساق الجدِّ في نشر الحديث الشريف ، وشرحه ، وتدريسه ، وتلاهما شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي صاحب «حجة الله البالغة» (م ١١٧٦ هـ) وأبناؤه النجباء ، وتلاميذه النبغاء ، وقاموا بتعليم كتاب الله وسنة رسوله ، وشرح العقيدة الإسلامية الحنفية ، ونادوا بالدين الخالص ، وقاموا بتدريس الصحاح الستَّة ، ونشرها ، وتقريرها في المناهج الدراسية ، حتى نفقت سوق السنَّة ، وقامت دولة الحديث في هذه الربوع البعيدة عن مركز الإسلام ، حتى أصبحت منتجعاً لروَّاد علم الحديث ، ومنهلاً عذباً لطالبي التوسُّع والتحقيق ، وقامت حركاتٌ إصلاحيةٌ من أقوى حركات الإصلاح والتجديد في العالم الإسلامي كلِّه في القرن الثالث عشر ، وحسب القارىء أن يقرأ تاريخ حركة الإمامين الشهيدين : السيد أحمد بن عرفان الشهيد ، والشيخ محمد إسماعيل الشهيد (١٢٤٦ هـ) الإصلاحية الشاملة[٢] ، التي جعلت البلاد غير البلاد ، والشَّعب غير الشَّعب ، وهبَّت بها رياح الإيمان والحماس الإسلاميِّ ، والغيرة على دين الله ، وعلى عقيدته الصَّافية ، قويةً جدَّدت ذكريات القرون المشهود لها بالخير ، وأخبار الأولين ، وقد أحيت هذه الحركة الإصلاحية والدَّعوة إلى الدين الخالص كثيراً من السنن التي أميتت ، وقضت على كثيرٍ من البدع والمحدثات والعادات الجاهلية التي كانت لها جولةٌ وصولةٌ ، وذلك كلُّه بفضل ظهور آثار السنَّة ، ونشر الحديث ، وإنَّني واثقٌ بأنَّه إذا لم يكن وجودٌ لكتب السنَّة ودواوين الحديث ، ولم يكن سبيل إلى معرفة السنن ، والتمييز بينها ، وبين البدع ، لم يكن وجود لهؤلاء

---

(١) إشارة إلى كتاب الشيخ ابن عربي المشهور «الفتوحات المكِّيَّة» مقتبس من رسالة رقم ٢/١٠٠ مجموع رسائل للشيخ المجدِّد.

(٢) يرجع للتفصيل إلى كتاب العلامة الندوي «إذا هبت ريح الإيمان» طبع بيروت ، ورسالة «الإمام الّذي لم يوف حقَّه من الإنصاف والاعتراف» طبع لكهنؤ ، والقاهرة.

المصلحين الكبار ، والأئمة الأعلام ، الذين يتجمَّل بهم تاريخ الإسلام ، من عهد شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية (م ٧٢٨ هـ) إلى عهد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (م ١٢٠٦ هـ) ومعاصريه من المصلحين والمربِّين ، ومن نبغ بعده من رجال الدعوة والاصلاح ، كالعلامة محمد بن علي الشوكانيِّ (م ١٢٥٥ هـ) والأمير محمد بن إسماعيل الصنعانيِّ (م ١١٨٢ هـ) وأحمد بن عبد الله بن إدريس الحسنيِّ (م ١٢٩٣ هـ) ، والسيد عبد الله الغزنويِّ الأمر تسري (الشيخ محمد أعظم الكابلي) (م ١٢٩٨ هـ) والشيخ حسين علي الواني (م ١٣٦٣ هـ) والشيخ غلام رسول القلعوي (م ١٢٩١ هـ) وغيرهم[1] ، وهي قصَّة كثيرٍ من الأقطار العربية كالعراق ، والشام ، ومصر ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب الأقصى والبلاد العجمية ، كأفغانستان ، وتركستان ، إلا أننا اقتصرنا على الحديث عن الهند ، رغبةً في الاختصار ، ولأنَّ المحاضر يعرفها عن كثبٍ ، لا عن كتبٍ .

الحديث سجَّل الجو الإيماني الأول وخلَّده للأجيال القادمة :

ومن دلائل كون الإسلام هو الدين الإلهي الأخير ، والرسالة الإلهية الخالدة ، الباقية ، أنَّه لم يمن المسلمون بالعزلة الفكرية ، والارتجال العملي والسلوكي الذي منيت به أتباع الديانات القديمة ، لعدم وجود الرَّصيد الدِّينيِّ ، والركيزة العلمية ، أما المسلمون؛ فقد سجَّل الحديث النَّبويُّ الشريف لهم للأبد ذلك الجوَّ الإيمانيَّ والروحانيَّ الذي عاش فيه وتربَّى الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، والكيفيات النفسية ، والروحية التي لابست حياتهم ، وواكبتها طول الطريق ، وبذلك فقد أمكن للأجيال المتلاحقة القادمة من المسلمين أن تصل بقفزةٍ واحدةٍ إلى الجوِّ الذي تنوَّر بوجود شخصية النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، يتكلَّم والصحابة كلُّهم آذانٌ صاغيةٌ ، وقلوبٌ واعيةٌ ، كأنَّ على رؤوسهم الطير ، تتجلَّى فيه مواقف

---

(١) اقرأ تراجم أعلام الهند في كتاب «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» للعلامة عبد الحي الحسني ج/ ٧ و٨ طبع دائرة المعارف ، حيدر آباد (الهند) .

العمل بجانب الأحكام ، وبجانب أشكال العمل تتمثَّل مشاهد العواطف والكيفيات ، يستطيع فيه المرء أن يقدِّر بدوره أنَّ أيَّ نوع من الأعمال والأخلاق يخلقه الإيمان ، وأنَّ أيَّ نوعٍ من الحياة يوجده اليقين في الآخرة؟ إنَّها نافذةٌ يستطيع المرء أن يطلَّ منها على حياة النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم العائلية ، ومشهد الحياة في بيته ، وأشغاله في الليالي ، وعيشة أهل بيته ، ويمكنه أن يرى مشهد سجوده بعينيه ، ويسمع دعاءه ومناجاته بأذنيه ، وهنالك هل يمكن العيون ـ التي ترى عينيه مستعبرتين وقدميه متورِّمتين ـ والآذان التي تسمع «أفلا أحبُّ أن أكون عبداً شكوراً»[1] ، أن تمنى بالغفلة والتقصير ، إنَّ العيون التي شهدت أن يمضي هلالٌ بعد هلالٍ ، ولا توقد نارٌ في بيت النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، ورأت بطنه معصوباً بحجرين ، وإنَّ الحصير قد أثَّر في ظهره ، ورأت أنَّه لا يقصد فراشه في الليل حتى يفرِّق الذهب والفضة المتبقيين ، ولا يقرُّ له قرارٌ حتى ينتهي من ذلك ، ورأت عند مرض وفاته أنَّ الزيت لإنارة السراج يستقرض من بيت الجار ، وكيف تغيب عنها حقيقة الدنيا ، إنَّ الذي شهد أنَّه كيف يخدم أهل بيته ، ويحنو على صغاره ويتسامح مع خدمه ، ويعطف على رفاقه ، ويرحم أصحابه ، ويرفق بأعدائه أنَّى يقصد سواء ليتلقى درس الإنسانية الكاملة ، ويتعلَّم مكارم الأخلاق؟!

المجتمع الإسلاميُّ بألوانه المختلفة والحياة بحقائقها المتنوعة في مرآة الحديث :

وإنَّ هذا الجوَّ لا يستفيد فيه المرء من شخصية النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وحدها ، وإنما سيجد أبواب بيوت الصحابة مفتوحةً على مصراعيها ، وسيشهد دون ما عسرٍ وكلفة حياة بيوتهم ، وأوساطها ، يراهم رهباناً في الليل ، فرساناً بالنهار ، ويرى مشاغلهم في الأسواق ، وتفرّغهم في المساجد ، ويرى فيهم التواضع والإيثار ، والانشغال بالله عن النفس ، وإغراء النفس الأمَّارة بالسُّوء ، وطاعتهم الكاملة غالباً ، وسقطاتهم البشرية

(١) متفق عليه.

أحياناً ، هناك تتمثَّل أمام العين قصة إيثار أبي طلحة الأنصاري ، وقصة تخلُّف سيدنا كعب بن مالك من غزوة تبوك ، وامتحان حبّه للرّسول ، ووفائه للإسلام ، وشهادته على نفسه ، واستقامته في هذه المحنة ، ثم توبة الله عليه ، توبةً مقرونةً بالتوبة على الرُّسول والخارجين في الغزوة ، تكريماً له ، وتطبيقاً لقلبه ، ووقايته من «مركّب النقص» ، وكذلك قصة أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وموقفها الحسَّاس الدقيق في قصَّة الإفك ، وإيمانها ، وغيرتها ، وعزَّة نفسها ، ثم نزول براءتها من فوق سبع سماوات ، وموقف أبي بكرٍ الصديق في هذا الموقف الحسَّاس الدقيق المثير للغيرة والطبيعة البشرية ، وصدقه واستقامته فيه ، وعودته إلى البرِّ بمن آذاه في أعزِّ شيءٍ إليه ، وبالجملة فإنَّ ذلك جوٌّ طبيعيٌّ تتجلَّى فيه الحياة بحقائقها المتنوعة ، وألوانها المختلفة ، والطبيعة البشرية بمظاهرها ، وخصائصها ، وحواها الحديث النَّبويُّ الشريف ، وسجَّلها باقيةً إلى يوم القيامة .

وبقاءُ صورة العهد النَّبويِّ ـ بجانب القرآن الكريم ـ مسجلةً ، وبقاء حديث صاحب النُّبوَّة ، وصورة جوِّ عهدها ، معجزةٌ من معجزات الإسلام ، ومزيَّةٌ من مزاياه؛ التي لا تشاركه فيها ديانةٌ ، إنَّ الدِّين الذي جاء ليبقى إلى يوم القيامة ، ويقدِّم للأجيال القادمة نماذج عمليةً ، ويوفر دواعي العمل ونوازعه ، ويغذِّي العقل ، والقلب في وقتٍ واحدٍ لا يمكنه أن يعيش بدون الجوِّ ، وهذ الجوُّ قد بات مصوناً محفوظاً بفضل الحديث .

عناية المسلمين بتدوين الحديث وخدمته ، تقدير العزيز العليم :

إنَّ دراسة تاريخ تدوين الحديث تدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ ذلك لم يكن صدفةً ، أو بدعةً أحدثها النَّاس في العصور الأخيرة ، إنَّ عناية الصحابة بكتابة الحديث على العهد النَّبويِّ ، وتقييد عددٍ وجيهٍ من الحديث ، ثم عناية التابعين ـ منذ أواخر عهد الصحابة بالذات ـ بتدوين الحديث وترتيبه ، وتقاطر طلاب العلم من خراسان ، وتركستان ، وهيامهم بجمع الحديث ، وشغفهم باستظهاره ، وحفظه ، وذاكرتهم القويَّة المدهشة ، وعزيمتهم وعلوِّ همتهم ، ثمَّ وجود المجتهدين في فنِّ أسماء الرجال ، وفنِّ الرواية؛

الذين كانت لهم قدمٌ راسخةٌ ، وملكةٌ قويةٌ ، ونظرٌ ثاقبٌ في هذه الناحية ، ثم تفرغهم لذلك ، وانقطاعهم إليه ، وانشغالهم به عن نفوسهم وملذّاتهم ، ثمَّ إقبال الأمَّة على الحديث إقبالاً كلِّياً ، وشغفها بحديث رسولها شغفاً لا يوجد له نظير في تاريخ الأمم ، وقيامها بحفظه ، ودراسته ، ونشره قياماً لا مزيد عليه ، واشتغالها به من نواحٍ شتَّى[1] إنَّ ذلك كلَّه دليلٌ واضحٌ على أنَّ الله تعالى كان يريد ـ كجمع القرآن ـ صيانة «صحيفة هذه الحياة» ، وبفضل ذلك بقي امتداد الحياة المباركة ـ على صاحبها الصَّلاة والسَّلام ـ وظلَّت الأمَّة في كلِّ دورٍ من أدوارها تتمتَّع بذلك التراث الروحانيِّ والطبيعيِّ ، والعلميِّ ، والإيمانيِّ ، الذي سعد به الصحابة رضي الله عنهم مباشرةً .

تـوارث الأمـة للـذوق الـدينـيِّ والـمـزاج الإسـلامـيِّ :

وعلى ذلك فلم يجر التوارث في خصوص العقائد والأحكام ، إنما جرى كذلك في الذَّوق والمزاج ، والعقلية والنفسية ، وبفعل الحديث ظلَّ ذوق الصحابة ينتقل من جيل إلى جيلٍ ، ومن عهدٍ إلى عهدٍ ، ومن طبقةٍ إلى طبقة ، ولم يأت في تاريخ الأمَّة الطويلة حينٌ من الدهر فقد فيه هذا الذوق كلِّيّاً ، فقد وجد في كلِّ عصرٍ رجالٌ يُعبدون بحقٍّ من حاملي ذوق الصحابة ، رغبةً في العبادة ، وتقوىً من الله ، وخشيةً منه ، واستقامةً ، وعزيمةً ، وتواضعاً ، واحتسابَ نفسٍ ، وحنيناً إلى الآخرة ، ورغبةً عن الدنيا ، وعنايةً زائدةً بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وكراهيةً شديدة للبدع ، ونزعةً قويةً إلى اتِّباع السُّنَّة ، الأمر الذي لا يحصل إلا بالانشغال بدراسة الحديث والعكوف عليه ، تعلماً ، وفهماً ، وتعليماً ، وتدريساً ، وشرحاً ، وتدريباً ، أو بملازمة أولئك الذين اقتبسوا من مشكاة النُّبوَّة ، وكان لهم نصيبٌ غير منقوصٍ من هذا التراث النَّبويِّ ، وظلَّت الأمَّة تتوارث

---

(١) راجع للتفصيل كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» للعلامة الندوي ج/ص/١٠٢ ، ١٠٣ ، وكتاب «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» للدكتور مصطفىٰ السباعي . ص/ ١٢١ ـ ١٢٥ .

هذا الذوق عبر عصورها منذ القرن الأول إلى هذا القرن الرابع عشر الهجري ، رغم طابع المادية والتدهور الذي يتَّسم به هذا العهد ، ولا تزال هذه الثروة القيِّمة باقيةً ، والاستفادة منها قائمةً.

دافعٌ جديدٌ إلى إنكار الحديث والسنة:

وقد علل العالم الغربي المهتدي محمَّد أسد (ليو بولد ويس سابقاً) التنصُّل من السنَّة ، ونزعة إنكار الحديث ـ التي ظهرت طلائعها في الفترة الأخيرة ـ في ضوء معرفته لنفسية الجيل الجديد ، وقوة سيطرة الحضارة الغربية ، بصعوبة التطبيق بين موازين الحضارة الغربية ، وقيمها ، وأساليب حياتها و«موضاتها» ، وبين السنَّة والجمع بين الحياة التي تقوم على الحبِّ العميق والثقة التامَّة بصاحب الرسالة الإسلامية ، ومصدر السنَّة النبويَّة ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وبين تقديس الحضارة الغربية والنظر إليها كآخر ما وصل إليه العلم الإنسانيُّ ، ولعلَّ هذا هو السبب الذي يحث بعض القادة السياسيين والحكَّام ، في بعض الشعوب الإسلامية والأقطار العربية ، على الهجوم على السنَّة ، وإنكار الحديث ، يقول محمد أسد:

«وفي هذه الأيام التي زاد فيها نفوذ المدنيَّة الغربية في البلاد الإسلامية نجد سبباً جديداً يضاف إلى الموقف المستغرب الذي يقفه مَنْ نسمِّيهم «متنوري المسلمين» من هذه القضية ، ذلك هو قولهم: إنَّه من المستحيل أن نعيش على سنَّة النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن تتبَّع الطريقة الغربية في الحياة في آنٍ واحدٍ ، ثم إنَّ الجيل المسلم الحاضر مستعدٌّ لأن يكبر كل شيءٍ غربيٍّ ، وأن يتعبَّد لكلِّ مدنيةٍ أجنبيةٍ ، لأنَّها أجنبيةٌ ، ولأنَّها قويَّةٌ وبرَّاقةٌ من الناحية المادِّية ، هذا التفرنج كان أقوى الأسباب التي جعلت أحاديث النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام ، وجعلت جميع نظام السنَّة معها لا تجد قبولاً في يومنا هذا. إنَّ السنة تعارض الآراء الأساسية التي تقوم عليها المدنية الغربيَّة معارضة صريحةً ، حتى إنَّ أولئك الذين خلبتهم الثانية (المدنية الغربية) ، لا يجدون مخرجاً من مأزقهم هذا إلا برفض السّنة ، على أنها غير واجبةِ الاتِّباع على المسلمين ، ذلك لأنها قائمة على أحاديث لا يوثق بها ، وبعد

هذه المحاكمة الوجيزة يصبح تحريف تعاليم القرآن الكريم ، لكي تظهر موافقةً لروح المدنية الغربيَّة ، وأكثر سهولة»[١].

التشكيك في حجية الحديث وإنكار السنة ، مؤامرةٌ على الإسلام ، ستبوء بالخيبة والإخفاق:

والذين يحاولون أن يحرموا الأمَّة هذا المنبع الفيَّاض للحياة ، والهداية ، والقوة بإثارة الشكِّ والارتياب في حجِّيَّة الحديث وقيمته ، وزحزحة ثقتها به ، إنَّهم لا يدرون مدى الضَّرر والخسارة التي يلحقونها بها ، إنَّهم لا يدرون أنَّهم يكونون بذلك قد جعلوا أمتَّهم «محرومة الإرث» محذوفة الصَّدر «مقطوعة الأصل» حائرةً ، تائهةً ، كما صنع أعداء اليهوديَّة والمسيحيَّة ، أو حدثان الدهر معهما ، فلو أنَّهم يصنعون ذلك عن شعور ووعي ، لما كان لهذه الأمَّة ودينها عدوٌّ ألدّ منهم وأحنق ، لأنَّه لا تعود إذاً هناك وسيلةٌ إلى إنشاء هذا الذوق الدِّينيِّ من جديدٍ ، الذوق الذي كان يمتاز به الصَّحابة رضي الله عنهم ، والذي لا يمكن أن يوجد إلا بصحبة النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم مباشرةً ، أو بواسطة الحديث الذي هو صورةٌ حيَّةٌ لذلك العهد ، ومذكّرةٌ ناطقةٌ للحياة النَّبويَّة تزخر بكيفيات العهد النَّبويِّ ، وتتعطَّر بأريجه ، وتفوح بريَّاه.

وقد أحسن الأستاذ محمد أسد في كتابه القيِّم «الإسلام على مفترق الطرق» تشخيص هذا العداء للإسلام ومدى خطر هذه المؤامرة التي تحاول تجريد المجتمع الإسلاميِّ من هذه القوَّة التي لا عوض عنها ، وهذه الثروة التي لا مثيل لها ، فيقول:

«لقد كانت السنَّة الهيكل الحديديَّ الذي قام عليه صرح الإسلام ، وإنَّك إذا أزلت هيكل بناءٍ ما ، أفيدهشك بعدئذٍ أن يقوَّض ذلك البناء ، كأنَّه بيتٌ من ورق»[٢].

---

(١) «الإسلام على مفترق الطرق» ص/ ٩٥ ـ ٩٦.
(٢) الإسلام على مفترق الطرق ص/ ٨٥.

ويتحدَّث عن تأثير إنكار الحديث وضرورة اتِّباع السنَّة ، فيذكر نتيجة ذلك ، ويقول:

«ولكن تلك المنزلة الممتازة التي للإسلام ـ على أنه نظامٌ خلقيٌّ وعمليٌّ ، ونظامٌ شخصيٌّ واجتماعيٌّ ـ تنتهي بهذه الطريقة (يعني بإنكار الحديث وضرورة اتباع السنة) إلى التهافت والاندثار»[١] .

وبالرَّغم من هذه المحاولات الطائشة للتشكيك في حجِّيَّة الحديث ، والدعوة إلى إنكار السنَّة التي ظهرت على مستوياتٍ مختلقةٍ ، وبدوافع متنوعةٍ ، عقائديةٍ ، وسياسيةٍ ، وشخصيةٍ ، وللهروب من مسؤولية العمل بالأحكام الشَّرعية ، والالتزام الدِّينيِّ في فتراتٍ مختلفةٍ لم يزل شعار السنة عالياً ، والدعوة إليها قائمةً ، وقد عجنت بها طينة المجتمع الإسلاميِّ ، وتغلغلت في أحشائه ، وجرت منه مجرى الرُّوح والدَّم ، حتى أصبح من المستحيل تجريده منها ، وإقامة مجتمعٍ جديدٍ على مجرَّد الدَّعوة إلى القرآن الذي اقترن بعمل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وشرحه له ، وتفصيل ما جاء فيه مجملاً ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] ، ولا يزال الحديث النبويُّ الشريف معتنىً به ، دراسةً ، وتفهُّماً ، وتحقيقاً ، ونشراً لمصادره التي لم تر ضوء الشمس بعد ، ولا تزال الحسبة قائمةً على المجتمع الإسلاميِّ ، والأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، والردِّ على البدع ، والمحدثات على قدمٍ وساقٍ ، بما في ذلك من تقليد الحضارة الغربية التقليد الأعمى ، والردَّة العقائدية ، والفكرية والحضاريَّة ، وقبول المدنية الغربية برمَّتها وبحذافيرها ، وعلى علاَّتها ، ومخالفاتها للحياة الإسلامية ، بفضل الاحتكام إلى السنَّة والرجوع إلى الحديث ، تحقيقاً لما أخبر به النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تزال طائفةٌ من أمتي قوامةً على أمر الله لا يضرُّها من خالفها» ، وفي حديثٍ آخر: «لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحقِّ حتى تقوم الساعة» .

(١) الإسلام على مفترق الطرق . ص/ ٩٥ .

إنَّ شأن المشكِّكين في حجِّيَّة الحديث ، والحاملين للواء إنكار السنَّة مع الحديث النبوي والسنة المطهرة ، كما حكاه الشاعر العربي القديم :

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنَها فلمْ يَضُرْها ، وأوهى قرنَه الوعلُ

* * *

شاعر الإسلام: الدكتور محمَّد إقبال
حياته، وثقافته
شاعريته، وإنتاجه

ألقى العلامة النَّدويّ هذا الحديث في إذاعة المملكة العربية السعودية عام ١٩٥١ م بدعوةٍ من وزارة الإعلام السعودية.

ولد محمد إقبال في «سيالكوت» مدينةٌ في بنجاب سنة ١٨٧٧ م ، وهو سليل بيتٍ معروف من أوسط بيوتات البراهمة في كشمير ، أسلم جدُّه الأعلى قبل مئتي سنة ، وعرف ذلك البيت منذ ذلك اليوم بالصلاح والتصوُّف ، وكان أبوه رجلاً صالحاً يغلب عليه التصوُّف.

تعلَّم محمد إقبال في مدرسةٍ إنجليزية في بلده ، وجاز الامتحان الأخير بامتياز ، ثم التحق بكليةٍ في ذلك البلد ، حيث تعرَّف بالأستاذ السيد مير حسن ، أستاذ اللغة الفارسية والعربية في الكلِّية ، وكان من رواد المعلمين الذين يطبعون تلاميذهم بطابعهم ، ويبعثون فيهم ذوق العلم ، فأثر في الشاب الذكي كلَّ تأثير ، وغرس فيه حبَّ الثقافة والآداب الإسلاميَّة ، ولم ينس إقبال فضله إلى آخر حياته.

ولما قضى وطره في الكلية سافر إلى لاهور ، عاصمة بنجاب.

وانضمَّ إلى كلِّية الحكومة ، حيث حضر الامتحان الأخير في الفلسفة وبرز في اللغة العربية والانجليزية ونال وسامين ، وأخذ شهادة (B. A.)[1] بامتياز ، وفي لاهور اتصلت أسبابه بالأستاذ الإنكليزي الشهير «سيرتامس أرنولد» صاحب كتاب «الدعوة إلى الإسلام ، The preaching of Islam» وعميد الكلية الإسلامية في علي كره سابقاً ، وبالأستاذ عبد القادر المحامي والأديب الشهير قاضي محكمة الاستئناف بعد ، وعضو مجلس الهند سابقاً ، ومنشىء أول مجلة علمية أدبية في لغة أردو ، اسمها «مخزن» وكان إقبال قد نظم قصيدته الأولى البديعة «جبل هماله» وهي فارسية التركيب ، إنجليزية الأفكار ، ونشرها الأستاذ عبد القادر في مجلته سنة ١٩٠١ م ، ونظم عدة قصائد أدبية توجد في مجموع شعره الأول. وكان لها

(١) شهادة متوسطة في الآداب في النظام التعليمي الإنجليزي الهندي تعادل ليسانس في مصر وغيرها.

دويٌّ في أندية الشعر والأدب ، واجتلبت العيون نحو الشاعر الشاب المبدع .

وفي هذه المدة أخذ محمد إقبال درجة[١] (M. A) في الفلسفة بامتياز ، ونال وساماً وعيِّن على أنَّه أستاذ للتاريخ والفلسفة والسياسة في الكلية الشرقية في لاهور ، ثم أستاذاً للإنجليزية والفلسفة في الكلية الحكومة التي تخرَّج منها ، وشهد بكفاءته وغزير علمه الأساتذة والطلبة جميعاً ، وحاز ثقة وزارة المعارف ، ثم سافر إلى لندن سنة ١٩٠٥ م حيث التحق بجامعة «كامبردج» وأخذ شهادة عامةً في الفلسفة ، وعلم الاقتصاد ، ومكث في عاصمة الدولة البريطانية ثلاث سنين ، يلقي محاضراتٍ في موضوعاتٍ إسلامية أكسبته الشهرة والثِّقة ، وتولى في خلال تلك المدة تدريس آداب اللغة العربية في جامعة لندن ، مدة غياب أستاذه أرنولد ، ثمَّ سافر إلى ألمانيا ، وأخذ من جامعة «ميونخ» الدكتوراة في الفلسفة ، ثم رجع إلى لندن ، وحضر الامتحان النهائيَّ في الحقوق ، وانتسب إلى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن ، وتخصَّص في المادتين ، ورجع إلى الهند سنة ١٩٠٨ م سالماً غانماً ، ولما مرَّ بصقلية في طريقه إلى الهند ، سكب على ترابها دموعاً ، وقال قصيدة افتتحها بقول: «ما بك أيُّها الرجل أدمعاً لا دمعاً ، فهذا مدفن الحضارة الحجازية».

ومن دواعي العجب أنَّ كل هذا النجاح حصل لهذا النابغة ، وهو لا يتجاوز اثنين وثلاثين عاماً من عمره ، وأقام له أصدقاؤه والمعجبون بعبقريته حفلة تكريم ، واشتغل الشاعر الفلسفي والاقتصادي الخبير ، والسياسي الحاذق في عدَّة لغات بالمحاماة ، لكن ما كان هواه في المحاماة ، فكان يقضي أكثر أوقاته وجلَّ همِّه في تأليف الكتب ، وقرض الشعر ، وكان يحضر حفلات جمعية «حماية الإسلام» السنوية وينشر فيها قصائده ، ومنها «العتاب والشَّكوى» التي اشتكى فيها إلى الله على لسان

(١) وهي تعادل «الماجستير» في مصر.

المسلمين ما حلَّ بهم ، وذكر أعمال المسلمين الخالدة في سبيله وفي سبيل الجهاد والإصلاح ، ثم نظم قصيدةً أجاب فيها على لسان الحضرة الإلهية ، بيَّن فيها تقصير المسلمين ، وإهمالهم للدين ، وعدم اتقائهم أمر الدنيا ، تبريراً لما جزوا به من الخزي والهوان ، وسرعان ما سارت بهما الركبان ، وتغنَّى بهما الأطفال والشبان ، وحفظهما الرِّجال والنساء ، وهما عندهم أشهر من «قفا نبك» وهما قصيدتان بديعتان مبتكرتان في الأسلوب والمعاني والعرض ، وهما «النشيد الوطني» و«أنشودة المسلم» كلاهما سار مسير النهار ، وصار الأوَّل النشيد الوطنيَّ الوحيد الذي لا تزال ترتجُّ به الحفلات المشتركة الشعبية في الهند ، والثانية أنشودة المسلم التي تفتتح بها اجتماعات المسلمين.

ثم نشبت الحرب البلقانية والطرابلسية سنة ١٩١٠ ، وما يوم حليمة بسرٍّ ، فكان لها في نفسية الشاعر أعمق أثرٍ ، جرحت عواطفه ، وقلبه ، فتحرَّك ساكنه ، وهاج خاطره ، وجعلت منه عدوّاً لدوداً للحضارة الغربية ، والإمبراطورية الأوربية ، وأملاه حزنه ووجده قصائد كلُّها دموعٌ حارةٌ في سبيل المسلمين ، وسهامٌ مسمومةٌ في صدور الأوروبيين ، وتتجلَّى هذه الروح في جميع ما نظم وقال في هذه الفترة ، فمن قصائده «البلاد الإسلامية» ردٌّ على الوطنية ، ودعوةٌ إلى الجامعة الإسلامية ، و«يا هلال العيد» و«المسلم» وفاطمة بنت عبد الله (وهي فتاةٌ مسلمةٌ استشهدت في جهاد طرابلس) ، و«محاضرة أدرنة» و«الصِّدِّيق» و«بلال» و«الحضارة الحديثة» و«الدين» و«شكوى إلى الرسول» وقد نوَّه في هذه القصيدة على الزعماء والقادة ، الذين يتزعَّمون المسلمين وليست عندهم صلةٌ روحية بالنَّبيِّ ﷺ ، يقول: «أنا بريء من أولئك الذين يحجُّون إلى أوربا ويشدُّون إليها الرحال مرَّةً بعد مرَّةٍ ولا يتصلون بك أبداً في حياتهم ، ولا يعرفونك» و«هدية إلى رسول» وقد قال فيها: «إنَّه حضر عند النبي ﷺ ، فقال له النبيُّ ﷺ: ماذا حملت إلينا من هدية؟ فاعتذر الشاعر عن هدايا الدنيا ، وقال: إنها لا تليق بمقامكم الكريم ولكنِّي جئت بهديةٍ ، في زجاجةٍ يتجلَّى فيها شرف أمتك ، وهو دم شهداء طرابلس».

ثمَّ انفجر البركان الأوروبيُّ سنة ١٩١٤ م ، وحدث ما حدث فانقلب الشاعر داعياً مجاهداً ، وحكيماً فيلسوفاً ، يتكهَّن بالأخبار ، ويقول الحقائق ، وينظم الحكم ، ويشب من حماسته نيراناً ويفجّرُ بإيمانه وثقته أنهاراً ، وجاش صدره ، وفاض خاطره ، وسالت قريحته ، وفي تلك المدَّة نظم غرَّ قصائده منها: «خضر الطريق» وفيها قطع ، منها: «الشاعر والتجوُّل في الصحراء» ، و«الحياة» و«الحكومة» و«الرأسمالية» ، و«الأجير» و«عالم الإسلام» و«طلوع الإسلام» وكلُّها آيةٌ في الشعر ، والحكمة ، والحماسة ، وحقائق الحياة ، أما «طلوع الإسلام» فهي بيت القصيد في شعره ، لا يوجد لها نظير في الشعر الإسلامي في القوة والانسجام ، وقد طبع سنة ١٩٢٤ م أول مجموع شعره باسم «بانك درا» يعني: جرس القافلة ، فكان إقبال الناس عليه عظيماً ، وحظي من القبول ما لم يحظ به شاعرٌ ، وأعيد طبعه مراراً بعددٍ كبيرٍ.

ثم بدأ العهد الأخير الذي انتهى إلى وفاته وقد ازداد فكرهُ نضجاً ، وأفقُ معارفه اتساعاً ، وقد انتظمت دعوته واتَّضحت رسالته ، فنشر له عدة كتبٍ فارسية ، وقد آثر اللغة الفارسية لشعره لأنَّها أوسع من الأردية ، وهي اللغة الإسلامية التي تلي اللغة العربية في الأهمِّيَّة والانتشار في العالم الإسلاميِّ ويتكلَّم بها قطران مهمَّان: إيران وأفغانستان ، و«تفهم في الهند ويحذقها كثير من أهلها ، وأهل تركستان ، وروسيا ، وتركيا ، ونشر مجموعتين بالأردية ، فأمَّا الدواوين الفارسية فهي «أسرار خودي» يعني: (أسرار معرفة الذات) و«رموز بيخودي» (أسرار نداء الذات) و«بيام مشرق» (رسالة الشرق) في جواب كتاب «جوته» «تحية الغرب» و«زبور عجم» و«جاويد نامه» و«بس جه بايد كرد أي أقوام شرق» (ماذا ينبغي أن تعمله الشعوب الشرقية) و«مسافر» و«أرمغان حجاز» (هدية الحجاز) وبالأردية «بال جبريل» (جناح جبريل) و«ضرب كليم» (ضرب موسى) ، وغير هذه الكتب محاضرات ألقاها في مدينة «مدراس» طبعت باسم:

Reconsrtuction or Religious Thought in Islam.

ومحاضرات ألقاها في جامعة كامبردج ، وقد اعتنى بهذه المحاضرات

المستشرقون ، وعلماء الفلسفة ، والدين اعتناء عظيماً ، وعلَّقوا عليها أهميَّةً كبيرةً ، وترجم أكثر كتبه إلى الإنكليزية ، والفرنسية ، والألمانية ، والطليانية ، والروسية ، وممَّن تولى هذا النقل الأستاذ الإنكليزي الشهير الدكتور نكلسن ، فترجم بالإنجليزية «أسرار خودي» و«رموز بيخودي» وألفت في ألمانيا وإيطاليا مجامع وهيئات باسمه لدرس شعره ، وفلسفته ، وانتخب الدكتور رئيساً لحفلة الرابطة الإسلامية (Muslim League) السنوية التي عقدت في سنة ٩٣٠ م في «إله آباد» ، وعرض في خطبته فكرة باكستان أول مرَّة ، وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب ، وذهب مندوباً للمسلمين يمثل مؤتمر المسلمين (Muslim Conference) في مؤتمر المائدة المستديرة الثاني سنة ١٩٣٠ م ـ ١٩٣١ م .

وجاءته الدعوة في لندن من حكومة فرنسا وأسبانيا وإيطاليا ، فزار القطرين الأخيرين ، وألقى في «مجريط» محاضرات في الفن الإسلاميِّ ، وزار مسجد قرطبة ، وصلى فيه لأول مرَّة في التاريخ بعد جلاء المسلمين ، وذرف على تربته دموعاً غزاراً ، وتذكَّر العرب الأولين الذين حكموا هذه الأرض ثمانية قرون ، واستنشق في جوِّه وهوائه أريج حضارتهم ، وشعر كأنَّ هذا المسجد العظيم يشكو إليه حرمانه من سجود المؤمنين ، وجوُّ قرطبة يشكو إليه بُعْدَ عهده من الأذان ، وظمأه إلى ذلك ، فقال الشعر الرقيق الذي يعدُّ من القطع الأدبية الخالدة ، ونظم قصيدةً من أبدع قصائده[1] .

وكان في زيارته لهذه البلاد موضع حفاوةٍ نادرةٍ وإكرامٍ بالغٍ ، وقابله السنيور موسوليني ، وكان من قراء كتبه والمعجبين بفلسفته ، وتحدَّث معه طويلاً ، وسألته حكومة فرنسا أن يزور مستعمراتها في شمال أفريقية ، ولكن الشاعر الإسلاميَّ الغيور رفض دعوتها ، وأبى أيضاً أن يزور جامع باريز ، وقال : إنَّ هذا ثمنٌ بخس لتدمير دمشق وإحراقها ، وأثناء إقامته

(١) تظهر هذه القصيدة في المجموعة «انظر في جامعة قرطبة» في كتاب العلامة الندوي «روائع إقبال» طبع دار ابن كثير بدمشق .

بأوروبا أقيمت له عدَّة حفلات تكريم أقامها لها أصدقاؤه وأساتذته في جامعة كامبردج ، وجامعة روما ، وجامعة السوربون ، وجامعة مجريط ، والمجمع الملكي في روما ، وفي طريقه إلى الهند عرَّج على القدس واشترك في المؤتمر الإسلامي الشهير ، وقال في أثناء الطريق قصيدته البديعة «ذوق وشوق»[١] .

وفي سنة ١٩٣٢ م لبَّى دعوة السلطان الشهيد نادر خان ملك أفغانستان في بعثةٍ تتألف من فقيد العلم والشرف سر رأس مسعود حفيد سر سيد أحمد خان ورئيس جامعة عليكره الإسلامية ، والأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي ، وتحدَّث إليه الملك الفقيد طويلاً ، وأفضى إليه بذات صدره ، وبكيا طويلاً ، ولمَّا زار قبر السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند ، والحكيم سنائي لم يملك عينيه وافتضح باكياً ، وقال قصيدةً حكيمةً بديعةً ، وعلى إثر رجوعه من كابل نظم منظومته «مسافر» .

وكان الشاعر يشتكي أدواء يغلبها وتغلبه ، وانحرفت صحَّته أخيراً ، وظلَّ أياماً طويلةً رهين الفراش ، ولم يزل لسانه يفيض بالشعر ويملي الكتب والمقالات ، ويقابل الأصدقاء والزوَّار والعوَّاد ويحادثهم في شؤون إسلاميةٍ وعلميَّةٍ ، ومما نشر له في هذه الأثناء مقالة مستفيضة في الرد على القومية ، تناقلتها الصحف وتحدث بها الناس ، وممَّا قال قبل وفاته بأيام: «جنة لأرباب الهمم ، وجنة للعباد والزهَّاد ، قل للمسلم الهنديِّ: أبشر ، فإنَّ في سبيل الله جنةً أيضاً» وقال قبل وفاته بعشر دقائق: «ليت شعري! هل تعود النغمة التي أرسلتها في الفضاء ، وهل تعود النفحة الحجازيَّة ، قد أظلني موتي وحضرتني الوفاة فليت شعري! هل حكيم يخلفني. . . ؟» ، وقال وهو يجود بنفسه: «أنا لا أخشى الموت ، أنا مسلمٌ ، ومن شأن المسلم أن يستقبل الموت مبتسماً» .

وكان ذلك آخر برهانٍ أقامه على صدق الإسلام ، وإيمان المسلم

---

(١) ظهرت هذه القصيدة في المجموعة بعنوان «في فلسطين» في كتاب العلامة الندوي «روائع إقبال» طبع دار ابن كثير دمشق.

ويقينه ، ولفظ نفسه الأخير في حجر خادمه القديم على حين غفلةٍ من العوَّاد ، والأصدقاء ، والتلاميذ ، والإخوان في سائر أنحاء العالم الإسلاميِّ ، وغربت هذه الشمس التي ملأت القلوب حرارةً ونوراً قبل أن تطلع شمس ٢١ أبريل ١٩٣٨ م .

* * *

أدب الحديث النبوي الشريف

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في الندوة العالمية لرابطة الأدب الإسلامي المنعقدة في الجامعة السلفية بنارس في ٢١ ـ ٢٢ أبريل ١٩٩٤م .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

وبعد! فإني أصالة مني ونيابة عن زملائي ـ أعضاء رابطة الأدب الإسلامي العالمية ـ أرحب بكم أيها السادة! وأنتهز هذه الفرصة النادرة للحديث وتبادل الفكر في موضوع جدي له قيمة علمية أدبية خطيرة ، وفائدة دينية تاريخية كبيرة ، اتجه بإغفاله الأدب العربي ، والقدرة البيانية الكتابية في اللغة العربية ، اتجاهاً غير سليم ، وفقد ثروة كبيرة ، ومنبعاً فياضاً للتعبير والتأثير في مجال الدعوة والكتابة والخطابة ، والتأثير والإقناع ، وأصبح متطفلاً على أساليب صناعية متكلفة أسيرة للسجع والقوافي ، أو الصنائع والبدائع ، لا يبرأ من تبعة هذه الجناية الجامعون للمثل والنماذج الأدبية ، ومؤرخو الأدب ونقاده إلا القليل النادر.

وقبل أن أتكلم عن خصائص مدرسة الحديث النبوي الأدبية والبيانية ، في إطار واسع ، وفي ضوء نماذج أدبية بيانية تعبيرية ، جاءت فيما أثر عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فيما رووه عن وقائع شهدوها ، ومحن ابتلوا بها ، وروائع رأوها ورووها ، عن السيرة النبوية وتاريخ الإسلام الأول ، أريد أن أبدأ وأتبرك بالحديث عن الأدب النبوي الصميم المباشر ، وكلام الرسول الكريم ، وما خصه الله به من القدرة البيانية والمعجزات اللسانية ، وما أثر في وصفه عن كبار النقاد ، وصيارفة الكلام والبيان ، ومؤرخي الأدب النقاد ، فأقول:

ما ظنك؟ ببشر ذل بالقرآن لسانه ، امتزج القرآن بلحمه ودمه ، وجرى فيه مجرى الروح وأخذ بقلبه واستأثر بلبه ، بل أشرب في قلبه القرآن الكريم ، وتمكن منه ما الله أعلم به ، فإن لم يكن كلامه بعد ذلك من الوحي ، فكما قال الكاتب الشاعر مصطفى صادق الرافعي:

«قد جاء من سبيله ، وإن لم يكن له منه دليل ، فقد كان هو من دليله ، قد عبد له الوحي طريق الكلام وذلله ، كما كان بعد السيل مجراه مرتعاً.

ما ظنك؟ بمولود من بني هاشم ولدته أم القرى، نشأ في بني سعد بن بكر وعاش في قريش ، أخواله بنو زهرة ، تزوج في بني أسد ، وهاجر إلى بني عمرو، ما ظنك؟ ببشر يقول فيه ناعته: «متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة ولا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه. . . ويتكلم بجوامع الكلم، فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير».

اقرأ فصلاً للجاحظ في بيان أفضل الكلام ، والقول ما قالت حذام ، قال ـ رحمه الله ـ:

«أفضل الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه ظاهراً في لفظه، وكأن الله قد ألبسه من ثياب الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً صحيح الطبع ، بعيداً من الاستكراه منزهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف ، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة. . . وحتى فصلت الكلمة ، على هذه الشريطة ونفدت من قائلها على هذه الصفة كساها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة».

ثم انظر إلى قول النبي الكريم ـ ﷺ ـ:

«مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ، ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه من دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً. ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

«الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس. فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في

الحرام؛ كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب» .

«إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض ، قيل : وما بركات الأرض ، قال : زهرة الدنيا ، لا يأتي الخير إلا بالخير . إن هذا المال خضرة حلوة ، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطاً أو يلم إلا آكلة الخضرة ، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها ، استقبلت الشمس فاجترت وثلطت وبالت ثم عادت ، فأكلت ، وإن هذا المال حلوة من أخذه بحقه ، ووضعه في حقه فنعم العون هو ، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبعه» . «لو أن لابن آدم مثل واد مالاً لأحب أن له إليه مثله ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب» .

«سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله» الحديث ، وفيه «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» . «إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيراً فنفخ فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيراً» .

«سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن ، ماذا أنزل من الخزائن ، من يوقظ صواحب الحجرات ، يا رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة» .

«قيل : يا رسول الله! ما الجسر؟ قال : دحض مزلة فيها خطاطيف وكلاليب ، وحسكة تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان ، فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب ، فناج مسلم ومخدوش مرسل ، ومكدوس في نار جهنم» ومن جوامع كلمه ـ في معنى الإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

وقوله : «إنما الناس كالإبل المئة لا تكاد تجد فيها راحلة» «بعثت في نفس الساعة فسبقتها كما سبقت هذه هذه» «إنما الأعمال بالنيات» «اليد العليا خير من اليد السفلى» «لا تجن يمينك على شمالك» «المضعف أمير الراكب» «إياكم وخضراء الدمن» «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»

«الإثم ما حاك في صدرك» «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» «الدين النصيحة».

هل ترى الجاحظ يعني غير كلام النبي الكريم - ﷺ -:

حاش لله وأي كلام أحق بأن يلبسه الله من ثياب الجلالة ويغشيه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله، ويكسوه من التوفيق ويمنحه من التأييد، ما لا يمتنع من تعظيمه به صدور الجبابرة، من كلام نبيه - ﷺ -.

وهو مع إعجازه إذا سمعه الجاهل ربما ظن أنه يحسن مثله، وهذا هو الكلام البليغ، كما قال ابن المقفع، والسهل الممتنع.

ثم أنشأ الجاحظ يصف كلام النبي الكريم - ﷺ - وحسبك به وصافاً وناعتاً ونكتفي به.

«هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزه عن التكلف، استعمل المبسوط في موضع البسط والمقصود في موضع القصر وهجر الغريب الوحشي ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حفّ بالعصمة، وشدّ بالتأييد ويسر بالتوفيق، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، وهو مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا تحيج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يخمر ولا يلمز ولا يبطىء ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلام النبي الكريم - ﷺ -.

وكذلك الأدعية المأثورة تحتل - بالإضافة إلى قيمتها الروحية وحقيقتها

المعنوية ـ أعلى مكانة أدبية وأرفعها ، وإنها درر الأدب اليتيمة ، وآثاره النادرة الخالدة التي ينقطع نظيرها في المكتبات الأدبية البشرية بأسرها .

هناك رسائل شخصية قد نالت من نقاد الأدب مكانة كبيرة ، لأنها تحمل سذاجة وتتنزه عن التصنع ، وتعبر عن عواطف القلب تعبيراً صادقاً .

بيد أنه قد فاتهم أن يدركوا أن هناك نوعاً من الأدب يحمل من السذاجة والحقيقة ما لا تحمله الرسائل والكتابات ، وتصبح هناك المصطلحات اللغوية بأنواعها هباءً منثوراً ، حينما يصب فيها المتكلم عصارة قلبه ، ويعبر لسانه عن القلب بأصح ما يكون ، وأصدق ما يتصور ، ويستغني المتكلم عن الترحيب والتحبيذ ، والإشادة والتقدير ، ولا يحسب حساباً للسامع ، بل يخاطب قلبه ، ويتناجى مع مشاعره ويتحدث مع عواطفه ، هذا النوع من الأدب الرفيع هو «الدعاء» و«المناجاة» .

وأصحابه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ اقتبسوا من هذا النور ـ رضي الله عنهم ـ ومعشر الأنبياء قوم لا يشقى بهم جليسهم ، وهم حملة هذا العلم وأحق عباد الله بالانتفاع به ، وأولى به من غيرهم ـ والله أعلم حيث يجعل الفضل ـ فإن كان غيثاً ـ ولا جرم ـ فقد وجد تربة كريمة وأصاب أرضاً نقية ، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير» .

وما هو إلا أنهم جلسو إليه وغشوه وخالطوه ، وعاشروه وصحبوه وأحبوه ، وتضلعوا من كلامه ، وحفظوا أحكان منطقه ، واقتفوا آثاره في كل شيء .

ونأخذ كتب الحديث والسيرة ، فنقول : إنها اشتملت على معجزات بيانية ، وقطع أدبية ساحرة ، تخلو منها مكتبة الأدب العربي ـ على سعتها وغناها ـ وهو دليل على صحة هذه اللغة ومرونتها ، واقتدارها على التعبير الدقيق عن خواطر ومشاعر ووجدانات كيفيات نفسية عميقة دقيقة ، ووصف بليغ مصور للحوادث الصغيرة ، وهي الكتب التي حفظت لنا مناهج كلام العرب الأولين وأساليب بيانهم ، ولئن صح ما قاله الرقاشي :

«إن ما تكلمت به العرب من جيد المنثور ، أكثر مما تكلمت به من جيد المنظوم ، فلم يحفظ من النثر عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره» فكتب الحديث النبوي تسد هذا الفراغ الواقع في تاريخ الأدب العربي ، وتنقل إلينا هذا الذخر الأدبي الذي اعتقد أنه قد ضاع ، وتمتاز أنها قد اتصل سندها وصحت رواياتها. فهي أوثق مصدر للغة العربية البليغة؛ التي كانت سائدة في عهدها الذهبي الأول وللأدب العربي الذي كان منتشراً في جزيرة العرب.

إن هذه الكتب تشتمل على روايات قصيرة وطويلة ، وكلها أمثلة جميلة للغة العرب العرباء التي كانوا يتكلمون بها ويعبرون فيها عن ضمائرهم وخواطرهم ، ويجد دارس الأدب العربي فيها من البلاغة العربية ، والقدرة البيانية ، والوصف الدقيق ، والتعبير الرقيق ، وعدم التكلف والصناعة ما يقف أمامه خاشعاً معترفاً للرواة بالبلاغة والتحري في صحة النقل والرواية ، وللغة العربية بالسعة والجمال.

أما الروايات الطويلة فهي ثورة أدبية ذات قيمة فنية عظيمة ، وهي التي تجلت فيها بلاغة الراوي العربي واقتداره على الوصف والتعبير والتصوير ، وهي التي يطول فيها نفسه فيحكي حكاية يعبر فيها عن معان كثيرة ، وأحاسيس دقيقة ، ومناظر متنوعة ، فلا يخذله اللسان ولا يخونه البيان ولا يتخلف عنه مدد اللغة ، وكأنها لوحة فنية منسجمة متناسقة قد أبدع فيها فنان ، أو صورة متناسبة قد أحسن فيها المصور كل الإحسان.

اقرأ معي حديث كعب بن مالك عن تخلفه عن غزوة تبوك ، وهو موضوع دقيق محرج. يطلب منه الصراحة والاعتراف بالتقصير ، والشهادة على النفس ، ويطلب منه تصوير ذلك الجو القاتم العابس الذي عاش فيه خمسين ليلة ، ويطلب منه تصوير الخواطر التي كانت تجيش في صدره ، وتساور نفسه وهو يعيش في جفاء وعتاب ، ممن يحبهم وتربطه بهم العقيدة والعاطفة ، لا يجد لذة في فراقهم ولا يرى في الدنيا عوضاً عنهم ، وتصوير تلك الصلة الروحية والحب العميق الذي يربطه بالنبي الكريم ـ ﷺ ـ ربطاً وثيقاً محكماً ، لا يحله العتاب والعقاب ، ولا يضعفه إقبال الملوك عليه

وتوددهم إليه ، وتصوير ذلك السرور الذي غمره على إثر قبول توبته ، ما أصعب هذا الموضوع ، وما أكثره تعقداً ودقة ، ولكنه ببلاغته العربية يتغلب على هذه المشاكل النفسية والأدبية ، ويترك لنا ثروة نعتز بها .

اقرأ معي هذه القطعة الصغيرة التي اقتبسها من حديثه الطويل ، وهو يحكي ما أحاط بهذه الغزوة العظيمة من ظروف وأجواء ، ويصور تلك الحالة النفسية التي تخلف فيها عن هذه الغزوة وما انتابه من التردد ، ولم يكن التخلف عن الغزوات من سيرته وعادته ، وتمتع بما احتوت عليه هذه القطعة من القوة والجمال ، وصدق التصوير وبراعة التعبير :

«وغزا رسول الله ـ ﷺ ـ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وتجهز رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمون معه ، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً . فأقول في نفسي وأنا قادر عليه . فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد الجد ، فأصبح رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئاً ، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم . فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً . فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليتني فعلت! فلم يقدر لي ذلك ، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ـ ﷺ ـ فطفت فيهم ، أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق ، أو رجلاً ممن عذره الله من الضعفاء» .

ثم انظر كيف يصور حالته وقد هجره المسلمون ونهوا عن كلامه ، وكيف يعبر عن حالة المحب الذي هجره الحبيب ـ عقوبة وتأديباً ـ وهو يطمع في وده ويتسلى بنظراته ، والذي لم يزده هذا العتاب إلا رسوخاً في المحبة ولوعة وجوى ، دعه يقص قصته بلسانه البليغ :

«ونهى رسول الله ـ ﷺ ـ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت

أخرج وأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف في الأسواق ، ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله - ﷺ - فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر . فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي ، وإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس ، مشيت حتى تسوّرتُ جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي ، فسلمت عليه فو الله ما رد علي السلام ، فقلت : يا أبا قتادة! أنشئك بالله! هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت ، فعدت له فنشدته ، فسكت ، فعدت له فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناني وتوليت حتى تسورت الجدار» .

واقرأ معي كذلك حديث الإفك الذي ظهرت فيه براعة السيدة عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - الأدبية وقوتها البيانية ، وحسن تصويرها ووصفها للعواطف والمشاعر النسوية اللطيفة الدقيقة ، وقد تجلت في هذه القطعة رقة عاطفة المرأة المحبة لزوجها ، مع إباء الحرة الواثقة بعفافها وطهارتها ، المؤمنة بربها ، وقد أضفى هذا المزيج الغريب من الرقة والشدة ، والعاطفة والعقل ، زد إلى ذلك بيان عائشة التي تقلبت في أعطاف البلاغة العربية وانتقلت فيها من بيت إلى بيت ، قد أضفى كل ذلك على هذه الرواية من الجمال الفني ما يجعلها من القطع الأدبية الخالدة في الأدب .

انظر كيف تصف ما تقوّله الناس وتحدّثوا به ، وما شعرت به من تغير في وجه الرسول الكريم - ﷺ -. تذكر كل ذلك في حياء المرأة وأدبها من غير إبهام أو عيّ :

قالت عائشة - رضي الله عنها -: «فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً ، والناس يفيضون في أصحاب الإفك ، لا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله - ﷺ - اللطف الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخلُ عليَّ رسول الله ﷺ فيسلم ، ثم يقول : كيف تيكم؟ ثم ينصرف ، فذلك يريبني ولا أشعر بالشر» .

وتذكر توجعها من الخبر المشاع ، فتقول : «فبكيت يومي ذلك كله ،

لا يرقأ دمع ولا أكتحل بنوم، قالت: وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي».

وتتقدم في الحكاية وتذكر كيف يسألها رسول الله - ﷺ - عما قيل عنها ويعزم عليها الصدق، فلا تلبث أن تعتريها حمية المرأة العفيفة الفاضلة. يقلص دمعها حتى لا تحس منها بقطرة، وترجو أباها وأمها أن يجيبا عنها رسول الله - ﷺ - فيمتنعان ويُفضّلان السكوت حياءً من رسول الله ﷺ واستحياءً من الدفاع عن قضية بنتهما، وهو الدفاع عن النفس، فتنبري للكلام القوي الصريح المبين - وهي البليغة الأدبية - وتتمثل بقول سيدنا يعقوب، وتفوض أمرها إلى الله، وتنزل براءتها من السماء فتطلب منها أمها أن تشكر رسول الله - ﷺ - وتقوم إليه فتأبى - في دلال العفائف وأنفة المؤمن - أن تحمد إلا الله الذي أنزل براءتها من فوق سبع سموات، وخلد طهارتها إلى آخر يوم يقرأ فيه القرآن ويؤمن به.

واقرأ كذلك حكايتها للهجرة النبوية وذكرها لتفاصيلها وما وقع لرسول الله - ﷺ - وصاحبه - رضي الله عنه - في الطريق، ووصولهما إلى المدينة، وكيف تلقاهما الأنصار وفرحوا بقدوم رسول الله - ﷺ -.

وكل ذلك مثال رائع للوصف الدقيق البليغ، والبيان القادر الوصاف.

وهنالك روايات أخرى طويلة النفس، ضافية البيان، تشتمل على غرر الكلام وبدائعه الحسان ومناهج العرب الأولين في كلامهم، كحديث صلح الحديبية، وحديث الإيلاء، وحديث حليمة السعدية في رضاعة النبي الكريم - ﷺ -، والمدة التي قضاها في بني سعد وغير ذلك، كانت تستحق أن تكون في المكانة الأولى في دراساتنا الأدبية، ولكنها أفلتت من نظر المؤلفين والناقدين، لأنها لم تدخل في دواوين الأدب، ولأن تصورهم للأدب كان تصوراً محدوداً جامداً لا يعدو الصناعة.

* * *

العوامل التي كوّنت شخصيّة
محمد إقبال

هذه المحاضرة ألقاها العلامة النّدويُّ في كلية دار العلوم بالقاهرة في ١٩/ من جمادى الآخرة ١٣٧٠ هـ الموافق ٢٨/ ٣/ ١٩٥١ ، لدى زيارته الأولىٰ لمصر.

سادتي وإخواني! يسرُّني جدّاً أن أتحدث إليكم عن شاعر الإسلام العظيم ، وحكيم الشرق الدكتور محمد إقبال ويزيدني سروراً واغتباطاً أن يكون هذا الحديث في مركزٍ تعليميٍّ وأدبيٍّ كبيرٍ كدار العلوم ، وبهذه المناسبة سيدور حديثي اليوم حول دراسة هذا الرَّجل العظيم والمدارس التي تخرَّج منها ، والعوامل التي كوَّنت شخصيته.

المدارس الأولى الَّتي تخرَّج فيها محمد إقبال:

لقد تخرَّج محمد إقبال من مدرستين ، أما المدرسة الأولى فهي مدرسة الثقافة العصرية ، والدراسات الغربية ، فلم يزل يتقلَّب في فصولها ، ودروسها ما بين الهند ، وإنجلترا ، وألمانيا ، ويقرأ على أساتذتها البارعين ، ويرتوي من مناهلها حتى أصبح من أفذاذ الشرق الإسلاميِّ في ثقافته الغربية ، أخذ من علوم الغرب ، وثقافته ، وحضارته ، من فلسفةٍ واجتماعٍ ، وأخلاقٍ ، واقتصادٍ ، وسياسةٍ ، ومدنيةٍ ، غاية ما يمكن لغربيٍّ متخصصٍ فضلاً عن شرقيٍّ متطفل ، وبلغ بدراسته إلى أحشاء الفلسفة القديمة والجديدة ، هذا إلى توسعٍ في الآداب الإنجليزية ، والألمانية ، والشعر الغربي في مختلف أدواره وعصوره ، ودراسة الفكر الغربيِّ في مختلف أطواره ومراحل حياته.

المدرسة الثانية:

ولكن لو وقف صاحبنا عند هذا الحدِّ ، واكتفى بثمار هذه المدرسة لما كان موضوع حديث اليوم ، ولما اشتغل الأدب الإسلاميُّ والتاريخ الإسلاميُّ بالتغنِّي بآثاره ، ولما فسحا له محلَّ الصدارة العلمية ، والزعامة الفكرية العبقرية والإسلاميَّة ، ولكلٍّ منها شروطٌ دقيقةٌ ، ومستوىً عالٍ ، لا يحتلُّه الإنسان بمجرد الدراسة والتفنُّن في العلوم ، وكثرة التأليف والإنتاج ، أقول: لو وقف صاحبنا عند هذه المدرسة ، واقتصر على ثقافتها ودراستها ، لما زاد على أن يكون أستاذاً كبيراً في الفلسفة ، أو علم

الاقتصاد أو في الآداب أو التاريخ ، أو مؤلفاً كبيراً ، أو محاضراً بارعاً في العلوم العصرية ، أو أديباً صاحب أسلوبٍ ، أو شاعراً مجيداً ، أو محامياً ناجحاً في مهنته ، أو قاضياً في محكمةٍ ، أو وزيراً في دولة.

وصدقوني أيها الإخوان! أن لو كان ذلك لطواه الزّمان فيمن طوى من كبار العلماء ، والأدباء ، والشعراء ، والمؤلفين ، والقضاة ، والوزراء ، إنَّ الفضل في عبقرية إقبال ، وخلود آثاره ، ونفوذه في العقول والقلوب ، يرجع إلى المدرسة الثانية التي تخرَّج فيها.

إنَّني لأراكم أيها الإخوان! تذهبون كلَّ مذهبٍ في تشخيص هذه المدرسة ، والاهتداء إلى موقعها ، وإنِّي لأراكم تتطلّعون إلى معرفة أخبارها ، فمن أنشأ هذه المدرسة التي أنجبت مثل هذا الشاعر العظيم؟ وما هي العلوم التي تدرس فيها؟ وما هي لغة التعليم في هذا المعهد؟ ومن المعلمون فيها؟ لا شكَّ أنَّهم من كبار المربِّين ، وأعظم الموجهين ، فقد أنتجوا مثل هذا النابغة في العلوم ، العملاق في العقل والتفكير ، وما هي شروط هذه المدرسة وما تكاليفها؟ وأظنُّ أن لو علمتم وجودها ومحلّها لأسرع كثيرٌ منكم إليها ، والتحق بها.

إنَّها مدرسةٌ ما خاب مَنْ تعلَّم فيها ، وما ضاعَ مَنْ تخرَّج منها ، إنها مدرسة لم تخرج إلا أئمة الفنِّ المجتهدين ، وواضعي العلوم المبتكرين وقمة الفكر والإصلاح المجدِّدين ، الذين يشغلون المدارس ورجالها بفهم ما قالوا ، ودراسة ما كتبوا ، وشرح ما خلفوا ، وتعليل ما ألَّفوا ، وتأييد ما أثبتوا ، وتفصيل ما أجملوا ، فيتكون من كلمتهم كتابٌ ، ومن كتابهم مكتبةٌ.

إنها مدرسةٌ ما تُعلِّم التاريخ ، بل تلد التاريخ ، وما تشرح الفكرة بل تضع الفكرة ، وما تنتخب الآثار ، بل تنتج الآثار ، إنَّها مدرسة توجد في كلِّ زمانٍ ، وهي أقدم مدرسةٍ على وجه الأرض.

ولا أمتحن صبركم أيها الإخوان طويلاً! إنَّها مدرسةٌ داخليةٌ تولد مع الإنسان ، ويحملها الإنسان معه في كلِّ مكان ، هي مدرسة القلب

والوجدان ، هي مدرسة تشرف عليها التربية الإلهية ، وتمدُّها القوَّة الروحية.

قد تخرج محمد إقبال في هذه المدرسة ، كما تخرج كثيرٌ من الرجال الموهوبين ، وحدَّث عنها كثيرٌ في شعره ، ورد إليها الفضل في تكوين سيرته ، وعقليته ، وأخلاقه ، وشخصيته ، وصرَّح مراراً بأنه يدين لهذه المدرسة ما لا يدين للمدرسة الخارجية ، وأنَّه لولا هذه المدرسة ، وتربيتها لما ظهرت شخصيته ، ولما اشتعلت مواهبه ، ولا اتضحت رسالته ، ولا تفتحت قريحته ، وقد حدَّث عن معلمي هذه المدرسة وأساتذتها كثيراً ، وذكر فضلهم عليه.

العامل الأول:

فممَّن يردُّ الفضل إليه في هذه المدرسة «الإيمان» الذي لم يزل مربياً له ومرشداً ، ولم يزل مصدر قوته ومنبع حكمته ، وليس إيمان محمد إقبال هو الإيمان الجاف الخشيب الذي هو مجرَّد عقيدةٍ أو تصديقٍ بسيط ، بل هو مزيج اعتقادٍ وحبٍّ ، يملك عليه القلب والمشاعر ، والعقل والتفكير ، والإرادة والتصرف ، والحبَّ والبغض ، وقد كان شديد الإيمان بالإسلام ورسالته ، قويَّ العاطفة ، شديد الإخلاص ، والإجلال لرسول الله ﷺ ، متفانياً في حُبِّه ، مقتنعاً بأنَّ الإسلام هو الدين الخالد الذي لا تسعد الإنسانية إلا به ، وأنَّ النبي ﷺ هو خاتم الرسل ، والبصير بالسبل ، وإمام الكلِّ.

ويُرجع محمد إقبال الفضل في تكوين شخصيته ، وتماسكه أمام المادة ومغرياتها وتيار الحضارة الغربية الجارف إلى الاتصال الرُّوحي بالنَّبيِّ ﷺ ، وحبِّه العميق له ، ولاشكَّ أنَّ الحبَّ هو خير حاجزٍ للقلب ، وخير حارسٍ له ، إذا احتلَّ قلباً وشغله ، منعه من أن يغزوه غيره ، أو يكون كريشةٍ في فلاةٍ ، أو يعبث به العابثون ، يقول:

«لم يستطع بريق العلوم الغربية أن يبهر لبِّي ، ويعشي بصري ، وذلك لأني اكتحلت بإثمد المدينة» ويقول: «مكثت في أتون التعليم الغربيِّ

وخرجت كما خرج إبراهيم من نار نمرود» ويقول: «لم يزل ، ولا يزال فراعنة العصر يرصدونني ، يكمنون لي ، ولكني لا أخافهم ، فإني أحمل اليد البيضاء. إنَّ الرجل إذا رزق الحبَّ الصادق عرف نفسه ، واحتفظ بكرامته ، واستغنى عن الملوك والسلاطين ، لا تعجبوا إذا اقتنصت النُّجوم ، وانقادت لي الصعاب ، فإنِّي من عبيد ذلك السيد العظيم الذي تشرفت بوطأته الحصباء ، فصارت أعلى قدراً من النُّجوم ، وجرى في إثره الغبار فصار أعبق من العبير».

وفي كتاب «أسرار خودي» ذكر الشاعر مقومات حياة الأمة الإسلامية ، والدعائم التي تقوم عليها ، فذكر منها اتصالها الدائم بنبيِّها ﷺ ، والتشبُّع بتعاليمه ، والتفاني في حبّه ، ولما ذُكِر النَّبيُّ ﷺ اندفع الشاعر يمدحه ، وأرسل النفس على سجيتها ، فقال أبياتاً لا تزال تعدُّ من غرر المدائح النبوية ، والشعر الوجداني ، يقول: «إنَّ قلب المسلم عامرٌ بحبِّ المصطفى ﷺ ، وهو أصل شرفنا ، ومصدر فخرنا في هذا العالم ، إنَّ هذا السيِّد الذي داست أمته تاج كسرى ، كان يرقد على الحصير ، إنَّ هذا السَّيِّد الذي نام عبيده على أسرَّة الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنومٍ ، قد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد ، فكان أن وجدت أمَّة ، ووجد دستور ، ووجدت دولة ، إذا كان في الصلاة فعيناه تهملان دمعاً ، وإذا كان في الحرب فسيفه يقطر دماً ، لقد فتح باب الدنيا بمفتاح الدين ، بأبي هو وأمي! لم تلد مثله أمٌّ ، ولم تنجب مثله الإنسانية افتتح في العالم دوراً جديداً ، وأطلع فجراً جديداً ، كان يساوي في نظرته الرفيع والوضيع ، ويأكل مع مولاه على خوانٍ واحدٍ ، جاءته بنت حاتم أسيرةً مقيَّدةً سافرة الوجه ، خجلةً مطرقة رأسها ، فاستحيا النبيُّ ﷺ ، وألقى عليها رداءه.

نحن أعرى من السيده الطائية ، نحن عراةٌ أمام أمم العالم ، لطفه وقهره كلُّه رحمةٌ ، هذا بأعدائه وذلك بأوليائه ، الذي فتح على الأعداء باب الرحمة ، وقال: لا تثريب عليكم اليوم نحن المسلمين من الحجاز ، والصين ، وإيران ، وأقطار مختلفة ، نحن غيضٌ من فيضٍ واحدٍ ، نحن أزهارٌ كثيرةُ العدد ، واحدة الطيب والرائحة ، لماذا لا أحبُّه ولا أحنُّ إليه

وأنا إنسانٌ ، وقد بكى لفراقه الجذع ، وحنّت إليه سارية المسجد ، إنَّ تربة المدينة أحبُّ إليَّ من العالم كلِّه ، أنعم بمدينة فيها الحبيب!».

ولم يزل حبُّ النَّبيِّ ﷺ يزيد ، ويقوى مع الأيام ، حتى كان في آخر عمره إذا جرى ذكر النَّبيِّ ﷺ في مجلسه ، أو ذكرت المدينة ـ على منوِّرها ألف سلام ـ فاضت عينه ، ولم يملك دمعه ، وقد ألهمه هذا الحبُّ العميق معاني شعريةً عجيبةً ، منها قوله وهو يخاطب الله سبحانه وتعالى: «أنت غنيٌّ عن العالمين ، وأنا عبدك الفقير ، فاقبل معذرتي يوم الحشر ، وإن كان لابدَّ من حسابي فأرجوك يا ربِّ! أن تحاسبني بنجوةٍ من المصطفى ﷺ ، فإني أستحِي أن أنتسب إليه ، وأكون في أمته ، وأقترف هذه الذنوب والمعاصي».

وكان محمد إقبال كثير الاعتداد بهذا الإيمان ، شديد الاعتماد عليه ، يعتقد أنَّه هو قوَّته ، وميزته ، وذخره ، وثروته ، وأنَّ أعظم مقدارٍ من العلم والعقل ، وأكبر كميَّةٍ من المعلومات والمحفوظات لا تساوي هذا الإيمان البسيط ، يقول في بيتٍ: «إنَّ الفقير المتمرِّد على المجتمع ـ يشير إلى نفسه ـ لا يملك إلا كلمتين صغيرتين قد تغلغلتا في أحشائه ، وملكتا عليه فكره ، وعقيدته ، وهما:

«لا إله إلا الله ، محمَّد رسول الله» ، وهناك علماء وفقهاء ، الواحد منهم يملك ثروةً ضخمةً من كلمات اللغة الحجازيَّة ، ولكنّه قارون لا ينتفع بكنوزه.

هذا هو إيمان محمد إقبال أيها السادة! وحبُّه ، من تتبَّع التاريخ عرف أنَّ الحب هو مصدر الشعر الرقيق ، والعلم العميق ، والحكمة الرائعة ، والمعاني البديعة ، والبطولة الفائقة ، والشخصيَّة الفذَّة ، والعبقرية النادرة ، إليه يرجع الفضل في غالب عجائب الإنسانية ، ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ ، وإذا تجرَّد منه شخصٌ؛ كان صورةً من لحمٍ ودمٍ ، وإذا تجردت منه أمَّةٌ؛ كانت قطيعاً من غنم ، وإذا تجرَّد منه شِعْرٌ؛ كان كلاماً موزوناً مقفًّى فحسب ، وإذا تجرَّد منه كتابٌ؛ كان مجموع أوراق وحبراً على

ورقٍ ، وإذا تجرَّدت منه عبادةٌ؛ كانت طقساً من الطقوس ، وهيكلاً بلا روح ، وإذا تجرَّدت منه مدنيَّةٌ؛ أصبحت تمثيلاً لا حقيقة فيه ، وإذا تجرَّدت منه مدرسةٌ أو نظام تعليم؛ أصبح تقليداً ، أو تكليفاً لا متعة فيه ، ولا حافز له ، وإذا تجردت منه حياة؛ كلَّت الطبائع ، وجمدت القرائح ، وأجدبت العقول ، وانطفأت شعلة الحياة ، واختفت المواهب ، هذا هو الحبُّ الصَّادق الذي يتجلَّى على الرَّجل ، فيصدر منه من روائع الكلام ، أو خوارق الشَّجاعة والقوَّة ، والآثار الخالدة في العلم والأدب ما لم يكن ليصدر منه لولا هذا الحبّ الذي أشعل موهبته ، وفتح قريحته ، وملك عليه قلبه وفكره ، وأنساه نفسه ، ومتاعب الحياة ، وإغراء الشهوات ، وبريق المادة ، فتمرَّد بذلك على المجتمع ، هذا هو الحبُّ الذي يدخل بين الطِّين والماء والحجارة والآجر ، فيجعل منها آثاراً خالدةً ، وتحفةً فنيةً ، كمسجد قرطبة ، وقصر الزَّهراء ، والتَّاج محل ، وما مِنْ أثرٍ من الآثار الباقية في الأدب والفن والتأليف والبطولة ، إلا ووراءه عاطفةٌ قويةٌ من الحبِّ.

لقد ضلَّ مَنْ زعم أنَّ العلماء يتفاضلون بقوَّة العلم ، وكثرة المعلومات ، وزيادة الذَّكاء ، وأنَّ الشعراء يتفاضلون بقوَّة الشاعرية ، وحسن اختيار اللفظ ، ودقَّة المعاني ، وأنَّ المؤلفين يتفاضلون بسعة الدراسة ، والمطالعة ، وكثرة التأليف ، والإنتاج ، وأنَّ المعلمين يتفاضلون بحسن الإلقاء والمحاضرة ، واستحضار المادَّة الدراسية وكثرة المراجع ، وأنَّ المصلحين والزعماء يتفاضلون بالبراعة في الخطابة وأساليب السياسة ، والحكمة ، واللباقة ، إنما يتفاضل الجميع بقوَّة الحبِّ والإخلاص لغايتهم ، إذا فاق أحدهم الآخر؛ فإنَّما يفوقه لأنَّ الغاية أو الموضوع حلَّ في قرارة نفسه ، وسرى منه مسرى الرُّوح ، وملك عليه قلبه وفكره ، وقهر شهوته ، واضمحلت فيه شخصيته ، فإذا تكلَّم تكلَّم عن لسانه ، وإذا كتب كتب بقلمه ، وإذا فكَّر فكَّر بعقله ، وإذا أحبَّ أو أبغض؛ فبقلبه.

لقد جنت المدنية الحديثة أيها السادة! على الإنسانية جنايةً عظيمةً؛ إذ قضت على هذه العاطفة التي كانت قوَّةً كبرى ، ومنبعاً فيَّاضاً للحياة ، وملأت فراغها بالنفعية ، والمادية أو الحبِّ الجسمي ، والغرام الماديِّ ،

ولم تستطع بحكم ماديتها وضيق تفكيره ، أن تفهم أنَّ هناك حبّاً للمعاني السَّامية ، وجمالاً معنوياً هو أقوى من هذا الحبِّ ، وأساءت المدرسة العصرية ـ وأعني بها نظام التعليم الحديث ـ إلى الجيل الجديد؛ إذ لم تحتفل بهذه العاطفة والوجدان احتفالاً ما ، ولم تحسن توجيه القلوب وإشعالها بحرارة الإيمان وحياة الوجدان ، فأصبح العالم العصريُّ أشبه بجماد متحرِّكٍ دائرٍ لا حياة فيه ، ولا روح ، ولا قلب له ولا شعور ، ولا ألم عنده ، ولا أمل ، إنما هو دوامةٌ جامدةٌ ، تديرها يدٌ قاهرةٌ ، أو إرادةٌ قاسرة.

فإذا رأيتم أيها السادة! أنَّ شعر إقبال من نوع آخر غير النوع الذي عرفناه ، وجرَّبناه في شعرائنا المتقدِّمين والمتأخِّرين ، وغير الشعر الذي ندرسه في مدارسنا ، هذا شعر تهتُّز له المشاعر ، وتتوتَّر له الأعصاب ، ويجيش له القلب ، وتثور له النَّفس ، حتَّى تكاد تحطِّم السلاسل ، وتفكُّ الأغلال ، وتتمرَّد على المجتمع الآسر ، وتصطدم بالأوضاع الجائرة ، وتستخف بالقوة الهائلة ، شعرٌ إذا قرأه الإنسان في لغة الشاعر ، أحسَّ بأنَّه قد مرَّ به تيَّارٌ ربانيٌّ فهزَّه هزّاً عنيفاً ، إذا وجدتم ذلك أيها السادة! فاعلموا أنَّه ليس إلا لأنَّ الشاعر قويَّ الإيمان ، قويَّ العاطفة ، جيَّاش الصدر ، فيَّاض الخاطر ، ملتهب الرُّوح ، قد أحسنت المدرسة الثانية التي تحدثت عنها تربيته ، قد أحسن أساتذتها تثقيفه ، وتغذيته بهذه العاطفة وتنميتها وإشعالها فيه.

العامل الثاني:

أما الأستاذ الآخر الذي يرجع إليه الفضل في تكوين شخصيته وعقليته؛ فهو أستاذٌ كريمٌ لا يخلو منه بيتٌ من بيوت المسلمين ، ولكن ليس الشأن في وجود الأستاذ ، وكونه بمتناول اليد من تلاميذه ، إنما الشأن في معرفته ، وتقديره ، وإجلاله ، والإفادة منه ، وإلا لكان أبناء البيت ، ورجال الأسرة ، وأهل الحي أسعد بعالمهم ، وأكثر انتفاعاً من غيرهم ، ولكن بالعكس من ذلك ، رأينا أنَّ العالم الكبير ، والحكيم الشهير ، والمؤلف

العظيم ، ضائعٌ في بيته ، مهجورٌ في داره ، يزهد فيه أولاده ، ويستهين بقيمته أفراد أسرته ، ويأتي رجلٌ من أقصى العالم ، فيغترف من بحر علمه ، ويتضلَّع من حكمته.

لا تذهب بكم الظنون ، ولا يبعد بكم القياس أيها الإخوان! فذلك الأستاذ العظيم هو القرآن الكريم ، الذي أثرَّ في عقلية إقبال وفي نفسه ما لم يؤثر فيه كتابٌ ولا شخصيَّةٌ ، ولكنَّه أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبال رجلٍ حديث العهد بالإسلام ، فيه من الاستطلاع والتشوُّق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب فيما ورثوه من مالٍ ومتاعٍ ودارٍ ، وعقارٍ ، وقد وصل هذا المهتدي إليه بشقِّ النَّفس ، وعلى جسرٍ من الجهاد والتَّعب ، كان سرور محمد إقبال باكتشاف هذا العالم الجديد من المعاني والحقائق أعظم من سرور «كولمبس» لما اكتشف العالم الجديد ، ونزل على شاطئه ، أمَّا الذين ولدوا ، ونشؤُوا في هذا العالم الجديد فكانوا ينظرون إلى «كولمبس» وأصحابه باستغرابٍ ودهشةٍ ، ولا يفهمون معنىً لما كان يخامره من سرورٍ وفرحٍ ، فإنَّهم لا يجدون في هذا العالم شيئاً جديداً.

لقد كانت قراءة محمد إقبال للقرآن قراءة تختلف عن قراءة الناس ، ولهذه القراءة الخاصَّة فضلٌ كبيرةٌ في تذوقه للقرآن ، واستطعامه إيَّاه ، وقد حكى قصته لقراءة القرآن ، قال: «قد كنت تعوَّدت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصُّبح كلَّ يوم ، وكان أبي يراني ، فيسألني ماذا أصنع؟ فأجيبه أقرأ القرآن ، وظلَّ على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله ، فأجيبه جوابي ، وذات يوم قلت له: ما بالك يا أبي! تسألني نفس السؤال ، وأجيبك جواباً واحداً ، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غدٍ؟ فقال : إنما أردت أن أقول لك يا ولدي! اقرأ القرآن كأنما نزل عليك! ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهَّم القرآن ، وأقبل عليه ، فكان من أنواره ما اقتبست ، ومن درره ما نظمت».

ولم يزل محمد إقبال إلى آخر عهده بالدنيا يغوص في بحر القرآن ، ويطير في أجوائه ، ويجوب في آفاقه ، فيخرج بعلمٍ جديدٍ ، وإيمانٍ جديدٍ ، وإشراقٍ جديدٍ ، وقوَّةٍ جديدةٍ ، ولكما تقدَّمت دراسته ، واتَّسعت

آفاق فكره؛ ازداد إيماناً بأنَّ القرآن هو الكتاب الخالد ، والعلم الأبديُّ ، وأساس السعادة ، ومفتاح الأقفال المعقَّدة ، وجواب الأسئلة المحيِّرة ، وأنَّه دستور الحياة ، ونبراس الظلمات ، ولم يزل يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى التدبُّر في هذا الكتاب العجيب ، وفهمه ودراسته ، والاهتداء به في مشكلات العصر ، واستفتائه في أزمات المدنيَّة ، وتحكيمه في الحياة والحكم ، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب الذي يرفع الله به أقواماً ، ويضع به آخرين ، يقول في مقطوعة شعريَّة: «إنك أيها المسلم لا تزال أسيراً للمتزعِّمين للدين ، والمحتكرين للعلم ، ولا تستمدُّ حياتك من حكمة القرآن رأساً ، إنَّ الكتاب الذي هو مصدر حياتك ، ومنبع قوتك لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة ، فتقرأ عليك سورة «يس» لتموت بسهولةٍ ، فواعجباً! قد أصبح الكتاب الذي أنزل ليمنحك الحياة والقوة ، يتلى الآن لتموت براحةٍ وسهولة»[(١)].

وقد أصبح محمد إقبال بفضل هذه الدراسة العميقة والتدبُّر ، لا يفضل على هذا الكتاب شيئاً ، ولا يعدل به منفعة وهديَّةً ، لأغنى رجلٍ في العالم ، وأعظم الرجال علماً وعقلاً ، ولذلك لما دعاه المرحوم نادر خان ملك أفغانستان إلى كابل ، ونزل ضيفاً عليه ، أهدى محمد إقبال إلى الملك نسخةً من القرآن ، وقدمها إليه قائلاً: «إنَّ هذا الكتاب رأس مال أهل الحق ، في ضميره الحياة ، وفيه نهاية كلِّ بداية ، وبقوَّته كان علي رضي الله عنه فاتح خيبر» فبكى الملك ، وقال: «لقد أتى على نادر خان زمانٌ وما له أنيسٌ سوى القرآن ، وهو الذي فتحت قوته كل باب»[(٢)].

العامل الثالث:

والرُّكن الثالث أيها السادة! في نظام تربيته ، وتكوين شخصيته هو معرفة النفس ، والغوص في أعماقها ، والاعتداد بقيمتها ، والاحتفاظ بكرامتها ، وقد عامل نفسه بما نصح به غيره في قصيدة يقول فيها: «انزل في أعماق

(١) أرمغان حجاز.
(٢) مثنوي مسافر.

قلبك ، وادخل في قرارة شخصيتك ، حتى تكتشف سرَّ الحياة ، ما عليك إذا لم تنصفني وتعرفني ، لكن أنصف نفسك يا هذا! واعرفها ، وكن لها وفياً.

ما ظنك بعالم القلب ، هو كله حرارةٌ وشكر ، وحنان وشوق ، أما عالم الجسم فتجارةٌ وزورٌ واحتيال «إنَّ ثروة القلب لا تعدو صاحبها ، أمَّا ثروة الجسم فظلٌّ زائلٌ ونعيمٌ راحلٌ. إنَّ عالم القلب لم أر فيه سلطة الأفرنج ، ولا اختلاف الطبقات ، لقد كدت أذوب حياءً وتندى جبيني عرقاً ، إذ قال لي حكيمٌ: إذا خضعت لغيرك أصبحت لا تملك قلبك ، ولا جسمك»(١).

وقد كان إقبال كثير الاعتداد بمعرفة النفس ، يرى أنَّ العبد يسمو بها إلى درجة الملوك ، بل يعلوهم إذا كان جريئاً مقداماً ، يقول في قصيدة: «إنَّ الإنسان إذا عرف نفسه بفضل الحبِّ الصادق ، وتمسَّك بآداب هذه المعرفة ، انكشفت على هذا المملوك أسرار الملوك ، إنَّ ذلك الفقير الذي هو أسد من أسود الله ، أفضل من أكبر ملوك العالم».

إنَّ الصراحة والجرأة من أخلاق الفتيان ، وإنَّ عباد الله الصادقين لا يعرفون أخلاق الثعالب ، وقد جعلته هذه المعرفة النفسية والاعتداد لا يقبل رزقاً إذا قيَّد حريته ، يقول في نفس القصيدة: «يا صاح! إنَّ الموت أفضل من رزق يقصُّ من قوادمي ، ويمنعني من حرية الطيران»(٢).

وكان إقبال يعرف قيمته ويعرف مكانته ، في غير صلفٍ ولا غرورٍ يضنُّ بحريته وكرامته ، ويربأ بنفسه عن أن يكون عبداً لغيره ، يقول في مقطوعةٍ: «لك الحمد يا رب! إذ لست من سقط المتاع ، ولست من عبيد الملوك والسلاطين ، لقد رزقتني حكمةً وفراسةً ، ولكني أحمدك على أني لم أبعهما لملكٍ من الملوك»(٣) ، ويقول مفتخراً: «إني من غير شكٍّ فقيرٌ قاعدٌ على قارعة الطريق ، ولكنِّي غنيُّ النفس أبيٌّ» ، وكان عمله بما يخاطب به

(١) بال جبرئيل.
(٢) بال جبرئيل.
(٣) بال جبرئيل.

غيره في قصيدة يقول فيها: «إذا لم تعرف رازقك كنت فقيراً إلى الملوك، وإذا عرفته افتقر إليك كبار الملوك، إنَّ الاستغناء ملوكيةٌ، وعبادة البطن قتلٌ للروح، وأنت مخيَّرٌ بينهما، إذا شئت اخترت القلب، وإذا شئت اخترت البطن»[١]، ولاشكَّ أنَّ محمد إقبال اختار القلب.

لذلك كان يثور إذا جرحت كرامته، وامتحنت عفته، قدَّم إليه رئيس وزارة في دولة، في عيد ميلاد محمد إقبال، هديَّةً محترمة من النقود فرفضها، وقال: «إن كرامة الفقير تأبى عليَّ أن أقبل صدقة الأغنياء»، وعرضت عليه الحكومة البريطانية وظيفة نائب الملك في إفريقية الجنوبية، وكان من تقاليد هذه الوظيفة أنَّ حرم نائب الملك تكون سافرة، تستقبل الضيوف في الولائم الرسمية، وتكون مع زوجها في الحفلات، فرفضها، وقال: «ما دام شرطاً لقبول الوظيفة فلا أقبله؛ لأنَّه إهانةُ ديني، ومساومة كرامتي».

وكان بفضل معرفته بقيمة نفسه شديد الاحتفاظ بقوَّته ومواهبه، يعتقد أنَّه صاحب رسالةٍ ومهمَّة في هذه الحياة، وليس له أن يضع نفسه محلَّ الشاعر الذي ليست له رسالة، والنظَّامين الذين ينظمون في كلِّ مناسبة، فإذا أريد منه غير ذلك ضاقت نفسه، يقول في أبياتٍ وجهها إلى رسول الله ﷺ: «إني لأشكو إليك يا سيِّد الأمم! أنَّ أصدقائي يعتقدون أنِّي شاعرٌ نظَّامُ، فيقترحون علي اقتراحات»، ويقول في بيتٍ آخر: «أنا حائرٌ في أمري يا سيِّدي رسول الله! إنَّك تأمرني أن أبلغ أمتَّك رسالة الحياة، والقوة، وهؤلاء يقولون: أرِّخ لموت فلان، وفلان، فماذا أفعل؟».

وقد كانت هذه المعرفة من كبار أنصار شخصيته ورسالته، وممَّا انتفع بها الإسلام انتفاعاً عظيماً، وقد عصمت الشاعر من التيه الفكريِّ، والهيام الأدبيِّ؛ اللَّذان يصاب بهما أدباؤنا، وشعراؤنا، وكتَّابنا، وعلماؤنا، فينتجعون كلَّ كلأ، ويهيمون في كلِّ واد، ويكتبون في كلِّ موضوعٍ وفق

---

(١) بال جبرئيل.

عقيدتهم أم لا ، ويمدحون كلَّ شخصٍ ، ويظلون إلى آخر حياتهم لا يعرفون أنفسهم ، ولا يعلمون رسالتهم ، أما الدكتور محمد إقبال فكان من توفيق الله تعالى ، ومن حسن حظ الإسلام والمسلمين في الهند؛ أنَّه عرف نفسه في أول يومٍ ، وقدَّر مواهبه تقديراً صحيحاً ، ثم ركز فكره وقوة شاعريته على بعث الحياة والروح في المسلمين ، وإيجاد الثقة والاعتزاز بشخصيتهم ، والإيمان برسالتهم ، والطموح إلى القوَّة والحرية والسيادة ، كان شاعراً مطبوعاً ، حتى لو أراد أو أريد ألَّا يكون شاعراً ، لما استطاع ، ولقهره الشِّعر ، وغلبه ، كان سائل القريحة ، فيَّاض الخاطر ، ملهم المعاني ، مطاع اللفظ ، وكان مبدعاً يوم كان شاعراً ، وكان فناناً ، وصنَّاعاً ماهراً ، سلَّم له شعراء العصر بالإمامة والإعجاز ، وتأثر بشعره الجوُّ ، فما من شاعرٍ ولا أديبٍ في عصره إلا تأثر به في اللغة ، أو التراكيب ، والمعاني ، والأفكار ، والأغراض ، وهو من أفذاذ شعراء العالم في التفنُّن والإبداع ، وابتكار المعاني ، وجدَّة التشبيه ، والاستعارات ، وقد ساعده في ذلك اتصاله بالشعر الإنجليزي والألماني ، فضلاً عن الفارسي الذي هو خاتم شعرائه ، ولكن ليس هذا كل ما يمتاز به محمد إقبال ، فعصره لا يخلو من شعراء ، ولا يخلو من شعراء مجيدين ، ولكنه امتاز بأنه أخضع شاعريته القويَّة ، وقوته الأدبية وعبقريته الفنّيَّة لرسالة الإسلام ، فلم يكن شاعر ملكٍ ، ولا شاعر الوطنية ، ولا شاعر الهوى والشباب ، ولا شاعر الحكمة والفلسفة ، بل كان صاحب رسالةٍ إسلاميَّة ، استخدم لها الشعر ، كما تستخدم للرسائل أسلاك الكهرباء فتكون أسرع وصولاً ، ولطيب الأزهار نفحاتُ الهواء فيكونُ أكثر انتشاراً ، فكان الشعر حامل رسالته ، ورائد حكمته ، يسبقها ويوطِّىء لها أكنافاً ، ويذلل لها صعاباً؛ ويفتح أبواباً ، وكان شعره من جنود الإسلام ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الفتح : ٤] ولا أعرف أحداً يستخدم شعره لغرضٍ أسمى ، وغايةٍ أجدى منه ، فأيقظ أمَّة ، وأشعل قلوبها إيماناً ، وحماسةً ، وطموحاً إلى حياةِ الشرف ، والاستقلال ، والسيادة ، والحكم الإسلاميِّ ، حتى أصبحت هذه الأمة لا ترضى إلا بدولةٍ تحكمها ، وتدير دفَّتها ، أوجد بشعره القوي الهزاز القلق

الفكريَّ ، والاضطراب النفسيَّ ، الذي عمَّ هذا الشعب المسلم ، وسائر الشباب الإسلامي بصفة خاصَّةٍ ، فأصبحوا لا يرتاحون ، ولا يهدأ لهم خاطر في حياة العبودية والذلة وحكم الأجانب ، حتى أصبحت في يوم من الأيام الدولة المسلمة الحرة حقيقةً راهنةً وواقعاً ملموساً.

ولا تعرف شاعراً أو أديباً يرجع إليه الفضل في تأسيس دولةٍ وتهيئة النفوس لها مثل ما يرجع إلى هذا الشاعر الإسلامي ، وتعلمون جميعاً أنَّ الدولة تسبقها الثورات الفكرية ، والتذمُّر من الحاضر ، والتطلُّع إلى المستقبل ، والقلق النفسي ، فإذا تم هذا كلُّه ونضج؛ قامت دولةٌ ، فإن كان شعرٌ قد أقام دولةً ، وأحدث ثورةً فكريةً ، كانت سبب الانتقال من حياةٍ إلى حياةٍ ، ومن وضعٍ إلى وضعٍ ، فهو من غير شك شعر إقبال ، وما ذاك أيها الإخوان! إلا بمعرفة الرجلِ نفسه وتقديره لمواهبه وقوته ، ووضعها في محلِّها ، والغيرة عليها من أن تضيع في موضوعاتٍ تافهةٍ ، وألفاظٍ فارغةٍ ، وألوانٍ زاهيةٍ ، ومظاهر الجمال الفانية ، وكم ضاع رجالٌ من العبقريين وأهل المواهب الكبيرة لعدم معرفتهم أنفسهم ، وقيمة ما يحسنون ، وما يمتازون به عن أقرانهم ، فباعوا أنفسهم وعلمهم بالمناداة ، أو باللغة المصرية ، «بالمزاد العلني» ، وقتلوا إنسانيتهم قبل أن يقتلها غيرهم ، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

العامل الرابع:

والمربِّي الرابع أيها السادة! الذي يرجع إليه الفضل في تكوين سيرته وشخصيته ، وفي قوة شعره وتأثيره ، وجدَّة المعاني ، وتدفق الأفكار ، هو أنه لم يكن يقتصر على دراسة الكتب والاشتغال بالمطالعة ، بل كان يتَّصل بالطبيعة من غير حجابٍ ، ويتعرَّض للنفحات السِّحرية ، ويقوم في آخر الليل ، فيناجي ربَّه ، ويشكو بثَّه وحزنه إليه ، ويتزوَّد بنشاطٍ روحيٍّ جديدٍ ، وإشراقٍ قلبيٍّ جديدٍ ، وغذاء فكريّ جديدٍ ، فيطلع على أصدقائه وقرّائه بشعرٍ جديد ويلمس الإنسان فيه قوّةً جديدةً ، وحياةً جديدةً ، ونوراً جديداً ، لأنَّه يتجدَّد كلَّ يومٍ فيتجدد شعره وتتجدد معانيه.

وكان عظيم التقدير لهذه الساعات اللطيفة التي يقضيها في السَّحر ، ويعتقد أنها رأس ماله ، ورأس مال كلِّ عالمٍ ومفكِّر ، لا يستغني عنها أكبر عالمٍ أو زاهدٍ ، يقول في بيت: «كن مثل الشيخ فريد الدين العطار في حرفته ، وجلال الدين الرومي في حكمته ، أو أبي حامد الغزالي في علمه وذكائه ، وكن من شئت في العلم والحكمة ، ولكنك لا ترجع بطائل حتى تكون لك أَنَّةٌ في السَّحر» ، وكان شديد المحافظة على ذلك ، كثير الاهتمام به ، يقول في مطلع قصيدة: «رغم أنَّ شتاء إنجلترا كان قارساً جدَّاً ، وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السَّيف ، ولكنِّي لم أترك في لندن التبكير في القيام» ، وكان لا يبغي به بدلاً ، ولا يعدل به شيئاً ، يقول في بيتٍ: «خذ مني ما شئت يا رب! ولكن لا تسلبني اللذة بأنَّه السحر ، ولا تحرمني نعيمها» ، بل كان يتمنَّى على الله أن تتعدَّى هذه الأنة السِّحرية والحرقة القلبية إلى شباب الأمة المتنعِّمين ، فتحرك سواكن قلوبهم ، وتنفخ الحياة في هياكلهم ، يقول في قصيدة: «اللهم! جرِّح أكباد الشباب بسهام الآلام الدينية ، وأيقظ الآمال والأماني النائمة في صدورهم ، بنجوم سمواتك التي لا تزال ساهرةً ، وبعبادك الذين يبيتون الليل سجداً وقياماً ، ولا يكتحلون بنومٍ ، ارزق الشباب الإسلاميَّ لوعة القلب ، وارزقهم حبِّي وفراستي» ويقول في قصيدةٍ:

«اللهم ارزق الشباب أنَّتي في السَّحر ، وأنبت لصقور الإسلام القوادم والخوافي ، التي تطير بها وتصطاد ، وليست لي أمنيةٌ يا رب! إلا أن تنتشر فراستي ، ويعمَّ نور بصيرتي في المسلمين» .

العامل الخامس:

والعامل الأخير والمؤثر الكبير في تكوين عقيدته وتوجيه رسالته أيها السادة! هو «المثنوي المعنوي» بالفارسية ، وقد كتبه مولانا جلال الدين الرومي في ثورةٍ وجدانيةٍ ونفسيةٍ شديدةٍ ضد الموجة العقلية الإغريقية التي اجتاحت العالم الإسلاميَّ في عصره ، وقد انتصر فيه للإيمان والوجدان انتصاراً قوياً ، وانتصف للقلب والروح والعاطفة والحب الصَّادق والمعاني

الرُّوحية ، من المباحث الكلامية الجافَّة ، والقشور الفلسفية التي كانت تشغل أذهان المسلمين والمدارس الدينية والأوساط العلمية في الشرق الإسلاميِّ ، والكتاب متدفقٌ قوةً وحياةً ، زاخرٌ بالأدب العالي والمعاني الجديدة ، والأمثال الحكيمة ، والحكم الغالية ، والنكت البديعة ، وطابعه العاطفة القويَّة ، والطبع الرَّيان الذي يملي هذه المنظومة التي لا تزال فريدةً في موضوعها في مكتبة الإسلام العامرة ، ولا يزال له التأثير القويُّ في تحرير الفكر من رقِّ العقل ، والتقديس الزائد للقيم العقلية ، والخضوع للمادِّية الرعناء ، ويبعث التمرُّد على عالم المادِّية الضيق ، والتطلُّع إلى أجواء الروح الفسيحة ، وكان العالم في عصر محمد إقبال يواجه التيار العقليَّ الأوربيَّ الذي جرف جميع القيم الروحية والخلقية ، وقد زادت الآلات الميكانيكية هذه الحضارة بعداً عن المعاني الرُّوحية ، والمبادىء الخلقية ، وما بعد الطبيعة ، فأصبحت حضارةً عقليةً ميكانيكيةً ، وقد قضى محمد إقبال فترةً من الزمن ينازعه عاملان : عامل العقل ، وعامل القلب ، وقام صراعٌ بين عقله المتمرِّد وعلمه المتجدِّد ، وقلبه الحارِّ الفائض بالإيمان ، وفي هذا الاصطراع الفكريِّ والاضطراب النفسيِّ ، ساعده المثنوي مساعدةً غاليةً ، ودافع عن عاطفته وقلبه دفاعاً مجيداً ، وحلَّ به كثيراً من ألغاز الحياة ، ولم يزل محمد إقبال يعرف له الجميل ، ويحفظ له هذا الفضل ، ويذكر في كثيرٍ من أبياته ، ويعزو إليه كثيراً من الحقائق والحكم ، يقول في بيتٍ يخاطب فيه أحد المأخوذين بسحر الغرب : «قد سحر عقلك سحر الأفرنج ، فليس لك دواء إلا لوعة قلب الروميِّ ، وحرارة إيمانه ، لقد استنار بصري بنوره ، ووسع صدري بحراً من العلوم» ، ويقول في بيت : «لقد أفدت من صحبة شيخ الرُّوم أنَّ كليماً واحداً ـ يشير إلى سيدنا موسى ـ هامته على راحته يغلب ألف حكيمٍ قد أحنوا رؤوسهم للتفكير» ، وكان محمد إقبال يرجو أن يجدد عليه رسالته في القرن العشرين ، ويخلفه في مهمته العلمية والروحية ، وكان يشعر أن الشيخ لا يزال يفوقه في الجانب الرُّوحيِّ ، وقد أشار إلى ذلك إشارةً لطيفةً ، يقول في قصيدةٍ :

«لم ينهض روميٌّ آخر من ربوع العجم مع أنَّ أرض إيران لا تزال على

طبيعتها ، ولا تزال تبريز[1] كما كانت ، إلا أنَّ إقبال ليس قانطاً من تربته ، فإذا سقيت بالدموع نبتت نباتاً حسناً ، وأتت بحاصلٍ كبير» .

هذا هي العوامل البارزة التي كونت شخصية محمد إقبال ، وهذه هي آثار تربية المدرسة الثانية التي تخرَّج فيها ، ولا شك أنَّها أقوىٰ من آثار المدرسة الأولى ، وكمياتٍ من المعلومات وافرةٍ ، فقد علمته المدرسة الثانية المتعددة الجوانب ، كيف يستعمل هذه المعلومات ، وكيف يخدم بها نفسه وأمَّته ، وقد منحته المدرسة الثانية العقيدة الراسخة ، والإيمان القويَّ ، والخلق المستقيم ، والتفكير السَّليم ، والرسالة الفاضلة .

* * *

(١) مدينة في إيران ، منها شمس الدين التبريزي ، شيخ الروميِّ في التصوُّف .

نـظـرة محمـد إقـبـال إلـى نظـام الـتَّعليـم الـعصـريِّ ومـراكـزه

ألقى العلامة النَّدويُّ هذه المحاضرة في كلية دار العلوم بالقاهرة لدى زيارته الأولىٰ لمصر عام ١٩٥١ م.

نقده لنظام التعليم:

نظر محمد إقبال إلى نظام التعليم الحديث ، فرأى فيه مواضع ضعفٍ كثيرة ، وجوانب نقصٍ عظيمة ، فتناولها بالانتقاد في صراحةٍ وشجاعةٍ ، ولفت إليها أنظار الرجال القائمين عليها ، وذكر من جنايات المدرسة ـ ويقصد بها نظام التعليم الحديث ـ على هذا الجيل شيئاً كثيراً تفيض به دواوين شعره ، يقول في بيت : «لقد خرجت من المدرسة والزاوية حزيناً ، لم أجد فيها الحياة ، ولا الحبَّ ، ولا الحكمة ، ولا البصيرة» ، ويقولِ في بيتٍ آخر :

«أمَّا رجال المدرسة ففاقدو البصر ، وميِّتو الذوق ، وأما شيوخ الزاوية فقاصرو الهمَّة ، ضعيفو الطلب ، قليلو البضاعة» .

جنايات المدرسة:

وَمِنْ رأي محمد إقبال أنَّ التعليم الحديث قد جنى على هذا الجيل جنايةً عظيمةً؛ إذ اعتنت بتربية عقله ، وتثقيف لسانه ، ولم تعتن شيئاً بتغذية قلبه ، وإشعال عاطفته ، وتقويم أخلاقه ، وتهذيب نفسه ، فنشأ جيلٌ غير متوازن القوى ، غير متناسب النشأة ، لقد تضخم وكبر بعض نواحي إنسانيته وحياته على حساب بعض ، وأصبحت المسافة بين ظاهره وباطنه ، وعقله وقلبه ، وعلمه وعقيدته ، مسافةً شاسعةً ، بل أصبح التفاوت بين عقله وجسمه كبيراً ، فالأول ضخمٌ كبيرٌ ، والثاني ضعيفٌ ناعمٌ ، وهو إذا وصف هذا الجيل الذي عاش فيه ، وعرفه عن كثب واتصال؛ صوَّره تصويراً صادقاً ، ينطبق تمام الانطباق على أبناء المدارس والشباب الجديد ، يقول :

«إنَّ الشباب المثقف فارغُ الأكواب ، ظمآنُ الشفتين ، مصقول الوجه ، مظلم الروح ، مستنير العقل ، كليل البصر ، ضعيف اليقين ، كثير اليأس ، لم يشاهد في هذا العالم شيئاً ، هؤلآء الشبان أشباه الرجال ، ولا رجال ، ينكرون نفوسهم ، ويؤمنون بغيرهم ، يبني الأجانب من ترابهم الإسلامي

كنائس وأدياراً ، شبابٌ ناعمٌ ، رخوٌ ، رقيقٌ في الشباب كالحرير ، يموت الأمل في مهده في صدورهم ، ولا يستطيعون أن يفكروا في الحرية ، إنَّ المدرسة قد نزعت منهم العاطفة الدينَّية ، وأصبحوا خبر كان ، أجهل الناس لنفوسهم ، وأبعدهم من شخصياتهم ، شغفتهم الحضارة الغربية ، فيمدون أكفهم إلى الأجانب ليتصدَّقوا عليهم بخبز شعير ، ويبيعون أرواحهم في ذلك ، إنَّ المعلم لا يعرف قيمتهم ، فلم يخبرهم بشرفهم ، ولم يعرفهم بشخصيتهم ، مؤمنون ، ولكن لا يعرفون سرَّ الموت ، ولا يؤمنون بأنَّه لا غالب إلا الله ، يشترون من الإفرنج الَّلات ، ومناة ، مسلمون لكن عقولهم تطوف حول الأصنام ، إنَّ الإفرنج قد قتلوه من غير حربٍ وضربٍ ، عقولٌ وقحة ، وقلوبٌ قاسية ، وعيونٌ لا تعفُّ عن المحارم ، وقلوبٌ لا تذوب بالقوارع ، كلُّ ما عندهم من علمٍ وفنٍّ ، ودينٍ وسياسةٍ ، وعقلٍ وقلبٍ يطوف حول المادِّيات ، قلوبهم لا تتلقى الخواطر المتجدِّدة ، وأفكارهم لا تساوي شيئاً ، حياتهم جامدةٌ ، واقفةٌ متعطِّلةٌ».

ويذكر محمد إقبال أنَّ السبب في جبن هذا الجيل وضعفه الخلقيُّ ؛ الوضع التعليمي الحاضر ، وإهماله للجانب الخُلُقيِّ ، ونشأة الشباب المتحلِّلة ، يقول في قصيدة : «لا أستغرب أيها الشباب المتعلم! إنك سيِّىءٌ جبان ، فإنَّ قلبك باردٌ لا لوعة فيه ، ولا حرارة ، ونظرك غير عفيفٍ ، إنَّ الشباب المثقَّف الذي استنارت عينه بنور الإفرنج قد يكون لبقاً في الحديث ، متشدِّقاً في الكلام ، ولكن عينيه لا تعرف الدموع ، وقلبه لا يعرف الخشوع».

ورأى محمد إقبال أنَّ المدرسة هي المسؤولة عن هذا المسخ الخُلُقيّ ، وهي التي نزلت بالشباب المسلم عن مقامه الرفيع إلى المحلِّ الوضيع ، يقول في بيتٍ : «أشكو إليك يا رب! من ولاة التعليم الحديث ، وأنهم يربُّون فراخ الصقور تربية بغاث الطيور ، وأشبال الأسود تربية الخروف».
ومن أسباب هذا الضعف النفسيِّ هو العقل المثبّط؛ الذي يمنع من المغامرات والمخاطرة بالنفس ، ويحذر من سوء العاقبة ، ويكبر الأخطاء ، يقول في بيتٍ: «إنَّ التعليم قد باعدك من الجنون الذي كان ينزع العقل» ،

ويقول له: «لا تعلل ولا تثبط عن المغامرة ، إنَّ الأسرار التي حجبتها عنك المدرسة لا تزال مكشوفة في خلوات الجبال والصحارى» ، ومن أكبر أسباب هذا الضعف ، الذُّلُّ والتقدير الزائد للمادَّة ، والنظر إلى الوظيفة والمرتب كغاية للتعليم ، يقول في بيتٍ: «إنَّ ذلك العلم سمٌّ ناقعٌ للأفراد الذين ليست لهم غايةٌ إلا حفنتان من شعيرٍ» (يعني الراتب الذي يتقاضاه الموظف).

مآخذه على التعليم:

ومن أكبر مآخذه على هذا التعليم أنَّه يبعثُ على التعطُّل وحبّ الهدوء والراحة ، ويجعل المتعلم كالمحيط الهادىء ، لا حركة فيه ، ولا اضطراب ، يقول في بيت: «رماك الله أيُّها المتعلم بطوفان ، فإنَّ بحرك هادىء لا اضطراب في موجه» ، وكذلك يبعث هذا التعليم في الشباب المسلم «تفرنجاً» وحبَّ الزينة ، يقول في قصيدةٍ: «إنَّ مقاعدك أيها الشباب المسلم! إفرنجيةٌ وزرابيك إيرانيَّةٌ ، وإني أكاد أبكي دماً إذا رأيتك في هذا الترقي والبذخ لا خير فيك ولو أصبحت ملك الدنيا ما دمت متجرِّداً من قوة عليٍّ رضي الله عنه ، واستغناء سلمان رضي الله عنه».

ومن مآخذه على هذا التعليم أنَّه يحدث الفوضى الفكرية ، يقول في بيت: «إنَّ المدرسة تحرِّر العقل بلا شك ، ولكنَّها تترك الأفكار بغير نظامٍ وارتباطٍ».

ومن مآخذه على نظام التعليم العصريِّ ، والمدرسة التي تمثله ، وتؤدي رسالته أنَّها مصابةٌ بالتقليد والجمود ، ومجردةٌ من الابتكار والاجتهاد ، يقول في قصيدة: «إنَّ العالم أسير التقاليد والأوضاع ، وإنَّ المدرسة منحصرةٌ في نطاقٍ ضيقٍ ، يا للأسف! إنَّ الرِّجال الذين كانوا يستطيعون أن يكونوا أئمةَ زمانهم أصبحت عقولهم باليةً ، وفقدت كلَّ نشاطٍ وجدَّة ، فاقتنعوا بتقليد عصرهم».

إنَّ الدكتور محمد إقبال لا يرى أنَّ هذا الجيل حيٌّ قائمٌ بنفسه ، ويفكر بعقله ، إنَّه يعتقد أنَّه ظلٌّ لأوروبا ، وأنَّ حياته عاريةٌ من الغرب ، يقول في

بيت: «يتراءى لك أنَّ الشباب المتعلِّم حيٌّ يرزق، ولكنَّه في الحقيقة ميِّتٌ، استعار حياته من الغرب».

ويخاطب المتفرنج، ويقول: «ليس وجودك إلا تجلي الإفرنج، لأنَّك بناءٌ قد بنوه، هذا الجسم العنصريُّ فارغٌ من معرفة النفس، فأنت غمدٌ محلًّى بغير سيف، وجود الله غير ثابتٍ في نظرك، ووجودك أنت غير ثابتٍ في نظري».

ومن رأيه: أنَّ نظام التعليم الغربيّ قد ضعف الروح المعنوية في الشباب المسلم، وجنى على رجولته جنايةً عظيمةً، فأصبح شباباً رخواً رقيقاً مائعاً، لا يستطيع الجهاد، ولا يتحمل المكروه، يقول في قصيدة يخاطب فيها بعض المربِّين: «حيا الله شبيبتك، يا مربي الجيل الجديد! ألق عليهم درس التواضع، وهضم النفس مع الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالشخصية، علِّمهم كيف يشقُّون الصخور، ويدكُّون الجبال، فإنَّ الغرب لم يعلمهم إلا صنع الزجاج. إنَّ عبودية قرنين متواليين قد كسرت خاطرهم، وأوهنت قلوبهم، فانظر كيف تعيد الثقة إلى نفوسهم، وتحارب الفوضى الفكرية»، وكان لا يغتفر هذه الجريمة، يقول في موضع آخر: «أنا لا أقيم لذلك العلم وتلك الحكمة وزناً، الحكمة التي تجرِّد المجاهد من سلاحه، وتجعله أعزل ضعيفاً».

آراؤه في العلوم والآداب:

للدكتور محمد إقبال آراءٌ حصيفةٌ في العلوم والآداب والشعر، هي عصارة تفكيره وتجاربه، ومنها: أنَّ الأدب موهبةٌ كبيرةٌ من مواهب الله، وقوَّةٌ عظيمةٌ، يحدث به صاحبه انقلاباً في المجتمع، وثورةً فكرِّيةً، يضرب به الأوضاع الفاسدة الضربة القاضية، ويشعل القلوب حماسةً وغضباً، ويشعل البلاد ناراً وثورةً، ويملأ النفوس قلقاً واضطراباً، وتذمراً من الشرِّ، وتطلعاً إلى الخير، فلابدَّ أن يكون في قلم الأديب والشاعر التأثير الذي كان في عصا موسى، وأن يؤدِّي رسالته في العالم، وكلُّ أدبٍ استغل لجمع المادة أو لإرضاء الأغنياء والأثرياء، أو إثارة الشهوات، أو

على الأقل كان أداةً للَّهو والتسلية ، والتذوُّق بالجمال والتغنِّي به ، فهو أدبٌ ضائعٌ مظلومٌ ، استعمل لغير ما خلق له ، ولغير ما وهب له ، يقول في بيت :

«أنا لا أعارض التذوُّق بالجمال والشعور به ، فذلك أمر طبيعيٌّ ، ولكن أيُّ فائدةٍ للمجتمع من علم لم يكن تأثيره في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر والبحر» .

ويعتقد محمد إقبال أنَّ الأدب لا يصل إلى حدِّ الإعجاز ، حتى يستمدَّ حياته وقوته من أعمال القلب الحيِّ ، ويسقى بدمه ، ويصف مهمَّة الأدب والشعر ورسالتهما ، ويقول :

«يا أهل الذوق والنظر العميق ، أنعم وأكرم بنظركم! ولكن أيُّ قيمة للنظر الذي لا يدرك الحقيقة؟ لا خير في نشيد شاعرٍ ، ولا في صوت مغنٍ ، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس ، لا بارك الله في نسيم السَّحر ، إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الفتور والخمول ، والذوق والذبول ، إنَّ غاية الإحسان في فنٍّ من فنون العلم والأدب لوعة الحياة الدائمة ، ما قيمة شرارة تلتهب سريعاً ، وتنطفىء سريعاً ، وما قيمة لؤلؤةٍ كريمةٍ ، وصدفةٍ لامعةٍ لا تحدث اصطراعاً في الأمواج ولا اضطراباً في البحار؟ ولا نهضةً للأمم إلا بمعجزةٍ ، ولا خير في أدبٍ ، ولا شعرٍ ما تجردا عن تأثير عصا موسى .

يقول محمد إقبال هذا ، ويرى بالعكس أنَّ الأدب في الشرق الإسلاميِّ قد أصبح تتحكَّم فيه المرأة ، فأصبح لا يتحدَّث إلا عنها ، ولا يتغنَّى إلا بها ، ولا يبحث إلا فيها ، ولا يصوِّر إلا إياها ، ولا يرى في الكون إلا ظلَّها وجمالها ، وهذه عقيدة جديدةٌ في «وحدة الوجود» التي يمكن أن تسمَّى «الوجودية الأدبية» كأن الأدب العصريَّ ينادي بلسان حاله «لا موجود إلا المرأة» أو «لا موجود إلا الفتاة» ، يقول محمد إقبال : «أسفاً للشعراء والرسامين ، وكتَّاب القصَّة في بلادنا ، لقد استولت على أعصابهم المرأة» ، ولا شكَّ أنَّه تصويرٌ صادق للاتِّجاه الأدبيِّ العام في الشرق

الإسلاميِّ ، واندفاع الأدب المتهوِّر وراء المرأة وهيامه بها ، وإعراضه عمَّا سواها.

وله في الفلسفة وعلوم الحكمة كذلك رأي خاصٌّ ، فهو يرى أنَّ الفلسفة لا تعيش إلا بالجهاد والتضحية ، وأنَّ الفلسفة التي تقصر على الدراسات والبحوث العلمية ، وتتلهَّى بالمناقشات اللفظية ومباحث ما بعد الطبيعة ، ولا تدخل في صميم الحياة ولا تتعرض للمجتمع ، وتعيش في العزلة عن العالم ، إنما هي فلسفةٌ منهارةٌ لا تستطيع أن تعيش ، يقول في بيتٍ: «إنَّ الفلسفة التي لم تكتب بدم القلب فلسفةٌ ميِّتةٌ ، أو محتضرةٌ».

وقد انتهت به دراسته للفلسفة ، وتوفره على مطالعتها ومقاساتها ، والتفكير الطويل العميق إلى إخفاق الفلسفة في حلِّ مشكلات الحياة ، وأنَّها صدَفةٌ لامعةٌ خاليةٌ من اللؤلؤ ، وهي بمعزلٍ عن الحياة والكفاح ، لا تساعد البشر ، ولا تمنحهم دستوراً للحياة ، وأنَّ الدين هو الذي ينظم المجتمع ، وينوِّر الطريق ، ويقدِّم دستوراً للحياة ، وأنَّ سيدنا محمداً ﷺ هو المصدر الوحيد الذي يستفاد منه هذا العلم.

عرف الشاعر صديقاً له من الهاشميين قد أثرت فيه الفلسفة تأثيراً كبيراً ، وتزلزلت عقيدته الإسلامية ، فكتب إليه محمد إقبال قصيدةً يقول فيها: «أنا رجل كما تعرف أنتهي في أصلي إلى سومنات[١] ، وكان أبي من عباد اللات ومناة ، وإن أسرتي عريقةٌ في البرهمية ، ولكن يجري في عروقك دم الهاشميين ، وتنتمي إلى سيِّد الأولين والآخرين ، وقد امتزجت الفلسفة بلحمي ودمي ، وجرت منّي مجرى الروح ، أنا وإن كنت لا أحسن شيئاً فلا شك أني نزلت في أعماق هذه الفلسفة ، وتغلغلت في أحشائها ، وبعد ذلك أقول: إنَّ الحكمة الفلسفية ليست إلا حجاباً للحقيقة ، وإنَّها لا تزيد صاحبها إلا بعداً عن صميم الحياة ، وإنَّ بحوثها وتدقيقاتها تقضي على روح العمل ، هذا «هيجل» الذي تبالغ في تقديره ، إنَّ صدفته خالية من اللؤلؤة ،

---

(١) المعبد الوثني المعروف في الهند ، الّذي فتحه السلطان محمود الغزنوي ، وحطَّم صنمه الأكبرَ.

وإن نظامه ليس إلا وهماً من الأوهام ، لقد انطفأت شعلة القلب في حياتك أيها السيد: وفقدت شخصيتك ، فأصبحت أسيراً «لبرجسان» .

إنّ البشرية تريد أن تعلم: كيف تتقن حياتها ، وكيف تخلد شخصيتها ، إنَّ بني آدم يطلبون الثبات ، ويطلبون دستوراً للحياة ، ولكن الفلسفة لا تساعدهم في ذلك ، بالعكس من ذلك ، إنَّ المؤمن إذا نادى الآفاق بأذانه؛ أشرق العالم ، واستيقظ الكون ، إنَّ الدين هو الذي ينظم الحياة ، وإنَّه لا يكتسب إلا من إبراهيم ومحمد ﷺ ، فعليك أيها السيد! بتعاليم جدِّك ﷺ ، إلى متى يا بن علي! (رضي الله عنه) تقلِّد أبا علي (ابن سينا) ، إذا لم تكن بصيراً بالطريق فالقائد القرشيُّ (يعني: رسول الله ﷺ) خيرٌ لك من القائد البخاري (يعني: ابن سينا)» .

وبالإجمال إنَّ الدكتور محمد إقبال يرى أنَّ نظام التعليم الحديث قد أخفق في أداء رسالته ، وأخفق في إنتاج جيلٍ جديدٍ ، يحسن الانتفاع بمعلوماته ، ويحسن استعمال مادَّته العلمية ، وثروته الثقافية ، ويضع كلَّ شيءٍ في محلِّه ، ويعيش حياةً سعيدةً مطمئنة ، وبالعكس من ذلك وجد جيلٌ مثقَّفٌ ثقافةً عالية ، يعرف عن مجاهل إفريقية والقطب الشمالي ، وعن حياة الحيوان والنبات شيئاً كثيراً ، ولا يعرف عن نفسه إلا قليلاً ، ويسخِّر البخار والكهرباء ، ويسخِّر الطاقة الذرِّية في الزمن الأخير ، ولا يملك نفسه وقوته ، ويطير في الهواء كالطير ، ويسبح في البحار كالسَّمك ، ولا يحسن أن يمشي على الأرض ، وما ذلك إلا لأنَّ التعليم قد اختلَّ ميزانه ، وفسد مزاجه ، وكيف يستقيم الظلُّ والعود أعوج! يقول في قصيدة: «من الغريب أنَّ من اقتنص أشعة الشمس ، لم يعرف كيف ينير ليله وكيف يصبح ، وأنَّ من بحث عن مسالك النجوم وطرقها، لم يستطع أن يسافر في بيداء أفكاره ، ومن عكف على الألغاز يحلُّها، ويشرحها لم يستطع أن يميز النفع من الضَّرر» .

تصويرٌ للشَّباب المسلم:

وفي الأخير إنَّ الدكتور محمد إقبال يتمنَّى للإسلام جيلاً جديداً ، شبابه طاهرٌ نقيٌّ ، وضربه موجعٌ قويٌّ ، إذا كانت الحرب في صولته كأسد

الشَّرى ، وإن كان الصلح فهو في وداعته كغزال الحمى ، يجمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل ، هذا مع الأعداء وذاك مع الأولياء ، إذا تكلَّم كان رقيقاً رفيقاً ، وإذا جدَّ في الطلب كان شديداً حفيّاً ، وكان في حالتي الحرب والصلح عفيفاً نزيهاً ، آماله قليلةٌ ، ومقاصده جليلةٌ ، غنيُّ القلب في الفقر ، فقير الجسم والبيت في الغنى ، غيورٌ في العسر ، رؤوفٌ كريمٌ عند اليسر ، يظمأ إن أبدى له الماء منَّةً ، ويموت جوعاً إن رأى في الرزق ذلةً ، إذا كان بين الأصدقاء كان حريراً في النعومة ، وإن كان بين الأعداء كان حديداً في الصلابة ، كان طلاًّ وندىً ، تتفتح به الأزهار ، وترفُّ به الأشجار ، وكان طوفانه تصطرع به الأمواج ، وترتعد له البحار ، إذا عارض في سيره صخوراً وجبالاً ؛ كان زلالاً ، وإنْ مرَّ في طريقه بحدائق كان ماءً سلسالاً ، يجمع بين جلال إيمان الصِّدِّيق ، وقوَّة عليٍّ ، وفقر أبي ذرٍّ ، وصدق سلمان ، ينبه على أوهام العصر كمصباح الراهب في ظلمات الصحراء ، يُعرف في محيطه بحكمته وفراسته ، وبأذان السَّحر . الشهادة في سبيل الله أحبُّ إليه من الحكومات ، والغنائم ، يقتنص النُّجوم ، ويصطاد الأسود ، ويباري الملائكة ، ويتحدَّى الكفر والباطل أينما كان ، يرفع قيمته ، ويزيد في سعره ، حتى لا يستطيع أن يشتريه غير ربِّه ، شغلته مآربه الجليلة ، وحياةُ الجدِّ والجهاد عن زينة الجسم والتأنُّق في اللباس ، وشعر بإنسانيته ، فترفَّع عن تقليد الطاووس في لونه ، والعندليب في حسن صوته .

* * *

الإنسـان الـكـامـل فـي نظـر مـحمَّـد إقـبـال

هذه المحاضرة أعدَّها العلامة النَّدويُّ لجامعة فؤاد الأوّل (جامعة القاهرة حالياً)، وقدمها العلامة الندوي في ٥/رجب سنة ١٣٧٠ هـ الموافق ١٠/ إبريل ١٩٥١ م في احتفالٍ كبيرٍ أمام باب الجامعة وجماعةٍ من الأساتذة.

بحثٌ عن إنسان:

قال مولانا جلال الدِّين الروميُّ في بعض مقطوعاته: «رأيت البارحة شيخاً يدور حول المدينة، وقد حمل مشعلاً، كأنَّه يبحث عن شيءٍ، قلت له: يا سيدي! تبحث عمَّاذا؟ قال: قد مللت معاشرة السباع والدَّواب، وضقت بها ذرعاً، وخرجت أبحث عن إنسانٍ في هذا العالم، لقد ضاق صدري من هؤلآء الكسالى والأقزام الذين أجدهم حولي، فخرجت أبحث عن عملاقٍ من الرجال، وبطلٍ من الأبطال، يملأ عيني برجولته وشخصيته، ويروِّح نفسي، قلت له: لقد غرَّتك نفسك يا هذا! فخرجت تقتنص العنقاء بالله! لا تتعب نفسك، وارجع أدراجك، فقد أجهدتُ نفسي، وأنضيتُ ركابي، ونقَّبت في البلاد، فلم أر لهذا الكائن عيناً ولا أثراً! قال الشيخ: إليك عني أيها الرجل فأحبُّ شيءٍ إلى نفسي، أعزُّه وجوداً، وأبعده منالاً».

بهذه المقطوعة الشعرية افتتح الدكتور محمد إقبال كتابه الخالد «أسرار خودي»، ولا أظنُّ أنَّ محمد إقبال اختار هذه المقطوعة، وحلى بها صدر كتابه إلا لأنَّها تصور نفسيته، وتعبِّر عن شعوره، فقد كان يحكم دراسته الفلسفية من كبار الرواد الباحثين عن «الإنسان الكامل» فهل وجد محمد إقبال ضالته يا ترى! وظفر بمطلوبه، أم قطع منه الرجاء؟.

وإذا كان الجواب: نعم، لقد وجد محمد إقبال ضالته من الناس، وظفر بوطره من الرِّجال، فتأكَّدوا أنه فتحٌ أعظم من فتح «كولمبس»، واكتشافٌ أجلُّ خطراً وأعظم قدراً من اكتشاف العالم الجديد؛ لأنه اكتشاف الإنسان وعثور علىٰ الإنسانية الضائعة، ولا خير في العالم ـ قديمه وجديده ـ إذا فقد الإنسان، وضاعت الإنسانية، وحاجة العالم إلى إنسانٍ أشدُّ اليوم من حاجته إلى القارات الجديدة، والبحار المجهولة.

المسلم هو الإنسان الكامل:

إنَّ محمَّد إقبال يحدثنا في شعره بأنه وجد هذا الإنسان المنشود، وعرفه، واتَّصل به، ونراه قد هام به هياماً، وتغنَّى في شعره بإنسانيته وشخصيته، فأين وجده محمد إقبال، وكيف السبيل إلى هذا الإنسان الرفيع؟.

أخاف أن أفاجئكم بما لا تقدِّرونه، ولا تنتظرونه إذا أخبرتكم أنَّ الإنسان الكامل الذي وجده محمد إقبال، فوجد فيه ما كان ينشده من معاني الإنسانية، والقوة، والحياة، والجمال، والكمال، هو «المسلم» لا أقلَّ ولا أكثر.

إنَّ هذا الجواب مفاجأةٌ للذين يحملون للمسلم صورةً قاتمةً هزيلةً لا تتَّفق أبداً مع هذا التصوير الرائع، الذي قدمَّه الشاعر للإنسان الكامل، ولكنَّ محمد إقبال بالعكس من ذلك يرى في المسلم الضَّالة المنشودة، والصورة الكاملة للإنسانية.

المسلم المثالي:

ولكنَّه يعني ذلك المسلم المثالي، الذي يمتاز بين أهل الشكِّ والظنِّ بإيمانه ويقينه، وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية، وبين عبَّاد الرِّجال، والأموال، والأصنام، والملوك بالتوحيد الخالص، وبين عبَّاد الأوطان والألوان والشعوب بآفاقياته وإنسانيته، وبين عبَّاد الشهوات والأهواء والمنافع، بتجرُّده من الشهوات، وتمرُّده على موازين المجتمع الزائفة وقيم الأشياء الحقيرة، وبين أهل الأثرة والأنانية بزهده، وإيثاره، وكبر نفسه، ويعيش برسالته ولرسالته، ذلك المسلم الحقُّ الذي مهما اختلفت الأوضاع، وتطورت الحياة لا يزال الحقيقة الثابتة التي لا تتغيَّر ولا تتحوَّل، وأما ما عداه فزبدٌ يذهب جفاءً، ذلك المسلم هو كالشجرة الطيبة التي أصلها ثابتٌ وفرعها في السَّماء، أما ما عداه فشجرةٌ اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار، يقول في بيتٍ: «إنَّك أيها المسلم في العالم وحدك، وما عداك سرابٌ خادعٌ، ودرهمٌ زائف»، ويقول في بيت آخر:

«إنَّ إيمان المسلم هو نقطة دائرة الحقِّ ، وكلُّ ما عداه في هذا العالم ماديٌّ ووهمٌ ، وطلسمٌ ، ومجازٌ» .

المسلم له وجودان :

إنَّ المسلم له وجودان: الوجود الإنسانيُّ ، والوجود الإيمانيُّ ، أما الوجود الإنسانيُّ: فهو الوجود الذي يشاركه فيه كل إنسان ، يولد كعامَّة الناس ، وينشأ ، ويكبر كعامَّة الناس ، ويجوع ، ويظمأ ، ويشعر بالبرد والحر ، ويأكل ، ويشرب ، ويصحُّ ، ويمرض ، ويموت ، ويحيا ، ويفتقر ، ويغنى ، ويزرع ، ويتجر ، ويعول العيال ، ويربي الأطفال ، ويقتني الأموال ، ويحكم البلاد والرجال ، فهو في هذا الوجود خاضعٌ للسنن الطبيعية ، تجري عليه كما تجري على غيره ، وتنفذ فيه كما تنفذ في أيِّ إنسانٍ آخر ، وتقسو عليه كما تقسو على غيره ، ولا تتسامح معه لأنَّه يحمل اسماً خاصَّاً ، وينتمي إلى جنسٍ خاصٍّ ، يلبس لباساً خاصاً ، وهو ذرةٌ حقيرةٌ في صحراء الوجود المترامية ، وموجةٌ عاديةٌ تأتي وتذهب في بحر الكون الزاخر ، من غير أن يشعر بها أحد ، فإذا اقتصر المسلم على هذا الوجود البشريِّ العام ، وعاش كإنسانٍ لا أقلَّ ولا أكثر ، كان كائناً ضعيفاً فانياً ليست له قيمةٌ كبيرةٌ في نظر الضمير في الوجود ، إذا مات في وقته ما بكت عليه السماء والأرض ، وما خسر فيه العالم شيئاً كبيراً.

أما الوجود الإيمانيُّ فهو أنَّه يحمل رسالةً خاصَّةً ، رسالة الأنبياء والمرسلين ، ويؤمن بمبادىء خاصَّةٍ ، ويعتقد اعتقاداً خاصاً ، ويعيش لغاية خاصةٍ ، فهو من هذه الناحية سرٌّ من أسرار الحقِّ ، ودعامةٌ من دعائم العالم ، وحاجةٌ من حاجات البشر ، يستحقُّ أن يعيش ، ويستحقُّ أن ينتصر ، ويستحقُّ أن يزدهر ، بل يجب أن يعيش ويجب أن يزدهر ، ويدوم مع البشرية ومع هذا الكون ، فحاجة البشرية ، وحاجة الكون إليه ليست أقلَّ من حاجتهما إلى الماء ، والهواء والنور والحرارة ، كانت معاني الحياة وحقائقها مرتبطةً بالغايات والأرواح والإيمان والأخلاق التي تتكفل رسالات الأنبياء بشرحها وبيانها ، ويتكفَّل المسلم بإعلانها ، والقيام بها ، والجهاد

في سبيلها ، فلولا هو لضاعت هذه الغايات والرسالات وأصبحت سرّاً مكتوماً ، إذاً فمركزه في العالم ، وبقاؤه كبقاء الشمس والكواكب النَّيِّرة ، تنقرض الأجيال والأمم ، وتحوِّل الأنهار مجراها ، وتخرب عمائر وتعمر خرائب ، وتقوم حكومات ، وتتقلَّص حكومات ، وتأتي مدنيات ، وهو قائم لا يزول ولا يحول.

المسلم حيٌّ خالدٌ:

يعتقد محمد إقبال أنَّ المسلم حيٌّ خالدٌ ، لأنَّه يحمل رسالةً خالدةً ، ويحتضن أمانةً خالدةً ، ويعيش لغايةٍ خالدةٍ ، يقول في بيت: «لا يمكن أن ينقرض المسلم من العالم ، لأنَّ وجوده رمزٌ لرسالات الأنبياء ، وإنَّ أذانه إعلانٌ للحقيقة التي جاء بها إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمَّد ﷺ» ، ويقول في بيتٍ آخر: «المسلم رسالة الله الأخيرة ، فلا يعتريها النسخ والتبديل» ، ولا يعني محمد إقبال أنَّ كلَّ فرد من أفراد الأمة الإسلامية حيٌّ خالدٌ ، يفلت من الموت ، ويتمرَّد على القانون الطبيعيِّ ، كيف ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقال: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] ، ولكنَّ محمد إقبال يرى أنَّ المسلم موجٌ من أمواج بحر الإسلام الخضم ، يأتي موجٌ ويذهب موجٌ ، وتترامى الأمواج في أحضان البحر وتتلاشى في وجوده.

والبحر لا يتغيَّر ، فالبحر امتدادٌ دائمٌ ، وتسلسلٌ قائمٌ لأجزاء متغيرةٍ ، كبحر الحياة ، وبحر الوجود ، تتبدَّل أمواجه ـ وهي أفراد البشر ـ ولا يتبدَّل كيانه.

خلق العالم للمسلم:

ويتقدم محمد إقبال خطوةً أخرى ، فيعتقد أنَّ المسلم هو غاية هذا الكون ، خُلق العالم له ، وخُلق هو لله ، لقد كان العلماء يتباحثون في صحة حديث: «لولاك لما خلقت الأفلاك» ، ولكن محمد إقبال لا تهمُّه صحَّة هذا الحديث لفظاً وروايةً ، إنَّه يفهم من القرآن ، ومن دراسة الإسلام ، وطبيعة المسلم ، ورسالته السَّامية ، ويفهم من دراسة التاريخ الإنسانيِّ الواسعة

العميقة ، والاطِّلاع الواسع على أوضاع العالم ، وطبائع الأشياء : أنَّ المسلم الذي هو جارحةٌ لرسول الله ﷺ وخادمه ، هو مصداق معنى الحديث ، فضلاً عن الرسول عليه الصلاة والتسليم ، فهو خليفة الله في أرضه ، خلق لأجله العالم ، وعلَّمه الأسماء ، وحكَّمه في الأرض ، وأورثه خيراتها ، وخزائنها ، وألقى إليه بمقاليدها ، فيجب عليه أن يعتقد ، ويقتنع بأنَّ العالم خلق له ، ويجاهد ويجتهد لتطبيق هذه العقيدة ، وتحقيق هذه الفكرة ، يقول في بيت : «إن العالم تراثٌ للمؤمن المجاهد ، لا يشاركه فيه أحد ، ولا أعدُّ مؤمناً كاملاً من لا يعتقد أنَّ العالم خُلق له» .

مقام المسلم مقام الإمامة والتوجيه :

ويعتقد محمد إقبال : أنَّ المسلم لم يُخلق ليندفع مع التيار ، وليساير الركب البشري حيث اتَّجه ، وسار ، بل خُلق ليوجّه العالم والمجتمع والمدنية ، ويفرض على البشرية اتجاهه ، ويملي عليها إرادته ، لأنَّه صاحب الرسالة ، وصاحب العلم واليقين ، ولأنَّه المسؤول عن هذا العالم ، وسيره ، واتجاهاته ، فليس مقامه مقام التقليد والاتّباع ، إنَّ مقامه مقام الإمامة والقيادة ، ومقام الإرشاد والتوجيه ، ومقام الآمر والناهي ، إذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع ، وانحرف عن الجادَّة ، لم يكن له أن يستسلم ويخضع ، ويضع أوزاره ، ويسالم الدهر ، بل عليه أن يثور عليه وينازله ، ويظلُّ في صراعٍ معه وعراكٍ ، حتى يقضي الله في أمره ، يقول في بيت : «يقول من لا خلاقَ له : در مع الدَّهر حيث دار ، وإذا لم يسالمك الزمان؛ فسالمه ، وأنا أقول : «إذا لم يسالمك الزمان؛ فصارعه ، وحاربه ، حتى يفيء إلى أمر الله» ، ويرى أنَّ المؤمن غير مأذونٍ بمجاراة الأوضاع ، بل هو مكلَّفٌ بمصادمة الأوضاع الفاسدة ، يردُّ الأمر إلى نصابه ، ويقيم سالفة الدَّهر الغشوم ، ويقيم العوج ، ويصلح الفاسد ، وإن كلفه ذلك عملية الهدم والنقض ، والعملية الجراحية ، فإنَّ كل ذلك في سبيل البناء والعمارة والإصلاح ، يقول في بيت : «على المسلم أن يزن في نفسه الروح ، وينشىء في هيكله الحياة ، ثم يحرق هذا العالم الفاسد بحرارة إيمانه ، ووهج حياته ، وينشىء عالماً جديداً» ، يقول متمثلاً : «سألني

ربِّي: هل ناسبك هذا العصر ، وانسجم مع عقيدتك ورسالتك؟ قلت: لا يا ربي! قال: فحطِّمه ، ولا تبال».

ويرى محمَّد إقبال: أنَّ الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة ، والأوضاع القاهرة ، والاعتذار بالقضاء والقدر ، من شأن الضعفاء والأقزام، يقول في بيتٍ: «المسلم الضعيف يعتذر دائماً بالقضاء والقدر ، أما المؤمن القويُّ فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يُردُّ» ويقول: «إذا أحسن المؤمن تربية شخصيته ، وعرف قيمة نفسه؛ لم يقع في العالم إلا ما يرضاه ويحبُّه».

المسلم رائد الانقلاب ورسول الحياة:

ويرى محمد إقبال: أنَّ المسلم هو مصدر الانقلاب الصَّالح في التاريخ ، ومطلع فجر السَّعادة في العالم ، وأنَّه لم يزل ولا يزال رائد الانقلاب ، ورسول الحياة ، ومؤذن الفجر في الليل البهيم ، وإنَّ أذانه لا يزال صيحةً تدوِّي في هدوء الليل وسكون الموت ، فيعيد إلى هذا العالم النائم الناعس المتعب حياته ونشاطه ، ويؤذن بطلوع الصبح الصَّادق ، وانصرام الليل الغاسق ، وعلى هذا الأذان الصارخ والنداء العالي الذي ارتفع من جبل «أبو قبيس» قبل ثلاثة عشر قرناً ، استيقظ هذا الكون بعد السبات العميق ، الذي غطَّ فيه خمسة قرون وأكثر ، وكان نفخة صورٍ للإنسانية الميتة والعالم المحتضر ، وهو الكفيل الآن لإيقاظ الإنسانية ، وإحياء الضمير البشريِّ ، يقول في بيتٍ: «إنَّ المؤمن إذا نادى بالآفاق بأذانه ، أشرق العالم واستيقظ الكون» ، ويقول في قصيدةٍ: «لست أعلم بالتأكيد مصدر هذا الصبح الذي يطلع على هذا العالم كلَّ يوم ، ولست أعلم سرَّه ، ولكنِّي أعلم أنَّ السحر الذي يهتزُّ له هذا العالم المظلم ، ويولي به ليل الإنسانية الحالك ، إنما ينشأ بأذان المؤمن الصادق».

قوة المؤمن مستمدةٌ من رسالته:

ويعتقد محمد إقبال بحقٍّ أنَّ قوة المؤمن الخارقة للعادة ، المحيِّرة للعقول ، المعجزة للبشر مستمدةٌ من رسالته وإيمانه ، وباندماجه واضمحلاله في إرادة الله ، هنالك يتحوَّل جارحةً للقدرة الإلهية ، وقوةً

قاهرةً لا تصدُّها الجبال ، ولا تقف في سبيلها البحار ، يقول في قصيدة أنشأها في قرطبة : «إنَّ يد المؤمن جارحة القدرة الإلهية ، فهي غلابةٌ ، حلَّالةٌ للعقد والمشكلات ، فتَّاحةٌ للأبواب المقفلة ، لبقةٌ ، صناعٌ ، حاذقةٌ ، إنَّ المؤمن جسمه من تراب وفطرته من نور ، عبدٌ متخلِّق بأخلاق مولاه ، قلبه غني عن العالمين» ، ويقول على لسان القائد الإسلامي الكبير طارق بن زياد فاتح الأندلس ، وهو يدعو لأصحابه العرب بالنصر ، ويناجي ربَّه ، يقول : «إنَّ الغزاة المجاهدين عبيدك الغامضون ، الذين لا يعرفهم غيرك ، وقد أصبحوا اليوم يطمحون إلى فتح العالم وإخضاعه ، إذا ركلوا برجلهم الصحراء؛ انشقت ، وإذا ركلوا برجلهم البحر ، انفلق ، انكمشت الجبال ، وتقبضت بمهابتهم ، إنَّهم عرفوك ، وأحبوك ، فزهدوا في العالم ، واستغنوا عن الدنيا ، لا يطلبون إلا الشهادة في سبيلك ، ولا يهدفون بجهادهم إلى الفتح والغنائم ، لقد أفردت رعاة الإبل بنعمتك ، وميَّزتهم بين أقرانهم في الخبر والنظر ، وأذان السَّحر ، لم يزل العالم يعوزه لوعة القلب ، والتوجه للإنسانية المظلومة ، وفي قلوب هؤلآء الجريحة ، وفي أكبادهم المتَّقدة وجد العالم مآربه» ، بل إنَّ الشاعر يتقدَّم خطوةً ويقول :

«ما ظنُّك بقوة ساعد المؤمن! وهو بنظرته يقلب الأوضاع ، وبدعوته يردُّ القضاء» ، والمطَّلع على التاريخ يصدِّق ما قاله محمد إقبال ، فقد هزىء المسلمون المؤمنون في عصرهم الأول من الجبال والبحار ، وشقُّوا طريقهم غير محتفلين بما يعترضهم من أشواك وعقبات . قصص سعد بن أبي وقاص ، وخالد بن الوليد ، والمثنى بن حارثة الشيباني ، وعقبة بن نافع ، ومحمد بن القاسم الثقفي ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد شاهدةٌ على صدق ما قاله محمد إقبال .

المسلم لا ينحصر في الأوطان والشعوب :

ويرى محمد إقبال أنَّ المسلم حقيقةٌ عالميَّةٌ لا تنحصر بين حدود الجنسية والوطنية الضيِّقة ، بل تتخطَّى حدود المكان والزمان ، وتفيض كالطبيعة البشرية ، وكالإنسانية العامَّة في مساحةٍ زمانيةٍ شاسعةٍ ، كمساحة

التاريخ الإسلاميِّ ، وفي مساحة مكانيةٍ واسعةٍ كمساحة العالم الإسلاميِّ ، يقول في قصيدة قرطبة: «إنَّ المسلم لا تعرف أرضه الحدود ، ولا يعرف أفقه الثغور ، ليست دجلة والنيل ودانوب إلا أمواجاً صغيرةً في بحره المتلاطم ، عصوره عجيبةٌ ، وأخباره غريبةٌ ، نسخ العهد العتيق ، وغيَّر مجرى التاريخ ، هو في كلِّ عصرٍ ساقي أهل الذوق ، وفي كلِّ مكانٍ فارس ميدان الشوق ، شرابه رحيقٌ دائماً ، وسيفه ماضٍ في كلِّ معركةٍ» ، ويعتقد محمد إقبال: أنَّ العالم كله وطنٌ للمسلم ، يقول في بيتٍ:

«المسلم الربانيُّ ليس بشرقيٍّ ولا غربيٍّ ، ليس وطني دهلي ، ولا أصفهان ، ولا سمرقند ، إنما وطني العالم كله» .

ويعتقد محمد إقبال أنَّ المسلم يعتبر كلَّ ملك الله وطناً له ، يقول:

«لما نزل طارق بالجزيرة الخضراء أمر بالسفن فأحرقت ، فجاءه رجالٌ من الجيش ، ولاموه على فعله ، وقالوا له: لقد قطعت بنا الحبال ، فكيف نرجع إلى بلادنا؟ فوضع طارق يده على السيف ، وقال: أنا لا أفكر في الرجوع ، وسنبقى هنا ، ونتخذه وطناً ، فإنَّ كلَّ ما كان لله من أرضٍ وبلادٍ وطنٌ لنا ، لا فرق في ذلك بين العجم والعرب ، والشرق والغرب» .

المسلم متخلِّق بأخلاق الله:

ويعتقد محمد إقبال أنَّ المسلم يجمع بين المتناقضات من الأخلاق والصفات ، وما هي بمتناقضات ، ولكنَّها ظلال صفات الله ، ومظاهر أخلاق الله ، فهو في تسامحه ، ورحابة صدره ، وكثرة صفحه قد تخلق بخلق «الغفار» ، وفي شدته في الدِّين ، وغضبه للحقِّ ، وثورته على الباطل قد تخلق بخلق «القهَّار» ، وهو في نزاهته ، وعفَّته ، وطهارة ضميره قد تخلق بخلق «القدُّوس» ، وفي صلابته إذا تصلَّب وشدَّة شكيمته إذا أبى ، وشدة بطشه إذا حارب تخلق بخلق «الجبَّار» ، ولا يكون المثل الكامل لدينه ، وصورةً صادقةً للإسلام حتى يجمع بين هذه الأخلاق المتنوعة ، فيجمع بين الشدَّة واللِّين ، والغضب والرحمة ، والصلابة والمرونة ،

والعفَّة والنزاهة ، ويكون في ذلك آيةً من آيات الله ، ومعجزةً من معجزات الرَّسول ، ثم يقول الشاعر :

«إنَّ المؤمن هو الميزان العادل ، والقسطاس المستقيم ، به يُعلم رضا الله وسخطه ، وبه يُعرف الحسن من القبيح ، فما راق في نظره؛ فهو حسنٌ ، وما استقبحه ، فهو طائش ، وفي عزائمه تتجلَّى إرادات الله ، وهو القرآن الناطق ، وهو الدِّين يسعى على قدميه . ثم إنَّ حياته متوافقةٌ متشابهةٌ كالطبيعة ، فالصبح يطلع كلَّ يومٍ والليل يتبع النَّهار ، لا تخلف فيه ولا تناقض ، وهو صاحب معانٍ كثيرةٍ ، ونغمةٍ واحدة ، فهو كسورة الرحمن في القرآن تتجدَّد معانيه ، وتتكرَّر فيه آية ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] وقد صدق الشاعر ، فالمسلم لم يزل يتحف كل عصر بعلومه وتوجيهاته ، وينير ظلمات كلِّ عصرٍ بنوره ، وضيائه ، ويضرب على وترٍ واحدٍ.

ويكرِّر رسالة الأنبياء ، ويقول لكلِّ جيلٍ: ﴿ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] فهو كالصبح جديدٌ ، وقديمٌ ، فهو في جدَّته ليس أجدَّ منه ، وهو في قدمه ليس شيءٌ أقدم منه ، هو قديمٌ لكنه يتجدَّد به العالم ، وتتجدَّد به الكائنات ، وتنتعش به القوى ، وتستيقظ به الأجسام والقلوب والعقول ، ثم هو جديدٌ بنفسه تتجدَّد قواه ويتجدَّد نشاطه ، وتتفتَّح قريحته ، مع العصور ، علمه سيَّارٌ ، وعقله مبتكرٌ ، ونفسه طموحٌ ، وهمَّته وثابةٌ ، وهو كالمطر كلُّ قطرة غير الأولى ، ولكنَّها قطرات مطر ، كلّها تحيي الأرض ، وكلُّها تنبت النبات ، وكلُّها تسقي المزارع والأشجار ، وكلُّها تفتح الأزهار ، وكلُّها تكوِّن الأنهار ، وهو معنى قول النَّبيِّ ﷺ: «أمتي كالمطر لا يدرى أوله خيرٌ أم آخره».

المسلم كالشمس لا تغرب مطلقاً:

ويقول محمد إقبال: «إنَّ المسلم كالشمس ، إذا غربت في جهةٍ طلعت في جهةٍ أخرى ، فلا تزال طالعةً» ، وقد صدق ، فإنَّ الإسلام لم ينكب في ناحيةٍ من نواحي العالم ، ولم يخسر في جانب دولة إلا وقامت له دولةٌ في

جانبٍ آخر ، ولم تسقط له رايةٌ إلا وخفقت له رايةٌ أخرى ، ولم يغب له نجمٌ إلا وطلع له نجمٌ آخر ، لقد كانت خسارة الأندلس الإسلامية كارثةً كبيرةً ، ومصاباً عظيماً ، ولكن عوَّض الإسلام بها بدولةٍ فتيةٍ من أعظم دول العالم ، هي دولة آل عثمان في تركيا ، قامت في نفس القارة الأوربية ، وجثمت على صدر الدول والأمم التي انتزعت الأندلس الإسلامية وأجلت المسلمين من وطنهم العربيِّ الإسلاميِّ ، وكان سقوط غرناطة وأوج الدولة العثمانية في عهد سليمان القانوني حادثين في عصرٍ واحدٍ ، ونُكِبَ العالم الإسلاميُّ ، ونُكِبَتْ بغداد بغارة التتار ، وانطمست معالم الحضارة الإسلامية ، وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً ، ولكن في نفس الفترة كانت الدولة المسلمة في الهند تتَّسع وتزدهر ، وأصيب العالم الإسلامي بهزاتٍ عنيفةٍ وقواصم مؤلمةٍ في فجر هذا القرن المسيحي على أيدى الأوربيين ، فقد اقتسمت الدول الأوربية تراث الدولة العثمانية كمالٍ سائب ، واغتصبت مملكتها في إفريقية ، وتقاسم الحلفاء سورية ، وفلسطين ، والعراق ، ولكن تبع هذا كلَّه اليقظةُ الإسلامية الهائلة ، والوعي السياسيُّ القويم ، والطموح إلى الاستقلال وحرية الحركات الإسلامية المختلفة التي كان يجيش بها العالم الإسلاميُّ من أقصاه إلى أقصاه .

ونُكِبَ المسلمون في العهد الأخير بنكباتٍ عظيمةٍ في الشرق الأقصى والأوسط ، وخسرت الدول العربية فلسطين العربية الإسلامية ، ولكن في نفس هذه الفترة قامت للمسلمين دولتان فتيتان في الشرق ، إحداهما دولة باكستان والأخرى إندونيسيا .

وهكذا لم يزل التاريخ الإسلاميُّ متأرجحاً بين الأسفل والأعلى ، فما تسفَّل منه جانبٌ إلا وترفَّع جانبٌ آخر ، كالأرجوحة تماماً ، ولم تتوار شمسه في أفقٍ إلا وبزغت في أفقٍ آخر ، وذلك لأنَّ الإسلام رسالة الله الأخيرة التي لا رسالة بعدها ، والمسلمون هم الأمَّة الأخيرة التي لا أمَّة بعدهم ، فإذا ضاعوا؛ فقد ضاعت الرسالة ، وإذا هلكوا؛ فقد غرقت السفينة التي تحمل الذخيرة .

* * *

الـحقـائـق الـتـاريـخيَّـة فـي شعر محمّد إقبـال

ألقى العلامة الندويُّ هذه المحاضرة في ندوة علميَّةٍ في مدينة «شيكاغو» (الولايات المتحدة الأمريكية) في أغسطس ١٩٧٥ م ، وكانت المحاضرة في الأردوية ، نقلها إلى العربية المرحوم الأستاذ محمَّد الحسني رئيس تحرير مجلّة «البعث الإسلاميّ» .

لم يكن إقبال أخصَّائياً في مادَّة التاريخ ، ولم يزعم لنفسه امتلاكاً للموضوع ، وتعمُّقاً فيه ، واطلاعاً على أسراره وخفاياه ، وإذا طلب منه في مناسبة من المناسبات أن يتناول كتاباً يدور حول هذا الموضوع ويتَّصل به من بعيدٍ أو قريبٍ بالنقد والتعريف ، أحجم عن الكتابة ، واعتذر عنها ببساطةٍ وتواضعٍ ، وقال: «إنه لم يختصَّ في هذه المادَّة ، إنه كان عالم الفلسفة ، أو عالم القرآن» ، ولكن من البديهيِّ المعروف أن دراسته كانت واسعةً منوَّعةً عميقةً ، وأنَّه تأمَّل خلال بحثه العلميِّ المتواصل ، ودراسته الطويلة الواسعة في تاريخ الأمم والشعوب والدول والحكومات ، وفي الأديان وفي الأخلاق ، وفي مجتمعات البشريَّة ، والحضارات الإسلامية المختلفة بنظرٍ ثاقبٍ ، ونزل في أغوارها ، واهتدى إلى أسرارها ، ورغم أنَّ التاريخ ـ كما قلنا ـ لم يكن محور دراساته ، إلا أنه اعتنى بالموضوع عنايةً لائقةً شأن كلِّ باحثٍ يهمُّه مصير الإنسان ، ونهضة الإنسانية ، وانحطاطها ، والقضايا البشرية المصيرية .

وكان الوجه الثاني أنَّ الفلسفة تثير في الإنسان تطلُّعاً قوياً إلى الحقيقة المجهولة ، وتحدث فيه ملكةً خاصَّة في ربط الوحدات الضائعة ، والأجزاء المتناثرة ، والتوصُّل من المقدمات إلى النتائج ، ومن الجزئيات إلى الكلِّيات ، والانتقال من الحوادث الظاهرة والتغييرات العابرة ، والأحداث الطارئة إلى كنه الحوادث ، وأعماقها ، لذلك نجد إقبالاً يتوصَّل بدراسته العامة للتاريخ إلى نتائج وحقائق لا يصل إليها أولئك الباحثون ، والعلماء ، والمؤرخون ، الذين حرموا هذه الحاسة الفلسفية ، والذين هم طلاب مدرسة التاريخ الجامدون وأساتذتها التقليديون ، وقد دلَّه على الوصول إلى تلك الحقائق والنتائج العميقة فهمُه العميق للقرآن ، ودراستُه المخلصة المتواصلة لهذا الكتاب المعجز ، الذي يحتوي على موادَّ أساسيةٍ ومبادىء واضحةٍ تتوقف عليها سعادة الأجيال البشرية ، وشقاؤها ، ورقيُّها ، وزوالها ، والذي يكشف الستار عن الحوادث التي ستواجهها الإنسانية في

المستقبل ، وأسباب شقاء الأمم ، وهلاكها ، وازدهارها كشفاً تتحيَّر له الألباب ، ويقف عنده العقل عاجزاً مشلولاً لا يجد له التأويل ، غير أنَّ هذا الكتاب الذي نزل على «الأميِّ ابن البادية» ـ كما يقول إقبال ـ منزلٌ من الله العليم الخبير الذي فطر السموات والأرض ، وذلك ما قاله إقبال عندما قدَّم إلى الأمير الشهيد نادرخان ملك أفغانستان ، المصحف الشريف :

«إنَّ هذا القرآن سند أهل الحقِّ ، في ضميره حياةٌ وروحٌ تتدَّرج في بداية النهاية ، به فتح عليٌّ باب خيبر» .

ويقول في ديوان «أسرار خودي» :

«إنَّ هذا الكتاب كتابٌ خالد ، حكمته غارقةٌ في الأزل ، سارية إلى الأبد ، إنه يفشي أسرار تكوين الحياة ، ويثبِّت الضعيف الذي تزلزلت أقدامه بالقول الثابت» .

إنَّ دراسة شعر إقبال تزودنا بمعلوماتٍ وحقائق جديدةٍ إذا فتّشنا في غضون دراساته التاريخية ، ورأينا إلى أيِّ مدىً تستطيع هذه الومضات التاريخية في شعره الحيِّ ، أن تسعف رواد مناهل العلم والبحث ؛ الذين يريدون الاستفادة من التجارب الحضارية ، وإنه ليس أقلَّ من «اكتشاف» إذا قلنا : «إنَّ شعر إقبال يتضمَّن بعض إشاراتٍ تاريخيَّةٍ دقيقةٍ تتكَّون منها مؤلفاتٌ تاريخيَّةٌ إذا شرحناها شرحاً وافياً ، فقد جمع في بعض أبياته ومقطوعاته أحياناً ، وفي بيتٍ واحدٍ بعض الحين عصارة دراساتٍ عميقةٍ ، ومحصول تأمُّلاتٍ طويلةٍ ، ولباب مكتباتٍ كاملةٍ تكونت في التاريخ وفلسفة التاريخ ، وهنالك التقى إيجازه بالإعجاز ، ويمكن إذا شرحنا شعره في نثرٍ وسقنا له شواهد تاريخيَّةً ودلائل (وهي كثيرةٌ) أن يأتي رائعاً أخَّاذاً ، كما هو الحال في شعره الحلو ، وبيانه الجميل ، وكلامه الجزل ، ولا يمكن أن يقدر قيمة هذه الإشارات العلمية والتاريخيَّة وصدق نتائجها وعواقبها التي جاءت في شعره تقديراً صحيحاً دقيقاً ، إلا من كان له اطلاعٌ واسعٌ عميقٌ على التاريخ الإنسانيِّ والتاريخ الإسلاميِّ وعلى علوم القرآن ، وخبرةٌ دقيقةٌ

باليهودية والمسيحيَّة ، والأديان الهندية القديمة ، والفلسفات العجمية وآدابها ، وتاريخ القرون الوسطى التي يسميها المؤرخون الغربيون بحقٍّ بالقرون المظلمة .(Dark Ages)

ونقدِّم هنا نماذج من فراسته التاريخية وحكمته القرآنية التي تجلَّت في شعره ، من غير تدقيقٍ وتمحيص كبيرٍ ، واستيعابٍ شامل ، لكلٍّ ما ورد في هذا الموضوع ، وإنما اخترنا من أبياته ما أعانت عليه الذاكرة ، وانطلق به اللسان ، واعتمدنا على شرحه وتصويره ، وإبرازه في صورته الواضحة المتكاملة على المعلومات العامة لدى القارىء ودراسته للتاريخ الذي يحظى به عادةً كلُّ متعلمٍ ، ولكننا لا نستطيع أن ندرك عظمة هذه الحقائق ، وأن نصدِّق تلك الأفكار والآراء التي قدمها إقبال إلا إذا اطلعنا على خلفياتها التاريخيَّة ، والمجتمع الذي تدور حوله هذه الأبيات .

ولذلك نستعرض قبل أن نقدِّم هذه الأبيات الأجواء التي أنشدت فيها ، والظروف التي دفعت إليها .

قد وزَّعت الديانات القديمة ـ وخاصَّة المسيحية ـ الحياة الإنسانية في قسمين : قسمٍ للدين وقسمٍ للدنيا ، ووزعت هذا الكوكب الأرضيَّ في معسكرين ، معسكر رجال الدين ، ومعسكر رجال الدنيا ، وما كان هذان المعسكران منفصلين فحسب ، بل حال بينهما خليجٌ كبيرٌ ، أو وقف دونهما حاجزٌ سميكٌ ، وظلا متشاكسين متحاربين ، وكانا يعتقدان بأنَّ هناك خصومةً وعداءً بين الدين والدنيا ، فإذا أراد إنسانٌ أن يتَّصل بأحدهما ؛ لزم عليه أن يقطع صلته بالآخر ، بل يعلن الحرب عليه ، فلا يمكن له ـ على حدِّ قولهم ـ أن يركب سفينتين في وقتٍ واحدٍ ، وأنه لا سبيل إلى الكفاح الاقتصاديّ ورخائه من غير غفلةٍ عن الدار الآخرة ، وإعراضٍ عن فاطر السموات والأرض ، ولا بقاء لحكمٍ أو سلطةٍ من غير إعمال التعاليم الدينية والخلقية ، والتجرُّد عن خشية الله ، ولا إمكان للتديُّن من غير الرهبانية وقطع الصلة عن الدنيا وما فيها .

ومن المعلوم المقرَّر أن الإنسان محبٌّ لليسر ، مجبولٌ عليه ، وكلُّ فكرةٍ

عن الدِّين لا تسمح بالاستمتاع المباح والنهضة والاستعلاء والحصول على الفوز والحكم ، لا تصلح للنوع البشريِّ في الغالب ، إنه صراعٌ مع الفطرة السليمة ، وكبتٌ للغرائز الطبيعية البريئة في الإنسان ، وكان نتيجة هذا الصراع أنَّ عدداً كبيراً من أصحاب الفطنة والذكاء والكفاءات العلمية آثروا الدنيا على دينهم ، ورضوا بها ـ كحاجةٍ اجتماعيةٍ وواقع حيٍّ ـ واطمأنوا إليها ، وعكفوا على تحسين هذه الحياة والحصول على ملذاتها ، ولم يبق لهم أملٌ في الدين.

وأكثر الذين هجروا الدين بصورةٍ عامَّةٍ هجروه على أساس هذا التناقض الذي حسبوه حقيقةً بديهيَّةً مُسَلَّمةً ، وثار البلاط الذي كان يتزعم الحكم الدنيوي على الكنيسة التي كانت تمثِّل الدين ، وتتجرَّد عن سائر قيوده ، فصارت الحكومات ـ بطبيعة المنطق ـ كفيلٍ هائجٍ مائجٍ تخلص من سلاسله وقيوده ، أو كجملٍ هائمٍ حبلُه على غاربه ، هذا الانفصال بين الدين والدنيا ، وذلك العناد بين رجال الدين ورجال الدنيا ، لم يضع حدّاً على الدين والأخلاق ، ولم يحرمه من بركات السماء والأرض فحسب ، بل فتح الباب على مصراعيه للإلحاد واللَّادينيَّة ، وكانت فريسته الغرب أولاً ، والأمم التي دانت لها في الفكر ، والعلم ، والثقافة ، أو عاشت تحت رايتها ثانياً ، وزاد الطين بلَّةً دعاةُ المسيحية المتطرفون ، والمفرطون الذين كانوا يعتبرون الفطرة البشرية أكبر عائقٍ في التزكية الرُّوحية ، والاتصال بالسَّماء ، والذين لم يدَّخروا وسعاً في إذلالها ، وتعذيبها بأنواع من الأحكام القاسية ، والتعاليم الجائرة ، وقدَّموا وحشيةً كالحةً مفزعةً للدين تقشعرُّ منها جلود الذين آمنوا ، وآل الأمر في النهاية إلى تقلُّص ظلِّ الدِّين ، وبلغت عبادة النفس والهوى ـ في أوسع معناها ـ إلى ذروتها ، وأصبحت الدنيا تتأرجح بين طرفي نقيضٍ ، ثم سقطت أخيراً بضعف الوازع الدِّينيّ ، أو فقدان الحاسَّة الدينيَّة في هوَّةٍ عميقةٍ من اللادينيَّة ، والفوضى الخلقية العامة.

وأعظمُ هديةٍ للبعثة المحمَّديَّة ، ومنَّتها العظيمة ، هو نداؤها الذي روَّت به الآفاق أنَّ أساس الأعمال والأخلاق هو الهدف الذي ينشده المرء الذي عبَّر عنه الشارع بلفظٍ مفردٍ بسيطٍ ، ولكنه واسعٌ عميقٌ «النية».

إنَّه لا يؤمن بأن هذا مجرَّد دنيا ، وذاك مجرَّد دين ، إنَّه يعتقد أن كل عملٍ يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله ، وبدافع الإخلاص ، وامتثال أمره وطاعته ، هو وسيلةٌ إلى التقرُّب إلى الله والوصول إلى أعلى مراتب اليقين ودرجات الإيمان ، وهو دينٌ خالص لا تشوبه شائبةٌ ، ولو كان هذا العمل جهاداً ، أو قتالاً ، أو حكماً ، أو إدارةً أو تمتُّعاً بطلبات الأرض وتحقيقاً لمطالب النفس ، وسعياً لطلب الرزق والوظيفة ، واستمتاعاً بالتسلية البريئة المباحة ، والحياة العائلية والزوجية ، وكلٌّ عبادةٌ وخدمةٌ دينيَّةٌ ـ بالعكس من ذلك ـ تعتبر دنيا إذا تجرَّدت من طلب رضا الله سبحانه ، والخضوع لأوامره ونواهيه ، وغشيتها غاشية من الغفلة ونسيان الآخرة ، ولو كانت صلوات مكتوبة ، ولو كانت هجرةً وجهاداً وذكراً وتسبيحاً ، وقتالاً في سبيل الله ، ولا يثاب عليه العامل ، والعالم ، والمجاهد ، والدَّاعي ، بل قد تعود تلك الأعمال والخدمات عليه وبالاً ، وتكون بينه وبين الله حجاباً .

وإنَّها مأثرةٌ عظيمة من مآثر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومنَّته العامَّة الخالدة على الإنسانية : أنَّه ملأ هذه الفجوة الواسعة بين الدين والدنيا ، وجعل هذين المتنافرين المتباعدين اللذين عاشا في خصامٍ دائمٍ وعداءٍ سافرٍ ، وحقدٍ مستمرٍ ، يتعانقان في ألفٍ وَودٍّ ، ويتعايشان في سلامٍ ووئام ، إنَّه ﷺ رسول الوحدة ، وبشيرٌ ونذيرٌ في الوقت ذاته ، إنَّه أخذَ النوع البشري من المعسكرين المتحاربين إلى جبهةٍ موحَّدةٍ من الإيمان والاحتساب ، والعطف على البشرية وابتغاء رضوان الله ، وعلَّمنا هذا الدعاء الجامع المعجز الواسع :

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

إنَّه أعلن بالآية التَّالية ﴿ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] أنَّ حياة المؤمن ليست مجموعة وحداتٍ متفرقةٍ مضادَّةٍ ، فالعبودية والعبادة وحدةٌ شاملةٌ ، وصورةٌ جامعةٌ ، قد ترى فيها رجال الله في زي الأمراء ومعيشة أصحاب الثراء والجاه ، وترى فيها أمراء ، وأغنياء في

مستوى العبَّاد والزهَّاد ، جمعوا بين السيف والمصحف ، عبادُ ليلٍ ، وأحلاس خيلٍ ، من غير أن يروا في ذلك تناقضاً ، ومن غير أن يجدوا فيه مشقَّةً وحرجاً.

واقرأ بعد هذا التمهيد أبيات شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال الذي أنشدها تحت عنوان «الدين والسياسة» ، وتأمَّل كيف قيَّد هذا التاريخ الحافل للإسلام والمسيحية والقرون المتوسطة ، والعصر الحديث ، وتعاليم هاتين الديانتين ، ووضع كلَّ هذه الحقائق ، والمعلومات والمعارف في إطارٍ صغيرٍ ، أو زجاجةٍ رائقةٍ من أبيات ، تتراءى لنا بحلاوتها وسهولتها ، وعذوبة جرسها إلى جانب طابعها العلمي الرزين ، وجلالها الفنيِّ البديع ، كأنها كأسٌ من الزلال ، أو جزءٌ من السحر الحلال :

«قامت الكنيسة على أساس الرهبانية فلم تسعها ـ بالطبع ـ القيادة ، والسيادة ، والحكم ، والإدارة ، فقد كان هناك عداءٌ قديم بين الرهبانية والحكم ، هذا خضوعٌ واستسلامٌ ، وذلك استعلاء كاملٌ واستيلاء.

حتى خلصت السياسة نفسها أخيراً من الدين ، ومرقت منه ، كما يمرق السهم من الرَّميَّة ، وأصبح رجال الكهنوت مكتوفي الأيدي أمام هذا الوضع ، لا يقدرون على شيءٍ ، فلما انفصل الدين عن الدولة ، جاءت الشهوة ، وشاع الهوى ، وساد قانون الغاب ، هذا الانفصال شؤمٌ على الدولة والدين ، وهو لا يدلُّ على ضعف بصر هذه الحضارة ، وفساد ذوقها.

ولكنَّه إعجاز رجلٍ من رجال البادية ، الذي كان بشيراً ونذيراً بذات الوقت ، يتجلَّى في بشارته الإنذار ، وفي إنذاره البشارة.

ولا حفاظ للإنسانية من أخطارها ، ولا سبيل إلى نهضتها إلا بأن يسير الزهَّاد والعبَّاد ، مع الراكبين على صهوات الخيل ومتون الجياد.

إنَّ التاريخ الإنساني الطويل ـ الذي أثخن بالجراح ، وطفح كأسه بالدماء والدموع ، وأحاط بجزئه الأكبر حروبٌ طاحنةٌ ، ومعارك ضاربةٌ ، ومغامرات أفرادٍ وجماعاتٍ وشعوبٍ ـ يشهد بأنَّ تجمُّع القوة والحكم في

فردٍ أو جماعةٍ لم يضرَّ النوع البشري مثل ما ضرَّه ، وجرَّ الشقاء عليه شهوةُ الحكم ، ونشوة القوة ، والشعور بالتفوق والعظمة ، فكلما يستولي هذا الشعور على فردٍ أو جماعة ، ويحسُّ بأنَّه ليس على وجه الأرض من هو أقوى منه ، وأنَّه سيلٌ جارفٌ لا يمنعه شيءٌ ، وقضاء الله المبرم الذي لا رادَّ له ، والشعوب المجاورة كلُّها ، والإنسانية برمَّتها عالةٌ عليه ، وتحت رحمته ، ورهن إشارته ، والحقيقة الباقية والشريعة السائدة هي القوة ، أمَّا الإنسانية ، والعدالة الاجتماعية ، والرحمة ، والأخلاق ، والضمير ، والحسنُ والقبيح ، والخبيث والطيِّب ، فهي كلماتٌ فارغةٌ لا تحمل معنىً ، ومنطقٌ انهزاميٌّ ، منطق العبيد ، والضعفاء ، والمساكين ، والأمم المستضعفة التي لا تملك حولاً ولا طولاً ، وكلما يصبح شعار (Meght is Right) «القوة هو الحقُّ» مقياس الحقِّ والباطل ، وتمدُّ هذه الفلسفة أجنحتها على شُعَبِ الحياة كلِّها ، وتصبح خشية الله ، والعطف على الإنسانية ، والورع ، واتِّقاء المحارم ، والصبر عنها ، والحياء وشعبه آية الجبن ، وسمة الضعف ، والتخاذل ، وتتحوَّل الوسائط غاياتٍ ، وتصبح الغايات ممتدةً إلى ما لا نهاية لها ، فهنالك ينقلب هذا الفرد ، وتنقلب هذه الفئة والجماعة قوَّةً مدمِّرةً عمياء أو بركاناً ناريَّاً هائلاً يتفجَّر على الإنسانية ، فلا تقف في زحفه الجهنميِّ وَسَيْلِهِ النَّاريِّ حكوماتٌ مستقرةٌ ، وإمبراطورياتٌ عظيمةٌ ، ولا قلعة حضارات الإنسانية ، أو تعاليم خلقية ، ولا نتائج جهود المعلمين ، والمصلحين من أهل الدين ، ولا مؤسساتهم التي كانت تغيث الإنسانية منذ قرونٍ طويلةٍ ، وتسعفها في محنها ورزاياها ، وتخفف آلامها ، وتمسح دموعها .

هذا السيل الناريُّ الجارف يأتي بين عشيةٍ وضحاها على سائر الجهود المعمارية ، والإنشائية ، والإنمائية ، وكنوز الآباء والأجداد ، وذخائر العلم والأدب ، وعلى كلِّ ما بناه الأوائل ، بل يقطع الأمل في بناء الإنسانية ونهضتها وصحوتها من جديدٍ إلى قرون طويلةٍ ، وتحوِّل المدن العامرة إلى أنقاض مدمَّرةٍ ، ومستعمراتٍ زاهرةٍ إلى أراضٍ قاحلةٍ ، تحوِّل العواصم الكبرى إلى مقابر عامَّة ، والمساجد والمعابد إلى حاناتٍ وخاناتٍ ، ونوادي الخمر والقمار ، ومؤسسات العلم ومراكز الثقافة ، إلى مراكز اللهو

والترويح والفسق والدَّعارة ، وينقلب المجتمع كلُّه رأساً على عقب ، ويصبح عاليه سافله ، وعزيزه رذيله ، وقد صور القرآن ببلاغته المعجزة هذا التغيير الهائل على لسان ملكة سبأ ، فصدق عليه في كتابه الخالد قائلاً :

﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النَّمل : ٣٤].

وكانت فريسة هذه الشهوة ـ شهوة الأنانية والحكم والشعور المفرط بالتفوُّق ـ أممٌ قديمةٌ ذكرها القرآن ، أممٌ لم تعرف شيئاً ، ولم تحس شيئاً غير الإبادة والتدمير ، وزحفت كالفيل الهائج المائج ، فأهلكت الحرث والنسل، وداست شعوبها الشقيقة كما يدوس أحدنا أرض مزرعته، ولا يبالى، وكان من بينها قوم عاد ، وقد وصفها القرآن بهذا الداء ، داء الاستكبار :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت : ١٥].

وظهرت نتيجة هذا الذهول ـ الذهول عن الله ـ والابتعاد عنه ، وعبادة النفس وتقديسها ، واستعمال وسائل القوّة استعمالاً حراماً ، لا يبالي بأيِّ قيد ، ولا يقف عند حدٍّ ، ولا يقيم للعاقبة والمصير أيَّ وزن ، ولا يحسب للجناية وحجم عقابها أيَّ حساب ، وقد حكى القرآن على لسان سيدنا هود الذي بعث في قوم عادٍ ، هذه الحالة النفسية ، فقال :

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : ١٢٨ ـ ١٣٠].

فحين يتسلَّم فردٌ أو جماعة مقاليد الحكم المطلق ، ويتسنَّى له قوةٌ تحقِّق له ما أراد ، هنالك يعبث الفرد أو هذا الطاغية بتلك الشعوب البريئة المغلوبة المنكوبة كما يعبث اللاعب بكرة القدم ، أوكما يعبث الطفل بجانب القرطاسِ ، فإنَّه يتصرَّف فيها كذرات رملٍ وقصاصات ورقٍ ، ويعتبر أنَّه على حقٍّ في العبث بمصائرها ، والحكم عليها بالموت أو الحياة ، أو التخفيف عنها ، والتضييق عليها ، أو بسطها بسطاً ، أو قطعها إرباً إرباً.

ويقصُّ علينا القرآن قصة فرعون الذي ظنَّ نفسه رباً وحاكماً ، وتقلَّد هذا

الحكم الأناني المطلق ، فيقول : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤].

ثم يصور القرآن في موضع آخر فرداً من أفراد هذه الطبقة يمثل الأنانية والأغراض ويملك لساناً سليطاً ، وبياناً ساحراً ، إنه ليس صورة فردٍ معيَّن ، بل إنه تصوير سلوكٍ خاصٍّ ونمطٍ خاصٍّ من العقلية والتفكير والاتجاه :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [البقرة : ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

إنَّ التاريخ الإنساني زاخرٌ بهذه النماذج البشرية التي تمثل هذا الطراز وهذه العقلية ، مثلها في مختلف أدوار التاريخ الروم ، والفرس ، وقد أنشأ فيهم هذا السُّكر : سكر القوَّة والحكم والشُّعور بالتفوق على غيرهم رغبةً عنيفةً في القتل ، والتدمير ، والإبادة ، وإذلال الكرامة الإنسانية ، تجلَّت في حروبهم ، ومعاركهم ، وفي عبادة القوَّة ، وقهر النفوس واضحةً جليَّةً ، يقول الدكتور درابر (Drapper) في كتابه «الصراع بين الدين والعلم» (Conflict Between Retigion and Science) :

«لما بلغت الدولة الروُّمية في القوَّة الحربيَّة والنفوذ السياسيِّ أوجها ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات ، هبطت في فساد الأخلاق ، وفي الانحطاط في الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات ، بطر الرومان معيشتهم ، وأخلدوا إلى الأرض ، واستهتروا استهتاراً . وكان مبدؤهم : أنَّ الحياة إنما هي فرصة التمتُّع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيمٍ إلى ترفٍ ، ومن لهوٍ إلى لذَّةٍ ، ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللَّذة ، وكانت موائدهم تزهو بأواني الذَّهب والفضة مرصعةً بالجواهر ، ويحتفي بهم خدام في ملابس جميلةٍ خلابةٍ ، وغاداتٍ روميَّةٍ حسانٍ ، وغوانٍ عارياتٍ كاسياتٍ غير

متعففاتٍ تدلُّ دلالاً ، ويزيد في نعيمهم حماماتٌ باذخةٌ ، وميادين للَّهو واسعةٌ ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولا يزالون يصارعون حتى يخرَّ الواحد منهم صريعاً يتشحَّط في دمه ، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم ، أنَّه إن كان هنالك شيءٌ يستحقُّ العبادة ، فهو القوة ، لأنَّه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التي يجمعها أصحابها بعرق الجبين ، وكدِّ اليمين ، وإذا غلب الإنسان في ساحة القتال بقوة ساعده؛ فحينئذٍ يمكن له أن يصادر الأموال والأملاك ، ويعيِّن إيرادات الأقطاع ، وإن رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوَّة القاهرة ، فكان نظام رومة المدنيِّ يشف عن أبهة الملك ، ولكنَّه كان طلاءً خدَّاعاً كالذي نراه في حضارة اليونان في عهد انحطاطها» .

ثم اقرأ غزو التتار الوحوش في القرن السادس الهجري في كتب التاريخ : «إنَّ الذين أحسُّوا في أول صدام بأنَّه ليس هنا في البلاد المجاورة قوَّةً تمنع هذا السيل العرم ، وكانت مأساةً إنسانيةً عامَّةً ، لا تستطيع أن تقرأ تفاصيلها إلا بقلوب واجفةٍ ، وعيونٍ باكيةٍ ، إنَّها كانت فتنةً عمياء سوداء ، أحاطت بالعالم الإسلاميِّ كله ، وقوضت بنيان العالم المتمدِّن المعاصر وأركانه ، كان الجيل الإنسانيُّ كلُّه في هذه الفترة المهيبة المروِّعة من الزمن في وحشةٍ وغربةٍ ، وهلعٍ ، وفزعٍ ، وبأسٍ قاتلٍ ، ظهرت آثاره لا في كتب التاريخ فحسب بل في كُتب الشِّعر ، والأدب ، والأخلاق ، والتصوُّف أيضاً» ، هذا الجراد المنتشر من الهمج لم يدمِّر البلاد العامرة المعمورة والمدن الزاهرة ، والأقاليم الخصبة الغنية المنتجة للرجال والنوابغ فحسب ، وجعلها خراباً يباباً ، وقاعاً صفصفاً ، بل إنَّه اكتسح الحضارة الإنسانية برمَّتها ، وتأخَّر تقدم العالم العلميُّ والمدنيُّ ومسيرته الحضارية لعدة قرون ، وغشيت سماءَ العالم الإسلاميِّ الذي حمل لواء الدِّين والأخلاق والعلم والحكمة في هذه الحقبة من الزَّمن ، سحابةٌ داكنةٌ قاتمةٌ من الانحطاط العلميِّ والإعياء الفكريِّ والعقليِّ ، ونضبت فيه منابع النبوغ والذكاء ، وهاجرت أسرٌ علميَّةٌ دينيَّةٌ عريقةٌ من إيران وتركستان ـ وهما كانتا محاضن العلوم الإسلامية إذ ذاك ـ تفرُّ بدينها ، وحرمتها ، وتراثها إلى الهند

التي كانت تقع في أقصى بلاد العالم الإسلاميِّ، وكانت تحكمها أسرٌ ذات قوَّةٍ وشكيمةٍ تواجه العاصفة بالإعصار، وتملك القدرة على مواجهة التتر الوحوش، ودحرهم إلى الوراء، وأصاب العالم الإسلاميُّ نوعٌ من العقم الفكريِّ، والجدب العلمي حتى سدَّت بعض الأوساط العلمية أبواب الاجتهاد ومنافذه، وابتغت العافية في التقليد، والنقل، وتطبيق الفعل بالفعل».

إنَّ قيصر، والإسكندر، وجنكيز، وهولاكو، وتيمورلنك، ونادرشاه أفشار، لم يكونوا إلا مرضى هذا الداء العضال، داء السُّكر بالقوَّة المادية ونشوة الحكم والتفوق بالعظمة، وكانوا يقنصون الإنسانية، ويصطادون النوع البشريَّ، ويدوِّخون الأسرة الإنسانية مرَّةً بعد مرَّةٍ بأسنتهم ورماحهم، وبأقدامهم، ونعالهم، اقرأ تفاصيل ملاحمهم، وصيدهم وقنصهم، وعبثهم بالرؤوس، والجماجم، والأشلاء، والأنفس، والأرواح، ثم تأمَّل كيف قدَّم شاعر الإسلام محمد إقبال عصارة دراساتٍ طويلةٍ، وآلافاً من الصفحات في ثلاثة أبيات:

«انظر كيف مزَّق جنكيز وإسكندر رداء الإنسانية، وهتكا ستر الحشمة، ولباس الكرامة ففضحا الإنسان مراراً وتكراراً.

إنَّ تاريخ الأمم يشهد منذ الأزل أنَّ سُكْر القوَّة، ونشوة الحكم خطرٌ في خطر، ومصيبةٌ على مصيبةٍ، إنَّه سيلٌ جارفٌ يكتسح العقل، والفكر، والعلم، والمعرفة، والفنَّ، والصناعة كحشائش ونباتاتٍ حقيرةٍ، ويجعلها هباءً منثوراً».

لقد رأى كثير من رجال الفكر في الشرق أنَّ أوربا (بمعسكريها الشرقيِّ والغربيِّ) وأمريكا أصابتهما هذه العقدةُ النفسية، وصرعهما هذا الدَّاء القديم، إنهم اعتبروا نفوسهم أوصياء (Gaurdians) على الشعوب والأمم، والحاكمين على مصائرهم، وهم يزنون كلَّ شيءٍ بميزان القوَّة، أو الربح والخسارة، ولا يرضون بقيادةٍ صالحةٍ أمينةٍ في أيِّ بقعةٍ من بقاع العالم، ويحاولون أن يجتثُّوها حالاً إذا نشأت، بل يرى كثيرٌ من المفكرين

والخبراء في الشرق أن القيادة الغربية هي المسؤولة عن ذلك التدهور الخلقيِّ والفوضى الفكريَّة العامَّة في البلاد الآسيوية بوجهٍ عام ، وفي البلاد الإسلامية بوجهٍ خاصٍّ.

هذا المنطق النفعيُّ المجرَّد عن الحقِّ والنزاهة لا يسمح للقيادة الغربية أن تفكر في أيِّ قضيةٍ بحيادٍ تامٍّ ، ورغبةٍ مخلصةٍ في التوصل إلى كنه الأمر ، وإيجاد حلِّها العادل ، بل إنَّها تخالف ـ بالعكس ـ الظالم القويَّ في وجه المظلوم الضعيف الذي له الحق.

ولذلك خابت المؤسسات العالمية النافعة مثل جمعية الأمم المتحدة ومجلس الأمن في مقاصدها ، وصارت لا تمنع صداماً ولا تلمُّ شعثاً ولا تحقِّق أملاً ، ولا تقدر على إسعاف الإنسانية والأخذ بيدها خالصةً مجرَّدةً من الأغراض المادية.

وقد زال بفقدان هذا العنصر الهام والعامل الأكبر (الإخلاص والحياد) تأثير معونات الغرب السخيَّة في المشاريع العمرانيَّة والغذائية في الشرق ، ولم تحقق كثيراً من مطالب الغرب ، ولم تكسب احترامه مقابل هذه المساعدات السخيَّة ، والدعم القويِّ.

أمَّا إذا اقترنت هذه القوة ، وامتزجت بغايةٍ نبيلةٍ ساميةٍ ، وصارت تحت توجيه قائدٍ مصلحٍ راشدٍ؛ فلا تتخبَّط كالفيل الهائج الذي أُطلق من قيوده ، وتكون مركباً ذلولاً لقائدٍ عارفٍ خبيرٍ لا راكباً ، تابعاً لا متبوعاً ، وسيلةً لا غايةً ، وتتحول إلى نعمةٍ ورحمةٍ بدلاً من عذابٍ ونقمةٍ ، وحياةً لا موت ، وأداة بناءٍ لا معول هدمٍ ، يُستنجد بها في إغاثة الملهوف ، ونصرة المظلوم ، وتحرير الإنسان من سلاسل العبودية ، وردِّ الحقوق إلى أصحابها ، والمياه إلى مجاريها ، وردِّ اعتبار الإنسانية وكرامتها ومكانتها اللائقة في هذه الأرض ، هنالك يفتتح عهدٌ سعيدٌ ، وبينى هذا العالم المنهار المتداعي من جديدٍ.

يقول إقبال: «إذا تخلَّت السياسة عن الدِّين؛ صارت سمّاً ناقعاً ، وإذا كانت في خدمته صارت ترياقاً واقياً».

ويعتقد إقبال أنَّ أروع نموذجٍ وأجمل مثالٍ لهذه القوَّة الممتزجة بالغايات النبيلة والمقاصد الصَّالحة ، هي الفتوح المباركة ، والمغامرات التي قام بها العرب الأوَّلون الذين اعتنقوا الإسلام ، وحملوا رسالته ودعوته في الآفاق ، واستعمالهم للقوَّة التي آتاهم الله استعمالاً صحيحاً لائقاً ، والذي عبَّروا عنه على لسان سفيرهم بإخراج العباد من عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

إنه خاطب في الأبيات الرائعة الأمَّة العربية ، وشرح دورهم القياديَّ الرائع البنَّاء في تاريخ الشعوب والأمم والحضارات والمدنيات ، وأشاد بهذه العقيدة والإيمان والدَّعوة والرسالة التي كانت مصدر هذا الانقلاب ، ومنبع هذا التحوُّل العظيم في سير الإنسانية واتجاهها ، وحركتها ومصيرها ، وهي من غرر كلامه وعيون شعره باللغة الفارسيَّة :

«اكتست صحراء العرب بفضل هذا النبيِّ الأميِّ حلةً أنيقةً ، وأنبتت زهرةً يانعةً ، إنَّ عاطفة الحرية نشأت في ظلِّ هذا النَّبيِّ بل ترعرت ونمت في حجره ، وهكذا كان يوم هذا العالم المعاصر مدنـيَّـةً لأمسه .

لقد وضع قلباً نابضاً خفَّاقاً في جسد الإنسان البارد ، وأزاح الستار عن طلعته الجميلة الوضاءة .

هزم كلَّ طاغوتٍ ، وحطَّم كلَّ صنم ، وأورق به كلُّ غصنٍ يابسٍ وأزهر وأثمر ، إنَّه روح معركة بدر وحنين ، وإنه مربِّي الصِّدِّيق ، والفاروق ، والحسين .

أذان صلاة الحرب وجرس سورة الصافات غيضٌ من فيضه ، جعل سيف صلاح الدين البتار ، ونظرة بايزيد النافذة مفتاح كنوز الدنيا والآخرة .

جرعة من كأسه أروت العقل والقلب ، والتقى بها روح الروميِّ بفكر الرازيِّ .

واجتمع بها العلم والحكمة والدِّين والشَّرع ، والإدارة ، والحكم مع قلوبٍ أوَّاهةٍ مخبتةٍ منيبةٍ في الصدور .

إنَّ جمال قصر الحمراء ، والتاج الذي نال خراج الملائكة وإعجاب القديسين هو نفحةٌ من نفحاته ، ولمحةٌ قصيرة من لمحاته ، وومضةٌ من أنواره وبركاته.

ظاهره تلك التجلِّيات والنفحات ، وباطنه درٌّ مكنونٌ لم يطَّلع عليه العارفون ، ولم يصل إلى كُنهه السالكون.

فلا ريب أنه يستحقُّ ثناء الجميع ، وشكرهم ، وحمدهم ، لأنَّه أسبغ نعمة الإيمان على هذه الحفنة من التُّراب».

من المفارقات العجيبة في هذا الكون أنَّ الأشخاص الذين أنشؤوا إمبراطوريات عظمى ، ودخلت بهم الأمم المستضعفة الذليلة المهانة في دور النهضة والرُّقي ، والعظمة والكمال ، والنجاح والازدهار ، كانوا متقشِّفين صابرين مغامرين ، زاهدين في الدنيا وزهرتها ، أغنياء عن التنعُّم والعيش الرغيد ، وكانت معيشتهم بسيطةً ومرهقةً ، ولكنَّهم نجحوا بفضل مغامراتهم وطموحهم ، وعلوِّ همَّتهم ، وجهادهم ، واجتهادهم ، وصبرهم على المكاره في تأسيس تلك الحكومات التي ثبتت كالجبال الراسيات لقرونٍ طويلةٍ ، ولكن توفُّرُ وسائل الهناء والرَّخاء ، والبيئة الفاسدة ، ووجود طبقةٍ من المتزلِّفين وهواة المناصب أثَّر في أخلاقهم وأعقابهم بصورةٍ تدريجيَّة فشلت قواهم ، وأخلدوا إلى الأرض ، وتمرَّغوا في النَّعيم والتَّرف ، وصاروا أبناء مطاعم ومشارب ، وسهراتٍ ومآرب ، وعزَّ عليهم الحياة من غير كأسٍ ومزمار ، وطنبورٍ وعودٍ ، وارتكز ذكاؤهم ، ونبوغهم ، وإبداعهم على نقطةٍ واحدةٍ ، ولم تكن بالطبع نقطة الفتوح وحراسة الحدود ، وتوطيد أركان الدولة ، إنما هي تصميمات أزياء ، وأقسام أطباق ، والتنافس في الطرب والمجون ، والاستمتاع بلذَّات الدنيا ومباهجها ، ووصلوا في ذلك إلى حدود لا يتطرق إليها خيالُ ابنٍ من أبناء البلد ، وفردٍ من أفراد الشعب.

إنَّه مبدأٌ عام جرى به التاريخ الإنسانيُّ منذ القدم ، وأخذ به من غير استثناءٍ ، ويبدو لنا أنَّها سنَّةٌ من سنن الكون ، ونتيجةٌ طبيعيَّةٌ منطقيَّة للمال ،

والثراء ، والمنصب ، والجاه ، وتوفُّر أسباب الراحة والرخاء ، وقد كشف القرآن عن وجه هذه الحقيقة بإيجازه المعلوم وبلاغته المعجزة فقال: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦ ـ ٧].

اقرأ تاريخ شعبٍ من الشعوب في أيِّ دورٍ من أدوار التاريخ وحكومةٍ من الحكومات التي قامت على وجه الأرض قديماً وحديثاً ، ترى هذا التفاوت واضحاً بين الأول والآخر ، بين الأوائل والأواخر ، في السِّير والأخلاق وأنماط الحياة ، وفي الأقدار والمقاييس.

ونكتفي هنا بمثالين ونموذجين من هذه الأمَّة التي سبقت قريناتها في حمل لواء التعاليم الخلقيَّة في هذا العالم ، وهي أمَّةُ نبيٍّ جعل الفقر شعار فخره ، وربط الأحجار على بطنه ، والتي قامت به من أول يومها على الزُّهد والقناعة ، ومراقبة النفس والعطف على الخلق ، فإنَّ أمثلتها ونظائرها تكثر ـ طبعاً ـ في الفرس والروم ، ومصر واليونان ، وفي حكوماتٍ وحضاراتٍ أخرى.

الواضح المعلوم لدى الجميع أنَّ العرب حين خرجوا من جزيرة العرب لنشر رسالة الإسلام في العالم ، وإجراء شريعة السماء في الأرض كانوا فقراء ، غرباء عن حواشي الحضارة ومستلزماتها ، وكان حياتهم حياة شكيمةٍ وفتوَّةٍ ، وصبرٍ وجلادٍ ، وزهدٍ وشظف ، ولكنَّهم بفضل القوَّة الذاتية في الإسلام وبحياتهم البسيطة الزاهدة التي فقدتها سائر الشعوب في العالم ، نجحوا في إنشاء دولٍ عظيمةٍ مرهوبة الجانب ، من بينها الدولة العباسية التي حكمت باسم الخلافة خمسمئة سنة حكماً مستقلاً ذاتياً ، ودان لها نصف العام المتمدِّن المعاصر على أقلِّ تقدير ، ولقد كان مؤسسو هذه الدولة الأوائل مثل هارون الرشيد والمأمون (مع مطامعهما الملوكية وعيشتهما الفارهة وترفهما المعلوم) من رجال الفتوَّة والمغامرة والإقدام ، متعوِّدين على حياة الجندية والفروسية ، ولكن أصاب هذه الدولة أخيراً داء التَّرف والتنعُّم ، وأصبح ولاة أمورها الذين حملوا عبء الخلافة الإسلامية على أكتافهم مدَّةً من الزمن ، عالةً على نفوسهم وأهوائهم ، ينساقون معها ،

ويدورون في فلكها ، ويصيرون فريسة الحكم الطويل ، والمدنية الناعمة المترفة ، وتكدَّست عندهم أسباب الراحة ، والهناء ، وفاضت عاصمتهما بغداد بسيلٍ جارفٍ من الغفلة عن الله ، والتهالك على الدُّنيا ، عبثت بكثيرٍ من رجال العلم والفضل ، وضرب حبُّ الدنيا وحبُّ ما فيها أطنابه على العاصمة ، وما جاورها من البلاد والأقاليم .

وظهرت نتيجة هذا الإغراق في الترف والتمرُّغ في النعيم ، والتهالك على حطام الدنيا ، والانصراف عن معالي الأمور في غارة التتر الوحشية في زمن الخليفة العباسي المعتصم بالله ، وتحوَّلت عاصمة العلم والمدنية إلى مجزرةٍ وحشيةٍ هائلةٍ ينتكس عند ذكرها قلم المؤرِّخين .

وقد صوَّر مؤرخٌ أوضاع بغداد قبل غارة التتر ، فأحسن ، وأجاد ، يقول المفتي قطب الدين النهرواليُّ المكيُّ (وهو أحد المؤرخين والعلماء في القرن العاشر الهجري) يصف ما كان عليه أهل العاصمة في هذه الفترة من الزمن :

«مرفهون بلين المهاد ، ساكنون على شطِّ بغداد في ظلٍ ثخينٍ ، وماءٍ معين ، وفاكهةٍ وشراب ، واجتماع أحبابٍ وأصحاب ، ما كابدوا حرباً ، ولا دافعوا طعناً ، ولا ضرباً» .

ونقدم المثل الثاني من الدولة المغوليَّة في الهند التي أسسها ظهير الدين بابر التيموريُّ (١٤٨٢ م ـ ١٥٣٠ م) على التوبة والإنابة ، وإرادة الإصلاح ، والتغيير ، والتضحية ، والفداء ، والعزم الصادق ، فلما رأى بابر أنَّه لا يملك غير عشرين ألف جنديٍّ مقابل مئة ألف مقاتل تحت راية «رانا سانجا» وأن لا أمل هناك ولا مدد ، سلك طريقاً جديداً للفتح ، يحكي المؤرخ الهنديُّ الشهير محمد قاسم البيجابوري المعروف بفرشته في تاريخه :

«إن رانا سانجا توجه إلى بابر يقود مئتي ألف مقابل من أهل البلاد ، وساد الذُّعر في جيش بابر ومنعه قواد جيشه وأركان دولته عن الوقوع في الحرب معه ، وتكهَّن منجم البلاط محمد شريف بأنَّ الهزيمة محتومةٌ ، ولكن بابر صمَّم على القتال وقال : إذاً ينبغي أن نتهيَّأ للشهادة في سبيل الله ،

وحلف قادة الجيش ورجال البلاط بأنَّهم سيقاتلون إلى آخر رمق ، وارتفع هتاف الجهاد في كلِّ جانبٍ من جوانب الجيش ، وتاب الملك عن الخمر التي لم يكن يفارقها في وقتٍ من الأوقات ، وتاب عن جميع المنكرات الشرعية ، وقاوم «رانا سانجا» بعشرين ألف مقاتل ، وانتصر عليه ، وكان ذلك في الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٩٣٣ هـ.

ولكن تدرجت هذه الدولة الفتيَّة التي قامت على مثل هذا العزم والحزم ، والتضحية والفداء ، وميثاقٍ مع الله ، والتي تجمَّلت وافتخرت بوجود عصاميِّين ونوابغ وعباقرة من بين أبنائها مثل «همايون» و«أكبر» و«أورنك زيب» إلى حمأة الرذيلة والإسفاف ، والشهوة ، واتباع الهوى ، واتباع الرغبات وإتيان المنكرات ، تجلَّى أخيراً بصورةٍ واضحةٍ مؤسفة في حياة «محمد شاه» (١٧١٩ م ـ ١٧٤٨ م) وما جرى في قصره حتى سُمي باسمٍ معناه: «الماجن» واشتهر به.

وإليك ما جاء عنه في التاريخ مستنداً إلى شهادةٍ علميَّةٍ:

«إن الملك محمد شاه لم يغير دينه ، ولكنه غير ديدنه ، فصار الغيم نقيبه ورائده ، إنَّه أمر بأن يؤذَّن بالرحيل كلَّما مرَّت سحابة على هملايا وأومض برق ، ويغادر الخليفة وركبه القصر إلى الصحراء. . . ولذلك سمي المسكين في الأخير ، «رنكيلا» يعين «الماجن» وهجره وزيره آصف جاه عندما رأى حالته ، فانصرف إلى جبال الدَّكن وغاباتها».

وجاء في بيان الشيخ الكبير عبد العزيز الدهلويِّ ما يلقي الضوء على تلك الأوضاع الفاسدة:

«كانت النساء في بيت قمر الدين خان (وزير محمد شاه) يغتسلن الغسل الأخير بماء الورد ، وكان يرسل إلى بيت أحد أمرائه كميَّةً من الورود والأزهار والبان (التنبول) يساوي ثمنها ثلاثمئة روبية كل يوم.

تأمَّل في غابر هذه الحكومات ومصيرها ، وماضي الأمم وحاضرها ، وما بينهما من تفاوتٍ عظيم ، وبونٍ شاسعٍ ، ثم انظر كيف صوَّر محمد إقبال

هذا التاريخ الطويل العريض ، وأزاح الستار عن نهضة الأمم وتأخُّرها ، ورقيِّها وانحطاطها في بيتٍ واحدٍ:

«تعال أنبئك عن مصير الأمم وعاقبتها ، سنانٌ ورماحٌ أولاً ، ولهوٌ وغناءٌ آخراً».

ولكن هذا المقال لا يتمُّ إلا إذا قلنا: إنَّ هذه الأمم حين تدخل مرحلة اللهو والغناء ، والترف ، والمجون ، وتصيبها نوبةٌ عصبيَّةٌ من التمتُّع بكلِّ لونٍ من ألوان التنعم ، والإحاطة بكل نعمةٍ من نعم الدنيا ، وتتخطَّى سائر الحدود الخلقية ، والاعتبارات الإنسانية ، وتتجاهل كلَّ حقيقةٍ ، هنالك تتدخَّل الرحمة الإلهية وتتناولها بعمليةٍ جراحيَّةٍ ، ويختار لهذه الجراحة جنكيزاً وتيموراً ، أو هولاكو أو نادراً ، فيقطع هذا الناسور ، أو هذا السرطان من غير رحمةٍ ، ولا هوادة ، إنَّه يقول:

«الملوكية تتحوَّل بين يومٍ وليلةٍ إلى جنونٍ أو مجونٍ ، وليس التيمور أو جنكير إلا آلاتٍ جراحيةً تستعملها ـ في حينها ـ القدرة الإلهية».

ولكن انتهى الآن دور الملوكية القديمة ، وحكوماتٌ شخصية مستبدةٌ إلى حدٍّ كبير ، وجاء دور الديمقراطية والجمهورية ، تكدست قوى العالم وثرواتها في أيدي القيادة الغربية (أمريكا وأوربا) وهي تجتاز في هذا الوقت مرحلة الجنون والانتحار ، بعد أن وصلت إلى آخر نقطةٍ من النهضة والرقيِّ والازدهار ، وهي مرحلةٌ مرَّت بها حكوماتٌ شخصيَّةٌ قديمةٌ ، وحضاراتٌ بائدةٌ في أوانها ، فلا ترى عندها الآن إلا معاداة الحقائق ، وإذلال الشعوب وهضم الحقوق ، وظلم المستعمرات والجاليات ، وحالةً هستيريةً عصبيةً من عبادة النفس ، وتقديس الشَّهوة ، وعبادة الهوى ، والإغراق في حياة اللهو والعبث والمجون ، والسآمة من الحياة ، والشذوذ الخلقي ، والجنسي ، والتهالك على كلِّ عاجلٍ وطريفٍ ، وردُّ فعل عنيفٍ عند الاجتماع ، والغرام بالذاتية والأنانية ، والذُّهول التامِّ عن العاقبة والمصير ، وإنكار كل ما يتعدَّى إطار اللذة والمنفعة ، وكلُّ ذلك يدل على أنَّ هذه

القيادة فقدت معنويتها ، وضرورتها وصلاحيتها للبقاء ، وأنَّ هذه الحضارة دخلت دور الاحتضار.

إنَّ تجربة التاريخ تدلُّنا على أنَّ قيادةً فتيَّةً شابَّةً كانت تظهر على مسرح العالم في مثل هذه الظروف ، فتقوم بعمليةٍ جراحيةٍ على هذا السرطان ، وتنقذ الإنسان من الهلاك ، وتجري في عروقها الميتة دماً فائراً جديداً ، ولكن الحضارة الغربية ما تركت على ظهر الأرض قيادةً أو قوَّةً ، ثم ليس هنا أمل في ظهور قيادةٍ جديدةٍ ، أو بروز حضارةٍ شابَّةٍ قويَّةٍ في الميدان ، لأنَّ القوى العالمية اليوم متطفلة على مائدة الغرب ، وتعيش على هامشها ، وتتبَّع طريقها ، والحضارات المعاصرة بأسرها مستسلمةٌ خاضعةٌ أمامها ، لا تبغي بها بديلاً ، ولا تجد عنها محيصاً ، لذلك يبدو لنا أنَّ هذه العملية الجراحية لا تتمُّ على يد قوَّةٍ أجنبيةٍ من الخارج ، وهي ليست في حاجة إليها لأنَّها ـ على ما يقول إقبال ـ مثخنةٌ بجروحها الداخلية الغائرة.

إنَّ الطريق الذي اختارته الحضارة الغربية ، والقوَّة الهائلة من التدمير ، والإبادة ، والقتل ، والفتك التي زودت بها أناساً لا يخافون الله ، ولا يستحيون من الناس ، أوشكت أن تقضي على نفسها ، ويأتي حتفها بيدها.

يقول إقبال :

«إنَّ هذا الفكر الجريء الذي فضح قوى الطبيعة ، وأفشى أسرار الكون انقلب اليوم برقاً خاطفاً ، ورعداً قاصفاً ، يهدد عشَّ الغرب ووكره ، وحصنه ومعقله».

* * *

دور محمَّد إقبال في توجيه الأدب والشِّعر

ألقى سماحة العلامة النَّدويُّ هذه المحاضرة في المدينة المنوَّرة في قاعة مكتبة الملك عبد العزيز في احتفالٍ عقده النَّادي الثقافيُّ ، ليلة الثلاثاء في ٢٤/ من ربيع الآخر سنة ١٤٠٥ هـ ، ما بين المغرب والعشاء ، وقد غصت القاعة على سعتها بالمستمعين .

سادتي وإخواني! إنَّني أستحيي أمام الله تبارك وتعالى ، ومن حضر من الإخوان أن أذكر في جوار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي ظلِّ جدار مسجده العظيم ، شخصاً غير شخص الرَّسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن أشيد به ، وقد قال الشاعر العربي القديم:

ولما نـزلنا منـزلاً طلَّـه النَّـدى أنيقاً وبستاناً من النَّـور حاليا
أجـدّ لنا طيبُ المكان وحسنُـه مُنـىً فتمنَّينا فكنـتَ الأمـانيا

وهذا هو المكان الذي طلَّه النَّدى ، طلّه ندى الرسالة السَّماوية الأخيرة ، والصحبة النبوية العطرة ، فلا يجوز إلاَّ ذكر من نالت به هذه المدينة الشرف ، ونالت به الإنسانية الحياة الجديدة ، والمعنوية الحقيقية ، ولكني سأتحدث عن رجلٍ كان قوي الصلة عميقها بالنَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا هو المُبرِّر الوحيد للحديث عنه في هذا الجوار الكريم ، ونحن على غَلْوةِ سهمٍ ـ كما يقول العرب ـ من المسجد الشريف.

إنَّ شاعرنا العظيم محمَّد إقبال كان ـ وقد شهدتُ ذلك بعيني وأشهدُ بذلك بجوار المسجد ـ إذا ذكرت المدينة ـ فضلاً عن الرسول نفسه صلى الله عليه وآله وسلم ـ دمعت عينه ، ولم يتمالك ، وقد قال بيتين من الشعر بالفارسية معناهما:

(لقد لامني إخواني واستغربوا توجُّهي إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على كبر سنِّي ، وأنا في سرورٍ وحنينٍ ، ونشيدٍ ورنينٍ ، وقالوا: هذا إرهاقٌ وتكليفٌ بما لا يطاق ، فقلت لهم: يا إخواني! ألا تعرفون أنَّ الطائر يهيم على وجهه في الصحراء ويحلق في الفضاء ، فإذا أدبرالنهار ، وأقبل الليل ، تذكَّر وكره ، ورفرف بجناحيه إلى وكره ، يطير إليه ليأوي فيه ، والمدينة وكر الرُّوح ، ووكر العقيدة ، ووكر الإيمان بالنسبة إلى المسلم ، فكيف لا أطير إلى وكري حين دنا أصيل حياتي ؟!).

إخواني وسادتي ، إنَّني أتصوَّر الأدب كائناً حيَّاً له قلبٌ حنونٌ ، وله

ضميرٌ واعٍ ، وله نفسٌ مرهفةُ الحسِّ ، وله عقيدةٌ جازمة ، وله هدفٌ معيَّنٌ ، يتألَّم بما يسبِّب الألم ، ويفرح بما يثير السرور ، فإذا لم يكن الأدب كذلك فإنَّه أدبٌ خشيبٌ جامدٌ ، أدبٌ ميت خامد ، أشبه بالحركات البهلوانية ، والرياضات الجمبازية ، فالأدب ليس أداة تسليةٍ ، وإلهاء نفسٍ ، وإزجاء وقتٍ (أو قتل وقت كما يقول بعض الأدباء) فحسب ، وإنَّ الأدب من أكبر الوسائل للوصول إلى الأهداف النبيلة ، وللتأثير في النفس الإنسانية ، واسمحوا لي أن أقرأ أمامكم سطوراً تدلُّ على ما كان يعتقده شاعرنا العظيم محمد إقبال ، وهي تدلُّ على نظرته إلى الأدب ، وعليها بنى أدبه ، وعلى ذلك قامت مدرسته الشعرية ، الفكريَّة ، الفلسفية الهادفة.

يعتقد محمد إقبال أنَّ الأدب لا يصل إلى حدِّ الإعجاز حتى يستمدّ حياته وقوته من أعماق القلب الحيِّ ، ويسقى بدمه.

نقلت هذا المعنى في كتابي: «روائع إقبال» إلى العربية ، ومنه أقتبس هذه السطور:

(يا أهل الذوق والنَّظر العميق ، أنعِم وأكرِم بنظركم! ولكن أيُّ قيمة للنظر الذي لا يدرك الحقيقة؟ لا خير في نشيد شاعرٍ ، ولا في صوت مغنٍّ ، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس).

أنتم تعرفون أيها السادة! قيمة نسيم السَّحر عند الشعراء والأدباء ، وأهل القلوب الواعية الحية ، ولكنَّه يقول:

(لا بارك الله في نسيم السَّحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلاّ الفتور والخمول ، والذويَّ والذُّبول ، إنَّ غاية الإحسان في فنٍّ من فنون العلم والأدب لوعة الحياة الدائمة ، ما قيمة شرارةٍ تلتهب سريعاً ، وتنطفىء سريعاً؟ وما قيمة لؤلؤةٍ كريمةٍ ، أو صدفةٍ لامعةٍ لا تُحدِث اضطراباً في الأمواج ، ولا اضطراباً في البحار ، لا نهضة للأمم إلاّ بمعجزةٍ ، ولا خير في أدبٍ ولا شعرٍ إذا تجرَّدا عن تأثير عصا موسى)[1].

---

(١) انظر: «روائع إقبال» للعلامة الندوي ، ص/ ٧٤، طبع المجمع الإسلامي العلمي ندوة العلماء، لكهنؤ ـ الهند.

هذه هي نظرة إقبال إلى الشعر والأدب ، وقد كان ذلك في الحقيقة ثورةً في تاريخ الأدب وفي تاريخ الشعر ، وفي عالم الأدب والشعر ، إن الله سبحانه وتعالى قد قيَّض في هذا العصر الأخير رجلاً جمع بين دراساتٍ عميقةٍ دقيقةٍ ، للفلسفات القديمة والفلسفات الحديثة ، وللفنون والآداب ، فقد عاش محمد إقبال في أوربا فترةً طويلةً في كبرى جامعاتها ، وقدّم رسالاتٍ علميةً ذات قيمة ، وعاش بين كبار النوابغ وكبار المفكرين في أوربا ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى اختاره لرسالةٍ إسلاميَّةٍ إنسانيَّةٍ عالميَّة ، واختار هو لتبليغ رسالته لسان الأدب ولسان الشعر ، ولسان الأدب هو لسان الضمير ، ولسان الذوق ، ولسان النفس المضطرمة المضطربة ، وقام برسالته خير قيام ، وأحدث تأثيراً من أعمق ما عُرِف من التأثير في الأدب والشعر ، إنه أنشأ مدرسةً جديدةً في الشِّعر ، وأثر في تفكير الشعراء والأدباء ، وأحدث تراكيب جديدةً ، وأخيلةً جديدةً ، ومعاني جديدةً .

ويرجع الفضل في ذلك إلى عدَّة عوامل ، أولاً : قوة العقيدة ، وقد كان قويَّ العقيدة ، ولا أعني بذلك أنه كان قوي العقيدة في صحة الإسلام ، هذا والحمد لله يسعد به كثيرٌ من الناس ، وكلُّنا نرجو الله أن نكون عند هذا الحدِّ ، ولكنَّه كان قوي العقيدة في صلاحية الإسلام للخلود ، وأنَّه هو الرسالة الأخيرة المختارة ، الرسالة الوحيدة التي تستطيع أن تجذِّف سفينة الحياة ، وهو الذي يستطيع أن يُنقِذ العالم من براثن الجاهلية والوثنية ، وعبادة الإنسان ، وعبادة الأوثان ، وعبادة الشهوات ، وعبادة البطون والمعدات ، إنَّه كان قويَّ الإعجاب بشخصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وبمكانته المنيرة للسبل ، وخاتم الرسل ، ومُقْتَدى الجميع وإمام الكل؛ الذي رفع من قيمة غبار الأرض فجعله إثمداً للعيون ، وصيقلاً للقلوب [١]، لقد قام كشاعرٍ وأديبٍ بدورٍ فريد ، وأثَّر في الجيل المثقف

(١) إشارة إلى الأمة التي لم يكن يحسب لها حساب فأصبحت قائدةً للأمم، وصاحبة وصايةٍ وإشرافٍ على العالم.

الجديد في شبه القارة الهندية تأثيراً لا يعرف لأحدٍ من أقطاب الفكر ، ومن نوابغ هذا العصر ، وما من شاعرٍ ، ولا أديبٍ ، حتى ولا كاتب جاء بعده ، إلاّ وقد تأثر به في قليلٍ أو كثيرٍ ، أقول ذلك وتاريخ الأدب هوايتي وموضوعي ، ما من أديبٍ وشاعرٍ في شبه القارة الهندية إلاّ وقد تأثر بإقبال في الألفاظ ، وفي التعبير ، وفي التراكيب ، وفي الأخيلة ، وفي الاستعارات ، والمجازات ، وليس لأحدٍ أن يدَّعي أنه قد تحرّر من هذا الأثر ، وأنَّه لم يتأثّر بإقبال ، حتى الذين كان اتجاههم غير اتجاهه ، أو عكس اتجاهه، إنهم خضعوا له من حيث يشعرون ، ومن حيث لا يشعرون.

وهذا هو سرُّ الشخصية القويّة ، فإنَّ الأدب لا يقدر على التأثير حتى يكون وراءه شخصيةٌ قويَّةٌ ، تفرض أثرها ، وتفرض فكرها ومدرستها ومنهج تفكيرها على هذه اللغة ، وعلى الشعراء والكتّاب ، وقد كان ذلك في العصر القديم من مولانا جلال الدِّين الرومي (م ٦٧٢ هـ) ، الذي فرض شخصيته الفكرية الأدبية على مدارس العجم كلِّها الأدبية والشعرية ، فبقي تأثيره يعمل في مجال الأدب والشعر ، والتفكير والبحث طيلة قرون ، وكذلك بعض المعدودين مثل الشيخ مصلح الدين سعدي الشيرازي (م ٦٩١ هـ) وغيره ، وقد أحصيت الكتب والرسائل التي كتبت عن إقبال ، فبلغ عددها ألفين (٢٠٠٠) ، ويعتقد بعض الثقات الدقيقين الذين لا يلقون القول جزافاً ، أنَّه ما نال شاعرٌ أوروبيٌّ في اللغات الحيَّة ـ مثل اللغة الإنجليزية ، والألمانية ، والفرنسية ، والفارسية ، والعربية ـ مثل هذا الاهتمام ـ سواءٌ بسيرته ، أو شاعريته ، أو مدرسته الفكرية ـ كما نال إقبال ، لا شكسبير (SHAKESPEARE) ولا ملتون (MILTON) ، ويرجع السبب في ذلك لقوة شخصيته أولاً ، وقوة العقيدة ثانياً ، وقوة العاطفة ثالثاً ، إنَّ الأدب إذا تجرَّد من العاطفة القويَّة كان محاكاةً أو مضاهاةً ، وكان أشبه بمسرحيَّة تمثَّل ، ودورٍ تقليدي يُعمل ، فقوة العاطفة هي التي تضفي على الأدب القوة والخلود ، وصلاحية الانتشار ، والحلول في قرارة النفوس ، والأديبُ إذا لم تكن عنده العاطفة فإنَّه أشبه بممثِّل ـ ولا مؤاخذة ـ وكان محمَّد إقبال قد أكرمه الله بقوَّة العاطفة.

كذلك لا بدَّ أن يكون للأديب والشاعر ـ بل أتوسَّع في القول ، فأقول: لابدَّ أن يكون للأمَّة ـ هدفٌ معيَّنٌ ، وأن يكون لها مثلٌ كاملٌ يقول إقبال: (إنني رجعت إلى الله تبارك وتعالى ، وشكوت إليه ما تنال هذه الأمَّة الإسلامية في هذا العصر من الهوان والذل ، فكان الجواب: ألا تعلم أنَّ هذه الأمة تملك القلوب ، ولا تعرف المحبوب ، تملك الحبَّ ولا تعرف إلى أين توجه هذا الحب). أجل لابدَّ للأديب والشاعر ، ولابدَّ لصاحب الرسالة للجيل وللمجتمع وللمدرسة ، لابدَّ أن يكون لهؤلاء مركز حبٍّ يوجهون إليه حبَّهم الدافق ، ومن النعم التي أكرم الله بها شاعرنا محمد إقبال أن جعل الإسلام مركز حبِّه ، فكانت لديه قوة العقيدة ، وقوة الاعتزاز بهذا الدِّين ، إنَّه مع دراساته الفلسفية الواسعة العميقة ، كان يرى أنَّ الإسلام هو دين الإنسانية ، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو المثل الكامل للإنسانية ، فإذا ذكره ترنَّحت عواطفه ، وجاشت نفسه ، وفاضت عينه.

إنَّني أذكر شاهداً على ذلك ، كان أحد كبار الأمراء وأصحاب الولايات في الهند زمن الحكم الإنجليزي قد دعاه لدراسة بعض الصكوك والوثائق القديمة التي أعطاها الملوك المغول لآبائه ، وليترجمها إلى الإنجليزية ، فقد كان محمد إقبال محامياً كبيراً ، ودارساً للحقوق فهيَّأ له مكاناً من أحسن ما يمكن ، وأثّثه أحسن تأثيثٍ يقدر عليه أميرٌ وصاحب ولاية وحكم ، وهيَّأ له كل ما تقع إليه الحاجة من أسباب الراحة ، ثم تخوَّف أن يكون هنالك نقصٌ أو فراغٌ ، فدخل غرفته فجأةً ، فرآه مستلقياً على الفراش في الأرض ، ولم ينم على السرير الذي قد هُيِّىء له ، فقال: سامحني يا معالي الدكتورَ لماذا تنام على هذا الفراش ، وتترك السرير؟! فتوقف قليلاً ، فلما ألحَّ؛ قال: والله تذكّرت أنَّ سيدي الذي أنتمي إليه ، والذي يؤول إليه كلُّ الشرف وكلُّ السعادة في حياتي كان ينام على بساطٍ متواضع على الأرض ، فكيف يطيب لي النوم على هذا السرير الأثير ، والفراش النَاعم ، ودمعت عينه ، وأثّر ذلك على الأمير وإن كان هندوسياً ، ومحمَّد إقبال نفسه يقول في شعره:

(إن السيِّد الذي داست أمته تاج كسرى كان يرقد على الحصير ، إنَّ السيد الذي نام عبيده على أسرَّة الملوك كان يبيت الليالي لا يكتحل بنومٍ ، لقد لبثت في غار حراء ليالي ذوات العدد ، فكان أن وُجدت أمَّةٌ ، ووجد دستورٌ ، ووُجدت دولةٌ)[(١)] .

هذه قوة العاطفة التي فقدناها يا إخواني ، إننا نقرأ لأديبٍ وكاتبٍ ـ ولا مؤاخذة ـ فيبدو لنا من وراء الستار ممثّلاً قديراً. . . إنَّه يعبر عن نفسه بكلماتٍ بليغةٍ ، وبأسلوبٍ رفيعٍ ، ولكن لا تؤثر هذه الكلمات في النفس ، ولا يبقى أثرها طويلاً ، فننفض الأيدي من هذه الكلمات بسرعةٍ ، أما الشِّعر الحيُّ الذي يبقى أثره عميقاً طويلاً ، ويسيطر على التفكير والمشاعر ، فهو الشعر الذي يخرج من القلب ، فيصل إلى القلب ، وكلُّ ما خرج من القلب وصل إلى القلب ، أمَّا ما خرج من العقل فيصل إلى العقل ، والذي خرج من المخِّ يصل إلى المخِّ ، وهو كثيرٌ ، ولكن الشيء الذي يخرج من أعماق القلب يصل إلى أعماق القلب ، ويبقى فيها ، هذا هو الأدب الحقيقيُّ ، هذا هو الأدب الذي يحتاج إليه ، لا أقول العالم الإسلامي فقط ، بل يحتاج إليه العالم الإنسانيُّ كلُّه ، أتخمنا يا إخواني من هذا الأدب الطامي الذي يطلع علينا صباحاً ومساء ، والذي نرى فيه صوراً وتماثيل لا حياة فيها ، إنَّنا نحتاج الآن إلى أدبٍ ينفخ في نفوسنا حياةً جديدةً ، وروحاً جديدةً ، هذا هو الأدب الحيُّ ، وقد أشاد القرآن بقيمة اللسان البليغ ، وقوته ، فوصف نفسه بأنَّه قرآنٌ عربيٌّ مبين ، إنَّ القرآن لم يكن يحتاج إلى شيءٍ خارجيٍّ أبداً ، إنَّه سبحانه وتعالى غنيٌّ عن العالمين ، ولكنَّه يصف القرآن بأنَّه قرآنٌ عربيٌّ مبينٌ ، ويقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] ليس معنى ذلك أنَّه أرسل الرسل بلسان قومهم الذي يفهمونه فحسب ، بل معنى ذلك أنَّه أرسلهم بأبلغ بيان ، هذا هو اللسان المعنيُّ في القرآن ، أما اللسان الذي يعبِّر به الطفل ، والإنسان الذين لا يكاد يبين ، فليس هو المقصود ، وكذلك الرسول ﷺ قال: «أنا أعربكم ، أنا قرشيٌّ

(١) «أسرار خودي» (الفارسية)، «روائع إقبال» ص/ ٤٥ .

واسترضعت في بني سعد بن بكر»[(١)]، إنَّ الرسول ﷺ يعطي للأدب قيمته ويقول: «إنَّ من البيان لسحراً، وإنَّ من الشعر حكمةً»[(٢)]، وكان أفضل أفراد هذه الأمَّة أبلغُهم، ترون في خطب أبي بكر الصديق المعاني الحيَّة، وترون فيها قطعاً بيانيَّةً فيَّاضةً مشرقةً، وكذلك خطب الخلفاء الراشدين، وكبار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وفي مقدمتهم سيدنا عليٌّ رضي الله عنه، على ما هنالك من كلامٍ منحولٍ في «نهج البلاغة»، ولكنَّ الذي صحّ منه لا يزال في قمَّة الأدب، وكذلك كان كبار الدعاة عندنا في تاريخ الإسلام الإصلاحيِّ والعلميِّ، كانوا من كبار البلغاء، هذا سيدنا عبد القادر الجيلي (م ٥٦١ هـ) كان من العبَّاد الزُّهَّاد، وكبار المخلصين المنقطعين إلى الله، ولكن تقرؤون خطبه المحفوظة التي يوثق بها، فتشعرون أنَّ هنالك رعوداً تقصف وصواعق تنزل، وبحاراً تزبد وتقذف، وهذا ما نحتاج إليه.

إنَّ محمد إقبال له فضلٌ كبيرٌ في أنَّه استخدم شاعريته الموهوبة السليقية لصالح الإنسانية، واستخدمها لصالح الإسلام، إنَّه كان يستطيع أن يتصدَّر دست الأدباء والشعراء، فيسلِّمون له الزعامة والرئاسة، وقد نال ذلك كثيرٌ من إخوانه المعاصرين، ولكنَّه أبى إلاّ أن يستخدم كلَّ شاعريته، وكلَّ مواهبه الشعرية والأدبية لخدمة الإسلام والإنسانية، فأعاد بذلك الإيمان والثقة بالإسلام، والحبَّ للرسول عليه الصلاة والسلام، أعادهما إلى نفوس ملايين من الشباب في شبه القارة الهندية، والأقطار التي تتكلَّم الفارسية، وتفهمها مثل أفغانسنان، وإيران، ويا ليته استخدم اللغة العربية لشعره ورسالته، إنَّه كان يعرف اللغة العربية، وكان مدرّساً لها في جامعة لندن نيابةً عن أستاذه البروفسور نكلسون (NICHOLSON) مدَّةً من الزمان، ولكنه لم يكن بمكانة مَنْ يقول فيها الشعر، ولما عرضت عليه ترجمتي لبعض مقطوعاته الشعرية أعجب بها، وفهمها، وتذوَّقها،

---

(١) سيرة ابن هشام، ج/ ١، ص/ ١٦٧ رواية عن ابن إسحاق.

(٢) أخرجه الترمذي وأبو داود عن ابن عباس رضي الله عنه.

وأعرف أنه كان يفهم اللغة العربية ، ولكنه لم يستطع أن يستخدمها في شعره.

إنَّ العالم العربي والحمد لله غنيٌّ بكبار العلماء ، غنيٌّ بالمفكّرين ، غنيٌّ بالمؤلفين ، غنيٌّ بالجامعات ، غنيٌّ بالمكتبات ، ولكنه لم يرزق شاعراً عبقرياً مثل إقبال ، لقد كان شوقي أمير الشعراء في عصره ومصره ، وله مواقف إسلاميَّةٌ ونغمة إيمانية في الشعر العربي الحديث ، ويليه حافظ إبراهيم ، ولكنه ما جاء على أفق العالم العربي من المغرب إلى الشرق من يقوم مقام محمَّد إقبال ، فيقول الشعر الإسلاميَّ القويَّ البليغ ، المثير الذي يحرِّك أوتار القلب ، ويكهرب الجوَّ ، ويتغلغل في أحشاء المجتمع العربيِّ الإسلاميِّ وفي أحشاء الأدب العربي (١)، وهذا هو الدور القياديُّ الثوريُّ في الأدب والشعر الذي مثَّله محمد إقبال في عصره وبيئته.

إنني أنتهز هذه الفرصة الكريمة في هذا البلد الكريم وفي هذه الأمسية المباركة ، فألفت نظر المعنِّيين بالأدب ، والكتابة ، ودراسة الأدب ، وتاريخ الأدب أن يعنوا بهذا الجانب الحسَّاس الحاسم في أدبنا العربي ، الذي يستطيع أن يغيِّر الاتجاه من السقيم إلى السليم ، ومن هوى النفوس إلى الأهداف النبيلة ، إنَّ القرآن يصف الأدب السقيم بكلمةٍ لا أبلغ منها فيقول: ﴿ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢] نحن في عهد الزخرفة ، نحن نعيش في أدب مزخرف ، ولكن حاجتنا وحاجة هذا العهد وحاجة العالم العربيِّ بصفةٍ خاصَّة ، هي الأدب الهادف السليم ، الدافق بالحيويَّة المتدفِّق

---

(١) إنَّ عدم تقدُّم الشعر في العالم العربي كما تقدم النثر والكتابة، وعدم نهوض شاعر إسلامي كبير في الشرق العربي والمغرب الإسلاميِّ، مثل ألطاف حسين حالي صاحب المنظومة التي سارت في الهند مسير الأمثال «المد والجزر في حياة المسلمين»، والسيد أكبر حسين الإله آبادي المعروف بأكبر، ومحمد إقبال، وظفر علي خان صاحب الشعر الإسلامي القوي البليغ، وحفيظ جالندهري صاحب الملحمة الإسلامية المشهورة بـ«شاهنامه إسلام»، وكلهم نبغوا في شبه القارة الهندية، إنَّ هذا الأمر موضوعٌ يجب أن يركز عليه الباحثون في الأدب، والنقد، وتاريخ الأدب في البلاد العربية، ويبحثوا عن الأسباب الدَّاعية إلى ذلك.

بالقوَّة ، الذي يحمل رسالةً ساميةً سماوية ، إنسانيةً إسلاميةً عالميَّةً .

هذه كلمتي لهذه المناسبة ، أكتفي بها لأنَّ الوقت قصيرٌ ، ولابدَّ أن ندرك صلاة العشاء في المسجد الشريف إن شاء الله .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * * *
* * *
* *
*

فهرس الآيات الكريمة

(٣) سورة آل عمران

(٧) سورة الأعراف

(١١) سورة هود

(١٢) سورة يوسف

(١٣) سورة الرعد

(١٤) سورة إبراهيم

(١٥) سورة الحجر

(١٦) سورة النحل

(٢١) سورة الأنبياء

(٢٢) سورة الحج

(٢٣) سورة المؤمنون

(٢٧) سورة النمل

(٢٨) سورة القصص

(٢٩) سورة العنكبوت

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

فهرس الأشعار

فهرس الأعلام

- غ -

فهرس الموضوعات

المحاضرة السابعة

المحاضرة الثامنة

من تُراث العلاَّمة النَّدوي

جمع وإعداد : سيد عبد الماجد الغوري

سلسلة رائعة من مجموعات محاضرات ومقالات العلاَّمة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي في موضوعات مختلفة ، صدر منها :

١ ـ دراسات في إعجاز القرآن .

٢ ـ مقالات حول السيرة النبوية .

٣ ـ محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة (٣ أجزاء) .

٤ ـ مقالات إسلامية في الفكر والدعوة (٣ أجزاء) .

٥ ـ مقالات وبحوث حول التعليم والتربية الإسلامية .

٦ ـ مقالات حول أعلام المسلمين ومشاهيرهم .

٧ ـ أبحاث حول الاستشراق والمستشرقين .

دار ابن كثير

دمشق ـ بيروت